

الجزء الأول

قوة القلب

في معاملة المحبوب
ووصف طريق المرید إلى مقام التوحيد

للشيخ أبي طالب المكي
محمد بن علي بن عطية
(ت ٣٨٦ هـ)

محققه، وقدم له، وعلّق مراحله
د. محمود إبراهيم محمد الرضواني

دار التراث
مكتبة

قوس القلوب

في معامذ المحبوب
ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد

للشيخ أبي طالب المكي
محمد بن علي بن عطية
(ت ٣٨٦ هـ)

حقّق، وقرّأ له، وعلّق حواشيه
و. محمد بن عبد الله بن محمد الرضوي
دار العلوم - جامعة القاهرة

الجزء الأول

مكتبة دار التراث

جميع حقوق الطبع محفوظة لـ

مكتبة دار التراث

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م



مكتبة دار التراث

٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة - ت : ٣٩١٤٢٢٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده، وأشهد أن لا إله إلا الله العليُّ العظيم، وأشهد أن سيدنا وحبيبنا محمداً عبده ورسوله، وصفيه من خلقه وحبيه. اللهم صلِّ وسلِّم على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد عدد ما تعلمه من بدء الأمر إلى منتهاه، صلاةً وسلاماً أرقى بهما مراقى الإخلاص، وأنال بهما غاية الاختصاص، عدد ما أحاط به علمك، وأحصاه كتابك، وخطه قلمك، واجمعنا به يا ربنا في أعلى عليين.

أما بعد:

فهذا إمام من أئمة التصوف الإسلامي، وكتابه «القوت» أصل من أصوله، وقد أجاد «ابن عباد النفري» شارح حكم ابن عطاء في بيان قيمة الكتاب بالفاظ موجزة دالة عندما قال: «أما كتاب أبي طالب فعليه وقع الاختيار، إذ لم يقع بين أبدينا مثل منزعه، فإنه فيه فتح مغالق علم التصوف، وجمع فيه بين المعاني الصحيحة، والألفاظ الحسنة، وذكر فروع علومهم وأصولها، ورسم مسائلها وفصولها، فكان لذلك كالمُدَوَّنَةِ في علم الفقه، يقوم مقام غيره، ولا يقوم غيره مقامه».

وكذلك قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية (الفتاوى ١٠/٥٥١): «وأبو طالب أعلم بالحديث والأثر، وكلام أهل علوم القلوب من الصوفية وغيرهم من أبي حامد الغزالي، وكلامه أسدُّ وأجودُ تحقيقاً، وأبعد عن البدعة».

ومن ثمَّ فإنني أرى أن المكتبة العربية والإسلامية قد خسرت كثيراً عندما غفلت عن تحقيق هذه الموسوعة الإسلامية، ونشرها نشرًا علميًا دقيقًا، على الرغم من الحاجة الماسة إلى مثل هذا النوع من التأليف لحياتنا في العصر الحديث، وما أصاب المجتمعات الإسلامية من آثار الماديّات وإفسادها للقلوب؛ مما نتج عنه كثير من الأمراض النفسية والاقتصادية والاجتماعية، وحال المسلمين اليوم لا يخفى على كل ذي عقل وبصر. ولعلَّ هذه النشرة الجديدة التي قوبلت على عدة أصول

مخطوطة تعوض هذا الغبن الفاحش لأبى طالب وكتابه القوت .

وترجع صلتى بكتاب القوت إلى فترة قديمة جداً إبان مرحلة الطلب الأولى بمرحلة التعليم الثانوى، إذ يعد كتاب القوت من أوائل الكتب التى قرأت فيها وتعلّقت بها^(١)، وتمنيت آنذاك لو يُنشر الكتاب بطريقة ميسرة لجميع طلاب العلم كما كان ينشر آنذاك إحياء علوم الدين . وظلّت هذه أمنية حييسة فى نفسى زمناً طويلاً، وقد تقلّبت بى الأيام، حتى قيّض الله لى الاتصال بالأستاذ الفاضل إسماعيل عبيد صاحب ومدير مكتبة دار التراث، وعرض علىّ فكرة نشر الكتاب محققاً مضبوطاً، فأحيا فى نفسى تلك الأمنية القديمة فى نشر الكتاب، وعلمت أن الله جلّت قدرته قد أذن بتحقيقها، فسارعت من وقتها فى التنقيب عن أصول الكتاب المخطوطة، وبعد المضى قُدُماً فى قراءة الأصول، هالنى ما رأيته من النصوص الطويلة التى لم تنشر من الكتاب، إذ يقل ما طبع من كتاب القوت بمقدار الثلث تقريباً عما هو فى أصوله المخطوطة، واستعنت بالله العلىّ القدير فى قراءة تلك الأصول المخطوطة ومقابلة بعضها ببعض ومعارضتها بالمطبوعة، وكان الانتهاء من هذا العمل هو من فضل الله وحده، لما عانيته من قراءة تلك الأصول وما وجدته من المشكلات والتلف، وبعد جهد ولأىّ وتوفير من الله تعالى، استوى كتاب القوت بين يَدَيّ كاملاً غير منقوص .

وبعد:

فإنى أتوجّه لله وحده بالشكر والحمد والتسبيح على أن قيّض لى تحقيق هذا الكتاب وأعاننى عليه، فهو كنز من كنوز الآخرة، ومدرسة عليا لتخريج الفحول والخواص من السالكين، ولا يستغنى عنه مسلم أبداً فى حياته وجميع أحواله .

كما أشكر الأستاذ الفاضل إسماعيل عبيد، على قيامه بتحمل تكلفة طبع هذا الكتاب ونشره . وأشكر أخى المهندس ياسر الذى ساعدنى فى مقابلة أحد الأصول المخطوطة . ولا أنسى أخى الفاضل الأستاذ ناصر رجب الذى قام على تصحيح

(١) ذلك أننى نشأت فى بيئة مفعمة بالجو الروحى، فى أحضان السّاحة الرضوانية المباركة، بجنوب مصر بالأقصر .

تجارب الطبع وما أبداه من ملاحظات قيمة فكانت له أيادٍ على الكتاب وعلى محققه لا تُنسى. كذلك لا أنسى رفيقة الدرب أم عبد الرحمن زوجتي وما أعانتني به من التشجيع وحفز الهمة والدعاء لى لأُنجز مهمتي تلك على خير وجه. أدعو الله السميع المجيب أن يجزيهم عنى خير الجزاء، وأن يجعل هذا الكتاب وما أنفقته فيه من جهد ووقت فى ميزان حسناتى يوم القيامة، وأن ينفع به جميع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها. وأطلب من أخى القارئ الكريم ألا ينسانى من صالح دعائه.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا محمد النبى الأُمِّى وعلى آله وصحبه. اللهم إننى أعتذر إليك من جهلى، وأستوهبك سوءَ فعلى، فاضممنى إلى كنف رحمتك تطولاً، واسترنى بستر عافيتك تفضلاً. اللهم وإننى أتوبُ إليك من كلِّ ما خالفَ إرادتك، أو زال عن محبتك من خطرات قلبى، ولحظات عينى، وحكايات لسانى، توبة تسلمُ بها كلُّ جارحةٍ على حالها من تبعاتك، وتأمّنُ ممّا يخاف المعتدون من أليم سطواتك. اللهم إننى أمسيت وأصبحت وأنتِ ثقتى ورجائى فى الأمور كلها، فاقض لى بخيرها عاقبةً، ونجنى من مضلات الفتن، برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله المصطفى، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وسلامٌ على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه الفقير الراجى عفو ربه
محمود بن إبراهيم بن محمد الرضوانى
دار العلوم - جامعة القاهرة

الجيزة - مدينة ٦ أكتوبر - الحى السابع
ت: ٠١١٣٦٢٥٩٧ - ٠١١٣٥٠٠٠٨
٢٧ من رجب سنة ١٤٢٢هـ
١٤ من أكتوبر سنة ٢٠٠١م

أبو طالب المكي، وكتابه «قوت القلوب» «سيرة موجزة»

• نسب أبي طالب:

هو أبو طالب، محمد بن علي بن عطية، المكيّ، الحارثي، العجمي، ويلقبه الذهبيّ بالأستاذ^(١).

ومن الغريب إغفال المصادر الصوفية له، إذ لم تعرّف به، ولم تُترجم له، على الرغم من رسوخ قدمه في مجال علم التصوف، وكتابه يُعدُّ معلماً مهماً من معالم علم السلوك. إذ لا نجد له ترجمةً في طبقات الصوفية للسلمى مع أنه ألفه في نهاية القرن الرابع، أي بعد وفاة أبي طالب المكيّ سنة ٣٨٦هـ. كذلك أغفله صاحب «حلية الأولياء»، على الرغم من - كما يقول الدكتور عبد الحميد مذكور - «أن المكي وأبا نعيم يشتركان في التلقّي عن بعض الشيوخ كعلي بن أحمد المصيصي، وأبي بكر الأجرّي، وأبي بكر بن المفيد، وأبي بكر بن خلاد النصيبي»^(٢). ولعل هذا يؤكد المقولة المشهورة: «المعاصرة حجاب».

كذلك لم يذكره القشيري بين شيوخ رسالته، ونحا ابن الجوزي هذا النحو في كتابه، «صفة الصفوة»، مع أنه ذكر المصطفين من عبّاد بغداد المجهولي الأسماء، بل ذكر المجانين والمعاتيه، والمجهولات الأسماء. كذلك أغفله ابن الملقن في كتابه «طبقات الأولياء»، والمناوي في: «الكواكب الدرية». هذا الإهمال لترجمة هذا العَلم الكبير أدّى إلى ضياع المعالم البارزة لحياته، حتى إن هذه الترجمات القليلة

(١) ثمة رسالة ماجستير بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة بعنوان: «أبو طالب المكي ومنهجه الصوفي» إعداد عبد الحميد عبد المنعم مذكور ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م، وهي على حد علمي لم تطبع في كتاب حتى الآن.

وقد أفدت من مقدمتها في التأريخ لأبي طالب إفادة واسعة، ولو كانت مطبوعة في كتاب لأحلت إليها وما كتبت هذا التعريف بأبي طالب.

(٢) انظر: أبو طالب، ص ٢١.

التي وصلت إلينا كانت مبتورةً غير دالة، والمعلومات التي أوردتها - على قلتها ووجازتها - «احتوت على بعض الأخطاء التاريخية»^(١)، ذكر د. عبد الحميد مذكور من هذه الأخطاء حكاية رويت في احتضار أبي طالب والصواب أنها ليست في أبي طالب بل هو الذي رواها في كتابه عن أحد الصالحين^(٢).

ولعل أول الذين ترجموا لأبي طالب هو الخطيب البغدادي في كتابه «تاريخ بغداد»، «وكانت ترجمته أساساً لما تلاها من ترجمات، حيث كان بعضها ينقل عن بعض غالباً»^(٣) دون زيادة أو تحرير لما يكون فيها من أخطاء، كما سأشير إلى ذلك بعد قليل.

لا يحدّد المؤرخون تاريخاً لمولد أبي طالب المكي، وكل ما يذكرونه أن مولده كان بالجبل (العراق)، ثم هاجر إلى مكة فنشأ بها ونُسب إليها، ولا تذكر المصادر شيئاً عن تاريخ هذه الهجرة، ولم يحدثنا هو عن أسبابها. وفي مكة التقى بعدد من شيوخه منهم ابن الأعرابي، وأبو بكر الأجرى، وأبو علي الكرمانى، الذى يعدّه المكي من الأبدال.

ثم غادر المكي مكة لعل ذلك قبل سنة ٣٤٦هـ، لأنه جرى خلاف بينه وبين عبد الصمد بن علي أحد شيوخ الحديث ببغداد، إذ عاتبه فى السّماع، فأسمعه أبو طالب بيتاً من الشعر فخرج مغضباً^(٤)، وعبد الصمد هذا توفى ببغداد سنة ٣٤٦هـ. ثم دخل البصرة والتقى بشيخه أبى الحسن بن سالم، ثم غادر البصرة إلى بغداد، وكانت بغداد آنذاك مقاماً لكثير من الصوفية، ولما دخل بغداد «اجتمع الناسُ عليه، وعُقد له مجلس الوعظ بها»^(٥).

(١) أبو طالب المكي، د. عبد الحميد مذكور، ص ٢٢.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص ٢٢.

(٣) السابق، ص ٢٢.

(٤) انظر: البداية والنهاية ٤٦٨/١٥.

(٥) انظر: تاريخ بغداد ٨٩/٣، والمصادر التى نقلت عنه هذه المقولة: البداية والنهاية ٤٦٧/١٥،

وسير أعلام النبلاء ٥٣٦/١٦، وغيرهما.

• شيخ أبي طالب المكي^(١)؛

تنوّعَ شيوخُ أبي طالب ما بين فقيه ومحدِّث وصوفى، وقد استقى منهم ثقافتهم مما أسهم فى صقل موهبة أبي طالب وتنوع معارفه، وعلى الرغم من قلة المادة العلمية فى ترجمة أبي طالب فإنها قد احتفظت لنا بذكر بعض العلماء الذين تلقى عليهم أبو طالب، وأهم هؤلاء:

١ - عبد الله بن جعفر بن فارس، وهو محدِّث أصبهان، معروف بالصلاح، وقد روى عنه أبو طالب بالإجازة، ت ٣٤٦هـ.

٢ - أبو بكر الآجرى، التقى به أبو طالب فى مكة بعد أن هاجر الآجرى من بغداد هرباً من الفتن، وجاور بمكة، وقد أرّخ أبو طالب لدخوله مكة فقال: «قدم علينا مكة فى سنة ثلاثين وثلاثمائة»^(٢). وهو رجل ثقة، ومن حفاظ الحديث، ت ٣٦٠هـ. [انظر ترجمته فى: سير أعلام النبلاء ١٦/١٣٣ وما بعدها].

٣ - على بن أحمد المصيصى، ت ٣٦٤هـ، وهو موصوف بالتسامح فى رواية الحديث.

٤ - أبو زيد المروزى، ت ٣٧١هـ، وهو من أحفظ الناس لمذهب الشافعى، وله رواية لصحيح البخارى، روى أبو طالب عنه بعض صحيح البخارى.

٥ - أبو بكر محمد بن أحمد المفيد، ت ٣٧٨هـ، يوصف بالإكثار فى رواية الحديث، ولكنه متهم فى روايته. [انظر ترجمته فى: سير أعلام النبلاء ١٦/٢٦٩].

٦ - أبو بكر بن خلاد النصيبى.

وهؤلاء الشيوخ تبرز فيهم صفة الحديث والفقه، وهذا كما يقول د. عبد الحميد مدكور «يفسر لنا تلك النزعة السلفية التى تعد من الصفات البارزة فى شخصية

(١) انظر: أبو طالب المكي، ص ٥٣ وما بعدها. وانظر: سير أعلام النبلاء ١٦/٥٣٦.

(٢) انظر: القوت (اليمينى) ١/١٦٥، وقد سقطت «ثلاثمائة» من المطبوعة، أثبتتها من نسخة (ك) المخطوطة، لوحة رقم ٨١.

المكى وثقافته، والتي اتّضحت فى نظراته التقويمية التى قاس بها كثيراً من ظواهر الحياة فى عصره... ويبدو أنه تأثر فى بعض آرائه تأثراً مباشراً ببعض هؤلاء الشيوخ، فيمكن أن يكون موقفه من علم الكلام امتداداً لآراء شيخه: المروزى، والآجرى. كذلك يمكن أن يُعد موقفه من الحديث الضعيف راجعاً إلى تأثره بشيخه: المصيصى والمفيد^(١).

٧ - أبو عبد الله، محمد بن أبى الحسن أحمد بن محمد بن سالم^(٢)، ويرى د. عبد الحميد مذكور «أن المكى التقى بابن سالم وصحبه، ولعلّ صحبته له كانت لمدة قليلة، ولكنها كانت كافية لينزل أبو الحسن من نفسه مكانة سامية، وإن كانت المصادر التاريخية تذكر أنه دخل البصرة بعد وفاة ابن سالم»^(٣).

٨ - أبو سعيد بن الأعرابى البصرى، ت ٣٤١ هـ، بصرى الأصل، سكن بمكة، وكان فى وقته شيخ الحرم، ومات بها، صنّف للقوم كتباً كثيرة^(٤)، والتقى به أبو طالب فى مكة.

هؤلاء وغيرهم ممن أخذ عنهم وتلمذ على كتبهم، وكان معجباً كثيراً بالحسن البصرى، وإبراهيم بن أدهم، يسير على نهجهم، وينقل كثيراً عن سهل بن عبد الله التستري^(٥)، ويلقبه بشيخنا وإمامنا، ويقدم آراءه على آراء غيره. يقول عن الحسن البصرى مثبتاً إمامته: «والحسن رحمه الله هو إمامنا فى هذا العلم الذى نتكلم به، أثره نقفو، وسبيله نتبع، ومن مشكاته نستضىء، أخذنا ذلك بإذن الله تعالى، إماماً عن إمام، إلى أن ينتهى ذلك إليه»^(٦). فهؤلاء الشيوخ وغيرهم من أهل العلم

(١) أبو طالب المكى، ص ٥٣ - ٥٤.

(٢) كذا نسبه فى السير ٢٧٢/١٦، وأثبتته د. عبد الحميد فى رسالته: «أبو الحسن أحمد بن أبى عبد الله محمد بن أحمد بن سالم» ص ٦١، وانظر: طبقات الصوفية، ص ٤١٤ وما بعدها.

(٣) أبو طالب المكى، ص ٦١ - ٦٢، وانظر: وفيات الأعيان ٣٠٣/٤، وأنا أميل إلى ما ذهب إليه د. عبد الحميد، راجع أدلته فى ذلك.

(٤) طبقات الصوفية، ص ٤٢٧، وانظر: تذكرة الحفاظ للذهبي ٨٥٢/٣.

(٥) راجع ترجمته ومصادرها فى طبقات الصوفية، ص ٢٠٦.

(٦) انظر: القوت (الميمية) ١/١٤٩.

«قد أسهموا فى صقل مواهبه الروحية، وتحديد اتجاهه الصوفى، وأمدّوه ب زاد من القواعد والتقاليد التى انتفع بها وهو يضع منهجه، كما أضافوا إليه ثروة من المعارف التى انتفع بها فى تأليف كتابه القوت، ويشاركهم فى ذلك عدد كبير من الصوفية الذين امتلأ كتابه بالإشارة إلى أقوالهم وأحوالهم»^(١).

• تلاميذه:

من المؤسف حقاً أن يقع أبو طالب - وهو العَلَم المشهور - «فريسة لإهمال غريب من مؤرخى الصوفية، الذى كان سبباً فى ندرة المعلومات التى نعرفها عنه، ويبدو أن هذا الإهمال قد ضرب أطنابه على من انتسب إليه من التلاميذ والأتباع»^(٢).

ومن تلاميذه الذين أوردت بعض المصادر ذكراً لهم: أبو القاسم بن سرات، وعبد العزيز الأزجى، ومحمد بن المظفر الخياط، وغيرهم. «وإذا لم يكن المكى قد حظى بعدد كبير من التلاميذ، فإنه أصبح فيما بعد أستاذاً لكثيرين ممن تأثروا به، واستشهدوا بأرائه»^(٣).

• سلامة عقيدة أبى طالب المكى من البدع:

كان أبو طالب رحمه الله صحيح العقيدة، متبعاً للكتاب والسنة، وهنا أفسح مجال القول للدكتور عبد الحميد مذكور ليبين معلماً مهماً من حياة أبى طالب وكتابه، ويظهر صحة عقيدته، ويردّ عنه التهمة التى ألصقت به ظلماً وعدواناً، وسوف أسوق كلامه بطوله ونصه لدقته ودلالته فى توضيح ما نحن بصدد؛ لإصابته مفصل القول، يقول: «وإذا اعتبرنا «قوت القلوب» حصيلةً لدروس الوعظ التى كان يلقيها المكى بجامعة بغداد - وهو لا شك يمثل جانباً كبيراً منها - فإن لنا

(١) أبو طالب المكى، ص ٥٩.

(٢) السابق، ص ٥٩، ولعل من بقايا الإهمال أيضاً لهذا الشيخ؛ أن تظل مثل هذه الدراسة القيمة - أعنى دراسة د. عبد الحميد مذكور - حبيسة الأرفف لم تطبع فى كتاب بعد - على حد علمى - يتداوله الناس ويتعرفون أحوال أبى طالب وعلمه عن قرب.

(٣) السابق، ص ٦١.

أن نَحْدِسَ بالموضوعات والمسائل التي كان يتناولها، فقد كان يتحدث عن تطهير القلب وإخلاص النية... ثم يتناول بالحديث مقامات الصالحين، وأحوال الموقنين، وإخلاص أهل الخصوص من العابدين. ولم يُخَلِّ حديثه من (نَقَدَات) كان يوجهها إلى معاصريه، لتباعدهم عن هدى السلف وانشغالهم بزخارف الدنيا عن القيام بحق الله عليهم، وكان يستعين في ذلك كله بمحفوظه من الكتاب والسنة، ومعرفته بأحوال السلف وأقوال الصالحين، ناثراً ذلك كله في أسلوب رائق وعبرة طلية، تتناول موضوعات تحرك القلب، وتهزّ الوجدان.

ومن شأن ذلك أن يجمع القلوب حوله، ومن شأنه - أيضاً - أن يحرك الضغائن والأحقاد لدى ضعاف القلوب الذين يتناولهم بنقده، ومن شأن هؤلاء أن يقبّحوا الحسن، ويتسقطوا العثرات والزلات، بل قد يصل الأمر إلى حدّ تحريف الكلم عن مواضعه، أو التقول على الناس كذباً وافتراءً. ويبدو أن «المكّي» أصابه من ذلك رشاش، فسب إليه أنه خلط في كلامه، وأضيف إليه أنه قال: «ليس على المخلوقين أضرُّ من الخالق. فبدّعه الناس وهجروه»^(١). والجماهير سهلة الانقياد، سريعة التصديق، ليس لديها الوقت للتحقق والبحث والتمحيص، وهي لا تملك وسائل ذلك إن أرادته، ومع ذلك كانت تجعل نفسها حكماً في كثير من المسائل الاعتقادية دون أن تكون مزودةً بالوسائل المناسبة للفصل والقضاء فيها. ونتج عن ذلك أن امتنع المكّي من الكلام على الناس. ولعل ما حدث للمكّي كان متصلاً بسياسة الدولة التي كانت تلجأ في بعض الأحيان إلى أن تصدر مرسوماً بالآلا يقص أحد أو يعظ في سائر بغداد.

على أن بعض المؤرخين لم يُسَلِّم بنسبة هذه العبارة إلى المكّي، فحاول التشكيك في نسبتها إليه، وعزا ذلك إلى الخطأ في النقل عنه، ومن هؤلاء «طاش كبرى زاده» الذي يقول: وينسب هذا القول لأبي طالب... إلا أن شأن الرجل أعظم من أن يتكلم بأمثال هذا الكلام، ولعل في النقل عنه خللاً^(٢). ويشبه هذا الدّفاع

(١) تاريخ بغداد ٨٩/٣، وهو يرويه عن ابن العلاف الواعظ، وترجمة هذا بتاريخ بغداد ١٠٣/٣ - ١٠٤.

(٢) مفتاح السعادة ٤٢٢/١.

ما ذكره الطُّوسى فى «اللمع» عند دفاعه عن أبى بكر الشَّبلى: «وإنَّما يجد المتعنّت فرصة بالوقیعة والطعن فى الكلام المجلد دون المفصل؛ لأنَّ المجلد ربما يكون له مقدمات لم تبلغ المستمع، والمفصل يكون مشروحاً مبيناً محرراً والمجلد لا يكون كذلك»^(١).

وذهب سبط بن الجوزى فى دفاعه عن المكى إلى أن هذه الكلمة ربما تكون قد صدرت عن المكى فى حالة القبض، إن ثبت ذلك عنه، فإنَّه كان أروع من أن يتلفظ بمثل هذه الكلمات التى توقع فى المحذورات^(٢).

والذى يظهر أن خللاً قد وقع بالفعل فى النقل عنه، ويمكن أن نتأكد من ذلك بالرجوع إلى قوت القلوب ذاته، فقد تحدّث المكى فيه عن هذه المسألة بعينها أثناء حديثه عن سعة رحمة الله، وتفضّله على عباده، وغفرانه لهم إذا أقبلوا عليه ولجأوا إليه، وإنها لرحمة تنتزع اليأس من القلوب... «وربما بلغ الله تعالى العبد بحسن الظن به وقوة الأمل والطمع فيه جميع ما ذكرناه من مقامات اليقين، بعد أن يكون حسنَ اليقين... وربما بلغه منازل الشهداء بشيء واحد يتركه له، أو شيء يؤثره به، لأنه غفور شكور، وأضرُّ شيء على العبد قلة معرفته به، فلربما كان العبد على تسع كبائر، فيترك العاشرة لوجه الله تعالى، فتكون تلك الخصلة ذرة إلى جنب تسعة أجبل، فينظر الله تعالى إليه بوجهه لوجهه الذى تركه له نظرة، فتمحو تلك النظرة الجبال السعة فتصير هباء منثوراً»^(٣).

والفارق كبير بين ما يذكره المكى فى هذا النص، وبين ما يُنسب إليه^(٤).

انتهى كلام أستاذنا الدكتور عبد الحميد عبد المنعم مذكور بمراجعته التى أثبتتها

(١) اللمع، ص ٤٨٢.

(٢) مرآة الزمان، القسم ٢، ص ١٨٧.

(٣) قوت القلوب، الحلبي (١٩٦١م) ١٥٩/٢.

(٤) انظر هذا الكلام الطويل بنصه فى رسالة الماجستير «أبو طالب المكى» ص ٢٨ - ٣٠. وثمة تهمة أخرى ألصقت بأبى طالب وهى: نسبته إلى فرقة السالية. وهذه أيضاً فندها د. عبد الحميد مذكور بما لا يدع مجالاً للشك فى براءته منها، انظر رسالته ص ٦١ - ٧٤، فإن المجال يضيق عن سردها هنا.

جزاه الله خيرًا، فقد أبان إبانة كاملة عما يعتمل في نفسى من هذه القضية منذ أن قرأتها في ترجمته وقرأت كتاب القوت وقابلته على نسخه المخطوطة؛ فلم أجد فيها مثل هذه التهمة ولا ما يقاربها، ولذلك فإن شيخ الإسلام ابن تيمية لم يتعرض لها لعلمه ببطلانها، عندما سئل عن كتاب القوت وكتاب إحياء علوم الدين للغزالي، فقال: «وأبو طالب أعلم بالحديث والأثر، وكلام أهل علوم القلوب من الصوفية وغيرهم من أبى حامد الغزالي. وكلامه أسدٌ وأجودُ تحقيقًا، وأبعدُ عن البدعة، مع أن فى «قوت القلوب» أحاديث ضعيفة وموضوعة، وأشياء كثيرة مردودة»^(١).

ولا يقصد الشيخ بالأشياء المردودة مثل تلك التهمة، بل يقصد الروايات التى يرويها عن الأمم السابقة وعن بعض أهل العلم ويجعلها شاهداً له فى شرح المقامات وغيرها.

وأياً كانت الدّواعى لنسبة مثل هذا القول إلى المكّي، فإنّه امتنع عن الحديث والوعظ بمسجد بغداد، واستمر على ذلك حتى أدركته الوفاة لستَ خلونَ من جمادى الآخرة سنة ٣٨٦هـ.

• مؤلفات أبى طالب:

تشير المصادر التاريخية إلى بعض مؤلفات لأبى طالب لكنها قليلة، ولم يصلنا سوى هذه الموسوعة العظيمة: «قوت القلوب» وهو أهمها، وسيجىء حديثنا عنه بعد قليل. فقد ذكر هو كتاب «مناسك الحج» فى ثنايا القوت. وأشار الذهبى إلى مسند له فى الحديث يضم أربعين حديثاً. أما كتاب «علم القلوب» الذى ينسب إليه، فإن الدكتور عبد الحميد مذكور يرجح أن هذا الكتاب ليس له، ويسوق حججاً قوية ومقنعة فى ذلك^(٢).

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٥٥١/١٠.

(٢) انظر: أبو طالب، ص ٧٦ - ٧٩.

قوت القلوب

ألفه ببغداد، ولا يعرف على وجه التحديد الزمن الذى كتبه فيه، ويرى د. عبد الحميد مذكور أنه كتبه بعد سنة ٣٦٠هـ، لأنه كتبه بعد وفاة شيخه الأجرى التى كانت فى هذه السنة.

• أهمية هذا الكتاب:

قال ابن عباد النفرى شارح حكم ابن عطاء مبيّنًا قيمة كتاب القوت: «أما كتاب أبى طالب فعليه وقع الاختيار، إذ لم يقع بين أيدينا مثل منزعه، فإنه فيه فتح مغالق علم التصوف، وجمع فيه بين المعانى الصحيحة، والألفاظ الحسنة، وذكر فروع علومهم وأصولها، ورسم مسائلها وفصولها، فكان لذلك كالمُدونة فى علم الفقه، يقوم مقام غيره، ولا يقوم غيره مقامه»^(١). هذا كلام رجل خبير بالكتاب وفوائده، فهو كلام دالٌّ على قيمة الكتاب وتفردّه فى بابهِ، ويمكن أن نبين ما أجمَلته الفقرة السابقة حول أهمية قوت القلوب فى النقاط الموجزة التالية:

١ - أراد أبو طالب من خلال تسمية كتابه «قوت القلوب...» أن يجعله مصدرًا مهمًا وينبوعًا فياضًا لحياة المسلم، إذ أنه معلوم بالضرورة أن القوت مطلب ضرورى لكل ذى روح، وحياة الإنسان تنبع من حياة قلبه، وصلاح جسده نتيجة لصلاح قلبه، وحياة قلبه بالزاد والتقوى، فكان اختياره هذا اختيارًا لماحًا ينم عن بصيرة وإشراق نفسٍ، صاغتها مكارم الإسلام، وزانتها رحابة آفاقه، وانفساح نظرته.

٢ - انطلق أبو طالب فى جميع مراحل كتابه من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، يستمد منهما الإشارات والقواعد التى ينطلق منها لوضع منارات الطريق،

(١) الرسائل الصغرى لابن عباد، تحقيق الأب بولس، وقد نقلته عن رسالة د. عبد الحميد مذكور: أبو طالب المكي، ص ٨١.

وبيان مدارج السالكين ومنازل السائرين، ويربط بين الأصلين القرآن والسنة وبين التطبيق العملي للسالكين، فكل حال أو إشارة أو مقالة أو سلوك يخالف القرآن والسنة يوضح خلله ويبرز ضعفه، ويسقطه من حساب المتقين.

٣ - تحليلات أبي طالب للمقامات وإشاراته للأحوال تنم عن معاناة حقيقية وتجربة روحية قد خاضها ومرّ بها، إذ نجد في كتابه يصف أحوالاً لا يصفها إلا عارف، ويفصل مقامات ويفرق بين منازلها بصورة لا يعرفها علم اليقين إلا من سلك دروبها وخبر شعابها وذاق من شرابها. ومن ثمّ فإن حديثه عن المقامات لم يكن كلاماً صادراً عن مجرد التأمل النظري أو تجميع النصوص من هنا وهناك، ورصّها رصاً دون فقه أو تحليل أو إرشاد، ولعل القوت بهذه الميزة يفارق كثيراً من الكتب التي وضعت في هذا المجال، ويحلّق وحده في سماء الشفافية الروحية مخلّفاً غيره في الأرض.

٤ - ولعل أبرز نقطة في منهجه هو إلحاحه الشديد على بيان الفكرة المطروحة ومحاولة الإقناع بها بكافة السبل المتاحة من الأدلة والشواهد التطبيقية والتحليلات الخاصة. حتى لا يدع مجالاً للتردد أو الشك لدى القارئ في التسليم والاقتراع ثم البدء في التطبيق^(١). وكان يعرض ذلك كله في أسلوب أدبي مشرق، وحجج قوية معتمدة على الكتاب والسنة، ومن خلال عبارات غنية دالة موحية بسلامة الذوق ونصاعة الحجة، وجودة الصياغة، وبلاغة التأثير. قد استهدف بكل حرف في كتابه غاية قصد إليها، وحرص على إبلاغها، معبراً في كل تنظير أو تطبيق عن روح القرآن الكريم وجوهر السنة النبوية.

٥ - هذا الكتاب يعوض الإهمال الذي تعرض له أبو طالب من المؤرخين بصفة عامة، ومؤرخي الصوفية بصفة خاصة، ويرد عنه التُّهم التي أُلقيت حوله جزافاً دون دليل أو سند، «ويصحح كذلك بعض ما حوته المصادر التاريخية من أخطاء

(١) يضيق المقام لو أردنا أن نذكر أمثلة على ذلك، ولكن أنت واجده في جميع صفحات الكتاب، وعسى الله أن ييسر لنا قريباً إخراج دراسة تفصيلية حول منهج أبي طالب وأسلوبه والفرق بينه وبين من كتّب في هذا الميدان سواء من سبقه أو لحق به.

لم يكن تصحيحها ممكناً بغير الرجوع إلى القوت»^(١).

٦ - يعتبر هذا الكتاب هو الكتاب الأم في تاريخ التصوف الإسلامى ومعلماً بارزاً من أهم معالمه، «فهو مع كتاب «اللمع» يمثلان أهم كتابين صدرا عن التصوف الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى، وقد أثرا معاً فى التصوف والصوفية تأثيراً عميقاً، مادة ومنهجاً، فظهرت آثار القوت فى الإحياء، والغنية للجيلانى، وعوارف المعارف للسهروردي»^(٢).

٧ - احتوى الكتاب «على صورة واضحة المعالم محدّدة القسّمات للطريق الصوفى، ولما يكلف به سالك الطريق من مجاهدات ومعاملات وما يرقى فيه من منازل ومقامات» كما اشتمل أيضاً على «كثير من آراء الزّهاد الصوفية قبل أبى طالب، مما يجعل الكتاب مرجعاً لا غنى عنه فى معرفة آراء هؤلاء واتجاهاتهم»^(٣).

رحم الله أبا طالب؛ صوّر فأحسن التصوير، وبلّغ فأحسن التبليغ، ووصف فأحسن الوصف، وأشاع الحركة والحياة والروح والحيوية فى جوانب الطريق إلى الله، فطمأن السّالّكين، وحذّر المدعين، فكان عالماً نفسانياً، وحكيماً ربانياً، وعارفاً روحانياً، يتسلل بأحواله وتحليلاته إلى هواجس النفوس فيكشفها، وينفذ ببصيرته وقلبه إلى خفايا الصدور وخفقات القلوب فيصّرها. ويخاطب كلاً بما يعرف من نفسه، وكأنّ القارئ فى حوارٍ خاص مع أبى طالب، وأنه هو المقصود وحده بالخطاب. كذلك كان أيضاً يغوص فى بحار المعرفة، ورقائق الذوق فيكشف عن أخطاء العابدين، وفتور السّالّكين، وغرور الجاهلين، وتلبسات المحبين ووسوسة الزاهدين، فجلى بذلك صورة السّالك المسلم تجلية واضحة كما جاءت فى القرآن الكريم، وتجلّت فى سنة رسولنا الكريم ﷺ.

ذلك هو بعض ما نكشفه، ونبين عنه، ونشير إليه من جواهر القوت ليدل على ما فيه، فكلّ بيان وتقديم له، لا ينهض بحقّه ولا بحق صاحبه، ولا يفى بقدره،

(١) أبو طالب المكي، ص ٨١.

(٢) السابق، ص ٨١.

(٣) السابق، ص ٨١.

ولا يصور علمه وذوقه. إنه جامعة إسلامية لتخريج أفاضل الرجال والفحول والأئمة الكبار، وتجميع مقامات السالكين بعيداً عن الانحراف والبدع والادّعاء والتقليد والتزييف وطلب الدنيا، جامعة لا يعرف قدرها، ولا يطلع على حقيقتها، ولا يدخل رحابها؛ إلا من تذوق منهجها وعاش في جنباتها، واستنار بأنوارها؛ إنه: «قوت القلوب في معاملة المحبوب، ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد».

• مآخذ على كتاب القوت؛

لا يعنى تقريرنا للكتاب ووصفه بالتفرد أنه لا يخلو من مآخذ أو نواقص، وإنما النقص سمة من سمات البشر ومن طباعهم، ولذلك فهناك ثمة مآخذ على كتاب القوت أخذها عليه بعض العلماء والدراسين، ذكرها د. عبد الحميد مذكور، وهى باختصار:

١ - يذكر ابن الجوزى - وهو محق - أن أبا طالب ذكر فى كتابه كثيراً من الأحاديث الباطلة، وما لا يستند فيه إلى أصل من صلوات الليالى والأيام. ولكن منهج أبى طالب كما يقول د. عبد الحميد: أنه كان يقبل الحديث الضعيف إذا كان وارداً فى الترهيب والتزهيد فى الدنيا - وإن اختلف العلماء فى ذلك - وفى ذكر أهوال القيامة^(١).

أقول: لكن تعدى أبو طالب الأحاديث الضعيفة إلى الموضوعة أحياناً، وتعدى دائرة الترهيب والتزهيد إلى دائرة الفضائل، ولقد كان - رحمه الله - فى غنى تام عن سرد مثل هذه الأحاديث، وليست هى على شرطه فى الكتاب ولا من غايته أن يتحدث عن فضائل الأعمال، فلو برأ كتابه منها لارتفعت قيمته درجات.

٢ - بالكتاب أيضاً كثير من الإسرائيليات وأخبار الأمم السابقة، كان ينبغى أن يبرأ كتابه منها، وروايات تحتاج فى قبولها إلى نظر.

أقول: وما أثر عن النبى ﷺ وما روى من سيرة سلفنا الصالح كان فيه غنى ومقنع لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

٣ - وأخيراً إن الكتاب ينقصه شيء من التبويب والترتيب يجمع شتات ما تناثر

(١) انظر: أبو طالب المكي، ص ٨٢ وما بعدها.

فيه من أجزاء كان ينبغي وصلها لارتباطها الوثيق بعضها ببعض، مثال ذلك الحديث عن الصلاة فقد جاء مفروقاً في مواطن عدة.

أقول: على أية حال فإن هذه المآخذ تعد شيئاً هيناً في جنب روعته وجماله، ولا تؤثر على الغاية التي وضع من أجلها، بل لعلها كانت في بعض المواطن سبباً للإثارة والإمتاع.

• شرح القوت واختصاره:

- يوجد شرح للقوت كتبه أبو عبد الله الطبري بن عبد الله، وسمّاه: «تبسيط كتاب قوت القلوب في معاملة المحبوب». منه نسخة على الميكروفيلم بمعهد المخطوطات برقم ٨١ تصوف، ولكنها رديئة التصوير لا ينتفع بها.

- واختصره محمود بن علي بن محمد القاشاني في كتاب سمّاه: «لباب القوت من خزائن الملكوت»، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية برقم ٩٦٥ تصوف طلعت، وهي في ١٢٠ ورقة وتاريخ نسخها ١١٢١هـ.

• أثر الكتاب في اللاحقين:

يمثل أبو طالب وكتابه معلماً بارزاً مهماً من معالم التصوف وكتب السلوك، بما يشتمل على كثير من آراء الزهاد والصوفية وأحوالهم وتجاربهم قبل أبي طالب وفي عصره مما يجعل الكتاب مرجعاً لا غنى عنه في معرفة آراء هؤلاء واتجاهاتهم، ومن ثم فقد اتكأ عليه بعض الذين كتبوا في منهج القوت من التصوف، فنجد تأثيره ظهر جلياً عند عبد القادر الجيلاني ت ٥٦١هـ في كتابه «الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل»، وعند شهاب الدين السهروردي ت ٥٣٩هـ في كتابه «عوارف المعارف»، وعند الغزالي ت ٥٠٥هـ في كتابه الإحياء. وأكتفى بهذه الإشارة إلى مثل هذا التأثير، ومن أراد التفصيل حول ذلك فليرجع إلى ما كتبه د. عبد الحميد المذكور^(١).

والآن بقى الحديث عن الأصول المخطوطة التي تم اعتمادها في تحرير هذه النشرة الجديدة من كتاب القوت، وهذا هو حديثنا في الصفحات التالية.

(١) راجع: أبو طالب المكي، ص ١٣٤ - ١٥٤.

النسخ المخطوطة المعتمدة فى التحقيق

اعتمدت فى إخراج هذه النشرة المحققة على النسخ التالية:

- ١ - نسخة دار الكتب المصرية برقم: ١٥٤٣ تصوف.
- ٢ - نسخة أخرى من دار الكتب المصرية برقم: ١٥٤٤.
- ٣ - نسخة مكتبة فيض الله بتركيا برقم: ١٢٤٩.
- ٤ - نسخة مكتبة جاز الله بتركيا برقم: ١٠٧٦.
- ٥ - نسخة مكتبة ولى الدين بتركيا برقم: ١٧٥٧.
- ٦ - مطبوعة الميمنية لقوت القلوب وهى الطبعة الأولى للكتاب سنة ١٣١٠هـ.

• وصف النسخ:

١ - نسخة دار الكتب المصرية ورمزها (ك):

هى من مخطوطات دار الكتب المصرية برقم: ١٥٤٣ تصوف طلعت، ورقمها فى الميكروفيلم ٧٣٨٣، وعدد أوراقها ١٨١ ورقة فى كل ورقة وجهان أو صفحتان فى كل صفحة ٤٣ سطراً، ويحتوى السّطر الواحد غالباً على ٢٣ كلمة، ومقاس الأصل ٣٠ × ٢٢ سم، كتبت بخط مغربى دقيق، خالية من التشكيل، وليس بها اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ، وتشمل هذه النسخة الكتاب كاملاً، وعنوان الكتاب فيها كالاتى:

«كتاب قوت القلوب فى معرفة الطريق إلى معاملة المحبوب».

توجد فى هذه النسخة زيادات طفيفة على ما فى المطبوعة، لكنها فى الوقت نفسه تخلو منها بعض النصوص المطبوعة. وليس بها ذكر للفصول ولا ترقيم تلك الفصول المذكورة فى المطبوعة، ونجدها أحياناً تصدر العنوان بكلمة: كتاب، أو باب.

وقد وجدت بها خللاً في ترتيب أوراقها، مما أخلّ بالمادة العلمية في بعض الفصول، وكان هذا الخلل دقيقاً جداً، وبعد جهدٍ ولأَيِّ يَسِّرَ الله إصلاح هذا الخلل.

قسّم ناسخ المخطوط الكتاب إلى خمسة أسفار، وهذا التقسيم جاء في ثنايا الفصول. وتكمن أهمية هذه النسخة في أنها اشتملت على الكتاب كاملاً، وصححت بعض التصحيفات التي لحقت بالمطبوعة، كما أن زياداتها الطفيفة كانت مهمة وتجيء في موضعها من النص.

٢ - نسخة أخرى من دار الكتب المصرية، ورمزها (د):

وهي تقع في ١٨٧ لوحة، في كل لوحة وجهان أو صفحتان، في كل صفحة ٢٦ سطراً وفي كل سطر ١٤ كلمة تقريباً، وهي مكتوبة بخط نسخي، قليلة الخطأ، خالية من التشكيل، وناسخها هو عبد الله بن أحمد المقدسي، فرغ من نسخها سنة ٤٩٢هـ.

تضم هذه النسخة نصف الكتاب تقريباً، حيث يوجد منها الجزء الثاني فقط، ويبدأ من باب: «ذكر فضائل التارك للكسب» وهذا يقع ضمن الفصل الثاني والثلاثين من الكتاب، وتنتهي النسخة بنهاية كتاب القوت.

توجد بهذه النسخة زيادات كثيرة جيدة ومهمة أثبتتها بعد مقابلتها بالنسخ الأخرى.

٣ - نسخة مكتبة فيض الله، ورمزها (م):

وهي نسخة محفوظة بمكتبة فيض الله بتركيا برقم: ١٢٤٩، ومنها صورة على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات برقم: ٢٤٠ ق تصوف، وتقع هذه النسخة في جزأين، يوجد منها بمعهد المخطوطات الجزء الثاني فقط، ويبدأ من: «شرح مقام التوكل» وذلك في الفصل الثاني والثلاثين، وتنتهي بنهاية الكتاب.

ويقع هذا الجزء في ٢٣٢ ورقة أو لوحة، في كل لوحة صفحتان، وفي كل صفحة ٢٩ سطراً، ومقاسها ١٦,٥ × ٢٦ سم، كتبت بخط نسخي قديم،

مضبوطة بالشكل، وناسخها هو محمد بن الحسن بن منصور، فرغ من نسخها سنة ٥٧٠هـ.

وتشمل هذه النسخة زيادات كثيرة جداً على ما فى المطبوع وعلى نسخة (ك)، غير أنه وقع فيها اضطراب فى أوائل النسخة، كما وقع فيها خلط فى ترتيب الأوراق، وتكثر بها التصحيقات والأخطاء فى الكتابة أو الضبط، لكننى أفدت منها كثيراً وأثبت جميع الزيادات التى وردت بها واتخذتها أصلاً فى الجزء الذى أوردته، وقابلت عليها بقية النسخ المخطوطة والنسخة المطبوعة.

ويمكن القول: إن نسختى (م، خ) تشكلان معاً ثلاثة أرباع الكتاب، وعليها كان مدار هذه النشرة من الزيادات التى أثبتتها، عدا بعض الزيادات التى وجدتھا فى بعض النسخ، ولم أجدها فى هاتين النسختين فكنْتُ أثبتھا فى موضعها مع الإشارة إلى مصدر الزيادة.

٤ - نسخة مكتبة جاز الله، ورمزها (خ):

وهى نسخة محفوظة بمكتبة جاز الله بتركيا برقم: ١٠٧٦، ومنها صورة بمعهد المخطوطات على الميكروفيلم برقم: ٣٤٠، وهى تقع فى ثلاثة أجزاء يوجد منها الجزء الثانى فقط بمعهد المخطوطات، ويبدأ من شرح مقامات اليقين، وهو بداية الفصل الثانى والثلاثين، وتنتهى بنهاية كتاب الزهد، ويتلوه شرح مقامات التوكل. وهى مكتوبة بخط نسخى نفيس، وقد ضبطت بالشكل الكامل ضبطاً صحيحاً متقناً، قليلة الأخطاء، وناسخها هو عبد الله بن الحسن بن عبد الواحد بن بندار. فرغ من نسخها سنة ٥٦٢هـ، وعدد أوراقها ١٩٥ ورقة، فى كل ورقة صفحتان، فى كل صفحة ٢٣ سطراً، مقاسها ١٩ × ٢٨,٥ سم.

اتخذتها أصلاً فى الجزء الذى أوردته من الكتاب، إذ وجدت فيها زيادات كثيرة على المطبوعة، وصوبت كثيراً من تصحيقات المطبوعة وتحريفاتها للنص، وتبدأ هذا الزيادات قليلة ثم تزداد شيئاً فشيئاً مع منتصف المخطوط، حتى تصل الزيادة أحياناً إلى صفحات طويلة متصلة لا يوجد منها شىء فى المطبوعة. ولكن للأسف

الشديد يوجد بها أماكن كثيرة مطموسة بيضاء فى التصوير وفى كثير من صفحاتها - وخاصة فى أواخر المخطوط - طمس فى النصف الأسفل من الأوراق، مما شكّل معاناة شديدة فى قراءة الكثير منها.

٥ - نسخة مكتبة ولى الدين، ورمزها (هـ):

وهى نسخة محفوظة بمكتبة ولى الدين بتركيا برقم: ١٧٥٧، منها صورة بمعهد المخطوطات على الميكروفيلم برقم: ٣٣٩ تصوف، وهى تقع فى مجلدين منها المجلد الثانى فقط بمعهد المخطوطات، ويبدأ «بشرح مقام الشكر وأوصاف الشاكرين» وتنتهى بنهاية كتاب القوت، وعدد أوراقها ٤٦١ ورقة فى كل ورقة صفحتان، وكتبت بأكثر من خط، من ص ١٧٦ إلى ص ٢٢٥ كتبت بخط نسخى حديث، أما بقية المخطوط فيرجع تاريخ النسخ إلى سنة ٥٥٨هـ، ولكن لا يوجد اسم الناسخ، وعدد الأسطر فى الجزء المنسوخ حديثاً يصل إلى ١٥ سطراً، بينما فى الخط القديم فيصل إلى ٢١ سطراً. وتوجد بها زيادات فى الجزء المكتوب بخط قديم، بعض هذه الزيادات يوجد فى النسخ الأخرى، وبعضها - وذلك فى كتاب الأطعمة - لم أجده فى غيرها.

وأشار أبو طالب فى كتاب الأطعمة بهذه النسخة أكثر من مرة إلى الزيادات على الأصل الأول، راجع كتاب الأطعمة من هذه النشرة، ولذلك فقد أثبتته كاملاً عن هذه النسخة مع إشارات أبى طالب إلى تلك الزيادات.

كذلك أشير فى حاشية أحد الأوراق أنه ترك مقدار كراستين من النص، مما يدل على أن الناسخ ترك هذا إما لأن الأصل الذى نقل عنه لم يكن واضحاً أو أن فيه خرمًا.

وتخلو هذه النسخة من الضبط والنقط أحياناً، وتكثر بها التصحيفات، وأن الناسخ أحياناً لا يبصر موضع قدمه، وكان يضرب كثيراً على الكلام المكتوب ويصححه بالحاشية، أو يتركه. على أية حال قد يسّر الله تعالى الإفادة منها إفادة كاملة وأسهمت إسهاماً بيّناً فى توثيق نصوص المخطوطات الأخرى. والحمد لله أولاً وآخراً.

وهناك بعض المخطوطات حديثة النسخ تركت الاعتماد عليها.

٦ - المطبوعة الميمية ورمزها (ط):

وهى الطبعة الأولى لكتاب قوت القلوب، طبعت بالقاهرة سنة ١٣١٠ هـ وقام على تصحيح هذه النشرة الشيخ محمد الزهرى الغمراوى، رحمه الله، وصدرت فى جزأين، يشمل الجزء الأول ٢٧١ صفحة، والثانى ٢٩٨ صفحة، فى كل صفحة ٣٦ سطرًا. ووضع على حاشية الجزء الأول كتاب: «سراج القلوب وعلاج الذنوب»، للشيخ أبى على زين الدين على، وعلى حاشية الجزء الثانى كتاب: «حياة القلوب فى كيفية الوصول إلى المحبوب».

لم يذكر الشيخ محمد الزهرى - رحمه الله - الأصل الذى نشرها عنه وهى مع ذلك لا توافق موافقة تامة أيًا من النسخ المعتمدة، ولذلك اعتمدتها نسخة من نسخ الكتاب وبخاصة فى بداية الكتاب وحتى بداية نسخة (خ) وقابلتها مع النسخ المخطوطة جميعًا حتى نهاية الكتاب، وما وجدته من زيادة لم ترد فى الأصول المخطوطة أثبتته، وقد آزرت هذه النسخة وأيدتها نسخة (ك) المخطوطة والتى شملت الكتاب كله. ووجدت فيها أيضًا خلطًا فى ترتيب الأوراق لم يتنبه إليه الناشر^(١)، وذلك فى «الفصل السابع والثلاثين» ج ١٥١/٢ سطر ٤ بعد قوله: «ارتكاب المعاصى» إذ جاء بعد هذا الكلام جزء من الفصل الذى يليه والموضوع فى هذا الفصل يختلف عن الذى يليه، وقد أشرت إلى هذا الخلط فى موضعه من الكتاب. ومن الغريب أنه قد حدث خلط فى كل نسخة من النسخ المخطوطة السابقة عدا نسخة (هـ) وذلك فى ترتيب الأوراق، وكان يختلف الموضع من نسخة إلى أخرى، ويسّر الله بفضلته تصحيحها جميعًا.

(١) أشار د. عبد الحميد مذكور فى رسالته إلى هذا الخلط ولكنى لم أطلع عليه إلا بعد أن أصلحته من الأصول المخطوطة التى بين يديّ، انظر: أبو طالب المكي، ص ٨٧.

منهجى فى تحقيق هذه النشرة الجديدة من القوت

١ - قابلت بين النسخ المخطوطة وعارضتها بالنسخة المطبوعة، ونسخت نسخة (خ) ونسخة (م)، واعتمدتهما أصلاً للكتاب من بداية «شرح مقامات اليقين»، وحتى نهاية الكتاب، وأثبت جميع الزيادات التى أوردتها النسخ الأخرى ولم تكن بنصها أو بمعناها فى هاتين النسختين، عدا «كتاب الأطعمة» فقد اعتمدت فى نصه على نسخة (هـ) لزياداتها الوافية الموثقة.

أما فى القسم الذى يسبق «شرح مقامات اليقين» فقد اعتمدت فيه على النسخة المطبوعة مع نسخة (ك) وأثبت الزيادات الطفيفة والتصحيحات التى أفدتها من النسخة المخطوطة.

وبذلك تكون هذه النشرة قد جمعت جميع النصوص التى وصلت إلينا عبر هذه الأصول فى نص واحد متكامل متناسق، وتتلافى النقص الفاحش الذى كان بالنشرات المطبوعة من قبل.

٢ - نظراً للكثرة الفاحشة فى الأخطاء والتصحيحات التى لحقت المطبوعة والاختلافات المتعددة بين المطبوعة والأصول المخطوطة، كنت أغفل أحياناً الإشارة إلى حال المطبوعة وأكتفى بإثبات النص الصحيح، حتى لا يُشغل القارئ بتتبع ذلك ولا يزاحم بقية التعليقات المطلوبة الإشارة إليها أو الزيادات المهمة فى الهوامش.

٣ - اقتصدت اقتصاداً يَبِيناً فى التعليق على كلام أبى طالب، وذلك لأمرين:

الأول: وضوح كلام أبى طالب، ومحاولته الدائبة لتأكيد ما يقول بكل الطرق وحشد الأدلة والشواهد لذلك، ويسوق هذا كله فى عبارة مشرقة ناصعة البيان، بليغة التصوير، وأى تعليق عليها قد يفسد جمالها ويعكّر صفوها، فتركت القارئ يتمتع بذلك دون تدخل منى.

الثانى: كثرة الهوامش تشغل القارئ عن متابعة المؤلف، وتشتت ذهنه، وهذا الكتاب كتاب سلوك يحتاج إلى تركيز بالعقل والقلب وعدم الالتفات.

٤ - أرجأت تخريج الأحاديث والآثار والتعليق عليها إلى نهاية الكتاب، وستخرج وافية مع الفهارس التفصيلية للكتاب فى مجلد مستقل. وقد يرى البعض أننى بذلك قد ارتكبت جريمة لا تغتفر فى حق الكتاب والتحقيق، للذين لا يرون من التحقيق إلا تخريج الحديث وحسب، أما أن يقيم نصاً أو يضبط مشكلاته فهذا ليس مهماً عندهم، ولكنى أتأنى القارئ الكريم فى الحكم حتى يرى بنفسه حجتي.

٥ - اعتنيت عناية شديدة بعلامات الترقيم وبدايات الفقرات وضبط المشكل منه، لأن لهذا العمل دوراً مهماً جداً فى قراءة النص وفهمه، وأكاد أقطع أن هذا العمل هو أجلّ وأهم خدمة يمكن أن تقدم لمثل هذا الكتاب وغيره من كتب التراث بعد استكمال النص بمقابلته على الأصول المخطوطة؛ لأن ما نشاهده من خلل العلم بصفة عامة وخلل التطبيق فى المجتمع الإسلامى بصفة خاصة، وكثرة الفرق والأهواء والزيف والضلال، إنما يتأتى للمسلم من جهله بقراءة النص قراءة صحيحة لتهيئ فهمها صحيحاً ومن ثمّ تطبيقاً صحيحاً، فلو اختلفت القراءة وأعجمت، اختلف ما بعدها كله، ولولا أننى أخشى أن يخرج بى الحديث عن مساره ويطول لينت بجلاء خطورة عدم ضبط القراءة وما تؤدى إليه من المفاصد التى نكتوى بنارها فى مجتمعاتنا اليوم وقبل اليوم، ولكنى أكتفى بأن أوجه القارئ إلى ما كتبه بعض الأعلام أمثال ابن السّيد البطليوسى فى كتابه المهم «التنبيه على الأسباب التى أوجبت الاختلاف بين المسلمين»، وما كتبه شيخ العربية أبو فهر محمود شاعر فى «أباطيل وأسمار» و «المتنبى»، وغير هذه الكتب كثير.

٦ - يوجد أمر أود أن ألفتَ نظر القارئ إليه، وهو الاختلاف البين بين النسخ المخطوطة والمطبوعة من حيث الزيادة والنقصان، وقد يكون مثيراً للتساؤل: كيف تحيى نسخ الكتاب متفاوتة بهذه الدرجة، حيث توجد بعض النصوص فى النشرة اليمينية لا توجد فى جميع النسخ، وتوجد نصوص كثيرة وطويلة جداً لا توجد فى

المطبوعة ولا فى كل النسخ وإنما تتفاوت الزيادة تفاوتًا بيّنًا بين النسخ؟!

ويكفينى فى الردّ هنا ما ذكره أبو فهر محمود شاكر - رحمه الله - فى برنامج طبقات فحول الشعراء عندما بيّن مثل هذه المشكلة فقال: «أمر مألوف كلّ الإلف، أن يوجد من كتاب واحد، لمؤلف واحد، نسخٌ يكثر عددها أو يقلّ يتردد جميعها بين التمام والنقص، وبين الاختصار الهين والاختصار المبين، ويكون ذلك من فعل من أدّى إلينا الكتاب عن مؤلفه. بل إنّ المؤلف نفسه قد يترك بين يدي تلامذته نسخًا من كتابه، بعضها أتمّ من بعضٍ، بما أدخل هو نفسه على كتابه، على تطاول السنين، من زيادة أو حذف أو تبديل أو تغيير. أمرٌ مألوف كلّ الإلف، وإن غفل عنه من غفل، وإن أغفله أيضًا متعمدًا من أغفله... مألوف من فعل رواة الكتب وناقليها إلينا، ومألوف أيضًا أن يفعله المؤلفون أنفسهم، إذا بدا لهم أن يزيدوا فى الكتاب، أو يحذفوا منه، أو يبدّلوا أو يُغيّروا»^(١).

كلام أبى فهر هذا يؤكد لنا ما وجدناه فى النسخ التى وصلت إلينا من كتاب القوت، إذ نجد فى بعض النسخ زيادات طويلة هى من المؤلف نفسه، فهو يريد أن يؤكد الفكرة ويثبتها فى نفس القارئ، فيزيد فى الشواهد والأدلة ويبسط فى التعليقات وتبيين الأوجه الغامضة، وهذا ما لمستّه بوضوح فى زيادات القوت، فهى لم تزد - غالبًا - موضوعًا لم يكن فى القوت، أو تستحدث عنوانًا جديدًا ليس له أصل بالكتاب، وإنما زياداتها تكشف عما طرحه أبو طالب فى كتابه من قبل، وتحلل الأوجه المشكلة منه، وتذلل صعوباته الناجمة عن قلة الشواهد أحيانًا، أو إيجاز العبارة أحيانًا أخرى، خاصة أن جزءًا من الكتاب كان نتيجة الدروس والمواظظ التى كان يلقيها فى جامع بغداد، ومن طبيعة الإلقاء فى الدروس أنه يختلف من آن لآخر من حيث الزيادة والبيان، إذ يتفتق ذهن المحاضر فى كل يوم عن جديد.

٧ - تجزئة الكتاب إلى ثلاثة أجزاء - كما هو عليه الآن - من صنع المحقق، نظرًا لاختلاف الشديد بين النسخ المخطوطة فى تجزئتها للكتاب.

(١) برنامج طبقات فحول الشعراء، أبو فهر محمود محمد شاكر، مطبعة المدنى بمصر، ص ٤٤.

وبعد:

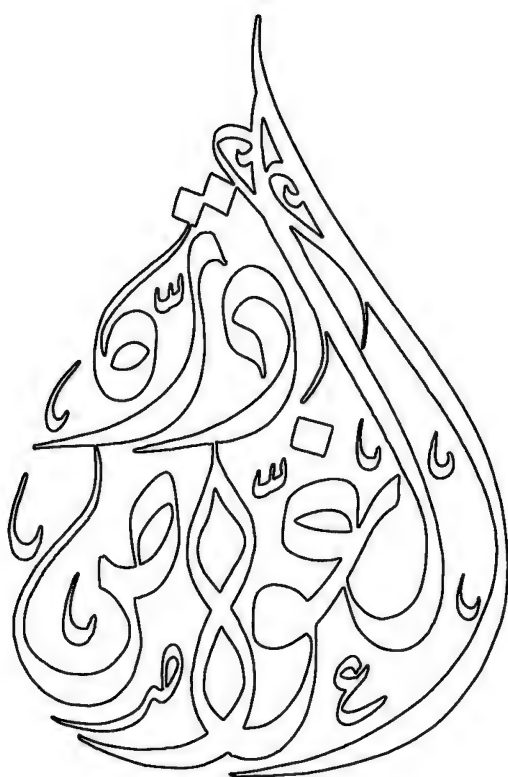
فقد بذلت جهدي، وتحرّيتُ الصواب ما استطعتُ، فما كان فيه من إحسانٍ فمن الله، وما كان فيه من زللٍ فمَنِّي، وأسأل الله أن يتغمّد ما أخطأتُ فيه، وأن يكتب لنا من السّدَادِ في أعمالنا ما هو له أهل من تفضّله على خَلْقِه ومَنّه على عباده.

اللهمّ إنني أسألك عونًا لا ينقطع، وسدادًا لا يُمنُّ، وتوفيقًا لا يُحبس عني خيرُهُ، برئتُ إليك ربّي من الحَوْلِ والقُوّةِ، كما برئتُ من الشركاء والأنداد.

اللهمّ إنني أسألك أن ترحمني إذا انقضى أَجَلِي، وانقطع عملي، ولبستُ كَفَنِي، وفارقتُ سَكَنِي، اللهم اغفر لي خطيئتي يوم الدين.

وكتبه الفقير الراجي عفو ربه

محمود إبراهيم الرضواني





والطلاء والسلا على رسوا الله في احب عبود النوارخ از الشيخ
الاطع محمد بن علي بن عبيد ابوكالب المكي الواعظ المتكبر في الزهد المتعمد مصنف هذا
الكتاب المسمى بقوله القلوب توفى بها الله الاخ من سنة سنة ومائة وثلثا مائة رحمه
الله تعالى وفيه بعض ادب الف من جامع الزجاجة ومن كلامه رحمه الله
فيها ايامهم بيت من شعره ويا من ليبتك لم تقب
استغنى الله عن جميع رحم الله الجميع
وهو الله على سيدنا ومولانا
محمد وآله وصحبه
وسلم
في سنة

الشمس

الشمس

الشمس

الشمس هي كوكب من كواكب المجموعة الشمسية، وهي النجم الذي تدور حوله الكواكب الأخرى في النظام الشمسي. الشمس هي نجم من نوع النجوم القزمة الحمراء، وهي تتكون من غازات هيدروجين وهيليوم. الشمس هي المصدر الرئيسي للحرارة والضوء في النظام الشمسي، وهي تملك قوة جذب جاذبية هائلة تجذب الكواكب الأخرى حولها. الشمس هي النجم الوحيد الذي نرى في سماءنا ليلاً ونهاراً، وهي تملك دورة حياة طويلة جداً، وتقدر أن تستمر في الوجود لملايين السنين.

الشمس هي كوكب من كواكب المجموعة الشمسية، وهي النجم الذي تدور حوله الكواكب الأخرى في النظام الشمسي. الشمس هي نجم من نوع النجوم القزمة الحمراء، وهي تتكون من غازات هيدروجين وهيليوم. الشمس هي المصدر الرئيسي للحرارة والضوء في النظام الشمسي، وهي تملك قوة جذب جاذبية هائلة تجذب الكواكب الأخرى حولها. الشمس هي النجم الوحيد الذي نرى في سماءنا ليلاً ونهاراً، وهي تملك دورة حياة طويلة جداً، وتقدر أن تستمر في الوجود لملايين السنين.

اللوحة الأولى من الأصل (ك)

الشمس هي كوكب من كواكب المجموعة الشمسية، وهي النجم الذي تدور حوله الكواكب الأخرى في النظام الشمسي. الشمس هي نجم من نوع النجوم القزمة الحمراء، وهي تتكون من غازات هيدروجين وهيليوم. الشمس هي المصدر الرئيسي للحرارة والضوء في النظام الشمسي، وهي تملك قوة جذب جاذبية هائلة تجذب الكواكب الأخرى حولها. الشمس هي النجم الوحيد الذي نرى في سماءنا ليلاً ونهاراً، وهي تملك دورة حياة طويلة جداً، وتقدر أن تستمر في الوجود لملايين السنين.

الشمس هي كوكب من كواكب المجموعة الشمسية، وهي النجم الذي تدور حوله الكواكب الأخرى في النظام الشمسي. الشمس هي نجم من نوع النجوم القزمة الحمراء، وهي تتكون من غازات هيدروجين وهيليوم. الشمس هي المصدر الرئيسي للحرارة والضوء في النظام الشمسي، وهي تملك قوة جذب جاذبية هائلة تجذب الكواكب الأخرى حولها. الشمس هي النجم الوحيد الذي نرى في سماءنا ليلاً ونهاراً، وهي تملك دورة حياة طويلة جداً، وتقدر أن تستمر في الوجود لملايين السنين.

الشمس

الشمس

الشمس



9111

اللوحة الأخيرة من الأصل (م)

[illegible]

②

[illegible]

لا تيسر ما هم فيه
اسم

[illegible]

اللوحة الأولى من الأصل (هـ) خط حديث

سبحانك يا ذا الجلال والإكرام
سبحانك يا ذا الجلال والإكرام

[illegible]

قوت القلب

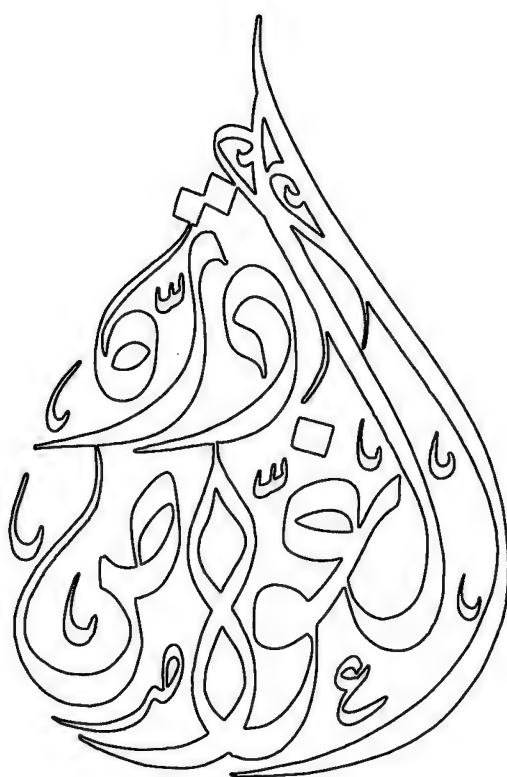
في معاملة المحبوب
ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد

للشيخ أبي طالب المكي
محمد بن علي بن عطية
(ت ٣٨٦ هـ)

حققه، وقلّم له، وعلّق حواشيه
و. محمود البراك هم محمد الرضوي
دار العلوم - جامعة القاهرة

الجزء الأول

مكتبة دار التراث



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الأوّل الأزلّيّ قبل الكون والمكان، من غير أوّل ولا بداية، الآخر الأبدىّ بعد فناء المكنونات والأزمان بغير آخر ولا غاية، الظاهر في علوه بقهره عن غير بُعد، والباطن في دنوه بقربه من دون مسّ، الذي أحسن بلطفه كلّ شيء بدءاً، وأتقن صنْع كلّ شيء أنشأه، ودبّرت الأحكام حكمته، وصرّفت المحكومات مشيئته؛ فأظهر في الغيب والشهادة لطيف قدرته، وعمّ في العاجل والآجل خلقه بنعمته، ونشر على من أحبّ منهم فضله، وبسط لجميعهم عدله، وأنعم عليهم بتعريفهم إياه - سبحانه وتعالى - به عزّ وجلّ، وأحسن إليهم باجتماعه إليهم إليه، وأفضلّ عليهم بتيسير كلامه لهم، ومنّ عليهم ببعثه رسولاً من أنفسهم إليهم.

فنسأله الصلاة على النبي وآله، وأن يؤزّعنا بفضله شكر نعمه، ويعرفنا خفىّ قدره.

وصلّى الله تبارك وتعالى على سيّد الأوّلين والآخريّن، رسوله المفضل بالشفاعة والحوض المورد، المخصوص بالوسيلة والمقام المحمود، وعلى إخوانه السالفين في الأزمان، وأنصاره التابعين بإحسان.

وبعد.. فهذا كتاب «قوت القلوب في معاملة المحبّوب»، ووضف طريق المريد إلى مقام التوحيد»، تصنيف الشيخ أبي طالب، محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي رضى الله عنه. يشتمل على ثمانية وأربعين فصلاً، هذا ذكرها:

الفصل الأول: في ذكر الآي التي فيها المعاملات.

الفصل الثاني: في ذكر الآي التي فيها أورد الليل والنهار.

الفصل الثالث: في ذكر عمل المريد في اليوم والليلة.

الفصل الرابع: في ذكر ما يستحب من الذكر، وقراءة الآي المندوب إليها بعد التسليم من صلاة الصبح.

- الفصل الخامس: فى ذكر الأدعية المختارة بعد صلاة الصبح .
- الفصل السادس: فى ذكر عمل المريد بعد صلاة الصبح .
- الفصل السابع: فى ذكر أوراد النهار، وهى سبعة أوراد .
- الفصل الثامن: فى ذكر أوراد الليل، وهى خمسة أوراد .
- الفصل التاسع: فى ذكر وقت الفجر .
- الفصل العاشر: فيه كتاب معرفة الزوال، وزيادة الظل ونقصانه بالأقدام .
- الفصل الحادى عشر: فيه كتاب فضل الصلاة فى الأيام والليالى .
- الفصل الثانى عشر: فى ذكر الوتر، وفضل الصلاة فى الليل .
- الفصل الثالث عشر: فيه كتاب جامع لما يستحب أن يقول العبد إذا استيقظ من نومه، وفى يقظته عند الصباح .
- الفصل الرابع عشر: فى تقسيم قيام الليل، ووصف القائمين .
- الفصل الخامس عشر: فى ذكر ورد العبد من التسبيح والذكر والصلاة فى اليوم والليلى، وفضل صلاة الجماعة، وذكر فضل الأوقات المرجو فيها الإجابة، وذكر صلاة التسبيح .
- الفصل السادس عشر: فى ذكر معاملة العبد فى التلاوة، ووصف التالين حق تلاوته بقيام الشهادة .
- الفصل السابع عشر: فيه كتاب ذكر نوع من المفصل والموصل من الكلم، ومدح العاملين به، وذم الغافلين عنه، وهو من تفسير غريب القرآن .
- الفصل الثامن عشر: فيه كتاب ذكر الوصف المكروه من نعت الغافلين .
- الفصل التاسع عشر: فيه كتاب ذكر الجهر بالقرآن، وما فى ذلك من النيات، وتفصيل حكم الجهر والإخفات .
- الفصل العشرون: فى ذكر الليالى المرجو فيها الفضل المستحب إحيائها، وذكر

مواصلة الأوراد في الأيام الفاضلة .

الفصل الحادى والعشرون: فيه كتاب الجمعة وهيئاتها وآدابها، وذكر المزيد فى يوم الجمعة وليلتها .

الفصل الثانى والعشرون: فيه كتاب الصوم وترتيبه، ووصف الصائمين .

الفصل الثالث والعشرون: فى ذكر محاسبة النفس، ومراعاة الوقت .

الفصل الرابع والعشرون: فى ذكر ماهية الورد للمريد، ووصف حال العارف بالمزيد .

الفصل الخامس والعشرون: فيه كتاب تعريف النفس، وتصريف مواجيد العارفين .

الفصل السادس والعشرون: فيه كتاب ذكر مشاهدة أهل المراقبة .

الفصل السابع والعشرون: فيه كتاب أساس المريدين .

الفصل الثامن والعشرون: فيه كتاب مراقبة المقربين .

الفصل التاسع والعشرون: فى ذكر أهل المقامات من المقربين، وتمييزهم، ونعت حال المتعبدين الموقنين، وتمييز حال أهل الغفلة المبعدين .

الفصل الثلاثون: فيه كتاب ذكر خواطر القلب لأهل معاملات القلوب .

الفصل الحادى والثلاثون: فيه كتابُ العلم وتفضيله وأوصاف العلماء . وذكرُ فضل علم المعرفة على سائر العلوم، وكشفُ طريق العلماء من السلف الصالح . وذكرُ بيان فضل علم الباطن على علم الظاهر، والفرقُ بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة . وذكرُ علماء سوء الآكلين بعلومهم الدنيا . وذكرُ وصف العلم وطريق السلف، وما أحدث المتأخرون من القصص والكلام . وباب ذكر ما أحدث الناس من القول والفعل فيما بينهم مما لم يكن عليه السلف . وباب من تفضيل علم الإيمان واليقين على سائر العلوم، والتحذير من الزلل فيه، وبيان ما ذكرناه . وبابُ تفصيل الأخبار وبيان طريق الآثار .

الفصل الثانى والثلاثون: فى شرح مقامات اليقين وأحكام الموقنين، وأصل مقامات اليقين التى تُرد إليها فروع أحوال المتقين، وهى تسعة: أولها التوبة، ثم الصبر، ثم الشكر، ثم الرجاء، ثم الخوف، ثم الزهد، ثم التوكل، ثم الرضا، ثم المحبة.

الفصل الثالث والثلاثون: فيه شرح مبانى الإسلام وهى خمسة:

فالأول: فرض شهادة التوحيد للمؤمنين، ووصف فضائلها؛ وهى شهادة المقربين، وذكر شهادة الرسول ﷺ وفضلها للموقنين.

والثانى: شرح الصلاة، فأولها فرض الاستنجاء وسننه، وفرائض الوضوء وسننه وفضائله، وفرائض الصلاة وسننها، وأحكام المصلّى فى قوت الصلاة ودركها، وما يتعلق بها، وهىئة الصلاة وآداب المصلّى فيها.

والثالث: شرح الزكاة ووقت أدائها، وذكر فضائل الصدقة، وآداب العطاء، ووصف أحوال الفقراء.

والرابع: شرح صوم شهر رمضان.

والخامس: شرح كتاب الحج؛ الذى به كمال الشريعة وتمام الملة.

الفصل الرابع والثلاثون: فيه كتاب تفصيل الإسلام والإيمان، وعقود السنّة واعتقاد القلوب، وشرح معاملة الناس من العلم الظاهر. وذكر دعائم الإسلام وأركان الإيمان، واتصال الإيمان بالإسلام، واقتران القلوب بالعمل. وذكر بيان التفرقة بين الإيمان والإسلام، والاستثناء فى الإيمان، والإشفاق من النفاق، وطريقة السلف فى ذلك.

الفصل الخامس والثلاثون: فيه كتاب السنّة وشرح فضائلها، وجمل من آداب الشريعة، وذكر عقود القلوب من علم الظاهر، وهى ستّ عشرة خصلة: أولها أن تعتقد أن الإيمان قول وعمل. وأنّ القرآن كلام الله تبارك وتعالى غير مخلوق. وأنّ تسلم أخبار الصفات. وأنّ تعتقد وتعلم تفضيل أصحاب رسول الله ﷺ. وأنّ تقدّم من قدّمه الله عزّ وجلّ ورسوله ﷺ. وأنّ تعتقد أن الإمامة فى قريش عامة

إلى أن تقوم الساعة. وأن لا تكفر أحدًا من أهل القبلة. وأن تصدق بجميع أقدار الله عز وجل خيرها وشرها. وأن مساءلة منكر ونكير حق. وأن عذاب القبر حق. وأن تؤمن بالميزان. وأن تعتقد أن الصراط حق. وأن تؤمن بالحوض المورود حوض محمد ﷺ. وأن تؤمن بالنظر إلى الله سبحانه وتعالى. وأن تعتقد إخراج الموحد من النار. وأن تؤمن بوقوع الحساب، وفيه فصل مستنبط من معنى الإجماع بذكر أهل البدع وإخراجهم من الجماعة. وذكر فضائل السنة، ووصف طرائق السلف التابعين بإحسان.

الفصل السادس والثلاثون: في ذكر جمل الشريعة وعز الإيمان، وذكر شرط المسلم الذي يكون به مسلمًا، وذكر حسن إسلام المرء، وعلامة محبة الله عز وجل له، وذكر حق المسلم على المسلم، وهو وجوب حرمة الإسلام على المسلمين، وذكر سنن الجسد، وذكر ما في اللحية من المعاصي والبدع، وذكر ما جاء في فضل بعض ذلك واستحسانه، وكتاب ما ذكر من نوافل الركوع، وما يكره من النقصان منه.

الفصل السابع والثلاثون: فيه كتاب شرح الكبائر وتفصيلها، ومسألة في محاسبة الكفار.

الفصل الثامن والثلاثون: فيه كتاب الإخلاص، وشرح البيان والأمر بتحسينها في تصرف الأحوال والتحذير من دخول الآفات عليها في الأفعال.

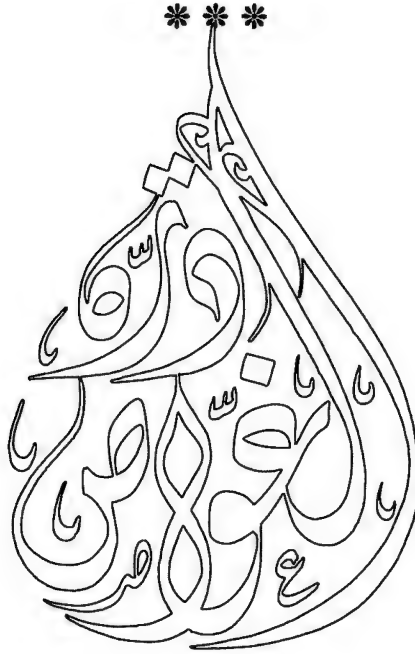
الفصل التاسع والثلاثون: فيه كتاب ترتيب الأقوات، بالنقصان منها أو بزيادة الأقوات.

الفصل الأربعون: فيه كتاب الأطعمة، وما يجمع الأكل من السنن والآداب، وما يشتمل على الطعام من الكراهية والاستحباب.

الفصل الحادى والأربعون: فيه كتاب فرائض الفقر وفضائله، ونعت عموم الفقراء وخصوصهم، وتفصيل قبول العطاء وردّه، وطريق السلف فيه.

الفصل الثانى والأربعون: فيه كتاب حكم المسافر، والمقاصد فى الأسفار.

- الفصل الثالث والأربعون: فيه كتاب حكم الإمام، ووصف الإمامة والمأموم.
- الفصل الرابع والأربعون: فيه كتاب الأخوة في الله عزّ وجلّ، والصحبة ومحبة الإخوان فيه تبارك وتعالى، وأحكام المؤاخاة وأوصاف المحبين.
- الفصل الخامس والأربعون: فيه كتاب ذكر التزويج في فعله وتركه أيهما أفضل، ومختصر أحكام النساء في ذلك.
- الفصل السادس والأربعون: فيه كتاب ذكر دخول الحمام.
- الفصل السابع والأربعون: فيه كتاب الصنائع والمعاش، والبيع والشراء، وما يجب على التاجر والصانع من شروط العلم في أحكام التصرف.
- الفصل الثامن والأربعون: فيه كتاب تفصيل الحلال والحرام، وما بينهما من الشبهات، وفضل الحلال، وذم الشبهة، وتمثيل ذلك بصور الألوان^(١).



(١) هذه المقدمة - لا شك - ليست من وضع أبي طالب المكي ولا من إنشائه، ولعل أحد تلاميذه أو أهل العلم وضعها بعد ذلك، وبخاصة أني لم أجدها في مقدمة الأصل المخطوط الكامل للكتاب وهي نسخة (ك)، ولا في ثانيا بعض الأصول المخطوطة، كما أنه توجد اختلافات بينها وبين ما ورد في ثانيا الكتاب.

الفصل الأول

في ذكر الآي التي فيها ذكر المعاملة

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]. وقال عز وجل: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٩ - ٤١]. وقال جلّت قدرته: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]. وقال عز من قائل: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢]. وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ [سبا: ٣٧]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨ - ٥٩]. وقال سبحانه: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٧].

الفصل الثاني

فى ذكر الآى التى فيها أورد الليل والنهار

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَنۢ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]. وقال جل ثناؤه: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ * واذكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٧ - ٨]. وقال سبحانه: ﴿وَاذكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥ - ٢٦]. وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَادْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩ - ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَادْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٨ - ٤٩]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦]. وقال تعالى: ﴿وَمِنَ آثَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠]. وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آثَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]. وقال عز اسمه: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧ - ١٨]. وقال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لَدُلُوكَ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٨ - ٧٩]. وقال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧ - ١٨].

الفصل الثالث

في ذكر عمل المريد في اليوم والليلة من فرائض الأوامر وفضائل النوادر

فمن ذلك يستحب عند طُلُوع الفجر؛ وهو البياضُ المشتقُّ من سواد الليل المُعترض في قُطر السَّماء الشرقي، عند إدبار النجوم. وإدبارُها: افتراقها وذهابُ ضوئها لغلبة ضوء الفجر عليها. وهو الوقتُ الذي أمر الله تعالى فيه بذكره إذ يقول تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩]. فليصل العبد ركعتي الفجر، يقرأ فيهما: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فهو أكثر ما روى أنَّ النبي ﷺ قرأ فيهما؛ فإن شاء خافت وإن شاء جهَرَ.

فقد روى حديثان، أحدهما يدلُّ على المخافة؛ وهو حديث عائشة رضي الله عنها^(١) قالت: «كان رسولُ الله ﷺ يخفُّ ركعتي الفجر، حتى أقول قرأ فيهما بفتحة الكتاب أم لا».

والآخر: يدل على الجهر، وهو حديث ابن عمر: «رمقتُ النبي ﷺ عشرين يوماً، فسمعتَه يقرأ في ركعتي الفجر ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾»^(٢).

وفي حديث أبي هريرة وابن عباس، أنه قرأ ﷺ في الركعة الأولى الآية التي في سورة البقرة: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ [البقرة: ١٣٦] إلى آخرها، وفي الركعة الثانية: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنْزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

(١) المسند ٢٠٤/٦، والخليعة ٣٣٧/٦.

(٢) الكامل لابن عدي ٢٦٤٨/٧ بلفظ: «خمساً وعشرين صباحاً».

فليقرأ بذلك أحياناً. ثم يستغفر الله تعالى سبعين مرة؛ يقول في كل مرة: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، وَأَسْأَلُهُ التَّوْبَةَ^(١).

ثم يَسْبِّحُ اللَّهَ وَيَهْلِلُهُ، مائة مرة، بالكلمات الأربع الجامعات المختصرات التي في القرآن، وليست بقرآن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وأستغفرُ الله، وتبارك الله، مرة واحدة. وَلَيَدْعُ بهذا الدعاء، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كان يدعو به بعد ركعتي الفجر.

روينا عن ابن أبي ليلي، عن داود بن علي، عن أبيه، عن ابن عباس، قال: بعثنى العباسُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله، فأتيته ممسياً وهو في بيت خالتي ميمونة، فقام يصلي من الليل، فلما صلى الركعتين قبل صلاة الفجر قال:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بِهَا قَلْبِي، وَتَجْمَعُ بِهَا شَمْلِي، وَتَلُمُّ بِهَا شَعْنِي، وَتَرُدُّ بِهَا أُلْفَتِي، وَتُصْلِحُ بِهَا عَلَانِيَتِي، وَتَقْضِي بِهَا دِينِي، وَتَحْفَظُ بِهَا غَائِبِي، وَتَرْفَعُ بِهَا شَاهِدِي، وَتُزَكِّي بِهَا عَمَلِي، وَتُبَيِّضُ بِهَا وَجْهِي، وَتُلَقِّنِي بِهَا رُشْدِي، وَتَعْصِمَنِي بِهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ.

اللَّهُمَّ أَعْطِنِي إِيْمَانًا صَادِقًا، وَيَقِينًا لَيْسَ بَعْدَهُ كُفْرٌ، وَرَحْمَةً أَنْالَ بِهَا شَرَفَ كِرَامَتِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْفَوْزَ عِنْدَ الْقَضَاءِ، وَمَنَازِلَ الشَّهَدَاءِ، وَعِيشَ السُّعْدَاءِ، وَمُرَافَقَةَ الْأَنْبِيَاءِ، وَالنَّصَرَ عَلَى الْأَعْدَاءِ.

اللهم إِنِّي أُنْزِلُ بِكَ حَاجَتِي، وَإِنْ قَصُرَ رَأْيِي، وَضَعُفَ عَمَلِي، وَافْتَقَرْتُ إِلَى رَحْمَتِكَ. فَأَسْأَلُكَ يَا قَاضِيَ الْأُمُورِ، يَا شَافِيَ الصُّدُورِ، كَمَا تُجِيرُ بَيْنَ الْبُحُورِ، أَنْ تُجِيرَنِي مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ، وَمِنْ دَعْوَةِ الثُّبُورِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْقُبُورِ.

اللهم مَا قَصُرَ عَنْهُ رَأْيِي، وَضَعُفَ عَنْهُ عَمَلِي، وَلَمْ تَبْلُغْهُ نِيَّتِي وَأَمْنِيَّتِي، مِنْ

(١) وردت هذه الصيغة في سنن الترمذي بلفظ: «وأَتُوبُ إِلَيْهِ»، انظر: صحيح سنن الترمذي،

خیر وعدته أحدًا من خلقك، أو خیر أنت معطيه أحدًا من عبادك، فإنی أرغب إليك فيه، وأسألكه يا رب العالمین.

اللهم اجعلنا هادینَ مهْدیینَ، غیر ضالّین ولا مضلّین، حربًا لأعدائك، وسلّمًا لأولیائك، نحب بحبّك الناس، ونعادی بعداوتك من خالفك من خلقك.

اللهم هذا الدعاءُ وعليك الإجابة، وهذا الجهدُ وعليك التكلان، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، لا حول ولا قوة إلا بالله ذی الحبل الشدید والأمر الرشید.

أسألك الأمانَ یومَ الوعدِ، والجنةَ یومَ الخلودِ، مع المقربین الشهودِ، والركعِ السجودِ، والموفین بالعهودِ، إنك رحیم ودود، أنت تفعل ما تريد.

سبحانَ الذی تعظّف بالعزّ وقال به. سبحان الذی لبس المجدَ وتکرّم به. سبحان الذی لا ینبغی التسبیحُ إلاّ له. سبحان ذی الفضل والنعم. سبحان ذی القدرة والکرم. سبحان الذی أحصى کل شیء بعلمه.

اللهم اجعل لی نورًا فی قلبی، ونورًا فی قبری، ونورًا فی سمعی، ونورًا فی بصری، ونورًا فی شعری، ونورًا فی بشری، ونورًا فی لحمی، ونورًا فی دمی، ونورًا فی عظامی، ونورًا من بین یدی، ونورًا من خلفی، ونورًا عن یمینی، ونورًا عن شمالی، ونورًا من فوقی، ونورًا من تحتی. اللهم زدنی نورًا، وأعطني نورًا، واجعل لی نورًا»^(١).

هذه الأنوارُ الّتی سألها رسول الله صلی الله علیه وسلم وعلى آله، فی کلّ

(١) هذه الرواية وردت فی الاسماء والصفات، للبيهقي، ١٦١/١ - ١٦٣، ووردت أيضًا فی المعجم الكبير للطبراني ٣٤٣/١٠، والحلية ٢٠٩/٣، والإحياء ٣١٤/١، والإتحاف ٦٥/٥، وذكر الزبيدي رواياته المختلفة، وشرحه شرحًا جيدًا، من ذلك: «قال القاضي: معنى طلب النور للأعضاء: أن تتحلّى بأنوار المعرفة والطاعة، وتعزى عن ظلم الجهالة والمعاصي، وطلب الهداية للنهج القويم. وقال غيره: اجعلني نورًا، أي: اجعلني هدى يهتدى به كل من رآني» الإتحاف ٦٥/٥.

وقيل فی معنى الأنوار: أراد ضياء الحقّ وبيانه، كانه قال: اللهم استعمل هذه الأعضاء مني فی الحقّ، واجعل تصرفي وتقلبي فيها على سبيل الصواب والخير. (عن اللسان: نور).

جزء من أجزائه، إنما هو دوام النظر من نور النور، يشاهد القيومية في كل سكون وحركة منه، يكلؤه بنظره، ويتولاه بحيطته، فينظر إليه بدوام نظره؛ ليستقيم له بتوّل حفظه، فلا يزيغ بصره ولا يطغى، ولا تستهويه النفس بهوى.

فليدع العبد بهذا الدعاء بعد ركعتي الفجر، لكن يقدم على دعائه المسألة لله تبارك وتعالى في الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله، فيستجيب سبحانه وتعالى دعوته ولا يردّه، لقول الرسول ﷺ: «إذا سألتكم الله تعالى حاجة، فابدؤوا بالصلاة علىّ، فإن الله تعالى أكرم من أن يُسأل في حاجتين فيُعطى إحداهما ويردّ الأخرى»^(١).

ثم ليُصلِّ العبدُ صلاةَ الغداة في جماعة، ليكون في ذمة الله وجواره.
وفي الحديث: «صلاة الغداة في جماعة أفضل من قيام ليلة، وصلاة العشاء الآخرة في جماعة أفضل من قيام نصف ليلة»^(٢).

وليكن قائماً في صلاته بإلقاء سَمْعٍ، وشهودِ قلبٍ، وحضورِ عقلٍ، وجمع همٍّ، وصحة تيقُّظٍ، وحسن إقبالٍ، وتدبُّرٍ للكلام^(٣)، وترتيلٍ وتفهمٍ بالتماس غرائب التنزيل.

فإذا سلّم من صلاته قال ما يُستحب من الذكر^(٤).



(١) قال العراقي في المغني ٣٠٧/١: «لم أجده مرفوعاً، وإنما هو موقوف على أبي الدرداء».

(٢) المعجم الصغير، للطبراني، ٢٦٧/١، وتاريخ بغداد ٤٣٩/١٢.

(٣) في نسخة (ك): «وتدبُّر الكلام في ترتيل وفهم».

(٤) بعده في (ك): «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير».

الفصل الرابع

فى ذكر ما يستحب من الذكر، وقراءة الآى المندوب إليها
بعد التسليم من صلاة الصبح، استخرجناها من الآثار

اللهم صلّ على محمد وآله، اللهم أنت السّلام، ومنك السلام، وإليك يعود
السلام، فحيّنا ربّنا بالسلام، وأدخِلنا دار السّلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام.

ثم ليقل: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ وبِحَمْدِهِ، ثلاثاً.

ثم يستغفر الله، ثلاثاً. ثم يقول: اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطَى لِمَا
مَنْعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ.

ثم ليقل - وهو ثانٍ رَجَلَهُ من قبل أن يتكلّم - هذه الكلمات، عشرَ مرات: لَا
إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ حَيٌّ لَا
يَمُوتُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ كُلُّهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

ثم ليقرأ وهو كذلك: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ عشراً. ويقول: أعوذُ باللهِ السميعِ
العليمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ * وأعوذُ بِكَ
رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿[المؤمنون: ٩٧ - ٩٨] عشر مرات. وليقل: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ
الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠] إلى آخر السورة، ثلاث مرات. وليقل:
﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧] إلى آخر الثلاث آيات،
ثلاث مرات.

ثم يسبح ثلاثاً وثلاثين، ويحمد كذلك، ويكبر أربعاً وثلاثين، فتلك مائة مرة.
وإن أحب جعلها خمساً وعشرين؛ زاد فيها التهليل.

وإن قال: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، خمساً
وعشرين مرة، استوعب ذلك مائة تسبيحة، وكان أيسر عليه لأجل المداومة.

ثم يقرأ: سورة الحمد، وآية الكرسي، وخاتمة البقرة من قوله: ﴿أَمِنْ الرَّسُولِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، و ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٨] الآية، و ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦] الآيتين. ثم يقرأ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] إلى آخرها. ثم يقرأ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١] الآية. [ثم يقرأ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] إلى آخرها]^(١). ثم يقرأ: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧] إلى آخر السورة. ثم يقرأ: خمساً من أول سورة الحديد، وثلاثاً من آخر سورة الحشر. ثم ليقل: «اللهم إني أسألك بكرم وجهك الصلاة على محمد وآله، وأسألك الجنة وأعوذ بك من النار» سبع مرات.

وقال قبيصة بن مُخارق للنبي ﷺ: علّمني كلمات ينفعني الله بها وأوجز؛ فقد كبر سنّي، وعجزت عن أشياء كنت أعملها. فقال: «أما لذيالك فإذا صليت الغداة فقل ثلاث مرات: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم وبحمده، لا حول ولا قوة إلا بالله. فإنك إذا قلتها أمنت من عمى وجذام وبرص وفالج. أما لآخرتك فقل: اللهم صل على محمد وآل محمد، واهدني من عندك، وأفض علي من فضلك، وأنشر علي من رحمتك، وأنزل علي من بركاتك». ثم قال رسول الله ﷺ: «أما إنه إذا وافى بهن يوم القيامة لم يدعهن، فُتح له أربعة أبواب من الجنة يدخل من أيها شاء»^(٢).

وإن قال المُسبّعات العشر التي أهداها الخضر عليه السلام إلى إبراهيم التيمي، ووصاه أن يقولها غدوة وعشية، وقال له الخضر: أعطينها محمد ﷺ، وذكر من فضلها وعظم شأنها ما يجلّ عن الوصف، وأنه لا يداوم على ذلك إلا عبد سعيد قد سبقت له من الله عز وجل الحسنى، وحذفنا ذكر فضائلها اختصاراً - فإن قال

(١) هذه تكملة من نسخة (ك).

(٢) حديث قبيصة، قال عنه العراقي: «أخرجه ابن السني في: اليوم والليلة، من حديث ابن عباس. وهو عند أحمد في المسند مختصراً، من حديث قبيصة نفسه، وفيه رجل لم يسم» الإحياء.

ذلك فقد استكمل الفضل. والمداومة عليهنّ تجمع له جميع ما فرقناه من الأدعية.

روى ذلك سعيد بن سعيد، عن أبي طيبة، عن كُرْز بن وَبَرَةَ^(١)، وكان من الأبدال^(٢)، قال: أتاني أخ لي من الشام، فأهدى لي هدية، وقال: يا كُرْزُ أقبل مني هذه الهدية، فإنها نعم الهدية. فقلت: يا أخي، من أهدى لك هذه الهدية؟ قال: أعطانيها إبراهيم التيمي^(٣). قلت: أفلم تسأل إبراهيم من أعطاه؟ قال: بلى. قال: كنت جالساً في فناء الكعبة، وأنا في التهليل والتسبيح والتحميد، فجاءني رجل فسلم عليّ، وجلس عن يميني، فلم أر في زماني أحسن منه وجهاً، ولا أحسن منه ثياباً، ولا أشدّ بياضاً، ولا أطيب ريحاً. فقلت: يا عبد الله، من أنت، ومن أين جئت؟ فقال: أنا الخضر^(٤). فقلت: في أي شيء جئتني؟ قال: جئتك للسلام عليك وحباً لك في الله عز وجلّ، وعندى هدية أريد أن أهديها إليك. فقلت: ما هي؟ قال: هي أن تقرأ، قبل طلوع الشمس وتبسط على الأرض، وقبل أن تغرب: سورة الحمد، سبع مرات. وقل أعوذُ برب الناس، سبع مرات. وقل أعوذُ برب الفلق، سبع مرات. وقل هو الله أحد، سبع مرات. وقل يا أيها الكافرون، سبع مرات. وآية الكرسي، سبع مرات. وتقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، سبع مرات. وتصلّي على النبي ﷺ، سبع

(١) كرز بن وبرة: ترجم له في الحلية ٧٩/٥ بقوله: «من تابع التابعين، ومن أهل الكوفة والمعدودين فيهم، وسكن جرحان».

(٢) الأبدال: قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم، إذا مات واحد منهم أبدل الله تعالى مكانه آخر. الواحد: بديل.

(٣) هو إبراهيم بن يزيد بن شريك التيمي، تيم الرباب، كوفي، روى عنه الأعمش وغيره، توفي سنة ٩٣هـ.

(٤) اختلف في نسب الخضر، وفي حياته وموته، ويضيق المقام بتفصيل هذه المسألة، انظر ما قاله العراقي في شأنه في تعليقه على الخبر الذي بين أيدينا. وانظر ما كتبه ابن حجر العسقلاني في رسالته «الزهر النضر في نبأ الخضر». وقال الزبيدي (الإتحاف ١٣٥/٥): «وهي مسألة شهيرة الاختلاف بين المحدثين والسادة الصوفية، والكلام عليها طويل الذيل... وهذا الخبر على قواعد المحدثين لا يستقيم، فإنه رؤية منامية، وسعد بن سعيد الجرحاني، قال البخاري عنه: لا يصح حديثه. وأبو طيبة: ضعفه يحيى بن معين. وكرز بن وبرة عن رجل من الشام مجهول لا يدري من هو. ولكن مثل هذا يغتفر في فضائل الأعمال، وقد تلقته الأمة بالقبول. والله أعلم».

مرات. وتستغفر لنفسك ولوالديك وما توالد، ولأهلك وللمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، سبع مرات. وتقول:

اللهم يا ربّ افعلْ بى وبهم عاجلاً وآجلاً فى الدين والدنيا والآخرة ما أنتَ له أهلٌ، ولا تفعلْ بنا يا مولائى ما نحنُ له أهلٌ، إنك غفورٌ حلیمٌ جوّادٌ كريمٌ رءوفٌ رحیمٌ، سبع مرات.

وانظر ألا تدع ذلك غدوةً وعشيّةً.

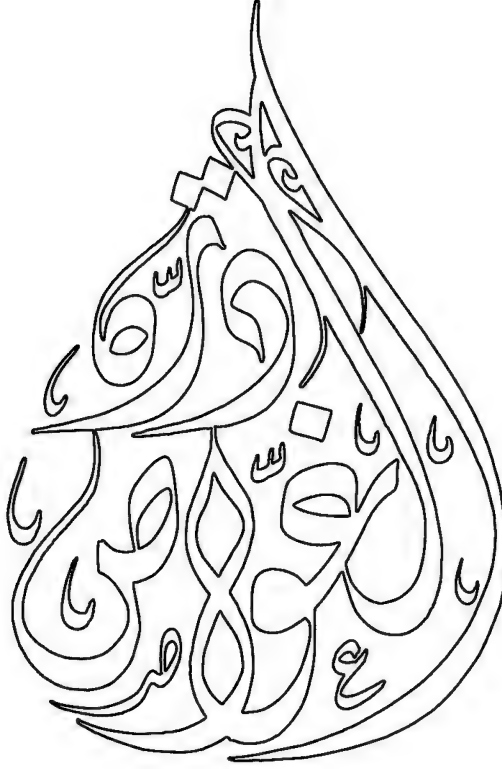
فقلت: أحب أن تخبرنى من أعطاك هذه العطية. فقال: أعطانيها محمد ﷺ. فقلت: أخبرنى بثواب ذلك. فقال لى: إذا لقيتَ محمدًا ﷺ فسَلْهُ عن ثوابه، فإنه سيخبرك.

فذكر إبراهيم التيمى، رحمه الله: أنه رأى ذات ليلة فى منامه أن الملائكة جاءت، فاحتملته حتى أدخلوه الجنة، فرأى ما فيها، ووصف وصفاً عظيماً مما رأى فى صفة الجنة. قال: فسألتُ الملائكة فقلت: لمن هذا كله؟ فقالوا: للذى يعمل مثل عملك. وذكر أنه أكل من ثمرها، وسقوه من شرابها، فأتانى النبىُّ ﷺ ومعه سبعون نبياً، وسبعون صفّاً من الملائكة، كل صفٍّ مثل ما بين المشرق والمغرب، فسلم علىّ وأخذ بيدي. فقلت: يا رسولَ الله، إن الخضرَ أخبرنى أنّه سمع منك هذا الحديث. فقال: صدق الخضرُ، وكلُّ ما يحكيه فهو حق، وهو عالمُ أهل الأرض، وهو رئيسُ الأبدال، وهو من جنود الله عز وجل فى الأرض.

فقلت: يا رسولَ الله، فمن فعل هذا ولم يرَ مثل الذى رأيتُ فى منامى، هل يُعطى ممّا أُعطيتَه؟ قال: والذى بعثنى بالحق إنه يُعطى العامل بهذا وإن لم يرَنى ولم يرَ الجنة، إنه ليُغفرَ له جميع الكبائر التى عملها، ويرفع الله عز وجل عنه غضبه ومقتته، ويؤمر صاحب الشمال ألا يكتب عليه شيئاً من السيئات إلى سنة، والذى بعثنى بالحق نبياً ما يعمل بهذا إلا من خلقه الله تعالى سعيداً، ولا يتركه إلا من خلقه شقيّاً^(١).

(١) هذا الخبر برمته فى الغنية، لعبد القادر الجيلانى، ١٠٤٥/١ - ١٠٤٩، وفيه زيادة فى آخره =

وقد كان إبراهيم التيمي رحمه الله مكث أربعة أشهر لم يطعم طعاماً، ولم يشرب شرباً، فلعله بعد الرؤيا. والله تعالى أعلم، ذكره الأعمش عنه^(١).
فهذا من جمل ما أتى مما يُستحب أن يُقرأ ويُقال بعد صلاة الغداة. ولذلك فضائلُ جمّة، وردت بها الأخبارُ حذفنا ذكرها للاختصار.



= ليست هنا. ونقله صاحب الإحياء عن القوت ١/ ٣٣٥ - ٣٣٦، وقال العراقي عن هذا الخبر: «ليس له أصل، ولم يصح في حديث قط اجتماع الخضر بالنبي ﷺ ولا عدم اجتماعه، ولا حياته ولا موته».

(١) انظر: الحلية ٤/ ٢١٣ - ٢١٤.

الفصل الخامس

فى ذكر الأدعية المختارة بعد صلاة الصبح الجامعة المختصرة الماثورة فى الأخبار المتفرقة^(١)

رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا افْتَتَحَ دَعَاءَ افْتَتَحَهُ بِقَوْلِهِ: «سُبْحَانَ رَبِّىَ الْعَلِيِّ الْأَعْلَى الْوَهَّابِ»^(٢).

وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ حَى لَا يَمُوتُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَهْلُ النِّعَةِ وَالْفَضْلِ وَالْثَنَاءِ الْحَسَنِ. لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ».

وَرَوَيْنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «عَلَيْكَ بِالْجَوَامِعِ الْكَوَامِلِ. قَوْلِى: اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ الصَّلَاةَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَأَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرٍ مَا سَأَلْتُكَ بِهِ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَسْتَعِيزُكَ بِمَا اسْتَعَاذَكَ مِنْهُ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَسْأَلُكَ مَا قَضَيْتَ لى مِنْ أَمْرِ أَنْ تَجْعَلَ عَاقِبَتَهُ رَشَدًا، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»^(٣).

(١) نقل الغزالى فى إحيائه معظم الأدعية التى وردت فى هذا الفصل، انظر: الإحياء ١/٣١٨ - ٣٢٨.

(٢) أخرجه أحمد من حديث سلمة بن الأكوع فى مسنده ٥٤/٤، والحاكم فى المستدرک، كتاب الدعاء ١/٤٩٨، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبى، وهو فى كنز العمال برقم ١٨٠٢٢، والإحياء ١/٣٠٧.

(٣) أخرجه ابن ماجه فى «باب الجوامع من الدعاء» انظر صحيح ابن ماجه ٢/٣٢٧ رقم ٣١٠٢. ورواه الإمام أحمد فى المسند ٦/١٦٧، وانظر الإتحاف ٥/٦٦.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يا فاطمة ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به، أن تقولي: يا حيُّ يا قيومُ برحمتك أستغيثُ، فأعثنى ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله»^(١).

وعلم رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه هذا الدعاء، فقال: «قل: اللهم إني أسألك بمحمد نبيك، وإبراهيم خليلك، وموسى نبيك وكليمك، وعيسى روحك وكلمتك، وبكلام موسى، وإنجيل عيسى، وزبور داود، وفرقان محمد ﷺ، وكل وحي أوحيتَه، أو قضاء قضيتَه، أو سائل أعطيتَه، أو غني أقينتَه، أو فقير أغنيته، أو ضال هديته، وأسألك باسمك الذي أنزلته على موسى، وأسألك باسمك الذي ثبت به أرزاق العباد، وأسألك باسمك الذي وضعته على الأرض فاستقرت، وأسألك باسمك الذي وضعته على السموات فاستقلت، وأسألك باسمك الذي وضعته على الجبال فأرست، وأسألك باسمك الذي استقل به عرشك، وأسألك باسمك الطهر الطاهر الأحد الصمد الوتر المنزل في كتابك من لدنك من النور المبين، وأسألك باسمك الذي وضعته على النهار فاستنار، وعلى الليل فأظلم، وبعظمتك وكبرياتك وبنور وجهك؛ أن تصلني على محمد نبيك وعلى آله، وأن ترزقني القرآن والعلم وتخلطه بلحمي ودمي وسمعي وبصري، وتستعمل به جسدي، بحولك وقوتك، فإنه لا حول لي ولا قوة إلا بك يا أرحم الراحمين»^(٢).

وروي عن ابن عمر أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فعلمه هذا الدعاء: «يا نور السموات والأرض، يا جمال السموات والأرض، يا عماد السموات والأرض، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا صريح المستصرخين، يا غوث المستغيثين، يا منتهى رغبة الراغبين، والمفرج عن

(١) أخرجه الحاكم وصححه ١/ ٧٣٠ ووافقه الذهبي، والمغني عن حمل الأسفار (الإحياء) ١/ ٣١٤،

والإتحاف ٥/ ٦٦، والكنز رقم ٣٩١٨.

(٢) قال عنه العراقي في المغني ١/ ٣١٥: «رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من رواية

عبد الملك بن هارون بن عبثة عن أبيه. وعبد الملك وأبوه ضعيفان، وهو منقطع بين هارون

وأبي بكر».

المكروبين، والمروَّحَ عن المغمومين، ومجيبَ دعوة المضطرين، وكاشفَ السوء، وأرحمَ الراحمين، وإلهَ العالمين، منزولٌ بك كلُّ حاجة، يا أكرمَ الأكرمين، ويا أرحمَ الراحمين»^(١).

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: لم يكن النبي ﷺ يدع أن يدعو بهؤلاء الكلمات حين يُصبح وحين يُمسي: «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، وأسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وفي أهلي ومالي. اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، وأقلنّ عثراتي. اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بك أن أغتال من تحتي»^(٢).

وقال بُريدُ الأسلمي: قال لي رسول الله ﷺ: «يا بُريد، ألا أعلمك كلمات من أراد الله عزّ وجلّ به خيراً علّمن إياه، ثم لم يُنسهن إياه أبداً. قال: قلت: بلى يا رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: قل: اللهم إني ضعيف فقو في رضاك ضعفي، وخذ إلي الخير بناصيتي، واجعل الإسلام منتهى رضاى. اللهم إني ضعيف فقوّنّي، وإني ذليل فأعزّنّي، وإني فقير فأغنّي، برحمتك يا أرحم الراحمين»^(٣).

وروينا عن أبي مالك الأشجعي قال: حدثني أبي قال: كنا نغدو إلى النبي ﷺ فيجىء الرجل أو تجىء المرأة فيقول: كيف أقول يا رسول الله إذا أصبحت؟ قال: «تقول: اللهم صلّ على محمد وآله، واغفر لي وارحمني، واهدني وارزقني، وعافني واجبرني. فقد جمعت لك خيرَ دنياك وآخرتك»^(٤).

وروينا عن أبي زُرعة قال: كتب إلى أبو هريرة فيما أكاّته، وشافهني به فيما ألقاه، أن الشيطان لا يَطِيفُ بإنسانٍ يقول حين يصبح وحين يمسي: اللهم إني

(١) في كتاب: الكنى والأسماء، للدولابي، ١٧/٢.

(٢) أصله في صحيح مسلم رقم ٢١٨٣، وصحيح ابن ماجه، باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح، رقم ٣١٢١، ومسند أحمد ٢/٢٥، وكتر العمال رقم ٤٩٥٧.

(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه ٧٠٨/١ وقال: صحيح الإسناد، والمغنى ٣١٥/١، وفي مجمع الزوائد ١٨٢/١٠ علق الهيثمي على سند الطبراني فقال: «وفيه أبو داود الأعمى وهو ضعيف جداً»، وكذا قال الذهبي في التلخيص.

(٤) انظر: السلسلة الضعيفة، للالباني، رقم ٢١٥، وتاريخ بغداد ٤٥٩/١٣، والإتحاف ٢٨٦/٣.

أعوذ باسمك وكلمتك التامة من شر السّامة والهامة، وأعوذ باسمك وكلمتك التامة من شرّ عذابك وشرّ عبادك، وأعوذ باسمك وكلمتك التامة من شرّ الشيطان الرجيم. اللهم إني أسألك بأسمائك وكلمتك التامة أن تصلى على نبيك محمد وآله. وأسألك من خير ما تعطى وما تُسأل، ومن خير ما تُخفى وخير ما تُبدى. اللهم إني أعوذ باسمك وكلمتك التامة من شرّ ما يجرى به النهار، إنّ ربّي الله الذي لا إله إلا هو، عليه توكلت وهو ربّ العرش العظيم. وإن كان مساءً قال: «ومن شر ما جاء به الليل»، يقول ذلك ثلاثاً.

وروينا عن عمر بن عبد العزيز عن محمد بن عبيد الله قال: أتى أبو الدرداء فقيل له: احترقت دارك. فقال: ما كان الله عزّ وجلّ ليفعل. ثم أتاه آت فقال: يا أبا الدرداء، إنّ النار حين دنت من دارك طُفئت. فقال: قد علمت. فقيل له: ما ندرى أى قوليك أعجب. قال: إني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «من قال هؤلاء الكلمات في ليل أو نهار لم يضره شيء وقد قلتها» وهي: «اللهم أنت ربّي، لا إله إلا أنت، عليك توكلتُ، وأنت ربّ العرش العظيم، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ما شاء الله عزّ وجلّ ربّي كان، وما لم يشأ لم يكن، أعلم أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكلّ شيء علماً. اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي، ومن شرّ كلّ دابةٍ أنت آخذ بناصيتها، إنّ ربّي على صراطٍ مُستقيم»^(١).

وقد روينا عن أبي الدرداء أنه قال: من قال في كل يوم، سبع مرات: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النوبة: ١٢٩] كفاه الله عزّ وجلّ ما يهمله من أمر آخرته صادقاً كان أو كاذباً.

وروينا عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أصاب أحداً همٌّ ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدلٌ فيّ قضاؤك، أسألك اللهم بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تصلى على نبيك

(١) الأسماء والصفات، للبيهقي، ص ١٦٣، وكنز العمال، رقم ٣٥٨٣، والكلم الطيب لابن تيمية،

ص ٢٨. وقال عنه العراقي في المغنى ٣١٦/١: ضعيف.

وحبيبك محمد وآله، وأن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي، إلا أذهب الله عز وجل همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحاً. قال: قيل: يا رسول الله ألا نتعلمها؟ فقال ﷺ: بل ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها^(١).

وروينا في الأخبار أن إبراهيم الخليل كان يقول إذا أصبح: «اللهم هذا خلقٌ جديدٌ، فافتحه عليّ بطاعتك، واختمه لي بمغفرتك ورضوانك، وارزقني فيه حسنةً تقبلها مني، وزكّها وضعفها لي، وما عملتُ فيه من سيئةٍ فاغفرها لي، إنك غفورٌ رحيم، ودودٌ كريم». قال: ومن دعا بهذا الدعاء إذا أصبح فقد أدى شكر يومه، وكذلك إذا أمسى.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «من قال إذا أصبح وإذا أمسى ثلاث مرات: رزيتُ بالله عز وجل ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً، كان حقاً على الله أن يرضيه يوم القيامة»^(٢).

وروينا عن معمر بن جعفر بن برقان أن عيسى ابن مريم ﷺ كان يقول: «اللهم إني أصبحتُ لا أستطيع دفع ما أكره، ولا أملك نفع ما أرجو، وأصبح الأمرُ بيدك لا بيد غيرك، وأصبحتُ مرتتهناً بعملِي، فلا فقير أفقر مني. اللهم لا تشمت بي عدوي، ولا تُسئ بي صديقي، ولا تجعل مُصيبتِي في ديني، ولا تجعل الدنيا أكبر همي، ولا مبلغ علمي، ولا غاية أملِي، ولا تسلط عليّ من لا يرحمني».

وروينا عن عطاء عن ابن عباس قال: يلتقي الخضر وإلياس في كل موسم، فيفترقان عن هذه الكلمات: «بسم الله، ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله. ما شاء الله، كل نعمة من الله. ما شاء الله، الخير كله بيد الله عز وجل. ما شاء الله، لا يصرفُ السوء إلا الله. ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله»^(٣)، فمن

(١) رواه أحمد في مسنده ٣٩١/١، ومجمع الزوائد ١٨٦/٧.

(٢) فتح الباري ١١/١٣٠، ورواه الحاكم في مستدركه ٥١٨/١.

(٣) نقل صاحب الإحياء هذا الخبر وعلّق عليه الزبيدي في الإتحاف ٦٩/٥، قال: «وهو في فوائد أبي إسحاق المزكي تخريج الدارقطني، وقال عنه: لا أعلمه إلا مرفوعاً إلى النبي ﷺ، ولكن ضعف سنده بطرقه المختلفة».

قالها إذا أصبح ثلاث مرات أمن الحرق والغرق والسرق.

ويقال: إن هذا من استغفار الخضر عليه السلام: «اللهم إني أستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه. اللهم إني أستغفرك من كل عقد عقدته لك ثم لم أف لك به. اللهم إني أستغفرك من كل نعمة أنعمت بها عليّ فقويت بها على معصيتك. اللهم إني أستغفرك من كل عملٍ عملته لوجهك خالطه ما ليس لك»^(١).

وحكى سعيد بن أبي الروحاء الجمال وكان من أهل الخير، أنه توحد ذات ليلة في أرض قفّرة، فاستوحش وفزع، فظهر له شخص، قال: فاشتد جزعى منه، حتى سمعته يقرأ القرآن، ثم قال: ألا أدلك على شيء إذا أنت قلت أنت قلت؟ إذا استوحشت، واهتديت إذا ضللت، ونمت إذا أرقّت؟ قلت: علّمني رحمك الله. قال: قل: «بسم الله ذي الشان، عظيم البرهان، شديد السلطان، كل يوم هو في شأن، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

وحدثونا عن يعقوب بن عبد الرحمن الدعاء قال: سمعتُ محمد بن حسان^(٢) يقول: قال لي معروف الكرخي^(٣) رحمه الله: ألا أعلمك عشر كلمات؛ خمسة للدنيا؛ وخمسة للآخرة، من دعا الله عزّ وجلّ بهنّ وجدّ الله سبحانه وتعالى عندهنّ. قلت: أكتبها؟ قال: لا، ولكن أرددها عليك كما رددها عليّ بكر بن خنيس^(٤): «حسبي الله تبارك وتعالى لديني، حسبي الله عزّ وجلّ لدنياي، حسبي

(١) هذا الخبر في الإحياء، وعلّق عليه الزبيدي ٦٩/٥ - ٧٠، راجعه ثم إن شئت.

(٢) هو محمد بن حسان بن فيروز الأزرق البغدادي، روى عن ابن عيينة وجماعة، وروى عنه ابن ماجه، توفي ٢٥٧هـ. انظر: الكاشف ٣٢/٣ رقم ٤٨٥٩.

(٣) هو معروف بن فيروز الكرخي، كنيته أبو محفوظ، قال عنه أبو عبد الرحمن السلمي: «وهو من جلة المشايخ وقدمائهم، والمذكورين بالورع والفؤة، وكان أستاذ سرى السقّطي» طبقات الأولياء ص ٨٣ - ٩٠، وانظر في ترجمته: حلية الأولياء ٨/ ٣٦٠، وتاريخ بغداد ١٣/ ١٩٩، وغيرها.

(٤) في المطبوعة: «حبيش» والصواب ما أثبت. وهو من رجال الترمذي وابن ماجه، روى عنه ثابت ويزيد الرقاشي وجماعة. انظر في ترجمته: ميزان الاعتدال ١/ ١٦٠، والكاشف، للذهبي، ١٦١/١.

اللهُ الكريمُ لِمَا أَهَمَّنِي، حسبى اللهُ الحكيمُ القوى لمن بغى علىَّ، حسبى اللهُ الشديدُ لمن كادنى بسوء، حسبى اللهُ الرحيمُ عند الموت، حسبى اللهُ الرؤوف عند المسألة فى القبر، حسبى اللهُ الكريم عند الحساب، حسبى اللهُ اللطيف عند الميزان، حسبى اللهُ القدير عند الصراط، حسبى اللهُ لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم». وادع بهؤلاء الكلمات: «اللهمَّ يا هادى المضلِّين^(١)، وراحمَ المذنبين، ومُقيلَ عَثَرَاتِ العاثرين، ارحم عبدك ذا الخطرِ العظيم، والمسلمين كلَّهم أجمعين، واجعلنا من الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، آمين يا ربَّ العالمين».

يقال: إن عتبة الغلام^(٢) رُئى فى المنام فقال: دخلتُ الجنة بهذه الدعوات.

وليقُل بعد ذلك هذا الدعاء: «اللهم عالم الخفيات، رفيع الدرجات، ذا العرش، تُلقى الروح من أمرك على من تشاء من عبادك، غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب، ذا الطول، لا إله إلا أنت، إليك المصير».

رُئى إبراهيم الصائغ فى النوم فقليل له: بأى شىء نجوت؟ فقال: بهذه الدعوات.

وليقُل هذا الدعاء: «يا مَنْ لا يشغله سَمْعٌ عن سَمْعٍ، ولا تشبهه عليه الأصوات، يا من لا تغلظه المسائل، ولا تختلف عليه اللغات، يا من لا يتبرَّم بإلحاح الملحين، أذقنى بردَ عفوك، وحلاوة رحمتك».

يقال: إن الخضرَ عليه السلام علَّم على بن أبى طالب عليه السلام هذا الدعاء.

وليسبِّح تسبيحات أبى المعتمر، وهو سليمان التيمي^(٣)، فقد روى فى فضلها أن

(١) قال الزبيدى (الإتحاف ٥/ ٧٠): «المضلِّين، من أضلَّ الرَّجُلُ؛ إذا صار حائرًا لا يهتدى».

(٢) هو عتبة بن أبان بن صمعة. ولقب بالغلام، لأنه كان فى العبادة غلام رهان. وقيل: لأنه كان نَصَفًا من الرجال. الحلية ٦/ ٢٢٦. والخبر السابق فى الحلية ٦/ ٢٣٨.

(٣) فى المطبوعة «التيمي» وهو تحريف، وسيكرر هذا الخطأ كثيرًا، وهو سليمان بن طرخان أبو المعتمر التيمي، نزل بالبصرة. كان يصلى الليل كله بوضوء العشاء، مناقبه جمَّة، توفى ١٤٣هـ، انظر: الكاشف ١/ ٣٩٦، والحلية ٣/ ٢٧ - ٣٧، والإتحاف ٥/ ٧٢.

يونس بن عبيد رأى رجلاً كان قد قُتل شهيداً ببلاد الروم، فقال له: ما أفضل ما رأيتَ ثمَّ من الأعمال؟ قال: رأيتَ تسييحاتِ أبي المعتمر من الله سبحانه وتعالى بمكان.

وقال المعتمر بن سليمان: رأيتَ عبد الملك بن خالد بعد موته فقلت: ما صنعت؟ قال: خيراً. قلتُ: ترجو للخاطئ شيئاً؟ قال: يلتبس تسييحاتِ أبي المعتمر، فإنَّها نعم الشيء. وهذه هي التسييحات:

«سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، عدد ما خلق الله وعدد ما هو خالق، وزنة ما خلق وزنة ما هو خالق، وملء ما خلق وملء ما هو خالق، وملء سمواته، وملء أرضه، ومثل ذلك وأضعاف ذلك، وعدد خلقه، وزنة عرشه، ومتتهى رحمته، ومداد كلماته، ومبلغ علمه ورضاه، وحتى يرضى وإذا رضى، وعدد ما ذكره به خلقه فى جميع ما مضى، وعدد ما هم ذاكروه فيما بقى، فى كل سنة وشهر وجمعة ويوم وليلة وساعة من الساعات، ونسمة وشم ونفس ولمحة وطرفة من الأبد إلى الأبد، أبد الدنيا وأبد الآخرة، وأكثر من ذلك؛ لا ينقطع أولاه ولا ينفد أخراه».

وليدع بهذا الدعاء، فإنه دعاء التوبة مرجو فيه الإجابة:

روينا عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت: لما أراد الله عز وجل أن يتوبَ على آدم طاف سبعةً بالبيت، وهو يومئذ ليس بمبنى؛ ربوة حمراء، ثم قام فصلى ركعتين، ثم قال: «اللهم إنك تعلم سرى وعلايتى فاقبل معذرتى، وتعلم حاجتى فأعطني سؤلى، وتعلم ما فى نفسى فاغفر لى ذنوبى. اللهم إنى أسألك إيماناً يباشر قلبى، ويقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لا يصيبنى إلا ما كتبت لى، والرضا بما قسمت لى، يا ذا الجلال والإكرام».

فأوحى الله عز وجل إليه: «إنى قد غفرت لك، ولن يأتينى أحد من ذريتك فيدعونى بمثل الذى دعوتنى به إلا غفرتُ له وكشفتُ غمومه وهمومه، ونزعتُ الفقرَ من بين عينيه، وأتجرت له من وراء كل تاجر، وجاءته الدنيا وهى راغمة وإن كان لا يريدُها».

وليقبل هذه الكلمات المثورة، فإنّها ممّا روى فى اسم الله سبحانه وتعالى الأعظم بأخبار فى ذلك مأثورة:

«اللهم إنى أسألك بأن الحمد لك، لا إله إلا أنت الحنّان المنّان، بديع السموات والأرض، ذو الجلال والإكرام، أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفّواً أحد، يا حيُّ يا قيوم، يا حيُّ حين لا حى فى ديمومية ملكه وبقائه، يا حي محيى الموتى، يا حي مميت الأحياء، وارث أهل الأرض والسماء.

اللهم إنى أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم، وباسمك الذى لا إله إلا هو الحى القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم.

اللهم إنى أسألك باسمك الأعظم الأجلّ الأعز الأكرم، الذى إذا دُعيتَ به أُجبتَ، وإذا سُئلتَ به أعطيتَ، يا نور النور، يا مدبر الأمور، يا عالم ما فى الصدور، يا سميع يا قريب يا مجيب الدعاء، يا لطيفاً لما يشاء، يا رءوف، يا رحيم، يا كبير، يا عظيم، يا الله، يا رحمن، يا ذا الجلال والإكرام. الله لا إله إلا هو الحى القيوم، وعنت الوجوه للحى القيوم. يا إلهى وإله كلِّ شىء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت.

اللهم إنى أسألك باسمك الله، الله، الله، الله الذى لا إله إلا هو ربّ العرش العظيم، فتعالى الله الملك الحق، لا إله إلا هو ربّ العرش الكريم. أنت الأول الآخر، الظاهر الباطن، وسعت كلَّ شىء رحمةً وعلماً، كهيعص، حم عسق، الر، حم، ن، يا واحد، يا قهار، يا عزيز، يا جبار، يا أحد، يا صمد، يا ودود، يا غفور، هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم، لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنتُ من الظالمين.

اللهم إنى أدعوك باسمك المكنون المخزون، المنزّل السلام، الطّهر الطاهر، القدس المقدس، يا دهر، يا ديهور، يا ديهار، يا أبد يا أزل، يا من لم يزل، ولا يزول، هو يا هو، لا إله إلا هو، يا من لا هو إلا هو، يا من لا يعلم ما هو إلا هو، يا كان يا كينان، يا روح يا كائن قبل كلِّ كون، يا كائن بعد كلِّ كون، يا

مكونون لكل كون، اهيا شر اهيا، أدناى أصباؤت^(١)، يا مجلى عظامم الأمور، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

وليقل هذه الأدعية الماثورة:

«اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد. وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك. وأسألك اللهم يا ربّ قلباً سليماً، ولساناً صادقاً، وعملاً متقبلاً. وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شرّ ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، فإنك تعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، واغفر لى ما قدمت وما أخرت، وما أعلنت وما أسررت، فإنك أنت المقدّم وأنت المؤخّر، وأنت على كل شيء قدير، وعلى كل غيب شهيد.

اللهم إني أسألك إيماناً لا يرتد، ونعيماً لا ينفد، وقرّة عين الأبد، ومرافقة نبيك محمد ﷺ في أعلى جنة الخلد.

اللهم إني أسألك الطيبات، وفعل الخيرات، وترك المنكرات، وحبّ المساكين. وأسألك اللهم يا ربّ الصلاة على محمد، وعلى آله أجمعين. وأسألك حبك وحب من يحبك، وحب عمل يقرب إلى حبك، وأن تتوب علىّ، وتغفر لى، وترحمنى. وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضنى إليك غير مفتون، يا أرحم الراحمين.

اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق؛ أحينى ما كانت الحياة خيراً لى،

(١) يقال إن هذه أسماء سريانية، ولعلها بقايا من تلك اللغة البائدة، التى هى الأم للعربية القديمة.

انظر كتاب: منبع أصول الحكمة، ص ٨٨ - ٩٩.

وتوفّنى إذا كانت الوفاة خيراً لى. وأسألك اللهم يا ربّ خشيتك فى الغيب والشهادة، وكلمة العدل فى الرضا والغضب، والقصد فى الغنى والفقر، ولذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، وأعوذ بك من ضراء مضرّة، وفتنة مُضلة.

اللهم يا ربّ زيناً بزيّة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، واقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تدخلنا به جنّتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وارزقنا حزن خوف الوعيد، وسرور رجاء الموعود، حتى نجد لذة ما نطلب وغمّ ما منه نهرب.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد سيد الأولين والآخرين، وصلّ على محمد وعلى آله أجمعين، وألبس وجوهنا منك الحياء، واملأ قلوبنا بك فرحاً، وأسكن فى نفوسنا من عظمتك، وذلل جوارحنا لخدمتك، واجعلك أحب إلينا ممّا سواك، واجعلنا أخشى لك ممّا سواك.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وأعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وأسألك تمام النعمة بتمام التوبة، ودوام العافية بدوام العصمة، وأداء الشكر بحسن العبادّة.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وأعوذ بك من فتنة الغنى، وفتنة الفقر، وأعوذ بك من ضيق الصدر، وشتات الأمر، وعذاب القبر، وأعوذ بك من غنى مُطغ، ومن فقرٍ منسٍ، ومن هوّى مُردٍ، وقرين مُغوٍ.

اللهم إنى أسألك الصلاة على محمد وعلى آله، وأسألك الهدى والتقوى والعفاف والغنى.

اللهم صلّ على محمد نبيّك وصفيك، ولا تقدّمني لعذاب، ولا تؤخّرني لسيء الفتن. أعوذ بك يا الله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأعوذ بك من المحن ما خفى منها وما علن.

اللهم إني أسألك الصلاة على نبيّك محمد وعلى آله، وأسألك خيرَ هذا اليوم وخيرَ ما فيه، وأعوذ بك من شرّه وشرّ ما فيه. أعوذ بك اللهم يا ربّ من شرّ طوارق الليل والنهار، ومن بغّات الأمور، وفجأة الأقدار، ومن شرّ كل طارق يطرق إلا طارقاً يطرق منك بخير، يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما.

اللهم صلّ على محمد وعلى آله، واجعل يومنا هذا أوّلَه صلاحاً، وأوسطَه فلاحاً، وآخرَه نجاحاً.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، واجعل أوّله رحمة، وأوسطه نعمة، وآخره تكرمة.

اللهم صلّ على محمد نبيك وعلى آله، وأعوذ بك أن أزلّ أو أُزلّ، أو أضلّ أو أُضلّ، أو أظلم أو أُظلم، أو أجهل أو يُجهل عليّ، عزّ جارك وجلّ ثناؤك وتباركت أسماؤك، ولا إله غيرك.

اللهم صلّ على محمد وعلى آله، وأعوذ بك من عذاب جهنم وعذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال، وإذا أردتَ بقوم سوءاً أو فتنةً فاقبضني إليك غير مُبدّلٍ ولا مَفْتون.

اللهم صلّ على محمد وعلى آله. اللهم أحييني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفّني إذا كانت الوفاة خيراً لي، وأسألك خير الحياة، وبركة الحياة، وأعوذ بك من شرّ الوفاة، وأسألك خيرَ ما بينهما، وخيرَ ما بعد ذلك، أحييني حياة السعداء حياةً من تحبّ بقاءه، وتوفّني وفاةً الشّهداء وفاةً من تحبّ لقاءه، يا خير الرازقين، ويا أحسن التّوابين، ويا أحكم الحاكمين، ويا أرحم الراحمين، ويا ربّ العالمين. أعوذُ بك من شرّ ما يُلجّ في الأرض وما يخرج منها، ومن شرّ ما ينزل من السماء وما يعرّجُ فيها.

الحمد لله الذى تواضع كلُّ شىء لعظمته، وذلَّ كلُّ شىء لعزته، وخضع كل شىء لمُلْكِهِ، واستسلم كلُّ شىء لقُدْرَتِهِ. والحمد لله الذى سكن كل شىء لهيبته، والحمد لله الذى أظهر كلُّ شىء بحكمته، وتصاغر كلُّ شىء لكبريائه.

اللهم صلّ على نبيّك محمد وعلى آل محمد، وأزواجه وذريته فى العالمين، إنك حميد مجيد كريم.

اللهم صلّ على محمد عبدك ونبيّك، ورسولك النبی الأمی، الرسول الأمين، وأعطه المقام المحمود يوم الدين.

اللهم إني أعوذ بك من حدة الحرص، وشدة الطمع، وسورة الغضب، وسنة الغفلة، وتعاطى الذلة. أعوذ بك من مباهاة الكثيرين، والإزراء على المقلّين، وأن أنصر ظالماً، أو أخذل مظلوماً، وأن أقول فى العلم بغير العلم، وأعمل فى الدين بغير يقين.

اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم. اللهم إني أعوذ بك من اتباع خطوات الشيطان وشركه فى المال والأهل، وقبول أمره فى السوء والفحشاء.

اللهم إني أسألك الصلاة على نبيّك محمد وعلى آله، وأسألك حسن الاختيار، وصحة الاعتبار، وصدق الافتقار.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وافتح بخير، واختم بخير، وأنت الفتاح العليم.

اللهم صلّ على نبيك محمد وعلى آل محمد، وارحم ما خلقت، واغفر ما قدرت، وطيب ما رزقت، وثم ما أنعمت، وتقبل ما استعملت، واحفظ ما استُحفظت، ولا تهتك ما سترت، فإنه لا إله لنا إلا أنت.

أستغفرك من كلِّ لذة بغير ذكرِك، ومن كلِّ راحة بغير خدمتك، ومن كل سرور بغير قُربك، ومن كل فرح بغير مجالستك، ومن كل شغل بغير معاملتك.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، واجعلنا من أوليائك المتقين، وحزبك
المفلحين، وعبادك الصالحين.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، واستعملنا ببرضاتك عنا، ووفّقنا
لمحبّك منا، وصرفنا بحسن اختيارك لنا.

اللهم صلّ على نبيك محمد وعلى آله، ونسألك جوامع الخير وفوائده
وخواتمه، ونعوذ بك من جوامع الشرّ وفوائده وخواتمه.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، واحفظنا فيما أمرتنا، واحفظنا عمّا
نهيتنا، واحفظ لنا ما أعطيتنا، يا حافظ الحافظين، يا ذاكرَ الذاكرين، يا شاكرَ
الشاكرين، بحفظك حُفظوا، وبذكرك ذكروا، وبفضلك شكروا. يا غوثُ، يا
مغيثُ، يا مستغاثُ، يا غياثَ المستغيثين، لا تكلّني إلى نفسي يا ربّ طرفة عين
فأهْلِكَ، ولا تكلّني إلى الخلق فأضيع. اكْلأني كلاءة الوليد، ولا تَخَلّ عني،
وتولّني بما تتولّى به عبادك الصالحين.

اللهم صلّ على نبيك محمد وعلى آله، وبقدرك علىّ تبّ عليّ، إنّك أنت
التواب الرحيم. وبِحلمك عني إنّك أنت الغفار، وبعلمك بي ارفق بي
إنك أنت الرحمن الرحيم، وبملكك لي ملّكني نفسي ولا تسلّطها عليّ إنّك أنت
الملك الجبار. سبحانه وبحمده لا إله إلا أنت، عمِلْتُ سوءاً وظلّمتُ نفسي،
فاغفر لي ذنبي، إنّك أنت ربّي لا إله إلا أنت، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وألهمني رُشدِي، وقني شرّ نفسي.
اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وارزقني حلالاً لا تُعاقبني عليه،
وقنّني بما رزقتني، واستعملني به صالحاً تقبله مني.

اللهم إني أسألك أن تصلّي على نبيك محمد وعلى آل محمد، وأسألك العفو
والعافية، وحسنَ اليقين، والمعافة في الدنيا والآخرة.

اللهم صلّ على نبيك محمد وعلى آل محمد، وأعوذ بعفوك من عقابك،
وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك، لا أحصى ثناءً عليك أنت كما

أُثِّيتَ عَلَى نَفْسِكَ، أَبِوءُ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبِوءُ بِذُنُوبِي إِلَيْكَ، هَذِهِ يَدَايِ بِمَا كَسَبْتُ، أَنَا عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، جَارٍ فِي حَكْمِكَ، نَافِذٍ فِي قَضَاؤِكَ، عَدْلٍ فِي مَشِيتِكَ، إِنْ تَعَذَّبَ فَأَهْلُ ذَلِكَ أَنَا، وَإِنْ تَرَحَّمْ فَأَهْلُ ذَلِكَ أَنْتَ، فَافْعَلِ اللَّهُمَّ يَا مَوْلَايَ، يَا اللَّهَ، يَا رَبَّ، افْعَلْ بِي مَا أَنْتَ لَهُ أَهْلٌ، وَلَا تَفْعَلِ اللَّهُمَّ يَا رَبَّ يَا اللَّهَ بِي مَا أَنَا لَهُ أَهْلٌ، فَإِنَّكَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفَرَةِ.

يَا مَنْ لَا تَضُرُّهُ الذُّنُوبُ، وَلَا تَنْقُصُهُ الْمَغْفَرَةُ، هَبْ لِي اللَّهُمَّ يَا رَبَّ مَا لَا يَضُرُّكَ، وَأَعْطِنِي مَا لَا يَنْقُصُكَ. أَفْرِغِ اللَّهُمَّ عَلَيْنَا يَا رَبَّ صَبْرًا، وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ، أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا، وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ.

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدُّنَا إِلَيْكَ﴾ [الاعراف: ١٥٦].

﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَافْغِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المتنحة: ٤، ٥].

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تَصَلِّيَ عَلَى نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، وَأَسْأَلُكَ الصِّيَانَةَ وَالْعَوْنَ عَلَى الطَّاعَةِ، وَالْعَصْمَةَ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، وَإِفْرَاقَ الصَّبْرِ فِي الْخِدْمَةِ، وَإِيزَاعَ الشُّكْرِ عَلَى النِّعْمَةِ.

وَأَسْأَلُكَ يَا مَوْلَايَ، يَا اللَّهَ، يَا رَبَّ، الصَّلَاةَ عَلَى نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، وَحَسْنَ الْخَاتَمَةِ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تَصَلِّيَ عَلَى نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، وَأَسْأَلُكَ الْيَقِينَ وَحَسْنَ الْمَعْرِفَةِ بِكَ، وَأَسْأَلُكَ الْمَحَبَّةَ وَحَسْنَ التَّوَكُّلِ عَلَيْكَ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا وَحَسْنَ الْمُنْقَلَبِ إِلَيْكَ.

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا

وَكَفَّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٣﴾ [آل عمران: ١٩٣ - ١٩٤].

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] إلى آخرها.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وطهر قلوبنا في قلوب الأبرار، وزكّ أعمالنا في عمل الأخيار، وصلّ على أرواحنا في أرواح الشهداء، يا أكرم الأكرمين، ويا أجود الأجودين، ويا أرحم الراحمين.

ربنا آتانا في الدنيا حسنةً وعلمًا وزهدًا وعبادةً وأمنًا ورزقًا من حلال، وفي الآخرة حسنةً ورضوانك والجنة، وقنا برحمتك عذاب النار وعذاب القبر، وقنا سخطك وغضبك وعذابك وأهواله، عاجلاً وآجلاً في الدين والدنيا والآخرة، برحمتك يا أرحم الراحمين.

وأن تُمَجِّدَ الله تعالى غُدوةً وعشيّةً بما مَجَّدَ به نفسه عزّ وجلّ، فقد رُوي من ثواب ذلك ما هو غاية الطالبين. رُوي عن عليّ عليه السلام عن النبي ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى يمجّد نفسه في كل يوم، يقول سبحانه وتعالى: إني أنا الله ربُّ العالمين. إني أنا الله لا إله إلا أنا الحي القيوم. إني أنا الله لا إله إلا أنا العليُّ العظيم. إني أنا الله لا إله إلا أنا العفو الغفور. إني أنا الله لا إله إلا أنا مبدئ كلِّ شيء وإلىَّ يعود. إني أنا الله لا إله إلا أنا لم ألد ولم أُولد. إني أنا الله لا إله إلا أنا العزيز الحكيم. إني أنا الله لا إله إلا أنا مالك يوم الدين. إني أنا الله لا إله إلا أنا الرحمن الرحيم. إني أنا الله لا إله إلا أنا خالقُ الخير والشر. إني أنا الله لا إله إلا أنا خالقُ الجنة والنار. إني أنا الله لا إله إلا أنا الواحدُ الأحدُ الفردُ الصّمدُ الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا. إني أنا الله لا إله إلا أنا الفرد الوتر. إني أنا الله لا إله إلا أنا عالمُ الغيب والشهادة. إني أنا الله لا إله إلا أنا الملكُ القدوسُ. إني أنا الله لا إله إلا أنا السلامُ المؤمنُ المهيمنُ. إني أنا الله لا إله إلا أنا العزيزُّ الجبار المتكبر. إني أنا الله لا إله إلا أنا الخالقُ الباري. إني أنا الله لا إله إلا أنا الأحدُ

المصور. إني أنا الله لا إله إلا أنا الكبير المتعال. إني أنا الله لا إله إلا أنا المقتدر القهار. إني أنا الله لا إله إلا أنا الحكيم الكبير. إني أنا الله لا إله إلا أنا القادر الرزاق. إني أنا الله لا إله إلا أنا أهل الثناء والمجد. إني أنا الله لا إله إلا أنا أعلم السر وأخفى. إني أنا الله لا إله إلا أنا فوق الخلق والخلق. إني أنا الله لا إله إلا أنا الجبار المتكبر^(١). فيختم، ويقول: فسبحان الله ربّ العرش العظيم.

فمن دعا بهذه الكلمات فليقل: [إِنَّكَ] أنت الله [الذى لا إله إلا أنت] كذا، و[إِنَّكَ] أنت الله [الذى لا إله إلا أنت]^(٢) كذا.

ومن دعا بهذه الأسماء كُتِبَ من الشاكرين الساجدين المختبين، الذين يجاورون محمداً ﷺ وإبراهيم وموسى وعيسى والنبين صلوات الله عليهم أجمعين فى دار الجلال، وله ثواب العابدين فى السموات والأرضين.

وليقُل: اللهم صلّ على محمد وآل محمد صلاة تكون لك رضاء، ولحقّه أداء، وأعطه الوسيلة والفضيلة، وابعثه المقام المحمود الذى وعدته، واجزه عنا ما هو أهله، واجزه أفضل ما جازيت نبياً عن أمته، وأعطه الشرف والشفاعة يوم الدين.

اللهم صلّ على محمد نبي الرحمة، وسيد الأمة، وعلى جميع إخوانه النبیین، وصلّ على أبينا آدم وأمنا حواء، ومن ولدا بينهما من الصالحين والمسلمين. وصلّ على ملائكتك أجمعين من أهل السموات والأرضين. وصلّ علينا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين. واغفر لى ولوالدى وما توالدا، وارحمهما كما ربّيتانى صغيراً، واغفر للمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات؛ الأحياء منهم والأموات.

ربّ اغفر وارحم، وتجاوز عما تعلّم، وأنتَ الأعزُّ الأكرم، وأنتَ خيرُ الراحمين، وخيرُ الغافرين. وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم. وحسبنا الله ونعم الوكيل. وحسبنا الله وحده لا شريك له.

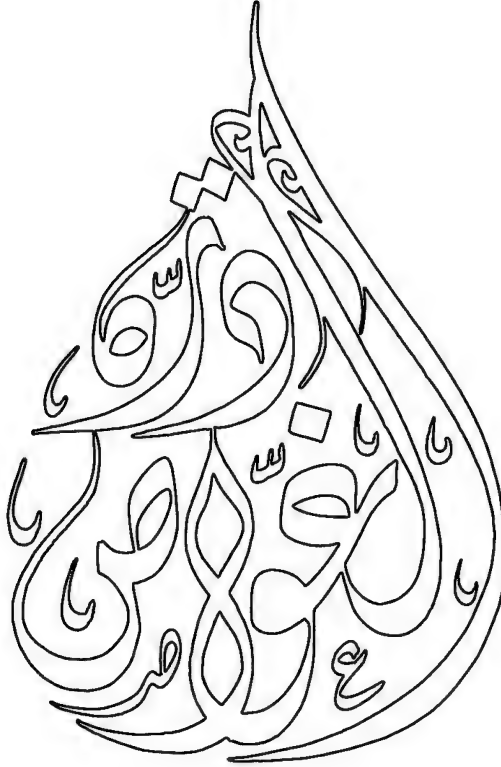
(١) قال عنه العراقى فى المغنى ٣١٧/١: «لم أجِدْ له أصلاً». وفى الإتحاف ٧١/٥ - ٧٢: قال

الزبيدى: «لكن وجدتُ فى (الحلية) فى ترجمة وهب بن منبه ما يقرب من ذلك».

(٢) ما بين المعكفات من الإحياء ٣١٧/١، والإتحاف ٧٢/٥.

فهذا جامعُ ما جاء من فضائل ما يقال من الدعاء عن [الرسول] المصطفى ﷺ، وعن الصحابة، وعن أئمة الهدى. وحذفنا ذكرَ فضائل ذلك وما جاء فيه من الروايات إيجازاً.

يقول هذا الدعاء بعد صلاة الغداة وقبل غروب الشمس، في كلِّ يوم، فإن قاله بعد صلاة مكتوبة فقد استكمل الفضل، بفضلِ الله عزَّ وجلَّ ورحمته.



الفصل السادس

فى ذكر عمل المريد بعد صلاة الفداة

وهو أنه يأخذ فى تلاوة القرآن، وفى أنواع الذكر من التسبيح والحمد والثناء، وفى التفكير^(١) فى عظمة الله سبحانه وتعالى وآلائه، وفى تواتر إحسانه ونعمائه، [وفى بواطن النعم وغوامضها التى لا تُحصى]^(٢)، من حيث يحتسب العبد، ومن حيث لا يحتسب، وفيما يعلم العبد وفيما لا يعلم.

ويتفكر فى تقصيره عن الشكر فى ظواهر النعم وبواطنها، وعجزه عن القيام بما أمره به من حُسن الطاعة، ودوام الشكر على النعمة.

أو يتفكر فيما عليه من الأوامر والنواذب فيما يستقبل.

أو يتفكر فى كيف ستر الله تبارك وتعالى عليه، ولطيف صنعه به، وخفى لطفه له، وفيما اقترِف وفرط فيه من الزلل، وفى فوت الأوقات الخالية من صالح العمل.

أو يتفكر فى حكم الله تعالى فى الملك وقدرته فى الملكوت، وآياته وآلائه فيهما.

أو يتفكر فى عقوبات الله عزّ وجلّ وبلائه، [وفى آلائه]^(٣) الظاهرة والباطنة فيهما، ومن ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥]. قيل: بنعمه، وقيل: بعقوباته.

(١) جعل الغزالي «التفكر» قسماً مستقلاً من ربع المنجيات، وهو الكتاب التاسع من (الإحياء ٤/٤٢٣)، وفيه فصلٌ حقيقته وأهميته فى العبادة. ولكن مجامع أمر التفكير ترجع إلى ما ذكره أبو طالب هنا. انظر: الإتحاف ٥/١٣٥، ١٣٦.

(٢) ما بين المعكفات زيادة من: (ك).

ومنه قوله عز وجل: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

ومثله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] أى: بأى نعمة تكذبان يا معشر

الجن والإنس إن استطعتم، وهما الثقلان.

ففى أى نوع من هذه المعانى أخذ فيه فهو ذكر، والذكر عبادة^(١). وهو يُخرج إلى الفكر، والفكر يُدخل فى الخوف. والفكر^(٢) إذا قوى صار مشاهدة، كما قال عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]. ولا يكون مشاهدة إلا عن يقين، واليقين روح الإيمان، ومزيده، وفن المؤمن^(٣).

وقال بعض العلماء فى تفسير الخبر: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة»^(٤): هو التفكير الذى ينقل من المكاره إلى المحاب، ومن الرغبة والحرص إلى القناعة والزهد^(٥).

وقيل: هو التفكير الذى يُظهر مشاهدة وتقوى، ويحدث ذكراً وهدى [وزهداً]،

كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

(١) فى (ك): «والدعاء عبادة».

(٢) فى المطبوعة: «والذكر» وأثبت ما فى (ك).

(٣) فى (ك): «واليقين روح الإيمان وهو مزيد المؤمن».

(٤) ورد بهذا اللفظ فى الفوائد المجموعة، للشوكانى، ص ٢٥١، وكشف الخفاء، للعجلونى، ٣٧٠ / ١، والإنحاف ١٠ / ١٦١ وخرجه عن العراقى وغيره، انظر: الإحياء ٤ / ٤٢٣.

(٥) قال الزبيدى: «وإنما كان التفكير أشرف العبادات، إذ فيه معنى الذكر لله، وزيادة أمرين: أحدهما: زيادة المعرفة، إذ التفكير مفتاح المعرفة والكشف؛ لأنه إدارة فكر، وتصرف قلب فى معانى الأشياء لدرك المطلوب. فالفكر يدُ النفس التى تنال بها المعلومات، كما تنال بيد الجسم المحسوسات. وبهذا التصرف القلبى يتدرج إلى فتوح باب المعرفة والكشف الإلهى. والثانى: زيادة المحبة، إذ لا يحب القلب إلا من اعتقد تعظيمه، ولا تنكشف عظمة الله سبحانه وجلاله إلا بمعرفة صفاته العلا، ومعرفة قدرته الباهرة، وعجائب أفعاله فى خلقه، فيحصل من الفكر المعرفة، ومن المعرفة التعظيم، ومن التعظيم المحبة». انظر: الإنحاف ٥ / ١٣٦.

ولقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣].

ومثله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ * في الدنيا والآخرة [البقرة: ٢١٩ - ٢٢٠] أى: يفعلون لما يبقى، ويرغبون فيما يدوم، ويزهدون فيما يفنى.

وقد جعل الله عزّ وجلّ البيان يعلمنا اقتضاء الشكر عليه^(١)، فقال: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩]، وكما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣]، وقد وصف [الله] أعداءه بعد ذلك [بصفات ضد ذلك]^(٢)، فقال: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ [الكهف: ١٠١].

وقالت أم الدرداء: كانت أكثر عبادة أبي الدرداء التفكير، وقد كان يقول: ما يسرّني أن أربح في كل يوم ثلاثمائة دينار أنفقها في سبيل الله عزّ وجلّ. قيل: ولم ذلك؟ قال: يشغلني ذلك عن التفكير.

أو^(٣) يعتقد حسن النيات، وينوى جميل الطويّات فيما بينه وبين الخالق تعالى، وفيما بينه وبين الخلق.

أو يستغفر الله تعالى، ويجدد التوبة لما مضى من عمره، ولما يأتنف من مستقبله.

أو يخلص الدعاء بتمسكن، وتضرّع، وتملّق، وتخشع، ووجلّ، وإخبات، إلى أن يعصمه من جميع المنهى عنه، وأن يوفقه لصالح الأعمال، ويتفضل عليه برغائب الأفضال، وهو في ذلك فارغ القلب، مجرد الهم، موقن بالإجابة، راضٍ بالقسم.

أو يتكلم بمعروفٍ وخيرٍ، ويدعو به إلى الله تعالى، وينفع به أخاه، ويعلم من هو دونه في العلم.

(١) في (ك): «البيان نعمة لما اقتضى الشكر عليه».

(٢) زيادة من (ك).

(٣) وردت في (ك): «و» وكذلك في مواضعها التالية.

فهذه كانت أذكار المتقدمين وأفكار السالفين . وقد كان الذكر والتفكير من أفضل عبادة العابدين ، وهو طريق مختصر إلى رب العالمين . ففي أى هذه المعانى أخذ فهو ذاكر لله عز وجل ، فلا يزال كذلك . وهو فى جميع ذلك مستقبل القبلة فى مصلاه .

ولا يُستحب له أن يتكلم أو يعمل غير ما ذكرناه من الأذكار . وقد كانوا يكرهون الكلام بغير معروف وتقوى ، من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . ومنهم من شدد فى ذم الكلام من الفجر إلى صلاة الغداة بغير ذكر وبر .
وهذه سنة قد خملت ، فمن عمل بها فقد ذكرها^(١) .



(١) فى (ك) : «وهذه سنة قد جهلت ، فمن عمل بها فقد أظهرها» .

الفصل السابع

فى ذكر أوراد النهار^(١)

وهى سبعة أوراد. وهذا هو الورد الأول من النهار. وفى النهار سبعة أوراد: أولها: من طلوع الفجر. الثانى: إلى طلوع الشمس، وهو كما ذكرناه من الأذكار، وهو الذى أقسم الله عزّ وجلّ به فقال: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨]. فتنفسه من طلوع الفجر [الثانى]^(٢) إلى طلوع الشمس، وهو الظل الذى مده الله تعالى لعباده، ثم قبضه إليه بيسط الشمس عليه، وأظهره من آياته^(٣)، وجعل الشمس كشفًا له ودليلاً عليه، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ يعنى: بسطه ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ يعنى: مقيمًا على حاله لا يتحوّل ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٥] يقول: كشفناه بها، ففيه أنّ الدليل هو الذى يكشف المشكل ويرفع المشتبه، ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٦] يعنى: أن الظل من تحت الشمس قبض قبضًا يسيرًا، أى خفيًا لا يَفْطَن له ولا يُرى، فاندرج الظل فى الشمس بقدرته اندراج الظلمة فى النور، إذ دخل عليها بحكمته، وهو الإصباح والفلق الذى يُمدح الله عزّ وجلّ بخلقه، وأمرنا بالتنزيه له عنده، والاستعاذة من شرّ ما خلق فيه، فقال عزّ وجلّ: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقال ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧] أى: فسبحوه

(١) كل ما يتصل بالأوراد ضمنه الغزالي إحياءه مع تغيير العبارة أحيانًا والاختصار أحيانًا أخرى، ٣٢٩/١، كتاب ترتيب الأوراد وتفصيل إحياء الليل. وانظر كذلك: الغنية، للجيلاني، فصل أوراد الليل والنهار ٣/١٠٧٤، نقله أيضًا عن القوت دون إشارة.

(٢) زيادة من (ك).

(٣) فى (ط): «وهو الظل الذى أمده الله تعالى لعباده، ثم قبضه إليه بيسطه الشمس عليه، وأظهر من آياته» وأثبت ما فى (ك).

بالصلاة عندهما، وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ١ - ٢] يعنى: فلق الصبح.

فإذا أمن العبدُ الفتنة والكلامَ فيما لا يعنيه، والاستماع إلى شبهة من القول، وأمن من النظر إلى ما يكره أو يشغله عن الذكر، أو ما يذكره الدنيا، وأمن من دخول الآفة عليه من التزيّن والتصنّع للناس، ورزق الشغل بمولاه، والإخلاص له بالإعراض عمّن سواه، فقال ما ذكرناه من الذكر فى مصلاه فى مسجد الجماعة، فهو أفضل؛ فلذلك أمر الله برفع المساجد فى قوله عزّ وجلّ: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦].

وإن لم يأمن الفتنة، وخشى دخول الآفة عليه من لقاء من يكره، ومن يلجئه إلى تقيّة أو مداراة، أو خاف الكلام فيما لا يعنيه، أو الاستماع إلى ما لا يندب إليه، انصرف إذا صلى الغداة [فى جماعة]^(١) إلى منزله، أو إلى موضع خلوة، بعد أن يقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت، بيده الخير وهو على كل شىء قدير» عشر مرات فى مصلاه وهو ثانٍ رجله قبل أن يقوم، ويقرأ بعدها ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ عشرًا قبل أن يتكلم - فقد اشترط ترك الكلام فى هذين الحديثين اللذين وردا فيهما - ثم أتى ببقية ورده فى بيته أو فى خلوته، وهو فى ذلك مستقبل القبلة. وهذا حينئذ أفضل له، وأجمع لقلبه^(٢).

ولا يقدم على التسبيح لله عزّ وجلّ والذكر له بعد صلاة الغداة وقبل طلوع الشمس إلا أحد معنيين:

معاونة على برٍّ وتقوى فرض عليه، أو نذب إليه، مما يختص به لنفسه، أو يعود نفعه على غيره. ويكون ذلك أيضًا ممّا يخاف فوته بفوت وقته.

(١) زيادة من نسخة (ك).

(٢) قال صاحب عوارف المعارف (ص ٣٩١): «فإن السكوت والذكر فى هذا الوقت له أثر ظاهر يجده أرباب القلوب وأهل المعاملة».

والمعنى الآخر: يكون إلى تعلّم علم أو استماعه ممّا يقربّه إلى الله تعالى في دينه وآخرته، ويزهّده في الدنيا والهوى، [ولا يسمعه إلا] من العلماء بالله عزّ وجلّ الموثوق بعلمهم، وهم علماء الآخرة، أولو اليقين والهدى، الزاهدون في فضول الدنيا. ويكون في طريقه ذاكرًا لله عزّ وجلّ، أو متفكرًا بأفكار^(١) العقلاء عن الله عزّ وجلّ.

فإن اتفق له هذان، فالغدوّ إليهما أفضل من جلوسه في مصلاه، لأنّهما ذكرُ الله عزّ وجلّ وعمل له، وطريق إليه [تعالى] على وَصْفٍ مخصوص مندوب إليه، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وقال النبي ﷺ: «من غدا من بيته في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»^(٢).

وقال ابن مسعود: «اغدُ عالمًا أو متعلمًا أو مستمعًا، ولا تكن الرابع فتَهلك». والغدوّ، والغداة: تكون قبل طلوع الشمس.

وفي الخبر: «مَن خرج من بيته في طلب العلم فهو في سبيل الله عزّ وجلّ حتى يرجع. ومَن خرج من منزله يلتمس علمًا وضعت له الملائكةُ أجنحتها رضىً بما صنع، واستغفر له دوابُّ الأرض وملائكةُ السماء وطيرُ الهواء وحيتانُ الماء»^(٣).

وفي حديث أبي ذر الغفاري رحمه الله: «حضورُ مجلسِ علم أفضلُ من صلاة ألف ركعة، وأفضل من شهود ألف جنازة، ومن عيادة ألف مريض. قيل: ومن

(١) في المطبوعة: «في أفكار».

(٢) أخرجه الترمذی من حديث أنس في باب فضل طلب العلم بلفظ: «من خرج في . . .» وقال: حسن غريب. وضعفه الألباني، انظر: ضعيف الترمذی، ص ٣١٤ رقم ٤٩٤.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه من حديث أبي الدرداء، باب فضل العلماء والحرص على طلب العلم، باختلاف في اللفظ، رقم ٢٢٣. وانظر: صحيح ابن ماجه رقم ١٨٢ وفيه: «وإن طالب العلم يستغفر له من في السماء والأرض، حتى الحيتان في الماء». وأخرجه الترمذی بلفظ قريب من لفظ ابن ماجه، صحيح الترمذی رقم ٢١٥٩. وغيرهما من كتب السنة.

قراءة القرآن؟ فقال: وهل تنفع قراءة القرآن إلا بعلم^(١).

فإن لم يتفق له أحد هذين المعنيين، فقعوده في مصلاه أو في مسجد جماعته أو في بيته أو في خلوته، ذاكراً لله عز وجل بأنواع الأذكار، أو متفكراً فيما فتح له بمشاهدة هذه الأفكار في مثل هذه الساعة - أفضل له مما سواها^(٢).

روينا عن رسول الله ﷺ: «لأن أقعد في مسجد أذكرُ الله عز وجل فيه من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحبُّ إلىَّ من أن أعتق أربعَ رقاب»^(٣).

وروي أن النبي ﷺ «كان إذا صَلَّى الغداة قعد في مصلاه حتى تطلع الشمس»، وفي بعضها: «ويصلي ركعتين»^(٤).

وقد ندب إلى ذلك في غير حديث. وجاء في فضل الجلوس بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس وفي صلاة ركعتين بعد ذلك ما يجلب وصفه، اختصرناه.

روينا عن الحسن أن النبي ﷺ كان يذكر من رحمة ربه أنه قال: «يا ابن آدم، اذكرني من بعد صلاة الفجر ساعة، وبعد صلاة العصر ساعة، أكفك ما بينهما»^(٥).

(١) قال العراقي (٩/١): «ذكره ابن الجوزي في الموضوعات، ولم أجده من طريق أبي ذر». وانظر: كشف الخفاء، للعجلوني، ٤٣٣/١.

(٢) في الإتحاف: «مما سواهما». وقال صاحب العوارف (ص ٣٥٣): «إذا فرغ من ذلك يشتغل بتلاوة القرآن حفظاً، أو من المصحف، أو يشتغل بأنواع الأذكار، ولا يزال كذلك من غير فتور وقصور ونعاس، فإن النوم في هذا الوقت مكروه جداً. فإن غلبه النوم فليقم في مصلاه قائماً، مستقبل القبلة، فإن لم يذهب النوم بالقيام يخطو خطوات نحو القبلة، ويتأخر بالخطوات كذلك، ولا يستدير القبلة، ففي إدامة استقبال القبلة، وترك الكلام والنوم، ودوام الذكر في هذا الوقت - أثر كبير، وبركة غير قليلة، وجدنا ذلك بحمد الله، ونوصي به الطالبين. وهذا الوقت أول النهار مطية الأوقات، والنهار مظنة الآفات، فإذا أحكم أوله بهذه الرعاية فقد أحكم بنيانه، وتبنت أوقات النهار جميعاً على هذا البناء».

(٣) سنن أبي داود، باب في القصص، رقم ٣٦٦٧، من حديث أنس بن مالك. وانظر: صحيح أبي داود رقم ٣١١٤، وهو بلفظ: «لأن أقعد مع قوم يذكرون الله...». وهو بنحوه في مسند أحمد ٤٧٤/٣، وسنن البيهقي ٨٩/١٠، وغيرهما.

(٤) أخرجه مسلم من حديث جابر بن سمرة، كتاب المساجد، باب فضل الجلوس في مصلاه، رقم ٢٨٦، ٢٧٠.

(٥) الحلية ٢١٣/٨ من حديث أبي هريرة، وقال عنه: «غريب من حديث الحسن».

فإذا ارتفعت الشمس وابتضت صلى الضحى ثمانى ركعات. وهذا الوقت هو الذى ذكره الله عز وجل فى قوله: ﴿يَسْبَحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨].

ثم ينظر، فإن علم مريضاً عاده، وإن حضرت جنازة شيعها، وإن كانت معونة على برٍّ وتقوى سعى فيها، وإن كانت حاجة لأخٍ من إخوانه قضاها، وإن كانت فرضاً يلزمه القيام به سارع إليه، وإن لاح له فضل نُدب إليه انتهزه قبل فوته.

فهذا أفضلُ شئٍ يعملُه بعد الأذكار والأفكار، من بعد طلوع الشمس.

فإذا فرغ من ذلك ولم يتفق له ما ذكرناه من القربات أخذ فى الصلاة أو تلاوة القرآن أو صنوف الأذكار مما أمر به، أو نُدب إليه، أو المحاسبة لنفسه فيما سلف، أو المطالبة لها والاستخراج منها فيما يأتف، أو المراقبة لربه فى كل حال، إلى أن تنبسط الشمس، وترمض الفِصال^(١)، ويرتفع النهار.

هذا هو الورد الثانى من النهار، وهو الضحى الأعلى الذى أقسم الله تعالى به فقال: ﴿وَالضُّحَى﴾ [الضحى: ١] أى إذا أضحت الأقدامُ بحرّ الشمس.

وإذا كان العبد على ذلك فقد اتبع ما أنزل إليه ربه عز وجل، وقد سمع قوله عز وجل: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣]، لأنه قال: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِى حَرَّمَهَا﴾ [النمل: ٩١]. ثم قال: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ [النمل: ٩٢]. كما قال تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنْ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وصلاة الضحى فى هذا الوقت أفضل، وهو حقيقة وقتها لوجود اسمها.

قال النبى ﷺ: «صلاة الضحى إذا رَمِضَتِ الْفِصَالُ»^(٢). وخرج على أصحابه عليه الصلاة والسلام يوماً وهم يصلون عند الإشراق، فنادى بأعلى صوته: «الْأَ إِنَّ

(١) الرمضاء: شدة الحرارة. والفصيل: ولد الناقة. والمعنى: إذا وجد الفصيل حرّ الشمس من الرمضاء.

(٢) أخرجه مسلم من حديث زيد بن أرقم، باب صلاة المسافرين ب ١٩ رقم ١٤٣، ومسنّد أحمد ٣٦٦/٤.

صلاة الأوابين إذا رَمِضَتَ الفِصال». وقوله «الأوابين»: يعنى التوابين إلى الله عزّ وجلّ فى كلّ وقت.

ثم ليأخذ العبد بعد ذلك فيما نُدب إليه، وأبيح له من التصرف فى معاش، إن كان من تجارة بصدق، أو صناعة بنصح، إن أُحوج إلى ذلك، وليكتفِ إن كُفى. وأدنى أحواله: الصمت، والنوم؛ ففيهما سلامة من الآثام، ومخالطة الأنام^(١)، فقد جاء فى العلم: «يأتى على الناس زمانٌ يكون أفضل علمهم [فيه] الصمت، وأفضل أعمالهم النوم»، هذا لدخول المشكلات فى الكلام، ووجود الآفات فى الأحوال، وخروج الإخلاص من الأعمال.

وكان سفيان الثورى يقول: كان يُعجبهم إذا تفرَّغوا^(٢) أن يناموا، طلباً للسلامة. فمن الناس من يكون أحسن أحواله النوم، وليت العبد يكون فى اليقظة كالنوم، إذ فى نومه السلامة، [والسلامة متعذرة فى يقظته]، وأفضل أعماله فى هذا الوقت السلامة. وإنما الفضائل لأهل الإفضال [والفضل] الذين زادوا على السلامة بالعمل والإحسان، والفضل^(٣).

فإن نام فى هذا الوقت فهو حيثُذ نومُ القائلة، وما تسبب فيه من المعاش يصنعه فى هذا الوقت من الضحى الأعلى إلى زوال الشمس.

وهذا هو الورد الثالث من النهار.

ثم يتوضأ للصلاة قبل دخول وقتها ذلك يستحب، وهو من المحافظة عليها،

(١) فى المخطوط (ك)، والإتحاف ١٤٣/٥: «ومخالطة اللئام».

(٢) فى (ك): «إذا يفرغون».

(٣) كان هناك تكرار واضطراب فى أجزاء من هذه الفقرة بالمطبوعة، والتصويب من (ك) والإتحاف ١٤٣/٥. وقال الغزالي فى الإحياء (٣٣٨/١): «النوم أحب له إذا كان نشاطه لا ينبعث إلى الأذكار والوظائف المذكورة». وقال صاحب العوارف (ص ٣٥٧): «فإن سئم من الصلاة تنزّل إلى التلاوة، ثم منها إلى الذكر، ثم منه إلى الفكر والمراقبة. فإن عجز عن المراقبة، وتملكته الوسوس، وتراحم فى باطنه حديث النفس، فليتم، ففى النوم السلامة، وإلا فكثرة حديث النفس تقسى القلب، ككثرة الكلام، لأنه كلام من غير لسان، فيحترز عن ذلك. قال سهل بن عبد الله: أسوأ المعاصى حديث النفس. والطالب يريد أن يعتبر باطنه كما يعتبر ظاهره، فيقيد الباطن بالرعاية والمراقبة، كما يقيد الظاهر بالعمل وأنواع الذكر».

والإقامة لها .

فإن حصلت كفايته فى يومه وقوته فى وقت من النهار، ترك السوق ودخل بيته، أو قعد فى بيت مولاه تعالى، واشتغل بخدمته مُتَزَوِّدًا لعاقبته . وقد كان الصالحون كذلك يفعلون . كان يقال : لا يوجد المؤمن إلا فى ثلاث مواطن : مسجدٍ يعمره، أو بيتٍ يستره، أو حاجةٍ لا بدَّ له منها .

فإذا زالت الشمس فإنَّ أبوابَ السَّماءِ تُفتح للمصلِّين والذاكرين، ويستجاب الدعاء للمؤمنين .

فهذا هو الورد الرابع من النهار . فليصل بعد الزوال أربع ركعات، يقرأ فيهنَّ بمقدار سورة البقرة، أو سورتين من المائتين، أو أربع من المئتين، يطيلهنَّ ويحسنهنَّ، ولا يفصل بينهنَّ بتسليم، هذه الصلاة وحدها من بين صلاة النهار أربع ركعات، بتسليمة واحدة . وهذا الورد هو الإظهار، الذى ذكر الله عزَّ وجلَّ الحمد فيه فقال : ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٨] .

وليتق العبدُ الصلاةَ عند استواء الشمس فى كبد السماء، وهو قبل زوالها عند تقلص الظل، وقيام ظلِّ كلِّ شىء تحته، فإذا زال الظلُّ فقد زالت، وقد يخفى^(١) استوائها فى الشتاء؛ لقصر النهار؛ ولعدول الشمس فى سيرها عن وسط الفلك، فتقطع [سيره] عرضًا، فيكون أقرب لغروبها، فليقدر ذلك تقريبًا، ومقدار استوائها قبل الزوال بنحو أربع ركعات بجزء من القرآن، أو بقدر جزء [يقرأ]، وهو آخر الورد الثالث . وإنما فيه ورد القراءة والتسبيح والتفكير، وهو أحد الأوقات الخمسة التى نهى النبى ﷺ عن الصلاة فيهن . والأربعة الأخر: عند طلوع الشمس حتى ترتفع قيد رُمحين فى عين الناظر . وعند تدليها للغروب حتى تحتجب . وبعد صلاة الصبح . وبعد صلاة العصر .

وأحبَّ له إحياء ما بين الأذان والإقامة بالركوع [والسجود]، لأنها ساعة

(١) فى (ط): «خفى» وأثبت ما فى (ك) والإتحاف ١/ ١٤٤ .

مستجاب فيها الدعاء، وتُفتح فيها أبواب السماء، وتركوا فيها الأعمال. [وأفضل الأعمال ما كان في أوقات الصلوات]^(١)، وأفضل أوقات النهار أوقات الفرائض، فإن لم يقرأ بين الأذنين من درسه فاستحب له أن يقرأ في تنفله الآي التي فيها الدعاء، مثل آخر سورة البقرة، وآخر سورة آل عمران، ومن تضاعف السور الاثنين والثلاث، مثل قوله تعالى: ﴿أَنْتَ وَلَيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. ومثل قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]. وقوله: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وإن قرأ الآي التي فيها التعظيم، والتسبيح، والأسماء الحسنى، فحسن؛ مثل أول سورة الحديد، وآخر سورة الحشر، ومثل آية الكرسي، وقل هو الله أحد. ليكون بذلك جامعاً بين التلاوة والدعاء، وبين الصلاة والتعظيم، والمدح بالأسماء. ثم ليصل الظهر في جماعة، ولا يدع أن يصل قبلها أربعاً، وبعدها أربعاً بعد ركعتين.

وهذا آخر الورد الرابع من النهار، وهو أقصر الأورد وأفضلها. فإن كان قد رقد قبل الزوال فلا يرقد في هذا الورد، فإنه يكره له نومتان في يوم، كما يكره له نوم النهار من غير سهر بالليل.

وروي عن بعض العلماء: ثلاثٌ يمقت الله عليها: الضحك من غير عجب، والأكل من غير جوع، ونوم النهار من غير سهر بالليل^(٢).

وإن لم يكن قد رقد، فأحب أن ينام بين الظهر والعصر، ليتقوى بذلك على قيام الليل، فلينم، فإن نومه بعد الظهر لليلة المستقبل، ونومه قبل الظهر لليلة الماضية. فإن دام سهره بالليل واتصلت أوردته بالنهار حسن أن ينام قبل الظهر، لما سلف من ليله، وينام بعد الظهر لما غبر من الأخرى.

[والحد في النوم: أن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة، فلا اعتدال في نومه

(١) زيادة من (ك).

(٢) هذا الأثر ينسب إلى معاذ بن جبل، انظر: الحلية ٢٣٧/١.

ثمانى ساعات فى الليل والنهار جميعاً، فإن نام هذا القدر بالليل فلا معنى للنوم بالنهار، وإن نقص منه مقداراً استوفاه بالنهار^(١)، إلا أنه لا يستحب له أن يزيد فى اليوم واللييلة أكثر من نوم ثمانى ساعات.

ومن الناس من يقول: إنه إن نقص من نوم هذا المقدار فى اليوم واللييلة اضطرب بدنه؛ لأن النوم قوتُ الجسم وراحته، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبا: ٩]، أى راحة، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا: ١١]. إلا أن يكون السهر عادة، فإن العادة قد تعمل عمل الطبع وتنقل عن العرف، فلا يقاس عليها. وإحياء ما بين الظهر والعصر، وهو صلاة الغفلة، وهو يُشبه بقيام الليل. ويُستحب العكوفُ فى المسجد بين الأولى والعصر للصلاة والذكر، ليجمع بين الاعتكاف والانتظار للصلاة، فقد كان ذلك من سنة السلف. قال: كان الداخل يدخل المسجد بين الظهر والعصر فيسمع للمصلين دويّاً كدويّ النحل من التلاوة، إلا أن يكون بيته أسلم لدينه وأجمع لقلبه، فالأسلم هو الأفضل.

وكذلك إحياء الورد الثالث؛ الذى هو بين الضحى الأعلى إلى زوال الشمس، فوق هذا الفضل يُدرك به العبدُ قوتَ قيام الليل؛ لأن الناس فى هذين الوقتين مشغولون بطلب الدنيا وخدمة الهوى؛ والقلب المتيقظ لربه عزّ وجلّ يفرغ فى هذين الوقتين ويسكن، ويجد العامل للعمل حلاوة، وللإقبال والتفرغ لذة، ويكون لفراغه من الخلق وشُغله بالخالق تعالى مزيدٌ وبركةٌ.

وهذا أحد الوجهين فى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَنۢ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢] أى: جعلهما خلفتين يتعاقبان فى الفضل، فيخلف أحدهما الآخر. فمن فاتته شىء من الليل قضاه فى هذين الوردين من النهار. أحدهما: من الضحى الأعلى إلى الزوال، والثانى: ما بين الأولى والعصر.

(١) هذه الفقرة سقطت من المطبوعة والمخطوطة، وهى فى الإتحاف ١٤٧/٥ نقلاً عن إحدى نسخ القوت التى كانت بين يديه. وأيضاً فى الإحياء ٣٢٩/١.

والوجه الثانى: أن النهار كله خَلْفَ من الليل، فمن فاتته شىء من عمل الليل قضاه بالنهار فكان منه بدلاً، ومن فاتته شىء من أوراد النهار كان الليل خَلْفًا، إذ كل واحد منهما خَلَفَ من صاحبه، ففيه دَرَك ما فات، وخَلَفَ ما سلف من الذكر والشكر.

والذكر: اسم جامع لأعمال القلوب كلها من مقامات اليقين ومشاهدة العلوم من الغيب. والشكر - أيضاً - يستعمل على جُمْل أعمال الجوارح من شرائع الإسلام. وهذان جملة عمل العبد، وكُنْه خدمته.

وهذان المعنيان هما اللذان ذَكَرَهُمَا الكَلِيمُ للجليل في قوله تعالى: ﴿كَيِّ نُسَبِّحُكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرُكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٣٣ - ٣٤]، انتظم التسييح والذكر فى جمل تصرف الجسم، وتصرف القلب.

وهذا الورد الخامس الذى هو ما بين العصرين من أطول الأوراد، وأمتعها للعبادة^(١)، وهو يضاهى الورد الثالث فى الطول. وهو أصيل النهار، وأحد الأصال التى ذكر الله عزّ وجلّ فيه سجود كل شىء، وقرنه بالغدوّ فقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]. فما أقبح أن تكون الأشياء الموات لربها ساجدات ذاكرات، والمؤمن الحى عن ربّه معرض ذو غفلات!!

ثم ليصلّ قبل صلاة العصر أربعاً، ويغتنم الصلاة بين الأذان والإقامة، كما ذكرنا آنفاً، فإنها ساعة مرجوة فيها الإجابة.

فإذا دخل وقت العصر دخل العبدُ فى الورد السادس من النهار، وقد أقسم الله عزّ وجلّ به فى قوله: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ [العصر: ١]. وهذا أحد المعنيين فى الآية، وهو أحد الوجهين من الوقت فى الأصال، الذى ذكره الله عزّ وجلّ. وهو العشى الذى ذكر الله عزّ وجلّ التسييح فيه، والتزويه والحمد له، فقال: ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٨]. وقال: ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨]. وليس فى هذا

(١) فى الإحياء ١/ ٣٤٠، والإتحاف ٥/ ١٤٨: «وأمتعها للعباد».

الورد صلاة، إلا ما كان بين الأذنين، ثم ينتقل بعد العصر فيما شاء من ذكر أو فكر من أعمال القلوب والجوارح، فيما فُرض عليه أو نُدب إليه. وأفضل ذلك تلاوة القرآن بتدبر وترتيل وتفهم وحسن تأويل.

فإذا اصفرت الشمس، ومات حرّها، وارتفعت إلى أطراف الجُدُر ورءوسِ الشجر، فكانت مثلها حين تَطْلُع دخل في الورد السابع من النهار. فهذا للتسبيح والذكر والتلاوة والاستغفار إلى غروب الشمس. ومن أفضل ما قيل في هذا الوقت، وفي مثله من أول النهار، أن يقال: أستغفر الله لذنبي، وسبحان الله بحمد ربي، لجمعه بين الاستغفار والتسبيح في الكلام بلفظ الأمر بهما في القرآن، لقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥].

وإن قال: أستغفر الله الحى القيوم وأسأله التوبة، سبحان الله العظيم وبحمده، فقد جاء فضل ذلك في الأثر، والأفضل الاستغفار على الأسماء، كما في القرآن، مثل أن يقول: أستغفر الله إنه كان غفّاراً. أستغفر الله إنه كان تواباً. أستغفر الله إنّ الله غفور. أستغفر الله التّوابَ الرَّحِيمَ. ربّ اغفرْ وارْحَمْ، وأنتَ خيرُ الرَّاحِمِينَ، واغفرْ لنا وارْحَمْنَا، وأنتَ خيرُ الغافرين.

وهذا الورد في الفضل مثل الورد الأول، من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. وهو المساء الذى ذكر الله تعالى التنزيه فيه، فقال: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧]، أى سبحوا الله عزّ وجلّ، فأقام الاسم مقام الفعل، وهو الطرف الثانى من النهار، الذى أمر الله عزّ وجلّ فيه بالتسبيح، بقوله عزّ وجلّ: ﴿فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠]. ويستحب أن يقرأ قبل غروب الشمس: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١]، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [الليل: ١]، والمعوذتين، وأن تغرب الشمس عليه وهو فى الاستغفار؛ فذلك مما أمر به فى هذا الوقت من الأذكار.

وكما^(١) يُستحب من التسبيح والحمد والدعاء والذكر فى أوّل النهار قبل طلوع

(١) فى المطبوعة: «كلما» وهو خطأ، وأثبت ما فى (ك).

الشمس، فإنه يُستحب في هذا الورد قبل غروب الشمس؛ لأن الله تعالى قرنهما في الذكر، فقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]. وقال تعالى: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠]. وقال تعالى: ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غانر: ٥٥]. وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ *﴾ [الفلق: ١ - ٣] أى: من شر الليل إذا دخل. فليُعد العبد ما ذكرناه في الورد الأول من الأدعية والتسبيح، وليقل عند أذان المغرب: اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دُعَاتِكَ وحُضُور صَلَاتِكَ وشُهُودُ ملائكتِكَ. صلِّ على محمد وعلى آله، وأعطه الوسيلة والفضيلة، وأبعثه المقام المحمود الذى وعدته. ثم ليقل: رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً، ثلاثاً، ففي هذا أثر وفضل.

وكذلك فليقل مثله إذا سمع أذان الفجر، إلا أنه يقول عنده: اللهم هذا إدبار ليلك وإقبال نهارك. والنص بهذا في صلاة المغرب.

وكان الحسن البصرى يقول: كانوا أشدَّ تعظيماً للعشى منهم لأول النهار. وقال بعض السلف: كانوا يجعلون أول النهار للدنيا، وآخره للآخرة.

فإذا توارت بالحجاب انقضت أورادُ النهارِ السبعة.

فانظر أيها المسكين ماذا انقضى لك معها، وماذا انقضى منك عندها، وماذا قُضى عليك فيها. فقد قطعتَ من عمرك مرحلةً ونَقَصْتَ من أيامك يوماً. فماذا قطعتَ في سفركِ بقطعِ مرحلتك؟ وماذا ازدادت في غدِّكَ بما نَقَصْتَ من يومك؟

قال النبي ﷺ: «الناس غاديان: فغادٍ لنفسه فمُعتَقها، أو راهنٌ نفسه فمُؤَبَّقها»^(١).

وقد قال الله عز وجلّ في تصديق قول رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾

[الليل: ٤].

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير ١٣٦/١٩ من حديث عبد الله بن مسعود، وقال الهيثمى

٢٣٦/١٠: «وإسناده جيد».

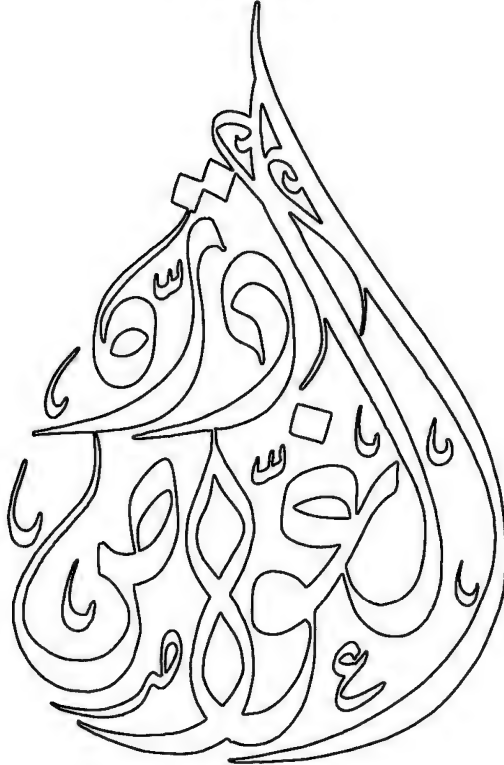
وقال في معناه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ [المائدة: ٣٨]

- [٣٩].

وجاء في الخبر: «لا بورك لى فى يوم لا أزداد فيه خيراً». وجاء فى الأثر: «من استوى يوماء فهو مغبون، ومن كان يومه شراً من أمسه فهو محروم».

ثم دخلت أورادُ الليل الخمس، فتدارك الآن - رحمك الله تعالى - فيما يستقبل من الليل ما فات فيما مضى من النهار.

فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ يُبغض كلَّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّازٍ - أى: سمين، كثير الأكل - سَخَّابٍ^(١) بالأسواق، جيفةً بالليل، حمَّارٍ بالنهار، عالمٍ بأمر الدنيا، جاهلٍ بأمر الآخرة»^(٢).



(١) سَخَّابٌ: من الصَّخْب، وهو شدة الصَّوْت.

(٢) سنن البيهقى ١٠/١٩٤، والسلسلة الصحيحة، للالبانى، رقم ١٩٥.

الفصل الثامن

فى ذكر أوراد الليل الخمسة

وفى الليل خمسة أوراد:

أولها: أن يصلّى بعد المغرب ستّ ركعات، ويستحب ذلك قبل أن يكلم أحداً. يقرأ فى الأولين: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وليُسرع بهما بعد صلاة المغرب، من قبل أن يتكلم ويشغل بشيء. وفى الخبر: «أسرعوا بركعتين بعد المغرب فإنّهما يُرفعان معها». فإن كان منزله قريباً من مسجده، فلا بأس أن يركعهما فى بيته، وليُطِل الأربعة الأخر. وكان أحمد بن حنبل رحمه الله يستحب أن يصليهما الرجل فى بيته. وكذلك كان يفعل، ويقول: هو سنّة؛ لأنه روى أن النبى ﷺ كان يصليهما فى بيته. ولكن بيت رسول الله ﷺ كان فى مؤخر المسجد، وقد صلاههما فى المسجد.

ثم ليصل بين العشاءين ما تيسر إلى أن يغيب الشفق الثانى، وهو البياض الذى يكون بعد ذهاب الحمرة، وبعد غسق الليل وظلمته؛ لأنه آخر ما بقى من شعاع الشمس فى القطر الغربى، إذا قطعت الأرض العليا ودارت من وراء جبل قاف، مُصْعَدَةً تطلب المشرق، فهذا هو الوقت المستحب لصلاة العشاء الآخرة.

وهذا آخرُ الوردِ الأول من أوراد الليل. والصلاة فيه ناشئة الليل، أى: ساعاته؛ لأنه أول نشوء ساعاته، وهو آن من الآناء التى ذكرها الله عزّ وجلّ فى قوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزمل: ٦]، وقال: ^(١) ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ [طه: ١٣٠]. فالآناء: جمع آن، أى وقت منه فصل، وقيل: ناشئة الليل: قيام الليل. هذا وافق لسان الحبشة، تقول: نشأ، إذا قام. وقد أقسم الله

(١) ما بين المعكفتين ساقطة من (ط) وأثبتها من (ك).

تعالى به فقال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ [الانشقاق: ١٦] والشَّفَق ما بين العِشاءَيْن. وهى صلاة الأوابين. ويقال أيضاً: صلاة الغفلة. قال يونس بن عبيد عن الحسن فى قوله عز وجل: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦] قال: الصلاة بين العشاءين. حتى قال أنس بن مالك رضى الله عنه وقد سئل عمن نام بين المغرب والعشاء، فقال: لا تفعل، فإنها هى الساعة التى وصف الله عز وجل المؤمنين بالقيام فيها، فقال عز وجل: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ يعنى: الصلاة بين المغرب والعشاء.

وقد أسند ابن أبى زياد^(١) إلى النبى ﷺ أنه سئل عن هذه الآية: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾، قال: الصلاة فيما بين العشاءين. ثم قال: عليكم بالصلاة فيما بين العشاءين، فإنها تذهب بملاغة أول النهار، وتُهذب آخره^(٢).

قوله «الملاغة» جمع: ملغاة، من اللغو، أى: تسقط اللغو، أى تطرح المطرح عن العبد من الباطل واللهو، وتهذب له آخره: أى تصفيه وتجوّده.

ويُستحب العكوف فى المسجد بين العشاءين للصلاة وتلاوة القرآن، فقد روى فضل ذلك، إلا أن يكون بيته أسلم له؛ لدخول آفة عليه، فما سلم فيه فضل به. ثم ليصل قبل العشاء الآخرة أربعاً وبعدها ركعتين، ثم أربعاً. ويقال: إن الأربع بعد صلاة العشاء فى بيته يعدلن مثلهن من ليلة القدر.

وكان رسول الله ﷺ يُصليهن فى بيته، أول ما يدخل قبل أن يجلس.

وكان ابن مسعود يكره أن يصلى بعد كل صلاة مثلها. وكانوا يستحبون أن يصلى بعد المكتوبة ركعتين، ثم أربعاً. وإن قرأ فى الأربع: فى الأولى: آية الكرسي والآيتين اللتين بعدها، وفى الثانية: ﴿أَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ

(١) فى المطبوعة والمخطوط (ك): «الزناد»، والصواب ما أثبت من الإتحاف ١٥١/٥. وقد نص الزبيدى على خطأ بعض نسخ القوت. وهو إسماعيل بن أبى زياد، قال الدارقطنى: هو متروك الحديث. انظر: الإتحاف ١٥١/٥.

(٢) انظر: الإتحاف ١٥١/٥.

رَبِّهِ ﴿البقرة: ٢٨٥﴾ والآية قبلها، وفي الثالثة: أول الحديد إلى قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الحديد: ٦]، وفي الرابعة: آخر الحشر من قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الحشر: ٢٢] - فقد أحسن وأصاب.

فإن صلى بعد الأربع ثلاث عشرة ركعة آخرهن الوتر إن أحب، فإن هذا العدد أكثر ما روى أن النبي ﷺ صلى به من الليل، إلا في خبرٍ مقطوع وهو سبعة عشر ركعة.

والمشهور: أنه كان يصلي إحدى عشرة ركعة، وثلاث عشرة ركعة، وربما حسبوا فيها ركعتي الفجر، واستحب له أن يقرأ في ركوعه هذا ثلاثمائة آية فصاعداً، فإذا فعل ذلك لم يكتب من الغافلين، ودخل في أحوال العابدين. فقد قيل: إن الأكياس يأخذون أوقاتهم من أول الليل، والأقوياء يأخذون أورادهم من آخر الليل. فإن قرأ في ركوعه هذا سورة الفرقان وسورة الشعراء، ففيهما ثلاثمائة آية، فإن لم يحسنهما قرأ خمساً من المفصل، فيهن ثلاثمائة آية: سورة الواقعة، وسورة نون، وسورة الحاقة، وسورة المدثر، وسورة سأل سائل. فإن لم يحسنهن قرأ من سورة الطارق إلى آخر القرآن ثلاثمائة آية.

ولا يستحب للعبد أن ينام حتى يقرأ هذا المقدار من الآي في هذا العدد من الركوع، بعد صلاة العشاء الآخرة.

فإن قرأ في هذا الورد الثاني، أعنى بعد صلاة العشاء الآخرة وقبل أن ينام، ألف آية، فقد استكمل الفضل، وكتب له قنطار من الأجر، وكتب من القانتين.

وأفضل الآي أطولها لكثرة الحروف، وإن اقتصر على قصار الآي عند فتوره أدرك الفضل لحصول العدد. ومن سورة المُلْك إلى آخر القرآن ألف آية، فإن لم يحسن ذلك قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مائتين وخمسين مرة، في ثلاث عشرة ركعة، فإن فيها ألف آية، فهذا فضل عظيم. وفي الخبر: «مَنْ قَرَأَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ بَنَى اللَّهُ عِزًّا وَجَلَّ لَهُ قَصْرًا فِي الْجَنَّةِ».

وروينا عن النبي ﷺ في السّور التي لم يكن يدعها في كل ليلة ثلاثة أحاديث أشهرها: «أنه لم يكن ينام حتى يقرأ سورة السجدة وتبارك الملك»^(١).

والذي بعده: «أنه كان يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزّمر»^(٢).

والقريب منها: «أنه كان يقرأ المسبّحات في كل ليلة ويقول: فيها آية أفضل من ألف آية»^(٣).

قال: وكان العلماء يجعلونها ستّا، ويزيدون فيها: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [سورة الأعلى].

وفي الخبر: «كان رسول الله ﷺ يحب ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾»^(٤).
فهذا يدل على أنه كان يكثر قراءتها.

ولا يدع أن يقرأ هذه الأربع سور في كل ليلة: سورة يس، وسورة لقمان، وسورة الدخان، وتبارك الملك. فإن ضمَّ إليها سورة الواقعة، وسورة الصّفّ، والحاقة، والزّمر، فقد أكثر وأحسن^(٥).

فإن لم يكن من عادته^(٦) القيام من الليل قدّم الوترَ بنية الخبر المروى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أوصاني رسول الله ﷺ أن لا أنام إلا على وتر».

وإن كان معتاداً لصلاة الليل، فالأفضل تأخير الوتر إلا آخر صلاته من تهجّده

(١) أخرجه الترمذی من حديث جابر، باب فيما يقرأ من القرآن عند المنام، انظر صحيح الترمذی رقم ٢٧١٠.

(٢) أخرجه الترمذی من حديث عائشة: «كان لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل»، صحيح الترمذی، رقم ٢٧١١.

(٣) صحيح سنن الترمذی رقم ٢٧١٢ من حديث العرباض بن سارية بلفظ «خير من»، ووردت لفظة «آية» الأولى محرفة في المطبوعة إلى «إنه».

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده ٩٦/١ من حديث علي، وقال عنه العراقي: سنده ضعيف. وهو في مجمع الفوائد ١٣٦/٧، والكنز، رقم ٤٠٨٤.

(٥) من أول قوله «في خبر مقطوع» في الصفحة السابقة إلى هنا، نقله صاحب الإتحاف نصّاً ١٥٣/٥.

(٦) في المطبوعة: «عبادته» والصواب ما أثبت من الإتحاف ١٥٣/٥.

أو إلى السَّحَر، على حديث ابن عمر رضى الله عنه: «صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا خَفَتَ الصَّبح فأوتر بركعة»^(١).

وفى حديث عائشة رضى الله عنها: «أوتر رسول الله ﷺ من أول الليل، ومن أوسطه، ومن آخره، وانتهى وتره إلى السَّحَر»^(٢).

فإن نام على وتر، ورُزق القيام، لم يوتر بعده، وكفاه وتره الأول، على الخبر الذى جاء: «لا وتران فى ليلة»^(٣).

وقد قال بعض العلماء: يصلى ركعةً واحدة يشفع بها وتره من أول الليل، ثم يصلى صلاته من الليل، ويوتر آخر صلاته. وقد روى فى هذا أثر عن عثمان وعلى رضى الله عنهما.

وإن كان قد صلى ركعتين من جلوس بعد وتره الأول ثم استيقظ للصلاة شفعتا وتره الركعة الواحدة؛ لأنهما بمنزلة ركعة واحدة يشفع بها ركعة الوتر التى صلاها قبلها. ثم ليُصلَّ من الليل مستأنفاً ما بدا له، ثم يوتر بركعة واحدة فى آخر صلاته، فيكون له فى ذلك ثلاثة أعمال: قَصْرُ الأمل، وتحصيلُ الوتر، والوترُ من آخر الليل.

وكذلك كان رسول الله ﷺ يصلى ركعتين جالساً بعد وتره، والله تعالى أعلم. فليقرأ فيهما جالساً بسورة الزلزلة، وسورة ألهاكم التكاثر، فقد جاء ذلك فى حديثين: أن النبى ﷺ كان يقرأ فيهما بذلك؛ لما فى الزلزلة والتكاثر من التخويف والوعظ. وفى رواية: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾؛ لما فى سورة الكافرون من التنزيه من عبادة سوى المعبود، وإفراد العبادة لله سبحانه فيها بالتوحيد. وكان رسول الله ﷺ يقرأ بها عند النوم، وأوصى رجلاً بقراءتها عند منامه.

وتقديم الوتر مستحب لمن لم يكن عادته قيام الليل، ولمن كان الأغلب عليه النوم. وتأخير الوتر يكون لمن أخر صلاته قبل طلوع الفجر أفضل.

(١) أخرجه النسائى فى سننه، صحيح سنن النسائى، رقم ١٥٧٥.

(٢) صحيح سنن النسائى، رقم ١٥٨٧.

(٣) أخرجه النسائى من حديث قيس بن طلق، صحيح سنن النسائى، رقم ١٥٨٥.

وليقبل بعد التسليم من الوتر: سبحانَ الملك القدوس ربَّ الملائكة والروح. جلَّلتَ السموات والأرضَ بالعظمة والجبروت، وتَعَزَّزْتَ بالقُدْرَةِ، وقَهَرْتَ العبادَ بالموت. يقول هذا ثلاث مرات.

وهذا هو الورد الثاني من الليل، أعنى الصلاة بعد العشاء الآخرة إلى حد نومة الناس، فقد أقسم الله عزَّ وجلَّ [به، تعظيمًا له وتشريفًا، لتوسطه بين آخر الليل وأول النهار]^(١) في قوله: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٧]، أى: وما جمع من ظلمته. وذكره الله عزَّ وجلَّ في قوله: ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، فهناك يَغْسِقُ الليل، وتستوسق ظلمته^(٢).

ثم ينام إن أحبَّ وهو على طهارة وعلى ذكر. وقد كان الصالحون لا ينامون إلا عن غلبة، ويكرهون التعمد للنوم، وهو التهيؤ للعادة، وقد كان منهم من يمهّد لنفسه بالنوم، ليتقوى بذلك على صلاة أوسط الليل وآخره، للفضل في ذلك. ومن غلبه النوم حتى شغله عن الصلاة والذكر، فإنَّ السُّنَّةَ أن ينام حتى يعقل ما يقول، وينشط في خدمته. وقد كان ابن عباس يكره النوم قاعدًا. وفي الخبر: «لا تُكابدوا الليل»^(٣).

وقيل لرسول الله ﷺ: إنَّ فلانة تُصلى من الليل، فإذا غلبها النوم تعلقت بحبل، فنهى عن ذلك، وقال: «ليُصلَّ أحدُكم من الليل ما تيسر، فإذا غلبه النوم فليرقد»^(٤).

وقال: «اكْلَفُوا من العمل ما تطيقون، فإن الله تعالى لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا»^(٥).

(١) زيادة من (ك).

(٢) غَسَقَ الليل: شدة ظلمته. وفي الإتحاف (٥/١٥٢): «وتستوقظ ظلمته». وتستوسق: تجتمع، وتستوقظ: تتأكد.

(٣) قال العراقي ٣٤٤/١: «رواه الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف»، وانظر: الإتحاف ٥/١٦٠.

(٤) أصله في الصحيح من كتب السنن، صحيح سنن النسائي، رقم ١٥٤٩، باب الاختلاف على عائشة في إحياء الليل.

(٥) صحيح سنن أبي داود، باب ما يؤمر به من القصد في الصلاة، رقم ١٢١٩، من حديث عائشة.

وقيل له: إن فلاتاً يصلّى الليل لا ينام، ويصوم الدهر لا يفطر. فقال ﷺ: «خير هذا الدين أيسره». ثم قال: «لكنى أنا أصلى وأنام، وأصوم وأفطر، فهذه سنتى، فمن رغب عن سنتى فليس منى»^(١).

وقال ﷺ: لا تُشادُوا هذا الدين فإنه متينٌ، فمن يُشادُه يغلبُه، ولا تُبغضْ إلى نفسك عبادة الله عزّ وجلّ^(٢).

والورد الثالث يكون بعد نومة الناس، وهو التهجد؛ الذى ذكره الله فى قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، ولا يكون التهجد إلا بعد النوم، وتلك النومة هى الهجوع، الذى قال الله عزّ وجلّ: من القائمين آناء الليل، فقال تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧]. فالهجوع: النوم، والتهجد: القيام. وقد يقال: الهجود، أيضاً، وهذا يكون نصف الليل.

فهذا أوسط الأوراد، وهو يشبه الورد الأوسط من النهار، فى أفضل أوراده، وهو أفضل الأوراد وأمتعها للعبادة. وقد أقسم الله عزّ وجلّ به فى قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى: ٢]. قيل: إذا سكن، وسكونه: هدوءه وسنة كل عين فيه وغفلتها إلا عين الله تبارك وتعالى، فإنه الحى [القيوم] الذى لا تأخذه سنة ولا نوم. وقيل: إذا سَجَى: إذا امتدّ وطال. ويقال: إذا أظلم. وسئل رسول الله ﷺ: أى الليل أسمع؟ فقال: «جوف الليل الغابر»^(٣).

وروينا فى أخبار داود عليه السلام: إلهى إنى أحبّ أن أتعبّد لك فأى وقت تقبل؟ فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: يا داود لا تقم أولّ الليل ولا آخره؛ فإنه من قام

(١) قال العراقى: «أخرجه النسائى من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله: «هذه سنتى»، وهذه الزيادة لابن خزيمة، وهى متفق عليها من حديث أنس». وهو فى مشكل الآثار، للطحاوى، ٨٨/٢ وغيره.

(٢) هما حديثان، روى البخارى طرقاً منهما من حديث أبى هريرة، انظر فتح البارى ١١٦/١، وروى البيهقى فى سننه من حديث جابر: «إن هذا الدين متين...». وقال العراقى ٣٤٤/١: «ولا يصح إسناده».

(٣) صحيح سنن ابن داود، رقم ١١٣٧.

أَوَّلَهُ نَامَ آخِرَهُ، وَمَنْ قَامَ آخِرَهُ لَمْ يَقُمْ أَوَّلَهُ، وَلَكِنْ قَمِ وَسْطَ اللَّيْلِ، حَتَّى تَخْلُوَ بِي وَأَخْلُوَ بَكَ، وَارْفَعْ إِلَى حَوَائِجِكَ.

والورد الرابع: يكون بين الفجرين، أحدهما الفجر الأول وهو بُدُوْ سُلْطَانِ شِعَاعِ الشَّمْسِ إِذَا ظَهَرَتْ مِنْ وَرَاءِ الْأَرْضِ الْخَامِسَةِ، وَسَطَعَ ضَوْؤُهَا فِي وَسْطِ السَّمَاءِ، حَتَّى يَقْطَعَهَا بِمَقْدَارِ طُلُوعِ الْفَجْرِ الْأَوَّلِ، [فَذَلِكَ الضياءُ الَّذِي يَظْهَرُ فِي السَّمَاءِ فِي الثَّلَاثِ الْأَخِيرِ مِنَ اللَّيْلِ هُوَ الْفَجْرُ الْأَوَّلُ]^(١)، ثُمَّ تَغْرِبُ [الشَّمْسُ] فِي الْفَلَكَ الْأَسْفَلَ الْمُتَجَانِفِ وَتَحْجُبُهَا الْأَرْضُ السَّادِسَةُ، فَيَذْهَبُ [ذَلِكَ] الضَّوْءُ [الَّذِي ظَهَرَ فِي السَّمَاءِ]، وَيَعُودُ سَوَادُ اللَّيْلِ كَمَا كَانَ، لَغِيْبَةُ الشَّمْسِ، وَهُوَ الثَّلَاثُ الْأَخِيرِ.

وفيه وردت الأخبار؛ باهتزاز العرش، وانتشار الرياح من جنّات عدن، ومن نزول الجبار إلى سماء الدنيا. وفيه الخبر الذي جاء أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ: أَيُّ اللَّيْلِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: «نِصْفُ اللَّيْلِ الْغَائِبِ» يَعْنِي: الْبَاقِي.

وهذا هو الورد الرابع من نصف الليل إلى وَقْتِ السَّحَرِ الْأَوَّلِ.

ثم يدخل الورد الخامس: وَهُوَ السَّحَرُ الْأَخِيرُ، وَفِيهِ يُسْتَحَبُّ السُّحُورُ، فَمَنْ لَمْ يَتَسَحَّرْ فِي أَوَّلِهِ بَعَثَهُ الْفَجْرُ، وَهُوَ قَبْلَ طُلُوعِ الْفَجْرِ الثَّانِي بِمَقْدَارِ قِرَاءَةِ جُزْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ.

فِي هَذَا الْوَرْدِ الْخَامِسِ: الْاسْتِغْفَارُ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ، وَقَدْ ذَكَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]. قِيلَ: تَشْهَدُهُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ، لَتَوْسُطَ هَذَا الْوَرْدِ بَيْنَهُمَا.

وَمِنْ ذَلِكَ ذَهَبَ أَهْلُ الْحِجَازِ إِلَى أَنَّ الصَّلَاةَ الْوَسْطَى الَّتِي نَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى [إِفْرَادِ] الْمَحَافِظَةِ عَلَيْهَا هِيَ صَلَاةُ الْفَجْرِ، تَعْظِيمًا لِهَذَا الْوَقْتِ، وَتَشْرِيفًا لَهُ، لَتَوْسُطِهِ بَيْنَ آخِرِ اللَّيْلِ وَأَوَّلِ النَّهَارِ.

(١) من كتاب الغنية، لعبد القادر، ١١٠١/٣، حيث نقل عنه، وكذلك في الموضعين التاليين.

فهذا الوردُ هو أقصر الأورادِ، ومن أفضلها، وهو من السَّحَرِ الأوَّل إلى طُلوع الفجرِ الثاني، إلا ما كان من صلاة نصف الليل، فذلك هو أفضل شيء من الليل، وهو أوسط الأورادِ؛ لأنه هو الورد الثالث.

ويصلح في هذا الورد الخامس من السَّحَرِ الأخيرِ الصَّلَاةُ لمن استيقظ من ساعته، أو لمن تَمَّ به صلاته. فالصَّلَاةُ فيه لها فضلٌ وشرف، وهو بمنزلة الصَّلَاة في أول الليل بين العشاءين. ولأن معنى قوله عزَّ وجلَّ عند بعض المفسرين: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]: أى يُصلون.

وكذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، يعنى به: الصلاة، فكُنِّيَ بذكر^(١) القرآن والاستغفار عن الصلاة؛ لأنهما وصفان منها، كما قيل للصلاة: تسبيحٌ، وَسُبْحَةٌ؛ لأن فيها التسبيح. وكذلك يقال للصلاة: استغفار؛ لأنه يُطلب بها المغفرة.

وتكون هذه الصلاة في السَّحَرِ، بدلاً من السُّجود^(٢) إلى طُلوع الفجرِ الثاني. وقد أمر بها سلمانُ أخاه أبا الدرداء ليلة زاره، في حديث طويل، قال في آخره: «فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم، فقال له سلمان: نم، فنام، ثم ذهب ليقوم فقال له: نم، فنام. فلما كان عند الصبح قال له سلمان: قم الآن، فقاما فصلياً، فقال: «إِنْ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقٌّ، وَإِنْ لَأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقٌّ، وَإِنْ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقٌّ، وَإِنْ لَضِيْفِكَ عَلَيْكَ حَقٌّ، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ».

وذلك أن امرأةَ أبي الدرداء أخبرت سلمان أنه لا ينام الليل، قال: فأتيا النبي ﷺ فذكرا ذلك له، فقال: «صَدَقَ سلمان».

وهذا الورد الخامس يشبه الورد السابع من النهار قبل الغروب، في فضل وقتيهما، وهذا قبل الفجر الثاني.

والفجر الثاني: هو انشقاقُ شفقِ الشمس، وهو بدوُ بياضها، الذى تحته

(١) فى (ط): «بذلك» وأثبت ما فى الإنخاف ١٦٦/٥.

(٢) فى (ط): «السحور» وأثبت ما فى (ك) والإنخاف ١٦٦/٥.

الْحُمْرَة، وَهُوَ الشَّفَقُ الثَّانِي عَلَى ضِدِّ غُرُوبِهَا؛ لِأَنَّ شَفَقَهَا الْأَوَّلَ مِنَ الْعِشَاءِ وَهُوَ الْحُمْرَة بَعْدَ الْغُرُوبِ، وَبَعْدَ الْحُمْرَة الْبَيَاضُ، وَهُوَ الشَّفَقُ الثَّانِي مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ، وَهُوَ آخِرُ سُلْطَانِ الشَّمْسِ. وَبَعْدَ الْبَيَاضِ سَوَادُ اللَّيْلِ وَغَسَقُهُ، ثُمَّ يَنْقَلِبُ ذَلِكَ إِلَى الضُّدِّ، فَيَكُونُ بَدْوً طُلُوعِهَا الشَّفَقُ الْأَوَّلُ وَهُوَ الْبَيَاضُ، وَبَعْدَهُ الْحُمْرَة وَهُوَ شَفَقُهَا الثَّانِي، وَهُوَ أَوَّلُ سُلْطَانِهَا مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، وَبَعْدَهُ طُلُوعُ قَرَصِ الشَّمْسِ.

وَالْفَجْرُ: هُوَ انْفِجَارُ شِعَاعِ الشَّمْسِ مِنَ الْفَلَكَ الْأَسْفَلِ، إِذَا ظَهَرَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ الدُّنْيَا، يَسْتَرِ عَيْنَهَا الْجِبَالُ وَالْبَحَارُ وَالْأَقَالِيمُ الْمَشْرِقَةُ^(١) الْعَالِيَةِ، وَيُظْهِرُ شِعَاعُهَا مَتَشَرًّا إِلَى وَسْطِ السَّمَاءِ عَرْضًا مُسْتَطِيرًا. فَهَذَا آخِرُ الْوَرْدِ الْخَامِسِ، وَعِنْدَهُ يَكُونُ الْوَتَرُ.

فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ فَقَدْ انْقَضَتْ أُرَادُ اللَّيْلِ الْخَمْسَةِ، وَدَخَلَتْ أُرَادُ النَّهَارِ. فَانْظُرْ هَلْ دَخَلْتَ فِي دُخُولِهِ عَلَيْكَ فِي جُمْلَةِ الْعَابِدِينَ، أَمْ خَرَجَ عَنْكَ وَأَنْتَ فِيهِ مِنَ الْغَافِلِينَ؟ وَتَفَكَّرْ أَيْ لِبْسَةَ أَلْبَسَكَ، فَإِنَّ اللَّيْلَ جُعِلَ لِبَاسًا، هَلْ أَلْبَسْتَ فِيهِ حُلَّةَ النَّورِ بِتَقِظِكَ فَتَرِيحَ تِجَارَةِ لَنْ تَبُورَ، أَمْ أَلْبَسَكَ اللَّيْلُ ثُوبًا^(٢) ظَلَمْتَهُ فَتَكُونُ مِمَّنْ مَاتَ قَلْبُهُ بِمَوْتِ جَسَدِهِ بِغَفْلَتِهِ^(٣)؟ [نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سَخَطِهِ وَبُعْدِهِ].

ثُمَّ يَقُومُ الْعَبْدُ حَيْثُذُ فَيُصَلِّي رَكَعَتِي الْفَجْرِ، وَهُمَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطُّور: ٤٩]. قِيلَ: رَكَعَتِي الْفَجْرِ.

ثُمَّ يَقْرَأُ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سَخَطِهِ، وَبَعْدَهُ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٨] إِلَى آخِرِهَا، وَيَقُولُ:

أَنَا أَشْهَدُ بِمَا شَهِدَ اللَّهُ بِهِ لِنَفْسِهِ، وَشَهِدَتْ بِهِ مَلَائِكَتُهُ، وَأَوَّلُو الْعِلْمَ مِنْ خَلْقِهِ. وَأَسْتَدْعِي اللَّهَ الْعَظِيمَ هَذِهِ الشَّهَادَةَ، وَهِيَ لِي عِنْدَ اللَّهِ وَدِيعَةٌ حَتَّى يُؤْذِيَهَا، وَأَسْأَلُهُ حِفْظَهَا حَتَّى يَتَوَفَّانِي اللَّهُ عَلَيْهَا. اللَّهُمَّ احْطُطْ بِهَا عَنِّي وَزَرًا، وَاجْعَلْ لِي بِهَا

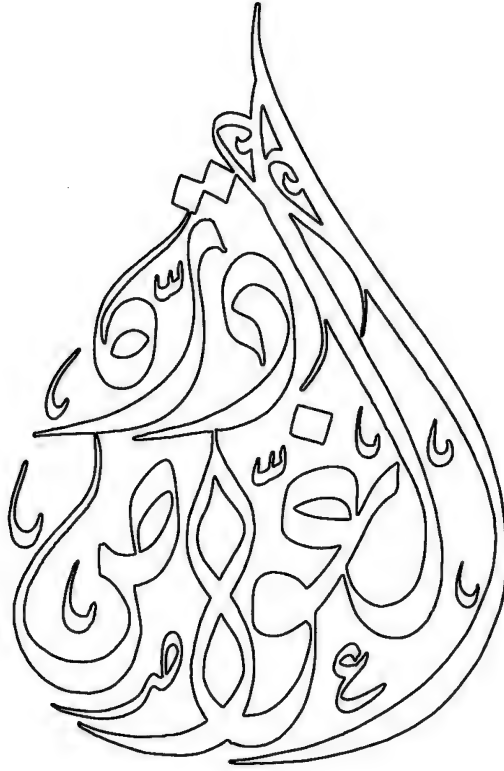
(١) فِي الْمَطْبُوعَةِ: «الْمَسْرُوقَةُ» وَالصَّوَابُ مِنْ (ك) وَالْإِتْحَافُ ١٦٧/٥.

(٢) فِي الْإِتْحَافِ ١٦٨/٥: «ثُوبٌ».

(٣) فِي الْمَطْبُوعَةِ: «بِغَفْلَتِكَ» وَاثْبَتَ مَا فِي الْمَخْطُوطَةِ، وَمَا بَيْنَ الْمَعْكَفَتَيْنِ بَعْدَهَا مِنَ الْإِتْحَافِ ١٦٨/٥.

عندك ذخراً، واحفظني بها، واحفظها عليّ، وتوفني عليها حتى ألقاك بها غير مبدّل تبديلاً.

وأفضل ما عمل العبد في ورد من أوراد الليل والنهار، بعد القيام بفرض يلزمه، أو قضاء حاجة لأخيه المؤمن يعينه [عليها]: الصلاة، بتدبر الخطاب، ومشاهدة المخاطب، فإن ذلك يجمع العبادة كلّها، ثم من بعد ذلك: التلاوة، بتيقظ عقل، وفراغ هم. ثم أي عمل فتح له فيه؛ من فكر، أو ذكر برقة قلب وخشوع جوارح ومشاهدة غيب، فإن ذلك أفضل أعماله في وقته.



الفصل التاسع

**فيه ذكر وقت الفجر، وحكم ركعتيه؛ الأداء والقضاء،
وحكم الوتر، ووقت القضاء له والأداء**

وفى الشهر ليلتان يُعتبر بهما وقتُ الفجر: إحداهما: يطلع القمرُ فيها عند طلوع الفجر الأول، وهى ليلة ستٍ وعشرين. والأخرى: يغيب القمر فيها عند طلوع الفجر، وهى ليلة اثنتى عشرة من الشهر. ومن طلوع الفجر إلى طلوع الشمس مقدارُ ثلثى سُبُع تلك الليلة. وهذا يكون فى الصيف، ويكون فى الشتاء أقلّ من ذلك؛ لأنّه يكون نصفَ سُدسٍ تلك الليلة. وهذا الورد الأول من النهار، ووقت الأداء للوتر من بعد صلاة العشاء الآخرة إلى طلوع الفجر الثانى.

فإذا طلع الفجر الثانى فقد ذهب وقت الأداء، وهو وقت القضاء للوتر، فليصلّ الوترَ حينئذ مَنْ لم يكن أدّاه إلى قبل صلاة الصبح. فإذا صلّى الصبحَ ذهب وقتُ قضاء الوترِ أيضاً.

ووقتُ الأداء لركعتى الفجرِ إذا طلع الفجرُ الثانى، فالمستحب له أن يصليهما فى منزله، وقبل صلاة الغداة. والسنة أن يخففهما، فإذا صلّى الصبح ولم يكن صلاههما فقد ذهب وقت الأداء، وبقي له وقت القضاء، فليُمهل حتى تطلع الشمس، وتحلّ الصلاة، فليُقدِّمها على سُبحة الضحى، وهذا وقت القضاء لركعتى الفجر إلى صلاة الظهر.

فإذا صلّى الظهر، ولم يكن صلاههما، فقد ذهب وقت قضائهما أيضاً. ومن فاتّه وردٌّ من الأوراد فاستحبّ له فعل مثله فى وقته، أو قبله إذا ذكره، لا على وجه القضاء، فإنه لا يَقضى إلا الفرائض، ولكن على وجه التدارك ورياضة النفس بذلك؛ لياخذ بالعزائم؛ كيلا يعتاد التراخى والترخّص؛ ولأجل الخبر المأثور: «أحب الأعمال إلى الله عزّ وجلّ أدومُها وإن قلَّ»^(١).

(١) رواه مسلم، كتاب المسافرين، رقم ٢١٨، وهو فى المسند ١٦٥/٦.

كيف، وفي حديث عائشة رضي الله عنها الوعيدُ على تركِ العادة في العبادة، رَوَتْ عن النبي ﷺ: «من عبد الله تعالى عبادةً ثم تركها ملالةً مَقَّتَهُ اللهُ تعالى»^(١).

وقالت: «كان رسولُ الله ﷺ إذا غلبه النومُ أو عاقه مرضٌ، فلم يَقم في تلك الليلة، صَلَّى من النهار اثنتي عشرة ركعة».

ومن دخل المسجدَ لصلاةِ الصبح، ولم يكن صَلَّى ركعتي الفجرِ في منزله، صلاههما واجزأتا عنه من تحية المسجد. ومن كان قد صلاههما في بيته نظر؛ فإن كان دخوله المسجدَ بَغَلَسَ عند طلوع الفجر واشتباك النجوم صَلَّى ركعتين تحية المسجد، وإن كان دخوله عند انمحاق النجوم ومُسْفِراً عند الإقامة قعداً ولم يصلْ ركعتين؛ لثلا يكون جامعاً بين صلاةِ الصبح وبين صلاةِ قبلها.

ولا يصلي بعد طلوع الفجر الثاني شيئاً إلا ركعتي الفجر فقط.

ومن دخل المسجد ولم يكن صَلَّى ركعتي الفجر، فإن كان قبل الإقامة صلاههما، وإن دخل وقتُ الإقامة وقد افتتح الإمامُ الصلاة، فلا يصليهما، وليدخل في الصلاة المكتوبة فإنه أفضل، والنهي فيه. روينا عن رسول الله ﷺ: «إذا أُقيمت الصلاة فلا صلاةَ إلا المكتوبة»^(٢).

وليقل مَنْ قعدَ في المسجد من غير صلاة ركعتين تحية المسجد: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، هذه الأربع كلمات، يقولها أربع مرات، فإنها عدلُ ركعتين في الفضل.

وكذلك من دخله وكان على غير وضوء، أو مرّ في المسجد عابراً طريقاً.

ومن دخل مسجداً فلا يقعد حتى يصلي ركعتين، وأكره له دخول المسجد والقعود فيه على غير وضوء^(٣).

(١) قال العراقي: «رواه ابن السني في كتاب رياضة المتعبدين موقوفاً على عائشة» الإنحاف ٣/٣٦٢، والإحياء ١/٢٠٥.

(٢) حديث صحيح ورد في معظم كتب السنة، انظر منها: صحيح سنن أبي داود رقم ١١٢٧.

(٣) قد جمع الزبيدي في أمر تحية المسجد أقوالاً ومذاهب وتفسيرات طيبة، راجعها في الإنحاف ٣/٤٥٨ - ٤٦٣.

الفصل العاشر^(١)

فيه كتاب معرفة الزوال، وزيادة الظل ونقصانه بالأقدام
واختلاف ذلك في الصيف والشتاء

قال الله جلّت قدرته: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٥]. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ﴾ الآية إلى قوله: ﴿عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ [الإسراء: ١٢]. وقال سبحانه: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥].

وفي حديث أبي الدرداء وكعب الأحبار، في صفة هذه الأمة: «يراعون الظلال لإقامة الصلاة».

وأحبُّ عبادِ الله إلى الله عزّ وجلّ الذين يراعون الشمس والقمر والأظلة لذكرِ الله عزّ وجلّ.

وقال بعضُ العلماء بالحساب والأثر من أهل الحديث: إنّ الليل والنهار أربعٌ وعشرون ساعة، وإنّ الساعة ثلاثون شعيرةً، يأخذ كلُّ واحدٍ منهما من صاحبه في كل يوم شعيرةً، حتى تُستكمل الساعة في شهر، وبين أولِ الشهر وآخره ثلاثون درجةً، الشمسُ كل يومٍ في درجةٍ.

قال: وتفسيرُ ذلك: أنه إذا مضى من أيلول سبعة عشر يوماً استوى الليل والنهار. ثم يأخذ الليلُ من النهار من ذلك اليوم في كل يوم شعيرةً، حتى يستكمل ثلاثين يوماً، فيزيد ساعة حتى يصير سبعة عشر يوماً من كانون الأول،

(١) معظم هذا الفصل نقله صاحب الإتحاف بنصه ولفظه مع اختلاف يسير في ترتيب بعض الأخبار، انظر: ٣/ ٣٤٠ وما بعدها. وكذلك نقله صاحب الغنية باستبعاد بعض الأخبار والكلام، انظر: الغنية ٣/ ١١٠٥. وكانت هناك اختلافات يسيرة في الألفاظ بين الإتحاف والقوت، أثبت بعضها في الحواشي هنا وأضربت عن البعض.

فينتهى طول الليل وقصر النهار، وكانت تلك الليلة أطول ليلة في السنة وهى خمسة عشر ساعة، وكان ذلك اليوم أقصر يوم في السنة وهو تسع ساعات.

ثم يأخذ النهار من الليل كل يوم شعيرة، حتى إذا مضى سبع عشرة ليلة من آذار استوى الليل والنهار، وكان كل واحد منهما اثنتى عشرة ساعة. ثم يأخذ النهار من الليل كل يوم شعيرة، حتى إذا مضى سبعة عشر يوماً من حزيران كان نهاية طول النهار وقصر الليل، فيكون النهار يومئذ خمس عشرة ساعة، والليل تسع ساعات.

ثم ينقص من النهار كل يوم شعيرة، حتى إذا مضى سبع عشرة ليلة من أيلول استوى الليل والنهار، ثم يعود الحساب على ذلك.

قال: فمواقيت الصلاة من ذلك أن الشمس إذا وقفت فهو قبل الزوال، فإذا زالت بأقل القليل فذلك أول وقت الظهر، فإذا زادت على سبعة أقدام بعد الزوال فذلك أول وقت العصر؛ وهو آخر وقت الظهر.

قال: والذي جاء في الحديث: «إن الشمس إذا زالت بمقدار شراك، فذلك وقت الظهر إلى أن يصير ظل كل شيء مثله، فذلك آخر وقت الظهر وأول وقت العصر»^(١).

وهكذا صلى رسول الله ﷺ في أول يوم، ثم صلى من الغد الظهر حين صار ظل كل شيء مثله، فذلك آخر وقت الظهر وأول وقت العصر، ثم صلى العصر حين صار ظل كل شيء مثليه، وقال: ما بين هذين وقت. فإذا أردت أن تقيس الظل حتى تعرف ذلك، فانصب عوداً، أو قم قائماً في موضع من الأرض مستو، ثم اعرف موضع الظل ومُنتهاه، فخط على موضع الظل خطاً، ثم انظر: أينقص الظل أم يزيد؟

فإن كان الظل ينقص، فإن الشمس لم تزل بعد، ما دام الظل ينقص.

(١) أخرجه أبو داود في سننه بلفظ مختلف، في كتاب الصلاة، باب في المواقيت، انظر صحيح أبى داود رقم ٣٧٧، وذلك من حديث ابن عباس.

فإذا قام الظل، فذلك نصف النهار، ولا يجوز في هذا الوقت الصلاة.

فإذا زاد الظل، فذلك زوال الشمس إلى طول ذلك الشيء الذي قست به طول الظل، وذلك آخر وقت الظهر.

فإذا زاد الظل بعد ذلك قَدَمًا فقد دخل وقت العصر، حتى يزيد الظل طول ذلك الشيء مرةً أخرى، فذلك وقت العصر الثاني.

فإذا قُمتَ قائمًا تريد أن تقيس الظل بطولك، فإن طولك سبعة أقدام بقدمك، سوى قدمك التي تقوم عليها، فإذا قام الظل، فاستقبل الشمس بوجهك، ثم مرَّ إنسانًا يعلم طرفَ ظلك^(١) بعلامة، ثم قس من عقبك إلى تلك العلامة، فإن كان بينهما أقل من سبعة أقدام، سوى ما زالت عليه الشمس من الظل، فإنك في وقت الظهر ولم يدخل وقت العصر؛ حتى يزيد الظل على سبعة أقدام، سوى ما تزول الشمس عليه من الظل، فذلك وقت العصر.

ثم إن الأقدام تختلف في الشتاء والصيف، فيزيد الظل وينقص في الأيام. فمعرفة ذلك: أن استواء الليل والنهار في سبعة عشر يومًا من آذار، فإن الشمس تزول يومئذ وظل الإنسان ثلاثة أقدام. وكذلك ظل كل شيء تنصبه، فإن الشمس تزول يومئذ وظل كل شيء^(٢) ثلاثة أسباعه.

ثم ينقص الظل، وكلما مضت^(٣) ستة وثلاثون يومًا نقص الظل قدمًا، حتى ينتهي طول النهار وقصر الليل في سبعة عشر يومًا من حزيران، فتزول الشمس يومئذ وظل الإنسان نصف قدم، وذلك أقل ما تزول عليه الشمس.

ثم يزيد الظل، فكلما مضت ستة وثلاثون يومًا زاد الظل قدمًا، حتى يستوى الليل والنهار في سبعة عشر يومًا من أيلول، فتزول الشمس يومئذ والظل على ثلاثة أقدام.

(١) في (ط): «ذلك» وأثبت ما في الإتحاف ٣/٣٤١ لانه أدق.

(٢) في الغنية ٣/١١٠٥: «وظل ذلك الشيء».

(٣) في (ط): «أمضى» وأثبت ما في الإتحاف ٣/٣٤١.

ثم يَزِيدُ الظِّلُّ، وكلَّما مضى أربعةَ عشرَ يوماً زاد الظلُّ قَدَمًا، حتى ينتهي طولُ الليلِ وقَصُرَ النهارُ، وذلك في سبعةَ عشرَ يوماً من كانون الأول، فتزول الشمس يومئذ على تسعةِ أقدام ونصفِ قدمٍ، وذلك أكثرُ ما تزولُ الشمسُ يومئذٍ عليه.

ثم كلَّما مضى أربعةَ عشرَ يوماً زاد الظلُّ قَدَمًا، حتى ينتهي إلى سبعةَ عشرَ يوماً من آذار، فذلك استواءُ الليلِ والنهار. وتزول الشمسُ على ثلاثةِ أقدامٍ، وذلك دخولُ الصيفِ.

وزيادة الظِّلِّ ونقصانه الذي ذكرناه، في كل ستة وثلاثين يوماً، قدمٌ في الصيف والقيظ. وزيادته في كلِّ أربعةَ عشرَ يوماً قدمٌ في الربيع والشتاء.

وهذا ذكره بعضُ علماء المتأخرين من أهل العلم بالنجوم.

وقد ذكر غيره من القدماء قريباً من هذا، وذكر زوالَ الشمسِ بالأقدام في شهر تشرين. وخالف هذا في حدين من نهاية الطول والقصر قدمين، فذكر أن أقلَّ ما تزولُ عليه الشمسُ في حُزيران على قدمين، وأن أكثرَ ما تزولُ عليه الشمسُ في كانون ثمانيةِ أقدامٍ.

فكان الأوّل هو أدقّ تحديداً، وأقومُ تحريراً.

وذكر أن الشمسَ تزولُ في أيلول على خَمْسَةِ أقدامٍ، وفي تشرين الأوّل على ستة، وفي تشرين الأخير على سبعة، وفي كانون على ثمانية. قال: وذلك منتهى قصر النهار وطول الليل، وهو أكثرُ ما تزولُ عليه الشمسُ.

قال: ثم ينقص الظل وي زيد النهار؛ فتزول الشمسُ في كانون الأخير على سبعة أقدام، وتزول في شِباط على ستّةِ أقدام، وفي آذار على خَمْسَةِ أقدام، وذلك استواءُ الليلِ والنهار. وتزول في نيسان على أربعةِ أقدام، وتزول في آيار على ثلاثةِ أقدام، وتزول في حُزيران على قدمين. فذلك منتهى طول النهار وقصر الليل، وهو أقلُّ ما تزولُ الشمسُ عليه، فيكون النهار حينئذ خمسَ عشرةَ ساعة، والليل تسعَ ساعات.

وتزول الشمسُ في تموز على ثلاثةِ أقدام، وفي آب على أربعةِ أقدام، وفي

أيلول على خمسة أقدام، وفيه يستوى الليل والنهار^(١).

وقد روينا عن سفيان الثوري رحمه الله [أنه قال]: أكثر ما تزول عليه الشمس تسعة أقدام، وأقل ما تزول عليه قدم [واحدة].

وهذا أقرب إلى القول الأول في التحديد.

وقد جاء في ذكر الأقدام لوقت الصلاة أثر من سنة، فلذلك ذكرنا منها ما شرّحه من عرفه.

روينا عن أبي مالك سعد بن طارق الأشعري، عن الأسود بن زيد، عن ابن مسعود قال: «كان قدر صلاة الظهر مع رسول الله ﷺ في الصيف ثلاثة أقدام إلى خمسة أقدام، وفي الشتاء خمسة أقدام إلى ستة أقدام»^(٢).

وفصل الخطاب: أن معرفة الزوال بهذا التحديد ليس بفرض، ولكن صلاة الظهر بعد تيقن زوال الشمس فرض.

فمتى زالت الشمس بمبلغ علمك، ويقين قلبك، ومنظر عينك، فكانت الشمس على حاجبك الأيمن في الصيف إذا استقبلت القبلة، فقد زالت لا شك فيه، فصل إلى أن يكون ظل كل شيء مثله، فهذا آخر وقت الظهر وأول وقت العصر. ثم صل العصر إلى أن يصير ظل كل شيء مثليه، فهذا آخر وقت العصر المستحب.

ثم إلى أن تصفر الشمس، وتدلى للغروب، فهذا وقت الضرورات، وهو مكروه إلا لمريض أو معذور.

وروى عن النبي ﷺ: «من أدرك من العصر ركعة قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر. ومن أدرك من الصبح ركعة قبل أن تطلع الشمس فقد أدرك الصبح»^(٣).

(١) انظر: الإتحاف ٣/ ٣٤٢.

(٢) شرح السنة للبغوي ٢/ ٢٠٢، والإتحاف ٣/ ٣٤٧.

(٣) أقرب الألفاظ إلى لفظ هذا الحديث هنا ما أخرجه النسائي من حديث أبي هريرة في كتاب المواقيت، باب من أدرك ركعتين من العصر، انظر: صحيح النسائي رقم ٥٠١.

فإذا كانت الشمس على حاجبك الأيسر، وأنت مستقبلُ القبلة في الصيف، فإنَّ الشمسَ لم تزل في مبلغ علمك ومنظر عينك.

فإذا كانت بين عينيك فهو استواؤها في كبد السماء، نظرَ عينك. ويصلح أن تكون قد زالت لقصر النهار، وفي أول الشتاء. وقد لا تكون زالت إذا طال النهار، وتوسط الصيف.

فإذا صارت إلى حاجبك الأيمن، فقد زالت في أيّ وقت كان.

ثم إن هذا يختلف في الشتاء، فإذا كانت على حاجبك الأيسر في الشتاء، وأنت مستقبلُ القبلة، فيصلح أن تكون زالت لقصر النهار، في أول الشتاء. وقد لا تكون زالت إذا امتدَّ النهار، في أول الصيف.

فإذا كانت الشمس بين عينيك في الشتاء فقد زالت لا شكَّ فيه، فصلَّ الظهر. فإذا صارت إلى حاجبك الأيمن، فهذا آخر وقت الظهر في الشتاء، وهو أول وقت الظهر في الصيف. وهذا التقدير إنما هو لأهل إقليم العراق وخراسان؛ لأنَّهم يصلُّون إلى الحجر الأسود وتلقاء الباب من وجه الكعبة.

فأما إقليم أهل الحجاز واليمن، فإنَّ تقديرهم على ضدَّ ذلك، وقبلتهم إلى الركن اليماني، وإلى مؤخر الكعبة. فلذلك اختلف التقدير، وتضادَّ الاختلاف للتوجه إلى شطر البيت، وتفاوت الأمصار في الأقاليم المستديرة حوله، فهذا كان تقدير المتقدمين. وما سوى ذلك من التدقيق والتحرير فمحدث إلا أنه علم لأهله.

ومن أشكل عليه الوقت؛ لجهل بالأدلة، أو لغيم اعترض، فليتحَرَّ بقلبه، ويجتهد بعمله، ولا يصلِّ صلاةً إلا بعد تيقن دخول وقتها، وإن تأخر ذلك فهذا أفضل حينئذ. ولكن قد جاء في الخبر: «ثلاث من مناقب الإيمان: الصيام في الصيف، وإسباغ الوضوء في الشتاء، وتعجيل الصلاة في يوم دجن»^(١).

(١) لم أعثر عليه، ولا يوجد بلفظه، وإن كانت هناك أحاديث في بيان فضيلة الصيام في يوم شديد الحر، وإسباغ الوضوء على المكاره، وتعجيل الفطر. وقوله «يوم دجن»: يقصد به لباس الغيم الأرض وأقطار السماء.

ومن أمثال العرب: «يوم الدَّجَن يُضرب فيه عَبْدُ السُّوء».

هذا؛ لأن الوقتَ في الغيم كأنه يقصر لغيبه الشمس، فيغفل الإنسان عن مراعاة الوقت، أو يتشاغل عنه؛ لأن الفرائض لا تُقبل إلا عن يقين، فأداؤها بعد دخول الوقت على اليقين أفضل من أدائها في الوقت على الشك. ألم تسمع إلى قوله ﷺ: «إِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَأَكْمِلُوا عِدَّةَ شَعْبَانَ ثَلَاثِينَ»^(١)؟ فترك الاحتياط لليقين.

ومن صلى وهو يرى أنه الوقت، أو توجه إلى القبلة فيما يعلم، ثم تبين له بعدُ أنه صلى قبل الوقت، أو صلى لغير القبلة، نظر: فإن كان في الوقت أو بعده قليلاً أعاد الصلاة احتياطاً، وإن كان الوقت قد خرج فلا شيء عليه، وهو معفو الخطأ، وأحبُّ أن يعيد تلك الصلاة متى ذكرها.

وقال بعض العلماء: للشمس سبعة أزولة. ثلاثة منها لا يعلم بها البشر:

الزوال الأول: نزوله^(٢) عن قُطْبِ الْفُلْكِ الْأَعْلَى، لا يشهده ولا يعلمه إلا الله عز وجل.

والزوال الثاني: عن وَسَطِ الْفُلْكِ لا يعلمه من خَلَقَ الله تعالى إلا خُزَّانُ الشَّمْسِ الْمُوَكَّلُونَ بها، الذين يرمونها بجمالِ الثَّلْجِ ليسكن حرَّها، ويحتسبون شعاعها عن العالمين، ويسوقونها على العجلة المركَّبة في الفلك.

والزوال الثالث: يعلمه ملائكة الأرض.

ثم إن الزوال الرابع: يكون على ثلاث دقائق، وهو رُبْعُ شَعِيرَةٍ، والشعيرة: جزء من اثني عشر جزءاً من ساعة، فهذا الزوال تعرفه الفلاسفة من المنجمين أهل العلم بمساحة الفلك، وتركيب الأفلاك فيه، وتقدير سير الشمس في الشتاء والصيف في فلكها منه، فيقومون ذلك بالنظر في المرتجلات^(٣) الطالعة على التقويم.

فإذا زالت الشمسُ الزوالَ الخامسَ نصفَ شعيرةٍ، وهي ست دقائق، عرف

(١) روى كثيراً بالفاظ متقاربة، انظر: صحيح سنن النسائي من رقم ١٩٩٧ إلى رقم ٢٠١١.

(٢) في المطبوعة: «نزوله» وأثبت ما في الإتحاف ٣/ ٣٤٠ والمخطوط.

(٣) في الإتحاف ٣/ ٣٤٠: «المرتجلات» بالحاء المهملة.

زوالها أهل الحساب والتقويم بالإسطرلاب الطالع.

فإذا زالت شعيرة، وهو الزوال السادس المشترك، وهو جزء من اثني عشر جزءاً من ساعة، عَرَفَ زَوَالُهَا علماء المؤذنين وأصحاب مراعاة الأوقات.

فإذا زالت ثلاث شعيرات، فهو الزوال السابع، وهو ربع ساعة، عرف الناس كلهم زوالها، وعند هذا الوقت صلاة الكافة، وهو أوسط الوقت وأوسع، وذلك واسع برخصة الله سبحانه وتعالى ورحمته.

وهذا كله؛ لُبْعَدِ مَنْصَبِ السَّمَاءِ؛ ولاستواء تقويم صنعتهما في الأفق الأعلى؛ ولإِتْقَانِ^(١) صنعتهما في الجو المتخرق علواً، وفي الأقطار المتسعة المستديرة استواءً واملِئِسا^(٢).

وقد يروى في الخبر أن النبي ﷺ سأل جبريلَ عليه السلام فقال: «هل زالت الشمس؟ فقال: لا، نعم. فقال: كيف هذا؟ فقال: بين قولي لك: لا، نعم، قطعت الشمس في الفلك خمسين ألفَ فرسخ»^(٣). فكان النبي ﷺ سألَه عن زوالها على علم الله سبحانه وتعالى به.

وقد قال بعضُ الفلاسفة: إن السماء تدور كما تدور الرحي، فتدير الأفلاك بدورانها على القطب، ولكن لا يُرى ذلك منها، لبعدها وعلوها وتقويم استدارتها.

وقد ذكره بعض العلماء من السلف، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وذكر بعضُ العارفين أعجب من هذا وألطف، من قدرة الله عز وجل وخفيّ صنعه، ذكر: أن الليل والنهار أربعة وعشرون ساعة، وأن الساعة اثنتا عشرة دقيقة، كلُّ دقيقة اثنتا عشرة شعيرة، وكلُّ شعيرة أربعة وعشرون نفساً. فتظهر الأنفاسُ من خزانة الجسم، فتُنشئُ الشعائر، وتنشأ الشعائر فتُظهر الدقائق، فتنتج

(١) في الإتحاف ٣/ ٣٤٠: «ولاتفاق».

(٢) في المطبوعة: «ومتناسباً» وأثبت ما في الإتحاف ٣/ ٣٤٠.

(٣) قال عنه العراقي ٤/ ٤٤٥: «لا أصل له»، وانظر: الغنية ٣/ ١١٠٨.

الساعات، وتحرك الساعات فتدير الأفلاك، وتدور الأفلاك فتُنشر الليل والنهار في الجو والأقطار، ويُنشر الليل والنهار فتدير السماء في الآفاق، وينعقد الحساب بالتفصيل. فإذا خفي الإحساس انقطعت الأنفاس، فانفكت الأفلاك، فعندها تنتشر النجوم، وتنشق السماء، وتخرّب الديار، وتظهر دار القرار.

فسبحان الله ألطف الصّانعين وأقدر القادرين.

وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١ - ٢]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ [الطور: ٩] يعنى: تدور دوراً. فسبحان اللطيف الحكيم، أدار تلك الأفلاك الكثاف بهذه الأنفاس اللطاف، كما حجب الفلك الكثيف بستر الفضاء اللطيف، فالفلك العظيم لا يحجب السماء، والفضاء الرقيق يحجب الفلك؛ لأنه أراد سبحانه وتعالى أن يرينا السماء، وأحب أن يخفى عنا الفلك، فلم نر إلا ما أَرانا.

فالعبدُ هو سبب لذلك، ومحرك لذلك، ولا يشعر بذلك، فمدارُه أنفاسُه، وأنفاسُه ساعاتُه، وساعاتُه عمرُه، وعمرُه أجلُه، وأجلُه آخرتُه، وهو في غفلة بدنيّاه، وفي لعب بما يهواه. فإن نظرت إلى السماء رأيتها تُنشىء الأنفاس، وإن نظرت إلى الأنفاس رأيتها تُدير الأفلاك، وإن نظرت إلى فوقِ فوقِ عَميتَ عما سواه. فلا إله إلا هو ربُّ العرش العظيم، ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]، ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠ - ٢١]، ﴿فَلَا أُفْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨ - ٣٩]، ﴿سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ [الاعلى: ١٠ - ١١].

فأما صلاة المغرب فأفضل ما صلّيت فيه إذا تدلّى حاجِبُ الشمسِ الأعلى، وهو غيبتها عن الأبصار. روى عن عمر رضى الله عنه أنه آخر صلاة المغرب ليلة حتى طلع نجم، فأعتق رقبة.

وروينا عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه أخر المغرب حتى طلع كوكبان، فأعتق رقتين.

وأفضل ما صليت فيه عشاء الآخرة إذا غاب البياض الغربى، وأظلم مكانه، وهو الشفق الثانى إلى ما بعد ذلك، فتأخيرها أفضل إلى ربع الليل ما لم تنم، والنوم قبلها مكروه شديد.

ووقت حسن فى سنة أن تَصَلَّى بِمِقْدَارِ غِيْبَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ ثَلَاثٍ مِنَ الشَّهْرِ، وهذا يكون بعد سُبْعٍ وَنِصْفٍ مِنَ اللَّيْلِ؛ لَأَنَّا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ «كَانَ يَصَلَّى الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ لِسُقُوطِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ ثَلَاثٍ».

وأفضل ما صليت فيه صلاةُ الصبح إذا طلعَ الفجرُ الثانى، وهى الصلاةُ الوسطى، التى أفرد الله تبارك وتعالى محافظتها؛ لأنها تختص بمعانٍ ثلاث من التوسط لا توجد فى سائر الصلوات، منها: أنها بين الليل والنهار، والثانى: أنها بين صلاتين من صلاة الليل وصلاتين من صلاة النهار، والثالث: أنها متوسطة بين صلاتي جهر وصلاتي مخافتة. وأيضاً: فإنها أقصر الصلاة عدداً؛ لا ثلاثاً، ولا أربعاً.

فلما اختصت بتوسط هذه المعانى دون غيرها، كانت هى الوسطى.

وأيضاً فإن الله تعالى نص على ذكر الفجر فى قوله عز وجل: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]. وقيل فى تفسير ذلك: تشهده ملائكة الليل والنهار. فكان هذا ذكراً لها بوصف آخر، توكيداً للمحافظة عليها.

فإن صحَّ الخبرُ عن رسولِ الله ﷺ: «شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى صَلَاةِ الْعَصْرِ»^(١) بطل ما قلناه، وثبت قولُ رسولِ الله ﷺ؛ لأنه هو الحق، وبه نقول، ولا أحسب الخبرَ إلا ثابتاً. فقد جاء بأشدَّ اليقين: أخبرنا أن النبى ﷺ سئل عنها،

(١) نعم صحَّ عن رسولِ الله ﷺ فى حديث متفق عليه أخرجه البخارى ومسلم من حديث عبد الله ابن مسعود، باب ما فى الصلاة الوسطى، رقمه فى مسلم: ٦٢٨، وورد فى كثير من كتب السنة.

فقال: «هى التى شُغل عنها أخى سليمان حتى توارت بالحجاب».

والسنة أن تقرأ فى صلاة الصبح بسورة من المثنى، أو بطوال المفضل، لأنها قُصرت وعُوض عنها طول القيام.

فإن كان أجمع للمُصلين وأكثر لعددِهِم إذا توسّط الوقت، فحسن، قبل أن تَمَحِقَ النجوم. فأما أن يُسفر حتى ينتشر البياض تحت الحمرة، وذلك هو شىء من شعاع الشمس، فلا، وإن كثروا فصلاتها بغلَسٍ فى القليل أفضل.

والمحافظة على أوائل الأوقات من كل صلاة من أفضل الأعمال، إلا ما ذكرناه من تأخير صلاة العشاء الآخرة، للأثر فيه عن رسول الله ﷺ: «فضل الصلاة فى أول الوقت على الصلاة فى آخر الوقت كفضل الآخرة على الدنيا»^(١).

وفى الخبر: «إن العبد ليُصلى الصلاة فى آخر وقتها، ولما فاته من الوقت الأول خير له من الدنيا وما فيها».

والخبر المشهور أن النبى ﷺ سئل: «أى الأعمال أفضل؟ فقال: الصلاة لوقتها».

وقد جاء فى الأثر: «الوقت الأول رضوان الله عز وجلّ، والوقت الأخير عفو الله تبارك وتعالى». قيل: فرضوان الله عز وجلّ يكون للمحسنين، وعفو الله سبحانه وتعالى يكون عن المقصرين.

والوقت الأول من كل صلاة: من عزيمة الدين، وطريقة المقيمين للصلاة المحافظين، والوقت الثانى: رخصة فى الدين، وسعة من الله عز وجلّ، ورحمة للغافلين.



(١) أخرجه أبو نعيم من حديث ابن عمر مرفوعاً فى أخبار أصبهان ٢ / ٢٠ بسند ضعيف، انظر: إرواء الغليل ١ / ٢٩٠.

الفصل الحادى عشر

فيه كتاب فضل الصلاة فى الأيام والليالي^(١)

• ذكر ما جاء فى صلاة النهار من الفضائل:

روينا عن أبى سلمة، وعن أبى هريرة، قالا: قال رسول الله ﷺ: «إذا خرجت من منزلك فصل ركعتين، يمنعك مخرج السوء. وإذا دخلت إلى منزلك فصل ركعتين، يمنعك مدخل السوء»^(٢).

وعن سعيد بن أبى سعيد الطويل، سمع أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ أنه قال فى صلاة الصبح: «من توضع ثم توجه إلى مسجد يصلى فيه الصلاة، كان له بكل خطوة حسنة، ومحا عنه سيئة، والحسنة بعشر أمثالها. فإذا صلى ثم انصرف عند طلوع الشمس كتب له بكل شعرة فى جسده حسنة، وانقلب بحجة مبرورة. فإن جلس حتى يركع كتب الله له بكل جلسة ألف ألف حسنة، ومن صلى العتمة فله مثل ذلك، وانقلب بحجة وعمرة مبرورة»^(٣).

وعن عطاء بن يسار، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «من صلى أربع ركعات بعد زوال الشمس، يحسن قراءتهن وركوعهن وسجودهن، صلى معه سبعون ألف ملك، يستغفرون له حتى الليل»^(٤).

ولم يكن رسول الله ﷺ يدع أربعاً بعد الزوال، يطيلهن ويقول: «إن أبواب

(١) انظر أيضاً: الإحياء ٣٦١/١ فصل بيان الأيام والليالي الفاضلة، ١٩٢/١ باب النوافل من الصلوات. والغنية ١٢١٤/٣ وما بعدها.

(٢) صحيح الجامع الصغير، رقم ٥٠٥.

(٣) قال عنه العراقى: «لم أجد له أصلاً بهذا السياق» انظر: الإنحاف ١٢٧/٥. وقال الزبيدى: «بل له أصل أخرجه ابن عساكر فى التاريخ... بمثل سياق المصنف...» وسنده ضعيف جداً.

(٤) قال العراقى ١٩٣/١: «ذكره عبد الملك بن حبيب بلاغاً من حديث أبى مسعود، ولم أره من حديث أبى هريرة»، وانظر: الإنحاف ٣٣٦/٣.

السَّمَاءِ تُفْتَحُ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ، وَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ لِي فِيهَا عَمَلٌ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فِيهِنَّ سَلَامٌ فَاصِلٌ. قَالَ: لَا»^(١).

وروى عنه ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا صَلَّى أَرْبَعًا قَبْلَ الْعَصْرِ»^(٢).

(ذِكْرُ صَلَاةِ يَوْمِ الْأَحَدِ):

رَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ صَلَّى يَوْمَ الْأَحَدِ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، يقرأ فِي كُلِّ رَكَعَةٍ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَأَمَّنَ الرَّسُولُ، مَرَّةً، كَتَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بَعْدَ كُلِّ نَصْرَانِيٍّ وَنَصْرَانِيَّةٍ حَسَنَاتٍ، وَأَعْطَاهُ ثَوَابَ نَبِيٍّ، وَكَتَبَ لَهُ حِجَّةٌ وَعُمْرَةٌ، وَكَتَبَ لَهُ بِكُلِّ رَكَعَةٍ أَلْفَ صَلَاةٍ، وَأَعْطَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْجَنَّةِ بِكُلِّ حَرْفٍ مَدِينَةً مِنْ مِثْلِكَ أَذْفَرُ»^(٣).

ورويَا عَنْ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «وَحَدِّثُوا اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِكَثْرَةِ الصَّلَاةِ فِي يَوْمِ الْأَحَدِ، فَإِنَّهُ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى وَاحِدٌ أَحَدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَمَنْ صَلَّى يَوْمَ الْأَحَدِ بَعْدَ صَلَاةِ الظُّهْرِ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ وَالسَّنَةِ، قَرَأَ فِي الرُّكْعَةِ الْأُولَى فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَتَنَزِيلَ السُّجْدَةِ، وَفِي الثَّانِيَةِ: فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَتَبَارَكَ الْمَلِكُ، ثُمَّ تَشَهَّدَ وَسَلَّمْ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ آخَرَيْنِ قَرَأَ فِيهِمَا: فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَسُورَةَ الْجُمُعَةِ، وَسَأَلَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَاجَتَهُ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَقْضَى حَاجَتَهُ، وَيَبْرَأَهُ مِمَّا كَانَتْ النَّصَارَى عَلَيْهِ»^(٤).

(ذِكْرُ صَلَاةِ يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ):

روينا عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ صَلَّى يَوْمَ

(١) فِي صَحِيحِ سَنَنِ ابْنِ مَاجَه ١٩٠ / ١ رَقْم ٩٥٠ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَيُّوبَ، بَلْفِظٍ يَخْتَلِفُ عَنْ هَذَا اللَّفْظِ، وَدُونَ قَوْلِهِ: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ... إلخ»، وَرَوَى حَدِيثَهُ أَيْضًا بِالْفَافِ مَخْتَلِفَةً فِي الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ ٢٠٠ / ٤، وَمُسْنَدُ أَحْمَدَ ٤٢٠ / ٥، وَقَرِيبٌ مِنْ هَذِهِ الرِّوَايَةِ مَا وَرَدَ فِي الْكَتَنِزِ رَقْم ٢١٧٦٥.

(٢) صَحِيحُ سَنَنِ التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ، رَقْم ٣٥٤.

(٣) قَالَ الْعِرَاقِيُّ ١٩٧ / ١: «أَخْرَجَهُ أَبُو مُوسَى الْمَدِينِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ»، وَانْظُرْ: الْإِتْحَافَ ٣٧٢ / ٣ - ٣٧٣.

(٤) قَالَ الْعِرَاقِيُّ ١٩٧ / ١: «ذَكَرَهُ أَبُو مُوسَى الْمَدِينِيُّ بِغَيْرِ إِسْنَادٍ».

الاثنين عند ارتفاع النهار ركعتين، يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرةً، وآية الكرسي مرةً، و ﴿قل هو الله أحد﴾ مرةً، والمعوذتين مرةً، فإذا سلّم استغفر الله عزّ وجلّ عشر مرات، وصلى على النبي ﷺ عشر مرات، غفر الله عزّ وجلّ له ذنوبه كلها^(١).

ثابت البناني، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى يوم الاثنين اثنتي عشرة ركعة، يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسي، مرةً، فإذا فرغ من صلاته قرأ اثنتي عشرة مرة: ﴿قل هو الله أحد﴾، واستغفر الله اثنتي عشرة مرةً، يُنادى به يوم القيامة: أين فلان ابن فلان، ليقيم، فيأخذ ثوابه من الله عزّ وجلّ، فأول ما يُعطى من الثواب ألف حُلّة، ويُتوّج، ويقال له: ادخل الجنة، فيستقبله مائة ألف ملك، مع كل ملك هدية، يسعون به حتى يدور على ألف قصرٍ من نور يتلأأ^(٢)».

(ذكر صلاة يوم الثلاثاء)

يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى يوم الثلاثاء عشر ركعات عند انتصاف النهار، يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسي، مرةً، و ﴿قل هو الله أحد﴾، ثلاث مرات، لم يُكتب عليه خطيئة إلى سبعين يوماً، فإن مات إلى سبعين يوماً مات شهيداً وغُفر له ذنوب سبعين سنة^(٣)».

(ذكر صلاة يوم الأربعاء)

أبو إدريس الخولاني، عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى يوم الأربعاء اثنتي عشرة ركعة عند ارتفاع النهار، يقرأ: فاتحة الكتاب، و ﴿قل هو الله أحد﴾، ثلاث مرات، والمعوذتين، ثلاث مرات، نادى به ملك عند العرش: يا عبد الله، استأنف العمل، فقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك، ودفع الله عزّ وجلّ

(١) قال العراقي ١/ ١٩٨: «أخرجه أبو موسى المديني من حديث جابر عن عمر مرفوعاً، وهو حديث منكر»، وانظر: الإتحاف ٣/ ٣٧٣ - ٣٧٤.

(٢) قال العراقي ١/ ١٩٨: «ذكره أبو موسى المديني بغير سند، وهو منكر».

(٣) قال العراقي ١/ ١٩٨: «أخرجه أبو موسى المديني بسند ضعيف»، وانظر: الإتحاف ٣/ ٣٧٥.

عنه عذاب القبر وضيقه وظلمته، ودفع عنه شدائد القيامة، ورفع له من يومه عمل نبي^(١).

(ذكر صلاة يوم الخميس):

روينا عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى يوم الخميس ما بين الظهر والعصر ركعتين، يقرأ في الركعة الأولى: فاتحة الكتاب، مرة، ومائة مرة: آية الكرسي. وفي الركعة الثانية: فاتحة الكتاب، مرة، ومائة مرة: ﴿قل هو الله أحد﴾، ويصلي على النبي مائة مرة، أعطاه الله عز وجل ثواب من صام رجب وشعبان ورمضان، وكان له من الثواب مثل حاج البيت، وكتب له بعدد كل من آمن بالله عز وجل وتوكل عليه»^(٢).

(ذكر صلاة يوم الجمعة):

روينا عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضى الله عنه، عن أبيه، عن جده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يوم الجمعة صلاة كله، ما من عبد مؤمن قام إذا استقلت الشمس وارتفعت قيد رُمح أو أكثر من ذلك، فتوضأ، ثم أسبغ الوضوء، فصلّى تسبيحة الضحى ركعتين، إيماناً واحتساباً، كتب الله له مائتي حسنة، ومحا عنه مائتي سيئة. ومن صلى أربع ركعات رفع الله تبارك وتعالى له في الجنة أربعمائة درجة. ومن صلى ثمانى ركعات رفع الله له في الجنة ثمانمائة درجة، وغفر الله له ذنوبه كلها. ومن صلى اثنتى عشرة ركعة كتب الله عز وجل له ألفاً ومائتي حسنة، ومحا عنه ألفاً ومائتي سيئة، ورفع له في الجنة ألفاً ومائتي درجة»^(٣).

أبو صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى الصبح يوم

(١) قال العراقي ١/ ١٩٨: «أخرجه أبو موسى المدينى، وقال: رواه ثقات، والحديث مركب. قلت: بل فيه غير مسمى، وهو محمد بن حميد الرزارى، أحد الكذابين»، وانظر: الإتحاف ٣/ ٣٧٥ - ٣٧٦، والكاشف رقم ٤٨٧٩.

(٢) قال العراقي ١/ ١٩٨: «أخرجه أبو موسى، وسنده ضعيف جداً».

(٣) قال العراقي ١/ ١٩٨: «لم أجد له أصلاً، وهو باطل».

الجمعة في جماعة، ثم جلس في المسجد يذكر الله سبحانه وتعالى حتى تطلع الشمس، كان له في الفردوس الأعلى سبعون درجة، بعد ما بين الدرجتين حُضْرٌ^(١) الجواد المُضمر سبعين سنة. ومن صَلَّى صلاة الجمعة في جماعة، كان له في الفردوس خمسون درجة، حُضْرُ الجواد خمسين سنة. ومن صَلَّى العصر في جماعة فكأنما أعتق ثمانية من ولد إسماعيل كلهم رب بيت. ومن صَلَّى المغرب في جماعة فكأنما حجّ حجة مبرورة وعمره متقبلة.

نافع، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «من دخل الجامع يوم الجمعة، فصلّى أربع ركعات قبل صلاة الجمعة، قرأ في كل ركعة: الحمد، مرة، و ﴿قل هو الله أحد﴾، خمسين مرة، فإنه لا يموت حتى يرى مقعده في الجنة، أو يرى له»^(٢).

(ذكر صلاة يوم السبت):

سعيد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من صَلَّى يوم السبت أربع ركعات، يقرأ في كل ركعة: فاتحة الكتاب، مرة، و ﴿قل يا أيها الكافرون﴾، ثلاث مرات، فإذا فرغ وسلّم قرأ آية الكرسي، كتب الله له بكل حرف حجة وعمره، ورفع له بكل حرف أجر سنة؛ صيام نهارها وقيام ليلها، وأعطاه الله عزّ وجلّ بكل حرف ثواب شهيد، وكان تحت ظل عرشه مع النبيين والشهداء»^(٣).

(فضل صلاة الجماعة):

أبو كامل، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «من صَلَّى أربعين يوماً في جماعة لا تفوته التكبير الأولى مع الإمام، كتب الله عزّ وجلّ له براءتين: براءة من النار، وبراءة من النفاق»^(٤).

(١) حُضْرُ الجواد: ارتفاعُ القَرَسِ في عدوّه.

(٢) قال العراقي ١/ ١٩٩: «أخرجه الدارقطني في غرائب مالك، وقال: لا يصح».

(٣) قال العراقي ١/ ١٩٩: «أخرجه أبو موسى المديني بسند ضعيف جداً».

(٤) العلل المتناهية، لابن الجوزي، ١/ ٤٣٥.

• ذكر ما جاء في صلوات الليل وما دخل فيه من الصلاة بين العشاءين:

(صلاة ليلة الأحد):

عن مختار بن فلفل، عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلى ليلة الأحد عشرين ركعة، قرأ في كل ركعة: الحمد لله مرة، و ﴿قل هو الله أحد﴾ خمسين مرة، والمعوذتين مرة، ثم استغفر الله عز وجل مائة مرة، واستغفر لنفسه ولوالديه مائة مرة، وصلى على النبي [مائة مرة]، وتبرأ من حوله وقوته، والتجأ إلى حَوْلِ الله عز وجل وقوته، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن آدم صفوة الله تبارك وتعالى وفطرته، وإبراهيم خليل الله، وموسى كليم الله، وعيسى روح الله، ومحمداً ﷺ حبيب الله تبارك وتعالى، كان له من الثواب بعدد من دعا الله عز وجل ولداً، ومن لم يدعُ الله عز وجل ولداً، وبعثه الله تبارك وتعالى يوم القيامة مع الآمين، وكان حقاً على الله سبحانه وتعالى يوم القيامة أن يدخله الجنة مع النبيين»^(١).

(فضل صلاة ليلة الاثنين):

روينا عن الأعمش، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى ليلة الاثنين أربع ركعات، قرأ في الركعة الأولى: الحمد لله، و ﴿قل هو الله أحد﴾، عشر مرات، وفي الركعة الثانية: الحمد لله، و ﴿قل هو الله أحد﴾، عشرين مرة، وفي الركعة الثالثة: الحمد، مرة و ﴿قل هو الله أحد﴾ ثلاثين مرة، وفي الركعة الرابعة: الحمد مرة، و ﴿قل هو الله أحد﴾ أربعين مرة، ثم تشهد وسلم، وقرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ خمساً وسبعين مرة، واستغفر الله لنفسه ولوالديه خمساً وسبعين مرة، وصلى على محمد خمساً وسبعين مرة. ثم سأل الله سبحانه وتعالى حاجته، كان حقاً على الله عز وجل أن يؤتيه سُؤله ما سأل»^(٢). وهي تُسمى صلاة الحاجة.

(١) قال العراقي ١/١٩٩: «ذكره أبو موسى المديني بغير إسناد، وهو منكر»، وانظر: الإنحاف ٣/٣٧٨.

(٢) قال العراقي ١/١٩٩: «ذكره أبو موسى المديني بغير إسناد»، وانظر: الأسرار المرفوعة، لعلّ القاري، ص ٤٢٢.

القاسم بن عبد الرحمن، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى ليلة الاثنين ركعتين، يقرأ في كل ركعة: فاتحة الكتاب، و ﴿قل هو الله أحد﴾، خمس عشرة مرة، و ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾، خمس عشرة مرة، و ﴿قل أعوذ برب الناس﴾، خمس عشرة مرة، ويقرأ بعد التسليم خمس عشرة مرة: آية الكرسي، ويستغفر الله سبحانه وتعالى خمس عشرة مرة، جعل الله عز وجل اسمه في أصحاب الجنة وإن كان من أصحاب النار، وغفر له ذنوب السرّ وذنوب العلانية، وكتب له بكل آية قرأها حجة وعُمره، وإن مات ما بين الاثنين إلى الاثنين مات شهيداً»^(١).

(ذكر صلاة ليلة الثلاثاء):

في الخبر: «من صلى ليلة الثلاثاء اثنتي عشرة ركعة، يقرأ في كل ركعة: فاتحة الكتاب مرة، و ﴿إذا جاء نصر الله﴾ خمس عشرة مرة، بنى الله له بيتاً في الجنة عرضه وطوله وسع الدنيا سبع مرات»^(٢).

(صلاة ليلة الأربعاء):

في الخبر: «من صلى ليلة الأربعاء ركعتين، يقرأ في أول ركعة: فاتحة الكتاب مرة، و ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ عشر مرات، وفي الركعة الثانية: فاتحة الكتاب مرة، و ﴿قل أعوذ برب الناس﴾ عشر مرات، نزل من كل سماء سبعون ألف ملك يكتبون ثوابه إلى يوم القيامة»^(٣).

(فضل صلاة ليلة الخميس):

أبو صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى ليلة الخميس ما بين المغرب والعشاء ركعتين، يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب، وآية الكرسي،

(١) ذكره الزبيدي في الإتحاف ٣/ ٣٧٩، ولم يتعرض له.

(٢) الإتحاف ٣/ ٣٨٠. وقال ابن الجوزي: «المتهم بصلاة ليلة الثلاثاء هو الجوزقاني، وهو الذي وضع حديثها».

(٣) الفوائد المجموعة، للشوكاني، ص ٤٦، والإتحاف ٣/ ٣٨٠، وأشار ابن الجوزي إلى أن صلاة ليلة الأربعاء من وضع الجوزقاني.

خمس مرات، و ﴿قل هو الله أحد﴾ خمس مرات، والمعوذتين خمس مرات، فإذا فرغ من صلاته استغفر الله تبارك وتعالى خمس عشرة مرة، وجعل ثوابه لوالديه، فقد أدى حقهما وإن كان عاقاً لهما، وأعطاه الله تعالى ما يعطى الصديقين والشهداء»^(١).

(فضل صلاة ليلة الجمعة):

أبو جعفر محمد بن علي، عن جابر، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ صَلَّى ليلة الجمعة بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة، يقرأ في كل ركعة: فاتحة الكتاب مرة، و ﴿قل هو الله أحد﴾ إحدى عشرة مرة، فكأنما عبد الله سبحانه وتعالى اثنتي عشرة سنة، صيام نهارها وقيام ليلها»^(٢).

وروينا عن كثير بن سليم، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى ليلة الجمعة العشاء الآخرة في جماعة، وصلى ركعتي السنة، ثم صلى بعدهما عشر ركعات، قرأ في كل ركعة: الحمد مرة، و ﴿قل هو الله أحد﴾ مرة، والمعوذتين مرة، ثم أوتر بثلاث ركعات، ونام على جنبه الأيمن ووجهه إلى القبلة، فكأنما أحيا ليلة القدر»^(٣).

وقال النبي ﷺ: «أَكْثَرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِي اللَّيْلَةِ الْغَرَاءِ وَالْيَوْمِ الْأَزْهَرِ»^(٤) يعني: ليلة الجمعة، ويوم الجمعة.

(فضل صلاة ليلة السبت):

عن كثير بن شنظير، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ صَلَّى ليلة

(١) الفوائد المجموعة، ص ٤٦، وأشار ابن الجوزي إلى أن هذه الصلاة من وضع الجوزقاني. وانظر: الإنحاف ٣/ ٣٨١.

(٢) قال العراقي ٢٠٠ / ١: «باطل لا أصل له».

(٣) قال العراقي ٢٠٠ / ١: «باطل لا أصل له» وقال: «وليس يصح في أيام الأسبوع ولياليه شيء، والله أعلم».

(٤) قال العراقي ٢٠٠ / ١: «رواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة، وفيه عبد المنعم بن بشير، ضعفه ابن معين وابن حبان»، وانظر: ضعيف الجامع الصغير رقم ١١٠٦، والعلل المتناهية ص ٥٨٩، وإرواء الغليل ١/ ٣٤ - ٣٥.

السبت بين المغرب والعشاء اثنتى عشرة ركعة، بنى الله له قصرًا فى الجنة، وكأثمًا تصدق على كل مؤمن ومؤمنة، وتبرًا من اليهودية، وكان حقًا على الله عز وجل أن يغفر له»^(١).

• ذكر فضل الصلاة بين العشاءين وما يختص به ذلك الوقت فى كل ليلة،

روينا عن سليمان التيمى أن رجلاً حدثه قال: قيل لعبيد مولى رسول الله ﷺ: «هل كان رسول الله ﷺ يأمر بالصلاة غير المكتوبة؟ قال: ما بين المغرب والعشاء».

أبو صخر، سمع محمد بن المنكدر يحدث عن النبى ﷺ قال: «مَنْ صَلَّى ما بين المغرب والعشاء فإنها من صلاة الأوابين»^(٢).

عبد الرحمن بن الأسود، عن أبيه قال: ما أتيتُ عبدَ الله بن مسعود فى تلك الساعة إلا وجدته يصلى، فقلتُ له فى ذلك، فقال: نعم، ساعة الغفلة. يعنى بين المغرب والعشاء.

وسئل مولى رسول الله ﷺ: أى شىء كان يصنع النبى ﷺ بين المغرب والعشاء إذا دخل منزله؟ قال: يصلى.

ثابت البنانى قال: كان أنس بن مالك يصلى بين المغرب والعشاء، ويقول: هى ناشئة الليل^(٣).

حدثنا عن فضيل بن عياض، عن أبان بن أبى عياش قال: سألت امرأة أنس بن مالك فقالت: إني أرقد قبل العشاء، فنهاها وقال: نزلت هذه الآية فيما بينهما: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦].

حدثنا أحمد بن أبى الحوارى قال: قلت لأبى سليمان الدارانى: أصومُ النهارَ وأقعدُ أتعشى بين المغرب والعشاء أحبَّ إليك، أو أفطرُ النهارَ وأحىي ما بينهما؟

(١) قال العراقى ٢٠٠ / ١: «لم أجده أصلاً»، وانظر: الإتحاف ٣ / ٣٨٢.

(٢) قال العراقى ١٩٧ / ١: «أخرجه ابن المبارك فى الرقائق مرسلاً»، وانظر الزهد، لابن المبارك، ص ٤٤٥ رقم ١٢٥٩.

(٣) انظر: الإتحاف ٥ / ١٨١.

فقال: إن جمعتهما فهو أفضل. قلت: فإن لم يتيسر لى. قال: فأفطر بالنهار وصل بين المغرب والعشاء.

هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن أفضل الصلوات عند الله عز وجل صلاة المغرب، لم يحطها عن مسافر ولا مقيم، فتح بها صلاة الليل وختم بها صلاة النهار، فمن صلى المغرب وصلى بعدها ركعتين بنى الله له قصرين في الجنة لا أدري من ذهب أو فضة، ومن صلى بعدها أربع ركعات غفر الله له ذنوب عشرين سنة، أو قال: أربعين سنة»^(١).

أبو سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى ست ركعات بعد المغرب عدلت له عبادة سنة، أو كأنه أحيا ليلة القدر»^(٢).

سعيد بن جبیر، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «من عكف نفسه ما بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة، لم يتكلم إلا بصلاة أو قرآن، كان حقاً على الله سبحانه وتعالى أن يبنى له قصرين في الجنة، مسيرة كل قصر منهما مائة عام، ويغرس له بينهما غراساً لو طافه أهل الدنيا لوسعهم»^(٣).

محمد بن الحجاج سمع عبد الكريم بن الحارث يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «من ركع عشر ركعات ما بين المغرب والعشاء بنى الله له قصرًا في الجنة. فقال عمر: إذا تكثر قصورنا يا رسول الله؟! قال: الله أكبر وأفضل، أو قال: وأطيب»^(٤).

أبو عائشة السعدى وأبو حفص العوفى، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله

(١) قال العراقى ٣٥١/١: «رواه الطبرانى فى الأوسط مختصراً، وإسناده ضعيف»، وانظر: الإنحاف ١٧٩/٥، وجمع الجوامع رقم ٦٢٤٥.

(٢) إلى قوله: «عبادة سنة» فى سنن ابن ماجه رقم ١٣٧٤، وهو فى ضعيف سنن ابن ماجه رقم ٢٨٩، ولفظه ثم: «عبادة اثنتى عشرة سنة»، أما قوله: «كأنه أحيا ليلة القدر» قال العراقى ٣٥٢/١: «فهو من قول كعب الأحبار من حديث ابن عباس، رواه الديلمى فى الفردوس بسند ضعيف».

(٣) قال العراقى ٣٥٢/١: «لم أجد له أصلاً من هذا الوجه».

(٤) رواه ابن المبارك فى الزهد مرسلًا، رقم ١٢٦٤.

ﷺ: «مَنْ صَلَّى الْمَغْرِبَ فِي جَمَاعَةٍ، ثُمَّ صَلَّى بَعْدَهَا رَكَعَتَيْنِ، وَلَمْ يَتَكَلَّمْ بِشَيْءٍ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا، يَقْرَأُ فِي الرُّكْعَةِ الْأُولَى بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، وَعَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ الْبَقَرَةِ، وَآيَتَيْنِ مِنْ وَسْطِهَا، وَهُمَا: ﴿وَالْهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ، وَ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ خَمْسَ عَشْرَ مَرَّةً، ثُمَّ يَرْكَعُ وَيَسْجُدُ، فَإِذَا قَامَ إِلَى الرُّكْعَةِ الثَّانِيَةِ قَرَأَ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ وَآيَةَ الْكَرْسِيِّ، وَآيَتَيْنِ بَعْدَهَا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وَثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ الْبَقَرَةِ، مِنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ [البقرة: ٢٨٤] إِلَى آخِرِهَا، وَ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ خَمْسَ عَشْرَةَ مَرَّةً، بَنَى لَهُ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ أَلْفُ مَدِينَةٍ مِنَ الدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ، فِي كُلِّ مَدِينَةٍ أَلْفُ قَصْرِ، فِي كُلِّ قَصْرٍ أَلْفُ دَارٍ، فِي كُلِّ دَارٍ أَلْفُ حَجْرَةٍ، فِي كُلِّ حَجْرَةٍ أَلْفُ صَفَّةٍ، فِي كُلِّ صَفَّةٍ مِنْهَا أَلْفُ خِيْمَةٍ، فِي كُلِّ خِيْمَةٍ أَلْفُ سَرِيرٍ مِنْ أَصْنَافِ الْجَوَاهِرِ، عَلَى كُلِّ سَرِيرٍ أَلْفُ فِرَاشٍ؛ بِطَائِنِهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَظَوَاهِرِهَا مِنْ نُورٍ مُنْضَدٍّ، وَأَلْفُ مَرْفَقَةٍ^(١) مِنْ هَذَا الطَّرَفِ مِنَ السَّرِيرِ، وَأَلْفُ مَرْفَقَةٍ مِنَ الطَّرَفِ الْآخَرِ، فَوْقَ تِلْكَ الْفُرْشِ زَوْجَةٌ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ لَا تُوصَفُ بِشَيْءٍ إِلَّا زَادَتْ عَلَيْهِ جَمَالًا وَكَمَالًا، لَا يَرَاهَا مَلِكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ إِلَّا افْتَتَنَ بِحُسْنِهَا، قَدْ مَلَأَ مَأْكُمَتَاهَا^(٢) مَا بَيْنَ طَرَفِي السَّرِيرِ، عَلَى كُلِّ زَوْجَةٍ مِنْهُنَّ أَلْفُ حُلَّةٍ لَا تَوَارِي حُلَّةً حُلَّةً، وَلَا تَوَارِي الْحُلُلُ كُلُّهَا الْجُلْدَ، يُرَى بَعْضُهَا مِنْ تَحْتِ بَعْضٍ، كَمَا يُرَى السِّلْكُ مِنَ الْيَاقُوتَةِ، وَكَمَا يُرَى الشَّرَابُ الْأَحْمَرُ مِنَ الزَّجَاجَةِ الْبَيْضَاءِ، لِكُلِّ زَوْجَةٍ مِنْهُنَّ أَلْفُ وَصِيفٍ، وَمِائَةُ أَلْفٍ جَارِيَةٍ، وَمِائَةُ أَلْفٍ قَهْرْمَانٍ، عَلَى قُصُورِهَا وَضِيَاعِهَا، هَذَا لَهَا خَاصَةٌ سِوَى خَدَمِ زَوْجِهَا، فِي كُلِّ خِيْمَةٍ مِنْهُنَّ نَهْرٌ مِنَ التَّسْنِيمِ، وَنَهْرٌ مِنَ الْكُوثَرِ، وَعَيْنٌ مِنَ الْكَافُورِ، وَعَيْنٌ مِنَ الزَّنَجِيلِ، وَعَيْنٌ مِنَ السَّلْسِيلِ، وَغُصْنٌ مِنْ شَجَرَةِ طُوبَى، وَغُصْنٌ مِنْ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، فِي كُلِّ خِيْمَةٍ أَلْفُ مَائِدَةٍ مِنَ الدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ، أَدْنَى مَائِدَةٍ مِنْهَا مِثْلُ اسْتِدَارَةِ الدُّنْيَا مَرَّتَيْنِ، عَلَى كُلِّ مَائِدَةٍ مِنْهَا أَلْفُ صَحْفَةٍ، صَحَافٌ مِنْ

(١) مُنْضَدٌّ: بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ. الْمَرْفَقَةُ: الْمَتَكَا وَالْمَخْدَةُ، وَقَدْ تَرَفَّقَ وَارْتَفَقَ: تَوَكَّأَ.

(٢) الْمَأْكَمَةُ: الْعَجِيزَةُ. وَالْمَأْكَمَتَانِ: اللَّحْمَتَانِ اللَّتَانِ عَلَى رِءُوسِ الْوَرَكَيْنِ.

ذهب مكلّلة بالدّر والجوهر، في كل صفحة منها مائة ألف لون من طعام مختلف، طعمه ولونه وريحه، يعطى الله سبحانه وتعالى وليّه المؤمن من القوّة ما يأتي على تلك الأطعمة، ومثلها من الأشربة، ويأتى على أولئك الأزواج كلهنّ، في مقدار يوم من أيام الدنيا»^(١).

فسبحان الملك الوهابِ القادرِ على ما يشاء، ربّ العالمين.

عبد الرحمن بن منصور، عن سعد بن سعيد، عن كُرْزِ بن وَبَرَةَ قال: وكان وبرة من الأبدال، قال: قلت للخضر عليه السلام: علّمني شيئاً أعمله في ليلي. فقال: إذا صليتَ المغرب فقمْ إلى صلاة العشاء الآخرة مصليّاً من غير أن تكلم أحداً، وأقبلْ على صلاتك التي أنت فيها، وسلّم في كل ركعتين، واقرأ في ركعة بفاتحة الكتاب مرة، و ﴿قل هو الله أحد﴾ سبع مرات، فإذا فرغت من صلاتك انصرف إلى منزلك ولا تكلم أحداً، وصلّ ركعتين واقرأ بفاتحة الكتاب، مرة، و ﴿قل هو الله أحد﴾ سبع مرات، في كل ركعة. ثم اسجد بعد تسليمك، واستغفر الله سبحانه وتعالى سبع مرات، وصلّ على النبي ﷺ سبع مرات، وقل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، سبع مرات. ثم ارفع رأسك من السجود، واستو جالساً، وارفع يديك وقل:

يا حيُّ، يا قيومُ، يا ذا الجلال والإكرام، يا إله الأولين والآخرين، يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، يا ربّ، يا ربّ، يا ربّ، يا الله، يا الله، يا الله.

ثم قم وأنت رافع يديك، واذعُ بهذا الدعاء، ثم نم حيث شئت مستقبل القبلة

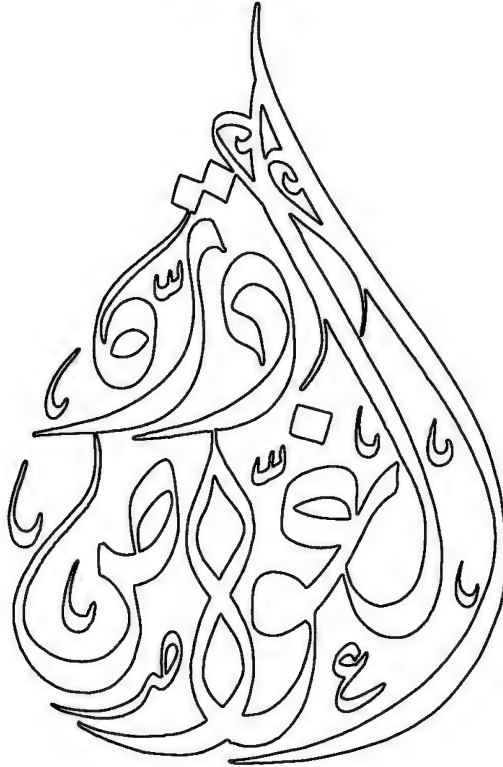
(١) اكتفى الغزالي في الإحياء من هذا الحديث إلى قوله: «خمس عشرة مرة» وعلّق العراقي على هذا الجزء من الحديث بقوله ٣٥٢/١: «أخرجه أبو الشيخ في الثواب من رواية زياد بن ميمون عنه مع اختلاف يسير، وهو ضعيف»، ولم يتعرض للحكم على بقية الحديث، وذكر الزبيدي جزءاً مما ذكره أبو طالب هنا وعلّق قائلاً ١٨٠/٥: «ولوائح الوضع ظاهرة عليه».

قلت: رحم الله أبا طالب المكي، لم يكن في حاجة إلى إيراد مثل هذه الأحاديث الموضوعة والتي لا تهم المسلم في عمله، وبخاصة أنه ذكر في بعض مواضع من كتابه أنه لا يهتم بذكر فضائل الأعمال.

على يمينك، وصلّ على النبي ﷺ، وأدم الصلاة عليه حتى يذهب بك النوم. فقلت له: أحب أن تُعلمني ممّن سمعت هذا الدعاء. فقال: إني حضرت محمداً ﷺ حيث علّم هذا الدعاء، وأوحى إليه، وكنتُ عنده، وكان ذلك بمحضِ منّي، فتعلمته ممّن علّمه إياه^(١).

ويقال: إن هذه الصلاة وهذا الدعاء ممّن داوم عليه بحسن يقين وصدق نية، رأى رسول الله ﷺ في منامه قبل أن يخرج من الدنيا، وقد فعل ذلك بعض الناس فرأى أنه دخل الجنة، ورأى فيها الأنبياء، ورأى رسول الله ﷺ وكلمه وعلمه.

ولهذا فضائل كثيرة اختصرناها للإيجاز.



(١) قال العراقي ٣٥٢/١: «وهذا باطل لا أصل له»، وقال الزبيدي: «ولم يثبت عند المحدثين في لقاء الخضر للنبي ﷺ شيء نفيًا ولا إثباتًا» انظر: الإنحاف ١٨١/٥. وقد مرّ قريباً طرف من هذه المسألة.

الفصل الثاني عشر

فى ذكر الوتر وفضل الصلاة بالليل

عن مبارك بن عوف الأحمسى، عن عمر بن الخطاب، قال: إن الأكياس الذين يُوترون أول الليل، وإن الأقوياء يوترون آخر الليل، وهو أفضل.

وقد روى فى خبر: «أن رسول الله ﷺ سأل أبا بكر رضى الله عنه: متى توتر؟ فقال: من أول الليل، قبل أن أنام. وقال لعمر رضى الله عنه: متى توتر؟ فقال: من آخر الليل. فقال لأبى بكر: حذر هذا، وقال لعمر: قوى هذا»^(١).

وفى بعض الأخبار أنه قال لأبى بكر: «مثلك كالذى قال: أحرزت نهى وأبتغى النوافلا، وقال لعمر: إنك لقوى مكين».

ورويانا عن عثمان رضى الله عنه أنه قال: أما أنا فأوتر أول الليل، فإذا استيقظتُ صليتُ ركعة شفعت بها وترى، فما شبهتهما إلا كالغريبة من الإبل ضممتهما إلى أخواتها، ثم أوترت من آخر صلاتى. والمشهور عنه من فعله أنه كان يحى الليل كله بركعة واحدة يختم فيها القرآن، وهى وتره.

ورويانا عن على عليه السلام أنه قال: الوتر على ثلاثة أنحاء: إن شئت أوترت أول الليل، ثم صليت ركعتين ركعتين. وإن شئت أوترت بركعة، فإذا استيقظت شفعت إليها أخرى ثم أوترت من آخر الليل. وإن شئت أخرت الوتر حتى يكون آخر صلاتك.

وفى حديث ابن عمر: «صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة».

وهذا أحب الوجوه إلى.

(١) مسند أحمد ٣/٣٠٩، ومعجم الطبرانى الكبير ١٧/٣٠٣، وموارد الظمان للهشمي ص ٦٧٣.

وقال مجاهد: قال عبد الله بن عمر: من صَلَّى أربعاً بعد العشاء، كُنَّ كَعْدَلَهُنَّ من ليلة القَدَرِ. قال حصين: فذكرت ذلك لإبراهيم فقال: كان عبد الله بن مسعود يكره أن تُتَّبَعَ كُلَّ صلاةٍ بِمِثْلِهَا، وكانوا يصلون العشاء، ثم يصلون ركعتين، ثم أربعاً. فَمَنْ بدا له أن يوتر أوتر، ومن أراد أن ينام نام.

وقال رسول الله ﷺ: «أوتروا يا أهل القرآن من كلِّ الليل».

وقالت عائشة رضي الله عنها: «قد أوتر رسول الله ﷺ من أوله، وأوسطه، وانتهى وتره إلى السَّحَر».

وفى الخبر: «كان رسول الله ﷺ يوتر عند الأذان، ويصلي ركعتين عند الإقامة»^(١).

وسأل رجلٌ عليّاً عليه السلام عن وقت الوتر فسكت عنه، ثم خرج إليهم عند الأذان لصلاة الفجر، فقال: أين السائل عن الوتر؟ هذا وقت وترٍ حسن.

أبو أمامة عن عمرو بن عبسة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ أقربَ ما يكونُ الربُّ عزَّ وجلَّ من العبدِ جوفَ الليلِ الأخيرِ، فإن استطعت أن تكونَ ممَّن يذكُر اللهَ سبحانه وتعالى في تلك السَّاعة فكُنْ»^(٢).

أبو ذر الغفاري قال: «قلت: يا رسول الله، أيُّ الليلِ الصَّلَاةُ فيه أفضل؟ قال: نصفُ الليلِ الغابر»^(٣) يعني: الباقي.

وسأل رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام: «أيُّ الليلِ أسمع؟ فقال: إن العرشَ يهتزُّ من السَّحَر»^(٤).

وقد روى في الخبر: «إنَّ في الليلِ ساعةً لا يوافقها عبدٌ مسلمٌ يسأل الله خيراً إلا أعطاه».

(١) مسند أحمد ١/٨٧، ١١١.

(٢) صحيح سنن النسائي، رقم ٥٥٧.

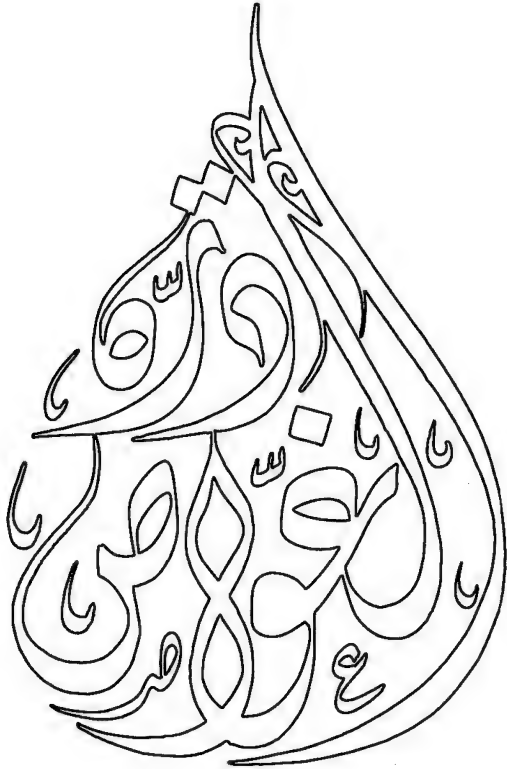
(٣) الكامل لابن عدي ٣/١٢١، ١٢٢.

(٤) مستدرک الحاكم ٣/٣٨.

وروى في خبر آخر: «يصلى أو يدعو إلا استجاب له». وهى فى كل ليلة.
ويقال: إن فى الليل وقتًا لا بدّ أن يُنام فيه، أو تغفل كلُّ ذى عين، إلا الحى
الذى لا يموت، فلعلها هذه الساعة.

وروى عن النبى ﷺ: «إذا مضى نصفُ الليلِ - وفى لفظ آخر: إذا بقى ثلثُ
الليل الأخير - نزل الجبارُ سبحانه وتعالى إلى السماء الدنيا، فقال: لا يسأل عن
عبادى غيرى، هل من تائب فأتوبَ عليه؟ هل من مستغفر فأغفرَ له؟ هل من داعٍ
فأستجيبَ له؟ هل من سائل فأعطيه؟ كذلك حتى يطلع الفجر»^(١).

وفى حديث عمرو بن عبسة: «عليك بصلاة آخر الليل، فإنها مشهودة
محضورة»، يعنى: يحضرها ملائكةُ الليل وملائكةُ النهار.



(١) المعجم الكبير للطبرانى ٤٤/٥، ٤٥، وانظر: الكنز، رقم ٣٣٩٠، ٣٠١٤٧.

الفصل الثالث عشر

فيه كتاب جامع لما يستحب أن يقول العبد إذا استيقظ من نومه للتهجد، وفي يقظته عند الصباح ^(١)

ليقل إذا استيقظ من منامه بكرةً: أصبحنا وأصبح الملكُ لله، والعظمة لله، والسلطان لله، والبهاء لله، والقدرة لله، والعزة لله، والتسيح لله، أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد ﷺ، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين. الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النشور.

اللهم إنا نسألك أن تبعثنا في يومنا هذا إلى كل خير، ونعوذ بك أن نخترح فيه سوءاً أو نجره إلى مسلم، فإنك قلت: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام: ٦٠].

اللهم فالق الإصباح، وجاعل الليل سكناً، والشمس والقمر حسباناً، أسألك خيراً هذا اليوم وخيراً ما فيه، وأعوذ بك من شره وشر ما فيه.

بسم الله، ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، ما شاء الله، كلُّ نعمة من الله، ما شاء الله، الخَيْرُ كُلُّهُ بيد الله، بسم الله، لا يَصْرَفُ السَّوْءَ إِلَّا اللهُ، رَضِيتُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ رَبًّا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير. وليقرأ المعوذتين.

فإذا أمسى قال مثل ذلك كله، إلا أنه يقول: أمسينا وأمسى الملك لله عز وجل، أسألك خيراً هذه الليلة.

ولا يدع أن يقول في كل ليلة: بسم الله الذي لا يضرُّ مع اسمه شيءٌ في

(١) راجع في مثل هذا: الإحياء ١/ ٣٥٠ - ٣٦٠، والغنية ٣/ ١٠٥٦ وما بعدها.

الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم. أعوذ بكلمات الله التامات وأسمائه كلها من شرِّ ما ذراً وبرا، ومن شرِّ كلِّ ذي شرٍّ، ومن شرِّ كلِّ دابةٍ أنت آخذٌ بناصيتها. إن ربيَّ على صراطٍ مستقيم.

وإن قلَّ دخوله الخلاء عند وقت السَّحَر كان أفضل؛ كيلا يشغله عن الذكر، يجعل ذلك في آخرِ النهار أو من أول الليل، فقد فعل ذلك كثيرٌ من الصالحين، وهو حسن، إلا أن دخول الخلاء عند الصَّباح أصلحٌ للجسد من جهة الطب، وأنظفٌ للطهارة، سيما لمن يأكل بالنهار.

• ذكر ما يستحب من القول إذا أخذ العبد مضجعه للنوم؛

ليقل: «باسمك ربِّي وضعتُ جنبي، وباسمك أرفعه. اللهم إن أمسكت نفسي فاغفر لها وارحمها، وإن أرسلتها فاعصمها واحفظها بما تحفظُ به عبادك الصالحين».

وعلم رسول الله ﷺ البراء بن عازب أن يقول إذا أخذ مضجعه ليلاً: «اللهم إني وجهتُ وجهي إليك، وفوضتُ أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رهبةً ورغبةً إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنتُ بكتابك الذي أنزلت، وبرسولك الذي أرسلت»^(١).

وروى عن النبي ﷺ أنه كان يقول عند النوم: «اللهم قنني عذابك يوم تبعث عبادك»^(٢).

وأنه أمر أن يقال: «الحمدُ لله الذي علّا فقَهراً، الحمدُ لله الذي بطنَ فجبراً، الحمدُ لله الذي ملكَ فقَدراً، الحمدُ لله الذي هو يحيى الموتى، وهو على كلِّ شيءٍ قدير»^(٣).

(١) انظر: السلسلة الصحيحة، رقم ٢٨٨٩، وصحيح الأدب المفرد، بتحقيق الألباني، رقم ٩٢٠.

(٢) السلسلة الصحيحة، رقم ٢٧٥٤.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي الدرداء، وقال الهيثمي: «وفيه أبو جناب الكلبي وهو فيف» المجمع ١٠/١٢٤، والترغيب ١/٤١٧.

وليقُلْ بعد ذلك: اللهم إني أسألك الراحةَ بعد الموت، والعفوَ عند الحساب، اللهم إني أعوذُ بك من غَضَبِكَ، وسوءِ عقابِكَ، وشرِّ عبادِكَ، وشرِّ الشياطين وشرِّكِهِمْ.

وليقرأ: خمساً من أول سورة البقرة، وثلاثاً من آخرها، وآية الكرسي، والآيتين اللتين بعدها.

وليقرأ قوله عز وجل: ﴿وَالِهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، والآية التي بعدها إلى قوله تعالى: ﴿لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. ويقال: من قرأ هذه الآية عند منامه حَفِظَ عليه القرآن فلم يَنْسَهُ.

ولا يدع أن يقرأ آخر الإسراء؛ الآيتين: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ...﴾، وهذه الآية من سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فإنه يدخل في شعاره^(١) مَلَكٌ يُوَكَّلُ بحفظه، ويستغفر له. وليقرأ الخمسَ آيات من أول سورة الحديد، والثلاث من آخر سورة الحشر، و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، والمعوذتين، وينثُرُ بهنَّ في يديه، ويمسح بهما وجهه وسائر جسده. كذلك روى عن النبي ﷺ من قوله وفعله.

وليقرأ عشراً من أول الكهف، وعشرًا من آخرها. وهذه الآي لقيام الليل. وأمر رسول الله ﷺ بقراءة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ عند النوم. وكان عليه الصلاة والسلام يقول: «ما أرى أن رجلاً مستكملَ عقله، ينامُ قبل أن يقرأ الآيتين من [آخر] سورة البقرة ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾»، وليقل: اللهم أيقظني في أحب الساعات إليك، واستعملني بأحب الأعمال لديك، التي تقربني إليك زلفى، وتبعدني من سخطك بعداً، أسألك فتعطيني، وأستغفرك فتغفر لي، وأدعوك فتستجيب لي. اللهم لا تؤمِّنني مكرَك، ولا تولِّني غيرك، ولا ترفعْ عني سترك،

(١) الشعار: ما ولى جسد الإنسان دون ما سواه من الثياب.

ولا تُنسني ذكرك، ولا تجعلني من الغافلين.

يقال: من قال هذه الكلمات عند نومه أهبط الله سبحانه وتعالى ثلاثة أملاك يوقظونه للصلاة، فإن صلى ودعا آمنوا على دعائه، وإن لم يقم تعبّدت الأملاك في الهواء وكتب له ثواب عبادتهم.

وليسبح ثلاثاً وثلاثين مرة، وليحمد ثلاثاً وثلاثين مرة، وليكبر أربعاً وثلاثين مرة، وإن شاء ربّعها خمساً وعشرين مرة، وزاد فيها التهليل، وإن شاء قال: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، خمساً وعشرين مرة، فهنّ يجمعن له مائة كلمة، وهو أخفّ عليه للمداومة.

وقد أمر رسول الله ﷺ بذلك، وندب إليه في أدبار الصلوات الخمس، وعند النوم.

وروينا عن مطرف عن الشعبي عن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ آخر ما يقول حين ينام وهو واضع خدّه على يده اليمنى، وهو يرى أنّه مقبوض^(١) في تلك الليلة: اللهم ربّ السموات السبع، وربّ العرش العظيم، ربّنا وربّ كلّ شيء، منزل التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان، فالحق الحبّ والنوى، أعوذ بك من شرّ كل دابة أنت آخذ بناصيتها. اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عني الدين وأغنني من الفقر».

فهذا جامع ما يُستحبُّ من قراءة الآي والدعاء عند النوم.

(١) قولها «وهو يرى أنّه مقبوض»: أي يوطّن نفسه ﷺ أن هذه آخر ليلة له في الدنيا، وكذا أمر أمته بتقصير الأمل، وأن يدعو المسلم قبل نومه دعاء من يفارق الحياة، وسيجيئ التنبيه على ذلك من أبي طالب.

• ذكر هيئة العبد عند النوم، وأهيته للمضجع، ومعنى الاعتبار بذلك لذوى الأبصار،

يُستحبُّ للعبد أن ينامَ على طهارةٍ سابعةٍ، وإلا مسح أعضائه بالماء مسحاً، وقد كانوا يستحبُّون السَّواك عند النوم، [كما يستحبُّونه عند الاستيقاظ]^(١)، فكان رسولُ الله ﷺ يفعلُه، وكان بعضُ السلف يجعل عند رأسه سواكَه وطهورَه، فإذا تعارَّ^(٢) من الليل استاك، ومسح أعضائه بالماء مسحاً، وذكر الله عزَّ وجلَّ بالتلاوة والتسبيح، ثم رقد. وكانوا يعدُّون هذا يعدل قيامَ الليل^(٣). وقد روى هذا الخبر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وعن غيره.

وروينا عن رسول الله ﷺ نحوه، وأنه كان يستاك في كلِّ ليلة مراراً عند كلِّ قومةٍ من نومه^(٤).

فليعدَّ العبد طهورَه وسواكَه عند رأسه، وينوى قيامَ الليل، فأى وقت استيقظ توضأ وصلَّى، أو قعد فقراً، أو دعا وذكر الله عزَّ وجلَّ واستغفره، أو تفكَّر^(٥) في آلائه وعظمته ومعاني قدرته. ففي أى وجه أخذ من هذه الأذكار والأفكار^(٦) فقد استعمل بذلك، وفيه قربة إلى الله عزَّ وجلَّ، وهو فضلٌ من الله تعالى ورحمةٌ عليه.

ولا ينبغي للعبد أن يبيت وله شيء يوصى فيه إلا ووصيته مكتوبة عنده، فإنه لا يأمن القبضَ والوفاة. وقد ندب رسولُ الله ﷺ إلى ذلك في قوله: «لا ينبغي لعبد أن ينام ليلتين وله شيء يوصى فيه إلا ووصيته مكتوبة عنده»^(٧).

(١) ساقطة من (ط) وأثبتها من (ك).

(٢) في (ط): «إذا انتبه»، وأثبت ما في (ك).

(٣) في (ط): «وكانوا يذكرون الله عز وجل بالتلاوة والتسبيح في تقلبهم ويعدون هذا يعدل قيام الليل» وأثبت عبارة (ك).

(٤) انظر مسند أحمد ٤١٧/٥، وكتاب الطهارة في مسلم وغيره.

(٥) عبارة (ك) باللام المؤكدة: «فليتوضأ... أو ليتفكر».

(٦) في (ط): «ففى أى وجه أخذ من هذه المعانى فهو ذكر».

(٧) صحيح في كتب السنة باختلاف يسير، أخرجه البخارى، كتاب الوصايا، رقم ١٥، ومسلم، كتاب الوصية، رقم ١، ٤، وغيرهما.

ويقال: من مات عن غير وصية لم يؤذن في الكلام في البرزخ إلى يوم القيامة^(١)، تتزاور الأموات ويتحدثون وهو لا يتكلم فيما بينهم إلى يوم القيامة، فيقول بعضهم لبعض: هذا المسكين مات عن غير وصية. فيكون ذلك حسرةً عليه بينهم، [وذلك أن] موتَ الفجأة تخفيفٌ ومستحبٌ للمؤمن الفقير للشواب، الذي لا مال له، ولا دين عليه. فأما المثلث بالدين، أو المخلط في الدين، أو من له مال [وعليه دين]، أو هو مُصرٌّ على مَطل^(٢)، فإنَّ موتَ الفجأة لهؤلاء عقوبةٌ ومكروه. ولا ينبغي للعبد أن يبيتَ إلا تائبًا من كلِّ ذنبٍ، سليم القلب لجميع المسلمين، لا يحدث نفسه بظلم أحدٍ، ولا يعقد على خطيئة إن استيقظ. وقد جاء في الخبر: «من أوى إلى فراشه، لا ينوى ظلمَ أحدٍ ولا يحقد على أحدٍ، غُفر له ما اجترَم»^(٣).

وليستقبل في نومه القبلة. واستقبال القبلة على ضربين: إن كان مستلقيًا، فاستقباله القبلة أن يكون وجهه إليها مع أخمص قدميه، كحال الميت المسجى. وإن كان نائمًا على جنبٍ فاستقبال القبلة أن يكون وجهه إليها مع شقه الأيمن، كهيئة الملحد في قبره، فسيصير إليه عن قريب. وليذكر [العبد] بنومه على هذين الحالين [ذينك الحالين]^(٤) عند موته، وحين اضطجاعه في قبره، [فيصير إليها عن قريب فلا يسهى]. وقد قال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾ [المسلمات: ٢٥ - ٢٦] في أحد الوجهين، وهو مذهب أهل التفسير، أى: يجمعهم أحياءً على ظهرها، وأمواتًا في بطنها.

وقد جعل الله سبحانه وتعالى النومَ من آياته الدالة على [وحدانيته] لأهل

(١) روى شيء من هذا مرفوعاً من حديث قيس بن قبيصة بلفظ: «من لم يوص لم يؤذن له في الكلام مع الموتى...» قال الزبيدي ١٥٩/٥: «رواه أبو الشيخ في كتاب الوصايا».

(٢) عبارة (ك): «فأما المثلث المخلط أو المصر أو الذى له مال».

(٣) قال العراقي ٣٤٢/١: «رواه ابن أبي الدنيا في كتاب السنة من حديث أنس بلفظ مختلف وسنده ضعيف»، وانظر: الإتحاف ١٥٩/٥.

(٤) ساقطة من (ط) وكذا المواضع الآتية والتي سبقت، فإني لا ألزم الإشارة إليها في كل موضع، حتى لا يشغل بها القارئ.

السَّمْع منه، [والاستجابة له] ^(١)، وهو سمع اليقين، وقرنه بالابتغاء من فضله، فقال عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: ٢٣].

وكان فقراء أهل الصِّفة وبعض زهاد التابعين إذا رقدوا لا يجعلون بينهم وبين الأرض شيئاً. كان أحدهم يباشر التراب بجلده، ويطرح ثوبه فوقه، ويقول: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥]، كأنهم كرهوا الترفع عليها والوقاية منها، يجدون ذلك أرق لقلوبهم، وأبلغ في تواضعهم.

ومثل النوم عند أهل الاعتبار مثل البرزخ هو بين الدنيا والآخرة، كذلك النوم بين الحياة والموت، فإذا كُشف حجاب النوم ظهرت الدنيا بالحكمة، وكذلك إذا كُشف الغطاء ظهرت الآخرة بالقدرة، فصارت الدنيا كالأحلام في النوم، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

وكان بعضهم يقول: عجباً لمن يعصى الله عز وجل ثم ينام بعد ذلك. وذكر بعض العلماء عن الله عز وجل: إن كنتم تعصوني فاخرجوا من بساتي، ولا تناموا في قبضتي.

وقال لقمان لابنه: يا بني إن كنت تشك في الموت فلا تنم، فكما أنك تنام فكذاك تموت. وإن كنت تشك في البعث فإذا نمت فلا تنتبه، فكما أنك تنتبه بعد نومك فكذاك تُبعث بعد موتك.

فيلتذكر العبد عند نومه حين موته ^(٢)، وليعلم أن الله تعالى يكون له بعد موته كما كان العبد له قبل نومه، فلينظر على أي حال نام وعلى أي هم توفاه الله عليه، وليتذكر بانتباهه البعث، فإن العبد يُبعث على ما مات عليه في الدنيا، فيُبعث بهمه، ويُحشر مع محبوبه. كما ينتبه النائم عن همه إلى محبوبه الذي نام عنه.

(١) من (ك)، وكذلك المواضع السابقة التي بين المعكفات.

(٢) حين موته: أي وقت موته وأجله.

وفى الخبر: «إن المرء مع من أحبّ، وله ما احتسب».

وروى عنه عليه السلام: «من مات على مرتبة من المراتب بُعث عليها يوم القيامة»^(١).

وروينا عن كعب الأحبار قال: إذا نمت فاضطجع على شقك الأيمن، واستقبل القبلة بوجهك، فإنها وفاة.

• بيان آخر من الاعتبار لأهل التبصرة والتذكّار:

وليعلم العبد أن الله عزّ وجلّ يكون له بعد بعثه من قبره كما كان العبد له بعد بعثه من نومه، فلينظر إلى أى حال يُبعث.

فإن كان العبدُ لنظرٍ مولاه مُكرِّمًا، ولحرّماته مُعظِّمًا، وإلى محبوبه ومرصّاته مُسارعًا، كان الله تعالى فى آخرته لوجهه مُكرِّمًا، [ولشأنه مُعظِّمًا، وإلى مسرته من النعيم المقيم مُسارعًا]^(٢).

وإن كان العبدُ فى حقّ مولاه مُتْهَوِّنًا، وبأمره مُسْتَحِفًّا، ولشعائره مُسْتَصْغِرًا، كان الله تعالى [لوجهه] مهينًا، وبشأنه مُتْهَوِّنًا، [وإلى ما يكرهه من العذاب الأليم مُسارعًا]^(٣). قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾، ثم قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٨] موبخًا لهم بذلك. وقال فى مثله: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥]، ثم قال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٦] ذامًا عائبًا لحكمهم.

ثم أخبر بحكمه فيهم فقال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]. هكذا تقدير الكلام، وهو من المقدم والمؤخر، فرفع حسناتهم، وأخبر بسوء حكمهم، ثم ذكر حكمهم عنده فى الحيا والممات، فقال: ﴿سَوَاءً مَحْيَاهُمْ

(١) السلسلة الصحيحة، رقم ٢٨٣. وسوف أعود إلى تخريج جميع الأحاديث تخريجًا كاملاً فى نهاية الكتاب.

(٢) كانت الفقرة مضطربة فى (ط) فقومتها من (ك).

(٣) من (ك) وهى ساقطة من المطبوعة.

وَمَمَاتُهُمْ ﴿١﴾ ، أى : كما كانوا فى الحياة ، كذلك يكونون بعد الوفاة . ثم عقب ذلك بذكر عدله فى خلقه فقال : ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الحاثية: ٢٢] فكان هذا فصل الخطاب ، وتذكّر أولى الألباب .

وقال فى معناه ، وأمر بتدبر كلامه ، وأمر بتذكّر العقلاء عن خطابه ، فقال : ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] هل يتدبرون فيجدون أننا نجعل المفسدين كالمصلحين ، أم نجعل المتقين كالفاسقين ؟ وهو قوله تعالى : ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] . فالتدبر : التفهم . والتذكّر : التقوى والعمل .

وروينا عن رسول الله ﷺ : «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ مَنْزِلَتَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ مَنْزِلَةُ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ قَلْبِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْزِلُ الْعَبْدَ عِنْدَهُ مِنْ حَيْثُ أَنْزَلَهُ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ»^(١) .

فإذا نام العبد على طهارة وذكر ، وعن مثل هذه المشاهدة والفكر ، فإن مضطجعه يكون مسجداً ، وإنه يكتب مصلحاً حتى يستيقظ ، ويدخل فى شعاره ملك ، فإن تحرك فى نومه فذكر الله عز وجل دعا له الملك واستغفر له^(٢) .

وفى الخبر : «إذا نام العبد على طهارة عرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة»^(٣) . وإن لم ينم على طهارة قصرت روحه عن البلوغ ، فتلك المنامات

(١) تهذيب تاريخ دمشق ٢/ ٢٨٩ .

(٢) يقول صاحب العوارف (ص ٣٣٦) : «إذا استيقظ العبد من النوم فمن أحسن الأدب عند الانتباه أن يذهب بباطنه إلى الله ، ويصرف فكره إلى أمر الله ، قبل أن يجول الفكر فى شئ سوى الله ، ويشغل اللسان بالذكر . . . والعبد إذا انتبه من النوم فباطنه عائد إلى طهارة الفطرة ، فلا يدع الباطن يتغير بغير ذكر الله تعالى ، حتى لا يذهب عنه نور الفطرة الذى انتبه عليه ، ويكون فاراً إلى ربه بباطنه خوفاً من ذكر الأغيار» .

(٣) هذا الحديث ذكره أبو طالب بمعناه ، وهو بلفظ مختلف فى مستدرك الحاكم ٤/ ٣٩٦ - ٣٩٧ ، وتعقبه العراقي وقال : «من حديث على وسنده ضعيف» .

أضغاث أحلام لا تُصدق.

فإن غلبه النوم حتى يصبح حُسب له قيام ليلة، وكان نومه عليه صدقة، ومن كان هذا وَصَفه في منامه يسبق كثيراً من العباد في قيامهم عن شهود غفلة وسهو. وقد روينا في خبر: «نوم العالم عبادة»، وَنَفْسُهُ تَسْبِيحٌ»^(١).

• ذكر ما يستحب من القول عند القيام إلى التهجد:

فإذا قام من الليل متهجداً فليقل: الحمد لله الذي أحياني بعد إذ توقأني وإليه النشور. وليقرأ العشر الأواخر من سورة آل عمران، وليستك وليتوضأ، ويقول: سُبْحَانَكَ وبِحَمْدِكَ لا إله إلا أنت، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَسْأَلُكَ التَّوْبَةَ، فاغفرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. اللهم اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، واجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ، واجْعَلْنِي صَبُورًا شُكُورًا، واجْعَلْنِي أَذْكَرَ كَثِيرًا وَأَسْبَحَكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا.

ثم يرفع رأسه إلى السماء فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سَخَطِكَ، وأعوذ بك منك، لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ، أَنَا عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، جَارٍ فِي حَكْمِكَ، عَدْلٌ فِي قَضَاؤِكَ، هَذِهِ يَدِي بِمَا كَسَبْتُ، وَهَذِهِ نَفْسِي بِمَا اجْتَرَحْتُ، لا إله إلا أنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، عَمِلْتُ سُوءًا وَظَلَمْتُ نَفْسِي، فاغفرْ لِي ذَنْبِي إِنَّكَ أَنْتَ رَبِّي إِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ. فلا إله إلا أنت، لا إله إلا أنت.

فإذا قام إلى الصلاة متوجهاً فليقل: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلًا.

ثم ليسبح عشراً، وليحمد عشراً، وليهلل عشراً، وليكبر عشراً، وليقل: الله أكبر ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والجلال والعظمة والقدرة.

(١) المعروف فيه «نوم الصائم . . .» كما قال العراقي، رواه أبو نعيم من حديث ابن مسعود في الحلية ٨٣/٥، وانظر: الأسرار المرفوعة، لعلّ القاري، ص ٣٧٤.

وليقُل هذه الكلمات، فإنها مأثورة عن رسولِ الله ﷺ في قيامه للتهجد: اللهم لك الحمد أنت نورُ السموات والأرض، ولك الحمد أنت بهاءُ السموات والأرض، ولك الحمد أنت نورُ السموات والأرض، ولك الحمد أنت قيّامُ السموات والأرض ومن فيهنّ ومن عليهنّ، أنت الحقّ، ومنك الحقّ، ولقاؤك حقّ، والجنة حقّ، والنار حقّ، والنبون حقّ، ومحمد ﷺ حقّ.

اللهم لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكلتُ، وبك خاصمتُ، وإليك حاكمتُ، فاغفر اللهم يا ربّ لى ما قدّمتُ وما أخّرتُ، وما أسرّرتُ وما أعلّنتُ، أنت المقدم وأنت المؤخّر، لا إله إلا أنت.

اللهم آتِ نفسى تقواها، اللهم زكّها أنت خيرُ من زكاها، أنت وليّها ومولاها. اللهم اهدنى لأحسن الأعمال لا يهدى لأحسنها إلا أنت، واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت.

أسألك مسألةَ البائس المسكين، وأدعوك دعاءَ المفتقرِ الذليل، فلا تجعلنى بدعائك ربّ شقيّاً، وكن بى رءوفاً رحيماً، يا خيرَ المسؤولين، ويا أكرمَ المعطين.

ويستحبّ أن يفتح صلاته بركعتين خفيفتين. ويُسحب له أن لا يأكل شيئاً ولا يشرب ماءً حتى يقضى نَهْمَتُهُ^(١) من صلاته، فإنّ العبد إذا استيقظ من نومه يكون جاماً^(٢) القلب، فارغَ الهمّ؛ فإذا أكل أو شرب تغيّر قلبه عن هيئته، فليؤخر أكله وليقدّم صلاته^(٣)، إلا أن يخاف أن يفجّاه الفجرُ إن لم يتسحّر أو يشرب، فليبدأ حينئذ بذلك.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

(١) فى (ط): «همته» والصواب ما أثبت من (ك). والنّهمة: الحاجة وبلوغ الهمة والشهوة فى الشيء.

(٢) جام القلب: مجتمعه غير مشّت.

(٣) فى (ط): «فليغيب أكله إلا»، وأثبت ما فى (ك).

الفصل الرابع عشر

فى ذكر تقسيم قيام الليل ونومه ووصف القائمين والمتهجدين

قد قرَنَ الله سبحانه وتعالى قوَّامَ الليل برسوله المصطفى، وجمعهم معه فى شكر المعاملة وحُسن الجزاء، فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ [الزمل: ٢٠]. وقد أخبر الله سبحانه أنَّ قراءةَ الليل أشدُّ وطئًا للقلب، وأقومُ قليلًا للحفظ والذكر، أى: يواطئ القلبُ اللسانَ بالفهم والحفظ.

وقد سَمَى الله تعالى أهلَ الليل علماء، وجعلهم أهلَ الخوف والرجاء، وأخفى لهم قُرَّةَ العين من الجزاء فقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾، ثم قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. وهذا من المحذوف ضده لدلالة الكلام عليه، والمعنى: أمَّن هو هكذا عالمٌ قانت مطيع، لا يستوى مع من هو غافلٌ نائمٌ ليله أجمع، فهو غير عالم بما يحذر، وبما يرجو من ربه عزَّ وجلَّ.

وقال عزَّ وجلَّ فى وصفهم فى الدنيا، ووصف ما أعدَّ لهم فى الآخرة: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤]، [وقال:] ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]، أى: تنبو عن الفراش، فلا تطمئن، لما فيها من خوف الوعيد ورجاء الموعود. ثم قال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]. قيل: كان عملهم قيامَ الليل. وقيل: بل كانوا أهلَ خوف ورجاء.

وهذان من أعمالِ القلوب عن مشاهدة الغيوب، فلمَّا أخفوا له الإخلاص بأعمال السرائر أخفى لهم من الجزاء نفيس الذخائر، ولا تقرُّ أعين هؤلاء المحبين

إلا بوجهه، كما لم يعملوا إلا لوجه الله تعالى.

وقال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ قال: هي صلاة الليل استعينوا بها على مجاهدة النفس ومصابرة العدو. ثم قال: ﴿وَأِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] يعنى الخائفين المتواضعين، لا تثقل عليهم ولا تجفوا بل تخف وتحلوا.

وفى الخبر: «قيل: يا رسول الله، إن فلاناً يصلى من الليل فإذا أصبح سرق. فقال: سينهاه ما تقول»^(١). وقال ﷺ: «نعم الرجل عبد الله بن عمر لو كان يصلى من الليل»^(٢). قال: فما فاتته بعد ذلك ليلة حتى يقوم فيها. وفى الخبر: «عليكم بقيام الليل، فإنه مرضاة لربكم، ومكفر سيئاتكم، وهو دأب الصالحين قبلكم، ومنهاة عن الإثم، وملقاة للوزر، ومذهبة لكيد الشيطان، ومطردة للداء عن الجسد»^(٣).

وقد جعل الله سبحانه قيام الليل من أوصاف الصالحين بقوله: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣ - ١١٤].

فيستحب من قيام الليل ثلثاه، وأقل الاستحباب من القيام سدسه، لأننا روينا أن النبى ﷺ: «لم يقم ليلة قط حتى أصبح بل كان ينام منها، ولم ينم ليلة حتى يصبح بل كان يقوم منها»^(٤).

(١) فى مسند أحمد ٤٤٧/٢ من حديث أبى هريرة، والطحاوى فى مشكل الآثار ٤٣٠/٢، وإسناده صحيح، وانظر: الضعيفة ٥٨/١.

(٢) متفق عليه، فتح البارى ٩٧/٧، من حديث ابن عمر عن حفصة، والمسند ١٤٦/٢.

(٣) إلى قوله «ومنهاة عن الإثم» فى الترمذى، كتاب الدعوات، من حديث أبى أمامة. وفى صحيح سنن الترمذى رقم ٢٨١٤ مع اختلاف طفيف فى الألفاظ. وهو بروايات أخرى فى كتب السنة، انظر: كنز العمال، رقم ٢١٤٠٩، ٢١٤٢٨، ٢١٤٢٩.

(٤) لا يوجد بلفظه تماماً، وورد جزء منه فى حديث صحيح طويل فى سنن أبى داود بلفظ: «ولم يقم رسول الله ﷺ ليلة يتمها إلى الصباح» فى كتاب الصلاة، باب فى صلاة الليل، رقم: ٣١٧. وهو فى صحيح أبى داود برقم: ١١٩٣.

ويقال: إن الصلاة أول الليل للمتجهدين، وقيام أوسطه للقانتين، وقيام آخره للمصلين، والقيام من الفجر للغافلين.

وحدثنا عن عبد الله بن عمر قال: حدثنا يوسف بن مهران قال: بلغني أن تحت العرش ملكًا في صورة ديك، برائته من لؤلؤ، وصنصنتاه^(١) من زبرجد أخضر، فإذا مضى نصف الليل الأول ضرب بجناحه وزقَى^(٢)، وقال: ليقيم القائمون. فإذا مضى نصف الليل ضرب بجناحه وزقَى، وقال: ليقيم المتجهّدون. فإذا مضى ثلث الليل ضرب بجناحه وزقَى، وقال: ليقيم المصلون. فإذا طلع الفجر ضرب بجناحه وزقَى، وقال: ليقيم الغافلون وعليهم أوزارهم.

وقال بعض العلماء^(٣): أهل الليل على ثلاثة أصناف: قوم قطعهم الليل، فكان هؤلاء المريدون ذوو الأوراد والأجزاء، كابدوا الليل فغلبهم. قال: وقوم قطعوا الليل، فكان هؤلاء العاملون^(٤) الذين صبروا، وصابروا الليل فغلبوه. قال: وقوم قطع بهم الليل، فكان هؤلاء المحبون.

والعلماء أهل الفكر والحادثة، وأهل الأُنس والمجالسة، وأهل الذكر والمناجاة، وأهل التملُّق^(٥) والملاقة، نغص عليهم الليل حالهم، وقصر النعيم عليهم ليلهم، ورفع الحبيب عنهم نومهم، وخفف الفهم عليهم قيامهم، وأذهب مزيد الوصل عنهم مللهم، وأوصل العتاب بهم^(٦) سهرهم.

وقيل لبعض أهل الليل: كيف أنت والليل؟ فقال: ما راعيته^(٧) قط، يريني وجهه ثم ينصرف وما تأملته.

(١) البرائن: الكف مع الأصابع. والصنصني: الأصل.

(٢) زقى: صاح.

(٣) الأقوال التالية نقلها صاحب الإتحاف، انظر: ١٩٦/٥ - ١٩٨.

(٤) في المطبوعة: «العالمون» وأثبت ما في المخطوطة والإتحاف.

(٥) في الإتحاف: «التخلق».

(٦) في المطبوعة: «لهم» وأثبت ما في المخطوطة والإتحاف.

(٧) في المطبوعة: «ما راعيته» وأثبت ما في (ك)، والإتحاف: ١٩٦/٥، والعوارف: ص ٣٢٦.

وقال آخر: أنا والليل فرسا رهان، مرة يسبقني إلى الفجر، ومرة يقطعني عن الفكر.

وقيل لبعضهم: كيف الليلُ عليك؟ فقال: هو ساعة؛ أنا فيها بين حالين: أفرح بظلمته إذا جاء، وأغتم بفجره إذا طلع، ما تمّ فرحى به قط، ولا اشتفيتُ منه قط^(١).

وقيل لبعض المحبين: كيف الليل عليك؟ فقال: والله ما أدري كيف أنا فيه! إلا أنا بين نظرة ووقفه، يقبل بظلامه فأتدرّعه، ثم يُسفرُ قبل أن أتلبّسه، ثم أنشد:

لم أَسْتَمَّ عناقَه لِقُدومه حتّى بدا تسليمه لِوداع^(٢)

وقال بعضهم:

وَزَارَنِي طَيْفُكَ حَتَّى إِذَا أَرَادَ أَنْ يَمْضَى تَعَلَّقْتُ بِهِ
فَلَيْتَ لَيْلَى لَمْ يَزَلْ سَرْمَدًا وَالصَّبْحَ لَمْ أَنْظُرْ إِلَى كَوْكَبِهِ

وشكا بعضُ المريدين إلى أستاذه طولَ سهره بالليل، وأن السَّهر قد أضربَ به. ثم قال: أخبرني بشيء أجتلبُ به النَّومَ. فقال له أستاذه: يا بُنَيَّ إنَّ لله نفحات في الليل والنهار تصيبُ القلوبَ المتيقظة، وتخطيُّ القلوبَ النَّائمة، فتعرضُ لتلك النفحات، ففيها الخير. فقال: يا أستاذ تركتني لا أنامُ بالليل ولا بالنَّهار^(٣).

وتذاكر قومٌ قصرَ الليلَ عليهم، فقال بعضهم: أما أنا فإنَّ الليل يزورني قائمًا ثم ينصرف قبل أن أجلس.

وقال على بن بكار: منذ أربعين سنة ما أحزنني شيء إلا طلوعُ الفجر.

وقال الفضيل بن عياض: إذا غرَبَت الشمسُ فرِحْتُ بدُخُولِ الظَّلامِ لخلوتي فيه بربي، فإذا طلع الفجرُ حزنتُ لدُخُولِ الناسِ عليَّ.

(١) في الإتحاف: ١٩٦/٥ نصّ على لفظ القوت وهو: «ولا استشفيت فيه قط».

(٢) الخبر والبيت في الإتحاف: ١٩٦/٥.

(٣) في الإتحاف: ١٩٧/٥.

وقال أبو سليمان: أهل الليل في ليْلهم ألدُّ من أهل اللّهُ في لهُوهم، ولولا اللّيل ما أحببتُ البقاء في الدّنيا.

وقال أيضاً: لو عوّض الله عزّ وجلّ أهلَ اللّيل من ثوابِ أعمالهم ما يجدونه في قلوبهم من اللّذة لكان ذلك أكثر^(١) من أعمالهم.

وقال بعض العلماء: ليس في الدّنيا وقتٌ يشبه نعيمَ أهل الجنّة إلا ما يجده أهلُ التملّق في قلوبهم باللّيل من حلاوة المناجاة^(٢).

وقال بعضهم: قيامُ اللّيل، والتملّق للحبيب، والمناجاة للقريب في الدّنيا، ليس من الدّنيا، هو من الجنّة أظهر لأهل الله تعالى في الدّنيا، لا يعرفه إلا هم، ولا يجده سواهم رَوْحًا لقلوبهم.

وقال عتبة الغلام: كابدتُ اللّيلَ عشرين سنة، ثم تنعمت به عشرين سنة.

وقال يوسف بن أسباط^(٣): قيامُ ليلةٍ أسهل على من عمل قُفّةً، وكان يعمل كلّ يومٍ عشرَ قفافٍ.

وقال غيره: ما رأيتُ أعجبَ من اللّيل، إذا اضطربت تحتها غلّبك، وإن ثبتَ له لم يقف.

وبكى عامرُ بن عبد الله^(٤) حين حضرته الوفاة، فقليل له في ذلك، فقال: والله ما أبكى حبًّا للبقاء، ولكن ذكرتُ ظمأَ الهواجرِ في الصّيف، وقيامَ اللّيل في الشتاء.

(١) في المطبوعة: «أكبر» وأثبت ما في الإتحاف ١٩٧/٥.

(٢) بعده في عوارف المعارف والخبر فيه تاماً، ص ٣٢٦: «فحلاوة المناجاة ثوابٌ عاجل لأهل اللّيل».

(٣) الشيباني، الزاهد الواعظ، يروى عن سفيان الثوري وغيره، وثقه يحيى بن معين. ميزان الاعتدال ٣٢٨/٢.

(٤) ابن عبد قيس، من رجال الحلية: ٨٧/٢ - ٩٤، وهو من بنى العنبر، وأول من عُرف بالنسك واشتهر من عبّاد التابعين بالبصرة، وكان ممن تخرّج على أبي موسى الأشعري في النسك والتعب، ومنه تلقى القرآن. والخبر الذي بين أيدينا في الحلية ٨٨/٢.

وقال ابنُ المنكدر^(١): ما بقى من لذات الدنيا إلا ثلاث: قيامُ الليل، ولقاءُ الإخوان، والصلاةُ في جماعة.

وقال بعضُ العارفين: إن الله عزَّ وجلَّ ينظرُ بالأسحارِ إلى قلوبِ المتيقظين فيملؤها أنواراً، فتَرِدُ الفوائدُ على قلوبهم فتستنير، ثم تنشر من قلوبهم العوافي^(٢) إلى قلوب الغافلين.

وقال بعض العلماء: إن الله عزَّ وجلَّ ينظرُ إلى الجنانِ عند السَّحرِ نظرةً، فتُشرق وتُضيء، وتهتزُّ وتربو، وتزدادُ جمالاً وحسناً وطيباً ألفَ ألفِ ضعفٍ في جميع معانيها. ثم تقول: قد أفلحَ المؤمنونَ. فيقول الله عزَّ وجلَّ: هنيئاً لك منازلُ الملوك! وعزَّتِي وجلَّالِي و[عُلُوِّي في] ارتفاعِ مكاني، لا أُسكنك جباراً ولا بَخِيلاً ولا مُتَكَبِّراً ولا فَخُوراً. وينظرُ [سبحانه] إلى العرشِ نظرةً فيتسع ألفَ ألفِ سعة، ويزداد بكل توسعة ألف ألف عالم، منها كلَّ عالم لا يعلم وسعه إلا الله عزَّ وجلَّ، ثم يهتزُّ فيثقل على الحَمَلَةِ حتى يموج بعضهم في بعض، ويَحْطُمُ بعضهم بعضاً، وهم بعدد جميع ما خلق الله عزَّ وجلَّ، وأضعاف ما خلق الله عزَّ وجلَّ، فيقول العرش: سبحانك أينما كنت وأينما تكون. فينادي حَمَلَةُ العرش: سبحان من لا يعلم أين هو إلا هو، سبحان مَنْ لا يعلم ما هو إلا هو.

وروينا عن بعض العلماء من القدماء أن الله عزَّ وجلَّ أوحى إلى بعض الصَّديقين: إن لى عبادةً من عبادي يحبونني وأحبهم، ويشاقون إليّ وأشتاق إليهم، ويذكرونني وأذكرهم، وينظرون إليّ وأنظر إليهم. فإن حذوتَ طريقهم أحببتُك، وإن عدلتَ عنهم مَقَّتُك.

(١) هو محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهدير التيمي، كان من معادن الصدق، توفي ١٣٠هـ، روى عن أبيه وعائشة وأبي هريرة، وعنه شعبة ومالك. انظر: الكاشف ٣/ ١٠٠، والإتحاف ١٩٧/٥.

(٢) هكذا، وقد وردت في الإحياء ٣٥٨/١ والإتحاف ١٩٧/٥ ولم يفسرها، وفي اللسان (عوف): «العواف والعوافة: ما ظَفَرَتْ به ليلاً. ويقال: كل من ظفر بالليل بشيء، فذلك الشيء عوافته». وعلى هذا فمعناها هنا: «تنتشر من هذه القلوب الأنوار التي ظفرت بها ليلاً من العبادة وقيام الليل إلى قلوب الغافلين». وفي العوارف (ص ٣٢٦): «الفوائد».

قال: يا ربّ وما علامتهم؟

قال: يراعون الظلال^(١) بالنّهار كما يراعى الراعى الشّقيق غنمه، ويحْنُون إلى غروب الشمس كما تحنّ الطيور إلى أوكارها عند الغروب. فإذا جنّهم الليل، واختلط الظلام، وفُرِشت الفرش، ونُصبت الأسيّة، وخلا كلُّ حبيب بحبيبه، نصبوا لى أقدامهم، وافترشوا إلى وجوههم، وناجَونى بكلامى، وتملّقوا إلىّ بإنعامى. فبين صارخ وباك، ومتأوّه وشاك، وبين قائم وقاعد، وبين راع وساجد، بعينى ما يتحملون لأجلّى، وبسمعى ما يشتكون من حبّى. أوّل ما أعطيهم أقذف من نورى فى قلوبهم، فيخبرون عنيّ كما أخبر عنهم. والثانية: لو كانت السموات السّبع والأرض وما فيهما فى موازينهم لاستقلّلتها لهم. والثالثة: أقبل بوجهى عليهم. أفترى من أقبلت بوجهى عليه يعلم أحدٌ [ما أريد به و]^(٢) ما أريد أن أعطيه.

وقال مالكُ بنُ دينار^(٣): إذا قام العبدُ يتهجّد من الليل ورتّل القرآنَ كما أمر، قُرّب الجبّارُ تعالى منه. قال: وكانوا يروُن أن ما يجدون فى قلوبهم من الرّقة والحلاوة والفتوح والأنوار من قُرّب الرّبِّ تعالى من القلب.

وفى الأخبار عن الجبّار عزّ وجلّ: أى عبدى، أنا الله الذى اقتربتُ لقلبك، وبالغيب رأيتَ نورى.

وفى الخبر عن رسول الله ﷺ: «ما أذن الله لشيءٍ إذنه [إلى] حسن الصوتِ

(١) فى (ط): «الظلام» وهو خطأ صوابه من (ك) والإتحاف ١٩٧/٥.

(٢) ساقطة من المطبوعة والتكملة من (ك)، وعلّق عليه صاحب عوارف المعارف (ص ٣٢٧) فقال: «فالسّادق المريد إذا خلا فى ليلة بمناجاة ربّه، انتشرت أنوارُ ليله على جميع أجزاء نهاره، ويصير نهاره فى حماية ليله، وذلك لامتلاء قلبه بالأنوار، فتكون حركاته وتصاريقه بالنّهار تصدر من منبع الأنوار المجتمعة من الليل، ويصير قلبه فى قبةٍ من قباب الحقّ، مُسدّدًا حركاته، موفّرةً سكّاته».

(٣) هو أبو يحيى الناجى السامى البصرى، روى عن أنس بن مالك وعن جلة من التابعين منهم الحسن وابن سيرين وغيرهما، له ترجمة مطولة فى الحلية ٢/٣٥٧ - ٣٨٩، وكان أبوه من سبى سجستان، وقيل كابل، وثقه النسائى، مات سنة ١٢٣هـ.

بالقرآن»^(١). يعنى ما استمع إلى شىء كاستماعه إليه .

وفى الحديث الآخر: «للهُ أشدُّ أذناً إلى قارئ القرآن من صاحب القِنَّةِ إلى قَيْنَتِهِ»^(٢).

وأهلُ اللّهُو فى غفلةٍ عمّا أهل الآخرة فيه، وفى عمى عمّا ينظر هؤلاء الحاضرون إليه، ﴿وَكَايْنٍ مِنْ آيَةِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ [المؤمنون: ٦٣]، ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

يقال: إنّ وهب بن منبه اليماني^(٣) ما وضع جنبه إلى الأرض ثلاثين سنة، كانت له مسورة من آدم إذا غلبه النوم وضع صدره عليها، وخفّق خفقات، ثم يفرّج إلى القيام. وكان يقول: لأن أرى فى بيتى شيطاناً أحبُّ إلىّ من أن أرى فيه وسادة. يعنى لأنّها تدعو إلى النوم.

وقال رقة بن مسقلة^(٤): رأيتُ ربَّ العزة تعالى فى النوم، فسمعتُهُ يقول: وعزّيتى وجلالى لأكرم من مثنوى سليمان التيمى، فإنّه صلى الغداة بوضوء العشاء الآخرة أربعين سنة. ويقال: إنه كان مذهبه أن النوم إذا خامر القلب وجب الوضوء.

• ذكر من روى عنه أنه أحيا الليل كله:

ومن اشتهر بإحياء الليل كله، وصلى الغداة بوضوء العشاء الآخرة أربعين سنة أو ثلاثين سنة، حتى نقل عنه ذلك أربعون من التابعين، منهم: سعيد بن

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تحسين الصوت، رقم ٢٣٣، ولفظه: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبى حسن الصوت، يتغنّى بالقرآن، يجهر به»، وأخرجه البخارى فى كتاب التوحيد، وكتاب فضائل القرآن، وهو فى كثير من كتب السنن.

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة (١٧٦) باب فى حسن الصوت، وهو فى ضعيف ابن ماجه رقم ٢٨٢، والسلسلة الضعيفة رقم ٢٩٥١، ولفظه ثم: «... إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن...». وانظر: الإتحاف ٤/٤٩٧، والمسنند ١٩/٦ - ٢٠.

(٣) يكنى بأبى عبد الله، وفى صفة الصفوة ٢/٢٩٦: روى عن معاذ، وأبى هريرة... ومات بصنعاء سنة ١١٤ هـ، وله ترجمة مطولة جداً فى الحلية ٤/٢٣ - ٨١.

(٤) فى الحلية ٣/٣٢: «مصلحة» بالصاد، وفيه هذا الخبر.

المسيب^(١)، وصفوان بن سليم^(٢)، المدنيان. وفضيل بن عياض^(٣)، وهيب بن الورد^(٤)، المكّيّان. وطاووس^(٥)، وهب بن منبه، اليمانيان. والربيع بن خيثم، والحكم بن عيينة^(٦)، الكوفيان. وأبو سليمان الداراني، وعلى بن بكار، الشاميان. وأبو عبد الله الخوّاص، وأبو عاصم، العباديان. وحبيب أبو محمد، وأبو جابر السلمي، الفارسيان. ومالك بن دينار، وسليمان التيمي، ويزيد الرقاشي، وحبيب ابن أبي ثابت، ويحيى البكاء، البصريون. وكهمس بن المنهال، وكان يختم في الشهر تسعين ختمة، وما لم يفهم رجّع فقرأه مرة أخرى. وأيضاً من أهل المدينة: أبو حازم، ومحمد بن المنكدر، في جماعة يكثر عددهم. هؤلاء المشهورون منهم.

فإن أحبّ المرید نام ثلث الليل الأول، وقام نصفه، ونام سدّسه الأخير، وإن أراد نام نصف الليل، وقام ثلثه، ونام سدّسه [الآخر]. فقد روى أنّ هذا من أفضل القيام، وأنه كان قيام نبي الله عزّ وجلّ داود عليه السلام، جاء ذلك في روايتين.

وإن أحبّ العبدُ قدّم القيامَ فيهما، وأخّر وتره إلى السّحر، فإنّ قام نصفَ الليل قسمَ نومه في أوّل الليل وآخره، فإنّ قام ثلث الليل نام سدّسه الأخير، وإن اختار أن يقوم من أوّل الليل حتى يغلبه النوم، ثم ينام، ثم يقوم متى استيقظ، ثم ينام

(١) هو أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن، سيد التابعين، ولد لستين مضتاً لخلافة عمر رضى الله عنه، وكل أعلم أهل المدينة بالحلال والحرام، توفى سنة ٩٤ هـ وهو ابن خمس وسبعين سنة. الحلية ١٦١/٢ - ١٧٥.

(٢) أبو عبد الله القرشي الزهري، ثقة، كثير الحديث، عابد. قال يحيى بن سعيد: هو رجل يستسقى بحديثه، وينزل المطر من السماء بذكره. الحلية ١٥٨/٣ - ١٦٥.

(٣) ولد بسمرقند، ونشأ بآبيورد، وكتب الحديث بالكوفة، وسكن مكة ومات بها سنة ١٨٧ هـ، روى له الجماعة إلا ابن ماجه، ترجمته في الحلية ٨٤/٨ - ١٣٩.

(٤) هو أبو عثمان المكي، ثقة، توفى سنة ١٥٣ هـ، ترجمته في الحلية ٨/١٤٠ - ١٦١.

(٥) هو طاووس بن كيسان، أبو عبد الرحمن، أدرك خمسين من الصحابة وعلمائهم، ترجمته في الحلية ٣/٢٣ - ٢٤.

(٦) روى له الجماعة، ولد سنة ٥٠ هـ ومات سنة ١١٣ هـ. الإنحاف ١٩٩/٥، وانظر بقية ترجمة هؤلاء في الإنحاف.

متى غلبه النوم، ثم يقوم آخر الليل، فيكون له في الليل نومتان وقومتان، فهذا من مكابدة الليل، وهو من [أفضل القيام و]^(١) أشد الأعمال، وهذه طريقة أهل الحضور واليقظة، وأهل الأفكار^(٢) والتذكرة. وقد كان هذا من أخلاق رسول الله ﷺ. قال أنس بن مالك: ما كنت تريد أن ترى رسول الله ﷺ نائماً إلا رأيته، ولا كنت تريد أن تراه قائماً إلا رأيته. وكان هذا مذهب ابن عمر وأولى العزم من الصحابة في قيام الليل، وفعله جماعة من التابعين.

وقد رأينا من كان له في الليل قومات ونومات في تضاعيف ذلك. فأما أن يكون المنام والقيام موزوناً عدلاً، فليس ذلك إلا لنبي بقلب دائم اليقظة، وبوحي من الله عز وجل، ولا يسلك هذا الطريق [ولا يُطاق عليه]^(٣) إلا بأسباب هي زاده؛ لأن كل طريق يُقطع ب زاد مثله. فمن أراد احتقَب وأخذ من زاده، فالأسباب: أحدها: هم يلزم القلب، وحزن يسكن فيه، أو يقظة دائمة يحيا بها القلب، وفكر في الملكوت متصل، وخلو المعدة من الطعام، وقلة الشرب^(٤)، وأن يقلل بالنهار، ولا يكثر تعب جوارحه في أمر الدنيا^(٥).

فهذه رياضة المريد إلى أن يَألف القيام، وليستوطن حينئذ، فيتجافى جنبه لما في قلبه من الخوف والرجاء الذي قد استكن فيه.

وروى عن الله سبحانه وتعالى: «إن عبدى الذى هو عبدى حقاً، الذى لا ينتظر بقيامه صياح الديك». ففي هذا حث على القيام قبل السحر.

(١) زيادة من (ك).

(٢) فى (ط): «التذكار» وأثبت ما فى (ك).

(٣) زيادة من (ك).

(٤) فى (ك): «وقلة شرب الماء».

(٥) وذكر صاحب العوارف (ص ٣٢٩) أسباباً أخرى تعين على قيام الليل، من ذلك: «أن يستقبل العبد الليل عند غروب الشمس بتجديد الوضوء، ويقعد مستقبل القبلة منتظراً مجيء الليل وصلاة المغرب، مقيماً فى ذلك على أنواع الأذكار. وأن يواصل بين العشاءين بالصلاة أو بالتلاوة أو بالذكر؛ فإن ذلك يغسل عن باطنه آثار الكدورة الحادثة فى أوقات النهار... ومن ذلك ترك الحديث بعد العشاء الآخرة، فإن الحديث فى ذلك الوقت يذهب طراوة النور الحادث فى القلب من مواصلة العشاءين...».

ونومٌ آخر الليل نستحبّه لمعنيين: أحدهما: أنه يذهب بالنعاس بالغداة، وقد كانوا يكرهون النعاس^(١) بالغداة، ويأمرون النعاسَ بعد صلاة الصبح بالنوم، [وورد فيه الكراهية]^(٢). والمعنى الثانى: أنه يُقلّ صُفْرَةُ الوجه [لأنّ نعس الغداة واصفرار الوجه يكون من سهر آخر الليل]^(٣)، فلو قام العبدُ أكثرَ الليل ونامَ سحرًا، ذهب نعاسه بالغداة وقلّت صُفْرَةُ وجهه. ولو نام أكثرَ الليل وسهر من السحر، جلب عليه النعاس بالغداة وصفرة الوجه.

فليتقِ العبد ذلك؛ فإنّه باب غامض من الشّهرة، والشّهوة الخفية [به]، وليقلّ شُرْبَ الماء بالليل، فقد يكون منه الصّفرة، سيّما فى آخر الليل، وبعد الانتباه من النوم.

وقالت عائشة رضى الله عنها: «كان رسولُ الله ﷺ إذا أوتر من آخر الليل فإن كانت له حاجة إلى أهله دنا منهم، وإلا اضطجع فى مصلاه حتى يأتيه بلال، فيؤذنه بالصلاة»^(٤).

وقالت أيضًا: «ما ألفتُهُ فى السحرِ الأعلى إلا نائمًا»^(٥)، تعنى رسول الله ﷺ. وفى الخبر الآخر: «كان النّبى ﷺ إذا أوتر من آخر الليل اضطجع على شِقِّه الأيمن ضجعةً حتى يأتيه بلال، فيخرج معه إلى الصلاة».

فقد كان السلف يستحبون هذه الضجعة بعد الوتر، وقبل صلاة الصبح، حتى قال بعضهم: هى سنة، منهم: أبو هريرة وغيره^(٦).

والنوم من آخر الليل وفى الثلث الأخير مزيد لأهل المشاهدة والحضور؛ لأنّه

(١) فى (ك): «التنعس».

(٢) زيادة من (ك).

(٣) زيادة من (ك) والعبارة قبلها فيه: «والوجه الثانى: أنه يبقى لون الوجه على حاله».

(٤) هذا بمعناه، وأصله فى مسلم من عدة روايات، كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة الليل، رقم ٧٣٩، وانظر رقم ٧٣٦.

(٥) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، رقم ٧٤٢، ولفظه: «ما ألقى رسول الله ﷺ السحرَ الأعلى فى بيتى أو عندى إلا نائمًا».

(٦) فى (ط): «ومروان» وأثبت ما فى (ك).

كُشِفَ له عن الملكوت، واستماع [إلى] ^(١) العلوم من الجبروت ^(٢)، وهو راحةٌ وسكنٌ للعمّالِ وأهلِ المجاهدة. ولذلك حُظِرَت الصَّلَاةُ بعد طلوع ^(٣) الفجر، وبعد صلاة العصر؛ ليستريح عمالُ الله عزَّ وجلَّ وأهلُ أورادِ الليل والنَّهار فيهما.

والنوم من آخر الليل هو نُقصان لأهلِ السَّهْو والغفلة، من حيث كان مزيداً لأهلِ الشهود واليقظة؛ لأنَّه آخرُ خدمةٍ أولئك، ففيه راحتُهم، وهو تطاول النوم والغفلة بهؤلاء، فهو نُقصُهم.

وليفصل العبدُ في تضاعيفِ صلاةِ الليل بجُلوسٍ يُسَبِّحُ فيه مائة تسبيحة، فذلك ترويحٌ له، وعونٌ على الصَّلَاة، وهو داخل في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠] أى أعقاب الصَّلَاة، فى أحد الوجهين على قراءة مَنْ نَصَبَ.

وإن أرادَ المزيّدَ أحيا الوردَيْنِ اللَّذَيْنِ من أوّلِ الليل؛ أحدهما: بين العشاءين. والثانى: قبل نومة الناس. فإن إحياء هذين الوردين عند بعض العلماء أفضلُ من صيام يوم، [وبعضهم قال: صلاة ما بين المغرب والعشاء أفضلُ من صومه يومه] ^(٤).

ثم ليقم الورد الرابع، وهو ما بين الفجرين، وهو أوّل ثلث الليل الأخير. والورد ^(٥) الخامس، وهو السَّحَرُ الأخير قبلَ طلوعِ الفجر الثانى، وهو يصلح لقراءة [القرآن] ^(٦) وللاستغفار، إن كان لم يعتد القيامَ فى جوف الليل.

وفى خبر أبى موسى ومعاذٍ لَمَّا التقيا: «قال معاذ لأبى موسى: كيف تصنعُ فى قيام الليل؟ قال: أقومُه أجمع لا أنام منه شيئاً، وأتفوقُ القرآنَ فيه تفوقاً. قال

(١) زيادة من (ك).

(٢) فى (ك): «الربوت».

(٣) فى (ط): «صلاة».

(٤) ساقطة من (ط).

(٥) فى (ط): «أو الورد» وأثبت ما فى (ك) وضبطها.

(٦) زيادة من (ك)، وفى (ط): «للقرآن والاستغفار».

معاذ: لَكِنِّي أَنَامُ ثُمَّ أَقُومُ، وَأَحْتَسِبُ فِي نَوْمَتِي مَا أَحْتَسِبُ فِي قَوْمَتِي. فذَكَرَا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِأَبِي مُوسَى: مَعَاذُ أَفْقِهِ مِنْكَ^(١).

وقد كان بعضهم لا ينام حتى يغلبه النوم. وكان بعض السلف يقول: هي أول نومة فإن انتبهت ثم عدت إلى نومة أخرى فلا أنام الله عيني. [وكان منهم من ينام أول الليل، فأى وقت انتبه أحيا بقية ليلته، ولم يعد لنومة ثانية]^(٢).

وسئل فزارة الشامي عن وصف الأبدال، وكانوا يظهرن له، فقال: أكلهم فاقة، ونومهم غلبة، وكلامهم ضرورة، وصمتهم حكمة، وعلمهم قدرة. وقيل لآخر: صف لنا الخائفين، فقال: أكلهم أكل المرضى، ونومهم نوم الغرقى.

ولا يدع العبد أن يقوم مقدار خمس الليل أو سدسه، وهو ورد من أوراد الليل، أو وردان^(٣) على اختلافهما في الطول والقصر، متفرقا كان قيامه أو متصلا.

وأى ورد أحياه من الليل، بأى نوع من الأذكار، فقد دخل في أهل الليل، وله معهم نصيب. ومن أحيا أكثر ليلته أو نصفها كتب له إحياء جميعها، ويتصدق^(٤) عليه بما بقى منها. ومن صلى في ليلته^(٥) عشرين ركعة، وأوتر بعدها بثلاث، حُسِبَتْ له كَأَنَّهُ أَحْيَاهَا، بفضل الله ورحمته.

(١) أخرج البخارى جزءاً منه فى كتاب المغازى، باب بعث أبى موسى ومعاذ إلى اليمن، ولفظ البخارى: «فقال: يا عبد الله، كيف تقرأ القرآن؟ قال: أتفوقه تفوقاً. قال: فكيف تقرأ يا معاذ؟ قال: أنام أول الليل، فأقوم وقد قضيت جزئى من النوم، فأقرأ ما كتب الله لى، فأحتسب نومتى كما أحتسب قومتى» وليس فيه «فذكرنا ذلك...» وإنما زاد الطبرانى فيه: «فكان معاذ أفضل منه». وأورد أبو عبيد فى غريب الحديث ١٩٧/٥ قطعة منه وفسر قوله: «أتفوقه: أى لا أقرأ جزئى بمرة، ولكن أقرأ منه شيئاً بعد شىء فى آناء الليل والنهار، فهذا التفوق إنما هو مأخوذ من فُوق الناقه، وذلك أنها تحلب ثم تترك ساعة حتى تدر ثم تحلب». وانظر: فتح البارى ٦٥٩/٧.

(٢) ساقطة من (ط).

(٣) فى (ك): «أو وردين».

(٤) فى (ط): «وتصدق».

(٥) فى (ط): «ليلة».

وقد كان رسولُ الله ﷺ يقوم ليلةَ نصفِ الليل، وليلةً ثلثه، وليلةً ثلثيه، وذلك مذكور في أوّل الآيتين من قيام الليل في سورة المزمل. وقد كان رسول الله ﷺ يقوم ليلةَ نصفِ الليل ونصفَ سُدُسِه معه، ويقوم ليلةً رُبْعِه، ويقوم ليلةً سُدُسَ الليل حسب، وذلك مذكور في آخر الآيتين من قيام الليل، وهذا على قراءة من كسر: «وَنَصْفُهُ وَثُلُثُهُ» فأما من نصب فقال: «وَنَصْفُهُ وَثُلُثُهُ»^(١)، فإنه يعنى: يقوم النصفَ مع نصفِ السُدُس، والنصفَ وحده، والثلثَ وحده، وهو الذى ذكرناه من الآية الأولى. وقد جاء فى التفسير نحو هذا. وهو ﷺ مفترض عليه صلاة الليل. فالآية الأولى أمره تعالى بقيام الليل فيها، والأخرى أخبر عنه بقيامه كيف هو.

فالأجود أن يكون ما أخبر عنه مواطئاً^(٢) لما أمره به، فالذى أمره به أنه قال تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ ثم استثنى القليل منه، فقال: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، ثم فسر أمره، فقال: ﴿نَصْفُهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٢] [أو زد على ذلك قليلاً]^(٣) يعنى، والله أعلم: انقص نصفَ السُدُس، أو ثلث ثلثَ النصف^(٤)، هذان أقل أسماء النقصان عند العرب.

ثم قال: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ [المزمل: ٤] يعنى: زد على النصف، كأنه [قال:] زد عليه نصفَ سُدُسِ الليل؛ لأنه أخبر عنه فى الآية الأخرى بأقل من الثلثين فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِ اللَّيْلِ﴾ يكون هذا نصفًا ونصفَ سُدُس، وهو

(١) قراءة الكسر، قرأ بها: نافع، وأبو عمر، وابن عامر، وقرأ الباقون بالنصب، انظر كتاب السبعة فى القراءات، لابن مجاهد، ص ٦٥٨، وقال أبو على الفارسى فى كتابه الحجة ٣٣٦/٦: «ومن نصب حملة على «أدنى» التى هى فى موضع نصب، ومن جرّ فإنه يحمله على الحال».

(٢) فى (ط): «مواطئاً» وهو تصحيف، صوابه من (ك) والإتحاف ٢٠٣/٥.

(٣) ساقطة من (ط).

(٤) فى (ط): «أو نصف الثلث» وهو خطأ صوابه ما فى (ك) والإتحاف ٢٠٣/٥. وهذا أحد الأوجه فى تفسير الآية، على اعتبار أن قوله: ﴿نصفه﴾ بدل من ﴿قليلاً﴾ وأن معنى القليل هو: ما دون النصف أو السُدُس أو الثلث. ووجه آخر: أن ﴿نصفه﴾ بدل من ﴿الليل﴾. انظر: تفسير القرطبي ٣٥/١٩.

أقل التسمية عندهم. ثم قال: ﴿وَنِصْفَهُ﴾ أى: ويعلم أنك تقوم نصفه أيضاً ﴿وَتُلْثَهُ﴾ [المزمل: ٢٠] أى: وتقوم ثلثه.

فهذه الأخبار^(١) أشبه لَوَطْءِ الأمر من قراءة مَنْ كَسَرَ فقال: «وَنِصْفِهِ وَتُلْثِهِ» يريد: وتقوم أدنى من نصفه وهو الربع، أو الثلث، وأدنى من ثلثه وهو السدس، أو نصف السدس.

وقد قالت عائشة رضى الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يقوم من الليل إذا سمع الصَّارِخَ يعنى الديك»^(٢). فهذا يكون من السَّحَرِ فقط، فكان هذا يكون سدس الليل أو نصف سدسه، [وهذا أيضاً] فيه رخصةٌ وسعةٌ لقوَامِ الليل.

قلنا هذا تقريباً لا تحديداً، والله أعلم [بحقيقة الأمر]^(٣). والتَّصَبُّ اختيارنا فى القراءة على معنى كثرة القيام، ولمواطأة الخبر عنه للأمر. وقد جاء فى الأثر: «صلِّ من الليل ولو قدر حلب شاة». فهذا قد يكون أربع ركعات وقد يكون ركعتين.

وقال أبو سليمان: مَنْ أَحْسَنَ فى نهاره كُوفِىَ فى ليله، ومن أَحْسَنَ فى ليله كُوفِىَ فى نهاره. وكان يقول: أَهْلُ اللَّيْلِ على ثلاث طبقات: منهم مَنْ إذا قرأ مُتَفَكِّراً بكى، ومنهم من إذا تَفَكَّرَ صاح وراحته فى صياحه، ومنهم من إذا قرأ وتَفَكَّرَ بُهَتَ، فلم يبك ولم يَصِح. فقلتُ له: من أى شىء صاح هذا؟ ومن أى شىء بهت هذا؟ [ومن أى شىء بكى هذا؟]^(٤)، فقال: لا أقوى على التفسير.

وقال رجل للحسن: يا أبا سعيد، إني أبيتُ معافى، وأُحِبُّ قِيَامَ اللَّيْلِ، وأتخذ طهورى، فما بالى لا أقوم؟ فقال: ذنوبك قيَّدتك يا ابن أخى. وكان الحسن إذا دخلَ السوقَ فسمعَ لَغَطَهُمْ وَلَغُوهُمْ، قال: أَظُنُّ لَيْلَ هَؤُلاءِ لَيْلَ سُوءٍ، ما يَقِيلُونَ.

وقال بعض السلف: كيف ينجو التاجر من سوء الحساب، وهو يلغو بالنهار وينام بالليل؟

(١) فى (ك): «فهذا الإخبار».

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، رقم ٧٤١.

(٣) ساقطة من (ط).

(٤) ساقطة من (ط).

وقال الثوري: حُرِّمَتْ قِيَامَ الليل خمسة أشهر بَذَنْبِ أَذْنَبْتِهِ. قيل له: وما هو؟ قال: رَأَيْتُ رَجُلًا يَبْكِي، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: هَذَا مُرَاءٍ.

وقال بعضهم: دَخَلْتُ عَلَى كُرْزِ بْنِ وَبَرَةَ، وَهُوَ يَبْكِي، فَقُلْتُ: مَا بِأَلْكَ، أَتَاكَ نَعْيُ بَعْضِ أَهْلِكَ؟ فَقَالَ: أَشَدُّ. فَقُلْتُ: وَجَع يَوْمُكَ؟ قَالَ: أَشَدُّ. قُلْتُ: فَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: بَابِي مُغْلَقٌ، وَسِتْرِي مُسْبَلٌ، وَلَمْ أَقْرَأْ حِزْبِي^(١) الْبَارِحَةَ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا بِذَنْبِ أَحَدَثُهُ^(٢).

وقال محمد بن شبانة: سَمِعْتُ بَعْضَ الشُّيُوخِ الثَّقَاتِ الْمُسْتَوْرِينَ بِبَغْدَادٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ الصَّافِي الْبَقَالَ بَدِينُورَ يَقُولُ: كَانَ بَدِينُورَ سَجَّانَ، قَالَ: إِنِّي بَقِيتُ عَلَى بَابِ السَّجْنِ نَيْفًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً، فَمَا مِنْ أَحَدٍ حُمِلَ إِلَى السَّجْنِ مِنَ الَّذِينَ أَخَذَهُمِ الطَّوْفُ بِاللَّيْلِ إِلَّا سَأَلْتَهُ، فَقُلْتُ لَهُ: هَلْ صَلَّيْتَ صَلَاةَ الْعِشَاءِ الْآخِرَةَ فِي جَمَاعَةٍ، إِلَّا قَالَ: لَا^(٣).

وقال أبو سليمان: لَا تَفُوتُ أَحَدًا صَلَاةً فِي جَمَاعَةٍ إِلَّا بِذَنْبٍ. وَكَانَ يَقُولُ: الْإِحْتِلَامُ بِاللَّيْلِ عَقُوبَةٌ، وَالْجَنَابَةُ: الْبُعْدُ. فَكَأَنَّهُ بَعْدُ مِنَ الصَّلَاةِ وَالتَّلَاوَةِ، إِذْ فِي ذَلِكَ قُرْبٌ، وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَبَصَّرْتُ بِهِ عَنْ جُنْبٍ﴾ [القصص: ١١] [أَي عَنْ بَعْدٍ. وَقَالَ آخَرُ: لَا يَعُوقُ أَحَدًا قِيَامَ لَيْلَةٍ إِلَّا لَحْدَثَ أَحَدَثُهُ فِي نَهَارِهِ]^(٤). وَكَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ: إِنْ الْعَبْدَ لَيَذْنِبُ الذَّنْبَ فَيُحَرِّمُ بِهِ قِيَامَ اللَّيْلِ وَصِيَامَ النَّهَارِ.

وقال بعض العلماء: إِذَا صُمْتَ يَا مُسْكِينُ، فَانْظُرْ عِنْدَ مَنْ تُفْطِرُ وَعَلَى أَيْ شَيْءٍ تُفْطِرُ، فَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَأْكُلُ الْأَكْلَةَ فَيَنْقَلِبُ قَلْبُهُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ فَلَا يَعُودُ إِلَى حَالِهِ الْأَوَّلِ. وَقَالَ آخَرُ: كَمْ مِنْ أَكْلَةٍ مَنَعَتْ قِيَامَ اللَّيْلِ، وَكَمْ مِنْ نَظْرَةٍ حَرَمَتْ قِرَاءَةَ سُورَةٍ. وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَأْكُلُ الْأَكْلَةَ أَوْ يَفْعَلُ فِعْلَةً فَيُحَرِّمُ بِهَا قِيَامَ سَنَةٍ.

(١) فِي (ط): «جَزْئِي» وَهُوَ تَصْحِيفٌ، صَوَابُهُ مِنْ (ك) وَالْإِتْحَافُ ١٩٣/٥.

(٢) فِي (ط): «أَحَدَثُهُ».

(٣) هَذَا الْخَبَرُ لَيْسَ فِي (ك).

(٤) سَاقِطَةٌ مِنْ (ط).

فُبُحْسِنَ التَّفَقُّدُ يَعْرِفُ [المريد^(١)] النُّقْصَانُ مِنَ الْمَزِيدِ، وَبِقِلَّةِ الذُّنُوبِ يُوقَفُ عَلَى التَّفَقُّدِ.

وكان الفضيل يقول: لو رُزِقْتَ مِنْ فَهْمِ الْقُرْآنِ وَقيامِ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ أَمْرِي مَا رُزِقْتَ الْآنَ، مَا كَتَبْتُ حَدِيثًا قَطْ، وَلَا اشْتَغَلْتُ بِغَيْرِ الْقُرْآنِ.

ويقال: إِنَّ طَوْلَ الْقِيَامِ رَاحَاتِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ صَلَاةَ اللَّيْلِ كَفَارَاتُ الْكِبَائِرِ. وَقِيلَ: إِنَّهُ جَبْرَانٌ لَمَّا نَقَصَ مِنَ الْفَرَائِضِ مِنَ صَلَاةِ النَّهَارِ^(٢).

وقد كانوا يستحبُّونَ فِي صَلَاةِ النَّهَارِ كَثْرَةَ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، وَفِي صَلَاةِ اللَّيْلِ طَوْلَ الْقِيَامِ.

واعلم أن صَلَاةَ اللَّيْلِ فَرِيضَةٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [وهي نافلةٌ لَنَا]؛ لِأَنَّهُ كَانَ مُتِمًّا لِفَرَائِضِهِ، وَصَلَاةَ اللَّيْلِ [تَطَوُّعٌ لَنَا وَجَبْرَانٌ] وَتَكْمِلَةٌ [لِلنَّقْصِ] فَرَائِضُنَا.

وَفِي الْخَبَرِ: «إِذَا نَامَ الْعَبْدُ عَقَدَ الشَّيْطَانُ عَلَى رَأْسِهِ ثَلَاثَ عَقَدٍ، فَإِنْ قَعَدَ وَذَكَرَ اللَّهَ انْحَلَّتْ عَقْدَةٌ، وَإِذَا تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عَقْدَةٌ، وَإِنْ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ انْحَلَّتْ الْعَقْدُ كُلُّهَا، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ وَإِلَّا أَصْبَحَ كَسَلَانَ خَبِيثَ النَّفْسِ»^(٤).

وَفِي الْخَبَرِ: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا نَامَ حَتَّى يُصْبِحَ بِالِ الشَّيْطَانِ فِي أُذُنِهِ»^(٥).

وَقَدْ رَوَيْنَا فِي الْخَبَرِ الْآخَرِ: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ سَعُوطًا وَلَعُوقًا وَذُرُورًا، فَإِذَا أَسْعَطَ الْعَبْدَ سَاءَ خَلْقُهُ، وَإِذَا أَلْعَقَهُ ذَرَبَ لِسَانِهِ بِالشَّرِّ، وَإِذَا ذَرَّهَ نَامَ بِاللَّيْلِ حَتَّى يُصْبِحَ»^(٦).

(١) ساقطة من (ط).

(٢) فِي (ط): «اللَّيْلِ» وَالصَّوَابُ مَا فِي (ك).

(٣) فِي (ط): «نافلة لرسول الله» وَالصَّوَابُ مَا أَثْبَتَ مِنْ (ك) وَكَانَ ثُمَّ نَقَصَ فِي الْمَطْبُوعَةِ أَكْمَلْتَهُ مِنَ الْمَخْطُوطِ.

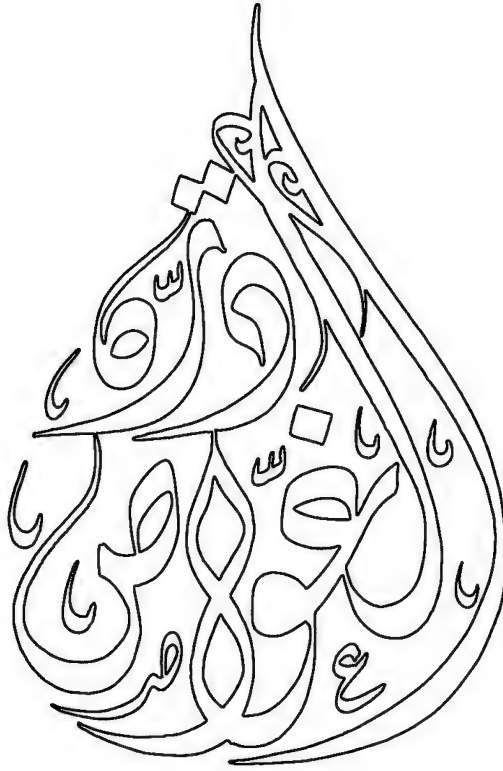
(٤) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ، كِتَابُ صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ، رَقْمُ ٧٧٦. وَالبخارى فِي كِتَابِ التَّهَجُّدِ، وَكِتَابُ بَدْءِ الْخَلْقِ. وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ، كِتَابُ قِيَامِ اللَّيْلِ، بَابُ التَّرْغِيبِ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ، رَقْمُهُ فِي الصَّحِيحِ: ١٥١٦. وَأَخْرَجَهُ غَيْرُهُمْ.

(٥) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ، رَقْمُ ٧٧٤، وَصَحِيحُ سَنَنِ النَّسَائِيِّ، رَقْمُ ١٥١٧.

(٦) قَالَ الْعِرَاقِيُّ ٣٥٣/١: «أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ... وَرَوَاهُ الْبَزَارُ مِنْ حَدِيثِ سَمُرَةَ بْنِ جَنْدَبٍ، وَسَنَدُهُمَا ضَعِيفٌ». وَانْظُرْ: الْإِتْمَاعُ ١٨٥/٥.

ويُستعان على قيام الليل بثلاث: أكل الحلال، والاستقامة على التوبة، وغمّ خوف الوعيد أو شوق رجاء الموعود.

والذى يُحرّم العبدُ به قيامَ الليل، أو يُعاقب معه بطول الغفلة، ثلاثٌ: أكل الشبهات، وإصرار على الذنب، وغلبة همّ الدنيا على القلب^(١).



(١) وهذا كله يعنى أن «لزوم الذكر يطرد الشيطان، ويجلو مرآة القلب، وينور البصيرة. ولا يتمكن منه إلا الذين اتقوا، فالتقوى باب الذكر، والذكر باب الكشف، والكشف باب الفوز الأكبر، وهو الفوز بقاء الله عز وجل» عن الزيدى ١٨٥/٥. وبقيت بعض الأسباب فى قيام الليل، ذكرها صاحب العوارف، ص ٣٦٥ - ٣٦٧. وانظر: الإحياء ١/٣٥٦.

الفصل الخامس عشر^(١)

هى ذكر ورد العبد من التسبيح والذكر والصلاة فى اليوم والليلة،
وفضل صلاة الجماعة، وذكر أفضل الأوقات المرجو فيها الإجابة،
وذكر صلاة التسبيح، وما يُستحب أن يكون شعاره [من أخلاق السلف]^(٢)

ليكن للعبد فى كل يوم وليلة ورد من التسبيح، وأقل ذلك تسعمائة مرة من
أنواع الأذكار التى وردت بها الأخبار. فليقل:

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيى ويميت وهو حيٌّ
لا يموت، بيده الخير وهو على كل شىء قدير، مائة مرة. فإذا قال ذلك مائتى
مرة لم يعمل أحد فى يومه أفضل من عمله، بأثر فيه عن رسول الله ﷺ.
وليقل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وتبارك الله،
مائة مرة.

وليقل: اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبى الأمى، مائة مرة.

وليقل: أستغفر الله الحى القيوم، وأسأله التوبة، مائة مرة.

وليقل: سبحان الله العظيم وبحمده، مائة مرة.

وليقل: لا إله إلا الله الملك الحق المبين، مائة مرة.

وليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، مائة مرة.

يقول هذا فى كل يوم، وفى كل ليلة، فإن رزق مزيداً عليه فهو فضل، وإلا
كان هذا معلومه. وقد كان فى الصحابة من ورده كل يوم اثنا عشر^(٣) ألف

(١) لا يوجد هذا الترقيم للفصول فى نسخة (ك) فى جميعها.

(٢) زيادة من (ك).

(٣) فى (ك): «اثنتى عشرة».

تسبيحة، وكان من التابعين مَنْ وردّه فى كلّ يوم ثلاثون ألفاً، [ومنهم مَنْ وردّه خمسون ألفاً]^(١).

وحدثونا عن إبراهيم بن أدهم عن بعض الأبدال، أنه قام ذات ليلة يصلى على شاطئ البحر، فسمع صوتاً عالياً بالتسبيح ولم يرَ أحداً، فقال: مَنْ أنت، أسمع صوتك ولا أرى شخصك؟ فقال: أنا ملك من الملائكة موكل بهذا البحر، أسبّح الله عزّ وجلّ هذا التسبيح منذ خلقتُ. قلت: فما اسمك؟ قال: مهيهائل. قلت: فما ثواب من قاله؟ قال: من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة، أو يرى له. وهو هذا التسبيح: سبحان الله العلىّ الديان، سبحان الله شديد الأركان، سبحان مَنْ يذهب بالليل ويأتى بالنهار، سبحان مَنْ لا يشغله شأنٌ عن شأن، سبحان الله الحنان المنان، سبحان الله المسبّح فى كلّ مكان.

وإن كان للعبد من الصلاة أوراذاً معلومة فحسناً قد فعل [ذلك]، وكان من التابعين مَنْ وردّه فى كلّ يوم ثلاثمائة ركعة، وأربعمائة ركعة. وكان منهم مَنْ وردّه ستمائة ركعة إلى ألف ركعة. وأقلّ ما نُقل عنه من الأوراد مائة ركعة فى اليوم [والليلة]^(٢).

وكان كُرّز بن وَبرة مُقيماً بمكة، وكان يطوف فى كل يوم سبعين أسبوعاً، وفى كل ليلة سبعين أسبوعاً^(٣). قال: فحسبنا ذلك فكان عشرة فراسخ. [وفى] هذه الأسابيع مائتان وثمانون ركعة. قال: وكان يختم - مع ذلك - القرآن فى اليوم والليلة مرتين. وقال هشام بن عروة: كان أبى يواظب على وردّه من التسبيح كما يواظب على حزيه من القرآن. وروى عنه أيضاً: كان يواظب على حزيه من الدعاء كما يواظب على حزيه من القرآن.

ولا يدع العبدُ أن يسبّح أديبارَ الصلوات الخمس مائة تسبيحة عند كل صلاة

(١) ساقطة من (ط)، وكذا فى الموضعين التاليين.

(٢) ما ذكره هنا شيء لم يثبت فى السنّة ولم يؤثر عن الصحابة، بل الذى ورد فى السنّة يخالف ذلك. وفى إطالة الركوع والسجود والذكر غنى عن هذه الكثرة المتكلفة.

(٣) الأسبوع من الطواف: سبعة أطواف، وطُفّت بالبيت أسبوعاً، أى: سبع مرّات.

مكتوبة، وكذلك عند النوم مائة. وليواظب على أن يقول إذا أصبح وإذا أمسى ما جاء في تفسير قوله عز وجل: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٣] فإنَّ لذلك ثواباً عظيماً.

ورؤينا عن عثمان رضى الله عنه أنه سأل النبي ﷺ عن تفسير هذه الآية: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فقال: «لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك، هو: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله الأول والآخرة والظاهر والباطن، له الملك وله الحمد، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير. مَنْ قالها عشراً حين يصبح وحين يمسي أُعطى بها ست خصال؛ فأول خصلة: يُحرس من إبليس وجنوده. والثانية: يُعطى قنطاراً من الأجر. والثالثة: يُرفع له درجة في الجنة. والرابعة: يُزوجه الله عز وجل من الحور العين. والخامسة: يحضرها اثنا عشر ملكاً. والسادسة: يكون له من الأجر كمن حجَّ واعتمر»^(١).

وقد روينا في تفسيرها قولاً آخر، من رواية أخرى، واتصل به ذكر كثر أهل الجنة ما هو، فإن ضمَّ هذا إليه فقد جمع الروایتين، واستوعب الفضيلتين. رواه عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن عثمان بن عفان رضى الله عنه، أنه سأل النبي ﷺ مسائل فأجابها عنها، فقال: ما مقاليد السموات والأرض؟ فقال: أن يقول العبد: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وأمّا كثر أهل الجنة، فيقول: سبحان مَنْ في السماء عرشه، سبحان مَنْ في السماء موضع أثره، سبحان مَنْ سبقت رحمته غضبه، سبحان مَنْ لا ملجأ ولا مهرب إلا إليه. يا عثمان مَنْ قالها كل يوم عشر مرات كُتب له بها ست خصال: ينجيه الله من إبليس وجنوده، وإن مات مات شهيداً، وبنى له قصرًا في الجنة، وكأنا قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، وكأنا اشترى ثمانية من ولد إسماعيل وأعتقهم»^(٢).

(١) ذكر القرطبي هذا الحديث في تفسيره ٢٧٥/١٥، وذكر أن الثعلبي ذكره في تفسيره وزاد الزيادة التي رواها صاحب القوت هنا. وأخرجه بمعناه أبو عوانة ١٦٨/١.

(٢) المذكور هنا خمسة فقط، وسيجيء تخريج هذا وغيره في آخر الكتاب.

ولا يدع قراءة هذه الآيات الست^(١) عند كل صلاة يصلّيها، فريضة أو تطوع، ففى ذلك ثواب عظيم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢) [الصفات: ١٨٠ - ١٨٢]، وقوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾^(٣) [الروم: ١٧ - ١٩].

ويستغفر^(٤) للمؤمنين والمؤمنات فى كل يوم خمسين مرة، خمساً وعشرين إذا أصبح، وخمساً وعشرين إذا أمسى، فإنه يكتب من الأبدال بأثر فى ذلك^(٥) رويناه، ولفظ الاستغفار الذى جاء فى الخبر أن يقول: «اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، حيّهم وميّتهم، شاهدهم وغائبهم، قريبهم وبعيدهم، إنك تعلم متقلبهم ومثواهم».

وليقل هذا الاستغفار فى تشهده أيضاً، فقد جاء ذلك.

وليقل فى كل عشر مرات: اللهم أصلح أمة محمد، اللهم ارحم أمة محمد، اللهم فرّج عن أمة محمد ﷺ، يقال: مَنْ قاله فى كل يوم كُتِبَ له ثوابٌ بَدَلٍ من الأبدال.

وليقل إذا أصبح ثلاثاً، وإذا أمسى ثلاثاً: اللهم أنت خلقتنى، وأنت هديتنى، وأنت تطعمنى، وأنت تسقينى، وأنت تميتنى، وأنت تحيينى، وأنت ربى لا ربّ لى

(١) فى (ط): «وليواظب على قراءة هؤلاء الست آيات».

(٢) فى (ط) ذكر جزءاً من الآية، وهى مذكرة بتمامها فى (ك).

(٣) فى (ط) ذكر جزءاً من الآية الأولى، وهى مذكرة بتمامها فى (ك).

(٤) فى (ط): «واستغفر».

(٥) يقصد الحديث الذى روى عن أبى الدرداء أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كل يوم سبعاً وعشرين مرة أو خمساً وعشرين مرة كان من الذين يستجاب لهم، ويرزق بهم أهل الأرض» ضعفه الألبانى، انظر: ضعيف الجامع الصغير، رقم ٥٤٠٤، ومجمع الزوائد ١٠/ ٢١٠.

سواك، ولا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك. فإن في ذلك شكر نعمة يومه.

ولا يدع أن يقول كلما استيقظ من نومه وكلما أراد المنام هذه الكلمات: بسم الله، ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، ما شاء الله كل نعمة من الله، ما شاء الله الخير كله بيد الله، ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله. ففي هذا عصمة من الله عز وجل وحُرْز له من الشيطان. وقد جاء في الخبر: «مَنْ قَالَهُنَّ مائة مرة يوم عرفة قبل غروب الشمس ناداه الله عز وجل من فوق عرشه: قد أرضيتني وعلى رضاك، سَلَنْي ما شِئت أعطك».

ولا يدع أن يقول كل غداة وكل عشية: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] سبع مرات.

وكذلك يسأل الله الجنة، ويستعِذ به من النار، سبْعاً، وكلما سمع الأذان قال كما يقول المؤذن، فإذا فرغ فليقل: رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا. اللهم رب هذه الدعوة التامة، والكلمة الصادقة، والصلاة القائمة، صلّ على محمد وعلى آله، وأعطه الوسيلة والفضيلة [والدرجة الرفيعة]^(١)، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته.

فإن كان الأذان لصلاة الصبح أو صلاة المغرب زاد في ذلك: اللهم هذا إِدْبَارُ ليلك، وإِقْبَالُ نهارك، وأصواتُ دعائك، وحُضُورُ صلاتك، وشهودُ ملائكتك، صلّ على محمد وآله. ثم لِيَدْعُ بما أَحَبَّ، وَلِيَعْتَنِمِ الصَّلَاةَ والدَّعَاءَ بين الأذان والإقامة، فإنه يُسْتَحَب.

ولتكن هذه الكلمات هَجِيرَةً [وِدْثَارَةً]^(١) وشِعَارَهُ في الأوقات، فإنها من دعاء الأبدال فيما بينهم، وشعارهم في أوقاتهم: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، العفو الغفور، يا سلام سلّم، يا رب، يا رب، يا ذا الجلال والإكرام، افتح بخيرٍ واختم بخير، فلا إله إلا الله الحى القيوم. سبحان ربنا إن كان وَعْدُ رَبِّنَا لمفعولاً. يا رب، يا رب، يا الله، يا الله، يا عزيز، يا عزيز، يا قريب يا قريب، يا حلِيم، يا سِتار.

(١) ما بين المعكفات من (ك). هَجِيرَةً: دأبه وشأنه. دِثَارُهُ: لباسه.

سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً. يا الله، يا الله، يا عزيز، يا عزيز، يا قريب، يا قريب، يا كريم، يا غفار، يا واسع المغفرة اغفر لى، عافنا وعاف عنا، نسألك العفو والعافية، يا غياث المستغيثين.

وفى جميع ما ذكرنا فضائل وردت بها الآثار عن النبى ﷺ وعن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، طوينا نشر ذلك؛ إذ لم يكن قصدنا ذكر فضائل الأعمال، وإنما أردنا شرح أوراد العُمَّال.

ولا يدع السَّوَّك كلما استيقظ من نوم النهار أو الليل، فإنه يقال إنه من خير خصال الصَّائِم، إلا بعد العصر فقد كُره [ذلك] للصَّائم.

وفى الخبر: «طَيَّبُوا طرق القرآن من أفواهكم بالسَّوَّك»^(١). وفى الحديث: «السَّوَّك مطهرة للفم مرضاة للرب عزَّ وجلَّ»^(٢). ويقال: «إن الصَّلَاة بعد السَّوَّك تَفْضُل على الصَّلَاة بغير سواك سبعين ضعفاً»^(٣).

وأؤكد ما استعمل فيه السَّوَّك أربعة أوقات: قبل الزَّوال للصَّائم، ويوم الجمعة مع الغسل لها، وفى قيام الليل، وبالغَدَاة عند الاستيقاظ من النوم.

وقد كانوا يستحبون أن لا يأتى على العبد يوم وليلة إلا تصدَّق فيه بصدقة وإن قلَّ، مثل لقمة أو ثمرة، حتَّى كان بعضهم يتصدَّق ببصلة وبخيطة؛ لأنه جاء فى الأثر: «كلَّ امرئ يوم القيامة فى ظل صدقته»^(٤). والله سبحانه يشكر القليل الدائم، وهو أحب إليه من الكثير المنقطع، ألم تر كيف ذمَّ مَنْ أعطى وقطع فى قوله تعالى: ﴿وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى﴾ [النجم: ٣٤]، أى قطع. ومدح فواكه الجنة

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الطهارة، باب السواك، عن على، انظر صحيح ابن ماجه رقم ٢٣٦، ولفظه «إن أفواهكم طرق للقرآن فطيها بالسواك». والصحيحة، رقم ١٢١٣.

(٢) أخرجه البخارى، كتاب الصوم ب٢٧، والنسائى، كتاب الطهارة.

(٣) من حديث أخرجه الإمام أحمد فى المسند ٢٧٢/٦ من حديث عائشة، والحاكم فى المستدرک ١٤٦/١، ولفظ المسند: «فضل الصلاة بالسواك على الصلاة بغير السواك سبعين ضعفاً».

(٤) فى المسند ١٤٨/٤ من حديث عقبة بن عامر بلفظ: «كل امرئ فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس».

يعيب بذلك فواكه الدنيا في تدبر الخطاب فقال: ﴿وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ لَا مَقْطُوعَةَ وَلَا مَمْنُوعَةَ﴾ [الواقعة: ٣٢ - ٣٣]، أى: فازهدوا في فواكه الدنيا فإنها مقطوعة ممنوعة، رغبة في هذه الدائمة.

وكان من أخلاق السلف أن لا يردّوا سائلاً إلا بشيء وإن قلَّ، لقول رسول الله ﷺ: «اتقوا النار ولو بشقّ تمر»^(١)، ولقوله ﷺ: «للسائل حقٌّ، ولو جاء على فرس مطوّق بفضّة»^(٢)، ولقوله ﷺ: «لا تردّ السائل ولو بظلفٍ محترق»^(٣).

ودفعت عائشة رضى الله عنها إلى السائل عنبه واحدة، قال: فنظر بعضنا إلى بعض، فقالت: ما لك؟ إن فيها لمثاقيل ذرة كثيرة.

وقد كان من أخلاقهم أن لا يُسأل أحد شيئاً، أو يُراد بأمر مباح، فيقول لا، لكرهتهم الخلاف ومحبتهم الائتلاف. وكان ذلك من أخلاق رسول الله ﷺ: «ما سُئل شيئاً قط فقال: لا، فإن لم يقدر عليه سكت»^(٤).

وقد كانوا يجتمعون على الأمر الواحد بقلب واحد، ولا يستبدّ بعضهم بأمرٍ دون بعض، ولا يستأثر أحدهم بشيء دون أخيه، وبذلك وصفهم الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨] أى: أمورهم مشاعة فيما بينهم غير مقسومة، هم فيها سواء.

ويُستحبّ للعبد أن يعمل في الجمع بين أعمال أربعة^(٥) [في يوم واحد، فإذا اتفقت له فهي نعمة من الله عز وجل]: صوم وصدقة وعبادة مريض وشهود

(١) أخرجه البخارى، كتاب الأدب ب ٣٤، ومسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم ٦٧، من حديث عدى بن حاتم، وفي غيرهما من كتب السنة.

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الزكاة، باب حق السائل، رقم ١٦٦٥، وضعيف أبى داود، رقم ٣٦٤، من حديث حسين بن على، دون قوله: «مطوق بفضّة».

(٣) أخرجه النسائى، كتاب الزكاة، باب رد السائل رقم ٧٠٠، والصحيح ٢٤٠٥، والمسند ٧٠/٤، ٢٨١/٥، من حديث حواء بنت السكن بلفظ: «ردّوا السائل».

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، ب ٤ ح ٥٦، وأحمد في المسند ١٣٠/٦ من حديث جابر بن عبد الله.

(٥) فى (ط): «أن يجمع بين هذه الأعمال الأربعة» وأثبت ما فى (ك)، وما بين المعكفات من (ك).

جنازة. وقد كان هذا طريق المريدين يسارعون إليه ويحرصون عليه. وفي الخبر: «مَنْ جَمَعَ بَيْنَ هَذِهِ الْأَرْبَعِ فِي يَوْمٍ غُفِرَ لَهُ». وفي بعضها: «دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١). فَإِنْ اتَّفَقَ لَهُ مِنْهَا ثَلَاثٌ أَوْ اثْنَانِ فَأَعْجَزَهُ^(٢) مَا بَقِيَ، حُسِبَ لَهُ تَمَامُهَا، لِحُسْنِ نِيَّتِهِ [لِذَلِكَ].

وَلَا يَدْعُنَّ الْجَمَاعَةَ سِيْمَا إِذَا سَمِعَ التَّأْذِينَ، أَوْ كَانَ فِي جَوَارِ الْمَسْجِدِ. وَحَدُّ الْجَوَارِ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَسْجِدِ ثَلَاثُ دُورٍ [وَمَنْزَلُهُ هُوَ الرَّابِعُ]. وَأَوَّلَى الْمَسَاجِدِ أَنْ يَصَلِّيَ فِيهِ أَقْرَبُهَا مِنْهُ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ نِيَّةٌ فِي الْأَبْعَدِ لِكثَرَةِ الْخُطَى [مَعَ حَصُولِ السَّلَامَةِ]، أَوْ لِفَضْلِ الْإِمَامِ فِيهِ، وَالصَّلَاةُ خَلْفَ الْعَالِمِ الْفَاضِلِ أَفْضَلُ. أَوْ يَرِيدُ أَنْ يَعْمُرَ بَيْتًا مِنْ بَيْوتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالصَّلَاةِ فِيهِ، وَإِنْ بَعُدَ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ: مَنْ صَلَّى الْخُمْسَ فِي جَمَاعَةٍ فَقَدْ مَلَأَ الْبِرَّ وَالْبَحْرَ^(٣) عِبَادَةً.

وَلِيَتَوَضَّأَ لِكُلِّ صَلَاةٍ قَبْلَ دُخُولِ وَقْتِهَا، فَإِنَّهُ مِنَ الْمَحَافِظَةِ عَلَيْهَا، وَحُسْنِ الْقِيَامِ بِهَا^(٤).

وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، وَحَلَفَ بِاللَّهِ، وَمَا سَمِعْتُهُ حَالِفًا بِاللَّهِ قَطُّ، قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ الْأَعْمَالَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ثَلَاثًا: أَمْرٌ بِصَدَقَةٍ، وَخُطْوَةٌ إِلَى صَلَاةِ جَمَاعَةٍ، أَوْ إِصْلَاحٌ بَيْنَ النَّاسِ».

وَيَسْتَحِبُّ لَهُ كَلَّمَا دَخَلَ مَنْزِلَهُ^(٥) أَنْ يَصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ^(٦)، وَكَلَّمَا خَرَجَ مِنْهُ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ. وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ لَا يَخْرُجُونَ مِنْ مَنَازِلِهِمْ حَتَّى يَتَوَضَّؤُوا. وَيَسْتَحِبُّ لَهُ

(١) لَيْسَ بِلَفْظِهِ فِي مَعْجَمِ الطَّبْرَانِيِّ الْكَبِيرِ ١٤٣/١١.

(٢) فِي (ك): «وَأَعْجَزَ لَهُ».

(٣) فِي (ط): «الْبَرِّينَ وَالْبَحْرَيْنِ» وَأُثْبِتَ مَا فِي (ك)، وَمَا بَيْنَ الْمَعْكَفَاتِ كُلِّهَا مِنْ (ك).

(٤) فِي (ط): «وَمَنْ حَسَنَ مَعَامِلَتِهَا» وَأُثْبِتَ مَا فِي (ك).

(٥) فِي (ط): «وَيَسْتَحِبُّ لَهُ كَلَّمَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ أَوْ مَنْزِلَهُ»، وَالصَّوَابُ مَا أُثْبِتَ مِنْ (ك).

(٦) بَعْدَهَا فِي (ط): «فَإِنْ ذَلِكَ مِنْ عَمَلِ الْأَبْرَارِ» وَلَيْسَ كَذَلِكَ فِي (ك)، وَقَدْ تَكَرَّرَتْ بَعْدَ ذَلِكَ، فَحَذَفْتُهَا.

كلّما أحدثَ أن يتوضأ، وكلّما توضأ أن يصلى ركعتين، فإنّ ذلك من عمل الأبرار، وهو لمن مات على هذا العمل شهادة.

وإذا خرج من منزله قال: بسم الله ما شاء الله، حسبى الله، توكلت على الله، لا قوة إلا بالله. اللهم إليك خرجتُ وأنت أخرجتنى، اللهم سلّمنى وسلّم منى فى دينى كما أخرجتنى. اللهم إنى أعوذ بك أن أزلَّ [أو أزلّ، أو أضلّ] أو أضلّ، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو يُجهل علىّ. عزّ جارُك، وجلّ ثناؤك، ولا إله غيرك، وليقرأ سورة الحمد، والمعوذتين.

ولا يدع صلاة الضحى أربعة ركعات، ويزيد ما شاء الله إلى ثمان ركعات إلى اثنى عشر ركعة، ولا يزيد على ذلك، إن نشط أطالهن، وإن فتر قصرهن، وليجعل من قراءته فيهنّ: والشمس وضحاها، وسورة الضحى، وآخر سورة البقرة، وآخر سورة الحشر. ثم ليتنفل بعد ذلك بما شاء من غير أن تكون ورد الضحى، فيلزمه المواظبة عليه^(١).

وفى حديث عائشة رضى الله عنها: «إن النبى ﷺ كان يصلى الضحى أربعاً، ويزيد ما شاء الله»^(٢).

وفى خبر عن الله عزّ وجلّ: «يا ابن آدم، صلّ لى أربع ركعات فى أول النهار أكفك آخره»^(٣).

وفى حديث أم هانئ بنت أبى طالب: «إن النبى ﷺ صلى الضحى ثمان ركعات»^(٤).

وفى الخبر: «يُصبح ابنُ آدم وعلى كلّ سلامى من جسده صدقة، يعنى فى كل مفصل، وفى جسده ثلاثمائة وستون مفصلاً؛ فأمرُك بالمعروفِ صدقة، ونهيُك عن

(١) فى (ك): «ثم ليتنفل بعد ذلك ما شاء الله، من غير أن يكون يلزمه المواظبة عليه».

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، ب ١٣، ح رقم ٧٨.

(٣) أخرجه الترمذى، كتاب أبواب الصلاة، ح رقم ٤٧٨، والصحيح رقم ٣٩٥، من حديث أبى الدرداء، والمسنّد ٢٨٧/٥.

(٤) من حديث طويل أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، رقم ٨٢.

المنكر صدقة، وحملك عن الضعيف صدقة، وهدايتك إلى الطريق صدقة، وإماطتك الأذى صدقة، حتى ذكر التسبيح والتهليل، ثم قال: وركعتا الضحى تأتي على ذلك كله^(١). أو قال: «تجمعن لك ذلك [كله]».

وقد كان من سيرة المتقدمين دخول المسجد سحراً قبل طلوع الفجر، والقعود فيه إلى صلاة الصبح، ويفضلون هذا الفعل. حدثونا عن رجل من التابعين قال: دخلت المسجد قبل طلوع الفجر، فألفت أبا هريرة قد سبقني، فقال: يا ابن أخي، لأي شيء خرجت من منزلك هذه الساعة؟ فقلت: لصلاة الغداة. فقال: أبشر، فإننا كنا نعدّ خروجنا وقعودنا في هذا المسجد هذه الساعة ننتظر الصلاة بمنزلة غزوة في سبيل الله عز وجل. أو قال: مع رسول الله ﷺ.

وأفضل الأوقات المرجو فيها الإجابة أربعة: عند السحر، وعند طلوع الشمس، وعند غروبها، وبين الأذان والإقامة. وأفضل أوقات الليل والنهار أوقات الصلوات المكتوبات.

وإذا دعا الله سبحانه وتعالى فليدعه بمعاني أسمائه فإنها صفاته، وهو يحب ذلك، وإنما أظهرها ليُعرف بها وليدعى بها^(٢)، مثل أن تقول: يا جبار اجبر قلبي، يا غفار اغفر ذنبي، يا رحمن أصلحني، يا رحيم ارحمني، يا تواب تب عليّ، يا سلام سلّمني.

واستحب أن يدعو الله عز وجل بأسمائه التسعة والتسعين في كل يوم وليلة مرة، فإنه روى عن النبي ﷺ قال: «من أحصاها دخل الجنة»^(٣)، وهي متفرقة في جميع القرآن. فمن دعا الله عز وجل بها [مخلصاً] موقناً كان كمن ختمه. فإن تعذر عليه حفظها فإنها منشورة على غير ترتيب، فليتطرق إليها من حروف المعجم، فليذكر من كل حرف ما فيه، كأن يبتدئ بالألف فينسق ما عليه من الأسماء، ثم بالباء، ثم بالتاء، فيقول: يا الله، يا أول، يا آخر، يا باري، يا

(١) هذا بمعناه، وأصله في مسلم، كتاب صلاة المسافرين، رقم ٧٠٢.

(٢) في (ط): «ليعرف بها الداعي، وليدع بها» وأثبت ما في (ك).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، ب ١٢، من حديث أبي هريرة.

باطن، يا تواب. وقد يتعذر عليه وجود بعضها في بعض الحروف كغيرها، إلا أنها تخرج في سائر الحروف المتيسرة بالأسماء الظاهرة، فإذا عدّ من الأحرف تسعة وتسعين اسماً أجزأه؛ لأنه يجد في الحرف الواحد العشرة فأكثر، ودون ذلك فلا يضره إن لم يعرف في بعض الحروف اسماً إذا أحصى العدد، فقد حصل له الفضل، للأثر في ذلك^(١).

• ذكر صلاة التسبيح:

استحب له أن يصلي صلاة التسبيح في الجمعة مرتين: مرة نهاراً ومرة ليلاً؛ وهي ثلاثمائة تسبيحة في أربع ركعات. إن صلاها نهاراً لم يفصل بينهما بتسليم، وإن صلاها ليلاً سلّم فيها سلامين، فقد كان الصالحون يصلونها، ويتعرفون بركتها، ويتذكرون فضلها. وقد روينا فيها روايتين:

إحدهما: حديث الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال للعباس بن عبد المطلب: «ألا أعطيك، ألا أمنحك، ألا أحبوك بشيء إذا أنت فعلته غفر الله لك ذنبك أوله وآخره، قديمه وحديثه، خطأه وعمده، سره وعلايته: تصلي أربع ركعات تقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب وسورة. فإذا فرغت من القراءة في أول ركعة وأنت قائم قلت: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، خمس عشرة مرة. ثم تركع فتقولها عشراً. ثم ترفع رأسك من الركوع فتقولها عشراً. ثم تسجد فتقولها عشراً. ثم ترفع من السجود فتقولها عشراً. ثم تسجد الثانية فتقولها عشراً. ثم ترفع من السجود ثم تجلس فتقولها عشراً. ثم تقوم. فذلك خمسة وسبعون في كل ركعة. تفعل ذلك في أربع ركعات. إن استطعت أن تصلّيها في كل يوم مرة فافعل، فإن لم تفعل ففي كل جمعة مرة، فإن لم تفعل ففي كل شهر مرة، فإن لم تفعل ففي كل سنة مرة، فإن لم تفعل ففي عمرك مرة»^(٢).

(١) في الفقرات الأربع الماضية اختلاف في الترتيب بين المطبوعة والمخطوط.

(٢) صحيح ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، رقم ١١٣٩، وصحيح أبي داود رقم ١١٥٢، وفي رواية أخرى لابن ماجه صحيحة أيضاً وفي آخرها: «فلو كانت ذنوبك مثل رمل عالج غفرها الله لك».

حُدِّثناه عن أبي داود السجستاني، فقال: ليس في صلاة التسبيح حديث أصح من هذا، فذكر في هذه الرواية: أنه يسبح في القيام خمس عشرة مرة بعد القراءة، وأنه يسبح عشراً بعد السجدة الثانية في الركعة الأولى قبل القيام، كأنه يجلس جلسة قبل أن ينهض، وفي الركعة الثانية أيضاً، وكذلك قبل التشهد.

ورويانا في الخبر الآخر: أنه يفتح الصلاة فيتوجه، ويقول: سبحانك اللهم وبحمدك، تبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك. ثم يسبح خمس عشرة تسبيحة قبل القراءة، ثم يقرأ الحمد وسورة، ثم يسبح عشراً، ثم يركع فيكون له في قيامه خمس وعشرون تسبيحة. ولا يسبح بعد السجود في الجلسة الأولى بين الركعتين ولا في جلسة التشهد شيئاً.

وكذلك رويانا في حديث عبد الله بن زياد بن سمعان، عن معاوية بن عبد الله ابن جعفر عن أبيه: أن النبي ﷺ علمه صلاة التسبيح قال فيها: يفتح الصلاة مكبراً. ثم يقول، فذكر الكلمات، وزاد فيها: ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وقال فيه: يقول ذلك خمس عشرة مرة. ولم يذكر بعد السجدة الثانية عند القيام أن يقولها. وهذه الرواية أحب الوجهين إلى، وهو اختيار عبد الله بن المبارك.

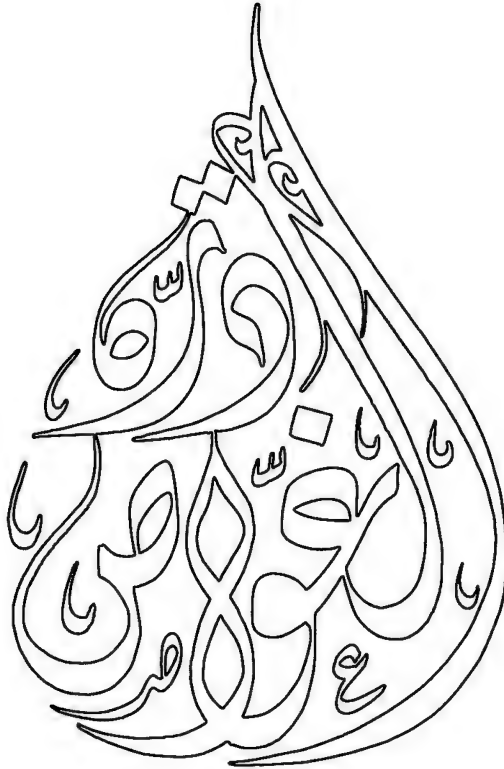
حدثونا عن سهل بن عاصم، عن ابن وهب قال: سألت ابن المبارك عن الصلاة التي يُسَبِّح فيها، فقال: يقول: سبحان الله، والحمد لله... الكلمات، خمس عشرة مرة. ثم يتعوذ ويقرأ فاتحة الكتاب وسورة. ثم يقولها عشراً ثم يركع، وذكرها. قال: فذلك خمس وسبعون، يصلّي أربع ركعات على هذا، إن صلّيت ليلاً فأحب أن يسلم في الركعتين، وإن صلّيت نهاراً صلّيت أربعاً، وإن شئت سلّمت. وإذا عدّ في الركوع فعّد بأصبعه على ركبته، وفي السجود بأصبعه على الأرض.

وحدثونا عن محمد بن جابر قال: قلت لابن المبارك: في صلاة التسبيح إذا رفعت رأسى للقيام من آخر السجدين أسبّح قبل أن أقوم؟ قال: لا، تلك القعدة ليست من سنة الصلاة.

وقال ابن أبي رزمة عن ابن المبارك: قلتُ له: يقول: سبحان ربى العظيم ثلاث مرات، سبحان ربى الأعلى ثلاث مرات، قال: نعم. قلت: فإن سها يسبح في السهو عشرًا. قال: لا، إنما هي ثلاثمائة تسبيحة.

وأحب أن تكون السورة التي يقرأها في صلاة التسبيح مع الحمد فوق العشرين آية. فقد روينا في حديث عبد الله بن جعفر، الذي رواه إسماعيل بن رافع، أن النبي ﷺ قال في السورة التي بعد أم القرآن: عشرين آية فصاعدًا.

وكذلك أحبُّ زيادة: لا حول ولا قوة إلا بالله، لما ذكرناه في الخبر الآخر، فإن قرأ مع فاتحة الكتاب في كل ركعة عشر مرات: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فقد ضاعف العددَ واستكمل الأجرَ.



الفصل السادس عشر

في ذكر معاملة العبد في التلاوة ووصف التالين للقرآن حق تلاوته بقيام الشهادة

استحب للمريد أن يختم القرآن في كل أسبوع ختمتين؛ ختمةً بالنهار، وختمة بالليل. ويجعل ختمة النهار يوم الاثنين في ركعتي الفجر أو بعدهما. ويختم ختمة الليل ليلة الجمعة في ركعتي المغرب أو بعدهما؛ ليستقبل بختمته أول النهار وأول الليل، فإن الملائكة تصلى عليه إن كانت ختمته ليلاً حتى يصبح، وتصلّى عليه إن كانت ختمته نهاراً حتى يمسي، فهذان الوقتان يستوعبان كُلية الليل و[كُلية] ^(١) النهار.

وفي الخبر: «لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث» ^(٢).

وأمر رسول الله ﷺ عبد الله بن عمر «أن يقرأ القرآن في كل سبع» ^(٣). وكذلك جماعة من الصحابة يختمون القرآن في كل جمعة.

وروي عن يحيى بن الحارث الديناري، عن القاسم بن عبد الرحمن قال: كان عثمان بن عفان رضي الله عنه يفتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة، وليلة السبت بالأنعام إلى هود، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم، وليلة الاثنين بطه إلى طسم موسى وفرعون، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى صاد، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن، ويختم ليلة الخميس.

وكذلك كان زيد بن ثابت وأبى [بن كعب] ^(٤) يختمان القرآن في كل سبع.

(١) زيادة من (ك).

(٢) ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، رقم ١٣٤٧، وصحيحه رقم ١١٠٧.

(٣) من حديث فيه حوار مع النبي ﷺ، أخرجه ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، رقم ١٣٤٦، وصحيحه رقم ١١٠٦.

(٤) زيادة من (ك).

وروينا عن ابن مسعود: أنه سَبَّعَ القرآن في سبع ليال، فكان يقرأ في كل ليلة بسبَّعه. إلا أن تأليفه على غير ترتيب مصحفنا هذا فلم يذكره؛ لأن الاعتبار لا يتبين به.

وجماعة يُذكر عنهم ختم القرآن في كل يوم وليلة، وقد كره ختمه في أقل من ثلاث طائفة.

والتوسط من ذلك ما ذكرناه؛ وهو أن يختم في كل ثلاثة أيام.

• ذكر أحزاب القرآن وكيف حزبه الصحابة رضي الله عنهم؛

[قال أبو طالب:] ^(١) وإن قرأ القرآن أحزابًا، في كل يومٍ ليلةٍ حزبًا، فحَسَنٌ، وهو سَنَةٌ، فذلك أشدّ لمواظاة القلب وأقوم للترتيل ^(٢)، وأدنى إلى الفهم.

وإن أحبّ قرأ في ركعة ^(٣) ثلث عشر القرآن، أو نصف ذلك، يكون الجزء من الأجزاء الثلاثين في ركعة ^(٤) أو ركعتين. فإن قرأ في كل ورْدٍ حزبًا أو حزبين، أو دون ذلك، فحَسَنٌ.

وأحزاب القرآن سبعة: فالحزب الأول: ثلاث سور، والحزب الثاني: خمس سور، والحزب الثالث: سبع سور، والرابع: تسع سور، والخامس: إحدى عشرة سورة، والسادس: ثلاث عشرة سورة، والمفصل: من «ق» [إلى آخر القرآن] ^(٥). فهذه كانت أحزاب القرآن، وكذلك حزبه الصحابة رضي الله عنهم أجمعين. وكانوا يقرؤونه كذلك. وفي ذلك خبر [ثابت] عن رسول الله ﷺ [في قصة] ^(٦).

(١) زيادة من (ك).

(٢) في (ط): «للترتيب»، وكذلك في الإتحاف ٤/ ٤٧٥، وأثبت ما في (ك).

(٣) في (ط): «كل ركعة» وأثبت ما في (ك).

(٤) في (ط): «كل ركعة» وكذلك في الإتحاف ٤/ ٤٧٥.

(٥) ساقطة من (ط).

(٦) زيادة من (ك)، والخبر الذي يقصده هو حديث أوس بن حذيفة، أخرجه ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، رقم ١٣٤٥، وضعيف أبي داود، رقم ٢٤٦، وذكر الزبيدي عدة روايات وتخريجات للحديث، ثم علّق على نقل الغزالي من القوت هذا الكلام. انظر: الإتحاف ٤/ ٤٧٥ - ٤٧٦.

وكأنه حُزِبَ على عدد الآيات^(١)، إذ عددها ستة آلاف [آية] ومائتان وست وثلاثون آية.

وقد اعتبرت ذلك في كل حزب فرأيتُه يتقارب، وهذا قبل أن تعمل الأخماس، والعواشر، والأجزاء، فما سوى هذا مُحدث. يقال: إن الحجاج جمع قرأ البصرة والكوفة، منهم: عاصم الجحدري، ومطر الوراق، وشهاب بن شريفة، فأمرهم بذلك.

وقد كان الحسن وابن سيرين ينكران هذه الأخماس والعواشر والأجزاء. وروى عن الشعبي وإبراهيم [النخعي] كراهية النقط بالحُمرة، وأخذ الأجر على ذلك، وكانوا يقولون: جردوا القرآن.

وقال الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير: كان القرآن مجرداً في المصاحف، فأول ما أحدثوا فيه النقط على الباء والتاء، وقالوا: لا بأس به فإنه نور له، ثم أحدثوا بعده نقطاً كبيراً عند منتهى الآي، فقالوا: لا بأس به يُعرف به رأس الآي، ثم أحدثوا بعد ذلك الخواتيم والفواتح، وقالوا: لا بأس به؛ لأنها علامة تُعرف بها.

واعلم أنه لا يجد فهم القرآن الفهم الذي يكشف مُشاهدة [المخاطب] ويظهر من الملكوت القدرة^(٢) عبدٌ فيه إحدى هذه الخصال: ذو بدعة^(٣)، أو مُصرٌّ على ذنب، أو عبدٌ في قلبه كبر، أو مقارِفٌ^(٤) لهوى قد استكنَّ في قلبه، أو محبٌ للدنيا، أو عبدٌ غير متحققٍ بالإيمان، أو ضعيفُ اليقين، ولا من هو واقف مع مقرّاه، ولا عبد مهتمٌ بتتبع حروفه واختياره، ولا ناظر إلى قول مفسّر ساكن إلى علمه^(٥) الظاهر، ولا راجع إلى معقوله، ولا قاضٍ بمذاهب أهل العربية واللغة في باطن الخطاب وسرّ المراد^(٦).

(١) في (ط): «وكانه حزبه على عدد هذه الآي» وأثبت ما في (ك).

(٢) في (ط): «يكشف بمشاهدته ويظهر من الملكوت قدره» وأثبت ما في (ك).

(٣) في (ط): «أدنى بدعة».

(٤) في (ط): «مقارب».

(٥) في (ط): «عمله».

(٦) في (ط): «وسر المرء» وهو خطأ.

وهؤلاء كلهم محجوبون بعقولهم، مردودون إلى ما يقدر في علومهم، موقوفون مع ما تقرر في قلوبهم^(١)، مزيدهم على مقدار علومهم وغرائز عقولهم. وهؤلاء مشركون بعقولهم وعلومهم عند الموحدين، وهذا داخل في الشرك الخفى، الذى [هو] أخفى من ديب النمل على الصفا فى الليلة الظلماء.

قال محمد بن على بن سنانة: إذا معقوله وعلمه عن عقل غير كامل؛ لأنّ العقل الكامل ما عقل عن الله عزّ وجلّ، وفهم حكمه وكلامه، ويعقل به كلامه.

وقد قال الرسول صلوات الله عليه فى صفة كمال العقل: «العاقل من عقل عن الله سبحانه وتعالى أمره ونهيه»^(٢). وفى الخبر: «أكثر منافقى أمتى قرأوها»^(٣). فهذا نفاق الوقوف مع سوى الله تعالى، والنظر إلى غيره، لا نفاق الشرك والإنكار لقدرة الله عزّ وجلّ، فهو لا ينتقل عن التوحيد، ولكنه لا ينتقل إلى مقام المزيد.

فإذا كان العبد ملقياً السمع بين يدي سميعه، مُصْغِياً إلى سرّ كلامه، شهيد القلب لمعانى صفات شهيده، ناظراً إلى قدرته، تاركاً لمعقوله ومعهود علمه، متبرئاً من حوله وقوته، مُعْظِماً للمتكلم، واقفاً على حضوره، مفتقراً إلى الفهم بحال مستقيم، وقلب سليم، وصفاء يقين، وقوة علم وتمكين، سمع فصل الخطاب، وشهد علم غيب الجواب.

وأفضل القراءة الترتيل؛ لأنه يجمع الأمر والنّدى، وفيه التدبّر والتذكّر [والتفكير]. روى عن علىّ رضى الله عنه: لا خير فى عبادة لا فقه فيها، ولا فى قراءة لا تدبّر فيها. وعن ابن عباس: لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلّهما وأتدبّرهما أحبّ إلىّ من أن أقرأ القرآن كلّ هذرمة^(٤). وروى عنه أيضاً: لأن أقرأ إذا زلزلت، والقارعة، أتدبّرهما أحبّ إلىّ من أن أقرأ البقرة وآل عمران هذرمة.

(١) فى (ط): «عقولهم».

(٢) لم أجد بلفظه، وذكر القرطبى فى تفسيره ٣٤٦/١٣ من حديث جابر: «العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه». وانظر: شرح السنة، للبغوى، ١٩٤/٥.

(٣) المسند ١٧٥/٢ و ١٥١/٤، ١٥٥ من حديث ابن عمر، وعقبة بن عامر.

(٤) الهذرمة: سرعة القراءة، بلا أحكام ولا تدبّر.

وسئل مجاهد عن رجلين دخلا في صلاة، فكان قيامهما واحداً، إلا أن أحدهما قرأ البقرة، والآخر قرأ القرآن كله. فقال: هما في الأجر سواء؛ لأن قيامهما كان واحداً.

وأفضل الترتيل والتدبر في القرآن ما كان في صلاة. ويقال: إن التفكر في الصلاة أفضل منه في غير الصلاة؛ لأنهما عملان.

وهذا هو التفكر في معاني التدبر، والفهم بخطاب الوعد والوعيد، والزجر والأمر تعظيماً للمتعود، وإجلالاً للآمر.

وسئل النبي ﷺ: «أى الصلاة أفضل؟ فقال: طول القنوت»^(١). وروى في خبر آخر: «من سجد لله عز وجل سجدة رفعه الله عز وجل بها درجة»^(٢). وأنه قال لأبى فاطمة خادمه، وقد سأله مرافقته في الجنة، فقال: «أعني بكثرة السجود». وروينا عن أبى ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال: إنه كثرة السجود بالنهار، وإنه طول القيام بالليل.

ويقال: إن العبد يحشر عند الموت من قبره على هيئته في صلاته من السكون والطمأنينة، وتكون راحته في الموقف على قدر راحته وتنعمه بالصلاة. وروينا معنى هذا عن أبى هريرة.

وعلى هذا المعنى تأويل قول رسول الله ﷺ لبلال: «أرحنا بالصلاة»^(٣)، أى: رَوِّحْنَا بِهَا وَنَعِّمْنَا بِهَا، من الرِّوْح والراحة إليها. ويقال: أرحنا بالشيء، أى رَوِّحْنَا بِهِ. وَأَرْحْنَا مِنْهُ: أى أسقطه عنا وخفف عنا منه. ولم يقل: أرحنا منها. كيف وقرة عينه فيها؟!

وقال بعضهم: إني لأفتح السورة فيوقفني بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها، حتى يطلع الفجر، وما قضيت منها وطري.

(١) مسلم، كتاب صلاة المسافرين، رقم ٧٥٦ من حديث جابر.

(٢) مسند أبى حنيفة، ص ٣٦.

(٣) المسند ٣٦/٤، ٣٧١.

وقال سليمان بن أبي سليمان الداراني: إنه وعد ابن ثوبان أخاً له أن يفطر عنده، فأبطأ عليه حتى طلع الفجر، فلقيته أخوه من الغد، قال: وعدتني أن تفطر عندي فأخلفت. فقال: لولا ميعادك ما أخبرتك بالذي حبسني عنك. إني لما صليت العتمة، قلت أوتر قبل أن أجيئك؛ لأتني لا آمن ما يحدث من الموت. فلما كنت في الدعاء من الوتر رفعت لي روضة خضراء، فيها أنواع الزهر من الجنة، فما زلت أنظر إليها حتى أصبحت.

وقال عز وجل: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]. قيل: القرآن قوى إيمانهم بعلم القرآن، فالقرآن روح الإيمان، وتقويتهم استعمالهم به. وفي التفسير ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]، قيل: بجدة واجتهاد. ومثله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣، الأعراف: ١٧١]، قيل: بعمل به. وقيل لبعضهم: إذا قرأت القرآن تحدث نفسك بشيء؟ فقال: أو شيء أحب إلي من القرآن أحدث نفسي به؟ وهذه صفة قوى مكين.

ويقال: إن في القرآن ميادين، وبساتين، ومقاصير، وعرائس، وديابيج، ورياضاً، وخانات. فالميمات: ميادين القرآن، والراءات: بساتين القرآن. والحامدات^(١): مقاصير [القرآن]، والمسبحات: عرائس القرآن، والحواميم: ديباج القرآن، والمفصل: رياضه، والخانات: ما سوى ذلك. فإذا جال المريد في الميادين، وقطف من البساتين، ودخل المقاصير، وشهد العرائس، ولبس الديباج، وتنزه في الرياض، وسكن غرف الخانات، اقتطعه وأوقفه ما يراه، وشغله الشاهد به عما سواه.

وروى عن النبي ﷺ «أنه قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، فرددها عشرين مرة»^(٢). وكان له ﷺ في كل ردة فهم، ومن كل كلمة علم.

(١) في (ط): «الحآت» وأثبت ما في (ك)، وانظر: الإتحاف ٥٠٤/٤.

(٢) قال العراقي في المغنى، هامش الإحياء ٢٨٢/١: «رواه أبو ذر الهروي في معجمه من حديث أبي هريرة بسند ضعيف». وانظر: الإتحاف ٥٠٥/٤.

فينبغي أن يكون قلبُ التّالِي بوصفِ كلِّ كلمةٍ يتلوها مشاهداً لمعناها إلى ما يفتح الله عز وجلّ له من المزيد عليها من مجاورتها، ومع ما يفهم بها من غيرها، ويشهدُ غيرها منها. فقد كان بعضهم يقول: كلُّ آيةٍ لا أتفهمها، ولا يكون قلبي فيها، لم أعد لها ثواباً. وكان بعض السلف إذا قرأ السورة [أو آية]^(١)، ولم يكن قلبه فيها، أعادها ثانية، فإذا مرّ بتسبيحٍ وتكبيرٍ سبح وكبر، وإن مرّ بدعاءٍ واستغفار دعا واستغفر، وإن مرّ بمخوفٍ ومرجواً استعاذ وسأل. فذلك معنى قوله عز وجلّ: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]. وكذلك كان رسول الله ﷺ في تلاوته.

وعلى هذا المعنى ما روى في الخبر: «مَنْ أراد أن يقرأ القرآن غَضّاً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أمّ عبد»^(٢). أى: على معنى تلاوته؛ لأنه كان يقرأ بقلبٍ شهيد، وسمع عتيد، وبصرٍ حديد، فكان يتلو القرآن على معاني الكلام، وعلى شهادة وصف المتكلم، الوعيدُ منه بالتحزين، والوعدُ بالتشويق، والوعظُ بالتخويف، والإنذار بالتشديد، والتبصير^(٣) بالترقيق، والتبشير بالتوفيق؛ لأنه كان عالماً بصفات المتكلم، واجداً لذوق الكلم. فمثل هذا العبد أحسنُ الناس صوتاً بالقرآن، كما جاء في الخبر: «أحسنُ الناس صوتاً بالقرآن مَنْ إذا قرأ رأيت أنه يخشى الله»^(٤). ومن هذا قيل: «إذا قرأتُم القرآن فابكُوا، وإن لم تبكوا فبأكُوا»^(٥). ومثل هذا: «إن القرآن نزل بحُزن، فإذا قرأتموه فتحازنوا». أى: إن القرآن لما فيه من التهديد والوعيد، والوثائق^(٦) والعهود، يوجب البكاء والحزن، فإن لم تحزنوا

(١) زيادة من (ك).

(٢) صحيح ابن ماجه، رقم ١١٤، من حديث عبد الله بن مسعود.

(٣) فى (ط): «والتفسير» وأثبت ما فى (ك).

(٤) صحيح الجامع الصغير، رقم ١٩٤، من حديث ابن عمر بلفظ: «أحسن الناس قراءة...» ومن

حديث جابر فى سنن ابن ماجه، كتاب الإقامة، والصحيح رقم ١١٠١.

(٥) فى ضعيف ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، رقم ٢٨١، ورقمه فى السنن ١٣٣٧، وانظر:

الإتحاف ٤/ ٤٧٩.

(٦) فى (ك): «المواثيق».

وَجَدًّا، وَلَمْ تَبْكُوا يَقِينًا، فَتَبَاكُوا وَتَحَازَنُوا لَفْظًا، لِأَجْلِ التَّصَدِيقِ وَالْإِقْرَارِ بِهِ. فَتَدْبَهُمْ إِلَى التَّحَازُنِ فِي التَّلَاوَةِ، وَالتَّبَاكِي؛ لِيَجْتَمَعَ هُمُ الْعَبْدُ فِي الْمَتْلُو، فَيَتَدَبَّرُ الْكَلَامَ، عَسَى أَنْ يَكُونَ قَلْبُهُ بِمَعْنَاهُ، فَيَكُونَ التَّبَاكِي وَالتَّحْزِينَ سَبَبًا لَجَمْعِ هَمِّهِ وَفِرَاقِ قَلْبِهِ؛ لِأَنَّ التَّبَاكِي الصَّادِقَ مُجْتَمِعُ الْهَمِّ فِيمَا يَبْكِيهِ، وَالْحَزِينَ حَاضِرُ الْقَلْبِ مُجْمُوعُ الْفِكْرِ، وَمَشْغُولٌ عَنْ سِوَى مَبْكِيهِ^(١).

من ذلك ما روينا عن ابن عباس: «إِذَا قَرَأْتُمْ سُجْدَةَ ﴿سُبْحَانَ﴾ فَلَا تَعْجَلُوا بِالسُّجُودِ حَتَّى تَبْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكْ عَيْنٌ أَحَدِكُمْ فَلْيَبْكْ قَلْبُهُ، فَبَكَاءُ الْقَلْبِ حَزْنُهُ وَخَشْيَتُهُ». أَيْ فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا بِكَاءِ الْعُلَمَاءِ عَنِ الْفَهْمِ فَلْتَحْزَنْ قُلُوبَكُمْ عَلَى فَقْدِ الْبَكَاءِ، وَلِيَخْشَ كَيْفَ لَمْ يَوْجَدْ فِيكُمْ وَصْفُ أَهْلِ الْعِلْمِ.

وَقَدْ رَوَيْنَا فِي غَرَائِبِ التَّفْسِيرِ مِنْ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحَجَارَةِ لَمَاءً يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ قَالَ: هِيَ الْعَيْنُ الْكَثِيرَةُ الْبَكَاءِ ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ قَالَ: هِيَ الْعَيْنُ الْقَلِيلَةُ الْبَكَاءِ ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] قَالَ: هُوَ بَكَاءُ الْقَلْبِ مِنْ غَيْرِ دُمُوعٍ عَيْنٍ.

وَقَالَ ثَابِتُ الْبَنَانِيِّ: رَأَيْتُ فِي النَّوْمِ كَأَنِّي أَقْرَأُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْقُرْآنَ. فَلَمَّا فَرَّغْتَ قَالَ: هَذِهِ الْقِرَاءَةُ، فَأَيْنَ الْبَكَاءُ؟

وَكَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ عَبْدٌ يَتْلُو هَذَا الْقُرْآنَ يُؤْمِنُ بِهِ إِلَّا كَثُرَ حَزْنُهُ وَقَلَّ فَرَحُهُ، وَكَثُرَ بَكَاءُهُ وَقَلَّ ضَحْكُهُ، وَكَبُرَ نَصَبُهُ وَشَغْلُهُ وَقَلَّتْ رَاحَتُهُ وَبَطَلَتْهُ.

وَالنَّاسُ فِي التَّلَاوَةِ عَلَى ثَلَاثِ مَقَامَاتٍ: أَعْلَاهُمْ: مَنْ يَشْهَدُ أَوْصَافَ الْمُتَكَلِّمِ فِي كَلَامِهِ، وَيَعْرِفُ أَخْلَاقَهُ بِمَعْنَى خُطَابِهِ، وَهَذَا مَقَامُ الْعَارِفِينَ مِنَ الْمُقْرِبِينَ.

وَمِنْهُمْ: مَنْ يَشْهَدُ رَبَّهُ تَعَالَى يَنَاجِيهِ بِالطَّافَةِ، وَيَخَاطِبُهُ بِإِنْعَامِهِ وَإِحْسَانِهِ، فَمَقَامُ هَذَا الْحَيَاءِ وَالتَّعْظِيمِ، وَحَالُهُ الْإِصْغَاءُ وَالتَّفْهِيمُ. وَهَذَا لِلْمُقْرِبِينَ مِنْ عَمُومِ الْمُقْرِبِينَ^(٢).

(١) فِي (ك): «وَالْحَزِينَ حَاضِرُ الْقَلْبِ مُجْمُوعُ الْهَمِّ فِيمَا شَغْلُهُ عَنْ سِوَى حَبِيْبِهِ».

(٢) فِي (ط): «وَحَالُهُ الْإِصْغَاءُ وَالتَّفْهِيمُ، وَهَذَا لِلْأَبْرَارِ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ» وَأُثْبِتَ مَا فِي (ك).

ومنهم: من يرى أنه [هو الذي]^(١) يناجي ربه عز وجل، فمقامه السؤال والتعلق، وحالُه الطلب والتعلق، وهذا للمعترفين والمريدين، وهم من خصوص أصحاب اليمين.

وينبغي للعبد أن يشهد في التلاوة أن مولاه يُخاطبه بالكلام؛ لأنه سبحانه متكلم بكلام نفسه، وليس للعبد في كلامه كلام، وإنما جعل له حركة اللسان بوصفه، وتيسير الذكر بلسانه بحكم ربه عز وجل حدًا للعبد ومكانًا له^(٢)، كما كانت الشجرة وجهة لموسى عليه السلام، وكلمه الله عز وجل منها^(٣).

ويقال: إن كل حرف من كلام الله عز وجل في اللوح المحفوظ أعظم من جبل قاف، وإن الملائكة لو اجتمعت على الحرف الواحد أن يقلّوه ما أطاقوه، حتى يأتي إسرافيل، وهو ملك اللوح المحفوظ، فيرفعه فيقلّه بإذن الله عز وجل ورحمته، إذ كان الله تعالى أطاقه ذلك لما استعمله به^(٤).

وقال جعفر بن محمد الصادق: والله لقد تجلّى الله عز وجل لخلقه في كلامه، ولكن لا يبصرون. وقال أيضًا، وقد سأله عن شيء لحقه في الصلاة حتى خرم مغشيًا عليه، فلما سرى عنه قيل له في ذلك، فقال: ما زلت أردد الآية على قلبي، حتى سمعتها من المتكلم بها، فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته تعالى.

وكذلك الخصوص يرددون الآية بقلوبهم على قلوبهم، ويتحققون بها في مشاهدتهم بمدد من شهيدهم وسيدهم، حتى يستغرقهم الفهم، فيغرقون في بحر العلم^(٥). فإن قصرت مشاهدة التالى عن هذا المقام، فيشهد أنه يناجيه بكلامه، ويتملقه بمناجاته [والطافه]^(٦)، فإن الله عز وجل إنما خاطبه بلسانه، وكلمه بحركته

(١) زيادة من (ك).

(٢) فى (ك): ويسر الذكر بلسانه لحكمة ربه، حدًا للعبد ومكانًا له.

(٣) فى (ك): «كما كانت الشجرة وجهة لموسى صلى الله عليه وسلم، كلمه ربه منها».

(٤) هذه الفقرة ليست فى (ك).

(٥) فى (ك): «حتى يستغرقهم الفهم، فيستغرقون فى حقيقة منها».

(٦) زيادة من (ك).

وصوته، ليفهم عنه بعلمه الذى جعله له، ويعقل عنه بفهمه الذى قسمه^(١) له، حكمة منه ورحمة، إذ لو تكلم الجبار عز وجل بوصفه الذى يدركه سمعه لما ثبت للكلام عرش ولا ثرى، ولتلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه، وسُبُحات أنواره، فحجب ذلك فى غيب علمه عن العقول، وستره بصنع قدرته عن القلوب، وأظهر للقلوب علوم عقولها، وأشهد للعقول عرف معقولها، بلطفه وحنانه ورحمته وإحسانه.

ويلغنا فى الأخبار السالفة^(٢): أن ولياً من أولياء الله عز وجل من الصديقين ابتعثه فى الفترة إلى ملك من الجبابرة يدعوه إلى التوحيد، وإلى شريعة الأنبياء. فسأله الملك عن أشياء من معانى التوحيد، فجعل الصديق يجيبه عنها بما يقرب من فهمه، ويدركه عقله؛ من ضرب^(٣) الأمثال بما يستعمله الناس بينهم، ويتعارفونه عندهم. إلى أن قال له الملك: أفرأيت ما يأتى به الأنبياء إذا ادّعت أنه ليس بكلام الناس ولا رأيهم، أم كلام الله هو؟

قال الحكيم: نعم. قال الملك: فكيف يطيق الناس حمله؟

قال الصديق: إننا رأينا الناس لما أرادوا أن يفهموا بعض الدواب والطيور ما يريدون من تقديمها وتأخيرها وإقبالها وإدبارها، لم يجدوا الدواب والطيور تحمل كلامهم، فوضعوا لها من النقر والصفير والزجر ما عرفوا أنها تطيق حمله. فكَذلك الناس يعجزون أن يحملوا كلام الله بكنهه وكمال صفاته^(٤)، فصاروا بما يتراجعون به بينهم من الأصوات التى يسمعون بها الحكمة^(٥)، كصوت الزجر والنقر الذى سمعت به الدواب من الناس. ولم يمنع ذلك معانى الحكمة المخبوءة فى تلك الأصوات من أن يشرف الكلام، فشرفت الأصوات لشرفها، وعظم

(١) فى (ط): «جعل له... قسم له»، وأثبت ما فى (ك).

(٢) هذا الخبر لم يرد فى المخطوط، وقد أورده صاحب الإتحاف ٥٠٢/٤، والغزالي فى إحيائه ٢٨٠/١ - ٢٨١. ونص الزبيدي على لفظ القوت، وعلى نقله قابلت هذا الخبر.

(٣) فى (ط): «ضروب» وأثبت ما فى الإتحاف، لأنه أدق.

(٤) فى (ط): «ككنهه بكماله وصفته» وأثبت ما فى الإتحاف.

(٥) فى (ط): «فصاروا بما تراجعوا بينهم من الأصوات التى سمعوا بها الحكمة» وأثبت ما فى (ك).

لتعظيمها^(١). فكان الصوتُ للحكمة جسداً ومسكناً، والحكمة للصوت نفساً وروحاً. فكما أن أجساد البشر تُكْرَم وتُعزُّ لمكان الروح التي فيها، فكذلك أصوات الكلام تُشَرَّف وتُكْرَم للحكمة التي فيها. والكلامُ على المنزلة رفيعُ الدرجة، قاهرُ السُّلطان، نافذُ الحكم في الحقِّ والباطل. وهو القاضي العادل، والشاهد المرتضى؛ يأمر وينهى. ولا طاقة للباطل أن يقوم قدام كلام الحكمة، كما لا يستطيع الظلُّ أن يقوم قدام^(٢) شعاع الشمس، ولا طاقة للبشر أن ينفذوا غور الحكمة، كما لا طاقة لهم أن ينفذوا بأبصارهم ضوء عين الشمس، ولكنهم ينالون من شعاع الشمس ما تحيا به أبصارهم، ويستدلون به على حوائجهم.

فالكلامُ كالملك المحجوب، الغائب وجهه، الشاهد أمره، وكالشمس العزيزة الظاهرة، مكنون عنصرها^(٣)، وكالنجوم الزاهرة التي قد يهتدى بها من لا يقع على سرها. فالكلامُ أعظمُ وأشرفُ من ذلك، هو مفتاح الخزائن النفيسة^(٤)، وباب المنازل العالية، ومراقى الدرجات الشريفة، وشراب الحياة الذي من شرب منه لم يمُت، ودواءُ الأسقام التي من سقى منه لم يسقم. إذا لبسه من لم يتسلح به أبدى عورته، وإذا تسلح به غير أهله لم يخرج إلا منهم.

نقلتُ هذا نقلاً من كلام الصديق الحكيم الذي خاطب به الملك، فاستجاب له بإذن الله عزَّ وجلَّ. فهذا وصف كلام الله عزَّ وجلَّ، الذي جعله الله لنا آيةً وعبرة، ونعمةً علينا ورحمةً.

فانظر إلى الحكيم كيف جعل عقولَ البشر في فهم كلام الله العظيم بمنزلة فهم البهائم والطير بالنقر والصفير إلى عقول البشر، وجعل النقر والصفير والإفهام من الناس للأنعام والهوام مثلاً لما أفهم الله تعالى به الأنام من معاني كلامه الجليل، بما

(١) في (ط): «أن شرف الكلام بشرفها وعظم بتعظيمها» وأثبت ما في إحدى نسخ القوت التي نقل عنها الزبيدي ونص على ذلك، لأنه كان بين يديه عدة نسخ من القوت. ورواية الإتحاف والإحياء: «لشرفها وعظم لتعظيمها».

(٢) هكذا في المطبوعة والإتحاف.

(٣) نص الإتحاف ٥٠٣/٤ على بعض نسخ القوت: «وعنصرها مكنون».

(٤) في (ط): «النفسية» وأثبت ما في الإتحاف.

أَلْهَمَهُمْ فِيهِ^(١) مِنَ الْكَلَامِ، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]. فهذه قدرة لطيفة من قدرته التي لا تنهاى، وحكمة مُحكمة من حِكْمِهِ التي لا تُضاهى، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ^(٢).

ثم ليشهد العبدُ أَنَّهُ مقصودٌ بجميع القرآن من فاتحته إلى خاتمته، مرادٌ معنًى به، له ضربت الأمثال به^(٣)، وفيه جميعُ ذكره وأوصافه؛ لأنَّ اللهَ سبحانه وتعالى لما تكلم بهذا الكلام وخاطب به المؤمنين، كان هو واجدهم، وكان حاضراً معهم، وقد سوى الله عز وجل بين المؤمنين فى تنزيل القرآن عليهم وبين النبی ﷺ بمعنى من المعانى، فقال: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٣١]، كما قال: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الانباء: ١٠]، وكذلك قال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]. وقال: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ [محمد: ٣] يعنى صفاتهم. وقال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ [النور: ٣٤]. كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [البقرة: ٩٩]^(٤). وقال عز وجل: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ﴾ [يونس: ١٠٩]. ثم قال: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُمْ مِنَ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣]. وقال: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢].

غير أَنَّهُ سبحانه عمَّ الجملة بالبصائر والبيان، وخصَّ بالهدى والرحمة أولى التقى والإيمان. فمن ذلك قوله عز وجل: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠]، ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

(١) فى (ط): «بما ألهم به» وأثبت ما فى الإتحاف.

(٢) إلى هنا ينتهى السقط من المخطوط، وكذا النقل المتصل للزبيدي من نسخ القوت.

(٣) فى (ك): «معنى به، له ضربت أمثاله به».

(٤) أتم فى (ك) بعض الآيات.

فالْمُوقِنُونَ هم المَتَّقُونَ، والمُهْدِيُونَ هم المَرْحُومُونَ، وقد أُمِرْنَا بطلب فهم القرآن، كما أُمِرْنَا بتلاوته، فروى عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ وَالتَّمَسُّوا غَرَائِبَهُ». وقال ابن مسعود: مَنْ أَرَادَ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فَلْيُثَوِّرِ الْقُرْآنَ^(١).

ومن حديث على رضى الله عنه عن النبي ﷺ: «والذى بعثنى بالحق نبياً لتفترقن أمتى على أصل دينها وجماعتها على اثنين وسبعين فرقة، كلها ضالة مضلة يدعون إلى النار، فإذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله عز وجل؛ فإن فيه نبأ ما كان قبلكم، ونبأ ما يأتى بعدكم، وحكم ما بينكم. مَنْ خَالَفَهُ مِنَ الْجَابِرَةِ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الْعِلْمَ مِنْ غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ. وهو حبلُ الله المتين، ونوره المبين، وشفائه النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، لا يعوج فيقام، ولا يزيغ فيستقيم^(٢)، ولا تنقضى عجائبه، ولا يخلق كثر الرد. هو الذى سمعته الجن فلما قُضِيَ وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ، فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾^(٣) [الجن: ١ - ٢]. من قال به صدق، ومن عمل به أُجِر، ومن تمسك به هدى إلى صراط مستقيم».

وروينا معناه فى حديث حذيفة لما أخبره رسول الله ﷺ بالاختلاف والفرقة بعده. قال: «فقلت: يا رسول الله، فما تأمرنى إن أدركت ذلك؟ فقال: تعلم كتاب الله عز وجل وأعمل بما فيه، فهو المخرج من ذلك. قال: فأعدت عليه. فقال: تعلم كتاب الله عز وجل وأعمل بما فيه، فهو المخرج من ذلك. قال: فأعدت عليه. فقال: تعلم كتاب الله وأعمل بما فيه، ففيه النجاة، ثلاثاً».

وعن على رضى الله عنه قال: «ما أسرَّ إلى رسول الله ﷺ شيئاً كتمه الناس إلا

(١) معنى «فليثور القرآن»: تثوير القرآن: قراءته ومفاتيحه العلماء به فى تفسير معانيه، وقيل: لينقر عنه ويفكر فى معانيه وتفسيره وقراءته عن لسان العرب (ثور)، وفيه الخبر، وفي الإنحاف: ٥٠٩/٤. والرواية فى (ك): «فليثور» ونص الإنحاف على هذه الرواية، وقال: «رواه الديلمى عن أنس بن مالك».

(٢) فى (ك): «فيقوم».

(٣) فى المطبوعة و (ك): «فقالوا يا قومنا» وهو خطأ ظاهر فى القرآن.

أن يؤتى الله عبداً فهماً في كتابه». وعنه رضى الله عنه أنه قال: وَمَنْ فَهِمَ فَسَّرَ [جميع] ^(١) جُمِلَ العلم.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما وغيره في قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] قال: الفهم فى كتاب الله عز وجل.

وقال أحسن القائلين: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩] فرفع الفهم مقاماً فوق الحكم والعلم، وأضافه إليه؛ للتخصيص، وجعله مقاماً عاماً فيهما.

فإذا فهم العبد الكلام، وعامل به المولى، تحقق بما يقول، وكان من أصحابه ^(٢)، ولم يكن حاكياً لقائله، مثل أن يتلو منه: ﴿إِنِّى أَخَافُ إِنِّ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥]، ومثل أن يقول: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [المتحة: ٤]، ومثل قوله: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ [إبراهيم: ١٢]، فيكون ^(٣) هو الخائف لليوم العظيم، ويكون هو المتوكل المنيب، وهو الصابر على الأذى؛ توكلًا ^(٤) على المولى، ولا يكون مخبراً عن قائل قاله، فلا يجد حلاوة ذلك ولا ميراثه [حتى يكون على وصف ما ذكرت] ^(٥) وإذا كان هو كذلك وجد حلاوة التلاوة، وتحقق جزء ^(٦) الولاية.

وكذلك إذا تلا الآى المذموم أهلها، الممقوت فاعلها، مثل قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرُضُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وقوله: ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩]، ومثل قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ

(١) زيادة من (ك).

(٢) فى (ك): «تحقق بما أقول وكان من أهله».

(٣) فى (ك): «بأن يكون».

(٤) فى (ط): «متوكل» وأثبت ما فى (ك)، لأنه أدق.

(٥) ساقطة من (ط).

(٦) فى (ك): «بحسن».

الظَّالْمُونَ ﴿[الحجرات: ١١]﴾. فما أقبح من يعيب^(١) ذلك وهو من أهله، وما أعظم أن يذمَّ أهل ذلك وهو بوصفه! فهذا من حُجج القرآن عليه، فلا يجد مع ذلك حلاوة المناجاة، ولا يسمع خطاب المناجي؛ لأنَّ وصفه المذموم قد حجبته، وهواه المردى عن حقيقة الفهم قد حرّمه، ولأنَّ قسوة قلبه [صدّه]^(٢) عن الفهم، وصرفه وكذّبه في حاله عن البيان وأخرسه.

فإذا كان هو المتيقظ المقبل، [وبأن]^(٣) هو التائب الصادق، سمع فصل الخطاب، ونظر إلى الداعي وله استجاب.

وقد اشترط الله عزّ وجلّ الإنابة للتبصرة^(٤)، وحضور القلب للتذكرة، فقال عزّ وجلّ: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٨]، وقال: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣]، وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرعد: ١٩، ٢٠]. فالاستقامة على التوبة من الوفاء بالعهد، وتعدّي الحدود من نقض الميثاق وقلة الصدق. والإنابة: هي التوبة بالإقبال^(٥) على الله عزّ وجلّ. والألباب: هي العقول الزاكية والقلوب الظاهرة.

وينبغي للتألي الخائف الناصح لنفسه وللخلق، السليم القلب، إذا تلا آى الوعد والوعيد^(٦) والمدح ومحاسن الوصف ومقامات المقربين، أن لا يشهد نفسه هناك، ولا يراها مكاناً لذلك، بل يشهد للمؤمنين فيها، وينظر إلى الصديقين منها سلامة ونصحاً. فإذا تلا الآى الممقوت أهلها، المتهدّد عليها^(٧)، المذموم وصفها من مقامات الغافلين وأحوال الخاطئين، شهد نفسه هناك، وأنه هو المخاطب المقصود

(١) فى (ك): «أن يعيب».

(٢) ساقطة من (ط).

(٣) ساقطة من (ط) وفيها: «فهو التائب».

(٤) فى (ط): «للإنابة التبصرة» وأثبت ما فى (ك).

(٥) فى (ط): «والإقبال» وأثبت ما فى (ك).

(٦) فى (ط): «إذا تلا الآى الوعد».

(٧) فى (ك): «الممقوت فيها، المصر عليها».

بذلك، خوفاً منه وشفقاً. فهذه المشاهدة يرجو للخلق^(١) ويخاف على نفسه، ومن هذه الملاحظة يُسلم قلبه للعباد ويمتت نفسه.

وروينا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول: اللهم إني أستغفرك لظلمي وكفري. قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، هذا الظلم فما بال الكفر؟ فتلا قوله [تعالى]: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

فإن قلب هذان المعينان على عبد حتى يشهد نفسه فى المدح والوصف، ويشهد غيره فى الذم والمقت، انقلب قلبه عن وجهة الصادقين، وتكَبَّ بقصده عن صراط الخائفين، فهلك وأهلك؛ لأن من شهد^(٢) البعد فى القرب لطف له بالخوف، ومن شهد القرب فى البعد مكر به فى الأمن.

وقال بعض العلماء: كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة، حتى تلوته كأننى أسمعه من رسول الله ﷺ يتلوهُ على أصحابه. ثم رُفِعْتُ إلى مقام فوقه^(٣) فكنت أتلوه كأننى أسمعه من جبريل عليه السلام يلقىهُ على رسول الله ﷺ. ثم جاء الله بمنزلة أخرى، فأنا الآن أسمعهُ من المتكلم عز من قائل، فعندها وجدت له نعيماً ولذة لا أصبر عنها.

وقال عثمان رضى الله عنه أو حذيفة: لو طهرت القلوب لم تشبع من تلاوة القرآن.

وقال ثابت البناني: كابدت القرآن عشرين سنة، وتنعمت به عشرين سنة.

وقال بعض علمائنا: لكل آية ستون ألف فهم، وما بقى من فهمها أكثر.

وعن على رضى الله عنه: لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب^(٤).

(١) فى (ك): «يرجو للخالق».

(٢) فى (ك): «أشهد».

(٣) ليس هناك مقام لمخلوق أعلى من مقام رسول الله ﷺ، ولعله يقصد الترتيب الزمانى فى نزول القرآن.

(٤) الخبر فى الإتحاف ٥١١/٤، ونقل تفسيراً له، فراجعهُ ثم.

وعن أبي سليمان الداراني: إني لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال، وذكر خمس ليال، ولولا أنني أقطع الفكر فيها لما جاوزتها إلى غيرها.

ورؤينا عن بعض السلف: أنه بقي في سورة هود ستة أشهر يكررها، ولا يفرغ منها.

وحدثنا عن بعض العارفين قال: لي في كل جمعة ختمة، وفي كل شهر ختمة، وفي كل سنة ختمة، ولي ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد. يعني ختمة الفهم والمشاهدة. وكان هذا يقول: أقمت نفسي في العبودية مقام الأجراء، فأنا أعمل مياومة، ومجامعة، ومشاهرة، ومسانهة^(١).

وإنما حجب [الله] الخلق عن فهم كنه الكلام، ومعرفة كلية المراد^(٢)؛ لأنه حجبهم عن حقيقة كنه معرفته. وإنما أعطاهم من معرفة الكلام بقدر ما أعطاهم من معرفة المتكلم، إذ بمعاني كلامه تُعرف معاني صفاته وأفعاله وأحكامه؛ لأن معاني كلامه عين معاني أوصافه وأخلاقه؛ فلذلك جاء فيه السهل اللطيف، والشديد العسوف^(٣)، والمرجو والمخوف؛ لأن من أوصافه الرحمة واللفظ والانتقام والبطش. فلما لم يصلح أن يعرفوه كعلمه بنفسه لم يصلح أن يعلم كنه كلامه إلا هو، كما لا يعرف^(٤) كنه صفاته إلا هو.

فأعلم الخلق لمعاني كلامه أعرفهم لمعاني الصفات^(٥). وأعرف العباد بمعاني الأوصاف والأخلاق وغوامض الأحكام أعرفهم بسرائر الخطاب، ووجه الحروف، ومعاني باطن الكلام، وأحقهم بذلك أخشاهم له، وأخشاهم له أقربهم منه،

(١) شرح الزبيدي هذا الخبر فقال: «الأجراء جمع أجير، وهو من يستعمل نفسه بالأجرة. ومياومة: وهي معاملة يوم بيوم، وهي لغة العامة. ومجامعة: وهي معاملة الجمعة إلى الجمعة، ولم يسمع استعماله عن العرب. ومشاهرة: من الشهر إلى الشهر. ومسانهة: من السنة إلى السنة» اهـ ملخصاً.

(٢) في (ط): «ومعرفة سرّ المراد» وأثبت ما في (ك).

(٣) الشديد العسوف: يقصد البعيد المعاني، والذي يحتاج إلى تأويل لفهمه.

(٤) في (ط): «هو، ويعرف» وأثبت ما في (ك).

(٥) في (ك): «فأعلم الخلق بمعاني كلامه أعرفهم بمعاني الصفات».

وأقربهم منه مَنْ خَصَّهَ بِأثرته وشمله بعنايته. فقد جاء في الخبر: «أحسنُ الناس صوتًا بالقرآن مَنْ إذا قرأ رأيتَ أنه يخشى الله». ولا يخشاه حتى يعرفه، ولا يعرفه حتى يعامله، ولا يعامله حتى يقربه، ولا يقربه حتى يُعنى به وينظر إليه؛ فعندها يعرف سرَّ الخطاب، ويطلع على باطن أصل المراد، وفهم الكتاب^(١).

فإذا سجد العبدُ سجودَ القرآن، فَلْيَدْعُ في سجده بمعاني الآية من الخير، وليستعذ من معاني شرِّها، فإن ذلك فعل العلماء بالقرآن، والله يحب ذلك، ولتلك المعاني أسجدهم له. مثل أن يقرأ قوله عزَّ وجل: ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥]، فيقول: اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك، المسبحين بحمدك، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك، أو على أوليائك. ومثل هذا قوله عزَّ وجل: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩]، فليقل: اللهم اجعلني من الباكين إليك، الخاشعين لك. وعلى هذه المعاني ونحوها^(٢).

وليكن القرآن هو علمه وعمله، وذكره ودعاؤه، وهمّة وشغله، فعنه يُسأل، وعليه يُثاب، ومقامه منه، وذكره فيه، وأحواله فيه، مجموعٌ له ذلك كلّ فيه. فبكلامه عرفه العارفون، وبمخاطبته شهد أوصافه الموقنون، فعلموهم من كلامه^(٣)، ومواجيدهم من علومهم، ومشاهدتهم من معاني أوصافه، وكلامهم عن مشاهدتهم؛ لأنَّ ضروب الكلام عن الله هي معاني الصفات^(٤)، فمنه كلام راضٍ ومنه كلام غضبان، ومنه كلام مُنعم، وكلام مُنتقم، ومنه كلامُ جبار متكبر،

(١) في (ط): «ويطلع على باطن الكتاب» وأثبت ما في (ك)، وفي الإتحاف كلام جيد ومفيد في حظ التالي من القرآن ومعرفة صفات الله تعالى، فراجعته ثم: ٥٠٨/٤.

(٢) عقد الحكيم الترمذی فصلاً جيداً في سجديات القرآن، وما لكل منها من الادعية الخاصة، لكنه سقط من النسخة المطبوعة التي بيدي، وهو ثابت فيما نقله عنه الزبيدي في الإتحاف ٤٨٢/٤ - ٤٨٣. فهذا مما يستدرك على مطبوعة «نوادير الأصول».

(٣) في (ك): «من كلامهم».

(٤) في (ك): «لأنَّ ضروب الكلام هو عن الله تعالى معاني الصفات».

وحنّان [عطوف]^(١) متعطف.

فإذا كان العبد من أهل العلم بالله والفهم عنه، والسّمع من الله عزّ وجلّ والمشاهدة له، شهد ما غاب عن غيره، وأبصر ما عمى عنه سواه. وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨ - ٣٩]. وقال عزّ وجلّ: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢] معناه في الفهم: اعبروا إلىّ فقد أبصرتهم. و«التاء» قد تكون بمعنى التفعيل^(٢)، تدخل للتحقيق والوصول^(٣) بالوصف والمبالغة في الفعل، فلما أعطاهم الأيدي والأبصار عبّروا بقلوبهم^(٤) إلى ما أبصروا، ففروا إلى الله عزّ وجلّ من الخلق حين ذكّروه بما خلق، فخرجوا على^(٥) معيار حسن الابتلاء، ولم ينقصهم البلاء شيئاً، فكانوا كما أخبر والذي^(٦) أمر في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [من الأزواج]^(٧)، ثم قال: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الذاريات: ٤٩ - ٥١] فكانوا هم الموحدين المخلصين له، وكان هو المنفرد المستخلص لهم. ثم جاوزوا التذكرة بالأشياء^(٨) إليه، فذكّروه عنده به، فحينئذ هربوا إليه منه حين هلّوه به، فلم يتألّوها إلى ما سواه، كما لم يعبدوا إلا إيّاه، وكذلك رأيتها في مصحف عبد الله: «فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ مِنْهُ إِنَّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ».

وفي الخبر عن ابن مسعود، وبعض الرواة يرفعه، وقد رويناه مسنداً من طريق: «إنّ للقرآن ظهراً وبطناً وحدّاً ومُطلّعا». فنقول: فظاهره لأهل العريية، وباطنه لأهل اليقين، وحده لأهل الظاهر، ومطلّعه لأهل الإشراف، وهم خصوص

(١) ساقطة من (ط).

(٢) في (ط): «فالتاء قد تكون بمعنى تاء الفعل» وأثبت ما في (ك).

(٣) ليست في (ك).

(٤) في (ط): «بقواهم» وأثبت ما في (ك).

(٥) في (ك): «عن».

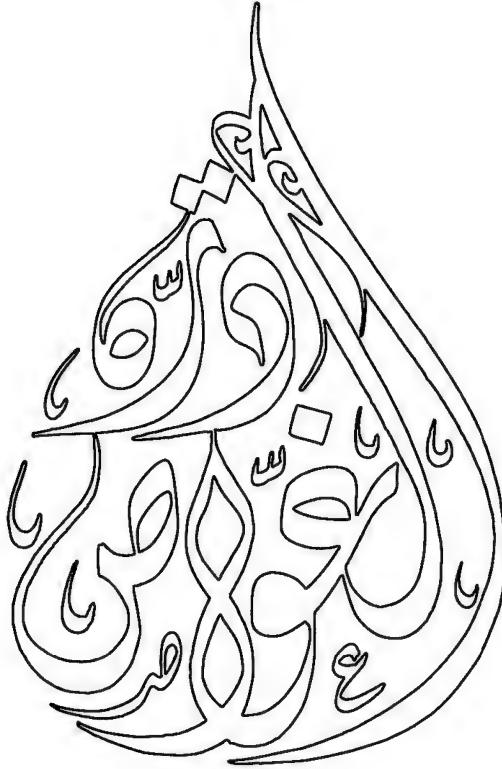
(٦) في (ط): «كما أخبروا كالذي» وأثبت ما في (ك) فهو أصح وأدق.

(٧) ساقطة من (ط).

(٨) كذا في المطبوعة والمخطوطة، ولعلها «بالانقياد إليه».

العارفين من المحبين والخائفين، اطلعوا على لطف المطلع، بعد أن خافوا هول المطلع، فأودعوا السرّ عند مقام أمين، وأوقفوا على الخبر في حال مكين، فكانوا لديه مقربين، إذ كانوا به شاهدين^(١).

وقال النبي ﷺ: «يرى الشاهد ما لا يرى الغائب». فمن حضرَ شهد، ومن شهد وجد، ومن وجد وحدّ، ومن وحدّ عزّز، ومن غاب عمي، ومن عمي فُقد، ومن فُقد نسي، ومن نسي فقد نسي، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: ١٢٦] أى تركتها فلم تعبأ بها، ولم تنظر إليها، وهكذا اليوم تُترك فلا يُنظر إليك برحمة، ولا تُكلّم بلطف، ولا تُزلف بقرب^(٢).



(١) بعض هذه الجمل السابقة تكرر في المطبوعة قبل خبر ابن مسعود، وليس كذلك في (ك).

(٢) هذه الفقرة برمتها ليست في (ك).

الفصل السابع عشر

فيه كتاب ذكر نوع من المفصل والموصل من الكلام،
وفيه مدح العالمين^(١)، وذم الغافلين عنه، وتفسير الغريب،
والمشكل من القرآن، باختصار الأصول الدالة على المعنى

فأما ظاهر الكلام فعلى معنيين عجيبين، وهو مجمل مختصر، وموصل مكرر.
فإجماله واختصاره للبلاغة والإيجاز، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ
عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٦]، ومكرره وتفصيله للإفهام والتذكار. قال الله تعالى:
﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٥١].

وقال عز وجل في المبهم المجمل والتوحيد المفصل: ﴿الرَّكِيبُ أَهْلُكُمْ أَهْلُكُمْ أَهْلُكُمْ
ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾، فهذه ثلاثة أسماء: الله، لطيف، رحيم.
وقيل: بل هي حروف من اسم وهو الرحمن، ثم أظهر السبب فقال: ﴿كِتَابٌ
أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ يعني بالتوحيد، ثم ﴿فُصِّلَتْ﴾ أى بالوعد والوعيد، ثم قال:
﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ﴾ أى للأحكام ﴿خَيْرٍ﴾ أى بالأحكام، خير بالتفصيل للحلال
والحرام ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ هذا هو التوحيد الذى أحكمه ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ
وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ١ - ٢] هذا هو الوعد والوعيد الذى أعلمه.

فمن المختصر للإيجاز قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾
[الإسراء: ٥٩]، ففي هذا مختصر ومحدوفان؛ فالْمُضْمَرُ قوله: ﴿مُبْصِرَةً﴾ المعنى: آية
مبصرة، فأضمر. ومحدوفاه: قوله: ﴿ظَلَمُوا بِهَا﴾ المعنى: ظلموا أنفسهم
بالتكذيب بها، فاختصرت كلمتان من كلمتين للإيجاز.

(١) فى (ك): «العالمين به» وهذا العنوان مختصر فيها.

ومثله قوله: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] الخواء: الخلاء. والعروش: السقوف، وهو جمع عرش، فكيف تكون خاوية من العروش، والعروش موجودة فيها. فهذا من المختصر المحذوف، ومعناه: وهي خاوية من ثمرها، أو من أهلها، واقعة على عروشها.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، حُذِفَ الفعل وأُقيم الاسم مقامه، فالمعنى فيه: ولكن البرُّ برٌّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ. وقد يكون من المبدل، فيكون المحذوف هو الاسم أبداً الفعل مكانه، والمعنى: ولكن البر، [أى الرجل البرُّ]^(١) مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ، فلَمَّا كَانَ الْبِرُّ وَصَفَهُ أُقِيمَ مكانه.

وبمثل المعنى الأول قوله عز وجل: ﴿وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٩٣] أى حب العجل.

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف: ٧٤]، ولم يذكر قتلَه. والمعنى: بغير نفس قتلها، فحذف الفعل.

ومثله: ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٢] أضمر قوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ قتلها، أو بغير ﴿فسادٍ في الأرض﴾، فاكتمى عنه بذكر «غير» الأولى.

وكذلك قوله: ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٨٣] معناه: ومن في الأرض.

وكذلك قوله: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ﴾ [التين: ٧]، هو متصل بقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] وفصل بينهما النعت والاستثناء، والمعنى: فما يكذبك بعد هذا البيان أيها الإنسان بالديانة فأى شيء يحملك على التكذيب، بأن تدين لله تعالى، وهو أحكم الحاكمين؟

(١) كانت العبارة ناقصة مضطربة في المطبوعة هكذا: «فيكون المحذوف هو اسم أبداً الفعل مكانه ولكن البر من آمن بالله» وأصلحتها من (ك).

ومن المبدل المضمَر أيضاً: ﴿إِذَا لَأَذْفَنَّاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ [الاسراء: ٧٥] المعنى: ضِعف عذاب الأحياء وضِعف عذاب الموتى، فأضمر ذكر العذاب، وأبدل الإحياء والممات^(١) بذكر الحياة، فأقام الوصف مقام الاسم. ويصلح أيضاً أن يترك الوصف على لفظه، ويضمر «أهل»، فيكون ضِعف عذاب أهل الحياة وضِعف عذاب أهل الممات، كما أضمر «أهل» في ذكر القرية وذكر العير فقال: ﴿وَسُئِلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢]، والمعنى: واسأل أهل القرية، واسأل أهل العير.

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ثَقُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو من المبدل المضمَر، فمبدله ﴿ثَقُلْتُ﴾ ومعناه: خفيت، أبدل بدلالة المعنى عليه؛ لأنَّ الشيء إذا خَفِيَ علمه ثَقُلَ. وكذلك قوله ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ معناه: على، ومضمرة «أهل»، والمعنى: خفيت على أهل السموات وأهل الأرض، ﴿لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الاعراف: ١٨٧] يعنى: فجأة.

ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿تَفْتَوُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٥]. فيه مضمَر، ومحذوف. فمحذوفه «تزال» ومضمرة «لا» التي هي جواب القسم. والمعنى: قالوا: تالله لا تزال تفتو تذكر يوسف، فأضمرت لا وأبدلت «تزال» بقوله: ﴿تَفْتَوُ﴾، وهي من مختصر الكلام وفصيحه وبليغه، وهي لغة لبعض العرب، وفي القرآن من كل لغة.

ومن هذا قوله عزّ وجلّ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، وقوله سبحانه: ﴿بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨]، معناه: تجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون، وكذلك بدلوا شكر نعمة الله كُفْرًا بها.

ومثله: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ [الحج: ٤٥]، ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أُمْلِيَتْ لَهَا﴾ [الحج: ٤٨]، معناه: أهل قرية، مثل قوله: ﴿وَسُئِلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا

(١) في (ط): «والموتى» وأثبت ما في (ك).

والعير^(١) [يوسف: ٨٢] المعنى: أهل العير، والعير هي الإبل المجهولة، وهذا الذى يُسميه النحويون: «المجاز».

وكذلك قوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩٠] معناه: للطريقة التى هى أقوم. ومثل هذا قوله عز وجل: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣] أى: يقولوا الكلمة التى هى أحسن.

ومثل هذا قوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ [المؤمنون: ٩٦] أى: بالكلمة أو بالفعل التى هى أحسن. ومثل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ [الأنبياء: ١٠١] أى: الكلمة الحسنى. والوجه الآخر: أن الحسنى اسم لا نعت، فمعناه: الجنة. وهكذا قوله: ﴿عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمَانَ﴾ [البقرة: ١٠٢] أى: على عهد ملك سليمان، فأضمر «عهد». ومثل قوله: ﴿وَأَتَيْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] أى: على السنة رسلك، فأضمر «السنة».

ومن المكنى المضمر قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ [الكهف: ٦٣] أضمر الحوت وذكره واسم موسى للاختصار، والمعنى: وما أنسانى ذكر الحوت لك إلا الشيطان.

ومثله قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] أى: أنزلنا القرآن، فكنى عنه ولم يتقدم له ذكر.

وكذلك قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] يعنى: توارت الشمس بحجاب الليل، فكنى عنها ولم يجر لها ذكر.

ومثله قوله عز وجل: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ [فصلت: ٣٥] أى: الكلمة الطيبة أو الفعل التى هى أحسن. وبمعناه قوله تعالى: ﴿وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠] يعنى: كلمة الزهد فى الدنيا، ومقالة الترغيب والرغبة فى الآخرة،

(١) هذه الآية ليست بالمخطوط، وكانت مختلة فى المطبعة هكذا: «وسئل العير» وليست هذه فى القرآن.

عائد على قوله تعالى: ﴿وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ أى: هذه المقالة.

ومن المبدل المختصر قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦] معناه: حملته العزة على الإثم، أى حمله التعزز والأئفة على الإثم ولم يبال. فأخذته بمعنى حملته بالإثم، بمعنى على الإثم.

ومن هذا قوله: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أى: لا تحمله سنة ولا نوم؛ لأن السنة تحمل العبد، أى تذهب به عن التيقظ.

ومن المنقول المنقلب قوله عز وجل: ﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ [الحج: ١٣]، اللام فى «لمن» منقولة، والمعنى: يدعو مَنْ ضره أقرب من نفعه. ومثله: ﴿لَتَنْوَأَ بِالْعُصْبَةِ﴾ [القصص: ٧٦] معناه: لتنوء العصبه بها، أى لتثقل بحملها لثقلها عليهم. ومثله قوله: ﴿وَطُورٍ سَيْنِينَ﴾ [التين: ٢]، ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ﴾ [الصفات: ١٣٠] وهو مما قلب اسمه، لازدواج الكلم. المعنى: طور سينا وسلام على الياسين، قيل: إدريس، لأن فى حرف ابن مسعود: «سلام على إدريس». ونحوه: ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١] أى: إعضاه، كأنهم عضوه، فأمّنوا ببعض وكفروا ببعض. وبمعناه: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠] المعنى: وجعل منهم من عبد الطاغوت. ويصلح أن يكون معطوفاً على قوله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ وَمَنْ ﴿عَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾. ومن قرأ: «الطاغوت»^(١) بالكسر فإنه يجعل «عبد» اسماً، وأضافه إلى الطاغوت، بمعنى: وعبد، وعباد. وفيه خمس لغات أخرى: عبّاد الطاغوت، وعُبد الطاغوت، وعبدّة الطاغوت، وعابد الطاغوت، وعُبد الطاغوت. وأما «عبد الطاغوت» نصباً، فهو بمعنى الفعل من العبادة.

ومن المضمّر المختصر أيضاً قوله عز وجل: ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ [هود: ٦٠] ضميره إحدى كلمتين: كفروا نعمة ربهم [أو] كفروا توحيد ربهم،

(١) قرأ حمزة وحده: «وعبد الطاغوت»، انظر: السبعة فى القراءات، ص ٢٤٦.

فَأُضْمِرَ للاختصار، وانتصب الاسم لسقوط الخافض. وفيها وجه غريب إلا أنه محمول على المعنى؛ لأنه أى: غَطُّوا ربهم التغطية، أى غطّوا آياته وما دعا إليه من الحق، والمعنى: كفرهم، أى غطى عليهم بما غطّوا ربهم. هكذا حقيقة فى التوحيد، إذ الأوليّة فى كل فعل منه، وهم ثوانٍ فيما بعد، فهو بمعنى قوله: ﴿وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩] اللبس: التغطية.

ومنه قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ [الزمر: ٣] مضمرة: يقولون ما نعبدهم. ومثله: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمَغْرُمُونَ﴾ [الرواقعة: ٦٥ - ٦٦] أى يقولون: إِنَّا لَمَغْرُمُونَ. وعلى هذا المعنى وجه قوله: ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا * مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٨ - ٧٩]، المعنى فيه: يقولون ما أصابك، على معنى الإخبار عنهم والذم لهم. فهلكت بذلك «القدرية» لجهلهم بعلم العريية، فظنّوا أنه ابتداء شرع وبيان من الله عزّ وجلّ، وقد أحكم الله عزّ وجلّ ابتداء شرعه وبيانه بأول الآية فى قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

وقد كان ابن عباس يقول: إذا اشتبه عليكم شيء من القرآن فالتمسوه فى كلام العرب، فإنّ الرجل يتلو الآية فيعيا بوجهها فيكفر.

وقرأتها فى مصحف عبد الله بن مسعود: «فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثًا. قالوا ما أصابك من حسنة». فهذا كما أنبأتك.

وقد رأيت فى مصحف عبد الله: «والذين اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قالوا ما نعبدهم». فهذا من ذلك.

ومن المضمّر قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فى الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠] ليس أنه يجعل من البشر ملائكة، ولكن معناه: لجعلنا بدلاً منكم ملائكة، ويصلح: لجعلنا بدلکم، بمعنى: منكم.

ومن المبدل له قوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١] اللام بدل من

الباء، والمعنى: وهم بها سابقون، لأنهم لو سبقوها لفاتتهم. وعلى هذا المعنى قال بعضهم: إن قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ [الاعراف: ١٤٣] أى بالجبل، كان الجبل حجاباً لموسى فكشفه عنه، فتجلى به، كما قال: ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠]، فكانت الشجرة وجهة لموسى، كلمه الله عز وجل منها.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَا أُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] معناه: على جذوع. وكذلك: ﴿فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٩٤] معناه: أى مع القوم. وبمعناه: ﴿أَمْ لَهُمْ سَلْمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطور: ٣٨] أى: عليه، ويصلح «به». وكذلك قوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ [المؤمنون: ٦٧] أى: عنه، يعنى عن القرآن. فعلى هذا مجاز قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَيْرًا﴾ [الفرقان: ٥٩] أى: سل عنه. فحروفُ العوامل يقوم بعضها مقام بعض.

ومثله قوله [تعالى]: ﴿السَّمَاءُ مُنْقَطِرٌ بِهِ﴾ [الزلزل: ١٨] أى: فيه، يعنى فى اليوم. ومثله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [البقرة: ١٥٠] معناه: ولا الذين ظلموا، فأبدلت بإلا، ولا يجوز أن تكون «إلا» مستأنفة بمعنى: لكن الذين ظلموا، متصلة بخبرها من قوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ فهو بمعنى قوله: ﴿لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أى: لكن من ظلم ﴿ثُمَّ بَدَلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ [النمل: ١٠ - ١١]، فيكون مبتدأ لذكر خبرها بعد. وبمعناه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء: ٢] أى: مع أموالكم. وكذلك قوله: ﴿وَأَيَّدِكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦] أى: مع المرافق؛ لأنها داخلة فى الغسل.

والحروف العوامل تنوب بعضها عن بعض، ولو أظهر مثل هذا المضمرة ووصل مثل هذا المحذوف لكانت القراءة ضعيفة.

ومن الموصول المكرر للبيان والتوكيد قوله عز وجل: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ [يونس: ٦٦] قوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ مردود،

ردّه للتوكيد والإفهام، كأنه لما طال الكلام أُعيد لِيَقْرُبَ من الفهم. والمعنى: ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ﴿إِلَّا الظَّنُّ﴾، أى: اتباعهم الشركاء ظناً منهم غير يقين.

ونحوه من المكرر المؤكد [قوله عز وجل]: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ [الاعراف: ٧٥] اختصاره: الذين استكبروا لمن آمن من الذين استضعفوا، فلما قدّم الذين استضعفوا، وكان المراد بعضهم، كرر [للإفهام]^(١) المراد، بإعادة ذكر من آمن منهم للبيان. ومثله: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا أَمْرَأَتَهُ﴾ [الحجر: ٥٩ - ٦٠]، فأدخل الاستثناء على الاستثناء، وهو يطول فى كلامهم، لأنه أراد بالنّجاة بعض الآل، فلما أجملهم أخرج مستثنى من مستثنى. وفى هذا دليل أنّ الأزواج من الآل، لأنّه استثنى امرأته من آله.

ومن المكرر للتوكيد قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ﴾ مختصره: فلما أراد أن يبطش. وقد قيل: إن هذا من المختصر المضمر مما أضمر فيه الاسم وحُذِفَ منه الفعل، وهو غريب؛ فيكون تقديره: فلما أن أراد الإسرائيلي أن يبطش موسى ﴿بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ فلم يفعل ﴿قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي﴾ [القصص: ١٩]، فهذا حينئذ من أخصر الكلام وأوجزه.

ومن المكرر المؤكد قوله عز وجل: ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [غافر: ٢١]، مفهومه وجائزه: فينظرون كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشدّ منهم قوّة، فوصل بـ «من» ووكد بـ «كان» وعدّ لهم^(٢)، وقرأتها فى مصحف ابن مسعود: «عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشدّ قوّة» ليس فيها «كانوا» ولا قوله «هم».

(١) زيادة من (ك).

(٢) فى (ط): «ووكد فكان هم أشد» وأثبت ما فى (ك).

وبمعناه، وإن قَصَرَ، قوله تعالى: ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ﴾ [الزخرف: ٣٣]، هذا مما طَوَّل للبيان، والمعنى: لجعلنا لبيوت من يكفر بالرحمن، فلما قَدَّمَ «مَنْ» وهى أسماء من يكفر أعيد ذكر البيوت مؤخرًا.

ومن المكنى المبهم المشتبه قوله عز وجل: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [النحل: ٧٥] الشىء فى هذا الموضع: الإنفاق مما رزق الله. وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [النحل: ٧٦] فالشىء فى هذا الموضع: الأمر بالعدل والاستقامة على الهدى. وكذلك قوله: ﴿فَإِنْ اتَّبَعْتَنِ فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ [الكهف: ٧٠] الشىء فى هذا الموضع: وصف مخصوص من وصف الربوبية من العلم الذى علمه الخضر عليه السلام من لدنه، لا يصلح أن يسأل عنه حتى يبتدئ [هو]^(١) به؛ فلذلك كتى عنه. وكذلك العلم على ضربين:

ضرب لا يصلح أن يُبتدأ به حتى يُسأل عنه؛ وهو مما لا يضيق علمه، فلذلك وسع جهله وحسن كتمه.

وعلم لا ينبغى أن يُسأل عنه، من معنى صفات التوحيد ونعوت الوجدانية، لا يُوكل إلى العقول بل يُخصّ بها المراد المحمول. فعِلْمُ الخَضِرِ الذى شرط على موسى عليهما السلام أن لا يسأل عنه حتى يبادئه به من هذا النوع، والله غالبٌ على أمره.

وقوله عز وجل: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٣٥] يعنى الله تعالى، أى: كيف يكون خلق من غير خالق؟ ففى وجودهم ثبوت خالق، فهم دلالة عليه أنه خلقهم. وروينا ذلك عن ابن عباس وعن زيد بن على رضى الله عنهما، قالا فى قوله عز وجل: ﴿مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أى: من غير رب! كيف يكون خلق من غير خالق؟! |

(١) زيادة من (ك).

وقوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ [النحل: ٧١]
فالْبَعْضُ الْأَوَّلُ الْمَفْضَلُ فِي الرِّزْقِ هُمُ الْأَحْرَارُ، وَالْبَعْضُ الْآخِرُ الْمَفْضُولُ هُمُ
الْمَمَالِكُ.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَى عَتِيدٍ﴾ [ق: ٢٣] قرينه هذا هو الملك
الموكَّل بعلمه، أحضر ما عنده مما علمه من فعله. وقوله عز وجل: ﴿قَالَ قَرِينُهُ
رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ [ق: ٢٧] قرينه هذا هو شيطانه المقرون به.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾
[الأعراف: ٢٠٢] الهاء والميم المتصلة بـ «إخوان» أسماء الشياطين، والهاء والميم المتصلة
بـ «يَمُدُّونَ» أسماء المشركين، أى الشياطين إخوان المشركين، يمدّون المشركين فى
الغىِّ ولا يقصرون عنهم فى الإمداد.

وبمعنى هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ
مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠] الهاء الأولى المتصلة بـ «يَتَوَلَّوْنَ» كناية عن إبليس، والهاء
المتصلة بالباء من قوله «هم به» هى اسم الله عز وجل، وقد قيل أيضاً: إنها عائدة
على إبليس أيضاً، فيكون المعنى: هم به قد أشركوا فى التوحيد، أى أشركوه
بعبادة الله عز وجل.

ومثل هذا قوله عز وجل: ﴿فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسْطَنَ بِهِ جَمْعًا﴾ [العاديات: ٤ - ٥]
«الهاء» الأولى: كناية عن الحوافر، وهنّ الموريات قدحاً، يعنى: الخيل تقدح
بحوافرها فتورى النار، «فأثرن به» أى: بالحوافر النقع، يعنى التراب. «والهاء»
الثانية: كناية عن الإغارة، «فوسطن» أى توسطن به بالإغارة، وهنّ المغيرات
صبحاً، وَسَطَنَ جَمَعَ المشركين [الذى]^(١) أغاروا عليهم بجمعهم، والمشركون
غارون.

وبهذا المعنى قوله عز وجل: ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾
[الأعراف: ٥٧] الهاء الأولى عائدة على السحاب، أى: أنزلنا بالسحابة الماء. وفى

(١) زيادة للبيان من تفسير القرطبي ١٦٠ / ٢٠، وهى ساقطة من (ك) و (ط).

قوله «به» مُبدل ومُكنى. فالمكنى: هو ما ذكرناه من أسماء السحاب. والمبدل: أن «به» بمعنى «منه».

ومثل هذا قوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] أى: منها، وهو صريح قوله فى المفسر: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ [النبا: ١٤] يعنى: السحاب، وهو قوله: ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾، وقوله فى الهاء الثانية: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، يعنى بالماء، فجمع بين اسم السحاب والماء بالهاء فأشكل.

ومن البيان الثانى والثالث للخطاب المجمل قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥] فلم يفهم إلا أن القرآن أنزل فى شهر رمضان، ولم يدر أنهاراً أنزل فيه أو ليلاً؟ فقال فى البيان الثانى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، فلم يفهم منه إلا أنه أنزل منه ليلاً فى ليلة مباركة، ولم يدر أى ليلة هى، فقال فى البيان الثالث: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، فهذا غاية البيان.

وبمعناه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ﴾ [القصص: ١٤]. فهذا البيان الأول زيادة على الأشد وهو الوصف، إلا أنه غير مفسر. ثم قال فى البيان الثانى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الاحقاف: ١٥] ففسر الأشد بالأربعين، [إذا كانت الواو للمدح والوصف فى أحد الوجهين]^(١).

ومن الموجز ومعناه الجمع قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفَى خُسْرٍ﴾ معناه: إن الناس لفى خسر، أى لفى خسران، لقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ١-٣]، ولا يُستثنى جماعة من واحد، وإنما يستثنى جماعة من جماعة أكثر منهم، وإنما وحّد الاسم للجنس.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا﴾ [الانشقاق: ٦]

(١) هذه الجملة ساقطة من (ك).

معناه: يا أيها الناس إنكم كادحون، دلّ عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ [الانشقاق: ٧]، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ [الانشقاق: ١٠]، وإنما وحّد النعت لتوحيد الاسم.

وكذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] معناه: حملها الناس^(١) كلّهم، وهذا أحب الوجهين إلى، لقوله عزّ وجلّ: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣].

ومثله قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَبْنَا بِهَا﴾ معناه: وإنا إذا أذقنا الناس منا رحمة فرحوا بها، فلما وحّد الاسم وحّد نعته، دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيَهُمْ﴾ [الشورى: ٤٨] فأظهر الجمع.

ومن الجمع المراد به الواحد قوله عزّ وجلّ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] يعنى نوحاً وحده؛ لأنّه لم يرسل إلى قوم نوح غيره. ودلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ [الشعراء: ١٠٦]، فوحّد الجمع.

ومثله: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ [الحشر: ٦] يعنى بذلك النبيّ ﷺ وحده يوم خيبر.

ومن الجمع المكنى قوله عزّ وجلّ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] الناس^(٢) فى هذا الموضع: الدجال. ونزل ذلك فى ذكر الدجال، [ونزل ذكرهم]^(٣) لا ستعظامهم لوصفه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] يعنى رجلاً واحداً قاله لهم، وهو عروة بن مسعود الثقفى، فجمع لفظه لأجل جنسه، والعرب تجمع الواحد للجنس.

(١) فى (ط): «حملها ظهره» وأثبت ما فى (ك).

(٢) فى (ط): «يعنى» وأثبت ما فى (ك).

(٣) زيادة من (ك)، والعبارة كانت مضطربة فى (ط)، فقومتها من (ك).

وكذلك قيل في أحد الوجوه أن قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩] يعنى آدم ﷺ وحده، وهو أول من طاف بالبيت، وأتاه جبريل، وأشعر له المناسك. وقد قرأت في بعض حروف السلف: «من حيث أفاض آدم» فهذا شاهد له.

ومن المقدم والمؤخر لحسن تأليف الكلم، ومزيد البيان والإظهار، قوله عز وجل: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ [النحل: ١٠٦] اختصاره ومؤخره: «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ بَعْدَ إِيْمَانِهِ وَشَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا، فعليهم غضب من الله إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان». ولكن وكّد بقوله: ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ لما استثنى المكره وقلبه مطمئن بإيمان، ولم يجعل المكره آخر الكلام لثلا يليه قوله: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ﴾ فيتوهم أنه خبره، وجعل آخر الكلام ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ﴾ وهو في المعنى مقدّم خبر الأول، من قوله: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ﴾ فأخر ليليه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٧] لأنه من وصفهم، فيكون هذا أحسن في تأليف الكلام وسياق المعنى.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ﴾ [الزخرف: ٨٨]. هذا من المعطوف المضمّر، ومن المقدم والمؤخر. فعاطفه قوله: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٨٥] وضميره قوله: ﴿وَقِيلَ يَا رَبِّ﴾، والمعنى: عنده علم الساعة وعلم قيله يا رب. هذا على حرف من كسر اللام، فأما من نصبها^(١)، فإنه مقدّم أيضاً، ومحمول على أن المعنى: أى وعنده علم الساعة ويعلم قيله يا رب.

فأما من رفع اللام فقرأ «وقيله» فتكون مستأنفة على الخبر، وجوابها الفاء من

(١) قوله: «من نصبها» يقصد قراءة «قيله» وهى قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر وأبى عمرو والكسائي. والكسر قراءة عاصم وحمة. انظر كتاب: السبعة فى القراءات، ص ٥٨٩. أما قراءة الرفع فهى قراءة الأعرج وقتادة. وانظر: تفسير القرطبي ١٦/١٢٣ - ١٢٤، ففيه تفصيل للمعاني.

قوله: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أى قوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ * فاصْفَحْ عَنْهُمْ ﴿[الزخرف: ٨٨ - ٨٩]. وقد تكون الواو فى قوله «وقيله» للجمع مضمومة إلى علم الساعة، والمعنى: وعنده علم الساعة، وعنده قيله يا رب. جمع بينهما بعند. فهذا مجاز هذه المقارى الثلاث فى العربية.

ومما حُمل على المعنى قوله عز وجل: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ ثم قال: ﴿وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ حُسْبَانًا﴾ [الأنعام: ٩٦] فلو لم يُحمل على المعنى لكانت الشمس والقمر خفضاً إتياعاً للفظ قوله «فالق» و«جاعل» ولكن معناه: وجعل الشمس والقمر حسباناً، وهى على قراءة من قرأ ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ متبعة لجعل ظاهر.

وبمعناه قوله تعالى: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] فى قراءة من نصب اللام، محمولاً على معنى الغسل من قوله عز وجل: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ أيضاً. ومن قرأ: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ خفضاً حملة على اتباع الإعراب، من قوله عز وجل: ﴿بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ فاتبع الإعراب بالإعراب قبله؛ لأن مذهبه المسح لا الغسل.

واختيارنا نصب اللام فى المقروء على نصب الغسل، واتباع الوجه واليدين، إلا أنه روى عن ابن عباس وأنس بن مالك: نزل القرآن بغسلين ومسحين، وسن رسول الله ﷺ غسل الأقدام، فنحن نفعل كما فعل.

وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [طه: ١٢٩] من المقدم والمؤخر. فالمعنى فيه: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاماً، وبه ارتفاع الأجل، ولولا ذلك لكان نصباً كاللزام، فأُخِّرَ لتحسين اللفظ.

وبمعناه قوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧] المعنى: يسألونك عنها كأنك حفىٌّ بها، أى ضنين بعلمها.

ومثله قوله تعالى: ﴿أَوْ نُنْسِهَا نَأَتْ بَخِيرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦] أى نأت منها بخير، فقدّم «بخير» وآخر «منها»، فأشكل.

ومن المؤخر بعد توسط الكلام قوله عزّ وجلّ: ﴿لَتَرْكِبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩] فى قراءة من وحد الفعل، وهو متصل بقوله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا﴾ [الانشقاق: ٦] لتركبن طبقاً عن طبق، أى حالاً بعد حال فى البرزخ، فأخر الأحوال للقرار فى الدار. وكذلك هو فى قراءة من جمع فقال: لتركبن أيها الناس، فيكون الإنسان فى معنى الناس، كما ذكرناه آنفاً^(١)، ويكون الجمع عطفاً على المعنى، وإنما وحد للجنس، فكأنه قال: يا أيها الناس لتركبن طبقاً عن طبق، فأخر هذا الخبر لما توسطه من الكلام المتصل بالقصة، ومعناه التقديم.

ومثل هذا قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَتَبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣] وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ هو متصل بقوله: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، وآخر الكلام: ﴿لَتَبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ﴾. وقد قيل: إن قوله ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ مستثنى من الأول فى قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ [النساء: ٨٣]، وفى هذا بعد، والأول أحب إلى.

وعلى هذا المعنى قرأ ابن عباس فى رواية عنه: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النساء: ١٤٨] جعله متصلاً بقوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] إلا من ظلم، وصار آخر الكلام: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ فاصلاً.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٧٣] إنما هو من صلة قوله: ﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ [الأنفال: ٧٢] إلا تفعّلوه تكن فتنه فى الأرض.

وكذلك قوله فى أوّل السورة: ﴿وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ * كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴿[الأنفال: ٤ - ٥] ليس هذا من صلة الكلام، إنّما هو مقدّم ومتصل فى المعنى بقوله: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١]، و ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾، أى: فصارت أنفال الغنائم لك إذ أنت راضٍ بإخراجك وهم كارهون، فاعترض بينهما الأمر بالتقوى والإصلاح والوصف بحقيقة الإيمان والصلاح، فأشكل فهمه.

وعلى هذا قوله عزّ وجل: ﴿حَتَّى تَوَمِّنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [المتحة: ٤] إنّما هو موصول بقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ؛ لأنها نزلت فى قولهم: قد استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك، عند قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [مريم: ٤٧] فقالوا: فهلا نستغفر لأبائنا المشركين. فنزلت هذه الآية ليستثنى القدوة فى إبراهيم فى هذا، ثم نزلت الآية الأخرى موعدة له وعده إياها إلى أن علم موته على الكفر فقال: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤] الآية.

وكذلك قوله عزّ وجل: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ ، وهذا متصل بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣] إلى آخر المحرمات، ثم قال: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾ يعنى مجاعة.

ومثل ما ذكرناه من علم القرآن كثير، وإنّما نبهنا بيسير على كثير، ودللنا بنكّت على جَمٍّ غفير، ليُستدل بما ذكرناه على نحوه، ويُتطرّق به إلى مثله. وهذا كلّهُ على ضروب كلام العرب، ومعانى استعمالهم، ووجوه استحسانهم. إنّهُ فى كلامهم المطوّل للبيان، والمختصر للحفظ، والمقدّم والمؤخّر للتحسين. وكلّهُ فصيح بليغ؛ لأن وصف البلاغة عندهم رد الكثير المشور إلى القليل المجمل، وبسط القليل المجمل إلى المبثوث المفسر. فالمقصر من الكلام عندهم مع الحاجة إلى

المعاني المفرقة عجز، والطول منه مع الاكتفاء بالمعنى الجامع منه عي. فلما خاطبهم بكلامهم أفهمهم بعقولهم ومستعملاتهم؛ ليحسن ذلك عندهم [فى المجاوزة]^(١)، فيكون [المبثوث]^(٢) حجة عليهم من حيث يعقلون؛ لأنه أمرهم بما يعلمون وما يستحسنون، حكمة منه ولطفًا.

فكذلك^(٣) أيضًا على هذه المعاني يفهم الخصوص من مكانهم ومشهدهم، على علو مقامهم فى مكان ما أظهر لهم من العلم به، ونصيب ما قسم لهم من العقل عنه. فهم متفاوتون فى الأشهاد والفهوم حسب تفاوتهم فى الأنصبة من العقول والعلوم. إذ فى^(٤) القرآن عموم وخصوص، ومحكم ومتشابه، وظاهر وباطن. فعمومه لعموم الخلق، وخصوصه لخصوصهم، وظاهره لأهل الظاهر، وباطنه لأهل الباطن، والله واسع عليم. فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه.

فإذا صفا القلب بنور اليقين، وأيد العقل بالتوفيق والتمكين، وتجرد الهم من التعلق بالخلق، وتأله السر بالعكوف على الخالق، وخلت النفس من الهوى، سرت الروح فجالت فى الملكوت الأعلى، وكُشف للقلب^(٥) بنور اليقين الثاقب [سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى وَ] ملكوت العرش عن معانى صفات موصوف، وأحكام خلاق^(٦) مألوف، وباطن أسماء معروف، وغرائب علم رحيم رءوف، فشهد عن الكشف أوصاف ما عَرَفَ، فقام حينئذ بشهادة ما عَرَفَ، فكان ممن قال سبحانه: ﴿يَتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]. فحق التلاوة للمؤمنين، لأنه إذا أعطاه حقيقة من الإيمان أعطاه مثلها من معناه، ومعدنها حقيقة من مشاهدته، فكانت تلاوته عن مشاهدته، وكان مزيده عن معنى تلاوته، وكان ذلك على معيار حقيقة

(١) زيادة من (ك).

(٢) فى (ط): «فذلك» وأثبت ما فى (ك).

(٣) «فى» ساقطة من (ط).

(٤) فى (ط): «كشف القلب» وأثبت ما فى (ك).

(٥) ساقطة من (ط).

(٦) فى (ك): «أخلاق».

من إيمانه، كما قال: ﴿وَإِذَا تَلَّيْتُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا... أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

فيكون العبد بوصف من نُعت بالحضور والإنذار، وخصّ بالمزيد والاستبشار، في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصَتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، وفي قوله عزّ وجلّ: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

ويكون من نُعت من مدّحه بالعلم، وأثنى عليه بالرجاء، ووصفه بالخوف، في قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. وقال عزّ وجلّ: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]، فكان هذا من أهل الله وخاصته، ومن محبيه وخاصته.

كما روينا عن رسول الله ﷺ: «أهل القرآن أهل الله وخاصته من خلقه».

وقال ابن مسعود: لا على أحدكم أن يسأل عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله، وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله. وهذا كما قال؛ لأنك إذا أحببت متكلمًا أحببت كلامه، وإذا كرهته كرهت مقاله.

وقال أبو محمد سهل: من علامة الإيمان حب الله عزّ وجلّ، ومن علامة حبّ الله حبّ القرآن، ومن علامة حبّ القرآن حبّ النبي ﷺ، ومن علامة حبّ النبي ﷺ اتباعه، ومن علامة اتباعه الزهد في الدنيا.

وحدثونا عن بعض المريدين قال: كنت في جدّة إرادتي قد لهجتُ بتلاوة القرآن، ثم رهقتني فترة^(١)، فبقيت أياماً لا أقرأ، فهتف بي هاتف من قبل الله عزّ وجلّ: إن كنت تحبني فلم جفوت كتابي، أما ترى ما فيه من لطيف عتابي؟

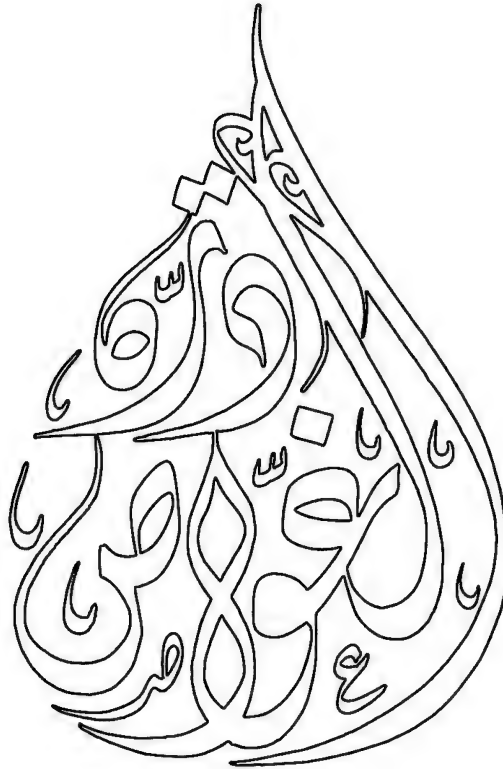
وقال بعض العارفين: لا يكون المريد مريدًا حتى يجد في القرآن كلّ ما يريد،

(١) رهقتني فترة: رهقه: غشيهُ ولحقهُ. وفتر: سكن بعد حدة.

ويعرف منه النقصان والمزيد، ويستغنى بالمولى عن العبيد.

وأقلّ ما قيل فى العلوم التى يحويها القرآن من ظواهر المعانى المجموعة فيه أربعة وعشرون ألف علم وثمانمائة علم، إذ لكل آية علوم أربعة: ظاهر، وباطن، وحد، ومطلع.

وقد يقال: إنه يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتين من علوم، إذ لكل كلمة علم، وكل علم وصف، فكل كلمة تقتضى صفة، وكل صفة موجبة أفعالاً حسنة وغيرها على معانيها، فسبحان الفتاح العليم.



الفصل الثامن عشر

فيه كتاب ذكر الوصف المكروه من نعت الغافلين

فإذا خالف التالى هذا الوصف الذى شرحناه، أو كان على ضد ذلك من السهو والغفلة والعمى والحيرة، محدثاً^(١) لنفسه، مُصغياً إلى هواه ووسوسة عدوه [فى أمور دنياه]^(٢)، متوهماً للظنون، عاكفاً على الأمانى، حقت عليه أن يكون بمعنى ما^(٣) قال الله عز وجل: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾ يعنى: إلا تلاوة القرآن لا غير ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨] فوصفهم بالظن وهو ضد اليقين. كما أخبر عن الظَّانين فى قوله: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]، وبمعنى ما قال: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

فالقرآن من أجل آيات الأرضين والسماوات الدالة على فاطرهما ومنزله، وكان بوصف من يهدده بعلمه فيه عند استماعه لكلامه العزيز، متهاوناً به، مناجياً لغيره، أن يقول تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ [الإسراء: ٤٧].

وبمثل من يسمع وقلبه مشغول عن المسموع بما يضره عما ينفعه، حتى إذا خرج عن الكلام سأل من حضر بقلبه ماذا فهم من الخطاب الذى كان هو عنه بغفلته قد غاب، وقد كان حاضراً بجسمه حجة عليه، فمن ذلك قوله عز وجل: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا﴾

(١) فى (ك): «محدثاً لنفسه».

(٢) زيادة من (ك).

(٣) فى (ط): «بمعانى ما».

ثم قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أى: عن فقه الخطاب، فلم تسمعه القلوب ولم تعه ﴿وَاتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦] يعنى أباطيلهم وظنونهم الكاذبة.

ويقال: إنَّ العبد إذا تلا القرآن واستقام نظرَ اللهُ إليه برحمته. فإذا قرأ القرآن وخلط ناداه الله عزَّ وجلَّ: ما لك ولكلامى وأنت معرض عني؟ دع عنك كلامى إن لم تتب إلى.

وروينا فى الإسرائيليات: أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى نبيه موسى عليه السلام: مَرُّ عَصَاةِ بنى إسرائيل أن لا يذكرونى، فإنى آليتُ على نفسى أن أذكر من ذكرنى، وإنى أذكرهم بلعنة.

وكان بوصف من أخبر عنه، إذ يقول تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الاعراف: ١٦٩] الآية. وهذا وصفُهم الظن الكاذب والرجاء المختلف، اللذان لم يفترقا إلى خوف وإشفاق، عصوا خالقهم عاجلاً، وتمنوا عليه المغفرة آجلاً، جهلاً منهم بحكمته، وإعراضاً عن أحكامه. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ يُوْخِذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾، ثم أخبر عن علمهم بذلك، علم قولٍ وخبر لا علم يقين ومعينة، فقال سبحانه: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ [الاعراف: ١٦٩] أى: قرؤوا هذا وعلموه ولم يعملوا به، فلم ينتفعوا بشيء منه، فكان هذا توبيخاً لهم وتقريعاً، كقوله تعالى: ﴿قُلْ بِسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣]، وفيها وجه غريب: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾: أى محوه بترك العمل به والفهم له، من قولك: درست الريح الآثار، إذا محتها. وخطُّ دارس، وربَّع دارس: إذا محى وعفى أثره. وهذا المعنى موافق لقوله تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ * وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ [البقرة: ١٠١] - [١٠٢] أى: ما تتبع وتهوى. وموافق لقوله تعالى: ﴿فَبَذَلُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا

بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١﴾ [آل عمران: ١٨٧] فسمي ترك العمل منهم به في كل حالة طرحاً له وإلقاءً ونفياً له وبيعاً له، وبالدينيا اشتراء.

وكل آية في التهديد والوعيد فللخائفين منها وعظ وتخويف، وللغافلين عنها وصف وتعريف، علمه من علمه، [وجهله من جهله] ^(١)، كقوله تعالى في ذكر النار: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦]. وقال عز وجل في خبرها: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

وقال بعض السلف: إن العبد ليفتح السورة فتصلي عليه الملائكة حتى يفرغ منها، وإن العبد ليفتح السورة فتلعنه حتى يفرغ منها. فقيل: وكيف ذلك؟ قال: إذا أحل حلالها وحرم حرامها صلت عليه، وإلا لعنته.

وقال بعض العلماء: إن العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو لا يعلم، يقول: «أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» وهو ظالم، «أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ» وهو منهم.

وقال سفيان في قوله تعالى: ﴿سَاءَ صَرِفُ عَن آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الاعراف: ١٤٦] قال: أصرف عنهم فهم القرآن.

وفي الخبر عن رسول الله ﷺ: «إِذَا عَظُمَتْ أُمْتِي الدِّينَارُ وَالْدِّرْهَمُ نَزَعَ مِنْهَا هَيْبَةُ الْإِسْلَامِ، وَإِذَا تَرَكَوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ حُرِّمُوا بَرَكَةُ الْوَحْيِ».

قال الفضيل: حُرِّمُوا فَهَمَ الْقُرْآنَ.

وفي الأخبار من ذم قراءة البطالين ^(٢) أكثر من أن تذكر، فمنها ما روى عن النبي ﷺ أنه قال: «أَكْثَرُ مُنَافِقِي أُمَّتِي قُرَاؤُهَا».

وكان الحسن يقول: إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل، وجعلتم الليل جملاً، فأنتم تركبونه فتقطعون به مراحل، وإن من كان قبلكم رأوه رسائل أتتهم من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار.

(١) ساقطة من (ط).

(٢) في (ك): «ذم القراءة من البطالين».

وكان ابن مسعود من قبله يقول: أنزل عليهم القرآن ليعملوا به، فاتخذوا دراسته عملاً، إن أحدهم ليتلو القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفاً، وقد [أسقطه كله] وأسقط العمل به.

وفي حديث ابن عمر وحديث جندب: لقد عشنا برهة من دهرنا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، فتزل السورة على محمد ﷺ، فتعلم حلالها وحرامها، وأمرها وزجرها، وما ينبغي أن نقف عليه منها، كما تعلمون أنتم القرآن. ثم بعدُ لقد رأيت رجلاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته، لا يدرى ما أمره ولا زجره، ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه، فيشره نثر الدقل^(١).

وهذا كما قال؛ لأن المراد والمقصود بالقرآن الائتمار لأوامره، والانتهاز عن زواجره، إذ حفظ حدوده مفترض ومسؤول عنه العبد، ومعاقب عليه، وليس حفظ حروفه فريضة، ولا عقاب على العبد إذا لم يحفظ ما وسعه منه، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [الزلزال: ٥] أى العمل به ثقیل، وإلا فقد يسره للذكرى.

ومن ذلك الخبر المأثور عن رسول الله ﷺ: «اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، ولانت له جلودكم، فإذا اختلفتم فليستم تقرأونه». وفي بعضها: «إذا اختلفتم فقوموا عنه».

وحدثني شيخ فاضل قرأت عليه القرآن قال: قرأت القرآن على شيخ لى، فلما ختمت رجعت إليه لأقرأ، فانتهرنى وقال: جعلت القرآن على عملاً، اذهب فاقراً على الله عز وجل، فانظر ماذا يسمعك منه ويفهمك عنه.

وقد كان من أصحاب رسول الله ﷺ من لا يحفظ إلا الجزء والجزئين، والصور المعدودة وسورتين، وكان من يحفظ الحزب منه وهو السبع أو البقرة والأنعام علماً فيهم. وقبض رسول الله ﷺ عن عشرين ألف صحابى لم يقرأوا القرآن غير نظر، فلم يحفظ القرآن كله منهم إلا ستة، اختلف منهم فى اثنين. وقال بعضهم:

(١) الدقل: أردأ التمر.

ولم يكن جمعه من الخلفاء الأربعة أحد.

وختم ابن عباس على أبي بن كعب، وقرأ عبد الرحمن بن عوف على ابن عباس، وقرأ عثمان بن عفان على زيد بن ثابت، وقرأ أهل الصفة على أبي هريرة. وكلهم كان متبعاً لأوامره، مجتنباً لزواجه، عالمًا به، فقيهاً فيه.

وقال يوسف بن أسباط، وقد قيل له: إذا ختمت القرآن بأى شيء تدعو؟ فقال: بأى شيء أَدْعُوا!! أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مائة مرة من تلاوتي. وكان يقول: إني لأهمُّ بقراءة القرآن فإذا ذكرتُ ما فيه خشيتُ المقت فأعدلُ إلى التسبيح والاستغفار.

واعلم أن للعبد فى قراءة القرآن بحسب ما له من تعظيمه، والفهم له، والمشاهدة منه، والمعاملة به؛ لأنه من أكبر شعائر الله فى خلقه، وأعظم آياته فى أرضه الدالات عليه، وأسبغ نعمه الكاملة علينا.

وللعبد من التعظيم له بقدر تقواه، وله من فهم الخطاب وتعظيم الكلام على نحو ما أعطى من معرفة المتكلم وهيبته وإجلاله. فإذا عظم المتكلم فى قلبه، وكبر فى همه^(١)، أنعم تدبر كلامه، وأطال الفكر فى خطابه، وأكثر ترداده وتكريره على قلبه، وأسرع بذكره عند النازلة به، والحاجة إليه، فاتقى وحذر، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣]، وقال: ﴿كَذَلِكَ يبينُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١]؛ لأن كل كلام موقوف على قائله، يعظم بتعظيمه، ويقع فى القلب بعلو مكانه، أو يهون بسهولة شأنه. والله^(٢) عز وجل ليس كمثله شيء فى العظمة والسلطان، وليس ككلامه فى الأحكام والبيان.

وقرأت فى سورة الحنين من التوراة: «يا عبدى أما تستحي منى، يأتيك كتاب من بعض إخوانك وأنت فى الطريق تمشى فتعدل عن الطريق وتقع لأجله،

(١) فى (ط): «فى فهمه» وأثبت ما فى (ك).

(٢) فى (ط): «قال الله» وأثبت ما فى (ك).

وتقرؤوه وتتدبره حرفاً حرفاً؛ حتى لا يفوتك شيء منه، وهذا كتابي أنزلته إليك، انظر كم وصلت لك فيه من القول، وكم كررت عليك فيه، [وكم فصلت عليك فيه من العتاب]^(١)، فتأملت طوله وعرضه، ثم أنت معرض عني^(٢). أفكنت أهون عليك من بعض إخوانك؟!

أى عبدى، يقعد إليك بعض إخوانك، فتقبل عليه بكل وجهك، وتصغى إلى حديثه بكل قلبك، فإن تكلم متكلم أو شغلك شاغل عن حديثه أو مات إليه أن كُفَّ، وها أنا ذا مقبلٌ عليك ومحدث لك، وأنت معرض بقلبك عني، فجعلتني أهونَ عندك من بعض إخوانك». أو كما قال. [كتبتُ هذا حفظاً وتحريث الألفاظ، ولم أخرم المعانى]^(٣).

وإنما خفّ القيام على أهل الليل لفهم الخطاب، وثقل على أهل النوم لانفصام القلوب عن الفقه، وشدة الحجاب، كما قال تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٧] أى خفى علمها، يعنى الساعة، فثقلت عليهم، فسمى ما خفى علمه ثقيلاً. والله أعلم.

(١) ساقطة من (ط)، وفى (ك): «فتأمل طوله وعرضه».

(٢) فى (ط): «عنه».

(٣) ساقطة من (ط). وقوله «لم أخرم المعانى»: أى لم أسقط منها شيئاً.

الفصل التاسع عشر

فيه كتاب الجهر بالقرآن، وما فى ذلك من النيات،
وتفصيل حكم الجهر، [وبيان حكم] ^(١) الإخفات

روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «فَضْلُ قِرَاءَةِ السِّرِّ عَلَى قِرَاءَةِ الْعَلَانِيَةِ كَفَضْلِ صَدَقَةِ السِّرِّ عَلَى صَدَقَةِ الْعَلَانِيَةِ». وفى لفظ آخر: «الجاهرُ بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسرُّ به كالمسرُّ بالصدقة».

وفى الخبر العام: «يَفْضَلُ عَمَلُ السِّرِّ عَلَى عَمَلِ الْعَلَانِيَةِ بِسَبْعِينَ ضِعْفًا». وفى مثله من العموم: «خير الرزق ما يكفى، وخير الذكر الخفى». وفى الخبر: «لا يجهر بعضكم على بعض فى القراءة بين المغرب والعشاء».

وسمع سعيد بن المسيب ذات ليلة فى مسجد رسول الله ﷺ عمر بن عبد العزيز يجهر بالقرآن فى صلاته، وكان حسن الصوت، فقال لغلامه برد: اذهب إلى هذا المصلّى فمره أن يخفض من صوته. فقال الغلام: إن المسجد ليس لنا، وإن للرجل فيه نصيبًا، فرفع سعيد صوته فقال: يا أيها المصلّى إن كنت تريد الله عزّ وجلّ بصلاتك فاخفض صوتك، وإن كنت تريد الناس فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا. قال: فسكت عمر، وخفّف ركعته، فلما سلّم أخذ نعليه وانصرف، وهو يومئذ أمير المدينة.

وعلى ذلك فقد كان رسول الله ﷺ يسمع جماعة من أصحابه يجهرون بالقراءة فى صلاة الليل، فيصوّب ذلك لهم، ويسمع إليهم، وقد أمر بالجهر فيما روى عنه: «إذا قام أحدكم من الليل يُصَلِّي فَلْيَجْهَرْ بِقِرَاءَتِهِ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ وَعُمَّارَ الدَّارِ يَسْتَمْعُونَ إِلَى قِرَاءَتِهِ، وَيَصَلُّونَ بِصَلَاتِهِ».

(١) ساقطة من (ط) وأثبتها من (ك).

ومرَّ رسول الله ﷺ على ثلاثة من أصحابه في الليل مختلفى الأحوال؛ منهم من كان يخافت وهو أبو بكر رضى الله عنه، فسأله عن ذلك فقال: إن الذى أناجيه هو يسمعى. ومنهم من كان يجهر وهو عمر رضى الله عنه، فسأله عن ذلك فقال: أوقظ الوسنانَ وأزجر الشيطان. ومنهم من كان يقرأ آيًّا من هذه السورة ومن هذه السورة، وهو بلال، فسأله عن ذلك فقال: أخلط الطيب بالطيب. فقال: كلِّكم قد أحسن وأصاب.

فنقول، والله أعلم: إن المخافتة بالقراءة أفضل إذا لم تكن للعبد نية فى الجهر، أو كان ذاهبًا عن الهمة والمعاملة بذلك؛ لأنه أقرب إلى السلامة، وأبعد من دخول الآفة. وإن الجهر أفضل لمن كان له نية فى الجهر ومعاملة مولاه به؛ لأنه قد قام بسنة قراءة الليل، ولأن المخافتة نفعه لنفسه والمجاهرة نفعه له ولغيره، وخيرُ الناس من ينفع الناس، والنفع بكلام الله عزَّ وجلَّ أفضلُ المنافع، ولأنه قد أدخل عملاً ثانيًا يرجو به قربة ثانية على عمله الأول، فكان فى ذلك أفضل.

وليجعل العبد مفتاح درسه أن يقول: أعوذُ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ربِّ أعوذ بك من همزات الشياطين، وأعوذ بك رب أن يحضرون، وليقرأ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، وسورة الحمد قبلها.

وليقل عند فراغه من كلِّ سورة: صدق الله، وبلغ رسولُ الله، اللهم انفعنا به، وبارك لنا فيه، الحمد لله رب العالمين، أستغفر الله الحى القيوم.

ومن حفظ جوارحه وقلبه عن المنهى عنه فقد عمل بالقرآن إلى خاتمته، لأنه مقسط على جملة العبد وجوارحه.

وفى الجهر بالقراءة سبع نيات:

منها: الترتيل الذى أمر به.

ومنها: تحسين الصوت بالقرآن الذى ندب إليه فى قوله ﷺ: «زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ». وفى قوله: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» أى يحسن به صوته، وهو أحد الوجهين وأحبهما إلى أهل العربية. والوجه الآخر: أى من لم يستغن به،

من الغنية والاكتفاء. وقد يقال: من هذا الوجه يتغانى به.

ومنها: أن يُسمع أذنيه [ونفسه]^(١)، ويوقظ قلبه؛ ليتدبّر الكلام، ويتفهم المعانى، ولا يكون ذلك كله إلا فى الجهر.

ومنها: أن يطرد الشيطان والنوم عنه برفع صوته.

ومنها: أن يرجو بجهره يقظة نائم، فيذكر الله عزّ وجلّ، فيكون هو سبب إحيائه.

ومنها: أن يراه بطّالٌ غافلٌ، فينشط للقيام، ويشتاق إلى الخدمة، فيكون معاونًا له على البرّ والتقوى.

ومنها: أن يكثر بجهره تلاوته، ويدوم قيامه على حسب عادته للجهر، ففى ذلك كثرة عمله.

فإذا كان العبد معتقدًا لهذه النيات، طالبًا لها، ومتقربًا إلى الله سبحانه وتعالى، عالمًا بنفسه، مصحّحًا لقصده، ناظرًا إلى مولاه الذى استعمله فيما يرضاه، فجهره أفضل، لأنّ له فيه أعمالًا. وإنما يفضل العمل^(٢) بكثرة النيات فيه. وارتفع العلماء، وفُضِّلَتْ أعمالُهم بحُسن معرفتهم بنيات العمل، واعتقادهم لها، فقد يكون فى العمل الواحد عشر نيات، يعلم ذلك العلماء فيعملون بها، فيُعْطَوْنَ عشرة أجور.

وأفضلُ الناسِ فى العمل أكثرهم نية فيه، وأحسنهم قَصْدًا وأدبًا، وفى بعض التفاسير فى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] قال: قراءة القرآن.

وفى الخبر: «من استمع إلى آية من كتاب الله عزّ وجلّ كانت له نوراً يوم القيامة». وفى خبر آخر: «كُتِبَ له عشر حسنات».

(١) ساقطة من (ط).

(٢) فى (ك): «تفضل الأعمال».

والتالي شريك المستمع في الأجر؛ لأنه أكسبه ذلك. وقال بعضهم: للقارئ أجر، وللمستمع أجران. وقال آخر: للمستمع تسعة أجور. وكلاهما صحيح؛ لأن كل واحد منهما على قدر إنصاته ونيته. فإذا كان التالي مُكسباً لغيره هذه الأجور، فإن له بكل أجر أكسبه إياه أجراً يكتسبه، لقوله ﷺ: «الدال على الخير كفاعله»، سيما إذا كان عالماً بالقرآن فقيهاً فيه، فيكون مقرؤه ووقوفه حجة وعلماً لسامعه.

وفي الخبر: أن رسول الله ﷺ كان ينتظر عائشة رضى الله عنها فأبطأت عليه، فقال: ما حبسك؟ فقالت: يا رسول الله كنت أستمع قراءة رجل ما سمعتُ صوتاً أحسن منه. فقام ﷺ حتى استمع إليه طويلاً ثم رجع، فقال: هذا سالم مولى أبى حذيفة، الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثله.

واستمع أيضاً ذات ليلة إلى قراءة عبد الله بن مسعود، ومعه أبو بكر وعمر رضى الله عنهم، فوقفوا طويلاً ثم قال: «من أراد أن يقرأ القرآن غصاً كما أنزل فليقرأ على قراءة ابن أم عبد».

وقال رسول الله ﷺ لابن مسعود: «اقرأ». فقال: يا رسول الله أقرأ وعليك أنزل. فقال: إني أحب أن أسمع من غيري»، فكان يقرأ وعينا رسول الله ﷺ تفيضان، وذلك عند قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

واستمع رسول الله ﷺ إلى قراءة أبى موسى فقال: «لقد أوتىَ هذا مزماراً من مزامير داود. فبلغ ذلك أبا موسى فقال: يا رسول الله لو علمت أنك تسمع إلى لحبّرتك لك تحبيراً».

وكان ابن مسعود يأمر علقمة بن قيس أن يقرأ بين يديه، فيقول له: رتل فذاك أبى وأمى. وكان حسن الصوت بالقرآن.

وفي الخبر: كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا أمروا أحدهم أن يقرأ سورة من القرآن.

وقد كان عمر يقول لأبى مسعود رضى الله عنهما: ذكّرنا ربّنا، فيقرأ عنده حتى يكاد وقت الصلاة أن يتوسط، فيقال: يا أمير المؤمنين الصلاة الصلاة، فيقول: أوكسنا في صلاة؟ فكأنه يتأول قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقال بعض عبّاد البصريين لما وضع بعض البغداديين كتاباً فى معانى الرياء ودقائق آفات النفوس، قال: لقد كنت أمشى بالليل أسمع أصوات المتهجّدين كأنها أصوات الميازيب، فكان فى ذلك أنس وحثّ على الصلاة والتلاوة، حتى جاء البغداديون بدقائق الرياء وخفايا الآفات فسكت المتهجّدون، فلم يزل ذلك ينقص حتى ذهب وانقطع وترك إلى اليوم.

فإن لم يكن للتالى نية فى شىء مما ذكرناه، وكان ساهياً غافلاً عن ذلك، وكان واقعاً مع شىء من الآفات، أو لمح فى قلبه شخص، أو ساكن ذكرى هوّى، فقد اعتلّ، فعليه أن يحتمى بالجهر. فإن جهر على [ذلك]^(١) ثقل قلبه وفسد عمله، لاستكثان الداء فيه، وكان إلى النقصان أقرب، ومن الإخلاص أبعد، فعليه حينئذ بالإخفاء^(٢)، فهو دواؤه يعالج به حاله، فإنّه أصلح لقلبه، وأسلم لعمله، وأحمد فى عاقبته.

وقد يكون العبد واجداً لحلاوة الهوى فى الصلاة والتلاوة، وهو يظن أن ذلك حلاوة الإخلاص، وهذا من دقيق شأن الشهوة الخفية، ولطيف الانتقاص. وقد يلتبس ذلك على الضعفاء، ولا يفطن له إلا العلماء. وإنما يجد حلاوة الإخلاص الزاهدون فى الدنيا وفى مدح الناس لهم به، ويتلذذون بنصح المعاملة، وصدق الخدمة، المحبّون لله عزّ وجلّ؛ الخائفون منه.

واعتبار فقد ذلك بأحد شيئين: سقوط النفس باستواء المدح والذم، وهذا حال فى مقام الزهد. أو الخلو من القلب بشهادة اليقين، وهذا فى مقام المعرفة. وفى هذين المقامين يستوى السر والعلانية، وقد تكون العلانية أفضل لائمة التقوى والعدل.

(١) ساقطة من (ط).

(٢) فى (ط): «بالإخلاص»، وأثبت ما فى (ك) فهو أصح وأدق.

وَحَدَّثْتُ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ قَالَ: كُنْتُ أَقْرَأُ فِي السَّحَرِ فِي غُرْفَةٍ لِي شَارِعَةً سُورَةَ طه، فَلَمَّا خَتَمْتُهَا غَفَوْتُ بَعْدَهَا غَفْوَةً، فَرَأَيْتُ شَخْصًا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ بِيَدِهِ صَحِيفَةٌ بَيَضَاءُ، فَنَشَرَهَا بَيْنَ يَدَيَّ، فَإِذَا فِيهَا سُورَةُ طه، وَإِذَا تَحْتَ كُلِّ كَلِمَةٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ مُثَبَّتَةٍ، إِلَّا كَلِمَةً وَاحِدَةً، فَإِنِّي رَأَيْتُ مَكَانَهَا مَحْوًا وَلَمْ أَرَ تَحْتَهَا شَيْئًا، فَعَمِنَنِي ذَلِكَ، فَقُلْتُ: قَدْ وَاللَّهِ قَرَأْتُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ وَلَمْ أَرَ لَهَا ثَوَابًا، وَلَا أَرَاهَا أُثْبِتَتْ، فَقَالَ الشَّخْصُ: صَدَقْتَ، قَدْ قَرَأْتَهَا وَكَتَبْنَاهَا لَكَ إِلَّا أَنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يَنَادِي: امْحُوهَا وَأَسْقِطُوا ثَوَابَهَا، فَمَحَوْنَاهَا. فَبَكَيْتُ فِي مَنَامِي، وَقُلْتُ: لِمَ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ؟ قَالُوا: مَرَّ رَجُلٌ فَرَفَعَتْ صَوْتُكَ بِهَا لِأَجْلِهِ، فَمَحَوْنَاهَا.

وقد روينا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ رَجُلًا يَجْهَرُ بِقِرَاءَتِهِ فَنَادَاهُ: «يَا فُلَانُ أَسْمَعْ اللَّهَ وَلَا تُسْمِعْنِي».

واعلم أَنَّ السُّمْعَةَ مَقْرُونَةٌ بِالرِّيَاءِ، وَمَحْكُومٌ لَهَا بِحُكْمِهِ، مِنْ فُسَادِ الْعَمَلِ وَنَقْصَانِ الْعَامِلِ. وَهِيَ مَأْخُوذَةٌ مِنَ السَّمْعِ، كَأَنَّ الْعَبْدَ يُسْمَعُ بِعَمَلِهِ غَيْرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَيَحِبُّ أَنْ يُسْمَعَ بِهِ مَخْلُوقًا، لِيَمْدَحَهُ بِهِ، لَغَلْبَةِ هَوَاهُ وَضَعْفِ نَفْسِهِ، فَيَكُونُ قَدْ أَشْرَكَ فِي عَمَلِهِ غَيْرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَيُطْلَعُ عَمَلُهُ لَجَهْلِهِ بِالتَّوْحِيدِ، إِذْ لَوْ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّ لَا نَافِعَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا ضَارَّ وَلَا مَعْطَى وَلَا مَانِعَ إِلَّا إِيَّاهُ، خَلَصَ لَهُ تَوْحِيدُهُ مِنَ الشَّرْكِ، فَخَلَصَ لَهُ عَمَلُهُ مِنَ الرِّيَاءِ. وَكَذَلِكَ الرِّيَاءُ مَأْخُوذٌ مِنْ رَأْيِ الْعَيْنِ، فَالسَّمْعَةُ هُنَا بِمَعْنَاهُ.

وَفِي الْخَبَرِ: «لَا يَقْبَلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ مُسَمِّعٍ وَلَا مُرَاءٍ». وَفِي خَبَرٍ آخَرَ: «مَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ رَأَى رَأَى اللَّهُ بِهِ وَصَغَّرَهُ وَحَقَّرَهُ».

فَأَمَّا مَنْ كَانَتْ لَهُ نِيَّةٌ صَالِحَةٌ فِي أَنْ يُسْمَعَ أَخَاهُ كَلَامَ اللَّهِ لِيَتَعِظَ بِهِ وَيَتَذَكَّرَ بِهِ، أَوْ يَنْتَفِعَ بِاسْتِمَاعِهِ وَيَتَذَكَّرَ بِهِ، فَلَيْسَ دَاخِلًا فِي السُّمْعَةِ؛ لَوْجُودِ حُسْنِ النِّيَّةِ وَصِحَّةِ الْقَصْدِ، وَلَفَقْدِ اقْتِرَانِ الْآفَةِ، لِإِرَادَةِ طَمَعٍ عَاجِلٍ مِنْ مَدْحٍ أَوْ غَرَضٍ دُنْيَا. كَمَا قَالَ أَبُو مُوسَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تَسْمَعُ لِحَبْرَتِهِ لَكَ تَحْبِيرًا». فَلَمْ يَنْكَرْ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ ذُو نِيَّةٍ فِي الْخَيْرِ وَحَسَنَ قَصْدٍ بِهِ. وَقَالَ لِلْآخِرِ الَّذِي رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْآيَةِ: «أَسْمَعْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا تُسْمِعْنِي». فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ لِمَا شَهِدَ السَّمْعَةَ فِيهِ.

وقد روينا أنه ﷺ مرّ برجل يظهر التأوّه والوجلّ، فقال مَنْ كان معه: يا رسول الله، أترأه مرأياً؟ فقال: «لا، بل أوّاه منيب».

واعلم أن الأكل والنوم على السّلامة والصدّق أفضلُ في الحال، وأرفع في المقام، وأحمد في المآل، من القيام والصيام على يسيرٍ من التصنّع والتزيّن للخلق. ومعرفةُ هذا القيامُ به هو موضعُ عِلْمِ العلماءِ بالله عزّ وجلّ.

وحُدِّثنا عن الحسن البصري قال: تَفَقَّدَ الحلاوةَ في ثلاثٍ، فإن وجدتَها فأبشر وامض لقصدك، وإن لم تجدها فاعلم أن بابك مغلق: عند تلاوة القرآن، وعند الذكر، وفي السجود. وزاد غيره: وعند الصدقة، وبالأسحار.

وقراءةُ القرآن في المصحف أفضلُ من قراءته عن ظهر قلب. يقال: الختمة سبع ختم؛ لأنّ النظر في المصحف عبادة^(١). وكان كثير من الصحابة والتابعين يقرؤون في المصحف، ويستحبون أن لا يخرجوا يوماً إلا نظروا فيه. وخرق عثمان مصحفين من كثرة درسه فيهما^(٢).



(١) نقل الزبيدي كلام القوت، ثم ذكر عدّة أحاديث في فضيلة القراءة من المصحف، وكلها لا تخلو من علّة وضعف، ولكن في مجموعها تؤيد أهمية النظر في المصحف والقراءة منه، بالإضافة إلى القراءة بظهر الغيب لمن يحفظه. انظر: الإتحاف ٤/ ٤٩٥.

(٢) راجع ما كتبه الغزالي في إحيائه، كتاب آداب التلاوة ١/ ٢٧٢ - ٢٨٧، إذ نقل ما في القوت وفصله ورّبه. وراجع أيضاً ما كتبه الزبيدي في الإتحاف ٤/ ٤٧٠ وما بعدها.

الفصل العشرون

فى ذكر إحياء الليالي المرجو فيها الفضل المستحب إحيائها،
وذكر مواصلة الأوراد فى الأيام الفاضلة

ويُستحب إحياء خمس عشرة ليلة فى السنة، خمس منها فى شهر رمضان، وهى وتر لىالى العشر الأخير منه. وليلة سبع عشرة من رمضان، وهى صبيحة يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، فيه كانت وقعة بدر. وكان ابنُ الزبير يذهب إلى أنها ليلة القدر.

وأما التسعة الأخر: فأوّل ليلة من شهر المحرم، وليلة عاشوراء، وأوّل ليلة من شهر رجب، وليلة النصف منه، وليلة سبع وعشرين منه؛ وفيها أُسرى برسول الله ﷺ، وليلة المعراج، وليلة عرفة، وليلة العيدين، وليلة النصف من شعبان. وقد كانوا يُصلّون فى هذه الليلة مائة ركعة بألف مرة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ عشراً فى كل ركعة، ويسمون هذه الصلاة صلاة الخير، ويتعرفون بركتها ويجتمعون فيها، وربما صلّوها جماعة.

وروينا عن الحسن قال: حدثنى ثلاثون من أصحاب النبى ﷺ «أن من صلّى هذه الصلاة فى هذه الليلة نظر الله عزّ وجلّ إليه سبعين نظرة، وقضى له بكل نظرة سبعين حاجة أدناها المغفرة».

وقد قيل: إن هذه الليلة هى التى قال الله عزّ وجلّ فيها: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤٤]، وأنه يُنسخ فيها أمر السنّة وتُدبّر الأحكام إلى مثلها من قابل، والله أعلم.

والصحيح من ذلك عندى أنه فى ليلة القدر، وبذلك سُمّيَتْ؛ لأن التنزيل يشهد له إذ فى أوّل الآية: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ ثم وصفها فقال: ﴿فِيهَا

يُفَرِّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ». فالقرآن إنما أنزل في ليلة القدر، فكانت هذه الآية بهذا الوصف في هذه الليلة موافقة لقوله عز وجل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

• ذكر مواصلة الأوراد في الأيام الفاضلة،

وهي تسعة عشر يوماً، تُستحب فيها مواصلة الأوراد، والدأب في العبادة: يوم عاشوراء، ويوم عرفة، ويوم سبعة وعشرين من رجب، ويوم سبعة عشر من شهر رمضان، ويوم النصف من شعبان، ويوم الجمعة، ويوم العيدين، والأيام المعلومات وهي عشر ذى الحجة، والأيام المعدودات وهي أيام التشريق.

وفي الخبر: «صوم يوم عرفة يكفر سنتين: سنة ماضية، وسنة مستقبلية، وصوم يوم عاشوراء كفارة سنة».

وقد روينا عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ: «إذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام، وإذا سلم شهر رمضان سلمت السنة»^(١).

وقال بعض علمائنا: من أخذ مهناه في هذه الأيام الخمسة في الدنيا لم ينل مهناه في الآخرة. وقال: هذه الأيام يُرجى فيها الفضل من الله عز وجل والمزيد، فإذا اشتغلت فيها بهواك وعاجل الدنيا فمتى ترجو الفضل والمزيد؟! يعنى بالأيام الخمسة: العيدين، ويوم الجمعة، ويوم عرفة، ويوم عاشوراء.

ومن فواضل الأيام بعد هذه: يوم الاثنين، ويوم الخميس؛ يومان تُرفع فيهما الأعمال إلى الله عز وجل.

ومن الفاضل الشهور الأربعة الحرم؛ وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب. خصهن الله عز وجل بالتهى عن الظلم فيهن لعظم حرمتهن. فكذلك الأعمال لها فيهن فضل على غيرها، وأفضلها ذو الحجة لوقوع الحج فيها، ولما خُصَّ به من الأيام المعلومات، والأيام المعدودات، ثم ذو القعدة لجمعه الوصفين

(١) انظر: الإتحاف ٣/ ٢١٦، ٢١٧. وتخريج هذه الأحاديث والأخبار سيجىء آخر الكتاب إن شاء الله تعالى.

معاً، وهو من الأشهر الحرم، ومن أشهر الحج. فأما المحرم ورجب فليسا من أشهر الحج. وأما شوال فليس من أشهر الحرم؛ ولكنه من أشهر الحج. وأفضل الأيام في الشهر العشران: العشر الآخر، والعشر الأول من ذى الحجة. وبعدهما عشر المحرم من أوله.

فالأعمال في هذه الأيام لها فضل ومزيد على سائر الشهور.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «من صام ثلاثة أيام من شهر حرام بعده الله من النار سبعمائة عام: يوم الخميس، ويوم الجمعة، ويوم السبت»^(١).

وفى خبر آخر: «صوم يوم من شهر حرام يعدل صوم ثلاثين يوماً من غيره، وصوم يوم من شهر رمضان يعدل صوم ثلاثين يوماً من شهر حرام»^(٢).

ثم إن أفضل الأوقات في جملة الأيام أوقات الصلوات الخمس.

وروينا أن رسول الله ﷺ «كان إذا دخلت العشر الأواخر من شهر رمضان طوى الفراش وشد المنزر». وفى حديث آخر: «إذا دخلت العشر الأواخر دأب وأدأب أهله» يعنى: أدام وأداموا التعب والنصب في العبادة.

وفى الخبر عن رسول الله ﷺ: «ما من أيام العمل فيهن أفضل وأحب إلى الله عز وجل من أيام عشر ذى الحجة. إن صوم يوم منه يعدل صيام سنة، وقيام ليلة منه يعدل قيام ليلة القدر. قيل: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع منهما بشيء». وفى لفظ آخر: «إلا من عقر جواده وأهرق دمه».

وإذا أحب الله عز وجل عبداً استعمله في الأوقات الفاضلة بأفضل الأعمال، ليُثيبه أفضل الثواب. وإذا مقت عبداً استعمله بأسوأ الأعمال في أفاضل الأوقات ليضاعف له السيئات، بانتقاص حرمان الشعائر، وانتهاك المحرمات في الحرمات.

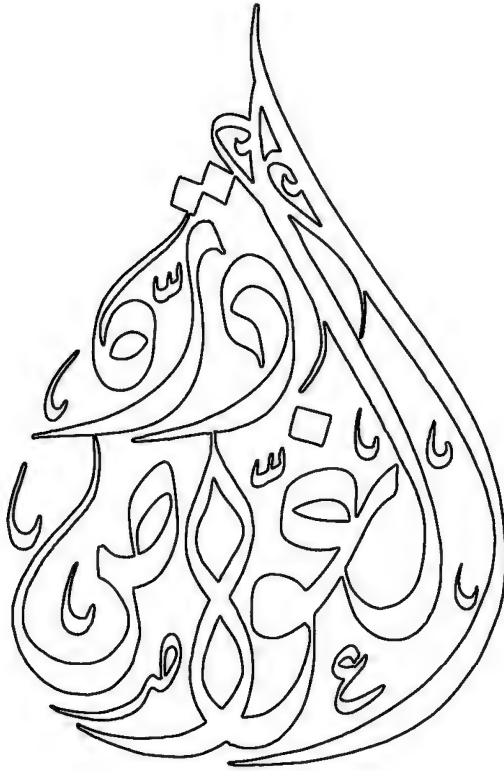
(١) قال العراقى ٢٣٧/١: «أخرجه الأزدي في الضعفاء من حديث أنس».

(٢) قال العراقى ٢٣٧/١: «لم أجده هكذا».

ويُقال: من علامات التوفيق ثلاثٌ: دخولُ أعمال البر عليك من غير قصد لها، وصرفُ المعاصي عنك مع الطلب لها، وفتحُ باب اللجاء والافتقار إلى الله عزَّ وجلَّ في الشدة والرخاء [في كل الأحوال]^(١).

ومن علامات الخذلان ثلاثٌ: تعسرُ الخيراتِ عليك مع الطلب لها، ودخولُ المعاصي عليك مع الهرب منها^(٢)، وغلقُ باب اللجاء والافتقار إلى الله عزَّ وجلَّ [وتترك الدعاء في كل الأحوال]^(٣).

فنسأل الله تعالى بفضله حسنَ التوفيق والاختيار، ونعوذ به من سوء القضاء والأقدار.



(١) زيادة من (ك).

(٢) في (ط): «وتيسر المعاصي لك مع الرهب منها» وأثبت ما في (ك).

(٣) زيادة من (ك).

الفصل الحادى والعشرون

فيه كتاب الجمعة وذكر هيناتها وآدابها

وذكر ما يستحب للمريد فى يوم الجمعة وليلتها ^(١)

صلاة الجمعة: واجبة بأوصاف، وساقطة بأوصاف. فوجوبها: يكون بالإقامة، والاستطاعة، وحضور وقت الظهر، وتكملة عدة أربعين رجلاً أحراراً. وسقوطها: بالسفر، ودخول وقت العصر، ونقصان العدد، ووقوع العذر.

وهى من أعمال الأمراء، تُصلى خلف كل مَنْ أقام بها منهم. إلا أنى أحب إعادتها ظهراً إذا صُليت خلف مبتدع. فإن اجتمع فى بلد كبير جامعان صُليت خلف الأفضل من إماميهما، فإن استويا فى الفضل صُليت فى القديم من الجامعين، فإن تساويا صُليت فى الأقرب منهما، إلا أن تكون له نية فى الأبعد، لاستماع علم أو نشره أو تعلّمه. فصلاؤها فى الجامع الأعظم وحيث يكون المسلمون أكثر أفضل. ومن صلى فى أيهما أحب حُسبت صلاته.

قال ابن جريج: قلت لعطاء: إذا كان فى المصر جامعان أو ثلاثة فى أيها أصلى؟ قال: صلّ حيث جُمع المسلمون، فإنها جمعة.

وهو يوم عظم الله تعالى به الإسلام وزينه، وشرف به المسلمين وفضلهم، قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩] الآية. فالبيعُ والشراءُ محرّم بعد الأذان للجمعة عند طائفة من العلماء، لعموم النهى عنه. ومنهم من قال: يُرد البيع لأنه فاسد. إلا أنى أحسب أن ذلك يُحرّم عند الأذان الثانى، وهو مع خروج الإمام إذا قعد على المنبر، لأن هذا كان هو الأذان على عهد رسول الله ﷺ، وعهد أبى بكر

(١) انظر: الإحياء ١/ ١٧٨ - ١٩١.

وعمر رضى الله عنهما. والأذان الأول أحدثه عثمان رضى الله عنه لما كثر الناس.
وقال الله عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] الآية. فأمر عباده المؤمنين في يوم الجمعة بالذكر له، ونهاهم عن البيع، وأمرهم فيه بطلب الفضل منه، ووعدهم الخير والفلاح، وهما اسمان جامعان لغنيمة الدنيا والآخرة.

وروى عن رسول الله ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ فرض عليكم الجمعة في يومى هذا، في مقامى هذا». وروى عنه ﷺ: «من ترك الجمعة ثلاثاً من غير عذر طبع الله على قلبه». وفي لفظ حديث آخر: «فقد نبذ الإسلام وراء ظهره».

واختلف رجل إلى ابن عباس فسأله عن رجل مات لم يكن يشهد جمعة ولا جماعة، فقال: في النار. فلم يزل يتردد إليه شهراً يسأله عنه، كل ذلك يقول: في النار.

وتُقصد الجمعة من فرسخين أو ثلاثة. واستحب لمن بكر إليها من أهل القرى فأدركها وأدركه الليل فأواه إلى أهله إذا رجع أن يشهدها. إلا أنها ساقطة عن خمسة: الصبي، والمملوك، والمرأة، والمسافر، والمريض. فمن شهدا من هؤلاء فصلاهما أجزأت عنه، وكان مؤدياً لفرضه.

وفي الخبر: أن أهل الكتابين أعطوا يوم الجمعة فاختلفوا فيه، فصرفوا عنه، وهذان الله عزّ وجلّ برحمته له. ادخره لهذه الأمة، جعله عيداً لهم، فهم أول الناس به سبقاً، وأهل الكتابين لهم تبع.

وفي حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «أتانى جبريل عليه السلام وفي كفه مرآة بيضاء فقال: هذه الجمعة يفرضها عليك ربك، لتكون لك عيداً ولأمتك من بعدك. قلت: فما لنا فيها؟ قال: لكم فيها خير ساعة، من دعا فيها بخير هو له^(١) قسّم أعطاه الله عزّ وجلّ إياه، أو ليس له قسم ادخر له ما هو أعظم منه، أو يتعوذ من شرّ هو عليه مكتوب إلا أعاده الله تعالى من أعظم منه. وهو سيد الأيام

(١) في (ك): «خوله».

عندنا، ونحن ندعوه في الآخرة يوم المزيدي^(١).

قلتُ: وَلَمْ قَالَ إِنَّ رَبَّكَ عَزَّ وَجَلَّ اتَّخَذَ فِي الْجَنَّةِ وادِيًا أَفِيحًا، مِنْ مَسْكٍ أبيض، فإذا كان يوم الجمعة نزل من عليين على كرسيه؟ وذكر الحديث، قال فيه: ويتجلى لهم حتى ينظروا إلى وجهه. ذكرناه بتمامه في مسند الألف.

وروى عنه عليه السلام: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أهبط إلى الأرض، وفيه تقوم الساعة».

وهو عند الله يوم المزيدي، كذلك تسميه الملائكة في السماء، وهو يوم النظر إلى الله عزَّ وجلَّ في الجنة. في أخبار يطول ذكرها.

وفي الحديث: ما من دابة إلا وهي قائمة على ساق يوم الجمعة، مصيخة - أى مصغية تتوقع - مشفقة من قيام الساعة، إلا الشياطين وشقى بنى آدم.

ويقال: إِنَّ الطيرَ والهوامَ يلقي بعضهما بعضاً في يوم الجمعة، فتقول: سلامٌ سلامٌ، يوم صالح.

وفي الخبر: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ جُمُعَةٍ سِتْمِائَةَ أَلْفٍ عَتِيقٍ مِنَ النَّارِ».

وفي حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام».

وقال كعب في الخبر: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَضَّلَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ شَيْئًا، فَفَضَّلَ مِنَ الْبُلْدَانِ مَكَّةَ، وَمِنَ الشُّهُورِ رَمَضَانَ، وَمِنَ الْأَيَّامِ الْجُمُعَةَ».

وفي الخبر: «إِنَّ جَهَنَّمَ تَسْعَرُ فِي كُلِّ يَوْمٍ قَبْلَ الزَّوَالِ عِنْدَ اسْتِوَاءِ الشَّمْسِ فِي كَبَدِ السَّمَاءِ، فَلَا تَصْلُوا فِي هَذِهِ السَّاعَةِ، إِلَّا يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَإِنَّهُ صَلَاةُ كُلِّهِ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَا تَسْعَرُ فِيهِ».

فأفضل ما يعملُه العبد في يوم الجمعة البكور إلى الجامع في الساعة الأولى، فإن لم يفعل ففي الساعة الثانية، فإن لم يفعل ففي الساعة الثالثة؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من راح إلى الجمعة في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة. ومن راح في

(١) في نسخة أخرى من القوت، نص عليها الزبيدي ٢١٥/٣: «ونحن نسميه يوم المزيدي».

السَّاعَةُ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً. وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبِشًا أَقْرَنَ. وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا أَهْدَى دِجَاجَةً. وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا أَهْدَى بَيْضَةً. فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ طُوِيَتِ الصُّحُفُ، وَرُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَاجْتَمَعَتِ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ الْمَنْبَرِ يَسْمَعُونَ الذِّكْرَ».

فَمَنْ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ فَكَأَنَّمَا جَاءَ لِحَقِّ الصَّلَاةِ، وَلَيْسَ مِنَ الْفَضْلِ فِي شَيْءٍ.

فَالسَّاعَةُ الْأُولَى: تَكُونُ بَعْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ. وَالسَّاعَةُ الثَّانِيَةُ: تَكُونُ عِنْدَ ارْتِفَاعِ الشَّمْسِ. وَالسَّاعَةُ الثَّالِثَةُ: تَكُونُ عِنْدَ انْبِسَاطِهَا وَهِيَ الضُّحَى الْأَعْلَى، إِذَا رَمَضَتِ الْأَقْدَامُ بَحْرَ الشَّمْسِ. وَالسَّاعَةُ الرَّابِعَةُ: تَكُونُ قَبْلَ الزَّوَالِ. وَالسَّاعَةُ الْخَامِسَةُ: إِذَا زَالَتِ الشَّمْسُ أَوْ مَعَ اسْتَوَائِهَا. وَلَيْسَ السَّاعَةُ الرَّابِعَةُ وَالْخَامِسَةُ مُسْتَحَبَّتَيْنِ لِلْبُكُورِ، وَلَا فَضْلَ لِمُصَلِّي الْجُمُعَةِ بَعْدَ السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ؛ لِأَنَّ الْإِمَامَ يَخْرُجُ فِي آخِرِهَا، فَلَا يَبْقَى إِلَّا فَرِيضَةُ الْجُمُعَةِ.

وَيَقَالُ: إِنَّ النَّاسَ يَكُونُونَ فِي قُرْبِهِمْ مِنَ اللَّهِ عِزَّ وَجَلًّا عِنْدَ الزِّيَارَةِ لِلنَّظَرِ إِلَيْهِ تَعَالَى عَلَى قَدَرِ بُكُورِهِمْ إِلَى الْجُمُعَةِ.

وَدَخَلَ ابْنُ مَسْعُودٍ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِكَرَةٍ، فَرَأَى ثَلَاثَةَ نَفَرٍ قَدْ سَبَقُوهُ بِالْبُكُورِ، فَوَجِمَ لَذَلِكَ وَجَعَلَ يَقُولُ: رَابِعٌ أَرْبَعَةٌ - يَعْنِي نَفْسَهُ - وَمَا رَابِعٌ أَرْبَعَةٌ مِنَ اللَّهِ بَعِيدٌ. وَهَذَا مِنَ الْيَقِينِ فِي هَذِهِ الْمَشَاهِدَةِ لِلْخَبَرِ.

وَقَدْ جَاءَ فِي الْأَثَرِ: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَفْتَقِدُونَ الْعَبْدَ إِذَا تَأَخَّرَ عَنْ وَقْتِهِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَيَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَنْهُ: مَا فَعَلَ فُلَانٌ، وَمَا الَّذِي أَخَّرَهُ عَنْ وَقْتِهِ؟ فَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَخَّرَهُ فَقَرِّ فَأَغْنِهِ، وَإِنْ كَانَ أَخَّرَهُ مَرَضٌ فَاشْفِهِ، وَإِنْ كَانَ أَخَّرَهُ شُغْلٌ عَنْهُ ففَرِّغْهُ لِعِبَادَتِكَ، وَإِنْ كَانَ أَخَّرَهُ لَهُوَ فَأَقْبِلْ بِقَلْبِهِ عَلَى طَاعَتِكَ».

وَلَا تَقْعُدْ إِلَى الْقَصَاصِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَقَدْ كُرِّهَ ذَلِكَ، وَلَا فِي حَلَقَةٍ قَبْلَ الصَّلَاةِ. وَرَوَيْنَا فِي خَبَرٍ مَقْطُوعٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «ثَلَاثٌ لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِيهِنَّ لَرَكَّضُوا رَكْضَ الْإِبِلِ فِي طَلَبِهَا: الْأَذَانُ، وَالصَّفُّ الْأَوَّلُ، وَالْغَدُوُّ إِلَى الْجُمُعَةِ».

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، وَقَدْ ذَكَرَ هَذَا الْحَدِيثَ: أَفْضَلُهُنَّ الْغَدُوُّ إِلَى الْجُمُعَةِ.

وقد رُوى فى خبر آخر: «إذا كان يوم الجمعة، قعدت الملائكة على أبواب المسجد، بأيديهم صحف من فضة، وأقلام من ذهب، يكتبون الأول فالأول على مراتبهم».

ورويننا فى خبر عن النبى ﷺ أنه نهى عن التحلُّق يوم الجمعة قبل الصلاة، إلا أن يكون عالماً بالله تعالى، يذكرُّ بأيام الله عزَّ وجلَّ، ويفقه فى دين الله عزَّ وجلَّ، يتكلم فى الجامع بالغداة، فيُجلِّس إليه، فيكون جامعاً بين البكور إلى الجمعة والاستماع إلى العلم.

ولا يدع الغُسل لها يوم الجمعة إلا من ضرورة، فإنه عند بعض العلماء فرض. والاعتسال فى البيت أفضل.

ورويننا عن رسول الله ﷺ: «غسلُ الجمعة واجبٌ على كل محتلم». والمشهور من حديث نافع عن ابن عمر: «مَنْ أتى الجمعة فليغتسل».

وكان أهل المدينة يتسابون بينهم، فيقولون: لأنت شرُّ مِمَّن لا يغتسل يوم الجمعة. وقد قال عمر لعثمان رضى الله عنهما لما دخل وهو يخطب: أهذه الساعة؟! فقال: ما زدت بعد أن سمعت الأذان أن توضأت وخرجت. فقال عمر: والوضوء أيضاً وقد علمت أن رسول الله ﷺ كان يأمر بالغسل؟

ولكن فى ترك الغسل رخصة، لوضوء عثمان مع علمه، ويسند ذلك إلى الخبر المسند: «مَنْ توضأ يوم الجمعة فيها ونعمت، ومن اغتسل فالغسل أفضل».

ورويننا عن الصحابة: أُمرونا بالغسل يوم الجمعة فى الصيف، فلما جاء الشتاء كان من شاء اغتسل، ومن لم يشأ ترك الغسل. وقد رويننا عن رسول الله ﷺ: «من شهد الجمعة من الرجال والنساء فليغتسل». فلذلك قال مالك بن أنس: إنَّ النساء إذا حضرن الجمعة اغتسلن لها.

ومن اغتسل من جنابة أجزأه لغسل الجمعة إذا نوى. ولا بدّ من النية لغسل الجنابة لأجل الجمعة، فهو أفضل، ويكون الغسل للجمعة داخلاً فيه. فإذا أفاض عليه الماء ثانية بعد غسله للجنابة لأجل الجمعة فهو أفضل. دخل بعض الصحابة

على ابنه يوم الجمعة وهو يغتسل، فقال: للجمعة غسلُك هذا؟ قال: لا، بل من الجنابة. قال: فأعدْ غسلًا ثانيًا، فإنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «واجبٌ على كلِّ مسلم أن يغتسلَ يوم الجمعة».

ومن اغتسل بعد طلوع الفجر للجمعة أجزاءه، ولكن أفضل الغسل لها عند الرواح إلى الجامع.

وأحبُّ أن لا يحدث وضوءاً بعد الغسل، حتى يفرغ من صلاة الجمعة، فمن العلماء من كره ذلك. ولكن إن بكر إلى الجامع فتوضأ هناك من حدثٍ لحقه لا امتداد الوقت، فإنه على غسل الجمعة.

ويستحب أن يستاك، وأن يلبس من صالح ثيابه، ويجتنب الشهرة من الثياب، ومن أفضل ما لبس البياض، أو بُردين يمانيين. ولبسُ السواد يوم الجمعة ليس من السنة، ولا من الفضل أن ينظر إلى لابسِه، وليقلَّم أظفاره، ويأخذ من شاربه، فقد روى فضل ذلك من فعلِ رسول الله ﷺ، ومن أمره. وقد روينا عن ابن مسعود وغيره: «من قلَّم أظفاره يوم الجمعة أخرج الله عزَّ وجلَّ منها داءً وأدخل شفاءً».

وليتطيب بالطيب مما ظهر ريحه وخفى لونه، فذلك طيب الرجال. وطيبُ النساء ما ظهر لونه وخفى ريحه. روينا ذلك في الأثر.

وتستحب العمامة يوم الجمعة. وقد روينا فيها حديثاً شاذاً عن واثلة بن الأسقع عن رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجلّ وملائكته يصلُّون على أصحاب العمام يوم الجمعة». فإن أكربه الحرُّ فلا بأس أن ينزعها قبل الصلاة، وبعدها، ولكن يخرج من منزله إلى الجامع وهو لابسها، ولا يصلّي إلا معتماً^(١)، لتحصل له فضيلة العمّة، فإن نزعها فليلبسها حينئذ عند صعود الإمام المنبر، ثم ليصلّ وهي عليه، فإن شاء نزعها بعد ذلك.

وليخرج إلى الله عزَّ وجلّ خاشعاً متواضعاً ذا سكينه ووقار، وإخبات وافتقار، وليكثر من الدعاء والاستغفار. وينوى في خروجه زيارة مولاه في بيته، والتقرب

(١) في (ك): «معتماً».

إليه بأداء فريضته، والعكوف في المسجد إلى حيث انقلابه. ثم لينو كَفَّ جوارحه عن اللهو واللغو، وينو الشُّغْلَ بِخِدْمَةِ مَوْلَاهُ^(١)، وليترك راحته في ذلك اليوم في مهناه من عاجل حظ دنياه، وليواصل الأوراد فيه، فيجعل أوله إلى انقضاء صلاة الجمعة للخدمة بالصلاة، وأوسطه إلى صلاة العصر لاستماع العلم ومجالس الذكر، وآخره إلى غروب الشمس للتسبيح والاستغفار. فكَذَلِكَ كان المتقدمون يقسمون يوم الجمعة هذه الأقسام الثلاثة.

وإن صامه فحسن، يضم إليه يوم الخميس، أو يضيف إليه يوم السبت، وقد كُرِهَ إفراده بصوم. ومن لم يصمه، وكان له أهل، فالمستحب أن يجامع فيه، فقد رُوِيَ فضل ذلك، وكان بعض السلف يفعلُه.

وقد روينا عن رسول الله ﷺ: «من غَسَلَ واغْتَسَلَ، وغدا وبكر، ودنا من الإمام ولم يَلْغُ، كان له بكل خطوة صيام سَنَةٍ وقيامها». وفي خبر آخر: «ودنا من الإمام واستمع، كان له ذلك كفارة لما بين الجمعتين، وزيادة ثلاثة أيام». وفي لفظ آخر: «غُفِرَ له إلى الجمعة الأخرى». وقد اشترط في بعضها: «ولم يتخطَّ رقاب الناس».

فمعنى قوله: من غَسَلَ، بالتشديد، أى غَسَلَ أهله، كناية عن الجماع. وبعض الرواة يخففه فيقول: «غَسَلَ واغْتَسَلَ»، فيكون معناه: غسل رأسه، واغْتَسَلَ لجسده.

وليتق أن يتخطَّى رقاب الناس، فإن ذلك مكروه جداً، وقد جاء فيه وعيد شديد أن من فعل ذلك جُعل جسراً يوم القيامة على جهنم تتخطَّاه الناس. وقال ابن جريج حديثاً مرسلًا «أن النبي ﷺ بينما هو يخطب يوم الجمعة إذ رأى رجلاً يتخطَّى رقاب الناس حتى تقدَّم وجلس، فلما قضى النبي ﷺ صلاته عارض الرجل حتى لقيه، فقال: يا فلان ما منعك أن تُجمَعَ اليوم معنا؟ فقال: يا نبي الله قد جمعتُ. فقال: أو لم أرك تتخطَّى رقاب الناس؟».

(١) في (ط): «ويتق الشغل حين يخدم مَوْلَاهُ» وأثبت ما في (ك).

وفى حديث مسند أن النبى ﷺ قال له: «ما منعك أن تصلّى معنا الجمعة؟ فقال: أو لم ترنّى؟ قال: قد رأيتك تأنّيت وآذيت». أى: تأخّرت عن البكور، وآذيت بالحضور.

ولا يقعد إلى القصّاص فى يوم الجمعة، فقد كُره ذلك، ولا فى حلقة قبل الصلاة. فقد روى عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن عبد الله بن عمر «أنّ النبى ﷺ نهى عن التحلّق يوم الجمعة قبل الصلاة»، إلا أن يكون عالماً بالله عزّ وجلّ، يذكرّ بأيام الله، ويفقه فى الدين، يتكلم فى الجامع بالغداة، فيُجلّس إليه، فيكون جامعاً بين البكور إلى الجمعة وبين الاستماع إلى العلم.

وقد رويانا عن بعض علماء السلف قال: إن الله تعالى فضلاً من الرزق سوى أرزاق العباد، لا يعطى من ذلك الفضل إلا من سأله عشية الخميس ويوم الجمعة. وفى الخبر المشهور: «إن فى الجمعة ساعة لا يوافقها عبدٌ مُسلم يسأل الله عزّ وجلّ فيها شيئاً إلا أعطاه». وفى لفظ آخر: «لا يصادفها عبد يصلى».

واختلف فى وقت هذه الساعة، ف قيل: إنها عند طلوع الشمس. وقيل: إذا قام الناس إلى الصلاة. وقيل: عند الزوال. ويقال: مع الأذان. وقيل: هى إذا صعد الإمام المنبر وأخذ فى الذكر. وقيل: بعد العصر من آخر أوقاتها. وقيل: عند غروب الشمس إذا تدلّى حاجبها الأسفل. كانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تراعى ذلك الوقت، وتأمّر خادمها أن ينظر إلى الشمس، فيؤذنها بسقوطها، فتأخذ فى الدعاء والاستغفار فى ذلك الوقت إلى أن تغرب الشمس، وتخبر أن تلك الساعة هى المنتظرة، وتؤثره عن أبيها ﷺ.

فهذا جُمِل ما قيل فى هذه الساعة، بروايات جاءت فى ذلك متفرقة، حذفنا ذكرها للاختصار. فليُتَوَخَّ هذه الأوقات، وليُتَعَهَّد الدعاء فيها والصلاة فيما صلح منها.

وقد قال بعض العلماء: إن هذه الساعة مبهمة فى جميع اليوم، لا يعلمها إلا الله عزّ وجلّ، كإبهاام ليلة القدر فى جميع شهر رمضان، وكإبهاام الصلاة الوسطى

فى جُملة الصَّلوات الخمس^(١).

وقد قيل: إنها تنتقل فى ساعات يوم الجمعة كتنتقل ليلة القدر عند بعضهم فى لىالى الشهر، ذلك لىكون العبد طالباً إلى الله عزّ وجلّ، وراغباً متضرعاً مفتقراً فى جميع ذلك اليوم. فمن واصل الأوراد فيه، وعمرّ بالذكر كلّ ساعة، صادفها بإذن الله عزّ وجلّ، فإن لم يواصل السّاعة فى يوم واحد فليواصلها فى جُمع شتى، وقتاً على وقت، على ترتيب أوقات يوم، فإنّها تقع فى جميع الأوقات لا محالة.

وليكثّر الدعاء والتضرّع فى وقتين خاصة: عند صعود الإمام المنبر إلى أن تقام الصلاة ويدخل فيها. وعند آخر ساعة وقت تدلّى الشمس للغروب. فهذان الوقتان من أفضل أوقات الجمعة، ويقوّى فى نفسى أن فى أحدهما الساعة المرجوة.

وقد اجتمع كعب الأحبار مع أبى هريرة، واجتمع رأى كعب أنّها فى آخر ساعة من يوم الجمعة. فقال أبو هريرة: كيف تكون آخر ساعة وقد سمعتُ النّبى ﷺ يقول: لا يوافقها عبد يصلى ولات حين صلاة؟ فقال كعب: ألم يقل رسول الله ﷺ: من قعد ينتظر الصلاة فهو فى صلاة؟ قال: بلى. قال: فذاك صلاة. فسكت أبو هريرة، فكأنه وافقه.

وليكثّر من الصّلاة على النّبى ﷺ فى يوم الجمعة وليلتها، وأقل ذلك أن يصلى عليه ﷺ ثلاثمائة مرة.

وقد جاء فى الخبر: «من صلّى علىّ فى يوم الجمعة ثمانين مرة غفر الله له ذنوب ثمانين سنة. قيل: يا رسول الله، كيف الصلاة عليك؟ قال: تقول: اللّهم صلّ على محمّد عبدك ونبيك ورسولك النّبى الأمّى، وتعتقدها واحدة».

فكيف ما صلّى عليه، بعد أن يأتى بلفظ ذكر الصلاة عليه، فهى صلاة. والصلاة المشهورة هى التى رُويت فى التشهد، وإن جعل من صلاته عليه أن يقول: اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، صلاة تكون لك رضاءً، ولحقّه

(١) فى (ط): «كأنها بمنزلة ليلة القدر مبهمة فى جميع شهر رمضان وكأنها مثل الصلاة الوسطى فى جملة الصلوات الخمس» وأثبت ما فى (ك).

أداء، وأعطه الوسيلة، وابعثه المقام المحمود الذى وعدته، واجزه عنا ما هو أهله، واجزه أفضل ما جزيت نبياً عن أمته، وصل على جميع إخوانه من النبيين والصالحين يا أرحم الراحمين.

تقول هذا سبع مرات، وفى هذا فضل عظيم. ويقال: من قاله سبع جمع، فى كل جمعة سبع مرات، وجبت له شفاعه رسول الله ﷺ.

وإن زاد هذه الصلاة فهى مأثورة:

اللهم اجعل فضائل صلواتك، وشرائف زكواتك، ونوامى بركاتك، ورأفتك ورحمتك وتحيتك، على محمد سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين، ورسول رب العالمين، قائد الخير، وفاتح البر، ونبي الرحمة، وسيد الأمة.

اللهم ابعثه مقاماً محموداً، تُزلف به قُربه، وتُقَرُّ به عينه، يغبطه به الأولون والآخرون. اللهم أعطه الفضل والفضيلة، والشرف والوسيلة، والدرجة الرفيعة، والمنزلة الشامخة المنيفة.

اللهم أعط محمدًا سؤله، وبلغه مأموله، واجعله أول شافع، وأول مشفع. اللهم عظم برهانه، وثقل ميزانه، وأبلغ حُجته، وارفع فى أعلى المقربين درجته. اللهم احشُرنا فى زمرة، واجعلنا من أهل شفاعته، وأحينا على سُنَّته، وتوفنا على مِلَّته، وأوردنا حوضه، واسقنا بكأسه غير خزايا ولا نادمين، ولا شاكين ولا مبدلين، ولا فتانين ولا مفتونين، آمين يا رب العالمين.

وليكثر من الاستغفار يوم الجمعة وليلتها، وأى لفظ ذكر فيه سؤال المغفرة فهو مستغفر. وإن قال: اللهم اغفر لى وتب علىَّ إنك أنت التواب الرحيم، فهو أفضل. وإن قال: رب اغفر وارحم، وتجاوز عما تعلم، وأنت خير الراحمين، فحسن.

واستحب له أن يقرأ ختمة يوم الجمعة. فإن ضاق عليه ذلك فليشفع إليه ليلتها؛ ليكون ابتداءه من ليلة الجمعة. وإن جعل ختمة للقرآن فى ركعتي الفجر من يوم الجمعة، أو فى ركعتي المغرب ليلة الجمعة، فحسن؛ ليستوعب بذلك كله

اليوم واللييلة. وإن جعل ختمه بين الأذان للجمعة والإقامة للصلاة، ففيه فضلٌ عظيم.

ويُستحب أن يصلي قبل الجمعة اثنتي عشرة ركعة، وبعدها ست ركعات، وإذا دخل الجامع فليصل أربع ركعات يقرأ فيهن: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مائتي مرة، في كل ركعة خمسين مرة، ففيه أثر عن رسول الله ﷺ: «من فعله لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة، أو يرى له».

وإذا دخل الجامع فلا يقعدنّ حتى يصلي ركعتين قبل أن يجلس، وكذلك إن دخل والإمام يخطب، صلاههما خفيفتين، وإن سمعه، لأمر النبي ﷺ بذلك؛ لأنه قد جاء في حديث غريب أن النبي ﷺ سكت له حتى صلاههما.

فقال الكوفيون: إن سكت له الإمام صلاههما. ولعل سكوت رسول الله ﷺ مخصوص له، لوجوب قوله.

وروى ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس وأبي هريرة قالا: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة، أو يوم الجمعة، أُعطي نوراً من حيث يقرأها إلى مكة، وغُفر له إلى الجمعة الأخرى وفضل ثلاثة أيام، وصلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح، وعُوفي من الداء والدُّبيلة^(١) وذات الجنب والبرص والجذام وفتنة الدجال».

واستحب أن يصلي يوم الجمعة أربع ركعات بأربع سور: سورة الأنعام، وسورة الكهف، وسورة طه، وسورة يس. فإن لم يحسن ذلك قرأ سورة يس، وسجدة لقمان، وسورة الدخان، وسورة الملك. ولا يدع قراءة هذه الأربع سور في كل ليلة جمعة، ففي ذلك أثر وفضل كبير. فإن لم يحسن جميع القرآن قرأ ما يحسن منه، فذلك له ختمة. فقل: ختمة من حيث علمه.

وقد كان العابدون يستحبون أن يقرؤوا يوم الجمعة ألف مرة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فإن قرأها في عشر ركعات أو عشرين فهو أفضل من ختمة. وقد كانوا

(١) الدُّبيلة: داء يكون في الجوف، وهي تصغير دُبلة. والدبيلة أيضاً: الداهية، وهي مصغرة للتكبير.

يصلّون على النبي ﷺ ألف مرة. ومن التسييح والتهليل بالكلمات الأربع ألف مرة.

وهذه ثلاثة أوراد حسنة في يوم الجمعة، أعنى: قراءة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، والصلاة على النبي ﷺ، والتسييح والتهليل ألفاً ألفاً، فلا يدعن ذلك، من رزقها أو أحدها فإنه من أفضل الأعمال في هذا اليوم.

وإن صلّى يوم الجمعة قبل الزوال صلاة التسييح، وهي ثلاثمائة تسييحة في أربع ركعات، فقد أكثر وأطاب. وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «صلّها في كل جمعة مرة». وذكر أبو الجوزاء عن ابن عباس: أنه لم يكن يدع هذه الصلاة كل يوم بعد الزوال، وأخبر عن فضلها ما يجلّ وصفه.

وإن قرأ المسبّحات الست في يوم الجمعة أو ليلتها، فحسن. وليس يروى أن النبي ﷺ كان يقرأ السور بأعيانها إلا يوم الجمعة وليلتها. فإننا رويناه أنه كان يقرأ في صلاة المغرب ليلة الجمعة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. وكان يقرأ في صلاة العشاء الآخرة ليلة الجمعة: سورة المنافقين. وقد روى أنه كان يقرأ بهاتين السورتين في صلاة الجمعة، وكان يقرأ في صلاة الغداة يوم الجمعة بسورة سجدة لقمان، وسورة ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾.

واستماعه إلى علم اليقين، والمعرفة، وحضور مجالس الذكر، أفضل من صلاته، وصلاته أفضل من حضوره مجالس القصاص. وروينا في حديث أبي ذر: «حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة». وفي خبر آخر: «لأن يتعلم أحدكم باباً من العلم أو يعلمه خير له من صلاة ألف ركعة». وفي خبر: «قيل: يا رسول الله، ومن قراءة القرآن؟ فقال: وهل ينفع القرآن إلا بعلم؟».

والصلاة إذا عدم مجلس العلم بالله، والتفقه في دين الله عزّ وجلّ، أزكى من حضور مجلس القصص، ومن الاستماع إلى القصاص، فإن القصص كان عندهم بدعة، وكانوا يخرجون القصاص من الجامع. روى أن ابن عمر جاء ذات يوم إلى مجلسه في المسجد فإذا قصاص يقصّ، فقال له: قم من مجلسي. فقال: لا أقوم

وقد جلستُ فيه، أو قال: قد سبقتك إليه. قال: فأرسل ابن عمر إلى صاحب الشرطة فأقامه. فلو كان ذلك من السنة لما حلَّ لابن عمر أن يقيمه من مجلسه، سيما وقد سبقه إلى الموضع. كيف! وهو الذي روى عن رسول الله ﷺ: «لا يقيم أحدكم أخاه من مجلسه ثم يجلس فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا». قال: فكان ابن عمر إذا قام له الرجل من مجلسه لم يجلس فيه حتى يعود إليه. وروينا: «ثم يجلس فيه».

وقد روينا أن قاصاً كان يجلس بفناء حجرة عائشة يقصُّ، فأرسلت إلى ابن عمر أن هذا قد آذاني بقصصه، وشغلني عن سبحتي. قال: فضربه ابن عمر، حتى كسر عصاً على ظهره، ثم طرده.

وليحذر أن يمرَّ بين يدي المصلي وإن كان مروره لا يقطع الصلاة. ففي الخبر: «لأن يقف أحدكم أربعين سنة خيراً له من أن يمر بين يدي المصلي». وقد جاء فيه وعيد شديد: «لأن يكون الرجل رماداً تذرؤه الرياح خيراً له من أن يمر بين يدي المصلي». وقد سوى في ذلك بين المارِّ والمصلي في الوعيد، ففي حديث زيد بن خالد الجهني قال رسول الله ﷺ: «لو يعلم المارُّ بين يدي المصلي ما عليهما في ذلك لكان أن يقف أربعين خيراً له من أن يمر بين يديه».

وكَيْدُنُ المصلي من أسطوانة أو جدار، فإذا فعل ذلك فلا يدعنَّ أحداً أن يمرَّ بين يديه، وليدفعه ما استطاع. وفي حديث عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه قال: «فإن أبي فليقاتله فإنما هو شيطان». وكان أبو سعيد يدفع من يمرَّ بين يديه حتى يصصره، فرما تعلق به الرجل فاستعدى عليه مروان، فيخبره أن النبي ﷺ أمرَ بذلك.

فإن لم يتفق له أسطوانة فليجعل شيئاً بين يديه، يكون طوله عظم الذراع، وقد قيل: وإن كان حبلاً ممدوداً حاجزاً بينه وبين المارة.

وقد قيل: أربعٌ من الجفاء: أن يبول الرجل قائماً، أو يصلي في الصف الثاني ويترك الأول فارغاً، أو يمسح جبهته في صلاته، أو يصلي بسبيل من يمرُّ بين يديه.

وقد كان الحسن يقول: تخطّوا رقاب الذين يقعدون على أبواب الجامع يوم الجمعة، فإنّه لا حرمة لهم.

وَلْيَقْرُبْ من الإمام، وينصت، ويستمع، ويستقبله بوجهه، كذلك السنّة، إلا أن يخاف أن يسمع أو يرى منكراً من لبس نقش سواد، أو حرير أو ديباج، أو حمل سلاح ثقيل، ولا يستطيع تغييره، فليعد حينئذ فهو أسلم.

ولا يلغو ولا يتكلم في خطبة الإمام، وإن بعد، ولا يجلس في حلقة من يتكلم والإمام يخطب، ولا يقول لآخر اسكت، ولكن يومئ إليه إيماء، أو يَحْصِبُهُ بحصاة، فإن لغا والإمام يخطب بطلت جمعته، ولا يتكلم في العلم في خطبة الإمام. ومن لم يَقْرُبْ من الإمام ولم يسمع فلينصت، وإن بعد، كذلك المستحب.

وقد روينا عن عثمان وعلى رضوان الله عليهما: «من استمع وأنصت فله أجران، ومن لم يستمع وأنصت فله أجر، ومن سمع ولغا فعليه وزران، ومن لم يستمع ولغا فعليه وزر واحد». وفي حديث أبي ذر لما سأل أياً والنبي ﷺ يخطب فقال: متى أنزلت هذه السورة، فأوماً إليه أن اسكت. فلما نزل النبي ﷺ قال له أباي: اذهب فلا جمعة لك. فشكاه أبو ذر إلى النبي ﷺ فقال: «صدق أباي». وكذلك جاء في الخبر: «من قال لصاحبه والإمام يخطب انصت أو مه، فقد لغا، ومن لغا والإمام يخطب فلا جمعة له».

وليقطع الصلاة إذا قام المؤذنون للأذان بين يدي الإمام. فقد روى أبو إسحاق عن الحارث عن علي رضوان الله عليهم: «تكره الصلاة في أربع ساعات: بعد الفجر، وبعد العصر، ونصف النهار، والصلاة والإمام يخطب». وقد جاء في الأثر: «خروج الإمام يقطع الصلاة، وكلامه يقطع الكلام».

وسجود العامة عند قيام المؤذنين للأذان قبل الخطبة ليس بسنة، فإن وافق ذلك سجوده في صلاته، أو سجود قرآن، فلا بأس أن يمتدّ في الدعاء إلى فراغهم؛ لأنّه وقت مفضل. ولا أعرف في ذلك أثراً، غير أنه مباح.

ومن العلماء من كره الصلاة في المقصورة لأجل أنها قُصرت على السلطان وأوليائه، وذلك بدعة عند أهل الورع ابتُدعت في المساجد؛ لأنها غير مطلقة لجملة الناس. فلذلك نُقل في الخبر: كان الحسن وبكر المزنى لا يصلّيان في المقصورة. وروى: رأيت أنسَ بنَ مالك يصلّي في المقصورة، وعمرانَ بن حصين أيضاً. ومنهم من لم يكره ذلك، ورأيت فيه فضلاً لأجل السنّة في الدنو من الإمام واستماع الذكر؛ فإن أُطلقت للعامة زالت الكراهة عنها، وإن خُصَّ بها أولياء السلطان تُركت عليهم، فإن صلّى فيها سبعاً يصلّي فيها، فإن بعض العلماء كره الصلاة في فناء المنبر، من قبل أن المنبر يقطع الصفوف، وكان عندهم أن تقدمه الصفوف إلى فناء المنبر بدعة. وكان الثوري يقول: الصفّ الأول هو الخارج من بين يدي المنبر.

ومن خشى الفتنة والآفة في قربه من الإمام، بأن يسمع ما يجب عليه إنكاره، أو يرى ما يلزم الأمر فيه أو النهي عنه من لبس حرير أو لبس ديباج، أو الصلاة في السّلاح الثقيل للشغل، كان بعده من الصفوف المقدّمة أصلح لقلبه، وأجمع لهمّ، لقلة ملاقة الناس، ولترك النظر إليهم. فالأصلح للقلب والأجمع لهم هو الأفضل حينئذ. وقد كان جماعة من العلماء والعباد يصلّون في أواخر الصفوف إثارةً للسلامة. وقيل لبشر بن الحارث: نراك تبكّر يوم الجمعة وتصلّي في أواخر الصفوف؟! فقال: يا هذا إنّما نريد قربَ القلوب لا قربَ الأجساد.

ونظر سفيان الثوري إلى شعيب بن حرب عند المنبر يستمع إلى خطبة أبي جعفر، فلما جاءه بعد الصلاة قال: شغل قلبي قربك من هذا، هل أمنت أن تسمع كلاماً يجب عليك إنكاره فلا تقوم به، ثم ذكر ما أحدثوا من لبس السّواد، قلتُ: يا أبا عبد الله أليس في الخبر: اذُن واستمع، فقال: ويحك ذاك للخلفاء الراشدين المهديين، فأما هؤلاء فكلما بعدت عنهم ولم تنظر إليهم كان أقرب لك إلى الله عز وجلّ.

وقد روينا عن أبي الدرداء فضيلة في الصّف المؤخّر، قال سعيد بن عامر: صليتُ إلى جنبه فجعل يتأخر في الصفوف، حتى كنا في آخر صف، فلما صلينا

قلت له: أليس يقال: خير الصفوف أولها؟ قال: نعم، إلا أن هذه أمة مرحومة منظور إليها من بين الأمم، وإن الله عز وجل إذا نظر إلى عبد منهم في الصلاة غفر لمن وراءه من الناس، فإنما تأخرت رجاء أن يغفر لى بواحد منهم، ينظر الله إليه.

وقد رفعه بعض الرواة، أن أبا الدرداء سمع النبي ﷺ يقول ذلك.

والصدقة مستحبة مفضلة يوم الجمعة خاصة، فإنها تُضاعف، إلا على من سأل والإمام يخطب، وكان يتكلم فى كلام الإمام، فهذا مكروه. قال صالح بن أحمد: سأل مسكين يوم الجمعة والإمام يخطب، وكان بجنب أبى، فأعطاه رجل قطعة ولم يعرفه ليناوله إياها، فلم يأخذها منه أبى.

وقال ابن مسعود: إذا سأل الرجل فى المسجد فقد استحق أن لا يُعطى، وإذا سأل على القرآن فلا تُعطوه.

ومن العلماء من كره الصدقة على سؤال الجامع الذين يتخطون رقاب الناس، إلا أن يسأل قائماً من غير أن يتخطى المسلمين، أو قاعداً فى مكان.

وروينا عن كعب الأخبار: من شهد الجمعة ثم انصرف يتصدق بشيئين مختلفين من الصدقة، ثم رجع فركع ركعتين يتم ركوعهما وخشوعهما وسجودهما، ثم يقول: اللهم إنى أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم، وباسمك الذى لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، لم يسأل الله عز وجل شيئاً إلا أعطاه.

وقد روينا عن بعض السلف على غير هذا الوصف قال: من أطعم مسكيناً فى يوم الجمعة، ثم غدا وابتكر ولم يؤذ أحداً، ثم قال حين يسلم الإمام: اللهم إنى أسألك بسم الله الرحمن الرحيم الحى القيوم أن تغفر لى وترحمنى وأن تعافينى من النار، ثم دعا بما بدا له استجيب له.

وإن سمع قراءة الإمام لم يقرأ فى صلاته إلا سورة الحمد لا غير، وإن لم يسمع قراءته قرأ سورة مع الحمد، إن أحب. فأما من سمع قراءة الإمام، وقرأ معه سورة الجمعة أو غيرها من السور، فقد خالف الأمة، وعصى رسول الله

ﷺ، ولا أعلمه مذهب أحد من المسلمين.

فإذا سلّم من صلاة الجمعة قرأ وهو ثانٍ رجله قبل أن يتكلم: الحمد سبع مرات، و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ سبعاً، والمعوذتين سبعاً، ففي ذلك أثر عن بعض السلف: أن من فعله عَصِمَ من الجمعة إلى الجمعة، وكان ذلك حِرْزاً له من الشيطان.

واستُحبَّ له أن يقول بعد صلاة الجمعة: «اللهم يا غنيّ يا حميدُ، يا مبدئُ يا معيدُ، يا رحيمُ يا ودودُ، اغنني بحلالِكَ عن حرامِكَ، وبفضلِكَ عَمَّن سِوَاكَ». يقال: من داوم على هذا الدعاء أغناه الله عز وجلّ عن خلقه، ورزقه من حيث لا يحتسب.

وقد روى ابن عمر أن النبي ﷺ كان يصلي بعد الجمعة ركعتين. وروى أبو هريرة أنه كان يصلي بعدها أربعاً. وروى علي وعبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يصلي بعدها ستاً. فإذا صلى العبدُ ستَّ ركعاتٍ فقد استوعب جميعَ الروايات.

وأكره شراءَ الماء في المسجد للشرب أو لتسيله؛ لئلا يكون مبتاعاً في المسجد، فقد كُره الشراء والبيع في المسجد، فإن بايعه أو دفع إليه القطعة خارجاً من المسجد، وشرب أو سبّل في المسجد، فلا بأس.

وقد جاء عن بعض السلف أنه كره الصلاة في رحاب الجامع، وعن بعض الصحابة أنه كان يضرب الناس، ويقيمهم من الرحاب، ويقول: لا تجوز الصلاة في الرحاب. فهذا عندى على ضربين: وهو أن الصلّاة في رحاب الجامع الزوائد فيه المتصلة بالصفوف المحيط بها حائط الجامع الأعظم كالصلّاة في وسطه غيرُ مكروهة، والصلّاة في رحابه المتفرقة في أفنيته التي هي من وراء جدر الجامع كلّها مكروهة. وكذلك الصلّاة في الطرقات المنفردة عن الجامع غير المتصلة بالصفوف؛ لحجز طريق أو بعد مكان، فلا يجوز. وهذا الذي كرهه من كان ينهى عن الصلّاة فيه.

فإذا صلى الجمعة انتشر في أرض الله عز وجلّ، يطلب من فضل الله عز وجلّ، ومن الفضل طلب العلم واستماعه، ويقال: هو مزيد يوم الجمعة للعالم والمتعلم، قال الله عز وجلّ: ﴿وَعَلَّمَكُمَا مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُونَ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ [سبا: ١٠]، يعنى: العلم، بدليل نظيرها من الآية الأخرى في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا﴾ [النمل: ١٥].

وروينا عن أنس بن مالك في قوله عز وجلّ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٥] قال: أمّا إنه ليس بطلب دنيا؛ ولكنه عيادة مريض، وشهود جنازة، وتعلّم علم، وزيارة أخ في الله عز وجلّ. فإن الذكر بالعلم، وتعليم الناس إياه، والتذكير بالله عز وجلّ، والدعوة إليه في يوم الجمعة، له فضل على سائر الأيام، لأنه يوم المزيد، فللقلوب فيه إقبال وتحديد، وكذلك السعى إليه، والاستماع له، وحضور مجالس الذكر يوم الجمعة لا مجالس القصاص، أفضل من سائر الأيام، والمستمع شريك القائل في الأجر. وقد قيل: إنه أقرب للرحمة.

وقد كره العلماء الجلوس إلى القصاص سيما يوم الجمعة خاصة؛ لأنهم يثبطون عن الغدوّ إلى الجامع في السّاعة الأولى والثانية؛ لأنّ الكتاب ورد بالفضل فيهما^(١). فمن اتّفق له عالم بالله عز وجلّ يذكره به ويدلّه عليه، من علماء الآخرة الزاهدين في الدنيا، يوم الجمعة غدوة في الجامع، أو بعد صلاة الجمعة - جلس إليه واستمع منه، وإن حضر مُفْتٍ يتكلّم بعلم الدين وكان العبد محتاجاً إلى ذلك جالس، فهو الأفضل، فإنّ مجالس العلماء في الجامع من زين يوم الجمعة ومن تمام فضله. قال الحسن: الدنيا ظُلْمة إلا مجالس العلماء. فإن لم يتفق له ذلك، أحيا ما بين الصلاتين. وهو الورد الخامس من النهار.

ويُستحب صلاة العصر في الجامع، إلا لسبب لا بدّ منه مانع. وإن قعد إلى

(١) في (ك): «اللتين ورد به الفضل فيهما».

غروب الشمس فهو أثوب للساعة المنتظرة من آخر النهار، إذا أمن الفتنة والتصنع والكلام فيما لا يعنيه. ويقال: من صلى العصر في الجامع كان له ثواب حجة، ومن صلى المغرب كان له ثواب عمرة. فإن خشى دخول الآفة عليه، أو لم يأمن التصنع، والخوض فيما لا يعنيه، انصرف إلى منزله ذاكرًا لله عز وجل، مفكرًا في آلائه وحسن نعمائه، فراعى غروب الشمس بالأذكار والتسبيح والاستغفار في منزله أو مسجد حيّه، فذلك حينئذ أفضل له.

وقال بعض السلف: أوفر الناس نصيبًا يوم الجمعة من راعاها وانتظرها من الأمس، وأخس الناس منها نصيبًا من يصبح يوم الجمعة فيقول: ايش اليوم. وقد كان بعضهم يبيت ليلة الجمعة في الجامع لأجل صلاة الجمعة. ومنهم من كان يبيت ليلة السبت في الجامع لمزيد الجمعة. وكثير من السلف من كان يصلى الغداة يوم الجمعة في الجامع، ويقعد ينتظر صلاة الجمعة، لأجل البكور، ليستوعب فضل الساعة الأولى، ولأجل ختم القرآن. وعامة المؤمنين كانوا ينحرفون من صلاة الغداة في مساجدهم فيتوجهون إلى جوامعهم.

ويقال: أول بدعة حدثت في الإسلام ترك البكور إلى الجوامع. قال: وكنت ترى يوم الجمعة سحرًا وبعد صلاة الفجر الطرقات مملوءة من الناس، يمشون في السرج، يزدحمون فيها إلى الجامع كما ترون اليوم في الأعياد، حتى درس ذلك وقل وجهل وترك. أو لا يستحي المؤمن أن أهل الذمة يبكرون إلى كنائسهم ويبيعهم قبل خروجه إلى جامعهم؟! أو لا يعتبر بأهل الأطعمة المباعة في رحاب الجامع أنهم يغدون إلى الدنيا والناس قبل غدوه هو إلى الله تعالى وإلى الآخرة؟! فينبغي أن يسابقهم إلى مولاه [والى الآخرة]^(١)، ويسارعهم إلى ما عنده من زلفاه.

ويجب أن يكون للمؤمن يوم الجمعة مزيد في الأوراد والأعمال، وليتفرغ فيه لربه عز وجل، ويجعله يوم آخره^(٢)، إن لم يكن له يوم السبت فيوم الجمعة في الأوراد المتصلة، والمزيد من الأذكار على المعلوم منها، فلا يكون الجمعة كالسبت

(١) ساقطة من (ط).

(٢) في (ط): «يوم آخر» وأثبت ما في (ك). أى آخر يوم في عمره.

فى تجارة الدنيا والشغل بأسبابها .

وأكره له التأهب ليوم الجمعة فى باب الدنيا من يوم الخميس ؛ من إعداد المأكول، والترفيه من النعمة والأكل والشرب . فقد روينا حديثاً من طريق أهل البيت، فيه نظر، أن النبى ﷺ قال : «يأتى على أمتى زمان يتأهبون لجمعتهم فى أمر دنياهم عشية الخميس كما يتأهب اليهود لسيبتها عشية الجمعة» . وإنما كان المؤمنون يتأهبون فيه للآخرة بالأوراد الحسنة، يزدادون من الأوراد المتصلة .

وقد كان أبو محمد سهل رحمه الله يقول : من أخذ مهناً من الدنيا فى هذه الأيام لم ينل مهناً فى الآخرة، منها يوم الجمعة . وقال أيضاً : يوم الجمعة من الآخرة ليس هو من الدنيا . وقال بعضهم : لولا يوم الجمعة ما أحببت البقاء فى الدنيا .

فهو عند الخصوص : يوم العلوم والأنوار، ويوم الخدمة والأذكار؛ لأنه عند الله عز وجل يوم المزيد بالنظر إليه فى المزار .

وروينا حديثاً غريباً عن مجاهد، عن ابن عباس، قال : قال رسول الله ﷺ : «دعوا أشغالكم يوم الجمعة فإنه يوم صلاة وتهجد» .

وروينا عن جعفر الصادق قال : يوم الجمعة لله عز وجل ليس فيه سفر، قال الله تعالى : ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة : ١٠] .

وما ذكرناه من الصلاة، والسور المقروءة، والصلاة على النبى ﷺ، وجميع الذكر فى يوم الجمعة، فإنه يستحب فى ليلتها، وهى من أفضل الليالى، فلا يدعن ذلك من وجد إليه سبيلاً . فإن للصادق المريد فى كل وقت مفضل من الله عز وجل مزيداً، فإذا أحب الله تعالى عبداً استعمله فى الأوقات الفاضلة بفواضل الأعمال، وإذا مقت عبداً استعمله فى الأوقات المفضلة بسئ الأعمال؛ ليكون أوجع فى عقابه، وأشد لمقته، لحرمانه بركة الوقت، وانتهاكه حرمة الوقت .

ومما يختص به يوم الجمعة من الذكر والتمجيد بالأسماء فصول أربعة :

أولها : الأربعون اسماً التى دعا بها إدريس عليه السلام، خصه الله تعالى بها، وذكر

الحسنُ البصرى أن موسى عليه السلام قد كان دعاً بهنّ، وأنها كانت من دعاء محمد عليه السلام.

والفصل الثاني: كان إبراهيم بن أدهم الزاهد يدعو بها كل يوم الجمعة عشر مرات إذا أصبح وإذا أمسى، فكان ذلك من عمله في يومه.

والفصل الثالث: روينا عن علي رضي الله عنه، رواه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله عزّ وجلّ يمجّد نفسه في كل يوم وليلة».

والفصل الرابع: تسيّحات أبي المعتمر، وهو سليمان التيمي، الذي كان رأى الشهيد بعد قتله في المنام، فقيل له: ما أفضل ما رأيت هناك من الأعمال؟ فقال: رأيتُ تسيّحات أبي المعتمر من الله عزّ وجلّ بمكان.

فأما هذان الفصلان من تمجيد الربّ سبحانه وتعالى نفسه، وتسيّحات أبي المعتمر، فقد ذكرناهما في أول الكتاب، فيما اخترنا من الأدعية المختارة بعد صلاة الغداة وقبل غروب الشمس في كل يوم، فاستثقلنا إعادتهما ههنا^(١). وأما الفصلان الآخريان فنحن ذاكرهما.

• ذكر دعاء إدريس النّبي عليه السلام (٢):

حدثنا الحسنُ بن يحيى الشاهد، حدثنا القاسم بن داود القراطيسي، حدثنا عبد الله بن محمد القرشي، حدثنا محمد بن سعيد المؤذن، حدثنا سلام الطويل، عن الحسن البصرى قال: لما بعث الله عزّ وجلّ إدريسَ إلى قومه علّمه هذه الأسماء، فأوحى الله إليه: قلّهنّ سرّاً في نفسك ولا تبذهنّ للقوم فيدعوني بهنّ. قال: وبهنّ دعا، فرفعه الله عزّ وجلّ مكاناً عليّاً. ثم علّمهنّ الله عزّ وجلّ موسى عليه السلام، ثم علّمهنّ الله عزّ وجلّ محمداً صلى الله عليه وسلم، وبهنّ دعا في غزوة الأحزاب.

قال الحسن: وكنتُ مستخفياً من الحجاج، فدعوتُ اللهَ بهنّ فحبسه عني، ولقد دخل عليّ ست مرات، فأدعو اللهَ بهنّ فأخذ الله عزّ وجلّ بأبصارهم عني.

(١) انظر ص ٢٦ وما بعدها، و ص ٣٥ وما بعدها من هذا الجزء.

(٢) ويسمّيها بعض أهل الطريق اليوم: «الأسماء السّهوَرْدِيّة».

فادعُ الله عزَّ وجلَّ بهنَّ لالتماسِ المغفرة لجميع الذنوب، ثم سَلِّ حاجتك من أمر آخرتك ودنياك، فإنَّكَ تُعطاه إن شاء الله تعالى. فإنَّهن أربعون اسمًا عدد أيام التوبة:

سُبْحَانَكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، يَا رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، وَوَارِثُهُ، وَرَازِقُهُ، وَرَاحِمُهُ. يَا إِلَهَ الْآلِهَةِ، الرَّفِيعُ جَلَالُهُ. يَا اللَّهُ الْمُحْمَدُ فِي كُلِّ فِعَالِهِ. يَا رَحْمَنَ كُلِّ شَيْءٍ وَرَاحِمَهُ.
يَا حَيُّ حِينَ لَا حَيَّ فِي دَيْمُومَةٍ مُلْكِهِ وَبَقَائِهِ. يَا قَيُّومُ فَلَا يَفُوتُ شَيْءٌ مِنْ عِلْمِهِ، وَلَا يُوَوِّدُهُ حِفْظُهُ. يَا وَاحِدُ، الْبَاقِي أَوَّلَ كُلِّ شَيْءٍ وَآخِرَهُ. يَا دَائِمُ فَلَا فَنَاءَ وَلَا زَوَالٍ لِمُلْكِهِ. يَا صَمَدٌ مِنْ غَيْرِ شَبِيهِ، وَلَا شَيْءَ كَمِثْلِهِ.

يَا بَارُّ فَلَا شَيْءَ كَفَوْهُ، وَلَا مَكَانَ لَوْصَفِهِ. يَا كَبِيرُ أَنْتَ الَّذِي لَا تَهْتَدِي الْعُقُولُ لَوْصَفِ عَظَمَتِهِ. يَا بَارِيَّ النُّفُوسِ بِلَا مِثَالٍ خَلَا مِنْ غَيْرِهِ. يَا زَاكِي؛ الطَّاهِرُ مِنْ كُلِّ آفَةٍ بِقُدْسِهِ. يَا كَافِي؛ الْمَوْسِعُ لِمَا خَلَقَ مِنْ عَطَايَا فَضْلِهِ. يَا نَقِيًّا مِنْ كُلِّ جَوْرِ لَمْ يَرْضَهُ، وَلَمْ يَخَالِطْهُ فِعَالُهُ.

يَا حَنَّانُ أَنْتَ الَّذِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةٌ وَعِلْمًا. يَا مَنَّانُ ذَا الْإِحْسَانِ قَدْ عَمَّ كُلَّ الْخَلَائِقِ مِنْهُ.

يَا دَيَّانَ الْعِبَادِ، كُلُّ يَقُومُ خَاضِعًا لِرَهْبَتِهِ [وَرَغْبَتِهِ]. يَا خَالِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّهُ إِلَيْهِ مَعَادُهُ. يَا رَحِيمَ كُلِّ صَرِيخٍ وَمَكْرُوبٍ وَغِيَاثُهُ وَمَعَادُهُ. يَا تَامُّ فَلَا تَصِفُ الْأَلْسُنُ كُلَّ جَلَالِهِ وَمُلْكِهِ وَعِزَّةِهِ.

يَا مُبْدِعَ الْبَدَائِعِ، لَمْ يَبِغْ فِي إِنْشَائِهَا عَوْنًا مِنْ خَلْقِهِ. يَا عَلَامَ الْغُيُوبِ فَلَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ مِنْ حِفْظِهِ وَلَا يُوَوِّدُهُ. يَا حَلِيمَ ذَا الْأَنَاءِ فَلَا يُعَادِلُهُ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِهِ. يَا مُعِيدَ مَا أَفْنَاهُ إِذَا بَرَزَ الْخَلَائِقُ لِدَعْوَتِهِ مِنْ مَخَافَتِهِ.

يَا حَمِيدَ الْفِعَالِ ذَا الْمَنْ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ بِلُطْفِهِ. يَا عَزِيزُ؛ الْمَنِيعُ الْغَالِبُ عَلَى أَمْرِهِ، فَلَا شَيْءَ يُعَادِلُهُ. يَا قَاهِرُ؛ ذَا الْبَطْشِ الشَّدِيدِ، أَنْتَ الَّذِي لَا يُطَاقُ انْتِقَامُهُ. يَا قَرِيبُ؛ الْمُتَعَالَى فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ عُلُوًّا ارْتِفَاعِهِ. يَا مُدِلَّ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ بِقَهْرٍ عَزِيزٍ سُلْطَانِهِ.

يا نورَ كلِّ شيءٍ وهُداه، أنتَ الَّذي فَلقَ الظُّلُماتِ بنوره. يا عالى؛ الشَّامخُ فوقَ كلِّ شيءٍ علوَّ ارتفاعه. يا قدوسُ؛ الطَّاهرُ من كلِّ سوءٍ، فلا شيءَ يُعادلُه مِن جميع خَلْقِه.

يا مُبدئَ البرايا ومُعيدَها بعدَ فَنائها بِقُدْرَتِه. يا جليلُ، المتكَبِّرُ على كلِّ شيءٍ، فالعدلُ أمرُه والصدِّقُ وعده.

يا محمودُ، فلا تبلغِ الأوهامُ كُنْهَ ثَنائِه ومَجْدِه. يا كريمَ العفوِ ذا العدلِ، أنتَ الَّذي مَلأَ كلَّ شيءٍ عدْلُه. يا عَظيمُ ذا الثَّناءِ الفَاجرِ، وذا العِزِّ والمجدِ والكبرياءِ، فلا يَذِلُّ عِزُّه. [يا قَريبُ المَحبِيبِ الدَّانِئِ، دونَ كلِّ شيءٍ قُرْبُه]. يا عَجيبَ [الصَّنائعِ] فلا تنطِقُ الألسُنُ بكنْهِ آلائِه وثَنائِه. يا غياثي عندَ كلِّ كُربةٍ، ويا مُجيبِي عندَ كلِّ دَعوةٍ.

أَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ يا رَبَّ الصَّلَاةِ على نبيِّكَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وأَمانًا من عَقوباتِ الدُّنيا والآخِرَةِ، وأنْ تَحْبِسَ عَنِّي أَبْصارَ الظَّالِمِينَ، المَريدينَ بى السَّوءِ، وأنْ تَصْرِفَ قُلُوبَهُمْ عَن شَرِّ ما يَضْمُرُونَ بى إلى خَيرِ ما لا يَمْلِكُهُ غَيرُكَ.

اللَّهُمَّ هَذا الدَّعاءُ وَمَنكَ الإِجابةُ، وَهَذا الجَهدُ وَعَليكِ التَّكْلانُ، ولا حَولَ ولا قوَّةَ إلا بِاللَّهِ، وَصَلَّى اللَّهُ على سَيِّدنا مُحَمَّدٍ وآلِهِ وَسَلَّمَ.

• ذَكَرَ دَعاءَ إِبْراهِيمَ بْنِ أَدَهِمَ:

حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ الْمُوصَلِيِّ الْوَكِيلُ بْنُ الْمُوَكَّلِ، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ نَصِيرِ الْخَوَاصِ الْخُرَاسَانِي، حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ بَشَارٍ خَادِمُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدَهِمَ، قَالَ: كَانَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَهِمَ يَقُولُ هَذا الدَّعاءُ فِي يَومِ الجُمُعَةِ إِذا أَصْبَحَ، وَيَقُولُ إِذا أَمَسَ مِثْلَ ذَلِكَ:

مَرَحَبًا بِيَومِ المَزيدِ، وَالصَبْحِ الجَدِيدِ، وَالكَاتِبِ الشَّهِيدِ. يَومُنا هَذا يَومُ عَيدٍ، اكْتُبْ لَنا ما نَقُولُ. بِسْمِ اللَّهِ الحَميدِ المَجدِ الرَفيعِ الودودِ الفَعَّالِ فِي خَلْقِهِ ما يُريدُ.

أَصْبَحْتُ بِاللَّهِ مُؤمِنًا، وَبَلَقائِهِ مُصدِّقًا، وَبِحُجَّتِهِ مُعترفًا، وَمِن ذَنْبِي مُستَغفِرًا، وَلِرُبُوبِيَةِ اللَّهِ خاضِعًا، وَلِسَوى اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ فِي الإِلهِيَةِ جاحِدًا، وَإِلَى اللَّهِ فَقيرًا، وَعَلَى اللَّهِ مُتَوَكِّلًا، وَإِلَى اللَّهِ مُنيبًا.

أشهدُ اللهَ وأشهدُ ملائكتَه وأنبياءَه ورُسُلَه وحملَةَ عرشِه ومَن خَلَقَ ومَن هو خالقُه، بأنَّه هو اللهُ لا إلهَ إلا هو، وحدَه لا شريكَ له، وأنَّ محمداً عبدهُ ورسولُه ﷺ، وأنَّ الجنةَ حقٌّ، والنارَ حقٌّ، والحوضَ حقٌّ، والشفاعةَ حقٌّ، ومنكراً ونكيراً حقٌّ، ولقاءك حقٌّ، ووعدك حقٌّ، والساعةُ آتيةٌ لا ريبَ فيها، وأنَّ اللهَ يبعثُ مَن في القبور. على ذلكَ أحيَا، وعليه أُموت، وعليه أُبعث إن شاء الله.

اللهم أنت ربِّي، لا إلهَ إلا أنت، خلقتني، وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعتُ. أعوذ بك اللهم من شرِّ كل ذي شرٍّ. اللهم إني ظلمتُ نفسي فاغفر لي ذنوبي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. واهدني لأحسنِ الأخلاق، فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت. واصرف اللهم يا ربَّ عني سيئها، فإنه لا يصرف سيئها إلا أنت.

ليِّك وسعديك والخيرُ كُلُّه بيديك، أنا لك وإليك، أستغفرك وأتوب إليك. آمَنْتُ اللهم بما أرسلتَ من رسول، وآمنتُ اللهم بما أنزلتَ من كتاب. وصلى الله على سيِّدنا محمد النبي وعلى آله وسلَّم كثيراً خاتَمَ كلامي ومفتاحه، وعلى أنبيائه ورسله أجمعين، آمين يا ربَّ العالمين.

اللهم أوردنا حوضه، واسقنا بكأسه مشروباً رويًا سائغاً هنيئاً لا نظماً بعده أبداً، واحشُرنا في زمرته غير خزايا ولا نادمين، ولا ناكثين، ولا مرتابين، ولا مفتونين، ولا مغضوباً علينا ولا ضالين.

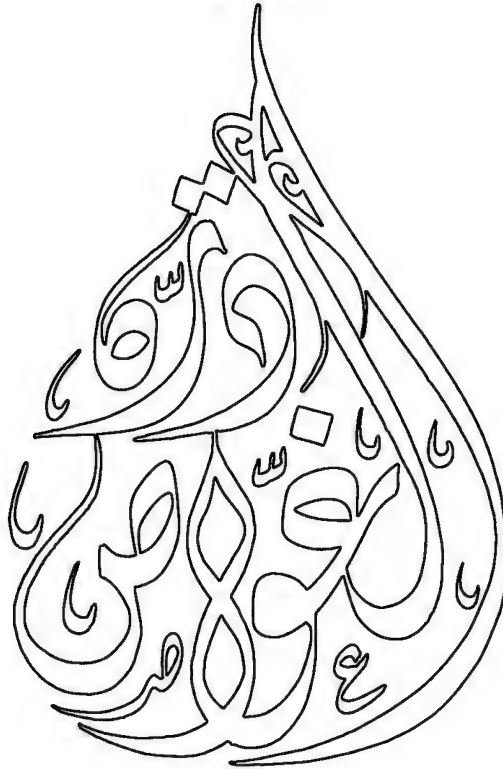
اللهم اعصمني من فتن الدنيا، ووقني لما تحبّ وترضى من العمل، وأصلح لي شأنِي كُلَّه، وثبّتي بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولا تُضِلّني وإن كنتُ ظالماً.

سُبْحَانَكَ سُبْحَانَكَ يا علىُّ، يا عظيمُ، يا بارُّ، يا رحيمُ، يا عزيزُ، يا جبارُ. سُبْحَانَكَ من سَبَّحتَ له السموات بأكنافها. وسُبْحَانَكَ من سَبَّحتَ له الجبالُ بأصواتها. وسُبْحَانَكَ من سَبَّحتَ له البحارُ بأمواجها. وسُبْحَانَكَ من سَبَّحتَ له الحيتانُ بلغاتها. وسُبْحَانَكَ من سَبَّحتَ له النجومُ في السماء بأبراقها. وسُبْحَانَكَ من سَبَّحتَ له الشجرُ بأصولها ونضارتها. وسُبْحَانَكَ من سَبَّحتَ له السموات السبع

والأرضون السبع ومن فيهن ومن عليهن . سبحانك سبحانك يا حيُّ، يا حلِيم، سبحانك لا إله إلا أنتَ وَحْدَكَ، لا شريكَ لك، تحيى وتُؤمِت وأنتَ حي لا تموت، بيدك الخير وأنتَ على كل شيء قدير .

فإذا دعا بهذه الأدعية الأربع يوم الجمعة، فقد كَمَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ عمله، وتَمَّ عليه فضله . فإذا عمل بخير ما ذكرناه من الأعمال والأذكار، واجتنب سيئ ما ذكرناه من الأقوال والأفعال، فهو من أهل الجمعة، وممن له المزيد بها نصيباً موفوراً، وكان عمله الخالص وذكره الصادق عند الله عزَّ وجلَّ مشكوراً، [ولا حول ولا قوة إلا بالله وحده]^(١) .

وهذا آخرُ كتابِ الجمعةِ وهيئاتها وآدابها .



(١) ساقطة من (ط) .

الفصل الثاني والعشرون

فيه كتاب الصيام وترتيبه، ووصف الصائمين،
وذكر ما يستحب للعبد من الصيام، وطرقات الصائمين في الصوم،
ووصف صوم الخصوص^(١)

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، جاء في التفسير: الصبر: يعنى الصوم. وكان رسول الله ﷺ يسمى رمضان شهر الصبر؛ لأن الصبر حبس النفس عن الهوى، وإيقافها وحبسها على أمر المولى. وقد روينا عن النبي ﷺ أنه قال: «الصبر نصف الإيمان، والصوم نصف الصبر».

وقول الله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ قيل: معناه: على مجاهدة النفس. وقيل: على مصابرة العدو. وقال بعض العلماء: استعينوا بالصبر على الزهادة في الدنيا بالصوم؛ لأن الصائم كالزاهد العابد، فالصوم مفتاح الزهد في الدنيا، وباب العبادة للمولى؛ لأنه منع النفس عن ملاذها وشهواتها من الطعام والشراب، كما منعها الزاهد العابد بدخوله في الزهد وشغله بالعبادة. ولذلك جمع رسول الله ﷺ بينهما في المعنى فقال: «إن الله عزّ وجلّ يباهى ملائكته بالشاب العابد، فيقول: أيها الشاب التارك شهوته من أجلّ، المبتذل شبابه لى، أنت عندى كبعض ملائكتى». وقال فى الصائم مثل ذلك، يقول عزّ وجلّ: «يا ملائكتى انظروا إلى عبدى، ترك شهوته ولذته وطعامه وشرابه من أجلّ».

ففى الصوم عونٌ على مجاهدة النفس، وقطعٌ حظوظها، ومنعٌ عاداتها، وفيه إضعافٌ لها ونقصانٌ لهواها. وقال رسول الله ﷺ: يقول الله عزّ وجلّ: «كلُّ عمل ابن آدم له إلا الصوم، فإنه لى وأنا أجرى به». فأضافه عزّ وجلّ إليه تفضيلاً

(١) سيتكلم عن الصوم مرة أخرى فى الفصل الثالث والثلاثين عندما يتكلم عن أركان الإسلام الخمس. وانظر: الإحياء، كتاب أسرار الصوم، ٢٣٢/١.

له وتخصيصاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الحج: ١٨]، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ [النمل: ٩١]، فلما كانت المساجد أحب بيوت الدنيا إليه، وكانت مكة أشرف البلاد عنده، أضافها إلى ذكره، وله كل شيء. كذلك لما كان الصيام أفضل الأعمال عنده، وأحبها إليه؛ لأن فيه خُلُقًا من أخلاق الصَّمدية، ولأنه من أعمال السر بحيث لا يطلع عليه إلا هو، أضافه لنفسه.

وقيل: ما في عمل ابن آدم شيء إلا ويقع فيه قصاصٌ، ويذهب برد المظالم، إلا الصوم فإنه لا يدخله قصاص، ويقول الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة: هذا لى فلا يقتص منه أحد شيئاً. يقال: ما من عمل إلا وله جزاء معلوم، إلا الصوم، فإنه لا تعلم نفس ما جزاؤه، ويكون أجره بغير حساب، يُفرغ له إفراغاً، ويُجازف مجازفة، وهو أحد الوجوه فى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]. قيل: كان عملهم الصيام. وكذلك فى تأويل قوله عزَّ وجلَّ: ﴿السَّائِحُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] قيل: هم الصائمون، كأنهم ساحوا إلى ربهم عزَّ وجلَّ بجوعهم وعطشهم، وتركوا قرَّة أعين أبناء الدنيا من أكلهم وشربهم، فأواهم مولاهم فيما أخفى لهم من قرَّة أعين جزاء لعملهم. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. قيل: الصائمون.

والصبر اسمٌ من أسماء الصوم، فلما أخفى ذكره بالصوم فى نفسه أخفى الله عزَّ وجلَّ جزاءه إياه عن غير نفسه. وفى الحديث: «من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى». فالصوم ذكرُ الله عزَّ وجلَّ، وهو سرٌّ.

وليس أستحب للعبد أن يزيد على إفطار أربعة أيام نَسَقًا؛ فإن ذلك يقسَى القلب، ويغيّر الحال، ويولّد العادات، ويفتق الشهوات. ولأنه لم يؤمر، ولم يُندب إلى أن يوالى بين إفطار أكثر من أربعة أيام متوالية، وهى النحر وأيام التشريق.

ويستحب له أن يصوم يوماً ويفطر يوماً، أو يصوم يومين ويفطر يومين، وذلك صوم نصف الدهر. وإن أحب فليصم يومين ويفطر يوماً، وذلك صوم ثلثي الدهر. فإن أحب فليصم يوماً ويفطر يومين، وهذا صيام ثلث الدهر. هذه طريق الصائمين، وفيها روايات حذفنا ذكر فضائلها للاختصار.

فإن صام ثلاثاً من أول الشهر، وثلاثاً من وسطه، وثلاثاً من آخره، فحسن. فإن صام الاثنين، والأخمسة، والجمع، فذلك خير كبير، وأقل من ذلك أن يصوم الأيام البيض، وأول يوم من الشهر، وآخر يوم منه.

وأفضلُ الصيام ما كان في الأشهر الحرم، وأفضل ذلك ما وقع في العشرين منها، وهو المحرم وذو الحجة. وبعد ذلك ما كان في شعبان، فإن رسول الله ﷺ كان يكثر الصيام فيه حتى يصله بشهر رمضان. ولا يدع أن يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، وليواظب على صوم الاثنين والخميس. وفي الخبر: «أفضلُ الصيام بعد شهر رمضان شهرُ الله المحرم».

وصومُ النصفِ الأول من شهر شعبان مستحب. وقد كانوا يفطرون النصف الأخير منه. وقد روينا خبر: «إذا كان النصف من شعبان فلا صوم حتى يدخل رمضان». وليفطر قبل رمضان أياماً، فإن وصلَ شعبانَ برمضان فجاثر. ولا يجوز أن يستقبل رمضان بيومين أو ثلاثة، إلا أن يوافق ذلك يوم اثنين أو خميس قد كان يصومه.

وقد كان بعض الصحابة يكره أن يصام رجب كله، لثلاث يضاهاى به شهر رمضان، وكانوا يستحبون أن يفطروا منه أياماً.

وقد كره قومُ صيام الدهر كله، ووردت أخبار في كراهته. وقد تأول ذلك بأنهم كانوا يصومون السنة كلها مع يوم العيد وأيام التشريق، فوردت الكراهة لذلك. وإن كان يريد صلاح قلبه وانكسار نفسه واستقامة حاله في صوم الدهر فليصمه^(١)، فهو حينئذ كالواجب عليه إذا كان تقواه وصلاحه فيه. فقد روينا عن

(١) أى الدهر، عدا أيام العيدين والتشريق، فإن المنع فيها ثابت.

سعيد، عن قتادة، عن أبي تيمية الهجيمي، عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «من صام الدهر ضيقت عليه جهنم، وعقد تسعين». معناه: لم يكن له فيها موضع. وقد دلت الأصول على فضل صوم الدهر، وقد صامه طبقات من السلف الصالح من الصحابة والتابعين بإحسان، إلا أن يكون الرجل يرغب عن السنة، ولا يرى الرخصة في الإفطار، فيكره له صوم الدهر للمعاندة؛ لأن رسول الله ﷺ أمر بالسعة في الدين، وأخبر [عن] الله عز وجل بأنه يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائه. وفي لفظ آخر: «يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته».

وقد دلت الأخبار على فضل صوم نصف الدهر، بأن يصوم يوماً ويفطر يوماً، وذلك ليكون العبد بين حالين: حال صبر، وحال شكر. ومن ذلك ما روى عن النبي ﷺ: «عرضت على مفاتيح خزائن الدنيا وكنوز الأرض فرددتها، فقلت: أجوع يوماً، وأشبع يوماً، أحمدك إذا شبع، وأتضرع إليك إذا جعت». ومن ذلك قوله ﷺ: «أفضل الصيام صيام أخى داود عليه السلام، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً».

ومن ذلك منازلته عليه السلام لعبد الله بن عمرو في الصوم، وهو يقول: إني أريد أفضل من ذلك. حتى قال له النبي ﷺ: صم يوماً وأفطر يوماً. قال: أريد أفضل من ذلك. قال: لا أفضل من ذلك.

وروى في الخبر: «صوم يوم من شهر حرام أفضل من صوم ثلاثين يوماً من غيره. وصوم يوم من رمضان أفضل من صوم ثلاثين يوماً من شهر حرام». وفي حديث: «من صام ثلاثة أيام من شهر حرام الخميس والجمعة والسبت كتب الله تعالى له عبادة سبع مائة عام».

وقد روي أن النبي ﷺ ما صام شهراً كاملاً قط إلا رمضان، بل كان يفطر منه. وقد وصل مرة شعبان برمضان، وفصل صوم رمضان مراراً من شعبان.

وما ذكرنا من أنواع الصوم فهو صيام جماعة من السلف الصالح، وفي كل منه ورد فيه فضائل أكثر ذكرها. وكذلك في جميع ما نذكره من أعمال القلوب

والجوارح في الأيام والليالي، وكذلك فيما نذكره من أخلاق الإيمان وأوصاف الموقنين. وقد جاءت في أكثر ذلك فضائل ومثوبات، إلا أنا لم نقصد تعديد ذلك، وليس مذهبنا الاشتغال بذكر فضائل الأعمال، إنما طريقنا تهذيب قلوب العمال. فبطهارة القلوب وحقيقة الإيمان تركوا الأعمال، ويقترب العاملون من ذي الجلال، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

• ذكر صوم الخصوص من الموقنين،

اعلم - وفقك الله تعالى - أن الصوم عند الصائمين هو صوم القلب^(١).

فأما صوم الخصوص من الموقنين، فإن الصوم عندهم هو صوم القلب عن الهمم الدنية، والأفكار الدنيوية. ثم صوم السمع والبصر واللسان عن تعدى الحدود، وصوم اليد والرجل عن البطش والسعى في أسباب النهي.

فمن صام بهذا الوصف فقد أدرك وقته في جملة يومه، وصار له في كل ساعة من نهاره وقت، وقد عمر يومه كله بالذكر. ومثل هذا قيل: «نوم الصائم عبادة ونفسه تسبيح»^(٢).

وقد قرن الله عز وجل الاستماع إلى الباطل والقول بالإثم إلى أكل الحرام، ولولا أن في المسموعات والمقولات حراماً على المستمع الإصغاء إليه، وحراماً على القائل النطق به، ما قرنهما إلى أكل الحرام، وهو من الكبائر، فقال تعالى: ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ﴾ [المائدة: ٦٣].

فالعبد الحافظ لحدود الله عز وجل إن أفطر بالأكل والجماع فهو صائم عند الله في الفضل للاتباع، ومن صام عن الأكل والجماع وتعدى الحدود وأضاع فهو مفطر عند الله عز وجل صائم عند نفسه؛ لأن ما أضاع أحب إلى الله عز وجل وأكثر مما

(١) العبارة في (ك) هكذا: «والصوم عند الصائمين لله هو صوم القلب».

(٢) بعده في (ك) يختلف ترتيب النصوص إلى آخر الفصل عما عليه في المطبوعة، وهذا لم يؤثر كثيراً على المعاني.

حفظ. ومَثَلُ مَنْ صَامَ عَنِ الْأَكْلِ وَأَفْطَرَ بِمُخَالَفَةِ الْأَمْرِ بِسَائِرِ الْجَوَارِحِ مَثَلُ مَنْ مَسَحَ كُلَّ عَضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِ فِي وَضُوئِهِ ثَلَاثًا ثَلَاثًا، ثُمَّ صَلَّى، فَقَدْ وَافَقَ الْفَضْلُ فِي الْعَدَدِ إِلَّا أَنَّهُ تَارَكَ لِلْفَرْضِ مِنَ الْغُسْلِ، فَصَلَاتُهُ مُرَدُودَةٌ عَلَيْهِ لَجَهْلِهِ، وَهُوَ مُغْتَرٍ بِفَعْلِهِ. وَمَثَلُ مَنْ أَفْطَرَ بِالْأَكْلِ وَصَامَ بِجَوَارِحِهِ عَنِ النَّهْيِ مَثَلُ مَنْ غَسَلَ كُلَّ عَضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِ فِي وَضُوئِهِ مَرَّةً مَرَّةً، فَهُوَ تَارَكَ لِلْفَضْلِ فِي الْعَدَدِ إِلَّا أَنَّهُ مَكْمَلٌ لِلْفَرْضِ، مُحْسِنٌ فِي الْعَمَلِ، فَصَلَاتُهُ مُتَقَبَّلَةٌ لِإِحْكَامِهِ لِلْأَصْلِ، وَلِعَمَلِهِ بِالْعِلْمِ. وَمَثَلُ مَنْ صَامَ عَنِ الْأَكْلِ وَالْجَمَاعِ، وَحَفِظَ جَوَارِحَهُ عَنِ الْآثَامِ، كَمَثَلِ مَنْ غَسَلَ كُلَّ عَضْوٍ ثَلَاثًا ثَلَاثًا، فَقَدْ تَمَّ الْفَرْضُ وَأَحْسَنَ بِتَكْمِلَةِ الْفَضْلِ، فَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٤]. وكَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْوَضُوءِ كَذَلِكَ: «هَذَا وَضُوءِي، وَوَضُوءُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، وَوَضُوءُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ». وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] أَيْ: عَلَيْكُمْ بِهَا، فَاتَّمُوا وَاقْتَدُوا بِهِ فِيهَا.

وقد روينا عن النبي ﷺ: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر».

وجاء في الخبر: أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ، فأجهدهما الجوعُ والعطشُ في آخر النهار، حتى كادتا أن تتلفا، فبعثتا إلى رسول الله ﷺ يستأذناه في الإفطار، فأرسل إليهما قدحًا، وقال: قل لهما قيتا فيه ما أكلتما! قال: فقأت إحداهما نصفه دمًا غبيطًا ولحمًا عريضًا، وقأت الأخرى مثل ذلك، حتى ملأتاه. فعجب الناس من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «هاتان صامتا عما أحل الله عز وجل لهما، وأفطرتا على ما حرم الله عز وجل عليهما، قعدت إحداهما إلى الأخرى فجعلتا يغتابان الناس، فهذا ما أكلا من لحومهم».

وكان أبو الدرداء يقول: يا حبذا نومُ الأكياس وفطرتهم، يعيرون صومَ الحمقى وسهرهم، ولذرة من ذى يقين وتقوى أفضلُ وأرجحُ من أمثال الجبال من عبادة المغترين.

وكلُّ محظورٍ عليك أن تتفوه به فمحظور عليك أن تستمع إليه. وكلُّ حرام

عليك أن تفعله فمكروه أن تنظر إليه أو يخطر ببالك. وقد سوى الله عز وجل بين المستمع والقائل في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠].

ومثل الصيام مثل التوبة؛ لأن الصبر من أوصافها، وإنما كانت التوبة مكفرة لما سلف من السيئات لأجل أنه صبر عما سلف من سيئ العادات، ثم اعتقد ترك العود إلى مثل ما سلف، بصيانة جوارحه التي كانت طرائق المكروهات. كذلك كان الصيام جنة من النار، وفضيلة من درجات الأبرار؛ إذا صبر عليه الصائم، فحفظ جوارحه فيه من المآثم، فإذا أمرحها^(١) في الآثام كان كالتائب المتردد، الناقض للميثاق، لم تكن توبته نصوحاً، ولا كان صوم هذا صالحاً وصحيحاً، ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ: «الصوم جنة من النار ما لم يخرقها بكذب أو غيبة». وأمره في قوله عليه السلام: «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ شاتم فليقل إنى صائم». وفي لفظ آخر: «لا يجعل يوم صومه ويوم فطره سواء» أى يتحفظ فى صومه لحرمته. وفي خبر آخر: «الصوم أمانة، فليحفظ أحدكم أمانته»، فحفظ الأمانة من صيانة الجوارح، لقول النبي ﷺ لما تلا هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، وضع يده على سمعه وبصره، فقال: «السمع أمانة، والبصر أمانة». فذلك مجاز.

قوله «فليقل إنى صائم»: أى يذكر الأمانة التى حمل فيؤديها إلى أهلها، ومن حفظ الأمانة أن يكتمها، فإن أفشاها من غير حاجة فهي خيانة، لأن مودعها قد لا يحب أن يظهرها، وحقيقة حفظ السرّ نسيانه، وضياح السرّ أن يكسر خزانه، فحقيقة الصائم أن يكون ناسياً لصومه لا ينتظر الوقت شغلاً عنه بالمؤقت.

(١) أى جعلها ترح وترتع فى المعاصى دون محاسبة أو رقيب.

الفصل الثالث والعشرون

فيه كتاب محاسبة النفس ومراعاة الوقت ^(١)

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ إلى قوله: ﴿آتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الانباء: ٤٧]، وقرئت: «آتينا بها» ممدودة، أى: جازينا بها، فالتخويف بهذا الحرف أشد وأبلغ. وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ [الزلزلة: ٦] الآية.

وأوصى أبو بكر عمر رضى الله عنهما عند موته، فقال: إن الحقّ ثقيل وهو مع ثقله مرىء، وإن الباطل خفيف وهو مع خفته وببىء. وإن الله عزّ وجلّ حقّاً بالنهار لا يقبله بالليل، وحقّاً بالليل لا يقبله بالنهار، وإنك لو عدلت على الناس كلهم وجرت على واحد منهم لمال جورك بعدلك. فإن حفظت وصيتى لم يكن شئ أحبّ إليك من الموت وهو مُدْرِكُكَ، وإن ضيّعت وصيتى لم يكن شئ أبغضَ إليك من الموت ولن تُعجزه.

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتزيتوا للعرض الأكبر على الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، وإنما خفّ الحسابُ فى الآخرة على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا، وثقلت موازين قوم فى الآخرة وزنوا أنفسهم فى الدنيا، وحق لميزان لا يُوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً.

وأوصى رسول الله ﷺ أبا ذر فقال له: «اتق الله أينما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخُلُقٍ حسن».

(١) فى (ك): «هذا كتاب محاسبة النفس ومراعاة الوقت». ويوجد اختلاف فى ترتيب المادة بين المخطوط والمطبوع فى مواضع كثيرة، ويوجد أيضاً نقص فى محتويات المخطوط واختصار أحياناً. وانظر فى المحاسبة: الإحياء ٤/٤٠٤ - ٤٢٢، كتاب المراقبة والمحاسبة.

ووجدت هذه الوصية فى كتاب الله عزّ وجلّ لعباده بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]. والكلمة الثانية فى قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُوهُنَّ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ﴾ [الرعد: ٢٢] أى يدفعون بعمل الحسنة ويتبعونها السيئة المتقدمة تكفرها. والكلمة الثالثة فى قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]. وقد أخبر الله عزّ وجلّ عن وصية عباده الصالحين بثلاث فقال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ أى: لفى خسران ونقص بفوت أوقاته وفقد أرباحه، ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٢ - ٣]. وقال فى الوصف الثالث: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾ [البلد: ١٧].

واتباع الحق بمخالفة الهوى فيه الصلاح؛ إذ فى موافقة الهوى الفساد. والصبر قوامُ الأمر، وبمقداره يكون الربح. والرحمةُ للخلق بابُ الرحمة من الخالق، ومفتاح حسن الخلق، ومعها حسن الظن وسلامة القلب، وعندها ينتفى الحسد والغل، ويوجد التواضع والذل؛ وهذا وصف أصحاب رسول الله ﷺ الذين اختارهم الله لصحبة نبيه عليه السلام، وأنزل عليهم السكينة وأيدهم بروح منه، فقال: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. وقال تعالى فى حقيقة الرحمة: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]، وقال فى مثله عن وصف أحبائه لإخوانهم: ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. فهذه الثلاث مفاتيح رقة القلب ومغالق القسوة. وفى الرقة الإقبال على الله عزّ وجلّ، وعلى الدار الآخرة، والتيقظ لأمره، والتفكر فى وعده ووعيده. وفى القسوة الإعراض وطولُ الغفلة. فمحاسبة النفس تكون بالورع، وموزنتها تكون بمشاهدة عين اليقين، والتزيّن للعرض الأكبر يكون بمخافة الملك الأكبر، وهو حقيقة الزهد.

ورويانا عن على رضى الله عنه: أما بعد، فإن المرء يسرّه درك ما لم يكن ليفوته، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه. فما نالك من دنياك فلا تكثر به فرحاً، وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفاً. وليكن سرورك بما قدّمت، وأسفك

على ما خلّفت، وشغلّك لآخرتك، وهمّك فيما بعد الموت. وقال أيضاً: الهوى شريك العمى، ومن التوفيق الوقوف عند الحيرة، ونعم طاردُ الهم اليقين، وعاقبة الكذب الدم، وفي الصدق السلامة. ربّ بعيد أقرب من قريب، وغريب من لم يكن له حبيب. والصديق من صدق غيبه، ولا يعدمك من حبيب سوء الظن. نعم الخلق التكرم، والحياء سبب إلى كل جميل. وأوثق العرى التقوى، وأوثق سبب أخذت به نفسك سبب بينك وبين الله عز وجل. إنّما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك. والرزق رزقان: رزق تطلبه، ورزق يطلبك، فإن لم تأتّه أذاك. وإن كنت جازعاً على ما أتلفت من يديك فلا تجزعنّ على ما لم يصل إليك، واستدلّ على ما لم يكن بما كان، فإن الأمور أشباه.

وقال عبد الله بن عباس: لكل شيء آفة، وآفة العلم النسيان، وآفة العبادة الكسل، وآفة اللب العجب، وآفة الظرف الصلف^(١)، وآفة التجارة الكذب، وآفة السخاء التبذير، وآفة الجمال الخيلاء، وآفة الدين الرياء، وآفة الإسلام الهوى.

وقال رسولُ الله ﷺ: «آفة أمتي الدينار والدرهم». وروينا عن وبرة السلمى عن مجاهد قال: أوصاني ابنُ عباس بخمس، لهنّ أحسنُ من الدرهم الموقوف ومن الذهب الموصوف. قال: لا تتكلمنّ فيما لا يعينك؛ فإنّه أقرب لك من السلامة، ولا آمن عليك الخطأ. ولا تتكلمنّ فيما يعينك حتى ترى له موضعاً، فرُبّ متكلم فيما يعنيه قد وضعه في غير موضعه، فلقى عنتاً. ولا تُمارينّ حليماً ولا سفيهاً، أما الحليم فيقلبك، وأما السفّيه فيؤذيك. واخلف أخاك إذا غاب عنك بمثل ما تحب أن يخلّفك به إذا غبت عنه، واعفه مما تحب أن يعفّيك منه. واعمل بعمل رجل يعلم أنه مكافأ بالإحسان مأخوذ بالإساءة.

وفي وصية العباس لابنه عبد الله قال: يا بني، إنى أرى هذا الرجل يقدمك على الأشياء ويكرمك، فاحفظ عني هذه الخصال: لا تفشينّ له سرّاً، ولا تعصينّ له أمراً، ولا تغتابنّ عنده أحداً، ولا يطلعن منك على خيانة، ولا يُجرّبن عليك كذبة.

(١) الظرف: البراعة وذكاء القلب. الصلف: مجاوزة القدر في البراعة تكبراً.

هذا في روايتين، دخلت إحداهما في الأخرى، قال في إحداهما: قلت للشعبي: كل واحدة منهن خير من ألف. فقال: كل واحدة منهن خير من عشرة آلاف.

وقال يوسف بن أسباط: كان يقال: ثلاث من كنّ فيه فقد استكمل إيمانه: من إذا رضى لم يُخرجه رضاه إلى باطل، وإذا غَضِبَ لم يخرجْه غضبه عن حق، وإذا قَدَرَ لم يأخذ ما ليس له.

وقد رويناه مسنداً من طريق.

وقال سريُّ بن المغلس: ثلاثٌ يستبين بهن اليقين: القيام بالحق في مواطن الهلكة، والتسليم لأمر الله عزّ وجلّ عند نزول البلاء، والرضا بالقضاء عند زوال النعمة. نعوذ بالله منه.

وقد رويناه عن النبي ﷺ: «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ اسْتَكْمَلَ إِيْمَانَهُ: لَا يَخَافُ فِي اللَّهِ لُومَةً لَائِمًا، وَلَا يَرَانِي بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ، وَإِذَا عُرِضَ عَلَيْهِ أَمْرَانِ أَحَدُهُمَا لِلدُّنْيَا وَالْآخَرِ لِلْآخِرَةِ؛ آثَرَ الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا».

وفي الخبر المشهور: «ثلاثٌ منجيات، وثلاثٌ مهلكات. فأما المنجيات: فخشيةُ الله في السر والعلانية، وكلمةُ العَدْلِ في الرضا والغضب، والقصدُ في الغنى والفقر. وأما المهلكات: فشحُّ مطاع، وهوى متَّبِع، وإعجابُ المرء بنفسه».

ورويناه في الخبر: «التَّكْرُمُ التَّقْوَى، وَالشَّرَفُ التَّوَاضُعُ، وَالْغِنَى الْيَقِينُ». وفي الحديث الآخر: «الإيمان عريان؛ ولباسه التقوى، وزينته الحياء، وثمرته العلم».

وفي حديث عمار أسنده إلى رسول الله ﷺ: «كفى بالموت واعظاً، وكفى بالخشيةِ علماً، وكفى باليقين غنى، وكفى بالعبادة شُغلاً».

ورويناه عن رسول الله ﷺ سيد الخطباء، وخطيب الخطباء، وحكيم الحكماء، في خطبة الوداع، كلمات جامعات موجزات، في الوعظ والتذكرة والتزهد والتبصرة، ويتنظم جميع معاني ما قيل في معناها، رواه أبان بن عياش، عن أنس ابن مالك، أن رسول الله ﷺ خطب على ناقته فقال: «يا أيها الناس، كأنّ الموت

فيها على غيرنا كُتِبَ، وكأن الحقَّ فيها على غيرنا وَجَبَ، وكأن مَنْ نُشِيعَ من الأموات سَفَرٌ عَمَّا قَلِيلَ إلينا راجعون، نبوُّهم أجداثهم، ونأكل تراثهم، كأنَّا مَخْلَدُونَ بعدهم، قد نسينا كل واعظة، وأَمْنًا كلَّ جائحة. طوبى لمن شغله عيبُ نفسه عن عيوب الناس، وأنفق من مال اكتسبه من غير معصية، ورحم أهل الذلِّ والمسكنة، وخالط أهلَ الفقه والحكمة. طوبى لمن أذلَّ نفسه، وحَسُنَتْ خليقته، وصَلَحَتْ سريرته، وعزل عن الناس شره. طوبى لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله، ووسعته السُّنة، ولم يَعْذُها إلى بدعة.

وقد روى عنه عليه السلام حديث جامع لهذه المعاني المبثوثة، مختصر في اللفظ والمعنى، يقال إنه نصف العلم، وهو قوله: «من حُسِّنَ إسلام المرءِ تركَهُ ما لا يَعْنِيهِ». وما لم يُؤمر به العبد فرضاً، ولم يُندب إليه فضلاً، ولا يحتاج إليه مباحاً، فهو مما لا يعنيه.

وفي حديث آخر، هو نصف الورع، قوله عليه السلام: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الإثم حوَّاز القلوب» أى: دع ما تَشْكُنُ فيه من قول أو فعل، فإن فيه غنيمة أو سلامة إلى شيء أنت على يقين من الفضيلة فيه أو السلامة معه، وما حَزَّ في قلبك ولم ينشرح له فدعُه، فإن ذلك إثم، وإن قلَّ ودقَّ.

وقد روينا عنه عليه السلام في الوصف المبسوط من أوصاف المؤمنين، كوصف الله تعالى أوليائه في الكلام المشروح، أنه بينا هو جالس عليه السلام بين أصحابه إذ سجد فأطال، ثم رفع رأسه ماداً يديه، فقال: اللهم أكرمنا ولا تُهِنَّا، وزدنا ولا تنقصنا، وأعزنا ولا تذلنا. قلنا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: أنزلت على آيات مَنْ أقامها دخل الجنة، ثم تلا علينا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] إلى آخر العشر.

وروينا عنه عليه السلام في حديث مجمل أن رجلاً سأله، فقال: يا رسول الله، متى أعلم أنني من أهل الجنة؟ - وفي لفظ آخر: أنى مؤمن حقاً - فقال: إذا كنت بهذه الأوصاف، ثم تلا عليه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ * الذين هم في صلاتِهِمْ خاشِعُونَ إلى آخر النعوت.

وروينا عنه عليه السلام في الوصف الجامع المختصر، كوصف الحكيم الأكبر من صلح له من عباده بالإخلاص في التوحيد والعمل، فقال عليه السلام: «لو لم تنزل على إلا هذه الآية كانت تكفى^(١)». ثم قرأ آخر سورة الكهف: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف: ١١٠] إلى آخرها». فكان هذا فصل الخطاب، وبلاغاً لأولى الأبواب.

فالعملُ الصالح بالإخلاص^(٢) في العبادة، ونفى الشرك بالخلق؛ هو اليقين بتوحيد الخالق. وقد قال الله، وهو أحسنُ القائلين، في وصف أوليائه الخائفين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١]. فوصفهم بسبع مقامات جامعات بالغات، تنتظم بمقامات أهل المحاسبة، وتستحوذ على معاني أحوال أهل المراقبة. افتتحها بالخشية والإشفاق، وختمها بالوجل والإنفاق، وجعل موجبها اليقين، وهو الذي رجحت به موازين المتقين، صيره آخر وصفهم ونهاية نعتهم، وهو قوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، أى لأجل يقينهم بمرجعهم إليه خافوه وأشفقوا وآمنوا به، وأخلصوا وأتوه نفوسهم وأموالهم، فهذا كقوله في الكلام المختصر: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، فللخائفين الأمن من الخوف عند اللقاء، وحسن المنقلب والبشرى بالقرب لديه والزلفى.

فصورة المحاسبة: أن يقف العبدُ وقفةً عند ظهورِ الهمة، وابتداءِ الحركة، ثم يميزُ الخاطرَ وهو حركةُ القلب، والاضطرابَ وهو تصرف الجسم. فإن كان ما خطرَ به الخاطرُ من الهمة التي تقتضى نيةً، أو عقداً، أو عزمًا، أو فعلاً، أو سعيًا؛ إن كان لله عزَّ وجلَّ وبه وفيه، أمضاهُ وسارع في تنفيذه^(٣). وإن كان لعاجلٍ دنيا،

(١) في (ك): «لكفتنى».

(٢) في (ط): «الإخلاص» وما أثبتناه من المخطوط أدق وأصح.

(٣) كان ثم اضطراب وتكرار في (ط) قومته من (ك).

أو عارض هوى، أو لهو وغفلة سرى بطبع البشرية ووصف الجبلية، نفاه وسارع في نفيه، ولم يمكن الخاطر من قلبه بالإصغاء إليه، والمحادثة له، فيولّد فيه همّاً رديّاً يصعب عليه بعد حين طرحه، ويتّج منه فكراً دنيّاً يعسر بعد وقت نفيه، ويؤثر ذلك في قلبه أثراً يستبين له بعد حين فعله.

معنى قولنا «إن كان لله تعالى»: أى خالصاً لأجله. ومعنى قولنا «به»: أى بمشاهدة قربه، لا بمقارنة نفسه ووصفه وهواه. ومعنى قولنا «فيه» أى: فى سبيله وطلب ما عنده، لا لأجل عاجل حظه^(١).

فإن اشتبه عليه الخاطر، فلم ينكشف له ما ورد به، أمحمودٌ هو الله عز وجلّ فيه رضاه وعلى العبد فيه سبق وتنفيذ، أم مكروه وليس لله فيه محبة وللعبد فى نفيه مزيد وقربة؟ فيكون إشكال ذلك لأحد معان ثلاث: ضعف يقين عن نقص معرفة بالمبتلى، أو قلة علم عن جهل بغامض الحكم الباطل، أو لغلبة هوى كامن فى النفس متولد من طبائع الحس. وقد قال بعض العلماء: ليس العالم الذى يعرف الخير من الشر، هذا الجاهل يعلمه^(٢)، ولكن العالم من يعرف خير الشرين؛ يعنى يفعله إذا اضطر إليه، وعرف شرّ الخيرين؛ يعنى فاجتنبه لما يؤول إليه.

واعلم أنّ حكم الله فيما اشتبه من الأمور الإمساك والوقوف، وأن لا يُقدم العبد على ذلك بعقد ولا عزم إن كان من أعمال القلوب، ولا يُمضى ذلك بفعل ولا سعى إن كان من عمل الجوارح، بل يقف ويوقف الأمر حتى يتبين له. وهو صورة الورع، لأن الورع هو الجبن والتأخر عن الإقدام على المشكلات، وعن الهجوم على الشبهات^(٣)، لا بقول ولا بفعل ولا بعقد حتى تنكشف، وانكشافها بغامض العلم لغموضها، وتدقيق معرفة المعانى لدقتها وخفائها، كما جاء فى الخبر: «أعلم الناس أعرفهم بالحق إذا اختلف الناس». وعن النبى ﷺ: «إن الله

(١) هذا الشرح تكرر فى المطبوعة فى ثانياً الفقرة السابقة، وليس كذلك فى (ك).

(٢) فى (ط): «هذا العاقل يعرفه» وأثبت ما فى (ك).

(٣) فى (ك): «لأن الورع هو الجبن والتأخر عن الإقدام على الشبهات، وعلى الهجوم على المشكلات». و«على» الثانية من (ك) وهى فى (ط): «فى الشبهات».

عزّ وجلّ يحبّ البصيرَ الناقدَ عند ورود الشبهات، والعقلَ الكاملَ عند هجوم الشّهوات.

وجاء عن ابن مسعود في وصف كثرة الشبهات: أنتم اليوم في زمنٍ خيركم فيه المسارع، وسيأتي عليكم زمان يكون خيركم فيه المثبت^(١).

كما وقف طائفة من الصحابة عن القتال مع أهل العراق وأهل الشام، لما أشكل عليه الحال، منهم: سعد، وابن عمر، وأسامة، ومحمد بن مسلمة، وغيرهم.

فمن لم يتوقف عند الشبهات وأقدم عليها كان متبعاً لهواه، معجباً برأيه، وهذا من معنى الخبر الذي جاء في ذم من كان هذا وصفه: «إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، وإعجاب كل ذي رأيٍ برأيه، فعليك بخاصة نفسك».

فلم يذم بوجود الشح؛ لأنّه صفة النفس، وإنّما ذمّ من أطاع النفس في شحّها، بإمساك محبوبها على إثثار محبة الله عزّ وجلّ من الإنفاق. ومثله: «وهوى متبع»، فلم يعب بوجود الهوى، لأنّه روحُ النفس، مستكن فيها، وإنّما عيب باتباعه. وكذلك قوله: «وإعجاب كل ذي رأيٍ برأيه»، لم ينقصه وجود رأيه ممّا رآه من الأمر، لأنّه نتيجة عقله وثمره فهمه، وإنّما نقصه بنظره إليه وإدلاله به، دون سبق نظره إلى من أراه، وبنور هداه، وبإيثار رأيه على رأي من هو أعلم منه، أو بأن يُزرى على رأي غيره افتخاراً برأيه. وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]. وقد وصف أهل الرأي من أوليائه في قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]. وقال تعالى: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

وجاء في الأثر: «ما رآه المؤمنون حسناً فهو عند الله حسن، وما رآه المؤمنون قبيحاً فهو عند الله قبيح». وجاء: «أنتم شهداء الله في أرضه». وعن بعض السلف: أفضلُ العبادة الرأى الحسن.

فأما ما أشكل، لتجاذب الأمثال، ولم يتبين لك إلى أيّ مثل تردّه، فالورعُ أن

(١) في (ط): «المثبت» وأثبت ما في (ك).

تقف ولا تمضى حتى ينكشف.

وأما ما اشتبه لقصور العلم بالاستدلال، فالعلم فيه أن تعرف الأصلين من الحرام والحلال، ثم ترده إلى أشبههما به، وهذا ظاهر، مثل ما أحلت طائفة النظر إلى الغلام الجميل، لأنه ذكر، فتحتاج إلى أن ترده إلى أحد الأصلين، لأنه مشتبه، قال الله عز وجل: ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقال: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، فكان هذا الأصل أشبه لوجود الجنس.

ومثله الاستماع إلى القصائد، أى إنشاد الشعر المباح، فكان الاستماع إلى القرآن حلالاً، والاستماع إلى الغناء حراماً، وكانت القصائد بالغناء أشبه، فكرهناه لغير أهله.

وكذلك القول فى تلحين القرآن: إذا جاوز الحد فى مد المقصور، وقصر الممدود، مكروه لشبهه بالأغاني. ومثل لبس القطن ولبس الحرير، فكرهنا لبس المُلْحَم^(١) والعمل به؛ لأنه بالحرير أشبه، لما فيه منه.

فأما الإقدام على الأمور الغامضة، مما لم ينكشف للأسماع فلم يظهر للأبصار، فإن القلوب تُسأل عن عُقود سوء الظن بها، والقطع بظاهر الأمر عليها، وهو معنى قول الله عز وجل عن قفو ما لم يبين علمه إذا لم يُجعل من علم العبد وتهده عليه بمساءلة الجوارح عنه، فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أى لا تتبع ولا تجسس أثر ما لم تعلم، فتشهد عليه بسمع أو رؤية أو عقد قلب، إذ حقيقة العلم: السَّمْعُ أو المشاهدة، فلذلك قال: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا﴾ [الإسراء: ٣٦]. وكذلك قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظنّ، فإن الظنّ أكذب الحديث». فمن اشتبه عليه الأمر فقطع به فهو متبع للهوى، ومن تفرّس فى فعلٍ أو أمرٍ غاب عنه حقيقته، فأخبر به وأظهره على صاحبه، فقد أساء كثيراً.

(١) المُلْحَم: جنس من الثياب.

وقد جاء في الخبر: «من حدث بما رأت عيناه، أو سمعت أذناه، كتبه الله عز وجل من الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا». هذا لكشف ستر الله على عباده، ومحبه للساّتين منهم.

ولذلك كان من دعاء أبى بكر الصديق رضى الله عنه: اللهم أرنا الحق حقاً فتبعه، والباطل باطلاً فنجتبه، ولا تجعل ذلك علينا متشابهاً، فنتبع الهوى.

وكذلك رويناه عن عيسى عليه السلام: إنّما الأمور ثلاثة: أمر استبان لك رُشدُه فاتّبعه، وأمر استبان غيّه فاجتنبه، وأمر أشكل عليك فكلّه إلى عالمه.

وقد كان من دعاء على رضى الله عنه: اللهم إني أعوذ بك أن أقول فى العلم بغير علم به.

فنعمة الله سبحانه وتعالى فى كشف الباطل باطلاً وبيان الضلال ضلالاً مثل نعمه فى إظهار الحق، وبيان الصدق؛ لأنه باب من اليقين، ولذلك تجمل الله به على نبيه ﷺ، وجعله من تفصيل آياته، فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]، فنصب «سبيل» على إضمار اسمه، ورفع على كشف دلالاته وتبيان طرقه.

وقد وعد الله ذلك للمتقين، وقدمه على تكفير السيئات والمغفرة، وأخبر أن ذلك من الفضل العظيم، فى قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩] أى: نوراً فى قلوبكم تفرقون به بين الشبهات. ومثله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ أى: من كل أمر أشكل على الناس، ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣] علم بغير تعليم، بل إلهام وتوفيق من لدن الخبير العليم. وقد وعد الله ذلك المؤمنين عند اختلاف العلماء، للبنى بينهم، وهو الكبر والحسد، وحرّم ذلك على المنافقين الذين لا يصدقون بالآيات والقدر الغائبات^(١)، فقال عز وجل فى ذلك: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ

(١) القدر: جمع قُدرة. الغائبات: الغيبة.

فيه إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا
اختلفوا فيه مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ﴿البقرة: ٢١٣﴾، فصنع الهداية للحق أن يكشف الحق إذا
هدى التقى له، ما يبدئ الباطل للابتلاء وما يعيد على العبد من الأحكام.

وقد يكون الباطل اسمًا للعدو، ويكون وصفًا للنفس، ألم تسمع قوله عزّ
وجلّ: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبا: ٤٩] أى: لما جاء الحق
أبدى الباطل وأعاده، فأظهر حقيقة الأمر بدءًا وعودًا. وقد قيل: إن الباطل يعنى
به إبليس ههنا، فتدبروا. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾
[النحل: ١٠٤].

وكما أن الله عزّ وجلّ (ذَكَرَ أَنْ) فى البيان نعمة، لأنه لا يقع إلا بقُدرة، كما
قال: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، فكذلك
على العبد فيه شكر قد يكون سببًا للإنعام بالبيان، وعلى الله المزيد على الشكر،
كما قال: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩]. وقال فى
تحقيق الشكر بالمزيد للشاكرين على التصريف: ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَشْكُرُونَ﴾ [الاعراف: ٥٨].

فإذا تَوَقَّفَ العبد فى الشبهات عن الإمضاء، وأوقف الخاطر على الابتداء، حتى
يكشفه الله عزّ وجلّ له بمزيد علم أو قوة يقين أو كشف حجاب الهوى، فقد وُقِّقَ
للصواب، وهو من معنى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]
وداخل فى قوله: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]. هذا
إذا لم يُرِدْهُ بالطلب، ولم يجعل لعالم آخر فيه مكانًا، كشفه للعبد بوصفه، فإذا
أراد به بالطلب لأوليائه، وجعل للعلماء مكانًا للدلالة عليه، اضطره أن يسأل عالمًا
بالله وبباطن أحكامه، عارفًا بلطيف حجابهِ وخفى كَشَفِهِ، فيكشف له على لسانه
إذا لم يكن العبد ممن يكشف بقلبه، لتحقيق قوله: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، ولتصديق قوله: ﴿الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَيْرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

والله تعالى هو المسير الأول، والمبين الآخر، إلا أن السير والسؤال على العبد، والهدى والبيان على الهادى المبين، كما قال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ [النمل: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ﴾ [يونس: ٩٤] الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٩]، ﴿إِنْ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ [الليل: ١٢]، ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩].

كذلك سنته التى قد خلت من قبل، ولا تبديل لها ولا تحويل. ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]. فهذا هو المجتبى للتعليم، الآخذ نصيبه من الله عز وجل، بتفهم المصطفى لمكان التخصيص. ثم قال: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ ترك آدم، ورد إليه، وذكر نفسه بالعلم منه بعد أن دل بالواسطة عليه، فقال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ﴾ [البقرة: ٣٣] ولم يقل: إن آدم يعلم، فأخذ آدم نصيبه من رازقه بقلبه لمكان رتبته، وأخذت الملائكة أنصبتها من الله عز وجل من نصيب آدم بواسطة، والله هو الرزاق ذو القوة المتين، كما هو الخلاق: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ﴾ [فاطر: ٣]؟

والعبيد يأخذون أنصبتهم بأقسامهم من حيث هى طرق وسبب لهم، وهذا حينئذ أول المحاسبة عن مشاهدة حسيب، والتحقيق بالمحاسبة هو أول المراقبة عن رؤية رقيب، والمقام من المراقبة هو حال من أحوال الموقنين، وعلم اليقين هو آخر علم الإيمان، وآخر نصيب العبد من علم اليقين - أعنى نهايته - أول عين اليقين، وهو شهادة المعرفة. والمعرفة على هذا الوصف أول المشاهدة، وهذا هو مقام المقربين، أعنى بمشاهدة وصف قريب يحيط ببعد النفس فيستولى عليها، فيغيب بعدها فى قُربهِ، وَيَتَبَّهَ عَقْلُهُ تَحْتَ ظَنِّهِ، وتنطوى حكمته فى قدرته، كمحو نور القمر فى ضياء الشمس، والله غالب على أمره.

وعلمُ معانى الأسماء والصفات، وتعريف الأخلاق وباطن أحكام الذات، يكون فى مقامات القرب بمرآة نور الوجه، فيرفع نور حكم المكان، ويشهد كأنه رفع كون المرأة، ويشهد الوجه بنورها، وتغيب المرأة عن كونها، فيكون العبد قائماً

بقهر قيوميته، فيصير العبدُ شبهَ ميتة، مشاهدًا بحیطة قُربه لا بكونه، كما يشهد الوجه بنور المرآة لا بجسمها، ولا يكون هذا إلا بعد معاناة^(١) وصف، وبعد حُسن المراقبة في جميع^(٢) المعاملة، وحسن الأدب في محاضرة الرب، بتنفيذ خواطر الخير، وسرعة نفی خواطر الشر، حتى لا يبقى شيء منها. وهذا حالُ المشاهدة والقُرب، وذلك يُخرج العبدَ إلى صفاء القلب بعلم اليقين، وصفاء القلب يرفعه مقامات في مشاهدة العين حتى لا يَخْطُر بقلبه^(٣) إلا خاطر حق، فإن عصاه عصي الحق. وفي ترك هذا والغض عنه كَدَرُ القلب، وفي كَدَره ظلمته. وذلك مقامات في القسوة، وهي أوّل البُعد.

وبلغني أن ما من فعلة وإن صغرت إلا ويُشر لها ثلاثة دواوين: الديوان الأول: لِم؟ والثاني: كيف؟ والثالث: لمن؟ فمعنى: لِم، أى لِمَ فعلت؟ وهذا موضع الابتلاء عن وصف الربوبية بحكم العبودية، أى: أكان عليك أن تعمل لمولاك أم كان ذلك منك بهواك؟

فإن سَلِمَ من هذا الديوان، بأن كان عليه أن يعمل كما أمر به، سئل عن الديوان الثاني، ف قيل له: كيف فعلتَ هذا؟ وهو مكان المطالبة بالعلم، وهو البلاء الثاني، أى: قد عملته بأن كان عليك عمله، فكيف عملته؛ أبعلم أم بجهل؟ فإن الله تعالى لا يقبل عملاً إلا من طريقه، وطريقه العلم [والإخلاص]^(٤).

فإن سَلِمَ من هذا نُشر عليه الديوان الثالث، ف قيل: لمن؟ وهذا طريق التعبد بالإخلاص لوجه^(٥) الربوبية، وهو البلاء الثالث، وهم بغية الله عزّ وجلّ من خلقه، الذين قال في حقهم: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]، وهذا مقتضى كلمة الإخلاص من نفى ما سواه، وهى لا إله إلا الله. وليس بعده إلا الإشفاق إلى وقت التلاق، أى قد عملته بعلم، فلمن عملته؟ لوجه الله عزّ وجلّ

(١) فى (ك): «بعد مشاهدة».

(٢) فى (ك): «من جميع».

(٣) فى (ك): «فى قلبه».

(٤) ساقطة من (ط).

(٥) فى (ك): «لوجد».

خالصاً فأجرك عليه، أم لشخصٍ مثلك فخذُ أجرك منه، أم عملته لتنال عاجلاً دنياك، فقد وقينا إليك عملك فيها، أم عملته لنفسك بسهوك وغفلتك، فقد سقط أجرك وحبط عملك لذهابك عن القصد وعدم النية في الفعل؟

فجميع ما أردتَ به سواه فقد تعرضتَ للمقتِ واستوجبتَ العقابَ بترك ما عليك، وجَهِلتَ^(١) ما لمولاك، إذ كنتَ عبداً لى وتتولى غيرى، وإذ أنت تأكل رزقى وتعمل لسواى، وإذ كان الدين قد جعلته لنفسى فقصدتَ به من دونى. ويلك، أما سمعتنى أقول: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، ويلك، ما قبلتُ أمرى إذ قلتُ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

ويقول له: ويلك أما سمعتنى أقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧]؟ [فيكون توبيخه بعزائم كلامه وغلظ خطابه أشدَّ عليه وأوجع من أليم عذابه]^(٢).

فهذه أمثال القرآن يشهد بها العلماء أمثالهم، وهى أركانُ الخطاب^(٣) عند تدبره يفهم بها العارفون أذكارهم، وهى توبيخُ الله عزَّ وجلَّ للغافلين، وعزائمُ كلامه^(٤) وغلظُ خطابه أشدُّ عليهم وأوجعُ لهم من أليم عقابه؛ وذلك أن الله تعالى استخلص الدين لنفسه، ولم يُشرك فيه أحداً من خلقه، فقال: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾، يعنى الطريق الموحد غير المشترك، الصافى غير الكدر؛ لأنَّ الإخلاصَ التصفيةُ من أكنادار الهوى والشهوة، وضده الشرك وهو الخلطُ بغيره من النفس والناس، كما أنعم علينا بالرزق الخالص من بين الفرث والدم، فتمت به النعمة، فقال: ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا﴾ [النحل: ٦٦]، فلو وُجد فيه خلط من أحدهما لم تتم به النعمة علينا.

(١) فى (ط): «وجهل».

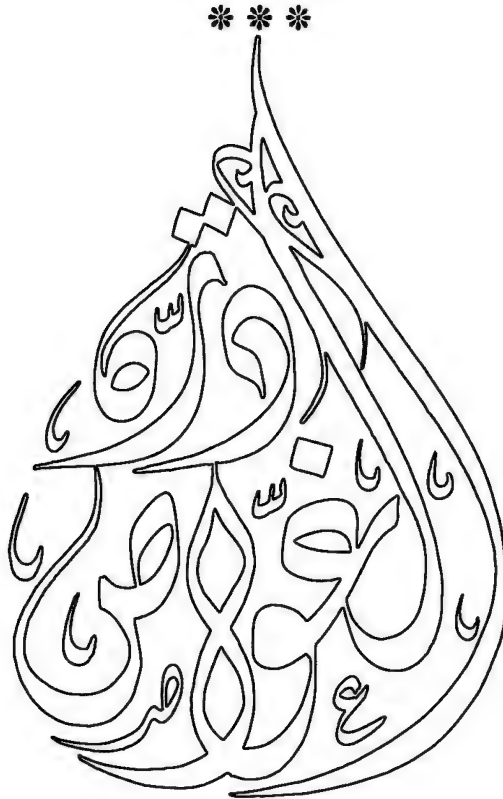
(٢) هذه التكملة من (ك).

(٣) فى (ط): «وهى إذا كان الخطاب» وأثبت ما فى (ك) لأنه أصح وأدق.

(٤) فى (ط): «فيكون توبيخ الله عز وجل للغافلين بعزائم كلامه» وأثبت ما فى (ك)، وفيها شبه مع الجملة فى الفقرة السابقة، لكنها هكذا فى الأصل المخطوط لدى.

فكذلك ينبغي أن يكون عملنا له خالصاً من الهوى والشهوة؛ لنستحق به الأجر والخطوة منه، مع القيام بواجب الحق علينا، فكما أننا لو رأينا في اللبن الذي أنعم به علينا فرناً أو دماً عافته أنفسنا، فلم نأكله، فكذلك الحكيم الخبير إذا رأى في عملنا خلطاً من رياء أو شهوة، رده علينا فلم يقبله، وكما عمل لنا مما عملت يده بقدرته أنعاماً ذللها لنا، منها ركوبنا ومأكلنا، فينبغي أن نشكره، فنعمل له بعد الأكل عملاً صالحاً، كما أمرنا بعد إذ أنعم الله علينا، فقال: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾ [المؤمنون: ٥١].

فمن جهل ما جعل الله لنفسه، وترك ما أمر به من الإخلاص بالدين لوجهه، استوجب المقت لجهله، واستحق العقاب لمخالفته. وفي تدبر ما قلناه الهرب من الخلق، والبكاء على النفس إلى لقاء الحق، لمن أشهد ووقف، وأريد بالحضور فلم يُصرف^(١).



(١) في (ك): «لمن أشهد وراقب، وصلى الله على محمد عبده».

الفصل الرابع والعشرون

فى ذكر ماهية الورد للمريد ووصف حال العارف من المزيد^(١)

اعلم أن الورد اسم لوقت من ليل أو نهار، يرد على العبد مكرراً فيقطعه فى قربة إلى الله، ويورد فيه محبوباً يرد عليه فى الآخرة.

والقربة اسم لأحد معنيين: أمر فرض عليه، أو فضل ندب إليه. فإذا فعل ذلك فى وقت من ليل أو نهار وداوم عليه فهو ورد قدمه يرد عليه غداً إذا قدم.

وأيسر الأوراد صلاة أربع ركعات، أو قراءة سورة من المثانى، أو سعى فى معاونة على بر وتقوى.

قال أنس بن سيرين: كان لمحمد بن سيرين فى كل ليلة سبعة أوراد، فكان إذا فاته منها شىء قضاه بالنهار. فسمى العمل الموظف المؤقت ورداً.

وقال المعتمر بن سليمان: ذهبت ألقن أبى عند الموت، فأوماً إلى يده: دعنى، فإننى فى وردى الرابع. فسمى الحزب من أحزاب القرآن لوقت ما ورداً.

فمن العمال من كان يجعل الأوراد من أجزاء القرآن. ومنهم من كان يجعله من أعداد الركوع. وفوق هؤلاء من العلماء كانوا يجعلون الأوراد من أوقات الليل والنهار، فإن قطع الوقت بآية أو ركعة أو فكرة أو شهادة، فذاك ورده.

وأما العارفون فإنهم لم يوقتوا الأوراد، ولم يقسموا الأوقات، بل جعلوا الورد واحداً لمولاهم، وجعلوا حاجتهم من الدنيا ضرورتهم، وصيروا الوقت متساوياً لسيدهم، وتصريفهم لمصالحهم يدخل عليهم، فوضعوا رقابهم فى رق العبودية، وصفوا أقدامهم فى مصاف الخدمة، فكانوا فى كل وقت بحكم ما يستعملون،

(١) فى (ط): «بالمزيد» وأثبت ما فى (ك). وأيضاً هذا الفصل يختلف فى ترتيب أجزاء وفقرات منه بين المطبوعة والمخطوطة.

وبوصف ما به يُطالَبون، ذلك ورُدُّهم، وتلك علامتهم عن حسن اختيار الله عز وجلّ لهم، وجميل تولّيه إياهم. لا يكلِّهم إلى نفوسهم، ولا يولِّيهم بعضهم؛ وهو يتولّى الصالحين. مشاهدتهم ذكرهم، وقرب الحبيب جهم، ليس يشهدون فضيلة في غير محبوبهم، ولا يرجون قربةً بغير معروفهم؛ به يتقربون إليه، وإليه يسبحون له^(١)، وعليه يتوكلون له، ومنه يخافون عنه، وإياه يحبّون منه. ولو أسقطوا الأعمال كلّها غير ما تعلق بالتوحيد ثبوته ما نقص من توحيدهم ذرة، ولو تركوا أوراذا المريدن كلّهم ما أثر في قلوبهم بقسوة ولا فترة؛ لأنّهم لا يزيدون بالأعمال فينقصون بها، ولا يتفقدون قلوبهم وأحوالهم بالأوراد فيعرفون النقصان والمزيد منها، ولا تجتمع همومهم بسبب، ولا يقوى يقينهم بطلب؛ فيتشتت لفقد سبب، ويضعف يقينهم لعدم طلب^(٢). هذه المعانى هى أحوال المريدن.

وجملة تغيّرهم فى شيئين: ضيقهم بالخالق فهربوا منه، واتساعهم بالخلق فاستراحوا إليه. ولو دام قربهم منه لدامت راحتهم به، ولو وقفت شهادتهم عليه لما نظروا إلى سواه^(٣).

وأما العارفون فقد فرغ لهم من قلوبهم، واجتمعت المتفرقات بجماعها لهم، وأقامهم القائم لهم بشهادتهم له، فلهم بكل شىء مزيد، ومن كل شىء توحيد. كلّ خاطرٍ بهم يردهم إليه، وكلّ منظور إليه يدلُّهم عليه، وكلّ نظرة وحركة طريق لهم إليه. فتوحيدهم فى مزيد، ويقينهم فى تجديد، بغير تغيير ولا تصرّد^(٤)، ولا إيقاف ولا تحديد. ولربّما طلب أحدهم التسبّب بالأسباب، فيجمعه بها ربّ الأرباب؛ لأنه مراد بالاجتماع، وإنما استروح بالشتات لاستجمام ما هو فى قلبه آت، ثقةً منه بحبيبه، وتمكّناً عند محبوبه، إذ قد علم أنه طالب، فطرح نفسه ليحمّله، فحمّله بما تولاه، ولم يكلِّه إلى نفسه وهواه.

(١) فى (ط): «واليه به يسبحون له» وأثبت ما فى (ك).

(٢) فى (ط): «ولا تجتمع قلوبهم بسبب، ولا تقوى نفوسهم بطلب، فتشتت لفقد سبب، ويضعف يقينهم لطلب» وهى مضطربة جداً وخطأ محض، وأثبت ما فى (ك).

(٣) هذه الفقرة ليست بالمخطوط، ومعناها مضطرب.

(٤) تصرّد: تقليل.

فهذه مقامات لأهلها لا يعرفها سواهم، ولا تصلح إلا لهم، ولا تليق إلا بهم، ولا يُقاس عليها، ولا يدعى مكانها، ولا تنتظر فتترك لها الأوراد، ولا تتوقع فيقصر لأجلها في الاجتهاد. والمرادون بها محمولون بها، مواجهون بعلمها، مسلوكون بهم طريقها، مزودون زادها، وهى محبوسة عليهم مقصورة لهم، فهم لها سابقون.

فأولياء الله عابدوه، وقد عكفوا بقلوبهم لمن عبده، ونظروا إلى معبودهم الذى عكفوا عليه، ففهموا عنه فصل الخطاب، بما آتاهم من شهادة حكمه حكم الكتاب، إذ يقول: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧] بعد قوله للغافلين^(١) فوصفهم معرّضاً: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظُرُ لَهَا عَاقِبِينَ﴾ [الشعراء: ٧١]، مع قوله: ﴿أَنْ اْمْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]، وقوله: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

فعلموا أن الإخلاص الذى أمروا به هو العبادة، ولا عبادة إلا بمجانبة الهوى، وبعدها الإنابة إلى المولى، أما سمعت قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ [الزمر: ١٧]، وأيقنوا أن الصلاة عماد الدين، ولا صلاة إلا للمتقين، ولا تقوى إلا بإنابة، كما قال تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ﴾ ثم قال: ﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣١].

فهذه عبادة العارفين على سنة النبيين، فإنابتهم مشاهدتهم لمذكورهم، كقوله فى وصف ضدهم: ﴿كَأَنْتَ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ [الكهف: ١٠١]، فهم عن كشف من ذكره، إذ كانوا بضد وصفهم، وحقيقة ذكرهم نسيانهم لسوى مذكورهم، بمعنى قوله: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤] فأخرجهم الذكر له إلى الفرار إليه كما فهموا عنه، إذ يقول: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢] ففروا إلى الله، فلما هربوا إليه أواهم بقربه، ووهب لهم هداية إلى حبه، ونشر لهم من

(١) من هنا إلى آخر الفقرة غير واضح المعنى، ولعل هناك سقطاً أو تحريفاً.

رحمته، وطواهم فى قبضته، فلم يرهم إلا هم، ولم يعرفهم سواهم، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوُّوْا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الكهف: ١٦]، وقال تعالى: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى سَيِّهْدِىنِ﴾ [الصفات: ٩٩].

• ذكر الأوراد وما يرجى بها من الازدياد:

ولكن بمواصلة الأوراد المرسومة، والأعمال الموقته المعلومه، يستين للمريد النقصان من المريد، ويعرف قوة العزم والشره من وهن العادة والفترة.

وفى الأوراد أيضاً فضيلة وهو أن العامل إذا شغل عنها بمرض أو سفر كتب له الملك مثل ثواب ما كان يعمل فى الصحة. وقد يكون نوم العارف أفضل من صلاة الجاهل؛ لأن هذا النائم سالم، وهو ذلك الزاهد العالم إذا استيقظ وجد. وهذا الصائم القائم لا يؤمن عليه الآفات، وتطرقة الأعداء فى العبادات، وهو ذلك الجاهل المغتر إذا وجد فقد. وقد روينا فى خبر: «نوم العالم عبادة، ونفسه تسبيح». وفى الحديث: «عالم واحد أشد على الشيطان من ألف عابد». وروينا فى خبر مقطوع: «لو وقعت هذه على هذه - يعنى السماء على الأرض - ما ترك العالم علمه لشيء، ولو فتحت الدنيا على عابد ترك عبادة ربه».

ولأن العالم قد يكشف فى نومه بالآيات والعبر، ويكشف له الملكوت الأعلى والأسفل، ويخاطب بالعلوم، ويشاهد القدرة من معنى ما تشهد الأنبياء فى يقظتهم، فيكون نوم العارف يقظة؛ لأن قلبه حياة، ويكون يقظة الغافل نومًا؛ لأن قلبه موات، فيعدل نوم العالم يقظة الجاهل، وتقرب يقظة الجاهل الغافل من نوم العالم.

كيف وقد جاء فى خبر أبى موسى «أن النبى ﷺ نظر إلى أحد فقال: هذا جبل أحد، ولا يعلم خلق ما وزنه، وإن من أمتى من تكون التسيحة منه والتهليلة أوزن عند الله عز وجل منه». وفى حديث ابن مسعود إذ قال لعمر: ما أنكرت أن يكون عمل عبد فى يوم واحد أثقل من فى السموات والأرض؟ ثم وصف ذلك: بأنه هو

العاقل عن الله عزّ وجلّ، الموقن، العالم به.

وقد سُئِلَت عائشة رضى الله عنها عن صلاة رسول الله ﷺ في رمضان، فقالت: «ما كان يخص رمضان بشيءٍ دون غيره، ولا كان يزيد في رمضان على سائر السنة شيئاً».

وقال أنسُ بن مالك: «ما كنتَ تريد أن ترى رسولَ الله ﷺ نائماً من الليل إلا رأيته، ولا تريد أن تراه قائماً إلا رأيته. وكان رسولُ الله ﷺ ينام، ثم يقوم قَدْرَ ما نام، ثم ينام قدر ما قام، ثم يقوم قدر ما نام، ثم ينام، ثم يخرج إلى الصلاة».

وقالت عائشة رضى الله عنها: «ما صام رسولُ الله ﷺ شهراً كاملاً قط إلا رمضان، ولا قام ليلةً إلى الصبح حتى ينام منها». قالت: «وكان يصومُ من الشهر ويُفطر، ويقوم من الليل وينام».

وفى الخبر الآخر: «كان يصوم حتى تقول لا يفطر، ويفطر حتى تقول لا يصوم، وكان يصبح صائماً ثم يفطر، ويصبح مفطراً ثم يصوم».

وفى الخبر الآخر: «كان يدخل من الضّحى، فيقول: هل عندكم من شيء؟ فإن قُدِّمَ إليه شيءٌ أكل، وإلا قال: إني صائم. وخرج يوماً فقال: إني صائم، ثم دخل. فقلنا: يا رسولَ الله، أهدِ لنا حيس^(١). فقال: أما إني كنت أردت الصوم، ولكن قرّبه».

وكان وردهُ ﷺ حكماً ما ورد عليه، فعن هذا المعدن يكون تصريف العارفين، ومن هذا المعنى تكون مشاهدة الموقنين، ليسوا مع الله بإيراد توقيت، ولا يقطع على تحديد، كما قيل لبعضهم: بأى شيء عرفت الله عزّ وجلّ؟ فقال: بفسخ العزائم وحلّ العقود.

ولكنّ الأورادَ طريقُ العمال، والوُظُفُ^(٢) أحوال العباد، منها دخلوا، وفيها

(١) الحيس: تمر يُخلط بِسَمْنٍ وَأَقْط، فيُعجن شديداً، وربما جُعل فيه سويق.

(٢) جمع: «وظيفة»، و«الوظيفة من كل شيء: ما يُقدَّر له في كل يوم من رزقٍ أو طعامٍ أو علفٍ أو شرابٍ» اللسان (وظف)، ورسمها في المخطوط غير واضح، ولعلها تقرأ «الوظيف» أيضاً.

يُرفعون إلى أن يشهدوا الواحد، فتكون الأوراد كلها ورِدًا واحدًا، ويكونون بشهادتهم قائمين.

قال بعضُ العلماء من السلف: الإيمان ثلاثمائة خُلُق وثلاثة عشر [خُلُقًا]^(١)، على أعداد الأنبياء المرسلين، كل مؤمن على خُلُق منها، هو طريقه إلى الله عزّ وجلّ، ووجهته من الله عزّ وجلّ ونصيبه، وفي كل طريقةٍ من المؤمنين طبقةٌ، وبعضهم أعلى مقامًا من بعض.

وقال عالم آخر: الطرقُ إلى الله عزّ وجلّ بعدد المؤمنين. وقال بعض العارفين: الطُّرُق إلى الله بعدد الخليفة. يعنى أن للشهيد بكل خُلُق طريقًا، فقد صارت المكوّنات للمكوّن طرقات.

وروينا فى الخبر: «الإيمانُ ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون طريقةً، من لقى الله عزّ وجلّ بالشهادة على طريقة منها دخل الجنة». ومن هذا قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٤]. فدلّ أنهم كلّهم مهتدون، وبعضهم أهدى من بعض، بمعنى أنّه أقرب إلى الله عزّ وجلّ وأفضل. وقد ندب إلى القُرب فى الأمر بطلبه، وأخبر عن المقربين بالمنافسة فى طلب القُرب، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] يعنى القرب. وقال تعالى فيما أخبر: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فأقربُ الخلق من الله عزّ وجلّ أعلاهم عند الله عزّ وجلّ، وأعلاهم عنده أعرفهم به وأفضلهم لديه.

وروينا فى التفسير: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤]. قال: على وحدانيته؛ يعنى بذلك على توحيده الذى يوحد الله عزّ وجلّ به ويعرفه منه. والشاكلة: الطريقة والخُلُق، قد شاكله، وقد شكل فيه.

ومن ذلك قول على رضى الله عنه: «لكل مؤمنٍ سيدٌ من عمله». فهذا السيد

(١) أثبتناها من (ك)، وقد ضبطها بفتح الحاء فى الموضعين، وفيها أيضًا: «خمسة عشر».

من العمل هو الذى يرجو به المؤمن النجاة، ويفضل به عند مولاه.

وقال بعض العلماء: كان عبَادُ الكوفةِ أربعة: أحدهم: صاحب ليل ولم يكن صاحب نهار. والآخر: صاحب نهار ولم يكن صاحب ليل. وبعضهم: صاحب سر ولم يكن صاحب علانية. والآخر: صاحب علانية ولم يكن صاحب سر.

وقد كان بعضهم يفضل عبادة النهار على عبادة الليل؛ لما فيها من مجاهدة النفس، وكف الجوارح؛ لأنَّ النهارَ مكان حركة الغافلين، وموضع ظهور الجاهلين، فإذا سكن العبد عند حركة الغافلين وموضع ظهور الجاهلين كان هو التقى المجاهد والفاضل العابد.

وقد قيل: إن العبادة ليست الصوم والصلاة حسب، بل أفضل العبادة أداء الفرائض، واجتناب المحارم، وتقوى الله عز وجل عند اكتساب الدرهم، وهذا من أعمال النهار. وقد قال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] رأى ما كسبت جوارحكم، فعلق الاجتراح بالنهار، ثم يبعثكم فيه، فإذا لم يعلم من عبد اجتراحاً بالنهار، ولم يبعثه فيه فى مخالفة، فمن أفضل منه؟

وكان الحسن يقول: أشد الأعمال قيام الليل بالمداومة على ذلك.

ومداومة الأوراد من أخلاق المؤمنين وطرائق العابدين، وهى مزيد الإيمان، وعلامة الإيقان.

وسئلت عائشة رضى الله عنها عن عمل رسول الله ﷺ، فقالت: «كان عمله ديمةً، وكان إذا عمل عملاً أتقنه». وهذا كان سبب ما نُقل عنه ﷺ من صلاته بعد العصر ركعتين أنه كان ترك مرة ركعتي النافلة بعد الظهر، شغله الوفد^(١) عن ذلك، فصلاهما بعد العصر، ثم لم يزل يصليهما بعد العصر كلما دخل منزله. روت ذلك عنه عائشة وأم سلمة^(٢). ولم يكن يصليهما فى المسجد لئلا يستنَّ

(١) الوفد: يعنى وفد بنى عبد القيس، وقيل: وفد من بنى تميم.

(٢) حديث أم سلمة متفق عليه. وراجع آراء الفقهاء فى ذلك فى: نيل الأوطار، للشوكانى، ٢٧/٣.

الناس به .

وفى الخبر المشهور: «اَكْلَفُوا»^(١) من الأعمال ما تطيقون، فإن الله عزّ وجلّ لا يملّ حتى تملّوا». وفى الحديث الآخر: «أحبّ الأعمال إلى الله عزّ وجلّ ما ديم عليه وإن قلّ».

وقد روينا فى خبر: «مَنْ عَوَّدَهُ اللهُ عزّ وجلّ عبادةً، فتركها ملالة مقتته الله تعالى».

وفى خبر عن عائشة رضى الله عنها، وقد أسنده بعض الرواة من طريق: «كل يوم لا أزداد فيه علماً فلا بُورك لى فى صباح ذلك اليوم». وقد جاء فى الخبر كلامٌ، تارةً يُروى عن الحسن بن على، وتارةً يُروى عن الحسن البصرى، ومرة [عن عائشة رضى الله عنها. وبعضهم يحكيه]^(٢) عن رسول الله ﷺ [فى المنام]^(٣): «من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان يومه شراً من أمسه فهو محروم، ومن لم يكن فى مزيد فهو فى النقصان».

وفى لفظ آخر: «من لم يتفقد النقصان من نفسه فهو فى نقصان، ومن كان فى نقصان فالموت خيرٌ له. ولعمري إن المؤمنَ شكورٌ، والشاكر على مزيد».



(١) اكلفوا: هو من كَلَفْتُ بالامر إذا أولعتُ به وأحييتُه.

(٢) ساقطة من (ط)، وأثبتناها من (ك).

(٣) فى (ط) بدلاً منها: «سمع يقول» وأثبت ما فى (ك).

الفصل الخامس والعشرون

فى ذكر تعريف النفس، وتصريف مواجيد العارفين

اعلم أنَّ النقصانَ يبدو من الغفلة، والغفلة تنشأ من آفات النفس، والنفسُ مجبولةٌ على الحركة، وقد أمرت بالسكون وهو ابتلاؤها، لتفتقر إلى مولاها، وتبرأ من حولها وقواها. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] لتفزعوا إليه فتقولوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]. وكما قال: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ ثم قال: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، وقال: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، فأخبر عن وصفه بالعجلة، ثم أمره بتركها للبلوى. فإن نزلت السكينة، وهى مزيد الإيمان، سكنت النفس عن الهوى بإذن مُنفسها. وإن حُجب القلب بالغفلة، وهى علامة على الافتقار والتضرع، تحركت النفس بطبعها، فإن سكنت عن حركتها فبالمنة والفضل، وإن تحركت بوصفها فبالابتلاء والعدل. فأولُ البلاء اختلافها، وأولُ اختلافها خلافها، ومقدمته الهمة، وبابُه السمع، وهو طريق إلى الكلام والنظر، والقول طريق إلى الشهوة، والشهوة مفتاحُ الخطيئة، والخطيئة مقامٌ من النار حتى يزحزح عنها الجبارُ بالتوبة فى الدنيا، والعفو فى العقبى.

وقد تكون المخالفة على المحب العارف أشدَّ من النار، كما حدثت عن بعضهم قال: لأنَّ أبتلى بدخول النار أحبُّ إلىَّ من أن أبتلى بمعصية. قيل: ولم؟ قال: لأنَّ فى المعصية خلافَ ربِّى تعالى وسخطه، وفى النار إظهارَ قدرته وانتقامه لنفسه، قال: فسخطه أعزُّ علىَّ وأعظمُ من تعذيب نفسى.

وكذلك حدثونا فى معناه عن بعض الموقنين من العمال أنه قال: ركعتان تُتقبل

مَنْ أَحَبَّ إِلَىَّ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ. قِيلَ: وَكَيْفَ؟ قَالَ: لَأَنَّ فِي الرُّكْعَتَيْنِ رِضَا رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ وَمَحَبَّةً، وَفِي الْجَنَّةِ رِضَايَ وَشَهْوَتِي. فَرِضَا رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مَحَبَّتِي.

وَقَدْ قَالَ وَهَيْبُ بْنُ الْوَرْدِ الْمَكِّيُّ فِي لَبَنٍ سُئِلَ أَنْ يَشْرِبَهُ، فَلَمْ يَفْعَلْ؛ لِأَنَّهُ سَأَلَ عَنْ أَصْلِهِ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ، فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ: اشْرَبْ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ شَرِبْتَهُ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكَ. فَقَالَ: مَا أَحَبُّ أُنَى شَرِبْتَهُ وَأَنَّ اللَّهَ غَفَرَ لِي. قَالَتْ: وَلِمَ؟ قَالَ: لَا أَحَبُّ أَنْ أُنَالَ مَغْفِرَتَهُ بِمَعْصِيَتِهِ.

فَجُمْلَةُ وَصْفِ النَّفْسِ مَعْنِيَانِ: الطَّيِّشُ وَالشَّرُّ. فَالطَّيِّشُ عَنِ الْجَهْلِ، وَالشَّرُّ عَنِ الْحِرْصِ، وَهُمَا فِطْرَةُ النَّفْسِ. فَمَثَلُهَا فِي الطَّيِّشِ كَمَثَلِ كُرَّةٍ أَوْ جَوْزَةٍ فِي مَكَانٍ أَمْلَسَ، مَصُوبٌ سَكُونُهَا بِالْمُنَّةِ^(١)، فَإِنْ أَشْرَتْ إِلَيْهَا أَوْ حَرَّكْتُهَا أَدْنَى حَرَكَةٍ تَحَرَّكَتْ بِوَصْفِهَا، وَهُوَ خَفَتُهَا وَاسْتَدَارَتْهَا. وَصُورَتُهَا فِي الشَّرِّ الْمُتَوَلِّدَةِ مِنَ الْحِرْصِ أَنَّهَا عَلَى صُورَةِ الْفَرَّاشَةِ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ جَاهِلَةً شَرِيهَةً، تَطْلُبُ بِجَهْلِهَا الضَّوْءَ وَفِيهِ هَلَاكُهَا، فَإِذَا وَصَلَتْ إِلَى شَيْءٍ مِنْهُ لَمْ تَقْتَنِعْ بِسَيْرِهِ لَشَرِّهَا، فَتَحْرِصُ عَلَى الْغَايَةِ مِنْهُ، وَتَطْلُبُ عَيْنَ الضَّوْءِ وَجَمَلَتِهِ، وَهُوَ نَفْسُ الْمَصْبَاحِ، فَتُحْرَقُ، وَلَوْ قَنَعَتْ بِقَلِيلِ الضَّوْءِ عَنْ بُعْدِ سَلَامَتِهِ. فَكَذَلِكَ النَّفْسُ فِي طَيْشِهَا الَّذِي يَتَوَلَّدُ مِنَ الْعَجَلَةِ، وَفِي شَرِّهَا الَّذِي يَنْتُجُ مِنَ الْحِرْصِ وَالطَّمَعِ.

وَالْحِرْصُ وَالطَّمَعُ هُمَا اللَّذَانِ كَانَا سَبَبَ إِخْرَاجِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْجَنَّةِ؛ لِأَنَّهُ طَمَعَ فِي الْخُلُودِ، فَحَرَّصَ عَلَى الْأَكْلِ، وَكَانَ ذَلِكَ عَنِ الْجَهْلِ، فَكَانَتْ مَعْصِيَتُهُ سَبَبَ عِمَارَةِ الدُّنْيَا، وَصَارَتِ الطَّاعَاتُ^(٢) سَبَبَ عِمَارَةِ الْآخِرَةِ. فَلِذَلِكَ قِيلَ: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ». فَصَارَ الزُّهْدُ أَصْلَ كُلِّ طَاعَةٍ. فَانْظُرْ كَيْفَ أُخْرِجَ مِنَ الْجَنَّةِ بَعْدَ أَنْ جُعِلَ فِيهَا بِذَنْبٍ وَاحِدٍ، وَأَنْتَ تَرِيدُ أَنْ تَدْخُلَهَا وَلَمْ تَمْلِكِ النَّظَرَ إِلَيْهَا بِذُنُوبٍ كَثِيرَةٍ!!

(١) الْمُنَّةُ: الْقُوَّةُ.

(٢) فِي (ط): «فَصَارَتِ الطَّاعَةُ» وَاثْبَتَ مَا فِي (ك).

وفى الحديث الآخر: «الإيمان عريان، فلباسه التقوى، وزينته الحياء، وثمرته العلم». ومن ثم قيل: إن الجنة طيبة لا يسكنها إلا الطيب، فمتى طابوا لها دخلوها. ألم تسمع إلى وفاقه بين ذلك فى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [النحل: ٣٢]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] لأنه قال: ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ [التوبة: ٧٢] والذنوب خبائث، كما قال تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فلما طابوا لها طابت لهم، وقد أجمل ذلك بقوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾، وبقوله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النور: ٢٦].

وقد مثل بعضهم النفس فى شرها بمثل ذباب مرّ على رغيْفٍ عليه عسل، فوقع فيه يطلب الكلية، فعلق بجناحه فقتله. وآخر مرّ به، فدنا من بعضه، فنال حاجته، فرجع إلى ورائه سالماً.

وقد مثل بعض الحكماء ابن آدم مثل دود القزّ: لا يزال ينسج على نفسه لجهله، حتى لا يكون له مخلص، فيقتل نفسه، ويصير القزّ لغيره، وربما قتلوه إذا فرغ من نسجه؛ لأنّ القزّ يلتف عليه، فيروم الخروج منه، فيشتمس، وربما غمزوه بالأيدى حتى يموت، لئلا يقطع القز، وليخرج القز صحيحاً. فهذه صورة المكتسب الجاهل، الذى أهلكه أهله وماله، فتنعم ورثته بما شقى به، فإن أطاعوا به كان أجره لهم وحسابه عليه، وإن عصوا به كان شريكهم فى المعصية؛ لأنه أكسبهم إياها به، فلا يدرى أىّ الحسرتين عليه أعظم، أذهابه عمره لغيره، أو نظره إلى ماله فى ميزان غيره؟

ومما سمعت فى علم شره النفس ما حدثنى بعض إخوانى عن بعض هذه الطائفة، قال: قدّم علينا بعض الفقراء، فاشترينا من جارٍ لنا جملاً مشوياً، ودعونا عليه فى جماعة من أصحابنا، فلما مدّ يده ليأكل، وأخذ لقمة وجعلها فى فيه لفظها، ثم اعتزل وقال: كلوا أنتم، فإنه قد عرّض لى عارض منعى من الأكل. فقلنا: لا نأكل إن لم تأكل معنا. فقال: أنتم أعلم، أما أنا فغير أكلي، ثم

انصرف. قال: فكرهنا أن نأكل دونه، فقلنا: لو دعونا الشواء فسألناه عن أصل هذا الجمل، فلعل له سبباً مكروهاً، فدعونا، فلم نزل به نسأل عنه، حتى أقرّ أنّه كان ميتة، وأن نفسه شرهت إلى بيعه حرصاً على ثمنه، فشواه، فوافق أنكم اشتريتموه. قال: فمزقناه للكلاب. قال: ثم إنني لقيت الرجل بعد وقت، فسألته: لأي معنى تركت أكله، وبأي عارض؟ فقال: أخبرك: ما شرهت نفسي إلى طعام منذ عشرين سنة بالرياضة التي رُضتْها به، فلما قدّمتم إليّ هذا شرهت نفسي إليه شرهاً ما عهدته قبل ذلك، فعلمت أن في ذلك الطعام علة، فترك أكله لأجل شره النفس إليه.

فانظر رحمك الله، كيف اتفقا في شره النفس عن قصد واحد، ثم اختلفا في التوفيق والخذلان، فعصم العالم بالورع والمحاسبة، وترك الجاهل مع شره النفس بالحرص وتركه المراقبة، أعنى البائع للجمل. ثم عصم الآخرون للتوفيق بحسن الأدب، وهو قمع شره النفس عن الأكل بعد صاحبهم، ثم تدارك البائع بعد وقوعه، لصدق المشتري وحسن نيته.

وجبلات النفس الأربعة هي أصول ما تفرّع من هواها، وهي مقتضى ما فطرها عليه مولاها؛ أولها: الضعف؛ وهو مقتضى فطرة التراب. ثم البخل؛ وهو مقتضى جبلّة الطين. ثم الشهوة؛ وموجبها الحمايم. [ثم] الجهل؛ وهو ما اقتضاه موجب الصلصال. وهذه الصفات على معاني تلك الجبلات للابتلاء بالأمشاج، ففيه بدء الأمت والاعوجاج، ذلك تقدير العزيز العليم.

ثم إن النفس مبتلاة بأوصاف أربعة متفاوتة: أولها: معاني صفات الربوبية، نحو: الكبر، والجبرية، وحب المدح، والعز، والغنى. ومبتلاة بأخلاق الشياطين، مثل: الخداع، والحيلة، والحسد، والظنة. ومبتلاة بطباع إليها ثم وهو: حب الأكل، والشرب، والنكاح. وهي مع ذلك كله مطالبة بأوصاف العبودية، مثل: الخوف، والتواضع، والذل، بمعنى ما قلناه. قيل: إنها خلقت متحركة وأمرت بالسكوت، وأتى لها بذلك إن لم يتداركها المالك؟ وكيف تسكن بالأمر إن لم يسكنها محرّكها بالخير؟

فلا يكون العبدُ عبداً مخلصاً حتى يكون للمعاني الثلاث مخلصاً، فإذا تحقق بأوصاف العبودية كان خالصاً من المعاني التي هي بلاؤه من صفات الربوبية. فإخلاصُ العبودية للوحدانية عند العلماء الموحدين أشدُّ من الإخلاص في المعاملة عند العاملين. وبذلك رُفِعوا إلى مقامات القرب، وذلك أنه لا يكون عندهم عبداً حتى يكون مما سوى الله عزَّ وجلَّ حراً، فكيف يكون عبد رب وهو عبد عبد؟ لأنَّ ما قاده إليه فهو إلهه، وما ترتب عليه فهو ربه. وهذا شِرْكٌ في الإلهية عند المتألهين، ومرَجٌّ بالربوبية عند الربانيين، فهو متعوسٌ منكوسٌ بدُعاء الرسول ﷺ إذ يقول: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهَمِ، تَعَسَّ عَبْدُ الزَّوْجَةِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْحُلَّةِ». فهؤلاء عبيدُ العدد الذين قال مولاهم: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٤] أصحابُ النفوس الأمارة بالسوء، المسوَّلة، الموافقة للهوى، المخالفة للمولى، ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] إلى آخر وصفهم، أولو النفس المرحومة المطمئنة المرضية، هم عباد الرحمن أهل العلم والحكمة، علَّمهم من لدنه، واختارهم لنفسه.

ولا يكون المريدُ بدلاً حتى يُبدلَ بمعاني صفات الربوبية صفات العبودية، وبأخلاق الشياطين أوصاف المؤمنين، وبطباع البهائم أوصاف الروحانيين من الأذكار والعلوم. فعندها كان بدلاً مقرباً. والطريق إلى هذا بأن يملك نفسه فيملكها، وتُسخر له فيسلطَ عليها.

فإن أردتَ أن تملك نفسك فلا تملكها، وضيق عليها ولا توسَّع لها. فإن ملكتها ملكتك، وإن لم تضيق عليها اتسعت عليك. فإن أردت الظفر بها فلا تعرضها لهواها، واحتبسها عن معتاد بلاها، فإن لم تُمسكها انطلقت بك، وإن أردت أن تقوى عليها فأضعفها بقطع أسباب هواها وحبس مواد شهواتها، وإلا قويت عليك فصرتك. فأولُ الملكة لها أن تحاسبها في كل ساعة، وتراقب حِسبتها في كل وقت، وتقف عند كل همة من خواطرها. فإن كانت الهمة لله عزَّ وجلَّ سابقت الموت وبادرت الفوت في إمضائها. وإن كانت الهمة لغير الله تعالى

سابت وبادرت فى محوها؛ لثلا تثبت، وعملت فى الاستبدال بها كىلا تستبدل بك.

وفى تأويل الخبر المروى: «البرُّ يزيدُ فى العمر». وهو معنى الدعاء المشهور من قول الناس: جعل الله فى عمرك البركة، وقد بُورك له فى عمره، فإن البركة فى العمر أن تدرك فى عمرك القصير بيقظتك ما فات غيرك فى عمره الطويل بغفلته، فيرتفع لك فى سنةٍ ما لا يرتفع له فى عشرين سنة.

ولللخصوص من المقربين فى مقامات القرب عند التجلى بصفات الرب إلحاقٌ برفيع الدرجات، وتداركُ ما فات عند أذكاهم وأعمال قلوبهم اليسيرة فى هذه الأوقات. فكل ذرةٍ من ذكرٍ، أو تسبيحٍ، أو تهليلٍ، أو حمدٍ، أو تدبّرٍ وتبصرةٍ، وتفكرٍ وتذكرةٍ بمشاهدةٍ قربٍ، ووحدٍ بربٍ، ونظرةٍ إلى حبيبٍ، ودنوٍ إلى قريبٍ، أفضلٌ من أمثال الجبال من أعمال الغافلين، الذين هم بنفوسهم واجدون، وللخلق مشاهدون^(١). مثّل العارفين فيما ذكرته من قيامهم بمشاهدتهم، ورعايتهم لأمانتهم، وعهدهم فى وقت قربهم وحضورهم، مثّل العامل فى ليلة القدر، العمل فيها لمن وافقها خيرٌ من ألف شهر. وقد قال بعض العلماء: كلُّ ليلةٍ للعارف بمنزلة ليلة القدر. وروينا عن على رضى الله عنه أنه قال: كل يوم لا يعصى الله عزّ وجلّ فيه فهو لنا عيد.

وكان الحسن إذا تلا قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فى الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] قال: يا إخوانى، هى والله أيامكم هذه، فاقطعوها بالجد والاجتهاد ولا تضيّعوها.

فخلّوها فراغها^(٢) من حسن المعاملة، وبطالتك فيها عن الشغل لمعادك المحصول عليه^(٣) منها. كما قال المبطلون: ﴿يا حسرتنا على ما فرطنا فيها﴾ [الانعام: ٣١] يعنى فى الأيام الخالية، التى هى محصولهم ومرجعهم ومثواهم. وكما قالت النفسُ

(١) العبارة فى (ك) اختلفت مع الاختصار لبعض الكلام.

(٢) فى (ط): «فراغاً» وهو تحريف، وأثبت ما فى (ك). وقوله «فخلّوها»: يقصد الأيام الخالية.

(٣) فى (ط): «بمعادك المحصول عليك» وأثبت ما فى (ك).

الأمارة بالسوء: ﴿يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] يعنى أيام الدنيا التى ضيّعت العمر فيها، فخلت من الثواب والجزاء غداً، وهذا أحد الوجهين فى قوله: ﴿الْأَيَّامُ الْخَالِيَةَ﴾.

والوجه الآخر: الخالية، أى الماضية، خلت أوقاتها، وخلدت أحكامها، وذهبت شهواتها، وبقيت عقوباتها.

فإن قصرت عن هذه المحاسبة للحسب، ولم يكن لك مقام المراقبة للرقب، ولا مكان المحاسبة للحبيب، فلا يفوتك مقام الورعين، ولا تبين عن حال التائبين؛ وهو أن تجعل لك وردين فى اليوم والليلة، لمحاسبة النفس وموافقتها؛ مرة بعد صلاة الضحى، لما مضى من ليلتك وما سلف من غفلتك، فإن رأيت نعمة شكرت الله، وإن رأيت بليّة استغفرت. فإن وجدت فى حالك أوصاف المؤمنين التى وصفهم الله عزّ وجلّ ومدحهم عليها، رجوت وطمعت واستبشرت، وإن وجدت من قلبك وحالك وصفاً من أوصاف المنافقين أو خلقاً من أخلاق الجاهلين التى ذمهم الله عزّ وجلّ بها ومقتهم عليها، حزنت وأشفقت وتبت من ذلك واستغفرت.

والمرة الثانية: أن تحاسب نفسك بعد الوتر وقبل النوم، لما مضى من يومك، من طول غفلتك، وسوء معاملتك، وما فعلته من أعمالك، كيف فعلتها ولمن فعلتها، وما تركته من سكوتك وصمتك لم تركته ولمن تركته، فتتعدّد الزيادة والنقصان، وتعرف بذلك التكلف والإخلاص من حركتك وسكونك. فما تحركت فيه وسكنت لأجل الله عزّ وجلّ به فهو الإخلاص، ثوابك فيه على الله عزّ وجلّ عند مرجعك إليه، فاعمل فى الشكر على نعمة التوفيق وحسن العصمة من التهلكة. وما سكنت فيه أو تحركت لهواك وعاجل دنياك، فهو التكلف، الذى أخبر رسول الله ﷺ أنه هو والأتقياء من أمتة برآء من التكلف. وقد استوجبت فيه العقاب عند نشر الحساب، إلا أن يغفر المولى الكريم الوهاب. فاعمل حينئذ فى الاستغفار بعد حسن التوبة وجميل الاعتذار، وخف أن يكون قد وكلّك إلى نفسك فتهلك.

فلعل مشاهدة هذين المعنيين؛ من خوف ما سلف منك، والطمع فى قبول ما

أسلفت، يمنعك من المنام، ويطرد عنك الغفلة، فتحى ليلتك بالقيام، فتكون ممن وصف الله عز وجل في قوله: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

وقد قال بعض السلف: كان أحدهم يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك لشريكه.

وقد قال بعض العلماء: من علامة المقت أن يكون العبد ذاكراً لعيوب غيره، ناسياً لعيوب نفسه، ماقئاً للناس على الظن، محباً لنفسه على اليقين. وترك محاسبة النفس ومراقبة الرقيب من طول الغفلة عن الله عز وجل. والغافلون في الدنيا هم الخاسرون في العقبى؛ لأن العاقبة للمتقين، قال الله عز وجل: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [النحل: ١٠٨ - ١٠٩].

وطول الغفلة من العبد عن طبائع القلب من المعبود، والغفلة في الظاهر غلاف القلب في الباطن. تقول العرب: غفله وغلفه؛ بمعنى، كما تقول: جذب وجبذ، وخشاف وخفّاش.

وطبائع القلب عن ترادف الذنب بعضه فوق بعض، وهو الران الذي يتعقب الكسب، فيكون عقوبة له، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]. قيل: المكاسب الخبيثة وأكل الحرام. وفي التفسير: هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب. وأصل الرين: الميل والغلبة، وهو التغطية أيضاً. يقال: ران عليه النعاس: إذا غلبه. ورانت الخمر على عقله: أى غطته. ومن هذا قول عمر رضى الله عنه فى سابق الحاج: فادان معرضاً، فأصبح وقد رين به. أى: مال به الدين فغلبه.

وأصل ترادف الذنوب من إغفال المراقبة، وإهمال المحاسبة، وتأخير التوبة، والتسويق بالاستقامة، وترك الاستغفار والندم. وأصل ذلك كله هو حب الدنيا، وإيثارها على أمر الله عز وجل، وغلبة الهوى على القلب. ألم تسمع إلى قوله عز

وجلّ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [النحل: ١٠٧-١٠٨]. وقال في دليل الخطاب: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ [التازعات: ٤٠] يعنى: عن إثارة الدنيا؛ لأن صريح الكلام وقع فى وصفهم بالطغيان وإثارة الحياة الدنيا، ثم قال: ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦]، فاتّباع الهوى عن طبائع القلب، وطبائع القلب عن عقوبة الذنب، وميراث العقاب الصّمّ عن فهم الخطاب. أمّا سمعته يقول: ﴿لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

وقد جعل علىّ رضى الله عنه الغفلة مقامًا من مقامات الكفر، فقال فى حديثه الطويل: فقام إليه سلمان فقال: أخبرنا عن الكفر على ما بنى؟ فقال: على أربع مقامات: على الشكّ، والجفاء، والغفلة، والعمى. فإذا كثرت غفلة القلب قلّ إلهام الملك للعبد، وهو سمع القلب، لأن طول الغفلة يَصِمُّه عن السّمع، وعدم سمع الكلام من الملك عقوبة الخطايا، وتثبيت الملك للعبد على الخير والطاعة وحى من الله عزّ وجلّ إليهم وتفضيل للعبد. أمّا سمعت قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِذْ يُوحى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنى مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

وفى الخبر: «إن آدم عليه السلام حُجب عن سمع كلام الملائكة، فاستوحش بذلك، فقال: يا رب ما لى لا أسمع كلام الملائكة؟ فقال: خطيئتك يا آدم».

فإذا لم يسمع العبد كلام الملائكة لم يفهم كلام الملك، وإذا لم يسمع الكلام لم يستجب للمتكلّم، ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦].

وقال الحسن: إنّ بين العبد وبين الله عزّ وجلّ حدًّا محدودًا من الذنوب، فإذا بلغه العبد طبع على قلبه، فلم يوفّقه للخير أبدًا.

فبادر أيها المجاوز للحدود بالتوبة والرجوع، قبل أن تبلغ الحد فتلقّى غيًّا وجهدًا.

وفى حديث ابن عمر: «الطابع معلق بقائم عرش الرحمن، فإذا انتهكت المحارم بعث الله عز وجل بالطابع على القلوب، فأعماها». وهذا هو القفل الذي قال الله عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

واعلم أن القسوة التي يهدد الله عز وجل عليها بالويل المتولدة من طول الغفلة فى قوله عز وجل: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]. وقد قرنها الله عز وجل بالنفاق، وأخبر أنه يجعل إلقاء الشيطان فتنة لأهل النفاق والقسوة. فإلقاء الشيطان يكثر عند قلة إلهام الملك، كما ذكرنا آنفاً، ينتظم ذلك قوله عز وجل: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [الحج: ٥٣] أى: وللقاسية قلوبهم أيضاً.

والقسوة ثمرة البعد، والبعد عقوبة الخيانة، والله لا يحب الخائنين، فذلك من تدبر الخطاب من قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ أى: فبنقضهم الميثاق، و «ما» صلة فى الكلام، فهذا هو الخيانة؛ ﴿لَعَنَاهُمْ﴾ أى أبعدناهم ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣] بترادف الذنوب بعد القسوة من الكذب والنسيان، وكثرة الاطلاع على الخيانة منهم والبهتان، فأصيبوا بالذنوب، فوقع الطابع على القلوب، فصُمَّتْ عن سمع كلام المحبوب، كما قال: ﴿أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٠٠]. فجلاء هذا الطابع التقوى، فهو مفتاح السمع، كما قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمِعُوا﴾ [المائدة: ١٠٨].

والله تعالى الموفق.



الفصل السادس والعشرون

فيه كتاب ذكر مشاهدة أهل المراقبة^(١)

اعلم أن مشاهدة المراقبين هي أول مراقبة المشاهدين، وذلك أن مَنْ كان مقامه المراقبة كان حاله المحاسبة، وَمَنْ كان مقامه المشاهدة كان وصفه المراقبة.

فأول شهادة المراقب هو أن يعلم يقيناً أن لا يخلو في كل وقت وإن قصر من أحد ثلاثة معان:

[المعنى الأول:] أن يكون لله عزّ وجلّ عليه فرض. والفرض على ضريين: شيء أمر بفعله، أو شيء أمر بتركه، وهو اجتناب المنهى.

والمعنى الثانى: ندبٌ حثّ عليه، وهو المسابقة بخير يقربه إلى الله عزّ وجلّ، والمسارعة بعمل برّ يبتدره قبل قوته.

والمعنى الثالث: شيء مباح، فيه صلاح جسمه وقلبه.

وليس للمؤمن وقت رابع، فإن أحدث وقتاً رابعاً فقد تعدّى حدود الله، ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١]، وقد أحدث فى دين الله سبحانه وتعالى، ومن أحدث فى دين الله فقد سلك غير طريق المتقين. ألم تسمع إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢] فهل ترى بين هذين وقتاً يجهل أو هوى، كما لا ترى بين الليل والنهار وقتاً ثالثاً؟ فالذكر: الإيمان والعلم؛ فهذان ينتظمان جلّ أعمال القلوب. والشكر: العمل بأخلاق الإيمان وأحكام العلوم، وهذان يشتملان على جميع أعمال الجوارح. قال الله عزّ وجلّ: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبا: ١٣].

(١) انظر: الإحياء ٣٩٣/٤، كتاب المراقبة والمحاسبة. ومدارج السالكين، لابن قيم الجوزية، ٦٩/٢.

وقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]. وقال: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥١ - ١٥٢]. وقال الله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]. وقال رسول الله ﷺ، وقد عوتب في طول قيامه حتى تورمت قدماه، فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟» ففسر الشكر بالعمل، كما فسر الله عز وجلّ العمل بالشكر.

والوقت الثالث الذي هو المباح داخل فيهما؛ لأنه مُعِينٌ عليهما، وبه استقامة العبد فيهما. وقد كان بعض العلماء يقول: لنا في معاصي الطاعات همٌّ وشغلٌ عن معاصي المخالفات.

فيتبدئ العبد المراقب فينظر بيقظته في أدنى وقتٍ هل لله عزّ وجلّ فيه فرض من أمر أو نهى؟ فيبدأ بذلك حتى يفرغ منه. فإن لم يجد فإنه لا يخلو من نوادر وفضائل، فيتبدئ بالأفضل. فإن لم يكن عمل في أدنى الفضيلتين فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن يومه لأمره، ومن ساعته ليوميه، ومن دنياه لآخرته، كما أمره مولاه في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧] أي: لا تترك أن تأخذ نصيبك من الدنيا، ولا تترك أن تأخذ نصيبك للآخرة من دنياك؛ وهو أن تحسن كما أحسن الله إليك، ولا تطلب الفساد في الدنيا، فتكون قد نسيت نصيبك من الآخرة، فيتركك الله من جزيل ثوابه الذي أعد لأحبابه، كما قال: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، أي تركوه فتركهم. وتركهم له تركٌ نصيبهم منه، وتركه عزّ وجلّ لهم ترك محابهم من الآخرة.

فيتبدئ العبد الفطن، فيأخذ من عمره ووقته فيجعله لآخرته التي أيقن بها، ثم يأخذ من وقته أعلى ما فيه مما يختص به الوقت، ولا يوجد إلا فيه، ويفوت دركه بفوت وقته، وهو أفضل ما يقدر عليه مما أداه علمه إليه، فيجعله لمولاه.

ثم إن العبد لا يخلو في كل وقت وإن قلّ من أحد مقامين: مقام نعمة، أو مقام بلية. فحاله عن مقام النعمة الشكر، وحاله عن مقام البلية الصبر. ثم ليس

يفقد أحد مشاهديتين: شهودِ نعمة، أو شهودِ منعم. من حيث لا يخلو من وجود مالك وحضور مملوك. فعليه الخدمة للموجود، وعليه الحضور في خدمة المعبود. والمراقبة علامة الحضور، والمحاسبة دليل المراقبة.

ويكون له أيضاً في أدنى أوقاته، وهو الوقت الثالث الذي هو لمباحه، وهو أدنى أحوال المؤمن، يكون له فيه مشاهدة منعم، أو شهود نعمة، لئلا يذهب وقته هذا أيضاً فارغاً من دنياه، ولا يعود عليه شيء من ذكر مولاه، أو يذكر نعمة تدله على منعم أو تخرجه إليه، فينفعه ذلك في عقباه، إذ العاقبة للمتقين.

فإن شهد منعمًا اقتطعه الحياء بالسكينة والوقار للهيبة، وهذا مخصوص بخصوص. وإن شهد نعمة استغرقه بالشكر والاعتبار، فكان لديه تبصرة وتذكار؛ وهذا لعموم الخصوص، قال الله عز وجل في وصف الأولين: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ * ففروا إلى الله ﴿[الذاريات: ٤٩ - ٥٠]. وقال في المقام الثاني: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الذاريات: ٥١]. وقال في مقام الأولين: ﴿قُلْ مَنْ يَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]. وقال في وصف الآخرين: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٥].

وقد روينا في الأثر من صفات العاقل وحال المراقب وحشو الأوقات بما ينبغي أن تملأ به جمل ما ذكرناه من حديث أبي ذر الطويل: «ولا يكون المؤمن طاعناً إلا في ثلاث: تزود لمعاد، أو مرمة لمعاش، أو لذة في غير محرم». وبمعناه: وعلى العاقل أن يكون له أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه عز وجل، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفكر في صنع الله عز وجل، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب؛ فإن في هذه الساعة عوناً له على الساعات. وفيه أيضاً ثلاث مجملات من صفة العاقل، ومن علامة العاقل: أن يكون مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه، عارفاً بزمانه. وفي بعضها: مكرماً لإخوانه.

فأما وقت المباح من الأوقات فالنوائب والحاجات تطرقه به، والفاقات تدخله

عليه ، فلا يتكلّفه قبل وقته ، فيشغله عن وقته .

ثم إنّ العبادَ في مشاهدة المُلكِ على أربع مقامات : كلّ عبد يشهد الملك من مقامه بعين حاله .

فمنهم من ينظر إلى المُلكِ بعين التبصرة والعبرة ، فهؤلاء أولو الألباب ، الذين كشف عن قلوبهم الحجاب ، وهم أولو الأيدي والأبصار ، الذين أقامهم مقام الاعتبار ، وهذا مقام العلماء الذين هم ورثة الأنبياء .

ومنهم من ينظر إلى المُلكِ وأهله بعين الرحمة والحكمة ، وهذا مقام الخائفين .

ومنهم من ينظر إلى المُلكِ وأهله بعين المقت والبغضة ، وهذا مقام الزاهدين .

ومنهم من ينظر إلى المُلكِ بعين الشهوة والغبطة ، وهذا مقام الهالكين ، وهم أبناء الدنيا الذين لها يسعون ، وعلى فوتها يتحسرون .

فإن أُعطِيَ العبد النظر إلى المُلكِ بعين العبرة والحكمة أدخله المُلكُ على المُلكِ ، فاستغنى به عما سواه . وإن أُعطِيَ الخائف النظر إلى المُلكِ بعين الرحمة اغتبط بمقامه ، وعظمت لربه تعالى عليه النعمة . وإن أُعطِيَ الزاهد النظر إلى المُلكِ بعين البغضة أخرجته المُلكُ عن المُلكِ بالزهد فيه ، فعوضه من فوت المُلكِ الصغير درك المُلكِ الكبير . ومن ابتلى بالنظر إلى المُلكِ بعين الغبطة والحسرة أوقعه المُلكُ في الهلكة ، فسلك طريق المهالك .

ومن شاهد معنى خُلِقَ من أخلاق الذوات ، أو معنى وصف من الصفات ، كان مقتضاه ما يوجب الخلق أو الوصف من شهود نعيم أو عذاب ، وهو مقام له في التعريف يرفعه إلى مقام التعرف . وهذه شهادة العارفين من كل ما شهدوه من الأفعال التي تدل على معاني الأخلاق والأوصاف ؛ لأنّه أظهرها عنه ، ليُسْتَدلّ عليه بها ، ويُنظرَ إليه منها .

فأما من شهد شهوةً من شهوات النفس بعين الهوى أخرجته إلى الأهواء ، فتخطفه الشياطين ، وهوت به الريحُ في مكان سحيق ، وتنكبّ طريق المسالك إلى المولى ، التي تخرجه إلى القريب ، وتقعده عند الحبيب في مقعد صدق عند مليك مُقتدر .

فمن فاته القربُ وقع في التيه والبُعد، فهو اليائس المغبون، الخائن المفتون، الذي يكون أبداً يومه شراً من أمسه، وغده شراً من يومه. فالموت خيرٌ له من حياته؛ لأن حياته عن الحبيب تبعده، وبقائه عن السبيل يصدّه، ووجده لهواه يفقده، وظهور نفسه عليه من السّوابق يُقعده؛ لأنه إذا كان في إدبار، وكان إدباره في إقبال، فقد فاته عمره عن آخره، كفوت وقت واحد، وفوت شيء واحد؛ لأن العمر ليس مما يتأتى فوته دفعة واحدة كشيء واحد، لأنه ينشأ وقتاً بعد وقت، وإنما يفوت جزءاً جزءاً على حكمة من الله عزّ وجلّ، وتمهل واستدراج منه، وقتاً بعد وقت، ويوماً بعد يوم، يستدرجه في ذلك كما يصعد الدّارج في الدّرج مرقة مرقة. كذلك يشغله في وقت عنه، ويفرّغه وقتاً آخر لغيره، ويذكره في وقت سواه، وينسيه وقتاً آخر إياه، فشغله حينئذ كفراغه، وذكره يومئذ كنسيانه. وعلى هذا سائر أوقاته، تارةً يقطعه عنه، وتارةً يصله بغيره، حتى تفتنى الأيام بالفوت، وتنقضى الأوقات إلى الموت. وفي ذلك يُسبل عليه الستر ليغترّ، ويسبغ عليه النعم كيلا يعلم، ويديم له العوافي لئلا يفطن، ويبسط له الأمل ليزداد من سوء العمل، ويقبض عنه الأجل ليقبض منه الوجّل، وينشر له الرجاء، ويطوى عنه الخوف، حتى ييغتهم فجأة من حيث أمّتهم، ويأخذهم بغتة في حال غمّرتهم، كما قال: ﴿وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠].

ومن معنى ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: لما تركوا ما وعظوا به وخوفوا أسبغنا عليهم النعم، وأنسيناهم الشكر، فترادفت منهم الذنوب، وأنسيناهم الاستغفار، ثم قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ أي: سكنوا إلى ذلك واطمأنوا، ولم يريدوا التحويل عنه ولا الاستعتاب منه ﴿أَخَذْنَاهُمْ بِغْتَةٍ﴾ أي: فجأة في حين أمنهم. وقيل: بغتة بعد أربعين سنة، ﴿فَإِذَا هُمْ مَبْلُؤُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤] متحIRON باهتون آيسون من كل خير.

واعلم أن العبد إذا كان بعد ساعة شراً منه قبلها، وبعد يوم شراً منه قبله، ثم

لم يُستعْتَب ولم يُتَدَارَك، كانت أوقاته كلَّها وأيامه كيومٍ واحدٍ في الشرِّ ووقتٍ سرمدٍ في السوء، فكان كمن فات عمره كلُّه كفوت وقتٍ واحدٍ منه؛ لأنه على هذا الوصف يكون فوت العمر لتراخيه وقتًا بعد وقت، وينساه شيئًا بعد شيء، ولتربية العبد بأوقاته وقتًا بعد وقت، إلا أنها في آخر الحساب ومجمله كيوم واحد إضاعة، فكان مثله كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. وكمن كان حاله الغفلة عن الوعد والوعيد، فلما كُشف عنه الغطاء حار بصره وبُهِت، واحتدَّ وبرق، لمعينة ما كان عنه غفل، وحسرة على ما فيه فرط، لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] قيل: محدد إلى أعمالك السيئة أو ثقتك. وقيل: حديد إلى لسان الميزان يتوقع النقص والرجحان، وكان كمن قال تعالى في قوله: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩]، قيل: جاءهم الموت وهم مشغولون بأمور الدنيا. وقيل: كانوا متشاغلين في شأن النساء، وبوصف من قيل له: ﴿وَعَرَّثَكُمْ الْأَمَانِيَّ﴾ يعني: أمانى الهوى ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٤] أى: قدِم الموت ولم تقدّموا له شيئًا تقدمون به عليه، فمثلهم كمن وصفه بالإفلاس وأخبر عنه بالإيأس في قوله عز وجل: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ [النور: ٣٩].

وقد كان أبو محمد يقول: لا يبلغ العبد منازل الصديقين حقيقة من هذا الأمر حتى يكون فيه هذه الأربع: أداء الفرائض بالسنة، وأكلُ الحلال بالورع، واجتنابُ النهي في الظاهر والباطن، والصبرُ على ذلك إلى الممات.

وكان الحسن يقول: والله ما لعمل المؤمن انتهاء دون الموت. والله ما المؤمن الذى يعمل الشهرَ والشهرين والسنة والستين، إنما المؤمنُ المداومُ على أمر الله، الخائفُ من مكر الله. إنما الإيمان شدةً فى لين، وعزمٌ فى يقين، واجتهادٌ فى صبر، وعلمٌ فى زهد.

وكان عمر رضى الله عنه إذا تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ

اسْتَقَامُوا ﴿[الاحقاف: ١٣] يقول: قد قالها الناس ثم رجعوا. فمن استقام على أمر الله في السر والعلانية، والعسر واليسر، لم يخف في الله لومة لائم.

وقال مرة: استقاموا والله لربهم، ولم يروغوا روغان الثعالب.

وقال بعض العلماء: مَنْ كَانَ طَلَبُ الْفَضَائِلِ أَهْمًا إِلَيْهِ مِنْ أَدَاءِ الْفَرَائِضِ فَهُوَ مَخْدُوعٌ، وَمَنْ شُغِلَ بغيره عن نفسه فقد مكر به.

وقال سفيان الثوري وغيره: إِنَّمَا حُرِّمُوا الْوُصُولَ بِتَضْيِيعِ الْأُصُولِ.

فأفضلُ شيءٍ للعبد معرفته بنفسه، ووقوفه على حدّه، وإحكامه لحاله التي أقيم فيها. وابتدأه بالعمل بما افترض عليه، بعد اجتنابه ما نُهي عنه، بعلم لم يدبره في جميع ذلك، وورع يحجزه عن الهوى في ذلك. ولا يشتغل بطلب فضل حتى يفرغ من فرض؛ لأن الفضل لا يصحّ إلا بعد حوز السلامة، كما لا يخلص الربح للتاجر إلا بعد حصول رأس المال. فمن تعذرت عليه السلامة كان من الفضل أبعد، وإلى الاغترار أقرب.

وقد تلبس الفضائل بالفرائض لدقة معانيها، وخفى علومها، فيقدم العبد النفل وهو يحسب أنه الواجب. فمن ذلك أن أبا سعيد رافع بن المعلى كان قائماً يصلي، فدعاه رسول الله ﷺ فلم يجبه، فظن أن وقوفه بين يدي الله عز وجل بالغيب أفضل له. فلما سلّم جاءه، فقال له رسول الله ﷺ: ما منعك أن تحييني حين دعوتك؟ فقال: كنت أصلي. فقال: ألم تسمع الله عز وجل يقول:

﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]؟

فكان رسول الله ﷺ دعاه وهو في الصلاة؛ ليفيده باطن العلم، أو لينظر مبلغ علمه كيف يعمل، وكان إجابته لرسول الله ﷺ أفضل له من صلاته؛ لأن صلاته نافلة له، فهو مطيع لله عز وجل في الغيب باختياره، وإجابته لرسول الله ﷺ فريضة عليه، فهو مطيع لله تعالى في الشهادة بإيجابه. ففضل استجابته لرسول الله ﷺ على صلاته لنفسه كفضل الفرض على النفل. وقد قال سبحانه: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا

يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴿[الفتح: ١٠]﴾. والله تعالى معه في المكاين معاً، وهو عند الرسول عليه الصلاة والسلام على يقين. فعبادة الله عز وجل ههنا أبلغ في مرضاته، وأثوب له في آخرته.

وفي هذا الحديث دليل أن الخبر إذا ورد في أمر كان على جملة عمومه وكلية ما تعلق به، حتى تخصّ السنة أو الإجماع بعض شأنه. ومن ذلك أن قول الله عز وجل: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] أن ظاهره مقصور على الاستجابة للرسول والله بالإيمان بالطاعة في أوامر القرآن، لا الإجابة له في التصويت خاصة في الصلاة، وهذا هو الذي حمّله أبو سعيد بن المعلى عليه، وتأوله من الآية فأشكل عليه.

ومثل هذا فعل عمّار في التيمم، لما نزلت آية الإباحة للتيمم في صلاة الفجر وهم في سفر، فقال عز وجل: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ [النساء: ٤٣]، ولم يكن يسمع من النبي ﷺ في تخصيص بعض اليد شيئاً، قال: فتيممنا إلى المناكب، واستوعب جملة اليد، لعموم الخطاب، حتى أخبر النبي ﷺ بذلك، فأمرهم بالتيمم إلى المرفقين، وفي خبر: إلى الزندين، باختلاف الروايتين، فخص بعض اليد، فلذلك اختلف العلماء في تبويض اليد في المسح.

وكذلك العمل فيما ورد مجملاً أن يُستعمل في الجملة حتى تخصه السنة. فمن ذلك ما روى أن رجلين على عهد رسول الله ﷺ تأخيا في العبادة، فاعتزلا الناس، فقال أحدهما لصاحبه: هلم اليوم فلننفرد عن الناس، ولنزم الصمت فلا نكلم من يكلمنا، فإنه أبلغ في عبادتنا. قال: فاعتزلا في خلوة، وصمّتا، فمر بهما رسول الله ﷺ، فسلم عليهما، فلم يردا عليه السلام. قال: فسمعناه يقول حين جاوزنا: هلك المغمقون المنتطعون، فاعتذرا إلى رسول الله ﷺ، وتابا من ذلك إلى الله عز وجل.

ومثل ذلك ما روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يعس ذات ليلة،

فنظر إلى مصباح أبيض فى خلل باب، فاطلع، فإذا قوم على شراب لهم، فلم يدر كيف يصنع، فدخل المسجد، فأخرج عبد الرحمن بن عوف فجاء به إلى الباب فنظر، وقال له: كيف ترى أن نعمل؟ فقال: أرى والله أنا قد أتينا ما نهانا الله عنه، لأننا تجسنا على عورة فاطلنا عليها وقد سترها الله دوننا، وما كان لنا أن نكشف ستر الله عز وجل. فقال: ما أراك إلا قد صدقت، ما أنفذ عنك^(١)، فانصرفا. وفى لفظ آخر أنه قال له: أرى أنا قد عصينا الله ورسوله، ونهانا رسول الله ﷺ عن التجسس، فقال: صدقت، فأخذ بيده وانصرف.

وروينا نحو هذا أن عمر رضى الله عنه كان يعسُّ ليلة مع ابن مسعود، فاطَّلَعَ من خلل الباب، فإذا شيخ بين زِقٍّ خمر وقِيْنَةٍ تَغْنِيهِ، فتسورَّ عليه، وقال: ما أقبح بشيخ مثلك أن يكون على مثل هذه الحال. فقام إليه الرجل فقال: يا أمير المؤمنين، أنشدك الله إلا أنصفتنى حتى أتكلم. فقال له: قل. فقال: إن كنتُ قد عصيتُ الله عزَّ وجلَّ فى واحدة فقد عصيته أنت فى ثلاث. قال: وما هى؟ قال: قد تجسست وقد نهاك الله عزَّ وجلَّ عن ذلك. وتسورت وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]. ودخلت بغير إذن وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧]. فقال عمر: صدقت، فهل أنت غافر لى ذلك، فقال: غفر الله لك، فخرج عمر وهو يبكى حتى علا نحيبه، وهو يقول: ويل لعمر إن لم يغفر الله له، تجد الرجل كان يتخفى بهذا عن ولده وجاره، فالآن يقول: رأتى أمير المؤمنين، ونحو ذلك.

وجاء فى الخبر: «إذا دُعِيَ أَحَدُكُمْ إِلَى طَعَامٍ، فَإِنْ كَانَ مُفْطِرًا فَلْيُجِبْ، وَإِنْ كَانَ صَائِمًا فَلْيَقُلْ: إِنِّى صَائِمٌ». فأمره بإظهار عمله وهو يعلم أن الإخفاء أفضل، ولكن إظهار عمله من حيث لا يؤثر فى قلب أخيه وجَدًّا أفضل من إخفائه لنفسه مع تأثير ذلك فى قلب أخيه؛ لتفضيل المؤمن وحرمة على الأعمال، إذ الأعمال

(١) «ما أنفذ عنك» ليست فى (ك). والمعنى: لا أدع رايك وأتجاوزه.

موقوفة على العامل، وإنما يُعطى الثواب على قدر العامل لا على قدر العمل، لتضعيف الجزاء لمن يشاء على غيره في العمل الواحد. فدلّ ذلك أنّ المؤمنَ أفضل من العمل، فقليل له: ارفع التأثير والكرهية عن قلب أخيك بإظهار عملك، فهو خير لك من إخفاء العمل مع وجد أخيك عليك، لأنّ أخاك إذا دعاك إلى طعام صنعه لك، فلم تجبه ولم تعتذر إليه عذراً بيّناً يقبله منك ويعرفه، شقّ عليه إن كان صادقاً في دعائك.

وبمعنى هذا من خفىّ الأعمال ما يُحكى عن بعض السلف: أنه كان يكون^(١) في الجماعة، فيقرأ في نفسه سرّاً لثلاث يطلع على أعماله أحد، فإذا مرّ بآية فيها سجدة سجدَ بين الملائ، فكنا نعرف بسجوده أنه يقرأ. فلعل فارغاً قليل الفقه يقول: إن هذا قد أظهر عمله، إذ فعل ما يدل عليه، فلو ترك السجود ليخفى عمله كان أفضل، لأنه قد أظهر ما أخفاه. فهذا يدل على جهله بالمعاملة. وقد سمعتُ بعضَ من يدعى العلم^(٢) يطعن على هذا بفعله، بمعنى ما ذكرناه من القول. وهكذا يكون علم المريدين القصيرى العلم^(٣).

وليس الأمر كما قدره هذا المنكر لسجوده، بل القائل المنكر لفعله قليل الفقه بدقائق الإخلاص جاهل بطريقة العاملين من العارفين، والعامل الذى نقل عنه هذا الفعل فقيهٌ مُخلص، وذلك لأنّه قد حاز الفضلين معاً، لأنه كان فاضلاً فيما أخفى، إذ ابتدأ عمله بالخفية، فلما جاء السجود الذى لا يكون إلا ظاهراً لم يصلح أن يترك قرينةً إلى الله عزّ وجلّ من أجل الناس، فكان يسجد كما أمر به، ويقرأ كما ندب إليه، فصار فاضلاً في الحال الثانى، لأنه أظهر لأجل الله عزّ وجلّ كما أخفى لأجله، ولأنّه ترك مراقبة الناس ولم يترك عمله لأجلهم. ولو كان الفضل فى ترك السجود لإخفاء العمل كان الأفضل لمن دُخل عليه فى منزله وهو يصلى أن يقعد لأجلهم.

(١) قوله: «كان يكون» أسلوب عربى فصيح عند القدماء.

(٢) فى (ط): «وقد سمعت بعض العلماء».

(٣) هذه الجملة ليست فى (ك).

وقد وردت السنة في ذلك أن له أجرين: أجر السر، وأجر العلانية. كيف، وقد كانوا يعدون أن الرياء ترك العمل لأجل الناس، فأما العمل لأجلهم فشرك. وقد قيل: لا تعمل للرياء، ولا تترك العمل للحياء. فالحياء من الخلق شرك، كما أن الحياء من الخالق إيمان. وأيضاً لو أنه أطاع العدو في ترك العمل لأجل الناس أطاعه مرة أخرى في العمل لأجلهم. ومثل هذا كمثل من كان يصوم ويصلي يومه أجمع في منزله، لا يعلم به مخلوق، فلو نوى الاعتكاف ليضمه إلى صومه خرج إلى المسجد فكان يصلي مقيماً فيه، فظهر الناس على عمله، فلم يكن ليدع ما نواه من العكوف في المسجد لأجل نظرهم إليه، ولم يضره ظهور عمله، لثباته على نيته، ولمزيد الاعتكاف، إذا كان عالماً متمكناً.

وأيضاً فإن الإمام المتمكن المقتدى به لا يضره ظهور الناس على أعماله، إذا لم يقصد ذلك ولم يحب مدحهم، وربما كان له أجران في ذلك لتنبية الغافلين عن الذكر، وتشويق العاملين إلى البر. كيف وعند بعض العلماء أن سجود القرآن فرض، وأن على مَنْ سمع آية سجدة أو تلاها، وكان على غير وضوء، أن يسجد لها إذا توضأ.

ونحو هذه المعاني ما هو حال للعبد وأولى به من حال غيره، ما رواه أبو نصر التمار أن رجلاً جاء يودع بشر بن الحارث، وقال: قد عزمتُ على الحج، أفتأمرني بشيء؟

فقال له بشر: كم أعددتَ للنفقة؟ قال: ألفى درهم.

قال: فأى شيء تبتغي بحجك! نزهة، أو اشتياقاً إلى البيت، أو ابتغاء مرضاة الله عز وجل؟ قال: ابتغاء مرضاة الله عز وجل.

قال: فإن أصبتَ رضا الله وأنت في منزلك، وتنفق ألفى درهم، وتكون على يقين من مرضاة الله عز وجل، أتفعل ذلك؟ قال: نعم.

قال: اذهب فأعطها عشرة أنفس؛ مدين يقضى بها دينه، وفقير يرُمُّ شعثه، ومَعِيل يحيى عياله، ومربى يتيم يُفرحه. وإن قوى قلبك أن تعطيها لواحد فافعل،

فإن إدخالك السرور على قلب امرئ مسلم، وتغيث لهفان، وتكشف ضر محتاج، وتعين رجلاً ضعيف اليقين، أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام. قم فأخرجها كما أمرناك، وإلا فقل لنا ما فى قلبك. فقال: يا أبا نصر، سفى أقوى فى قلبى.

فتبسم بشر، وأقبل عليه، وقال له: المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس إلى أن تقضى به وطراً تسرع إليه، فظاهرت أعمال الصالحات، وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين. [فبكى الرجل] (١).

وفى نحوه قيل لبشر أيضاً: إن فلاناً الغنى كثير الصوم والصلاة، فقال: المسكين ترك حاله ودخل فى حال غيره، إنما حال هذا إطعام الطعام للجوع، والإنفاق على المساكين، فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ومن صلاته لنفسه مع جمعه للدنيا ومنعه للفقراء.

وقد يكون اختفاء الأوجب من الفرائض والتبأسه بالفضائل محنة من الله عز وجل لعباده، وحكمة له فيهم، فيرتكبون التأويل للسعة، ويتركون الضيق لخفائه عليهم، لينفذ فيهم العلم، ويجرى عليهم الحكم، ويكون ذلك تأديباً لهم، وتعريقاً ومزيداً فى التسليم وتوفيقاً. وقد قال الله تعالى فيما عتب على نبيه ﷺ ووعظه وزجره فى قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى﴾ [عبس: ١ - ٣].

يقال: إن رسول الله ﷺ لم يغتم فى عمره كغمة حين أنزل عليه سورة عبس، لأن فيها عتباً شديداً على مثله، لأنه الحبيب الرشيد، ومع ذلك لم يقصده فى الخطاب فيكون أيسر للعتاب، بل كشف ذلك للمؤمنين، ونبه على فعله عباده المتقين؛ لأن معنى قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ أى: انظروا أيها المؤمنون، أو اعجبوا إلى الذى عبس وتولى أن جاءه الأعمى.

(١) ساقطة من (ط) وأثبتها من (ك).

ولذلك روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بلغه أن بعض المنافقين يؤمُّ قومه فكان لا يقرأ بهم إلا بسورة عبس، فأرسل فضرب عنقه، يستدل بذلك على كفره، ليضع من شأن الرسول ﷺ بذلك عنده وعند قومه.

ومثله قوله عزَّ وجلَّ عاتبًا على رسوله ﷺ: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، ونحوه: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ [التحریم: ١]، وبمعناه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، حتى قالت عائشة رضى الله عنها: «لو كنتم رسول الله ﷺ شيئًا من القرآن كنتم هذه الآية».

ومن أعجب ما سمعتُ في هذا المعنى ما حدثونا في الإسرائيليات عن وهب ابن منبه اليماني، أن سليمان بن داود عليهما السلام لما قبضه الله عزَّ وجلَّ خلف رجلاً من ولده يعمر بن بيت المقدس ويعظمونه برهة من الدهر، حتى خلفه بعدهم رجلٌ من ولد سليمان، فخالف طريقة آبائه، وترك شريعتهم، وتكبر في الأرض وطغى، وقال: بنى جدى داود وأبى سليمان مسجداً، فما لى لا أبنى مسجداً مثل ما بنوا، وأدعو الناس إلى شريعتى كما دعوا؟ فبنى مسجداً يضاهى به بيت المقدس، وادعى على الله عزَّ وجلَّ أنه أمره بذلك، وصرف الناس إليه، وبذل لهم الأموال، وأخرب مسجد بيت المقدس وهجره، فدخل الناس في دينه رغبة ورهبةً.

قال: فابتعث الله إليه نبياً من بعض أهل القرى، فقال: اركب أتانك هذه، وأت هؤلاء القوم أحفل ما يكونون، فنادى في مسجدهم ومجمعهم بأعلى صوتك: يا مسجد الضرار، إن الله عزَّ وجلَّ حلف باسمه: ليوحشَنَّك من عمَّارك، وليقتلنَّ أهلَكَ فيكَ، وليشدَّخَنَّهُم بخَشْبِكَ وجَنَدِكَ، ولتَلغَنَّ الكلابُ دماءَهُم وتأكُلَنَّ لحومَهُم فيكَ. ونادى في المدينة بأعلى صوتك بمثل ذلك، ولا تأكل ولا تشرب ولا تستظل ولا تنزل عن أتانك هذه حتى ترجع إلى قرينتك التى خرجت منها.

قال: ففعل ذلك، فثار الناس إليه يضربونه بالخشب، ويشجبونه بالحجارة، وهو

على أتانته لا ينزل عنها، فناله على ذلك أذى كثير وضرب عظيم، ثم كرّ راجعاً في آخر النهار يؤمّ قريته التي خرج منها، وقد أدى الرسالة، وصبر على الضرب والبلاء لله عزّ وجلّ.

فلما كان ببعض الطريق، سمع به نبي آخر كان في بعض القرى، استقبله وسلّم عليه، فقال: إنك قد أدّيت رسالة ربك، وإنك أمضيت أمره، وإنك قد نصبتَ ولقيت عناء من هؤلاء القوم؛ وأنت جائع عطشان، تسيل دماؤك على جسدك وثيابك، فاغْدُ معي إلى منزلي، فكل واشرب واسترح واغسل جسدك وثيابك. فقال: إن الله عزّ وجلّ لما أرسلني قد كان عهد إليّ أن لا آكل ولا أشرب ولا أستظل حتى أرجع إلى أهلي. فقال له النبي عليه السلام: فإنّي من أهلك، لأنني نبي مثلك، وأخوك في الدين، فلا أرى الله عزّ وجلّ عني بذلك إلا القوم الذين بعثك إليهم، لأنهم أعداؤه، فنهاك أن تأكل من طعامهم، وتستظل عندهم ولا أحسب حرّم عليك دخول منزلي ولا الأكل من طعامي، لأنني شريكك في الأخوة والنبوة. قال: فصدّقه، وانصرف معه إلى منزله.

فلما وضع الطعام بين يديه، وأهوى لياكل عن جوعٍ شديدٍ قد أضرب به، أوحى الله عزّ وجلّ إلى ذلك النبي الذي دعاه إلى منزله: قل له: أثرت شهوتك وبطنك على أمري، ألم أعهد إليك أن لا تنزل ولا تستظل ولا تأكل حتى ترجع إلى قريتك التي خرجت منها، ولولا أنك اجتهدت برأيك وقلت بمبلغ علمك لعمّكما العقاب، وأنت أقلّ عندي عذراً منه^(١)، لأنّي عهديّ إليه، فأثر هواه وشهوته وترك عهدي.

فأخبره النبي عليه السلام بما أمر، فوثب مذعوراً يجرّ إزاره، وجعل يرحل أتانته ويعجل ولا يعقل ما هو فيه، فركبها طارداً لها على وجهه، لجوعه وعطشه، ودماؤه على ثيابه وجسده، لا ينشئ. فلما هبط من عقبة تحتها غيضة عارضه سبع فافترسه، وانتصب السبع مقعياً على قارعة الطريق يزأر، يحرس أتانته ورحله، كلما أقبل إنسان زار عليه الأسد حتى يطرده. فسمع بخبره ذاك النبي، فأقبل

(١) في (ط): «وهو أقلّ عندي عذراً منك» وكذلك في (ك) ولكنها مصححة في حاشيتها.

نحوه، فلما نظر إليه الأسد انصرف عنه، وخلّى بينه وبينه.

قال: فكفّنه ووآراه، وانصرف برحله وأتانه إلى أهله، فقال: يا رب، عبدك هذا الذى بلغ رسالتك، وأمضى أمرك، وقد كان أجهد البلاء، فخالف ما أردت فلم يعلم، فعاقبته بهذه العقوبة. فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: ليست هذه عقوبة، ولم أفعل ذلك لهوانه علىّ، ولكن هذه مغفرة ورحمة، إنّه خالف أمرى، وكان قد اقترب أجله، فكرهتُ له أن يلقانى على المخالفة، فألقاه بما يكره، فقيّضتُ له كلباً من كلابى، فطهره للقائى. فكان ذلك له عندى شهادة، ودرجة فوق نبوته.

فقال: سبحانك وبحمدك، أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين.

فالعالم عند العلماء: مَنْ عَلِمَ خَيْرَ الْخَيْرِينَ فسبق إليه قبل فوته، وَعَلِمَ شَرَّ الْخَيْرِينَ فأعرض عنه لئلا يشغله عن الأخير منهما. وعلم أيضاً خير الشرين، ففعله إذا اضطر إليه، وابتلى به، وعلم شرّ الشرين فأمعن^(١) فى الهرب منه، واحتجب بحجابين عنه.

وفى هذه المعانى دقائق العلوم، وغرائب الفهوم، وأدلة للسائلين، وعبرة وآيات للعالمين. فأما شرّ الشرين، ومعرفة الخير من الشر، فهو معروف بأدلة العقول، وظواهر العلوم^(٢).



(١) أمعن فى الهرب: اشتد وتباعد.

(٢) رحم الله أبا طالب، كان كلامه فى الفصول الماضية متصلاً كسلاسل الذهب، فهو يتكلم بحاله لا بلسانه، وبقلبه لا بعقله، فهى فتوحات من العليم الوهاب.

الفصل السابع والعشرون

فيه كتاب أساس المريدين

قال بعض العلماء: الخلق محجوبون بثلاث: حب الدرهم، وطلب الرياسة، وطاعة النساء. وقال بعض العارفين: الذى قطع العباد عن الله عزّ وجلّ ثلاثة أشياء: قلة الصدق فى الإرادة، والجهل بالطريق، ونطق علماء السوء بالهوى. وقال بعض علمائنا: إذا كان المطلوب محجوباً، والدليل مفقوداً، والاختلاف موجوداً، لم ينكشف الحق، وإذا لم ينكشف الحق تحيّر المريد.

واعلم أن المريد لا بدّ له من خصال سبع: الصدق فى الإرادة؛ وعلامته إعداد العدة. ولا بدّ له من التسبب إلى الطاعة؛ وعلامة ذلك هجر قرناء السوء. ولا بدّ له من المعرفة بحال نفسه؛ وعلامة ذلك استكشاف آفات النفس. ولا بدّ له من مجالسة عالم بالله؛ وعلامة ذلك إثارة على ما سواه. ولا بدّ له من توبة نصوح؛ فبذلك يجد حلاوة الطاعة، ويثبت على المداومة، وعلامة التوبة: قطع أسباب الهوى، والزهد فيما كانت النفس راغبة فيه. ولا بدّ له من طعمة حلال لا يذمّها العلم، وعلامة ذلك الحلال المطالبة عنه، وحلول العلم فيه يكون بسبب مباح وافق فيه حكم الشرع. ولا بدّ له من قرين صالح يؤازره على ذلك؛ وعلامة القرين الصالح معاونته على البر والتقوى ونهيه إياه عن الإثم والعدوان.

فهذه الخصال السبع قوت الإرادة، لا قوام لها إلا بها. ويستعين على هذه السبع بأربع هنّ أساس بنيانه، وبها قوة أركانه: أولّها الجوع؛ ثم السهر؛ ثم الصمت؛ ثم الخلوة. فهذه الأربع سجن النفس وضيقها، وضرب النفس وتقييدها، بهن يضعف صفاتها، وعليهن تحسن معاملاتها. ولكل واحدة من الأربع صنعة حسنة فى القلب.

فأما الجوع: فإنه ينقص من دم القلب فيبيضّ، وفى بياضه نوره، ويذيب شحم

الفؤاد، وفي ذوبه رفته، ورقته مفتاح كل خير؛ لأن في القسوة مفتاح كل شر. وإذا نقص دم القلب ضاق مسلك العدو منه؛ لأن دم القلب مكانه. فإذا رَقَّ القلبُ ضعُف سلطان العدو منه؛ لأن في غلظ القلب سلطانه.

والفلاسفة يقولون: إن النفس كلية الدم. وحجتهم في ذلك أن الإنسان إذا مات لم يفقد من جسمه إلا دمه مع روحه. والعلماء منهم قالوا: الدم هو مكان النفس. وهذا هو الصحيح؛ لأنه مواطئ لما في التوراة، سمعتُ أن في التوراة مكتوباً: يا موسى لا تأكل العروق فإنها مأوى كل نفس. وهذا مصدق للحديث الذي روى: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش».

وقد عبّر علماء الكوفة عن الدم بالنفس، فقالوا: إذا مات في الماء من الهوام ما ليس له نفس سائلة لم يَنَجَسْ. يعنون الخنافس والصراصير والعناكب.

ففي الجوع نقصانُ الدم، ونقصانه ضيق مسلك العدو، وضعف مسكن النفس، لسقوط مكانها. وفي خبر عن عيسى عليه السلام: «يا معشر الحواريين، جوعوا بطونكم، وعطشوا أكبادكم، وأعروا أجسادكم، لعل قلوبكم ترى الله عزّ وجلّ». يعنى بحقيقة الزهد، وصفاء القلب.

فالجوع مفتاحُ الزهد وبابُ الآخرة، وفيه ذلُّ النفس واستكانتها وضعفها وانكسارها، وفي ذلك حياة القلب وصلاحه. وأقل ما في الجوع إثارة الصمت، وفي الصمت السلامة، وهي غاية للعقلاء.

وقال سهل رحمه الله: اجتمع الخيرُ كلّهُ في هذه الأربع خصال، وبها صار الأبدالُ أبدالاً: إخماسُ البطون، والصمت، والسهر، والاعتزال عن الناس. وقال: من لم يصبر على الجوع والضرّ لم يتحقق بهذا الأمر.

وكان عبد الواحد بن زيد يحلف بالله ما تحوّل الصديقون صديقين إلا بالجوع والسهر. فإنه ينير القلب ويجلوه، وفي استنارته معاينةُ الغيب، وفي جلالته صفاء اليقين. فتدخل الاستنارة والجلاء على البياض والرقّة، فيصير القلب كأنه كوكب

درى فى مرآة مجلوة، ويشهد الغيب بالغيب؛ فيزهد فى الفانى لما عاين من الباقي، وتقل رغبته فى عاجل حظوظ هواه لما أبصر من وبال العقاب، ويرغب فى الطاعات لمشاهدة الآخرة ورفيع الدرجات، فيصير الآجل عاجلاً، ويكون العاجل غائباً، ويصير الغائب حاضراً، والحاضر آفلاً، يطلبه ويرغب فيه فلا يحب الآفل ولا يبتغيه، ويطلب الآجل ويرغب فيه، وينكشف له عوار الدار، ويظهر له بواطن الأسرار، ويزول عنه كامن الاغترار. فهناك صار العبد مؤمناً حقاً، بوصف حارثة الأنصارى، إذ يقول: عزفت نفسى عن الدنيا، وكأنى أنظر إلى عرش ربى تعالى بارزاً، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون، وإلى أهل النار يتعادون.

وكذلك وصف رسول الله ﷺ قلبَ المؤمن فى قوله: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر، فذلك قلب المؤمن». وانجرأ القلب بالزهد فى الدنيا وتجرده من الهوى، وسراجُه الذى يزهر فيه هو نور اليقين، به يبصر الغيب.

وقال بعض علمائنا: من سهر أربعين ليلة خالصاً كُشف بملكوت السماء. وكان يقول: اجتمع الخير كله فى أربع، ذكر منها سهر الليل.

واعلم أن نوم العلماء عن غلبة المنام بعد طول السهر بالقيام مكاشفة لهم وشهود، وتقريب لهم منه وورود.

ومن صفة الأبدال: أن يكون أكلهم فاقة، ونومهم غلبة، وكلامهم ضرورة. ومن سهر بالليل لأجل الحبيب لم يخالفه بالنهار، فإنه أسهره بالليل فى خدمته.

ودخل الحسن ذات يوم إلى السوق، فسمع لغطهم وكثرة كلامهم، فقال: أظنّ ليل هؤلاء ليل سوء، ما يقيلون.

وفى الخبر: «قيلوا، فإن الشياطين لا تقيل، واستعينوا على قيام الليل بقائلة النهار». وقد قيل فى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] قيل: بالصوم على قيام الليل. وقيل: استعينوا بالجوع وصلاة الليل على مجاهدة النفس. وقيل: استعينوا بالصبر والصلاة على اجتناب النهى.

وأما الصمت: فإنه يُلْقح العقل، ويُعَلِّم الورع، ويَجلب التقوى، ويجعل الله

عزَّ وجلَّ به للعبد بالتأويل الصحيح والعلم الرجيح مخرجاً، ويوفقه بإيثار الصمت للقول السديد والعمل الرشيد.

وقد قال بعض السلف: تعلمتُ الصمت بحصاة جعلتها في فمي ثلاثين سنة، كنتُ إذا هممتُ بالكلمة تلجلج بها لساني، فأسكت. وقال بعضهم: جعلتُ على نفسي بكل كلمة أتكلّم بها فيما لا يعينني صلاة ركعتين، فسهل ذلك عليّ، فجعلتُ على نفسي بكل كلمة صوم يوم، فسهل عليّ، فلم أُنْتِه حتى جعلتُ على نفسي بكل كلمة أن أتصدق بدرهم، فصعب ذلك فأنتهيتُ.

وقال عقبة بن عامر: «يا رسول الله، فيم النجاة؟ قال: أمسك عليك لسانك، ولْيَسَعَكَ يَبْتُكَ، وابكِ على خطيئتك».

وقال ﷺ في الخبر الجامع المختصر: «مَنْ سرَّه أن يسلم فليلزم الصمت». وأوصى رسولُ الله ﷺ معاذًا بالصلاة والصيام وغير ذلك، ثم قال في آخر وصيته: «ألا أدلك على ما هو أملك لك من ذلك كله؟ هذا، وأوماً بيده إلى لسانه. فقلت: يا رسول الله، وإنّا لمؤاخذون بما تتكلم به ألسنتنا؟ فقال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكبُ الناسُ على مناخرهم في جهنم إلا حصائدُ ألسنتهم».

إنك ما سكتَ فإنك سالم، فإذا تكلمتَ فإنما هو لك أو عليك.

وقال عبد الله بن سفيان عن أبيه قال: «قلت: يا رسول الله، أوصني بشيء في الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك. فقال: قل: ربّي الله ثم استقم. قال: قلت: فما أتقى بعد ذلك؟ - وفي لفظ آخر: «فأخبرني بأضر شيء عليّ» - فقال: هذا، وأوماً إلى لسانه».

وفي الخبر: «لا يتقى العبدُ ربّه تعالى حقَّ تقاته حتى يَخْزُنَ^(١) من لسانه».

وفي الحديث: «لا يصلح العبدُ حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه».

وقال ابن مسعود: ليس شيء أحقَّ بطول سَجْن من لسان. وقال بعض السلف:

(١) خزن الشيء: أحرزه وجعله في خزانة.

- فتشتُ الورعَ، فما وجدتُ في شيء أقل منه في اللسان.
- وقال بعض العلماء: ما استقام لسانُ عبدٍ إلا عرفتَ الصلاحَ في سائر عمله، وما اختلف لسانه إلا عرفتَ الفسادَ في سائر عمله.
- وقال بعض الحكماء: إذا كثر العقل قلَّ الكلام، وإذا قلَّ العقل كثر الكلام.
- وقال أحمد بن حنبل: علماءُ أهل الكلام زنادقة. وقال بعض هذه الطائفة: من تكلم فأحسن كثيراً، ولكن الشأنَ فيمن يُحسن أن يسكت.
- وقال ذو النون المصري: الخوف يقلق، والحياء يسكت.
- وقال بعض العارفين: قد جُزئ العلم على قسمين: نصفه سكوت، ونصفه أن تدري أين تضعه.
- وقال الضحاك بن مزاحم: أدركتهم وما يتعلمون إلا الصمت والورع، وهم اليوم يتعلمون الكلام.
- وقال الحسن عن أنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «أربع لا يُصْبَنَ إلا بعُجب: الصمت؛ وهو أول العبادة، والتواضع، وذكر الله عزَّ وجلَّ، وقلة الشيء».
- وقال حماد بن زيد: قلت لأيوب: العلم اليوم أكثر أو فيما مضى؟ فقال: يا بني، الكلام اليوم أكثر، والعلم فيما مضى كان أكثر.
- وقيل: كانوا ينتفعون بصمت العالم مثل ما ينتفعون بكلامه. وقد قيل: من لم ينتفع بسكوت المتكلم لم ينتفع بكلامه.
- وقيل لبعض العلماء: فلان أعلم أم فلان؟ فقال: فلان أعلم، وفلان أكثر كلاماً، ففرق بين العلم والكلام.
- وقيل لبعض علماء خراسان عند وفاته: دُلُّنا على رجل نجلس إليه بعدك. فقال لهم: فلان. فذكر لهم رجلاً صموتاً متعبداً، لا يُعرف بكثير علم. فقيل له: إن فلاناً ليس عنده من العلم ما يجيب عن كل ما نسأله عنه من العلم. فقال: قد علمتُ، ولكن عنده من الورع ما لا يتكلم بما لا يعلم.

وكان الأعمش يقول: من الكلام كلامٌ جوابُهُ السَّكوت. وقال بعض السلف: الصمت زين العالم وستر الجاهل. وقال غيره: الصمت جوابه. وفي الخبر: «الصمتُ زين للعالم وشين الجاهل». وقال بعضهم: ليس شيء أشد على الشيطان من عالم حليم؛ إن تكلم تكلم بعلم، وإن سكت سكت بحلم. يقول الشيطان: انظروا إليه، سكوته أشدّ على من كلامه.

وقال بعض السلف: تعلّم الصمت كما تتعلّم الكلام، فإن يكن الكلام يهديك فإن الصمت يقيك. ولك في الصمت خصلتان: تدفع به جهل من هو أجهل منك، وتعلم به علم من هو أعلم منك. وقال بعض العلماء: تعلّم لا أدري، ولا تتعلم أدري، فإن قلت لا أدري علّموك حتى تدري، وإن قلت أدري سألوكم حتى لا تدري. وقد قال العلماء: إذا أخطأ العالم قول أدري أصيبت مقاتله.

وقال عيسى عليه السلام: «الخيرُ كلّهُ في ثلاثة: في الصمت، والكلام، والنظر. فمن لم يكن صمته تفكيراً فهو في سهو، ومن لم يكن كلامه ذكراً فهو لغو، ومن لم يكن نظره عبراً فهو لهو».

وقال بعضهم: يأتي على الناس زمان يكون أفضل أعمالهم النوم، وأفضل علومهم الصمت. يعني لفساد الأعمال، ولاشتباه العلم. ويقول أيضاً مع ذلك: وأفضل أحوالهم الجوع؛ لانتشار الحرام وغموض الحلال.

وقال بعض العلماء: الصمت نوم العقل، والنطق يقظته، وكل يقظة تحتاج إلى نوم، وما صمت عاقل قط إلا اجتمع عقله وحضر لُبّه. وفي وصية ابن عباس مجاهدًا: لا تتكلمنّ فيما لا يعينك فإنه أسلم ولا آمن عليك الخطأ، ولا تتكلم فيما لا يعينك حتى ترى له موضعًا، فربّ متكلّم فيما يعنيه قد وضعه في غير موضعه فعنّت. وقال بعض العلماء: يستبين ورع الرجل في منطقته.

وفي الخبر: «مَنْ كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه مات قلبه».

ويقال: إذا قلّ الكلام كثر الصواب. وعن جماعة السلف: إن تسعة أعشار السلامة في الصمت. ويقال: كل كلمة من هزل أو مزح أو لغو يُوقَف العبد عليها

خمس مواقف بتوبيخ وتقرير، أولها: أن يقال له: لم قلت كلمة كذا، أكأنت فيما يعينك؟ والثانية: هل نفعتك إذ قلتها؟ والثالثة: هل ضرتك لو لم تقلها؟ والرابعة: ألا سكتَ فربحتَ السلامة من عاقبتها؟ والخامسة: هلا جعلت مكانها قولَ سبحانَ الله والحمد لله، فغنمت ثوابها.

ويقال: ما من كلمة إلا وينشر لها ثلاثة دواوين: الديوان الأول لِم؟ والثاني كيف؟ والثالث لمن؟ فإن نجا من الثلاث وإلا طال وقوفه للحساب.

وقال الحسن: لسان المؤمن وراء قلبه، إذا أراد أن يتكلم تفكّر، فإن كان له تكلم وإن كان عليه أمسك، وقلب المنافق على طرف لسانه.

أى كل شىء خطر بقلبه تكلم به، ولا يتوقف، ولا يشنى.

وفى الخبر: «من آفة العالم أن يكون الكلام أعجب إليه من الصمت». وفى الكلام تنميق وزيادة، وفى الصمت سلامة وغنم. وفى موعظة النبى ﷺ: «طوبى لمن شغله عييه عن عيوب الناس، وأنفق الفضلَ من ماله، وأمسك الفضلَ من قوله».

والأخبار فى الصمت وفى جميع ما ذكرناه من المعانى تكثر، ولم نقصد جمعها.

وأما الخلوة: فإنها تفرغ القلب من الخلق، وتجمع الهمَّ بأمر الخالق، وتقوى العزمَ على الثبات. إذ فى مخالطة الناس وهنَّ العزم، وشتات الهم، وضعف النية. والخلوة تقلّ الأفكارَ فى عاجل حظوظ النفس، لفقد مشاهدتها بالأبصار؛ لأنَّ العينَ بابُ القلب، ومنها يدخل آفاته، وعندها توجد شهواته ولذاته. وقد قال بعض العلماء: من كثرت لحظاته دامت حسراته.

والخلوة تجلب أفكار الآخرة، وتجدد الاهتمام بها لما شهد به الإيقان، وتنسى أذكار العباد، وتواصل ذكر المعبود.

والخلوة من أكبر العوافى؛ وذلك أنه قد جاء فى الحديث: «سلوا الله العافية، فما أُعطى عبد بعد اليقين أفضل من العافية». ثم قد روى فى الخبر: «العزلة عن

الناس عافية». فدخل ذلك فى معنى ما ندب إليه من السؤال، وفيما فضل بعد اليقين على جميع الأحوال.

ولا يكون المريد صادقاً حتى يجد فى الخلوة من اللذة والحلاوة والمزيد ما لا يجده فى الجماعة. ويجد فى السر من النشاط والقوة ما لا يجده فى العلانية. ويكون أنسه فى الوحدة، وروحه فى الخلوة، وأحسن أعماله فى السر.

ومثل الخلوة فى الأحوال من المخالطة للناس مثل الخوف فى المقامات من المحبة. الخوف يصلح لجميع العابدين، والمحبة مزيد لأهلها المخصوصين، كذلك الخلوة والانفراد يصلح لجميع المريدين.

والأنس بالناس مزيد لأهله، خاصة من الأئمة العالمين، إلا أن الخلوة تحتاج إلى عقل آخر، والوحدة والانفراد يحتاجان إلى إيمان ثان. وقد روينا عن سفيان الثورى، وعن بشر بن الحارث: إذا استوحشت من الوحدة، واستأنست بالخلق، لم آمن عليك الرياء.

وكان أبو محمد يقول: اجتمع الخير كله فى هذه الخصال الأربع، وبها صار الأبدال أبدالاً: إخماص البطون، والصمت، واعتزال الخلق، وسهر الليل.

وحدثت عن عبد العزيز عن سهل رحمه الله قال: مخالطة الولي للناس ذل، وتفردّه عز، وقُلّ ما رأيت ولياً لله عز وجل إلا منفرداً. وقال بعض العارفين: الأنس بالوحدة علامة وجود الطريق.

فمن علامة صدق الإرادة بعد صحة التوبة وقوة العزم على الاستقامة إثارة هذه الأربع التى ذكرناها على أضدادها، ووجود القلب عندها، وانسراح الصدر بها، وحسن الخلق معها؛ لأنّ ضدها هو أبواب الدنيا، ومفاتيح الغفلة، وطرق الهوى.

ومن ذلك: فإن فى الشبع قسوة القلب وظلمته، وفى ذلك قوة صفات النفس، وانتشار حظوظها. وفى قوتها وبسطها ضعف الإيمان، وخمود أنواره. وفى ضعف النفس وخمود طبعها قوة الإيمان واتساع شعاع أنوار اليقين؛ وفى ذلك

قرب العبد من القريب، ومجالسته للحبيب.

والشبعُ مفتاح الرغبة في الدنيا. وقال بعض الصحابة: أول بدعة حدثت بعد رسول الله ﷺ الشبع، إذ القوم لما شبعوا بطونهم جمحت بهم شهواتهم. وروى عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ وأصحابه يجوعون من غير إغواز»، أي مختارين لذلك. وقال ابن عمر: ما شبعْتُ منذ قُتل عثمان رضي الله عنه. وقال هذا في زمن الحجاج.

وفي حديث أبي جحيفة، لما تجشأ عند رسول الله ﷺ فقال له: «اكفف عنا جُشاءك؛ فإن أطولكم شبعاً في الدنيا أكثركم جوعاً في الآخرة». فقال: والله ما تمليتُ طعاماً من يومئذ إلى يومى هذا، وأرجو أن يعصمني الله عزّ وجلّ فيما بقى.

ويستحب على هذا أن يكون جوعُ العبد في الدنيا أكثرَ من شبعه، وهى علامة الأولياء. فمن كان له أكلةٌ بين جوعتين إلى منتاهما، فجوعه حينئذ أكثر من شبعه. ومن كان له بعد جوعةٍ بالغةٍ شبعةٌ متوسطة، فقد اعتدل؛ شبعه، وأكله، وجُوعه. ومن أكل في يوم مرتين، أو أكل من غير جوع ثم شبع، فشبعه أكثر من جوعه، وهذا مكروه، وكل من أكل بعد الجوع، ورفع يده قبل الشبع، فجوعه أكثر من شبعه، وهذا أوسط الأحوال.

وقال هشام عن الحسن: والله لقد أدركتُ أقواماً كانوا لا يشبعون، يأكل أحدهم حتى إذا ردّ نفسه أمسك، ذائباً ناحلاً مقبلاً على طيه، يعيش عمره كله ما طوى له ثوب قط، ولا أمر أهله بصنعة طعام قط، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئاً قط.

وقال جعفر بن حيان عن الحسن: المؤمنُ لا يأكل في كلِّ بطنه، ولا تزال وصيته تحت جنبه.

وروينا عن الثوري: خصلتان تقسيان القلب: طول الشبع، وكثرة الكلام. وروينا عن مكحول: خصال ثلاثٌ يحبها الله عزّ وجلّ، وثلاثٌ يبغضها الله عزّ وجلّ. فأما اللاتي يحبها: فقلة الأكل، وقلة النوم، وقلة الكلام. وأما اللاتي

يبيغضها: فكثرة الأكل، وكثرة الكلام، وكثرة النوم.

فأما النوم: فإن في مداومته طول الغفلة، وقلة العقل، ونقصان الفطنة، وسهولة القلب. وفي هذه الأشياء الفوت، وفي الفوت الحسرة بعد الموت.

وروينا عن النبي ﷺ قال: «قالت أم سليمان بن داود لابنها: يا بني، لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم تترك العبد فقيراً يوم القيامة».

وقيل: كان شبان يتعبدون في بني إسرائيل، فكانوا إذا حضر عشاؤهم قام فيهم عالمهم فقال: يا معشر المريدين، لا تأكلوا كثيراً، فتشربوا كثيراً، فترقدوا كثيراً، فتخسروا كثيراً.

وكان بعض السلف يقول: أدنى أحوال المؤمن: الأكل والنوم، وأفضل أحوال المنافق: الأكل والنوم. وقال بعض الناس لفيلسوف من الحكماء: صف لي شيئاً أستعمله حتى أكون أنام النهار. فقال: يا هذا ما أضعف عقلك! إن نصف عمرك نوم، والنوم من الموت، تريد أن تجعل ثلاثة أرباعه نومًا، وربعه حياة؟ قال: وكيف؟ قال: أنت إذا عشت أربعين سنة، فإنما هي عشرون سنة، أفتريد أن تجعلها عشر سنين؟

وأما كثرة الكلام: فإن فيه قلة الورع، وعدم التقوى، وطول الحساب، وكثرة المطالبين، وتعلق المظلومين، وكثرة الأشهاد من الأملاك الكاتبين، ودوام الإعراض من الملك الكريم؛ لأن الكلام مفتاح كبائر اللسان، فيه الكذب، والغيبة، والنميمة، والبُهتان، وفيه شهادة الزور، وفيه قذف المحصن، والافتراء على الله تعالى والإيمان، وفيه القول فيما لا يعنى، والخوض فيما لا ينفع. وقد جاء في الخبر: «أكثر خطايا ابن آدم في لسانه، وأكثر الناس ذنوبًا يوم القيامة أكثرهم خوضًا فيما لا يعنيه».

وفي اللسان: التزئ، والتصنع للخلق، والتعريف، والإحالة لمعانى الصدق. وفيه المداهنة، والمواراة، والتملق لأهل الأهواء.

وفي اجتماع هذا على العبد شتات قلبه، وفي شتاته تفريق همه، وفي تفريق

همه سقوطه من مقام المقربين . وفى وصية ابن عباس لمجاهد: لا تمارنَ حليماً ولا سفيهاً، فإن الحليم يقلبك، وإن السفیه يؤذك .

وفى الخبر: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يُلْقَى لها بالاً يهوى بها أبعد ما بين السماء والأرض» . وفى لفظ آخر: «ليتكلم بها فيهوى فى جهنم سبعين خريفاً» .

وقال لقمان لابنه: لأن تعيش أخرس، يسيل لعابك على صدرك، خير لك من أن تنطق فى نادى القوم بما لا يعينك .

وفى خبر: «من افتتح بكلمة سوء، ثم خاض الناس فى مثلها، كان عليه مثل أوزارهم» . وفى الخبر: «لا يأتى بخبر السوء إلا رجل السوء» . وحدثونا عن إبراهيم بن أدهم أنه كان إذا صحبه رجل، فجاء بخبر سوء فارقه .

ورويانا فى الحديث: «من حدث بما سمعت أذناه ورأت عيناه، كتبه الله تعالى من الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا» .

ورويانا عن على رضى الله عنه: مذيعُ الفاحشة فى الناس كفاعلها .

وفى الخبر: «إنَّ بعض فقراء أهل الصفة استشهد فى سبيل الله عزَّ وجلَّ، فقالت أمه: هنيئاً لك فى الجنة، جاهدت فى سبيل الله، وهاجرت إلى رسول الله ﷺ، وقُتلت شهيداً، طوبى لك الجنة. فقال رسول الله ﷺ: وما يدريك أنه فى الجنة؟ فلعله كان يتكلم فيما لا ينفعه، أو يبخل بما لا يضره» . وفى لفظ آخر: «لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه، ويبخل بما لا يغنيه» .

وفى الخبر: إن بعض الصحابة قال لرجل: إنه لنؤوم. فقال رسول الله ﷺ: «اغتبتم أخاكم، سلوه أن يستغفر لكم» . وفى خبر آخر: إنهم قالوا: ما أعجز فلاناً! فقال ﷺ: «أكلتموه» .

وفى حديث عائشة رضى الله عنها: قالت لامرأة: ما أطول ذيلها، وفى لفظ آخر قالت: إنها لقصيرة. فقال رسول الله ﷺ: «اغتبتها» . وفى خبر آخر: إن رسول الله ﷺ قال لها: «لقد تكلمت بكلمة لو مُزج بها ماء البحر لا متزج» . فهذا من وصف المبالغة فى الشدة .

وفى الخبر الجامع لهذه المعانى فى وصف الغيبة، ما روى عن رسول الله ﷺ: «من قال فى أخيه ما فيه فقد اغتابه».

وفى حديث أبان عن أنس عن رسول الله ﷺ أشد من ذلك أنه قال: «الغيبة ما إن قلت فى أخيك، لم تزكّه به». فهذا نهاية القول من الشدة، وغاية التشديد فى الغيبة.

والغيبة: اسم لغوى، معناه شرعى، مشتق من غيَّب الإنسان. وفسرها رسول الله ﷺ: أنها أن يقول العبد فى أخيه ما فيه. وعظّمها بقوله: «هى أشدّ من الزنا». فمتى قال العبد لأخيه فى غيبته ما يعلمه يقيناً فيه، مما لا يقوله بحضره، أو مما ينقصه به، أو لا يزكّيه فيه، فقد اغتابه. فلو لم يكن فى الصمت إلا السلامة من الغيبة لكان ذلك غنيمة موفورة. كيف، وقد روى عن رسول الله ﷺ: «كلُّ كلام ابن آدم عليه لا له، إلا ثلاثة: أمرٌ بمعروف، أو نهىٌ عن منكر، أو ذكْرُ الله عزّ وجلّ».

وأما مخالطة الناس فإنّها تضعف العزم الذى كان قوياً فى أعمال البر، وتحل العقد المبرم الذى استوطنه العبد فى الخلوة، لقلّة المتعاونين على البر والتقوى، وكثرة المتعاونين على الإثم والعدوان. وفى مخالطة الناس قوّة الطلب، والحرص على عاجل الدنيا لما يعاين من إقبال أهلها عليه. وفيه الفتور عن الخدمة بالنظر إلى أهل الغفلة، والملل للطاعة بمجالسة أهل البطالة، ونقصان حلاوة المعاملة، وذهاب نور العلم، وسرعة خروج الوجد بالفهم لاستماع كلام أهل الجهالة، والنظر إلى الموتى من أبناء الدنيا. كما روى عن عيسى عليه السلام: «لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم. قيل: ومن الموتى؟ قال: المحبّون للدنيا الراغبون فيها».

وقد كان الحسن يقول فى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ٢٢] قال: الفقراء والأغنياء. كأنّ الفقراء حيوا بذكر الله عزّ وجلّ، والأغنياء ماتوا على الدنيا.

وأعظم ما فى مخالطة الناس، ومجالسة أهل البطالة وذوى غفلتهم: ضعف

اليقين برؤيتهم. وأضر ما ابتلى به العبد، وأعمله فى هلاكه، وأشدّه لحجه وإبعاده: ضعف يقينه بما وُعد به بالغيب، وتوعدّ عليه فى الشهادة. وهذا أخوف ما خافه رسول الله ﷺ على أمته، فيما روينا عنه أنه قال: «أخوف ما أخاف على أمتى ضعفُ اليقين»؛ وذلك أن ضعف اليقين هو أصل الرغبة فى الدنيا، والحرص على التكاثر منها، والتضرّع إلى أبنائها والطمع فيهم.

كما قال ابن مسعود: إنّ الرجل ليخرج من بيته ومعه دينه، فيرجع إلى بيته وما معه من دينه شيء؛ يَلْقَى هذا فيقول: إنك لذيت وذيت، ويَلْقَى هذا فيقول: أنت كيت وكيت، ولعله لا يُخلى منهم بشيء، ويرجع إلى بيته وقد أسخط الله عزّ وجلّ.

وقد قال بعض التابعين: إن العبد ليقعد فى الخلوة على خصال من الخير، فيخرج إلى الناس فيحلّون ما عقده عقدة عقدة، حتى يرجع، وقد انحلت العقد كلها.

وقوة اليقين أصل كلّ عمل صالح؛ لأن فى قوّة يقينه سرعة منقلبه، وطول مثواه فى دار إقامته، وإيثار التقلل من الفانى وتقديمه للباقى، وضعف حرصه، وقلة طلبه، وفقد طمعه، وفراغه من الاشتغال بعاجله، وإقباله وشغله بما نُدب إليه من مستقره. وفى جميع ذلك إخلاصه فى أعماله، وحقيقة زهده فى تصرف أحواله، وفى قصر أمله، وتحسين عمله. ألم تسمع إلى وصف من أخبر الله عزّ وجلّ عنه بالتكاثر الذى ألهاه، حتى زار برزخه ومثواه، كيف تهدّده حتى يعلم يقيناً، وتوعده إذا رأى آخرته عياناً، فقال سبحانه: ﴿الْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١] أى شغلكم الجمع للمكاثرة حتى حللتكم القبور. ثم قال: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥] أى لشغلكم العمل الصالح للآخرة عن اللعب واللهو، الذى هو مقتضى الشك، إذ هو ضد اليقين. فاشتغلت بالآخرة عن التكاثر من الدنيا، كما شغلكم التكاثر باللهو واللعب، لعدم علم اليقين، كما قال: ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] بعد أن قال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ

يَلْعَبُونَ ﴿الدخان: ٩﴾، ثم توعدهم على ذلك مرتين، وتهدهم بالسؤال عن النعيم الذى شغلهم وهو التكاثر فى فضول العاجل. وقيل: هو الجمع والمنع.

فاعلم أنّ الذى قطع العبادَ عن التوبة، وعرجَ بالتائبين عن الاستقامة، ثلاثةُ أشياء: الكسبُ، والإنفاقُ، والجمع. وهذه الأسباب متعلقة بالخلق، وموجودة بوجودهم، ومفقودة بالانفراد عنهم، فمن زهد فى هذه الثلاثة فقد زهد فى الخلق، ومن رغب فى الخلق فقد رغب فى هذه الثلاث.

وقال الثورى: من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راياهم، ومن راياهم وقع فيما وقعوا، فهلك كما هلكوا.

وقد قال بعض هذه الطائفة من الصّالحين: قلتُ لبعض الأبدال المنقطعين عن الخلق: كيف الطريق إلى التحقيق؟ وقال مرة: قلتُ له: دننى على عمل أعمله أجد فيه قلبى مع الله تعالى، فى كل وقت مع الدوام. فقال: لا تنظر إلى الخلق، فإنّ النظرَ إليهم ظلمة. قلت: لا بدّ لى من ذلك. قال: فلا تسمع كلامهم، فإنّ كلامهم قسوة. قلت: لا بدّ لى من ذلك. [قال:] فلا تعاملهم، فإنّ معاملتهم وَحْشة. قلت: أنا بين أظهرهم، لا بدّ من معاملتهم. قال: فلا تسكُن إليهم، فإنّ السكونَ إليهم هَلَكَة. قلت: هذه العلة. فقال: يا هذا، أنتظر إلى الغافلين، وتسمع كلامَ الجاهلين، وتعامل البطّالين، وتريد أن تجد قلبك مع الله عزّ وجلّ على الدوام؟ هذا ما لا يكون.

وقد جاء فى فضل العزلة والانفراد، وفى فضل الصمت، وفى جميع ما ذكرناه من الجوع والسهر، ومن مكابدة الليل، ما يكثر جمعه فيما نبهنا عليه، وأشرنا إليه، بلاغٌ وغنيةٌ لمن أراد الآخرة، وسعى لها سعيها وهو مؤمن، ولمن أريد بالمعاملة والمتاجرة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الفصل الثامن والعشرون

فيه كتاب مراقبة المقربين ومقامات الموقنين^(١)

• ذكر المقام الأول من المراقبة:

العبد إذا قوى يقينه عِلْمَ عِلْمٍ يَقِينٍ أَنَّ أَوْقَاتَهُ هَذِهِ الَّتِي وَكَّلَ تَرْبِيَتَهُ إِلَيْهَا، وَجُعِلَ سَبَبُ نَمَائِهِ وَحَيَاتِهِ مِنْهَا، هِيَ مَكْرَرَةٌ عَلَيْهِ فِي الْبَرَزَخِ، وَمَرْدُودَةٌ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَعَادَةٌ عَلَيْهِ فِي الْجَنَّةِ، إِنْ دَخَلَهَا لَيْسَ يُجَازَى هُنَاكَ إِلَّا بِمَقْدَارِ مَا أُعْطِيَ مِنَ الْمَعَامَلَةِ هَهُنَا، وَلَا يُعْطَى ثُمَّ إِلَّا بِقَدَرِ مَا وَفَّقَ هَهُنَا، لَا يُسْأَلُ إِلَّا عَنْ أَوْقَاتِهِ، وَلَا يُحَاسَبُ إِلَّا بِسَاعَاتِهِ، وَلَا يُجَازَى إِلَّا عَلَيْهَا، وَلَا تُرَدُّ عَلَيْهِ أَوْقَاتٌ غَيْرُهُ كَمَا لَا يُعَادُ هُوَ فِي صُورَةٍ غَيْرِهِ، وَلَا يُعْطَى جِزَاءٌ سِوَاهُ كَمَا لَمْ يُعَامَلْ هَهُنَا مَعَامَلَةً سِوَاهُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ، فَمَنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥]، ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩] مِنْ تَدْبِيرِهِ، ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] أَى تَدْبِيرُوا آيَاتِهِ، هَلْ تَرَوْنَ جِزَاءَ هَؤُلَاءِ لَوْصَفَ هَؤُلَاءِ، أَمْ هَلْ تَجِدُونَ وَصْفَ هَؤُلَاءِ لَهُ جِزَاءٌ أَوْلَاءِ؟ وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [النساء: ١٢٣] فَنفَى أَمَانِيَهُمْ بَلِيسَ، وَأَثْبَتَ حَكْمَهُ بَلَكِنْ، وَهِيَ مُضْمَرَةٌ فِي الْكَلَامِ، الْمَعْنَى: لَكِنْ مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا يُجْزَى بِهِ. وَفَسَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «الْمُؤْمِنُ يُجْزَى بِسَيِّئَتِهِ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْمَصَائِبِ وَالْجُوعِ وَالْعُرَى، وَالْمُنَافِقُ تَبْقَى ذُنُوبُهُ عَلَيْهِ حَتَّى يُوفَّى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَأَنَّهُ حِمَارٌ يُجَازَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ».

(١) انظر في المراقبة: إحياء علوم الدين: ٣٩٣/٤ وما بعدها، مدارج السالكين: ٦٧/٢ وما بعدها،

عوارف المعارف، ص ٤٣٠ وما بعدها.

وكان الحسن يقول: عباد الله، اتقوا هذه الأمانى، فإنها أودية النوى^(١) يحلّون فيها، والله ما أتى عبد الله بأمنيته^(٢) خيراً من دنياء ولا آخرته. وقال بعض العلماء: كلما قلّ العقل كثرت الأمانى.

وكتب بعض السلف إلى بعض إخوانه من أبناء الدنيا يعظه: أخبرنى عن هذا الذى تكّدح فيه، وتحرص عليه من أمر الدنيا، هل بلغت فيه ما تريد، وأدركت ما تتمنى؟ فقال: لا والله. فقال: أرأيتك هذا الذى أنت حريص عليه لم تنل منه ما تريد، فكيف تنال من الآخرة وقد أعرضت عنها وصرفت عنها؟ فما أراك تضرب إلا فى حديد بارد.

وقال بعض العلماء: من ظنّ أنه يدخل الجنة بغير عمل فهو متمنّ، ومن قال أدخلها بعمل فهو متعنّ. وقال بعضهم: الأمانى تُنقص العقل. وفى الخبر: «ليس الإيمان بالتحلى ولا بالتمنى، ولكن ما وقرّ فى القلب وصدقه العمل».

ومن هذا قول الله عزّ وجلّ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]. وقال فى ضده: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [غافر: ٤٠]. وقال فى معناه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ [التوبة: ١٦]. وكذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وقال فى مثله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ثم قال: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، فأبطل حسابانهم، وأدحض حكمهم، ثم أحكم ما عنده بقوله: ﴿سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ [الجاثية: ٢١] أى هم كما كانوا فى الحيا محسنين يعملون الصالحات كانت لهم الحسنى فى الممات، وكما كانوا فى الحيا مفسدين يعملون السيئات كانت لهم السوآى والمكروهات.

(١) النوى: الحمقى، مفردة: أنوك.

(٢) فى (ك): «بتمنيته».

وقيل: كانت هذه الآية مبكاة للعابدين؛ لأنها محكمة غير متشابهة. وكذلك جميع ما ذكرناه من نظائرها هو من المحكم الذى هو أم الكتاب، غير منسوخ ولا متشابه. وهذه الآى من عزائم القرآن، وهو من أحسن ما أنزل علينا من ربنا، الذى أمر الله سبحانه وتعالى باتباعه، ووصف أهل الهدى وأولى الألباب باستماعه فى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨] قيل: عزائمه ووعيده.

وقد قيل فى قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] قيل: الرجاء الخائب بالاغترار والظن الكاذب. وقيل: عملوا أعمالاً ظنوا أنها حسنات فوجدوها عند المحاسبة سيئات. والصحيح ما صحّ بعد الحساب، والحق ما ثقل عند الميزان، كما قال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ [الاعراف: ٨] قيل: العلم والعمل. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الاعراف: ٥٢]، ثم قال: ﴿فَلَنَنْقُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾ [الاعراف: ٧]، ثم قال تعالى: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الزمر: ٤٨] قيل: كانوا يقدمون الذنب، ويؤخرون التوبة، ويسوفون بالمغفرة. وكانت هذه الآية محزنة للخائفين، ومخافة للعارفين. وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنه أعدّ النار للكافرين، ثم أمر المؤمنين باتقائها، ثم وصف الكافرين فيها، وخوف عباده بها، فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]. وقال سبحانه: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُوا﴾ [الزمر: ١٦].

ويقال: إنّ العبد يستحق النار بأول معصية عصى مولاه بها بعد المعرفة، ثم هو بعد ذلك فى المشيئة. وإنّ فى كل عبد خصلة كريهة يخاف عليه منها.

وكان عبد الواحد بن زيد يقول: ما صحّ خوف خائف قط ظنّ أنه لا يدخل النار. وما صدق خوف من ظنّ أنه يدخل النار فظنّ أنه يخرج منها. أى أنّ حقيقة الخوف خشية دخول النار، ثم الخلود فيها.

وقد روينا مثل ذلك عن الحسن وقد ذُكر له الرجل الذي يخرج من النار بعد ألف عام، فبكى ثم قال: يا ليتنى مثل ذلك الرجل.

وروى عن رسول الله ﷺ: «من قال إني في الجنة فهو في النار. ومن قال: إني عالم فهو جاهل».

وروى عنه ﷺ: «من أراد أن يعلم كيف منزلته من الله تعالى فلينظر كيف منزلة الله في قلبه، فإن الله ينزل العبد منه بحسب ما أنزله من نفسه».

• ذكر المقام الثاني من المراقبة:

ثم يعلم العبدُ يقيناً أن لكل عمل صالح نعيماً في الجنة، وروحاً في البرزخ. ولكل عملٍ حسن ومعرفةٍ خالصة مقاماً في الجنة، وقد قُسم جزء هناك لعطاء معاملة ههنا. وأن لكل عمل سيئ وجهل قبيح عذاباً في الآخرة، وكرهاً في البرزخ، ومقاماً من النار، قد قسم جزء هناك لعمل ههنا. ثم قد أخفى الله ذلك الجزء من الخير والشر، وأظهر أعمالهما للحاكمين، وأبان لهما طريقين يجريان إلى دارين، حكمةً منه. ثم قدّم المعاملات من المعنيين، وأخر المثوبات من النوعين، إحكاماً منه للأفعال، واستسعاءً للعبد بالأعمال، ابتلاءً منه لتُجزى كل نفس بما تسعى، مئةً منه ورحمةً، وقدرةً منه ومحبةً، لا يسئل عما يفعل؛ لأنه ملك قهار عزيز جبار، وهم يسئلون؛ لأنهم عبيد مقهورون، وذُلُّ مجبورون، ولا تُضرب له الأمثال؛ لأنه قد جاوز الاحتجاج والاعتدال، ولا يُسوى بالعبيد؛ لأنه قد فات التقدير والتحديد، فله الحجة البالغة، والقدرة النافذة في كل شيء، ليس كمثل شيء في جميع ذلك كله.

وقد أحكم الله تعالى ما ذكرناه في توحيد نفسه بالمشيئة والأفعال، ونهيه عن الشرك به وضرب الأمثال. وعجب ممن يسوى بينه وبين خلقه في الأحكام، وجعل ذلك جحود النعمة وشركاً في ملكه، وأخبر به عن المشركين وإضلالهم أتباعهم بعد ضلالهم المبين، وإضلالهم بتسويتهم بينه وبين عباده في الأحكام، في قوله تعالى: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ

نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ ﴿٩٦﴾ [الشعراء: ٩٦ - ٩٩]. قيل: أنزلت في القدرية؛ لأنهم أضافوا الحول والقوة في الشر إلى الخلق، فسووا بينهم وبين الخالق. وقد قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦]، فأضاف الأعمال إلى أنه خلقها كخلقهم إياهم، فهم المجرمون الذين أنزلت فيهم هذه الآية، التي ذكر فيها القدرية فوصفوا بإنكارهم، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٧ - ٤٩]. هم المجرمون الذين أضلوا أتباعهم، وهم الغاؤون الذين كُبيبوا في النار مع أشياعهم.

وقد أحكم الله تعالى تفضيل ما ذكرناه آنفاً في خمس آياتٍ محكماتٍ تنظمُ جمل معاني ما ذكرناه، تركنا شرح ذلك وبسطه، خشية الإطالة، لأننا لم نقصد الاحتجاج في الاستدلال، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ يعني: فضل الموالى على العبيد ﴿فَمَا الَّذِينَ فَضَّلُوا﴾ يعني الموالى ﴿بِرَادَىٰ رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل: ٧١].

والآية الثانية قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ [الروم: ٢٨] أى: فكذلك أنا لا شريك لى من عبيدى، فلا تجعلوا لى ما لم أجعل أحداً لا خلقى ولا عبيدى عليكم، إذ لم أسو بينكم وبين عبيدكم، فلا تشركوا عبيدى فى حكمى.

والثالثة قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ يعني: الإنفاق ﴿وَمِنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ﴾ [النحل: ٧٥] فجعلهما على وصفين، أحدهما: بخیل لم يقدره على الإنفاق، ثم ذمّه بالبخل والعجز وهو الذى أعجزه ومنعه، وجعل الآخر جواداً إذ قدره وأعطاه الإنفاق، ثم مدحه بالجوود.

وقال فى الآية الرابعة: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ

شيء ﴿هو الحكمة والعلم، ثم قال: ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾؟ [النحل: ٧٦] فجعل له عبيدين: أحدهما: سفيه جاهل أبكم عن الحكمة، ولم يقدره على علم، ولم يعطه استقامة، ثم ذمّه بوصفه ومقته لمنعه. وجعل الآخر آمراً بالعدل عن أمره، مستقيماً على صراطه المستقيم الذي هو عليه، وهو أقامه، كما قال: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحجر: ٤١]، فهل يسلك أحد طريقه إلا به؟ وهل يجوز عبد على سبيله إلا بحوله؟ ثم مدحه بإعطائه إياه ووصفه بوصفه، ثم علّم سبحانه أن للعقل في هذا تشبيهاً وتمثيلاً بخلقه، وتجويزاً وتظليماً من خالقه، على قياس العقول، أن من فعل بعبدین له مثل هذا، ثم مدح أحدهما وهو الذي أعطاه وأقدره، وذم الآخر وهو الذي منعه وأعجزه، أنه قد ظلمه، فحسم ذلك عزّ وجلّ بنهيه، وأحكم النهي عن التمثيل به.

وفي الآية الخامسة الفاصلة القاضية التي نهانا فيها أن نضرب له بنا الأمثال مثل ما أجرى علينا من الأفعال فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤]. فوكّد ذلك بتحقيق علمه وغاية جهلنا، ثم أيد هذا بقوله سبحانه: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] فسلم الراسخون في العلم الأحكام كلّها للحاكم، فسلموا من عذابه، وآمن المؤمنون بجميع الأقدار أنّها عدل وحكمة من حاكم عادل حكيم، فأمنوا من عقابه؛ لأنهم آمنوا بالمتشابه، وأعطاهم بفضله من فضله جزيل ثوابه، فهلك الزائغون بالأقاويل، تبعاً للشبهات وابتغاءً للتأويل، فوقعوا في الضلال، وهلكوا غداً في المال.

وقد روى الضحاك عن ابن عباس تصديقاً ما ذكرناه، قُبيل قوله عزّ وجلّ: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤]. قال ابن عباس: طبق أسفل من طبق، سبع دركات على قدر أعمالهم، كذلك يقتسمون الدركات بقدر ما اجترموا، كما اقتسم أهل الجنة الدرجات بالفضائل، ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ يعني: نصيباً معلوماً مفروضاً لكل طبقة سكان.

وقال بعض العلماء: تالله ما في الجنة قصر ولا نهر ولا نعيم إلا عليه اسم

صاحبه مكتوب، واسم ذلك العمل الذى هو جزاؤه مكتوب. وكذلك جهنم ما فيها غلٌّ ولا قيد ولا شِعْب ولا عَذَاب إلا وعليه وصفُ ذلك العمل الذى هو جزاؤه، واسم صاحبه مكتوب. وقال: قد أدخلهم الجنة قبل أن يطيعوه، وأدخلهم النار قبل أن يعصوه.

وقال بعض العارفين أيضاً: الخلقُ أهونُ من أن يعصوه عزّ وجلّ بما لم يُرد، واللهُ أعزُّ من أن يرضيه إلا ما أحبّ، لكنه غَضِبَ على قومٍ فى العدم، فلما أظهرهم استعملهم بأعمال أهل الغضب، ليحلّهم دار الغضب، ورضى عن قومٍ فى القدم، فلما أظهرهم استعملهم بأعمال أهل الرضا، ليحلّهم دار الرضا.

وقال بعضُ أهل المعرفة: أظهر الخلقَ فى العدم، وأوجدَهُم إياهم اقتداراً، ثم أظهر لهم أعمالهم، وخيّرهم الأعمال منه اختياراً، فاختر كلُّ عبدٍ منهم عملاً بعينه، ثم طوى الأعمال فيهم، وطواهم فى الغيب، فلما أظهرهم الآن فى الوجود حجبهم بالعقول، وأجرى كلُّ عبدٍ منهم اختياره لنفسه، فبذلك وقعت الحجة عليهم إذا كشف لهم غداً ما حجبه عنهم اليوم.

وحُدِّثُ عن بعضِ هذه الطائفة قال: كان قد بقى فى نفسى شىء من القدر، وكنت أستكشفه من العلماء فلا ينكشف، حتى قيّضَ الله تعالى لى بعضَ الأبدال فاستكشفتُه إياه، فقال: ويحك ما تصنع بالاحتجاج، نحن يُكشَفُ لنا عن سرِّ الملكوت، فننظر إلى الطاعات تنزل صوراً من السماء حتى تقع على جوارح قوم فتتحرك الجوارحُ بها، وننظر إلى المعاصى صوراً مصوّرة تنزل من السماء، فتقع على جوارح قوم فتتحرك بها. قال: فكشف عن قلبى القدر، وأوقع لى العلمَ بمشاهدة القدرة^(١).

وكنتُ أنا مرةً خاطبتُ بعضَ إخواننا فى شىء من الاستطاعة مع الفعل، لا أنّها^(٢) قبله ولا بعده، فتكلّمت فى ذلك بمذهب المثبته من أهل الكلام، قبل أن ينكشف لى مُشاهدة علم اليقين، فرأيتُ فى النوم كأنّ قائلاً يقول: القدر من

(١) فى (ك): «مشاهدة اليقين».

(٢) فى (ط): «لا أنه».

الْقُدْرَةِ، وَالْقُدْرَةُ صِفَةُ الْقَادِرِ، فَيَقَعُ الْقَدْرُ عَلَى الْحَرَكَةِ وَلَا يَتَبَيَّنُ، فَتُظْهِرُ الْأَفْعَالُ مِنَ الْجَوَارِحِ، أَوْ قَالَ: فَتَتَحَرَّكُ الْجَوَارِحُ بِالْأَفْعَالِ وَتَسْتَبَيِّنُ^(١)، فَكَيْفَ يُتَكَلَّمُ فِي شَيْءٍ لَا يَتَبَيَّنُ. فَجَعَلْتُ عَلَى نَفْسِي أَنِّي لَا أَنَاظِرُ أَحَدًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَابِ.

وَقَدْ حَدَّثُونَا عَنْ بَعْضِ الْعَابِدِينَ قَالَ: صَلَّيْتُ مِنَ السَّحَرِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ غَفَوْتُ بَعْدَهُمَا، فَرَأَيْتُ قَصْرًا عَالِيًا ذَا شُرْفٍ بَيِضٍ كَأَنَّهَا الْكَوَاكِبُ، فَاسْتَحْسَنْتُهُ، فَقُلْتُ: لِمَنِ هَذَا الْقَصْرُ؟ فَقِيلَ لِي: هَذَا ثَوَابُ هَاتَيْنِ الرُّكْعَتَيْنِ، فَفَرَحْتُ فَجَعَلْتُ أَطُوفُ حَوْلَهُ، فَرَأَيْتُ شُرْفَةً مِنْ رُكْنِهِ قَدْ وَقَعَتْ فَشَانَهُ ذَلِكَ، فَاعْتَمَمْتُ، وَقُلْتُ: لَوْ كَانَتْ هَذِهِ الشَّرْفَةُ فِي أَعْلَاهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ لَتَمَّ حُسْنُ هَذَا الْقَصْرِ، فَإِنَّ ثَلَمَهَا قَدْ شَانَهُ. فَقَالَ لِي غَلَامٌ هُنَاكَ: قَدْ كَانَتْ هَذِهِ الشَّرْفَةُ فِي مَكَانِهَا مِنَ الْقَصْرِ، إِلَّا أَنَّكَ التَفَتَّ فِي صَلَاتِكَ فَسَقَطَتْ.

وَحَدَّثُونَا عَنْ بَعْضِ الزَّهَادِ أَنَّهُ كُوشِفَ مَقَامُهُ مِنَ الْجَنَّةِ، فَرَأَى الْحُورَ الْعَيْنِ، وَقُلْنَ: نَحْنُ أَزْوَاجُكَ. فَلَمَّا خَرَجْتُ تَعَلَّقْتُ بِبَنَاتِ الْحُورِ وَقُلْنَ: نَشْدُكَ اللَّهُ إِلَّا مَا حَسَّنْتَ أَعْمَالَكَ، فَإِنَّكَ كَلَّمَا حَسَنْتَهَا أَزِدَدْنَا لَكَ حَسَنًا، وَازْدَدْتَ بِنَا نَعِيمًا.

وَحَدَّثُونَا عَنْ رَابِعَةِ الْعَدْوِيَّةِ رَحِمَهَا اللَّهُ تَعَالَى قَالَتْ: سَبَّحْتُ ذَاتَ لَيْلَةٍ تَسْبِيحَاتٍ مِنَ السَّحَرِ، ثُمَّ نِمْتُ، فَرَأَيْتُ شَجَرَةً خَضِرَةً نَضِرَةً لَا تُوصَفُ عَظَمًا وَحَسَنًا، وَإِذَا عَلَيْهَا ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ الثَّمَرِ لَا أَعْرِفُهُ مِنْ ثَمَارِ الدُّنْيَا، كَثْدَى الْأَبْكَارِ؛ ثَمَرَةٌ بَيَضَاءُ وَثَمَرَةٌ حُمْرَاءُ وَثَمَرَةٌ صَفْرَاءُ، فَهَنَّ يَلْمَعْنَ كَالْأَقْمَارِ وَالشَّمُوسِ فِي خِلَالِ خَضِرَةِ الشَّجَرِ. قَالَتْ: فَاسْتَحْسَنْتُهَا، فَقُلْتُ: لِمَنِ هَذِهِ؟ فَقَالَ لِي قَائِلٌ: هَذِهِ لَكَ بِتَسْبِيحَاتِكَ آنَفًا. قَالَتْ: فَجَعَلْتُ أَطُوفُ حَوْلَهَا فَإِذَا تَحْتَهَا ثَمَرَةٌ مَنَشْرَةٌ عَلَى الْأَرْضِ فِي لَوْنِ الذَّهَبِ، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَتْ هَذِهِ الثَّمَرَةُ مَعَ هَذِهِ الثَّمَارِ عَلَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ لَكَانَ أَحْسَنَ، فَقَالَ لِي الشَّخْصُ: قَدْ كَانَتْ هُنَاكَ، إِلَّا أَنَّكَ حِينَ سَبَّحْتَ تَفَكَّرْتَ هَلْ اخْتَمَرَ الْعَجِينَ أَمْ لَا، فَانْتَرَتْ هَذِهِ الثَّمَرَةُ.

فهذه عبرة لأولى الأبصار، ومواعظ لأهل التقوى والأذكار.

(١) في (ط): «ولا يتبين».

• ذكر المقام الثالث من المراقبة:

رُوى أن كعب الأخبار قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه: لو لقيت الله تعالى بعمل سبعين نبياً لخشيت أنك لا تنجو من هول ذلك اليوم.

وقال بعض السلف: لو أن العبد كان يُجرُّ على وجهه من أول الدنيا إلى قيام الساعة في طاعة الله وعبادته لاحتقره يوم القيامة، لما يرى من الزلازل والأهوال.

وفى الحديث: «معالجة ملك الموت أشدَّ من ألف ضربة بالسيف. وإن ألم شعرة من الموت لو وُضع على جميع الخلائق لامتوا. وإن بين الخلائق وبين الموت وبين دخول الجنة مائة ألف هول، كل هول منها يزيد على ألم الموت مائة ألف ضعف، لا ينجو العبد من كل هول منها إلا برحمة الله».

فيحتاج العبد إلى مائة ألف رحمة تنجيه من تلك الأهوال، يكون ذلك العدد من الرحمة مقسوماً على مائة ألف حسنة أعطيها من حسناته في الدنيا التي أحسن بها إليه، يكون مكاناً لظهور الرحمة، وطريقاً لعطائها غداً، حكمة من الحكيم، وقسماً مدبراً من الرحيم، لأن الصالحات طرق الجزاء، والحسنات كلها عن الرحمة الواحدة التي سبقت له بها النجاة، ثم سقطت في طرقات الأعمال أماكن الثواب^(١)، فيعطى ذلك ههنا اليوم، وهو العطاء الأول، بحسن توفيقه ولطف عنايته، ويعطى الجزاء هناك غداً بفضل رحمته وتتمام نعمته، ذلك تقدير العزيز العليم، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

قيل في الخبر: «ما جزاء من أنعمنا عليه بالتوحيد إلا الجنة».

وقال بعض العلماء: وليس لقول لا إله إلا الله جزاء إلا النظر لوجه الله تعالى.

والجنة جزاء الأعمال. ألم تر أنه لو حُرِمَ التوحيد اليوم لَحُرِمَ الجنة، ولو مُنِعَ الإسلام اليوم لم يغفر الله له أبداً؟ كما قال عز وجل: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ

(١) فى (ك): «والحسنات أماكن الثواب».

حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ﴿[المائدة: ٧٢]﴾. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [محمد: ٣٤]، فهذا مما لا حيلة فيه ولا سبيل إليه، وقد قال: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المائدة: ٥٦]. قيل: هو أهل أن يعطى التقوى، ومن أعطاه التقوى فهو أهل أن يعطيه المغفرة، كقوله تعالى: ﴿وَالرَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]. وقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]. وقال: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]. وقال سبحانه: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٤]. وقال تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨] مع ^(١) قوله: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣]. فمن كانت أعماله الحسنات فهو من المحسنين، ومن كانت أعماله سيئة فهو من المسيئين. فاشتقاق الحسنة من الحُسْن، وجزاؤها الحسنى، وهى الجنة. واشتقاق السيئة من السَّوْء، وجزاؤها السَّوْأى، وهى النار. وقد سبق خلقهما قبل خلق الخلائق، وفرغ من نصيب العباد من الجنة والنار. وسئل رسولُ الله ﷺ عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه». فهذا أولُ المراقبة، لأنها عن غير المشاهدة، ترى الرقيب ثم تراقب.

وقد خص الله تعالى بالطَّيِّبَات من الأعمال الطَّيِّبِينَ من العمال، وابتلى بالخبثات من الأعمال الخبيثين من العمال، وفرغ من ذلك بعلمه، وقدره بحُكمه، وأخفاه بلُطفه، فقال تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾، قيل: الخبيثات من الأفعال والأقوال للخبيثين من الرجال. وقال: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النور: ٢٦]، قيل: الطَّيِّبَات من الأعمال والمقال للطَّيِّبِينَ من الرجال.

ثم أخبر بحسن خاتمة أوليائه وسوء خاتمة أعدائه، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]،

(١) فى المطبوعة: «إلى»، وهى خطأ والصواب من المخطوط.

قيل : طابت حياتهم فطابت وفاتهم، وطابت أعمالهم فطاب الموت لهم.
وقال في وصف الظالمين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧]، أظلمت حياتهم وأعمالهم، فأظلمت قبورهم ومثواهم.

فمن شهد ما ذكرناه يقيناً دامت مراقبته، وحسنت معاملته، واتصلت أوراده، وكثر من الخير ازدياده، ونفذت مشاهدته لصفاء يقينه ودوام مزيده، فكان ممن ندب الله عزّ وجلّ في قوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصفات: ٦١]، ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، وكان ممن وصف إذ يقول: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١]، أى: يسارعون الموت ويسابقون الفوت، ويسارعون الغافلين ويسابقون البطالين. ولعل بطلاً من الشاطحين، جاهلاً بحكمة الحكيم، يتوهم علينا بظنه أننا نقول: إنه لا يعطى إلا شيئاً بشيء. ولسنا نقول ذلك، إنما نقول: إنّه يعطى شيئين بلا شيء. فهو المعطى الأول للشيء الذى هو الظرف والمكان من العبادة والإيمان، وهو الذى يعطى الشيء الذى هو النعيم والجنان، إلا أنه أجرى ذلك بتقديره فى مجارى حكمته، كما سبق ذلك فى علمه، ثم أنشأه فى معلومه، لأنّه حكيم عليم.

• ذكر المقام الرابع من مراقبة الموقنين:

ثم يعلم العبد يقيناً أنه تُنشر له سنوه فى الآخرة شهوراً، وتُبسط شهوره أياماً، وتُفترش أيامه ساعات، وتُكشف ساعاته أنفاساً، ثم يُسأل عن كل نفس، ويُنشر له بكل فعلة فعلها وإن صغرت ثلاثة دواوين: الأول: لم فعلت؟ وهذا مكان الابتلاء بالأحكام، فإن سلم له نُشر له الديوان الثانى وهو: كيف فعلت؟ وهو موضع المطالبة بصحة العلم، فإن صح له هذا نُشر عليه الديوان الثالث وهو: لمن فعلت؟ وهذا مكان المطالبة فى الإخلاص، فإن اعتل بكيف، أو بلم، أو بلمن، خيف عليه الهلكة، إلا أن يتعطف عليه الكريم المتان من حيث لا يحتسب، فيستنقذه

ويسمح له، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ [الأنبياء: ٤٧] أى: جئنا بها، أى أحضرناها. وقرئت بالمد «أَتَيْنَا بِهَا»^(١) بمعنى: جازينا بها. وقال عز وجل: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. وقيل: هذه أحكم آية فى كتاب الله عز وجل، وهى مجملة مبهمة عامة. وكان رسول الله ﷺ إذا سئل عن شىء لم يوح إليه فيه بشىء يقول: «ما عندى فيه إلا هذه الآية الجامعة الفاذة. ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآية».

ولما تعلم صعصعة جد الفرزدق من أسفل القرآن إلى هذه السورة، قال: حسبى حسبى قد عرفت الخير والشر، فقال رسول الله ﷺ: «انصرف الرجل فقيها».

وقيل: الذرة قشرة الهباء الذى يظهر فى شعاع الشمس مثل رءوس الإبر.

وروى عن ابن عباس أنه قال: إذا وضعت كفك على التراب، ثم رفعتها، فكل شىء تعلق بها من التراب فهو ذرة. وقد قيل: أربع ذرات خردلة. وذكر بعض العلماء أن الذرة جزء من ألف جزء من شعيرة.

ففى الأعمال ما يزن هذا الشبح، وما يثقل به هذا الخفاء، فلذلك أخبر به الخبير، وحذر منه الرؤوف.

وفى معنى ما ذكرنا آنفاً مَنْ حَسَبَ أَنَّهُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِعَمَلٍ فَهُوَ مُتَعَنٌّ، وَمَنْ حَسَبَ أَنَّهُ يَدْخُلُهَا بِغَيْرِ عَمَلٍ فَهُوَ مُتَمَنَّ. يعنى أنه ينبغي أن يعمل ما عليه، ولا ينظر إليه، ثم يتوكل فى ذلك على الله عز وجل، ويرجو قبوله بكرمه، ويخاف رده بعدله. ولذلك مدح الله سبحانه وتعالى عباده الصابرين له، المتوكلين فى أعمالهم عليه، فأنعم أجرهم فقال: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النكبات: ٥٨، ٥٩]. فالزيد فى الجنة بفضل الله ورحمته هو تأييد جزاء المعاملة الموهوبة اليوم، ودوام خلود العامل فى تأييد جزائه. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣]، مع قوله: ﴿لِلَّذِينَ

(١) هذه قراءة مجاهد، انظر: البحر المحيط ٣١٦/٦، المحتسب ٦٣/٢، معانى القرآن، للفراء،

٢٠٥/٢، إعراب القراءات السبع، لابن خالويه، ٦٢/٢.

أَحْسِنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةً ﴿[يونس: ٢٦]﴾، ومثل قوله: ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ [سبا: ٣٧]، ومثله: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢]، ونحوه: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [القصص: ٥٤] أى: وبما يدرأون بالحسنة الحديثة السيئة القديمة. فلما استعملهم فى الدنيا بعملين: بالصبر، وبدرء السيئة الماضية بالحسنة المستأنفة، أعطاهم فى الآخرة أجرين. وهذا من الكلام المحذوف الموجز، فمحذوفه: «وبما يدرأون» أى: وبما يدفعون أيضاً، فلما حذفت «بما» أشكل الكلام، فأشبهت الواو واو النسق، ومؤخره السيئة، والمعنى: يدفعون السيئة التى تقدمت منهم بالحسنة التى يعملونها بعدها، فتكون الحسنة المستقبلية رافعة لعقاب السيئة الفارطة منهم.

ومن أحسن الصبر صبرٌ عن المعصية^(١)، ومن أحسن الحسنات التوبة النصوح بعد ما سلف من الذنوب والفضوح. فكأنهم قد عملوا عملين: صبروا عن الشهوة، ودفعوا بالتوبة ما سلف من السيئة، فأعطاهم أجرين لما استعملهم بعملين، إذ لا صبر إلا به، ولا توبة لهم إلا منه، كما قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، [وقال: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾]^(٢) [التوبة: ١١٨]، وقال فى مثله: ﴿تَوْبَةَ مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ٩٢]. وليس للعبد أولية فيما من الله، وإلا كان شريكاً بالاسم الأول^(٣).

ومن أحسن الحسنات مراقبة الرقيب عند خطرات القلوب، ومن أفضل القربات محاسبة النفس للحسيب واستجابتها بطاعة الحبيب.

وكذلك حكمته فى مزيد أهل النار، ودركات بعضهم على بعض فى العتوّ والفساد، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ

(١) فى (ط): «الصبر على المصيبة» وأثبت ما فى (ك).

(٢) هذه الآية ساقطة من المطبوعة وهى فى الأصل المخطوط.

(٣) هذه الجملة كانت فى المطبوعة كما يلى: «وليس من العبد أو إليه فيما من الله وإلا كان مشركاً فى اسم أول». وأثبت ما فى (ك).

العَذَابِ ﴿النحل: ٨٨﴾ أى: زدناهم عذاباً فوق عذاب الذين كفروا ولم يصدّوا عن سبيل الله. وبمعناه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ [النساء: ١٦٨] فلم يغفر لهم بكفرهم، ولم ينور لهم طريق الهداية بظلمهم. وكذلك قال رسول الله ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة».

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]، فصار عليهم عذابان: عذاب جهنم بما لم يتوبوا، وعذاب الحريق بما فتنوا المؤمنين.

ومثله قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥] أى: يريد أن يعذبهم بها فى الدنيا، ويريد أيضاً أن تزهق أنفسهم على الكفر ليعذبهم بها فى الآخرة، وهذا نص صريح أن الله تعالى يريد الكفر من الكافرين^(١)، لأن «تزهق» انتصب بالعطف على «يريد» الأول، والواو فيه للجمع. وقد قيل^(٢): إن فى هذه الآية تقديمًا وتأخيرًا، فيكون المعنى: ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم فى الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة، فأراد أن يجمع العذابين عليهم فى جهنم، أحدهما: الأموال والأولاد، والثانى: لإرادته تعالى أن تخرج نفوسهم على الكفر. فمن لا مال له ولا ولد له منهم كان عليه عذاب واحد فى جهنم، لأجل قوله تعالى: ﴿بِهَا﴾ أى بسببها. وهذا موافق للخبر الذى جاء أن «فقراء الكفار يدخلون النار بعد أغنيائهم بخمسائة عام»؛ لأجل الفقر الذى كانوا فيه فى الدنيا، كما أن الفقراء من المؤمنين يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسائة عام؛ لأجل غنى أولئك.

وفى الخبر أيضاً: «وتدخل المرصى إلى الجنة قبل الأصحاء بأربعين خريقاً. ويدخل المقتول فى سبيل الله مقبلاً قبل المقتول فى سبيل الله مدبراً بأربعين خريقاً».

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٦٤/٨.

(٢) هذا قول أكثر أهل العربية، كما فى تفسير القرطبي ١٦٤/٨.

وتدخل الممالك قبل الموالي بأربعين خريقاً. ويدخل سليمان بن داود الجنة بعد الأنبياء بأربعين خريقاً، لمكان ملكه».

فالحسرة العظمى والفوت الأكبر الذى لا درك له هو تأييد حرمان ما أُعطى غيرك من المزيد هناك، لفوت أوقاتك فى الدنيا ههنا، ثم درك ذلك بأوقاته العامرة ههنا تأييد مزيد جزائه ثم. وهذا هو التغابن؛ غبن العاملون البطالين، وغبن السابقون المخلفين، وغبن المسارعون المثبطين. ثم خلود العبد البطال المغبون فى الدنيا فى تأييد حرمان مزيد الغابن العامل. ومن هذا قوله ﷺ: «ما من ساعة تأتى على ابن آدم لا يذكر الله تعالى فيها إلا كانت عليه حسرة، وإن دخل الجنة». وفى لفظ آخر - وهو أشد - «إلا كانت عليه ترة يوم القيامة» أى: مطالبة ومؤاخذه. فالحسرة فى الجنة بعد دخولها والظفر بنعيمها هو ما ذكرناه من حرمان مزيد العاملين فيها، ثم دوام الحرمان مؤبد بها، وهو كون العبد فى نقصان درجة غيره، ثم هو مخلد فى النقصان سراً. ومع ذلك فلا يؤبه له، ولا يفتن به، كيلا ينجس عليه نعيمه.

والطرفة والنفس إذا خلتا من اليقظة والذكر فيهما بمنزلة الساعة الخالية، إلا أن النبى ﷺ نص على الساعة ولم يذكر ما دونها، لأن اسم الساعة أقل الزمان المستعمل عند العرب، ليواطئ بقوله ﷺ قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الاعراف: ٣٤]. ومعلوم أنه إذا جاء الأجل لا يستأخرون نفساً ولا طرفة عين، وكذلك لا يستقدمون طرفة ولا نفساً. فذكرت الساعة دون ما نقص منها؛ لئلا يخرج الكلام عن حد استعمالهم وعرفهم، وليستدل بها على ما دونها فى القلة من النفس والطرفة.

وكذلك دل رسول الله ﷺ بنصه على الساعة على ما دونها لأن حكمته من حكمة مولاه، وكلامه على معانى كلامه. وقد دخلت الساعة فما دونها فى الأيام التى قال الله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فى الأيامِ الخالية﴾ [الحاقة: ٢٤]. قيل: هى والله أيامكم هذه، وستخلو، فاشغلوها بالأعمال الصالحة

قبل خلوها منكم وانقضائها عنكم.

وكان الحسن يقول: يا ابن آدم إنما أنت مراحل، كلما مضى منك يومٌ أو ليلةٌ قطعت مرحلة، فإذا فنيت المراحل بلغت المنزل إلى الجنة أو النار.

فالساعات تنقلنا، والأيام تطوينا، كما قال بعض الحكماء: مثلُ العبدِ في عمره مثلُ رجلٍ في سفينة تسير وهو قاعد، كذلك العبد يدنو من الآخرة وهو غافل. ويقال: إنَّ العبدَ تُعرض عليه ساعاته في اليوم واللييلة، فيراها خزائن مصفوفة أربعة وعشرين خزانة، فيرى في كل خزانة نعيمًا ولذة وعطاءً وجزاءً لما كان أودع خزائنه من ساعاته في الدنيا من الحسنات، فيسره ذلك ويغبط به. فإذا مرت به في الدنيا ساعة لم يذكر الله تعالى فيها رآها في الآخرة خزائن فارغة، لا عطاء فيها ولا جزاء عليها، فیسوءه ذلك ويتحسر كيف فاتته أن لم يدخر فيها شيئاً؛ فيرى جزاءه مدخراً، ثم يلقي في نفسه الرضا والسكون. فلو لم يتحسر العبد إلا على فوت الفضائل والمندوب إليه من الخيرات لكان في فوت المسابقة والمصارعة حسرات. فكيف بمن فاتته أوقاته في السيئات وفرطت منه في الخسارات؟! ولو لم يشغل العبد في عمره إلا بالحلل والمباحات لكان ذلك نقصاناً من الدرجات له، فكيف بمن اشتغل بالمحظورات؟!!

فسبحان الله ما أعظم الخطر، وأصعب الأمر، وأقلّ المشاهدين لذلك، وأغفل الباطلين! وقد قال بعض العلماء: هب أن المسيء قد غفر له أليس قد فاتته ثواب المحسنين.

وقد جاء في الأثر: إنَّ بعضَ أهل الجنة بينا هم في نعيم إذ سطع لهم نور من فوقهم أضاءت منه منازلهم كما تضيء الشمس لأهل الدنيا، فنظروا إلى رجال من فوقهم أهل عليين، يرونهم كما يرى الكوكب الدرّ في أفق السماء، قد فضّلوا عليهم في الأنوار والنعيم والجمال كما فضّل القمر على سائر الكواكب. فينظرون إليهم يطيرون على نُجُب^(١) تسرح بهم في الهواء حيث شاءوا، ويتزاورون بعضهم بعضاً، يزورون ذا الجلال والإكرام. فينادون هؤلاء: يا إخواننا ما أنصفتُمونا، كنا

(١) نجب: جمع نجيب، وهى من الإبل القوى الخفيف السريع.

نصلي كما تصلون، ونصوم كما تصومون، فما هذا الذي فُضِّلتم به علينا؟
قال: فإذا النداء من الله عز وجل: إنهم كانوا يجوعون حين تشبعون،
ويعطشون حين تروون، ويعرون حين تكتسون، ويبكون حين تضحكون،
ويقومون حين تنامون، ويخافون حين تأمنون، فلذلك فُضِّلوا عليكم اليوم. فذلك
قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
[السجدة: ١٧]. وقد جاء في الخبر: «أكثر أهل الجنة البُلهُ، وعليون لذوى الألباب».

• ذكر المقام الخامس من مراقبة الموقنين من المقربين:

قال الله تعالى، مخوفًا للكافة: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ
* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ ثم أجابه فقال: ﴿كَلَّا﴾ وحقَّق قوله تعالى
فقال: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠]. ثم نهى المؤمنين نهياً صريحاً
عن مثل هذه الحال وأخبر بنقصان من فعل ذلك فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أى: لا تشغلکم عن الطاعة لله
تعالى، ثم قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩] أى:
المغبونون المنقوصون فى الآخرة؛ لأنهم آثروا المال والولد على الخالق الرازق، ثم
أمر بالإنفاق مما رزق، وقرنه بالإيمان، وأخبر أنه استخلفنا فى ملكه اختباراً لنا،
فقال: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، فسمع
الغافلون نصف الكلام فآمنوا ولم ينفقوا، وعقل العاملون كل الكلام فآمنوا
وأنفقوا، وما يعقلها إلا العاملون.

وقال سبحانه: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ
رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠] أى
بالأعمال.

وكان ابن عباس يقول: هذه الآية من أشد شىء على أهل التوحيد، لأنه لا
يتمنى التأخير والرجوع إلى الدنيا أحد له عند الله خير فى الآخرة.

ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]. الحسرة هى أعظم الندامة، وهى اسم لفوت شىء لا تدارك فيه. فرطت: أى ضيعت وونيت، وفرط منى: أى ذهب وفات. وجنب الله، قيل: على ما فاتنى من الجزاء منه فى الآخرة، وقيل: ما فات من النصيب فى أيام الدنيا. إلى قوله: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ يعنى: إلى الدنيا عودة أخرى ﴿فَأَكُونُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٨]، وقوله ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ﴾: من الكلام المضمر المعطوف، ومُضمرة: من قبل أن تقول، أو خشية أن تقول، ومعطوفه: هو قوله: ﴿وَأَنْبِئُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر: ٥٤] أى: اقبلوا إليه، وتوبوا، واستسلموا، وسلموا قلوبكم ونفوسكم وأموالكم فى طاعته وعبادته، ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥]، أى: اتبعوا العزائم من الأمور، والفواضل من الأعمال، فهو أحسن من الرخص والمباحات، مثل: الزهد والورع والخوف والإيقان، فهذا من أحسن ما أنزل إلينا من ربنا، ثم قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾، فلما طال الكلام، وأُضمر معطوفه، وبعُدَ عاطفه للاختصار، أشكل فهمه.

وفى القرآن ما هو أشدّ اختصاراً، وأبعد من هذا إضماراً، كقوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ [التين: ٧] المعنى: فما الذى يحملك على التكذيب أيها الإنسان الذى خلقناه فى أحسن تقويم بعد هذا البيان والبرهان بالدين بالغائبات والكائنات من أمور الدين والحسنات والجزاء، ثم أحكم ذلك برده إليه فقال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨]؟

وكذلك قوله: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، المعنى: لا تترك أن تعمل فى الدنيا بأيامك هذه، فتدرك نصيبك غداً من الآخرة فى الدنيا، فإنك لا تدركه إلا فيها، ثم أحكمه بقوله: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]، أى: أحسن إلى نفسك وإلى إخوانك الفقراء كالذى أحسن إليك به من المال والغنى،

فبذلك تدرك نصيبك من الدنيا في الآخرة.

ثم أخبر الله سبحانه الكلّ وحذرهم فقال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١]، أى: يا ندامتنا على ما ضيعنا فى الدنيا، وفاتنا فى الآخرة.

وفى الخبر: «لا يموت أحد إلا بحسرة وندامة؛ إن كان مسيئاً كيف لم يحسن وإن كان مُحسناً كيف لم يزدد».

وذلك أن الله تعالى جعل أهل السَّلامَةِ والنَّجاة طبقتين؛ بعضهم أعلى من بعض، وجعل أهل الهلكة طبقةً واحدةً؛ بعضهم أسفل من بعض، فكان صاحب الشمال يتحسّر كيف لم يكن من أصحاب اليمين، لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المذثر: ٣٨ - ٣٩]، وصاحب اليمين يتحسّر كيف لم يكن من المقربين، والصالح من المقربين يتمنى أن يكون من الشهداء، والشهيد يودّ أنه من الصديقين. فهو يوم الحسرة الذى أنذر به أهل الغفلة، فكيف بهم فى ذلك اليوم، إذا كانوا اليوم أمواتاً، ولم يكن له حسنة، فأنتى لهم النذارة والتذكيرة؟ كما قال: ﴿وَأَنْذَرُهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩]. وقد قال: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠]. كما قال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مِّنْ يَخْشَاهَا﴾ [التازعات: ٤٥]، ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ [يس: ١١]. وقال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] يعنى: إلى ما قدمت. وقيل: حديد إلى لسان الميزان، تخاف النقصان. وقال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق: ١٩]، قيل: بالسابقة لهم وعليهم، فهو الحق سبقت لهم منا الحسنی، وحقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون، وسقط ما دونها. وقد قيل: إنّما يوزن من الأعمال خواتيمها، والخواتيم من السّوابق، وما بينهما زاهق. والوزن يومئذ الحق، ما سبق من العدل والصدق، وتمت كلمة ربك صدقاً لأوليائه، وعدلاً على أعدائه. ألا له الخلقُ والأمر.

• ذكر المقام السادس من مشاهدة المقربين:

الخيراتُ هي من ثمرات الإيمان، والصالحاتُ هي مقتضى اليقين، واللعبُ مقتضى الشك، والسمعُ والبصرُ وصفان للمتقين، والعمى والصممُ وصفان للشك^(١). تنتظم هذه المعاني في قول الله تعالى: ﴿قُلْ بِسْمَايَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣]. فدل أن الإيمان يأمر المؤمنين بالبر والتقوى، وقوله تعالى مخبراً عما أيقن فسمع وأبصر فينال العمل الصالح: ﴿رَبَّنَا أَبْصِرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]. وقوله تعالى في وصف اللاعبين: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان: ٩].

ثم ذكر حالهم لعدم اليقين فقال تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠] لأنهم لم يكونوا موقنين، فلما جاءهم اليقين، وهو المعاينة، أبصروا وسمعوا [ما كانوا كذبوا به مما أُخبروا]^(٢)، فقالوا: ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ * حَتَّى أَنَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٦ - ٤٧] فوصفهم بشدة السمع والبصر حينئذ لما أيقنوا، فقال عز وجل: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨] أى: ما أسمعهم وأبصرهم اليوم لما جاءونا فأروا ما عندنا، وهذا للمبالغة في الوصف، كما تقول: أكرم وأعظم به، أى: ما أكرمه وأعظمه. فكذلك إذا أتته اليوم وأنت موقن سمعت ما لم تسمع وأبصرت ما لم تبصر^(٣) قبل ذلك، ولكن شغلتك الأزواجُ التي خلقت، والأشكالُ والأشباهُ التي أظهر، فتألَّهتَ إليها، ووقفتَ معها، ولو فررتَ منها إلى الله تعالى لفررت إلى خيرٍ مَقَرٍّ، ولأواكَ عنده في أحسن مَقَرٍّ^(٤)، وقد أمرك بالفرار منها^(٥) إليه لو قبلتَ، ونهاك عن التأله إليها لو سمعت، وبين لك النذارة لو فهمت، وجعلَ ما خلقت من الأزواج تذكرةً به لو عرفت،

(١) كذا في المطبوعة والمخطوط، ولعلها محرقة عن «الشاكين».

(٢) ساقطة من (ط).

(٣) في (ط): «ما لم تر».

(٤) في (ك): «مستقر».

(٥) في (ك): «منه».

ورادةً إليه لو أنك للذكر أتبت، ومُشوّقةً إليه لو كنت لقربه أحبت^(١)، أما سمعته يقول: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، أى مثلين وشكلين، لكى تذكروا الله بها، وتشتاقوا إليه منها، ثم قال: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أى: عنها بالزهد، ثم قال: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الذاريات: ٥١] أى: لا تؤلّوها معه إلهاً، ولا تشركوا بتألهكم إليه إياها.

فهذا فهمُ المقربين عن سمعهم، بشهادة أبصار قلوبهم، فعندها كان استجابتهم له، كما قال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]، وقال: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الشورى: ٢٦].

ولكن كيف يسمع من يُنادى من مكان بعيد؟! وكيف يُبصر من القفل على قلبه عتيّد؟! وكيف يستجيب من لا يسمع؟! وكيف يشهد من لا يبصر؟! وقد قال الرسول ﷺ: «حبك للشئ يعمى ويصم».

فالهوى يعمى عن الحق، والشهوة تصم عن النصح والصدق.

وكذلك لو أحببته لنظرت إليه، ولو نظرت إليه لعميت عمّن سواه، ولو أقبلت عليه لاستمعت إليه، ولو سمعت لصممت عن غيره، ولو أحبك لكان سمعك وبصرك وقلبك ويدك وناصرك ومؤيدك، تدعوه فيجيبك، وتسأله فيعطيك، وتنصح له فينصح لك؛ كذلك جاء الخبر بذلك، فشغلك به عنك، وفرغك له منك، فكيف تسمع عنه، وتنظر إليه، وتتقلب عنده، وتتحرك به، لا بنفسك وهواك، ولا بشهوتك ودنياك؟!!

فهذا وصف حبيبٍ عن تقلّب حبيبٍ، وخبر محبوبٍ عن تثبيت محبوب.

فإذا تيقّن العبدُ يقينَ عينٍ لا يقينَ ظنٍّ وسمعٍ بما ذكرناه من سرعة فوت الوقت، وفوت دركه، شغله الغم والحزن على ما فات عن مثل ما سلف مما ندم عليه فى مستقبل الأوقات. فلم يضم إلى الفوت الأول فوتاً ثانياً؛ لحزنه وندمه

(١) فى (ك): «ورادةً إليه لو عقلت، ومشوقةً إليه لو أحبت».

عليه، فكيف يُردفه في الحال بما يُشبه ما نَدِمَ عليه من سوء الأعمال، وما لا يُحمد عاقبته، ولا يُغتبط به في المآل؟!

فمثلُ العبدِ المتيقظ في آخر غفلته مثلُ عبدٍ كان عليه عمل لا بدّ أن يعملَه في يومه ذلك، إلا أنه لُهيَ عنه لغفلة مُلهية، أو نومة مُنسية، فلم يَفِقْ لعمله ذلك الذي لا بدّ منه إلا بعد العصر، فلا يُسأل عن حرصه وأنكماشه وتشهيره وبقائه في بقية نهاره، ليدرك به ما فاتهُ من أوّل النهار، فهو يود أن وقته ذلك إلى الليل مدّة له أضعافه، أو ردّ إلى أوّل النهار ليدرك ما فاتهُ.

فهذا حالُ التائبِ المتيقظ من رِقْدته. وهذا لا يَسْتَبِينُ له إلا بعد الموت لمعاينة تَقْضَى الأوقات، ولليقين بعدم دَرَكِ ما فات. فهناك وقعتِ الندامةُ الكبرى، وحينئذ حَلَّتِ الحسرةُ العظمى.

فالخزْمُ عند العقلاءِ الموقنين هو الانكماشُ والتَّشْمِيرُ فيما بَقِيَ من العمرِ القصير؛ لأنَّ الاشتغالَ بما فات في وقتِ دَرَكِ مثله في المستقبل هو إضاعةٌ ثانية لما هو آت. فَحَرَصَ هذا المتيقظُ واجْتَهَدَ^(١) أن يكون له في كل وقت وقت، ومن كل ساعة نصيب، فأودَعَ في كل خزانة من ساعاته التي هي خزائن أعماله شيئاً فشيئاً؛ لئلا يرى خزائنه فارغةً غداً، فيتحسر على فَرَاغِها منها. وهذا طريق أهل الرجاء الذين تمنوا زيادة الأعمال، ورغبوا في طول البقاء؛ بحسن خدمة المولى. وهو مقام التائب المستقيم ليتدارك بحديث الأوقات ما فَرَطَ منه من الغفلة في القديم. فهذا هو الخزْمُ والاحتياطُ عند العلماء. فإن يكن الأمرُ صعباً شديداً كما يحدث عنه كان قد سَلِمَ بحسن توفيق الله تعالى من صعوبته. وإن كان الأمرُ سهلاً قريباً كما يَرْجوه كانت الأعمالُ درجاتٍ والفضائلُ مقاماتٍ.

• ذكر المقام السابع من مشاهدة الموقنين؛

اعلم أنّ ما ذكرناه من تداركِ الأوقاتِ خوفَ فوتها ليس هو بتمنى مكانٍ دون مكان، ولا هو بانتظار وقتٍ ثانٍ، الذي هو في الأصل ذكر^(٢) الوقت الذي هو

(١) في (ط): «واجتهاده» وأثبت ما في (ك).

(٢) في (ط): «فكر» وليست في (ك).

فيه، ولا توقع حال سوى الحال الذى هو يليه، إنّما هو صومٌ يوم، أو قيام ليلة، أو ذكر فى ساعة، أو جمعٌ همٌّ عن شتات قلب، أو قطع لأثرٍ فى خطرٍ. ويكون ذلك أيضاً غضّاً طرفه، وصون سمعه، وكفّ يده، وحبس قدمه، وصمتاً عن كلمة دنيّة، وترك لُقمة شهية، ونقصاناً من قُوت، وزيادة جوع للمقيت، وأمرّاً بكلمة رشيدة، ونهيّاً عن فعلة دنيّة، وعقد نية حميدة، وحلّ نية ذميّة، وتجديد توبة، وإعمال قلب فى فكرة، وإخراج سوء ظنّ، واعتقاد حسن ظنّ، واستقامة وصحة عزم فى قصد، وتسبباً إلى ما يقوى العزم، ومعونّة على برّ وتقوى.

وهذا كلّهُ يكون فى الوقت، ويحدثه فى الحال، لا يُسوّف به ولا ينتظر منه، ولا يتوقعه فى وقت ثانٍ، ولا يؤخره إلى زمان دون وقته، ولا يتربّص به فى مكان دون مكان. فهذا هو التدارك للأوقات فى وقتك الذى أنت فيه، خشية فوت الوقت، فيحصل على التسويف والتّمنى، أو فى الانتظار والتراخى؛ فهذه من جنود إبليس يقطع بها المريدين، وهو مقام المغترين، وأحوال البطالين الذين وُكِّلوا إلى أنفسهم، وتركوا مع هواهم، ولم يُتداركوا فى أحوالهم، ولم يُقدّموا لغدّهم، نسوا الله فنسيهم، والوقت إذا انقضى فقدّ ولم يوجد إلى يوم القضا، والساعة إذا مرّت طويت فلم تُنشر إلى يوم النّشور، وإنما يُنشر مثلها، ويُخلق شبهها.

فإذا أيقن العبدُ علم أنّ عمره كلّهُ يوم، وأنّ يومه كلّهُ ساعة، وأنّ ساعته كلّها وقته الآن، وأنّ وقته حاله، وأنّ حاله قلبه، فأخذ من حاله لقلبه ما يقربّه إلى مُقلّبه، بنهاية عمله، فعَمِلَ أفضلَ ما دَلَّ علمه عليه، وما ندبه مولاه إليه، ومما يحب أن يفجأه عليه، فيكون ذلك خاتمة عمله الذى يلقى مولاه به. ثم أخذ من وقته لحاله ما يصلح حاله لقلبه، ويقوى قلبه، ويخلصه لربه. وأخذ من ساعته لوقته ما يُزيّن به حاله عند ربه، وأخذ من يومه لساعته صلاحه فيها وحاجته إليها، وأخذ من شهره ليومه، فكان شهره يومه، وكان يومه ساعته، فشغله وقته عن ساعته، وشغله حاله عن وقته.

فكان على هذا مراعيّاً لوقته، محافظاً على حاله، قائماً على نفسه، جامعاً لهمّة، مُحصياً لأنفاسه، مُراقباً لرقبيه، مجالساً لحبيبه، لا يخرج عنه نفسٌ فى

أدنى وقت، إلا في ذكرٍ لمذكور، أو شكرٍ على نعمةٍ لمنعم، أو صبرٍ في محنةٍ عتيقة، أو رضا عند شدةٍ شديدة. ويكون في ذلك كله ناظرًا إلى الرقيب، مصغيًا إلى القريب، سائحًا إلى الحبيب، لا ينظر إلا إليه، ولا يعكف إلا عليه، وقد جعل العمرَ يومًا، واليومَ ساعةً، والساعةَ وقتًا، والوقتَ حالًا، والحالَ نفسًا، والنفسَ مراقبةً، والمراقبةَ مواجهةً، فتوجه في وجهته فلم ينثن، وساح في قربه فلم ين، فكان من الإيمان على مزيد، ومن اليقين في تجديد، وأعطى من الحياة الطيبة بغير حساب، وكُشف له عن قلبه الحجاب. فكانت المعرفة مقامه، وقصرت عليه أيامه، فكان وقته وقتًا واحدًا لواحد، وكان قلبه واحدًا لواحد، وهمه منفردًا لمنفرد.

وهذا حالُ الأبدال، الذين هم من الرُّسل أمثال، وعددهم في الموقنين قليل، ونصيبهم من اليقين وافرٌ جليل، وهم المقربون والصديقون. ومن علم ما ذكرناه على يقين فهو من الصالحين، ومن آمن به ولم يشك فيه لأهله إيمان تصديق فهو من الموقنين، ومن شهد منه شهادة يكون له منها مطالعات وزيادة فهو من الشاهدين.

وجميع ما ذكرناه من مراقبة المؤمنين، وشهادة المقرَّبين، يدرك بأحد مقامين؛ من أقيم في أحدهما جمع له ذلك استقامة في توبة وعملاً بعلم. فمن كان مقامه التوبة وحاله الاستقامة رُفِعَ إلى شهادة المحبين، ومن كان مقامه العلم وحاله العمل بعلمه تحقَّقَ بنعت الخائفين. وهما حالا العارف الدائم الوجد بقرب القريب، القائم بالشهادة بحضور الشهيد. فأنفاسه وطرفاته صالحات، وتصرفاته وآثاره حسنات، وأفكاره وأذكاره مشاهدات. فهو حاضر في تصريحه، متيقظ في تقلبه. وبهذا وصف العارف والدائم الوجد.

وحدَّثت عن بعض هذه الطائفة: أنه دخل على بعض المنقطعين إلى الله تعالى من أهل المراقبة، فقال له: أحصيت من نعم الله تعالى علىّ في نوع واحد أربعة وعشرين ألفَ نعمة. قلت: وكيف ذلك؟ قال: حسبت أنفاسي في اليوم والليلة فوجدتها أربعة وعشرين ألفَ نفس.

ويقال: إنّ الطرفاتِ ضِعْفُ ذلك؛ لأنّ كلّ نفسٍ طرفتان.

وسمعتُ أن الله عزَّ وجلَّ أوحى إلى بعض الأنبياء: كيف تؤدّي شكر نعمتي عليك، ولى فى كل شعرةٍ نعمتان: أن ليئتُ أصلَها، وأن طمّنتُ رأسها؟ وقال بعض العلماء: روى ذلك أيضاً عن علىٍّ عليه السلام: ليس شيءٌ أعزَّ من الكبريت الأحمر إلا ما بقى من عُمر العبد. قال: ولا يعرف مقدار ما بقى من عُمره إلا نبيٌّ أو صدّيق.

وقال بعضهم: لا يعرف قدر ما بقى من عمره فى العزة إلا من عَرَفَ ينبوعَ الكبريتِ الأحمر، فإنّه يقال: إنّه عيون تنبع فى الظلمات، لا يعرفها إلا الأبدال. والكبريت الأحمر هو كيمياء الذهب، الذى يُعمل منه الذهب الخالص، وإذا ألقى منه اليسير على كيمياء الذهب المستعمل ثبت على حاله، وإلّا استحال وتغيّر بعد سنين.

ولا أعلم ذكر عن النبي ﷺ الكبريت الأحمر إلا فى حديث على عليه السلام، الذى وصف فيه الأبدال، فذكر عدتهم ونعمتهم، وقال فى آخر وصفهم: «هم فى أمتى أعزُّ من الكبريتِ الأحمر». ولا ذكر الذهب الإبريز إلا فى حديث الابتلاء: «إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار، فمنهم من يخرج كالذهب الإبريز، ومنهم من يخرج أسوداً محترقاً، ومنهم من يخرج بين ذلك».



الفصل التاسع والعشرون

فيه ذكر أهل المقامات من المقربين وتمييز أهل الغفلة المبعدين

فإذا كان العبدُ بوصف ما ذكرناه كان كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿ [المارج: ٣٢ - ٣٣].

وقال بعضُ العارفين: «عُمُرُ العبدِ أمانةُ الله تعالى عنده يسأله عنه عند موته، فإن كان فرطَ فيه ضيَع أمانةُ الله تعالى وترك عهده، وإن راعى أوقاته فلم تخرج ساعة إلا فى طاعة الله حفظ أمانته ووفى بعهده، فله الوفاء من الله على الوفاء.

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون﴾ [البقرة: ٤٠] أى فى تضييع العهد، وفى تركِ الوفاء، وكما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ [هود: ١٧] أى شهدَ مقامَ الله تعالى منه بالبيان، فقام بشهادة الإيقان، فليس هذا كمن زينَ له سوءُ عمله، واتبع هواه، فأثره على طاعة مولاه، بل هذا قائم بشهادته، متبع لشهيده، مستقيم على محبة معبوده، وكان كمن وصف فى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وكمن مدحه بحقيقة الإيمان فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ أى علامته ودلائله ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]. أى: به يثقون، وإليه ينظرون، وعليه فى كل حال يعتمدون، ولديه من كل شىء يطمثون، وعنده دون كل شىء يوجدون، ثم قال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال: ٤] الآية.

وليس أهل الحقائق من المتوكلين، الذين مدحهم الحقُّ بالحق، وأعدَّ لهم الدرجاتِ العلى والكريم من الرزق، كمن ذكره بعدهم فقال: ﴿وإنَّ فَرِيقًا مِنْ

الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ ﴿[الأنفال: ٥ - ٦] مع قوله: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤]. فجعل حال هؤلاء وصفاً مشبهاً لمقام أعدائه لما بقى عليهم من أهوائهم، وجعل مقام الصالحين بمعنى من وصفهم في الآية بحقيقة زهدهم، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمَلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ [طه: ٧٥] فهو العلى، وأحباؤه الأعْلُونَ، وإنما كانوا أعلين لأن الأعلى معهم، وكنا نحن الأدنى لأن الدنيا عندنا.

قال الله سبحانه في وصف من أعرض عن ذكره، ولم يرد إلا الحياة الدنيا، إذ أمر الحبيب بالإعراض عنه؛ لأنه طلب الأدنى عاجلاً أو سوف بالمغفرة آجلاً، لقوة جهله وضعف يقينه، فقال تعالى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]، وقال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩]، وقال في وصف الصادقين المؤمنين: ﴿رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وقال في نعت غيرهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ - ٣]، فشتان بين من وُصفَ بصدق العهد، وبين من ذكر بالخلف وعرض للمقت، وقال في وصف طائفة: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبا: ٢٠]، فخص أولياءه بترك أتباعه، وأدخل بعض المؤمنين في تصديق ظنه وأتباعه إلا فريقاً، فهم الصديقون والشهداء والصالحون، وحسن أولئك رفيقاً، وهم المتوكلون المؤمنون حقاً، الذين قال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩] وليس من باع ماله ونفسه محبةً لمولاه كمن لم يسأله مولاه دون نفسه لئلا يحفيه، فيخرج ضغنه عليه، كما قال لطائفة من المؤمنين: ﴿يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ * إِنَّ يَسْأَلْكُمْوَهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخُلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ [محمد: ٣٦ - ٣٧]. الإحفاء: الاستقصاء، أى: [إن] ^(١)

سَأَلَكُمْ سَأَلَ الْجَمَلَةِ كُلِّهَا، وَأَحَبُّ مِنْكُمْ الزَّهْدَ فِي نَفُوسِكُمْ بَعْدَهَا. وَالْأَضْغَانُ: جَمْعُ ضَغْنٍ، وَهُوَ الْحَقْدُ. تَقُولُ: فَلَسْتُمْ فِي مَكَانِ سَوَالٍ إِذْ لَا يَكُونُ الْبَخِيلُ زَاهِدًا؛ لِأَنَّ أَوَّلَ الزَّهْدِ الْجُودُ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ لَمْ يَزْهَدْ، وَمَنْ لَمْ يَزْهَدْ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَحِبَّ الْمَوْلَى؛ لِأَنَّهُ مُحِبٌّ لِمَا يَبْغِضُ، وَمُرِيدٌ لِمَا لَا يَحِبُّ، فَلَمْ يَعْمَلْ مَوْلَاهُ بِأَخْلَاقِهِ، وَلَمْ يُوَافِقْهُ فِي مَرْضَاتِهِ، فَبَاعَدَهُ وَحَجَبَهُ عَنِ مَشَاهِدَةِ أَوْصَافِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧]. وَكَمَا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ الْمُبْلَغُ عَنِ الْمَالِ: «إِذَا أُرِدْتَ أَنْ يَحِبَّكَ اللَّهُ فَازْهَدْ فِي الدُّنْيَا».

وَلَا تَقْدِرُ أَنْ تَصِفَ حَشْوَ قُلُوبِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ الْمُؤْمِنُ أَنْ لَوْ سَأَلَهُمْ أَمْوَالَهُمْ ظَهَرَتْ عَلَيْهِمْ أَضْغَانُهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ فِي اغْتِرَارٍ بِمَا أَلْبَسَهُمْ مِنَ الْأَظْهَارِ. فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا. إِلَّا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَسْأَلُ إِلَّا مَنْ يَحِبُّهُ إِكْرَامًا لَهُ، مِمَّنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَسَارِعُ إِلَيْهِ بِجَمَلَةٍ مَا سَأَلَهُ؛ لِأَنَّهُ كَرِيمٌ جَوَادٌ لَا يَكْبُرُ عِنْدَهُ شَيْءٌ؛ إِنْ سَأَلَ سَأَلَ الْكَلِيَّةَ، وَهُوَ الْمَالُ وَالنَّفْسُ، إِلَّا أَنَّهُ لَا يَسْأَلُ إِلَّا مَنْ خَلَقَهُ بِخُلُقٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ، فَمَتَى لَمْ يَكُنْ عِنْدَ^(١) الْعَبْدِ سِوَاهُ شَيْءٍ سَأَلَهُ مُحِبُّوهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَمَتَى عَظُمَ فِي قَلْبِهِ الْعَرَضُ الْفَانِي، وَهُوَ ضَغِينٌ، لَمْ يَسْأَلْهُ شَيْئًا.

فَإِذَا لَمْ يَبْقَ لِلْعَبْدِ فِي نَفْسِهِ نَفْسٌ^(٢) وَلَا مِنْ مَالِهِ مَالٌ، كَانَ الْجَوَادُ عَوِضًا لَهُ مِنْ مَالِهِ، وَكَانَ الْجَبَّارُ عَوِضًا لَهُ مِنْ نَفْسِهِ. إِلَّا أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ لَمْ يَذْكُرْ إِيَّاهُ فِي الْعَوِضِ مِنَ النَّفْسِ، وَذَكَرَ الْجَنَّةَ فِي الْبَدَلِ عَنِ الْمَالِ؛ لِثَلَاثِ أَسْبَابٍ تَحْتَ حُكْمٍ وَهُوَ الْحَاكِمُ، وَكَيْلًا يَنْضُمُ إِلَى عَوِضٍ، فَيَكُونُ شَفْعًا، وَهُوَ الْفَرْدُ، فَأَخْفَى نَفْسَهُ وَهُوَ الدَّلِيلُ، وَذَكَرَ خَلْقَهُ وَهُوَ إِلَيْهِ السَّبِيلُ^(٣).

فَهَذَا فَهْمُ أَوْلِيَائِهِ عَنْهُ، وَهَذِهِ عَلَامَةُ الْمَحَبَّةِ الْخَالِصَةِ الَّتِي لَا شَرِيكَ فِيهَا لِسِوَاهُ، وَلَا دَخَلَ عَلَيْهَا مِنْ غَيْرِهِ إِيَّاهُ.

(١) فِي (ط): «عَلَى» وَاتَّبَتْ مَا فِي (ك).

(٢) فِي (ط): «نَفْسًا» وَاتَّبَتْ مَا فِي (ك).

(٣) فِي (ك): «فَيَكُونُ شَفْعًا وَهُوَ الْوَتَرُ فَأَخْفَى نَفْسَهُ وَذَكَرَ السَّبِيلَ لِيَكُونَ ذَلِكَ عَلَيْهِ دَلِيلًا».

ولا يَصْلُحُ أيضاً أن يُكشَفَ عن وصفِ هؤلاء المحيِّين؛ لأن حالهم يَجِلُّ عن الوصف، ومقامهم يجاوز^(١) علومَ العقل والوقت، إلا أن الله تعالى قد أحكم ذلك بقوله عز وجل: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، وبقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، مع قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ * نَزْلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ [نصحت: ٣١ - ٣٢]، وقوله: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ [الواقعة: ٨٨ - ٨٩].

وأحكم ذلك بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٧]. [وأجمل ذلك]^(٢) بقوله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣]. ففيه وصف لأهل الولايات والحب، ومدح لأهل الدرجات والقرب، بقوله: ﴿بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أى لذلك جعلهم درجات عنده، ولقوله: ﴿وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بما تولاهم به وقربهم منه، وفيه أيضاً ذم المنافقين على القراءة الأخرى: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٣) فقد أبصر أعمالكم أنتم، فلم يجعلكم مثلهم؛ إذ لم تكن أعمالكم كأعمالهم، [لأن قلوبكم ليست كقلوبهم فتكون أعمالكم كأعمالهم]^(٤)، فهذا كما قال: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

ثم قال فى وصف قلوبنا: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥١].

ثم قال فى فصل من القول، ليس بهزل، سوى بين هؤلاء وهؤلاء: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال: ٧٠]، ثم قال فى ضد أولئك كلاماً

(١) فى (ك): «وصفاتهم تجاوز».

(٢) ساقطة من (ط) وأثبتها من (ك).

(٣) القراءة التى أشار إليها هى قراءة نافع وعاصم وأبى عمرو فى إحدى رواياته وابن عامر ولكن فى آية آل عمران رقم ١٥٦: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. انظر: السبعة، ص ٢١٧.

(٤) ساقطة من (ط).

فاصلاً لفصل، مفسراً للمجمل: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، أى: ليس لهم فيه شيء، ولا لهم منه نصيب؛ لأنه لم يجعل عندهم مكاناً خيراً فيوجد فيه خيراً، فكان هذا فصل الخطاب، وبلاغاً لأولى الألباب. شهد لهم بذلك إذ قال: ﴿أَفَلَمْ يَيَّاسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]. فأيس المؤمنون من هداية هؤلاء فلم يرجوا منهم مجاهدةً فيه أبداً؛ لأن الله تعالى لا يهدى من يضل. وقيل: ييأس - لغة - بمعنى يعلم، أى: فقد علموا بما أعلمهم الله تعالى.

ويشهد لهذا المعنى الحرف الآخر؛ لأنه بمعناه: «أفلم يتبين الذين آمنوا» فبين لهم بما بين المبين، فسلموا له وأقبلوا عليه، وأعرضوا عنهم فسلموا منهم، فكذلك قال الولي الحميد: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام: ١٢٩]، وقال: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، وقال: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧]، فكم بين من ثبت قلبه فرسخ العلم فيه وبين من أزاغه؛ فمال إلى فتنة التأويل يبتغيه. وشتان بين من تولاه بنفسه إذ صلح له وبين من ولّاه نفسه إذا أعرض عنه.

فهذه مقامات المبعدين، كما تلك مقامات المقربين، فقد دخلوا تحت حكمين لم يخرجوا منهما، أعلاهم دخل تحت فضله، وأدناهم لم يخرج من عدله، وقد أجمل سبحانه وصفهم بقوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الروم: ٤٥]، وقال في ذكر العموم: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ [يونس: ٤].

فخص أولياءه بالفضل، وعم خلقه بالعدل؛ فكم من قلب لا يشهد إلا الله، ولا يسمع إلا منه، ولا يتأله إلا إليه، والله هو الأغلب على همه، والأقرب إلى قلبه، وبين قلب حشوه الخلق، وهم الرزق، لا ينظر إلا إليهم، ولا يطمع إلا فيهم، ولا ينظر إلا هم. الخلق أغلب شيء عليه، والخلق أقرب شيء إليه، فهذا من المبعدين بهم؛ لأن البعد صفتهم، وظهور النفس عليه وتحكم سلطانها فيه

مكانُ البعد الذي يُوجدُ البعدَ معه. والأوّلُ من المقربين به؛ لأنَّ القربَ صفتهُ، وخنوسَ نفسه عنه وتسخيرها له مكانُ القرب الذي يُوجدُ القربَ عنده، فذلك من السّابقين إلى ربه، والمبعدُ مثبّطٌ بنفسه عن ربه، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣].

فالبعد حجاب، والمبعدُ في عذاب. والقربُ نعيم، والمقربُ في مزيد. ألم تسمع قوله تعالى في تعذيب المحجوب عن ربه: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾؟ [المطففين: ١٥ - ١٦]، وقال في ترويح المقربين: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨ - ٨٩] روح تقرب، وريحانٌ من حبيب، وجنةٌ نعيم بقرب مُنعم. وقال المروّحُ بالقرب، المُحيّا بالحضور:

فروحي وريحاني إذا كنتُ حاضراً

وإن غبتُ فالدنيا علىّ محابسُ

إذا لم أنفسُ في هواك ولم أغرُ

عليك فقيمن - ليت شعري - أنافسُ

فلا تخفرنَ نفسي وأنت حبيها

فكلُّ امرئٍ يصبو إلى مَنْ يُجانسُ^(١)

وقال المكروب بالبعد، المغصصُ بالفقد:

فكيف يصنعُ مَنْ أقصاه مالُكُه فليس ينفعه طبُّ الأطباءِ؟

مَنْ غصَّ دأوى بِشربِ الماءِ غصَّته فكيف يصنعُ مَنْ قد غصَّ بالماءِ؟

وشتان بين عبد منقطع إلى ربه يخدمه وآخر منقطع لخدمة الخلق. وشتان^(٢) بين

(١) هذا البيت من (ك) وهو ساقط من (ط).

(٢) في (ط): «لخدمة الخلق يعبدهم وكم» وأثبت ما في (ك).

عبدٍ منقطعٍ عن الناسِ وبين عبدٍ موصولٍ به الوسواس . وشتان بين عبدٍ منقطعٍ الشوقِ إلى المولى وبين عبدٍ منقطعٍ بالهوى معانقٍ للدنيا .

فهذه مقاماتُ المقرّبين الحُسنَى ، وأضدادُها مقاماتُ المبعدين السوّاى ^(١) .

فإذا كان العبدُ على وصفٍ من الحقيقةِ وفى مقامٍ من اليقين ^(٢) استحقَّ الثناءَ من مولاهُ ؛ لتحقُّقه بالوصفِ ، ونالَ القربَ من القريبِ ؛ لتبعُّده عن حظوظِ النفسِ . وفى حسنِ الثناءِ من العظيمِ الأعظمِ غايةُ الطالبين ، ونهايةُ رغبةِ الراغبين ، ولا يكونُ ذلكُ إلا لأوليائه المتقين ، وحزبه المفلحين ، وعباده الصالحين ، وهم أهلُ القلوبِ السليمةِ الطاهرةِ ، وذوو الجوارحِ الخاشعةِ الذاكرةِ ، وأولو الألبابِ الراجحةِ الفاخرةِ . وهم ثلاثُ طبقاتٍ : من مقربى أصحابِ اليمينِ ؛ أهلُ العلمِ بالله تعالى . وأهلُ الحبِّ لله تعالى . وأهلُ الخوفِ من الله تعالى . فهؤلاءُ خصوصُ أوليائه المقرّبين ، استحضروهم فحضروا ، واستحفظهم العلمَ فحفظوا ، واستشهدهم عليه فشَهِدُوا .

فهُمُ الأدلَّةُ منه عليه ، وهو دليلهم إليه ، وهم جامعوا العبادِ به إليه ، وهو جامعهم عنده لديه . أبدالُ الأنبياءِ ، والربانيُّون من العلماءِ ، أئمةُ المتقين وأركانُ الدين ، أولو القوَّةِ والتمكينِ ، الذين كُشِفَ لهم الكتابُ المستبينُ ، وهداهم إليه الطريقَ المستقيمَ عليه . وهم المنظورُ إلى قلوبهم كفاحًا ، والمقصودون بالمزيدِ والتحفِ مساءً وصباحًا .

ومَن سواهم من عمومِ المؤمنين من القراءِ والعبادِ وأهلِ المجاهدةِ والزهدِ والأورادِ قد أعطاهم الولاياتِ ، وفرَّقهم فى الأعمالِ والسياحاتِ ، وأظهرَ لهم الآياتِ ، تسكينًا لقلوبهم بها ، وطمأنينةً منهم إليها ؛ لئلا تدخل عليهم الشبهاتِ فيهلكوا ولا تجذبهم الشهواتُ فيرجعوا ، فشغلوا بالإظهارِ عن الظاهرِ ، وحُجِّبوا بالظواهرِ عن الباطنِ ، واغتنبوا بالحجابِ ، وسكنوا إلى الأسبابِ ، وعكفوا على المقاماتِ ، واستتروا بالملكوتِ والآياتِ ، فهم مغبوطو الأمواتِ من أهلِ الدنيا ، وهم

(١) فى (ط) : «المقرّبين بالحسنَى ... المبعدين بالسوء» وأثبت ما فى (ك) .

(٢) فى (ط) : «التقوى» وأثبت ما فى (ك) .

مرحومو الأحياء من أهل العلى الأعلى؛ لأنّ قريهم بُعدٌ عند المقربين، وكشفهم حجبٌ عند المشاهدين، وعطاءهم ردٌّ عند المواجهين، إلا أن الله تعالى نظر إليهم لما نظروا لنفوسهم؛ حكمةً ورحمةً منه لهم، فسكنهم فى حالهم، ورضاهم بمقامهم، كيلا تشتت قلوبهم، ولا تتحير^(١) عقولهم.

والسابقون الأولون هم الوجهة العليا والتمسكون بالعروة الوثقى، نظروا إليه سبحانه وتعالى به فنظر إليهم منه، فهم كما وصفهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]، لا يرجعون إلى مال، ولا ينظرون إلى حال، ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨]، فهم كما وُصفوا فى الكتب السالفة.

قال الحواريون: يا روح الله، صف لنا أولياء الله الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون. فقال: هم الذين نطق بهم الكتابُ وبه نطقوا، وبهم علِمَ الكتابُ وبه علِمُوا، وبهم قامَ الكتابُ وبه قاموا، نظروا إلى باطن الدنيا حين نظرَ الناسُ إلى ظاهرها، وعاینوا آجلَ الدنيا حين عاینَ الناسُ عاجلها، فأماؤا منها ما خشوا أن يُميتهم، وتركوا منها ما علِمُوا أن سَيترُكهم، فصار درُكهم منها فواتاً، وفرحهم بها حرماناً، ما عارضهم منها رفضوه، وما أشرفَ لهم بغير الحق وضعوه، خلقت الدنيا عندهم فلم يُجددوها، وخربت فيما بينهم فلم يعمروها، وماتت فى صدورهم فلم يحيوها، قدموها فبنوا بها آخرتهم، أحيوا ذكرَ الموتِ وأماؤا ذكرَ الحياة، يحبون الله ويحبون ذكره، ويستضيئون بنوره ويضيئون به، لهم خبرٌ عجيبٌ، وعندهم أعجبُ الخبرِ العجيب.

وقال عز وجل فى وصفهم، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حَدِيثًا: ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨] وفيها مقراً غريب، بمعنى الجمع للشهداء، وكأنه جعل وصفاً لما تقدّم من ذكرهم،

(١) فى (ك): «ولا تتحول».

فى قوله تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾ إلى قوله ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ *
شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿آل عمران: ١٧ - ١٨﴾، وقال: ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي
وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣].

فهذا وصف يزيد على كل وصف، ويستغرق نعت الواصفين.

وَيَجْمَعُ هذه المقامات السبعة من المراقبة والمجاهدة حالان عن مقامين، مدارُ
المقامات كلها عليهما، ومستخرج المزيد من الكرامات منهما؛ فأحدهما: الخوف
عن مقام العلم. والحال الثانى: الرجاء عن مقام العمل. فمن كان مقامه العلم
بالله كان حاله الخوف منه، ومن كان مقامه الرجاء لله تعالى كانت حاله المعاملة
له. ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]،
وقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ
أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]؟

[قال رسول الله ﷺ عند نزول هذه الآية، لما تلاها: «لو لم يُقل من القرآن إلا
هذه الآية لكفتهم. أو لكفيتهم». ولا حول ولا قوة إلا بالله] ^(١).

(١) ما بين المعكوفتين من (ك).

الفصل الثلاثون

فيه كتاب ذكر تفصيل الخواطر لأهل القلوب
وصفة القلب وتمثيله بالأنوار والجواهر^(١)

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧ - ٨]. أى ألقى فيها وقذف فيها. وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦]. وقال: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ [المائدة: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿مَنْ شَرَّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤] الآية. وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ﴾ [فاطر: ٦]. وقال تعالى: ﴿اسْتَحِذْ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَاِنَّسَاهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ﴾ [المجادلة: ١٩]. وقال عز وجل: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]. وقال سبحانه مخبراً عن العدو: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَا تَنِيهِمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦ - ١٧] إلى آخر الآية.

وروينا عن النبي ﷺ: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه. فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أَسْلِمْتَ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ؟ فعصاه فأسلم. ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أَتَهَاجِرُ فَتَذَرُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ؟ فعصاه فهاجر. ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: أَتُجَاهِدُ وَهُوَ جُهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنَكِّحُ نِسَاءً وَيُقَسِّمُ مَالَكَ؟ فعصاه فجاهد. قال رسول الله ﷺ: مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَمَاتَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ».

وقد أخبر الله تعالى عنه أنه قال: ﴿وَلَا ضَلِيلَتُهُمْ وَلَا مُنِيْنُهُمْ وَلَا مُرْنُهُمْ﴾ [النساء: ١١٩] إلى آخر الآية.

(١) انظر: الإحياء، كتاب شرح عجائب القلب، ٢/٣ - ٤٧.

وروينا أن عثمان بن أبي العاص قال: «يا رسول الله، حال الشيطان بيني وبين صلاتي وقراءتي، فقال: ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُقَالُ لَهُ خَنْزَبٌ، إِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذَ بِاللَّهِ مِنْهُ، وَاتَّقِلْ عَنْ يَسَارِكَ ثَلَاثًا. قال: ففعلتُ ذلك، فأذهب الله تعالى عني».

وفى الخبر: «إن للوضوء شيطانًا يُقَالُ لَهُ الْوَلْهَانُ، فاستعينوا بالله منه». وقد روينا: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم».

والحديث المشهور: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ شَيْطَانٌ. قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا إلا أن الله تعالى أعانني عليه فأسلم».

وقال ابن مسعود رضى الله عنه، وقد رويناه من طريق مسند: فى القلبَ لِمَتَانِ: لِمَةٌ مِنَ الْمَلِكِ إِيْعَادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ، وَلِمَةٌ مِنَ الْعَدُوِّ إِيْعَادٌ بِالْشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ وَنَهْيٌ عَنِ الْخَيْرِ.

وروينا عن الحسن رحمه الله أنه قال: إِنَّمَا هُمَا هَمَانٌ يَجُولَانِ فِي الْقَلْبِ: هُمٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَهَمٌ مِنْ عَدُوِّهِ، فَرَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا وَقَفَ عِنْدَ هَمِّهِ، فَمَا كَانَ مِنَ اللَّهِ أَمْضَاهُ، وَمَا كَانَ مِنْ عَدُوِّهِ يَجَاهِدُ.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤] قال: هو مُنْبَسِطٌ عَلَى قَلْبِ الْإِنْسَانِ، فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى خَسَّ وَانْقَبَضَ، وَإِذَا غَفَلَ انْبَسَطَ عَلَى قَلْبِهِ.

وقال عكرمة: الْوَسْوَاسُ مَحَلُّهُ فِي الرَّجُلِ فِي فَوَادِهِ وَعَيْنَيْهِ، وَمَحَلُّهُ فِي الْمَرْأَةِ فِي عَيْنَيْهَا إِذَا أَقْبَلَتْ، وَفِي عَجِيزَتِهَا إِذَا أُدْبِرَتْ.

وقال جرير بن عبد الله العدوي: شَكَّوتُ إِلَى الْعَلَاءِ بْنِ زِيَادٍ مَا أَجْدُ فِي صَدْرِي مِنَ الْوَسْوَاسَةِ، فَقَالَ: إِنَّمَا مَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ النَّقَبِ الَّذِي تَمَرُّ بِهِ اللَّصُوصُ، فَإِنْ كَانَ فِيهِ شَيْءٌ عَالِجُوهُ، وَإِلَّا مَضَوْا وَتَرَكُوهُ.

وقد روى أبو صالح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ. فَإِنْ هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صَقُلَ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلَوْ قُلُوبُهُ، فَهُوَ الرَّاغِبُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ

مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ [المطففين: ١٤].

ورويانا عن جعفر بن برقان قال: سمعت ميمون بن مهران يقول: إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا نُكِتَ فِي قَلْبِهِ بِذَلِكَ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِنْ تَابَ مُحِيتُ مِنْ قَلْبِهِ، فَتَرَى قَلْبَ الْمُؤْمِنِ مَجْلُوًّا مِثْلَ الْمِرَاةِ، مَا يَأْتِيهِ الشَّيْطَانُ مِنْ نَاحِيَةٍ إِلَّا أَبْصَرَهُ. وَأَمَّا الَّذِي يَتَّبَعُ فِي الذُّنُوبِ، كُلَّمَا أَذْنَبَ نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَلَا يَزَالُ يُنْكَتُ فِي قَلْبِهِ حَتَّى يَسُودَ قَلْبُهُ، فَلَا يُبْصِرُ الشَّيْطَانُ مِنْ حَيْثُ يَأْتِيهِ.

وقد أخبر رسول الله ﷺ أن قلب المؤمن أجرد، فيه سراج يزهر، في تقسيمه القلوب. رويانا عن أبي سعيد الخدري وأبي كبشة الأنماري، وبعضه أيضاً عن حذيفة، عن رسول الله ﷺ قال: «القلوب أربعة؛ قلب فيه سراج يزهر، فذلك قلب المؤمن. وقلب أسود منكوس، فذلك قلب الكافر. وقلب أغلف مربوط على غلافه، فذلك قلب المنافق. وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه مثل البقلة يمدّها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القيح والصديد، فأى المادتين غلبت عليه حكم له بها». وفي لفظ بعضهم: «غلبت عليه ذهبت به».

وقال الله تعالى، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

فأخبر أن جلاء القلوب الذكر، به يبصر القلب، وأن باب الذكر التقوى، به يذكر العبد. فالتقوى باب الآخرة، كما أن الهوى باب الدنيا.

وأمر الله تعالى بالذكر، وأخبر أنه مفتاح التقوى؛ لأنه سبب الاتقاء وهو الاجتناب والورع، فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١]. وأخبر أنه أظهر البيان للتقوى في قوله: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦ - ٧]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي

أَحْسَنَ تَقْوِيمٍ [التين: ٤]. وقال: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]. فمن السَّوَاءِ والتَّعْدِيلِ والازدواجِ والتَّقْوِيمِ أدواتُ الظاهرِ وأعراضُ الباطنِ، وهى حَوَاسُ الجسمِ والقلبِ.

فأدواتُ الجسمِ هى الصفاتُ الظاهرةُ، وأعراضُ القلبِ هى المعانى الباطنة، قد عدَّلَها الله تعالى بحكمته، وسَوَّاهَا على مشيئته، وَقَوَّمَهَا إِتْقَانًا بِصُنْعِهِ، وإِحْكَامًا بِصُنْعَتِهِ؛ أولها: النفسُ والروحُ، وهما مكانانِ للقاءِ العدوِّ والمَلِكِ، وهما شخصانِ مُلْقِيَانِ لِلْفَجْورِ والتَّقْوَى. ومنها غرضانِ متمكَّنانِ فى مكانين، وهما العقلُ والهوى، عن حُكْمَيْنِ فى مشيئةٍ حاكمٍ، وهما التوفيقُ والإِغْوَاءُ. ومنها نُورَانِ ساطعانِ فى القلبِ عن تخصيصِ من رحمةٍ راحمٍ، وهما العلمُ والإيمانُ. فهذه أدواتُ القلبِ وحَوَاسُهُ ومعانيه الغائبةُ وآلَتُهُ، والقلبُ فى وسطِ هذه الأدواتِ كالمَلِكِ وهذه جنودُهُ تُؤَدِّى إليه، أو كالمِراةِ المجلوةِ وهذه الآلةُ حوله تظهرُ فيراها ويقدرُ فيه فيجدها.

فتفصيل ذلك على الإيجازِ أنْ جُمِلَ الخواطرُ ستةً، هى حدودُ القلبِ وقوادحُ، من ورائها خزائنُ الغيبِ وملكوتُ القدرةِ، وهى جنودُ الله تعالى عتيدةٌ وسلطانُ منه مبین.

والقلبُ خزانةٌ من خزائنِ الملكوتِ، قد أودعه مُقَلَّبُهُ من لطائفِ الرغبتِ والرهبتِ، وشعشعَ فيه من أنوارِ العظمةِ والجبروتِ، ما شاء لأهلِ الرفيقِ الأعلى، وذوى الملكوتِ الأدنى.

فأولُ التفصيلِ: خاطرُ النفسِ، وخاطرُ العدوِّ: وهذانِ لا يَعْدِمُهُمَا عمومُ المؤمنينَ، وهما مَذْمُومَانِ محكومٌ لهما بالسوءِ، لا يَرِدَانِ إلَّا بالهوى، وَضِدَّ العلمِ. وخاطرُ الروحِ، وخاطرُ المَلِكِ: وهذانِ لا يَعْدِمُهُمَا خصوصُ المؤمنينَ، وهما محمودانِ لا يَرِدَانِ إلَّا بحقٍّ، وبما دل عليه العلمُ.

وخاطرُ العقلِ: وهو متوسطٌ بين هذه الأربعةِ. يصلحُ للمذمومين فيكونُ حجةً على العبدِ لمكان تمييزِ العقلِ وتقسيمِ المعقولِ؛ لأنَّ العبدَ يدخلُ فى هواه بشهوةٍ

جُعِلَتْ لَهُ، واختيار لا يعسر عليه [ولا يقصر عنه]^(١) من حيث لا عقل ولا إجبار. ويصلح أيضاً للمحمودين؛ فيكون شاهداً للملك، ومؤيداً لخاطر الروح. ويثاب العبد في حسن النية وصدق المقصد.

وإنما كان خاطر العقل تارة مع النفس والعدو وتارة مع الروح والملك حكمة من الله تعالى لصنعه، وإتقاناً لصنعه؛ ليدخل العبد في الخير والشر بوجود معقول، وصحة شهود وتمييز، فيكون عاقبة ذلك من الجزاء والعقاب عائداً له وعليه، إذ قد جعل سبحانه هذا الجسم مكاناً لجريان أحكامه، ومحلاً لنفاذ مشيئته في مباني حكمته.

كذلك جعل العقل مطية للخير والشر، يجرى معهما في خزانة الجسم، إذ كان مكاناً للتكليف، وموضعاً للتصريف، وسبباً للتعريف العائد من معاني ذلك على صورة العبد من لذة النعيم أو عذاب الألم. فلم يكن العقل غائباً فيكون العبد عن العقل ذاهباً، ولم تكن الشهوة عازبة فتكون النفس مفقودة؛ إذ في ذلك تضعيف لحجة الله تعالى عليه، ووهن لبرهانه؛ لأن العقل شاهد الحجة، والشهوة في النفس مكان البلوى.

والنية في القلب طريق الحجة، وذلك أصل سبب عود جزاء الأمر والنهي. فالعقل مطبوع على التمييز مجبول على التحسين والتقبيح، والنفس مجبولة على الشهوة مطبوعة على الأمر بالهوى، وهذا نصيها من عطائه وهدها لهما إلى رشاده وإغوائه، وحظهما من الكتاب، وقسمهما من ولى الأسباب.

كما قال تعالى في أحكام ما ذكرناه تكملة لما أخبرنا عما سبق في علمه: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيحُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [الاعراف: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مِنْ تَوَلَاةٍ فَأَنَّهُ يُوْضِئُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤].

والخاطر السادس: هو خاطر اليقين، وهو روح الإيمان ومزید العلم، يردان

(١) زيادة من (ك).

إليه وَيَصْدُرَانِ عَنْهُ، وَهَذَا الْخَاطِرُ مَخْصُوصٌ بِمَخْصُوصٍ لَا يَجِدُهُ إِلَّا الْمُوقِنُونَ، وَهُمْ الشَّهَدَاءُ وَالصَّادِقُونَ، لَا يَرُدُّ إِلَّا بِحَقِّ وَإِنْ خَفِيَ وَرُودُهُ وَدَقٌّ، وَلَا يَقْدَحُ إِلَّا بِعِلْمٍ اخْتِيَارٍ لِمُرَادٍ مُخْتَارٍ وَإِنْ لَطُفَتْ أَدْلَتُهُ وَبَطْنُ وَجْهِهِ الْاسْتِدْلَالِ بِهِ. وَلَكِنْ لَيْسَ يَخْفَى هَذَا الْخَاطِرُ عَلَى مَقْصُودٍ بِهِ وَمُرَادٍ لَهُ، وَهُمْ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالذِّكْرِ، وَرَدَّ الرَّسُولُ ﷺ إِلَيْهِمْ^(١) الْفُتْيَا، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] أَيْ: مَنْ تَوَلَّى اللَّهَ حَفِظَ قَلْبَهُ. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ فَدَعْنِي، وَالْإِثْمُ حَزَّازُ الْقُلُوبِ» يَعْنِي: مَا يُوْثِرُ فِيهَا فَيَحْزِزُهَا لِرَقَّتِهَا وَصَفَائِهَا وَكَيْفِهَا وَلُطْفِهَا. وَقَالَ لِلرَّجُلِ الَّذِي سَأَلَهُ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ، وَهُمَا أَصْلًا أَعْمَالُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ: «اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمَفْتُونَ» أَيْ: أَنْ الْمُتَقِينَ يَعْلَمُونَ مَعَانِيَ التَّوِيلِ وَالرَّخْصَةِ عَنْ عِلْمِهِمُ الْعِلَانِيَةِ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ فَوْقَهُمْ مَطَالِبٌ بِالْحَقِّيقِ وَالْعَزِيمَةِ عَنْ عِلْمِكَ السِّرِّ.

وَأَهْلُ الظَّاهِرِ أَيْضًا يَعْلَمُونَ حُكْمَ اللَّهِ تَعَالَى الظَّاهِرَ عَنْ عِلْمِ اللِّسَانِ الظَّاهِرِ الَّذِي هُوَ حُجَّةٌ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ الظَّاهِرِ، وَقَلْبُكَ فَفِيهِ مُنَوَّرٌ بِالْإِيمَانِ تَنْظُرُ بِهِ، أَوْ يَنْطِقُ بِهِ حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى الْبَاطِنُ عَنْ عِلْمِ الْقَلْبِ الْبَاطِنِ، الَّذِي هُوَ حَقِيقَةُ الْإِيمَانِ، وَمَنْفَعَتُهُ لِأَهْلِ الْعِلْمِ الْبَاطِنِ.

وَلَا يَصْلَحُ أَنْ يَرُدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَائِلًا إِلَّا إِلَى فُقَيْهِهِ، فَلَوْلَا أَنَّ عِلْمَ الْقَلْبِ هُوَ حَقِيقَةُ الْفَقْهِ مَا رَدَّ صَاحِبُهُ مِنْ فُتْيَا أَهْلِ الظَّاهِرِ إِلَيْهِ، وَلَا حُكْمٌ عَلَى الْمُفْتِينَ بِهِ، فَقَدْ صَارَ عِلْمُ الْقَلْبِ هُوَ عِلْمُ الْعِلْمِ، إِذْ جَعَلَهُ الرَّسُولُ ﷺ قَاضِيًا عَلَى الْمُفْتِينَ بِالْحُكْمِ، وَصَارَ عَالِمُ الْبَاطِنِ هُوَ عَالِمُ الْعُلَمَاءِ؛ إِذْ لَمْ يَسَعَهُ تَقْلِيدُ الْعُلَمَاءِ، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «الْبِرُّ مَا أَطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ وَسَكَنَتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَإِنْ أَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ».

فَهَذَا وَصْفُ قَلْبٍ مَكَاشَفٍ بِالذِّكْرِ، وَنَعْتُ نَفْسٍ سَاكِنَةٍ بِمَزِيدِ السَّكِينَةِ وَالْبِرِّ، كَمَا وَصَفَ مِنْ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ فِي صَرِيحِ الْكَلَامِ، وَفِي دَلِيلِ الْخُطَابِ. فَأَمَّا صَرِيحُهُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ

(١) «إِلَيْهِمْ» لَيْسَتْ فِي (ك).

الْقُلُوبُ ﴿الرعد: ٢٨﴾. وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

وأما دليلُ الكلام الذي يشهد بالتدبر فقوله تعالى في وصف قلوب أعدائه المحجوبين: ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١]. ومثله: ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ [النجم: ٣٥]. ففي تدبر معناه أن أولياءه المستجيبين له سامعون منه، مكاشفون بذكره، ناظرون إلى غيبه.

وقال تعالى في مثله: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى﴾ هذا فريقُ المتبعين للسبيل المتفرقة عن سواء السبيل بهم، الضالين عن سواء الصراط ﴿وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ [هود: ٢٤] هو فريق المهتدين المتبعين للصراط المستقيم. وقال تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ﴾ [هود: ٣٤].

وقال ﷺ في مجمل صفة القلب: «التقوى ههنا» وأشار إلى القلب. وقال الله سبحانه وتعالى في ذكر القلوب المقفلة بالذنوب: ﴿لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠]. وقال تعالى في فض طابعها بالتقوى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمِعُوا﴾ [المائدة: ١٠٨]، و ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. وفي الخبر: «إذا أراد الله بعبد خيراً جعل الله زاجراً من نفسه، وواعظاً من قلبه». وفي الخبر الآخر: «مَنْ كَانَ لَهُ مِنْ قَلْبِهِ وَاعِظٌ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ».

وروي في تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ [آل عمران: ١٩٣] قال: سَمِعْنَاهُ مِنْ قُلُوبِنَا. وقال في ضده لأعدائه: ﴿أَوَلَيْكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [نصفت: ٤٤] عن قلوبهم.

وقال الله تعالى في التوبة من ميل القلوب وهما: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ

صَفَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [التحریم: ٤]. وبمعناه: ﴿وَهُمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَعَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧٤].

وقال فى تحقيق العمى للقلب: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. فأهل القلوب يتعظون بلا واعظ من خلق، ويزدجرون بلا زاجر فى ظاهر، وسائر ما ذكرناه من الخواطر لا يَعْدُمُهُ المؤمنون.

والقلب خزانة الله تعالى من خزائن الغيب، وهذه المعانى جنودُ الله تعالى مقيمةٌ حول القلب، يخفى منها ما يشاء، ويظهر ويبدى منها ما يريد، ويُعيد وَيَسْطُ القلب بما يشاء منها، وَيَقْبِضُهُ فيما شاء عنها.

وكلُّ قلبٍ اجتمع فيه ثلاثةُ معانٍ لم تفارقه خواطر اليقين، ولكن يَضَعُ الخاطر ويخفى لضعف المعانى ودقتها، ويقوى اليقين ويظهر بقوتها؛ لأن هذه الثلاثة مكانُ اليقين، أحدها: الإيمان، وموضعه من اليقين مكان حجر النار. والثانى: العلم، ومكانه موضعُ الزناد. والثالث: العقل وهو مكان الحراق. فإذا اجتمعت هذه الأسباب قُدح خاطرُ اليقين فى القلب.

ومثلُ القلب فى قوّته بقوة مدده، وفى صفائه بجودة عدده، مثلُ المصباح فى القنديل إلى مكان العقل منه، والزيتُ موضعُ العلم به، وهو روحُ المصباح، وبمدده يكون ظهورُ اليقين، والفتيلةُ مكانُ الإيمان منه وهى أصله وقوامه الذى يظهر بها، فعلى قدر قوة الفتيلة وجودة جواهرها يقوى اليقين. وهو مثلُ الإيمان فى قوّته بالورع، وكمالهِ بالخوف، وعلى مقدار صفاء الزيت ورقته واتساعه تضىء النار التى هو اليقين، وهو مثل العلم فى مدد الزهد وفقد الهوى، فصار العلم مكاناً للتوحيد، فتمكن الموحّد فى التوحيد على قدر المكان، وقد قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]. وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [هود: ١٤].

فقدّم العلم على التوحيد فصار أوله، فكلما اتسع القلب بالعلم بالله وزهد فى الدنيا ازداد إيماناً وعلا؛ لأنه يرى فى علوه ما لا يراه غيره، ويعلم فى اتساعه ما

لا يَعْلَمُهُ سِوَاهُ، فَيَكْبُرُ الْمُؤْمِنُ بِهِ فَيَكُونُ ذَلِكَ مَزِيدَ إِيمَانِهِ وَقُوَّتِهِ، ثُمَّ يَشْهَدُ كُلُّ مَا آمَنَ بِهِ فَيَكُونُ بِذَلِكَ قُوَّةَ نَفْسِهِ وَسَعَةً مُشَاهَدَتِهِ. وَكُلَّمَا قَصُرَ عِلْمُ الْقَلْبِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَبِمَعَانِي صِفَاتِهِ، وَأَحْكَامِ مَلَكُوتِهِ، قَلَّ إِيمَانُ هَذَا الْعَبْدِ، ثُمَّ أَشْهَدَ مَا آمَنَ بِهِ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ لَمَّا غَلَبَ عَلَيْهِ مِنْ حُبِّ الْأَسْبَابِ، وَسَمِعَ الْكَلَامَ مِنْ خَلْفِ سِتْرِ؛ لِعَجْزِهِ عَنِ الْمَسَارَعَةِ إِلَى الْبِرِّ، فَيُضْعَفُ بِذَلِكَ إِيمَانُهُ، وَيَتَخِيلُ مُشَاهَدَتَهُ، وَلَا يَتَحَقَّقُ.

فَلَيْسَ مَنْ عِلْمَ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَقَدْرِهِ وَآيَاتِهِ مِائَةَ أَلْفٍ مَعْنَى ثُمَّ شَهِدَهَا كُلَّهَا مِنْ قُرْبٍ عَنْ كَشْفٍ، مِثْلَ مَنْ عِلْمَ مِنْهَا عَشْرَةَ مَعَانَ ثُمَّ شَهِدَهَا مِنْ بَعْدٍ عَنْ حِجَابٍ، وَهُمَا مُؤْمِنَانِ مَعًا، لَكِنْ بَيْنَ إِيمَانِهِمَا فِي الْقُرْبِ وَالْعُلُوِّ وَالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ كَمَا بَيْنَ الْعَشْرَةِ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ، فَيَكُونُ إِيمَانُ قَلْبِ الْمُسْلِمِ مِئِثَرًا مِئِثَرًا عَشْرَ إِيمَانٍ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ. وَالْمِئِثَرُ: هُوَ عَشْرُ الْعَشْرِ، جُزْءٌ مِنْ مِائَةِ جُزْءٍ. وَيَكُونُ إِيمَانُ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ مِنَ الزِّيَادَةِ عَلَى الْعَشْرِ وَالنَّقْصَانِ مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ عَلَى قَدَرِ قِسْمِهِ.

وَمِثْلَ ذَلِكَ فِيمَا نَعْقِلُهُ مِثْلَ رَجُلٍ قَالَ لَكَ: إِنْ عِنْدِي فَلَانًا، فَقَدْ حَصَلَ لَكَ عِلْمٌ أَنَّهُ عِنْدَهُ، غَيْرَ أَنَّ هَذَا الْعِلْمَ غَيْرُ يَقِينٍ؛ لِأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَدْ اشْتَبَهَ عَلَيْهِ، أَوْ يَكُونُ قَدْ كَانَ عِنْدَهُ ثُمَّ خَرَجَ، وَلَيْسَ هُوَ الْآنَ عِنْدَهُ، وَهَذَا مِثْلُ إِيمَانِ الْمُسْلِمِ هُوَ عِلْمٌ^(١) خَيْرٌ لَا خَيْرَ، ثُمَّ إِنَّكَ تَأْتِي إِلَى فَتَسْمَعُ كَلَامَهُ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، فَقَدْ عَلِمْتَ الْآنَ أَنَّهُ عِنْدِي؛ لِأَنَّكَ سَمِعْتَ كَلَامَهُ وَاسْتَدَلَلْتَ بِهِ عَلَى كَوْنِهِ، إِلَّا أَنَّ هَذَا الْعِلْمَ أَيْضًا غَيْرُ تَحْقِيقٍ؛ لِأَنَّ الْأَصْوَاتَ تَشْتَبِهُ، وَالْأَجْرَامَ تَتَقَارَبُ.

وَلَوْ قُلْتُ لَكَ بَعْدَ ذَلِكَ: لَمْ يَكُنْ عِنْدِي وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ غَيْرُهُ أَشْبَهَ صَوْتَهُ، تَشَكَّكَتَ فِيهِ؛ لِاحْتِمَالِ ذَلِكَ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ يَقِينٌ عَيْنٍ تَدْفَعُ بِهِ قَوْلِي، وَلَا شَهَادَةً نَظَرٍ تُنْكِرُ بِهَا عَلَيَّ، وَهَذَا مِثْلُ لِيَامَانِ عَمُومِ الْمُؤْمِنِينَ، فَهُوَ إِيمَانُ خَيْرٍ، لَعَمْرِي، وَفِيهِ يَقِينٌ اسْتِدْلَالٍ مِمْتَزَجٍ بظنٍّ، إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ يَقِينِ الْعَارِفِينَ^(٢)، [وَلَا

(١) فِي (ط): «هُوَ عَلَى عِلْمٍ».

(٢) عِبَارَةٌ (ك): «وَفِيهِ يَقِينٌ غَيْرُ يَقِينِ الْعَارِفِينَ».

وصف المشاهدين^(١)؛ لأنه قد يُدخلُ عليهم التخيل والتشبيه، فلا يدفعونه بمشاهدة يقين. ثم إنك تدخل إلى الآن بعد أن قيل لك: هو عندي، أو بعد أن سمعتَ كلامه، فتشاهده جالساً لا حجاب بينك وبينه. فهذا هو يقينُ المعرفة، وهذه شهادة الموقن، وعندها انتفى كلُّ شكٍّ، وتحقق خبرُ العلم.

وهذا مثلٌ لعلم إيمان الموقنين الذي قد اندرج فيه إيمان عموم المؤمنين من علم الخبر المحتمل، ومن سماع الكلام المشتبه من وراء حجاب، واسمُ الإيمان واقعٌ على جميعهم، ولكن الأول علمٌ أنه عندي بما قيل له فصدق، والثاني: علمٌ بما سمع فاستدل ولم يشهد فيقطع، والثالث: هو الذي عاينَ فقطع، وقد شهد له الرسول ﷺ بالمزيد، فقال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الْخَبْرُ كَالْمَعْيَنَةِ»، وقال: «وَلَيْسَ الْخَبْرُ كَالْمَعْيَنَةِ».

ومثل هذا أيضاً أن ترى الشيء بالنهار فتعرفه معرفةً عينٍ، وتعرف مكانه بنظرٍ لا تخطئه، ثم إنك تحتاجُ إليه ليلاً فلست تعرفُ مكانه رأى عينٍ، وإنما تقصده بمعرفة استدلال عليه، وبحسن ظنٍّ أنه موجودٌ على حاله، أو يُعرفُ بشيءٍ معهودٍ أنه لا يتحول. وكذلك الأدلة للغائبات^(٢)، وسقوطها مع المشاهدات. وفي معناه رؤية الشيء بنور القمر، فإنها تسنح وتلوح المشكلات^(٣)، ورؤيته في ضياء الشمس فإنها تكشف الأمر على ما هو به. فهذا مثلٌ لنور اليقين إلى نور الإيمان.

ومثلٌ رابعٌ في تفاوت المؤمنين في حقيقة الكمال ودخولهم في الاسم والمعنى مثلُ صلاة رباعية أُقيمت، فجاء رجلٌ فأدرك تكبيرة الإحرام، ثم جاء آخرٌ فأدرك الركوع، ثم جاء آخرٌ فأدرك الركعة الثانية، ثم جاء ثالثٌ فأدرك الركعة الثالثة، ثم جاء رجلٌ رابعٌ فأدرك الركعة الآخرة، فكلهم قد صلُّوا وأدركوا الصلاة في جماعة ونالوا فضلها، لقوله ﷺ: «مَنْ أَدْرَكَ مِنَ الصَّلَاةِ رَكْعَةً فَقَدْ أَدْرَكَ الصَّلَاةَ». ولكن

(١) ساقطة من (ط).

(٢) في (ط): «وكذلك الأدلة هي الغائبات» وأثبت ما في (ك).

(٣) عبارة المطبوعة (ط): «وبمعناها رؤية الشيء بنور القمر، فإنه يشيع ويلوح المشكلات» وأثبت عبارة (ك).

ليس من أدرك الركعة الأولى في كمال الصلاة وإدراك حقيقتها كمن أدرك الثالثة أو الرابعة، ولا يكون أيضاً من أدرك التكبير للإحرام في الفضل كمن لم يدرك شيئاً من القيام، وهما مدركان معاً^(١).

فكذلك المؤمنون في كمال الإيمان وحقائقه لا يستوون، وإن استووا في الاسم والمعنى، وكذلك في تفاوتهم في الآخرة. فقد جاء في الخبر أنه يقال: «أخرجوا مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ، وَنِصْفُ مِثْقَالٍ، وَرَبْعُ مِثْقَالٍ، وَشَعِيرَةٌ وَذَرَّةٌ مِنْ إِيْمَانٍ»، فقد حصلوا متفاوتين في الإيمان ما بين الذرة إلى المِثْقَال، وكلهم قد دخل النار إلا أنهم على مقامات فيها.

وفيه دليل أن من كان في قلبه وزن دينار من إيمان لم يمنعه ذلك من دخول النار؛ لعظم ما اقترب من الأوزار، وأن من كان في قلبه وزن ذرة من إيمان لم يحق عليه الخلود في دار الهوان؛ لتعلقه بيسير الإيقان، وأن من زاد إيمانه على وزن دينار لم يكن للنار عليه سلطان، فكان من الأبرار، وأن من نقص إيمانه عن ذرة لم يخرج من النار وإن كانت سيماء واسمه في الظاهر في المؤمنين؛ لأنه في علم الله من المنافقين الفجار، وقد قال الله تعالى في وصفهم: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الأنفطار: ١٤]، ثم قال: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [الأنفطار: ١٦]، ثم صار صاحب المِثْقَالِ والذرة في الجنة على تفاوت درجات، وكان الزائد إيمانه على مِثْقَالٍ في أعلى عليين على هؤلاء، وارتفع أهل الدرجات العلى على أهل عليين ارتفاع الكوكب الدرّي^(٢) في أفق السماء، وكلهم قد اجتمع في الجنة على تفاوت مقامات وتعالى درجات. [وقال الرسول ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى لِيَرَاهُمْ» الحديث]^(٣).

وروينا عن رسول الله ﷺ: «ليس شيءٌ خيراً من ألف مثله إلا الإنسان، فَاعْمُرِي إِنَّ قَلْبَ الْمُوقِنِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ قَلْبٍ مُسْلِمٍ؛ لَأَنَّ إِيْمَانَهُ فَوْقَ إِيْمَانِ مَائَةٍ

(١) قوله «ولا يكون أيضاً... مدركان معاً»: ليس في (ك).

(٢) في (ط): «وترفع أهل الدرجات... الكوكب الذي» والصواب ما أثبت من (ك).

(٣) زيادة من (ك).

مؤمن، وعلمه بالله تعالى أضعافُ علمِ مائةِ مسلم». ويقال: إن واحداً من الأبدالِ الثلاثمائةِ قيمتهُ قيمةُ ثلاثمائةِ مؤمنٍ.

وكان أبو محمد يقول: يُعطي الله تعالى بعضَ المؤمنينَ من الإيمانِ بوزنِ جبلٍ أحدٍ، ويعطي بعضهم مثلَ ذرةٍ.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] بالعلوِّ، ولا نهايةَ لعلوِّ الإيمانِ فصارعَ علوُّ كلِّ قلبٍ على قدرِ إيمانه، ولذلك رُفِعَ العلماءُ على المؤمنينَ درجاتٍ في قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، ففسرها ابن عباس رضى الله عنهما فقال: الذين أُوتُوا العلمَ فوقَ المؤمنينَ بسبعمائةِ درجةٍ بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، وفي الخبر: «أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلَّةُ، وَعَلِيُّونَ لِأُولَى الْأَبَابِ». وعن النبي ﷺ: «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ». وروينا في لفظٍ أبلغ من هذا: «كفضلي على أمتي».

فالموقنون من المؤمنين أعلى إيماناً، والعالمون من الموقنين أرفعُ مقاماً، ثم على قدرِ بياضِ الماءِ يستبين من القنديل حسنه وصفاهه.

وهذا مثلُ العقلِ في صحته من الاعتلال، وصفائه من كدرِ الأحوالِ والأموالِ، ويجمعُ ذلك كله القنديلُ وهو القلبُ. فعلى قدرِ رقةِ القلبِ ولطفِ جوهره وصفائه من كدره وحسنِ طهارته عن الآصار^(١) تكونُ هذه العلومُ فيه والأنوار. وجوهرُ الزجاجِ في الصفاءِ محتاجٌ إلى صفاءِ الماءِ، كما أن صفاءَ الماءِ محتاجٌ إلى صفاءِ الجوهرِ، وبمعياريهما يكونُ القلبُ والعقلُ. ووقودُ النورِ محتاجٌ إلى قوّةِ الفتيلة^(٢) ومددِ الزيتِ، فبموضعها في القوّةِ والمددِ يكونُ العلمُ بالله تعالى واليقين، ذلك تقدير العزيز العليم.

وكلُّ قلبٍ اجتمعَ فيه ثلاثةٌ معانٍ لم يفارقه خواطرُ الهوى: الجهلُ، والطمعُ،

(١) في (ط): «الآثار»، والصواب: الآثام، وأثبت ما في (ك)؛ والآصار: جمع إصر، وهو الذنب.

(٢) في (ك): «بمعياريهما ويكون القلب والعقل وقود النار تحتاج إلى قوة الفتيلة».

وحبُّ الدنيا. ثم يضعف خاطرُ الهوى ويقوى على قدر تمكُّنِ هذه الثلاثة من النفس وقوتها. ويظهر الهوى في القلب ويخفى على قدر تمكُّنِ هذه الثلاث من اليقين، وضعفها لوجود مكانها في السَّعة والضيق^(١) وهو: العلم، والإيمان، والعقل. وفي القلب يظهر سلطانُ ذينك^(٢) أجمع، فأىُّ جندٍ كانت المشيئةُ معه غلبَ. وروينا عن علي عليه السلام: إن لله في أرضه آيةٌ وهى القلوب، فأحبُّها إليه أرقُّها وأصفأها وأصلبُها. ثم فسره فقال: أصلبُها في الدين، وأصفأها في اليقين، وأرقُّها على الإخوان.

فمثلُ القلوبِ مثلُ الأواني في تقاربِ جوهرها، فأرقُّها وأصفأها وأعلاها يصلح للملك والوجه والطيب، وأكثرُها وأردأها يصلح للأدناس، وما بين ذلك يصلح لما بينهما.

ومثلُهما أيضاً مثلُ الموازين: الطيارُ اللطيف منها^(٣) يصلح لوزن الذهب بالتحريز، والمعيارُ الكثيفُ الجافى يصلح للقتِّ والأنعام، وما بينهما يصلح لما بين ذلك. فيوزنُ بكلِّ ميزانٍ ما يصلحُ له من كلِّ شيءٍ موزونٍ، كما يُجعل في كلِّ إناء ما يليق به من كلِّ شيءٍ مردولٍ أو مصونٍ [يلزمه. كذلك الطعمة والمأكول]^(٤). كذلك الحكم والحكمة في الملكوتِ الباطنِ كالحكمة والحكم في الملكوتِ الظاهرِ بتعديل الظاهرِ الباطن.

وفي تفسير قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ [النور: ٣٥] فسرهُ أبى بن كعبٍ قال: مثل نورِ المؤمن، وكذلك كان يقرأه. قال: فقلب المؤمن هو المشكاة فيها مصباحٌ، فكلامه نورٌ وعمله نورٌ وقلبه نورٌ، ثم قال في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ [النور: ٤٠] قال: قلبٌ

(١) في (ط): «من النفس وحقائقها على مثل ما ذكرناه من تمكُّنِ خواطر اليقين وضعفها لوجود مكانها» وأثبت عبارة (ك).

(٢) في (ط): «ذلك» وأثبت ما في (ك).

(٣) في (ط): «الطيار اللطيف والمعيار يصلح» وأثبت ما في (ك).

(٤) زيادة من (ك).

المنافق، فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ويتقلب في ظلمة.

وكان زيد بن أسلم يقول في قوله تعالى: ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢٢] قال: قلب المؤمن. وقال أبو محمد سهل: مثل القلب والصدر مثل العرش والكرسى.

ورويانا في حديث ابن عمر قال: «قيل: يا رسول الله، أين الله في الأرض؟ قال: في قلوب عباده المؤمنين». وفي الخبر المأثور عن الله تعالى: «لم يسعني سمائي ولا أرضي، ووسعني قلب عبدي المؤمن» وفي بعضها: «اللين الوادع» فاللين: يعني السهل الرقيق القريب، والوادع: يعني الساكن المطمئن.

وفي الخبر: «ما أليس العبد لبسة أحسن من خشوع في سكينه»، فهذه لبسة المتقين، وصبغة الله تعالى للعارفين. وفي الحديث: «قيل: يا رسول الله، من خير الناس؟ قال: كل مؤمن محموم القلب»، ثم فسر رسول الله ﷺ فقال: «هو التقى الذي لا غش فيه ولا بغى، ولا غل ولا حسد».

وقال بعض العارفين في معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَى اللَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩] أى: مما سوى الله، ليس فيه غير الله. وفي قول أهل التفسير: سليم من الشرك والنفاق.

وقال رسول الله ﷺ: «الشرك في أمتي أخفى من ديب النمل»، وهذا لا يعدمه المؤمنون إلا الصديقين. وقال: «أكثر منافقي أمتي قرأوها»، وهذا لا يعدمه العابدون إلا العارفين.

ومن خواطر اليقين ما يرد بشيء لا تظهر دلائله في الظاهر؛ لخفائه وغموض شواهد، فليس يعلم إلا بباطن العلم وغامض الفهم والغوص على لطائف معاني التبيين وباطن الاستنباط من فهم التنزيل وتعليم التأويل، كما قال الحبيب الخليل رسول الله ﷺ لابن عباس: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل». وكما قال على بن أبي طالب: ما عندنا شيء أسره إلينا رسول الله ﷺ سوى كتاب الله تعالى إلا أن يؤتى الله تعالى عبداً فهما في كتابه. وكما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦٩] قال: الفهم في كتاب الله. وقال

أصدقُ القائلين: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، فَخَصَّهُ بفهمٍ منه زاده به فوق الحُكْم والعلم الذي شَرِكَ فيه أباه، فزاده على فُتْيَا أبيه.

وروينا عن علي عليه السلام في الحديث الطويل الذي يقول فيه: واليقينُ على أربعِ شُعبٍ؛ على: تبصرةِ الفِطْنةِ، وتأويلِ الحِكمةِ، وموعظةِ العبرةِ، وسنةِ الأولين. فَمَنْ تَبَصَّرَ الفِطْنةَ تأوَّلَ الحِكمةَ، ومن تأوَّلَ الحِكمةَ عرفَ العبرةَ، ومن عَرَفَ العبرةَ كان في الأولين.

إلا أن أهلَ اليقينِ المرادينَ به العارفينَ بأحكامِ الله تعالى الباطنة يعلمون تفصيلَ خواطرِ اليقينِ ومقتضاها، من حيث أشهدوا مطلعها من الغيب، وبحيث عَرَفُوا مُوجِبَهَا من الوصفِ، بنورِ الله الثاقبِ وقربه الحاضرِ وسلطانه النافذِ.

كما جاء في الخبر: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ تَعَالَى» أى باليقين. وفى لفظٍ آخر: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْعَالِمِ»، فكأنه مُفسِّرٌ له، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]، وقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨] أى: بنور اليقين.

وكان أبو الدرداء يقول: المؤمنُ يَنْظُرُ إلى الغَيْبِ من وراءِ سِتْرِ رَقِيقٍ، واللهِ إنه لَلْحَقُّ يَقْذِفُهُ اللهُ تَعَالَى فى قُلُوبِهِمْ، ويجريه على ألسنتهم. وقال بعض العلماء: ظنُّ المؤمنِ كِهَانَةً. أى كأنه سحرٌ من نفاذه وَصِحَّةِ وقوعه.

وقال بعض العلماء: يد الله تعالى على أفواه الحكماء لا ينطقون إلا بما هيأ الله عز وجلّ لهم من الحق.

وقال آخر: لو شئتُ لقلتُ إن الله يُطْلِعُ الخاشعينَ على بعضِ سرِّه.

وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أمراءِ الأجنادِ: احْفَظُوا مَا تَسْمَعُونَ مِنَ الْمُتَعَطِّينَ؛ فإنهم يَنْجِلِى لهم أمورٌ صادقةٌ.

وقال الله تعالى، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ

يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴿[الأنفال: ٢٩]﴾، قيل: نورٌ تُفَرِّقُونَ به بين الشبهات، ويقينُ تَفَرُّقُونَ به المشكلات.

ومن هذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ قيل: مخرجاً من كلِّ أمرٍ ضاقَ على الناسِ ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢٠] - ٣ يعلمه علماً بغيرِ تعليم، ويُفِظْنَهُ بغيرِ تجربة؛ أى بالشاهدِ الصحيح، والحق الصريح^(١).

ومثله قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] قال بعض العلماء^(٢): الذينَ يَعْمَلُونَ بما يَعْلَمُونَ يُوقِّفُهُمْ ويهديهم إلى ما لا يَعْلَمُونَ حتى يكونوا علماء حكماء. وقال بعضُ السلف: نزلت هذه الآيةُ في المتعبدين المنقطعين إلى الله سبحانه وتعالى المستوحشين من الناس، فيسوقُ الله تعالى إليهم مَنْ يَعْلَمُهُمْ، أو يُلْهِمُهُم التوفيقَ والعصمة.

وفى الخبر: «مَنْ عَمِلَ بما يَعْلَمُ أورثَهُ اللهُ تعالى علمَ ما لم يَعْلَمْ، ووَفَّقَهُ فيما يعمل، حتى يستوجبَ الجنة. ومن لم يعمل بما يَعْلَمْ، تاه فيما يعلم ولم يُوفَّق فيما يعمل، حتى يستوجبَ النار».

فمعنى: أورثه علمَ ما لم يعلم؛ أى: من علومِ المعارفِ التي هي موارِيثُ أعمالِ القلوب، مثلُ الفرقِ بين الاختبار والاختيار، والابتلاء والاجتباء، والمثوبة والعقوبة، ومعرفةِ النقص من المزيد، والقبض والبسط، والحل والعقد، والجمع والتفرقة، إلى غير ذلك من علومِ العارفين بعد حسِّ التفقه والأدب عن مشاهدة الرقيب، والقربِ لصحةِ المواجيدِ والقلوب.

وقال بعضُ التابعين: مَنْ عَمِلَ بِعَشْرِ ما يَعْلَمُ علَّمَهُ اللهُ تعالى ما يَجْهَلُ. وقد قال حذيفة: أنتم اليوم في زمانٍ مَنْ تركَ عَشْرَ ما يَعْلَمُ هَلَكَ، وسيأتي بعدكم زمانٌ مَنْ عَمِلَ بِعَشْرِ ما يَعْلَمُ نَجَا. وقال بعضهم: كلما ازدادَ العبدُ عبادةً واجتهاداً ازدادَ

(١) فى (ك): «والعلم والصريح».

(٢) فى (ط): «قيل» وأثبت ما فى (ك).

القلب قُوَّةً وَنَشَاطًا، وَكُلَّمَا مَلََّ الْعَبْدُ وَفَتَرَ اِزْدَادَ الْقَلْبُ ضَعْفًا وَوَهْنًا.

وَلَيْسَ يَكَادُ عِلْمُ الْيَقِينِ يَقْدَحُ فِي مَعْدِنِ الْعَقْلِ؛ لِأَنَّ عُلُومَ الْعَقْلِ مَخْلُوقَاتٌ، وَلَا يَكَادُ يَنْتِجُهُ الْفِكْرُ، وَلَا يُخْرِجُهُ التَّدْبِيرُ، فَمَا أَنْتَجَتْهُ الْأَفْكَارُ وَاسْتَخْرَجَتْهُ الْفِطْرَةُ مِنْ الْخَوَاطِرِ وَالْعُلُومِ فَتِلْكَ عُلُومُ الْعَقْلِ، وَهِيَ كَشُوفُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَحْمُودَاتُ لِأَهْلِ الدِّينِ.

فَأَمَّا خَاطِرُ الْيَقِينِ، فَإِنَّهُ يَظْهَرُ مِنْ عَيْنِ الْيَقِينِ، يُنَادِي بِهِ الْعَبْدُ مَنَادَةً، وَيَبْتَغِيهِ مَفَاجَأَةً؛ لِأَنَّهُ مَخْصُوصٌ بِهِ، مُرَادٌ مَقْصُودٌ بِهِ، مَحْبُوبٌ مُتَوَلَّى بِهِ، مَطْلُوبٌ مُرَادٌ بِهِ، مَسْلُوبٌ^(١)، لَا يَجِدُهُ إِلَّا عَارِفٌ أَوْ خَائِفٌ أَوْ مُحِبٌّ. وَمَنْ سِوَى هَؤُلَاءِ فَبِحَالِهِ مَحْجُوبٌ، وَبِعَادَاتِهِ مَطْلُوبٌ، وَإِلَى مَقَامِهِ نَاطِرٌ، وَفِي طَرِيقِهِ بِمَعْقُولِهِ سَائِرٌ.

فَأَمَّا الْعَارِفُونَ الْمُوَاجِهُونَ^(٢) بَعَيْنِ الْيَقِينِ، الْمَكَاشِفُونَ بِعِلْمِ الصِّدِّيقِينَ، فَإِنَّهُمْ مُسِيرُونَ مَحْمُولُونَ، سَابِقُونَ مُسْتَهْتَرُونَ، قَدْ وَضَعْتَ الْأَذْكَارُ عَنْهُمْ الْأَوْزَارَ، كَمَا جَاءَ فِي الْخَبَرِ: «سِيرُوا سَبْقَ الْمَفْرَدُونَ - بِالْفَتْحِ - وَالْمَفْرَدُونَ، أَيْضًا، بِالْكَسْرِ، فَهُمْ مَفْرَدُونَ لِلَّهِ تَعَالَى بِمَا أَفْرَدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، كَمَا قَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤] - قِيلَ: وَمَنْ الْمَفْرَدُونَ؟ قَالَ: الْمُسْتَهْتَرُونَ بِذِكْرِ اللَّهِ، وَضَعَ الذِّكْرُ أَوْزَارَهُمْ فَوَرَدُوا الْقِيَامَةَ خِفَافًا».

فَلَمَّا أَفْرَدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ سِوَاهُمْ لَهُ أَفْرَدُوهُ عَمَّا سِوَاهُ بِهِ، فَذَكَرَهُمْ فَاسْتَوْلَى عَلَيْهِمْ ذِكْرُهُ، فَاصْطَلَمَ قُلُوبَهُمْ نُورُهُ تَعَالَى، فَانْدَرَجَ ذِكْرُهُمْ فِي ذِكْرِهِ، فَكَانَ هُوَ الذَّاكِرَ لَهُمْ وَكَانُوا هُمْ الْمَكَانَ لِمَجَارَى قُدْرَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَلَا يُوزَنُ مَقْدَارُ هَذَا الذِّكْرِ، وَلَا يُكْتَبُ كَيْفِيَّةُ هَذَا الْبَرِّ، فَلَوْ وَضِعَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ فِي كِفَّةٍ لَرَجَحَ ذِكْرُهُ تَعَالَى لَهُمْ بِهَا.

وَهُمُ الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ: «أَفْتَرَى مَنْ وَاجِهَتُهُ بِوَجْهِ يَعْلمُ أَحَدٌ أَيْ شَيْءٍ أُرِيدُ أَنْ أُعْطِيَهُ؟ لَوْ كَانَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ فِي مَوَازِينِهِمْ لاسْتَقْلَلَتْهُمَا لَهُمْ. أَوَّلُ مَا أُعْطِيَهُمْ

(١) عبارة: «مراد به، مسلوب» من (ك) وتكملتها: «لا يجده إلا عارفًا أو خائفًا أو محبًا».

(٢) في (ك): «المتواجهون».

أَنْ أَقْذِفَ مِنْ نُورِي فِي قُلُوبِهِمْ فَيُخْبِرُونَ عَنِّي كَمَا أُخْبِرُ عَنْهُمْ»^(١).

وهذا هو ظاهرُ أوصافهم، وأوّلُ عطاياهم. فَطَلَبُ هؤلاءِ لَا يُعَرَفُ، وَنَصِيْبُهُمْ لَا يُكَيَّفُ، وَمَطْلُوبُهُمْ كُنْهٌ قَدَرُهُ لَا يُوصَفُ. عَطَاؤُهُمْ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَمَشَاهِدَتُهُمْ وَصْفُ التَّحْقِيقِ بَعِيْنِ الْيَقِيْنِ إِلَى حَقِّ الْيَقِيْنِ. فَأَوَّلُ نَصِيْبِهِمْ مِنْ مَطْلُوبِهِمْ عِلْمُ الْيَقِيْنِ، وَهُوَ صَفَاءُ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَآخِرُهُ^(٢) عِلْمُ الْإِيْمَانِ أَوَّلُ عِيْنِ الْيَقِيْنِ، وَهُوَ مَشَاهِدَةٌ وَصْفٍ مَعْرُوفٍ، وَهَذِهِ وَجْهَةُ التَّوْحِيدِ. وَلَا آخِرُ لِأَوَّلِ عِيْنِ^(٣) الْيَقِيْنِ، وَلَا انْقِطَاعَ لِآخِرِ نَصِيْبِهِمْ مِنْ مَشَاهِدَتِهِمْ.

فَظَاهِرُ التَّوْحِيدِ تَوْحِيدُ اللَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَتَوْحِيدُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَمَشَاهِدَةُ إِيجَادِهِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا نِهَآيَةَ لِعِلْمِ التَّوْحِيدِ^(٤)، وَلَا غَايَةَ لِمَزِيدِ عَطَاءِ الْمُوَحِّدِيْنَ، وَلَكِنْ لَهُمْ نِهَآيَاتٌ يُوقِفُونَ تَحْتَهَا، وَغَايَاتٌ يَصْدُرُونَ عَنْهَا، تُجْعَلُ أَمَاكِنَ لِمَزِيدِهِمْ، وَيَزْدَادُونَ فِي وَسْعِهَا، وَيُمَدُّونَ بِعِلْمٍ يَطْلُبُونَ بِهَا مَا يُكَاشِفُونَ بِهِ لِمَا وَرَاءَهَا أَبَدًا، لَا بَدِيلًا آخَرَ، وَلَا أَمَدًا، وَلَا يَصِلُ الْعَبْدُ إِلَى مَشَاهِدَةِ عِلْمِ التَّوْحِيدِ إِلَّا بِعِلْمِ الْمَعْرِفَةِ، وَهُوَ نُورُ الْيَقِيْنِ، وَلَا يُعْطَى نُورُ الْيَقِيْنِ حَتَّى تَمُخَّضَ الْجَوَارِحُ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ، كَمَا يُمَخَّضُ الزُّقُّ بِاللِّبَنِ؛ حَتَّى تَظْهَرَ الزُّبْدَةُ، وَهِيَ الْيَقِيْنُ.

وَلَيْسَتْ هَذِهِ الزُّبْدَةُ غَايَةُ الطَّالِبِيْنَ، وَلَا بُغْيَةُ الصَّدِّيقِيْنَ؛ لِأَنَّ وَرَاءَهَا صَفْوَهَا وَخَالَصَهَا، ثُمَّ تُذَابُ هَذِهِ الزُّبْدَةُ حَتَّى يَخْلُصَ سَمْنُهَا، وَهُوَ صَفْوُهَا، وَنِهَآيَتُهَا، وَهَذَا مِثْلُ لَعِيْنِ الْيَقِيْنِ بَعْدَ عِلْمِهِ وَبَعْدَ مَشَاهِدَةِ الْوَجْهِ بِمِرَآةِ الْقُرْبِ، وَهِيَ نُورُهُ، فَحِينَئِذٍ لَا يَفَارِقُهُ وَجْدُهُ وَحُضُورُهُ، فَيَرْتَفِعُ الْعَبْدُ مِنْ خَوَاطِرِ الْيَقِيْنِ إِلَى مَشَاهِدَةِ الصِّفَاتِ، وَبَعْدَ ذَوْبِ عِلْمِ الْخَوَاطِرِ يَتَجَوَّهَرُ نُورُ شُعَاعِ وَجْهِ الذَّاتِ^(٥)، وَهَذَا مَقَامُ الْإِحْسَانِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ بَعْدَ مُجَاهَدَتِهِمُ النَّفُوسَ فِيهِ، وَبَيْعِهَا مَعَ الْأَمْوَالِ

(١) جزء من حديث قدسي، وسيجيء تخريج الأخبار كلها مجتمعة آخر الكتاب.

(٢) في (ط): «وآخر» وأثبت ما في (ك).

(٣) في (ط): «علم» وأثبت ما في (ك).

(٤) في (ك): «ولا نهاية للتوحيد».

(٥) قوله «يتجوهر نور شعاع وجه الذات»: ليس في (ك).

منه، فأحسن إليهم باشترائها منهم، وكان معهم كما قال: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٩]، فإنما كانوا محسنين؛ لأن المحسن معهم، كما كانوا أعلين؛ إذ الأعلى معهم، فقد قال: [﴿فَلَا تَهْنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَمِ﴾ أى: لا تضعفوا وتطلبوا الصلح من الأعداء^(١)] ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

وسئل رسول الله ﷺ عن الإحسان فقال: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ».

وينتقل العبد من أعمال الجوارح وهى المجاهدة التى طُرِحَ عليه ثقلها، فحملها، فتحمل فيما حمل، وتحفظ له ما استُحفظ إلى علم اليقين، وهو الروح والرضا، وهذا هو هداية السبيل.

وأول هذا كله أن يدخل العبد بعد التوبة النصوحة فى أحوال المريدin، وأعمال المجاهدين للنفس والعدو، ثم ينتقل إلى خواطر اليقين، فهذا ميراث المجاهدين، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ يعنى: نفوسهم وأموالهم وجاهدوا عدوهم؛ إذ يعدهم الفقر، ويأمرهم بالفحشاء، فصَابَرَهُمْ فغلبوه فباعوا النفوس والأموال، فأعتقوا من رِقِّ الهوى، ونجوا من أهوال الحساب، ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أى: لنُطْرِقَنَّهُمْ إلى مكاشفات العلوم، وكُنُسِمَعَنَّهُمْ غرائب الفهوم، ولنُوصِلَنَّهُمْ إلى أقرب الطرق إلينا بحسن مجاهدتهم فينا، ثم ختم الأمر بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

هذا مقام مشاهدة الصفات، فكان المجاهد فيه معهم أولاً بالتوفيق فيه صبروا له بالتأيد، وكان المحسن معهم آخر اليوم فيه أحسنوا إلى نفوسهم غداً.

وروينا عن الحسن البصرى عن رسول الله ﷺ: «الْعِلْمُ عِلْمَانِ: فَعِلْمٌ بَاطِنٌ فِي الْقَلْبِ فَذَاكَ هُوَ النَّافِعُ».

وسئل رسول الله ﷺ عن معنى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]: ما هذا الشرح؟ قال: «هو التوسعة» يعنى: أن

(١) من (ك) وهى ساقطة من (ط).

النور إذا قُذِفَ فى القلب اتسع له الصدرُ وانشرح.

وقال بعضُ العارفين: لى قلبٌ إذا عصيته عصيتُ اللهَ تعالى. يعنى: أنه لا يُقذَفُ فيه إلا طاعةٌ، ولا يُقرُّ فيه إلا حقٌ، فقد صارَ رسوله إليه، فإذا عصاهُ فقد عصا المرسل، بمعنى الخبر: «الإيمانُ ما وقرَّ فى القلب وصدقَه العملُ»، وبقوله ﷺ: «المؤمنُ ينظرُ بنورِ الله، فمنَ نظرَ بنورِ الله كانَ على بصيرةٍ منَ الله تعالى وكانَ عمله بنوره طاعةً لله تعالى».

وقال بعضُ العارفين: منذَ عشرينَ سنةً ما سكنَ قلبى إلى نفسى ساعةً، وما ساكنته طرفةٌ عينٍ.

وسئل بعضُ العلماءِ عن علمِ الباطن: أى شىء هو؟ فقال: سرٌّ من سرِّ الله تعالى يُقذَفُ فى قلوبِ أحبائه، لم يُطلعْ عليه ملكًا ولا بشرًا.

وقد روينا فيه خبراً مسنداً أحببنا أن نُسنده: «جاء رجلٌ إلى النبىِّ ﷺ فقال: علِّمْنى من غرائبِ العلم، فقال: هل عرفتَ الربَّ؟». فأخبرَ أنَّ غرائبَ العلوم فى المعرفة، وقد أمرَ ﷺ بأصلِ العلوم الذى فيه غرائبُ الفهم فقال: «اقرأوا القرآنَ والتَّمَسُّوا غرائبَهُ» يعنى تدبُّرَ معانيه واستنباطَ بواطنه؛ إذ بكلامه عرّفَه أوليائُه، وقد قيل: تكلَّمُوا تُعرَفُوا. فمن عرّفَ معانى الكلام ووجوهَ الخطابِ عرّفَ به معانى الصفاتِ وغرائبَ علومِ أسماءِ الذات.

وقال ابن مسعود: مَنْ أرادَ علمَ الأولينَ والآخِرِينَ فَلْيُثَوِّرْ^(١) القرآنَ.

وقال بعضُ أهلِ المعرفة فى فهمِ هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] قال: العدل: تدبُّرُ القرآنِ وفهمُه، والإحسان: مشاهدةُ الفهم.

وفى تأويلِ قولِ على رضى الله عنه^(٢) فى صفةِ العدلِ شاهدٌ لقوله هذا فى حديثه الذى وصفَ فيه شُعَبَ الإيمانِ فقال: الإيمانُ على أربعِ دعائم: على

(١) ثَوَّرَ القرآن: بحث عن علمه.

(٢) فى (ط): «وفى تأويلِ قوله عليه الصلاة والسلام» وهو خطأ، لأن هذا من كلامِ على رضى الله عنه، وأثبت ما فى (ك).

الصبر، واليقين، والعدل، والجهاد. ثم قال: والعدل على أربع شعب: غائص الفهم، وزهرة العلم، وروضة الحلم، وشرائع الحكم.

فمن فهم فسرَّ جُمَلَ العلم، ومن علِمَ عرف شرائع الحكم، ومن حلَّم لم يفرط في أمره، وعاش في الناس حميداً.

وقال بعضُ المكَاشِفِينَ: ظهرَ لى المَلِكُ فسألنى أن أُملىَ عليه شيئاً من ذكرى الخفى من مشاهدتى من التوحيد، وقال: ما نكتبُ لكَ عملاً، ونحن نحبُّ أن نَصُعدَ لك بعمل نتقرب به إلى الله تعالى. فقلت: أليس تكتبان الفرائض؟ قالاً: بلى. قلت: فيكفيكما ذلك^(١).

وحدثنا بعض العارفين قال^(٢): سألتُ بعضَ الأبدالِ عن مسألةٍ من مشاهدة اليقين. فالتفتَ إلى شِمَالِهِ وقال: ما تقولُ رحمك الله؟ ثم التفتَ إلى يمينه فقال: ما تقولُ رحمك الله؟ ثم أطرقَ إلى صدره وقال: ما تقولُ رحمك الله، ثم أجابنى بأغربِ جوابٍ ما سمعته قطُّ وأعلاه.

فقلتُ: رأيتُكَ التفتَّ عن شِمَالِكَ ويمينِكَ، ثم أقبلتَ على صدركَ فماذا؟ فقال: سألتَنى عن مسألةٍ لم يكن عندى فيها علَمٌ عتيدي، فالتفتُّ إلى صاحبِ الشِّمالِ فسألته عنها وظننتُ أن عنده منها علماً، فقال: لا أدري. فسألتُ صاحبَ اليمينِ، وهو أعلمُ منه، فقال: لا أدري. فنظرتُ إلى قلبى فسألته، فحدثنى بما أجبتُكَ، وإذا هو أعلمُ منهما.

وقد كَانَ أبو يَزِيدَ وغيرُهُ يقولون: ليسَ العالمُ الذى يحفظُ من كتابِ الله، فإذا نسىَ ما حَفَظَ صارَ جاهلاً؛ إنما العالمُ الذى يأخذُ علمه من ربِّه عزَّ وجلَّ أىَّ وقتٍ شاء، بلا تحفظٍ ولا درَسٍ.

فهذا - لعمري - لا ينسى علمه، وهو ذاكرٌ أبداً لا يحتاجُ إلى كتابٍ، وهو العالمُ الربَّانى، وهذا هو وصفُ قلوبِ الأبدالِ من الموقنين، ليسوا واقفينَ مع

(١) فى (ط): «أليس يكتبان الفرائض؟ قال: بلى. قلت: فيكفيهما ذلك» وأثبت ما فى (ك).

(٢) فى (ط): «وقال بعض العارفين قال» وأثبت ما فى (ك)، وفيه: «العلماء» بدل: «العارفين».

حِفْظٍ، إِنَّمَا هُمْ قَائِمُونَ بِحَافِظٍ.

وَقَدْ رُوِيَ فِي الْخَبَرِ: «إِنَّ مِنْ أُمَّتِي مُحَدِّثِينَ وَمُكَلِّمِينَ، وَإِنَّ عُمَرَ مِنْهُمْ». وقرأ ابن عباس: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ وَلَا مُحَدِّثٍ»^(١) يعنى الصِّدِّيقين.

وهذا كان طريق السلف من الصحابة وخيار التابعين، إذا سئلوا وفقوا وألهموا الصواب؛ لقربهم من حسن التوفيق، وسلوكهم حقيقة محجة الطريق، فخاطر اليقين إذا ورد على قلب مؤمن اضطرتته مشاهدته إلى القيام به، وإن خفى على غيره، وحكم عليه بيانه وبرهانه بصحة دليله، وإن التبس على من سواه.

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي تَخْصِيصِ الْمُوقِنِينَ: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨]، ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الحاقة: ٢٠]. وقال في نعت المتقين: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦]. وقال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]. وقال في فضل العلماء: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [الأنعام: ٩٧]. وقال: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧].

فحقيقة العلم إنما هو من التقوى واليقين، وهذا هو علم المعرفة المخصوص به المقرَّبون، وهب لهم الآيات، وخصَّهم بالبيان والدلالات، ﴿بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤] فهذه الخواطر تبدو في القلوب عن هذه الأواسط التي هي خزائن الله تعالى من خزائن الأرض: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧]

(١) هذا الخبر وهذه القراءة رواها سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس. وقال مسلم بن القاسم: «وجدنا المحدثين معتمدين بالنبوة - على قراءة ابن عباس - لأنهم تكلموا بأمر عالية من أنباء الغيب خطرات، ونطقوا بالحكمة الباطنة؛ فأصابوا فيما تكلموا، وعصموا فيما نطقوا». وقال أبو بكر الأنباري معلقاً على خبر ابن عباس: «فهذا حديث لا يؤخذ به على أن ذلك قرآن. والمحدث هو الذي يوحى إليه في نومه، لأن رؤيا الأنبياء حق» انظر: القرطبي ٧٩/١٢ - ٨٠.

والفقه: صفة للقلب لا للسان. والعرب^(١) تقول: فقهت بمعنى فهمت. وابن عباس يفسر قول الله عز وجل: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الاعراف: ١٧٩] يقول: لا يفهمون بها، ويجعل الفقه الفهم.

فخاطر اليقين والروح والملك من خزائن الله. وخاطر العقل والنفس والعدو من خزائن الأرض. كما قيل: النفس ترابية خلقت من الأرض فهي تميل إلى التراب، والروح روحاني خلق من الملكوت فهي ترتاح إلى العلو.

والقلب خزانة من خزائن الملكوت مثله كالمرآة تقدح هذه الخواطر عن أوساطها من خزائن الغيب، فتوقد في القلب فيتألق فيه للتأثير. فمنها: ما يقع في سمع القلب فيكون فهمًا. ومنها: ما يقع في بصر القلب فيكون نظرًا، وهو المشاهدة. ومنها: ما يقع في لسان القلب، فيكون كلامًا، وهو الذوق. ومنها: ما يقع في شم القلب فيكون علمًا وهو الفكر، وهو العقل المكتسب بتلقيح العقل الغريزي، وهذا أقلها لبثًا وأيسرها عناءً. وما وقع في ناظر القلب وحسه فخرق شغافه ووصل إلى سويدائه فهو المباشرة، كان وجدًا. وهذا هو الحال عن مقام مشاهدة. ومن هذا قوله ﷺ: «أسألك إيمانًا يباشر قلبي».

وقال بعض العارفين: إذا كان الإيمان في ظاهر القلب كان العبد محبًا للآخرة وللدنيا، وكان مرة مع الله تعالى ومرة مع نفسه، فإذا دخل الإيمان إلى باطن القلب أبغض العبد الدنيا وهجر هواه.

وقد قال عالمنا أبو محمد سهل رحمه الله: للقلب تجويفان؛ أحدهما باطن، وفيه السمع والبصر، وكان يسمى هذا: قلب القلب، والتجويف الآخر: ظاهر القلب، وفيه العقل.

ومثل العقل في القلب مثل النظر في العين، هو صقال لموضع مخصوص فيه بمنزلة الصقال الذي في سواد العين.

فإذا كانت هذه الخواطر عن أواسط الهداة به، وهي الملك والروح، كانت تقوى

(١) في (ط): «لا لسان العرب» وهو خطأ، صوابه من (ك).

وهُدًى ورُشْدًا، وكانت من خزائن الخير ومفاتيح الرحمة، قدّحت في قلب العبد نوراً وطيباً أدركته الحفظة، وهم أملاك اليمين، فأثبتوها حسنات.

وإن كانت الخواطر عن أواسط الغواية وهم العدو، والنفس كانت فجوراً وضلالاً، وهي من خزائن الشر، ومغالق الأعراض، قدّحت في القلوب ظلمة وتنتأ، أدرك ذلك الحفظة من أملاك الشمال فكتبوها سيئات.

وكلُّ هذا إلهام وإلقاء من خالق النفس ومُسَوِّبها، وجبار القلوب ومقلبها، حكمة منه، وعدلاً لمن شاء، ومنه وفضلاً لمن أحب. كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أى: بالهداية صدقاً لأوليائه ما وعدهم من ثوابه، وبالإضلال عدلاً على أعدائه ما أعدّ لهم من عقابه. ثم قال تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. فهذه جنود مُنْقَادَةٌ لأوامره، وهو ملكٌ جبارٌ عزيزٌ قهار، تعالى عن مباشرة الأشياء، إذ كانت تنقاد لمشيئته، وتطوع لقدرته، فتتقدّ قدرته إرادته، وتظهر حكمته أفعاله، إذا أراد شيئاً قال له كُنْ يخفى قدرته، فكان بظاهر حكمته.

والربُّ سبحانه قادرٌ على كلِّ شيء، بيده ملكوت كلِّ شيء، حكيمٌ في كلِّ شيء. والعبدُ ضعيفٌ عاجزٌ جاهلٌ لا يقدرُ على شيء، قد ابتلى بالأسباب، ووقع عليه الحجاب، وجعل مكاناً للأحكام بالعقاب والثواب، فالأسباب أواسطُ البلاء والعبدُ موضعُ الابتلاء.

والأول - سبحانه وتعالى - هو المبلّى المريد، المبدئ، المعيد، ويُششِّكم فيما لا تعلمون، ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ [الأنفال: ١٧] وليس يشهد العبدُ إلا ما أشهد، فذلك تفاوت العباد في المشاهدة، ولا يستبين له إلا ما أُبين له وأريد به.

فعن ذلك اختلفوا في الأدلة، فإذا أراد الله عز وجل إظهار شيء من خزائن الغيب حرك النفس بلطف القدرة، فتحرّكت بإذنه، فقدح من جوهرها بحركتها ظلمةٌ تكتب في القلب همةً سوء، فينظر العدو إلى القلب، وهو مُراصدٌ ينتظر، والقلوب له مبسوطة، والنفوس لديه منشورة، يرى ما فيها ما كان من عمله المبتلى

به، المصْرَف فيه، فإذا رأى همةً قد قَدَحَتْ في النفس فأثَّرتْ ظُلْمَةً في القلب، ظهرَ مكانه فقوىَ بذلك سلطانه.

والهمة تَرْدُ على أحد ثلاث معانٍ، لا تُحْصَى فروعُها؛ لأنَّ همة كلِّ عبدٍ على قدر بُغيته، أحدها: هوى، وهو عاجلٌ حَظُّ النفس، أو أمنيته، وهذا عن الجهل الغريزي. أو دَعْوَى حركة. أو سكون، وهو آفة العقل، ومحبة القلب.

فأى هذه الثلاث قَدَحَ في القلب، فهو وسوسةٌ نفسٍ، وحضورٌ عدوٍّ منسوب إليه محكوم عليه بالذمِّ، ليست تصدرُ إلا بأحد ثلاثة أصول: بجهلٍ، أو غفلةٍ، أو طلبِ فضولٍ دُنْيَا. وهنَّ مما لا يُعْنَى ومضافاتٌ إلى الدنيا وأعمالِها.

والأفضلُ مجاهدةُ النفس والعدوِّ عن إمضائِها، وحبسُ الجوارح عن السَّعى فيها، إن كنَّ من فضولِ الدنيا المباحات. فإن كنَّ هذه الثلاثُ وَرَدْنَ بمحرِّمات، ففرضٌ عليه كفُّ الجوارح عن السَّعى فيها. فإن أَمْرَحَ قلبه في ذكرِها، أو نَشَرَ خُطواته في طلبِها، كُنَّ حِجَابًا بين قلبه وبين اليقين. وإن كنَّ وَرَدْنَ بمباحات ففَضِّلَ له بنفيها عن قلبه، كيلاً يَكُونَ قلبه مَوْطِنًا للغفلات. وأصلُهنَّ الابتلاءُ من الله تعالى بالتَّقليبِ، والامْتِحَانُ منه في التَّصْرِيفِ، ولذلك خَلَقَ النَّفسَ والروحَ، والموتَ والحياةَ، وجعلَ ما على الأرضِ زِينَةً لها؛ ليُظْهِرَ أَحْسَنَ الْعَمَلِ بِالزُّهْدِ فيها، وَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ.

فإذا أرادَ اللهُ تعالى سلامةَ هذا العبد - بَعْدَ أَنْ أَشْرَفَ ^(١) على الهلاكِ والبُعدِ بِتَسْلِيطِ الْعَدُوِّ عليه، وتسويلِ النَّفسِ له - نَظَرَ الْقَلْبَ عِنْدَ الْإِبْتِلَاءِ، فهدى النَّفسَ بنورِ إيمانه إلى الله تعالى، فأسَرَ الْإِلْتِجَاءَ إِلَيْهِ، وَأَخْفَى التَّوَكُّلَ عَلَيْهِ، عَائِذًا لَانْذًا بِهِ، وَاضْطَرَّ مُخْلِصًا لَهُ. فَهَنَّاكَ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ فَكَانَ حَسْبُهُ، وَعِنْدَهَا فَوْضَ إِلَيْهِ أَمْرُهُ فَوَقَّاهُ مَكْرَ عَدُوِّهِ، وَحِينَئِذٍ اضْطَرَّ إِلَيْهِ، وَاتَّقَاهُ، فَجَعَلَ لَهُ مَخْرَجًا وَنَجَاةً. فَيَنْظُرُ اللهُ تعالى إلى الْقَلْبِ نَظْرَةً تُخَمِّدُ النَّفْسَ، وَتَمَحِّقُ الْهَمَّةَ، وَتَخْنَسُ الْعَدُوَّ بِسُقُوطِ مكانه، وَتَذْهَبُ بِخُنُوسِهِ شِدَّةَ سُلْطَانِهِ، فَيَصْفُو الْقَلْبُ مِنَ التَّأْثِيرِ بِنُورِ السَّرَّاجِ

(١) في (ك): «أشفى»، وهما بمعنى واحد.

المُنِير، وَيَمْلُسُ من التحرير بقوة القَهَّار العزيز، فَيَخَافُ العَبْدُ مقامَ الرَّبِّ لصفاء القلب عن نظر الرَّبِّ تعالى، فَيَفْزَعُ من الخطيئة، وَيَهْرُبُ، أو يَسْتَغْفِرُ منها وَيَتَوَبُّ، وَيُظْهِرُ عليه شِعَارَ تَقْوَاهُ.

وإن أراد الله تعالى بعبد هلكةً، وكان قد حَكَمَ بوقوع الشرِّ، نظر القلبُ بعدَ الهَمَّةِ بهوى النَّفْسِ إلى العَقْلِ فَرَجَعَ العَقْلُ إلى النَّفْسِ، فَسَوَّلَتْ وَطَوَّعَتْ فَسَكَنَ العَقْلُ، واطمأنَّ إلى تَسْوِيلِ النَّفْسِ وَطَوَّعَهَا، فَانْشَرَحَ الصَّدْرُ بالهوى لِسُكُونِ العَقْلِ، وانتشرَ الهوى في القلبِ لِشَرَحِ الصَّدْرِ وَتَوَسَّعَتْ، فَقَوَّى سُلْطَانُ العَدُوِّ لَاتِّسَاعِ مكانه، فأقبلَ بِتَزْيِينِهِ وَغُرُورِهِ وَأَمَانِيَّةِ ووَعْدِهِ يُوحِي بِذلك زُخْرُفًا من التَّحَوُّلِ وَغُرُورًا، فَيَضَعُفُ سُلْطَانُ الإِيْمَانِ لِقُوَّةِ سُلْطَانِ العَدُوِّ، وَخَفَاءَ نُورِ اليقين، فغلبَ الهوى لِقُوَّةِ الشهوةِ، فأحترقتِ الشهوةُ العلمَ والبيانَ، فارتفعَ الحياءُ، واستترَ الإيمانُ بالشهوةِ فَظَهَرَتِ المعصيةُ؛ لَغَلْبَةِ الهوى، وارتفعَ الحياءُ.

وهذان المعنيان من ظُهورِ الخيرِ والشرِّ، والطاعةِ والمعصيةِ، فلهذه الأسبابُ يوجدان في طرفَةِ عينٍ فتصيرُ أجزاءَ العَبْدِ جُزْءًا واحدًا، ومفصلاته تعودُ بالمرادِ منه فصلًا واحدًا، كالبرقِ في السرعةِ بتغليبِ القدرةِ على المشيئةِ، إذ قال جلَّ وعلا له: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وإن أراد الله تعالى إظهارَ خيرٍ وإلهامَ تقوى من خزائنِ الملكوتِ حَرَكَ الروحَ بِخَفْيِ اللَّطْفِ، فَتَحَرَّكَتْ بِأَمْرِهِ جَلَّتْ قَدْرَتُهُ، فَقَدَحَ من جَوْهَرِهَا نُورٌ سَطَعَ في القلبِ هِمَّةً عاليةً.

وهمةُ الخيرِ تُرَى بأحدِ ثلاثةِ معانٍ لا تُحْصَى فُرُوعُهَا، لأنَّ كُلَّ عَبْدٍ هِمَّتُهُ في الخيرِ مَبْلَغُ عِلْمِهِ وَمُنْتَهَى مَقَامِهِ. فأحدُ الأصولِ: مسارعةٌ إلى أمرٍ بِفَرْضٍ أو نَدْبٍ لِفَضْلِ يَكُونُ عن عملٍ حالِ العبدِ. أو علمٌ يَكُونُ فِطْنَةً له، أظهِرَ عليه من مكاشفةِ غيبٍ من ملكٍ أو ملكوتٍ. والمعنى الثالثُ: بِتَحَمُّلِ مَبَاحٍ من تصرفٍ فيما يَعْنِي، مما يعودُ صلاحُهُ عليه، واستراحةُ النفسِ بما أُبِيحَ له يَكُونُ نَفْعُهُ لغيره، أو تَرْوِيحَاتٍ من الأفكارِ لِقَلْبِهِ الغائِصِ في البحارِ، يَكُونُ حِمْلًا لكَرْبِهِ وتخفيفًا لثِقَلِهِ.

فهذه مرافقُ للعبدِ باختيارٍ من المعبودِ، وحكمةٌ من الحكيمِ، وفي كُلِّها رضا سُبْحانه وتعالى، فإمضَاؤها أَفْضَلُ للعبدِ، وبعضُها أَفْضَلُ من بعضٍ.

وهذه الأصولُ الستة من الخيرِ والشرِّ هي الفرقُ بين لَمَّةِ المَلِكِ وَلَمَّةِ العدوِّ، وبين إلهامِ التقوى وإلهامِ الفجورِ، التي هي النيةُ والوسوسةُ؛ وهما الاختيارُ أو الاختبارُ.

وقد تكونُ هذه المعاني مكاشفاتٍ مزيدٍ للعبدِ ينظرُ إلى الله تعالى منها، ويجدُ الله تعالى بما أوجدهُ منه عندها، وتكونُ تعريفاً من الله يتعرفُ إليه بها، ويفتحُ له بابَ الأنسِ والشوقِ منها.

ثم يتفاوتُ العبادُ في مُشاهدتها على حسبِ علوِّهم في اليقينِ، وعلى قدرِ قوتهم ومكانهم من التمكنِ. إلا أن أصولَ معاني الخيرِ وأواسطها إلهامُ المَلِكِ، والإلقاءُ في الروحِ وقوادحِ الأنوارِ في كتبِ الإيمانِ وفروعها الآخرة، والعلمُ ممَّا أمرَ به أو نُذِبَ إليه، والمُبَاحُ. وأصولُ معاني الشرِّ أضدادُها؛ وأواسطها النفسُ والعدوُّ، وأسبابُ الشهوةِ والهوى؛ يظهرُ عن الجَهْلِ ويوقِعُ الحجابَ ويصدُرُنَّ إلى عقابٍ.

فإذا أرادَ اللهُ تعالى إظهارَ خيرٍ من خزانةِ الروحِ حَرَكَها فَسَطَعَتْ نُوراً في القلبِ، فاثَّرتُ، فينظرُ المَلِكُ إلى القلبِ فيرى ما أحدثَ اللهُ تعالى فيه فيظهرُ مكانه فيتمكَّنُ، على مثالِ فعلِ العدوِّ في خزانةِ الشرِّ؛ وهي النفسُ.

والمَلِكُ مجبُولٌ على الهدايةِ، مطبوعٌ على حبِّ الطاعةِ، كما أن العدوَّ مجبُولٌ على الغوايةِ، مطبوعٌ على حبِّ المعصيةِ، فيُلْقِي المَلِكُ الإلهامَ، وهو خُطوره على القلبِ بقدرِ خواطرِهِ، فيأمرُ بتقييدِ ذلك ويَحْسِنُهُ له، ويحثُّه عليه، وهذا هو إلهامُ التقوى والرُّشدِ. وينظرُ المَلِكُ إلى اليقينِ كما ينظرُ العدوُّ إلى النفسِ، فيشهدُ اليقينُ للمَلِكِ بذلك فيطمئنُّ العقلُ، ويسكنُ إلى شهادةِ اليقينِ. ويصيرُ العقلُ الآنَ بإذنِ الله تعالى مع المَلِكِ بتأييدِ الله تعالى كما كان مع النفسِ أولَ مرةٍ مطمئناً إليها، فينشرحُ الصدرُ لطمأنينةِ العقلِ، فتظهرُ أدلةُ العلمِ لانشراحِ الصدرِ، فيقوى سلطانُ

اليقين لصفاء الإيمان، وتندرج ظلمة الهوى فى نور اليقين، وتنطفئ شعلة الشهوة لظهور نور الإيمان، ويزين الإيمان بزينة الحياء، فتضعف صفات النفس لسقوط الشهوة، ويقوى القلب لضعف النفس، ويزيد الإيمان بقوة اليقين وظهور أدلة العلم، فتغلب الهداية لمزيد الإيمان ولبسة الحياء، فتظهر الطاعة لغلبة الحق، ﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [يوسف: ٢١].

• ذكر نوع آخر من البيان:

وقد تختلف اللّمتان من الملك والعدو، ويتفاوت الإلهام والوسوسة فى المعانى من الخير والشر، فربما تقدمت لمة العدو بالأمر بالشر، وتقدح بعدها لمة الملك نصرة للعبد، وتثبيتاً على الخير، وعناية من الرب تعالى، فينهى عن ذلك، فعلى العبد أن يعصى خاطر الأول ويطيع خاطر الثانى. وقد يتقدم إلهام الملك بالأمر بالخير، ثم يقدح بعده خاطر العدو بالنهى عنه والتشيط والإملاء فيه بالتأخير، محنة من الله تعالى للعبد؛ لينظر كيف يعمل، وحسداً من العدو، فعليه أن يطيع خاطر الأول ويعصى خاطر الثانى.

ثم تدقّ الحواطر من إلهام الملك بالخير ومن وسوسة العدو بالشر، وقد يتفاوت ذلك من ضعف خاطر الخير لقوة الرغبة فى الدنيا، ومن قوة خاطر الشر لقوة الشهوة والهوى، وفى المزيد والنقص منهما، والتقديم والتأخير بهما، لتفاوت الأحكام والإرادة من الحاكم، ومن قبل تقلب القدرة، وغرائب الأحكام بالمشيئة؛ لأنّ له فى خزانة الخير خزانة الشر إذا شاء، وله فى خزانة الشر خزائن الخير إذا أحب، لمن يحبه؛ لثلا يسكن إلى سواه، ولا يدلّ العبد بما منه أبداه.

فإذا شهد العارف ذلك لم يقطع بخير ولم يدلّ به أبداً، لأنه لا يأمن مكر الله تعالى بتقلب خزائن الشر من خزائن الخير إذا عليه أبداه ولم يئأس من شرّ عليه أبداه؛ لأنّه يرجو تقلب خزائن الخير من خزائن الشرّ فيكون بين الخوف والرجاء، ولا يدرك ذلك إلا بدقائق العلوم، ولطائف الفهوم، وغوامض الفطن، وصفاء الأنوار، من تعليم الرحيم الجبار.

فما كان للبعد يجد بعد خطرة الشر خطرة خير منها تنهاه عنها فهو منظور إليه متدارك، وهذا هو الواعظ القائم في القلب، والزاجر المؤيد للعقل.

وقد تترادف خواطر الشر من النفس والهوى فلا يتعاقبها خاطر خير من الملك، وهذا علامة البعد ونهاية قسوة القلب.

وقد تتابع خواطر الخير والبر من الروح والملك، ويعافى العبد من خاطر الهوى والنفس، وهذا علامة القرب وهو حال المقربين.

وقد ترد خواطر العدو ووساوسه بالخير والبر ابتلاء من الله تعالى لعبده، وحيلة من العدو، ومكرًا من النفس. يريد العدو بذلك الشر، أو يخرج آخر إلى إثم أو خير؛ ليقطعه بذلك عن واجب، أو يشغله به عن الأفضل في الحال، فيكون ظاهره برًا، وباطنه إثمًا، ويكون أوله خيرًا، وآخره إثمًا.

وبغية العدو من ذلك باطنه وآخره، وشهوة النفس في ذلك هواها ومناها، قد لبسًا ظاهره بالخير تزيينًا، وموهاً أوله بالبر تحسينًا، وهذا من أدق ما يتلى به العاملون، ولا يعرف بواطنه وسرائره إلا العالمون.

فأما خاطر الملك فلا يرد إلا بخير صريح، وبر محض على كل حال إذا ورد؛ لأن الخداع والحيلة ليس من وصف الملائكة، ولكن قد تنقطع خواطر الملك من القلب إذا اشتدت قسوته، ودامت معصيته من المتعبدين، فيخلى بين القلب وبين نوازع العدو اللعين، ويتخلى العدو بهوى النفس فيستحوذ ويقترب بالعبد، نعوذ بالله من إبعاده، وعدم خيره وإرشاده.

ولا يزال العبد مع إلهام الملك في مقام الإيمان، فإذا رُفِعَ إلى مقام اليقين تولاه الله تعالى بواسطة أنوار الروح، فكان الروح مكان إلقاء الحق، حتى يرد عليه من الله تعالى بواسطة أنوار الروح من السرائر ما لا يطلع عليه الملك، ولا يكون ذلك حتى تنفى خواطر النفس بالهوى ولا تبقى منها باقية، وتطوى النفس فتندرج في الروح، فلا يظهر منها داعية. ثم يتولاه الله تعالى بنور اليقين، فيسطع له نور اليقين من خزانة الغيب المحجوب بمكاشفات الجبروت، فيشهد العبد شهادة الحق

بالحقِّ معاينة الغيبِ بِفَقْدِ كونه ووجَدِ كينونته وما لا يصلحُ بعد ذلك كَشْفُهُ إِلَّا لِأَهْلِهِ، أو لِمَنْ سأل عنه؛ وهذا يكونُ في مقامِ التوحيد، وهذا أنصبُّه المقرِّين.

• ذكر بيان آخر من تفصيل المعاني،

وكلُّ عملٍ - وإن قلَّ - لا بدَّ فيه من ثلاثة معانٍ قد استأثَرَ اللهُ تعالى بِتَوَلِّيِّهَا: أولُها: التوفيقُ، وهو الاتِّفَاقُ أن يجمعَ بينك وبين الشيء. ثم القوة، وهو اسمٌ لِثَبَاتِ الحَرَكَةِ التي هي أولُ العقل. ثم الصبرُ، وهو تَمَامُ الفِعْلِ الذي به يتم. فقد ردَّ اللهُ عزَّ وجلَّ هذه الأصولَ التي يَظْهَرُ عَنْهَا كُلُّ عملٍ إليه، فقال سبحانه: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [هود: ٨٨]. وقال: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]. وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]. وقد أجمَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ ذكرَ تَقْلِيلِ الكونِ بِمَشِيئَتِهِ في قوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [النور: ٤٤]. والمعنى: بِمَا فِيهِمَا؛ لَأَنَّهُمَا ظَرْفَانِ لِلْأَشْيَاءِ، فَعَبَّرَ عَنْهُمَا بِهِمَا، كقوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبا: ٣٣] والمعنى: مَكْرُكُمُ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فَعَبَّرَ بِهِمَا عَنْ مَكْرِهِمُ؛ لَأَنَّهُمَا مَكَانٌ لِمَكْرِهِم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ١٣] فيه وَجْهَانِ: أحدهما: أى ما أقامَ من السَّكَنِ. والثانى: ما سَكَنَ، من السَّكُونِ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ السَّكُونِ دُونَ الحَرَكَةِ، لِأَنَّهُ هُوَ الْأَصْلُ حَتَّى تَحْرُكَ؛ وَهُوَ الْأَقْرَبُ إِلَى الْعَجْزِ وَالْعَدَمِ، وَالتَّحْرِيكُ حَادِثٌ جَارٍ بِأَحْدَاثِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِجْرَائِهِ.

وَيَجُوزُ أَيْضًا ذِكْرُ السَّكُونِ لِيُسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى الحَرَكَةِ؛ لِأَنَّهُ ضِدُّهَا. كما قال اللهُ تعالى: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] وهى أَيْضًا تَقِي البَرْدَ، فَذَكَرَ أَحَدَ الوَصْفَيْنِ لِيُسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى الْآخَرِ.

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ [الأنعام: ١١٠]. وكان قَسَمُ رسولِ اللهِ ﷺ: «لا وَمُقَلِّبَ الْقُلُوبِ»، لما شَهِدَ مِنْ عَظِيمِ الْقُدْرَةِ وَلَطِيفِ الصَّنْعِ فِي التَّقْلِيلِ؛ ولما رَأَى مِنْ سُرْعَةِ نَفَازِ الْقُدْرَةِ بِالْمَرَادِ فِي الْمُقَلِّبَاتِ مِمَّا لَمْ يَشْهَدْ

سواه. فجعله قَسَمًا لَهُ تَعْظِيمًا لِقُدْرَةِ الْمُحْلُوفِ بِهِ وَخَوْفًا مِنْ سَابِقِ الْعِلْمِ بِالتَّقْلِيلِ، فَكَانَ يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ». قَالُوا لَهُ: وَتَخَافُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَمَا يُؤْمِنُنِي وَالْقُلُوبُ بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ». وَفِي لَفْظِ حَدِيثٍ آخَرَ: «إِنْ شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَنْ يُزَيِّعَهُ أَزَاعَهُ». وَقَدْ رَوَى عَنْهُ ﷺ: «مَثَلُ الْقَلْبِ مَثَلُ الْعُصْفُورِ فِي تَقْلِبِهِ يَتَقَلَّبُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ». وَفِي خَبَرٍ آخَرَ: «مَثَلُ الْقَلْبِ فِي تَقْلِبِهِ كَالْقَدَرِ إِذَا اسْتَجْمَعَتْ غَلِيًّا». وَالْخَبَرُ الْمَشْتَهَرُ: «مَثَلُ الْقَلْبِ كَمَثَلِ رِيْشَةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ تُقَلِّبُهَا الرِّيحُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ».

فالقلبُ مكانٌ للتقلبِ بما فيه من خزائنِ الغيبِ، كالليلِ والنهارِ مكانٌ للأحكامِ بالتصريفِ من اختلافِ الأزمانِ في الأوقاتِ، والإيمانِ بتقلبِ القلوبِ، وبأنَّ المقلَّبَ يحولُ بينَ القلبِ وبينَ صاحبه واجبٌ. وقد قرَّنه الله عزَّ وجلَّ بالإيمانِ والبعثِ^(١) والأمرَ بهما في قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤]. وفسره ابنُ عباسٍ فقال: يحولُ بينَ المؤمنِ وبينَ الكُفْرِ، ويحولُ بينَ الكافرِ وبينَ الإيمانِ.

وقيل: يحولُ بينَ العبدِ وبينَ الاستجابةِ لله تعالى والرَّسُولِ. وقيل: يحولُ بينَ المؤمنِ وبينَ سوءِ الخاتمةِ وبينَ الكافرِ وبينَ حسنِ الخاتمةِ. وقيل: يحولُ بينَ المؤمنِ وبينَ أنْ يُلْقِيَهُ فِي كَبِيرَةٍ يَهْلِكُ فِيهَا، وبينَ المنافقِ وبينَ أنْ يُوقِّعَهُ لَطَاعَةً فَيَنْجُو بِهَا، ويحولُ بينَ الموحِّدِ وبينَ الخاتمةِ بالتَّوْحِيدِ.

وهذه مخاوفُ الْمُؤْمِنِينَ بِتَحْقِيقِ الْوَعِيدِ، وكذلك الكونُ بأسره عندَ الْمُوَحِّدِينَ فِي الْقُدْرَةِ بِالتَّقْلِيلِ كَمَثَلِ رِيْشَةٍ فِي رِيحٍ عَاصِفٍ تُقَلِّبُهُ الْقُدْرَةُ عَلَى مَشِيئَةِ الْقَادِرِ، وَلَيْسَ فِي الْقُدْرَةِ تَرْتِيبٌ وَلَا مَسَافَةٌ وَلَا بَعْدٌ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى زَمَانٍ وَلَا مَكَانٍ.

فَمَا ظَهَرَ مِنَ الْمُلْكِ وَثَبَتَ لِلْعِيُونِ بِمَكَانٍ وَزَمَانٍ فَلَأَجَلَ الْحِكْمَةِ وَالصَّنْعَةِ وَالْإِنْتِقَانَ، وَمَا خَفِيَ مِنَ الْمَلَكُوتِ وَتَقَلَّبَ بِبَصَائِرِ الْقُلُوبِ فَبَلُطَفِ الْقُدْرَةِ وَقَهْرِ السُّلْطَانِ. وَنَصِيبُ كُلِّ عَبْدٍ مِنْ مُشَاهَدَةِ الْقُدْرَةِ بِقَدْرِ نَصِيبِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ، وَنَصِيبِهِ

(١) فِي (ط): «وَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْإِيمَانَ بِالْبَعْثِ»، وَالصَّوَابُ مَا أَثْبَتَ مِنْ (ك).

من التوحيد حَسَبَ قِسْمِهِ من اليقين، وَقِسْمُهُ من اليقين على قربه من القريب، وَقُرْبُهُ على حَسَبِ قَرَبِ اللَّهِ تعالى من قلبه، وقربُ اللَّهِ تعالى منه بقدر علمه بِاللَّهِ تعالى، واتساعه في العلم بِاللَّهِ عزَّ وجلَّ على نحو مكانه من مزيد الإيمان، ومزيد إيمانه على قَدْرِ إحسانِ اللَّهِ تعالى إليه، وإحسانه إليه على قدر عناية به وإثاره له، وعلمُ اللَّهِ من وراء ذلك، وذاك سرُّ القدرة المحجوب المختزن.

ونصيب كلِّ عبدٍ من الجهل على قَدْرِ نصيبه من الغفلة، ونصيبه من الغفلة على حَسَبِ حُبِّ الدنيا، وحبه للدنيا على قدر قوة الهوى، وقوة الهوى على قدر غلبة سلطان النفس ونشر صفاتها عليه، وقوة صفات النفس على قَدْرِ ضعف اليقين، وضعف يقينه على قدر كثافة الحجاب والبعد بينه وبين اللَّهِ^(١) عز وجل، والحجاب والبعد ميراثهما الكبر وقسوة القلب. والقسوة تورث الانهماك في المعاصي، وإدمان المعاصي تورث^(٢) الإعراض والمقت، والإعراض والمقت من قلة عناية المولى بعبده، وسوء نظره له. ومن وراء ذلك سرُّ القدر الذي به عن الخلق قد استأثره.

فهذه الأوصاف المدمومة لعبد^(٣) مبتلى بها على تضاد تلك الصفات المحموده التي هي من النعم بها، ﴿وَلِكُلِّ وُجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨]. ومكان الهوى من القلب على قدر تزيين العدو له وتسليطه عليه ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، فإذا كان الهادي هو المضل فمن يهدي؟ وقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧] أى: فإن الله من شأنه أن أحداً لا يهدي مَنْ أضله، وَمَنْ كَانَ أَضْلَهُ اللَّهُ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ فَكَيْفَ يَهْدِيهِ الْآنَ؟ كذلك قال على

(١) فى (ك): «وبعد البعد بينه وبين الله».

(٢) فى (ط): «عن»، وفى (ك): «على».

(٣) فى (ط): «العبد» وأثبت ما فى (ك).

الحرف الآخر: «فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ». فإذا كَانَ المعطى هو المانع، فَمَنْ يُعْطَى؟

ولو كَانَ الخيرُ كُلُّهُ فى قلبِ عبدٍ مَا قَدَرَ أَنْ يُوصَلَ إِلَى قلبِهِ من قلبِهِ ذرَّةً، وَلَا استطَاعَ أَنْ يَنْفَعَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ خَرْدَلَةً؛ لِأَنَّ قلبَهُ وَإِنْ كَانَ جَارِحَتَهُ فَهُوَ خَزَائِنَتُهُ وَلَهُ فِيهِ مَا لَا يَعْلَمُ هُوَ فَهُوَ لَا يَطْلُعُ عَلَى مَا فِيهِ، كَمَا قَالَ مُعْجَبًا مِمَّنْ جِهَلَهُ وَأَضَلَّهُ: «أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا» [مریم: ٧٨] فكيف به أَنْ يَمْلِكَ مَا فِيهِ فيصرفه بما يحب؟ وَقَدْ قَالَ ﷺ: «سُبْحَانَ مُصَرِّفِ الْقُلُوبِ». وَقَدْ خَاطَبَ اللَّهُ تَعَالَى سَيِّدَ الْبَشَرِ وَأَمْرَهُ أَنْ يَخْبَرَ فَقَالَ: «قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ» [الأعراف: ١٨٨]. ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: «قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا» [الجن: ٢١]. «قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا» [الجن: ٢٢].

وَإِذَا كَانَ الْمَالِكُ عَزِيزًا جَبَّارًا، وَكَانَ كُلُّ شَيْءٍ بِيَدِهِ، لَمْ يُوصَلْ إِلَى مَا عِنْدَهُ بِقُوَّةٍ وَلَا حِيلَةٍ، فَلَيْسَ الطَّرِيقُ إِلَيْهِ إِلَّا الصَّدَقُ وَالْإِخْلَاصُ، وَالذَّلُّ وَالْإِفْتِقَارُ. وَقَدْ حُجِبَ الْعَقْلُ الْمَكِيدُ عَنِ النَّظَرِ إِلَى الْمَبْدِئِ الْمَعِيدِ، بِمَا أُظْهِرَ لَهُ مِنْ صُورَتِهِ وَحَرَكَتِهِ، فَسْتَرَهُ [ذَلِكَ] ^(١) عَنِ الْأَوَّلِ الْمَصُورِ، وَعَنِ الْقَادِرِ الْمَحْرُكِ، فَادَّعَى - عَنِ نَظَرِهِ إِلَى حَرَكَتِهِ وَسَكُونِهِ الَّتِي هِيَ حُجْبَةٌ لَهُ عَنِ الْمَحْرُكِ - الْغَيْبَ، ادَّعَى الْحَرَكَةَ وَالسَّكُونَ لِنَفْسِهِ ^(٢)، لَوْ قُوفَ نَظَرِهِ عَلَى نَفْسِهِ، إِذْ كَانَ مُشْهُودًا، وَعَمِيَ عَنِ النَّظَرِ إِلَى الشَّاهِدِ الْمَحْرُكِ الْمَسْكُونِ ^(٣)؛ لِبُعْدِ مَقَامِهِ؛ لِأَنَّهُ غَيْبٌ مِنْ وَرَاءِ الْحَرَكَةِ، وَالْغَيْبُ لَا يُشْهَدُ إِلَّا بِغَيْبٍ، وَهُوَ الْيَقِينُ، كَمَا لَا تُدْرِكُ الشَّهَادَةُ إِلَّا بِشَهَادَةٍ، وَهِيَ الْعَيْنُ. فَمَنْ عَمِيَ بَصَرُهُ لَمْ يَرَ مِنَ الْمُلْكِ شَيْئًا، كَذَلِكَ مَنْ حُجِبَ قَلْبُهُ لَمْ يَرَ مِنَ الْمُلْكِ شَيْئًا.

(١) ساقطة من (ط).

(٢) فى (ط): «المحرك لغيب ادعاء الحركة والسكون بنفسه» وأثبت ما فى (ك).

(٣) فى (ك): «المحرك الساكن».

فلعدم اليقين عمى عن المشاهدة؛ ولإيقاع الحجة والحجاب أدرك بالمعقول الشهادة.

ولو كان من أولى البصائر لاعتبر الحركة الغيبية^(١) بالمتحرك المشاهد، فكما أن الحركة غيب في الجسم ظهر عنها المتحرك، فأظهر سبحانه المتحرك وأخفى الحركة فيه، وأظهر الصنعة وأخفى الصنع فيها؛ لتفصيل حكمته، كذلك الصانع ذو الصنعة الأول والحاكم الأعلى ذو الحكمة الأغلب غيب عن الحركة التي أخفاها هو من ورائها بلطائف القدرة، فشهد المعقول ما أشهد مما أظهر له، ووجد به^(٢)؛ لأنه معقول عليه، محدود له. وعمى عما غيب عنه لفقد اليقين منه، فعندهما ادعى الحركة والسكون للشاهد، فحجبه ذلك عن الشهيد، وشهد الموحد بشهادة التوحيد، فوجد لما كشف له الملكوت بنور اليقين فأفرده^(٣).

وقد قال بعض العارفين: من نظر في توحيدهِ إلى عقله لم يُنْجِه توحيدُهُ من النار، ومن كان توحيدُهُ في الدنيا معلقاً بمعقوله، لم يحمل توحيدَهُ معه إلى اليقين.

أحسب أن هذا إيمان الذي يقال: أخرجوا من النار من كان في قلبه وزنٌ مثقال من إيمان. فما زاد على هذا المقدار فهو متصل باليقين، وهو مؤيد بالروح يمدّه روح التأييد فلا ينطفئ، فهو المرحزح عن النار.

وقد قال بعض علمائنا: من ظن أنه يصل إلى الله بغير الله تعالى قطع به، ومن استعان على عبادة الله تعالى بنفسه وكل إلى نفسه.

ثم إن الخلق محجوبون بعد هذا الحجاب بثلاثة حُجُب؛ بعضها أكثف من بعض، أحدها: أواسط، وأسباب معترضة، وشهوات جاذبة، وعادات راجعة صادرة.

(١) في (ك): «الحركة والغيبية».

(٢) في (ط): «ما أشهدهما أظهر له ووجه به» والصواب ما أثبت من (ك).

(٣) في (ط): «فأفرده» وأثبت ما في (ك).

فالأَسبابُ تُوقِفُهُمُ عَلَيْهَا، والشَّهَوَاتُ تُجَذِّبُهُمُ إِلَيْهَا، والعَادَاتُ تُرَدِّدُهُمُ فِيهَا. فَأَيُّ هَذِهِ الْحُجُبِ ظَهَرَ فِي قَلْبٍ - وَبَعْضُهَا أَشَدُّ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضٍ - فَهُوَ مَكَانٌ لِلْعَدُوِّ أَوْسَعُ مِنْ مَكَانٍ، فَتَمَكَّنَ سُلْطَانُهُ عَلَى قَدَرِ سَعَةِ مَكَانِهِ، فَقَوِيَّتِ النَّفْسُ بِتَزْيِينِ الْعَدُوِّ، وَسَوَّلَتْ بِتَأْمِيلِهَا^(١)، فَمَلَكَتِ الْعَبْدَ مُلْكًا أَشَدَّ مِنْ مُلْكٍ. فَإِذَا مَلَكَتِ النَّفْسُ الْعَبْدَ كَانَ مَمْلُوكَهَا وَأَسِيرَهَا، وَكَانَتْ بِالْهَوَى أَمِيرَةً، فَاسْتَهْوَاهُ الشَّيْطَانُ حِينَئِذٍ بِالْغَوَايَةِ وَالْإِضْلَالِ، وَاسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ بِمَعَانِي الْمَشَارَكَةِ فِي الْأَوْلَادِ وَالْأَمْوَالِ، فَشَغَلَهُ بِذَلِكَ عَنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَنْسَاهُ ذِكْرَ اللَّهِ عِزًّا وَجَلًّا. وَهَذَا هُوَ الْاِقْتِرَانُ الَّذِي ذَمَّهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨]. وَهُوَ فَوْقَ النَّزْعِ وَالْهَمَزِ وَالْخَاطِرِ بَعْدَ الْهَمَّةِ. وَهُوَ خَطُورُ الْعَدُوِّ عَلَى الْقَلْبِ بِالْوَسْوَسَةِ، يَزِينُ الْهَمَّةَ، وَيُمَلِّى لِلْعَبْدِ، وَيُرْجِيهِ، وَيَفْسَحُ لَهُ فِي أَمَلِهِ، وَيُمْنِيهِ التَّوْبَةَ حَتَّى تَهُونَ عَلَيْهِ الْمَعْصِيَةِ، وَيَعِدُّهُ بَعْدَهَا بِالْمَغْفِرَةِ، حَتَّى يُجَرِّئَهُ عَلَى الْخَطِيئَةِ. وَهَذَا هُوَ الْوَعْدُ بِالْغُرُورِ وَبَعْدَهُ الْهَلَاكُ وَالثُبُورُ. كَمَا قَالَ [تَعَالَى]: ﴿يَعِدُّهُمْ﴾ أَيْ التَّوْبَةَ ﴿وَيُمْنِيهِمُ﴾ الْمَغْفِرَةَ ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

وَهَذَا كُلُّهُ تَصْدِيقُ ظَنِّ الْعَدُوِّ بِالْعَبْدِ، وَاتِّبَاعُ الْعَبْدِ لَهُ بِالْهَوَى عَنْ مَقَامِ الْبَعْدِ، وَكَشْفُ لَعْنِ اللَّهِ تَعَالَى بِإِظْهَارِ الْحُكْمِ، وَإِنْفَازِ الْمَشِيئَةِ، وَهُوَ الْإِبْتِلَاءُ بِالْأَسْبَابِ، فَصَارَ الْعَدُوُّ سَبَبًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبا: ٢٠]. ثُمَّ أَحْكَمَ ذَلِكَ بِسَابِقِ عِلْمِهِ فَقَالَ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ يَعْنِي بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ وَبِقَهْرِهِ وَمَشِيئَتِهِ ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ [سبا: ٢١]، أَيْ: لِنَرَى. وَقِيلَ: لِنَعْلَمَ الْعِلْمَ الَّذِي يَجَازِي عَلَيْهِ بِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ. وَقِيلَ: لِنَخْتَبِرَ وَنَكْشِفَ. وَقِيلَ: لِنَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ذَلِكَ فَيَسْتَبِينَ لَهُمْ، وَيَعْلَمَ مَنْ عَمِلَ تِلْكَ الْأَعْمَالَ الَّتِي ظَهَرَتْ مِنْهُ، فَتَوَقَّعَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ الْحُجَّةَ، وَيَتَبَيَّنَ لَهُ كَذِبُهُ، كَمَا قَالَ: ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣].

(١) فِي (ك): «وَسَوَّلَتْهُ بِتَأْمِيلِهِ».

فعلى هذه المعاني مجازُ كلِّ ما فى كتاب الله عزَّ وجلَّ من قوله: لنعلم، وحتى نعلم، إذ كان علمه تعالى قد سبق المعلومات، وإذ كانت الأشياء عن علمه بعلمه جاريات، فجعل تسليط العدوِّ بسلطانه كشفًا وإظهارًا لما أخفاه من سابق علمه، كما جعل أفعالَ العباد الظاهرة كشفًا وإظهارًا لإرادته الباطنة.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «سَبَقَ الْعِلْمُ، وَجَفَّ الْقَلَمُ، وَقُضِيَ الْقَضَاءُ، وَتَمَّ الْقَدَرُ بِالسَّعَادَةِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِأَهْلِ طَاعَتِهِ، وَبِالشَّقَاءِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِأَهْلِ مَعْصِيَتِهِ».

• ذكر تقسيم الخواطر وتفصيل أسماؤها:

فأما تسميةُ جملةِ الخواطرِ: فما وقع فى القلب من عملٍ الخيرِ فهو إلهامٌ. وما وقع من عملٍ الشرِّ فهو وسَّاسٌ. وما وقع فى القلب من المخاوفِ فهو إيجاسٌ^(١). وما كان من تقديرِ الخيرِ وتأوُّله^(٢) فهو نيةٌ. وما كان من تدبيرِ الأمورِ المباحاتِ [والتمنى]^(٣) وترجيُّها والطمع فيها فهو أمنية وأمل. وما كان من تذكرةِ الآخرةِ والوعدِ والوعيدِ فهو تذكُّرٌ وتفكيرٌ^(٤). وما كان من معاينةِ الغيبِ بعينِ اليقينِ فهو مشاهدة. وما كان من تحدُّثِ [النفس]^(٥) بمعاشها وتصريفِ أحوالها فهو همٌّ. وما كان من خواطرِ العاداتِ ونوازِعِ الشهواتِ فهو لَمَمٌ. ويُسمَّى جميعُ ذلكِ خواطرٌ؛ لأنه خطورُ همَّةٍ نفس، أو خطورُ عدوٍّ بحسد، أو خطرةٌ مَلَكٍ بهمس.

ثمَّ إن ترتيبَ الخواطرِ المنشأة من خزائنِ الغيبِ القادحةِ فى القلبِ على ستةِ معانٍ؛ وهذه حدودُ الشئِ المظهر؛ ثلاثةٌ منها معفوة، وثلاثةٌ منها مطالبٌ بها. فأولُ ذلكِ: الهمَّةُ، وهو ما يبدو من وسوسةِ النفسِ بالشئِ، يجده العبدُ بالحس؛ كالبرقة. فإن صرفها بالذكرِ انمحت، وإن تركها بالغفلةِ كانت خطرةً.

(١) فى (ط): «فهو الحساس» وأثبت ما فى (ك)، والإيجاس: من التوجُّس.

(٢) فى (ط): «وتأمله» وأثبت ما فى (ك).

(٣) زيادة من (ك).

(٤) فى (ك): «فهو تذكرة وتَفَكُّر».

(٥) ساقطة من (ط).

وهو خطور العدو بالتزيين. وإن نفى الخاطر ذهب. وإن ونى^(١) عنه قوى فصار وسوسة، وهذا محادثة النفس للعدو وإصغائها إليه. وإن نفى العبد هذه الوسوسة بذكر الله خنس العدو وصفت^(٢) النفس.

وهذه الثلاث مغفورة برحمة الله تعالى غير مؤاخذ بها العبد. وإن أخرج العبد النفس^(٣) في محادثة العدو، وطاولت النفس العود والإصغاء والمحادثة قويت الوسوسة، فصارت نية، فإن أبدل العبد هذه النية بنية خير، أو استغفر منها وتاب، وإلا قويت فصارت عقداً، فإن حلّ هذا العقد بالتوبة، وهو الإصرار، وإلا قوى فصار عزماً، وهو القصد.

وهذه الثلاثة من أعمال القلب، مأخوذ بها العبد ومسؤول عنها. فإن تداركه الله تعالى بعد العزم، وإلا تمكّن العزم فصار طلباً وسعيًا، وأظهر العمل على الجوارح من خزائن الغيب والملوكوت، فصار من أعمال الجسم في خزانة الملك والشهادة.

فهذه الأعمال توجد من أعمال البر والإثم.

فما كان منها من البر: همّة، ونية، وعزماً؛ كان محسوباً للعبد في باب النيات، مكتوباً له في ديوان الإرادة، له به حسنات. وما كان منها من الشر: نية، وعقداً، وعزماً؛ فعلى العبد فيه مؤاخذه، من باب أعمال القلوب، ونيات السوء، وعقود المعاصي.

وليس شيء مجانس للعدو مؤاخ له إلا النفس، جمع الله تعالى بينهما في الوسوسة بقوله: ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤]، وقوله: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوسُوسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦].

وكل شيء خلقه الله تعالى فله مثلٌ وضِدٌّ. فمثل النفس: الشيطان، وضدهما: الروح.

(١) في (ط): «وإن ولى» والصواب ما أثبت من (ك). ووئى: فتر وضعف.

(٢) في (ك): «وضعت».

(٣) قوله «أخرج العبد النفس»: أى تركها ترعى بلا راع. القاموس (مرج).

ثم إنّ أعمال الجوارح من النوعين الطاعة والمعصية أعظم في الأجر والوزر معاً، إلا ما لا يتأتّى أن يعمل به بظاهر الجسم من شهادة التوحيد، أو وجود شكٍّ، أو كفر، أو اعتقاد بدعة.

• باب آخر من البيان والتفصيل:

فأمّا ما كان من لائح يلوح في القلب من معصية ثم ينقلب فلا يلبث، فهذا نزغ من قبل العدو. وما كان في القلب من هوى ثابت، أو حال مزعج دائم لا يلبث، فهو من قبل النفس الأمّارة بطبعها، أو مطالبة منها بسوء عاداتها. وما ورد على العبد من همٍّ بخطيئة، ووجد العبد فيه كراهتها، فالورود من قبل العدو، والكراهة من قبل الإيمان. وما وجد العبد وجداً بهوياً أو معصية ثم ورد عليه المنع من ذلك، فالوجد من النفس، والوارد بالمنع من الملك. وما وجد العبد من فكر في عاقبة الدنيا أو تدبير الحال ونظر إلى معهود، فهذا من قبل العقل. وما وجد العبد من خوف أو حياء أو ورع أو زهد أو من شأن الآخرة، فهذا عن الإيمان. وما شهد القلب من تعظيم أو هيبة أو إجلال أو قرب، فهذا من اليقين، وهو من مزيد الإيمان: ﴿وإليه يرجع الأمر كله فاعبذهُ وتوكل عليه﴾ [هود: ١٢٣]، كما قال صاحب الأمر رسول الله ﷺ: «أعوذ بك منك».

وإنّما هذا تفصيل الحدود وإظهار المكان وإحكام العلم، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلَنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء: ١٢]. وقال: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧].

وليس في التوحيد ولا في المشاهدة تفكّر، ولا في الإشارة عيان، ولا في القدرة ترتيب، ولكن لا بد من علم التفصيل لا عن التوحيد، وهو التفرقة بلسان الشرع عن عين الجمع؛ لإظهار الطرق، واستنارة السبل، وتطريق السالكين، وترتيب العاملين؛ ليَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ. وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ.

وقد فصل بعض العلماء أعمال العباد، وفرق بين الأمر [من الله] ^(١) والإرادة، فقال: إن أعمال العباد لا تخلو من ثلاثة أنواع: فرض، ونفل ^(٢)، ومعصية. قال: فنقول: إن الفرض بأمر الله تعالى ومحبة الله ومشية الله، تجتمع هذه المعاني الثلاثة في الفرائض. قال: ونقول: إن النفل لا بأمر الله؛ لأنه لم يوجب، ولم يعاقب على تركه، ولكنه بمحبة الله ومشيته جلّ وعلا، أي: لأنه شرعه وندب إليه. قال: ونقول: إن المعصية لا بأمر الله؛ لأنه لم يشرعها على ألسنة المرسلين، ولا بمحبة الله؛ لأنه قد كرهها؛ إذ لم يأمر بها ولم يندب إليها، ولكن بمشيئة الله جلّت عظمتُهُ أن لا يخرج شيء من إرادته كما لم يخرج شيء من علمه.

والإرادة والمشيئة اسمان بمعنى واحد، فقد دخل كل شيء فيها كما دخل كل شيء في العلم. فالله سبحانه عالم بما أراده، وقد سبق به علمه، كذلك هو مريد لما علمه، أظهرت إرادته سابق علمه، وكشف علم الغيب بظهور إرادته الشهادة، فهو عالم الغيب والشهادة. فالغيب علمه، والشهادة معلومه، فكيف يخالف المعلوم العلم وهو إجراؤه؟ والإرادة نفذت سابق العلم في معلومات الخلق ^(٣)، وهذا فرض التوحيد، فخرجت النوافل عن الأمر وخرجت المعاصي عن المحبة في تفصيل الأحكام وتبيين الحلال والحرام، ولم تخرج معصية عن مشيئة. وقد قال الله جلّ ثناؤه: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ [القمر: ٥٣]. وقد قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ». فذكر عرضين لطيفين؛ هما سبب المنع والعطاء.

وقد فرق عالمنا بين الأمر والإرادة فرقاً لطيفاً، فحدثني بعض أصحابنا قال: سألت عن الله عزّ وجلّ لما أمر إبليس بالسجود لآدم: أراد منه ذلك أم لا؟ فقال: أرادته ولم يرده منه.

يعنى أرادته شرعاً وإظهاراً، وعليه إيجاباً، ولم يرده منه وقوعاً ولا كوناً. إذ لا

(١) زيادة من (ك).

(٢) في (ط): «وفضل» وهو تحريف، والصواب من (ك).

(٣) في (ك): «بنفذ الإرادة سابق علمه في معلومات خلقه».

يكون إلا ما أراد الله تعالى، إذ لو أراد كونه لكان، ولو أرادَه فعلاً لوقع، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. فلما لم يكن علمت أنه لم يردَه، فقد كان الأمران معاً، إرادته بالتكليف والتعبد، وإرادته بأن لا يسجد، فلم يقدر أن يمتنع من أن لا يسجد، كما لم يقدر من أن يمتنع من أن يؤمر^(١).

فكذلك القول في نهيه لآدم ﷺ عن أكل الشجرة، أنه أراد الأكل منه، ولم يردَه له، أى: أرادَه وقوعاً وكوناً؛ لأنه قد وجد، وكان كقوله: ﴿إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، فلما كان علمت أنه أرادَه، ولم يُردَه شرعاً، ولا أمراً؛ لأنه لم يأمره بالأكل؛ ولا شرعه له، فقد كان الأمران جميعاً إرادته: أن يكون العبد مكلّفاً مأموراً، وإرادته الأكل منه؛ لأنه قد كان.

وكذلك القول في كل ما أمر به وأرادَه: أنه أراد الأمر والنهي لهم ليكونوا مكلّفين متعبدين، ولم يُردَه ممن لم يكن منه الائتثار والانتها، لأنه قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]. فأخبر أنه إذا أراد شيئاً كونه، كما أنه إذا كَوّن شيئاً فقد أرادَه بدلالة كونه. فلما لم يكن الأمر من العاصين علمنا أنه لم يردَه، إذ لو أرادَه كان. ولما كان النهي من المأمورين علمنا أنه أراد كونه، إذ لو لم يُردَه لم يكن، فصار كون الشيء دليلاً على إرادته. وقد وقعت الإرادة بالأمر والنهي، فكان الكل مأمورين منتهين، ولم يقع الفعل من الكل؛ لأنه لم يرد وقوعه، إذ لو أرادَه كان.

وهذا أصل الابتلاء، وإرادة ظهور البلاء. يأمر الله تعالى بالشيء ويريد كونه ضده، وقد أراد الأمر به حسب، وينهى عن الشيء ويريد كونه، وقد أراد النهي عنه فقط.

وقد كان عالمنا أبو الحسن - رحمة الله عليه - يتكلّم في علم الأمر والجبر^(٢)،

(١) في (ط): «يؤمن» وأثبت ما في (ك).

(٢) في (ط): «والخير» والصواب ما أثبت من (ك).

وفى الابتلاء والقهر، بمعان لا يُهْتَدَى إليها اليوم، ولا يَسْأَلُ عنها أحدٌ. أى: يُظهر الأمر بالترك، ويُظهر النهي بالفعل، ويُظهر الأحكام لوقوع البلاء، ويُظهر الجوارح بالجبر على إرادته للابتلاء.

وقد فرّق الحسنُ البصريُّ - رحمه الله - قبله، وهو إمامنا فى هذا العلم، بين التعذيب على جريان العلم، ومخالفة الأمر، لَمَّا بلغه أن عمرو بن عبيد - وهو إمامُ المعتزلة اليوم، وإليه نُسِبُوا^(١) - لَمَّا اعتزل الحسنُ البصريُّ بعد أن صحَّبه، ولم يُخْتَم له بصحبته - بلغه أَنَّهُ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْضِي بِالشَّيْءِ ثُمَّ يُعَذِّبُ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: وَيْلَكَ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُعَذِّبُ عَلَى جَرِيَانِ حُكْمِهِ، وَإِنَّمَا يُعَذِّبُ عَلَى مَخَالَفَةِ أَمْرِهِ.

[دخل معتزلى على جعفر الصادق رضى الله عنه، فقال: يا ابن بنت رسول الله، مسألة؟]

فقال جعفر: اذكرُ وبالله التوفيق.

فقال المعتزلى: أيقضى ربنا بالفحشاء؟

قال جعفر: أفيكون فى مُلكه ما لا يشاء؟

قال المعتزلى: أفتريد ربنا أن يعصى؟

قال له جعفر: أفيُعصى قَهْرًا؟

قال المعتزلى: أفتراه إن جبرنى على الردى، ومنعنى من الهدى، أأحسنَ فى أم

أساء؟

قال جعفر: إن كان منعك حقًا لك عليه فقد أساء، وإن كان الحق له فذلك

فضل الله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فتاب المعتزلى من وقته^(٢).

(١) المعروف أن المعتزلة ينسب ظهورهم إلى «واصل بن عطاء». والعبارة فى المخطوط «... وهو

إمام المعتزلة إلى اليوم».

(٢) ما بين المعكوفتين برمته لا يوجد فى (ط) وهو من (ك).

تفسير ذلك: أن ما حكمه الله تعالى مُنفرداً به لم يجعل فيه أمراً ولا نهياً لا يُعذب عليه؛ لأنه لم يجعل للعبد مدخلاً فيه بشهوة ولا فعل. وأن ما قضاه على العبد مما أدخله فيه بقصده وشهوته عذبه عليه، وهذا من شؤم النفس وتكدير الخلق أنها إذا أدخلت في شيء انقلب عليها شره.

والأمة مُجتمعة على قول: «ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن»، واجتمعت على قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، فهذا عام في كل شيء، ليس في بعض الأشياء دون بعض، والحوّل في اللغة هو الحركة، والعرب تقول للشخص يبدو من بعيد يظن أنه إنسان، أو شجرة، أو صخرة: انظروا إليه فإن كان يحول فهو إنسان، أى: يتحرك. والقوة: هو الثبات بعد الحركة، وهو أول الصبر حتى يظهر الفعل بقوة الله تعالى.

وقد روينا في تفسير ذلك عن رسول الله ﷺ: لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بعون الله.

وهذا التفصيل في هذه المعاني من الأحكام هو ظاهر العلم، وفرض القدر، وفحوى التنزيل والشرع، والجبر للملك الجبار يُجبر خلقه على ما شاء كما خلقهم لما شاء، ويردهم إلى ما شاء كما ينشئهم فيما يشاء، فالحكم لله العليّ الكبير، الواحد القهار، يقهر عباده كيف شاء، ويُجرى عليهم ما يشاء، وله الحجة البالغة، والعزة القاهرة، والقدرة النافذة، والمشيئة السابقة، بوصف الربوبية وبحكم الجبرية. وعليهم الاستسلام والانقياد والطاعة والاجتهاد طوعاً وكرهاً بوصف العبودية وبحق الملكة: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨]، ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩]، ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤] (١).

(١) بعده في المخطوط الذى لدى: «كامل السفر الأول من كتاب قوت القلوب، بحمد الله وعونه، صلى الله على محمد رسوله وعبد. يتلو في السفر الثانى إن شاء الله تعالى: كتاب العلم».

الفصل الحادى والثلاثون

فيه كتاب العلم ^(١) وتفضيله، وأوصاف العلماء

وذكرُ فضل علم المعرفة على سائر العلوم، وكشفُ طرق العلماء من السلف الصالح، وذكرُ بيان تفضيل علوم الصمت وطريق الورعين فى العلم، والفرقُ بين العلم الظاهر والباطن، وبين علماء الدنيا والآخرة، وفضلُ أهل المعرفة على علماء الظاهر، وذكرُ علماء السوء الآكلين بعلومهم الدنيا، ووصفُ العلم، وطريق التعليم، ودم ما أحدثه المتأخرون من القصص والكلام، وبابُ ذكر ما أحدث الناس من القول والفعل فيما بينهم مما لم يكن عليه السلف، وبيانُ فضل الإيمان واليقين على سائر العلوم، والتحذيرُ من الرأى، وذكر معنى قول النبى ﷺ: «طلبُ العلم فريضةٌ على كُلِّ مُسْلِمٍ»، وفى الحديث الآخر: «اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ بِالصَّيْنِ؛ فَإِنْ طَلَبَ الْعِلْمَ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ» ^(٢).

قال عالمنا أبو محمد سهل رحمه الله: أراد بذلك علم حال، يعنى: علم حال العبد من مقامه الذى أُقيمَ فيه، بأن يعلم أحدكم حاله الذى بينه وبين الله عز وجل فى دنياه وآخرته خاصة، فيقوم بأحكام الله تعالى عليه فى ذلك.

وقال بعضُ العارفين: معناه طلبُ علم المعرفة، وقيامُ العبدِ بحكم ساعته، وما يقتضى منه فى كل ساعة من نهاره.

وقال بعضُ علماء الشام: إنما عُنِيَ به طلبُ علم الإخلاص، ومعرفة آفات النفسِ ووساوسها، ومعرفةُ مكاييد العدو وخدعه وغروره، وما يصلح الأعمال ويفسدها، فريضةٌ كله من حيث كان الإخلاصُ فى الأعمالِ فريضةً، ومن حيث أُعلم بعداوة إبليس، ثم أمر بمعاداته.

(١) انظر: الإحياء، كتاب العلم، ٤/١ وما بعدها.

(٢) ليس فى (ك) من هذا العنوان إلا قوله: «كتاب العلم».

وذهب إلى هذا القول: عبد الرحيم بن يحيى الأرموى، ومن تابعه^(١).

وقال بعضُ البصريين في معناه: طلبُ علمِ القلوب ومعرفةُ الخواطر وتفصيلها فريضة، لأنها رسلُ الله تعالى إلى العبد، ووسواسُ العدوِّ والنفس، فيستجيبُ لله تعالى بتنفيذِ ما منه إليه، ومنها ابتلاءُ الله تعالى للعبد واختبارُ تقتضيه مجاهدةُ نفسه في نفيها. ولأنها أولُ النيةِ التي هي أولُ كلِّ عملٍ، وعنّها تظهرُ الأفعالُ، وعلى قدرِها تضاعفُ الأعمالُ؛ فيحتاجُ أن يُفرَّقَ بين لِمَّةِ المَلِكِ وَلِمَّةِ العدوِّ، وبين خاطرِ الروح ووسوسةِ النفس، وبين علمِ اليقين وقوادحِ العقل؛ ليميز بذلك الأحكام.

وهذا عند هؤلاء فريضةٌ. وهو مذهبُ مالك بن دينار، وفرقد السنجي، وعبد الواحد بن زيد، وأتباعهم من النُّسَّاك، وقد كان أستاذُهم الحسنُ البصري يتكلم في ذلك، وعنه حملوا علومَ القلوب.

وقال عبَّادُ أهل الشام: معناه: طلبُ علمِ الحلال فريضة، إذ قد أمر الله تعالى به، وأجمع المسلمون على تفسيرِ آكلِ الحرام، وقد جاء في خبر مفسر: «طلب الحلال فريضةٌ بعد الفريضة». ومال إلى هذا القول إبراهيم بن أدهم، ويوسف بن أسباط، وهيب بن الورد، وحبيب بن حرب.

وقال بعض هذه الطائفة من أهل المعرفة: معناه: طلب علمِ الباطن فريضةٌ على أهله، قالوا: وهذا مخصوصٌ لأهل القلوب ممن استعمل به، واقتضى منه دون غيره من عوام المسلمين؛ ولأنه جاء في لفظ الحديث: «تَعَلَّمُوا اليَقِينَ» فمعناه: اطلبوا علمَ اليقين، وعلمُ اليقين لا يوجد إلا عند الموقنين، وهو من أعمال الموقنين المخصوص في قلوب العارفين، وهو العلم النافع الذي هو حال العبد عند الله تعالى، ومقامه من الله تعالى كما شهد له الخبر الآخر في قوله ﷺ: «وَعِلْمُ باطنٍ في القَلْبِ»، وهو العلم النافع، فهذا تفسير ما أُجْمِلَ في غيره.

وقال جُنْدُب: كنا مع رسول الله ﷺ فيعلمنا الإيمان، ثم يعلمنا القرآن،

(١) في (ك): «عبد الرحيم الأموى وعبد الواحد بن زيد».

فازددنا إيمانًا، وسيأتي زمانٌ قومٌ يتعلَّمون القرآن قبل الإيمان.

يعنى: تعلمنا علم الإيمان، وهذا مذهب نُسَّاك أهل البصرة.

وقال بعضُ السلف: إنما معناه: طلبُ علمٍ ما لم يَسعُ جهله من علم التوحيد وأصول الأمر والنهى، والفرق بين الحلال والحرام؛ إذ لا غايةَ لسائر العلوم بعد ذلك، وكلها يقع عليه اسم علم من حيث هى معلومات، ثم قد أجمعوا أن ليس تعليمُ ما زاد على ما ذكرناه فرضًا، وإنما فيه فضلٌ أو ندبٌ.

وقال بعض فقهاء الكوفة: معناه: طلبُ علم البيع والشراء، والنكاح والطلاق، وإذا أراد الدخول فيه افترض عليه مع دخوله فى ذلك طلب علمه؛ لقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لا يتجر فى سوقنا هذا إلا من تفقه وإلا أكلَ الربا شاء أم أبى. وكما قيل: تفقه ثم اتجر. ومال إلى هذا سفيان الثورى وأبو حنيفة وأصحابهما.

وقال بعض المتقدمين من علماء خراسان: هو أن يكون الرجلُ فى منزله فيريد أن يعمل شيئًا من أمر الدين، أو يخطر على قلبه مسألةُ الله سبحانه وتعالى فيها حكم وتعبّد، وعلى العبد فى ذلك اعتقاد أو عمل، فلا يَسعه أن يسكت على ذلك، ولا يجوز له أن يعمل فيه برأيه، ولا يحكم بهواه، فعليه أن يلبس نعليه، ويخرج، فيسألَ عن أعلم أهل بلده، فيسأله عن ذلك عند النَّازلة، فهذا فريضةٌ. وحكى هذا القول عن ابن المبارك، وبعض أصحاب الحديث.

وقال آخرون: يعنى: طلبُ علم التوحيد فريضة.

وإنما اختلفوا فى كيفية الطلب، وماهية الإصابة. فمنهم من قال: من طريق الاستدلال والاعتبار. ومنهم من قال: من طريق البحث والنظر. ومنهم من قال: من طريق التوفيق والأثر.

وقالت طائفة من هؤلاء: إنما أراد طلبَ علم الشبهات والمشكلات إذا سمعها العبد وابتلى بها، وقد كان يسعه تركُ الطلب إذا كان غافلاً عنها على أصل التسليم ومعتقد جملة المسلمين، لا يقع فى وهمه، ولا يحيك فى صدره شيء من

الشبهات، فيسعه تركُّ البحث، فإذا وقعَ في سمعه شيءٌ من ذلك، ووقر في قلبه، ولم يكن عنده تفصيل ذلك، وقَطَّعه، ومعرفةٌ تميز حَقَّه من باطله، لم يحلَّ له أن يسكت عليه؛ لئلا يعتقد باطلاً أو ينفي حقاً، فافترض عليه طلبُ ذلك من العلماء به، فيستكشفه حتى يكون على اليقين من أمره، فيعتقد من ذلك الحق وينفي الباطل. ولا يقعد عن الطلب، فيكون مقيماً على شبهةٍ فيتبع الهوى، أو يكون شاكاً في الدين فيعدل عن طريق المؤمنين، أو يعتقد بدعةً فيخرج بذلك عن السُّنة ومذهب الجماعة، وهو لا يعلم.

ولهذا المعنى كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقول في دعائه: اللهم أرنا الحقَّ حقاً فنتبعه، وأرنا الباطل باطلاً فنجتنبه، ولا تجعل ذلك متشابهاً علينا فنتبع الهوى.

وهذا مذهب أبى ثور إبراهيم بن خالد الكلبي^(١)، وداود بن علي^(٢)، والحسين الكرابيسى، والحارث بن أسد المحاسبى^(٣)، ومن تابعهم من المتكلمين.

فهذه أقوالُ العلماء في معنى هذا الخبر. حكينا ذلك عن عِلْمِنَا بمذاهبهم على معنى مذهب كل طائفة، واحتججنا لكل قول، فالألفاظ لنا والمعنى لهم، وهذا كله حسن ومحمّل، وهؤلاء كلهم وإن اختلفوا في تفسير الحديث بألفاظ فإنهم متقاربون في المعنى، إلا أهل الظاهر منهم، فإنهم حملوه على ما يعلمونه، وأهل الباطن تأوّلوه على علمهم، ولعمري إن الظاهر والباطن علمان لا يستغنى أحدهما عن صاحبه، بمنزلة الإسلام والإيمان مرتبط كل واحد بالآخر؛ كالجسم والقلب لا ينفك أحدهما عن صاحبه.

(١) أستاذ الجنيد، أحد الأئمة المجتهدين، قال عنه أحمد بن حنبل: «أعرفه بالسنة منذ خمسين سنة، وهو عندي في صلاح الثورى»، توفي سنة ٢٤٠هـ. انظر: خلاصة تذهيب الكمال، ص ١٥.

(٢) هو داود بن علي بن خلف، أبو سليمان البغدادي، ولد بالكوفة سنة مائتين، وإليه انتهت رئاسة العلم ببغداد، وأصله من أصفهان، توفي سنة ٢٧٠هـ. انظر: طبقات الشافعية ٢/ ٢٨٤ - ٢٩٣.

(٣) أستاذ أكثر البغداديين، وهو من أهل البصرة، له مؤلفات في الرقائق كثيرة، مات ببغداد سنة ٢٤٣هـ. انظر ترجمته في: حلية الأولياء ١٠/ ٧٣ - ١٠٩، وطبقات الصوفية، ص ٥٦ - ٦٠.

وهؤلاء المختلفون في الأقوال مُجمعون على أنه ﷺ لم يُرد بذلك طلبَ علم الأفضية والفتاوى، ولا علم الاختلاف والمذاهب، ولا كتب الأحاديث مما لا يتعين فرضه، وإن كان الله تعالى لا يُخلى من ذلك من يُقيمه بحفظه.

والذى عندنا فى حقيقة معنى هذا الخبر - والله أعلم - أن قوله ﷺ: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ» يعنى علم هذه الفرائض الخمس التى بنى الإسلام عليها من حيث لم يُفترض على المسلمين غيرها، ثم إن العمل لا يصح إلا بعلمه، فأولُ العملِ العلمُ به، فصار علمُ العملِ فرضاً من حيث افترض العمل.

فلما لم يكن على المسلمين فرض من الأعمال إلا هذه الخمس، فصار طلبُ علم هذه الخمس فرضاً؛ لأنه فرضُ الفرض، وعلم التوحيد داخل فيها؛ لأنه فى أوله شهادة أن لا إله إلا الله بإثبات صفاته المتصلة بذاته^(١)، ونفى صفات سواء المنفصلة عن إياه، كَلَهُ داخل من علم ذلك فى شهادة: «أن لا إله إلا الله».

وعلمُ الإخلاصِ داخلٌ فى صحة الإسلام؛ إذ لا يكون مسلماً إلا بإخلاص العمل، لقوله ﷺ: «ثَلَاثٌ لَا يَغْلُ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ...»، فبدأ به واشترطه للإسلام.

والأصل فى هذا أنه لم يُرد ﷺ علم كل ما جاز أن يكون معلوماً بإجماع الأمة، إنه لم يعنِ بذلك علم الطب، أو علم النجوم، ولا علم النحو، أو الشعر، أو المغازى، وهذه تسمى علوماً؛ لأنها تكون معلومة، وأربابها علماء بها، إلا أن الشرع لم يُرد بالأمر بمقتضاها، والأمة مجمعةٌ أيضاً أنه لم يُرد بذلك علم الفتيا والقضاء، ولا علم افتراق المذاهب واختلاف الآراء، وهذه تُسمى علوماً عند أهلها، وبعضها فرض على الكفاية وكلها ساقطة عن الأعيان.

والخبرُ جاء بلفظ العموم، بذكر الكلية، وبمعنى الاسم، فقال: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ» ثم قال: «على كُلِّ مُسْلِمٍ» بعد قوله: «اطْلُبُوا الْعِلْمَ» فكان هذا على

(١) عبارة (ك): «وعلم التوحيد داخل فيها، لأنه فى أولها فى قوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وهى شهادة أن لا إله إلا الله. فطلب علم لا إله إلا الله بإثبات صفاته المتصلة بذاته».

الأعيان، فكأنه على ما وقع عليه اسم العلم، ومعناه المعهود المعروف بإدخال التعريف عليه فأشير بالألف واللام إليه، فإذا بطلت هذه الوجوه صحّ أن قوله ﷺ: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ» أى طلب علم ما بُنى الإسلام عليه، فافتراض على المسلمين علمه فريضة بدليل قوله ﷺ للأعرابي حين سأله: أخبرني ماذا افترض الله تعالى علىّ. وفي لفظ آخر: أخبرنا بالذى أرسلك الله تعالى إلينا به. فأخبره بالشهادتين، والصلوات الخمس، والزكاة، وصوم شهر رمضان، وحج البيت. فقال: «هل علىّ غيرها؟ فقال: لا إلا أن تطوع. فقال: والله لا أزيد عليه شيئاً، ولا أنقص منه شيئاً. فقال: أفلح ودخل الجنة إن صدق»، فكان علم هذه الخمس فريضةً من حيث كان معلومه فريضة إذ لا عمل إلا بعلم.

وقد قال عز وجل: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]. وقال فى مثله: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]. وقال: ﴿هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ [الأنعام: ١٤٨]. وقال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ [الروم: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَنُيْغُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [الجاثية: ١٨ - ١٩]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [مرد: ١٤]. وقال: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

فهذه الآى افترض الله فيها طلب العلم، وذلك الخبر الذى جاء فى أبنية الإسلام الخمسة افترض رسول الله ﷺ فيه هذه الأعمال ثم قال مجملًا: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ» ثم وكده بقوله ﷺ: «على كلِّ مُسْلِمٍ». فكان تفسير ذلك وتفصيله أن علم هذه الخمس التى هى أبنية الإسلام فرض لأجل فرضها.

وقد رويانا عن رسول الله ﷺ من طريق مرسل أنه مرَّ برجلٍ والناسُ مجتمعون عليه، فقال: ما هذا؟ فقالوا: رجل علامة، فقال: بماذا؟ قالوا: بالشعر والأنساب وأيام العرب؟ فقال: «هذا علمٌ لا يضرُّ جهله»، وفى لفظ آخر: «علمٌ لا ينفعُ وجهلٌ لا يضرُّ». ورويانا فى الخبر: «إنَّ من العلم جهلاً وإنَّ من القول عيباً». وفى

الخبر الآخر: «قليلٌ من التوفيق خيرٌ من كثيرٍ من العلم». وفي خبر غريب: «كُلُّ شَيْءٍ يَحْتَاجُ إِلَى الْعِلْمِ، وَالْعِلْمُ يَحْتَاجُ إِلَى التَّوْفِيقِ». والخبر المشهور قوله ﷺ: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ». فسماه علماً إذ له معلوم، وأن أصحابه علماء عند أصحابهم، ثم رفع المنفعة عنه واستعاذ بالله منه.

وقد روينا في خبر: «إن الشيطان ربما سَبَقَكُمْ بِالْعِلْمِ. قلنا: يا رسول الله، كيف يسبقنا بالعلم؟ قال: يقول: اطلب العلم، ولا تَعْمَلْ حتى تعلم، فلا يزالُ في العلم قائلاً وللعمل مسوِّقاً حتى يموتَ وما عَمِلَ».

ففي هذا الخبر دليلان؛ أحدهما: أنه أريد به طلب فضول العلم الذي لا نفع له في الآخرة، ولا قربة في طلبه من الله. والثاني: أن العلم المفضل المندوب إليه إنما هو الذي يقتضى العمل، لأن النبي ﷺ لا يأمر بعمل بغير علم، ولا يكره طلب علم للعمل به، ألا تسمع إلى قوله ﷺ في الخبر الآخر: «فَضْلُ مَنْ عِلْمٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ فَضْلِ مَنْ عَمِلَ، وَخَيْرُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ».

ذكر فضل علم المعرفة واليقين على سائر العلوم

وكشف طريق علماء السلف الصالح من علماء الدنيا والآخرة

قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أُلُوفٍ مِنْ صَحَابَتِهِ، كُلُّهُمْ عُلَمَاءُ بِاللَّهِ، فَفَقِهَاءُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، أَهْلُ رِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَمْ يَنْصَبْ وَاحِدٌ نَفْسَهُ إِلَى الْفِتْيَا، وَلَا حُمِلَتْ عَنْهُ الْأَحْكَامُ وَالْقَضَايَا، إِلَّا بِضِعَةِ عَشْرِ رَجُلًا.

وكان ابن عمر إذا سُئِلَ عَنِ الْفِتْيَا قَالَ: أَذْهَبَ إِلَى الْأَمِيرِ الَّذِي تَقَلَّدَ أُمُورَ النَّاسِ فَضَعَّهَا فِي عُنُقِهِ. وَرَوَى ذَلِكَ عَنْ أَنَسٍ، ثُمَّ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ بِإِحْسَانٍ.

وكان ابن مسعود يقول: إن الذي يفتي الناسَ في كل ما يستفتونه لَمَجْنُونٌ.

وكان ابن عمر رضى الله عنهما يُسأل عن عشر مسائل، فيُجيب عن مسألة،

ويسكت عن تسعة. وكان ابن عباس على ضد ذلك، كان يسأل عن عشرة فيجيب عن تسعة ويسكت عن واحدة.

وكان من الفقهاء من يقول «لا أدري» أكثر من أن يقول «أدري». منهم: سفيان الثوري، ومالك بن أنس، وأحمد بن حنبل، وفضيل بن عياض، وبشر بن الحارث، رضى الله عنهم. وكانوا في مجالسهم يجيبون عن بعض ويسكتون عن بعض، ولم يكونوا يجيبون عن كل ما يسألون عنه.

وروينا عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: أدركت في هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله ﷺ ما منهم من أحد يسأل عن حديث أو فتيا إلا ودَّ أن أخاه كفاه ذلك.

وفى لفظ آخر: كانت المسألة تُعرض على أحدهم فيردُّها إلى الآخر، ويردُّها الآخر للآخر، حتى ترجع إلى الذى سئل عنها أول مرة.

وروى عن ابن مسعود وابن عمر وغيرهما من التابعين، وقد رويناه مسنداً: لا يفتى الناس إلا ثلاثة: أمير أو مأمور أو متكلف.

تفصيل ذلك: أن الأمير هو الذى يتكلم فى علم الفتيا والأحكام، كذلك كان الأمراء يسألون ويفتون. والمأمور: الذى يأمره الأمير بذلك فيقيم مقامه، ويستعين به لشغله بالرعية. والمتكلف: هو القاص الذى يتكلم فى القصص السالفة، ويقص أخبار من مضى؛ لأن ذلك لا يحتاج إليه فى الحال، ولم يندب إليه من العلوم، وقد تدخله الزيادة والنقصان والاختلاف، فلذلك كره القصص، فصار القاص من المتكلفين.

وقد جاء فى لفظ الحديث الآخر بتأويل معناه: «لا يتكلم على الناس إلا ثلاثة: أمير، أو مأمور، أو مرء».

فكان قولهم أمير: هو المفتى فى الأقضية والأحكام كما ذكرنا آنفاً، ومعنى مأمور: هو العالم بالله عز وجل، الزاهد فى الدنيا، يتكلم فى علم الإيمان واليقين، وفى علم القرآن، والحث على مصالح أعمال الدين بأمر من الله تعالى،

أذن الله تعالى له في ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. وقد كان أبو هريرة وغيره يقول: لولا آيتان في كتاب الله تعالى ما حدثتكم بحديث أبداً، ثم يتلو هذه الآية التي قبلها، ويقول: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَتَى اللَّهُ تَعَالَى عَالِمًا عِلْمًا إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ مِنَ الْمِيثَاقِ مَا أَخَذَ عَلَى النَّبِيِّ أَنْ يُبَيِّنَهُ وَلَا يَكْتُمَهُ».

وأما المرائي: فهو المتكلم في علوم الدنيا الناطق عن الهوى، يستميل بذلك قلوب الناس، ويجتلب بكلامه المزيد من الدنيا والرفعة فيها.

وقال بعض العلماء: كان الصحابة والتابعون بإحسان يتدافعون أربعة أشياء: الأمانة، والوديعة، والوصية، والفتيا. وقال بعضهم: كان أسرعهم إلى الفتيا أقلهم علماً، وأشدهم دفعا لها وتوقفاً عنها أروعهم.

وقال بعض السلف: كان شغل الصحابة والتابعين بإحسان في خمسة أشياء: قراءة القرآن، وعمارة المساجد، وذكر الله تعالى، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وفى الخبر عن رسول الله ﷺ: «كُلُّ كَلَامِ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لَا لَهُ إِلَّا ثَلَاثًا: أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهْيٌ عَنِ مَنكَرٍ، أَوْ ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى». وقال الله أصدق القائلين: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

ورأى بعض أصحاب الحديث بعض فقهاء الكوفة من أهل الرأي بعد موته في المنام قال: فقلت له: ما فعلت فيما كنت عليه من الفتيا والرأي؟ قال: فكرب وجهه، وأعرض عني، وقال: ما وجدناه شيئاً، وما حمداً عاقبته.

وحدثونا عن علي بن نصر بن علي الجهضمي، عن أبيه، قال: رأيتُ الخليل بن أحمد في النوم بعد موته فقلت: ما أجد أعقل من الخليل لأسأله، فقال لي: رأيتُ ما كنا فيه؟ فإني لم أر شيئاً، ما رأيتُ أنفع من قول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

وحدثونا عن بعض الأشياخ قال: رأيت بعض العلماء فى المنام فقلت له: ما فعلت تلك العلوم التى كنا نجادل فيها ونناظر عليها؟ قال: فبسط يده ونفخ فيها، وقال: طاحت^(١) كلها هباءً مثنوراً، ما انتفعت إلا بركعتين حصلتا لى فى جوف الليل.

وحدثت عن أبى داود السجستانى قال: كان بعض أصحابنا كثير الطلب للحديث، حسن المعرفة به، فمات فرأيت فى المنام، فقلت: ما فعل الله بك؟ فسكت. فأعدت عليه، فسكت. فقلت: غفر الله لك؟ قال: لا. قلت: لم؟ قال: الذنوب كثيرة، والمناقشة دقيقة، ولكن قد وعدت بخير، وأنا أرجو خيراً. قلت: أى الأعمال وجدتها فيما هناك أفضل؟ قال: قراءة القرآن، والصلاة فى جوف الليل. قلت: فأيما أفضل ما كنت تقرأ أو تقرئ؟ فقال: ما كنت أقرأ. قلت: فكيف وجدت قولنا: فلان ثقة، وفلان ضعيف، فقال: إن خلصت فيه النية لم يكن لك ولا عليك.

وحدثت عن بعض الشيوخ قال: حدثنى أحمد بن عمر الخاقانى قال: أريت فى منامى كائى فى طريق أمضى إذ صادفنى رجل، فأقبل علىّ وهو يقول: ﴿وَإِنْ تُطَعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، فقلت له: لى تعنى؟ فقال: لك، ولذلك الذى خلّفك. فالتفت فإذا سرى رحمه الله، فأعرضت عن الرجل، وأقبلت على السرى وقلت: هذا أستاذنا ومؤدّبنا الذى كان يؤدّبنا فى الدنيا، ثم قلت له: يا أبا الحسن إنك قد صرت إلى الله تعالى فأخبرنا بأى عمل تقبله الله تعالى؟ فأخذ بيدي، ثم قال: تعال، فجئت أنا وهو إلى بنية مثل الكعبة، فوقفنا إلى جانبها إذ أشرف علينا من البنية شخص، فأضاء ذلك الموضع منه، فأومأ سرى إليه، وأشالنى نحوه، وكان سرى قصيراً، وأنا أيضاً قصير، فمد ذلك الشخص الذى كان فوق البنية يده فأخذنى، فشالنى إليه، فلم أقدر أفتح عينى من أنوار كانت فى ذلك المكان. ثم قال لى: قد سمعت كلامك مع الشيخ،

(١) طاح الشيء: فنى وذهب.

كل خُلِّقَ في القرآن محمود تَفَعَّلَهُ، وكل خُلِّقَ في القرآن مذموم تنتهى عنه، وحسبك هذا.

وقد حدثونا عن سري السقطي قال: كان شابٌ يطلب علمَ الظاهرِ ويواظبُ عليه، ثم ترك ذلك، وانفرد، واشتغل بالعبادة، فسألت عنه فإذا هو قد اعتزل الناس وقعد في بيته يتعبد، فقلت له: قد كنتَ حريصاً على الطلب لعلم الظاهر، فما بالك انقطعت؟ قال: رأيتُ في النوم قائلاً يقول لى: كم تضيع العلم ضيعك الله، فقلت: إني لأحفظه. فقال: إن حفظَ العلم العملُ به، فتركتُ الطلب، وأقبلتُ على النظر فيه للعمل.

وقد كان ابن مسعود رضى الله عنه يقول: ليس العلم بكثرة الرواية وإنما العلم الخشية. وقال غيره من الفقهاء: إنما العلم نور يقذفه الله تعالى في القلب.

وكان الحسن البصري رضى الله عنه يقول: اعلّموا ما شئتم أن تعلموا فوالله لا يؤجركم الله تعالى عليه حتى تعملوا، فإن السفهاء همّتهم الرواية، وإن العلماء همّتهم الرعاية. وروينا عنه أيضاً أنه قال: إن الله لا يعبأ بذى قولٍ ورواية، إنما يعبأ بذى فهمٍ ودراية.

وقال أبو حصين: إن أحدهم ليفتى في مسألة لو وردت على عمر بن الخطاب رضى الله عنه لجمع لها أهل بدر. وقال غيره: يسأل أحدهم عن الشيء، فيُسرع للفتيا، ولو سئل أهل بدر عنها لأعضلتهم.

وقال عبد الرحمن بن يحيى الأسود، وغيره من العلماء: إن علم الأحكام والفتاوى كان الولاة والأمراء يقومون به، وترجع العامة إليهم فيه، ثم ضعف الأمر، وعجزت الولاة عن ذلك؛ لميلهم إلى الدنيا، وشغلهم بالحروب عنها، فصاروا يستعينون على ذلك بعلماء الظاهر، وبالمفتين في الجوامع، فكان الأمير إذا جلس للمظالم قعد عن يمينه وشماله مفتيان، يرجع إليهما في القضاء والأحكام، ويأمر الشرط بمثل ذلك. فكان من الناس من يتعلم علم الفتيا والقضاء؛ ليستعين بهم الولاة على الأحكام والقضاء، حتى كثر المفتون؛ رغبة في الدنيا وطلباً للرياسة. ثم اختلف الأمر بعد ذلك؛ حتى تركت الولاة الاستعانة بالعلماء، ومما

يدلك على ذلك حديث عمر رضى الله عنه حيث كتب إلى ابن مسعود عقبة بن عامر: ألم أخبر أنك تفتى الناس، ولست بأمر ولا مأمور؟

وفى حديث أبى عامر الهروى قال: حججت مع معاوية، فلما قَدِمْنَا مكة حَدَّثَ عن رجل يقضى ويفتى الناس؛ مولى لبني مخزوم، فأرسل إليه فقال: أُمِرْتَ بهذا؟ قال: لا. قال: فما حملك عليه؟ قال: نفتى ونشر علماً عندنا. فقال معاوية: لو تقدمت إليك قبل يومى هذا لَقَطَعْتُ منك طابقاً^(١)، ثم نهاه.

ولم يكونوا يقولون ذلك فى علم القلوب، ولا علم الإيمان واليقين، بل قد كتب عمر إلى أمراء الأجناد: احفظوا ما تسمعون من المطيعين، فإنهم تُجَلَّى لهم أمورٌ صادقة. وقد كان عمر رضى الله عنه يجلس إلى المريدين فيستمع إليهم.

وفى الخبر: إذا رأيت الرجل قد أُوتى صمتاً وزهداً فاقتربوا منه فإنه تلقى الحكمة.

وقال بعض أصحاب الحديث: رأيت سفيان الثورى حزيناً، فسألته فقال وهو برِّمٌ: ما صرنا إلا متَجَرِّاً لأبناء الدنيا. قلت: وكيف؟ قال: يَلْزِمنا أحدهم، حتى إذا عُرِف بنا وحَمَلَ عنا جُعِلَ عاملاً أو جابياً أو قهرماناً.

وكان الحسن يقول: يتعلم هذا العلم قومٌ لا نصيب لهم منه فى الآخرة، يحفظ الله تعالى بهم العلم على الأمة لئلا يضيع.

وقال المأمون رحمه الله: لولا ثلاثٌ لخرت الدنيا: لولا الشهوةُ لانقطع النسلُ، ولولا حبُّ الجمع لبطلت المعاش، ولولا حبُّ الرياسة لذهب العلم.

فهذا كُلُّه وصفُ علماء الدنيا وأهل علم الألسنة. وأما علماء الآخرة وأهل المعرفة واليقين فإنهم كانوا يهربون من الأمراء ومن أتباعهم وأشياءهم من أهل الدنيا، وكانوا يَتَقَصُّون علماء الدنيا، ويطعنون عليهم، ويتركون مجالستهم.

وقال ابن أبى ليلى: أدركت فى هذا المسجد مائةً وعشرين من الصحابة، ما سئل أحدهم عن حديث ولا استُفْتى فى فُتيا إلا ودَّ أن صاحبه قد كفاه ذلك.

(١) الطابق: العضو من أعضاء الإنسان كاليد والرجل ونحوهما.

وقال مرة: أدركت ثلاثمائة يُسأل أحدهم عن الفتيا أو الحديث فيردُّ ذلك إلى الآخر، ويُحيل الآخر على صاحبه، وكانوا يتدافعون الفتيا فيما بينهم، ولم يكونوا إذا سئل أحدهم عن مسألة من علم القرآن أو علم اليقين والإيمان يُحيل على صاحبه ولا يسكت عن الجواب.

وقد قال الله سبحانه: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] فهم أهل الذكر لله تعالى، وأهل التوحيد والعقل عن الله تعالى. ولم يكونوا يتلقون هذا العلم دراسةً من الكتب، ولا يتلقاه بعضهم عن بعض بالأسنة، إنما كانوا أهل عملٍ وحسنِ معاملات. فكان أحدهم إذا انقطع إلى الله تعالى، واشتغل به، استعمله المولى بخدمته بأعمال القلوب. وكانوا عنده في الخلوة بين يديه لا يذكرون سواه، ولا يشتغلون بغيره. فإذا ظهروا للناس فسألوهم ألهمهم الله تعالى رُشدَهم، ووفَّقهم لسديد قولهم، وآتاهم الحكمة ميراثًا لأعمالهم الباطنة عن قلوبهم الصافية، وعقولهم الزاكية، وهممهم العالية. فآثرهم بحسن توفيقه أن ألهمهم حقيقة العلم، وأطلعهم على مكنون السرِّ، حين آثروه بالخدمة، وانقطعوا إليه بحسن المعاملة، فكانوا يجيئون عما عنه يسألون بحسن أثره الله تعالى لهم، وبجميل أثره عندهم. فتكلموا بعلم القدرة، وأظهروا وصف الحكمة، ونطقوا بعلوم الإيمان، وكشفوا بواطن القرآن.

وهذا هو العلم النافع الذي بين العبد وبين الله تعالى، وهو الذي يلقيه به، ويسأله عنه، ويثيبه عليه، وهو ميزان جميع الأعمال.

وعلى قدر علم العبد بربه تعالى ترَجَّحُ أعماله، وتضاعفُ حسناته، وبه يكون عند الله تعالى من المقربين؛ لأنه لديه من الموقنين، فهم أهل الحقائق الذين وصفهم على عليه السلام وفضلهم على الخلائق، فقال في وصفهم^(١):

(١) هذا من كلام الإمام على - رضى الله عنه - فى: نهج البلاغة، بشرح الشيخ محمد عبده، ١٧١/٢ - ١٧٤، يخاطب به كميل بن زياد النخعى. وهناك بعض الاختلافات اليسيرة بين نص نهج البلاغة ونص القوت هنا. وانظر: المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، كاظم محمدى، ص ١١٢.

القلوب أوعية، وخيرها أوعاها. والناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج راعٍ أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق.

العلم خير من المال؛ العلم يحرسك وأنت تحرس المال. والعلم يزكيه العمل، والمال تنقصه النفقة. محبة العلم دينٌ يدان به، به يكسب [الإنسان]^(١) الطاعة في حياته، وجميل الأحدثاة بعد موته. العلم حاكمٌ والمال محكومٌ عليه، ومنفعة المال تزول بزواله. مات خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر.

ثم تنفس الصعداء فقال: ها إن ههنا علماً جمًّا^(٢)، لو أجد له حملة! بلى أجد لقنًا غير مأمونٍ [عليه]^(٣)، يستعمل آلة الدين في طلب الدنيا، ويستطيل بنعم الله تعالى على أوليائه^(٤)، ويستظهر بحججه على خلقه أو منقاداً لأهل الحق^(٥)، ينزع^(٦) الشك في قلبه بأول عارضٍ من شبهة لا بصيرة له [في أحنائه]^(٧)، وليس من رعاة الدين في شيء، ألا لا ذا ولا ذاك. منهم^(٨) باللذة، سلس القيادة في طلب الشهوات، أو مغرّى بجمع الأموال والادخار، منقادٌ لهواه، أقرب [شيء] شبهاً بهما الأنعام السائمة. اللهم هكذا يموت العلم إذا مات حاملوه^(٩).

بل لا تخلقوا^(١٠) الأرض من قائم لله تعالى بحجة: إمّا ظاهرٌ مكشوف، وإما

(١) من النهج.

(٢) بعده في النهج: «وأشار إلى صدره».

(٣) من نهج البلاغة.

(٤) في النهج: «مستعملاً آلة الدين في طلب الدنيا، ومستظهرًا بنعم الله تعالى على أوليائه» وكلمة «آلة» ساقطة من المطبوعة وأثبتها من (ك).

(٥) في (ك): «أو منقاداً لجهله».

(٦) في النهج: «ينقدح».

(٧) من النهج.

(٨) في (ط): «فمفهوم» وهي محرفة وأثبت ما في (ك)، وفي النهج: «أو منهموا».

(٩) عبارة النهج: «كذلك يموت العلم بموت حامله».

(١٠) في نهج البلاغة: «اللهم بلى، لا تخلقوا».

خائف مقهور؛ لئلا تبطل حججُ الله تعالى وبيئاته، [وكم ذا؟ وأين أولئك؟] ^(١)، أولئك الأقلُّون عددًا، الأعظمون قدرًا. أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة. يحفظ الله تعالى بهم حججه، حتى يُودعها نظراءهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم. هجم بهم العلمُ على حقيقة الأمر ^(٢) فباشروا روحَ اليقين، فاستلنوا ما استوعر منه المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الغافلون ^(٣). صَحَبُوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحلِّ الأعلى، أولئك أولياءُ الله من خلقه ^(٤)، وعماله في أرضه، والدعاةُ إلى دينه، ثم بكى، وقال: وا شوقاهُ إلى رؤيتهم ^(٥).

فهذه كلها أوصافُ علماءِ الآخرة، وهذه نعوتُ علمِ الباطنِ وعلمِ القلوب لا علمِ الألسنة.

وكذلك وصفهم معاذُ بن جبل رضى الله عنه فى وصف العلم بالله تعالى فيما رويناه من حديث رجاء بن حيوة بن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ ^(٦) قال: تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ فَإِنَّ تَعَلُّمَهُ لِلَّهِ خَشْيَةٌ، وَطَلَبُهُ عِبَادَةٌ، وَمُدَارَسَتُهُ تَسْبِيحٌ، وَالْبَحْثُ عَنْهُ جِهَادٌ، وَتَعْلِيمُهُ لِمَنْ لَا يَعْلَمُهُ صَدَقَةٌ، وَبَذْلُهُ لِأَهْلِهِ قُرْبَةٌ. وَهُوَ الْأَنْيَسُ فِي الْوَحْدَةِ، وَالصَّاحِبُ فِي الْخُلُوعِ، وَالِدَلِيلُ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالزَّيْنُ عِنْدَ الْأَخْلَاءِ، وَالْقَرِيبُ عِنْدَ الْغُرَبَاءِ، [وَمَعَالِمُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ] ^(٧)، وَمَنَارُ سَبِيلِ الْجَنَّةِ، يَرْفَعُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ أَقْوَامًا، فَيَجْعَلُهُمْ فِي الْخَيْرِ قَادَةً وَهَدَاةً يُقْتَدَى بِهِمْ، أَدَلَّةٌ فِي الْخَيْرِ. تُقْتَصُّ آثَارُهُمْ، وَتُرْمَقُ أَعْمَالُهُمْ، وَيُقْتَدَى بِفَعَالِهِمْ، وَيُنْتَهَى إِلَى رَأْيِهِمْ، وَتَرْغَبُ الْمَلَائِكَةُ فِي خَلَّتِهِمْ، وَيَأْجُنِحَتِهَا تَمْسَحُهُمْ، حَتَّى كُلَّ رَطْبٍ وَيَابَسٍ لَهُمْ مُسْتَغْفَرٌ، حَتَّى حَيْتَانُ الْبَحْرِ وَهَوَامُهُ، وَسَبَاعُ الْبَرِّ وَنَعَامُهُ، وَالسَّمَاءُ وَنَجْمُهَا؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ حَيَاةٌ

(١) «كم» ساقطة من المطبوعة، وأضفت من نهج البلاغة «ذا»، و «أولئك» الأولى ليستقيم الكلام.

(٢) فى (ك): «حقائق اليقين» وفى نهج البلاغة: «حقيقة البصيرة».

(٣) فى النهج: «الجاهلون».

(٤) فى نهج البلاغة: «أولئك خلفاء الله فى أرضه».

(٥) انتهى الخبر بتمامه.

(٦) خبر معاذ بن جبل هذا وكلامه فى: الحلية ١/ ٢٣٩.

(٧) الزيادة من الحلية.

القلوب من العمى، ونور الأبصار من الظلم، وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى. والتفكر فيه يعدل بالصيام، ومدارسته بالقيام. به يطاع الله تعالى، وبه يُعبد، وبه يُوحّد، وبه يُتورّع، وبه تُوصَل الأرحام. العلم إمام، والعمل تابعه، تُلهمه السعداء، وتُحرّمه الأشقياء^(١).

فهذه أوصاف علماء الآخرة، ونعت العلم الباطن.

وقد كان من أفضل الأمراء بعد الخلفاء الأربعة: عمر بن عبد العزيز، فحدثونا عن زكريا بن يحيى الطائي قال: حدثني عمى زجر بن حصين أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الحسن رحمهما الله: أما بعد، فأشِرْ على بقوم أستعين بهم على أمر الله تعالى. فكتب إليه: أما أهل الدين فلن يريدوك، وأما أهل الدنيا فلن تريدهم، ولكن عليك بالأشراف فإنهم يصنونون شرفهم أن يدنسوه بالخيانة.

وكان الحسن يتكلم في بعض علماء البصرة ويذمهم، وكان أبو حازم وربيعة المدنيان يذمان علماء بني مروان. وقد كان الثوري وابن المبارك وأيوب وابن عون يتكلمون في بعض علماء الدنيا من أهل الكوفة.

وكان الفضيل وإبراهيم بن أدهم ويوسف بن أسباط يتكلمون في بعض علماء الدنيا من أهل مكة والشام، كرهنا تسمية المتكلم فيهم لأنّ السكوت أقرب إلى السلامة.

وكان بشر يقول: حدثنا باب من أبواب الدنيا: إذا سمعت الرجل يقول: حدثنا فإنما يقول: أوسعوا لي.

وقد كان سفيان الثوري إمامه من قبله يقول لأهل علم الظاهر: طلب هذا ليس من زاد الآخرة.

وقال ابن وهب: ذكر طلب العلم عند مالك، فقال: إن طلب العلم حسن، وإن نشره لحسن، إذا صحّت فيه النية. ولكن انظر ماذا يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسى، ومن حين تمسى إلى حين تصبح، فلا تؤثرن عليه شيئاً.

(١) انتهى كلام معاذ، وهو كذلك في الحلية مع اختلاف يسير في بعض الالفاظ.

وقال أبو سليمان الداراني: إذا طلبَ الرجلُ الحديثَ، أو تزوّجَ، أو سافرَ في طلبِ المعاشِ، فقد ركنَ إلى الدنيا^(١).

وأما علم الإيمان والتوحيد، وعلم المعرفة واليقين، فهو مع كل مؤمن موقن حسن الإسلام. وهو مقامه من الله، وحاله بين يدي الله، ونصيبه منه في درجات الجنة، به يكون من المقرّبين عنده. والعلمُ بالله تعالى والإيمانُ به قرينان لا يفترقان. فالعلمُ بالله تعالى هو ميزان الإيمان، به يَسْتَبِينُ المزيدُ من النقصان؛ لأنّ العلمَ ظاهرُ الإيمانِ يكشفه ويظهره، والإيمانُ باطنُ العلمِ يهيجه ويشعله. فالإيمانُ مداد العلم وبصره، والعلمُ قوّة الإيمان ولسانه. وضعفُ الإيمان وقوّته ومزيده ونقصه بمزيد العلم بالله عزّ وجلّ ونقصه وقوّته وضعفه.

وفي وصية لقمان الحكيم لابنه: يا بني، كما لا يصلح الزرعُ إلا بالماء والتراب، كذلك لا يصلح الإيمانُ إلا بالعلم والعمل.

ومثّلُ المشاهدة من المعرفة من اليقين من الإيمان كمثّلُ النّشا من الدقيق من السويق من الحنطة. والحنطةُ تجمع ذلك كله، كذلك الإيمان أصل ذلك. والمشاهدة أعلى فروعها، كالحنطة أصل هذه المعاني، والنّشا أعلى فروعها.

فهذه المقامات موجودةٌ في أنوار الإيمان يمدّها علمُ اليقين.

ثم إنّ المعرفة على مقامين: معرفةٌ سمع، ومعرفةٌ عيان. فمعرفة السّمع في الإسلام، وهو أنهم سمّعوا به فعرفوه، وهذا هو التصديق من الإيمان. ومعرفة العيان في المشاهدة، وهو عين اليقين.

والمشاهدة أيضاً على مقامين: مُشاهدة الاستدلال، ومشاهدة الدليل عنها. فمُشاهدة الاستدلال قبل المعرفة، وهذه معرفة الخبر، وهو في السّمع؛ لسانها

(١) يتحدث أبو سليمان عن مقامه هو، لكن طلب العلم والحديث والزواج لا يصدّ عن الوصول إلى أعلى المقامات؛ بل هي أمور مطالب بها أهل الله، إذ أمرت السنة بذلك. ومثل هذه الأقوال أورثت الجهل لكثير من أهل الطرق، وساعدت على ظهور البدع والابتداع. وأبو سليمان نفسه سيروى عنه ما يخالف هذه المقولة، في كتاب العلم.

القول، والواجدُ بها واجدٌ بعلمٍ [وحدّها] ^(١) علمَ اليقين من قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ نَبِيٍّ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ [النمل: ٢٢ - ٢٣]. فهذا العلم قبل الوجد، وهو علم السمع، وقد يكون سببه التعليم، ومنه قوله ﷺ: «تَعَلَّمُوا الْيَقِينَ» أى جالسوا الموقنين، واسمعوا منهم علمَ اليقين؛ لأنهم علماءه.

وأما مشاهدة الدليل: فهي بعد المعرفة التى هى العيان، وهو اليقين، لسانُه الوجد، والواجدُ بها واجدٌ قُرب، وبعد هذا الوجد علمٌ من عين اليقين، وهذا يتولاه الله تعالى بنوره على يده بقدرته. ومنه قوله ﷺ: «فَوَجَدْتُ بَرْدَهَا فَعَلِمْتُ». فهذا التعليم بعد الوجد من عين اليقين باليقين، وهذا من أعمال القلوب. وهؤلاء علماء الآخرة، وأهلُ الملكوت، وأربابُ القلوب، وهم المقربون من أصحاب اليمين.

وعلمُ الظاهر من علم الملك، وهو من أعمالِ اللسان، والعلماءُ به موصوفون بالدنيا، وصالحوهم أصحابُ اليمين.

وجاء رجلٌ إلى معاذ بن جبل فقال: أخبرنى عن رجلين؛ أحدهما مجتهدٌ فى العبادة، كثيرُ العمل، قليلُ الذنوب، إلا أنه ضعيف اليقين، يعتريه الشك فى أموره. فقال معاذ: لِيُحْبِطَنَّ شُكُّهُ أَعْمَالَهُ. قال: فأخبرنى عن رجلٍ قليل العمل، إلا أنه قوى اليقين، وهو فى ذلك كثيرُ الذنوب. فسكتَ معاذٌ. فقال الرجل: والله لئن أحبط شكُّ الأولِ أعمالَ برِّه، لِيُحْبِطَنَّ يَقِينُ هذا ذُنُوبَهُ كُلَّهَا. قال: فأخذ معاذ بيده، وقام قائماً، ثم قال: ما رأيتُ فقيهاً هو أفقه من هذا ^(٢).

وقد روينا معناه مسنداً قيل: يا رسول الله، رجلٌ حسنُ اليقين، كثيرُ الذنوب، ورجلٌ مجتهدٌ فى العبادة، قليلُ اليقين. فقال: «ما من آدمى إلا وله ذُنُوبٌ، ولكن من كانت غريزته العقل، وسجيته اليقين، لم تضره الذنوب؛ لأنه كلما أذنب تاب واستغفر ونَدِمَ، فتُكَفِّرُ ذُنُوبَهُ، ويبقى له فَضْلٌ يَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ».

(١) من (ك). وعبرة (ط): «يعلم علم اليقين».

(٢) فى (ط): «ما رأيت الذى هو أفقه من هذا» وأثبت ما فى (ك).

وروينا في معناه من حديث أبي أمامة عن رسول الله ﷺ: «من أقل ما أُوتيتُم اليقين وعزيمة الصبر، ومن أُعطى حظَّهُ منهما لم يبال ما فاتهُ من قيام الليل وصيام النهار». وفي وصية لقمان لابنه: يا بني، لا استطاع العمل إلا باليقين، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه، ولا يقصر عاملٌ حتى يقصر يقينه. وقد يعمل [الرجلُ العملَ] ^(١) الضعيف إذا كان متيقنًا أفضل من عمل ^(٢) القوى الضعيف في يقينه. ومن يضعف يقينه تغلبه المحقرات من الإثم.

وقد كان يحيى بن معاذ يقول: إن للتوحيد نورًا، وللشرك نارًا، وإن نور التوحيد أحرق لسيئات الموحدين من نار الشرك لحسنات المشركين. واليقين على ثلاث مقامات ^(٣):

يقين معانية: وهذا لا يختلف خبره، فالعالم به خبير، وهو للصدّيقين والشهداء.

ويقين تصديق واستسلام: وهذا في الخبر، والعالم به مُخبر مسلم. وهذا يقين المؤمنين، وهم الأبرار، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك، كقوله تعالى جده: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]. وقد يضعف هؤلاء بعدم الأسباب ونقصان المعتاد، وَيَقْوُونَ بوجودها وجريان العادة، وَيُحْجِبُونَ بنظرهم إلى الأواسط، ويكاشفون بها، ويجعلون مزيدهم وأنسهم بالخلق، ويكون نقصهم ووحشتهم بفقدهم. ويكون من هؤلاء الاختلاف، ويتلونون بالخلاف؛ لتلوين الأشياء وتغيرها [عليهم] ^(٤) نقصها.

المقام الثالث من اليقين: وهو يقينٌ ظنٌ يقوى بدلائل العلم والخبر وأقوال العلماء، ويجد هؤلاء المزيد من الله تعالى والنصيب منه لهم، ويضعف بفقد الأدلة وصمت القائلين. وهذا يقين الاستدلال، وعلوم هذا في المعقول، وهو

(١) الزيادة من (ك).

(٢) في (ط): «العمل» وأثبت ما في (ك).

(٣) وانظر في اليقين أيضًا: مدارج السالكين ٤١٥/٢.

(٤) الزيادة من (ك).

يقين المتكلمين من عموم المسلمين من أهل الرأي، وعلوم العقل، والقياس، والنظر. وكلُّ موقن بالله تعالى فهو على علم من التوحيد والمعرفة، ولكن علمه ومعرفته على قدر يقينه، ويقينه من نحو صفاء إيمانه وقوته، وإيمانه على مقتضى معاملته ورعايته.

فأعلى العلوم علمُ المشاهدة عن عينِ اليقين، وهذا مخصوصٌ للمقربين في مقامات قربهم، ومحادثات مجالستهم، ومأوى أنسهم، ولطيف تملُّقهم. وأدنى العلوم علمُ التسليم والقبول بعدم الإنكار، وفقد الشكوك. وهذا لعموم المؤمنين، وهو من علم الإيمان ومزيد التصديق، وهذا لأصحاب اليمين. وبين هذين مقامات لطيفات من أعلى طبقات المقربين إلى أوسط المقامات، ومن أدنى طبقات أصحاب اليمين إلى أعلى أواسط الأعلين^(١).

ذكر بيان تفضيل علوم الصمت، وطريق الورعين في العلوم

روينا في الخبر: «العلمُ ثلاثة: كتابٌ ناطقٌ، وسنةٌ قائمةٌ، ولا أدري». وعن الشعبي أنه قال: لا أدري نصفُ العلم. يعني: أنه من الورع. وكان الثوري رضى الله عنه يقول: إنما العلمُ الرَّخصةُ من ثقةٍ، فأما التشديد فكل أحدٍ يحسنه. يعني أن التورع والتوقف في الأمور هو سيرة المؤمنين وإن لم يكونوا علماء، لأنَّ الورع هو الجبنُ عن الإقدام، والهجومُ على الشبهات، والوقوفُ عند المشكلات بسكونٍ أو سكوت. واليقينُ هو الإقدامُ على الأشياء ببصيرة وتمكين، والقطعُ بالأمر على علم وخبر.

فهذا صفة العلماء الموثوق بعلمهم لا يُحسنه سواهم. كما قال علي^(٢) عليه السلام لابنه محمد بن الحنفية، وقدمه أمامه يوم الجمل وجعل يقول له: أقدم أقدم، ومحمد يتأخر، وهو يركزه بقائم رمحه. فالتفت إليه محمد ابنه فقال: هذه والله الفتنة المظلمة العمياء. فوكزه على رمحه ثم قال: تقدّم لا أمّ لك، أتكون فتنةً

(١) في (ك): «عليّ».

(٢) خبر الإمام على ليس في المخطوط.

أبوك قائدها وسائقها؟!

والمرء إذا قال لا أدري [تورّعاً]^(١) فقد عملَ بعلمه، وقام بحاله، فله من الثواب بمنزلة مَنْ درى، وقام بحاله^(٢)، وعمل بعلمه فأظهره. فلذلك كان قول «لا أدري» نصف العلم. ولأنَّ حُسْنَ مَنْ سَكَتَ لأجلِ الله تعالى تورّعاً كحُسْنِ مَنْ نَطَقَ لأجله بالعلم تبرّعاً.

وقال على بن الحسين، ومحمد بن عجلان: إذا أخطأ العالمُ قولَ «لا أدري» أصيبت مقاتلته^(٣). وقاله مالك والشافعي بعدهما.

واعلم أن مثلَ العلم والجهل في تفاوت الناس فيهما مثلُ الجنون والعقل. والمجانين طبقات، كالعقلاء طبقات، وكذلك الجهال طبقات كالعلماء، فخصوصُ الجهال يشبهون عموم العلماء، فهم يشبهون على العامة حتى يحسبهم علماء وهم مكشوفون عند العلماء بالله تعالى، وكذلك العارفون يشبهون على عموم العلماء وهم ظاهرون للموقنين.

وقال بعض العلماء: العلمُ علمان؛ علمُ الأمراء، وعلمُ المتقين. فأما علمُ الأمراء فهو علمُ القضايا، وأما علمُ المتقين فهو علمُ اليقين والمعرفة.

وقد قال الله سبحانه في وصف علم المؤمنين، وذكر علم الإيمان: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. فجعل المؤمنين علماء، فدلَّ على أنَّ العلم والإيمان لا يفترقان. والواو هنا عند أهل اللغة للمدح لا للجمع. فالعرب إذا مدحت بالأوصاف أدخلت الواو للمبالغة فقالوا: فلان العاقل، والعالم، والأديب.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [النساء: ١٦٢]،

(١) ساقطة من (ط).

(٢) في (ط): «فقام بحاله» وأثبت ما في (ك).

(٣) في (ط): «مقاتلته» وأثبت ما في (ك).

فالمؤمنون هم الراسخون في العلم، والمقيمون والمؤتون، كله نعت للمؤمنين الراسخين في العلم^(١)؛ ولذلك انتصب قوله تعالى: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾، لأنه مدح، والعرب تنصب وترفع بالمدح، وبمعناه قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران: ٧٧]، فوصف العلماء بالإيمان، كما وصف المؤمنين بالعلم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الروم: ٥٦].

ومن هذا حديث أنس عن النبي ﷺ: «أُمِّتِي خَمْسُ طَبَقَاتٍ، كُلُّ طَبَقَةٍ أَرْبَعُونَ عَامًا، فَطَبَقَتِي وَطَبَقَةُ أَصْحَابِي أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ، وَالَّذِينَ يَلُونَهُمْ إِلَى الثَّمَانِينَ أَهْلُ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَالَّذِينَ يَلُونَهُمْ إِلَى مِائَةِ عَشْرِينَ أَهْلُ التَّوَاصِلِ وَالتَّرَاحِمِ». فقرن العلم بالإيمان، وقَدَّمَهُمَا عَلَى سَائِرِ الطَّبَقَاتِ.

وقد قرن الله سبحانه الإيمان بالقرآن وهو علم، كما قرن القرآن بالإيمان، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]. قيل: القرآن، وتكون الهاء عائدة إلى الله تعالى في أكثر الوجوه، كما قال: ﴿مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾ [الشورى: ٥٢]. فأهل الإيمان هم أهل القرآن، وأهل القرآن أهل الله وخاصته.

وقال المهدي لسفيان بن الحسين لما دخل عليه، وكان أحد العلماء: أَمِنَ الْعُلَمَاءُ أَنْتَ؟ فسكت، فأعاد عليه فسكت. فقيل: أَلَا تَحِيبُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فقال: يَسْأَلُنِي عَنْ مَسْأَلَةٍ لَا جَوَابَ لَهَا: إِنْ قُلْتُ لَسْتُ بِعَالِمٍ وَقَدْ قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى كُنْتُ كَاذِبًا، وَإِنْ قُلْتُ إِنِّي عَالِمٌ كُنْتُ جَاهِلًا.

وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع عن أنس في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. قال: مَنْ لَمْ يَخْشَ اللَّهَ تَعَالَى فَلَيْسَ بِعَالِمٍ، أَلَا تَرَى أَنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ ذَلِكَ بِأَنَّكَ جَعَلْتَ الْعِلْمَ خَشْيَتَكَ، وَالْحِكْمَةَ وَالْإِيمَانَ بِكَ، فَمَا عَلِمَ مَنْ لَمْ يَخْشَكَ، وَمَا حَكَمَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِكَ.

(١) كان ثمت اضطراب في (ط) أصلحته من (ك).

وقد سَمَّى عبدُ الله بنُ رَوَاحَةَ العلمَ إيمانًا، فكان يقولُ لأصحابِهِ: «اقعدوا بنا نُؤْمِنُ سَاعَةً» فيتذاكرونَ علمَ الإيمانِ.

وقد جعل اللهَ للمؤمنينَ سَمْعًا وَبَصَرًا وَقَلْبًا، وهذه طرائقُ العلمِ التى يُؤخَذُ العلمُ منها ويوجدُ بها، وهى أصولُ العلمِ والنعمِ التى أنعمَ اللهُ على الخلقِ بها وطالبهم بالشكرِ عليها، فقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].
فأثبتَ العلمَ بها بَعْدَ النفى بها له.

وقال تعالى فى وَصْفِ مَنْ لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا وَنَفَى الْغِنَى بِالْعِلْمِ بِهَا: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الاحقاف: ٢٦]. فَمَنْ آمَنَ بِآيَاتِ اللَّهِ تعالى أَغْنَى عَنْهُ سَمْعُهُ وَبَصَرُهُ وَقَلْبُهُ، فكانت طُرُقُ الْعِلْمِ ^(١) إِلَيْهِ.

وقال عزَّ وجلَّ فى معنى ذلك أيضًا: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. فلولا أَنَّ الْعِلْمَ يَقَعُ بالسمعِ والبصرِ والقلبِ ما نهى عما لا يعلم هذه الأشياء. ففى النهى عن قَفْوِ ما لا يَعْلَمُ هذه الأواسط ويتبعه إثباتُ العلمِ بها، فكلُّ مؤمنٍ هو ذو سَمْعٍ، وبَصَرٍ، وَقَلْبٍ، [وكلُّ ذى سَمْعٍ وبَصَرٍ وَقَلْبٍ] ^(٢) فهو عالمٌ بفضلِ الله ورحمته.

ومما فضل الله تعالى به هذه الأمة على سائر الأمم وخصها به ثلاثة أشياء ^(٣):

[الأول:]: تَبْقِيَةُ الْإِسْنَادِ فِيهِمْ يَأْثُرُهُ خَلْفٌ عَنْ سَلَفٍ، متصلاً إلى نبينا محمد ﷺ، وإلى من خلا من علمائنا. وإنما كانوا فيهم يستنسخون الصحف، كلما

(١) فى (ك): «العلوم».

(٢) ساقطة من (ط) وأثبت ما فى (ك).

(٣) جمع العلامة أحمد بن محمد القسطلانى - توفى ٩٢٣هـ - طائفة كبيرة من خصائص الأمة المحمدية، فى كتابه: المواهب اللدنية، انظر: ٧٠٧/٢ - ٧٣٥، تحقيق صالح أحمد الشافى، المكتب الإسلامى.

اختلقت صحيفةً جُدِّدت، فكان ذلك أثرَ العلم فيهم.

والثاني: حفظ كتاب الله تعالى المنزل عن ظهر غيب. وإنما كانوا يقرؤون كتبهم نظراً، ولم يُحفظ جميعُ كتابِ الله تعالى قط غيرُ كتابنا، هذا إلا ما ألهمه الله تعالى عزيراً من التوراة بعد أن كان بختنصرَ أحرق جميعها عند إحراق بيت المقدس. فلذلك قال سبط من اليهود: إنه ابن الله تعالى، عز عن ذلك علواً كبيراً، لما خصّه به، وأفرده من حفظ جميع التوراة.

والثالث: أن كلَّ مؤمنٍ من هذه الأمة يُسأل عن علم الإيمان، ويُسمع قوله ويُؤخذ من رأيه وعلمه مع حداثة سنّه. ولم يكونوا فيما مضى يسمعون العلم إلا من الأخبار والقسيسين والرهبان لا غير من الناس.

وزادها رابعةً على أمة موسى؛ عليه الصلاة والسلام: ثباتُ الإيمان في قلوبهم، لا يعتريه الشك ولا يختلجه الشرك مع تقلب القلوب في المعاصي. وكانت أمةُ موسى عليه السلام تتقلب قلوبهم في الشك والشرك كما تتقلب جوارحهم في المعاصي، فلذلك: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الاعراف: ١٣٨] بعد أن رأوا الآيات العظيمة؛ من انفلاق البحر، وسلوكهم فيه طرائق، وأنجاهم من الغرق، وأهلك فرعون.

وروينا بعض الأخبار أن في بعض الكتب المنزلة: يا بَنَى إِسْرَائِيلَ، لا تقولوا العلم في السماء مَنْ ينزلُ به، ولا في تُخوم الأرضين مَنْ يصعد به، ولا من وراء البحار مَنْ يعبره يأتي به. العلمُ مجعولٌ في قلوبكم، تأدّبوا بين يديّ بآداب الروحانيين، وتخلّقوا لى بأخلاق الصديقين، أظهر العلمَ في قلوبكم حتى يغطّيكم ويغمركم.

وفي الإنجيل مكتوب: لا تطلبوا علم ما لم تعملوا حتى تعملوا بما قد علمتم.

وفي أخبارنا نحن: مَنْ عَمِلَ بِمَا يَعْلَمُ وَرَثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ. حتى قيل: من عمل بعُشر ما يعلم ورثه الله علم ما يجهل.

وقد روينا عن حذيفة بن اليمان: «إنكم اليوم في زمانٍ مَنْ تَرَكَ فِيهِ عُشْرَ مَا

يعلم هلك، ويأتى بعدكم زمانٌ من عَمِلَ منهم بعُشر ما يعلم نجا». هذا لقلة العاملين، وكثرة البطالين. وفي كتابنا المجلد المختصر: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَّمَوْا﴾ [البقرة: ١٩٤]، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمَعُوا﴾ [المائدة: ١٠٨].

واعلم أن مَنْ عَمِلَ بعِلْمٍ، أو نطقَ به، فأصاب الحقيقةَ عند الله تعالى، فله أجران؛ أجرُ التوفيق، وأجرُ العمل، وهذا مقامُ العارفين. وَمَنْ نطقَ بجهل، أو عمل به وأخطأ الحقيقة، فعليه وزرآن، وهذا مقامُ الجهال. وَمَنْ قال أو عَمِل بعِلْمِهِ، وأخطأ الحقيقة، فله أجرٌ لأجل العلم، وهذا مقام علماء الظاهر. ومن قال بجهل، أو عملَ عملاً وأصاب الحقيقة، فعليه وزرٌ؛ لتركه طلب العلم، وهذا مقام جهلة العابدين^(١).

ومثلُ العالم مثلُ الحاكم، وقد قسم النبي ﷺ الحكامَ ثلاثة أقسام فقال ﷺ: «القضاةُ ثلاثة: قاضٍ قضى بالحق وهو يعلمُ فذاك في الجنة، وقاضٍ قضى بال جور وهو يعلم، أو قضى بالجور وهو لا يعلم، فهما في النار».

ومن أحسن ما سمعت في قوله تعالى [الاعراف: ٢٦]: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَاتِكُمْ﴾ قيل: العلم ﴿وَرِيشًا﴾ قيل: اليقين، ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ أى: الحياء.

وروينا عن وهب بن منبه اليماني في معناه: «الإيمان عريان، ولباسه التقوى، وزينته الحياء، وثمرته العلم». وقد أسنده حمزة الخراساني عن الثوري، فرفعه إلى عبد الله عن النبي ﷺ. وقد رويناه أيضاً مسنداً.

وقال مسعر عن سعد بن إبراهيم، وسأله سائل: أى أهل المدينة أفقه؟ فقال: أتقاهم لله عز وجل.

وقال بعض العلماء: لو قال لى قائل: أى الناس أعلم؟ لقلت: أورعهم. ولو

(١) هذه الفقرة وبعض الأخبار اختلف موضعها هنا عما عليه فى المخطوط، فتركت المطبوعة على ما هى عليه لاختصار المخطوطة، كما أن النص لا يتأثر بذلك الترتيب على الاغلب.

قال لى قائلٌ: أى أهل هذه المدينة خير؟ لقلت: تعرفون أنصحهم لهم؟ فإذا قالوا: نعم، قلت: هو خيرهم. وقال آخر: لو قيل لى: من أحق الناس؟ لأخذت بيد القاضى فقلت: هذا.

وقال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمِعُوا﴾ [المائدة: ١٠٨]، ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]. فجعل الله تعالى مفتاح القول السديد، والعلم الرشيد، والسمع المكين: التقوى، وهى وصية الله تعالى من قبلنا وإيانا، إذ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]. وهذه الآية قطب القرآن، ومداره عليها كمدار الرحى على قُطبها^(١).

ورويانا عن عيسى [صلى الله على نبينا وعليه وسلم]^(٢): كيف يكون من أهل العلم من مسيره إلى آخرته، وهو مقبل على دنياه؟ وكيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليُخبر به، وهو لا يطلبه ليعمل به؟

وقال الضحاك بن مزاحم: أدركتهم وما يتعلم بعضهم من بعض إلا الورع وهم اليوم يتعلمون الكلام.

وفى الحديث: «ما ضلَّ قومٌ بعد هُدًى كانوا عليه إلا أُعْطُوا الجَدَلَ، ثم قرأ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]»، وفى بعض الحديث: «﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ [آل عمران: ٧] الآية: هم أهلُ الجدَلِ الذين عَنَى اللهُ تعالى فاحذروهم».

وعن بعض السلف: يكون فى آخرِ الزَّمانِ علماءٌ يُغْلَقُ عَنْهُمْ بابُ العملِ، ويُفْتَحُ عَلَيْهِمْ بابُ الجدَلِ. وفى بعضِ الأخبارِ: إنكم فى زمانٍ ألْهِمْتُمْ فيه العلمَ، وسيأتى قومٌ يُلْهِمُونَ الجدَلَ.

(١) فى (ط): «على الخشبان».

(٢) زيادة من (ك).

وعن ابن مسعود: أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المسارع، ويأتي بعدكم زمان خيركم فيه المتبين. يعني: الآن لبيان الحق واليقين في القرن الأول، وبعد ذلك في زماننا هذا لكثرة الشبهات والالتباس ودخول المحدثات مدخل الليل في السير، فأشكّل الأمر إلا على الفرد الذي يعرف طرائق السلف فيجتنب الحدث كله.

وروينا عن بعض العلماء: إذا أراد الله بعبد خيراً فتح له باب العمل، وأغلق عنه باب الجدل، وإذا أراد الله بعبد سوءاً أغلق عنه باب العمل، وفتح عليه باب الجدل.

وفي الخبر المشهور عن رسول الله ﷺ: «أبغضُ الخلقِ إلى الله عز وجلّ الألدُّ الخصم».

وقد روينا في خبر: «الحياء والعبي شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق». وفي بعضها مفسراً: «والعبي عبي اللسان لا عبي القلب».

والخبر الآخر، ما روى الحكم بن عيينة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أوتي قوم المنطق إلا منعوا العمل». وفي الحديث: «إن الله تعالى ليُبغضُ البليغ من الرجال الذي يتخللُ الكلام بلسانه كما تتخللُ الباقرة الخلاء بلسانها»، والخلاء: هو الحشيش الرطب.

وكان أحمد بن حنبل يقول: العلم إنما هو ما جاء من فوق. يعني: إلهاماً من غير تعليم. وقال أيضاً: علماء أهل الكلام زنادقة. وقال قبله أبو يوسف: مَنْ طَلَبَ العلمَ بالكلام تزندق.

بيان آخر في فضل علم الباطن على الظاهر

مما يدلُّك على أنَّ العلم الذي فضَّله العلماء، وأعظموا ذكره وخطره، ووصفوا به العالم ومدحوه به، وجاءت بفضله الآثار، ونُذِبَ إليه، وفضِّلَ في الأخبار أهله - إنما هو العلم بالله تعالى، الدالُّ على الله تعالى، الرادُّ إليه، الشاهد بالتوحيد

فى علم الإيمان واليقين وعلم المعرفة والمعاملة دون سائر علوم الفتيان والأحكام. إنهم يقولون من عمل بعلمه ويذكرون العمل بالعلم، ويصفون جملة بالخشية والخشوع. فهذا إنما هو علم القلوب لا علم اللسان، الذى يكون به العمل وتتأتى عنه^(١) المعاملات من أعمال الإيمان، مثل أعمال القلوب التى هى مقامات اليقين، وصفات المتقين، ومثل أعمال الجوارح من الصالحات التى هى مزيد الإيمان، والذين أربابها: أهل الفقر والزهد، وذو التوكل والخوف، وأصحاب الشوق والمحبة.

وليس يعنون أن يكون الإنسان إذا علم علم الأحكام والقضايا عمل بها، والترم الدخول فى أحكامها؛ ليعامل منها، مثل: أن يطلب القضاء، فيقضى بين الناس إذا كان عالماً به، أو يقتنى المال، ويدخل فى البيع والشراء إذا كان عالماً بالزكوات والبياعات، أو يتزوج النساء ويطلق؛ لأنه عالم بالنكاح والطلاق؛ ليكون بهذه الأشياء عاملاً بعلمه.

هذا ما قاله أحد، بل قد روى فى كراهة ذلك وذمه ما يكثّر ذكره. وأهل هذه العلوم موصوفون بالرغبة فى الدنيا والحرص على جمعها، ويلابسون الأمراء فيعاملون لهم، فبطل أنهم هم المعنيون بالعلم، الموصوفون بالخشوع والزهد.

ومثل ذلك أيضاً: تفضيل الجمهور من السلف العلم على العمل، وقولهم: ذرة من علم أفضل من كذا من العمل، وركتان من عالم أفضل من ألف ركعة من عابد، وحديث أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ: «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أُمَّتِي»، والخبر المشهور: «كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ»، وقول ابن عباس وسعد وقد روياه مسنداً: «عالمٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطان من ألف عابدٍ»، وكذلك قيل فى موته: «أحب إليه من موت ألف عابدٍ» - إنما يعنون بذلك: العلم بالله تعالى أفضل من العمل؛ لأن العلم بالله تعالى وصف من الإيمان، ومعنى من اليقين الذى لم ينزل من السماء أعز منه، فهو لا يُعَادِلُهُ شَيْءٌ، ولا يصح عمل ولا يُقْبَلُ إلا به، ولأنه معيار الأعمال كلها؛ على وزنه تُقْبَلُ

(١) فى (ط): «الذى يكون به العلم ولا تتأتى عنه» وأثبت ما فى (ك) لأنه أصح وأدق.

الأعمال قبولاً حسناً بعضه أحسن من بعض، ويثقل في الميزان ثقلاً فوق ثقل، ويرفع به العاملون في درجات عليين بعضها من بعض، وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٥٢]، ثم قال: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَالْوِزْنُ يُوَمِّدُ الْحَقَّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [الأعراف: ٨].

فما كان العائد منه إلى الربوبية أقرب كان أفضل. والعمل وصف العامل وحكم العبودية، لا أنهم يعنون العلم بالفتيا والأحكام والقضاء، التي هي أماكن الخلق عائدة عليهم أفضل من معاملات الله سبحانه وتعالى بالقلوب من مقامات التوكل والرضا والمحبة التي هي معاينة اليقين الذي هو مقام المقربين، هذا لا يقوله عالم.

وقد روينا عن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم وأهل الجهاد. أما أهل العلم فدلّوا الناس على ما جاءت به الرسل، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسياهم على ما جاءت به الرسل». ألا تراه كيف جعل العلم دالاً على الله تعالى كالجهد؟

وكذلك جاء في الخبر: «أَوَّلُ مَنْ يَشْفَعُ الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الشُّهَدَاءُ». وفي الخبر: «لِلْأَنْبِيَاءِ عَلَى الْعُلَمَاءِ فَضْلٌ دَرَجَةٍ، وَلِلْعُلَمَاءِ عَلَى الشُّهَدَاءِ فَضْلٌ دَرَجَتَيْنِ».

وقال ابن عباس في معنى قوله عز وجل: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] قال: للعلماء درجات فوق الذين آمنوا بسبعمائة درجة، ما بين الدرجتين خمسمائة عام.

وقال ابن مسعود: لما مات عمر رضي الله عنهما إنني لأحسب أنه ذهب بتسعة أعشار العلم. فقيل: تقول هذا وفيما جلة الصحابة. فقال: ليس أعني العلم الذي تريدون، إنما أعني العلم بالله تعالى.

فجعل العلم بالمعلومات غير حقيقة العلم، وفضل العلم بالله تعالى بتسعة أعشارها، وليس يزيد علم الظاهر على الأعمال كثير زيادة، إذ هو من الأعمال الظاهرة؛ لأنه صفة اللسان؛ ولأنه للعموم من المسلمين.

فأعلى مقاماته الإخلاصُ، فإن فاتهم فهو دنيا كسائر الشهوات. والإخلاص هو أول حال العالم بالله تعالى بالعلم الباطن، ولا نهاية لمقاماتهم إلى أعلى مقامات العارفين ودرجات الصديقين.

باب ذكر الفرق بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة

وذم علماء السوء، الأكلين بعلومهم الدنيا

قد فرقت العلماء بين العلم بالله تعالى وبين العلم بأمر الله تعالى، وفرقوا بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة. فقال سفيان: العلماء ثلاثة: عالم بالله وبأمر الله فذاك العالم الكامل، وعالم بالله تعالى فذاك التقي الخائف، وعالم بأمر الله تعالى غير عالم بالله تعالى فذاك العالم الفاجر.

وقيل أيضاً: عالم لله تعالى وهو العامل بعلمه، وعالم بأمر الله تعالى وهو الخائف الراجي.

وسئل سفيان عن العلم ما هو؟ فقال: هو الورع. قيل: وأى شيء هو الورع؟ فقال: طلب العلم الذي يعرف به الورع. وهو عند قوم طول الصمت وقلة الكلام، وما هو كذلك إنما هو المتكلم العالم عندنا أفضل من الصامت.

وروي عن لقمان في وصيته: للعلم ثلاث علامات: العلم بالله، وبما يحبه الله تعالى، وبما يكرهه. فجعل حقيقة العلم ودليل وجوده هذه الثلاث.

ومما يدلُّ على الفرق بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة أن كل عالم بعلم إذا رآه من لا يعرفه لم يتبين عليه أثر علمه ولا عرف أنه عالم، إلا العلماء بالله عز وجل فإنما يعرفون بسماهم للخشوع والسكينة والتواضع والذلة، فهذه صبغة الله تعالى لأوليائه ولبسته للعلماء به، ومن أحسن من الله صبغة، فمثلهم في ذلك كمثل الصنَّاع، إذ كلُّ صانع لو ظهر لمن لا يعرفه لم يعرف صنَّعته دون سائر الصنَّاع، ولم يفرق بينه وبين الصنَّاع إلا الصنَّاع، فإنه يعرف بصنَّعته؛ لأنها ظاهرة عليه، إذ صارت له لبسة وصفة للتباسها بمعامَلته، فكانت سيماه. كما قيل: ما ألبس الله

تعالى عبداً لبسةً أحسنَ منْ خُشوعٍ فى سَكينةٍ، هى لبسةُ الأنبياءِ، وسيما الصّديقينَ والعلماءِ. فأعلمُ الناسَ بلطفٍ ما يحبُّ اللهُ تعالى وخَفَى ما يكره أهلُ القلوبِ الفاقهةُ عن الله تعالى وهم العارفون به.

وقد كان سهلٌ رحمه الله يقولُ: العلماءُ ثلاثةٌ: عالمٌ باللهِ تعالى، وعالمٌ لله تعالى، وعالمٌ بحكمِ الله تعالى.

يعنى: العالمُ باللهِ تعالى العارفُ الموقنُ، والعالمُ لله عزّ وجلّ هو العالمُ بعلمِ الإخلاصِ والأحوالِ والمعاملاتِ، والعالمُ بحكمِ الله تعالى هو العالمُ بتفصيلِ الحلالِ والحرامِ. فسرنا ذلك على معانى قوله، ومعرفة مذهبه.

وقد قال مرّةً فى كلام أبسطَ من هذا: عالمٌ بالله لا بأمرِ الله ولا بأيامِ الله، وهم المؤمنون. وعالمٌ بأمرِ الله لا بأيامِ الله وهم المفتون فى الحلالِ والحرامِ. وعالمٌ بالله تعالى عالمٌ بأيامِ الله وهم الصّديقون.

يعنى قوله «بأيامِ الله» أى: بنعمته الباطنة، وبعقوباته الغامضة.

ثم قال: الناس كلهم موتى إلا العلماء، والعلماء نيام إلا الخائفين، والخائفون منقطعون إلا المحبين، والمحبون أحياءٌ شهداءٌ وهم المؤثرونَ لله تعالى على كل حال. وقد كان يقولُ: طلابُ العلمِ ثلاثةٌ: واحدٌ يطلبُه للعمل به. وآخرُ يطلبُه ليعرفَ الاختلافَ، فيتورّع ويأخذ بالاحتياط. وآخرُ يطلبُه ليعرفَ التأويلَ فيتناول الحرامَ فيجعله حلالاً، فهذا يكون هلاكُ الحقِّ على يديه.

وقد حدّثتُ عن أبى يوسف أنه كان إذا صار رأسُ الحول وهبَ ماله لامرأته، واستوهبها مالها، فتسقط عنهما الزكاة، فذكرَ ذلك لأبى حنيفة فقال: ذلك من فقهِه^(١).

فإنما يُطلَبُ العلمُ لمعرفة الورع والاحتياط للدين، فهذا هو العلمُ النافع. فإذا طُلِبَ لمثل هذا ولتأويل الهوى كان الجهل خيراً منه، وصار هذا العلمُ هو الضارُّ

(١) مثل هذه الحكايات لا تصحّ عن قومٍ مشهودٍ لهم بالورع والفقهِ والاتباع. فإن مثل هذا لا يستحله الجاهل البخيل، فكيف بفقهِه ورع؟!

الذى استعاذ الرسول ﷺ منه .

وروينا عن عمر وغيره: كم من عالم فاجر وعابد جاهل، فاتقوا الفاجر من العلماء والجاهل من المتعبدين. وعن عمر أيضاً، وقد رويناه مسنداً: اتقوا كل منافق عليم اللسان، يقول ما تعرفون، ويعمل ما تنكرون. وروينا عنه أيضاً: تعلّموا العلم وتعلّموا للعلم السكينة والحلم، وتواضعوا لمن تعلّمون، وليتواضع لكم من يتعلّم منكم، ولا تكونوا جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم.

وروينا عن علي وابن عباس رضى الله عنهما وعن كعب الأحبار: يكون في آخر الزمان علماء يزهدون الناس في الدنيا ولا يزهدون، ويخوفون ولا يخافون، وينهون عن غشيان الولاة ولا يتتهون، ويؤثرون الدنيا على الآخرة، ويأكلون الدنيا بألسنتهم أكلاً، يقربون الأغنياء ويباعدون الفقراء، يتغايرون على العلم كما تتغايرون النساء على الرجال، يغضب أحدهم على جلسه إذا جالس غيره. ذلك حظهم من العلم. وفي حديث علي رضي الله عنه: علماؤهم شر الخليفة، منهم بدت الفتنة، وفيهم تعود. وفي حديث ابن عباس: أولئك الجبارون أعداء الرحمن.

وروينا عن علي عليه السلام: ما قطع ظهري في الإسلام إلا رجلاً: عالم فاجر، ومبتدع ناسك. فالعالم الفاجر يزهد الناس في علمه لما يرون من فجوره، والمبتدع الناسك يرغب الناس في بدعته لما يرون من نسكه.

وقال صالح بن حسان البصري: أدركت المشيخة وهم يتعوذون بالله تعالى من الفاجر العالم بالسنة.

وقال الفضيل بن عياض: إنّما هما عالمان؛ عالم دنيا، وعالم آخرة. فعالم الدنيا علمه منشور، وعالم الآخرة علمه مستور. فاطلب عالم الآخرة واحذر عالم الدنيا لا يصدّك بشكره. ثم قرأ ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤]. قال: فالأخبار العلماء، والرهبان الزهاد.

وقال سهل بن عبد الله: طلاب العلم ثلاثة؛ فواحد: يطلب علم الورع مخافة

دخول الشبهة عليه، فيدع الحلالَ خوف الحرام، فهذا زاهدٌ تقى. وآخر: يطلبُ علمَ الاختلاف والأقاويل، فيدع ما عليه ويدخلُ فيما أباح الله تعالى بالسعة ويأخذ بالرخصة. وآخر: يسأل عن شيء فيقال: هذا لا يجوز، فيقول: كيف أصنع حتى يجوز لي؟ فيسأل العلماء، فيخبرونه بالاختلاف والشبهة، فهذا يكونُ هلاكُ الخلق على يديه، وقد أهلك نفسه، وهم علماء السوء.

واعلم أن كلَّ محبٍّ للدنيا ناطق بعلم فإنه أكلٌ للمال بالباطل، وكلُّ من أكل أموال الناس بالباطل فإنه يصدُّ عن سبيل الله لا محالة، وإن لم يظهر ذلك في مقاله، ولكنك تعرفه في لحن معناه بدقائق الصدِّ عن مجالسة غيره، وبلطائف المنع من طرقات الآخرة؛ لأنَّ حبَّ الدنيا وغلبةَ الهوى يحكمان عليه بذلك شاء أم أبى.

وقال بعض العلماء: إن الله عزَّ وجلَّ يحبُّ العالمَ المتواضعَ، ويبغضُ الجبارَ من العلماء، ومن تواضع لله تعالى ورثه الله تعالى الحكمة.

وفى الخبر عن ابن مسعود: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيَمُقُّ الْحَبَرَ السَّمِينَ». وقال رسول الله ﷺ لمالك بن الصيف؛ حبر من أخبار اليهود: «نشدتُك الله تعالى، ألم تجد فيما أنزل على موسى عليه السلام أن الله يبغضُ الحبرَ السَّمين؟»^(١). وكان ابن الصيف سمينًا، فغضب عندها فقال: مَا أُنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ. ففيه نزلت هذه الآية تعريقًا لبهته: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا﴾ [الأنعام: ٩١]. فقال له أصحابه: ويحك ماذا قلت؟ جحدت كتاب موسى! فقال: إنه محكنى^(٢) فقلت ذلك.

ويقال: ما أتى الله تعالى عبدًا علمًا إلا آتاه معه حلمًا وتواضعًا وحسن خلق ورفقًا، فذلك علامة العلم النافع. وقد روينا معناه في الأثر: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ زُهْدًا وَتَوَاضَعًا وَحُسْنَ خُلُقٍ فَهُوَ إِمَامُ الْمُتَّقِينَ». وكان الحسن يقول: الحلم

(١) هذا الحديث مرسل، انظر: أسباب نزول القرآن، للواحدى، ص ٢٢٣، والدر المنثور ٢٩/٣.

(٢) محكنى: جادلنى.

وزير العلم، والرفق أبوه، والتواضع سرباله.

وفى أخبار داود عليه السلام: إن الله تعالى أوحى إليه: يا داود، لا تسألن عني عالماً قد أسكرته الدنيا فيصدك عن طريق محبتي، أولئك قطاع طريق عبادي المريدين. يا داود، إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا أثر شهوته على محبتي أن أحرمه لذية مناجاتي. يا داود، إذا رأيت لي طالباً فكن له خادماً. يا داود، من رد إلى هارباً كتبه عندي جهبذاً، ومن كتبه جهبذاً لم أعذبهُ أبداً.

وروينا عن عيسى عليه السلام: مثل علماء السوء مثل صخرة وقعت على قم النهر لا هي تشرب الماء ولا تترك الماء يخلص إلى الزرع، وكذلك علماء الدنيا قعدوا على طريق الآخرة فلا هم نفذوا ولا تركوا العباد يسلكون إلى الله عز وجل. قال: ومثل علماء السوء كمثل قناة الحش ظاهراً حسن وباطناً نتن، ومثل القبور المشيدة ظاهراً عامراً وباطناً عظام الموتى.

وقال بشر بن الحارث: من طلب الرئاسة من العلماء فتقرب إلى الله تعالى بغضه فإنه مقيت الله في السماء والأرض.

وكان الأوزاعي يروي عن بلال بن سعد أنه كان يقول: ينظر أحدكم إلى الشرطي والعون^(١) فيستعبد بالله تعالى من حاله ويمقته، وينظر إلى عالم الدنيا قد تصنع للخلق وتشوف للطمع والرئاسة فلا يمقته. هذا العالم أحق بالمقت من ذلك الشرطي.

وقد كان أبو محمد يقول: لا تقطعوا أمراً من الدين والدنيا إلا بمشورة العلماء تحمدوا العاقبة عند الله. قيل: يا أبا محمد، من العلماء؟ قال: الذين يؤثرون الآخرة على الدنيا ويؤثرون الله تعالى على نفوسهم.

وقد قال عمر رضي الله عنه في وصيته: وشاور في أمورك الذين يخشون الله تعالى.

وروينا في الإسرائيليات: أن حكيمًا من الحكماء صنف ثلاثمائة وستين مصحفاً

(١) العون: الظهير على الأمر، الواحد والاثنان والجمع والمؤنث فيه سواء.

ففي الحكمة، حتى وُصِفَ بِالْحُكْمِ^(١). فأوحى الله تعالى إلى نبيهم: قل لفلان: قد ملأت الأرض نفاقاً ولم تُردني بشيء من ذلك، وإنى لا أقبل شيئاً من نفاقك. قال: فأسقط في يديه، وحزن وترك ذلك وخالط العامة ومشى في الأسواق، وواكل بنى إسرائيل، وتواضع في نفسه. فأوحى الله تعالى إلى النبي عليه السلام: قل له الآن: وافقت رضى.

وقال بعض العلماء: كان أهل العلم على ضربين؛ عالم عامة، وعالم خاصة. فأما عالم العامة: فهو المفتى في الحلال والحرام، وهؤلاء أصحاب الأساطين. وأما عالم الخاصة: فهو العالم بعلم التوحيد والمعرفة، وهؤلاء أهل الزوايا، وهم المنفردون. وقد كانوا يقولون: مثل الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه مثل دجلة كل أحد يعرفها، ومثل بشر بن الحارث مثل بشر عذبة مغطاة لا يقصدها إلا واحد بعد واحد.

وقال حماد بن زيد: قيل لأيوب: العلم اليوم أكثر أو فيما مضى؟ فقال: العلم فيما مضى كان أكثر، والكلام اليوم أكثر. ففرق بين العلم والكلام. وقد كانوا يقولون: فلان عالم، وفلان متكلم، وفلان أكثر كلاماً، وفلان أكثر علماً. وكان أبو سليمان يقول: المعرفة إلى السكوت أقرب منها إلى الكلام. وقال بعض العارفين: هذا العلم على قسمين: نصفه صمت، ونصفه تدرى أين تضعه. وزاد آخر: نصفه وجد، ونصفه نظر. يعنى تفكيراً واعتباراً.

وسئل سفيان عن العالم من هو؟ فقال: من يضع العلم في مواضعه، ويؤتى كل شيء حقه. وقال بعض الحكماء: إذا كثر العلم قل الكلام. وقد كان إبراهيم الخواص رحمه الله يقول: الصوفي كلما ازداد علماً نقصت طيبته. وقال بعض شيوخنا: قلت للجنيدي: يا أبا القاسم، يكون لسان بلا قلب؟ قال: كثير. قلت: فيكون قلب بلا لسان؟ فقال: نعم قد يكون؛ ولكن لسان بلا قلب بلاء، وقلب بلا لسان نعمة. قلت: فإذا كان لسان وقلب. قال: فذاك الزيد بالترسيان^(٢).

(١) الحكم: العلم والفقه.

(٢) الترسيان: من أجود التمر. وليس في (ك) قوله: «يعنى العسل».

يعنى: العسل.

وقد روينا حديثاً مقطوعاً عن سفيان عن مالك بن مغول قال: «قيل: يا رسول الله، أى العمل أفضل؟ قال: اجتنابُ المحارم، ولا يزالُ فُوكَ رطباً من ذكر الله تعالى. قيل: يا رسول الله، فأىُ الأصحاب خير؟ قال: صاحبٌ إن ذكرتَ أعانَكَ، وإن نسيتَ ذَكَرَكَ. قيل: فأىُ الأصحاب شرٌّ؟ قال: صاحبٌ إن سكتَ لم يذكركَ، وإن ذكرتَ لم يُعِنِكَ. قيل: فأىُ الناس أعلم؟ قال: أشدهم لله تعالى خشيةً. قيل: فأخبرنا بخيارنا نُجالِسُهُم، قال: الذين إذا رُءُوا ذَكَرَ اللهُ تعالى. قالوا: فأىُ الناسِ شرٌّ يا رسول الله؟ قال: اللّهُمَّ غَفِراً. قالوا: أخبرنا يا رسول الله. قال: العلماءُ إذا فَسَدُوا».

وقد وصف على عليه السلام علماء الدنيا الناطقين عن الرأى والهوى بوصف غريب، رويناه عن خالد بن طليق عن أبيه عن جده، وجده عمران بن حصين قال^(١): خطبنا على بن أبى طالب عليه السلام ورضى عنه، فقال: ذمّتى [بما أقول]^(٢) رهينة، وأنا به زعيم، لا يهيج على التقوى زرعُ قومٍ، ولا يظمأ على الهدى شحُّ أصلٍ^(٣). وإن أجهلَ الناسَ مَنْ لا يَعْرِفُ قَدْرَهُ، وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره. وإن أبغضَ الخلقِ إلى الله تعالى رجلٌ قَمَشَ عِلْماً^(٤)، أغار فى أغباش الفتنة، عمَّ عمّا فى غيب الهدنة، سمّا أشباهَ الناس وأراذلهم عالماً، ولم يَغْنِ فى العلم يوماً سالماً. بكرَّ فاستكثر من جمع ما قلّ منه خيراً مما كثر. حتى إذا

(١) هذا الكلام الذى يورده عن الإمام على ليس من خطبة واحدة فقد ورد فى نهج البلاغة فى مواضع متعددة، انظر: المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، ص ١٧، ونهج البلاغة، بشرح محمد عبده، ٤٦/١ - ٥٠ وما بعدها. وكان النص مضطرباً فقومته من المخطوط، ومن «نهج البلاغة» المنشور فى المعجم المفهرس، ولم ألزم الإشارة فى كل مرة.

(٢) زيادة من نهج البلاغة للبيان.

(٣) عبارة نهج البلاغة: «لا يهلك على التقوى سنخُ أصلٍ، ولا يظمأ عليها زرعُ قومٍ». نهج البلاغة، محمد عبده، ٥٠/١.

(٤) فى النهج ٥١/١: «قمش جهلاً» وقمش: جمع. ولفظ النهج بعده: «غاد فى أغباش الفتنة، عم بما فى عقد الهدنة».

ارْتَوَى مِنْ آجِنٍ، وَأَكْثَرَ مِنْ غَيْرِ طَائِلٍ، جَلَسَ لِلنَّاسِ مَفْتِيًّا؛ لِتَخْلِيصِ مَا التَّبَسَّ عَلَى غَيْرِهِ. فَإِنْ نَزَلَتْ بِهِ إِحْدَى الْمُبْهَمَاتِ هَيَّا لَهَا حَشْوَ الرَّأْيِ مِنْ رَأْيِهِ^(١)، [ثُمَّ قَطَعَ بِهِ]، فَهُوَ مِنْ قَطَعَ الشَّبَهَاتِ فِي مِثْلِ غَزْلِ الْعَنْكَبُوتِ لَا يَدْرِي أَخْطَأَ أَمْ أَصَابَ. رَكَّابُ جَهَالَاتٍ خَبَّاطُ عَشَوَاتٍ^(٢). لَا يَعْتَزِرُ عَمَّا لَا يَعْلَمُ فَيَسْلَمُ، وَلَا يَعْعُضُ عَلَى الْعِلْمِ بِضِرْسٍ قَاطِعٍ فَيَغْنَمُ، تَبْكِي مِنْهُ الدَّمَاءُ، وَتَصْرُخُ مِنْهُ الْمَوَارِيثُ^(٣)، وَتُسْتَحْلُ بِقَضَائِهِ الْفُرُوجُ الْحَرَامُ. لَا مَلِيَّ^(٤) وَاللَّهِ بِإِصْدَارِ مَا وَرَدَ عَلَيْهِ، وَلَا هُوَ أَهْلٌ لِمَا قُرِظَ بِهِ. أَوْلَئِكَ الَّذِينَ حَلَّتْ عَلَيْهِمُ النِّيَاحَةُ وَالْبُكَاءُ أَيَّامَ حَيَاةِ الدُّنْيَا^(٥).

ووصَفَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عُلَمَاءَ الْآخِرَةِ فِي حَدِيثٍ كُمَيْلٍ^(٦) بَنَ زِيَادَ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ: النَّاسُ ثَلَاثَةٌ؛ عَالِمٌ رَبَّانِي. يَعْنِي: عَالِمًا بِالرَّبُّوبِيَّةِ، فَيَنْسِبُهُ إِلَى رَبِّ، كَمَا سَمَاهُمُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾ [الآيَةُ ١٧٩] عِمْرَانُ. فَسَمَّى الْعَالِمَ بِكِتَابِهِ رَبَّانِيًّا، وَالدَّارِسَ لَهُ رَبَّانِيًّا، فَهَذَا قَدْ جَمَعَ الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ.

وكَذَلِكَ يَقَالُ: الْعَالِمُ الرَّبَّانِي هُوَ الَّذِي يَعْلَمُ، وَيَعْمَلُ، وَيُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ. قَالَ: فَذَلِكَ الَّذِي يُدْعَى عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ. وَقَالَ تَعَالَى فِي تَقْدِمَتِهِمْ: ﴿لَوْلَا يَنْتَهِاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ [الْمَائِدَةُ: ٦٣] فَقَدِمَ الرَّبَّانِيُّونَ عَلَى الْأَحْبَارِ، وَهُمْ عُلَمَاءُ الْكُتُبِ. وَكَذَلِكَ رَوَيْنَاهُ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: الرَّبَّانِيُّونَ فَوْقَ الْأَحْبَارِ دَرَجَةً. وَقَالَ غَيْرُهُ: وَالْأَحْبَارُ فَوْقَ الرِّهْبَانِ. يَعْنِي: عُلَمَاءُ الْقُلُوبِ أَرْفَعُ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَلْسِنَةِ. وَالْعُلَمَاءُ بِالْكِتَابِ أَفْضَلُ مِنَ الْعِبَادِ بِدَرَجَةٍ. وَقَدْ ضَمَّهْمُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى أَنْبِيَائِهِ فِي

(١) فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ: «حَشْوًا رَأً مِنْ رَأْيِهِ» وَهُوَ أَذَقَ.

(٢) فِي النَّهْجِ: «جَاهِلٌ، خَبَّاطٌ جَهَالَاتٍ، رَكَّابٌ عَشَوَاتٍ».

(٣) فِي النَّهْجِ: «تَصْرُخُ مِنْ جَوْرِ قَضَائِهِ الدَّمَاءُ، وَتَعُجُّ مِنْهُ الْمَوَارِيثُ».

(٤) الْمَلِيُّ بِالشَّى: الْقَيِّمُ بِهِ الَّذِي يَجِيدُ الْقِيَامَ عَلَيْهِ.

(٥) انْتَهَى مَا نَقَلَهُ هُنَا مِنْ كَلَامِ الْإِمَامِ عَلِيٍّ، مَعَ تَقْدِيمِ وَتَأْخِيرِ فِي الْجُمْلِ وَالْعِبَارَاتِ وَالْأَلْفَاظِ، وَبَقِيَ بَقِيَّةٌ مِنْ خُطْبَتِهِ تِلْكَ، انْظُرْ: الْمَعْجَمُ الْمَقْهَرَسُ، ص ١٩ خُطْبَةٌ: ١٧.

(٦) فِي (ط): «كَهِيلٌ» وَهُوَ خَطَأٌ، وَكَذَا وَرَدَتْ فِي مَوْضِعٍ تَالٍ. وَقَدْ مَضَى كَلَامُ الْإِمَامِ عَلِيٍّ كَامِلًا.

النصرة له والصبر معه فى قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتِلٍ مَّعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ﴾ [١] عمران: ١٤٦. ثم وصفهم بالثبات لأمره، والقوة فى دينه، والصبر لحكمه فى تمام الآية. ورَبِّيُونَ: جمع رَبِّى، يقال: رَبِّى، ورَبَّانِي. فجمع رَبِّى: رَبِّيُونَ، وجمع رَبَّانِي: رَبَّانِيُونَ.

وكذلك جاء عن رسول الله ﷺ: «يَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْعُلَمَاءُ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ» فقدّم العلماء على الشهداء؛ لأن العالم إمام أمة، فله مثل أجور أمته، والشهيد عمله لنفسه. وفى خبر آخر: «حَبْرُ الْعُلَمَاءِ يُوزَنُ بِدَمِ الشُّهَدَاءِ». فأعلى حال الشهيد دمه، وأدنى وصف العالم حبره، فسوى بينهما، وزاد العالم على الشهيد بأعلى مقامه.

وكان على عليه السلام يقول: العالم أفضل من الصائم القائم والمجاهد فى سبيل الله، وإذا مات العالم ثلّم فى الإسلام ثلّمة لا يسدّها إلا خلف منه. وقد روينا معناه مسنداً: إذا مات العالم ثلّم فى الإسلام ثلّمة لا يسدّها شيء ما طردّ الليلُ النهارَ، إلا موتُ العالمِ بحمِ طَمَسٍ^(١)، وموتُ قبيلةٍ أيسرُ من موتِ عالم.

ثم قال على عليه السلام فى حديث كُمَيْل: «ومتعلم على سبيل النجاة» يعنى: مريدًا طالبًا للعلم، متعلمًا من العلماء بالله تعالى على طريق معاملة وإخلاصٍ لطلب السّلامة، وأن ينجو من الجهل فى الدنيا ومن العذاب فى الآخرة. ثم قال: «وهمَجٌ رِعَاعٌ»، الهمَج: الفراش الذى يتهافَتُ فى النار لجهله، واحدته: هَمَجَةٌ، رِعَاع: خفيف طيّاش لا عقل له، يستفزّه الطمع، ويستخفه الغضب، ويزدهيه العُجب، ويستطيله الكِبَرُ. ثم بكى على عليه السلام وقال: «هكذا يموت العلم بموت حامله». ثم تنفّس عند وصف الربّانيين فقال: «واشوقاهُ إلى رؤيتهم» يعنى الربّانيين من العلماء. وقد ذكرنا هذا الحديث بطوله فى الباب الذى قبل هذا.

(١) حم: أى السورة التى تبدأ بحم، أى طمس لمعالم الإسلام.

فهؤلاء الذين بكى عليهم شوقاً هم الذين اشتاق رسولُ الله ﷺ إليهم قبله، فقال: «وا شوقاه إلى لقاء إخواني، وددتُ أني قد رأيت إخواني». ثم قال: «هم قومٌ يجيئون بعدكم»، ثم وصفهم. فإنما كانوا إخوانه لأن قلوبهم على قلوب الأنبياء عليهم السلام، وأخلاقهم بمعاني صفات الإيمان. وهم أبدالُ هذه الأمة، جاء في وصفهم ما يَجُلُّ عن الوصف، هم على ثلاث طبقات: صديقون، وشهداء، وصالحون. وإنَّ منهم: مَنْ قلبه على قلب إبراهيم الخليل، ومنهم: مَنْ قلبه على قلب موسى الكليم، وعيسى الروح، ومحمد الحبيب، صلوات الله عليهم وسلم أجمعين. ومنهم: على قلب جبريل، وميكائيل، وإسرافيل.

والأخوة تقع بين الاثنين في المجالسة، وقرب الشبه في الأفعال والأخلاق، كما قال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحشر: ١١] لما كانوا على أوصافهم في القلوب من إسرار الكفر واعتقاد الشك جعلهم إخواناً. وكذلك قال: ﴿إِنَّ الْمُبْذَرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧]، وهؤلاء ليسوا أمثالهم في الخلقة، ولا بينهم أبوة ولا أمومة، لأن الشياطين من ولد إبليس والمبذرين أولاد آدم عليه السلام، ولكن تشابهت قلوبهم في المواجيد والأخلاق والأفعال، فأخى بينهم للتشابه.

فمَنْ كان من علماء الآخرة فعقله يستضيء من أنوار قلبه، وفهمه ينبئ عن استنباط علمه، ومشاهدته وأخلاقه على معاني يقينه، وقوته، وطريقه، وسلوكه في منهاج سنته، وسبيله؛ فهو من إخوانه؛ وإخوان النبيين الذين اشتاق إلى رؤيتهم رسولُ الله ﷺ، وهم الغرباء بين الملأ الذين قال: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء». قيل: ومن الغرباء؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس». وفي لفظ آخر: «الذين يصلحون ما أفسده الناس من سنتي، والذين يُحيون ما أَمَاتَ الناس من سنتي»، يعنى أنهم يظهرون طريقته التي تركها الناس وجهلوها.

وفي خبر آخر: «هم المتمسكون بسنتي وما أُنتم عليه اليوم». وفي حديث آخر: «الغرباء ناسٌ قليلون صالحون بين ناسٍ سوءٍ كثيرين، مَنْ

يَبْغِضُهُمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُحِبُّهُمْ».

فهؤلاء الغرباء الذين قد أنعم الله عليهم بمرافقة النبيين في أعلى عليين، فقال: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ إلى قوله: ﴿رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وقد كان الثوري يقول: إذا رأيت العالم كثير الأصدقاء فاعلم أنه مخلط. وقال أيضاً: إذا رأيت الرجل محبباً إلى إخوانه، محموداً في جيرانه، فاعلم أنه مُراءٍ.

وقد وصف الله تعالى علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم، ووصف علماء الآخرة بالخشوع والزهد، فقال تعالى في علماء الدنيا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ وُجُوهَهُمْ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ١٨٧]. وقال في نعت علماء الآخرة: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وقد روينا عن الضحاك عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «عُلَمَاءُ هَذِهِ الْأُمَّةِ رَجُلَانِ؛ فَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا، فَبَذَلَهُ لِلنَّاسِ، وَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِ طَمَعًا، وَلَمْ يَشْتَرِ بِهِ ثَمَنًا، فَذَاكَ يُصَلِّيْ عَلَيْهِ طَيْرُ السَّمَاءِ وَحَيَاتَانِ الْمَاءِ وَدَاوِبُ الْأَرْضِ وَالْكَرَامُ الْكَاتِبُونَ، يَقْدُمُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَيِّدًا شَرِيفًا حَتَّى يَرِافِقَ الْمُرْسَلِينَ. وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ تَعَالَى عِلْمًا فِي الدُّنْيَا، فَضَنَّ بِهِ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ عِزًّا وَجَلًّا، وَأَخَذَ عَلَيْهِ طَمَعًا، وَاشْتَرَى بِهِ ثَمَنًا، يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلْجَمًا بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ، يَنَادِي مُنَادٍ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ: هَذَا فَلَانُ ابْنُ فَلَانٍ، آتَاهُ اللَّهُ تَعَالَى عِلْمًا فِي الدُّنْيَا فَضَنَّ بِهِ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَخَذَ عَلَيْهِ طَمَعًا، وَاشْتَرَى بِهِ ثَمَنًا، يُعَذَّبُ حَتَّى يُفْرَغَ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ».

ومن أغلظ ما سمعتُ فيمن أكل الدنيا بالعلم: ما حدثونا عن عتبة^(١) بن واقد، عن عثمان بن أبي سليمان قال: كان رجلٌ يخدم موسى صلى الله عليه وآله وسلم فاجعل يقول: حَدَّثَنِي مُوسَى نَبِيَّ اللَّهِ، حَدَّثَنِي مُوسَى نَجِيُّ اللَّهِ، حَدَّثَنِي مُوسَى كَلِيمُ اللَّهِ، حَتَّى أَثَرِيَ وَكَثُرَ مَالُهُ، فَفَقَدَهُ مُوسَى صَفِيُّ اللَّهِ دَهْرًا، فَجَعَلَ

(١) في (ك): «عبيد».

يسأل عنه فلا يحس له أثراً، حتى جاءه رجلٌ ذات يوم، وفي يده خنزيرٌ في عنقه حبْل أسود، فقال له موسى عليه السلام: أتعرف فلاناً؟ قال الرجل: نعم، هو ذا الخنزير. فقال موسى: يا ربّ أسألك أن تردّه إلى حاله حتى أسأله فيما أصابه هذا. فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى لو دعوتني بما دعاني به آدمُ فمَنْ دُونه ما أجبتك فيه، ولكنّي أخبرك لِمَ صنعتُ به هذا؛ لأنه كان يطلبُ الدُّنيا بالدين.

وروينا عن الحسن: أنه انصرف يوماً من مجلسه، فاستأذن عليه رجلٌ من أهل خراسان فوضع بين يديه كيساً فيه خمسة آلاف درهم، وأخرج من حقيته^(١) رزمة فيها عشرة أثواب من رقيق بزٍّ^(٢) خراسان. فقال الحسن: ما هذا؟ فقال: يا أبا سعيد، هذه نفقة، وهذه كسوة. فقال له: عافاك الله، ضُمَّ إليك نفقتك وكسوتك، فلا حاجة لنا بذلك. إنّه من جلسَ مثل مجلسي هذا وقيلَ من الناسِ مثلَ هذا لَقِيَ الله تعالى يوم القيامة لا خلاقَ له.

وفي خبر: «إن العبدَ لَيُشْرَ له من الثناء ما بين المشرقِ والمغربِ، وما يزن عندَ الله جناح بعوضة».

وعلماء الدنيا الطالبون لها بالعلم، الآكلون لها بالدين، المتخذونَ الأصدقاء^(٣) والأخلاء من أبنائها، المكرّمونَ المحبونَ لهم، المقبلون بالبشر والبشاشة عليهم - هم معروفون في كل زمان بأوصافهم، ولحن قولهم وسيماهم.

وقد روينا في مقاماتِ علماءِ السوءِ حديثاً شديداً، نعوذ بالله من أهله، ونسأله أن لا يبلونا بمقام منه، فروينا مرةً مسنداً من طريق، وروينا موقوفاً على معاذ بن جبل رضى الله عنه، وأنا أذكره موقوفاً أحبّ إليّ. حدثونا عن منذر بن علي، عن أبي نعيم الشامي، عن محمد بن زياد، عن معاذ بن جبل، يقول فيه: قال رسول الله ﷺ، ووقفته أنا على معاذ، قال: من فتنه العالم أن يكون الكلامُ أحبَّ إليه من الاستماع، وفي الكلام تنميق وزيادة، ولا يؤمن على صاحبه الخطأ، وفي

(١) لا تقرأ في المخطوط «حقيقته» وهي أقرب إلى «حِضْنه».

(٢) في (ط): «دقيق بر» وهو خطأ، والصواب ما أثبت من (ك).

(٣) في (ك): «المتخذوا الأصدقاء».

الصمت سلامةٌ وعلم. ومن العلماء مَنْ يَخْزِنُ علمه فلا يحبُّ أن يوجد عند غيره، فذلك في الدرك الأول من النار، ومن العلماء من يكون في علمه بمنزلة السلطان، فإن رُدَّ عليه شيء من علمه أو تُهاون بشيء من حقه غضب، فذلك في الدرك الثاني من النار. ومن العلماء من يجعل حديثه وغرائب علمه لأهل الشرف واليسار، ولا يرى أهل الحاجة له أهلاً، فذلك في الدرك الثالث من النار. ومن العلماء من يَنْصِبُ نفسه للفتيا، فيفتي بالخطأ، والله عز وجل يَنْغُصُ المتكلمين، فذلك في الدرك الرابع من النار. ومن العلماء من يتكلم بكلام اليهود والنصارى؛ لِيَغْزُرَ به علمه، فذلك في الدرك الخامس من النار. ومن العلماء من يتخذ علمه مروءةً ونبلاً وذكرًا في الناس، فذلك في الدرك السادس من النار. ومن العلماء من يستفزُّ الزهو والعجب، فإن وَعَظَ عَنَفَ، وإن وَعَظَ أَنَفَ، فذلك في الدرك السابع من النار. عليك بالصمت، فبه تغلب الشيطان، وإياك أن تضحك من غير عَجَب، أو تَمْشِي في غير أَرَبٍ.

وقد روينا حديثاً يدل على أوصاف علماء الآخرة، وفيه أصول ما يدعون الخلق إليه من مقامات الإيمان، وأسباب الدين والإيقان. روينا عن شقيق بن إبراهيم البلخي عن عباد بن كثير عن أبي الزبير عن جابر ذكره عن رسول الله ﷺ ووقفته أنا على جابر بن عبد الله قال: لا تجلسوا عند كلِّ عالم، إلا عالمٌ يدعوكم من خمس إلى خمس: من الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الرغبة إلى الزهد، ومن الكبر إلى التواضع، ومن العداوة إلى النصيحة.

ومما يدل ذلك أن علمَ اليقين والتقوى، وعلمَ المعرفة والهدى، هو العلمُ المذكور المقصود عند السلف: أن الصحابة والتابعين كانوا يشفقون من فَقْدِ ذلك، ويخافون عدمه، ويخبرون عن رَفْعِهِ وَقَلَّتِهِ في آخر الزمان، وإنما يَعْنُونَ بذلك علم القلوب والمجاهدات الذي هو نتيجة التقوى، وعلم المعرفة واليقين الذي هو من مزيد الإيمان وثمره الهدى. فإذا فَقَدَ المتقون، وقلَّ الخائفون، وعُدِمَ الزاهدون، ذهبت هذه العلوم؛ لأنها قائمة بهم موجودة عندهم، هم أربابُها والناطقون بها، وهي أحوالهم وطرائقهم، وهم السالكون لها والقائمون بها، فلأجل معرفة الصحابة

والتابعين عِزَّةَ ذلك كانوا يكون على فقدته.

وقد وصف الله العلماء بالزهد في الدنيا، والاستصغار لها، وبعمل الصالحات، والإيمان بها، كما وصف أبناء الدنيا بالرغبة فيها، والاستعظام لها، قال تعالى في معنى ذلك: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ وقال الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثم قال عز وجل: ﴿وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٧٩ - ٨٠]. أى لا يلقى هذه الحكمة إلا الصَّابِرُونَ عن زينة الدنيا التي خرج فيها قارون.

وروينا عن جُنْدُب بن عبد الله البجليّ قال: كنا عند رسول الله ﷺ غُلَمَاءَ حَزَازِرَةً، فيعلِّمنا الإيمان قبل القرآن، ثم تعلِّمنا القرآن فازدَدنا إيمانًا.

وعن ابن مسعود قال: أنزل القرآن ليُعمل به، فاتخذتم دراسته عملاً، وسيأتى قومٌ يَتَقَفُونَهُ^(١) تثقيف الغناء، ليسوا بخياركم. وفي لفظٍ آخر: يقيمونه إقامة القدح^(٢)، يتعجلونه ولا يتأجلونه.

وروينا عن ابن عمر وغيره: لقد عشنا برهةً من دهرنا وإن أَّحدنا يُؤْتَى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها، وأميرها وزاجرها، وما ينبغى أن يتوقف عنده منها، كما تتعلمون أنتم اليوم القرآن. ولقد رأيتُ رجالاً يُؤْتَى أَّحدُهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته لا يدرى ما أمره ولا زاجره، وما ينبغى أن يقف عنده، وينثره نثر الدقل^(٣).

وفي الخبر الآخر بمعناه: كنَّا أصحابَ رسول الله ﷺ أُوتِينَا الإيمان قبل القرآن، وسيأتى بعدكم قومٌ يُؤْتَوْنَ القرآن قبل الإيمان، يقيمون حروفه، ويضيِّعون حدوده، ويقولون قرأنا فمن أقرأ منا، وعَلِمْنَا فمن أَعْلَمُ مِنَّا، فذلك حظُّهم منه. وفي لفظ

(١) يقال: ثَقَّفَ الشَّيْءَ ثَقْفًا: حَدَّقَهُ.

(٢) القدح: خَشْبَةُ السَّهْمِ قبل أن تُرَاشَ، أى يركب لها الريش.

(٣) الدقل: أَرْدَأُ التمر.

آخر: أولئك شرارُ هذه الأمة.

فأما العلمُ الماثورُ الذى نقله خلفٌ عن سلف، والخبرُ المرسومُ فى الكتبِ المستودعِ فى الصحفِ الذى يسمعه مَنْ غَبَرَ عَمَّنْ قَدِمَ، فهذا. وعلمُ الأحكامِ والفتيا^(١)، وعلمُ الإسلامِ والقضايا، طريقُهُ السَّمْعُ، ومفتاحُهُ الاستدلالُ، وخزائنه العقلُ، وهو مدونٌ فى الكتبِ، ومجبرٌ فى الورقِ، يتلقاه الصغيرُ عن الكبيرِ بالألسنة، وهو باقٍ بقاء الإسلامِ، وموجودٌ بوجود المسلمين؛ لأنه حجة الله تعالى على عباده، ومحجةُ العمومِ من خلقه، فضمن إظهاره، فلم يكن ليظهر إلا بحملةٍ تُظهره، ونقلةٍ تحمله، فقال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الص: ٩]. وكما قال الرسول ﷺ بمعناه: «وعلمٌ ظاهر على اللسان، فذلك حجة الله تعالى على خلقه». وقال ﷺ لأصحابه: «تسمعون ويُسمع منكم، ويُسمع ممن سمع منكم». فأخبر ﷺ بالعلمِ العتيدِ المستودعِ ظهور الكتبِ الذى هو ظاهر الدين، وفى جهله وعدمه وجودُ الشُّركِ. كما ضمن الله تعالى تبقية الإسلامِ على كرهِ المشركين. وقال ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ مَنْ سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ، فَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهِ غَيْرِ فِقْهِهِ، وَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ». وقد أخبر أن حاملَ الفقهِ قد يكون غيرَ فقيهِ القلبِ إذا لم يعملْ بعلمه، وأنه قد يحمله إلى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ إذا عَمِلَ بِهِ إِذَا وَعَاهُ. كما قال فى الخبر الآخر: «رُبَّ مُبْلَغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»، فمدحه بالعمل به إذا وعاه؛ فتذكر به وتفكر فيه، وإن لم يكن سمعه منه ﷺ.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢] يعنى: أذن القلبِ الحافظة ما سمعت الذاكرة لِمَا وَعَتْ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] يعنى: أصغى بسمعه إلى سامعه، وشهد بقلبه ما سمعه من شاهده. وقد جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ قال: أذن عَقَلَتْ عن الله تعالى أمره ونهيه فوعته وعملت به، كما وصف

(١) فى (ط): «فهذا علم الأحكام والفتيا».

سبحانه وتعالى المؤمنين الذين نعتهم بقوله فى تمام وصفهم: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢].

وقد رويانا عن علىّ رضى الله عنه: اطلبوا العلم تُعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله. وقال أيضاً رضى الله عنه: إذا سمعتم العلم فاكظموا عليه، ولا تخلطوه بهزل فتمجّه القلوب.

وقال بعض السلف: من ضحك ضحكةً مَجَّ مَجَّةً من العلم. وقال الخليل بن أحمد رحمه الله: ليس العلم ما حواه القمطر إنما العلم ما وعاه الصدر.

وإذا جمع العالم ثلاثاً تمت النعمة به على المتعلم: الصبر، والتواضع، وحسن الخلق. وإذا جمع المتعلم ثلاثاً تمت النعمة به على العالم: العقل، والأدب، وحسن الفهم. والله أعلم.

ذكر وصف العلم وطريقة السلف

وذم ما أحدث المتأخرون من القصص والكلام

لا بدّ للعالم بالله تعالى من خمسٍ هي علامة علماء الآخرة: الخشية، والخشوع، والتواضع، وحسن الخلق، والزهد. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩] الآية. فلا بدّ له من التواضع وحسن الخلق، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَاخْفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٨ - ٨٩]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] الآية، والزهد فى الدنيا، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: ٨٠]. فمن وجد فيه هذه الخلال فهو من العلماء بالله عزّ وجلّ.

واعلم أنّه إنّما يستبين العالم عند المشكلات فى الدين، ويحتاج إلى العارف عند

شُبُهَات حَاكَتْ فِي الصُّدُورِ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا تَزَالُونَ بِخَيْرٍ مَا إِذَا حَاكَ فِي صَدْرٍ أَحَدِكُمْ شَيْءٌ وَجَدَ مِنْ يُخْبِرُهُ بِهِ وَيَشْفِيهِ مِنْهُ. وَابْتَغِ اللَّهَ أَوْشَكَ أَنْ لَا تَجِدُوا ذَلِكَ.

وكَمَا قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟» فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَقَالَ: ااعْلَمُهُم بِالْحَقِّ إِذَا اشْتَبَهَتِ الْأُمُورُ وَوَقَعَتِ الْمَشْكَلَاتُ، وَإِنْ كَانَ يَزْحَفُ عَلَى اسْتِهِ». فَكَذَلِكَ إِذَا اخْتَلَفَ النَّاسُ وَإِنْ كَانَ فِي عَمَلِهِ تَقْصِيرٌ. وَكَأَمَّا قَالَ فِي حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ حُصَيْنٍ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْبَصَرَ الْنَاقِدَ عِنْدَ وُرُودِ الشُّبُهَاتِ، وَالْعَقْلَ الْكَامِلَ عِنْدَ هُجُومِ الشَّهَوَاتِ، وَيُحِبُّ السَّخَاءَ وَلَوْ عَلَى تَمَرَاتٍ، وَيُحِبُّ الشَّجَاعَةَ وَلَوْ عَلَى قَتْلِ الْحَيَاتِ».

وَقَدْ حَصَلَ لَنَا فِي زَمَانِنَا هَذَا مِثْلُ مَا خَافَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ؛ لِأَنَّ مُشْكَلَةً لَوْ وَرَدَتْ فِي مَعَانِي التَّوْحِيدِ، وَشُبُهَةً لَوْ اخْتَلَجَتْ فِي صَدْرٍ مُوقِنٍ^(١) مِنْ مَعَانِي صِفَاتِ الْمَوْحَدِ، وَأَرَدَتْ كَشْفَ ذَلِكَ عَلَى حَقِيقَةِ الْأَمْرِ بِمَا يَشْهَدُهُ الْقَلْبُ الْمَوْقِنُ، وَيَتْلَجُّ لَهُ الصَّدْرُ الْمَشْرُوحُ بِالْهَدَى، كَانَ ذَلِكَ عَزِيزًا فِي وَقْتِكَ هَذَا، وَلَكُنْتَ فِي اسْتِكْشَافِ ذَلِكَ بَيْنَ خَمْسَةِ نَفَرٍ:

مُبْتَدِعٍ ضَالٍّ، يُخْبِرُكَ بِرَأْيِهِ عَنْ هَوَاهُ فَيَزِيدُكَ حَيْرَةً.

أَوْ مُتَكَلِّمٍ، يُفْتِيكَ بِقُصُورِ عِلْمِهِ عَنْ شَهَادَةِ الْمَوْقِنِينَ، وَبِقِيَاسِ مَعْقُولِهِ عَلَى ظَاهِرِ الدِّينِ. وَهَذَا شُبُهَةٌ، فَكَيْفَ تَنْكَشِفُ شُبُهَةٌ بِشُبُهَةٍ؟!

أَوْ صُوفِيٍّ شَاطِحٍ تَائِهٍ غَالِطٍ يُجَاوِزُ بِكَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ لَا يُبَالِيهِمَا، وَيُخَالِفُ بِقَوْلِهِ الْأَثْمَةَ لَا يَتَحَاشَاهَا، فَيُجَبِّيكَ بِالظَّنِّ وَالْوَسْوَاسِ، وَالْحَدْسِ وَالتَّمْوِيهِ، وَيَمَحُو الْكُونَ وَالْمَكَانَ، وَيُسْقِطُ الْعِلْمَ وَالْأَحْكَامَ، وَيُذْهِبُ الْأَسْمَاءَ وَالرُّسُومَ. وَهَؤُلَاءِ تَائِهُونَ فِي مَفَازَةِ التَّيِّهِ لَمْ يَقْفُوا عَلَى الْحُجَّةِ، قَدْ غَرَقُوا فِي بَحْرِ التَّوْحِيدِ، لَمْ يُجْعَلُوا أَثْمَةً لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا حُجَّةً لِلْمَوْقِنِينَ. وَهَذَا سَاقِطُ الْقَوْلِ، إِذْ لَيْسَ مَعَهُ حُجَّةٌ، وَلَا هُوَ عَلَى سَنَنِ الْمَحْجَةِ.

(١) فِي (ط): «مُؤْمِنٌ» وَابْتِغَاءً مَا فِي (ك).

أَوْ مُفَّتْ عَالِمٌ عِنْدَ نَفْسِهِ، مُوسَمٌ بِالْفَقْهِ عِنْدَ أَصْحَابِهِ، يَقُولُ: هَذَا مِنْ أَحْكَامِ
الْآخِرَةِ وَمِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ لَا نَتَكَلَّمُ فِيهِ؛ لِأَنَّا لَمْ نُكَلِّفْهُ، وَهُوَ فِي أَكْثَرِ مَنَاطِرِهِ يَتَكَلَّمُ
فِيمَا لَمْ يُكَلِّفْ، وَيُجَادِلُ فِيمَا لَمْ يَنْطِقْ بِهِ السَّلَفُ، وَيَتَعَلَّمُ مَا عِلْمُهُ بِتَكْلُفٍ، وَلَا
يَعْلَمُ الْمُسْكِينُ أَنَّهُ كُلَّفَ عِلْمَ يَقِينِ الْإِيمَانِ، وَحَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ، وَمَعْرِفَةِ إِخْلَاصِ
الْمُعَامَلَةِ، وَعِلْمَ مَا يَقْدَحُ فِي الْإِخْلَاصِ، وَيُخْرِجُ مِنْ جُمْلَتِهِ قَبْلَ مَا هُوَ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ
مُتَكَلِّفٌ لِبَعْضٍ مَا هُوَ يَبْتَغِيهِ؛ لِأَنَّ عِلْمَ الْإِيمَانِ، وَصِحَّةَ التَّوْحِيدِ، وَإِخْلَاصَ
الْعِبَادَةِ لِلرَّبُّوبِيَّةِ، وَإِخْلَاصَ الْأَعْمَالِ مِنَ الْهَوَى الدُّنْيَوِيَّةِ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنْ أَعْمَالِ
الْقُلُوبِ - هُوَ مِنَ الْفَقْهِ فِي الدِّينِ، وَنَعْتِ أَوْصَافِ الْمُؤْمِنِينَ؛ إِذْ مَقْتَضَاهُ الْإِنْذَارُ
وَالْتَحْذِيرُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢٢] الْآيَةُ،
وَلِقَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: «تَعَلَّمُوا الْيَقِينَ فَإِنِّي مُتَعَلِّمٌ مَعَكُمْ»، وَلِقَوْلِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُمْ: «تَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازِدَدْنَا إِيْمَانًا»، فَهَذَا - مُزِيدًا -
الْهُدَايَةُ بِالْإِيْقَانِ، وَهُوَ زِيَادَةُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْإِيمَانِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَزَادَهُمْ
إِيْمَانًا﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾
[مريم: ٧٦].

وَلَا يَشْعُرُ أَنَّ حُسْنَ الْأَدَبِ فِي الْمُعَامَلَةِ بِمَعْرِفَةٍ وَيَقِينٍ هُوَ مِنْ صِفَاتِ الْمُوقِنِينَ،
وَذَلِكَ هُوَ حَالُ الْعَبْدِ فِي مَقَامِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَنَصِيْبُهُ مِنْ رَبِّهِ تَعَالَى،
وَحِظُّهُ مِنْ مُزِيدِ آخِرَتِهِ. وَذَلِكَ مَعْقُودٌ بِشَهَادَةِ التَّوْحِيدِ، الْمُقْتَرَنَةِ بِالْإِيمَانِ، الْخَالِصَةِ
مِنْ خَفَايَا الشُّرْكِ وَشُعَبِ النِّفَاقِ، وَهُوَ مُقْتَرَنٌ بِالْفَرَائِضِ، وَفَرَضُ فَرْضِهَا الْإِخْلَاصُ
بِالْمُعَامَلَةِ. وَإِنْ عِلْمٌ مَا سِوَى هَذَا^(١) مِمَّا قَدْ أُشْرِبَ قَلْبُهُ وَحُبِّبَ إِلَيْهِ مِنْ فَضُولِ الْعِلْمِ
وِغَرَائِبِ الْفَهْمِ، إِنَّمَا هُوَ حَوَائِجُ النَّاسِ وَنَوَازِلُهُمْ، فَهُوَ حِجَابٌ عَنْ هَذَا وَاشْتِغَالٌ
عَنْهُ.

فَأَثَرَ هَذَا الْغَافِلِ^(٢) - لِقَلَّةِ مَعْرِفَتِهِ بِحَقِيقَةِ الْعِلْمِ النَّافِعِ - مَا زَيْنَ لَهُ طَلْبُهُ وَحُبُّ

(١) عبارة (ك): «وهو مقترن بالفرائض، وفرض فرضها المقترن بالمعاملة، وعلم ما سوى هذا».

(٢) في (ك): «البائس».

إليه قصده، أثر حوائج الناس وأحوالهم على حاجته وحاله، وعمل في أنصبتهم منه في عاجل دنيائهم من نوازل طوارقهم وفتيائهم، ولم يعمل في نصيبه الأوفر من ربه الأعلى؛ لأجل آخرته التي هي خير وأبقى؛ إذ مرجعه إليها ومثواه المؤبد فيها، فأثر التقرب منهم على القربة من ربه عز وجل، وترك - للشغل بهم - حظه من الله تعالى الأجل، وقدم التفرغ لهم على فراغ قلبه لمولاه وشغله بخدمته وتذكر رضاه^(١)، واشتغل بإصلاح ألسنتهم عن صلاح قلبه، وظواهر أحوالهم عن باطن حاله، وكان سبب ما بلى به حب الرياسة وطلب الجاه عند الناس والمنزلة بموجب السياسة والرغبة في عاجل الدنيا وعزها، بقلّة الهمة وضعف النية في عاجل الآخرة وذخيرته، فأفنى أيامه لأيامهم، وأذهب عمره في شهواتهم؛ ليسميّه الجاهلون بالعلم عالماً، وليكون في قلوب البطالين عندهم فاضلاً، فورد القيامة مفلساً، وعند ما يراه من أنصبة المقرّبين مبلساً، إذ فاز بالقرب العاملون، وريح الرضا العاملون، ولكن أنى له؟ وكيف بنصيب غيره وقد جعل الله تعالى لكل عمل عاملاً ولكل علم عالماً؟ ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيْبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [الاعراف: ٣٧]، و«كلّ ميسر لما خلق له».

هذا فصل الخطاب بينهما.

وأيضاً فإن الأمة لم تختلف أن علم التوحيد فريضة، سيما إذا وقعت الشبهات وأدخلت فيه المشكلات. وإنما اختلفوا في مسألتين: أي شيء هو التوحيد؟ وفي كيفية طلبه والتوصل إليه. فمنهم من قال: بالبحث والطلب. ومنهم من قال: بالاستدلال والنظر. ومنهم من قال: بالسمع والأثر. وقال بعضهم بالتوقيف والتسليم. وقال بعض الناس: يدرك دركه بالعجز والتقصير عن بلوغ دركه.

والرجل الخامس من العلماء: هو صاحب حديث وآثار، وناقل رواية الأخبار، يقول لك إذا سألته: اعتقد التسليم وأمر الحديث كما جاء، ولا تفتش. وهذا يتلو المفتى في السلامة، وهو أحسنهم طريقة، وأشبههم بسلف العامة خليقة، ليس

(١) في (ط): «وقدم التفرغ لهم على فراغ قلبه، لما قدم لغده من تقواه بالشغل بخدمة مولاه وطلب رضاه» وهي عبارة مضطربة، وأثبت عبارة (ك) لأنها أدق.

عنده شهادة يقين، ولا معرفة بحقيقة ما رآه، ولا هو مُشاهدٌ واصِفٌ لمعنى ما نقله، إنما هو للعلمِ رَوايةٌ، وللأثرِ والخبرِ نَاقلةٌ عَنْ غيرِ خبرٍ لَخبرِهِ، ولا فقهٍ فى نقله. فَهُوَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ، وليس يَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ.

وقد كان الزُّهْرِيُّ يَقُولُ: حَدَّثَنِي فُلَانٌ، وَكَانَ مِنْ أَوْعِيَةِ الْعِلْمِ، وَلَا يَقُولُ: وَكَانَ عَالِمًا. وَكَانَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: أَدْرَكْتُ سَبْعِينَ شَيْخًا مِنَ التَّابِعِينَ، مِنْهُمْ عِبَادٌ، وَمِنْهُمْ مُسْتَجَابُ الدَّعَاءِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُسْتَسْقَى بِهِ، مَا حَمَلْتُ عَنْهُمْ عِلْمًا قَطُّ. قِيلَ: وَلَمْ ذَاكَ؟ قَالَ: لَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ هَذَا الشَّأْنِ. وَفِي رَوَايَةٍ: لَمْ يَكُونُوا يَدْرُونَ مَا يُحَدِّثُونَ بِهِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِقْهُ فِيمَا يُسْأَلُونَ عَنْهُ.

قَالَ مَالِكٌ: وَيَقْدُمُ عَلَيْنَا ابْنُ شَهَابٍ الزُّهْرِيُّ، وَهُوَ حَدِيثُ السَّنِّ، فَتَزِدْهُمْ عَلَيْهِ حَتَّى لَا نَكَادُ نَصِلُ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ عَالِمًا بِمَا يُحَدِّثُ بِهِ. فَهَذَا بِمَعْنَى مَا رَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «رُبَّ حَامِلٍ فِقْهِ غَيْرُ فِقْهِهِ، وَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ».

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَا كَانُوا يَعْدُونَ عِلْمَ مَنْ لَا يَعْرِفُ اخْتِلَافَ الْعُلَمَاءِ عِلْمًا. وَقَالَ آخَرُ: مَنْ لَمْ يَعْرِفْ اخْتِلَافَ الْعُلَمَاءِ لَمْ يَحِلَّ لَهُ أَنْ يَفْتَى، وَلَمْ يُسَمَّ عَالِمًا. وَقَالَ قَتَادَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ: أَعْلَمُ النَّاسِ أَعْلَمُهُمْ بِاخْتِلَافِ النَّاسِ. وَقِيلَ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِذَا كَتَبَ الرَّجُلُ مِائَةَ أَلْفِ حَدِيثٍ لَهُ أَنْ يُفْتَى؟ قَالَ: لَا. قِيلَ: فَمِائَتِي أَلْفِ حَدِيثٍ؟ قَالَ: لَا. قِيلَ: فَثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ حَدِيثٍ؟ قَالَ: أَرْجُو. وَفِي التَّوْرَةِ مَكْتُوبٌ: «الطَّبِيبُ الْحَازِقُ لِلْعَلَّةِ الْبَاطِنَةِ يَصْلُحُ».

وَكَتَبَ سَلْمَانُ الْفَارَسِيُّ مِنَ الْمَدَائِنِ إِلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ، وَكَانَ قَدْ آخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَهُمَا فِيمَنْ آخَى: يَا أَخِي بَلِّغْنِي أَنَّكَ أَقْعَدْتَ طَبِيبًا تُدَاوِي الْمَرْضَى. فَاظْطَرَّ، فَإِنْ كُنْتَ طَبِيبًا فَتَكَلَّمْ فَإِنْ كَلَامَكَ شِفَاءٌ، وَإِنْ كُنْتَ مُتَطَبِّبًا فَاللَّهُ اللَّهُ لَا تَقْتُلْ مُسْلِمًا. قَالَ: فَكَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَتَوَقَّفُ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ. وَسَأَلَهُ إِنْسَانٌ عَنْ شَيْءٍ فَأَجَابَهُ ثُمَّ قَالَ: رُدُّوهُ، فَقَالَ لَهُ: أَعِدْ عَلَيَّ، فَأَعَادَ، فَقَالَ: مُتَطَبَّبٌ وَاللَّهِ، فَرَجَعَ فِي جَوَابِهِ.

وَلَعَمْرِي أَنَّهُ قَدْ جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَطَبَّبَ وَلَمْ يُعْلَمْ مِنْهُ طَبٌّ فَقَتَلَ

فهو ضامن». وقد كان ابن عباس رضي الله عنه يقول: سلوا جابر بن زيد، فلو نزل أهل البصرة على فتياه لوسعهم، وكان من صالحى التابعين.

وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا سُئل عن شيء يقول: سلوا سعيد بن المسيب. وكان أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: سلوا مولانا الحسن؛ فإنه قد حفظ ونسينا.

وقال بعض البصريين: قَدِمَ علينا رجلٌ من أصحاب رسول الله ﷺ، فأتينا الحسن فقلنا: ألا نذهب إلى هذا الصحابي فنسأله عن حديث رسول الله ﷺ وتجيء معنا؟ قال: نعم، فاذهبوا. قال: فجعلنا نسأله عن حديث رسول الله ﷺ وجعل يحدثنا حتى حدثنا عشرين حديثًا.

قال: والحسن يُصِتُّ يَسْتَمِعُ إليه. ثُمَّ جثا الحسنُ على ركبتيه فقال: يا صاحب رسول الله ﷺ أخبرنا بتفسير ما رويت عن رسول الله ﷺ حتى نفقه فيه. فسكت الصحابي وقال: ما عندي إلا ما سمعتُ.

قال: فابتدأ الحسن - رحمه الله - يُفسِّرُ ما رواه، فقال: أما الحديثُ الأوَّلُ الذي حدثنا به فإن تفسيره كيت وكيت، والحديثُ الثانى تفسيره كذا وكذا، حتى سرد عليه الأحاديثَ كُلَّها التى حدثنا بها وأخبرنا بتفسيرها.

قال: فلا ندرى نَعْجَبُ من حُسْنِ حفظه إياه وأدائه الحديث، أو من علمه وتفسيره؟!

قال: فأخذ الصحابيُّ كَفًّا من حصى وحصىنا به، ثُمَّ قال: تَسْأَلُونِي عن العِلْمِ وهذا الحَبْرُ بين أظهركم.

فهؤلاء أصحابُ النبى ﷺ يردُّون الأمور فى الفتيا وعلم اللسانِ إلى مَنْ هو دُونهم فى القدرِ والمنزلةِ، وهو فى علم التوحيدِ والمعرفةِ والإيمانِ فوقهم درجات، ولا يَرْجِعُونَ إليهم فى الشُّبُهاتِ، ولا يردون إليهم فى علم المعرفة واليقين. فهذا كما قيل: إِنَّمَا العِلْمُ نُورٌ يَقْدِفُهُ اللهُ تبارك وتعالى فى قلوبِ أوليائه. فقد يكونُ ذلك تنضيلاً للنظراءِ بعضهم على بعضٍ، وقد يكونُ تخصصاً للشُّبَّابِ على

الشيوخ، ولمن جاء بعد السلف من التابعين، ورَّيماً كَانَ تَكْرَمَةً لِلخَامِلِينَ المتواضعين؛ لِنَبِّهِ عَلَيْهِمْ وَيَعْرِفُونَ شَأْنَهُمْ؛ لِيَعْظُمُوا وَيُرْفَعُوا، كما قال الله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ [القصص: ٥].

والنور إذا جُعِلَ فِي الصَّدْرِ انشرح القلب بالعلم، ونظر باليقين فنطق اللسان بحقيقة البيان، وهو الحكمة التي يُودعها الله تعالى فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِهِ، كما جاء فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابَ﴾ [ص: ٢٠]، قِيلَ: الإِصَابَةُ فِي الْقَوْلِ، فَكَأَنَّهُ يُوفِّقُهُ لِلْحَقِيقَةِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] قِيلَ: الْفَهْمُ وَالْفِطْنَةُ.

وقد قال رسول الله ﷺ فِي وَصْفِ الْهَدَايَةِ حِينَ تَلَا قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] فَقِيلَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذَا الشَّرْحُ؟ فَقَالَ: إِنَّ النَّورَ إِذَا قُذِفَ فِي الْقَلْبِ انشرح له الصَّدْرُ وانفسَحَ. قِيلَ: فَهَلْ لَذَلِكَ مِنْ عِلَامَةٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، التَّجَافَى عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نَزْوِلِهِ».

فذكر سببه: الزُّهْدَ فِي الدُّنْيَا، وَالْإِقْبَالَ عَلَى خِدْمَةِ الْمَوْلَى، فَحُسْنُ التَّوْفِيقِ وَالِإِصَابَةُ فِي الْعِلْمِ مَوَاهِبُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَآثَرَةٌ يَخْتَصُّ بِهَا مَنْ يَشَاءُ. كَمَا سَأَلَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ - وَهُوَ أَمِيرُ الْكُوفَةِ - عَنْ رَجُلٍ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مُقْبِلًا غَيْرَ مَدْبِرٍ، أَيْنَ هُوَ؟ فَقَالَ أَبُو مُوسَى: فِي الْجَنَّةِ. فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ لِلسَّائِلِ: أَعَدَّ عَلَى الْأَمِيرِ فُتْيَاكَ فَلَعَلَّهُ لَمْ يَفْهَمْ. قَالَ السَّائِلُ: قُلْتُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ: مَا قَوْلُكَ فِي رَجُلٍ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقُتِلَ مُقْبِلًا غَيْرَ مَدْبِرٍ أَيْنَ هُوَ؟ فَقَالَ أَبُو مُوسَى: فِي الْجَنَّةِ. فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَعَدَّ عَلَى الْأَمِيرِ فَلَعَلَّهُ لَمْ يَفْهَمْ، فَأَعَادَ عَلَيْهِ ثَلَاثًا، كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ أَبُو مُوسَى: فِي الْجَنَّةِ. ثُمَّ قَالَ: مَا عِنْدِي غَيْرُ هَذَا فَمَا تَقُولُ أَنْتَ؟ فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: لَكِنِّي لَا أَقُولُ هَكَذَا، قَالَ: فَمَا قَوْلُكَ؟ فَقَالَ: أَقُولُ: إِنَّ قِتْلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَصَابَ الْحَقَّ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ. فَقَالَ أَبُو مُوسَى: صَدَقَ، لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ مَا دَامَ هَذَا الْخَبَرُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ.

والقولُ في تسليم أخبار الصفات والسُّكُوتِ عَنْ تَفْسِيرِهَا كما قال أصحابُ الحديث، إلا أن معرفة معاني الأسماء والصفات وشُهودَهَا يَنْفِي الظنَّ والوسْوَاسَ فِيهَا، وترك التشبيه والتمثيل بها والطَّمَأْنِينَةُ إِلَى اليقينِ بالمعرفة بِمُشَاهَدَتِهَا هو مُقَامُ الموقنين، واعتقاد أنها صفاتُ الله تعالى يَتَجَلَّى بها وبما شاء من غيرها بلا حَدٍّ ولا عدد يُظْهِرُ بصفة صفةً كيف شاء، غيرَ موقوف على صفة، ولا محكوم عليه بصورة، بلا إظهار غيرته، بل هو كيف ظهر، وبأَيِّ وصف تجلَّى، مع نفى الكيفية والمثلية لفقد الجنس والجوهرية، هو مُقَامُ المقربين من الشُّهداء، وهؤلاء هم الصَّادِقُونَ، وخصوصُ الموقنين.

فمن عُدِلَ به عن وجهة هؤلاء، ولم يُواجه بشهادتهم [عن أصل معرفتهم]^(١) عُدِلَ إِلَى التسليم والتصديق، فوقفَ عنده، فكان مَعْقِلُهُ واستراحته. وليسَ بعد هؤلاء مُقَامٌ يُمَدِّحٌ، ولا وصفٌ يُذَكِّرُ. فَمَنْ فَتَّشَ ذَلِكَ بَعْقِلَهُ، وفسَّرَهُ بِرَأْيِهِ، دخل عليه التشبيه، أو خَرَجَ إِلَى النَّفْيِ والإبطال.

ومن الدليل على فضل هذا العلم على سائر العلوم ما جاء في الأخبار المأثورة عن النبي ﷺ وعن الصحابة والتابعين في فضل مجالس الذكرِ وَفَضْلِ الذَّاكِرِينَ، إنما يُريدُونَ به علمَ الإيمان والمعرفة وعلومَ المعاملات، والتفقه في بصائر القلوب، والنظر بعين اليقين إلى سرائر الغيوب، وليس يريدون به مجالسَ الْقَصَصِ، ولا يَعرِفُونَ بِذَلِكَ الْقُصَاصَ؛ لأنَّهم كانوا يَرَوْنَ الْقَصَصَ بدعةً وَيَقُولُونَ: لَمْ يُقَصَّ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ولا أبى بكرٍ، ولا عمر، حتى ظهرت الفتنة، فلما وقعت الفتنة ظهر الْقُصَاصُ.

ولما دَخَلَ عَلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ البصرةَ جَعَلَ يُخْرِجُ الْقُصَاصَ مِنَ الْمَسْجِدِ وَيَقُولُ: لَا يُقَصُّ فِي مَسْجِدِنَا، حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْحَسَنِ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ فِي هَذَا الْعِلْمِ، فَاسْتَمَعَ إِلَيْهِ، ثُمَّ انصَرَفَ وَلَمْ يُخْرِجْهُ.

وجاء ابن عمر إلى مجلسه من المسجد، فوجدَ قاصًّا يَقُصُّ، فوجَّهَ إِلَيْهِ صَاحِبَ

(١) ساقطة من (ط).

الشُّرْطَةُ أَنْ أَخْرِجَهُ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَأَخْرَجَهُ.

فلو كان الْقَصَصُ مِنْ مَجَالِسِ الذِّكْرِ - وَالْقُصَاصُ عُلَمَاءُ - لما أَخْرَجَهُمْ ابْنُ عُمَرَ مِنَ الْمَسْجِدِ، هَذَا مَعَ وَرْعِهِ وَزَهْدِهِ.

وقد رَوَيْنَا عَنْ ابْنِ شَوْذَبٍ، عَنْ أَبِي النِّيَاحِ، قَالَ: قُلْتُ لِلْحَسَنِ: إِمَامُنَا يَقْصُرُ فَيَجْتَمِعُ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ فَيَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ بِالِدُّعَاءِ وَيَمْدُون أَيْدِيَهُمْ. فَقَالَ الْحَسَنُ: رَفَعَ الصَّوْتَ بِالِدُّعَاءِ بِدْعَةٌ، وَمَدَّ الْأَيْدِيَ بِالِدُّعَاءِ بِدْعَةٌ.

وروى أَبُو الْأَشْهَبِ عَنْ الْحَسَنِ: الْقَصَصُ بِدْعَةٌ. وقيل لابن سيرين: لَوْ قَصَصْتَ عَلَى إِخْوَانِكَ، فَقَالَ: قَدْ قِيلَ: لَا يَتَكَلَّمُ عَلَى النَّاسِ إِلَّا أَحَدُ ثَلَاثَةٍ: أَمِيرٌ أَوْ مَأْمُورٌ أَوْ أَحْمَقٌ. فَلَسْتُ بِأَمِيرٍ وَلَا مَأْمُورٍ، وَأَكْرَهُ أَنْ أَكُونَ الثَّالِثَ.

ورَوَيْنَا عَنْ عَوْنِ بْنِ مُوسَى، عَنْ معاوية بن قُرَّةَ قَالَ: سَأَلْتُ الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ قُلْتُ: أَعُوذُ مَرِيضًا أَحَبُّ إِلَيْكَ أَوْ أَجْلِسُ إِلَى قَاصٍّ؟ فَقَالَ: عُدْ مَرِيضَكَ. فَقُلْتُ: أَشِيعُ جَنَازَةً أَحَبُّ إِلَيْكَ أَوْ أَجْلِسُ إِلَى قَاصٍّ؟ قَالَ: شِيعَ جَنَازَتِكَ. قُلْتُ: وَإِنْ اسْتَعَانَ بِي رَجُلٌ فِي حَاجَةٍ أَعَيْنَهُ أَوْ أَجْلِسُ إِلَى قَاصٍّ؟ قَالَ: اذْهَبْ فِي حَاجَتِكَ، حَتَّى جَعَلَهُ خَيْرًا مِنْ مَجَالِسِ الْفَرَاغِ.

فلو كانت مَجَالِسُ الذِّكْرِ عندهم هِيَ مَجَالِسُ الْقُصَاصِ، وَلَوْ كَانَ الْقَصَصُ هُوَ الذِّكْرُ، لَمَا وَسَّعَ الْحَسَنُ أَنْ يَثْبُطَ عَنْهُ، وَلَا يُؤْثِرَ عَلَيْهِ كَثِيرًا مِنَ الْأَعْمَالِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ كَانَ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالتَّوْحِيدِ، وَيَتَكَلَّمُ فِي عِلْمِ الْمَعْرِفَةِ وَالْيَقِينِ وَالذَّاكِرِينَ لِلَّهِ تَعَالَى، وَحُضُورُ مَجْلِسِ الذِّكْرِ مِنْ مَزِيدِ الْإِيمَانِ.

وقد رفع الله تعالى مقامَ الذَّاكِرِينَ فوقَ مقامِ الْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الاحزاب: ٣٥]، فَجَعَلَ الذَّاكِرِينَ وَالذَّاكِرَاتِ أَعْلَى الْمَقَامَاتِ.

وقَدْ رَوَيْنَا فِي خَبَرِ أَبِي ذَرٍّ: «حُضُورُ مَجْلِسِ ذِكْرِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ أَلْفِ رَكْعَةٍ، وَحُضُورُ مَجْلِسِ عِلْمٍ أَفْضَلُ مِنْ عِيَادَةِ أَلْفِ مَرِيضٍ، وَحُضُورُ مَجْلِسِ عِلْمٍ أَفْضَلُ مِنْ شَهَادَةِ أَلْفِ جَنَازَةٍ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ؟ فَقَالَ: وَهَلْ تَنْفَعُ

قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ إِلَّا بَعْلَمُ؟».

وقال بعض السلف: حضور مجلس ذكرٍ يكفرُ عشرةً من مجالس الباطل.
وأما عطاء فإنه قال: مجلسُ ذكرٍ يكفرُ سبعينَ مجلساً من مجالس اللّهو.
وحدثونا عن معاذ الأعلم قال: رَأَى يُونُسُ بْنُ عُيَيْدٍ وَأَنَا فِي حَلَقَةِ الْمُعْتَزَلَةِ،
فَقَالَ: تَعَالَى، فَجِئْتُ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ لَا بَدَّ فَاعِلًا فَعَلَيْكَ بِحَلَقَةِ الْقُصَّاصِ.

وقد كان الحسنُ البصريُّ أحدَ المذكَّرينَ، وكانت مجالسُه مجالسَ الذِّكْرِ، يخلوُ
فيها مَعَ إِخْوَانِهِ وَأَتْبَاعِهِ مِنَ النَّسَاكِ وَالْعُبَادِ فِي بَيْتِهِ مِثْلُ: مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ، وَثَابِتِ
الْبَنَانِيِّ، وَأَيُّوبِ السَّخَّسْتَانِيِّ، وَمُحَمَّدِ بْنِ وَأَسْعٍ، وَفِرْقَةِ السَّنَجِيِّ، وَعَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ
زَيْدٍ، فيقول: هَاتُوا أَنْشُرُوا النُّورَ، فَيَتَكَلَّمُ عَلَيْهِمْ فِي هَذَا الْعِلْمِ مِنْ عِلْمِ الْيَقِينِ
وَالْقُدْرَةِ، وَفِي خَوَاطِرِ الْقُلُوبِ وَفَسَادِ الْأَعْمَالِ وَوَسْوَاسِ النُّفُوسِ. وَرَبَّمَا قَنَعَ بَعْضُ
أَصْحَابِ الْحَدِيثِ رَأْسَهُ فَاخْتَفَى مِنْ وَرَائِهِمْ لَيْسَمَعَ ذَلِكَ، فَإِذَا رَأَاهُ الْحَسَنُ قَالَ لَهُ: يَا
لُكْعُ وَأَنْتَ مَا تَصْنَعُ هَهْنَا؟ إِنَّمَا خَلَوْنَا مَعَ إِخْوَانِنَا نَتَذَكَّرُ.

والحسنُ - رحمه الله - هُوَ إِمَامُنَا فِي هَذَا الْعِلْمِ الَّذِي نَتَكَلَّمُ بِهِ: أَثَرُهُ نَقُفُو،
وَسَبِيلُهُ نَتَبَعُ، وَمِنْ مُشْكَاةٍ نَسْتَضِيءُ. أَخَذْنَا ذَلِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى إِمَامًا عَنْ إِمَامٍ
إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ ذَلِكَ إِلَيْهِ.

وكان من خيارِ التابعين بإحسان. قيل: ما زال يعي الحكمة أربعين سنةً حتى
نَطَقَ بِهَا. وَقَدْ لَقِيَ سَبْعِينَ بَدْرِيًّا، وَرَأَى ثَلَاثِمِائَةَ صَحَابِيٍّ، وَوُلِدَ لِلْيَلْتَيْنِ بَقِيَّتًا مِنْ
خِلَافَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَنَةَ عَشْرِينَ مِنَ التَّارِيخِ. وَوُلِدَ بِالْمَدِينَةِ،
وكَانَتْ أُمُّهُ مَوْلَاةً لَأُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، وَيُقَالُ: إِنَّهَا أَلْقَمَتْهُ ثُدْيَهَا تَعَلَّلَهُ حِينَ
بَكَى، فَدَرَّ ثُدْيَهَا عَلَيْهِ. وَكَانَ كَلَامُهُ يُشَبِّهُ بِكَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَرَأَى عِثْمَانَ بْنَ
عَفَّانَ، وَعَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَمَنْ بَقِيَ فِي وَقْتِهِ مِنَ الْعَشْرَةِ. ثُمَّ رَأَى مِنْ أَصْحَابِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ عَهْدِ عِثْمَانَ وَمِنْ سَنَةِ نَيْفٍ وَعَشْرِينَ مِنَ الْهَجْرَةِ، إِلَى سَنَةِ نَيْفٍ
وَتِسْعِينَ.

وَمِنْ آخِرِ مَنْ مَاتَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْبَصْرَةِ: أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ،

وبالمدينة: سهل بن سعد الساعدي، وبمكة: أبو الطفيل، وباليمن: أبيض بن جمال المازني، وبالكوفة: عبد الله بن أبي أوفى، وبالشام: أبو قرصافة، وبخراسان: بريدة الأسلمي.

ودخلت سنة مائة من التاريخ ولم يبق على وجه الأرض عين تطرف رأت رسول الله ﷺ في جميع أطراف الأرض.

ثم توفي الحسن في سنة عشر ومائة، وكان أبو قتادة العدوي يقول: عليكم بهذا الشيخ فوالله ما رأينا أحداً لم يصحب رسول الله ﷺ أشبه بأصحاب رسول الله ﷺ منه. وكانوا يقولون: كنا نُسبُه بهدي إبراهيم الخليل ﷺ في حلمه وخشوعه ووقاره وسكينته، فكان على شمائله.

ونذرت امرأة بالبصرة نذراً إن فعل الله تعالى ذلك بها أن تنسج ثوباً من غزلها وصفته، وتكسوه خير أهل البصرة، فرأت تمام نذرهما، فوفت بما نذرت، ثم سألت: من خير أهل البصرة؟ فقالوا: الحسن.

وكان الحسن رضى الله عنه أول من أنهج سبيل هذا العلم، وفقّ الألسنة به، ونطق بمعانيه، وأظهر أنواره، وكشف به قناعه، وكان يتكلم فيه بكلام لم يسمعه من أحد من إخوانه، ف قيل له: يا أبا سعيد، إنك تتكلم في هذا العلم بكلام لم نسمعه من أحد غيرك، فممن أخذت هذا؟ فقال: من حذيفة بن اليمان.

قيل: وقالوا لحذيفة بن اليمان: نراك تتكلم في هذا العلم بكلام لا نسمعه من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، فمن أين أخذته؟ فقال: خصني به رسول الله ﷺ، كان الناس يسألونه عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه، وعلمت أن الخير لا يسقني. وقال مرة: فعلمت أن من لا يعرف الشر لا يعرف الخير.

وفي لفظ آخر: كان الناس يقولون: يا رسول الله، ما لمن عمل كذا وكذا؟ يسألونه عن فضائل الأعمال، وكنت أقول: يا رسول الله، ما يفسد كذا وكذا؟ فلما رأيته أسأل عن آفات الأعمال خصني بهذا العلم.

وكان حذيفة قد خُصَّ بعلم المنافقين، وأُفردَ بمعرفة علم النفاق، وبسرائر العلم، ودقائق الفهم، وخفايا اليقين، من بين الصحابة. فكان عمر وعثمان وأكابر أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن الفتن العامة والفتن الخاصة، ويرجعون إليه في العلم الذي خُصَّ به، ويسألونه عن المنافقين، وهل بقي منهم ممن ذكر رسول الله ﷺ^(١) وأخبر عنهم أحد؟ فكان يخبر بأعدادهم ولا يذكر أسماءهم. وكان عمر يستكشفه عن نفسه، هل يعلم فيه شيئاً من النفاق؟ فبرأه منه. ثم يسأله عن علامات النفاق، وآية المنافق، فيخبر من ذلك بما يصلح مما أُذن له فيه، ويستعفى مما لا يجوز له أن يخبر به، فيعذر في ذلك.

وكان عمر رضي الله عنه إذا دُعِيَ إلى جنازة ليصلي عليها نظراً، فإن حضر حذيفة صلى عليها، وإن لم ير حذيفة لم يصل عليها. وكان حذيفة يسمى «صاحب السر»، وكان [أكابر]^(٢) أصحاب رسول الله ﷺ إذا سُئلوا عن علم يقول أحدهم: تسألوني عن هذا وصاحب السر فيكم؟ يعني حذيفة.

وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه لما حدث عن النبي ﷺ في فضل مجلس الذكر: «لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من غدوة إلى طلوع الشمس أحب إليّ من أن أعتق أربع رقاب» قال: فالتفت إلى يزيد الرقاشي وزياد النميري فقال: لم تكن مجالس الذكر مثل مجالسكم هذه؛ يقص أحدكم ويخطب على أصحابه ويسرد الحديث سرداً، إنما كنا نقعد فنذكر الإيمان ونتدبر القرآن ونتفقه في الدين ونعد نعم الله تعالى علينا.

وقد كان عبد الله بن رواحة يقول لأصحاب رسول الله ﷺ: تعالوا حتى نُؤمّن ساعة، فيجلسون إليه فيذكرهم العلم بالله تعالى والتوحيد والآخرة. وكان يخلف رسول الله ﷺ بعد قيامه فيجتمع إليه الناس يُذكرهم الله تعالى وأيامه ويفقههم فيما قال رسول الله ﷺ. فربما خرج عليهم رسول الله ﷺ وهم مجتمعون عنده، فيجلس إليهم ويأمرهم أن يأخذوا فيما كانوا فيه، ويقول ﷺ: «بهذا

(١) في (ط): «من ذكر الله تعالى» وأثبت ما في (ك).

(٢) زيادة من (ك).

أُمِرْتُ وَإِلَى هَذَا دَعَوْتُ». وَرَوَى نَحْوَ هَذَا عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَدْ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِهَذَا الْعِلْمِ.

وَقَدْ رَوَيْنَا هَذَا مَفْسَّرًا فِي حَدِيثِ جُنْدُبٍ: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيُعَلِّمُنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ». فَسَمِيَ الْعِلْمُ الْإِيمَانِ إِيْمَانًا، كَمَا سَمَّاهُ ابْنُ رَوَاحَةَ؛ لِأَنَّ عِلْمَ الْإِيمَانِ وَصِفُ الْإِيمَانِ، وَالْعَرَبُ تَسْمِي الشَّيْءَ بِوَصْفِهِ، وَتَسْمِيهِ بِأَصْلِهِ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مِثْلِهِ: «تَعَلَّمُوا الْيَقِينَ» أَي: عِلْمَ الْيَقِينِ. وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ﴾ [يوسف: ٨٤] أَي مِنَ الْبُكَاءِ، فَسَمَّاهُ بِأَصْلِهِ؛ لِأَنَّ الْحُزْنَ أَصْلُ الْبُكَاءِ.

وَرَوَيْنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «أَنَّهُ خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ فَرَأَى مَجْلِسَيْنِ، أَحَدُهُمَا يَدْعُونَ اللَّهَ تَعَالَى وَيَرْغَبُونَ إِلَيْهِ، وَالْآخَرُ يَتَفَقَّهُونَ فِي الدِّينِ وَيُعَلِّمُونَ النَّاسَ، فَوَقَفَ بَيْنَهُمَا، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا هَؤُلَاءِ فَيَسْأَلُونَ اللَّهَ تَعَالَى فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُمْ وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُمْ، وَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَيُعَلِّمُونَ النَّاسَ وَيَفْقَهُونَ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا، ثُمَّ عَدَلْتُ إِلَى الَّذِينَ يُفَقَّهُونَ النَّاسَ فِي الدِّينِ وَيَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَى فَجَلَسَ مَعَهُمْ».

وَيُحْكِي عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ قَالَ: دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا بِحَلْقَتَيْنِ؛ إِحْدَاهُمَا: يَقْصُونَ وَيَدْعُونَ، وَالْآخَرَى: يَتَكَلَّمُونَ فِي الْعِلْمِ وَفَقْهِ الْأَعْمَالِ. قَالَ: فَمِلْتُ إِلَى حَلْقَةِ الدُّعَاءِ فَجَلَسْتُ إِلَيْهِمْ، فَحَمَلْتَنِي عَيْنَايَ فَمِتْتُ، فَهَتَفَ بِي هَاتِفٌ أَوْ قَالَ لِي شَخْصٌ: جَلَسْتَ إِلَى هَؤُلَاءِ وَتَرَكْتَ مَجْلِسَ الْعِلْمِ، أَمَّا لَوْ جَلَسْتَ إِلَيْهِمْ لَوَجَدْتَ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْدهُمْ.

فَحَقِيقَةُ الذِّكْرِ هُوَ الْعِلْمُ بِاللَّهِ تَعَالَى، أَلَا تَسْمَعُ إِلَى مَا رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي تَصْدِيقِهِ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وَقَالَ فِي مِثْلِهِ: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [هود: ١٤].

ثُمَّ إِنَّ الْعِلْمَ مِنَ الذِّكْرِ عِلْمُ الْمَشَاهِدَةِ، وَالْمَشَاهِدَةُ صِفَةُ عَيْنِ الْقَلْبِ^(١)، فَإِذَا

(١) فِي (ط): «عَيْنِ الْيَقِينِ» وَاثْبَتَ مَا فِي (ك).

كُشِفَ غَطَاءُ الْعَيْنِ شَهِدَتْ مَعَانِي الصِّفَاتِ بِأَنْوَارِهَا، وَهُوَ مَزِيدُ نُورِ الْيَقِينِ الَّذِي هُوَ كَمَالُ الْإِيمَانِ وَحَقِيقَتُهُ. فَهَنَالِكَ ذَكَرْتَ الْمَوْصُوفَ بِمُشَاهَدَةِ الْمَذْكُورِ بِنُورِ وَصْفِهِ، أَلَمْ تَرَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ [الكهف: ١٠١]؟ فَمِنْ كَانَتْ عَيْنُهُ فِي كُشْفٍ مِنْ ذِكْرِهِ شَهِدَ الْمَذْكُورَ، فَعِنْدَهَا ذِكْرُهُ، ثُمَّ وَجَدَ^(١) حَقِيقَةَ الْعِلْمِ بَعْدَ نِسْيَانِ الْخَلْقِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤]. فَحَقِيقَةُ الذِّكْرِ نِسْيَانُ مَا سِوَاهُ، كَمَا أَنَّ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ الْكُفْرُ بِكُلِّ إِلَهٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْحَدِيثِ: جَاءَنِي رَجُلٌ مِنْ إِخْوَانِي مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ فَقَالَ: قَدْ وَجَدْتُ مِنْ قَلْبِي غَفْلَةً، فَأَرِيدُ أَنْ تَحْمِلَنِي إِلَى مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الذِّكْرِ. فَقُلْتُ: نَعَمْ. فَسَمَّى لَهُ مُذَكَّرًا يَتَكَلَّمُ فِي عُلُومِ الْعَامَّةِ. قَالَ: فَحَضَرْنَا عِنْدَهُ وَاجْتَمَعَ الْخَلْقُ، فَأَخَذَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقَصَصِ [وَالْإِسْرَائِيلِيَّاتِ]^(٢) وَذَكَرَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ. فَنَظَرَ إِلَى صَاحِبِي فَقَالَ: أَلَيْسَ زَعَمْتَ أَنَّ هَذَا يَذْكُرُ اللَّهَ وَيُذَكِّرُ بِهِ^(٣)، وَيَذْكُرُ أَيَّامَهُ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ هَكَذَا هُوَ عِنْدَنَا. فَقَالَ: مَا أَسْمَعُ إِلَّا ذِكْرَ الْخَلْقِ فَأَيْنَ ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى؟ ثُمَّ تَوَقَّفَ سَاعَةً يَنْتَظِرُ مِنْهُ مَا يُرِيدُ مِنْ عِلْمِ الْمَعْرِفَةِ وَمَا سَمِعَهُ مِنْ شُيُوخِهِ الصُّوفِيَّةِ. قَالَ: فَلَيْسَ إِلَّا الْقَصَصُ وَالْحِكَايَاتُ. فَالْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ: قُمْ بِنَا فَإِنَّهُ لَا يَسَعُنِي الْجُلُوسُ؛ لِأَنَّهُ لَا نِيَّةَ لِي فِي ذَلِكَ. فَقُلْتُ: أَمَّا أَنَا فَاسْتَحْيَ أَنْ أَتَخَطَّى النَّاسَ، فَاصْنَعْ أَنْتَ مَا تَرَى، فَقَامَ يَتَخَطَّى النَّاسَ حَتَّى خَرَجَ.

وَقَدْ رَوَى الزُّهْرِيُّ عَنْ سَالِمٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ خَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ وَقَالَ: مَا أَخْرَجَنِي إِلَّا الْقَصَاصُ وَلَوْلَاهُ مَا خَرَجْتُ. وَقَالَ ضَمْرَةُ: قُلْتُ لِلثَّوْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: نَسْتَقْبِلُ الْقَاصِّ بَوَاجِهِنَا؟ فَقَالَ: وَلَوْ الْبَدْعَ ظَهَرَكُمْ. وَقَالَ ابْنُ عَوْنٍ: دَخَلْتُ عَلَى ابْنِ سِيرِينَ فَقَالَ: مَا كَانَ الْيَوْمَ مِنْ خَيْرٍ؟ فَقُلْتُ: نَهَى الْأَمِيرُ الْقَصَاصَ أَنْ يَقْصُوا. وَحَدَّثَنَا عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ عَنْ خَلْفِ بْنِ خَلِيفَةَ قَالَ: رَأَيْتُ سَيَّارًا أَبَا الْحَكَمِ يَسْتَاكُ

(١) فِي (ط): «ثُمَّ تَوَجَّدَ» وَاثْبَتَ مَا فِي (ك).

(٢) زِيَادَةٌ مِنْ (ك).

(٣) فِي (ط): «وَيَذْكُرُ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ» وَهُوَ تَحْرِيفٌ صَوْبَتُهُ مِنْ (ك).

عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ وَقَاصٌ يَقْصُ فِي الْمَسْجِدِ. فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا الْحَكَمِ، إِنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَكَ، فَقَالَ: إِنِّي فِي خَيْرٍ مِمَّا هُمْ فِيهِ، أَنَا فِي سُنَّةٍ وَهُمْ فِي بَدْعَةٍ.

وَقَدْ فَعَلَ الْأَعْمَشُ أَبْلَغَ مِنْ ذَلِكَ: دَخَلَ الْبَصْرَةَ وَكَانَ فِيهَا غَرِيبًا، فَنَظَرَ إِلَى قَاصٍ فِي الْجَامِعِ وَهُوَ يَقُولُ: حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، وَحَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي وَائِلٍ، قَالَ: فَتَوَسَّطَ الْأَعْمَشُ الْحُلُقَةَ وَرَفَعَ يَدَهُ وَجَعَلَ يَنْتَفِ شَعْرًا يَبْطُهُ، فَبَصُرَ بِهِ الْقَاصُ فَقَالَ: يَا شَيْخُ أَلَا تَسْتَحْيُ؟ نَحْنُ فِي عِلْمٍ وَأَنْتَ تَفْعَلُ هَذَا؟ فَقَالَ لَهُ الْأَعْمَشُ: الَّذِي أَنَا فِيهِ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ. قَالَ: كَيْفَ؟ قَالَ: لِأَنِّي فِي سُنَّةٍ وَأَنْتَ فِي كَذِبٍ. أَنَا الْأَعْمَشُ وَمَا حَدَّثْتُكَ مِمَّا تَقُولُ شَيْئًا. فَلَمَّا سَمِعَ النَّاسُ ذَكَرَ الْأَعْمَشَ انْفَضُّوا عَنْ الْقَاصِ واجتمعوا حوله، وقالوا: حَدَّثَنَا يَا أَبَا مُحَمَّدٍ.

وَأَخْبَرُونَا عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي هَارُونَ أَنَّ إِسْحَاقَ حَدَّثَهُ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صَلَاةَ الْعِيدِ، فَإِذَا قَاصٌ يَقْصُ يَلْعَنُ الْمُبْتَدِعَةَ، وَيَذْكُرُ السُّنَّةَ. فَلَمَّا قَضَيْنَا الصَّلَاةَ وَصِرْنَا بَعْضُ الطَّرِيقِ ذَكَرَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْقَاصَ فَقَالَ: مَا أَنْفَعَهُمْ لِلْعَامَةِ! وَإِنْ كَانَ عَامَةً مَا يُحَدِّثُونَ بِهِ كَذِبًا.

وَأَخْبَرْتُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرٍ: أَنَّ أَبَا الْحَارِثِ حَدَّثَهُ أَنَّهُ سَمِعَ الْإِمَامَ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: أَكْذَبُ النَّاسِ الْقَصَاصُ وَالسُّؤَالُ. وَحَدَّثُونَا عَنْهُ أَيْضًا أَنَّهُ قَالَ: مَا أَحْوَجَ النَّاسَ إِلَى قَاصٍ صَدُوقٍ؛ لِأَنَّهُمْ يَذْكُرُونَ الْمِيزَانَ وَعَذَابَ الْقَبْرِ. قُلْتُ لَهُ: أَنْتَ تَحْضُرُ مَجَالِسَهُمْ؟ قَالَ: لَا.

وَرَوَيْنَا عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ عَنْ زِيَادِ النُّمَيْرِيِّ قَالَ: أَتَيْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ وَهُوَ بِالزَّائِيَةِ فَقَالَ لِي: قَصِّ. فَقُلْتُ: كَيْفَ وَالنَّاسُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ بَدْعَةٌ؟ فَقَالَ: لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى بَدْعَةً. قَالَ: فَقَصَصْتُ وَجَعَلْتُ أَكْثَرَ قَصَصِي وَدَعَائِي رَجَاءً أَنْ يُؤْمِنَ. قَالَ: فَجَعَلْتُ أَقْصَ وَهُوَ يُؤْمِنُ. وَقَدْ كَانُوا يَجْعَلُونَ الدَّعَاءَ قَصَصًا.

وَحَدَّثَ يَوْسُفُ بْنُ عَطِيَّةٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْخُرَّازِ قَالَ: فَقَدْ الْحَسَنُ عَامِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْعَنْبَرِيِّ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِنَا إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ، فَأَتَاهُ الْحَسَنُ فَإِذَا عَامِرٌ فِي بَيْتٍ قَدْ لَفَّ رَأْسَهُ، وَلَيْسَ فِي الْبَيْتِ إِلَّا رَمْلٌ. فَقَالَ لَهُ الْحَسَنُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ،

لم نرك منذ أيام. فقال: إني كنت أجلس هذه المجالس فأسمع تخلیطاً وتغليطاً، وإني كنت أسمع مَشِيختنا فيما يروون عن نبينا ﷺ أنه كان يقول: «إنَّ أصفى الناس إيماناً يوم القيامة أكثرهم فكرةً في الدنيا، وأكثر الناس ضحكاً في الجنة أكثرهم بكاءً في الدنيا، وأشدُّ الناس فرحاً في الآخرة أطولهم حزناً في الدنيا». فوجدت البيت أدخل لقلبي وأقدر لى من نفسى على ما أريد منها. قال الحسن: أما إنه لم يعن مجالسنا هذه، إنما عنى مجالس القصاص في الطرق الذين يخلطون ويغلطون، ويقدمون ويؤخرون.

وقد قسم بعض العلماء المتكلمين ثلاثة أقسام، فوصفهم بأماكنهم فقال: المتكلمون ثلاثة: أصحاب الكراسى وهم القصاص، وأصحاب الأساطين وهم المفتون، وأصحاب الزوايا وهم أهل المعرفة.

فمجالس أهل العلم بالله تعالى وأهل التوحيد والمعرفة هي مجالس الذكر، وهي التي جاءت فيها الآثار. وفي الخبر: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا فيها. قيل: وما رياض الجنة؟ قال: مجالس الذكر». وفي الحديث: «إنَّ الله تعالى ملائكة سيّاحين في الهواء فضلاً عن كتاب الخلق، إذا رأوا مجالس الذكر يُنادى بعضهم بعضاً: ألا هلمُّوا إلى بُغيتكم، فيأتوهم حتى يجلسوا إليهم فيحفون بهم ويستمعون منهم، ألا فاذكروا الله واذكروا أيامه».

وقال وهب بن منبه اليماني: مجلس يتنازع فيه العلم أحبُّ إلى من قدره صلاة، لعلَّ أحدهم يسمع الكلمة فينتفع بها السنة أو ما بقى من عمره.

وسئل أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى عن مجالس الذكر وفضلها، فرغب فيها وقال رحمه الله: وأى شيء أحسن من أن يجتمع الناس فيذكرون الله عز وجل؟ ويُعَدُّون نعمة عليهم، كما قالت الأنصار.

وروينا عن عليّ كرم الله وجهه: ما يسرني أن الله تعالى أماتني طفلاً وأدخلني الدرجات العلى من الجنة. قيل: ولم؟ قال: لأنه أحيانى حتى عرفته.

وقال مالك بن دينار: خرج الناس من الدنيا ولم يذوقوا طيب شيء فيها.

قيل: وما هو؟ قال: المعرفة، ثم أنشأ يقول:

إِنَّ عِرْفَانَ ذِي الْجَلَالِ لَعَزَّ وَضِيَاءٌ وَبَهْجَةٌ وَسُرُورُ
وَعَلَى الْعَارِفِينَ أَيْضًا بَهَاءٌ وَعَلَيْهِمْ مِنَ الْمَحَبَّةِ نُورُ
فَهَنِيئًا لِمَنْ عَرَفَكَ إِلَهِي هُوَ - وَاللَّهُ - دَهْرُهُ مَسْرُورُ

وقال يحيى بن معاذ الرازي: في الدنيا جنةٌ مَنْ دَخَلَهَا لم يشقْ إلى شيء ولم يَسْتَوْحِشْ. قيل: وَمَا هِيَ؟ قال: معرفةُ الله تعالى. وقال آخر: لم يُخْطِئْكَ من العارف إحدى ثلاثٍ خِلالٍ تَدُلُّ عليه: هِيئةٌ، أو حلاوةٌ، أو أُنْسٌ.

وقال عَالِمُنَا أَبُو مُحَمَّدٍ سَهْلٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: خرج العلماءُ والزهادُ والعبادُ وقلوبُهم مُقْفَلَةٌ، ولم يَفْتَحْ إِلَّا قُلُوبَ الصَّادِقِينَ وَالشَّهَدَاءِ، ثُمَّ تَلَا: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]. يعنى مُقْفَلَةٌ عن مَفَاتِحِ الْمَعْرِفَةِ وشهادة عين التوحيد.

فمجالسُ الذكر هذه قَدِيمًا كانت لأهل المعرفةِ وأصحابِ معاملاتِ القلوبِ وعِلْمِ الْبَاطِنِ، وَهُمْ عُلَمَاءُ الْآخِرَةِ وَأَهْلُ الْفَقْهِ فِي الدِّينِ. وقد قال الله تعالى وهو أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ الآية [التوبة: ١٢٢]، فذكر الفقهَ الذي هو من صفةِ القلبِ، والخوفَ الذي هو سببُ الفقهِ. وعِلْمُ الْعَقْلِ دَاخِلٌ فِي عِلْمِ الظَّاهِرِ، والعِلْمُ بِاللَّهِ دَاخِلٌ فِي الْيَقِينِ، كما رَوَى فِي الْخَبَرِ: «الْيَقِينُ الْإِيمَانُ كُلُّهُ». وقال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [النكبوت: ٤٣] فجعلَ الْعَقْلَ وَصْفًا مِنَ الْعِلْمِ. وقد أمر رسولُ اللَّهِ ﷺ بتعليمِ الْيَقِينِ كما أمر بطلبِ الْعِلْمِ، فَكَانَ هَذَا الْحَدِيثُ مَخْصُوصًا مِنْ ذَلِكَ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ ﷺ: «تَعَلَّمُوا الْيَقِينَ» لِلْمَخْصُوصِ؛ لِأَنَّ الْيَقِينَ مَقَامٌ فَوْقَ الْعِلْمِ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ» لِلْعُمُومِ. وفي قوله: «تَعَلَّمُوا الْيَقِينَ» أمرٌ بِمَجَالَسَةِ الْمُوقِنِينَ؛ لِأَنَّ الْيَقِينَ لَا يَظْهَرُ بِذَاتِهِ وَإِنَّمَا يُوْجَدُ عِنْدَ الْمُوقِنِينَ، فَقَدْ أَمَرَهُمْ وَكَمْ يَقُلُ: تَعَلَّمُوا عِلْمَ الْمَعْقُولِ وَلَا عِلْمَ الْفَتَاوَى. وَكَانَ عُلَمَاءُ الظَّاهِرِ قَدِيمًا يُسَمُّونَ الْمُفْتِينَ،

ومن ذلك قوله ﷺ: «استفت قلبك وإن أفتاك المفتون» فردّه إلى فقه القلب وصرفه عن فتيا المفتين، فلولا أن القلب فقيه لم يجر أن يدلّه ﷺ على غير فقيه. ولولا أن علم الباطن حاكم على الظاهر ما دفعه من علوم أهل الظاهر - وهم علماء الألسنة - إلى علم الباطن وهو علم أهل القلوب وما رده إليه، ولا يجوز أن يردّه من فقيه إلى فقيه دونه، كيف وقد جاء هذا الحديث بلفظة مؤكدة بالتكرير والمبالغة فقال: «استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك؟ وهذا مخصوص لمن كان له قلب، أو ألقى سمعه، وشهد قيام شهيد، وعرى عن شهواته ومعهوده؛ لأن الفقه ليس من وصف اللسان. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾؟ [الاعراف: ١٧٩]. فمن كان له قلب سميع شهيد فقه به الخطاب فاستجاب لما سمع وأناب.

وذكر في قوله تعالى: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢] وصنفين ظهرا عن الفقه:

أحدهما: النذارة، وهو مقام في الدعوة إلى الله عز وجل، ولا يكون النذير إلا مخوفاً، ولا يكون المخوف إلا خائفاً، والخائف عالم.

والثاني: الحذر، وهو حال من المعرفة بالله عز وجل، وهو الخشية له.

والفقه والفهم اسمان لمعنى واحد. والعرب تقول: «فقهت» بمعنى «فهمت»، وقد فضل الله تعالى الفهم عنه على العلم والحكمة، ورفع الأفهام على القضاء والأحكام، فقال تعالى: ﴿فَفَقِّهْمُنَاهَا سُلَيْمَانٌ﴾ [الانبياء: ٧٩]، فأفرده بالفهم عنه، وهو الذي فضله به على حكم أبيه في القضية، بعد أن أشركهما في الحكم والعلم.

وقد فضل الحسن بن علي رضي الله عنهما علماء الهداية إلى الله سبحانه وتعالى الدالّين عليه عز وجل، وسمّاهم العلماء، وحقّقهم بالعلم في كلام روى لنا عنه منظوماً، وقد رويناه أيضاً عن عليّ كرم الله وجهه ورضي عنه:

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم على الهدى لمن استهدى أدلاء

ووزن كل امرئ ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء
فمن كان عالماً يعلم معلومه الله سبحانه وتعالى فمن أفضل منه؟ وأى قيمة
تعرف له؟ إذ كل علم قيمته معلومة، ووزن كل عالم علمه.

وقد قال عبد الواحد بن زيد إمام الزاهدين كلاماً فى هذا المعنى، ويفرد به
العلماء بالله تعالى، ويرفع طريقهم فوق كل طريق، أنشدونا عنه رحمه الله
تعالى:

الطُّرُقُ شَتَّى وطُرُقُ الْحَقِّ مُفْرَدَةٌ وَالسَّالِكُونَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَعْدَاءُ
لَا يُعْرِفُونَ وَلَا تُسَلِّكُ مَقَاصِدُهُمْ فَهُمْ عَلَى مَهَلٍ يَمْشُونَ قُصَادُ
وَالنَّاسُ فِي غَفْلَةٍ عَمَّا يُرَادُ بِهِمْ فَجُلُّهُمْ عَنْ سَبِيلِ الْحَقِّ رُقَادُ

ورويانا عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال، لما مات عمر رضى الله عنه: إني
لأحب هذا الرجل، قد ذهب بتسعة أعشار العلم. ف قيل له: تقول هذا وأصحاب
رسول الله ﷺ متوافرون؟ فقال: إني لست أعنى العلم الذى تذهبون إليه، إنما
أعنى العلم بالله عز وجل.

وكان ابن مسعود يقول: المتقون متوارون. وكذلك كان يقول: المتقون سادة
والعلماء قادة ومجالستهم زيادة. يعنى أن المتقين سادة الناس، كما قال الله عز
وجل: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

والعلماء قادة المتقين، أى أئمتهم يقتفون آثارهم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَجَعَلْنَا
لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]. ففضل العلماء على المتقين وجعلهم أئمة لهم وصار
المتقون أصحابهم، وأخبر بالمزيد فى مجالستهم؛ أى مجالستهم زيادة على مجالسة
المتقين غير العلماء؛ لأن كل عالم تقى وليس كل تقى عالماً، كما روى بمعناه:
العلماء كثير والحكماء من العلماء قليل، والصالحون كثير والصادقون من
الصالحين قليل.

وسئل ابن المبارك: من الناس؟ قال: العلماء. قيل: فمن الملوك؟ قال: الزهاد.

قيل: فمن السَّفلة؟ قال: مَنْ يَأْكُلُ بدينه. وقال مرة في رواية: الذين يَتَلَبَّسُونَ وَيَطْلُبُونَ وَيَتَعَرَّضُونَ للشهادات.

وقال فرقدُ السَّنجيُّ لِلْحَسَنِ رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى فِي شَيْءٍ سَأَلَهُ عَنْهُ، فَأَجَابَهُ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، إِنَّ الْفَقْهَاءَ يَخَالِفُونَكَ، فَقَالَ: ثَكَلْتُكَ أُمُّكَ يَا فَرَقْدُ، وَهَلْ رَأَيْتَ بَعِينِيكَ فَقْهَاءَ؟ إِنَّمَا الْفَقِيهُ الزَّاهِدُ فِي الدُّنْيَا، الرَّاعِبُ فِي الْآخِرَةِ، الْبَصِيرُ بِدِينِهِ، الْمَدَامُ عَلَى عِبَادَةِ رَبِّهِ، الْوَرِعُ الْكَافُّ عَنْ أَعْرَاضِ الْمُسْلِمِينَ، الْعَفِيفُ عَنْ أَمْوَالِهِمْ، النَّاصِحُ لْجَمَاعَتِهِمْ.

جَمَعْنَا قَوْلَهُ هَذَا فِي ثَلَاثِ رَوَايَاتٍ عَنْهُ مُخْتَلِفَةٍ، فَهَذِهِ صِفَاتُ الْعَالِمِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَهُمْ الْعَارِفُونَ.

وَحَدَّثَنَا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي: بَلَّغْنَا أَنَّكَ كُنْتَ تَخْتَلِفُ إِلَى مَعْرُوفِ الْكَرَّخِيِّ، أَكَانَ عِنْدَهُ حَدِيثٌ؟ فَقَالَ: يَا بَنِيَّ، كَانَ عِنْدَهُ رَأْسُ الْأَمْرِ: تَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَقِيلَ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بِأَيِّ شَيْءٍ ذُكِرَ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةُ وَوُصِفُوا؟ فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا الصَّدْقُ الَّذِي كَانَ فِيهِمْ. قِيلَ لَهُ: وَمَا الصَّدْقُ؟ قَالَ: هُوَ الْإِخْلَاصُ. قِيلَ لَهُ: فَالْإِخْلَاصُ مَا هُوَ؟ قَالَ: الزَّهْدُ. قِيلَ: وَمَا الزَّهْدُ؟ فَأُطْرَقَ ثُمَّ قَالَ: سَلُوا الزَّهَّادَ، سَلُوا بَشَرَ بْنَ الْحَارِثِ.

وَقَدْ حَدَّثْتُ عَنْ بَشَرَ فِي مَنْصُورِ بْنِ عَمَّارٍ رَحِمَهُمَا اللَّهُ حِكَايَاتٍ طَرِيفَةً، كَانَ مَنْصُورُ بْنُ عَمَّارٍ مِنَ الْوَاعِظِينَ الْمَذْكُورِينَ وَلَمْ يَكُنِ الْعُلَمَاءُ فِي وَقْتِهِ مِثْلَ بَشَرَ وَأَحْمَدَ وَأَبِي ثَوْرٍ يَعْدُونَهُ عَالِمًا، كَانَ عَنْدهُمْ مِنَ الْقُصَّاصِ، وَكَانَتِ الْعَامَةُ تَسْمِيَهُ عَالِمًا، فَحَدَّثْتُ عَنْ نَصْرِ بْنِ عَلِيٍّ الْجَهْضَمِيِّ أَنَّهُ مَزَحَ ذَاتَ يَوْمٍ مَزَاحًا أَفْرَطَ فِيهِ. فَقِيلَ لَهُ: تَقُولُ هَذَا وَأَنْتَ مِنَ الْعُلَمَاءِ؟ فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَّا وَهُوَ يَمْزَحُ. فَقِيلَ لَهُ: قَدْ رَأَيْتَ بَشَرَ بْنَ الْحَارِثِ، فَهَلْ سَمِعْتَهُ يَمْزَحُ؟ قَالَ: نَعَمْ كُنْتُ جَالِسًا مَعَهُ ذَاتَ يَوْمٍ فِي بَعْضِ الدَّرُوبِ، فَجَاءَ مَنْصُورُ بْنُ عَمَّارٍ يَعْدُو، فَقَالَ: يَا أَبَا نَصْرٍ، الْأَمِيرُ قَدْ أَمَرَ بِجَمْعِ الْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ، فَتَرَى لِي أَنْ أَخْتَفِيَ؟ فَدَفَعَهُ بَشَرٌ وَقَالَ:

تَنَحَّ عَنَّا لَا يَمُرُّ حَمْلُ شَوْكَ فَيُلْقِيكَ عَلَيْنَا فَنَحْتَرِقَ. فهذا كَانَ مَحَلَّ الْقُصَاصِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ فِيمَا سَلَفَ، حَتَّى ذَهَبَ أَهْلُ هَذَا الْعِلْمِ، وَجُهِلَتْ مَجَالِسُ الذِّكْرِ وَعُلُومُ الْيَقِينِ وَالْمَعَامِلَاتِ، إِلَّا مَنْ عَرَفَ سِيرَةَ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَطَرِيقَةَ السَّالِفِينَ الَّذِينَ كَانُوا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ مَجَالِسِ الذِّكْرِ وَبَيْنَ الْقُصَاصِ، وَيُمَيِّزُونَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ وَبَيْنَ الْمُتَكَلِّمِينَ، وَبَيْنَ عِلْمِ اللِّسَانِ وَفَقْهِ الْقَلْبِ، وَبَيْنَ عِلْمِ الْيَقِينِ وَعِلْمِ الْعَقْلِ؛ لِأَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْعَالَمِ وَالْقَاصِّ: أَنَّ الْعَالَمَ يَسْكُتُ حَتَّى يُسْأَلَ، فَإِذَا سُئِلَ أَجَابَ فِيمَا يَعْلَمُ بِمَا هِيَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ وَكَشَفَ، وَيَنْطِقُ فِيمَا أَجْرَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ وَعَرَفَ، فَإِنْ كَانَ الصَّمْتُ أَفْضَلَ أَثَرَ السُّكُوتِ لِعِلْمِهِ بِالْأَفْضَلِ، فَإِنْ لَمْ يَرَ أَهْلَهُ تَرَبَّصَ حَتَّى يَضَعَهُ فِي أَهْلِهِ، [لَثَلَا يُجْهَلُ] ^(١)، وَأَهْلُهُ مَنْ عَرَفَهُ، وَكَانَ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ مَشَاهِدَتِهِ وَوَجْدِهِ.

وَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]. فَفِي ذَلِكَ مَعْنِيَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ أَهْلَ الذِّكْرِ هُمُ الْعُلَمَاءُ بِاللَّهِ تَعَالَى، لِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَقُولَ: «سَلُوا مَنْ لَا يَعْلَمُ» وَهُمْ جَاهِلُونَ فَيَزِدَادُونَ جَهْلًا.

وَالْمَعْنَى الثَّانِي: يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعُلَمَاءَ سَكُوتٌ حَتَّى يُسْأَلُوا، فَإِذَا سُئِلُوا وَجَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَجِيبُوا، لِقَوْلِهِ تَعَالَى لِمَنْ لَا يَعْلَمُ: ﴿فَسْأَلُوا﴾. فَدَلَّ أَنَّ مَجَالِسَ الذِّكْرِ هِيَ مَجَالِسُ الْعُلَمَاءِ الَّتِي وَرَدَتْ الْأَخْبَارُ بِفَضَائِلِهَا. وَفِي تَدْبِيرِهِ أَنَّ أَهْلَ الذِّكْرِ هَؤُلَاءِ الْمُسْأَلُونَ هُمُ الَّذِينَ وَصَّلَ لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. فَلَمَّا وَصَّلَ لَهُمُ الْمَفْصَلَ تَذَكَّرُوا عَمَّا وَعَدَ تَعَالَى، فَلَمَّا تَذَكَّرُوا عِلْمُوا، فَعِنْدَهَا أَمْرٌ أَنْ يُسْأَلُوا. وَلِذَلِكَ رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَنْبَغِي لِلْجَاهِلِ أَنْ يَسْتَقِرَّ عَلَى جَهْلِهِ، وَلَا يَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى عِلْمِهِ».

وَكَذَلِكَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْخَبَرِ الَّذِي رُوِيَ عَنْهُ مِنْ طَرِيقِ أَهْلِ الْبَيْتِ: «الْعِلْمُ خَزَائِنُ مِفْتَاحِهَا السُّؤَالُ، فَاسْأَلُوا فَإِنَّهُ يُؤْجَرُ فِيهِ أَرْبَعَةٌ: السَّائِلُ، وَالْعَالِمُ،

(١) زيادة من (ك).

والمستمع، والمحبُّ لهم».

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: إِنَّ مَنْ يُفْتَى النَّاسَ فِي كُلِّ مَا يَسْتَفْتُونَهُ لَمَجْنُونٌ.

وقال الأعمش: مِنَ الْكَلَامِ كَلَامٌ جَوَابُهُ السَّكُوتُ. وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى: حَسَنُ سُؤَالِ الصَّادِقِينَ مِفْتَاحُ قُلُوبِ الْعَارِفِينَ.

فأما القاصُّ فهو الذي يبتدئُ فيَقْصُّ الْأَخْبَارَ وَيَذْكُرُ الْقِصَصَ وَالْآثَارَ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ قَاصًّا أَيْ يَتَّبِعُ قِصَّةً مِنْ سَلَفٍ. ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١] أَيْ: تَتَّبِعِي أَثَرَ مُوسَى تَعْرِفِي قِصَّتَهُ وَأَخْبِرِيْنِي خَبْرَهُ. وقال مالكُ بْنُ أَنَسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ إِذَالَةَ الْعِلْمِ أَنْ يُنْطَقَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَ عَنْهُ. وقال مرةً: مَنْ إِذَالَةَ الْعِلْمِ أَنْ يَجِيبَ عَنْ كُلِّ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ. أَيْ: مَنْ إِهَانَتِهِ وَوَضْعِهِ. يُقَالُ: أَشْلَّ هَذَا، وَأَذَلَّ هَذَا؛ أَيْ أَرَفَعُ وَضَعَهُ.

ويقال: إِذَا تَكَلَّمَ بِالْعِلْمِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَ عَنْهُ ذَهَبَ ثَلَاثُ نَوْرِهِ. وقد قال إبراهيمُ بْنُ أَدَهْمٍ وَغَيْرُهُ: سَكُوتُ الْعَالَمِ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ كَلَامِهِ؛ لِأَنَّهُ يَسْكُتُ بِحِلْمٍ وَيَنْطِقُ بِعِلْمٍ، فَيَقُولُ الشَّيْطَانُ: انْظُرُوا إِلَى هَذَا سَكُوتِهِ أَشَدُّ عَلَى مَنْ كَلَامِهِ. وَلِذَلِكَ يُقَالُ: الصَّمْتُ زِينُ الْعَالَمِ وَسِتْرُ الْجَاهِلِ.

وعن القاسمِ بْنِ مُحَمَّدٍ أَنَّهُ قَالَ: مَنْ إِكْرَامِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى مَا عِنْدَهُ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْهُ.

وكذلك هُوَ لِعَمْرِي؛ لِأَنَّهُ إِذَا تَكَلَّمَ بَعْدَ السُّؤَالِ فَهُوَ صَاحِبُهَا، وَرَبَّمَا كَانَ فَرَضًا وَلَيْسَ الْحَاجَةُ إِلَّا الْقِيَامَ بِالْفَرْضِ مِنَ الشَّهَوَاتِ، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [النحل: ٤٣]، فَأَوْجِبَ أَنْ يُجِيبُوا مِنْ حَيْثُ أُمِرَ أَنْ يُسْأَلُوا. وقال ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ» فَتَوَعَّدَ عَلَيْهِ بِالْعِقَابِ. وقد يَكُونُ الْإِبْتِدَاءُ بِالشَّيْءِ مِنْ خَفَايَا الشَّهَوَاتِ، وَالشَّهَوَاتُ مِنَ الدُّنْيَا.

ووصِفَ رَجُلٌ لِمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ فَقَالَ: لَا بَأْسَ بِهِ لَوْلَا أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ بِالشَّيْءِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَ عَنْهُ. وقال مرةً: لَا بَأْسَ بِهِ إِلَّا أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ شَهْرِ فِي يَوْمٍ. وقد قيلَ فِي

معنى ما ذُكرَ: إن الكلام من الشهوات. قال: هو الذى يبتدئ به قبل أن يُسأل عنه.

ووصف بعضهم الأبدال فقال فى وَصْفِهِمْ: أَكْلُهُمْ فَاقَةً، وَكَلَامُهُمْ ضَرُورَةً، وَكَانُوا لَا يَتَكَلَّمُونَ حَتَّى يُسْأَلُوا عَنْ شَيْءٍ فَيُجِيبُوا.

ومن لم يتكلم حتى يُسأل فليس يُعدُّ لاغياً ولا متكلماً فيما لا يَعْنِيهِ؛ لأنَّ الجوابَ بعدَ السؤالِ كالْفَرْضِ بِمَنْزِلَةِ رَدِّ السَّلامِ، وكما قال ابنُ عباسٍ رضى الله عنهما: إِنِّى لَأَرَى رَدَّ الْجَوَابِ وَاجِباً كَرَدِّ السَّلامِ. وقد قال أبو موسى وابنُ مسعودٍ رضى الله عنهما: مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَلْيَقُلْ بِهِ، وَمَنْ لَا فليَسْكُتْ وإلا كُتِبَ مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ وَمَرَقَ مِنَ الدِّينِ. ورويناهُ عن ابنِ عباسٍ أيضاً.

وقد كانوا يَخَافُونَ مِنْ دُخُولِ التَّكْلِيفِ عَلَيْهِمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَيَعْدُ بَعْضُهُمُ الْإِبْتِدَاءَ بِالْكَلامِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ تَدْعُو إِلَيْهِ أَوْ قَبْلَ سَؤالٍ عَنْهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرَى لَهُ مَوْضِعاً أَوْ يَجِدَ لَهُ أَهْلاً؛ يَعْدُونَهُ مِنَ التَّكْلِيفِ.

وفى وصية ابن عباس لمجاهد: لَا تَتَكَلَّمْ فِيمَا لَا يَعْنِيكَ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ، وَلَا آمَنْ عَلَيْكَ الْخَطَأُ، وَلَا تَتَكَلَّمْ فِيمَا يَعْنِيكَ حَتَّى تَرَى لَهُ مَوْضِعاً، فَرَبَّ مُتَكَلِّمٍ فِيمَا يَعْنِيهِ قَدْ وَضَعَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ فَعَنَّتْ.

وروى فى حديث الأنصارى الذى قالتْ لَهُ أُمُّهُ عِنْدَ مَوْتِهِ: «هَنِيئاً لَكَ الْجَنَّةُ، جَاهَدْتَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَمَا يَدْرِيكَ أَنَّهُ فِي الْجَنَّةِ، لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ وَيَبْخُلُ بِمَا لَا يُعْنِيهِ».

وَمَنْ أَظْهَرَ عِلْماً مِنْ غَيْرِ أَنْ يُسْأَلَ عَنْهُ وَنَشْرُهُ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ سُئُلُ عَنْهُ، وَكَانَ عَلَيْهِ فِيهِ مُطَالِبَةٌ؛ لِأَنَّهُ قَدْ تَكَلَّفَ إِظْهَارَهُ. فَإِنْ كَانَ سُئِلَ عَنْهُ، ثُمَّ تَكَلَّمَ فِيهِ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ فِيهِ مُطَالِبَةٌ فَيَمْنُ أَنْكَرَ؛ لِأَنَّهُ خَرَجَ جَوَاباً عَلَى سَؤالٍ. وَمِنْ هَذَا كَانَ السَّلَفُ الْمُتَكَلِّمُونَ فِي هَذَا الْعِلْمِ يَسْكُتُونَ حَتَّى يُسْأَلُوا عَنْهُ.

وكان أبو محمد يقول: العالم يقعدُ فيسكتُ، ويرفعُ قلبه إلى مولاهُ، فيفتقرُ إليه فى حُسْنِ تَوْفِيقِهِ، ويسأله أن يُلْهِمَهُ الصَّوَابَ. فأى شَيْءٍ سُئِلَ عَنْهُ تَكَلَّمَ بِمَا

فَتَحَ لَهُ مَوْلَاهُ. فَجَعَلَ الْعَالِمَ فِي حَالَةٍ سَكُوتِهِ وَنَظَرَهُ إِلَى سَيِّدِهِ مُحْتَاجًا إِلَى التَّوَكُّلِ، وَمُنْتَظَرًا لِلْوَكِيلِ فِي أَى شَيْءٍ يُجْرِيهِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا الْعَالِمُ الَّذِي إِذَا سُئِلَ عَنِ الْمَسْأَلَةِ كَأَنَّمَا تَقْلَعُ ضِرْسُهُ.

وَقَالَ رَقَبَةُ بْنُ مَصْقَلَةَ وَغَيْرُهُ: لَيْسَ الْعَالِمُ الَّذِي يَجْمَعُ النَّاسَ فَيَقْصُّ عَلَيْهِمْ، إِنَّمَا الْعَالِمُ الَّذِي إِذَا سُئِلَ عَنِ الْعِلْمِ كَأَنَّمَا يَسْعَطُ الْخُرْدَل. وَقَدْ رَوَيْنَا أَنَّ رَقَبَةَ بْنَ مَصْقَلَةَ قَالَ لِلْأَعْمَشِ، وَقَدْ كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ سُوْقَةَ يَسْأَلُهُ عَنِ الْحَدِيثِ، فَيُعْرَضُ عَنْهُ وَلَا يُجِيبُهُ [، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ] ^(١). فَالْتَفَتَ الْأَعْمَشُ إِلَى رَقَبَةَ فَقَالَ لَهُ: هُوَ إِذَا أَحْمَقُ مِثْلَكَ، أَنْ كَانَ يَدْعُ فَائِدَتَهُ لِسُوءِ خُلُقِي. فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سُوْقَةَ: وَيَحْكُ إِنَّمَا أَجْعَلُهُ بِمَنْزِلَةِ الدَّوَاءِ أَصْبِرْ عَلَى مَرَارَتِهِ لِمَا أَرْجُو مِنْ مَنَفْعَتِهِ.

وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ عَلِيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّهُ مَرَّ بِرَجُلٍ يَتَكَلَّمُ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: هَذَا يَقُولُ أَعْرِفُونِي. وَحَدَّثَنِي بَعْضُ عُلَمَاءِ خُرَاسَانَ عَنْ شَيْخٍ لَهُ عَنْ أَبِي حَفْصٍ النَّيْسَابُورِيِّ الْكَبِيرِ، وَكَانَ هَذَا هُنَاكَ نَظِيرَ الْجُنَيْدِ هَهْنَا، أَنَّهُ قَالَ: إِنَّمَا الْعَالِمُ الَّذِي يُسْأَلُ عَنِ مَسْأَلَةٍ فِي الدِّينِ فَيُغْتَمُّ، حَتَّى لَوْ جُرِحَ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهُ دَمٌ مِنَ الْفَرْعِ، يَخَافُ أَنْ يُسْأَلَ فِي الْآخِرَةِ عَمَّا سُئِلَ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا، وَيَفْزَعُ أَنْ لَا يَتَخَلَّصَ مِنَ السُّؤَالِ، إِلَّا أَنْ يَرَى أَنَّهُ قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْهِ الْجَوَابَ لِفَقْدِ الْعُلَمَاءِ. وَمِنْ هَهْنَا كَانَ ابْنُ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَسْكُتُ عَنْ تَسْعِ مَسَائِلَ وَيَجِيبُ عَنْ وَاحِدَةٍ، وَيَقُولُ: تَرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُونَا جِسْرًا تَعْبُرُونَ عَلَيْهِ فِي جَهَنَّمَ، تَقُولُونَ: أَفْتَانَا ابْنُ عَمْرٍو بِهَذَا.

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ إِذَا سُئِلَ عَنِ مَسْأَلَةٍ يَبْكِي وَيَقُولُ: لَمْ تَجِدْ مَنْ تَسْأَلُهُ غَيْرِي، أَوْ احْتَجَجْتُمْ إِلَيَّ؟ قَالَ: وَجَّهَدْنَا بِإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ أَنْ نُسْنِدَهُ إِلَى سَارِيَةِ قَابِي. وَكَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ يَبْكِي، وَقَالَ: قَدْ احْتَاجَ النَّاسُ إِلَيَّ. وَقَدْ كَانَ سَفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ تَفَرَّدَ فِي زَمَانِهِ بِعُلُومٍ انْفَرَدَ بِهَا فِي وَقْتِهِ، وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ يَضْرِبُ الْمَثَلَ لِنَفْسِهِ وَيَقُولُ:

خَلَّتِ الدِّيَارُ فَسُدَّتْ غَيْرَ مُسَوِّدٍ وَمِنْ الشَّقَاءِ تَفَرَّدِي بِالسُّودِّ

(١) أَضْفَانَهَا مِنْ عِنْدِنَا لِيَسْتَقِيمَ الْكَلَامُ. وَ«مَصْقَلَةَ» وَرَدَتْ قَبْلَ ذَلِكَ بِالسَّيْنِ، انْظُرْ ص ١١٣ وَالْهَامِش

وأما أبو العالية الرياحي فكان يتكلم على الاثنين والثلاثة، فإذا صاروا أربعة قام. وكذلك كان إبراهيم، والثوري، وابن أدهم رحمهم الله تعالى، يتكلمون على نفر، فإذا كثر الناس انصرفوا. وكان أبو محمد سهل رحمه الله يجلس إليه خمسة أو ستة إلى العشرة. وقال لى بعض الشيوخ: كان الجنيد رحمه الله يتكلم على بضع عشرة. قال: وما تم أهل الجلسة عشرون.

وقد حدثت عن أبي الحسن بن سالم شيخنا رحمه الله أن قوماً اجتمعوا في مسجده، فأرسلوا إليه بعضهم أن إخوانك قد حضروا ويحبون لقاءك والسماع منك، فإن رأيت أن تخرج إليهم فذاك. وكان المسجد على باب بيته، ولم يكن يدخل عليه في منزله. فقال للرسول بعد أن خرج إليهم: من هم؟ فقال: فلان وفلان وسماهم. فقال: ليس هؤلاء من أصحابي، هؤلاء أصحاب المجلس، ولم يخرج.

كأنه رآهم عموماً لا يصلحون لتخصيص علمه فلم يذهب وقته لوقتهم.

وكذلك العالم خلوته تعز عليه، فإن وافق خصوص أصحاب أثرهم على خلوته، فكان ذلك مزيداً لهم، وإن هو لم يوافق لم يؤثر على خلوته غيره، فيكون مناخاً للبطالين. وقد كان ابن سالم أبو الحسن يخرج إلى إخوانه ممن يراه موضعاً لعلمه، فيجلس إليهم ويذكرهم، وربما أدخلهم إليه نهاراً أو ليلاً.

ولعمري إن المذاكرة تكون بين النظراء، والمحادثة تكون مع الإخوان، والجلوس للعلم يكون للأصحاب، والجواب عن السؤال نصيب العموم.

وكان عند أهل هذا العلم أن علمهم مخصص لا يصلح إلا للخصوص، والخصوص قليل. ولم يكونوا ينطقون به إلا عند أهله، ويرون أن ذلك من حقه، وأنه واجب عليهم، كما وصفهم على كرم الله وجهه في قوله: حتى يودعوه أمثالهم ويزرعوه في قلوب أشكالهم.

وكذلك جاءت الآثار بذلك عن نبينا ﷺ، وعن عيسى عليه السلام: «لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم». كونوا

كالطبيب الرفيق الذي يضع الدواء في موضع الداء». وفي لفظ آخر: «مَنْ وَضَعَ الْحِكْمَةَ فِي غَيْرِ أَهْلِهَا جَهْلٌ، وَمَنْ مَنَعَهَا أَهْلَهَا ظَلَمَ. إِنَّ لِلْحِكْمَةِ حَقًّا، وَإِنَّ لَهَا أَهْلًا، وَإِنَّ لِأَهْلِهَا حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ».

وفي حديث عيسى صلاة الله وسلامه عليه: «لَا تُعَلِّقُوا الْجَوْهَرَ فِي أَعْنَاقِ الْخَنَازِيرِ، فَإِنَّ الْحِكْمَةَ خَيْرٌ مِنَ الْجَوْهَرِ، وَمَنْ كَرِهَهَا فَهُوَ شَرٌّ مِنَ الْخَنَازِيرِ».

وكان بعض هذه الطائفة يقول: نصف هذا العلم سكوت، ونصفه تدرى أين تَضَعُهُ.

وقد قال بعض العارفين: مَنْ كَلَّمَ النَّاسَ بِمَبْلَغِ عِلْمِهِ وَبِمَقْدَارِ عَقْلِهِ، وَلَمْ يَخَاطِبْهُمْ بِقَدْرِ حَدُودِهِمْ، فَقَدْ بَخَسَهُمْ حَقَّهُمْ، وَلَمْ يَقُمْ بِحَقِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ.

وكان يحيى بن معاذ يقول: اغْرِفْ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ نَهْرِهِ، وَاسْقِهِ بِكَأْسِهِ.

ونحن نقول بمعناه: كُلُّ لِكُلِّ عَبْدٍ بِمَعْيَارِ عَقْلِهِ، وَزِنْ لَهُ بِمِيزَانِ عِلْمِهِ، حَتَّى تَسْلِمَ مِنْهُ وَتَنْتَفِعَ بِكَ، وَإِلَّا وَقَعَ الْإِنْكَارُ لِفَتَاوَتِ الْمَعْيَارِ.

وحدثني بعضُ أشياخنا من هذه الطائفة عن أبي عمران، وهو المزين الكبير المكي، قال: سمعته يقول لأبي بكر الكتابي، وكان سمحًا بهذا العلم بذولاً له لجميع الفقراء، فجعل أبو عمران يعاتبه وينهاه عن بذله له وكثرة كلامه فيه، إلى أن قال: أنا منذُ عشرين سنة أسأل الله تعالى أن يُنْسِنِي هذا العلم. قال: ولم؟ قال: رأيتُ النبي ﷺ في المنام فسمعتُه يقول: إن لكلِّ شَيْءٍ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى حُرْمَةً، وَمِنْ أَعْظَمِ الْأَشْيَاءِ حُرْمَةُ الْحِكْمَةِ، فَمَنْ وَضَعَهَا فِي غَيْرِ أَهْلِهَا طَالَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِحَقِّهَا، وَمَنْ طَالَبَهُ خَصَمَهُ.

وقد كان بعضُ السلف يقول: إِذَا اسْتَدَّ الرَّجُلُ إِلَى سَارِيَةٍ أَوْ أَحَبَّ أَنْ يُسْأَلَ فَلَا تَجْلِسْ إِلَيْهِ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُسْأَلَ.

ولم يُرَ فِي مَجَالِسِ أَهْلِ هَذَا الْعِلْمِ فِيمَا سَلَفَ ثَلَاثُونَ رَجُلًا وَلَا عِشْرُونَ إِلَّا نَادِرًا غَيْرَ لَزَامٍ وَلَا دَوَامٍ، إِنَّمَا كَانُوا مِنَ الْأَرْبَعَةِ إِلَى الْعَشْرَةِ وَبِضْعَةِ عَشَرَ. وَقَدْ كَانَ يَجْتَمِعُ فِي مَجَالِسِ الْقَصَاصِ وَالْمَذْكُرِينَ وَالْوَاعِظِينَ مِثُونَ مِنْ عَهْدِ الْحَسَنِ إِلَى وَقْتِنَا

هذا. فهذا أيضاً من الفرقِ بينهما أنَّ العلمَ مخصوصٌ لِقَلِيلٍ وأنَّ القَصَصَ عامٌ لكثيرٍ.

وقال بعضُ علَمائنا: كان في البصرةِ مائةٌ وعِشْرُونَ مُتَكَلِّماً في الذِّكْرِ والوعْظِ، ولم يكنْ مَنْ يَتَكَلَّمُ في علمِ المعرفةِ واليقينِ والمقاماتِ والأحوالِ إلا سِتَّةٌ منهم: أبو محمدٍ سهلٌ، والصُّيْحِيُّ، وعبدُ الرحيمِ.

وقد قيل: من لم ينتفعْ بسكوتِ العالمِ لم ينتفعْ بكلامِهِ. أى ينبغي أن يتأدَّبَ بصمتهِ وخشوعِهِ وورعِهِ ويقتدى بيقينِهِ في ذلك، كما يتأدَّبُ بنطقِهِ ويقتدى بكلامِهِ.

على أنَّهم كانوا يقولون: علمُ الظاهرِ من علمِ الملكِ، وعلمُ الباطنِ من علمِ الملكوتِ، يعنون أن ذلك من علمِ الدنيا؛ لأنه يُحتاجُ إليه في أمورِ الدنيا، وهذا من علمِ الآخرةِ؛ لأنه مِنْ زَادِهَا. وهذا كما قالوه؛ لأنَّ اللِّسَانَ ظاهرٌ فهو من الملكِ وهو خزانةُ العلمِ الظاهرِ، والقلبُ خزانةُ الملكوتِ وهو بابُ العلمِ الباطنِ. فقد صارَ فضلُ العلمِ الباطنِ على الظاهرِ كفضلِ الملكوتِ على الملكِ، وهو الملكُ الباطنُ الخفيُّ، وكفضلِ القلبِ على اللِّسانِ، وهو الظاهرُ الجليُّ.

وقد كان بشرُّ بن الحارثِ رحمه الله يقول: حدَّثنا وأخبرنا بابٌ من أبوابِ الدُّنْيَا. وقال مرةً: الحديثُ ليس من زادِ الآخرةِ. وحدَّثنا بعضُ أشياخنا عن بعضِ أصحابِهِ قال: دُفِنَّا^(١) له بضعةٌ عَشْرَ ما بين قِمَطرٍ وقَوْصرةٍ كُتِبَا، لم يحدثْ منها بشيءٍ، إلا ما سُمِعَ منه نادراً في الفردِ. وكان رحمه الله تعالى يقول: إنِّي أَشْتَهِي أن أَحَدَّثَ، ولو ذهبَ عَنِّي شهوةُ الحديثِ لحدَّثْتُ. ثم قال: أنا أَجَاهِدُ نَفْسِي منذ أربعينَ سنةً. وقال: إذا سمعتَ الرجلَ يقولُ حدَّثنا وأخبرنا، فإِنَّمَا يقول: أوسعوا لِي. وكانَ زاهداً عالِماً. وقال هو وغيره: إذا اشتَهِيتَ أن تَحَدَّثَ فلا تُحَدَّثْ، وإن لم تشتهِ أن تَحَدَّثَ فَحَدَّثْ.

(١) في (ك): «أنه دُفِنَ». والقمطر: ما تُصان فيه الكتب، والجمع: قماطر. والقوصرة: وعاء للتمر من قَصَب.

وقد كانت رابعةُ العدوِّيةُ رحمها الله تعالى قبله تقول للثورى رضى الله عنه: نِعَمَ الرجلُ سفيانُ، لولا أَنَّهُ يحبُّ الحديثَ. وكانت تقول: فتنةُ الحديثِ أَشدُّ من فتنةِ المالِ والولدِ. وقالت مرةً: لولا أَنَّهُ يحبُّ الدُّنيا. يعنى اجتماعُ الناسِ حوله للحديثِ.

وكان أبو سُلَيْمان الدَّاراني رحمه الله تعالى يقول: مَنْ تزوَّجَ، أو كَتَبَ الحديثَ، أو طلبَ معاشاً، فقد ركنَ إلى الدنيا. وقال بعضُ هذه الطائفة: كلُّ مَنْ أدركَ العلومَ غيرَ العلمِ بالله عزَّ وجلَّ فقد استدرَكَ، والذي أدركَ العلمَ بالله فقد تُدوِّركَ. ثُمَّ تلا قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ﴾ [القلم: ٤٩] أى: لولا أَن تُدوِّركَ بعلمِ المعرفةِ لَطُرِحَ فى بُعدِ الهوى. والعراء: البعد. وعلمُ المعقولِ بُعدٌ إلى جنبِ علمِ اليقين.

وقال أيضاً فى فهمِ قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: ٧٤] أى: ثَبَّتْنَاكَ بالمعرفةِ، لقد كدتَ تسكُنُ إلى علومِ العقلِ.

وقال سهل بن عبد الله رحمه الله تعالى فى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠] قال: لسانًا ينطقُ عنكَ لا عن سِوَاكَ.

وفضلُ العلمِ بالله عزَّ وجلَّ والعلمِ بالإيمانِ وعلمِ اليقينِ على العلمِ بالأحكامِ والقضايا كفضلِ المشاهدةِ على الخبرِ. وقد قالَ الرسولُ ﷺ: «ليس الخبرُ كالمعاينة». وفى لفظٍ آخر: «ليس المخبرُ كالمعاينة».

وقد روى عياضُ بنُ غنم عن النبی ﷺ فى تفسيرِ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥]: كَرَأَى الْعَيْنِ.

وفى هذا الخبر: إِنَّ من خيارِ أمتي قومًا يضحكون جَهْرًا من سَعَةِ رحمةِ رَبِّهم، ويبكون سرًّا من خوفِ عذابه؛ أَقدامُهم فى الأرضِ، وقلوبُهم فى السَّمَاءِ، أرواحُهم فى الدنيا، وعقولُهم فى الآخِرَةِ، يمشون بالسَّكِينَةِ، ويتقربون بالوسيلةِ.

فالفَتْيَا هى الإخبارُ، والاستفتاء هو الاستخبارُ. ومنه قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ [الصافات: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾ [النساء: ١٢٧] أى: يستخبرونكَ. فعلمُ

الخبرِ قد يدخله الظنُّ والشكُّ، والمشاهدةُ ترفعُ الظنَّ وتزيلُ الشكَّ، كما قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١] فأثبت الرؤيةَ للقلبِ بالعين، ف رؤية القلبِ هو اليقينُ، وذو القلب هو الموقنُ.

وقال النبي ﷺ: «كفى باليقينِ غنى». ففى علمِ اليقينِ غنيةٌ عن جميع العلوم؛ لأنَّه حقيقةُ العلمِ وخالصه، وليس فى جميع العلومِ غنى عن علمِ اليقينِ؛ لأنَّ الفقرَ بالشكِّ. والحاجةُ إلى اليقينِ فى علمِ التوحيدِ وعلمِ الإيمانِ أشدُّ من الفقرِ بالحاجةِ إلى علومِ الفتيا وغيرها. فلذلك صارَ الغنى باليقينِ أعظمَ من الاستغناء بسائر العلوم.

ففى هذا العلمِ مثلٌ من فاتحة الكتابِ إلى سائر القرآن، كما روى عن النبي ﷺ: «فاتحة الكتابِ تُجزى من كلِّ القرآن، وليس القرآنُ كلُّه يُجزى من فاتحة الكتاب». فكذلك مثلُ العلمِ بالله عزَّ وجلَّ إلى العلمِ بما سواه. ففى العلمِ بالله تعالى عوضٌ من كلِّ العلوم، وليس فى سائر العلومِ عوضٌ من العلمِ بالله عزَّ وجلَّ، من حيثُ كانَ فى الله تعالى عوضٌ به عن كلِّ ما سواه.

وكلُّ علمٍ موقوفٌ على معلومه، فعلمُ اليقينِ معلومه الله تعالى، ففضله كفضلِ الله تعالى على ما سواه. وقد قال بعضُ الحكماءِ فى معنى ما ذكرناه: مَنْ عَرَفَ الله تعالى فماذا جهل؟ ومن جهلَ الله تعالى فماذا عَرَفَ؟

فالعلماءُ بالله تعالى هم ورثةُ الأنبياء؛ لأنَّهم ورثوا عنهم الدلالةَ على الله تعالى، والدعوةَ إليه والافتداءَ بهم فى أعمالِ القلوبِ. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [فصلت: ٣٣]. وكما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]. وكما أمره بالدعاء وأشركَ معه أتباعه فى الدعاء إلى الله تعالى لا فى البصيرة فقال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، ويُحشرون يومَ القيامة مع الأنبياء كما قال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ [النساء: ٦٩]، وكما قال تعالى: ﴿وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩]. ثم فسره فقال تعالى: ﴿بِمَا

اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴿٤٤﴾ [المائدة: ٤٤]. وقد روينا معناه عَنْ معاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَقْرَبَ النَّاسِ مِنْ دَرَجَةِ النَّبِيِّ أَهْلُ الْعِلْمِ وَأَهْلُ الْجِهَادِ».

أما أهلُ العلمِ فدلُّوا الناسَ على ما جاءتْ به الأنبياءُ. وأما أهلُ الجهادِ فجاهدوا بأسيا فيهم على ما جاءتْ به الرسلُ. وعلماءُ الدنيا يُحشرون مع الولاةِ والسلاطينِ. وقد قال بعضُ السلف: العلماءُ يُحشرون في زمرةِ الأنبياءِ، والقضاةُ يُحشرون في زمرةِ السلاطينِ. وكان إسماعيلُ بنُ إسحاقِ القاضي من علماء أهل الدنيا، ومن سادة القضاة وعُقلائهم، وكان مؤاخياً لأبي الحسنِ بن أبي الورد، وكان هذا من أهل المعرفة^(١)، فلما وَلَّى إسماعيلُ القضاءَ هجره ابنُ أبي الورد، ثم إنه اضطرَّ إلى أنْ دَخَلَ عليه في شهادة، فضربَ ابنُ أبي الورد يده على كتفِ إسماعيلِ القاضي، وقال: يا إسماعيلُ، علمُ أجلسَكَ هذا المجلسَ لقد كان الجهلُ خيراً منه. فوضعَ إسماعيلُ رداءَهُ على وجهِهِ وجعلَ يبكي حتَّى بلَّه.

وعلماءُ الظاهرِ هم زينةُ الأرضِ والمُلْكِ، وعلماءُ الباطنِ زينةُ السَّمَاءِ والمَلَكُوتِ. وعلماءُ الظاهرِ أهلُ الخبرِ واللسانِ، وعلماءُ الباطنِ أربابُ القلوبِ والعيانِ^(٢).

وقال بعضُ العلماء: لما خلق اللهُ تعالى اللسانَ قال: هذا معقلُ خبري، إن صدَّقني نَجَّيْتُهُ. ولَمَّا خلقَ اللهُ تعالى القلبَ قال: هذا موضعُ نظري، إن صفا لي صافيته. وقال بعضُ الخلف: الجاهلُ ينجو بالعلم، والعالمُ ينجو بالحجة، والعارفُ ينجو بالجاه. وقال بعضُ العارفين: عِلْمُ الظاهرِ حُكْمٌ، وعِلْمُ الباطنِ حَاكِمٌ، والحُكْمُ موقوفٌ حتَّى يَجِيءَ الحاكمُ يحكمُ فيه.

وقد كان علماءُ الظاهرِ إذا أشكَلَ عليهم العلمُ في مسألةٍ لاختلافِ الأدلةِ سألوا أهلَ العلمِ بالله؛ لأنهم أقربُ إلى التوفيقِ عندهم، وأبعدُ من الهوى والمعصية. منهم الشافعيُّ رحمه الله تعالى، كان إذا اشتبهتْ عليه المسألةُ؛ لاختلافِ أقوالِ العلماءِ فيها، وتكافؤِ الاستدلالِ عليها، رجعَ إلى علماء أهلِ المعرفة فسألهم.

(١) في (ك): «الباطن».

(٢) وهذا يعني أنه لا غنى للحياة عن الاثنين معاً، فكلاهما مطلوب.

قال: وكان يجلسُ بين يدي «شيبانَ الراعي» كما يجلسُ الصبيُّ بين يدي المُكْتَبِ^(١) ويسأله: كيف يُفعلُ في كذا؟ وكيف يُصنعُ في كذا؟ فيقال له: مثلك يا أبا عبد الله في علمك وفقهك تسأل هذا البدوي؟! فيقول: إنَّ هذا وفق لما علَّمناه.

وكان الشافعيُّ رحمه الله قد اعتلَّ علةً شديدةً، فكان يقولُ: اللهمَّ إنَّ كَانَ في هذا رِضَاكَ فزِدْنِي منه. فكتبَ إليه المعافىُّ من سوادِ مصرَ: يا أبا عبد الله لستُ وإيَّاكَ من رجالِ البلاءِ فنسألُ الرِّضَا، الأولَى بنا أن نسألَ الرِّفْقَ والعافيةَ. فرجعَ الشافعيُّ رحمه الله عن قوله هذا، وقال: أستغفرُ الله تعالى وأتوبُ إليه. فكان بعد ذلك رحمه الله يقولُ: اللهم اجعلْ خَيْرِي فيما أُحِبُّ.

وقد كان أحمدُ بنُ حنبلٍ ويحيى بن معين رضي الله عنهما يختلفانِ إلى معروف ابن فيروز الكرخيِّ رحمه الله، ولم يكن يُحسنُ من العلمِ والسننِ ما يحسنانه، فكانا يسألانه.

وقد روى في الخبر: «قيل: يا رسولَ الله، كيف نصنع إذا جاءنا أمرٌ لم نجدْه في كتابِ الله تعالى ولا في سنةِ رسولِ الله ﷺ؟ فقال: سلُّوا الصالحينَ واجعلُّوه شُورى بينهم، ولا تقضُوا فيه أمراً دونهم».

وفي حديث معاذ رضي الله عنه: «فإن جاءك ما ليسَ في كتابِ الله تعالى ولا سنةِ رسولِ الله؟ قال: أقضِ فيه بما قضَى الصالحونَ. فقال: الحمدُ لله الذي وفقَّ رسولَ رسوله». وفي بعضها: «أجتهدُ رأيي».

وحدثونا عن الجنيدِ قال: كنتُ إذا قُمْتُ من عند سريِّ السَّقَطِي قالَ لي: إذا فارقتني مَنْ تجالس؟ فقلتُ: الحارثُ المحاسبيُّ، فقالَ: نعم خُذْ من علمه وأدبه، ودَعْ عنكَ تشقيقه للكلامِ وردَّه على المتكلمينَ. قال: فلما وليتُ سمعته يقولُ: جعلك اللهُ صاحبَ حديثٍ صوفيًّا، ولا جعلك صوفيًّا صاحبَ حديثٍ. يعني: أنك إذا ابتدأت بعلم الحديث والأثر، ومعرفةِ الأصولِ والسننِ، ثم تزهدتْ

(١) المُكْتَب: المُعَلِّم.

وتعبدت، تقدمت في علم الصوفية، وكنت صوفيًا عارفًا. وإذا ابتدأت بالتعبد والتقوى والحال، شغلت به عن العلم والسنن، فخرجت إمامًا: شاطحًا أو غلطًا؛ لجهلك بالأصول والسنن، فأحسن أحوالك أن ترجع إلى العلم الظاهر وكتب الحديث؛ لأنه هو الأصل الذي تفرغ عليه العبادة والعلم، وأنت قد بوددت بالفرع قبل الأصل.

وقد قيل: إنما حرّموا الوصول بتضييع الأصول. هي كتب الحديث ومعرفة الآثار والسنن. فإذا أنت رددت إلى الأصل، فقد انحطت عن مرتبة الناقلين، ونزلت من درجة العارفين، وفاتك مزيد الإيمان واليقين.

وقال سفيان الثوري رضي الله عنه: كان الناس إذا طلبوا العلم عملوا، فإذا عملوا أخلصوا، فإذا أخلصوا هربوا. وقال آخر: العالم إذا هرب من الناس فاطلبه، وإذا طلب الناس فاهرب منه، وقال أبو محمد سهل: العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل.

وكان ذو النون يقول: اجلس إلى من تكلمك صفته، ولا تجلس إلى من يكلمك لسانه. وقد كان الحسن قبله يقول: جالس من تكلمك أعماله ولا تجالس من يخاطبك مقاله.

وقد كان طائفة يصحبون كثيرًا من أهل المعرفة؛ للتأديب بهم، والنظر إلى هديهم وأخلاقهم، وإن لم يكونوا علماء؛ لأن التأديب يكون بالأفعال، والتعلم يكون بالمقال. ومن أبلغ ما سمعت منهم في هذا المعنى ما قال بعض الحكماء: وعظ واحد لألف بفعل أنجح فيهم وأوقع من وعظ ألف لواحد بقول.

وكان سهل يقول: العلم كله دنيا، والآخرة منه العمل به، والعمل هباء إلا الإخلاص. وقال مرة: الناس موتى إلا العلماء، والعلماء سكارى إلا العاملين، والعاملون مغرورون إلا المخلصين، والمخلص على وجل حتى يختم له به.

ولم يكن العالم عند العلماء من كان عالمًا بعلم غيره ولا حافظًا لفقهِ سواه، هذا كان اسمه: رآوية، وواعيًا، وحاملاً، وناقلاً.

وقد كان أبو حازم الزاهد يقول: ذهب العلماء وبقيت علوم في أوعية سود.
وقد كان الزهري يقول: كان فلان وعاءاً للعلم، وحدثني فلان وكان من أوعية العلم، ولا يقول كان عالماً.
وكذلك جاء الخبر: «رُبَّ حاملٍ فقهٍ غير فقيه، ورُبَّ حاملٍ فقهٍ إلى من هو أفقه منه».

وكانوا يقولون: «حماد الراوية» يعنون أنه كان راوياً. ودُخِلَ الهاء في الاسم للمبالغة في الوصف، كما يقال: علامة ونسابة.

وإنما كان العالم عندهم الغنى بعلمه لا بعلم غيره. وكان الفقيه فيهم هو الفقيه بفقه علمه وقلبه لا بحدِيث سواه. كما جاء في الأثر: «أى الناس أغنى؟ قال: العالم الغنى بعلمه، إن احتيج إليه نفع، وإلا اكتفى عن الناس بعلمه. لأن كل عالم بعلم غيره، فإنما صار عالماً بمجموعه، فمجموعه هم العلماء. وكل فاضل بوصف سواه فموصوفه هم الفضلاء. فإذا تركهم وانفرد سكت فلم يرجع إلى علم نفسه يختص به، فصار في الحقيقة موصوفاً بالجهل، واصفاً لطرائق أهل الفضل، موسوماً بعلم السمع والنقل، فمثل العالم بعلم غيره مثل الواصف لأحوال الصالحين، العارف بمقامات الصديقين، ولا حال له ولا مقام، فليس يعود عليه من وصفه إلا الحجة بالعلم والكلام. وسبق العارفون بالله في الحجة بالأعمال والمقام. فمثله كما قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وكقوله عز وجل: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة: ٢٠]، [إذ لا حال له مما يصف ولا مقام]^(١) يرجع إلى بصيرة فيه بما اشتبه من ظلمات الشبه عليه مما اختلف العلماء فيه، ولا يتحقق بوجد منه يحد عن حال ألبسها بوجد، وإنما هو متواجد بوجد غيره، فغيره هو الواجد وشاهد على شهادة سواه، فأيسوا من^(٢) الشاهد.

(١) هذه الزيادة من (ك).

(٢) فى (ط): «فالسوى هو الشاهد» وأثبت ما فى (ك) لأنه أصح.

وقد كان الحسنُ يقول: إن الله تبارك وتعالى لا يعْبأُ بصاحبِ روايةٍ إنْما يعْبأُ بذى فهمٍ ودرايةٍ. وقال أيضاً: من لم يكن له عقلٌ يسُومُه لم تنفعه كثرةُ مروياته للحديث.

وقد أنشدنا لبعض الحكماء في معنى ذلك:

العلمُ علْمانِ فمصنوعٌ ومجموعٌ^(١)

ولا ينفعُ مجموعٌ إذا لم يكُ مصنوعٌ

كما لا تنفعُ الشمسُ وضوءُ العينِ ممنوعٌ

وكان الجنيد رحمه الله كثيراً ينشد:

علمُ التصوِّفِ علمٌ ليسَ يعرفُه

إلاَّ أخو فطنةٍ ، بالحقِّ مَوْصُوفٌ^(٢)

وكيف يعرفُ شيئاً^(٣) ليسَ يشهدهُ

وكيف يشهد ضوؤُ الشمسِ مكفوفٌ؟!

لأنَّ الكتبَ والمجموعاتَ مُحدثةً، والقولُ بمقالاتِ الناسِ، والفتيا بمذهبِ الواحدٍ من الناسِ، وانتحال^(٤) قوله والحكايةُ له في كلِّ شيءٍ، والتفقه على مذهبه - محدثٌ، لم يكنِ الناسُ قديماً على ذلك في القرنِ الأوَّل والثاني.

وهذه المصنفات من الكتبِ حادثةٌ بعدَ سَنَةِ عشرينَ ومائةٍ مِنَ التاريخِ، وبعدَ وفاةِ كلِّ الصحابةِ وعِليةِ التابعينِ. يقال: إنَّ أوَّلَ كتابٍ صُنِّفَ في الإسلامِ كتابُ ابنِ جُرَيجٍ في الآثارِ وحروفِ من التفاسيرِ، عَنُ مجاهدٍ، وعطاءٍ، وأصحابِ ابنِ عَبَّاسٍ بمكة. ثم كتاب: مَعْمَرُ بنِ رَاشِدٍ الصَّنَعَانِيُّ، باليمنِ، جَمَعَ فيه سُنَنًا منشورةً مَبوَّبةً.

(١) في (ط): «ومطبوع».

(٢) في (ط): «معروف».

(٣) في (ط): «وليس يعرفه من».

(٤) في (ط): «وانتحاء».

ثم كتاب «الموطأ» بالمدينة لمالك بن أنس رضى الله عنه فى الفقه. ثم جمع ابن عيينة كتاب الجوامع فى السنن والأبواب، وكتاب التفسير فى أحرف من علم القرآن، و«جامع» سفيان الثورى الكبير رضى الله عنه فى الفقه والأحاديث، [صنّفه أيضاً فى هذه المدة]^(١).

فهذه من أوّل ما صنّف ووُضع من الكتب بعد وفاة سعيد بن المسيّب وخيار التابعين، وبعد سنة عشرين ومائة أو أكثر من التاريخ. فكان العلماء الذين هم أئمة هؤلاء العلماء من طبقات الصحابة الأربعة ومن بعد موت الطبقة الأولى من خيار التابعين، هم الذين انقرضوا قبل تصنيف الكتب، وكانوا يكرهون كتب الحديث، ووضع الناس الكتب؛ لئلا يشتغل بها عن القرآن وعن الذكر والفكر. وقالوا: احفظوا كما حفظنا. ولئلا يشتغل الناس عن الله تعالى برسم ولا رسم، كما كره أبو بكر الصديق رضى الله عنه وعليه الصحابة تصحيف القرآن فى مصحف وقالوا: كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ وخشوا اشتغال الناس بالصحف واتكأهم على المصاحف فقالوا: نترك القرآن يتلقاه الناس بعضهم من بعض تلقاً بالتلقين والإقراء، ليكون هو شغلهم وهمتهم وذكرهم، حتى أشار عليه عمر رضى الله عنه وبقيّة الصحابة أن يجمع القرآن فى المصاحف؛ لأنه أحفظ له وليرجع الناس إلى المصحف لما لا يؤمن من الاشتغال بأسباب الدنيا عنه، فشرح الله تعالى صدر أبى بكر رضى الله عنه لذلك فجَمَعَ القرآن من الصحف المتفرقة فى المصحف الواحد.

وكذلك كانوا يتلقون العلم بعضهم عن بعض ويحفظونه حفظاً. هذا لطهارة القلوب من الريب، وفراغها من أسباب الدنيا، وصفائها من الهوى، وعلو الهمة وقوة العزيمة وحسن النية.

ثم ظهرت بعد سنة مائتين، وبعد تقضى ثلاثة قرون فى القرن الرابع المرفوض، مصنفات الكلام وكتب المتكلمين بالرأى والمعقول والقياس، وذهب علم المتقين، وغابت معرفة الموقنين من علم التقوى وإلهام الرشدين واليقين، فخلف من بعدهم

(١) زيادة من (ك).

خَلَفَ فلم نزلْ في الخُلُوفِ إلى هذا الوقت، [والله المستعان، ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم] ^(١).

ثم اختلط الأمرُ بعد هذا التفصيل في زماننا هذا، فصَارَ المتكلمُونَ يُدْعَوْنَ عُلَمَاءَ، والقُصَّاصُ يُسَمَّوْنَ عَارِفِينَ، والرواةُ والنقلةُ يقالُ علماءُ، من غيرِ فقهٍ في دينٍ ولا بصيرةٍ في يقينٍ.

وروينا عن ابن أبي عبةَ قال: «كنا نجلسُ إلى عطاء الخراساني بعد الصبح فيتكلمُ علينا، فاحتبسَ ذاتَ غداة، فتكلمَ رجلٌ من المؤذنين لا بأسَ به بمثلِ مَا كان يتكلمُ به عطاء، فأنكرَ صوته رجاءُ بن أبي حيوةَ فقال: من هذا المتكلم؟ فقال: أنا فلان. فقال: اسكُتْ فإنه يُكره أن يُسمعَ العلمَ إلا من أهله.

وكذلك كانوا يقولون: أبايَ أهلُ العلمِ باللهِ تعالى أن يسمعوا هذا العلمَ إلا من أهله الزاهدين في الدنيا، وكرهوا أن يسمعه من أبناء الدنيا وزعموا أنه لا يليقُ بهم.

واعلم أن العبد إذا كان يذكرُ الله تعالى بالمعرفة وعلم اليقين لم يسعه تقليدُ أحد من العلماء. وكذلك كان المتقدمون إذا افتتحوا هذا المقام خالفوا مَنْ حملوا عنه العلمَ لمزيد اليقين والإفهام. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ليسَ أحدٌ إلا يؤخذُ من قوله ويتركُ إلا رسولُ الله ﷺ. وقد كانَ تعلّم من زيد بن ثابت الفقه، وقرأ على أبي بن كعب، ثم خالف زيدا في الفقه، وأبيا في القراءة.

وقال بعضُ الفقهاء من السلف: ما جاءنا عن رسولِ الله ﷺ قبلناه على الرأس والعين، وما جاءنا عن الصحابة فأنأخذُ به ونتركُ، وما جاءنا عن التابعين فهمُ رجالٌ ونحنُ رجالٌ. قالوا: ونقول: ولأجل ذلك كَانَ الفقهاءُ يكرهون التقليدَ ويقولون: لا ينبغي للرجل أن يُفتى حتّى يعرفَ اختلافَ الفقهاء، أى فيختارُ منها على علمه الأحوطَ للدين والأقوى باليقين. فلو كانوا يستحبون أن يُفتى العالمُ بمذهبٍ غيرِهِ لم يحتج أن يعرفَ الاختلاف، ولكان إذا عَرَفَ مذهبَ صاحبه كفاه.

ومن ثم قيل: إِنَّ الْعَبْدَ يُسْأَلُ غَدًا فَيَقَالُ: مَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ؟ ولا يقالُ له: فِيمَا عَلِمَ غَيْرُكَ.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الروم: ٥٦]، ففرَّق بينهما، فدلَّ به أَنَّ مَنْ أُوتِيَ إِيمَانًا أُوتِيَ عِلْمًا، كما أَنَّ مَنْ أُوتِيَ عِلْمًا نَافِعًا أُوتِيَ إِيمَانًا. وهذا أحدُ الوجوه في معنى قوله سبحانه: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] أى: قَوَّاهُمْ بِعِلْمِ الْإِيمَانِ، فعِلْمُ الْإِيمَانِ هُوَ رُوحُهُ وتكون «الهاء» عائدةً إلى الإيمان. وكذا العالمُ الذي هُوَ من أَهْلِ الاستنباط والاستدلال من الكتابِ والسُّنة، فإنَّه أداةُ الصَّنعةِ وآلةُ الصنع؛ لأنه ذو تمييزٍ وبصيرةٍ ومن أَهْلِ التدبُّرِ والعبرةِ.

فأما الجَاهِلُ والعَامِيُّ الغافلُ فله أن يقلِّدَ العلماءَ، وللعالمِ عمومٌ أيضًا أن يقلِّدَ عالمَ خصوصٍ، وللعالمِ بالعلمِ الظاهرِ أن يقلِّدَ مَنْ فوقه مِمَّنْ جُعِلَ على عِلْمٍ باطنٍ من أَهْلِ القُلُوبِ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَدَّ مَنْ عِلْمِ الْأَلْسِنَةِ وَالْفُتْيَا إِلَى عِلْمِ الْقُلُوبِ، ولم يردَّ أَهْلَ الْقُلُوبِ فِي عِلْمِهِمُ الَّذِينَ يَخْتَصُّونَ بِهِ إِلَى الْمُفْتِينَ، لأنَّهم يأخذُونَ مِنَ الْمُفْتِينَ فُتْيَاهُمْ ثُمَّ يَجِدُونَ فِي قُلُوبِهِمْ حِكْمًا وَحَزَازَةً، فيلزمهم فُتْيَا الْقَلْبِ، لقوله: «استفت قلبك» بعد قوله: «وإن أفتاك المفتون» مع قوله: «الإثم حَزَازُ الْقُلُوبِ» إلى قوله: «مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ فَدَعَهُ، وَإِنْ أَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ».

ثم دَرَسَ معرفةً هذا أيضًا فجُهِلَ، فصَارَ كُلُّ مَنْ نَطَقَ بِكَلَامٍ وَصَفَهُ غَرَبَ عَلَى السَّامِعِينَ^(١)، لَا يَعْرِفُ حَقَّهُ مِنْ بَاطِلِهِ، سُمِّيَ عَالِمًا. وكلُّ كَلَامٍ يُسْتَحْسَنُ زَخْرَفُهُ وَرَوْنَقُهُ لَا أَصْلَ لَهُ يُسَمَّى عِلْمًا؛ لَجَهْلِ الْعَامَّةِ بِالْعِلْمِ أَيَّ شَيْءٍ هُوَ؟ وَلِقَلَّةِ مَعْرِفَةِ السَّامِعِ بِوَصْفِ مَنْ سَلَفَ مِنَ الْعُلَمَاءِ كَيْفَ كَانُوا^(٢)، فصَارَ كَثِيرٌ مِنْ مُتَكَلِّمِي الزَّمَانِ فَتَنَةً لِمُفْتُونَ، وَصَارَ كَثِيرٌ مِنْ كَلَامِ الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ^(٣)، الَّذِي حَقِيقَتُهُ جَهْلٌ،

(١) هذه الجملة ليست في (ك). وغرب: أى كان غريبًا في لفظه ومعناه.

(٢) عبارة (ك): «لجهل السامعين بالعلم أى شىء هو؛ ولقلة معرفة الحاضرين بوصف من غاب من العلماء كيف كانوا».

(٣) فى (ط): «وصار كثير من الكلام والرأى والمعقول» وأثبت ما فى (ك).

كأنه علم عند الجاهلين، فلا يفرقون بين المتكلمين والعلماء، ولا يميزون بين العلم والكلام. وقد قلنا: إنَّ خصوص الجهال يشبهون بالعلماء، فيشتبهون على مجالسهم في الحال. فأعلم الناس في زمانك هذا أعرفهم بسيرة المتقدمين، وأعلمهم بطرائق السالفين، ثم أعلمهم بالعلم أى شىء هو، وبالعالم من هو، ومن المتعلم والمتعلم. وهذا كالفرض على طالبى العلم أن يعرفوه، لأنه لما قال ﷺ: «طلب العلم فريضة» وجب عليهم أن يعرفوا أى شىء هو العلم حتى يطلبوه، إذ لا يصح طلب ما لا يعرف. ثم وجب عليهم من هذا أن يعرفوا العالم من هو ليطلبوا عنده العلم؛ إذ العلم عرض ولا يقوم إلا بجسم، فلا يوجد إلا عند أهله. كما قيل لعلّى كرم الله وجهه وقيل له: إنك خالفت فلاناً فى كذا، فقال: خيرنا أتبعنا لهذا الدين.

وكما قيل لسعد: إن ابن المسيب يقرأ: «ما ننسخ من آية أو ننسأها» فقال: إن القرآن لم ينزل على ابن المسيب ولا على أبيه، ثم قرأ: ﴿أَوْ نُنسِئُهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]. فأعلم الناس فى هذا الوقت وأقربهم من التوفيق والرشد أتبعهم لمن سلف، وأشبههم بشمائل صالحى الخلف. كيف وقد روينا عن رسول الله ﷺ أنه سئل: «من أعلم الناس؟» فقال: أعرفهم بالحق إذا اشتبهت الأمور. وقال بعض السلف: أعلم الناس أعرفهم باختلاف الناس.

وكان الحسن البصرى رضى الله عنه يقول: محدثان أحدثا فى الإسلام: رجل ذو رأى سوء زعم أن الجنة لمن رأى مثل رأيه. ومترف يعبد الدنيا، لها يغضب ولها يرضى وإياها يطلب، فلرفضوها إلى النار، اعرفوا إنكارهم لربهم بأعمالهم. إن رجلاً أصبح فى هذه الدنيا بين مترف يدعوا إلى دنياه، وصاحب هوى يدعوا إلى هواه، قد عصمه الله تعالى منهما، يحن إلى السلف الصالح، يسأل عن فعالهم، ويقتص آثارهم، لتعرض لأجر عظيم، فكذلك فكونوا.

وكما روينا عن ابن مسعود رضى الله عنه، وقد جاء مسنداً: «إنما هما اثنان: الكلام والهدى، فأحسن الكلام كلام الله تعالى، وأحسن الهدى هدى محمد

ﷺ، ألا وإياكم ومحدثات الأمور، فإنَّ شرَّ الأمور محدثاتها، وإنَّ كلَّ محدثة بدعةٌ وكلَّ بدعة ضلالةٌ. ألا لا يطولنَّ عليكم الأمدُ فتتسَوَّ قلوبكم. ألا كلُّ ما هو آتٍ قريب، ألا إن البعيد ما ليس بآتٍ».

وفى خطبة النبي ﷺ التي رويها عن أبان عن أنس: «طوبى لمن شغله عيُّه عن عيوب الناس، وأنفق من مَالٍ اكتسبه من غيرِ معصية، وخالط أهلَ الفقه والحكمة، وجانب أهلَ الذلِّ والمعصية. طوبى لمن ذلَّ في نفسه، وحسنتْ خليقته، وصلحتْ سريره، وعزلَ عن الناس شره. طوبى لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله، ووسعته السنة، ولم يعدّها إلى بدعة».

وقال بعضُ الأدباء كلاماً منظوماً في وصفِ زماننا هذا، كأنه شاهده:

ذهبَ الرجالُ المقتدى بفعالهم	والمنكرون لكلِّ أمرٍ منكّرٍ
وبقيتُ في خلفٍ يزكى بعضهم	بعضاً، ليدفعَ مغورٌ عن مغورٍ
أبنيَّ إنَّ منَ الرجالِ بهيمةٌ	في صورةِ الرجلِ السميعِ المبصرِ
فطناً بكلِ مصيبةٍ في ماله	فإذا أُصيبَ بدينه لم يشعُرِ
فسلِّ الفقيهَ تكنَ فقيهاً مثلهُ	من يسعَ في أمرٍ بفقهٍ يظفرِ

وقد كان ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه يقول: حسنُ الهدى في آخرِ الزمانِ خيرٌ من كثيرٍ من العلم. وقال في وصفِ زمانه باليقين، وفي وصفِ زماننا بالشكِّ فقال: إنكم في زمانٍ خيركم فيه المسارعُ في الأمور، وسيأتى بعدكم زمانٌ يكونُ خيرُهم فيه المتثبتُ المتوقِّفُ. يعني: لكثرة الشبهات.

وقال حذيفةٌ رضي الله عنه أعجبَ من هذا، قال: إنَّ معروفكم هذا منكراً زمانٌ قد مضى، وإنَّ منكركمُ معروفُ زمانٍ قد يأتى. وإنكم لن تزالوا بخيرٍ ما عرفتمُ الحق، وكان العالمُ فيكم غيرَ مُستخفٍ. وكان يقول أيضاً: يأتى في آخرِ الزمانِ قومٌ يكونُ العالمُ فيهم بمنزلةِ الحمارِ الميت، لا يلتفتون إليه، يستخفى المؤمنُ فيهم كما يستخفى المنافقُ فينا اليوم، المؤمنُ فيهم أذلُّ من الأمة.

وفى حديث على كرم الله وجهه: يأتى على الناس زمانٌ ينكرُ الحقَّ تسعةَ أعشارهم، لا ينجو منهم يومئذٍ إلا كلُّ مؤمنٍ نُومَ (يعنى: صَمَوْتًا متغافلًا) أولئك مصابيحُ العلم، وأئمةُ الهدى، وليسوا بالمذايع^(١) البذر. (يعنى: المتكلمين كثيرًا) المتظاهرين بالكلام افتخارًا.

وفى خبر: «يأتى على الناس زمانٌ مَنْ عَرَفَ فيه الحقَّ نَجَا. قيل: فأين العمل؟ قال: لا عملَ يومئذٍ، لا ينجو^(٢) فيه إلا من هَرَبَ بدينه من شاهقٍ إلى شاهقٍ.

وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه: «يأتى على الناس زمانٌ مَنْ عَمِلَ منهم بعُشْرٍ ما أُمِرَ به نَجَا». وفى بعضها: «بعشرٍ ما يَعْلَمُ». وعن بعض الصحابة [رضى الله عنهم]: أنتم اليوم فى زمانٍ من ترك منكم عَشْرَ ما يَعْلَمُ هلك، ويأتى عليكم زمانٌ مَنْ عَمِلَ فيه بعُشْرٍ ما يَعْلَمُ نَجَا.

وقال بعض الحكماء^(٣): يأتى عليكم زمانٌ يكونُ أفضلُ العلمِ الصمتُ، وأفضلُ العملِ النومُ. يعنى: لكثرة الناطقين بالجهل^(٤) فصار الصمتُ للجَاهِلِ علمًا، ولكثرة العاملين بالهوى^(٥) فصار النومُ عبادةَ البطال. ولعمري إن الصمتَ والنومَ أدنى أحوالِ العالم، وهما أعلى أحوالِ الجاهل.

وكان يونس بن عبيد يقول: أصبحَ اليومَ مَنْ يَعْرِفُ السَّنَةَ غَرِيبًا، وأغربُ منه من يعرفه. يعنى: طريقةَ السلف. يقول: فمن يَعْرِفُهُ عَرَفَ طريقَ مَنْ مَضَى، وَهُوَ غَرِيبٌ أيضًا، لأنه قد عَرَفَ غَرِيبًا.

وقال حذيفة المرعى: كَتَبَ إلى يوسف بن أسباط: ذهبتِ الطاعةُ وَمَنْ يَعْرِفُهَا. وكان أيضًا يقول: ما بقى من يُؤنسُ به. وقال: ما ظنُّكَ بزمانٍ مذاكرةُ العلمِ فيه مَعْصِيَةٌ. قيل: ولم ذلك؟ قال: لأنه لا يجدُ أهله.

(١) فى (ك): «بالمزاييع». والمذايع: جمع مذيع، من أذاع الشيء إذا أفشاه. والبذر: جمع بذور، يقال: بذرتُ الكلامَ بين الناس، أى أفشيته وفرقته.

(٢) فى (ك): «لا يسلم».

(٣) فى (ط): «الخلقاء».

(٤) فى (ط): «لكثرة المنافقين بالشبهات» وأثبت ما فى (ك).

(٥) فى (ط): «ولكثرة العاملين بالشهوات» وأثبت ما فى (ك).

وقد كَانَ أَبُو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: إِنَّكُمْ لَنْ تَزَالُوا بِخَيْرٍ مَا أَحْبَبْتُمْ خِيَارَكُمْ، وَقِيلَ فِيكُمْ الْحَقُّ فَعُرِفَ، وَبِلَّ لَكُمْ إِذَا كَانَ الْعَالَمُ فِيكُمْ كَالشَّاةِ النُّطِيجِ.

وقد كَانَ لِلْمُتَقَدِّمِينَ عُلُومٌ يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهَا وَيَتَفَاوَضُونَهَا بَيْنَهُمْ قَدْ دَرَسَتْ فِي زَمَانِنَا. وَكَانَ لِلصَّالِحِينَ مَعَانٍ وَطَرَائِقُ يَسْلُكُونَهَا وَيَسْأَلُونَ عَنْهَا، قَدْ ذَهَبَتْ فِي وَقْتِنَا. وَكَانَ لِلْيَقِينِ وَالْمَعْرِفَةِ مَقَامَاتٌ وَأَحْوَالٌ، يَتَذَكَّرُهَا أَهْلُهَا، وَيَطْلُبُونَ أَرْبَابَهَا، قَدْ عَفَتْ أَثَارُهَا عِنْدَنَا، لِقَلَّةِ الطَّالِبِينَ لَهَا، وَلِعَدَمِ الرَّاغِبِينَ فِيهَا، وَفَقْدِ الْعُلَمَاءِ بِهَا، وَذَهَابِ السَّالِكِينَ فِي طَرَقِهَا، مِنْهَا:

طَلَبُ الْحَلَالِ، وَعِلْمُ الْوَرَعِ فِي الْمَكَاسِبِ وَالْمَعَامِلَاتِ، وَعِلْمُ الْإِخْلَاصِ، وَعِلْمُ آفَاتِ النُّفُوسِ وَفَسَادِ الْأَعْمَالِ، وَعِلْمُ نِفَاقِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ نِفَاقِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ نِفَاقِ الْقَلْبِ وَنِفَاقِ النَّفْسِ وَبَيْنَ إِظْهَارِ النَّفْسِ شَهَوَاتِهَا وَإِخْفَائِهَا ذَلِكَ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ سَكُونِ الْقَلْبِ بِاللَّهِ وَسَكُونِ النَّفْسِ بِالْأَسْبَابِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ خَوَاطِرِ الرُّوحِ وَالنَّفْسِ وَبَيْنَ خَاطِرِ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ وَالْعَقْلِ، وَعِلْمُ خِلَاقِ الْأَحْوَالِ، وَأَحْوَالِ طَرَائِقِ الْعَمَالِ، وَتَفَاوُتِ مَشَاهِدَاتِ الْعَارِفِينَ، وَتَلَوِينَاتِ الشُّوَاهِدِ عَلَى الْمُرِيدِينَ، وَعِلْمُ الْقَبْضِ وَالْبَسْطِ، وَالتَّحْقِيقُ بِصِفَاتِ الْعِبَادِيَّةِ، وَالتَّخَلُّقُ بِأَخْلَاقِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَتَبَايُنُ مَقَامَاتِ^(١) الْعُلَمَاءِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا نَذْكُرُهُ مِنْ عِلْمِ التَّوْحِيدِ، وَمَعْرِفَةِ مَعَانِي الصِّفَاتِ، وَعِلْمِ الْمَكَاشِفَةِ بِتَجَلِّيِ الذَّاتِ، وَإِظْهَارِ الْأَفْعَالِ الدَّالَّةِ عَلَى مَعَانِي الصِّفَاتِ الْبَاطِنَةِ، وَظُهُورِ الْمَعَانِي الدَّالَّةِ عَلَى النَّظَرِ وَالْإِعْرَاضِ، وَالتَّقَرُّبِ وَالْإِبْعَادِ، وَالنَّقْصِ وَالزَّيْدِ، وَالْمُثَبَّةِ وَالْعَقُوبَةِ، وَالِاخْتِبَارِ وَالِاخْتِيَارِ.

وقد ذكرنا من جميع هذه المعاني فصولاً، ورسمنا جُمَلًا وَأَصُولًا، تَنْبَهُ عَلَى فُرُوعِهَا، وَتَدُلُّ عَلَى أَشْكَالِهَا، لِمَنْ وَفَّقَ لِتَدْبِيرِهَا، وَأُرِيدَ بِتَذَكُّرِهَا، وَجُعِلَ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا.

وَقَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا: أَعْرِفُ لِلْمُتَقَدِّمِينَ سَبْعِينَ عِلْمًا، كَانُوا يَتَحَاوَرُونَهَا وَيَتَعَارَفُونَهَا فِي هَذَا الْعِلْمِ، لَمْ يَبْقَ مِنْهَا الْيَوْمَ عِلْمٌ وَاحِدٌ يُعْرَفُ. قَالَ: وَأَعْرِفُ فِي زَمَانِنَا هَذَا عُلُومًا كَثِيرَةً مِنَ الْأَبَاطِيلِ وَالِدَعَاوَى وَالْغُرُورِ، وَقَدْ ظَهَرَتْ وَسُمِّيَتْ

(١) فِي (ك): «وَتَفَاوُتِ مَشَاهِدَاتِ».

عُلُومًا لَمْ تَكُنْ فِيمَا مَضَى تُعْرَفُ، فهذا كالسَّرَابِ الذي وصفه الله تعالى فقال: ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩].

وكان الجنيد رحمه الله تعالى من قبله يَقُولُ: عَلِمْنَا هذا الذي نتكَلَّمُ فيه قد طَوَى بِسَاطُهُ منذ عشرين سنةً، وَإِنَّمَا نتكَلَّمُ في حَوَاشِيهِ. وكان يَقُولُ أيضًا: قد كُنْتُ أَجَالِسُ قَوْمًا سَنِينَ يتحاورُونَ في علومٍ لا أَفْهَمُهَا، ولا أَدْرِي ما هِيَ، وما بُلِيتُ بِالْإِنْكَارِ قَطُّ، كُنْتُ أَتَقَبَّلُهَا وَأَحِبُّهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ أُعْرِفَهَا. وكان أيضًا يَقُولُ: كُنَّا نَتَجَارَى^(١) مع إخواننا قديمًا في علومٍ كثيرةٍ ما تُعْرَفُ في وَقْتِنَا هذا، ولا سَأَلْنِي عَنْهَا أَحَدٌ، وهذا بابٌ قد أُغْلِقَ وَرُدِمَ.

ولمَّا صَنَّفَ شيخُنَا أَبُو سَعِيدِ بْنِ الْأَعْرَابِيِّ كِتَابَ (طَبَقَاتِ النِّسَّاكِ)، وَصَفَ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ فِي هَذَا الْعِلْمِ وَأَظْهَرَهُ، ثُمَّ مَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْبَصَرِيِّينَ وَالشَّامِيِّينَ وَأَهْلِ خُرَاسَانَ إِلَى أَنْ كَانَ آخِرُهُمُ الْبَغْدَادِيِّينَ. وقال آخَرُ: مَنْ تَكَلَّمَ فِي هَذَا صَاحِبُنَا جُنَيْدُ الْقَوَارِيرِيِّ وَكَانَتْ لَهُ بَصِيرَةٌ فِيهِ وَحَقِيقَةٌ مِنْهُ وَحَسَنُ عِبَارَةٍ، وَمَا بَقِيَ بَعْدَهُ إِلَّا مَنْ مُجَالَسَتُهُ غِیْظٌ. وقال مرةً أُخْرَى: مَا بَقِيَ بَعْدَ جُنَيْدٍ إِلَّا مَنْ يُسْتَحَى مِنْ ذِكْرِهِ.

وقد كان إمامُنَا أَبُو مُحَمَّدٍ سَهْلٌ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: بَعْدَ سَنَةِ ثَلَاثِمِائَةٍ لَا يَحِلُّ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِعِلْمِنَا هَذَا، لِأَنَّهُ يَحْدِثُ قَوْمٌ يَتَصَنَّعُونَ لِلخَلْقِ، وَيَتَزَيَّنُونَ بِالْكَلامِ؛ لَتَكُونَ مُوَاجِدُهُمْ لِبَاسِهِمْ، وَحَلِيتُهُمْ كَلَامُهُمْ، وَمَعْبُودُهُمْ بَطُونُهُمْ.

وقد كان حذيفةٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا سُئِلَ: أَىُّ الْفِتَنِ أَشَدُّ؟ قَالَ: أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْكَ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ، فَلَا تَدْرِي أَيُّهُمَا تَأْخُذُ؛ لِكثَرَةِ الشَّبَهَاتِ.

كما كان سَهْلٌ يَقُولُ: بَعْدَ سَنَةِ ثَلَاثِمِائَةٍ لَا يَصِحُّ لِأَحَدٍ تَوْبَةٌ، لِأَنَّهُ يَفْسُدُ خُبْرُهُمْ، وَهُمْ لَا يَصْبِرُونَ عَنِ الْخُبْزِ. يَعْنِي: أَنْ أَوَّلَ التَّوْبَةِ أَكْلُ الْحَلَالِ. وقد رَوَيْنَا فِي خَبَرٍ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يُضِلُّونَ فِيهِ دِينَهُمْ فَلَا يَعْرِفُونَهُ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ عَلَى دِينٍ وَيُمْسِي عَلَى دِينٍ. يَضِلُّ أَمْرُهُ عَلَى غَيْرِ يَقِينٍ، وَتُسَلَبُ عَقُولُ أَكْثَرِ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ. وَأَوَّلُ مَا يُرْفَعُ عَنْهُمْ الْخُشُوعُ، ثُمَّ الْإِجَابَةُ، ثُمَّ الْوَرَعُ. وَيَقَالُ: أَوَّلُ مَا يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ الْأُلْفَةُ.

(١) تجاروا في الحديث: تناظروا فيه.

ذكر ما أحدث الناس من القول والفعل فيما بينهم

مما لم يكن عليه السلف^(١)

كَانَ النَّاسُ قَدِيمًا إِذَا التَّقَوُّا يَقُولُ أَحَدُهُمْ لِمَصَاحِبِهِ: مَا خَبَرُكَ وَمَا حَالُكَ؟ يَعْنُونَ بِذَلِكَ: مَا خَبَرُ نَفْسِكَ فِي مُجَاهَدَتِهَا وَصَبْرِهَا؟ وَمَا حَالُ قَلْبِكَ مِنْ مَزِيدِ الْإِيمَانِ وَعِلْمِ الْيَقِينِ؟ وَيُرِيدُونَ أَيْضًا: مَا خَبَرُكَ فِي الْمَعَامَلَةِ لِمَوْلَاكَ؟ وَمَا حَالُكَ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟ هَلْ أَزْدَدْتَ أَمْ انْتَقَصْتَ؟ فَيَتَذَكَّرُونَ أَحْوَالَ قُلُوبِهِمْ، وَيَصِفُونَ أَعْمَالَ عُلُومِهِمْ، وَيَذْكُرُونَ مَا وَهَبَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ مِنْ حَسَنِ الْمَعَامَلَةِ، وَمَا فَتَحَ لَهُمْ مِنْ غَرَائِبِ الْفَهْمِ. فَكَانَ هَذَا مِنْ تَعْدِيدِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، وَمِنْ جَمِيلِ شُكْرِهِمْ، وَيَكُونُ مَزِيدًا لَهُمْ فِي الْمَعْرِفَةِ وَالْمَعَامَلَةِ.

وَقَدْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ: أَكْثَرُ عُلُومِنَا وَمَوَاجِدِنَا مَا يَعْرِفُهُ بَعْضُنَا مِنْ بَعْضٍ، وَمَا يَخْبِرُ بِهِ أَحَدُنَا أَخَاهُ إِذَا التَّقَيْنَا، فَقَدْ جُهِّلَ هَذَا الْيَوْمَ فَتُرِكَ، فَهُمْ إِذَا تَسَاءَلُوا عَنْ الْخَبَرِ وَالْحَالِ إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ أُمُورَ الدُّنْيَا وَأَسْبَابَ الْهَوَى، ثُمَّ يَشْكُو كُلُّ وَاحِدٍ مَوْلَاهُ الْجَلِيلَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى عَبْدِهِ الذَّلِيلِ، وَيَتَسَخَّطُ أَحْكَامَهُ، وَيَتَبَرَّمُ بِقَضَائِهِ، وَيَنْسَى نَفْسَهُ وَمَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ، فَمَثَلُهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف: ٥٧]، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦] قِيلَ: كَفُورٌ بِنِعْمَتِهِ، يُعَدِّدُ الْمَصَائِبَ وَيَنْسَى النِّعَمَ. كُلُّ ذَلِكَ جَهَالَةٌ بِاللَّهِ تَعَالَى وَغَفْلَةٌ عَنْهُ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ الْآنَ: كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟ وَكَيْفَ أَمْسَيْتَ؟ هَذَا مُحَدَّثٌ. إِنَّمَا كَانُوا إِذَا التَّقَوُّوا قَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ. وَفِي الْخَبَرِ: «مَنْ بَدَأَكُمْ بِالْكَلَامِ قَبْلَ السَّلَامِ فَلَا تُجِيبُوهُ». وَإِنَّمَا حَدَّثَ هَذَا فِي زَمَانِ الطَّاعُونَ، الَّذِي كَانَ يُدْعَى «طَاعُونَ عَمَّوَسَ» بِالشَّامِ، مِنْ الْمَوْتِ الذَّرِيعِ، كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى أَخَاهُ غُدُوَّةً فَيَقُولُ:

(١) انظر: الإحياء ٢/ ٣٣٥.

كيف أصبحت من الطاعون؟ ويلقاه عشيّة فيقول: كيف أمسيت منه؟ لأنّ أحدهم كان إذا أصبح لم يُمس، وإذا أمسى لم يصبح. فبقى هذا إلى اليوم ونُسي سببه، وكان من عرفَ حدوثه من المتقدمين يكرهه. حدّثونا عن أحمد بن أبي الحواري قال: قال رجلٌ لأبي بكر بن عيَّاش: كيف أصبحت، أو كيف أمسيت؟ فلم يكلمه، وقال: دعونا من هذه البدعة. قال: وقلتُ لبعض السلف: كيف أصبحت؟ فأعرض عني، وقال: ما كيف أصبحت؟ قل بالسلام.

وروى أبو معشر عن الحسن رضى الله عنه: إنّما كانوا يقولون: السلام عليكم، سلّمَت والله القلوب. فأما اليوم: كيف أصبحت أصلحك الله؟ كيف أمسيت عافاك الله؟ فإن أخذنا بقولهم كانت بدعة، ألا ولا كرامة فإن شاؤوا غضبوا علينا. ومن ذلك ابتداء الرجل في عنوان الكتاب باسم المکتوب إليه، وإنّما السنّة أن يبتدئ بنفسه فيكتب: من فلان إلى فلان. قال ابن سيرين رحمه الله تعالى: غبتُ غيبةً فكتبتُ إلى أبي فابتدأت باسمه، فكتبَ إليّ: يا بني، إذا كتبتَ إليّ فابدأ باسمك في الكتاب، فإن ابتدأت باسمي قبل اسمك، لا قرأتُ لك كتاباً، ولا ردّدتُ إليك جواباً.

وكتب العلاء بن الحضرمي رضى الله عنه إلى رسول الله ﷺ فبدأ بنفسه وكتب: من العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ.

ويقال: أولُ من أحدثه «زياد» فعابه العلماء عليه، وعدّوه من إحدّاث بني أمية. وقد بقى سنّة هذا في كتب الخلفاء والأمراء إلى اليوم، على نحو ما مضى، فهم يُقدّمون أسماءهم في كتبهم.

ومن الإحدّاث: قولُ الرجل إذا جاء منزل أخيه: يا غلام، يا جارية. فيه مخالفةٌ لأمر الله عزّ وجلّ وأمر رسوله عليه السلام، قال الله عزّ وجلّ: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧]. قال أهلُ التفسير: الاستئناس: الدقّ، أو التنحج، أو الحركة، حتى يؤذنَ بذلك أن وراءها إنساناً. وقال رسول الله ﷺ: «إذا جاء أحدكم منزل أخيه فليسلّم ثلاثاً، فإن أُذِنَ

لَهُ فَلْيَدْخُلْ، وَإِلَّا فَلْيَرْجِعْ».

وكان السلفُ يَقْرَعُ أَحَدَهُمْ بَابَ أَخِيهِ، ثُمَّ يَسْلُمُ ثَلَاثًا يَقِفُ بَعْدَ كُلِّ تَسْلِيمَةٍ هُنِيهَةً، فَإِنْ أُذِنَ لَهُ دَخَلَ. وَقَدْ لَا يَحِبُّ صَاحِبُ الْمَنْزِلِ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ؛ لِسَبَبٍ عَذِرَ لَهُ، فَيَقُولُ: وَعَلَيْكُمْ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، ارْجِعْ عَافَاكَ اللَّهُ، فَإِنِّي عَلَى شُغْلٍ، فَيَرْجِعُ عَنْهُ غَيْرَ كَارِهِ لِرَجُوعِهِ، وَلَا يُوْثِرُ ذَلِكَ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ. وَقَدْ يَكُونُ قَوْلُهُ «ارْجِعْ» أَحَبَّ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ أَفْضَلُ لَهُ رَجَاءُ الْإِجَابَةِ وَالتَّزْكِيَةِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨]، فَبِمَا رَجَعَ فِي الْيَوْمِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا بَعْدَ رَدِّ صَاحِبِهِ لَهُ وَهُوَ يَعُودُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُوْثِرْ فِي قَلْبِهِ شَيْئًا. وَهَذَا لَوْ فَعَلَ بِبَعْضِ النَّاسِ مِنْ أَهْلِ عَصْرِنَا هَذَا لَكَرِهَهُ، وَلَعَلَّ أَنْ لَا يَعُودَ يَوْمَهُ ذَلِكَ^(١).

فَأَمَّا الْعُلَمَاءُ فَقَدْ كَانَ بَعْضُ النَّاسِ لَا يَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِمْ إِلَّا لَهُمْ لَا بَدَّ مِنْهُ، بَلْ كَانُوا يَقْعُدُونَ عَلَى أَبْوَابِهِمْ وَفِي مَسَاجِدِهِمْ يَنْتَظِرُونَ خُرُوجَهُمْ لِأَوْقَاتِ الصَّلَاةِ؛ إِجْلَالًا لِلْعِلْمِ وَهَيْبَةً لِلْعُلَمَاءِ.

وَحَدَّثُونَا عَنْ أَبِي عُبَيْدٍ قَالَ: مَا قَرَعْتُ عَلَى عَالِمٍ قَطُّ بَابَهُ، كُنْتُ أَجِيءُ إِلَى مَنْزِلِهِ فَأَقْعُدُ عَلَى بَابِهِ أَنْتَظِرُ خُرُوجَهُ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ، أَتَأَوَّلُ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [الحجرات: ٥].

وَقَدْ رَوَيْنَا مِثْلَ هَذَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالشَّرَفِ: أَنَّ الْمَارَّ كَانَ يَمُرُّ بِهِ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى بَابِ مَنْزِلِ الرَّجُلِ مِنَ الْأَنْصَارِ، تَسْفَى عَلَيْهِ الرِّيحُ، فَيَقُولُ: مَا يُجْلِسُكَ هَهْنَا يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ؟ فَيَقُولُ: أَنْتَظِرُ خُرُوجَ صَاحِبِ الْمَنْزِلِ. فَيَخْرُجُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ: ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ؟ لَوْ أُرْسِلْتَ إِلَى لِحْتِكَ، فَيَقُولُ: لَا، أَنَا كُنْتُ أَحَقَّ أَنْ آتِيكَ. فَيَسْأَلُهُ عَمَّا يَرِيدُ مِنْ حَدِيثٍ بَلَغَهُ أَنَّهُ يَرُويهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ هُوَ سَمِعَهُ مِنْهُ.

(١) وكيف بعصرنا نحن اليوم، فقد تكون قطيعة؟!

ومن ذلك^(١): استقصاء الرجل في المسألة عن حال أخيه وخبره. وقد كره ذلك. تزوج سلمان الفارسي رضي الله عنه، فلما دخل على أهله خرج إلى الناس من الغد، فقال له رجل: كيف أنت يا أبا عبد الله؟ قال: بخير أحمد الله تعالى، قال: كيف حالك وكيف بت البارحة؟ وكيف وجدت أهلك؟^(٢) فغضب سلمان وقال: لم يسأل أحدكم فيحفي^(٣) المسألة، ويسأل عما وراء البيوت؟ يكفي أحدكم أن يسأل عن ظاهر الأمر.

وأما سليمان بن مهران الأعمش، فإن رجلاً قال له في منزله: كيف أنت يا أبا محمد؟ قال: بخير. قال: كيف حالك؟ قال: في عافية. قال: كيف بت البارحة؟ فصاح: يا جارية انزلي بالفراش والمخاد، فأنزلت بذلك. فقال: افرشي، ففرشت. فقال: اضطجعي^(٤) حتى أضطجع إلى جنبك لترى أخانا^(٥) كيف بت البارحة. وكان يقول: يلقي أحدهم أخاه فيسأله عن كل شيء، حتى عن الدجاج في البيت، ولو سأله درهماً ما أعطاه^(٦).

وكان من مضى من السلف إذا لقي أخاه لا يزيد على قوله: كيف أنتم؟ أو: حيّاكم الله بالسلام، ولو سأله شطراً ماله قاسمه.

ومن ذلك: قول الرجل لأخيه إذا لقيه ذاهباً في الطريق: إلى أين تريد؟ أو: من أين جئت؟ فقد كره هذا، وليس من السنة ولا الأدب، وهو داخل في التجسس والتجسس؛ لأن التجسس في الآثار، والتجسس في الأخبار، وهذا السؤال عن ذلك يجمعهما، وقد لا يحب الرجل أن يعلم صاحبه أين يذهب ولا من أين جاء.

(١) أي من الأمور المحدثّة التي يسردها.

(٢) في المطبوعة: «وفى لفظ آخر: كيف وجدت أهلك» وأثبت ما في (ك).

(٣) يحفي: أحفي السؤال: رده، والحق فيه.

(٤) في (ط): «افرشي واضطجعي» والزيادة من (ك).

(٥) في (ك): «حتى يرى أخونا».

(٦) في المخطوطة كرر هذا الخبر بروايته عن «الأعمش».

وقد كره ذلك^(١) مجاهدٌ وعطاءٌ، قالوا: إذا لقيت أخاك في طريقٍ فلا تسأله من أين جئت ولا أين يذهب، فلعلة أن يصدّقك فتكره ذلك، ولعله أن يكذبك فتكون قد حملته [ما يشق]^(٢) عليه.

وقد كانوا يكرهون بيع المصاحف وشراءها. وكان بعضهم لبيعها أكره منه لشرائها.

وقد ابتدع الناس علومًا لم تكن تُعرف فيما سلف، منها: علم الكلام والجدل، وعلوم المقاييس والنظر والاستدلال على سنن الرسول ﷺ بأدلة الرأي والمعقول. ومنها: إثارة علم العقل والرأي والقياس على ظواهر القرآن، وعلى الأخبار. ومنها: إظهار الإشارات بالمواجيد من غير علومها ولا بيان تفصيلها. وفي ذلك تحييرٌ للسامعين، وإضلالٌ للعاملين.

وإنما كان العلماء بهذا العلم يُظهرُونَ علومَ المواجهيد، ويخفُونَ الإشارة بالوجد، فيُظهرون للناس ما ينفع، ويخفون ما يضر، ولأنَّ المواجهيد أحوالُ قلوبهم، فكتُمها أفضل، وعلومها أنصبُ المريدين والعاملين، فإظهارها هو البُغيَةُ لهم، فأظهرُوهُ وأخفوا وجدهم؛ لأنه سرٌّ لهم فسَلَمُوا من التصنع والدعوى، وأعطوا السامعين نصيبهم، ومنعواهم ما ليس لهم، فَعَدَلُوا في الوصفين معًا، ففَضَّلُوا في الحالين جميعًا. فجَهِلَ هذا الآن فأظهرَ ضده، وكان إلى الضرر أقرب، ومن السلامة أبعَد^(٣).

فَمَنْ لم يُحَسِّنِ التفصيل ولم يُرْزِقِ العبارة، فإنه يَحْسُنُ الصمتُ فهو واسع؛ لأن مَنْ لم يتكلَّم بعلمٍ على سُنَّةٍ [ينفع به] فسكوته [عن شبهة لا يوقن الضرر بها]^(٤) أقرب له إلى الله تعالى، فمَثَلُهُ في ذلك كما قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧].

(١) في (ك): «وروينا كراهية ذلك عن».

(٢) ساقطة من (ط). وفي (ك): «ما يشق عليك».

(٣) سبحان الله!! يتكلم هكذا عن عصره، فكيف بأبي طالب المكي لو أدرك عصرنا هذا؟

(٤) ما بين المعكفات زيادة من (ك)، وعبارة (ك) بعدها: «أفضل قال الله عز وجل».

ومما ظهر: إظهارُ علوم المعرفة بمعاني الرغبة؛ لتمييزوا عن الفقراء، تكبراً منهم، فلا يُجعلون مجعلهم، وليُصرف إليهم من الأسباب على قدر أنسهم^(١) وأحوالهم، وهذا من أكبر أبواب الدنيا، وأضره على مريدى الآخرة والطفه^(٢) تمويهاً فى الدين.

ومنها: الكلام فى التوحيد بمخالفة علم الشرع، وأن الحقيقة تخالف العلم، والحقيقة هى علم، وهى أحد طرقات الشريعة، وعلم الشرع عنها، فكيف تنافىها وهى التى أوجبته، وإنما هى عزمته وصنعه^(٣)، وعلم الظاهر هو الرخصة والسعة.

فمن تكلم فى علم الباطن على غير قواعد العلم الظاهر وأصوله فذلك من الإلحاد فى الشريعة والوليعة بين الكتاب والسنة.

وقد قال بعض العارفين: نظرت إلى هؤلاء الشاطحين فما وجدت إلا جاهلاً مغروراً، أو خاسئاً جبوراً، أو مستظهِراً بلا شىء.

ومنها: الكلام فى الدين بالوساوس والخطرات عن غير ردٍّ مواجيدها إلى الكتاب والسنة. والواجب معرفة تفصيلها، ونفى ما لم يشهد له الكتاب والسنة منها، إذ فى المواجه ضلالٌ وغرورٌ، وفى المشاهدات باطلٌ وزورٌ، مع دعواهم المحبة، وإنكارهم الصفة التى جاءت بها السنة عن غير شهادة موصوفٍ، وادعائهم المعرفة من غير تعرف معروف.

ومما أحدثوا: السجع فى الدعاء، والتغريب فيه، ولم يرد الكتاب به، ولا نُقل عن رسول الله ﷺ ولا الصحابة، بل كانوا ينهون عن الاعتداء فى الدعاء، ويجتنبون مجاوزة ما أخبر الله تعالى عن أوليائه من الأدعية الجامعة المختصرة المعروفة^(٤).

(١) فى (ك): قد تقرأ «لبهم».

(٢) فى (ك): «وأضرها على مريدى الآخرة والطفها».

(٣) فى (ط): «عزيمة وضيقة».

(٤) فكيف بزماننا الذى صار فيه الدعاء فناً وصناعة، لا خشوعاً وتضرعاً.

ورؤينا عن رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ والسَّجْعَ فِي الدَّعَاءِ، حَسْبُ أَحَدِكُمْ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ». وفي الخبر: «سَيَأْتِي قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدَّعَاءِ وَالطَّهْرِ».

وسَمِعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَغْفَلٍ ابْنَهُ يَدْعُو بِدَعَاءٍ تَعَمَّقَ فِيهِ، فَقَالَ: يَا بَنِي، إِيَّاكَ وَالْحَدَّثَ وَالْاِعْتَدَاءَ فِي الدَّعَاءِ.

وفي قوله عز وجل: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥] قيل: في الدعاء، فالاعتداء في الدعاء هو ترك ما أخبر الله عز وجل عن أوليائه الصالحين من الدعاء بالمغفرة والرحمة والتوبة، ومعنى ذلك: من الدعاء المعروف والقول المشهور إلى التنطع والتعميق والتغريب والتدقيق.

ويقال: إن العلماء والأبدال لا يزيد أحدهم على سبع كلمات في الدعاء، ووجدتُ تصديق ذلك في الكتاب: إن الله تعالى ما أخبر عن عباده في الدعاء في مكان واحد أكثر من سبع دعوات، وهي التي في آخر سورة البقرة، وإلا إنما يخبر عنهم بالدعوتين والثلاث والأربع إلى الخمس في مواضع من الكتاب متفرقة.

ومرَّ بعضُ السلف بقاصٍّ يدعو بسجعة في دعائه ويتعمَّق فقال له: ويلك، على الله تبالغ، أشهدُ لقد رأيتُ حبيباً العجمي^(١) يدعو وما يزيد على قوله: اللهم اجعلنا جيدين، اللهم لا تفضحنا يوم القيامة، اللهم وفقنا للخير. قال: والناسُ يبيكون من كلِّ ناحية، وكنا نتعرفُ إجابة دعائه وبركته.

وكان أبو يزيد البسطامي يقول: سلَّهُ بلسان الحاجة لا بلسان الحكمة. وقال الحسن: ادعُ بلسان الاستكانة والافتقار لا بالفصاحة والانطلاق.

ومما أحدثوه: أخذُ القرآن بالإدارة^(٢) وتنازعُ الاثنين الآية، أو تلقَّى الرجلين

(١) في (ك): «الفارسي» وله ترجمة في الحلية ١٤٩/٦ - ١٥٥.

(٢) أي: يديرونه بينهم ويتنازعونه، من قولهم: «أدركت فلاناً على الأمر؛ إذا حاولت إلزامه إياه» اللسان (دور).

للآيتين في مكان واحد بمنزلة الاختلاس والنهبة من غير خشوع للقرآن ولا هيبة. وقراءة القرآن تحتاج إلى حزن وسكون وخشوع.

ومن ذلك: أخذ المقرئ على الاثنين، وليته قام بقراءة الواحد؛ لسهو القلب. كما قيل لإبراهيم الحربي: إن فلانًا يأخذ على الاثنين، فقال: هاه، يحتاج اثنان أن يأخذا على واحد.

ومن البدع: التلحين في القراءة حتى لا تفهم التلاوة، وحتى يجاوز إعراب الكلمة بمد المقصور وقصر الممدود، وإدغام المظهر وإظهار المدغم؛ ليستوى بذلك التلاحن، ولا يبالي باعوجاج الكلم وإحالتة عن حقيقته، فهو بدعة ومكره استماعه. قال بشر بن الحارث: سألت ابن داود الحربي: أمر بالرجل يقرأ، فأجلس إليه. قال: يقول: يطرب؟ قلت: نعم. قال: لا، هذا قد أظهر بدعته.

ومن ذلك: التلحين في الأذان، وهو من البغي والاعتداء فيه. قال رجل من المؤذنين لابن عمر رضى الله عنهما: إنى لأحبك في الله تعالى، فقال له: لكنى أبغضك في الله تعالى، قال: يا أبا عبد الرحمن لم؟^(١) قال: لأنك تبغى في أذانك وتأخذ عليه أجراً.

وكان أبو بكر الآجري رحمه الله يقول: خرجت من بغداد وما يحل لي المقام بها، قد ابتدعوا في كل شيء حتى في قراءة القرآن وفي الأذان. وكان يعنى بذلك: قراءة الإدارة والتلحين. وقدم علينا مكة في سنة ثلاثين وثلاث مائة^(٢).

ومن جمل ما أحدث الخلف فخالقوا به سنن السلف: أنهم شددوا في أشياء كان السلف يسهلون فيها، وسهّلوا أشياء كان السلف يشددون فيها. فمثلهم في ذلك كالخوارج^(٣)؛ شددوا في الصغائر من الذنوب، وسهّلوا في الآثار والسنّة، وفي ترك مذهب الجماعة حتى فارقوهم.

(١) في (ك): «ولم يا سيدى؟».

(٢) كلمة «وثلاث مائة» ساقطة من (ط) وهى من (ك).

(٣) في (ك): «فما أشبههم في ذلك إلا بمثل الخوارج».

فمِمَّا شَدَّدَ فِيهِ الْخَلْفُ مِمَّا كَانَ السَّلَفُ يَسْهَلُونَهُ كَتَبَ الْأَحَادِيثَ مِنْ أَنْوَاعِ طُرُقِهَا، وَتَتَّبَعَ الْغَرَائِبَ مِنْ طُرُقَاتِهَا، وَتَحَرَّى الْأَلْفَاظَ فِيهَا، وَقَدْ قَالَ ابْنُ عَوْنٍ: أَدْرَكْتُ ثَلَاثَةً يَرْخِصُونَ فِي الْمَعَانِي: إِبْرَاهِيمَ، وَالشَّعْبِيَّ، وَالْحَسَنَ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى.

وَعَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ وَالصَّحَابَةِ التَّوَسُّعُ فِي مَعَانِي الْأَحَادِيثِ، وَإِنْ لَمْ يُوَدَّ أَلْفَاظُهَا.

وَمِنْ ذَلِكَ: تَجْرِيدُ الْحُرُوفِ، وَتَحَرُّى الْقُرْئِ الْوَاحِدِ فِي جَمِيعِ اخْتِيَارِهِ، حَتَّى كَانَهُ فُرِضَ عَلَيْهِ.

وَمِنْ ذَلِكَ: التَّدْقِيقُ فِي الْقِيَاسِ وَالنَّظَرِ، وَالتَّبَحُّرُ فِي عُلُومِ النُّحُوِّ وَالْعَرَبِيَّةِ. كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَهَمَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: أَعْرَبْنَا فِي الْكَلَامِ فَلَمْ نَلْحَنَ وَلَحْنَا فِي الْأَعْمَالِ، فَيَا لَيْتَنَا لَحْنَا فِي الْكَلَامِ وَأَعْرَبْنَا فِي الْأَعْمَالِ.

وَذُكِرَتْ «الْعَرَبِيَّةُ»^(١) عِنْدَ الْقَاسِمِ بْنِ الْمَخِيمَةِ فَقَالَ: أَوَّلُهَا كِبَرٌ وَآخِرُهَا بَغْيٌ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: النُّحُوُّ يَذْهَبُ الْخُشُوعَ مِنَ الْقَلْبِ. وَقَالَ آخَرُ: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَزْدَرِيَ النَّاسَ كُلَّهُمْ فَلْيَتَعَلَّمِ الْعَرَبِيَّةَ^(٢).

وَشَدَّدُوا فِي الطَّهَارَةِ بِالْمَاءِ، وَتَنْظِيفِ الثِّيَابِ، وَكَثْرَةِ غَسْلِهَا مِنْ عِرْقِ الْجَنْبِ، وَلُبْسِ الْحَائِضِ، وَمِنْ أُرُوَاثِ مَا يُؤْكَلُ لَحْمُهُ وَأَبْوَالُهُ، وَغَسْلِ الْيَسِيرِ مِنَ الدَّمِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَكَانَ السَّلَفُ يَرْخِصُونَ فِي هَذَا كُلِّهِ.

وَمِمَّا سَهَّلُوهُ مِمَّا كَانَ السَّلَفُ يَشَدِّدُونَ فِيهِ: أَمْرُ الْمَكَاسِبِ، وَتَرْكُ التَّحَرُّى فِيهَا، وَالْكَلَامُ فِيهَا لَا يَعْنَى، وَالْخَوْضُ فِي الْبَاطِلِ، وَالْغِيَّةُ وَالنَّمِيمَةُ وَالِاسْتِمَاعُ إِلَيْهِمَا، وَالْعَقْدُ عَلَى الْبَلَاغَاتِ^(٣)، وَسُوءُ الظَّنِّ لِأَجْلِهَا، وَهُوَ اشْتِرَاكٌ فِي النَّمِيمَةِ [وَاسْتِمَاعٌ إِلَيْهَا]^(٤). وَكُلُّ بَلَاغَةٍ تَزِيدُ وَتَنْقُصُ: إِنْ كَانَ شَرًّا زِدَتْ فِيهِ، وَإِنْ كَانَ خَيْرًا نَقَصَتْ مِنْهُ.

(١) يَقْصِدُ «عِلْمَ الْعَرَبِيَّةِ».

(٢) لَيْسَ هَذَا الْكَلَامُ عَلَى إِطْلَاقِهِ عِنْدَهُمْ، بَلْ هُوَ مُرْتَبِطٌ بِأَحْوَالٍ وَمُنَاسِبَاتٍ خَاصَّةٍ بِهِمْ.

(٣) فِي (ك): «وَالْعَمَلُ عَلَى الْبَلَايَاتِ، وَهُوَ اشْتِرَاكٌ... إلخ».

(٤) زِيَادَةٌ مِنْ (ك).

وسهّلوا فى النظرِ إلى الزورِ واللّهوِ ومجالسةِ البطّالينَ، والمشىِّ فى أسبابِ الهوى، والتعصبِ، وشدةِ الحرصِ على الدنيا؛ وهذا كلّهُ كان السّلفُ يشدّدون فيه.

ومما أحدثوا: دخولُ النساءِ الحمامَ من غيرِ ضرورة، ودخولُ الرجلِ بغيرِ مئزرٍ، وهو فسقٌ. وسُئِلَ إبراهيمُ الحربى رحمه الله تعالى عمّن يشربُ النيذَ ولا يسكّرُ أَيْصَلَّى خلفه؟ قال: نعم. قيل: فمَنْ دخلَ الحمامَ بغيرِ مئزرٍ، فقال: لا يُصَلَّى خلفه. هذا، لأنَّ شُرْبَ النيذِ يُخْتَلَفُ فيه إذا لم يسكّرْ، ودخولُ الحمامِ بغيرِ مئزرٍ محرمٌ بإجماعٍ. وكان بعضُ العلماء يقول: يحتاجُ داخلُ الحمامِ إلى مئزرين: مئزرٍ لوجهه، ومئزرٍ لعورته، وإلا لم يَسَلَمَ فى دخوله. وكان ابنُ عمرَ يقول: الحمامُ من النعيمِ الذى أحدثوه.

ومن المنكرِ فى الحمامِ تولّى القيمَ لعورةِ الرجلِ المسلمِ فى الإطلاء بالنّورة^(١). وقد كان من هذى العلماء فى قعودهم أن يجتمعَ أحدهم فى جِلْسَتِهِ فيَنصَبُ ركبتيه، ومنهم من يقعدُ على قدميه ويضعُ مِرْفَقِيهِ عَلَى ركبتيه. كذلك كان شمائلُ كلٍّ من تكلمَ فى هذا العلمِ خاصّةً من عهدِ أصحابِ رسولِ الله ﷺ، ومن زمنِ الحسنِ البصرى؛ وهو أوّلُ مَنْ أظهرَ هذا العلمَ، وفَتَقَ الألسنَ به، إلى وقتِ أبى القاسمِ الجنيدِ، قبل أن تظهرَ الكراسى.

وكذلك روى عن رسولِ الله ﷺ: «أنه كان يقعدُ القُرْفُصَاءَ وَيَحْتَبِي بِيَدَيْهِ». وفى رواية أخرى: «أنَّهُ كان يقعدُ على قدميه ويجعلُ مِرْفَقِيهِ عَلَى ركبتيه».

وأوّلُ مَنْ قعد على كرسىٍّ من أهلِ هذا العلمِ يحيى بنُ معاذٍ رحمه الله تعالى بمصر، وتبعه أبو حمزة ببغداد، فعابَ الأشياخُ عليهما ذلك، ولم يكن ذلك من سيرةِ العارفين الذين يتكلّمون فى علمِ المعرفةِ واليقين، إنما كان يجلسُ متربّعاً النحويون واللغويون وأبناءُ الدنيا مِنَ العلماءِ المفتين، وهى جِلْسَةُ المتكبرين. ومن التواضعِ الاجتماعُ فى الجِلْسَةِ^(٢).

(١) النورة: أخلاط من أملاح تستعمل لإزالة الشعر.

(٢) فى (ك): «فى الحَلْفَةِ».

ذكر تفصيل العلوم، معروفةها ومنكرها، قديمها ومحدثها

اعْلَمْ أن العلوم تسعة: أربعة منها سَنَّة معروفة من الصحابة والتابعين، وخمسة مُحدثة لم تكن تُعرف فيما سَلَف.

فأما الأربعة المعروفة: فعِلْمُ الإيمان، وعِلْمُ القرآن، وعِلْمُ السنن والآثار، وعِلْمُ الفتاوى والأحكام.

وأما الخمسة المحدثّة: فالنحو والعروض، وعِلْمُ المقاييس، والجدل في الفقه، وعِلْمُ المعقول بالنظر، وعِلْمُ علل الحديث وتطريق الطرق فيه وتعليل الضعفاء وتضعيف النقلة للآثار، فهذا العِلْمُ من المحدث إلا أنه عِلْمُ لأهله فيسمعه أصحابه منهم.

وقد كانوا يروْنَ القصص بدعةً وينهون عنه ويكرهون مجالسة القصّاص. قال بعض العلماء: نعم الرجل فلان لولا أنه يقص.

وقال بعض هذه الطائفة: مثل أصحاب الحكايات في أهل المعرفة مثل القصّاص في الفقهاء.

وقال آخر: مثل القصّاص في العلماء مثل أهل السواد في أهل المدن.

فأما أكل الدنيا بالدين، وأخذها على الصلاح، وبيع العلم بالدنيا، والتصنع والتزيّن للعموم - فمن قبيح ما أحدث. وهو أظهر من أن يُستدل^(١) على فساده عند من عرّف ظاهر العلم. وقد سمى هؤلاء في زماننا هذا الجاهلون بالعلم علماء، وجعلهم الناقصون عن الفضل فضلاء؛ لقلّة معرفتهم بطريق المتقدمين، وعدم بصيرتهم بحقيقة علم الدين.

واعلم أن الكلام ينقسم عندنا سبعة أقسام: العلم منه قسم واحد، وسائر الستة لغو مطّرح يلتقطه من لا يعرفه، ولا يفرق بين العلم والجهل، والعرب تقول:

(١) في (ط): «من أن يدل».

«لكلِّ ساقطة لاقطة»^(١)، و«لكلِّ قائلة ناقلَة». فالستة: إفك، وسفه، وخطأ، وظن، وزخرف، ووسوسة. فهذه أسماؤها عند العلماء، يفصلون ذلك بما فصل الله تعالى لهم من بيانه، واستحفظهم من كتابه، وجعلهم شهداء على دينه وعباده.

فالقسم السابع من الكلام هو ما عدا هذه الستة، ولم يقع عليه اسم منها مذموم، فهو علم، وهو نص القرآن والسنة، أو ما دلاً عليه، واستنبط منهما، أو وجد فيهما اسمه ومعناه من قول وفعل.

والتأويل - إذا لم يخرج عن الإجماع - داخل في العلم والاستنباط، إذا كان مستودعاً في الكتاب، يشهد له المجمل ولا ينفيه النص، فهو علم. وقد كان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: أنتم اليوم في زمان الهوى فيه تابع للعلم، وسيأتي عليكم زمان يكون العلم فيه تابعاً للهوى.

وقد جمع الله تعالى بين رونق العقل ومُتعة الدنيا بتسمية الزخرف فقال تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ أَتَّوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ * وَزُخْرُفًا﴾ [الزخرف: ٣٤ - ٣٥]، وكما قال: ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، فذهاب الجاهل بالاستحسان لزخرف القول من المموءة من علماء الدنيا كمتعة الجاهل من أبناء الدنيا بزخرف الذهب، ذاهباً عن حقيقة الأمر، والزخرف ما يموء به على الذهب، فيشبه به، يحسبه الجاهل والصبي عين الذهب. كذلك الزخرف من القول: ما يموء ويشبه على العلم، يحسبه المستمع من الجهال علماً، فلذلك جمع بينهما في التسمية الزخرف.

وقد قيل: إن الزخرف هو الذهب^(٢)، فعلى هذا شبه قول الغرور بالذهب، الذي يذهب بقاءه وتقل حقيقة عند الربانيين وأهل الحقيقة الزاهدين، إذ شبهه الأنبياء والصديقون بالحجر والمدر.

وكان الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه يقول: تركوا العلم وأقبلوا على

(١) من أمثال العرب، انظر: مجمع الأمثال، للميداني، ٩٤/٢، وجمهرة الأمثال، للعسكري،

٢٠٧/٢، ومعناه: «لكل كلمة رديئة دنيئة متحفظ» ودخلت الهاء على «لاقطة» ليصح الازدواج.

(٢) هذا قول ابن عباس وغيره، انظر: تفسير القرطبي ٨٧/١٦.

الغِراسِ . ما أَقْلَ العلمَ فيهِمْ ! والله المستعان .

وقال الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه : لم يكنِ الناسُ - فيما مضى - يَسْأَلُونَ عن هذه الأمورِ ، كما يَسْأَلُ الناسُ اليومَ ، ولم يكنِ العلماءُ يقولون حرام ولا حلال في أكثرِ الأمورِ ، أدركتُهُم يقولون : مستحبٌّ ومكروه . وكان مالكٌ كثيرَ التوقُّفِ في الأجوبةِ إذا سُئِلَ ، ويكثرُ أن يقول : لا أدري ! سَلْ غيرى .

وقال رجلٌ لعبد الرحمن بن مهدى : ألا ترى إلى قولِ فلانٍ في العلم : حلال وحرام ، وقَطَعَهُ في الأمورِ بعلمه - يعنى : رجلاً من أهلِ الرأى - وإلى قولِ مالك إذا سُئِلَ : أَحَسَبُ [أَحْسَبُ] ^(١) ؟ فقال عبد الرحمن : ويلك ! قولُ مالكٍ أَحَسَبُ أَحَسَبُ أَحَبُّ إلىَّ من قولِ فلان : أشهدُ أشهدُ .

وكان هشامُ بنُ عروة يقول : لا تسألُوهم اليومَ عما أحدثُوا ، فإنَّهُم قد أعدُّوا له جوابًا ، ولكن اسألُوهم عن السننِ فإنَّهُم لا يعرفونها .

وكان الشَّعْبِيُّ رحمه الله تعالى إذا نظر إلى ما أحدث الناسُ من الرأى والهوى يقول : لقد كان القعودُ في هذا المسجدِ أَحَبَّ إلىَّ مما يُعَدُّ به ، فمُذْ صارَ فيه هؤلاء المراءون فقد بغَّضُوا إلىَّ الجلوسَ فيه ، ولأنَّ أقعدُ على مزبلةٍ أَحَبُّ إلىَّ من أن أجلسَ فيه . وكان يقول : ما حدثوك عن السننِ والآثارِ فخذُ به ، وما حدثوك عما أحدثُوا من رأيهم فامخطُ عليه . وقد قال مرةً : فَبُلْ عليه .

وقد كان السلفُ يستحبُّونَ العِيَّ والبَلَّةَ عن علومِ المعقولِ .

وقد جعلهُ رسولُ الله ﷺ من الإيمان ؛ إذ قرَّنه بالحياءِ فقال : «الحياءُ والعِيُّ شعبتانِ من الإيمانِ ، والبذاءُ والبيانُ شعبتانِ من النفاقِ» .

وقال ﷺ : «أبغضُ الخلقِ إلى الله عزَّ وجلَّ البليغُ الذى يتخلَّلُ الكلامَ بلسانه كما تتخلَّلُ الباقرةُ الخَلَى بلسانها» يعنى : الحشيش الرطب . وقال فى حديث آخر : «العِيُّ عِيُّ اللسانِ لا عِيُّ القلبِ» . وقال : «إنَّ الله عزَّ وجلَّ كرهَ لكمُ البيانَ كلَّ البيانِ» .

فَصَارَ الْفَقْهُ إِنَّمَا هُوَ فَقْهُ الْقَلْبِ عَنِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَصَارَ فَقْهُ اللِّسَانِ بِالْبَيَانِ إِنَّمَا هُوَ عَنِ الْقَلْبِ عَنِ الشَّهَادَةِ وَالْإِيْقَانِ. وَعَنِ اللِّسَانِ وَطَوَّلَ الصَّمْتُ الَّذِي كَانَ يَسْتَحِبُّهُ السَّلَفُ هُوَ الْيَوْمَ عَيْبٌ.

وَمِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ مَنْ لَا يَعْرِفُ أَنَّ كَلَامَ الْبَدْعِ وَعِلْمَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِي ذَمَّهُ الْقَدَمَاءُ هُوَ الْيَوْمَ سُنَّةٌ، وَأَنَّ أَهْلَ النَّطْقِ بِهِ هُمُ الْعُلَمَاءُ الْيَوْمَ. وَلَقَدْ صَارَ الْمَعْرُوفُ مُنْكَرًا وَالْمُنْكَرُ مَعْرُوفًا، وَصَارَتِ السُّنَّةُ بَدْعَةً وَالْبَدْعَةُ سُنَّةً. وَكَذَلِكَ جَاءَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ فِي وَصْفِ عُلَمَاءِ آخِرِ الزَّمَانِ. وَفِي الْخَبَرِ الْمَشْهُورِ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبْغِضُ الثَّرَاثِينَ الْمُتَشَدِّقِينَ». فَمَنْ غُلِبَ عَلَيْهِ هَذَا الْوَصْفُ فَكَانَ مُتَشَدِّقًا بَلِيغًا فِي عِلْمِ الرَّأْيِ وَالْمَعْقُولِ، عَنِ الْقَلْبِ عَنِ مَشَاهِدَةِ الْيَقِينِ وَعِلْمِ الْإِيمَانِ، كَانَ إِلَى النِّفَاقِ أَقْرَبَ، وَمِنْ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ أَبْعَدَ.

وَقَدْ كَانَ أَبُو سَلِيمَانَ الدَّارَانِيُّ يَقُولُ: لَا يَنْبَغِي لِمَنْ أُلْهِمَ شَيْئًا مِنَ الْخَيْرَاتِ أَنْ يَعْلَمَهُ^(١) حَتَّى يَسْمَعَ بِهِ فِي الْأَثَرِ، فَيَحْمَدُ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا وَافَقَ مَا فِي نَفْسِهِ. وَقَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: مَا قَبِلْتُ خَاطِرًا مِنْ قَلْبِي حَتَّى يَقِيمَ لِي شَاهِدِي عَدْلٍ مِنْ كِتَابٍ وَسُنَّةٍ.

وَكَانَ إِمَامُنَا أَبُو مُحَمَّدٍ سَهْلٌ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَكُونَ فِيهِ هَذِهِ الْأَرْبَعُ: أَدَاءُ الْفَرَائِضِ بِالسُّنَّةِ، وَأكْلُ الْحَلَالِ بِالْوَرَعِ، وَاجْتِنَابُ النَّهْيِ مِنَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، وَالصَّبْرُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى الْمَمَاتِ.

وَقَدْ كَانُوا يَعْيُونَ عَلَى مَنْ تَكَلَّمَ بَعْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَانُوا يُخْرِجُونَ الْمُتَحَدِّثِينَ مِنَ الْمَسَاجِدِ فَلَا يَبْقَى فِيهِ إِلَّا مُصَلٍّ أَوْ ذَاكِرٌ لِلَّهِ تَعَالَى.

وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ يَسْتَغْظِمُونَ يَسِيرَ الْحَدِيثِ فِي الدِّينِ وَدَقَائِقَ الْبَدْعِ فِي الْإِسْلَامِ؛ لِعَظَمِ الْإِيمَانِ وَالسُّنَّةِ فِي قُلُوبِهِمْ، وَلِمَعْرِفَتِهِمْ بِحَقِيقَةِ الْمَعْرُوفِ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَغْفَلٍ لِابْنِهِ، وَقَدْ سَمِعَهُ يَقْرَأُ خَلْفَ الْإِمَامِ: يَا بَنِيَّ، إِيَّاكَ وَالْحَدَّثَ إِيَّاكَ وَالْحَدَّثَ.

(١) فِي (ط): «يَعْمَلُهُ» وَآثَبَتْ مَا فِي (ك).

وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لابنه عمر، وقد سمعه يسجع في كلامه: هذا الذي يُبغضك إليّ، لا قضيت حاجتك أبداً - وكان قد جاءه يسأله حاجة له - سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أوتي أمرؤ شراً من طلاقه في لسانه».

وقال ﷺ لابن رواحة حين سمعه سجع فوالى بين ثلاث، قال: «إياك والسجع يا ابن رواحة». فكان السجع ما زاد على كلمتين. وكذلك قال رسول الله ﷺ للرجل الذي أمره بديّة الجنين، لما قال: كيف ندى من لا شرب ولا أكل ولا صبح ولا استهلّ، فمثل هذا يُطلّ^(١). فقال رسول الله ﷺ: «أسجع كسجع الأعراب؟».

وروي أن مروان لما أحدث المنبر في صلاة العيد عند المصلّى، قام إليه أبو سعيد الخدري فقال: يا مروان ما هذه البدعة؟ فقال: إنها ليست بدعة، هي خير مما تعلم. إن الناس قد كثروا فأردت أن يبلغهم الصوت. قال أبو سعيد رضي الله عنه: لا تأتون بخير مما أعلم أبداً، والله لا صليت وراءك اليوم. فانصرف ولم يصل معه صلاة العيد.

فالخطبة على منبر في صلاة العيد وخطبة الاستسقاء بدعة. وكان عليه الصلاة والسلام يخطب فيهما على الأرض متوكئاً على قوس أو عصاً.

وروي: «أن عمر رضي الله عنه أخر صلاة المغرب ليلة حتى طلع نجم فأعتق رقبة». وفعله عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أيضاً فأعتق رقبة، استئناً بعمر وهو جدّه لأمه. وروينا عن ابن عمر رضي الله عنهما «أنه أخر صلاة المغرب حتى طلع كوكبان، فأعتق رقتين». وفي الخبر: «لا تزال أمتي على مسكة^(٢) من دينها ما لم يؤخروا صلاة المغرب إلى اشتباك النجوم، تشبهاً باليهودية، ولم يؤخروا صلاة الصبح إلى افتراق النجوم، تشبهاً بالنصرانية».

وقال سفيان الثوري رحمه الله ويوسف بن أسباط: لا تقلّد دينك من لا دين له. وقال وكيع: لأن أزنّى أحب إليّ من أن أسأل مبتدعاً عن ديني. وكان الإمام

(١) يُطلّ: يُنقص من حقّه.

(٢) المسكة: ما يتمسك به، أو ما يُتبع به.

أحمدُ بنُ حنبلٍ رحمه الله تعالى قد أكثرَ عن عبيدِ الله بن موسى العَبْسِيِّ، ثم بلغه عنه أدنى بدعة، قيل: إنه كان يُقدِّمُ عليًّا على عثمان، وقيل: بل ذكرَ معاويةَ بسوءٍ. فانصرفَ أحمدُ ومزقَ جميعَ ما حملَ عنه ولم يحدثْ عنه شيئًا. وقيل له مرةً: يَا أبا عَبْدِ اللَّهِ، أوكيعُ أشبهُ بالسلفِ أم عبيدُ الله؟ فقال: وكيعٌ وإن زنى.

وحدثونا عن إبراهيم الحربيُّ قال: كتبتُ عن عليِّ بن المديني رضى الله عنه جُملاً لله تعالى على أن لا أحدثَ عنه بحرف. قيل: ولمَ يا أبا إسحاق؟ فذكرَ صلاته خلفَ مبتدعٍ. وكان رحمه الله تعالى يقول: صحبتُ الفقهاء وأصحابَ الحديثِ وأهلَ العربيةِ واللغةِ سبعين سنةً، ما سمعتُ هذه المسائلَ التي أحدثتُ في هذا الوقتِ من أحدٍ منهم قط. يعنى: الاسمَ والمسمى، ونحو ذلك. وقال: وأُخرجَ على مَنْ كانَ من أهلِ الكلامِ والجدلِ أن يحضرَ مجلسي، أو يسألني عن شيءٍ، فإنه لا علمَ لى بالكلام، ولا أنا أحسنه ولا أقول بأهله، ولو عرفتُ أحدًا منهم ما كلَّمته، ولا أجبتُه عن شيءٍ.

وهَجَرَ الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ رحمه الله تعالى أبا ثورٍ صاحبَ الشافعيِّ لما سئلَ عن معنى قولِ النبي ﷺ: «إن الله تعالى خلق آدمَ على صورته» قال: إن الهاءَ عائدةٌ على آدم، فغَضِبَ وقال: ويلهُ، وأى صورةَ كانتْ لآدمَ يخلقهُ عليها؟ ويلهُ، يقول: إن الله تعالى خلقَ على مثالٍ، فأى شيءٍ يَعْمَلُ في الحديثِ المفسر: «إن الله تعالى خلقَ آدمَ على صورةِ الرحمن»؟ فبلغ ذلك أبا ثورٍ فجاءه واعتذر وحلفَ أنه ما قلتُ عن اعتقادٍ، وإنما هو رأى رأيتُهُ، والقول ما قلتُ، وهو مذهبي.

وهَجَرَ أيضًا حارثًا المحاسبى رحمه الله تعالى فى ردِّه على المبتدعة - وكان من أهل السنة - فقال: أين تردُّ عليهم وقد حكيتَ قولهم؟ وأيضًا فإنك تحملُهم على التفكُّر والرأى فيما قلتُ، فيكونُ سببًا لردِّ الحقِّ بالباطل. وهَجَرَ أيضًا يحيى بن معين فى كلمةٍ تكلمَ بها، وهو قوله: لو أعطانى الشيطانُ شيئًا أخذته.

وقال مالكُ بن أنس رضى الله عنه: ليس من السنَّة أن تجادلَ عن السنَّة، ولكنْ تخبرَ بها، فإن قُبِلَ منك وإلا فاسكتُ.

وقيل لعبدِ الرحمن بن مهدي رضى الله عنه: إن فلانًا يردُّ على المبتدعة، فقال:

بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ؟ قالوا: لا، بل بالمعقول. قال: بئسما صنع، ردَّ بدعةً بدعةً.

وحدث زيد بن أحمز عن وهب بن جرير قال: سمعتُ شعبةَ رحمه الله تعالى يقول: أتيت الحارثَ العكليَّ فقلت: ما معنى قولِ النبي ﷺ: «إِذَا تَبِعَ أَحَدُكُمْ جَنَازَةً فَلَا يَجْلِسُ حَتَّى تَوْضَعَ»؟ قال: أرأيتَ إن جئنا ولم يُحْفَرْ لَهُ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَقُومَ قِيَامًا؟ فحيثُ قالَ لي: أرأيتَ، تركته.

وروى محمود بن غيلان أيضًا، عن وهب أيضًا، عن شعبة قال: «أتيتُ المنهالَ ابنَ عمرو أسأله عن حديث، فسمعتُ من منزله صوتَ طنبور^(١)، فرجعتُ ولم أسأله، ثم ندمتُ بعد ذلك فقلت: هلا سألتَه فعسى كان لا يعلمُ به.

ومما أحدثوا: البيعُ والشراءُ على الطريق، وكان الورعون لا يشترون شيئًا ممن قعدَ يبيعه على طريق.

وكذلك إخراجُ الرّواشين من البيوت، وتقديمُ العضائد بين يدي الخوانيتِ إلى الطريقِ مكروه^(٢).

ومما كرهه أهلُ الورع: البيعُ والشراءُ من الصبيان؛ لأنهم لا يملكُون، وكلامُهم غيرُ مقبول.

وحدثتُ عن أبي بكر المروزي أن شيخًا كان يجالسُ الإمامَ أحمدَ بن حنبل رحمه الله تعالى ذا هيئة، فكان أحمدُ يقبلُ عليه ويكرمه، فبلغه عنه أنه طينَ حائطَ

(١) آلة من آلات اللعب واللهو.

(٢) عبارة (ك): «وتقديم العضائد في الأسواق إلى الطرقات مكروهة». والروشن، كما في اللسان (رشن): «الرّف. والروشن: الكوة». وفي كتاب المغنى لابن قدامة (٣١/٧)، نشرة هجر، ما نصه: «ولا يجوز أن يشرع إلى طريق نافذ جناحًا؛ وهو الرّوشن، يكون على أطراف خشبة مدفونة في الحائط، وأطرافها خارجة في الطريق، سواء كان ذلك يضر في العادة أو لا يضر». والعضائد: مثله «وهو ما شدّ من حوالى البناء كالصفائح المنصوبة حول شفير الحوض».

وفي المغنى ثم جملة طيبة من هذه الآداب الإسلامية التي لا غنى عنها للمجتمع مما ذكره أبو طالب هنا، راجعه ثم، كتاب الصلح ٥/٧ - ٥٥.

داره من خارج. قال: فأعرضَ عنه في المجلس، فاستنكرَ الشيخُ ذلك فقال: يا أبا عبد الله، هل بلغكَ عنيَ حدثٌ أحدثُهُ؟ قال: نعم طيّنتَ حائطَكَ من خارج. قال: أو لا يجوز؟ قال: لا؛ لأنَّكَ قد أخذتَ منَ طريقِ المسلمينَ أثمَلَةً. قال: فكيف أصنع؟ قال: إمّا أن تَكشُطَ ما طيّنته وإمّا أن تهدمَ الحائطَ وتؤخرَهُ إلى وراءِ مقدارِ أصبعٍ ثمَّ تطينه من خارج. قال: فهدمَ الرجلُ الحائطَ، وأخرَهُ أصبُعًا، ثم طينه من خارج. قال: فأقبل عليه أبو عبد الله كما كان.

ومما كرهَهُ السلفُ طَرَحُ السَّنورِ والدَّابةِ على المزابلِ في الطرقات، فيتأذى المسلمون بروائح ذلك. وكان شريحٌ وغيره إذا ماتَ لهم سنور دفنوها في دُورهم. ومثله إخراجُ الميازيبِ وصبُّها إلى الطرقات. وكان الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ رحمه الله وأهلُ الورع يجعلون ميازيبَهُم إلى داخلِ دُورهم.

وقال إبراهيم النخعي رحمه الله: كانَ أحدهمُ يكذبُ مرتينِ ولا يشعُرُ، يقولُ لشيءٍ لا شيءٌ، ولشيءٍ ليس بشيءٍ^(١). يعني: قولُ الناسِ للشيءِ اليسيرِ الذي لا يوصفُ بكثيرٍ: لا شيءٌ، فاستعظمَ هذا ورآه كذبًا مرتينِ.

ورويانا عن عمر رضى الله عنه أَنَّهُ قَالَ لِعَوَانَةَ: كُنْتُ أُرْثِي لَكَ مِنَ الْعَمَى فَصُرْتُ الْآنَ أَغْبَطَكَ بِهِ. قال: وكيف؟ قال: صُرْتُ لَا تَرَى أَبَا الصَّغْرَى بِعَيْنَيْكَ. مبتدع كانَ بالمدينة.

وقيل لقتادة: تَوَدُّ لَوْ أَنَّكَ بَصِيرٌ؟ فقال: لا، عَلَى مَنْ كُنْتُ أَفْتَحُ عَيْنِي؟ بَلْ لَوْ كَانَ فِي وَقْتِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ.

وحدثونا عن الفضلِ بنِ مهران قال: قلتُ لِيَحْيَى بنِ معينٍ: أخ لى يقعدُ إلى القُصَّاصِ، فقال: انههُ، فقلتُ: لَا يَقْبَلُ. قال: عَظُهُ، قلتُ: لَا يَقْبَلُ أَهْجَرُهُ؟ قال: نعم. قال: فَأَتَيْتُ الْإِمَامَ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ فَذَكَرْتُ لَهُ نَحْوَ ذَلِكَ فَقَالَ: قُلْ لَهُ يَقْرَأُ فِي الْمَصْحَفِ وَيَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى فِي نَفْسِهِ، وَيَطْلُبُ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قلتُ: فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ، قال: بلى، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، فَإِنْ هَذَا الْجَمَاعَ مَحْدَثٌ.

(١) في (ط): «يقول: لا شيء إلا شيء، ليس بشيء» وأثبت ما في (ك).

قلت: فإن لم يقبل أأهجره؟ فتبسّم وسكت. وسأل رجلٌ بشرَ بنَ الحارثِ رحمه الله تعالى عن مسألة من علم القلوب فتوقّف، ثم أجابه. ثم سأله مسألةً أخرى من علم المعاملات، فسكت، ونظرَ إليه ثم قال: مَنْ تجالسُ من الناس؟ فقال: منصور بن عمار، وابن السماك. فقال: ألا تستحي تسألنا عن علم القلوب ثم تجالسُ القصّاص؟ قال: وأعرضَ عنه حتى قلنا له: يا أبا نصر إنه لا بأسَ به، إنه من أهل السنة.

وقد كانوا يكرهون الصلاة في المقصورة، ويرون أنها أولُ بدعة أحدثت في المساجد. ويكرهون تزويق المساجد وكذا القبلة بالزخرف، وتحلية المصاحف، وهذا من البدع. وفي الخبر: «إذا ما زخرفتُم مساجدكم، وحلّيتُم مصاحفكم، فالدِّبارُ»^(١) عليكم.

وقد كانوا يكرهون كثرة المساجد في المحلة الواحدة. وروى أن أنسَ بن مالك رضى الله عنهما لما دخل البصرة جعل كلّما خطأ خطوتين رأى مسجدًا. فقال: ما هذه البدعة؟ لما كثرت المساجد قلّ المصلّون. أشهد لقد كانت القبيلة بأسرها ليس فيها إلا مسجدٌ واحدٌ، وكان أهل القبائل يتبانون المسجد الواحد في الحى من الأحياء.

واختلفوا في أيّهما يُصلّى إذا اتفق مسجدان في محلة. فمنهم من قال: في أقدمهما. وإليه ذهب أنس بن مالك وغيره من الصحابة. قال: وكانوا يجاوزون المساجد المحدثّة إلى المساجد العتيق. وكان الحسن يقول: يُصلّى في أقربهما منه. ويقال: أول ما حدث من البدع أربع: الموائد، والمناخل، والأشنان، والشبّع.

وكانوا يكرهون أن تكون أوانى البيت غير الخزف، ولا يتوضأ أهل الورع في آنية الصّفَر والنُّحاس. قال الجنيد: قال لى سريّ السقطي: اجتهد أن لا تستعمل من آنية بيتك إلا جنسك. يعنى من الطين. ويقال: لا حسابَ عليه.

(١) أى الهلاك.

ومما كرهه السلف: تشييدُ البناءِ بالحصِّ والآجر. يقال: أول من طبخ الطينَ هامان، أمره به فرعون. ويقال: هو بناء الجبابة.

وكرهوا النقوش والتزويق في السقوف والأبواب، وكانوا يغضون من النظر إلى ذلك. وغاب الأحنف بن قيس غيبةً، فرجع وقد خضروا سقف بيته وصفروه، فلما نظر إليه خرج من منزله وحلف أن لا يدخله حتى يقلعوا ذلك منه، ويُعيدوه كما كان.

وقال يحيى بن معاذ من أصحاب الثوري رحمه الله: كنتُ أمشي مع الثوري في طريقٍ فمررنا ببابٍ منقوشٍ مزوقٍ فنظرتُ إليه، فجذبني سفيانٌ حتى جُزْتُ، فقلت: ما تكره من النظر إلى هذا؟ فقال: إنما بنوه لينظر إليه، ولو كان كل من مر به لا ينظر إليه ما بنوه. فكأنه خشي أن يكون بنظره إليه معاونًا له على بنائه.

ومما أحدث الناس مما كانوا يكرهونه: الثياب الرقاق، مثل القصب ورقيق بز مصر للنساء والرجال، وهو للنساء أكره وأغلظ، وكانوا يقولون: الثياب الرقاق لباسُ الفساق، ومن رق ثوبه رق دينه. ويقولون: أول النسك الزى.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لا يشبه الزى الزى حتى يشبه القلب القلب. وخطب بشر بن مروان وعليه ثوب رقيق، فجعل رافع بن خديج رضي الله عنه يهزأ به ويقول: انظروا إلى أميركم يعط الناس وعليه ثياب الفساق.

ولما جاء عبد الله بن عامر بن ربيعة في بزته إلى أبي ذر رضي الله عنه وسأله عن الزهد، وأخذ يتكلم فيه، فجعل أبو ذر يضرب به في كفه، ثم أعرض عنه ولم يكلمه. فغضب ابن عامر، وكان قرشيًا شريفًا، وشكاه إلى ابن عمر رضي الله عنهما، فقال له: أنت فعلت بنفسك، تأتي أبا ذر في هذه الثياب وتسأله عن الزهد.

وفى الخبر عن رسول الله ﷺ وقد وصف نساء يكن في آخر الزمان فقال: «كاسيات عاريات مائلات مميلات على رؤوسهن أمثال أسنمة البقر - يعنى المعاجر والأكوار - لا يجدن رائحة الجنة».

وكان ابن عباس يفسر التبرج أنه لبس ما رق من الثياب، وقال في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣] قال: كانت المرأة تلبس ثياباً قيمتها كذا وكذا، لا توارى لها عورة عما لا يجوز فيه الصلاة؛ لأنه يصف أو يشف، فمكروه لبسه. وإنما كانت ثياب السلف: السنبلائي، والقطوانى، وعصب اليمى، ومعاقرى مصر، والقباطى؛ مثل كسوة الكعبة، والثياب السحولية اليمانية، والكرابيس الحضرمية؛ وهذه كلها غلاظ كثيفة. وكانت الأثمان من خمسة دراهم إلى ثلاثين درهماً وما بين ذلك. ثم أحدث الناس الثياب الرقاق من كتان مصر، وقطن خراسان. وكان طول منزر رسول الله ﷺ أربعة أذرع ونصفاً، وثمانه إلى الأربعة والخمسة. وكانت أثمان ثيابهم القمص من الخمسة إلى العشرة وفيما بينهما من الثمن.

ولكن قد جاء فى الخبر: «لا تقوم الساعة حتى يصير المعروف منكراً والمنكر معروفاً». وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول: «لا يأتى على الناس عام إلا أماتوا فيه سنة وأحيوا فيه بدعة حتى تموت السن وتحيى البدع». وإنما قيل: منكر؛ لأنه لا يعرف، فإذا خفى الحق فلم يعرف وقع عليه اسم منكر. وكذلك قيل: معروف؛ لأنه مشهور مألوف. فإذا فشا الباطل وكثر الجهل حتى ألف وعرف وقع عليه اسم المعروف. وكذلك قيل: يكثر الجور حتى يولد فيه من لا يعرف العدل.

وكان الشعبى رحمه الله يقول: يأتى على الناس زمان يصلون فيه على الحجاج، وهذا قد أتى منذ زمان؛ لأن الحجاج قد ابتدع أشياء أنكرها الناس عليه فى زمانه هى اليوم سنن معروفة، وأعمال مستحسنة، يترحم الناس ويغبطون من أحدثها، ويحسبون أنه مأجور عليها، مشكور له سعيه فيها، إلا أنهم لا يعرفون أنه أحدثها. فهم وإن لم يفوهوا بالصلاة عليه قولاً^(١) فإن استعمالهم لما أحدث، واستحسانهم لما ابتدع، ترحم منهم عليه؛ والترحم هو الصلاة.

(١) فى (ك): «فهم وإن لم يفوهوا بذلك قولاً».

وأيضاً فإنه^(١) ابتدَعَ أشياء من الخير وداخله في أبواب الآخرة، ثم ظهرت ولاية بعده أحدثوا أحداثاً من الجور، وابتدعوا بدعاً من الفسوق، فصارت سنناً بعدهم. فوجب بذلك الصلاة على الحجاج إلى جنب ما أظهر بعده.

فمما أحدث: هذه المحامل والقباب التي خالف بها هدى السلف بالتنعم والرفاهية، وإنما كان الناس يخرجون على الرواحل والزوامل، فيصحبون للشمس، وينصبون في سبيل الله تعالى، ويشعثون ويغبرون، ويقل أكلهم ونومهم، وتكثر رفاهية الإبل، وتقل المشقة والحمل عليها، فيكون ذلك أثوب لهم، وأزكى لحجهم، وأدنى إلى السلامة لإبلهم، ويوافقون به سنة نبيهم ﷺ، فأخرجهم من جميع ذلك بما أدخلهم فيه من بدعته، فصاروا يخرجون في بيوت ظليلة مع الحمل على الإبل ما لا تطيق، فيكون سبب تلفها، فيشركونه فيه، ويشركهم بسنته^(٢).

وابتدع أيضاً هذه الأخماس، والعواشر، ورؤوس الآي، وحمّر السواد، وخضره، وصفره، فأدخل في المصحف ما ليس فيه من الزخرف. وكان السلف يقولون: جردوا القرآن كما أنزله الله تعالى، ولا تخلطوا به غيره. فأنكر العلماء ذلك عليه، حتى قال أبو رزين: يأتي على الناس زمان ينشأ فيه نشء يحسبون أن ما أحدث الحجاج في المصاحف هكذا أنزله الله تعالى. يذمه بذلك. وحتى نقل الاختلاف، وأن بعضهم كان لا يقرأ في مصحف منقوط بحمرة، لأن بعضهم كان لا يرى القراءة في مصحف منقوط. كما نقل أن بعضهم كان يرى شراء المصحف، ويكره بيعه. أي: فكذا إذا لم تنقطه أنت، فلا بأس أن تقرأ فيما نقطه غيرك.

وقد كانوا يكرهون أخذ الأجر على تنقيط القرآن؛ لأجل أنه مبتدع. وقال أبو بكر الهذلي: سألت الحسن رحمه الله عن تنقيط المصاحف بالأجر. قال: وما تنقيطها؟ قلت: يُعربون الكلم بالعربية. فقال: أما إعراب القرآن فلا بأس به. وقال خالد الحذاء: دخلت على ابن سيرين فرأيت يقرأ في مصحف منقوط، وقد

(١) أي: «الحجاج».

(٢) أي: يشركون معاً فيما ابتدعه الحجاج قديماً وحديثاً.

كان يكره النقط. وقال فراس بن يحيى: وجدت ورقة منقوطة بالنحو في سجن الحجاج فعجبت منه، وكان أول نقط رأيته، فأتيت به الشعبي فأخبرته، فقال لى: اقرأ عليه ولا تنقطه أنت بيدك.

ومنها: أنه جمع من القراء ثلاثين رجلاً فكانوا يعدون حروف المصحف ويعدون كلمه شهراً. ولو رآهم عمر أو عثمان أو على يصنعون هذا بالقرآن - أى يعدون حروفه وكلمه - لأوجع رؤوسهم ضرباً. وهذا الذى كرهته الصحابة، ووصفوا به قراء آخر الزمان أنهم يحفظون حروفه ويضيعون حدوده. وكان الحجاج أقرأ القراء وأحفظهم لحروف القرآن، كان يختم القرآن فى كل ثلاث، وكان أضيع الناس لحدوده.

ومنها: أنه ابتدع إخراج الحصى والرمل من المساجد وفرشها بالبوارى^(١). كما روى أن قتادة سجد، فدخلت فى عينه قصبه، وكان ضريراً، فقال: لعن الله الحجاج، ابتدع هذه البوارى يؤذى بها المصلين. وقد كانوا يستحبون السجود على الأرض والتراب تواضعاً لله تعالى وتخشعاً وذلاً.

إلى غير ذلك من بدعه التى لم نقصد تعديدها عليه ولا جمعها، فهى اليوم سنن معروفة وشرائع مألوفة، مع ما أحدث غيره مما يكثر عدده، منكر كله عند من عرف المعروف من سيرة المتقدمين وشمال الصالحين.

وقد قال ابن مسعود رضى الله عنه: يظهر المنكر والبدع، حتى إذا غير منها شىء قيل: غيرت السنة. وقال فى آخر حديثه: أكيسهم فى ذلك الزمان الذى يروغ بدينه روغان الثعالب. وقد كان أنس بن مالك رضى الله عنه فى سنة ثمانين وأيام الحجاج يقول: ما أعرف اليوم شيئاً كان على عهد رسول الله ﷺ إلا قد غير إلا شهادة أن لا إله إلا الله. قيل: فالصلاة يا أبا حمزة؟ قال: أو ليس قد أحدثوا فى الصلاة ما علمتم؟! يعنى تأخيرها والتشويب قبلها، وتعين السلام، حتى أنهم يضاهون به الإقامة فجعلوه كالسنة. وكان يقول للقراء إذا دخلوا عليه، مثل يزيد

(١) البوارى: الحصى من القصب.

الرقاشي، وزيايد النميري، وفرقد السنجي: ما أشبهكم بأصحاب محمد ﷺ! فيفرحون. فيقول: نعم، رؤوسكم ولحاكم. فهذا كما قال المجنون:

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحى غير نساها

وعن جماعة من الصحابة: لو نُشر أصحاب رسول الله ﷺ ورأوكم لما عرفوا شيئاً مما أنتم عليه الآن إلا الصلاة في جماعة. وفي لفظ آخر: إلا أنكم تصلون جميعاً. وكان الحسن يقول: صحبت طوائف لو رأيتموهم لقلتُ مجانين، ولو رأوا خياركم لقالوا: ما لهؤلاء من خلاق.

وقال أبو حازم: أدركتُ القراء وهم القراء حقاً، ولو كان حامل القرآن في مائة رجل لعرف بشدة تواضعه وحسن سمته وخشوعه، وقد وقَّره القرآن في سمته، وقد خضعه القرآن وأخشعه. فأما هؤلاء، فوالله ما هم بالقراء، ولكنهم الجراء. وقد قال بعضهم: كنا نشهد الجنائز فلا نعرف صاحب المصيبة، ولا ندرى من نعزى من شدة حزن القوم. قال: وكان أحدهم يبقى بعد شهود الجنائز ثلاثاً لا ينتفع به.

وكان الفضيل رحمه الله يحذر من قراء زمانه فقال: إياك وصحبة هؤلاء القراء، فإنك إن خالفتهم في شيء كفروك. وقال سفيان الثوري رحمه الله: ما شيء أحب إلى من صحبة فتى، ولا شيء أبغض إلى من صحبة قارى. وكان كثيراً يقول: من لم يحسن يتغنى لم يحسن يتقرى.

وكان بشر بن الحارث يقول: لأن أصحب فتى أحب إلى من أن أصحب قارئاً، فإياك وصحبة القراء، فإنهم يذمون غير مذموم، وإن تركت الصلاة معهم في جماعة تشاهدوا عليك.

كل ذلك، لأنهم يجاوزون الحد في الشيء، ويسرعون الإنكار إلى كل شيء، لغلبة الجهل عليهم، وقلة مجالستهم للعلماء ومعاناتهم للعلم، وإنهم موصوفون بدقائق الرياء والتصنع للعامة، فينكرون غير منكر، ويتعصبون بالبغضة والهجر في الشيء اليسير الذي قد يغتفر مثله. وهم غير موصوفين بمحاسن الأخلاق، ولا

موسومين بالبشاشة والانطلاق، إذ فيهم كَرَاذَةٌ، وتغليظٌ على الناس ولزاةٌ، وحنقٌ على الأغنياء، حتى كأنهم يأكلون أرزاقهم، وكأنهم يعملون العبادة لهم. وفيهم كثرةٌ مقت لأهل البشر والطلاقة، فلذلك قال بعضهم: الشريف إذا تقرى تواضع، والوضيع إن تقرى تكبر. وقال آخر: السفلة إذا تقرى أكثر الأمر بالمعروف واعترض على جيرانه في كل شيء. يعنى: أكثر الأمر بالمعروف؛ ليعرف به؛ فمن أجل ذلك رفضهم العلماء، وذمهم الحكماء؛ لأن العلم ينبسط ويتوسع، وتكون معه الأخلاق الحسنة والآداب والمروءات الواسعة.

والعالم يضع الأشياء في مواضعها من الناس، ولا يجاوز بها ولا بهم المقادير، ويستخرج لهم المعاذير. ومن صفة العلماء الانقباض في بسط خلق. وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله: الانقباض على الناس مكسبة لعداوتهم، فكن بين المنقبض والمنبسط. وفي الخبر: «إنكم لا تسعون الناس بأموالكم، فليسعهم منكم وجهٌ طلقٌ، وخلقٌ حسنٌ». وفي لفظ آخر: «وبشر وبشاشة». وهذا كله معدوم من القراء ولا يعرفونه. وقد جعل الله تعالى لكل شيء قدراً، فمن تعدى حد الشيء فقد أفسده. وقال بعض السلف: قليل التواضع يكفي من كثير العمل، وقليل الورع يكفي من كثير العلم.

ومن أخلاق السلف مما تهاون به الخلف: أنهم كانوا يعدون من النفاق أن يتكلم الرجل فيمن يكلمه، أو يكلم من تكلم فيه؛ لأنهم كانوا إذا كلموا أحداً أو سلموا عليه سلمت له قلوبهم، ولم يتكلموا فيه. وإذا تكلموا في أحد لبذعته أو ظهور فسقه لم يكلموه، وكانوا إذا مدحوا أحداً بقول لم يذموه بفعل، وإذا ذموا واحداً بفعل لم يمدحوه بقول؛ لأن في ذلك لسانين واختلاف وجهين، واختلاف سرٍ وعلانية.

وكانوا يقولون: معنى: «سلام عليك» إذا لقيته، أى سلمت منى أن اغتابك وأذمك، فكان اختلاف هذا عندهم من أبواب النفاق.

ورؤينا عن رسول الله ﷺ: «شر الناس ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه». وفي حديث آخر: «من كان ذا لسانين فى الدنيا جعل الله له يوم

القيامة لسانين من نار».

وكان بعضهم يقول: ما ذكرَ عندي إنسانٌ قط إلا مثَلْتُهُ جالساً فقلتُ في غيبته بما يحبُّ أن يَسْمَعَ. وقال آخر: ما ذكرَ عندي رجلٌ إلا تصوَّرتُ في نفسي مثاله، فكلُّ ما أحبُّ أن يقالَ لي قلتُهُ له.

وقال بعض السلف: قليلُ التواضع يكفي عن كثيرِ العملِ، وقليلُ الورع يكفي عن كثيرِ العلم.

فهذه كانت صفاتُ المسلمين الذين يُسلمُ الناسُ على أيديهم وقلوبهم. كان أحدهم إذا ذكرَ عنده غيره بسوءٍ وقَفَ وتفكَّرَ في شأن نفسه، فإن كان فيه مثل ذلك السوءِ قطعهُ الحياءُ عن الكلامِ في أخيه فسكت، وإن لم يكن ذلك فيه حمداً لله عزَّ وجلَّ ورحمَ أخاه، فشغله الشكرُ لمولاه؛ إذ عافاه. فهذه كانت سيرة السلف.

ويقال في بعض كتب الله تعالى: عجباً لمن قيلَ فيه الخيرُ وليسَ فيه كيف يفرح؟ ولمن قيلَ فيه الشرُّ وهو فيه كيف يغضب؟ وأعجبُ من ذلك مَنْ أحبَّ نفسه على اليقين، وأبغضَ الناسَ على الشكِّ.

ومن طريقة السلف مما كانوا يشدّدون فيه حبَّ المدحِ وطلبُ الحمدِ، حتّى قال بعضهم: من أحبَّ المدحَ وكرِهَ الذمَّ فهو منافقٌ.

وقال عمرُ رضی الله عنه لرجل: مَنْ سيّد قومك؟ قال: أنا. قال: لو كنتَ كذلكَ لم تقل.

وكتب محمدُ بن كعب فانتسب فقال: القرظي، قيل له: قل الأنصاري. قال: أكره أن أُمْنَّ على الله عزَّ وجلَّ بما لم أفعل.

وقال الثوريُّ رضی الله عنه: إذا قيلَ لَكَ بِئسَ الرجلُ أنتَ تغضبُ فأنتَ بِئسَ الرجل. وقال آخر: لا يزالُ فيك خيراً ما لم ترَ أن فيك خيراً. وسُئِلَ بعضُ العلماء: ما علامةُ النفاق؟ قال: الذي إذا مُدِحَ بما ليسَ فيه ارتاحَ لذلك قلبه.

وكان سفيان رضی الله عنه يقول: إذا رأيتَ الرجلَ يحب أن يحبه الناسُ كلُّهم

ويكره أن يذكره أحد بسوء، فاعلم أنه منافق.

فهذا داخل في وصف الله تعالى المنافقين بقوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ آخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ [النساء: ٩١]. فينبغي لمن آمن في أهل السنة أن يخاف في أهل البدع، وهذا مما دخل على القراء الذين ذمهم العلماء مداخل الليل في النهار.

ولعل مغروراً جاهلاً يتأول الحديث الذي جاء: «إذا مدح المؤمن رباً الإيمان في قلبه» على غير تأويله، ويحمله على غير محمله، فإنما قال: «رباً الإيمان» ولم يقل: رباً المؤمن. فربو الإيمان زيادته، وزيادته بالخوف والإشفاق من المكر به والاستدراج. وفيه طريق للعارفين بأن يعلو الإيمان المعلق إلى المولى الأعلى^(١)، فيفرح بذلك لمولاه ويضيفه إلى سيده الذي به تولاه، فيرد الصنعة إلى صانعها، ويشهد في الفطرة فاطرها، فيكون ذلك مدحاً للصانع، ووصفاً للفاطر، لا ينظر إلى نفسه، ولا يعجب بوصفه. وهذه طرقات قد درست وانقطع سلاكها إلا من رحم ربك.

باب تفضيل علم الإيمان واليقين على سائر العلوم والتحذير من الزلل فيه، وبيان ما ذكرناه

اعلم أن كل علم من العلوم قد يتأتى حفظه ونشره لمنافق أو مبتدع أو مشرك إذا رغب فيه وحرص عليه؛ لأنه نتيجة الذهن وثمره العقل، إلا علم الإيمان واليقين، فإنه لا يتأتى ظهور مشاهدته والكلام في حقائقه إلا للمؤمن موقن من قبل أن ذلك تقرير مزيد الإيمان وحقيقة العلم والإيقان، فهو آيات الله تعالى وعهده عن مكاشفة قدرته وعظمته. وآيات الله تعالى لا تكون للفاسقين، وعهده لا ينال الظالمين، وعظمته وقدرته لا تكون شهادة للزائغين ولا وجداً للمبطلين؛ إذ في ذلك توهين لآيات الله وحججه، وانتقاص لبراهينه وقدرته، ودخول الشك في

(١) في (ط) «يعلو الإيمان العلى إلى المؤمن الأعلى» وأثبت ما في (ك).

اليقين الذي هو محجة المخلصين^(١)، والذين هم بقية الله تعالى من عباده، واشتباه الباطل بالحق الذي هو وصف أهل الصدق الذين هم أدلته عليه من أهل وداده، وهذا من أدل دليل على فضل علم المعرفة على غيره، قال الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]. وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [الأنعام: ١٠٥]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨]. وقال عز وجل: ﴿وَلَنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٥].

فهؤلاء العلماء بالله تعالى، الناطقون عن الله عز وجل، جعل لهم أنصبه منه، ومكاناً عنده. ولا يكون ذلك لمن ليس أهلاً له، ولا حقيقة به؛ لأنهم آيات الله تعالى وبياناته وشهوده وبصائره^(٢)، كاشفو طريقه، ومُظهِرو بيانه؛ إذ يقول تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٩]. وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣ - ٤]، بعد قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، مع قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]. فنصروه بما نصرهم به، وتحققوا بما حققهم منه، وشهدوا له ما شهد لهم عنه، فكانوا للمتقين إماماً، وإلى الهداية أعلاماً.

وقال بعض أهل المعرفة: مَنْ لم تكن له مشاهدة من هذا العلم لم يعر من شرك أو نفاق؛ لأنه عار من علم اليقين، ومن عرى من اليقين وجد فيه دقائق الشك. وقال بعض العارفين: مَنْ لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة. وأدنى النصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله. وقال آخر: مَنْ كان فيه خصلتان لم يفتح له من هذا العلم شيء: بدعة أو كبر. وقالت طائفة من أهله: مَنْ كان محباً للدنيا أو مُصرّاً على هوى لم يتحقق به.

(١) في (ك): «المتقين».

(٢) في (ك): «وطرقاته».

وقال أبو محمد سهل: أقلُّ عقوبةٍ مَنْ أنكرَ هذا العلمَ أن لا يُرزقَ منه شيئاً أبداً.

واتفقوا على أنه علمُ الصديقين، وأنَّ مَنْ كانَ له منه نصيبٌ فهو من المقربين، وينالُ درجةَ أصحابِ اليمينِ.

واعلم أنَّ علمَ التوحيدِ ومعرفةَ الصفاتِ مباينٌ لسائرِ العلومِ. فالاختلافُ في سائرِ العلومِ الظاهرةِ رحمةٌ، والاختلافُ في علمِ التوحيدِ ضلالٌ وبدعةٌ، والخطأُ في علمِ الظاهرِ مغفورٌ وربما كانت حسنةً إذا اجتهد، والخطأُ في علمِ التوحيدِ وشهادةِ اليقينِ كفرٌ، من قبلِ أنَّ العبادَ لم يُكَلَّفُوا حقيقةَ العلمِ عندَ الله تعالى في طلبِ العلمِ الظاهرِ، وعليهم واجبُ طلبِ موافقةِ الحقيقةِ عندَ الله في التوحيدِ. ومن ابتدَعَ شيئاً ردَّتْ عليه بدعتهُ، وكان مسؤولاً عنه، ولم يكنْ حجةً لله تعالى على عباده، ولا غيثاً نافعاً في بلاده، بلْ كانَ موصوفاً بالدنيا وفيها من الراغبين، ولم يكنْ دليلاً على الله عزَّ وجلَّ، ولا من دعاةِ الدين، ولا إماماً للمتقين. وقد جاءَ في الخبرِ: «العلماءُ أمناءُ الرسلِ ما لم يدخلوا في الدنيا، فإذا دخلوا في الدنيا فاحذروهم على دينكم»، والخبر المشهور: «من أحدثَ في ديننا ما ليسَ فيه فهو ردٌّ».

وقد رُوينا عن عيسى عليه السلام وقيل له: مَنْ أشدُّ الناسِ فتنةً؟ فقال: «زَلَّةُ عالمٍ إذا زَلَّ زَلٌّ بزَلَّتْهُ عالمٌ».

وقد رُوينا معناه عن نبينا محمدٍ ﷺ: «مما أخافُ على أمتي زَلَّةُ عالمٍ، وجِدالُ منافقٍ في القرآن».

وكان بعضُ السلفِ يقول: مَثَلُ العالمِ إذا زَلَّ مَثَلُ سفينةٍ إذا غَرِقَتْ غَرِقَ معها خلقٌ كثيرٌ، ومَثَلُ كُسوفِ الشمسِ، يَصيحُ الناسُ: يا غافلُونَ الصَّلَاةَ، وإنَّها عندَ العامةِ آيةٌ يُفرَّغُ منها.

ويروى في خبرٍ غريبٍ: «مَنْ غَشَّ أمتي فعليه لعنةُ الله والملائكةِ والناسِ أجمعين». قيل: يا رسولَ الله، وما غَشَّ أمتك؟ قال: أن يبتدَعَ بدعةً في الإسلامِ

يحملُ الناسَ عليها». وكان ابنُ عباسٍ رضى الله عنه يقول: ويلٌ للعالمِ من الأتباع، وويلٌ للأتباع من العالم، يزلُّ العالمُ بزلةٍ فيتبعه عليها فتأمُّ من الناس، وتبلغُ الآفاق.

وما أعلمُ أحداً أعظمَ جرماً ممن ابتدَعَ فى دينِ الله عزَّ وجلَّ، فنطقَ فى كتابِ الله تعالى وفى علمِ المعرفة بما لم يأذنْ به الله، ثم لم يعبأ بسننِ رسولِ الله ﷺ الذى هو حجةُ الله تعالى على جميع خلقه، وطريقَ مقربيه من عباده، فأضلَّ بذلك عبادَ الله عزَّ وجلَّ. فإنَّ مثلَ مَنْ ابتدَعَ فى الدين واتَّخذَ وليجةً دون الكتابِ والسنة ومن^(١) طريقِ المؤمنين إلى جنبٍ مَنْ يكثرُ فى أمورِ الدنيا وارْتكبَ فيها شهواتِ الأهواء - كَمَثَلِ مَنْ اجترَحَ المظالمَ بينَ الناسِ فى الأموالِ والدماءِ، إلى جنبٍ مَنْ ظلمَ نفسه بكسبِ الذنوبِ بينَهُ وبينَ ربِّه. إنَّ مظالمَ العبادِ أعظمُ، وهو الديوانُ الذى لا يتركُ، كذلكَ التمويهُ فى الدينِ أعظمُ، لأنَّهُ مظالمُ الآخرةِ وقطعُ طرقِ المؤمنين ومحوُ شريعةِ المرسلين^(٢).

ومثله أيضاً مثلُ مَنْ أذنبَ وجحدَ ذنبَهُ واحتجَّ لنفسِهِ إلى من أذنبَ، واعترفَ بذنبِهِ واعتذرَ من نفسه، فهو أقربُ للعفوِ وأرجى للرحمةِ من الآخرِ.

كذلكَ مَنْ اعتلَّ بالتقصيرِ والتفريطِ فى العلمِ ولم ينصحْ لنفسِهِ إلا أنه أظهرَ حقيقةَ العلمِ ونصحَ الله تعالى ولرسوله ببيانِ كتابه وذكرِ سنتِهِ أقربُ إلى حُسْنِ الإخلاصِ، وأولى بالتداركِ فى العافيةِ من شرعَ فى دينِ الله تعالى وابتدَعَ فى الأمة ما يخالفُ به الكتابَ والسنةَ. هكذا كأنَّهُ قد قلبَ ملَّةً وبدلَ شريعةً. فهذا يولِّدُ النفاقَ فى قلبِهِ حتَّى يُختمَ لَهُ بِهِ.

ومثلُ مَنْ ابتدَعَ فى الملَّةِ مخالفاً للسنة^(٣)، إلى من أساءَ إلى نفسه بالذنوبِ، مثلُ مَنْ عصَى الملكَ فى قلبِ دولتهِ، وتظاهرَ عليه فى ملكهِ بالإزالةِ، إلى جنبٍ من

(١) فى (ط): «وبين» وأثبت ما فى (ك).

(٢) عبارة (ك): «كذلكَ التمويه فى الدين يتعاضم لأنه مظالم الدين ومظالم الرسل كهذه مظالم الخلق».

(٣) فى (ك): «لسنة رسول الله ﷺ».

عَصَى أَمْرَهُ، وَقَصَّرَ فِي حَقِّهِ مِنَ الرِّعْيَةِ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: ثَلَاثٌ لَا يَحْسُنُ مِنَ الْمَلِكِ أَنْ يَغْفِرَهَا: مَنْ قَلَبَ دَوْلَةً مِنْ رِعْيَتِهِ، أَوْ عَمَلَ فِيهَا يُوهِنُ الْمُلْكَ، أَوْ أَفْسَدَ^(١) حُرْمَةً مِنْ حُرْمِهِ.

وروينا عن النبي ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مَلَكًا يَنَادِي كُلَّ يَوْمٍ: مَنْ خَالَفَ سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ تَنْلُهُ شَفَاعَتُهُ». وقال على كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ: الهوى شريكُ العمى. وقال الله تعالى ومن أصدق من الله قيلاً: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، ثم قال تعالى: ﴿أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، فسَوَّى بَيْنَ الْكَذَّابِ فِي الْفِرْيَةِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَبَيْنَ الْمُتَشَبِّهِ الْمُضَاهِي لِلرَّبُوبِيَّةِ.

وكذلك مِنْ أَعْظَمِ الْمُنْكَرِ بَعْدَ هَذَا إِنْكَارُ الْحَقِّ مِنْ أَهْلِهِ وَرُدُّهُ عَلَيْهِمُ بِالْكَذِبِ. وقد سَوَّى تَعَالَى أَيْضًا بَيْنَ الْكَذِبِ بِالْحَقِّ وَبَيْنَ ابْتِدَاءِ الْكَذِبِ عَلَى الْخَالِقِ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ [العنكبوت: ٦٨]. وقال تعالى في مثله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ [الزمر: ٣٢]. كذلك أَيْضًا فِي ضِدِّهِ سَوَّى، كَمَا سَوَّى عَزَّ وَجَلَّ بَيْنَ الصَّادِقِ بِالصِّدْقِ وَالْمُصَدِّقِ بِهِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «الْعَالِمُ وَالْمُتَعَلِّمُ شَرِيكَانِ فِي الْعِلْمِ». وقال عيسى عليه السلام بمعناه: «الْمُسْتَمْعُ شَرِيكُ الْقَائِلِ».

ولكنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ هَذِهِ الطَّائِفَةَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ تَعَالَى تَرَدُّ عَلَى جَمِيعِ الطَّوَائِفِ مِنَ الشَّاطِطِّينَ وَالْمُبْتَدِعِينَ أَهْلَ الْجَهَالَةِ بِالذِّينِ وَالْحَيَاةِ عَنْ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَرَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ عِلْمِ الْيَقِينِ، وَبِمَا شَهِدَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْعِلْمِ وَالتَّعْدِيلِ فِي قَوْلِهِ: «يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمُ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عُدُوْلَهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ

(١) فِي (ك): «إِفْسَادٌ».

الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين». فالغالون: هم الشاطحون؛ لأنهم قد جاوزوا العلم، ومحووا الرسم فأسقطوا الحكم. والمبطلون: هم المدعون المبتدعون؛ لأنهم جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، واقتروا بالدعوى، وابتدعوا بالرأى والهوى. والجاهلون: هم المنكرون لغرائب العلم، المفترون لما عرفوا من ظاهر العقل. كما روينا عن النبي ﷺ: «إِنَّ مِنَ الْعِلْمِ كَهَيْئَةِ الْمَكْنُونِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ». فإذا نطقوا به لم يجهله إلا أهل الاغترار بالله تعالى. ولا تحقروا عالماً آتاه الله تعالى علماً، فإن الله عز وجل لم يحقره إذ آتاه.

وكلُّ من تأوَّل السنن بالرأى أو المعقول، أو نطق بما لم يسبق إليه السلف من القول أو بمعناه فهو متكلفٌ مبطلٌ. فأهل العلم بالله تعالى يردون علوم المعقول بعلم اليقين، وعلم الرأى بعلم السنّة، يثبتون أهل الآثار، ويؤيدون نقلة الأخبار، بما يفصلون من أخبارهم، ويفسرون من حديثهم، مما لم يجعل للنقطة طريقاً إليه، ولم يهتد الرواة إلى كشف منه بما أشهدهم الله عز وجل، واستودعهم، ونور به قلوبهم ونطقهم، فهم ينطقون عن الله سبحانه وتعالى فيما يخبرون عنه، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وقد قال بعض العلماء: ما تكلم فيه السلف فالكسوت عنه جفاء، وما سكّته عنه السلف فالكلام فيه تكلف. وقال آخر: الحق ثقيل، من جاوزه ظلم، ومن قصر عنه عجز، ومن وقف معه اكتفى. وقال على رضي الله عنه: عليكم بالنمط الأوسط الذي يرجع إليه العالی، ويرتفع عنه القالی.

وهكذا سيرة السلف أنه لا يستمع إلى مبتدع لأنه منكر، ولا يرد عليه بالجدال والنظر لأنه بدعة، ولكن يخبر بالسنن، ويحتج بالآثر، فإن قيل: فهو أخوك في الله عز وجل، ووجبت عليك مولاه، وإن لم يرجع وأنكر نقض بإنكاره، وعرف ببدعته، وحقّت عداوته، وهجر في الله تعالى. وهذا طريق لا يسلكه في وقتنا هذا إلا من عرف فضله وطريقة السلف فيه.

وَحَدَّثْتُ عَنْ إِبْلِيسَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - أَنَّهُ بَثَّ جُنُودَهُ فِي وَقْتِ الصُّبْحَةِ، فَرَجَعُوا إِلَيْهِ مُحْسُورِينَ، فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ، مَا نُصِيبُ مِنْهُمْ شَيْئًا، قَدْ أَتَعَبُونَا. فَيَقُولُ: إِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَيْهِمْ قَدْ صَحَبُوا نَبِيَّهُمْ، وَشَهِدُوا تَنْزِيلَ رَبِّهِمْ، وَلَكِنْ سَيَأْتِي بَعْدَهُمْ قَوْمٌ تَنَالُونَ مِنْهُمْ حَاجَتَكُمْ. فَلَمَّا جَاءَ التَّابِعُونَ بَثَّ جُنُودَهُ فِيهِمْ فَرَجَعُوا إِلَيْهِ مِنْكَسِرِينَ مِنْكَوسِينَ، فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ، قَالُوا: مَا رَأَيْنَا أَعْجَبَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ، نَصِيبُ مِنْهُمْ الشَّيْءَ بَعْدَ الشَّيْءِ مِنَ الْخَطَايَا، فَإِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ النَّهَارِ أَخَذُوا فِي الْاسْتِغْفَارِ فَتُبَدَّلَ سَيِّئَاتُهُمْ حَسَنَاتٍ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ لَنْ تَنَالُوا مِنْ هَؤُلَاءِ شَيْئًا لَصِحَّةِ تَوْحِيدِهِمْ، وَاتِّبَاعِهِمْ سُنَّةَ نَبِيِّهِمْ، وَلَكِنْ سَيَأْتِي بَعْدَ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ تَقْرَأُ أَعْيُنُكُمْ بِهِمْ، تَلْعَبُونَ بِهِمْ لَعِبًا وَتَقُودُونَهُمْ بِأَزْمَةٍ أَهْوَأَتْهُمْ كَيْفَ شِئْتُمْ؛ إِنْ اسْتَغْفَرُوا لَمْ يُغْفَرْ لَهُمْ، وَلَا يَتُوبُونَ فَتُبَدَّلَ حَسَنَاتُهُمْ سَيِّئَاتٍ. قَالَ: فَجَاءَ قَوْمٌ بَعْدَ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ، فَبَعَثَ فِيهِمُ الْأَهْوَاءَ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الْبَدْعَ، فَاسْتَحْلَوْهَا وَاتَّخَذُوهَا دِينًا، لَا يَسْتَغْفِرُونَ مِنْهَا، وَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ. قَالَ: فَتَسَلَّطَتْ عَلَيْهِمُ الْأَعْدَاءُ، وَقَادَتْهُمْ أَيْنَ شَاءُوا.

وقد قال ابن عباس رضي الله عنه: إن للضلالة حلاوة في قلوب أهلها.

وقد قال الله تعالى: ﴿اتَّخِذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ [الأنعام: ٧٠]. وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]. كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ [هود: ١٧].

فَالْعِلْمُ - رَحِمَكَ اللَّهُ - هُوَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ الْمُقْتَفَى آثَارُهُمْ، وَالْخَلَفُ التَّابِعُ الْمُقْتَدِي بِهَدْيِهِمْ. وَهُمْ الصُّحَابَةُ أَهْلُ السَّكِينَةِ وَالرِّضَا، ثُمَّ التَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ مِنْ أَهْلِ الزَّهْدِ وَالنُّهَى.

وَالْعَالِمُ هُوَ الَّذِي يَدْعُو النَّاسَ إِلَى مِثْلِ حَالِهِ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَهُ، فَإِذَا نَظَرُوا إِلَيْهِ زَهَدُوا فِي الدُّنْيَا لَزُهْدِهِ فِيهَا، كَمَا كَانَ ذُو النُّونِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: جَالِسٌ مِنْ يَكَلِّمُكَ عِلْمُهُ لَا مَنْ يَكَلِّمُكَ لِسَانُهُ. وَقَدْ قَالَ الْحَسَنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَبْلَهُ: عِظِ النَّاسَ بِفِعْلِكَ وَلَا تَعْظِهِمْ بِقَوْلِكَ.

وقال سهلٌ رحمه الله: العلمُ يهتَفُ بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل. وقد روينَا معنى ذلك عن رسول الله ﷺ أنه قيل له: «أى جلسائنا خير؟ فقال: مَنْ ذَكَرَكُمْ بالله تعالى رؤيته، وزاد في علمكم منطِقُه، وذَكَرَكُمْ بِالْآخِرَةِ عملُه».

فأمَّا الذى يطلبُ دنياهم حتَّى يكونَ مثلهم، فإذا رأوه اغتبطوا بحالهم، فهذا شرٌّ منهم، لأنه يدعو إلى نفسه لا إلى مولاة؛ ولأنه طامعٌ فيهم وهم زاهدون فيه. فالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء هم الورعون فى دين الله عز وجل، الزاهدون فى فضول الدنيا، الناطقون بعلم اليقين والقدرة لا علم الرأى والهوى، والصائمون^(١) عن الشبهات والآراء، لا يختلف هذا إلى يوم القيامة عند العلماء الشهداء على الله تعالى برأى قاتل، ولا بقول مبطل جاهل.

كما روى عن عبد الله بن عمر، عن النبى ﷺ: «صَلِّحْ أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالزَّهْدِ وَالْيَقِينِ، وَيَهْلِكْ آخِرُهَا بِالْبَخْلِ وَالْأَمَلِ».

وقال يوسف بن أسباط: كتبَ إلى حُذَيْفَةَ المرعشى: ما ظنُّكَ بمن قد بقى لا يجدُ أحدًا يذكرُ الله تعالى معه إلا كان آثمًا وكانت مذكرته معصيةً، وذلك أنه لا يجدُ أهله. قلت ليوسف: يا أبا محمد، وتعرفهم؟ قال: لا يَخْفُونَ عَلَيْنَا.

ويقال: إن الأبدال إنما انقطعوا فى أطراف الأرض، واستتروا عن أعين الجمهور؛ لأنهم لا يطيقون النظرَ إلى علماء هذا الوقت، ولا يصبرون على الاستماع لكلامهم؛ لأنهم عندهم جهالٌ بالله تعالى، وهم عند أنفسهم وعند الجاهلين علماء، فقد صاروا من أهل الجهل. وأهل الجهل بالجهل على الوصف الذى قال سهلٌ رحمه الله: إن من أعظم المعاصى الجهل بالجهل، والنظر إلى العامة. واستماع كلام أهل الغفلة أيسرُ عندهم؛ لأنهم لا يَعْدُمُونَ ذَلِكَ حَيْثُ كَانُوا من أطراف الأمصار؛ لأن العامة لا يموهون فى الدين، ولا يغرون المؤمنين، ولا يدعون أنهم علماء؛ لأنهم يتعلمون، وبالجهل معترفون، فهم إلى الرحمة أقرب، ومن المقت أبعد.

(١) فى (ط): «والصائمون».

وكان أبو محمد أيضاً يقول: قسوة القلب بالجهل بالعلم أشدُّ من القسوة بالمعاصي؛ لأن الجاهل بالعلم تارك ومدّع، والعاصي بالفعل مقرر بالعلم. ويقول أيضاً: لأن العلم دواءٌ به تصلح الأدوية، فهو يزيل فساد الأعمال بالتدارك، والجهل داءٌ يفسد الأعمال بعد صلاحها، فهو يزيل الحسنات فيجعلها سيئات. فكم بين ما يصلح الفاسد وبين ما يفسد الصالحات؟ وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

فهذا من أدل دلائل على فضل العالم المقصر على العابد المجتهد.

واعلم أن العبد إذا باين الناس في كل شيء من أحوالهم انفرد عن جمعهم، ولم يألّف أحداً منهم. وإن باينهم في أكثر أحوالهم اعتزل عن الأكثر منهم. فإن فارقهم في بعض الأحوال ووافقهم في بعض حاله خالط أهل الخير وفارق أهل الشر.

باب تفضيل الأخبار، وبيان طريق الإرشاد

وذكر الرخصة والسعة في النقل والرواية

جميع ما ذكرناه في هذا الكتاب من الأخبار عن النبي ﷺ ثم عن الصحابة وعن التابعين وتابعيهم، رسمناه حفظاً، وسقناه على المعنى إلا يسيراً اتفق وجوده في أيدينا، وقرب تناوله منا من أخبار فيها طول فإننا نقلناها من مواضعها، وما بعد علينا فلم نفقه ولم نشغل هممتنا به، فما كان فيه من صواب وبيان وثبت فمن الله تعالى بحسن توفيقه وقوة تأييده، وما كان فيه من خطأ وعجلة وهوى فمنا بالسّهو والغفلة، ومن عمل الشيطان بالعجلة والنسيان.

كذلك روينا عن ابن مسعود رضي الله عنه في قضيت التي قضاها برأيه، وقولنا لرأيه تبع.

ورؤينا عن رسول الله ﷺ: «البيان والتثبت من الله عز وجل، والعجلة والنسيان من الشيطان» يعنى بواسطته وبقلّة التوفيق.

ولم أعتبر ألفاظ الأخبار في أكثره، ولم آل عن سياق المعنى في كله؛ إذ ليس تحرير الألفاظ عندي واجباً إذا أتيت بالمعنى بعد أن تكون عالماً بتصريف الكلام، وبتفاوت وجوه المعاني، مجتنباً لما يكون به تحريف، أو إحالة بين اللفظين.

وقد رخص في سؤق الحديث على المعنى دون سياقه على اللفظ جماعة من الصحابة منهم: علي، وابن عباس، وأنس بن مالك، وواثلة بن الأسقع، وأبو هريرة، ثم جماعة من التابعين يكثر عددهم منهم: إمام الأئمة الحسن البصري، ثم الشعبي، وعمرو بن دينار، وإبراهيم النخعي، ومجاهد، وعكرمة، رضى الله عنهم، نقلنا ذلك عنهم في كتب سيرهم بأخبار مختلفة الألفاظ. وقال ابن سيرين: كنت أسمع الحديث من عشرة؛ المعنى واحد والألفاظ مختلفة. ولذلك اختلف الصحابة في رواية الحديث عن رسول الله ﷺ، فمنهم من يرويه تاماً، ومنهم من يجيء به مختصراً، ومنهم من يرويه على المعنى، وبعضهم يغير بين اللفظتين ويراها واسعاً إذا لم يخالف المعنى، ولم يحل البغية. وكلهم لا يتعمد الكذب، وجميعهم يقصد الصدق، ومعنى ما سمع، ولا يحل البغية. فلذلك وسعهم وكانوا يقولون: إنما الكذب على من تعمده.

وقد رؤينا عن عمران بن مسلم قال: قال رجل للحسن: يا أبا سعيد، إنك تحدث بالحديث أنت أحسن له سياقاً، وأجود تحبيراً، وأفصح به لساناً منا، إذا حدثنا به. فقال: إذا أصبت المعنى فلا بأس بذلك.

وقد قال النضر بن شميل: كان هشام لحاً فكسوت لكم حديثه كسوة حسنة. يعنى بالإعراب، وكان النضر نحويًا.

ونحن قائلون في جميع ما رويناه: أو كما قيل، ونحوه، وشبهه. وبمعناه كذلك قال ابن مسعود في حديثه. وكان سليمان التيمي يقول في كل ما يحدث به. وقد كان سفيان رحمه الله يقول: إذا رأيت الرجل يشدد في ألفاظ الحديث في

المجلس فاعلم أنه يقول: اعرفوني. قال: وجعل رجلٌ يسألُ يحيى بن سعيد القطان عن حرف في الحديث على لفظه، فقال له يحيى: يا هذا ليس في أيدينا أجلٌ من كتاب الله تعالى، وقد رُخصَ بالقراءة فيه بالكلمة على سبعة أحرف، فلا تُشدّد.

وفي بعض ما رويناه مراسيل، ومقاطع، ومنها ما في سنده مقال، وربما كان المقطوع والمرسل أصح من بعض المسند؛ إذ رواه الأئمة. وجاز لنا رسم ذلك لمعان:

أحدها: أنا لسنا على يقينٍ من باطلها.

والثاني: أن معنا حجةً بذلك وهو روايتنا له، وأنا قد سمعناه، فإن أخطأنا الحقيقة عند الله تعالى فذلك ساقطٌ عنا، كما قال الأسباط: ﴿وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين﴾ في قولهم: ﴿إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ [يوسف: ٨١]، فأخطؤوا الحقيقة عند الله تعالى، إلا أنهم كانوا معذورين لوجود الدليل، وهو شهادتهم للصّاع مستخرجٌ من رحلٍ أخيه.

والثالث: أن الأخبار الضعاف غير المخالفة للكتاب والسنة لا يلزمنا ردّها، بل فيهما ما يدلُّ عليها.

والرابع: أنا متعبّدون بحسن الظن، منهيون عن كثيرٍ من الظن، مذمومون بظنّ السوء.

والخامس: أنه لا يتوصّل إلى حقيقة ذلك إلا من طريق المعاينة، ولا سبيل إليها فاضطررنا إلى التقليد، والتّصديق بحسن الظن بالنقّلة، مع ما تسكّن إليه قلوبنا، وتلين له ألساننا، ونرى أنه حقٌّ، كما جاء في الخبر.

وأيضاً فإنه ينبغي أن نعتقد في سلفنا المؤمنين أنهم خيرٌ منا، ثم نحن لا نكذب على رسول الله ﷺ، ولا على التابعين، فكيف نظن بهم أن يكذبوا وهم فوقنا.

على أنه قد جاءت أحاديث ضعافٌ بأسانيد صحاح، فكذاك يصلح أن نورد

أحاديثٌ صحاحاً بسندٍ ضعيفٍ؛ لاحتِمال أن يكونَ قد رُوِيَ من وجهٍ صحيحٍ؛ إذ لم نُحِطْ بِجُمْلَةِ العِلْمِ، أو لأنَّ بعضَ مَنْ يُضَعِّفُه أهلُ الحديثِ يَقوِّيه بعضهم، وبعضَ مَنْ يجرِّحه ويذمه أحدٌ يعدِّله ويمدِّحه آخرٌ، فصارَ مختلفاً فيه، فلمْ يردَّ حديثُهُ بقولٍ واحدٍ دونَ مَنْ فوقه أو مثله. أو لأنَّ بعضَ ما يُضَعِّفُ به رِوَاةُ الحديثِ وتُعَلَّلُ به أحاديثُهُمْ لا يكونَ تعليلاً ولا جرحاً عندَ الفقهاء، ولا عندَ العلماءِ باللهِ تعالى، مثلَ أن يكونَ الراوى مجهولاً لإيثارِهِ الحُمُولَ وقد نُدِبَ إليه، أو لقلَّةِ الاتِّباعِ له إذ لم يَقُمْ لَهُمُ الأثَرُ عنه، أو ينفرد بلفظٍ أو حديثٍ حفظُهُ أو خُصَّ به دونَ غيره من الثقات، أو يكونَ غيرَ سائقٍ للحديثِ على لَفْظِهِ، أو لا يكونُ معتنياً بحفظه ودَرْسِهِ.

وقد يتكلم بعضُ الحفاظِ بالإقدامِ والجراءة، فيجاوزُ الحدَّ في الجرحِ، ويتعدَّى في اللفظِ، ويكونُ المتكلمُ فيه أفضلَ منه، وعندَ العلماءِ باللهِ تعالى أعلى درجةً، فيعودُ الجرحُ على الجارِحِ. أو يكونَ رأى عليه لباساً أو سَمِعَ منه كلاماً يجرِّحه عندَ الفقهاء علَّله به بعضُ القراءِ من الرواة، وأن^(١) بعضَ مَنْ يُضَعِّفُه أصحابُ الحديثِ هو من علماءِ الآخرة، ومن أهلِ المعرفةِ باللهِ تعالى، وله في الروايةِ والحديثِ مذهبٌ غيرُ طريقةِ بعضِ أصحابِ الحديثِ، فيعملُ في روايته بمذهبه، فلا يكونُ أصحابُ الحديثِ حجةً عليه إلا كَانَ هو حجةً عليهم؛ إذ ليس هو عندَ أصحابِهِ من العلماءِ دونَ أصحابِ الحديثِ ممن ضَعَّفَه؛ إذ رأى غيرَ رأى مذهبه.

وقال بعضُ العلماءِ: الحديثُ وإنَّ كَانَ شَهَادَةً فَقَدْ وَسَّعَ فِيهِ بِحُسْنِ الظَّنِّ كما جُوزَ فِيهِ قَبُولُ شَهَادَةِ واحدٍ؛ أَيْ لِلضَّرُورَةِ كَشَهَادَةِ القَابِلَةِ ونحوها. وروينا معناه عن الإمامِ أحمد بن حنبلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. والحديثُ إذا لم ينافه كتابٌ أو سَنَةٌ وإن لم يَشْهَدْ لَهُ إِنْ لَمْ يَخْرُجْ تَأْوِيلُهُ عن إجماعِ الأُمَّةِ فَإِنَّهُ يُوجِبُ الْقَبُولَ والعملَ بقوله ﷺ، كيف وقد قيل: والحديثُ الضعيفُ عِنْدِي أَثَرٌ مِنَ الرَّأْيِ والقياسِ. وهذا مذهبُ الإمامِ أَبِي عبد الله أحمد بن حنبلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(١) في (ك): «أو يكون رأى عليه لباساً أو سَمِعَ منه كلاماً لا يجرِّحه عندَ الفقهاء علَّله به بعضُ القراءِ والرواة وإذ بعضُ»

والحديث إذا تداوله عصران، أو رواه القرون الثلاثة، أو دار في العصر الواحد، فلم ينكره علماؤه، وكان مشهوراً لا ينكره الطبقة من المسلمين، احتُمِلَ وقوع به حجة، وإن كان في سنده قول؛ إلا ما خالف الكتاب والسنن الصحيحة، أو إجماع الأمة، أو ظهر كذب ناقله بشهادة الصادقين من الأئمة.

وقال وكيع بن الجراح: ما ينبغي لأحد أن يقول: هذا الحديث باطل؛ لأن الحديث أكثر من ذلك. وقال أبو داود: قال أبو زرعة الرازي: قُبِضَ رسول الله ﷺ عن عشرين ألف عين تطرف، كل واحد قد روى عنه ولو حديثاً، ولو كلمة أو رواية. فحديث رسول الله ﷺ أكثر من أن يحصى.

وذكر رجل عند الزهري حديثاً فقال: ما سمعنا بهذا، فقال: أكل حديث رسول الله ﷺ سمعت؟ قال: لا. قال: فثلاثه، قال: لا، قال: فنصفه، فسكت. وقال: عد هذا من النصف الذي لم تسمعه.

وقال الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه: كان يزيد بن هارون يكتب عن الرجل وهو يعلم أنه ضعيف وكان له ذكاء وعلم بالحديث. وقال إسحاق بن راهويه: قيل للإمام أحمد بن حنبل: هذه الفوائد التي فيها المناكير ترى أن نكتب الجيد منها؟ فقال: المنكر أبداً منكر. قيل له: فالضعفاء؟ قال: قد يحتاج إليهم في وقت. كأنه لم ير بالكتابة عنهم بأساً.

وقال أبو بكر المروزي عنه: إن الحديث عن الضعفاء قد يحتاج إليه.

ومما يدلُّك على مذهبه^(١) في التوسعة أنه أخرج حديثه كله في المسند المأثور عنه الذي رويناه عن أشياخنا عن ابنه عبد الله عنه ولم يعتبر الصحيح منه، وفيه أحاديث كثيرة يعلم الثقات أنها ضعيفة، وهو أعلم بضعفها منهم، ثم أدخلها في مسنده؛ لأنه أراد تخريج المسند ولم يقصد تصحيح السند، فاستجاز روايتها كما سمعها. وقد كان قطع أن يحدث الناس في سنة ثمان وعشرين، وتوفى في سنة إحدى وأربعين، فلم يسمع أحد منه في هذه المدة إلا ابنه عبد الله، وابن منيع

(١) يقصد مذهب الإمام أحمد بن حنبل.

جُزءاً واحداً بشفاعَةِ جدِّه أحمد بن منيع.

وحدثونا عنه - أعنى الإمام أحمد - قال: كان عبد الرحمن ينكرُ الحديثَ ثم يَخْرُجُ إلينا بعد وقت فيقولُ: هو صحيح قد وَجَدْتَهُ. قال: وأما وكيعٌ فلم ينكرُ ولكن يقولُ إذا سُئِلَ عنه: لا أحفظُهُ. وحدثونا عن ابن أختِ عبد الرحمن بن مهدي قال: كان خَالِي قَدْ خَطَّ عَلَى أَحَادِيثَ، ثم صَحَّحَ عَلَيْهَا بعد ذلك، وقرأتها عليه، فقلت: قد كنتَ خَطَطْتَ عليها، قال: نعم، ثم تفكَّرتُ فإذا أنى إن ضعفتها أسقطتُ عدالةَ ناقلِها، فإن جاء بى بين يدي الله تعالى وقال: لِمَ أسقطتُ عدالتى؟ رأيتنى، سمعتَ كلامى؟ لم يكن لى حجة.

هذا كان مذهب الورعين من السلف. وقد كان بعضهم يقول: كنَّا نتركُ مجالسةَ شُعبة لأنه كان يُدْخِلُنَا فى الغيبةِ، وإنَّما كان كلامُهُ فى التَّضْعِيفِ.

وقال بعضهم فى تضعيف الرواة: إن خلُصْتَ نيتك - يعنى إن أردتَ الله عزَّ وجلَّ والدين بذلك - لم يكن لك ولا عليك.

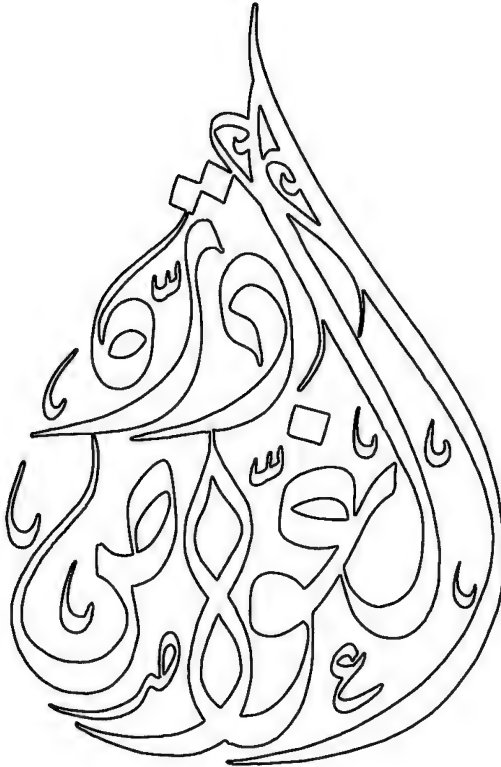
فهذه الفصول التى ذكرناها هى أصولٌ فى معرفة الحديث، وهو علمٌ لأهله، وطريقٌ هم سالكوه. ثم حدث قومٌ لم يكن لهم علمٌ يُختصُّون به، ولا حال من علمٍ يوصفون به، ولا شغلٌ من عبادة تقطعهم، فجعلوا لنفوسهم علماً تشاغلوها به، وشغلوا من استمع إليهم، فصنّفوا كتباً، وأخذوا يتكلمون فى نقلة الأخبارِ بالتعليل وتتبع العثارِ، فطرقوا لأهل البدع إلى ردِّ السنن وإيثارِ الرأى والمعقولِ عليها لما يرون من طعنهم فيها، واغتبطوا بالقياس والنظر لما وجدوا من زهدهم فى السنّة والخبر، سيما فى زمانك هذا.

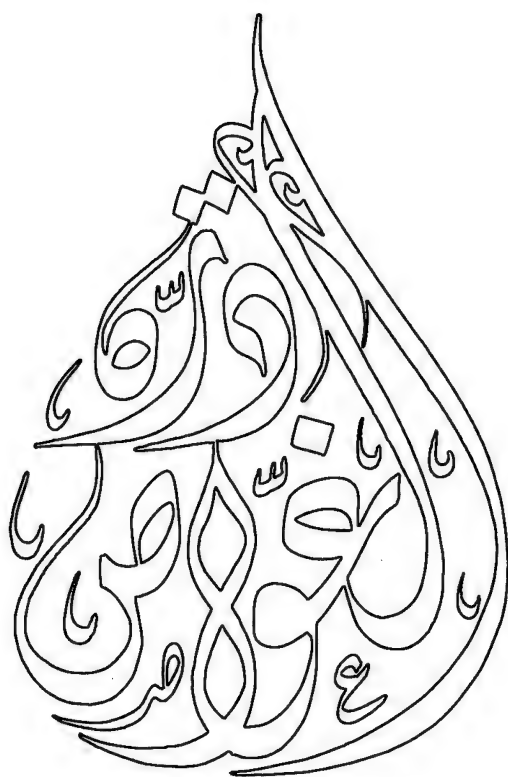
والأحاديثُ فى التَّغْيِيبِ فى الآخرةِ والتَّزْهِيدِ فى الدنيا، والترهيبِ لوعيدِ الله تعالى وفى فضائلِ الأعمال، وتفضيلِ الأصحاب - متقبلةٌ محتملةٌ على كلِّ حالٍ: مقاطيعها ومراسيلها، لا تُعارضُ ولا تُردُّ. وكذلك فى أهوالِ القيامةِ ووصفِ زلازلها وعظائمها لا تُنكر بعقل، بل تُتَقَبَّلُ بالتصديق والتسليم. كذلك كان السلفُ يفعلونَ، لأن العلمَ قد دلَّ على ذلك، والأصولُ قد وردتْ به.

وقد رُوينا: من بلغه عن الله فضيلةٌ أو عن رسول الله ﷺ وعَمِلَ بِهِ أَعْطَاهُ اللَّهُ ثَوَابَ ذَلِكَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَا قِيلَ. والخبرُ الآخر: «مَنْ رَوَى عَنِّي حَقًّا فَأَنَا أَقُولُهُ وَإِنْ لَمْ أَكُنْ قَلْتُهُ، وَمَنْ رَوَى بَاطِلًا فَإِنِّي لَا أَقُولُ بِالْبَاطِلِ».

وفى كُلِّ ما رسمناه من هذا الكتاب نقول: اللَّهُ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ، وَعِلْمُهُ الْمَقْدَمُ، وَعِنْدَهُ حَقَائِقُ الْعُلُومِ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ، وَمَا شَاءَ كَانَ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

وهذا آخرُ كتاب العلم، وتفصيل العلوم، ووصف طريق السلف، ونشر ما أَحْدَثَ بَعْدَهُمُ الْخَلَفُ.





فهرس موضوعات الجزء الأول

الموضوع	الصفحة
مقدمة المحقق	٣
* أبو طالب المكى وكتابه «سيرة موجزة»	٦
- شيوخ أبى طالب المكى	٨
- تلاميذه	١٠
- سلامة عقيدة أبى طالب المكى من البدع	١٠
- مؤلفات أبى طالب	١٣
* كتاب «قوت القلوب»	١٤
- أهمية هذا الكتاب	١٤
- مآخذ على كتاب القوت	١٧
- شرح القوت واختصاره	١٨
- أثر الكتاب فى اللاحقين	١٨
* النسخ المخطوطة المعتمدة فى التحقيق	١٩
- وصف النسخ	١٩
* منهج تحقيق الكتاب	٢٤

كتاب «قوت القلوب»

مقدمة	٣
الفصل الأول: فى ذكر الآى التى فيها ذكر المعاملة	٩
الفصل الثانى: فى ذكر الآى التى فيها أورد الليل والنهار	١٠
الفصل الثالث: فى ذكر عمل المريد فى اليوم واليلة من فرائض الأوامر	
وفضائل النوادر	١١

الصفحة

الموضوع

- الفصل الرابع: فى ذكر ما يستحب من الذكر، وقراءة الآى المندوب إليها بعد التسليم من صلاة الصبح، استخرجناها من الآثار ١٥
- الفصل الخامس: فى ذكر الأدعية المختارة بعد صلاة الصبح الجامعة المختصرة الماثورة فى الأخبار المتفرقة ٢٠
- الفصل السادس: فى ذكر عمل المريد بعد صلاة الغداة ٣٨
- الفصل السابع: فى ذكر أوراد النهار ٤٢
- الفصل الثامن: فى ذكر أوراد الليل الخمسة ٥٥
- الفصل التاسع: فيه ذكر وقت الفجر، وحكم ركعتيه؛ الأداء والقضاء، وحكم الوتر، ووقت القضاء له والأداء ٦٦
- الفصل العاشر: فيه كتاب معرفة الزوال، وزيادة الظل ونقصانه بالأقدام، واختلاف ذلك فى الصيف والشتاء ٦٨
- الفصل الحادى عشر: فيه كتاب فضل الصلاة فى الأيام والليالى ٧٩
- * ذكر ما جاء فى صلاة النهار من الفضائل ٧٩
- * ذكر ما جاء فى صلوات الليل وما دخل فيه من الصلاة بين العشاءين ٨٤
- * ذكر فضل الصلاة بين العشاءين وما يختص به ذلك الوقت فى كل ليلة ٨٧
- الفصل الثانى عشر: فى ذكر الوتر وفضل الصلاة بالليل ٩٢
- الفصل الثالث عشر: فيه كتاب جامع لما يستحب أن يقول العبد إذا استيقظ من نومه للتهجد وفى يقظته عند الصباح ٩٥
- * ذكر ما يستحب من القول إذا أخذ العبد مضجعه للنوم ٩٦
- * ذكر هيئة العبد عند النوم وأهبطه للمضجع ومعنى الاعتبار بذلك لذوى الأبصار ٩٩
- * بيان آخر من الاعتبار لأهل التبصرة والتذكّار ١٠٢
- * ذكر ما يستحب من القول عند القيام إلى التهجد ١٠٤

الموضوع	الصفحة
الفصل الرابع عشر: فى ذكر تقسيم قيام الليل ونومه ووصف القائمين والمتهجدين	١٠٦
* ذكر من روى عنه أنه أحيأ الليل كله	١١٣
الفصل الخامس عشر: فى ذكر ورد العبد من التسبيح والذكر والصلاة فى اليوم والليله، وفضل صلاة الجماعة، وذكر أفضل الأوقات المرجو فيها الإجابة، وذكر صلاة التسبيح، وما يُستحب أن يكون شعاره من أخلاق السلف	١٢٤
* ذكر صلاة التسبيح	١٣٤
الفصل السادس عشر: فى ذكر معاملة العبد فى التلاوة، ووصف التالين للقرآن حق تلاوته بقيام الشهادة	١٣٧
* ذكر أحزاب القرآن وكيف حزبه الصحابة رضى الله عنهم	١٣٨
الفصل السابع عشر: فيه كتاب ذكر نوع من المفصل والموصل من الكلام، وفيه مدح العالمين، وذم الغافلين عنه، وتفسير الغريب، والمشكل من القرآن، باختصار الأصول الدالة على المعنى	١٥٧
الفصل الثامن عشر: فيه كتاب ذكر الوصف المكروه من نعت الغافلين	١٧٦
الفصل التاسع عشر: فيه كتاب الجهر بالقرآن، وما فى ذلك من النيات، وتفصيل حكم الجهر، وبيان حكم الإخفات	١٨٢
الفصل العشرون: فى ذكر إحياء الليالى المرجو فيها الفضل المستحب إحيائها، وذكر مواصلة الأوراد فى الأيام الفاضلة	١٨٩
* ذكر مواصلة الأوراد فى الأيام الفاضلة	١٩٠
الفصل الحادى والعشرون: فيه كتاب الجمعة وذكر هيئاتها وآدابها وذكر ما يستحب للمريد فى يوم الجمعة وليلتها	١٩٣
الفصل الثانى والعشرون: فيه كتاب الصيام وترتيبه، ووصف الصائمين، وذكر ما يستحب للعبد من الصيام، وطرقات الصائمين فى الصوم، ووصف صوم الخصوص	٢١٨

الموضوع	الصفحة
* ذكر صوم الخصوص من الموقنين	٢٢٢
الفصل الثالث والعشرون: فيه كتاب محاسبة النفس ومراعاة الوقت	٢٢٥
الفصل الرابع والعشرون: في ذكر ماهية الورد للمريد ووصف حال العارف من	
المزيد	٢٤٠
* ذكر الأوراد وما يرجى بها من الازدياد	٢٤٣
الفصل الخامس والعشرون: في ذكر تعريف النفس ، وتصريف مواجيد العارفين	٢٤٨
الفصل السادس والعشرون: فيه كتاب ذكر مشاهدة أهل المراقبة	٢٥٨
الفصل السابع والعشرون: فيه كتاب أساس المريدين	٢٧٣
الفصل الثامن والعشرون: فيه كتاب مراقبة المقربين ومقامات الموقنين	٢٨٧
* ذكر المقام الأول من المراقبة	٢٨٧
* ذكر المقام الثانى من المراقبة	٢٩٠
* ذكر المقام الثالث من المراقبة	٢٩٥
* ذكر المقام الرابع من مراقبة الموقنين	٢٩٧
* ذكر المقام الخامس من مراقبة الموقنين من المقربين	٣٠٣
* ذكر المقام السادس من مشاهدة المقربين	٣٠٦
* ذكر المقام السابع من مشاهدة الموقنين	٣٠٨
الفصل التاسع والعشرون: فيه ذكر أهل المقامات من المقربين وتمييز أهل الغفلة	
المبعدين	٣١٢
الفصل الثلاثون: فيه كتاب ذكر تفصيل الخواطر لأهل القلوب وصفة القلب	
وتمثيله بالأنوار والجواهر	٣٢١
* ذكر نوع آخر من البيان	٣٤٨
* ذكر بيان آخر من تفصيل المعانى	٣٥٠
* ذكر تفصيل الخواطر وتفصيل أسمائها	٣٥٦
* باب آخر من البيان والتفصيل	٣٥٨

٣٦٣	الفصل الحادى والثلاثون: فيه كتاب العلم وتفضيله، وأوصاف العلماء
	* ذكر فضل علم المعرفة واليقين على سائر العلوم وكشف طريق علماء
٣٦٩	السلف الصالح من علماء الدنيا والآخرة
٣٨٢	* ذكر بيان تفضيل علوم الصمت، وطريق الورعين فى العلوم
٣٨٩	* بيان آخر فى فضل علم الباطن على الظاهر
	* باب ذكر الفرق بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة وذم علماء السوء،
٣٩٢	الأكليين بعلومهم الدنيا
	* ذكر وصف العلم وطريقة السلف وذم ما أحدث المتأخرون من
٤٠٧	القصص والكلام
	* ذكر ما أحدث الناس من القول والفعل فيما بينهم مما لم يكن عليه
٤٤٩	السلف
٤٥٩	* ذكر تفصيل العلوم: معروفها ومنكرها، قديمها ومحدثها
	* باب تفضيل علم الإيمان واليقين على سائر العلوم والتحذير من
٤٧٥	الزلل فيه، وبيان ما ذكرناه
	* باب تفضيل الأخبار، وبيان طريق الإرشاد وذكر الرخصة والسعة فى
٤٨٣	النقل والرواية
٤٩١	فهرس الموضوعات

الجزء الثاني

قوة القلوب

في معاملة المحبوب
ووصف طريق المرید إلى مقام التوحيد

للشيخ أبي طالب المكي
محمد بن علي بن عطية
(ت ٣٨٦ هـ)

محققه، وقدم له، وعلّق حواشيه
د. محمود إبراهيم محمد الرضواني

مكتبة
دار التراث

قوس الفلوب

في معاملة المحبوب
ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد

لِلشَّيْخِ أَبُو طَالِبٍ الْمَكِّيِّ
مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ عَطِيَّةَ
(ت ٣٨٦ هـ)

حَقَّقَهُ، وَقَلَّمَ لَهُ، وَعَلَّقَ حَوَاشِيَهُ
و. مُحَمَّدٌ بْنُ إِبْرَاهِيمَ مُحَمَّدُ بْنُ الرَّضْوَانِ
دَارُ الْعُلُومِ - جَامِعَةُ الْفَاهِرَةِ

الجزء الثاني

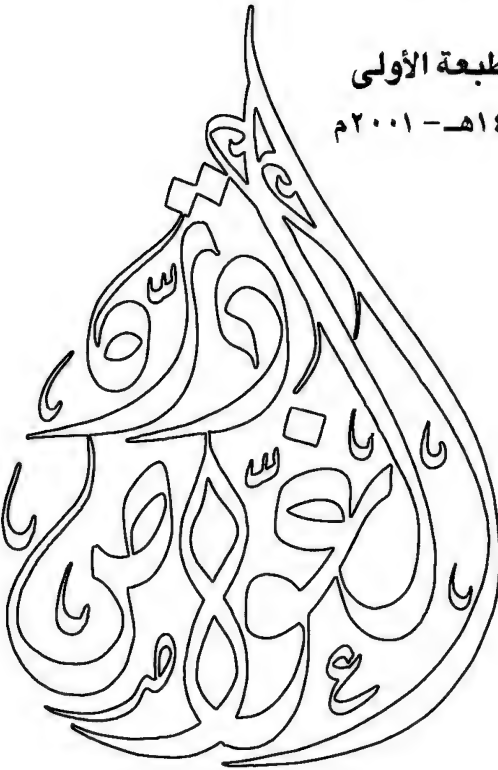
مكتبة دار التراث

جميع حقوق الطبع محفوظة لـ

مكتبة دار التراث

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م



مكتبة دار التراث

٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة - ت : ٣٩١٤٢٢٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفصل الثانى والثلاثون^(١)

فيه شرح مقامات اليقين وأحوال الموقنين

أصول مقامات اليقين التى تُردُّ إليها فروعُ أحوال المتقين تسعة؛ أولُها: التوبة، والصبر، والشكر، والرجاء، والخوف، والزهد، والتوكل، والرضا، والمحبة؛ وهذه محبة الخصوص، وهى محبة المحبوب.

ذكر فروض التوبة، وشرح فضائلها، ووصف التوابين [وهو المقام الأول من مقامات اليقين]

قال الله تعالى فى البيان الأول من خطاب العموم: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، معناه: ارجعوا إليه من هوى نفوسكم، ومن وقوفكم مع شهواتكم، عسى أن تظفروا ببيغيتكم فى المعاد، وكى تبقوا ببقاء الله عزّ وجلّ فى نعيم لا زوال له ولا نفاد، ولكى تفوزوا وتسعدوا بدخول الجنة، وتنجوا من النار، فهذا هو الفلاح.

وقال فى البيان الثانى من مخاطبته الخصوص: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التحریم: ٨]، فنصوحًا: من النصح، جاء على وزن فعول، للمبالغة فى النصح. وقد قرئت «نصوحًا»^(٢) بضم النون، فتكون حينئذ مصدر نصحت له

(١) من هنا تبدأ مخطوطة (خ). وعليها أعتمد فى إثبات الزيادات.

(٢) وهى قراءة أبى بكر بن عاصم، وخارجة عن نافع. انظر: السبعة فى القراءات، لابن مجاهد،

نُصْحًا وَنُصُوحًا. فمعناه: خالصة لله تعالى. وقيل: اشتقاقه من النصاح، وهو الخيط، أى مجردة لا تتعلق بشيء ولا يتعلق بها شيء. وهو الاستقامة على الطاعة من غير تَفَلُّتٍ إلى خطيئة، ولا عودة إلى ذنب، ولا رَوَّغان عن المحجة إلى معصية^(١) كما تروغ الثعالب. وأن لا يحدث نفسه بعود إلى ذنب متى قدر عليه، وأن يترك الذنب لأجل الله تعالى خالصاً لوجهه، كما ارتكبه لأجل هواه، مُجَمِّعاً عليه بقلبه وشهوته. فمتى أتى الله عز وجل بقلب سليم من الهوى، وعمل خالص مستقيم على السنة، فقد خُتِمَ له بحسن الخاتمة، فحينئذ أدركته الحسنى السابقة، وهذا هو التوبة النصوح، وهذا العبد هو التائب المتطهر الحبيب، وهذا إخبار عمّن سبقت له من الله الحسنى، وَمَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ، رَحِمَهُ بِهَا مِنْ نَارِهِ^(٢) السَّوْأَى، وهو وَصَفُ لِمَنْ قَصَدَهُ بِخَطَابِهِ، إِذْ يَقُولُ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وكما قال رسول الله ﷺ: «التَّائِبُ حَيْبُ اللَّهِ، وَالتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ».

وسئل الحسن عن التوبة النصوح؛ فقال: هى نَدَمٌ بالقلب، واستغفارٌ باللسان، وتركُ بالجوارح، وإِضْمَارٌ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَيْهِ.

وقال أبو محمد سهل، رحمه الله: ليس من الأشياءِ أَوْجَبَ عَلَى هَذَا الْخَلْقِ مِنَ التَّوْبَةِ، وَلَا عَقُوبَةُ أَشَدَّ عَلَيْهِمْ مِنْ فَقْدِ عِلْمِ التَّوْبَةِ، وَقَدْ جَهَلَ النَّاسُ عِلْمَ التَّوْبَةِ. وقال: مَنْ يَقُولُ إِنَّ التَّوْبَةَ لَيْسَتْ بِفَرْضٍ فَهُوَ كَافِرٌ، وَمَنْ رَضِيَ بِقَوْلِهِ فَهُوَ كَافِرٌ. وقال: التَّائِبُ؛ الَّذِي يَتُوبُ مِنْ غَفْلَتِهِ فِي الطَّاعَاتِ فِي كُلِّ طَرْفَةِ وَنَفْسٍ.

وقد جعل على كرم الله وجهه تَرْكُ التَّوْبَةِ مَقَامًا فِي الْعَمَى، وَقَرْنَهُ بِاتِّبَاعِ الظَّنِّ، وَنَسْيَانِ الذِّكْرِ، فَقَالَ فِي الْحَدِيثِ الطَّوِيلِ: وَمَنْ عَمِيَ نَسِيَ الذِّكْرَ، وَاتَّبَعَ الظَّنَّ، وَطَلَبَ الْمَغْفِرَةَ بِلَا تَوْبَةٍ وَلَا اسْتِكَانَةٍ.

(١) فى (ط): «وهو الاستقامة على الطاعة من غير روغان إلى معصية كما تروغ الثعالب» وأثبت ما فى (خ).

(٢) فى (ط): «تلوث» وأثبت ما فى (خ).

فقوت^(١) التوبة الذى لا بدّ للتائب منه، ولا يكون محققاً صادقاً إلا به: الإقرار بالذنب، والاعتراف بالظلم، ومقت النفس على الهوى، وحل الإصرار الذى كان عقده على أعمال السيئات، وإطابة الغذاء بغاية ما يقدر عليه؛ لأن الطعمة أساس الصالحين، ثم الندم على ما فات من الجنيات.

وحقيقة الندم إن كان حقاً، إذ لكل حق حقيقة: أن لا يعاود إلى مثل ما وقع الندم عليه، ثم اعتقاد الاستقامة على الأمر^(٢)، ومُجانبة النهى. وحقيقة الاستقامة أن لا يقابل ما يستقبل^(٣) من عمره بمثل ما وقع الاعوجاج به، وأن يتبع سبيل مَنْ أناب إلى الله، وأن لا يصحب جاهلاً فيُرديه. ثم الاشتغال بإصلاح ما أفسد فى أيام بطالته؛ ليكون من المصلحين الذين تابوا وأصلحوا ما أفسدوا، فإن الله عز وجل لا يُصلح عملَ المفسدين، كما لا يُضيع أجرَ المحسنين. ثم الاستبدال بالصالحات من السيئات والصالحات من الحسنات، ليكون ممن تُبدل سيئاته حسنات لتحققه بالتوبة وحسن الإنابة؛ لأنّ التبدل يكون فى الدنيا، يبدل بالأعمال السوأى أعمالاً حسنى، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. فإذا غيّر ما بهم من سيئ حسناً بدّل سيئاتهم حسنات.

ثم الندم، ودوام الحزن. وحقيقة الندم والحزن على الفوت أن لا يُفرط ولا ينسى فى وقت دركه، ولا يرجع ولا ينشئ فى حين استبداله، فيفوت نفسه وقتاً ثانياً، إذ كان يعمل فى درك ما فات، ولا يفوت ما أدرك فى حال تيقظه، فتكون يقظته شبيهاً بما مضى من غفلته، إذ كان فى درك ما فات شبيهاً بما مضى من غفلته، إذ لا يدرك الفوت بالفوت، ولا يُنال النعيم بالنعيم، ليكون كما وصف الله تعالى: ﴿وآخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢] قيل: الاعتراف والندم.

(١) فى (ط): «ففرض التوبة» وأثبت ما (خ).

(٢) فى (خ): «على الطاعة».

(٣) فى (ط): «ما استقبل».

وقال أبو سليمان الداراني: لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا على فَوْتِ ما مضى منه في غير الطاعة، لكان خليقاً أن يحزنه ذلك إلى الممات. فكيف بمن يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله؟!

وقال أبو محمد سهل بن عبد الله: التائبُ لا يقلُّ شيءٌ، يكون قلبه متعلقاً بالعرش حتى يفارق النفس، ولا عيشَ له إلا الضرورة للقوام.

ويغتَمُّ على ما مضى، والجدُّ في الأمر، ومباينة النهى فيما بقي. ولا يتم له ذلك إلا باستعمال علم اليقين في كل شيء، ثم المتابعة بأعمال الصالحات ليكون ممن قال الله تعالى: ﴿وَيَذَرُوهُنَّ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أَوْ لَكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢]

أى: يدفعون ما سلف من السيئات بما يعملون من الحسنات

وكذلك قال النبي ﷺ في حديث أبي ذر: «إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَاعْمَلْ بَعْدَهَا حَسَنَةً، السِّرُّ بِالسِّرِّ، وَالْعَلَانِيَةُ بِالْعَلَانِيَةِ». وفي وصية مُعَاذٍ: «أَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَحَهَا».

وليدخل في الصالحين، كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩].

ثم المسارعة إلى الخيرات إذا قدر عليها، ليدرك بها ما ضيع وفات؛ ليكون من الصالحين. وفي هذا المقام يصلح لمولاه فيحفظه ويتولاه، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

وجمل^(١) ما على العبد في التوبة وما تعلق بها عشر خصال؛ أولها: فُرض عليه أن لا يعصى الله تعالى. والثانية: إن ابتلى بمعصية لا يصرُّ عليها. والخصلة الثالثة: التوبة إلى الله تعالى منها. والرابعة: الندم على ما فرط منه. والخامسة: عقد الاستقامة على الطاعة إلى الموت. والسادسة: خوف العقوبة. والسابعة: رجاء المغفرة. والثامنة: الاعتراف بالذنب^(٢). والتاسعة: اعتقاد أن الله تعالى قدر

(١) في (خ): «فيشتمل».

(٢) في (خ): «بالظلم».

ذلك عليه، وأنه عدلٌ منه. والعاشرة: المتابعةُ بالعملِ الصَّالح^(١) ليعمل في الكفارات، لقوله ﷺ: «وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحها».

وفى جميع هذه الخصال جملُ آثارِ رؤيناها عن الصَّحابة والتَّابعين يكثرُ ذكرها^(٢). ويقال: إنَّ ملكَ الموت إذا ظهر للعبد أعلمه أنه قد بقي من عمركَ ساعة، وأنت لا تستأخر عنها طرفة عين، قال: فيبدو للعبد من الأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا من أولها إلى آخرها لخرج منها على أن يُضَمَّ إلى تلك الساعة ساعةً أخرى؛ لِيُسْتَعْتَب فيها أو يستبدل بها، فلا يجد إلى ذلك سبيلاً. وهذا تأويل قوله عز وجل: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ قيل: التوبة، وقيل: الزيادةُ في العمر، وقيل: حسنُ الخاتمة. حيل بينهم وبين ذلك ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ [سبا: ٥٤] أى: بنظرائهم وأهل فرقتهم. قال: فإذا كلُّ ساعة تمضى على العبد فهي بمنزلة هذه الساعة، قيمتها الدنيا كلها، إذا عرف قيمة ذلك، فلذلك قيل: ليس لما بقي من عمر العبد قيمة إذا عَرَفَ وجهَ التقدير من الله تعالى بالتصريف والحكمة.

وقيل فى معنى قوله تعالى: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [المنافقون: ١٠] قال: الوقت القريب أن يقول العبد عند كشف الغطاء: يا ملك الموت أخرنى يوماً أعبد فيه ربى، وأعتب فيه ذنبى، وأتزوّد صالحاً لنفسي، فيقول: فَنَيْتَ الأيامُ فلا يوم. فيقول: أخرنى ساعة، فيقول: فَنَيْتَ الساعاتُ فلا ساعة. قال: فتبلغ الروح الحلقوم فيؤخذ بكظمه عند الغرغرة، فيغلق بابُ التوبة ويُحجَب عنه، وتنقطع الأعمال، وتذهب الأوقات، ويبقى عددُ الأنفاس^(٣) يشهد فيها المعاينة عند كشف الغطاء، فيحتدُّ بصره، فإذا كان فى آخر نفسٍ زهقت نفسه، فيدركه ما سبق له من السَّعادة، فتخرجُ روحه على التوحيد، فذلك حسن الخاتمة، أو يدركه ما سبق له من الشَّقْوَةِ فتخرجُ روحه على الشك،

(١) فى (خ): «بالأعمال الصَّالحة».

(٢) فى (خ): «عددتها».

(٣) فى (ط): «وتتصاعد الأنفاس».

فهذا الذى قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ [النساء: ١٨]. فهذا سوءُ الخاتمة نعوذُ بالله منه، وقيل: هذا هو المنافق، ويقال: المدمنُ على المعاصي المصرُّ عليها.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧]. قيل: قبل الموت، وقبل ظهور آيات الآخرة، وقبل الغرغرة، أى: تغرغر النفس فى الحلقوم؛ لأنه تعالى قد حكم أن التوبة بعد ظهور أعلام الآخرة لا تقبل.

ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ يعنى: من قبل معاينة الآيات ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] قيل: التوبة هى كسب الإيمان وأصول الخيرات. وقيل: الأعمال الصالحة هى مزيد الإيمان وعلامة الإيقان.

وقد قيل: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ أى: عن قريب عهد بالخطيئة لا يتمادى فيها ولا يتباعد عن التوبة. وتوبته من قريب أن يعقب الذنب عملاً صالحاً، ولا يردفه ذنباً آخر، وأن يخرج من السيئة إلى الحسنة، ولا يدخل فى سيئة أخرى.

وقيل: أول مَنْ يسأل الرجعة من هذه الأمة مَنْ لم يكن أدى زكاة ماله، أو لم يكن حجّ بيت ربه، فذلك تأويل قول الله تعالى: ﴿فَأَصْدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠]. وكان ابن عباس رضى الله عنه يقول: هذه الآية من أشدّ شىء على أهل التوحيد، هذا لقوله تعالى فى أولها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]. وقد قيل: لا يسأل عبدُ الرجعة عند الموت وله عند الله عزّ وجلّ مثقالُ ذرةٍ من خير.

ورؤينا بمعناه: «مَنْ كان له فى الآخرة مثقال ذرة من خير لو أن له الدنيا بما فيها من أولها إلى آخرها لم يحبّ أن يعودَ إلى الدنيا».

وقال بعض العارفين: إنّ الله تعالى إلى عبده سرّين يسرُّهما إليه يوجدهُ ذلك

بإلهام يلهمه ؛ أحدهما : إذا وُلِدَ وخرج من بطن أمه يقول له : عبدى قد أخرجتُك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً، واستودعتُك عمرك ائتمنتُك عليه، فانظر كيف تحفظ الأمانة، وانظر كيف تلقانى كما أخرجتُك. وسِرٌّ عند خروج روحه يقول : عبدى، ماذا صنعتَ فى أمانتى عندك؟ هل حفظتها حتى تلقانى على العهد والرعاية فألقاك بالوفاء والجزاء؟ أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب؟ فهذا داخل فى قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨]، وفى قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

عمرُ العبدِ أمانة عنده ؛ إن حفظه فقد أدَّى الأمانة وإن ضيَّعه فقد خان الله ، وإن الله لا يحب الخائنين. وفى خبر ابن عباس رضى الله عنه: من ضيَّع فرائض الله عز وجل خرج من أمانة الله ، وعند التوبة النصوح تكفير السيئات ودخول الجنات. وكان بعضهم يقول : قد علمتُ متى يغفرُ الله لى. قيل : ومتى؟ قال : إذا تاب على. وقال آخر : أنا من أن أحرم التوبة أخوفُ منى من أن أحرم المغفرة. وقال الله تعالى، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]. وقال تعالى فى مثله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

وقال بعض العلماء: لا تصحُّ التوبة لعبد حتى ينسى شهواته، ويكون ذاكرًا للحزن لا يفارق^(١) قلبه، ذاهبًا عن الذنب لا يخالج سره. وقال بعض علماء الشام: لا يكون المریدُ تائبًا حتى لا يكتب عليه صاحبُ الشمال معصية عشرين سنة.

وقال بعضُ السلف: من علامة صدق التائب فى توبته أن يستبدل بحلاوة الهوى حلاوة الطاعة، وبفرح ركوب الذنب الحزن عليه، والسرور بحسن الإنابة. وقال بعض العلماء فى معناه: لا يكون العبد تائبًا حتى يدخل مرارة مخالفة النفس مكان حلاوة موافقتها.

(١) فى (ط): «لا يفارقه».

وَحَدَّثَنَا فِي الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ لِبَعْضِ أَنْبِيَائِهِ وَقَدْ سَأَلَهُ قَبُولَ تَوْبَةِ عَبْدٍ بَعْدَ أَنْ اجْتَهِدَ سَنِينَ فِي الْعِبَادَةِ وَلَمْ يَرِ قَبُولَ تَوْبَتِهِ، فَقَالَ لَهُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَوْ شَفَعَ فِيهِ أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَا قَبِلْتُ تَوْبَتَهُ وَحَلَاوَةَ ذَلِكَ الذَّنْبِ الَّذِي تَابَ مِنْهُ فِي قَلْبِهِ.

وَمَنْ بَقِيَ حَلَاوَةُ الْمَعْصِيَةِ فِي قَلْبِهِ أَوْ نَظَرَ إِلَيْهَا إِذَا ذَكَرَهَا بِفِكْرِهِ خِيفَ عَلَيْهِ الْعَوْدُ فِيهَا إِلَّا بِشِدَّةٍ مُجَاهِدَةٍ، وَكَرَاهَةٍ لَهَا، وَنَفَى خَاطِرِهَا عَنْ سِرِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا بِالْخَوْفِ وَالْإِشْفَاقِ مِنْهَا.

وَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ سَهْلٌ: أَوَّلُ مَا يُؤْمَرُ بِهِ الْمُبْتَدِئُ الْمُرِيدُ التَّوْبَةَ، وَهُوَ تَحْوِيلُ الْحَرَكَاتِ الْمَذْمُومَةِ إِلَى حَرَكَاتٍ مَحْمُودَةٍ، وَيُلْزَمُ نَفْسَهُ الْخُلُوعَ وَالنَّصِمَ، وَلَا تَصِحُّ لَهُ تَوْبَةٌ إِلَّا بِأَكْلِ الْحَلَالِ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى الْحَلَالِ حَتَّى يُوْدَى حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْخَلْقِ، وَحَقَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي نَفْسِهِ، وَلَا يَصِحُّ لَهُ هَذَا حَتَّى يَتَرَأَّ مِنْ حَرَكَتِهِ وَسُكُونِهِ إِلَّا بِاللَّهِ تَعَالَى، وَحَتَّى لَا يَأْمَنَ الْاسْتِدْرَاجَ بِأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ وَحَقِيقَةِ التَّوْبَةِ: أَنْ يَدَعَ مَا لَهُ حَتَّى لَا يَدْخُلَ فِيهَا عَلَيْهِ، وَلَا يَكُونَ يَسُوفٌ أَبَدًا، إِنَّمَا يُلْزَمُ نَفْسُهُ الْحَالُ فِي الْوَقْتِ.

وَحَدَّثُونَا عَنْ سَرِيِّ السَّقَطِيِّ أَنَّهُ قَالَ: مِنْ شُرُطِ التَّوْبَةِ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلتَّائِبِ الْمُنِيبِ أَنْ يَبْدَأَ بِمُبَايَنَةِ أَهْلِ الْمَعَاصِي، ثُمَّ بِنَفْسِهِ الَّتِي كَانَ يَعْصِي اللَّهَ تَعَالَى لَهَا وَلَا يُنِيلُهَا إِلَّا مَا لَا بَدَّ مِنْهُ، ثُمَّ الْإِعْتَزَامُ عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ فِي مَعْصِيَةٍ أَبَدًا، وَيُلْتَقَى عَنِ النَّاسِ مَوْثِقَتُهُ، وَيَدَعَ كُلَّ مَا يَضْطَرُّهُ إِلَى جَرِيرَةٍ، وَلَا يَتَّبِعْ هَوًى، وَيَتَّبِعْ مَنْ مَضَى مِنَ السَّلَفِ.

وَيَنْبَغِي لِأَهْلِ التَّوْبَةِ أَنْ يَحَاسِبُوا نَفُوسَهُمْ فِي كُلِّ طَرَفَةٍ، وَيَدْعُوا كُلَّ شَهْوَةٍ وَيَتْرَكُوا الْفُضُولَ، وَهِيَ سِتَّةُ أَشْيَاءَ: تَرْكُ فَضُولِ الْكَلَامِ، وَتَرْكُ فَضُولِ النَّظَرِ، وَتَرْكُ فَضُولِ الْمَشْيِ، وَتَرْكُ فَضُولِ الطَّعَامِ، وَالشَّرَابِ، وَبِلْبَاسٍ. قَالَ: وَلَا يَقْوَى عَلَى تَرْكِ الشُّبُهَاتِ إِلَّا مَنْ تَرَكَ الشَّهَوَاتِ.

وَسُئِلَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ: كَيْفَ يَصْنَعُ التَّائِبُ؟ فَقَالَ: هُوَ مَنْ عَمَرَهُ بَيْنَ يَوْمَيْنِ؛ يَوْمَ مَضَى، وَيَوْمَ بَقِيَ. فَيُصْلِحُهُمَا بِثَلَاثٍ: أَمَّا مَا مَضَى فَبِالنَّدَمِ

والاستغفار. وأما ما بقى فبترك التخليط وأهله، ولزوم المريدين، ومجالسة
الذاكرين. والثالثة. لزوم تصفية الغذاء، والدؤوب على العمل.

ومن علا صدق التوبة: رقة القلب، وغزارة الدمع. وفي الخبر: «جالسوا
التوايين فإنهم أرق شيء أفئدة».

ومن التحقق بالتوبة: يستعظم ذنوبه، فإنه يقال: إن الذنب كلما استعظمه
العبد صغر عند الله تعالى. يقال: إن استصغار الذنب كبيرة.

كما جاء في الخبر: «المؤمن: الذي يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه،
والمنافق: الذي يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره». وقد روي في خبر مرسل:
«ليتق أحدكم أن يؤخذ عند أدنى ذنوبه في نفسه».

وقال بعضهم: الذنب الذي لا يغفر قول العبد: ليت كل شيء عملته مثل
هذا، فهذا كما قال بلال بن سعد: لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى من
عصيت.

وقد حدثنا عن الله تعالى أنه أوحى إلى بعض أوليائه: «لا تنظر إلى قلة
الهداية، وانظر إلى عظمة مهديها، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء
من واجهته بها». فإنما عظمت الذنوب عن تعظيم المواجه بها، وكبرت في القلوب
لمشاهدة ذى الكبرياء، ومخالفة أمره إليها، فلم يصغر ذنب عند ذلك، وكانت
الصغائر عند الخائفين كبائر، وهذا أحد الوجهين في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ
يُعْظِمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ [الحج: ٣٠]، ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ
تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] قيل: الحرمات تعظم في قلبه فلا يتهكها.

ومن هذا قول الصالحين للتابعين: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم
من الشعر كنا نعدّها في عهد النبي ﷺ من الموبقات». ليسوا يعنون أن الكبائر
التي كانت على عهد النبي ﷺ صارت بعده صغائر، ولكن كانوا يستعظمون
الصغائر لعظمة الله تعالى في قلوبهم لعظيم نور الإيمان، ولم يكن ذلك في قلوب
من بعدهم.

وأوحى الله تعالى إلى بعض أوليائه: كم من ذنبٍ رأيتُ منك قد أهلكَتْ بدونه أمةً من الأمم؟! وقد رُوينا عن أبان بن إسماعيل عن أنس عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَهْلَكَ أمةً من الأمم كانوا يعبثون بذكُورهم».

فأما نسيانه الذنوبَ وذكرها، فقد اختلف قولُ العارفين في ذلك، فقال بعضهم: حقيقةُ التوبةِ أنْ تُنْصَبَ ذنبك بين عينيك. وقال آخر: حقيقةُ التوبة أن تنسى ذنبك. وهذان طريقان لطائفتين، وحالان لأهل مقامين.

فأما ذكرُ الذنوبِ؛ فطريقُ المريدِ وحالُ الخائفين، يستخرج منهم بتذكرها الحزنَ الدائم، والخوفَ اللازم.

وأما نسيانُ الذنوبِ شغلاً عنها بالأذكار، وما يَسْتَقْبِلُ من مزيدِ الأعمال، فطريقُ العارفين وحال المحبين. ووجهُ هؤلاء شهادةُ التوحيد، وهى مقامٌ فى التعرف. ووجهُ الأولين شهادةُ التوقيفِ والتحديد؛ وهى مقامٌ فى التعريف.

ففى أىّ المقامين أُقيم عبدٌ قام بشهادة وجهته وعَمِلَ بحكم حالته. ومَقَامُ شهادة التوحيد أفضلُ عند العارفين من مقامِ شهادةِ التعريف، وإن كانت هذه أوسع وأكثرُ إلا أنها فى أصحاب اليمين، وفى عُمومِ المقربين. وشهادةُ التوحيد أضيق وأقلُّ، وأهلها أعلى وأفضلُّ، وهى فى المقربين وخصوصِ العارفين.

وقد يعترض المريدُ بقصةِ داود عليه السلام فى تذكره ونوحه على خطيئته، فإنّ الأنبياء لا يُقاس عليهم؛ لمجاوزتهم حدودَ من دونهم، وقد يُقَلَّبون فى أحوال المريدِ، ويُسلَكُ بهم سُبُلُ المتعلمين؛ وذلك لأجل الأمة، ليكون طريقاً للعالمين.

واعلم أنه لا يُؤمَنُ على ضعيفِ اليقين قَوَى النفس عند تذكرِ الذنوبِ نظراً القلبِ إليها بشهوة، أو ميلِ نفسٍ معها بحلاوة، فيكون ذلك سببَ فتنته؛ فيفسدُ من حيث صلح. كما لا يُؤمَنُ على معتادِ خطيئةٍ بالنظرِ إلى سببها حركةُ النفس إليها، وإن كان الأفضلُ الاتفاقُ معها ما لم يكن الاتفاقُ معصيةً، لمجاهدة النفس بالصبر عنها، إلا أن ذلك غَرَرٌ^(١)، وفيه خطر، فتركُ الاجتماعِ وقطعُ الأسبابِ

(١) فى (ط): «غرور».

حينئذ أسلم، وما كان أسلمَ للمريد فهو أفضل، وفي نسيان الذنوب الذكر لما يستقبل، والانكماش على ما يفوت من الوقت خوف فوت ثان^(١).

وقد كان بعض أهل المعرفة^(٢) يكره للمريد أن يكون وسواسه^(٣) الجنة، أو تذكر ما فيها من النعيم واللباس والأزواج. وقال: واستحب للمريد أن يكون وسواسه ذكر الله تعالى، وخواطره وهمه متعلقة بالله تعالى لا سواه. قال: لأن المريد حديث عهد بتوبة غير معتاد لطول الاستقامة والعصمة؛ فإذا تذكر نعيم الجنة لم آمن عليه لضعف قلبه أن يشتهي مثله مما يشاهد في الدنيا من اللباس والطيبات والنساء؛ لأن هذا عاجل، وذاك آجل، فتطلب نفسه مثل ما تذكرت من نعيم الآخرة معجلاً في الدنيا. قال: فإذا كان همه الله تعالى كان أبعد له من زينة الدنيا وشهواتها، ولم يجتر العدو^(٤) بتمثيل ذلك له من العاجل، إلى أن يقوى يقينه، وتنتقل عادته، وتدوم عصمته.

وقد اختلف أهل العلم أيضاً في عبد ترك ذنباً وعمل في الاستقامة، ونفسه تنازعه إليه، وهو يجاهدُها. وفي آخر: ترك الذنب وانكمش في الإصلاح، فلم تكن نفسه تطالبه، فلا تنازعه إلى الذنب، ولم يكن على قلبه منه ثقل ولا مجاهدة. أي هذين أفضل؟

فقال بعض علماء أهل الشام: الذي تنازعه نفسه إلى الذنب وهو يجاهدُها أفضل؛ لأن عليه منازعة، وله فضل مجاهدة.

ومال إلى هذا القول أحمد بن أبي الحواري، وأصحاب أبي سليمان الداراني.

وقال علماء البصرة: الذي سكنت نفسه عن المنازعة بشاهد من شواهد اليقين والطمأنينة فلم يبق فيه فضل لعود ولا طلب لمعتاد أفضل.

(١) في (ط): «فوت الثاني» وأثبت ما في (ك) و(خ).

(٢) في (خ): «العارفين».

(٣) في (خ): «وساوسه».

(٤) يجتر العدو: أي يتجرأ عليه.

ومال إلى هذا رياح بن عمرو القيسى^(١)، وهو من كبار علماء البصريين. وقال: لو فترًا لكان هذا أقرب إلى السلامة ولم يؤمن على الأول الرجوع^(٢). وهذا كما قال.

وقد اختلف العلماء أيضًا فى عَبدِين: سئل أحدهما شيئًا من بذل ماله فى سبيل الله، فأبى نفسه عليه، وثقل عليها ذلك، فجاهدها وأخرج ماله. وسئل آخرُ بذل ماله فبذله مع السؤال طوعًا من غير مُنازعة نفسٍ، ولا ثقلٍ عليها، ولا مجاهدةٍ منه لها، أيهما أفضل؟

فقال قوم: المجاهد لنفسه أفضل؛ لأنه اجتمع له الإكراه والمجاهدة، فحصل له عملان. وذهب إلى هذا القول ابن عطاء وأصحابه. وقال آخرون: الذى سمحت نفسه بالبذل طوعًا من غير إكراه ولا اعتراض أفضل. قال: لأنّ مقام هذا فى سخاوة النفس والتحقيق بالزهد أفضل من جميع أعمال الأول من الإكراه والمجاهدة، ومن بذل ماله على ذلك؛ ولأنّ الأول وإن غلب نفسه فى هذه الكربة لا يأمن غلبتها له فى كربة ثانية أو ثالثة، إذ ليس السخاء من مقامها؛ لأنها كانت محمولةً عليه. وإلى هذا ذهب الجنيّد رحمه الله، وهو عندى كما قال، واللفظ لنا.

وسئل أبو محمد سهل عن الرجل يتوب من الشيء ويتركه، ثم يخطر ذلك الشيء بقلبه أو يراه أو يسمع به، فيجد حلاوة؟ فقال: الحلاوة طبع البشرية، ولا بدّ من الطبع، وليس له حيلة إلا أن يرفع قلبه إلى مولاه بالشكوى، وينكره بقلبه، ويلزم نفسه الإنكار ولا يفارقه، ويدعو الله تعالى أن ينسيه ذكر ذلك، ويشغله بغيره من ذكره وطاعته. وقال: فإن هو غفل عن الإنكار طرفة عينٍ أخاف عليه أن لا يسلم، وتعمل الحلاوة فى قلبه، ولكن مع وجدان الحلاوة يلزم قلبه الإنكار والحزن، فإنه لا يضره.

وهذا عندى هكذا؛ لأنّ التوبة تصح^(٣) مع بقاء الشهوة، ويكون العبد مرادًا

(١) رياح له ترجمة فى الحلية (٦/١٩٢ - ١٩٧).

(٢) فى (ط): «لو فتر هذا لكان هذا ... على الآخر الرجوع» وأثبت ما فى (خ) و(ك). وفترًا: على التثنية.

(٣) فى (ط): «لا تصح» وأثبت ما فى (خ).

بالمجاهدة، وهذا حال المريدین. ومحو الشهوات من القلب بدوام التوّلّى وصف العارفين.

وربّما تعلّق بالذنب ذنوبٌ كثيرةٌ هي أعظمُ منه؛ مثلُ الإصرارِ عليه، والاغترابِ به، وتسويفِ التوبةِ بعده، ووَجْدِ حلاوةِ الظَّفَرِ بمثاله، أو وَجْدِ الحزنِ والكرهيةِ على فوته، والسُرورِ بعمله أو حَمَلِ غيره عليه إن كان ذنبًا بين اثنين، أو إنفاقِ مالِ الله سبحانه وتعالى فيه، فهو كفرُ النعمةِ به. وقد قيل: من أنفق درهماً في حرام فهو مسرف.

ومن ذلك: أن يستصغرَ الذنبَ ويحتقره فيكون أعظمَ من اجتراحه، أو يتهاونَ بسترِ الله تعالى عليه ويستخفَّ بحلمِ الله تعالى عنه، فيكون ذلك من الاغترارِ والأمن، أو يجهلَ نعمةَ الله تعالى عليه في ستره وإظهارِ ضده، كما قال في الدعاء المأثور الذي يُمدحُ اللهُ سبحانه وتعالى به: «يا مَنْ أَظْهَرَ الْجَمِيلَ، وَسَتَرَ عَلَى الْقَبِيحِ، وَلَمْ يَأْخِذْ بِالْجَرِيرَةِ، وَلَمْ يَهْتِكِ السِّرَّ». ويقال: كلُّ عاصٍ تحت كَنَفِ الرحمن، فإذا رفعَ يدهُ عنه انتهك ستره.

ومن ذلك: المجاهرةُ بالذنبِ والصّولُ به والتّظاهرُ، وهذا من الطغيان، وفي الخبر: «كلُّ الناسِ معافى إلا المجاهرين»، يبيت أحدهم على الذنبِ قد ستره الله تعالى عليه، فيصبحُ فيكشفُ سِرَّ الله تعالى ويتحدثُ بذنبه.

وربّما سَنَّ العاصي بالذنبِ سنّةً اتَّبَعَ عليها، فتبقى سيئاتُ ذنبه عليه ما دام يُعملُ به. وقد قيل: طوبى لمن إذا ماتَ ماتَتْ ذُنُوبُهُ معه ولم يُؤْخَذْ بها بعده! وطوبى لمن لم يَعُدْ^(١) ذَنْبَهُ غَيْرُهُ. وقال بعضهم: لا تُذنبُ، فإن كان لا بُدَّ فلا تحملْ غيرَكَ على الذنبِ فتكسبِ ذنْبين. وقد جعل اللهُ تعالى هذا المعنى وصفاً من أوصافِ المنافقين في قوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: ٦٧]. فمن حمل أخاه على ذنبٍ معه فقد أمر بالمنكر ونهى عن المعروف.

(١) في (ط): «لم يعدد».

وقال بعض السلف: ما انتهك المرء من أخيه حرمةً أعظم من أن يساعده على معصيته ثم يهونها عليه.

وقد يعيش العبد أربعين سنة ثم يموت فتبقى ذنوبه بعده مائة سنة، يُعاقب عليها في قبره إذا كان قد سنّها سنّاً^(١) وأُتبع عليها، إلى أن تندرس أو يموت من كان يعمل بها، ثم تسقط عنه ويستريح منها.

ويقال: أعظم الذنوب من ظلم من لا يعرفه ولم يره من المتقدمين؛ مثل أن يتكلم فيمن سلف من أهل الدين وأئمة المتقين.

فهذه المعاني كلّها تدخل على الذنب الواحد وهي أعظم منه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ [يس: ١٢] قيل: سنّهم التي عمل بها بعدهم. وفي الخبر: «من سنّ سنة سيئة، فعمل بها من بعده، كان عليه مثل وزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئاً».

وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول: ويل للعالم من الأتباع، يزل زلّة فيرجع عنها، ويحتملها الناس فيذهبون بها في الآفاق. وقال بعض أهل الأدب: مثل زلّة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق الخلق معها.

وفي الخبر الإسرائيلي: إنّ عالماً كان يضلّ الناس بالبدع، ثم أدركته توبة، فرجع إلى الله تعالى، وعمل في الإصلاح دهرًا، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم: قل له: إنّ ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرته لك بالغًا ما بلغ، ولكن كيف بمن أضللت من عبادي فأدخلتهم النار؟!

فأما استحلال المعصية أو إحلالها للغير، فليس من هذه الأبواب في شيء، إنّما ذلك خروج عن الملة، وتبديل للشرعية، وهو الكفر بالله تعالى، كما روى عن النبي ﷺ: «ما آمن بالقرآن من استحلال محارمه». وقد سمى الله تعالى عملة السوء جهلة فقال تعالى: ﴿أَنَّهُ مِنْ عَمَلٍ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ [الأنعام: ٥٤]. وقال

(١) في (ط): «سنّا».

تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥]. وقال: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١].

ويقال: إِنَّ العرشَ يهتزّ ويغضبُ الربُّ تعالى لثلاثة أعمال: لقتل النفس بغير نفس، وإتيان الذكر الذكر، وركوب الأنثى الأنثى. وفي خبر: «لو اغتسل اللوطي بالبحار لم يطهره إلا التوبة».

ولو لم يكن في سير المعصية من الشؤم إلا حرمان الطاعة وفقد حلاوة الخدمة ومقت المولى لكان هذا من أعظم العقوبات. كما قال وهيب بن الورد وقد سئل: هل يجد العاصي حلاوة الطاعة؟ قال: لا، ولا من هم بمعصية. ولذلك سمى الله تعالى «يحيى» سيّداً؛ لأنه لم يهم بمعصية، فصار علامة السيّد بقدر سودده^(١) من لا يهم بالمعاصي، فصار من لا يهم بالمعاصي سيّداً. وفي خبر: «من لبس ثوب شهرة - وفي بعضها: من نظر إلى عطفه - فاختلف أعرض الله تعالى عنه وإن كان عنده حبيباً». كيف، وفي المخالفة وجود البعد والوحشة والانقطاع من المعاملة!

ورؤينا في خبر: «إن آدم، عليه السلام، لما أكل من الشجرة تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته»، قال: فاستحيا التاج والإكليل من وجهه أن يرتفعا عنه، فجاءه جبريل، عليه السلام، فأخذ التاج عن رأسه، وحلّ ميكائيل الإكليل عن جبينه، ونوديا من فوق العرش: اهبطا من جوارى، فإنه لا يجاورني من عصاني. فالتفت آدم إلى حواء باكياً، وقال: هذا أول شؤم المعصية، أخرجنا من جوار الحبيب».

ورؤينا أن سليمان نبي الله ﷺ لما عُوقب على خطيئته من أجل التمثال الذي عبد في داره أربعين يوماً، وقيل: إن المرأة سألته أن يحكم لأبيها على خصمه فقال: نعم ولم يفعل، وقيل: بل أحب بقلبه أن يكون الحكم لأبيها على خصمه لمكانها - فسلب ملكه أربعين يوماً، فهرب تائهاً على وجهه، وكان يسأل بكفه فلا يُطعم، فإذا قال: أطعموني فإنني سليمان بن داود شجّ وضرب. ولقد بلغني أنه

(١) في (ط): «بقدر سودد». والسودد: الشرف، وقد يهمز، يقال: السؤدد.

استطعم من بيت فطرد وبزقت امرأة في وجهه. وفي رواية قال: فأخرجت إليه عجوز جرة فيها بول فصبته على رأسه. إلى أن أخرج له الخاتم من بطن الحوت، فلبسه بعد انقضاء الأربعين، وهي أيام العقوبة. قال: فجاءت الطير فعكفت عليه، وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله، فلما عرفه الصيادون عقرؤا بين يديه، واعتذروا إليه مما كانوا طردوه وشجوه، فقال: لا ألومكم فيما صنعتم قبل، ولا أحمدكم فيما تصنعون الآن، هذا أمر من السماء فلا بد منه.

ولقد بلغني أنه كان في مسيره والريح تحمله في جنوده، إذ نظر إلى قميصه نظرة، وكان عليه قميص جديد، فكأنه أعجبه، فوضعت الریح بالأرض، فقال لها: لم فعلت ولم آمرک؟ قالت: إنما نطيعك إذا أطعت الله تعالى.

وقد قال بعض العلماء في معنى هذا: من خاف الله تعالى خافه كل شيء، ومن خاف غير الله تعالى أخافه الله تعالى من كل شيء. فكذلك أيضاً: من أطاع الله تعالى سخر له كل شيء، ومن عصاه سخره لكل شيء، أو سلط عليه كل شيء.

ولو لم يكن في الإصرار على المعصية من الشؤم إلا أن كل ما يصيب العبد يكون له عقوبة، إن كان سعة عوقب بذلك ولم يأمن بها الاستدراج، وإن كان ضيقاً كان عقوبة له.

وفي الخبر: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يُصيبه».

وقد قيل: الرزق من الحرام من قلة التوفيق للأعمال الصالحة. وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: إني لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يُصيبه.

ولو لم يكن من بركة التوبة والعلم والاستقامة على الطاعة إلا أن كل ما يصيب العبد فهو خير له، إن كان سعة فهو رزق^(١) من الله تعالى به عليه، ولطف له منه؛ وإن كان ضيقاً فهو اختبار من الله تعالى وخيرة للعبد، ويجد حلاوة ذلك ولذته، لأنه في سبيله، وقد أصابه وهو مقيم على طاعته.

(١) في (ط): «رفق».

ولو لم يكن من شؤم الناس وَجَدَ النَّقْصَ لمخالطتهم إلا أن المعصية معهم أشد، وهى بهم أعظم لتعلق المظالم فى أمر الدنيا وشأن الدين، وكلُّ مَنْ قَلَّتْ معارفه قَلَّتْ معهم خطاياهم. وقال بعض السلف: ليست اللعنة سواداً فى الوجه ونقصاً فى المال، إنما اللعنة أن لا يخرج من ذنب إلا وقع فى مثله أو شر منه، وذلك أن اللعنة هى الطرد والبعد، فإذا طرد من الطاعة فلم يُيسر له ^(١) وبُعد عن القربات فلم يُوفق لها، فقد لعن.

وقد قيل فى معنى الخبر الذى رويناه آنفاً: «إن العبد ليُحرَمَ الرِّزْقَ بالذَّنْبِ يُصِيبُهُ» قيل. أن يُحرَمَ الحلال، ولا يُوفق له بوقوعه فى المعصية. وقيل: يُحرَمُ مجالسة العلماء، ولا ينشرح قلبه لصُحبة أهل الخير. وقيل: يَمَقَّتُهُ الصَّالِحُونَ وأهل العلم بالله تعالى، فيعرضون عنه. وقيل: يُحرَمُ العلم الذى لا صلاح للعمل إلا به؛ لأجل إقامته على الجهل، ولا تنكشف له الشبهات بإقامته على الشهوات، بل تلبس عليه الأمور فيتحيّر فيها بغير عصمة من الله تعالى، ولا يُوفق للأصوب والأفضل.

وقد كان الفضيل يقول: ما أنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان، فذنوبك أورثتك ^(٢) ذلك.

ويقال: نسيان القرآن بعد حفظه من أشد العقوبات، والمنع من تلاوته وضيق الصدر بقراءته والاشتغال عنه بضده عقوبة الإصرار.

وقال بعض صوفية أهل الشام: نظرت إلى غلام نصرانى حسن الوجه، فوقفت أنظر إليه، فمرّ به ابن الجلاء الدمشقى، فأخذ ييدى، فاستحييت منه، فقلت: يا أبا عبد الله، سبحان الله! تعجبت من هذه الصورة الحسنة، وهذه الصنعة المحكّمة، كيف خلقت للنار! فغمز يدي وقال: لتجدن عقوبته بعد حين. قال: فعوقبت بعد ثلاثين سنة.

(١) فى (خ): «إذا طرد من الطاعات ولم يتيسر له».

(٢) فى (خ): «ورثتك».

وقال بعضهم: إني لأعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حماري. وقال آخر: أعرِفُ العقوبةَ حتَّى في فأرِ بيتي^(١).

وحدَّثونا عن منصور الفقيه قال: رأيت أبا عبد الله السكري في النوم فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: أوقفني بين يديه في العرق حتَّى سقط لحمُ خدي. قلت: ولم ذاك؟ قال: نظرتُ إلى غلامٍ مُقبلاً ومُدبراً.

والعقوبةُ موضوعُها الشدةُ والمشقةُ. فعقوبةُ كلِّ عبدٍ من حيثُ يشتدُّ عليه؛ فأهلُ الدنيا يُعاقبون بحرمانِ رزقِ الدنيا؛ من تعذَّر الإكساب وإتلاف الأموال، وأهلُ الآخرة يُعاقبون بحرمانِ رزقِ الآخرة من قلةِ التوفيقِ للأعمالِ الصالحات، وتعذَّر فتوح العلومِ الصادقة، ذلك تقدير العزيز العليم. وكان أبو سليمان الداراني يقول: الاحتلامُ عقوبة. وقال: لا تفوت أحداً صلاةً في جماعةٍ إلا بذنبٍ يُحدِّثه. فدقائقُ العقوباتِ على قدرِ ترفعٍ^(٢) الدرجات.

وقد جاء في الأخبار: ما أنكرتم من زمانكم فيما غيَّرتُم من أعمالكم. وفي الخبر: «يقول الله عزَّ وجلَّ: إنَّ أدنى ما أصنعُ بالعبد إذا أثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذيذَ مناجاتي». فهذه عقوبةُ أهل المعاملات.

ولو ظهر تغيُّر القلب عند المعصية على وجه العاصي لاسودَّ وجهه، ولكنَّ الله تعالى سلَّم بحلمه وسِتْره، فغطَّى ذلك في القلب مع تأثيره فيه، وحجابه لصاحبه، وقسوته عن الذِّكر، وعن طلب الخير والبر، والمصارعةِ إلى الخير، وهو من أكبرِ العقوبات.

ويقال: إن العبدَ إذا عصى أظلم قلبه ظلْمةً يثور على العقل^(٣) منها دخانٌ يشهده الإيمان، فهو مكانُ حزن العبد الذي تسوءُ سيئته، ويكون ذلك الدخان حجاباً له عن العلم والبيان، كما تحجب السحابةُ الشمسَ فلا تُرى، ويكون غُلْفاً يجده في نفسه للخلْق، فإذا تاب العبدُ وأصلَحَ انكشفَ الحجابُ، فيظهر الإيمانُ

(١) في (ط): «نار بيتي» والصواب ما في (خ)، وفي (ك): «في تسليط فارتي على».

(٢) في (خ): «جلائل».

(٣) في (ط): «على القلب» وأثبت ما في (ك) و (خ).

فيأمرُ بالعلم، كما تبرز الشمسُ من تحت الحجاب. ومن هذا قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] قيل: هو الذنبُ على الذنب حتى يَسْوَدَّ القلبُ، ويصير الإيمانُ تحت الحجاب، فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، وعندها يُنكسُ أعلاه أسفله إذا استكمل سَوَادُهُ. فثُمَّ مَرَدَ عَلَى النِّفَاقِ، فحينئذٍ أَمْلَسَ فِيهِ^(١)، واطمأنَّ به وثَبَّتَ، إلى أن ينظرَ الله تعالى إليه، فَيَتَعَطَّفَ بفضله عليه.

وقد كان الحسنُ رضى الله عنه يقول: إنّ بين العبد وبين ربه عزّ وجلّ حداً من المعاصي معلوماً، إذا بَلَغَهُ العبدُ طُبِعَ على قلبه، فلم يُوقِّقْهُ بعدها لِخَيْرٍ.

وفى حديث ابن عمر: «الطَّابِعُ مَعْلُوقٌ بِقَائِمَةِ الْعَرْشِ، فَإِذَا انْتَهَكْتَ الْحَرَمَاتِ، وَاسْتُحِلَّتِ الْمَحَارِمُ، أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى الطَّابِعَ فَطُبِعَ عَلَى الْقُلُوبِ بِمَا فِيهَا».

وفى حديث مجاهد: «القلبُ مثلُ الكفِّ المفتوحة، فكَلَّمَا أَذْنِبَ ذَنْبًا انْقَبَضَتْ أَصْبَعٌ، حَتَّى تَنْقَبِضَ الْأَصَابِعُ كُلُّهَا، فَيُشَدُّ عَلَى الْقَلْبِ، فَذَلِكَ هُوَ الْقِفْلُ».

ويقال: لكلِّ ذنب نباتٌ يَنْبْتُ عَلَى الْقَلْبِ، فَإِذَا كَثُرَتِ الذُّنُوبُ قَامَ النَّبَاتُ حَوْلَ الْقَلْبِ مِثْلَ الْكُمِّ لِلثَّمَرَةِ، فَانْضَمَّ عَلَى الْقَلْبِ، فَذَلِكَ هُوَ الْغِلَافُ. ويقال: إِنَّهُ الْكِتَانُ؛ وَاحِدُ الْأَكِنََّةِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَّ الْقَلْبَ لَا يَسْمَعُ مَعَهَا وَلَا يَفْقَهُ.

وقد حدثني بعض هذه الطائفة عن أبي عمرو بن عُلوَانَ فِي قِصَّةِ تَطَوُّلٍ، قَالَ فِيهَا: فَكُنْتُ قَائِمًا أَصَلَّى ذَاتَ يَوْمٍ، فَخَامَرَ قَلْبِي هَوًى^(٢) طاولته بِفَكْرِي، حَتَّى تَوَلَّدَ مِنْهُ شَهْوَةُ الرَّجُلِ، قَالَ: فَوَقَعْتُ إِلَى الْأَرْضِ، وَاسْوَدَّ جَسَدِي كُلُّهُ، فَاسْتَرْت فِي الْبَيْتِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَلَمْ أَخْرَجْ، وَقَدْ كُنْتُ أَعَالِجُ غَسْلَهُ فِي الْحَمَامِ بِالصَّابُونِ وَالْأَلْوَانِ الْغَاسِلَةِ فَلَا يَزْدَادُ إِلَّا سَوَادًا، قَالَ: ثُمَّ انْكَشَفَ عَنِّي بَعْدَ ثَلَاثٍ، فَرَجَعْتُ إِلَى لَوْنِي الْبَيَاضِ، قَالَ: فَلَقِيتُ أَبَا الْقَاسِمِ الْجَنِيدَ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَكَانَ وَجْهَهُ إِلَى

(١) فِي (ط): «فحينئذٍ مرد على النفاق فأملس فيه». ومرد على النفاق: أقدم عليه حتى بلغ فيه الغاية. وأملس فيه: أسرع.

(٢) فِي (ط): «هواء».

فأشخصني من الرقة، فلما أتيتُه قال لي: أما استحييت من الله تعالى؛ كنت قائماً بين يديه، فسامرت نفسك شهوةً، حتى استولت عليك برقة، فأخرجتك من بين يدي الله تعالى، ولولا أنني دعوتُ الله عز وجل لك وتبتُ إليه عنك للقيت الله تعالى بذلك اللون. قال: فعجبتُ كيف علم بذلك وهو ببغداد وأنا بالرقة، ولم يطلع عليه إلا الله عز وجل.

فذكرتُ هذه الحكاية^(١) لبعض العلماء، فقال: كان هذا رفقا من الله تعالى به وخيرة له، إذ لم يسود قلبه، وظهر السواد على جسده، ولو بطن في قلبه لأهلكه^(٢). ثم قال: ما من ذنب يتركبه العبدُ يصرُّ عليه إلا اسودَّ القلبُ منه مثل سواد الجسم الذي ذكره، لا يجلوهُ إلا التوبة. ولكن ليس كلَّ عبد يُصنعُ له صنع ابن علوان، ولا يجد من يَلُطِّفُ له به مثل أبي القاسم الجنيد رحمه الله.

ولكلِّ ذنب عقوبة إلا أن يعفو الله. والعقوبة ليست على قدر الذنب، ولا من حيث يعلم العبد، لكنها على تقدير المشيئة، وعن سابق علم الربوبية، فربما كانت في قلب وهى من أمراض القلوب، وربما كانت في الجسد، وقد تكون في الأموال والأهل، وقد تكون في سقوط الجاه والمنزلة من عيون علماء الإسلام والمؤمنين، وقد تكون مؤجلة في الآخرة؛ وهذه أعظم العقوبات، وهى لأهل الكبائر من الموبقات الذين ماتوا عن غير توبة، ولأهل الإصرار والغرّة والاستكبار؛ لأنها إذا كانت في الدنيا كانت يسيرة على قدر الدنيا، وإذا تأخرت كانت عظيمة على قدر الآخرة. [واعلم أن العلل في الأجسام قد تكون كفارات للذنوب]^(٣). وفي الخبر: «إذا أراد الله تعالى بعبد خيراً عجل له عقوبة ذنبه، وإذا أراد به شراً أخره حتى يوافي به الآخرة».

واعلم أن الغم على ما يفوت من الدنيا والهَم بالحرص عليها من العقوبات،

(١) في (ط): «الحكايات».

(٢) في (ط): «لأهلك».

(٣) ما بين المعكوفتين من (ك). والملاحظ أن نسخة (ك) هنا فيها بعض الاختصار والتقديم والتأخير في النصوص، لذلك كان اعتمادى عليها ضئيلاً في ضبط النص، بجوار نسخة (خ).

والفرح والسرور بما نال من الدنيا مع ما لا يبالي ما خرج من دينه من العقوبات .
وقد تكون عقوبة الذنب ذنباً مثله أو أعظم منه ، كما يكون ثواب الطاعة طاعةً
مثلاً أو أفضل منها . وقد يكون دوام العوافي واتساع الغنى من عقوبات الذنوب
إذا كانا سببين إلى المعاصي . وفي أحد الوجوه من معنى قوله تعالى : ﴿وَعَصَيْتُمْ
مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] قال : الغنى والعافية . فهما أمهاتُ
المعاصي إذا كانا لها سببين ومُطَرِّقَيْنِ إليها . فقد صار الفقرُ والمرضُ رحمةً من الله
تعالى إذا كانا سبباً للعصمة^(١) .

واعلم أن الحلم لا يرفع العقوبة ولكن يؤخرها ، ومن شأن الحليم أن لا يعجل
بالنقوبة وقد يعاقب بعد حين .

ورؤينا في معنى قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ
شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤] أى : الرخص والرغد ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ،
قيل : بعد ستين سنة . وفي الخبر : «من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم بطلب
المعيشة» . وفي لفظ آخر : «لا يكفرها إلا الهموم» . فالأحزان والاهتمام بالمباحات
من حاجات الدنيا للفقراء كفارات ، وهو على ما يفوت من قربات الآخرة
للمؤمنين درجات ، وهو على حب الدنيا والجمع منها والحرص عليها عقوبات .

وقال بعض السلف : كفى به ذنباً لا يُستغفرُ منه حبُّ الدنيا . وقال آخر : لو لم
يكن للعبد من الذنوب إلا أنه يَغْتُمُ بمصائب الدنيا بما يفوته منها ما لا يَغْتُمُ بفوتِ
نصيبه من الآخرة والتزود لها^(٢) .

وفي حديث عائشة رضى الله عنها : «إذا كثرت ذنوبُ العبد ، ولم يكن له من
الأعمال ما يكفرها ، أدخلَ الله عزَّ وجلَّ عليه الغمومَ والهمومَ ، فتكونُ كفارةً
لذنوبه» .

(١) هذه الفقرة برمتها كانت مضطربة بالمطبوعة فأثبتها من نسخة (خ) مع زيادات ليست بالمطبوعة ،
وستكرر مثل ذلك كثيراً .

(٢) فى (ط) وردت هذه الجملة كالآتى : «إلا أنه يقيم بمصائب الدنيا بما لا يقيم بما لا يفوته فيها من
نصيب الآخرة والتزود لها» والصواب ما أثبت من (خ) .

ويقال: إنَّ الهمَّ الذى يَعْرِضُ للقلب فى وقتٍ لا يعرف العبدُ سببَهُ^(١) هو كَفَّاراتُ الهمِّ بالخطايا. ويقال: هو حزنُ العقل عند تذكره الوقوفَ والمحاسبةَ لأجل جنایات الجسد، فيلزم العقلُ ذلك الهمُّ، فيظهر على العبد منه كأنه لا يعرف سبب غمِّه.

ومن أخبار يعقوب عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه: لولا ما سبق لك فى علمى من عنايتى بك لجعلتُ نفسى عندك أبخلَ الباخلين، لكثرة تردادك إلى بطولِ سؤالك لى، وتأخيرى إجابتك، ولكن من عنايتى بك أن جعلتُ نفسى فى قلبك أتى أرحمُ الراحمين وأحكمُ الحاكمين، وقد سبق لك عندى منزلةٌ لم تكن تنالها بشيءٍ من علمك إلا بحزنك على يوسف، فأردتُ أن أبلغك تلك المنزلة.

وكذلك ما رُوينا أن جبريل عليه السلام لما دخل على يوسف عليه السلام فى السجن قال له: كيف تركتَ الشيخَ الكئيب؟ قال: قد حزن عليك حزنَ مائة ثكلى. قال: فماذا له عند الله تعالى؟ قال: أجرُ مائة شهيد.

وفى خبر رويناه عن السلف: ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كِسْفًا، فيقول الله عزَّ وجلَّ للأرض والسماء: كُفَّا عن عبدى وأمهلاه، فإنكما لم تخلقاه، ولو خلقتُماه لرحمتُماه، لعله يتوب إلىَّ فأغفر له، لعله يستبدلُ صالحًا فأبدله حسنات. فذلك معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ أى: من معاصى العباد ﴿وَلَكِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا﴾ أى: عن معاصيهم ﴿غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١] لمساوئهم.

وقيل فى تفسير ذلك: إنَّ الله عزَّ وجلَّ إذا نظر إلى معاصى العباد غَضِبَ، فترجفُ الأرض وتضطرب السماء، فتنزُل ملائكةُ السماء فتمسك أطرافَ الأرضين، وتصعد ملائكةُ الأرضين فتمسك أطرافَ^(٢) السموات، ولا يزالون

(١) فى (ط): «سبب ذلك».

(٢) فى (ط): «على أطراف».

يقرؤون: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يسكن غضبه سبحانه وتعالى، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ﴾ الآية.

وقال بعض العلماء: إذا ضُربَ الناقوسُ في الأرض، ودُعِيَ بدعوة الجاهلية، اشتدَّ غضبُ الربِّ سبحانه وتعالى، فإذا نظر إلى صبيان المكاتب، ورأى عُمَّار المساجد - وقيل: إذا نظر إلى المتحابين في الله أو المتزاورين له، وسمِعَ أصوات المؤذنين - حَلَمَ وَغَفَرَ، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

فإذا^(١) أَتَبَعَ العبدُ الذنبَ بالذنب، ولم يجعل بين الذنبتين توبةً، خِيفَ عليه الهَلَكَةُ؛ لأنَّ هذا حال المصيرِّ، ولأنَّه قد شَرَدَ عن مولاه بترك رجوعه إليه، ودوام مقامه مع النفس على هواه، وهذا مقامُ المقتِ في البعد، وأفضلُ ما يعملُه العبد قطعَ شهواتِ النفس أحلى ما يكون عنده الهوى، إذ ليس لشهواتها آخرُ يُنتظر، كما ليس لبدايتها أولُ يُرَتِّبُ، فإن لم يقطع ذلك لم يكن له نهاية، فإن شُغل بما يستأنف من مزيد الطاعة، ووجد حلاوة العبادة، وإلا أخذ نفسه بالصبر والمجاهدة، فهذا طريقُ الصَّادِقِينَ من المريدين.

وقيل في قوله تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ [الاعراف: ١٢٨] أى: استعينوا به على الطَّاعة، واصبروا على المجاهدة في المعصية.

وقال على كرم الله وجهه: أعمالُ البرِّ كُلُّها إلى جنب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كَتَفْلَةٍ إلى جنب البحر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى جنب الجهاد في سبيل الله تعالى كَتَفْلَةٍ في جنب بحر، والجهاد في سبيل الله تعالى إلى مُجَاهَدَةِ النفس عن هواها في اجتناب النهي كَتَفْلَةٍ في جنب بحر لُجِّيٍّ. وعلى هذا معنى الخبر الوارد: «رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، مجاهدة النفس».

وكان سهل بن عبد الله يقول: الصبرُ تصديقُ الصِّدْقِ، وأفضلُ منازل الطَّاعة صبرٌ على معصية، ثم الصَّبْرُ على الطَّاعة.

(١) قبله في (ك) عنوان رئيسي: «بقية شرح مقام التوبة ووصف التائبين».

وقد رُوينا في الإسرائيليات: أَنَّ رجلاً تزوّج امرأةً في بلدة، وأرسل عبده يحملها إليه، فراودته نفسه^(١) وطالبته بها، فجاهدها واستعصم بالله، قال: فنبأه الله تعالى، فكان نبياً في بني إسرائيل.

وفى بعض قصص موسى عليه السلام أَنَّهُ قال للخضر عليه السلام: بأى شيء أطلعك الله تعالى على علم الغيب؟ فقال: بترك المعاصي لأجل الله تعالى. فالجزء من الله تعالى يجعله غاية العطاء، لا على قدر العمل، لكن إذا عمل له عبد شيئاً لأجله أعطاه أجره بغير حساب.

ثم أن لا يتخذ التائب عادةً من ذنب فيتعدّر بها توبته، فإن العادة جندٌ من جنود الله تعالى، لولاها لكان الناس كلهم تائبين، ولولا الابتلاء لكان التائبون مستقيمين. ثم أن يعمل في قطع معتاد، إن كان، ثم ليصبر على مجاهدة النفس في هوى إن بلى به.

فهذه الخصال من أفضل أعمال المريدين وأزكاها، ومعها تلهم النفس المطمئنة رُشدًا وتقواها، وبها تخرج من وصف الأمانة بالسوء إلى وصف المطمئنة؛ إلى أخلاق الإيمان والقرآن.

وهذا أحد المعاني في الخبر الذي روى: «أفضل الأعمال ما أكرهتم عليه النفوس»؛ لأن النفس تكره خلاف الهوى، والهوى هو ضد الحق، والله تعالى يحب الحق، فصار إجبار النفس على خلاف الهوى وعلى وفاق الحق، لأن محبة الحق من أفضل الأعمال، كما قال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ [الاعراف: ٨] الآية. واستثنى من أهل الخسر الذين تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، وهذا أول اليقين.

وحدثت عن بعض أهل الاعتبار أَنَّهُ كان يمشى في الوحل، فكان يتقى، ويشمر ثيابه عن ساقيه، ويمشى في جوانب الطريق، إلى أن زلقت رجله في الوحل، فأدخل رجله في وسط الوحل، وجعل يمشى في المحجة. قال: فبكى.

(١) في (خ): «فراودته عن نفسه».

فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: هذا مثلُ العبد لا يزال يتوقَّى الذنوبَ ويُجانبُها حتى يقعَ في ذنبٍ منها وذنبيين، فعندها يخوضُ الذنوبَ خوفاً.

وعلى العبد أن يتوب من الغفلة التي هي كائنة، فإذا عرف هذا لم تنقطع أبداً توبته. وقد جعل الله تعالى أهلَ الغفلة في الدنيا هم أهلُ الخسران في العقبى، فقال عزّ من قائل: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ * لا جرمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿[النحل: ١٠٨-١٠٩]، ولكن غفلةً دونَ غفلةٍ، وخسرانٌ دونَ خسران، ولا تستحقرونَّ الغفلةَ فإنَّها أوَّلُ المعاصي. وهي عند الموقنين أصلُ الكبائر.

وقد جعل على، كرم الله وجهه، الغفلةَ إحدى مقامات الكفر، وقرنها بالعمى والشك، وأمال صاحبها عن الرُّشد، ووصفها بالحسرة، فقال في الحديث الذي يروى من طريق أهل البيت: «فقام عمار بن ياسر فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن الكفر على ما بُنى؟ فقال: على أربع دعائم: على الجفاء، والعمى، والغفلة، والشك. فمن جفا احتقر الحقَّ، وجهرَ بالباطل، ومقت العلماء. ومن عمى نسي الذكر. ومن غفل حاد عن الرشد وغرته الأمانى؛ فأخذته الحسرةُ والندامةُ وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب، ومن شكَّ تاه في الضلالة».

وقال بعضُ العلماء: مَنْ صدق في تركِ شهوةٍ، وجاهد نفسه لله تعالى سبعَ مراتٍ، لم يُبْتَلَ بها. وقال آخر: من تاب عن ذنب، واستقام سبعَ سنين، لم يرجع إليه أبداً. وقال بعض العلماء: كفارة الذنب المعتاد أن تُقدَّرَ عليه عدد ما أتيته، ثم لا تقع فيه، فيكون كلُّ تركٍ كفارةً لفعل. وهذا حالُ الأقوياء من التوَّابين، وليس هو طريقُ الضعفاء من المريدين، بل حالُ الضعفاء الهربُ والبُعد.

ومن حدَّث نفسه بمعصيةٍ في عدمها لم يملك نفسه عند وجودها. فليعمل المريدُ في قطع وساوس النفس بالخطايا وإلا وقع فيها؛ لأنَّ الخواطر تقوى فتكون وسوسةً، فإذا كثرت الوسوس صارت طرقاً للعدوِّ بالتزيين والتسويل. فأضرُّ شيء على التائب تمكينه خاطرَ السوء من قلبه بالإصغاء إليه، فإنه يدبُّ في هلكته، وكلُّ سبب يدعو إلى معصيةٍ أو يذكرُ بمعصيةٍ فهو معصية. وكلُّ سببٍ يؤول إلى ذنبٍ

ويؤدى إليه فهو ذنب، وإن كان مباحاً، وقطعه طاعةً. وهذا من دقائق الأعمال. وكان يقال: من أتى عليه أربعون، وهو العمر، وكان مقيماً على الذنب، لم يكذب منه إلا القليل من المتدركين. وقد روى في الخبر: «المؤمن كلُّ مُفْتَنٍ تَوَابٍ، وإنَّ للمؤمن ذنباً قد اعتاده الفينة بعد الفينة» يعنى حيناً بعد حين.

وفى الحديث: «كلُّ بنى آدم خطاءٌ وخيرُ الخطائين المستغفرون». وفى الخبر الآخر: «المؤمنُ واهٍ راقعٌ، فخيرُهم مَنْ ماتَ على رُقْعَةٍ»، أى: واه بالذنوب، راقع بالتوبة والاستغفار. وقد وصف الله تعالى المؤمنين بترك متابعة الذنوب، وترادف^(١) السيئة بالحسنة فى قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: ٢٢]. وقد جعل هذا من وصف العاملين الذين صبروا، فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [القصاص: ٥٤]، فجعل تعالى لهم صبرين: عن الذنب؛ وعلى التوبة، فاتاهم به أجرين.

وقد اشترط الله تعالى على التائبين من المؤمنين ثلاثَ شرائط، وشرط على التائبين من المنافقين أربعة؛ لأنهم اعتلوا بالخلق فى الأعمال، فأشركوهم بالخالق فى الإخلاص، فزاد عليهم الشرطَ تشديداً لشدة دخولهم فى المقت، واعتلَّ غيرهم بوصفه، فخفف عنهم شرطين، فقال عز وجل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا﴾ [البقرة: ١٦٠]، قوله تعالى: ﴿تَابُوا﴾ أى: رجعوا إلى الحق من أهوائهم، ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ يعنى: ما أفسدوا بنفوسهم، ﴿وبينوا﴾ فيها وجهان؛ أحدهما: بينوا ما كانوا كتموا من الحق وأخفوا من حقيقة العلم، وهذا لمن عصى بكتُم العلم ولبس الحق بالباطل. وقيل: بينوا توبتهم، حتى تبين ذلك فيهم فظهرت أحكام التوبة عليهم. وقال فى الشرطين الآخرين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ [النساء: ١٤٥-١٤٦]؛ لأنهم كانوا يعتصمون بالناس وبالأموال، وكانوا يراؤون بالأعمال، فلذلك اشترط عليهم الاعتصام بالله، والإخلاص لله عز وجل،

(١) فى (خ): «بترديف السيئة».

فينبغي أن تكون توبة كلِّ عبد عن ضدِّ معاصيه؛ قليلاً بقليل، أو كثيراً بكثير. ويكون التائب على ضد ما كان أفسد، ليكون كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]. ولا يكون العبد تائباً حتى يكون مصلحاً، ولا يكون مصلحاً حتى [يكون]^(١) يعمل الصالحات، ثم يدخل في الصالحين. وقد قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]. وهذا وصفٌ للتوَّاب، وهو المتحقق بالتوبة، والحيبُ لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، أى: يتولى الرَّاجعين إليه من أهوائهم، المتطهرين له من المكاره. وكما قال رسول الله ﷺ: «التائب حبيب الله».

وسئل أبو محمد سهل: متى يكون العبدُ التائب حبيب الله تعالى؟ فقال: حتى يكون كما قال الله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] الآية. ثم قال: الحبيب لا يدخلُ في شيءٍ لا يحبه الحبيب. وقال: لا تصحَّ التوبة حتى يتوبَ من الحسنات.

وقد قال غيره من العارفين: العامةُ يتوبون من سيئاتهم، والصَّوفية يتوبون من حسناتهم. يعنى من تقصيرهم في أدائها لعظيم ما يشهدون من حقِّ الملك العزيز سبحانه وتعالى المقابل بها، ومن نظرهم إليها أو نظرهم إلى نفوسهم بها، وهى مِنَّةُ^(٢) الله تعالى إليهم واصله.

وكان سهل يقول: التوبةُ من أفضل الأعمال؛ لأن الأعمال لا تصحَّ إلا بها، ولا تصحَّ التوبة إلا بترك كثير من الحلال مخافة أن يُخرِجَهم إلى غيره.

والاستغفارُ قوتُ التوَّابين، ومفزعُ الخطَّائين. قال الله تعالى وهو أصدقُ القائلين: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢]. وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ [المائدة: ٧٤]، فابتدأ التوبة بالاستغفار، وعقب الاستغفار بالتوبة، فالاستغفار مع الذنب سؤالُ السِّرِّ من الله تعالى، ومغفرةُ الله تعالى لعبده

(١) زيادة من (خ).

(٢) فى (خ): «وهى منه إليهم».

فى حال ذنبه ستره عليه وحلمه عنه. ويقال: ما من ذنب ستره الله تعالى على عبده فى الدنيا إلا غفره له فى الآخرة، إن الله تعالى أكرم من أن يكشف ذنباً كان قد ستره. وما من ذنب كشفه الله فى الدنيا إلا جعل ذلك عقوبة عبده فى الآخرة، فالله أكرم من أن يثنى عقوبته على عبده. وروى عن على وابن عباس رضى الله عنهما، نحو ذلك، وقد أسندهما من طريق.

والاستغفار بعد التوبة، وهو سؤال العبد مولاه العفو عن المؤاخذه، ومغفرة الله تعالى لعبده بعد التوبة تكفيره لسيئاته وتجاوزة عنها بالعفو الكريم، وهو تبديل السيئات حسنات، كما جاء فى الخبر: إن تفسير قول العبد: يا كريم العفو، قال: هو إن عفا برحمته عن السيئات ثم بذلها بكرمه حسنات.

وقد أحكم الله تعالى ذلك بقوله: ﴿فَاسْتَغْفِرُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦]، وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أى وحدوا الله تعالى، ثم استقاموا على التوحيد فلم يشركوا، وقيل: استقاموا على السنة فلم يحدثوا، وقيل: استقاموا على التوبة، فلم يروغوا معها، أن لا تخافوا عقاب الذنوب فقد كفرها عنكم بالتوحيد، ولا تحزنوا على ما فاتكم من الأعمال فقد تداركها الله تعالى لكم بالتوبة، وبلغكم منازل المحسنين بالاستقامة. ثم قال تعالى: ﴿وَأَبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فى السابق ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ﴾ أى: نليكم ونقرب منكم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بالتبیت لكم على الإيمان ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ﴾ أى: أجسامكم من النعيم المقيم، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣١] أى: ما تمنون بقلوبكم من النظر إلى الملك الرحيم.

وفى الخبر: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بآيات الله تعالى». وكان بعضهم يقول: أستغفر الله من قولى أستغفر الله باللسان عن غير توبة وندم بالقلب. وفى خبر: «الاستغفار باللسان من غير توبة وندم بالقلب توبة الكذابين».

وكانت رابعة العدوية تقول: استغفارنا هذا يحتاج إلى استغفار.

فكم من توبة تحتاج إلى توبة في تصحيحها، وإخلاصها^(١) من النظر إليها، والسكون والإدلال بها. فمن عَقَبَ السيئات بحسنات، وخلَطَ الصالحات بالطالحات، طُمِعَ له في النجاة، ورُجِيَ له الاستقامة قبل الوفاة. قال الله تعالى: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢]، أى يعطف عليهم وينظر إليهم، وقيل: خلطوا عملاً صالحاً: هو الاعتراف بالذنوب والتوبة المستأنفة، وآخر سيئاً: ما سلف من الغفلة والجهالة. وقد كان ابن عباس يقول: غفور لمن تاب، رحيم حيث رخص في التوبة.

فلم يردَّ الله سبحانه المخلصين إلا إلى ما ردَّ إليه المنافقين؛ وهو التوبة، وكذلك ردَّ إليها المشركين، إذ لا طريق للكل إلا منها، ولا وصول إلى المحبة والرضا إلا بها، فقال في شأن الكافرين: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، كما قال في وصف المنافقين: ﴿وَأَخْرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ أى: مع الإصرار، ﴿وإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦] أى بالاستغفار. وأحكم ذلك وفصله بما شرط له، فقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ﴾ أى: من الشرك ﴿وَأَمَنَ﴾ بالتوحيد ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أدَّى الفرائض واجتنب المحارم ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢] كان على السنة، وقيل: استقام على التوبة. فهذه صفات المؤمنين^(٢).

وقد قرَنَ الله تعالى الاستغفار للعباد ببقاء الرسول ﷺ في الأمة، ورفع العذاب عنهم بوجوده، فضلاً منه ونعمة؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]. وكان بعض السلف يقول: كان لنا أمانان ذهب أحدهما وبقي الآخر، فإن ذهب الآخر هلكنا. يعنى الذى ذهب الرسول ﷺ، والذى بقى الاستغفار.

(١) فى (ط): «والإخلاص» وأثبت ما فى (خ).

(٢) هذه الفقرة يختلف ترتيب بعض عباراتها عن المخطوط، فأثبت ترتيب المخطوط لها لأنه أدق.

وسئل سهل رحمه الله عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب، فقال: أول الاستغفار الاستجابة، ثم الإنابة، ثم التوبة. فالاستجابة أعمال الجوارح، والإنابة أعمال القلوب، والتوبة إقباله على مولاه وترك الخلق. ثم يستغفر من تقصيره الذي هو فيه، ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر؛ فعند ذلك يغفر له، ويكون عنده مأواه، ثم يُنقل إلى الانفراد، ثم الثبات، ثم البيان، ثم القرب، ثم المعرفة، ثم المناجاة، ثم المصافاة، ثم الموالاتة، ثم محادثة السر وهو الخلّة، ولا يستقر هذا في قلب عبد حتّى يكون العلمُ غذاءه، والذكرُ قوامه، والرّضا زاده، والتفويضُ مراده، والتوكّلُ صاحبه. ثم ينظر الله تعالى إليه فيرفعه إلى العرش، فيكون مقامه مقامَ حملة العرش.

وكان يقول: العبد لا بدّ له من مولاه على كلّ حال، وأحسن حاله أن يرجع إليه في كلّ شيء، إذا عصى يقول: يا رب استر عليّ، فإذا فرغ من المعصية قال: يا رب تّب عليّ، فإذا تاب قال: يا ربّ ارزقني العصمة، فإذا عمل قال: يا ربّ تقبّل منّي.

ومن أحسن ما يتعقّب الذنب من الأعمال بعد التوبة وحلّ الإصرار مما يرجى به كفارة الخطيئة ثمانية أعمال: أربعة من أعمال الجوارح؛ وأربعة من أعمال القلوب. فأعمال الجوارح: أن يصلي العبد ركعتين، ثم يستغفر؛ سبعين مرة، ويقول: سبحان الله العظيم وبحمده؛ مائة مرة، ثم يتصدق بصدقة، ويصوم يوماً. وأعمال القلوب: هي اعتقاد التوبة منه، وحبّ الإقلاع عنه، وخوف العقاب عليه، ورجاء المغفرة له. ثم يحتسب على الله تعالى بحسن ظنه وصدق يقينه كفارة ذنبه.

فهذه الأعمال قد وردت بها الآثار أنّها المكفّرة للزلل والعتار. وقد يشترط في بعضها، فيتوضأ فيسبغ الوضوء، ويدخل المسجد فيصلّي ركعتين، وفي بعض الأخبار: فيصلّي أربع ركعات.

قال: ويقال: إذا أذنب العبد أمر صاحب اليمين صاحب الشمال، وهو أمير

عليه، أن يرفع القلم عنه ستَّ ساعات، فإن تابَ واستغفر لم يكتبها عليه، وإن لم يستغفر كتبها. ويقال: صدقة الليل تكفِّر ذنوبَ النَّهار، وصدقة السرِّ تكفِّر ذنوبَ الليل. وفي بعض الأخبار: إذا عَمِلْتَ سيئةً فأتبعها حسنةً تكفِّرها، السرُّ بالسرِّ، والعلانيةُ بالعلانية.

وفي أخبار متفرقة جمعناها: ما من يومٍ طَلَعَ فجرُهُ ولا ليلةٌ غابَ شفقُها إلا ومَلَكَان يتجاوبان بأربعة أصوات، يقول أحدهما: يا ليت هذا الخلق لم يُخلَقوا، ويقول الآخر: ويا ليتهم إذ خُلِقوا عَلِمُوا لماذا خُلِقوا، فيقول الآخر: ويا ليتهم إذ علموا لماذا خُلِقوا عملوا بما علموا - وفي بعضها: تجالَسُوا فتذكَّروا ما عَلِمُوا - فيقول الآخر: ويا ليتهم إذا لم يعملوا بما علموا تابوا بما عملوا.

فأول ما يجبُ لله عزَّ وجلَّ على عبده أن لا يعصيه بنِعَمِهِ، لئلا تكون معصيته كفرًا لنعمته، وجوارحُ العبد وما لهُ من نِعَمِ الله تعالى عليه؛ لأنَّ قِوامَ الإنسان بجوارحه، وثباتُ جوارحه بالحركة، ومنافع الحركة بالعافية، فإذا عصاه بالنعمة فقد بدلَّها كُفْرًا؛ كما قال تعالى: ﴿بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨] قيل: استعانوا بها على معاصيه، ثم توعَّد على التَّبديل بالعقاب الشديد، فقال: ﴿وَمَنْ يُدِلَّ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١] على تبديل النعمة بالمعصية، معجلًا في الدنيا، ويكون مؤجلًا في الآخرة.

وقد يكون العقاب في أسباب الدنيا، وقد يكون في حرمان أسباب الآخرة، لأنَّها مآله ومثواه، وقد يكون فيهما معًا، وقد تكون نفس المعصية بالنعمة عقوبةً، والجهلُ بالنعمة وتضييعُ الشكر عليها، واستصغارُها والسكونُ إليها، والتطاولُ والتفاخرُ والتكابرُ بها، كلُّ هذه الأسباب عقوبات، ثم يُفترضُ على العبد إذا عصاه الرجوعُ إلى مولاه، وهو التوبة عقيب وقوفه مع نفسه، وهو موافقةُ الهوى بالخطيئة، فتأخيره بالتوبة وإصراره على الذنب ذنبان مضافان إلى الخطيئة.

فإذا تاب من ذنبه، وأحكم التوبة منه، اعتقد الاستقامة على الطاعة، ودوام الافتقار إلى الله تعالى في العصمة، ثم يتوب أبدًا من الصغائر إلى الهمِّ والتمنى،

ومن الخوف والطمع في المخلوق؛ وهى ذنوب الخصوص، إلى الطرفة والنفس والسكون إلى شيء، والراحة بشيء؛ وهذه ذنوب المقربين، حتى لا يبقى على العبد فيما يعلم مخالفة، وحتى يشهد له العلم بالوفاء، فتبقى حينئذ ذنوبه من مطالعة علم الله تعالى فيه بما استأثر^(١) به عنه من علم غيبية يكشفه به، ومن معنى نفس العبودية، وكون الخلقة عن تسلط الربوبية بوصفها وكبرها، فيكون هذا الخوف مثوبة لما فرغ من علم نفسه إلى ما لا يمكن ذكره، ولا يعرف نشره من ذنوب المقربين التى هى صالحات أصحاب اليمين، لفقد مشاهداتها، والجهل بمعرفة مقاماتها عند العموم، فيكون حال هذا المقرب الإشفاق من البعد فى كل طرفة ونفس إلى وقت اللقاء، والخوف من الإعراض، والحجب فى كل حركة، وهم فى هذه الدار إلى دار البقاء.

وقد رؤينا فى خبر غريب: إن الله عز وجل أوحى إلى يعقوب عليه السلام: أتدرى لم فرقت بينك وبين يوسف؟ قال: لا. قال: لقولك لإخوته: إني أخاف أن يأكله الذئب، لم خفت عليه الذئب ولم ترجنى له؟ ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظى له؟

فهذا معنى قول يوسف للساقى: اذكرنى عند ربك. قال الله تعالى: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢]. فهذا مما يعتب على الخصوص من خفى سكونهم، ولمح نظرهم إلى ما سوى الله تعالى.

وإنما حرم بعض التابعين ذلك المزيد، ولم يجدوا حلاوة التوبة، لتهاونهم بحال الرعاية، وتسامحهم بترك حسن القيام بشاهد المراقبة، وذلك يكون من قلة إحكام أمر التوبة، ولو قاموا بحكم التوبة من الذنب الواحد، وأحكموا حال تواب من الصادقين فى التوبة، لم يعدموا من الله تعالى المزيد؛ لأنهم محسنون، فهم فى تجديد. قال الله تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨]. فإذا رأيتك^(٢) مستقيماً

(١) فى (ط): «لما استأثر».

(٢) كذا فى الأصل، وفى (ط): «رأك».

على التوبة، عاملاً بالصالحات، ولم تَجِدْكَ على مَزِيدٍ من ميراثٍ بوجَدٍ حلاوةٍ،
أو حُسْنِ خَلِيقَةٍ، أو عَزُوفٍ^(١) زُهْدٍ، أو خَاصِيَّةٍ مَعْرِفَةٍ^(٢)، فارْجِعْ إلى بابِ المراقبةِ،
أو موقِفِ الرعايَةِ، فَتَفْقِدُهُمَا، وَأَحْكَمْ حالَهُمَا، فَمِنْ قَبْلِهِمَا أُتِيَتْ.

وقال بعض العلماء: من تاب من تسعةٍ وتسعين ذنباً، ولم يتب من ذنب واحدٍ، لم يكن عندنا من التائبين.

فلا تغفلنَّ عن التفقُّد، وتجديدِ التَّوبَةِ أَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ، فإنَّما دخلَ الخُسرانَ على
العمال من حيث لا يعلمون من تركهم التفقُّدَ، ومحاسبةِ النفسِ، وبمسامحتها مما
يعملون.

واعلم أنَّ حَقِيقَةَ [توبةٍ]^(٣) كُلِّ ذَنْبٍ عَشْرَةُ أَعْمَالٍ، ولا يكون العبدُ تَوَّاباً يحِبُّهُ
اللهُ تعالى ولا تكون توبته نصوحاً التي شرَّطها اللهُ تعالى وفسَّرَ بها التَّوبَةَ^(٤) إلا أن
يُحْكِمَ العبدُ عَشْرَ تَوَابٍ من كُلِّ ذَنْبٍ؛ أَوَّلُهَا: تركُ العودِ إلى فعلِ الذَّنْبِ. ثم
يتوبُ من القولِ به. ثم يتوب من الاجتماعِ مع سببِ الذَّنْبِ. ثم التوبة من السَّعْيِ
في مثله. ثم التوبة من النظرِ إليه. ثم التوبة من الاستماعِ إلى القائلين به. ثم
التوبة من الهِمَّةِ. ثم التوبة من التَّقْصِيرِ في حقِّ التَّوبَةِ. ثم التوبة من أن لا يكون
أَرَادَ وجهَ اللهِ تعالى خالصاً بجميع ما تركه لأجلِهِ. ثم التوبة من النظرِ إلى التَّوبَةِ
والسَّكُونِ إليها والإدلالِ بها. ثم يشهد بعد ذلك كُلَّهُ تَقْصِيرَهُ عن القيامِ بحَقِّ
الرَّبُّوبِيَةِ لعَظِيمِ ما يشهد بالمزيد من الإشرافِ على التَّوْحِيدِ من كِبِيرِ جَلَالِ اللهِ تعالى
وعِظَمِ كِبَرِيَّائِهِ، فتكون توبته بعد ذلك من تَقْصِيرِهِ عن القيامِ بحَقِيقَةِ مشاهدته^(٥)،
ويكون استغْفارُهُ لَمَّا ضَعَفَ قلبُهُ ونَقَصَ هَمُّهُ عن معاينةِ مشاهدَةٍ لعلَّوْ مقامه، ودوامِ
مزيدِهِ وإعلامِهِ.

(١) في (ط): «عروض».

(٢) في (ط): «معروفة».

(٣) ساقطة من (ط).

(٤) في (ط): «النبوة» وهو تحريف.

(٥) في (خ): «بحقيقة شهادته».

ولا نهاية لتوبة العارف، ولا لغاية وصفه لما هو عليه عاكفٌ، ولا وصفٌ يحتمل ذكرَ دقيقِ بلائه. ولا يكبرُ عن التوبة نبيٌّ؛ فمن دونه، ولكلِّ مقامٍ توبةٌ، ولكلِّ حالٍ من مقامٍ توبةٌ، ولكلِّ مشاهدةٍ ومكاشفةٍ توبةٌ.

فهذا حال التائب المنيب الذى هو من الله تعالى مقربٌ، وعنده حبيب، وهذا مقام مفتنٍ توابٍ؛ أى مختبرٍ بالأشياء، مبتلى بها، توابٍ إلى الله تعالى منها، لينظر مولاهُ أينظرُ بقلبه إليه أو إليها، أو يعتكف بهمته^(١) عليه أو عليها، أو يطمئن بوجودها إليه أو إليها، أو يطلب إياه هرباً منها أو إياها. فعليه من كلِّ مشاهدةٍ لسواه ذنبٌ، وعليه فى كلِّ سكونٍ إلى سواه عتبٌ، كما له فى كلِّ شهادةٍ علمٌ، ومن كلِّ إظهارٍ فى الكون حكمٌ. فذنوبه لا تُحصى، وتوباته إلى الله تعالى لا تُستقصى.

فهذه حقيقة التوبة النصوح، وصاحبها مسلمٌ وجهه لله تعالى، محسنٌ من نفسه مستريح، ودينه عند الله تعالى مستقيم، ومقامه وحاله من الله تعالى سليم. وقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب كلَّ مفتنٍ توابٍ».

واعلم أن الذنوبَ على سبعة ضروب؛ بعضها أعظم من بعض، كلُّ ضربٍ منها مراتبٌ، فى كلِّ مرتبة من المذنبين طبقةٌ؛ منها معاصٍ يعتلُّ بها العبدُ من معانى صفات الربوبية مثل: الكبر، والفخر، والجبرية، وحبُّ الحمد، والمدح، ووصف العزِّ والغنى؛ فهذه مهلكات، وفيها من العموم طبقاتٌ.

ومعاصٍ تكون من معانى أخلاق الشياطين، مثل: الحسد، والبغى والحيلة، والخداع، والأمر بالفساد، فهذه موبقة، وفيها من أهل الدنيا طبقاتٌ.

ومعاصٍ تكون من ضدِّ السنّة، وهو ما خالفها إلى بدعة والأحداث المبتدعة، وهى كبائر، منها ما يذهب الإيمان ويُنبت النفاق.

وستٌ من كبائر البدع؛ وهى تنقل عن الملة؛ وهى: القدرية، والمرجئة، والرافضية، والإباضية، والجهمية، والشاطحون من المغالطين؛ وهم الذين لا

(١) فى (خ): «بهمّة».

يقولون بخلق ولا رسم ولا حكم، يُسقطون الأحكام، ويتعدون الحدود، ويجاوزون العلم^(١)، فهم زنادقة هذه الأمة.

ومعاصي متعلقة بالخلق من طريق المظالم في الدين، والإلحاد بهم عن طريق المؤمنين، وهو ما أضلَّ به عن الهدى، وأزاع به عن السنن، وحرَّفه من الكتاب، وتأولهُ من السنّة، ثم أظهر ذلك ودعا إليه، فقبل منه وأتبع عليه. وقد قال بعض العلماء: لا توبة لهذه المعاصي. كما قال بعضهم في القاتل: لا توبة له، للإخبار بثبوت الوعيد، وحقّ القول عليه.

والضرب الخامس من المعاصي: ما تعلّق بمظالم العباد في أمر الدنيا، مثل: ضرب الأبخار^(٢)، وشمّ الأعراض، وأخذ الأموال، والكذب والبهتان. فهذه موبقات، ولا بدُّ فيها من القصاص للموافقة بين يدي الحاكم العادل، والقطع منه بقضاء فاصل، إلا أن يقع استحلال، أو يستوهبه الله عزّ وجلّ من أربابها في المأل بكرمه، ويعوّض المظلومين عليها من جنّاته^(٣) بجوده. وقد جاء في الخبر: «الدّواوين ثلاثة: ديوان يُغفر، وديوان لا يُغفر، وديوان لا يُترك. فأما الديوان الذي يُغفر، فذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى. وأما الديوان الذي لا يُغفر فالشُّرك بالله تعالى. وأما الديوان الذي لا يُترك فمظالم العباد» أي لا يُترك المطالبة به، والمؤاخذه عليه.

والضرب السادس من الذنوب: ما كان بين العبد وبين مولاه من نفسه إلى نفسه، متعلّق بالشهوات، والجري في العادات، وهذه أخفُّها، وإلى العفو أقربها. وهذه على ضربين: كبائر، وصغائر. فالكبائر: ما نُصَّ عليه بالوعيد، وما وجبت فيه الحدود. والصغائر: دون ذلك إلى نظرة، وخطرة. والتوبة النصوح تأتي على جميع ذلك؛ بعموم قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]،

(١) عبارة المطبوعة: «وهم الذين لا يقولون بخلق ولا رسم ولا حكم في تعدى الحدود ومجاوزة العلم» وأثبت عبارة (خ).

(٢) في (ط): «ضرب الإنسان» وهو تحريف، صوابه من (خ).

(٣) في (ط): «من جنّاته» والصواب ما أثبت من (خ).

وبإحباره عز وجل عن حكمه، إذ يقول: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨]، وبظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البرج: ١٠]، ومثله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فَتَنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠] هكذا قراءة أهل الشام؛ بنصب «الفاء والتاء»، ولأنَّ البِغْيَةَ ^(١) من التوبة - إذا كانت - غفرانُ الذنب والزحزحة عن النار.

ونحن لا نرى أبدية الوعيد على أهل الكبائر، بل نجعلهم في مشيئة الله، ونجوز لهم عفو الله تعالى عنهم في أصحاب الجنة، كما جاء في الخبر في تفسير قوله تعالى: ﴿فَجَزَاوُهُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣] أى: إن جازاه.

وكما روينا عن النبي ﷺ: «مَنْ وَعَدَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى عَمَلٍ ثَوَابًا فَهُوَ مَنْجُزُهُ لَهُ، وَمَنْ وَعَدَهُ عَلَى عَمَلٍ عِقَابًا فَهُوَ بِالْخِيَارِ؛ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ». وكما قال ابن عباس رضى الله عنه: يغفر لمن يشاء الذنب العظيم، ويعذب من يشاء على الذنب الصغير.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فلم يجد للمغفرة ذنباً غير الشرك، وترك المسلمين مع سائر الذنوب إلى مشيئته.

فقد يحتج محتج بالخبر المأثور في ترك قبول توبة المبتدع، فإنَّ الله تعالى احتجز التوبة على كلِّ صاحب بدعة. فهذا مخصوص لمن لم يتب ممن حكم عليه بدرك الشقاء. ألا ترى أنه لم يقل: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى احتجز قبول التوبة عمَّن تاب؛ إنما أخبر عن حكم الله تعالى فيمن لم يتب بأنَّ الله تعالى حجب التوبة عنه.

فهكذا نقول أيضاً: إن القاتل إذا كان قد سبق له سوء الخاتمة بأنه يموت على غير توحيد، وكذلك المبتدع إذا جعل اسمه في أصحاب النار، ثم كان القتل

(١) البغية: أى الزميمة.

والبدعة علامة ذلك وسببه، أُنْهَمَا جميعاً ممنوعان من التوبة، فإنّها محتجزة عنهما. وكذلك القول فيمن حقّت عليه كلمة العذاب بسبق سوء الخاتمة، فلو أنّه تاب سبعين توبةً لم تنقذه من النار، وليست توبته بأكثر من قوله ﷺ: «إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة، حتّى يقول الناسُ إنه من أهلها، ولا يبقى بينه وبينها إلا شبرٌ، ثم يدركه الشقاء - وفي لفظ آخر: ثم يسبق عليه الكتاب - فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»، فقد دخلت التوبات في صالح أعماله من الحسنات، ثم أحبطها عنه في جملة عمله بسبق الكتاب بالشقاء له.

وأما مَنْ لم يسبق له سوء الخاتمة ووُهِبَ له التوبة النصوح، ولم يدركه الشقاء، فإنّها لم تُحتجز عنه، وإن الله تعالى يعفو عنه بما وهب له من التوبة، كقوله تعالى في المنافقين: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦]. وليس النفاق دون البدعة^(١)، ولا كلُّ المنافقين تاب عليهم، ولا جميعهم خُتِمَ لهم به. رعموم قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢]، مع قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨]، فهذا عامٌّ فيمن تاب، والخبر مخصوصٌ فيمن لم يُبْ^(٢).

ثم إن الناسَ في التوبة على أربعة أقسام؛ في كلّ قسم طائفة، لكلّ طائفة مقام، منهم: تائب من الذنب، مستقيم على التوبة والإنابة، لا يحدث نفسه بالعود إلى معصية أيام حياته، مستبدل بعمل سيئاته صالح حسناته؛ فهذا هو السابق بالخيرات، وهذه هي التوبة النصوح. ونفسٌ مذّا هي المطمئنة المرضية. والخبر المروى في مثل هذا: «سيرُوا، سبق المفردون المستهترون»^(٣) بذكر الله، وضع الذكر أوزارهم، فوردوا القيامة خفاً.

والذى يلى هذا فى القرب: عبدٌ؛ عقدُ التوبة، ونيّة الاستقامة، لا يسعى فى

(١) فى (خ): «ولست البدعة فوق النفاق».

(٢) كان هناك اضطراب فى المطبوعة فى هذا الفقرة قوّته من المخطوطة (خ).

(٣) المستهترون: المولعون بالشىء.

ذنب، ولا يقصده، ولا ينحوه، ولا يهتم به، وقد يُبتلى بدخول الخطايا عليه عن غير قصد منه، ويُمْتَحَن بالهمِّ واللَمَم، فهذا من صفات المؤمنين يُرجى له الاستقامة لآثمه فى طريقها، وهو مَن قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، وداخل فى وصف المتقين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ [آل عمران: ١٣٥] الآية. ونفس هذا هى اللوامة، التى أقسم الله تعالى بها، وهو من المقتصدين. وهذه الذنوب تدخل على النفوس من معانى صفاتها، وغرائز جبلاتها، وأوائل إنشائها^(١) من نبات الأرض، وتركيب الأطوار فى الأرحام خلقاً من بعد خلق، ومن اختلاط الأمشاج بعضها ببعض، ولذلك عقبه تعالى بقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢] الآية. فلذلك نهى عن تزكية النفس المنشأة من الأرض والمركبة فى الأرحام بالأمشاج للاعوجاج، فقال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، أى هذا وصفها عن بدء إنشائها، وكذلك وصف مشيخ خلقته بالابتلاء فى قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

وشرح هذا يطول ويخرج إلى علم تركيبات النفوس ومجبول فطرتها. وقد ذكرنا أصوله فى بعض الأبواب من هذا الكتاب.

وفى مثل هذا العبد معنى الخبر الذى جاء: «المؤمن مُفْتَن تَوَّاب»، و«المؤمن كالسنبلة تفىء أحياناً وتميل أحياناً». فإزاء هذا العبد على نفسه، ومَقْتُهُ لها عن معرفته بها، وترك نظره إليها، وسكوته إلى خير إن ظهر عليها - يكون من كفارات ذنوبه، لآثمه من تدبر الخطاب فى قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢].

والعبد الثالث: هو الذى يقربُ من هذا الثانى فى الحال، عبدٌ يذنب ثم يتوب، ثم يعود إلى الذنب، ثم يحزن عليه بقصد له وسعى فيه، وإيثاره إيَّاه على الطاعة،

(١) فى (ط): «وأنسابها» وأثبت ما فى (ك) و (خ) وهو الصواب.

إلا أنه يسوِّف بالتوبة، ويحدِّث نفسه بالاستقامة، ويحبُّ منازل التوابين، ويرتاح قلبه إلى مقامات الصديقين، ولم يَأْنِ حينه، ولا ظهر مقامه؛ لأنَّ الهوى يحركه، والعادة تجذبه، والغفلة تغمره، إلا أنه يتوب خلال الذنوب، ويعاود لتقدُّم المعتاد.

فتوبةُ هذا قُوتٌ من وَقْتٍ إلى وقت، ومثله تُرجى له الاستقامة لمحاسن عمله، وتكفيرها لسالف سيئته. وقد يُخاف عليه الانقلاب لمدامته خطئه، ونفسُ هذا هي المسوِّلة، وهو ممَّن خلطَ عملاً صالحاً وآخر سيئاً، عسى الله أن يتوب عليه فيستقيم فيلحق بالسابقين، فهذا بين حالين: بين أن يغلب عليه وصف النفس فيحق عليه ما سَبَقَ من القول، وبين أن ينظرَ إليه مولاه نظرةً تَجْبُرُ له كلَّ كسر، وتُغْنِي له كلَّ فقر، فيتداركه بِمَنَّةٍ سابقة، فتُلَحِّقَهُ بِمَنَازِلِ الْمُقَرَّبِينَ؛ لأنه قد سلك طريقهم بفضله ورحمته ونيته الآخرة.

والعبد الرابع: أسوأ العبيد حالاً، وأعظمهم على نفسه وبالاً، وأقلُّهم من الله نوالاً، عبدٌ يذنب ثم يتبع الذنب مثله أو أعظم منه، ويقيم على الإصرار ويحدِّث نفسه به متى قدَّر عليه، ولا ينوى توبةً، ولا يعقد استقامةً، ولا يرجو وعداً بحسن ظنه، ولا يخاف وعيداً لتمكُّنِ أَمْنِهِ، فهذا هو حقيقة الإصرار، ومقامٌ بين العتوِّ والاستكبار. وفي مثل هذا جاء الخبر: «هلك المصرون قُدماً إلى النار».

ونفسُ هذا هي الأُمارة، وروحه أبداً من الخير فرارة، ويُخاف على مثله سوء الخاتمة؛ لأنَّه في مقدماتها، وسالك طريقتها، ولا يبعد منه سوء القضاء، ودركُ الشقاء، ولمثل هذا قيل: «مَنْ سَوَّفَ اللَّهُ تَعَالَى بِالتَّوْبَةِ أَكْذَبَهُ»، وإنَّ اللعنةَ خروجٌ من ذنب إلى أعظم منه، وهذه الطائفةُ في عموم المسلمين، وهم في مشيئةِ الله من الفاسقين، كما قال تعالى: ﴿وَأَخْرُوجُونَ مُرْجُونَ لَأَمْرِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٠٦] أى: مؤخرون لحكمه، إمَّا يعذبهم بالإصرار، وإمَّا يتوب عليهم بما سَبَقَ من حسن الاختيار.

نعوذ بالله تعالى من عذابه، ونسأله مِن فَضْلٍ فَضْلِهِ وَثَوَابِهِ مَا يُقَرِّبُنَا إِلَيْهِ^(١).

آخرُ شرح مقام التوبة.

(١) عبارة (ط): «ونسأله نعيماً من ثوابه». وهذا آخر كتاب التوبة» وأثبت ما في (خ).

شرح مقام الصبر، ووصف الصابرين^(١)

وهو المقام الثاني من مقامات اليقين

قد جعل الله عزّ وجلّ الصابرين أنمةً للمتقين، وتَمَّ كلمته الحسنی عليهم في الدين، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقال رسول الله ﷺ: «إن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً».

وقال المسيح عليه السلام: «إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون».

وقال بعض الصحابة: ماذا^(٢) جعل الله تعالى من الشفاء والفضل في التقي والصبر. وقال ابن مسعود: الصبر نصف الإيمان.

وقد جعل على كرم الله وجهه الصبر ركناً من أركان الإيمان، وقرنه بالجهاد والعدل والإيقان، فقال: بُنِيَ الإسلام على أربع دعائم؛ على اليقين، والصبر، والجهاد والعدل^(٣). وقال على كرم الله وجهه أيضاً: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، لا جسد لمن لا رأس له، ولا إيمان لمن لا صبر له.

ورفع رسول الله ﷺ الصبر في العلو والفضل إلى مقام اليقين وقرّنه به. وكذلك قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]. وأخبر النبي ﷺ أن مَنْ أوتى نصيبه منهما لم يسأل ما فاتة، وأخبر أن بالصبر كمال العمل والأجر، فقال في حديث يرويه شهر بن

(١) في (ك): «كتاب شرح مقام الصبر وأوصاف الصابرين».

(٢) «ماذا»: كذا في الأصل والمطبوعة، ولعلها: «قد جعل».

(٣) انظر كلام الإمام على في: المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، ص ١٠٧.

حَوْشِبَ الْأَشْعَرَى عَنْ أَبِي أَمَامَةَ الْبَاهِلَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَقَلَّ مَا أُوتِيتُمْ الْيَقِينَ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ، وَمَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْهُمَا لَمْ يَبَالِ مَا فَاتَهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهَارِ. وَلَآنَ تَصْبِرُوا عَلَى مِثْلِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يُوَافِنِي كُلُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ بِمِثْلِ عَمَلِ جَمِيعِكُمْ، وَلَكِنِّي أَخَافُ أَنْ تُفْتَحَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا بَعْدَى فَيَنْكَرَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَيَنْكَرَكُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ عِنْدَ ذَلِكَ. فَمَنْ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ ظَفَرَ بِكَمَالِ ثَوَابِهِ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].»

وفى حديث ابن المنكدر عن جابر قال: «سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان فقال: الصبر والسماحة». وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصاص: ٥٤]. وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. فضاعف أجر الصابرين على كل عمل، ثم رفع جزاء الصبر فوق كل جزاء، فجعله بلا نهاية ولا حد، فدل ذلك أنه أفضل المقامات. وجمع للصابرين ثلاثًا، فرّقها على جُمْلِ أهل العبادات: الصلاة، والرحمة، والهدى بعد البشارة في الآخرة والعقبى.

وكان عمر رضى الله عنه يقول: «نِعْمَ الْعِدْلَانِ، وَنِعْمَتِ الْعِلَاوَةُ لِلصَّابِرِينَ». يعنى بالعدلين: الصلاة والرحمة. وبالعلاوة: الهدى. وانعلاوة: ما يُعْلَى به فوق الحِمْلَيْنِ على البعير، فيكون كعدل ثالث.

وقد أخبر الله تعالى أنه مع الصّابرين، ومن كان الله تعالى معه غلب، كما أن من كان معه علا، فقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، كما قال الله عز وجل: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]. واشترط الصبر لإمداده لجنده، ولنصره بأيده، فى قوله تعالى: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]. وكان سهل يقول: الصبر تصديق الصّدق، وأفضل منازل الطاعة الصبر عن

المعصية، ثم الصبر على الطاعة. وقال فى معنى قوله عز وجل: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا﴾ [الأعراف: ١٢٨] أى: استعينوا بالله على أمر الله، واصبروا على أدب الله. وقال: لم يمدح الله تعالى أحداً إلا من صبر للبلاء والشدة، فبذلك يشنى عليه. وكان يقول: الصالحون فى المؤمنين قليل، والصادقون فى الصالحين قليل، والصابرون فى الصادقين قليل. فجعل الصبر خاصية الصدق، وجعل الصابرين خصوص الصادقين.

وكذلك الله تعالى - وهو أصدق القائلين - قد رفع الصابرين على الصادقين فى ترتيب المقامات، فجعل الصبر مقاماً فى الصدق، إن كانت الأوصاف المنسوقة نعتاً واحداً للمسلمين، وكانت «الواو» للمدح، وإن كانت مقامات «فالواو» للترتيب، فقد جعل الله الصابرين فوق الصادقين والقانتين، أعنى فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...﴾ [الأحزاب: ٣٥] الآية.

وفى حديث عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما: «لما دخل رسول الله ﷺ على الأنصار فقال: أؤمنون أنتم؟ فسكتوا، فقال عمر رضى الله عنه: نعم يا رسول الله. قال: وما علامة إيمانكم؟ قال: نشكر فى الرخاء، ونصبر على البلاء، ونرضى القضاء. فقال: مؤمنون ورب الكعبة».

والصبر ينقذ على عملين؛ أحدهما: لا صلاح للدين إلا به، والثانى: هو أصل فساد الدين. ثم يتنوع الصبر؛ فيكون صابراً على الذى فيه صلاح الدين فيكمل به إيمانه، ويكون صابراً عن الذى فيه فساد الدين فيحسن به يقينه.

ورؤينا فى معنى هذا عن على رضى الله عنه: أنه لما دخل البصرة، واستقام له الأمر، دخل جامعها فجعل يخرج القصاص، ويقول: القصص بدعة. فانتهى إلى حلقة شاب يتكلم على جماعة، فاستمع إليه، فأعجبه كلامه، فقال: يا فتى، أسألك عن شيئين، فإن خرجتَ منهما تركتُك تتكلم على الناس، وإلا أخرجتُك كما أخرجتُ أصحابك. فقال: سل يا أمير المؤمنين. فقال: أخبرنى ما صلاح الدين وما فساده؟ قال: صلاحه الورع، وفساده الطمع. قال: صدقت، تكلم

فمثلك يَصْلُحُ أن يتكلم على الناس. يقال: إن هذا الشاب هو إمامنا في هذا العلم، وهو إمام الأئمة الحسن بن يسار، مولى الأنصار، البصري.

وكان ميمون بن مهران يقول: الإيمان والتصديق والمعرفة والصبر واحد. وقال أبو الدرداء رضى الله عنه: ذِرْوَةُ الإِيْمَانِ الصَّبْرُ للحكم، والرضا بالقدر.

واعلم أن الورع أول الزهد، وهو أول باب من أبواب الآخرة. والطمع أول الرغبة، وهو باب كبير من أبواب الدنيا، واستشعار الطمع من حب الدنيا، وحب الدنيا رأس كل خطيئة.

ويقال: أول معصية عصي الله تعالى بها الطمع؛ وهو أن آدم عليه السلام طمع في الخلود، فأكل من الشجرة التي نهى عنها، وإبليس طمع في إخراج آدم عليه السلام من الجنة فوسوس إليه، فاتفقا في اسم المعصية لربهما تعالى بالطمع، ثم افترقا في المطموع فيه وفي الحكم، فتدورك آدم عليه السلام بحسن سابقته من الله تعالى، وهلك إبليس بما سبق عليه من الشقوة.

والطمع هو تصديق الظن؛ ولذلك وصف الله تعالى به عدوه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ [سبا: ٢٠]. والظن ضد اليقين، ولا يغنى من الحق شيئاً. وقال الله تعالى في وصف المشركين: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ﴾ [الجنابة: ٣٢]. فمن صبر عن الطمع في الخلق أخرجه الصبر إلى الورع، ومن صبر على الورع في الدين أدخله الصبر في الزهد، ومن طمع في تصديق الظن الكاذب أدخله الطمع في حب الدنيا، ومن استشعر حب الدنيا أخرجه حبها من حقيقة الدين.

وقد قال بعض العلماء: ما كنا نعد إيماناً من لم يؤذ فيحتمل الأذى ويصبر عليه إيماناً. وقد فعل الله تعالى ذلك بالمؤمنين اختباراً^(١)، وأخبر أن ذلك ليس منه عذاباً، وإنما هو فتنة لمن أراد فتنته وبلاءه من الناس، فصار ذلك فتنه عليهم وابتلاء لهم، وصار رحمة للمؤذى وخيراً في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا

(١) في (خ): «اختياراً».

بِاللّهِ فَإِذَا أُودِيَ فِي اللّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللّهِ ﴿[العنكبوت: ١٠]﴾ يعنى فتنة الناس به كعذاب الله تعالى له، أى: ليس ذلك عذاباً منى إنما هو رحمة باطنة، فهو كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّىْ أَهَانَنِ * كَلَّا﴾ [الفجر: ١٦ - ١٧]، أى: لم أهتك بالفقر، كما لم أكرم الآخر بالإكرام والتنعيم. وعلى معنى هذا خاطب نبيه ﷺ بالصبر الذى أمره به، فقال تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ [ص: ١٧] فسلاّه به وفضّله عليه.

وقد رُوينا فى خبر: «يُؤْتَى بِأَشْكَرِ أَهْلِ الْأَرْضِ فِيَجْزِيهِ اللَّهُ تَعَالَى جِزَاءَ الشَّاكِرِينَ. وَيُؤْتَى بِأَصْبِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَيَقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ نَجْزِيكَ كَمَا جَزَيْنَا هَذَا الشَّاكِرَ؟» فيقول: نعم يا ربّ. فيقول الله تعالى: كَلَّا، أَنْعَمْتُ عَلَيْهِ فَشَكَرَ، وَابْتَلَيْتَكَ فَصَبَرْتَ، لِأُضْعِفَنَّ لَكَ الْأَجْرَ عَلَيْهِ. فَيُعْطَى أَضْعَافَ جِزَاءِ الشَّاكِرِينَ».

وكتب ابن أبى نجیح يعزى بعض الخلفاء، فقال فى كتابه: إن أحق من عرف حقَّ الله فيما أخذ منه مَنْ عَظَّمَ حَقَّ الله تَعَالَى عنده فيما أبقي. واعلم أن الماضى قبلك هو الباقي لك، والباقي بعدك هو المأجور فيك. واعلم: أن أجر الصابرين فيما يُصابون فيه أعظم من النعمة عليهم فيما يُعاقون به.

وفى الأخبار: ما من عبدٍ إلا يُعطى أجره بحسابٍ وحدٍّ، إلا الصَّابِرِينَ فَإِنَّهُمْ يُجَازِقُونَ مُجَازَفَةً^(١) بغير ميزان ولا حدٍّ.

وجاء فى الخبر: «إن أبواب الجنة مصراعان يأتى عليها زحامٌ كثير، إلا باب الصَّبر فَإِنَّهُ مِصْرَاعٌ وَاحِدٌ لَا يَدْخُلُ مِنْهُ إِلَّا الصَّابِرُونَ أَهْلُ الْبَلَاءِ فى الدُّنْيَا، وَاحِدٌ بَعْدَ وَاحِدٍ». وقد قال الله تعالى فى جزاء المخلصين: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ٤١]. وقال تعالى فى جزاء الصَّابِرِينَ: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. قيل فى التفسير: يُغْرَفُ لَهُمْ غَرْفًا؛ والمعنى فى ذلك: أن الصبر أشق شىء على النفس وأكرهه، وأمره على الطبع وأصعبه، فيه الألم

(١) الْجَزَفُ: الْأَخْذُ بِكَثْرَةٍ.

والكظم، وعنه الذلُّ والحلم، ومنه التواضعُ والكتم، وفيه الأدبُ وحُسن الخلق، وبه يكون كَفُّ الأذى عن الخلق واحتمالُ الأذى من الخلق؛ وهذه من عزائم الأمور التي يضيق منها أكثر الصدور، وفيه إكراه النفوس وحملها على الشدة والبؤس. وقد جاء: «أفضل الأعمال ما أُكْرِهت عليه النفوس». ولأجل ذلك اشترط الله تعالى على المتقين والصادقين الصبر في الشدائد والمكاره، وحقق بالصبر صدقهم وتقواهم، وأكمل به وصفهم وأعمال برهم، فقال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فمعنى الصبر: حبسُ النفس عن السعى في هواها، وحبسها أيضاً عن مجاهدتها لمرضاة مولايها بمثل ما يُوجب المجاهدة على قدر ما يُبتلى به العبد؛ لأن المجاهدة على قدر البلاء، والحبس عن نحو الشرود، وحبسها على دوام الطاعة، وصبرها عن شدة الطبع الذي يُظهر سوء الأدب بين يدي الرب سبحانه وتعالى، وصبرها على حُسن الأدب في المعاملة.

ثم يتفرع الصبر إلى معانٍ شتى من: الصبر عن تفاوت الأهواء، والصبر على الثبات في خدمة المولى. فمن ذلك ما توجب المجاهدة صرفَ الهمة عنه، وتطهير القلب منه من خطرات الهوى ونزعَات الأعداء وتزيين الدنيا. ومن الآفات ما يوجب الصبر كَفُّ الجوارح عنها، وحبس النفس عن المشي فيها.

ومن الصبر: حبس النفس على الحقّ وعكوفها عليه بمعاملة اللسان والقلب والجسم؛ وبذلك وصف الله تعالى المؤمنين الذين يعملون الصالحات، واشترط لصلاح أعمالهم الصبر، وأخبر أن الناس كلهم في خُسران إلا من كان من أهل الحق والصبر، وعظم انصبر فأفرده بإعادة التواصي به.

ومن الصبر: حبس النفس على عبادة الخالق سبحانه وتعالى، وصبرها على القناعة، وعلى منع الرأق.

ومن الصبر: كَفُّ الأذى عن الخلق؛ وهو مقامُ العادلين، يدخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]. ثم احتمالُ الأذى عن

الخلق؛ وهو مقام المحسنين، يدخل فى قوله: ﴿وَالْإِحْسَانُ﴾.

ومن الصبر: الصبر على الإنفاق وإعطاء أهل الحقوق حقوقهم؛ الأقرب فالأقرب، وهذا مقام المنفقين، يدخل فى قوله تعالى: ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. ومنه الصبر عن الفحشاء، وهو الأمر الفاحش فى العلم والإيمان. والصبر عن المنكر، وهو ما أنكره العلماء. والصبر عن البغى، وهو التطاول والغلو ومجاوزة الحدّ بالكبر والإسراف فى أمور الدنيا. فهذه الآية كلّها جامعة لمعنى الصبر، وهى قطب القرآن؛ ثلاث منها، وهى الأول: الصبر على: العدل، والإحسان، والإعطاء. وثلاث منها: الصبر عن: الفحشاء، والمنكر، والبغى. وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول: أجمع آية فى كتاب الله عزّ وجلّ لأمرٍ ونهى هذه الآية.

وقال الله تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ [العنكبوت: ٥٨ - ٥٩]، فما أنعم أجرهم حتى وصفهم بالصبر، وما أكرم رزقهم ووصفهم حتى مدحهم بالصبر.

والصبر يحتاج إليه قبل العلم؛ ومعه؛ وبعده. يحتاج فى أول العمل أن يصبر على تصحيح النية، وعزم العقود والوفاء بها حتى تصحّ الأعمال؛ لأنّ النبىّ عليه السلام قال: «إنّما الأعمال بالنيات، ولكلّ امرئ ما نوى». وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]. وحقيقة النية الإخلاص، ولأنّ الله تعالى قدّم الصبر على العمل، فقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١١]. والصبر الثانى: فى العمل حتى يتم ويعمل، لقوله تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا﴾. والصبر بعد العمل هو الصبر على كتمه، وترك التظاهر به، والنظر إليه، ليخلص من السمّة والعُجب فيكمل ثوابه كما خالص من الرياء، كما قال الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]، وقال تعالى فى مثله: ﴿لَا تُبْطِلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقال بعض السلف: لا يتمُّ المعروف إلا بثلاث: تعجيله، وتصغيره، وكثمه.
ومن الصبر: حبسُ النفس عن المكافأة، والصبر على الأذى توكلاً على المولى عزَّ وجلَّ. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]، وهذا صبر الخصوص. وقد قال بعض أهل المعرفة: لا يثبت للعبد مقام في التوكل حتى يؤذَى ويصبر على الأذى. وقد ذكر الله تعالى ذلك في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَدَعَا أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٨]، وفي قوله تعالى: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا * وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل: ٩ - ١٠]. وهذا هو أول الرضا.

والمقام الثاني من الرضا: هو الصبر على الأحكام، وهو صبر أهل البلاء الأمثل فالأمثل بالأنبياء، لقوله ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء»، ثم الأمثل فالأمثل. ولقوله تعالى في المجمل: ﴿وَلَرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ٧]. ثم فسره في الكلام المفسر فقال: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

ومن الصبر: حبس النفس على التقوى؛ والتقوى: اسم جامع لكل خير. فالصبر معني داخل في كل برٍّ، فإذا جمعهما العبد فهو من المحسنين، وما على المحسنين من سبيل. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿لَتَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦] أي: إن تصبروا على الأذى عن المكافأة، وتتقوا عند الابتلاء والمكاره، ولا تتجاوزوا، فإنه أفضل، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١]، ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

فالأوّل: أعنى المكافأة والانتصار بالحق من العدل، والعدل حسن.

والثانى: أعنى العفو والصبر من الفضل وهو الإحسان، وهذا مجازُ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨]. فاستماع القول هو العدل، واتباع الأحسن هو العفو^(١)، وفيه المدح بالهداية والعقل، وهذا هو مقام المخبتين. قيل: هم الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا. فالمدح بالوصف لأهل هذا المقام هو الإخبات، وهو الخشوع والطمأنينة بحسن الجزاء من الله سبحانه وتعالى فى الآخرة، لقرب اللقاء وسرعة فناء الدنيا - أمدح، كما قال تعالى: ﴿وَأِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

والتقوى والصبر معنيان أحدهما منوط بالآخر لا يتم كل واحد منهما إلا بصاحبه، فمن كانت التقوى مقامه كان الصبر حاله، فصار الصبر أفضل الأحوال من حيث كانت التقوى أعلى المقامات، إذ الأتقى هو الأكرم عند الله تعالى، والأكرم على الله تعالى هو الأفضل. وقد شرف الله تعالى الصبر بأن أضافه إليه بعد الأمر به فقال: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]. وقال تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [الذثر: ٧]، وإن كان كل شيء به، وكلّ عمل صالح له. ولا يصف الله تعالى عبداً ولا يثنى عليه حتى يبتليه، فإن صبر وخرج من البلاء سليماً مدحه ووصفه، وإلا بين له كذبه ودعواه. وقيل لسفيان الثورى رضى الله عنه: ما أفضل الأعمال؟ قال: الصبر عند الابتلاء.

وقال بعض العلماء: وأى شيء أفضل من الصبر، وقد ذكره الله تعالى فى كتابه فى نيّف وتسعين موضعاً؟! ولا نعلم شيئاً ذكره الله تعالى هذا العدد إلا الصبر، فلا يطمعن طامع فى مدح الله له وحسن ثنائه عليه قبل أن يبتليه فيصلبر له، ولا يطمعن أحد فى حقيقة الإيمان وحسن اليقين قبل أن يمدحه الله تعالى

(١) عبارة (ط): «فاستماع القول هو العدل والعدل حسن وهو الانتصار والعفو أحسن» وأثبت عبارة (خ) فهى أصح وأدق.

ويثنى عليه. ولو أظهر الله تعالى على جوارحه سائر الأعمال، ثم لم يمدحه بوصف ولم يثن عليه بخير - لم يُؤْمَنَ عليه سوء الخاتمة. وذلك أن من أخلاق الله تعالى أنه إذا أحبَّ عبداً ورضى عمله مدحه ووصفه. فمن ابتلاه بکراهة ومشقة، أو بهوى وشهوة، فصبر لذلك أو صبر عن ذلك؛ فإن الله تعالى يمدحه ويثنى عليه بکرمه وجوده، فيدخلُ هذا العبد في أسماء الموصوفين، ويصير واحداً من الممدوحين، فعندها يثبت قدمه من الزلل، ويختتم له بما سبق من صالح العمل.

ومن الصبر: صبرٌ على العوافى أن لا يجريها في المخالفة، والصبر على الغنى أن لا يبذله في الهوى، والصبر على النعمة أن لا يستعين بها على معصية. فحاجة المؤمن إلى الصبر في هذه المعاني، ومطالبته بالصبر عليها، كحاجته ومطالبته بالصبر على المكروه والفقر، وعلى الشدائد والضرر. ويقال: إنَّ البلاء والفقر يصبر عليهما المؤمن، والعوافى لا يصبر فيها إلا صديق. وكان سهل يقول: الصبر على العافية أشدُّ من الصبر على البلاء. وكذلك قالت الصحابة رضى الله عنهم لما فُتحت الدنيا فنالوا من العيش واتسعوا: ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر. فعظّموا الاختبار بالسراء وهو ما سرَّ على الاختبار بالضرراء وهو ما ضرَّ. وقد قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ فِي السَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [آل عمران: ١٣٤] فمدحهم بوصف واحد في الحالين المختلفين؛ لحسن يقينهم، وسخاوة نفوسهم، وحقيقة زهدهم. ومن هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]؛ لأنَّ فيهما ما يسرُّ فيشغل عن الذكر. ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]؛ لأن في الأزواج والأولاد ما يُفرح به، فيوافق فيه الهوى، ويخالف بوجودهما المولى، فصارا عدوين في العقبى لما يؤول إليه من شأنهما.

ومن هذا الخبرُ الذي روى عن النبي ﷺ لما نظر إلى ابنه الحسن يتعثر في قميصه، فنزل عن المنبر واحتضنه، ثم قال: «صدق الله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ

فَتَنَةٌ ﴿التغابن: ١٥﴾ أى لما رأيتُ ابني هذا لم أملك نفسي أن أخذته . ففي هذا عبرة لأولى الأبصار . ورؤى عنه فى الحديث أيضاً : «الولد مَحْزَنَةٌ مَبْخَلَةٌ مَجَبَّةٌ» . فهذه مصادر الحزن والبخل والجبن ، أى يحمل حبُّ الأولاد والأموال على ذلك .

فمن صبر على السراء ؛ وهى العوافى ، والغنى ، والأولاد ، وغير ذلك ، وأخذَ الأشياءَ من حقِّها ووضعها فى حقِّها ، فهو من الصابرين الشاكرين ، لا يزيد عليه أهل البلاء والفقر إلا بحقيقة الرضا والشكر . وقد جمع الله تعالى بين ما سرَّ وضرَّ وجعلهما من وصف المتقين ، ومدحهم بالإحسان معهما ، فقال تعالى : ﴿أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤] .

ومن الصبر : كتمانُ المصائب والأوجاع ، وتركُ الاستراحة إلى الشكوى بهما ، فذلك هو الصبر الجميل . قيل : هو الذى لا شكوى فيه ولا إظهار . وروينا عن ابن عباس رضى الله عنهما : الصبر فى القرآن على ثلاثة أوجه : صبرٌ على أداء الفرائض لله تعالى ، وصبرٌ عن محارم الله تعالى ، وصبرٌ فى المصيبة عند الصدمة الأولى . فمن صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلاثمائة درجة . ومن صبر على محارم الله تعالى فله ستمائة درجة . ومن صبر فى المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة .

وهذا يحتاج إلى تفسير . لم يفضل ابن عباس الصبر على المصيبة لأنه أفضل من الصبر عن المحارم وعلى الفرائض ، بل لأنَّ الصبر على ذنِّك من أحوال المسلمين ، والصبر على المصيبة من مقامات اليقين ، وإنما فضِّلَ المقام فى اليقين على مقام الإسلام .

ومن ذلك ما روى من دعاء النبى ﷺ : «أسألك من اليقين ما تهوَّن به على مصائب الدنيا» .

فأحسنُ الناس صبراً عند المصائب أكثرهم يقيناً ، وأكثرُ الناس جزعاً وسُخْطاً فى المصائب أقلُّهم يقيناً .

ومثل هذا الخبر الذى رُوينا عن سَلَمَةَ بنِ وَرْدَانَ، عن أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ: «مَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُبْطِلٌ بُنِيَ لَهُ فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ بُنِيَ لَهُ فِي رَبْضِ الْجَنَّةِ». فقد علمت أن تَرَكَ الْكَذِبَ وتَرَكَ الْمِرَاءَ مُبْطِلًا أَفْرَضُ وَأَوْجِبُ، فينبغى أن يكونا أفضل. ولكن المعنى فيه أن الْكَذِبَ والمِرَاءَ بالباطل يتركه المسلمون. فأما المِرَاءَ والعبدُ مُحِقٌّ صادق، ثم لا يمارى زهداً فى التظاهر ورغبةً فى الصمت والسلامة، فلا يصبر على هذا إلا الموقنون وهم خصوص المؤمنين؛ فمقامه من اليقين، والزهد وإيثار الخمول والصمت على الكلام والشهوة به أفضل، وهو من اليقين. فصار هذا المؤمن بمقامه أفضل من عموم المؤمنين الذين يتركون الْكَذِبَ والمماراة، وإن كانا أَفْرَضَ وَأَوْجِبَ. فهذا بيان ذلك ومعناه.

ومن الصبر: إخفاءُ أعمال البرِّ، ومنع النفسِ الفكاكةَ والتمتع بذكرها، وإخفاءُ المعروف والصدقات، فإن كَتَمَهُ من الأدب، مع السلامة فى الإعلان، وبرء الساحة فى الإخبار، ولكن إخفاؤه أفضل وأزكى وأحبُّ إلى الله تعالى، بل هى من كنوز البرِّ، أعنى هذه الثلاثة: إخفاء الأوجاع، والمصائب، والصدقة. أى من الذخائر النفيسة عند الله تبارك وتعالى.

ومن الصبر: صونُ الفقر وإخفاؤه، والصبرُ على بلاء الله تعالى فى طوارق الفاقات. وهذا حال الزاهدين الراضين.

وأفضلُ الصبر: الصبرُ على الله تعالى بالمجالسة له، والإصغاء إليه، وعكوفِ الهمِّ عليه، وقوةُ الوجد به. وهذا خصوصٌ للمقربين، أو حياء منه، أو حباً له، أو تسليماً، أو تفويضاً إليه؛ وهو السكون تحت جريان الأقدار وشهودها من الإنعام، ومن حُسْنِ تدبير الأقسام فى شهود المسألة، والحكمة فيها، والقصد بالابتلاء بها، وهو داخل فى قوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ٧]. وفى قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وغيره من الأئمة: أصبحتُ وما لى سرور إلا فى مواضع القَدَر. وروى أيضاً: إلا انتظارُ القضاء. ويقال: من علامة

اليقين تسليمُ القضاء بحُسْن الصَّبْر والرضا؛ وهو مقام العارفين .

وقال سهل فى تأويل قول على رضى الله عنه: إن الله تعالى يحبّ كلَّ عبدٍ نُومَةٍ . قال: هو السّاكن تحت جريانِ الأحكام . يعنى من غير كراهة ولا اعتراض .

فأما اشتراطُ الصَّبْر فى المصيبة عند الصدمة الأولى فى قول النبى ﷺ: «إنما الصَّبْر عند الصدمة الأولى» فلأنه يقال: إنَّ كلَّ شىء يبدو صغيراً ثم يكبر إلا المصيبة، فإنّها تبدو كبيرة ثم تصغر . فاشتراط لعِظَم الثواب لها عند أوّل كِبَرها قبل صغرها، وهى فى صدمة القلب أوّل ما ييغته الشىء، فينظر إلى نظر الله تعالى فيستحى، فيحسن الصبر، كما قال: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ، وهذا مقام المتوكّلين على الله تعالى .

والصَّبْر أيضاً عن إظهار الكرامات، وعن الإخبار بكشف القدرة والآيات - داخلٌ فى حسن الأدب من المعاملات؛ وهو من معنى الحياء من الله تعالى، وهذا طريق المحبين لله تعالى، وهو حقيقة الزهد .

ومن فضائل الصبر: حبسُ النفس عن حب المدح والحمد والرياسة . وقد رُوينا عن رسول الله ﷺ حديثاً مقطوعاً: «الصبر فى ثلاث: الصَّبْر عن تزكية النفس، والصَّبْر عن شكوى المصيبة، والصَّبْر على الرضا بقضاء الله تعالى على خيرهِ وشرهِ» .

ومن الصبر: حبسُ النفس على^(١) الخمول وانتواضع والدّعة؛ إشاراً للآخرة على الدنيا، وهرباً إلى الله تعالى، وتحقيقاً بوصف العبودية، وترك المنازعة والتشبه بمعانى أوصاف الربوبية؛ تسليمًا للإلهية، واستسلامًا للأحدية^(٢)، فلا يخرجك قلة الصبر عن ذلك إلى الطلب لشيء منه، فتزلّ قدمٌ بعد ثبوتها، نعوذ بالله من ذلك .

ومن الصبر: صبر على العيال فى الكسب لهم والإنفاق عليهم، والاحتمال للأذى منهم، فإن فى العيال طُرقاتٍ إلى الله تعالى؛ أدناها: الاهتمام بهم،

(١) فى (ط): «عن» .

(٢) الأحدية: أى أفراد الله الواحد بالوحدانية .

وأعلاها: الرضا عن الله تعالى والتوكل عليه فيهم، وأوسطها: الإنفاق وحبس النفس عليهم.

واعلم أن أكثر معاصي العباد في شيئين: قلة الصبر عما يحبون، أو قلة الصبر على ما يكرهون. وقد قرن الله تعالى الكراهة بالخير، والمحبة بالشر، في قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وحد الصبر وهو أوله فريضة بمثل أول الإخلاص.

والصبر أيضاً حيلة من لا حيلة له، لأن الأمر إذا كان بيد غيرك لم يكن إلا الصبر عليه، ولأن الشيء إذا كان لا يأتيك إلا قليلاً قليلاً وأنت محتاج إليه لم يكن إلا الصبر عليه، وإلا انقطع ذلك القليل.

وأصل قلة الصبر ضعف اليقين بحسن جزاء من صبرت له؛ لأنه لو قوى يقينه كان الآجل من الوعد عاجلاً، إذا كان الواعد صادقاً، فيحسن صبره لقوة الثقة بالعتاء.

ولا يصبر العبد إلا بأحد معنيين: مشاهدة العوض، وهو أدناهما، وهذا حال المؤمنين ومقام أصحاب اليمين. أو النظر إلى المعوض، وهو حال الموقنين ومقام المقرين. فمن شهد العوض غنى بالصبر، ومن نظر إلى المعوض حمله النظر.

وقد جعل بعض العارفين الصبر على ثلاثة معان، وأنه في أهل مقامات ثلاث، فقال: أوله ترك الشكوى، قال: وهذه درجة التائبين. والثانية: الرضا بالمقدور، وهذه درجة الزاهدين. والثالثة: المحبة لما يصنع به مولاه، وهذه درجة الصادقين.

وقد نوع القدماء من السلف الصبر على ثلاثة أنواع. فروينا عن الحسن وغيره: الصبر على ثلاثة معان: صبر عن المعصية وهو أفضلها، وصبر على الطاعة، وصبر في المصائب.

وهذا داخل في جمل ما فرقناه من معاني الصبر. ومجمل ذلك: أن الصبر فرض وفضل، يُعرف ذلك بمعرفة الأحكام. فما كان أمراً أو إيجاباً فالصبر عليه أو عنه فرض. وما كان حثاً وندباً فالصبر عليه أو عنه فضل.

والتصبرُ غيرُ الصَّبْرِ، وهو مجاهدة النفس وحملها على الصبر، وترغيبها فيه. وهو التعلُّل للصبر، والتصنع للصبور بمنزلة التزهّد، وهو أن يعمل في أسباب الزهد ليحصل الزهد. والصَّبْرُ [والزُّهْدُ]^(١) هو التحقّق بالوصف، وذلك هو المقام. ولا يُخرجُ العبدَ من الصبرِ كراهةُ النفس، ولا وجدانُ المرارة والألم، بل يكون مع ذلك صابراً؛ لأنّ هذا وصف البشرية لما ينافي طبعها، ولكن يكون حاله الكظم عن الشكوى ونفى السّخط لحكم المولى؛ لأنّ عدم ذلك وفقده هو الرضا وحقيقة التوكل، وهذان من أعلى مقامات اليقين.

وفقدُ مراتب اليقين لا يُخرج عن حدِّ الصبر. والذي يُخرجُ عن حدِّ الصبر ضده؛ وهو الجزع، ومجاوزة الحدِّ من العلم، وإظهار التّسخُّط، وكثرة الشكوى، وظهور الذمّ والتبرُّم.

ومن رياضة النفس على التصبر، وهو مقام المتصبرين وحالُ ضعفاء المريدین: أن النفس الأمّارة إذا جنحت بك إلى فضول الشهوات أو نازعتك إلى مطالبة متقدّم العادات أن تمنعها حاجتها من كل شيء، فيشغلها منعُ الحاجة ووجودُ الفاقة ممّا لا بُدَّ منه عن طلب فضول الشهوات، فإذا رُضتْها بالمنع، ومنعتها محبوبها بالتصبر عن الحلال، انقادت لك بالصبر عن فضول الشهوات، فتكونُ تاركةً لشهوةٍ بعوضٍ عاجل من مباح، وتكون صابرة عن فضول شهوة لما منعتها من منال الفاقة، وتاركة للهوى طمعاً في نوال الحاجة من الغذاء. وهذا من أكبر أبواب الرياضات للنفس الطامحات، وفيه فضلُ الأقوياء من المتصبرين؛ الذين لم تستجب لهم نفوسهم بالصبر والصلاة، ولم تنقذ بالجوع والظماء.

فأمّا الضعفاء من أهل الطبقة الثالثة؛ لا من الأولين أهل الصوم والصلاة، ولا من هؤلاء، فإنهم لا يصبرون على تصبر النفس عن الحاجة، كما لا تصبر نفوسهم عن الشهوة. فرياضة هؤلاء لنفوسهم أن يقطعوها من كلّ حرام معناه من الحلال، ومن كلّ شهوة مهلكة وصفها من شهوة مقتصدة، لتسكن نفوسهم بذلك في حبسها عن المحرّمات، وتنقطع شهوتها عمّا وراء ذلك من الموبقات، فبهذا

(١) زيادة من (خ).

تطمئن نفوسُ الضعفاء .

وقد اختلف النَّاسُ في الصَّبْرِ والشُّكْرِ، أيُّهما أفضل؟ وليس يمكن التَّرجيح بين مقامين؛ لأنَّ في [ذلك من] ^(١) كلِّ مقام طبقةً متفاوتتين. والمحققون من أهل المعرفة يقولون: إنه لا يجتمع عبْدان في مقامٍ بالسَّوء، بل لا بدَّ من أن يكون أحدهما أعلى بعِلْمٍ أو عملٍ أو وَجْدٍ أو مشاهدة، وإن كان الصَّوْب ^(٢) والقصد والأصل واحداً، وأعلى التفاوت مشاهداتُ الوجه، وقد قال الله تعالى وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا: ﴿وَلِكُلِّ وُجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا﴾ [البقرة: ١٤٨]. وقال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٤]. قيل: أقصد وأقرب طريقاً.

وظاهرُ الكتاب والسنة يدلان على تفضيل الصبر، لقوله تعالى: ﴿يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤]. فالشَّاكر يُؤْتَى أَجره مرةً، فأشبهه مقام الصَّبْرِ مقام الخوف، وأشبهه مقام الشُّكْرِ مقام الرَّجاء. وقد قال الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦]. وقد اتفق أهلُ المعرفة على تفضيل الخوف على الرجاء، من حيث اتفقوا على فَضْلِ العلم على العمل. فالصَّبْرُ حالٌ مَنْ مَقَامُهُ الخوف ^(٣)، يَقْرُبُ حالُ الصَّابِرِ في الفضل من مقامه. والشُّكْرُ حالٌ مَنْ مَقَامُهُ الرَّجاء، كذلك يَقْرُبُ حالُ الشَّاكر من مقامه.

ومن السنة قوله ﷺ في الخبر الذي ذكرناه من قبل: «مَنْ أَقَلُّ ما أُوتِيَتْهُمُ اليقينُ وعزيمةُ الصَّبْرِ، وَمَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ منهما لم يبال ما فاتته». وذكر الحديث المتقدم، فقرن الصَّبْرَ باليقين الذي لا شيء أعزَّ منه ولا أجَلُّ، وارتفاعُ الأعمال وعلوُّ العلوم به ^(٤).

(١) زيادة من (خ).

(٢) في (ط): «الصواب».

(٣) في (ط): «من مقام الخوف».

(٤) في (ط): «وعلو اليقين به».

وفى مناجاة أيوب عليه السلام: إن الله سبحانه وتعالى أوحى إليه: يا أيوب إني آليتُ على نفسى لا نشرْتُ للصَّابرين ديوانَ توبيخٍ، ولا نَظَرُوا إلى حدِّ الصَّراطِ، ولا رَوَّعهم نَقْصُ المِيزانِ، دارهم دارُ السَّلامِ.

• بيان آخر من تفضيل الصبر:

الصبر: حال البلاء، والشكر: حال النعمة. والبلاء أفضل؛ لأنه على النفس أشقّ، لقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. فالشاعر يُوفَّى أجره بحساب، لأنَّ «إنما» تحقيق للوصف ونفى ما عداه.

• بيان آخر من فضل الصبر:

قد رفع على كرم الله وجهه الصبر على أربع مقامات اليقين، وجعلها دعائمه التى بها يستبين، وجعله فيه فوقها، فقال فى حديثه الطويل الذى وصف فيه شعب الإيمان: والصبر على أربع دعائم: على الشوق، والشفقة، والزهد، والترقب. فمن أشفق من النار رجَّع عن المحرمات، ومن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات، ومن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات. فجعل هذه المقامات أركان الصبر، لأنها تُوجدُ عنه، وتحتاج إليه فى جميعها، وجعل الزهد أحدَ أركانه.

وقد جعل الله تعالى الصبرَ حال التقوى، ورفع للمتقين فى الإكرام درجات، فقال عزّ وعلا: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ [يوسف: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. و«أكرم» و«أتقى» فوق أن يقال: كرامكم المتقون، لأنَّ «أكرم» و«أتقى» يدلّ على تفاوتٍ، فمن كان أتقى كان أكرم عند الله سبحانه وتعالى، ومن كان أصبر على ما يوجب التقوى كان أتقى.

واعلم أنَّ الصبرَ سببُ دخول الجنة، وسببُ النجاة من النار؛ لأنه جاء فى الخبر: «حُقَّتْ الجنةُ بالمكاره، وحُقَّتْ النارُ بالشَّهوات». فيحتاج المؤمنُ إلى صبرٍ^(١)

(١) فى (ط): «الصبر».

على المكاره ليدخل الجنة، ويحتاج إلى صبر^(١) عن الشهوات لينجو من النار.

فأما تفصيل التفضيل فعلى ثلاثة أوجه؛ أحدها: أن المقامات أعلى من الأحوال، وقد يكون الصبر والشكر حالين، وقد يكونان مقامين. فمن كان مقامه الصبرَ كان حاله الشُّكْرَ عليه، فهو أفضل لأنه صاحب مقام، ومن كان مقامه الشُّكْرَ كان حاله الصَّبْرَ عليه، فحاله مزيدٌ لمقامه، فقد صار الصبرُ مزيداً للشَّاكر في مقامه.

الوجه الثاني من التَّفضيل: المقربون أعلى من أصحاب اليمين، فالصَّابرون من المقربين أفضلُ من الشَّاكرين من أصحاب اليمين، والشَّاكرون من المقربين أفضلُ من الصابرين من أصحاب اليمين.

فإن قيل: فإن كان الشَّاكر والصَّابر من المقربين فأيهما أفضل؟ قيل: فقد قلنا: إنَّ اثنين لا يتفقان في مقام من كل وجه، لانفراد الوجه بمعاني لطائف اللطيف، بمثل ما انفردت الوجوه بلطيف الصَّنعة، مع تشابه الصفات واستواء الأدوات، فأفضلهما حينئذ أعرفهما، لأنَّ أحبهما إلى الله تعالى، وأقربهما منه، وأحسنهما يقيناً؛ لأنَّ اليقين أعزُّ ما أنزل الله تعالى.

• وجه آخر من بيان التفضيل:

نقول: إنَّ الصبر عما يوجب الشكر أفضل، وإنَّ الشُّكر على ما يوجب الصبر أفضل^(٢). فهذا باختلاف الأحوال. تفسيره: أن الصَّبْرَ عن حظِّ النفس وعن التَّعَمُّ والترقُّه أفضلُ، إن كان عبداً حاله النعمة. فالصبرُ عن النعيم والغنى مقامٌ في المعرفة، وهو أفضل لأن فيه الزهد المجمع على تفضيله. ونقول: إنَّ الشُّكر على الفقر والبلاء والمصائب أفضلُ، إن كان عبداً حاله الجهد والبلاء. فالشُّكر عليه مقامٌ له في المعرفة، فهو حينئذ أفضل، لأن فيه الرضا المتفق على فضله.

(١) في (ط): «الصبر».

(٢) من (خ)، وفي (ط): «فقد».

• نوع آخر من الاستدلال على فضل الصابر وتفضيل الصبر جملة،

الصَّابِرُ العَارِفُ أَفْضَلُ مِنَ الشَّاكِرِ العَارِفِ، لَأَنَّ الصَّبْرَ حَالُ الْفَقْرِ، وَالشُّكْرَ حَالُ الْغِنَى. فَمَنْ فَضَّلَ الشُّكْرَ عَلَى الصَّبْرِ فِي الْمَعْنَى فَكَأَنَّهُ قَدْ فَضَّلَ الْغِنَى عَلَى الْفَقْرِ، وَلَيْسَ هَذَا مَذْهَبُ أَحَدٍ مِنَ الْقَدَمَاءِ، إِنَّمَا هَذِهِ طَرِيقَةُ عُلَمَاءِ الدُّنْيَا، طَرَّقُوا لِنَفْسِهِمْ بِذَلِكَ، وَطَرَّقُوا الْخَلْقَ إِلَى نَفْسِهِمْ مِنْ ذَلِكَ؛ لَأَنَّ مَنْ فَضَّلَ الْغِنَى عَلَى الْفَقْرِ فَقَدْ فَضَّلَ الرَّغْبَةَ عَلَى الزَّهْدِ، وَالْعِزَّ عَلَى الذِّلِّ، وَالْكِبَرَ عَلَى التَّوَاضُعِ؛ وَفِي هَذَا تَفْضِيلُ الرَّاعِبِينَ وَالْأَغْنِيَاءِ عَلَى الزَّاهِدِينَ وَالْفُقَرَاءِ. وَيُخْرِجُ ذَلِكَ إِلَى تَفْضِيلِ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا عَلَى أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ.

وَإِنَّمَا فَضَّلْنَا الصَّبْرَ عَلَى الشُّكْرِ فِي الْجُمْلَةِ وَالْمَعْنَى؛ لَأَنَّ الصَّبْرَ حَالٌ مِنْ مَقَامِهِ الْبَلَاءِ، وَأَهْلُ الْبَلَاءِ هُمُ الْأَمْثَلُ فَلِأَمْثَلُ بِالْأَنْبِيَاءِ، وَلِأَنَّ الصَّبْرَ أَبْعَدُ مِنْ أَهْوَاءِ النَفُوسِ، وَأَقْرَبُ إِلَى الضَّرِّ وَالْبُؤْسِ، وَأَشَدُّ فِي مَكَارِهِ النَفُوسِ، وَأَنْفَرُ لَطَبَاعِهَا، وَأَشَدُّ مَبَايِنَةً لِمَا يَلْتَائِمُهَا، فَإِذَا سَكَنْتَ مَعَهُ وَوُجِدَ عِنْدَهَا، كَانَ أَعْجَزَ لَوْصِفِهَا، وَأَعْجَبَ فِي طَمَائِنَتِهَا، فَمُدِّحَتْ بِالسَّكُونِ وَالطَّمَأْنِينَةِ، وَكَانَتْ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً. وَأَيْضًا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ بِالصَّبْرِ، وَبَالَغَ فِيهِ بِالصَّابِرَةِ، وَوَكَّدَهُمَا بِالْمُرَابَاطَةِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. قِيلَ فِي أَحَدِ الْوُجُوهِ: وَرَابِطُوا عَلَيْهِمَا. فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَوْامِرٍ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ بِمَعْنَى الصَّبْرِ. فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَعْظِيمِهِ لِلصَّبْرِ وَمَحَبَّتِهِ تَعَالَى لَهُ، فَمَنْ وَجِدَ مِنْهُ ذَلِكَ كَانَ أَشَدَّ تَعْظِيمًا لَشَعَائِرِ اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ عَظَّمَ شَعَائِرَ اللَّهِ فَهُوَ أَتَقَى اللَّهَ تَعَالَى، وَمَنْ كَانَ أَتَقَى اللَّهَ كَانَ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]. ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَأَكُمُ﴾ [الحجرات: ١٣].

وَالصَّبْرُ أَيْضًا مَقَامُ أُولَى الْعَزْمِ مِنَ الرِّسَالِ الَّذِينَ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْقُدُوةِ بِهِمْ، وَبَاهَى اللَّهُ تَعَالَى بِهِمْ عَبْدَهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الاحقاف: ٣٥]. وَأَيْضًا فَإِنَّ الْعَزَائِمَ فِي الدِّينِ أُولَى مِنَ الرَّحْصِ. رُوِيَ عَنِ

سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ قَالَ: سَأَلَ مُسْلِمَ الْبَطِينِ: أَيْمًا أَفْضَلُ الصَّبْرِ أَمْ الشُّكْرِ؟ فَقَالَ: الصَّبْرُ، وَالشُّكْرُ وَالْعَافِيَةُ أَحَبُّ إِلَيْنَا. وَقَدْ قِيلَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨]. قِيلَ: شِدَائِدُهُ وَعِزَائِمُهُ؛ لِأَنَّ إِبَاحَةَ حَلَالِ الدُّنْيَا حَسَنٌ، وَالزَّهْدَ فِيهِ أَحْسَنُ. وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى الصَّبْرَ مِنَ الْعِزَائِمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وَقَدْ شَرَكَ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ فِي الشُّكْرِ وَأَفْرَدَ عِزَّ وَجَلِّ لِنَفْسِهِ تَعَالَى الصَّبْرَ. فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمَفْرَدُ لِلْفَرْدِ أَعْلَى مِنَ الْمَشْتَرَكِ بِالْعَبْدِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا دَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]. وَقَالَ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ عِزَّ وَجَلَّ». وَلَمْ يَشْرَكَ فِي الصَّبْرِ مَنْ خَلَقَهُ أَحَدًا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ٧]. وَقَالَ: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٤٨].

وَأَعْلَمُ أَنَّ الشُّكْرَ دَاخِلٌ فِي الصَّبْرِ، وَالصَّبْرَ جَامِعٌ لِلشُّكْرِ؛ لِأَنَّ مَنْ صَبَرَ أَنْ لَا يَعْصِيَ اللَّهَ بِنِعْمِهِ فَقَدْ شَكَرَهَا، وَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ فَصَبَرَ نَفْسَهُ عَلَى طَاعَتِهِ فَقَدْ شَكَرَ نِعْمَتَهُ.

وَقَدْ سَأَلَ الْجَنِيدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ غَنَى شَاكِرٍ وَفَقِيرٍ صَابِرٍ، أَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: لَيْسَ مَدْحُ الْغَنَى لِلْوُجُودِ، وَلَا مَدْحُ الْفَقِيرِ لِلْعَدَمِ، إِنَّمَا الْمَدْحُ فِي الْاِثْنَيْنِ قِيَامُهُمَا بِشُرُوطٍ مَا عَلَيْهِمَا. فَشَرَطُ الْغَنَى تَصَحُّبَهُ فِيمَا عَلَيْهِ أَشْيَاءُ تَلَاثِمُ صِفَتَهُ وَتُمَتِّعُهَا وَتُلَذِّدُهَا. وَالْفَقِيرُ تَصَحُّبَهُ فِيمَا عَلَيْهِ أَشْيَاءُ تُولِمُ صِفَتَهُ وَتَقْبِضُهَا وَتُزَعِّجُهَا. فَإِذَا كَانَ الْاِثْنَانِ قَائِمَيْنِ لِلَّهِ تَعَالَى بِشُرُوطٍ مَا عَلَيْهِمَا، كَانَ الَّذِي أَلَمَ صِفَتَهُ وَأَزَعَجَهَا أَتَمَّ حَالًا مِمَّنْ مَتَعَ صِفَتَهُ وَنَعَّمَهَا.

هَذَا نَقْلُ كَلَامِ الْجُنَيْدِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى. وَكَانَ أَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ عَطَاءٍ قَدْ خَالَفَهُ فِي ذَلِكَ، فَيُقَالُ: إِنَّ الْجُنَيْدَ دَعَا عَلَيْهِ فَلَحَقَهُ مَا أَصَابَهُ مِنَ الْبَلَاءِ، مِنْهُ قَتْلُ أَوْلَادِهِ، وَإِتْلَافُ مَالِهِ، وَزَوَالُ عَقْلِهِ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً. فَكَانَ يَقُولُ: دَعَا الْجُنَيْدَ أَصَابَتْنِي. وَرَجَعَ عَنْ قَوْلِهِ فِي تَفْضِيلِ الْغَنَى عَلَى الْفَقْرِ، فَصَارَ يَفْضِلُ الْفَقِيرَ وَيُشْرَفُّهُ.

وأيضاً فقد رُوينا في الخبر: أَعْرِفُكُمْ بِنَفْسِهِ أَعْرِفُكُمْ بِمَا ابْتَلَاهُ بِهِ مِنْهَا، وَمَا ابْتَلَاهَا بِهِ مِنْهُ، فَأَعْظَمُ مَا ابْتَلَانَا بِهِ مُحِبَّتَنَا لَهَا، وَابْتَلَاهَا بَعْدَاوَتَنَا. فَمَنْ أَفْضَلُ مِمَّنْ صَبَرَ عَلَى مَجَاهِدَةِ عَدُوِّهِ، عَلَى أَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَعَالَى، مُنَازِعٌ لِمِنْ لُصَفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ؟ وَمَنْ أَشَدُّ بَلَاءً مِمَّنْ أُبْتَلِيَ بَعْدَاوَتِكَ وَابْتُلِيتَ بِمُحَبَّتِهِ، وَأَنْتَ فِي ذَلِكَ تَتْرَكَ مُحَبَّتَهُ لِمُحِبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَصْبِرُ عَلَى عِدَاوَتِهِ بِدَوَامِ مَجَاهِدَتِهِ لِمَرْضَاةِ اللَّهِ تَعَالَى؟ فَهَذَا أَعْدَلُ الْعَدْلِ وَأَفْضَلُ الْفَضْلِ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا بِفَضْلِ أَثَرِهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَحَسَنِ عَنَانِيَّتِهِ، وَدَوَامِ نَظَرِهِ، إِذْ لَا تَوْفِيقَ وَلَا قُوَّةَ وَلَا صَبْرَ إِلَّا بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فَأَمَّا الْمَسْأَلَةُ الَّتِي سُئِلَ عَنْهَا بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: عَنْ عَبِيدَيْنِ ابْتُلِيَ أَحَدُهُمَا فَصَبَرَ، وَأُنْعِمَ عَلَى الْآخَرِ فَشَكَرَ. فَقَالَ: كِلَاهُمَا سَوَاءٌ، قَالَ: لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَثْنَى عَلَى عَبِيدَيْنِ أَحَدُهُمَا صَابِرٍ وَالْآخَرِ شَاكِرٍ بَشَاءٍ وَاحِدٍ، فَقَالَ تَعَالَى فِي وَصْفِ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿نَعِمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، وَقَالَ فِي وَصْفِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿نَعِمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

فَفِي قَوْلِهِ هَذَا - رَحِمَهُ اللَّهُ - غَفْلَةٌ عَنْ لَطَائِفِ الْأَفْهَامِ، وَذَهَابٌ عَنْ حَقِيقَةِ تَدَبُّرِ الْكَلَامِ. إِذْ عِنْدَنَا بَيْنَ ثَنَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى أَيُّوبَ فِي الْفَضْلِ عَلَى ثَنَائِهِ عَلَى سُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ثَلَاثَةَ عَشَرَ مَعْنًى، وَشَرَكَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي وَصْفَيْنِ آخَرَيْنِ، وَأَفْرَدَ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِفَضْلِ ثَنَاءِ ثَلَاثَةِ عَشَرَ مَعْنًى.

أَوَّلُ ذَلِكَ: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَوَّلِ مَدْحِهِ: ﴿وَاذْكُرْ﴾ فَهَذِهِ كَلِمَةٌ مُبَاهَاةٌ، بِأَيُّوبَ عِنْدَ رَسُولِهِ الْمُصْطَفَى ﷺ وَشَرَفَهُ وَفَضَّلَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ﴾ يَا مُحَمَّدُ، فَأَمْرُهُ بِذِكْرِهِ وَالِاقْتِدَاءُ بِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الاحقاف: ٣٥]. قِيلَ: هُمْ أَهْلُ الشَّدَائِدِ وَالْبَلَاءِ، مِنْهُمْ أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قُرِضُوا بِالْمَقَارِيطِ، وَنُشِرُوا بِالْمُنَاشِيرِ، وَكَانُوا سَبْعِينَ نَبِيًّا. وَقِيلَ: هُمْ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ؛ وَهَؤُلَاءِ آبَاءُ الْأَنْبِيَاءِ وَأَفَاضَلُهُمْ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [مريم: ٤١]، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ

وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿ص: ٤٥﴾، يعنى أصحاب القوة والتَّكِينِ وأهل البصائر واليقين. ثم رفع أيوب إلى مقامهم، فضمه إليهم، وجعله سلوة له ﷺ، ثم ذكره إياه وذكره به.

ثم قال تعالى: ﴿عَبَدْنَا﴾ فأضافه إليه عز وجل إضافة تخصيص وتقريب، ولم يدخل بينه وبينه لام الملك، فيقول: عبداً لنا، فألحقه بنظرائه من أهل البلاء فى قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ﴿ص: ٤٥﴾، وهم أهل الابتلاء الذين باهى بهم الأنبياء، وجعل من ذرياتهم الأصفياء. فأضاف أيوب إليهم فى حسن الثناء، وفى لفظ التذكيرة به فى الثناء.

ثم قال: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ فأفرده بنفسه لنفسه، وانفرد له فى الخطاب بوصفه. وقال: ﴿مَسْنَى الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، فوصفه بمواجهة التملق له، ولطيف المناجاة، وظهر له بوصف الرحمة فاستراح إليه به، فناده فشكا إليه واستغاث به، فأشبهه مقامه مقام موسى ويونس عليهما السلام، فى قول أحدهما: ﴿سُبْحَانَكَ تَبَّتْ إِلَيْكَ﴾ [الاعراف: ١٤٣]، وفى قول الآخر: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. وهذا خطاب المشاهدة، ونظرُ المواجهة.

ثم وصفه بالاستجابة له، وأهله لكشف الضر عنه، فجعل كلامه سبباً لتنفيذ قدرته، ومكاناً لمجارى حكمته، ومفتاحاً لفتح إجابته.

ثم قال بعد ذلك كله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ﴾ [ص: ٤٣] فزاد على سليمان فى الوصف، إذ كان بين من وهب لأهله وبين من وهب له أهله فضل فى المدح؛ لأنه قال فى وصف سليمان: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾ [ص: ٣٠]، فأشبهه فضل أيوب فى ذلك على سليمان كفضل موسى على هارون؛ لأنه قال عز وجل فى مدح موسى عليه السلام وتفضيله على هارون: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣]. وكذلك قال فى مدح داود: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾. فوهب لموسى أخاه، كما وهب لداود ابنه. وأشبه مقام أيوب فى المباهاة والتذكيرة

به مقام داود عليه السلام، لأنه قال تعالى فى وصف داود لنبىه ﷺ: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ [ص: ١٧]. وكذلك قال تعالى فى نعت أيوب: ﴿وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ [ص: ٤١]. فقد شبه أيوب بـ داود وموسى عليهما السلام فى المعنى، ورفعهُ إليهما فى المقام، وهما فى نفوسنا أفضل من سليمان، عليهم السلام، فأشبه أن يكون حال أيوب أعلى من حال سليمان، ويعلمُ الله تعالى المقدم، ولكن هكذا ألقى فى قلوبنا، والله أعلم.

ثم قال تعالى بعد ذلك كله: ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ فذكر نفسه ووصفه عند عبده شريقاً له وتعظيماً، ثم قال عز وجل: ﴿وَذِكْرَىٰ لَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٤٣]، فجعله إماماً للعقلاء، وقدوة لأهل الصبر والبلاء، وتذكراً وسلوة من الكروب للأصفياء.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾، فذكر نفسه سبحانه وتعالى ذكراً ثانياً لعبده، ووصل اسمه باسمه؛ حباً له وقرباً منه؛ لأن النون والألف فى «وجدنا» اسمه تبارك وتعالى، والهاء: اسم عبده أيوب ﷺ. ثم قال: ﴿صَابِرًا﴾، فوصفه بالصبر، فأظهر مكانه فى القوة وخلقه بخلقه.

ثم قال تعالى فى آخر أوصافه: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]؛ فهذان أول وصف سليمان وآخره، ههنا شركه فى الشناء، وزاد أيوب بما تقدم من المدح والوصف الذى لا يقوم له شىء. فمن قوله عز وجل: ﴿وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ إلى قوله: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ عظيم من الفرقان عند أهل الفهم والتبيان.

وجعل فى أول وصف سليمان بأنه وهبه لأبيه داود عليهما السلام، فصار حسنة من حسنات داود عليه السلام، واشتمل قوله تعالى: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ على أول وصفه وأوسطه، وهو آخر وصف أيوب عليه السلام. وعلى جميع الأنبياء الصلوة والسلام.

وقد رويانا فى الخبر عن رسول الله ﷺ: «آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن

داودَ عليهما السلام لمكانٍ ملكه، وآخرُ أصحابي دخولاً الجنةَ عبدُ الرحمن بن عوفٍ لمكانٍ غناه».

وفى لفظ آخر: «يدخلُ سليمانُ بن داود الجنةَ بعدَ الأنبياءِ بأربعين خريقاً».

وقد جاء فى الآثار: «إن أولَ من يدخل الجنةَ أهلُ البلاء، وإن أبوابَ الجنةِ كلّها مصراعان إلا بابَ الصبرِ فإنه مصراعٌ واحدٌ، وأولَ من يدخله [من] أهلِ البلاء إمامهم أيوبُ عليه السلام»^(١).

فقد زاد أيوبُ على سليمان عليهما السلام بعموم هذه الأخبار؛ لأنه سيدُ أهلِ البلاء، وتذكراً وعبرة لأولى النهى، وإمام أهلِ الصبر والضرِّ والابتلاء. ولم نقصد بما ذكرناه التفضيل بين الأنبياء؛ لأنّا قد نهينا عن ذلك، فيما روينّا عن نبينا محمد ﷺ أنه قال: «لا تفضلوا بين الأنبياء»، ولكن الله تعالى قد أخبرنا أن بعضهم مفضلٌ على بعض فى قوله: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥].

إنّما أظهرنا فضلَ الثناء المستودع فى الكتاب، فاستنبطنا باطنَ الوصفِ المكرّر فى الخطاب فى قصة أيوب على قصة سليمان عليهما السلام، بما ظهر لنا من فهمِ فصل الخطاب وتدبرِ معانى الكلام، وعلم الله تعالى المقدّم، وهو عزّ وجلّ أعلمُ وأحكمُ.

وقد ندبنا إلى الاستنباط فى قول الرسول عليه السلام: «اقرأوا القرآن والتمسوا غرائبَهُ». ولأنّ فى ذلك عزّاً^(٢) لأهلِ الصبر والبلاء، وتقويةً لقلوبهم، وتعريقاً لسوايغ نعم الله تعالى عليهم، وإظهاراً لبواطنِ النعم، وتنبهّاً على لطائفِ الكلام، وتزهيداً فى الدنيا والنفس، وترغيباً فى الآخرة والصبر، وتفضيلاً لطريق أهلِ البلاء الذين هم الأمثل فالأمثل بالأنبياء.

فجاء من ذلك تفضيلُ المبتلى الصابرِ على بلائه رضاً بحكم مولاه، وتسليماً لمُرِّ قضائه^(٣)، على المنعمِ عليه، الشاكرِ على نعمائه، إذ النعمُ ملائمةٌ للطبع، موافقةٌ

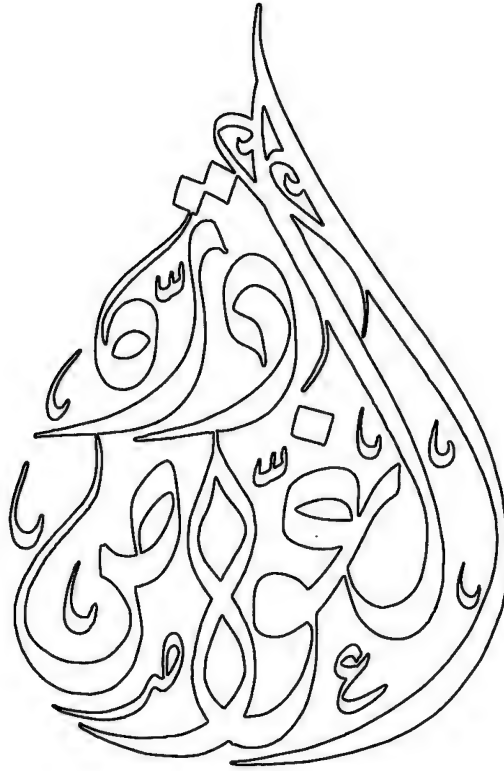
(١) جاء هذا الخبر بالمطبوعة مخالفاً لما فى المخطوط فى الترتيب، فأثبت نص (خ).

(٢) فى (ط): «عزاء».

(٣) فى (ط): «وتسليماً لمرضاته».

للنفس، لا يُحتاج معها إلى كدّ النفس بالصبر عليها، [ولا مُجاهدتها]^(١)، ولا حَمَلُها على المشقة فيها بالرّضا بها. والبلاءُ مَبَايِنٌ للطبع، نافرة منه النفس، يُحتاج إلى حَمَلٍ عليه ومشقة فيه، وما كرهته النفسُ فهو خير وأفضل، ولا سبيل إليه إلا بسكينته من الله تعالى، وتصَبُّرٌ عليه بقوة به عزّ وجلّ وعنايةً منه: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

وهذا آخر شرح مقامات الصبر.



(١) زيادة من (خ).

شرح مقام الشكر، ووصف الشاكرين وهو المقام الثالث من مقامات اليقين

قال الله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]، فقرن الشكر بالإيمان، ورفع بوجودهما العذاب. وقال تعالى: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥]. وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ». وقال ابن مسعود رضى الله عنه: الشكر نصف الإيمان.

وقد أمر الله تعالى بالشكر وقرنه بالذكر في قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وقد عظم الذكر بقوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فصار الشكر أكبر لاقتترانه به، ورضي الله تعالى بالشكر مجازاةً من عباده لفرط كرمه، لأن قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي﴾ خروج من لفظ المجازاة لتحقيق الأمر وتعظيم الشكر، لأن «الفاء» للشرط والجزاء، و«الكاف» المتقدمة للتمثيل. فقله تعالى: ﴿فاذكروني﴾ متصل بقوله: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم... فاذكروني... واشكروا لي﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢]. والمعنى: كمثل ما أرسلت فيكم رسولاً منكم فاشكروا لي. والعرب تكتفى من «مثل» بالكاف، كما اكتفت من «سوف» بالسين، في قوله تعالى: ﴿سَنُؤْتِيهِمْ﴾ [النساء: ١٦٢]، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٨٢]. وهذا تفضيل للشكر عظيم لا يعلمه إلا العلماء بالله تعالى.

وقد روي في أخبار أيوب عليه السلام: إن الله تعالى أوحى إليه: إني رضى بالشكر مكافأةً من أوليائي - في كلام طويل. وفي أحد الوجوه من قوله عز وجل: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، قال: طريق الشكر. فلولا أن الشكر طريق قريب يوصل إلى الله تعالى لما عول العدو على قطعه، ولولا أن الشاكر حبيب رب العالمين ما نقصه إبليس اللعين في قوله تعالى: ﴿وَلَا

تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿[الأعراف: ١٧]﴾. وكذلك قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبا: ١٣]. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبا: ٢٠].

وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فيه، واستثنى في خمسة أشياء: في الإغناء، والإجابة، والرِّزْق، والمغفرة، والتوبة. فقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِّنْ فَضْلِهِ إِنِ شَاءَ﴾ [التوبة: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنِ شَاءَ﴾ [الأنعام: ٤١]. وقال تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢١٢]، ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٤٠]. وقال عز وجل: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ﴾ [التوبة: ٢٧]. وختم بالمزيد عند الشكر من غير استثناء فقال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

فالشَّاكر على مزيد، والشكور في نهاية المزيد؛ وهو الذي يكثر شكره على القليل من العطاء، ويتكرر منه الشكر والثناء على الشيء الواحد من النعم. وهذا خُلِقَ من أخلاق الربوبية؛ لأنه سماه باسم من أسمائه. والمزيد هو إلى المنعم يجعله ما شاء. فأفضلُ المزيدِ حسنُ اليقين ومشاهدة الأوصاف. وأوّلُ المزيدِ شهودُ النعم أنها من المنعم بها من غير حول ولا قوة إلا به عز وجل. وأوسطُ المزيدِ دوامُ الحال، ومتابعةُ الخدمة والاستعمال. وقد يكون المزيدُ أخلاقًا، وقد يكون علومًا، وقد يكون في الآخرة، وتثبيتًا عند فراق العاجلة.

وقد جعل الله تعالى الشكرَ مفتاحَ كلام أهل الجنة وختمَ تمنّيهم في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ﴾ [الزمر: ٧٤]. وقال تعالى: ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]. فلو لا أنه أحب الأعمال إليه ما بقاه عليهم لديه.

ورؤينا في مناجاة أيوب عليه السّلام: إنّ الله تعالى أوحى إليه في صفة الصابرين: دارهم دارُ السّلام، إذا دخلوها ألهمتهمُ الشُّكرَ وهو خيرُ الكلام، وعند الشكر أسترزدهم، وبالنظر إلى أزيدهم. وهذا غاية الفضل.

فأول الشكر معرفة النعم أنها من المولى وحده لا شريك له فيها، ولا ظهور له عليها، إذ قد نفى ذلك عن نفسه؛ لأنه هو الأول في كل شيء، لا شيء معه ولا ظهور له في شيء، إذ قد جعل الضراء والسراء منه وإليه، جاريتين على عباده، فقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبا: ٢٢]. الشرك: الخلط. والظهير: المعين. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَخِيرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧]. وقال تعالى في جمل النعم بعد إضافتها إليه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]. وقال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

فالأسباب مع صحتها، والأواسط مع ثبوتها؛ إنما هي حكمة [المنعم]^(١) وأحكامه. وظروف العطاء وآثار المعطى لا تؤثر في الحكم بها والجعل لها حكماً ولا جعلاً، يعنى لا تحكم ولا تجعل، لأنها محكومات فكيف تحكم! ومجعولات فكيف تجعل! لا حاكم إلا الله وحده ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]، وهذا الحرف في مقرأ أهل الشام أبلغ وأؤكد، لأنه يخرج على الأمر، لأنهم قرؤوه: بالتاء وجزم الكاف: (ولا تُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)^(٢). فالأسباب أحكام حق وأواسط حكمه، فمشاهدة المنعم في النعمة، وظهور المعطى عند العطاء حتى ترى النعمة عنده منه، والعطاء عنه - هو شكر القلب، لأن الشكر عند الشاكرين معرفة القلب ووصفه، لا وصف اللسان.

وقد أخبر رسول الله ﷺ بذلك، وأمر باقتناء الشكر^(٣)، واتخاذ مالا في الآخرة، عوضاً من اقتناء الأموال في الدنيا، فقال في حديث ثوبان وعمر بن

(١) زيادة من (خ).

(٢) هذه قراءة ابن عامر، والباقون «ولا يُشْرِكُ»، انظر: السبعة في القراءات، ص ٣٩٠.

(٣) في (خ): «بالاقتناء للشكر».

الخطاب رضى الله عنهما، حين نزل فى الكُنُوز ما نزلَ سألَه عمر: أى المالِ نتخذُ؟ فقال: «لِيتَّخِذَنَّ أَحَدُكُمْ لِسَانًا ذَاكِرًا وَقَلْبًا شَاكِرًا».

ورؤينا فى أخبار موسى عليه السّلام وداود عليه السلام: يا ربّ كيفَ أشكركَ وأنا لا أستطيع أن أشكركَ إلا بنعمة ثانية من نعمك؟! وفى لفظ آخر: وشكرى لك نعمةٌ أخرى منك تُوجب علىّ الشّكر لك. فأوحى الله تعالى إليه: إذا عَرَفْتَ هذا فقد شكرتني. وفى خبر آخر: إذا عَرَفْتَ أن النّعم منى فقد رضيتُ منك بذلك شكراً.

وشكرُ اللسان حسنُ الثناء على الله تعالى، وكثرةُ الحمد والمدح له، وإظهارُ إنعامه وإكرامه، ونشرُ أياديه وإحسانه. وأن لا يشكو المالكُ إلى المملوك، ولا المعبودُ الجليل إلى العبدِ الذليل.

وفى الخبر: أن النّبي ﷺ قال لرجل: «كيف أصبحت؟ قال: بخير. فأعاد عليه النّبي عليه السلام السّؤال ثانية: كيف أنت؟ فقال: بخير. فأعاد عليه الثالثة: كيف أنت؟ فقال: بخير أحمد الله تعالى وأشكره. فقال: هذا الذى أردتُ منك». يعنى إظهارَ الحمدِ والشّكرِ والثناء.

وإنما كان السلف يتساءلون عن أحوالهم إذا التقوا، ليستخرجوا بذلك حمداً لله تعالى وشكره، فيكونوا شركاءه فى ذلك، لأنهم سببُ ذكره لله تعالى. فمَنْ علمتَ أنّه يشكو مولاه ويتكره عندك قضاءه إذا سألتَه عن حاله فلا تسأله، فتكون أنت سبب شكواه، وشريكه فى جهله. وما أقبحَ بالعبد أن يشكو المولى الذى ليس كمثله شيء والذى بيده ملكوتُ كلِّ شيء إلى عبدٍ مملوك لا يقدر على شيء.

ومن الشّكر أن يشكرَ الله تعالى على اليسير، لأنّ القليلَ من الحبيب كثير، ولأنّ الله تعالى حكيم، فمنعهُ حكمةً وقُدرةً. فإذا عَرَفَ وجهَ الحكمة فى المنع مع القُدرة على العطاء علمَ أنّه منعه لِيُعْطِيَهُ. فثمَّ صارَ المنعُ عطاءً، وكان اليسيرُ منه كثيراً. ويعلم أنّ الذل والصبر عند المنع عزٌّ وشرف، وهو أفضل وأنفس عند العلماء من التعزُّز بالعبيدِ والشرفِ بهم، وأن الطمع والتذلل إليهم والاستشراف

إلى عبدٍ مملوكٍ مثلكَ ذلٌّ ذليلٌ، وحسنُ الذلِّ للعزیز كحسنُ الذلِّ للحبيب، وقبحُ الذلِّ للذليل كقبحُ الذلِّ للعدو. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧]. وقال تعالى في معناه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]. والعبادةُ هي الخدمة والطاعة بذلٌّ.

ولا يحسنُ للعبدِ المقبل أن يُظهرَ فقره وفاقته إلى غيرِ مولاه الذي يلي تدبيره ويتولاه، لأنه عليمٌ خبيرٌ بحاله، يسمعه ويراه، فهو أعلم بما يصلحه منه. وقد قال الله تعالى في معناه: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧].

فعلى الموقن أن يشكرَ في القبض والمنع، كما يشكر في العطاء والبسط. ثم يشهدُ الشاكرُ بقلبه شهادةً يقين، ويعلم أن وصفه وصفُ العبودية، وحكمه أحكامُ العبيد، محكوم عليه بأحكام الربوبية، وأنه لا يستحقُّ على الله شيئاً، وأن الله عزَّ وجلَّ يستحقُّ عليه كلَّ شيء. فالعبدُ خلقه وصنعتَه، والربُّ صانعه ومالكه. فإذا شهد العبدُ هذه المُشاهدة رأى الله عزَّ وجلَّ عليه كلَّ شيء، فرضيَ منه بأدنى شيء، ولم يرَ له على الله تعالى شيئاً، فلم يقنع الله تعالى منه بشيء، ولم يطالب مولاه بشيء.

فكثرةُ الذكر، وحسنُ الثناء، وجميلُ النثر للنعماء، وتعددُ النعم والآلاء، هو شكرُ اللسان؛ لأنَّ معنى الشكر في اللغة: هو الكشفُ والإظهار. يقال: كثرُ وشكرُ بمعنى، إذا كشفَ عن ثغره وأظهره، فيكون إظهارُ الشكر وكشفه باللسان ما ذكرناه، كما جاء في الخبر: «ليس شيءٌ من الأذكار يُضَاعَفُ ما يُضَاعَفُ الْحَمْدُ». وفي الحديث: «من قال: سبحان الله، فله عشرُ حسنات، ومن قال: لا إله إلا الله، فله عشرون حسنة، ومن قال: الحمد لله، كُتِبَتْ له ثلاثون حسنة».

ليس أن الحمدَ أعلى من التوحيد، ولكن لفضلِ مقام الشكر^(١)، ولأنَّ الله تعالى افتتحَ به كلامه في كتابه. وفي الخبر: «الحمد رداءُ الرحمن عزَّ وجلَّ». وفي

(١) في (ط): «الشاكر».

الخبر: «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله رب العالمين».

ويكون أيضاً ظهورُ الشكر وغلْبتهُ في القلب شكرَ القلب، ويكون شكرُ الله تعالى لعبده كشفهُ له ما ستره عنه، وإظهارهُ له ما حجبهُ منه من العلوم والقدْر، وهو المزيد، فيفيدهُ ذلك حسنَ معرفةٍ به سبحانه وتعالى، وعلوُّ مشاهدتهُ منه^(١)، وكلُّه يرجع إلى معنى الكشف والإظهار.

وأما شكرُ الجوارح للمُنعم المُفضِّل سبحانه وتعالى فهو أن لا يعصيهُ بنعمةٍ من نعمه، وأن يستعينَ بنعمته على طاعته، ولا يستعين بها على معاصيه، فيكون قد كفرها، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨].

قيل: استعانوا بنعمه على معاصيه. فالخلق لا يقدرُونَ على تبديلِ نعمة الله عز وجل، ولكن معناه: بدَّلوا شكرَ نعمة الله كفرًا، وهذا من المضمَر لظهور دليله عليه؛ لأنه أمرهم بالطاعة بالنعم فخالفوه فعصوه بها، فكان ذلك تبديلهم لما أمروا. ومثله قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، المعنى:

شكرُ رِزْقِكُمْ تجعلونه تكذيبِكُمْ برِسلِ الله تعالى. وهذا من المحذوف أيضاً، وهي في قراءة النبي ﷺ مظهرَةٌ مفسرةٌ. رُوينا عنه عليه السلام: «أَنَّهُ قَرَأَ (وتجعلون شكركم)، فهذا ظاهر. وبمعناه: ﴿وَمَنْ يَدَّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١]، أى: يعاقب من كفر بالنعمة فضيَع شكرها بمعصيته بها، يُعاقبه بِزوالها. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾

[إبراهيم: ٧]. قيل: إن كفرتم النعمة فقد يكونُ العذابُ في الدنيا تبديلَ النعمة عقوبات، وتغييرها هوانًا ومذلات، وقد يكونُ العذابُ مؤجلاً، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥]. قال: طالَبهم على النعم بالشكر فلم يكن عندهم، فأغرَمهم ثمنَ النعمة فحبَسهم في جهنم. وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]. ثم قال: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، ففيه تنبيهٌ لذوى الألباب الذين وصلَّ لهم القول ليتذكروا أن يذروا

(١) في (ط): «حسن معرفته به سبحانه وتعالى، وعلو مشاهدته منه».

ظاهر الإثم شكراً لظاهر النعم، ويذروا باطن الإثم شكراً لباطن النعم. وظاهر النعم عوافى الأجساد ووجود الكفايات من الأموال، وظاهر الإثم أعمال الجوارح من معانى حظوظ النفس. وباطن النعم معافاة القلوب وسلامة العقود، وباطن الإثم أعمال القلوب السيئة، مثل: الإصرار، وسوء الظن، ونيات السوء.

وقال مطرف بن عبد الله: لأن أعافى فأشكر أحب إلى من أن أبتلى فأصبر. لأن مقام العوافى أقرب إلى السلامة، فلذلك اختار حال الشكر على الصبر، لأن الصبر حال أهل البلاء.

وقد رويناه عن الحسن البصري معنى ذلك: الخير الذى لا شر فيه: العافية مع الشكر، والصبر عند المصيبة. فكم من منعم عليه غير شاكر، وكم من مبتلى غير صابر؟! صابر؟!

وقد رويناه عن النبي ﷺ معنى هذا فى قوله: «وعافيتك أحب إلى».

وقال لعللى رضى الله عنه حين سمعه يقول فى مرضه: اللهم إنى أسألك الصبر، قال: «لقد سألت الله تعالى البلاء فسأله العافية».

ومن الشكر الأعمال الصالحة. وبالعامل فسر الله تعالى وفسر رسوله ﷺ الشكر للمنع، فقال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]. وقال رسول الله ﷺ لما عوتب فى اجتهاده وقيامه حتى تورمت قدماه: «أفلا أكون عبداً شكوراً». فأخبر أن المجاهدة وحسن المعاملة شكر المستعمل وجزاء المنعم. وقد قال بعض العلماء: شكر القلب المعرفة بأن النعم من المنعم لا غير. وشكر العمل كلما وهب الله عز وجل لك عملاً أحدث له عملاً ثانياً شكراً منك للعمل الأول. وعلى هذا يتصل الشكر بدوام المعاملة.

وأول الشكر عند العارفين أن لا تعصيه بنعمة من نعمة فتجعلها فى طاعة الهوى. فأما شكر الشاكرين فهو أن تطيعه بكل نعمة فتجعلها فى سبيل المولى. وهذا شكر جملة العبد.

وحقيقة الشكر التقوى، وهو اسم يستوعب جمل العبادة التى أمر الله تعالى بها

عباده فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]. ثم عبر حقيقة عن الشكر بتقواه، وأخبر سبحانه وتعالى أن التقوى هو الشكر، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وفى الشكر مقامان عن مشاهدتين: أعلاهما مقامُ شُكْرٍ، وهو الذى يشكر على المكاره والبلاء والشدائد والأواء، ولا يكون كذلك حتى يشهد ذلك نعمًا توجب عليه الشكر لصدق يقينه وحقيقة زهده. وهذا مقام فى الرضا، وحال من المحبة. وبهذا الوصف ذكر الله تعالى نبيه نوحًا عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، فى التفسير: إنه كان يشكر الله تعالى على كل حال من خير أو شرٍّ، أو نفع أو ضرر. وروينا فى الخبر: «ينادى مناد يوم القيامة: ليقم الحمادون، فيقوم زمرة، فيُنصب لهم لواء، فيدخلون الجنة. قيل: ومن الحمادون؟ قال: الذين يشكرون الله تعالى على كل حال». وفى لفظ آخر: «على السراء والضراء».

وقد قال بعض العلماء فى قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] قال: ظاهرة: العوافى والغنى، وباطنة: البلوى والفقر. فهذه نعم الآخرة، كما قال رسول الله ﷺ: «لا عيش إلا عيش الآخرة».

والمقام الثانى من الشكر: أن ينظر العبد إلى من هو دونه ممن فضلَّ هو عليه فى أمور الدنيا وأحوال الدين، فيعظمَّ نعمة الله تعالى عليه، بسلامة قلبه ودينه وعافيته مما أبتلى الآخرُ به، ويعظمَّ نعمة الدنيا عليه لما آتاه الله تعالى وكفاه فيما أحوج الآخرَ وألجأه إليه، فيشكر على ذلك. ثم ينظر إلى من هو فوقه فى الدين، ممن فضلَّ عليه بعلم الإيمان وبحسن يقين، فيمقت نفسه ويُررى عليها، وينافس فى مثل ما رأى من أحوال من هو فوقه فيرغب فيها. فإذا كان كذلك كان من الشاكرين، ودخل تحت اسم المدوحين.

وقد روينا معنى ذلك فى حديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ نَظَرَ فى

الدنيا إلى مَنْ هو دونه ونظرَ في الدِّينِ إلى مَنْ هو فوقه كتبه اللهُ تعالى صابراً شاكراً. ومن نظر في الدنيا إلى مَنْ هو فوقه ونظر في الدِّينِ إلى مَنْ هو دونه لم يكتبه اللهُ صابراً ولا شاكراً». وقد شرحنا هذا في مقام الرضا فكرهنا إعادته ههنا. وكلُّ وصف يكون العبدُ شاكراً به يكون الشكرُ مقاماً له فيه، فإنَّ كَفَرَ النعمة يلزمه بضده؛ لأنَّ الكُفْرَ ضدَّ الشكر.

ومن كبائر النعم ثلاثٌ، من جهلها أضاعَ الشكرَ عليها، ومعرفتها شكرُ العارفين:

أولها: استتارُ الله تعالى بقدرته وعزته عن الأبصار، ولو ظهر للعباد لكانت معاصيهم كفراً؛ لأنَّهم لم يكونوا ينقصون من المعاصي المكتوبة عليهم جناحَ بَعُوضَةٍ، ولأنَّه تبارك وتعالى كان يظهر بوصف لا يمتنعون معه عن المعاصي، ووراء هذا سرائرُ الغيوب، إلا أنَّهم كانوا يكفرون بالمواجهة لانتهاك حرمة المشاهدة، وأيضاً لما كان لهم في الإيمان به من عظيم الدرجات ما لهم الآن، لأنَّهم حينئذ يؤمنون بالشهادة، وهم اليوم يؤمنون بالغيب، فرُفِعَتْ لهم الدرجات بحسن اليقين، ولذلك مدحهم الله تعالى ووصفهم.

والنعمة الثانية: إخفاء القَدَرِ والآياتِ عن عموم الخلق، لأنها من سرِّ الغيب وصلاحي العبيد واستقامة الدِّنيا والدين. ولو ظهرت لهم لكانت خطاياهم الصغائر كبائر مع معاينة الآيات، ولَمَّا ضُوعِفَتْ لهم على أعمالهم الحسنات كمضاعفتها الآن للإيمان بالغيب.

والنعمة الثالثة: تَغْيِيبُ الآجالِ عنهم، إذ لو علموا بها لما كانوا يزدادون ولا يَتَّقِصُونَ من أعمالهم الخير والشرِّ ذرةً، فكان مع علمهم بالأجل أشدَّ مطالبة لهم، وأوقعَ للحجة عليهم، فأخفى ذلك عنهم معذرةً لهم من حيث لا يعلمون، ولطفاً بهم، ونظراً لهم من حيث لا يحتسبون.

ثم بعد ذلك من لطائف النعم شمولُ سترهِ لهم، وَحَجَبُ بعضهم من بعض، وسترُهم عند العلماء والصالحين، ولولا ذلك لما نظروا إليهم. ثم حَجَبُ الصالحين

والأولياء عنهم، ولو أظهر عليهم آيات يُعرفون بها حتى يكون الجاهلون على يقين من ولاية الله تعالى لهم وقربهم منه؛ لبطل ثواب المحسنين إليهم، ولَحَرُمَ قبولُ إحسانهم عليهم، ولحبطت أعمالُ المسيئين إليهم. ففي حجب ذلك وستره ما عمل العاملون لهم في الخير والشر على الرجاء وحسن الظن بالغيب من وراء حجاب اليقين، وتأخرت عقوبات المؤذين لهم عن المعاجلة، لما سترَ عليهم من عظيم شأنهم عند الله تعالى وجليل قدرهم. ففي ستر هذا نعمٌ عظيمة على الصالحين في نفوسهم؛ من سلامة دينهم وقلة فتنهم، ونعمٌ جليلة على المنتهكين لحرمتهم المصغرين لشعائر الله تعالى من أجلهم إذ كانوا أساؤوا إليهم من وراء حجاب. فهذا هو لطفٌ خفيٌّ من لطف المنعم اللطيف الوهاب.

كما جاء في الخبر: «يقول الله عز وجل: من آذى ولياً من أوليائي فقد بارزني بالمحاربة، ثم أنا الثائر لولائي لا أكلُ نصرته إلى غيري». فيكون مثلُ ذلك مثلاً من آذى نبياً وهو لا يعلم بنبوته قبل أن يخبره أنه رسول الله، وأن الله سبحانه نبأه، فلا يكون وزره وزرٌ من انتهك حرمة نبيٍّ قد أعلمه أنه نبي الله تعالى؛ لعظيم حرمة.

ورؤينا عن جعفر الصادق رضي الله عنه وغيره من السلف في معنى هذه النعم التي أوجبنا الشكر في إخفائها قال: إن الله تعالى خبأ ثلاثاً في ثلاث: رضاه في طاعته، فلا تحقروا منها شيئاً لعل رضاه فيه. وخبأ غضبه في معاصيه، فلا تحقروا منها شيئاً لعل غضبه فيه. وخبأ ولايته في عباده المؤمنين، فلا تحقروا منهم أحداً فلعله ولي الله تعالى^(١).

وللشاكرين طريقان، أحدهما أعلى من الآخر. أولهما: شكر الرّاجين، وهو حسن المعاملة لما أملوه ورجّوه من ظواهر النعم، فعملوا رجاء إتمامها، فكان حالهم المسارعة والمسابقة إلى الأعمال الصالحة، شكرياً لما ابتدأهم به وخصّهم دون سائر خلقه. وأعلاهما: شكر الخائفين، وهو خوف سوء الخاتمة، والإشفاق من درك الشقاء بحكم السابقة، نعوذ بالله تعالى منه. فكان خوفهم دليلاً على اغتباطهم

(١) كان في المطبوعة ثمت اختلاف في ترتيب الفقرات، فأثبت ما في المخطوط.

بموهبة الإيمان، وكان اغتباطهم يدلُّ على عظيم قَدَر الإسلام في قلوبهم ونفيس مكانه عندهم، فعظمت النعمةُ به عليهم، فمعرفةُهم بذلك هو شكرُهم، فصار الخوفُ والإشفاقُ طريقًا لهم في الشكر للرازق.

وقد جعل الله تعالى ذلك نعمةً، وكلُّ نعمة تقتضى شكرًا في قوله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ [المائدة: ٢٣]. قال بعض المفسرين: أنعم الله عليهما بالخوف، وهذا أحد وجهي الكلام. ولو لم يشكر العبدُ مولاه إلا أنه تبارك وتعالى على هذه الأوصاف والأخلاق التي هي صفاته وأخلاقه من نهاية الكرم والجود الذي لا غاية له، ومن غاية التفضل والحلم الذي لا نهاية له. فلما كان تبارك وتعالى بهذه الأخلاق المرجوة، والصفات الحسنى، وجب أن يشكره العبد لأجله تعالى لا لأجل نعمه وأفعاله. وهذا ذكرُ المحيين، إذ لو كان الله تعالى على غير هذه الصفات والأخلاق التي عرفه بها العارفون، فلا بدَّ لهم منه أي شيء كان يصنع العباد، وأي حيلة كانت لهم، فله الحمد كله، وله الشكر كله، كما هو مستحقه وأهله بحمده لنفسه. ولا ينبغي ذلك إلا له سبحانه وتعالى، كما ينبغي لكرم وجهه وعزِّ جلاله، إذ كان لم يزل على ما هو الآن، ولا يزال أبدًا على ما كان من الأوصاف الكاملات، والنعوت التامات، والأسماء الحسنى، والأمثال العلى.

ومعرفةُ هذا هو شكرُ العارفين، ومشاهدته هو مقام المقرِّين. فشكرُ هؤلاء لله تعالى لأجل الله تعالى، ودعاء هؤلاء التحميد والتقديس، وأعمالهم الإجلال والتعظيم للأجل العظيم، وسؤالهم تجلّي الصفات والنصيب من مشاهدة معاني الذات. ووصفُ هذا لا يُوصَفُ، وشرحه بالمعقول لا يُعرف، وهذا داخل في مشاهدة قوله لمن شهد سرَّ الكلام، إذ يقول عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. وعن هذه المشاهدة اغتبط موسى عليه السلام بالربوبية، وأنس بالتقريب، وأنبسط بالتمكين، فقال: لى ما ليس لك. فقال الله تعالى: وما هو؟ فقال: لى مثلك، وليس لك مثل نفسك. فقال عز وجل: صدقت. يعنى: لى أنت على هذه الأوصاف التي هي غاية الطالبين، ولا مزيد عليها للراغبين، وليس

لك كَأَنْتَ، إِذْ لَيْسَ كَمِثْلِكَ شَيْءٌ، وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ.

فَمَنْ غَامَضَ النِّعَمَ الشُّكْرَ عَلَى هَذِهِ الْمَعَانِي مَا زَوَى عَنْكَ وَصَرَفَهُ مِنْ فُضُولِ الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ أَقْلٌ لِلشُّغْلِ وَالْإِهْتِمَامِ، وَأَيْسَرُ لِلْحِسَابِ. ثُمَّ ابْتَلَى بِهِ غَيْرَكَ مِنَ الدُّنْيَا مِمَّا شَغَلَهُ بِهِ عَنْهُ وَقَطَعَهُ دُونَهُ. فَفِي صَرْفِ الدُّنْيَا عَنْكَ وَابْتِلَاءِ غَيْرِكَ بِهَا نِعْمَتَانِ عَلَيْهِمَا شُكْرَانِ. وَكَذَلِكَ إِذَا رَأَيْتَ مَبْتَلَى فِي دِينِهِ بِصِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ، أَوْ مَبْتَلَى بِنَفْسِهِ بِأَخْلَاقِ الْمُتَكَبِّرِينَ، أَوْ مُنْهَمِكًا^(١) فِيمَا عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِ الْفَاسِقِينَ، عَدَدْتَ جَمِيعَ ذَلِكَ نِعْمًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكَ، إِذْ لَمْ يَجْعَلْكَ كَذَلِكَ، لِأَنَّكَ قَدْ كُنْتَ أَنْتَ ذَاكَ لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ، فَتَحَسَّبَ كُلٌّ مَا وَجَّهَ إِلَى غَيْرِكَ مِنَ الشَّرِّ أَوْ صَرَفَهُ عَنْهُ مِنَ الْخَيْرِ نِعْمًا عَلَيْكَ، بِمِثْلِ مَا وَجَّهَ إِلَيْكَ مِنَ الْخَيْرِ وَصَرَفَ عَنْكَ مِنَ الشَّرِّ؛ لِأَنَّ النُّفُوسَ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ فِي الْأَمْرِ بِالسُّوءِ، وَالْمَشِئَةِ وَالْقُدْرَةِ وَاحِدَةٍ، فَقَدْ رَحِمَكَ بِمَا صَرَفَ عَنْكَ مِنَ السُّوءِ، فَذَلِكَ مِنْ فَضْلِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكَ. فَمَعْرِفَتُهُ بِذَلِكَ شُكْرٌ مِنْكَ لِلَّهِ تَعَالَى.

وَأَكْثَرُ عَقُوبَاتِ الْخَلْقِ مِنْ قِلَّةِ الشُّكْرِ عَلَى النِّعَمِ. وَأَصْلُ قِلَّةِ الشُّكْرِ الْجَهْلُ بِالنِّعْمَةِ، وَسَبَبُ الْجَهْلِ بِالنِّعْمَةِ قُصُورُ الْعِلْمِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَطُولُ الْغَفْلَةِ عَنِ الْمُنْعَمِ، وَتَرْكُ التَّفَكُّرِ فِي نِعَمِهِ وَالذِّكْرِ لِآلَاتِهِ وَمَنْنَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وَقَدْ أَمَرَ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الاعراف: ٦٩] قِيلَ: نِعْمَةٌ.

وَقَالَ فِي الْمَفْسَرِ: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٣١]. وَبِمَعْنَاهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. يَعْنِي: عَلَى نِعْمَةِ الْهَدَايَةِ، وَتَوْفِيقِ الطَّاعَةِ.

فَإِذَا جَهِلَ الْعَبْدُ النِّعْمَةَ لَمْ يَعْرِفْهَا، وَإِذَا لَمْ يَعْرِفْهَا لَمْ يَشْكُرْ عَلَيْهَا، وَإِذَا لَمْ يَشْكُرْ عَلَيْهَا انْقَطَعَ مَزِيدُهُ، وَمِنْ انْقِطَاعِ مَزِيدِهِ فَهُوَ فِي نَقْصَانٍ مَا ادَّعَى.

وَأَيْضًا: فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النِّعَمَ لَجْهَلِهِ بِهَا لَمْ يُؤْمِنْ عَلَيْهِ كَفَرَهَا، فَإِنْ كَفَرَهَا

(١) فِي (ط): «أَوْ مِنْهُمَا» وَهُوَ خَطَأٌ ظَاهِرٌ.

أدركه العذاب الشديد للوعيد، إلا أن تداركه نعمة من ربه.

وأصول نعم المرافق للأحراث أربعة؛ أولها: النطفة التي أثمرت^(١) من خزانة الأرحام جميع البهائم والأنام، ثم: الحرث الذي أخرج من خزانة الأرض جميع الثمر، ثم: الماء الذي لنا منه شراب ومنه شجر، ثم: النار التي فيها ضياء ومصالح الأطعمة، وبها لأهل البصائر تذكرة. وهذه النعم هي التي ذكرها المنعم في آخر سورة الواقعة، وأضافها إلى نفسه عز وجل، ولم يجعل فيها شريكاً معه، وفتح للعباد العمّال أبوابها.

ومن أفضل النعم وأجلّها نعمة الإيمان به سبحانه وتعالى، ثم نعمة الرسول ﷺ، ثم نعمة القرآن، ثم أن جعلنا من خير أمة أخرجت للناس. وقبل ذلك وهو أول نعمة عقلناها أن جعلنا موجودين دون سائر المعدومات، ثم جعلنا حيواناً دون سائر الموات، ثم جعلنا بشراً دون سائر الحيوان، ثم جعلنا ذكوراً دون الإناث، ثم صورنا في أحسن تقويم، ثم عوافى القلوب من الزيغ عن السنة ومن الميل إلى دواعي النفس الأمّارة، ثم صحّة الأجسام، ثم كشف الستر، ثم حسن الكفاية لحاجة، ثم صنوف ما أظهر من الأزواج للأقوات، ثم تسخير الصنعة لنا مما بين السماء والأرض؛ فهذه أمهات النعم، فكلّما كثرت هذه المعاني وحسنت كثُر الشكر عليهما لعظيم النعم بها. ﴿وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وكان أبو محمد سهل رحمه الله يقول: خصّ بمعرفة النعم وبمعرفة عظيم حلم الله تعالى وستره الصديقون.

وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين وأحسن الواصفين: ﴿وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]، فتّمت النعمة بوصفیه اللّذين هو لهما أهل من المغفرة والرحمة. ثم قال أيضاً في مثله: ﴿إنّ الإنسان لظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فكان أعظم للنعمة وأوسع في الكرم والمنة على وصفی الإنسان اللّذين هو أهل لهما من الظلم والكفر، فهو سبحانه وتعالى أهل التقوى وأهل

(١) في (ط): «أخرجت».

المغفرة، والعبدُ أهلٌ لما وصَّفه به مولاه عزّ وجل إلى أن يجود عليه بتقديم ما به تولاه. فبنعمته أطاعه العاملون، ومن نعمته جازاهم، وبنعمته عصاه الجاهلون، ومن نعمته ستر وحلم عنهم.

ومن النعم: إظهارُ الجميل وسترُ القبيح، فلا ندري أى النعمتين أعظم: جميل ما أظهر، أو قبيح ما ستر. وقد يمدح الله تعالى الوصفين معاً في الدعاء المأثور: «يا من أظهرَ الجميلَ وسترَ القبيحَ».

ومن النعمة: الصّحة والفراغ، وهما أول نعيم الدنيا، وأصول أعمال الآخرة، وبهما تكون المغابنات، كما قال رسول الله ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصّحَّةُ والفراغُ».

وكان الفضيل بن عياض يقول: عليكم بمداومة الشكر على النعم، فقلَّ نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم. وقال بعض السلف: النعم وحشيةٌ فقيدها بالشكر. وقد روى في خبر: «ما عظمت نعمة الله تعالى على عبدٍ إلا كثرت حوائجُ الناسِ إليه، فمن تهاونَ بهم عرضَ تلك النعمة للزوال».

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، قيل: لا يغيّر نعمه عليهم حتى يغيروها بتضييع الشكر، فيعاقبهم بالتغيير. والوجه الآخر: لا يغير ما بهم من عقوبة حتى يغيروا معاصيهم بالتوبة. فذكر بذلك السبب الأول من حكمه، ثم ذكر السبب الثاني من حكمته، وهو مسبب الأسباب بحكمته ومشيئته.

ويقال: إن تحت كل شعرة من جسم العبد نعمة، وبكل عرق في جسده نعمتان في تسكينه وتحريكه، وفي كل عظم أربع نعم، وبكل مفصل سبع نعم، وفي جسم الإنسان ثلاثمائة وستون مفصلاً، ومثل ذلك من العظام. وفي كل طرفة نعمتان، وبكل نفس نعمتان، وفي كل دقيقة تأتي عليه من عمره نعم لا تحصى، والدقيقة جزء من اثني عشر جزءاً من شعيرة، والشعيرة جزء من اثني عشر جزءاً من ساعة، والأنفاس أربعة وعشرون ألف نفس في اليوم واللييلة.

وفى أخبار موسى عليه السلام: يا ربَّ كيف لا أشكركَ ولكَ فى كلِّ شعرة من جسدَي نعمتان، أن كَينَتَ أصلَها، وأن طَمَنتَ^(١) رأسَها.

وقد رُوينا فى الأثر: «من لم يعرفَ نعمَ الله تعالى عليه إلا فى مَطْعَمه ومَشْرَبه فقد قَلَّ علمُه وحضر عذابُه»، هذا مع سوابغ العوافى والكفايات والوقايات. ويقال: إن فى باطن الجسم من النعم سبعة أضعافِ النعم التى فى ظاهره، وإن فى القلب من النعم أضعافَ ما فى الجسم كَلَّه من النعم. وإن نعم الإيمان بالله تعالى والعلم واليقين أضعافُ نعم الأجسام والقلوب؛ فهذه كُلُّها نِعَمٌ مضاعفة على نِعَمٍ مترادفة لا يحصيها إلا مَنْ أنعمَ بها، ولا يعلمها إلا من خلقها، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المك: ١٤]، سوى نِعَمِ المَطْعَمِ والمَشْرَبِ والملبس والمنكح من دخول ذلك وخروجه، وكثرة تكرّره وتزايدِهِ، بأن أدخل مَهْنَاهُ وأخرج أذَاهُ، وبأن طَبَّبَ مدخله ويسَّرَ مخرجه وبَقِيَ منفعتُهُ، وما أحوال من صورته وغير من صفته للترهيد والذلة والاعتبار والتذكرة؛ وتلك أيضاً نِعَمٌ.

ويُقال: إن الرغيفَ لا يستدير حتى يُعمل فيه ثلاثمائة وستون صنعةً من السَّماء والأرض وما بينهما من الأجسام والأعراض والأفلاك والرياح والليل والنهار وبنى آدم وصنائعهم والبهائم ومعادن الأرض. أولُها: ميكائيل الذى يكيل الماء من الخزائن فيُفرِّغُه على السَّحاب، ثم السَّحاب التى تحملهُ فيرسله، ثم الرياح التى تحمل السَّحاب، والرعد والبرق، والملكان اللذان يَسوقان السَّحاب، وآخرها الحَبَّاز. فإذا استدار رَغِيفًا طلبَهُ سبعةُ آلافِ صانعٍ، كلُّ صانعٍ أصلٌ من أصول الصنائع. فهذه كُلُّها نِعَمٌ فى حُضور رَغِيفٍ، فكيف بما زاد عليه ممّا وراءه.

فعلى العبدِ فى كلِّ نعمةٍ شكرٌ، إن طُوِّبَ بشكرِ نعمةٍ واحدةٍ على حقيقتها هلك إلا أن تغمّده رحمةً من ربه، فتغمّره لتمام النعمة. وروينا «أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسألك تمام النعمة، فقال: هل تدري ما تمام النعمة؟ قال: لا. قال: دخول الجنة».

(١) طَمَنت: سكّنت.

وقيل لبعض الحكماء: ما النعيم؟ قال: الغنى، فإننى رأيت الفقير لا عيش له. قيل: زدنا. قال: العافية، فإننى رأيت السقيم لا عيش له. قيل: زدنا. قال: الأمن، فإننى رأيت الخائف لا عيش له. قيل: زدنا. قال: الشباب، فإننى رأيت الهرم لا عيش له. قيل: زدنا. قال: لا أحد مزيداً.

وبعض ما ذكره هو أحد الوجوه فى قوله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الاحقاف: ٢٠] قيل: الشباب. وقيل: الفراغ. وقيل: الأمن والصحة. وفى قوله تعالى: ﴿وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] قيل: العوافى والغنى. وبمعناه فى قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] قيل: ظاهرة العوافى، وباطنة البلاوى، لأنها سبب نعيم الآخرة ومزيدها، لقوله تعالى: ﴿وَنَقْصِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وقد جاء فى الخبر: «من أصبح معافى فى بدنه، آمناً فى سربه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذاقيرها».

وأنشدت فى معناه لبعض أهل القناعة:

إِذَا الْقُوْتُ تَأْتَى لَكَ وَالصَّحَّةُ وَالْأَمْنُ
وَأَصْبَحْتَ أَخَا حُزْنٍ فَلَا فَارَقَكَ الْحُزْنُ

وأنشدونا لآخر فى نحوه:

كِنْ وَفَلَقَةُ خُبْزٍ وَكُوزُ مَاءٍ وَأَمْنُ
أَلَذُّ مِنْ كُلِّ عَيْشٍ يَحْوِيهِ سَحْبٌ وَسَجْنُ

وحدثونا أنَّ عابداً عبد الله تعالى سبعين عاماً، فأرسل الله تعالى إليه ملكاً يبشّره بدخوله الجنة برحمة الله تعالى، فهجس فى نفسه: بل بعملى، فاطلع الله تعالى على ذلك منه، فأوحى إلى عرق ساكن من عروقه أن تحرّك عليه. قال: فاضطرب لذلك وقلق وانقطعت عبادته، وذهبت أعماله شغلاً منه بنفسه، ثم أوحى الله تعالى إلى العرق أن اسكن فسكن، فرجع العبد إلى عبادته، فأوحى الله

تعالى إليه: إِنَّمَا قِيَمَةُ عِبَادَتِكَ عِرْقٌ وَاحِدٌ سَكَنَ مِنْ عُرْوِكَ، فاعترفَ.

ورويناه معناه عن رسول الله ﷺ بوصف آخر: «إِنَّ رَجُلًا عَبْدَ اللَّهِ سَبْعِينَ عَامًا، قَالَ: يَا مَرْحَمَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ بِرَحْمَتِهِ، فيقول: بَلْ بَعْمَلِي. فيقول الله عزَّ وجلَّ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ، قَالَ: فِيمَكْتُ فِي الْجَنَّةِ سَبْعِينَ عَامًا، يَا مَرْحَمَةُ اللَّهِ تَعَالَى بِهِ أَنْ يُخْرَجَ. ويقال له: قَدْ اسْتَوْفَيْتَ ثَوَابَ عَمَلِكَ. قَالَ: فَيُسْقَطُ فِي يَدَيْهِ وَيَنْدَمُ، فَيَنْظُرُ أَقْوَى شَيْءٍ كَانَ فِي نَفْسِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، فَإِذَا هُوَ الرَّجَاءُ وَحَسَنُ الظَّنِّ، فيقول: يَا رَبِّ اتْرُكْنِي فِي الْجَنَّةِ بِرَحْمَتِكَ لَا بَعْمَلِي. قَالَ: فيقول الله عزَّ وجلَّ: دَعُوا عَبْدِي فِي جَنَّتِي بِرَحْمَتِي».

وَحُدِّثْتُ عَنْ رَجُلٍ شَكَا إِلَى بَعْضِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فَقَرَهُ، وَأَظْهَرَ لَذَلِكَ غَمَّهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: أَيْسَرُكَ أَنْتَ أَعْمَى وَلَكَ عَشْرَةُ آلَافٍ. قَالَ: لَا. قَالَ: فَيْسَرُكَ أَنْتَ أُخْرَسَ وَلَكَ عَشْرَةُ آلَافٍ. قَالَ: لَا. قَالَ: فَيْسَرُكَ أَنْتَ أَقْطَعَ الْيَدَيْنِ وَالرَّجْلَيْنِ وَلَكَ عَشْرَةُ آلَافٍ. قَالَ: لَا. قَالَ: فَيْسَرُكَ أَنْتَ مَجْنُونٌ وَلَكَ عَشْرَةُ آلَافٍ. قَالَ: لَا. قَالَ: أَفَمَا تَسْتَحْيِي أَنْ تَشْكُوَ مَوْلَاكَ وَلَهُ عِنْدَكَ عُرُوضٌ بِخَمْسِينَ أَلْفًا.

وهذا كما قال؛ لِأَنَّ فِي الْإِنْسَانَ قِيَمَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ مِنَ الْجَوَارِحِ وَزِيَادَةً مِنَ الْمَالِ، لِأَنَّهَا دِيَاتُ جَوَارِحِهِ لَوْ قُطِعَتْ.

وَحُدِّثَنِي بَعْضُ الشُّيُوخِ فِي مَعْنَاهُ: أَنَّ بَعْضَ الْقُرَّاءِ الْمُقَرَّبِينَ اشْتَدَّ بِهِ الْفَقْرُ حَتَّى أَحْزَنَهُ وَضَاقَ بِهِ ذَرْعًا. قَالَ: فَرَأَى فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ قَائِلًا يَقُولُ لَهُ: تَوَدُّ أَنَا أَنْسِيْنَاكَ سُورَةَ الْأَنْعَامِ وَأَنْ لَكَ أَلْفُ دِينَارٍ، قَالَ: لَا. قَالَ: فَسُورَةُ هُودٍ، قَالَ: لَا. قَالَ: فَسُورَةُ يُوسُفَ، قَالَ: لَا. قَالَ: فَمَعَكَ قِيَمُ مِائَةِ أَلْفٍ وَأَنْتَ تَشْكُو الْفَقْرَ، فَأَصْبَحَ وَقَدْ سَرَّى عَنْهُ هَمُّهُ.

وهكذا جاء في الخبر: «تَغْنَوُا بِالْقُرْآنِ - أَيْ اسْتَغْنَوْا بِهِ - وَمَنْ لَمْ يَسْتَغْنِ بِآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى فَلَا أَغْنَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنَّ الْقُرْآنَ هُوَ الْغِنَى الَّذِي لَا فَقْرَ مَعَهُ وَلَا غِنَى بَعْدَهُ، وَمَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَظَنَّ أَنَّ أَحَدًا أَغْنَى مِنْهُ فَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى». وفي لفظ آخر: «فقد استخفَّ بما أنزل الله عزَّ وجلَّ». وفي الحديث المشهور: «من لم يتغنَّ بالقرآن فليس مِنَّا». وفي الخبر المجمل: «كفى باليقين غنى» والقرآن هو

حقّ اليقين. وروينا عن بعض السلف: يقول الله عزّ وجلّ: إنّ عبداً أغنيته عن ثلاث فقد أتممت عليه نعمتي: عن سلطانٍ يأتيه، وطبيبٍ يداويه، وعمّا في يد أخيه.

وروينا في مناجاة أيوب عليه السلام: إنّ الله تبارك وتعالى أوحى إليه: ما من عبد لي من الآدميين إلا ومعه ملكان، فإذا شكر على نعمائي قال الملكان: اللهم زدهُ نعمًا على نعمه، فإنّك أهلُ الشكر والحمد. فكن من الشاكرين قريبًا، وزدهم شكرًا، وزدهم من النعماء. وكفى بالشاكرين يا أيوبُ علوُ الرتبة عندى وعند ملائكتي، فأنا أشكرُ شكرهم، وملائكتي تدعو لهم، والبقاعُ تحبهم، والآثار تبكي عليهم. فكن لي يا أيوبُ شاكرًا، ولآلئ ذاكراً، ولا تذكرني حتّى أذكرك، ولا تشكرني حتّى أشكرَ أعمالك، أنا أوفّق أوليائي لصالح الأعمال، وأشكرهم على ما وفقتهم، واقتضيتهم الشكرَ ورضيتُ به مكافأةً، فرضيتُ بالقليل عن الكثير، وتقبلتُ القليلَ وجازيتُ عليه بالجزيل. وشرُّ العبيدِ عندى من لم يشكرني إلا في وقت حاجته، ولم يتضرّع بين يديّ إلا في وقت عقوبته. وذكر الكلام.

وقد جعلَ الله تعالى الشاكرين بوصف: الصالحين، والمقربين، والعالمين؛ وهذه الأوصاف الثلاث من أعالى مقامات الموقنين، فقال عزّ وجلّ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبا: ١٣]. كما قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]. وكما قال في وصف المقربين: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٣ - ١٤]. وكما قال عزّ وجلّ: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الكهف: ٢٢].

وفى حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه، عن النبي ﷺ: «سلوا الله العافية، وما أُعطى عبدٌ أفضلَ من العافية إلا اليقين». ففضلُ العافية على كلِّ عطاء، ورفع اليقين فوق العافية؛ لأنّ بالعافية يتمّ نعيمُ الدنيا، واليقينُ معه وجود نعيم الآخرة؛ فلليقين فضلٌ على العافية كفضل الدوام على الانتقال. والعافية: سلامة الأبدان من الأسقام والعلل. واليقين: سلامة الأديان من الزيغ والأهواء.

فهاتان نعمتان تستوعبان عظيم الشكر من العبد، كما استوعب القلب والجسم جسيم النعم من الملك.

ومن أقوى المعاني في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩] قيل: سالم من الشك والشرك. والسالم: الصحيح المعافى. وبوجود عافية اليقين في القلوب عدم الشك والنفاق، وهى أمراض القلوب. كما قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] قيل: شك ونفاق، وعافية القلب أيضاً من الكبائر، كما قال تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] يعنى الرياء.

ويقال: ما من مصيبة إلا والله تعالى فيها خمس نعم؛ أولها: أنها لم تكن فى الدين، ويقال: كل مصيبة فى غير الدين فهى طريق من الدين. والثانية: أنها لم تكن أكبر منها. والثالثة: أنها كانت مكتوبة عليه لا محالة فقد نفذت واستراح منها. والرابعة: أنها عجلت فى الدنيا ولم تؤجل فى الآخرة فتعظم على مقدار عذاب الآخرة. والخامسة: أن ثوابها خير منها، فإن المصيبة إذا كانت فى أمر الدنيا فإنها طريق إلى الآخرة.

وعندنا فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] قيل: ظلوم بالتسخط، كفار بالمعاصى وبالنعم.

وحدث أن العباس رضى الله عنه لما توفى قعد ابنه عبد الله رضى الله للتعزية، فدخل الناس أفواجا يعزونه، فكان فيمن دخل أعرابى فأنشده:

اصْبِرْ نَكُنْ بِكَ صَابِرِينَ، فَإِنَّمَا صَبْرُ الرَّعِيَةِ بَعْدَ صَبْرِ الرَّاسِ
خَيْرٌ مِنَ الْعَبَّاسِ أَجْرُكَ بَعْدَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ مِنْكَ لِلْعَبَّاسِ

فقال ابن عباس: ما عزانى أحد تعزية الأعرابى، واستحسن ذلك.

وفى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦] قيل: هو الذى يشكو المصائب، وينسى النعم، ولو علم أن مع كل مصيبة عشر نعم بحذائها وزيادة،

قلَّتْ شكواه وبدَّلَهَا شكرًا.

ثم إنَّ المصائب لا تخلو من ثلاثة أقسام، كلّها نعم من الله تعالى: إمّا أن تكون درجة، وهذا للمقربين والمحسين. وإمّا أن تكون كفّارة، وهذا لخصوص أصحاب اليمين ولالأبرار. أو تكون عُقوبةً، وهذا للكافة من المسلمين. فتعجيلُ العقوبةِ فى الدنيا رحمة ونعمة، ومعرفةُ هذه النعم طريقُ الشاكرين.

ومن أفضل النعم عند العلماء نعمةُ الإيمان، ثم دوامه، لأنّ دوامَ الشىءِ نعمة ثانية، لأنّه بحكم ثانٍ عن مشيئة ثانية، لأنّ الإرادةَ منه تعالى بحكم الإظهار لا تُوجب دوامَ المظهر، فكأن الشىء يظهر بإرادته ثم يتلاشى كأن لم يكن، إلا أن يحكم سبحانه وتعالى حكمًا ثانيًا بنعمة ثانية بالثبات والدوام، إذ لو لم يرد دوام السموات والأرض ما داموا ولو لم يرد دوام ثبات الجبال ما ثبتت، كذلك لو لم يرد دوام الإيمان وثباته فى القلوب بعد الكتُب، لظهر بالكتب ثم انمحى ورجع القلب إلى الكفر، لكنّه أنعم نعمًا لا تُحصى بدوامه وثباته فى القلب. ومنه قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ [الرعد: ٣٩]، أى: يمحو ما لا يشاء ثبوته ويثبت ما يجب.

ولا يستطيع العبدُ شكرَ نعمةِ الإيمان ومعرفةِ بداية التفضّل به وقديم الإحسان من غير قدّم من العبد ولا استحقاق، بل بفضل الله وبرحمته. وهذا أحدُ الوجوه فى قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ [عبس: ٢٣]، أى: لا يقضى العبدُ أبدًا شكرَ ما أمره الله تعالى من نعمة الإسلام، التى هى أصولُ النعم فى الدنيا والآخرة، وهى سببُ النجاة من النار، ومفتاحُ دخول الجنة، ولا أوّل للعبد فيها ولا شفيع كان له إلى الله تعالى بها، ثم دوام ذلك وثباته مع الطّرف والأنفاس بمددٍ منه نعمٌ مترادفة.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿كُتِبَ فى قُلُوبِهِمُ الإِيمانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، أى: قوّاهم بمددٍ يثبتّه ويقوّيه، وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفى الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. ومن ذلك

قوله ﷺ: «يا مُقَلِّبَ القلوب - أى عن الإيمان، ومقلبها فى الشك والشك - ثبَّتْ قلبى على طاعتك». ومعرفة هذه النعمة اللطيفة العظيمة تستخرج من القلب خوف سوء الخاتمة، لمشاهدة سرعة تقلب القلب بالمشيئة، وذلك مزيد شكرها، وهذا داخل فى معنى قوله ﷺ: «أَحَبُّوا اللَّهَ تَعَالَى لِمَا أَسَدَى إِلَيْكُمْ مِنْ نِعَمِهِ»، ولما يَغْذُوكُمْ بِهِ أَيْضًا.

فمن أفضل ما غَدَّانا به نعمة الإيمان له والمعرفة به، وغذاؤه لنا منه دوام ذلك، ومددُهُ بروح منه، وتثبيتنا عليه فى تصريف الأحوال، إذ هو أصلُ الأعمال التى هى مكانُ النَّوَالِ. فلو قَلَّبَ قلوبنا عن التوحيد كما يُقَلِّبُ جوارحنا فى الذنوب، ولو قَلَّبَ قلوبنا فى الشك والضلال كما يُقَلِّبُ نيَّاتنا فى الأعمال، أى شَيْءٍ كُنَّا نَصْنَعُ؟ وعلى أى شَيْءٍ كُنَّا نَعُولُ؟ وبأى شَيْءٍ كُنَّا نَطْمِئِنُّ ونَرْجُو؟ فهذا من كبائر النعم، ومعرفة هو من شكر نعمة الإيمان، والجهلُ بهذا غفلة عن نعمة الإيمان يُوجب العقوبة. وادعاء الإيمان أنه عن كَسْبٍ معقول، أو استطاعة بقوة وحول، هو كفر نعمة الإيمان، وأخافُ على مَنْ تَوَهَّمَ ذلك أن يُسَلَبَ الإيمان، لأنه بدَّلَ شكرَ نعمة الله بِفَضْلِهِ كُفْرًا.

وقد جعل الله تعالى الخيرات من كسب الإيمان، وليس لنا فيما يُكَسِبُنَا الخيرات مكانٌ، بل الله تعالى مَنْ عَلَيْنَا أن هَدَانَا للإيمان، وجعله سببًا يَكَسِبُ لنا بإحسانه الإحسان، كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] قيل: التوبة. وقيل: الصَّالِحَات كُلُّهَا كَسْبُ الإيمان.

ومن النعم بعد الإيمان توفيقنا للحسنى، وتيسيرنا لليسرى. ثم صرفُ الكفرِ وأخلاقِ الكفرةِ وأعمالِهِمْ. ثم تزيينُ الإيمان وتحييه إلينا، وتكريهُ الفسوقِ والعصيان، فضلًا منه ونعمةً، إلى ما لا يُحصى من نعمه. فشكرُ ذلك لا يقام به إلا بما وَهَبَ أَيْضًا وأنعمَ به من المعرفة بذلك، والمعونة عليه.

والحياءُ من تتابع النعم هو من الشكر. والمعرفة بالتقصير عن الشكر شكرٌ. والاعتذارُ من قلة الشكر شكر. والمعرفة بعظيم الحِلْمِ وكثيفِ السَّترِ شكرٌ.

والاعتراف بما أعطى من حسن الثناء وجميل النّشر أنّه من النّعم، من غير استحقاق من العبد، بل هو مضاف إلى نعمه، هو من الشكر. وحسن التواضع بالنّعم والتذلّل فيها شكرٌ. وشكرُ الخلق بالدعاء لهم، وحسن الثناء عليهم؛ لأنهم ظروف العطاء، وأسباب المعطى، تخلّقاً بأخلاق المولى جلّ وعلا، هو من الشكر. وقلة الاعتراض، وحسن الأدب بين يدي المنعم شكر. وتلقّى النّعم بحسن القبول، وتكبير صغيرها وتعظيم حقيرها، من الشكر؛ لأن طائفةً هلكت باستصغار الأشياء، واستحقار وجود المنافع بها جهلاً بحكمة الله تعالى، واستصغاراً لنعمه، فكان ذلك كفرًا بالنّعم.

ومن الناس من يقول: إنّ الصبرَ أفضلُ من الشكر، وليس يمكن التفضيل بينهما عند أهل التحصيل؛ من قبل أن الشكرَ مقامٌ لجملة من الموقنين، والترجيح بين جماعة على جماعة لا يصح؛ من قبل تفاوتهم في اليقين في المشاهدات؛ لأن بعض الصّابرين أفضلُ من بعض الشاكرين، لفضل معرفته وحسن صبره، وخصوص الشاكرين أفضلُ من عموم الصّابرين؛ لحسن يقينه وعلوّ مشاهدته.

ولكن تفضيل ذلك من طريق الأحوال والمقامات أنا نقول، والله أعلم: إنّ الصّبرَ عن النعيم أفضلُ، لأنّ فيه الزهد والخوف؛ وهما أعلى المقامات. وأنّ الشكرَ على المكاره أفضلُ؛ لأنّ فيه البلاء والرّضا. وأنّ الصّبرَ على الشدائد والضراء أفضلُ من الشكر على النّعم والسرّاء، من قبل أنه أشقُّ على النفس. وأنّ الصّبرَ مع حال الغنى والمقدرة أن يعصى بذلك أفضلُ من الشكر على النّعم، من قبل أن الصّبرَ عن المعاصي بالنّعم أفضلُ من الطّاعة بها لمن جاهد نفسه فيها، فإذا شكر على ما يصبر عليه فقد صار البلاءُ عنده نعمةً، وهذا أفضلُ لأنها مشاهدُ المقرّبين. وإذا صبرَ عما يشكر عليه من النّعم كان أفضلُ؛ لأنها حال الزّاهدين^(١).

وقد قال رسول الله ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء أشدُّ الناسِ بلاءً، ثم الأمثل فالأمثل». يعنى الأقرب شبهًا بنا فالأقرب. فرفع أهل البلاء إليه ووصف نفسه به، وجعلهم الأمثل فالأمثل منه. فمن كان برسول الله ﷺ أمثل كان هو الأفضل.

(١) في (ط): «حال المجاهدة» وأثبت ما في (خ).

وقد كان النبي ﷺ شاكراً على شدة بلائه، كذلك الشاكر من الصّابرين يكون أفضل لشكره على البلاء، إذ هو الأمثل والأقرب إلى وصف الأنبياء^(١).

وكلُّ مقام من مقامات المقربين يحتاج إلى صبر وشكر، وأحدهما لا يتم إلا بالآخر، لأن الصبر يحتاج إلى شكر عليه ليكمل، والشكر يحتاج إلى صبر عليه ليستوجب المزيد. وقد قرن الله تعالى بينهما ووصف المؤمنين بهما، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: ٣١]، فذكر الشكر بلفظ المبالغة في الوصف على وزن «فَعُول»، كما ذكر الصبر على وزن «فَعَال»، وهو وصف للمبالغة أيضاً، ولذلك اقتسم الإيمان نصفين، كما جاء في الخبر: «الصبر نصف الإيمان، والشكر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله». لأنّ اليقين أصلهما، وهما ثمراته عنه يُوجدان، لأن الشاكر أيقن بالنعمة أنّها من المنعم، وأيقن بإنجاز ما وعده من المزيد فشكر. كما أيقن الصّابر بمسّه بالبلاء، لأنه هو المبتلى، وأيقن بثواب المبلى وحسن ثنائه على الصابرين فصبر^(٢)؛ فهما حالا الموقن، إذ لا يخلو في أدنى وقت من أحد اثنين: بليّة، وتحية. إذ في كلّ شيء له آية؛ فحالُه في البليّة الصبر، وحالُه في التحية الشكر، والله يحبّ الصابرين، ويحبّ الشاكرين.

وهذا آخر شرح مقام الشكر، والحمد لله ربّ العالمين.

(١) في (ط): «إذ هو الأقرب والأمثل بالأنبياء» وأثبت ما في (خ).

(٢) في (خ): «لأنه هو المبلى، فأيقن بثواب الصابرين، وحسن ثواب المبتلى» وهي مختصرة في

(ك).

شرح مقام الرجاء، ووصف الراجين وهو المقام الرابع من مقامات اليقين

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الشورى: ١٩]. وقال: جلّت قدرته: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]. وقال تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. وروينا في قراءة النبي ﷺ: «ولا يُبَالِي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ».

وفى الأخبار المشهورة: «فقبض قبضة، فقال: هؤلاء فى الجنة ولا أبالى». المعنى، والله أعلم: أن رحمتى وسعت كل شىء، فليس يضيق هؤلاء عنها، ولا أبالى بدخولهم فيها، ويكون هؤلاء أيضاً فى الجنة، ولا أبالى بأعمالهم السيئة كلها.

وقال سبحانه وتعالى فى وصف المتقين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]. وقال عز وجل فى وصف المتوكلين: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]. وقال تعالى مخبراً عن الملائكة الحاقين حول عرشه: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥].

وأخبر عز وجل أن النار أعدها لأعدائه وأنه خوف بها أوليائه، فقال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ [الزمر: ١٦]. ومثله قوله عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]. وقال: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ

وَتَوَلَّى ﴿[الليل: ١٤ - ١٦] . وقال تعالى فى عفوه عن الظالمين: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦] .

ورؤينا أنّ النبى ﷺ لم يزل يسأل فى أمته، حتى قيل له: «أما ترضى وقد أنزلتُ عليك هذه الآية: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾؟» .

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥] قال: «لا يرضى محمد ﷺ أن يدخل واحدٌ من أمته النار» .

وكان أبو جعفر محمد بن على رضى الله عنه يقول: أنتم أهل العراق تقولون: أرجى آية فى كتاب الله تعالى قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣] الآية . ونحن أهل البيت نقول: أرجى آية فى كتاب الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ ، وعده ربه عزّ وجلّ أن يرضيه فى أمته .

ورؤينا فى حديث أبى بُرْدَةَ عن أبيه عن أبى موسى: «أمّتى أمةٌ مرحومةٌ لا عذابٌ عليها فى الآخرة، جعل عقابها فى الدنيا الزلازل والفتن، فإذا كان يوم القيامة دُفع إلى كلّ رجلٍ من أمّتى رجلٌ من أهل الكتاب، فيقال: هذا فداؤك من النار» . وروينا فى لفظ آخر: «يأتى كلّ رجلٍ من هذه الأمة بيهودى أو نصرانى إلى جهنم، فيقول: هذا فداؤى من النار، فيلقى فيها» . وفى الخبر: «إنّ الحمى من فيح جهنم، وهى حظّ المؤمنين من النار» .

ورؤينا فى تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [التحريم: ٨]: إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى نبيه ﷺ: «تريد أن أجعلَ حسابَ أمّتك إليك؟ فقال: لا يا ربّ، أنت خيرٌ لهم منّى . قال: إذا لا نخزيك فيهم» .

وقال سُفيان الثورى رضى الله عنه: ما أحبُّ أن يُجعلَ حسابى إلى أبوى؛ لأنّى أعلمُ أنّ الله تبارك وتعالى أرحمُ بى منهما .

ورؤينا فى خبر سلّمة بن وردان عن أنس بن مالك، أنّ رسول الله ﷺ سأل

رَبِّهِ تَعَالَى فِي ذُنُوبِ أُمَّتِهِ فَقَالَ: «يَا رَبِّ اجْعَلْ حِسَابَهُمْ إِلَىَّ، لئَلَّا يَطَّلَعَ عَلَى مَسَاوِيهِمْ غَيْرِي، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ: هُمْ أُمَّتُكَ وَهُمْ عِبَادِي، وَأَنَا أَرْحَمُ بِهِمْ مِنْكَ، لَا أَجْعَلْ حِسَابَهُمْ إِلَى غَيْرِي، لئَلَّا يَنْظُرَ إِلَى مَسَاوِيهِمْ أَنْتَ وَلَا غَيْرُكَ».

وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «حَيَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ، وَمَوْتِي خَيْرٌ لَكُمْ. أَمَّا حَيَاتِي فَأِنِّي أَبَيِّنُ لَكُمْ السُّنَنَ، وَأُشَرِّعُ الشَّرَائِعَ. وَأَمَّا مَوْتِي فَأَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَيَّ، فَمَا رَأَيْتُ مِنْهَا حَسَنًا حَمَدْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَا رَأَيْتُ مِنْهَا سَيِّئًا اسْتَغْفَرْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَكُمْ».

وَرَوَيْنَا فِي الْأَثَرِ: «إِذَا تَابَ الْعَبْدُ مِنْ ذُنُوبِهِ أَنْسَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَلَائِكَتَهُ وَبِقَاعِ الْأَرْضِ مَعَاصِيَهُ، وَبَدَّلَهَا حَسَنَاتٍ، حَتَّى يَرِدَ الْقِيَامَةَ وَلَيْسَ شَيْءٌ يَشْهَدُ عَلَيْهِ». وَكَذَلِكَ يَقَالُ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا عَصَاهُ سَتَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ أَبْصَارِ الْمَلَائِكَةِ، كَيْلَا تَرَاهُ فَتَشْهَدُ عَلَيْهِ.

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ: «يَا كَرِيمَ الْعَفْوِ. فَقَالَ لَهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: تَدْرِي مَا تَفْسِيرُ يَا كَرِيمَ الْعَفْوِ؟ هُوَ أَنَّهُ عَفَا عَنِ السَّيِّئَاتِ بِرَحْمَتِهِ، ثُمَّ بَدَّلَهَا حَسَنَاتٍ بِكَرَمِهِ».

وَسَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ تَمَامَ النِّعْمَةِ. فَقَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا تَمَامُ النِّعْمَةِ، قَالَ: لَا. قَالَ: دُخُولُ الْجَنَّةِ».

وَقَدْ أَخْبَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ قَدْ أَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْنَا بِرِضَاهِ الْإِسْلَامِ لَنَا؛ فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. وَقَدْ اشْتَرَكْنَا فِي ذَلِكَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَنَحْنُ نَرْجُو الْمَغْفِرَةَ لَذُنُوبِنَا بِفَضْلِهِ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ﴾ [الفتح: ٢].

وَفِي خَبَرٍ عَلَى رِضَى اللَّهِ عَنْهُ: «مَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فَسَتَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، فَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَكْرَمُ مَنْ أَنْ يَكْشِفَ سِتْرَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَمَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعُوقِبَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، فَاللَّهُ تَعَالَى أَعْدَلُ مَنْ أَنْ يَتْنِي عِقُوبَتَهُ عَلَى عَبْدِهِ فِي الْآخِرَةِ». وَفِي

لفظ آخر: «لا يُذنب عبدٌ في الدنيا فيستره الله تعالى عليه إلا غفره له في الآخرة».

وعن بعض السلف: كلُّ عاصٍ فإنّه يعصى تحت كنف الرحمن. والكنف من الإنسان: حضنه ما بين يديه وصدره. قال: فمن ألقى عليه كنفه ستر عورته، ومن رفع عنه كنفه افتضح. ويقال: إنَّ من فُضح في الدنيا بذنب فهو كفارته ولا يُفصح به في الآخرة. وفي الخبر: «إذا أذنب العبدُ فاستغفر الله، يقول الله سبحانه وتعالى للملائكة: انظروا إلى عبدى أذنب ذنباً؛ فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، أشهدكم أنى قد غفرت له».

وحدثت عن محمد بن مضعب قال: كتب إلى أسود بن سالم بخطه: إنَّ العبدَ إذا كان مسرفاً على نفسه، يرفع يديه يدعو يقول: يا ربّ، فإذا قال: يا ربّ، حجبت الملائكة صوته. فإذا قال الثانية: يا ربّ، حجبت الملائكة صوته. فإذا قال الثالثة: يا ربّ. حجبت الملائكة صوته. فإذا قال الرابعة، يقول الله تعالى: حتّى متى تحجبوا صوتَ عبدى عنى. قد علم عبدى أنّه ليس له ربٌّ يغفر الذنوب غيرى، أشهدكم أنى قد غفرت له.

وفي الحديث: «إذا أذنب العبدُ حتّى تبلغ ذنوبه عَنان السماء غفرتها له ما استغفرنى ورجانى». وفي حديث آخر: «لو لَقِيتُ عبدى بقُرَاب الأرضِ ذُنُوباً لَقِيتُهُ بِقُرَابِهَا مغفرة ما لم يشرك بى شيئاً». وفي الخبر: «إنَّ المَلَكَ ليرفعُ القلمَ عن العبدِ إذا أذنب ستَّ ساعات، فإن تاب واستغفر لم يكتبه عليه، وإلا كتبها سيئة». وفي لفظ آخر: «إذا كَتَبَهَا عليه وعَمِلَ حسنة قال لصاحب الشمال وهو أميرٌ عليه: ألقِ هذه السيئة حتّى ألقى من حسناته واحدة من تضعيف العشرة، وأرفع تسع حسنات، فيلقى عنه هذه السيئة».

ويقال: إنَّ الله تعالى جعل فى قلب صاحب اليمين من الرحمة للعبد أضعافَ ما جعل فى قلب صاحب الشمال، مع أنه أمره عليه، فإذا عمل العبد حسنة فَرِحَ بها مَلَكُ اليمين - ويقال: فَرِحَ بها الملائكة - فَتُكْتَبُ للعبدِ بِفَرَحِهِمُ الحسناتُ. ورؤينا فى حديث أنس بن مالك الطويل: «إذا أذنب العبد ذنباً كُتِبَ عليه،

فقال الأعرابي: فإن تاب. قال: مُحى من صحيفته. قال: فإن عاد. قال رسول الله ﷺ: يُكتب عليه. قال الأعرابي: فإن تاب. قال: مُحى من صحيفته. قال: إلى متى يا رسول الله؟ قال: إلى أن يستغفر ويتوب إلى الله تعالى، وإن الله لا يملّ من المغفرة حتى يملّ العبدُ من الاستغفار. فإذا همّ العبدُ بحسنة كتبها صاحب اليمين حسنة قبل أن يعملها، فإذا عملها كتبها عشر حسنات، ثم ضاعفها الله عزّ وجلّ إلى سبعمائة ضعف. وإذا همّ بخطيئة لم تُكتب عليه، فإن عملها كُتبت خطيئة واحدة، ووراءها حسنُ عفو الله تعالى.

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله، إنّي لا أصوم إلا الشهر لا أزيد عليه، ولا أصلي إلا الخمس لا أزيد عليهنّ، وليس لله تبارك وتعالى في مالى صدقة ولا حجٌّ، ولا أ تطوّع، أين أنا إذا مت؟ فقال النبي ﷺ: فى الجنة. قال: يا رسول الله، معك؟ فتبسم رسول الله ﷺ وقال: نعم معى، إن حفظت قلبك من اثنين: الغلّ والحسد، ولسانك من اثنين: الغيبة والكذب، وعينك من اثنين: النظر إلى ما حرّم الله تعالى وأن تردى بهما مسلماً، دخلت معى الجنة على راحتى هاتين».

وروي فى الخبر الطويل عن أنس رضى الله عنه: «أن الأعرابي قال: يا رسول الله، من يلى حساب الخلق؟ قال: الله عزّ وجلّ. قال: هو بنفسه؟ قال: نعم. قال: فتبسم الأعرابي. فقال النبي ﷺ: ممّ ضحكت يا أعرابي؟ فقال: إنّ الكريم إذا قدر عفا، وإذا حاسب سامح، فقال النبي ﷺ: صدق، ألا ولا كريم أكرم من الله عزّ وجلّ؛ هو أكرم الأكرمين. ثم قال ﷺ: فقه الأعرابي».

وفيه أيضاً: «إنّ الله تبارك وتعالى شرف الكعبة وعظمها، ولو أنّ عبداً هدمها حجراً حجراً ثم أحرقها ما بلغ جرم من استخفّ بولى من أولياء الله تعالى. فقال الأعرابي: من أولياء الله؟ فقال: المؤمنون كلّهم أولياء الله تعالى، أمّا سمعت الله تعالى يقول: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾»

[البقرة: ٢٥٧؟]

وفى الخبر المفرد عن النبي ﷺ: «المؤمن أفضل من الكعبة، والمؤمن طيب

طاهر، والمؤمن أكرم على الله تعالى من الملائكة».

وفى الخبر المشهور، عن عبد الله بن عمرو وأبى هريرة رضى الله عنهما، وكعب الأحبار «أنه ﷺ نظر إلى الكعبة فقال: ما أشرفك وما أعظمك. وللمؤمن أعظم حرمة عند الله منك». وقد أمر الله سبحانه وتعالى أنبياءه بتطهير بيته لأوليائه إجلالاً لهم، فشرّف البيت بهم. وفى الخبر عن الله تعالى: «مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمَحَارِبَةِ، وَأَنَا الثَّائِرُ لَوْلِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

وفى أخبار يعقوب عليه السلام: أن الله تعالى أوحى إليه: تَدْرِي لِمَ فَرَّقْتُ بَيْنَكَ وَيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذِهِ الْمُدَّة؟ قَالَ: لَا. قَالَ: لِقَوْلِكَ لِإِخْوَتِهِ: أَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ، لِمَ خِفْتَ الذِّئْبَ عَلَيْهِ وَلَمْ تَرْجُنِي لَهُ؟ وَلِمَ نَظَرْتَ إِلَى غَفْلَةِ إِخْوَتِهِ وَلَمْ تَنْظُرْ إِلَى حِفْظِي لَهُ؟ وَمِنْ سَبَقُ عَنَائَتِي بِكَ أَنِّي جَعَلْتُ نَفْسِي عِنْدَكَ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، فَرَجَوْتَنِي، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكُنْتُ أَجْعَلُ نَفْسِي عِنْدَكَ أَبْخَلَ الْبَاخِلِينَ.

فالرجاء هو اسم لقوة الطمع فى الشيء، بمنزلة الخوف اسم لقوة الحذر من الشيء. ولذلك أقام الله تعالى الطمع مقام الرجاء فى التسمية، وأقام الحذر مقام الخوف، فقال علت كلمته: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]، وقال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]، وهو وصف من أوصاف المؤمنين، وخلق من أخلاق الإيمان لا يصح إلا به، كما لا يصح الإيمان إلا بالخوف. فالرجاء بمنزلة أحد جناحي الطير لا يطير إلا بجناحيه، كذلك لا يؤمن من لا يرجو من آمن به ويخافه، وهو أيضاً مقام من حسن الظن بالله تعالى، وجميل التأمل له.

فلذلك أوصى رسول الله ﷺ فقال: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ حَسَنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى»؛ لأنه قال عن الله تعالى: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيُظَنَّ بِي مَا شَاءَ». وكان ابن مسعود رضى الله عنه يحلف بالله تعالى: «مَا أَحْسَنَ عَبْدٌ بِاللَّهِ تَعَالَى ظَنَّهُ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ»، لأن الخير كله بيده. أى فإذا أعطاه حسن

الظن بالله تعالى فقد أعطاه ما يظنه، لأن الذى حسن ظنه به هو الذى أراد أن يحققه له.

ورؤينا عن يوسف بن أسباط قال: سمعتُ سفيانَ الثوريَ رضى الله عنه يقول فى قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، قال: أى أحسنوا بالله تعالى الظن. وكذلك دخل رسولُ الله ﷺ على الرجل وهو فى سياق الموت، فقال: «كيف تجدك؟ فقال: أجدنى أخاف ذنوبى، وأرجو رحمة ربى. فقال ﷺ: ما اجتماعا فى قلب عبدٍ فى هذا الموطن إلا أعطاه الله تعالى ما رجا، وأمنه مما يخاف».

ولذلك قال على كرم الله وجهه للرجل الذى أطار الخوفُ عقله حتى أخرجه إلى القنوط، فقال له: يا هذا إياسك من رحمة الله تعالى أعظم من ذنبك. صدق رضى الله عنه، لأن الإياسَ من رَوْحِ الله تعالى الذى يستريحُ إليه المكروبُ من الذنوب، والقنوطَ من رحمة الله تعالى التى يرجوها المبتلى بالذنوب، أعظم من ذنوبه، وهو أشد من جميع ذنوبه، لأنه قطع بهواه على صفات الله تعالى المرجوة، وحكم على كرم الله بصفته المذمومة، فكان ذلك من أكبر الكبائر، وإن كانت ذنوبه كبائر. وهكذا جاء فى التفسير: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] قال: هو العبدُ يذنب الكبائر فيلقى بيده ولا يتوب، ويقول: قد هلكت لا ينفعنى عمل، فنهوا عن ذلك.

إلا أن الرجاء مقامٌ جليل وحالٌ شريف نبيل لا يصلح إلا للكرماء من أهل العلم والحياء. وهو حال يحول عليهم بعد مقام الخوف، يُروِّحون به من الكرب، ويستريحون إليه من مقارفة الذنب. ومن لم يعرف الخوف لم يعرف الرجاء، ومن لم يقيم فى مقام الخوف لم يُرفَع إلى مقامات أهل الرجاء على صحة وصفاء.

ورجاء كل عبدٍ من حقيقة^(١) خوفه ومكاشفته عن أخلاقٍ مرجوةٍ من معنى ما كان كُوشِفَ به من صفاتٍ مخوفة؛ فإن كان أُقيم مقام المخوفات من المخلوقات

(١) فى (ط): «من حيث».

مثل: الذنوب؛ والعيوب؛ والأسباب، رُفِعَ من حيث تلك المقامات إلى مقامات الرّجاء؛ بتحقيق الوعد، وغفران الذنب، وتشويق الجنان وما فيها من الأوصاف الحسان؛ وهذه مَوَاجِهَاتُ أصحابِ اليمين. وإن كان أُقِيمَ مقامَ مَخَافِ الصفات عن مشاهدة معاني الذات، مثل: سابق العلم، وسوء الخاتمة، وخفى المكر، وباطن الاستدراج، وبطش القدرة، وحكم الكبر والجبروت، رُفِعَ من حيث هذه المقامات إلى مقام المحبة والرضا، فَرَجَا من معاني الأخلاق وأسماء الكرم والإحسان والفضل والعطف واللطف والامتنان.

وليس يصحّ أن نخبر بكل ما نعلم من شهادة أهل الرجاء في مقامات الرجاء، من قبل أنّه لا يصلح لعموم المؤمنين، وهو يُفْسِدُ من لم يُرْزَقْه أشدّ الفساد، فليس يصلحُ إلا لخصوصه، ولا يُجَدُّ^(١) به، ولا يستجيبُ له، ولا يُسْتَخْرَجُ إلا من المحيّن، ولا محبة إلا بعد نصح القلب من الخوف. وأكثرُ النفوس لا يصلح إلا على الخوف، كعبيد السوء لا يستقيمون إلا بالسّوط والعصا، ثم يُواجهون بالسّيف صلّتا.

ومن علامة صحة الرجاء في العبد كونُ الخوفِ باطنًا في رجائه، لأنّه لما تحقق برّ رجاء شيءٍ خافَ قوّته لعظم المرجوِّ في قلبه، وشدّة اغتباطه به، فهو لا ينفكّ في حال رجائه من خوف قوّت الرجاء. والرجاء هو ترويحَاتُ الخائفين، ولذلك سمّت العربُ الرّجاءَ خوفًا، لأنّهما وصفان لا ينفكّ أحدهما عن الآخر. ومن مذهبهم: أنّ الشيء إذا كان لازماً لشيءٍ، أو وصفًا له، أو سببًا منه، أن يُعبروا عنه به، فقالوا: «ما لك لا ترجو كذا»، وهم يريدون: ما لك لا تخاف؟ وعلى هذه اللغة جاء قولُ الله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، أجمعوا على تفسيره: ما لكم لا تخافون لله عظمة؟ وهو أيضًا أحدُ وجهي تفسيرِ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ١١٠]، أى: يخاف من لقائه.

ومثّلُ الخوفِ من الرجاء مثلُ اليومِ من الليلة، لما لم ينفكّ أحدهما عن الآخر

(٢) لا يُجَدُّ وَيُجَدُّ: أى يجتهد في الأمر.

جاز أن يُعبر عن المدة بأحدهما، فيقال: ثلاثة أيام، وثلاث ليال. ومنه قول الله تعالى مخبراً عن قصة واحدة، فقال عز وجل: ﴿إِنَّكَ أَلَّا تَكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠]، ثم قال تعالى: ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١]. فلما لم يكن اليوم ينفك عن ليلته، والليلة لا تنفك عن يومها، أخبر عن أحدهما بالآخر؛ لأن أحدهما [متصلٌ بصاحبه، فصارا كشيء واحد، كيف! وأن الليل والنهار أحدهما] ^(١) لبسة الآخر ^(٢)، مندرج فيه، ولا يظهر إلا أحدهما بحكمة الله تعالى وقدرته، لتفاوت أحكامه فيهما، وافتراق إنعامه بهما، فإذا ظهر النهار اندرج الليل فيه بقدرته تعالى، وإذا ظهر الليل استتر النهار بحكمة الله تعالى، وهو حقيقة إيلاجه أحدهما في الآخر، وتحقيق تكويره أحدهما على صاحبه. فكذلك حقيقة الرجاء والخوف في معاني الملكوت، إذا ظهر الخوف كان العبد خائفاً، وظهرت عليه أحكام الخوف عن مشاهدة التجلّي بوصف مخوف، فسُمّي العبد خائفاً لغلبته عليه، وبطن الرجاء في خوفه، فإذا ظهر الرجاء كان العبد راجياً، وظهرت منه أحكام الرجاء عن مشاهدة تجلّي الربوبية بوصف مرجو، فوصف العبد به لأنه هو الأغلب عليه، وبطن الخوف في رجائه؛ لأنهما وصفان للإيمان كالجناحين للطير.

فالمؤمن بين الخوف والرجاء كالطائر بين جناحيه، وكلسان الميزان بين كفتيه. ومنه قول مطرّف: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا. فهذا أصل في معرفة حقيقة الرجاء وصدق الطمع في المرجو.

فللمؤمنين في اعتدال الخوف والرجاء مقامان؛ أعلاهما: مقام المقرّبين، وهو ما حال عليهم من مقام مشاهدة الصفات المخوفة والأخلاق المرجوة. والثاني: مقام أصحاب اليمين، وهو ما عرفوه من بدائع الأحكام وتفاوت الأقسام. من ذلك أنه أنعم سبحانه وتعالى على الخلق بفضله عن كرمه اختياراً لا إجباراً، فلما أعلمهم ذلك رجوا تمام النعمة من حيث ابتدأها. ومن ههنا طمع السحرة في المغفرة لما

(١) الجملة ساقطة من (ط) وهي ثابتة في (خ) و (ك).

(٢) في (ط): «لأن أحدهما يشبه الآخر».

ابتدؤوا بالإيمان فقالوا: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥١]. أى: من حيث جعلنا أول المؤمنين من هذا المكان نرجو أن يغفر لنا بأن جعلنا مؤمنين به، فرجوه منه. وقد ذم الله تعالى عبداً أوجده نعمة ثم سلبها، فأيس من عودها عليه، فقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩]. ثم استثنى عباده الصابرين عليه، الصالحين له، فقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١].

وروى أن لقمان عليه السلام قال لابنه: خِفِ اللَّهَ تعالى خوفاً لا تأمن فيه مكره، وارْجُهُ رجاءً أشدَّ من خوفك. قال: وكيف أستطيع ذلك وإنما لى قلبٌ واحد؟ قال: أما عَلمْتَ أن المؤمن كذى قلبين: يخاف بأحدهما، ويرجو بالآخر؟ والمعنى: أن الخوفَ والرجاءَ وصفُ الإيمانِ لا يخلو منهما قلبٌ مؤمن، فصار كذى قلبين حينئذ.

ثم إِنَّ الخَلْقَ خلُقوا على أربع طبقات، فى كل طبقة طائفة. فمنهم من يعيش مؤمناً ويموت مؤمناً. فمن ههنا رجاؤهم لأنفسهم ولغيرهم من المؤمنين، إذ قد أعطاهم فرجوا أن يُتَمَّ عليهم نعمته، وأن لا يسلبهم فضله ما به بداهم. ومن الناس من يعيش مؤمناً، ويموت كافراً، فهذا موضع خوفهم عليهم وعلى غيرهم، لمكان علمهم بهذا الحكم، ولغيب حكم الله تعالى بعلمه السابق فيهم. ومن الناس من يعيش كافراً ويموت مؤمناً، ومنهم من يعيش كافراً ويموت كافراً. فهذان الحكمان أوجبا رجاءهم الثانى للمُشْرِكِ إذا رآوه، فلم يَقْطَعُوا^(١) بظاهره أيضاً خوفَ هذا الرجاءِ خوفاً ثانياً أن يموت على تلك الحالة، وأن يكون ذلك هو حقيقة عند الله تعالى.

فعَلِمَ المؤمنُ بهذه الأحكام الأربعة، وَوَزَنَ خَوْفَهُ وَرَجَاءَهُ مَعاً^(٢)، فاعتدل حاله بذلك لاعتدال إيمانه به، وحكم على الخلق بالظاهر، ووكل إلى علام الغيوب

(١) فى (ط): «فلم يقطعوا».

(٢) فى (ط): «ورثه الخوف والرجاء معاً».

السرائر، ولم يقطع على عبدٍ بظاهره من الشرّ بل يرجو له ما بطنَ عند الله تعالى من الخير، ولم يشهد لنفسه ولا لغيره بظاهر الخير بل يخاف أن يكون قد استسرَّ عند الله تعالى باطنُ شرٍّ، إلا أن حالَ التمام أن يخاف العبدُ على نفسه، ويرجو لغيره؛ لأنّ ذلك هو وجد المؤمنين من قبل أنّهم متعبّدون بحسن الظن، فهم يُحسنون الظنَّ بالناس، ويخرجون لهم المعاذيرَ بسلامة الصدور، وتسليم ما غاب إلى من إليه تصيرُ الأمور. ثم هم في ذلك يسيئون الظنَّ بنفوسهم لمعرفة بصفاتها، ويوقعون الملامَ عليها، ولا يحتجون لها لباطنِ الإشفاق منهم عليهم، ولخوفِ التزكية منهم لهم.

فمن قلب عليه هذان المعنيان فقد مكر به حتى يُحسن الظنَّ بنفسه، ويسىء ظنه بغيره، فيكون خائفاً على الناس، راجياً لنفسه، عاذراً لنفسه، محتجاً لها، لائماً للناس، ذاماً لهم؛ فهذه أخلاق المنافقين.

ثم إنَّ للرّاجي حالاً من مقامه، وحاله علامةً من رجائه، فمن علامة الرجاء عن مشاهدة المرجوِّ دوامُ المعاملة وحسنُ التقربِ إليه، وكثرةُ التّجيبِ^(١) بالنوافل، لحسن ظنه به وجميلِ أمله منه، وأنه يتقبَّلُ صالحَ ما أمرَ به تفضلاً منه من حيثُ كرمه، لا من حيثُ الواجبِ عليه، ولا الاستحقاقِ منّا. وأنه أيضاً يكفّرُ سيءَ ما عمله إحساناً منه، ورحمةً من حيثُ لطفه بنا وعطفه علينا، لأخلاقه السّنية وألمافه الخفية، لا من حيثُ اللزومِ له، بل من حيثُ حسنِ الظنِّ به.

كما قال سفيان الثوري رضى الله عنه: من أذنب ذنباً، فعلم أن الله تعالى قدره عليه، ورجا غفرانه، غفر الله عزّ وجلّ له ذنبه. قال: لأنّ الله تعالى عير قومًا فقال تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ [فصلت: ٢٣]. وقال سبحانه وتعالى في مثله: ﴿وَوَظَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢]، أى: هلّكى. ففى دليل خطابه عزّ وجلّ: أن من ظنَّ حسناً كان من أهل النجاة. وقد جاء فى الأثر: «مَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فَأَحْزَنَهُ ذَلِكَ غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ وَإِنْ لَمْ يَسْتَغْفِرْ».

(١) فى (ط): «التقرب».

ومقام الرجاء كسائر مقامات اليقين، منها قَرُضٌ وَفَضْلٌ. فعلى العبد فرضٌ أن يرجو مولاه وخالقه ومعبوده ورازقه، من حيث كرمه وفضله، لا من حيث نظره إلى صفات نفسه ولؤمه. وقد كان سهل رحمه الله تعالى يقول: مَنْ سأل الله تبارك وتعالى شيئاً فنظر إلى نفسه وإلى أعماله لا يرى الإجابة حتى يكون ناظراً إلى الله تبارك وتعالى وحده، وإلى لُطفه وكرمه، ويكون موقناً بالإجابة. ولعمري إن من سأل الله تعالى ورغب إليه في شيء ورجاه ناظراً إلى نفسه وعمله، فإنه غير مخلص في الرجاء له سبحانه وتعالى لشركه في النظر إليه. وإذا لم يكن مخلصاً لم يكن موقناً، ولا يقبل الله تعالى عملاً ولا دعاءً إلا من موقنٍ بالإجابة مُخلصٍ. فإذا شهد التوحيد، ونظر إلى الوجدانية، فقد أخلص وأيقن. وهكذا جاء في الخبر: «إذا دَعَوْتُمْ فكونوا موقنين بالإجابة، فإن الله تعالى لا يقبل إلا من موقنٍ ومن دأع دعا بنية^(١) من قلبه، لأنَّ مَنْ استعمله الله تعالى بالدعاء له فَقَدْ فتحَ له باباً من العبادة.

وفي الخبر: «الدعاء نصف العبادة». ولا يقبلُ الله تعالى من الدعاء إلا النّاخلة. بمعنى المنخول، وهو الخالص. فأقلُّ ما يعطيه من دُعائه أن يكون ذلك حسنةً منه يضعفه له عشرًا إلى سبعمائة ضعف. وأعلاه: أن يدخر له عنده في الآخرة ما هو خير له من جميع الدنيا وما فيها مما لم يخطر على قلبه قط، ويكون ذلك حسنَ نظرٍ من الله تعالى له واختياراً. وأوسطُ ذلك: أن يصرف عنه من البلاء الذي هو لو كان عَلمُهُ كان صَرَفُهُ أَهمَّ عليه وأحبَّ إليه مما سأل فيه. وقد رُوينا عن رسول الله ﷺ: «ما من دأع دعا موقناً بالإجابة في غير معصية ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله تعالى إحدى ثلاث: إما أن يجيب دعوته فيما سأل، أو يصرف عنه من السوء مثله، أو يدخر له في الآخرة ما هو خيرٌ له».

وفي أخبار موسى عليه السلام: «يا ربّ أيّ خلقك أنت عليه أشدُّ تسخُّطاً؟ فقال تعالى: مَنْ لم يرضَ بقضائي، ومن يستخيرني في أمره فإذا قضيتُ له كره ذلك». وفي الخبر الآخر أنه قال: «يا ربّ، أيّ الأشياء أحبُّ إليك، وأيها أبغض؟

(١) في (ط): «دعاء بنية».

فقال سبحانه وتعالى: أحب الأشياء إلىّ الرضا بقضائى، وأبغضها إلىّ أن تُطرى نفسك.

وروينا عن نبينا ﷺ أنه قال للرجل الذى قال: أوصنى، فقال: «لا تتهم الله تعالى فى شيءٍ قضاهُ عليك». وفى الخبر الآخر: «إنّه نظر إلى السماء وضحك ﷺ، فسئل عن ذلك، فقال: عجبتُ لقضاءِ الله تعالى للمؤمن، فى كلِّ قضائه له خير. إن قضى له بالسراء رضى فكان خيراً له. وإن قضى عليه بالضرراء رضى به فكان خيراً له».

ومن حسنِ الظنِّ بالله تعالى لطفُ التملُّقِ له سبحانه وتعالى، وهو من قوّة الطمع فيه. وفى الخبر: «حسنُ الظنِّ بالله عزّ وجلّ من حسن عبادة الله عزّ وجلّ». كما روينا فى تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧] أنّ الكلمات هى قوله عليه السلام: يا ربّ هذا الذنبُ الذى أصبته كان من قبلِ نفسى، أو من شيءٍ سبقَ فى علمك قبل أن تخلقنى قضيتُهُ علىّ؟ فقال: بل شيءٌ سبق فى علمى كتبته عليك. قال: يا ربّ فكما قضيتهُ علىّ فاغفرهُ لى. قال: فهى الكلمات التى لقاءهُ الله تعالى إياها.

وروينا عن النبى ﷺ: «يقول الله تعالى للعبد يوم القيامة: ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره؟ قال: فإن لقن الله تعالى العبدَ حجته قال: يا ربّ رجوتك وخفتُ الناس. قال: لقد غفرت له». وفى الخبر المشهور: «أن رجلاً كان يداينُ الناس، فيسمحُ لهم ويتجاوزُ عن المعسر، فلقى الله تعالى ولم يعمل خيراً قط، فقال الله سبحانه وتعالى: نحن أحقُّ بذلك منك. قال: فغفر له برجائه وظنّه».

ثم يتفاوت الرّاجون فى فضائل الرجاء، فالمقربون منهم رجوا النصيب الأعلى من القرب والمجالسة والتجلى بمعانى الصفات ممّا عرفوه؛ وهذا عن علمهم به. وأصحابُ اليمين من الرّاجين رجوا النصيب الأوفر من مزيده، والفضل الأجل من عطائه، يقيناً بما وعد.

ومن الرجاء: انشراحُ الصدرِ بأعمال البرّ، وسرعةُ السبق والمبادرة بها خوف

فوتها ورجاء قبولها. ثم مهاجرةُ السوء ومجاهدةُ النفس رجاءَ انتجاز الموعود، وتقرباً إلى الرحيم الودود. ومنه قول أصدق القائلين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]. وفسر رسول الله ﷺ المهاجرة والمجاهدة فقال: «المهاجرُ من هجرَ السوء، والمجاهدُ من جاهد نفسه في الله عزَّ وجلَّ».

ومن الرجاء: كثرةُ التلاوةِ لكلامِ الله سبحانه^(١)، وإقامُ الصَّلَاةِ التي هي خدمةُ المعبود، وبذلُ المالِ سرّاً وعَلَانِيَةً وقليلًا وكثيراً، وأن لا يشتغل عن ذلك بتجارة الدنيا، كما وصف الله سبحانه وتعالى المحققين من الرّاجين، إذ يقول عزّ من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

ومن الرجاء: القنوتُ في ساعات الليل؛ وهو طولُ القيام للتهجد، والدعاء عند تجافى الجنوب عن المضاجع، لما وقر في [الصدور و]^(٢) القلوب من المخاوف. ولذلك وصف الله الرّاجين بهذا في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. فسَمَّى أهلَ الرجاءِ والحذرِ وأهلَ التهجدِ آَنَاءَ اللَّيْلِ علماءً، وحصلَ من دليلِ الكلامِ أنَّ من لم يخف ولم يَرْجُ غيرُ عالمٍ؛ لثَفِيهِ المساواةُ بينهما. وهذا ممَّا حَذَفَ خبره اكتفاءً بأحد وصفَيْهِ إذ في الكلامِ دليلٌ عليه.

فالرجاءُ هو أوّلُ مقامٍ من اليقين عند المقرّبين، وهو ظاهرُ أوصافِ الصديقين، ولا يكملُ في قلب عبد ولا يتحقّق به صاحبه حتى تجتمع فيه هذه الأوصاف: الإيمانُ بالله تعالى، والمهاجرُ إليه سبحانه وتعالى، والمجاهدةُ فيه، وتلاوةُ القرآن، وإقامُ الصَّلَاةِ، والإنفاقُ في سبيلِ الله تعالى، ثم السجودُ آَنَاءَ اللَّيْلِ، والقيامُ والحذرُ مع ذلك كله. فهذه جملُ صفاتِ الرّاجين، وهو أوّلُ أحوالِ الموقنين. ثم

(١) قوله «ومن الرجاء... سبحانه» ساقط من (ط) وهو ثابت في (خ) و(ك).

(٢) زيادة من (خ).

تتزايد الأعمالُ في ذلك ظاهراً وباطناً بالجوارح والقلوب عن تزايد الأنوار والعلوم ومكاشفات الغيوب بالأوصاف الموجودة.

وفصل الخطاب: أَنَّ الخوفَ والرجاءَ طريقان إلى مقامين؛ فالخوفُ طريقُ العلماء إلى مقام العلم. والرجاءُ طريقُ العُمالِ إلى مقام العمل. وقد وصف الله عزَّ وجلَّ الراجين مع الأعمال الصالحة لقوة رجائهم بالخوف تكملةً لصدق الرجاء، وتتمةً لعظيم الغبطة به، فقال تعالى وتقدس: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. وقال عزَّ وجلَّ مُخبراً عنهم في حال وفائهم وأعمال برهم: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [الطور: ٢٦ - ٢٧]. وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾ [الإنسان: ٧]، من قبل أن الخوف مرتبط بالرجاء، فمن تحقق بالرجاء صارعه الخوفُ أن يقطع به دون ما رجا.

وقال أهلُ العربية في معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الحاثية: ١٤]: أى للذين لا يخافون عقوبات الله تعالى. فإذا كان هذا أمره بالمغفرة لمن لا يرجو، فكيف يكون غفره وفضله على من يرجو؟ وبعضهم يقول في معنى قوله تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]: أى تخافون منه ما لا يخافون.

فلولا أنهما عند العلماء كشيء واحد ما فُسِّر أحدهما بالآخر.

ومن الرجاء: الأُنسُ بالله تعالى في الخلوات، ومن الأُنس به الأُنسُ بالعلماء، والتقربُ من الأولياء، وارتفاعُ الوحشة بمجالسة أهل الخير، وسعة الصدر والروح عندهم.

ومن الرجاء: سقوطُ ثقلِ المعاونة على البرِّ والتقوى لوجود حلاوة الأعمال والمسارة إليها، والحثُّ لأهلها عليها، والحزن على قوتها، والفرح بدركها. ومن ذلك الخير المأثور: «مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ». والخبر المأثور: «خيار أمتي الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أساءوا استغفروا». لأنَّ المؤمنَ على يقينٍ من أمره وبصيرةٍ من دينه.

والخوف والرجاء وصف الموقن بالله تعالى، فهو إذا عمل حسنة أيقن بثوابها؛ لصدق الوعد وكرم الموعد، وإذا عمل سيئة أيقن بالكراهة لها وخاف المقت عليها؛ لخوف الوعيد وعظمة المتوعد، من قبل أن دخوله في الطاعة دخولاً في محبة الله تعالى ومرضاته لما دلّ العلم عليه؛ فهذا رضا الله سبحانه وتعالى في الدنيا فكيف لا يسره رضاه؟ ومن قبل أن دخوله في المعصية دخولاً في غضب الله تعالى ومكراهه بما دلّ العلم عليه، فذلك الذي يسوءه، لأن مقت الله تعالى اليوم معاصيه، وسخطه غداً تعذيبه. ومن هذا قول الله عز وجل، وهو أصدق القائلين: ﴿يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [غافر: ١٠]، قال: لما نظروا إلى أنفسهم بتشويه خلقهم في النار مقتوها، فتودوا: لمقت الله لكم في الدنيا على معاصيه أكبر من مقتكم أنفسكم اليوم في العذاب، كذلك رضاه اليوم بطاعته، كما رضاهم غداً بالنعيم في جنته^(١)؛ وهذا وصف عبد مراد مكاشف بعلم اليقين.

ومن هذا حديث زيد الخيل إذ قال للنبي ﷺ: «جئتك أسألك عن علامة الله تعالى فيمن يريد، وعلامته فيمن لا يريد. فقال: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت أحب الخير وأهله، وإذا قدرتُ على شيءٍ منه سارعتُ إليه وأيقنتُ بثوابه، وإذا فاتني شيءٌ منه حزنتُ عليه وحننتُ إليه. فقال ﷺ: هذه علامة الله تعالى فيمن يريد، ولو أردك للآخرى هيأك لها، ثم لم يبال في أيّ أوديتها هلكت».

ومن الرجاء: التلذذ بدوام حسن الإقبال، والتنعم بمناجاة ذي الجلال، وحسن الإصغاء إلى محادثة القريب، والتلطف في التملق للحبيب، وحسن الظن به في العفو الجميل ومنال الفضل الجزيل. وقال بعض العارفين: للتوحيد نور وللشرك نار. ونور التوحيد أحرق لسيئات الموحّد من نار الشرك لحسنات المشرك.

ولما احتضر سليمان التيمي قال لابنه: يا بني، حدثني بالرخص واذكر لي الرجاء، حتى ألقى الله تعالى على حسن الظن به. وكذلك لما حضر سُفيان الثوري رضي الله عنه الوفاة جعل العلماء حوله يرجونه. وحدثنا عن أحمد بن حنبل

(١) كان ثمّ تقديم وتأخير في (ط) أصلحته من (خ).

رضى الله عنه أنه قال لابنه عند الموت: اذكر لى الأخبار التى فيها الرجاء وحسن الظن.

فلولا أن الرجاء وحسن الظن من فواضل المقامات ما طلبه العلماء فى آخر الأوقات عند فراق العمر ولقاء المولى، لتكون الخاتمة به، وهم يسألون الله حسن الخاتمة طول الحياة. ولذلك قيل: إن الخوف أفضل ما دام حيًا، فإذا حضر الموت فالرجاء أفضل.

وقد كان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول فى مقامات الرجاء: إذا كان توحيد ساعة يحبط ذنوب خمسين سنة، فتوحيد خمسين سنة ماذا سيصنع بالذنوب؟

وقال أبو محمد سهل رضى الله عنه: لا يصح الخوف إلا لأهل الرجاء. وقال مرة: العلماء مقطوعون إلا الخائفين، والخائفون مقطوعون إلا الراجين. وكان يجعل الرجاء مقامًا فى المحبة. وهو عند العلماء أول مقامات المحبة، ثم يعلو فى الحب على قدر ارتفاعه فى الرجاء وحسن الظن. وقد رويناه عن النبى ﷺ أحاديث فى الرجاء لا يصلح ذكرها لعموم الناس، ولكن نذكر من ذلك ما ظهر: «خلق الله تعالى لجهنم من فضل رحمته سوطًا يسوق الله عز وجل به عباده إلى الجنة». وخبر آخر: «يقول الله تعالى: إنما خلقت الخلق ليربحوا على ولم أخلقهم لأربح عليهم». وفى حديث عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ: «ما خلق الله تعالى شيئًا إلا جعل له ما يغلبه، وجعل رحمته تغلب غضبه». والخبر المشهور: «إن الله تعالى كتب على نفسه قبل أن يخلق الخلق: إن رحمتى تغلب غضبى». والأخبار المشهورة عن معاذ بن جبل، وأنس بن مالك، رضى الله عنهما: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة»، و «من كان آخر كلامه قول: لا إله إلا الله لم تمسه النار»، و «من لقى الله تعالى لا يشرك به شيئًا حرمت عليه النار»، و «لا يدخل النار من فى قلبه وزن ذرة من إيمان». وقد قال فى خبر آخر: «لو يعلم الكافر سعة رحمه الله تعالى ما أيس من رحمته أحد».

وقال الله تعالى فى حسن عفوه عن أكبر الكبائر بعد ظهور الآيات: ﴿ثُمَّ

اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ ﴿[النساء: ١٥٣]﴾. وقال في خطاب لطيف لأوليائه يعرفهم نفاذَ أحكامه فيهم وجريانَ مشيئته عليهم: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩]، عزيز لا يُوصَلُ إليه إلا به، حكيم حكَمَ بمشيئته على عباده، ثم يغفر الذنوبَ جميعاً فلا يُبالي، كما أجرى على مَنْ فَضَّلَهُ على العالمين مقالةَ الكافرين فلم يضرَّهُم مع تفضيله لهم، إذ قالوا لموسى عليه السلام: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، ﴿قَالَ أَغَيِّرَ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الاعراف: ١٣٨، ١٤٠].

وبهذا المعنى عارض على كَرَمِ الله وجهه رأسَ الجالوت لما قال له: لم تلبثوا بعد نبئكم عليه السلام إلا ثلاثين سنة حتى ضرب بعضكم رقابَ بعض بالسيف. فقال على كَرَمِ الله وجهه: أنتم لم تحفَّ أقدامكم من ماء البحر حتى قلتُم لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة.

ورؤينا عن رسول الله ﷺ: «إِذَا حَدَّثْتُمُ النَّاسَ عَنْ رَبِّهِمْ فَلَا تَحْدِثُوهُمْ بِمَا يُفْزَعُهُمْ وَيُنْفَرُهُمْ». وقال في حديث آخر: «بَشِّرُوا وَلَا تَنْفَرُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تَعْسُرُوا». ولما وَعَظَهُم النبي ﷺ فقال: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحَكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعْدَاتِ تَلْدُمُونَ صُدُورَكُمْ، وَتَجَارُونَ إِلَى رَبِّكُمْ»^(١). فهبط جبريل عليه السلام فقال: إن الله تعالى يقول: لِمَ تُقْنِطُ عِبَادِي؟ فخرج إليهم رسول الله ﷺ فرجَّاهم وشوقهم.

ولما تلا الرسول ﷺ هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] قال: «أتدرون أيَّ يوم هذا؟ يومٌ يقال لآدم عليه السلام: قم فابعثْ نصيب النار من ذريتك. فقال: كم؟ قيل: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة. قال: [فأبلس القوم، وجعلوا]^(٢) يكون يومهم ذلك، وتركوا الأشغال والعمل. فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: ما

(١) ساقطة من (ط). تلدمون صدوركم: اللذم: الضربُ بشيء ثَقِيل يُسْمَع وقعُه.

(٢) ساقطة من (ط). أبلس القوم: أخذهم الدهول والذهشة.

بالكم؟ أنتم في الأمم مثل شعرة بيضاء في جلد ثور أسود». والخير المشهور: «لو لم تُذنبوا لخلق الله تعالى خلقًا يُذنبون ليغفر لهم». وفي لفظ آخر: «الذهب بكم، وجاء بقوم يذنبون فيغفر لهم»، إنه هو الغفور الرحيم؛ أي: أن وصفه سبحانه وتعالى المغفرة والرحمة، فلا بد أن يخلق مقتضى وصفه حتى يحق وصفه عليه هذا. كما تقول في علم المعرفة: إن له سبحانه وتعالى من كل اسم وصفًا، ومن كل وصف فعلًا. وفي هذا سر المعرفة، ومنه معرفة الخصوص.

وحكى لنا معناه عن إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه، قال: خلا لى الطواف ذات ليلة، وكانت ليلة مطيرة مظلمة، فوقفت فى الملتزم عند الباب، فقلت: يا رب اعصمنى حتى لا أعصيك أبدًا. فهتف بى هاتف من البيت: يا إبراهيم أنت تسألنى العصمة، وكل عبادى المؤمنين يطلبون ذلك، فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل، ولمن أغفر؟

وكان الحسن البصرى رضى الله عنه يقول: لو لم يذنب المؤمن لكان يطير طيرًا، ولكن الله تعالى قمعه بالذنوب.

وفى الخبر مثله: «لو لم تُذنبوا لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب. قيل: وما هو؟ قال: العُجب».

ولعمري إن العُجب من صفات النفس المتكبرة، وهو يحبط الأعمال، وهو من كبائر أعمال القلوب، والذنوب من أخلاق النفس الشهوانية.

ولأن يُتلى العبدُ الشهوانىُ بعشر شهوات من شهوات النفس خير له من أن يُتلى بصفة من صفات النفس مثل: الكبر، والعُجب، والبغى، والحسد، وحب المدح، وطلب الذكر؛ لأن هذه منها: معانى صفات الربوبية، ومنها: أخلاق الأبالسة، وبها هلك إبليس. وشهوات النفس من وصف الخلق، وبها عصى آدم ربّه فاجتباها بعدها وتاب عليه وهدى.

وقد قال بشر بن الحارث: سكون النفس إلى المدح أضرّ عليها من المعاصى. ورأى يوسف بن الحسين مخنثًا فأعرض عنه إزاءً عليه، فالتفت إليه المخنث

وقال: وأنت أيضاً يكفيك ما بك. ففزع من قوله، فقال: وأى شيء تعلم بى؟ قال: لأنّ عندك أنّك خيرٌ منى. فاعترف يوسف بقوله، فتاب واستغفر.

وكان بعض الرّاجين من العارفين إذا تلا هذه الآية؛ آية الدين التى فى سورة البقرة، يُسرُّ بذلك ويستبشر لها ويعظّم رجاءه عندها. فقيل له: إنّها ليس فيها رجاء، ولا ما يوجب الاستبشار. فقال: بلى! فيها رجاءٌ عظيم. قيل: وكيف ذلك؟ فقال: إنّ الدنيا كلّها قليل، ورزق الإنسان فيها قليل من قليل، وهذا الدين من رزقه قليلٌ من قليلٍ من قليل^(١). ثم إن الله تبارك وتعالى احتاط لى فى ذلك ودقّق النظر لى؛ بأن وكّد دينى بالشهود والكتاب، وأنزل فيه أطول آية فى كتابه، ولو فاتنى ذلك لم أبال به، فكيف يكون فعله بى فى الآخرة التى لا عوض لى من نفسى فيها؟!

وكذلك كان بعض الرّاجين يفهم من قوله تعالى إذا تلا: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] يرجو من ذلك بوادى الجود والكرم والإحسان مما لم يحسبه فى الدنيا قطّ. وقد كان الجنيد رحمه الله يقول: إن بدت عينٌ من الكرم ألحقت المسيئين بالمحسنين.

وعلى ذلك جاء فى الخبر: «ليغفرنّ الله تعالى يوم القيامة مغفرةً ما خطرت قطّ على قلب أحد، حتى أنّ إبليس ليتطاوّل رجاء أن تصيبه». وفى الخبر: «إن الله تعالى تسعاً وتسعين رحمةً، أظهر منها فى الدنيا رحمةً واحدةً، بها يتراحم الخلائق، فتحنّ الوالدة إلى ولدها، وتعطفُ البهيمة على ولدها. فإذا كان يوم القيامة ضمّ هذه الرحمة إلى تلك التسع والتسعين، ثم بسطها على جميع خلقه. وكلُّ رحمة منها طباقُ السموات والأرضين. قال: فلا يهلك على الله تعالى إلا هالك». وقد قال بعض العلماء: إنّ الله تعالى إذا غفر لعبد فى موقف القيامة ذنباً غفر ذلك الذنب لكل من عمله.

وقال النبى ﷺ: «اعملوا وأبشروا، واعلموا أنّ أحداً لن يُنجيه عمله». وفى

(١) قوله «من قليل من قليل»: زيادة من (خ).

الحديث الآخر: «ما منكم من أحد يدخله عمله الجنة، ولا يُنَجِّيه من النار. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمته وفضل». وروى عنه عليه السلام: «إنني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي». وفي لفظ آخر: «أترونها للمصفيين المتقين؟ بل هي للمخطئين المتلوثين». وقال عليه السلام لمعاذ وأبي موسى رضى الله عنهما، وقد بعثهما واليين على اليمن، فأوصاهما فيما أمرهما به، فقال: «يسراً ولا تعسراً، وبشراً ولا تنفراً».

فعلّم المؤمنين بكرم الله تعالى، وخفى لطفه، ولطيف منه، لا يقعدهم عن تأمليه، ولا يقصر بهم عن رجائه، ولا حُسْن ظَنِّهم به، ولا يُقَوِّ عليهم الخوفَ فيُخرجهم إلى الإياس من رحمته، لأجل علمهم بجبريَّته وكبريائه من قَبْل أن المهيب هو المحبوب، فمحبتُهُ تؤنسُهُم وترجيهم، وهيبته تُزعجُهُم وتُخيفُهُم. فخوفُهُم بالمهابة في لذآذة، ونعيمُهُم بالحب في مهابة. فهم في مقام الخوف والمحبة معتدلون، وبقوة الله والعلم بها متمكّنون، وفي مشاهدة المخوف والمحبوب مستقيمون.

وهذا المقام هو وصف العارفين من الموقنين؛ وهم أهل كمال الإيمان، وصفوة خصوص ذوى الإيقان. إذ قد عرفوا أن الله تبارك وتعالى كامل في صفاته، لا يعتريه نقصان في وصف دون وصف، وإنما الرحمة بسعة العلم، كما العلم بسعة القدرة، لما شهدوا من وصفه بما سمعوا من كلامه أنه كان عليماً قديراً، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ [غافر: ٧]. وكذلك فهموا من قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، فدخلت جهنم وغيرها في توسعة الرحمة من حيث كُنْ شَيْئاً، وقوله عز وجل: ﴿فَسَاكُنْهَا الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] معناه: خصوص الرحمة وصَفْوَهَا^(١) لا كُنْهَا، إذ لا نهاية للرحمة؛ لأنها صفة الراحم الذى لا حد له، ولأنه لم يخرج من رحمته شيء، كما لم يخرج من حكمته وقدرته شيء؛ لأن جهنم والنار الكبرى وغيرهما لسن^(٢) كُنْ عَذَابِهِ، ولا

(١) فى (ط): «وصفها».

(٢) فى (ط): «ليس».

كَلِيَّةَ تَعْذِيهِ . فَمَنْ ظَنَّ ذَلِكَ بِهِ لَمْ يَعْرِفْهُ ، وَلَئِنَّهُ إِنَّمَا ^(١) أَظْهَرَ مِنْ عَذَابِهِ مَقْدَارَ طَاقَةِ الْخَلْقِ ، كَمَا أَنَّهُ أَظْهَرَ مِنْ مَلَكِهِ وَنِعْمِهِ مَقْدَارَ مَصَالِحِ الْخَلْقِ ، وَلَا يَصْلَحُ لِلْخَلْقِ وَلَا يَطِيقُونَ إِظْهَارَهُ أَكْثَرَ مِمَّا أَظْهَرَ مِنَ النِّعَمِ وَالْعَذَابِ ، بَلْ لَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَعْرِفُوا فَوْقَ مَا أَبَدَى ؛ لِأَنَّ نَهَايَةَ تَعْذِيهِ وَتَنْعِيمِهِ مِنْ نَهَايَةِ مَلَكِهِ الَّذِي هُوَ قَائِمٌ بِهِ ، وَمَلَكُهُ عَنْ غَايَةِ قُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَلَا نَهَايَةَ لَذَلِكَ ، وَلَا يُطِيقُ الْخَلْقُ كُلُّهُ إِظْهَارَ ذَلِكَ . وَذَلِكَ أَيْضًا عَنْ تَعَالَى صِفَاتِهِ ، وَبِهَاءِ أَسْمَائِهِ الْمُتَنَاهِيَاتِ ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى كَشْفِ ذَلِكَ مِنَ الْغُيُوبِ . فَسُبْحَانَ مَنْ لَا نَهَايَةَ لِقُدْرَتِهِ ، وَلَا حَدًّا لِعَظَمَتِهِ ، وَلَا أَمَدًا لِسُلْطَانِهِ .

وَكَذَلِكَ شَهِدُوا مَا سَمِعُوا مِنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤] . وَقَالَ : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥١] . فَعَلِمُوا أَنَّ الْمَغْفِرَةَ عَلَى سَعَةِ الْحِلْمِ ، كَمَا أَنَّ الْحِلْمَ بِسَعَةِ الْعِلْمِ . فَلَمَّا رَأَوْا عَظِيمَ حِلْمِهِ رَجَوْا عَظِيمَ مَغْفِرَتِهِ ، وَلَمَّا شَهِدُوا كَثِيفَ سِتْرِهِ أَمَلُوا جَمِيلَ عَفْوِهِ . وَكَذَلِكَ يُقَالُ : إِنَّ حَمَلَةَ الْعَرْشِ يَتَجَاوِبُونَ بِأَصْوَاتٍ : سُبْحَانَكَ عَلَى حِلْمِكَ بَعْدَ عِلْمِكَ . سُبْحَانَكَ عَلَى عَفْوِكَ بَعْدَ قُدْرَتِكَ .

فَلِلرَّاجِينَ مِنَ الْعَارِفِينَ فَهَوْمٌ مِنَ السَّمْعِ لِلْكَلامِ نَحْوَ عَلَوِّ نَظَرِهِمْ عَنْ سَمَوِّ عُلُومِهِمْ بِمَعْنَى الصِّفَاتِ .

فَكُلُّ صَاحِبٍ مَقَامٍ يَشْهَدُ مِنْ مَقَامِهِ ، وَيَسْمَعُ مِنْ حَيْثُ شَهِادَتُهُ ، فَأَعْلَاهُمْ شَهَادَةُ الصِّدِّيقِينَ ، ثُمَّ الشُّهَدَاءِ ، ثُمَّ الصَّالِحِينَ ، ثُمَّ خُصُوصُ الْمُؤْمِنِينَ . فِيهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْتَدَلُّوا عَلَيْهِ ، وَمِنْهُ نَظَرُوا إِلَيْهِ . هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ . وَكَانَ سَهْلٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ : الْمُحْسِنُ يَعِيشُ فِي سَعَةِ الرَّحْمَةِ ، وَالْمُسِيءُ يَعِيشُ فِي سَعَةِ الْحِلْمِ .

فَصِفَاتُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كَامِلَاتٌ ، فَمَنْ شَهِدَ تَرْجِيحَ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ دَخَلَ عَلَيْهِ النِّقْصُ مِنْ مَشَاهِدَتِهِ ، لِقُصُورِ عِلْمِهِ عَنْ تَمَامِ عِلْمِ مَنْ فَوْقَهُ مِنَ الشُّهَدَاءِ ، وَلِأَجْلِ مَقَامِهِ الْمُرَادِ بِهِ دُونَ طَرِيقِ الصِّدِّيقِينَ مِنَ الْأَقْوِيَاءِ . فَعَادَ ذَلِكَ عَلَى الْعَبْدِ فَصَارَ ذَلِكَ

مَقَامًا لَهُ فِي الْقَرَبِ وَالْبَعْدِ، تَعَالَى وَصَفُ الْمَشْهُودِ عَنِ النُّقْصَانِ وَالْحَدِّ.
وَمَثَلُ الرَّجَاءِ مِنَ الْخَوْفِ مَثَلُ الرُّخْصَةِ فِي الدِّينِ مِنَ الْعَزَائِمِ. وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُؤْخَذَ بِرُخْصِهِ كَمَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْخَذَ بِعَزَائِمِهِ». وَفِي لَفْظِ آخِرِ أَبْلَغٍ مِنْ هَذَا وَأَوْكَدَ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُقْبَلَ رُخْصُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعَاصِيهِ».

وَرَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرَفْقٍ». وَلَا تَبْغُضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرُ الدِّينِ أَيْسَرُهُ. وَقَالَ: «هَلَكَ الْمُتَعَمِّقُونَ، هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ». وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَةِ السَّهْلَةِ السَّمْحَةِ». وَقَالَ ﷺ: «أَحِبُّ أَنْ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنَّ فِي دِينِنَا سَمَاحَةً». وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الاعراف: ١٥٧]. وَاسْتَجَابَ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: قَدْ فَعَلْتُ.

فَهَذِهِ الْعِلْمُ هِيَ أَسْبَابُ قُوَّةِ الرَّجَاءِ فِي أُولَى الْأَلْبَابِ. كَيْفَ وَقَدْ جَاءَ مَا يَغْلِبُ حُكْمَ الرَّجَاءِ مِنْ غَيْرِ اغْتِرَارٍ، مَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَعَالَى: «أَنَا إِلَى الرَّحْمَةِ وَالْعَفْوِ أَقْرَبُ مَنِّي إِلَى الْعُقُوبَةِ». وَفِي الْخَبَرِ: «إِذَا حَدَّثْتُمُ النَّاسَ عَنْ رَبِّهِمْ فَلَا تَحَدَّثُوهُمْ بِمَا يُفْزَعُهُمْ وَيَشْقُّ عَلَيْهِمْ». وَفِي كَلَامٍ لَعَلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّمَا الْعَالِمُ الَّذِي لَا يَقْنَطُ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يُؤْمِنُهُمْ مَكْرَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَرَوَى فِي أَخْبَارِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى [نَظَرَ إِلَيْهِ مُتَبَدِّئًا وَحَدَانِيًّا فَقَالَ: (١) مَا لَكَ وَحَدَانِيًّا؟ قَالَ: عَادَيْتُ الْخَلْقَ فَيْكَ. قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ مُحِبَّتِي أَنْ تَعْطِفَ عَلَى عِبَادِي، وَتَأْخُذَ عَلَيْهِمْ بِالْفَضْلِ، هُنَالِكَ أَكْتُبُكَ مِنْ أَوْلِيَائِي وَأَحِبَّائِي، وَلَا تَنْظُرُ إِلَى عِبِيدِي نَظْرَةَ جَفَاءٍ وَلَا قَسْوَةٍ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَبْطَلْتَ أَجْرَكَ. فَاحْفَظْ عَنِّي ثَلَاثًا: خَالِصَ حَبِيبِي مُخَالَصَةً، وَخَالِقَ أَهْلِ الدُّنْيَا مُخَالَفَةً، وَدِينَكَ فَقَلْدْنِيهِ.

(١) ساقطة من (ط).

وَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى دَاوُدَ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: أَحَبُّنِي، وَأَحَبُّ مَنْ يَحِبُّنِي، وَحَبِّبْنِي إِلَى خَلْقِي. قَالَ: يَا رَبِّ، هَذَا أَحَبُّكَ وَأَحَبُّ مَنْ يَحِبُّكَ، فَكَيْفَ أَحْبَبْتُكَ إِلَى خَلْقِكَ؟ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: اذْكُرْنِي بِالْحَسَنِ الْجَمِيلِ وَاذْكُرِ الْآثِي وَإِحْسَانِي، وَذَكَّرْهُمْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ مِنِّي إِلَّا الْجَمِيلَ.

وَرَوَى عَنْ يَزِيدَ الرَّقَاشِيِّ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنْ أَقْوَامٍ لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ بِمَنَازِلِهِمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ يُعْرِفُونَ عَلَيْهَا؟ قَالُوا: مَنْ هُمْ؟ قَالَ: الَّذِينَ يَحِبُّونَ عِبَادَ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَيَحِبُّونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى عِبَادِهِ، وَيَمْشُونَ فِي الْأَرْضِ نَصْحَاءً. فَقُلْنَا: هَذَا حَبَّبُوا اللَّهَ إِلَى عِبَادِهِ، فَكَيْفَ يَحِبُّونَ عِبَادَ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: يَأْمُرُونَهُمْ بِمَا يَحِبُّ اللَّهُ، وَيَنْهَوْنَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ، فَإِذَا أَطَاعُوهُمْ أَحَبَّهُمُ اللَّهُ».

وَرَأَى أَبَانَ بْنَ عِيَّاشٍ فِي النَّوْمِ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَكَانَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ حَدِيثًا بِالرُّخْصِ وَأَبْوَابِ الرَّجَاءِ، فَقَالَ: أَوْقَفْنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ حَدَّثْتَ عَنِّي بِمَا حَدَّثْتَ بِهِ مِنَ الرُّخْصِ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَبِّ، أَرَدْتُ أَنْ أَحْبِبَّكَ إِلَى خَلْقِكَ. قَالَ: قَدْ غَفَرْتُ لَكَ.

وَحَدَّثْتُ عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ أَنَّهُ لَقِيَ أَبَانًا فَقَالَ: إِلَى كَمْ تَحَدَّثُ النَّاسَ بِالرُّخْصِ؟ فَقَالَ: يَا أَبَا يَحْيَى، إِنِّي لِأَرْجُو أَنْ تَرَى مِنْ عَفْوِ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا تَخْرُقُ لَهُ كِسَاءُكَ هَذَا مِنَ الْفَرْحِ.

وَفِي حَدِيثِ رَبِيعِ بْنِ خِرَاشٍ عَنْ أَخِيهِ، وَكَانَ مِنْ خِيَارِ التَّابِعِينَ، وَهُوَ مِمَّنْ تَكَلَّمَ بَعْدَ الْمَوْتِ، قَالَ: لَمَّا مَاتَ أَخِي سُجِّيَ بِثَوْبِهِ وَأَلْقِيَنَاهُ عَلَى نَعْشِهِ، فَكُشِفَ الثَّوْبُ عَنْ وَجْهِهِ، وَاسْتَوَى قَاعِدًا، وَقَالَ: إِنِّي لَقِيتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فَحَيَّانِي بِرُوحٍ وَرِيحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، وَإِنِّي رَأَيْتُ الْأَمْرَ أَيْسَرَ مِمَّا تَظُنُّونَ وَلَا تَغْتَرُّوا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ يَنْتَظِرُنِي وَأَصْحَابُهُ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْهِمْ. قَالَ: ثُمَّ طَرَحَ نَفْسَهُ، فَكَأَنَّهَا كَانَتْ حَصَاةً وَقَعَتْ فِي طِيسٍ، فَحَمَلْنَاهُ فَدَفَنَاهُ.

وَقَالَ بَكْرُ بْنُ سَلِيمَانَ: دَخَلْنَا عَلَى مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْعَشِيِّ الَّتِي قُبِضَ فِيهَا، فَقُلْنَا: كَيْفَ تَجِدُكَ؟ قَالَ: مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكُمْ إِلَّا أَنْكُمْ سَتَعَايِنُونَ غَدًا مِنْ

عَفُوَ اللهُ تَعَالَى مَا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ فِي حِسَابٍ. قَالَ: فَمَا بَرَحْنَا حَتَّى أَعْمَضْنَاهُ وَدَفَنَاهُ.
وَرَأَى يَحْيَى بْنُ أَكْثَمٍ فِي النَّوْمِ فَقِيلَ: مَا فَعَلَ اللهُ تَعَالَى بِكَ؟ فَقَالَ: أَوْقَفَنِي
بَيْنَ يَدَيْهِ، وَقَالَ: يَا شَيْخَ السَّوِّءِ فَعَلْتَ وَفَعَلْتَ، قَالَ: فَأَخَذَنِي مِنَ الرَّعْبِ وَالْفَزَعِ
مَا يَعْلَمُ اللهُ تَعَالَى، ثُمَّ قُلْتُ: يَا رَبُّ مَا هَكَذَا حَدَّثْتُ عَنْكَ. فَقَالَ: وَمَا حَدَّثْتُ
عَنِّي؟ فَقُلْتُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ
نَبِيِّكَ ﷺ عَنْكَ أَنْكَ قُلْتَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلِيظَنَّ بِي
مَا شَاءَ»، وَقَدْ كُنْتُ أَظُنُّ بِكَ أَنْ لَا تَعَذِّبَنِي. فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: صَدَقَ نَبِيٌِّّ، وَصَدَقَ
أَنَسٌ، وَصَدَقَ الزُّهْرِيُّ، وَصَدَقَ مَعْمَرٌ، وَصَدَقَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَصَدَقْتَ. قَالَ:
فَعُلِفْتُ وَخُلِعَ عَلَيَّ، وَأُلْبِسْتُ، وَمَشَى بَيْنَ يَدَيَّ الْوَلَدَانُ إِلَى الْجَنَّةِ. فَقُلْتُ: يَا لَهَا
مِنْ فَرَحَةٍ.

وَفِي الْخَبَرِ: «أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ يَشْدُدُّ عَلَى النَّاسِ وَيُقَنْطِطُهُمْ مِنْ
رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْيَوْمَ أَوْيَسُكَ مِنْ رَحْمَتِي كَمَا
كُنْتَ تُقَنْطُ عِبَادِي مِنْهَا».

وَفِي الْحَدِيثِ: «أَنَّ رَجُلَيْنِ تَوَاخَيَا فِي اللهِ تَعَالَى مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَكَانَ
أَحَدُهُمَا عَابِدًا، وَالْآخَرُ مُسْرِفًا عَلَى نَفْسِهِ، فَكَانَ هَذَا الْعَابِدُ يَنْهَاهُ وَيُزَجِّرُهُ، فَيَقُولُ
لَهُ: دَعْنِي وَرَبِّي، أُبْعِثْ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ حَتَّى رَأَاهُ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى كَبِيرَةٍ، فَغَضِبَ،
فَقَالَ: لَا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ. قَالَ: فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أُنْتَ طَبِيعٌ أَنْ تَحْظُرَ
رَحْمَتِي عَلَى عِبَادِي؟ أَذْهَبَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ، ثُمَّ قَالَ لِلْعَابِدِ: وَأَنْتَ فَقَدْ أُوجِبْتَ
لَكَ النَّارَ. قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَكَلَّمْتُ بِكَلِمَةٍ أَهْلَكْتُ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ».

وَرَوَيْنَا فِي مَعْنَاهُ: أَنَّ لِيصًّا كَانَ يَقْطَعُ الطَّرِيقَ أَرْبَعِينَ سَنَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَمَرَّ
عَلَيْهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَخَلَفَهُ عَابِدٌ مِنْ عَبَادِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْخَوَارِيزِيِّينَ، فَقَالَ
الْليصُّ فِي نَفْسِهِ: هَذَا نَبِيُّ اللهِ يَمُرُّ وَإِلَى جَنْبِهِ خَوَارِيزِيٌّ، لَوْ نَزَلْتُ فَكُنْتُ مَعَهُمَا
ثَلَاثًا. قَالَ: فَتَزَلَّ، فَجَعَلَ يَرِيدُ أَنْ يَدْنُو مِنَ الْخَوَارِيزِيِّ وَيَزْدَرِي نَفْسَهُ تَعْظِيمًا
لِلْخَوَارِيزِيِّ، وَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ: مِثْلِي لَا يَمْشِي إِلَى جَنْبِ هَذَا الْعَابِدِ. قَالَ: وَأَحْسَرَّ
بِهِ الْخَوَارِيزِيُّ، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: هَذَا يَمْشِي إِلَى جَانِبِي. قَالَ: فَضَمَّ نَفْسَهُ، وَتَقَدَّمَ إِلَى

عيسى عليه السلام فمشى إلى جانبه، فبقى اللصّ خلفه. قال: فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: قل لهما يستأنفان العمل، فقد أحببت ما سلف من أعمالهما. أما الحواريُّ فقد أحببتُ حسناته لعُجبِهِ بنفسه. وأما الآخرُ فقد أحببتُ سيئاته بما ازدري على نفسه. قال: فأخبرهما بذلك، وضمّ اللصّ إليه في سياحته، وجعله من حوارِيَّه.

ورؤينا عن مسروق بن الأجدع: أن نبياً من الأنبياء كان ساجداً، فوطئ بعضُ العُتاة على عنقه حتى ألزقَ الحصى بجمهته، قال: فرفع النبيّ عليه السلام رأسه مُغضباً فقال: اذهب فلن يغفرَ الله لك. قال: فأوحى الله تعالى إليه: تتألى على في عبادي، فإنّي قد غفرتُ له.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: كان رسول الله ﷺ يقنتُ يدعو على المشركين ويلعنهم في صلاته، فنزلت: ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٧ - ١٢٨]. قال: فترك الدعاء عليهم. قال: فهدى الله تعالى عامة أولئك إلى الإسلام.

والأخبارُ فيما يوجب الرجاء وحسن الظنّ أكثرُ من أن تُجمع، ولم نقصد جمعها، وإنّما دلّلنا بقليلٍ على كثيرٍ، ونبّهنا عقولَ ذوى التبصير. وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَّلَكَ﴾ [الانفطار: ٦- ٧]، [فتبّه العبدَ مع اغتراره على^(١) كرمه، وذكره مع جهله حسنَ تسويته إياه وتعديله يدلُّ على نعمته.

ورؤينا عن الضحّاك: «إن العبدَ ليدنو من ربّه تبارك وتعالى عند العرض، فيقول: عبدى، أتُحصى عملك؟ فيقول: إلهى كيف أُحصيه من دونك وأنت الحافظُ للأشياء؟ فيذكره الله تعالى جميعَ ذنوبه فى الدنيا فى ساعاتها. فيقول: أنت عبدى مقررٌ بما عرفتُك وذكرتك؟ فيقول: نعم سيدى. فيقول الله سبحانه: أنا الذى سترتها عليك فى الدنيا، فلم أجعل للذنوب رائحةً تُوجد منك، ولم أجعل

(١) ما بين المعكفتين ساقط من (ط).

فى وجهك شَيْنَهَا، وأنا أغفرها لك اليوم على ما كان منك بإيمانك بى وتصديقك المرسلين».

ورويانا عن محمد بن الحنفية عن أبيه على كرم الله وجهه قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ: ﴿فاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥] قال: «يا جبريل، وما الصَّفْحُ الجميل؟ قال: يا محمد، إذا عفوتَ عَمَّنْ ظلمَكَ فلا تعاتبه. ثم قال رسول الله ﷺ: يا جبريل، فالله مع كرمه تعالى أولى أن لا يعاتب من عفا عنه. قال: فبكى جبريل وبكى النبى ﷺ. فبعث الله عز وجل إليهما ميكائيل فقال: إن ربكما يقرئكما السلام، ويقول لكما: كيف أعاتبُ من عفوتُ عنه، هذا ما لا يشبه كرمى».

ومن الرجاء: شدة الشوق إلى ما شوق إليه الكريم، وسرعة التنافس فى كل نفس ندب إليه الرحيم.

فأما الرجاء الذى يتوهمه جهلة الناس من الإقامة فى المعاصى، والانهماك فى الخطايا، وهو يرجو المغفرة وينتظر الكرامة، فليس هذا برجاء عند العلماء؛ لأن الرجاء مقام من اليقين، وليس هذا وصفُ الموقنين. لكن هذا اسمه اغترارٌ بالله تعالى، وغفلة عن الله تعالى، وجهلٌ بأحكام الله تعالى. وقد تهدد الله تعالى قومًا ظنوا مثل هذا، وأصروا على حب الدنيا والرضا بها، وتمنوا المغفرة على ذلك، فسماهم خلفاء، والخلف: الردىء من الناس، وتوعدهم بشديد البأس فى قوله عز وجل: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩].

والأخبار فى حقيقة الرجاء تزيد المغترين اغترارًا، وتزيد المستدرجين بالستر والنعيم خسارًا. وهى مزيدٌ للتوايين الصادقين، وقرّة عينٍ للمحبين المخلصين، وسرورٌ لأهل الكرم والحياء، وروحٌ وارتياحٌ لذوى العصمة والوفاء، ينصعُ به كرمهم، ويشتد^(١) عنده حيائهم، ويروحُ به كربهم، وترتاح إليه عقولهم، فهؤلاء

(١) فى (ط): «يتنفع به ويشتد» وأثبت ما فى (خ) و(ك).

يُستخرج منهم الرجاءُ وحسنُ الظنِّ من العبادات ما لا يستخرجه^(١) الخوف، إذ المخاوفُ تقطع عن أكثر المعاملات، فصار الرجاءُ طريقًا لأهله وصاروا واجدين به^(٢).

كما قال عمر رضى الله عنه: رَحِمَ اللهُ صُهْبًا، لو لم يخف الله تعالى لم يعصه. أى يترك المعاصى للرجاء لا للخوف، فصار الرجاءُ طريقه. فهؤلاء هم الرّاجون حقًا، وهذه علامتهم. ومثل هذا ذكرنا الأسباب التى تُوجب الرّجاء، وتُولد حُسْنَ الظنِّ فى قلوبِ أهل الصفاء، المعصومين من الهوى، الموقنين لحسنِ خِدْمَةِ المولى^(٣).

ومن الرّجاء: تحسينُ الأخلاق مع الخلق، وجميلُ الصّبر عليهم، وحسنُ الصّفح، ولطيفُ المدارة لهم، تقربًا إلى الله عزّ وجلّ بذلك، وتخلّقًا بأخلاقه، رجاءً ثوابه وطمعًا فى تنجيز وعده، واتباعًا لسنة رسوله ﷺ.

ومن الرّجاء: تركُ الأهواء الرديئة، والشهوات المطغية، ويحتسب فى ذلك على الله نفيسَ الذخائر العالية. فقد روينا عن حميدٍ عن أنسٍ قال: مُقابلُ عرشِ الرحمن غرفةٌ يُرسلُ إليها جبريل عليه السلام، فإذا انتهى إليها خرّ لله ساجدًا، ثم يقول: يا ربّ لمن خلقت هذه، لأى نبيّ، لأى صديق، لأى شهيد؟ قال: فيرد عليه عزّ وجلّ: لمن آثر هواى على هواه.

ومن الرّجاء: افتعالُ الطّاعات وحسنُ الموافقات، ينوئ بها ويسأل مولاه الكريم عظيمَ الرغائب وجميلَ المواهب لما وهب له من حُسْنِ الظنِّ به. كما روى عن النبي ﷺ: «إذا سألتُم الله تعالى فأعظموا الرّغبة وسلّوه الفردوس الأعلى، فإن الله عزّ وجلّ لا يتعاضمهُ شىءٌ». وفى حديث آخر: «فأكثروا، وسلّوا الدّرجاتِ العلى، فإنما تسألون جوادًا كريمًا».

وفى الآثار: «أن رجلين كانا من العابدين، متساويين فى العبادة، فإذا أُدخلا

(١) فى (ط): «ما لا يستروحه».

(٢) فى (ط): «رائجين به».

(٣) قوله «المعصومين ... المولى»: ساقط من (ط).

الجنة رُفِعَ أحدهما في الدرجاتِ العُلى على صاحبه. فيقول الآخر: يا ربّ، ما كان هذا في الدنيا بأكثر عبادةً لك منى، فرفعتُهُ علىّ في عليّين. فيقول الله سبحانه وتعالى: إنّه كان يسألنى في الدنيا الدرجاتِ العلى، وكنتَ أنتَ تسألنى النّجاةَ من النارِ. فأعطيتُ كلَّ عبدٍ سُؤْلَهُ».

وروينا في الخبر عن رسول الله ﷺ: «أن رجلاً يخرج من النار، فيُوقَف بين يدى الله تعالى، فيقول له: كيف وجدتَ مكانك؟ فيقول: يا ربّ شرّ مكان. فيقول: ردّوه إلى مكانه. قال: فيمشى ويلتفت إلى ورائه، فيقول الله عزّ وجلّ: إلى أىّ شىءٍ تلتفت؟ فيقول له: يا ربّ، قد رجوتُ أن لا تعيدنى إليها بعد إذ أخرجتنى منها، فيقول تعالى: اذهبوا به إلى الجنة». فقد صار الرجاء طريقه إلى الجنة، كما كان الخوف طريق صاحبه في الدنيا إليها. كما روينا: «إن الآخر سعى مبادراً إلى النار، لما قال: ردّوه. ف قيل له فى ذلك. فقال: لقد ذقتُ من وبال معصيتك فى الدنيا ما خفت من عذابه فى الآخرة. ف قيل: اصرفوه إلى الجنة». أو قال^(١): «خِفْتُ أن أعصيه فى الآخرة كما عصيته فى الدنيا. فقال: اذهبوا به إلى الجنة».

وقد قال الله سبحانه فى وصف قوم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]. فطرق لأوليائه إلى القرب والوسيلة الرجاء، كما طرق الخوف منه إليها. وهذا أحد الوجهين فى الآية لمن لم يجعله وصفاً للأصنام، لأنّها قُرئت بالتاء (تَدْعُونَ)، قرأها طلحة بن مُصَرِّف. فكَذلك ندب المؤمنين إلى طلب القرب منه فى قوله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥].

فهذه جملةُ أحكامِ الرّجاءِ وأوصافِ الرّاجين. فمن تحقّق بجميعها فقد استحقّ درجاتِ أهلِ الرّجاءِ، وهو عند الله تعالى من المقربين، ومن كان فيه وصف من هذه الأوصافِ فله مقامٌ من الرّجاءِ.

(١) من هنا إلى آخر الفقرة من (خ).

واعلم أن مقامات اليقين لا يُزيل بعضها بعضاً، ولكن يندرج بعضها في بعض. فمن غلب عليه حالٌ منها عَنْ وَجَدٍ مشاهدته وَصِفَ بما غلب عليه، واستجَنَ^(١) بما سوى ذلك من المقامات فيه. ومن عمل بشرطٍ مقامٍ منها فقام بحكم الله تعالى فيه نُقل إلى ما سواه، وكان المقام الأول له عِلْمًا، والثاني الذي أُقيم فيه له وَجَدًا. فكتُم الوجدَ لآفته سرُّه، وعَبَّرَ عن العلم لآفته قد جاوزه فصار له علانية.

ومقام الرجاء هو جندٌ من جنود الله عزَّ وجلَّ، يستخرج من بعض العباد ما لا يستخرج غيره، لأنَّ بعض القلوب تلين وتستجيب عن مشاهدة الكرم والإحسان، وتقبل وتطمئن بمعاملة النعم والإحسان ما لا يُوجد ذلك منها عند التخويف والترهيب، بل قد يقطعها ذلك ويوحشها، إذ قد جعل الرجاء طريقها فوجدت فيه قلوبها.

ومثَلُ الرجاء في الأحوال مثَلُ العوافى والغنى في الإنسان من الناس، من يقبل قلبه ويجمع همه عندهما، ويوجدُ نشاطه وتحسن معاملته بهما. كما روينا عن الله سبحانه وتعالى: «إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يَصْلَحُهُ إِلَّا الْغِنَى وَلَوْ أَفْقَرْتَهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ. وَمِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يَصْلَحُهُ إِلَّا الصَّحَّةُ وَلَوْ أَسْقَمْتَهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ. إِنِّي أَدْبَرُ عِبَادِي بَعْلَمِي، إِنِّي بِهِمْ خَبِيرٌ». فكذلك من عبادته من لا يصلحه إلا الرجاء، ولا يستقيم قلبه إلا عليه، ولا تحسن معاملته إلا بوجودِ حُسْنِ الظنِّ، فهو طريقه إليه، ومقامه منه، ومنه علمه به، وعنده يجد قلبه معه، إلا أنه وإن كان طريقًا يُخرج إلى الله عزَّ وجلَّ فإنَّ الخوفَ أقربُ منه، وما كان أقربَ فهو أعلى، كالغنى والعوافى طريقان إلى الله تعالى إلا أن الفقرَ والبلاءَ عندي أقربُ منهما وأعلى. والله غالب على أمره. وقد روينا عن معمر عن الحسن أنه قال: إِنَّمَا عَمِلَ النَّاسُ عَلَى قَدَرِ ظُنُونِهِمْ بِرَبِّهِمْ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَأَحْسَنَ بِاللَّهِ الظَّنَّ وَأَحْسَنَ الْعَمَلَ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ فَأَسَاءَ بِاللَّهِ الظَّنَّ، وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ.

(١) استجَنَ: أى أخفى.

شرح مقام الخوف، ووصف الخائفين وهو المقام الخامس من مقامات اليقين

قال الله عز وجل: ﴿وَمَا يَعْزِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. فرفع العلم على العقل، وجعله مقاماً فيه. وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، فجعل الخشية مقاماً في العلم حققه بها، والخشية حال من مقام الخوف، والخوف اسم لحقيقة التقوى، والتقوى معنى جامع للعبادة، وهي وصية^(١) الله تعالى للأولين والآخرين.

يَنْظُم هَذِينَ الْمَعْنِينَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]. وهذه الآية قطب القرآن: مداره عليها.

والتقوى سبب أضافه الله تعالى إليه تشريقاً له، ومعنى وصله به، وأكرم عباده عليه تعظيماً له، فقال [فِي هَذِينَ الْمَعْنِينَ]^(٢): ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، وقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وفى الخبر: «إذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم ناداهم بصوت يُسمع أقصاهم كما يُسمع أدناهم، يقول: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ أَنْصَتُ لَكُمْ مِنْذُ خَلَقْتُكُمْ إِلَى يَوْمِكُمْ هَذَا، فَأَنْصِتُوا إِلَيَّ الْيَوْمَ، فَإِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ. أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي جَعَلْتُ نَسَبًا وَجَعَلْتُكُمْ نَسَبًا، فَوَضَعْتُكُمْ نَسَبِي وَرَفَعْتُكُمْ نَسَبَكُمْ؛ قُلْتُ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ وَأَبَيْتُمْ إِلَّا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ^(٣)، وفلان أغنى من

(١) في (ط): «وهي رحمة».

(٢) زيادة من (خ).

(٣) زيادة من (خ).

فلان. فالיום أضع نسبكم وأرفع نسبى. أين المتقون؟ قال: فيُنصب للقوم لواء، فيتبع القوم لواءهم إلى منازلهم، فيُدخلهم الجنة بغير حساب».

والخوفُ حالٌ من مقامه العلم. وقد جمع الله تعالى للخائفين ما فرّقه على المؤمنين وهو: الهدى، والرحمة، والعلم، والرضوان، وهذه جملُ مقاماتِ أهل الجنان، فقال تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِربِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال جلّ ذكره: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨].

وفى خبر موسى عليه السلام: «وأما الخائفون فلهم الرفيقُ الأعلى، لا يُشاركون فيه». فأفردهم من غير مشاركة بالرفيق الأعلى، كما حققهم اليوم بشهادة التصديق؛ وهذا مقامٌ من النبوة، فهم مع الأنبياء فى المزية من قبل أنهم ورثة الأنبياء؛ لأنهم هم العلماء، قال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾، ثم قال تعالى فى وصف منازلهم: ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، بمعنى رفقا، عبر عن جماعتهم بالواحد لأنهم كانوا كأنهم واحد، وقد يكون «رفيقًا» مقامًا فى الجنة من علوِّ عليين، لقول الرسول ﷺ عند الموت، وقد خير بين البقاء فى الدنيا وبين القدوم على الله تعالى فقال: «أسألك الرفيق الأعلى». وفى خبر موسى عليه السلام: «فأولئك لهم الرفيقُ الأعلى». فدلّ أنهم مع الأنبياء بتفسير النبى ﷺ لذلك. وشرف مقامهم فوق كلِّ مقام لطلبِ رسول الله ﷺ ذلك.

فالخوفُ اسمٌ جامعٌ لحقيقة الإيمان، وهو علمٌ لوجود الإيقان، وهو سبب اجتناب كلِّ نهى، ومفتاح كلِّ أمر، وليس شىءٌ يحرق شهوات النفوس ويزيل آثار آفاتِها إلا مقامُ الخوف. وقال أبو محمد سهل رحمه الله تعالى: كمالُ الإيمان بالعلم، وكمالُ العلم بالخوف. وقال مرة: العلمُ كسبُ الإيمان، والخوفُ كسبُ المعرفة. وقال أبو الفيض المصرى: لا يُسقى الحبُّ كأسَ المحبة إلا من بعد أن يُنضج الخوفُ قلبه. وقال: خوفُ النارِ عند خوفِ الفراق بمنزلة قطرةٍ قطرت فى

بحرٍ لُجىّ.

فكلُّ مؤمن بالله تعالى خائف منه، ولكن خوفه على قدرِ قُربه. فخوفُ الإسلام اعتقادُ العزة والجبرية لله تعالى، وتسليم القدرة والسّطوة له، والتصديقُ لما أخبر به من عذابه، وما تهدّد به من عقابه. وقال الفضيل بن عياض: إذا قيل لك: تخاف الله، فاسكت؛ لأنّك إن قلتَ: لا، كفرت، وإن قلتَ: نعم، فليس وصفُك وصفَ من يخاف. وشكا واعظٌ إلى بعض الحكماء فقال: ألا ترى إلى هؤلاء أعظهم وأذكرهم فلا يرقون؟ فقال: وكيف ينتفع بالموعظة من لم يكن فى قلبه لله تعالى مخافة. وقد قال الله تعالى فى تصديق ذلك: ﴿سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ [الاعلى: ١٠ - ١١]، أى: يتجنب التذكرة الشقى. فجعل مَنْ عَدِمَ الخوفَ شقيًّا وحرَمه التذكرة.

فخوفُ عموم المؤمنين بظاهر القلب عن ظاهر العلم بالعقد. وخوفُ خصوصهم، وهم الموقنون، بباطن القلب عن باطن العلم بالوجد. فأما خوفُ اليقين فهو للتصديقين من شهداء العارفين عن مشاهدة ما أُمِرَ به من الصفات المخوفة. وقد جاء فى خير: «إذا دخلَ العبدُ فى قبره لم يبقَ شيءٌ كان يخافه دون الله عزّ وجلّ إلّا مثْلٌ له يُفزعُه ويرُعبه إلى يوم القيامة».

فأولُ خوفِ اليقين الموصوف الذى هو نعت الموصوفين من المؤمنين المحاسبة للنفس فى كلّ وقت، والمراقبة للربّ فى كلّ حين، والورعُ عن الإقدام على الشبهات من كلّ شيءٍ من العلوم بغير يقين بها، ومن الأعمال بغير فقه فيها. وفى خبر موسى عليه السلام: وأما الورعون فإنّه لا يبقى أحدٌ إلّا ناقشته بالحساب، وفتشته عمّا فى يديه، إلّا الورعين فإنّى أستحييهم وأجلّهم أن أوقفهم للحساب.

فالورعُ حالٌ من الخوف، ثم كفّ الجوارح عن الشبهات وفضول الحلال من كلّ شيء؛ بخشوع قلب، ووجود إخبات. وقال على كرم الله وجهه: من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشّهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرّمات.

ثم سجّنُ اللسان، وخزّنُ الكلام أن لا يُدخِلَ فى دين الله عزّ وجلّ ولا فى

العلم ما لم يشرعه الله تعالى في كتابه، أو لم يذكره رسوله ﷺ في سنته، أو لم ينطق به الأئمة من السلف في سيرهم مما لم يكن أصله موجوداً في الكتاب والسنة، وتسميته واضحة في العلم، فيجتنب ذلك كله ولا يقف ما ليس له به علم خوفاً من المساءلة عنه، ولا يدخل فيه لدقيق هوئى يدخل عليه، ولا لعظيم حظّ دنيا يدخل فيه.

وأن ينصح نفسه لله تعالى؛ لأنه أولى الخلق، ثم ينصح الخلق في الله تعالى، فيبتدئ بالنصح في أمور الدين والآخرة، ثم يعقبه في أسباب الدنيا، لأنّ أمور الدين والآخرة أهم، والغش في الدين أعظم، والتزوّد للمنقلب أثر.

روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ غَشَّ أُمَّتِي فعليه لعنة الله». قيل: وما غشّ أمتك يا رسول الله؟ قال: أن يبتدع لهم بدعة فيتبع عليها؛ فإذا فعل ذلك فقد غشّهم.

وثمرّة الخوف العلم بالله عزّ وجلّ؛ والحياء من الله عزّ وجلّ، وهو أعلى مَثُوبات^(١) أهل المزيّد. يستبين أحكام ذلك بمَعْنَيْنِ^(٢)؛ هما: جملة العبد أن يحفظ رأسه وما حواه من السمع والبصر واللسان، وأن يحفظ بطنه وما وعاه، وهو: القلب، والفرج، واليد، والرجل. وهذا خوف العموم وهو أول الحياء.

فأمّا خوفُ الخصوص: فهو أن لا يجمع ما لا يأكل، ولا يبنى ما لا يسكن، ولا يكثر فيما عنه ينتقل، ولا يغفل ولا يفرط عمّا إليه يرتحل. وهذا هو الزهد، وهو حياءٌ مزيّد أهل الحياء من مُقَرَّبِي المؤمنين^(٣). وقد جاء معنى ما ذكرناه في حديثين؛ أحدهما عام، والآخر خاص.

وكلُّ مَنْ لم يستعمل قلبه في بدايته، ويجعل الخوفَ حشواً لإرادته، لم يُنجب في خاتمته، ولم يكن إماماً للمتقين عند علو معرفته.

(١) في (ط): «سريرات» وأثبت ما في (ك) و(خ).

(٢) في (ط): «في معنيين»، وفي (ك) «من معنيين» وأثبت ما في (خ).

(٣) في (ط): «من تقوى أصحاب اليمين» وأثبت ما في (خ) و(ك).

وأعلى الخوف أن يكون قلبه مُعلّقًا بخوف الخاتمة، لا يسكن إلى علم ولا عمل، ولا يقطع على النجاة بشيء من العلوم وإن علت، ولا بسبب من الأعمال^(١) وإن جدّت، لعدم علمه بتحقيق الخواتم، فقد قيل: «إنما يُوزن من الأعمال خواتيمها».

وعن النبي ﷺ: «إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة، حتى يقال إنه من أهل الجنة - وفي خبر: حتى ما يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر - ثم يسبق عليه الكتاب فيُختم له بعمل أهل النار». ولا يتأتى في هذا المقدار من الوقت شيء من عمل الجسم بالجوارح، إنما هو من أعمال القلوب بمشاهدة العقول، وهو شرك التوحيد الذي لم يكن متحققًا به، وشك في اليقين الذي لم يكن في الحياة الدنيا مشاهدًا له. فظهر له بيان ذلك عند كشف الغطاء، فغلب عليه وصفه، وبدت فيه حاله، كما يظهر له أعماله السيئة فيستحلّ عليها قلبه، أو ينطق بها لسانه، أو يخامرها وجده، فتكون هي خاتمته التي تخرج عليها روحه، وذلك في سابقته التي سبقت له من الكتاب، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ [الأعراف: ٣٧]، تكون عند مفارقة الروح من الجسد ﴿وَأَنَّا لَمَوْفُوهُم نَصِيبُهُم مِّنْ غَيْرِ مَتَّقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩].

وقد جاء في خبر: «حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا فُواقُ ناقة، فيُختم له بعمل أهل النار». وهذا يكون عند بلوغ الروح التراقي، وتكون النفس قد خرجت من جميع الجسد، واجتمعت في القلب إلى الحلقوم، فهذا هو «شبر». و«فُواقُ ناقة»: هو ما بين الحلبتين. وقيل: هو شوط من عدوها بين سيرين.

وهذا من تقلّبات القلوب عند حقيقة وجهه التوحيد إلى وجهه الضلال والشك^(٢) عندما يبدو له من زوال عقل الدنيا وذهاب علم المعقول، فيبدو له من الله ما لم يكن يحسب.

(١) في (ط): «ولا لسبب من أعماله» وأثبت ما في (ك) و(خ).

(٢) في (ك) و(ط): «والشرك» وأثبت ما في (خ).

وأكثر ما يقع سوء الخاتمة لثلاث طوائف من الناس:

[الطائفة الأولى]: أهل البدع والزيغ في الدين، لأن إيمانهم مرتبطٌ بالمعقول، فأول آية تظهر لهم من قدرة الله تعالى أن يطيح عقله عند شهودها، فيذهب إيمانه ولا يثبت لمعاينتها، كما تحترق الفتيلة فيسقط المصباح.

والطائفة الثانية: أهل الكبر والإنكار لآيات الله عز وجل، وكراماته لأوليائه في الحياة الدنيا؛ لأنهم لم يكن لهم يقين يحمل القدرة، ويمدّه الإيمان، فيعتورهم الشك ويقوى عليهم لفقد اليقين.

والطائفة الثالثة، ثلاثة أصناف: متفرقون متفاوتون في سوء الخاتمة، وجميعهم دون تينك الطائفتين في سوء الخاتمة. لأن سوء الختم على مقامات أيضاً كمقامات اليقين والشرك في عمر الحياة، منهم: المدعى المتظاهر الذي لم يزل إلى نفسه وعمله ناظراً، والفاسق المعلن والمصر المدمن، تتصل بهم المعاصي إلى آخر العمر، ويدوم تقلبهم فيها إلى كشف الغطاء، فإذا رأوا الآيات تابوا إلى الله تعالى بقلوبهم، وقد انقطعت أعمال الجوارح، فليس يتأتى منهم؛ فلا تقبل توبتهم، ولا تُقال عثرتهم، ولا تُرحم عبرتهم، وهم من أهل هذه الآية: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ [النساء: ١٨]، وهم مقصودون بقوله عز وجل: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبا: ٥٤]، وهم معنيون بمعنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [غافر: ٨٤]، فنصوص الآية للكفار، ومعناها ومقام منها لأهل الكبائر وذوى الإصرار من الفاسقين الزائغين، من حيث اشتركوا في سوء الخاتمة. ثم تفاوتوا في مقامات منها تظهر لهم شهوات معاصيهم، ويعاد عليهم تذكُّرها لخلو قلبهم من الذكر والخوف، حتى يُختم لهم بشهادتها. فهذه الأسباب تجلب الخوف، وتقطع قلوب ذوى الألباب.

وقد كان أبو محمد سهل رحمه الله يقول: المريد يخاف أن يُبتلى بالمعاصي، والعارف يخاف أن يُبتلى بالكفر. وكذلك قال أبو يزيد رحمه الله تعالى قبله: إذا

توجَّهَتْ إلى المسجد كان في وسطى زُنَّار^(١)، أخاف أن يذهبَ بى إلى البيعةِ وبيتِ النار، حتى أدخلَ المسجدَ فيُقطعَ عني الزُّنَّار، فهذا لى فى كلِّ يومٍ خمس مرات^(٢).

هذا لعلمهم بسرعة تقلُّبِ القلوب فى قدرة علام الغيوب.

وقد رُوينا معنى ذلك عن عيسى عليه السلام أنه قال: يا معشر الحواريين، أنتم تخافون المعاصى، ونحن معشر الأنبياء نخاف الكفر.

ورُوينا فى أخبار الأنبياء أن نبيًّا شكَّا إلى الله تعالى الجوعَ والقملَ والعريَ سنينَ، وكان لباسه الصُّوف. فأوحى الله تعالى إليه: عبدى، أما رضيتَ أن عصمتُ قلبك أن تكفر بى حتى تسألنى الدنيا. فأخذ الترابَ فوضعهُ على رأسه وقال: بلى قد رضيتُ يا ربِّ، فاعصمنى من الكفر. فلم يذكر له نعمتهُ عليه بنبوته، وعرضه للكفر، وجوز دخوله عليه بعد النبوة، فاعترف ذلك النبى عليه السلام بذلك ورضى به واستعصم.

وقد كان عبد الواحد بن زيد^(٣)، إمامُ الزَّاهدين قبلهما، يقول: ما صدقَ خائفٌ قطَّ ظنَّ أنه لا يدخل النار، وما ظنَّ أنه يدخل النار إلا خاف أن لا يخرج منها أبدًا.

وقد قال الحسن البصري رحمه الله تعالى، إمامُ العلماء قبلهم: «يخرجُ من النار رجل بعد ألف عام، ويا ليتنى ذلك الرجل!»، هذا لشدة خوفه من الخلود فى الأبدية. قال: «فبعد أن أُخرج منها بوقتٍ لا أبالى».

والعدوُّ يدخل على العارفين من طريق الإلحاد فى التَّوحيد، والتَّشبيه فى اليقين، والوسوسة فى صفات الذات. ويدخل على المريدين من طريق الآفات والشَّهوات. من قبل أن العدو يدخل على كلِّ عبد من معنى همِّه، فيشكِّكه فى اليقين، كما يُزيِّن له الشَّهوات. فلذلك كان خوفُ العارفين أعظمَ، فأرواحُ

(١) الزُّنَّار: حزام للنصارى يوضع على الوَسَط. والبيعة: الكنيسة. وبيت النار: متعبد المجوس.

(٢) ما ذكره أبو اليزيد يكاد يكون من شطحاته؛ لأن مثل هذا الخوف قد يفسد اليقين والإيمان بالله، والعياذ بالله، فهو لم يثبت مثل هذا الخوف عن إمام الخائفين وسيد المرسلين ﷺ.

(٣) هو أبو عبيد البصرى، توفى سنة ١٧٧هـ. مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور، ٢٤٩/١٥.

الصَّادِقِينَ^(١) مُعَلَّقةً بِالسَّابِقَةِ، فَإِذَا سَبَقَ لَهُمْ مِنَ الْكَلِمَةِ هُنَاكَ مَشَاهِدُهُمْ، وَمَنْ ثُمَّ فَرَعَهُمْ، لَا يَدْرُونَ أَسْبَقَ لَهُمْ قَدَمَ صَدَقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ، فَيُخْتَمُ لَهُمْ بِمَقْعَدٍ صَدَقَ، فَيَكُونُونَ مِمَّنْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، أَوْ يَخَافُونَ أَنْ يَكُونُوا قَدْ حَقَّتْ عَلَيْهِمُ الْكَلِمَةُ، فَيَكُونُونَ مِمَّنْ قَالَ فِيهِمُ الرَّسُولُ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: هَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أَبَالِي»، فَلَا يَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ شَافِعٍ، وَلَا يَنْقُذُهُمْ مِنَ النَّارِ دَافِعٌ، كَمَا قَالَ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ: ﴿أَقْمَنُ حَقًّا عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [الزمر: ١٩]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [السجدة: ١٣]. فَهَذِهِ الْآيَةُ وَمَعْنَاهَا تَخْوِيفٌ لِأَوَّلَى الْأَبْصَارِ.

وَقَالَ عَالِمُنَا^(٢) رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِيَّاىَ فَاتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٤١]: عَمُومٌ، أَى فِيمَا نَهَيْتُ عَنْهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِيَّاىَ فَارْهَبُونَ﴾ [البقرة: ٤٠] أَى: فِى السَّابِقَةِ، وَهَذَا خُصُوصٌ.

وَقَدْ نَوَّعَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ خَوْفَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَقَامَيْنِ، فَقَالَ: قُلُوبُ الْأَبْرَارِ مُعَلَّقةٌ بِالْخَاتِمَةِ، يَقُولُونَ: لَيْتَ شِعْرَى مَاذَا يُخْتَمُ لَنَا بِهِ؟ وَقُلُوبُ الْمُقَرَّبِينَ مُعَلَّقةٌ بِالسَّابِقَةِ، يَقُولُونَ: لَيْتَ شِعْرَى مَاذَا سَبَقَ لَنَا مِنْهُ؟ وَهَذَانِ الْمَقَامَانِ عَنْ مَشَاهِدَتَيْنِ؛ إِحْدَاهُمَا أَعْلَى وَأَنْفَذُ مِنَ الْأُخْرَى لِلْحَالِينَ؛ أَحَدُهُمَا: أَتَمُّ وَأَكْمَلُ، فَهَذَا كَمَا قِيلَ: ذُنُوبُ الْمُقَرَّبِينَ حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ. أَى مَا يَرِغِبُ فِيهِ الْأَبْرَارُ فَهُوَ عِنْدَهُمْ فَضَائِلٌ قَدْ زَهَدَ فِيهِ الْمُقَرَّبُونَ فَهُوَ عِنْدَهُمْ حِجَابٌ.

وَمَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ، وَسَبَقَ لَهُ مِنْ مَوْلَاهُ الْخَتْمُ بِسُوءِ الْاِكْتِسَابِ، لَمْ يَنْفَعَهُ شَيْءٌ، فَهُوَ يَعْمَلُ فِى بَطَالَةٍ لَا أَجَرَ لَهُ وَلَا عَاقِبَةً، مِنْ قَبْلِ أَنْ سَوْءَ الْخَاتِمَةُ قَدْ تَكُونُ فِى وَسْطِ الْعُمُرِ، فَلَا يُتَنَظَّرُ بِهَا آخِرُهُ يَوَافِقُ مَعْصِيَةً تَكُونُ سَبِيحًا كَعِنْدِ الْخَاتِمَةِ، إِذْ هُمَا فِى سَبَقِ الْعِلْمِ سَوَاءٌ؛ فَالْخَاتِمَةُ حِينَئِذٍ فَاتِحَةٌ، وَالْوَقْتَانِ وَاحِدٌ، فَيَنْظُرُ إِلَيْهِ

(١) مَنْ (خ) فَقَط. أَمَّا (ك) وَ(ط) فَالْعِبَارَةُ: «فَارَوَاهُمْ مُعَلَّقة».

(٢) يَقْصِدُ «أَبَا مُحَمَّدٍ سَهْلَ التَّسْتَرِي».

نظرة بُعد، فهو يزداد بأعماله بُعداً^(١)، فإذا انقطعت الآجال وانتهت الأعمال تنهى في الإبعاد فحلّ في دار البعد. وقد روينا في الخبر: «والله لا يقبل الله تعالى من مُبتدع عملاً». إنه ردّ على الله تعالى سننه فردّ عليه عمله، كلما ازداد اجتهاداً ازداد من الله تعالى بُعداً، كما قال الحكيم:

مَنْ غَصَّ دَاوَى بِشْرِبِ الْمَاءِ غَصَّتْهُ فَكَيْفَ يَصْنَعُ مَنْ قَدْ غَصَّ بِالْمَاءِ؟
بَلْ كَيْفَ يَصْنَعُ مَنْ أَقْصَاهُ مَالِكُهُ؟ فَلَيْسَ يَنْفَعُهُ طِبُّ الْأَطْبَاءِ

وعن مشاهدة هذا المعنى كان خوفُ الحسن البصري رحمه الله تعالى وحزنه، لعلمه بأنه عزّ وجلّ لا يبالى ما فعل، فخاف أن يقع بوصف الجبريّة في ترك المبالاة، وأن يجعله نكالا لأصحابه، وموعظة لأهل طبقة. يقال: إنه ما ضحك أربعين سنة. وكنت إذا رأيته قاعداً كأنه أسير قدّم ليضرب عنقه، وإذا تكلم كأنه يعاين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها، وإذا سكت كأن النار تسعر بين عينيه. وعُتِبَ في شدة حزنه فقال: ما يؤمّنني أن يكون قد اطلع علىّ في بعض ما يكره فمقتني، فقال: اذهب فلا غفرتُ لك، فأنا أعمل في غير معملٍ. فنحن أحقُّ بهذا من الحسن رحمه الله.

ولكن ليس الخوفُ يكون لكثرة الذنوب، فلو كان كذلك لكنّا أكثرَ خوفاً منه؛ إنّما يكون لصفاء القلب منها، وشدة التعظيم لله تعالى. وقد بُشِّرَ العلاءُ بن زياد العدويّ بالجنة، وكان من العبّاد، فغلّق عليه بابهُ سبعاً، ولم يذُق طعاماً، وجعل يبكي، ويقول: أنا أنا.. في قصة طويلة. حتى دخل عليه الحسن فجعل يعذّله في شدة خوفه وكثرة بكائه. وقال: يا أخى من أهل الجنة إن شاء الله تعالى، أقاتلُ نفسك؟ فما ظنّك برجلٍ يعذّله الحسنُ في الخوف؟

وقد كان مَنْ فوقهم من عليّة الصحابة يتمنّون أنهم لم يُخلَقوا بشراً، وقد بُشِّروا بالجنة يقيناً في غير خبر. من ذلك قول أبي بكر رضى الله عنه: ليتنى مثلك يا طير، وإنّى لم أُخلق بشراً. وقول عمر رضى الله عنه: ودِدْتُ أنّى كنتُ كبشاً

(١) هذه الجملة والتي قبلها كانتا مقدمتين في المطبوعة، وأثبت ترتيب (خ).

ذبحني أهلي لضيفهم. وأبو ذر رضى الله عنه يقول: وددت أنى شجرة تُعصد. وطلحة والزبير رضى الله عنهما يقولان: وددنا أنا لم نُخلق. وعثمان رضى الله عنه يقول: وددت أنى إذا مت لا أبعث. وعائشة رضى الله عنها تقول: وددت أنى كنت نسيًا منسيًا. وابن مسعود رضى الله عنه يقول: ليتنى أنى أكون رمادًا. وفى رواية عنه: ليتنى كنت بعرّة، ليتنى لم أك شيئًا. فى طبقة يكثر عددهم، ونحن فى ارتكاب الكبائر نُحدث نفوسنا بالدرجات العلى، والقرب من سِدرة المنتهى، ونسينا أن أبانا آدم صلوات الله عليه أُخرج من الجنة بعد أن دخلها بذنب واحد، ونحن لم نرها بعد، فإنما نضرب فى حديد بارد.

ورؤينا فى خبر: «أن رجلاً من أهل الصفة استشهد، فقالت أمه: هنيئًا لك، عصفورٌ من عصافير الجنة، هاجرت إلى رسول الله ﷺ، وقُتلت فى سبيل الله تعالى. فقال النبى ﷺ: وما يدريك؟! فلعله كان يتكلم فيما لا يعنيه، ويمنع ما لا يضره». وفى حديث آخر بمثل هذه القصة: «أنه دخل على بعض أصحابه وهو عليل، فسمع أمه تقول: هنيئًا لك الجنة. فقال: من هذه المتألية على الله عز وجل؟ فقال الرجل: هى أمى يا رسول الله. فقال: وما يدريك؟! لعل فلانًا كان يتكلم بما لا يعنيه، ويخل بما لا يُغنيه».

ورؤينا بمثل معنى هذا أن النبى ﷺ صلى على طفل منفوس، وفى رواية: أنه سُمع يقول فى دعائه: «اللهم قه عذاب القبر، وعذاب جهنم». وفى رواية ثانية: «أنه سَمِعَ قائلة تقول: هنيئًا لك، عصفورٌ من عصافير الجنة. فغضب وقال: «ما يدريك أنه كذلك، والله إني رسولُ الله وما أدرى ما يُصنع بى. إن الله عز وجل خلق الجنة وخلق لها أهلاً، وخلق النار وخلق لها أهلاً، لا يُزاد فيهم ولا يُنقص منهم». وقد قاله رسول الله ﷺ فى جنازة عثمان بن مظعون، وكان من المهاجرين الأول، ولما استشهد قالت أم سلمة رضى الله عنها ذلك. وكانت تقول: والله لا أركى أحداً بعد عثمان رضى الله عنه.

وأعجب من ذلك أنا رؤينا عن محمد بن [خولة]^(١) الحنفية رضى الله عنه أنه

(١) زيادة من (خ).

قال: والله لا أركي أحدًا غير رسول الله ﷺ، ولا أبي الذي ولدني. قال: فثارت^(١) الشيعة. فأخذ يذكر من فضائل عليّ كرم الله وجهه ومناقبه.

فهذه المعاني أحرقت قلوب الخائفين. ولعلّ ذكر البعد في الإبعاد الذي شيب الحبيب القريب، في قوله ﷺ: «شيتني هود وأخواتها؛ سورة الواقعة، وإذا الشمس كورت، وعم يتساءلون»؛ لأنّ في سورة هود ﴿الْأَبْعَدُ لَثُمُودَ﴾ [الآية: ٦٨]، ﴿الْأَبْعَدُ لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ﴾ [الآية: ٦٠]، ﴿الْأَبْعَدُ لِمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ ثُمُودُ﴾ [الآية: ٩٥]. وفي سورة الواقعة: ﴿لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ [الآية: ٢]، يعنى وقعت السابقة ممّن سبقت له السابقة، وحقّت الحاقة لمن حقّت عليه الحاقة، ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ [الآية: ٣] خفّضت قومًا في الآخرة كانوا مرفوعين في الدنيا، حين ظهرت الحقائق وكُشِفَت عواقبُ الخلائق. وأمّا سورة التكويد، ففيها خواتم المصير، وهى صفة القيامة لمن أيقن، وفيها تُجَلَّى معانى الغضب لمن عاين آخر ذلك: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُحْضِرَتْ﴾ [الآيات: ١٢ - ١٤] هذا فصل الخطاب، أى عند تسعير النيران، واقتراب الجنان، حينئذ يتبين للنفس ما أحضرت من شرٍّ يصلح له الجحيم، أو خير يصلح له النعيم، وتعلم إذ ذاك من أى أهل الدارين تكون، وفى أى منزلين تحلّ. فكم من قلوب قد تقطّعت حشرات على الإبعاد من الجنان بعد اقترابها؟ وكم من نفوس تصاعدت زفراتٍ عن يقينها بمعاينة النيران أنّها تصيبها؟ وكم من أبصارٍ ذليلة خاشعةٍ لمشاهدة الأهوال؟ وكم من عقول طائشةٍ لمعاينة الزلزال؟

وحدثنا عن أبى محمد سهلٍ رحمه الله تعالى قال: رأيتُ كأننى أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ فلقيتُ فيها ثلاثمائة نبيٍّ، فسألتهُم: ما أخوف ما كنتم تخافون فى الدنيا؟ فقالوا لى: سوء الخاتمة.

فالخاتمة هى من مكر الله تعالى الذى لا يُوصَف ولا يُفْطَن له، ولا عليه يُوقَف، ولا نهاية لمكره، لأنّ مشيئته وأحكامه لا غاية لها.

(١) فى (ط): «فتكلمت» وأثبت ما فى (خ).

ومن ذلك الخبر المشهور: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَجَبْرِيلَ بِكِيَا خَوْفًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى . فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِمَا: لِمَ تَبْكِيَانِ وَقَدْ أُمِّتُكُمَا؟ فَقَالَا: وَمَنْ يَأْمَنُ مَكْرَكَ؟» .

فلولا أنهما عَلِمَا أن مَكْرَهُ لا نهاية له ، لأنَّ حكمه لا غاية له ، لم يقولَا : ومن يأمن مَكْرَكَ ، مع قوله : «قد أُمِّتُكُمَا» ، ولكان قد انتهى مَكْرُهُ بقوله ، ولكانا قد وقفنا على آخر مَكْرِهِ ، ولكن خافا من بَقِيَّةِ المَكْرِ الذى هو غيب عنهما ، وَعَلِمَا أنَّهما لا يقفان على غَيْبِ اللَّهِ تَعَالَى ، إذ هو عَلَامُ الغيوب ، فلا نهاية للعلَامِ فى علم ، ولا غاية للغُيوب بوصف . فلم يحكم عليهما القول ، لعنايته بهما ، وفضل نظره إليهما ، ولأنَّهما على مزيدٍ من معرفة الصفات ، إذ المَكْر عن الوصف وإظهار القول لا يقضى على باطن الوصف ، فكأنما خافا أن يكون قوله تعالى : «قد أُمِّتُكُمَا مَكْرِي» مَكْرًا منه أيضًا بالقول ، على وصفٍ مخصوصٍ عن حكمةٍ قد استأثر بعلمها ، يختبر بذلك حالهما ، وينظر كيف يعملان ، تبعْدًا منه لهما به ، إذ الابتلاء وصفه من قَبْلِ أن المبتلى اسمه ، فلا يترك مقتضى وصفه لتحقيق اسمه ، ولا تُبدَلُ سنَّتُهُ التى قد خَلَّتْ فى عبادِهِ ، كما اختبر خليله عليه السلام لما هوى به المنجنيق فى الهواء ، فقال : حسبى الله ربى . فعارضه جبريل عليه السلام ، فقال : ألك حاجة؟ قال : لا . وفاءً بقوله : «حسبى الله» فصَدَّقَ القول بالعمل . فقال الله تعالى : ﴿وَأَبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧] أى بقوله : حسبى الله .

ولأنَّ الله تعالى لا يدخل تحت الأحكام ، ولا يلزمه ما حكم به على الأنام ، ولا يُختبر صدقه سبحانه وتعالى ، ولا يجوز أن يُوصف بضدِّ الصدق ، وإن بدَّلَ الكلم هو بتبديل منه ، لأنَّ كلامه قائم به ، فله أن يبدِّلَ به ما شاء ، وهو الصَّادِق فى الكلامين ، العادل فى الحُكْمَيْنِ ، الحاكم فى الحالين ؛ لأنَّه حاكمٌ عليه ، ولا حُكْم يلزمه فيه ؛ لأنَّه قد جاوز العلوم والعقول التى هى أماكن للحدود من الأمر والنهى ، وفات الرُّسُومَ والمعقولَ التى هى أواسط الأحكام والأقدار .

وفى مشاهدة ما ذكرناه علمٌ دقيقٌ من علوم التوحيد ، ومقام رفيعٌ من أحوال التوحيد ؛ وبمثل هذا المعنى وصف صفية موسى فى قوله تعالى : ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ [طه: ٦٧] بعد قوله تعالى : ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ

وَأَرَى ﴿طه:٤٦﴾. فلم يأمن موسى أن يكون قد أُسِرَّ عنه في غيبه، واستثنى^(١) في نفسه سبحانه ما لم يُظهِرْ له في القول، لمعرفة موسى عليه السلام بخفي المكر وباطن الوصف، ولعلمه أنه لم يُعْطِ الحكم، إذ هو محكوم عليه مقهور، فخاف خوفاً ثانياً حتى آمنه أمناً ثانياً بحكم ثانٍ، فقال: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه:٦٨]، فاطمأن إلى القائل، ولم يسكن إلى الإظهار الأول، لعلمه بسعة علمه أنه هو علام الغيوب التي لا نهاية لها؛ ولأن القول أحكام، والحاكم لا تحكم عليه الأحكام، كما لا تعودُ عليه الأحكام، وإنما تُفَضَّلُ الأحكام من الحاكم العلام، ثم تعود على المحكومات أبداً.

ولأنه جلّت قدرته لا يلزمه ما ألزم الخلق الذين هم تحت الحكم، ولا يدخل تحت معيار العقل والعلم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً عند من عرفه فأجله وعظمه عن معارف مَنْ جهله. ومن هذا قول عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُهُ تَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ لما قال له: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة:١١٦]. ومثل هذا قوله في يوم القيامة: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨]، فجعلهم في مشيئته لعزته وحكمته.

ولا يصلح أن يُكشَفَ حقيقة ما فصلناه في كتاب، ولا ينبغي أن يُرسم ما رمزناه من الخطاب، خشية الإنكار، وكراهة تفاوت علم أهل المعقول والمعياري، إلا أن يُسأل عنه من أُقيم فيه وأريد به من ذوى القوة والأبصار، فيُنقل من قلب إلى قلب، فحينئذ يتلوه شاهدٌ منه، أو يكشفه علام الغيوب في سرائر القلوب بوحى الإلهام، ويقذفه بنور الهدى للإعلام. والله الموفق مَنْ شاء من العباد لما شاء من الحيلة بشيء من علمه إذا شاء بِتَوَكُّلِهِ^(٢)، وهو الفتّاح العليم، إذا فتح القلب علمه، وإذا نورّه باليقين ألهمه.

(١) كذا في (ك)، وفي (خ): «واستأثر لنفسه».

(٢) في (ط): «الحيلة بالعلم» وأثبت ما في (ك).

ومن خوف العارفين علمهم بأن الله تعالى يخوف عباده بمن شاء من عباده الأعلين يجعلهم نكالا للآدين، ويخوف العموم من خلقه بالتنكيل ببعض الخصوص من عباده، حكمة له وحكما منه. فعند الخائفين في علمهم أن الله تعالى قد أخرج طائفة من الصالحين نكالا خوفاً بهم المؤمنين، ونكل بطائفة من الشهداء خوفاً بهم الصالحين، وأخرج جماعة من الصديقين خوفاً بهم الشهداء. والله تعالى أعلم بما وراء ذلك. وقد أخرج جماعة من الملائكة وعظ بهم النبيين، وخوف بهم الملائكة المقرين.

فصار من أهل كل مقام عبرة لمن دونهم، وموعظة لمن فوقهم، وتخويفاً وتهديداً لأولى الأبصار، وهذا داخل في بعض تفسير قوله عز وجل: ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الاعراف: ١٧٥]. قال بعض أهل التفسير في أخبار بلعم بن باعوراء: إنه أوتى النبوة. والمشهور أنه أوتى الاسم الأكبر، فكان سبب هلاكه، وهو مقتضى وصف من أوصافه وهو ترك المبالاة بما أظهر من العلوم والأعمال، فلم يسكن عند ذلك أحد من أهل المقامات في مقام، ولا نظر أحد من أهل الأحوال إلى حال، ولا أمن مكر الله تعالى عالم به في كل حال. كيف وقد سمعوه تبارك وتعالى يقول: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج: ٢٨]، فأجهل الناس من أمن غير مأمون، وأعلمهم من خاف في الأمن، حتى يخرج من دار الخوف إلى مقام أمين؛ فهذا خوف لا يقوم له شيء، وكرب لا يوازيه مقام ولا عمل، لولا أن الله تعالى عدله بالرجاء لأخرج إلى القنوط، ولولا أنه روحه بروح الأُنس بحسن الظن لأدخل في الإياس. ولكن إذا كان هو المعدل وهو المروّج، كيف لا يعتدل الخوف والرجاء؟ [ولم] ^(١) لا يمتزج الكرب بالروح؟

والرضا حكمة بالغة، وحكم نافذ لعلم سابق وقدّر جار، ما شاء الله لا قوة إلا بالله ^(٢).

(١) زيادة من (خ).

(٢) في (ك): «بالله العلي العظيم».

وفى شهود ما ذكرناه علمٌ عن مشاهدة توحيد لمن أشهده، فأقلُّ ما يفيد علمُ هذا الخائفين تركُ النظرِ إلى أعمالهم، ورفعُ السَّكُونِ إلى علومهم، وصدقُ الافتقارِ فى كل حال، ودوامُ الانقطاع بكل همٍّ، والإزراءُ على النفس فى كل وصف. وهذه مقاماتٌ لقوم، فيكون هذا الخوف سببَ نجاتهم من هذه الوقائع، إذ قد جعل الله تعالى التخويف أمانةً من الأخذ بالمفاجأة، وسبباً للرأفة والرحمة لمن ألبسه إياه، وهو أحد الوجهين فى قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [النحل: ٤٥]، ثم قال تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٧].

وليس يصلح أيضاً أن يكشف سرُّ المخاوف من الخاتمة والسَّابقة، لأن ذلك يكون عن حقائق معانى الصفات التى ظهرت عن حقيقة الذات، فأظهرت بدائع الأفعال وغرائب المآل، وأعادت الأحكام على مَنْ أظهر بها، وجعل لها مَن حَقَّت عليه الكلمات، وجعلت نصيبه من معانى هذه السَّيرة من الصفات، فيؤدى ذلك منّا إلى كشف باطن الأوصاف. وهذا غير مأمور به ولا مأذون فيه، لأنه لا يجب فلم يُؤمر به، ولأنه لم يبح فلم يؤذن فيه. وهو من سرِّ القدر، وقد نهى عن إفشائه فى غير خبر، ولو لم يطلع الأولياء عليه لما قيل: فلا تُفشوه.

فإن أقام الله تعالى عبداً مقامَ هذه المشاهدة، أغناه بالمعاينة عن الخبر، وأنسه بالمحادثة عن الأثر، وذلك هو العلم النافع الذى يكون العلامة معلّمة، وذلك هو الأثر اللازم الذى يكون الجاعل مؤثراً. ومن يتق الله يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب. ومن يتوكل على الله فهو حسبه. فالكُتُبُ التى لا يُمحي ما كان من نوره، والعين التى لا تخفى لأنها بحضوره، والنور الذى لا يُطفأ لأنه من رَوْحه، والروح الذى لا كرب فيه لأنه من ريحانه، والمدد الذى لا ينقطع إذ هو من روحه. وقد كتب وأيد، وكلُّ كُتُبٍ بيد مخلوقٍ فغيرُ محفوظٍ وقد يضيع، وكلُّ أيدٍ^(١) بغير رَوْحه فمقطوعٌ، وما كتبه الصَّانع بصنعه فى قلبٍ حفيظٍ فمثبتٌ عتيديٌّ.

(١) قوله «أيد»: أى تأييد وإمداد.

وقد رُوينا عن زيد بن أسلم فى قوله تعالى: ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢٢] قال: قلب المؤمن. وقال آخر فى قوله: ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾: قلب العارف. وقال بعض أهل المعرفة: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ﴾: قلوب المقربين رفعت إلى وصف الخالق عن ذكر المخلوقين، ﴿وَيُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦]: بالتوحيد على تجريد الوحدانية عن شهادة الأحدية.

وقد كان أبو محمد سهل رحمه الله تعالى يقول: الصدر هو الكرسي، والقلب هو العرش. والله تبارك وتعالى واضع عليه عظمته وجلاله، وهو مشهود به بلطفه وقربه. فصدر المؤمن أوله صمدية، وآخره روحانية، وأوسطه ربوبية، فهو صمدى روحانى ربانى، وقلبه أوله قدرة، وآخره بر، وأوسطه لطف. فإذا كان كذلك، فهو مشكاة فيها مصباح يرى به الزجاج كأنها كوكب درى، يشهد به الأخرى، فهو مرآة حيث يرى، فيرى به الوجه، ويجده عنده كما يراه به من وراء مرآة المشاهدة من قلب موقن بعين يقين.

ولا يحلّ للعلماء أيضاً كشف علامات سوء الخاتمة فيمن رأوها فيه من العمال، لأنّ لها علامات جلية عند المكاشفين بها، وأدلة خفية عند العارفين المشرف بهم عليها، ولكنها من سرّ المعبود فى العبد، خبيثة وخبأة فى خزائن النفوس لم يطلع عليها إلا الأفراد، وقد ستر ذلك وغطاه بسعة رحمته وحلمه وكثيف ستره وفضله وسيخرج ذلك الخبء ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ عند غضبه وعظيم سطوته ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ﴾ من عمل ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ٩ - ١٠] من علم. لا قوة له فينتصر بها؛ لأنّ النصرة عزة وهو ذليل، ولا ناصر؛ لأنّ الناصر هو الخاذل، والمقوى هو المضعف. فما أسوأ حال من لا ينصر نفسه، وليست له من مولاة صحبة، ولو صحبه لنصره، ولو نصره لأعزه، ولو وليه لهرب منه عدوه، كما قال: ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ٣]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنْهَا يُنْصِحُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٣].

وقال تعالى في ذكر مَنْ كَفَاهُ فَنَصَرَهُ، وَوَلِيَهُ فَآزَرَهُ: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥]. وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦]. فمن حكمته غَفْرُهُ، ومن رَحْمَتِهِ سِتْرُهُ. وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥]، يوم تُبْلَى السَّرَائِرُ بِكَشْفِ الضَّمَائِرِ^(١).

فهذه المشاهدات تُوجِبُ حقائقَ المخاوفِ لمن كان عارفاً بها، وهى من سِرِّ الْمَلِكِ وَخَبْءِ^(٢) الْمَلَكُوتِ.

على أَنَّ للعبد عند الموت علامات، ليس تَخْفَى على العارف بسوءِ الخاتمةِ بها، لمشاهدته لها. وللأحياء علاماتٌ عند المكاشفين على الاطلاع يعرفون بها سوءَ الخاتمةِ منهم. وهذا علمٌ مخصوصٌ به مَنْ أقيم مقامَ مقاماتِ المكاشفات عن مشاهدة حقيقة من ذات، وهو سرُّ علامِ الغيوبِ عند مَنْ أطلعَهُ عليه من أهلِ القلوب. لأنَّ الكشفَ يتنوعُ أنواعاً من المعانى. فمنه كشف معانى الآخرة، ومنه كشف بواطن الدنيا، ومنه الاطلاع على حقائق الأشياء المستورة بظواهر الأحكام الماثورة. فهذا من سِرِّ الملكوت، ومن معانى كشوف الجبروت. وقد جاء فى خبر: «الْقَدْرُ سِرُّ اللَّهِ فَلَا تُكْشِفُوهُ»؛ فهذا خطاب لمن كُوشِفَ به، وفى خبر آخر: «سِتْرُ اللَّهِ فَلَا تُكْشِفُوهُ»؛ فهذا خطاب لمن لم يُكاشَفْ به، وهذا نهى عن السؤال عنه، وهو داخل فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] أى: لا تتبع نفسك علم ما لم تُكَلَّفْ، ولا تسأل عما لم يُجعل من علمك، ولم يُوكَلِ إليك. ولأنه إذا عَلِمَهُ لم ينفعه علمه شيئاً، وإنما ينفعه علمُ الأحكام والأسباب لانتها طرقات. وبمثل مخاطبة المؤمنين خاطبَ أنبياءهم عليهم السلام فى هذا المعنى، فى قوله تعالى لنوح عليه السلام حين قال: إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي، وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ، لَأَنَّهُ

(١) توجد بعض الزيادات فى هذه الفقرة من (خ).

(٢) فى (ط): «وخباء» وأثبت ما فى (خ) و(ك).

قد كان وعده نجاة أهله، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٦]، أى: دعاؤك ومسألتك لى ما لم أجعله من علمك ولم أكله إليك عملٌ غير صالح، فأزجرُكَ أن تكون من الجاهلين بذلك، فعندها استغفر ربه واسترحمه، واستعاذَ به أن يسأله ما ليس من علمه، وما لم يجعل له برسمه^(١).

وإن العبد عند موته فى آخر ساعة من عمره يُكشَف له عند كشف الغطاء عن بصره أوجه كثيرة قد اتَّخَذَت آلهة من دُون الله، أو أَشْرِك بها مع الله تعالى؛ وكلُّها تزيين وغرور. فإن وقف القلبُ مع أحدها، أو زَيَّن له بعضها فاستهواه، أو قَلَّب قلبه فى شىء فأغواه^(٢) عند آخر أنفاسه، خُتِم له بذلك، فخرجت روحه على الشكِّ أو الشرِّك، وهذا هو سوءُ الخُتْم^(٣) بما سَبَق له من الحُكْم، وَحَاقَ به للقَدَر الخُتْم. وهو نصيب العبد من الكتاب فى السَّابِقة عند خلق الأرواح، معدومةٌ لها فى الأشباح المُرَافِقة لها فى الآباد والآزال قبل إظهار الأكوار والأدوار، فشَهِدَتْها الأرواحُ هناك غروراً، ووقفت معها إذ زُوِّرَتْ لها زوراً رُسُومُ القلوب فى التخطيط، قبل خلق الأجسام بها المُحِيط، وقبل حجبها بكشف هياكل الصُّورة عند ظهورها فى المواجد، وقبل إقامتها بشواهد العقل لكن بحُكْم الأوليّة به لفعل أُبْدِيَتْ، وبمعنى القيوميّة وَجِدَتْ، وبوصفِ الجامع جُمِعَتْ، ثم فُرِّقَتْ ههنا، فظهرت الآن عند الفراق لما كانت أُشْهِدَتْ فى التلاق، واعترفت فى الآخر بما كانت نطقَتْ وعَمَلَتْ فى الأوّل. فخرجت الروح على ما شَهِدَتْ، وشَهِدَتْ^(٤) ههنا ما كانت قبلهما أُشْهِدَتْ، فرجعتُ بشَهادتها الآنَ إلى المآل، إذ قامت اليوم

(١) من قوله «فأزجرُكَ» إلى هنا زيادة من (خ). ومن هذا الموضع تكثر زيادات نسخة (خ) زيادة كبيرة ومتعددة يصعب الإشارة إليها فى كل موضع أو وضعها بين معكفات؛ لأنها من صلب النص ومهمة له، ولولا الطمس الذى أصاب هذه النسخة لاعتمدتها كاملة دون الرجوع إلى المطبوعة؛ لأنها جيدة متقنة وبها زيادات مهمة. وانظر ما ذكرته عنها فى المقدمة.

(٢) فى (ط): «فى شىء منها».

(٣) فى (ط): «سوء الخاتمة، وهو نصيب العبد» وما بينهما من (خ).

(٤) من هنا إلى آخر الفقرة من (خ).

بحدِّ شاهدها فيما كان . واللهُ غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

فهذا كان خبر السَّابِقَةِ التى أدركت الأرواحَ المرافقة لها فى الأجسام لما جُمِعَتْ عند الخاتمة ، فَخَرَجَتْ ^(١) ممَّا به وُلِّجَتْ ، وَدَرَجَتْ فيما عنه خَرَجَتْ . ومن ذلك جاء فى الأثر : «يَأْخُذُ مَلِكُ الْأَرْحَامِ النُّطْفَةَ فى يده ، فيقول : يا ربِّ ، أَذْكَرُ أمْ أُنْثَى ، أَسْوَى أمْ مُعْوَجٌّ ، ما رِزْقُهُ ، ما عِلْمُهُ ، ما أَثَرُهُ ، ما خُلُقُهُ ، ما أَجَلُهُ ؟ فيقول الله تعالى ما شاء ، وَيُطِيعُ الْمَلِكُ بِقَوْلِهِ ، وَيَصُورُ اللَّهُ عَلَى يَدِهِ كَيْفَ يَشَاءُ . فإذا فَرَّغَ مِنْ صُورَتِهِ قَالَ الْمَلِكُ : يا ربِّ ، أَنْفَخُ فِيهِ بِالسَّعَادَةِ أَوْ بِالشَّقَاوَةِ ؟ فيقول الْمَلِكُ ما شاء ، وَيَنْفَخُ الْمَلِكُ بِمَا قَالَ » . فلذلك خرجت الروحُ بمعنى ما به دَخَلَتْ .

﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ فسلام من كلِّ هلاكٍ لسلامته من الإِشْرَاقِ ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ * إِنْ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة : ٨٨ - ٩٥] .

﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة : ١ - ٢] إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ بِنِ حَقَّتْ عَلَيْهِ الْكَلِمَةُ ، وفى جميع ذلك قُدْرَةٌ وَحِكْمَةٌ بِالْغَةِ .

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الاعراف : ٢٩ -

٣٠] .

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا﴾ [الأنبياء : ١٠٤] .

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة : ١٣] .

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم : ٤٧] .

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء : ١٠١] .

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس : ٩٦] .

(١) من هنا وحتى قوله «فهذه آى المخاوف» توجد زيادات كثيرة من (خ) تتخلل الكلام .

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾.

ثم وصفهم فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩] عن الله، إلى آخر الآية.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِّنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾

[الأنبياء: ١٠٥] يعنى: أرض الجنة التى وعد الرحمن عباده بالغيب.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ الآية [الزمر: ٧٤]، هذا تأويله

الذى يؤول بعده.

﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ [المؤمنون: ٦٣] يعنى: غير التى كانوا عملوها

سيعملوها فيما بعد عند آخر العمر.

﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] عند المعاينة، عملوا

أعمالاً حسبوها حسنات فرأوها عند المحاسبة سيئات.

فهذه^(١) آى المخاوف، وهى من المحكمات، ليس فيها أمرٌ ولا زجرٌ، وردت فى السوابق الأول، والخواتم الآخر. وجاءت بالخبر عن قديم الخبر، فيها سرائرُ الغيوب، وغرائبُ الفهوم، ومخاوفُ القلوب، وزواجرُ النفوس، وبصائرُ العقول، لمن كان له قلبٌ. وهى من آى المطلع لأهل الإشراف على شرفات العرش والأعراف.

وقد كثرت الأخبارُ فيمن عبد الله واجتهد أكثرَ عمره، ثم أُحْبِطَ ذلك بعُجب ساعة، أو بكلمة كبر، أو بإزارائه على غيره. وجاءت الأخبارُ بأعمال تُرفع إلى السماء، ويبنى بها الدرجاتُ العلى، ثم ينظرُ الله تعالى إلى صاحبها نظرةً بُعد، أو يَمَقَّتُهُ، فتَنهَدُمُ الدرجات، وتسقُطُ المنازل^(٢).

وقال بعضُ العارفين: لو علمتُ أحداً على التوحيدِ خمسينَ سنةً، ثم حالتُ

(١) هذه الفقرة التى بعدها ليس منها فى (ط) سوى سطر واحد، والباقي من (خ).

(٢) إلى هنا ينتهى النقل عن (خ).

بينى وبينه أسطوانة، فمات، لم أقطع له بالتوحيد لأتّى لا أدري ما ظهر من التقلب.

وقد كان أبو محمد سهل رحمه الله يقول: خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل حركة، وكل خطرة وهمّة، يخافون البعد من الله تعالى، وهم الذين مدح الله تبارك وتعالى: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. وقال: لا يصحّ خوفه حتى يخاف من الحسنات كما يخاف من السيئات. وقال أيضاً: أعلى الخوف أن يخاف سابق علم الله تعالى فيه، ويحذر أن يكون منه حدثٌ خلاف السنة يجره إلى الكفر. وقال: خوف التعظيم ميزان خوف السابقة.

وكان بعض العارفين يقول: لو كانت الشهادة على باب الدار، والموت على الإسلام عند باب الحجرة، لاخترت الموت على الإسلام دون^(١) الشهادة. قيل: ولم؟ قال: لأتّى لا أدري ما يعرض لقلبي من المشاهدة فيما بين باب الحجرة وباب الدار فيغيره عن^(٢) التوحيد.

وروي عن زهير بن نعيم البانى قال: ما أكثر همّي ذنوبى، إنّما أخاف ما هو أعظم على من الذنوب؛ وهو أن أسلب التوحيد وأموت على غيره.

وروى ابن المبارك عن أبى لُهَيْعَة عن بكر بن سَوَادَة قال: كان رجلٌ يعتزل الناس أينما كان يكون وحده، فجاء أبو الدرداء فقال: أنشدك الله تعالى، ما يحملك على أن تعتزل الناس؟ قال: إنى أخشى أن أسلب دينى وأنا لا أشعر. قال: أترى فى الحى مائة يخافون ما تخاف؟ فلم يزل ينقص حتى بلغ عشرة. قال: فحدّثتُ بذلك رجلاً من أهل الشام، فقال: ذلك شُرْحَبِيل بن السَّمْط، هو من أصحاب النبى ﷺ.

وقد كان أبو الدرداء يحلف بالله تعالى ويقول: «ما أحدٌ آمن على إيمانه أن يُسلبه عند الموت إلا سلّبه». وفى بعضها عنه: «أن يُسلبه^(٣) عند الموت». وقال

(١) «الإسلام دون» من (خ). ويعنى بالشهادة الاستشهاد فى سبيل الله.

(٢) فى (ط): «يفغير التوحيد» وأثبت ما فى (ك).

(٣) معنى قوله «يُسلبه»: أى ينسأ ويذهل عنه. ومن هذا الموضع اعتمدت نص المخطوط (خ).

مرة: «فما سُلِّيَه عَبْدٌ فوجدَ له نقدًا». فهذا على أمرين؛ أحدهما: أن يخفى ذلك عليه فلا يعلم بسلب إيمانه؛ لَخَفِي مَكْرُ اللَّهِ بِهِ. والثاني: أن يُظْلَمَ قَلْبُهُ وَيَسْوَدَ لَطُولُ الْغَفْلَةِ وَكَثَافَةُ الرِّينِ، فلا يُبَالِي بِفَقْدِهِ، إذ قد هَيَأَ قَلْبَهُ عَلَى قِلَّةِ الْمَبَالَاةِ، وترك الاكتراث لذلك، فيهون عليه فَقْدُ الْإِيمَانِ ويسهل، لِمُرُودِ قَلْبِهِ عَلَى الْعَصِيَانِ، وَاُمْلَسَاسِهِ بِهِ.

وقد كان بعض علمائنا يقول: مَنْ أُعْطِيَ التَّوْحِيدَ أُعْطِيَ بِكَمَالِهِ وَمَنْ مُنِعَهُ مُنِعَهُ بِكَمَالِهِ، إذ كان التوحيدُ في نفسه لا يتبعَّض. ولَمَّا احْتَضَرَ سَفِيَانُ الثَّوْرِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَعَلَ يَبْكِي وَيَجْزَعُ، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، عَلَيْكَ بِالرَّجَاءِ، فَإِنَّ عَفْوَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذُنُوبِكَ. فقال: وَعَلَى ذُنُوبِي أَبْكِي. لو علمتُ أَنِّي أَمُوتُ عَلَى التَّوْحِيدِ لَمْ أَبَالِ أَنْ أُلْقَى اللَّهُ تَعَالَى بِأَمْثَالِ الْجِبَالِ مِنَ الْخَطَايَا. وقال مرة: ذُنُوبِي أَهْوَنُ مِنْ هَذِهِ، وَرَفَعَ حَبَّةً مِنَ الْأَرْضِ، إِنَّمَا أَخَافُ أَنْ أُسَلَبَ التَّوْحِيدَ فِي آخِرِ الْوَقْتِ. وقد كان رحمه الله أَحَدَ الْخَائِفِينَ، كان يَبُولُ الدَّمَ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ. وكان يَمْرُضُ الْمَرَضَاتِ مِنَ الْمَخَافَةِ. وَعُرِضَ بَوْلُهُ عَلَى بَعْضِ أَطْبَاءِ الْكِتَابِيِّينَ، فقال: هَذَا بَوْلُ رَاهِبٍ مِنَ الرُّهْبَانِ. وكان يَلْتَفِتُ إِلَى حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، فيقول: يَا أَبَا سَلَمَةَ، تَرْجُو لِمَثَلِي الْعَفْوَ، أَوْ: يُغْفَرَ لِمَثَلِي؟ فيقول له حمَّاد: نَعَمْ أَرْجُو لَكَ.

وقد كان بعض السلف يقول: لو أَنَّى أَعْلَمُ أَنَّهُ يُخْتَمُ لِي بِالسَّعَادَةِ كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ فِي حَيَاتِي أَجْعَلُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وقال بعضُ أهل المعرفة في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ [تبارك: ٢]، قال: يَبْلُوَكُمْ بِتَقْلِيلِ الْقُلُوبِ فِي حَالِ الْحَيَاةِ بِخَوَاطِرِ الذُّنُوبِ، وَفِي حَالِ الْمَوْتِ بِالْحَادِ عَنِ التَّوْحِيدِ. فَمَنْ خَرَجَتْ رُوحُهُ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَجَازَتْ الْبَلَاوِي كُلَّهَا إِلَى الْمُبْلَى، فَهُوَ الْمُؤْمِنُ، وَذَلِكَ هُوَ الْبَلَاءُ الْحَسَنُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِيَبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ [الأنفال: ١٧].

وحدثني بعضُ إخواني عن بعض الصّادقين، وكان خائفًا: أَنَّهُ أَوْصَى بَعْضَ إِخْوَانِهِ، فقال: إِذَا حَضَرْتَنِي الْوَفَاةُ فَاقْعِدْ عِنْدَ رَأْسِي، فَإِذَا عَايَنْتُ فَانْظُرْ إِلَيَّ، فَإِنْ

رأيتني ميتٌ على التوحيد فاعتمد إلى جميع ما أملكه فاشتري به لوزاً وسكراً وانثره على صبيان أهل المدينة، وقل: هذا عرسُ المنفلت الحاذق. وإن رأيتني ميتٌ على غير التوحيد، فأعلم الناس: أنني ميتٌ على غير الإسلام، لئلا يغتروا بشهود جنازتي؛ ليحضر جنازتي من أحبَّ على بصيرة، لئلا يلحقني الرياء بعد الوفاة، فأكون قد خدعتهم حياً وميتاً. فقلت: ومن أين أعلم أنك قد ميتٌ على التوحيد؟ قال: ضَعْ إصْبَعَكَ فِي كَفِّي، فَإِنْ أَمْسَكْتُهَا فَشَدَدْتُ عَلَيْهَا، فاعلم أنني قد ميتٌ على التوحيد، وَإِنْ أَرْسَلْتُهَا وَنَبَذْتُهَا، فاعلم أن حالي سيئة. ففعلتُ ذلك، فقبض على إصبعي، وشددها، فلم أخرجها من كفِّه إلا بعد موته. قال: فنَفَذْتُ وصيَّته كما أمر، ولم أحدثُ بذلك إلا خصوصَ إخواني من العلماء.

وذلك أنَّ العبد مهما عمل في حياته من سوءٍ، أُعيد ذكره عليه عند فراق الحياة، وَقُلِّبَ قلبه فيه، وأشهد وجده إياه عند آخر ساعة من وفاته، فإن استحلى ذلك بقلبه، أو استهواه نفسه، وَقَفَ معه، وسكنَ إليه. فإذا وقف معه حسب عليه، وجعل عملاً من أعماله إلا أنه من أعمال القلوب في الوقت، وقد تقدَّم سعيه فيه وهواه قبل الوقت، وكان ذلك سبباً فاتبع سبباً، وإن قلَّ، فكان هو الخاتمة. وكذلك ما عمل من خيرٍ أُعيد عليه، فإن عقدَ عليه بقلبه، أو أحبَّ وقف معه، فحسب عملاً له، وكان ذلك حسن خاتمة. فسبحان متيح الأسباب وجاعلها أبواباً، ومقيض القرناء وجاعلهم حجاباً.

وكذلك جاء الخبر في المجالسين والأصحاب: «أنَّ المحتضر يُعرض عليه جلساؤه وأصحابه عند الموت، فإن كانوا من أهل الخير، معاونين على البرِّ والتقوى، سرَّه ذلك واغتنب به، وإن كانوا من أهل الشرِّ، ساءه ذلك ويذمُّ عليه». وجاء ذلك أيضاً في البرزخ، وهو في القبر، يُعرض عليه جلساؤه بكرة وعشية، كما ذكر في حال القبض من أهل الخير والشرِّ. وكذلك الأمر في ضدِّ هذا؛ أنه أيضاً يُعرض على قلبه عند احتضاره ما عمل من خيرٍ ذكَّر به وأشهده، حتَّى يعتقد، ويجد به، ويموت فيه، ويستحليه بقلبه، ويُباشر سرَّه، ويجول فيه همه، فيقف معه، ويطمئنَّ به، فيحسب ذلك عملاً له، وكان هو حسن الخاتمة به.

ولا يأمن العبدُ أن يكونَ سببَ هلاكِهِ سُنَّةٌ سَنَّاهَا، أو أَثَرٌ أَثَرُهُ فِي حَيَاتِهِ، فَيَلْحَقَ بِهِ وَزُرُّ ذَلِكَ أَبَدًا مَا بَقِيَ مَنْ يَعْمَلُ بِهِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ بَقِيَّةِ آثَارِهِ، وَأَسْبَابِ سَمْعِهِ. وَلِذَلِكَ كَانُوا يَقُولُونَ: طَوْبِي لِمَنْ إِذَا مَاتَ مَاتَتْ ذُنُوبُهُ مَعَهُ، فَإِنَّ الْعَبْدَ يَمُوتُ وَتَبْقَى سَيِّئَاتُهُ بَعْدَهُ مَحْمُولَةً عَلَيْهِ مَا عَمِلَ بِهَا، أَوْ بَقِيَ أَثَرُ مِنْهَا.

فَعَلِمَ هَذِهِ الْمَعَانِي مِنَ الْغُيُوبِ، وَشَهَادَتُهَا بِبَصَائِرِ الْقُلُوبِ مِمَّنْ سَمِعَ عِلْمَ الْيَقِينِ كَمَا رَسَمْنَاهُ، أَوْ شَهَادَةَ عِلْمِ الْيَقِينِ مِنَ الْإِيمَانِ بِمَا بَيَّنَّاهُ، فِيهِ ذِكْرِي لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ مُذَكَّرٌ ذَاكِرٌ بِشَهَادَةِ مَذْكُورٍ حَاضِرٍ، أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ فَتَلَقَّى الْمَحَادَثَةَ لَمَّا أَصْغَى إِلَى السِّرِّ فَوَعَى، وَتَعَيَّهَا أُذُنٌ وَأَعْيَتْ، وَهُوَ شَهِيدٌ حَاضِرٌ لَا يَغِيبُ عَمَّا سَمِعَ، بَلْ شَهِدَ بِالْحَقِّ مِنْ حَيْثُ عِلْمُهُ، إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ. فَكَذَلِكَ وَصَفُ عُلَمَاءِ الْمَوْقِنِينَ الْمُخْصُوصِينَ بِعِلْمِ الْيَقِينِ، مُشَاهِدِينَ بَعِينَ الْحَقِّ إِلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ. فَلَمَّا تَقَرَّرَ عِلْمُ هَذَا لِشَهَادَتِهِ حَكْمَ بِالْخَوْفِ، وَكَانُوا خَائِفِينَ مِنْ سَبْقِ عِلْمِ اللَّهِ فِيهِمْ، فَلَمْ يَنْظُرُوا مَعَهَا إِلَى مُحَاسِنِ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي أَجْرَاهَا عَلَيْهِمْ لِحَقِيقَةِ مَعْرِفَتِهِمْ بِرَبِّهِمْ. وَهَذَا الْخَوْفُ يَكُونُ ثَوَابَ عَمَلِهِمْ، وَثُوبَاتِ عِلْمِهِمْ بِمَا يَعْمَلُونَ، هَدَاهُمْ بِهِ إِلَى سَبِيلِهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُونَ، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فَمَنْ أَحْسَنَ فَاللَّهُ مَعَهُ، وَبِهِ أَحْسَنَ الْحَسَنَاتِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَقَدْ تَخَلَّى مِنْهُ وَخُلِيَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسَّيِّئَاتِ. وَمَنْ جَاهَدَ فِيهِ هَوَاهُ وَفَقَّهَ لِكَشْفِ سَبِيلِهِ إِلَيْهِ وَهَدَاهُ. فَلَمَّا سَلِمُوا مِنْ مَطَالِبَةِ مَا يَعْمَلُونَ، وَصَحُّوا عَلَى الْعِلْمِ، أَظْهَرَ لَهُمْ خَوْفُ عِلْمِ اللَّهِ فِيهِمْ، الَّذِي كَانَ عِلْمُهُمْ حِجَابَهُ، وَتَرَكُوا عَمَلَهُمْ بِهِ غَلَقَ بَابَهُ فَانْفَتَحَ لَهُمْ مِنْ غَيْبِ الْمَلَكُوتِ مَا اسْتَتَرَ، فَشَهِدُوا الْبَاطِنَ بِنُورِهِ غَالِبًا عَلَى مَا أَمَرَ، وَمُسْتَوَلِيًا بِوَصْفِهِ عَلَى جَمِيعِ مَا أَظْهَرَ، لِأَنَّهُ هُوَ الْفَتْاحُ الْعَلِيمُ، إِذَا فَتَحَ الْبَابَ وَرَفَعَ الْحِجَابَ عِلْمًا، وَإِنْ غَلَقَهُ وَأَسْبَلَ السِّتْرَ أَبْهَمَ، فَكَانَ بِمَا فَتَحَ وَكَشَفَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ نِعْمَةً مِنْهُ عَلَيْهِمْ، عَقَدَ لَهُمْ بِهِ مَقَامًا مِنْهُ فِي الْقُرْبِ، صَارُوا عَنْهُ مَقْرَبِينَ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا مَيْمِنِينَ، فَرَفَعُوا إِلَى رُوحٍ وَرِيحَانٍ بَعْدَ كَوْنِهِمْ فِي حَرُورٍ وَدُخَانٍ. وَأَمِدُّوا مِنْهُ بِرُوحٍ وَحَنَانٍ بَعْدَ أَنْ كَانُوا فِي سَلَامَةٍ وَسَلَامٍ عَنْ تَسْلِيمٍ مِنْهُ وَإِسْلَامٍ.

ودُونَ هذه المخاوف لأصحاب اليمين خَوْفُ الجنايات والاكْتِسَابِ، وخوفُ الوعيدِ وسوءِ العقابِ، وخوفُ التّقصيرِ عن الأمرِ بتسبیبِ الأسبابِ، وخوفُ مجاوزةِ الحدِّ، وخوفُ سلبِ المزيّدِ، وخَوْفُ حجابِ اليقظةِ من القلبِ بالغفلةِ، وخوفُ قطعِ اليقينِ من العقلِ بالوسوسةِ، وخَوْفُ حدوثِ الفِتْنةِ بعدِ الشرِّهِ عن المعاملةِ، وخوفُ ظهورِ الصِّفةِ بعدِ انتهاءِ الشّهواتِ والآفةِ، وخَوْفُ وَهْنِ العزمِ بعدِ القوّةِ من الاستقامةِ، وخوفُ الفتنِ بعدِ العصمةِ، وخوفُ نكثِ العهدِ بالخيانة^(١)، وخوفُ حلِّ العقدِ من الديانةِ، وخوفُ قلةِ الوفاءِ بتركِ المفاضلةِ بالصِّفاءِ، وخوفُ الوقوعِ فى الفتنَةِ بتسبیبِ (...) (٢) قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧]، وخوفُ الشّهوةِ بَعُودِ جَرَى العادة^(٣)، وخوفُ الرّجوعِ عن قصدِ الإرادةِ، وخوفُ الاغْوَاجِجِ عن الاستقامةِ، وخوفُ استذلالِ المهانةِ بعدِ الكرامةِ، وخوفُ الحَوَرِ بعدِ الكَوَرِ، وهو الرّجوعُ عن المَحْجَّةِ بعدِ إيقاعِ الحكمِ عليه إلى طريقِ الهوى، وخوفُ اطلاعِ اللهِ عليهم عندِ ما سَلَفَ من ذنوبهم، ونظرهِ إليهم على قبيحِ أعمالهم، فيُعْرِضُ عنهم ويمَقُتُّهم.

هذه كلّها مخاوفُ المريدین، وطُرُقَاتُ الطالبین، وبعضُها أعلى من بعض، وفيها ما هو أشدُّ من بعض. ويقال: إنّ العرشَ جوهرة يتلأأ ملءَ الكونِ، فلا يكونُ العبدُ على حالٍ من أحواله إلا انطبعَ مثاله فى العرشِ على الصّورةِ التى يكونُ عليها، والصّفةُ التى يتقلّبُ فيها، فإذا كان يومُ القيامةِ، ووقف على ربِّهِ للمحاسبةِ، كُشِفَ له صورتهُ من العرشِ، فرأى نفسَه على هيئتهِ التى كان عليها فى وقتِ معصيته، فذكرَ فعله بمشاهدته نفسَه، فيأخذُه من الحياءِ والخوفِ ما يَجِلُّ عن الوصفِ. هذا بعدِ نشرِ الحسابِ، وشهودِ الكتابِ، مُبالغةٌ من اللهِ فى الحكمةِ والقدرةِ.

قال بعضُ العارفين: إنّ اللهَ سبحانه إذا أعطى عبداً معرفةً، ثم لم يشكره

(١) فى (ك): «وخوف نكوث العهد بعد التوبة».

(٢) كلمة مطموسة فى الاصل، لم يبق منها شيء.

(٣) فى (ك): «وخوف عودة العادة بالشهوة».

عليها، ولم يحسن معاملته بها، لم يَسْلُبْهُ إِيَّاهَا، بل بَقَّاهَا عليه، ليحاسبَهُ على قَدْرِهَا، ولكن يرفعُ منه البركةَ، وَيَقْطَعُ عنه المزيد، فَمَثَلُ عَيْشٍ هذا في الدنيا كَمَثَلِ البخيل الغنى؛ يعيش عيشَ الفقراءِ وَيُحَاسِبُ حسابَ الأغنياءِ، كذلك العالم يحى حياةَ الجهالِ، ويحاسب غداً محاسبةَ العلماءِ. وقد ذَمَّ اللهُ عبداً أَوْجَدَهُ نعمةً استعمله بها صالحاً، بعد أن كان قد ابتلاه بهواهُ، ففخرَ الآن بعمله، ونَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَدَاهُ، ولم يخَفْ أن يعيدهُ فيما قد كان جنأهُ، في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَدْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ﴾ ثم قال عقيبه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ يعني عن السيئات ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى فليسوا بوصفِ هذا، بل ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذُنُوبِهِم السَّالِفَةِ ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١٠ - ١١] إذ لم يفخروا بأعمالهم، فينظروا إليها، فيُدُلُّوا بها، فيُعْرَضُ عنها، فتحبط وهم لا يشعرون. وذلك أن الله تعالى أقام حُبُوطَ الأعمالِ والعبدُ لا يشعرُ مقامَ ما يُسِرُّه من المكْر الذى لا يعلم به العبدُ، فجمع بينهما، إذ المَكْرُ به لا يشعرُ، كذلك المحبَطُ عمله لا يعلم، فقال: ﴿وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]. كما قال: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

وفرق بين المكْر والفتنة، وهى الاختبارُ بأسبابِ الأقدارِ، فقال تعالى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩]، فدلَّ أن القليلَ الذين يعلمون هم العالمون بمعاني الاختيار، وبلاوى الاختبار، فما بينهما الاستدراجُ؛ وهو حقيقة المكْر، فلا يُفْظَنُ به منهم، لأنَّه جاء بلفظِ التدرُّجِ، وهو مأخوذٌ من الدرَجِ التى يُصْعَدُ فيها مِرْقَاةٌ بعد مِرْقَاةٍ، فيُسْتَدْرَجُ العبدُ المدرَجُ بتدريجِ النعمِ التى بها يعصى درجةً بعد درجةٍ، كى لا يُفْظَنُ. ومن وصفِ المُسْتَدْرَجِينَ قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾، وكذا ما وُعِظُوا به من التوبةِ إلى الله تعالى والإقبالِ عليه، ﴿فَتَحْنًا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤] محبوبةٍ من النعمِ والعوافى، تَعَصُّونَهُ بها. ﴿وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ يعنى (...) (١) ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾

(١) كلمة مطموسة غير واضحة.

بِالْآخِرَةِ ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] بعمل الدنيا. وهو كقوله في مقام المَخْصُوصِينَ مِنَ الْمُفْتُونِينَ بعد الاستقامة: ﴿لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦ - ١٧]. ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ هو التدرج بالمدارج التي بها دَرَجُوا مِنَ النِّعَمِ قَبْلَ الْإِسْتِقَامَةِ، ﴿أَخَذْنَاهُمْ بِغَتَّةٍ﴾ فجاءهم الأمرُ فجأةً أغفلَ ما كانوا وأسرَهُ ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، مُخْتَبِرُونَ باهتُونَ. قيل: كُلَّمَا أَحْدَثُوا ذَنْبًا أَحْدَثْنَا لَهُمْ نِعْمَةً، وكلَّمَا ذَكَّرُوا شَهْوَةً أَنْسَيْنَاهُمُ التَّوْبَةَ، حَتَّى أَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً فِي وَقْتِ فَرَحِهِمْ، فَأَبْكَاهُمْ بَعْدَ ضَحْكِهِمْ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ. وَأُنْشِدْتُ فِي بَغَاتِ الْأَمْرِ لِأَهْلِ الْغَفْلَةِ عَنِ الذِّكْرِ:

لَا يَغُرَّنْكَ عِشَاءُ سَاكِنٌ قَدْ يُوَافِي بِالْمَنِيَّاتِ الْفَلَقُ
ضَحِكُوكُوا، وَالذَّهْرُ عَنْهُمْ صَامَتْ ثُمَّ أَبْكَاهُمْ دَمًا حِينَ نَطَقُ

والاستدراجُ قبل الاستقامة لعموم التَّارِكِينَ لِلتَّذْكِيرِ، النَّاسِينَ لِلْأَمْرِ، الْأَمِينِ لِلتَّحْذِيرِ. وَالتَّفْتِيرُ بعد الاستقامة هو لِلْخُصُوصِ، عِقُوبَةُ الْإِعْرَاضِ عَنِ الذِّكْرِ، وَالانْقِطَاعُ بِالْأَسْبَابِ عَنِ الْمَذْكُورِ.

وَمِنَ الْمَخَافِ خَوْفُ النِّفَاقِ، قَدْ كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، يَخَافُونَ ذَلِكَ النِّفَاقَ، وَيُشْفِقُونَ أَنْ يَكُونَ فِيهِمْ شُعْبَةٌ مِنْهُ أَوْ دَقِيقَةٌ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ. هَذَا لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ». وَفِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: «أَرْبَعٌ». وَرَوَيْنَاهَا: «خَمْسٌ»، مِنْ ثَلَاثِ أَحَادِيثَ جَمَعْنَاهَا فَكَانَتْ خَمْسَ خِصَالٍ، مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ خَالِصٌ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ. وَفِي لَفْظٍ آخَرَ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فَقَدْ أُوْلِجَ النِّفَاقُ مِنْ قَرْنِهِ إِلَى قَدَمِهِ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ فَفِيهِ شُعْبَةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا: مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اتَّخَذَ خَانَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ».

وَلَمَّا حَضَرَتْ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ الْوَفَاةُ قَالَ لَبْنِيهِ: «أُنْكِحُوا فَلَانًا ابْنَتِي مِنْ بَعْدِي، قَالَ: فَجَعَلَ بَعْضُنَا يَنْظُرُ إِلَى بَعْضٍ تَعْجَبًا، إِذْ لَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ كُفًّا لَهَا. فَقَالَ: إِنِّي

كنتُ قد وعدتُهُ أن أزوجه ابنتي، وأخاف أن ألقى الله بثلاث النفاق». وقد كانوا يقولون: الكذبُ بابٌ من النفاق.

ومن عزائم الأخبارِ وشدائدها خبران، وردا بأربعة أخلاق أنها لا تُوجدُ في مؤمنٍ. أحدهما: قوله ﷺ: «يُجَبَلُ المؤمن على كلِّ خُلُقٍ إِلَّا الخيانة». وبمعناه: الكذبُ مجانبُ الإيمان. وقد يدخل الكذبُ في الأفعال والأحوال دخوله في المقال، وليس يعرَى من الكذبِ اليوم إلا الصّدّيقون دون الصّادقين. والخبر الآخر: قوله عليه الصلاة والسلام: «خَصَلْتَانِ لَا تَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ: الْبُخْلُ وَسُوءُ الْخُلُقِ». وليس يعرَى من البخلِ على مذهب أهل المعرفة في هذا الوقت إلا الأبدال. فقد سُئل بعضهم عن البخل، فقال: هو أن تتملّك الشيء فتدعى ملكه لتمنع الغيرَ عنه أن يأخذَ منك. وقال بعضُ العارفين: البخلُ من لم يؤثرَ بالشيءٍ مع الحاجةِ إليه.

فوجودُ بعضِ هذه الأخلاق الدنيّة، وهى من صفات النفس، وجبلة الطبع، وآفات العقل، مُوجبُ الخوفِ من النفاق، فإنّ هذه علامةُ نقصِ الإيمان، أو فقدِ اليقين، إذ العلاماتُ قد توجد، والدلائلُ في الحال قد تُشهد، ويتأخر حكمها ووقوعُ حقائقها إلى المآل.

وقد كان حذيفة، رضى الله عنه، يقول: إن كان الرجل ليتكلّم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ يصير بها منافقاً حتى يلقي الله تعالى، وإنّى لأسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات. وفي لفظ الخبر الآخر: إنّ أحدكم ليتكلّم بها المجلس الواحد خمس مرات. وكان يقول: المنافقون اليوم أكثرُ منهم على عهد رسول الله ﷺ. ومرة يقول: النفاق اليوم شرٌّ منه على عهد النبي ﷺ، كانوا إذ ذاك يُسرونه، وهم اليوم يُعلنونه.

وهذا كما قال. لأنّ إعلانَ المعاصي والجهارَ بها أعظمُ من التّستر والتّخفى، لأنّها إذا أُسرّت لم تضرّ إلا صاحبها، وإذا أُعلنت ضرت العامة، ونكأت في الإسلام، وأوهنت شأنَ الدّين. وقد أحكمنا ذكر هذا المعنى في مقام التّوبة.

وكان حذيفة يقول: تأتى على القلبِ ساعةٌ يمتلئ بالإيمان حتى لا يكون

لِلنِّفَاقِ فِيهِ مَغْرُزُ إِبْرَةٍ. وتأتى عليه ساعةٌ يمتلئُ بالنِّفَاقِ حتى لا يكون للإيمان فيه مَغْرُزُ إِبْرَةٍ. يعنى بهذا: عند قوّة صفات النَّفسِ بالهوى وامتلائها بالشهوة يَغِيبُ الإيمانُ، ويحتجب احتجابَ الشَّمْسِ تحتَ السَّحَابِ الرُّكَّامِ، فيرتفع حكمه من إظهار أحكامه الموجبة لمقتضاه من الورع، أو الزُّهد، أو المراقبة، أو المخافة؛ كما يرتفع حكم شعاع الشمس إذا حُجِبَ بكثيفِ السَّحَابِ عن الأرض، ولا يقع منها ضوءٌ. وعلى هذا المعنى قول رسول الله ﷺ: «لا يزنى الزَّانى [حين يزنى] وهو مؤمن، ولا يسرقُ السَّارقُ [حين يسرق] وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر ولا ينتهبُ نهبةً وهو مؤمن». وقال فى الخبر الآخر: «إنَّ الإيمانَ كالقميص تلبسه أحياناً، وتخلعه أحياناً».

وقد يكون امتلاء القلب بالنفاق بدلاً من امتلائه بالإيمان فى وقت وقوع المعصية مقدراً بعلته، لأنّه يرفع اليقين. وعدمُ اليقين هو مكانُ لوجود النفاق، أو فى وقت إنكاره القُدرة من قَدْرِ الله، وحين تكذيبه آيةً من آياته. فوجودُ ذلك نقصُ الإيمان، وبنقص الإيمان دُخُولُ النفاق، فإنْ بَغَتْ الموتُ فى هذه الساعة التى يمتلئ القلب فيها نفاقاً حتى لا يكون للإيمان فيه مَغْرُزُ إِبْرَةٍ، أليس يكون ذلك خاتِمَتَهُ بالنِّفَاقِ؟ وكذلك إنْ فَجَّاهُ الأمرُ بَغْتَةً عند أَحَدِ الْخِصَالِ الْخَمْسِ: من الفجور فى خصامه، والغدر فى عهده، أو الخيانة فى أمانته، أليس ذلك يَصِيرُ فى آخرِ عَمْرِهِ من سُوءِ خَاتِمَتِهِ؟

وقد يتخوَّفُ الخصوصُ إذا جُعِلُوا سبباً لبلاءٍ أن يلحقهم منه ذنبٌ، وإن لم يكن لهم فيه قصدٌ، ولا عليهم منه حكمٌ؛ من ذلك قولُ مريمَ الصَّديقةِ: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ [مريم: ٢٣]، لما جعلت محنةً للأمة. وعلى ذلك قول عيسى عليه السلام، لما سئل الشفاعة للأُمَمِ: إني لستُ هناك، إني أخاف، لأننى قد عُبِدْتُ من دونِ الله. ومن ذلك قولُ الله له: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، وقد علم أنه لم يَقُلْهُ، فلَمَّا عَرَضَ له بالقول فزع، فخاف أن يكونَ قاله، أو أن الله يُؤَاخِذُهُ به، إذ جعله سبباً، فقال: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُهُ﴾ [المائدة: ١١٦]، فردَّ الغيبَ والسَّريرةَ إلى حقيقة سابقٍ علمه فيه، فلِعِلْمِ الْعَالَمِينَ بالله

أَنَّ اللَّهَ يَتَحَكَّمُ فِي خَلْقِهِ كَيْفَ شَاءَ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ مِنْهُمْ، لَمْ يَأْمَنُوا مَكْرَهُ بِذَلِكَ.
وَمِنْ أَعْجَبَ مَا أُضِيفَ عَلَى الْعَبْدِ فِعْلُهُ مِمَّا لَا يَفْعَلُهُ؛ إِلَّا أَنَّهُ أُجْرِيَ عَلَيْهِ وَجُعِلَ
مَكَانَهُ فِيهِ، وَهَذَا سِرُّ إِحْدَى الرِّوَايَاتِ فِي شَأْنِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ﴾
[البقرة: ١٠٢]، فَهُمَا لَا يَعْلَمَانِ السَّحْرَ قَصْدًا، وَإِنَّمَا تَهَيَّجَ عَلَيْهِمَا رِيحُ الْاِغْتِلَامِ مِمَّا
كَانَا ابْتِلَايَا بِهَا، فَيُعَاقِبُونَ بِهَيَّجِ صِفَاتِهِمْ فِي وَقْتٍ، فَيَذْكُرَانِ الْأَسْمَ، فَيُطْفِئُ عَنْهُمْ
رِيحَ الْاِغْتِلَامِ، وَيَخمدُ الطَّبْعَ، وَيُوَافِقُ ذَلِكَ مَجِئُ السَّحْرَةِ، فَيَسْمَعُونَ الْأَسْمَ،
وَهُوَ يَصْلَحُ لِلْسَّحْرِ، فَيَعْلَمُونَ بِهِ عِلْمَ السَّحْرِ، فَذَلِكَ مِنَ الْمَلَكَيْنِ دَوَاءٌ لِهَمَّا مِنَ
الْبَلَوَى، وَهُوَ عَمَلُ السَّحْرَةِ مِنْ عِلْمِ السَّحْرِ، فَهُوَ لَهُمْ مِنْ أَعْظَمِ الْأَدْوَاءِ. وَلَا
يُمْكِنُ كَشْفُ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَإِظْهَارُ سَبَبِهَا، إِلَّا أَنَّهَا حِكْمَةٌ مِنَ اللَّهِ عَجِيبَةٌ، وَقُدْرَةٌ
لَطِيفَةٌ.

وَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُونَ: «إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدْقُ فِي
أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ، كُنَّا نَعِدُّهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْكِبَائِرِ». وَفِي لَفْظٍ
آخَرَ: «مِنَ الْمُؤَبَّقَاتِ». وَقَدْ كَانَ الْحَسَنُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مَعَ فَضْلِهِ وَعِلْمِهِ وَزَهْدِهِ
وَوَرَعِهِ، يَقُولُ: لَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي بَرِيءٌ مِنَ النِّفَاقِ كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ
الشَّمْسُ. وَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، إِنَّ نَاسًا يَقُولُونَ: لَا نِفَاقَ الْيَوْمَ، فَقَالَ: يَا
ابْنَ أَخِي، لَوْ خَرَجَ الْمُنَافِقُونَ مِنْ هَذِهِ الْمَدِينَةِ - يَعْنِي الْبَصْرَةَ - لَاسْتَوْحَشْتُمْ. وَقَالَ
مَرَّةً، وَقَدْ رُوِينَا عَنْ غَيْرِهِ أَيْضًا: لَوْ نَبَتَ لِلْمُنَافِقِينَ أَذْنَابٌ مَا قَدَّرَ الْمُؤْمِنُونَ أَنْ يَطَّأُوا
عَلَى الْأَرْضِ. وَكَانَ يَقُولُ: كَانُوا يَعْدُونَ اخْتِلَافَ السِّرِّ وَالْعِلَانِيَةِ، وَاخْتِلَافَ الظَّاهِرِ
وَالْبَاطِنِ، وَاخْتِلَافَ اللِّسَانِ وَالْقَلْبِ، نِفَاقًا. وَقَالَ مَرَّةً: كَانُوا يَعْدُونَ اخْتِلَافَ الْقَوْلِ
وَالْعَمَلِ، وَالْمَدْخَلَ وَالْمَخْرَجَ، نِفَاقًا.

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِابْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّا نَدْخُلُ عَلَى هَؤُلَاءِ
الْأَمْراءِ وَنُصَدِّقُهُمْ بِمَا يَقُولُونَ، وَيَعْلَمُ اللَّهُ مِنْ قُلُوبِنَا خِلَافَ ذَلِكَ. أَوْ قَالَ: إِنَّمَا
نَدْخُلُ عَلَيْهِمْ فَنَمْدَحُهُمْ، فَإِذَا خَرَجْنَا تَكَلَّمْنَا فِيهِمْ. قَالَ ابْنُ عَمْرِو: كُنَّا نَعِدُّ هَذَا
نِفَاقًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَرُوِينَا مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ: أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا يَسُبُّ

الحجاج ويذمه. فقال له: أرايت لو كان الحجاج حاضراً لكنت تتكلم بما تكلمت به؟ قال: لا. قال ابن عمر: أما نحن فقد كنا نعدُّ هذا نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ.

ولعمري، لقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يكون بعدى أمراء، من دخل عليهم، فصدّقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فليس مني ولست منه، ولن يردّ على الحوض، ولكن من كرهه وأنكره». قال: وكان نفرٌ قعودٌ على باب حذيفة يتظرونّه، فجعلوا يتكلمون في شيء من شأنه، فلما خرج، سكّتوا حياءً منه. فقال: تكلموا فيما كنتم تقولون. فسكّتوا. فقال: كنا نعدُّ مثل هذا على عهد رسول الله ﷺ نفاقاً.

وقيل: من أمن النفاق فهو منافق. وجاء رجلٌ إلى حذيفة باكيًا، قال: هلكْتُ. قال: ما لك؟ قال: إنني أخاف النفاق. فقال له: لو كنت منافقاً لم تخف النفاق، إنّ المنافق قد أمن النفاق.

فجعل خوف النفاق أمانةً منه، وحسب الأمن منه علماً لوجوده منه.

وكان بعضهم يقول: علامة المنافق أن يكره من الناس ما يأتي مثله. وسئل وهب: من المنافق؟ قال: الذي يحب المدح ويكره الذم. وقد رويناه مسنداً من طريق أهل البيت: «من علامة المنافق أن يحب أن يُحمد في جميع أموره».

وقيل: من النفاق من إذا مدح بما ليس فيه أعجبه ذلك. ورويناه مسنداً: «من النفاق أن يحب على شيء من الجور، أو يُغض على شيء من الحق».

وعلامات النفاق أكثر من أن تُحصى، هي سبعون علامة، وكذلك قيل: الرياء سبعون باباً. وفيما ذكرناه بلاغٌ وكفاية لمن يريده، فخاف وحذر.

ولا يعرَى من النفاق من المؤمنين إلا طبقات ثلاث: الصديقون، والشهداء، والصالحون. وهؤلاء الذين ضمّهم الله إلى الأنبياء، ووصفهم بكمال النعمة عليهم، وعافاهم من الخبرة بالبلوى، ووقاهم آفة الأهواء؛ لكمال إيمانهم، وصفاء يقينهم، وحقيقة معرفتهم.

ودَقَاتِقُ النِّفَاقِ، وخَفَايَا الشُّرْكِ عَنْ نُقْصَانِ التَّوْحِيدِ، وَضَعْفِ اليَقِينِ، وَتَرَادُفِ الشَّهَوَاتِ، وَتَزَايُدِ الْعَادَاتِ، وَعَنْ قُوَّةِ النَّفْسِ، وَتَظَاهِرِ صِفَاتِهَا، فَهَذِهِ أَوْجِبَتِ الْمَخَافَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ؛ خَشْيَةً مَقْتِ اللَّهِ، وَخَوْفَ حُبُوطِ الْأَعْمَالِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ.

وَقَدْ كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنْ مَنْزِلِهِ وَمَعَهُ دِينُهُ، فَيَرْجِعُ إِلَى مَنْزِلِهِ وَلَيْسَ مَعَهُ مِنْ دِينِهِ شَيْءٌ. يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَذَيْتٍ وَذَيْتٍ، وَيَلْقَى الْآخَرَ فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَأَنْتَ وَأَنْتَ، وَلَعَلَّهُ لَا يَخْلَى مِنْهُمْ بِشَيْءٍ، وَقَدْ أَسْخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ.

يَعْنِي بِهِ: التَّزَكِّيَّةَ بِمَا لَا يَعْلَمُ، وَالْمَدْحَ لِمَنْ يَسْتَحِقُّ الذَّمَّ، لِاخْتِلَافِ قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ، وَهُوَ الْمَدَاهَنَةُ، وَلاَحْتِلَابُ أَسْبَابِ الدُّنْيَا، وَفِيهِ الْحِرْصُ وَالطَّمَعُ. فَفِي هَذَا مَقْتٌ مِنَ اللَّهِ، وَإِعْرَاضٌ. وَفِيهِ قَسْوَةٌ لِلْقَلْبِ، وَمِنْ الْخَيْرِ انْقِبَاضٌ.

وَمِنْ أَعْلَى الْمَخَافِ خَوْفُ سَلْبِ الْإِيمَانِ الَّذِي هُوَ عِنْدَكَ وَدِيعَةٌ فِي خِزَانَةِ الْمُؤْمِنِ، يُظَاهِرُهُ كَيْفَ شَاءَ، وَيُبْدِيهِ وَيُعِيدُهُ إِلَى الْغَيْبِ مَتَى شَاءَ، وَيُخْفِيهِ، ذَاكَ مِنْ صِفَةِ الْمَكْرِ، وَحُكْمِ الْمَاكِرِ، وَكثَافَةِ السِّتْرِ، وَلُطْفِ السَّاتِرِ. لَا يَدْرِي، أَهَبَّةٌ وَهَبُهُ لَكَ، فَيُثْقِيهِ عَلَيْكَ، لِكَرَمِهِ وَفَضْلِهِ؟ أَمْ وَدِيعَةٌ عَارِيَةٌ أَوْدَعَكَ إِيَّاهُ، وَأَعَارَكَهُ فَتَأْخُذْهُ؟ إِذَا لَا مُحَالَةَ بِحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، وَقَدْ أَخْفَى عَنْكَ حَقِيقَةَ ذَلِكَ وَاسْتَأَثَرَ بِعَاقِبَتِهِ.

وَكَانَ يَحْيَى يَقُولُ: يَنْبَغِي أَنْ يَشْغَلَكَ خَوْفُ قَوْتِ تَأْكُلَهُ لَا تَدْرِي أَحْلَالَ هُوَ أَمْ حَرَامٌ عَنْ تَمَنَّى الْفُضُولِ، وَيَنْبَغِي أَنْ يَشْغَلَكَ خَوْفُ ذَهَابِ الْإِيمَانِ عَنْ تَمَنَّى دَرَجَاتِ الْأَبْدَالِ. فَإِذَا لَمْ تُعْطَهَا اسْتَقَلَّلْتَ مَا قَدْ أُعْطِيتَ، وَأَنْتَ قَدْ أُعْطِيتَ خَيْرَ شَيْءٍ فِي خِزَائِنِ اللَّهِ: الْإِيمَانَ بِهِ.

وَلَعَمْرِي إِنَّ الْخَوْفَ عَلَى فَقْدِ الْإِيمَانِ عَلَامَةُ الْغِبْطَةِ بِوُجُودِهِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: إِنَّمَا قُطِعَ بِالْقَوْلِ عِنْدَ الْوُصُولِ. وَقَالَ آخَرُ: وَاحْطَرَاهُ! كَمَا قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، وَحَلَفَ: «مَا أَحَدٌ أَمِنَ أَنْ يُسَلَبَ إِيْمَانُهُ إِلَّا سُلِبَهُ». فَكَذَلِكَ الْأَمْرُ فِي تَقْلِيْبَاتِ الْقُلُوبِ فِي مَعَانِي الشُّرْكِ وَتَلْوِيْحَاتِ الشَّكِّ، إِنْ وَافَقَ ذَلِكَ وَقْتُ

الوفاة كان ذلك خاتمته؛ لأنها آخر عمله، وآخر ساعة من عمره. وخاتم الشيء آخره، ومن ذلك قوله: ﴿وَحَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] أى: آخرهم، ليس بعده نبي. ومثله: ﴿حَاتَمَهُ مَسْكَ﴾^(١) و ﴿حَاتَمَهُ﴾ [المطففين: ٢٦] أيضاً، أى: آخر الكأس، بدل من الثقل يكون مسكاً.

ومن المخاوف خوف قطع المزيد من علم الإيمان، مع بَقِيَّةِ المعرفةِ المبتدأة، يكون مُسْتَدْرَجاً بها، ممنوعاً من المزيد منها، وقد لا يكون بها مدرجاً، إلا أن توقيف المزيد عنه هو لعلة واقفة من الهوى فيه، وقد يُقَسَّى قلبه، ويُجَدَى عبثه. وذلك من النقصان الذى يعرفه أهل التمام؛ لأنَّ عينَ الوجه من الملك للدينا، وعين القلب من الملكوت للآخرة، فيمنعه ما ينفعه عنده، ويعطيه ما يغره به، ويفتتن عند الخلق؛ كمن أعطى العصف المأكول.

وقال مجاهد: إنَّ الرَّجُلَ لَتَبْكِي عَيْنَاهُ وَقَلْبُهُ أَقْسَى مِنَ الْحَجَرِ. وقال مالك بن دينار: قرأتُ فى التوراة: إذا استكمل العبدُ النِّفاقَ مُلِّكَ عَيْنِيهِ، فيبكي متى شاء. وقد كانوا يستعيذون بالله من بُكاءِ النِّفاقِ؛ وهو أن يُفْتَحَ للعبدِ أبوابُ البكاءِ، ويُغْلَقَ عنه بابُ الصِّدْقِ والذِّلِّ والخُشوعِ، قال الله سبحانه: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف: ١٦]. وكان السلف أيضاً يقولون: استعيذوا بالله من خُشوعِ النِّفاقِ. قيل: وما هو؟ قال: أن تبكى العين والقلب قاس.

وحقيقة البكاء هو بُكاءُ القلب؛ الهمُّ اللازمُ، والحزنُ الدائمُ، والوجدُ القائمُ، والكمْدُ الملائم. فلأنَّ يُعْطَى العبدُ ذرَّةً من بُكاءِ القلبِ، وبكاءِ العملِ أيضاً - بحسنِ المعاملةِ ودوامِ المجاهدة - مع فَقْدِ بُكاءِ العينِ، أحمدُ عاقبةً له من أن يُعْطَى أحمالاً من بُكاءِ عَيْنِهِ مع قسوةِ قلب.

وفى خبرٍ أن النبي ﷺ «قرأ سورة التكاثر، فبكوا إلا عبد الرحمن. فقال بعضهم: لم يبك عبد الرحمن. فقال النبي ﷺ: إن لم تبك عيناه فقد بكى قلبه». وفى خبر آخر: قال ﷺ: «إن بُكاءَ عثمان فى ساقِيهِ» يعنى: طول القيام

(١) قراءة الكسائى وحده. انظر: السبعة فى القراءات، ص ٦٧٦. وانظر: القرطبى ٢٦٥/١٩.

بحقّ التلاوة في ليل التمام.

فِرْقَةُ الْقَلْبِ عند أهل المعرفة هو خشوعه وانكساره وذلتُه وإخباته، فمن أعطاه هذا في قلبه لم يضره ما منعه من بكاء عينه، وإن رُجِحَ له بفيض العين فهو فَضْلٌ، ومن أعطاه بكاء عين وحرمة خشوع قلب وخشوعه وإخباته، فقد مكر به، وهذا حقيقته منع. لأننا رويناه في الأخبار: «إذا كان في آخر الزمان سكنت الشياطين عيون الناس، فلا يريد الباكي أن يبكي إلا بكى». وقال بعض السلف: أقربهم دَمْعَةً أسرعهم إلى فخره.

وجملة بكاء العين إنما هو في علم العقل، فأما علم التوحيد بمشاهدة القدرة فلا بكاء فيه، لأنه يظهر لشاهد التوحيد وعين اليقين، فيحمله القدرة، فيفيض^(١) الدموع بانتشاق القوة، ولا يتصاعد إلى الدماغ، فيعتصر رطوبته، ويستزل الدمعة في مفيضها من العين.

فإنما بكاء القلب من الإيمان والمعرفة والفهم والتصديق، وبكاء العين في علوم العقل من الدموع بتصاعد الحسوس. أنشدت لبعضهم في معناه:

إنّ العيون إذا تعذّر صوبها غاضت، فصارت في القلوب دماء
وكذاك نيران القلوب إذا التظت حرى، نشفن من العيون الماء

فعلى هذا المعنى يكون الطبع إذا جمّد، ونور القلب إذا وُجِدَ؛ كما يقول:

إنّ النفوس إذا تلاشى وصفها غاضت فصارت في الحشا أنوارا
وكذاك أنوار القلوب إذا علت وجدّا طفين من النفوس النارا

وقد وصف الله الباكين من العلماء في السجود لمزيد اليقين بالخشوع، في قوله عزّ وجل: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

فإذا زاد بالبكاء كبراً وفخراً ورغبة في الدنيا وحرصاً، علّمنا بذلك عدم الخشوع من القلب، وكان تصنعاً وتعجباً وعجباً بخفايا آفات النفوس.

(١) كذا في (خ)، وهى في (ط): «فيحمله على علم القدرة، فيفيض»، وفي (خ) يمكن أن تقرأ «فيغيض» بالغين.

فأعلى المخاوف خوف السَّوابقِ والخواتمِ، كما كان بعض العارفين يقول: ما بكائي وغمي من ذنوبي وشهواتي؛ لأنها أخلاقِي وصفاتي، لا تليق إلا بي، إنما حزني وحسرتي كيف كان هذا قسَمي منه، ونصيبِي حين قَسَم الأقسام، وفرق العطاء بين العباد، فكيف كان قسَمي منه البعد؟!

فهذا الذي ذكرناه هو جُمْلُ خوف العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، وهم أبدالُ النبيين، وأئمة المتقين، أولو القوة والتمكين.

وسئل أبو محمد رحمه الله: هل يُعطى الله أحدًا من المؤمنين من الخوف زنةً مثقال؟ فقال: من المؤمنين من يُعطى من الخوفِ وزنَ جبلٍ أحد. قيل: فكيف يكون حالهم؟ يأكلون وينامون وينكحون؟ قال: نعم يفعلون ذلك، والمشاهدة لا تفارقهم، والمأوى يظلمهم. قيل: فأين الخوف؟ قال: يحمله حجابُ القدرة بلطف الحكمة، ويستر القلب تحت الحجاب في التصريف بصفات البشرية، فيكون مثل هذا العبد مثل المرسلين.

وهذا كما قال؛ لأن شهادة التوحيد بالتصريف والحكمة يقيمه القيام بالأحكام، وذلك أن نور الإيمان في القلب عظيم، لو ظهر للقلب لأحرق الجسم وما اتصل به من الملك، إلا أنه مستورٌ بالفضل، مغطى بالعلم، لإيقاع الأحكام، وإيجاب التصريف فيها بالقيام، كسائه في صلاته بسياحة قلبه، وتيهه بوجدته، وحدود الصلاة تجري على أركانه بعبادته من غير قصده، فأنوار الخوف من معاني القدرة والصفات؛ لأن الأنوار محجوبةٌ بالأسماء، والأسماء محجوبةٌ بالأفعال، والأفعال محتجبةٌ بالحركات، فتظهر الحركة بالقدرة وهي غيبٌ من ورائها. كذلك يظهر التصريف بالحكمة عن نور الإيمان، وأنوار الإيمان مستورةٌ من ورائه، فيعتدل القلبُ بمشاهدة الأفعال، ويستقيم بالقيام عن تجلّي وصف فاعلٍ بالمعنى الذي (...). به قام بالأحكام، فلا يتنافى ذلك ولا يتضاد (...). بقيومية بجران الحكم عليه من الحاكم؛ لأن له في كل مشاهدة، بمعنى شهيدته، محكومًا عليه، مُحَكَّمًا فيه حكم حاكم لا يتهاون مشهوده عن شهادة شاهده، مُنْتَظِمًا على حكمه الأحكام من وصف يليق بمعنى ما ظهر من الشهيد، فيجد ذلك المعنى الذي أوجده به من

لُطْفٍ وَرَحْمَةٍ وَفَضْلٍ وَنِعْمَةٍ وَصُنْعٍ وَحِكْمَةٍ وَأُنْسٍ وَقُرْبَةٍ. فلا تتفاوت مشاهدة العارفِ إذ أنه في كلِّ مشهودٍ يُظْهِرُ شهادةً؛ بمعنى ما يشهد من فعلٍ أو حركةٍ وصفةٍ، فيجد بكلِّ مَوْجُودٍ، بمعنى وجوده الذي أوجد (١) (...) الذي لاقَ بما أشهدهُ منه فلا يتعاضم ذلك عليه ولا يؤوده، وقد قال سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا﴾ [الحشر: ٢١]، وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤] فثبت له تثبيت شاهدهِ على معنى ما أشهدهُ منه، بما أوجدهُ به من الوصف الذي له به تجلَّى، غير الوصف الذي للجبل به تجلَّى، إذ تجلَّى لمحمد ﷺ على صورته المحمدية الآدمية ليس كتجلّيه للكرسى الواسع، ولا للعرش الرفيع من صفات العظمة والجلال والقُدرة، إذ هو سبحانه ذو الجلال بالهيبة والسُّطوة والإكرام، بالصورة والصفة. ولا يصلحُ الزيادةُ على هذا لضعفِ العقولِ عن الصبرِ عليه.

وقال بعض العارفين: لو كُشِفَ وجهُ المؤمنِ للخلقِ عند الله تعالى لَعَبْدُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ تعالى. ولو ظهر نورُ قلبه للعالم لم يثبت له شيءٌ على وَجْهِ الأرضِ. فسبحانَ من سترَ القدرةَ ومعانيها بالحكمةِ وأسبابها حلماً منه وَرَحْمَةً، وتطريقاً للخلقِ إليه للمنفعةِ.

وفى قراءة أبي بن كعبٍ: (مثلُ نورِ المؤمنِ) (٢)، فلولا أنَّ نوره من نوره ما استجازَ إبدالَ حرفٍ بغيرِ معناه.

وقد كان سهل رحمه الله تعالى يقول: الخوفُ مباينةُ النهي، والخشيةُ الورعُ،

(١) في مواضع النقط السابقة طمس بالمخطوط لا يتبين معه الكلام، وهو قدر كلمة أو كلمتين.
(٢) هذه القراءة في تفسير القرطبي (١٢/ ٢٦٠) في سورة النور. وفيه: «واختلف المتأولون في عود الضمير في «نوره» على من يعود. فقال كعب الأحبار، وابن جبير: هو عائد على محمد ﷺ؛ أي: مثل نور محمد ﷺ. وقال أبي بن كعب والضحاك: هو عائد على المؤمنين. وقال الحسن: هو عائد على القرآن والإيمان. وعلى هذه الأقوال يوقف على قوله: ﴿وَالْأَرْضُ﴾. قال ابن عطية: وهذه الأقوال فيها عود الضمير على مَنْ لم يجزِ له ذكر. وفيها مقابلة جزء من المثال بجزء من الممثل...
ونقل الطبري فيها نقولاً كثيرة في تأويل هذا الحرف من القرآن، فراجعهُ ثمَّ (١٢/ ٢٥٩ - ٢٦١).

والإشفاقُ هو الزهدُ. وكان يقول: دخولُ الخوفِ على الجاهلِ يدعُوهُ إلى العلمِ، ودخوله على العالمِ يدعُوهُ إلى الزهدِ، ودخوله على العاملِ يدعُوهُ إلى الإخلاصِ. فصار الخوفُ يصلحُ للكافة؛ إذ دخوله على العامِّ يُخرِجُهُ من الحرامِ، ودخوله على الخاصِّ يُدْخِلُهُ في الورعِ والزهدِ^(١).

وقال أيضاً: الإخلاصُ فريضةٌ لا تُنالُ إلا بالخوفِ، ولا يُنالُ الخوفُ إلا بالزُّهدِ^(٢). لأنَّ مَنْ خافَ تركَ، فصار الخوفُ أوَّلَ العبادةِ لأنَّه يثبت الإخلاصَ، وكان ثمرتهُ الزَّهَادَةُ، لأنها تقتضى الخروجَ من الحرامِ.

وقال أبو محمد: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرى خَوْفَ اللَّهِ فِي قَلْبِهِ فَلَا يَأْكُلُ إِلَّا حَلَالًا. وَلَا يَصِحُّ^(٣) عِلْمُ الرَّجَاءِ إِلَّا لِلْخَائِفِ.

يعنى: ^(٤) ليعتدلَ شهادتاهُ بِتَقْدِمَةِ الْخَوْفِ، فيكونُ بِشهادتهِ قائماً، فإِخْلَاءُ قَلْبِهِ مِنَ الْخَوْفِ وانفراذهُ بِحَالِ الرَّجَاءِ يُخْرِجُهُ إِلَى الْأَمْرِ وَالْإِغْتِرَارِ، فَدْخُلُ فِي أَعْمَالِ الْهَوَى، لَفَقْدِ حَالِ الْخَوْفِ أَوَّلًا.

وكان يقول: الخوفُ ذَكَرٌ، والمحبةُ أُنْثَى، أَلَا تَرى أَنَّ أَكْثَرَ النِّسَاءِ^(٥) يَدْعُونَ المحبةَ.

يريد بهذا أَنَّ فَضْلَ الْخَوْفِ عَلَى الرَّجَاءِ كَفَضْلِ الذِّكْرِ عَلَى الْأُنْثَى. وهو كما قال؛ لأنَّ الخوفَ حالُ الْعُلَمَاءِ، وَالرَّجَاءُ وَصْفُ الْعَمَالِ، فَفَضْلُهُ عَلَيْهِ كَفَضْلِ الْعِلْمِ عَلَى الْعَمَلِ. وفي الخبر: «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى الْكَوَاكِبِ». وَحَدَّثَ مُصْعَبُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «فَضْلٌ مِنْ عِلْمٍ أَحَبُّ

(١) عبارة (ط): «إذ دخوله على العامة يخرجهم من الحرام، ودخوله على الخاصة يدخلهم في الورع والزهد».

(٢) جاءت هذه العبارة في غير موضعها في (ط)، وأثبتها كما في (خ).

(٣) في (ط): «ولا يصلح» وأثبت ما في (خ).

(٤) من أول هنا إلى آخر الفقرة ساقط من المطبوعة، وهو من (خ).

(٥) في (ط) و(هـ): «النساء» وأرجح أنها خطأ لأن الفعل جاء بعدها «يدعون»، ولو كان اللفظ «النساء» لقال: يدعين. وأثبت ما في (خ).

إِلَى مِنْ فَضْلٍ مِنْ عَمَلٍ. وخير دينكم الورع». فالورعُ بابٌ من الخوف؛ لأنه يكون عن معناه^(١).

وكان الحسن يقول: ما عبدَ اللهُ بشيءٍ أفضلَ من طولِ الحزنِ والخوفِ. وقال بعضُ السلف: حسْبُكَ من الخوفِ اجتنابُ المعاصي. وكان الثوري يقول: ما أحبُّ أني عَرَفْتُ الأمرَ حقَّ معرفته، إذًا لطاش عَقْلِي.

فالخوف عند العلماء على غير ما تصوّر في أوهام العموم^(٢)، وبخلاف ما يعدّونه من القلق والاحتراق أو الوكّه والانزعاج؛ لأنّ هذه خطراتٌ ومواجيدٌ وأحوالٌ للوَالِهين، وليست من حقيقة العلم في شيء، بمنزلة مواجيد بعض الصوفية من أهل المعرفة الصادقين^(٣) في أحوال المحبة من احتراقهم وولّهم.

والخوفُ عند العلماء إنّما هو اسم لصحيح العلم وصدق المشاهدة. فإذا أُعطي عبدٌ حقيقة العلم، وصدق اليقين، سُمّي هذا خائفًا.

فلذلك كان النبي ﷺ من أخوف الخلق؛ لأنّه كان على حقيقة العلم، ومن أشدهم حبًّا لله تعالى؛ لأنّه كان في نهاية القرب، وقد كان حاله السكينة والوقار في المقامين معًا، والتمكين والتثبيت في الأحوال كلها. ولم يكن حاله^(٤) القلق والانزعاج، ولا الوكّه [والقوة]^(٥) والاستهتار. قد أُعطي ﷺ أضعافَ عقول الخليفة، وأوقف على يمين من الحقيقة، وبانت له كلّ دقيقة، فألْبَسَ أحوال الخلق وعلومهم، ووسّع قلبه لهم، وشرح صدره للصبر عليهم، فكان ﷺ مع الأعرابي كأنّه أعرابي، ومع الصّبي بمعناه، ومع المرأة في نحوها، يقاربهم في علومهم، ويخاطبهم بعقولهم، ويظهرُ منه مثلُ وجدهم؛ ليعطيهم نصيبهم من الأنس به، ويوفّيهم حقوقهم من الدّرك منه، ولئلا تعظم هيئته في صدورهم فينقطعون عن

(١) هذه الفقرة والتي بعدها زيادة من (خ).

(٢) في (ط): «العامّة».

(٣) في (ط): «من العارفين».

(٤) في (ط): «وصفه».

(٥) زيادة من (خ).

السؤال له، والأنس به، حكمةً منه لا يفتنون لها، ورحمةً منه قد جُبِلَ عليها؛ قد ألبس مواجيدهم لبسةً، وأدخل ذلك عليه صبغةً بغير تكلف ولا تصنع. ذلك تعليم^(١) الحكيم العليم. فلذلك وصفه عز وجل بخلقه، وتعجب من وصفه، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] قيل: على أخلاق الربوبية. وقرئت بالإضافة إلى عظيم، فيكون العظيم اسم الله سبحانه.

على أن له - كما ذكرنا آنفاً - من وصف العارف من كل مشاهدة وجدًا، وبكل موجود مشاهدةً، بمعناه من معاني (...). ليعتدل حاله، ويتمَّ وجدّه وشهادته. وكذلك الا (...).^(٢) تبعناه على ما ذكرناه، ثم الصديقون من العلماء [الذين هم] أمثالُ الأنبياء والأبدال منهم، لا يُظهر أحدهم من حاله ونصيبه شيئاً؛ لقوة التمكين، وفَضْلُ العقل. ولا يبخسُ من نصيب الخلق منه شيئاً؛ لحقيقة الحكمة والعدل، ولا يتظاهر أحدهم بشيء؛ لتحقيقه بالزهد والتواضع والفضل، ولا يظهر عليه شيء؛ لمكانه من القوة ورسوخ العلم وثبوت الحكمة. هم كما يظهرون به، ومن وراء ما يظهرون. هذه سنة الأولياء العارفين، ومنهاجُ الأصفياء الممكّنين من أهل البلاء الذين هم الأمثل فالأمثل بالأنبياء.

وقال بعض الحكماء: ما ألبس الله عبداً لبسةً أحسنَ من خشوعٍ في سكينه، هي لبسةُ النبيين، وحليةُ الصّديقين. وكان بعض أهل المعرفة يقول: مَنْ طالب الخلق بعلمه، وخاطبهم بعقله، فقد بخسَهُم حقوقَهُم منه، ولم يَقمُ بحق الله فيهم. وقال بعض العلماء: لا يكونُ إماماً من حدّث الناس بكل علمه، وأظهر لهم نصيبه. وكان يحيى بن معاذ يقول: لا تُخرج أحداً من طريقه، ولا تخاطبه بغير علمه، فتتعب ولا ينتفع. ولكن اغْرِفْ له من نهره، واسقِه بكأسه.

وسئل بعض العلماء عن العارف، هل يستوحشُ من الخلق؟ قال: لا يستوحش ولكن قد يكون نفوراً. قيل: فهل يُستوحشُ منه؟ قال: العارف لا يُستوحش منه، ولكن قد يُهاب.

(١) في (ط): «تعلم ذلك من».

(٢) في هذا الموضع والذي قبله طمس بالأصل بمقدار كلمة أو بعض كلمة.

ومّا يدلُّك أن الخوفَ اسمٌ لحقيقة العلم بالله، أن في إحدى القراءتين من قراءة أبيّ بن كعب، أو عبد الله، في معنى قوله: ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا﴾ [الكهف: ٨٠]: (فَخَافَ رَبُّكَ أَنْ يُرْهَقَهُمَا)^(١). قال الفراء: معناه: فعلم ربُّك. وقال: الخوفُ والظنُّ يذهب بهما مذهب العلم.

ومن معنى هذا أيضاً سُمِّيَ الحياءُ بمعنى الخشية وهي الخوف، فجعل الحياء اسمَ الخشية، ولذلك قرئ هذا الحرفُ: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) سمعته من بعض العلماء بالقرآن والفسر^(٢)، فقال: إنما معناه: إنما يستحي الله من العلماء من عباده؛ لأن الله سبحانه حيٌّ كريم، يقابل الحياءَ له بالحياءِ منه، كرماً وفضلاً.

وكذلك فسروا قوله عز وجلّ: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ [الأحزاب: ٣٧] بمعنى تستحييهم كقوله في المفسر: ﴿فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣] لأنّ رسول الله ﷺ لم يكن يخاف الناس في الله، كيف وقد أخبر الله تعالى عن الرسلِ بترك خشية الخلق، وتوحيد الخوف له في قوله: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩] فقد دخل فيهم، وهو أعلاهم.

• بيان آخر في معنى الخوف:

والخوف أيضاً من أسماء المعاني، فوجوده بانتفاء ضده. فإذا عُدِمَ من القلب الأمنُ من كلّ وجهٍ من أحوال الدنيا وأمور الآخرة، فلم يأمن مكرَ الله تعالى في كلّ الأحوال، في تصريف أحكام الدنيا، وتقلب حركات القلوب والنفس، وجواذب الشهوات، وإثارة طبائع العادات، ولم يسكن إلى عُرْفٍ ولا اعتياد، ولا يقطع بسلامته وبرأته في شيء، كان هذا خوفاً، وسُمِّيَ العبدُ بفقد الأمنِ من جميع ذلك خائفاً.

(١) القراءة لأبي بن كعب، وهي في: معاني القرآن، للفراء، ١٥٧/٢.

(٢) يقصد الآية ٢٨ من سورة فاطر. وهذه القراءة نسبها الزمخشري إلى عمر بن عبد العزيز وأبي حنيفة، وقال: «الخشية في هذه القراءة استعارة، والمعنى: إنما يجلبهم ويعظمهم...». انظر: الكشف ٦١١/٣، والقرطبي ٣٤٤/١٤. والفسر: علم التفسير.

فهذا مستعملٌ فاشٍ في كلام العرب ومذهبهم . يقول أحدهم : أخاف من كذا؛ إذا لم يأمنه . أو : أخاف أن يكون ذا؛ إذا تحقَّقَ علَّمه .

وقيل لبعض العلماء : ما بال العارف يخاف في كلِّ حال؟ فقال : لعلمه أن الله تعالى قد يأخذ في جميع الأحوال، فكذلك لا يأمن في حالٍ ولا يسكن إلى حالٍ^(١).

ثم إن للخائفين بعد هذا طُرُقًا ووجهًا من قِبَلِ الخوفِ المقلِّقِ، والإشفاقِ المزعجِ، والوجلِّ المحرق^(٢) : هي مُجاوَرَاتٌ للطُّرُقِ السَّابِلَةِ^(٣)، التي هي محاجٌ للأئمةِ المختارةِ الفاضلةِ، وفيها متاوهٌ ومهالكٌ تنكَّب^(٤) عنها العلماءُ السَّادةُ والصفوةُ المختارةُ. إلا أنه قد سُلِّكَ ببعض الزهَّادِ والعبَّادِ فيها، وأريدَ بعضُ العارفين بها، ليستَ بِمُفْضِلَةٍ، كلُّ ذلك عند العلماء ولا بُمُتَنَافَسٍ فيها مَغْبُوطٌ عليها عند العارفين؛ لأنَّها قد تُخرج من طرقاتِ المسالكِ إلى مفاوِزِ المهالكِ. وإنَّما أريدُ ببعضهم التعريفُ لها، والاطِّلاعُ عليها. ومنهم من أريدَ منه التَّيُّه والوكَّه فيها، إلا أنَّها أشهر في أسماع العامة، وأعجب وأهول عند العموم.

• ذكر تفصيل هذه المخاوف :

اعلم أنَّ للخوف سبعَ مفائضَ تفيض إليها من القلب، فإلى أيِّ مفيضٍ فاض من القلب إليه أتلَف صاحبهُ به، إلا ما يستثنيه.

قد يفيض الخوفُ من القلبِ إلى المرارةِ وهي أرقُّ صفاتِ الأدِّمةِ، وهي باطن البَشْرةِ، فيحرقها، فيُقتل العبدُ، وهؤلاء هم الذين يموتون من الغشَى والصَّعَقِ وبدَاوَتِ الوجْدِ، وهم ضُعفاءُ العمَّالِ.

وقد يطير الخوفُ من القلبِ إلى الدِّماغِ، فيحرق العقلَ، فيتيه العبدُ، فيذهب الحال، ويسقط المقام.

(١) من قوله «فكذلك» إلى هنا ساقط من المطبوعة، وهو من (خ).

(٢) في (خ) : «الإزعاج المحرق والإشفاق الموله».

(٣) السَّابِلَةُ : الطريق السلوك.

(٤) في (ط) : «نقلت» وأثبت ما في (خ).

وقد يَحُلُّ الخوفُ السَّحَرَ، وهو الرِّثَّة، فيَنْقُبُهَا، فيذهب الأكلُ والشُّربُ، حتى يَسِلَّ الجسمُ، وينشف الدمُ، وهذا لأهل الجُوعِ والطِّيِّ والاصفرارِ.

وقد يسكن الخوفُ الكبدَ، فيورث الكَمَدَ اللازمَ والحزنَ الدائمَ، ويحدث الفكرَ الطويلَ والسَّهَرُ الذَّاهِبَ. وفي هذا المقام يذهب النومُ، ويدوم السَّهرُ، وهذا من أفضليها. وفي هذا الخوفِ العِلْمُ والمُشَاهَدَةُ، وهو من خوفِ العاملين.

وقد يقدحُ الخوفُ في الفرائصِ. والفريضةُ: هي اللحمَةُ التي تكون على الكَتِفِ، يقال للحِمَتَيِ الكتفينِ: الفريصتان؛ وجمَعُها: الفرائصُ. ومنه الخبر: «أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الفريصتان من اللحم»، وهو أرقُّ لحم الحيوان وأعذبُه. فمن هذا الخوفِ يكون الاضطرابُ والارتعاشُ واختلافُ الحركةِ.

وقد يبدو الخوفُ من القلبِ، فيغشى العقلَ فيَمْحِي سلطانه لقهرِ سلطانِ القدرة، مَحَوَ الشمسِ - إذا برزت - ضوءَ القمرِ البادى، الذى يَبْدُو أعلى السِّرِّ من خزائنِ الملكوتِ، فيضعُفُ لحمه العقلُ، فيضطربُ لضعفه الجسمُ، فلا يتمكنُ العبدُ من القرارِ لضعفِ صفته.

وذلك أن أجزاءَ الإنسان وإن كانت متفرقةً فى البنيان للحكمة والإتقان، فهى كشيءٍ واحدٍ يجمعها لطيفُ القدرة بإظهار المشيئة. فأسفلُ البنية منوط بأعلاها، فإذا اضطرب أعلاها مال أسفلها، وإذا وصل الداءُ أو الدواءُ إلى عضوٍ منها تداعى له سائرُها. ألا^(١) ترى أن القلبَ مَلِكُ الجسدِ، كالشمسِ مَلِكُ الفلكِ، إلا أن المعدةَ مركَّبةٌ عليه، وهى تحته فى البنية، وهو أحد أركانها الأربعة، مع الكبدِ والطحالِ والرئة. فإذا وصل إليها شيءٌ من عللِ الطبائعِ سرى ذلك إلى القلبِ فأَعْلَهُ واضطربَ له، كما يسرى إلى أركانه الثلاثة.

وهذه الطائفةُ أشبهُ بالفضلِ، وأدخلُ فى وصفِ العلمِ. وقد سلك فى هذا الطريقِ أكابرُ العلماءِ وأفاضلُ أهلِ القلوبِ، وقد كان هؤلاء فى التابعين كثيراً، منهم: الربيعُ بن خيثم، وأويسُ القرنى، وزُرَّارَةُ بن أوفى، ونُظْرَاؤُهُم من الأخيارِ

(١) من هنا إلى آخر الفقرة لا يوجد فى المطبوعة، وهو من (خ).

رضى الله عنهم^(١). ولم ينكر هذا عليه الصحابة ممن عرفه، مثل: عمر، وابن مسعود، وحذيفة، رضى الله عنهم.

وقد كان عمر رضى الله عنه يغشى عليه، حتى يضطرب مثل البعير، ويسقط من ذى قيام.

وقد كان الغشى يتغشى سعيد بن جذيم، وكان من الزهاد ومن أصحاب رسول الله ﷺ، ومن أمراء الأجناد، بعثه عمر رضى الله عنه والياً على أهل الشام، وكان يوصف له من زهده وشدة فاقته ما يعاتبه عمر فى ذلك. وبعث إليه مرةً بأربعمائة دينار - وفى رواية ألف دينار - وعزم عليه ليستنفقها على أهله، ففرق ذلك على الغزاة، فى قصة طويلة. فكتب أهل الشام إلى عمر يذكرُون شأنه، وما كان يتغشاه من الوجد فى مجلسه، فخشوا عليه من دَخَلٍ^(٢) فى عقله، ولم يعرف ذلك أهل الشام. فسأله عمرُ لما لقيه عن الذى يصيبه إذا تحدث، فأخبره بما يجده فى قلبه من معنى مشاهدته ووجده، وهو من مواجيد الصوفية من أهل الأحوال. فعرف عمر ذلك وعذره، وما زاده ذلك عنده إلا خيراً، فكان يكرمه ويعرف له فضله وعلمه. وكتب إلى أهل الشام أن لا تُعنّفوه فى أمره، ودعوه^(٣).

وقد كان أقوى الأقوياء، وهادى الهداة، رسولُ رب العالمين ﷺ يغشى عليه عند نزول الوحي، إذا لبسه لبسةً أزال ترتيبَ العقلِ منه، ورفع مكانَ الكونِ عنه، حتى يغطّ، ويتردد وجهه، وينحدر منه مثلُ الجمانِ من العرقِ فى اليومِ الشاتى، إلا أن هذا كان يصيبه ﷺ فى ضربٍ من الوحي إذا تغشاه متصلاً، أو ينزل عليه روحُ القدس فى رُوحه مُواصلاً، واستبطن باطنَ قلبه؛ لأن الوحي على أربعة أضرب: ضربان متصّلان؛ هذا أحدهما. وضربان منفصلان. ومن كلِّ واحدٍ

(١) بعده فى نسخة (هـ): «وقد كان ذلك سنة أهل البيت جعفر بن محمد، وكان يسقط من مقامه، وربما لحقه ذلك فى الصلاة فيخر مغشياً عليه، ولم ينكروا عليه». وهذا لا موضع له ولا يستقيم به الكلام.

(٢) الدخّل: ما داخل الإنسان من داء أو فساد فى عقل أو جسم.

(٣) هذا الخبر فيه زيادات وتصويبات فى المخطوط عن المطبوعة لم أشر إليها تفصيلاً، واكتفى بهذه الإشارة، حتى لا يتشتت ذهن القارئ فى متابعة الخبر.

يلحق العلماء بالله تعالى أهل القلوب النّاظرة والشّهادة الحاضرة وصّف. إلا أن ذلك فى أهل مقامات ثلاث من المقرّبين: فى مقام من شاهد التّوحيد. ومقام فى محبة بتجلّى وصّف. ومقام من الشّقّ والخشية لعبدٍ هاربٍ مَطْلُوبٍ.

وكلُّ ضروبِ الوحى بعد هذه الأربعة؛ وهى عشرةٌ لأهل هذه المقامات الثلاث منه نصيبُ شّهادة، أو وجد، أو حال، أو خاطر، أو مقام وهمّة، أو مواصلة. إلا ضريين من أنواع الوحى فإنهما تمتنعٌ ومخصوصٌ بهما الأنبياء؛ منها ظهور ملك فى صورته، ومنها سَمْعُ كلام الله بصفته.

وشرحُ هذا وتفصيله يطولُ ليس هذا موضعه، ولا العقول تحمّله أو تسعه، إذ لا يعرفه علم يقينٍ إلا من سلك طريقه، ولا يشهدُ شهود تحقيقٍ إلا من ذاق حقيقته، فمن آمن به تصديق تسليم فله منه نصيبٌ.

وقد نظر رسول الله ﷺ إلى جبريل فى صورته بالأبطح فصعق. وفى خبر حمزة الزيات عن حمران بن أعين: «أن رسول الله ﷺ قرأ آيةً فى سورة الحاقة فصعق». وقال الله أصدق القائلين: ﴿وخرّ موسى صعقاً﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فمن هذه المعانى مواجيد العارفين، ومن هذه الشّهادة شهادة الموحّدين. ثم يرجعون إلى أخلاق سنيّة، وأحوال مكّيّة عليّة، وسبلٍ معروفة، وشرعة مألوفة.

وقد يفيضُ الخوفُ من القلب إلى النفس فيحرقُ الشّهوات، ويمحو العادات، ويخمد الطبع، ويطفى شعلَ الهوى. وهذا أحمدُ المخاوف وأعلاها عند أهل المعارف. وهؤلاء أفضلُ الخائفين وأرفعهم مقامًا؛ وهو خوف الأنبياء والصديقين وخصوصِ الشّهداء. وليس فوق هذا وصّف يُغبط عليه الخائف، ولا يفرّج به عارف. فإن جاوز الخوفُ هذه الأوصاف فقد خرج من حدّه وجاوز قدره؛ لأنّه إذا أحرق الشّهوات، ومحا الأهواء، قوى فلم يترك شهوة ولا هوى.

ثم إن لم يعصم العبدُ من مجاوزة حدِّ الخوف خرج به الخوف إلى أحد ثلاثة معانٍ:

خيرها: أن يسرى إلى النفس فيحرقها، فيتلف العبدُ، فتكون له شهادة. وليس

هذا بأرفع مقامات الخائفين في باب العلوم والمجاهدات عن مكاشفة معاني تجلّي الصفات. إلا أنه قد قال بعض العلماء: ما شهداء بدر بأعظم أجراً ممن ماتَ وجداً. وهذه صفاتُ ضعاف المريدین؛ إذ لعلماء الموقنين بكلّ شهادة من اليقين أجرٌ شهيد، وبكلّ معاناة قُدرة من مُقتدر ليلة قَدَر، وعن كلّ قصدٍ محجّة بتعظيم عظيم حجة، وبكلّ عِمارة قلبٍ بحالٍ محبةٍ عمرة.

وأوسطها: أن يعلو الخوفُ إلى الدماغ فيذيبه، فينحلّ عقدة العقل لذوّه، فتضطرب الطبائعُ لانحلال عقدة العقل؛ لانه مركّبٌ عليها تركيب القدر على الانافيّ إن زلتْ أُنْفِيّة سقطت القدر. ثم تختلط المزاجات لاضطراب العقل، فتحترق طبيعة الصفراء، فتحول سوداء، فيكون من هذا الوسواسُ والهديانُ والتوّه والوكّه؛ لاختلاط الأمزجة. وذلك أن الدماغ جامد، وهو مكان العقل، وهو معقودٌ به، ومركّبٌ على الطبائع الأربعة [بالتفوس الحسية] نتائجهُ، فإذا اضطربت المزاجات اشتعلت، فتلهب شعلها إلى المخ فأحرقه وأذابه، فحلّ معقد العقل الذي مكانه الدماغ، وسلطانه صقال القلب الظاهر؛ كصقال نور الحدقة للنّاظر. وهو بمنزلة الشمس الطالعة، محلّها الفلك العلويّ، وشعاعها على الأرض؛ كذلك العقل محلّه الرأس، وسلطانه ساطعٌ في القلب، والحواس الخمس أعراضٌ متصلةٌ به، وذاك من حكمة الحكيم المدبر القدير، أن كلّ صنعة في الملك فمثلها في صنعة الملكوت، فأنوار القلوب وأحوالها في التقلب كأدوات الأجسام وأعراضها في التصريف. ففي هذا المقام الطيش والهيمان، وهذا مكروه عند العلماء، وليس تحمداً عاقبته الحكماء.

وقد أصاب ذلك بعض المحبين في مقام المحبة، فانطبق عليهم، فولّوها بوجده، ومنهم من فرّع ذلك عن قلبه، فسرى عنه، فأفاق منه، فنطقوا بعلم وصفه.

وقد كان أبو محمّد يقول لأهل التقلّل الطاوين المتقشّفين: احفظوا عقولكم، فإنه لم يكن وليّ ناقص العقل.

وحدثني بعض إخواني، قال: كنّا حول أبي الحسن بن سالم، رحمه الله، فدخل شابٌ عريان، فوقف على الحلقة يهذي، فزجرناه نظرده، فقال لنا الشيخ:

دَعُوهُ، لَا تَزْبُرُوهُ، حَتَّى يَقْضَى مَا فِي نَفْسِهِ. قَالَ: فَكَانَ يَتَكَلَّمُ بِوَسَاوِسَ مِنْ مَعَانِي التَّوْحِيدِ، وَبِهَذَيَانِ مُخْتَلَطٍ مِنْ عُلُومِ الْمَعَارِفِ، إِلَى أَنْ فَتَرَ وَسَكَنَ ثُمَّ انْصَرَفَ. فَقَالَ لَنَا أَبُو الْحَسَنِ: لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي عُلَمَاءِ السُّوءِ. ثُمَّ قَالَ: لَمْ يَكُنْ مِنْ أَصْحَابِنَا أَحْسَنُ عَقْلاً وَلَا أَكْثَرُ تَعَبُداً وَاجْتِهَاداً مِنْ هَذَا الشَّابِّ، وَكَنتُ أَنْهَاهُ عَنِ الْعَسَفِ بِنَفْسِهِ وَالْحَمْلِ عَلَيْهَا، وَأَمَرَهُ بِأَكْلِ الدَّسَمِ وَالْحَلَاوَةِ، فَكَانَ مُسْتَقِيمَ الْأَمْرِ. فَفَارَقْنَا، وَذَهَبَ إِلَى أَهْلِ عِبَادَانٍ، فَقَالُوا لَهُ: إِنَّ ابْنَ سَالِمٍ قَدْ رَكَنَ إِلَى الدُّنْيَا، وَتَرَكَ الْعِبَادَةَ وَالْاجْتِهَادَ، وَأَمَرُوهُ بِالْجُوعِ الدَّائِمِ وَالطَّيِّ، وَتَرَكَ أَكْلَ الدَّسَمِ وَالْحَلَاوَةِ، حَتَّى احْتَرَقَ دِمَاغُهُ، وَزَالَ عَقْلُهُ، فَذَهَبَ الْحَالُ وَتَطَلَّبَ الْعِبَادَةَ. فَقَالَ: ثُمَّ جَعَلَ يَتَكَلَّمُ وَقْتَهُ ذَاكَ فِي الرَّفْقِ بِالنَّفْسِ، وَحُسْنِ الرِّيَاضِيَةِ، وَالتَّفَقُّدِ لَهَا بِحَسَنِ التَّدْبِيرِ وَالسِّيَاسَةِ؛ مِنَ التَّفَقُّدِ بِالدَّسَمِ وَالْحَلَاوَةِ، وَالتَّوَسُّطِ مَا بَيْنَ الْجُوعِ وَالشَّبْعِ، أَوْ كَمَا قَالَ (...) (١) الْمَغْنَى.

وَقَدْ رَأَيْتُ مَنْ كَانَ سَبَبُ زَوَالِ عَقْلِهِ مُجَاهِدَةً النَّفْسِ وَمَجَاوِزَةً الْحَدِّ فِي الْمُجَاهِدَةِ، وَالْإِفْرَاطَ فِي الْجُوعِ الشَّدِيدِ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ. وَالتَّوَسُّطُ وَالْاِقْتِصَادُ أَفْضَلُ الطَّرِيقَاتِ، وَهُوَ مِنْ عِلَامَةِ التَّوْفِيقِ وَالسَّدَادِ. وَكَانَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ عَيْشًا وَسَطًا، لَا ذَاهِبًا فَرُوطًا، وَلَا نَازِلًا سَقُوطًا.

وَقَدْ أَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «سَدُّوا وَقَارِبُوا، وَعَلَيْكُمْ بِالْقَصْدِ، فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بَرْقًا. وَلَا تَبْغُضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللَّهِ، فَإِنَّ الْمُنْبِتَ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى. وَإِنَّ لِكُلِّ شَرِّةٍ - يَعْنِي عِبَادَةَ وَجِدَةٍ - فَتْرَةً، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى سُنَّتِي فَقَدْ هُدِيَ».

وَفِي أَخْبَارٍ كَثِيرَةٍ نَهَى عَنْهَا الْمُتَقَشِّفِينَ مِنْ مُرِيدِي الْمُهَاجِرِينَ مِنَ التَّبَتُّلِ، وَالْمُبَالِغَةِ فِي التَّقَشُّفِ، وَالسَّهْرِ الدَّائِمِ، وَالصَّوْمِ اللَّازِمِ، وَمَنْ تَرَكَ أَكْلَ اللَّحْمِ، وَغَشْيَانَ النِّسَاءِ، وَنَحْوَهُ. نَهَى عَنْ ذَلِكَ ابْنُ مَظْعُونٍ، وَابْنُ عَمْرٍ، وَغَيْرُهُمَا، وَأَمَرَهُمْ بِالْاِقْتِصَادِ وَالتَّوَسُّطِ فِي الْحَالِ، وَالْعِبْرَةَ بِعَاقِبَتِهِ فِي الْمَالِ. وَكَذَلِكَ كَانَتْ سُنَّتُهُ فِي نَفْسِهِ ﷺ، وَسِيرَتُهُ فِي أَصْحَابِهِ.

(١) طمس بالأصل 'مقدار كلمتين'.

والمعنى الثالث من مَذْمُومِ الخوف، وهو شرُّها في مُجَاوِزَةِ الخوف: هو أن يعظم الخوفُ وَيَقْوَى، فيذهب الرجاءُ، إذا لم يُوَاجِهْ بعلمِ الْأَخْلَاقِ من الجودِ والكَرَمِ والإفضالِ وقديمِ الإحسانِ وخفيَ الامتنانُ بخلقِ المتفضلِ المَنَّانِ. فهذه المعانى بها تعديلُ المقامِ من فَضْلِ الاهتمامِ، وتَرْوِيجِ الحالِ من كُرُوبِ الْأَثْقَالِ، فلا يُسَاعِدُهُ الْقَدَرُ بِذَلِكَ، فيُخْرِجُهُ وَجْدُهُ إِلَى الْقَنُوطِ من رَحْمَةِ اللَّهِ، ويعطِفُ به هَمُّهُ عَلَى الْإِيَّاسِ من رَوْحِ اللَّهِ، وتُوقِفُهُ شَهَادَتُهُ عَلَى الْهَرَبِ من قُدْرَةِ اللَّهِ.

دَخَلَتْ عَلَيْهِمُ هَذِهِ الْمَشَاهِدَةُ مِنْ قَبْلِ الْمُوَاجَهَةِ بِالْإِنْصَافِ، وَالْعَدْلِ بِمَعْيَارِ الْعَقْلِ، وَإِتْلَافِ الْجِدِّ، فَجَاوَزَتْ بِهِمُ الْعِلْمُ بِأَخْلَاقِهِ الْمَرْجُوءَةِ مِنَ الْكَرَمِ وَخَفِيَ الْأُلْطَافُ، فَتَعَدَّتْ بِهِمُ الْحُدُودَ مِنْ قَبْلِ قُوَّةِ نَظَرِهِمْ إِلَى الْاِكْتِسَابِ، وَتَمَكَّنَ بِحُكْمِ شَهَادَةِ الْأَسْبَابِ، وَرَجُوعِهِمْ إِلَى نَفُوسِهِمْ فِي الْحَوْلِ وَالِاسْتِطَاعَةِ، وَإِثْبَاتِهِمْ لِتَحْقِيقِ الْوَعِيدِ عَلَيْهِمْ خَاصَّةً لَا مَحَالَةَ، وَالْحُكْمِ عَلَى الْحَاكِمِ الرَّاحِمِ بِعُقُولِهِمْ وَعُلُومِهِمْ، مِنْ غَيْرِ تَفْوِيزٍ مِنْهُمْ إِلَى مَشِيئَةٍ وَلَا اسْتِسْلَامٍ لِقُدْرَةٍ، وَلَا تَأْمِيلٍ لِأَحَدٍ مَعَانِي صِفَاتِهِ الْحُسْنَى الَّتِي تَعُمُّ جَمِيعَ صِفَاتِهِمُ السُّوْأَى، فَظَهَرَتْ سَيِّئَاتُهُمُ الثَّوَانَى أَمَامَهُمْ، فَحَجَبَتْهُمْ عَنْ قَدِيمِ إِحْسَانِ الْمُحْسَنِ الْأَوَّلِ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ بِإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ أَسَاءُوا، وَبَسَبَقَ عِلْمُهُ فِيهِمْ تَعَدُّوا، وَأَنْ قَلَمَهُ لَمْ يَكُنْ بِأَيْدِيهِمْ إِذْ جَرَى بِمَا عَلَيْهِمْ، وَلَا لَوْحَهُ كَانَ فِي حُجُورِهِمْ إِذْ اسْتَطَرَّ فِيهِ مَا اخْتَطَّ لَهُمْ، وَإِذْ بَتَأْلِيفِهِ جَمَعَهُمْ عَلَى مَسَاوِيهِمْ، وَبِإِرَادَتِهِ لِأَخْلَاقِهِمْ صَبَرَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَأَنْ قَهَرَ قُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِ جَبَرِهِ أَظْهَرَ مِنْهُمْ مِنْ خِزَانَتِهِ مَا فِيهِمْ.

يَدُلُّكَ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ أَنْ أَكْثَرَ هَذِهِ الْمَخَافِ كَانَتْ فِي الْبَصَرِيِّينَ وَأَهْلِ عِبَادَانِ وَالْعَسْكَرِيِّينَ، فَكَانَ مَذْهَبُهُمُ الْقَدَرُ، فَوَقَعُوا فِي غَايَةِ الْخَطَرِ، وَقَالُوا بِاللُّطْفِ وَتَقْدِيمِ الْاسْتِطَاعَةِ وَتَفْوِيزِ الْمَشِيئَةِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُ الْعَمَرِيَّةِ: أَصْحَابُ عَمْرُو بْنِ عَبِيدٍ. وَالْعِبَادِيَّةِ: شِيعَةُ عِبَادٍ. وَالْفُوطِيَّةِ وَالْعَطُويَّةِ: أَصْحَابُ هِشَامِ الْفُوطِيِّ، وَابْنِ عَطَاءِ الْغَزَالِيِّ. وَمِنْهُمْ التَّيْمِيَّةُ؛ نَفَوْا نِصْفَ الْقَدَرِ. وَمِنْهُمْ الْمَنَازِلِيَّةُ؛ أَصْحَابُ الْمَنْزِلَةِ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ، وَالْقَوْلِ بِمَقْدُورِ قَادِرَيْنِ، وَفَعَلَ مِنْ فَاعِلَيْنِ، فَابْتَلَوْا بِالْاعْتِمَادِ عَلَى الْأَسْبَابِ، وَبِالنَّظَرِ إِلَى أَوْلِيَةِ الْاِكْتِسَابِ، فَحَجَبَهُمْ ذَلِكَ عَنِ الْمَقْدَرِ الْوَهَّابِ، ثُمَّ لَمْ

يرفع عنهم الحجاب ف...^(١)، وَارْتَجَّ عَلَيْهِمُ الْبَابُ، فَهَرَبَ هَؤُلَاءِ مِنَ الْأَمْنِ وَالْإِيَّاسِ، وَأَدْخَلَهُمْ فِي الْمَقُولِ وَالْوَسْوَاسِ، فَصَارُوا فِي كِبَائِرِ الْمَعَاصِي مِنْ خَوْفِهِمْ مِنْ صَغَائِرِهَا، وَلَمْ يُجْعَلْ لَهُمْ نُورٌ يَكْشِفُ ظُلْمًا. فَمَثَلُهُمْ مَثَلُ الْخَوَارِجِ، خَرَجُوا عَلَى الْأَئِمَّةِ بِالسَّيْفِ لِانْكَارِ الْمُنْكَرِ؛ فَوَقَعُوا فِي أَنْكَارِ الْمُنْكَرِ، مِنْ تَكْفِيرِ الْأَئِمَّةِ، وَتَضْلِيلِ الْأَئِمَّةِ، وَإِنْكَارِهِمُ السُّلْطَانَ، وَتَكْفِيرِهِمُ بِالصَّغَائِرِ أَهْلَ الْإِيمَانِ. وَهَذَا مِنْ أَوَّلِ الْبِدْعِ، وَهَؤُلَاءِ كِلَابُ أَهْلِ النَّارِ.

وَمَثَلُهُمْ أَيْضًا مَثَلُ الْمُعْتَرِزَةِ، هَرَبُوا مِنْ طَرِيقِ الْمَرْجَةِ: أَنَّ الْمُوَحِّدِينَ لَا يَدْخُلُونَ النَّارَ، فَحَقَّقُوا الْوَعِيدَ عَلَى أَهْلِ التَّوْحِيدِ، وَخَلَدُوا الْفَاسِقِينَ فِي النَّارِ، فَجَاوَزُوا حَدَّ الْمَرْجَةِ، وَزَادُوا عَلَيْهِمْ بِمَا اسْتَحْسَنُوا مِنَ الْهَوَى، كَمَا جَاوَزَتِ الْمَرْجَةُ طَرِيقَ أَهْلِ السُّنَّةِ، فَاسْكُنُوا الْفَجَارَ مَنَازِلَ الْأَبْرَارِ؛ بِمَا أُوتُوا مِنَ الْهَوَى^(٢). وَكَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: أَهْلُ الْبِدْعِ كُلُّهُمْ يَرُونَ الْخُرُوجَ عَلَى السُّلْطَانِ، وَيُكْفَرُونَ الْأَئِمَّةَ، وَيَرَوْنَ السَّيْفَ عَلَى الْأَئِمَّةِ. وَفِي الْخَبَرِ: «الْخَوَارِجُ كِلَابُ أَهْلِ النَّارِ».

فَهَذِهِ أَضْرُّ الْوُجُوهِ فِي مُجَاوِزَةِ الْخَوْفِ عَنْ قَدْرِهِ، وَهُوَ مِنَ التَّعَدِّيِ لِحُدُودِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا، وَرَسَمَ عَنْ كُلِّ مَحَبَّةٍ أَمْرًا. فَمَنْ جَاوَزَ هَذِهِ الْمَخَافَافَ فَهَؤُلَاءِ غَلَاةُ الْمُخَوِّفِينَ، وَمِنْ أَرْقَائِي بِمَا يَهْوَى اتَّحَلَّ الْبَاطِلَ (...) النُّحْلَ مِنَ الْمُبْطِلِينَ، وَمَنْ تَأَوَّلَ عَلَى الْمَقْيَاسِ اتَّبَعَ [مَا يَمْلِيهِ] وَسَوَاسُ جَهْلٍ، وَهَؤُلَاءِ مَتَأَوَّلُوا الْجَاهِلِينَ. وَقَدْ أَخْبَرَ الرَّسُولُ ﷺ بِعُدُولِ الْحَامِلِينَ الرَّاشِدِينَ مِنْ حِمْلَةِ الْعِلْمِ فِي كُلِّ خَلْفٍ صَالِحٍ مِنْ أُمَّةٍ الْمُسْلِمِينَ، مِنْ أَهْلِ الْآثَارِ رَوَاةِ الْأَخْبَارِ، أَبْدَالِ النَّبِيِّينَ، وَخَلَائِفِ الصَّدِيقِينَ، أَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَنْفُونَ عَنِ الْعِلْمِ وَالْحَقِيقَةِ تَحْرِيفَ هَؤُلَاءِ الْغَوَاةِ مِنَ الْمُتَبَدِّعَةِ فِي الطَّرِيقَةِ، النَّاكِبِينَ عَنِ الْمَحَجَّةِ، الْمَفَارِقِينَ لِلْجَمَاعَةِ بِالشَّدُودِ

(١) طمس بقية الكلمة في الأصل. وكذا في الموضع التالي.

(٢) أشار أبو طالب في الفترتين السابقتين إلى مذاهب علماء الكلام وفرق الرافضة إشارة سريعة، ثم لفظهم، وجعلهم من أهل البدع. ويطول الكتاب لو ذهبنا وفصلنا مذاهبهم أو عرفنا بهم، ولكن انظر على سبيل المثال كتاب «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين» للأشعري، وانظر غيره من كتب النحل لتعرف تلك المذاهب الضالة، وبخاصة ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية.

والفرقة، فقال ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلفٍ عدوُّه، ينقون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين».

فالمجاورة لقدر الشيء كالتقصير عنه، ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]، ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١]. وكان على، عليه السلام، يقول: عليكم بالنمط الأوسط، الذي يرجع إليه الغالي، ويرتفع عنه الداني.

وهذا قولٌ فصل، غير شطط ولا هزل، وهو طريق أهل السنة، ومذهب أولى المعرفة. فصدق الرجاء واعتدال الخوف من حقيقة العلم. والمؤمن حقاً هو المعتدل بين الخوف والرجاء، كما جاء في الآثار: «لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا». وكما أوصى لقمان الحكيم ابنه فقال: «يا بُنَيَّ، خف الله خوفاً لا تياس فيه من رحمته، وارجه رجاء لا تأمن فيه مكره». وفي لفظ آخر: «وارجه رجاء أشد من خوفك». قال: وكيف أستطيع ذلك، وإنما لي قلب واحد؟ قال: أما علمت أن المؤمن ذو وصفين عن مشاهدين؟؛ لأن المؤمن الأول والشاهد الأعلى ذو وصف مخوف مثل: البطش، والسطوة، والعزة، والنقمة. فإذا شهد العبد ما آمن به من هذه الصفات خاف، إذ عرفه بها، وبجلاله يشاهدها. والمعروف - أيضاً - هو المألوف ذو أخلاقٍ مرجوة من الكرم والرفق والرحمة واللطف. فإذا شهد القلب ما آمن به من هذه الأخلاق رجا من شاهدها بها، فصار العبد لوصفيه الرجاء والخوف عن معاني شهادتيه المخوفة والمرجوة عن وصفَي مخوفه ومرجوه، وصار كذى قلبين، كأنه يرجو بقلبٍ ويخاف بآخر، وإنما هما شهادتان في قلب واحد، لأنهما مقامان لقلب واحد عن شهود مخوف، ومرجو واحد معروف. فهذا تفسير قول لقمان، وهو وصف المؤمن المعتدل بشهادة الإيقان، معتدل بين خوفه ورجائه، كاعتدال الطائر بين جناحيه، وتقويم اللسان^(١) بين كفتيه.

فالخوف المتلف للنفس بالموت، أو المزيل للعقل بالقوت، خير من هذا الوصف الذي هو القنوط؛ لأن هذا مزيل للعلم، ومُسقط للمقام، موقع في كبائر الآثام، إذ الذنوب قد لا تكون كبائر، والقنوط بنفسه كبيرة، فصار شراً منها.

(١) يعنى: لسان الميزان.

على أن هذين الحالين من الخوف المتلف ليس فيهما علم ولا مشاهدة على الكشف، وإنما هو قوة وجد يصطلم الخائف مرارته، فتوجد إتلاف النفس، وتشويش الحس، كأحد الأسباب المتلفة، وكبعض الآفات المشوشة مثل: محو العقل من عبد، وتيهه بالوليه في التيه من فقد، بمنزلة خوف الكروبيين خاصة من الأملاك، أهل الكرب والقلق؛ لأنهم يواجهون بصفات الفرق، ولا ينقلون في المقامات التي يعدلون بها كمقربى الروحانيين.

بلغنى أن منهم جيلاً يخرج كل يوم من تحت الكرسي بعدد البشر، قد أقلقه الشوق، وحفزه الكرب، يريد النظر إلى وجه العلى الأعلى، فيحرقه شعاع سُبُحات الوجه، فيحترقون احتراق الفراش من المصباح. ثم يعود مثلهم من الغد، فهذا دأبهم، وهو يعيد إبادتهم بعد إبدائهم، وطريق إتلافهم بإعادتهم إلى عنصر أنسابهم، كذلك يكونون إلى يوم القيامة؛ كل ملك منهم لو جمع السموات والأرضون في كفه ثم قبضها لغابتا فيه.

ولعمري إن سائر الملائكة لا ينقلون في المقامات كمقربى المؤمنين، إنما لكل ملك مقام معلوم لا ينتقل إلى غيره، إنما يمدون من ذلك المقام بمدد لا نهاية له إلى يوم القيامة بأكثر مما يزداد جملة البشر، وبأقوى مما يمد به أولى التأيد والنصر. ولكن أولئك تحمل خوفهم قواهم، ويثبت بمشاهدة صفة المخوف خوفهم وصفاتهم، فلا يؤودهم ولا يثقلهم؛ لأنهم يمدون بالقوى، إذ المراد بهم البقاء، ومعصومون من الموت والتلف بحفظ الآجال إلى آخر وقتهم.

على أن منهم من يطيش عقله، ويولّه قلبه. ومنهم من يسبح في تيهه. ومنهم من يتيه فلا يرد وجهه شىء إلى يوم القيامة. ومنهم من يفرع الفرعة فلا يرتد إليه طرفه، ولا يرجع إلى الحشر عقله. ومنهم من يصيح الصيحة، ويصنع الصعقة، فلا يزال في صيحة واحدة وصرخة إلى نفخ الصور. وكثير منهم يصعقون عند سماع كلام الجبار سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ سألوا الروحانيين من المقربين ذوى الحجب القريبة والرُتب العلية، منهم جبريل وميكائيل وإسرافيل: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾؟ فهؤلاء الحاضرون من الناظرين، والممكنون من الشاهدين،

حَجَبَةُ الْقُدْسِ، أولو المحبة والأنس ﴿قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبا: ٢٣].

فمثل هؤلاء الخائفين من المؤمنين، الذين قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصفات: ٤١] ومثل الأقوياء من العلماء أولى البصائر والتمكّنين مثل الصّابرين الذين يُؤْتَوْنَ أَجُورَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ، ولا يوقفون مع السبب والأسباب. وكان السلف يقولون: يكفى من الخوف ما اجتنب معه المحارم، وأدّى فيه الفرائض. وقال ابن معاذ: حسبي من الخوف ما منع الذنوب.

فعلماء الموقنين يُنْقَلُونَ فِي مَقَامَاتِ الْيَقِينِ بِمَقْتَضَى أَحْكَامِهَا مِنْ مَقَامِ خَوْفٍ إِلَى مَقَامِ رَجَاءٍ كُلَّمَا لَاحَ لَاحٌ مِنْ خَوْفٍ وَغَرَامَةٍ، بِمَا أَشْهَدَ طَلَعَ طَالِعٌ مِنْ غَيْمٍ، فِيمَدُّهُمْ [بمواجيد]. فإذا عملوا في هذه المقامات بما يَقْتَضِيهِمْ، رَفَعُوا إِلَى مَا فَوْقَهَا مِنْ شَهَادَةِ الْوَحْدَانِيَةِ بِنُورِ الْأَحَدِيَّةِ، فَجَاوَزَ الْمَقَامَيْنِ، وَعَلَا فِي عُلُوِّ الشَّهَادَتَيْنِ إِلَى أَعْلَى عِلِّيَّينَ.

وعُومُ الْمُؤْمِنِينَ يُنْقَلُونَ مِنْ مَقَامِ رَجَاءٍ إِلَى مَقَامِ رَجَاءٍ أَعْلَى مِنْهُ، بِوُجُودِ الْأَعْمَالِ الْمَرْجُوءَةِ. وَمِنْ حَالِ خَوْفٍ إِلَى حَالِ خَوْفٍ أَشْرَفَ مِنْهُ، بِإِيْجَادِ أَعْمَالٍ مَخُوفَةٍ، ثُمَّ يُنْقَلُ أَهْلُ الْأَحْوَالِ مِنْ مَقَامَاتِ الْإِسْفَاقِ إِلَى حَالِ الْإِسْتِيقَاقِ، وَمِنْ أَحْوَالِ الْوَجَلِ وَالْإِحْتِرَاقِ إِلَى مَقَامِ التَّمَلُّقِ وَالْوِفَاقِ، وَمِنْ حَالِ الْهَرَبِ وَالْفِرَاقِ إِلَى وَصْفِ الطَّمَأْنِينَةِ وَالْتِّالِقِ، وَمِنْ حَالِ الْفَرْعِ وَالْتَّفَارِ إِلَى مَقَامِ الْأَنْسِ وَالْقَرَارِ، وَمِنْ الْإِبْعَادِ وَالتَّهْوِيلِ إِلَى الْمَحَبَّةِ وَالتَّأْمِيلِ. فَهَذَا مَكَانٌ فَضَّلَهُمْ عَلَى مَنْ وَقَفَ فِي مَقَامِهِ مِنَ الْعُمُومِ فَلَمْ يُجَاوِزْهُ، وَمَنْ اسْتَرَّ بِحَالِهِ وَقَامَ فِي ظِلِّهِ، فَلَمْ يَقْطَعْهُ إِلَى ظِلِّ فَوْقَهُ مَمْدُودٍ، يَعْلُو بِعُلُوِّ شَهَادَتِهِ، وَمِرَّةً^(١) اسْتَوَاءَ قُوَّتِهِ إِلَى الرَّحِيمِ الْوَدُودِ. فَمَثَلُ الْخَائِفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَثَلُ الْكَرَوِيِّينَ مِنَ الْمَلَأَكَةِ. وَمَثَلُ الرَّاجِينَ مِنَ الْمُحِبِّينَ كَمَثَلِ الرُّوحَانِيِّينَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ.

وَأَصْلُ الرَّجَاءِ وَتَفْضِيلُهُ؛ أَنَّ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ عَظِيمِ الرَّجَاءِ لِأَخْلَاقِهِ الْمَرْجُوءَةِ مَا يُضَاهِي عَظِيمَ الْخَوْفِ لِأَوْصَافِهِ الْمَخُوفَةِ، فَيُعَدُّ الْبَنِيَّةَ فِيهِمْ، وَيَحْكُمُ بَيْنَ

(١) الْمِرَّةُ: قُوَّةُ الْخَلْقِ وَشِدَّتُهُ. وَمَزَاجٌ مِنْ أَمْزِجَةِ الْبَدَنِ.

المقامين بالسوية لهم، فلا يبدو على قلوبهم باد من الخوف عن مشاهدة وصف من صفات الخوف تُكْرِهُهُمْ إِلَّا ظَهَرَ شَاهِدٌ وَرَاءَهُ مِنْ عَظِيمِ الرَّجَاءِ، أَشْهَدُ خُلُقًا مِنَ الْأَخْلَاقِ اللَّطِيفَةِ يَرُوحُهُمْ، وَلَا يَطْرَأُ عَلَى قُلُوبِهِمْ طَارِئٌ مِنَ الْخَوْفِ يَهْرُبُونَ مِنْهُ إِلَّا بَدَأَ عَلَيْهِمْ بَادٌ مِنَ الرَّجَاءِ، يَأْنَسُونَ بِهِ إِلَيْهِ، فَتَعْتَدِلُ صِفَاتُهُمْ، وَيَسْتَوِي مَقَامَاتُهُمْ عَنْ مُعَايِنَةِ مَعْنِينَ مِنْ مَعَانِي صِفَاتِهِ، لاسْتَوَاءِ كَمَالِ ذَاتِهِ، فَيَكُونُ قُلُوبُهُمْ كَلْسَانَ الْمِيزَانِ بَيْنَ كَفْتَيْهِ، بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، وَيَكُونُونَ كَالطَّائِرِ بَيْنَ جَنَاحَيْهِ مُقَوِّمًا، عَنْ شُهُودِ النَّقْمِ وَالْآلَاءِ، بِوُجُودِ وَصْفٍ شَدِيدٍ، وَعِيَانِ خَلْقٍ لَطِيفٍ وَدُودٍ، اقْتَضَى الْوَصْفُ حُسْنَ الْقَبْضِ وَالْعَسْفِ، وَأَظْهَرَ الْبَلَاءِ وَالْعُنْفِ، وَأَوْجَبَ الْخَلْقُ ظُهُورَ الْأُنْسِ وَالْإِلْفِ، وَبَدَأَ النَّعْمَاءِ وَاللُّطْفِ، فَالْعَارِفُ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

فَكَأَنَّهُ رَمَضَانُ مِنْ إِخْبَابِهِ^(١) وَكَأَنَّهُ فِي بَسْطِهِ شَوَالُ

أو كما قيل في الأحوال:

كَالْخِزْرَانِ بَعِيدًا مِنْكَ مَكْسَرُهُ وَقَدْ يُرَى لَيْنًا فِي كَفِّ لَاوِيهِ

أو كقوله في المقال والفعال:

يَكَلِّمُنَا فَيُطْمِعُنَا فَنَدْنُو وَإِنْ رُمْنَا فِي الْخَلَوَاتِ جَادَا

فاعتبروا يا أولى الأبصار بوصف العارف في الحالين، شهادة المعروف بالوصفين: أعرفكم بربه أعرفكم بنفسه، فالصورة الآدمية مرآة الصفة العزية. ثم يتسع القلب فيحمل الخوف والرجاء، ويستولى الرجاء على الخوف ويغبطان معًا في سعة القلب وقوته، ويغيبان بنوره في قدرته، لأن القلب قوى بقوى، وواسع بواسع، وقادر بمقتدر. وينفرد الهم عن المعنيين، فيقف بمشاهدة منفرد، فيحكم عليه ما به أفرد، ومن هذا قول الرسول ﷺ: «بِكَ أَجُولُ، وَبِكَ أَصُولُ، وَبِكَ أَقُولُ». ومن ذلك قوله، في علو شهادته ونفاذ علمه، من كونه بشاهده: «أعوذ بك منك». ومنه الأثر المشتهر عن الله عز وجل: «لَمْ تَسْغِنِي أَرْضِي وَلَا سَمَائِي، وَوَسَّغَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ. السَّاكِنِ اللَّيِّنِ الْوَادِعِ». ومن ذلك قول المحقِّق الفاضل:

(١) إخبابه: سرعته.

* أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ *

فهذا نطقٌ عن وَجْدٍ فى مقام البقاء بَتَّبِيقَةٍ ما أبقي بعد فَقْدِ حال الفناء بِإِفْنَاءِ ما يَفْنَى، هنالك سمع قول الباقي المَفْنَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧].

ولا يصلحُ تفصيلُ ما أجمَلناه، ولا شرحَ ما رمَناه.

إِلَّا أَنَّ الخائفَ يوصَفُ ما غَلَبَ عليه من الحال عَمَّا قَوَى عليه من الشهادة يندرج الرجاء فى مقامه، فيكون الرجاء له شهوداً، والخوفُ منه وجوداً. ويوصَفُ الرَّاجِى بما قَوَى عليه من الحال عن غلبة شهادته، وينطوى الخوفُ فى مقامه، فيصير الخوفُ له علماً، والرجاءُ له وَجْداً، وَلَا كُنْهُ لِلْمُخَوِّفِ تعالى فيتناهى الخوفُ، ولا نهاية للمَرَجُوِّ فينقضى منه الرجاء.

فأما الشهيد الموقنُ العالمُ المقربُ فبالحالين جميعاً يوصَفُ مع اعتدالهما، وبالوصفين جميعاً يُعرف مع استوائهما، ثم يغلب عليه الوصفُ التَّامُ والحالُ الكامل بين القيام بشهادة التوحيد، والتحقُّقُ بحقِّ المعرفة لموجب المزيد؛ فإذا عُرِفَ به اندرج فيه، فيقال: صِدِّيقٌ؛ لأنه قد تَحَقَّقَ بالصدِّقِ فى جميع معانيه، فأغنى عن أن يُقال: مُخْلِصٌ. ثم يُقال: عارفٌ؛ لأنه قد رسَخَ فى العلم رُسُوخَ الجبلِ، فكفى أن يُقال: صادق. ثم يُقال: مقربٌ؛ قد أُشْهِدَ القُربَ، فاقترَبَ، ولم يَحْتَجْ أن يُقال: عاملٌ. وهذه أسماء الكمالِ، وصفاتُ التَّمامِ، لا يفتقر إلى ذكرِ حالٍ، ولا يوصَفُ بصفةٍ مقالٍ، كما يُقال فى غيره من ذكرِ الأحوال: خائفٌ أو راجٍ؛ لوجودهما فيه بالكفاءة، واعتدالهما عنده بالسَّواء؛ لأنَّ الخوفَ والرجاءَ قد فاضا عليه، ثم غاضا فيه. فإذا قلت: عارفٌ، أو مقربٌ، أو صديقٌ، فقد دخل فيه حالُ محبٍّ، ووصَفُ خائفٍ، ومقامُ راجٍ، ونَعْتُ عالمٍ، وسَمْتُ عاملٍ لا محالةً، مثالُ ذلك تعالى الأنسابِ واندراجها فى عوالى الأحساب، أنك إذا قلت: فلان هاشمى، استغنيت أن تقول: عربى، أو قُرَشى؛ لأنَّ كلَّ هاشمىٍ عربىٌّ قُرَشىٌّ لا محالة. ثُمَّ تَصِفُهُ بعد ذلك بوصفِ التَّمامِ والكمالِ أيضاً، كما ذكرنا من نهاية

الأوصاف في قولنا: عارفٌ، فيندرجُ الأنسابُ فيه، فتقول: فلان حَسَنٌ، فاكتفيت أن تقول: قرشىٌ أو علوىٌ أو هاشمىٌ، وإن كان قرشياً هاشمياً علوياً، لا شك أنه قد عُرِفَ أن كل حَسَنٍ فهو قرشىٌ هاشمىٌ علوىٌ لا محالة.

فأما أن تقول: فلانٌ عربىٌ أو قرشىٌ أو هاشمىٌ، فهو مقصور على ما وَسَمَته به، لأنه قد يكون علوياً، وهو الغاية في الحسب، ثم لا يكون حَسَنياً فينقص رُتبه، وقد يكون هاشمياً غير علوىٌ فينقص منزلةً، وقد يكون قرشياً غير هاشمى فينحطّ درجةً، وقد يكون عربياً غير قرشىٌ فتتزل مرتبته، فيلزمه وصفٌ ما عَرَفَته حَسَب، فإذا قلت: حَسَنى، دخلتِ الأحسابُ كُلُّها فيه، وعَيَّبُ أن تصفه بما دونها. كذلك قولنا: عارفٌ، أو مؤمنٌ، أو مقربٌ، أو صديقٌ، هم اسم التمام والكمال في السمات التي عُرِفَتْ بها كلُّ المقامات، تدخل الأحوال والصفات والسمات، فاكتفينا أن نقول: هو مؤمنٌ، أو صالحٌ، أو عارفٌ، أو محبٌ، أو خائفٌ، أو راجٍ، كما رتبنا في الأحساب من قولنا: هو حَسَنى، دخل فيه كلُّ حَسَبٍ رفيع، وكُفينا أن نقول: هو هاشمىٌ أو قرشىٌ أو علوىٌ، إذ جميعُ ذلك داخلٌ فيه؛ لأنّ العارفَ لا يُوسَمَ بحالٍ دون حالٍ، إذ قد غاضت فيه الأحوال، ولا يُوسَمُ بمقامٍ دون مقامٍ، إذ قد استوعبَ كلُّ مقامٍ بحقيقة معناه، عارفٌ بالمعروف الذى هو بكلِّ نهايةٍ وَفَضْلٍ موصوفٌ وَغُمُوضٌ، غريبةٌ عند غيرِ أبناء جنسه أن ينكروه. فإن تعرّفَ إليهم أو عرّفوه بِهِم فليس بعارفٍ.

وقال بعضُ العارفين في صفة العارف: أن يعرفَ كلَّ شىءٍ، ولا يتعرّفَ إلى شىءٍ. وقيل: يظهر ولا يُرى، ويرى ويتوارى. كذلك حقيقته: أن يَعْرِفَ ولا يُعْرِفَ، ويُسَرَفَ وليس عليه يُسَرَفَ، يخرج من الدارِ بكرةً بتولاً، لم تقتضه معرفةُ الوهم والعقول عن شاهد وصفٍ من شواهد الربوبية، وبمعنى خُلِقَ من أخلاقِ الفردانية؛ لأنّه رُوحانى رَبَّانى، فهو كما قال:

تَوَارَيْتُ مِنْ دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ فَصَرْتُ أَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي

ولو سئل الأيامُ عَنِّي لَمَّا دَرَتْ وَأَيْنَ مَكَانِي، مَا عَرَفْنَ مَكَانِي

وثلاثُ مقاماتٍ لا يُقاسُ عليها، ولا يُتَمَثَّلُ بها، فمن قاسَ عليها أخطأ، ومن

تمثل بها ادعى: مقام النبوة، ومقام المعرفة، ومقام محبوب. ولا يصح هذا المقام إلا بعين يقين فى شاهد قيومية التوحيد، بعد أن لا يبقى من النفس بقية فى شهادة الحق المبين، ولا يدخر فيها خبيّة من شاهد خلق، ولا يبقى من الخلق رؤية فى شاهد التوحيد، عندها كان العارف روحانياً مؤثراً بروحه فى ارتقاء النفس باليقين، وصار ربانياً بقيومية ربه عند شهود الحق المبين، فهذا وصف التمكين، وحال القوى المكين، والمقدم المطاع الأمين.

وهذه جمل طرائق الخائفين، وضوابط صفات العارفين؛ لأنهم متفاوتون فى القرب والاقتراب، متعالون فى التقرب والتقريب، مترافعون فى التعرف والتعريف، متزايدون فى معانى التخوف والتخويف، متناهون بأسباب التألف والتأليف. فالموقنون من الشهداء، وهم المقربون من الصديقين، بشهادتهم قائمون، لهم من القرب الاقتراب، ومن التقرب التقريب، ومن التعرف التعرف، ومن الإيلاف التأليف، ومن الإيناس الأنس، ومن التحبب الحب؛ لأن مقامهم من القريب العالى الطريق الأعلى الأقرب، والوجهة العليا، والشهادة الدنيا، وهم السابقون.

ولأهل مقامات اليمين أول القرب والتقرب، وبداية الحب والتحبب، ولهم من الإلف التألف، ومن العرف التعريف، ومن الأنس التأنيس؛ وهؤلاء الأبرار سالكو الطرقات، فمزيدهم منها المقامات.

وقد كان أبو سليمان الداراني يقول: إذا غلب الرجاء على الخوف فسد القلب. فهذا، لعمري، يحتاج إلى تفصيل: إنما أراد به قلوب الرّاجين، إذا أفرط رجاؤها على خوفها تغيرت، وخرج من مقام التعديل، فينقص لقصوره عن معيار ما كان عليه من السراء، فالتقصير فيه بتكوين المشاهدة، فيكون وجدّه لتكوين شاهده، حتى ينسبط فيما كان انقبض، ويتسع لما كان ضيقاً، من تحمله بالناس بعد المزايلة، وفى ذلك نقصانه؛ لخروجه عن حد صفة المسلم المتمكن بالعلم الراسخ، ومن غير تمكين بالمعرفة (...). قوته عنها، فضعف وخار لبلوى التقصير، فى قوله: ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِّىُّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٩]، قوى على ثقل حمله، أمين على

(...) وقيل: أمينٌ على المرأة، لا أكشف لها عورة (...) على غرسها.

ولا تصلح حقيقة الرجاء إلا لعالم (...) روحاً في يد، اعتدل سمعه وبصره بما استوت (...) بصيرته ومعرفته؛ لأنّ مثلَ الرجاءِ مثلُ المحبة لا يصلح إلا لأهل الكرم والفضل: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣]. ومثلُ الخوفِ مثلُ البطش والسطوة يصلح للكافة، لأنّ فيه الكفّ والزجرَ والعدل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠]، وفيه تفصيل يأتي (...) ^(١) يصلح أن يُعنى بفساد القلب عند غلبة الرجاء قلوبُ جهلة الخائفين؛ لأنّه من غير مقامهم، وفي غير طريقهم، وعلى غير معيار مشاهدتهم، فيخرجهم ذلك إلى الأمن ويدخلهم في الاغترار والظنّ، إذ صلاح قلوب الخائفين بالخوف اللازم، والحزن الدائم، والهمّ المقيم، والحال الواجد البهيم، وإذا غلب عليهم حال الرجاء، فترؤوا عن جدّهم، وونوا في اجتهداهم، ووهنوا في عزّهم.

وقد كان صالح المرئى يقول: ما كان يخاف على عطاء السلمي إلا من شدة خوفه. أى: لأنه أفرط فيه. قال ابن مرزوق: نسي عطاء القرآن من الخوف. فلذلك قال الله تعالى: ﴿وَلْيَبْذُرْنَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمَّا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]، فالقرآن أصل العبادات، وقد قال في مثله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣ - ٤]. لأنّ «عطاء» كان قد زاد عليه الخوف، حتى خاف العلماء أن يدخله القنوط، فيخرجه من فضيلة الخوف. وذلك لأنّه لم يخرج أربعين سنة إلى صلاة جماعة ولا جمعة ^(٢). وكان صالح المرئى يقول له: يا شيخ قد خدعك الشيطان، لو شربت جرعة من شربة سويق تقوى بها على وضوئك وصلواتك؛ [لأنّه] كان أقلع عن الأكل، وفقد النوم، فإذا هجم عليه فرع جعل (...) ^(٣) وينظر وجهه في المرأة يخاف أن يكون

(١) عدة مواضع تالفة في الأصل، لا يتبين فيها الكلام.

(٢) هذا الخوف ليس من السنة، بل هو من تلبس إبليس. وترجمة صالح المرئى في: الحلية ٢١٥/٦

- (٢٢٦)، وسير أعلام النبلاء ٨٦/٦ - ٨٨.

(٣) طمس في الأصل مقدار كلمة.

قد مُسِّخ. وقد قتله الخوف من فزعة فزعها فمات، فكان كبعض مَنْ [جعل حاله] من فتون الخائفين. ولم يكن رحمه الله يُذكر بكثير عِلْم كُنْظرائه: مالك بن دينار، وعبد الواحد، وفرْقَد.

وكان أبو الدرداء يقول: تمام التقوى أن يتقى الله العبدُ في مثقال ذرة. حتى يترك بعض ما يرى أنه حلالٌ خشيةً أن يكون حراماً، حاجزاً بينه وبين الحرام؛ لأنَّ الله سبحانه قد بينَّ للعباد ما يتَّقون في قوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿[الزلزلة: ٧ - ٨]. فلا يحقرَنَّ ذرةً من الشرِّ أن يتَّقِيها، ولا ذرةً من الخير أن يفعلها.

وروي في أخبار الأنبياء، أن سليمان عليه السلام كان يقول: أُوتينا ما أُوتى الناسُ وما لم يُؤْتَوْا، وعُلِّمنا ما عُلِّم الناسُ وما لم يُعَلِّمُوا، فلم نجد شيئاً أفضل من ثلاث كلمات: العدلُ في الرِّضا والغضب، والقصدُ في الغنى والفقر، وخشيةُ الله في السرِّ والعلانية.

فهذه الثلاث فيها حكمةٌ بالغة، ونعمةٌ كاملة، ورحمةٌ خاصيةٌ؛ لأنها وصف الخائفِ العالم، الذي قد استوى خوفُهُ ورَجَاؤُهُ، وقام بشهادة حُكم مولاه، لأنَّه ذكرَ الأوقات التي تتغيَّر فيها الصفات في غَضبه ورضاه، فإذا عدَلَ فيهما دَلَّ على تقواه، وعلى اختلاف حال من فقرٍ وغنى، فإذا اقتصد فيهما كان على خلافِ هواه، وعلى تفاوت سرٍّ وعلانية، فإذا ساوى فيهما دَلَّ على يقينه بالآخرة ومثواه، وعلى ذلك (...) ^(١) المؤمنين من قوله عز وجل: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] قيل: (...) الناظرين، فيكون الباء في هذا الوجه بمعنى (...) الذي هو علامة الخوف إذا وُجد في (...) حقيقة الإيمان، وعلم صدق العمل على (...) في أصل الورع بحقيقة الإخلاص به من (...) غير الله فهو مُراءٍ.

ومَّا يدلُّ على باطن الخوف كثرة الاستغفار في كلِّ حال، والخوفُ من يسير الأعمال، لقوله: «اتَّقُوا الْمُحَقَّرَاتِ، فَإِنَّهَا تَجْتَمِعُ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى تُهْلِكَه». وبمعناه

(١) تلف في الأصل في هذا الموضع والمواضع التي تليه.

حديثُ أبي هريرة: «ما رأيتُ أكثرَ استغفاراً من رسولِ الله ﷺ». وقال الراوى عنه: ما رأيتُ أكثرَ استغفاراً من أبي هريرة. قال: «وَكُنَّا نَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةً مَرَّةً مِنَ الْإِسْتِغْفَارِ؛ يَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ».

وَمَنْ نُقِلَ عَنْهُ الْمَخَافَةُ مِنْ حَقِيرِ الْأَمْرِ الَّذِي لَعَلَّهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، زَنَةَ ذَرَّةٍ مِنَ الشَّرِّ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَى. مِنْ ذَلِكَ أَنَّا رُوِينَا أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِعَطَاءِ السُّلَمِيِّ: مَا هَذَا الْخَوْفُ كُلُّهُ؟ قَالَ: لِعَظِيمٍ. قُلْتُ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: اصْطَدْتُ حِمَامًا لَجَارٍ لِي مِنْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَأَنَا أَبْكِي مِنْذُ ذَلِكَ. أَمَا إِنِّي قَدْ تَصَدَّقْتُ بِشِمْنِهِ مَرَاتٍ.

وفوق هذا ما رُوِينَا عَنْ مَنْ لَا أَدْرَى: كُرْزُ بْنُ وَبَرَةَ، أَوْ ضَيْغَمُ الرَّابِئِيِّ، قَالَ: ذَنْبُ أَذْنَبَتُهُ، أَنَا أَبْكِي عَلَيْهِ مِنْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً. قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: زَارَنِي أَخٌ لِي، فَاشْتَرَيْتُ لَهُ سَمَكًا بِدَانِقٍ، فَأَرَادَ أَنْ يَغْسِلَ يَدَهُ، فَأَخَذْتُ قِطْعَةً طِينٍ مِنْ حَائِطٍ جَارِيٍّ، فَغَسَلْتُ بِهِ يَدَهُ.

وقال آخر: تَكَلَّمْتُ بِكَلِمَةٍ، أَنَا أَبْكِي عَلَيْهَا مِنْذُ كَذَا. قِيلَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: رَأَيْتُ دِرْهَمًا فِي يَدِ رَجُلٍ فَقُلْتُ هَذَا الدِّرْهَمُ سَقَطَ مِنِّي، وَلَعَلَّهُ لَمْ يُضْرَبْ بِجَرَجَانٍ. وَبَعْنَاهُ قَوْلَ الْآخَرِ، قَالَ: تَكَلَّمْتُ بِكَلِمَةٍ أَنَا خَائِفٌ مِنْهَا كَذَا وَكَذَا سَنَةً. قُلْتُ لِلسَّمَاءِ [أَنَّهَا قَدْ] أَمْطَرَتْ، فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ.

وقال ثابت نحوَه. قُلْتُ: لَيْسَ (.. .)^(١) فَرَجَعْتُ إِلَى نَفْسِي، فَقُلْتُ: وَمَا أَنْتَ وَهَذَا؟ وَمَنْ وَكَلَّ (.. .) فَتَعَبَدَ الرَّجُلُ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ دَهْرًا. وَكَانَ يَعْنِي نَفْسَهُ تَعْرِيفًا. قَالَ بَعْضُهُمْ: وَصِفْتُ لَنَا امْرَأَةً مِنَ الْعَوَابِدِ، فَأَتَيْنَا مَنْزِلَهَا، فَإِذَا هِيَ قَدْ غَلَقَتْ بَابَهَا، لَا يَدْخُلُ عَلَيْهَا أَحَدٌ. فَسَأَلْنَا عَنْهَا، فَقِيلَ لَنَا: هِيَ تَبْكِي فِي جَوْفِ بَيْتٍ قَدْ غَلَقَتْ عَلَيْهَا الْبَابَ مِنْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ لَا نَدْرِي مَا شَأْنُهَا. قَالَ: فَسَأَلْنَاهَا بَعْدَ وَقْتٍ. فَقَالَتْ: قَتَلْتُ غُلَةً.

هَذَا لِأَنَّهُ قِيلَ: إِنْ الْأَبْرَارَ لَا يُؤْذُونَ الذَّرَّ، وَلَا يَقْتُلُونَ النَّمْلَ. وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ

(١) تلف في هذا الموضع والذي يليه، قدر كلمتين.

ﷺ عن قتل النملة، والنحلة، والهدهد، والصرّد.

وقال مضر بن جريّر: دخلت على أبى الحجاج الجرجاني فكلمته فلم يكلمنى. فقلت: أنت فى حرج، إن كان عندك علم إلا علّمتنى. فقال لى: عصيت الله بمعصية؟ قلت: نعم. قال: كتبت ورُفعت إلى الله؟ قلت: نعم. قال: علمت أنه غفرها؟ قلت: لا. قال: فما قعودك وسكونك؟! اذهب، فابك على نفسك أيام الحياة، حتى تعلم ما حالك عنده فى هذه المعصية. قال: فبكى مضر على هذه ثلاثين سنة.

واعلم أن كل وقت من الدنيا هو وقتك من الآخرة، فى البرزخ، وفى دار القرار، فأى وقت كرهت الموت أن يبعثك فيه على حال ما فاتركه، فإنه ريبة، كما جعل رسول الله ﷺ علم الشر ريبة، فقال: «الخير طمأنينة، والشر ريبة». وقال: «اترك ما يريبك إلى ما لا يريبك» يعنى: ما تشك فيه، وما ترتاب به، وما لا يكون خيراً صرّفاً، [تصرف] القلب بالعلم إليه. وأى حال أحببت أن تموت عليه فدم على ذلك. وقد قال بعضهم: كل حال أحببت الموت عليه فديمه، ولا تبال متى مت. وقال آخر: اصبح تائباً، وامس تائباً، واستغفر، وخف بين ذلك، ولا تبال متى كان الأمر.

وكان الحسن يقول: إن المؤمنين عجلوا الخوف فى الدنيا، فآمنهم الله تعالى يوم القيامة. وإن المنافقين عجلوا الأمن فى الدنيا، فأخافهم الله يوم القيامة.

وفى خبر على الطويل؛ الذى وصف فيه الفقيه كل الفقيه، فجعله الخائف الحزين، فقال: إذا كان يوم القيامة نادى مناد: يا أيها الناس إن أقربكم اليوم من الله مجلساً أشدكم له خوفاً، وإن أكرمكم عليه أتقاكم. ثم يقول الله عز وجل: لا أجمع عليكم حزن الدنيا وحزن الآخرة، فيأمر لهم بكراسى يجلسون عليها، فيقبل عليهم الجبار جلّ جلاله، وهو عنهم راضٍ، وقد أحسن ثوابهم. قال فيه: ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه؟ من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولا يؤمنهم مكر الله، ولا يرخّص لهم فى معصية الله. ثم ذكره.

وأكثر خوف العلماء المنظور إليهم المقتدى بهم من خصلتين؛ إحداهما:

التقليدُ. والأخرى: الاقتداء بهم. فالتقليدُ يقع في المقال، والاقتداء بالأفعال.

كان ابن عباس يقول: ويلٌ للعالم من الأتباع، يزلُّ الزلَّة فتُحمل عنه في الآفاق. وقال آخر: زلَّة العالم مثل انكسار السفينة تغرق، ويغرق الخلق. وقيل: زلَّة العالم مثل كُسوف الشمس [تُصبح^(١)] الناس: يا غافلين الصلاة.

وقال أبو الجلد، وكان من قرأة الكتب السالفة، وعارفيهم بالسير المتقدمة، وبأشراط الساعة المتأخرة، فكان يقول: يلحق البلاء بأهل الصلاة خصوصاً، لا يُراد غيرهم، حتى إن الرجل ليرجع يهودياً أو نصرانياً.

وكذلك روي عن بعضهم: ليوذ أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً أو مشركاً، وهو لا يعلم. مطابق معناه الخبر المسند: «تكون فتنة يُصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً، يبيع أحدهم دينه بعرض من الدنيا يسير».

وروى الأعمش عن خيثمة عن عبد الله بن عمرو: «يأتى على الناس زمانٌ يجتمعون في المساجد يصلُّون وما فيهم مؤمن». والخبر الآخر: «يأتى على الناس زمانٌ يضلُّ فيه أحدهم دينه ولا يعرفه، يُسلب فيه عقولُ رجال. وفي آخر الزمان: تكون خصومة الناس في ربهم، يُصبح أحدهم على دين، ويمسى على غيره».

فهذا ونحوه، فيمن يدعى إلى التوحيد والإسلام، من أشد ما روى عن السلف، ومن أعظم ما يتوقع على الخلف. وقد كان ابن عباس يتأول هذه الآية في أهل القبلة: ﴿فَأَصْدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النافقون: ١٠] فيمن لم يرك ولم يحج، ذاك لقوله تعالى في أولها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النافقون: ٩]. وكان يقول: هؤلاء ممن يسأل الرجعة، وهى أشد ما نزل في أهل التوحيد، ولم يكن يجعل للقائل توبة، وكان يخلده في النار، لظاهر القرآن.

فأما وجودُ شعبة من نفاق، ودخيلة من شرك، ووكيجة من ربا، فأكثر من أن يُحصى، وأكثر وقوع هذه المخاوف في أهل البدع خاصة، أو فيمن لا يعرف ما

(١) تضح: كذا قرأتها، إذ أن نقطة الباء غير واضحة. وضبحت الخيل: أسمعت من أفواها صوتاً ليس بصهيل ولا حمحمة. وضبحت النار الشيء: غيرته. والله أعلم بتأويل النص.

البدعة من السنة، أو لا يعلم ماهية السنة من الحدّث المحدث مع قول الصحابة، وفيه مسند: «إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة». فيدخل عليهم ذلك لجهلهم بسنة السلف، وإن لم يعتقد ذلك جاداً، ولكن هو نقصان من توفيق (...) ^(١) وعدول به عن سواء الطريق، فمن أفضل طرائق الخوف ما سرى من القلب إلى النفس، فأطفأ شعلة الشهوة، وأحمد نار الهوى، فسقطت مع ذلك أثقال المجاهدة، وخفت عنده مؤنة المكابدة، ووجدت معه حلاوة الطاعة لعدم وجود حلاوة المعصية، واجتمع الهم بالحق عند زوال التشتت بالهوى والخلق، وسكنت النفس بالطمأنينة لمعاينة القلب للشهادة، وظهر نعيم الزهد والرضا لباطن الصديق والإخلاص، ثم سكن الخوف فى القلب بعد ذلك، ولم يجاوزهُ فيتعدى الحدّ إلى بعض المفائض التى ذكرناها، بل كان منه الحزن الدائم، والهم اللازم، والخشوع القائم، والتقوى المقيم، والقلب السليم، والفكر العليم. وهذا هو وصف القلب المنكسر، وحال العبد المتحير، الذى يوجد عنده الجبار فيجبره بعد كسره، فصلح له بعد أن عطل من غيره، وصار مزيد العالم الخائف من الله تعالى كشوف اليقين وتنقيله فيه إلى شهادات الموقنين، ومقامات المقرّبين، فكان القريب لديه موجوداً، وصار الحبيب عنده مشهوداً، أو الطالب له مطلوباً؛ لأنّه من المنكسرة قلوبهم من أجله، فقد جبرها بعد كسرها بفضلها، وبأنه صار عنده من أهله، فأهله لبره وفضله.

واعلم أن الذى قطع الخلق عن هذا حلاوة الهوى، ولا يخرجها إلا أحد كاسين: تجرّع مرارة الخوف، فيغلب حلاوة الهوى، فيخرجه. أو غلبة حلاوة المحبة، فيستغرق حلاوة الهوى، فيغمُرهُ. فإن عديم أحد هذين فهو من المذبذبين بين ذلك، لا إلى الخائفين، ولا مع المحبين، بل من المترددين.

وروي أن عليّاً، رضى الله عنه، قال لبعض الخائفين، وقد تاه عقله، فأخرجه الخوف إلى القنوط: ما أصارك إلى ما أرى؟ فقال: ذنوبى العظيمة. فقال: ويحك، إن رحمة الله تعالى أعظم من ذنوبك. فقال: إن ذنوبى أعظم من أن

(١) تلف فى الاصل بمقدار نصف سطر أو يزيد قليلاً.

يكفرها شيء. فقال: إن قنوطك من رحمة الله تعالى أعظم من ذنوبك.

والخوف جند من جنود الله تعالى، قد يستخرج من قلوب المريدين والعابدين ما لا يستخرجه الرجاء، فتستجيب له القلوب المرادة به بنهايات الزهد، وحقائق التوبة، وشدة المراقبة. وقد يفعل الله تعالى جميع ذلك بأهل الرجاء والمحبة في مقامات الرجاء، يستخرج منهم الكرم والحياء.

والخوف اسم جامع لمقامات المتقين. ثم يشتمل على أهل طبقات خمس، في كل طبقة ثلاث مقامات:

فالمقام الأول من الخوف: هو التقوى؛ وفي هذا المقام: المتقون، والصالحون، والعاملون.

والمقام الثاني من الخوف: هو الحذر؛ وفي هذا المقام: الزاهدون، والورعون، والخاشعون.

والمقام الثالث: هو الخشية؛ وفي هذا طبقات العالمين، والعابدين، والمحسنين.

والمقام الرابع: هو الوجَل؛ وهذا: للذاكرين، والمُحِبِّين، والعارفين.

والمقام الخامس: هو الإشفاق، وهو: للصدّيقين؛ وهم الشّهداء، والمحبّون، وخصوص المقرّبين.

وخوف هؤلاء عن معرفة الصفات لأجل الموصوف، لا عن مشاهدة الاكتساب لأجل العقوبات. كما جاء في الخبر: «أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود خفني كما تخاف السبع الضاري»، فالسبع إنما يخاف لوصفه بالبطش والسطوة، ولما ألبس وجهه من الكبر والهيبة، لا لأجل ذنب كان من الإنسان إليه. ولذلك مثل النبي ﷺ للرجل الذي أوصاه بالحياء، مثل له بالرجل الصالح كما في قوله: «استحي من الله كما تستحي من الرجل الصالح».

فكما تستحي من الصالح لوصفه، لأنه يقتضي الحياء (...). لأنه صاحب سوط وعصى، أو يُستحي منه لأنه (...). وبينه، بل لوصفه الموجب عليك منه

(...) أَلَطَفَ، فهو بابٌ من الخوف؛ لأنه يمنع (...) ^(١) ويمتنع، ولذلك جَمَعَ بينهما النبي ﷺ في حديث عن الذنوب، فقال: «ويتركُ الذُّنُوبَ خَشِيَةً أو حَيَاءً»، يعنى فيمن أدْمَن الاختلاف إلى المساجد. وكذلك قال ﷺ في وصف أهل الحياء: «أنْ تحفظَ الرأسَ وما وَعَى، والبطنَ وما حَوَى».

فهذا يكونُ عن وصفِ المخافة، وكذلك فسَّروا قوله عز وجلَّ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥١]، قيل: بالمخافة والحياء. ومثله في تأويل قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ [الأحزاب: ٣٧] قيل: تستحيى منهم؛ لأنه ﷺ لم يكن يخاف في الله أحداً.

ولذلك قال بعض السلف: لو لم يكن في اجتماع الإخوان ومؤاخاة الأخ إلا أنَّ حَيَاءَهُ منه يمنعه من مَعَاصِيِ اللَّهِ لكان فيه خيرٌ كثير.

ولكن لحائفي المحبِّين من الرِّجَاءِ أيضاً عَظُمُهُ، لما أشهدَهُم من لَطْفِهِ وكرَمِهِ، وأوجدَهُم من عَظْفِهِ، وتخصيصِ نِعَمِهِ، ولهم الأوفر من النَّصِيبِ على معنى خوفِهِم الأَلَطَفِ من الحبيبِ المهيبِ، ما لا يَسَعُ العمومَ وصفُهُ، ولا يدركون بعقولهم كُنْهَهُ، ولا يصلح لهم كشفُهُ، فطلبُهُم برَجَائِهِم، وحُسْنُ ظَنِّهِم بمأْمُولِهِم، ولا يصفه إلا هم، ولا يعرفه سِوَاهِم.

جُمِلَ ذلك أنصبَةُ القُربِ، ونعيمُ الأُنسِ، وصفو الحبِّ، وروحُ اللِّقاءِ، وسرورُ التملُّقِ، وحلاوةُ المناجاةِ، وخالصُ المصافاةِ، وفرحُ الخدمةِ، وارتياحُ المحادثةِ، وراحةُ الخلوةِ، وريحانُ المقاسمةِ، ولطفُ المجالسةِ، وسرارُ المناغاةِ، وسِرُّ الملاحظةِ. فلهم منه تجلَّى معاني صفات وظهورُ محاسنِ أوصافٍ ما لا يُعْلَمُ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

ولأصحابِ اليمينِ إظهارُ نعيمِ الأفعالِ، ومواهبِ العطاءِ والإفضالِ. وقد كان يحيى بن معاذ يقول: من عبَدَ اللَّهَ بالخوفِ دُونَ الرِّجَاءِ غَرِقَ في بحارِ الأفكارِ. ومن عبَدَ اللَّهَ بالرِّجَاءِ دُونَ الخوفِ تَاهَ في مفاوِزِ الاغترارِ. ومن عبَدَهُ بالخوفِ

(١) مواضع تالفة بالأصل قدر نصف سطر في كل موضع.

والرجاء معاً استقام في محجة الأذكار.

وقال مكحول النسفي في معناه، إلا أنه أفرط فيه: من عبد الله بالخوف فهو حروري^(١). ومن عبده بالرجاء فهو مرجي^(٢)، ومن عبده بالمحبة فهو جهمي^(٣). أى يتجهّم عليه بالمقال، وتجاوز الحدّ في الأفعال. قال: ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد.

شبه هذه المقامات من معانى المقالات للمبالغة من طريق المعنى، لا على التحقيق. أى لأنه إذا انفرد بحال منها لا بدّ من أن يخرج عن معيار علم أو عن سنة أو معروف أو معتاد مألوف، فإذا جمعها فقد استقام على العلم والسنة، وهو وصف العالم العارف، الظاهري الباطني.

آخر كتاب الخوف.



(١) الحروري: نسبة إلى الحرورية، وهم الخوارج الذين خرجوا على سيدنا على، وسمّوا حرورية لنزولهم بحروراء في أول أمرهم.

(٢) مرجي: نسبة إلى المرجئة.

(٣) جهمي: نسبة إلى الجهمية. وهذه كلها فرق كلامية ضالة، تولّى الشيخ ابن تيمية هدم آراء هذه الفرق في كتبه.

شرح مقام الزهد ، ووصف أحوال الزاهدين

وهو المقام السادس من مقامات اليقين

قد سمى الله تعالى أهل الزهد علماء بقوله تعالى ، إذ وصف قارون : ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ﴾ [القصص: ٧٩ - ٨٠] قيل : هم الزاهدون فى الدنيا . وقال عز وجل : ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤] جاء فى التفسير : صبروا على الزهد فى الدنيا . وقال جل وعلا : ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤] قيل : على الفقر .

ويشهد للصبر عن الدنيا فى هاتين الآيتين قوله عز وجل ، فى وصف العلماء الزاهدين ، لما قال : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ﴾ قال عقيب ذلك فى بقية ثنائه عليهم : ﴿وَلَا يَلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ أى عن زينة الدنيا التى خرج فيها قارون ، فهم الزاهدون الصابرون عنها . ثم قال فى مدحهم بوصف آخر : ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ . فقد حصل للزاهد أجران : بصبره على الفقر ، وبوجود زهده ، وللفقير المعدم أجر واحد على الغنى ، لوجود فقره ، وعدم زهده . فلحق بمقام الخوف الذى أعطى به الخائف جنتين . ففضل بالأخرى على مقام الرجاء ، إذ الخوف مقتضى العلم بالله ، لقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] . لذلك قال المسيح عليه السلام : «خشية الله وحُب الفردوس يباعدان من زهرة الدنيا ، ويورثان الصبر على المشقة» . فجعل الخشية لله تعالى والحب له يدلان على الزهد فى الدنيا ، ويورثانه ، ويسهلان الصبر على شدائدھا ، إثارة لمحبة الله تعالى على محبة نفوسهم فيها ، وخيفة من الله أن يحاسبهم على التكاثر منها .

ولذلك صار الورع الذى انتهت الفضائل إليه ، وكثرت الأخبار فيه ، لا يوصل

إليه إلا بعد الزُّهد في الدنيا؛ لأنه إذا لم يزهد في شيء لم يُمكنه أن يَرَعَ عنه. فإذا أُعطِيَ الزُّهد فيه، وعُوِّضَ من الرِّغبة بدلاً منه، سَهَّلَ عليه الورعُ عنه، فتركه زهداً في الدنيا، ورغبةً فيما وعدَ الله، وخيفةً من المطالبة به، وحباً لموافقة محبة الله بتركه.

ألم تسمع إلى حسان بن أبي سنان، وكان من أخيار التابعين بإحسان، إذ يقول: ما رأيتُ شيئاً أيسرَ على من الورع. قيل: وكيف، ونحن نظن أنه من أشدّ الأعمال؟ فقال: إذا حاك في صدرى شيء تركته. وقال مرةً: إذا رابى أمرٌ تركته. فلما وُهب له الزُّهد فيه، وعُوِّضَ عنه؛ رغبةً في الله به، هان عليه الورع^(١).

وعلى ذلك تأويل الخبرين عن النبي ﷺ، أنه قال في أحدهما: «يدخل فقراءُ أمتي الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً». وقال في الخبر الآخر: «يدخل فقراءُ المؤمنين الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام»: بأنّ الفقير الزاهد يدخل الجنة قبل الغنيّ الصالح بخمسمائة عام، وهؤلاء خصوصُ الفقراءِ من الموقنين. وأنّ الفقير من المؤمنين غير الزاهد يدخل الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفاً، لأجل فقره فقط، وهم عمومُ الفقراء. فصار الأغنياء مَفْضُولِينَ في حالين جميعاً، وأنّ جملةَ الفقراء يدخلون الجنة قبلهم، لمكان غناهم في الدنيا، وأنّ عمومَ الأغنياء من أبناء الدنيا موقوفون للحساب، ومطالبون بالإنفاق والإكساب، بالخبر الثالث: «اطلعتُ في الجنة فرأيتُ أكثرَ أهلها الفقراء، واطلعتُ في النار فرأيتُ أكثرَ أهلها الأغنياء». وفي اللفظ الآخر: «فقلتُ: أين الأغنياء؟ قيل: حبسهم الجَدُّ».

وفي الخبر الآخر: «يحاسبون و (...) على أموالهم». وفي الخبر الرابع: «فيقول الفقراء: هل أُعْطِيتُمونا من الدنيا ما تحاسبوننا عليه؟ فيقال لهم: صدق عبادي، أدخلوهم الجنة بغير حساب. قال: ويعتذر الله ربكم عز وجلّ، كما يعتذر أحدكم إلى صاحبه، فيقول: عبادي، إني لم أمنعكم الدنيا (...) لهوانكم عليّ، ولكن لتستوفوا (...) فهذه جنتي تنعموا فيها بغير حساب (...)»^(٢) واسرّحوا

(١) الفقرة في الإنحاف ٩/ ٣٧٧.

(٢) مواضع تالفة بالأصل.

فيها كيف شئتم. قال: قد جاء بعدهم الأغنياء بخمسمائة عام، والآخرين موقوفون للحساب».

وفى الحديث الخامس: «يقال للأغنياء: أنتم كنتم خزائي في (...) مطالبتي. فأياكم أطلب، ولكم أحاسب».

وفى الخبر السادس: قال: «يدخلون الفقراء فينضم إليهم رجل من الأغنياء. فيقال: إنه ليس منهم، فيرد إلى الحساب. قال: فيود لو أنه عاش في الدنيا فقيراً من أولها إلى انقضائها».

وفى الخبر السابع: «إن الرجل من الأغنياء لينظر إلى منازل في الجنة، وإنه في الموقف يحاسب ويمحص، حتى يسيل منه من العرق ما لو ورد عليه مائة من الإبل لصدرت عنه رواء».

وقد سمى الله الفقراء الزاهدين مُحْسِنِينَ، ووضع عنهم السبيل يوم الدين، فقال سبحانه: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾، ثم قال: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١].

ثم أوقع الحجة والمطالبة على الأغنياء، وسماهم ظالمين، ووصفهم بأوصاف النساء، وجعلهم من المخلفين، فقال في المعنيين من الآيتين: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ [التوبة: ٩٣]، يعني: النساء؛ لأن هذا جمع التأنيث. وقال: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الشورى: ٤٢]، يعني: بطلب العلو فيها ضد الفقراء الصادقين، الذين قال في ذكرهم: ﴿جَعَلْنَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ [الفصص: ٨٣]. وعلى هذا المعنى جاء تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، قيل: أزهّد في الدنيا. فصار الإحسان الذي هو وصف اليقين مقاماً للزاهدين، كما فسره الرسول الأمين ﷺ لما سئل: ما الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه» يعني على اليقين، وهو

المشاهدة للحق المبين .

ولعمري إنَّ الزَّهدَ حالُ الموقن؛ لأنَّه مقتضى يقينه، وهم أهل الهداية من المتقين، الذين خُصُّوا باليقين: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ المستبين ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢ - ٣]، فهذا زهدٌ منهم في الإمساك؛ [لأنهم] مخصوصون بالرزق الحسن، الذي علامته الإنفاق، وهم الموقنون بالآخرة، فلذلك آثروها على العاجلة، فقال في آخر وصفهم: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أى: بصيرة منه، وعلى طريق قاصد إليه ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤ - ٥] أى الظَّافرون بِبُغْيَتِهِمْ منه، الفائزون غداً من طول الحساب، والسَّابِقون إلى طوبى وحسن مآب .

وكذلك قال في حُسن رزقهم في الدنيا الذى ينفقون منه: ﴿وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ [النحل: ٧٥] يعنى: مع الآخر الذى لا يَقْدِر على شىء، وهو الإنفاق من الرزق الذى بلى به، وسلَّط عليه، فلم يُرزق منه الإنفاق، وكان رزقه من رزقه الإمساك في الدنيا والتعذيب به فيها، وعليه في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾ [التوبة: ٥٥] .

فنعوذ بالله من المالِ المسلَّط .

فإن كان لا بُدَّ من مالٍ فمُسَخَّرٌ لك، لا مُسَلَّطٌ عليك، بل تكون أنتَ المسلَّط عليه لا المسخَّر له . فإن كان المال هو المسخَّر لك، فهذا من حسن التوفيق للأغنياء، وهو طريقهم للفضل بما سلكتهم فيه، فيه فُضِّلوا إن وُفِّقوا للإنفاق^(١) .

وقد يحتج متوهم لفضل الأغنياء المسكين لفضول الغنى على الفقراء عنده بقوله تعالى مخبراً عن الفقراء: ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢]، ولا يعلم أنَّ هذا عند أهل التدبر للقرآن مزيداً للفقراء،

(١) من قوله: «وقد سُمي الله الفقراء» في الصفحة السابقة وحتى هنا معظمه في الإتحاف ٣١٦/٩ - ٣١٧ نقلاً عن نسختنا تلك .

لتمام حالهم لما كانوا مُحْسِنِينَ، كما قال سبحانه: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٤]، وكما قال أيضاً: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨]، فكان مزيدهم الحزنَ والإشفاقَ، وخوفَ التقصير لمشاهدة عِظَمِ حقِّ الرُّبُوبِيَّةِ عليهم، حتى كأنَّهم مُسَيِّئونَ، حتى بشرَّهم الله تعالى بأنَّهم مُحْسِنُونَ، لما قال عزَّ وجلَّ: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]؛ لأنه ضمَّهم إليهم في الوصف، وعطفهم عليهم في المعنى. وأيضاً فلم يكن بكاؤهم على فوت الدنيا، ولا على طلب الغنى، والله تعالى يمدحهم بصبرهم عن الدنيا، ويذم الدنيا إليهم، بل كان حزنهم على طلب المزيد من الفقر، ليجدوا الإنفاق، فيخرجوه، فيفتقروا منه، فيزدادوا فقراً من الدنيا ببذله إلى فقرهم. فعلى كثرة الإنفاق، وحقيقة الفقر من الدنيا، كان حزنهم.

فهذا فضل يأتي للفقر لا على الجمع والادخار. والموضع الأعلى الذي فُضِّلَ به الفقراء من هذه الآية، عند أهل الاستنباط والتفكير والدراية: هو مشاركتهم لرسول الله ﷺ في حاله، ووصف الله تعالى رسوله ﷺ بمثل حالهم في قوله تعالى: ﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾، ثم نعتهم بمثله لأنهم هم الأمثل فالأمثل به، فقال تعالى: ﴿أَلَا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢] فمن كان برسول الله ﷺ أمثل فهو الأفضل. كيف وقد روينا عن النبي ﷺ: «تحية المؤمن في الدنيا الفقر» فجعل الفقر تحية له من ذى التحيات المباركات، مع الخبر المشهور: «الفقرُ على المؤمن أزينُ من العذارِ الحَسَنِ على خدِّ الفرسِ الجَوَادِ».

فأما ابنُ مسعود فإنه صيرَ الفقرَ حقيقةَ الإيمان، حتى يحلَّ بذروته، إذ عبَّرَ عن ذروة الإيمان به، فقال: «لا يبلغ عبدٌ حقيقةَ الإيمانِ حتى يحلَّ بذروته، وحتى يكونَ الفقرُ أحبَّ إليه من الغنى، والتواضعُ أحبَّ إليه من الشرف، والذلُّ أحبَّ إليه من العزِّ». وفي رواية أخرى: «حتى يكون مادحُه وذامُه عنده سواء».

فهذا هو تفسيرُ حقيقةِ الفقرِ في النفس^(١)، وهو يستوعبُ كُلِّيَّةَ الزُّهْدِ في الدنيا. واعلم أنَّ الثلاثَ الأخرَ التي قرَّنها بالفقر هُنَّ من إخبارِ الفقير، إذا كان صادقاً

(١) في الإنحاف ٣٧٧/٩: «الزهد في النفس»، وعنه أصلحت عدة مواضع كانت تالفة بالأصل.

زاهداً كان ذليلاً في نفسه، متواضعاً بنفسه، لا يكثرُ بِمدحٍ ولا ذمٍّ؛ لسقوطِ نفسه عنده، وإطراحِ الخلقِ عنه. فهذا علمٌ وجودُ اليقين، الذي ضده علامةُ النفاق فيما فسره وهب بن منبه، عندما سئل: ما علامةُ المنافق؟ فقال: أن يكرهَ الذمَّ، ويحبَّ المدحَ. وقال غيره غير هذا، وهو أسهلُّ منه: من علامةِ النفاق، أن يُمدحَ العبدُ بما ليس فيه، فيعجبه ذلك.

وأشدُّ من هذا منعُ رسولِ الله ﷺ حصولَ الإيمان، ومنعُه الحياءَ الذي هو مقتضى الإيمان إلا بعدَ تمكُّنِ الزهد، ووجودِ الورع الذي هو مقدمةُ الزهد، في الخبر الذي رويناهُ من طريقِ أهلِ البيت أسندهُ جعفرُ الصادق عن آبائه الأخيارِ إلى الرسولِ المختارِ ﷺ، قال فيه: «الإيمانُ والحياءُ يطوفانِ في القلوبِ في كلِّ ليلةٍ، فإذا صادفا قلباً فيه الزهدُ والورعُ أقاما فيه، وإلا ارتحلا».

فكانته أراد بهذا محضَ الإيمان وخالصه، الذي هو يقينُ المعاينة، والحياءُ الذي هو نظرُ المشاهدة. إنَّ وجودَ ذلك على حقيقة في مكان الزهد فيما آمن بفنائه، لوجود مكان الرغبة فيما آمن ببقائه، إذا تفكَّرَ في ذلك تفكَّرَ أولى الألباب فيما شهدوه من بيان الآيات في الخطاب، من قول المتفضل الوهاب: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ * في الدنيا ﴿وَفَنَائِهَا﴾ [البقرة: ٢١٩- ٢٢٠] وبقائها. أي: فتؤثرون ما يبقى إذ وصفه الباقي بوصفه، على ما يفنى حين وصفه المغنى بصفاتكم إذ يقول: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ﴾ أي لأنكم تفنون عنه ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] لما خصه بمعنى وصف البقاء، تشريقاً وتعظيماً وتفضيلاً^(١) مع قوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٣]. ثم قال في وصفها بصفته تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الاعلى: ١٧]. ولذلك كان أبو الدرداء يقول: لئن حلفتكم لى (...)^(٢) أنه أزهدكم في الدنيا، لأحلفن لكم أنه خيركم.

وأما وهب بن منبه فقد جعل الزهد من استكمالِ العقل، فقال: لا يستكمل

(١) انظر: الإنحاف ٣١٩/٩، فقد أكثر من النقل.

(٢) تلف في الأصل.

العبدُ العقلَ حتَّى يكونَ فيه هذه الخصال: يكونَ الفقرُ أحبَّ إليه من الغنى، والذلُّ أحبَّ إليه من العزِّ، والتواضعُ أحبَّ إليه من الشرف.

فهذا عقلُ العالمين بالله، وهم عقلاء الموقنين، وهو عقلُ هداية الآخرة، المنوطُ بمعرفة الآخرة، لا عقلَ الوليِّ على الدنيا، المرتبط بالعكوف على الخلق، لقوة مشاهدة الحق بعين اليقين، ولضعف شاهد المعقول باستجلاب حظوظ النفس من الفضول. فلذلك جعل ابن مسعود هذه الثلاث من حقيقة الإيمان وذروته.

ولعمري إنَّ كمالَ الإيمان وأعلاه هو بكمال العقل ونهاه، كقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ [طه: ٥٤] فهو جمع: نُهْيَةٌ، وهى من أسماء العقل؛ لأنَّه ينتهى به، ويتناهى فى الوصف إليه. فالعقل مكانُ الإيمان، مثله كالفتيلة مكان المصباح. فإذا تحقَّق الإيمانُ وكُمِّل، زيد فى تحقيق العقل وتكميله، وكان معه الزَّهدُ بحقيقته.

ولذلك كان أبو محمَّد يقول للمتقشفين من الغُبار^(١): احفظوا عقولكم، فإنَّه لم يكن لىُّ الله ناقص العقل.

والفقرُ اختيارُ رسول الله ﷺ، عن حُسن اختيارِ الله له، لما خيَّره: «من أن يعطيه مُلكًا كمُلِكَ سليمان عليه السلام». وفى الخبر الآخر: «بين أن يُجرى له الأوديةُ مالا، ويجعل له الجبالَ ذهبًا وفضةً، ولا ينقصه ذلك من درجته عند الله شيئًا»، فاختر بحُسن توفيقِ الله وعصمته له الأَحَبُّ إلى الله، والأخير عند الله، إذ قد ضمن له أن أعطاه لا ينقصه، فلم يبقَ إلا محبةُ الله، فكانت أثرَ عنده من ترك نقيصته، فقال: «لا حاجة لى بذلك، بل أجوعُ يومًا وأشبعُ يومًا، أحمدُك إذا شِبتُ وأنضِرَّع إليك إذا جُعْتُ».

والفقرُ شعارُ النبيين، وطريقُ عليَّة الصَّحابة، والأصفياء من التابعين.

وقد رُوينا فى الخبر الآخر: «آخرُ الأنبياء دُخولاً الجنةَ سليمان، لمكان ملكه.

(١) الغُبار: كذا بالأصل، والمقصود منها: الذين يزهدون فى الشئ اليسير، فإنَّه يحذرهم من ترك كل ما يقوم به البدن والعقل، حتى لا تذهب عقولهم.

وآخر أصحابي دُخُولاً الجنةَ عبدُ الرحمن بن عوف، لأجل غناه». وفي الخبر الآخر: «رأيتُه يدخل الجنةَ زحفاً».

وقال سعيد بن جبير: إنما فَضَّلَ اللهُ الأنبياءَ بما أعطاهم من العلم به، والنصر، وما زهدوا في الدنيا، مع القيام به، والصبر عليه، فجعل العلم بالله معياراً على النبوة، به تفاضل الأنبياء، وهو علم اليقين الكاشف لعين اليقين، المتجلى به وصف الوحدة. وجعل سبب ذلك الزهد.

وكذلك أقام على، عليه السلام، الزهد مقام اليقين، الذي ما نزل من السماء أعز منه؛ ذلك لأن الزهد مقتضاه، ولأن اليقين موجب، فهو عنده - في قوله، وقد ذكر شعب الإيمان، فقال: على أربع - على اليقين. وقد رويناه أنه فسّر بالزهد اليقين، فقال: «اليقين على أربع شعب» فقال فيه: «ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصائب». وتهوين المصائب موجب اليقين، كما الزهد مقتضى اليقين.

ألم تسمع إلى دعاء الرسول ﷺ: «وارزقنا من اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا»، فلما هانت عليه الدنيا، لنظره إليها بعين اليقين، وهي العين التي يراها بها عباده الصالحون، هان عليه مصائبها. كما علم رسول الله ﷺ الرجل، فقال: «قل: اللهم أرني الدنيا كما يراها الرجل الصالح من عبادك». فلم ير مصائبها بفضائل شهدها نعماً لرجوعه إليها في المال، ورأها ملكاً لمولاهها، فلم يغتر بها في الحال، إذ سمعه سبحانه يقول: «قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» [البقرة: ١٥٦]، مع قوله: «وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»^(١) [الشورى: ٣٦].

ولا نعلم في الأمة أفضل من طائفتين: المهاجرين، وأهل الصفة. وجميعاً مدح الله بالفقر، فقال تعالى: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ» [الحشر: ٨]. وقال: «لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» [البقرة: ٢٧٣]. فقدم وصفهم بالفقر على أعمالهم بالهجرة والحصر. والله سبحانه وتعالى لا يمدح من يحب إلا بما يحب، ولا

(١) كتبت هذه الآية خطأ في الأصل.

يصفه حتى يحبه .

ورؤينا في قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤] قيل: عن الدنيا . ويقال: عن الشهوات . وفي الخبر بمعناه: «العلماء أمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا» . وفي لفظ آخر: «ما لم يخالطوا السلطان، فإذا فعلوا ذلك فاحذروهم على دينكم» . وجاء في الأثر: «لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله، ما لم يُبالوا ما نقص من دنياهم بسلامة دينهم، فإذا فعلوا ذلك، وقالوا: لا إله إلا الله، قال الله: كذبتم، لستم بها صادقين» . وفي الخبر الآخر: «إذا قالوها ردت عليهم» .

وفي الخبر الغريب من طريق أهل البيت: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه، فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه . قيل: وما اقتناه؟ قال: لم يترك له أهلاً ولا مالاً» . وفي لفظ آخر: «أما عياله وأبقاه» . وفي الأخبار عن الكتب السالفة: «إن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه: احذر أن أمقتك، فتسقط من عيني، فأصب عليك الدنيا صبا» . وقال بعض أهل العلم والفهم في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠] قال: في بحر الدنيا .

وكان لقمان عليه السلام يقول: «الدنيا بحر عميق، قد غرق فيه خلق كثير، فاجعل سفينتك فيها تقوى الله، وشراعها التوكل على الله» .

ورؤينا في أخبار موسى صلى الله عليه وسلم أن الله سبحانه وتعالى أوحى إليه: «لا تركز إلى حب الدنيا، فإنك لا تلقاني بكبيرة أعظم منه» .

وفي أخبار إبراهيم الخليل عليه السلام في قصة طويلة، قال في آخرها: «إن الله قال له: لو بخليلك أنزلت حاجتك لقضاها لك، يعنى نفسه تعالى، ولم يُعَنِّكَ» . وكان قد احتاج فذهب إلى خليل له يستمنحه شيئاً، فتواري عنه، فرجع إبراهيم منكسراً . فلما قال له ذلك، قال: إلهي، علمت مقتك للدنيا، فخفت أن أسألك شيئاً منها فتمقتني . فأوحى الله إليه: أما علمت أن الحاجة في الدنيا ليست من الدنيا» . ورويناه مرة: «أن القوت ليس هو من الدنيا» .

وقد جاء ما معناه عن نبينا ﷺ: «من نظر إلى زهرة الدنيا أصبح ممقوتاً في ملكوت السماء، ومن صبر على القوت نزل الفردوس حيث أحب». فدل ذلك: أن القوت ليس من الدنيا لأنه استثناه منها بمدحه على الصبر عليه بعد ذمها. وكذلك روينا الخبر في القوت: «لا يعذب الله مؤمناً جعل رزقه في الدنيا قوتاً». وفي الخبر الآخر: «طوبى لمن هدى إلى الإسلام، وجعل رزقه كفافاً، وصبر عليه». وفي لفظ آخر «ورضى به». وكان ذلك من دعاء رسول الله ﷺ، لنفسه ولأهل بيته في الدنيا: «اللهم اجعل رزق محمد وأهل بيته في الدنيا كفافاً».

واختلف في الكفاف. فمنهم من قال: هو قوت يوم بيوم، بلا سرف. ومنهم من قال: هو جوع يوم، وشبع يوم. وكذلك جاءت الأخبار الواردة، وتواترت الآثار الكثيرة في وصف المصطفى رسول الله ﷺ، وحال أهل بيته وأزواجه، أن كان يأتي عليهم الهلال بعد الهلال، ثلاثة أهلة، لا يُوقد في بيوت أزواجه نار، ولا يرى دخان، لحبز ولا طبخ. قال عروة: «فقلت لعائشة: يا أمه، فما كان تعيشكم؟! قالت: الأسودان: الماء والتمر. وكان لنا جيران من الأنصار يرسلون إلينا باللبن في الحين بعد الحين».

وفي الخبر: «ما شبع رسول الله ﷺ وأهل بيته من خبز بر ثلاثة أيام، حتى لحق بالله». ومن قول رسول الله ﷺ: «ما أصبح عند آل محمد صاع بر، ولا صاع تمر، ولا صاع شعير، وإنّ عنده لتسع نسوة».

وفي الخبر: «أن أعرابياً جاءه، فأرسل إلى جميع بيوت أزواجه في شيء يطعمه، فلم يوجد عندهن شيء». وفي لفظ آخر: «فوجد كسرة، فجزأها له لقمًا، فأكل الأعرابي. ثم قال: إنك لرجل صالح».

وفي خبر ابن عباس وعائشة رضى الله عنهما: «قبض رسول الله ﷺ ولم يترك ديناراً، ولا درهماً، ولا شاة، ولا بعيراً، ولا أوصى بشيء. وترك درعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير».

هذا لهوان الدنيا على الله، وبغض الله لها، كما قال ﷺ: «لو كانت الدنيا تزناً

عند الله جناحَ بعوضةٍ ما سقى كافراً منها شربةً من ماءٍ».

ومرَّ ﷺ بشاةٍ ميتةٍ، وفى خبر آخر: بجدى أجربٍ ميتٍ سائلةٍ برجلها، فقال: «أترون هذه هيئةً على أهلها؟ فقالوا: نعم، من هوانها عليهم ألقواها. فقال: والله، للدنيا أهونُ على الله من هذه على أهلها».

وفى حديث عمرَ رضى الله عنه؛ لما دخل على رسول الله ﷺ وهو نائم على سريرٍ من جريدٍ مرمولٍ^(١) بشريطٍ، فقعده وقد أثرَ حبارٌ^(٢) الشريطَ بجنبه. قال: «فأدرتُ عيني فى بيتِ رسولِ الله ﷺ، فما رأيتُ إلا قدرَ صاعين من شعيرِ مَصْبُوبٍ فى زاويةِ البيتِ، وأُهبٍ فى ناحيةٍ منه غيرِ مدبوغةٍ. قال: فلم أملك عيني، فبكيتُ. فقال: ما يبكيك يا ابنَ الخطَّابِ؟ فقلت: كسرى وقيصرَ فى فرشِ الحريرِ والديباجِ، وفى نعيمِ الدنيا، وأنتَ رسولُ الله وخيرُته من خلقه على ما أرى. قال: أفى شكٍّ أنت يا عمرُ؟! أما ترضى أن تكونَ لهم الدنيا ولنا الآخرةُ. فقلتُ: رضيتُ». وفى لفظ آخر: «قومٌ عَجَلتْ لهم طيباتهم فى الدنيا».

فدلَّ قوله ﷺ: «أفى شكٍّ أنت» على أنَّ القلةَ والزهدَ من اليقين، لآثته ضدَّ الشكِّ، فمن شكَّ فى ذلك، أو رغبَ عنه، فهو ليس بموقنٍ.

ولعمري لقد جاء بمعناه: «إنَّ الدنيا مُرْفَرَفَةٌ بين السَّماءِ والأرضِ، لا ينظرُ الله إليها منذُ خلقها إلى أن يُفنيها، تقول: يا ربِّ، لِمَ تُبْغِضُنِي؟ لِمَ تَمَقِّتُنِي؟ فيقول تعالى: اسْكُتْى يا لَأَ شَىْءٍ». وفى لفظ آخر: «أنتِ وأهلكِ إلى النارِ».

وفى الحديث الآخر زيادة: «إنَّها تُبْعَثُ يومَ القيامةِ، فيقول تعالى: مَيِّزُوا ما كان منها لى، وألقوا سائرَها فى النارِ. فتقول: يا ربِّ، اجعلنى اليومَ لأدنى عبادك فى الجنةِ منزلةً. فيقول: اسْكُتْى يا لَأَ شَىْءٍ، أنا لم أرْضُكِ لهم فى الدنيا، أأَرْضَاكِ لهم اليومَ عندى فى دارِ كرامتى؟».

وكذلك الخبر الآخر المشهور، يُنبىء عن وَصْفِها اليومَ: «الدنيا ملعونةٌ، ملعونٌ

(١) جريد مرمول: أى منسوج.

(٢) حبار: أثر. وفى الإتحاف ٣٦٤/٩: أثر حبال الشريط.

ما فيها، إلا ذكرُ الله، أو عالمٌ أو متعلّمٌ. فهذا يدلُّ أن هذه الثلاث ليس من الدنيا، لأنها طرقاتُ الآخرة. وكأنه تفسير قوله في الخبر: «ميزوا منها ما كان لى»، فهو الذى له تعالى، أى يُتقَرَّب به إليه، ويُستدل به عليه، ويُتطرق منه إلى دارِ السَّلام عنده؛ لأنه هو الخير، والدُّنيا شرٌّ. وقد قال ابنُ عمر فى تَلْبِيته: «والشرُّ ليس إليك»، أى لا يُتعرَّف به إليك. والآخرةُ ضدُّ الدنيا.

وفى الخبر «أن عائشة رضى الله عنها لبستُ درعاً جديداً، فنظرتُ إلى عِطْفِها، فزجرها أبو بكر زجراً فزَعَتْ لها، وقال: ما تنظرين؟ إنَّ الله تعالى ليس بناظرٍ إليك. قالت: لِمَ؟ قال: العبدُ إذا أُعجب بشيءٍ من الدنيا مَقَتُهُ ربُّه، حتى يفارقُ تلك الزينةَ. قال: فترعته، فتصدَّقْتُ به. فقال: عسى أن يكفِّرَ عنك بذلك».

كذلك فعلَ رسولُ الله ﷺ امتثالاً لأمرِ الله لما مرَّ بعِشارٍ حُفِّلٍ، وهى المجتمعُ اللبن فى ضرعها، إذ كانت أحبُّ أموالِ العربِ إليهم وأهمها وأكرمها (...)^(١) الله تعالى بتعطيلها عند تكوير شمسها فقال: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ حتى قال: ﴿وإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ... عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١ - ١٤] [يعنى ما قدّمت لنفسها غداً] من مَثاقيلِ الذرِّ من الخير والشرِّ. قال: فأعرضَ عنها رسولُ الله ﷺ، أعنى: عن العِشارِ الحوامل. فقالوا: يا رسولَ الله، هى كرائمُ أموالنا أعرضتَ عنها. فقال: «إن الله أمرنى بذلك، ثم قرأ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةً﴾ إلى قوله: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١]. قيل: القناعة. وقيل: الكفاف، وهو قوتُ يومٍ بيوم. ويقال: الحلال.

وبمعناه روينا فى الإسرائيليات: «أنَّ عيسى عليه السلام مرَّ فى الحواريين على شجرة خَضِرَةٍ نَضِرَةٍ، تحتها غدير، فنظروا إليها. قال: وأعرضَ هو فلم ينظر، فلما جاوزوها قال: بحقِّ أقول: لقد نقصَ من عقولكم بمقدارِ نظركم إلى الدنيا. قال: ومروا بمِيتةٍ حمارٍ قد أنتنَ ريحُه، فغطُّوا أنوفهم، وأففوا، فنظرَ إليه، ولم يُغطِّ أنفه ولا أفَّ. فقالوا: ما أنتنَ ريحُه! فقال: ما أشدَّ بياضَ أسنانه».

(١) تالف بالأصل، وسيجيء الخبر مرة أخرى بلفظ مختلف.

وقال مرة: «هذه دنياكم التي تَحْرِصُونَ عليها». فجعل الدنيا جيفةً مُتَتَنَةً، يَعْلَمُهُمْ بقوله «ما أشدَّ بياضَ أسنانه» تَرَكَ الغيبة، وأن لا يذمُّوا أشياء، بل يذكروا من الشيء أحسنَ شيءٍ فيه. فلما ذكروا ما قُبِحَ من الصَّحة وعابوه وهو النتن، ذكرَ هو أحسنَ شيءٍ فيها وهو بياضُ الأسنان.

فهذا - كما روى عنه - من الأدب في تَرْكِ عادةِ السُّوءِ خشيةَ الاعتیاد، وإن جازَ ذلك في المذموم: أنه مرَّ بخنزيرٍ، فاقتربَ الخنزيرُ منه، فقال له: مرُّ بسلام، فقبل له: تقول هذا للخنزير؟! فقال: أكره أن أعودَ لسانی الفُحشَ.

وقد رُويَنا في تأويلِ قوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، قال بعضُ [أهل] اللغة: متاعٌ مثل: جيفة. سمعتُ عن الأصمعيَّ أن بعضَ العربِ يقول: متَعَ اللحمُ، إذا راحَ وتغيَّر. وعلى معنى ذلك في الكلام السَّائرِ قوله في ضربِ المثلِ للدنيا: ﴿ثُمَّ يَهِيْجُ فِتْرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ معناه: يتغيَّر. يُقال: هاجَ الشَّجَرُ والزَّرْعُ: إذا تغيَّرَ واصفَرَّ وفَسَدَ ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ [الزمر: ٢١] أى مُحطَّمًا ومُنحطَّمًا ومُنهَشَمًا كله بمعنى: منكسر يابس، يُداسُ ويوطىء بالأقدام. ومنه قال: ﴿وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ﴾ [الهمزة: ٥] لأنها تَهْشِمُ الإنسانَ وتكسِرُه، وتَرْكُسُه^(١) وتطأه في النَّارِ الموقدة.

ويقال: ليس عملٌ من أعمالِ البرِّ يجمعُ الطاعاتَ كُلَّها إلا الزَّهْدُ في الدنيا. وعن الصحابة تابَعُوا الأعمالَ كُلَّها بعضها على إثرِ بَعْضٍ، فلم نَرِ أبلغَ من أمرِ الآخرةِ من زهَادَةٍ في الدنيا. وقال بعضُ الصحابة^(٢) للصَّدرِ الأوَّلِ من التابعين، لما رأوا شِدَّةَ اجتهادِهِم في العبادة: أنتم أكثرُ أعمالاً واجتهاداً من أصحابِ رسولِ الله ﷺ، وهم كانوا خيراً منكم. قيل: ولم ذاك؟ قال: كانوا أرهَدَ منكم في الدنيا.

وكذلك قال أبو الدرداء، لما وصفَ الأبدالَ، فذكرَ قلوبَهُم ومواجيدَهُم، وعِلِمَ اليقين منهم، وأحوالَ الصَّديقين فيهم، فقال له صاحبه: والله ما سمعتُ صفةً

(١) الركنس: ردُّ الشيء مقلوباً.

(٢) هو عبد الله بن مسعود، كما في الإتحاف ٣٣٤/٩.

أحسنَ من هذه، ولا أعجبَ إلىَّ منها، فكيف لي أن أكون من أهلها؟! فقال: يا ابنَ أخى، ما بينك وبين أن تكون من أوْسطهم، أو فى أوْسطها، حالاً إلا أن تزهدَ فى الدنيا، فبقدر زُهدك فيها، وبُغضك لها، يدخل حبُّ الآخرة والرغبة والروحُ فى قلبك، وبقدر ذلك يحبُّك ربُّك. وحدَّثَ الحديث بطوله فى صفات أخلاق الأبدال.

وفى وصية لقمان لابنه: واعلم أن أعونَ الأشياءِ على الدين زهادةً فى الدنيا. ويُقال: مَنْ زهد فى الدنيا أربعين يوماً أجرى الله ينابيعَ الحكمة فى قلبه، وأنطق بها لسانه. وهذا وَصفٌ من صفات الأبدال الذين هم خلائفُ الأنبياء، وهم الصديقون والشهداء والملحقون بهم، المرفوعون إلى الرفيق الأعلى، وحسن أولئك رفيقا. ذلك الفضلُ من الله. وقد جاء فى خبر: «إذا رأيتُم العبد قد أُعطى صمْتًا وزُهدًا فى الدنيا فاقربوا منه، فإنه يُلْقَى الحكمة». وقال الله تعالى: «وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا» [البقرة: ٢٦٩]. فهذا الخير الكثير، فهو ظاهرُ عطاء الزاهدين وأولّه، فكيف بباطن عطائهم ونهايته؟

فأعلى الأحوال عند الله شأنُ الدنيا، وحبُّ الآخرة، كما روينا عن رسول الله ﷺ، لما سُئل: أىّ الناس خير؟ قال: «كُلُّ مَخْمُومٍ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ. قلنا: يا رسول الله، وما مخمومُ القلب؟ قال: التَّقَى النَّقَى، الذى لا غِلَّ فيه ولا غِش ولا بَغَى ولا حَسَد. قيل: يا رسول الله، فَمَنْ عَلَى أثره؟ قال: الذى يَشْنَأُ الدُّنْيَا، ويحبُّ الآخرة».

والشئ يُعرف بضده، كما يُعرف بمثله، فضدُّ الشنآن: المحبة، وضدُّ الزهد: الرغبة. ففى تدبر كلمه: «إنَّ شرَّ النَّاسِ الذى يَحِبُّ الدُّنْيَا». وإنَّ الرَّاعِبَ فيها هو المحبُّ لها، والاقْتِناءُ لها، والاستكثارُ منها، والترزُّن والتفاخرُ فيها، والإعجابُ بها، كلُّ ذلك علامةُ الحبِّ لها. كيف وقد روينا: «إن أردت أن يحبك الله فازهد فى الدنيا». فجعل الزهد سببَ محبة الله التى لا مثلَ لها.

فينبغى أن يكون الزهد من أفضل الأحوال، إذ كانت المحبة من أعلى المقامات،

وصار الزاهد حبيب الله. ففى دليله: أن من رغب فى الدنيا فقد تعرض لبغض الله، الذى لا شىء أعظم منه، وأن الراغب فى الدنيا مبعوض عند الله.

ورؤينا فى الآثار جمل هذه الأخبار: «من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره، وفرق عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما قد قدر له. ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه، وحفظ عليه ضيعته، وجعل غناه فى قلبه، وأتته الدنيا وهى راعمة».

وقال الله تعالى فى معناه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]. فمعنى ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾: أى لا يحاسبه بما يعطيه منها، بعد أن لا يريد لها، وأن لا تكون من همه، فما أدخل عليه منها يخرج منه العبد بغير محاسبة. فهذا مجاز الزيادة عندى؛ لأن الرزق لا يُزاد فيه ذرة على ما قُسم له أول مرة. ولذلك شرط له بقوله: «وأتته الدنيا وهى راعمة»، وإن لم يرد لها، فجعل ذلك له مجعل المجازاة على زهده فيها، وجرى مجرى المكافأة، لخروج همه منها.

وقد كان الحسن وغيره يقولون: أهني الدنيا تهناً بها، فأهناً ما تكون إذا تهاونت بها. ومرة يقال: أهني نفسك، فأهناً ما تكون بها إذا أهنتها. وقال الحسن: ما أعز أحد نفسه إلا أهان دينه، وحلف بالله: ما أعز عبد الدينار والدرهم إلا أذل دينه. وقال مرة: إلا أذله. ومرة يجعل بعض العقلاء ذلك فى النفس، فيقول: من أراد أن يعز نفسه فليذل درهمه، وما أعز أحد درهمه إلا أهان نفسه.

وهذا باب. وقد كان المسيح ابن مريم عليه السلام، يقول: «إليك عنى يا خنزيرة».

قال: وكذلك قول السلف لها إذا فُتحت عليهم: إنا قد عرفنا ربنا. أى: قد عرفناه بالاختبار بها، والمكر منه، والتفتين بالتوسعة فيها، لينظر كيف نعمل فيها، أنقبل إليه بها، أو نعرض عنه بالإقبال عليها؟ وكقوله: ﴿لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٦-١٧]. وقال فى

مثله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ﴾ أى: بها وفيها ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧] أزهّد في الدنيا، وأترك لها، وأحسن صبراً عليها عنها.

وكان أبو محمد يقول: يُجعل أعمالُ البرِّ كلّها في موازين الزُّهاد، ويكون ثوابُ زهدهم زيادةً لهم. وقال مرةً: العبادُ في موازين العلّماء، والعلماء في موازين الزُّهاد يوم القيامة، فلا يطمعن طامع في محبة الله له وهو محبٌ للدُّنيا؛ لأن الله تعالى يمقتها ويُبغضها، ويقول: أنتِ وأهلكِ إلى النار.

وفى الزبور: «إن الله تعالى قال لآدم عليه السلام: تدرى لِمَ ابتليتك بالخطيئة؟ قال: لا. قال: جعلتُ معصيتك سبباً لعمارة الدنيا. فإذا عُمرت بالمعصية ينبغي أن تخرّب بالزُّهد فيها». فإن الزهد في الدنيا أصل كل طاعة. كما روينا في تأويله: «حبُّ الدنيا رأسُ كل خطيئة». فمثلُ الدنيا مثلُ إبليس، جعله الله للبُعد واللّعة، ليبتليه ويبتلى به، ويهلكه ويهلك به؛ لذلك قيل: «الدنيا ملعونة ملعونٌ ما فيها، إلا ذكّر الله وما والاه». وفى لفظ آخر: «وما آوى إليه». أى: مُبعدة عن قُرب الله وخاصية رحمة، كطرد إبليس وإبلاسه. وقد أشهد ذلك بعضُ المكاشفين، فقال: رأيتُ الدنيا في صورة جيفة، ورأيتُ إبليس في صورة كلب، وهو جائم عليها، ومنادٍ من فوق: أنت كلبٌ من كلابي، وهذه جيفة من خلقى، وقد جعلتها نصيبك منى، فمن نازعك شيئاً منها فقد سلطتُك عليه.

فجاء من هذا أنها مكانه، فمن تمكّن في شيء منها سلط العدو بالمكانة منه بقدر ما أصاب منها، فصار أبنائها يقعون على العدو، يبتزون نصيبه منها الذى جعل له، فبسط عليهم سلطانُه الذى سلط به على مَنْ نازعه ما فى يده، وتولاه بقُربه، إلا المتوكّلين من المؤمنين، ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ﴿يُولِيهِمْ بِقُرْبِهِمْ مِنْهُ﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ [النحل: ٩٩ - ١٠٠] فى التوحيد بالإلحاد، يشاركهم فى الأموال والأولاد ويجلب عليهم بخيله ورجله، ويَعِدُّهُمْ الغُرورَ، ويُمْنِيهِم الزُّورَ، كما فرض لهم من النّصيب لمن اتّبعه فى نصيبه نصيباً مفروضاً، ذلك تقديرُ العزيزِ العليم.

وقد كُوشِفَ بها بعضُ الأولياءِ فى صورةِ امرأةٍ، ورأى أَكْفَ الخلقِ ممدودةً إليها، وهى تجعلُ فى أيديهم شيئًا. قال لى: فقلتُ له: يا أبا الخير، ما هُوَ؟ قال: شيءٌ يُلْتَذُّ. قال: وطائفةٌ تمرُ عليها مكتوفى الأيدى لا ينظرون إليها، قال: فليس تعطيهـم شيئًا.

وقد قيل: الدنيا لثيمة، إن أكرمتها أهانتك، وإن أهنتها أكرمتك. فاللثيم إن نظرتَ إليه ورفعته أعرضَ عنك ووضعَ منك، والكريمُ بضدِّ ذلك. وقال أبو سليمان الدَّارانيّ: الدنيا لثيمة، والآخرةُ كريمة، فإذا كانت الآخرةُ فى القلبِ جاءت الدنيا تراحمُها للثومِها. وإذا كانت الدنيا فى القلبِ لم تحبِّ الآخرةُ تراحمُها لكرمِها. معناه: أنَّ يَسِيرَ دخولِ الدنيا يُخرجُ كثيرَ دخولِ الآخرة، وكثيرٌ من شأن الآخرةِ لا يُخرجُ يسيرًا من الدنيا، وإنَّ كثيرًا من أمرِ الآخرةِ قد يزيله قليلٌ من أمرِ الدنيا، وإنَّ قليلًا من أمرِ الدنيا لا يزيله الكثيرُ من الآخرة. هذا لعِزَّةِ شأنِ الآخرة، وقلةِ النصيبِ منها، وعِظمِ البلوى بها.

وقد قال مُورِقُ العِجلىّ: رأيتُ الدنيا فى صورةِ عجوزٍ شَمطاءَ دَنَدَانِيَّةٍ سَمِجَةٍ، عليها ألوانُ المُصبَّغاتِ، وأنواعُ الزَّينة. فقلتُ: أعوذُ باللهِ منك. فقالت: إن أردتَ أن يُعيدَكَ اللهُ مَنى فابغضِ الدَّرهمَ. وفى لفظٍ آخر: والله! لا يُعيدَكَ اللهُ مَنى حتى تُبغِضَ الدِّينارَ والدَّرهمَ.

وكان بعضُ السلفِ يقول: الدنيا دَنِيَّةٌ، وأدنى منها قلبٌ مَن يحبُّها. وقال آخر: الدنيا قليلٌ، وأقلُّ منها من يظلمُ على شيءٍ منها. وروى عن على كرمِ الله وجهه: «الدنيا جيفة، فمن أرادها فليصبر على مُزاحمةِ الكلاب». وفى أخبارِ موسى عليه السَّلام: «إن لم تَلَقَ الفقيرَ بمثل ما تَلَقى الغنى، فاجعل كل علمٍ علَّمتكَ تحت التراب. وإذا رأيتَ الفقرَ مقبلاً، فقل مرحبًا بشعارِ الصالحين. وإذا رأيتَ الغنى مقبلاً، فقل ذنبٌ عَجَلت عقوبته».

وفى أخبارِ داود عليه السَّلام: «إِنّى خلقتُ مُحَمَّدًا لأجلِى، وخلقتُ آدمَ لأجلِ مُحَمَّدٍ، وخلقتُ ما خلقتُ لأجلِ ولدِ آدم، فمن اشتغلَ منهم بما خلَقْتُهُ لأجله حجبتهُ عَنّى، ومن اشتغلَ منهم بى سقتُ إليه ما خلَقْتُهُ لأجله».

وكان أبو محمد يقول: الصَّدِّيقُونَ في بدايتهم طلبوا الدنيا من الله فَمَنَعَهُمْ، فلمَّا تَمَكَّنُوا من أحوالهم عَرَضَهَا عليهم فامتنعوا منها. فالحال الأول موضع العصمة، أن منعهم منها لضعفهم؛ لئلا يهلكوا بقبولها، فلمَّا تَمَكَّنَ منهم ومكنهم عنده رَدَّهَا عليهم؛ لأنهم قد صَلَّحُوا للأخذ: ﴿أَخْذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات: ١٦]، فلمَّا ذاقوا حلاوة الزُّهْدِ، ووجدوا نعيمَ الحُبِّ، لم يكن للدنيا عندهم وَزَنٌّ، ولا في قُلُوبِهِمْ قَدَرٌ، فأعرضوا عنها لما عَرَضَهَا عليهم بحسُنِ إقبالهم عليه^(١).

وقال يزيد بن ميسرة، وكان من علماء أهل الشام: كان أشياخنا يسمون الدنيا خنزيرة، فكانت إذا أقبلت على أحدهم دنيا، قال لها: إليك عَنَّا يا خنزيرة، لا حاجة لنا بك، إنا قد عَرَفْنَا إلهنا. أى: قد عَرَفْنَاهُ بِالْمَقْتِ لك، فوافقناه في ذلك. وعرفناه، أيضاً، بالالوهية فتولَّهت قلوبنا به، وتألَّهت هَمَمُنَا إليه، فطلبناه، وأعرضنا عما سواه. وعرفناه بالابتلاء بك لينظر كيف نعمل في الزُّهْدِ فيك، والأمره له عليك، وَلِنَنْظُرَ إليه بنظره، فنعرض عنك لإِعْرَاضِهِ، ونقبل عليه بحسُنِ إقباله علينا، أو ننظر إليك، فنعرض عنه، ونقبل عليك، فيكون ذلك سببَ إِعْرَاضِهِ عَنَّا، ومكاناً لمقتته لنا.

وكذلك كان الحسنُ، رحمه الله، يصف أشياخه الذين تأدَّبَ بهم، كان أحدهم يُعَرِّضُ عليه المال الحلال، فيُقال: خُذْهُ فاستغن به، وتوسَّعَ فيه. فيقول: لا حاجة لى فيه، أخاف أن يُفسد علىَّ قلبى. وقال مرة: والله، إن كان الرجل من أصحاب محمد ﷺ لَيَبْسُ جِلْدُهُ على عَظْمِهِ، ما بينهما شَحْمٌ ولا لحم، يُدْعَى إلى الدنيا حَلَالاً فما يقبل منها قليلاً ولا كثيراً، يقول: أخاف أن يُفسد علىَّ قلبى.

فهذا لمن كان له قلبٌ صالحٌ راعاه، وخاف تغيُّره، ومن كان قلبه فاسداً وبالدنيا واجداً كيف يستبين له غيره؟! وقد كان عَوْنُ بن عبد الله المسعودى يقول: الدنيا والآخرةُ في قلبِ العبدِ ككَفَّتَى الميزان، ترجحُ إحداهُما فتخفُّ الأخرى. فهذا

(١) انظر: الإتحاف ٩/ ٣٧٧.

وصفُ قلبٍ هو باليقينِ معيارٌ فيه، يكون لكثرةِ التَّفَقُّدِ حسنَ الاعتبارِ، فيبين لصاحبه النقصان من الزيادة.

وقد كان [عون بن عبيد الله]^(١) المسعودى يحكى عن طريقة السلف، فقال: إنَّ مَنْ كان قبلكم، كانوا إنَّما يجعلون لدنياهم ما فضل من آخرتهم، وإنَّكم تجعلون لآخرتكم ما فضل عن دنياكم.

أى: لرُجحان كفة الآخرة فى قلوبهم، وغلبة أمرها عليهم، ولقوة يقينهم، يقدمون شأنها، فيبتدرون بأن ينقلوا من دار عنها يرتحلون إلى دار فيها يقيمون أحسن ما يدخرون، ويقدمون لدار الحياة والبقاء المؤبد من محل الموت والفناء المؤقت المجدد أجود ما يفعلون، إذ دارهم أمامهم وحياتهم بعد موتهم؛ لأنهم خلّقوا للآخرة لا للدنيا، للبقاء لا للفناء، ثم يجعلون ما فضل من عيشهم لدنياهم؛ لأنَّه متاع فى الحال، وبلاغ إلى وقتٍ وحين. وهذا علامة حسن اليقين، وهو يقينُ الزهد، الذى صار الزهادُ به زاهدين، فيها الرغبة والحرص، لا يقين الإيمان الذى صار به المسلمون مؤمنين، بنفى الشرك^(٢) بالصحابة والولد.

وكان بعضهم يقول فى دعائه: اللهم اجعلها بلاغاً لا متاعاً. كأنه يتأول ما قيل: «الدنيا بلاغٌ للمؤمن» أى بلغة يتبلغ بها إلى الآخرة، «ومتاعٌ للكافر» أى متعة وتمتع فى عاجلته. وقد كان عون بن عبد الله بهذه المنزلة، أوصى بضیعة له تُباع عند موته ويتصدق بها، فقيل له: تدع عيالك؟! فقال: أقدم هذا لنفسى وأؤخرُ الله لعيالى. وجاءته مرة خمسون ألفاً، فقيل له: اعتقدُها^(٣) لولدك. قال: أعتقدُها لنفسى، وأعتقدُ الله لولدى. وكذلك فعل عمرُ بن عبد العزيز، فرّق ماله عند موته. فقيل له: لو خلفته لأولادك. فقال: أجعلُ مالى لنفسى، وأجعلُ الله تعالى وأخلفه لوكدى.

وسئل الحسنُ رحمه الله عن الرجل يُوسّع عليه فى رزقه، هل له أن يتّسع فى

(١) من الإتحاف ٣٧٨/٩.

(٢) فى المخطوط: «الشك»، وأثبت ما فى الإتحاف؛ لأنه أدق، والفقرة فيه كاملة والتى بعدها.

(٣) اعتقدُها: أى اقتنيها وأبقها.

الشّهوات؟ فقال: لا والله. إذاً لو كان له الدنيا لم يكن ينبغي أن يأخذ من ماله إلا الحاجة والكفاية، في غير سرف ولا تبذير، ويقدم فُضُولَ ذلك لآخرته، ويجعله ذخيرةً له لغده.

وكان السلف الصالح يقولون: اتخذوا الدنيا ظئراً^(١)، والآخرة أماً. أما ترى الصبي يلتقى على ظئره، فإذا عَرَفَ أُمَّهُ أَلْقَى نفسه عليها، وترك ظئره. الآخرة أمكم يوشك أن تُلَقَّوْنَ عليها، وتفارقون الظئر. وقال جابر: ليس قومٌ أكرمَ على الله من الفقراء؛ لأنه لم يكن من الخلق أكرمَ من الأنبياء، فجعلهم فقراء. ولما استُخْلِفَ عمرُ بنُ عبد العزيز بكى، وقال لأبي قلابة: هل تخشى على؟ قال: كيف حبك للدرهم؟ قال: لا أحبه. قال: فلا تخف، فإن الله سيعينك.

وقد ضرب رسولُ الله ﷺ مثلَ الدنيا بما يخرج من نَجْوِ ابن آدم، بقوله للأعرابي: «أرأيتم ما تأكلون وتشربون، تُنظَّفُونَ وتُطَيَّبُونَ وتَبْرَزُونَ؟ قال: بلى. قال: فإلى أى شيء يصير؟ قال: إلى ما قد علّمت يا رسول الله. قال: أليس يقعدُ أحدكم خلفَ بيته، فيجعل يده على أنفه من نَتْنِ ريحه؟ قال: نعم. قال: فإن الله جعلَ الدنيا مثلاً لما يخرج من ابن آدم».

وقال بعضُ أهلِ الفسرِ فى تأويلِ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، قال: مواضعُ الغائطِ والبَوْلِ. أى تعتبروا به مآلَ الدنيا، وقُبْحَ عاقبتها، فتعبروها إلى الآخرة. وقد كان الحسنُ يقول: لما أُهبط آدمُ إلى الدنيا، كان أوّلُ شيءٍ عملَ فيها أنّه أحدث. ورؤينا عن ابن عباس رضى الله عنه: أنّه عليه السلام نظر إلى ما خرجَ منه، فأذاه ريحُه، فاغتمَ لذلك. فقال له جبريل عليه السلام: هذه رائحة خطيئتك.

فشهد العقلاء عن الله الدنيا فى صورةٍ كنيفٍ، فلم يدخلوا فيها إلا ضرورةً، وكلّمَا استغنيتَ عن دخولك الكنيفَ كان أجود. ورآها بعضهم جيفةً، فلم ينالوا منها إلا بُلْغَةً لا متعةً، وكلّمَا تقلّلتَ من الجيفة كان خيراً، فالشهادة أسلمته لأهل

(١) الظئر: التى تعطف على ولَدٍ غيرها. والمرضعة له فى الناس.

الاعتبار. والآخر رآها في صورة حمّام، يدخل فيه للحاجة. فخذ منه ما ينقى الدرن، ويذكر النار، وهذا خير، لينقى فيه. كما قيل: نعم البيت الحمّام. ذكر بذلك، فإذا قارب أن يأخذ منك فانتبذ منه الشهود. والرابع: لأهل البصائر، صورها في معنى الحمّاض^(١)، ليس بقوت إنما يُراد شهوة لوقت، فخذ منه قبل أن يأخذ منك، فإذا أحسست بأخذه منك فاقطعه عنك مثل الضرس الذي يقطعك عن الأكل. وليس فداء هذه الشهادات إلا التّمداد فيها، والغفلة عن الآخرة لأهل الشهوات، وقد قال سبحانه وتعالى للرسول ﷺ في الأخذ من الأغنياء ما في أيديهم: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ يعني من فحش الأموال ﴿وَتُزَكِّيهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] أى: تزيدهم من خير الآخرة. فولا أنّهم دنسوا بالمال ما طهروا بالأخذ، ولولا أنّهم نقصوا في المال ما زيدوا بالإخراج في الحال. وقال الرسول ﷺ: «أمرت أن آخذها من أغنيائكم، وأجعلها في فقرائكم».

فصار الفقراء اليوم طهرة الأغنياء ومزيدهم، وكانوا غداً رفيع درجاتهم وعلوهم. فالمطهر المزكى بوصفه أفضل من المطهر المزكى بوصف غيره، كذلك الفقير الزاهد مستغنى بالطهرة عن الزكاة، وبالصفوة عن التطهير؛ لأن من كان على طهارة لم يحتج إلى فضل وضوء الصلاة، بل قام مصلياً، وإنما يتوضأ من لم يكن على طهارة، كذلك يتزكى بالمال من احتاج إلى زكاة، ولم يكن مزكى من المال. فالزاهد قد زكاه الله بطهرة الحال إذ لم يدنس بالمال فيطهر بإخراجه، ولم ينقص بوجده فيزيد بفقده. فصار الفقر أفضل بعينه، فلذلك فضل الزاهد به. وكان الغنى مفضلاً بمعناه وهو إخراج غناه، لا بنفسه، فلما صار فقيراً من جمعه ببذله فضل بالفقر منه حين أشبه الفقير بوصفه، فصار فضله من معنى ما فضل الفقير به، وهو الزهد في ماله لفارقه.

وقال وهب بن منبه: قرأت في بعض الكتب: ابن آدم، تريدني أترك الدنيا، فإنك إن ترد الدنيا طال عناؤك فيها. وفي بعض الكتب: ابن آدم، أنا بذلك اللازم، فلا تؤثر على ما منه بد. وصدق الصادق: إن لابن آدم من جسمه المتصل بروحه (١) الحمّاض: عسبة تنفع للعطش.

بُدُّ، إذ يخلعه وينسلخ منه انسلاخَ النهارِ من الليل، فيكون له منه بُدٌّ، فتبقى رُوحه، وهى رَسْمُ العُبوديَّةِ، وتخطيطُ الكونيَّةِ، وظرفُ العطاء، وموضعُ جريان الأحكام. ولا بد له من معبوده وخالفه ورازقه ومُحييه ومُميتيه ومُبديه ومُعديه، فكيف لا يكون له بُدٌّ من الأهلِ والولدِ والجسدِ والمالِ المُنفصلِ، وله بُدٌّ من جسمه المتصل؟

ويُقال: إنّ الله تعالى أوحى إلى الدنيا: اُخْدُمِي مَنْ خَدَمَنِي، وَأَتَعِبِي مَنْ خَدَمَكَ. وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ، وَقَدْ رَوَيْنَاهُ مِنْ طَرِيقٍ مُسْنَدًا: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى الدُّنْيَا: تَمَرَّرِي لِأَوْلِيَائِي حَتَّى تَكُونِ رَغْبَتُهُمْ فِيمَا عِنْدِي، وَاحْلُولِي لِأَعْدَائِي حَتَّى يَكْرَهُوا لِقَائِي». وَفِي حَدِيثٍ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ. وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ».

فلو لم يكن من فضل الفقير الزاهد المنعم عليه بالقلّة والذلّة والخمول والمسكنة إلا حبه للقاء الله، وقلة كراهيته لفراق ما هو فيه من حاله، وفقد تأسّفه على ما يفارقه مما يملكه، حتى إنّ الأغنياء يَغْبِطُونَ الفقيرَ على موته، إذ لا يَخْلُفُ شيئاً، ويودُّونَ في حين وقته أن يكونوا مثله، ولا يجدون إليه سبيلاً، ولذلك قيل: لا تَغْبِطِ الأحياءَ إلا بما تَغْبِطُ به الفقراءَ الأمواتَ عند الموت. وإنّما يَغْبِطُ الميّتُ بخاتمة الفقر، وبما قدّم من الباقيات الصالحات، فكل حالٍ يَغْبِطُ به صاحبه عند الموت لقرب البقاء فالزَمَها، وكل حالٍ من غنى ورغبة تكره أن يبتلك الموت عليها ليس (...) ففارقها. فهذا من البقاء (...) والغفلة للغرة بالنفس، كما أنشد بعضهم:

إذا أعجبتك حالُ امرئٍ فكُنْها يكن.....

لا تَقْضِينَ عَلَى غَائِبٍ فيفرح جهلاً بما ليس.....^(١)

فهذه الآثار ونحوها قاصمةٌ لظهور أبناء الدنيا، مُسخنة لعين محبيها، وأصدادها من الأخبارِ الحسنى فى فضل الزهد، وشرف الفقر، رافعةٌ لرؤوسِ الفقراءِ الصادقين، وقرّة عين الزاهدين.

(١) عدة مواضع تالفة بالأصل المخطوط.

وأصل الرغبة فى الدنيا من ضعف اليقين؛ لأنَّ العبدَ لو قوى يقينه، نظر بنوره إلى الآجل، فغاب فى نظره العاجل، فزهد فيما غاب، وأحبَّ الحاضرَ، فأثر ما هو أعودُ عليه، وأبقى وأنفع له، ولمولاه أرضى، وقدم ما يفنى وينقطع إلى ما يدوم ويتصل. وهذا هو صورةُ الزهد، وشهادةُ الموقن؛ لأنَّ الحاضرَ لا يحبُّ ما غاب وانتقل، ألم تر إلى وصفه عز وجلَّ إبراهيم عليه السلام فى قوله: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] بعد قوله: ﴿وَلْيَكُونَنَّ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] فالموقن مأمور باتِّباع ملة إبراهيم، لقوله تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] أى: عليكم ملة أبيكم إبراهيم، واتبعوا ملته.

وليس يُشْهَدُ الوعدُ والوعيدُ الآجلُ بنورِ العقل، إنما يُشْهَدُ بنورِ اليقين.

على أننا نقول: إن أصول الأنوار أربعة. والقلبُ موجهٌ أربعةً إلى الملكِ والملوكِ، وإلى العزةِ والجبروتِ: فينورُ العقلُ يُشْهَدُ الملكُ وهو الدنيا، وبنور الإيمان يُشْهَدُ الملوكُ وهو الآخرة، وبنور اليقين يُشْهَدُ العزةُ وهى الصفات، وبنور المعرفة يُشْهَدُ الجبروتُ وهو الوحدانية. والجبارُ تعالى فوق القلبِ، محيطٌ به، يكشفه بما شاء، فيغلب عليه وجدُّ ما أشْهده، وهو أمره المتنزَّلُ منه، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١]، ﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

وضعفُ اليقينِ قد يدخل فى كلِّ شَيْءٍ، وقوةُ اليقينِ تحتاج إليه فى كلِّ أمرٍ وعملٍ، وإلا فهو دنيا يهتدى إليه بنور العقلِ، فمن لم يُعْطَ نورَ اليقينِ لم يرَ الملكَ الكبيرَ، فاستهواه الملكُ الصغيرُ، فأحبَّ لا شَيْءَ، إذ لم يرَ شَيْئاً، فلم يكن قيمته فى العلوِّ، ولا عنده الأعلى، إلا كلاً شَيْءٍ.

• ذكر ماهية الزهد^(١)، أى شَيْءٌ هو:

ليس يمكن لعبدٍ أن يعرفَ الزهدَ حتى يعرفَ الدنيا أى شَيْءٍ هِىَ، فقد قال الناس فى الزهد أشياء كثيرة. فمن جُمِّلَ ما قالوا، أن سفيان الثورى وغيره،

(١) كل ما ذكره عن تعريف الزهد ليس فى المطبوعة، ونقله صاحب الإتحاف ٩/ ٣٤٤ - ٣٤٥.

رحمهم الله، قالوا: الزُّهْدُ في الدنيا هو قِصْرُ الأَمَلِ، وانتظارُ الموت. وكان بشرُ ابن الحارث، رحمه الله، يقول: الزُّهْدُ في الدُّنيا هو الزُّهْدُ في الناس، وفي ملاقاتهم، إذ الرغبة هي فيهم وفيما عندهم.

وقالت طائفة: الزُّهْدُ هو بُغْضُ المَحْمَدَةِ، وأن لا تحب أن تُمدَحَ على شيءٍ من أعمالك. وقال آخرون: الدُّنيا هي الأكل واللباس والمال، والزُّهْدُ هو تَرْكُ فضول هذه الأشياء. وقال آخرون: حقيقة الدنيا هو حبُّ الشرفِ والعلوِّ، وطلبُ العزِّ والرياسة.

فينبغي أن يكون الزُّهْدُ عند هؤلاء حُبَّ الخمول والذَّلة وطلبُ الخضوع والضعَّة. وقالت طائفة من الصَّوفية: الدُّنيا هي ما دنا من النفس بحظِّ الطبع، والزُّهْدُ عندهم مفارقةُ حظوظ النفس في كلِّ شيء. وقال بعض العارفين: الدنيا هي النَّفسُ، فبقدر ما تزهد في هواها أيَّ شيء كان، فذلك نصيبك من الزُّهْد.

وكان سُفيان يقول: الزُّهْدُ في الدُّنيا هو الصَّبْرُ على الحقِّ في كلِّ شيء. وأما حاتمُ الأصمِّ فإنه سئل: ما الزُّهْدُ؟ فقال: رأسُ الزُّهْدِ الثِّقَةُ بالله، ووسطه الصَّبْرُ، وآخره الإخلاصُ.

فأدخل فيه التوكل، وجعله أوله؛ لأنَّه لا يزهدُ حتى يثقَ بالله في الرِّزْق، ويتوكل عليه فيه. وجعل الصَّبْرَ حالاً منه، أراد الثباتَ عليه، لئلا يملَّ ويخرج^(١) فيرجعَ إلى الرغبة والدنيا. وجعل نهايته الإخلاصَ، فهذا إخلاصُ الصَّادقين، أن تُريدَ بذلك وجهَ الله تعالى وحده، وابتغاءَ مرضاته، لا تطلُّعاً إلى عِوَضٍ، ولا تطلُّباً شيئاً من غيره سبحانه.

وكذلك جعل أحمدُ بن حنبل الإخلاصَ هو الزُّهْدَ، فقيده به؛ لأنَّه إذا بلغ حقيقةَ الإخلاصِ لله وحده فقد زهد فيما سواه. فاتفقا بمعنى تقارباً فيه؛ أحدهما: فسَّرَ الزُّهْدَ بالإخلاصَ، وجعله نهايته، وهو حاتم. وأحمد عبَّرَ عن الإخلاص بالزُّهْدِ؛ لأنَّه حقيقة. فحدَّثت عنه رحمه الله أنه سئل: ما السببُ الذي ذُكر به

(١) في الإنحاف ٩/ ٣٤٥: «لئلا يميل أو يخرج».

القوم بعد وفاتهم، وأثنى عليهم به؟ فقال: هو الصدق. قيل له: فما الصدق؟ قال: هو الإخلاص. قيل: فما الإخلاص؟ يا أبا عبد الله؟ قال: هو الزهد فى الدنيا.

وأما أيوب السجستاني، فإنه سُئل عن الزهد ما هو؟ فقال: أن تقعدَ فى بيتك، فإن كان قعودك لله رضا وإلا خرجت. تُنفق درهمك، فإن كان لله رضا وإلا أمسكت. تُمسك مالك، فإن كان لله رضا وإلا أخرجته. تسكت، فإن كان سكوئك لله رضا وإلا تكلمت. تتكلم، فإن كان كلامك لله رضا وإلا سكت. هذا هو الزهد، وإلا فلا تلعبوا.

وهذا مقام المحاسبة للنفس، وحال المراقب للرب، ووصف المراعى للوقت. فجعل الدنيا هى ترك موافقة رضا الله تعالى فى كل شىء، إذ جعل الزهد فيها هو اتباع مرضاته فى الأشياء.

وقاربه مجاهد فى هذا المعنى، فجعل الزهد أيضاً حال الرضا، والإيثار للمولى فى كل الأحوال، قال: قلت لمجاهد: ما الزهد؟ قال: الأثرة لله على ما سواه. إذا أتاه شىء من الدنيا استعمل الخوف والحياء، فيؤدى إلى كل ذى حق حقه، فهو أيضاً من المتزهدين، ولم يلحق بدرجة الزاهدين. والزاهد الراضى عن الله فى السراء والضراء، والعافية والبلاء، لا يكون فى حال أوزن من حال، فإذا كان كذلك فى جميع الأحوال شيئاً واحداً، لم يفضل حالة على حالة، واستحق الحب من الله.

يعنى: لأنه لا يفضل فى حال دون حال، فلذلك لم يفضل حالاً على حال؛ لأنه لا يكون فى حال أنقص فتم بحال، إذ قلبه قد استوى مع الله، فاعتدل فى كل حال، فهو لا يتلون بحال، بل ثابت كذلك لا يزال.

ثم قال: فمن أحبه الله حبه الله إلى خلقه، ومن بغضه بغضه إلى عباده، قد سباه الحب، وشغفه الشوق، فهو داخل مع الخلق، منفصل منهم، غير مضيع لما ألزمه الله من حقوقهم، فأتى لإبليس أن يطمع فى هذا، ومعه من الله عصمة وتأيد، فلولا القدر لرفعه إليه من حبه له.

فهذه صفة العارف المتمكن الدّاخل مع الخلق بجسمه، الخارج بقلبه، الناظر إليهم بعينه، المبصر إلى الغيب بيقينه، المتكلم للعباد بعلمهم، المعامل لهم بأخلاقهم، المنفرد عنهم بحاله، المستثير ذوقهم بعلمه، المنقطع إلى ربه بهمّة. نظر إلى مولاه من نظره إليه بما تولاه، متوحد له بوصفه من حيث اتّخذ له واحدّه بوجهه، وتخلّق له بخلقه؛ لما ألبسه من نوره، فحجبه به عن خلقه. فهو ظاهرى باطنى، نبوى ربانى خالقى، ينظر بعين التعديل، ظاهره حكمة، وباطنه قدرة. فهذا مقام زائد على حال الزهد، وهى صفات.

فهذه الصفات يتحقق الموصوف بها بعد حقيقة زهده فى الدنيا، فهى ثمرة حبّ الله تعالى له عن فرع بغضه للدنيا، عن أصل معرفته بمقت الله لها. كما قال: من أراد أن يحبه الله فليزهد فى الدنيا.

وقال: من زهد فى الدنيا عرفه الله داءها ودواءها، وأخرجه منها سالماً إلى دار السلام. ومن حرص عليها توهه الله فيها، ولم يبال فى أى أوديتها تهلكه.

فهذه جمل أقوال الناس فى الزهد ومعناه فى أربعين مقالة. ونحن بنعمة الله وحمده غير محتاجين إلى أقوالهم، بما بين الله تعالى، وأغنى بكتابه المبين، الذى جعل فيه الشفاء والغنى، فهو هدى للمتقين. وقد قال الرسول ﷺ: «هو الحبل المتين، والصراط المستقيم، من طلب الهدى فى غيره أضله الله».

وقال الله الحق المبين: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال عزّ وعلا: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]. فقد ذكر الله جلّ اسمه فى كتابه: أن الدنيا سبعة أشياء، وهو قوله تعالى: ﴿زِينَةَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾، ثم قال تعالى فى آخرها: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤]، فوصف حبّ الشهوات بالتزوين، ثم نسق الأوصاف السبعة على الحب لها، ثم أشار لها بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ فذا إشارة إلى الكاف، والكاف كناية عن المذكور المتقدّم المنسوق، واللام بين «ذا،

والكاف» للتمكين والتوكيد. فحصل من تدبر الخطاب أن هذه السبعة جملة الدنيا، وأن هذه الدنيا هي هذه الأوصاف السبعة، وما تفرع من الشهوات ردّ إلى أصل من هذه الجمل. فمن أحب جميعها فقد أحب جملة الدنيا نهاية الحب، ومن أحب أصلاً منها أو فرعاً من أصل فقد أحب بعض الدنيا. فعلمنا بنص الكلام: أن الشهوة دنيا، وفهمنا من دليله: أن الحاجات ليست بدنيا، لأنها تقع ضرورات، فإذا لم تكن الحاجة دنيا دلّ أنها لا تسمى شهوة، وإن كانت قد تُشتهي؛ لأن الشهوة - كما قلنا - دنيا، ولتفرقة الأسماء لإيقاع الأحكام عليها. واستند ذلك إلى ما رويناہ آنفاً من قول الله تعالى لإبراهيم الخليل ﷺ: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْحَاجَةَ فِي الدُّنْيَا لَيْسَتْ مِنَ الدُّنْيَا». ثم سمعناه تعالى قد ردّ هذه السبعة الأوصاف في مكان آخر إلى خمسة معان، فقال جلّ من قائل: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَعَبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ﴾ [الحديد: ٢٠]، فهذه الخمسة هي وصف من أحب تلك السبعة. ثم اختصر الخمسة في معنيين منها هما جامعان للسبعة، فقال: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعَبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد: ٣٦]، ثم ردّ الاثنين إلى وصف واحد وعبر عنه بمعنيين، فصارت الدنيا ترجع إلى شيئين جامعين مختصرين، يصلح أن يكون كل واحد منهما هو الدنيا. فالوصف الواحد الذي ردّ الاثنين إليه - اللذان هما اللعب واللهو - هو الهوى، اندرجت السبعة فيه، فقال عزّ وجلّ: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ - ٤١]، فصارت الدنيا طاعة النفس للهوى، بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ - ٣٩]. فلما كانت الجنة ضدّ الجحيم كان الهوى هو الدنيا؛ لأنّ النهى عنه ضدّ الإيثار له. فمن نهى نفسه عن الهوى، فإنه لم يؤثر الدنيا، وإذا لم يؤثر الدنيا فهذا هو الزهد، كانت له الجنة، التي هي ضدّ الجحيم، التي هي لم ينه نفسه عن الهوى بإيثاره الدنيا، فصارت الدنيا هي طاعة الهوى وإيثاره في كل شيء، فينبغي أن يكون الزهد مخالفة الهوى من كل شيء.

وأما المعنى الآخر الذى عبر به عن هذا الوصف، الذى هو الهوى، فجعله دنيا

أيضًا، فهو حُبُّ البقاء لمتعة النفس. استنبطنا ذلك من قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧]. فالقتالُ هو فراقُ الحياة الدنيا؛ لأنَّه المشى بالسيف إلى السيف، والفناء بين السيفين، فقالوا: هلا بقيتنا إلى وقت آخر، وهو أجلُّنا بالموت لا بالقتل. وهذا هو حُبُّ البقاء، ففسَّر حبُّ البقاء بأنه هو الدنيا، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء: ٧٧]. فانكشف الناس، وافتضح المنافقون، وابتلى هنالك المؤمنون عند فرض القتال، وظهر المحبُّون الذين يقاتلون في سبيله صفًا كأنهم بنيانٌ مرصوص. وعندها ربح الذين هم لأنفسهم وأموالهم بائعون، وخسر الذين هم للحياة الدنيا بالآخرة مُشترون، لما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١]. فلما اشتراها باعوها، وقال في المشتريين الخاسرين: ﴿اشْتَرَوْا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٨٦]، يعنى: رغبوا في البقاء الأدنى لما اشتروه ببيع البقاء الآخر الأعلى الأبقى إذ باعوه. فمن اشترى ثلاثين سنة وأربعين سنة بألف ألف وبأبد الأبد، فما ربحَتْ تجارتَه ولا هُدَى سبيله. فهذه تجارةٌ مَنْ رَغِبَ في حياةٍ دُنْيَا، فاشترى بقاء الأبد، فصار بائعًا للحياة العالية، بما استبدل به من اشتراء الحياة الدانية. فهذا يُشبه ما رغبوا فيه من آلة الدار، كما قال خالقها: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ [الاعراف: ١٦٩]، فهؤلاء خلُوفُ السوء، الذين رغبوا في العرض الأدنى إذ زهدوا في الملك الأعلى لما طلبوا الحياة الدنيا، بعد الخلفِ الصالح الذين زهدوا في الحياة الدنيا حين رغبوا في الحياة العليا.

فهذا تدبرُ قوله تعالى: ﴿اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أى باعوا الحياة العليا بما اشتروه من الدنيا، ليس كتجار الآخرة من المتقين؛ الذى باع حياة نفسه، وفرَّق مجموع ماله، فاشترى الله تعالى منه، وعوّضه داره، وأسكنه عنده جواره، فقد ربحَتْ تجارتَه، واهتدى سبيله؛ لما باع حياةَ عشرين سنة وثلاثين سنة بحياة أبد الأبد؛ فهذا ربح تجار الآخرة الزاهدين في الدنيا، وذلك خسر تجار الدنيا الراغبين في

الهوى. فستان بين التجارتين، وفرقان بين الربحين. فما أعظم حسرة الفوت على من خسر ما ربحه الزاهدون بعد الموت، وقد كان الناس مستورين بإظهار الزهد فى البقاء، ومظنوناً بهم حبُّ الباقي الأعلى، حتى نزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧] الآية. وحتى نزل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ كانوا قالوا: إنا نحب ربنا ولو علمنا فى أى شىء محبته لفعلناه، فلذلك قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ * إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا [الصف: ٢ - ٤].

ولذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه: ما كنت أحسب أن فىنا أحداً يريد الدنيا، حتى نزلت: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. وكذلك قال له رسول الله ﷺ حين نزلت: ﴿وَلَوْ أَنَا كُتِبْنَا عَلَيْهِمُ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦]، قال ابن مسعود: قال لى رسول الله ﷺ: «أنت منهم»؛ أى من القليل الذى كان يفعل ذلك.

فإذا كان حبُّ البقاء هو الدنيا، فينبغى أن يكون حبُّ لقاء الباقي هو الزهد، فصار الزهد فى الدنيا هو الزهد فى البقاء، وصار الرغبة فى البقاء مثل اتباع الهوى الذى هو الدنيا. فمن زهد فى الحياة الفانية للمتعة بها، وفى ماله المجموع بالجهاد للنفس، والإنفاق فى سبيل الله؛ فقد زهد فى الدنيا. ومن زهد فى الدنيا أحبه الله تعالى، كما قال رسول الله ﷺ. ولذلك صار الجهاد أفضل الأعمال؛ لأنه حقيقة الزهد فى الدنيا؛ ولأن الله تعالى يحب من زهد فيها كأنه قتل نفسه فيها، فاستعجل الخروج إليه منها ليرضى، إذ كانت النفس ضدَّ السلام، وكانت الدنيا ضدَّ دار السلام، ثم كان مخالفة الهوى أفضل الجهاد؛ لأنه هو حقيقة الرغبة فى الدنيا. وقد عبّر به رسول الله ﷺ عن الزهد فى الدنيا، إذ قال فى الحديث الأول: «ازهد فى الدنيا يحبك الله تعالى». ثم قال فى الخبر الثانى بمعناه: «اجتنب

المحارم يحبك الله تعالى». فصار اجتنابها زهداً في الهوى، وهو عاجل حظوظ النفس، فهو زهدٌ في الدنيا، فالزاهد في هوى نفسه حبيبٌ ربه تعالى، والراغب في حبِّ البقاء لنفسه منافقٌ في دين ربه تعالى. ومنه الخبر الذي جاء: «من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بغزو، مات على شعبةٍ من نفاق». وبه كشف الله تعالى الكاذبين ووصفهم بمرض القلوب، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يعني نفاقاً ﴿يَنْتَظِرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ تَهْدُتُ وَوَعِيدٌ، أَيْ: وَلِيَهُمُ الْعَذَابُ وَقُرْبُ مِنْهُمْ، ثُمَّ قَالَ: يَقُولُونَ: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ أَيْ: يَظْهَرُ مِنْهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ حَقَّتْ الْحَقَائِقُ كَذَبُوا وَنَكثُوا ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ أَيْ: فِي الْوَفَاءِ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٠ - ٢١]. وهذا من الكلام المضمر، فلذلك أشكل.

والبقاءُ والحياةُ اسمان لمعنى، ولذلك جعل الله تعالى الدنيا وصفاً للحياة، فتكون الدنيا هي الحياة، ونعتها بالدنيا نعتٌ مؤنث؛ لدخول الهاء في الاسم التي هي إحدى علامات التأنيث، فصارت الحياة هي الدنيا، وصار قوله «الدنيا» نعتها بالدناءة. ولو كان الاسم مذكراً مثل البقاء نعتُه بمذكر، فقال: الأدنى. وقد قال في مثله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ [الاعراف: ١٦٩]، فالأدنى تذكير الدنيا، والدنيا تأنيث أدنى، كالأعين والأقنى والأشعث؛ تذكير: عَيْنَاءُ وَقَنْوَاءُ وَشَعَثَاءُ.

والعرضُ اسم لما يعرض ويقلُّ بقاءه. فمن أحبَّ ذلك فقد أحبَّ الدنيا بحبِّه الأدنى، وهذا يرجع إلى أصل حبِّ الحياة؛ لأنه إنما يريد العرض الأدنى، لأجل الحياة، فصار حبُّ البقاء الذي لأجله يريد عرض الأدنى هو الدنيا، وصار حبُّ العرض لأجل البقاء هو من الدنيا، فجاء من هذا الذي ذكرناه: أنه حقيقة الدنيا حبُّ البقاء لطاعة الهوى، وموافقة الهوى في حبِّ العرض لأجل البقاء، فدخل أحدُ هذين في الآخر؛ لأن حبَّ البقاء لأجل المتعة هو من الهوى، الذي هو صفة النفس الأمارة بالسوء، وطاعة الهوى الذي هو عيش النفس إنما يكون حبَّ

البقاء؛ لأنَّ العبدَ لو أيقن بالموت ساعته لآثر الحقَّ على الهوى، ولو أيس من البقاء لَمَّا رَغِبَ في العَرَضِ الأدنى. فصار حُبُّ البقاء من الهوى، وصار إثثار الهوى إنما هو حُبُّ البقاء، فكان ذلك هو حقيقة الدنيا، فصار أقصرُ الناسِ أملًا للبقاء أزهدهم في الدنيا، حتى لا يدَّخر شيئًا لغد؛ لأنَّه عنده غير باقٍ إلى غد. وصار أرغَبُ الناسِ في الدنيا أطولهم أملًا؛ لأنَّ رَغْبَتَهُ اشْتَدَّتْ فيها، وحرصه كَثُرَ عليها، لا امتدادَ أمله للحياة فيها، إذ لو قصرَ أمله لغدٍ لاختار الفقرَ حينئذٍ، واختيارُ الفقرِ هو الزهد.

يشهد لمعنى ما ذكرناه الخبرُ الذي رويناه، قال: «أخوفُ ما أخافُ على أمتي: الهوى، وطولُ الأملِ. أما الهوى فيصدُّ عن الحقِّ، وأما طولُ الأملِ فيُنسى الآخرة». فتدبَّرت هذين الوصفين، فإذا بهما عُمِرَت الدنيا، وتفهمتُ التدبُّرَ، فإذا أحد الوصفين قائمٌ بصاحبه، فلو لا الهوى ما وُجد طولُ الأملِ، الذى هو يُنسى الآخرة، ويُمَدُّ في سوءِ المعاملة. ولطولُ الأملِ قُدِّمَ الهوى على الحقِّ، وقُدِّمَ فعله. واعتبرتُ التفهُمُ فإذا بفقدتهما، أعنى الهوى وطولُ الأملِ، وُجدَ الزهدُ في الدنيا، وفي الزهدِ في الدنيا خرابُها، كما فى طولِ الأملِ والهوى عمرانُها. وحُبُّ البقاء أصلُ كلِّ هوى، كما حُبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئة، وهو كان سببَ إخراجِ آدم عليه السلام من الجنة دار السلام إلى دار العِلَلِ والأسقام، وهو مُسْتَسِرُّ عدوِّه إبليس فيما أسرَّ؛ ليقسمه من نفسه من العوض على زُعمه له؛ إنْ طَلَبَ البقاءَ إلى يومِ اللقاء، فأبليس بذلك، وأعطى أمله. وحُبُّ البقاء هو الذى أَكْفَرَ بِرُصْبِصَاءِ العابد، لما سجد لإبليس طلبَ الخلاء من بعد الأخذِ حُبًّا للبقاء، فأملَ النجاةَ لِيَقَى.

• بيان آخر من الزهد، أى شىء هو:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَشَرَّوْهُ بِشَمَنِ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠]، فهذه تسمية لهم بالزهد؛ لتحققهم بالمعنى، نحتاج أن نكشفه، ليكونَ مَنْ يتحقق بمعنى ذلك زاهدًا.

قوله تعالى ﴿وَشَرَّوْهُ﴾ : باعوه. العرب تقول: شَرَيْتُ، بمعنى بعتُ؛ لأنهم

يقولون: ابتعت، بمعنى: اشتريت. فلما باعوه، وخرج من أيديهم، صاروا زاهدين. كذلك العبد إذا باع نفسه وماله من الله تعالى، وخرج من هواه إلى سبيل مولاه، فهو من الزاهدين. وكذلك قال المولى عزّ وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١]. كما قال عزّ من قائل: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النارعات: ٤٠ - ٤١]. فإذا كان العوضُ واحدًا وهو الجنة، ذُكر في المعنيين، كان بيعُ النفسِ والمال وإخراجُهما لله تعالى بمعنى النهى عن الهوى فيهما، الذى هو الحياة الدنيا، وهو اقتناؤه للنفس، وحبسُ النفس عليه، أعنى: المال. فاستبدالُ ذلك بضدّه من إخراج الهوى من النفس، وإدخال الفقر على المال؛ هو الزهدُ فى الدنيا، إذ ليس ذلك من أمر النفس الأمانة بالسوء؛ لأنّ هذا نهايةُ الخير، فصار نهياً لها عن الهوى، الذى هو اقتناءُ المال للجمع والمنع لِمُنْعَةِ النَّفْسِ به؛ وهذا هو الدنيا بوصفِ النفس الأمانة بالسوء؛ لأنّ هذا حينئذٍ سوءٌ كُلُّهُ. فمن كان بهذا الوصفِ فنفسه غيرُ مرحومة؛ لأمرها بالسوء، وإذا لم تكن مرحومةً، لم يكن صاحبُها بائعها، وإذا لم يبيعها لم تكن مشترأةً، فلا يكون صاحبُ هذه النفس إلا جامعاً للمال، مانعاً له، راغباً فى الدنيا محباً لها، وهذا هو المال المسلّط على صاحبه، وذا هو العبدُ المسخّرُ بماله الذى لا يقدر على شيء، وهو الإنفاق. وليس هذا صفةُ المؤمن؛ لأنه لا يأتمر لأمرِ الإيمان لبيع ماله ونفسه، كقوله فى وصفه: ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ [النحل: ٧٥]، فصار المسخّرُ لنفسه وهواه، المبتلى بماله ودنياه، رزقه سيئ؛ لأنه لم يُسَـطَّ لِلْإِنْفَاقِ فيه، بل قُبِضَ عنه بالإمساك، فقد وقّع فى النهى؛ لأنه ألقى بيده إلى التهلكة، إذ تركَ النفقة كما قال سبحانه: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] - هو تركُ النفقة فى سبيل الله؛ فتدبر هذا من دليل قوله: ﴿قُلْ بِشِمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣] أى الزاهدين، قد أمرهم بإخراج المال والنفس؛ أى الهوى، لدخول اليقين على إيمانِ التّصديق.

• وصف آخر من البيان والتفصيل:

لما حقق الله تعالى الزهد بفناء النفس، وإخراج المال فى ذكر المبيع والمشتري، فى قوله تعالى: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١]، وكان الزهد هو ترك طاعة الهوى، وبيع النفس بنهيها عنه من الموالى، وكان العوض من ذلك الجنة، صار الزاهد هو الخائف مقام ربه، البائع نفسه طوعاً، قبل أن تخرج نفسه من الدار كرهاً، وكان الله تبارك وتعالى هو الحبيب له القريب منه، فصار العبد محباً له، فجعله من المقرّبين عنده تعالى.

وإذا كانت الدنيا هى طاعة الهوى، وحب الحياة الدنية لمتعة النفس الشهوانية، كان الراغب فى ذلك آمناً لمكر الله تعالى، مشترياً للحياة الدنيا، بائعاً بذلك الحياة العليا، فلم يكن محباً لله، وكان من المبعدين عنه بسوء اختياره، وحق عليه الخسران والجحيم فى الآخرة؛ لأنه ضد الزاهد المقرّب الظافر بدار القرب فى جوار الحبيب القريب.

فصار المريد بعاجل حظوظ النفس فى الحياة الدنيا، الطالب لزيبتها، الحريص على جمع المال فيها، بمنزلة الراكب بها، المطمئن إليها، لطول غفلته عن معاده إلى آخرته، ومن دامت غفلته عظمت فى الآخرة حسرته وخسارته، ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ * لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ﴿[النحل: ١٠٨ - ١٠٩]، مع قوله: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩].

فهذه صفات الجاهلين، وأخلاق نفوس المشركين، لفقد حقيقة العلم، ووجد عدم اليقين. وبمعنى ما ذكرناه ذكرهم خالقهم، فمن دخل فى بعض مداخلهم، ووقع به التهديد والوعيد والتخويف الشديد لهم، فى قوله مخبراً عنهم: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ [هود: ١٥] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس: ٧].

• ذكر بيان حقيقة الزهد وتفصيل أحكامه ووصف الزاهد^(١)،

اعلم أن الزهد يكون بمعنيين: إن كان الشيء موجوداً، فالزهد فيه إخراجه وخروج القلب منه، ولا يصحّ الزهد فيه مع بَقِيَّتِهِ للنفس؛ لأن ذلك دليل الرغبة فيه؛ وهذا زهد الأغنياء. وإن لم يكن الشيء موجوداً، وكان العدم هو الحال، فالزهد هو الغبطة به، والرضا بالفقد؛ وهذا هو زهد الفقراء.

وكذلك القول في الزهد في القدرة على ترك الهوى، لا يصحّ إلا مع وجود الابتلاء به، فمتى قدرَ عليه، فصبرَ عنه بمجاهدة نفس، أو مُدافعة وقت، أو قطع سبب، فذلك زهد، فإما أن يريد أن يزهد فيه، أو يهمل بتركه، أو فليس ذلك زهداً فيه، بل نيات وإرادات من غير حقيقة، ألم تر أن إخوة يوسف عليهم السلام هموا بالزهد فيه، بقولهم: ﴿لْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مَنَا﴾ ولم يسمهم الله تعالى زاهدين. وتكلموا بالزهد فيه بقولهم: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: ٨ - ٩] ولم يسموا فيه زاهدين. وأرادوا الزهد فيه بقولهم: ﴿أَرْسَلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: ١٢] ولم يتحققوا بالزهد فيه. وعزموا على الزهد فيه وأجمعوا عليه ولم يسمهم الله تعالى زاهدين مع قوله تعالى مخبراً عنهم: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٥]؛ لأنّ هذا كلّ من أسباب الزهد ومقدماته، قد يلتبس ويشكل على من لا يعرف حقيقة الزهد، فيظنّه زهداً وليس هو زهداً؛ لأنّه في أيديهم بعد، فلمّا خرج من أيديهم، واعتاضوا منه سواه، حقّ زهدهم فيه، فقال تعالى مخبراً عن حقيقتهم: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ أي باعوه ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠].

وكذلك الثوبُ تهمُّ ببيعه، وتريد بيعه، ويغلب عليك بيعه، ولا تكون زاهداً، ولكن تكون موصوفاً بالإرادة للزهد، حتى تبيعه، وتعتاض منه، فحينئذ حقّ زهدك فيه.

ففي تدبّر خطابه: أن من أخرج الشيء من يده طوعاً ونفسه تتبعه، فله مقام في

(١) معظم هذا الفصل في الإتحاف ٣٧٨/٩.

الزُّهْدَ بالمجاهدة. وَمَنْ أَمْسَكَ الشَّيْءَ، فَأَظْهَرَتْ نَفْسُهُ الزُّهْدَ فِيهِ بِالْإِرَادَةِ وَالْهَمَّةِ، فَذَلِكَ تَأْمِيلٌ وَتَمَنٍّ، يَدْخُلُ فِي بَابِ نِيَّاتِ الْخَيْرِ، لَا فِي الْمَسَارَعَةِ إِلَى الْخَيْرَاتِ، وَلَا الْمُسَابَقَةِ فِي الْقُرْبَاتِ، بِالسَّعْيِ لَهَا، وَالْمُنَافَسَةِ فِيهَا، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ ثم اشترط لحقيقة الإرادة: ﴿وَسَعَى لَهَا﴾ [الإسراء: ١٩]. وقال في المنافسة: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلَيْتَنَافَسَ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]. واشترط لها المعاملة، بقوله: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١].

وَلَا مَقَامَ فِي الْمُنَافَسَةِ لِمَنْ لَمْ يُتَّبِعِ الْإِرَادَةَ بِالسَّعْيِ وَالْمُعَامَلَةِ، وَلَا مَقَامَ فِي الزُّهْدِ لِمَنْ لَمْ يُرْدِفِ الْإِرَادَةَ بِإِخْرَاجِ الْمَزْهُودِ؛ لِأَنَّ الْإِمْسَاكَ عِلَامَةً الرِّغْبَةِ، وَالرِّغْبَةُ ضِدُّ الزُّهْدِ، فَكَيْفَ يوصف بالشَّيْءِ وَضَدَهُ فِي حَالٍ قَائِمَةٍ. فَالْمُسْكُ لِلشَّيْءِ الْمُتَوَهَّمِ لِلزُّهْدِ فِيهِ بِإِظْهَارِ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَحَدٍ وَصَفَيْنِ: إِمَّا أَنْ لَا يَعْرِفَ الزُّهْدَ، أَوْ لَا يَعْرِفَ خَفِيَ شَهْوَةَ النَّفْسِ، وَلَطِيفَ تَمْنِيهَا مِنْ مَعْدِنِ حُسْنِ ظَنِّهَا بِوَصْفِهَا هَذَا، إِنْ لَمْ يَمُوهْ عَلَى الرَّاعِبِينَ فَهُوَ يَكْذِبُ عَلَى وَجْهِهِ؛ لِأَجْلِ خَفِيَ الرِّغْبَةِ فِيهِمْ. وَالْمَخْرَجُ لِلشَّيْءِ عَنْ يَدِهِ، وَالْمَخْرَجُ لِقَلْبِهِ مِنْهُ، هُوَ الْمُتَحَقِّقُ بِالزُّهْدِ فِيهِ؛ وَهَذَا هُوَ الَّذِي وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ إِخْوَةَ يُوسُفَ. وَالْمُسْكُ لِلشَّيْءِ، الْمُغْتَبَطُ بِهِ، الَّذِي هَمُّهُ فِيهِ، وَقَلْبُهُ عَاكِفٌ عَلَيْهِ، هُوَ الْمُتَحَقِّقُ بِالرِّغْبَةِ فِيهِ. وَهَذَا وَصَفَ عَزِيزُ مِصْرَ فِي يُوسُفَ لَمَّا اشْتَرَاهُ، فَحَقَّقَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالرِّغْبَةِ فِيهِ، لِاقْتِنَائِهِ لَهُ، فَقَالَ مُخْبِرًا عَنْهُ بَعْدَ مَا اشْتَرَاهُ: ﴿أَكْرَمَى مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١]، كَذَلِكَ قَالَ: ﴿أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٤] لَمَّا تَحَقَّقَ بِهِ. وَكَذَلِكَ وَصَفَ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ فِي رَغْبَتِهَا فِي مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِقَوْلِهَا: ﴿قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩].

فَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ أَمَّلَ شَيْئًا، وَادَّخَرَهُ لِنَفْسِهِ، لَا يَكُونُ زَاهِدًا فِيهِ حَتَّى يُخْرِجَهُ عَنْ يَدِهِ وَقَلْبِهِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ وَصْفُ إِخْوَةِ يُوسُفَ الزَّاهِدِينَ فِيهِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَخْرَجُوهُ اسْتِصْغَارًا لَهُ، وَتَعَوُّضًا مِنْهُ^(١).

(١) فِي الْإِتْحَافِ ٣٧٨/٩: «وَتَعَوُّضًا مِنْهُ».

• بيان آخر مستنبط من الكتاب:

اعلم أن زُهْدَ إِخْوَةِ يَوْسُفَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فِي أَخِيهِ قَدْ كَانَ يَقَارِبُ زُهْدَهُمْ فِي يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ نَظِيرَهُ عِنْدَ أَبِيهِ، وَقَدْ كَانُوا هُمُومًا بِالزُّهْدِ فِيهِ أَيْضًا؛ لِيَخْلُوَ لَهُمْ وَجْهُ أَبِيهِمْ مِنْهُمَا. أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى قَوْلِهِمْ لِيَوْسُفَ: ﴿وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْنَمَا مَنَّا﴾ [يوسف: ٨]. وَكَذَلِكَ جَاءَ فِي الْخَبَرِ: «إِنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ يَلْقَوْا أَخَاهُ مَعَهُ فِي الْجُبِّ، حَتَّى أَلْقَى نَفْسَهُ عَلَى يَهُودَا، فَشَفَعَ فِيهِ، فَرَحِمَهُ وَمَنَعَهُمْ مِنْهُ، وَكَانَ شَدِيدًا مِنْهُمْ، مَنِعًا مَهِيئًا فِيهِمْ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ اسْتَوْهَبَهُ مِنْهُمْ، وَقَالَ: دَعُوهُ يَكُونُ فِيهِ سُلُوءٌ لِلشَّيْخِ الْكَبِيرِ، لَا تَفْجَعُوهُ بِهِمَا وَلَا تُفْقِدُوهُ إِيَّاهُمَا مَعًا، فَوَهَبُوهُ لَهُ.

ثُمَّ إِنْ اللَّهُ تَعَالَى لَمْ يَقِلْ مَعَ إِرَادَتِهِمْ لِذَلِكَ وَهُمْ بِهِ: وَكَانُوا فِيهِمَا مِنَ الزَّاهِدِينَ، مِنْ قَبْلِ أَنَّهُمْ لَمْ يَتَحَقَّقُوا بِالزُّهْدِ فِيهِ، كَالزُّهْدِ فِي أَخِيهِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ لَمْ يَخْرُجُوهُ. فَكَذَلِكَ أَنْتَ إِذَا كَانَ الشَّيْءُ مَوْجُودًا عِنْدَكَ، وَأَنْتَ مُمْسِكُهُ لِنَفْسِكَ، ثُمَّ تَوَهَّمْتَ أَنَّكَ زَاهِدٌ فِيهِ لِحَوَاطِرِ الْإِرَادَةِ أَوْ لِإِرَادَةِ الزَّهَادَةِ، فَقَدْ كَذَبْتَ عَلَى نَفْسِكَ، بِتَسْمِيَتِكَ إِيَّاهَا زَاهِدًا، أَوْ كَذَبْتَكَ نَفْسُكَ بِوَجْدِهَا جَهْلًا مِنْهَا بِالْعِلْمِ زُهْدًا، أَوْ كَذَبَ وَجْدُكَ عَلَى الْعِلْمِ جَهْلًا مِنْكَ بِرَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ، أَوْ مَوَّهْتَ عَلَى مَنْ لَا يَعْرِفُ الزُّهْدَ؛ وَهَذَا زُهْدٌ مِنْكَ فِي الزُّهْدِ، وَرَغْبَةٌ مِنْكَ أَيْضًا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى تُخْرِجَ الشَّيْءَ الَّذِي تَظُنُّ أَنَّكَ زَهَدْتَ فِيهِ، وَتَعْتَاضَ مِنْهُ مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَى، وَطَلَبَ مَرْضَاتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَوْ مَا عِنْدَهُ مِنْ ثَوَابِهِ. فَحَيْثُ يَصِحُّ زُهْدُكَ فِيهِ عَلَى الْعِلْمِ، وَعِنْدَ الْعُلَمَاءِ، فَتَكُونُ زَاهِدًا صَادِقًا. فَهَنَّاكَ حِينَ وَصَفْنَاكَ الزُّهْدَ بِالزُّهْدِ، وَسَمَّاكَ الزَّاهِدُونَ زَاهِدًا.

فَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنِ الشَّيْءُ مَوْجُودًا لَكَ، فَإِنْ زَهَدْتَ فِيهِمَا لَا تَمْلِكُ لَا يَصِحُّ، مِنْ قَبْلِ أَنْ هَبَةَ مَا لَا تَمْلِكُهُ غَيْرَ جَائِزٍ، وَالزُّهْدُ فِي مَعْدُومٍ بَاطِلٌ، وَكَذَلِكَ التَّصَرُّفُ فِيهِمَا لِغَيْرِكَ غَيْرَ جَائِزٍ؛ فَلِذَلِكَ لَمْ يَصِحَّ زُهْدُكَ فِيهِ. وَلَعَلَّهُ لَوْ كَانَ مَوْجُودًا تَغَيَّرَ قَلْبُكَ بِهِ وَتَقَلَّبَ فِيهِ، إِذْ لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمَعَايِنَةِ؛ لِأَنَّ الْخَبَرَ قَدْ يَشْتَبِهُ وَيُوهِمُ، وَالْمَعَايِنَةُ تَكْشِفُ الْحَقِيقَةَ، وَتَحْكُمُ عَلَى الْخَلْقَةِ، وَلِأَنَّ النَّفْسَ ذَاتَ بَدَوَاتٍ، لَمَّا طُبِعَتْ عَلَيْهِ مِنَ الشَّهَوَاتِ، وَالْمَلَلِ وَالتَّقْلِيْبَاتِ، وَحُبِّ الْمَتْعَةِ بِالْوُجُودِ، وَادِّخَارِ الْمَحْصُولِ،

وبالرفاهية، فلا تجعل ظناً معدوماً كيقينٍ موجودٍ، إذ لو كان كيف كان الأمر، ولكن قد يكون لك مقام من الزهد فى المعدوم، بقيامك بشرطه؛ وهو أن لا تحب وجودَ الشيء، ولا تأسى على فقدِه، أو تكون مغتبطاً بَعْدَمِكَ، مسروراً بفَقْرِكَ. يعلم الله تعالى ذلك من غيبِكَ، ويطلع على سرِّك أنك لا تفرح بوجودِه لو وجدته، وتُخرجه إن دخل عليك، وإن قلبك قانع بالله سبحانه وتعالى، راضٍ عن الله تعالى، بحالك التى هى العدم من الدنيا، غيرُ محبٍّ للاستبدال بها من الغنى، بصدق يقينك بفضيلة الزهد. فإذا كنتَ بهذا الوصف، حُسِبَ لَكَ جميعُ ذلك زهداً، وكان لك بأخذِ هذه المعانى ثوابَ الزاهدين، وإن لم تكن للدنيا من الواجدين، ولا لإخراجها من الفاعلين. وهذا زهد الفقراء الصادقين، وهو التحقق بالفقر.

وقد قال بعضهم: حقيقةُ الفقير: أن يكون مغتبطاً بفقره، خائفاً أن يُسَلَب الفقر؛ كما يكون الغنىُّ مغتبطاً بغناه، يخاف الفقر. وقد كان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: إذا قيل له: إنك زاهد، قال: إنما الزاهدُ عمر بن عبد العزيز؛ جاءته الدنيا وملكها فزهد فيها، أما أنا ففى أى شيء زهدت؟

وعمر - رحمة الله عليه - لم يتخلَّ عن الدنيا، ولا أخذ ما نهى^(١) عنه، ولكن جعلَ عَدْلَه، ووضعُ الأشياءِ فى حقِّها، وأخذها من وجوها - سمّاها زهداً. وكذلك كان وهبٌ، وغيره، يقول: مَنْ أخذ المال من حقِّه، ووضعهُ فى حقِّه، فهو أزهد فى الدنيا ممَّن أخرجها بجهل، وتخلَّى عنها بغيرِ عِلْم.

وقد يصحّ الزهد للعارفِ فى الشيء مع وجْدِه عنده، إذا لم يَقْتَنِه لِمُنْعَةِ النَّفْسِ، ولم يَتملِّكه وَيَسْكُنْ إليه، بل كان موقوفاً فى خِزَانَةِ اللَّهِ التى هى يَدُهُ، منتظراً لحُكْمِ اللَّهِ فيه، وصحّةُ ذلك استواءُ وجوده وعدمه، والمسارةُ إذا رأى حُكْمًا لله تعالى أن يُنفِذَهُ وَيَكُونْ كأنه لغيره من عِيَلَتِهِ أو إخوانه أو سبيل من سُبُلِ اللَّهِ تعالى^(٢).

(١) فى الأصل: «ولا آخر نهى» ولعلها محرّفة.

(٢) هذه الفقرة فى الإتحاف ٣٧٨/٩.

وقد يصحُّ الزَّهْدُ مع الوجود، لِمَنْ دون العارفِ من المريدين، إذا أمسك الشيءَ لأوقاتِ حاجته، واستعانَ به على آخرته، أو يكفَّ نفسه عن الرَّغبة والطَّمع، ويقطع به حاجته عن الشرِّ والضَّرْع^(١)، ويكون سبباً لقطع التشرف، وحَسْمِ النَّفْسِ عن التَّصَنُّع والتَّكَلُّف.

وقد يكون هذا المقام للخصوص من العلماء بهذه النِّيَّاتِ زائداً على مقامات من الزَّهْدِ للمريدين. ومن دعاء السَّلَفِ الصَّالِح: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى دِينِي بِدُنْيَا، وَعَلَى آخِرَتِي بِتَقْوَى.

قال عبد الرحمن بن مهدي: خرجَ محمد بن يوسف الأصفهانيّ إلى مكَّةَ ومعه مائتُ دينار، وليس معه إلا كساء، أوْ بَتٌ^(٢)، وما رأيتُ مثله. وكذلك قال يحيى ابن سعيد القطَّان: ما رأيتُ مثلَ محمد بن يوسف، وقَدَّمه على الثَّورِيّ.

ولمَّا قَدِمَ عبدُ الجليلِ الزَّاهد إلى «واسط»، اجتمع إليه أهل العراق يسألونه عن الزَّهْد. فقال: اصبروا حتَّى أبيعَ دِقَاقَ تَمَرٍ حملته من البَصْرَةِ، وأتفرَّغُ لكم للمسائل. فكان يَتَجَرُّ، فيجعل ثُلثاً لأهله وعياله، وثُلثاً لإخوانه الفقراء، وثُلثاً يردُّه في تجارتِه. وكذلك كان حال جماعة من زاهدي السَّلَف. فلم يكن ذلك يُنْقِصُهُم عند العلماء، وكان مزيداً في حالهم، وطريقاً لهم إلى مقامهم من الزَّهْد، وهو وصفُ الأقوياء من الزَّهَّاد^(٣) الصَّحابةِ النُّجباء.

• بيان آخر مستنبط من السنة في ماهية الزهد:

الزَّهْدُ - أيضاً - تقليلُ الدنيا وتقريبُها، واحتقارُها بالقلب واستصغارها، من ذلك الخبرُ الذي جاء في ساعة يوم الجمعة، أنَّ النبي ﷺ قال: «هي في آخرِ ساعة»، قال: وجعل يُزهدُّها، أى: يقلِّلُها، أى: يُقَرِّبُ وقتها، ويُدْنِيهِ من الغُرُوب.

(١) في الإتحاف: «ويقمع به طبعه عن الشره».

(٢) البَتُّ: الطيلسان من حرير أو غيره.

(٣) إلى هنا ينتهي نقل الإتحاف ٣٧٩/٩.

والمعنى الآخر؛ فى الخبر الثانى، من قول النبى ﷺ لعلى رضى الله عنه، لما نزلت آية الأمر بالصدقة لمناجاة الرسول ﷺ، فقال له: «كم ترى أن نجعل عليهم من الصدقة مقدمة للمناجاة؟» فقال: شعيرة من ذهب. قال: «إنك لزهيد» أى: مقلل مصغر للدنيا «ولكن نجعل عليهم ديناراً». فبالغ فى المحبة بالمال، ليستبين به من كان ذا رغبة فى العلم أن يبذله فيه.

كما جعل بذل المال للأغنياء محنة فى طلب العلم، فاختبروا به، أيتذلوله للعلم كما اختبروا فى بذل النفس للجهاد فى سبيل الله. إذ العلم فى سبيل الله، والنفقة فيه مضاعفة، كالنفقة فى الجهاد. لذلك قيل: لا يدرك العلم براحة الجسم.

و «شعيرة»، فى قول على رضى الله عنه، لا يتبين بها كثرة الإنفاق، ولا قوة الرغبة فى العلم، ببذل ما له قيمة وقدر لقلتها. وقوله «زهيد»: كأنه معذول من زاهد؛ للمبالغة فى الوصف بالزهد. كما عدل: شهيد من شاهد، ومجيد من ماجد، وعليم وقدير ورحيم، من: عالم وقادر وراحم، للمبالغة فى العلم والقدرة والرحمة.

• ذكر وصف الزاهد، وفضل الزهد؛

قوت الزهد الذى لا بد منه، وبه تظهر صفة الزاهد، وينفصل به عن^(١) الرأغب؛ هو أن لا يفرح بعاجل موجود من حظ النفس، ولا يحزن على مفقود من ذلك، وأن يأخذ الحاجة من كل شىء عند الحاجة إلى الشىء، ولا يتناول عند الحاجة إلا سد الفاقة، ولا يطلب الشىء قبل الحاجة.

وأول الزهد دخول غم الآخرة فى القلب، ثم وجود حلاوة المعاملة لله تعالى. ولا يدخل غم الآخرة حتى يخرج هم الدنيا. ولا تدخل حلاوة المعاملة حتى تخرج حلاوة الهوى. وكل من تاب من ذنب^(٢)، ولم يجد حلاوة الطاعة، لم يؤمن عليه الرجوع فيه. وكل من ترك الدنيا، ولم يذق حلاوة الزهد، رجع فيها.

(١) فى الإتحاف ٣٧٣/٩: «ويفضل به على».

(٢) فى الإتحاف: «وكل من ترك المعصية».

وكلُّ مَنْ وجد حلاوة الطاعة، ولم يجد حلاوة المعرفة، لم يَدُم عليها. وكلُّ مَنْ وجد حلاوة الزُّهد ولم يَذُق حلاوة اليقين، لم يُؤمّن عليه دخولُ النَّفسِ^(١)، ورَغِبَ في الدنيا ولو بعد حين، فتدبّروا.

وخالصُ الزُّهدُ إخراجُ الموجودِ من الدنيا من القلب، ثمَّ إخراجُ ما خرجَ من القلبِ عن اليد، وهو عَدَمُ الموجودِ على الاستصغار له، والاحتقار، والتقالُّ لهوانِ الدنيا عنده، وصغرُها في عينه، فبهذا يتمُّ الزُّهد. ثمَّ ينسى زُهدَه في زُهدِه، فيكون حينئذٍ زاهداً في زُهدِه، لرغبته في مُزُهدِه، وبهذا يكملُ الزُّهدُ، وهذا لُبُّه وحقيقته، وهو أعزُّ الأحوالِ في مقاماتِ اليقين، وهو الزُّهدُ في النفس، لا الزُّهدُ لأجلِ النفس، ولا للرغبةِ في الزُّهدِ للزُّهد؛ وهذه مُشاهدةُ الصديقين، وزُهدُ المقربين، عن وَجْدِ عَيْنِ اليقين.

ودون هذا مقاماتُ إخراجِ المرغوبِ فيه عن اليد مع نظره إليه، وعلى مجاهدةِ النفسِ فيه؛ وهو زهدُ المؤمنين، وذلك العملُ بالزُّهدِ، إذ كان الزُّهدُ عن الإيمان، والإيمانُ قولٌ وعملٌ. وكذلك الزُّهدُ عَقْدٌ وعملٌ، فعقده: خُروجُ حبِّ الدنيا من القلبِ بدخولِ حبِّ الآخرةِ في القلبِ، والعملُ بالزُّهدِ: إخراجُ المحبوبِ من اليدِ في سبيلِ الله تعالى، مُعتاضاً منه ما عندهُ سبحانه وتعالى من وجههِ الكريمِ جلَّ وتعالى، أو قُرْبَ جواره في داره.

فإن لم تكن الدنيا موجودةً، فإن تَرَكَ الأسفَ عليها، وقَلَّةَ الحرصِ فيها، وتَرَكَ الطلبَ والتمنّى لها، وسُكُونَ القلبِ مع العَدَمِ، ورضاهُ بيسيرِ القِسَمِ؛ يُحسبُ للعبدِ زهداً؛ لأنَّ ذلك حالُ الفقيرِ. فإذا قام بحكمه لم يجب عليه أكثرُ من القيامِ به.

والورعُ: هو من الزُّهدِ، كما الزُّهدُ من الإيمانِ، والحياءُ والإيمانُ في قَرَنِ واحدٍ، كما جاء في الخبر: «إذا نُزِعَ أحدهما تبعه الآخر».

وروينا في ذلك حديثاً من طريق أهل البيت: «الزُّهدُ والورعُ يجولان في القلبِ

(١) في الإنحاف: «التفتين».

كلَّ ليلة، فإن صادفنا قلباً فيه الإيمان والحياء أقاما فيه، وإلا ارتحلا».

والقناعة بابٌ من الزهد أيضاً، والرضا باليسير من الأشياء حالٌ من الزهد، والتقلُّل في الأشياء مفتاحُ الزهد. وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: قد حُجِبَتْ قلوبنا بثلاثة أغطية، فلن يُكشَفَ للعبد اليقين حتى تُرفعَ هذه الحجب: الفرح بالموجود، والحزن على المفقود، والسُّرورُ بالمدح. فإذا فرحتَ بالموجود فأنت حريصٌ؛ والحريصُ محرومٌ، وإذا حزنتَ على المفقود فأنت ساخطٌ، والساخطُ معذبٌ، وإذا سررتَ بالمدح فأنت مُعجَبٌ، والعُجْبُ يُحِبُّ العمل. وقال الله تعالى: ﴿لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ يعني من الدنيا ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] أى منها. وهذان الوصفان هما أتمُّ حالٍ في الزهد، من أُعْطِيَ أحدهما تبعه الآخرُ، لأنَّ الذي لا يَأْسَى على ما فاته من الدنيا، هو الذي لا يَفْرَحُ بما آتاه منها؛ لأنَّه مثله. والذي لا يفرح بما آتاه منها، هو الذي لا يحزن على ما فاته، إذ هو نحوه. والأسى على المفقود يكون بعده الفرح بالموجود، وهذان الوصفان هما ثمرةُ النفس، بما أُمِرَ به من سترِ النَّصيبِ في الكتاب المبين، ومشاهدةِ التَّوْفِيقِ لِلنَّصِيبِ لا محالة مع الزُّهْدِ، لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [الأعراف: ٣٧]. ثم أحكمه وفرغ منه، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوقِّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩]. كذلك كان أوَّلُ الـ... (١) قَبْلَ الْقَوْتِ وَتَرَكِ الْوَجْدَ بِالْفَرَحِ عَلَى مَا لَا يَفُوت. فأوَّلُ الكلامِ قولُه: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ فهذا المنفصلُ عن النفس ﴿وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ وهذا المتَّصلُ بالجسم ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢]، فخلق النَّفْسَ والمصيبةَ معاً، ثُمَّ عَقَبَهُ بقوله: ﴿لَكَيْلًا تَأْسَوْا﴾ على الْقَوْتِ، فيقطعكم الحزن على المغيَّبِ، ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ بما قد كُتِبَ في الكتابِ، فيشغلك السَّبَبُ عن وكَيِّ الأسبابِ.

وهذا وصفُ عَبْدٍ غير متملكٍ لملك، وسيما عبدٌ قائمٌ بحكم ربِّ، ونعتُ عبدٍ مُوقِنٍ مُحِبٍّ، قد شغلته مشاهدةُ الآخرةِ عن التفرُّغِ لِمُتَعَةِ الدُّنْيَا، وقد فرَّغته معاينةُ

(١) بقية الكلمة مطموس.

الْغَيْبِ عَنِ الْاِشْتِغَالِ بِمَا يَفْنَى . وَفِي أَحَدِ الْوُجُوهِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٨] قِيلَ : أَغْنَى الْفُقَرَاءَ أَهْلَ الْآخِرَةِ بِاللَّهِ ، وَأَغْنَاهُمْ عَنِ الدُّنْيَا بِالْيَقِينِ ، كَمَا جَاءَ فِي الْخَبَرِ : «كَفَى بِالْيَقِينِ غِنًى بِالْآخِرَةِ» . وَأَقْنَى الْأَغْنِيَاءَ أَهْلَ الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا . أَيْ : جَعَلَ لَهُمْ قَنِةً وَمَدَّخِرًا وَعُدَّةً ، كَمَا وَصَفَ فِي ذِمَّةٍ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ [الهمزة: ٢] أَيْ : قَالَ : هَذَا عُدَّةٌ لِكَذَا ، وَهَذَا عُدَّةٌ لِكَذَا ، فَتَهَدَّدَهُ بِالْوَيْلِ ، فَحَصَلَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الزَّاهِدَ فِي الْقَنِةِ وَالْمَالِ عُدَّتُهُ اللَّهُ تَعَالَى ، هُوَ كَنْزُهُ وَذُخْرُهُ فِي الْمَالِ ، وَمَأْوَاهُ وَظَلُّهُ فِي كُلِّ حَالٍ ، فَطُوبَى لَهُ وَحَسَنَ مَأْبٍ .

وروينا عن رسولِ الله ﷺ : «كَفَى بِالْيَقِينِ غِنًى ، وَكَفَى بِالْعِبَادَةِ شُغْلًا ، وَكَفَى بِالْمَوْتِ وَاعْظًا» . وَفِي بَعْضِهَا : «وَكَفَى بِالْخَشْيَةِ عِلْمًا» .

وهذا جملةٌ وَصَفَ الزَّاهِدِ الْمَوْقِنَ ، الَّذِي هُوَ لِلْمَوْتِ مُرْتَقِبٌ ، وَعَنِ الدَّارِ مُرْتَحِلٌ ، وَلِلْمَهَادِ مُسْتَوْتُنٌ . مَعَ الْخَبَرِ الْمَشْتَهَرِ : «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ ، إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ» .

وقد جعل النبي ﷺ الزُّهْدَ فِي الدُّنْيَا عِلْمًا لِحَقِيقَةِ الْإِيمَانِ ، وَقَرَنَهُ بِمُشَاهَدَةِ الْإِيْقَانِ ، فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِحَارِثَةَ : «عَرَفْتَ فَالزَّمْ ، عَبْدُ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ» لَمَّا قَالَ : «أَنَا مُؤْمِنٌ حَقًّا» . قَالَ : «وَمَا حَقِيقَةُ إِيْمَانِكَ؟» ، فَابْتَدَأَ بِالزُّهْدِ فَقَالَ : «عَزَفْتُ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا ، فَاسْتَوَى عِنْدِي حَجَرُهَا وَذَهَبُهَا» . ثُمَّ ذَكَرَ الْمُشَاهَدَةَ بَعْدَ الزُّهْدِ ، فَكَانَتْ عُدَّتَهُ . فَكَمَا الْمُشَاهَدَةُ بَعْدَ الزُّهَادَةِ ، كَذَلِكَ حَقِيقَةُ الْإِيمَانِ بَعْدَ الزُّهْدِ ، وَهَذَا إِيْمَانُ الْمَوْقِنِينَ ، وَهُوَ تَحْقِيقُ التَّصْدِيقِ ، فَقَالَ : «وَكَأَنِّي بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَكَأَنِّي بِعَرْشِ رَبِّي بَارِزًا» .

وأشدُّ مِنْ هَذَا الْخَبَرِ الَّذِي جَعَلَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ الزُّهْدَ مِنْ عَلَامَةِ شَرْحِ الصِّدْرِ بِالنُّورِ ، وَهُوَ نُورُ التَّصْدِيقِ الَّذِي هُوَ عَمُومٌ وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ لِأَنَّهُ هُوَ فِي التَّحَقُّقِ بِالْإِسْلَامِ . فَفَسَّرَ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا هَذَا الشَّرْحُ؟ قَالَ : «إِنَّ النُّورَ إِذَا دَخَلَ الْقَلْبَ

انشرح له الصدرُ وانفتح. قيل: يا رسول الله، هل لذلك من علامة؟ قال: نعم، التجافى عن دارِ الغرور، والإنابةُ إلى دارِ الخلود، والاستعدادُ للموتِ قبل نزوله. فهذا هو الزهدُ جعله شرطًا لحقيقة الإسلام.

وأشدُّ من هذين الخبرين الخبرُ الثالثُ الذى فسرَّ فيه النبىُّ ﷺ الحياءَ من الله تعالى بالزهد فى الدنيا، فقال: «استحيوا من الله تعالى حقَّ الحياء. قلنا: إنا لنستحي. فقال: تبونَ ما لا تَسْكُنون، وتَجْمعون ما لا تأكلون». وبمعنى هذا تَمَّ إيمانَ الوفدِ الذين سألهم: «ما أنتم؟» فقالوا: مؤمنون. قال: «وما علامةُ إيمانكم؟». فذكروا الصبرَ على البلاء، والشكرَ عند الرخاء، والرضا بمواقع القضاء، وتركَ الشماتةِ بالمصيبةِ إذا نزلتْ بالأعداء. فقال عليه الصلاة والسلام: «إن كُنتم كذلك فلا تَجْمَعُوا ما لا تأكلون، ولا تَبْنُوا ما لا تَسْكُنون، ولا تَنَافَسُوا فيما عنه تَرَحَّلُون». فهذا هو الزهد جعله تَكْمِلَةً لإيمانهم، وعلوَّ مقامهم، وتَمَامًا على إحسانهم.

وأعظمُ من هذه كلها الخبرُ الرابع، الذى جعل فيه رسول الله ﷺ الزهدَ من شرط إخلاص التوحيد، فى حديث رويناه عن ابن المنكدر عن جابر قال: «خطبنا رسول الله ﷺ فقال: من جاء بلا إله إلا الله، لا يخلط معها غيرها، وجبت له الجنة. فقام إليه على كرم الله وجهه فقال: بأبى أنت وأمى يا رسول الله، ما لا يخلط بها غيرها، صفه لنا، فسرَّه لنا. فقال: حبُّ الدنيا، وطلبُ لها، واتباعُ لها. وقومٌ يقولون قولَ الأنبياء، ويعملون أعمالَ الجبابرة. فمن جاء بلا إله إلا الله ليس فيها شيء من هذا، وجبت له الجنة».

فلذلك كان على رضى الله عنه يجعل الزهدَ مقامًا فى الصبر، ويجعل الصبرَ عمدةَ الإيمان، وفسَّرَ بذلك مقام اليقين الذين شرح فيه شعبه فى حديثين رويناهما عنه.

أولهما: قوله فى الحديث الطويل، الذى رواه حكرمة، وعُتبة بن حميد، والحارث الأعور، وقبيصةُ بن جابر الأسدى، فى مبانى الإيمان، أنه قال: «الإيمان على أربع دعائم؛ على الصبر، واليقين، والعدل، والجهاد». ثم قال فيه: «والصبرُ

منها على أربع شعب؛ على الشوق، والشفق، والزهادة، والترقب. فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات، ومن ترقب الموت سارع في الخيرات. فأقام الزهد مقام اليقين، إذ هو مقتضاه، كما فسر رسول الله ﷺ اليقين بموجب الزهد، في قوله: «وارزقنا من اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا». فلما أوجب اليقين الزهد في الدنيا، اقتضى الزهد تهوين مصائبها، وتيسير شأنها، وتسهيل أمرها، فصغرت بعد كبرها، وهانت بعد صعوبة حالها، فاستبدل بها الرغبة في الآخرة، فسارع إليها بقدر هربه من الدنيا، ونافس فيها بقدر عزوفه عن ضدها. عندها تحقق بإرادة الآخرة، وسعى لها سعيها، لما ركب طريقها، فصار ابن سبيلها، فوجب حقه على الراغبين في الدنيا، كما وجب حق ابن السبيل الذي ركب الطريق، فتدبر.

والخبر الآخر الذي ذكرناه عن علي - عليه السلام - في الصبر، الذي جعله عمود الإيمان، ينهدم بعده، هو قوله: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، لا جسد لمن لا رأس له، ولا إيمان لمن لا صبر له». فالصبر حال من أحوال الزهد؛ لأن من كان مقامه الزهد، كان حاله الصبر عليه، وحبس النفس فيه.

وروي في خبر مقطوع: «السَّخَاءُ من اليقين، ولا يدخل النار موقن». والبخل من الشك، ولا يدخل الجنة من شك^(١). فكان هذا الحديث مفسراً للخبر المجمل: «السَّخِيُّ قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار. والبخل بعيد من الله، بعيد من الناس، قريب من النار». بأي معنى كان السَّخِيُّ قريباً؛ لأن السَّخَاءَ من اليقين، فالسَّخِيُّ موقن، فصار من المقربين. وبأي معنى كان البخل بعيداً من الله، بعيداً من الناس، قريباً من النار، أي بالشك؛ لأنه ضد اليقين، فصار من المبعدين.

فالسَّخَاءُ أيضاً وصف الزاهد، لا يكون الزاهد إلا سَخِيًّا؛ لأنه لما زهد في الدنيا

سَخَتْ نفسه بها، وطابت عنها للاستبدال بها، والتعويض عنها. وقد يكون السَّخَاءُ سببًا للزُّهْدِ، إذا سَخَتْ نفسه عن الشيء زَهَدَتْ فيه، كما إذا زَهَدَ في شيءٍ أخرجته إلى غير، وهو السَّخَاءُ، فصار السَّخَاءُ ثَمَرَةَ الزُّهْدِ.

والبُخْلُ وصفٌ، لا يكون الحريصُ إلا بخيلًا، ولا يكون البخيلُ زاهدًا؛ لأنَّ الزُّهْدَ يدعو إلى إخراج الشيء، والبخلُ يدعو إلى إمساكه، فَفَنَسُ الزُّهْدِ سَخَاءٌ، وعَيَّرَ البُخْمُ رَغَةً، فلذلك ذُمَّ البخلُ؛ لأنه رَغْبَةٌ في الدنيا. ثم إنَّ الحرصَ علامةُ البخر؛ لأنه دليلُ الرَغْبَةِ، والقناعةُ علامةُ السَّخَاءِ؛ لأنها بابُ الزُّهْدِ، فلذلك قيل: سَخَاءُ النَّفْسِ عما في أيدي الناس أفضلُ من سَخَاءِ البذل.

ثم يفترقان في الحكم بعد اجتماعهما في المعنى. فَمَنْ جَادَ بملكه لله كان زاهدًا فيه لوجه الله، ووقع أجره عند الله. وَمَنْ جَادَ بِماله لأجلِ الناس، كان أيضًا زاهدًا في ذلك، مَوْصُوفًا بالسَّخَاءِ، لكن ذلك لنفسه، ولأجلِ هواه، فهو موصوفٌ بظاهر المروءة، وبمعنى الفتوة. وإنَّ له عند الله تعالى؛ إذ لم يكن من عُمَالِ الله، فبطل في الآخرة أجره، لأنَّه سَخِلَ لأجلِ نفسه، لا لوجه ربِّه، وحصل شكره وذكره في الدنيا تعويضًا له من مَحْرُثِ الآخرة، لأنَّ هذا حرثُ الدنيا، فلم يكن له في الآخرة نصيبٌ، إذ لم يؤتَ ذلك كِثَاةً يُريد بها وجهَ الله، فيضعف له في الآخرة أضعافًا كثيرة^(١)، وهذا هو الرُّبَا الذي أربى في أموالِ الناس، لأنَّه عُمِلَ لأجلِ الناس، فهي نصيبه مما كَسَبَ، وهذه مَخْلَاقُهُ في الآخرة، إذ لم يحتسب لفناء الدنيا وما فيها^(٢)؛ لأنه عملٌ لأجلِ الدنيا، وطلب ما عندهم من الذكر فيهم، والثناء منهم، والباقيات الصالحاتُ ما يُراد به الثاني، يبقى ببقائه لصالح^(٣) أوليائه.

وكان ابنُ المبارك^(٤) - رحمه الله - يقول: ما رأيتُ بين الفتوة والقراءة قرعةً إلا في شيء واحد: ما حَظَرَتِ القراءةُ شيئًا، إلا قَبَحَتْهُ الفتوة، وإنما يفترقان في أنَّ

(١) عبارة الإنحاف ٩/ ٣٢٤: «فلم يكن له في الآخرة أضعاف كثيرة».

(٢) في الإنحاف: «إذ لم يحتسبه لفناء الدنيا واهلها».

(٣) في الإنحاف: «نصالح».

(٤) في الإنحاف: «ابن مالك».

القراءة يُراد بها وجهُ الله تعالى، والفتوة يُراد بها وجوهُ الناس ومدحهم.

وقد كان أستاذنا سفيان الثوري يقول: «مَنْ لَمْ يُحْسِنِ يَتَفَتَّى لَمْ يُحْسِنِ يَتَقَرَّى». أي مَنْ لَمْ يَعْرِفْ أَحْكَامَ التَّفَتَّى، فَيَقُومَ بِهَا، وَيَصْبِرَ عَلَيْهَا، وَيِرَاعِيَ حَسْنَ الْأَدَبِ فِيهَا، حَتَّى يَسْتَحِقَّ وَصْفَ فَتَى، لَمْ يَحْكَمْ أَوْصَافَ التَّقَرَّى، وَلَمْ يَتِمَّ بِحُسْنِ الرِّعَايَةِ فِيهَا، حَتَّى يُوصَفَ بِأَنَّهُ قَارِئٌ.

ثم إنَّ العبدَ قد يجاهدُ نَفْسَهُ عَلَى الزُّهْدِ، كَمَا يَجَاهِدُهَا عَلَى مُخَالَفَةِ الْهَوَى، وَكَمَا يَجَاهِدُهَا فِي الصَّبْرِ عَلَى مُرِّ الْحَقِّ؛ بَأَن يُخْرِجَ الْمَرْغُوبَ، وَيُنْفِقَ الْمَحْبُوبَ، وَيَتَصَبَّرَ عَلَى كِرَاهَةِ النَّفْسِ لَذُوقِ ذَلِكَ، وَلِقَلَّةِ عَادَتِهِ بِجَرَيَانِهِ عَلَيْهِ، كَمَا يَتَصَبَّرُ عَلَى ذَوْقِ مَرَارَةِ الدَّوَاءِ خَشِيَّةً أَنْ يَقْتُلَهُ الدَّاءُ، فَيَكُونُ لَهُ مَقَامٌ فِي الزُّهْدِ، يَنَالُ بِهِ الْبِرَّ، وَيَسْتَوْجِبُ مَدْحًا مِنَ الْبِرِّ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْبَصَرِيِّينَ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ: إِنَّ مَنْ أَكْرَهَ نَفْسَهُ عَلَى إِخْرَاجِ الْمَحْبُوبِ مِنْ مَالِهِ، وَحَمَلَ عَلَيْهَا بِالزُّهْدِ فِيهِ، حَتَّى بَذَلَهُ عَلَى تَكْرَرِهِ مِنَ النَّفْسِ، إِنَّ هَذَا أَفْضَلُ مِمَّنْ سَخَتْ لَهُ نَفْسُهُ بِبَذْلِ مَالِهِ طَوْعًا مِنْ غَيْرِ كِرَاهَةٍ، وَلَا وَجْدٍ ثَقَلٍ. قَالُوا: لِفَضْلِ الْمَجَاهِدَةِ فِيهِ، وَلِكِرَاهَةِ النَّفْسِ وَإِكْرَاهِهَا. الْمَعْنَى لِلْقَائِلِ، وَالْعِبَارَةُ لَنَا.

والمترهّدُ غيرُ الزَّاهِدِ، وَهُوَ الَّذِي يَتَصَنَّعُ الزُّهْدَ، وَيَعْمَلُ فِي أَسْبَابِهِ؛ مِنَ التَّقَلُّلِ، وَرِثَاةِ الْحَالِ فِي كُلِّ شَيْءٍ. فَمِثْلُهُ مِثْلُ الْمُتَصَبِّرِ مِنَ الصَّابِرِ الَّذِي يَحْمِلُ عَلَى نَفْسِهِ بِالصَّبْرِ وَتَصَابُرِهَا عَلَى الْعِلْمِ وَالْبِرِّ، فَيَكُونُ لَهُ مَقَامٌ مِنَ الصَّبْرِ.

وصفوةُ الزُّهْدِ تَقْرِيبُ الْأَجَلِ وَتَقْصِيرُ الْأَمَلِ؛ لِأَنَّ فِيهِمَا تَرْكَ الْأَدْحَارِ، وَتَحْسِينَ الْأَعْمَالِ لِقُرْبِ الْمُرَادِ، فَلَا يُلْهِمُهُ التَّكَاثُرُ، فَيُبْغِضُهُ زِيَارَةُ الْمَقَابِرِ؛ لِخَوْفِ بَعْثَةِ الْقُبُورِ، وَتَحْصِيلِهَا فِي الصَّدُورِ.

وحقيقةُ الزُّهْدِ مُخَالَفَةُ هَوَى النَّفْسِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ مَا لَا يُوَافِقُ الْعِلْمَ.

وكان ابن عيينة يقول: حدُّ الزُّهْدِ: أَنْ يَكُونَ شَاكِرًا عِنْدَ الرِّخَاءِ، صَابِرًا عِنْدَ الْبَلَاءِ. فَهَذَا صَيَّرَ الشَّاكِرَ عَلَى النِّعْمَةِ وَالصَّابِرَ عَلَى الْبَلَاءِ زَاهِدًا، وَجَمَعَ لَهُ الزُّهْدَ بِاجْتِمَاعِ الشُّكْرِ وَالصَّبْرِ، وَهَذَا زُهْدٌ عَمُومٌ الْمُؤْمِنِينَ.

وكان بشرُّ بن الحارث يقول: الزُّهْدُ في الدُّنيا هو الزُّهْدُ في الناس. لأنَّه كان يقول: حبُّ لقاءِ الناسِ هو من الدنيا. فهذا جعل الرغبةَ همُّ الناسِ، لأنَّه المرغوب فيه عندهم، ويتسبَّبُ إليه بهم، لذلك صار الزُّهْدُ فَقْدَهُمْ. وكذلك قال بعضُ الحكماء: إذا طلب الزَّاهدُ الناسَ فاهربَ منه، وإذا هربَ من الناسِ فاطلبه. وهذا هو حالُ الزَّاهدِ العابدِ المشغولِ بنفسه.

فأمَّا الزَّاهدُ المُعْبِدُ، العارفُ المُعْرِفُ، إن طلبهم لمَطْلُوبِهِ بما به طَلَبَ من التَّزْهِيدِ والتَّعْرِيفِ لهم، والتنبيهِ والتَّفْضِيلِ عليهم؛ لأجلِ مولاه، فهو نذيرٌ من الله تعالى لهم، ورسولٌ من رسله أبدالُ مُرْسَلِيهِ إليهم، لِمَا خَصَّه به من غرائبِ أنبيائه، فجعله خَلْقًا من بعضِ أنبيائه، فهو أَفْضَلُ إذا وُضِعَ لذلك، وقامَ به. وهذا مقامٌ في العلمِ أعلى من الزُّهْدِ.

وقيل ليحيى بن معاذ رحمه الله: متى يكونُ الرَّجُلُ زاهدًا؟ فقال: إذا بلغَ حِرْصُهُ في تَرْكِ الدُّنيا حِرْصَ الطَّالِبِ لها، كان زاهدًا.

وقال قاسم الجوعى: الزُّهْدُ في الدُّنيا هو الزُّهْدُ في الجُوفِ؛ بِقَدْرِ ما تَمْلِكُ من بَطْنِكَ كذلك تَمْلِكُ من الزُّهْدِ. فكأنَّ الدنيا عنده الشَّبْعُ، وأَكْلُ الشَّهَوَاتِ، وتَرْكُ المَطْعُومِ من غيرِ الحاجاتِ عن فُضُولِ الكفاياتِ.

وكان الفضيلُ بن عياض يقول: الزُّهْدُ هو القنَاعَةُ. فكانت الدنيا عنده الحرصَ والشرَّهَ والضَّرَاعَةَ^(١). وقال الثوري: الزُّهْدُ هو قِصْرُ الأملِ، وانتظارُ الموتِ. فصارت الدنيا عنده طولَ الأملِ، ونسيانَ قُرْبِ الأجلِ.

وكان الدَّارانيُّ أبو سليمان يقول: الدنيا كلُّ ما شغلَ عن الله. فكان الزُّهْدُ عنده دوامَ التفرُّغِ لله عز وجلَّ بحُسْنِ الإقبالِ عليه. وقد قال: إِنَّمَا الزَّاهِدُ مَنْ تَخَلَّى عن الدُّنيا، واشتغلَ بالعبادةِ والنَّصَبِ.

فأمَّا مَنْ تركها وتَبَطَّلَ، فإنَّما طلبَ الرَّاحَةَ لنفسه، فهذا لعمري، وإن طلب الرَّاحَةَ لقلْبِهِ وجسمه مع الزهد، فذلك هو مقتضاه، وعاجلُ نصيبه من الله تعالى

(١) الضَّرَاعَةُ: الدَّلُّ والاستكانة. وقوله: «فكانت...» من كلام أبي طالب.

فى الدنيا، وأولُ بُشْرَاهُ؛ لأنَّ اللهَ سبحانه جعل الراحةَ فى الزُّهدِ نعيمًا للزَّاهدين، تعويضًا منه لهم، لما تركوا منها له، بما طَيَّبَ من نُفوسِهِم، وروَّحَ قُلُوبَهُم عن نعيم الدنيا، والراحةِ بها، بوجودِ حلاوةِ الزُّهدِ فيها، كما جعل العزَّ فى قلوبِ المنقطعين إليه، عِوضًا من الاتصالِ بالخلق، لما حَبَّبَ إليهم من الخُمولِ والوَحْدَةِ، تعويضًا ممَّا ابتلى به طالبى العزِّ والرياسة. فلا يُخرجُهُم دُخُولُ الراحةِ عليهم بالزُّهدِ من دَرَكَ درجاتِ الزهد، كما لا يُفقدُهُم وجودٌ عن الانقطاعِ إلى الله تعالى، يحقِّقُهُم بالذَّلِّ لَهُ، وفيه ولاءٌ لأوليائه وأحبابه لأجله، إذ ذَانِكَ مَجْعُولَانِ فى الزُّهدِ فى الدنيا، والانقطاعِ بالرَّغْبَةِ إلى المولى. كما جعلَ ذَوْقَ حلاوةِ الطَّيِّباتِ فى حواسِّ المذاقِ للتَّعَمُّعِ بنعمةِ الله بها. ثم لم يُخرجَهُم ذلك من الزُّهدِ فى الدنيا لأجلِ ذوقها، إذ لم يطلبوها، ويحرصوا عليها، ويشغلوا قُلُوبَهُم بها، ويعملوا لأجلها، أَلَمْ تسمعْ إلى الخبرِ الذى رويناه عن الله تعالى فى معنى ما ذكرناه، يقول الله تعالى للعبد يوم القيامة: «يا ابنَ آدمَ، أمَّا زُهدُكَ فى الدنيا فقد تعجَّلتَ به الراحةُ لقلبك وبدنك، وأمَّا انقطاعُكَ إلىَّ فتعزَّزتَ بى، فماذا عملتَ فى حقِّى عليك؟ قال: وما هو يا رب؟ قال: هلَّ واليتَ فىَّ وليًا، أو عادتَ فىَّ عدوًّا؟».

وقد كان داود الطائى يقول: كلُّ ما شغلك عن الله تعالى؛ من أهلٍ أو مالٍ، فهو عليك شؤمٌ. وقال أبو سليمان: من تزوَّجَ، أو كَتَبَ الحديثَ، أو طلبَ معاشًا، فقد رَكَنَ إلى الدنيا. وقرأ قوله عز وجل: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]، فقال: هو القلبُ الذى ليس فيه غيرُ الله.

فهذا زهدُ الصَّديقين. وإنَّما تكون هذه الثلاثُ دنیا لمن أراد بهنَّ الدنيا لعاجلِ متعةِ النَّفسِ بها، فأما من أرادَ بها الآخرةَ، فهى طرقَاتُ له إلى الآخرة. وقال مرةً أبو سليمان: إنَّما زَهِدُوا فى الدنيا لتَفَرُّغِ قُلُوبُهُم من هُمومها للآخرة، فإذا رُزِقَ العبدُ فَرَاغَ القلبِ مع وُجُودِ هَذِهِ الثَّلاثِ التى ذكرنا، كُنَّ له قُرْبَاتٍ إلى المذكورِ بها.

وقد كان رحمه الله ذا عيالٍ، ولكن لم يكن يشغله ذلك عن أوقاته مع الله، لا يدخلون عليه فى مقامه، فيُخرجونه من المقام.

وقد قال أويس القرنيُّ قَبْلَهُ: إذا خرجَ العبدُ يطلبُ ذهبَ الزَّهْدِ. وقال مرةً لبعض من سألَه عن الزَّهْدِ: في أى شيء خَرَجْتَ؟ فقال: أطلبُ المعاشَ. فقال له: فأين الزَّهْدُ؟

يعنى أن الزهد عنده: أن يقتطعَ العبدُ بدوامِ الشُّغْلِ عن التفرُّغِ لطلب ما سوى الله، وأن لا يشغله عن ذِكْرِ الله ذِكْرٌ ما قطعَ عن الله. ولم يكن الزُّهْدُ يصحُّ عنده إلا بحقيقةِ التوكُّلِ. وكان التوكُّلُ عنده تركَ الطلبِ شُغْلاً بما يَرِدُ عليه من المَطْلُوبِ، فلا يبقى فيه فراغُ المرغوبِ. فهذا غاية الزهد، وهو طريقُ طائفةٍ من الأبدالِ، اقتطَعُوا عن الخلق، وأُرِيدُوا بهذه الحال، كما قال بعضُ الزَّاهِدِينَ لبعضِ العارفين: لم يبقَ علىَّ من الدنيا إلا مصُّ النَّوى. فهذا يرى هذا بعيداً عن الرَّغبة. فقال: يا هذا، نظركُ إلى مصِّ النَّوى لَزُهْدِكَ هو نفسه من الدُّنيا. فهو يريد منه نسيانَ ذلك، بالزُّهْدِ في زُهدِهِ، على تركِ النَّظرِ إلى مَوْضِعِهِ، لما يستغرقه في الجريانِ عليه، فلا يبقى فيه هِمَّةٌ بغير مُجرِيهِ، ويكون بحكمِ المُجرِي فيه. فهذا مقامٌ فوقَ الزُّهْدِ، متَّصِلٌ بغيرِهِ من القُربِ المصْطَلَمِ^(١).

وقد روينا عن رسول الله ﷺ قال: «تفرَّغُوا من هُمومِ الدُّنيا ما استطعتم». وخبر ابن مسعود: «لا تتخذوا الضَّيْعَةَ، فترغبُوا في الدنيا».

والضَّيْعَةُ، أيضاً: اسمٌ للاشتغالِ بالمعاشِ من غيرِ الحرثِ والزَّرعِ، وغير ذلك من الرِّياشِ. يُقال: أقبل على ضيْعَتِكَ إلى صناعتِكَ. وفلانٌ في ضيْعَةِ أهله، أى: فى جِوارِهِم. كما قال: «من جعلَ الهمَّ همًّا واحداً همَّ آخرتِهِ، جمعَ اللهُ عليه ضيْعَتَهُ، وجعلَ غناه فى قلبِهِ». وقال فى ضده: «من تفرَّقتْ به الهمومُ، فرقَ اللهُ عليه ضيْعَتَهُ، وجعلَ فقرَهُ بينَ عَيْنَيْهِ».

وقد كان إمامنا أبو محمد سهل، رحمه الله، يقول: أوَّلُ الزَّهْدِ التوكُّلُ، وأوسطُهُ إظهارُ القدرة. وقال: لا يزهد العبدُ زهداً حقيقياً لا رجعةَ بعده إلا بعد مشاهدةِ قُدْرِهِ. فأوَّلُ القُدْرَةِ سَمْعُ آياتِ رَبِّهِ الكبرى، فهى الحكمةُ التى مَن أُوتِيها

(١) المصْطَلَمُ: من اصطَلَمَ أى استأصل أو قطع.

﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] قيل: هو الفهمُ في كتابِ الله، الذى هو إبانةٌ عن معانى صفاته، وتبيانُهُ من حكمةِ قدرته. ثُمَّ بعد ذلك من معنى ما قال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٨]، فَالسَّمْعُ يَقْتَضِي النَّظَرَ، كما قال السَّامِعُ الْمُكَلِّمُ، بعد أن سَمِعَ حلاوةَ الكلام: ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الاعراف: ١٤٣]. فإذا سَمِعَ المتزهدُ المتعبَّدُ كلامَ الزَّهْدِ، إذا يقول: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حَلِيةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ﴾ [الرعد: ١٧]، فَالْحَلِيةُ: الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، وهما قِيمُ الأشياءِ، ومقاديرُ النفوسِ، اللذان مَلَكَا القُلُوبَ، وَنَكَّسَا الرُّؤُوسَ. والمتاعُ: ما سِوَاهُما من مَعَادِنِ الْأَرْضِ.

فإذا شَهِدَ العبدُ الذَّهَبَ، الذى هو سببُ الدنيا، ولأجلِهِ أَشْرَكَ مَنْ أَشْرَكَ، وَبِحَبَائِلِهِ ارْتَبَكَ مَنْ ارْتَبَكَ، وَلَوْ قَوَّعَ حلاوتهِ فى القُلُوبِ وَقَعَ مَنْ وَقَعَ فَهَلَك. فإذا شَهِدَ جَوْهَرَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ زَبَدًا طَافِيًا عَلَى وَجهِ الْمَاءِ، لَا نَفْعَ فِيهِ، وَلَا غُنْيَةً بِهِ، وَلَا قِنِيَّةً يَنْبَغِي لَهُ، زَهْدٌ فِيهِ حِينَئِذٍ زَهْدًا صَادِقًا. فكان زَهْدُهُ مَعَايِنَةً لَا خَبْرًا، وَكَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا، الَّذِينَ وَصَفَهُمُ الْحَقُّ بِالْحَقِّ فى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

فَالزَّهْدُ مَزِيدُ الْإِيمَانِ، وَتَزِينُهُ فى القُلُوبِ بِالْإِيْقَانِ، فَذَلِكَ عِلَامَةُ تَحَبُّبِهِ، كما ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧]، أَيْ: بِالزَّهْدِ. شَهِدَ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى^(١): «مَا تَزَيَّنَ الْمُتَزَيِّنُونَ لِي بِمِثْلِ الزَّهْدِ فى الدُّنْيَا». هِيَ زِينَةُ الْمُتَقِينَ عَلَيْهِمْ مِنْهَا شِعَارٌ يُعْرَفُونَ بِهِ. فإذا تَحَقَّقَ الْعَبْدُ بِتَحَبُّبِ الْإِيمَانِ إِلَيْهِ، تَخَلَّقَ بِزِينَتِهِ فى قَلْبِهِ، عِنْدَهَا تَحَقَّقَ أَيْضًا بِتَكْرِيبِ الْفُسُوقِ؛ وَهُوَ الْخُرُوجُ عَنِ الْأَمْرِ، وَبِتَكْرِيبِ الْعَصِيانِ؛ وَهُوَ الدَّخُولُ فى النَّهْيِ. كما رَوَيْنَا: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ». فَصَارَ بُغْضُهَا أَصْلَ كُلِّ قُرْبَةٍ. كما تَحَقَّقَ بِتَكْرِيبِ الْكُفْرِ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ضَمَّ تَكْرِيبَ الْمَعَاصِي إِلَى تَكْرِيبِ الْكُفْرِ، لِمَنْ يُحَبَّبُ إِلَيْهِ الْإِيمَانُ بِالْوَرَعِ وَالتَّقْوَى، وَزِينَتُهُ فى قَلْبِهِ بِالزَّهْدِ

(١) يقصد الحديث القدسي.

والتوكل، الذى هو علامة المؤمنين حقًا، ثم قال: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] بعد وصفهم بالمزيد والوجل والإنفاق، فحقق بالزهد والتوكل وصفهم، لما أعطاهم حقيقة الإيمان، الذى هو موجب الزهد، والمجاهدة مزيدة، كما قال فى الخبر، لما قال: «أصبحتُ مؤمنًا حقًا. قال: فما حقيقة إيمانك؟ قال: عَزَفْتُ نَفْسِي عن الدنيا، فاستوى عندي ذَهَبُهَا وحَجَرُهَا» فهذا الزهد «وكأنتى بعَرْشِ رَبِّى بارزًا» فذكر المشاهدة مزيدًا على الزهد الذى أحسن الله إليه به، فهذا كما قال: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٤] أى مزيدًا من الله آخر على ما كان أحسن به إليه، فوصفه الرسول ﷺ بالمعرفة، وأمره بلزوم ما عَرَفَ من الزهد والمجاهدة، فقال: «عَرَفْتُ فالزَمَ»، وقال: «عبدُ نَوْرِ اللَّهِ قَلْبُهُ بالإيمان».

فهذا صفة قلب المؤمن الأجرد، فيه سراجٌ يزهر، كذلك رويناه فى الخبر الآخر، الذى وصف به القلوب الأربعة، فهذا كان أفضلها وأعلاها: «قلبٌ أجردٌ من الدنيا، فيه سراجٌ يزهر من اليقين». قال الرسول ﷺ: «فكذلك قلبُ المؤمن». فكان هذا تفسير قوله: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾، فسَّرَ به تزيينَ الإيمان فى القلوب باليقين، الذى هو أصلُ الزهد، كما الزهدُ سببُ المحبة، وكما قال تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ ثم رفعهم فى الإيمان مقامًا، فقال: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] أى من الإيمان، وهو اليقين. كذلك قال: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ فهذا بالكتب، ثم قال: ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧] فهذا بتأييد الروح. فهو مفسرٌ له، فتدبر.

فالزهدُ داخل فى التوكل، فقال عز وجل: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ * واصبرْ على ما يَقُولُونَ ﴿[المزمل: ٩ - ١٠]. فالتوكلُ يُوجب الصبرَ للوكيل وعلى حكمه، كما قال تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ٧]. وقال لما فى معناه: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠] عن الفتنة، وتصبرون على البعد منها والزهد فيها. وقال: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]. وقال صاحبُ الأمر: «إنما بَقِيَ من الدنيا بلاءٌ وفتنةٌ. والموتُ محنةٌ لكل مؤمن».

فقد سمع الزاهد المزهّد كلامَ الله لما عقله، وعقلَ عن الله أمثاله، لما علمه، كما قال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]. فلما سمع كلامَ الله أبلغه مأمنه في المقام الأمين، في جناتِ وعيُون، واستحق وصفَ الله بالإيمان، إذ تلا القرآن بحقيقة الإيمان، فقال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١].

كذلك إن هذا الزبدَ تشبيهُ من الله تعالى لمثلِ ضربه للحقِّ والباطل، فالمثلُ هو الماءُ والزبدُ، فمثلُ الحقِّ في نفعه وبقائه بالماءِ التي تحت الزبدِ، ومثلُ الباطلِ في ذهابه وقلةُ نفعه بالزبدِ الذي يكون فوق الماءِ طافياً تفرقه الرياحُ، وتنفسه الشمسُ، إذ لا حقيقةَ له، ولا بقاء. ثم شبهَ الذهبَ لذهابه عن الحقيقةِ بالزبدِ، تشبيهَ مماثلةٍ لا تشبيهَ مجاز، لقوله: ﴿زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ والمماثلةُ مُستقصاةٌ، ثم قال: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ * لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى﴾ [الرعد: ١٧-١٨]، أى الجنة والبقاء. وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مِثْلُ السَّوْءِ﴾ [النحل: ٦٠]، هم المريدون للحياة الدنيا وزينتها، الرّاؤون المطمئنون بها، ليس لهم في الآخرة نصيبٌ، بتوفية أجورهم من الدنيا، وقد تأول ذلك بعضُ السلفِ المفسرين في أهل القبلة من أبنا الدنيا الراغبين.

فكان الذهبُ والفضةُ عند الزاهدين، لنظرهم بعينِ القدرة، زبداً طافياً تفرقه الأهواء، فيكون متجافياً فوق الماءِ. وهما من معادنِ الجبالِ، فصارت الجبالُ عندهم أمواجاً ثابتةً بإثبات، وساكنةً بإسكان، ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]. وصارت الأرضُ بحرّاً عجائماً، تضطربُ بالأمواجِ، فيظهر بينهما من المدُن والقفار ما جعل سبلاً فجائماً، ممّا قدّره في الأقطار؛ بالاستواء والاعوجاج، من كل شيءٍ موزونٍ بمقدار. والخلائق فيها كالحيّتان في البحر، وكالغُثاء على السيل، إذا عاشوا مشوّاً في مناكبها، وأكلوا من رزقه، وإن ماتوا غرقوا في قعرها وردّوا إلى حقّه: ﴿وَالنَّارِعَاتِ غَرْقًا﴾ [النارعات: ١]، ﴿أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]، ﴿ثُمَّ رَدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ

الحق ﴿انعام: ٦٢﴾، ثم سترَ حقيقةَ هذا العيانِ عن نظر الأعيان، لظهور حكمته، ونفاذِ أحكامه، ولباطنِ قدرته، ونشرِ أعلامه بلطيفِ صنّعه، لشهودِ نعمته، والقيامِ بشكره، ولتصريفِ تدبيره، والائتمارِ لأمره، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ، فاجتمعَ الفرقُ، ارتقَ الفتقُ، وغابَ كلُّ مُتَفَرِّقٍ بالاسمِ الباطنِ المَفَرَّقِ، وظهرَ كلُّ مُجْتَمِعٍ بالاسمِ الظاهرِ المَجْمَعِ، وكانَ عرشُهُ على الماءِ ليلوكمُ. فهذا مشاهدَةُ أبناءِ الآخرةِ، هِيَ أَعْيَى مِنْ زَهْدِهِمْ فِي الدُّنْيَا.

فافتروا: الجَمْعُ، وافتنقَ الرتقُ، وظهرَ من الماءِ كلُّ شَيْءٍ ظاهِرٍ، واتسعَ الفضاءُ، واستترَ الغطاءُ، ووُجِدَ التفصيلُ، وحُكِمَ الحسبانُ بالتحصيل: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. هذه مُشَاهِدَةُ أبناءِ الدنيا، هِيَ أَعْظَمُ عَلَيْهِمْ إِذَا تَيَقَّظُوا مِنْ رَغْبَتِهِمْ: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]، ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]. حينئذٍ حقَّ قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتُ غُرَقًا﴾ [النازعات: ١]، ﴿وَالسَّابِحَاتُ سَبْحًا﴾ [النازعات: ٣]، هذه أرواحُ المنافقين، تَغْرُقُ فِي الْبَحْرِ الْأَسْفَلِ، وَتَسْبَحُ سَبْحًا إِلَى فَوْقِ. ﴿وَالنَّاشِطَاتُ نَشْطًا﴾ [النازعات: ٢]، ﴿فَالسَّابِقَاتُ سَبْقًا﴾ [النازعات: ٤]، هذا وَصْفُ الرُّوحَانِيِّينَ، تَنْشِطُ أَرْوَاحُهُمْ كَالْأَنْشُوطَةِ، فَلَا تَجِدُ لَهَا أَلْمًا، وَتَسْبِقُ إِلَى الْعُلَى الْأَعْلَى؛ إِذْ نَصَبَ لَهَا عِلْمًا. هُنَالِكَ تَعْظُمُ الْحَسْرَةُ عِنْدَ الْمَوْتِ، إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ. هذه مُشَاهِدَةُ الْعَمُومِ عِنْدَ الْمَوْتِ، فَيُعْظِمُهُ عَلَيْهِمُ بِالْفَوْتِ.

وقد فرغَ الخصوصُ من نصيبهم بمُشَاهَدَتِهِ، فَهُمْ نَازِرُونَ إِلَى مُسْتَقْبَلِ الْمَزِيدِ، مَشْغُولُونَ بِهِ عَنِ الْعَبِيدِ، قَائِمُونَ بِشَهَادَةِ الْحَقِّ لَهُمْ، مُتَصَرِّفُونَ بِإِشْهَادِهِ إِيَّاهُمْ، ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَلَطِيفًا مُسْتَرًّا، وَمَعْرُوفًا وَمُنْكَرًا ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]، فَمَا غَلَبَ عَلَيْهِ لَمْ يُظْهَرْ، وَمَا غَلَبَهُ عَلَيْهِمْ إِيَّاهُمْ قَهَرَ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ».

وقال الحق، والحق يقول: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. وكان ابن عباس رضي الله عنه يقول: «لو فسرت لكم هذه الآية لكفرتم. قيل: وكيف؟! قال: كنتم تُنكرونها، وإنكاركم لها كفرانها». وفي لفظ آخر: «لو فسرت الآية التي في سورة النساء الصغرى، لرجمتموني بالحجارة». ومعناه: أى لكفرتموني، لأنهم لا يقتلون إلا كافرًا عندهم.

وروينا عنه فى قوله تعالى: ﴿جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] قال: «فى كلِّ حرفٍ اسم من أسمائه تعالى، وكان اسم كلِّ شَيْءٍ عن اسمه، كما أنَّ فعلَ كلِّ فاعلٍ عن فعله، إذ كل فعلٍ مقتضى وصفٍ من أوصافه؛ لأنَّ كلَّ صفةٍ من صفاته موجبة فعلٍ من أفعاله، باطنًا بقدرته لباطنين من معرفته، وظاهرًا بحكمته لظاهرين عن الإيمان به.

وكان أبو محمد، رحمه الله، يقوله بمعناه، فى تأويل قوله: «ما نزل من السماء أعزُّ من اليقين به» يقول: هو الله اسم من أسمائه تعالى، فغابت السبع، والسبع السفلى، والعلى من الملك الأدنى فى الملكوت الأعلى، لما طوى نفس الهوى، وغاب العرش والثرى فى طى الطى، إذ أطلق العقل من عقاب البلوى، وغاص الملكوت فى عزة الجبروت، فكان ذلك حجب العلى الأعلى، إذ طوى طى النفس والعقل، وقام شاهد الحق بعين اليقين، وحضر الأزل الأولى، إذا غاب الحدثان الثانى، وظهر الباطن الآخر، حين بطن الظاهر الساتر، فصار العبد شهيدًا، إذ الشهيد له موجود، وحضر العارف واجدًا، حين كان لمحد... (١) فاقداً، عندها فهم قول رسول الله ﷺ: «ألا كل شَيْءٍ ما خلا الله باطل» مصداقًا لقوله: «أعوذ بك منك»... (٢) كان العبد سميعًا لقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧]، وهناك أراه الآيات فى الآفاق، فتبين الحق بقول الحق:

(١) بقية الكلمة تالف بالأصل.

(٢) تلف بالأصل قدر كلمة.

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [نصفت: ٥٣]، ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [نصفت: ٥٤].

فهذه شهادة أهل الله تعالى، غابت فيها الشهادات الأولى التي هي مشاهدة زاهدى العباد. وإظهار هذه الشهادة لا يحل إلا لشهيد مشهود، وواجد بوجود ذى وجود، وقد قال الحكيم من الشاهدين:

لَقَدْ عَزَّتْ مَعَانِيهِ فغابت
عن الأبصارِ إلا للشَّهيدِ
فليس يراه مفتونٌ بخلقٍ
وحصنَ برؤية القلبِ الفريدِ

وقد قال: لو كانت الأشياء بعقله لطلب لمعناه معانيها. فسبحان من حققها بما أثبت، لما ستر من الحقيقة، وأراد من الثبوت.

فهذا همس مهموس، برمز مرموز، يُنسخ من قلب إلى قلب، ويكتب بهم من هم، وقال الرسول ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ الْبَيَانَ، كُلَّ الْبَيَانِ»، وقال: «أمرنا معاشر الأنبياء أن نكلم الناس بقدر عقولهم، وبُعِثت بالمدارة كما بُعثت بالرسالة». ذلك ليوفيهم منه نصيبهم، وليقوم بشاهد حكم الله فيهم، كما قال بعضهم: مَنْ خاطب العامة بعقله، وحادثهم بعلمه، فقد بخسهم حقوقهم منه، ولم يَقم بحق الله فيهم. فتبارك الله أحسن القائلين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا﴾ إلى قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾ [البقرة: ١٥٩]، فشرح هذه المعاني المرموزة، التي أخفينا فيما أظهرنا، لم تُبين في الكتاب، وإنما هو سريرة في قلوب أولى الألباب، الذين آتاهم الحكمة وفصل الخطاب. وهو من سر الغيب، وإظهار سر الملكوت معصية، إذ الله سبحانه لم يأمر به، ولم يمتحن فيه.

فسبحان من نفذ بصره الأبصار، ويقلب الليل والنهار، وكل شيء عنده بمقدار، يُبصر ما لا يُبصر، كما يُقدر على ما لا يُقدر، خص الشاهدين الذين عنده في ظله، بمعنى من شهادته، كما أعطاهم حيلة بشيء من علمه، فأحاط علمهم بما شاء، لما أحاط لهم ما شاء. ولذلك قال صاحب السر الذى عنده حقيقة الخبر، للرجل الذى قال: «اللهم أرني الدنيا كما تراها». فقال: «لا تقل هكذا، فإن الله

لا يرى الدنيا كما تراها. ولكن قل: أرني الدنيا كما يراها الصالح من عبادك». فهذا على نحو ما أمر الآخر به، إذ قال له: أوصني. قال: «استحي من الله كما تستحي من رجل صالح».

فهذا الذى يُمكنه معرفته، إذ كان حقيقة الحق ممتنعاً، وكُنْه صفاته الموجبة للحياء وغيره محتجبة، فردّه إلى ما يعلم، وخاطبه بما يعقل، وهذا الذى يحتاج إليه، وهذا داخل فى مخاطبة الخلق بقدر عقولهم ومُداراتهم على نحو علومهم. كذلك العلماء مقتفون على أثره، مُرْتَسِمُونَ بِرَسْمِهِ وخبره.

فسبحان من أقام معاش الخليفة بهذا الزبد الذاهب، إذ غير به الحقيقة. قال: فالحيب يرى العرض بالعارض المعترض فى القلوب، فهم من الدينار والدرهم يأكلون ويلبسون، وهو عين قائمة كعصى موسى، تلقف ما يأفكون، تنقله من يد إلى يد، وتقلبه من قلب إلى قلب.

فهذا، الذى ذكرناه، تفسير ما أجمله شيخنا أبو محمد رحمه الله من أن الزهد لا يقع على حقيقة إلا بعد معاينة قدرة من الملكوت، فيحتاج هذا الزاهد أن يشهد المزهود لمنزلة الزبد، إن لم يبلغ نظره شهادة الشاهد للآخر، فيكون من أهل السمع والشهادة، فينسى لحقيقة ذكره معارفه والعادة، ويصير عند الله شهيداً، له أجره نصيباً من قربه، ونوره شعاعاً من سُبُحات وجهه، كما قال الشهيد الأعلى: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٩].

فكيف يكون شاهداً من لم يشهد على شهادته؟ أم كيف يكون زاهداً من لم يقيم بشهادته؟ بل كيف يشهد وصف الأوليّة بغير نورها لحضورها؟ أم كيف يقوم بشهادته من لم يشهد قيوميته؟ بل كيف يرى قيوميته بغير نور وحدانيته؟ وكيف يعاين قدرته من هو محجوب بصفاته، ومشغول بنفسه وهواه بجريان طبعه وعاداته؟

فإن لم يقرب فى هذا المكان، كما قال سبحانه: ﴿أَوَ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، فيسمع من مكان قريب، لا كمن قال: ﴿أَوَلَيْكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ

بَعِيدٌ ﴿فصلت: ٤٤﴾ - لم يكن من أهل البيان والفكر، كقول الحق المبين: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ * في الدنيا والآخرة ﴿البقرة: ٢١٩ - ٢٢٠﴾، فتؤثرون الدائم الباقي الذي عند الباقي على الزائل الفاني الذي عند العبيد الأباقي، فتزهدون فيه إذا أثرت عليه غيره، وعوضتم بدلاً منه ما عنده؛ لأن ما يكون آخره فناء يشبه أول أمره، وأوله لم يكن ما يكون آخره بقاء، فكأنه لم يزل، فأشبهه أوله آخره في البقاء. لذلك قال العليم الحكيم: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧]، فوصفها بالخيرية لبقائها في المال، ومنحها وصفين من صفاته ليرغب فيها الأبدال، كما قال: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٣]. ولذلك قال: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]. فأضاف الدنيا إلينا ليدلنا بها؛ لأننا أهل الفناء، ولیزهدنا فيها زهدنا في أنفسنا الأمارة بالسوء. وأضاف الآخرة إلى الآخر الأعلى؛ ليعزها به، ويشوقنا إليها؛ لأنه أهل البقاء، فخص بها أهله، إذ منحها البقاء.

فإذا شهد العبد بعين قلبه ويقين إيمانه ما صدق به، مما علمه بفهم سمعه وإدراك خبره، أن ما يفنى آخره كآته لم يكن، وما يبقى آخره كآته لم يزل، كان من المتفكرين في مثل هذه الآي، المشاهدين لها، ومن تلاها حق تلاوتها، فآمن حقيقة الإيمان بها، حينئذ زهد في الدنيا حقيقة الزهد، ورغب في الآخرة حق الرغبة، وكان من أولى الأيدي والأبصار؛ أي من ذوى القوى في الدين، والبصائر في اليقين، فلما أبصر بقواه عبر الدنيا إلى الله، فكان زاده تقواه، وصار الفرد الأحد ظله ومأواه، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ * ﴿فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٤٩ - ٥٠] أي من الأشكال القاطعة عنه. وكما قال: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢] فَعَبَر لَمَّا أَبْصَرَ، وَحَذَرَ لَمَّا ذَكَرَ، وَقَطَعَ عَنْهُ مَا خَشِيَ أَنْ يَقْطَعَهُ عَنْهُ، وَبَاعَدَ مِنْهُ مَا خَافَ أَنْ يُبْعِدَهُ مِنْهُ، عِنْدَهَا كَانَ مِمَّنْ أَخَذَ ﴿الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢] قِيلَ: بِعَمَلٍ بِهِ، وَقِيلَ: بِبِقِينٍ فِيهِ، وَيُقَالُ: بِجِدِّ وَاجْتِهَادٍ وَكَانَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ، الَّذِينَ يَتَمَسَّكُونَ بِالْكِتَابِ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ. وتلا رسول الله ﷺ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٩١]،

فقال: وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا. وَيْلٌ لِمَنْ تَلَاهَا وَمَسَحَ بِهَا سَبْلَتَهُ^(١). وذلك أن السَّمَوَاتِ والأَرْضَ عَمَّرَ بهما عَمَّا وراءَهُمَا من دَرَجَاتِ الجَنَانِ، وَدَرَكَاتِ النَّيرانِ، وهو المَلَكُوتُ الَّذِي أَرَبُهُ إِبْرَاهِيمُ، فَكَانَ بِمُشَاهَدَتِهِ مِنَ الموقنين، وهو المَلِكُ الباطنُ، والمَلِكُ الكبيرُ، فَكُشِفَ هَذَانِ - أعْنَى السَّمَوَاتِ والأَرْضَيْنِ - لِأَهْلِ الفِكْرِ والذِّكْرِ واليقينِ، وما علا وَسَفَلَ، وَأَحَاطَ بِهِمَا مِنَ العَرْشِ الأعلى، والثَّرَى، والأسفل، كَأَنَّ السَّمَاءَ هِيَ الجَنَّةُ، وَنَجْوَمُهَا مَنَازِلُ الأولياءِ فِيهَا، وَأَسَافِلُهَا مَسَاكِنُ أَهْلِهَا مِنْهَا، وَكَأَنَّ الأَرْضَ هِيَ النَّارُ، وَتُخُومُهَا مَنَازِلُ أَهْلِهَا، وَأَسَافِلُهَا مَسَاكِنُ أَهْلِهَا مِنْهَا، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] لِتَكُونَ جَهَنَّمَ مَكَانَهَا، ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير ٦] سَعِيرًا بِلَظَى فِي أوديةِ النَّارِ، وَالسَّمَوَاتُ تُبَدَّلُ جَنَانًا تُصِيرُ مَوْضِعَهَا، ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] (...) الشَّهِيدُ أَنَّهُ قَائِمٌ بَيْنَ الجَنَّةِ فِي تَصْرِفِهِ وَتَقَلُّبِهِ فِي (...) بين يَدَيِ المَلِكِ الجَبَّارِ، هَذَا يَقِينٌ أُولَى الأَبْصَارِ.

ثم كَشَفَ ذَٰلِكَ لَهُ مَا وَرَاءَهُ مِنَ العِزَّةِ والجَبَرُوتِ، فَجَاوَزَتْ الأَفْكَارُ بِأَبْصَارِهَا المَلِكَ والمَلَكُوتَ، لَمَّا شُرِّحَتْ الصَّدُورُ بِنُورِ النُّورِ، فَرُفِعَتْ إِلَى الأفقِ الأعلى، فَنفَذَتْ أَبْصَارُ الْمُتَفَكِّرِينَ بِقُوَى يَقِينِهَا إِلَى مُشَاهَدَةِ الجَلَالِ والجَمَالِ، بَعْدَ انْكَشَافِ الحُجُبِ المَلَكِيَّةِ، وَالأَسْتَارِ المَلَكُوتِيَّةِ، وَهُوَ مَا قَدَّمْنَا ذَكَرَهُ آنَفًا، مِمَّا لَمْ يَظْهَرِ كَشْفُهُ كَنَحْوِ مَا نَبَّهَ اللَّهُ الْعِبَادَ بِمَا يَشْهَدُونَ إِلَى مَا وَرَاءَهُ مِمَّا بِهِ أَيْقَنُوا. فَيَجْعَلُ مَا يَبْصُرُونَ بَابًا إِلَى مَا لَا يُبْصُرُونَ، وَيَجْعَلُ مَا يَعْلَمُونَ مَفْتَاحًا لِمَا لَا يَعْلَمُونَ. أَقَامَهُمْ مَقَامَ الْعُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ، وَأَنْزَلَهُمْ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ الرُّوحَانِيِّينَ، بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ: ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣].

ولعموم المؤمنين في الدنيا مُشَاهَدَةً قَرِيبَةً دُونَ هَذِهِ، مِنْ طَرِيقِ عِلْمِ الْعَقْلِ، يَشْهَدُونَ أَنَّهَا عَقُوبَةٌ، كَمَا قِيلَ: مَا فُتِحَتِ الدُّنْيَا عَلَى عَبْدٍ إِلَّا مَكْرًا بِهِ، وَلَا زُوتَ عَنْهُ إِلَّا نَظَرًا لَهُ. كَمَا رَوَيْنَا فِي أَخْبَارِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى

(١) السَّبْلَةُ: طَرَفُ الشَّارِبِ مِنَ الشَّعْرِ، وَمَقْدَمُ اللَّحْيَةِ.

(٢) تَلَفَ بِالْأَصْلِ قَدَرَ كَلِمَةٍ أَوْ كَلِمَتَيْنِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ.

إليه: تدرى لم ابتليتُ آدم بأكل الشَّجَرَة؟ لأننى جعلتُ معصيته سبباً لعمارة الدنيا». فينبغى فى دليل الخطاب أن تكون الطاعة سبباً لخرابها بالزهد فيها. فصَحَّ بذلك الخبر المشهور عن عيسى عليه السلام، وقد رويناه مسنداً من طريق: «حب الدنيا رأسُ كلِّ خطيئة»، لأنه كان أساسها، فينبغى فى دليله أن يصير بُغْضُهَا رأسَ كل طاعة، ولكن لا يسع ذلك العامة، لأنهم مُرادون بالعمارة، وصلاح ذلك لنفرٍ من الخاصَّة؛ لأنَّ نقصانَ عددهم من الكافَّة لا ينقُضُ عِمارة الدنيا، إذ المراد عمارتها بأهلها من أهل الهوى والشَّهوات.

فقد رويانا فى أخبار آدم ﷺ: أنه لما أكلَ من الشَّجَرَة تحركت معدته لخروج الثَّفل، ولم يكن ذلك مجعولاً فى شىءٍ من أطعمة الجنة إلا فى هذه الشجرة، ولذلك نهىَ عن أكلها. قال: فجعل يدور فى الجنة. فأمر الله ملكاً يخاطبُهُ، فقال: قل له: أى شىء تريد؟ فقال له آدم: أريد أن أضع ما فى بطنى من الأذى. فقيل للملك: قل له: فى أى مكان تضعه؟ أعلى الفرش؟ أم على السرر؟ أم على الأنهار؟ أم تحت ظلال الأشجار؟ هل ترى هاهنا موضعاً يصلح لذلك؟! ولكن اهبط إلى الدنيا. قال: فتلطَّفَ الله له بهذا المعنى، فأهبط إلى الأرض. فكان أوَّلَ ما صنع فى الأرض أنه أحدثَ، فصارت الدنيا كنيفَ العقلاء، وسجنَ الأقوياء. ثم هى بعدُ للغافلين بستانٌ، وللمسلمين مارستانٌ، كلُّ من فيها عليل، لكن يتفاوتون بمعنيين: علَّة دون علَّة، وسُقْم بجارحة دون جارحة، فمن صحَّ وعُوفى، فخرج من المارستان (...). فخاف وآوى إلى ظلِّ رحمة وجنان. فهذا من المقربين بزهدِهِ، المُخْرَجِينَ إلى أنسِ النور من وحشة ظلمة فقده.

فلما شهدها العقلاء كنيفاً، جعلوا لا يدخلون فيها إلا حاجةً أو ضرورةً، فكلما أغنوا من ذلك كان أحبَّ إليهم. فهذه شهادة عقلية، دون الشهادة الأولى اليقينية. وقد نغص الله فاكهة الدنيا وغيرها بحشو العَجَم والثَّفل؛ ليزهِّد فيها، وأخبر أنها مقطوعة ممنوعة؛ ليرغَّب فى الدائم الموهوب، بتدبر العلم من لطيف الفهم (...)(١)

(١) تلف بالأصل فى الموضعين قدر ثلاث كلمات.

وكان بعضُ العلماء يقول: ما سطع لى زينةٌ من زُخرف الدُّنيا إلا كُشِفَ لى باطنه، فظهر لى عزوفُ عنه.

فهذه عنايةُ الله بمن ولىه من أوليائه المقربين منه. فمن شهدَ الدنيا بأولِ وصفِها، لم يغترَ بآخرِها. ومن عَرَفَها بباطنِ حقيقتها لم يُعجب بظاهرِها. ومن كُوشِفَ بعاقبتها لم يستهوهِ زُخرفُها، ولم يَستَمِلْهُ رونقُها.

وكان عيسى عليه السلام يمثلُ علماءَ الدُّنيا بالكُنف، على معنى صورةِ الدُّنيا؛ لأنَّهم علماؤها، وعقلاءُ ظاهرِها، غافلون عن الآخرة، وغائبون عن شهادةِ الباقيةِ الناجزة، كما قال خالقهم: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧] - فيقول: «ويلكم علماءُ السَّوءِ، مثلكم مثلُ قناةٍ حَشٍّ؛ ظاهرُها جَصٌّ، وباطنُها نَتْنٌ. ويلكم علماءُ السَّوءِ، إنَّما أنتم مثلُ قبورٍ مَشِيدَةٍ، ظاهرُها مَشِيدٌ، وباطنُها عظامُ الموتى. يا علماءَ الدُّنيا، إنَّما أنتم مثلُ شجرةِ الدَّقْلَى، نورُها حَسَنٌ، وطعمُها مرٌّ، أو سُمٌّ يقتل. يا علماءَ الدُّنيا، مثلكم مثلُ صخرةٍ فى فمِ النَّهرِ، لا هى تشربُ الماءَ، ولا تتركُ الماءَ يخلصُ إلى الزَّرْعِ فينتفع به، كذلك أنتم قعدتم على طريقِ الآخرةِ، لا تسلكون، ولا تتركُون السَّالِكِينَ». إلى غير ذلك، ممَّا يصفهم به على مثال صفات الدنيا.

وقد كان مالكُ بن دينار يقول: اتَّقُوا السَّحَّارَةَ، فإنها تسحرُ قُلُوبَ العلماء. يعنى: الدُّنيا. وروينا معناه مسندًا: «إنَّى قد تركتكم على المحجَّةِ البَيضاءِ، ليها كنهارِها. وإنَّى لا أخافُ عليكم الفقرَ، ولا العيلةَ بَعْدى، وإنَّما أخافُ عليكم دُنْيَا تُفْتَحُ لكم، تأخذُ أعناقكم، فتَهْلِكُكم كما أهْلَكَتْ مَنْ قَبْلَكم. ألا فاتَّقُوا الدُّنْيَا، واتَّقُوا النَّسَاءَ». هذا مختصر من ثلاثة أحاديثٍ بأسانيدٍ متفرقة.

فمثلُ بنى آدم الغافلِ، المغترِّ بها، الجاهلِ بعاقبتها، مثلُ دُودِ القَرِّ، لا يزال ينسجُ على نفسه بجهلِه، وعدم معرفته بعاقبتِه، حتى يصيدَ نفسه، فيرومَ الخروجَ فلا يجدُ له مخلصًا، فيموتُ فى نَسْجِه، فصارَ عمله ونَسْجُه وكَدْحُه لغيره منعمًا به، وماتَ هو به. كذلك من جمعَ مالًا لذريَّتِه، يُغنيهم فى الدُّنيا بفقرِه فى

الآخرة، ويُنجيهم به من الذلِّ بذلِّ نفسه، وهلكته في عاقبته، فصار نعيمه لهم، وشقاؤه عليه، ترفهوا فيه بعده، وهلك هو به بعدهم. وَمَنْ حَرَصَ عَلَى الدُّنْيَا بِالْبَاطِلِ فَقَدْ قَتَلَ نَفْسَهُ. وقد قيل: بَعْدًا وَسُحْقًا لِقَتِيلِ الدُّنْيَا، لَا يُقَادُ لَهُ مِنْهَا.

فإن قوى حرصه عليها، واشتدَّ عشقه لها، قتلَ غيره؛ لغلبة هواه، وقلة مبالاته لمن صحبه ووالاه، واطراحه لأحكام مولاؤه، قال الله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]. وقال في قتل غيره بصدده إياه عن سبيل الله: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْآخِبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤].

وقد روينا في أخبار عيسى عليه السلام: أنه مرَّ في سياحته - ومعه طائفة من الحواريين - بذهب مصبوب في أرض، فوقفَ عليه، ثم قال: هذا القاتول، فاحذروه. ثم جازَ وأصحابه، فتخلفَ ثلاثةٌ لأجلِ الذهب، فأقام اثنان عليه، ودفعَا إلى واحد شيئاً منه يشتري لهم من طيبات الدنيا من أقرب الأمصار إليهم. فوسَّوسَ إليهما العدو: تَرْضَيَانِ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْمَالُ بَيْنَكُمْ أَثْلًا؟ اقْتُلُوا هَذَا، فَيَكُونَ الْمَالُ بَيْنَكُمْ نَصْفَيْنِ. فأجمعا على قتله إذا رجعَ إليهما. قال: وجاءَ الشيطانُ إلى الثالث، فوسَّوسَ إليه: أَرْضَيْتَ لِنَفْسِكَ أَنْ تَأْخُذَ ثُلُثَ الْمَالِ؟ اقْتُلُهُمَا، فَيَكُونَ الْمَالُ كُلُّهُ لَكَ. قال: فاشتري سمًّا، فجعله في الطعام. فلما جاءَهما به وثبَا عليه فقتلاه، ثم قعدَا يأكلان الطعام، فلما فرغا مَاتَا. فرجع عيسى، عليه السلام، من سياحته، فنظرَ إليهم حول الذهب صرعى، والذهب بحاله. فعجب أصحابه، وقالوا: ما شأن هؤلاء؟ فأخبرهم بهذه القصة.

وقيل لابن المبارك: مَنْ النَّاسُ؟ قال: العلماءُ؟ قيل: مِمَّنِ الْمَلُوكُ؟ قال: الزَّاهِدُونَ.

وروينا عن ابن المسيب عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا أَدْخَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْحِكْمَةَ قَلْبَهُ، وَأَنْطَقَ بِهَا لِسَانَهُ، وَبَصَّرَهُ دَاءَ الدُّنْيَا وَدَوَاءَهَا، وَأَخْرَجَهُ مِنْهَا سَالِمًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ».

فَبُنُورِ الْحِكْمَةِ أَبْصُرْتَ دَاءَ الدُّنْيَا، وَعَرَفْتَ دَوَاءَهَا، فَوَضَعْتَ الدَّوَاءَ عَلَى مَعَاقِرِ

الدَّاءُ فَبَرَأَ، وَلَا تَرَى ذَلِكَ قَبْلَ نُورِ الْحِكْمَةِ، وبِالزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا إِذْ خَرَجْتَ مِنْهَا وَرُئِيَ الْحِكْمَةُ، فَأُخْرِجْتَ مِنْ ظُلُمَاتِ الْهَوَى إِلَى نُورِ التَّقْوَى، إِذْ لَا يُبْصِرُ الْعَبْدُ عَيْبَ مَا هُوَ فِيهِ، وَلَا يَعْرِفُ قُبْحَهُ حَتَّى يُفَارِقَهُ إِلَى هَادِيهِ.

وفى الخبر: «الدُّنْيَا دَارٌ مِّنْ لَا دَارَ لَهُ، وَلَهَا يَجْمَعُ مِنْ لَا عَقْلَ لَهُ». وكان الحسن البصري رحمه الله يقول: رَأَيْتُ سَبْعِينَ بَدْرِيًّا، كَانُوا - وَاللَّهِ - فِيمَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ أَزْهَدَ مِنْكُمْ فِيمَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ. وعنه فى أخبار: كَانُوا بِالْبَلَاءِ وَالشَّدَّةِ تَصْيِيهِمْ أَشَدَّ فَرَحًا مِنْكُمْ بِالْخَصْبِ وَالرِّخَاءِ. لو رَأَيْتُمُوهُمْ قَلْتُمْ: مَجَانِينَ، وَلَوْ رَأَوْا خِيَارَكُمْ قَالُوا: مَا لَهُؤُلَاءِ مِنْ خَلَاقٍ. وَلَوْ رَأَوْا شِرَارَكُمْ قَالُوا: مَا يَوْمُنُ هَؤُلَاءِ بِيَوْمِ الْحِسَابِ. قال: وكان أَحَدُهُمْ يُعَرِّضُ لَهُ الْمَالُ الْحَلَالَ فَلَا يَأْخُذْهُ، وَيَقُولُ: لَا حَاجَةَ لِي بِهِ، أَخَافُ أَنْ يَفْسُدَ عَلَى قَلْبِي.

فمن كان له قلبٌ حفظه من فسادِهِ، وخَافَ من تَغْيِيرِهِ وإِبْعَادِهِ، وَعَمِلَ فى أسباب صلاحِهِ وإِرشادِهِ. ومن لم يكن له قلبٌ، فهو يَتَقَلَّبُ فى ظُلُمَاتِ الْهَوَى، فربما انقلبَ على وجهِهِ؛ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، أو يكون من أهل الرِّضَا بالدُّنْيَا، وَأَهْلِ الْغَفْلَةِ عن آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، فيكون قد رَضِيَ بِلا شَيْءٍ، وَآثَرُهُ على من لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، كوصف من أخبر الله تَعَالَى عنه فى قوله تَعَالَى: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَظْمَأْتُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس: ٧]، فيستحق الإِعْرَاضِ من الحبيبِ، وَيَسْتَوْجِبُ الْمَقْتَ مِنَ الْقَرِيبِ، كمثل مَنْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بالإِعْرَاضِ عَنْهُمْ، وَتَرَكَ الْقَبُولَ مِنْهُمْ، إِذْ يَقُولُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩ - ٣٠]. وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨] أَى: مجاوزًا لما نُهِى عنه، مَقْصِرًا عَمَّا أُمِرَ بِهِ. وقيل: مُقَدِّمًا إِلَى الْهَلَاكِ.

وقد نَهَى اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ أَنْ يَوْسَعَ نَظْرَهُ إِلَى أَهْلِ الدُّنْيَا، مَقْتًا لَهُمْ، وَأَخْبَرَ أَنْ مَا أَظْهَرَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا فَتْنَةً لَهُمْ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ الْقِنَاعَةَ وَالزُّهْدَ خَيْرٌ وَأَبْقَى. تَنْتَظِمُ هَذِهِ الْمَعْنَى فى قوله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَمْدَنَّ عَيْنِكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿طه: ١٣١﴾. قيل: القناعة. وقيل: قوتٌ يومٌ بيوم. ويقال: الزهد في الدنيا، وهذا الوجه أشبه بكتاب الله تعالى، بدليل قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الاعلى: ١٧]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾. يعنى: رزقه في الآخرة بالزهد في العرض الأدنى. وقال أيضاً في مثله: ﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [هود: ٨٦] يعنى: القناعة. وقيل: الحلال، أى: خيرٌ من التكاثر والتظاهر بالأعراض والأطلال، إذ هو أحمدُ عاقبةً في المآل. وفى خبر: أن رسول الله ﷺ مرَّ بعشارٍ من النوق حُفَلٍ، وهى الحواملُ، وكانت من أنفُسِ أموالهم، وأحبَّه إليهم، وهى الراحلةُ من الإبل، التى ضرب رسول الله ﷺ المثل للخيار القليل، مع وجود الكثرة من الناس، فقال: «الناسُ كإبلٍ مائة لا تكادُ تجد فيها راحلةً»^(١)؛ لأنها تجمع الظَّهْرَ واللَّحْمَ واللَّبَنَ والوَلَدَ والوَبَرَ، ضربه مثلاً لخيار الناس. أى: الناس كثيرٌ، كالإبل الغرس الكليّة، والراحلة التى تجمع هذه الخمس من الإبل الحمولة قليلٌ، فكذلك المؤمنُ الحاملُ للخصال الخمس عزيزٌ قليلٌ فى هذا الوقت بين الجُملة والكثرة، ممَّن جمع الزُّهْدَ، والعِلْمَ، والعملَ، والخوفَ، والورعَ.

قال: فلما مرَّ رسول الله ﷺ بالعشارِ الحواملِ أعرَضَ عنها. فقيل له: يا رسول الله هذه أنفُسُ أموالنا، لم تنظر إليها. فقال: نُهِيتُ عن ذلك، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا تَمْدَنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ فهذا أوَّلُ الخطابِ ﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١] أى: الزُّهْدُ فيها أحسن من زينتها، ليواطئ قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، قيل: أرْهَدُ فى الدنيا، أَتْرَكَ لزيْنَتِها.

وكذلك لما تزيّنت أم سلمة، رضى الله عنها، بخوصٍ من ذهبٍ، جعلته فى أذنها. قالت: فلما دخل رسول الله ﷺ رفعتُ قناعى عن أذنى، رجاء أن ينظر إلى زينتى. قالت: فأعرض، ولم ينظر. فقلت: يا رسول الله، إنما تزيّنتُ لك.

(١) مرّ هذا الحديث من قبل باختلاف يسير، وهو فى الإتحاف ٣٢٩/٩ - ٣٣٠.

فقال: «عن زَيْتِكَ أَعْرِضْ، ما ضَرَّكَ لو جَعَلْتَهُ مِنْ فِضَّةٍ، ثم لَطَّخْتَهُ بِزَعْفَرَانٍ، فكانَ كَأَنَّهُ ذَهَبٌ». فأمرها بفعلٍ من لا يُحِبُّ الدُّنْيَا لَعَيْنِهَا، وإنَّما يَدْخُلُ فِيهَا لظَاهِرِ مَرَاقِفِهَا؛ لأنَّ الْفِضَّةَ وَالزَّعْفَرَانَ، وإنَّ أَشْبَهَتِ الذَّهَبَ فِي اللَّوْنِ، فَإِنَّمَا هُوَ مَتَاعٌ فِي الْوَقْتِ، لا أَنَّ لَهَا قِيَمَةَ الذَّهَبِ وَقَدْرَهُ، ولا وُجُودَ حِلَاوَتِهِ بِالرَّغْبَةِ فِي قَنِيتِهِ. فكذلكَ حَالُ الزَّاهِدِ فِي حِلَاوَةِ الدُّنْيَا لَعَيْنِهَا، يستعمل الدُّنْيَا فِيما قُرْبُ وَدَنَا، وَيَبْدَلُ دَقِيقًا مِنْهَا ذَا قِيَمَةٍ بيسيرِ دُونِهِ. وكما قال في الخبر الذي ذكر فيه: «أَنَّ الدُّنْيَا تُفْتَحُ عَلَى أُمْتِي، فَيَتَنَافَسُونَ فِيهَا، وَتُهْلِكُهُمْ كَمَا أَهْلَكَتَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ». قال في آخره: «فَلَيْتَ أُمْتِي لا يَتَحَلَّوْنَ بِالذَّهَبِ».

وكان أبو هريرة، رضى الله عنه، يقول: إِنِّي لا أُحَلِّي بِنَتِي الذَّهَبَ؛ أَخَافُ عَلَيْهَا الدُّنْيَا. ولَمَّا نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَرْأَةِ وَعَلَيْهَا طَوْقٌ مِنْ ذَهَبٍ، قال: «أَيْسَرُكَ أَنْ يُطَوِّقَكَ اللَّهُ بِطَوْقٍ مِنْ نَارٍ؟» قالت: لا. قال: فَانْزَعِي هَذَا. وقال لِلْأُخْرَى فِي السَّوَارِينِ: «أَيْسَرُكَ أَنْ يُسَوِّرَكَ اللَّهُ بِسَوَارِينَ مِنْ نَارٍ؟» قالت: لا. قال: فما هذا فِي يَدِكَ؟ قال: فَرَمْتُ بِهِمَا، فلا يَدْرِي مَنْ أَخَذَهُمَا».

ونَظَرَ ﷺ إِلَى فَاطِمَةَ، رضى الله عنها، وَفِي عُنُقِهَا عِقْدٌ مِنْ خَرَزٍ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَعَلَى بَابِهَا سِتْرٌ، فَرجع وَلَمْ يَدْخُلْ، وقال: «ما لِي وَلِلدُّنْيَا». فَتَزَعَّتْ ذَلِكَ، فَأَرْسَلَتْ بِهِ إِلَى بَعْضِ الْفُقَرَاءِ.

ورَأَى ﷺ فِي يَدَيِ الْحَسَنِ أَوْ الْحُسَيْنِ قُلْبَيْنِ مِنْ فِضَّةٍ، قَدْ زَيَّنَتْهُ بِهِمَا فَاطِمَةُ، فَتَزَعَّهُمَا، وَأَمَرَ بِلَالًا أَنْ يَتَصَدَّقَ بِثَمَنِهِ عَلَى أَهْلِ الصَّفَّةِ.

وَدَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ، فَراى عَلَى بابِها سِتْرًا فِيهِ صُورَةٌ، فَهَتَكَهُ، وقال: «إِنِّي إِذَا رَأَيْتُهُ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا». وَأَهْدَتْ لَهَا امْرَأَةً فَرِاشًا، ففَرَشَتْهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وكان فَرِاشُهُ عِبَاءَةً مَطْوِيَّةً، فَلَمَّا اضْطَجَعَ عَلَيْهِ أَنْكَرَ لِينَهُ وَتَوَطُّتُهُ وَوِطْأَهُ، فَسَأَلَهَا فَأخْبَرَتْهُ، فَقَالَ: «رُدِّي الْعِبَاءَةَ».

وفِي هَذَا أَخْبَارٌ يَكْثُرُ رَسْمُهَا، وَلَمْ نَقْصِدِ جَمْعُهَا، وَفِيما ذَكَرْنَا كَفَايَةً وَبِلاغٌ لِمَنْ وَفَّقَ الْعَمَلَ بِهِ. كُلُّ ذَلِكَ يَحِثُّ بِهِ ﷺ عَلَى الزَّهْدِ، وَيَدُلُّ بِهِ عَلَى الْقِلَّةِ وَالْفَقْرِ، وَلَيْسَنَ بِذَلِكَ سُنَنًا مِنْ أَقْوالِهِ وَأَفْعَالِهِ، لِيَتَّبِعَ عَلَيْهَا، وَيُقْتَفَى أَثَرُهُ فِيهَا، رَحْمَةً مِنْ

الله، وذكرى لأولى الأبواب، ومحجةً وسنةً للقاصدين إلى الله من الأحباب.

وفى خبر عن حذيفة: «من آثر الدنيا على الآخرة؛ ابتلاه الله بثلاث: همًا لا يفارق قلبه أبدًا، وفقْرًا لا يستغنى أبدًا، وحِرْصًا لا يقنع أبدًا». وروينا حديثًا مرسلاً عن علي بن معبد عن علي بن أبي طلحة، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يَسْتَكْمِلُ العبدُ الإيمانَ حتى يكون أن لا يُعرَفَ أحبَّ إليه من أن يُعرَفَ، وحتى يكون قلةُ الشيء أحبَّ إليه من كثرتِه».

ورويانا عن عيسى عليه الصلاة والسلام: «الدُّنيا قنطرةٌ خُلِقَتْ، يُعْبَرُ عليها إلى الآخرة، فاعْبُرُوها ولا تَعْمُرُوها». وقال له رجل: احْمِلْنِي مَعَكَ فِي سِياحتِكَ. فقال: «أَخْرِجْ مَالَكَ وَالْحَقْنِي». قال: لا أستطيع. فقال عيسى عليه السلام بشدة: «ما يَدْخُلُ الْغِنَى الْجَنَّةَ». أو قال: «بِعَجَبٍ».

وقال له الحواريون: يا نبي الله، لو أمرتنا أن نبني بيتًا نعبُدُ الله فيه. فقال: اذهبوا، فابنُوا بيتًا على الماء. قالوا: كيف يستقيم بِنِيان على الماء؟! قال: فكيف تستقيم عبادة على حبِّ الدُّنيا. ورويناه بمعنى آخر: أنهم قالوا له: نريد أن نبني بيتًا نجتمع فيه نَعْبُدُ ونتدارسُ، فاختر لنا موضعًا نبني فيه. فقال: «تعالوا»، فمشوا معه، فوقف على قنطرة، فقال: «ابنُوا ههنا». فقالوا: أنبني على قنطرة وهي مدرجة الناس، لا يدعوننا فيها. فقال: «كذلك الدنيا، مدرجة الموتى، وأنتم تبنون عليها، ولا يدعونكم فيها». وقال عليه السلام: «لا يبلغ عبدٌ حقيقة الإيمان حتى لا يُحبَّ أن يُحمدَ بعبادة الله، وحتى يَسْتَوِيَ عنده ذامُه ومادحُه». وقال مرة: «الإخلاصُ أن لا تُحبَّ محمَّدةُ الناس ولا تكره مذمتهم».

وقد كان بشر بن الحارث يقول: لا تَحْسُنُ التَّقْوَى إِلَّا بِزُهْدٍ. وقال مرة: العبادة لا تليق بالأغنياء، مثل العبادة على الغنى مثل روضة على مزبلة، ومثل العبادة على الفقير مثل عقد جوهر في جيد الحساء. وقد استنبطنا معنى ذلك من كتاب الله تعالى، بوصف الفقراء للعبادة في قوله عز اسمه: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا﴾ [البقرة: ٢٧٣]، ثم قال في وصفهم: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩]، فحَسُنَتْ لبسة الصلاة عليهم لحسن سيماهم بالفقر، وجهل من لم يعرفهم وحسبهم أغنياء،

للعفة والحياء، فلولا أن الغنى نقص لحالهم لم يُجهَل مَنْ وَسَمَهُمْ به، إذ جهل سيمَاهُم بالفقر، الذى هو كمال حالهم، تمامًا على الذى أحسن به من العبادة إليهم. فتدبروا. وروينا فى وصية لقمان لابنه، وهو يحذره مداخل العدو، قال: «وإذا جاءك من قبل الفقر فأخبره: أن الغنى من أطاع الله، والفقير من انتهك معصيته. وإذا شهِى إليك الغنى فأخبره: أنه لا يحسن جمع الغنى والقراءة».

وقال بعض السلف: أبى أهل العلم بالله أن يسمعوا الحكمة والموعظة إلا من الزاهدين فى الدنيا. وقالوا: ليس أهل الدنيا لذلك أهل، ولا يليق بهم. وفعله رجاء بن حيوة، عالم أهل الشام، ولم يستحى فى الله وجهه وجهه. بلغنا أنه كان يجلس إلى رجل زاهد بيت المقدس، فيستمع إليه، فجاء يوماً إلى مجلسه، وقد اجتمع الناس، فجلس وراءهم، وهو يحسب أنه فيهم، فلما أبطأ تكلم شيخ فى المجلس، وهو مؤذن مسجد بيت المقدس، لا بأس به، فأنكر رجاء ابن حيوة صوته، فقال: من هذا المتكلم؟ فقال الشيخ: أنا رحمك الله. فقال له: اسكت عافاك الله، فإننا نهينا أن نسمع الزهد إلا من أهله، أو قال: إلا من الزهاد.

وقال نحوه سلمان الفارسي لعمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فى جعل توهمه عليه، وذلك أنه حمل إليه أبراد؛ فكسا الصحابة برداً برداً. فلما كان يوم الجمعة خرج عمر فى بردين يخطب. فلما قال فى وعظه: ألا اسمعوا. قال: فقام سلمان فقال: والله لا نسمع، قال: ولم؟ قال: لأنك كسوتنا برداً برداً، وخرجت علينا فى حلة. فقال: رحمك الله، إني غسلت ثوبى ولم يكن لى غيره، فاستعرت هذا، وهو برد عبد الله بن عمر. فقال: قل الآن حتى نسمع.

فمعنى قوله: لا نسمع، أى: لا يلتبس فى قلوبنا، ولا ننتفع بسمعه، إذ كنت غير مستعمل له.

وهذا أبو عبد الله أحمد بن حنبل، رحمه الله، مع موضعه من الله، وإنه من أئمة المسلمين، لما سئل عن الصدق، ما هو؟ قال: هو الإخلاص. قيل: ما الإخلاص؟ قال: هو الزهد. فقيل: يا أبا عبد الله، أى شىء الزهد؟ فسكت. فقال: سلوا الزهاد، سلوا بشراً. وقال أبو طالب الوراق: دخلت عليه فى جماعة من أصحاب الحديث، كنت قد نسخت لهم كتاب الزهد، الذى جمعه، لأقرأه

لهم عليه، ففُرشَ لنا فى الدَّارِ حصيرٌ جديدٌ، ونزل إلينا من عُرفةٍ له، فلما قعدَ وأخذَ الأصلَ بيده أطبقهُ، ثم قال: يا أبا طالب، الزَّهْدُ لا يُقرأ إلا على الزَّهْدِ. وكشَطَ الحصيرَ الجديدَ من تحَتنا، وقعدنا على التُّرابِ.

وقال الثورى والفضيل: جُعِلَ الشَّرُّ كُلُّهُ فى بيت، وجُعِلَ مِفْتَاحُهُ الرَّغْبَةُ فى الدُّنيا. وجُعِلَ الخَيْرُ كُلُّهُ فى بيت، وجُعِلَ مِفْتَاحُهُ الزَّهْدُ. وكان السَّلَفُ يقولون: كَفَى به ذَنْبًا، لا يُستَغْفَرُ مِنْهُ حُبُّ الدُّنيا. وأشدُّ من ذلك ما رواه سُفيان عن يحيى ابن سليم الطائفى، رفعه إلى رسولِ الله ﷺ: «لو أنَّ عَبْدًا عبدَ الله تعالى عبادةَ أهلِ السموات والأرضِ ولقيه مُحِبًّا للدُّنيا، لأقامه اللهُ تعالى فى الموقفِ غداً مقامًا شهَرَهُ به بين الخلائقِ، فتودى عليه: ألا إنَّ فلانَ ابنَ فلانٍ قد أحبَّ ما أبغَضَ اللهُ». .

وقال يحيى بن جابر الطائى: قال عمرو بن الأسود العنسى: لا ألبسُ مشهورًا أبدًا، ولا أنام بليلٍ على دثارٍ أبدًا، ولا أركب على مأثورٍ^(١) أبدًا، ولا أملأ جوفى من طعامٍ أبدًا. فقال عمرُ رضى الله عنه: مَنْ سرَّه أن ينظر إلى هدى رسولِ الله ﷺ فلينظر إلى عمرو بن الأسود. وقد صدق رضى الله عنه؛ لأنَّا رُويَنا فى أخبارِ زُهدِ رسولِ الله ﷺ: كنتَ إذا نظرتَ إلى قميصِ رسولِ الله ﷺ حسبتهُ قميصَ زِيَّاتٍ. يعنى بقالا^(٢).

(١) المأثور: اللَّيْنُ السَّهْلُ.

(٢) لعله يقصد الخبر الضعيف الذى أخرجه فى الشمائل عن أنس بن مالك قال: «كان رسولُ الله ﷺ يكثر دهنَ رأسِهِ، وتسريحَ لحيته، ويكثر القناعَ، حتى كأن ثوبه ثوبَ زِيَّاتٍ». وهو ضعيف، وقال عنه ابن كثير: فيه غرابة ونكارة. وعلى ضعفه ونكارتة، فقد فسره العلماء بما يليق برسولِ الله ﷺ وسنته. فالقناع المذكور فى الخبر: خرقة تُلْقَى على الرأسِ تحتِ العمامة بعد استعمالِ الدهنِ وقايةً للعمامة من أثر الدهنِ. والمراد بالثوب فى الحديث هو هذا القناع الذى يتقى به رسولُ الله ﷺ أثر الدهنِ أن يصيب العمامة أو القميص، كما ذهب إلى ذلك العلماء. فإن النبی ﷺ كان أنظف الناس ثوبًا، وأحسنهم هيئة، وأجملهم سَمَةً، وأطيبهم رائحة. وقد ثبت أنه ﷺ رأى رجلاً عليه ثياب وسخة، فقال: «أما كان يجد هذا ما بغسل به ثوبه». انظر: جمع الوسائل فى شرح الشمائل، للشيخ على بن سلطان محمد القارئ ١٠٢/١ - ١٠٣. وانظر: مختصر الشمائل المحمدية، اختصره وحققه الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى.

قلت: وبهذا وغيره يتضح لنا عدم مناسبة ألفاظ الشيخ أبى طالب - غفر الله له وسامحه - لصفة رسولِ الله ﷺ، إذ خاتته الألفاظ فى التعبير. كما أن نظافة الثوب من الإيمان، ولا تتنافى إطلاقًا مع الزهد والتقشف، كما يظن جهلة الصوفية والزهاد.

وكذلك قال عمرُ بنُ عبدِ العزيز، رضى الله عنه، لما حدثه أبو سلام الحبشى عن رسول الله ﷺ: «يدخل فقراءُ أمتي الجنة قبل أغنيائهم. قيل: من هم؟ قال: الشعثُ رؤوسًا، الدُّنسُ ثيابًا، الذين لا يفتح لهم السُّدد، ولا يَنكحون المتنعمات». فبكى عمر حتى اخضَلَ لحيته، وقال: لست منهم، قد فُتحت لى السُّدد، يعنى: الأبواب، ونكحتُ المتنعمات، يعنى أمُّ البنين بنت عبد الملك بن مروان. ولكن لا جرم، والله لا أذهن رأسى حتى يشعث، ولا أغسل ثوبى حتى يدنس^(١). فعَدَّ الخصلتين من أربع، تأسيًا بالفقر.

وروينا عن عيسى ابن مريم عليه السلام، فيما أوحى الله إليه: «يا ابن مريم، ابك أيام الحياة بكاءً من ودَّع الدنيا، وارتفعت رغبته إلى ما عند الله، اكتف بالبلغة من الدنيا، ليكفك منها الجشِبُ الحَشِنُ، بحقِّ أقولُ لك: ما أنت إلا بيومك وساعتك، مكتوبٌ عليك ما أخذت من الدنيا، وفيما أنفقتُهُ، فاعمل على حساب هذا، فإنك مسئولٌ عنه. لو رأت عيناك ما أعددت للصالحين لزهقت نفسك». وكان عيسى عليه السلام يقول: «حلاوة الدنيا مرارة الآخرة، وجودة الثياب خيلاء القلب وكبره، وملء البطن جمام النفس واجتماعها. بحقِّ أقولُ لكم: كما لا يلدُّ مريضٌ بطيب الطعام، كذلك لا يجد حلاوة العبادة من أحبِّ الدنيا».

فمن الزُّهد فى الدنيا: تركُ الملبسِ النَّاعمِ المنظورِ إليه المرتفع، واجتنابُ التُّزْهاتِ من لطائفِ الطَّعامِ، والتَّفَتُّقِ فى الشَّهواتِ التى يَرغَبُ فيها المتنعمون، وتركُ الزينةِ والمفاخرِ من الآلةِ والأثاثِ الذى يتنافسُ فيه المترفون.

ومن الزُّهد أن يكونَ الشَّيْءُ الواحدُ يُستعملُ فى أشياء كثيرة، وكذلك كان سيرة السلف فى الأثاث، وهو من التقلُّل، كما أن أبناء الدنيا يستعملون للشَّيْءِ الواحدِ أشياء كثيرة، وهو وصفٌ من التكاثر، وذلك من أبواب الدنيا.

كما كان السلف يقولون: أولُ النَّسكِ الزُّيُّ. وقال بعض العلماء: من رقَّ ثوبه رقَّ دينه. وقال ابن مسعود رضى الله عنه: لا يُشبهُ الزُّيُّ الزُّيُّ حتى يُشبه القلبُ القلبَ. فتدبر قولَه: إذا رأيت اثنين زيَّهما واحد، وشمائلهما واحد فى اللبسة

(١) أيضاً مثل هذه الأخبار فيها من الضعف والنكارة ما فيها. راجع التعليق السابق. كما أن دلالة دنس الثياب هنا تختلف عن دلالتها لدينا، وهى مبالغة فى ترك مظاهر الترف والترفيه.

والآداب، فاعلم أنَّ قَلْبَ أَحَدُهُمَا عَلَى قَلْبِ الْآخَرِ فِي الْمَجَانَسَةِ، أَوْ يَقَارِبُهُ فِي الْحَالِ وَالْهِمَّةِ. وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا ظَاهِرُهُ ظَاهِرَ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ بَاطِنُهُ بَاطِنُ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، قَدْ اتَّفَقَا مِنْ جِهَةٍ، أَوْ دَخَلَا مِنْ بَابٍ^(١). كَمَا قَالَ مَلِكٌ، وَرَأَى غَرَابًا يَنْتَقِلُ مَعَ حَمَامَةٍ فِي كُلِّ مَكَانٍ، فَتَعَجَّبَ، وَقَالَ: كُلُّ طَيْرٍ وَشَكْلُهُ، وَلَيْسَ هَذَا شَكْلُ كَهَذَا، ثُمَّ مَشَى، فَإِذَا هُمَا عَرَجَانِ، فَقَالَ: مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ اتَّفَقَا.

وَحَدَّثَنَا عَنْ الْمُرُوزِيِّ، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ: إِذَا رَأَى الرَّجُلُ الَّذِي دُعِيَ إِلَى دَعْوَةِ فِرَاشٍ دِيْبَاجٍ أَوْ إِنَاءٍ فَضَّةٍ وَنَحْوِهِ، أَتَرَى أَنْ يَخْرُجَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَدْ خَرَجَ حَذِيفَةُ لَمَّا رَأَى شَيْئًا مِنْ زَيِّ الْأَعَاجِمِ، وَقَالَ: مِنْ تَزْيَا بَزَى قَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ. وَخَرَجَ أَبُو أَيُّوبَ لَمَّا رَأَى الْبَيْتَ مُسْتَرًّا. وَخَرَجَ أَبِيٌّ مِنْ نَحْوِ هَذَا.

وَفِي الْخَبَرِ: «الْبَذَاذَةُ مِنَ الْإِيمَانِ». سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ: التَّقَارُبُ فِي اللَّبَاسِ. وَقَدْ جَاءَ بِلَفْظٍ آخَرَ مَعْنَاهُ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَبَدِّلَ، الَّذِي لَا يُبَالِي مَا لَيْسَ». وَالْإِبْتِدَالُ: هُوَ التَّقَارُبُ وَالِدُّنُوُّ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْمُسْتَعْمَلِ الْمُتَبَدِّلِ، كَالْمَلْبُوسِ مِنْهُ. يُقَالُ: مِنَ الْبَذَاذَةِ؛ إِذَا لَمْ يُبَالِ مَا لَيْسَ، أَوْ اسْتَعْمَلَ مِمَّا فِيهِ ضَعْفٌ وَدُّنُوٌّ. وَفِي الْخَبَرِ الْمَفْسَرِ: «مَنْ تَرَكَ ثَوْبَ جَمَالٍ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، تَوَاضَعًا لِلَّهِ تَعَالَى، خَيْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ حُلِّ الْإِيمَانِ أَيُّهَا شَاءَ». وَفِي لَفْظٍ آخَرَ: «مَنْ تَرَكَ زِينَةَ اللَّهِ تَعَالَى وَوَضَعَ ثِيَابًا حَسَنَةً تَوَاضَعًا لِلَّهِ تَعَالَى وَابْتِغَاءَ وَجْهِهِ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَدْخِرَ لَهُ مِنْ عِبْقَرِي الْجَنَّةِ، فِي تَخَاتِ الْيَاقُوتِ». وَلَمَّا أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَهْلَ قَبَاءَ، أَتَوْهُ بِشَرْبَةٍ مِنْ لَبَنٍ مَشْوِيَةٍ بِعَسَلٍ، فَوَضَعَ الْقَدَحَ مِنْ يَدِهِ، وَقَالَ: «أَمَّا إِنِّي لَسْتُ أَحْرَمُهُ، وَلَكِنِّي أَتْرَكُهُ تَوَاضَعًا لِلَّهِ تَعَالَى». وَأَتَى عَمْرُؤُا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِشَرْبَةٍ مِنْ مَاءٍ بَارِدٍ وَعَسَلٍ، فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، فَقَالَ: «اعْزَلُوا عَنِّي حِسَابَهَا».

وَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى نَبِيٍِّّ مِنْ أَنْبِيَائِهِ: «قُلْ لِأَوْلِيَائِي: لَا تَلْبَسُوا مَلَابِسَ أَعْدَائِي، وَلَا تَدْخُلُوا مَدَاحِلَ أَعْدَائِي، فَتَكُونُوا أَعْدَائِي، كَمَا هُمْ أَعْدَائِي». وَلَمَّا خَطَبَ بَشْرُ بْنُ مَرْوَانَ عَلَى مَنِيرِ الْكُوفَةِ، قَالَ رَافِعُ بْنُ خُدَيْجٍ: انْظُرُوا إِلَى أَمِيرِكُمْ يَعْظُ النَّاسَ وَعَلَيْهِ ثِيَابُ الْفُسَّاقِ. قُلْتُ: وَمَا كَانَ عَلَيْهِ؟ قَالَ: ثِيَابُ رَقَاقٍ.

(١) من أول الفقرة إلى هنا في الإتحاف ٣٥٧/٩.

ولما جاء عبد الله بن عامر القرشي إلى أبي ذر رضى الله عنه فى بزته، فجعل يتكلم فى الزهد، فوضع أبو ذر راحته على فيه، وجعل يضرب به. فغضب ابن عامر، فأتى ابن عمر رضى الله عنهما، فقال: ألم تر ما لقيت من أخيك أبى ذر؟ قال: وما ذاك؟ قال: جعلت أقول فى الزهد، فأخذ يهزأ بى. فقال ابن عمر: أنت صنعت بنفسك، تأتى أبا ذر فى هذه البزة، وتتكلم فى الزهد؟

وقال على كرم الله وجهه: إن الله تعالى أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا فى مثل أدنى أحوال الناس، ليقتنى بهم الغنى، ولا يزرى بالفقر فقره. وقد عوتب عمر رضى الله عنه فى لباسه، وكان يلبس الخشن من القطن، قيمة قميصه ثلاثة دراهم إلى خمسة دراهم، ويقطع ما فضل عن أطراف أصابعه، وقال: هذا أدنى إلى التواضع، وأجدر أن يقتنى بى المسلم.

وأنت بروء من اليمن إلى عمر رضى الله عنه، فقسمها على أصحاب رسول الله ﷺ برداً برداً، ثم صعد المنبر يوم الجمعة، فخطب الناس فى حلة منها، والحلة عند العرب ثوبان من جنس واحد، وكان ذلك من أحسن زيهم. فقال: ألا اسمعوا ألا اسمعوا. ثم وعظ، فقام سلمان فقال: والله لا نسمع، والله لا نسمع. قال: وما ذاك؟ قال: لأنك قد أعطيتنا ثوباً ثوباً، ورحت فى حلة، فقد تفضلت علينا بالدنيا. فتبسم، ثم قال: عجلت يا أبا عبد الله، رحمك الله، إني كنت غسأت ثوبى الخلق، فاستعرت برد عبد الله بن عمر، فلبسته مع بردى، فقال سلمان: قل الآن، حتى نسمع.

ونهى رسول الله ﷺ عن التنعيم وقال: «ألا إن عباد الله تعالى ليسوا بالمتنعمين».

وروى فضالة بن عسد، وهو والى مصر، أشعث حافياً. فقيل له: أنت الأمير، وأنت هكذا؟ فقال: نهانا رسول الله ﷺ عن الإرفاء، وأمرنا أن نحتنى^(١) أحياناً. وقال على لعمر، رضى الله عنهما: إن أردت أن تلحق بصاحبيك، فارفع

(١) الإرفاء: من الرفاهية. ونحتنى: أى نمشى بلا خف ولا نعل.

القميصَ، وانكس الإزارَ، واخصف النعلَ، وكلُّ دُونِ الشَّعْبِ.

وكذلك فى وصية رسول الله ﷺ لعائشة: «إن أردتِ اللِّحوقَ بى، فليكن عيشُك عيشَ المساكينَ، وإياك ومجالسةَ الأغنياءِ، ولا تنزعى ثوباً حتى تَرَقَّعِيه». قال: كانت لتُقَسَّم مائة ألف فى مجلسها قبل أن تقوم، وإن درَّعها لمرقوع، أو هى ترقع درَّعها حينئذٍ، ثم تُفطِرُ تلك الليلة على الخلِّ والزيتِ.

وروينا أنَّ عمر^(١) رضى الله عنه خطبَ الناسَ، فقال: أنشد الله رجلاً علِمَ فى عيًّا إلاَّ أخبرنى به. فقام شابُّ فى المجلس، فقال: يا أمير المؤمنين فىك عيبانِ اثْنانِ. قال: ما هُما رحمك الله؟ قال: تُذيل بين البردين، وتجمع بين الأذمين. قال: فما أزال بين البردين، ولا جمع بين الأذمين، حتى لقيَ الله عزَّ وجلَّ.

هكذا حدَّثناه الشيخ: «تذيل»، بالذال. فيه يبدو معنيان؛ أشهرهُما: أن تجمع بين ذيلَى ثوبك، فيتفق ذيلُ البردِ الأعلى مع ذيلِ البردِ الأسفل لطوله. أى: ولا يسعُ ذلك الجملة؛ لأن ثياب أهل الصفة كانت قصاراً، طولها أربعة أذرع، ولا يمكن التذيل فى هذا القدر، لأنَّ الثوبَ الأعلى لا يطولُ حتى يُذال، فيُجمع ذيلاهما معاً.

وأغرب الوجهين: أن معنى تذيل: أن تضع ثوبين معاً، أى تتركهما موضوعين، لذلك العربُ تقول: أذل هذا، وأشل هذا، أى ضَع وارفَع. ومن هذا ما روى عن مالكٍ رحمه الله أنه قال: إنَّ من إذالة العلم أن يُجيب العالمُ فى كلِّ ما يُسئل عنه. ورويناه مرةً: من إذالة العلم أن يُسئل عن كلِّ شىء. أى من وَضَعِه أن يُسئل عن كلِّ شىء، أى ينبغى أن يُرفع عن بعض الأشياء أن يُسئل عنها. وعلى الرواية الأخرى: من إذاله العلم، أى من وَضَعِه أيضاً، أن ييذل العلم لغيره...^(٢) بل ينبغى أن يسكت عن بعض الأشياء، توقيراً للعلم وتعظيماً. وهذا كان يشبه وصفَ مالكٍ فى تعزيزه العلم، وكثرة سكوته عن كثير ممَّا كان يُسئل عنه.

(١) انظر: الإتحاف ٩/ ٣٧٩.

(٢) تلف بالأصل قدر كلمتين.

وأنا أحسبُ أنَّ الكلمةَ، واللهُ أعلمُ، بالدَّالِ، أى: «يدل بين البردَيْنِ»، أى: يُبدِّلُ برداً ببردٍ، دَوْلَةٌ هذا، ودَوْلَةٌ ذا. وأراد أن يكون له واحد، لا يُدِيلُهُ آخَرُ.

وقد كان عمر رضى الله عنه يقول: «اخْلَوْقُوا، واخْشَوْشُوا، وَتَمَعَّدُوا، وَإِيَّاكُمْ وَزَىَّ الْعَجْمِ كَسْرَى وَقِصِرْ. واقطعوا الركب، وأنزوا على الخيل نزواً، وعليكم بالمعدية الأولى سنة أبيكم إسماعيل»^(١).

وروينا عن رسول الله ﷺ أشدَّ من هذا، أنه قال: «شرارُ أمتي الذين غَدَّوا بالنَّعِيمِ، الذين يأكلون ألوانَ الطعامِ، ويلبسون ألوانَ الثيابِ، ويتشدَّقونَ في الكلامِ».

ولما قدَّم عميرُ بن سَعْدٍ أميرُ حِمصَ، على عُمرَ رضى الله عنه، قال له: ما مَعَكَ مِنَ الدُّنْيَا يا عمير؟ قال: معى عَصَاى أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا، وَأَقْتُلُ بِهَا حَيَّةً إِنْ لَقَيْتُهَا. ومعى جِرَابِى، أَحْمَلُ فِيهِ طَعَامِى، ومعى قَصْعَتِى أَكُلُ فِيهَا، وَأَغْسِلُ فِيهَا رَأْسِى وَثَوْبِى، ومعى مِطْهَرَتِى، أَحْمَلُ فِيهَا شَرَابِى، وَوُضُوءًا لِلصَّلَاةِ، يَعْنِى السَّطِيحَةَ. فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تَبَعٌ لِمَا معى. فقال له عمر: صَدَقْتَ رَحِمَكَ اللَّهُ.

وكان عمر رضى الله عنه قد كتبَ إلى أهلِ حِمصَ: أَنْ عَدُّوا لِي فَقَرَاءَكُمْ أَقْسِمَ فِيهِمْ مَالاً، فَسَمُّوا لَهُ فِي الْكِتَابِ نَفَرًا، وَذَكَرُوا فِيهِمْ سَعِيدَ بْنِ جَذِيمَ أَمِيرَهُمْ، وَيُقَالُ: بَلْ عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ. فقال عمر: مَنْ سَعِيدُ بْنُ جَذِيمَ؟ فَقَالُوا: أَمِيرُنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: أَوْ فَقِيرٌ هُوَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، مَا فِينَا أَهْلَ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنْهُ. قَالَ: فَأَيْنَ عَطَاؤُهُ؟ قَالُوا: يُخْرِجُهُ كُلَّهُ، لَا يَتْرِكُ لِنَفْسِهِ وَلَا لِأَهْلِهِ شَيْئًا مِنْهُ. فَوَجَّهَ إِلَيْهِ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَلْفَ دِينَارٍ، وَفِي إِحْدَى الرِّوَايَاتِ أَرْبَعُمِائَةَ دِينَارٍ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَنْفَقَهَا عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ. فَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَيْهِ دَخَلَ عَلَى زَوْجَتِهِ، وَهُوَ يَبْكِي، فَقَالَتْ لَهُ: مَا شَأْنُكَ؟ مَاتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ. قَالَتْ: فُتِقَ فَتَقٌ فِي الْمُسْلِمِينَ؟ قَالَ: أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ. قَالَتْ: فَمَا هُوَ؟ قَالَ: أَتَتْنِى الدُّنْيَا، قَدْ كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ

(١) نقله صاحب الإتحاف ٣٥٨/٩ وخرجه. ومعنى تمعددوا: أى اتبعوا معد بن عدنان فى الفصاحة.

وقيل: تشبهوا بعيشه فى الغلظ والتشقق، فكونوا مثله ودعوا التمتع. فهو حث على التواضع ونهى عن الإفراط فى الترفه والتنعيم.

ﷺ فلم تُفتح الدنيا عليّ، وكنتُ في أيام أبي بكر رضى الله عنه فلم تُفتح الدنيا عليّ، وخُلِّفت إلى أيام عمر رضى الله عنه، ألا وشراً أيامى أيام عمر. ثم حدّثها، فقالت: نفسي فداؤك، فاصنع بها ما بدا لك. فقال: أو تُساعديني على ما أريد؟ قالت: نعم. قال: أعطيني خلق ذلك البرد، قال: فجعل يمزّقه، ويصرّها فيه صرّاً ما بين العشرة والخمسة والثلاثة حتى أفناها، ثم جعلها في مخلّاة، وتأبّطها وخرج، فاعترض جيشاً من المسلمين يريدون الغزو، فجعل يدفع إليهم صرة صرة، على نحو ما يرى من حالهم، ثم رجع ولم يترك لأهله منها ديناراً.

فهذه كانت شمائل جملة أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم بإحسان، رضى الله تعالى عنهم.

وروينا في حديث عياض بن غنم، عن النبي ﷺ، في وصف الأخيار: «إن من خيار أمتي، فيما أنبأني الملائكة الأعلى، قومًا يضحكون جهراً من سعة رحمة الله، ويبكون سراً من خوف عذابه، مؤثّتهم على الناس خفيفة، وعلى أنفسهم ثقيلة، يلبسون الخلقان، ويتبعون الرهبان، أجسامهم في الأرض، وقلوبهم في الآخرة، وأفئدتهم عند العرش».

وفى رواية أخرى: «تُفتح عليهم الدنيا، فيزهدوا في حلالها، ويتبّلغوا باليسير منها، ليسوا من الدنيا، وليست الدنيا منهم في شيء».

وفى حديث أبي الدرداء، رضى الله عنه، لما وصف الأبدال، قال: فقلتُ له: كيف لى أن أكون بهذا الوصف؟ وأنّى لى أن أكون مثلهم؟ فقال: يا ابن أخي، ما بينك وبين أن تكون في أول ذلك وأوسطه إلا أن تزهد في الدنيا، فتعين الآخرة بقلبك فتعمل لها.

وجاء رسول الله ﷺ من سفرٍ فدخل على فاطمة، وكانت أول من يدخل عليها من أهلها، إذا جاء من سفرٍ، فرأى على بابها سترًا، وفى يديها قُلبين من فضة، فرجع، فدخل عليها أبو رافع وهى تبكى، فأخبرته برُجوع رسول الله ﷺ وقالت: لأمر ما رجع، فقال: أنا أسأله ما ردّه؟ فسأله، فقال: من أجل الستّر والسّوارين، فأخبرها بذلك، فهتكت الستّة، ونزعت السّوارين فأرسلت بهما بلا لاءٍ

إلى رسول الله ﷺ، وقالت: قد تصدّقتُ بهما فضعهما حيثُ ترى، فقال: «أذهب فبعيهما، وادفعه إلى أهل الصُّفَّة». فباع القلّين بدرهمين ونصف، وتصدّق به عليهم، فدخل عليها وقال: «بأبى أنتِ وأُمّى، قد أحسنتِ؛ أنتِ منى».

وفى الخبر: «ما من عبدٍ لبسَ ثوبَ شُهرةٍ إلا أعرضَ الله تعالى عنه حتى ينزعه، وإن كان عنده حبيباً».

وقال سُفيان الثوري وغيره: البس من الثياب ما لا يُشهرُكَ عند العلماء، ولا يُحقرُكَ عند الجهّال. وكان يقول: إنّ الفقيرَ ليمرُّ بى، وأنا أصلى، فأدعه يجوز. ويمرُّ بعضُ هؤلاء الأغنياء من أبناء الدنيا وعليه هذه البزة فأمقته، فلا أدعه يجوز.

وقال بعضهم: ما رأيتُ الغنى في مجلسٍ قطّ أذلّ منه في مجلس الثورى رحمه الله تعالى، ولا رأيتُ الفقيرَ أعزّ منه في مجلس الثورى. وقال آخر: كنا إذا جلسنا إلى سُفيان تَمَنّينا أنّا كُنّا فقراء، لِمَا نَرى من إقباله عليهم واعظامه لهم. وكذلك كانوا يقولون في وصف العالم: إنّما العالمُ هو الذى يقومُ الفقيرُ من عنده غنياً، والغنى من عنده فقيراً. أو: لا يَسْتَحى الفقيرُ من فقره، ويُرزى الغنىُ بغناه على نفسه. وقال بعضهم: قَوِّمْتُ ثوبى سُفيانَ ونعليه بدرهم وأربعة دنانير.

فهكذا كان علماء الآخرة الزَاهِدُونَ فى الدنيا، فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الدُّنْيَا.

وكان ابنُ شبرمة يقول: خيرُ الثيابِ ما خَدَمَنِى، وشرُّها ما خَدَمْتُهُ. وقال بعضُ السَّلَفِ: البس من الثيابِ ما يَخْلُطُكَ بالسُّوقَةِ، ولا تَلْبَسَ مِنْهَا ما يُشَهِّرُكَ فَيُنْظَرُ إِلَيْكَ. وبعضهم يقول: شرُّ الثيابِ ما يَرْفَعُ النَّاسَ رُءُوسَهُمْ فَيَنْظُرُونَ إِلَى صَاحِبِهِ. قال: وعدَدْنَا فى قميص عمر رضى الله أربعة عشر رقعةً بعضها من آدم. وقيل: رأينا فى إزاره رِقَاعاً مُطْبَقَةً بعضها على بعضٍ، وَقَدْ شُلَّتْ بِخِيوطٍ. وكان إذا قام تَخَلَّلَ الرَّمْلُ مِنْ بَيْنِ تِلْكَ الْخِيوطِ وهو يرمى الجَمْرَةَ.

وكانوا يقولون: كثرةُ الثيابِ على ظَهْرِ ابنِ آدمَ عقوبةٌ من الله له. وقال أبو سليمان الداراني: الثيابُ ثلاثةٌ: ثوبٌ لله تعالى، وثوبٌ للنفس، وثوبٌ للنَّاسِ.

فالثوب الذى لله ما سترَ العورة، وأُديت فيه الفريضة. والذى للنفس ما طَلَبَتْ لِنَهْ ونقاءه. والذى للناس ما طَلَبَتْ جَوْهَرَهُ وَحُسْنَهُ؛ وهو شرُّها. ثم قال: وقد يكون الثوب الواحد لله وللنفس.

وقد كان بعضُ العلماء يكره أن يكون على الرجل من الثياب ما يجاوز قيمة أربعين درهماً. وبعضهم يقول: إلى المائة، ويَعُدُّه سرّاً فيما جاوزها. وكان جمهور العلماء وخيارُ التابعين قيمة ثيابهم ما بين العشرين إلى الثلاثين. وكان المتقدمون من الصحابة أثمانُ أزهرهم اثنا عشر درهماً، وكانوا يلبسون ثوبين قيمة نيفٍ وعشرين إلى الأربعين.

وقال الأحنف: ما كَذَبْتُ كَذِبَةً منذ علمتُ أن الكذبَ يَضُرُّ أهله إلا مرةً واحدةً، فإن عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه نظر إلى إزارى من العيبة^(١)، فَجَسَّهُ فوجده ناعماً، فقال: بكم أخذتَ هذا؟ ففزعْتُ منه، فقلتُ: بعشرين. فقال: كثير، فهلا بعشرة، وقَدِمْتَ عَشْرَةَ لَغْدٍ لِيَوْمِ فَقْرِكَ وَقيامَتِكَ. قال: وكنتُ قد اشتريته بثلاثين، فحذفتُ عَشْرًا هِيئةً منه.

ثم ذكرَ هذا فى قصّة الوفد الذين قَدِمَ معهم على عمر رضى الله عنه، من قومه، قال: فلما قاربوا دخولَ المدينة، نزعوا ثيابَ سَفَرِهِمْ وبَدَلْتَهُمْ، ولبس كل واحد ثوبين جديدين، أو غَسِيلَيْن، أو قال: أَيْضَيْن. قال: وفعلتُ مثلَ ذلك. قال: فلما دخلنا آطامَ المدينة نريدُ الدخولَ على عُمَرَ رضى الله عنه، جعلَ أهلُ المدينة يرمقُوننا بأبصارهم ويُعرضُون، وجعلوا يَلْحَظُوننا وَتَنَبَّأوا أَعْيُنُهُمْ عَنَّا، فسمعتُهُم يقولون: أبناءُ دنيا. قال: فعرفتُ أَنَّ القومَ لَيَسُوا بأهلِ دنيا، وأنهم أهلُ الآخرة. فعطفتُ رأسَ راحلتى، ونَزَعْتُ ثوبىَّ وَرَدَدْتُهما إلى العيبة، ثم أخرجتُ ما كنتُ خلعتُهُ من ثيابِ سَفَرى وبَدَلْتى، فلبستُهُ، ثم دخلنا على عُمَرَ رضى الله عنه، قال: فجعلَ الناسُ تَنَبَّأوا أَعْيُنُهُمْ عن أصحابى، وينظرون إلىَّ من بينهم، كأنَّهُم يَغْبِطُوننى. قال: فلما نظر إليهم عمر رضى الله عنه، وكان أوَّلَ يومٍ رأيته، فإذا رجلٌ عليه خَلَقٌ مَرْقُوعٌ، وعلى كتفه دِرَّةٌ، فلما قَفَلْنَا من بعيد، أخذَ كَفًّا من

(١) العيبة: وعاء من آدم يجعل فيه الثياب.

حصي، فحَصَبْنَا، قال: ثم لحظني بعينه، فقال: هذا، نعم، فأدنانِي وقربني من بينهم، وقال: من أنت لله درك؟ أو قال: أبوك؟! فقلت: أنا الأحنف بن قيس التميمي. فقال: أنت سيد قومك. قال: وأعجبه هيئتِي، فقام، وأتكأ على يدي، فجعل يسألني عن الطريق، وعن الركاب، وكيف كنَّا نسيرُ بها إلى أن وافى رحلنا، وموضع مناخنا، فرمق عييتي، فرأى طرف الثوب خارجًا، فلمسه. وذكر أول الخبر الذي ذكرناه أولاً^(١).

واشترى رسول الله ﷺ ثوبًا بأربعة دراهم. وكان قيمة ثوبه عشرة إلى دينار. وكان طول إزاره أربعة أذرع ونصف. وفي خبر: سبعة أشبار. واشترى سراويل بثلاثة دراهم. وكان كم قميصه إلى أطراف أصابعه. وقيل مرة: إلى الرسغ، فإذا تشنَّج وقصر صار إلى نصف الذراع، وإذا امتدَّ فإلى أطراف الأنامل. وكان ذيله إلى أنصاف ساقه، وكذلك الإزار إلى عضلة الساق.

وكان رسول الله ﷺ يلبس شملتين يضاوئِن من صوف، ومرة سوداوين من شعر، وكان ذلك يُسمى حُلَّة، لأنَّها ثوبين من جنس واحد، وربما لبس ﷺ بُرْدَيْن يمانيين، أو سحولَيْن من هذه الغلاظ؛ من قرية «سحول» وهى فى اليمن، وفيهما كفن مع الثالثة مثلهما. وربما كانت البردة مُخَطَّطَةً بتلوين الأصباغ، كبرود أهل اليمن اليوم، وربما كانت خضراء كلها من خيط واحد. وربما كانت شملته بيضاء لا شبة فيها غير خيطها الأبيض. وقد تكون لها صَنِيفَتَانِ سوداوان، أو خضراوان، أو حمراوان.

وقد لبس ﷺ يومًا واحدًا ثوب سيرا من سندس قيمته مائتا درهم. كان المقوقس ملك الأسكندرية أهدهُ إليه؛ فأراد أن يكرمه بلُْبْسِه مع قبول هديته، فلبسه وخطب فيه فجعل الناس يلمسونه ويعجبون منه. وقد لبس نحوه من قميص مغمَّد بحريِر أهدهُ إليه ملك الحبشة النجاشي، فخطب فيه مرة واحدة، ثم نزعه، وأرسل به إلى رجلٍ من المشركين وصله به، ثم حرَّم لبس الحرير والديباغ بعد ذلك. فقد يكون لبسه إياه توكيدًا للتحريم بعده كما لبس خاتمًا من ذهب يومًا

(١) فى الإتحاف ٣٥٧/٩، ٣٧٩ - ٣٨٠.

واحداً، ثم نزعَه فحرَّم لُبْسَهُ على الرِّجال. وكما قال لعائشة رضى الله عنها فى شأن بريرة: «اشترطى لأهلها الولاء». فلما اشترطته، صعد المنبر فحرَّمه. فهذا يكون مؤكداً للتحريم. فهذه حكمة من الحكيم، وتعليم من العليم. وكما أباح المتعة ثلاثاً، ثم حرمها لتوكيد أمر النكاح.

وقد يحتجُّ بمثل هذا علماء الدنيا، ويطرقون به لنفوسهم، ويدعون الناس منه إليهم، ويظهرون الدعوة إلى الله تعالى علانية تأولاً بمُتشابه الحديث، كما تأول أهل الزَّيغ مُتشابه القرآن على أهوائهم ابتغاء الفتنة وطلباً للدنيا، لأنَّ حديث رسول الله ﷺ على معانى كلام الله تعالى فيه: ناسخٌ ومنسوخٌ، مُحكَّمٌ ومُتشابه، وخاصٌّ وعامٌّ. فعَدَلَ علماء الدنيا وأهلُ الأهواء عن المحكَّم السَّائر من فعلِ رسولِ الله ﷺ وقوله إلى ما ذكرناه، كما عدَلَت المرجئة عن كُلِّ آية مُحكَّمة قرُن فيها العمل بالإيمان، وجعل العمل شرطاً لصحة الإيمان، إلى آية مُشْتَبِهَة ذُكر فيها القول مجرداً، وهى قوله تعالى: ﴿فَأَنبَأَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَاتٍ﴾ [المائدة: ٨٥]، فتعلَّقوا بها، لقربها من آرائهم، ونَبَذُوا المحكَّم ظهرياً.

وقد صلَّى رسول الله ﷺ فى خَمِيصَة لها عَلمٌ، فلما سلَّم قال: «شَغَلَنِى النَّظَرُ إلى هذه، اذهبوا بها إلى أبى جهنم، واتَّوْنِى بِأَنْبِجَانِيَّتِهِ» يعنى كسائه. فاختار لبس الكساء على الثوب النَّاعم. وفى هذا حجة على من كان إذا أعجبه الشَّيْءُ واستحسنه كَسَرَهُ وأحرقه. وفيه شاهدٌ ومحجَّةٌ لمن أخرج عن يده ما يَسْتَحْسِنُهُ، ويخافُ فتنته؛ لحُصول الزُّهد بالإخراج، ولانتفاع الغير به. وفيه حجة على من ادَّعى الزُّهدَ بلبس النَّاعم، وأنَّ ذلك لا يضرُّ الزَّاهدَ، ولا يُخرجه عن حقيقة الزُّهد. وفيه إبطالٌ لمن ادَّعى أنَّ النَّظَرَ إلى الزَّينة لا يَشْغَلُهُ، أو أنَّ الرِّوْثَ والفتنة لا تَدْخُلُ عليه؛ إذا لا يَقْدِرُ أن يقول: إنَّه غيرُ مقامِ الرِّسُولِ ﷺ. فاعتبروا يا ذَوِى البصائر والعقول تَمْوِيَةَ الرَّاعِبِينَ بِالزُّهْدِ مع استعمالِ الفُضُولِ.

وفرشت له عائشة رضى الله عنها ذات ليلة فراشاً جديداً، وكان ينام على عباءة مَشْنِيَّة، فما زالَ يَتَقَلَّبُ لَيْلَتَهُ، فلما أصبح، وأَعْلَمَتُهُ بذلك، قال ﷺ: «أُعِيدَى

العبادة الخلقة، ونحى هذا الفراش عني، قد أسهرني الليلة».

وكذلك أتته دنائير خمسة أو ستة عشاءً، فبيتها، فسهر ليلته، حتى أخرجها من آخر الليل. قالت عائشة رضى الله عنها: فنام حيثنذ حتى سمعت غطيطة. ثم قال: «ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده».

وحديث الحسن رضى الله عنه: أن النبي ﷺ لم يكن يبيت مالا ولا يُقيله. يعنى: أنه إن جاءه ليلاً أو عشاءً لم يبيت، وإن جاء غدوة لم ينتظر به القائلة.

وكذلك كان على، رضى الله عنه، على ستة وأثره في هذا، لم يكن يجمع الأموال في بيت المال، بل يفرقها في الشهر مرّات، ويتعاهد بيت المال في كل جمعة، فيفرغه من المال ثم يكنسه ويرشه، ويصلى فيه ركعتين، ويقول: يا صفراء ويا بيضاء غرى غرى، وينشد:

هذا جنائ وخياره فيه إذ كل جان يده إلى فيه

وكان ﷺ قد احتذى نعلين جديدين، فأعجبه حسنها، فخر ساجداً، وقال: «أعجبني حسنها، فتواضعت لربي عز وجل، خشية أن يمقتني»، ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه. وأمر علياً فاحتذى له نعلين سبتين. قال: فرأيتُهُ وقد لبسهما، يعنى جرداوين، أى معطوفتين.

وهذا مثل الحديث الآخر في إخراج الخميصة زهداً فيها، وإخراج النعل ولم يقطعها، فيكون فساداً، إذ هو ﷺ ينهى عن إضاعة المال. إلا أن فيه شاهداً لمن إذا استحسن شيئاً خاف المقت عليه، إلا أنه لا يبلغ به إتلافه، فيكون إفساداً.

وفيه دليل على دخول التغيير والرد إلى الصفة بالمناظر الحسنة، خلافاً لمن ادعى البراءة من ذلك، كما ذكرناه آنفاً.

وفيه شاهد آخر لمن تطرق بالحسن من الأشياء إلى الله تعالى، وشهد الحسن الأعلى بها، وكانت المحاسن طريقاً إلى الحسن الجميل، لأنه ﷺ لما قال: أعجبني حسنها، خر ساجداً، فكان ذلك اقتراباً له من القريب، وتقرباً به وتطرقاً إلى الحبيب، وقد قال: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩]. وكنحو قوله تعالى: ﴿انظُرُوا

إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ [الأنعام: ٩٩]، ففيه قرينةُ إيمانٍ للمؤمنِ البجير^(١)، وعبرةٌ للعالمِ الخبير، لقوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ * فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴿[الذاريات: ٤٩ - ٥٠].

فهذا طريقُ الواجدينَ بالله، المُستَهْتَرِينَ بِذِكْرِ اللَّهِ^(٢)، وهم السَّابِقُونَ إِلَى اللَّهِ بِالْهَمَمِ الْعَالِيَةِ، الْمُقَرَّبُونَ عِنْدَ اللَّهِ بِالْأَسْرَارِ الطَّاهِرَةِ، كما قال ﷺ: «سَبَقَ الْمُفْرَدُونَ الْمُسْتَهْتَرُونَ بِذِكْرِ اللَّهِ، وَضَعَ الذِّكْرُ أَوْزَارَهُمْ فَوَرَدُوا الْقِيَامَةَ خِفَافًا».

وروينا في خبر: «أَنَّ شِرَاكَ نَعْلِهِ الْعَرَبِيُّ ﷺ كَانَ قَدْ أَخْلَقَ، فَأَبْدَلَهُ بِسَيْرٍ جَدِيدٍ، فَصَلَّى فِيهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ: أَعِيدُوا الشِّرَاكَ الْخَلْقَ وَانزَعُوا هَذَا الْجَدِيدَ، فَإِنِّي نَظَرْتُ إِلَيْهِ فِي الصَّلَاةِ».

وليس مرّةً ﷺ خَاتَمًا، فنظرَ إليه وهو على المنبرِ نَظْرَةً فَرَمَى بِهِ وَقَالَ: «شَغَلَنِي هَذَا عَنْكُمْ، نَظْرَةٌ إِلَيْهِ وَنَظْرَةٌ إِلَيْكُمْ». قال: فَلَا يُدْرَى مَنْ أَخَذَهُ.

وقد يحتجّ بهذا مُحْتَجٌّ، لما كَرِهْنَاهُ مِنْ إِتْلَافِ الْمَنْظُورِ إِلَيْهِ، وليس فيه حِجَّةٌ لَهُ؛ لِأَنَّهُ ﷺ لَمْ يَتْلَفْهُ إِذْ لَمْ يَرَمْ بِهِ فِي بَرٍّ وَلَا بَحْرٍ وَلَا مَضْغَةٍ وَلَا أَفْسَدَةٍ، وَإِنَّمَا نَزَعَهُ وَرَمَى بِهِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَوَهَبَهُ لِمَنْ أَخَذَهُ، فَجَازَ ذَلِكَ عَنْ وَجْدٍ فِي الْوَقْتِ وَجَدَهُ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال رسول ﷺ: «مَنْ أَحْبَبَنِي فَلَيْسَتْ بِسُنَّتِي». وفي الخبرِ المشهورِ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ، عَصُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ».

وقد كان أبو محمد سهل، رحمه الله، يقول: من علامة حبِّ الله حبُّ النَّبِيِّ ﷺ، ومن علامة حبِّ النَّبِيِّ ﷺ حبُّ السُّنَّةِ، ومن علامة حبِّ السُّنَّةِ الزُّهْدُ فِي

(١) البجير: أى العظيم البطن، ويقصد به الذى يشتهى الطعام والفاكهة، فإنه يستمتع بالنظر إلى الثمار.

(٢) المستهترون بذكر الله: المولعون به.

الدنيا، فإنَّ القوم كانوا زاهدين. وقال مرة: ومن علامة حبِّ السنةِ بغضُ الدنيا، وعلامةُ بغضِها أن لا تأخذَ منها إلا زادًا أو بلعةً.

وقال ﷺ: «إنَّ أقربَ الناسِ مِنِّي مجلسًا يومَ القيامةِ مَنْ كان على مثلِ ما أنا عليه اليومَ من الدنيا». فلذلك كان أبو ذر يقول لأصحابه: أنا أحبُّكم إلى رسولِ الله ﷺ، وأقربُكم منه غدًا مجلسًا، قالوا: كيف ذاك؟ قال: لأنِّي اليومَ على مثلِ ما فارقتهُ عليه ﷺ، وكلُّكم قد غيَّرتُم. هذا لزُهده.

وكان مالكُ بن دينارٍ في التابعين بدلًا عن أبي ذرٍّ في الزُّهد؛ لأنَّه زادَ على أصحابه في التَّقشُّف والزُّهد بلبسِ الحُشن، وأكلِ الجُشِب، وتركِ الادِّخار، وبِذَاذَةِ الحال، ولم يكن يُغلقُ بابَه، إنَّما يشدهُ بشريط، وقال: لولا الكلابُ لَمَّا شَدَّدتُهُ بالشَّريط. وإنَّما قدَرناهُ بدلًا عنه؛ لحكايةِ رُوبناها عن بعضِ السَّلفِ الصَّالح، قال: رأيتُ النُّبيَّ ﷺ في المنام، فقلتُ: يا رسولَ الله أينَ بدلًا أمتك؟ فأومأَ بيده نحوَ الشام. فقلتُ: يا رسولَ الله، أَمَا بِالعِراقِ منهم أَحَدٌ؟ فقال: بلى، الحَسَنُ، ومحمدُ بنُ واسعٍ، وحَسَّانُ بنُ أبي سِنانٍ، ومالكُ بنُ دينارٍ، الذي يَسيرُ في النَّاسِ بمثلِ زُهْدِ أبي ذرٍّ في زمانه. وهؤلاءُ من خيارِ التابعين، وهُم من أبدالِ الصِّدِّيقين والعارفين. وأما الحَسَنُ، فإنَّ مالكَ بنَ دينارٍ كان يقول: أيُّها النَّاسُ، مُعَلِّمِي - وَاللهُ - الحَسَنُ. به تَأدَّب، ومنه تَعَلَّم، ولم يُفارقهُ حتَّى مات، فهو بَدَلٌ عنه. والحَسَنُ كان بدلًا عن صاحبِ السِّرِّ حُذَيْفَةَ بنِ اليَمَانِ. وهؤلاءُ أئمتُّنا في هذا العلم، بأنوارِهِم نَسْتَضِيءُ، وَمِنْ مِشْكَاةِهم نُضِيءُ، وعن جواهرِهِم (...) (١) أن نكونَ خُلَفاءَ عن سَلَفٍ، ومتعرِّفينَ مِمَّنْ كان [عليه هؤلاء السلف. ثم يجيء (٢) الأخيرُ بعدهم: أبو محمدٍ سهل بن عبد الله، لم يكن في عصرِهِ مثله، وكان بدلًا عنهم، وخلقًا منهم. ثمَّ اللهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالاتِهِ، ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلا به. ورُوبنا عن رسولِ الله ﷺ أَنه قال: «اللهم اجعل رِزقَ آلِ محمدٍ قُوتًا»، ومرة يقول: «كِفافًا».

(١) تلف بالأصل قدر ثلاث كلمات.

(٢) ما بين المعكفتين أثبتته اجتهدًا مكان التلف الذي بالأصل.

ولما وليَ [يزيد بن معاوية، لقي عبد الله بن عمر^(١) الحسين بن عليّ عليهم السلام بمكة، وقتَ خروجه إلى الكوفة، فقال له: لا تخرج، ولا تطلب هذا الأمر، فإنَّ الله عز وجل يزوي عنكم الدينار، وأنتم أهل البيت، اختار الله لكم الآخرة. وكذلك قال له ابنُ عباس رضى الله عنهما. فقال: قد جاءني ثلاثمائة كتاب يستحثوننى على القدوم. فعانقه ابن عباس رضى الله عنهما، وقال: أستودعك الله من قتيل.

ويشهد لهذا الخبر الذى رويناه فى تفسير قوله عز وجل: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣]، أنَّ رسولَ الله ﷺ أرى بنى فلان يصعدون على منبره، يخطبون رجلاً رجلاً، فى نيف وثمانين سنة، فساءَ ذلك وكرهه، كأنه أحبُّ أن يكون ذلك فى غيرهم، فنزلت: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، وهى نيف وثمانون سنة، جعلتها لك ولأهل بيتك فى الآخرة، فهى خيرٌ لهم من ألف شهرٍ مدةً مُلك بنى فلان، فرضى بذلك وسره، وكان فيه عزاءٌ وسلوةٌ، وكذلك كان الأمر، والله غالبٌ على أمره، وكان أمرُ الله قدراً مقدوراً.

ورويناه فى خبر: «ما من أحدٍ يومَ القيامةِ غنىٌ أو فقيرٌ، إلا ودَّ أن رزقه كان فى الدنيا قوتاً». وفى الأثر: «اللهم من أحببني وأجاب دعوتى فأقلل ماله وولده. ومن بغضني ولم يجب دعوتى، فأكثر ماله وولده وأوطئ عقبيه» يعنى كثرة الاتباع. وكانت هذه دعوة الصحابة على من ظلمهم أو مقتوه.

ولما كتَب أبو الدرداء إلى سلمان الفارسى رضى الله عنهم أجمعين؛ من [الأرض] المقدسة إلى المدائن، يدعوه إلى بيت المقدس أن يكون معه فيه، ويخبره أنه قد رزق بعده مالاً وولداً، وقد اشترى خادماً. فأجابه سلمان: أما بعد، فإنك ذكرت أنك رزقت مالاً وولداً، فلا تفرح بذلك، إن يكثر مالك يكثر حسابك، وإن يكثر عيالك يكثر شياطينك، وإن تُخدم يقل عونُ الله لك، فإننى سمعتُ النبى

(١) هذا الموضع كان تالفاً بالأصل، فأتممته من التاريخ، انظر الخبر بلفظ قريب منه فى البداية والنهاية ٤٩٧/١ نشرة هجر.

ﷺ يقول: «لا يزال العبدُ من الله وعونه ما لم يُخَدَم، فإذا خُدِم وقع عليه الحساب». ولكن افرح بأن يكثرَ عملُك، ويعظمَ حلمُك، وتباهى بعبادة ربك. وكتبتَ تدعوني إلى الأرض المقدسة. إن الأرض لا تقدس أحداً، إنما المؤمنُ يقدسه عمله، والسلام.

فهذا كلامُ عالم ربانيٍّ، من أهل بيت النبوة، قد أُوتى علمُ الأوّل والآخِر، وهو «منا أهل البيت»، كذلك رويناه.

ورويناه في الأثر مُجملاً مُتجملين: «ما أحدٌ أُعطى من الدنيا شيئاً إلا نقصَ من درجته في الجنة، وإن كان على الله كريماً». وبمعناه قد رويناه جملةً في شأن الدنيا والآخرة: «نقصانُ الدنيا زيادةُ الآخرة، وزيادةُ الدنيا نقصانُ الآخرة». فإنَّ الدنيا والآخرة مثلُ كفتي الميزان، رجحانُ أحدهما بنقصانِ الأخرى. وإنهما كالْمَشْرِقِ والمَغْرِبِ، من استقبل أحدهما استدبر الآخر.

فهذه جُمْلَةٌ، تُغْنِي عن التفصيل وعن بعض ما رويناه في حقيقة الفقر، مرتباً على الغاية فيه، والنهاية منه، وإن كان يحتاج إلى شرح وتفصيل، لاختلاف أحوال الفقراء، وتفاوت مقامات أهل المعرفة في الزهد مع الموجود.

حدثناه في أخبار موسى عليه الصلاة والسلام، أنه وصف الزهدَ لبني إسرائيل، فقام إليه رجلٌ منهم فقال: يا نبي الله، أنا منهم؟ قال: أنت إذا تغديتَ تجد ما تتعشى؟ قال: نعم. قال: اجلس لستَ منهم. ثم قام إليه آخر فقال: يا نبي الله، أنا منهم؟ قال: أنت إذا تغديتَ تجد ما تتعشى؟ قال: لا. قال: فلك ما تبيع؟ قال: نعم. قال: اجلس فلستَ منهم. وقام غيره فقال: يا نبي الله، أنا منهم؟ قال: إذا تغديتَ تجد ما تتعشى؟ قال: لا. قال: فلك ما تبيع؟ قال: لا. قال: فلك من يُقرضُك؟ قال: نعم. قال: اجلس لستَ منهم. ثم قام آخر، فقال: أنا منهم؟ فقال له مثل ذلك، إلى أن قال: فلك من يُقرضُك؟ قال: لا، ولا أملك من الدنيا إلا هذه الشملة من الصوف ولقد آذاني فيه الدوابُّ، وأنا أستحي من ربّي عز وجلّ أن أنزعها فأفليها وأتعرّى بين يديه. قال: اجلس أنتَ منهم^(١).

هذا الذى أَرَادَهُ موسى عليه الصلاة والسلام من الزهد هو حقيقته، وهو زهد أولى العزم من الزهاد. وهذه الحال من عزائم الأمور، وهذا الخبر من أشد ما رُوِيَنَاهُ فى الفقر، وهو مشهور من الإسرائيليات. وقد رويْنَا بِمَعْنَاهُ خبراً غريباً عن نبينا ﷺ مثله فى الشدة فى شأن الفقر، نذكره بعد تفصيل هذا الخبر، نسندُه لأجل غرابته.

فأما تفصيلُ مقاماتِ الفقرِ فى الخبر الذى ذكرناه عن موسى عليه الصلاة والسلام، فهو المقام الأعلى من التحقق بالفقر، ذاك أنَّ الزَّهْدَ فى حالِ الفقرِ مقاماتٌ:

فالمقام الأولُ: هو أن لا يجدَ الفقيرُ معلوماً غير ما حمل فى جَوْفِهِ، وعلى ظَهْرِهِ، وهذا هو حالُ الفقيرِ الأول، الذى قال له موسى عليه السلام: لستَ منهم. يعنى من أولى العزم من الزُّهَادِ، إذ لم يكن حالُهُ حالَ عزيمةِ الزَّهْدِ، لأجلِ وَجْدِ العَوَاضِ المعتاض به، وهو فضل ما يبيعه من العَوَاضِ، فقامَ له مقامُ المعلوم من النَّقْدِ.

والمقام الثانى من الفقرِ فى الزَّهْدِ: هو فَقْدُ العَوَاضِ الذى هو عَرَضٌ من النَّاسِ، وهذا حال الثانى.

والمقام الثالث: هو أن يَعدَمَ الأعراضَ والأعْوَاضَ، وليس هو حقيقةُ الفقرِ؛ لأجل بقاءِ الأسبابِ التى تقوم مقامُ الأعْوَاضِ، وهو الجاه الذى يستقرض به فيُقْرِضُ، وهو أيضاً سَبَبٌ به يُعرَفُ، ولأجل مَعْرِفَتِهِ أَقْرِضْ، فهذا قد بقى له سَبَبٌ يَتَسَبَّبُ به، ومكانٌ يأوى إليه دونَ الله، وَعِدَّةٌ يَعْتَدُّهَا معَ الله، وَسُكُونٌ يطمئنُّ إليه غيرَ الله، وَيُشَاهِدُ الذى يُنْظَرُ إليه به، وَيُعرَفُ فيُعْطَى عليه، فهذا يَحْجُبُهُ عن حقيقةِ الفقرِ، وينقُصُهُ من عزيمةِ الزَّهْدِ. فحسبَ موسى عليه الصلاة والسلام وجودَ الجاه له رغبةً منه هى دونَ الله تعالى حتى يكونَ بالوصفِ الذى وصفَ الله به أوليائه فى الغاية من قوله: ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ فهذا مثلُ فَقْدِ المعلوم الذى تقومُ به الأشياءُ، وهو بمعنى حالِ الأول. ثم قال: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ

أَنْفُسَهُمْ ﴿ فَلَـمْ يَبْقَ لَهُ عَوْضٌ يَقُومَ مَقَامَ الْمَعْلُومِ الَّذِي لَهُ قِيَمَةٌ شَيْءٌ يَبِيعُهُ، وَهَذَا بِمَعْنَى حَالِ الثَّانِي. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَضَنُّوا أَلَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ فَبِهَذَا سَقُوطُ الْأَعْوَاضِ بَعْدَ فَقْدِ الْأَعْرَاضِ، وَعَدَمِ الْجَاهِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ الْأَسْتِقْرَاضِ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُ جَاهٌ يَعُولُ عَلَيْهِ، وَلَا مَعْرِفَةٌ مِنَ الْخَلْقِ، وَلَا سَبَبٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ يَنْظُرُ بِهِ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يَبْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ مَأْوًى يَسْكُنُ فِيهِ، وَلَا ظِلٌّ يَسْتَظِلُّ بِهِ، وَلَا مَلْجَأٌ يَسْتَنْدُ عَلَيْهِ، حَيْثُ قَالَ اللَّهُ بَعْدَ بُلُوغِ الْغَايَةِ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨] بِأَنْ عَطَفَ عَلَيْهِمْ لِيَنْعَطِفُوا عَلَيْهِ، وَنَظَرَ إِلَيْهِمْ لِيَنْظُرُوا بِهِ إِلَيْهِ، حَيْثُ كَانَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي شَيْءٍ.

فَبِهَذَا وَصَفَ الثَّالِثَ الَّذِي قَالَ لَهُ مُوسَى، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَنْتَ مِنْهُمْ». إِذْ قَدْ تَحَقَّقَ بِالْفَقْرِ، وَبَلَغَ عَزِيمَةَ الْأَمْرِ، فَلَمْ يَجِدْ دُونَ اللَّهِ سَبَبًا مُنْفَصِلًا مِنْ مَالٍ، وَلَا مَعْنًى مُتَصِلًا مِنْ حَالٍ، وَهُوَ الْجَاهُ وَالْمَنْزِلَةُ الَّذِي يَقُومُ مَقَامَ الْأَعْرَاضِ فَتَسَبَّبَتْ بِهِ إِلَى الْأَسْبَابِ. أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى الْخَبَرِ الَّذِي رَوَيْنَاهُ [عَنْ] اثْنَتَيْنِ: السُّؤَالُ عَنِ الْمَالِ وَالْجَاهِ، إِنَّ الْعَبْدَ لَيُسْأَلُ عَنْ جَاهِهِ، كَمَا يُسْأَلُ عَنْ مَالِهِ. فَبِهَذَا وَصَفَ فَقِيرٌ فَقِيرٌ وَنَعْتَ غَرِيبٌ، فَكَمَا رَوَى عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (...) (١) جَاءَكَ، فَقُلْ لَهُ: كُلُّ فَقِيرٍ فَقِيرٌ.

فَبِهَذَا الْعَبْدُ غَرِيبٌ عَنِ الدَّارِ فِي وَطْنِهِ، غَرِيبٌ الْوَجْدِ مِنْ سَكَنِهِ، غَرِيبٌ الْعِلْمِ مِنْ دِمْنِهِ، غَرِيبٌ الْحَالِ مِنْ أُمَّتِهِ، غَرِيبٌ فِي غَرِبَتِهِ، غَرِيبٌ مَنْ تَغَرَّبَ بِهِ، غَرِيبٌ بِمَغْرِبِهِ، لَا يَعْرِفُهُ أَبْنَاءُ جَنْسِهِ، وَلَا يَأْلِفُهُ أَوْلُوهُ أُنْسِهِ، وَلَا يَسْكُنُ إِلَى مَسْكَنِهِ (...). وَجَنْسِهِ، مُتَفَرِّدٌ مِنْ تَهَمُّسِهِ، مُتَوَحِّدٌ بِأُنْسِيهِ مِنْ أُنْسِهِ، قَدْ طُمِسَتْ نَفْسُهُ فِي رَمْسِهِ، وَشُغِلَ بَيَوْمِهِ عَنْ غَدِهِ وَأَمْسِهِ. فَبِهَذَا مِنْ وَحْشِ الْمَلِكِ فِي دَارِهِ وَأُنْسِهِ لَزَوَّارِهِ، وَقَدْ قَرَّتْ عَيْنُهُ بِقَرَّارِهِ، وَفَرَّ مِنْ إِيْلَافِهِ وَفِرَّارِهِ، وَصَفَّتْ رُوحُهُ مِنْ أَقْدَارِهِ، فَهُوَ مُوَضَّعٌ نَظَرِهِ، وَمَعْقِلٌ خَبِيرِهِ، وَغَيْثٌ بِلَادِهِ، وَرُوحٌ عِبَادِهِ، وَمِنْ خَالِصٍ وَدَادِهِ. قَدْ زَهَدَ فِي

(١) هذا الموضع والذي يليه تالف بالأصل، أحياناً كلمة، وأحياناً أكثر، وبرغم نقل الإنحاف كثيراً منه إلا أنه اختصر بعض هذا الكلام فلم أجد التالف، انظر: ٣٨٠ / ٩.

زُهْدِهِ، وَعَدَمُ وُجُودِهِ بِوَجْدِهِ، وَفَنِيَتْ نَفْسُهُ عَنِ جُهْدِهِ، وَبَقِيَتْ رُوحُهُ بِمَوْجُودِهِ^(١).
وكذلك روينا أن داود نبي الله عليه السلام سأل عن المعرفة وكأنه تشوق إليها، فأوحى إليه: «أنت لا بد لك من سبَدٍ ولَبَدٍ، وَمَنْ عَرَفَنِي لَمْ يَسْكُنْ إِلَى سَبَدٍ وَلَبَدٍ». السَّبَدُ: أعلاه من الرياش، واللَّبَدُ: ما كان أسفل من قماش.

وأما الخبرُ الذي روينا عن نبينا ﷺ بمعناه، فحدثني عبدُ الكريم بن أحمد، قال: حدثني جعفر بن محمد، قال: حدثنا الخواصُّ عبدُ الله بن الحسن، قال: حدثني سعدون بن سهل بن عبد الرحمن المكي، عن المغيرة بن قيس، عن شهر ابن حوشب الأشعري، عن أبي أمانة، قال: أتينا على أهل ماء في سفرٍ لنا مع رسول الله ﷺ، وأسود مولى لهم مَيِّتٌ بالأمس ليس له ثوبٌ يكفونهُ فيه، وما عندهم غاسلٌ يُحَسِّنُ غَسْلَهُ، قد قُطِعَ به لا يَدْرُونَ كيف يأتون. فهجمنا عليهم من الغد ظهراً، وقد أروح، وترك القومُ خباءهم وخرَجُوا كراهيةً لجواره، فكان أولُ من نَزَلَ مِنَّا رسولُ الله ﷺ، فمشى حتى دخلَ عليه، فجاءه القومُ يَعْتَذِرُونَ إليه من تَرْكِهِمْ إِيَّاهُ، فانطلقَ النبيُّ ﷺ حتى قام على بئرٍ لهم عاديةً، فتَلَّ فيها فاستحالتْ عَذْبًا فاستَقَيْنَا، وأمرَ علياً وأسامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فغَسَّلاه، وكفَّته رسولُ الله ﷺ في بردة له ما زاده عليها، ثم صَلَّى عليه، وَوَلَّى إِدْخَالَه فِي قَبْرِه عَلَى وَأَسَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فلما فرَغَ النبيُّ ﷺ قال لأصحابه: «إِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَلَوْ لَا خَصْلَةٌ كَانَتْ فِيهِ لُبُعْثٌ وَوَجْهُهُ كَالشَّمْسِ الضَّاحِيَةِ». فقلْنَا: وما هي يا رسولَ الله؟ قال: «إِنْ كَانَ لَصَوَامًا قَوَّامًا كَثِيرَ الذِّكْرِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا جَاءَ الشَّتَاءُ ادَّخَرَ حُلَّةَ الصَّيْفِ لَصَيْفِهِ، وَإِذَا جَاءَ الصَّيْفُ ادَّخَرَ حُلَّةَ الشَّتَاءِ لَشِتَائِهِ مِنْ قَابِلٍ». ثم قال: «مَنْ أَقَلَّ مَا أُوتِيَتْهُمُ الْيَقِينُ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ، وَمَنْ أُعْطِيَ حَطَّهْهُمَا لَمْ يُيَالِ مَا فَاتَهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهَارِ، وَلَئِنْ تَصَبَّرُوا عَلَى مِثْلِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يُوَافِيَنِي كُلُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ بِمِثْلِ عَمَلِ جَمِيعِكُمْ، وَلَكِنِّي أَخَافُ أَنْ تُفْتَحَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا بَعْدِي، فَيُنْكَرَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَيُنْكَرُكُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ عِنْدَ ذَلِكَ، فَمَنْ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ ظَفَرَ بِكَمَالٍ

(١) في الإنحاف: «بموجده».

ثوابه. ثم قرأ: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلِيَجْزِيَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

فلأجل معنى هذا الخبر بكى الصديق أبو بكر، وسلمان الفارسي صاحب علم الأول والآخر، فيما روياه عنهما رضى الله عنهما (...)^(١) عن زيد بن أرقم، قال: كنا مع أبي بكر الصديق رضى الله عنه، فدعا بشارب، فأتى بماء وعسل، فلما أدناه من فيه بكى، حتى أبكى أصحابه، فسكتوا وما سكت، ثم مسح عينيه. فقلنا: يا خليفة رسول الله، ما هاجك على البكاء؟ فقال: إني كنت مع رسول الله ﷺ فرأيتُه يدفع [عن نفسه] ويقول: «إليك عني» وما أرى أحداً معه. فقلت: يا رسول الله تدفع عن نفسك شيئاً ولا أرى معك أحداً. قال: «هذه الدنيا مثلت لي، فقلت لها: إليك عني. فقالت: أما إن سلمت مني، فلن ينفلت مني من بعدك»، فخفت أن تلحقني.

وأبو عبد الرحمن الحبلى عن عامر بن عبد الله وحُميد الطويل عن مؤرق العجلي، قالوا: دخل على سلمان عند موته، فجزع وبكى. قالوا: ما أجزعك وأبكاك أبا عبد الله، وقد كانت لك سابقة في الخير، وشهدت مع رسول الله ﷺ مغازى حسنة وفتوحاً عظيماً؟ فقال: إن حبيبنا حين فارقنا عهد إلينا - وفي الحديث الآخر: عهد هذه إلينا رسول الله ﷺ لم نحفظه - قال: «ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا - وقال في الآخر: يكفي المؤمن من الدنيا - كزاد الراكب»، فهذا الذي أجزعني. قال: فجمع مال سلمان فكان قيمته خمسة عشر درهماً.

وفي حديث حميد عن مؤرق، فقلنا: ما يُبكيك يا أبا عبد الله؟ قال: ما أبكى صباة إليكم، ولا ضناً بصحبكم، ولكنني أبكى لعهد هذه إلينا رسول الله ﷺ، فلم نأخذ به، قال: «ليكن بلاغكم من الدنيا كزاد الراكب»، فلم نرض بذلك حتى جمعنا ما ترون. قال: فقلبنا أبصارنا في البيت فلم نر إلا إكافاً وقرطاطاً. والقرطاط: البرذعة التي تكون تحت الإكاف. قال: فبلغ قيمة ما ترك خمسة عشر درهماً.

(١) تلف بالأصل قدر كلمتين.

وكذلك بكى خباب بن الأرت وأبو هاشم بن عتبة بن ربيعة على هذه الوصية بمعناه عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة، قال: عاد ناسُ خَبَّابَ بن الأرت عند موته، فقالوا: أبشر أبا عبد الله، تَرِدُ على مُحَمَّدٍ ﷺ الحوض. فقال: كيف بهذا وهذا، وأشار إلى أسفل البيت وأعله، وقد قال رسولُ الله ﷺ: «إنما يكفى أحدكم من الدنيا مثلُ زادِ الرَّاکِبِ».

وأبو وائل عن سمرة بن سهم (...)^(١) بن سعد قال: نزلتُ على أبي هاشم ابن عتبة بن ربيعة وهو مَعِينٌ^(٢)، فأتاه معاويةُ بن أبي سفيان يَعُوْدُهُ. فبكى أبو هاشم. فقال معاوية: ما يبكيك؟ أى حال: أوجعُ صَبْرَكَ، أم حرصُ على الدنيا فقد ذهبَ صَفْوُهَا؟ فقال: كلُّ لَأَ، ولكنَّ رسولَ الله ﷺ عهدَ إلينا عهدًا، ودِدتُ أنى كنتُ تَبِعْتُهُ، فقال: «لعلَّكَ أن تُدرِكَ أَمْوَالاً تَعْتَمَ عَيْنَ أَقْوَامٍ، وإنما يكفيك من ذلك خادمٌ ومَرْكَبٌ فى سبيلِ الله». فأدركتُ فَجَمَعْتُ.

كذلك بكى سعيدُ بن عامرٍ بن جذيم أميرُ أهلِ حمص، لما بعثَ إليه عمرُ رضى الله عنه بألف دينارٍ يُنْفِقُهَا على نفسه وأهله، بعد أن ذُكر له فَقْرُهُ وشِدَّةُ حاجته، فسُئِلَ عن بُكائه، فقال: أَتَتَنَّى الفتنَةَ، وجَعَلَ يَسْتَرْجِعُ حينَ رأى المَالَ دنائيرَ، وكان حَسْبُهُ دَرَاهِمُ، وجعل يقول: دخلتُ على الفتنَةِ فى بيتى، ألا وشَرُّ أيامى أيامُ عُمَرَ، ثم جعل يُفَرِّقُهَا صُرْرًا، حتى أنْفَدَهَا، فقالت له امرأته: لو حَبَسْتُ منها شيئًا نستعينُ به. فقال: إننى سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لو أن امرأةً من نساءِ الجنةِ أَشْرَقَتْ إلى الأرضِ لمَلأتِ الأرضَ من رِيحِ المسك، ولَأَذْهَبَ ضوءُ القمرِ وَالشَّمْسُ نورَ وجهها». وقال مرة: «لَأَشْرَقَتْ لها الأرضُ كما تُشْرِقُ الشمسُ لأهلِ الدنيا، وَلَنَصِيْهُهَا الذى على رأسها خيرٌ من الدنيا وما فيها». والله ما كنتُ لاختاركِ عليهنَّ، فَسَكَّتْ.

ورواه مالكُ بنُ دينارٍ عن شَهْرٍ بن حوشب قال فيه: فجعلَ يُصَلِّى وَيَبْكى تلك الليلةَ حتى أصبحَ. ثم قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يدخلُ فقراءُ المسلمينَ

(١) تلف قدر كلمة.

(٢) معين: أى أصابته عين حاسدة فأمرضته.

الجنة قبل الأغنياء بِخَمْسِينَ عامًا، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ [الأغنياء]^(١) يَكُونُ فِي غَمَارِهِمْ، فَيُؤْخَذُ بِيَدِهِ، فَيُسْتَخْرَجُ». قَالَ سَعِيدُ بْنُ عَامِرٍ: فَأَرَادَ عَمْرٌ أَنْ يَجْعَلَنِي ذَلِكَ الرَّجُلَ، فَمَا يَسِرَّنِي أَنِّي ذَلِكَ الرَّجُلَ، وَأَنْ لِي الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا.

ورواه عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَابِطٍ، فَقَالَ فِيهِ: مَا أَنَا [بِمَتَأَخِّرٍ]^(٢) عَنِ الْأَمْرِ الْأَوَّلِ بَعْدَ إِذْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَجِيءُ فَقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ يَزِفُونَ كَمَا يَزِفُ الْحَمَامُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: قِفُوا لِلْحِسَابِ، فَيَقُولُونَ: وَاللَّهِ مَا تَرَكْنَا شَيْئًا نُحَاسِبُ عَلَيْهِ. فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: صَدَقَ عِبَادِي، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ النَّاسِ بِسَبْعِينَ عامًا». وَزَادَ غَيْرُهُ: فَوَاللَّهِ مَا يَسِرَّنِي أَنِّي أُخِّرْتُ عَنِ الرَّعِيلِ الْأَوَّلِ وَأَنْ لِي الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا.

وكذلك قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، لَمَّا أُرْسِلَ إِلَيْهَا عَمْرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَسَمَهَا مِنْ مَالِ الْبَحْرَيْنِ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَافِعٍ: فَلَمَّا جَاءَ الرَّسُولُ، قَالَتْ: مَا هَذَا؟ قَالَ: أُرْسِلَ بِهِ إِلَيْكُمْ عَمْرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قَالَتْ: غَفَرَ اللَّهُ لَهُ، لَقَدْ كَانَ عِنْدِي أَقْوَى عَلَى قَسَمِهِ هَذَا مِنِّي. قَالَ: فَإِنَّ هَذَا كُلَّهُ لَكَ، وَكَانَ آلافاً كَثِيرَةً، فَقَالَتْ: سُبْحَانَ اللَّهِ! ضَعَّهُ، اطَّرَحُوا عَلَيْهِ ثَوْبًا، ثُمَّ قَالَتْ: أَدْخِلْ يَدَكَ فَاقْبِضْ مِنْهُ قَبْضَةً قَبْضَةً، اذْهَبُوا بِهَا إِلَى بَنِي فَلَانٍ، ثُمَّ جَعَلْتُ تَقْبِضُ مِنْ تَحْتِ الثَّوْبِ، تُرْسِلُهُ إِلَى الْإِيْتَامِ وَالْمَسَاكِينِ، حَتَّى أَنْفَدْتُهُ، ثُمَّ رَفَعْتُ يَدَيْهَا، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا يُدْرِكْنِي عَطَاءُ عَمْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَهَا، فَكَانَتْ أَوَّلَ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ لُحُوقًا بِهِ. وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَخْبَرَ أَزْوَاجَهُ بِذَلِكَ، وَهُنَّ مُجْتَمِعَاتٌ عِنْدَهُ، فَقَالَ: «أَسْرَعُكُنَّ لُحُوقًا بِي مِنْ أَزْوَاجِي أَطْوَلُكُنَّ بَاعًا بِالنَّفَقَةِ». فَلَمْ يَكُنْ مِنْهُنَّ أَحَدٌ بِالْعَطَاءِ وَأَسْخَى بِالْمَالِ مِنْ زَيْنَبَ، فَاسْرَعَتْ بِهِ لُحُوقًا.

ثُمَّ بَعْدَهَا عَائِشَةُ فِي الْجُودِ وَالسَّخَاءِ وَالزُّهْدِ وَالْعَطَاءِ. ذَكَرَهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدَرِ عَنْ أُمِّ دُرَّةَ، قَالَتْ: بَعَثَ إِلَيْهَا ابْنُ الزُّبَيْرِ بِمَالٍ فِي غِرَارَتَيْنِ. قَالَتْ: أَرَاهُ ثَمَانِينَ وَمِائَةَ أَلْفٍ، فَدَعَتْ بِطَبْقٍ، وَهِيَ يَوْمئِذٍ صَائِمَةٌ، فَجَعَلَتْ تُقَسِّمُهُ بَيْنَ النَّاسِ فَأَمْسَتْ وَمَا عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ دَرَاهِمٍ. فَلَمَّا أَمْسَتْ قَالَتْ: يَا جَارِيَّةُ، هَلُمِّي فَطْرِي، فَجَاءَتْهَا بِخَبْزٍ وَزَيْتٍ. فَقَالَتْ لَهَا أُمُّ دُرَّةَ: أَمَا اسْتَطَعْتَ مِمَّا قَسَمْتَ الْيَوْمَ أَنْ تَشْتَرِينَ لَنَا

(١) ما بين المعكفات اجتهد مني، لتلف الأصل.

بدرهمٍ لحمًا نُفطر عليه. قالت: لا تُعَفِّينِي، لو كنتِ ذَكَرْتَنِي لَفَعَلْتُ.

وروى هشام بن عروة عن أبيه أَنَّ معاويةَ بعثَ إلى عائشةَ مرَّةً بمائةِ ألف. قال: فوالله ما غابت الشمسُ من ذلك اليومِ حتَّى فرَّقَها. فقالت مولاةُ لها: لو اشتريتِ لنا من هذه الدراهمِ بدرهمٍ لحمًا. فقالت: لو قُلْتُ لى قبل أن أُفرِّقَها لَفَعَلْتُ.

وقال تميمٌ عن عروة بن الزُّبير: لقد رأيتُ عائشةَ تَصَدِّقُ بسبعينَ ألفًا وإنها لترَقَّعَ جانبَ دِرْعِها. ورواه حجاج عن عطاء، قال: بعث معاويةُ إلى عائشة بطوقٍ من ذهبٍ فيه جوهرٌ قَوْمٌ بمائةِ ألف، فقَسَّمته بين أزواجِ النَّبِيِّ ﷺ.

وقال أبو راشد التنوخي: سمعتُ [أنه] إذا دَخَلَتْ إلى أحدهم الدنيا، قال: إليكِ إليكِ يا خنزيرةُ، استأخِري عَنَّا، لا حاجةَ لنا فيك، إنا نعرفُ إلهنا.

هذا كله خشيةُ الفتنَةِ بها، إذ الفتنَةُ بالمال لا تُحصَى، لا يَعْرِفُها إلا البُصْرَاءُ. وَجُمِلُ الفتنَةِ بها: أَخَذُها مِن غَيْرِ حِلِّها، أو وَضَعُها في غيرِ أهلِها، أو منعُها من حقِّها. وَجُمِلُ حَبِّها والحرصُ عليها: الظلمُ على شيءٍ منها، أو الجمعُ والإمساكُ لها، والحسدُ والفخرُ بها، وأنه لا يُعطى الفقراءُ منها. فتدبروا فُرُوعَ هذه الفِتَنِ.

وروينا عن عيسى ابنِ مريم عليه الصَّلَاة والسلام: «أنَّه طلبَ أن يرى الدنيا، فرآها في صُورة عَجوزٍ هيماء، عليها من كلِّ زينة، فقال لها: يا امرأة، كم تَزَوَّجْتَ؟ قالت: ما أَحْصَيْتُهُمْ عَدَدًا. فقال: كم ممن تَزَوَّجْتَهُم ماتَ عَنكَ؟ قالت: بل كُلُّهُم قَتَلْتُ. فقال: عجبًا من أزواجك الباقيين كيف لا يَعْتَبِرُونَ بأزواجك الماضين هَلَكْتَكَ لَهُم واحداً واحداً، ولا يكونُوا مِنكَ على حَذَرٍ».

وقد كُوشِفَ بهذه الصُّورة بعضُ أبدال هذه الأُمَّة، فقال: رأيتُ الدنيا في صورة عَجوزٍ كبيرةٍ عليها حُلِيٌّ ومُصَبَّغات. قال: فقلتُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنكَ. قالت: لا والله لا يُعِيدُكَ اللهُ مِنِّي حتَّى تَبْغُضَ الدِّينَارَ والدَّرْهَمَ.

ورواه حميدُ بن هلال عن علاء بن زياد، وكان من البدلاء، قال: رأيتُ الناسَ في النَّومِ يتبعون شيئاً فاتَّبَعْتُهُ، فإذا عَجوزٌ كبيرةٌ عَوْرَاءُ هيماء، وإذا عليها من كلِّ حَلِيَّةٍ وزِينَةٍ. فقلتُ: من أنتِ؟ قالت: أنا الدنيا. قلتُ: أسألك الله أن يُبْغِضَكَ

إلى. قالت: نعم، إن أبغضت الدرهم. الهيماء: مكسرة الأسنان.

ومما رويناه من دعاء أهل البيت عن زيد بن علي رضى الله عنهما: «اللهم إني أسألك سلواً عن الدنيا، وبغضاً لها ولأهلها، فإن خيرها زهيد، وشرها شديد، وجمعها يبيد، وما فات منها حسرة، وما أصيب منها فتنة. أسألك اللهم منها العصمة، وأن لا تجعلنا كمن رضى بها، واطمأن إليها، فإن من أمنها خائته، ومن اطمأن إليها فجعته».

وأنشدت لبعض الزاهدين فيها:

خَفَضَ هَذَاكَ اللَّهُ مِنْ حَالِكََا	وَأَفْرَحُ بِمَا قَدَّمْتَ مِنْ مَالِكََا
مَا يَنْبَغِي أَنْ كُنْتَ ذَا فِطْنَةٍ	أَنْ تَخْطُرَ الدُّنْيَا عَلَى بَالِكََا
لَا تَأْمَنِ الدُّنْيَا عَلَى غِرَّةٍ	كَمْ غَدَرَتْ قَبْلُ بِأَشْكَالِكََا
كَمْ مَضَى فِي النَّاسِ مِنْ هَالِكََا	وَهَالِكََا حَتَّى يُرَى مَهَالِكََا
فَانْظُرْ سَبِيلًا سَلَكَوْهُ وَلَا	تَحْسِبْ بِأَنِّي لَسْتُ لَهُ سَالِكََا
أَصْبَحْتَ الدُّنْيَا لَنَا عِبْرَةً	وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَالِكََا
اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى ذَمِّهَا	وَمَا أَرَى مِنْهُمْ لَهَا تَارِكََا

وكان فتح الموصلى يقول: الدنيا ناؤوس خرب، والمؤمن نظيف كريم لا يُطيف نفسه إلى التطلع في النواويس. أى [مقابر] يجتمع فيها عظام موتى المجوس، فشبه محبى الدنيا الذين جمعهم حبها على معانقتها وكره فراقها فى عدم اليقين بموتى المشركين. وكان فتح الموصلى يدخل على أهله بعد عشاء الآخرة، فيجدهم جوعاً عراً ليس لهم ما يتعشون به، ولا ما ينامون فيه، وهم فى ظلمة بلا مصباح، وربما لم يجد عندهم ما يشربونه. وكان ليلته يبكى من الفرح والسرور، ويقول: بأى يد كانت منى؟ بأى شىء فعلت فى هذا الذى تصنعه بأوليائك وبأبيائك؟ وربما بقى هو وأهله أياماً على هذه الحال.

وكذلك رويناه بمعناه عن الله سبحانه لما بعث موسى عليه السلام إلى فرعون،

كان فيما قال له: «اسْمَعْ كَلَامِي واحْفَظْ وصِيَّتِي، لا يُعْجِبَنَّكُمَا زِينَتُهُ ولا ما مُتَّعَ به، يعنى فرعون، ولا تمدان إلى ذلك أعينكما، فإنها زهرة الدنيا، وزينة المترفين. ولو شئتُ أن أزينكما بزينة من الدنيا لا تقوم لها الدنيا وما فيها، ولكنى أرغب بكم عن ذلك، وأذودُه عنكم، كذلك أفعل بأوليائي، وقديماً خرتُ لهم في أمور الدنيا. إننى لأذودهم عن نعيمها ورحابها كما يذودُ الرَّاعِي الشَّفِيقُ غَنَمَهُ عن مراتع الهلكة. وإننى لأجنبنهم رخاءها وسرَّاءها كما يُجَنِّبُ الرَّاعِي الشَّفِيقُ إِبِلَهُ عن مبارك العُرم^(١). وما ذاكَ لهُوانِهِمْ عَلَيَّ، ولكن لِيَسْتَكْمِلُوا نَصِيْبَهُمْ مِنْ كَرَامَتِي أَلْمَا مُوفِراً لم تُكْمِلُهُ الدنيا، ولم يُنْقِصْهُ الهوى (...)^(٢) إنه لم يترزَّ لى العبادُ بزينة هى أبلغ عندى من الزُّهدِ فى الدنيا، فإنها زينة الأبرارِ عندى، وأحسنُ ما ترزَّ به العبادُ، وهى زينة المتقين، عليهم منها لباسٌ يُعرفون به من السَّكينة والخشوع والتحول والسُّجود، أولئك هم أوليائي حقاً حقاً. فإذا لقيتهم فاخفِضْ لهم جناحك، وذللْ لهم قلبك ولسانك.

وبذلك جاءت الأخبارُ عن نبيِّنا ﷺ فى وصفِ أولياءِ الله وأحبائِهِ فى الدنيا، وذكرِ حُسْنِ بلاءِ الله فى صَرْفِهَا عَنْهُمْ، إذ جعلَهُمْ فى سِجْنِهِ الكريمِ، ولم يجعلِ الدنيا جَنَّتَهُمْ، وأبتَلَاهُمْ فِيهَا، وعصَمَهُمْ مِنْهَا، ووفَّرَ لَهُمْ نَصِيْبَهُمْ، وأجْزَلَ عطاءَهُمْ من دارِهِ دارِ السَّلامِ فى مُسْتَقَرِّهِمْ ومُثَوَاهِم بِمَنْزِلِ المَقامِ، طوبى لَهُمْ وحسن مآب، وهنيئاً مَرِيئاً لأهلِهِ أُولَى الألباب.

فمن جُمِلَ ما جَمَعْنَاهُ مِمَّا رُوِيَنَاهُ مُتَّفَرِّقاً، ممَّا فيه غُنْيَةٌ وكِفَايَةٌ لِدَوَى الأَبْصارِ، وبه تفكَّرٌ وهِدَايَةٌ لأُولَى الأفكارِ، ما نَذَكِرُهُ مختَصراً من حديثِ حُذيفة رضى الله عنه، وهو إمامنا فى هذا العلم، وهو صاحبُ السِّرِّ، قال: إِنَّ أَقْرَبَ أَيَّامِي لِعَيْنِي يَوْمٌ أَرْجِعُ إلى أهلى وهم يشكُّون الحاجةَ، والذى نفسُ حُذيفةَ بيده لَسَمِعْتَ رسولَ الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ليتعاهد عبده المؤمنَ، كما يتعاهد الوالدُ ولَدَهُ بالخَيْرِ. وإنَّ اللهَ لِيَحْمِي عبده المؤمنَ مِنَ الدُّنْيَا، كما يَحْمِي المَريضَ أَهْلَهُ مِنَ الطَّعَامِ».

(١) العُرم: يقصد الأماكن الصلبة الوعرة.

(٢) تلف بالأصل قدر كلمتين.

وقال فيه رافع بن خديج عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا حَمَاهُ الدُّنْيَا كَمَا يُحْمِي السَّقِيمُ الْمَاءَ».

وَيُصَدِّقُ قَوْلَ الصَّادِقِ مَا سَلَفَ مِنْ سِيرَةِ اللَّهِ وَسُنَّتِهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي أُولِيَائِهِ الصَّادِقِينَ: أَنَّ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَرَّ بِسَاحِلِ بَحْرٍ، فَإِذَا رَجُلٌ يَصْطَادُ حَيْثَانًا فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، فَأَلْقَى شَبَكَتَهُ فَلَمْ يَخْرُجْ فِيهَا حُوتٌ وَاحِدٌ. ثُمَّ مَرَّ بِآخَرٍ يَقُولُ: بِسْمِ الشَّيْطَانِ، فَخَرَجَ فِيهَا مِنَ الْحَيْثَانِ حَتَّى جَعَلَ الرَّجُلُ يَتَقَاعَسُ مِنْ كَثَرَتِهَا. فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: رَبِّ، هَذَا الَّذِي دَعَاكَ وَلَمْ يُشْرِكْ بِكَ شَيْئًا ابْتَلَيْتَهُ، بَأَنَّ لَمْ تُخْرِجْ فِي شَبَكَتِهِ شَيْئًا، وَهَذَا الَّذِي دَعَا غَيْرَكَ ابْتَلَيْتَهُ، فَخَرَجَ فِي شَبَكَتِهِ مَا لَا يُحْصَى مِنْ كَثَرَتِهِ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ ذَلِكَ بِيَدِكَ، فَأَنَّى هَذَا؟ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: أَكْشَفُوا لِعَبْدِي عَنْ مَنَزِلَتِهِمَا عِنْدِي، فَلَمَّا رَأَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِهَذَا مِنَ الْكَرَامَةِ، وَمَا أَعَدَّ لِهَذَا مِنَ الْهَوَانِ، قَالَ: رَضِيتُ يَا رَبِّ.

وكَذَلِكَ رَوَيْنَا أَنَّ مُوسَى ﷺ ذَكَرَ مَا يَصْنَعُ اللَّهُ بِالْمُؤْمِنِ مِنَ الْبَلَاءِ وَيَزَوِي عَنْهُ مِنَ الدُّنْيَا، وَمَا يَصْنَعُ بِالْكَافِرِ وَيُعْطِيهِ مِنَ الدُّنْيَا. فَأَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِجَهَنَّمَ تَجَلَّى لَهُ عَنْهَا حَتَّى نَظَرَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: مَا يَنْفَعُ الْكَافِرَ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الدُّنْيَا حِينَ يَكُونُ إِلَى هَذَا مُصِيرُهُ. وَأَمَرَ بِالْجَنَّةِ تَجَلَّى لَهُ عَنْهَا حَتَّى نَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: مَا يَضُرُّ الْمُؤْمِنَ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا كَانَ إِلَى هَذَا مُصِيرُهُ.

مَعَ الْخَبَرِ الْآخَرِ: «التَّقَى مَلَكَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: إِلَى أَيْنَ؟ فَقَالَ: أُمِرْتُ بِسَوْقِ حَوْتٍ اشْتَهَاهُ فَلَانَ الْكَافِرُ، عُجِّلْ لَهُ شَهْوَتُهُ فِي الدُّنْيَا. وَقَالَ الْآخَرُ: أُمِرْتُ بِدَفْقِ زَيْتٍ اشْتَهَاهُ فَلَانَ الْعَابِدُ، يُزَوَّى عَنْهُ الْيَوْمَ، وَيُعْطَاهُ غَدًا».

إِلَى الْخَبَرِ الْأَعْظَمِ فِي مُجْمَلِ الدُّنْيَا: «إِنَّهَا تَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صُورَةِ قَبِيحَةٍ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ أَنَا الدُّنْيَا فَاجْعَلْنِي لِأَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنَزَلَةً. فَيَقُولُ لَهَا تَعَالَى: أَنْتِ أَقْلُ مَنْ ذَلِكَ، أَنْتِ أَحَقُّرُ مَنْ ذَلِكَ، أَنْتِ وَأَهْلُكَ إِلَى النَّارِ». وَرَوَيْنَاهُ بِلَفْظٍ آخَرَ: «مِيزُوا مَا فِيهَا لِي، وَأَلْقُوا سَائِرَهَا إِلَى النَّارِ». قَالَ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦]. هُوَ مَا يُرَادُ بِهِ وَجْهُهُ مِنْ

عِلْمٌ نَافِعٌ يَقِينُ، وَعَمَلٌ صَالِحٌ مُسْتَقِيمٌ، ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٣]، ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧]، ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٤٦].
كما جاء مُفسِّراً بمعناه: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذَكَرُ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ، وَمَا آوَى إِلَيْهِ، أَوْ عَالَمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ».

فأقلُّ ما يُفِيدُ هذه الأخبارُ - من بعدِ التَّفَكُّرِ فيها والاعتبارِ لأولى الأيدي والأبصارِ - أن لا يحزنَ العبدُ بضيقِ ماله^(١)، ولا يَغْتَمَّ على مُصَابٍ منها أصابه، ولا يفرحَ ولا يعجبَ بما وُسِّعَ عليه فيها، بل يخافُ ويشفقُ من ذلك، ولا يُزِرِي على الفقراء، ولا يحتقرُ المساكينَ، ويتمنَّى ويطلبُ منازلَ الزاهدين، هذا أولُ نصيبِ المؤمنِ من عِلْمِ اليقينِ، إن لم يُعطَ درجاتِ الصادقين، ولم يُرفعَ إلى مقاماتِ الصديقين، ولم يتحقَّقْ بكشفِ عينِ اليقينِ.

رُوينا عن مالكِ بنِ دينارٍ عن أنسِ بنِ مالكٍ قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «من أصبحَ حزينًا على الدُّنْيَا أصبحَ سائحًا على ربِّه. ومن أصبحَ يشكو مُصِيبَةً نزلَتْ به فإنما يشكو ربِّه. ومن تَضَعُضَعَ أو تواضعَ لغنىٍّ لينالَ من فَضْلِ ما فى يَدَيْهِ أحبطَ اللَّهُ ثُلثَى عَمَلِهِ».

ورواه فرقدُ السَّبْخِي عن أنسٍ عن النَبِيِّ ﷺ مُجْمَلًا: «من أصبحَ همُّهُ غيرَ اللَّهِ، فليس منِ اللَّهِ»، مُفسِّراً فى غيرِهِ: «همَّ آخِرَتِهِ لا دُنْيَاهُ».

ورواه يزيدُ بنُ أبانٍ عن أنسٍ مشروحًا فى ذكرِ الدُّنْيَا، قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «منْ كانتِ نِيَّتُهُ طَلَبَ الدُّنْيَا، شَتَّ اللَّهُ عليه أمرُهُ، وجعلَ فقرُهُ بينَ عَيْنَيْهِ، ولم يُوْتِهِ من الدُّنْيَا إلا ما كَتَبَ له. ومن كانتِ نِيَّتُهُ طَلَبَ الآخِرَةِ، جمعَ اللَّهُ شَمْلَهُ، وجعلَ غِنَاهُ فى قلبِهِ، وأَتَتْهُ الدُّنْيَا وهى رَاغِمَةٌ».

ورواه الرِّبَّيعُ بنُ صَبِيحٍ، فقال فيه: «من كانتِ الآخِرَةُ همُّهُ، جعلَ اللَّهُ غِنَاهُ فى قلبِهِ» ثم ذكره، وقال: «من كانتِ الدُّنْيَا همُّهُ، فَرَّقَ اللَّهُ شَمْلَهُ، وجعلَ فقرَهُ بينَ عَيْنَيْهِ، ولم يَأْتِهِ من الدُّنْيَا إلا ما قُدِّرَ لَهُ». وزاد فيه الحسنُ عن أنسٍ قال: قال

(١) فى الأصل: «بِالهِ»، ولعل الصواب ما أثبت.

رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا كَانَ هَمُّهُ الدُّنْيَا وَسَدَمَهُ^(١)، أَفْشَى اللَّهُ عَلَيْهِ ضِيعَتَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَا يُصْبِحُ إِلَّا فَقِيرًا، وَلَا يُمَسِّي إِلَّا فَقِيرًا. وَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ وَسَدَمَهُ، جَمَعَ اللَّهُ لَهُ ضِيعَتَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَلَا يُصْبِحُ إِلَّا غَنِيًّا وَلَا يُمَسِّي إِلَّا غَنِيًّا».

وفى حديث أبي موسى الأشعري، أن رسولَ الله ﷺ قال: «من أحبَّ دُنْيَاهُ أَضُرَّ بِآخِرَتِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضُرَّ بِدُنْيَاهُ، فَاتَرَوْا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى». ورواه ابن مسعودٍ فقال فيه: «من أراد الآخرةَ أَضُرَّ بِدُنْيَاهُ، وَمَنْ أَرَادَ الدُّنْيَا أَضُرَّ بِالْآخِرَةِ».

فإذا كانت إرادةُ الدنيا تضرُّ بالآخرةِ، فكيف بالسَّعى لها والحرصِ عليها؟ وإذا كان إرادةُ الآخرةِ تضرُّ بالدنيا، فكيف بمن أحبَّ الآخرةَ وسعى لها وعملَ في أسبابها، وحرصَ عليها، وأحبَّ أبناءها وأهلها، وبذلَ نفسه وماله لأولياءِ الله وأحبابه فيها؟ أى دُنْيَا تبقى له، وأى إضرار بدُنْيَاهُ لا يضر به؟ فتدبره.

وفى حديث الحسن: «مرَّ رسولُ الله ﷺ بِمَزْبَلَةٍ، فَقَالَ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الدُّنْيَا بِحَذَائِيرِهَا، فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذِهِ الْمَزْبَلَةِ: «ثم قال: لو أن الدنيا تعدل عند الله جناحَ ذبابةٍ ما أُعْطِيَ منها كافرًا شيئًا». ثم ذكر الموتَ وغمَّهُ وكمدهَ وعَلَزَهُ^(٢)، فقال: «ثلاثمائة ضربةٍ بالسَّيف».

وكذلك فعل الحسنُ رضى الله عنه: أنه مرَّ على مَزْبَلَةٍ فاحتبسَ عندها، فكأن أصحابه تأذوا بذلك، فقال: هذه دُنْيَاكُمْ التى تَحْرِصُونَ عليها. وكان بشرُ بن كعب رضى الله عنه يقول: انطلقوا حتى أُرِيكُمْ الدُّنْيَا، فيذهب بهم إلى السوق، وهى مَزْبَلَةٌ، فيقول: انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم. قال الحسنُ رحمه الله: قد رأيتهم يُطَيِّبُونَهُ بِالْأَفَاوِيهِ وَالطَّيِّبِ ثُمَّ يَرْمُونَ بِهِ حَيْثُ رَأَيْتُمْ.

وقد قاله رسولُ الله ﷺ للضحَّاك بن سُفْيَانَ الْكِلَابِيِّ، وضربه مَثَلًا، فقال:

(١) السَّدَمُ: هو الولوج بالشئ واللَّهَجُ به.

(٢) الْعَلَزُ: هَلَعٌ يُصِيبُ الْمُحْتَضِرَ وَالْمَرِيضَ.

«أَلَسْتَ تُؤْتِي بِطَعَامِكَ وَشَرَابِكَ قَدْ صَلَّحَ وَقُزَّحٌ^(١)، ثُمَّ تَشْرَبُ عَلَيْهِ مِنَ اللَّبَنِ وَالْمَاءِ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَإِلَى مَا يَصِيرُ؟ قَالَ: إِلَى مَا عَلِمْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَإِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ مَثَلَ الدُّنْيَا لِمَا يَصِيرُ إِلَيْهِ طَعَامُ ابْنِ آدَمَ».

ورواه يحيى السَّعْدِيُّ عَنْ أَبِي بَنْ كَعْبٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ الدُّنْيَا لِمَطْعَمِ ابْنِ آدَمَ مَثَلًا، وَضَرَبَ مَطْعَمَ ابْنِ آدَمَ لِلدُّنْيَا مَثَلًا، وَإِنْ قَزَحَهُ وَمَلَّحَهُ، فَانْظُرْ مَا يَخْرُجُ مِنْ ابْنِ آدَمَ».

وَقَالَ رَجُلٌ لَابْنِ عُمَرَ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ شَيْءٍ، وَإِنِّي أَسْتَحْيِيكَ. قَالَ: فَلَا تَسْتَحْيِي، سَلْ. قَالَ: إِذَا قَضَى أَحَدُنَا حَاجَتَهُ، قَامَ يَنْظُرُ إِلَى ذَلِكَ مِنْهُ. قَالَ: نَعَمْ، إِنَّ الْمَلِكَ يَقُولُ: هَذَا مَا بَخِلْتُ بِهِ أَنْظُرْ إِلَى مَا صَارَ.

فهذه مشاهدة أولى الألباب الذين فهِمُوا عَنْ اللَّهِ بَاطِنَ الْخُطَابِ، مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] قِيلَ: مجارى الطعام والشراب إلى ما يؤوّل، فيزهدون في أوله، إذ قد كُوشِفُوا بآخِرِهِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ.

ولذلك كان رسولُ اللَّهِ ﷺ يقول - إِذَا عُوتِبَ عَلَى تَبَذُّلِهِ وَنَوْمِهِ عَلَى الْأَرْضِ -: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا وَالدُّنْيَا، مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا إِلَّا كَرَكَابٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا».

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى، بِمَعْنَى السَّيْرِ إِلَيْهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

وَفِي أَلْفَافٍ أَخْبَارٍ جَمَعْنَاهَا مِنْ أَوَاخِرِ أَحَادِيثَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ: عَتَبَةُ ابْنِ عَامِرٍ، وَأَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ، وَعَمْرُو بْنُ عَوْفٍ، وَغَيْرُهُمْ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ، وَقَدْ شَكَّوْا إِلَيْهِ الْفَقْرَ وَالْجُوعَ وَالْحَاجَةَ: «إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَشْرَكُوا بَعْدِي، وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا. وَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسِطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ

(١) قُزَّحٌ: أَيْ جُعِلَ فِيهِ التَّوَابِلُ.

على مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، فَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ».

وفى حديث عبد الله بن يزيد، رضى الله عنه، قال: «فاستقبل ﷺ مطلع الشمس، ومدَّ يديه، وقال: تَطَالَعْتَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا - أَى أَقْبَلْتَ - يَغْدُو أَحَدُكُمْ فِى حُلَّةٍ، وَيُرُوحُ فِى أُخْرَى، وَتَسْتَرُونَ بُيُوتَكُمْ كَمَا تُسْتَرُ الْكَعْبَةُ».

وفى حديث أبى ذرٍّ: فقام أعرابى فقال: يا رسول الله، أهلكتنا الضَّبْعُ - يعنى: السَّنةُ المجذبة - فقال: غَيْرُ ذَلِكَ أَخَوْفَنى عَلَيْكُمْ، إِذَا صُبَّتْ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا صَبًّا، فَيَا لَيْتَ أُمَّتِى لَا يَتَحَلَّوْنَ الذَّهَبَ»^(١).

وفى حديث عمر رضى الله عنه: «جاء قوم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، خَرَجْنَا مِنْ بِلَادِنَا بِهَا أَمْوَالُنَا وَدِيَارُنَا، وَقَدَمْنَا بِلَادًا لَا دِيَارَ لَنَا بِهَا وَلَا أَمْوَالَ، وَأَسَانَا إِخْوَانُنَا الْأَنْصَارَ، فَلَوْ دَعَوْتَ اللَّهَ لَنَا، فَإِنَّ مَنَا لَمَنْ يَمُرُّ بِهِ الْيَوْمَانِ وَاللَّيْلَةُ مَا يَذُوقُ أَكْلًا، فقال ﷺ: لَنْ تَزَالُوا هَكَذَا مَا دُمْتُ بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ، فَإِذَا خَرَجْتُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِكُمْ حُطَّتْ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَحِطَاطِ الْوَالِدَةِ عَلَى وَلَدِهَا، فَالْتَزِمْتَكُمْ وَالتَزِمْتُمُوهَا».

فلذلك كان عامرُ بن عبد القيس إذا عُوتِبَ فِى تَقَلُّلِهِ مِنَ الدُّنْيَا، يُقَالُ لَهُ: يَا عَامِرُ، رَضِيتَ بِالْقَلِيلِ! فيقول: بَلْ أَنتُمْ، وَاللَّهِ، رَضِيتُمْ بِالْقَلِيلِ.

وكان غيره يقول، إِذَا قِيلَ لَهُ: أَنْتَ أَزْهَدُ النَّاسِ، فقال: أَنْتُمْ أَزْهَدُ مِنِّى. قيل: كَيْفَ؟ قَالَ: أَنَا زَهْدْتُ فِى قَلِيلٍ يَفْنَى، وَأَنْتُمْ تَزْهَدُونَ فِى كَثِيرٍ يَبْقَى.

فهذا، لعمري، زُهدُ الموقنين بِالْآخِرَةِ الْبَاقِيَةِ، رَضُوا بِالْقَلِيلِ الْبُلْغَةَ، وَاعْتَضَوْا مِنْهُ الْكَثِيرَ، بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَهُمْ. وَكَذَلِكَ زُهدُ أُولَى الْمُعْقُولِ، رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَاطْمَأْنَنُوا بِهَا، وَجَعَلُوهَا عَوَضًا مِمَّا آمَنُوا بِهِ مِنَ النَّعِيمِ الَّذِى لَيْسَ لَهُ انْقِضَاءٌ، فَبَنُوا الْبُنْيَانَ، وَأَحْكَمُوا الْمَسَاكِينَ، وَجَمَعُوا الْجُمُوعَ، كَأَنَّهُمْ فِيهَا بِاقُونَ، وَعَنْهَا لَا يَرْحَلُونَ. وَكَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ يَقُولُونَ: الزُّهْدُ فِى الدُّنْيَا مُرِيحٌ لِلْقَلْبِ وَالْبَدَنِ، وَالْحَرِصُ عَلَى الدُّنْيَا يُكْثِرُ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ، وَيَكْدُّ الْقَلْبَ وَالْبَدَنَ، فَطُوبَى لِمَنْ وَفَّقَ،

(١) كان ثمت تلف فى مواضع من هذا الحديث أتمته من المسند ٣٦٨/٥.

وَبَصَّرَ بِحُسْنِ الْفِطْنَةِ وَالْبَصَرِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ خُذِلَ وَفُتِنَ بِرَوْنَقٍ مَا يَرَاهُ بِهِ غِبْنٌ. وَفِي الْخَبَرِ: «الدُّنْيَا دَارٌ مِّنْ لَا دَارَ لَهُ، وَمَالٌ مِّنْ لَا مَالَ لَهُ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَن لَا عَقْلَ لَهُ». وَأُنشِدُنِي بَعْضُ الْأَشْيَاحِ لِبَعْضِ التَّارِكِينَ لِلدُّنْيَا:

الدُّنْيَا لِمَنْ هِيَ فِي يَدَيْهِ عَذَابًا كُلَّمَا كَثُرَتْ لَدَيْهِ
تُهِنُ الْمُكْرِمِينَ لَهَا بِرَغَمٍ وَتُكْرِمُ كُلَّ مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ
إِذَا اسْتَغْنَيْتَ عَنْ شَيْءٍ فَدَعَهُ وَخُذْ مَا أَنْتَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ

وقد كان الحسنُ رضى الله عنه يقول: أَهِنُوا الدُّنْيَا، فوالله لأهْنَأُ مَا تَكُونُ حِينَ تُهِنُهَا. وكان يحلف بالله: مَا أَعَزَّ عَبْدُ الدُّنْيَا إِلَّا أَذَلَّ دِينَهُ، وَمَا أَعَزَّ دِينَهُ إِلَّا هَانَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا. وبعضهم يقول: مَنْ أَكْرَمَ الدُّنْيَا [اليوم] أَهَانَتْهُ غَدًا، وَمَنْ أَهَانَهَا الْيَوْمَ أَكْرَمَتْهُ غَدًا. وَيُعَبَّرُ عَنْ هَذَا بِالنَّفْسِ أَيْضًا، فَيَقَالُ: مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ كَرُمَ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَكْرَمَ دِينَهُ أَيْضًا. وَمَنْ أَعَزَّ نَفْسَهُ أَذَلَّ دِينَهُ، وَهَانَ عِنْدَ اللَّهِ أَيْضًا.

وقد كثرت الأخبارُ في هذا المعنى، وَأُنشِدْتُ فِي مَعْنَاهُ:

مُكْرِمُ الدُّنْيَا مُهَانٌ مُسْتَذَلٌّ فِي الْقِيَامَةِ
وَالَّذِي هَانَتْ عَلَيْهِ، فَلَهُ ثُمَّ كَرَامَةٌ
كَمْ كَرِيمٌ بَيْنَ قَوْمٍ مَا لَهُ ثُمَّ كَرَامَةٌ
وَفَقِيرٌ وَحَقِيرٌ قَدْ حَوَى تِلْكَ الْكَرَامَةَ

وقال عَمَّارُ بْنُ طَلْحَةَ، وَكَانَ مِنَ الْعَابِدِينَ، فِي وَصْفِ الدُّنْيَا:

أَرَى الدُّنْيَا تُعَذِّبُ مِنْ هَوِيهَا وَتُورِثُ قَلْبَهُ نِقْمًا وَدَاءً
فَإِنْ عَادِيَتَهَا نُجِيتَ مِنْهَا وَإِنْ صَافَيْتَهَا تَلَقَى الْبَلَاءَ

وقد أنشدناه على غير هذه القافية:

وَتُورِثُ قَلْبَهُ هَمًّا وَتِيهَا

فَإِنْ عَانَقَتْهَا تَلَقَى الْبَلَايَا وَإِنْ فَارَقَتْهَا نُعِمْتَ فِيهَا

وَكَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ: كَانَ الْمَتَمَسِّكُونَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَمَنْ أَخَذَ

عنهم من التَّابِعِينَ، يَكْرَهُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا الْأَمْوَالَ وَالْعُقَارَ، لَثَلَا يَرْكُنُوا إِلَى الدُّنْيَا. وَكَانَ مَا جَاءَهُمْ مِنْ رِزْقٍ أَخَذُوا الْكَفَّافَ مِنْهُ، وَقَدْ [تَرَكُوا الْفَضْلَ] ^(١) لِيَوْمٍ فَقَرِهِمْ. ثُمَّ كَانَتْ حَوَائِجُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي دِينِهِمْ، وَمَطْلَبُهُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ. وَقَالَ أَبُو قَبِيلٍ الْمَعَاوِرِيُّ: نَزَلَ بِأَبِي (...) أَضْيَافٌ، فَأَلْقَى إِلَيْهِمْ فِرَاشَهُ وَلِحَافَهُ، وَقَالَ: (...) ^(٢) لَنَا دَارٌ أُخْرَى غَيْرَ هَذِهِ، قَدْ نَقَلْنَا حَرًّا مَتَاعِنَا إِلَيْهَا، وَتَرَكْنَا فِي هَذِهِ الْحَاجَةَ.

فهذا، لعمري، فَعَلُ الْعَارِفِينَ عَنِ اللَّهِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩]. وَهُوَ عَمَلٌ مَنْ سَمِعَ مِنْهُ قَوْلَهُ: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَلَتَنْظُرُنَّ نَفْسُ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]، وَفَهِمَ خِطَابَهُ إِذْ يَقُولُ: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]. فَكَانَ هَذَا شَأْنُ الْمُتَزَوِّدِ لِسَفَرِهِ الْمُتَحِلِّ، وَحَالِ الْمُتَحَوِّلِ مِنْ مَنَزَلِهِ الْمُتَنَقِّلِ. وَرَوَى أَنْ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يَتِمَثَّلُ بِهَذَا الْبَيْتِ:

حَلَالُهَا حَسْرَةٌ يُفْضَى إِلَى نَدَمٍ وَفِي الْمَحَارِمِ مِنْهَا السُّمُّ مَذْرُورٌ

وَبِمَعْنَاهُ كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ مَعَاوِيَةَ يَتِمَثَّلُ:

حَرَامُكَ يَا دُنْيَا يَقُودُ إِلَى لُطَى وَدُو الْلُبِّ أَيْضًا مُشْفِقٌ مِنْ حَلَالِكَ

وَكُتِبَ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى عَامِلِهِ عَدِيِّ بْنِ أَرْطَاةَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا عَدُوَّةٌ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ، وَعَدُوَّةٌ أَعْدَائِهِ. فَأَمَّا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ فَغَمَّتْهُمْ، وَأَمَّا أَعْدَاءُ اللَّهِ فَغَدَّتْهُمْ. فَهَذَا كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ فِي وَصْفِ حَالِ الْعَبْدِ:

عِشْ مُعْسِرًا إِنْ شِئْتَ أَوْ مُوسِرًا لَا بُدَّ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْغَمِّ

وَكُلَّمَا زَادَكَ مِنْ نِعْمَةٍ زَادَ الَّذِي زَادَكَ فِي الْهَمِّ

وَكَانَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ إِذَا تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: ٥] قَالَ: «مَنْ قَالَ هَذَا؟ الَّذِي خَلَقَهَا، وَهُوَ أَعْلَمُ بِهَا،

(١) اجتهاداً مني؛ لتلف الموضع.

(٢) تلف قدر كلمتين في هذا الموضع والذي قبله.

فَيَاكُمْ وما يَشْغَلُ من الدُّنْيَا عَنِ الْآخِرَةِ، فَإِنَّ الدُّنْيَا كَثِيرَةُ الْأَشْغَالِ، لَا يَفْتَحُ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ شُغْلٍ إِلَّا أَوْشَكَ ذَلِكَ الْبَابُ أَنْ يَفْتَحَ عَلَيْهِ عَشْرَةُ أَبْوَابٍ».

وهذا كما قال، فَيَسِيرُ الدُّنْيَا يَقْطَعُ عَنْ كَثِيرِ الْآخِرَةِ، وَالتَّفَرُّغُ لِقَلِيلِهَا يَشْغَلُ عَنِ الشُّغْلِ بِكَثِيرِ الْآخِرَةِ. وَهِيَ مُتَشَعِّبَةٌ ذَاتُ شُعَبٍ، يُتَشَعَّبُ بِصَاحِبِهَا فِي أَوْدِيَةِ الْعُطْبِ، فَمِثْلُهَا مِثْلُ رَجُلٍ وَقَعَ فِي دَخْلَةٍ شَوْكٍ فَعَلَقَتْ بِأَثْوَابِهِ، إِنْ خَلَصَ كُمَّهُ عَلِقَ الشَّوْكَ بِذِيلِهِ، وَإِنْ خَلَصَ ذَيْلُهُ تَعَلَّقَ الشَّوْكَ بِصَدْرِهِ، وَإِنْ نَزَعَ مِنْ صَدْرِهِ دَخَلَ شَوْكٌ فِي رِجْلِهِ، فَأَيْسَرَ الْخُلَاصَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا الْخُرُوجَ مِنْ جَمِيعِهِ؛ أَنْ يَخْلَعَ مِنْهَا ثَوْبَهُ، وَيَبْرَزَ إِلَى مَحَجَّةِ الطَّرِيقِ، كَمَا قَالَ الْحَكِيمُ:

✽ إِنَّ السَّلَامَةَ فِيهَا تَرَكَ مَا فِيهَا ✽

وَقَالَ الْآخَرُ فِي ضِدِّهِ:

تَبْغِي النَّجَاةَ وَلَمْ تَقْصِدِ مَسَالِكَهَا إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْبَيْسِ
الزَّاهِدُ فِي الدُّنْيَا مَسْجُونٌ مُضَيَّقٌ عَلَيْهِ مُطْبَقٌ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ أَرَادَ وَصَلَ إِلَى الْمَسْجُونِ، وَكُلَّمَا كَانَ السَّجْنُ أَضْيَقَ عَلَيْهِ وَأَشَدَّ كَانَ الْوَصُولُ إِلَى الزَّاهِدِ أَبْعَدَ وَأَشَقَّ. فَلِذَلِكَ كَانَ خِيَارُ أَوْلِيَاءِ^(١) اللَّهِ مَحْجُوبِينَ عَنِ النَّاسِ لَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ أَى إِنْسَانٍ إِلَّا مِنْ تَوَصَّلَ أَوْ تَوَسَّلَ عَلَى قَدَرِ تَضَائِقِ السُّجُونِ. مَعْنَاهُ رَسْمَتُهُ حَفْظًا، وَذَلِكَ مَوْجُودٌ فِي الْخَبَرِ: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَسَتُّهُ، فَإِذَا فَارَقَ الدُّنْيَا فَارَقَ السَّجْنَ» وَالسَّنَةُ: الْجَدْبُ وَالْمَجَاعَةُ. رَوَاهُ ابْنُ عَمْرٍو، وَزَادَ فِيهِ: «الدُّنْيَا جَنَّةُ الْكَافِرِ، وَسِجْنُ الْمُؤْمِنِ. وَمِثْلُ الْمُؤْمِنِ حِينَ تَخْرُجُ نَفْسُهُ كَمِثْلِ رَجُلٍ كَانَ فِي سِجْنٍ فَأُخْرِجَ مِنْهُ، فَجَعَلَ يَتَقَلَّبُ فِي الْأَرْضِ، وَيَسِيحُ فِيهَا». وَهَذَا مَشْهُودٌ مِنْ عُمُومِ الْخَبَرِ فِي الْجَنَازَةِ الَّتِي مَرَّ بِهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «عَبْدُ اللَّهِ دُعِيَ فَأَجَابَ، مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاخٌ مِنْهُ. قِيلَ: مَا ذَاكَ؟ قَالَ: عَبْدُ اللَّهِ الْمُؤْمِنُ اسْتَرَاخَ مِنَ الدُّنْيَا وَهُمُومِهَا وَنَصَبِهَا وَأَحْزَانِهَا، وَأَفْضَى إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ. وَعَبْدُ اللَّهِ الرَّجُلُ السَّوُّ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالْأَوَابُ».

(١) فِي الْإِتْحَافِ ٣٨١/٩: «وَلِذَلِكَ صَارَ أَوْلِيَاءُ».

وبمعناه قال السلف: مثل المؤمن حين يخرج من الدنيا مثل الجنين إذا خرج من بطن أمه، يخرج من ضيق وكرب وغم إلى سعة وروح وتفسح، يتقلب كيف شاء. وقد رُئي جماعة من التابعين والصحابه بعد موتهم؛ منهم: عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، ومنهم: داود الطائى، وغيرهما. فسئلوا عن حالهم، فقالوا: ما استرحنا إلا الآن، خرجنا من غم الدنيا وحزنها إلى روح الآخرة ونعيمها.

وقد كان من دعاء الرسول ﷺ: «أَسْأَلُكَ الرَّاحَةَ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَفْوَ عِنْدَ الْحِسَابِ».

ومن أول غم الدنيا على المولود بكاءؤه ساعة يُولد، فهو دليل على حزنه، وإن كان قد صار فيما هو أوسع عليه وأروح، ولكن ذلك من نكد الدنيا، كما قال:

لما يؤذن الدنيا بنا من غمومها يكون بكاءُ الطفل ساعة يُولدُ
وإلا فما يبكيه منها وإنها لأوسع مما كان فيه وأرغدُ

وكان الفضل رضى الله عنه يمثل حال المؤمن في الدنيا مع الله بالطفل مع أمه يقول: إن الله تعالى يحمي عبده المؤمن الدنيا، ويؤويها عنه، ويعلله عنها، ويمررُها عليه، مرةً بالجوع، ومرةً بالعري، ومرةً بالحاجة والغم، ومرةً بالكروب والأذى، كما تصنع الوالدة الشفيقة بولدها؛ تعلله، مرةً تسقيه صبراً، ومرةً حفظاً، ومرةً تُجرعه ألوان الأشربة والأغذية، وهو يبكي، تُريد بذلك ما هو خير له من حيث لا يعلم. معناه نقلته حفظاً. وفي الرواية: «حُضَضَ» بالضاد، وصوابه بالطاء المعجمة، ذكَّره لى الذهبي عن أصحاب الأصمعي.

وكذلك قال المسيح ابن مريم عليه السلام: «معشرَ الخواريين، كُلُّوا خبزَ الشعير، ونبات الأرض، والماء القراح، فإنكم لا تقومون بشكره. واعلموا أن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة، وأن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة». وكذلك رويناه عن الله سبحانه، أنه أوحى إلى الدنيا: «تمررِ لأوليائي؛ حتى تكون رغبتهُم فيما

عندى، واحلُولِي لِأَعْدَائِي؛ حَتَّى يَرْضَوْا بِكَ بَدَلًا مِنِّي». وهذا مفهومٌ من قوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنَى آدَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠]، العبادة: الطَّاعَةُ والاستجابة. ثم قال: ﴿أَفَتَخَذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يَقُولُ: كَفَى بِهِ ذَنْبًا أَنْ اللَّهَ تَعَالَى يُزَهِّدُنَا فِي الدُّنْيَا وَنَحْنُ نَرْغَبُ فِيهَا. وَالْآخَرُ يَقُولُ: كَفَى مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي لَا نَسْتَغْفِرُ مِنْهَا وَلَا نَتُوبُ حُبًّا لِلدُّنْيَا [وَلَأَسْبَابُهَا]. وَالْأَكْثَرُ يَقُولُونَ: خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا مَا لَا يُتَلَى بِهِ، وَخَيْرٌ مَا ابْتُلَيْتُمْ بِهِ مِنْهَا مَا خَرَجَ مِنْ أَيْدِيكُمْ. فَكَذَلِكَ الْأَمْرُ، فَإِنَّ الْوَرَعَ أَنْ لَا يَكْتَسِبَ الشُّبُهَةَ لِيَنْفِقَهَا فِي الطَّاعَةِ. فَإِنَّ اجْتِنَابَ الشُّبُهَاتِ أَذْنَى إِلَى الْوَرَعِ وَالزُّهْدِ، وَأَفْضَلُ فِي الْقُرْبَةِ مِنْ اكْتِسَابِهَا وَإِنْفَاقِهَا فِي الطَّاعَاتِ، فَكَيْفَ إِذَا أَنْفَقْتَ الشُّبُهَاتِ فِي الشَّهَوَاتِ، ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ. فَإِنَّ الْأَجُودَ لِمَنْ اكْتَسَبَ مَالًا، أَوْ لِمَالٍ قَدْ كَانَ جَمَعَهُ، إِخْرَاجُهُ فِي (....) لِيَجْمَعَ إِمْسَاكُهُ وَمَنْعُهُ. وَقَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ [بْنُ أَدْهَمَ] إِذَا ذَكَرَ السَّلَفَ مِنَ الصَّحَابَةِ يَقُولُ: [كَثِيرٌ مِنْهُمْ قَدْ] أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا فَهَرَبُوا مِنْهَا [وَأَدْبَرُوا عَنْهَا] ^(١).

وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مِنْ قَبْلِهِ - لَمَّا أَتَى بِمَالٍ [كَثِيرٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ أُلْقَى] بَيْنَ يَدَيْهِ صُبْرًا وَكُومًا، وَنَظَرَ إِلَى [الصَّفَرَاءِ وَالثُّوبِ ثُمَّ بَكَى]. قِيلَ لَهُ: تَبْكِي وَتَتَحَبَّبُ؟ فَقِيلَ لَهُ: هَذَا يَوْمٌ فَرَحَ [وَقَدْ وَسَّعَ اللَّهُ فِيهِ]، وَاللَّهُ مَا وَجَدَ هَذَا فِي قَوْمٍ وَتَطَلَّبَهُ قَوْمٌ إِلَّا كَثُرَتْ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ، وَاقْتَتَلُوا عَلَيْهِ بِالسَّيْفِ. ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُحِبُّ أَنْ يُصِيبَ مَالًا فَيَنْفِقَهُ فِي سَبِيلِكَ، وَعَلَى عِبَادِكَ، فَزَوَيْتَ عَنْهُ ذَلِكَ نَظَرًا مِنْكَ لَهُ وَاخْتِيَارًا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ يَكُونَ هَذَا مَكْرًا مِنْكَ بَعْمُرٍ، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥ - ٥٦].

أَلَا تَرَى أَنَّ صَرْفَ ذَلِكَ عَلَى الزُّهْدِ فِيهِ كَانَ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ وَأَزْلَفَ عِنْدَهُ مِنْ

(١) هذه عدة مواضع تالفة، بعضها اجتهدت فيها ووضعتها بين معكوفتين.

توجيهه مع إنفاقه في طاعته؟

وكذلك قال سلمان لصاحبه لما نظر إلى أكداس الطعام على شطّ دجلة، فسّر بذلك وأعجبه، قال له سلمان: لا يعجبك هذا، فإنّ إلى جنب كل حبة منه حسابٌ. ألم يكن هذا في خزائن الله ومحمد ﷺ حتى يتلوّى من الجوع، لا يجد ما يملأ بطنه هو وأهل بيته، يُصبحون ويمسون ما لهم غداء ولا عشاء؟! أو كما قال. فقلتُ: بلى قد كان هو في خزائن الله. قال: فإنّا قد ابتلينا به، أو فتحت علينا الدنيا. ولعمري لقد حقّق الله لرسوله في الدنيا سؤله، وأعطاه عوضاً منها من الآخرة مأموله.

وروينا في حديث عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «عَرَضَ عَلَى رِبِي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا. فقلتُ: لا يا ربّ، ولكنّي أشبعُ يوماً، وأجوعُ ثلاثاً، فإذا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ، وَإِذَا شَبِعْتُ حَمَدْتُكَ وَشَكَرْتُكَ». فتدبر قوله؛ إذ جعل الجوع سببَ تضرّعه وذكره، فهو أفضل من الشبّع لحمده وشكّره، لقول الذّاكر الأكبر: ﴿وَلَذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وفي الخبر الآخر: «بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ رَسُولًا: إِنِّي أُعْطِيكَ مِنَ الدُّنْيَا مَا لَمْ أُعْطِ أَحَدًا قَبْلَكَ، وَلَا أُعْطِيهِ أَحَدًا بَعْدَكَ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِمَّا لَكَ عِنْدِي شَيْئًا. قال: لا، بل تَجْمَعُهَا لِي فِي الْآخِرَةِ».

فتفكّر ذلك، إنّ رضا الجامع المانع ومحبّته فيما منع اليوم وجمعه غداً، فلذلك قال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥] أى من الآخرة، لما بلغ رضاه في الزهد في الدنيا. وقال في حُسن اختياره له تعويضاً بما هو خير له، إذ اختار ما يحبّ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان: ١٠]. وقال رسول الله ﷺ: «مَوْضِعُ سَوَاطِئِ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا». وقال عليه الصلاة والسلام: «شِبْرٌ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا». وقال عليه الصلاة والسلام: «ما الدنيا في الآخرة إلا كجلد أرنب». وقال: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم إصبعه في اليمّ،

فَلْيَنْظُرْ بِمَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ». وقال الله أجودُ الأجودين: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] فهو الخيرُ الكثيرُ الكبيرُ. والكوثر: الذى لا يُحصَرُ له عددٌ، ولا يفنيه دهرٌ، ولا يُوصَفُ كثرةٌ ولا خطرٌ... (١)

وفيما رويناهُ من كلامِ الحَسَنِ فى حالِ الزَّاهِدِ ووصفِ المؤمنِ، قال أبو عبيدة، وقد سمع الحسن، رحمه الله، يقول: إِنَّ الْمُؤْمِنَ عَمِلَ اللَّهُ تَعَالَى أَيَّامًا يَسِيرَةً، فَوَاللَّهِ مَا نَدِمَ أَنْ يَكُونَ أَصَابَ مِنْ نَعِيمِهَا وَرَخَائِهَا، وَلَكِنْ رَأَتْ الدُّنْيَا لَهُ فَاسْتَهَانَهَا وَهَضَمَهَا لِآخِرَتِهِ، وَتَزَوَّدَ مِنْهَا فَلَمْ تَكُنْ الدُّنْيَا فِي نَفْسِهِ بَدَارٍ، وَلَمْ يَرْغَبْ فِي نَعِيمِهَا، وَلَمْ يَفْرَحْ بِرَخَائِهَا، وَلَمْ يَتَعَاطَمْ فِي نَفْسِهِ شَيْءٌ مِنَ الْبَلَاءِ إِنْ نَزَلَ بِهِ مَعَ احْتِسَابِهِ لِلْأَجْرِ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَمْ يَحْتَسِبْ نَوَالَ الدُّنْيَا حَتَّى مَضَى رَاغِبًا رَاهِبًا، فَهَنِيئًا هَنِيئًا؛ فَأَمَّنَ اللَّهُ بِذَلِكَ رَوْعَتَهُ، وَسَتَرَ عَوْرَتَهُ، وَيسَّرَ حِسَابَهُ (٢).

وقال فى مَوَاعِظِهِ: امْرُؤٌ كَسَبَ طَيِّبًا، وَأَنْفَقَ قَصْدًا، وَقَدَّمَ فَضْلًا لِيَوْمِ فَقَرِهِ وَفَاقَتِهِ، وَجَّهُوا هَذِهِ الْفُضُولَ حَيْثُ وَجَّهَهَا اللَّهُ، وَضَعُوهَا مَوَاضِعَهَا، فَإِنَّ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنَ الدُّنْيَا بِلَاغًا، وَيَتَاعُونَ بِالْفَضْلِ أَنْفُسَهُمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

وقال الحسن رضى الله عنه (٣): أقوام كانت الدنيا عندهم وديعةً، فأدَّوْها إلى مَنْ اتَّيَمَّنَهُمْ عَلَيْهَا، ثُمَّ رَاحُوا خِفَافًا. إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ عَمَلٍ، مَنْ صَحَبَهَا بِالْبُغْضِ لَهَا وَالزَّهْدِ فِيهَا سَعِدَ بِهَا، وَنَفَعَتْهُ صُحْبَتُهَا. وَمَنْ صَحَبَهَا بِالرَّغْبَةِ فِيهَا وَالْمَحَبَةِ لَهَا، شَقِيَ بِهَا وَأَجْحَفَتْ بِحِظِّهِ مِنَ اللَّهِ، ثُمَّ أَسْلَمَتْهُ إِلَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، وَلَا طَاقَةَ لَهُ بِهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ. فَأَمْرُهَا مُتَغَيِّرٌ، وَمَتَاعُهَا قَلِيلٌ، وَالْفَنَاءُ عَلَيْهَا مَكْتُوبٌ. إِنَّ الْمُؤْمِنَ عَبْدٌ كَيْسٌ أَبْصَرَ فَتَفَكَّرَ وَاعْتَبَرَ، عَمَدَ إِلَى الدُّنْيَا فَهَدَمَهَا، فَبَنَى بِهَا آخِرَتَهُ، وَلَمْ يَهْدَمْ آخِرَتَهُ لِدُنْيَاهُ.

(١) طمس بالأصل قدر نصف سطر.

(٢) كلام الحسن البصرى طمس أكثره فى المخطوط، وأثبت المطموس من الحلية ١٤٦/٢، والخبر فيه بسنده ونصه.

(٣) الحلية ١٤٠/٢.

ثم قال: الدنيا قد آذنت بالزوال، لعَابَةٌ بأهلها على كلِّ حال، فارتُضِ الدنيا، وسمَّحَ عنها نفسك، وقَدِّمِ الفضل، صاحبها بجسدك، وفارقها بقلبك وهمك [ولتعتبر بما]^(١) ما قد رأيتَ مما سلف بين يديك ممَّن خلا من أهلها، وليزدك إعجابُ أهلها بها كراهيةً لها، وقلةً طُمأنينةً فيها، حذرًا منها وفرارًا، فإنَّ الصالحين كذلك كانوا.

ثم قال: إنَّ المؤمنَ في الدنيا كالغريب، لا يجزع من ذلِّها، ولا يُنافِسُ في عزِّها، لأهلها حالٌ، وله حالٌ أُخرى قد أهتمَّه، النَّاسُ منه في راحةٍ، وهم منه في شُغْلٍ.

فاعلم يقينًا أنَّ أصحابَ رسولِ الله ﷺ كلَّهم كانوا فاضلين، وكان أفضلهم أزهدهم في الدنيا مع [ما لهم] في الصحبة والسابقة، ألَمْ تسمع إلى الخبر المشهور من حديث جبير بن نفير عن عوف بن مالك: «أنه أرى الجنة في المنام، فذكر منها سرِّجًا أخضر فيه قبة، وصفها، قال: فقلت: لمن هذه القبة؟ قال: قيل لى: لعبد الرحمن بن عوف. قال: فانتظرتُه حتى خرج، فقال: يا عوفُ هذا الذي أعطانا الله في القرآن، ولو أشرفتَ على هذه القبة لرأيتَ ما لم تر عينك، ولم تسمع أذنك، ولم يخطر على قلبك مثله، أعدَّه الله لأبى الدرداء، لأنَّه كان يدفعُ الدنيا بالراحتين والنحر.

وكذلك كانت الصحابة تقول للتابعين إذا رأوا اجتهداهم وكثرة أعمالهم: أنتم أكثرُ أعمالًا وأشدُّ اجتهداءً، وهم كانوا خيرًا منكم. قالوا: بَمَ ذلك؟ قال: كانوا أزهَدَ في الدنيا منكم. وكان الصحابة يقولون: تابَعْنَا الأعمالَ بعضها على إثر بعض، فلم نرَ أبلغَ في طَلَبِ الآخرةِ من زهَّادٍ في الدنيا. وقد رُوينا معناه مُسنَدًا: «ما عبدَ اللهُ عبادةً أفضلَ - أو قال: أحبَّ إليه - من الزُّهدِ في الدنيا».

وكذلك كان أولُ هذه الأئمة من الصَّحابة أشدَّ زُهْدًا، وبه كانوا أفضل، ثم فَضَّلَ بعدهم التابعون لهم بإحسان؛ لأنَّهم كانوا أحسنَ عَمَلًا بالزُّهدِ في الدنيا،

(١) موضعها تالف، فاعتمتها اجتهدًا. وكذلك الموضع التالي.

وهم أَوْسَطُ الْأُمَّةِ، والقرنُ الثاني، ثم كَثُرَ الرَّاعِبُونَ بعد التابعين، منهم الزاهدون، وهم آخرُ الْأُمَّةِ إلى وقتنا هذا.

وهذا من الخبر الذى رُوِيَنَاهُ عن سُفْيَانَ عن عوف عن سعد بن أبى الحسن، رَفَعَهُ، قال: «قال رجلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، رَأَيْتُ فِي مَنَامِي [أَكْوَامًا مِنْ] ذَهَبٍ مَرَّ عَلَيْهِ قَوْمٌ يَسِيرُ، فَسَلَكُوا فِي [جَنَبِهَا وَلَمْ] يَعْرِضُوا لَهُ، ثُمَّ جَازُوا وَلَمْ يَعْرِضُوا لَهُ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ أَكْثَرُ مِنْهُمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَ وَمِنْهُمْ مَنْ تَرَكَ. ثُمَّ جَاءَ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ أَكْثَرُ مِنْهُمْ، فَلَمَّا رَأَوْهُ ابْتَدَرُوهُ [فَمَا تَرَكَوْا مِنْهُ]»^(١) شيئًا، ثُمَّ اسْتَيْقَظْتُ. فقال رسول الله ﷺ: «أَرَيْتَ مَثَلُ أُمَّتِي فِي الدُّنْيَا، أَوَّلَهَا وَأَوْسَطُهَا وَآخِرُهَا».

فخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ضَعُفُوا سَنَةَ السَّلَفِ، وَاتَّبَعُوا شَهْوَةَ النَّفْسِ.

وقد ذكر إبراهيم الخواص محدثى الزمان بتمويههم فى الزهد على الراغبين، فقال: وقوم ادَّعُوا الزُّهْدَ، وَلِيسُوا الْفَاخِرَ مِنَ اللَّبَاسِ، يُمَوِّهُونَ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ، لِيُهْدَى إِلَيْهِمْ مِثْلُ لِبَاسِهِمْ، وَلَثَلَا يُنْظَرُ إِلَيْهِمْ بِالْعَيْنِ الَّتِي يُنْظَرُ بِهَا إِلَى الْفُقَرَاءِ، فَيُحْتَقِرُونَ، فَيُعْطَوْنَ كَمَا يُعْطَى الْمَسَاكِينَ، وَيَحْتَجُونَ لَأَنْفُسِهِمْ بِاتِّبَاعِ الْعِلْمِ، وَأَنْتَهُمْ عَلَى السُّنَّةِ، وَأَنَّ الْأَشْيَاءَ دَاخِلَةٌ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ خَارِجُونَ مِنْهَا، وَإِنَّمَا يَأْخُذُونَ بَعْلَةَ غَيْرِهِمْ، هَذَا إِذَا طُولَبُوا بِالْحَقَائِقِ، وَأُلْجِئُوا إِلَى الْمَضَاقِ. وَكُلُّ هَؤُلَاءِ أَكَلَةُ الدُّنْيَا بِالْدِّينِ، لَمْ يُعْنَوْا بِتَصْفِيَةِ أَسْرَارِهِمْ وَلَا بِتَهْذِيبِ أَخْلَاقِ نَفْسِهِمْ، فَظَهَرَتْ عَلَيْهِمْ صِفَاتُهُمْ فَغَلَبَتْهُمْ، فَادَّعَوْهَا حَالًا لَهُمْ، مَائِلُونَ إِلَى الدُّنْيَا، مُتَّبِعُونَ لِلْهَوَى^(٢).

وكان الخواصُّ رحمهم الله لا يلبس أكثر من قطعتين مِثْرَينِ، أو قميص ومِثْرَ تحتَه، ويعطف ذيل قميصه على رأسه، أو يَحُلُّهُ مِنْ وَسْطِهِ فَيُغْطِي بِهِ رَأْسَهُ. وكذلك يُسْتَحَبُّ لِلْفَقِيرِ، وهو حدُّ اللباس من الحاجة.

وقد كان يحيى بن معاذ الرّازى يصفُ الزّاهدين من العارفين - لعمري - والمتحقّقين بالحال، والمستحقّين لاسم الزّهد ومعناه، فى تَفْهِيمٍ من كلامه نذكرها،

(١) ما بين المعكفات اجتهاد منى؛ لتلف فى الأصل.

(٢) انظر: الإتحاف ٩/ ٣٧٢.

هي من أحوال أهل المعرفة، زادوا بها على مقام الزاهدين الموقنين. فكان يقول في وصفهم: الزهد مع الغنى أفضل من الزهد مع الفقر، يزهد الرجل وفي قصره أمثال التصاوير من النساء، لو نظر الزاهد الفقير إلى وصيفة منهن غشى عليه.

وقد كان مالك بن دينار، أيضاً من قبله، يقول بمعناه: الناس يقولون: مالك زاهد، إنما الزاهد مثل عمر بن عبد العزيز، زهد في الدنيا مع الملك لها والقدرة عليها.

وقال يحيى: إذا زهد حُجب عن العامة، وإذا عرف حُجب عن الزهاد. وقال: إذا حُجب العارف لعزته اصْطيد، وبالطُعْمَة يُدعى إلى طعام فيُجيب، فيظفرون به بذلك. وكذلك اصْطيد أبوه آدم بالطُعْمَة من الشجرة.

وكان يقول: لا يمكن للعابد والزاهد أن يستترا عن الخلق. والعارف مستور كأنه رجل من الناس، وهو أفضل من تحمله الأرض، لا يعرفه إلا مثله، ولا يصبر على معاشرته إلا شكله.

وقال: حبك للدنيا حب بلاء، وحبك للآخرة حب بلوى. ومن رضى باختياره دأماً فرحه؛ لأن العارف من أخذ الآخرة بيمينه، والدنيا بشماله، وأقبل على الله بقلبه، لا يلهي عنه شيء، وما دام يخاف من وقوع الدنيا عليه فإنه لم يصل بعد^(١).

وقعد إليه مرة رجل من الزهاد، فجعل يحدثه الزاهد بأحاديث في فضل القلة والفقر، ويحيى ينظر في وجهه كالمتعجب، فلما قام، قال: لو لم يعللوا المساكين بمثل هذه الأحاديث لتفقأت مراراتهم من الغم، وكانوا لا يصبرون على الفقر، هيهات لم يتقدم القوم عند الله بفقر ولا غنى، ولكن بالعلم والمعرفة.

قيل له: فما عبادة العارف؟ قال: أمرهم مع الله إلى القلوب. الدنيا دار سير إلى الله تعالى، فإن لم يسر بأعمال جوارحه فهو سائر بقلبه، خطو القدم ذراع،

(١) انظر: الإتحاف ٩/ ٣٧٢ - ٣٧٣، ٣٨١.

وخطو القلب ألف فرسخ^(١).

قال: دميت قلوبُ القوم حتى لا نالوا (...) قيل: أفليس لهم رحمة؟ قال: هم أرحم الخلق، ولكنهم شغلوا بالله ما شغلهم عن صنعته، ومن خلق الله (...).

وقال: كيف يُحبُّه العلماءُ الخَوْنَةُ المحبُّونَ للدنيا، وعقولُهُم لم تَجْمَعِ الزَّهْدَ في الدنيا؟ وإنما يصل إلى حبه من قد خرقَ ستورَ الآخرة إليه، فكيف الدنيا؟! سلُّوا هؤلاء عن الأحكام والروايات ودعُوهم بما لا يعلمون، فإن التماسكَ العطرَ في حوانيتِ الصِّادِلَةِ جهل، إنما هو الشُّغْلُ بالله عن الدنيا والآخرة معًا.

وقال: طلبوا العبوديةَ في الزُّهْدِ فلم يجدوها. الزَّاهِدُ ألجَّ من يرى، يثبتُ على تركِ الشيء أربعين سنةً، ولكنّه كلما كان ألجَّ كان أصدق بما لم يُوافق نفسه مولاه في الأخذ، فلا سبيل له إليه إلا بالتَّركِ حتَّى يترك أخلاقَ العبيدِ الكزَّةَ الصَّعبةَ، ويتخلَّقَ معه بأخلاقِ الأحرارِ، أخلاقِ سماويةٍ من الحبِّ والموافقةِ والرِّضا والمعرفة. فإنّه لا يوجد صدقُ العبوديةِ إلا في منازلِ المحبةِ والمعرفة.

وكان يفسِّر قولَ المسيح ﷺ: «يا عبيدَ الدنيا؛ لا أنتم عبيدُ أتقياء» قال: يعنى الزُّهاد، «ولا أحرارُ أقوياء» قال: يعنى العارفين.

وقال: كلُّ من وافق نفسه في أخذِ الدُّنيا والتَّنعُّم بها، لم يجعل له السبيلَ إلى نفسه إلا بالتَّركِ لها، وبالجُهدِ والتَّعذيبِ لنفسه فيها، حتَّى تنقاد له نفسه، وتوافق مولاه.

وقال: خُضَّ بحارَ المعرفةِ إليه، لتستهيَن جُهدَ الزُّهْدِ والعبادةِ في جَنبِ ما تُدفع إليه، مما لا قِوَامَ للعقلِ عليه، من البهَاءِ مع العبادةِ، والكِفايةِ مع الزُّهْدِ، والبصيرةِ مع العلم، والجوائزُ السَّنيَّةُ مع المعرفة.

وحكى مرّةً، فقال: التَّقَى أحمدُ بن حرب، وابنُ خَضْرُوِيَّة^(٢)، وأبو حامدٍ،

(١) كان ثمة تلف في هذا الخبر بالأصل أتمته من الإنحاف ٣٨١/٩، ولم أهتم إلى بقية المواضع الأخرى.

(٢) ترجمته في: طبقات الصوفية، ص ١٠٣.

فقالوا لأحمد بن حرب: إن جاءتك الدنيا فما أنت صانعٌ بها؟ قال: كنت أَرْضِي بها خُصْمائِي لثلاثِ تلحقني تَبَعَةٌ يومَ القيامةِ.

قالوا لأحمد بن خَضْرَوِيهِ. فما كنت صانعاً بالدنيا لو جُعِلَتْ لَكَ؟ قال: كنتُ أَجْعَلُهَا كُلَّهَا لِقَمَةٍ، وَأَضْعُهَا فِي فَمِ مُؤْمِنٍ، فاستريحَ منها.

قالوا لأبى حامد: فما كنتَ تَصْنَعُ بها أنت؟ قال: كنتُ أَجْعَلُهَا لَطُلَّابِ الآخرةِ، لثلاثِ يحتاجون إلى طلابِ الدَّارِ، فأحوزَ ثوابَ ذلك.

فقال يحيى: أمّا ابنُ حَرْبٍ، فأنطقه لسانُ العُصَاةِ، ودرجتهُ درجةُ التَّوَّابِينَ. وأمّا ابنُ خَضْرَوِيهِ، فأنطقه لسانُ المحبَّةِ، ودرجتهُ درجةُ المشتاقين. وأمّا أبو حامد، فأنطقه لسانُ الشَّفَقَةِ، ودرجته درجةُ الزَّاهِدِينَ.

قيل ليحيى بعد ذلك: ما كنتَ أنتَ صانعاً بها؟ قال: وما حُكْمُ العَبْدِ فِي مَالِ سَيِّدِهِ، أَنْتَظِرُ قَضَاءَهُ فِيهَا فَأَصْرِفُهَا فِيهِ، فهو أعرفُ بالتَّدْبِيرِ^(١).

وكان يقول: الزَّاهِدُ عَيْشُهُ إِلَى يَوْمٍ وَاحِدٍ، وَالْعَارِفُ أَسْقَطَ الْأَمَلِ أَصْلًا؛ لِأَنَّ حَيَاتَهُ بِيَدٍ غَيْرِهِ. وقال: الزَّاهِدُ يُسْعِطُكُ الْخَلَّ وَالْخُرْدَلُ، وَالْعَارِفُ يَنْثُرُ عَلَيْكَ الْمِسْكَ وَالْعَنْبَرَ.

وقال: مَنْ صَدَقَ فِي التَّرْكِ عُذْرٍ فِي الْأَخْذِ. يعنى: الدُّنْيَا.

وقال: الصُّوفُ لِبَاسُ الْعَجَمِ مِنَ الْمُتَزَهِّدِينَ، مَا رَأَيْتُهُ عَلَى أَحَدٍ اسْتَبْرَعَ عَقْلَهُ.

وقال: نفورُ العارفين من الزَّاهِدِينَ أَكْثَرُ مِنْ نُفُورِ الزَّاهِدِينَ مِنَ الرَّاعِبِينَ.

وكان يقول: الدُّنْيَا كُلُّهَا لَا تَعْدِلُ عِنْدَ رَبِّهَا جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، فَكَمْ مَقْدَارَ مَا تَرَكْتَ مِنْهَا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَضَعَهَا عَلَى طَبَقٍ، وَتَقُولُ: مَا صَنَعْتُ شَيْئًا؛ لِأَنَّهُ لَوْ عَرَفَ قَدْرَ الْمُزْهُودِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ لَمْ يَذْكُرِ الزُّهْدَ.

وقال: ترى الزَّاهِدَ إِذَا دَخَلَ فِي الزُّهْدِ جُوعَ نَفْسِهِ، وَبَاعَ شَيْئًا كُلَّهُ مِنَ الْخَوْفِ مِنَ الدُّنْيَا لَا يَشْكُ، حَتَّى إِذَا قَوِيَ يَقِينُهُ، وَرَأَى الْأَمْرَ كَائِنًا وَجُودَهُ بِغَيْرِ الْأَسْبَابِ،

(١) الخبر برمته فى: الإتحاف ٩/ ٣٨١ - ٣٨٢.

عَرَفَ مِنْ بَعْدُ، وَنَدِمَ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّا كَانَ بَاعَ مِنْ كُتُبٍ أَوْ مَتَاعٍ.
وقال: الزَّاهِدُ كُلُّهُ غُصْنٌ مِنْ أَغْصَانِ شَجَرَةِ الْمَعْرِفَةِ.

وقال: إِنَّمَا يَتْرَكُونَ وَيَحْزَنُونَ لِيَفْرَحَ، وَيَأْخُذُونَ وَيَفْرَحُونَ لِيَفْرَحَ، فَمَا عَلَيْهِمْ تَرْكُوكُ أَوْ أَخْذُوكُ، أَوْ حَزْنُوكُ أَوْ فَرْحُوكُ، إِذْ كَانَ فَرْحُهُ مَوْجُودًا لَهُمْ فِي الْحَالَتَيْنِ.
فَقِيلَ لَهُ: هُوَ يَفْرَحُ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَلَيْسَ فِي الْخَبْرِ: «اللَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ أَضَلَّ بِعَيْرِهِ»؟ الْحَدِيثُ^(١).

وقال: يَا زَاهِدَ، إِنْ كُنْتَ تَعْجَبُ مِمَّنْ تَرَكَ الْجَنَّةَ فِي جَنِّبِ دُنْيَاهُ، فَالْعَارِفُ أَشَدُّ تَعْجَبًا حِينَ شَغَلَتْكَ الْجَنَّةُ عَنْ خَالِقِهَا، وَكُلُّ حَالَةٍ تَفْخَرُ بِهَا فِي سَيْرِكَ إِلَيْهِ إِلَّا كَسَرَهَا عَلَيْكَ الْوُصُولُ؛ لِيَكُونَ فَخْرُكَ بِهِ لَا بَغِيرَهُ.

وجملة الأمر أن ابن معاذ لم يكن يتكلم بلسان الزُّهْدِ، وَلَمْ يَكُنْ عَمَلُهُ يَصْلُحُ لِلْمُرِيدِينَ وَلَا لِلسَّالِكِينَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ عُلَمَاءِ الطَّرِيقِ. وَقَدْ هَلَكَ بِمِثْلِ هَذَا فَرِيقٌ تَوَهَّمُوا مَقَامَ الْمَعْرِفَةِ، وَتَظَنَّنُوا^(٢) حَالَ الْعَارِفِ، حَتَّى فَاتَهُمْ بِذَلِكَ مَقَامُ الزُّهْدِ، وَلَمْ يُدْرِكُوا حَالَ الْعَارِفِينَ.

فَأَوَّلَى الْأَشْيَاءِ بِالْعَاقِلِ مُرَاعَاتُهُ لِمَا هُوَ حَاصِلٌ، وَمَعْرِفَتُهُ بِقَدْرِ حَالِهِ، وَإِعْمَالُهُ نَفْسَهُ فِي سَدِّ اخْتِلَالِهِ.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يَسْتَبِينُ بِهِ نُقْصَانُ مَرْتَبَةِ الْعَبْدِ، وَلَا يُغَيِّرُ قَلْبَهُ حَقِيقَةُ النُّقْصَانِ وَالتَّغْيِيرِ بَعْدَ حُبِّ رُكُوبِ الْمَعَاصِي [إِلَّا] حُبُّ الدُّنْيَا، وَشِدَّةُ الْحَرَصِ عَلَيْهَا، وَدَوَامُ الطَّلَبِ لَهَا، فَإِنَّهَا مَعْيَارٌ رَاجِعٌ عَلَى الْقَلْبِ بِالنُّقْصِ الْبَيِّنِ فِي كُلِّ الْمَقَامَاتِ. وَقَدْ تَدَخَّلَ بَعْضُ الْمَعَاصِي عَلَى الْعَبْدِ وَلَا يَنْقُصُ بِهَا، وَقَدْ يَفْتَرِ عَنْ جَمِيعِ الطَّاعَاتِ، وَلَا يَسْقُطُ بِهَا عَنْ مَقَامِهِ، إِذَا لَمْ يُخْرِجْهُ ذَلِكَ مِنْ حَالِ الزُّهْدِ. فَإِنْ أَشْرَبَ قَلْبُهُ حُبَّ الدُّنْيَا حَتَّى اسْتَهْوَتْهُ نَقْصُ هُنَا كُلِّ حَالٍ، وَكُلُّ الْمَقَامَاتِ. فَلِذَلِكَ كَانَ حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسَ كُلِّ ضَلَالَةٍ، وَأَصْلَ كُلِّ خَطِيئَةٍ. وَصَارَتِ الدُّنْيَا أُمَّ

(١) هذه الأخبار معظمها في الإتحاف ٣٨٢/٩، وأتمت التالف منها.

(٢) كذا في الإتحاف ٣٨٢/٩. وفي الأصل لدى: «وتطَيَّبوا».

الخطايا، وحبُّها رأس المعاصي، وَقَدْ يَصِحُّ الزُّهْدُ مع حُبِّ بعضِ المعاصي، أو مع الإقامة على بعضِ الكبائر، وقد يَصِحُّ أيضاً وجودُ كلِّ مقامٍ من المقامات من تلك وَيَصِفُو القلبُ بَعْدَهُ، إلا ثلاث مقامات: الخَوْفُ، والحُزْنُ، والحياءُ. فَإِنَّ هذه إِذَا صَدَقَتْ نَفَتْ وجودَ المعاصي من حيثُ يَعْلَمُ العبدُ.

ثُمَّ لَا يَصِحُّ مَقَامٌ من المقامات على حَقِيقَتِهِ، ولا يصفو القلبُ نهايةَ صفائه مع حُبِّ الدُّنْيَا أصلاً. فصار حُبُّ الدُّنْيَا أَضَرَ على العبدِ، وَأَبْيَنَ تَغْيِيراً لِقَلْبِهِ، وَأَنْقَصَ لِحَالِهِ من جميع الأشياءِ. فلو لم يَكُنْ من شَوْمِ الدُّنْيَا وعظيمِ البَلْوَى بها إلا هذا لكان عظيمًا.

وإنَّ في قِصَّةِ ثَعْلَبَةَ بنِ حاطبٍ^(١) عِبْرَةً لأُولَى الألبابِ الذين كُشِفَ عن قُلُوبِهِم الحجابُ. فَقِيرٌ من فُقَرَاءِ الصُّفَّةِ الصَّالِحِينَ، أَنْصَارِيٌّ، ومن المهاجرين، أَخْرَجَهُ حُبُّ الدُّنْيَا إِلَى التَّفَاق، وَأَدْخَلَهُ فِي العنادِ والشَّقَاق، وَغَضِبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَقْبَلْ تَوْبَتَهُ، وَلَا رَحِمَ عِبْرَتَهُ، وَلَا أَقَالَ عَثْرَتَهُ، وَكَانَ سَبَبَ ذَلِكَ حُبُّ الدُّنْيَا، وَإِثَارُ حَالِ الْغِنَى عَلَى الْفَقْرِ. نَذَرَهُ ليعتبرَ معتبرٌ، ويتذكرَ متذكراً، ويزدجرَ به مُزْدَجِرٌ.

(١) قال الزبيدي في الإتحاف ٢٢٥/٨: «وهما رجلان من الصحابة: أحدهما: ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عبيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف... الأوسى الأنصاري. ذكره موسى بن عقبة وابن إسحاق في البدرين. وكذا ذكره الكلبي، وزاد: أنه قتل بأحد. والثاني: ثعلبة بن حاطب - أو أبي حاطب - الأنصاري، ذكره ابن إسحاق فيمن بنى مسجد الضَّرَّار». وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة: «وفى كون صاحب القصة - إن صح الخبر، ولا أظنه يصح - هو البدرى المذكور نظر».

وقال الزبيدي تعقيباً على ذلك (الإتحاف ٢٢٧/٨): «وقد تأكدت المغايرة بينهما بقول ابن الكلبي: إن البدرى استشهد بأحد».

ويقوى ذلك أيضاً أن ابن مردويه روى في تفسيره من طريق عطية عن ابن عباس في الآية المذكورة، قال: وذلك أن رجلاً يقال له: ثعلبة بن أبي حاطب، من الأنصار، أتى مجلساً فاشهدهم فقال: لئن آتاني الله من فضله، الآية. فذكر القصة بطولها، فقال: إنه ثعلبة بن أبي حاطب. والبدرى اتفقوا على أنه ثعلبة بن حاطب.

وقد ثبت أنه ﷺ قال: «لا يدخل النار أحد شهد بداراً والحديبية... فالظاهر أنه غيره، والله أعلم».

رواه علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة، قال: «قال ثعلبة بن حاطب الأنصاري: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالا. فقال رسول الله ﷺ: وَيَحَكَّ يا ثعلبة! قليل تطيق شكره خير من كثير لا تطيقه. ثم عاود ثانياً، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالا. فقال له رسول الله ﷺ: أما ترضى أن تكون مثلي، ولو شئت أن يسير ربي عز وجل هذه الجبال ذهباً معي لسارت. فقال ثعلبة: والذي بعثك بالحق لئن آتاني الله عز وجل مالا لأعطين كل ذي حق حقه».

فَدَعَا له رسول الله ﷺ، فقال: اللهم ارزقه مالا. فَاتَّخَذَ غَنَمًا، فَنَمَتَ كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة، فَتَنَحَّى عنها، حَتَّى جعل يترك صلوات العتمة. وَنَمَتَ كما تنمو الدود، فَتَنَحَّى حتى ترك الظهر والعصر. ثم نَمَتَ كما ينمو الدود حتى ترك الجمعة، وَطَفِقَ يَلْقَى الرُّكْبَانَ يسألهم عن الأخبار.

وسأل رسول الله ﷺ عليه: ما فعل ثعلبة؟ قالوا: يا رسول الله، اتَّخَذَ غَنَمًا فضاقت به المدينة، وأخبروه بخبره. فقال: يا ويح ثعلبة. وأنزل الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ الآية [التوبة: ١٠٣]. فبعث رسول الله ﷺ على الصدقة رجلين، ثم أمرهما أن يأتيا الناس فيأخذا صدقاتهم، ويأتيا ثعلبة بن حاطب، وسن رسول الله ﷺ لهما أسنان الإبل والغنم.

فخرجا حَتَّى مرَّا على ثعلبة، فقال: أروني كتابكما، فأعطوه إياه، فنظر فيه فقال: ما هذه إلا جزية. فانطلقا حَتَّى تَفَرَّغَا ثم عودا إلى. فانطلقا، فلما فرغا رجعا حَتَّى مرَّا بثعلبة، فسألاه الصدقة، فقال: أروني كتابكما، فنظر فيه فقال: ما هذه إلا جزية. انطلقا حَتَّى أَرَى رأيي. فانطلقا، فأخبرا رسول الله ﷺ، فقال: يا ويح ثعلبة بن حاطب. ودعا رسول الله ﷺ لمن أخرج صدقة ماله بالبركة، وأنزل الله عز وجل: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ [التوبة: ٧٥] الآيات كلها. فسمع ذلك رجل من أقارب ثعلبة عند رسول الله ﷺ، فخرج حَتَّى أَنَاهُ، فقال: وَيَحَكَّ يا ثعلبة، هَلَكْتَ، قد نزل فيك كذا وكذا، وتلا عليه، فخرج حَتَّى أَتَى رسول الله ﷺ، فسأله أن يقبل صدقته، فقال: إن الله عز وجل قد

مَنْعَنِي أَنْ آخِذَ صَدَقَتِكَ. فَجَعَلَ يَحْتِى عَلَى رَأْسِهِ التُّرَابَ، وَيَقُولُ: وَيْلَى. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَذَا عَمَلُكَ، قَدْ أَمَرْتُكَ فَلَمْ تُطِعْنِي.

فَقَبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ شَيْئًا. فَأَتَى أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، قَدْ عَرَفْتَ مَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَوْضِعِي، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ كَانَ قَدْ سَخَطَ عَلَيَّ، فَاقْبَلْ أَنْتَ صَدَقَتِي. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَمْ يَقْبَلْ مِنْكَ رَسُولُ اللَّهِ، أَفَأَقْبِلُهَا أَنَا؟! فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ حَتَّى قَبِضَ مِيتًا. ثُمَّ وَلَّى عَمْرًا، فَأَتَاهُ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، اقْبَلْ أَنْتَ صَدَقَتِي. فَقَالَ: لَمْ يَقْبَلْهَا مِنْكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَا أَبُو بَكْرٍ، وَأَنَا لَا أَقْبِلُهَا. فَقَبِضَ عَمْرٌ وَوَلَّى عُثْمَانَ، فَهَلَكَ ثَعْلَبَةُ فِي خِلَافَتِهِ^(١).

فهذا كما قال الله عز وجل: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾ [التوبة: ٥٥]. وكما قال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

وقد كان من دعاء داود عليه السلام: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ مَالٍ يَكُونُ عَلَيَّ عَذَابًا، وَمِنْ وَلَدٍ يَكُونُ عَلَيَّ رِبًّا». التعذيبُ بالمال مرةً بجمعه، وتارةً بحفظه، وأوقات كثيرةً بالهمِّ به، ثم التفرُّغُ له بالشُّغْل عن مُمُولِهِ، ثم الشُّغْلُ به بالفراغ من المستعمل المحسن به (...). الولد على الوالد أن يستعبدهُ بخدمته (...). فيصير عليه ربًّا بقدر ما صارَ الوالدُ له عبدًا.

وكان من دعاء نبيِّنا ﷺ: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْغِنَى وَالْفَقْرِ. وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غِنًى يُطْغَى، وَفَقْرٍ يُنْسَى».

فقد وُتِرَ ثَعْلَبَةُ الْمَسْكِينِ بِغِنَاهُ، فَأَهْلَكَ بِطَغْوَاهُ، وَاسْتَدْرَجَ بِمَالِهِ، فَسَقَطَ بِهِ عَنْ مَقَامِهِ وَحَالِهِ بِمَالِهِ، فَحَمَلَهُ الْبُخْلُ وَإِثَارُ الْكَثْرَةِ وَالْجَمْعِ عَلَى مَنَعِ الصَّدَقَةِ، وَظُلْمِ

(١) الحديث بطوله في الإحياء ٢٧١/٣ - ٢٧٢ في باب ذم الغنى ومدح الفقر.

وقال العراقي في تخريجه: «الحديث بطوله أخرجه الطبراني بسند ضعيف».

وقال الزبيدي: «قلت: رواه أيضًا البغوي، والبارودي، وابن شاهين، وابن السكن، وابن قانع، والديلمي».

(٢) طمس بالأصل في الموضعين قدر كلمتين في كل موضع.

أهلها، وترك إخراج حق الله منها، فعجز عن الفرض بعد أن كان ادعى القوة والنهوض بالفضل. وما كان ينقص من المال لو أخرج من كل مائة شاة شاة، وهو عشر العشر إذا كثرت غنمه، وأن يخرج من خمسين ناقة حقة من الإبل، ومن أربعين بنت لبون، وذلك خمس العشر إذا كثرت إبله، وربع العشر؟! وكان فيه رضا ربه وطهرة نفسه وزكاة ماله، ولا يتبين نقصه في مزيد ماله، ولكن حضر شح نفسه، وغاب يقين آخرته، فأطاع الحاضر لفقد الغائب، وكان أصله قلة العناية وعدم الوقاية، فلم يوجد الفلاح، وفقد الصلاح، ووجد البخل، وظهر الخلف، وبان الكذب، وعزب الصدق، ينتظم ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿وَأَحْضَرْتَ الْأَنْفُسَ الشَّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]، وقوله: ﴿وَمَنْ يُوقَ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦]، وقوله: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ مع قوله: ﴿بَخَلُوا بِهِ﴾ إلى قوله: ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧]، فأعقبه ذلك التفاق إلى يوم التلاق، وجعل بابه حب الدنيا، ومفتاحه الطلب لها، والحرص عليها، فحققت عليه الثلاث المهلكات، إذ لم يرزق المنجيات، ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ [الاعراف: ٣٧]. فاعتبروا يا أولى الألباب^(١).

وقال الرسول ﷺ: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه» فهذه مجموعة في حال الغنى، وموجودة في تحمل من الأغنياء. «وثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والعدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى».

فهؤلاء الصفات الست نعوت أبناء الدنيا الراغبين، وأبناء الآخرة الزاهدين فيها، فتدبروا. لأن في الدنيا الشح والهوى والعجب، وهن هلكة للهالكين. وفي الزهد الخشية والعدل والقصد، وهن منجاة للناجين بفضل الله وبرحمته.

وأما طريق يحيى بن معاذ وبعض العارفين في شأن الدنيا: فإن من لم يملك الملك لم يضره ما ملك بعد أن لا ينظر إلى نفسه فيه، كما لا يشهده له، بل يجده

(١) نقل الزبيدي هذه الفقرة بنصها، وكان في الأصل طمس شديد أتمته من الإتحاف ٨ / ٢٢٥.

فى خزانة الله التى هى يده وتمليكهُ، ويكونُ موقوفًا فيها إلى تنفيذ حكم الله فيه من وضعه فى مواضعه، وإخراجه فى أوقاته إلى أهله. فهذا مُستودعٌ يؤدى الأمانة فيه، ووكيلٌ مُستخلفٌ يطيعُ الموكلَ به. فمقامُ هذا من التوحيد، وشهادتهُ بعين اليقين، يزيدُ على مقامات الزاهدين. وهذا وصفُ الصحابةِ الأعلينَ.

ومحنةُ هذا المقام الذى تصحُّ به هذه العينُ هو استواءُ وجوده وعدمه؛ أعنى: المال؛ لأنه كذلك هو فى خزانة الملك موجودًا له، ومعدومًا للخلق، وموجودٌ أيضًا بإيجاده وجعله، ومفقودٌ أيضًا بإعدامه وفقده. والمتصرفُ فيه إنما هو محكومٌ عليه يجرى بحكم حاكم لا يهوى نفسه. فإذا صحَّ منه فندُّ النسيءِ، على عدمه وعدم الفرج بوجوده لاستواء حالة الوجود للمال ولعدمه من حيث استواء قلبه لميئته عن التقلب للحيلولة بينه وبين (...).^(١) بأن جعله له سليمًا مما سواه، ليس فيه غير الله الذى يعبد إياه. وهذا تحقق الوصف بالعبودية محضًا للمعبود صرْفًا، رجلًا سالمًا لرجلٍ ليس فيه شركاء متشاكسين. فحالُ هذا العبد فى مزيد عند الله بحقيقة المعرفة، والقيام بشهادة قيوميته، أعلى من مقامات الزهد فى الدنيا الدنية، وفوق (...). الراغبين فى الآخرة العلية؛ لأن هذا معنى من لا [يشهد]... وغنى وصفها، وهو أن الله تعالى لا يأسف على [بعد عبد] لمعنى، لأنَّ له أمثاله إذا شاء. وغنى عنه بفوته، وقد (...). على ما شاء، كذلك العارف بالله فى معنى هذا (...). عن شهادته لقيوميته على بعد [الموجود لأنه من] القوى عزَّ عنه بمولاه الغنى. ولأنَّه ليس له، إنما هو لملكه فى خزانة قبضه وعدمه، وموجود له، ولأنَّه لا يشاءه.

وقد كان يحيى بن معاذ يقول: لا تأمن مكره ولا تغترن، انظر أن لا تكون قد تركت الزهد والعبادة ظنًا منك بأنك قد وصلت إلى درجة الحب والمعرفة، فتصير فى القيامة عاريًا منها كلها؛ لا فى منازل العارفين ظهرت، ولا فضل الزهد والعبادة أدركت.

هذا مع قوله: إذا صحَّ الزهد خرجت شهوة النساء من قلبه، فلم يردهنَّ، فإذا

(١) تلف قدر كلمتين أو أكثر، وكذا فى المواضع التالية، وما بين المعكفات اجتهاد منى.

أُقيمَ مقامَ المعرفةِ رَدُّهَا عليه .

وقال مرةً: إذا زهدَ تَرَكَ الشَّهَوَاتِ، فإذا عَرَفَ عَاوَدَهَا، ويكونَ وَجْدُهُ أَفْضَلَ من تَرَكَه .

وقال: إذا صَحَّ زُهْدُهُ لم يَلْحَظْ من الدُّنْيَا شَيْئًا مُشْتَهِيًّا لَهُ، فإذا لَحَظَهُ قالوا: خُذْهُ، يَخْلَعُونَهُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ قَلْبَهُ قَدْ وَقَعَ عَلَيْهِ . قال: وكذلك إذا عَرَفَ لَا يَلْحَظْ من الْآخِرَةِ شَيْئًا بِقَلْبِهِ، فَإِنْ وَقَعَ قَلْبُهُ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا جُعِلَ لَهُ .

كَأَنَّهُ يَقُولُ: إذا صَحَّ تَرَكَهُ لِلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِأَجْلِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يَرُدُّهُمَا عَلَيْهِ، إِذِ اللَّهُ تَعَالَى لَا يَعْأُ بِهِمَا شَيْئًا .

وكان يَقُولُ: الزُّهْدُ يورثُ السَّخَاءَ بِالنَّفْسِ عَنِ الْآخِرَةِ، وَحُبًّا لِلَّهِ تَعَالَى يَشْغُلُ عَنِ الدَّارَيْنِ جَمِيعًا .

وقال: تَرَكَ الدُّنْيَا مَهْرُ الْآخِرَةِ، وَنَفْسُكَ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا فَلَا تَبِعْهَا بِهَا . ومن عِلَامَةِ الْمَعْرِفَةِ بِهَذَا بَيْعُ الدُّنْيَا كُلِّهَا فِي جَنْبِهَا .

وقيلَ لَهُ: مَا غَايَةُ الزُّهْدِ؟ فَقَالَ: أَنْ لَا يَصْحَبَ مِنَ الدُّنْيَا مَا يُلْزِمُهُ حِفْظُهُ .

وكان يَقُولُ: إِذَا كُنْتَ الطَّالِبَ لِلدُّنْيَا تَعَبْتَ وَلَمْ تَنْلُ مَا تُرِيدُ . وَإِذَا كَانَتِ الدُّنْيَا هِيَ الطَّالِبَةُ لَكَ نَلْتَ مِنْهَا مَعَ الرَّاحَةِ كَثِيرًا مِمَّا تُرِيدُ .

وَالْأَخْبَارُ فِي فُضَائِلِ الْفَقْرِ وَفُضْلِ الْفُقَرَاءِ، وَفِي ذَمِّ الدُّنْيَا وَنَقْصِ الْأَغْنِيَاءِ، وَفِي مَدْحِ الزُّهْدِ وَوَصْفِ الزَّاهِدِينَ - أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُذَكَّرَ، وَلَمْ نَقْصِدْ جَمْعَهَا، وَلَا كَثْرَةَ الاسْتِدْلَالِ بِهَا، وَإِنَّمَا اتَّصَلَ الْكَلَامُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ فَوَصَلْنَاهُ .

وَمِنَ الزُّهْدِ تَرَكَ فُضُولِ الْبُنْيَانِ، وَأَنْ لَا يَبْنِيَ عَالِيًّا، وَلَا مُشِيدًّا، وَلَا مِنَ الطِّينِ، إِلَّا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ . وَقِيلَ: أَوَّلُ بَدْعَةٍ حَدَّثَتْ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: الْمَنَاخِلُ وَالْمَوَائِدُ، وَأَوَّلُ شَيْءٍ ظَهَرَ مِنْ طَوْلِ الْأَمْلِ: التَّدْرِيزُ وَالتَّشْيِيدُ . يَعْنِي: دُرُوزُ الشِّبَابِ، وَإِنَّمَا كَانَتْ تُشَلُّ شَلًّا، وَالْبُنْيَانُ بِالْجَصِّ وَالْأَجْرِّ، وَهُوَ التَّشْيِيدُ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَبْنُونَ بِالسَّعْفِ وَالْجَرِيدِ، وَأَعْلَاهُ بِالطِّينِ الرَّهْوصِ .

وقد جاء في الأثر: «يأتى على الناس زمانٌ يوشونَ بئانهم كما توشى البرودُ اليمانية».

ونظر عمرُ رضى الله عنه فى طريقِ الشامِ إلى صرحٍ قد بُنى بجِصٍّ وآجرٍ، فكَبَّرَ، وقال: ما كنتُ أظنُّ أن فى هذه الأمة من يبنى بُنيانَ هامانَ لفرعونَ. يعنى قولَ فرعونَ: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ [القصص: ٣٨] يعنى به الآجرُ.

يقال: أوَّلُ من بنى بالجِصِّ والآجرِ فرعونُ، وأوَّلُ من عملهُ هامانُ، ثم تبعهُما الجبابرةُ؛ فهذا هو الزخرف.

وذكر بعضُ السلفِ جامعاً فى بعضِ الأمصارِ فقال: أدركتُ هذا المسجدَ مبنياً من الجريدِ والسَّعَفِ. ثم رأيتُهُ مبنياً من رهوصٍ. ثم رأيتُهُ الآنَ مبنياً باللبنِ. فكان أصحابُ السَّعَفِ خيراً من أصحابِ الرُّهوصِ، وكان أصحابُ الرُّهوصِ خيراً من أصحابِ اللبنِ.

وقد كان فى السلفِ من يبنى داره مراراً فى مُدَّةِ عُمَرِهِ لضعفِ بنائه، وقصرِ أَمَلِهِ، ولزهدِهِ فى إتقانِ البُنيانِ. وكان منهم من إذا حَجَّ أو غَزَا نَزَعَ بيته، أو وهَبَهُ لجيرانِهِ، فإذا رَجَعَ أعادَهُ. وكانت بيوتُهُم من الحشيشِ، والثُّمامِ، والجُلودِ. وعلى ذلك العربُ ببلادِ اليمنِ إلى اليومِ.

وأمر رسولُ الله ﷺ العباسَ رضى الله عنه أن يهدمَ عُلِيَّةً كان قد علا بها.

ومرَّ عليه الصلاة والسلامُ بجُنُبَةٍ^(١) مُعَلَّاةٍ فقال: «لن هذه؟» قالوا: لفلان. فلما جاءه الرجلُ أعرَضَ عنه، فلم يكن يُقبلُ عليه كما كان، فسألَ الرجلُ أصحابَهُ عن تَغْيِيرِ وجهِ رسولِ الله ﷺ، فأخبروه، فرجعَ فَهَدَمَهَا. فمرَّ رسولُ الله ﷺ بالموضعِ فلم يَرَهَا، فسألَ عنها، فأخبرَ أَنَّهُ هَدَمَهَا، فدعا له بخير.

وكان سُمْكُ بناءِ السلفِ قامةَ بَسْطَةٍ. وقال الحسن: كنتُ إذا دَخَلْتُ بيوتَ أصحابِ النَبِيِّ ﷺ ضربتُ يدي إلى السَّقْفِ. وقال عمرو بن دينار: إذا أَعْلَى العبدُ البناءَ فوقَ سِتَّةِ أَذْرُعٍ ناداه مَلَكُ الهَوَاءِ: إلى أين يا فاسِقَ الفاسِقين؟

(١) الجُنُبَةُ: بناء مرتفع مستدير كالقبة.

وقال رسول الله ﷺ: «من بنى فوق ما يكفيه كُفِّ أن يحمله يوم القيامة».

ومرَّ عمرُ رضى الله عنه ببيت عال، فقال: أبت الدَّراهمُ إلا أن تُخْرِجَ رُؤوسَهَا. ومرَّ بعاملٍ له فراه قد علَّى فوقه جُنْبَذَةً وشَيْدًا، فقال: على كلِّ خائنٍ أَمِينانِ الماءُ والطَّينُ. ثم شاطره ماله، فجعله فى بيت المال^(١).

وفى الخبر: كلُّ نفقةٍ يُوجَرُ عَلَيْهَا الْعَبْدُ إِلَّا مَا أَنْفَقَهُ عَلَى الْمَاءِ وَالطَّيْنِ.

وقد رويْنَا عن بعض السلف: إِذَا مَقَّتَ اللَّهُ تَعَالَى مَالَ عَبْدٍ سَلَّطَ عَلَيْهِ الْمَاءَ وَالطَّيْنَ.

وقال يحيى بن يمان رحمه الله: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ الثَّوْرِي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي طَرِيقٍ، فَنَظَرْتُ إِلَى بَابٍ مَشِيدٍ بِالْجَصِّ، فَقَالَ: لَا تَنْظُرْ إِلَيْهِ. فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، مَا تَكْرَهُ مِنَ النَّظَرِ؟ قَالَ: إِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهِ كُنْتَ عَوْنًا لَهُ عَلَى بِنَائِهِ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا بِنَاهُ لِيَنْظُرَ إِلَيْهِ، وَلَوْ كَانَ كُلُّ مَنْ مَرَّ بِهِ لَمْ يَنْظُرْ إِلَيْهِ مَا عَمِلَهُ.

وقد قال بعضُ السلف قَبْلَهُ: وَلَا تَنْظُرْ إِلَى بُنْيَانِهِمْ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا زَخَرَفُوهُ لِأَجْلِكُمْ.

وفى قولِ الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣] قيل: حُبُّ الْكَثْرَةِ وَالرِّيَاسَةِ، وَالتَّطَاوُلُ فِي الْبُنْيَانِ.

وكذلك قال رسولُ الله ﷺ: «كُلُّ بِنَاءٍ وَبَالٌ عَلَى صَاحِبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَا أَكَنَّ مِنْ حَرٍّ أَوْ بَرَدٍ». وفى خبرٍ: «إِلَّا مَسْجِدٌ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ».

ولذلك جُعِلَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، وَقُرْبِ تَوَقُّعِ وَقُوعِهَا فِي خَبَرِ الْجَسَّاسَةِ، أَنَّ الدَّجَالَ سَأَلَ: هَلْ تَطَاوَلُ النَّاسُ فِي الْبُنْيَانِ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: الْآنَ دَنَا خُرُوجِي، فِي أَشْيَاءَ عَدَّهَا.

(١) لفظ هذا الخبر من المطبوعة، وفى (خ) ما نصه: «ومرَّ عمرُ رضى الله عنه بعاملٍ له قد علَّى فوقه جُنْبَذَةً. فقال: لمن هذه؟ فقيل: لفلان؛ عامل من عماله. فقال: أبى المال إلا أن يُطْلَعَ رَأْسُهُ لَنَا. عَلَى كُلِّ خَائِنٍ شَاهِدَانِ الْمَاءِ وَالطَّيْنِ. ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِ، فَأَغْرَمَهُ مَا أَنْفَقَ عَلَى دَارِهِ، فَجَعَلَهُ فِي بَيْتِ الْمَالِ».

وقال للرجل الذي شكّا إليه ضيق منزله: «اتسع في السماء» أى فى الجنة. وهذا أحد التأويلين. والثانى: اتسع فى المعرفة ولا تطلب اتساع المكان.

واعلم أنّ الزهد لا ينقص من الرزق، ولكنه يزيد فى الصبر، ويديم الجوع والفقر، فيكون هذا رزقاً للزاهد من الآخرة على هذا الوصف، من حرمان نصيبه من الدنيا، وحمايته عن التكثر منها، والتوسع فيها. ويكون الزهد سبباً، فيكون ما صرفه عنه ومنعه من الغنى والتوسع رزقه من الآخرة، والدرجات العلى، بحسن اختيار من الله تعالى، وحيطة نظر.

كما حدثنا عن بعض العلماء: أن بقالاً جاءه فقال: إننى كنت أبيع فى محلّة لا بقال فيها غيرى، فكنت أبيع الكثير، ثمّ قد فتح على بقال آخر، فهل ينقص ذلك من رزقى شيئاً؟ فقال: لا، ولكن يزيد فى بطالتك عن البيع.

فلعلّ بطلاً لاعباً يحتج لتوسعه وهواه ويؤمّه على أبناء الدنيا ممن يتولاه، فيقول بأنّ الزهد فى الدنيا لما لم ينقص من رزقى شيئاً، قد صحّ مقاماً لى مع التوسع والاستكثار، وعلى التعم والرفاهية والاستثثار؛ لأننى إنما أكل رزقى، وأخذ قسّمى، فلى فى الزهد مقام، ومن الرضا والتوكل حال. أو يقول: إنّ الزهد قد يصبح مع التكاثر والزينة، يزخرف بقوله على من لا يعرف الزهد، ويغر بمقالته من لا يعرف طرائق الزاهدين. ولعله ممن يأكل الدنيا بالدين، أو يزخرف القول، ويشبه العلم على الغافلين. فمثله كما قال على رضى الله عنه للخوارج، حين قالوا: لا حكم إلا لله. فقال: «كلمة حق أريد بها باطل». وصدق رضوان الله عليه؛ لأنهم أرادوا بذلك إسقاط حكم الأئمة، وترك الطاعة للإمام العادل.

كما أراد القائل: إنّما أكل رزقى وأخذ من الأشياء قسّمى، فسمّى الاحتجاج لنفسه بهواه، والاعتذار^(١) عند الجاهلين زهداً خيفة لومهم إياه. فكان ذلك معه احتجازاً عن الزهد لزهد فى الزهد، وقوة رغبته فى الرغبة، كما احتجز الكفار عن الإطعام، واحتجوا لبخلهم بمشينة الأحكام، فقالوا لما قيل لهم أنفقوا: «أنطعم من

(١) فى الإنحاف ٣٨٣/٩: «والاعتذار».

يفطن الممكور لما مكر به، أو يعلم المستدرج ما درج فيه؛ لأن الماكر أطف الماكرين، والمدرج أحكم الحاكمين.

وقال بعض العارفين: من كتم ما يجده من آفات نفسه عوقب بادعاء منزلة لم يبلغها. نعوذ بالله تعالى من الاغترار بعلم الإظهار، ونسأله الصلاة على نبيه محمد ﷺ وآله أجمعين، وحسن التوفيق لمشاهدة علم التحقيق.

وبمثل ما قلناه جاءت الآثار وكثرت الأخبار: إن مثل الدنيا والآخرة كضرتين رضا إحداهما في سخط الأخرى. وإنهما بمنزلة المشرق والمغرب من استقبل أحدهما استدبر الآخر. وإنهما بمنزلة كفتي الميزان رجحان إحداهما بنقصان الأخرى.

وكان عمر رضي الله عنه يقول إذا ذكر الدنيا والآخرة: «والله إن هما إلا بمنزلة قدحين لك ملي أحدهما، فما هو إلا أن تفرغ أحدهما في الآخر». يعني أنك إن امتلأت من الدنيا تفرغت من الآخرة، وإن امتلأت من الآخرة تفرغت من الدنيا، وإن كان لك ثلث قدح الآخرة أدركت ثلثي قدح الدنيا، وإن كان لك ثلثا قدح الآخرة يكون لك ثلث قدح الدنيا. وهذا تمثيل حسن إلا أن فيه شدة وتدقيقاً.

وقال بعض السلف: مثل من زهد في الدنيا مع التمتع فيها كمثل من يغسل يديه من الغمر^(١) بسمك. وقال آخر: مثل من زهد وهو يطلب الدنيا مثل من يطفي النار بالحلفاء.

وقد كان يحيى بن معاذ يقول: إذا كان التعب والاجتهاد على غير زهد، لم يكن للعمل ميراث. يعني من حكمة ولا معرفة.

وكان يقول: كيف يكون زاهداً من ورع له، تورع عن فضول ما ليس لك، ثم ازهد فيما هو لك. وقال: لا يكمل للزاهد زهده، إلا باستواء الحال في هذه الخصال: الموجد والمفقود، والسفر والحضر، والعز والذل، والمدح والذم، والغنى والفقر، ويكون همه للطعام كهمة للشراب.

(١) الغمر: نوع من الطلاء أو الطيب.

وكان يتكلم فى تزويج الزاهد فيقول: الكيس من الزهاد من إذا أراد التزوج لله أن يلقى المرأة بهذه الخصال، فإن هى أجابته وإلا ترك:

أولها: فى بيان الكفاية من المعاش. يقول لها: لا أقلب كفى فى طلب دينا، ولا أسعى لك ولا لولد، وإن كان فى كسب دانقين.

والثانية: أن يعلمها أنه ليس عنده مال. ويقول: إن كان عندك مال بعث به لك للآخرة، وأخرجتك منه، وكان تدبيرى فى مالك كتدبيرى فى مال نفسى الذى قد خرجت منه.

والثالثة: إن أردت الخروج إلى مكة أو نغر من الثغور، أو زيارة أخ فى بلدة أخرى، أمضيت ذلك، ولزمت الرضا، وكنت لى عونًا على إنفاذه.

والرابعة: إن تزوجت عليك ثلاثًا كما قد أطلقه الله لى، لم تكرهى ذلك، ولم تعرضى بوجهك، ولم تفقدينى من مواتاك ما كنت لى عليه قبل حدوث ذلك.

والخامسة: خفة الصداق، وغايته ميثقال من ذهب، وهو كثير.

والسادسة: ترك أخذ وهات.

والسابعة: سرعة البناء بك، لا تلتائين على فيه.

فإن وافق منها هذه الخصال فليقدم، وإلا توقف.

وكانت امرأته رحمها الله زاهدة، وكان يحكى عنها زهد النساء. قال: قالت لى أهلى: ما زهد النساء؟ قلت: ترك الزينة والرياء. قالت: أعلى من هذا. قلت: ما هو؟ قالت: تطيب نفسها لزوجها بأن يتزوج عليها من شاء من النساء، فإن الزوج من الدنيا، وهو يشتد على النساء، وتعلق قلبها به من الدنيا. قال: فقلت لها: هى بضاعتكم، أنتم بها أعرف.

قال: وقلت لها مرة: قد أذن الله فى تزويج أربعة من النساء، فقالت: ليس بفرض أن تتزوج بأربعة، وقد فرض عليك أن تعدل بين اثنتين^(١).

(١) الخبر السابق برمته فى الإتحاف ٣٦٧/٩.

وكان أبو سليمان يقول في الزهد في النساء: أن تختار المرأة الدميمة والقريبة الأمر من كبرٍ وغير منظرٍ على الشابة الحسنة.

وكان مالك بن دينار يقول: يترك الرجل أن يتزوج اليتيمة أو الضعيفة لله، فإن أطعمها أو كساها أو فرحها أجر في ذلك، وكان له في ثواب الآخرة، ويتزوج ابنة فلان وفلان.

وبالجملة: الاقتصاد في شأن النساء، والتقلل، وأخذ الحاجة والكفاية منهن، كالقول في شأن الدنيا من ذلك، لا تنكح المرأة لما ينكح أبناء الدنيا من المعاني الثلاث، لا لحسنها ولا لحسنها ولا لمالها، فلم يبق إلا الدين والصلاح، فهذه زوجة أخروية، ليست من الدنيا^(١)، تدبرناه في الخبر الذي روينا: «تنكح المرأة لأربع»، ثم قال: «عليك بذات الدين تربت يداك».

وقد جعل رسول الله ﷺ في وصف الفقراء: «أنهم لا تفتح لهم الأبواب، ولا ينكحون المتمتع أو المنعمات». فدل أنهم ينكحون المتبدلات.

وفي الخبر: «إن الله يحب المتبدل الذي لا يبالي ما لبس». وقال الله في وصفهن: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ﴾ الآية [البقرة: ١٨٧].

وقال عيسى عليه السلام: «لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا، فإن بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم».

وقال بعض العلماء: تقلب المال يمص حلاوة الإيمان.

وفي الخبر: «إياكم وأبواب الأمراء فإن عليها فتقًا كمبارك الإبل».

وفي الأثر: «لكل أمة فتنة، وإن فتنة أمتي هذا المال». وروينا من طريق: «لكل أمة عجل، وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم».

وعن المسيح: «لا تجالسوا الموتى فتفسدوا قلوبكم. قيل: ومن الموتى؟ قال: طالبوا الدنيا المحبون لها».

(١) إلى هنا ينتهي نقل صاحب الإتحاف: ٣٦٧/٩.

(٢) الفتق: الموضع لم يُمطر وقد مَطَر ما حوله.

ويقال: ما من يومٍ ذرَّ شارقُهُ إلا وأربعة أملاك يُنادون في الآفاق بأربعة أصوات، ملكان بالشرق، وملكان بالمغرب، يقول أحدهم: يا باغى الشرِّ أقصر، ويا باغى الخيرِ هلمَّ. ويقول الآخر: اللهمَّ أعطِ مُنفقًا خلفًا، وأعطِ مُمسكًا تَلَفًا. ويقول اللذان في المغرب: لدوا للموت، وابنوا للخراب. ويقول الآخر: كُلُوا وتمتّعوا لطولِ الحساب.

وقال بعضُ العارفين^(١): إن الله تعالى وسَمَ الدنيا بالوحشة ليَجعل أنسَ المطيعين به.

وقال: النَّاسُ في باب الزُّهدِ في الدنيا على وجوه:

[أحدها]: رجلٌ قد غلبها موجودةٌ ومفقودةٌ، ورجلٌ قد غلبته موجودةٌ ومفقودةٌ، ورجلٌ قد غلبتها موجودةٌ وغلبته موجودةٌ. تفسيره: فإن من النَّاسِ من قَهَرَ هَوَاهُ وَمَلَكَ نَفْسَهُ وشهوَتَهُ وهو قادرٌ عليها، وهى موجودةٌ له، فذلك أحرى أن يغلب نفسه فيما فقد من الدنيا وغاب عنه، وهذا مقامُ الصديقين.

والثاني: قد غلبته النفسُ، وأهواه الهوى، وأمالته الشهوات، موجودةٌ إذا قدر عليها، ومفقودةٌ له بالاهتمام بها، والفكرِ والخاطرِ فيها، والإرادة لها. فهذا ساقطٌ لا قِطُّ، لا مقامَ له ولا وصفَ. وهذا حالُ الجاهلين، ونعتُ الغافلين.

والثالث: قد غلبته نفسه في الموجود من الهوى، والحاضر من الشهوة، فإذا غاب ذلك عنه غلبها في العدم، وملكتها عند الفقد. وهذا حالُ المجاهدين، وطريقُ السَّائرين، ونعتُ المريدين.

وقد قيل ليعلى بن معاذ: يصلُ العبدُ إلى درجةٍ يسلمُ فيها من الذنب، ومن الزُّهدِ إلى درجةٍ يستغنى فيها عن الدنيا؟ فقال: هذا لا يكون، لا يستغنى عن الدنيا أحدٌ، وإنما وقعَ التفاضلُ بين النَّاسِ على التَّقليلِ والتَّكثيرِ، فأزهدهم فيها أقلُّهم حظًا منها. كما لا يسلم من الذنب أحدٌ، ولكن أفضلهم أقلُّهم ذنبًا.

وكان رحمه الله يقول في العدل قولاً فصلاً، قال: إن زهَادَكُمْ يأمرُونكم بأن

(١) انظر: الإنحاف ٩/٣٨٣.

يكون الدرهم أولَ شيءٍ يتركونه من الدنيا. وأنا آمركم أن يكون الدرهم آخرَ شيءٍ تتركونه من الدنيا. قيل له: لم؟ قال: لأن الدرهم معلقٌ على شهوة النفس، والشهوة معلقةٌ على النفس، فترك الدرهم من قبل إزالة الشهوة عن النفس بالسياسة خطأ، ودخولٌ في الطمع لمن عنده الدرهم، ووقوعٌ في البلاء، حتى إذا زالت بحسن السياسة هذه الشهوة عن نفسك، ذهبَ عنك حبُّ الدرهم، شئتَ أم أبيتَ ضرورةً، إذ كانت علّةُ حبِّك له الشهوة، والشهوة قد ذهبَت، والدرهم يُتِمُّ أمرَ هذه السياسة. فلهذا قلتُ: اجعل الدرهم آخرَ شيءٍ تتركه بعد الفراغ من النفس.

واعلم أن إمساك الدرهم على هذا التدبير لا يكون علاقةً، ولكنه يكون سياسةً يُصلحُ به. والله مطلعٌ على ما يريد، ومُحبٌّ لما يصنع. ومن لم يكن على هذا التقدير منه، على هذه الجهة، لم يبلغ ما يريد، فكان كمن يريدُ طَبْخَ قَدْرِ بلا نارٍ. وقد كان أبو سليمان قبله يقول في لبس الصوف بمعناه، قال أحمد بن أبي الحواري: لبستُ عباءةً، فنظرتُ إلى، وقال: هذا يكون آخرُ الزهد جعلتموه أوله، إنما إذا لم يبقَ في قلبه شهوةٌ تدفع عبادةً، ولزم الطريق، أما يستحي أحدُهم أن يلبس عباءةً بدرهمين، وفي قلبه شهوةٌ بخمسةِ دراهمٍ. وقال: ولو سترَ زُهدَهُ بثوبين أبيضين كان أحبَّ إليّ.

وقد كان بعضهم يقول: الزهد هو إخفاءُ الزهد.

ولكن على كل حال الأمرُ كما قيل: الزهد في الدنيا يريحُ القلبَ والبدنَ، والحرصُ عليها يتعبُ القلبَ والبدنَ. وقيل: زيادةٌ في الهمِّ والحزنِ.

وقد كان ابنُ معاذٍ يقول: راحةُ الأبدانِ في زهدِ القلوبِ، ومشقةُ الأبدانِ في حرصِ القلوبِ.

وقال: طلبتُ الدنيا فلم استرح. وطلبتُ العلوَّ فلم أسترح. وطلبتُ العلمَ والعبادةَ فلم أسترح. ودخلتُ في الزهدِ، واستوطنتُ الثقةَ بالله في هذه الكبيرة، فاسترحتُ. من الراحة.

وكان يقول: ما دامت شهوة النفس فيك فأنت مطية الدنيا. فالمطية تساق حيث يريد صاحبها، لا حيث تريد هي. وإذا ذهبت الشهوة فالدنيا مطية يسوقها حيث يريد.

وقال: من خرج تاجراً ومعه ثلاث خصال: خوف الفقر، وحب النساء^(١)، وحب العلو، عوقب بثلاث خصال. أما خوف الفقر: [فما كان] استكثاره من الجمع إلا خوفاً من الفقر. وأما حب النساء...^(٢) على دينه فيلقيه في الخيانات والكذب والشبهات. وأما طلب الرفعة فلا يزيده عند الله إلا إتضاعاً.

وقال: كل ما أخذته من الدنيا فله عليك فيه ثلاث فرائض، ولو كان حبة واحدة. أوله: ألا تأخذه إلا من حله. والثانية: لا تجبسه إلا على طاعة الله. والثالثة: لا تضعه إلا في موضعه لله تعالى.

وقال: لا يسلم التاجر إلا بحفظ ثلاث: بحفظ قلبه مع الله تعالى، ولسانه مع الحفظة، وميزانه بالعدل مع الخلق.

وبلغنا أن من دعاء أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «اللهم إنهي أسألك الذل عند النصف من نفسي، والزهد فيما جاوز الكفاف».

وبلغنا أنه قيل لإبليس لعنه الله: «جعلت الدنيا لك مزرعة، وأهلها لك أكرّة». فيكفي الجاهل الحريص من الرغبة في الدنيا على الزهد في الآخرة أن يكون أكّاراً لإبليس، حرّاً في مزرعته، بشئ للظالمين بدلاً من الأولياء العمال على الصبر (...)^(٣) المبين الذين بصروا الآية.

وقد قال بعض أهل المعرفة: لا ترغب في شيء من الدنيا إلا استتبعك وأتبعك بقدر ما تطلبه وترغب فيه ليوم الدنيا وتنشدها. ولا تزهد في شيء منها إلا تبعك ولحقك نفعه، وطلبك بقدر ما تزهد. وقال: إن الله لا يرضى ممن عرفه أن يعرف بعد نسي دونه، فإن بعد ذلك ذمه الله (...)^(٣).

(١) كذا قراتها، إذ رسم الكلمة قريب من هذا.

(٢) طمس قدر كلمتين أو ثلاث.

(٣) طمس في ستة أسطر آخر الصفحة فلم يبق سوى كلمات مطموسة.

وكان أبو سليمان يقول: ما من شيء إلا وهو مطروح في الخزان، إلا الفقر مع المعرفة فإنه مخزون، مختوم عليه، لا يعطاه إلا من طبع بطابع الشهداء.

وقد يحتج بعض علماء الدنيا لأنفسهم بتفضيل الغنى على الفقر، بتأويل الخبر المشهور من قوله ﷺ: «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ». وهذا عند أولى الألباب في تدبر الخطاب من غير هوى يضر ولا ارتياب يعنى به الفقراء؛ لأنه قيل لهم في أول الكلام: إِنْ فَعَلْتُمْ كَذَا لَمْ يَسْبِقْكُمْ أَحَدٌ قَبْلَكُمْ وَلَمْ يَدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ. فثبت هذا القول من الرسول ﷺ وصح؛ لأنه معصوم في قوله، كما هو معصوم في فعله. فما جاء بعده يكون محمولاً عليه، مفسراً له. ولم يَجْزُ أَنْ يَنْقَلِبَ الْخِطَابُ؛ لَأَنَّهُ إِخْبَارٌ عَنْ شَيْءٍ، فكيف يرجع عنه، أو ينسخ الخبر بقول آخر؟

فلما فعل الأغنياء ما أمر به الفقراء من الذكر، وقف الفقراء في قول رسول الله ﷺ لنظرهم إلى مزيد الأغنياء عليهم بفضل القول، فرجعوا إليه يستفتون منه الخبر، ويستشبتون عنه ما به أخبر. فقال: لا تعجلوا، فإن الذى قلت لكم كما قلت هو فضل الله لكم يؤتيه من يشاء، وأنتم ممن شاء أن يؤتيه فضله. فثبتهم بالحق للقول الأول، ولم يرجع هو عن قوله إلى نقيضه. فصح تأويلنا هذا من ماله الذى يؤول إليه، باستنباطنا عنه باطن العلم، وبطل حملهم الخبر على الظاهر، ولما يأتهم تأويله. ولذلك كذبوا بعلمه، إذ لم يعطوه حقيقة خبره وهو حيطته، إذ تأويل الحق الذى هو ماله وحقيقته عند الله تعليم من الله، ليس على ظاهر الخطاب يستنبطه أولو الألباب، وقد قال: «فَقَّهُهُ فِي الدِّينِ، وَعَلَّمَهُ التَّأْوِيلَ». شهد لبطان فهمهم قول الرسول ﷺ في أول الكلام: «لَا يَسْبِقْكُمْ مَنْ قَبْلَكُمْ وَلَا يَلْحَقْكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ» فكان قوله الثانى موافقاً لقوله الأول، إذ لم يناقض الأول بالآخر. فهذا من سحر البيان، فى قوله: «إِنْ مِنَ الْبَيَانِ لِسِحْرٌ».

كيف وقد جاء دليل ما قلنا مكشوقاً فى الحديث المفسر الذى روينا عن زيد بن أسلم عن أنس رضى الله عنه قال: بعث الفقراء إلى رسول الله ﷺ رسولا فقال: إني رسول الفقراء إليك. فقال: «مرحباً بك، وبمن جئت من عندهم، من عند قوم أحبهم». قال: قالوا: يا رسول الله، إن الأغنياء ذهبوا بالجنة، يحجون ولا

تَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَيَعْتَمِرُونَ وَلَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَإِذَا مَرَضُوا بَعَثُوا بِفَضْلِ أَمْوَالِهِمْ ذَخِيرَةً لَهُمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَبْلِغْ عَنِّي الْفُقَرَاءَ؛ أَنَّهُ لِمَنْ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ مِنْكُمْ ثَلَاثُ خَصَالٍ لَيْسَتْ لِلْأَغْنِيَاءِ. أَمَّا خَصَلَةٌ وَاحِدَةٌ: فَإِنْ فِي الْجَنَّةِ غُرُقًا يَنْظُرُ إِلَيْهَا أَهْلُ الْجَنَّةِ كَمَا يَنْظُرُ أَهْلُ الْأَرْضِ إِلَى نُجُومِ السَّمَاءِ، لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَبِيٌّ فَقِيرٌ، أَوْ شَهِيدٌ فَقِيرٌ، أَوْ مُؤْمِنٌ فَقِيرٌ. وَالثَّانِيَةُ: يَدْخُلُ الْفُقَرَاءُ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ، وَهُوَ خَمْسَمِائَةِ عَامٍ. وَالثَّلَاثَةُ: إِذَا قَالَ الْغَنِيُّ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَقَالَ الْفَقِيرُ مِثْلَ ذَلِكَ، لَمْ يَلْحَقِ الْغَنِيُّ بِالْفَقِيرِ، وَإِنْ أَنْفَقَ فِيهَا عَشْرَةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ. وَكَذَلِكَ أَعْمَالُ الْبِرِّ كُلُّهَا». فَرَجَعَ إِلَيْهِمْ فَقَالُوا: رَضِينَا رَضِينَا. فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ تَأْوِيلِنَا.

وقد رُوينا معنى هذا مجملًا في الخبر الذي رُوينا عن إسماعيل بن عياش عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر رضي الله عنهما، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟». قَالُوا: مُوسِرٌ مِنَ الْمَالِ، يُعْطَى حَقَّ اللَّهِ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ. فَقَالَ: «نَعَمْ الرَّجُلُ هَذَا، وَلَيْسَ بِهِ». قَالُوا: فَمَنْ خَيْرُ النَّاسِ؟ قَالَ: «مُؤْمِنٌ فَقِيرٌ يُعْطَى جَهْدَهُ».

فذهب القومُ إلى علمِ العقلِ، فردَّهم الرسولُ ﷺ إلى علمِ اليقينِ، فكذلك من فضَّلَ حَالِ الْغَنِيِّ عَلَى حَالِ الْفَقْرِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ فِي الْعِلْمِ بَعَيْنِ الْعَقْلِ، وَإِنَّمَا يَشْهَدُ الْآخِرَةَ وَالْحَقِيقَةَ بَعَيْنِ الْيَقِينِ. فَذَلِكَ قَوْلُ عُلَمَاءِ الدُّنْيَا لَا يَعْرِفُونَ غَيْرَهُ، إِذْ لَمْ يَشْهَدُوا فَوْقَهُ، فَقَدْ تَعَلَّقُوا بِهِ. وَالثَّانِي: قَوْلُ عُلَمَاءِ الْآخِرَةِ الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا، الْأَعْلِينَ إِلَى مَقَامِ الشُّهَدَاءِ، كَمَا كَانَ السَّلَفُ يَقُولُونَ: «عَالَمِ الدُّنْيَا مَشْهُورٌ، وَعَالَمِ الْآخِرَةِ مُسْتَوْرٌ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ».

وهذا نصٌّ في تفضيلِ حَالِ الْفَقْرِ، فَمَنْ فَضَّلَ الْغَنِيَّ بَعْدَهُ فَقَدْ عَانَدَ السُّنَّةَ. إِنْ كَانَ عَالِمًا، فَأَحْسَنُ حَالِهِ الْجَهْلُ بِالْآثَارِ. وَإِنْ كَانَ جَاهِلًا، فَمَقَامُهُ فِي الْجَهْلِ أَضَرُّ عَلَيْهِ مِنْ نُطْقِهِ بِالْعِلْمِ بِهَوًى.

وفى الخبر الآخر: «خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَقَرَاؤُهَا. وَأَسْرَعُهَا تَضَجُّعًا فِي الْجَنَّةِ ضُعْفَاؤُهَا».

وقال ﷺ لبلال: «الْقَ اللَّهُ تَعَالَى فَقِيرًا، وَلَا تَلْقَهُ غَنِيًّا». قال: وكيف لى بذلك؟ قال: «إِذَا سُلِّتَ فَلَا تَمْنَعْ، وَإِذَا أُعْطِيتَ فَلَا تَخْبَأُ». فهذا أمرٌ من الرسول. أفتراه كان يأمر بلالاً بأدنى الحالين، فكيف وهو من أعلى الصحابة؟ فأشبه الفقر فى الأحوال اليقين فى الإيمان. كما قال لابن عمر: «اعْمَلْ لِلَّهِ بِالرَّضَا وَالْيَقِينِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَإِنْ فِى الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا». فرفعه إلى اليقين لفضله، كما رفع بلالاً إلى الفقر لشرفه فى الأحوال. فلم يكن ﷺ يرضى لبلال إلا ما يرضاه لنفسه.

كذلك رويناه فى حديث عطاء عن أبى سعيد الخدرى قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ تَوَفَّنِي فَقِيرًا، وَلَا تَوَفَّنِي غَنِيًّا». وهذا نصٌّ آخر فى تشریف الفقير. فلذلك أمر بلالاً أن يلقى الله فقيراً ولا يلقاه غنياً، كما أمر ابن عمر بأعلى المقامين وأفضل الحالين؛ وهو الرضا واليقين. وفى الخبر فقه آخر يدل على حقيقة الفقير المتحقق بالفقر: مَنْ إِذَا سُئِلَ لَمْ يَمْنَعْ، وَإِذَا أُعْطِيَ لَمْ يَدَّخِرْ، كما فسره النبى ﷺ به. وهذا وصفُ السَّخَاءِ، وَقَصْرُ الْأَمَلِ، وهما حقيقةُ الزُّهْدِ، وشاهدُ اليقين. فكان بلال رضى الله عنه بالوصف الذى أمره رسولُ الله ﷺ، وهو من الطبقة الأولى من الصحابة، ضمه عمر رضى الله عنه الذى تَنَطَّقُ السَّكِينَةُ عَلَى لِسَانِهِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، وَسَوَّدَهُ عَلَى نَفْسِهِ، فى قوله: «أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا، وَأَعْتَقَ بِلَالًا سَيِّدَنَا».

فلو كان بلال طالباً لغير الله من عِلْمٍ أو شَخْصٍ أو فَضْلٍ لَزِمَ قَدَمَ أَبِي بَكْرٍ وَعَمَرَ رَضَى اللَّهُ عَنْهُمَا، وَعَكَفَ فِى الْمَسْجِدِ الَّذِى أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى، إِذْ قَدْ عَلِمَ أَنَّ صَلَاةً وَاحِدَةً أَفْضَلَ فِيهِ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ. فخرج ذاهباً إلى ربِّه، واجداً له بقلبه حيث أوجده. فكان آخِرُهُ يُشَبِّهُ أَوَّلَهُ؛ لِأَنَّهُ طَلَبَ بِالتَّوْحِيدِ، فَطَلَبَ الْوَحْدَةَ، كَقَوْلِهِ فِى أَوَّلِ إِسْلَامِهِ مَعَ تَعْذِيبِ الْكُفَّارِ لَهُ: «أَحَدٌ أَحَدٌ». فَرُدَّ بِتَوْحِيدِهِ إِلَى أَحَدِهِ لِلْوَصْفِ الَّذِى أُفْرِدَ بِهِ، فَصَارَ الْفَقْرُ حَالِ الْمُوقِنِ؛ لِأَنَّهُ يَكْشِفُ الْآخِرَةَ. وَصَارَ الشُّكْرُ فِى الْغِنَى حَالِ الْمُؤْمِنِ؛ لِأَنَّهُ يَشْهَدُ الدُّنْيَا، فَفَضَّلَ الْفَقِيرَ الزَّاهِدَ عَلَى الْغَنِيِّ الشَّاكِرِ كَفَضْلِ الْمُوقِنِ الْمُشَاهِدِ عَلَى الْمُؤْمِنِ الْمَجَاهِدِ.

ولذلك جاء الخبرُ المشتهرُ الذي دعا فيه ﷺ لنفسه أن يُحييه الله مسكينًا، ويتوفاه مسكينًا، ويحشره في زمرة المساكين. كل ذلك تفضيل للفقير، وتشريف للفقراء، مع قوله ﷺ: «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم، خمسمائة عام».

ورؤينا عن عيسى عليه السلام أنه قال: «إني لأحبُّ المسكنةَ، وأبغضُ المالَ للغني». وإنَّ في المالِ داءً كثيرًا. قيل: يا رُوحَ الله، وإن كان يكتسبه من حلال؟ قال: يشغله كسبه عن ذكرِ الله تعالى».

قال وهبُ بن منبه لابن عباس: إنا نجدُ في التوراة أنَّ الفقيرَ المصلحَ خيرٌ من الغنيِّ المصلحِ. قال ابنُ عباس: أما علمتَ أنه لا شيءَ أحبُّ إلى الله تعالى من الفقيرِ إذا كان صالحًا.

وقيل: كان أحبُّ الأسماءِ إلى عيسى عليه السلام أن يُدعى به أن يقالَ له: يا مسكين. وكان يقول: «من شرِّ الغني أن العبدَ يعصى لِيَسْتَغْنِي، ولا يعصى لِيَفْتَقِر». وقد قال بعضُ حكمائنا في كلامٍ منظوم:

يا عائبًا للفقيرِ تبغى الغنى عيبُ الغنى أعظمُ لو تعتبرَ
إنك تعصى لِننالِ الغنى ولستَ تعصى الله كي تفتقرَ

ورؤينا في حديثِ عطاء عن أبي سعيد الخدري: «يا أيُّها الناسُ، لا تحملنكم العُسرةُ والفاقةُ على أن تطلبوا الرزقَ من غيرِ حِلِّه، فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: اللهم توفني فقيرًا، ولا توفني غنيًا، واحشرنِي في زمرةِ المساكين».

وقال لقمان لابنه: «يا بُنى، إنَّ من أعونِ الأخلاقِ على صلاحِ الدينِ زهدًا في الدنيا. من يزهدُ في الدنيا يَرغبُ فيما عندَ الله تعالى، ومن يرغبُ فيما عندَ الله تعالى يعملُ لله تعالى، ومن يعملُ لله تعالى يأجره الله تعالى».

وقال الحواريون: «يا رُوحَ الله، نحن نُصلِّي كما تُصلِّي، ونصومُ كما تصومُ، ونذكرُ الله تعالى كما أمرتنا، ولا نقدرُ نمشي على الماءِ كما تمشي أنت. فقال: أخبروني كيف حبُّكم للدنيا؟ قالوا: إنا لنحبُّها. فقال: إن حبَّها يُفسدُ الدينَ،

لكنها عندي بمنزلة الحجر والمدر». وفي خبر آخر: «أنه رفع حجراً فقال: أيهما أحب إليكم هذا أو الدينار والدرهم؟ قالوا: الدينار. قال: فإنهما عندي سواء».

وكذلك الأمر في الفقراء والأغنياء عند العارف؛ لأتھا جوهر واحد، من معدن واحد، لا يتغلب عليه منهما، ولا تختلف عنده جوهرها في وجدّه؛ لأجل افتراقها، فينظر وقد أفرغ الأحكام بها، ولمواقع الحكمة فيها، فهي على شهادته (...)^(١) لا به، ينظر بعين يقينه عن نور شهيدته، فلما عرفها يقيناً عن حقيقة خبر، لا عن علم خبر.

وحقاً أقول: إنّ من حرص على الدنيا، واشتدّ حبه لها، فإنه لا يعرف الله، ولا يعرف الآخرة، ولا يعرف الدنيا. لأن معرفة الله عن مشاهدة، ومعرفة الآخرة عن يقين، ومعرفة الدنيا بعقل رجيح، وبصر صحيح، يوجب ذلك كله الزهد في الدنيا. فتفكروا.

ويقال: إنّ من صحّ زهده في الدنيا، حتّى يستوى عنده ذهبها وحجرها، مشى على الماء. وقد اشتهر ذلك في العامة، حتّى قال الشاعر:

لو كان زهدك في الدنيا كزهدك في وصلي، مشيت بلا شك على الماء

وروينا أن عيسى عليه السلام مرّ في سياحته برجل نائم، ملثف في عباءة، فأيقظهُ، وقال: قم يا نائم، فاذكر الله، وصلّ. فقال: ما تريد مني، قد تركت الدنيا لأهلها، وتخلّيت عنها. فقال له عيسى: نم حبيبي، نم إذن.

واعلم أنّه يكفي من العمل مع الزهد أداء الفرائض، واجتناب المحارم. ويرفع العبد بقدر زهده إلى منازل الأبدال الطبقة العليا، وهم الأقلّ منهم؛ مثل: السبعة، والاثني عشر، والأربعين، والسبعين، وهؤلاء أفاضلهم. أو إلى مقام الطبقة الوسطى نحو المائة وزيادة إلى دون المائتين. أو إلى الطبقة الدنيا ما زاد على المائتين إلى الثلاثمائة.

ولا يكون بدل رغباً في الدنيا، محباً لها أصلاً. فيكفي به نقصاً حرمانه

(١) طمس قدر كلمتين.

مَقَامَاتِ الْأَبْدَالِ، لَكِنَّهُ مِنَ الصَّدِيقِينَ وَالْأَشْهَادِ، وَالصَّالِحِينَ الْأَوْتَادِ، ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ﴿[النساء: ٦٩ - ٧٠]، ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣]، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الروم: ٤٥]، هذه الْآيَةُ لِلْمُقَرَّبِينَ، وَهُمْ [الذين قال فيهم]: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ [يونس: ٤]، ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠]، هذه ^(١) الْآيَاتُ [لِلْمُحْسِنِينَ...] ^(٢) وَعُمُومُ الْمُؤْمِنِينَ قَوْلًا، لَا يَقُومُ وَلَا يُعْنَى مِنَ الْأَعْمَالِ (...) الرِّغْبَةُ فِي الدُّنْيَا، لِأَنَّهَا بَغِيضَةُ اللَّهِ وَلَعِينَتُهُ. فَاعْتَبِرُوا يَا أُولَى الْأَبْصَارِ.

وروينا عن موسى عليه السَّلام: [أنه] مرَّ برجلٍ نائمٍ على التُّرابِ، تحت رأسِهِ لَبَنَةً، ووجهُهُ ولحيَتُهُ فِي الْأَرْضِ، وَهُوَ مَتَرٌ بِشَمْلِ عِبَاءَةٍ. قال: يا ربُّ، هذا عَبْدُكَ الْمُؤْمِنُ هُوَ فِي الدُّنْيَا ضَائِعٌ. فأوحى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَمَا عَلِمْتَ أَنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَى عَبْدِي بِوَجْهِهِ كُلِّهِ زَوَيْتُ عَنْهُ الدُّنْيَا كُلَّهَا.

فهذا عَبْدٌ أَحَبَّ رَبَّهُ بِكُلِّ قَلْبِهِ، فَنَظَرَ الرَّبُّ إِلَيْهِ بِكُلِّ وَجْهِهِ، فَزَوَى عَنْهُ كُلَّ الدُّنْيَا. وقد كان من أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلُهُ وَخَيْرٌ مِنْهُ: سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ. وَهُوَ أَحَدُ السِّتَةِ الَّذِينَ جَمَعُوا كُلَّ الْقُرْآنِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. كان من خَيْرِ الصَّحَابَةِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يُحِبُّ اللَّهُ تَعَالَى بِكُلِّ قَلْبِهِ، شَهِدَ لَهُ الصَّادِقُ الْمَصْدُقُ ﷺ.

فَتَدَبَّرَ فَهَمَ الْخِطَابِ: إِنَّ مَنْ أَحَبَّ اللَّهُ تَعَالَى بِبَعْضِ قَلْبِهِ، نَظَرَ إِلَيْهِ بِبَعْضِ وَجْهِهِ، فَزَوَى عَنْهُ بَعْضُ الدُّنْيَا لَا كُلُّهَا؛ لِأَنَّهُ جَعَلَ حُبَّ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا دَلِيلًا عَلَى حُبِّ اللَّهِ، فَصَارَ حُبُّ اللَّهِ مَعْيَارًا يُعَايَرُ بِهِ الزُّهْدُ.

وفى الخبر المشهور: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يُحِبَّ اللَّهَ، فَلْيَزْهَدْ فِي الدُّنْيَا»، ففى تدبُّره: إِنَّ

(١) فى الأصل: «هؤلاء الآيات».

(٢) كان هناك بعض الطمس فى الآيات القرآنية السابقة، أتممتها من المصحف، وبقي هذا الموضع والذي يليه، كل واحد بمقدار كلمتين أو أكثر.

من أحب الدنيا لم يحب الله، إذ أحب ما يبغضه، فلم يوافقهُ في رضاه، وخالفهُ في محبته.

وروينا خبراً غريباً عن إسماعيل، مفسراً للخبر المشهور والمجمل عن موسى عليه السلام: «إن الله عز وجل أوحى إلى إسماعيل عليه السلام: اطلبني عند المنكسرة قلوبهم. قال: يا رب، ومن هم؟ قال: الفقراء الصادقون». فكان هذا مفسر خبر موسى في قوله: «أين أجِدُكَ؟ قال: عند المنكسرة قلوبهم».

فَمِنْ صَدَقَ الْفَقْرُ الزُّهْدُ، إِذِ الزُّهْدُ حَقِيقَتُهُ، وَالْفَقْرُ دَاخِلٌ فِيهِ؛ لِأَنَّ كُلَّ زَاهِدٍ فِي الدُّنْيَا فَقِيرٌ مِنْهَا، لَا مَحَالَةَ كَانَتْ دَاخِلَةً فِي حَقِيقَتِهِ بِهِ بِحُكْمِ حَاكِمٍ، وَتَوَكُّلٍ مُوَكَّلٍ، وَلَيْسَ كُلُّ فَقِيرٍ زَاهِداً، فَصَارَ حَقِيقَةُ الْغِنَى هُوَ الزُّهْدُ؛ لِأَنَّهُ اسْتَغْنَى بِمَوْلَاهُ عَنْ فَضُولِ الدُّنْيَا، فَقَلَّتْ حَوَائِجُهُ فِيهَا، فَقَلَّ بِذَلِكَ فَقْرُهُ إِلَيْهَا. وَكَانَ حَقِيقَةُ الْفَقْرِ هُوَ الرَّغْبَةُ؛ اسْتَغْنَى بِهَا، فَافْتَقَرَ إِلَيْهَا، فَكُلَّمَا مَلَكَ مِنْهَا شَيْئاً أَفْقَرَهُ إِلَى شَيْءٍ، وَكُلَّمَا فَتَحَ مِنْهَا بَاباً، أَوْ سَلَكَ مِنْهَا شِعْباً، أَوْ تَعَلَّقَ بِشَيْءٍ، فَتَحَ عَلَيْهِ، وَتَشَعَّبَ بِهِ، لَا تَسَاعُ الْأَمَاكِنُ بِهِ، وَيُغْلَقُ عَلَيْهِ أَضْعَافُ ذَلِكَ. فَاعْتَبَرُوا لِتَوْسُعِ الْأَسْبَابِ عَلَيْهِ، فَيَكْثُرُ لَذَلِكَ هَمُّهُ وَشَرْدَانٌ^(١) مَعَهُ شَغْلُهُ. وَالْفَقِيرُ بِضِدِّ ذَلِكَ.

وكان ابن معاذ يقول: ما تحمل من الدنيا شيئاً إلا أفقرَكَ حَمْلُهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَوْ إِبْرَةً تَحْتَاجُ لَهَا إِلَى مَوْضِعٍ. وَكَانَ يَنْوَعُ أَهْلَ الْآخِرَةِ أَثْلَاثًا، فَحَدَّثْتُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: أَوْلِيَاءُ الْآخِرَةِ ثَلَاثَةٌ: قَانِعٌ، وَزَاهِدٌ، وَصِدِّيقٌ. فَالْقَانِعُ: الْمُحْتَرِفُ، الطَّالِبُ لِلْحَلَالِ، الْمُنْفِقُ عَلَى السَّبِيلِ وَالسُّنَّةِ، النَّازِلُ عَنْ جَنَاحِ الرَّغْبَةِ فِي طَلَبِ الْفُضُولِ مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا. وَالزَّاهِدُ: التَّارِكُ لِلدُّنْيَا وَنَعِيمِهَا، بَعْدَ أَنْ أَصَابَ نَعِيمَ الدُّنْيَا مِنْ غَيْرِ كُلْفَةٍ، أَكَلَ، وَنَكَحَ، وَإِنْ مَنَعَ صَبَرَ وَرَضِيَ. قَالَ: وَالصَّدِّيقُ الَّذِي هُوَ الْوَاحِدُ الْمَفْتَقَرُ، لَا يُرِيدُهُ لِمَزَالَةِ الْمَشْهُودِ إِيَّاهُ.

وقال: كان عامر بن عبد قيس^(٢) صدوقاً في وصف نفسه. يعني في قوله:

(١) شردان: أى شرود باله.

(٢) من الطبقة الأولى من التابعين، له ترجمة في الحلية ٨٧/٢، وخبره هنا في الحلية بلفظ مختلف ومختصر، ففيه «المال» بدلاً من «اللباس».

رأيتُ الدنيا أربعة أسماء: النساء، واللباس، والطعام، والنوم. فأما النساء واللباس فلا حاجة لى فيهما، ما أدرى [إن أقبلت امرأة أكانت] ^(١) أنثى أم ذكرًا. وما أبالى إذا لبستُ (...). وأما الطعام والنوم [فلا بد لى منهما، فوالله لأضرنَّ بهما جهدى] ^(٢) فيتحول نوم الليل إلى النهار، فجعل طعامه فى النهار بالليل، فكان يظلُّ صائمًا (...). قائمًا.

وكذلك قال بعض العباد: إن العبادة أربعة: الصلاة، والصيام، وقلة الأكل، وقلة النوم، فتعرف قلة الطعام والمنام بالصلاة والصيام. وجعل [كثرة] الطعام والنوم من أبواب الدنيا. فقال: أصول الشر ثلاثة، تفرع عنه ستة أشياء. أصوله: الحرص، والحسد، وحب الدنيا. وفروعه: طلب الرئاسة، والفخر، والثناء، وحب الراحة، والطعام، والنوم.

وقد قيل لبعضهم: مَنْ تَرَحَّمُ مِنَ النَّاسِ؟ قال: مَنْ إذا رأى شيئًا طيبًا اشتَهَاهُ؛ لأجلِ هذا تركوا دينهم. وقال أيضًا: ليس بزاهدٍ من استعمل غيره بما يصلُّ هو إلى فعله.

يعنى: أن يخدم هو نفسه، ولا يستَخدم. فقد شدد هذا فى الزهد.

وقد قاله أبو سليمان لأحمد، قال ابنُ أبي الحواري: قلتُ لبعض أصحابنا: اسقنى ماء، فناولنى شربةً. فقال لى أبو سليمان: رأيتَ مَنْ زهد فى الدنيا يستَخدم ويقول: اسقنى ماء؟!

وكان يحيى الرأزى ^(٣) يُدخل العلم والعبادة فى الزهد، ويجعل الثلاث كالشئ الواحد، لا يتم بعضه إلا ببعض، فقال: الزهد والعبادة والعلم مثل الثوب، سُدَّاهُ الزهد، ولُحِمَّتْهُ العبادة، ونَسَاجُهُ العلم. لا يلتحم الثوب بغير هذه الثلاث، كذا لا يلتئم أمر الآخرة إلا بثلاثها. وأجمَلُهُ فى كلمة، أعنى الزهد، فقال: الدنيا كُلُّهَا نَفْسُكَ، فما قَصَرْتَ من نفسك تركتَ من دُنْيَاكَ. وهو كما قال. الدنيا صورة

(١) تلف بالأصل، وقد وضعت هذا اجتهدًا منى.

(٢) تلف بالأصل، وأتمته من الحلية.

(٣) انظر: الإتحاف ٣٨٤/٩.

النَّفْسُ باطنةٌ، وهما إخوةٌ مُتَوَاحِيَةٌ، فما غَلَبَكَ من النَّفْسِ فقد أَمَالَكَ وَغَلَبَكَ من الدُّنْيَا.

وقد كان أحمد بن عطاء، وهو من المتأخرين، يفضل حال الغنى على الفقر، بشبهة دخلت عليه، وهو أن بعض الشيوخ سأل عن الوصفين أيهما أفضل؟ فقال: الغنى؛ لأنه صفة الحق. فقال له الشيخ: فالحق غنى بالأسباب؟ فانقطع، ولم ينطق بحرف.

وهذا كما قال الشيخ؛ لأن الحق سبحانه غنى بوصفه. فالفقر أحق بهذا المعنى؛ لأنه غنى بوصفه بالإيمان لا بالأسباب لانفراده عنها، فهو الأفضل وإلى الحق أقرب. فأما الغنى فإنه مُشْتَتٌ مجتمع بالأسباب، فهو مفضول بالارتباب.

وقد خالفه الخواص فوق للصواب، وكان فوقه في المعرفة، فقال في كتابه (شرف الفقر): والفقر صفة الحق؛ أي صفة من يصف به الفقراء. فوافقنا في التأويل، يعنى أنه تعالى متخل عن الأسباب، منفرد عنها.

ووجه آخر من الغلط الفاحش الذى دخل على ابن عطاء من جهة المعنى الذى ذكره؛ لأنه إن كان فضل الغنى على الفقر، لأنه صفة الحق، فينبغى أن يفضل المتكبر الجبار، ومن أحب المدح والعز والحمد؛ لأن ذلك كله صفة الحق، فلما أجمع أهل القبلة على ذم من كان هذا وصفه، كان من وُصف بالغنى فى معناه؛ لأن وُصف الغنى صفة الحق مقترن بالعز والكبر. وينبغى أن نُسَلِّمَ صفات الحق للحق، ولا يُنَازَعَ إياها، ولا يُشَارَكَ فيها.

فبطل قول ابن عطاء لصحة قول الرسول ﷺ: «يقول الله تعالى: العز إزارى، والكبرياء رداى، من نازعنى أحدهما قصمته فى النار».

وقد خالفه أيضاً ووافقنا من لا يشك الخاص والعام فى فضل معرفته عليه، أبو محمد سهل بن عبد الله فقال: من أحب الغنى والبقاء والعز، فقد نازع الله تعالى صفاته، وهذه صفات الربوبية، يخاف عليه الهلكة.

فإذا ثبت ذلك، كان الفقر أفضل؛ لأنه وصف العبودية. فمن جعله وصفه فقد تحقق بالعبودية. وأوصاف العبودية هى أخلاق الإيمان، وهى التى أحبها الله تعالى

من المؤمنين، مثل: الخوف، والذل، والتواضع، والفقر مضاف إليها. وأوصاف الربوبية ابتلى بها قلوب أعدائه الجبارين والمتكبرين، مثل العز، والكبر، والبقاء، والغنى مضموم إليها.

وكان الحسن رحمه الله يقول: ما رأيت الله تعالى جعل البقاء إلا لأبغض خلقه إليه وهو إبليس. وكذلك كان العلماء يقولون: لا ترغبوا في البقاء في هذه الدنيا، فإن شرار الخلق أطولهم بقاء؛ وهم الشياطين.

والغنى إنما يراود للبقاء، فهو مواخ له، والعز مقترن بالغنى؛ لأنه مقتضاه. فصار الفقر مقترنًا به الذل؛ لأنه موجب، وهان معه نزول الموت أو تمني. وقل أسف الفقير وحسرتة عند موته، فصار قصر الأمل كأنه مقتضى الفقر، لأنه ضد طول البقاء، كما الفقر ضد الغنى.

ولولا أن الفقر أقرب الطرقات إلى الله لأوليائه، وأحسنها وصولاً به، وأقومها صراطاً، وأضيقها على القاعدين عنده بساطاً، لم يقل عدو الله وعدو أوليائه لعباده المخلصين: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] قيل: الفقر. شهد له المفسر من قوله: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، ثم قرن به الأمر بالسوء والفحشاء، وهو الجمع والمنع، لوجود الهوى من النفس الأمارة بالسوء. فصار من خاف الفقر، فجمع ليستغنى، ومنع لئلا يفتقر، مُصدّقاً لوعد الشيطان فيما اتبع، وذلك فاحشة منه؛ إذ له أثمر، ومنهما وعد الرحمن بالمغفرة والفضل، وهو تكفير السيئات، والتعويض من المال بالحسنات، إذ يقول: ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم﴾ الآية [البقرة: ٢٧١]. فإن في فهم الخطاب أن مختار الفقر على الغنى أفضل العباد [لأنهم قطعوا]^(١) على حد قوتهم طريقه الذي أراد أن يقطعهم به عن طريق الله، فهم المتقون حقاً، الذاكرون الله كثيراً عند لقاء العدو صدقاً في قوله: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من

(١) طمس قدر كلمتين. وكلمة «حد قوتهم» قد تقرأ «حدقهم» وغير ذلك لأنها غير واضحة تماماً، والله أعلم.

الشَّيْطَانُ ﴿يَكُونُ بِتَخْوِيفِ الْفَقْرِ بِالْعُدُولِ عَنْ طَرِيقِهِ﴾ ﴿تَذَكَّرُوا﴾ اللَّهُ تَعَالَى بِوَجْدِ يَقِينِهِمْ ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] فَأَبْصَرُوا طَرِيقَهُمْ إِلَيْهِ، فَغَنَّوْا بِهِ. كَمَا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «كَفَى بِالْيَقِينِ غِنًى». فَهَمَّ أَعْلَى الْعِبَادِ مَقَامًا؛ إِذْ سَلَكَوا طَرِيقًا خَافَهُ النَّاسُ، وَإِذْ أَقَامُوا عَلَى الْمَحَجَّةِ الْقَائِمَةِ الَّتِي قَعَدَ لَهُمْ عَدُوُّ اللَّهِ عَلَيْهَا، فَاسْتَقَامُوا إِلَى الْحَقِّ بِالْحَقِّ فِيهَا، وَرَابَطُوا قُلُوبَهُمْ بِالْمُواصَلَةِ، وَصَبَرُوا نَفُوسَهُمْ بِالْمُشَاحَنَةِ، وَصَابَرُوا بِالْمُعَامَلَةِ عَدُوَّهُمْ، فَانْهَزَمَ الْعَدُوُّ اللَّعِينُ، وَثَبَتُوا تَثْبِيتَ الْحَقِّ الْمُبِينِ؛ لِحَسَنِ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَتَفْوِضِ الْأَمْرِ إِلَيْهِ، وَبِحُسْنِ الظَّنِّ بِهِ لِمَزِيدِ الْإِيمَانِ مِنْهُ، إِذْ قِيلَ لَهُمْ: ﴿قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ إِلَى ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٥]. وَهَؤُلَاءِ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ. فَتَدَبَّرُوا.

وَيُقَالُ: إِنَّ الْجُنَيْدَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - بَاهِلَ ابْنِ عَطَاءٍ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَدَعَا عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ أَنْكَرَ قَوْلَهُ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ. وَكَانَ يَقُولُ: الْفَقِيرُ الصَّابِرُ أَفْضَلُ مِنَ الْغَنِيِّ الشَّاكِرِ، وَإِنْ تَسَاوَيَا فِي الْقِيَامِ بِحُكْمِ حَالِهِمَا؛ لِأَنَّ الْغَنِيَّ التَّقِيَّ يُمَتِّعُ نَفْسَهُ وَيُنِعِّمُ صِفَتَهُ، وَالْفَقِيرُ الصَّابِرُ قَدْ أَدْخَلَ عَلَى صِفَتِهِ الْآلَامَ وَالْمَكَارَةَ، فَقَدْ زَادَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ.

وَهَذَا كَمَا قَالَ. وَكَذَلِكَ كَانَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ يَقُولُ: مَا أَعْدِلُ بِالْفَقْرِ شَيْئًا. وَكَانَ يُفْضِلُ حَالَ الْفَقْرِ، وَيَعْظُمُ شَأْنَ الْفَقِيرِ الصَّابِرِ. وَقَالَ الْمَرْوَزِيُّ، وَذَكَرَ بَعْضُ الْفُقَرَاءِ، فَجَعَلَ يَمَجِّدُهُ وَيُكْثِرُ السُّؤَالَ عَنْهُ. قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَحْتَاجُ إِلَى عِلْمٍ. فَقَالَ: وَيَحْكُ اسْكُتْ؛ صَبْرُهُ عَلَى الْفَقْرِ وَمُقَاسَاةُهُ لِلضَّرِّ فِيهِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْعِلْمِ. ثُمَّ قَالَ: هَؤُلَاءِ خَيْرٌ مِنَّا بِكَثِيرٍ.

وَأَقُولُ: إِنَّهُ مِنْ فَضْلِ حَالِ الْغَنِيِّ عَلَى الْفَقْرِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَذُقْ مَرَارَةَ الْفَقْرِ وَلَا حَلَاوَتَهُ، فَهُوَ غَرٌّ بِشِدَّتِهِ، فَاقْدُ الْحَلَاوَتَهُ. لِأَنَّهُ لَوْ ذَاقَ مَرَارَتَهُ فِي مَقَامِ الصَّبْرِ مِنَ الضَّرِّ وَالْهَمِّ فَضَّلَهُ، وَلَوْ أَذِيقَ حَلَاوَتَهُ مِنَ الزُّهْدِ فِي مَقَامِ الرِّضَا لَمَا فَضَّلَ عَلَيْهِ.

وَتَكَلَّمَ مَرَّةً يَحْيَى بْنُ مَعَاذٍ فِي آفَاتِ الْغَنِيِّ، وَأَنَّ سَلَامَةَ الدِّينِ مَعَ فَقْدِ آفَةِ الْمَالِ. فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: تُرِيدُ أَنْ تُخْرِجَنِي مِنْ ضَيْعَتِي. قَالَ لَهُ يَحْيَى: لَسْتُ أَمُرُّكَ بِالْخُرُوجِ

من ضيَعَتِكَ، ولكنِّي سائلُكَ عن الدنيا، كيف دُفِعْتَ إِلَيْكَ أَمَعَ الآفَاتِ أم بغيرِ آفاتٍ؟ قال: بل مع الآفاتِ. قال له يحيى: فَإِنَّمَا أَمْرُكَ بِحِفْظِ دِينِكَ مِنَ الآفَاتِ. فَإِن كَانَ فِي حِفْظِ دِينِكَ ذَهَابُ دُنْيَاكَ، فَإِلَى نَارِ اللَّهِ الْحَامِيَةِ مَعَ أَهْلِهَا لَا رَجَعْتَ أَبَدًا. ثم قال: النَّاسُ رَجُلَانِ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ رَأْسٌ مَالٌ لَا بَدَّ مِنْهُ، فَمَنْ كَانَ رَأْسُ مَالِهِ الدِّينَ فَتِجَارَتُهُ مَعَ اللَّهِ، وَرَبِّحَهُ الْجَنَّةُ. وَمَنْ كَانَ رَأْسُ مَالِهِ الدُّنْيَا فَتِجَارَتُهُ مَعَ الشَّيْطَانِ، وَخُسْرَانُهُ النَّارُ. وَقَالَ: الشُّكُوكُ ثَلَاثَةٌ، كُلُّهَا كُفْرٌ: شَكٌّ فِي اللَّهِ، وَشَكٌّ فِي الْإِيمَانِ، وَشَكٌّ فِي الرِّزْقِ مِنْ وَعْدِ اللَّهِ.

• ذكر ماهية الدنيا وكيفية الزهد فيها وتفاوت الزهاد في مقاماتهم:

ثم إِنَّ الدُّنْيَا هِيَ نَصِيبُ كُلِّ عَبْدٍ مِنَ الْهَوَى، وَمَا دَنَا مِنْ قَلْبِهِ مِنَ الشَّهَوَاتِ. فَمَنْ زَهَدَ فِي نَصِيبِهِ وَمُلْكِهِ مِنْ هَوَاهُ الْمَذْمُومِ؛ فَهَذَا هُوَ الزُّهْدُ الْمَفْتَرَضُ. وَمَنْ زَهَدَ فِي نَصِيبِهِ مِنَ الْمُبَاحِ، وَهُوَ فَضُولُ الْحَاجَةِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؛ فَهَذَا هُوَ الزُّهْدُ الْمَفْضَلُ؛ يَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى حُظُوظِ جَوَارِحِهِ، الَّتِي هِيَ أَبْوَابُ الدُّنْيَا مِنْهُ، وَطَرُقُهَا إِلَيْهِ.

فَالزُّهْدُ فِي حَرَمَاتِهَا هُوَ زُهْدُ الْمُسْلِمِينَ، بِهِ يَحْسُنُ إِسْلَامُهُمْ. وَالزُّهْدُ فِي شُبُهَاتِهَا هُوَ زُهْدُ الْوَرَعِينَ، بِهِ يَكْمُلُ إِيْمَانُهُمْ. وَالزُّهْدُ فِي حَالَِلِهَا مِنْ فَضُولِ حَاجَاتِ النَّفْسِ هُوَ زُهْدُ الزَّاهِدِينَ، بِهِ يَصَفُّوْا يَقِينُهُمْ.

وَرَوَيْنَا فِي حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ، عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: «يَا زُبَيْرُ، اجْهَدْ نَفْسَكَ عِنْدَ نُزُولِ الشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ بِالْوَرَعِ الصَّادِقِ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ، وَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

وَكَانَ سَهْلٌ يَقُولُ فِي فَضَائِلِ الزُّهْدِ وَأَعَالَى مَقَامَاتِهِ: لَا يَتِمُّ زُهْدٌ عَبْدٌ حَتَّى يَزْهَدَ فِي هَذِهِ الثَّلَاثِ: فِي الدَّرْهِمِ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَهُ فِي أَبْوَابِ الْبَرِّ، يَتَقَرَّبُ بِذَلِكَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى. وَيَزْهَدُ فِي الثِّيَابِ الَّتِي تَسْتُرُ بَدَنَهُ فِي الطَّاعَاتِ. وَيَزْهَدُ فِي قُوَّتِهِ الَّتِي يَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى الْعِبَادَةِ.

وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا، لِأَنَّ عِنْدَهُ أَنَّ حَقِيقَةَ الزُّهْدِ مِنْ أَفْضَلِ الْمَقَامَاتِ كُلِّهَا؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: يُعْطَى الزَّاهِدُ جَمِيعَ ثَوَابِ الْعُلَمَاءِ وَالْعِبَادِ، ثُمَّ يُقَسَّمُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ثَوَابُ أَعْمَالِهِ.

وقال: لا يرى في القيامة أحدٌ أفضلَ من ذِي زُهدٍ عالمٍ ورِعٍ. وقال مرة: لا يُنال الزُّهدُ إلا بالخوف؛ لأن من خاف تركَ.

فجعل الزُّهدَ مقاماً في الخوف، رفعه مزيداً له، وكان عنده رحمه الله (١) (١) للعبادة استفراغ قُوَّةِ النَّفْسِ، وإدخال الضَّعْفِ على حَرَكَاتِهَا، ليَكْسِرَ شَرَّهَا، وتقلَّ آفَاتُهَا؛ مِنْ فَضْلِ الطَّعَامِ، والكَلَامِ، والمنامِ، وتركِ مُجَالَسَةِ الْأَنَامِ.

وهذا طريق البَصْرِيِّينَ فِي التَّقَلُّلِ والتَّجَوُّعِ، والانْقِطَاعِ عَنِ الْخَلْقِ؛ إِذْ هُوَ مُقْتَضَى الزُّهْدِ عِنْدَهُمْ. وروى مسروق عن ابن مسعود، قال: «رَكَعَتَانِ مِنْ زَاهِدٍ قَلْبُهُ خَيْرٌ لَهُ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ عِبَادَةِ الْمُتَعَبِّدِينَ الْمُجْتَهِدِينَ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ».

وكان ابن معاذ يقول في زُهدِ العارفين، ومَقَامَاتِ الْمُقَرَّبِينَ مِنَ الزُّهَادِ: كُلُّ مَا خُوِذَ مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ عَوْنًا لَكَ عَلَى تَرْكِهَا، فَهُوَ عَلَيْكَ. وَكُلُّ مَتْرُوكٍ مِنْهَا لَا يَكُونُ عَوْنًا لَكَ عَلَى الطَّاعَةِ، فَلَيْسَ لَكَ.

وقال: لا زُهدَ إِلَّا بَعْدَ الْوَرَعِ. تَوَرَّعَ عَنِ الشُّبُهَاتِ، وَعَمَّا لَيْسَ لَكَ بِحَقٍّ، ثُمَّ أَزْهَدَ فِي الْحَلَالِ، وَفِيمَا هُوَ حَقٌّ لَكَ.

وقال: عَيْشُ الْعَارِفِ فِي الدُّنْيَا مَدَافِعَةُ الْأَوْقَاتِ.

وقال: إِذَا كَانَ الْعَمَلُ لَا مِيرَاثَ لَهُ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ عَمَلٌ بِلَا زُهدٍ. وَمَنْ عَجَزَ عَنِ الزُّهْدِ فَهُوَ عَنِ الْحُبِّ أَعْجَزُ.

وقال: الْمَعْرِفَةُ شَجَرَةٌ أَغْصَانُهَا الزُّهْدُ.

وكان يقول: لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا حَسَنٌ كُلِّ حَسَنٍ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الْآخِرَةِ، أَظْهَرَ الْحَسَنُ فِي الشَّيْءِ يُرِيكَ مَتْعَةَ الْآخِرَةِ، فَإِنْ اعْتَبَرْتَ بِهِ نَظَرْتَ إِلَى الْآخِرَةِ.

وقال: بَلَوَى الزَّاهِدِينَ بِالدُّنْيَا، وَبَلَوَى الْعَارِفِينَ بِالْآخِرَةِ. وَحُبُّ الدُّنْيَا بَلَوَى، وَحُبُّ الْآخِرَةِ بَلَاءٌ.

وقال: يَا أَبَى اللَّهِ أَنْ يَفْتَحَ رُوحَ الْمَعْرِفَةِ لَكَ حَتَّى يَسْتَوِيَ عِنْدَكَ الْأَحْوَالُ كُلُّهَا:

(١) تلف في الأصل بمقدار خمسة أسطر.

الفقر والغنى، والعز والذل، والصحة والمرض، وما أشبهه.

يعنى بهذا أنّ القلب إذا استقام على معرفة الله تعالى، وصحّ في محبته، لم يختلف على الله لاختلاف الأحوال عليه، واستوى مع الله في جريان الأحكام، إذ المأوى عند الله يَكُنُّه، والظل من الله يُؤْوِيه، وليس له وطن يَحْنُ إليه، إذ لا سَكَنَ له يَأْنَسُ به فيه؛ لأن قلبه معه حيثما كان، وهمه أمامه أينما توجه، فثم وجه الله.

وكان يقول: الزاهد يقول بلسانه لا أريد، وقلبه يريد. والعارف يقول بلسانه أريد، وقلبه لا يريد. وإذا زهد ترك الشهوات، وإذا عرف عاودها. وقيل له: ما بال العارف يعاود الشهوات من الدنيا بعد تركها؟ فقال: إذا عتق الشراب واشتدّ احتاج إلى المزاج بالماء، لكنه يكون اليوم في أخذها أفضل منه حينئذ في تركها.

وقال: العالم يقول: كيف آخذ الدنيا والزاهد يقول: كيف أترك الدنيا؟ والعارف يسكت، لا يقول... (١).

وقيل له: هل مع العارف زهد؟ قال: معه الزهد الأكبر، انصراف القلب عن كلّ ما دون الحبيب. وقال: إذا ترك الدنيا رغبة في الآخرة، انقادت له الدنيا بكفايتها من غير عمل. وإذا ألهاك حبه عن الآخرة، انقادت لك الجنة، وعجيب ملكها من غير عناء. لأنك إذا أُعْطِيت الكفاية مع الزهد لحُرمة طلب الآخرة، والرغبة فيها، فانت أولى بأن تُعْطَى ذلك من الجنة، لحُرمة معرفة الله تعالى وحبه على معاني الأنس والقرب.

قال له قائل: ما بال القلوب إلى الرحمة للزهاد أسرع منها للعارفين؟ فقال: الزاهد في درجة الصبر والفاقة والدلة، والعارف في درجات الروح والراحة والسعة، وإنما يرحم أهل البلاء، ويغبط أهل الرخاء. ثم قال: إذا أعجبتهم نفوسهم في حدود الزهد بما نالوا من التنظف والتطهير ألقاهم في معالي المعرفة، ومعاودة الشهوات، حتى يكسر عليهم الحدود التي [ظفروا] (٢) بها من الزهد،

(١) تلف بمقدار سبعة أسطر. والنقل عن ابن معاذ، ولم أجد هذا الكلام في الحلية.

(٢) كلمة مطموسة اجتهدت في قراءتها، والله أعلم.

فيصبرونَ إلى حالِ الفاقةِ إليه، والانقطاعِ به، فيقطعُ عنهمُ الطَّمعُ في النِّجاةِ بأعمالهم، بل بعقوهِ. وهذا قوَى طلبه منهم، وهو الذى يرفعُهُم لديه، فيُسْقِطُ عنهم كلَّ ما دونه يصيرُ دُنْيَا، حتَّى لا يكونَ شُغْلُهُم إلا إِيَّاهُ، ولا يُحِبُّونَ سِوَاهُ، قد أُولِجَ بِهِمْ صَوَامِعُ الخَلْوَةِ به أبداً. ثم قال: الزَّاهِدُ مشهورٌ، والعارفُ مستورٌ.

ولا نهايةَ للزُّهْدِ عند طائفةٍ مِنَ العارفينَ؛ لأنَّه يقعُ عَن نهايةِ معارفهم بدقائقِ أبوابِ الدُّنْيَا، وخفَايا لوائحِ الهَوَى. وقال بعضهم: نهايةُ الزُّهْدِ أن تَزْهَدَ فى كلِّ شَيْءٍ، وتتورَّعَ عن كلِّ شَيْءٍ للنفسِ فيه متعةٌ، وبه راحةٌ، وبوجودِهِ لها استراحةٌ.

فهذا كما روى عن عيسى عليه السَّلام: أَنه وَضَعَ تحتَ رأسِهِ حَجَرًا، فكأنَّه لما ارتفعَ رأسُهُ عن الأرضِ استراحَ بِذلك. فعارضَهُ إبليسُ فقال: يَا ابنَ مَرْيَمَ، أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ قد زَهَدْتَ فى الدُّنْيَا؟ قال: نعم. قال: فهذا الذى وطَّأته تحتَ رأسِكَ من أى شَيْءٍ هو؟ قال: فَرَمَى عيسى عليه السَّلام بالحجرِ، وقال: هَذَا لَكَ مَعَ مَا تَرَكْتُ مِنَ الدُّنْيَا^(١).

وبمعناه رُوينا عن يحيى بن زكريا عليهما السَّلام: أَنه لبسَ المُسُوحَ حتَّى نَقَبَ جِلْدُهُ، فسأَلَتْهُ أمُّه أَن يَنْزِعَ مِدْرَعَتَهُ الشَّعْرَ، ويلبسَ مكانَهَا جُبَةً مِنْ صُوفٍ. ففعل، فأوحى اللهُ تعالى إليه: يَا يحيى آثَرْتَ عَلَى الدُّنْيَا. قال: فبكى، ونَزَعَ الصُّوفَ، وَرَدَّ مِدْرَعَتَهُ الشَّعْرَ عَلَى جَسَدِهِ.

وكان الحسنُ يقول: أدركْتُ سَبْعِينَ مِنَ الأَخْيَارِ ما لأَحَدِهِمْ إلا ثوبُهُ، وما وَضَعَ أَحَدُهُمْ بينَهُ وبين الأرضِ ثوبًا قطَّ. كان إذا أَرَادَ النَّوْمَ باشَرَ الأرضَ بِجِسْمِهِ وجَعَلَ ثوبَهُ فَوْقَهُ.

واعلم أَنِّي رأيتُ جُمْلَ النِّعَمِ ثلاثًا، وتعامُها بالزُّهْدِ، وذلك أَنَّ أَصْلَ النِّعَمِ كُلِّهَا: الإسلامُ؛ لأنَّ مِنَ وَرَائِهِ مَقَامَاتٍ كَثِيرَةٌ أخطأوا فيها حَقِيقَةَ التَّوْحِيدِ. ثم النِّعْمَةُ الثَّانِيَّةُ: السُّنَّةُ، إِذْ مِنَ وَرَائِهَا بَدْعٌ كَثِيرٌ، كُلُّهُمْ أخطأوا حَقِيقَةَ السُّنَّةِ مِنَ المَحَجَّةِ.

(١) الفقرة كلها فى الإنحاف: ٣٤٧/٩.

النَّعْمَةُ الثَّالِثَةُ: الْعِلْمُ بِاللَّهِ، إِذْ مِنْ وَرَائِهِ عُلُومٌ كَثِيرَةٌ شُغِلُوا بِهَا عَنْ اللَّهِ، وَجَهَلُوا صِفَاتِهِ، وَمَعَانِي أَسْمَائِهِ.

ثُمَّ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّهُ مِنْ وَرَائِهِ حِرْصٌ كَثِيرٌ عَلَى الشُّبُهَاتِ، وَرَغْبَةٌ عَظِيمَةٌ فِي الشَّهَوَاتِ، وَمَهَالِكُ شَدِيدَةٌ عَنْ طَرِيقِ النِّجَاةِ، وَمَتَاوُهُ مَتَشَعِبَةٌ عَنِ الْقَصْدِ إِلَى الْمَغَالَاةِ. فَمَنْ أُعْطِيَ هَذِهِ النِّعْمَةَ، إِلَى مَا أُعْطِيَهِ مِنَ النِّعَمِ الثَّلَاثِ، فَقَدْ تَمَّتِ النِّعَمُ عَلَيْهِ، وَكَمُلَتِ الْفَضَائِلُ لَهُ، وَحَسُنَتْ عِنَايَةُ اللَّهِ تَعَالَى بِهِ، وَكَانَ ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وَقَدْ كَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ، يَجْعَلُ الزُّهْدَ مِنْ شَرْطِ السُّنَّةِ وَالِاتِّبَاعِ؛ لِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: ٣١]. وَلِقَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي». وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ أَحْبَبَنِي فَلَيْسَتْ بِيَسُنَّتِي».

فَهَذَا فِيمَا وَصَفَ، وَذَاكَ فِيمَا أَمَرَ. قَالَ: فَمَنْ السُّنَّةُ اتَّبَعَ الرَّسُولَ ﷺ وَأَصْحَابَهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَقَدْ كَانُوا زَاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا.

ثُمَّ تَفَاوَتَ الزَّاهِدُونَ، لِأَيِّ شَيْءٍ زَهَدُوا، عَلَى مَقَامَاتٍ، عَلَى نَحْوِ عُلُومِ الْمَشَاهِدَاتِ. فَمِنْهُمْ مَنْ زَهَدَ إِجْلَالًا لِلَّهِ تَعَالَى. وَمِنْهُمْ مَنْ زَهَدَ حَيَاءً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. وَمِنْهُمْ مَنْ زَهَدَ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. وَمِنْهُمْ مَنْ زَهَدَ رَجَاءً مَوْعِدِ اللَّهِ تَعَالَى. وَمِنْهُمْ مَنْ زَهَدَ مَسَارَعَةً مِنْهُ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى. وَمِنْهُمْ مَنْ زَهَدَ حُبًّا لِلَّهِ تَعَالَى؛ وَهُوَ أَعْلَاهُمْ.

وَأَدْنَاهُمْ مَنْ زَهَدَ مَخَافَةَ طَوْلِ الْوُقُوفِ وَمَنَاقِشَةِ الْحِسَابِ، كَمَا قِيلَ: ذُو الدَّرْهِمِينَ أَشَدُّ حِسَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ ذِي الدَّرْهِمِ. وَلِأَنَّ طَرِيقَ الْمُتَّقِينَ لَا يَسْلُكُهُ مَنْ مَلَكَ فِي الدُّنْيَا زَوْجِينَ مِنْ شَيْءٍ وَاحِدٍ، لَا قَمِيصِينَ وَلَا نَعْلَيْنِ، وَنَحْوَ هَذَا.

وَمَا أَحَدٌ أُعْطِيَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا نَقِصٌ مِنْ دَرَجَتِهِ فِي الْآخِرَةِ، وَإِنْ كَانَ عَلَى اللَّهِ كَرِيمًا. وَمَا أَحَدٌ يُعْطَى مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا إِلَّا قِيلَ: خُذْهُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَثْلَاثٍ؛ ثَلَاثُ هَمٍّ،

وثلثُ شُغْلٍ، وثلثُ حِسَابٍ. وإنَّ الرجلَ من الأغنياءَ لَيُوقَفُ للحِسَابِ ما لو وردَ مائةٌ بغيرِ عطاشٍ على عَرَقِهِ لَصَدَرَ رِوَاءٌ، وإنَّه لَيَرى منازلَهُ من الجنَّةِ.

فلَمَّا وَقَرَ هَذَا فِي قُلُوبِ الرِّعَيين، وَحَزَّ فِي صُدُورِ الْمُتَّقِينَ، أَشْفَقُوا مِنْ طُولِ الحِسَابِ، فَزَهَدُوا فِي الجَمْعِ والمنعِ، وفَارَقُوا فَضُولَ الآمالِ، طَلَبًا لِحِفَّةِ السُّؤالِ، وَخَوْفًا مِنْ مُعَايِنَةِ الأَهْوالِ.

ومن الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا حُبُّ الْفَقْرِ وأَهْلِهِ، ومَجَالِسَةُ الْمَساكِينِ فِي أوطانِهِمْ، والتَّذَلُّلُ لَهُمْ، كما كان مطرّف بن عبد الله، مع فضله وعلمه، يجالسُ الْمَساكِينَ فِي بَزَّتِهِ، يَتَقَرَّبُ بِذَلِكَ إِلَى رَبِّهِ.

وكان محمد بن يوسف الأصفهاني عالماً زاهداً. ومن الناس من كان يُفضِّله على الثَّورِىَ رَحِمَهُمَا اللهُ تَعَالَى، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يُشْتَهَرَ ذِكْرُهُ، وَكَانَ يُوْثِرُ الخُمُولَ والصَّمْتَ، وَطُوبَى نَشْرُهُ فَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ إِلَّا الْعُلَمَاءُ. وَكَانَ مِنْ حُسْنِ رِعَايَتِهِ وَشِدَّةِ يَقْظَتِهِ يَعْمَلُ فِي كُلِّ وَقْتٍ أَفْضَلَ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ. فَلَمَّا طَلَبَهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ بِالْمُصِيصَةِ^(١)، قَالَ لَهُ بَعْضُ مَنْ يَعْرِفُ حَالَهُ: إِنَّ ذَاكَ لَا يَكُونُ فِي الْمِصْرِ إِلَّا فِي أَفْضَلِ مَوْضِعٍ فِيهِ. قَالَ: فَهُوَ إِذَا فِي الْجَامِعِ، فَطَلَبَهُ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُ لَا يَقْعُدُ إِلَّا فِي أَفْضَلِ مَكَانٍ. قَالَ: فَطَلَبَهُ عِنْدَ الْفُقَرَاءِ، فَإِذَا هُوَ دَسَّ رَأْسَهُ، وَأَخْمَلَ نَفْسَهُ مَعَ الْمَساكِينِ، فَكَانَ عِنْدَهُ أَنْ أَفْضَلَ وَطَنِ فِي الْمِصْرِ الْجَامِعُ؛ لِأَنَّهُ يَقَالُ: إِنَّ الصَّلَاةَ فِيهِ بِخَمْسِينَ صَلَاةً. وَإِنَّ أَفْضَلَ الْأَمَاكِنِ مَوْضِعُ الْفُقَرَاءِ مِنَ الْجَامِعِ، وَإِنَّ أَفْضَلَ الْأَحْوالِ الْخُمُولُ. فَلِذَلِكَ أَخْمَلَ نَفْسَهُ فِي فَقْرِهِ، وَفِيمَا بَيْنَ الْفُقَرَاءِ فِي الْجَامِعِ، لِيَحْوزَ قَوَاضِلَ الْأَعْمَالِ.

ومن الزهد أن يكون بفقره مُغْتَبِطًا، مُشَاهِدًا لِعَظِيمِ نِعْمَةِ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ بِهِ. يَخَافُ أَنْ يُسَلَبَ فَقْرُهُ، وَيُحَوَّلَ عَنْ زُهْدِهِ، كما يكون الغنى مُغْتَبِطًا بِغِنَاهُ يَخَافُ الْفَقْرَ. ثُمَّ وَجُودُ حِلَاوَةِ الزُّهْدِ حَتَّى يَعْلَمَ اللهُ تَعَالَى مِنْ قَلْبِهِ أَنَّ الْقِلَّةَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْكَثْرَةِ، وَأَنَّ الْبَذْلَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْعِزِّ، وَأَنَّ الْوَحْدَةَ أَثَرُ عِنْدَهُ مِنَ الْجَمَاعَةِ، وَأَنَّ الضَّعْفَ وَالْخُمُولَ أَعْجَبُ إِلَيْهِ مِنَ الْاِشْتِهَارِ. فَهَذَا مِنْ إِخْلَاصِهِ فِي قَصْدِهِ، وَصِدْقِهِ

(١) المصيصة: بلدة بالشام.

فى زُهدِه، وهنالك تحقّق الإيمان وبلغ ذرّوَتَه.

وروينا عن عيسى عليه السلام وعن نبيّنا عليه السلام: «أربعٌ لا يدركن إلا بعُجبٍ: الصّمتُ؛ وهو أوّلُ العبادة، والتواضعُ، وكثرةُ الذّكرِ، وقِلّةُ الشّئِ».

وقال الثّورى رحمه الله تعالى: لا يكون الرّجلُ عالماً حتّى يَعدّ البلاءَ نعمةً، والرّخاءَ عقوبةً. وقال بعضُ السّلفِ: لا يَفقهُ العبدُ كلّ الفقه حتّى يكونَ الفقْرُ أحبَّ إليه من الغنى، والذلُّ أثرَ عنده من العزِّ.

وقد روينا خبراً مقطوعاً: «لا يبلغ العبدُ حقيقةَ الإيمان حتّى يكونَ أن لا يُعرَفَ أحبَّ إليه من أن يُعرَفَ، وحتّى يكونَ قِلّةُ الشّئِ أحبَّ إليه من كثرته».

وكان السّلف الصّالحُ يقولون: نعمةُ الله علينا فيما صرّفَ عنا من الدّنيا أعظمُ من نِعْمته فيما صرّفَ إلينا.

وكان الثّورى رحمه الله تعالى يقول: الدّنيا دارُ التّواءٍ لا دارُ استواءٍ، ودارُ ترحٍ لا منزلَ فرحٍ. من عَرَفَها لم يفرح برّخاءٍ، ولم يحزن على شقاءٍ.

وكان سهلُ بن عبد الله رحمه الله يقول: لا يصحُّ التّعبدُ لأحدٍ ولا يخلّصُ له عَمَلٌ حتّى لا يَجزَعَ ولا يَفِرَّ من أربعةِ أشياء: الجوع، والعُرى، والفقْر، والذلُّ.

كما كان يحيى يقول: (...) ^(١) وقفوا فى فضيحة الآخرة، وفرّجوا من الفضيحة عند النّاس افتضحوا عند الله.

يقول أبو محمد، رحمه الله: فإذا كان فى تَعَبْدِهِ طالباً للغنى، مُحبّاً للجهاد والذّكرِ، لم يُخلّص فى أعماله، ولم يَصْدُق فى حاله، وكانت الرّغبة فى الدّنيا مِفْتَاحَ ذلك فصار الزُّهدُ غَلَقَهُ، فَصَحَّ له صِدْقُ الحَالِ وإخلاصُ الأعمالِ بالزُّهدِ.

وروينا أن إبراهيم التّيمي ردّ خمسين ألفاً. ف قيل له: لِمَ رَدَدْتَهَا؟ فقال: أكرهُ أن أمحوَ اسمي من ديوان الفقراء لخمسين ألفاً. فكيف بمن رَضِيَ أن يُمَحَى اسمه من الفقراء ويثبتُ رسمُهُ فى الأغنياء بمائتى درهم؟ لقد خسرَ خُسْراناً مُبيناً.

والله تعالى يصف الفقراء بالإحسان، ويوقعُ الحُجّةَ عليهم، ويمدح الفقراء

(١) تلف قدر ثلاث كلمات.

بالرجولة في ترك البيع والتجارة، ويضمُّ الأغنياء إلى النساء في التخلف والخسارة، فقال في هذا المعنى: ﴿رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُ تِجَارَةً﴾ [النور: ٣٧] أى: لا يشغلهم عن الذكر. والتجارة تلهيهم، من: لَهَوْتُ أَلْهَى؛ إذا تشاغل، لا من: لَهَوْتُ أَلْهَوْتُ؛ إذا لعب. ثم قال في ذم الأغنياء: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٨٧]. هذا جمع التائث على زنة: فَوَاعِل. وقال في قوله في الخطاب الثاني للطائفتين أيضاً: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾ إلى ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]، ثم قال: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ الآية [التوبة: ٩٣]... (١).

ومن الزهد عند الزاهدين ترك فضول العلوم التي معلوماتها تؤول إلى الدنيا، وتدعو إلى الجاه والمنزلة عند أبنائها، وفيما لا نفع فيه في الآخرة، ولا قرينة به عند الله تعالى. وقد تشغل عن عبادة الله، وتفرق الهم عن اجتماعه بين يدي الله، وتقطع الجوارح عن المعاملة لله، وتقسى القلب عن ذكر الله، وتحجب عن التفكير في عظمة الله وآلائه.

وقد أحدثت علوم كثيرة لم تكن تُعرف فيما سلف، اتخذها الغافلون علماً، وجعلها البطالون شغلاً، تطرقوا بها إلى الدنيا، وتألفوا عليها أبنائها، وجعلوها سلماً إلى الشهوات، وسبباً إلى المعاشرات، ومفتاحاً للمجالسات، فقطعوا بها عن الله، وحجّبوا عن مشاهدة الآخرة، ومنعوا من الحقيقة، وبدّلوا بالخالق الخليفة؛ لا نذكرها لكثرة أهلها، إلا أن يسأل عن شيء منها أعلم هو أم كلام؟ أحق أم تشبيه؟ أصدق أم حكمة أم زخرف وغرور؟ أسنة هو أم بدعة؟ أعتيق أم محدث وتشديق؟ فحينئذ نخير بصواب ذلك من خطابه، وقديمه من مبتدعه. وعلى الله قصد السبيل.

ومن أفضل الزهد: الزهد في الرياسة على الناس، وفي المنزلة والجاه عندهم، والزهد في حب الثناء والمدح منهم؛ لأن هذه المعاني هي من أكبر أبواب الدنيا عند

(١) تلف قدر ثلاث كلمات أو أكثر.

العلماء. فالزهد فيها هو زهد العلماء. كان الثوري رحمه الله تعالى يقول: الزهد في الرياسة ومدح الخلق أشد من الزهد في الدينار والدرهم. قال: لأن الدينار والدرهم قد يبذلان في طلب ذلك. وكان يقول: هذا باب غامض لا يبصره إلا سمسرة العلماء.

وقال الفضيل رحمه الله تعالى: نقل الصخور من الجبال أيسر من إزالة رياسة قد ثبتت في قلب جاهل.

وذهب أويس القرني رحمه الله تعالى إلى أن الزهد هو ترك الطلب للمضمون. قال هرم بن حيان: لقيته على شاطئ الفرات يغسل كسرًا وخرقًا قد التقطها من المنبذ. وكان ذلك أكله ولبسه. قال: فسألته عن الزهد، أي شيء هو؟ قال: في أي شيء خرجت؟ قلت: أطلب المعاش. فقال: إذا وقع الطلب ذهب الزهد.

وكان أحمد بن حنبل يقول: لا زهد إلا زهد أويس القرني، بلغ به العري حتى قعد في قوصرة^(١).

وكان أبو سليمان يقول: إذا طلب المعاش، أو تزوج، أو كتب الحديث، فقد رغب في الدنيا.

وقد قيل لابن معاذ: ما بال المتعلم والطالب حريص على كتب العلم وجمع الحكمة. فقال: يريدون بذلك الاحتجاج على الناس، والدفع عن نفوسهم، فهم مشغولون بهم. فإذا شغلوا بنفوسهم، اقتطعوا عن الخلق، ففرغوا لها، وأقبلوا على الله، فأخذوا العلم من الله بأنفسهم من قلوبهم. ذكرته على المعنى، والعبارة لى.

وقد رونا عن الله سبحانه: «لا تقولوا العلم في السماء من يصعد ينزله، أو في التخوم من ينزل يخرج. العلم في قلوبكم، تأدبوا بأداب الروحانيين، وتخلقوا مني بأخلاق الصديقين، أظهر العلم من قلوبكم، حتى تغمر». فالروحانيون لا ترتاح قلوبهم إلى غير الله، ولا روح لهم إلا إياه. والصدّيقون لا

(١) القوصرة: وعاء للتمر يتخذ من قصب. وانظر: الإتحاف ٣٤٧/٩.

يَنْظُرُونَ إِلَى مَا أَعْرَضَ عَنْهُمْ، وَلَا يَحِجُّونَ مَا ذَمَّهُ وَمَقَّتَهُ. فهم أعلام الله في الأرض [لإرشاد] عبادِهِ، والعلم ﴿آيَاتُ بَيِّنَاتٍ﴾ كما قال: ﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وقد قال بعضُ أهل المعرفة: إذا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَتَكَلَّمُ فِي الزُّهْدِ، ويدعو إليه، فاعلم أنه في معرفة (...) ^(١) ومن ادَّعى أنه جَمَعَ طَلَبَ الدُّنْيَا وحلاوة الزُّهْدِ فقد كَذَبَ. وقال: لا يكون بالله مُؤمِّناً حتى يكونَ لله مُحِبًّا، ولا يكونَ لله مُحِبًّا حتى يحبَّ ما أَحَبَّ، وَيُبْغِضَ ما أَبْغَضَ، وَاللهُ يَحِبُّ الزُّهْدَ، وَيُبْغِضُ حُبَّ الدُّنْيَا. وقال: أَزْهَدُ النَّاسِ أَشَدُّهُمْ حُبًّا لِلَّهِ، وَأَطْوَعُهُمْ لَهُ. وقال: إِنَّمَا يَحِبُّ الْإِنْسَانُ الدُّنْيَا بِالطَّبَعِ؛ لِأَنَّ نَفْسَهُ مِنْهَا خُلِقَتْ. فإذا وَقَعَ الْإِيمَانُ بِالْغَيْبِ خَمَدَ الطَّبَعُ، فَطُفِيَ حُبُّ الدُّنْيَا.

هذا معناه لغيرنا، واللفظ لنا.

وكان ابن معاذ يقول: الزُّهْدُ إِقَامَةُ الْعَدْلِ، واستعمالُ الْحَقِّ. ولا يمكن حَقِيقَةُ هذا إِلَّا بِفَقْدِ الرِّغْبَةِ، وَعَدَمِ الْحِرْصِ.

وكان يقول: الدنيا امرأة، ولو كانت عَفِيفَةً لَأَغْنَتْ طُلَّابَهَا. وقال مرة: لو كُنْتُ عَفِيفًا مَا اتُّهِمْتُ بِقُرْبِهَا، فإذا رَأَيْتَ نَفْسَكَ تَمِيلُ إِلَى الدُّنْيَا فَاتَّهَمِهَا، وإذا زال الْخَوْفُ عَلَيْهَا فَرَغِبْتَ فَاتَّهَمِهَا.

وقيل لِيَحْيَى بن معاذ: مَا بِالْأُنْسَاءِ يَأْنَسُونَ بِالْعَارِفِ، وَلَا يَسْتَوْحِشُونَ مِنْ قُرْبِهِ؟ فقال: لَانْقِطَاعَ طَلْبِهِ لَهُنَّ، وَلَوْ طَلَبْنَهُ لَمْ يَأْنَسُوا بِهِ. كذلك إذا لَمْ تَطْلُبِ الدُّنْيَا أَنْسَتْ بِكَ وَطَلَبَتْكَ، وإذا طَلَبْتَهَا تَبَاعَدَتْ.

وقال: الدُّنْيَا مَخْضَةُ الْمُؤْمِنِ يُمَخَضُ فِيهَا كَمَا يُمَخَضُ السَّقَاءُ. فَالْفَقْرُ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْغِنَى؛ لِأَنَّ الْمَذَلَّةَ وَخُضُوعَ الْقَلْبِ مَعَ الْفَقْرِ، وَالْكِبْرَ مَعَ الْغِنَى.

وقال: إذا وَجَدْتَ (...) يُرَغِّبُكَ قُرْبَهُ، وَالنَّظَرَ إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، فاعلم أَنَّهُ (...) وَلَا حَكِيمٌ يَتَكَلَّمُ بِالْحِكْمَةِ، إِلَّا مَنْ يَقُومُ الْغِنَى مِنْ كَوْنِهِ فَقِيرًا وَالْفَقِيرُ غَنِيًّا.

(١) قدر كلمة في هذا الموضع وكذلك الموضعين بعده.

وقال: النَّظَرُ إِلَى الْأَغْنِيَاءِ فِتْنَةٌ (١) (....) وفى موتهم غذاء للفقراء .

وقد كان بشرٌ مِنْ قَبْلِهِ يَقُولُ: حَيَاةُ الْأَغْنِيَاءِ غِيْظٌ فِي قُلُوبِ الْفُقَرَاءِ .

وكان يقول: لو لم تُعَيَّرْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا بِالرُّهْبَانِ لَكَانَ عَظِيمًا . يُقَالُ لَكَ: هَذَا قَدْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا وَاجْتَهَدَ فِي الْعِبَادَةِ، وَهُوَ لَا يَعْرِفُنِي، أَنْتَ كُنْتَ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْهُ، وَأَنْتَ تَعْرِفُنِي .

وكان بعضُ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ يَقُولُ: الزَّاهِدُ وَإِنْ كَانَ جَاهِلًا أَفْضَلُ مِنَ الْعَالِمِ إِذَا كَانَ رَاغِبًا .

وقال يحيى: إِذَا صَبَرَ عَنِ الْكَلَامِ، وَمَلَاقَاةِ الْإِخْوَانِ، فَقَدْ زَهَدَ . وكان يصف زُهَادَ الْعَارِفِينَ بِأَرْبَعٍ: تَرَكِ الْأَوْطَانَ، وَفَقَدِ الْإِخْوَانَ، وَطَرَحَ الْكُتُبَ، وَعَدَمَ الْمَعْلُومَ . وَذَكَرَ قِصَّةَ دَاوُدَ الطَّائِي، فَقَالَ: لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَزْهَدَ، جَرَّبَ نَفْسَهُ سَنَةً، فَكَانَ يَحْضُرُ مَجْلِسَ أَبِي حَنِيفَةَ، وَهُمْ يَسْأَلُونَ وَيَتَكَلَّمُونَ، وَدَاوُدُ لَا يَسْأَلُ وَلَا يَجِيبُ . فَلَمَّا قَوَّى عَلَى هَذَا عَمَدَ إِلَى كُتُبِهِ وَجَعَلَهَا فِي تَابُوتٍ، وَأَلْقَاهَا فِي الْفُرَاتِ، وَلَزِمَ الطَّرِيقَ .

ثم قال يحيى: لَمْ يَخْلَقِ [اللَّهُ] الشَّيْءَ فِي الْأَصْلِ إِلَّا لِلْأَخْذِ، وَلَكِنْ زَهَدَهُمْ فِيهِ امْتِحَانًا لَهُمْ، وَقَطْعًا لِقُلُوبِهِمْ عَنْهُ . فَإِذَا زَهَدُوا فِيهِ رَدَّهُ عَلَيْهِمْ .

وقال: مَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ بِالْخُلُوعِ صَبَرَ عَلَيْهَا بَعْدَ الْوُصُولِ، وَمَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ مَعَ الْخُلُقِ لَمْ يَصْبِرْ عَنْهُمْ بَعْدَ الْوُصُولِ، وَمَنْ اتَّصَلَ سَقَطَ عَنْ قَلْبِهِ كُلُّ مَا قَطَعَهُ . ثم قال فى الفرق بين حال الزاهد والعارف (....) (٢) .

وكان يُقَالُ: فَرَارُ الْعَارِفِ مِنَ الزَّاهِدِ أَشَدُّ مِنْ فَرَارِ الزَّاهِدِ مِنَ الرَّاغِبِ . وقال مرة: صَادِقٌ يَعِظُ صَدِيقًا؛ لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُهُ وَلَوْ عَرَفَهُ لَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ يَتَعَلَّمُ مِنْهُ، فَكَيْفَ أَنْ يَنْكَرَ عَلَيْهِ؟

وقال بعضُ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ فِي التَّوَسُّطِ بَيْنَ حَالِ الزَّاهِدِ وَالرَّاغِبِ قَوْلًا عَدْلًا، قَالَ:

(١) قدر كلمة .

(٢) قدر سبعة أسطر .

ما دامت الشَّهَوَاتُ فِي نَفْسِكَ، فَنَفْسُكَ مَطِيئَتُكَ إِلَى الدُّنْيَا، وَأَنْتَ طَالِبٌ لَهَا، فَتَتَعَبُ بِقَدْرِ الطَّلَبِ، وَتُنْغَصُّ فِيهَا بِقَدْرِ التَّعَبِ، وَلَا تَبْلُغُ مَا تُرِيدُ لِفَقْدِ التَّسْلِيمِ، وَنَقْصِ الرِّضَا. فَإِذَا خَرَجْتَ الشَّهَوَاتُ مِنْ قَلْبِكَ، وَشُغِلْتَ عَنْهَا، فَالدُّنْيَا مَطِيئَتُكَ إِلَى اللَّهِ، وَهِيَ تَطْلُبُكَ، وَأَنْتَ تَهْرَبُ مِنْهَا، فَتَهْنَأُ بِمَا وَجَدْتَ مِنْهَا وَلَا تَضُرُّكَ، وَأَنْتَ مَطْلُوبٌ. الْعِبَارَةُ لَنَا، وَالنُّكْتَةُ لَغَيْرِنَا، ذُكِرْتُ قَائِلَهُ.

ولفظُ يحيى بن معاذ: ما دامت شهوة النفس فيك، فأنت مطية الدنيا، والمطية تُساق حيث يريد صاحبها، لا حيث تريد هي. فإذا ذهبت شهوته، فالدنيا مطيته يسوقها كما يريد.

وقال أبو محمد رحمه الله: لا يصحُّ الزُّهْدُ فِي النِّسَاءِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ حُبِّبَ إِلَى سَيِّدِ الزَّاهِدِينَ. ووافقه ابن عيينة، فقال: ليس في كثرة النساء دنيا؛ لِأَنَّ أَزْهَدَ الصَّحَابَةِ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ لَهُ أَرْبَعُ نِسَوَةٍ، وَبُضِعَ عَشْرَةُ سُرِيَّةٍ.

وقد قيل ليحيى بن معاذ: ما بالُ العارف لا يرتاحُ لشيءٍ من لذات الدنيا ارتياحه للنساء (...)^(١) الشَّهَوَاتُ خُلِقَتْ بَائِنَةً مِنْكَ الْمَأْكُولُ وَمَا أَشْبَهُهُ (...). خُلِقَتْ مِنْكَ. فَجِسْمُكَ يَسْتَدْلِي بِجَزْئِهِ، وَيَحْنُ إِلَى جَزْئِهِ، وَيَطْلُبُ شَكْلَهُ، وَتَعْرِفُ ذَلِكَ فِي أَجْناسِ الطَّيْرِ وَالْبَهَائِمِ، وَلِبَسِ شَيْءٍ مِنَ اللَّذَّاتِ فِيهِ رُوحُكَ غَيْرَهَا، لِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١].

وقال مرة: إِذَا صَحَّ الزُّهْدُ خَرَجَتْ شَهْوَةُ النِّسَاءِ مِنْ قَلْبِهِ، وَإِذَا صَحَّتِ الْمَعْرِفَةُ رَدَّتْهَا عَلَيْكَ. وَلِذَلِكَ بَدَأَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي أَوَّلِ ذِكْرِ تَزْيِينِ الشَّهَوَاتِ بِالنِّسَاءِ وَالْبَنِينَ، لِأَنَّهُمَا مِنَ الْجِنْسِ، فَهُوَ مِنَ الْمَرْأَةِ، وَالابْنُ مِنْهُ. ثُمَّ ذَكَرَ مُعَادِنَ الْأَرْضِ؛ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ؛ لِأَنَّهُمَا مِنْ أَصْلِ نَبَاتِ الْجِنْسِ.

وقال أيضاً: شهوة النساء أغلبُ على العارفين من كلِّ شهوة. فَإِنَّ كُلَّ شَهْوَةٍ تَنَالُ مِنْهَا وَهِيَ لَا تَنَالُ مِنْكَ مِثْلَ الطَّعَامِ وَاللِّبَاسِ وَالْمَنْزِلِ وَالْمَرْأَةِ، تَأْخُذُ مِنْهُمْ وَيَأْخُذْنَ مِنْكَ، وَلَيْسَتْ شَهْوَةٌ تُكَلِّمُكَ غَيْرَ الْمَرْأَةِ، فَمِمَّا يَزِيدُ فِي حُبِّكَ لَهَا مَعْرِفَتُهَا

(١) قدر كلمة أو أكثر في هذا الموضع والذي يليه.

بربك، وحبها له. ثم الشهوات كلها ليس منها شهوة معها الإيمان بمولاك غير المرأة.

وقال مرة: أنعم الناس عيشاً فى هذه الدار زوجان رجل وامرأة عاقلان عارفان، كريمة أخلاقهما، لم يبق لهما سرور من الدنيا والآخرة إلا قد وصلا إليه جسماً وروحاً، عاجلاً وآجلاً. قال: وهذا عزيز وجوده.

وقال له قائل: ما بال الرجل إذا زهد فى الدنيا استأنست به النساء، وتقوى به. فقال: لأن كل شىء من الدنيا إنما يبعد عنك بطلبك له، فإذا زهدت فيه تبعك. قيل له: (...)(١) أن يكون ما نرى من حب الصالحات منهن له، وأنسهن به، يدل على شعوف الحور العين؟ فقال: هن الحور العين (...). الصالحات من بنات آدم يصرن حوراً عينا.

وهذا الذى ذكره من حال العارف فى شأن النساء لا يكون للسالكين فى الطريق، ولا للدارجين فى الطلب، وليس هو جائزاً لهم، إنما هذا مقام الأنبياء وعلية الصحابة، وفى مقام من مقامات المعرفة. وإذا كان الأمر كذلك، فإن خروجهن من القلب، وعدم تعلق القلب بهن، أعلى لمقام الطالب، وأتم فى حال المريد، لأجل أنهن يأخذن من القلب، كما يأخذ العبد منهن أو فوقه.

ونحن نقول: من علامة العارف فى القوة والمكانة أن يأخذ من الأشياء، ولا تأخذ منه، وتدخل عليه، فيجرى فيها ولا تجر به، إذ لا تخرجه من المقام؛ لأنه لا يتعلق بالأنام. وإذا كان من وصفها أن تأخذ من القلب كما يأخذ منها على ما وصف «يحيى»، فقد صارت جاذبة ومنازعة، فلا يؤمن على من علق قلبه بهن أن يتعلقن عليه، فيخرجنه من مقامه.

ولذلك يقول: ما بلى قلب بهوى علق به بلواه بشخص مثله، ولا أبعد خروجا من سره بعد ولوجه من الإنسان؛ لأنه جنسه وبه يوجد أنسه، ولا يفرق ذلك حتى لا يكون له بيان إلا فى قلب بحر مجرد بالإيمان، ولا يحمل الأجناس والألأف

(١) قدر كلمة أو أكثر، وكذا فى الموضع الذى يليه.

إِلَّا قَوِيٌّ مَكِينٌ مُطَاعٌ مُبِينٌ. وليس هذا حال مُرِيدٍ، وَلَا وَصْفَ طَالِبٍ مُسْكِينٍ. وَسُمِّيْنَ نِسَاءً؛ لِأَنَّهُنَّ يَنْسِينَ، فَقَدْ تُنْسَى ذِكْرَ الْآخِرَةِ، وَقَدْ تُنْسَى اللَّهُ وَالْوَاجِبَاتِ الْإِمْرُ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ [طه: ١١٥]، وَكَانَتِ النِّسَاءُ سَبَبَ نِسْيَانِهِ.

وَقَدْ كَانَ أَبُو سَلِيمَانَ يَقُولُ: مَا تَزَوَّجَ أَحَدٌ مِنْ ... سِنًا^(١) فَكَانَ عَلَى مَرْتَبَةٍ إِلَّا نَقَصَ مِنْهَا. وَقَالَ مَرَّةً: إِلَّا تَغَيَّرَ. وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَنْ كَانَ لَهُ فِي طَلَبِ الْحَلَالِ (...) ^(٢) يَتَزَوَّجُ.

وَقَدْ كَانَ الْجَنِيدُ يَقُولُ: أَحَبُّ لِلْمُرِيدِ أَنْ (...) وَسَاوَسَ قَلْبِهِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، لَا يَذْكُرُ الْجَنَّةَ وَنَعِيمَهَا وَحُسْنَهَا لَضَعْفِهِ؛ وَإِلَّا طَمَعَ الْعَدُوُّ فِيهِ؛ فَأَشْهَدُهُ مِثَالَ (...) عَاجِلًا فَطَلَبُهُ وَرَغْبَ فِيهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ غَائِبٌ آجِلٌ. نَقَلْتُهُ عَلَى الْمَعْنَى.

وَقَالَ أَيْضًا: أَحَبُّ لِلْمَبْتَدِئِ أَلَّا يَشْغَلَ قَلْبَهُ بِهَذِهِ الثَّلَاثِ، وَإِلَّا تَغَيَّرَ حَالُهُ: التَّكْسِبُ، وَالتَّزْوِيجُ، وَطَلَبُ الْحَدِيثِ^(٣).

وَكَانَ يَقُولُ: أَحَبُّ لِلصُّوفِيِّ أَلَّا يَقْرَأَ وَلَا يَكْتُبَ لِأَنَّهُ أَجْمَعَ لَهُمَّةً.

هَذَا لِأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: جَمَعَ الْهَمُّ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى أَفْضَلَ مِنْ جَمِيعِ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ كُلِّهَا. وَقَالَ أَيْضًا: لِأَنَّ تَرَدُّ هِمَّتِكَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى سَاعَةً تُعَلِّقُهَا بِهِ خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ تَجْعَلُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُ جَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ. وَفِي الْمَقَامِ الَّذِي ذَكَرَهُ ابْنُ مَعَاذٍ مِنْ شَأْنِ النِّسَاءِ وَالْأُنْسِ بِهِنَّ عُلُومٌ غَرِيبَةٌ، يَدُقُّ عَلَى الْمُرِيدِينَ فَهَمُّهَا، وَيَغْمُضُ عَلَيْهِمْ رُؤْيُهَا، وَيَضِيقُونَ قَلْبًا وَوَجْدًا عَنْ دَرَكِ حَيْطِهَا، فَلَمْ يَكُنْ بِنَا حَاجَةً إِلَى ذِكْرِهَا، عَلَى أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ لَيْسَ مَوْضُوعًا لَهَا، وَلَا قُصْدَ فِيهِ ذِكْرُهَا، وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ.

(١) صدر هذه الكلمة تالف بالأصل.

(٢) قدر كلمة أو أكثر، وكذا في الموضعين التاليين.

(٣) ليس هذا صحيحًا، بل طلب الحديث مهم للمبتدئ والمتنهي، حتى يعصمه من مزالق الشيطان. وانظر: إحياء علوم الدين ١٩/٣ - ٢٠ فقد حرر هذه المسألة. وهو في موضع آخر يروى غير هذا.

ومذهب جماعة من العارفين: أن الدنيا هو ما شغل القلب، واهتمَّ به، وقطعه عن تضرُّعه لله. فجعلوا الزُّهدَ تركَ الاهتمام، وطرحَ النفس تحت تصرُّف الأحكام. وهذا هو التوكُّل والرضا.

واعلم أن الشُّغل بغير الله هو أوَّلُ البُعد، فكُلَّمَا زاد الشُّغلُ ازدادَ بُعداً من الله، حتَّى تكاثَفَ الأشغالُ، وتتناهى البعادُ، فصار التَّفَرُّغُ لله هو أوَّلَ القُرْب من الله تعالى.

ثم يستفرغ الفراغ (١) فكما يَجْلُو القلبُ من الجلوِّ، ثم يتخلَّى من خلوِّ، كذلك يقترب من القُرْب، وهذا زهد المقرِّبين. ولذلك صار إفراد [الله في] القلب أعزَّ أحوال الزَّاهدين. وعند هؤلاء لا زُهدَ إلا بعد التَّفويض، والتَّوكُّل، والرضا، والمحبة. فصارَ جُهدُهم تحقيقَ هذه المقامات. ولا يستقيم فيها إلا مُوقِنٌ مع حقيقة [الرضا]. وهذا زهدُ العارفين من الشُّهداء والصِّدِّيقين أُولَى القوة والتمكين. والزُّهد حينئذ ضرورةٌ حالهم، وظاهرٌ أوصافهم، وأول أعمالهم. وهم مَوْصُوفُونَ بغيره، مزيدهم مددُ النَّصيبِ من الله لا من غيره.

وجاء في الخبر: «إنما الزَّاهد أن يكونَ بما في يد الله تعالى أوثقَ منك بما في يدك». ويكونُ في ثوابِ المصيبةِ أرغَبَ من أنها لو بقيتَ لك. فهذا حالُ المتوكِّل، ومقامُ في التَّوكُّل.

وذهب قومٌ إلى أن الزُّهدَ تركُ الادِّخار، فكانت الدنيا عندهم هو الجمعُ والإمساكُ.

قال ابن أبي الحواري: قلتُ لأبي سُلَيْمان: إنَّ مالكَ بنَ دينار قال للمغيرة: اذْهَبْ إلى البيتِ فخذِ الرِّكَوةَ (٢) التي كُنْتَ أَهْدَيْتَهَا لِي، فَإِنَّ العَدُوَّ يَوسُوسُ إِلَى أَنْ اللَّصَّ قَدْ أَخَذَهَا. فقال أبو سليمان: هذا مِنْ ضَعْفِ قُلُوبِ الصَّوْفِيِّينَ. هو قد زَهدَ في الدُّنيا، ما عليه مَنْ أَخَذَهَا.

(١) قدر ثلاث كلمات.

(٢) الركوة: إناء صغير من جلد يُشرب فيه الماء. الجمع: رَكَوَات.

أراد أبو سليمان منه حقيقة الرضا عن حال التوكل بالاستسلام لجريان الأحكام. وأراد مالك من نفسه حقيقة الزهد عنده، بأن يصرف عن قلبه الاهتمام.

وكانوا يقولون: لا تزهد حتى لا تُبالي مَنْ أكل الدنيا من برٍّ أو فاجر. وقالوا: سَخَاءُ النَّفْسِ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَأَنْ لَا تُحِبَّهُ وَلَا تَهَمَّ بِهِ، أَفْضَلُ مِنْ سَخَاءِ الْبَذْلِ؛ لِأَنَّهُ مَقَامٌ فِي الزُّهْدِ. وقد كان يحيى يقول: لَا حَسَدَنِي النَّاسُ إِلَّا عَلَى مَا فِي يَدَيِ مِنَ الدُّنْيَا.

وقال بعض العلماء: الدُّنْيَا هُوَ الْعَمَلُ بِالرَّأْيِ وَالْمَعْقُول. وَالزُّهْدُ إِنَّمَا هُوَ اتِّبَاعُ الْعِلْمِ وَلُزُومُ السُّنَّةِ. وَهَذِهِ طَرِيقَةُ أَهْلِ الْحَدِيثِ. وَقَائِلُ هَذَا يَقُولُ: طَلِبُ الْعَاقِلِ الدُّنْيَا أَفْضَلُ مِنْ زُهْدِ الْجَاهِلِ فِيهَا. وَيَقُولُونَ: يَطْلُبُ الدُّنْيَا بَعْلِمٌ، فَيَأْخُذُهَا مِنْ حَقِّهَا، وَيَضَعُهَا فِي حَقِّهَا، أَفْضَلُ مِنَ التَّرْكِ لَهَا.

وهذا القول من الظواهر يُشَبِّهُ قَوْلَ عُلَمَاءِ الظَّاهِرِ. كَمَا رَوَيْنَا عَنْ سُفْيَانَ قَالَ: قِيلَ لِلزُّهْرِيِّ: مَا الزُّهْدُ؟ قَالَ: مَا لَا يَغْلِبُ الْحَرَامُ صَبْرَهُ، وَلَا يَمْنَعُ الْحَلَالَ شُكْرَهُ.

يَعْنِي أَنَّ يَكُونَ الْعَبْدُ صَابِرًا عَنِ الْحَرَامِ، وَيَكُونُ شَاكِرًا فِي الْحَلَالِ، حَتَّى لَا يَغْلِبَهُ الْحَلَالُ فَيُنْسِيهِ الشُّكْرَ. وَهَكَذَا كَانَ رَأْيُ ابْنِ عِيْنَةَ: إِذَا شَكَرَ مَعَ النِّعْمَةِ، وَصَبَرَ فِي الْبَلِيَّةِ، فَهُوَ زَاهِدٌ، وَإِنْ أَمْسَكَ الْمَالَ - عِنْدَ هَؤُلَاءِ - وَلَمْ يُخْرِجْهُ، سَمَوَهُ زَاهِدًا.

فهذا لَعَمْرَى زُهْدُ الرَّاعِيَيْنِ مِنَ الْعُمُومِ، وَهُوَ الزُّهْدُ فِي الْحَرَامِ، وَمَجَانِبَةُ الْآثَامِ. فَأَمَّا زُهْدُ الزَّاهِدِينَ مِنَ الْخُصُوصِ؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ فِي تَرْكِ الْحَلَالِ، وَإِثَارِ الْفَقْرِ عَلَيْهِ بِالِاسْتِبْدَالِ. وَلِذَلِكَ عَزَّزَ هَؤُلَاءِ الزُّهْدَ لِعِزَّةِ الْحَلَالِ، فَقَالَ يَوْسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ، وَوَكَيْعٌ^(١): لَوْ زَهَدَ أَحَدٌ فِي زَمَانِنَا هَذَا حَتَّى يَبْلُغَ فِي الزُّهْدِ كَأَبِي ذَرٍّ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، مَا سَمِيَنَاهُ زَاهِدًا؛ لِأَنَّ الزُّهْدَ عِنْدَنَا فِي الْحَلَالِ الْمَحْضِ، وَلَا نَعْلَمُهُ الْيَوْمَ. وَكَذَلِكَ كَانَ مَذْهَبُ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَهَمَ: إِنَّ الزُّهْدَ هُوَ طَلِبُ

(١) ترجمته في: سير اعلام النبلاء ٩/ ٣٦٠، وللإمام الذهبي تعليق طريف على بعض أخبار الشيخ وكيع، فراجعهُ ثُمَّ.

الحلالِ وأَكْلُهُ، والتَّنَقُّلُ في البلادِ لطلبِهِ، وإن ذلك من أَفْضَلِ الأعمالِ.

وأما الحسنُ، فإنه قال: الزَّاهِدُ الذي إذا رأى أحداً قال: هذا أَفْضَلُ مني.

فصار هذا حالَ الذَّليلِ في نفسه، الوَضِيعِ عندَ نَفْسِهِ، وهو من الزُّهْدِ في النَّفْسِ. فصارت الدنيا هي الكِبَرُ، وأبناؤها المتكَبِّرِينَ. ولذلك كان صالحو السَّلَفِ يَعدُّونَ الأغنياءَ وأبناءَ الدنيا من الجَبَّارِينَ المتكَبِّرِينَ، وَيَصِفُونَهُمُ بالكِبَرِ والعِزَّةِ. علموا ذلك مِمَّنْ أحبها. ولم هذا؟ لأنَّ الغنى يقتضي التعزُّزَ به، والمتعزُّزُ حالُه التَّكَبُّرُ على مَنْ دُونَهُ، لعِزَّتِهِ ورفَعَتِهِ في نفسه، لقلَّةِ أمثاله. فهذا على ضِدِّ حالِ الفقيرِ الذي حالُه يَقْتَضِي الذَّلَّةَ والانكسارَ؛ وَيَمْنَعُ دُخُولَ العِزَّةِ، ووَصَفُهُ بينَ هَذَيْنِ التَّوَاضُعِ لضعفه.

وكان الفضيل يقول: القناعةُ هو الزُّهْدُ. وقال أبو سليمان: الورعُ أولُ الزُّهْدِ، ولا حَدَّ لآخره.

وقال ابنُ أبي الحواري: قُلْتُ لأبِي هِشَامِ المِغَالِزِيِّ: أَيُّ شَيْءٍ الزُّهْدُ؟ قال: قَطْعُ الآمالِ، وإِعْطَاءُ المِجْهُودِ، وَخَلْعُ الرَّاحَةِ.

فهذا مذهبُ جماعةٍ من العُبَّادِ؛ فَإِنَّ مَنْ زَهَدَ في الدُّنْيَا لراحةِ القَلْبِ، لا لِبَدَلِ المِجْهُودِ، واستفراغِ الطَّاقَةِ، والاجتهادِ في العِبَادَةِ، فَإِنَّ ذلك عندهم رغبةٌ على صِفَةٍ؛ وليس هذا حدُّ الزُّهْدِ ولا مَعْنَاهُ، وإنما هذا طريقٌ للزَّاهِدِ، وأحوالُ تَجَوُّلٍ على الزَّاهِدِينَ من العِبَادَاتِ بعدَ حُصُولِ مقامِ الزُّهْدِ، فيكون هذا درجاتٍ لهم.

وقد كان ابن معاذٍ وغيره يقول: قلَّ ما رأيتُ عارِفاً صاحبَ ليلٍ، ولا يُوصَفُ بكثيرِ عملٍ، ولا يُذَكَّرُ بمجاهدةٍ. وكان يقول: ما دامَ في الطريقِ يسيرُ، فعملُهُ أَكْثَرُ من كلامِهِ، فإذا وَصَلَ إلى المنزلِ وعَرَفَ صارَ كلامُهُ يَزِيدُ على عملِهِ.

يعنى: أَنَّهُ يُنْقَلُ من أعمالِ الجوارحِ إلى حَكَمِ العُلُومِ، وإلى أعمالِ القُلُوبِ من مشاهدةِ الغيوبِ، كما نُقِلَ من السَّيْرِ في الطَّرِيقَاتِ إلى الجُلُوسِ في استقرارِ المنازلِ، وكما حُوِّلَ مِنْ عِلْمِ الطَّرِيقِ إلى عِلْمِ المَقَامِ.

وكان يوسفُ بنُ أسباطٍ يقول: مَنْ صَبَرَ على الأَذَى، وتركَ شَهَوَاتِ النَّفْسِ،

وأكل الخُبْزَ من حلاله، فقد أخذَ بأصلِ الزُّهدِ.

وقال أحمدُ: قلتُ لأبي صفوان الرعينيُّ: ما الدُّنيا التي ذمَّها اللهُ تعالى في القرآن، وينبغي للعاقلِ أن يَجْتَنِبَهَا؟ قال: كلُّ ما عملتَ في الدُّنيا تريدُ به الدُّنيا فهو مدموم، وكلُّ ما أصبتَ فيها تريدُ به الآخرةَ فليس منها. فحدَّثتُ به مروان فقال: الفقه ما قال أبو صفوان.

إنما قال ذلك؛ لأنَّ الدنيا كلُّ شيءٍ إلا الإخلاصَ. فما وافقَ العلمَ فهو مباحٌ وما خالفه فهو يُّهى؛ والهوى حظُّ النفسِ، والإخلاصُ حظُّ الربِّ عزَّ وجلَّ. فالمخلصون بينه اللهُ عزَّ وجلَّ من عباده على عدوِّه، وهم أهلُ الآخرةِ في الدُّنيا.

وكان ابنُ السَّماك يقول: الزَّاهدُ قد خرجتِ الأفراحُ والأحزانُ من قلبه، فهو لا يفرحُ بشيءٍ من الدنيا أتاه، ولا يحزنُ على شيءٍ منها، فإنَّه لا يبالي على عُسْرِ أصبحَ أم على يُسرٍ.

وقال أبو سعيد بن الأعرابي عن أشياخه الصُّوفية: إنَّما الزُّهدُ عندهم خروجُ قَدَرِ الدنيا من القلب، إذ هي لا شيء، ولا يكونُ في نفسه زَاهِدًا؛ لأنَّه لم يترك شيئًا، إذ كانت لا شيء.

وهذا لَعَمْرِي هو الزُّهدُ في الزَّهد؛ لأنَّه زَهْدٌ، ثم لم ينظر إلى زُهدِه فزَهْدِه، إذ لم يره شيئًا، لأنَّه زَهْدٌ في لا شيء، وهذا يُشبه ما نقول: إنَّ حقيقةَ الزَّهدِ هو الزُّهدُ في النَّفسِ؛ لأنَّه قد يزُهدُ في الدُّنيا لنفسه طلبًا لِلْعَوْضِ، فيكونُ ذلك رغبةً على صفة. فإذا زهد في النفس التي يريد لها العِوَضَ على الزَّهدِ، فهو حقيقةُ الزَّهدِ. وهذا يُشبه قولَ مَنْ قال: إنَّ حقيقةَ الزَّهدِ في الغنى هو الزَّهدُ في البقاء؛ لأنَّ العبدَ ربَّما زَهْدٌ في الفناء، فلم يزُهدُ في البقاءِ حُبَّ الحياةِ الدُّنيا، فيكون فيه بقيةٌ من الرَّغبة. فإذا زَهْدٌ في البقاءِ واستشعر الفناء، فهو حقيقةُ الزَّهدِ في الفناء؛ إذ كان الغنى يُرادُ لِلْبَقَاءِ.

وقد كان أبو يزيد البسطامي، رحمه الله، وهو من أعالى الطوائفِ إشارةً، وأغلفهم عبارةً، يقول لهارون: أي موسى، في أي شيءٍ يتكلم عبد الرحيم؟ يعني

الأرموى . قال : فقلتُ : فى الزُّهد . فقال : فى أى شىءٍ ؟ قلتُ : فى الدنيا . فنَفَضَ يَدَهُ وأَعْرَضَ . ثم قال : يَتَكَلَّمُ فى الزُّهدِ فى لا شىء . وأى شىءِ الدنيا حتى يُذَكَّرَ بالزُّهدِ فيها؟ وقال : يأتى على وَقْتٍ لا أملكُ شيئاً ، ولا يملكُنِي شىءٌ ، ففى هذا الوقتِ يَصِحُّ أن أُسمَى زَاهِداً .

وقد كانت رابعة من قبله ، إذا ذَكَرَ جُلُساؤها الزُّهدَ ، تقول : نَوَّهْتُمُ بالدُّنيا إذ تذكرونها ، أى قَدَّرِ لها حتى يُقْصَدَ بذكرها؟ ولكن من أحبَّ شيئاً أكثر من ذكره . وقالت للشورى : نعم الرجلُ أنتَ ، لولا أنَّكَ تُحِبُّ الدنيا . يعنى الحديثَ والمذاكرةَ به لأصحاب الحديثِ ، والتفرُّغُ لهم .

وكان ابنُ أبى سليمان إذا ذَكَرَ أصحابه الشَّهواتِ ، يقول : مَنْ لم يكن فى قلبه ما يُنْسِيهِ الشَّهواتِ حتى لا يَذْكُرَها ، لم يَصَحَّ زُهْدُهُ فيها .

فعند هؤلاء أنَّ كلَّ ما قَطَعَ عن الوَحْدَةِ ، وشَغَلَ عن التَّفَرُّغِ للخلوةِ ، وأنس به ، واستروح إليه ، وسكَّن إليه دون الله تعالى ، فهو دعاءُ التَّوبَةِ منه إلى الله تعالى ، والاستغفارُ فيه واجبٌ عليه . وهذا حال الواصِلينَ إذا رُفِعُوا إلى مقامِ الاتِّصالِ .

وكان يحيى يقول : إذا وَصَلَ فَرِحَ ، فإذا اتَّصَلَ استأنَسَ . وكان يقول : إذا طلبتهُ بك ، فما دُمْتَ تَرَى نَفْسَكَ فى الطَّلَبِ لا تجدهُ . يعنى : فإذا طلبك به وجدتهُ عندهُ .

وقيل له : نراك تَفْصِلُ بين الوُصُولِ وبين الاتِّصالِ ، فتجعل الاتِّصالَ أعلى وأقرب ! فقال : أضربُ لكم مثلاً : رجلٌ سار طريقاً ، وقَصَدَ مَلِكاً كريماً بأمله ، ثم وصل إليه ، حتَّى إذا قَدِمَ عليه فقد وَصَلَ . ثم يتَّصِلُ بأسبابِ الملكِ ومُنَادِمَتِهِ ، ثم بعدَ شىءٍ يَتَقَرَّبُ بها إليه ، وَيَقْرُبُ مِنْهُ حتَّى يَدْنِيَهِ الملكُ ، وَيُقَرِّبُهُ ، وَيُؤْنِسُهُ . فَالسَّيْرُ والتَّعَبُ لِقَطْعِ المنازلِ ، والفرحُ بالوصولِ ، والأنسُ فى الاتِّصالِ^(١) .

والاتِّصالُ كان مقامَ أبى يزيد ، آنسَهُ اللهُ . والوُصُولُ مقامُ يحيى . وما يحكيه من الاتِّصالِ فمن نورِ البَسْطامى يَسْتَضِيءُ ، ومن زُنْدِهِ يَقْدَحُ ويورى . ولكن العبارة

(١) انظر : الإنحاف ٩ / ٣٨٤ .

لأبن معاذ، والتفصيل والإشارة للبسطامى. والتوحيد هم الجملة من أهل المعرفة، إلا ما شاء ربك فى نوادر (...)^(١).

• فصل آخر:

إن الرغبة فى الهوى هو حقيقة الدنيا؛ وإن كان العبد زاهداً فى المال، من قبل أنه قد يعطى الزهد فى الدنيا، ولا يعطى الزهد فى الهوى؛ لأنه قد يعطى الزهد فى شىء دون شىء، كما يزهد فى البنيان ولا يزهد فى اللباس، ولا يعطى الزهد فى الأطعمة. وقد يعطى الزهد فى المال، ولا يزهد فى معصية، ولا يعطى الزهد فى منصبه لغلبة الهوى. فإذا أُعطى الزهد فى الهوى كائناً ما كان فقد أُعطى حقيقة الزهد فى كلِّية الدنيا. وهذا هو الزهد فى النفس؛ لأنَّ النفس أصلُ الرغبة، ولها يزهد، ويرغب للجلبة على حبها، والهوى روح النفس، فهذه نفس ميتة لا روح لها، وهذا عند دخول الإيمان يطفى نار الهوى، فيخرج روح النفس، فتموت شهواتها، وفى موتها حياة القلب بمروجه ومحبته، وهى الحياة العظيمة. وهذا هو مقام الفناء، الذى يشير إليه الصديقون (...). رسمت هذا على علمى بمذهب أهله، والإشارة بالمعنى لقائله وشاهده (...).

ويروى أن الله أوحى إلى موسى، عليه السلام: إنَّ برخ - يعنى [العبد] الأسود الذى كان موسى قد استسقى به لبنى إسرائيل - نعم العبد هو، إلا أن فيه عيباً. قال: وما هو؟ قال: يعجبه نسيم السحر فيسكن إليه. ومن أحببى لم يعجبه شىء ولم يسكن إلى شىء.

فعابه باستراحة النفس إلى روح الفضاء، ونقصه عن التمام بسكون قلبه إلى نسيم السحر^(٢). وهذا يشبه قصة الولي الذى سأل مولاه المعرفة، فأوحى الله إليه: لا تطلب معرفتى واطلب طاعتي تنجو. فأعاد المسألة. فقل له: أنت تحب السبد واللبد، ومن عرفنى لم يحب سبداً ولا لبداً.

(١) قدر كلمة، وكذلك فى الموضعين التاليين.

(٢) الخبر والتعليق عليه فى: الإتحاف ٣٤٨/٩، وقد أتممتها منه لتلفهما بالأصل.

السُّبْدُ: ما يُتَغَشَّى به من الرِّياش. واللَّبْدُ: ما يُسْتَوطَى به من التَّوَطُّة والأثاث.
وقد كان أبو سليمان يقول بمعناه: إذا دَخَلَ العبدُ في لاهُوتِيَّةِ الرَّبِّ، لم تَقَعِ
عيناهُ على شيءٍ يأخذُ بِقَلْبِهِ.
فهذه عبارةٌ عن مقامِ الاتِّصالِ بشاهدٍ قِيوميةٍ ذى الجلالِ.

وكان الشَّامِيُّونَ من العلماءِ يقولون، منهم يُونُسُ بن مَيْسرة الجيلانيُّ: ليس
الزُّهَادَةُ في الدُّنيا تحريمَ الحلالِ ولا إضاعةَ المالِ، ولكن أن يكونَ ذامُك ومادحُك
سواءً، وتكونَ حالُك في المصيبةِ وحالُك إذا لم تُصَبْ بها سواءً، وتكونَ بما في
يَدِ اللَّهِ أوثقَ مِنكَ بما في يَدِكَ. وهذا مقامُ التَّوَكُّلِ، وحالُ الرِّضَا.

وقال سلام بن أبي مطيع، رحمه الله: الزُّهْدُ على ثلاثةِ وجوه: واحدٌ: أن
تُخْلَصَ العملَ لله، والقَوْلُ، فلا يُرادُ بِشيءٍ منه الدُّنيا ولا ما عند الخَلْقِ. والثاني:
تركُ ما لا يَصْلحُ به القلبُ والدينُ، والعملُ بما يَصْلحُ. والثالثُ: الحلالُ، أن
تَزْهَدَ في فَضْلِهِ، وهو تَطَوُّعٌ.

وكان إمامنا في هذا العلم إبراهيم بن أدهم، إذ كان البسطاميُّ بدلاً عنه،
يقول: الزُّهْدُ ثلاثةُ أصنافٍ: زهدٌ فرضٌ؛ وهو الزُّهْدُ في الحرامِ. وزهدٌ فَضْلٌ؛
وهو الزُّهْدُ في الحلالِ. وزهدٌ هو سلامةٌ؛ وهو تركُ الشُّبهاتِ. وهذا هو أفضلُ
الزُّهْدِ، أو هو التَّوَسُّطُ بين زُهْدَيْنِ: زهدٍ الفرضِ، وزهدٍ الفضلِ. وهو زهد
خُصُوصٍ وهو نهاية [الزهد].

وأما أيوب السخيتاني رحمه الله فكان يقول: الزُّهْدُ أن يقعدَ أحدُكُم في منزله،
فإن كان قعودُهُ لله تعالى رِضاً وإلا خَرَجَ. ويَخْرُجُ فإن كانَ خُرُوجُهُ لله تعالى رِضاً
وإلا رَجَعَ. فإن كان رجوعُهُ لله تعالى رِضاً وإلا سَاحَ. ويُخْرَجُ دِرْهَمُهُ، فإن كان
إِخْرَاجُهُ لله رِضاً وإلا حَبَسَهُ. ويَحْبَسُهُ، فإن كان حَبْسُهُ لله تعالى رِضاً وإلا رَمَى
بِهِ. ويتكَلَّمُ، فإن كان كلامُهُ لله تعالى رِضاً وإلا سَكَتَ. فإن كان سكوتُهُ لله
تعالى رِضاً وإلا تَكَلَّمَ. فقليل: هذا صعب. فقال: هذا الطريق إلى الله عز وجل،
وإلا فلا تَلْعَبُوا.

فهذا حالُ المراقبِ المخلصِ، ومقامُ الورعِ الصادقِ. وكان عنده: أنَّ الزُّهْدَ هو موافقةُ رضا الله تعالى ومَحَبَّتِهِ في كلِّ حَرَكَةٍ وَسُكُونٍ، مبلغَ علمِ العبدِ، ووُسْعَ جُهِدِهِ. فهذا من مقامِ الزُّهْدِ في الهَوَى، ووَصْفِ الزَّاهِدِ في نَفْسِهِ لِرَبِّهِ ابتغاءَ مرضاةِ المولَى.

وسُئِلَ حاتمُ الأصمِ صاحبُ شقيقِ البلخي رحمهما الله تعالى عن الزهد فقال: أولُهُ الثَّقَّةُ، وأوسطُهُ الصَّبْرُ، وآخرُهُ الإخلاصُ.

فإذا كَانَ الإخلاصُ عِنْدَهُمْ هو آخرُ الزهدِ، فكيف يَصِحُّ لعبدٍ آخرُ الزهدِ قبلَ أولِهِ؟ أم كيف يُجاوِزُ الإخلاصَ إلى مقاماتِ المعرفة؟ فقد صار آخرُ الزهدِ عِنْدَهُمْ أولُ المعرفةِ.

وذهبت طائفةٌ إلى أنَّ الزُّهْدَ في الدُّنيا فريضةٌ على المؤمنين؛ لأنَّ حقيقةَ الإخلاصِ هو الزُّهْدُ عِنْدَهُمْ، فأَوْجَبُوهُ من حيثُ أَوْجَبُوا الإخلاصَ على المؤمنين، إذ هو مقترنٌ بالأمرِ بالعبادةِ لله، وإذ جعله رسولُ الله ﷺ في مقامِ المسلمين في قوله: «ثَلَاثٌ لَا يَغْلُ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إخلاصُ العملِ لله...».

ومالَ إلى هذا القولِ عبدُ الرحيمِ بنِ يحيى الأسودُ.

وقد رويْنَا عن الإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ لما سُئِلَ عن الصَّدْقِ، ما هو؟ فقال: الإخلاصُ. قيل: وما الإخلاصُ؟ قال: هو الزُّهْدُ.

فهذا زُهدُ العمومِ المفترضُ؛ كالزُّهْدِ في الحرامِ، إنَّما هو زهدُ العامةِ، إذ الإخلاصُ في الأعمالِ مُفْتَرَضٌ، وهو خلاصُها من الرِّياءِ والسُّمْعَةِ، والعُجْبِ، وَحُبِّ المدحِ بهِ، والحمدِ عليهِ، وأخذُ العَوَضِ عاجلاً لأجلِهِ؛ فهذا هو خلاصُ النِّيَّةِ لأجلِ الآخرةِ صِرَافًا. كذلك اجتنابُ الحرامِ ومُبَايَنَةُ النِّهْيِ فَرَضٌ على الكافةِ.

فإن كَانَ هذا الزُّهْدُ هو حقيقةُ زُهدِ الخاصةِ، فَإِنَّ ذاكَ الإخلاصَ هو نهايةُ مقاماتِ الزَّاهِدِ مِنَ الْمُخْلِصِينَ، وليس الأمرُ كذلكِ.

فأمَّا حقيقةُ الإخلاصِ عندِ المخلصينِ، وهو الذي أُشِيرَ إليه أَنَّهُ نهايةُ الزُّهْدِ، فَإِنَّمَا هُوَ خلاصُ العِبُودِيَّةِ للمعبُودِ من دُخُولِ الشَّرِكِ الخَفِيِّ بِسِوَى المَوْجُودِ،

وإخلاص معاني صفات الربوبية من اشتراك صفات النفس الضدية. فهذا هو حقيقة الزهد المفضل، إلا أنه زهد الخُصوص، لا زهد العُوم المُفترض.

وقال عارفو أهل الشام: الزهد إنما هو طلب الحلال، وأنه واجب مُفترض في مثل زماننا هذا؛ لاختلاط الأشياء، وغلبة الشهوات. قالوا: فقد تعين فرض الزهد، ووجب تفقد المطاعم والسؤال عنها؛ لقلّة المتقين، وفقد الورعين.

وجاء في الخبر: «لا تأكل إلا طعام تقيٍّ، ولا يأكل طعامك إلا تقيٌّ». وقيل: «إذا أطعمك أخوك أو سقاك فكل ولا تسأله»، وإنما كان لا يسأل؛ لأن السلف الصالح كانوا متقين في مطعمهم، فأغنوا السائل السؤال، وأغنوا المجتهد عن الاجتهاد (...). والمتقون لنفوسهم، والورعون لدينهم (...). وكثر الجوع والعري للتفقير (...)^(١) فقد جاع، ومن تغافل فقد شبع.

هذه طريقة عبّاد منهم: إبراهيم بن أدهم، وسليمان الخواص، وابن أسباط، والمرعشي، وحذيفة، وأبو إسحاق الفزاري، وشعيب بن قرب. وقاربهم أبو سليمان الداراني، وهيب بن الورد، والفضيل. وهم عشرة معروفون بأكل الحلال.

وقد كان أبو محمد يقول: أزهّد الناس في الدنيا أصفاهم مطعماً. وقال: أقصى مقام من الروع أدنى مقام من الزهد.

لذلك كان الحسن، رحمه الله، إمام الأئمة، يقول: لا شيء أفضل من رَفَض الدنيا. قال الفضل بن ثور: قلت للحسن: يا أبا سعيد؛ رجلان، طلب أحدهما الدنيا بحلالها فأصابها، فوصل بها رحمه، وقدم فيها لنفسه، ورجل رَفَض الدنيا. قال: أحبهما إلى الذي رَفَض الدنيا. قال: فأعدت عليه القول بذلك، فقال: سبحان الله، ما اعتدل الرجلان، أحبهما إلى الذي جانب الدنيا.

وعلى ذلك قول عيسى ابن مريم في حال الغنى، وإن كسبه من حلال، وقدمه لنفسه في حقوق الله، فقال: الفقّر أعجب إليّ. قال: «لأن قيامه بإصلاح ذلك

(١) في هذه المواضع قدر ثلاث كلمات أو أكثر.

وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ يَشْغَلُهُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ» وَقَالَ مَرَّةً: «لَا يَنْجُو مِنَ الْخِيَلِ وَالْفَخْرِ بِهِ». وَقَدْ رَوَيْنَا فِي الْآخِرِ عَنْ إِبْلِيسَ اللَّعِينِ: لَا يَنْجُو مِنِّي صَاحِبُ الْمَالِ مِنْ إِحْدَى ثَلَاثَ إِذَا حَبَبَتْهُ إِلَيْهِ: إِمَّا أَنْ يَكْسِبَهُ مِنْ غَيْرِ حَقِّهِ، أَوْ يَضَعَهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، أَوْ يَمْنَعَهُ مِنْ حَقِّهِ.

وَيُقَالُ: لَمَّا ضُرِبَ الدَّرْهَمُ، أَخَذَهُ إِبْلِيسُ فَقَبَّلَهُ وَوَضَعَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَقَالَ: هَذَا حَبِيبِي وَصَدِيقِي وَحَبِيبُ صَدِيقِي، وَقَالَ: فَبِكَ [أَغْوَى] ^(١) وَبِكَ أَضِلُّ، وَبِكَ أَهْلِكُ، وَبِكَ أَقْتُلُ.

وَقَالَ اللَّهُ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَنْهُمْ﴾ الْآيَةُ [الْإِسْرَاءُ: ٦٤] فَإِنَّمَا فَضَّلَ (...) ^(٢) [تَارَكَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ]. [وَقَالَ الْفَضْلُ] وَالْحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ وَاظَفَهُمَا: رَافِضُ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ مَقَامَ الزُّهْدِ يَجْمَعُ التَّوَكُّلَ وَالرِّضَا. أَلَا تَسْمَعُ الْخَبَرَ الَّذِي رَوَيْنَاهُ، قِيلَ: «الزُّهْدُ أَنْ تَكُونَ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ أَوْثَقَ مِنْكَ بِمَا فِي يَدِكَ» فَهَذَا هُوَ التَّوَكُّلُ. ثُمَّ قَالَ: «وَأَنْ تَكُونَ بِثَوَابِ الْمُصِيبَةِ أَفْرَحَ مِنْكَ لَوْ أَنَّهَا بَقِيَتْ لَكَ» فَهَذَا هُوَ الرِّضَا.

ثُمَّ إِنَّ الْمَعْرِفَةَ وَالْمَحَبَّةَ دَاخِلَانِ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا أَحَبَّ اللَّهُ أَحَبَّ مَا يُحِبُّ وَهُوَ الزُّهْدُ، وَأَبْغَضَ مَا يُبْغِضُ وَهُوَ الدُّنْيَا، وَلَئِنَّهُ لَمَّا عَرَفَ اللَّهُ زَهْدَ فِيمَا يُبْعَدُ مِنْهُ.

فَأَيُّ مَقَامٍ أَعْلَى مِنْ مَقَامِ جَمْعِ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ، وَهِيَ غَايَةُ الطَّالِبِينَ؟ وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ حَدِيثًا فِيهِ شِدَّةٌ، قَالَ: «يُوتَى بِالدُّنْيَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صُورَةِ عَجُوزٍ شَمِطَاءَ زُرْقَاءَ، أَنْيَابُهَا بَادِيَةٌ، مَشْوَهَةٌ خَلْقُهَا، فَتُشْرِفُ عَلَى الْخَلَائِقِ، فَيَقَالُ: تَعْرِفُونَ هَذِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ مَعْرِفَةِ هَذِهِ. فَيَقَالُ: هَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي تَفَاخَرْتُمْ عَلَيْهَا، بِهَا تَقَاطَعْتُمُ الْأَرْحَامَ، وَبِهَا تَحَاسَدْتُمْ وَتَبَاغَضْتُمْ وَاعْتَزَلْتُمْ. ثُمَّ تُقَذَّفُ فِي جَهَنَّمَ، فَتَنَادَى: أَيُّ رَبٍّ، أَتَبَاعِي وَأَشْيَاعِي. فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: الْحَقُّوْا بِهَا أَتَبَاعَهَا وَأَشْيَاعَهَا».

فَمَقْتَضَى الدُّنْيَا فِي طَلَبِ النَّصِيبِ مِثْلُ جَهَنَّمَ ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، طَلَبَتْ

(١) تَلَفَ بِالْأَصْلِ قَدْرَ كَلِمَةٍ، أَثْبَتَهَا اجْتِهَادًا.

(٢) قَدْرَ كَلِمَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ.

أهلها؛ لَأَنّهَا جُعِلَتْ لَهُمْ وَخُلِقُوا لَهَا (...) ^(١) الدُّنْيَا مُحِبَّتْهَا؛ لَأَنَّهُمْ خُلِقُوا لَهَا وَجُعِلَتْ لَهُمْ، وَكَذَلِكَ (...) ^(٢) إِنّهَا تَابِعَةٌ لِلْأَرْبَابِ، وَكُلُّ مَنْ طَلَبَ شَيْئًا وَأَحْبَهُ حُسْرًا مَعَهُ غَدًا، وَتَبِعَهُ إِلَى مُحِبِّي الْحَقِّ وَطَالِبِهِ (...) ^(٣) لَتَقْرِيْبِهِ، فَبَاطِنُ الدُّنْيَا صُورَةٌ (...) وَظَاهَرُهَا ظَاهِرُ هَوَى النَّفْسِ وَنَحْنُ (...) مِنَ الْآخِرِ، وَلَيْسَ يُمْكِنُ كَشْفُ سِرِّ هَذَا.

وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثًا أَشَدَّ مِنْ هَذَا، حَدَّثَنَا عَنْ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ زَيْدٍ عَنِ الْحَسَنِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لِيَجِيَنَّ أَقْوَامٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَعْمَالُهُمْ كَجِبَالٍ تَهَامَةُ، فَيُؤَمَّرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مُصَلِّينَ؟ قَالَ: نَعَمْ، كَانُوا يَصَلُّونَ، وَيَصُومُونَ، وَيَأْخُذُونَ هَنِيئَةً مِنَ اللَّيْلِ، فَإِذَا عَرَضَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا وَتَبَّوْا عَلَيْهِ».

وَرَوَيْنَاهُ مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ: «يُؤْتَى بِأَعْمَالِهِمْ أَمْثَالِ الْجِبَالِ، فَيُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ فَلَا يَزِنُ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ»، قَالَ فِيهِ: «كَانُوا إِذَا عَرَضَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْحَرَامِ وَتَبَّوْا عَلَيْهِ، وَلَمْ يَرْتَدُّوا عَنْهُ».

فَلِذَلِكَ كَانَ الْحَارِثُ بْنُ أَسَدٍ يَقُولُ: إِنَّمَا الزُّهْدُ إِسْقَاطُ قِيَمَةِ الدُّنْيَا مِنَ الْقَلْبِ، وَأَنْ لَا يَكُونَ لَشَيْءٍ عَاجِلٍ فِي الْقَلْبِ وَزَنٌّ. فَإِذَا سَقَطَتْ قِيَمُ الْأَشْيَاءِ وَاسْتَوَتْ فِي الْقَلْبِ فَهُوَ الزُّهْدُ.

فَحَقِيقَةُ الزُّهْدِ تَرْكُ طَلَبِ الدُّنْيَا حَتَّى لِحَاجَتِهِ قَبْلَ الْفَاقَةِ إِلَيْهِ، وَتَنَاوُلُهُ بَعْدَ الْحَاجَةِ مُتَقَلِّلًا مِنْهُ. وَهَذِهِ الْمَقَالَةُ يَدْخُلُ فِيهَا قَوْلُ الْخَاصَّةِ وَلَا يَخْتَصُّ بِهَا رَأْيُ الْعَامَّةِ مِنَ الزَّاهِدِينَ، وَيَسْلَمُ لَذَلِكَ وَيَشْهَدُ لَهُ [عَمُومٌ] ^(٤) الْمُتَسَعِّينَ، وَلَا يَنْكَرُهُ وَلَا يَكْرَهُهُ خُصُوصَ [الزَّاهِدِينَ]، فَتَدَبَّرُوا.

وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِّيقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: «وَأَسْأَلُكَ الزُّهْدَ فِيمَا جَاوَزَ

(١) قَدْ كَلِمَتَيْنِ.

(٢) قَدْ ثَلَاثَ كَلِمَاتٍ.

(٣) فِي هَذَا الْمَوْضِعِ وَالْمَوْضِعِينَ الَّذِينَ بَعْدَهُ بَيَاضٌ قَدْ نَصَفَ سَطْرَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ.

(٤) تَلَفَ قَدْ كَلِمَةً فِي هَذَا الْمَوْضِعِ وَالَّذِي يَلِيهِ، وَقَدْ وَضَعْتَ مَا بَيْنَ الْمَعْكَفَاتِ اجْتِهَادًا مِنِّي.

الْكَفَافَ»، فذلَّ [أَن الْأَخْذَ] عِنْدَ الْحَاجَةِ لَيْسَ مِنَ الدُّنْيَا، إِذْ لَا (...) الْخُلُقُ، فَإِنَّمَا سَأَلَ الزُّهْدَ فِي فَضُولِ الْكَفَافِ (...) قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْكَفَافَ» قُوَّةَ يَوْمٍ بِيَوْمٍ، فَفَسَّرَ الْكَفَافَ [هُوَ أَخْذُ الْكَفَايَةِ] مِنَ الدُّنْيَا، لِأَنَّهُ طَرِيقٌ إِلَى الْآخِرَةِ (...) ^(١)

وذكر معاوية الخلفاء قبله في مجلسه؛ فقال: أمّا أبو بكر [رضى الله عنه] فلم يُردِّ الدنيا ولم تُردّه. وأمّا عمر رضى الله عنه فأرادته الدنيا ولم يُردّها. وأمّا عثمان رضى الله عنه فأرادته ونال منها. وأمّا نحن فافتَرشناها وتمرغنا فيها.

ويشهد لكفاية الحاجات أنه ليس من الدنيا الخبر السائر: «ثلاثٌ ليس من الدنيا». وفي لفظ آخر: «لا حقَّ لابن آدمَ في غير هذه الثلاث». وفي رواية أخرى: «ثلاثٌ لا حساب على المرءَ فيهنَّ، ولا يُحاسبُ العبدُ عليهنَّ: طعامٌ يُقيمُ به صُلْبُهُ ما سدَّ جَوْعَتَهُ، وثوبٌ يُوارى عورتَهُ، وبيتٌ يُكِنُّهُ من الحرِّ والبردِّ، وما سوى ذلك ففيه الحسابُ».

وجاء بلفظ بالغ موجز: «لا حقَّ لابن آدمَ في الدنيا بعد ثلاثٍ: جِلْفُ الخبزِ ^(٢)، والماءُ، وعشٌّ كعُشِّ الطيرِ، وما سوى ذلك ففيه حساب».

وكان الدَّاراني يقول: خُلِقَ ابنُ آدمَ والخبزُ معه، وما زادَ على الخبزِ فهو شهوةٌ. ورؤى ابنُ داود وهو يأكل خُبْزًا مُكْرَجًا قد بلَّه بالماء بغير ملح. فقيل له: لو أضفت إليه الملح كان أطيبَ. فقال: تركتُ الملحَ منذ تركتُ الدنيا.

وقال بعضهم: دَخَلْنَا على فرقد السَّبْخِي [وهو يأكل من] خبز شعير، وقال: كلوا ما رَزَقَ اللَّهُ. قال: فقلنا: (...) ^(٣) قد جعلنا في العجين ملحًا، فكان يُحاسبُ (...) ^(٤).

(١) عدّة مواضع تالفة متفاوتة الطول والقصر، الأول والثاني قدر كلمتين، والثالث نصف سطر، ثم سطر أو أكثر.

(٢) الجلف: الخبز وحده لا أَدَمَ معه. وهو أيضًا الوعاء يوضع فيه الخبز.

(٣) قدر ثلاث كلمات أو أكثر.

(٤) قدر نصف سطر أو أكثر.

كذلك كان داود الطائي: يأكل الخبز [اليابس]^(١) ويشرب الماء الحار. ف قيل له: لو شربت ماءً بارداً و (...)^(٢) فقال: كلُّ هذا لمن فى السَّجْنِ كثيرٌ، إنَّ مَنْ (...). أنه أن يموتَ، وإذا لم يحبَّ الموتَ لم يحبَّ (...). هذه طريقةُ قُرَاءِ المتعبِّدينَ وزُهَّادِ المتقشِّفينَ.

وكان الثَّورى يقول: الزُّهْدُ فى الرِّياسَةِ أشدُّ من الزُّهْدِ فى الدُّنيا. وقال بعضُ العلماء: ما وجدنا الزُّهْدَ فى شَيْءٍ أَقْلَ منه فى الرِّياسَةِ، رأينا مَنْ زَهَدَ فى الدُّنيا كثيرٌ، وقِلَّ مَنْ رأيناه زَهَدَ فى الرِّياسَةِ. ولربَّما زَهَدَ العبدُ فى الدُّنيا رغبةً مِنْهُ فى الرِّياسَةِ بالزُّهْدِ والمدحِ بذلك.

وهذا من ألطف آفات النفوس، وأعظم بلواها، أنشدنى بعضهم:

أرى مَنْ بها قاتِلُ نَفْسِهِ على أن يُقالَ له إِنَّهُ

نعوذُ باللهِ مِنْ قُوَّةِ شَهِيدِ النَّفْسِ وَغَلَبَةِ سُلْطَانِ الْهَوَى، إذا استولى على القلبِ دَهْوَراً صاحبه فى مهوأة، إذ ضيَّعه الدَّليلُ فاستهوتهُ الشَّيَاطِينُ حيراناً، فتاه عن قصد السبيلِ. فإذا كان طائفةٌ قد يزهدون فى الدُّنيا للرِّياسَةِ، فإذا زَهَدَ هذا فى الرِّياسَةِ فآثر الخُمُولَ والاستدْمامَ على الاشتِهارِ والتمدِّحِ بعدَ عن الأنامِ. فهو زُهْدُ الزُّهْدِ، كما قلنا آنفاً؛ لأنَّ الرغباتِ كلها يجمعُها الهوى، ثُمَّ تشعَّبُ الشَّهَوَاتُ عنه، فمن زَهَدَهُ (...)^(٣) عينِ الهوى وأصل كلِّ مهوىٍّ، فهذا حقيقةُ الزُّهْدِ الذى هو الزُّهْدُ فى النَّفْسِ؛ لأنَّه بالشَّهوةِ الخفيةِ (...)^(٤) المختفى قد تزهد فى المرغوب لنفسه (...)^(٥).

قيل لبعض العارفين: هل يأسف الولىُّ على [أحدٍ] غير الله فيأسف عليه.

وقد كان طيِّفُور البسطامى يقول: ليس الزَّاهدُ من لا يملك شيئاً، إنّما الزَّاهد

(١) موضعه تالف بالأصل.

(٢) هذا الموضع والموضعان بعده قدر نصف سطر.

(٣) قدر كلمة أو أكثر.

(٤) قدر نصف سطر.

(٥) قدر سبعة أسطر.

من لا يملكه شيء. وهذا كذلك؛ لأنَّ الزُّهْدَ كما يصحَّ مع وجود الغنى، إذا لم يتملِّك ولم يتحكَّم ولم يُمسك لعاجلٍ حظِّ النَّفسِ ولا للمتعةِ بالمالِ. كذلك لا يُوجدُ الزُّهْدُ مع فَقْدِ المالِ، ووَجَدَ الفقيرُ إذا كانَ الفقيرُ حاسداً على شيءٍ من الدنيا، أو غابطاً لأبنائها، أو مُتمنياً لها، أو متبرماً بفقدِها، أو متضرراً بضرتها، فلا زُهدَ مع هذه الحالِ. وقد يصحَّ الزُّهْدُ أيضاً مع الفقيرِ وإن لم يملك شيئاً من الدنيا، ولا أخرجَ شيئاً من يده (...) (١) بذله وزهده؛ بشرط أن يطَّلَعَ اللهُ تعالى على الرِّضا من قلبه وحاله وسُكُونِ نفسه في عَدَمِهِ. ويعلم اللهُ تعالى من غِيْبِهِ ... هُ بالدُّنيا لَرَفْضِها إثارةً منه للرَّغْبَةِ في الآخرةِ (...) الأحكام من الفقيرِ والغنى والزُّهْدِ والرَّغْبَةِ تختلف باختلاف (...) أو تتقلبُ لانقلابِ معانيهم، وتعدل بحقائقها عن (...) تكشف سرائرهم عن حقائقه. ولذلك كان الرسول ﷺ يقف على فقراءِ أهلِ الصُّفَّةِ الذين لم يكونوا يملكُون شيئاً من مالٍ، ولم يعلم زُهدُهم في الحالِ، ولم يوجد ... دلال، وكان ﷺ يكلِّمهم إلى ... ذان يُعلِّمُهُم ما يَجِبُ اللهُ عَلَيْهِمَ كما قال: «كُلُّ (...)» (٢) نفسه. فيقول: يا معشرَ الفقراءِ أعطوا اللهَ الرِّضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقرِكُمْ، وإلا فلا». فهذا كما قال ﷺ لبعض المهاجرين الذين لم يظهر له هِجْرَتُهُم: «إنما الأعمالُ بالنيَّاتِ، فمن كانت هِجْرَتُهُ لدنيا يصيبُها فهِجْرَتُهُ إلى ما هاجر إليه».

فأخبرهم بما عليهم، إذ ليس عليه حسابُهم، ووكلهم إلى مَنْ إليه إيابُهم، وعليه حسابُهم. كيف وقد قال في الفقيرِ الذي مات وتركَ دينارين، فقال: «اكسب من نار». فقد كان ظاهرُ هذا الفقرِ، وباطنه استبطانُ الوفرِ فما يمنعه فقرُهُ ولا زُهدُهُ في المالِ ظاهره.

وقد قال لعمر بن العاص: «أزغبُ لك زَغْبَةً من المالِ. فقال: وما أصنعُ بالمال؟ فقال: نعماً بالمالِ الصَّالحِ للمرءِ الصَّالحِ». فما ضرَّ عمرًا ماله إذا استقام به قلبُهُ، وصَلَحَ عليه حالُهُ. [يقال:] جاء السَّيْلُ يُزْغِبُ زَغْبَةً، أى يَدْفَعُ دَفْعاً.

(١) قدر كلمة، وكذلك الموضع الذى يليه.

(٢) المواضع التى مضت قدر ثلاث كلمات أو أكثر.

وأما أبو يزيد البسطامي فكان يقول: حَقِيقَةُ الزُّهْدِ لَا يَكُونُ إِلَّا عِنْدَ ظُهُورِ الْقُدْرَةِ. وَالْعَاجِزُ لَا يَصِحُّ زُهْدُهُ؛ وَهُوَ أَنْ يُعْطِيَهُ كُنْ، وَيُطْلَعَهُ عَلَى الْأَسْمِ، وَيُقَدَّرَهُ عَلَى الْأَشْيَاءِ بِإِظْهَارِ الْكَوْنِ، فَيَزْهَدُ فِي ذَلِكَ حَيَاءً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَتْرَكُهُ حُبًّا لَهُ.

وقال يحيى بن معاذ: نَسْتَعِيزُ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعَةِ وَعِشْرِينَ مَقَامًا مِنْ إِظْهَارِ الْقُدْرَةِ وَالْكَرَامَاتِ الَّتِي يُسَمِّيهَا الْجَهْلَةُ مَعْجَزَاتٍ (...)^(١).

وذهب إلى هذا المعنى أبو محمد سهل، وأبو الفيض المصري، وغيرهما من العارفين والمحبيين، فقال قائلهم: سبعة عشر مقامًا في المعرفة أدناه المشي على الماء وفي الهواء، وطى الأرض، ونحوه، كلُّ هذا من زخرف الدنيا.

وقال الآخر: وَجُودُ هَذِهِ الْآيَاتِ فِي طَرِيقِ بَعْيِنِهِ لِلْمُنْقَعِرِينَ^(٢) فِي الْأَمْصَارِ مِمَّنْ لَا يَأْخُذُ مَعْلُومَهُ بِأَيْدِي الْخَلْقِ وَلَا الْأَسْبَابِ...^(٣) يَّة. وبعضهم يقول: هو مقامٌ معلوم؛ السابع عشر في مقامات المعرفة، مَنْ أَقِيمَ فِيهِ أَوْ سَلَكَ بِهِ طَرِيقَهُ رَأَاهَا فِي ذَلِكَ الطَّرِيقِ، وَهِيَ ثَلَاثَةٌ وَسَبْعُونَ مَقَامًا أَدْنَى مَقَامٍ مِنْهَا فَوْقَ جَمِيعِ (...)^(٤). وكان بعضهم يقول: هَذِهِ الْآيَاتُ بِالْأَبْصَارِ مَلَكُوتِيَّةٌ تَثْبِتُ [عَيْنَ] الْيَقِينِ لِيُثْبِتُوا عَلَى الطَّرِيقِ. وَذَرَّةٌ مِنْ عَيْنِ الْيَقِينِ [مَلَكُوتِيَّةٌ] غَيْبِيَّةٌ فِي قُلُوبِ الْعُلَمَاءِ أَفْضَلُ مِنْهَا، وَتِلْكَ إِنَّمَا... مِنْ هَذَا.

وكان الدارانيُّ يقول: يُرَى [المریدُ أشیاء] فِي السَّيْرِ لِيُثْبِتَ مَقَامَهُ إِذَا لَمْ يَلْتَفِتْ انْقَطَعَتْ عَنْهُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: أَشْيَاءٌ طَوِينَا ذِكْرَهَا لِقَلَّةِ الْمَرَادِينَ بِهَا.

وكان ذو النون وابن معاذ يقولان: الرَّاهِدُ قُوَّتُهُ مَا وَجَدَ، وَثَوْبُهُ مَا سَتَرَ، وَبَيْتُهُ مَا آوَاهُ، وَحَالُهُ وَقْتُهُ.

وقال بعض العارفين: الزُّهْدُ إِنَّمَا هُوَ تَرْكُ التَّدْبِيرِ وَالِاخْتِيَارِ وَالرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ لِاخْتِيَارِهِ شِدَّةً كَانَ أَوْ رَخَاءً. وَهَذَا طَرِيقُ: إِبْرَاهِيمَ الْخَوَّاصِ، وَالثَّوْرِيِّ، وَذِي

(١) قدر ثمانية أسطر.

(٢) المنقعرين: المنقطعين.

(٣) جزء من كلمة.

(٤) هذا الموضع والذي يليه قدر كلمة أو كلمتين.

النون، رحمهم الله تعالى.

وقد حُكي لنا معنى هذا عن الجنيد قال: اجتمع أربعةٌ من الأبدال في جامع المنصور ليلة العيد، فلما أَسَحَرُوا قال أحدهم: أما أنا فقد نويتُ أن أصلي العيد في بيت المقدس. وقال الآخر: أما أنا فقد نويتُ أن أصلي العيد بطرسوس. وقال الثالث: أما أنا فقد نويتُ أن أصلي العيد بمكة. وسكت الرابع وكان أعرفهم، فقليل له: أنت أي شيء نويت؟ فقال: أما أنا فقد نويتُ اليوم ترك الشهوات، لا أصلي إلا في هذا المسجد الذي اعتكفتُ فيه، فقالوا: أنت أعلمنا، فقعدوا معه، وكنا نظنُّ أنه هو، يعنى نفسه، فصار عند هؤلاء كما ذكرناه آنفاً.

إنَّ هذه الآيات هي من مُدركي الشهوات، إذ ليست حاجات. والشهوة من الدنيا لا محالة عند الجماعة؛ لأنها من الهوى وليس فيها قربة إلى الله ولا مزية سَنَّة، فيكون من الزاهدين في الدنيا. وأيضاً ففيها تدبير واختيار. وعند الزهاد العارفين والمحبين: أن هذا مكرٌ وخداعٌ يُبتلون به ويُقْتَطعون لينظر كيف يعملون، إذ ابتلاء كلِّ عبدٍ على قَدَرٍ مَرَبَّتِهِ وحاله، فيلزمه الزهد فيه. ويقال: هي في المقام السابع عشر من المعرفة. فمن سَلَكَ به الطَّرِيق رآها فيه، وفوقها نيف وسبعون مقاماً أفضل من ذلك.

وقد سئل الجنيد عن الزهد فقال: معنيان: ظاهرٌ، وباطنٌ. فالظاهر: بُغْضُ ما في الأيدي من الأملاك، وترك طلب المفقود. والباطن: زوال الرغبة عن القلب، ووجود العزوف والانصراف عن ذكر ذلك. فإذا تحقَّق بذلك رَزَقَهُ اللهُ تعالى الإشراف على الآخرة، والنظر إليها بقلبه. فحينئذ يجدُّ في العمل بتقصير الأمل وتقريب الأجل؛ لأنَّ الأسبابَ عن قلبه مُنْقَطَعَةٌ، والقلبُ منفردٌ بالآخرة. وحقيقة الزهد قد خُلِصَتْ إلى قلبه، فامتلاً من الذِّكْرِ الخالصِ لربه سبحانه وتعالى. فالزهد عن حقيقة الإيمان، وأنَّ المشاهدةَ للآخرة تكون بعد الزهد، ثم تستوى الأشياءُ عنده، وَيَسْتَوِي عَدَمُهَا ووجودها، وعندهُ يكون استواء المدح والذم؛ لاستواء قلبه في المشاهدة.

كما رُوينا في حديث الحسن أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لرجل: «هل استويت؟

قال: وكيف أستوى؟ قال: يستوى عندك الذم والمدح». وذلك يكون لسقوط قدر النفس، وذهاب رؤية الخلق، فعندها يسقط الاستواء والرغبة، فيثبت الإخلاص والزهادة^(١).

وكما فسر حذيفة حقيقة الإيمان فابتدأ بالزهد، فقال: «عزفت نفسي عن الدنيا» ثم ذكر الاستواء فقال: «فاستوى عندي حجبها ومدرها». وكذلك عين اليقين ترى تسوية الجواهر بالأحجار في العقل بتفاوت بينها لإيقاع الأحكام وبلوى...^(٢) الأجسام بها والأجرام. ثم ذكر المشاهدة فقال: «وكأني بعرش ربي بارزاً»، وبالجنة والنار.

فجميع ما ذكرناه هو مقامات في الزهد لجميع الزاهدين، وكأن كل من جعل شيئاً من الدنيا مبلغ علمه وعلو شهادته صير الزهد ضده.

وقد نوع أهل المعرفة الإيمان في القلب على مقامين، فجعل لهما زهدين فقال: إذا تعلّق الإيمان بظاهر القلب أحبّ العبد الدنيا، وأحبّ الآخرة، وعمل لهما، فإذا بطن الإيمان في سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا؛ فلم ينظر إليها ولم يعمل لها.

وقد كان أبو سليمان يقول: من شغل بنفسه شغل عن الناس، وهذا مقام العاملين. ومن شغل بربه سبحانه وتعالى شغل عن نفسه، وهذا مقام العارفين.

ولهذين المقامين دليل من السنة أن النبي ﷺ سئل: أيّ الناس خير؟ فقال: «من يشنأ الدنيا ويحبّ الآخرة». فأوقع الشنآن للدنيا لوقوع ضده من حبّ الآخرة. فقليل: فإن لم يكن؟ قال: «مؤمن في خلق حسن»^(٣).

والشاهد الآخر: سأل رسول الله ﷺ: «من خير الناس؟ قالوا: مؤمن مؤسر

(١) في (ط): «يستوى المدح والذم لسقوط النفس وذهاب رؤية الخلق. فعندها خلص الإخلاص إلى قلبه لصفاء الزهد، وثبت الزهد لسقوط النفس».

(٢) قدر كلمتين.

(٣) لفظ الخبر في (خ): «من ينسى الدنيا» ثم طمس في معظم الصفحة، وذكر فيها أكثر من خمسة أحاديث تتعلق بالزهد والفقر، سأبت منها ما استطعت تبينه واستظهاره.

من المال يعطى حقَّ الله في نفسه وماله. فقال: نَعَمْ الرجل، وليس به. خيرُ النَّاسِ فقير يُعطى جهدهً.

فهذا كما قال في الخبر الثالث: «لا بأس بالمال [الصالح] لمن اتقى». وكما قال: «خيرُ هذه الأمة فقراؤها».

وقال في الخبر الآخر الذي قدمناه: «نعمًا المالُ الصالحُ للرجل الصَّالح». والمال الصالح هو الحلال. والعبد الصالح هو المنفق ماله بالليل والنهار سرًّا وعلانيةً ابتغاء مرضاته، كما وصفه الله ومدحه.

وقال ﷺ: «إِنَّ الله يعطى الدنيا من يُحِبُّ ومن لا يُحِبُّ، ولا يعطى الإيمان إلا مَنْ يحبُّ». فمن يَجِدُ بالمال فهو ممن يحبه الله، فالذى يُحِبُّه الله تعالى مِمَّنْ أعطاهُ الدنيا لا يُخالف حبيبَه إلى هَوَاهُ، ولا يُؤثر نفسه على محبة مولاه، إذ قد تولاه فيما أعطاه.

وفي الخبر الخامس تعديل ومطمع، قال: «الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بمنزلة الصائم الصَّابر». والطَّاعِمُ الشَّاكِرُ هو الذى يستعين بِطُعْمَتِهِ على خِدْمَةِ مولاه، ويعبده شكرًا لما أولاه.

وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ [الشورى: ٢٠]. حَرْثُ الدُّنْيَا هو المال، وحَرْثُ الْآخِرَةِ الْعَمَلُ الصَّالِح. وقد جاء في الخبر: «مَنْ جَعَلَ اللهُ هَمَّهُ جَمَعَ اللهُ قَلْبَهُ عَلَيْهِ، وجعل غِنَاهُ فى قَلْبِهِ، وَمَنْ جَعَلَ الدُّنْيَا هَمَّهُ شَتَّتَ قَلْبَهُ وجعل فقره فى نفسه».

وقال الرسول ﷺ: «لا مانع لما أُعْطِيَ، ولا مُعْطَى لما مَنَعَتْ». فلا مانع لما يُعطى من زُهدٍ وتقوى، ولا مُعْطَى لما مَنَعَ من ذلك. كذلك قال الجليل: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧].

وكلُّ من علا مقامه انفرَدَ وعلا فى جميعها هَمُّه، فوَحَّدَ، كقوله: «مَنْ جَعَلَ الهمَّ هَمًّا واحدًا كفاهُ اللهُ شرَّ دُنيَاهُ وآخِرَتِهِ». والهمُّ الواحدُ بوجَدٍ واحدٍ هو وصفُ

عَبْدٌ مُتَوَحِّدٌ لَوَاحِدٍ، مُتَأَلِّهِ إِلَى أَحَدٍ، كَمَا أَلِهَ الْمَوْلَى لِلْقُلُوبِ، وَكَاشَفَ بِهِ مِنْ ذَخَائِرِ الْغُيُوبِ، وَقَدْ وَهَبَ لَهُ خُلُقًا مِنْ أَخْلَاقِهِ، فَهُوَ الْأَحَدُ بِوَحْدَانِيَّةٍ هِيَ صِفَتُهُ. وَعَبْدٌ مُتَوَحِّدٌ بِوَحْدَةٍ هِيَ خُلُقُهُ، مُنْفَرِدُ الْهَمِّ، مُجْتَمِعُ الْقَلْبِ بِجَامِعٍ مُعْطٍ لَهُ غَيْرَ مَانِعٍ، لَيْسَ بَضَارًّا لَهُ، إِذْ هُوَ نَافِعٌ. وَانْفِرَادُ الْهَمِّ يَكُونُ بَعْدَ مَحْوِ الْهَوَى، وَمَحْوُهُ بَعْدَ امْتِحَانِ الْقَلْبِ لِلتَّقْوَى، كَمَا قَالَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ [الحجرات: ٣] قَالَ: (...). وَلَعَمْرِي لَمَّا أُثْبِتَ الْمَخَافَ فِيهَا حُمِدَتْ. وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ [الرعد: ٣٩]. فَتَدَبَّرْ.

وَأَمَّا مُحَادَثَاتُ (...) طَبِيعَةِ أَخْلَاقِهَا الْمَذْمُومَةِ، صِفَاتُ الْإِيمَانِ (...) أَخْلَاقِ الرُّبُوبِيَّةِ الْحَسَنَةِ الْحَمِيدَةِ، فَصَارَ (...) إِنْ كَانَ نَفْسِيًّا، وَجُعِلَ رَبَّانِيًّا بَعْدَ كَوْنِهِ (...) (١). وَاجْتِمَاعُ الْقَلْبِ يَكُونُ مَعَ طِيبِ النَّفْسِ وَطُمَأْنِينَتِهَا بِالْإِيمَانِ بِمُؤْمِنٍ، وَتَخَلُّقُهَا بِأَخْلَاقِ الرُّوحَانِيِّينَ، أَوْ فَلَاحُهَا بِالْتَّزْكِيَةِ وَالرَّضَا. كَمَا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «طِيبُ النَّفْسِ مِنَ النَّعِيمِ». وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩]. وَقَالَ فِي نَعْتِهَا: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧ - ٢٨]. عِنْدَهَا يَكُونُ مُوَاطِئَةُ لِلرُّوحِ تَخَلُّقُهُ بِأَخْلَاقِ الْإِيمَانِ مُطَوَّاةً لِلْقَلْبِ تَخَلُّقُهُ بِأَخْلَاقِ الرَّبِّ، مُعَايَنَةُ لِلْيَقِينِ تَهْدِيهِ لِلطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَبِينِ، مُشَاهَدَةٌ لِلْحَقِّ الْمُبِينِ.

وَقَالَ وَهَبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: وَجَدْتُ فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى: «مَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا أَبْغَضَهُ اللَّهُ، وَمَنْ بَغَضَهَا أَحَبَّهُ اللَّهُ. وَمَنْ أَكْرَمَ الدُّنْيَا أَهَانَهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَهَانَهَا أَكْرَمَهُ اللَّهُ».

وَأَمَّا عِلْمَاءُ الظَّاهِرِ (٢) فَقَالُوا: الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا هُوَ مُوَافَقَةُ الْعِلْمِ، وَالْقِيَامُ بِأَحْكَامِ الشَّرْعِ، وَأَخْذُ الشَّيْءِ مِنْ وَجْهِهِ، وَوَضْعُهُ فِي حَقِّهِ. وَمَا خَالَفَ الْعِلْمَ فَهُوَ جَهْلٌ كُلُّهُ وَهَوًى.

(١) المواضع السابقة قدر كلمتين أو أكثر.

(٢) نقله صاحب الإتحاف: ٣٤٥/٩.

فذكروا فَرَضَ الزُّهْدَ وظَاهِرُهُ، وَلَمْ يَعْرِفُوا غَرَائِبَهُ وَباطِنَهُ، ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ، وَنَصِيْبُهُمْ مِنَ الْفَهْمِ. وَهُوَ مَقَامُهُمْ مِنَ الْمَقَالِ، وَطَرِيقُهُمْ الْمَشُوبُ بِالْاِعْتِلَالِ، وَقَدْ يَعْتَوِرُهُ الْوَهْمُ وَالظَّنُّ؛ لِأَنَّهُمْ يَصِفُونَ الشَّيْءَ عَنْ خَبَرٍ وَسَمْعٍ، لَا عَنْ خَبَرٍ وَيَقِينٍ، كَمَا أَنشَدْنَا بَعْضَهُمْ:

تَصِفُ الطُّلُولَ عَنِ السَّمَاعِ لَهَا لَيْسَ الْعِيَانُ كَانَتْ فِي الْعِلْمِ
وَإِذَا وَصَفْتَ الْأَمْرَ عَنْ خَبَرٍ لَمْ تَخْلُ مِنْ غَلَطٍ، وَمَنْ وَهَمٌ^(١)

وقد رُوينا^(٢) عن الثَّوْرِيِّ وَابْنِ عِيْنَةَ أَنَّهُمَا سُئِلَا: أَيَكُونُ الرَّجُلُ زَاهِدًا وَلَهُ مَالٌ؟ قَالَا: نَعَمْ، إِذَا كَانَ إِذَا ابْتُلِيَ فَصْبِرَ، وَإِذَا أُنْعِمَ عَلَيْهِ شَكَرَ. قَالَ ابْنُ الْحَوَارِيِّ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ؛ يَعْنِي ابْنَ عِيْنَةَ: قَدْ أُنْعِمَ عَلَيْهِ فَشَكَرَ، وَابْتُلِيَ فَصْبِرَ، وَحَبَسَ النِّعْمَةَ، كَيْفَ يَكُونُ زَاهِدًا؟ فَضَرَبَنِي بِيَدِهِ وَقَالَ: اسْكُتْ، مَنْ لَمْ تَمْنَعَهُ النِّعْمَاءُ مِنَ الشُّكْرِ، وَلَا الْبَلْوَى عَنِ الصَّبْرِ، فَذَلِكَ الزَّاهِدُ.

ووافقهما الزَّهْرِيُّ كَذَلِكَ. وَقَدْ فَصَّلَ أَبُو سَلِيمَانَ ذَلِكَ فَقَالَ ابْنُ أَبِي الْحَوَارِيِّ: قُلْتُ لَهُ: أَكَانَ دَاوُدُ الطَّائِي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى زَاهِدًا؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: بَلَّغْنِي أَنَّهُ وَرَثَ مِنْ أَبِيهِ عِشْرِينَ دِينَارًا، فَأَنْفَقَهَا فِي عِشْرِينَ سَنَةً، فَكَيْفَ يَكُونُ زَاهِدًا وَهُوَ يَمْسِكُ الدَّنَانِيرَ؟ فَقَالَ: أَرَدْتَ مِنْهُ أَنْ يَبْلُغَ حَقِيقَةَ الزُّهْدِ.

وقد قالوا فِي الزُّهْدِ وَصَفَيْنِ جَامِعَيْنِ لِأَحْوَالِ الْقُلُوبِ. قَالَ مُضَاءُ بْنُ عَيْسَى^(٣): قُلْتُ لِسَبَاعِ الْمُوَصِّلِيِّ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، إِلَى أَيِّ شَيْءٍ أَفْضَى بِهِمُ الزُّهْدُ؟ قَالَ: إِلَى الْأُنْسِ بِاللَّهِ. فَهَذَا لَزْوَالِ وَحْشَةِ الدُّنْيَا، وَخُرُوجِ ظُلْمَةِ النَّفْسِ بِالْهَوَى، وَقَعَ الْأُنْسُ

(١) البيتَانِ لِأَبِي نَوَاسٍ، انْظُرْ دِيَوَانَهُ، تَحْقِيقُ إِيفَالِدِ فَاغْنَرِ، ٢٦٩/٣، وَنَشَرَهُ أَحْمَدُ عَبْدِ الْمَجِيدِ، ص ٥٨، وَالرَّوَايَةُ فِيهِ: الْبَيْتُ الْأَوَّلُ:

* ... أَفْذُو الْعِيَانِ ... *

الْبَيْتُ الثَّانِي:

* وَإِذَا وَضَعْتَ الشَّيْءَ مُتْبِعًا *

(٢) فِي الْإِتْحَافِ: ٣٧٤/٩.

(٣) فِي الْإِتْحَافِ ٣٧٣/٩: «مُضَرِّ بْنِ عَيْسَى».

بالتَّوَرِّ، وَلَا يَجِدُ الْأُنْسَ بِالْحَبِيبِ وَالْوَجْدَ بِالْقَرِيبِ غَيْرُ زَاهِدٍ.

وقال عثمان بن عمار: كَانَ يُقَالُ: الْوَرَعُ يَبْلُغُ بِالْعَبْدِ إِلَى الزُّهْدِ، وَالزُّهْدُ يَبْلُغُ بِهِ حُبَّ اللَّهِ تَعَالَى. فَعَبْدٌ شَاهِدٌ أَنَّ مَنْ لَمْ يَدْعُ فَلَيْسَ بِزَاهِدٍ، وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْ فِي الزُّهْدِ لَمْ يَكُنْ لِحُبِّ اللَّهِ بَوَاجِدٍ، لِأَنَّ حُبَّ اللَّهِ الْعَلَى الْأَعْلَى مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُخْرِجَ حُبَّ الدُّنْيَى الْأَدْنَى.

فهذان الحالان غايةُ الطَّالِبِينَ: الْحُبُّ لِلْجَلِيلِ، وَالْأُنْسُ بِاللَّطِيفِ. فَمَنْ لَمْ يَتَحَقَّقْ بِالزُّهْدِ لَمْ يَبْلُغْ مَقَامَ الْحُبِّ، وَلَمْ يُدْرِكْ حَالَ الْأُنْسِ وَسِرَائِرَ الْغَيْبِ الْمَلَكُوتِيَّةِ فِي مَقَامِ الْحُبِّ وَالْخَلَّةِ الْيَقِينِيَّةِ، وَغِيَابَاتِ السَّرِّ الْعَزِيَّةِ الْجَبْرُوتِيَّةِ فِي حَالِ الْأُنْسِ وَالْقُرْبَةِ وَمَحْوِ الْحِشْمَةِ الْعَقْلِيَّةِ. ووراء هذا (...) ^(١) يعيده ويبيده.

وكان ابن معاذ يقول: (...) مخلوقًا إذا فتح له باب الأنس والإدلال (...) في ذلك الوقت مخلوق، وفي تلك (...) يهربون، فإذا فتح له باب الخوف (...) ينتفعون به، ويفهمون عنه، وكشفُ هذا المقام يخرج إلى علم غريب لا يُعْرَفُ، وسِرٌّ عَجِيبٌ لَا يُكْشَفُ، لطيفٌ ليس عليه يُوقَفُ، ولكل مقام مقال (...) في مقام الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا (...) على أمره، والله الآخرة والأولى (...) وسرائر القلوب أولى، لِلطَّيْفِ مَا فِيهَا مِمَّا أَعَارَ وَأَبْدَى إِذْ لَدَيْهِ تَوَلَّى.

وفقنا الله وإياكم لما يُحِبُّ، وَبَلَّغْنَا مَا نَزْمُلُ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ. وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ. وهذا آخر كتاب الزُّهْدِ ^(٢).



(١) هذا الموضع والمواضع التي تليه قدر أربع كلمات أو تزيد، في كل موضع.

(٢) إلى هنا ينتهى هذا الجزء من النسخة المباركة (خ) بزياداتها الطويلة المهمة، على ما فيها من طمس. وفي آخرها ما نصه: «يتلوه إن شاء الله شرح مقام التوكل، ووصف أحوال المتوكلين. والحمد لله رب العالمين، وصلوات الله على نبيه محمد المصطفى، وعلى آله وأصحابه وأصهاره وأنصاره أجمعين».

ولكنى لم أجد بقيتها.

شرح مقام التوكل، ووصف أحوال المتوكلين^(١)

وهو المقام السابع من مقامات اليقين

التوكلُ من أَعلى مقامات اليقين، وأشرفِ أحوالِ المقرّين. قال الله الحقّ المبين: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فجعل المتوكل حبيبه، وألقى عليه محبته. وقال الله عزّ وجلّ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]، فرفع المتوكلين إليه، وجعل مزيدهم منه. وقال جلت قدرته: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

ورؤينا أنّ النبي ﷺ لما قرأ هذه الآية قال: «يا أبا ذر، لو أنّ الناس أخذوا بهذه الآية لكفتهم».

فمن كان الله حسبه، كان كافيه ممّا سواه، ومن كان الله كافيه فهو شافيه ومعافيه، ولا يسأل عما هو فيه.

وقد أمر الله بالتوكل، وقرّنه بالإيمان، يدلّ بذلك أنّهما شيئان، إذ التوكل على الوكيل من الإيمان بالمؤمن؛ لأنّه عن حقيقة الإيمان وهو اليقين، وبمشاهدة الوكيل، وهو الحسب الحبيب ونعم الوكيل.

فأمر بالتوكل قولاً وفِعلاً بعد الإخبار عن محبة المتوكل عليه. قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩] مع اشتراط التوكل للإيمان بعد الأمر به فى قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] فلم يُخرج عموم المسلمين من شرط عموم التوكل، كما لم يُخرج خصوص المؤمنين من شرط وجود الإسلام، وكما كل مؤمن حقاً مسلم لا بدّ عاملاً، كذلك كل مسلم صدقاً

(١) من هنا يبدأ الجزء الثانى للمطبوعة الأولى للقوت. وأيضاً تبدأ نسخة (م) وبها أيضاً زيادات كثيرة جداً، وقد اعتمدت نصّها وترتيبها وزاداتها.

يكونُ على الله متوكلاً.

فقد صار المتوكِّلُ على الله تعالى من عبادِ الرَّحْمَنِ الذين أضافهم إلى وصفِ الرَّحْمَةِ؛ ومن عبادِ التَّخْصِيسِ الذين ضَمَّنَ لَهُمُ الكَفَايَةَ، وهمُ الذين وصفهم في الكتابِ بالسَّكِينَةِ وَالْهَوْنِ، وَنَعْتَهُمُ بِالسَّلَامَةِ وَالْخَوْفِ، وَذَكَرَهُمُ بِالسُّجُودِ وَالْقِيَامِ، وَمَدَحَهُمُ بِالِاِقْتِصَادِ وَالْقِيَامِ، في قوله سبحانه: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، إلى آخر أوصافهم. فتدبروا في هذه الآية المهمة لهم، وهمُ الذين كفاهم في هذه الدَّارِ المهماتِ، ووقاهم بتفويضهم أمورهم إليه السيئاتِ بقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَفْوَضُ أَمْرِى إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾ [غافر: ٤٤ - ٤٥].

وليس هؤلاء من عبيد العَدَدِ قَطُّ، الذين قال الله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٤].

وقال بعض الصحابة وغيره من التابعين أيضاً: التوكُّلُ نظامُ التوحيدِ وجماعُ الأمور.

وقد مدحَ اللهُ تعالى المتوكِّلَ في كتابه، وذكرَه مع وَصَفِ الصَّابِرِينَ في مائة مَوْضِعٍ، وهو طريقٌ إلى التوكُّلِ، وحالٌ منه، ولا يُقام مقامُ فوقه.

حدثني بعضُ الأَشْيَاحِ عن الجُنَيْدِ أَنَّهُ قَالَ: غَايَةُ الصَّبْرِ وَتَصْحِيحُهُ أَنْ يُورِثَ اللَّهُ لِلصَّابِرِ التَّوَكُّلَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤٢].

فأىُّ مقامٍ أعلى من مقامٍ يكون فيه تقَرُّبُ الرُّوحِ الْغَرَرِ حالاً منه ووصفاً دونه؟

وحدثونا عن بعض السلف قال: رأيتُ بعضَ العَبَادِ من أهل البصرة في المنام، فقلت: ما فعلَ اللهُ بك؟ قال: غفر لى، وأدخلنى الجنة. قلت: فأىُّ الأعمال وجدتَ هناك أفضل؟ قال: التوكُّلُ وقصر الأمل؛ فعليك بهما.

وقال أبو الدرداء: ذِرْوَةُ الْإِيمَانِ الْإِخْلَاصُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالاسْتِسْلَامُ لِلرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ.

وكان أبو محمد سهل - رحمه الله - يقول: ليس في المقامات أعزُّ من التوكُّل، وقد ذهب الأنبياء بحقيقته، وبقي منه صُباة انتشَقها^(١) الصديقون والشهداء، فمن تعلق بشيء منه فهو صديق أو شهيد.

وقال بعضُ العارفين، وهو أبو سليمان الداراني: في كلِّ المقامات لى قَدَمٌ، إلا هذا التوكُّل المبارك، فما لى منه إلا مشامُ الرِّيح.

وقال لقمانُ في وصيته لابنه: وَمِنَ الْإِيمَانِ بِاللّهِ عَزَّ وَجَلَّ التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ؛ فَإِنِ التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ يُحِبُّ الْعَبْدُ إِلَى اللَّهِ، وَإِنَّ التَّفْوِيزَ إِلَى اللَّهِ مِنْ هُدَى اللَّهِ، وَبِهْدَى اللَّهِ يُوَافِقُ الْعَبْدُ رِضْوَانَ اللَّهِ، وَبِوُافَقَةِ رِضْوَانِ اللَّهِ يَسْتَوْجِبُ الْعَبْدُ كَرَامَةَ اللَّهِ.

وقال لقمان أيضاً: وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، وَيُسَلِّمْ لِقِضَاءِ اللَّهِ، وَيُفَوِّضْ إِلَى اللَّهِ، وَيَرْضَ بِقَدْرِ اللَّهِ - فَقَدْ أَقَامَ الدِّينَ، وَفَرَّغَ يَدَيْهِ وَرَجَلَيْهِ لِكَسْبِ الْخَيْرِ، وَأَقَامَ الْأَخْلَاقَ الصَّالِحَةَ الَّتِي تُصْلِحُ لِلْعَبْدِ أَمْرَهُ.

وقال بعضُ علماء الأبدال، وهو أبو محمد سهل: الْعِلْمُ كُلُّهُ بَابٌ مِنَ التَّعَبُّدِ، وَالتَّعَبُّدُ كُلُّهُ بَابٌ مِنَ الْوَرَعِ، وَالْوَرَعُ كُلُّهُ بَابٌ مِنَ الزَّهْدِ، وَالزَّهْدُ كُلُّهُ بَابٌ مِنَ التَّوَكُّلِ. قال: فليس للتوكل حدٌ ولا غاية تنتهى إليه. وقال أيضاً في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لِيَلْبِغَكُمْ أَيْكُمُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] قال: أَصْدَقُ تَوَكُّلاً.

وقال: التقوى واليقينُ مثل كِفَتَى المِيزَانِ، والتوكلُ لسانه، به تُعرَفُ الزيادة والنقصان.

يعنى أن التوكلَ معيارُ التقوى واليقين، فبقدر ما للعبد من حال التوكل والتحقق به يكون له من مقام التقوى وشهادة اليقين.

وسئل رحمه الله عن معنى قوله عز وجل: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] فقال: اعبدوه بالتوكل.

وسئل عن قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] قال: بإظهار الفقر والفاقة إليه.

(١) الصباة: البقية القليلة من الماء ونحوه. وانتشَقها: انتشق الماء وغيره: جذب منه بالنفس في أنفه.

ووافقه محمد بن موسى الواسطي في هذا، فقال: التوكُّلُ هو صدقُ الفاقة والافتقار. فضَّلَ به بذلك التوكُّلُ، كما فسَّرَ به أبو محمد: التَّقوى. وكان أيضاً يقول: التوكُّلُ هو التَّفويضُ ثُمَّ الرِّضا. فجعل التوكُّلَ بابَ الرضا الأعلى، الذي هو الغاية القصوى.

وقال أبو يعقوب السَّوسى: لا تطعنوا على أهلِ التوكُّلِ؛ فإنهم خاصَّة الله، الذين خُصُّوا بالخصوصية؛ فسكُّنوا إلى الله، واكْتَفُوا به، واستراحوا من هموم الدنيا والآخرة. وقال: من طعنَ في التوكُّلِ فقد طعنَ في الإيمان؛ لأنه مقرون به، ومن أحبَّ أهلَ التوكُّلِ فقد أحبَّ الله تعالى.

فأولُ التوكُّلِ المعرفةُ بالوكيل، وأنه عزيز حكيم، يعطى لِعِزَّتِهِ وَيَمْنَعُ لِحِكْمَتِهِ، فيعتزُّ العبدُ بعِزِّهِ، ويرضى بحُكْمِهِ، ويستسلم لحِكمَتِهِ. كذلك أخبرَ عن نفسه، ونَبَّه المتوكِّلِينَ عليه، فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩].

عَزَّ مَنْ أَعَزَّ بِعَظَمَتِهِ، ونظر لمن مَنَعَهُ بِحِكمَتِهِ. يعزُّهُ بعِزِّهِ عن ذُلِّ العبادَةِ، ويُعلِّمُهُ من حِكمَتِهِ فيُغْنِيهِ عن التَّعَلُّمِ من خَلْقِهِ، فإذا شَهِدَ العبدُ الذَّلِيلُ المَلِكَ الجَلِيلَ قائماً بالقِسْطِ والتَّدْبِيرِ والتَّقْدِيرِ، قِيوماً بالتَصْرِيفِ والمُقَادِيرِ، عنده خَزَائِنُ كُلِّ شَيْءٍ، وكلُّ شَيْءٍ عندهُ بِمُقْدَارٍ، لا يُنْزَلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ، غابت الثَّوَانِي والرَّسُومُ في نُورِ شَهادَةِ الواحدِ القَيُّومِ.

ثم شَهِدَ الوَكِيلَ قَابِضاً على نَواصِي كُلِّ الموكِّلِينَ بِالأسبابِ، ورأى عنده خَزَائِنَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ارتقى في الأسبابِ إلى العَزِيزِ الوَهَّابِ، كما عَرَضَ الكافِرِينَ بِذلك، والمراد أولياؤه من ذلك، فقال: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ * أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وما بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ [ص: ٩ - ١٠].

فقد رقى هؤلاء في الأسبابِ إلى مَنْ عنده مَفَاتِحُ الغيبِ وربُّ الأربابِ. فغابت خَزَائِنُ الأَرْضِ من الأيدي والقلوبِ والأسبابِ المشاهداتِ في خَزَائِنِ

السماء من الأقدار والأحكام فالأبواب. وغابت الخزائن السماوية في ملكوت القبضة وعزة القدرة من خزائن السموات بالحكمة من الأقسام والأرزاق، وخزائن الأرض ما رسمه من الأعلام والأرفاق، ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]. ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠]. ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧] ذلك لقولهم ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا﴾ [المنافقون: ٧] فشهدوا الخلق مُنْفِقِينَ، فمنعواهم من الإعطاء، فردَّ الحقُّ شهادتهم، وأضاف الخزائن والعطاء إليه، ووصفهم مُعْطِينَ النِّفَقَةَ عنه، فعلى ذلك إخوانهم من مُشْرِكِي الْمُؤْمِنِينَ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] إذ جعلوها أرباباً. ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ أضافوا النعم إلى الأسباب ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ [يونس: ٢١] أخفى فعلاً، وألطف عقوبة، ردَّ على أول الكلام من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ﴾ [يونس: ٢١]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٢٣] بنظرهم إلى الخلق، وسكونهم إلى الأسباب، فتدبروا فهم الخطاب، وتوصيل الذكر من المحتجب بالأرباب.

فقد أُيِّنَ المتوكلُ أنَّ بيد الوكيل ملكوت كلِّ شيء، وأنه يملك السَّمْعَ والأبصارَ، ويقلب القلوبَ والأيديَ والبصائرَ بتقلب الليل والنهار، وأنه حسن التدبير والإحكام للموقنين، وهو أحكم الحاكمين، وخير الرازقين: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. ثم استوى على العرش يدبر الأمر، ما من شفيع إلا من بعد إذنه، ففتح الفتاح العليم سَمَعَ قَلْبِهِ مِنْ دُعَاءِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧]، فطلب الرزق من حيث العبادة، فكان المعبود هو الرزاق، ففكَّ أسرَهُ مِنَ الْوِثَاقِ، فترك دُعَاءَ مِثْلِهِ مِنَ الْعِبَادِ وَذَهَبَ إِلَى رَبِّهِ فَهْدَامَ، وَعَمَّنْ

سواهُ أغناه، إذ سَمِعَهُ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]. ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَّهْدِينَ﴾ [الصفات: ٩٩]. ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ﴾ [مريم: ٤٩]. عندها نظر العبدُ الذليلُ إلى سيِّده العزيز، فَقَوِيَ بِنَظَرِهِ إِلَيْهِ، وَعَزَّ بِقُوَّتِهِ بِهِ، وَشَرَّفَ بِحُضُورِهِ عِنْدَهُ، وَغْنَى بِوُجُودِهِ لَهُ. وكذلك جاء في الخبر: «كفى باليقين غنى».

وكان الحسن يقول: الغنى والعزُّ يجولان في طلب التوكل، فإذا ظفرا به ووطَّناه.

وأنشدتُ في معناه:

يَجُولُ الْغِنَى وَالْعِزُّ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ لَيْسَتْ وَطَنًا قَلْبَ امْرِئٍ إِنْ تَوَكَّلَا
وَمَنْ يَتَوَكَّلْ كَانَ مَوْلَاهُ حَسْبُهُ وَكَانَ لَهُ فِيمَا يُحَاوِلُ مَعْقَلَا
إِذَا رَضِيَتْ نَفْسِي بِمَقْدُورِ حَظِّهَا تَعَالَتْ وَكَانَتْ أَفْضَلَ الْخَلْقِ مَنَزَلَا

وكان من دعاء الصالحين: يا مَنْ جَعَلَ انْقِطَاعَ الْمُتَوَكِّلِينَ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَكِلْهُمْ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَمْ يُوَلِّهُمْ سِوَاهُ، وَلَمْ يُسَلِّمْهُمْ فِي هَلَكَةٍ، وَلَمْ يورِطْهُمْ فِي نَزَلَةٍ، إِذْ جَعَلَ تَوَكَّلَهُمْ عَلَيْهِ، وَمَنْزَعَهُمْ فِي كُلِّ الْأُمُورِ إِلَيْهِ.

حيثُ نَظَرَ الْوَلِيَّ إِلَى مَوْلَاهُ الَّذِي بِهِ تَوَلَّاهُ، فَرَأَاهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَوَتَّقَ بِهِ، وَاعْتَمَدَ عَلَيْهِ دُونَ كُلِّ شَيْءٍ، وَقَنَعَ مِنْهُ وَرَضِيَ بِأَدْنَى شَيْءٍ، وَصَبَرَ عَلَيْهِ، وَرَضِيَ بِهِ، إِذْ لَا بَدَلَ لَهُ مِنْهُ، فَتَمَّ لَا يَطْمَعُ فِي سِوَاهُ، وَلَا يَرْجُو إِلَّا إِيَّاهُ، وَلَا يَشْهَدُ فِي الْعِطَاءِ إِلَّا يَدَهُ، وَلَا يَرَى فِي الْمَنْعِ إِلَّا حَكْمَتَهُ، وَلَا يَعَايِنُ فِي الْقَبْضِ وَالْبَسْطِ إِلَّا قُدْرَتَهُ. هُنَاكَ حَقَّتْ عِبَادَتُهُ، وَخُلِّصَ تَوَجُّهُهُ، فَعَرَفَ الْخَلْقَ مِنْ مَعْرِفَةِ خَالِقِهِ، وَطَلَبَ الرِّزْقَ عِنْدَ مَعْبُودِهِ وَرَازِقِهِ، وَقَامَ بِشَهَادَةِ مَا قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧]. فعندها لَا يَحْمَدُ خَلْقًا، وَلَا يَذُمُّهُ؛ لِأَجْلِ أَنَّهُ أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ، إِذْ كَانَ اللَّهُ هُوَ الْأَوَّلَ الْمَعْطَى، فَإِنْ مَدَحَهُ أَوْ

شكره؛ فلأن مولاه مدحه، وأمره بالشكر له، فتخلّق بأخلاقه، وأتبع سنة رسولهِ ﷺ.

فإن ذمه أو مقتَه؛ فلاجل مخالفته مولاه، وإن كان أعطاه لموافقته هواه؛ فلأنه تعالى قد مدح المنفقين؛ وهو المنفق عليهم، وذمّ الباخلين؛ وهو المانع لهم، وشكر المعطين؛ وهو الفاتح لهم، ومقت المانعين؛ وهو الممسك منهم. والفرق بين الحمد والشكر؛ أن الحمد مفرد لا ينبغى إلا لله وحده، وهو الاعتراف بأن النعم كلها من الله، مع حسن المعاملة بها لوجه الله لا شريك له فيها، ولذلك قال: ﴿الحمد لله ربّ العالمين﴾. أى الحمد كله لا يكون قطّ ولا ينبغى إلا لله المحمود على كل حال.

وقال فى التعلّد الدينيّة للديان: ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ [الزمر: ٣] أى لا تصلح العبادة إلا للمعبود، كما لا يجب الحمد إلا للمحمود.

والشكر هو إظهارُ الثناء وإسرارُ الدعاء للأواسط الذين جعلهم الله الأزلى تعالى مكاناً للتمكين، ومَعْقِلاً لأسباب الدنيا والدين. فهذا معنى شرك فيه بفضلِهِ وكرمه الوالدين، ومع ذلك فهو مخصوص، يصلح لخصوص، لمن هو أهل أن يُشكر من الناس، ممن لا ينظر إلى نفسه فى عطاياه، ولا يَمُنُّ بما أعطى من نعمة الله لأوليائه، كما قال سفيان الثورى ليوسف بن أسباط: لا تشكر إلا من عرف موضع الشكر. قلت: وكيف ذاك؟ قال: إذا أوليتك معروفاً فكنت به أسراً منك، وكنت منك أشدّ استحياء، فاشكر، وإلا فلا. وسأل إبراهيم رجلاً من أصحابه درهمين فلم يكن معه، فأخرج فتى فى مجلسه كيساً فيه مائتا درهم، فعرضه عليه، قلم يقبله وقال: أو كلُّ من بذل لنا شيئاً قبلناه منه؟ لا نقبل إلا ممن نرى نعمة الله عليه فيما أعطى أعظم من نعمته علينا فيما نأخذ.

وحدّثونا عن الحسن فى قصة طويلة أن رجلاً بذل له جملةً من المال فردّه، فلما انصرف قال له هاشم الأوقص: عجبتُ منك يا أبا سعيد!! رددت على الرجل كرامته؛ فانصرف حزيناً، وأنت تأخذ من مالك بن دينار ومحمد بن واسع الشيء

بعد الشيء. فقال له الحسن: ويحك إن مالكَا وابنَ واسع ينظران إلى الله فيما نأخذ منهما، فعلينا أن نقبل. وإن هذا المسكين ينظر إلينا فيما يعطى، فرددنا عليه صلته.

فانتظر أن يتبعه شاهدٌ منه يحكم به، كما قال: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ [هود: ١٧]، فإن رأى الشاهد قويا أخذ به، وإن لم يرَ شاهداً صادقاً ردَّ له. فلم يذهب عن أحكام العلم، فرتبه في مواضعه مع مشاهدة اليقين أن الله سبحانه هو المعطى، لمعرفته أنه هو المبتلى.

لكن المتوكل لا يذمُّ أحداً، ولا يُبغضه لأجل أنه كان سبباً لمنعه؛ إذ كان الله هو المانع الأول، وإذ له في المنع من الحكمة مثل ما له في العطاء من النعمة، ولكن يذمه وينقصه ويبغضه إن كان استوجب ذلك من مولاه؛ فيكون موافقاً له. والله تعالى يشهد يده في العطاء، ويمدح المنفقين نهايةً في كرمه، ويشهد مشيئته في المنع وقدرته في المكروه، ويذم المسكين والعاصين حكمه من قدرته، وحكماً من تقديره؛ لإظهار الأحكام، وتفصيل الحلال والحرام، وعود الثواب والعقاب على الأنام. فقد أظهر الأمر، واستأثر بسرُّ القدر، فعمل المؤمن بما أمر، وسلَّم له ما استأثر.

وحَدَّثني بعضُ أشياخنا أنَّ رجلاً قال لأبي القاسم الجنيد رحمه الله: إن أصحابك إذا بذرناهم أكرمونا، وإذا خالطناهم أعرضوا عنا. فقال: مَنْ أصحابي؟ قالوا: فلاّ وفلاّ فسموا له رُفَعاء أصحابه ممَّن يُوثق بمعرفتهم ولا يُتَهمون في صدقهم. فقال: قد أحسنوا. قالوا: وكيف ذلك؟ قال: لأنكم إذا بذرتموهم خالفتهم هواكم، ووافقتهم مولاكم، فوجبَ عليهم أن يُكرموكم. وإذا جفوتهم هواكم وافقتهم مولاكم، فوجبَ عليهم أن يُعرضوا عنكم.

فانظر إليه كيف سأل من يفعل ذلك من أصحابه؛ ليستطلع المراتب، إذ في أصحابه عمومٌ، وخصوصٌ؛ وإذ العِللُ تدخل على ضُعفاء القلوب، ممَّن فقد منه الزهد، ووُجد فيه الهوى. فلما رَضِيهم ووَثقَ بهم أخبر عن حالِ الصَّحة، إذ كان

كذلك الحكم، فصار هذا الفعل مزيداً لهم، لما صحَّ عنده من زهدهم، ومكين معرفتهم، وبرِّ ساحتهم.

وروى بعض العلماء عن الله تعالى: لو أن ابن آدم لم يخفْ غيري ما أخفته من غيري، ولو أن ابن آدم لم يرجْ غيري ما وكلته إلى غيري.

وروى أعظم من هذا قال: إذا وُضع العبد في قبره مثل له كلُّ شيء كان يخافه من دون الله عزَّ وجلَّ، يُفزع في قبره إلى يوم القيامة.

وقال الفضيل بن عياض: من خاف الله خاف منه كلُّ شيء.

ويقال: إنَّ الخوفَ من المخلوقات عقوبةٌ نقصانِ الخوف من الخالق، وإنَّ ذلك من قلةِ الفقه عن الله تعالى، وضعفِ التوكل عليه. وقد قال الله أحسن القائلين في معناه: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: ١٣]. فكان العبد إذا تمَّ خوفه من الله تعالى، وصدق توكله، وقوى يقينه، أزال ذلك الخوفُ خوفَ المخلوقين عن قلبه، ثقةً منه بربه، وتوكلاً عليه في خلقه ونفسه، وحول ذلك في قلوب المخلوقات فصارت هي تخافه، إذ لم يخفها هو. كما إذا كملت مشاهدته، وقام بحق شهادته، غيبت تلك المشاهدة برؤية القيومية وجود الخليفة مع الله، فلم يرها دونه، وقام له القيوم بنصيبه من الملك، لما تفرغ قلبه بمعاينة الملك. وهذا هو من عين اليقين فوق علمه؛ لأنَّ الحقَّ المبين هو الأول والآخر، كما هو الباطن الظاهر، فلا أوليةَ لخلق في أوليته، ولا ظهورَ لقوى من العباد في ظاهر قهره.

وروي عن سنيِّد بن داود عن يحيى بن أبي كثير، قال: مكتوب في التَّوراة: «ملعونٌ من ثِقتهُ إنسانٌ مثله». قال سنيِّد: يقول: لولا فلان هلكْتُ، لولا كذا ما كان كذا.

فمعناه عندى في قوله «ثِقتهُ»: أن يعتمد عليه، ويسكن إليه، فهو شرك في التوحيد، ونقص من المزيد. إذ لا ينبغي الثقة ولا السكون إلا إلى الواحد القهار. وذلك هو داخلٌ في الشرك الخفى. ويُقال إنَّ قولَ العبد: لولا كذا، أو لم يكن

كذا، من الشُّرك. وجاء في الخبر: «إياكم ولو؛ فإنه يفتح عمل الشيطان».

وقال بعض العلماء: «سوف» جندٌ من جنود إبليس.

وقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] قالوا: كان الملاح فارهاً. ومثله في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] قيل: قالوا: لولا نباح الكلاب وزقاة الديكة لأخذنا السرَّ (١).

ورؤينا عن عمرَ رضى الله عنه عن النبي ﷺ: «من اعتزَّ بالعبيد أذلَّه الله».

وقد جاء في الخبر: «لو توكلتُم على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروحُ بطاناً، ولزالت بدعائكم الجبال».

وقد جاء هذا الوصف في قوله أيضاً: «لو عرفتُم الله حقَّ معرفته لأُعطيتم اليقين». فدلَّ ذلك أن حقيقة التوكل في حُسن المعرفة، وصدق اليقين.

وقد كان عيسى عليه السلام يقول: انظروا إلى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر، والله يرزقها يوماً بيوم، فإن قلتُم: نحن أكبر بطوناً من الطير، فانظروا إلى الأنعام، كيف قيض الله لها هذا الخلق.

ويقال: لا يدخرُ من الدواب إلا ثلاثة: النملة والفأرة وابن آدم.

وقال أبو يعقوب السَّوسى: المتوكلون على الله تجرَى أرزاقهم بعلم الله واختياره، على يد خصوص عباده بلا شغل ولا تعب، وغيرهم مكدودون مشغولون. وقال أيضاً: المتوكل إذا رأى السبب، أو ذمَّ، أو مدحَ، فهو مدحٌ لا يصح له التوكل. وأول التوكل ترك الاختيار، والمتوكل على صحة قد رفع أذاه عن الخلق، لا يشكو ما به إليهم، ولا يذمُّ أحداً منهم؛ لأنه يرى المنع والعطاء من واحدٍ، فقد شغله عما سواه.

وقال غيره: التوكل هو السكون في حال المنع والعطاء.

(١) السرَّ: جمع سارق، وهو اللص.

وزاد النَّهْرُ جُورِي فِي هَذَا الْحَالِ، فَقَالَ: التَّوَكَّلْ نَسِيَانُ حُظُوظِ النَّفْسِ. فَهَذَا إِذَا نَسِيَ حَظَّ النَّفْسِ قَطْعَهُ النَّسِيَانُ عَنْ ذِكْرِ مَنَعَ وَعَطَاءٍ، فَضْلاً أَنْ يَشْهَدَهُ مِنْ خَلْقٍ، أَوْ يَشْغَلَهُ عَنْ خَالِقٍ.

وَكَانَ الْخَوَاصُّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ فِي التَّوَكَّلِ كَلِمَةً فَاصِلَةً. سُئِلَ عَنِ التَّوَكَّلِ، فَقَالَ: هُوَ الْاِكْتِفَاءُ بِعِلْمِ اللَّهِ فِيكَ مِنْ تَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِسِوَاهِ. فَهَذَا لَاحِقٌ بِمَقَامِ الْأَنْبِيَاءِ فِي اِكْتِفَائِهِمْ بِعِلْمِ اللَّهِ فِي صِدْقِهِمْ عِنْدَ تَكْذِيبِ الْخَلْقِ، فَقَالُوا: ﴿رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [يس: ١٦ - ١٧] فَقَنَعُوا بِعِلْمِ اللَّهِ فِيهِمْ، وَسَلُّوا بِهِ عَمَّا سِوَاهِ، إِذْ فِيهِ الْكَفَاءُ وَالْغِنَاءُ. فَالشَّقَاءُ لِمَنْ أُشْهَدَهُ وَأُوقِفَ مَعَهُ.

وَقِيلَ لِسَهْلٍ: مَا أَدْنَى التَّوَكَّلِ؟ قَالَ: تَرْكُ الْأَمَانِيِّ، وَأَوْسَطُهُ تَرْكُ الْاِخْتِيَارِ. قِيلَ: فَمَا أَعْلَاهُ؟ قَالَ: لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا كُلُّ مَنْ تَوَسَّطَ التَّوَكَّلِ، وَتَرَكَ الْاِخْتِيَارَ، وَأَعْطَى... فَذَكَرَ كَلَامًا طَوِيلًا.

وَقَالَ بَعْضُ هَذِهِ الطَّائِفَةِ: الْعَبِيدُ كُلُّهُمْ يَأْكُلُونَ أَرْزَاقَهُمْ مِنَ الْمَوْلَى، ثُمَّ يَفْتَرِقُونَ فِي الْمَشَاهِدَاتِ. فَمِنْهُمْ مَنْ يَأْكُلُ رِزْقَهُ بِذُلٍّ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْكُلُ رِزْقَهُ بِامْتِهَانٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْكُلُ رِزْقَهُ بِانْتِظَارٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْكُلُ رِزْقَهُ بَعَزًّا بِلا مَهْنَةٍ، وَلَا اِنْتِظَارٍ، وَلَا ذُلَّةٍ. فَأَمَّا الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَرْزَاقَهُمْ بِذُلٍّ فَالْسُّؤَالُ، يَشْهَدُونَ أَيْدِي الْخَلْقِ فَيَذَلُّونَ لَهُمْ. وَالَّذِينَ يَأْكُلُونَ بِامْتِهَانٍ فَالْصَّنَاعُ؛ يَأْكُلُ أَحَدُهُمْ رِزْقَهُ بِمَهْنَةٍ وَكَرْهِ. وَالَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَرْزَاقَهُمْ بِانْتِظَارٍ فَالتَّجَارُ؛ يَنْتَظِرُ أَحَدُهُمْ نِفَاقَ سَلْعَتِهِ، فَهُوَ مَتَّعُوبُ الْقَلْبِ، مُعَذَّبٌ بِانْتِظَارِهِ. وَالَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَرْزَاقَهُمْ بَعَزًّا مِنْ غَيْرِ مَهْنَةٍ، وَلَا اِنْتِظَارٍ، وَلَا ذُلٍّ، فَالصُّوفِيَّةُ؛ يَشْهَدُونَ الْعَزِيزَ، فَيَأْخُذُونَ قِسْمَهُمْ مِنْ يَدِهِ بَعَزَّةً.

وَدَفَعَ رَجُلٌ إِلَى يَحْيَى بْنِ حَمَادٍ شَيْئًا يَصِلُهُ بِهِ فِي مَجْلِسِهِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يُخْفِيهِ وَيَسْتُرُهُ مِنَ الْحَاضِرِينَ، فَبَسَطَ يَحْيَى حَجَرَهُ لِيَسْتَزِيدَهُ، وَقَالَ: هَاتِ ظَاهِرًا مَكْشُوفًا، فَإِنَّ الَّذِي يُخْفِي أَخْذَ رِزْقِهِ عَنِ الْخَلْقِ هُوَ الَّذِي لَا يَشْهَدُ خَالِقَهُ فِي الرِّزْقِ وَالْعَطَاءِ.

فَهَذَا وَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، وَوَافَقَ حَالُ يَحْيَى وَمَشَاهِدَتُهُ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْإِخْفَاءَ

على من أخفى عليك أفضل؛ لأن أمر الله في كتابه الكريم التعاون على البرِّ والتقوى. وفيه أيضاً صلاحٌ لقلب بعض الحاضرين؛ لأنَّه في الإخفاء يورث الظنَّ أو يحسد على ذلك. ولذلك أدب رسول الله ﷺ أمته، فأوصاهم بالكتمان، فقال: «استعينوا على أموركم بالكتمان، فإن كلَّ ذى نعمة محسود».

فأما الذين يأكلون من أرباب السلاطين، فباعوا أرواحهم؛ فتلك قسمة خاسرة؛ وقعوا في الدلَّ الواضح.

وسئل بعض العلماء عن معنى الخبر المأثور: «الخلق عيالُ الله، فأحبُّهم إلى الله أنفعهم لعياله» فقال: هذا مخصوص، وعيالُ الله خاصته. قيل: كيف؟ قال: لأنَّ الناسَ أربعة أقسام: تجار، [وعمال]، وصنَّاع، وزرَّاع، فمن لم يكن منهم فهو من عيال الله. فأحبُّ الخلق إلى الله أنفعهم لهؤلاء.

وهذا كما قال؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى أوجبَ الحقوقَ، وفرض الزكاةَ في الأموالِ لهؤلاء؛ لأنَّه جعل من عياله مَنْ لا تجارةَ له، ولا صنعةَ؛ فجعل معاشهم على التجار والصنَّاع.

ألا ترى أنَّ الزكاةَ لا تجوز على تاجر ولا صانع؛ لقول رسول الله ﷺ: «لا تحلُّ الصدقة لغنيٍّ، ولا لقوى مكتسبٍ»، فأقام الاكتساب مقام الغنى. وقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ [الحجر: ٢٠]. فكان من تدبَّر الخطاب أنَّ مَنْ ليسوا له برازقين: هو مَنْ ليس له فيها معيشة في الأرض يعيش منها، فهذا من عيالِ الله؛ لأنَّه من أهله، لا من أهلِ الدنيا؛ إذ منها يكتسبون، فهم يُعيلون.

وقال عامر بن عبد الله: قرأتُ ثلاثَ آيات من كتاب الله عزَّ وجلَّ استعنتُ بهنَّ على ما أنا فيه، قرأتُ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، فقلتُ: إن أراد أن يضرنى لم يقدر أحد أن ينفعنى، وإن أعطاني لم يقدر أحد أن يمنعنى، وقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] فاشتغلت بذكره عن ذكر من سواه، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ

دَابَّةٌ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴿٦٠﴾ [هود: ٦٠]، فوالله ما اهتممتُ برزقي منذ قرأتها، فاسترحت.

وقد كان سهل بن عبد الله يقول: المتوكل إذا رأى السبب فهو مدع. وقال: ليس مع الإيمان أسباب، إنما الأسباب في الإسلام. معناه: ليس في حقيقة الإيمان رؤية الأسباب والسكون إليها، إنما رؤيتها والطمع في الخلق يوجد في مقام الإسلام. ومن ذلك ما قال لقمان لابنه: للإيمان أربعة أركان، لا يصلح إلا بهن، كما لا يصلح الجسد إلا باليدين والرجلين: التوكل على الله، والتسليم لقضائه، والتفويض إلى الله، والرضا بقدر الله.

فحال المتوكل سكون القلب عن الاستشراف إلى العبيد والتطلع، وقطع الهم عن الفكرة فيما بأيديهم من التطمع، عاكف القلب على القلب المدبر، مشغول الفكر بقدره المصرف المقدر، لا يحمله عدم الأسباب على ما حظه العلم عليه وذمه، ولا يمنعه أن يقول الحق وأن يعمل به، أو يوالى في الله ويعادى فيه جريان الأسباب على أيدي الخلق، فيترك الحق حياءً منهم، أو طمعاً فيهم، أو خشية قطع المنافع المعتادة، ولا تدخله نوازل الحاجات وطوارق الفاقات في الانحطاط في أهواء الناس، والميل إلى الباطل، أو الصمت عن حق لزمه، أو يوالى في الله عدواً أو يعادى ولياً، ليرب^(١) بذلك حاله عندهم، أو يشكر بذلك ما أسدوه إليه بالكف عنهم، ولا يربب الصنعة التي قد عرفت بها لنظره إلى الصانع، ولا يتصنع لمصنوع دخيلة؛ لعلمه بسبق الصنع، لدوام مشاهدته، ولا يسكن إلى عادة من خلق، ولا يثق بمعتاد من مخلوق؛ إذ قد أيقن برزقه ونفعه وضره من واحد.

فهذه المعاني من فرض التوكل، فإن وجدت في عبد خرج بها عن حد التوكل دون فضائله، وتدخله في ضعف اليقين.

وقد كان الأقوياء إذا دخل عليهم شيء من هذه الأهواء المفسدة لتوكلهم قطعوا تلك الأسباب، وحسموا أصولها، واعتقدوا تركها، وعملوا في مفارقة الأمصار،

(١) يرب: يصلح، ورب الدهن: طيبه.

والتغرب عن الأوطان، وترك الآلاف والإيلاف، فأخرجوا ذلك من حيث دخل عليهم، ووضعوا عليه دواءً وضده من حيث تطرق إليهم، حتى ربما فارقوا ظاهر العلم، وخالفوا علم أهل الظاهر إلى علوم الباطن، ومقتضاء مشاهدتهم، ومواجيد حالهم، ولقيامهم بحكم إلهام قلوبهم. إذ ليس أهل الظاهر حجة عليهم في شيء إلا وهم عليهم حجة في مثله؛ لأن الإيمان ظاهر وباطن، والعلم مُحْكَم ومتشابه؛ ولأن أهل الحق أبعد من الهوى، وأقرب إلى التوفيق، وأوفق لإصابة الحقيقة.

كل ذلك رعاية لصحة توكلهم، ووفاء بحسن عهدهم، وعملاً بأحكام حالهم؛ لئلا تسكن قلوبهم لغير الله، ولا تقف هِمَمُهم مع سوى الله، ولا تطمئن نفوسهم إلى غيره، ولا يتخذوا سكناً سواه، ولا يسكنوا إلى أهواء النفوس، وينخدعوا بسكونها عن سكون القلب؛ فيسبى ذلك عقولهم، ويوهن عزيمتهم، ويضعف يقينهم الذي هو الأصل، ويستأسر قلوبهم التي هي المعيار بالبيان، وفيها يقع تمكين الشهادة للمكان، فيخسروا رأس المال، ويفوتهم حقيقة الحال. فماذا يريحون؟ وبأي شهادة يقومون؟ وهذا لا يَفْطِنُ له إلا العاقلون، ولا تشهد العيون.

وقد قال بعض المقرئين في حقيقة التوكل، لما سُئِلَ عنه، فقال: هو الفرار من التوكل.

يعنى: ترك السكون إلى المقام من التوكل؛ أى يتوكل ولا ينظر إلى توكله؛ لأنه لأجله يُكْفَى، أو يُعافَى، أو يُوقَى. فجعل نظره إلى توكله علّة في توكله، يلزمه الفرار منها؛ حتى يدوم نظره إلى الوكيل وحده بلا خلل، ويقوم له بشهادة منه بلا ملل، فلا يكون بينه وبين الوكيل شيء ينظر إليه، أو يعول عليه، أو يدلُّ به، حتى التوكل أيضاً الذى هو طريقه.

وقد عبّرت طائفة من أهل المعرفة عن هذا المعنى بعبادات، فقال أبو تراب: التوكل: طرح البدن في العبودية، وتعلّق القلب بالربوبية. وقال الرقاق: التوكل ردُّ العيش إلى يومٍ واحدٍ، وإسقاطُ همٍّ غدٍ.

وقال غيره: التوكّل هو الخمودُ تحت الموارد. وكان بعضُ أشياخنا إذا سُئل عن التوكّل أجاب عنه لعين الحقيقة، فيقول: هو أن يكون مع الحقّ كما لم يكن، فإن الحقّ الآن كما لم يزل. وقال الجريري: التوكّل معاناةُ الاضطرار.

وكذلك قال قبله بعض العارفين في معنى قوله عزّ وجلّ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢] فقال: المضطّرُّ الذي يقف بين يدي مولاه، فيرفعُ إليه يديه بالمسألة، فلا يرى بينه وبين الله حسنةً يستحقّ بها شيئاً، فيقول: هب لي مولاي بلا شيء، فتكون بضاعته عند مولاه الإفلاس، ويصيرُ حاله في كلّ الأعمال الإيأس. فهذا هو المضطر.

فهؤلاء القوم من الذين وصفهم الله عزّ وجلّ بالتقوى والمخافة، وجعلهم أهلاً للدعوة والندارة، وأخبر أنهم لا يرون بينه وبينهم سبباً يليهم ولا شفاعة؛ فقال تعالى يأمر رسوله ﷺ أن يعقدهم بالندارة، بعد ما أمره صدقهم بالبشارة، فجعلهم وجهةً لخلقهم، ومعدناً لخلقهم، ومكان صدق سبقت لهم بالبشارة لكلمه، ومعقلاً لخبره، كما جعل رسول الله ﷺ وجهةً لهم، وموضعاً لتكليمهم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأُنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١].

فهؤلاء ممّن ضاقت عليهم بمرحبتها الأرض، فصارت حلقة خاتم، فاستوى منها الطول والعرض. وضاقت عليهم النفوس، فاستوت حالهم في السراء والبؤس. وأيقنوا أن لا لجأ^(١) ولا ملجأ من الحقّ إلا بالحقّ، عندها تظنّ بعينه بوصفه المكنون إليهم، وعطف بحنانه المصون عليهم. ليسوا كمن قال تعالى في وصف أمثالنا من أهل اللعب، واللهو، والغرة، والسهو، متهدداً لنا متوعداً: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠].

وقيل لعبض علمائنا: ما التوكّل؟ قال: التبرّي من الحول والقوّة. والحول أشدّ من القوّة.

(١) اللجأ: المعقل والملاذ.

يعنى بالحول: الحركة، والقوة: الثبات على الحركة، وهو أول الفعل. يعنى بهذا أن لا تنظر إلى حركتك مع المحرك؛ إذ هو الأول، ولا إلى ثباتك أيضاً بعد الحركة فى تثبيتته؛ إذ هو المثبت الآخر، فتكون الأولية والآخرية حقيقة شهادتك له به أنه الأول الآخر بعين اليقين؛ فيخرج خفى الشرك بحقيقة التوحيد، وهذا هو شهادة اليقين، أى: فعندها صحَّ توكلُّك بشهادة الوكيل.

وقال مرة: التوكلُ تركُ التدبيرِ، وأصلُ كلِّ تدبيرٍ من الرغبة، وأصلُ كلِّ رغبةٍ من طولِ الأمل، وطولُ الأملِ من حبِّ البقاء؛ وهذا هو الشرك. يعنى أنك شاركتَ الربوبيةَ فى وصف البقاء. وقال: إنَّ الله سبحانه خلقَ الخلقَ ولم يحجبهم عن نفسه، وإتّما جعل حجابهم تدبيرهم.

وقد كثر قوله - رحمه الله - فى ترك التدبير، وينبغى أن يُعرف ما معناه. ليس يعنى بترك التدبير ترك التصرف فيما وجّه العبدُ فيه وأُتيح له، كيف! وهو يقول: من طعن على التكسب فقد طعن على السنة، ومن طعن فى ترك التكسب فقد طعن على التوحيد. وقد كان له أرض يزرعها، وكان يدبر شأنها، ثم رأى بيعها فى آخره أمره، وفرّق ثمنها.

إتّما يعنى بترك التدبير أى ترك الأمانى، وقوله: لم كان كذا؟ إذا وقع الأمر، ولم لا يكون كذا؟ أو لو كان كذا فيما لا يقع؛ لأن ذلك اعتراضٌ وجهلٌ بسبق العلم، وذهابٌ عن نفاذ القدرة وشهادة الحكمة، وغفلةٌ عن رؤية المشيئة وجريان الحكم بها.

ويعنى: ترك التدبير فيما بقى وما يأتى بعد، أى: لأنّ فيه مثل هذا، يقول: لا تشتغل بالفكر فيه، والتدبير له بعقلك وعلمك؛ فيقطعك عن حالك، فى الوقت الذى هو ألزم لك، وأوجبُ عليك؛ حتى يكون فيما يأتى من الأحكام والتصريف فى ترك التدبير والتقدير لها بالزيادة والنقصان، أو نقلها من وقتٍ إلى غيره أو من عبدٍ إلى آخر، بالتقديم والتأخير، نقصٌ فى ذلك كما كنتَ فيما قد مضى. ألا ترى أن الإنسان لا يدبر ما قد مضى؟ قال: فينبغى أن يكون فيما يستقبل تاركاً للتدبير له، تاركاً للأمانى فيه بمعانى ما ذكرنا، كتركه إياه فيما مضى. فيستوى

عنده الحالان؛ لأنَّ اللهَ أَحْكَمُ الحاكمين، وأنَّ العبدَ مسلَّمٌ للأحكام والأفعال، راضٍ عن مولاه في الأقدار، مع جهله بعواقب المآل.

وترك التدبير بهذه المعانى هو اليقين، واليقينُ هو شهادة المعرفة بحقيقة الحق المبين، فإذا جعل الله تعالى قلبَ الموقن مكاناً لذلك، مكَّن فيه على قدر المكان ما يليق به.

فهذا تفسير قوله الذى كان يقوله ومقتضاهُ.

وكان يقول: يا مسكين؛ كان ولم تكن، ويكون ولا تكون، فلما كنتَ اليوم قلت: أنا وأنا، كُنْ فيما أنت الآن كما لم تكن، فإنه هو اليوم كما كان.

وكان يقول أيضاً: الزهدُ إنما هو تركُ التدبير. فهذا يعنى به ترك الأسباب التى توجبُ التدبيرَ، وإخراجَ السبب الذى يجب تدبيره، لا أنه يكون مسبباً متيقناً للأسباب، وهو ترك تدبيرها؛ لأنَّ التدبيرَ فى هذا الموضع إنما هو التمييز والقيام بالأحكام، ووضعُ الأشياء مواضعها، فكيف لا يكون العبد كذلك مع وجود الأشياء، وهو عاقل مميّز متعبّد بالعلم مطالب بالأحكام مع إمساكه الأسباب؟ وإنما يقول: اترك الأشياء المدبّرة، وازهدْ فى الأسباب المميّزة؛ حتى يسقط عنك التدبير والتقدير^(١)، فيكون بتركها تاركاً للتدبير، لسقوط أحكامها عنك، واستراحتك من القيام بها، والنظر فيها.

فهذا هو تفصيلُ جملةِ قوله فى ترك التدبير، وهذا هو حال المتوكلين، فهو مثلُ ما يقول لمن أرادَ إخراجَ درهمه كله، ويختار حالَ الفقر: أن يتدبّرَ بإسقاط الشهوات وإخراجها من القلب قبل ذلك التى لها يُرادُ إمساك الدّراهم أو كسبه. فإذا قوى على ذلك، ولم يبقَ عليه من نفسه بقية، ولم يدخر له منها خبيّة، سهّل عليه بعد ذلك إخراجُ دراهمه، وإلا خشيت أن يطلبَ من عنده ذلك الدرهم الذى هو قيمةُ تلك الشهوة التى بقيت عليه، فبذل له باستخراجِه منه، أو يطمع فيه بإغماضٍ فى دينه لضعف وجده من يقينه، فيرجع إلى الرغبة فى الدنيا، ويدخل

(١) لابن عطاء الله السكندرى رسالة فى ترك التدبير.

فى الحرص على طلبها بصفة من المعانى بمقدار ما بقى فيه من الشهوات. والمتوكل لا يهتم بما قد كفى، كما لا يهتم الصحيح بالدواء إذا عوفى، ولكن قد يحتمى قبل الزلل، كما يحتمى المعافى قبل ورود العلل.

قال الله سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦٠]، ﴿وَكَايِنٍ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠]، فالتوكل قد علم بيقينه أن كل ما يناله من العطاء من ذرة فما فوقها، أن ذلك رزقه من خالقه، وأن رزقه هو له نصيباً فضلاً من قاسمه، وأن ما له من النصيب واصل إليه لا محالة على أى حال كان، وأن ما له لا يكون لغيره أبداً، وكذلك ما لغيره من القسّم والعطاء لا يكون لهذا أبداً، فقد نظر إلى قسّمه ونصيبه من مولاه بعين يقينه الذى به تولاه، من إحدى ثلاث مشاهدات؛ إن دنت مشاهدته نظر إلى قسّمه من العطاء فى الصحيفة التى كتبت له عند تصوير خلقه، فكتب فيها رزقه، وأجله، وأثره؛ وشقى أو سعيد، فكما لا يقدر أحد من الخلق أن يجعله سعيداً، إن كان قسّمه شقيّاً، فلا يقدر أحد أن يجعله شقيّاً إن كان قسّمه سعيداً.

كذلك لا يقدر أحد أن يجعل رزقه قليلاً، إن كان قسّمه واسعاً، ولا يستطيع عبد مثله أن يجعل قسّمه واسعاً، إن كان نصيبه ضيقاً. كما لا يقدر أحد أن يمنعه؛ إذ هو الله المعطى، ولا يعطيه ما منعه مولاه؛ إذ هو المانع، كما قال الرسول ﷺ: «لا مانع لما أعطيت» أى من قسم، «ولا معطى من الخلق» ما منعت أى من الحكم.

وكما لا يستطيع عبد أن يبدل خلقه لأن الله تعالى خلقه، كذلك لا يقدر أن يحول رزقه؛ لأن الرزاق هو الخالق، كما المقدّر هو المصور، ولأن ذلك كله قد كتب كتباً واحداً، وجعل مُجعّلاً سراً.

وإن ارتفعت مُشاهدته، نظر إلى هذا فى اللوح المحفوظ - مفروغ له منه - وهو أم الكتاب الذى استنسخ منه هذه الصحيفة، فكان يقينه كتب رزقه فى اللوح، وأنه لا يُزاد فيه بحولٍ، ولا بحيلةٍ، ولا يُنقص منه لعجز ولا سكينه، كيقينه بما أنت

فيه من أنه من أهل الجنة؛ فهو داخلها لا محالة، وإن عمل أى عمل بعد أن يكون قد كُتِبَ اسمه فى اللوح، وجُعِلَ له فيها أثرٌ، فصار من ورثتها بالمكان الذى مُهِدَ له فيها، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، فقد كُتِبَ الآثارُ والأرزاقُ والأخلاقُ من كلِّ شىءٍ كُتِبَ واحداً فى ثلاثة مواضع؛ توكيداً للعلم، وتسكيناً للقلب فى القسم، كُتِبَ ذلك: فى الذكر الأول وهو اللوح المحفوظ، ثم فى الزُّبرِ الأولى وهى الصحف، ثم أنزل ذلك فى كتابنا هذا الذى به عَرَفْنَا ما سلف من ذلك.

وإن علَّتْ مشاهدته إلى العلىِّ الأعلى، لعلو مرتبته، ونُفُوذ علمه، وقوة يقينه، إذ مشاهدة كلِّ عبدٍ عن مقامه من معبوده، ومن مكانه فى دنوه وعلوه - شهد هذا الذى ذكرناه معلوماً فى علم الله تعالى قبل خلق اللوح، فسكن قلبه واطمأن إلى علم الله سبحانه وتعالى وما سبق له منه؛ ولهذا جاء فى الأثر أن الزهد فى الدنيا: «أن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك، وأن تكون فى ثواب المصيبة أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك»، أى: فىقل حرصك لنفاذ شهادتك، ويذهب فى الخلق طمعك لوجود زهدك؛ فهذا هو الرضا والزهد، فقد جمع التوكلُ المقامين معاً.

فما فى يد الله سبحانه وتعالى هو رزقك الواصل إليك، لا شك فيه على أى حال، وهو الذى لك عند الله، وهو معلوم علم الله تعالى الذى لا يتقلب، وذلك فى الكتاب المستطر، ولأجل ذلك أعلم أنه بعين الخبر ليقع به ترك الأسى على ما فات إذ لم يقسم له، وفقد الفرح بما هو آتٍ لأنه قد جعل له، فكان هذا فى تدبر الكلام من المخبر العلام فى قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ الهاء كناية عن ثلاث تقدمت أسماؤها: المصيبة، والأرض، والنفس. أى: قد سبق ذلك، وفرغ من خلقه من قبل أن يظهر المصيبة، ثم قال: ﴿لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ لأنه لم يجعل نصيباً لكم فيشغلكم الحزن عليه عن الشغل بسيدكم ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢ - ٢٣]

لأنّه حاصلٌ لكم، فيقطعكم الفرحُ به عن الانقطاع إلى مولاكم. وهذه شهادةُ التّالين بحقّ اليقين حقّ تلاوته.

وذلك أحد ثلاثة أشياء: ما أكلتَ فأفنيته، أو لبستَ فأبليتَ، أو تصدّقتَ فأمضيتَ. فهذا هو الذي لك في الدنيا والآخرة.

ولذلك قال ﷺ: «يقول ابن آدم: مالي، مالي، مالي!!» تعجباً من جهلِ ابن آدم وغفلته، ثم استثنى هذه الثلاث فقال: «إنما لك من مالك» فذكر هذه الثلاث، واشترط مع كلّ واحدةٍ آخرَ غايتها، فقال: «ما أكلتَ فأفنيته، أو لبستَ فأبليتَ، أو تصدّقتَ فأمضيتَ». فاشترط الإفناء، والإبلاء، والإمضاء، ثم قال بعد ذلك: «وما سوى ذلك فهو مالُ الوارث».

فهذه الأسبابُ الثلاثُ على هذه الأوصاف هي رزقُ العبد، وهي التي في يد الله عزّ وجلّ له، الواصلةُ إليه. فأما ما جعله في يد العبد فقد لا يكون له، وإنّما هو مستودعٌ إيّاه، ومُستخلفٌ فيه، وإن تملّكه وحازَهُ خمسين سنة. وإنّما للعبد ما فرغَ له منه لما سبق له به، وهو الذي فصلَ له من مثالِ الكتابِ الذي كان يُوفّاهُ فيستوفيه غير منقوصٍ، ولا يريد بمطالبه ولا اكتسابٍ، ألم تسمع إلى قولِ العزيز الوهاب: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ [الأعراف: ٣٧]، وقوله: ﴿وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩]. فإن تملّكَ سوى هذا وادّعاه؛ لأجل أنّه في خزانته، أو قبضِ يده، فذلك لجهله بالله تعالى، وقلةِ فقهه عن الله سبحانه، وغفلته عن حكمة الله تعالى؛ لأنّه لو عرّفَ حكمةَ الله وقدرته، علم أن صندوقه وخزائنه ويده من خزائن الله تعالى في أرضه، جعلها الله في ملكه وقبضه، يودعها من يشاء، إلى الوقت الذي وُقِّتَ له، فيستقرّ عند من هي له كيف شاء، فقد قال تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨]. وقال: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧]. وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المناقر: ٧].

وهكذا رُوينا عن نبينا ﷺ: «إنّ الرزقَ ليطلبُ العبدَ كما يطلبه أجله». وقال ﷺ: «وإنّ لكل عبدٍ رزقاً هو آتية لا محالة، فمن قنع به ورضى، بُورك له فيه

ووسعه. ومن لم يَقْنَع به ولم يَرْضَ، لم يُبَارَكْ له فيه، ولم يسعه». وفي الخبر الغريب: «مَنْ ظَنَّ أَنْ حِرْصَهُ يَزِيدُ فِي رِزْقِهِ، فَلْيَزِدْ فِي طَوْلِهِ وَعَرَضِهِ». فسوى بين بسط الرزق وقبضه، وبين طول العبد وعرضه. وفي الخبر المجمل: «أهل كل رزق هو آكله، وآثره، وواطئه، وحتف هو قائله». ويقال: لو هرب العبد من رزقه كما لو هرب من الموت لأدركه.

وقال في الرجل الذي كان أضاق بنفسه: «إن التمرة إن لم تأتأها لأتتك هي»، ألا ترى أنه قال: لأتته التمرة، وهي لا تسعى بنفسها، ولكن نحن نسعى إليها. وكذلك الرزق على تصريفين: رزق طلبته فتلقاه، ورزق يطلبك فيلقاك، وما لقاك شيء فقد لقيته. ولذلك جاز أن يُقرأ بالحرفين سواء: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ و ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ [البقرة: ٣٧]؛ لأن ما لقيته فقد لقيك، فتدبر. قال: وقلت لبعض السلف: لو أن عبداً دخل بيتاً وطن عليه باباً، ولم يعلم به أحد، كان رزقه يأتيه؟! فقال: نعم. فقلت: من أين يأتيه؟ فقال: من حيث يأتيه ملك الموت.

وفي وصية النبي ﷺ لابن عباس: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الخلائق لو جاهدوا أن ينفعوك بما لم يكتبه الله لك ما قدرُوا على ذلك، ولو جاهدوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله سبحانه عليك لم يقدروا على ذلك، طُوِيَتِ الصحف وجفَّتِ الأقلام».

فمن كانت هذه مشاهدته في القسم المعلوم سَقَطَ عنه جملة من الهموم، واستراح من النظر إلى الخلق، واستراح الخلق من أذاه، وشغل عنهم بخدمة مولاه، وكان قد فهم شيئاً من الخطاب، وممن أقبل على الله الكريم بصالح ما دعاه إليه واستجاب.

كما روى أن رجلاً لزم بابَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كلَّ غداة، فشَهِدَ عمرُ منه مجيئه لأجل الطلب، فقال له: يا هذا، هاجرتَ إلى عمر، أو إلى الله؟! اذهب فتعلّم القرآن؛ فإنه سيغنيك عن باب عمر. فذهب الرجل فغاب زماناً حتى

افتقده عمر، فسأل عنه، فدلّ عليه، فأتاه، فإذا هو قد اعتزل الناس وأقبل على العبادة، فقال له عمر رضى الله عنه: إني قد افتقدتك؛ حتى اشتقت إليك، فما الذى شغلك عنا؟ فقال: إني قد قرأت القرآن؛ فأغثنى عن عمر وعن آل عمر. فقال له عمر: رحمك الله، فما الذى وجدت فيه؟ فقال: وجدت فيه: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]. فقلت: رزقى فى السماء، وأنا أطلبه فى الأرض؟! فبكى عمر، وكانت موعظة له منه، فكان عمر بعد ذلك يأتيه فى بعض الأحيان، فيجلس إليه، ويستمع منه.

فهذه علامة مراد من مطلوب. والطالب المردود إذا تعلّم القرآن افتقر إلى الخلق، وازداد طمعاً فيهم، وطمع بالقرآن، وتكبر عنهم. فالقرآن كشف المرادين، والمردودين، هو غنى للموقنين، وهو فقر للطامعين.

وجاء رجل إلى بشر بن الحارث فقال: إني قد عزمت على سفر إلى الشام، وليس عندى زاد، فما ترى؟ فقال: يا هذا، اخرج فيما قصدت له، فإن لم يعطك ما ليس لك لم يمنعك ما لك.

وشكا رجل إلى فضيل حاله. فقال: يا هذا، مدبر غير الله تريد؟

وكان الحسن يقول: التوكل هو الرضا. وفى تفسير قوله عز وجل: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فصلت: ١٠] قال: خلق الأرزاق قبل الأجسام بالفى عام، فالتوكل لا يطالب مولاة برزق غد، كما لا يطالبه مولاة بعمل غد.

فأما المتوكل فى المضمون من الرزق، المعلوم من القسم، فهو توكل العموم يستحى الخصوص من ذكره، ويتكرمون عن نشره، إذ كان الله تعالى قد أقسم بنفسه أن الرزق فى السماء حق، كما أقسم بنفسه أن كلامه حق، فجمع بينهما فى الحقيقة بالقسم بالذات دون سائر الأفعال؛ لتسكن بذلك نفوس الخليقة عن النظر إلى الأدوات؛ ليرتفع الشك فيهما ويحصل اليقين بحقيقتهما، فقال سبحانه: ﴿فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣]. كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣]. وليس فى القرآن قسم بالذات فيما

سَبَرْنَاهُ إِلَّا خَمْسَةً: الْقَسَمَ الَّذِي فِي سُورَةِ النَّسَاءِ عَلَى تَسْلِيمِ الْأَحْكَامِ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] الآية، وفي سورة التغابن على بعث الكافرين وأبنائهم: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُعْثُنَّ﴾ [التغابن: ٧]، وفي سورة المعارج من ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ [المعارج: ١] في تبديل الخلق خلقاً خيراً منهم: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ إلى قوله: ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج: ٤٠ - ٤١]، وهذان القسمان المتقدمان، وسائر الأقسام بالأفعال، ولأنَّ العبد قد وُكِّلَ برزقه مَنْ يقوم له به من الخلق؛ فإن لم يُرزَقْ من كَسْبِهِ وَعَنْ يَدِهِ رُزْقٌ مِنْ كَسْبٍ غَيْرِهِ وَيَدِهِ، وَلَكِنْ شُغِلَ الْخُصُوصُ بِأَعْمَالِ الْآخِرَةِ، وَمَا يَفُوتُهُمْ مِنَ الْقُرْبَاتِ إِلَى اللَّهِ عِزٍّ وَجَلٍّ، وَبِالْخِدْمَةِ لِلْمَوْلَى الَّذِي وَكِّلَ إِلَيْهِمْ، فَإِنْ لَمْ يَقُومُوا بِهِ، لَمْ يَقُمْ بِهِ غَيْرُهُمْ لَهُمْ، وَلَمْ يَنْبُ غَيْرُهُ مِنَ الدُّنْيَا مَنَابَهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية: ٨ - ٩]، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧]، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى: ٢٠]. وَلَمْ يَقُلْ هَذَا فِي أَرْزَاقِ الدُّنْيَا. وَمَعْنَى الزِّيَادَةِ أَنْ لَا يَحَاسِبَهُ عَلَى مَا يَعْطِيهِ مِنَ الدُّنْيَا، إِذْ لَا زِيَادَةَ فِي الْقِسْمِ.

وقد قيل: إنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعْطِي الدُّنْيَا عَلَى نِيَّةِ الْآخِرَةِ، وَلَا يُعْطِي الْآخِرَةَ عَلَى نِيَّةِ الدُّنْيَا. وَهَذَا لَعَلَّوُا الْآخِرَةَ وَفَضَّلُهَا وَدَنَاءَةَ الدُّنْيَا وَنَقَصُهَا. وَكَانَ عَلَى رِضَى اللَّهِ عَنْهُ يَقُولُ: أَلَا إِنَّ حَرْثَ الدُّنْيَا الْمَالُ، وَحَرْثَ الْآخِرَةِ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَقَدْ يَجْمَعُهَا اللَّهُ لِأَقْوَامٍ.

وقد قيل: إنَّ الزِّيَادَةَ فِي الْآخِرَةِ رَفْعَةُ الدَّرَجَاتِ وَالْمَنَازِلِ لِمَنْ كَانَتْ نِيَّتُهُ وَقْصَدَهُ، وَلَهَا يَعْمَلُ، فَشُغِلَ الْخُصُوصُ بِمَا وَكِّلَ إِلَيْهِمْ، وَبِمَا لَا يَعْمَلُهُ غَيْرُهُمْ لَهُمْ، عَمَّا تَكْفَّلَ بِهِ لَهُمْ، فَأُقِيمَ غَيْرُهُمْ فِيهِ مَقَامَهُمْ، وَنَابَ أَيْضًا عَنْهُ مِثْلُهُ مِنْ أَسْبَابِ دُنْيَاهُمْ. كَمَا رُوِيَ فِي أَخْبَارِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنِّي خَلَقْتُ مُحَمَّدًا لِأَجْلِي، وَخَلَقْتُ

آدمَ لأجلِ محمد، وخلقتُ ما خلقتُ لأجلِ آدم. فمن اشتغل منهم بما خلقتُهُ لأجله حجبته عني، ومن اشتغل منهم بى سقتُ إليه ما خلقتُهُ لأجله».

وتوكلُ الخصوص أيضاً فى الصبر على الأذى من القول والفعل؛ إذ كان أمرُ بذلك الرسول فى قوله تعالى: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا * وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل: ٩ - ١٠] مع قول الرسل عليهم السلام: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]، وكذلك أمر نبيّه عليه السلام لما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ افْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فأمره باتباعهم، وقال: ﴿وَدَعِ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٨]، وقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الاحقاف: ٣٥].

وقال بعض العارفين: لا يثبت لأحد مقامٌ فى التوكل حتى يستوى عنده المدح والذم من الخلق فيسقطان، وحتى يؤذى فيصبر على الأذى، يُستخرج بذلك منه رفع السكون إلى الخلق، والنظر إلى علم الخالق الذى سبق.

ثم التوكلُ فى الصبر على حسن المعاملة، وترك الطلب للمعارضة؛ حياءً من الله، وإجلالاً له، وتَخَوُّفاً منه، وحباً له. فقد وصفهم بذلك ظاهراً وباطناً، فالظاهرُ قوله تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨ - ٥٩]. فلما عَمِلُوا صَبَرُوا على عَمَلِهِمْ، ثم تَوَكَّلُوا عليه فى صَبَرِهِمْ، فأنعمَ أجرهم، وأجزلَ دُخْرُهُمْ عنده منه فى الإطعام لوجهِ الله تعالى، فيما أخبر عنهم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩] فقطعهم الخوفُ عن الطلب. ففى قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ وجهٌ حسن غريب، وهو باطن الآية من اللغة، قد يكون بمعنى: لا نريد بدلاً منكم عوضاً، المعنى: لا نريد منكم عوضاً بدلاً مما فعلنا بكم، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠] ليس أنه يجعلُ من البشرِ ملائكةً، ولكن المعنى: بدلاً منكم. هذا أحد الوجهين فى الآية، وهو أعلاهما.

والوجه الظاهر: أن يكون «الكاف والميم» أسماء المطعمين، أى لا نريد من عندكم «جزاء» أى مكافأة، ولا «شكوراً» أى حسن ثناء. فلما لم يطلبوا العوض من عنده؛ لأنهم فعلوه لوجهه، ولا أرادوا التعويض من أجلهم، ولا المكافأة من عندهم، وقالوا: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا﴾ [الإنسان: ١٠]، جزاهم أفضل الجزاء، وأحسن لهم غاية العطاء، فقال تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢١ - ٢٢]. إذ لم تطلبوا منا عليه جزاءً ولا شكوراً، جعل جزاءهم شرباً طهوراً، وجعل سعيهم لديه مشكوراً فى التوكل عليه فى تسليم الحكم والرضا به. ومنه قول يعقوب عليه السلام حين سلم الحكم توكلأ على الوكيل الحاكم: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يوسف: ٦٧]؛ لأنَّ العبد إذا كان مُريداً لمراد نفسه من الأشياء، وقد لا يوجد فى كلِّ شيء إرادته، ثم هو على يقين من إرادة مولاه لكلِّ شيء، وأنَّ كلَّ شيءٍ مرادُّ لوكيله، فينبغى أن يريد ما يريد مولاه، إذا لم يتفق له ما يريد، بل ينبغى أن يكون مرادُّ مولاه أحبَّ إليه، وأثرَ عنده؛ لأنَّ ما أرادَه مولاهُ ممَّا لا عقوبةَ على العبد فيه، ولا مسخطةَ لمولاه به، فإنه محبوبٌ لله تعالى، مختارٌ له. فلتكن محبةُ الله عزَّ وجلَّ مُقدِّمةً لديه على محبته هو واختياره، إذ لله عاقبةُ الأمور. وقد شَرَّفَ المتقين ونزَّههم عن أمورِ العاجلةِ الدنيَّة، بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وكما روى فى أخبار موسى عليه السلام: «إذا لم يكن ما تُريد فأرد ما يكون، فإن أبيت إلا ما تريد أتعبتك فيما تُريد، ولا يكون إلا ما أريد».

وروى عن الحسن: ودِدْتُ أَنْ أَهْلَ الْبَصْرَةِ فى عيالى، وأنَّ حبةً بدينار.

وهذا من نهاية التوكل. وليس ذلك إلا فى تسليم الأحكام، والرضا بها كيف جرت بهم؛ لأن هذا كلام قد جاوز المعقول، فلعلَّه يُطعمهم الموت.

وقد كان وهيبُ بن الورد المكي يقول: لو كانت السماء نحاساً، والأرض رصاصاً، ثم اهتمت برزقى لظننت أنى مشرك. ويقال: من اهتم برزق غدٍ،

وعنده اليوم قوتُ غدٍ، فهى خطيئةٌ تُكتب عليه. وقال سفيان الثوري: الصائم إذا اهتمَّ فى أوّلِ النهارِ بعشائه كُتب عليه خطيئة.

وكان سهل يقول: إنّ ذلك يُنقص من صومه. وقال: أعرفُ فى البصرة مقبرةً عظيمةً، يُغذى على موتاهم برزقهم من الجنة بكرةً وعشية، يرون منازلهم من الجنان، وعليهم من الغموم والكروب ما لو قُسم على أهل البصرة لमतوا أجمعين. قيل: ولم؟ قال: كانوا إذا تغدّوا قالوا: بأى شيء نتعشى؟ وإذا تعشّوا قالوا: بأى شيء نتغدى؟ وقال مرة أخرى: لم يكن لهم من التوكّل والرضا نصيب.

فهذه المقامات من فضائل التوكّل، وفوقها ما لا يصلح رسمه فى كتاب، من مكاشفات الصديقين، ومشاهدات العارفين؛ منها: أنّه أعطاهم «كن» بإطلاعه إياهم على الاسم، فزهّدوا فى كون «كن» لأجل «كان»، توكلاً على كينونته الكيناء، وحياءً منه أن يعارضوه فى قدرته أو ينازعوه فى ملكه، أو يرغبوا عن تقديره، أو يضاهوه فى تكوينه؛ لأنّ تدبيره عندهم أحكم وأيقن، وهو بالعواقب أعلم وأخبر، وهم له أشدُّ إجلالاً وإعظاماً مما نقدر نحن ونعلم.

فأما التوكّل عليه فى القوتِ فإنّه عندهم من فرض التوكّل، فيستحيون من ذكره مع الوكيل. وكذلك التوكّل عليه فى تسليم الأقدار حلّوها ومُرّها، خيرها وشرّها، من الله حكمةً وعدلاً.

كما قال رسولُ الله ﷺ: «كلُّ شيءٍ بقضاءٍ وقدرٍ، حتى العجزُ والكيس». وكما قال: «تعلّم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك». وكذلك قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ﴾ [القمر: ٥٣].

فالعلمُ بهذه الأشياء، وطمأنينة القلب بها، وسكينة العقل عند ورودها، وأن لا يضطرب بالرأى والمعقول، ولا ينازع بالتشبيه والتمثيل، فإنّ هذا عندهم من فرائض الإيمان؛ لا يصحّ إيمانُ عبدٍ حتّى يسلم ذلك كلّهُ، وليس هذا من التوكّل فى شيء.

ومنه قول ابن عباس: القدرُ نظامُ التوحيد، فمن وحدَ الله وكذّبَ بالقدر، كان

تكذيبه بالقدر نقصاً لتوحيده. فجعل الإيمان بالأقدار كلها أنها من الله مشيئةً وحكماً؛ بمنزلة الخيط الذى ينتظم عليه الحبُّ، وأن التوحيد منتظمٌ فيه. يقول: إذا انقطع الخيط سقط الحبُّ. قال: كذلك إذا كذب بالقدر ذهب الإيمانُ.

فالتوكلُ فرضٌ وفَضْلٌ؛ ففرضه منوطٌ بالإيمان، وهو تسليمُ الأقدار كلها للقادر، واعتقادُ أن جميعها قضاؤه وقدره. ألم تر إلى ربك كيف أقسم بنفسه فى نفى الإيمان عمّن لم يحكم الرسول فيما اختلف عليه من حاله، فقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] فكيف لمن لم يُسلم الحكم للحاكم الأول المرسل والقاضى الأجل؟

فأما فَضْلُ التوكل فإنه يكون عن مشاهدة الوكيل، فإنه فى مقام المعرفة ينظر عين اليقين، كما قال العبدُ الصالح: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥]، فظهرت منه قوةٌ عظيمةٌ بقوى، وأخبر عن عزيزٍ بعزٍّ، فكأنه قيل: ولم ذاك وأنت بشرٌ مثلنا ضعيفٌ؟ فقال: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ﴾ فكأنه سئل عن تفسير توكله كيف سببه! فأخبر بمشاهدة يد الوكيل آخذةً بنواصى دوابِّ الأرض، فقال: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ ثم أخبر عن عدله فى فعله، وتماح حكمته، وقيومية صنعته، وأنه وإن كان آخذاً بنواصى العباد فى الخير والشرِّ، بحكم المراد للنفع والضرِّ، للتقريب والإبعاد، لأجل باطن العلم، وسابق القسم^(١)، فإن ذلك كله قائمٌ بوصفه، مستقيمٌ فى عدله، وصوابٌ من حكمه، فقال: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

وقال تعالى فى فرض التوكل: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]. وقال فى فرضه: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]. وقال فى فضله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢] أى

(١) القسم (بالكسر): الحظ والنصيب من الخير.

يَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ فِي تَوَكُّلِهِمْ، كَمَا تَوَكَّلُوا عَلَيْهِ فِي الْأَسْبَابِ. وَقَالَ فِي مِثْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

• ذكر إثبات الأسباب والأواسط لمعاني الحكمة، ونفى أنها تحكم، وتجعل لثبوت الحكم والقدرة للحاكم الأول؛

اعلم أن الله عز وجل ذو قدرة وحكمة، فأظهر أشياء عن وصف القدرة، وأجرى أشياء عن معاني الحكمة؛ فلا يُسْقَطُ المتوكل ما أثبت من حكمته؛ لأجل ما شهد هو من قدرته من قبل أن الله تعالى حكيم.

فالحكمة صفته، ولا يثبت المتوكل الأشياء حاكمةً جاعلةً نافعةً ضارةً؛ فيُشْرِكُ في توحيده، من قبل أن الله قادر والقدرة صفته، وأنه حاكم جاعل ضارٌ نافع، لا شريك له في أسمائه، ولا ظهير له في أحكامه، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبا: ٢٢].

الشرك: الخلط. والظهير: المعين. كما هو الفاعل لكل شيء وحده؛ لأنه هو الأول، كذلك هو القائم به، المتمم له بعد ظهوره وحده؛ لأنه هو الآخر.

فالدهرية: ألحَدَت في أسمائه، فقالوا: نحن الأول والآخر، لآثا فاعلين، والأفعال تظهر عنا وتوجد مِنَّا، فنحن شهادةً لنفوسنا، ولا نؤمن بالغيب.

والقدرية: ألحَدَت في اسمه الأول، فقالوا: نحن الأول في الشر لأفعالنا، باستطاعتنا واكتسابنا بنفوسنا، والله الآخر بالعقوبة.

والموحدون: قالوا: الله الأول بالقضاء والقدَر، كما هو الآخر بالعقاب والأجر، فوحده هؤلاء في الأسماء بشهادة التوحيد فيها.

وألحد الآخر في أسمائه، فكفر الدهريون بالتوحيد، وأشرك القدريون في الاستطاعة والقدرة، ﴿يُضَاهَتُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]، ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي

أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فتدبرُوا.

ثم إنَّ المتوكِّلَ مع مشاهدته قدرةَ الله على الأشياء، وأَنَّهُ منفردٌ بالتقدير والتدبير، قائمٌ بالملك والمملوك، هو أيضًا عالمٌ بوجوهِ الحكمةِ في التصريف والتقليب، بإظهارِ الأسبابِ الأواسط لإظهارِ الأشخاصِ والأشباح، لإيقاعِ الأحكامِ على المحكوم، وعودِ الثوابِ والعقابِ على المرسوم، من حيث كان المتوكِّل قائمًا بأحكامِ الشريعة، ملتزمًا لمطالباتِ العلم، مع تسليمه الحكمَ الأوَّلَ لله، واعترافه أن كلاً بِقَدَرِ الله؛ إذ سمع الله تعالى يقول: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وأنَّ الله تعالى في جميع ما أظهر أخفى قدرته في حكمه؛ فظهرت حكمته في الأشياء لعود الأحكام على المظهرين لها، وبَطَنَت قدرته في الأشياء لرجوع الأمرِ كُلِّهِ إليه، ولإتقانِ الصنعةِ الظاهرةِ لصنعِ الباطن.

فلذلك قال عزَّ وجلَّ: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، أى: صنعه الباطنُ أَتَقَنَ صنعه الظاهرَ. ثم قال تعالى: ﴿وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ من الظاهر والباطن ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] في جميع ذلك.

فللعارف المتوكِّل من الصنعةِ الباطنِ شهادةٌ، هو قائمٌ بها، وله في الحكمةِ الظاهرةِ عِلْمٌ شرعٍ وتسليمٌ أسمٍ، ورَسْمٌ هو عامل به، وهذا هو شهادةُ التوحيد في عبادةِ التفضيل، وهو مقامُ العلماءِ الربانيين.

وكلُّ مؤمنٍ بالله متوكِّلٌ على الله، ولكن توكَّل كلُّ عبدٍ على قدر يقينه. فتوكَّلُ الخصوصُ ما قدَّمناه من ذِكْرِ المشاهدةِ ومعاني الرضا بانتفاء وجهِ المضادةِ لاعتبارِ الهوى، وتوكَّلُ العمومُ ما عَقَّبناه من الإيمانِ بالأقدارِ خيرها وشرِّها.

وقد أخبر الله تعالى أنه هو الرزاق، كما هو الخالق، كما هو المحيي المميت، ففَرَنَ بين هذه الأربع في قرن واحد مع ترتيب الحكمة، يتبعها نظامُ القدرة. فكيف يختلف معناها؟ أم كيف لا تأتلف حكمه بها؟ بل كيف يتبعُ بعضُ وصفها لظهور الأسباب، ولأجل وجودِ الوسائطِ والأبواب؟ فقال سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠]، فكما ليس في الثلاث

الأخر جاعلٌ ومُظهرٌ إلا الواحد؛ فكذا ليس في الرابعة من الرزق إلا هو. ألا ترى أنك لا تقول: خلقتني أبي، وإن كان هو سبب خلقك؟ ولا تقول: أحياني وأماتني فلان، وإن كان أواسط في الإحياء والقتل؛ لأنّ هذا شرك ظاهر اشتهر قبحه فترك؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨ - ٥٩]، وكذلك قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣ - ٦٤]. فأضاف الإماء والحرث إلينا؛ لأنها أعمال، ونحن عبيدُ عمال؛ ولأنّها صفاتنا، وأحكامها عائدةٌ علينا؛ وأضاف الخلق والزرع إليه؛ لأنها آيات عن قدرته وحكمته، والله هو القادر الحكيم.

فأمّا إنزال الماء من المزن، وإبداع الخلق، [فهو فعل] عموم؛ لأنّه فعلُ الله صِرْفًا، بغير يد مخلوقة. وكذلك الأولان من غير [شبهة]. ولكن دخول الشبهات في التوحيد هو لضعف شاهد اليقين، كما تدخل في الإحياء والإماتة لما حاجّ الكافر بهما، فادّعى وصف الربوبية، أن آتاه الله الملك، قال: أنا أحيى وأميت، أقتل رجلاً، وأخلّي آخر قد وجب قتله، فأكون قد أحييته. فما جادّله إبراهيم عليه السلام في حاجته، ولا نقض عليه شبهته باحتجاجه، [ولكن آتاه] من غير فعله، فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] الآية، فأبهرته إذ ذكر له شيئاً لا يد له فيه؛ لأنّ الذي يأتي بالشمس من مشرقها عند الموحّدين، هو الذي يحيى ويميت نفوسهم (...). الكافر عند ذلك لدخول الشبهة بفعله. فلما ذكر ما لا بد فيه بهت (...). المعانين للقدرة، الناظرين بعين اليقين إلى اليد القادرة (...). وجود الشبهات من الشك الخفى لا يخرجها إلا التوحيد (...).^(١) النفس دكّا، تلاشى بحضوره، ويجد القلب كلّ من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

وكذلك كل ما ذكر في الكتاب من الأعمال والاكتساب أضيف إلى الجوارح المجترحة؛ لتحقيق به أسماؤها، ونُسبت إلى الأدوات المكتسبة ليثبت به رؤومها، وما كان من القدرة والإرادة ووصف نفسه به؛ لأنّه المريد الأول، والقادر الأعلى،

(١) هذه المواضع غير مقروءة في المخطوط، وهي قدر نصف سطر في كل موضع.

فافهم عن الله خطابه؛ كيلا يَزِغُ قلبك فيما تشابه، ذلك تقدير العزيز العليم، وتفصيل اللطيف الحكيم. والسرّ غامض في قعر ذلك، وإفشائه ليس من البرّ، والقدرة محيطة بجميع ذلك، وإخفاؤها رحمة من البرّ.

ثم قد يقول العبدُ: أعطاني ومنعني فلان؛ لأنّ هذا شركٌ خفيٌّ، ولأنّ الأسباب تظهر على أيديهم، والأقدارُ تجري بلُطفِها فيهم، قد جعلوا أواسطها، وصيّروا أبوابها، وعنده مفاتيحُ غيبها، وعندهم أقفالُ شهادتها، واللهُ غَالِبٌ على أمره، أن يظهر على ما أبطن من سرّه، فقد غلبَ الخليفةَ به، وقهرَ العبادَ أن يظهرُوا عليه، فحُجِّبوا بالأسبابِ عن المقدرِ الوهاب، ولو ارتقوا في الأسبابِ لعَيْنُوا المسبَّبَ التَّوَابَ.

فاستتر عنهم المعطى المانعُ بقدر ما انكشف من الأماكن والصنائع فهو شركٌ خفيٌّ، فقبُح هذا عند المُخلصين بالتوحيد، والموقنين بشهادة الشهيد، كقبُح ذاك الشُّركِ الظاهر الجليّ الذي قدّمنا ذكره؛ لأنّ الله تعالى نفى الرِّزْقَ عن سِوَاهُ، كما نفى الخلقَ، فقال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ﴾ [فاطر: ٣]؟ فلم يردّ اللفظَ على اللفظ وإن حَسُنَ، فيقول: يخلقكم، لأنّه أراد إفادتنا فضلَ بيانٍ، ويعلمنا اقترانَ الرِّزْقِ بالخلقِ، وأنهما في العقلِ والقدرةِ سيَّان.

فالمتوكِّل قد أيقن أنّه لم يكن على الله أن يخلقه، فلمّا خلّقه كان عليه أن يرزقه. وهكذا روى عن الله تعالى: «أَخْلَقَ خَلْقًا وَلَا أَرْزُقُهُ؟».

كما روينا عن رسول الله ﷺ: «لو هَرَبَ أَحَدُكُمْ مِنْ رِزْقِهِ لَأَدْرَكَهُ رِزْقُهُ، كما لو هَرَبَ مِنَ الْمَوْتِ لَأَدْرَكَهُ»، فسوى بين دركِ الرِّزْقِ وإدراكِ الأجلِ، كما لم يكن على الله أن يحييه أولاً، فلمّا أحياه كان على الله تعالى بعد أن أحياه أن يميته ثانيًا؛ لأنّه مَيِّتُ الأحياءِ بعِزّةٍ وقَهْرِهِ. كذلك عليه أن يرزقه ثانيًا، بعد أن خلقه بكرمه وفضله أولاً؛ لأنّه أوجبَ على نفسه أن يرزقَ الأحياءَ، كما أوجبَ لنفسه أن يحيى الأمواتَ.

وكان سهلٌ يقول: لو أن العبدَ سأل الله أن لا يرزقه ما استجاب له أبدًا، ولقال

اسكت يا أحمق، لو لم أُرِدْ أن أرزقك ما خلقتك، أنا الذي خلقتك لا بُدَّ أن أرزقك كما خلقتك.

وقال الرسول ﷺ: «لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد». ردًا عليهم حين قالوا: جدى فى كذا، وجدى فى كذا، يعنون صنوف الأسباب. فنفى ذلك بقوله هذا فى صلاته، وأسمعهم إياه؛ خشية دخول الشرك عليهم بآياته التى جعلها مثابًا لأرزاقه أن ينظروا إليها، فيلحدوا فى التوحيد بها. أى جد العبد لا ينفعه منك شيئًا إن منعته، فهذا كما قال الله تعالى: ﴿وإنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨].

وكان أبو محمد يقول فى تأويل هذا: من جد فى الطلب، وحرص، وجد منك المنع، لم ينفعه جدّه فى طلبه وحرصه شيئًا. وقال أيضًا فى معنى قول الله عز وجل: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ [الرعد: ٣٩] قال: يمحو الأسباب من قلوب العارفين ويثبت القدرة، ويمحو المشاهدة من قلوب الغافلين ويثبت الأسباب فى صدورهم. وقال أيضًا: خلق الله النفس متحركة، ثم أمرها بالسكون؛ وهذا هو الابتلاء. فإن تداركها بالعصمة سكنت وهذا خصوص، وإن تركها تحركت بطبعها وجبلتها، وهذا هو الخذلان منه. يشهد لقوله هذا قول الله سبحانه: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ﴾ فهذا خبر الخلق، ثم قال فى بلوى الأمر: ﴿سَأْرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

وكان الخواص يُرتب بين الخصوص والعموم بوجود الحركة والسكون، فقال: القلوب على حالين، فمن دامت حركته وسعيه كان موصوفًا بنفسه لغلبة شاهد النفس عليه؛ لقوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، ومن دام سكونه كان موصوفًا بالحق لغلبة شاهد الحق فى سكينته؛ لقوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقال النهرجورى فى معناه: قلوب الأولياء مواضع المطالع، لا يتحرك ولا ينزعج، بل تطمئن خو...) مناجاة، فطالعه فيجده متوسمًا بسوء الأدب.

فالتوكلُ (...) وحُكمه، ففعله ظاهر، ووصفه باطنٌ. واللهُ هو الظاهرُ الباطنُ (...). والله هو الحاكم الراسم. فتفكروا.

وقال بعض أهل المعرفة في تأويل قوله تعالى: ﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١]: هو التوكلُ، لأنه أبقى للعبد من (...) (١) والتَّعَب.

وفي وصية لقمان لابنه: «يا بني، اردد رغبتك إلى الله، إن شاء أعطاك، وإن شاء منَعك، فإنَّ حيلتك لن تزيدَكَ ولن تنقصَكَ من قِسمةِ الله التي قَسَمَ لك، واعتبرْ رزقَكَ بخَلْقِكَ، فإن استطعتَ أن تزيدَ في خَلْقِكَ بحيلتك فإنك إذاً تزيدَ في رزقِكَ، وإلا فاعلَمْ أنَّ الله هو الذي عدَلَ الخلقَ وقَسَمَ الرزقَ، فلن تستطيعَ أن تزيدَ في أحدٍ منهما، وإنَّ منهم المحتالَ الجلدَ البطوش، ولا يزدادُ إلا فقراً، ومنهم العبيُّ الواهنُ المهين، ولا يزدادُ ماله إلا كثرةً، ولو كان من الحيلة لَسبقَ القوى الضعيفَ إلى كل شيء، ولكنَّ اللهَ يخلق ويرزق، ولا يملكُ العبادُ من ذلك شيئاً».

فهذا كما كنا ذكرناه آنفاً عن نبينا ﷺ: «من ظَنَّ أنَّ حرصه يزيد في رزقه فليزد في طوله وعرضه».

وهكذا حكى أن بعض الأكاسرة سأل حكيماً في زمانه فقال: ما بالي أرى العاقلَ محروماً والأحمقَ مرزوقاً؟ فقال: أراد الصانعُ أن يدلَّ على نفسه، ولو كان كلُّ عاقلٍ مرزوقاً، وكلُّ أحمقٍ محروماً، لوقع في العقول أن العاقلَ يرزق نفسه، والأحمقَ حرَمَ نفسه، فلما رأوا الأمر بخلاف هذا علموا أن الصانعَ هو الرازق.

ورؤينا عن ابن مسعود: إن في إعطاء هذا المال فتنةً وفي منعه فتنةٌ؛ إن أُعطيَه عبدٌ مدحَ غير الذي أعطاه، وإن منعه عبدٌ دَمَّ غير الذي منعه.

وقد رؤينا معناه في حديث مطرّف عن بعض أصحاب النبي ﷺ أنه خطب فقال: «ألا إنَّ في إعطاء هذا المال فتنةً، وفي منعه فتنةٌ: يغدو الرجل إلى ابن عمه، فيسأله الحاجة التي قد كتبها الله له، فلا يملك منعه؛ فيعطيه ما كُتب له،

(١) في المواضع السابقة كلمات غير مقروءة، قدر ثلاث كلمات في كل موضع.

فيظل يشكره، ويثنى عليه بها خيراً، ثم يعود إليه العام المقبل، فيسأله الحاجة التي لم يكتُبها الله له، فلا يملك أن يعطيه، كما لم يملك في العام الأول أن يمنعه، فيمنعه ما لم يكتُب له، فيرجع يحتقبها عليه ذنباً، ويثنى عليه بها شراً. ألا فإنّ في إعطاء هذا المال فتنةً، وفي منعه فتنةً.

[سقتُ لفظ هذا الخبر على المعنى] ولم آل. ويعنى بالفتنة: الاختبار.

وصدق ﷺ، يختبر بذلك الموقنين للخير والغافلين؛ لينظر كيف يعملون. فأما أهل اليقين فيعتبرون الأسباب، ويُعجبون من التَّسبُّب، ويشهدون النعمة بذلك من المنعم، فيزدادون بذلك هُدىً وإيماناً لشهودهم المعطى المانعَ واحداً في العطاء والمنع، ولمعرفتهم بجريان الحكمة فيما جاءت به الشريعة، فيثبتُ لهم مقامات الشكر له، والصبر عليه.

وأما الغافلون فيضطربون لذلك، ويتشتَّتون لنظرهم إلى الأسباب والأیدی؛ فيمدحون المعطين، ويذمُّون المانعين عندهم، فينقصون بذلك. فقد صار المال فتنةً للفريقين معاً، يكشف إيمانهم، ويمتحن للتقوى قلوبهم.

وكذلك جاء في الخبر: «إنَّ العبدَ ليهيمُ من الليل بالأمر من أمور الدنيا من التجارة وغيرها، الذي لو فعله كان فيه هلكته، فينظر الله إليه من فوق عرشه، فيصرفه عنه، فيصبح كئيهاً حزيناً، يتطير بجاره وبابن عمه: من سبقني؟! من دهاني؟! وما هو إلا رحمةٌ رَحِمَهُ اللهُ بها».

وعن ابن مسعود أنه قال: من الإخلاص أن لا تحبَّ أن يحمذك الناسُ على عبادة الله، وأن لا تمدحهم على ما رزقك الله.

وقد رُوينا عن عيسى عليه السلام وعن ابن مسعود وغيره: «إنَّ من اليقين أن لا تحمدَ أحداً على ما أعطاك الله، ولا تذمه على ما لم يؤتك الله».

فإنَّ الرزقَ لا يجزُّه حرصُ حريص، ولا يمنعه منعُ مانع. إنَّ اللهَ جعلَ الرِّوحَ والراحةَ في الرِّضا واليقين، وجعلَ الهمَّ والكربَ في الشكِّ والسخط.

وقال ابن مسعود: اليقينُ الإيمانُ كُلُّهُ.

وفى حديث الإفك الذى رواه معمر بن أبان، عن حمدان الزهرى، عن عروة، عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: فقام إلى أبواى، فقبلانى فى صدورهما، فقلت: بغير حمدكما، ولا حمدٍ صاحبكما، أحمد الله تعالى الذى عززنى وبرأنى.

وفى حديث غيره: «فقال لها أبو بكر: قومى فقبلى رأس رسول الله ﷺ. فقالت: والله لا أفعل، ولا أحمدُ إلا الله. فقال النبى ﷺ: دعها يا أبا بكر».

فهذه المعانى التى قدّمنا ذكرها من قوة رؤية الخلق، وضعف شهادة الحق، تكون من ضعف اليقين، ونقصان المعرفة بالحق المبين. فإذا انطوت فى سرّ العبد وخلّده، وكثرت من قوله وفعله، أذهبت حقيقة الإيمان، وشعثت شعاع أنواره، وولدت النفاق، وزرعت الشك. كما قال عبد الله^(١): إنَّ العبد ليخرج من منزله ومعه إيمانه، فيرجع إلى منزله وليس معه من إيمانه شيء؛ يلقي الرجل لا يملك له ضرراً ولا نفعاً، فيقول: إنك لذيت وذيت، ويلقى الآخر كذلك؛ حتى يرجع إلى منزله - ولعله لم يخل منهم بشيء - وقد أسخط الله عليه.

وسئل عالمنا أبو محمد، رحمه الله، عن معنى الخبر المنقول من التوراة: «من تواضع لغنى ذهب ثلثا دينه»، فقال: لأن الإيمان عقد، وفعل، وقول. فإذا تواضع للغنى لأجل دنياه بالثناء والحركة إليه ذهب ثلثا إيمانه، وبقي الثلث وهو العقد.

فإن جعلت الأواسط فى الرزق أوائل فى الجعل لثبوتها، فإن الله تعالى قد أظهرها أسباباً، وأثبت نفسه فيها، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]. ثم رفعه وأظهر نفسه فقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

وكذلك فى التفصيل: ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣٠]، وقال فى التوحيد: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

(١) يعنى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

وقال في المتشابه: ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥]، وقال في المحكم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ﴾ [الاعراف: ١٥٥].

وقال في الوسيلة: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣]، ثم رَدَّهُم إِلَى التَّوْحِيدِ بعد أن علَّمهم الواسطة عنه فقال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ﴾ [البقرة: ٣٣] ولم يقل: إِنَّ آدَمَ، فَتَفْهَمَ.

وكذلك قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحَرُّونَ﴾ [الواقعة: ٦٣]، فذكر الأواسط، ثم قال: ﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقَاقًا﴾ [عبس: ٢٥ - ٢٦]. وقال في التفصيل: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧]، ثم قال تعالى في التوحيد: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ [الانباء: ٩١]، وكان النافخ جبريل عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٨].

قال أهل التفسير: فإذا قرأه عليك جبريل عليه السلام فَخُذْهُ عَنْهُ، بعد قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: ١٦].

وكذلك قال جبريل عليه السلام: ﴿لَأَهَبَ لَكَ غُلَامًا ذَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩]. فالله تعالى وهبَ له أن يهبَ لها، فذكر نفسه، وهو يشهد ربه. وقال في الحرف الآخر: «لِيَهَبَ لَكَ» يعنى: الله تعالى.

ومثله قول موسى ﷺ: ﴿لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ [المائدة: ٢٥]؛ لأجل أن الله تعالى قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ﴾ [مريم: ٥٣]، وهو في الحقيقة لا يملك نفسه ولا أخاه، إذ لا مالك في الأصل إلا الله تعالى. وهذا على أحد الوجهين؛ إذا كان ﴿وَأَخِي﴾ في موضع نصب. والوجه الآخر: أن يكون قوله ﴿وَأَخِي﴾ موضع رفع؛ فيكون المعنى: وأخي أيضاً لا يملك إلا نفسه.

وكذلك قال سبحانه وتعالى في التفصيل والأمر: ﴿فَاتَّقُوا الْمَشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥].

وفي مثله من ذكر الواسطة لأجل الأمر: ﴿فَاتْلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]. ثم قال في التوحيد: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧].

وقال فى إثباتِ الأسبابِ، ورفعِ حقيقتها: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ فأثبت رسمه مكاناً للعلم، ثم رفع حكمه إظهاراً للعالم، فكما قال: ﴿أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ﴾. فهذا كما قال للملائكة: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤] فحقيقته: كان هو قبلة، وكان المسجود له هو الله عز وجل.

وقال فى ذكر الوسائط: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾ [التوبة: ٥٥]. وقال فى مثله: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: ٤]. وقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: ١ - ٢]. وقال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٩].

وكما قال فى التفصيل لتثبيت الأحكام، وتفصيل الأنام...^(١) ﴿كَتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]. وفى مثله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]. ثم رفعه فى التوحيد، وأثبت نفسه فقال: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وقال فى مثله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، وبمعناها: ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥]، والتوحيد: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. وقال فى نفى الأوليّة والآخريّة من فعل الخلق للتوحيد: ﴿وَمَا رَمَيْتَ... وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾، وقال فى إثبات المكان للتفصيل: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: ١٧]. فالله الأول فى الحكم، والعبد أوسط، فلا يعجبك. والله هو الآخر فى الإعادة؛ لأنّه يُبدى ويُعيد، والعبد ظرف للإبداء والتجديد.

وقال فى تثبيت الأملak وبيعها منه بالأعواض؛ كرمًا منه وفضلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١] فجاز ذلك لما ملكهم ماله، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤].

(١) بياض وكلام غير مقروء بالأصل.

وعند أهل المعرفة أن لا فاعل حقيقة إلا الله عز وجل؛ لأن حقيقة الفاعل هو الذى لا يستعين بغيره بآلة ولا سبب، وعندهم أن فعلاً لا يتأتى من فاعلين، وإلا كان شركاً؛ لأن الفاعل الثانى المظهر الذى فعل بيده وأجرى الفعل بواسطته هو ثان، ومحدث، ومفعول، والأول القديم هو الفاعل الأسمى.

كما أن عندهم أن حقيقة المالك هو الخالق للشيء، والذى يقرب عين الشيء إلى غيره، ومن يقدر على إعادته بعد أن أبداه، ومن جعل فى يده مملك؛ لأنه لم يخلق ما بيده، كما المجرى على يده الفعل مفعول؛ لأنه ثان فيه، وأوسط به، ولا يقدر على تلف عينه، ولا إعدامه، إذ لم يقدر على إيجاد، ولأن الله هو الأول القيوم بنفسه لا يستعين بغيره، كذلك المالك للشيء هو مظهره، وخالقه كوناً، ومشئاً عن تكوينه ومشئته.

وقد جعل الله أيضاً بحكمته وعزته عن مباشرة الأشياء للخلق والحياة واسطة، وهو ملك الأرحام، فى الخبر: «أنه يدخل الرحم، فيأخذ النطفة فى يده، ثم يصورها جسداً، فيقول: يا رب، أذكر أم أنثى؟ أسوى أم معوج؟ فيقول الله ما شاء، ويصور الملك».

وفى لفظ آخر: «يخلق الملك، ثم ينفخ فيها الروح بالشقاوة أو بالسعادة».

ويقال: إن الملك الذى يقال له: الروح، هو الذى يولج الأرواح فى الأجساد. ويقال: إنه يتنفس بوصفه، فيكون كل نفس من أنفاسه روحاً يلج فى جسم؛ ولذلك سمي الروح.

فصار العبد يظهر بين أربعة، وهى حدود الحكمة: ظاهران: وهما الأبوان، وباطنان: وهما ملك الأرحام، وملك الأرواح.

وقد قال الله تعالى فى وصف نفسه: ﴿الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾، كما قال: ﴿الْخَالِقُ﴾ [الحشر: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢].

وقد جعل للأحياء واسطة، كما جعل للموت، وهو إسرافيل صاحب الصور، ينفخ فيه النفخة الثانية؛ فيحيا كل ميت، ثم يرفعه الله تعالى، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ

فِي الصُّورِ ﴿[النمل: ٨٧]، ووصف نفسه بأنه المحيى المميت.

وفى بعض الأخبار: «إِنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ وَمَلَكَ الْحَيَاةِ تَنَاضَرَا، فَقَالَ مَلَكُ الْمَوْتِ: أَنَا أُمِيتُ الْأَحْيَاءَ. وَقَالَ مَلَكُ الْحَيَاةِ: أَنَا أُحْيِي كُلَّ مَيِّتٍ. فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِمَا: كَوْنَا عَلَى عَمَلِكُمَا وَمَا سُخِّرْتُمَا لَهُ مِنَ الصَّنْعِ، فَأَنَا الْمَمِيتُ وَأَنَا الْمَحْيِي، وَلَا مَيِّتٌ وَلَا مَحْيِي سِوَايَ». وكذلك أيضاً قيل عن الله تعالى: «أَنَا الدَّلِيلُ عَلَى نَفْسِي، وَلَا دَلِيلَ عَلَىَّ أَدُلُّ مِنْي».

ولم يَمْنَعْ وجودُ هذه الأواسط أن يكون الله سبحانه هو الأوّل في كل شيء، وهو الفاعل لكل شيء، وحده لا شريك له في شيء، وأنّ الكونَ كلّهُ مكانُ لجريان الأفعال؛ الإرادةُ أوّلُهُ، والقدرة من ورائه.

ولم يقل أحدٌ من المسلمين: الملكُ خلقني، ولا: عزرائيلُ أَمَاتَنِي، ولا: إسرافيلُ قد أحياني كذلك. أيضاً لا يصلح أن يقول الموقنُ المشاهدُ للتوحيد: فلانُ أعطاني أو منعني، كما لا يقول: فلانُ رزقني، ولا: فلانُ قَدَرَ عَلَيَّ. وإنْ جُعِلَ واسطَةُ وسبباً للتقدير، وأُجْرِيَ على يديه ذلك؛ لأنّ العطاءَ هو الرِّزْقُ، والمنعُ هو القَدَرُ، وإلا كان عندهم مُشْرَكًا في أسماء الله غيره، إذ كان الله هو المُعْطِي المانع الضَّارُّ النَّافِعُ، كما هو المحيى المميت، لا شريك له في مُلكه، ولا ظهير له من عباده في خلقه ورزقه. وهذا عندهم يقدر في حقيقة التوحيد للعبد، وهو من الشرك الخفى الذى جاء فى الأثر: «الشُّرْكُ فى أُمَّتِي أَخْفَى من ديبِ النَّمْلِ فى اللَّيْلَةِ الظُّلُمَاءِ».

وقال بعضهم فى معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] قال: مؤمنٌ بالإقرار؛ أنّ الله هو المقدر المدبر، ومُشْرِكٌ فى الاعتمادِ على الأسبابِ، ورَدُّ الأفعالِ إليها.

ومن الإخلاص عند المُخْلِصِينَ بلا إله إلا الله، التى هى أصلُ التَّوْحِيدِ، أن يشهدوا كذلك أن لا نافع ولا ضار ولا مُعْطَى ولا مانع إلا الله، ولا هادى ولا مُضِلَّ إلا الله، كما أنه لا إله إلا الله. هذا عندهم فى قَرْنٍ واحدٍ، ومُشَاهَدَةٍ

واحدة، وهو أول التوحيد، وإن كان قد جعل هادين ومُضِلِّين، كما جعل معطين ومانعين، ولكن بعد إذنه ومن بعد مشيئته وحُكْمِهِ. كما قال تعالى: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المؤمنون: ٧٢]، ﴿أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥]، ولا خالق ولا حاكم حقيقة إلا الأحد الصمد؛ لأنه خلقهم، وخلق خلقهم، ورزقهم، ورزق رزقهم. وكذلك هو هداهم وهدى بهم، وأضلهم وأضل بهم، فعن هدايته هدوا به، وعن إضلاله ضلوا بعد إرادته، كما عن خلقه خلقوا، ومن رزقه رزقوا، وكيف وقد فسر ما ذكرناه بقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَظْفَارِهِ﴾ [المائدة: ١١٠]، ويقول تعالى: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢١]. وقال في مثله: ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ [الصافات: ٣٢].

وأحكموا بوصفه من فعله، فقال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣] ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: ٤١]. كقوله في الفصل: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وقوله في الموصل: ﴿زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. فهو زَيْنٌ للشَّيْطَانِ أَنْ يُزَيِّنَ، فَرَّانٌ عنده، بما أذانه عندهم، وزَيْنٌ لهم من أوليائه وحزبه، بمعنى ما زَيْنَ اللهُ له من ضلاله وبُعْده.

فبمشاهدة ما ذكرناه يخرج العبد من الشُّرْكِ الخفي، وهو تحقيق قوله: «لا إله إلا الله» بعد التصديق، أى: ليس من يألوه القلوب وتألوه إليه إلا الله. ثم يقول معها: «وحده لا شريك له»؛ أى: وحده فى قدرته وتوحيده وحكمه، لا شريك له فى ملكه من خلقه. ثم وكّد ذلك بقوله: «له المُلْكُ»؛ أى: جميع ما أظهر، «وله الحمد» فى جميع ما أعطى ومنع، يستحق الحمد كله؛ فهو لا يستحقه غيره، «وهو على كل شيء قدير»، أى: من الخلق والأمر.

فالقُدْرَةُ كُلُّهَا له والخلق كُلُّه له، يحكم فى خلقه بأمره ما شاء كيف شاء. ومثل الأواسط مثل الآلة بيد الصانع. ألا ترى أنه لا يقال: الشِّفْرَةُ حَدَّتِ النعل، ولا: السَّوْطُ ضَرَبَ العبد، إنما يقال: الحذاء حَدَّ النعل، وفلان ضَرَبَ عبده بالسوط. وإن كانت هذه الأواسط مباشرة للأفعال، إلا أنها آلة بيد صانعتها. وكذلك الخليفة

يباشرون الأسبابَ في ظاهر العيان، والله من وراءهم محيطٌ، القادرُ الفاعلُ بلطائفِ القُدرةِ وخفايا المشيئةِ. ألم ترَ إلى قولهم: الأميرُ أعطاني كذا، وخلَعَ عليَّ كذا؟ وإن لم يناولهُ بيده، ولا يَصْلُحَ أن يقول: خادمُ الأميرِ أعطاني؛ لأجل أنَّه جرى على يده، وإن كان باشرَ العطاءَ بنفسه؛ إذ قد علم أن الخادم لا يَمْلِك ولا يتصرف في ملك الأمير إلا بأمره، إلا أن يسألَ الإنسان: بيدَ من أعطاك الأمير؟ أو: على يدَ مَنْ وجَّهَ إليك بالعطاء؟ لبغيةٍ تكون للسائل في معرفة أى عبد جاء به. فيجوز أن يقول حينئذ: بيد عبده فلان. فأما أن يبتدئ المُعطى من غير أن يُسأل، إذا أراد أن يُظهر العطاء؛ فيقول: الأمير أعطاني على يد عبده فلان، فإن هذا لغو لا يُحتاج إلى ذكر العبد مع ذكر الملك؛ لأنَّ البُغيةَ إظهارُ العطاء من الملك المُعطى، فلا معنى لذكر العبد الذي جرى العطاء على يده، فافهم.

ومن ذلك قولُ النبي ﷺ للرجل الذي ناوله التمرة: «خذها، لو لم تأتِها لأتتك». والتمرَّة لا تأتي، ولم يَقُلْ: لجاءك بها رجل؛ إذ لا بُغيةَ في ذكر ذلك. ومن هذا قوله ﷺ للرجل الذي قال: أتوب إلى الله، ولا أتوب إلى محمد، فقال: «عَرَفَ الحقَّ لأهله».

وإنما ذكر الله تعالى الأسبابَ؛ لأنَّ الأسماءَ متعلقةٌ بها، والأحكامَ عائدةٌ على الأسماءِ بالثواب والعقاب؛ فلم يصلح أن لا تُذكرَ؛ فتعود الأحكامُ على الحاكم تعالى عن هذا، أنَّه هو يبدئ ويعيد، يبدئ الأحكامَ من الحاكم، ويُعيدُها على المحكوم، وهذا هو سبب إظهارِ المكانِ من المواتِ والحيوانِ؛ لئلا يكونَ تعالى محكوماً وهو الجليلُ الحاكم، ولا يكونَ مأموراً وهو العزيزُ الأمرُ، وتوجَّهتِ الإقامةُ منه قبلِ المأموراتِ.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] فجميعاً عنده وفي خزائنه، إلا أنَّه أضافَ الدنيا إلينا؛ لرجوعِ الأحكامِ علينا، وليزهدنا فيها، وأضافَ الآخرةَ إليه تخصيصاً لها وتفضيلاً؛ ليرغبنا فيها.

وكما أخبر عن عيسى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ﴾ [المائدة: ١١٠]، ومثله ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ [النساء: ٥] فسماه خالقاً إذ خلق الله على يده، وسمَّاهم رازقين لما أجرى على

أيديهم رِزْقَ أهلهم، فهو عندى كقوله لمريم: ﴿وَهَزَى إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّحْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥]، وقد عَلِمَتْ أَنَّ الرُّطْبَ لَمْ يَتَسَاقِطْ بِهِزَّهَا، وَلَا جُعْلٌ وَلَا فِعْلٌ لِهَزَّهَا فِي الرُّطْبِ، وَلَكِنْ أَرَادَ أَنْ يُظْهِرَ كَرَامَتَهَا، وَيَجْعَلَ الْآلَةَ مِنْهُ بِيَدِهَا. ومثله: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢]، فنبعت عينان أشدَّ بياضًا من الثلج، وأحلى من العسل، فشرب من إحداهما فغسل ما فى جوفه وباطنه من البلاء، واغتسل من الأخرى، فأزالت ما فى جسمه وظاهره من السقم والأذى، ولا فِعْلٌ لِرِجْلِهِ فى إظهار العينين؛ ولكنَّ الله تعالى خلق ذلك على يده، وأجرأه بواسطته، تَكْرِمَةً لَهُ، وَآيَةً وَهَبَهَا لَهُ. ومن ذلك قوله تعالى لإبراهيم: ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ فجعل كيفية إحياء الموتى بيده سبحانه بدعوته ﷺ، فكان ذلك جوابًا لمسألة: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠] ولا مكان له فى الإحياء، وكان الله فى الدعوة كيف شاء، وكذلك الموقن العارف يُنْطِقُ عَنْ اللَّهِ، فيكون الله تعالى هو المظهر لبيانه، والمُجْرَى عَلَى لِسَانِهِ، كما كلَّم مُوسَى ﷺ من الشجرة، فكان هو لعبده، وصارت الشجرة حجابًا لوجده، والله غالبٌ على أمره. وكما ينطق الروحاني من الملائكة على ألسنة النبيين، وينطق الجناني من الأزواج على ألسنة المجانين، والله من ورائهم مُحِيطٌ.

وقد قال الرسول ﷺ: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَ الشَّاعِرُ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ»، وهو يعلم ﷺ أَنَّ فى الأشياءِ أَوَاسِطَ حَقٍّ، وَأَسْبَابَ صِدْقٍ، ثُمَّ لَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ أَنْ قَالَ: أَصْدَقُ بَيْتٍ قَالَهُ الشَّاعِرُ كَذَا، إِثَارًا مِنْهُ لِلتَّوْحِيدِ، وَتَوْحِيدًا لِلْمُتَّوَحِّدِ، هَذَا مَعَ قَرَبِ عَهْدِهِمْ بِتَكْذِيبِ الرُّسُلِ، وَإِبْطَالِ الْكُتُبِ. وَلَكِنْ لَمَّا كَانَتْ الْأَشْيَاءُ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ، وَلَا تَكُونُ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ، أَشْبَهَتْ الْبَاطِلَ الَّذِي لَا حَقِيقَةَ لَهُ أَوَّلِيَّةً، وَلَا ثَبَاتَ لَهُ آخِرِيَّةً. وَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَوَّلَ الْأَزَلَى الْآخَرَ الْأَبَدَى؛ فَهُوَ الْحَقُّ وَلَا إِلَهَ سِوَاهُ.

ومثُلُ الْأَسْبَابِ - أَيْضًا - فى ثوانِهَا وَأَوَاسِطِهَا إِلَى جَنْبِ الْأَوَّلِ الْمُسَبَّبِ مَثَلُ مَا يَقُولُ فى الْقُرْآنِ: قَالَ اللَّهُ كَذَا. وَلَكِنْ أَنْ تَقُولَ: قَالَ نُوحٌ وَقَالَ يُوسُفُ كَذَا، فَكُلُّ

صواب. فإذا قلت: قال الله سبحانه وتعالى، فهو القائل الأول قبل القائلين، متكلمًا بوصفه مخبرًا عن علمه، بغير وقت لموت، ولا حدًا لمحدود، ولا حدثان. وإن قلت: قال صالح، وقال شعيب، فقد قالوه، بأنهم ثوان في القول وأواسط به. قالوا ذلك عنه، بحدوث أوقات، وظهور أسباب. كذلك الأسباب في أواسطها هي ثوان عن الأول المبدئ.

ومن ههنا، وفي مثله، دخلت الشبهة على المبتدعين، فقالوا بخلق القرآن. فلو لم يدخل عليهم إلا إنهم جعلوا قول القائلين قبل قول الله أحكم الحاكمين، فاثبتوا قبل قوله قِيلًا، وهو القول منهم لنفيهم قدم الكلام، فوقعوا بجهلهم في أعظم مما هربوا منه؛ لأنهم هربوا من إثبات قديم آخر، بزعمهم؛ فوقعوا في إثبات حدث أولًا، وإحداث قدم ثانيًا. تعالى الله عما يقول الظالمون المللحدون في أسمائه وصفاته علوًا كبيرًا، وسبحانه بكرة وأصيلًا.

ولم يعلموا بجهلهم أنهم إنما قالوه بعد قوله، فصار قولهم عن قوله، وكان هو الأول في القول، من حيث كان هو الأول بالقدم، والسابق بالعلم، وصاروا هم ثوانى في المقال، من حيث كانوا حوادث من الأفعال.

فكذلك أيضًا تدخل الشبهة على الغافلين من ضعف اليقين لشهود المانعين والمنفقين أوائل في الفعل، من قبل أن الله تعالى أظهر العطاء والمنع بأيديهم، فشهدوهم مُعطين مانعين؛ لنقصان توحيدهم، فأشركوا في أسماء الله كما أشركت المبتدعة في صفات الله عز وجل أن حُجِبوا عن شهادة سبق علم الله، كما حُجِب الزائغون عن حقيقة توحيد الله تعالى، إلا أن شرك الزائغين ضلال ينقل عن الملة، وهو شرك جلي، وشرك ضعفاء اليقين غفلة وجهل عن الملة؛ لأنه شرك خفي.

وحكى أن بعض العلماء صلى خلف رجل، فلما انفتل الإمام نظر إليه في زى غير مُتَكَسَّب، فقال: يا شيخ من أين تأكل؟ فقال: اصبر حتى أعيذ الصلاة التي صليتها خلفك، ثم أجيبك.

وحدثونا في معناه عن آخر: أنه لزم العكوف في المسجد، ولم يكن ذا معلوم من عيش، فقال له الإمام الذي يصلى بالناس: لو تَكَسَّبْتَ وتعيشْتَ كان أفضل

لك . فلم يجبه . فأعاد عليه وقتاً آخر نحو ذلك ، فقال : يهودىُّ فى جوار المسجد قد ضَمِنَ لى كلَّ يومِ رغيفين ، فقنعتُ بذلك ، وتركتُ التَّكسُّبَ . فقال الإمام : إن كانَ صادقاً فى ضمانه ، فإنَّ عكوفَكَ فى المسجدِ خيرٌ لك ، فقال له الرجل : يا هذا ، أنت لو لم تكن إماماً للمسلمين تقوم بينهم وبين الله لنقص توحيدك كان خيراً لك .

وقد كان إبراهيمُ الخَوَّاصُ يقول : ليس على العبدِ إلا أن يتقى الحرامَ من خشية الله ، وعلى الله أن يسوق إليه الحلالَ ، قال : ولا يَصْلُحُ تركُ الحرامِ إلا بتركِ الشُّبُهاتِ التى تخرجه إلى أخذِ الحرامِ .

قال : وهذا هو التوكُّلُ اللازمُ المُتَعَبَّدُ به العمومُ المُوَحَّدُ بفَرَضِ الصَّبْرِ عن الحرامِ ؛ لِثَلَا تَغْلِبَ الْعَجَلَةُ صَبَرَ الْعَبْدِ فى أخذِ الحرامِ ، حتى يُخْرِجَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ الْمَضْمُونُ مِنْ أَمَاكِنِهِ ؛ إِذْ كَانُوا لَا يَسْلَمُونَ فى الْحَرَكَةِ فِيهِ ، فَهَؤُلَاءِ أَعْرَفُ بِأَمَاكِنِهِ وَأَقْدَرُ عَلَى اسْتِخْرَاجِهِ^(١) . وفى قوله تعالى : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢] قال سعيد بن جبیر : يعنى المصدقين لله تعالى فيما وَقَعَ تصديقُهُم به من الوَعْدِ والوَعِيدِ .

قال إبراهيم : فهذا النَّدْبُ من الله بالعموم ، إِذْ دَعَاهُمْ إِلَى مَوْضِعِ الْفَضْلِ وَالشَّرَفِ بِاسْتِعْمَالِ التَّوَكُّلِ الْمَخْصُوصِ لِثَلَا يُقِيمُوا عَلَى حَالِهِمْ ، وَلَا يَطْلُبُوا الرِّفْعَةَ عَنْهَا ، وَلَا الْإِنْتِقَالَ مِنْهَا ، يعنى : فيكون وقوفُهُم فى حالهم عِلَّةً لِسكونهم إلى حالٍ ، وِرِضَاهُمْ به دُونَ طَلَبِ الْمَزِيدِ مِنَ النَّصِيبِ مِنَ اللَّهِ فى درجاتِ الْقُرْبِ وَالْإِنْتِقَالِ ، فينظرون إلى المَقَامِ ، أَوْ يَقْطَعُونَ بِالْحَالِ ، أَوْ يَسْكُنُونَ إِلَى الْفَضْلِ .

يقول : فندبهُ تعالى المتوكلين من العموم ، وبعد إكمال حقِّ التوكُّلِ ، وبعد حُسْنِ الْقِيَامِ بِحُكْمِهِ إِلَى تَوَكُّلِ الْمُتَوَكِّلِينَ مِنْ خُصُوصِ الْمُقَرَّبِينَ ، لِثَلَا يَقِفُوا فى حالٍ ، وَلَا ينظروا إلى مقامٍ ، فيَحْجِبُهُمْ ذَلِكَ عَنِ الْقِيُومِ ، ويؤدِّ بهم ذلك إلى عِلَّةٍ تنقصهم كمالَ العموم .

(١) بعده فى الأصل : «قال مثل هذا الله تعالى بلطفه ، وحسن نظره وتدأب العموم من التوكُّلِ المعمومِ إلى التوكُّلِ المخصوصِ . وأما المتحرِّفون المغبونون» .

فالقولُ في توكلِ الخصوصِ عليه في النفوسِ، وفي شأنِ الآخرةِ بعد أن جعل لهم التوكلُ في أمور الدنيا، والمضمون من أسبابها، كالقول في زهد الزاهدين في أعراض الآخرة، بعد أن رُفِعُوا من الزهد في أسباب الدنيا، فَرُفِعُوا من مقام المُنِيِّينَ إلى درجات المقرِّينَ، لما رُفِعُوا من الزهد في الدنيا إلى طلبِ النَّصَبِ من الله العليِّ الأعلى، لا رغبةً في نعيم الجنان، ولا في حُظوظِ الأجسام، فصَارُوا من أهل الله بعد أن كانوا من أهل الآخرة.

قال الخواص: وقد حرَّضَ النبي ﷺ على هذا التوكلِ، ورغَّبَ فيه، فذكرَ حديثَ ابنِ مسعودٍ عن النبي ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَأُمَمِهِمْ» قال في آخره: «فقلتُ: رَبِّي أُمْتِي. فقيل: انظر عن يمينك، فإذا بشر كثيرٌ، فقيل: انظر عن يسارك، فنظرتُ فإذا سَوَادٌ عَظِيمٌ قد سَدَّ الْأُفُقَ. فقيل: هذه أمتك، أَرْضِيَتْ؟ قلتُ: رَبِّي رَضِيَتْ، قال: فَإِنَّ لَكَ سِوَى هَؤُلَاءِ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ. فقام عَكَاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ، فقال: يا رسول الله، ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَني مِنْهُمْ. فقال: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ. ثم قامَ آخَرُ، فقال: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَني مِنْهُمْ. فقال: سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةُ. فقال رسولُ الله ﷺ لأصحابه: إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنْ هَؤُلَاءِ فَافْعَلُوا. فَذَاكَرْنَا السَّبْعِينَ أَلْفًا، فَقُلْنَا: هُمْ قَوْمٌ وَلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ فَمَاتُوا عَلَيْهِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فقال: بَلْ هُمْ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتُونُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ».

قال: فدلَّ قولُ النبي ﷺ لِلرَّجُلِ «سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةُ» أَنَّ هَذَا التَّوَكُّلَ حَالٌ عَزِيزٌ عَظِيمٌ، لَا يُعْطَاهُ كُلُّ أَحَدٍ، وَلَا يَسْتَحِقُّهُ. ودلَّ ما قيل للنبي ﷺ: «وإنَّ لَكَ سِوَى هَؤُلَاءِ سَبْعِينَ أَلْفًا» أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مَعَ مَنْ وَرَاءَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ يَمِينِهِ، وَلَا عَنْ شِمَالِهِ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا مُغَيَّبِينَ مَحْجُوبِينَ، صِفَاتُهُمْ مَوْجُودَةٌ، وَأَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ، يَعْنِي بِهَذَا أَنَّ هَؤُلَاءِ السَّبْعِينَ أَلْفًا عَارِفُونَ، فَإِنَّ الْعَارِفِينَ مَحْجُوبُونَ عَنِ الْعُمُومِ، وَهُمْ أَهْلُ التَّوَكُّلِ الْمَخْصُوصِ مِنَ الْخُصُوصِ، الَّذِينَ ذَكَرُوا أَنَّهُمْ تَوَكَّلُوا عَلَيْهِ فِي شَأْنِ الْآخِرَةِ، وَفِي النُّفُوسِ، فَهُمْ أَهْلُ اللَّهِ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ، مِنْ أَهْلِ الْآخِرَةِ، حَبَّبَهُمْ لِعَزَّتِهِمْ عَنِ الْأَبْصَارِ.

وَحَدَّثْتُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى بَعْضِ الصَّدِيقِينَ: «أَدْرِكْ لِي لُطْفَ الْفِطْنَةِ، وَخَفَى اللَّطْفِ؛ فَإِنِّي أَحَبُّ ذَلِكَ. قَالَ: يَا رَبِّ، وَمَا لُطْفُ الْفِطْنَةِ؟ قَالَ: إِنَّ وَقَعْتُ عَلَيْكَ ذِبَابَةٌ، فَأَعْلَمَ أَنِّي أَوْقَعْتُهَا، فَسَلَّنِي أَرْفَعُهَا. قَالَ: وَمَا خَفَى اللَّطْفِ؟ قَالَ: إِنَّ أَتَتْكَ قَوْلَةٌ مَسْوَسَةٌ، فَأَعْلَمَ أَنِّي قَدْ ذَكَرْتُكَ بِهَا».

وهذا الذى ذكرناه من أن الله سبحانه وتعالى هو المعطى المانع، الضار النافع حيث كان، هو الخالق الرّازق كيف شاء، ومتى شاء، وبمن شاء. هو فى عقود عموم المؤمنين وفى علمهم، إلا أن فىهم جهلاً بالحكمة، وغفلة عن الحاكم، يحيلون ذلك إلى عاداتهم، ويريدون أن يكون رزقهم من حيث معتادهم، أو من حيث معقولهم باختيارهم، ومعقولهم بالعز، والفخر، والتّطاول، والأنفة؛ لا على الدّل، والتواضع، والفقر، والمسكنة. ولا يكلّون أمورهم إلى الله ويرضون بتدبيره وتقديره؛ أن يرزقهم كيف شاء، ويبد من شاء، فيؤثرون أخلاق الجبابرة على أخلاق المؤمنين، لبعدهم من مشاهدة اليقين، ولاستيلاء أخلاق النفس عليهم، ثم إن نفوسهم مع علمهم أن الخلق والأمر كله لله عز وجل، وأن الحمد والملك له - قد تطمع فى غير الله، وترجو سواه، وقد تضطرب بجبلتها عند أفعال الحقائق، وقلوبهم لا تطمئن بل تنزعج عند الابتلاء بالمصائب والفاقات، ولا تصبر للخالق، وإن ألسنتهم قد تسبق بالمدح والفرح مع رؤية الأواسط، أو بالذم والأسى على فوت العطاء؛ لوجود الغفلة، وذهابهم عن مشاهدة ما يعلمون. فهذا دليل نقص توحيدهم، وضعف يقينهم، وأن معرفتهم معرفة سمع وخبر، لا معرفة شهادة وخبر، وقد شركهم الموقنون بتسليم ذلك لله فى العلم والقدرة، وإثبات الأواسط والأسباب للحجج والمحجّة بمجارى الحكمة وإيقاع الأحكام، وتفصيل الحلال والحرام، وعود الثواب والعقاب على الخليقة، ولكن زادوا عليهم بحسن اليقين، وقوة المشاهدة، وجميل الصبر، وحقيقة الرضا؛ فسكنت القلوب، واطمأنت النفوس عند النوازل والبؤس، وثبتوا فى الابتلاء؛ لشهود المبلى، يدبر الخلائق كيف شاء، فحصل لهم مقام فى اليقين وحال من التوكل ونصيب من الرضا، وخرج أولئك من حقائق هذه المعانى ودخلوا فى عمومها، ودخل عموم

المؤمنين مع الموقنين في قَرَضِ التَّوَكُّلِ، قد جاوزَهُم الموقنون؛ فارتفعوا عليهم، وعلوا في فضله، ووقف العموم ونكصوا عن العلو لقعود اليقين بهم، واستتار غيبه عنهم، وحجب الأسباب لهم، وسبق المقرَّبون إلى الفضل، ويؤت كل ذي فضل فضله؛ لأنَّهم المُفْرَدُونَ بالسَّبق خِفَافًا لَوْضَعِ الْأَوْزَارِ، لما استهتروا به من الأذكار، كما روينا عن المصطفى المختار ﷺ: «سيروا، سبق المُفْرَدُونَ، قيل: مَنْ هُمْ؟ قال: المُسْتَهْتَرُونَ بِذِكْرِ اللَّهِ، وَضَعَ عَنْهُمْ الذِّكْرُ أَوْزَارَهُمْ، فَوَرَدُوا الْقِيَامَةَ خِفَافًا». هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَاللَّهُ بِصِيرِ مَا يَعْمَلُونَ.

وقال بعض العلماء: احتجب عن العموم بالأسباب، فهم يرونها ولا يرونها، وحجب الأسباب بنفسه عن الخصوص، فهم يرونها ولا يرونها.

وهذا المعنى أحد الوجوه الباطنة من قوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ [الرعد: ٣٩] أى: يمحو الأسباب من قلوب الخصوص ويثبت نفسه، ويمحو نفسه من قلوب الجاهلين ويثبت الأسباب.

وقد كان إبراهيم الخواص - رحمه الله - يقول: مَنْ رَجَعَ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالنَّوَازِلِ إِلَى سَبَبٍ، أَوْ عِلَاجٍ يَسْتَشْفَى بِهِ، أَوْ حَرَكَةٍ رَهْبَةِ الْمَخْلُوقِينَ صَفَتُهُ، فَقَدْ بَرِئَ مِنْ مَخْصُوصِ التَّوَكُّلِ، وَبَقِيَ مَعَ عُمُومِهِ. ثُمَّ وَصَفَ الْخُصُوصَ مِنَ الْمُتَوَكِّلِينَ، فَقَالَ: يَنْتَرِعُ اللَّهُ مِنْهَا بِالتَّوَكُّلِ شَاهِدَ مَنَافِعِ الْأَشْيَاءِ، وَيَجْعَلُ شِفَاءَهَا فِي تَرْكِهَا، وَفِي ذَلِكَ يُقَالُ:

عَلِيلٌ لَيْسَ يُبْرِئُهُ دَوَاءٌ طَوِيلُ الصَّبْرِ يُضْنِيهِ الشِّفَاءُ
سَرَائِرُهُ خَوَافٍ لَيْسَ تَبْدُو خَفِيَّاتُهُ إِذَا بَرِحَ الْخَفَاءُ

ثم قال: كانوا له من حيث أراد بغنائهم عن كل ما كان لهم من حظٍّ ومُرادٍ، استقاموا إليه، ولم يثبتوا لِشِدَّةِ الْهُجُومِ، لَا يَفْرَحُونَ وَلَا يَرْوَعُونَ لَمَّا عَرَفُوهُ، لَمْ يُرِيدُوا بِهِ بَدَلًا، وَلَا يَبْغُونَ عَنْهُ حَوْلًا، فَخَصَّهْمُ مِنْهُ بِالْوِلَايَةِ، وَكَانَ هُوَ الْقَائِمُ بِهِمْ، وَالِدَلِيلِ الْمَعْطَى لَهُمْ كُلِّ جَزِيلٍ، لَمْ يُمَلِّكَ غَيْرَهُ حِفَظَهُمْ، وَلَمْ يُؤَلِّ غَيْرَهُ أُمُورَهُمْ، حَتَّى أَقَامَهُمْ فِي الشَّرَفِ الْأَعْلَى وَالْغَايَاتِ مِنَ الذُّرَى، فَأَظْهَرَ عِلْمَهُمْ مَا

بِهِ أَكْرَمَهُمْ، وَمَا أَقَامَ مِنْ أَعْلَامِهِمْ، فَأَكْرَمَهُمْ بِمُلْكِهِ، وَشَرَّفَهُمْ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ، وَحَمَلَهُمْ فِي ذَلِكَ بِتَوْحِيدِهِ إِلَى تَوْحِيدِهِ، مُشْرِفٌ عَلَى خَلْقِهِ يَرَى مَقَامَهُمْ، وَجَعَلَهُمْ فِي حِصْنِهِ وَرَاءَ حُجُبِهِ، وَخَلَا بِهِمْ فِي غَيْبِهِ، ثُمَّ أَظْهَرَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يُرَوْنَ، فَكَانُوا مَعَ الْخَلْقِ بِحَيْثُ لَمْ يَكُونُوا. غَابُوا عَنِ الْأَوْهَامِ؛ وَعُيُونُ النَّاظِرِينَ. عَظُمَ خَطَرُ مَا أَوْصَلَهُمْ إِلَيْهِ، وَجَلَّ قَدْرُ مَا حَمَلَهُمْ عَلَيْهِ، وَعَظُمَتْ مَنَزَلَتُهُمْ لَدَيْهِ. فَيَا طَيْبَ عَيْشٍ لَوْ عَقَلَ، وَيَا لَذَّةَ وَصْلٍ لَوْ كَشَفَ، وَيَا رَفْعَةَ قَدْرِ لَوْ وَصَفَ. ثُمَّ أَنْشَدَ الْخَوَاصَّ يَصِفُهُمْ، وَغَيْرُهُ أَيْضًا^(١):

مَعْطَلَةٌ أَجْسَامُهُمْ لَا قُلُوبُهُمْ	هَمُومُهُمْ بِاللَّهِ فِي السَّرِّ قَدْ تَسْرَى
نَفُوسُهُمْ عَنْ كُلِّ لَهْوٍ وَزِينَةٍ	مُحِبَّةٌ مَا إِنْ تَرَدُّ إِلَى أَمْرِ
رُؤُوسُهُمْ مَكْشُوفَةٌ فِي بِلَادِهِ	وَهُمْ بِلَطِيفِ الْبِرِّ أَسْبَابُهُمْ تَجْرَى
فَهُمْ أَمْنَاءُ اللَّهِ فِي كُلِّ أَرْضِهِ	مُلُوكٌ كَرَامٌ فِي الْبَوَادِي وَفِي الْبَحْرِ
عُدُولٌ ثِقَاتٌ فِي جَمِيعِ بِلَادِهِ	أَصْحُ عِبَادِ اللَّهِ مَعَ دَقَّةِ الْفِكْرِ
فِيَا حَسْرَةَ الْمَحْجُوبِ عَنْ قُرْبِ رَبِّهِ	بِأَدْنَاهِ فِي نَفْسِهِ وَهُوَ لَا يَذَرِي
هَنِيئًا لِمَحْجُوبٍ يُحِبُّكَ سَيِّدِي	بِشَاهِدَةِ الْحُبِّ بِالْقَلْبِ وَالْفِكْرِ

كَانَتِ الْأَبْيَاتُ مُضْطَرِبَةً، فَقَوِّمْتُ بَعْضَهَا، وَحَذَفْتُ مِنْهَا شَيْئًا.

وَحَدَّثُونَا عَنْ سَرَى السَّقَطِيِّ قَالَ: ثَلَاثٌ يَسْتَبِينَ بِهِنَّ الْيَقِينُ: الْقِيَامُ بِالْحَقِّ فِي مَوَاطِنِ الْهَلَكَةِ، وَالتَّسْلِيمُ لِأَمْرِ اللَّهِ عِنْدَ نَزُولِ الْبَلَاءِ، وَالرِّضَا بِالْقَضَاءِ عِنْدَ زَوَالِ النِّعَةِ.

وَقَالَ يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ قَبْلَهُ: كَانَ يُقَالُ: ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ اسْتَكْمَلُ إِيمَانِهِ: مَنْ إِذَا رَضِيَ لَمْ يُخْرِجْهُ رِضَاهُ إِلَى بَاطِلٍ، وَإِذَا غَضِبَ لَمْ يُخْرِجْهُ غَضَبُهُ عَنْ حَقٍّ، وَإِذَا قَدَّرَ لَمْ يَتَنَاوَلَ مَا لَيْسَ لَهُ. وَقَدْ رَوَيْنَاهُ مُسْنَدًا.

(١) الْأَبْيَاتُ وَرَدَتْ فِي الْحَلِيَّةِ، فِي تَرْجُمَةِ إِبْرَاهِيمِ الْخَوَاصِّ، ٣٢٨/١٠. وَهِيَ تَخْتَلِفُ فِي رِوَايَةِ بَعْضِ الْأَلْفَاظِ، وَتَرْتِيبِ الْأَبْيَاتِ، وَزِيَادَةِ بَيْتٍ فِي الْحَلِيَّةِ.

فهذه أوصافُ المتوَكِّل، لا يَصَحَّ التَّوَكَّلُ بِفَقْدِهَا، وهى علامةُ حُسْنِ اليَقِينِ، وبها يثبتُ مقامُ اليقين.

وكذلك رُوينا فى أخبار داود عليه السلام، أنه قال لابنه سليمان ﷺ: «يا بُنَى، تُسْتَكْمَلُ تَقْوَى الْعَبْدِ بَثَلَاثٍ: حُسْنُ تَوَكُّلِهِ فيما يَأْتِيهِ، وَحُسْنُ رِضَاهُ فيما آتَاهُ، وَبِحُسْنِ صَبْرِهِ فيما فَاتَهُ».

• ذكر تفصيل التكسب والتصرف فى المعاش والحركة:

ولا يضرُّ التَّصَرُّفُ والتَّكْسِبُ لِمَنْ صَحَّ تَوَكُّلُهُ، ولا يَقْدَحُ فى مقامِهِ، ولا ينقص من حالِهِ، إذا أَحْكَمَ معنيين: النظر إلى الوكيل فى أوّل الحركة، فيكون مُتَحَرِّكًا. والرِّضَا بِالْحُكْمِ بعد التَّصَرُّفِ، فيكون مُطْمَئِنًّا إليه.

قال الله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا: ١١]. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَاشًا قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].

وروى عن النبى ﷺ: «أَحْلَ مَا أَكَلَ الْعَبْدُ مِنْ كَسْبِ يَدِهِ، وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ». وقد كان الصَّانِعُ بيده أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ التَّاجِرِ، وَالتَّاجِرُ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ الْبَطَّالِ. وقال ابن مسعود: «إِنِّى لَأُكْرَهُ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ بَطَّالًا، لَيْسَ فِى عَمَلٍ دُنْيَا، وَلَا فِى عَمَلٍ آخِرَةٌ».

ولأنَّ التَّوَكَّلَ مِنْ شَرَطِ الْإِيمَانِ وَوَصَفِ الْإِسْلَامِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]. فاشتَرَطَ فى الْإِيمَانِ بِهِ، وَالْإِسْلَامِ لَهُ، التَّوَكَّلَ عَلَيْهِ. فَإِنْ كَانَ حَالُ الْمُتَوَكِّلِ التَّصَرُّفَ فيما قَدْ وَجَّهَ فِيهِ، وَدَخَلَ فى الْأَسْبَابِ، وَهُوَ نَازِلٌ إِلَى الْمُسَبِّبِ فى تَصْرِيفِهِ، مُعْتَمِدٌ عَلَيْهِ، وَاثِقٌ بِهِ فى حَرَكَتِهِ، مُتَسَبِّبٌ فيما يُقَلِّبُهُ فِيهِ مَوْلَاهُ، مُتَعَيِّشٌ فيما يُسَبِّبُهُ لَهُ وَيُوجِّهُهُ فِيهِ مُوَكَّلُهُ، عَالِمٌ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْدَعَ الْأَشْيَاءَ مَنَافِعَ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهَا خَزَائِنَ حِكْمَتِهِ، وَمَفَاتِيحَ رِزْقِهِ، مُجْتَمِعُ الْقَلْبِ بِجَامِعِهِ، غَيْرُ مُشْتَتِّ بِتَفَرُّقِ هَمِّهِ. وَيَكُونُ - أَيْضًا - مُتَبَعًا لِلسُّنَّةِ وَالْأَثَرِ، تَارِكًا لِلتَّرَفِّهِ وَالتَّنَعُّمِ. فَهُوَ فى تَكْسِبِهِ وَتَصَرُّفِهِ أَفْضَلُ مِمَّنْ دَخَلَتْ عَلَيْهِ الْعِلَلُ فى تَوَكُّلِهِ فَسَاكَنَهَا، وَسَكَنَ إِلَى سُكُونِ نَفْسِهِ فى بَطَالَتِهَا وَفَرَاغِهَا مِنْ

هَمَّ الآخِرَةُ؛ طلباً لراحَتِها.

وقد ذُكِرَ لنا عن بعض العلماء أنه رَؤى يطحن برجله، وكان قد تَرَكَ العملَ أربعين سنة، فقيل له: دخلتَ فى التَّكسُّبِ بعد أن كنت قد تركته؟! فقال: يا هذا، إذا عُدِمْنَا عَزَّ التَّوَكُّلِ لم نصبر على ذلِّ الاستِشْرافِ.

فكذلك الأمرُ فيمن دخلتْ عليه الآفَةُ فى تَرَكَ التَّكسُّبِ، فَلْيَخْرُجْ منها إلى الاحترافِ، ومن دَخَلَ عليه اليقينُ فاقتطعه، فَلْيَقْعُدْ عن الاكتسابِ، وَمَنْ اعتَلَّ بالتَّكسُّبِ فليتداوِ بِتَرْكِهِ، وَمَنْ صَحَّ فيه وأوجبهُ الحكمُ عليه فليَتَكَسَّبْ.

حُدِّثْتُ أَنَّ بعضَ أهلِ المَعْرِفَةِ كان فى بُدُوِّ أمره قَطَّانًا، فلَمَّا دَخَلَ فى طريقِ الآخِرَةِ تَرَكَ السُّوقَ، وَلَزِمَ البَيْتَ ثلاثين سَنَةً، أو ما شاء اللهُ من ذلك. ثم خَرَجَ إلى السُّوقِ، فأخَذَ فى معاملةِ النِّسْوانِ، والأخذِ والإعطاءِ لهنَّ. فقيل له فى ذلك. فقال: لَمَّا اعتَلَلْنَا بِهِنَّ قَعَدْنَا فى البَيْتِ، فلَمَّا صَحَّحْنَا مِنْهُنَّ لَمْ نُبَالِ بِمَعَامِلَتِهِنَّ، قد استوى عندى الرِّجَالُ والنِّسَاءُ. أو كما قال، على نحو هذا المعنى رسمتهُ حَفْظًا.

والتَّكسُّبُ خيرٌ من الاستِشْرافِ إلى الخَلْقِ، ومن الطَّمَعِ فيهم، أو اعتيادِ المسألةِ، وسالكِ على طريقٍ فهو يصل، وإن كان فى طريقه بُعْدٌ.

والتَّوَكُّلُ لمن أُقْعِدَ به، واقتطعَ عن أَرْبِهِ، ناظرًا إلى الوَكِيلِ، أَفْضَلُ، منتظرًا للواردِ، مُتَفَرِّغًا للفوائدِ، إذا صَحَّ فى ذلك، وَصَدَقَتْ حالُهُ، واستقام قلبُهُ، لفراغِ قلبِهِ من الخَلْقِ، وشُغْلِهِ بالخَلْقِ. وهو طريقٌ قريبٌ، وسالكُهُ مُقَرَّبٌ.

وكان شيخُ المتوَكِّلِينَ، رحمه اللهُ، يقول: إلى كم يُدْخِلُ العبدُ بينه وبين نفسه غيرَ اللهِ الذى هو أَمْلَكُ بها منه، وإلى كم يُمَلِّكُ المخلوقين رِقَّةً، ولو صدقَ المتوجَّهُ فى توجُّهِهِ إلى اللهِ بالتَّقْدِيرِ له لاقطعه مُلْكُهُ يَسْرَحُ فيه حيث شاء. والعبدُ [أينما] كان يَخْصُهُ ثوبٌ يَحْمِيهِ، وَبُرْيَدَةٌ^(١).

وكان يقول: مَنْ صفا من آثاره، وانمَحَتْ الأسبابُ من أَذْكارِهِ وَحَثِيثِ حركاتِهِ، تحرَّكَتِ الأسبابُ إليه، وأقبلتْ عليه، وتحولَ المَلِكُ له لصالحه؛ لأنَّما تُمنَعُ الحركةُ

(١) بريدة: تصغير: بُرْدَةٌ، ثوب مخطط، أو كساء يلتحف به.

بالبطالين، لبقايا بقيت عليهم من آثارها، عقوبة لهم؛ لأنه ليس في الحركة والسعي لحظّ النفوس وظيفه، ولا تنفعه عند الله، ولا لله فيه شيء، وإنما هو حظ لصفة المتحرك.

قال: ولا يدوم التحرك بأحد إلا من بقايا عليه من نفسه. وأما المرادون بصفات الحق، بذهاب آثار نفوسهم، وفناء شواهدهم، فإن أحكامهم أن تجري الأسباب إليهم طلباً لهم، بما رفع الله من أقدارهم، عما هؤلاء فيه مما لا ينفكون طول أعمارهم عن ذكر أنفسهم، والسعي في حظوظهم، في صفتهم متحركة أبداً، ولا يستحق هؤلاء أن يحلفوا بالملك، أو بتحرك الأسباب إليهم، ولا يكون من يتحرك الملك له، وتطلبه الأسباب، وتملكه أنفسها، كمن سعى في أخذها وساء العموم في طلبها، ولا يتقاربان. هذا نقل كلام الخواص، رحمه الله، ومذهبه في التوكل.

وكان أيضاً من هذا المعدن يقول: كل من كان مع العلم، فإن العلم لا يحميه، ولا يُزيل عنه شاهد نفسه وصفته، ولا يتهيأ أن يغنى من نفسه مخارج المطالبات بالسعي، ولا بد له من السعي، ليعطى نفسه حظها من الرفاهة، ليستوى في دراسة العلم، ويصفو له الكلام فيه.

وقال أيضاً: من كان مع العلم فإنه لا يستوحش من مساكنة الدناءة والأدناس، والسعي معهم في الأسباب؛ لأنه ليس له حقيقة يوحش مواضعها له. وموضع الرغبة في هؤلاء يعطى عليهم مواضع الوحشة من دناءة أفعالهم، وما يلحقهم من الذلة في السعي لأنفسهم. وهؤلاء لا يصفون من آثارهم، ولا يقومون بحقيقة التوحيد، يزيدون في علمهم، وينقصون في سرائرهم، ويقوى مع مواضع الأسباب والفاقات فيهم وعليهم. ظهرت عليهم صفاتهم، وتبين أقدار الأشياء في قلوبهم، فعولوا على الأسباب، ولم يستعملوا في محو شواهد الأشياء عنهم، ورفع آثارها فيهم، ولا رفقت لهؤلاء حقيقة تمحوهم، ولا عزيمة تُفنيهم، حتى ملكتهم الأشياء، فذهبت أعمارهم فيما لا ينفعهم، وحال لا يحمل صاحبها ما ينتفع بها.

قال: وليس هذه حالة فضل ولا شرف، وإنما هم مع صفات الملك، لا مع الموصوف؛ لأنهم يصفون نفوسهم وهم قيامٌ أبداً، لا يزول قيامهم، ولا تذهب أسماؤهم، ولا تتمحى أذكارهم، فكيف يستوى هؤلاء مع من يصفه الحق بالحق، للحق في الحق.

هذه حكاية طريقة الخواصر، وكلامه في التوكل. وهذا لعمري كان حاله، وهو مقام الخصوص، ولا يصلح العموم بهذا، ولا يسلك بهم ها هنا، إذ لكل طريق زادٌ مثله، وعدةً قربه وبُعده، وكينه وشِدته، وليس مع العامة زادٌ هذا الطريق، ولا عندهم عدته، فكيف يحملهم عليه، أو يأمرهم به.

وأما التارك للتكسب طمعاً في الخلق، وترفيهاً للنفس، وإيثاراً للراحة والبطالة، أو حباً للهوى، فليس هذا من توكل العموم أيضاً في شيء. والساعي في هذا على غير طريق، لا قريب ولا بعيد، هو عن المحجة جائر، ومن الهوى والقصد حائر.

كما روينا عن النبي ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم فأسه وجهه، فيذهب إلى الجبل، فيحتطب فيأكل ويتصدق، خيرٌ له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه».

ولم يقل هذا للمتقين؛ لأنهم من الأهواء مصفين، ولقصد السبيل سالكين، ولوجه الله عاملين، وبحسن اختياره عالمين، وعن الخليفة بالله وبرسوله مقتطعين، وإلى بيت الله ومجلس نبيه منقطعين.

وإنما قال ذلك للشحاذ من الخلق السائل، وللحائر عن قصد المحجة المائل، ولمن هو من مقامه متمسك بغير طائل، وللمغتر الطامع في النعيم الزائل.

وقد قال ﷺ في أوامر العموم: «استغنوا عن الناس ولو بشوص السواك» يعني بمضغه.

وقال: «من يضمن لي خصلة واحدة أضمن له الجنة: لا يسأل الناس شيئاً». هذا لمن وجد الخلق، وحشوا قلبه العبيد، برد همهم إلى الله، وتفرغ قلوبهم من الخلق، وبرفعهم إلى الخالق.

وقال بعض علمائنا: من أنكر التكسب فقد طعن في السنّة، ومن أنكر القعود عن التكسب فقد طعن في التوحيد. وقال: بُعث النبي ﷺ إلى الخلق وهم أصناف كما هم اليوم، منهم التاجر، والصانع، والقاعد، ومن يسأل الناس، ومن لم يسأل الناس، فما قال للتاجر: اترك تجارتك، ولا قال للقاعد: اكتسب واصنع، ولا نهى السائل على أن يسأل؛ بل جاءهم بالإيمان واليقين في جميع أحوالهم، وتركهم مع الله في التدبير، فعمل كل واحد بعمله في حاله.

وأخبرني أبو موسى قال: سمعتُ الحسين بن يحيى يقول: سأل رجلُ ابنَ سالم: أنحن مُتَعَبِّدُونَ بالكسبِ أو بالتوكل؟ فقال: التوكلُ حالُ رسولِ الله ﷺ، والكسبُ سنّةُ. وإنما سنَّ لهم الكسبَ لضعفهم، حين سَقَطُوا عن درجَةِ التوكلِ، وأباح لهم طلبَ المعاشِ بالمكاسبِ الذي هو سنّةُ، ولولا ذلك لهلكوا.

وأما ابنُ عطاء فإنه كان يقول: ليس التوكلُ لزومَ الكسبِ ولا تركه، إنما التوكلُ طمأنينةٌ في القلبِ إلى الله.

ولذلك قال أبو عبد الله القرشي في المتوكل: إنما هو اطمأنَّ إلى الله سرّاً وجهراً، ورضي به كفيلاً. ونحوه قال دُويم: إنما التوكلُ الثقةُ بالله في كلِّ ما ضُمن على كلِّ حالٍ.

وقد كان بعضُ المتوكلين يقول: مَنْ لم يصبر على جوع ثلاثة أيام أخافُ أن لا يسعه تركُ العملِ إذا وجده. وقال أيضاً: مَنْ فَقَدَ الأسبابَ فَضَعُفَ قلبه، أو كان وجودُها أسكنَ لقلبه من عَدَمِها، لم يصحَّ له القعودُ عن المكاسب؛ لأنَّ فيه انتظاراً لغيرِ الله.

وقال بعض العلماء: مَنْ طَرَقَتْه فاقةٌ تسعةَ أيام، فتصوّر في قلبه طمَعاً في خلقٍ، أو استَشْرَفاً إلى عبدٍ، فالسُّوقُ أَفْضَلُ له من المسجد.

وقال أبو سليمان الداراني: لا خيرَ في عبدٍ لَزِمَ القعودَ في البيت، وقلبه مَعْلَقٌ بقرعِ البابِ متى يَطْرُقُ بِسَبَبٍ.

وقال بعضُ علمائنا: إذا استوى عندَه وجودُ السببِ وعَدَمُه، وكان قلبه ساكناً

مطمئنًا عند العدم، لم يشغله ذلك عن الله تعالى، ولم يتفرق همه، فترك الكسب والقعود لهذا أفضل؛ لشغله بحاله، وتزوده لمعاده، وقد صح له مقام في التوكل.

وقال سهل - رحمه الله - وقد سئل: متى يصح للعبد التوكل؟ فقال: إذا دخل عليه الضر في جسده، والنقص في ماله، فلم يلتفت إليه، ولم يحزن عليه؛ شغلاً بحاله، وينظر إلى قيام الله عليه.

وقال إبراهيم الخواص، وهو إمام المتوكلين من المتأخرين: ثلاثة مواطن حمل الزاد فيهن من آداب التوكل: القعود في المسجد، والركوب في سفينة، وصحبة القافلة.

وقال رحمه الله: لا ينبغي للصوفي أن يتعرض للقعود عن الكسب، إلا أن يكون مطلوباً، قد أغنته الحال عن المكاسب. وأما من كانت الحاجات صفة قائمة؛ كأن يقع له عزوف يحول بينه وبين التكلف، فالعمل أولى به، والكسب أجل له وأبلغ؛ لأن القعود لا يصلح لمن لم يستغن عن التكلف. يعني أن يكون قد كفى بالكفاية القاطعة من قلبه عن التكلف الظاهر من جوارحه، وأن يكون حاله قوية تحمله بالصبر والرضا، لا يضعف إلى تطلع وتشرف. يقول: فمعلوم هذا من كسبه الذي أحل له أفضل له من طمعه في غيره الذي كره له.

وقد كان سفيان الثوري يقول: العالم إذا لم يكن له معيشة صار وكيلًا للظلمة، والعابد إذا لم تكن له معيشة أكل بدينه، والجاهل إذا لم تكن له معيشة كان سفيراً للفساق.

وقال يحيى بن معاذ: الناس ثلاثة: رجل شغله معاده عن معاشه، فهذه درجة الفائزين، ورجل شغله معاشه لمعاده، فتلك حال الناجين، وآخر شغله معاشه عن معاده، فهذه صفة الهالكين.

ورؤينا عن علي رضي الله عنه: «الرزق رزقان: رزق يطلبك، ورزق تطلبه». فسره بعض العلماء فقال: الرزق الذي يطلبك هو رزق الغداء، والرزق الذي تطلبه رزق التملك، وهو طلب فضول القوت.

وقال أبو يعقوب السّوسى، وقد كان له مقام مكين فى التوكّل: التوكّل على ثلاثة مقامات: عامٌّ، وخاصٌّ عامٌّ، وخاصٌّ خاصٌّ، فمن دخل فى الأسباب، واستعمل العلم، وتوكّل على الله تعالى، ولم يتحقّق باليقين؛ فهو عامٌّ، ومن ترك الأسباب، وتوكّل على الله، وحقق فى اليقين؛ فهو خاصٌّ عامٌّ، ومن خرج من الأسباب على حقيقته، لوجود اليقين، ثم دخل فى الأسباب، فتصرّف لغيره؛ فهذا خاصٌّ خاصٌّ.

وهذا وصف الطبقة العليا من أصحاب رسول الله ﷺ العشرة، وغيرهم. جرّدهم اليقين من الدنيا، فأدخلهم العلم فى الأسباب لغيرهم، واتسعوا بالعلم على حقيقة اليقين.

ولذلك كان الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: دُخُولُ الْخُصُوصِ فى الأسباب لغيرهم رُدَّتْ عليهم أحوالُ الغير، وجُعِلُوا رازقين لهم، فتصرّفوا فيها لأجلهم، وهم بريئون من التعلّق بها.

وقال: النَّاسُ فى التوكّل على ضريين: طالبٌ له، ومطلوبٌ به. فالمطلوب بالتوكّل مُسْتَعْمَلٌ بحقائقه، مَرْفُوعٌ إلى أعلى غايته، مُطَالَبٌ بِالْعَمَلِ فى حق نفسه، وذهاب آثاره بمحو رَسْمِهِ وشاهدِهِ. والطَّالِبُ له توجّه بالزُّهْدِ، وترك الأسباب القاطعة، وعَمَلٌ فى حَذْفِ كُلِّ شَاغِلٍ يَشْغَلُهُ، أو يَحُولُ بينه وبين قَصْدِهِ، فهو مُجْتَهِدٌ فى الانفراد.

وقد كان أبو جعفر الحدّاد - شيخُ الجُنَيْدِ - أحدَ المتوكّلين، وقال: أخفيتُ التوكّلَ عشرين سنة، ولا فارقتُ السوقَ، أكتسبُ فى كلِّ يومٍ ديناراً وعشرة دراهم، لا أُبَيِّتُ منه دَانِقاً، ولا أستريحُ فيه إلى قيراطٍ أدخلُ به الحمام، بل أُخْرِجُهُ كُلَّهُ قبلَ الليل. وكان الجُنَيْدُ لا يتكلم فى التوكّل بحضرة أبي جعفر، يقول: أستحى من الله أن أتكلّم فى مقامه وهو حاضر.

وبلغنى أنه تركَ العملَ لما نظرَ إليه الغلامُ الذى كان ينفخُ عليه الكيرَ، فرآه يُدْخِلُ يده فى الكيرِ، وهو يتلَطَّى، فيُخْرِجُ الحديدَ جَمَراً، ويردّه إلى الكيرِ، فغشى على الغلام، ثم حدّث به الناس، فكانوا يتناوبونه، ينظرون إليه، فترك الصنعة.

وبلغني في سبب هذا شيء ظريف، أنه سُئِلَ: بأي شيء نلتَ هذه المنزلة أن لا تحرقك النار؟ فقال: بدعوة فاسق. وكان هذا أعجب. قيل: كيف؟ قال: وجدتُ مع أهلي رجلاً ففزعاً مِنِّي فزعاً شديداً، فأخذتُ بأيديهما وقلتُ: اخرجوا بسلام، فقال لي الرجل: جعل الله عليك النار برداً وسلاماً. فهذا من إجابة دعوتِهِ بسترِي على مسلم^(١).

وقد شرط النبي ﷺ للعطاء ترك المسألة والاستشراف إلى الخلق، تنزيهاً للفقراء، ورداً لهم إلى الله تعالى؛ لأن في مسألة العبد الفقير ذلاً ذليلاً، وحرصاً على الدنيا جليلاً، وفي الاستشراف إلى العبيد طمعٌ في غير مطمع، ونظرٌ إلى غير الله، وإتيان البيوت من غير أبوابها. ومنه ما روى عن النبي ﷺ: «مسألة الناس من الفواحش، ما أحلَّ من الفواحش غيرها». وقال ﷺ: «من استغنى أغناه الله، ومن استعفَّ أعفاه الله، ومن فتح على نفسه باب مسألة فتح الله عليه باب فقر».

فكان الفقراء الصادقين جعل لهم أخذُ العطاء، بل نُدبوا إلى قبوله عوضاً لهم من المسألة والإلحاف، فلما مُنعوا من الاستشراف والسؤال تنزيهاً لهم وتفضيلاً، جعل لهم هذا العطاء تعويضاً، فمثَّلُهم في ذلك مثلُ أهل البيت: جعل لهم خمسُ الخمس من الغنائم؛ لما حرِّمت عليهم الصدقة، تفضيلاً لهم وتشريعاً.

وقد كان أحمد بن حنبل - رحمه الله - أمر أبا بكر المروزي أن يُعطِيَ بعضَ الفقراء شيئاً؛ فيه فضل عما كان استأجره عليه، فردَّه، فلما ولى قال له أحمد: الحق، فادفعه؛ فإنه يأخذه. قال: فلحقه المروزي فدفعه إليه، فأخذه، فسأل أحمد عن ذلك: كيف رد في الأوَّل، وأخذ في الثاني؟ فقال: إنَّه كان قد استشرفَ لذلك فردَّه، وقد أحسن، فلما انصرف أيسَّتْ نفسه منه؛ فلذلك قبلَ.

وقد كان الخوَّاص إذا نظر إلى عبدٍ في العطاء، أو خاف اعتياد النفس له، لم يقبل منه شيئاً.

(١) في هذه القصة نظر، وإن صدقت فهي ليست مطردة، فالأمر مرده إلى الشيخ أبي جعفر لا إلى الفاسق. وهذا التأويل من تواضع الشيخ.

حدثني شيخ عن رجلٍ دفع إليه ديناراً بمكة، وهو لا يعرفه، فقبله. فلما كان الغد، رأى حوله جماعة من الفقراء، فسأل عنه، ف قيل: إبراهيم الخوَّاص، فجاءه بالتسعة الآخرة، وقد كان أعدَّ العشرة له، فلم يقبل.

وكان يقول: صوفي لا يكون محترفاً.

وهذا كله يحسن في حال المنفرد.

فأما ذو العيال، فالأمر عليه أوسع من ذلك، فلا بأس أن يأخذ لأجل عياله، كما يأخذ لأجل غيره من الناس؛ لأنَّ عياله عيالُ الله عنده، قد وكله بهم، وأجرى أرزاقهم على يده، فإن طلب لهم، وحثَّ على استخراج حقِّهم ممَّا أوجب الله تعالى لهم، لم ينقص ذلك من حاله، بل كان مزيداً له، وفضلَ معاملة، بعد أن يكون نيته في ذلك الأجرُ والمعاونة على البرِّ والتقوى للفرقيين معاً، إذا كان واضحاً للمعروف في أهله، ومُستخرجاً له ممَّن أوجبه الله عليه.

وفي الخبر: «ما من عملٍ أفضل من أن يأمر العبدُ بصدقة في ذى رحمته»، وأقامهم مقامَ عيالٍ غيره من المسلمين، فهم حينئذٍ أوجب؛ لأنَّه مفترض، وكان عند بعضهم نافلة.

وقد كان من سيرة السلف أن يقومَ ذو السعة منهم بأهل بيتٍ من المسلمين، وأهل بيتين وثلاثة إلى العشرة أهل أبيات، فكانه قد قام بأهل بيتٍ من الفقراء، فهؤلاء أفضل كفضل الفرض على النفل. وقد آخى رسولُ الله ﷺ بين سعد بن الربيع، وبين عبد الرحمن بن عوف، فقال له سعد: أشاطرك مالى وأهلى، فقال عبدُ الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلُّوني على السوق، فعَمِلَ يومه ذلك، فراح بشيءٍ من سمن وأقط.

فلو كان التكسب في الأسواق يُنقص التوكل، لم يختَر عبد الرحمن - وهو إمام الأئمة - ما ينقص توكله؛ ولكنه أحبَّ إدخال المشقة على نفسه، وكرهَ التَّعَمُّ، كما قال رسولُ الله ﷺ لمعاذ: «إياك والتَّعَمُّ؛ فإنَّ عبادَ الله ليسوا بالمتَّعِّمين».

ورؤى فضالة بن عبيد أشعث أغبر حافياً وهو أمير مصر، فقيل له: لِمَ أنت

هكذا؟ فقال: إن رسول الله ﷺ نهانا عن الإفراء، وأمرنا أن نحْتَفِي أحياناً. ثم اختار عبد الرحمن أيضاً إثارة أخيه بما آثره به؛ رعاية لحق أخوته؛ ولأن الله تعالى قد ندب إلى الإيثار، ووَصَف به الأحاب.

وأعلى من عبد الرحمن مقاماً إمام الأئمة أبو بكر الصديق رضى الله عنه، لما بُويع بالخلافة أخذ الأثواب تحت إبطه، ودخل السوق ينادى. هذا فى أتم أحواله، حين أهل للخلافة وأقيم مقام النبوة، حتى اجتمع المسلمون، فكرهوا له ذلك ومنعوه منه، فقال: لا تشغلونى عن عيالى، فإنى إن أضعتهم كنت لما سواهم أضيع، حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين، لا وكس ولا شطط، فلما رضوا جميعاً بذلك، واتفقوا عليه، ترك السوق؛ لشغله بأمورهم.

ألا تراه كيف آثر القيام بحكم الله تعالى عليه، وبحقه، وما أوجب الله عليه لأهله؟ وكان ذلك هو علم حاله، ومقتضى علمه، وتواضع لله فى حال رفعة، وأسقط الخلق عن عينه، ودخل فى تسبب المعاش، بعد أن كان خرج منه، وأخرج الأسباب عنه، حتى كره الصحابة ذلك، وأجمعوا على تركه، فانتقل من الحكم الأول إلى الأمر الثانى بحكم حاكم أوجبه عليه، بتصرف الوكيل على توكيله فيه، فكذلك وصف المتوكل أنه ناظر إلى الوكيل فيما يحكم، مستعمل لعلمه بعمله فيما يرسم؛ يكون مع حكم الأول الذى هو مقتضى حاله، إلى أن يرد عليه من وكيله حكم ثان، يصير مقتضى وقت آخر، فيدخل فيه بحكم حاكم، وشهادة شاهد، ويتلوه شاهد منه، لا يقعد عن الأحكام لنفس، ولا يدخل فى الأسباب بنفس، ولا يترك التكسب لخلق، ولا لأجل شهوة خفية، ولا عن رغبة سرية، كما لا يتكسب لمتعة النفس بالهوى، ولا حرصاً على الدنيا، وقد كان بعض علماء السلف يجمع إليه الناس للكلام عليهم، فكان يقول: لو أعلم أن أهلى يحتاجون إلى باقة بقل ما تكلمت عليكم.

ففى هذا بيان وبرهان لمن لم تستهوه الأهواء فى إنكار التكسب على أهل التوكل؛ إن أوجب ذلك الحال، فينكر عليهم احتجاجاً لنفسه، واعتذاراً من بطالته، وجهلاً بحكمة ربه، وتركاً للعلم المتعبد به. ولا يسع العلماء فى الدين إلا

البيان وكشف حقيقة العلم بالبرهان؛ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ، وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ.

والتوكلُ خصوصٌ، وعمومٌ. فخصوصه للمقربين موجبٌ للهداية السابقة لهم من مقام النبين. وعمومه لأصحاب اليمين ميراثُ المجاهدة في الله من مقام الصالحين. قال الله في خصوصه: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢]، فبنور هذه الهداية النبوية رأوا الوكيلَ، فعليه توكلوا، فألحقهم بالرفيق الأعلى إلى مقامهم. وقال في عمومه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فبهداية السبيل نجّاهم من كل تهلكة وتضليل.

وقد قرّن الله تعالى الرزق منه بالنصرة لهم، يُنبّه بذلك أنّ التوكلَ عليهم في الرزق نصرة من الرزاق، فقال: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ [الملك: ٢٠]، ﴿أَمَّنْ يَرْزُقُكُمْ إِنِ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ [الملك: ٢١].

فأفضل النصرة من الناصر حُسنُ التوكل عليه؛ لأنّه هو الوكيلُ الحاضر، وهي نصرة الأنبياء: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُون﴾ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ ﴿[هود: ٥٥ - ٥٦]، ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ * وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل: ٩ - ١٠]، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بحُسن اليقين وصدق التوكل ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَن لَّنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا﴾ بحقيقة الإيمان وعين الإيقان ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بالفوز بالجنان ومنازل الرضوان ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ بجبلٍ إلى سَقَفِ الْبَيْتِ ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ الحبلَ، فيقتل نفسه ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾ فِكْرُهُ وحِيلَتُهُ ﴿مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥] قَلْبَهُ من الخذلان له، والتخلية من النصرة، ومن الولاية، فهذا خبر المُبْعَدِينَ المطرودين من خصوص التوكل وعمومه، نعوذ بالله من مقتته وغضبه.

وكان من دعاء الرسول ﷺ: «أَسْأَلُكَ حُسْنَ الْيَقِينِ بِكَ، وَصَدَقَ التَّوَكُّلَ عَلَيْكَ، وَحُسْنَ الْاِخْتِيَارِ وَالتَّوْفِيقِ لِمَا تُحِبُّ».

وكان إبراهيم بن أحمد الخواص رحمه الله يصفُ خصوص المتوكلين بهذه الخصال، ويقول: هي أخلاقُ أهلِ التوكلِ. وقد ذكرها قبله إمامنا فى هذا العلم من أبى محمد رحمه الله بَدَل عنه، وهو شقيق بن إبراهيم البلخى، فجعلها من صفات الأولياء، ونعتَ بها العارفين، وقد ذكرناها فى غرائب الأخبار مسندةً، وفيها مرفوعة نظر.

فقالوا فى صفات الأولياءِ والمتوكلين: كانوا بوعْدِ الله مُطمئنين، وكانوا من الخلق آيسين، وكانت عداوتهم الدنيا والشياطين، فكانوا بأمرِ الله مستعملين، وكانوا على الخلق مُشفقين، وكانوا لأذى الناس مُحتملين، وكانوا فى مواطنِ الحق متواضعين، وكانوا فى مواضع العداوة لا يدعون النصيحةَ لجميع المسلمين، وكانوا بمعرفةِ الله مستقلين، وكانوا بالرضا فيما قلَّ أو كثر وأحبوا وكرهوا عن الله تعالى سواء، وكان الفقرُ رأسَ مالهم، وكانوا الدهرَ على طهارة.

وقال بعضُ العارفين: من حقيقة التوكل أن يترك العبدُ محابهَ لمحبابِ الله، واختياره لاختيارِ الله تعالى، وتديرةً لتدبيرِ الله؛ بالغناء عن نفسه، والنظرِ إلى مجارى الأحكام، ولا يكون الهمُّ داخلاً على أهلِ التوكل؛ لأنهم لا يُحرِّكون بهمَّه الدنيا ولا اهتمامَ لنفسٍ. ومقامُ الهمِّ فيهم خروجٌ من حدودِ التفويضِ والتوكل، ورجوعٌ إلى النفس، ومراد الله من خلقه مُساءلته اختياره والرضا به.

ولعمري إننا قد رؤينا عن الله سبحانه: «ما لأوليائى والغمّ، إنَّ الغمَّ يَمُصُّ حلاوةَ مُناجاتى من قلوبهم، مُرادى من أحبائى أن يكونوا روحانيين، لا يهتمون بقصدى، ولا يهتمون للخير^(١) إذا قصدنى».

وقد كان ابنُ معاذ يقول: من قصدَ إلى الحقِّ، ويهتم بالخير، فقد اتهم المقصود، وهذه علةٌ فى قصده.

وقال بعضُ المتوكلين: فى حدودِ التوكلِ العملُ فى قطعِ الطمع، ونفى الركون إلى الأسباب، ويكونُ نظرُ الله له فى المنعِ أفضلَ عنده من نظره إليه فى العطاء،

(١) فى الأصل (م): «ويهتم للخير، لا يهتمون للخير».

وَأَنْ يَجِدَ لِلْمَنْعِ مِنَ الْحَلَاوَةِ مَا لَا يَجِدُ لِلْعَطَاءِ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَصَدَهُ بِالْمَنْعِ فَرِحَ.

وعلامه رُكُونُهُ إِلَى مَنْ عَوَّدَهُ الْبِرَّ مِنَ الْخَلْقِ: تَرَكَ الْقِيَامَ عَلَيْهِ بِالْحَقِّ، وَتَرَكَ النَّصِيحَةَ لَهُ، وَالْأَنْبِسَاطُ إِلَيْهِ، وَكَثُرَةُ السَّلَامِ عَلَيْهِ دُونَ غَيْرِهِ مِمَّنْ لَا يَبْرُهُ، وَدَوَامُ تَطَلُّعِ الْقَلْبِ إِلَى لِقَائِهِ وَمَحْوِ أَسْبَابِهِ.

وعلامه رُكُونُهُ إِلَى الْأَسْبَابِ: خَوْفُ زَوَالِهَا قَبْلَ أَنْ تَزُولَ، فَإِنْ زَالَ مِنْهَا شَيْءٌ لَحِقَ قَلْبَهُ الْوَهَنُ، وَالتَّمَسُّكُ بِمَا بَقِيَ خَوْفَ الْفَقْرِ.

ورؤينا فِي عُمُومِ التَّوَكُّلِ وَخُصُوصِهِ حَدِيثَيْنِ؛ أَحَدُهُمَا قَوْلًا، وَالْآخَرُ فِعْلًا، مِنْ أَفْهَمِهِ اللَّهُ الْقَوْلَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ تَوَكَّلَ الْعُمُومُ، وَمَنْ أَشْهَدُ الْفِعْلَ فَتَوَكَّلْهُ خُصُوصًا.

فَفِي عُمُومِهِ حَدِيثُ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «الرِّزْقُ مَقْسُومٌ»، وَهُوَ آتِ ابْنَ آدَمَ عَلَى كُلِّ سِيَرَةٍ سَارَهَا، لَيْسَ بَتَقْوَى مُتَّقٍ بِزَائِدَةٍ، وَلَا فُجُورٍ فَاجِرٍ بِنَاقِصَةٍ، وَبَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الرِّزْقِ سِتْرٌ، وَهُوَ يَطْلُبُهُ، فَإِذَا أَجْمَلَ فِي الطَّلَبِ أَتَاهُ الرِّزْقُ مِنْ حِلِّهِ، وَإِنْ شَرِهَتْ نَفْسُهُ هَتَكَ السِّتْرَ، وَلَمْ يَزِدْ فَوقَ مَا قُسِمَ لَهُ.

ثُمَّ قَالَ ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ لِيُعْرَضَ لَهُ بَابٌ مِنَ الرِّزْقِ مِنَ الْحَرَامِ، فَإِنْ هُوَ عَجَلَ إِلَيْهِ نَقَصَ مِنْ رِزْقِهِ الْحَلَالَ، وَإِنْ هُوَ أَمْسَكَ جَاءَهُ الرِّزْقُ حِينَ يَأْتِيهِ مِنْ حِلِّهِ».

الْخَبَرُ الْآخَرُ فِي وَصْفِ الْخُصُوصِ لِمَجِيءِ الرِّزْقِ إِلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ مَعْلُومٍ لَهُمْ، حَدِيثُ ابْنِ الْمُنْكَدَرِ: أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَقَالُ لَهُ: جَرِيرُ، خَرَجَ فِي سَفَرٍ، وَلَيْسَ مَعَهُ زَادٌ إِلَّا إِدَاوَةٌ، وَهُوَ يَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَكَفَى بِهِ زَادًا. فَرَجَعَ الرَّجُلُ فَأَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ بِقَوْلِ جَرِيرٍ، فَقَالَ: هَلْ رَأَيْتَهُ حِينَ تَكَلَّمَ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: «أَمَّا إِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَهُ رَأَيْتَ النُّورَ يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ».

فَفِيهِ: سُنَّةٌ فِي الْخُرُوجِ بِغَيْرِ زَادٍ، إِذَا عَزَمَ اللَّهُ لَهُ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، إِذْ لَمْ يُنْكِرِ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ، وَفِيهِ: رُخْصَةٌ فِي رَدِّ الْأَسْبَابِ مَعَ الْحَاجَةِ، إِذَا قَوِيَ عَلَى الصَّبْرِ، وَاخْتَارَ حَالَ الضَّرِّ، إِذْ لَمْ يَنْهَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، وَقَدْ قَالَ [اللَّهُ تَعَالَى]:

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [البقرة: ١٧٧] قيل: البأساء: الفقر، والضراء: المرض. ومثله فى ترك التداوى لتوكل الخُصوص، إذا عزم الله له بالقوة والنصر، كما قال فى الحرف الآخر: «فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ»^(١) أى عَزَمْتُ لك بالصبر والنصر، حينئذٍ صَحَّ تَوَكُّلُكَ عَلَى فَتَوَكَّلْ.

• بقية الكلام فى التكسب والمعاش للمتوكلين:

فالتكسبُ والأسبابُ طُرُقُ أودعها الله العطاءَ والأرزاقَ، لا هى تُعْطَى وترزق، بمنزلة الأواسط من الأشخاص.

فالمُتَوَكِّلُ المتسبب للمعاش موقنٌ أنّ الله سبحانه هو المعطى والمانع، وأنّه هو المسبب الرازق، وأنّه هو الأوّل فى التصريف، والآخِرُ فى التّقليب، فقلّبه ناظرٌ إلى القسّام، ونفسه ساكنةٌ إلى القسم؛ وقلّبه قانع راضٍ بالمقسوم، وجسمه متحركٌ فى المعلوم للحدود والرّسوم فيما وجّه فيه، وسبب له، وهو عارفٌ بمقامه وبالمراد منه، راضٍ بحاله، وما قد استسعى فيه، وألزم إياه. والذى يُنْقِصُ التوكلَ ويُخْرِجُهُ من حدِّ التوكلِ اكتسابُ الشبهات للاستكثار، أو السعى بالتكسب للجمع والافتخار، أو الحرص على طلب ما حَظَرَهُ العلمُ عليه، أو لطلب ما يكره المَنالُ منه، أو التسخُّطُ للأقدار إذا لم تَوَاتِهِ على ما قَدَّرَ، أو تَرْكُ النُّصْحِ لمن عامله بأن يحتال عليه أو يدبر، أو التشرف إلى الخلق، أو الطمعُ فى سبب، أو الوقوفُ مع معتاد من عبدٍ، فهذا كله لا يصحُّ معه فضلُ التوكلِ، وغير ما يقول، ولا فرضه، إلا ما اتَّصَلَ منه بعقدِ الإيمانِ من تسليم الأقدار.

وقد قال بعض العلماء: إنّ العبدَ إذا دخل السَّوقَ للتَّكْسِبِ، فكان درهمُه أحبَّ إليه من درهمٍ غيره، لم ينصح للمسلمين فى المبايعة. وهذا عنده يُخْرِجُهُ من التوكلِ. ودُخُولُ الآفاتِ، ومساكتُها لقُصورِ علمٍ، أو غلبةِ هوى، يُخْرِجُ العبدَ من التوكلِ؛ وهو أن يكون متوكلًا على الناس، بأن يطمعَ فيهم، أو يتصدى لهم بالتعرضِ والتصنع؛ أو يكون متوكلًا على صحةِ جسمه، ودوامِ عَوافيه، وأنه لا

(١) يقصد الآية ١٥٩ من سورة آل عمران: «فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ».

يُرْزَقُ إِلَّا مِنْ كَدِّهِ؛ أَوْ يَكُونُ مَتَوَكِّلًا عَلَى مَالِهِ، بَأَنْ يَثِقَ بِهِ، وَيَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ، وَيَحْسَبُ أَنَّهُ إِنْ افْتَقَرَ انْقَطَعَ رِزْقُهُ، وَعَلَامَةُ ذَلِكَ ضِيقُهُ بِهِ، وَإِعْدَادُهُ لَهُ؛ عُدَّةً لَكُذَا وَعُدَّةً لَكُذَا، كَمَا ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَوْصَافِ الْمُنَافِقِينَ فِي قَوْلِهِ: ﴿جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ [الهمزة: ٢].

أَوْ يَكُونُ مَتَوَكِّلًا عَلَى جَاهِهِ وَمَنْزِلَتِهِ عِنْدَ النَّاسِ، أَوْ عَلَى سِتْرِهِ وَدِينُونِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ مَعْرُوفٌ بِالصَّلَاحِ. أَوْ عَلَى أَنَّهُ لَا يُرْزَقُ إِلَّا مِنْ أَجْلِ دِينِهِ وَتَقْوَاهُ، وَنَحْوَهُ بِأَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَى عِلْمِهِ، وَمِمَّا يَعْرِفُ النَّاسُ مِنْ فَضْلِهِ.

فَهَذِهِ الْمَعَانِي كُلُّهَا تُخْرِجُ مِنْ كُلِّ التَّوَكُّلِ، فَقَدْ تَخَفَى دَقَائِقُهَا، وَتَدَقُّ خَفَايَاهَا، وَيَقَعُ الْوَهْمُ بِمَنْ وَقَعَتْ بِهِ مِنْهَا أَنَّهُ مِنَ الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَى الْوَكِيلِ، أَوْ النَّازِلِ إِلَى الْقَرِيبِ الْكَفِيلِ. وَإِنَّمَا يَفْطُنُ لِذَلِكَ جِهَابُذَةُ الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخُونَ، وَسَمَاسِرَةُ الصَّادِقِينَ، الزَّاهِدُونَ، الْمُتَضَلِّعُونَ بِالْعِلْمِ، الْمُتَوَرِّدُونَ بِالْيَقِينِ، الْقَائِمُونَ عَلَى الدَّوَامِ بِالشَّهَادَةِ، النَّاكِبُونَ عَنِ مَأْلُوفِ النَّفْسِ وَالْعَادَةِ.

فَمَنْ نَظَرَ إِلَى هَذِهِ الْمَعَانِي مِنَ الْأَسْبَابِ وَالْأَشْخَاصِ، أَوْ سَكَنَ إِلَيْهَا سَكُونُ أُنْسٍ، فَيَقْوَى قَلْبُهُ بِوُجُودِهَا، فَإِنَّهُ يَضْطَرِبُ وَيَسْتَوْحِشُ، أَوْ يَضْعَفُ قَلْبُهُ لِفَقْدِهَا؛ وَذَلِكَ كُلُّهُ عِلَّةٌ فِي تَوَكُّلِهِ.

وَرُوينا عَنْ بَشْرِ بْنِ الْحَارِثِ قَالَ: إِنَّ الْعَبْدَ لَيَقْرَأُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فيقول الله تعالى: «كَذَّبْتَ، مَا إِيَّايَ تَعْبُدُ، وَلَا بِي تَسْتَعِينُ؛ لَوْ كُنْتَ تَعْبُدُ إِيَّايَ لَمْ تُؤْثِرْ هَوَاكَ عَلَى رِضَايَ، وَلَوْ كُنْتَ بِي تَسْتَعِينُ لَمْ تَسْكُنْ إِلَى حَوْلِكَ وَلَا قُوتِكَ، وَلَا إِلَى مَالِكَ وَنَفْسِكَ».

وَمِنْ أَلْطَفِ مَا قِيلَ فِي السَّكُونِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ، وَالنَّظَرِ إِلَى سِوَاهُ، قَوْلُ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ فِي مَعْنَى قَوْلِ الْخَلِيلِ: ﴿وَاجْتَنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، قَالَ: أَنْ أَسْكُنَ إِلَى الْخَلَّةِ الَّتِي وَهَبْتُهَا لِي، أَوْ يَنْظُرَ نَبِيًّا إِلَى الثُّبُورِ الَّتِي جَعَلْتُهَا لَهُمْ، فَيَحْتَجِبُونَ بِذَلِكَ عَنْكَ.

وَسُئِلَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنِ التَّوَكُّلِ، قَالَ: «قَطْعُ الْاِسْتِشْرَافِ بِالْإِيَّاسِ مِنَ الْخَلْقِ.

قيل له: فما الحُجَّةُ فيه؟ قال: قال: إبراهيمُ النَّبِيُّ ﷺ: قال له جبريل: أَلَك حاجةٌ؟ قال: إليك لا. قال: فسل من لك إليه حاجة. قال: أَحَبُّ الْأُمْرَيْنِ إِلَيَّ أَحَبُّهُمَا إِلَيْهِ.

هكذا ذكره أحمد، كأنه جعل التوكُّلَ التفويضَ والرِّضَا بِجَرَيَانِ الْأَحْكَامِ من غيرِ مَسْأَلَةٍ، ولا اعتراض. وهذا التَّهْدِي هو حال المتوكِّلِينَ.

ولذلك كان أبو سليمان يُصِفُ التَّوَكُّلَ إلى الزُّهْدِ، ويَصِفُ المتوكِّلَ بالزُّهْدِ، فكان يقول: الزُّهْدُ يَمْنَعُ مِنَ التَّعَبِ، والتَّوَكُّلُ يَمْنَعُ مِنَ الذُّلِّ، والكَرَمُ يَمْنَعُ مِنْ دَنَاءَةِ الْأَخْلَاقِ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، يَعْزُهُ بِهِ.

وقال أبو تراب النخشبى: ليس التوكُّلُ أَنْ يَتَوَكَّلَ لِيَكْفَى، وَلَوْ عَرَضَ ذَلِكَ لِلْمُتَوَكِّلِينَ لَتَابُوا، وَلَكِنْ حَلَّ بِقَلْبِهِ الْكَفَايَةُ بِاللَّهِ، فَصَدَّقَ اللَّهُ فِيمَا ضَمَّنَ، فَأَلْقَى الْكَتْفَ بَيْنَ يَدَيْهِ.

وكان إبراهيمُ الْخَوَاصُ يَصِفُ المتوكِّلَ، ويذكر حقيقة التوكُّلِ، فقال فى كتابه: هو أن يترك العبدُ اختيارَه لِاخْتِيَارِ اللَّهِ، وتُدِيرُهُ لِتُدِيرِ اللَّهِ، بِالْغِنَى عَنْ ذَلِكَ، وبالنظرِ إلى مجارى الأحكامِ والقَدَرِ، ولا يكون الهمُّ داخلاً على أهلِ التوكُّلِ، ولا قلوبُهُم معلقةٌ بِهِمْ؛ لَغْنَاهُمْ عَنْهُمْ، وفناء الأشياءِ عَنْهُمْ.

قال: وإِنَّمَا يُؤَلِّدُ الهمومَ فى القَلْبِ ما بَقِيَ من بَقَايَا النَّفْسِ من محابِّ الدنيا، والطمعِ فى الخَلْقِ، والرُّكُونِ إلى الْأَنْسَابِ.

قال: وَمَنْ بَقِيََتْ عَلَيْهِ الْبَقَايَا، لَمْ يَضَعْ قَدَمَهُ فى مَقَامِ التَّوَكُّلِ.

قال: ودوامُ نظره إلى مجارى الأحكامِ فيه، وَعَلَيْهِ، مع انتظارٍ ما يَقَعُ به من الله لِشِدَّةِ الْجَمَاعِ فى الْحِرَاسَةِ لِلْسَّرَائِرِ، يُغْنِيهِ عَنْ نَفْسِهِ، وَيَزِيلُ ضَعْفَهُ، وَيَصِيرُ عَوْنًا عَلَى سَدِّ خَلَلِهِ، وَالْحِفْظِ لَضَمِيرِهِ.

ثم قال: النَّاسُ فى التَّوَكُّلِ: طَالِبٌ لَهُ، وَمَطْلُوبٌ بِهِ. فالمطلوبون بالتوكُّلِ المستعملون بحقائقه فى أعلى ذُراهٍ وغاياته. قال: وَالضَّرْبُ الْآخِرُ مُحَرِّكُونَ لَطَلْبِهِ بِالتَّوَجُّهِ مِنْ حَيْثُ الْعِلْمُ، فما وافقه استعملوه، وما لم يُوافقه كَرِهُوهُ؛ لَوْ قَوْفَهُمْ مع

الخلق بما يكون من لمة الملك، وأشكال العدو، وتسويل النفس.

فدخول الهم خروج من التفويض، والتوكل رجوع إلى النفس؛ لأن التوكل لا يقيم في التوكل هم، ولا يحركها عليه، وإنما يقيم عليه التحويل إلى الأفعال، والتنفيل، وأنه من لم يجد في قلبه بصيرة لما يريد، فليس من الله في مزيد.

قال: ومن لم يقطع مزيد الله في قلبه عن وصف لسانه، فذلك الذي شغل نفسه بحال غيره، وكلما أخذه المزيد بهواه وضعه الهوى منه مواضع المضرة، وكان عوناً له على المعاصي، وداعياً إلى الدنيا.

وحدود الإرادة قطع الطمع، وخلع الرآحات، ونفى الركون إلى الأسباب؛ دون المسبب، أو إلى المخلوقين دون الخالق. وكل مزيد لا تلهيه إرادته عما يريد ولا يريد، فليس بمريد، بذهاب آثارهم؛ وهو ترك الحركة، والأخذ للأسباب بشهوات النفس وعاداتها، وباختيارها، بل بمحو رؤسهم بتصفية الأعمال، وتصحيح الحركات، والأخذ والترك لحظوظ النفس، حتى تكون كلها لله، وبالله، بذهاب رسم النفس منها في كل معنى، وذهاب شواهدهم؛ لأن المستكمل بما وصفنا يقيم شاهد الحق في الأشياء، بزوال شاهد النفس، وحال الصدق، ويحبس النفس عن مرادها، حتى يملك المريد قيادها.

قال الخواص: وعلامة ركون قلب المريد إلى الله أن يكون قلبه قوياً عند زوال الدنيا عنه، وفناء الحق، متبرماً بما في يده من الأسباب، راحته في فقدها، ويكون نظر الله له في المنع أفضل عنده من نظره له في العطاء. وأن يجد للمنع من الحلاوة ما لا يجد للعطاء، ومن علم أن الله قصده بالمنع، فمن معطٍ سواه؟^(١).

ومن كان من المریدین شغله في عمل ظاهره دون باطنه وقلبه، وتصحيح إرادته، فإنما يفسد أكثر مما يصلح، وتكثر آفاته وآفات من تأدب به. ومن كان شغله في عمل قلبه، وتصحيح إرادته، زكا عمله، وقهر هواه، وقلت آفاته،

(١) بعده في المخطوط فقرة مضت بنصها فيما نقل عن الخواص من قبل، فتركتها، وكانت أيضاً مضطربة، كثيرة الأخطاء.

وآفات من تأدّب به، والنُّسكُ هو العناية بالسّرائر، وإخراج ما سوى الله منها، حتى يتوجّه إلى الله، والعناية تَبَعث على التفقُّد. ومزيدُ أعمال المريدين على قَدَر تَفَقُّدِهِمْ لَهَا، ولم يُؤْتَ المريدون إلا من جهتين: مِنْ قِلَّةِ الصَّدَق، وإصابة الحق؛ وَمِنْ رُكُونِ الأدلّة إلى الدنيا، فدُلُّوهم على علوم أنفسهم، وصدق المريدي في إثارة الخمول، ولزوم الباب، وفراغ القلب، وخوف قوت الوصول.

والتاركُ للتكسّب والتصرف في الأسواق، إذا كان في أدنى كفاية، وأُعِين بالصبر والقناعة، في مثل زماننا هذا، أفضل وأتمّ حالاً من المتكسّب؛ إذا خاف أن لا ينال المعيشة إلا بمعصية الله، مِنْ دُخُولِهِ فِي شِبْهِةٍ عَيَانًا، أو خيانة لإخوانه المسلمين، ولأنه قد تَعَذَّرَ القيامُ بشرائط العلم مع مباشرة الأسباب، وكثرة دخول الآفات والفساد في الاكتساب. فَتَرُكُ مُلَابَسَةِ أَهْلِ الْأَسْوَاقِ وَمُخَالَطَتِهِمْ عَلَى هَذَا الْوَصْفِ الْمَكْرُوهِ أَقْرَبُ إِلَى السَّلَامَةِ؛ لِبَعْدِهِ مِنْ رُؤْيَةِ الْأَشْيَاءِ وَفَقْدِهِ مُبَاشَرَتِهَا؛ لِأَنَّ الْحُكْمَ مُتَعَلِّقٌ بِالرُّؤْيَةِ. وَمِثْلُ الْحَرَامِ مِثْلُ الْمُنْكَرِ إِذَا لَمْ تَرَهُ سَقَطَ عَنْكَ حُكْمُهُ. وَلَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمَعَايِنَةِ، وَلَا الْمَجَاوِرَةُ كَالْمُبَاشَرَةِ، وَلَا الْمَعَايِنُ كَالْمُخْبَرِ، وَلَا الْإِسْتِثَارُ كَالْإِظْهَارِ، وَذَلِكَ كَخَبَرِ مَنْ زَلَّ عَنْ حَقِيقَةِ الْكَعْبَةِ عَلَى الْبُعْدِ، إِلَّا أَنَّهُ مُتَوَجِّهٌ إِلَى الشَّطْرِ، فَصَلَاتُهُ جَائِزَةٌ، وَلَوْ زَلَّ عَنْهَا أَنْمَلَةً مَعَ الْمَعَايِنَةِ لَهَا بَطَلَتْ صَلَاتُهُ.

والتكسّب ليس بفرض، وقد يُفترض بأحد معنيين: بوجود العيال؛ وعدم كفايتهم من وجه من الوجوه المباحة، أو بأن يَقْطَعَ عَدَمُهُ عَنْ فَرْضٍ، وَيُضْعَفُ عَنْهُ، مَعَ فَقْدِ مَا يَقَامُ بِهِ الْفَرْضُ مِمَّا لَا يَدَّ مِنْهُ.

وقد كان أبو معاذ يقول: تركُ المكاسب مع الحاجة إليها كَسَلٌ، والكسب مع الاستغناء عنه كُفْلَةٌ.

وقد كان بشر بن الحارث ترك التكسّب، وكان يتكلم في الحلال، ويُسَدِّدُ فِيهِ، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا نَصْرٍ، فَأَنْتَ مِنْ أَيْنَ تَأْكُلُ؟ فَقَالَ: مِنْ حَيْثُ تَأْكُلُونَ، وَلَكِنْ لَيْسَ مَنْ يَأْكُلُ وَهُوَ يَبْكِي مِثْلَ مَنْ يَأْكُلُ وَهُوَ يَضْحَكُ. وَقَالَ مَرَّةً: وَلَكِنْ يَدُّ أَقْصَرَ مِنْ يَدٍ وَلَقْمَةٌ أَصْغَرَ مِنْ لَقْمَةٍ.

وكان سببُ تركه الصنعة أن البقلوى كاتبه [قال]: بلغني أنك استعنت على

رَزَقَكَ بِالْمَغَازِلِ، أَرَأَيْتَ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكَ وَبَصَرَكَ، الرِّزْقُ عَلَى مَنْ؟ فَوْقَ ذَلِكَ فِي قَلْبِهِ بِشَاهِدٍ مِنْهُ، وَأَخْرَجَ آلَةَ الْمَغَازِلِ. وَيُقَالُ: بَلْ تَرَكَهَا لِمَا يُوهِبُ بِاسْمِهِ، وَقُصِدَ لِأَجْلِهَا، وَطُلِبَتْ لِأَجْلِهِ، قُبِيلَ الْمَغَازِلِ الْبَشَرِيَّةِ، فَأَيُّ هَٰذَيْنِ كَانَ فَقَدَ أَنْهَجَ لَهُ طَرِيقَ سَلَكِهِ بَعْدَ الطَّرِيقِ الْأَوَّلِ.

وَقَدْ كَانَ لِلثَّوْرِيِّ خَمْسُونَ دِينَارًا يُتَجَرُّ لَهَا بِهَا، ثُمَّ أَخَذَهَا فِي آخِرِ أَمْرِهِ، فَفَرَّقَهَا فِي إِخْوَانِهِ، وَتَرَكَ التَّكْسِبَ. وَيُقَالُ: إِنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ لَمَّا مَاتَ عِيَالُهُ، وَكَانَ قَدْ بَقِيَ بَعْدَهُمْ وَحِيدًا. وَقَالَ ابْنُ سَلِيمَانَ: كَانَ لِسُفْيَانَ عِنْدِي ثَلَاثُمِائَةِ دِرْهَمٍ بِضَاعَةً، فَكُنْتُ أَبْضِعُ لَهَا بِهَا، فَقَالَ ذَاتَ يَوْمٍ: هَاتَهَا، فَجَعَلَهَا صُرْرًا وَقَسَمَهَا.

وَرُوَيْنَا عَنْهُ، وَعَنْ وَهَيْبِ بْنِ الْوَرْدِ: لَوْ أَنَّ السَّمَاءَ لَمْ تُمْطَرْ، وَالْأَرْضُ لَمْ تَنْبِتْ، ثُمَّ اهْتَمَمْتُ بِشَيْءٍ مِنْ رِزْقِي، لَظَنَنْتُ أَنِّي كَافِرٌ. وَفِي رِوَايَةٍ وَهَيْبٌ: مِنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَوْ كَانَتِ السَّمَاءُ رَصَاصًا، وَالْأَرْضُ نُحَاسًا، لَمْ أَهْتَمَّ بِرِزْقِي، وَلَوْ اهْتَمَمْتُ لَهُ لَظَنَنْتُ أَنِّي مُشْرِكٌ.

فَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ: قَدْ صَدَقَ سُفْيَانُ، فَلَوْ أَنَّ الْهَمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي تَصَدِيقِهِ، كَانَ الشَّكُّ قَدْ نَقَصَ تَصَدِيقَهُ، وَكَانَ يَكُونُ شَاكًا؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ صِحَّةِ التَّصَدِيقِ وَالصَّدْقِ الْإِهْتِمَامُ بِالرِّزْقِ؛ قَالَ: لِأَنَّ الرِّزْقَ جُزْءٌ مِنْ مِائَةِ جُزْءٍ، قَدْ وَقَعَ تَصَدِيقُ الْمُؤْمِنِ بِهِ، فَمَنْ لَمْ يَصَحَّ تَصَدِيقُهُ فِي هَٰذَا الْجُزْءِ الْوَاحِدِ لَمْ يَصَحَّ فِي سَائِرِ الْأَجْزَاءِ. قَالَ: وَالتَّصَدِيقُ يَقْتَضِي السَّكُونَ، وَالطَّمَأْنِينَةَ، وَالنَّفْسُ تَمِيلُ إِلَى الْحَرَكَةِ طَمَعًا فِي اسْتِعْجَالِ أَحَدِ الْأَسْبَابِ. فَمَنْ كَانَ مُحَقِّقًا لِتَصَدِيقِهِ بِالسَّكُونِ انْصَرَفَ عَنْ إِجَابَةِ دَاعِي النَّفْسِ بِالْحَرَكَةِ إِلَى السَّكُونِ، الَّذِي يَقْتَضِي مِنْهُ التَّصَدِيقَ، وَشَغَلَ قَلْبُهُ بِالْعَمَلِ فِي تَصْحِيحِ تَصَدِيقِهِ.

وَقَالَ أَبُو السَّلِيلِ: قَالَ رَجُلٌ لِأُوَيْسِ الْقَرْنِيِّ: أَصْحَبُكَ أَسْتَأْنِسُ بِكَ. فَقَالَ: سَبْحَانَ اللَّهِ، مَا ظَنَنْتُ أَنَّ أَحَدًا يَعْرِفُ اللَّهَ يَسْتَوْحِشُ مَعَهُ. فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: مَا الْمَعِيشَةُ؟ فَقَالَ أُوَيْسٌ: أَوْ خَالَطَ الْقُلُوبَ الشَّكُّ، فَمَا يُنْتَفَعُ بِمَوْعِظَةٍ؟!

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ الْخَوَاصِ: تَعْرِفُ شَكَّ الرَّجُلِ بِكَثْرَةِ كَدِّهِ وَحَرَصِهِ، وَيَقِينَهُ إِبْدَوَامِ

سكونه، ومن لم يُثبت القَدَرُ فى الرزقِ لم يُثبت فى الدين .

وكان يقول: الحركةُ للخصوصِ عقوبةٌ لهم إذا مالوا إلى ما فيه الحَظُّ لأنفسهم؛ لأنَّ الأسبابَ إنما تُبطئُ على العارفين، وتمتنع عن الحركة إليهم، لما فيهم من الحركة إليها، فإذا فنيت آثارها منهم متحركةٌ إليهم، أقبل الملكُ بكليته عليهم .

وقال مرةً: ليس تبطئُ الأسبابُ على العبدِ بمجئِ الأرزاق، إلا من خلَّلَ فى عقده، أو فساد فى أصله، يصحح ذلك قولُ الله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧] قال: فبدوام إقبالِ مريم على الله، ولزومها المحراب، أقبل اللهُ عليها بالكفاية، ولم يُخرجها إلى الحركة؛ لأنَّ الله تعالى رزقها رزقًا كريمًا، بلا تعب ولا نَصَبٍ، ولا يعطيه أحدًا من أهل الصبر، أو يكون مقبلًا عليه بكليته، وإلا أتعبه بالسَّعى فيه . قال: فكانت مريم بلزومها المحراب تُعطى رزقها فى المحراب، فلما جاءت إلى جذع النخلة كلفها التحريك له، وهكذا كلُّ مَنْ أوى إلى موضع الأسبابِ، كلفه الله تعالى الحركة فيها . وأهلُ التوكُّلِ المخصوصين ممنوعون من الاستراحة إلى سببٍ، أو مخلوق، أو الميل إلى شىء عند وقوع الشدائد، وهكذا الأشياءُ ممنوعةٌ منهم . قال: فمن مِلَّتْهُ الشدائدُ إلى سببٍ، فمال إليه، ولم يقف فى ظلِّ التوكُّلِ وكفايته، لئلا يخرجَ منه، خرج من حدِّ هذا التوكُّل .

قال الخواص: يصحَّح ما ذكرناه، أن الحركة عقوبةٌ، ما قال أبو أمانة الباهلى: أن رجلاً من الأنصارِ زرعَ زرعاً فأربأ، فقيل: يا رسول الله، إنَّ فلاناً قد زرعَ زرعاً فأربأ، فقال: «وما ذاك؟ ركعتان خفيفتان خيرٌ من الدنيا وما فيها»، ثم قال: يمدّ إلى أبى بكر وعمر يده: «لو أنكم تفعلون ما تؤمرون لأكلتم غير زُرَاعٍ ولا أشقياء» .

قال: فهذا يدلُّ على أنه إنما أتعب اللهُ الخليقة بالكدِّ فى طلب الأسبابِ، من تقصيرهم فى استعمال ما أمروا به ونهوا عنه، وإنَّ آدمَ ﷺ إنما أهبط إلى الدنيا عقوبةً، يُصحَّحُ ذلك قولُ الله عز وجل: ﴿وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ

لَأَسْقِيَنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا» [الجن: ١٦] قال: بلغنا في التفسير أنه ليَقْصِدَهُم بالبلاء أبدًا حتى يَرْجِعُوا إلى الكتابِ الأول، أنه لا يكون إلا ما أراد الله.

قال: ورؤى عن النبي ﷺ أنه قال لابن مسعود: «لا تكثر همك، ما يُقَدَّر يَكُنْ، وما تُرْزَقْ يَأْتِيكَ».

قال: وحديث أبي سعيد الخدري: عن النبي ﷺ: «لو أن أحدكم فرَّ من رزقه لأدركه كما يدركه الموت». قال: وإنما حُرِمَ العبدُ مجيء الرزقِ إليه من كثرة الذنوب، أو من حبس الفضول، يُصَحِّح ذلك قولُ أنسٍ عن النبي ﷺ: «إنَّ أهلَ البيتِ لَيَكُونُ عندهم المَدُّ والمُدَّانُ من الطعام، يحبسونه، يقولون لغد، فيحبس الله عنهم الرزق حتى ينفقوه، ثم يَأْتِيهِمُ اللهُ به».

قال: وبلغنا لما التقى موسى والخضر عليهما السلام، وكان موسى أشدَّ جوعًا من الخضر، فإذا غزالان قد سقط أحدهما مشويًا إلى الخضر، وسقط الآخر مذبوحًا بجلده ورأسه إلى موسى، فقال له الخضر: «قم يا موسى فبقدر ما بقي في نفسك من الاهتمام برزقك فتعنى». فأعلمه: «أنى توكلتُ فكُفيتُ، وأنت اهتممتَ فعييتَ. هكذا رواه الخواصُّ، ورؤياه من طريق آخر: «قال موسى للخضر عليهما السلام: كيف هذا؟ وقع إليك نصفه مشويًا، ووقع نصفه إلى نيتًا! فقال له الخضر: إنه لم يبق لي في هذه الدنيا أمل»، وفي رواية: «ليس لي في هذا الخلق حاجة».

ورؤينا عن الحسن بن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال: «مَنْ انقطع إلى الله كفاه مؤونةَ رزقه، ورزقه من حيث لا يحتسب، ومَنْ انقطع إلى الدنيا وكَلَهُ إليها».

وقال الحسن: بلغنا عن النبي ﷺ أنه قال: «قاتلَ اللهُ أقوامًا أقسمَ لَهُمُ رَبُّهم بنفسه فلم يُصدِّقوه».

وفي أخبار وهب وكعب عن الكتب السالفة، يقول الله تعالى: «أقسم بعزتي لا يعتصم بي عبدٌ دون خلقي إلا وكِيت سياسته وتديره، ولو كادته السموات

والأرضُ بمن فيهن لجعلتُ له من ذلك مَخْرَجًا. أقسم بعزَّتى لا يعتصم عبدٌ بمخلوق دونى إلا قطعتُ أسبابَ السماءِ من يده، وخسفتُ به الأرضَ من تحت قدمه، أجعلُهُ فى الهواءِ ثم أكلهُ إلى نفسه».

وفى الخبر المشهور: «إنَّ العبدَ ليُحرَمَ الرزقَ بالذنبِ يُصيبه».

وبعض العارفين يُفضِّلون من لا معلومَ له على مَنْ له معلوم. وهؤلاء يرون تركَ التكسبِ أفضل، والسكونَ عن التحركِ أعلى؛ لأنَّ ذلك معلوم. ويعدُّ هؤلاء سكونَ القلبِ مع وجودِ المعلومِ عِلَّةً، ولكن إذا سكَّن قلبه مع غيرِ معلوم، واجتمع همه، وانقطع طمعه فى حالِ المعدوم، فهذا هو المقام.

ولعمري فى التحقيق أنَّ الحركةَ فى طلبِ المضمونِ للخصوصِ عقوبةٌ فقدَّ سكونَ القلبِ إلى الرَّبِّ، كما أنَّ تركَ الحركةِ فى أعمالِ البرِّ والقرباتِ عقوبةٌ سكونِ النفسِ إلى حظوظِ الشهوات.

وليس للعبدِ أن يحملَ حالَ عياله على حاله، إلا أن يكون اختيارهم كاختياره، وصبرهم على فقرهم واحتياطهم بضرهم ومعرفتهم بفضلهم كمعرفته، فجاثز حينئذٍ أن يسير بهم سيرته، ويسقط عنه التكسبُ لأجلهم؛ لأنهم كهو فى الحال مع سقوط المطالبة منهم له بحقوقهم عليه. وقد فعل ذلك جماعةٌ من السلف.

والعدلُ من القولِ فى تفصيلِ تركِ التكسبِ وفعله، وفقدِ المعلوم؛ هو أنَّ العبدَ لا يَفْضُلُ بنَفْسِ عَدَمِ المعلوم، ولا بتركِ التصرفِ فى الموجود، كما لا يَفْضُلُ بفقدِ الغنى ووجدِ الفقر، ولا يسبقُ بالقعودِ عن الحركةِ من غيرِ إقعاد، ولا يعلو بالتحركِ إلى الأسبابِ بغيرِ إيجاد، وإنما يُوصَفُ فى ذينك بالفقرَاء والإباحة^(١)، لكن يَفْضُلُ بحاله مَنْ مقامه؛ من زهد، أو رضا، أو صبر، أو توكل، أو اقتطاع لخدمة، أو تأله وتولُّه بِشغْلِ متَّصِلٍ بصدقِ معاملة. فهذه المعانى وقعَ التفضيلُ عن العلماءِ ذوى التحصيل، فإن كان ذو المعلوم والتصرفِ أحسنَ معرفةً، وأقوى يقينًا، ففُضِّلَ على مَنْ لا معلومَ له مِمَّنْ نَقَصَتْ معرفته، ولا يكون سكونُ القلبِ وطُمأنينةُ النفسِ - أيضًا - مع وجودِ المعلومِ عِلَّةً فى الحالِ إذا ثبتَ المقام، وصَحَّ

(١) كذا هذه الجملة بالمخطوط ولعلها محرقة، أو تحرفت بعض كلماتها.

العقد، وحسن التصرف والعقد، ولكن لا يكون مقاماً يُرفع به ولا حالاً يفضل فيه عند طائفة من العارفين، إلا أن الطمع في الخلق وتشتت^(١) القلب مع وجود معلوم الكفاءة نقصان عند الكل، وعندى. وقطع الطمع في الخلق، وفقد التشرف إلى معتاد منهم، أو مألوف بهم، واجتماع القلب مع العدم وفقد المعلوم، أفضل وأعلى درجة عند الجماعة.

فأما سكون القلب، واجتماع الهم، وفقد الاستشراق إلى الخلق مع العيال، وثبوت الأحكام، فهو أفضل وأشرف. وهذا حال الأقوياء، وطريق الأنبياء، اتفقوا على هذا. وأما اضطراب القلب وتفرق الهم مع وجود العيال، فإن كان لأجلهم، وللقيام بحكم الله فيهم، فلا نقص فيه، وقد يؤجر عليه ضعاف اليقين.

وأما شتات القلب، وتفرق الهم، ووجد الاهتمام في حال الوحدة للمتفرد، فنصيب من الرغبة موفور، وصاحبه فيه غير معذور، وقد يكون مأزوراً.

وفي حديث حية وسوار ابني خالد: أن النبي ﷺ قال لهما: «لا تيأسا من الرزق ما تهزرت رؤوسكما. فإن ابن آدم تلده أمه أحمر ليس عليه قشر، ثم يرزقه الله بعد».

وقال أبو محمد: لو أن العبد سأل الله أن لا يرزقه لم يستجب له، ويقال له: يا جاهل، أنا خلقتك، ولا بد من أن أرزقك. فالرزق لا ينقطع عن العبد حتى يظهر له ملك الموت، فحينئذ ينقطع عنه رزق الدنيا، ويدخل في رزق الآخرة. فيكون أول رزق الآخرة آخر رزق الدنيا، ولا آخر لهذا الرزق، لقوله عز وجل: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦]، يعنى: غير مقطوع، ومثله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨] أى: مقطوع، وقوله: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [سبا: ٤]، ﴿أَكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [الرعد: ٣٥].

وسئل سهل رحمه الله عن القوت، فقال: هو الحى الذى لا يموت. فقيل: إنما سألناك عن القوام، فقال: القوام هو العلم. قيل: سألناك عن الغذاء، فقال:

(١) فى المخطوط: «وتشتت».

الغذاء هو الذكر. قالوا: سألناك عن طُعْمَةِ الجَسَدِ، فقال: ما لك وللجسد؟ دَعْ مَنْ تَوَلَّاهُ أَوَّلًا يَتَوَلَّاهُ آخَرًا، فإذا دَخَلَ عَلَيْهِ عِلَّةٌ فَرُدَّهُ إِلَى صَانِعِهِ، أَمَا رَأَيْتَ الصَّنْعَةَ إِذَا غَابَتْ رَدُّوْهَا إِلَى صَانِعِهَا حَتَّى يَصْلَحَهَا؟

وقد كان يحيى يقول: إِنَّ هَذِهِ الْكِسْرَةَ فَضَحَتْ الْخَلْقَ، وَأَخْرَجَتْ أَبَانَا مِنَ الْجَنَّةِ، فَلَا تُلْحُوا فِي السُّؤَالِ عَنْهَا، فَيَفْسِدَ عَلَيْكُمْ دِينُكُمْ، وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ.

وقال أيضاً: إِنَّ اللَّهَ يُلْقَى عَلَى الْخُصُوصِ الْفَاقَةَ، وَيُخْرِجُهُمْ إِلَى الْخَلْقِ بِالطَّمْعِ فِيهِمْ، وَيُلْقَى فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ الْمَنَعَ لَهُمْ، يَحْرِمُهُمْ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، لِيَرُدَّهُمْ إِلَيْهِ، فَإِذَا كَانَ هَكَذَا يَأْتِي رِزْقُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ.

وبمعناه ما روينا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ طَرَقَتْهُ فَاقَةٌ، فَذَهَبَ إِلَى خَلِيلٍ لَهُ مِنَ النَّاسِ يَسْتَقْرِضُهُ، فَتَوَارَى عَنْهُ، فَرَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ مِنْكَسِرًا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: خَلِيلُكَ أَنْزَلَتْ بِهِ حَاجَتَكَ، وَلَمْ تُقْضَ، وَذَكَرَهَا.

فانظر كيف ألقى في قلبه الخروج، ثم ألقى في قلبه المنع، ليردَّ إليه ضرورة؛ لأنَّه يجيب المضطر.

ومن علامة الأولياء: أَنَّهُمْ إِذَا تَشَرَّفُوا إِلَى شَيْءٍ حُرِّمُوا ذَلِكَ الشَّيْءَ، وَإِذَا سَكَنُوا إِلَى عَبْدٍ سُلِّطَ عَلَيْهِمْ، أَوْ فُرِّقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، لِيَرْفَعَ سُكُونَ أَوْلِيَائِهِ إِلَى غَيْرِهِ، وَيَقْطَعَ طَمَعَهُمْ مِنْ سِوَاهُ، يُؤَدِّبُهُمْ بِذَلِكَ، وَيُهَذِّبُهُمْ لَهُ، لِيَنْقَطِعُوا إِلَيْهِ، وَيَطْمَئِنُّوا بِهِ. وَقَدْ كَانَ بَعْضُهُمْ إِذَا جَاءَ السَّبَبُ بَعْدَ التَّطَلُّعِ إِلَيْهِ رَدَّهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُخْرِجُهُ وَلَا يَتَنَاوَلُ مِنْهُ، عَقُوبَةً لِنَفْسِهِ وَتَأْدِيبًا لَهَا.

وكان ذو النون المصرى يتكلَّم على إخوانه في علم التَّوْحِيدِ والمعرفة، فسأله غلامٌ شابٌّ عن الخُبْر: مَنْ أَيْنَ هُوَ؟ فَقَالَ: خَذُوا بِيَدِهِ، وَادْهَبُوا بِهِ إِلَى الصُّوفِيَّةِ حَتَّى يَعْلَمُوهُ الْأَدَبَ.

وقد حكى عن معروف أبى محفوظ الكرخى: أَنَّهُ ذَكَرَ لَهُ انْقِبَاضُ بَشَرٍ عَنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُفْتَحُ لَهُ، فَقَالَ: إِنَّ أَخِي بَشَرًا قَبْضَهُ الْوَرَعُ، وَأَنَا نَشَطْتُنى الْمَعْرِفَةُ. إِلَّا أَنَّ مَعْرُوفًا كَانَ لَا يَأْخُذُ السَّبَبَ إِلَّا عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَيَرْفَعُ يَدَهُ مَعَ الْكِفَايَةِ، وَيَعْمَلُ

فى كل وقت بحكم ما يوجهه الوقتُ، ويأخذ منه مما لا بدّ له منه فى وقته، وكان لا يدّخر شيئاً لغد، وكان قصيرَ الأمل، لم يكن يأمل البقاء من وقت صلاة إلى صلاة أخرى؛ كان إذا صَلَّى الظُّهْرَ يقول للجيران: اطلبوا لكم مَنْ يُصَلِّي صلاةَ العصر، وكان يقول: إنما أنا ضيف فى دار مولاي، إن أطعمنى أكلتُ متى أطعمنى، وإن أجاعنى صبرتُ حتى يطعمنى.

وقد كان أبو محمد سهل يقول: المتوكِّل لا يسأل ولا يردُّ ولا يحتكر.

وفى ما حدّثنى أبو بكر الصّناديقى، رحمه الله، عن الخوَّاص فى كتابه «التوكّل» قال: إنّ الله تعالى بلطفه وحُسن نظره لخلقِه ندبَ العمومَ من التوكّل المعمومِ إلى التوكّل المخصوصِ المخزونِ، بقوله عز وجل: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]. قال سعيدُ بن جبّير: يعنى المصدّقون لله فيما وقع به الوعدُ والوعدُ؛ لأنّه إنّما وقعَ توكّل المصدّقين لله على الله فى استخراج ما وقعَ تصديقُهُم به من الوعدِ فى الأرزاقِ من وجوهها ومواضعها، لا نفسَ المضمون، إذ كانوا لا يسلّمون فى الحركة فيه، وأنّه هو تعالى أعرفُ بأماكنه، وأقدرُ على استخراجِه. وهذا النَّدْبُ لطيفٌ من الله بالعموم، وحجةٌ عليهم أن دعاهم إلى مواضع الفضل والشرفِ باستعمالِ التوكّل المخصوص؛ لئلا يُقيموا على حالهم، فلا يطالبون بالرفعة عنها، والانتقال منها.

وقال رحمه الله: أتعَبَ الله سائرَ الخلقِ بما استعملهم من مرافق أنفسهم، وتركهم مع ذلك متحيرين، إذا اختاروا ما لم يختَر الله لهم، فأقاموا أنفسهم مقامَ الأرباب، واهتمُّوا بها، وآثروا صافية الحظّ، فطلبوا من العلم ما يوافق الهوى ويدعو إلى الانبساط فى أسباب الدنيا، واشتغلوا بتدبيرها، وكانت الحجة عليهم أعظم وأؤكد، إذ كان الله تعالى قد دعاهم إلى الراحة ووجود الكفاية، بقوله: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢]، ثم وقع الاقتضاء منهم بترك الاختيار، بقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]، وزادهم تأكيداً فى الحجة عليهم، بقوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ

وَلَا مُؤْمَنَةً إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ ﴿٣٦﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وَضَرَبَ لَهُمْ فِي التَّنْزِيلِ مَثَلًا بِقَوْلِهِ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [النحل: ٧٥]، ﴿وَهُوَ كُلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ [النحل: ٧٦] لِيَرْجِعُوا عَمَّا قَدْ تَمَلَّكُوا عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِهِمْ، وَابْتَدُوا فِي الْإِخْتِيَارِ لَهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَيَلْقُوا كُلَّهُمْ عَلَيْهِ، لِتَكُونَ أُمُورُهُمْ وَمَصَالِحُهُمْ رَاجِعَةً إِلَيْهِ، وَيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ عِبِيدُ مَرْبُوبُونَ، وَأَنْ مِنْ صِفَةِ الْعَبِيدِ تَرْكُ الْإِخْتِيَارِ وَالْقَاءِ الْكُفِّ بَيْنَ يَدَيِ مَنْ هُمْ لَهُ عَبِيدٌ، حَتَّى يَسْتَعْبِدَهُمْ بِمَا شَاءَ، وَمَا قَسَمَ لَهُمْ مِنْ رِزْقٍ كَانَ قَائِمًا لَهُمْ بِهِ، وَيُوطِّنُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى الْإِسْتِوَاءِ فِي تَلْوِينِ أَحْكَامِهِ، وَالرِّضَا بِجَمِيعِ أَقْسَامِهِ، وَيُسْقِطُوا عَنْ أَنْفُسِهِمُ التَّدْبِيرَ، فَعَلَّقُوهَا بِالْوَاحِدِ الْكَبِيرِ.

وَقَالَ فِي كِتَابِهِ «التَّوَكَّلْ» فِيمَا أَخْبَرَنِي بِهِ عَنِ الصَّنَادِيقِيِّ: النَّاسُ اثْنَانِ، رَجُلٌ وَعَبْدٌ. فَأَمَّا الرَّجُلُ، فَإِنَّهُ مَهْمُومٌ بِتَدْبِيرِ أَمْرِ نَفْسِهِ، مَتَعُوبٌ بِالسَّعْيِ فِي مَصْلَحَتِهِ. وَأَمَّا الْعَبْدُ، فَإِنَّهُ طَرَحَ نَفْسَهُ فِي ظِلِّ الرُّبُوبِيَّةِ، وَكَانَ مِنْ حَيْثُ الْعِبُودِيَّةِ.

وَقَدْ كَانَ الْفَضِيلُ مِنْ قَبْلِهِ يَقُولُ: أَمْدُبَرُ غَيْرُ اللَّهِ تَرِيدُونَ؟! نَعَمْ الْمَدْبَرُ لَكَ لَوْ أَطَعْتَهُ، إِذْ كَانَ اللَّهُ أَغْلَبَ عَلَى أَمْرِهِ، وَأَعْلَمَ بِمَصَالِحِ عِبْدِهِ مِنْ عِبْدِهِ، فَكَمْ مِنْ عَبْدٍ قَدْ تَخَيَّرَ أَمْرًا كَانَ هَلَاكُهُ فِيهِ.

وَقَدْ كَانَ أَبُو وَائِلٍ قَبْلَ الْفَضِيلِ يَقُولُ: يَا أَعْمَشُ، نِعَمَ الرَّبِّ رَبَّنَا، لَوْ أَطَعْنَاهُ مَا عَصَانَا.

• بَيَانُ قَوْلِ الْخَوَاصِّ، وَالْفَضِيلِ، وَهَذَا النُّونِ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ، فِي تَرْكِ التَّدْبِيرِ وَالْإِخْتِيَارِ، وَالرِّضَا بِمَجَارَى الْأَقْدَارِ:

لَيْسَ يَشْكُ هَؤُلَاءِ وَجَمِيعُ الْعَارِفِينَ، لِنَظَرِهِمْ بَعَيْنِ الْيَقِينِ، أَنَّ الْأَفْعَالَ وَالْحَرَكَاتِ فَعَلَ اللَّهُ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، الْغَالِبِ عَلَى أَمْرِهِ بِأَمْرِهِ، إِذْ هُوَ الْمُخْتَارُ. وَلَكِنْ مَا فَعَلَهُ صَرَفًا بِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُدْخَلَ أَيْدِيهِمْ فِيهِ، وَلَا أَهْوَاءَهُمْ، وَكَانَ ذَلِكَ أَبَدًا مِنْهُ بِهِ، إِذْ هُوَ بَدِئُ مَنْهُ مَا يَشَاءُ، وَيَعِيدُ عَلَيْهِمْ مِنَ الرُّسُومِ وَالْأَحْكَامِ مَا يَشَاءُ، فَإِنَّ ذَلِكَ مُيَمَّنَةٌ وَيُمْنٌ، وَهُوَ الْإِخْتِيَارُ وَفِيهِ بَرَكَةٌ.

وما فَعَلَهُ بواسطَتِهِمْ وأَجْرَاهُ على أيديهم، وداخَلَ فيه نفوسَهُمْ وأهواءَهُمْ، فأعاد ذلك عليهم، وجعلهم أسبابًا، وهذا موضعُ التفضيلِ في مكانِ العلم، ومجارى الرسم، فذلك مشامُهُ، وهو الاختيار، وفيه هلكة. فتدبروا.

شاهدُه قوله ﷺ: «لا تسأل الإمارة، فإنَّكَ إن أُعْطِيتَها عن غيرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عليها، وإن أُوتِيتَها عن مَسْأَلَةٍ وُكِّلْتَ إليها». ففرَّقَ ﷺ بين البداء بالأولية، وبين المداخلة بيدِ العبد بالأوسطية، بإيجابِ القُدْرَةِ من الله، أو أَفْعَلُ الشَّيْءَ به، وبالتخلي منه، إذا أَفْعَلَهُ بالأواسط.

وكذلك قولُه للرجل الذي سألَه أن يستعملَه في الأعمال، فقال: «إِنَّا لَا نَسْتَعْمَلُ على عملنا مَنْ ظهرَ عليه»، وكذلك قولُه في العطاء الذي يدخل العبد من غيرِ مَسْأَلَةٍ، ولا إشرافِ نَفْسٍ. ولو جعل الغنى لواحد وأجرى السبب المفرد أولَه به صِرْفًا أبدًا، كما ذكرناه^(١). ثم يردّه ويمنعه بهم، فيعود حكمته المذموم عليهم، ويصفهم العارفون بالاختيارِ منهم، وبالتدبير وبترك الرضا. فإن علموا أنَّ ذلك فَعَلَهُ تعالى إلا أنه بِرِسْمِهِمْ وإظهارِ شهادَتِهِمْ، وفي مكانِ نفوسِهِمْ وأهوائِهِمْ. وقد يجرى الأمرُ الواحدُ بِهِمْ وعلى أيديهم وباختيارِ أهوائِهِمْ، ثم يَمْنَعُهُ وَيَصْرِفُهُ، ويردُّه به لَعَدَمِ اختيارِهِمْ، وفَقْدِ أهوائِهِمْ، ووُجُودِ مكارِهِمْ، فيكون ذلك خَيْرَةً لهم، وحُسْنِ تدبيرٍ منه، بفَقْدِ آرائِهِمْ وعُقُولِهِمْ، وعَدَمِ محبَّاتِهِمْ، فيصفهم العارفون بالرضا والتسليم، وبالتوكُّل والصبر، أو الشكر والاستسلام، إذا وُجِدَ ذلك منهم، ووَجِدُوا حلاوةَ القضاء، وشهدوا حُكْمَ القاضى، فيصير هذا الوجودُ وشهادةُ هذا الفعلِ مقامًا لهم في التوكُّل والرضا، إن كان ذلك فِعْلَ الله تعالى، إلا أنه بإخراجِ أهوائِهِمْ، وإزالةِ حِرْصِهِمْ. وإن كان ذلك بِهِمْ لإعادةِ الحُكْمِ عليهم. فتفكروا.

وقال إبراهيم الخواص، فيما أخبرني أبو بكر الفقير عنه: الرِّزْقُ ليس فيه توكلٌ، ولو كان لا يُنال الرِّزْقُ إلا بالتوكل كان الضعيفُ وَمَنْ لا يُحَسِّنُ أن يتوكلَّ

(١) هكذا يمكن أن تقرأ هذه العبارة، وهى غير مفهومة، وأرجح أن فيها خطأ من الناسخ، وهو

كثيرًا ما يخطئ في هذه النسخة (م).

يموت. فصَحَّحَ ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠]. فهذا الخطابُ مِنَ اللَّهِ لِحَلْقِهِ، يقتضى من الخلق ترك حمل الأرزاقِ لوقتٍ لم يأت، أو يومٍ لم يأت، لطيفةً من الله دعاهم بها إلى مواضع الراحة من الاشتغال بحمل ما قد ضَمِنَهُ لهم، وتكفَّلَ باستخراجه إليهم، وحُجَّةٌ منه عليهم ألزَمَهُمْ إِيَّاهَا، وقوله تعالى بالضَّمان لأرزاق الخلق: ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ يقتضى السَّكونَ إليه بالثقة به فيما ضَمِنَ وتكفَّلَ باستخراجه، والصَّبْرَ على وعده، حتى يُخرجَ اللَّهُ المضمونَ من أمارته.

قلتُ: ففى هذا دليلٌ على تحرير الحركة، والتَّسبُّبِ للمتوكِّل، وأن ذلك لا ينقص توكله، إذ الدَّابَّةُ المَرْزُوقَةُ بِاللَّهِ مِنَ اللَّهِ، قد تَدَبُّ وتَسبِّبُ إلى مواضع الرزق، وقد تدخِر النملة والفأرة، وهما من الدواب، وقد يجمع بعض الطير فى عشه، ويجلب إلى وكِره، وفى ضَرْبِ النَبِيِّ ﷺ مثل المؤمن كالنملة شاهد لما ذكرناه من قوله: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَالنَّمْلَةِ تَجْمَعُ فِي صَيْفِهَا لِسِتَائِهَا». ولكن يحتاج المتوكِّل أن يكونَ فى دَبِيهِ وحركته ودُخْرِهِ بمعناها إلهاماً وتوفيقاً، ونظراً إلى الوكيل، لا لمعقول ولا تدبير.

وكذلك القولُ فى تمثيل الرسول ﷺ: «لو توكَّلتُم على اللَّهِ حقَّ توكُّله لرَزَقَكُم كما يرزق الطير تغدو خماصاً، وتروح بطاناً». فالطير وإن لم يكن من وصَفِها أن تحمل، ولا من فعلها أن تدبّر وتَعْقِل، فإنها تتحرك وتَقْصِد، لقوله «تغدو»؛ فغدوها تسبب، وقصدوها أماكن معاشها تعيش، وقد أضافه الرزاق إليه، وجمع بيننا وبينها فيه، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ [الحجر: ٢٠]؛ الهوامُّ والأنعام، فعمَّنا وإيَّاهَا بالتحمُّد إلينا، بأنَّ المعاش فى الأرضِ منه علينا إنعام.

وقد رويَنا فى حديث أنس بن مالك وغيره أن النَبِيَّ ﷺ قال: «الرَّزْقُ مَقْسُومٌ، وهو آتٍ ابن آدم على كل سيرة سارها، ليس تقوى تقى بزائده، ولا فجور فاجر بناقصه، وبين العبد وبين الرزق سترٌ، فإذا أجمل فى الطلب أتاه الرزق من حلِّه،

وإن شَرِهَتْ نَفْسُهُ هَتَكَ السِّتْرَ، ولم يَزِدْ فَوقَ ما قُسمَ له، ثم قال ﷺ: «إن العبدَ لِيُعَرَضَ له بابٌ من الرِّزْقِ الحرامِ، فإن عَجَلَ إليه نَقَصَ مِنْ رِزْقِهِ الحلالِ، وإن هو أَمْسَكَ جاءه الرِّزْقُ الحلالُ حين يَأْتِيهِ من حِلِّهِ».

جمعتُ هذه الألفاظَ من ثلاثة أخبارٍ من حديث أنسٍ، وغيره، ففي تدبُّرِ هذا الخبر أن الرِّزْقَ الحلالَ مستودعٌ في الطاعةِ والتقوى، وإن الرِّزْقَ الحرامَ مستقرٌّ في المعصية والآثام، يستخرج اللطيفُ بلطفه الخبيرُ بعِلْمِهِ وخَبَرِهِ لأوليائه الحلالَ بحسن اختياره، حتى يُوصِلَهُ إليهم، وَيَجْعَلَهُ طُعْمَتَهُمْ، لقوله: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، فمن أكل طيبًا عَمِلَ صالحًا، ومن أَطْعَمَهُ الطَّيِّبَاتِ استعمله بالصالحات، لقوله: ﴿الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النور: ٢٦]، أى الطَّيِّبَاتِ من الأعمالِ والأرزاقِ للطيبين من العُمَالِ والمَرْزُوقِينَ.

ويفعل بأعدائه ضِدَّ هذا من رِزْقِ الحرامِ، والاستعمالِ بالحرامِ، كقوله: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ [النور: ٢٦]، أى من الأَعْمَالِ والأرزاقِ للخبِيثِينَ مثلها. وقال: ﴿إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ الآية [لقمان: ١٦]، كما ذكرناه أولاً، فتدبَّر.

وسمع علىُ بن الحسين رجلاً يقول: اللهم ارزقني حلالاً صافياً، فقال: يا هذا، الحلالُ الصَّافِي طُعْمَةُ الأنبياءِ، سَلِ اللهُ أن يرزقك رزقاً لا يعاقبك عليه. فدلَّ أن ترتيب الأرزاقِ على مراتبِ الدَّرَجَاتِ.

وقد روينا وسمعنا أن الأنبياءَ أَكَلُوا من أيدي الأُمَّةِ، ومن طُعْمَةِ العبادِ، ومَا دَفَعُوهُ إِلَيْهِمْ، فليس ذلك إلا باستخراجِ اللهِ لهم الحلالَ من حيث يعلمُ، لا من حيث يَسْتَخْرِجُونَ.

فرزقٌ حَسَنٌ يَنفَقُ منه صاحِبُهُ في القُرْبَاتِ، ويستعينُ بقوته على الطاعاتِ، ورزقٌ سَيِّئٌ فيُمْسِكُهُ ويَجْمَعُهُ، ومن حَقُّوقِهِ يَمْنَعُهُ، فإن أنْفَقَ ففي سبيلِ الإِبعادِ والهِلْكَاتِ. فكلُّ عاملٍ يشبه رزقَهُ عَمَلَهُ، وطُعْمَتُهُ أساسَ معاملتِهِ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

قال الخواص: فالذى قيّد العبد أن يسرح في الأرض حيث شاء قلّة تصديقه بمجىء الأرزاق إليه حيث كان، وضعف عمله بأن الله معه في كل مكان، وأنه تعالى يضيّق حيث يشاء، ويوسع حيث شاء، ويؤمن حيث يشاء، ويخيف حيث شاء، فمن كان ناظرًا إلى الله فيما يفتح له من أسباب الرزق، معتمدًا عليه في استخراجِه، كان البرُّ والبحرُ والسفَرُ والحضرُ عليه سواء؛ لأنَّ من تولّى الله كفايته في الحضر تولّى كفايته في السفَر، ومن كان معتمدًا على تكلفه وحيله لم يتهيأ له أن يفارق العمران، ولو أنَّ عبدًا مع مولاه في السفَر لكان قلبه قد سكّن إليه أنه يطعمه حيث سافر معه.

وهكذا، من علم أن الله سبحانه معه لم يحتج أن يحمل زادًا ولا إداوة. يصحّ ذلك قول النبي ﷺ للسائل وقد أعطاه تمرّة فقال: «لو لم تأتها لأتتك»، دلالة على ترك الحركة توبيخًا له في حركته، بعد صحّة الضمان بمجىء الأرزاق لوقتها، ونهيًا له عن السعى إلى ما وقع التصديق بمجيئه لوقته.

وقال على بن طالب رضى الله عنه: الرزق رزقان؛ فرزق تطلبه ورزق يطلبك. قال: لو لم تأته أتك. فالرزق الذى يطلب العبد هو رزق الغد، والرزق الذى يطلبه العبد هو رزق الملك من الفضول^(١).

وقال الحسن: فضول الدنيا عقوبة عاقب الله بها أهل التوحيد، محبوسة في أيديهم لغيرهم، يأكلها غيرك هنيئًا.

هذا الذى ذكره الخواص - رحمه الله - هو حاله ووصف طريقه، وكان من أكابر الصابرين. إذ لا يقاس الضعيف الجزوع بالقوى الصبور، وأن لا يسلك طريق الإيغال^(٢)، ولا يتحول إلى حال إلا بعد ظهور شاهده، وهذا طريق خصوص المتوكلين، مثل أبى تراب النخشبى، وذى النون، وحاتم الأصم، وعلى الصوفى. كما قال بعضهم لأبى تراب، وقد عزم على قطع البريّة، فدفع إليه شيئًا، وقال: يا أبا تراب، انظر إلى ما بين يدك من هذا الطريق البعيد، والمسافة الشاقة، فاحمل

(١) ورد هذا الخبر من قبل.

(٢) الإيغال: السير السريع والإمعان فيه.

معك هذا الزاد. فقال له أبو تراب: هذا الذي تُعطيني لا بد من أن يفنى. قلت: نعم، لا بد من أن يفنى. قال: فاعلم أن ذلك الوقت الذي يفنى فيه هو هذا الوقت، وتركني ومضى.

وحدثني سفيان بن وكيع: قال لى أبي وكيع بن الجراح: يا بنى، على خير منى. يعنى أنه لم يكن عنده علم ولا حديث، فعرف فضله عليه، وإن كان عنده من العلم والحديث ما لم يكن عنده. قال: بينا نحن عند وكيع بنى، وهو يحدث الناس، جاءه على الرازي يودعه للخروج، قال سفيان: فقال لى أبي: يا بنى، هات تلك الصرة، قال: وكان عندنا صرة فيها سبعون درهماً، وقال له وكيع: خذ هذه الصرة. فقال: أنا لا آخذ من مثلك شيئاً، قال: ولم لا تأخذ من مثلي؟ قال: لأنك تقول إنه يُعطيني فى الحضر ولا يعطيني فى السفر. فقال وكيع: أقول هذا؟ قال: فلم تعطيني هذه الصرة إذ كان ليس هو عندك هكذا؟ فسكت وكيع، وقال: عندنا ركة تأخذها معك؟ فقال: قد اعتقدت فيما بيني وبينه أن لا آخذ الشيء إلا وقت الحاجة إليه، فتريد أنت تُعنيني بحملها، وتكلفني حفظها؟ قال: وودعه ومضى بغير زاد ولا ركة.

وحدثت عن بعض الأشياخ قال: كنتُ عند أحمد بن حنبل، فجاءه صوفى عليه مدرعة صوف، فقال: السلام عليك يا أبا عبد الله، وقد قصد مكة بغير زاد. فقال له أحمد: توقف على قليلاً، ودخل بيته، فأخرج إليه خرقة صغيرة، فقال: أحب أن تأخذ هذه تجعلها على رأسك؛ لأنه رآه حاسراً، فأخذها منه ومضى لوجهه. قال: وجاءه رجل آخر، فقال: يا أبا عبد الله، أردت الحج، فترى أن أمشى؟ فقال له أحمد: عافاك الله، الزاد والراحلة.

فهذا كما روى عن بعضهم قال: كنتُ عند بعض العلماء، فجاءه رجل من العبادة، فقال: إني أريد الحج، فأخرج وأتوكل؟ فقال له العالم: لو أردت أن تتوكل لخرجت ولم تسألنى.

وقد كان إبراهيم يقول: الاستطاعة على ثلاث وجوه: أعلاها استطاعة بقوة المعرفة وصحة التوكل، وهذه الطائفة نفذت بصدق توكلها، لم تُعرج على سبب،

ولا استأذنت أحداً، ولا اعترضَ على هذه الطائفة أحدٌ من المتقدمين؛ لأنَّ الخليقةَ تحتاجُ أن تهتدى بهُداهم، والعارفُ يحمله اللهُ بمعرفته، وسائرُ الناسِ تحمِلُهُم الأسبابُ.

قال: ولا يقعُ الاستئذانُ إلا من ضَعَفَ المعرفة، وقَلَّ الهداية، وكلُّ من استأذن فالرفقُ به أولى، قال: قولُ الأعرابي: يا رسولَ اللهِ أَعَقِلْهَا وأتَوَكَّلْ، أو أخلِّها وأتَوَكَّلْ؟ فقال: «اعقلها وتوكل».

وقال ابن عباس: جئتُ أنا والفضلُ على حمار، والنبى ﷺ بعرفة، فمررنا على بعضِ الصَّفِّ، فنزلنا وتركنا الحمارَ يرتع، ودخلنا مع النبى ﷺ فى الصلاة. فلم يقل شيئاً.

وفى حديث رافع بن خديج: خرجنا مع النبى ﷺ فى سفرٍ، فلما نزل رسولُ اللهِ ﷺ ووضع كلُّ رجلٍ منّا خطامُ ناقته فى عنقها، ثم أرسلناها فى الشجر. فهذه سنة ماضية، لمن سيبَ راحلةً له على إصابة الجوع، ولا يُغَيَّرَ عليه، وسنةٌ لمن استأذن أن يُحمل على أحوطِ الأمور له.

وقال الله [تعالى]: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رِيبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٤ - ٤٥].

قال: فوجدنا أن ارتيابَ هؤلاء هو الذى بعثهم على الاستئذان وأحوجهم إليه، وأن هذه الطائفةَ التى تركت الاستئذان بقوة إيمانها قد رضى الله فعلها، بما أنزله على نبيه ﷺ من عذرها، وقوى به قلوبهم فيما يستأذنون من أعمالهم وقلوب من بعدهم، ونهى لمن كان بعد النبى ﷺ عن الاعتراضِ على أمثال هؤلاء، فإذا كان من حركته الرغبة من المؤمنين فى فضل الجهاد على أنه إنما يستعين على الخروج فيه بماله، ولا يؤمن على ماله التلفُ والحوادثُ، فيهلك بهلاك ماله، لا يتهيأ لأحد أن يعترضَ عليه، فكيف يعترض على من كان الله عز وجل متولى تسييره وكلاتته وتقويمه، وعلى من قوى قلبه بصدق التوكل على الله، والله حسبه.

وهذه الطائفة من أهل التوكل لا يُخاف عليها مما يخاف على أهل الاعتماد على الأسباب؛ خافوا من الجوع وخاف هؤلاء من الشَّبع، وخاف أهل الأسباب من الفقر وخاف هؤلاء من الغنى، وخاف أهل الأسباب من القلة وخاف هؤلاء من الكثرة، فأهل التوكل بضد ما فيه الخلق؛ يأمنون حيث يخاف الناس، ويسكنون حيث يضطرب الناس، فما أبعد ما بين المعنيين! وكل من ركن إلى مخلوق أو سبب، كان خائفاً من زواله وفنائه، متوقفاً لفارقه لقاءه.

قال: والاستطاعة الأخرى: قوة البدن والصبر على المشى والضر.

والاستطاعة الثالثة: بسعة المال.

فالناس في الحج على ثلاثة أضرب: رجل تولى الله تسييره وترشيده، ورجل تعلق بصحة توكله على الله، ورجل تعلق بالسبب وغيرها، ولا ينبغي له أن يتوقف عن الحج، فالزاد مباح للعموم، إلا أن الله تعالى قد دل على خير الزاد بقوله: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]. فمن تزود التقوى نجاة، ولم يخف في طريقه؛ لأن الله مع الذين اتقوا، ومن التقوى: أن لا يقول العبد: غداً من أين؟ أقول الحق: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

وقال وهب بن منبه: وجدت في بعض ما أنزل الله من الكتب: يقول الله تعالى لبني آدم: «اتقني ونم حيث شئت».

قال: فالرزق ليس فيه توكل، وإنما فيه صبر، وهو أول درجات الصبر على ما وعد الله، حتى يأتيه في وقته، وإنما يقوى صبر العبد على قدر معرفته بما صبر له، ولمن صبر، يصحح ذلك قول الله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٨]، فالصبر ينال بالمعرفة، فعلى الصابر حمل مؤونة الصبر حتى يستحق ثواب الصابرين؛ لأن الله تعالى جعل الجزاء بعد الصبر، فقال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] بعدما أتم حمل البلوى.

فمعنى الصبر: حبس النفس على الوعد بمجيء المضمون، ومنعها من الحركة، أو التطلع إلى مجيئه، حتى يسوق الله الأقسام من أماكنها. فمتى رجع الصابر إلى سبب يتدئ فيه بالحركة من نفسه، فقد خرج من حالة الصبر، ضيقاً من تحمل مؤونته، قال الله تعالى: ﴿فَصَبِرْ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨] قال: صبر ليس فيه شكوى إلى الله؛ لأن الشكوى واجب لله على خلقه، فاستخرج الشكوى من هؤلاء، وجوز الشكوى عليهم لا من ضرر الحال والبلوى. هذا مقام الموقن القوى من المتوكلين. مثلهم مثل من أنفق من الصحابة قبل الفتح وقاتل، لا يستوى هو ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل، وكلاً وعد الله الحسنى. وقال رسول الله ﷺ في معناه: «المؤمن القوى أحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير».

فالمؤمن القوى يمثلُه بالنخلة أصلها ثابت باليقين في قلوب المتقين، وفرعها في السماء بشهادة المعرفة وعلو البهاء، والمؤمن الضعيف مثله كالسنبلة تفيء^(١) أحياناً وتقوم أحياناً، فكيف تقاس السنبلة التي تفيئها أدنى ريح إلى النخلة الراسخة؟ وكم تحت النخلة من سنبلة؟ بل كيف ترى السنبلة من دنو مكانها ما تراه النخلة من علو مقامها. وقال: وأيضاً كمثل النملة، تجمع في صيفها لشتائها. فهذا وصف المؤمن الضعيف بالادخار.

ومثلهما مثل من أنفق ماله في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل، ومثل من أنفق ماله ابتغاء مرضاة الله كمثل حبة بريرة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين، فكم في هذه الحبة بريرة من حبة وسنبلة؟ فاعتبروا يا أولى الأبصار.

وقال يحيى بن معاذ: التوكل على ثلاث درجات: فأولها ترك الشكاية، والثاني: الرضا، والثالث: المحبة. فترك الشكاية: أن لا يشكو ربه، والرضا: أن يرضى بما قسم له، والمحبة: أن تكون محبته في قضاء الله، فأولها: للمصالحين، والثانية: للأولياء، والثالثة: للأبدال. وكان يحيى يوسع في التوكل بالأسباب، ويأمن بها من غير مساكنة لها، ولا وقوف معها، وهو أوسع طريقاً وأبسط حالاً

(١) تفيء: تميل وتحرك.

من الخواص، ولكنّ مسلك الخواصِ أعلى، وحاله أسنى، على ضيقٍ في طريقه، وقبضٍ في حاله، وتشديدٍ وعزيمةٍ في مقامه من توكله.

وكان ابنُ معاذ يقول: أيّها الزاهدُ الواثقُ بالله في الرزق، انظر أن لا يلعبَ الشيطانُ بك في الأسباب، فإنّ الله قدّر الأرزاقَ بالأسبابِ للزاهدين وغيرهم، فإذا وجدتَ الله قد كفأك مؤونتك من الكفاية بوالد، أو ولد، أو أخ، أو امرأة، أو سببٍ من الأسباب، ثم جاءك الشيطانُ يلعبُ بقلبك فيه، فقال: إنّما يؤكلُك على هذا السبب الذي أراك تعيش منه، فقل: يا ملعون، فإذا رفعت هذا السبب أخذت الرزقَ بلا سبب، فهل يكونُ بُدٌّ من حدوثِ سببٍ آخر؟

قال: وليس صدقُ التوكلِ في رفعِ السببِ، ما لم يقطعك عن زهدك، ولم يؤثّر في دينك وحالك، إنّما تلحقك المحبةُ في دعواك إذا رأيتَ السببَ المقدورَ منه رزقُك يجذبك عما تُريد، ويلزِمك الآفاتُ به في الدين، فعند ذلك فارفعِ السببَ وارغبْ عنه، فإنّ الله تعالى إنّما هيّجه على تحريكك في دينك بما أتى لك من دنياك؛ امتحاناً منه لك، وتعرّفاً لصدقك فيما تدّعيه، فإذا تركته في جنبِ أحوالِ دينك، عطّفَ الله به عليك، أو جاءَ بغيره إن أخذَ هذا منك. وإنما عليك في مُدَابرةِ الأشياءِ وقبضِ الأرزاقِ، حفظُ أصلك، وصيانةُ دينك، ووقايةُ زهدك، فإذا سلّمَ لك ما تريد، فلا تعادى الأسبابَ المتولّدَ عنها الأرزاقُ فإنّ ذلك من الجهلِ المبين. فإن كنتَ أبداً كلّما رأيتَ الله تعالى قد قيّضَ لى رزقاً من سببٍ رفعتَ السببَ، فليس السببُ أريدَ إسقاطه، إنّما أريدَ إسقاطَ الرزقِ، إذا استحالَ وجودُه إلا بالأسبابِ، وفي ذلك يدخلُ علىّ الجهلُ بالله؛ لأنّه ليس للعباد أن يمتحنوا ربّهم، إنّما له أن يمتحنهم بعشٍّ^(١)، أيّها الزاهد، أباح الله لك من الرزقِ فيما كان من سببٍ ما لم يكن حراماً.

وقال له قائل، وقد سمعته يتكلّم في الأسباب: إن كنتُ في هذا المكان قد تهيّأ لى رزقى، ولستُ كلّ عُمري أفدر أن أكونَ هاهنا؛ لأنّى لعلّى أخرجُ إلى «قزوين». فقال له يحيى: إن كنتَ تخرج إلى قزوين امتحاناً منك لربك، فتقول

(١) كذا بالأصل. والعشُّ هنا: الكسب.

فِي نَفْسِكَ أَجِدُ اللَّهَ قَدْ كَفَانِي فِي الْحَضَرِ، وَفِي بِلَادِي، وَأَصْبِرُ عَلَى قَزْوِينَ، لِأَنْظُرَ هَلْ يَرْزُقُنِي؟! فَهَذَا شَكٌّ قَدْ دَخَلَ عَلَيْكَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ ضَمَّنَ لَكَ الرِّزْقَ بِالرَّيِّ كُنْتَ أَمْ بِقَزْوِينَ، فَإِنْ كُنْتَ قَدْ خَرَجْتَ إِلَى قَزْوِينَ بِنِيَّةِ الْعُدُوِّ وَالرَّبَّاطِ، فَهَذَا لَكَ، وَاللَّهُ رَازِقُكَ حَيْثُ كُنْتَ.

قال: وَرَبِّمَا رَأَيْتُ هَلَكِي مِنْ مُتَّحِلِي الزَّهْدِ، وَمُعَانِدَةِ الْأَسْبَابِ، وَمُخَالَفَةِ اللَّهِ فِي قَبْضِ الْأَرْزَاقِ، كَمَا يَرِيدُ تَعَالَى، لَا كَمَا تَرِيدُونَ، وَبِاللَّهِ نَعُوذُ مِنَ الْجَهْلِ.

وكان إبراهيم الخواص، فيما أخبرني عنه أبو بكر بن يعقوب الوراق، يُشَدِّدُ فِي مَقَامِ التَّوَكُّلِ بِعِزَائِمِ الْأُمُورِ، وَيَصِفُ تَوَكُّلَ أُولَى الْعِزْمِ مِنَ الزَّاهِدِينَ، وَكَانَ حَالُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ حَالِ أَقْوِيَاءِ الْمُتَوَكِّلِينَ، فَقَالَ لِي عَنْهُ: إِنَّهُ كَانَ يَقُولُ: إِنْ سَمِعَ الْمُتَوَكِّلُ خَلْفَهُ بِحَرَكَةٍ شَدِيدَةٍ، فَتَحَرَّكَ لَهَا قَلْبُهُ، خَرَجَ مِنْ حَدِّ هَذَا التَّوَكُّلِ الْمُخْصُوصِ، التَّفَتَ إِلَيْهَا أَوْ لَمْ يَلْتَفِتْ. وَهَكَذَا؛ لَوْ طَالَتْ أَيَّامُهُ بِالسَّيْرِ فِي الْبَرِّيَّةِ، فَمَالَ إِلَى سُرْعَةِ الْخُرُوجِ مِنْهَا، خَرَجَ مِنْ حَدِّ هَذَا التَّوَكُّلِ. قَالَ: وَهَكَذَا؛ لَوْ انْتَهَى بِهِ الْمَسِيرُ إِلَى مَوْضِعٍ مُسَمَّعٍ، فَانْقَبَضَ فِيهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ كَمَا كَانَ قَبْلَ وَقْتِهِ ذَلِكَ فِي انْبِسَاطِ الْقَلْبِ، خَرَجَ مِنْ حَدِّ هَذَا التَّوَكُّلِ. وَهَكَذَا؛ لَوْ انْتَهَى بِهِ التَّوَكُّلُ إِلَى أَجْمَةٍ أَوْ بَنِيَّةٍ أَوْ أَى مَوْضِعٍ مِنَ الْمَوَاضِعِ الْمُخَوِّفَةِ، فَلَمْ يَكُنْ فِيهَا كَمَا يَكُونُ فِي الْعُمُرَانِ، أَوْ طَالَعَ فَنَاءَ الْأَوْقَاتِ، أَوْ طَالَتْ لَيْلَتُهُ عَلَيْهِ، خَرَجَ مِنْ حَدِّ هَذَا التَّوَكُّلِ. وَهَكَذَا؛ لَوْ انْقَطَعَ [لَوْ انْقَطَعَ] دُونَ الْمَاءِ، فَوَجَدَ فِي نَفْسِهِ نَشَاطًا؛ لِقَرَبِ وَصُولِهِ إِلَى الْمَاءِ، أَوْ مُنِعَ الطَّعَامَ عَشْرَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ أُدْخِلَ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ شَيْءٌ مِنَ الطَّعَامِ، وَانْبَسَطَ فِي أَكْلِهِ، وَزَادَ عَلَى مَا كَانَ يَأْخُذُ إِذَا أُعْطِيَ فِي يَوْمٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، خَرَجَ مِنْ حَدِّ هَذَا التَّوَكُّلِ.

وهكذا؛ لَوْ زَادَ فِي مَقَامِهِ فِي الْمَنَازِلِ عَلَى مَقَامِهِ فِي الْبَرِّيَّةِ، إِذَا كَانَ فِيهَا، أَوْ اسْتَعَانَ فِي مَسِيرِهِ بِعُكَّازَةٍ يَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا، أَوْ مَنَاطِقَةً يَشُدُّ بِهَا وَسَطَهُ، أَوْ نَقَصَ فِي نَوْمِهِ مَعَ السَّبَّاحِ عَمَّا كَانَ يَنَامُهُ مَعَ الْأَنْبَسِ، أَوْ يَغَيِّرُ عَلَيْهِ عِنْدَ رُؤْيَةِ الْأَعْرَابِ، وَقَطَاعِ الطَّرِيقِ، وَلَمْ يَكُونُوا عِنْدَهُ كَسَائِرِ النَّاسِ، أَوْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ مِيلًا إِلَى

الأسفار في أوقات عمران الطريق. وهكذا؛ إن قيل في سفره أهل الأسباب، وارتفق بما معهم من الفضول. وهكذا؛ لو فقد الماء عشرة أيام، ثم وجده، فانبسط في شدته، ولم يشربه كما كان يشربه على [الظما]. وهكذا؛ إن وجد في قلبه الميل إلى الخلقان دون الجدد، خرج في جميع هذا من حد هذا التوكل.

قال: وإنما خرج هؤلاء بهذه الأخلاق وما شاكلها من حدود التوكل المخصوص؛ لأن التوكل يستولى على أهله بالقهر لهم عن التلويح بما لا يليق بصفة التوكل، فمتى تلونت صفاتهم بشيء مما لا يليق بها، كان خروجاً منه، وكانوا موصوفين بأنفسهم، وإنما التوكل في النفس والهداية، وهو أن يتولى الله تقويم العبد بالهداية له في إصابة الحق في جميع أحواله، بقيام صحة الشواهد والدلائل على أنه القائم بها، يصحح ذلك ما رواه ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «الطيرة شرك»، وما منا إلا يجد في نفسه، ولكن الله يذهبه بالتوكل. فأخبر أن التوكل يزيل ما يلحق النفس من الجزع وغيره، بقيامه عليها، واشتغال الصابر بحبس نفسه في حدود الصبر، يغنيه عن مواضع الحاجات فيه، حتى يقطعها عن وجوهها، فيكون صبره على ما يرضى بلا انقباض ولا خوف مما لا يقع به، ولا يؤثر في قلب الصابر ما يلحق صفته إذا لم يوافقه، لميل القلب إلى موافقة الله في تصحيح حال الصبر، لقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

قال: ومن التوكل في الهداية قول إبراهيم ﷺ: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، وقول موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]. ففي مثل هذا وقع توكل المرسلين، ومن لحقهم من بدلاء الصديقين، فهو التوكل الذي يجمع الأحوال كلها. كما قيل: التوكل جماع الإيمان، فاستخراج الله عز وجل من نبيه ﷺ نسيان حركة بعلة غيره من غير اللسان لم يتكلفه كتكلف الناس، جعلها الله سنة لمن بعده من أهل الضعف، ولمن عجز عن الصبر، وإباحة للذهاب إلى ثبوت الإخوان، كذهابه بأبي بكر وعمر إلى منزل أبي الهيثم بن التيهان، ومثل: تسليمه من ركعتين، لقوله: «إِنِّي لَأُنْسَى حَتَّى أَسِنَ السُّنَّ».

قال: وإنما تكلم في الصبر بمجيء الرزق طوائف من أهل الضعف، لم يكن

لهم همٌّ عاليةٌ ينفذُ بهم إلى ما وراءِ هذا من الغايات .

وأما المحققون من العارفين، فإنهم عبروا هذا إلى ما وراءه، واستحيوا من الله أن يعترض عليهم ذكرُ ما قد صدَّقوه فيه، ورضوا بقسمه لهم، فتوجهوا إلى الله بنسيانِ ذكرِ ما شغل من الأسباب، وكلُّ مُريدٍ يتوجَّهُ إلى الله تعالى وهمومُ الأرزاقِ قائمةٌ في قلبه، فإنه لا يفلحُ أبداً، ولا ينفذُ في توجُّهه.

وقال: أكثرُ الخلقِ تعلَّقوا بالأسباب، وركنوا إلى المخلوقين هرباً من أكلةٍ بعد أكلةٍ، ومن خرقَةٍ بعد خرقَةٍ، خروجهَا^(١) من غامضِ الغيبِ المُغيَّب، قد حيرت كلَّ ضعيفٍ، وألبسته ثوبَ الذلِّ والمسكنة.

وإذا صحَّت المعرفةُ بالله في القلب، سكن القلبُ إلى ما في الغيبِ أشدَّ من سكونه إلى ما في اليدِ من الأسبابِ الظاهرة؛ لأنَّ ما في يدِ العبدِ لا يدري ما يحدثُ الله فيه، وفي باله أنَّ ما عند الله هو الباقي، يأتي به على أوقاته، فإذا كان القلبُ قوياً عند زوالِ الدنيا وإدبارها، متبرِّماً بما في اليدِ منها، صحَّ التوكُّلُ.

وإذا ضعفت المعرفةُ في القلب، ركن القلبُ إلى الأسبابِ من زوالها قبل أن تزول، فإن زالَ منها شيءٌ لحقَّ القلبُ التغيُّرُ والجزعُ من خوفِ الفقرِ.

ومن صحَّةِ التوكُّلِ ألاَّ يركنَ القلبُ إلى سببٍ ولا مخلوقٍ، ولا ينظر إلى ما دون الله تعالى نظرةً.

هذا الذي ذكره الخواصُّ رحمه الله هو توكُّلُ النبيين والصديقين، وهو من عزائمِ التوكُّلِ، فإنما وصَفَ حاله وذكر مقامه هو، وقد كان رحمه الله يحمل نفسه على كلِّ شديدة، ويسلِّك بها كلَّ عزيمة. بلغني أنَّ حاله في التوكُّلِ أوجبَتْ عليه قطعَ مفازةٍ لا يُعرفُ غورها، ولا يُهتدى سبيلُها، فسلكها، فلَمَّا وقعَ في وسطها رأى قافلةً مُقفلةً موتى قد انقطعوا دون قطعها، فحميت نفسه، فحمل عليها، وسلَّك المفازةَ حتى قطعها.

وحدثني بعضُ الأَشْيَاح: أنَّه اطَّلَعَ في مسيرٍ له إلى بئرٍ عميقةٍ، لا يرى قعرها،

(١) خروجها: أي خروج الأسباب.

يقال: طولها أربعون قامَةً، ونَكَلتَ نفسُهُ عليه، فألقى نَفْسَهُ في البئر، ولَبِثَ فيها أيامًا، وكان يخرج عليه ثعبان عظيم في البئر إلى أن أَخْرَجَهُ اللهُ مِنْهَا في قصة طويلة، كان يخرج عليه في كل يوم ثعبانٌ مُفْلَسٌ^(١) من رأسِهِ ويده، عظيمة كالجُمجمة، بيضاء، وكان النمل يأتى عليها كل يوم، فقال: هؤلاء خَلْقٌ، وأنا خَلْقٌ، لَأَكْلَنَهَا، فأكلها، فإذا [هى] شَهْدٌ. وكان يُفْلَسُ كل يوم مثلها، وهو يأكلها بضع عشر يومًا، ثم [التقمه]^(٢) فاحتمله، وصَعَدَ به أعلى البئر، فنبذَه على ظهر الأرض. وكان يقصد الغياضَ المُسْبِعة، وجبلَ الحيات، والأودية الغامضة الموحشة، يبيتُ فيها، يَرُوضُ نفسه بذلك، ويؤدّبها به حتى يزيل عنها مخافةَ غيرِ الله، إلى أن اطمأنت فسكنت، وعالجَ شأنَ جماعةٍ من الجنِّ في البوادي والقفار، وكهوف الجبال، والغيران^(٣)، وكلّمُوهُ في قصصٍ كثيرة.

وليس هذا كله من فرضِ التوكل، إنما هو من فضائل بعض مقامات المتوكلين، ومقتضى أحوال بعض الموقنين. وفرضُ التوكلِ: عَقُودُ القلبِ، والاستسلامُ بحسنِ التفويضِ للرَّبِّ، ونَفْيُ عوارضِ الآفاتِ الدّاخلَةِ على المتوكلِ من السُّكُونِ إلى الأسبابِ، والركونِ إلى الخَلْقِ في المَعْتَادِ.

• ذكر الادخار مع التوكل:

ولا يضرّ الادخارُ مع صحّةِ التوكلِ إذا كان مدخراً لله وفيه، وكان ماله موقوفاً على رضا مولاه، لا مدخراً لحظوظِ نفسه وهواه، فهو حينئذٍ مدخراً لحقوقِ الله التي أوجبها عليه، فإذا رآها بذلَ ماله فيها. والقيامُ بحقوقِ الله لا يَنْقُصُ مقاماتِ العبدِ، بل يزيدها علوّاً.

وحدّثونا عن بعض أصحابِ بشر بن الحارث قال: كُنْتُ عنده ضحوّةً من النهار، فدخل عليه كَهْلٌ أَسْمَرٌ خفيفُ العارضين، فقام إليه بشر، قال: وما رأيته قام لأحدٍ غيره، قال: ودفع إلى كَفًّا من دراهم، فقال: اشترِ لنا من أطيب ما تقدّر

(١) ثعبان مُفْلَسٌ: على جلده لَمَعٌ كالفلوس.

(٢) بياض في الأصل قدر كلمة، أثبتتها اجتهداً.

(٣) الغيران: جمع غار، وهو الكهف.

عليه من الطعام والطيب. قال: وما قال لى قطّ مثل ذلك. قال: فجئتُ بالطعام، فوضعتُه بين يديه، فأكل معه، وما رأيته أكل مع غيره. قال: فأكلنا حاجتنا، وبقي من الطعام شيءٌ كثير، فأخذَه الرجل فجمعه في ثوبه، فجعله تحت يده، وانصرف. قال: فعجبتُ من فعله ذلك، وكرهته له؛ إذ لم يأمره بشر بذلك، ولا هو استأذنه فيه. فقال لى بشر بعد ذلك: لعلك أنكرتَ فعله ذلك؟! قلتُ: نعم، أخذَ بقيةَ الطعام من غير إذن، فقال: تعرفه؟! قلتُ: لا. قال: ذاك أخونا فتحُ الموصلي، زارنا اليومَ من الموصل، وإنما أراد أن يُعلمنا أن التوكّل إذا صحَّ لم يضرَّ معه الادّخارُ.

وتركُ الادّخارِ إنما هو حالٌ من مقامه قصرُ الأمل. وقد يصحّ التوكّل مع تأمّلِ البقاء، فإن كان أمله للحياة لطاعة مولا، وخدمته، والجهاد في سبيله، وليستعْتَب، ويستقبل، ويصلح بالطاعة والعلم ما أفسد بالهوى والجهل، فضل بذلك. وهذا طريق طائفة من الراجين والمستأنسين والمحبين وحسن الظن.

وإن كان أمله للحياة لأجل مُتعة نفسه، وأخذ حُظوظها من دُنياه، نقصَ ذلك من زُهدِه في الدنيا، فسرى النقصُ إلى توكُّله، وما نقص من الزُهد نقص من التوكّل بحسابه؛ وليس ما زاد في الزُهد يزيد في التوكّل بحسابه، لأن الزُهد من شرطِ خصوصِ التوكّل، وليس التوكّل من شرطِ عمومِ الزُهد، فكلُّ متوكِّل ذى مقام زاهد لا محالة، وليس كلُّ زاهد في مقام متوكِّل؛ لأن التوكّل مقام في الزُهد، والزُهد حال، والمقامات للمقربين، والأحوال في أصحاب اليمين، إلا أن من أعطى حقيقةَ الزُهد فإنه يُعطى التوكّل لا محالة؛ لأن حقائق الأحوال وثبوتها، ودوام استقامة أهلها فيها، ولزومها لقلوبهم - هي مقامات؛ فإذا جاز للمتوكِّل تأمّلُ البقاء لشهرٍ أو شهرين جاز له الادّخار لذلك، إلا أن طول الأمل يُخرج من حقيقة التوكّل عند أبى محمد والخوَّاص، ولا يُخرجه من حدّه عندى.

وأكره للمتوكِّل الادّخارَ لأكثرَ من أربعين يوماً، كما يُكره تأمّلُ البقاء لأكثرَ من أربعين. ومن قوَى يقينه، وحسن ظنه وصبره، وصحَّ زُهدُه، فتركُ الادّخار له أفضل. ومن ادّخر لصلاح قلبه، وتسكين نفسه، وقطع تشرفه إلى الناس؛ إن كان

مقامه السكون مع المعلوم، فالادخار له أفضل، فأما من ادخر لعياله لتسكن قلوبهم، ولو جود رضاهم عن الله، ولسقوط حكمهم عنه؛ ليتفرغ لعبادة ربه، فهو فاضل في ادخاره، اتفقوا عليه؛ ولأنه في ذلك قائم بحكم ربه، راع لرعيته التي هو مسئول عنها.

وقد ادخر سيد المتوكلين رسول الله ﷺ لعياله قوت سنة؛ ليسن ذلك، وقد نهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئاً لغد. ونهى بلالاً أيضاً عن الادخار لنفسه، ليقنّدي به أهل المقامات، وقال له: «إذا سئلت فلا تمنع، وإذا أعطيت فلا تخبى». وهو إمام المقربين، وذكرى للمتوكلين. كما روى أنه قبض ﷺ وله بردان في الحف ينسجان. وقد كان عليه الصلاة والسلام أقصر أملاً من ذاك، كان يبول فيتيمم قبل أن يصل إلى الماء، فيقال له في ذلك أن الماء منك قريب، فقال: «وما يدريني لعلّى لا أبلغه». ولكن فعله لئلا يهلك من طال أمله من أمته، فجعل فعله نجاة له.

فهذا يدلّك أن الادخار يتسع ويضيق على قدر مشاهدات العارفين، من قبل أن الشريعة جادت بالرخصة والعزيمة؛ فالعزائم من الدين للأقوياء الحاملين، والرخص من الدنيا للضعفاء المحمولين.

وقد كان أبو محمد، رحمه الله، يقول في تأويل الخبر: «إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه»، قال: ما كان من أمرٍ فخذ بالأشد فيه.

وقد كان الخوّاص يدقّق في أحوال التوكّل، ويذكر أن الادخار يخرج من حدّ التوكّل، ولم يكن يفارقه أربعة أشياء، وكان يقول: ادخارها من تمام حال المتوكّل؛ لأنها من أمور الدين: الركوة، والحبل، والإبرة، والخيط، والمقراض.

وكان سهل رحمه الله يضرب للمدّخر مثلاً في قصر الأمل وطوله، فيقول: مثلاً من يترك الادخار مثل رجل يقول: أريد أن أخرج إلى الأيلة، فيقال له: خذ رغيفاً، فإن قال: أريد أن أخرج إلى عبّادان، قيل له: خذ رغيفين، فإن قال: أريد أن أخرج إلى العسكر، قيل له: خذ أربعة أرغفة. قال: فكذلك ترك الادخار على قدر قصر الأمل وطوله.

وعلى ذلك فإنّ الادّخار ينقص من فضائل الزّاهدين بمقدار ما يمنع من حقيقة الزّهد، إلا للزّهاد العارفين؛ لأنّهم على عين اليقين، قد أقيموا بشهادة عن التوحيد، ينظرون بنور الأوليّة الآخريّة، فالموجودات عندهم عنده، إذ كانت أيديهم يده، وقبضهم قبضه، فهو وكيلهم، وهم خلفاؤه، يُنفقون ممّا جعلهم مُستخلفين فيه، فهو مزيد لهم؛ لأنّ هذا مقام فوق الزّهد قد جاوزه، فكيف يُعتبر به. وهؤلاء لا يُوصفون برغبة، فيكون الزّهد...^(١) عليه، كما لا يُوصفون بكدر الخلق والمراعاة، فكيف يُمرّون بالتّصفية والإخلاص، إذ لا يدخل عليهم ال...^(١) القيومية شهادة التوحيد بهم، فهم بها قائمون.

وقد كان الليث بن سعدٍ منهم، وقد كان أحدَ الأسخياء الأجواد، وكانت غلته بمصر في كلّ سنة مائة ألف وزيادة من الحنطة والعُصفر والورس، ولا وجبت عليه زكاة قطّ، كان يُنفق جميعه قبل الحول، وكان له منزل ضيافة فيه مائدة راسية لا تُرفع يمدّها بالطعام، وكلُّ من قدّم من الآفاق ينزل إلى طعامه ولا يُحدّثه حتى يختلف إلى مائدته شهراً. وكتب إليه مالك بن أنس يستهديه ورساً يصبغ به ثياب ابنته، أراد أن يزوّجها، فوجه إليه عشرين جراباً ورساً، في كلّ جراب مائة دينار، وقال في كتابه: احتفظ بيثالة الورس، فصبغ منه مالكٌ لجميع أهل بيته، ولجيرانه، وباع ما فضل منه بمائة دينار. ويقال: ليلة مات سُمع هاتفٌ يهتف من السماء: مات الليلة خازنُ الله في أرضه؛ الليث بن سعد.

وقد كان ابنُ المبارك في هذا المقام وزيادة، وكان يتّجر للعلماء، والقراء، ويقول: لولا الفقراء ما اتّجرت.

فأمّا تاركو المكاسب، وقاطعو السبب، ممّن لا معلوم له من الأولياء، فإنّهم تركوا الادّخار؛ لأنّه مُقتضى حالهم، وفيه استقامة مقامهم، وصفاء قلوبهم، لخلو همهم ولافراد سرهم.

وقد كان سريُّ يقول في قوله [تعالى]: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]:

(١) كلمة غير مقروءة في كل موضع.

إِنَّ الْمُتَّقِيَ لَا يَكُونُ رِزْقُهُ مِنْ كَسْبِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣]. فكأنه يقول: اجْعَلْنَا لِلْمُتَوَكِّلِينَ إِمَامًا؛ الَّذِينَ أَرْزَأَقَهُمْ لَا مِنْ اِكْتِسَابِهِمْ، بَلْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ أَهْلُ الصَّفْوَةِ وَالصَّفَاءِ؛ الصُّوفِيُّونَ، الَّذِينَ تَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ، وَلِلَّهِ، وَبِاللَّهِ، لَا فِي الْأَرْزَاقِ، وَلَا لِلْعَالَمِ يَدٌ عَلَيْهِمْ مِنَ الْإِرْقَاقِ، كَمَا كَانَ قَائِلُهُمْ يَقُولُ: الدُّنْيَا فَانِيَةٌ، وَالْآخِرَةُ بَاقِيَةٌ، وَالْأَرْزَاقُ مَفْرُوعٌ مِنْهَا، فَعَلَى مَاذَا أَتَوَكَّلُ؟ إِنَّمَا أَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ أَنْ لَا يُبْعِدَنِي مِنْ قُرْبِهِ.

وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ مُوسَى الْوَاسِطِيُّ يَقُولُ: مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ لِعِلَّةٍ غَيْرِ اللَّهِ، فَلَمْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ.

وَكَانَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ يَقُولُ: التَّوَكُّلُ هُوَ الْكَفُّ عَنِ الْأَغْيَارِ فِي السَّرِّ وَالْعِلَانِيَةِ، وَالسُّكُونُ إِلَى الْحَقِّ بِلَا وَاسِطَةٍ. وَقَالَ آخَرُ: الْاعْتِمَادُ عَلَى الْخَلْقِ هُوَ الْخِذْلَانُ، وَمَنْ اعْتَمَدَ بِسُوءِ رَبِّهِ فِي تَوَكُّلِهِ خَابَ سَعْيُهُ. وَقَالَ: الْمَوْقِنُ الْمُتَوَكِّلُ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ الطِّفْلِ لَا يَعْرِفُ شَيْئًا يَأْوِي إِلَيْهِ إِلَّا تَدَى أُمِّهِ، كَذَلِكَ الْمُتَوَكِّلُ لَا يَرَى لِنَفْسِهِ مَأْوًى إِلَّا اللَّهَ.

وَفِي حَدِيثِ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ فِي ذِكْرِ الْفَقِيرِ الَّذِي أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَسَامَةَ فَعَسَلَاهُ، وَكَفَّنَهُ بِبُرْدَتِهِ، فَلَمَّا دَفَنَهُ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «إِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَلَوْلَا خَصْلَةٌ كَانَتْ فِيهِ لُبُعَتْ وَوَجْهُهُ كَالشَّمْسِ الضَّاحِيَةِ، فَقُلْنَا: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: إِنَّهُ كَانَ صَوَامًا قَوَامًا كَثِيرَ الذِّكْرِ لِلَّهِ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا جَاءَهُ الشِّتَاءُ ادَّخَرَ حُلَّةَ الصَّيْفِ لَصَيْفِهِ، وَإِذَا جَاءَهُ الصَّيْفُ ادَّخَرَ حُلَّةَ الشِّتَاءِ لِشِتَائِهِ مِنْ قَابِلٍ. ثُمَّ قَالَ: مِنْ أَقَلِّ مَا أُوتِيتُمُ الْيَقِينَ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ، وَمَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْهُمَا لَمْ يَبَالِ مَا فَاتَهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهَارِ».

وَأَخْبَرَ ﷺ أَنْ تَرَكَ الْإِدْخَارَ مُقْتَضِي الْيَقِينِ، وَحَالَ أَوْلَى الْعَزْمِ مِنَ الصَّابِرِينَ.

وَحَدَّثَنِي بَعْضُ الصُّوفِيِّينَ أَنَّ بَعْضَ الْأَشْيَاخِ لَمْ يَكُنْ يُعِيشُ مِثْلَنَا لَعَدًا، فَإِذَا جَاءَهُ شَيْءٌ بِالنَّهَارِ أَخْرَجَهُ قَبْلَ اللَّيْلِ. قَالَ: فَدَفَعُ إِلَيَّ ثَلَاثَةَ دِرَاهِمٍ مِنَ اللَّيْلِ، فَقُلْتُ: أَخْرَجَهَا قَبْلَ الصُّبْحِ، ثُمَّ قُلْتُ: أَنَا مِنَ اللَّيْلِ فَإِذَا أَصْبَحْتُ أَخْرَجْتُهَا، قَالَ: فَجَعَلْتُهَا فِي وَسْطِي وَنَمْتُ، فَرَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ فِي وَسْطِي ثَلَاثَةَ دَنَانِيرٍ [مِنْ نَارٍ]، قَالَ:

فاغتممتُ، وجعلتُ أحلُّها وأتعجَّبُ من ذلك. فقال لى قائل: هذه الثلاثة دَراهم التى ادخرتها. قال: فانتبَهتُ فزَعًا، فقمْتُ، فدفعْتُها للوقتِ إلى بعضِ الفقراءِ.

وحدثنى بعضُ الأشياخِ عن بعضِ الصّوفيين أنّه كان كذلك يُخرج كلما فُتح له إلى إخوانه الفقراءِ، ولا يدخر منه لنفسه شيئًا، قال: ففتُح لى مرّةً بدينار، وكان على دينار دينًا، فجعلتُ أوْمَلُ بين أن أحبسه لقضاء دينى، وبين أن أخرجَه على ما عودتُ من خليقتى. قال: فقوى على شاهد العلم، فقلتُ: أُمسِكْه لدينى أولى؛ لأنّه قد استحقَّ علىّ، قال: فلم أنفقْه على إخواننا، وكان يتتابهُم، يُستضاف، قال: فضرَبَ علىّ ضرْسٌ من أضراسى تلك الليلة، فلم أتم، فأشير علىّ بقلعه فقلعته، قال: ثمَّ خطرَ بقلبى إخراجُ الدينار، ثم قلتُ: الدين أوجبُّ، فحبسته، قال: فضرَبَ علىّ فى الليلة الثانية ضرْسٌ آخر أسهرنى، قال: فنزعته. قال: ثم ذكرتُ شأنَ الدينار فقلتُ: لعلّى عوقبتُ بحبسه، قال: فأخرجته قبلَ الليل، قال: فهتف لى هاتفٌ: لو لم تُخرجه لقلعنا أسنانك ضرْسًا ضرْسًا، حتى لا يبقى فيك ضرْسٌ واحد.

فهذه مطالباتُ الخُصوصِ، لعلو مقاماتهم، مَخْصُوصُونَ به، مُشَدَّدٌ عليهم فيه دُونُ غيرهم.

وكذلك بلغنى أن بنان الحمّال لم يكن يدخر شيئًا لغد، ولا يُبيتُه من النهار، فحدثنى بعضُ الأشياخِ ممّن رآه، وقد دُفع إليه بمكّة - وكان قد جاورَ فيها - كيسٌ فيه خمسمائة درهم، قال: فصرَّره صررًا، وجعلها فى ركّوته، ثم طافَ بها دَوْرَةً حَوْلَ المسجدِ الحرامِ، فجعل يُلقيها إلى الفقراءِ صرّةً صرّةً، وهو يمشى، حتى أنفدها، قال هذا: فكنتُ أراه من حيث لا يعلم، فقلتُ: لأنظرنَّ من أين فطره هذه الليلة، إذ لم يترك لنفسه شيئًا، قال: فلما كان بين العشائين طاف فى الوادى طَوْفَةً، ومدَّ يده، وقال: ثمَّ شىءٌ لله، فجعل فى كفِّه وسعَه، فعدل إلى باب الصّفا فقعده فأكله، وشرب من ماء زمزم، ودخل الطواف. قال: فسألته عن ذلك من الغد، فقال: ما حدثتُ نفسى أن أعيش إلى الليل، ولو قوى فى قلبى ذلك لحبستُ منه القُوتَ.

فهذا طريق المُقْتَطِعِينَ، سلكوه بزاده بتَقْوَى مثلهم، إذ جعلت قلوبهم أوعيةً لمراده.

وقد كان أبو موسى الدبيلي يقول: التوكلُ هو أن يستوى عندك الباديةُ وبابُ الطاق. فهذا لا يكون إلا واصلاً من الحقيقة، يغيب عن تطلُّع إلى سبب. كما قال بعضهم: التوكلُ هو استيلاءُ الوجدِ على الإشارة، وحذفُ التشرفِ إلى الإرفاق حتى يبدو. يعنى أن يغلبَ وجدُه إشارته - يقول: أو همه - فيمثل القلبُ بالوجد، فيقتطعه عن التعلق بسبب، ويشغله عن التفرُّغ إلى غيره.

وحدثتُ عن بعض العارفين قال: رأيتُ في النوم كأنَّ القيامةَ قد قامت، وكأنَّ الناسَ يساقون زُمرةً زُمرةً إلى الجنةِ على طبقات. قال: فنظرتُ إلى طبقة أحسنِ الناسِ هيئةً، وأعلاهم مرتقى، وأسرعهم سبْقاً، فقلتُ: هذه أفضلُهم أكونُ فيهم. قال: فذهبتُ لأخطو إليهم، وأدخل معهم في طريقهم، فإذا بملائكةٍ حولهم قد منعوني، وقالوا: قفْ مكانك؛ حتى يجيء أصحابُك، فتدخل معهم. فقلتُ: تمنعوني أن أكون مع هؤلاء السابقين؟! فقالوا: هذا طريق لا يسلكه إلا مَنْ لم يكن له إلا قميص واحد، ومن كلِّ شيء واحد، وأنت لك قميصان، ومن الأشياء زوجان. قال: فانتبهتُ باكياً حزيناً، فجعلتُ على نفسي أن لا أملكُ من كلِّ شيء إلا واحداً.

وهشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: «ما رفعتُ للنبي ﷺ غداءً لعشاء، ولا عشاءً لغداء، ولا اتَّخَذَ شيئاً من زوجين، ولا إزارين، ولا قميصين». وقد كان حذيفة المرعشي يقول: منذ أربعين سنة لم أملك إلا قميصاً واحداً.

وأخبرني بعضُ الأشياخ عن أبي على الروزيادي أنه قال: التوكلُ على ثلاث درجات: الأولى منها: إذا أعطى شكر، وإذا مُنِع صبر. والثاني: المنعُ والعطاءُ عنده واحداً. والثالث: المنعُ مع الشكر أحبُّ إليه من اختياره.

وقد كان حذيفةُ المرعشي يقول: منذ أربعين سنة لم أملك إلا قميصاً واحداً. وكان كثير من السلف إذا استجدَّ ثوباً أو شيئاً أخرج الأول منهما، وكانوا

يستعملون الشيء الواحد في الأشياء الكثيرة . وهذا كله داخل في التحقق بالزهد ، وهو من فضائل المتوكلين .

والخبر المشهور أن رجلاً من أهل الصفة توفى فما وجدوا له كفناً ، فقال النبي ﷺ : «فتشوا ثوبه» . قال : فوجدنا داخل إزاره دينارين ، فقال : «كيتان» . وقد كان غيره من المسلمين يموت ، ويخلف عدة ، فلا يقول له ذلك ؛ لأن هذا كان حاله الزهد ، وإظهار الفقر ، ووصفه التوكل ، وترك الادخار ، فشدد عليه وغلظ بكيتي نار . فاعتبروا يا أولى الأبصار .

• ذكر التداوى وتركه للمتوكل وتفصيل ذلك :

ولا ينقص التداوى أيضاً توكل العبد ؛ لأن النبي ﷺ أمر به ، وأخبر عن حكمة الله تعالى فيه ، فقال ﷺ : «ما من داء إلا وله دواء ، عرفه من عرفه وجهله من جهله ، إلا السام» يعنى الموت .

وقال عليه الصلاة والسلام : «تداوا عباد الله» . وسئل عن الدواء والرقي : هل يرد من قدر ؟ فقال : «هى من قدر الله» .

وفى الخبر المشهور : «ما مررت بمأ من الملائكة إلا قالوا : مر أمتك بالحجامة» . وفى الحديث : أنه أمر بها ، فقال : «احتجموا لسبع عشرة ، وتسع عشرة ، وإحدى وعشرين ، لا يتبيغ بكم الدم فيقتلكم» .

وفى ذكر تبغ الدم دليل على توقيت هذا العدد من الأيام للحجامة ، إلا أنه أريد به هذه الأيام من الشهر ، وفيه وصف الأسباب التى جعلت حثوفاً ، وسبباً للموت ، وخص هذا القدر من العدد ، وأحسبه لأهل الحجاز خاصة ، لشدة حر البلد .

كقول عمر رضى الله عنه فى الماء المشمس «أنه يؤرث البرص» . سمعت أن ذلك فى أرض الحجاز خاصة .

وكان من سيرة السلف أن يحتجموا فى كل شهر مرة ، إلى أن يجاوز الرجل الأربعين ، وكانوا يستحبون الحجامة فى آخر الشهر .

وقد يُروى فى خبر منقطع: «من احتجم يومَ الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر، كان له دواء من داء سنة». وقد رُوينا من طريق أهل البيت أن النبى ﷺ: «كان يكتحل كل ليلة، ويحتجم كل شهر، ويشرب دواء كل سنة».

روى أبو قلابة عن كعب الأحبار قولَ الله عز وجل: «إِنِّى أَنَا أُشَجُّ وَأُداوَى، فَتَداوُوا». فالتداوى رُخصة وسعة، وتركه ضيق وعزيمة، والله يحب أن يؤخذ برُخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه. وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمُ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]؛ أى ضيق.

وربما كان المتداوى فاضلاً فى ذلك لمعنيين: أحدهما: أن ينوى اتباع السنة، والأخذ برخصة الله، وقبول ما جاءت به الحنيفية السمحة.

وقد أمر رسول الله ﷺ غيرَ واحدٍ من الصحابة بالتداوى والحمية، وقطع لسعد ابن مُعَاذٍ عِرْقًا، أى فصده، وكوى سعد بن زرارة من اللقوة، وقال لعلّى رضى الله عنه، وكان رَمَدَ العين: «لا تأكل من هذا - يعنى الرطب - وكل من هذا فإنه أوفق لك» يعنى: سلفاً قد طبخ بدقيق أو شعير.

وقد تداوى رسولُ الله ﷺ فى غير حديث من العقر، وغيرها. وروى أنه كان إذا نزل عليه الوحي صدع رأسه، فكان يُغلفه بالخِناء. وفى الخبر: أنه كان إذا خرجت به قُرحة جعل عليها حناء، وهو أعلى المتوكلين، وأقوى الأقوياء.

فإن قيل: إنما تداوى لغيره وليسَ ذلك. قلنا: فلا نرغب عن سنته، ولا نزهده فى بُغيته، إذا كان فعل ذلك لنا فلا نرده عليه؛ لئلا يكون فعلاً لغواً، وتكون الرغبة عن سنته إلى توهم حقيقة التوكل طعنًا فى الشرع.

وقد كان ﷺ ظاهره للخلق؛ ليقتفوا آثاره، من ذلك: أنه صام فى السفر فى شدة الحر، فكان يصبُّ على رأسه الماء، ويستظلُّ بالشجر؛ ليسنَّ بذلك الرخصة فى التبرّد بالماء للصائم. ف قيل له: إن قومًا صاموا، وقد شقَّ عليهم، فدعا بقدر فيه ماء، فشرب، فأفطر الناس، فترك حاله ﷺ لأجلهم. ف قيل له: إن قومًا لم يفطروا، فقال: «أولئك العصاة».

والمعنى الثانى الذى يَفْضَلُ به المتداوى: أنه يحب سُرْعَةَ البرءِ للطَّاعَةِ، ولخِدْمَةِ مَوْلَاهُ، والسَّعْيِ فى أوامره؛ إذ كانت العللُ قاطعةً عن التصرُّفِ فى العَمَلِ، ومشغلةً للنَّفْسِ عن الشَّغْلِ بالآخرة. وذكر بعض علمائنا فى الإسرائيليات أن موسى عليه السلام اعتلَّ عِلَّةً، فدخل عليه بنو إسرائيل فَعَرَفُوا عِلَّتَهُ، فقالوا: لو تداويتَ بكذا لَبَرَأْتَ، فقال: لا أتداوى؛ حتى يعافينى هو من غيرِ دَوَاءٍ. قال: فطالت عِلَّتُهُ، فقالوا له: إنَّ دَوَاءَ هذه العِلَّةِ مَعْرُوفٌ مُجَرَّبٌ، وإن تداوَوْا به تَبَرَأَ، فقال: لا أتداوى. فدامت عِلَّتُهُ. فأوحى الله عزَّ وجلَّ إليه: وعزَّتْنى لا أبرأُكَ حتى تداوى بما ذكروه لك، فقال لهم: داوونى بما ذكرتم، فداووه، فَبَرَأَ، فأوْجَسَ فى نفسه من ذلك. فأوحى الله إليه: أَرَدْتَ أَنْ تُبْطِلَ حِكْمَتى بتوَكُّلكَ عَلَيَّ، مَنْ أودَعَ العقاقيرَ منافعَ الأشياءِ غيرى؟!!

وفى بعض الأخبار: شكَا نَبِيٌّ مِنَ الأنبياءِ إِلَى اللَّهِ عِلَّةً يَجِدُهَا، فأوحى الله إليه: كُلِّ البِيضِ. وفى خبر آخر أن نَبِيًّا مِنَ الأنبياءِ شكَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الضَّعْفَ، فأوحى الله إليه: كُلِّ اللَّحْمِ بِاللَّبَنِ؛ فَإِنَّ فِيهِمَا الْقُوَّةَ. قال الشيخ: أحسبه الضعف عن الجماع.

وذكر وهب بن منبه أن مَلِكًا مِنَ الملوكِ اعتلَّ عِلَّةً، وكان حسنَ السيرة فى أهل مملكته، فأوحى الله تعالى إلى شعياء النَبِيِّ ﷺ: قُلْ لَهُ: اشرب ماءَ التين؛ فَإِنَّهُ شِفَاءٌ مِنْ عِلَّتِكَ.

وقد روينا أعجب من ذلك: أن قَوْمًا شكوا إلى نَبِيهِمْ قُبْحَ أولادِهِمْ، فأوحى الله تعالى إليه: «مُرُّهُمْ أَنْ يَطْعَمُوا نِسَاءَهُمُ الْحَبَالَى السَّفَرُجَلُ؛ فَإِنَّهُ يَحْسُنُ الْوَلَدَ». فقد كانوا يطعمون الحبالي السفرجل والنساء الرطب، وهذا - والله أعلم - يكون فى الشهر الثالث والرابع من حَمْلِهَا؛ لأنَّ الْوَلَدَ يُصَوَّرُ فِيهِمَا.

وعلى ذلك كُلِّهِ فَإِنَّ تَرَكَ التداوى أَفْضَلُ لِلأقوياء، وهو من عَزَائِمِ الدِّينِ، وطريقة أولي العزم من الصديقين؛ لأنَّ فى الدِّينِ طَرِيقَيْنِ: طَرِيقَ تَبَتُّلٍ وعزيمة، وطريقَ توسُّعٍ ورخصة، فمن قَوَى سَلَكَ الطَّرِيقَ الْأَشَدَّ، فهو أَقْرَبُ وَأَعْلَى، ولكن بعد أن يكون معه زاد ذلك الطريق، وهو للمقربين وهم السابقون. ومن ضَعُفَ

سلك الطريقَ الأرفه وهو الأوسط، إلا أنه أبعدُ لأنه معه زادُ طريقه، وهو لأصحاب اليمين، وهم المقتصدون. وفي المؤمنين أقوياءُ وضعفاء، وليّنون وأشدّاء.

ورؤينا عن النبي ﷺ: «المؤمن القوى أحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير». ورؤى عنه ﷺ: «في المؤمنين مَنْ هو أشدُّ في الله عزّ وجلّ من الحجارة، وفيهم مَنْ هو ألينُ من اللبن». وقال في وصف الأقياء: «مثل المؤمن كمثل النخلة لا يسقط ورقها». وقال الله تعالى في معنى ذلك: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

وقال ﷺ: «مثل المؤمن كمثل السنبلة تُفِيئُها الرِّيحُ يَمِينًا وَشِمَالًا».

وقال عليه السلام في صفة المؤمن المُطعم: «مثلُ المؤمن كمثل النخلة أكلتُ طيبًا ووضعت طيبًا».

وقال في وصف المستطعم: «مثلُ المؤمن كمثل النملة تجمع في صيفها لشتائها».

فأوصاف المؤمنين متفاوتة في الضعف والقوة، واللين والعنف، وفي الجبن والشجاعة، وفي الصبر والجزع، فشَتَان بين من شَبّه في القوة والعلو بالنخلة؛ قلبه ثابتٌ، وهمّه في السماء، يُطعم جنّاهُ، ولا يدخِر؛ وبين من شَبّه بالنملة في الضعف، وهو الذي يستطعم ويحتكر.

وقد فضّل رسول الله ﷺ قومًا ومدحهم أنهم لا يَسْتَرْقُونَ ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون، وذكر أنهم يدخلون الجنة بغير حساب، فعَلَّلَ بالتوكل وأخبر أنهم تركوا ذلك توكلاً، ثم سأله عكّاشة أن يدعو الله أن يجعله منهم، ففعل؛ لأنه رأى ذلك طريقه ورأى معه زاده، وشهد فيه القوة فأهلّه لذلك. فلما قال له الآخر: «ادع الله أن يجعلني منهم»، احتذاهُ له، واقتداهُ به، ولم يرَ ذلك فيه، ولا وجدهُ منه، ولم يؤهلهُ له، ولم يعذره به، إذ المقامات لا يُفتدى بها، ولا يُتمثل فيها، كما لا تُدعى؛ لأنّها مواجيدُ قلوب باتحاد قريب، ومُشاهداتُ غيوبٍ بإشهاد حبيب. فمن سما إليها بغيرِ قوة، وبِتَسوّر، فإنه يَنكُصُ عنها قبل البلوغ، فيتهور؛ لأنها تنهار به، لِمَا يردُّ إليه من نفسه وطبعه. فلَمَّا لم يشهد الرسول ﷺ ذلك

مقامه، ولم يرَ معه قُوَّتَهُ وأَعْلَامَهُ، أَوْفَقَهُ عَلَى حَدِّهِ، وَحَكَمَ عَلَيْهِ بِوَجْدِهِ، وَرَدَّهُ إِلَى ضَعْفِهِ، وَمَنَعَهُ مِنْ تَسَوُّرِهِ وَعَسْفِهِ، فَرَدَّهُ رَدًّا جَمِيلًا؛ لِأَنَّهُ كَانَ حَبِيبًا كَرِيمًا، فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةٌ». فَهَذَا كَمَا يَقُولُ الْحَاكِمُ الْحَكِيمُ: إِذَا ضَعُفَ أَحَدُ الشَّاهِدِينَ زِدْنِي شَاهِدًا آخَرَ، وَلَا يَصْرَحْ بِجُرْحِ الشَّاهِدِ، وَلَوْ عَدَّلَهُ لَقَبَلَهُ، وَلَمْ يَطْلُبِ الزِّيَادَةَ، وَإِلَّا فَالْمَقَامَاتُ لَا تَضِيقُ بِمَنْ سَبَقَ إِلَيْهَا، وَالْقَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ لَيْسَ ذَلِكَ عَلَيْهِ بِعَزِيزٍ، إِلَّا أَنَّهُ حَاكِمٌ حَكِيمٌ، لَمْ يَحْكَمْ لَهُ بِالسَّبْقِ، فَلَمْ يَجْعَلْ فِيهِ مَكَانًا لِلْغَوَى، وَالرَّسُولُ غَيْرُ بَخِيلٍ، مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى شَاهِدًا لَهُ: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤]. وَلَكِنْ لَمْ يَرَفِ فِيهِ شَاهِدَ ذَلِكَ مِنَ الْقُوَّةِ، وَتَبَيَّنَ فِيهِ الضَّعْفُ عَنِ الْحَمْلِ، فَلَمْ يَخَاطِرْ بِهِ.

وَقَدْ نَهَى عَنِ الْكِبَرِ فِي غَيْرِ حَدِيثٍ، وَقَالَ لِرَجُلٍ أَرَادَ أَنْ يَدَاوِيَ أَخَاهُ إِلَّا أَنَّهُ مَاتَ مِنْ عِلَّتِهِ، فَقَالَ: «أَمَا لَوْ بَرَأَ لَقُلْتُ: أَبْرَأْتُهُ». لَعَلِمَهُ بِمَا يَهْجُسُ فِي بَعْضِ النَّفُوسِ: أَنَّ الشِّفَاءَ وَالنَّفْعَ مِنْ فِعْلِ الدَّوَاءِ، وَذَلِكَ مِنَ الشَّرْكِ. فَكَرِهَ الْمُحَقِّقُونَ بِالتَّوْحِيدِ التَّدَاوِيَ خَشْيَةَ دُخُولِ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ. كَيْفَ وَقَدْ جَاءَ نَصًّا: «مَنْ اكْتَوَى أَوْ اسْتَرْقَى فَلَمْ يَتَوَكَّلْ». وَفِي الْخَبَرِ الثَّانِي: «الطَّيْرَةُ شَرُّكَ»، وَمَا مَنَا إِلَّا يَجِدُ فِي نَفْسِهِ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ يَذْهَبُ بِالتَّوَكُّلِ، فَأَخْبَرَ أَنَّ التَّوَكُّلَ هُوَ دَوَاءُ الشَّرْكِ الْخَفِيِّ، وَأَنَّ الطَّيْرَةَ قَدْ تَكَمَّنَ فِي النَّفْسِ فَيَخْتَفِي، وَمَعْنَاهَا النَّظَرُ إِلَى الْأَسْبَابِ مِنَ التَّشَاوُمِ أَوْ التَّيَمُّنِ بِهَا، أَوْ شَهُودِ الضَّرِّ وَالنَّفْعِ مِنْهَا، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَإِنْ يَمَسُّنِكَ اللَّهُ بَضْرٌ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [يونس: ١٠٧].

فَوَحَّدَ نَفْسَهُ فِي الضَّرِّ وَالنَّفْعِ، وَابْتَلَى خَلْقَهُ بِالْعَطَاءِ وَالْمَنِّعِ، وَنَفَى ذَلِكَ عَنْهُمْ مِنْ فَعْلِهِمْ، بِقَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: «لَا مَانِعَ لِمَا أُعْطِيَ وَلَا مُعْطَى لِمَا مَنَعَتْ». وَدَخَلَ الشَّرْكَ الْخَفِيُّ فِي قُلُوبِ الْعُمُومِ بِنَظَرِهِمِ الْأَوَاسِطَ وَالْأَسْبَابَ، لظُهُورِ الْحِكْمَةِ بِالتَّسَبُّبِ وَالاكْتِسَابِ. وَبِمَعْنَى ذَلِكَ: الْخَشْيَةُ مِنْ مَضَارِّ الْأَشْيَاءِ الْمُسْتَوْدَعَةِ كَالرَّجَاءِ لِلْبَرِّءِ.

وَمِنْ مَنَافِعِ الْأَسْبَابِ الْمَجْعُولَةِ حَدِيثُ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ: ذَكَرْنَا الْحَيَاتِ عِنْدَ

رسول الله ﷺ فقال: «مَنْ خَشِيَ أَرْبَهُنَّ - وفى لفظ آخر: نارهن - فليس منا». وقال الخوَّاص: ليس العَجَبُ مِمَّنْ خَرَجَ إِلَيْهِ، ولكنَّ العَجَبَ مِمَّنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، والعَجَبُ كُلُّ العَجَبِ مِمَّنْ رَغِبَ فِي صُحْبَةِ المَخْلُوقِينَ، وقد دَعَاهُ الخَالِقُ إِلَى صُحْبَتِهِ. ثُمَّ وَصَفَ الوَكِيلَ، فقال: مُشْرِفٌ عَلَى خَلْقِهِ بِغَايَةِ الكَمَالِ، يرى مقاماتهم، ويرى الأحكامَ تشهدُها أفعَالاً.

ورؤينا فى حديث الحسن عن مطرّف بن عبد الله قال: أتينا عمران بن الحصين نَعُوذُهُ، وكان قد اِكْتَوَى فى بَطْنِهِ، فقال: «نَهَانَا النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْكَيِّ فَاكْتَوَيْنَا، فَمَا أَفْلَحْنَا وَلَا أُنْجَحْنَا».

ورؤيناه فى لفظ آخر: «فَمَا أَفْلَحْنَا وَلَا أُنْجَحْنَا» يعنى: الكيَّات.

وكان عمران قد سَقَى بَطْنَهُ، فظل صريعاً ثلاثين سنةً على سريرٍ من جريد، قد نُقِبَ لَهُ فى أَسْفَلِهِ لموضع الغائط؛ لَأَنَّهُ كَانَ سَطِيحاً، لَا يَسْتَطِيعُ الْقِيَامَ، فَأَشَارُوا عَلَيْهِ أَن يَكْتَوَى، فامتنع، فلم يزالوا به وعزَمَ عَلَيْهِ الأميرُ حَتَّى اِكْتَوَى فى بَطْنِهِ سَبْعَ كَيَّاتٍ، فكان يقول: كُنْتُ أَرَى نُوراً وَأَسْمَعُ صَوْتاً وَتُسَلِّمُ عَلَى المَلَائِكَةِ، فَلَمَّا اِكْتَوَيْتُ انْقَطَعَ ذَلِكَ عَنِّي.

وفى خبرٍ آخر: كانت الملائكة تزوره فيأنس بها، حتى اِكْتَوَى، ثم تاب من ذلك وأتاب إلى الله، فردَّ اللهُ عَلَيْهِ مَا كَانَ يَجِدُهُ، وقال لِمُطَرِّفٍ: أَلَمْ تَرَ أَنَّ الكَرَامَةَ الَّتِي كَانَ اللهُ أَكْرَمَنِي بِهَا قَدْ رَدَّهَا عَلَيَّ، بعد أن كان أخبره بِفَقْدِهَا.

فلولا أَنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَهُ ذَنْباً مَا نَدِمَ عَلَيْهِ، وَلَمَّا تاب منه، ولولا أَنَّهُ كَانَ نَقْصاً مَا صُرِفَتِ المَلَائِكَةُ عَنْهُ.

ومرض أبو بكر الصديق رضى الله عنه، فقليل له: لو دعونا لك طبيباً، فقال: قد نظر إلى الطبيب، فقال: إِنِّي فَعَالٌ لِّمَا أُرِيدُ.

وقيل لأبى الدرداء فى مرضه: ما تشكى؟ قال: ذنوبى. قيل: فما تشهى؟ قال: مغفرة ربى. قيل: أفلا ندعو لك طبيباً؟ قال: الطبيبُ أَمْرَضْنِي.

وقيل لأبى ذر، وقد رَمَدَت عِيْنَاهُ: لو داويتَهما؟ فقال: إِنِّي عَنْهُمَا لَمَشْغُولٌ.

قيل: فلو سألت الله أن يُعافيك؟ فقال: أسأله فيما هو أهمُّ إلىَّ منهما.

وقيل لأبى محمد: متى يصحُّ للعبد التوكُّل؟ قال: إذا دخل عليه الضرُّ فى جسمه، والنقصُ فى ماله، فلم يلتفت إليه شُغلاً بحاله، وينظر إلى قيام الله عليه. وقد كان أصاب الربيعَ بن خيثم الفالجُ، ف قيل له: لو تداويت؟ فقال: قد هممتُ، ثم ذكرتُ عاداً وثموداً وقروناً بين ذلك كثيراً، كانت فيهم الأوجاع، وكانت فيهم الأطباء، فهلك المداوى والمداوى، ولم تُغنِ الرُقَى شيئاً.

وقد أصاب عبدَ الواحد بن زيد الفالجُ، فعُطِّل عن القيام، فسأل الله أن يطلقه فى أوقات الصلاة، ثم يردُّه إلى حاله بعد ذلك، فكان إذا جاء وقت الصلاة فكأنما أنشط من عقل، فإذا قضى الصلاة رجع إليه الفالج كما كان قبل ذلك.

ومن لم يتداو من الصديقين والسلف الصالح أكثرُ من أن يُذكر، إلا أنه مَخْصُوصٌ لَخُصُوصٍ، وطريقُ الخاصة الأقوياء، لا يَسْلُكه الشُّوبُ^(١) من العموم والضعفاء. وذلك مذهبُ إبراهيم الخوَّاص وطريقه. وكان يرى أن المتوكِّل إذا تداوى نقص بذلك تحقيقه.

وقد كان أبو محمد سهل يقول: إن تَرَكَ التَّداوى - وإن أضعف عن الطاعات، وقصَّر عن الفرائض - أفضلُ من التَّداوى لأجل الطاعات. وكانت به علةٌ عظيمةٌ فلم يكن يتداوى منها، وقد كان يُداوى النَّاسَ منها.

وكان إذا رأى العبدَ يصلَّى من قُعود مع تصوُّره ورضاه، أو لا يستطيع أعمالَ البرِّ من الأمراض، فيتداوى للقيام فى الصلاة، والنهوض إلى الطاعة - يَعْجَبُ من ذلك، ويقول: صلاته من قعودٍ مع رضاه بحاله أفضلُ له من التداوى للقوة ويصلَّى من قيام.

وسئل عن شُرْبِ الدَّواءِ فقال: كُلُّ مَنْ دَخَلَ إلى شَيْءٍ من الدَّواءِ، فإنما هو سَعَةٌ من الله لأهل الضَّعْفِ، ومن لم يَدْخُلْ فى شَيْءٍ منه، فهو أَفْضَلُ؛ لأنه إن أَخَذَ شيئاً من الدَّواءِ - ولو كان الماء البارد - سئل عنه: لِمَ أَخَذْتَ؟ ومن لم يأخذ

(١) الشُّوبُ: الخلط من الناس. ويمكن أن تضبط: الشُّوبُ.

فليس عليه سؤال . وقال مرة: مَنْ يأخذ الماءَ الباردَ على سبيل الدواء سئِلَ .
وأصله في هذا: أَنَّ عنده من أَفضلِ الأعمالِ أَنْ يُضْعِفَ العبدُ قُوَّتَه حتى لا يكون لنفسه حراك؛ لأجل الله تعالى، وإنَّ ذرَّةً من أعمالِ القلوبِ؛ مثلِ التوكل والرضا والصبر، أَفضلُ من أعمالِ جبالٍ من عملِ الجوارحِ . وهذا مذهب البصريين في إسقاط القوة بالتَّجَوُّع الطَّوِيل، والطِّيَّ الكَثِير، لِتَضْعُفِ النَّفْسِ؛ لأنَّ عندهم أَنَّ في قوَّةِ النَّفْسِ قوَّةَ الشهوات، وغلبة الصفات، وفي ذلك وجودُ المعاصي، وكثرة الهوى، وطول الرِّغْبَةِ، والحرصُ على الدنيا، وحبُّ البقاء .

يقول: إذا أدخل الله عليها الأمراضَ من حيث لا تحتسب، فلا يتعالج لرفع الأمراض عنها، فإنَّ المرضَ من نهاية الضَّعْف، ومن أبلغ ما يَنْقُصُ به الشهوة . وقد كان يقول: عللُ الأجسام رحمةٌ، وعلل القلوب عِقوبةٌ . وقال مرةً: أمراضُ الجسمِ للصَّديقين، وأمراض القلوب للمنافقين .

وقد كان ابن مسعود يقول: تجد المؤمنَ أصحَّ شيءٍ قلبًا وأمرضه جسمًا، وتجد المنافقَ أصحَّ شيءٍ جسمًا وأمرضه قلبًا .

وعن رسول الله ﷺ قال: «تحبون أن تكونوا كالحُمُرِ الضَّالَّةِ؛ لا تمرضون ولا تسقمون؟» . وفي الخبر: «لا تزال الحمى والعلل بالعبد حتى يُمسي في الأرض كالْبُرْدَةِ وما عليه خطيئة» .

وقد قيل: لا يخلو المؤمن من علةٍ في جسمه، أو قلةٍ في ماله . وقيل: لا يخلو من عيلةٍ أو ذلَّةٍ .

• ذكر الفضائل لمن لم يتداو ويصبر للقضاء:

وللعبد إن لم يتداو أعمالٌ حسنة، منها: أن ينوى الصبرَ على بلاء الله تعالى، والرضا بقضائه، والتسليم لحُكْمِهِ؛ إذ قد حَسُنَ عنده؛ لأنه موقِن، وإذ قد عرف الحكمةَ في ذلك، والخيرةَ في العاقبة؛ لأنه حكيم عليم على أنه في ذلك كريم رحيم .

ومنها: أن مولاہ أعلمُ به منه، وأحسنُ نظرًا واختيارًا، وقد حبسه وقيدَه

بالأمراض عن المعاصي. كما رُوِيَ عن الله تعالى: «الفقر سجنى، والمرض قيدي، أحبس بذلك مَنْ أَحَبُّ مِنْ خَلْقِي»، فلا يَأْمَنُ إِنْ تَدَاوَى فَعُوْفَى أَنْ تَقْوَى النَّفْسُ، فيفسده هواها؛ لأنَّ المعاصي في العوافي، وعِلَّةُ سَنَةِ خَيْرٍ مِنْ مَعْصِيَةٍ وَاحِدَةٍ.

لقى بعضُ الناس بعضَ العارفين، فقال له العارف: كيف كنت بعدى؟ قال: في عافية. فقال: إن كنتَ لَمْ تَعْصِ اللَّهَ فَأَنْتَ فِي عَافِيَةٍ، وإن كنتَ قَدْ عَصَيْتَهُ فَأَيْ دَاءٍ أَذَوَى مِنَ الْمَعْصِيَةِ! مَا عُوْفَى مَنْ عَصَى.

وقال على رضى الله عنه لما رأى زينة النبط بالعراق يوم عيدهم: ما هذا الذى أظهره؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، هذا يوم عيدٍ لهم، فقال: كلُّ يومٍ لَا يُعْصَى اللَّهُ فيه فهو عيد لنا.

وقال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، قيل: العوافي والغنى.

وقال بعضهم: إِنَّمَا حَمَلَ فِرْعَوْنُ أَنْ قَالَ: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] طولُ العوافي، لبثَ أربعمئة سنة^(١) لَمْ يَصْدَعْ لَهُ رَأْسٌ، وَلَمْ يُحْمَ لَهُ جِسْمٌ، وَلَمْ يَضْرِبْ عَلَيْهِ عِرْقٌ، فَادَّعَى الرُّبُوبِيَّةَ، وَلَوْ أَخَذَتْهُ الشَّقِيقَةُ وَالْمَلِيلَةُ فِي كُلِّ يَوْمٍ لَشَغَلَتْهُ ذَلِكَ عَنْ دَعْوَى الرُّبُوبِيَّةِ.

واعلم أنَّ الإنسانَ قَدْ يَطْغَى بِالْعَوَافِي، كَمَا يَطْغَى بِالْمَالِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَسْتَغْنَى بِالْعَافِيَةِ، كَمَا يَسْتَغْنَى بِالْمَالِ، وَكُلُّهُ فِيهِ فِتْنَةٌ وَاجْتِبَارٌ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ * أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦ - ٧].

وقال الرسول ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفِرَاقُ». فصار الصَّحِيحُ مَغْبُونًا؛ لِأَنَّ السَّقِيمَ مَعْدُورٌ.

وقال الله تعالى: «إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يَصْلُحُهُ إِلَّا السَّقَمُ، وَلَوْ أَصَحَّحْتَهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ». فَكَانَ السَّقِيمُ صَالِحًا، إِذْ قَدْ يَكُونُ الْمَعَافَى مُفْسِدًا.

(١) تقدير عمره فيه مبالغة شديدة، حيث كشفت علوم المصريات القديمة غير ذلك.

وكذلك جاء في الأثر: «أشدُّ النَّاسِ حِسَابًا غَدًا الصَّحِيحُ الْفَارِغُ». فجاء من تدبُّره أنَّ أيسرهم حسابًا السَّقيمُ المشغولُ بنفسه، فالعِصْمَةُ في حال العافية نعمة ثانية، كالعِصْمَةِ من المعصية بالغنى في حال الغنى نعمة النِّعْمَةِ. وقد لا يُعْطَى ذلك كلُّ النَّاسِ؛ لأنَّ الأكثر يُعْطَى النِّعْمَةُ الأولى من المعافاة، ثم لا تتم النِّعْمَةُ عليه بالنِّعْمَةِ الثانية، وهو المعافاة الأخرى من الذنوب. كما يُعْطَى النِّعْمَةُ الأولى من الغنى، ولا يُتِمُّ له بالنِّعْمَةِ الأخرى من العِصْمَةِ فيه، بالإنفاق في الطاعات، ووضع ذلك في القُرْبَات. فصارت العِصْمَةُ بِالْعِلَّةِ؛ لأنَّها تمنع من المعصية نعمة كالعِصْمَةِ بِالْفَقْرِ؛ لأنَّه يمنع من الشَّهَوَاتِ رحمةً، فلا يأمن أن يكون في دوام صحته هَلَكْتُهُ، كما يكون في فضل غناه معصيته.

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ [الاحقاف: ٢٠] قيل: الغنى والعوافى؛ لأنَّ بهما تطيب الطَّيِّبَاتِ، فصارا أطيبَ الطَّيِّبَاتِ. فإذا أُسْقِمَ وأُفْقِرَ لم يكن مُذْهَبًا لطيباته في حياته، ولا متمتعًا بها لنفسه في شهواته، فكان ذلك أحمدَ لعاقبته، وخيرًا له في عاقبته. فإذا تداوى زال عنه جميعُ ذلك بالدَّوَاءِ.

فالدَّوَاءُ وإن كان في التوحيد لا فعل له، وإنَّ الله تعالى هو المعافى الشَّافِى، فقد فعل ذلك بواسطة العبد، وبسبب التَّداوَى، وإن كان ذلك فعله، وإرادته، وحُكْمُهُ، كما قلنا في تَفْصِيلِ الْأَفْعَالِ، إذا فَعَلَ شيئًا أبداه منه بغير مداخلَةِ النَّفْسِ، ولا بيدٍ لِعَبْدٍ، كان العبدُ مأجورًا، ولم يكن به مُطَالِبًا. وإذا فَعَلَهُ تعالى بيدِ العبدِ وواسطته، أعاد على العبدِ حُكْمَهُ؛ لأنَّه قد أظهر فيه وقسمه.

وروينا عن موسى عليه السلام: «يا ربِّ، مِمَّنِ الدَّوَاءُ وَالشِّفَاءُ؟! قال: مَنِى. قال: فما يصنع الأطباء؟ قال: يأكلون أرزاقهم، وَيُطَيِّبُونَ نفوس عبادى، حتى يأتى شفائى أو قَبْضِى».

ويقال: إن بين الداء والدَّوَاءِ حجابَ المشيئة، ولا ينفع الدَّوَاءُ حتى ينكشف الحجاب.

وقد كان أحمد بن حنبل يقول: أَحَبُّ لِمَنْ اعتقد التوكل، وسلك هذا الطريق، تَرَكَ التداوى؛ مِنْ شَرَبِ الدواء وغيره. وقد كانت تكون به عِلَلٌ، ولا يُخْبِرُ الْمُطَبِّبَ إِذَا سَأَلَهُ.

ومن الفضائل أَنَّ الأمراضَ مُكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ، فإذا كَرِهَ الأمراضَ بقيت ذنوبه عليه موفورة، وفي الخبر: «حُمَى يَوْمٍ كَفَّارَةٌ سَنَةٍ». وأحسنُ ما سمعتُ في تأويله، قال: لأنَّ حُمَى يَوْمٍ تَهْدُ قُوَّةَ سَنَةٍ. وقيل: في الإنسان ثلاثمائة وستون مَفْصِلًا فتدخل حُمَى يَوْمٍ في جميع المفاصلِ، فيكون له بكلِّ مَفْصِلٍ كَفَّارَةٌ يَوْمٍ.

ولما ذكر رسولُ الله ﷺ: كَفَّارَةُ الذنوبِ بالحُمَى، سأل زيدُ بن ثابتَ رَبَّهُ - ويقال أيضًا أُبَيُّ بن كعب - أن لا يزالَ مَحْمُومًا. قال: فلم تكن الحمى تفارقه في كل يوم حتى مات. وسأل ذلك طائفة من الأنصار.

وكذلك لما ذكر رسولُ الله ﷺ: «من أَذْهَبَ اللهُ كَرِيمَتِيْهِ لم يَرْضَ لَهُ ثَوَابًا دُونَ الْجَنَّةِ». قال: فقد رأيتُ الأنصارَ يَتَمَنُّونَ العُمَى.

ولما جاءت الحُمَى رسولَ الله ﷺ تَسْتَأْذِنُ عليه قال: «اذْهَبِي إِلَى أَهْلِ قُبَاءٍ». وهذا أحد الوجهين في قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ [التوبة: ١٠٨]، أى من الآثام والذنوب بالحُمَى والأمراض.

فلو لم يكن في ذلك إِلَّا مَحَبَّةُ اللهِ، وشهادتُهُ بطُهْرَةِ العبدِ بِالْعِلَّةِ، لكان نصيبًا موفورًا. قال: فَأَسْقَمَتَهُمُ الحُمَى وَأَنهَكْتَهُمْ، فجاءوا إلى رسولِ الله ﷺ يسألونه كَشْفَهَا. فقال: «إِنْ أَحْبَبْتُمْ دَعْوَتُ اللهِ فَرَفَعَهَا عَنْكُمْ، وَإِنْ أَحْبَبْتُمْ تَرْكُهَا، فَقَدْ كَانَتْ لَكُمْ طَهُورًا». فقالوا: بل نتركها فشكر الله صَبْرَهُمْ، فأخبر بمحبته لهم.

فكان من هذا أَنَّ تَرَكَ الأمراضِ اختيَارٌ لِلَّهِ، وإيثَارٌ مُحِبَّتِهِ، وَأَنَّهُ أَفْضَلُ لِحُسْنِ ثَنَاءِ اللهِ عَلَيْهِمْ باختيارها.

وروينا عن عيسى ﷺ: «لا يكون عالمًا من لم يفرح بدخول المصائب على جَسَدِهِ وَمَالِهِ»، لما يرجو في ذلك من كَفَّارَةِ خطاياهِ.

والصديقون يُتَلَوْنَ بَعْلِلِ الْجَوَارِحِ، والمنافقون يُتَلَوْنَ بِأَمْرَاضِ الْقُلُوبِ؛ لِأَنَّ فِي

أمراض الأجسام ضَعَفَهَا عن الآثام والطغيان، وفي أمراض القلوب ضَعَفَهَا عن أعمال الآخرة والإيقان. وفي معنى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، قيل: ظاهرة العوافي، وباطنة البلاوى؛ لأنها نِعَمُ الآخرة.

ورُوي أن موسى عليه السلام نظرَ إلى عبدٍ عظيم البلاء، فقال: يا ربِّ، ارحمه أنت، فإنِّي قد رَحِمْتُهُ. فأوحى الله عزَّ وجلَّ إليه: كيف أرحمه؟ ممَّا به أرحمه.

وقد قال الله وهو أصدق القائلين في تصديق هذا المعنى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٥]، فأخبر أن في ترك الرحمة لهم من الأمراض لُطْفًا بهم، ورحمةً باطنةً لهم.

ورُوي عن عبد الواحد بن زيد: أنه خرج في نَفَرٍ من إخوانه إلى بعض نواحي البصرة، فأواهم المسيرُ إلى كهفٍ جبلٍ، فإذا فيه عَبْدٌ مُقَطَّعٌ بالجُدَامِ، يسيل جسده قيحًا وصديدًا لا طِيَّاحَ به^(١)، فقالوا: يا هذا، لو دخلت البصرة، فتعاجلت من هذا الداء الذي بك! فرفع طرفه إلى السماء، وقال: سيدي، بأى ذَنْبٍ سَلَطْتَ هؤلاء على يَسْخَطُونِي عليك، ويكرهون إليَّ قضاءك، سيدي أستغفرك من ذلك الذنب، لك العُتْبَى، إني لا أعودُ فيه أبدًا. ثم قال: اصبرْ فهم عني، اردُدْهم عني. قال: وكُنَّا جماعة، فما ملَكْنَا رؤوس دوابِّنا، ولا قَدَرْنَا على ضَبْطِهَا حتى رَدَّتْنَا إلى البَصْرَةِ.

نحو هذا رسمته حفظًا.

فإنما كُرِهَ للمتوكل التداوى؛ لأن حاله الرضا، ومقتضى الرضا تَرْكُ الاعتراضِ بحلول اللأواء. وفي الخبر المشهور: «نحن معاشر الأنبياء أشدُّ الناسِ بلاءً، ثم الأمثلَ فالأمثلَ». يعنى شَبَهًا بنا. يُبتلى العبدُ على قدر إيمانه، فإن كان في إيمانه صلابة شُدِّدَ عليه البلاءُ، وإن كان في إيمانه ضعف خُفِّفَ عنه البلاءُ. ولذلك قيل لرسول الله ﷺ: إِنَّكَ تُحَمُّ حُمَى رَجُلَيْنِ، فقال: «لأنَّا يُضَاعَفُ لَنَا الْأَجْرُ مرتين».

(١) في المطبوعة: الأطباخ، وهى تصحيف، والتصويب من المخطوط. ولا طيَّاح به: أى لا حركة به.

وقالت عائشة: ما رأيتُ أشدَّ حمى من رسول الله ﷺ، ما كنا نقدر أن نضع أيدينا نمسُّ حمَاه من حرِّها. ويقال: كان يوجد حرُّ حمَاه ﷺ من فوق الثياب.

وفى الخبر الآخر: «إنَّ الله تعالى يجربُّ العبدَ بالبلاءِ، كما يجربُّ أحدكم ذهبه بالنَّارِ». فمنهم مَنْ يخرجُ كالذهبِ الإبريزِ، ومنهم دون ذلك، ومنهم مَنْ يخرجُ أسودَ محترقًا.

وقد روينا حديثًا من طريق أهل البيت: «إذا أحبَّ الله عَبْدًا ابتلاه؛ فإن صبرَ اجتَبَاهُ، وإن رَضِيَ اصْطَفَاهُ».

ومنها أنَّ الملكَ يكتبُ له مثلَ أعماله الصالحة التى كان يعملها فى صحته، وأنَّه يُجرى له من الحسنات مثلَ ما كان يُجرى له على أعمالهم، فيكتبُ الملكُ له أعمالاً صالحة خيراً له من أعماله؛ لأنَّه قد يدخلها الفسادُ. واختيارُ الله له أن يستعمله بالأوجاعِ خيرٌ له من اختياره لنفسه أن يستقلَّ إلى الله بالأعمال الصالحة. وهذا أحد المعنيين فى معنى الخبر: «أفضلُ الأعمالِ ما أُكْرِهَتْ عليه النفوسُ». قيل: هو ما دخلَ عليها من المصائبِ فى الأنفس والأموال، فهى تكره ذلك وهو خيرٌ لها.

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. قد يكره العبدُ الفقرَ، والعلةَ، والعيلةَ، والضرَّ، والخمولَ، وهو خيرٌ له فى الآخرة وأحمدُ عاقبةً. وقد يحبُّ الغنى، والعوافى، والشهرةَ، وهو شرٌّ له عند الله وأسوأُ عاقبةً. وقد قال الله تعالى: ﴿وَنَقْصِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ يعنى الأمراض والعلل، هو نقصُها من أوصافها، وقواها، وزيادة معانيها، فهو خيرٌ له إذا صبرَ، وفضل له إن شكرَ، ودرجاتٌ إذا رضى وتوكلَ ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]. . والله يحب المتوكلين.

وفى الخبر أيضاً يقول الله تعالى للملائكة: «اكتبوا لعبدى صالحَ ما كان يعمل، فإنه فى وثاقى؛ إن أطلقته أبدلته لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه» قيل:

لأنّه طَهَّرَ من المعاصي، وكَفَّرَ به عنه الخطايا. قال: «وإن تَوَفَّيْتُهُ تَوَفَّيْتُهُ إِلَى رَحْمَتِي» ولا ذنب عليه أبداً.

فإبدالُ صِفَتِهِ، لِحُسْنِ اختيارِ الله له، خيرٌ له في الدنيا والآخرة، من اختيارِهِ وشَهْوَتِهِ.

والأصلُ في التداوى وتَرْكِه أَنْ المتوكلَ على الله قد عَلِمَ في توكلِهِ أَنْ للعلَّةِ وقتاً، إذا انتهت إليه برأ العليل بإذنِ الله لا مَحَالَةً، ولكن الله عزَّ وجلَّ قد يَحْكُمُ أَنَّهُ إن تَدَاوَى شَفَاهُ في عشرةِ أيامٍ، وإن لم يتداوَ أبرأه في عشرين يوماً؛ لِيَتَرَخَّصَ العليلُ بما أباحه الله له، فيطمع في تعجيلِ البرِّ في عشرةِ أيامٍ؛ ليكونَ أسرعَ لشفائه، وأقربَ إلى عافيته، على أَنَّهُ معتقِدٌ أَنَّ الدواءَ لا يَشْفِي، وأنَّ التداوى لا ينفعُ لعينه؛ لأنَّ الله هو الشافي وهو النافع، فالشفاءُ والنفعُ فعْلُهُ لعبده، وجعلُهُ في الدواء من لطائف حكمته لا يَجْعَلُهُ سِوَاهُ، ولا يَفْعَلُهُ إِلَّا إِيَّاهُ؛ إذ كانت العقاقيرُ مطبوعةً مجبولةً على خلقها، فجاعلُ الأسبابِ فيها هو جابِلُها؛ لأنَّ الجُعْلَ فيها والخاصيةَ منها ليس من عَمَلِ المتطبِّبِ، وإن كان يعملُ بها، ويجمعُ بينها وبين العليل؛ لأنَّه ظهر على يديه سبباً لرزقه، فالله خالقُ جميعِ ذلك وفاعله، وكذلك قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

وكذلك أيضاً عند العارفين أَنَّ الخبزَ لا يُشْبِعُ، وأنَّ الماءَ لا يُروِي، كما أَنَّ المالَ لا يُغْنِي، والعُدَمَ لا يُفْقِرُ؛ لأنَّ الله هو المُطْعِمُ والمُسْقِي، وهو المُشْبِعُ والمروِي، كما هو المغنى والمفقِر، بما شاء، كيف شاء، وهو جاعلُ الشَّبَعِ والرِّىِّ في المطعوم والمشروب، وفي النَّفْسِ بالغنى والفقر، لحكمته ورحمته، كما أَنَّ الله تعالى هو المَجِيعُ المُظْمِئُ، فيُدْخِلُ الطَّعَامَ والشرابَ على الجُوعِ والعطشِ اللذين جَعَلَهُمَا؛ فيُذْهِبُهُمَا بما أَدْخَلَ عَلَيْهِمَا، كما يُدْخِلُ اللَّيْلَ على النَّهَارِ، ويُدْخِلُ النَّهَارَ على اللَّيْلِ، فيغلب سلطانُ كلِّ واحدٍ على الآخر فيُذْهِبُهُ، فسواء هذا عند الموحِّدين من وصفِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ، ومن العِلَلِ والأدويةِ، يتسلطُ الشَّيْءُ على ضِدِّهِ فيُزِيلُهُ بِقَلْبِهِ، فهذه بإذنِ الله.

فالعلمُ بهذه المعاني عَقْدًا هو الإيمان، والشَّهادةُ لها قائمة به، وحقاً هو اليقين.

والشُّرْكُ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فِي الْعُمُومِ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا، وَالْمَوْقِنُونَ الصَّحِيحُو التَّوْحِيدِ مِنْ جَمِيعِ ذَلِكَ بَرَاءٌ.

وعلى هذه المعانى أحد الوجهين فى قوله تعالى: ﴿الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]؛ أى: أعطى كلَّ لونٍ وجنسٍ خَلْقَتَهُ وطَبَعَهُ، أى صورةَ الشَّيْءِ ووصفَهُ للضرِّ والنفع، الذى رَكَّبَهُ فيه، وأظهره به.

فإن تعَجَّلَ العليلُ البرءَ بالتداوى، فبرأ، كان ذلك بقضاء الله وقدره على وصف السرعة من المعافاة. فإن كان ناوياً فى تداويه واستعجاله شفاءه الطاعة لمولاه، والقيام بين يديه للخدمة، كان مثاباً على ذلك، فاضلاً فيه غير منقوص فى مقام توكله. وإن أراد بذلك صحة جسمه لنفسه والنعيم بالعوافى كان ذلك باباً من أبواب الدنيا، ودخولاً فيما أُبِيحَ له منها، وهو يُخْرِجُهُ مِنْ فَضِيلَةِ التَّوَكُّلِ وَحَقِيقَتِهِ بِمَقْدَارِ مَا نَقَصَهُ مِنَ الزَّهْدِ فِي الْحَيَاةِ وَالنَّعِيمِ، وَإِنْ أَرَادَ بِاسْتِعْجَالِ الْعَوَافِى قُوَّةَ النَّفْسِ؛ لِأَجْلِ الْهَوَى وَلَيْسَعَى فِي مَخَالَفَةِ الْمَوْلَى، كَانَ مَأْزُوراً بِسُوءِ نِيَّتِهِ، وَوُجُودِ عَزِيمَتِهِ، وَيُخْرِجُ مِنَ الْمُبَاحِ إِلَى الْمَحْظُورِ، وَذَلِكَ يُخْرِجُهُ مِنْ حَدِّ التَّوَكُّلِ وَأَوَّلِهِ؛ وَهَذَا مِنْ مَذْمُومِ أَبْوَابِ الدُّنْيَا وَمَمْقُوتِهَا.

وإن كانت نيته فى تعجيل العوافى التصرف فى المعاش، والتكسب للإنفاق والجمع، نُظِرَ فِي شَأْنِهِ؛ فَإِنْ كَانَ يَسْعَى فِي كِفَافٍ وَعَلَى عِيَالٍ ضِعَافٍ، وَعَنْ حَاجَةٍ وَإِجْحَافٍ، لَحِقَ هَذَا بِالطَّبَقَةِ الْأُولَى، وَهَذَا بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْآخِرَةِ، وَهُوَ مَأْجُورٌ عَلَيْهِ، وَلَا يُخْرِجُهُ مِنَ التَّوَكُّلِ.

وإن كان يسعى فى تكاثرٍ وتفاخرٍ، وَلَا يَبَالِي مِنْ أَيْنَ كَسَبَ، وَفِيمَا أَنْفَقَ، لَحِقَ هَذَا فِي الطَّبَقَةِ الثَّالِثَةِ مِنَ الْعَاصِينَ، وَهَذَا مِنْ أَكْبَرِ الدُّنْيَا الْمُبْعَدَةِ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

فهذه نيات الناس فى التداوى؛ المحمودَّة، والمذمومة.

فإن لم يتداوَ المتوَكِّلُ؛ تَسْلِيماً لِلْوَكِيلِ، وَسُكُونًا تَحْتَ حَكْمِهِ، وَرِضًا بِاخْتِيَارِهِ وَصُنْعِهِ، إِذْ قَدْ أُيْقِنَ أَنَّ لِلْعَلَّةِ وَقْتًا إِذَا جَاءَ بِرَى بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا أَنَّهَا بَعْدَ عَشْرِينَ يَوْمًا، فَيَصْبِرُ وَيَرْضَى وَيَحْمِلُ عَلَى نَفْسِهِ أَلَمَ عَشْرَةِ أَيَّامٍ؛ رِضًا بِقَضَاءِ اللَّهِ، وَصَبْرًا

على بلائه، وحسنَ ظنِّ باختياره له، ولا يتَّهمه في قضائه عليه - فهذا هو أحدُ الوجوه في حُسنِ الظَّنِّ باختيارِ الله، أن لا يتَّهمَ الله في قضائه.

وقد رُوى فيه نصٌّ: أن رجلاً قال: يا رسولَ الله، أوصني. فقال: «لا تتَّهمَ الله في شيءٍ قضاؤه عليك».

وهذا أيضاً أحدُ معانٍ لِمَا ينفع الصبر عليه، ويحقَّ حُسنَ الجزاءِ وتوفية الأجر بغير حساب بعده، في قوله تعالى: ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وقد رُوى في معنى هذا خبرٌ فيه شدة، يقول الله تعالى: «مَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى بَلَائِي، وَيَرْضَ بِقَضَائِي، وَيَشْكُرْ نِعْمَاتِي، فَلْيَتَّخِذْ رَبًّا سِوَايَ».

وهذا بابٌ من الزَّهد في الدنيا بمقدار ما نقص من الرغبة في نعيم النفس؛ لأنَّ الجسمَ من المُلْكِ، فما نقص منه نقص من الدنيا، والقلبُ من المَلَكُوتِ، فما زاد فيه زاد في الآخرة.

وقد ذكرَ الله تعالى الصَّبَرَ على نقصِ النفس، وبشَّرَ الصَّابِرِينَ في استسلامهم للمُبْلَى بنقصِ الأنفس، وصَلَّى عليهم، وجعلهم مهتدين، في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ﴾ [البقرة: ١٥٥] فنقصِ الأنفس بالأمراضِ والأسقام، ونقصِ الأموال بالإتلافِ والإعدام؛ ولذلك جعلناه مع الصَّبَرِ زهداً؛ لا اقتران المال بالنفس شهوةً ووجدًا. وهذا أيضاً داخلٌ في مُخالفةِ النفس، إذ تعجَّلُ العوافي من موافقتها، فهو بابٌ من خلافِ الهوى، ومجاهدةِ النفس عن الهوى. كيف وصَّلهُ الله تعالى فيه، إذ مع الأمراضِ اجتنابُ المعاصي، وتركُ كثيرٍ من الأغراض، كما قال: «إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا السَّقَمُ ولو صححته لأفسده ذلك». ولا يأمن في استعجالِ العوافي دخولُ المعاصي. وبعد ذلك فإنَّ أيامَ العلةِ معلومة، فإذا انقضت جاءت الصَّحَّةُ المُقْسُومة: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩].

أيضاً في الأمراضِ تجديدُ التوبة، والحزنُ على الذنوب، وكثرةُ الاستغفار،

والاستعتابُ منها، وحسنُ التذكرة، وقصرُ الأمل، وكثرةُ ذكر الموت. وفي الخبر: «أكثرُوا من ذكر هاذم اللذات».

ومن أبلغ ما يُذكر به الموتُ ويُتوقعُ نزوله: الأمراضُ، فقد قيل: الحمى بريد الموت. وفي قوله عزّ وجلّ: ﴿أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ [التوبة: ١٢٦] الآية، قيل: بالأمراض والأسقام، يُختبرون بها. ويقال: إنّ العبد إذا مرض مرضتين ثم لم يتب قال ملك الموت: يا غافل، جاءك مني رسولٌ بعد رسولٍ فلم تقبل، الآن آتيك بنفسى، أضربك ضربة أقطع منك الوتين.

وقد كانوا يستوحشون إذا خرج عنهم عام لم يُصابوا فيه بنقص من نفسٍ أو مال. ويقال: لا يخلو المؤمن في كل أربعين يوماً أن يُروّع بروعة أو يُصاب بنكبة، فكانوا يكرهون فقد ذلك في ذهاب هذا العدد من غير أن يصابوا فيه بشيء.

وروى أن عماراً تزوّج امرأة، فلم تكن تمرض، فطلقها. وأنّ النبي ﷺ عُرِضَتْ عليه امرأة، فذكر من وصفها، حتى همّ أن يتزوّجها، فقبل له: إنّها ما مرّضت قط. فقال: لا حاجة لي فيها. وذكر رسولُ الله ﷺ الأوجاعَ من الصداع وغيره، فقال رجل: وما الصداع؟ ما أعرفه. فقال النبي ﷺ: «إليك عني، من أراد أن ينظر إلى رجلٍ من أهل النار فليُنظر إلى هذا». لأنّ في الخبر: «إنّ الحمى حظُّ المؤمن من نار جهنم».

وفي حديث أنس وعائشة: يا رسول الله، هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم؟ فقال: «نعم، من ذكر الموت في كلِّ يومٍ عشرين مرة». وفي لفظ الحديث الآخر: «الذي يذكر ذنوبه فتحزنه».

وإنّ تركَ التداوى، وبرئَ بغير دواء، كان هذا من قضاء الله وقدره على وصف الإبطاء. وقد اختلف رأى الصحابة في مثل هذا المعنى عامٌ خرج عمرُ رضى الله عنه إلى الشام، فلما بلغوا الجابية، انتهى إليهم خبرُ الشام أنّ به وباءً عظيماً، وموتاً ذريعاً، فوقف الناسُ، وافترقوا فرقتين: فمنهم من قال: لا ندخل على الوباء، نلقى بأيدينا إلى التهلكة؛ فنكون سبباً لإهلاك أنفسنا. وقالت طائفة

أخرى: بل ندخل، ونتوكل على الله، ولا نهرب من قدره، ولا نفر من الموت، فنكون كمن قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة: ٢٤٣]. فرجع الجميع إلى عمر، فسألوه عن رأيه، فوافق عمر الذين قالوا: نرجع ولا ندخل على الوباء، فقال له آخرون: أنفر من قدر الله؟ فقال عمر: نعم، نفر من قدر إلى قدر الله. ثم ضرب لهم مثلاً، فقال: أرايتم لو كان لأحدكم غنم، وله شعتان: إحداهما مخصبة والأخرى مجذبة، أليس إن رعى المخصبة رعاها بقدر الله، وإن رعى المجذبة رعاها بقدر الله؟ فسكتوا.

ثم دعا عمرُ بعبد الرحمن بن عوف، يسأله عن رأيه، فقبل: هو غائب، قد تأخر في المنزل الذي نزلنا فيه. فثبت عمرُ وأصحابه على ذلك الرأي، وعلى أن يسأل عبد الرحمن عن رأيه فيه، فلما أصبحوا جاء عبد الرحمن بن عوف، فسأله عمرُ عن ذلك، فقال: عندي فيه - يا أمير المؤمنين - شيء سمعته من رسول الله ﷺ، فقال عمرُ رضي الله عنه: الله أكبر، يقول: «إذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تقدّموا عليه، وإذا وقع في أرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه». ففرح عمرُ بذلك؛ إذ وافق رأيه، فرجع بالناس من الجابية، أو من سرع. والحديث أتم من هذا ذكرته على المعنى، وفيه معانٍ من الفقه كثيرة، ذكرتها في موضعه.

• بيان آخر من التمثيل في التداوى وتركه:

ومثلُ التداوى وتركه - في أتهما مباحان، وأنّ أحدهما طريقُ الأقوياء الصابرين، وهو تركه - مثلُ التكسب وتركه: أنّ التكسبَ عندَ الجوع، الذي هو علةُ الجسم؛ ليستعجلَ العبدُ الدواءَ بالخبز، جائزٌ له، لا يقدر في توكّله؛ لأنّه مباحٌ له، مأمور به.

فإن نوى بالتكسب القوة على الطاعة، والسعى في سبيل الله، والمعاونة على البر والتقوى، كان فاضلاً فيه.

وإن نوى بالتكسب الأكل للشهوات، والقيام بحفظ النفس من الرفاهية، نقص ذلك من توكّله، وأخرجه من حقيقته، فكان طريقاً من طُرقات الدنيا، إلا

أنه مُباح.

وإن قصد بتكسبه التكاثر، والحرص للجمع والمنع، كان عاصياً بكسبه، مخالفاً لربه، وهذا من أكبر طُرُق الهوى.

ثم إن لم يتكسب، وصبر على الجوع، ورَضِيَ بالقلّة والفقر، فإن رزقه يأتيه لا محالة لمجيء وقته، وإن كان قليلاً دون سعة، ولكنه يحتاج إلى فضل صبر، وحسن رضا، وسكون نفس، وطمأنينة قلب، فإن وجد هذه المعاني فهذا هو التوكل، وكان فاضلاً في ترك التكسب؛ بحسن يقينه، وثقته برازقه، وشغله بما هو أفضل، وأنفع له في عاقبته.

ولعمري إن التوكل إذا أُيد بصبر، ونُصر بيقين، وأُعين برضا، كان ذلك أحب إليه من أرزاق الدنيا؛ من الطعم وغيره؛ لأن هذه أرزاق الآخرة، والآخرة خير وأبقى؛ ولأنه قد زهد في الدنيا، فهذا عون له، وتقوية على زهده.

وقد كان أبو سليمان يقول: مَنْ شَغِلَ بربه شُغِلَ عن نفسه، ومن تشَتَّتَ همه واضطربت نفسه، وتكره قضاء ربه، فأخرجه ذلك إلى الجزع، والهلع، والتبرم، والشكوى، فالتكسب لهذا أفضل، والتسبب له أجود، وهو منقوص بتركه لمزيد من ضعف يقينه وشركه. واضطراب الجسم مع اضطراب النفس أعذر، وسكون الحركة مع سكون القلب أجز.

كذلك أيضاً مَنْ أَكْثَرَ الشَّكْوَى من علته، وتَسَخَّطَ حُكْمَ ربه، وتبرم وضجر وسطاً على الناس، وساء خلقه بمرضه، فإن الأفضل لهذا أن يتداوى، وهو ناقص بتركه.

ورؤينا عن عمرو بن قيس، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ: «إِنَّ مَنْ ضَعَفَ الْيَقِينَ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ». إِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَجْرُهُ حِرْصٌ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرُهُ كَارِهِ. إِنَّ اللَّهَ بِحُكْمِهِ وَجَلَالِهِ جَعَلَ الرُّوحَ وَالْفَرْحَ فِي الرِّضَا وَالْيَقِينِ، وَجَعَلَ الْغَمَّ وَالْحُزْنَ فِي الشَّكِّ وَالسُّخْطِ.

• ذكر استواء شهادة المتوكل مع اختلاف ظهور الأسباب:

ويستوى عند الخصوص بعين يقينهم ما جاءهم بواسطة أيديهم، وأسباب كسبهم، وما جاءهم بأيدي غيرهم وبغير كسبهم، إذ كان المعطى عندهم واحداً، والعطاء كله رزقاً، وإذا كانت الأيدي ظروف العطاء؛ فتستوى، سواء كان الظرف يدك أو يد غيرك، وسواء كان الكسب كسبك أو كسب غيرك لك؛ إذ جميعه رزقك؛ ولأن لكل شيء حكماً، وفي كل شيء حكمة، وبكل شيء نعمة.

قال الله تعالى: ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٧- ٨]. فأضافها إليه في الخلق، بعد أن بنوها بأيديهم، وفرغوا منها.

ومثل هذين أيضاً يستوى عندهم ما ظهر بيد القدرة لا خلق فيه ولا واسطة به، وما ظهر بأيديهم عن الحكمة وترتيب العرف؛ لأن القدرة أيضاً بمنزلة ظرف للعطاء، ظهر العطاء بها، فهي كأیدی العباد من يد الإنسان نفسه، أو يد غيره؛ إذ القدرة والحكمة خزانتان من خزائن الملكوت والمملك، هو الغيب والشهادة قائم بقيومية الحي القيوم الشاهد الديموم.

فهذه المعاني الثلاث، أعنى ما ظهر عن يدك وتكسبك، وما ظهر بيد غيرك وعن كسبه لك^(١)، وما أظهرته القدرة من العدم في الوجود عن غير معتاد ولا عرف، وبغير واسطة مرت به، هذا كله عند الموقنين سواء، لا يرجح بعضه على بعض لرجحان إيمانهم، وقوة يقينهم، ونفاذ مشاهدتهم؛ إذ كله حكمة بالغة، وقدرة نافذة، عن حكيم واحد، وقادر واحد.

ومتما يدلك على استواء ما ظهر بيد الأواسط، وما أظهرته القدرة عند العلماء: أن كل من جمع كرامات الأولياء، وإجابات الصديقين، ذكر فيها ما ظهر لهم عن القدرة، وما أظهر لهم على أيدي الخلق، من الإنفاق عند وقت الفاقات، عن غير مسألة ولا استشراف^(٢) نفس، فسووا بينهما في الكرامات، وجعلوهما واحداً من

(١) عبارة المخطوط: «أعنى ما ظهر عن يدك وتصرفك، وما ظهر بتصرف غيرك لك».

(٢) في المخطوط: «ولا اشتراط».

الإجابات، وحسبوا كل ذلك من الآيات. وقال ابن معاذ: العالم من الزهاد من أثبت التوكل على إطلاق الأسباب.

على أن العارفين يشهدون ما يوصل العبيد إليهم من أقسام رزقهم؛ أنها ودائع لهم عندهم، وأنه حق لهم بأيديهم، يؤدونه إليهم قليلاً قليلاً، ويوفونهم إياه شيئاً فشيئاً، إلا أنهم لا يسألونهم إياه، ولا يطالبونهم به، وإن كان لهم ذلك عندهم حسن أدب فيهم، وحسن اقتضاء؛ لأن من حسن الاقتضاء ترك الطلب، ولقوة يقينهم برازقهم أنه يوفيهم نصيبهم غير منقوص، فقد سكنوا إلى قديم وعده، كما نظروا إلى بسط يده.

وكذلك مشاهدة العالمين من الموصلين إليهم قسمهم، الدافعين إليهم حقوقهم، يشهدون أنهم قد خرجوا إليهم من حقهم، وأدوا إليهم ودائعهم؛ فيستريحون إلى إخراج ذلك، ويفرحون بأدائه إلى أربابه، ويشكرون الله على حسن توفيقه، وإعانتهم على سقوط ذلك عنهم، كما يفرح من عليه الدين الثقيل إذا أداه؛ فسقط عنه حكمه وقضاؤه. وكما يسر الأمين بأداء الوديعة التي استودعها إلى أربابها، وخروجها من يده وذمته، فلذلك يرد الله تعالى الخصوص إلى العموم، ليأجرهم عليهم، فيكون ذلك خيراً للفريقين، وأفضل وأسلم للطائفتين، إذ في تسبب الخلق بعضهم لبعض، وتناول الأقسام من أيدي العوام، تخفيف أقال، وإسقاط مؤن عن الخصوص، وفيه من صلاح العباد والبلاد، واستقامة التدبير، وعقد نظام التقدير، ما هو أبلغ في الحكمة، إذ لا تعجز يد القدرة من إظهار الأقسام من خزانة العدم إلى الوجود، بغير أيدي العباد، عن غير أسباب وحدود.

كما حدثت في قصة تطول، اختصارها: أن رجلاً رأى بعض الأولياء يطوف بالبيت ليلاً، فشهد فيه الحاجة، فدفع إليه سبباً، فاكتمى منه، واقتاته. قال: فهجس في نفس الرجل من ذلك العبد سوء ظن به، فأطلع ذلك الولي على ما في نفسه، فأخذ بيده، وطاف به أسبوعاً، كل شوط منه في جوهر من الجواهر، يتخشش تحت أقدامهم إلى الركب، منها جوهر الذهب والفضة، والدر والياقوت، ثم قال له: نحن مكاشفون بسر الملوك، وظاهر لنا كنوز الأرض، ولكن

لا نأخذ منه شيئاً زهداً فيه؛ ولأنّ له أثقالاً فتركه أفضل، ونأخذ أرزاقنا من أيدي الناس، وبالأَسباب، لأنّه أحبُّ إلى الله لمَنافع العباد؛ ولأنّ الحكمة والأحكام في ذلك أكثر.

وكان قبل هذا وسببه أن الرجل كان قد سمعه يدعو عند المُلتزم، فأصغى إلى دُعائه، فسمعه يقول: جائعٌ كما ترى، عريانٌ كما ترى، فما ترى فيما ترى، يا من يرى ما لا يرى؟، فعند ذلك دفع إليه السبب.

ذكرته اختصاراً على المعنى واللفظ، كما حدثني بعض الأَشياخ.

وبمعناه حَدَّثت عن رجلٍ تفرَّد في فلاةٍ من الأرض، وانقطعَ عن الخلق، وقال: إن كان لي رزقٌ أتااني، قال: فلبث أياماً لم يأتَه شيءٌ، حتى أضرَّ به الضَّعف، فقال: يا ربِّ، إن كان لي في الأرضِ رِزقٌ فَأَتَنِي به، وإلا فاقبضني إليك، قال: فأوحى اللهُ [إليه]: وعزتي وجلالي لا أرزقك حتّى تدخلَ المِصرَ وتقعَدَ بينَ ظهْراني الخلق، قال: فعَدَلَ إلى أقربِ الأمصارِ إليه، ودخلَ مسجداً، فأناه إنسانٌ بطعام، وآناه آخرُ بشراب، فأكل وشرب، فأوجس في نفسه، فأوحى الله إليه: أردتَ أن تُبطلَ حكمتي، وتُسقطَ حُكْمِي بتوكُّلك علىَّ أن أرزقك، [فرزقك] بأيدي الخلق أحبُّ إليّ.

والخبر المأثور أن موسى ﷺ قال: «يا رب، جعلتَ رزقي هكذا بأيدي الخلق، يُغدِّني هذا يوماً، ويعيشيني هذا ليلةً، فأوحى الله إليه: هكذا أصنع بأوليائي أجعل أرزاقهم بأيدي العاصين ليُؤجروا فيهم».

فعلّمُ هذا للمتوكِّلين، ومعرفةُ هذه الحكمة لمن أوصلَ إليهم قسمهم من الموصِّلين، مقامٌ للجميع في المعرفةِ واليقين، فهو حالٌ للمُعطى الموصِّل، وطريقٌ للآخذِ المتوكِّل.

كما روينا في حديث أنسٍ: «ما المُعطى من سعةٍ بأعظم أجرًا من الآخذ إذا كان محتاجاً».

فسبحان مُطرِّقِ الطرقات، ومُسبِّبِ الوُصُلَات إلى الآخرة، بزُلفِ القُرْبَات.

ومن كان ذا معلوم من حَرِيف^(١)، أو معتاد من أليف، لم يصحَّ توكلُّه مع سُكونه إليه، وطمأنينته به؛ لأنَّ ذلك عِلَّةٌ في حاله، وخيرةٌ لتوكلُّه.

وقد يصحَّ التوكلُّ مع ذلك بثلاث معانٍ: أن لا يُعوِّضَ منه عَوَضًا يقوم مقامَ السببِ الواصلِ إليه، وأن يقطعَ همَّه عنه وعن جميعِ الخلقِ، وأن يكونَ منقطعًا إلى الله تعالى مشغولًا بخدمته، لا بطَّالًا مُروِّحًا لنفسه.

• ذكر تشبيه التوكل بالزهد:

اعلم أنَّ التوكلَّ لا يُنقصُ من الرِّزْقِ، ولكنه يَزيدُ في الزُّهد والصبر واليقين. وكذلك الزُّهدُ في الدنيا لا ينقصُ من الرِّزْقِ شيئًا، ولكنه يَزيدُ في الفقر، ويزيدُ في الجوع والفاقة؛ فيكونُ هذا رِزْقُ المتوكلِّ، ورِزْقُ الزاهد من الآخرة.

على هذا الوصفِ المخصوص من حرمان نصيب الدنيا وحمايته عن التكاثر منها، والتوسع فيها؛ فيكون التوكلُّ والزهد سببَ ذلك؛ فيكونُ ما صرَّفه عنه من الدنيا زيادةً له في الآخرة من الدرجات العلى.

وكذلك روى عن رسول الله ﷺ: «نُقْصَانُ الدُّنْيَا زِيَادَةُ الْآخِرَةِ، وَزِيَادَةُ الدُّنْيَا نَقْصَانُ الْآخِرَةِ، وَمَنْ أُعْطِيَ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مَنْزِلَتِهِ فِي الْآخِرَةِ، وَإِنْ كَانَ عَلَى اللَّهِ كَرِيمًا».

وقيل: إن الدنيا والآخرة مثل ضرتين؛ مَنْ أَرْضَى إِحْدَاهُمَا أَسْخَطَ الْأُخْرَى. وقال رجل لبعض العلماء: كُنْتُ فِي مَحَلَّةٍ لَيْسَ فِيهَا بَقَالٌ غَيْرِي، فَفَتَحَ إِلَى جَنْبِي بَقَالٌ آخَرُ؛ فَأَخَافُ أَنْ يُنْقَصَ ذَلِكَ مِنْ رِزْقِي شَيْئًا. فقال: لَيْسَ يُنْقَصُ مِنْ رِزْقِكَ شَيْئًا، وَلَكِنْ يَزِيدُ فِي بَطَالَتِكَ؛ تَقَعْدُ كَثِيرًا لَا تَبِيعُ شَيْئًا.

وقد غلط في هذا الطريق قومٌ، سلكوا فيه سبيلَ الهوى، فابتلوا بشهوات الدنيا، فادَّعَوْا التوكلَّ والزُّهدَ، واتَّسَعَوْا فِي الْمَأْكَلِ وَالْمَلْبَسِ، وَقَالُوا: هَذِهِ بَعْلَةٌ غَيْرِنَا، وَهُوَ مَذْخُولٌ عَلَيْنَا، وَلَيْسَ لَنَا مِنْهُ بَدٌّ وَلَا اخْتِيَارٌ، وَذَلِكَ لِبَقَايَا بَقِيَّتِ عَلَيْهِمْ مِنْ نَفْسِهِمْ، وَلَمْ يُعْنَوْا بِرِيَاضَتِهِمْ، وَلَا مَحَوَّ آثَارِهِمْ، فَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ الْمَحْجَةِ،

(١) حريف: أى صاحب حِرْفة.

وأقاموا لنفوسهم على ذلك حجة، فموَّهوا على مَنْ دونهم ممن لم يسلك طريق الزاهدين، ولا يعرف حال المتوكلين. وقد شرحنا هذا في مقام الزهد فكفى.

• ذكر كنزكم الأمراض، وجواز إظهارها؛

الأفضل لمن لم يتداو أن يُخْفَى عِلَّاهُ؛ لأنَّ ذلك من كنوز البرِّ، ولأنَّها مُعاملاتٌ بينه وبين خالقه؛ فَسَتْرها أَفضلُ وأسلمُ له، إلا أن يكون له نيةٌ في الإظهار، أو يكون إماماً يُسْتَمَعُ إليه، ويُقْتَبَسُ منه الآثارُ، ويكون مكيِّناً في المعرفة يُخْبِرُ بعلته وقلبه راضٍ عن الله فيما قدَّره، أو يكون ممَّنْ يشهد البلاءَ نعمةً؛ فيكون إخباره بثابة التحدُّثِ بنعمة الله. وإلا فإظهارُ العِللِ لمن لا يتداوى نَقْصٌ لحاله، وداخلٌ في الشكاية لمولاه؛ لأنَّ في الشكوى استراحةَ النفسِ من البلوى كالاستراحة بالدواء. وهذا لا يفعله عالمٌ؛ لأنَّ الاستراحة بالدواء الذي أباحه له المولى خيرٌ من استراحته إلى العبيدِ بالشكوى.

على أنَّه لا يأمن دخول الآفات عليه في الإخبارِ مِنَ التَّصَنُّعِ أو التَّزْيِيدِ في العلة، وغير ذلك. وقد قيل في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨]، قال: لا شكوى فيه. وقال بعضهم: مَنْ بَثَّ شكواه فلم يصبر. وسئل الفضيل عن الرجل يذكر عِلَّته ويظهرها، هل يكون ذلك شكوى؟ قال: نعم، أما سمعتَ قصة يعقوب. يعني أنه قيل ليعقوب عليه السلام: «ما الذي أَذْهَبَ بصرك وَحَنَا ظَهْرَكَ؟» فقال: مَرُّ الزَّمانِ، وطُولُ الأَحْزانِ. فأوْحَى اللهُ إليه: تفرَّغْتَ تشكوني إلى خَلْقِي؟! فقال: يا ربِّ، أَتُوبُ إِلَيْكَ».

وعن طاووس ومجاهد: يُكْتَبُ على المريضِ أنينه في مرضه. قال: وكانوا يكرهون أنينَ المريضِ؛ لأنَّه إظهارٌ معنَى يدلُّ على شكوى. قيل: ما أَصابَ إبليسَ من أيوبَ إلا أنينه في مرضه، فجُعِلَ الأنينُ حَظَّهُ منه. وفي الخبر: «إذا مرض العبدُ أوْحَى اللهُ تعالى إلى المَلَكَيْنِ: انظرا إلى عبدى ما يقول لِعُوادِهِ، فإنَّ حَمْدَ اللهِ وأُنْتَى عليه بخيرٍ، ادْعُوا له، وإنْ شكا وذكرَ شراً، قولاً: كذلك تكون».

وإنما كَرِهَ بعضُ العبَّادِ العيادةَ خشيةَ الشكاية، وخوفَ الزيادة في القول، أنْ

يُخْبِرُ عَنْ الْعَلَّةِ بِأَكْثَرِ مِنْهَا؛ فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ كُفْرًا لِنِعْمَةِ بَيْنِ بِلَاءَيْنِ .
وكان بعضهم إذا مَرِضَ أَغْلَقَ بَابَهُ؛ فلم يدخل عليه أحدٌ حتَّى يَبْرَأَ، فيَخْرُجَ إليهم؛ منهم فضيل ووهيب وبشر، كان يقول: أَشْتَهِي أَنْ أَمْرَضَ بِلَا عُوَادٍ. وقال فضيل: ما أكره العلة إلا لأجل العوَاد. وقد رأينا من الصالحين مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِمَّنْ هو إمامٌ وقُدوةٌ.

ولا يُنْقِصُ تَوَكَّلَ الْمُتَوَكِّلِ إِخْبَارُهُ بَعَلَّتْهُ عَلَى مَعْنَى التَّحَدُّثِ بِهَا مَعَ فَقْدِ آفَاتِ النفوس، إذا كان قلبه شاكرًا لله راضيًا بقضائه، ويكونُ بِذَلِكَ مُظْهِرًا لِلِافتِقَارِ وَالْعَجْزِ بَيْنَ يَدَيِ مَوْلَاهُ، أَوْ رَاغِبًا فِي دَعَاءِ إِخْوَانِهِ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ يَشْهَدُ ذَلِكَ نِعْمَةً، فيُحَدِّثُ بِهَا شُكْرًا.

وقد حُكِيَ أَنَّ بَشَرَ بْنَ الْحَارِثِ كَانَ يُخْبِرُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ الْمُتَطَبِّبَ بِأَوْجَاعِهِ، فيَصِفُ لَهُ أَشْيَاءَ. وقيل عن أحمد بن حنبل: إِنَّهُ كَانَ يُخْبِرُ بِأَمْرَاضِهِ، وَيَقُولُ: إِنَّمَا أَصِفُ قُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِيَّ.

وَرَوَى عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ: إِذَا حَمِدَ الْمَرِيضُ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - وَشَكَرَهُ، ثُمَّ ذَكَرَ عِلَّتَهُ، لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ شَكْوَى. وقد كان أحمد بن حنبل لا يُخْبِرُ بِأَمْرَاضِهِ إِذَا سَأَلَ عَنْهَا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى قَوْلِ الْحَسَنِ هَذَا؛ فَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ يَحْمَدُ اللَّهَ، وَيُثْنِي عَلَيْهِ، وَيَقُولُ: أَجْدَ كَذَا، وَأَجْدَ كَذَا.

وَرَوَى أَنَّهُ قِيلَ لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي مَرَضِهِ: كَيْفَ أَنْتَ؟ فَقَالَ: بَشَرٌ. فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، كَانَهُمْ كَرَهُوا ذَلِكَ، فَقَالَ: أَتَجَلَّدُ عَلَى اللَّهِ. كَأَنَّهُ أَحَبُّ أَنْ يُظْهِرَ افْتِقَارَهُ إِلَى اللَّهِ، وَأَرَادَ أَيْضًا أَنْ يُعَلِّمَهُمْ أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ مَنْ يَقُولُ: بِخَيْرٍ - إِذَا سُئِلَ - كَثِيرٌ. كما قال الثوري: إِنَّمَا الْعِلْمُ الرَّخِصَةُ مِنْ ثِقَةٍ، فَأَمَّا التَّشْدِيدُ فَكُلُّ أَحَدٍ يُحْسِنُهُ. فَكَأَنَّ عَلِيًّا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَرَادَ أَنْ يَتَحَقَّقَ بِتَأْدِيبِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ، وَنَهْيِهِ إِيَّاهُ عَنْ إِظْهَارِ الْقُوَى؛ لِأَنَّهُ رَوَى أَنَّهُ مَرِضٌ، فَسَمِعَهُ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: اللَّهُمَّ صَبِّرْنِي عَلَى الْبَلَاءِ. فَقَالَ: «لَقَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ الْبَلَاءَ، وَلَكِنْ سَلِ اللَّهَ الْعَافِيَةَ».

وَمِنْ هَهْنَا قَالَ مَطَرٌ: لِأَنَّ أَعَافَى فَأَشْكُرَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُبْتَلَى فَأَصْبِرَ. لِأَنَّ

البلاء طريقُ الأقوياء .

وكره أهلُ الإشفاق والخشية إظهارَ الجَلَدِ والقُوَّةِ بين يَدَيِ القَوَى العزيز . وقد حَكِي أَنَّ الشافعي مَرَضَ مرضَةً شديدةً بمصرَ ، فكان يقول : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ فِي هَذَا رِضَاكَ فزِدْنِي مِنْهُ . فكتبَ إليه بعضُ العلماء ، وهو إدريس بن يحيى المعافى : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، لَسْتُ مِنْ رِجَالِ الْبَلَاءِ ؛ فَسَلِ اللَّهَ الْعَافِيَةَ . فرجع عن قوله هذا ، واستغفرَ مِنْهُ . فبعدَ هذا - والله أعلم - لعلَّه ما حَكِي عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دَعَائِهِ : اللَّهُمَّ اجْعَلْ خَيْرَتِي فِيمَا أَحْبَبْتَ .

• ذكر فضل التارك للتكسب^(١) ،

قَدْ يَفْضَلُ التَّارِكُ لِلتَّكْسِبِ شُغْلًا بِالْعِبَادَةِ عَنِ التَّكْسِبِ ، مِنْ حَيْثُ فَضَّلَ الْمُتَقَدِّمُونَ الزَّاهِدَ فِي الدُّنْيَا عَلَى كَاسِبِ الْمَالِ حَلَالًا وَمُنْفَقِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . وَسُئِلَ الْحَسَنُ عَنْ رَجُلَيْنِ ، أَحَدُهُمَا مُحْتَرِفٌ ، وَالْآخَرُ مَشْغُولٌ بِالتَّعَبُدِ : أَيُّهُمَا أَفْضَلُ ؟ فَقَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! مَا اعْتَدَلَ الرَّجُلَانِ ، الْمُتَفَرِّغُ لِلْعِبَادَةِ أَفْضَلُهُمَا . وَقَدْ رَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : « كَفَى بِالْمُوتِ وَاعْظًا ، وَبِالتَّقْوَى غَنًى ، وَبِالْعِبَادَةِ شُغْلًا » .

وَقَدْ عَلِمَ التَّارِكُ لِلتَّكْسِبِ تَوَكُّلاً عَلَى اللَّهِ ، وَثِقَةً بِهِ ، وَرِعَايَةً لِمَقَامِهِ ، وَصَبْرًا عَلَى فَقْرِهِ ، وَشُغْلًا بِمَعَادِهِ عَنْ مَعَاشِهِ وَمَقَاسَاةِ الْفِتْنَةِ - أَنْ مَوْلَاهُ قَدْ تَكَفَّلَ لَهُ بِرِزْقِهِ فِي الدُّنْيَا ، وَقَدْ وَكَّلَ إِلَيْهِ عَمَلَ الْآخِرَةِ ، وَأَنَّهُ إِنْ شُغِلَ بِمَا وَكَّلَهُ إِلَيْهِ مِنْ عَمَلٍ آخِرَتِهِ أَقَامَ لَهُ مَنْ يَقُومُ بِكَفَايَتِهِ مِنْ دُنْيَاهُ ، فَلَوْ لَمْ يَتَصَرَّفِ الْمُتَوَكِّلُ تَصَرَّفًا لِهَيْبَتِهِ ، وَأَنْ عَمَلَ آخِرَتِهِ الَّذِي وَكَّلَهُ إِلَيْهِ إِنْ لَمْ يَعْمَلْهُ هُوَ لَمْ يَعْمَلْهُ لَهُ سِوَاهُ ، مِنْ قَبْلِ أَنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَكَّلَ إِلَيْهِ هَذَا ، فَلَمْ يَقُمْ غَيْرُهُ بِمَقَامِهِ ، وَأَنَّ اللَّهَ تَكَفَّلَ لَهُ بِعَمَلِ الدُّنْيَا ؛ فَإِنْ لَمْ يَعْمَلْ أَعْمَلَ لَهُ سِوَاهُ كَيْفَ شَاءَ .

فَهَذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ مَا تَكَفَّلَ لَهُ بِهِ مِنْ عَمَلِ الدُّنْيَا ، وَبَيْنَ مَا وَكَّلَهُ بِهِ مِنْ عَمَلِ الْآخِرَةِ . قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي رِزْقِ الدُّنْيَا الَّذِي تَكَفَّلَ بِهِ : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ [النكبات: ٦٠] . مَعَ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ

(١) مِنْ هُنَا تَبْدَأُ نَسْخَةُ دَارِ الْكُتُبِ الثَّانِيَةِ ، وَرَمَزَهَا : (د) .

وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿ [الذاريات: ٥٦] . وقال تعالى في رزق الآخرة الذى وكله به :
﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ [النجم: ٣٩] .

ثم قد علم المتوكل بعد توحيدِه أن هذه الأربعة الأشياء منتظمة في سلك واحد، كشيء واحد يقع وقعة واحدة: رزق مقسوم لا يزداد فيه في وقت معلوم، ولا يتقدم ولا يتأخر بسبب محكوم، لا ينقلب عند أثر مكتوب ولا يتغير؛ فالرزق بفضل الرّازق، والوقت الذى يظهر فيه فضل العطاء لا يقع إلا فى ظرف، والسبب حكمة القاسم، والأثر حد المرزوق.

فلما أيقن المتوكل بهذا، كان إن تصرف تصرف بحكم، وإن قعد قعد بعلم، فاستوى تصرفه وقعوده؛ لأنه قائم بحكم ما يقتضى منه فى علم حاله، عالم بحكم مصرفه ومقعد، فإن شغله مولاه بخدمته عن خدمة من سواه، فصرفه فى معاملته دون معاملة العبيد، ساق إليه رزقه، كيف شاء من الوجوه، وبيد من شاء من العبيد، بحفظه له عن مجاوزة الحدود، كما قال تعالى: ﴿حَافِظَاتُ لِّغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤]، وتوكله له، وعصمته إياه عن التورط فى محذور، كما أخبر عن أوليائه فى قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦] .

وهذا هو التوكل فى استخراج المضمون من مظانه، والصبر له إلى حين أوانه، حتى يوصله إليه الوكيل الرزاق بحسن اختياره، لا بسوء اختياره، إذ هو أعلم بأماكنه، بخبره واقتداره.

وكذلك الله يستخرج الحلال لأوليائه، حتى يسوقه إليهم، ويوفقه لهم، ويسببه من حيث يحب. ويكون العبد فاضلاً فى قعوده لشغله عن العبيد بمعبوده، بانقطاعه إلى معاملة الملك دون ما يقطعُه من معاملة المملوك، وبهمة الآخرة عن الدنيا، وكان داخلاً فى وصف ما أخبر رسول الله ﷺ عن أهل كفاية الله، فيما روى عنه: «مَنْ جَعَلَ الهمومَ همًّا واحداً، كفاه الله هم آخرته ودنياه»، وخارجاً عن وصف مَنْ قطعَه عن الله بهمة غيره، وعرضه للهلكة فى أودية الهموم، فى قوله عليه السلام: «من أصبح وهمه غير الله فليس من الله» .

وفى الأخبار: «ما من عبد اشتغل بعبادة الله، وفرغ قلبه لله، وتوكل عليه، إلا ضمن الله تعالى السموات والأرض رزقه».

وعن الله تعالى: «ابن آدم، فوَّض أمرَكَ إلىَّ حتى لا أسألك عما أعمل، ولا تفوَّض إلى غيري فأعطك ما تُريد وأسألك عنه». وفى قوله ﷺ: «ومن تشبَّه به الهموم لم يبالِ الله فى أى أوديتها هلك».

فإن كان حال المتوكل أن يجرى رزقه على يد نفسه، وكسب جرحته، فهو خزانة من خزائن الملك، وهو عبد من عبيد الملك؛ يوصل إليه عن يد نفسه بما يوصله إليه عن يد غيره وسواه، ساق إليه الرزق أو ساقه إلى الرزق بعد أن يرزقه؛ لأن ما لقيته فقد لقيك. كذلك يستوى فى التوحيد، وشهادة الحق الفريد، أن يرزق عبده بيد نفسه، أو بيد غيره، أو عن إظهار القدرة من العدم، أو عن [سوق] يد إليه بسعى قدم، لقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، فهو الباعث لأوليته، والوارث بآخريته، والعبد مبعوث، والرزق رسالة وبعث.

والمتوكل نظره فى الحالين إلى الوكيل، معتدل يشهده بالوصفين، ويجده فى المعنيين، ولا يفقده من المكانين، وقائم بقيوميته وبحكمه فى الوقتين، وفراغ لحاله فى الأمرين، عارف بحسن اختيار الله له فى الحكمين.

ومن ترك التكسب لأجل الله؛ ثقة به، وسكوناً إليه، أو لدخول الآثام، وتعدُّ القيام بالأحكام، فحسبه كحسن من عمل شيئاً لأجل الله؛ لأن الترك عمل يحتاج إلى نية صالحة، وأفضل الناس عند الله أتقاهم له، وأتقاهم له أعرفهم به، متصرفاً كان أو قاعداً. هذا هو فصل الخطاب.

ورؤينا فى حديث عبد الله بن دينار، عن عمرو بن ميمون، عن النبى ﷺ: «أندرون ما قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال حين استوى على عرشه ونظر إلى خلقه: عبادى، أنتم خلقتى، وأنا ربكم، أرزاقكم بيدي؛ فلا تعبوا أنفسكم فيما تكفلت لكم به، واطلبوا أرزاقكم منى، وانصبوا أنفسكم لى،

وارفَعُوا حَوَائِجَكُمْ إِلَيَّ، أَصَبُّ عَلَيْكُمْ أَرْزَاقَكُمْ. أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبِّكُمْ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: عَبْدِي أَنْفَقَ أَنْفَقَ عَلَيْكَ، وَوَسَّعَ أَوْسَعَ عَلَيْكَ، وَلَا تُضَيِّقْ فَأُضَيِّقَ عَلَيْكَ، إِنَّ أَبْوَابَ الرِّزْقِ بِالْعَرْشِ لَا تُغْلَقُ لَيْلًا وَلَا نَهَارًا، فَأَنْزَلَ الرِّزْقَ مِنْهَا لِكُلِّ عَبْدٍ، عَلَى قَدَرِ نِيَّتِهِ، وَعَظِيَّتِهِ، وَصِدْقَتِهِ، وَنَفَقَتِهِ، فَمَنْ أَكْثَرَ أَكْثَرَ لَهُ، وَمَنْ أَقَلَّ أَقَلَّ لَهُ، وَمَنْ أَمْسَكَ أَمْسَكَ عَلَيْهِ. يَا زَبِيرُ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْإِنْفَاقَ، وَيُبْغِضُ الْإِقْتَارَ، فَكُلْ وَأَطْعِم، وَلَا تُقْتِرْ فَيَقْتِرَ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَلَا تُعَسِّرْ فَيُعَسِّرَ عَلَيْكَ، أَطْعِمِ الْإِخْوَانَ، وَوَقِّرِ الْأَخْيَارَ، وَصِلِ الْجَارَ، وَلَا تُمَاشِ الْفَجَّارَ، تَدْخُلِ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ. فَهَذِهِ وَصِيَّةُ اللَّهِ لِي، وَوَصِيَّتِي لَكَ يَا زَبِيرُ بْنُ الْعَوَامِ.

وقد حفظت في هذا الحديث زيادةً ذكرتها بعد: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ السَّخَاءَ وَلَوْ عَلَى تَمْرَةٍ، وَيُحِبُّ الشَّجَاعَةَ وَلَوْ عَلَى قَتْلِ حَيَّةٍ».

وَالْأَسْوَاقُ مَوَائِدُ الْآبَاقِ، يُطْعِمُ الْمَوْلَى مِنْهَا مَنْ أَبَقَ مِنْ خِدْمَتِهِ، وَهَرَبَ مِنْ مُجَالَسَتِهِ، وَوَهَنَ عَنْ مَعَامَلَتِهِ، وَجَبُنَ فِي مُتَاجَرَتِهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾ وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ مِنَ الْقَدَمَاءِ: مَا أُرِيدُ أَنْ يَرْزُقُوا خَلْقِي ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٧] أَيْ: لَهُمْ، لَا يَطَالِبُهُمْ أَنْ يَرْزُقُوا نَفْسَهُمْ إِذَا خَدَمُوهُ.

فَذَكَرَ اللَّهُ الْوُجُوهَ الثَّلَاثَةَ مِنْ تَصَرُّفِ الْعَبِيدِ الَّتِي أَبَاحَهَا لِلْمَوَالِي، وَاخْتَارَ لِنَفْسِهِ أَحَدَهَا وَهِيَ الْخِدْمَةُ، وَعَلَيْهِ الْكِفَايَةُ، وَاخْتَارَ مِنَ الْعَبِيدِ أَحَدَهُمْ فَجَعَلَهُ عَابِدَهُ، وَتَنَزَّاهُ عَنْ أَحَدِهِمَا، وَتَعَالَى عَنْهُ، وَهُوَ الْإِطْعَامُ مِنَ الْعَبِيدِ لَهُ، وَصَرَفَ عَمُومَ الْعَبِيدِ فِي الْوَجْهِ الثَّالِثِ مِنَ الْإِطْعَامِ لَأَنْفُسِهِمْ، وَهُوَ التَّكْسِبُ، وَضَرَبَ هَذَا مَثَلًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ فِي الْأَرْضِ، وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَبَقِيَ الْعَبِيدُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى بِحُكْمَيْنِ؛ أَحَدُهُمَا: مَا اخْتَارَهُ لِنَفْسِهِ مِنَ الْعِبَادَةِ، وَهِيَ الْمُعَامَلَةُ، وَعَلَيْهِ الرِّزْقُ، كَيْفَ شَاءَ، وَمَتَى شَاءَ، وَهَؤُلَاءِ عِبَادُ الرَّحْمَنِ، لَا عَبِيدَ الدُّنْيَا. وَالثَّانِي: مَا صَرَفَ الْعَبِيدَ فِيهِ مِنَ التَّكْسِبِ لَأَنْفُسِهِمْ، وَجَعَلَ ذَلِكَ رِزْقًا مِنْهُ لَهُمْ بِجَوَارِحِهِمْ، وَمَدَحَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَصْفِ، وَهَؤُلَاءِ عُمُومُ الْعَبِيدِ، مِنْهُمْ عَبِيدُ الدُّنْيَا وَعَبِيدُ الْهَوَى، وَبَقِيَ الْمَوْلَى مَعَ الْعَبِيدِ عَلَى الْأَحْكَامِ الثَّلَاثَةِ، الَّتِي أَبَاحَهَا اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ،

وَضَرَبَ بِهَا الْمَثَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، أَيُّهَا اخْتَارَهُ كَانَ ذَلِكَ لَهُمْ.

وتفسير ذلك: أَنَّ لِلْمَوْلَى مِنَ الْخَلْقِ أَنْ يَقُولَ لِعَبْدِهِ: اذْهَبْ فَأُطْعِمْنِي؛ لِأَنَّكَ عَبْدِي وَمَلِكُ يَدِي، فَأَنَا أَمْلِكُ كَسْبَكَ كَمَا أَمْلِكُ نَفْسَكَ. وهذا هو الوجه الذي ذكرناه، أَنَّ اللَّهَ تَنَزَّاهُ عَنْهُ، وَتَعَالَى عُلُوًّا كَبِيرًا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ﴾ [الذاريات: ٥٧] كَمَا يُرِيدُ الْمَوَالِي مِنَ عِبِيدِهِمْ هَذَا، ثُمَّ يَقُولُ الْمَوْلَى مَنَا لِعَبْدِهِ: اذْهَبْ، فَأُطْعِمْ نَفْسَكَ، وَاسْعَ فِي قُوَّتِكَ، فَقَدْ أَبَحْتُ لَكَ ذَلِكَ، وَوَهَبْتُ لَكَ كَسْبَكَ، فَهُوَ رِزْقٌ مِنِّي لَكَ، وَتَفَضَّلْتُ مِنِّي عَلَيْكَ. وبهذا صارَ المُكَاتَبُ لِعَبْدِهِ فِي فِكَائِهِ عَتَقَهُ كَالْمُعْتَقِ، بِأَنْ كَانَ لَهُ الْوَلَاءُ، وَقَدْ يَكُونُ لَهُ الْمِيرَاثُ فِي حَالٍ؛ لِأَنَّهُ مُنْعَمٌ عَلَيْهِ بِالْكِتَابَةِ لَهُ كَالْمُعْتَقِ، وَإِنْ كَانَ الْعَبْدُ هُوَ الَّذِي سَعَى فِي فِكَائِهِ رَقَبَةً نَفْسِهِ بِكَسْبِهِ، مِنْ قَبْلِ أَنْ الْمَوْلَى يَسْتَحِقَّ عَلَيْهِ كَسْبَهُ، وَيَمْلِكُ رَقَبَتَهُ، فَلَمَّا مَلَكَ عَبْدَهُ ذَلِكَ صَارَ مُحَسَّنًا إِلَيْهِ. فهذا حالُ عموم العبيد معَ الله تعالى؛ لِأَنَّهُ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ، وَهُمْ عِبِيدٌ قِنْ، فَقَالَ: اذْهَبُوا فَتَكْسِبُوا، وَأُطْعِمُوا أَنْفُسَكُمْ، فَقَدْ رَزَقْتُكُمْ ذَلِكَ، وَوَهَبْتُه لَكُمْ.

وهذا هو الوجه الثاني الذي تَنَزَّاهُ الْخُصُوصَ عَنْهُ، تَفْضِيلًا لَهُمْ فَلَمْ يَسْتَسْعِهِمْ، وَقَطَعَهُمْ فَشَغَلَهُمْ بِخِدْمَتِهِ عَنْ خِدْمَةِ نَفُوسِهِمْ وَخَلِيقَتِهِ، وَتَوَكَّلَ لَهُمْ بِكِفَايَتِهِمْ، وَلَمْ يُوَكِّلْهُمْ فِيهَا كَمَا وَكَّلَ غَيْرَهُمْ، بَلْ وَكَّلَ بِأَرْزَاقِهِمْ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ [الذاريات: ٥٧] لِنَفُوسِهِمْ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: ٥٨]؛ أَي: لَهُمْ بِإِقَامَةِ غَيْرِهِمْ وَيَظَاهَرُهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ﴾ فَكَانَتْ هَذِهِ الْيَأُ اسْمَهُ مُكْنًى بِهَا، وَهَذِهِ إِرَادَةُ مُخْصِصَةٍ، لَا عَامَةً لِكُلِّ مَرَادٍ، فَهِيَ إِرَادَةُ ابْتِلَاءٍ وَمُحِبَّةٍ^(١)، بِمَعْنَى مَا أَحَبَّ، وَمُخْصِصَةٌ بِمُخْصِصِينَ^(٢) مِنْ عِبَادِهِ، كَمَا كَانَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، كَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مُخْصِصَةً لِمَنْ عَبْدَهُ مِنْهُمْ،

(١) فِي الْمَخْطُوطِ: «وَمُحِبَّة».

(٢) فِي الْمَخْطُوطِ: «الْمُخْصِصِينَ».

من مؤمنى الجن والإنس لا عامة لجميع خلقه .

والوجه الثالث: أن يقول المولى منا لعبده: اخدمنى، وعلى طُعْمَتِكَ، تقومُ خدمتك لى مقام كَسْبِكَ لنفسك . وهذا هو الوجه الأعلى الذى اختاره الله تعالى، وأحبه لمن يُحِبُّه، واختار له مَنْ عَبْدَهُ مِنَ الْعَبِيدِ مِنْ خُصُوصِ الْعَامِلِينَ لَهُ، وهم العالمون به، دون من صَرَفَهُ فى رِزْقِ نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ، وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٧]؛ أى: أن يَرْزُقُوا نَفْسَهُمْ بِكَسْبِهِمُ الَّذِي أَبَحَّتْ لَهُمْ، فيكونوا كغيرهم ممن قُلْتُ لَهُ: اذهب فتكسب، فقد أردتُ منك الرِزْقَ لِنَفْسِكَ بِكَسْبِكَ، وقد وهبته لك، أى: أنا أريد من هؤلاء العبادة، ولها خلقتهم؛ فكلُّ ميسرٍ لما خُلِقَ له . فَمَنْ كَانَتْ صَنَعَتُهُ الْعِبَادَةَ، وَخُلِقَ لَهَا، يُسِّرَتْ لَهُ . ومن كَانَتْ صَنَعَتُهُ الدُّنْيَا، وَخُلِقَ لَهَا، يُسِّرَتْ لَهُ .

وفى الخبر أن الله تعالى خَلَقَ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنَعَتَهُ . ويقال: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَظْهَرَ الْخَلْقَ فِي الْعَدَمِ أَظْهَرَ لَهُمُ الصَّنَائِعَ كُلَّهَا، ثُمَّ خَيَّرَهُمْ، فَاخْتَارَ كُلُّ وَاحِدٍ صَنَعَتَهُ، فَلَمَّا أَبْدَاهُمْ فِي الْوُجُودِ أَجْرَى عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مَا اخْتَارَ لِنَفْسِهِ . قال: وانفردت طائفة، فلم تَخْتَرْ شَيْئًا، فقال لها: اختارى . فقالت: ما أعجبنا شَيْءٌ رَأَيْنَاهُ فَنَخْتَارُهُ . قال: فَأَظْهَرَ مَقَامَاتِ الْعِبَادَاتِ . فقالت: قد اخترنا خدمتك . فقال: وعزّيتى وجلالى، لأُخْذِمَنَّكُمْ إِيَّاهُمْ، ولَأُسَخِّرَنَّهُمْ لَكُمْ .

وفى الخبر: «أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الدُّنْيَا: اخدمى من خَدَمَنِى، وَأَتَعِبِى مَنْ خَدَمَكَ» . فالعبادة هى الخدمة . ومن ذلك قولهم: إياك نعبد، ولك نُصَلِّى ونسجد، وإليك نَسْعَى ونَحْفِدُ . أى: إليك نعمل ونخدم، مثل قوله تعالى: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢]، أى: خدماً، فى أحد الوجوه، والعبادة هى الخدمة بذلِّ وتواضع . والعرب تقول: طريقٌ مُعَبَّدٌ، إذا كان مُذَلَّلًا مُمَهَّدًا وموطوءًا بالأقدام . ويقولون: بعيرٌ مُعَبَّدٌ، إذا كان مُمْتَهِنًا بالكُدِّ، نِضْوًا من السير والحمل عليه . ومنه قول القبط: ﴿أَنْتُمْ مِنْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧] يعنون بنى إسرائيل، خَدَمْنَا نَسْتَدْلُهُمْ وَنَمْتَهِنُهُم بِالْكُدِّ وَالْعَمَلِ .

وقال بعضُ العارفين: إِنَّ اللَّهَ - سبحانه وتعالى - اطلع على قلوب طائفةٍ مِنْ عباده، فلم يرها تصلحُ لمعرفته، ولا موضعاً لمشاهدته، فرحمها؛ فوهب لها العبادات والأعمال الصالحات. ثم اطلع على قلوب طائفةٍ أخرى من خلقه، فلم يرَ جوارحهم تصلحُ لخدمته، ولا موضعاً لمعاملته، فاستعملهم للدنيا وعبدتهم لأهلها.

ومن هذا قولُ النبي ﷺ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ والدرهم، تَعَسَّ عَبْدُ الزَّوْجَةِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْحَمِيصَةِ». أى الذين يذُلُّون لهذه الأشياء، ويسعونَ لها.

وفى أخبار داود عليه السلام: «إِنِّي خَلَقْتُ مُحَمَّدًا لأجلِ، وخلقْتُ آدَمَ لأجلِ محمد، وخلقْتُ جميعَ ما خلقتُ لأجلِ ولدِ آدَمَ، فَمَنْ اشْتَغَلَ مِنْهُمْ بِمَا خَلَقْتُهُ لأجلِهِ حُبِّتُهُ عَنِّي، وَمَنْ اشْتَغَلَ مِنْهُمْ بِى سَقَتْ لَهُ مَا خَلَقْتُهُ لأجلِهِ».

وقال ابن معاذ: ليس مَنْ لَابَسَ الأسبابَ فَصُفِيَ فيها، كَمَنْ زَايَلَهَا فَصُفِيَ عنها.

فكيف بمن كُدِّرَ بها فى وقتنا هذا؟!

• ذكر حكم المتوكل إذا كان ذا بيت،

فإن كان المتوكلُ ذا بيت، فليُغلقه إذا خرج، إحرازاً له؛ لأجل الأمر بالحذر، ولاتباع السنّة والأثر. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]. وقال تعالى: ﴿وَاحْذَرَهُمْ أُنْ يَفْتِنُوكَ﴾ [المائدة: ٤٩]. ويروى فى خبر: «اعقلها، وتوكل».

ولا يُنقص ذلك توكله، إذا كان ساكن القلب إلى الله لا إلى خلقه^(١)، ناظراً إلى حسن تدبيره فى تبقية رحله، أو إذهابه لا إلى إحرازه، غير مختار لبقاء ما فى بيته على اختيار الله له؛ لحسن أحكامه عنده^(٢)؛ لأن الله تعالى إذا رفعَ عبداً إلى

(١) فى (د): «إلى عقله».

(٢) فى (م): «غير مختار البقاء... بحسن أحكامه عنده».

مقام التوكل عليه في شيء، أعطاه التوكل في كل شيء، ولا يكون العبد متحققاً بالتوكل على التمام حتى يكون متوكلاً على الله في كل شيء^(١)، كما لا يكون تَوَاباً يُحِبُّهُ الله حتى يتوب من كل شيء ويتوب إلى الله بكل شيء، وفي كل شيء، أى: يَرْجِعُ إليه بالأشياء وفيها. فلذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. كما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. مع قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]. أى ليتوكل عليه في كل شيء مَنْ تَوَكَّلَ عليه في شيء. هذا أحسن وجوهه. والوجه الآخر: وعليه فليتوكل في كل توكله مَنْ تَوَكَّلَ عليه في الأشياء؛ لأن الوكيل^(٢) في شيء واحد، فينبغي أن يكون التوكل عليه واحداً في كل شيء.

فالتوكل مقام رفيع من مقامات الأنبياء، ومن أعالي درج الصديقين والشهداء؛ مَنْ تَحَقَّقَ به فقد تحقَّق بالتوحيد، وكَمُلَ إيمانه، وكان على مزيد، وانتفى عنه دقائق الشرك، وخفايا تولَّى العدو، وانقطع سلطانه عنه، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ يعنى العدو ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩ - ١٠٠] يعنى الله سبحانه. فلم يشترط نفى سلطان العدو بالإيمان مجرداً؛ حتى يقيمه في مقام التوكل في اليقين. فلذلك فصلنا شرحه وأطلقنا^(٣) تفصيله؛ لأن مَنْ أُعْطِيَ مقاماً من التوكل على حقيقة مشاهدة الوكيل، انتظم له جمل مقامات اليقين وأحوال المتقين. كما قال عبد الله بن مسعود: «التوكل جماع الإيمان».

وقد يُبتلى المتوكل في توكله بالأسباب والأشخاص والأغراض وضروب المعاني؛ كما يُبتلى سائر أهل المقامات؛ ويبقى عليه من العدو نزغٌ وطيفٌ لا غير وهو آخر تسليطه دون الاقتران^(٤) والاستحواذ، يختبر بذلك صدقه في توكله،

(١) من قوله: «ولا يكون العبد» من: (ك، م).

(٢) فى (د): «لأن التوكيل».

(٣) فى المطبوعة: «وأطلقنا»، وفى (د): «وأطلقنا بفضل».

(٤) فى (د): «دون الاقتراب».

حتى يردَّ في جميع ذلك نظرُهُ إلى وكيله^(١)؛ لِيُجْزَى جزاء الصادقين المعْرِفين^(٢)، أو لِيُكْشَفَ له دعواه، فيعلم كذبَ نفسه، فيكون مردوداً إلى التوبة والاستغفار، وإلى التنصّل والاعتذار، وقد قال الصادق الوكيل^(٣): ﴿لِيُجْزَى اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾، وحسبُ جزاءِ المتوكّلين أن يكون الصادقُ حسبَهُم، وأن يكون خلعة^(٤) الصّدق شعارَهُم، ثم قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِنِ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

فأحسنُ أحوالِ المدّعين التوبة، بها يخرجون من ظلمِهِم.

وقال تعالى: ﴿أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾. ثم أخبر بسنّته التي قد خلت في عباده فقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢ - ٣]. ولن تجدَ لسنة الله تبديلاً.

فليقل المتوكّل عند خروجه من منزله، معتقداً لذلك بعد غلق بابه للأمر والسنة: اللَّهُمَّ إِنِّ جَمِيعَ مَا فِي مَنْزِلِي، إِن سَلَّطْتَ عَلَيْهِ مَنْ يَأْخُذْهُ، فَهُوَ فِي سَبِيلِكَ صَدُقَةٌ مَنَى عَلَى مَنْ أَخْذَهُ. فَإِنْ أَخَذَ مَا فِي مَنْزِلِهِ كَانَ لَهُ فِي ذَلِكَ سَبْعُ معاملات:

إحداها: قبولُ توكُّله على الله، بتدبير الله أمره كيف شاء، واختيارِ الله له نقصانَ الدنيا، وإذهابِ ما لعله يُفْتَنُ بتبقيته^(٥).

والثانية: اختيارُ الله تعالى لعبده، وابتلاؤه إياه بفقد محبوبه، ليُظهر صدقه ومسألته، أو ليستبين للعبد كذبه، فإن حمدَ الله وشكره على حُسن بلائه، ولم تضطرب نفسه، أعطى ثوابَ الشاكرين الراضين، كما جاء في العلم المكنون عن

(١) في (م): «ليذكره بذلك وكيله، ويصره به مداخل عدوّه عليه وتضليله».

(٢) في المطبوعة: «المقربين».

(٣) من قوله: «والاستغفار» من (م).

(٤) في (م): «خلّقه»، وفي (د): «جعله».

(٥) في (م): «وإذهابها لعله يفتن بتبقيتها».

بعض أنبيائه قال: «يا رب، مَنْ أولياؤك؟ قال: الذين إذا أخذتُ منه المحبوب سالمني».

والثالثة: إن اضطربت نفسه، وجزعت، جاهدها بالصبر، والصمت، وحسن الشناء على الله، وترك الشكاية إلى عبيده، فأعطى ثواب الصابرين المجاهدين.

والرابعة: إن لم يكن فى هذا المقام ولا فى المقام الأول، انكشف له بطلانُ دعواه، وظهر له خفىُّ كذبه فى حياته، فاعترف بذلك، واعتذر إلى الله، واستكان وخضع، فيكون هذا أيضاً مزيداً مثله على معنى الإعلام والبيان، فيعلم أنه كذاب؛ لكرهيته ما قضى الله، وقلة صبره لحكم الله سبحانه، أو لسخطه ما حوَّله الله من خزانته التى هى فى يده إلى خزائنه الأخرى التى هى فى يد غيره، إذ قد علم أن يده خزانة مولاه من دنيا العبد، وأن ما حوَّله منها لم يكن له، وإنما كان قد استودعه، فحزن وساء حين استرجع منه ما أودعه وأعاده إليه^(١)، وأودعها غيره، أو دفعها إلى مَنْ هى رزقه، ومن كانت له، وصار ذلك رزقاً للمتوكل فى آخرته، فأثر لضعف يقينه رزق دنياه على رزق آخرته؛ لنقصان زهده، ليس ذلك إلا للطمع فيه^(٢)، وفضل الرغبة والشره، إذ قد علم أن ما أخذ منه كان وديعة لغيره عنده، فهذه كلها ذنوب عند المتوكلين، موجبات للتوبة والاستغفار عند الموقنين، من قبل أن المتوكل قد علم أن الله تعالى إذا وهب شيئاً من الملك فى الدنيا للأجسام، أو شيئاً من ملكوت الآخرة فى القلوب، لم يأخذه أبداً؛ فما كان فى الدنيابقى لصاحبه إلى آخر أثره حتى يُفنيه ويُبليه، كما قال الرسول ﷺ، يعجب العقلاء من غفلة الجهول: «يقول ابن آدم: مالى، مالى، إنما لك من مالك ما أكلت فأفانيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»؛ وما سوى ذلك فهو مال الوارث^(٣). وما وهبه الله من الآخرة الملكوتى من الإيمان والعلم والعمل لم يأخذه أبداً، بل ينميه ويزيده فيه إلى أبد الأبد فى دار الأبد، ولكن قد يُعير ويستودع من

(١) فى (م): «ورده إليه». وفى المطبوعة و(ك): «وأعاره».

(٢) عبارة (د): «... آخرته، ليس ذلك إلا للطمع، وقلة الزهد منه».

(٣) من قوله: «كما قال الرسول» إلى هنا من (م)، وساقط من المطبوعة.

أمور الدنيا وأمور الآخرة، فهذا النوع لا بدّ أن يستردّه ويسترجعه في الدنيا؛ لأنّ حكمته أوجبت ردّه، كما أوجب كرمه تبقية ما وهبه.

فلا ينبغي للمتوكّل الموقن - بما ذكرناه - أن يحزنه ما حوّل الله من قبضه وهو خزائنه التي في يده، مما أعاره واستودعه، إلى خزائنه الأخرى التي هي يد غيره، ممن لعله يهبه له [فيكون رزقه^(١)]، أو يبتليه بأحكامه فيه، فيخرج أيضاً من يده إلى يد غيره؛ لأنه ما خرج من الدار شيء. والله حكمة وابتلاء في كل شيء؛ فالحزن والأسف على قوت مثل هذا عند العارفين جنابة، ومن المؤمنين خيانة، يستغفرون الله، ويتوبون إليه كما يتوبون من المعاصي؛ لأنهم قد شهدوا ما بيناه؛ ولأنه قد أمرهم بترك الأسى على فائت الدنيا، وقلة الفرح بما أتى منها، إذ لا بدّ من كونهما؛ لأنه قد علمه، وبعد علمه قد كتبه، وبعد كتبه قد أعلم به، فكشف لهم اليقين عن الكتاب المستبين أنّ ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢]. فما ظهر من المصائب في الأموال والأنفس فقد سبق قبل خلق الخلق. وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾، قيل: من قبل أن نخلق الخليقة. وقيل: قبل أن نبرأ الأرض. وقيل: من قبل أن نبرأ الأنفس. وقيل: من قبل أن نبرأ المصيبة. فجميع ذلك قد سبق في كتاب، قد نطق وجرى به القلم في اللوح، واستطر وختم في القلم إلى يوم الحشر^(٢).

ثم قال تعالى: ﴿لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]. فالأسى على فقد الشيء على قدر الفرح بوجوده. أفلا يستحي العبد أن يكون على ضدّ ما أمر به، أو بخلاف ما يحبه منه مولاه؟! فيأسى على ما ليس له، ويحزن^(٣) على ما استودعه لما منه استرجعه، أو يفرح بما لم يكن في علم الله سبق له؛ لأنه لم يكن يعلم هل كان وهب له فيبقى عليه، أو أعيره وأودعه

(١) ساقطة من المطبوعة.

(٢) من قوله: «فجميع ذلك» إلى هنا ساقطة من المطبوعة.

(٣) من قوله: «ويحزن على» إلى قوله: «ومقام المضطرين» قبل قوله: «والمعاملة الخامسة»، من نسخة (م)، لأن بها زيادة طويلة لا توجد في غيرها.

فَإِذَا تَجَمَّعَ مِنْهُ، فَلَمَّا أَخَذَ مِنْ يَدِهِ وَرَدَّ إِلَى مُعْطِيهِ وَمُودِعِهِ، وَكَانَتْ يَدُهُ مَعَ ذَلِكَ خَزَانَةَ الْوَكِيلِ وَقَبْضَتَهُ، أَيقِنَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ وَدِيعَةً عِنْدَهُ، فَإِذَا حَزَنَ وَسَاءَ فَقَدْ شَكَّ لَمَّا أَيقِنَ وَجْهَهُ، إِذْ عَلِمَ وَرَغِبَ فِيمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ زَهْدًا. فَأَيَّ شَرِكٍ فِي الْمَلِكِ أَظْهَرَ مِنْ هَذَا؟! فَهُوَ ثَمَرَةُ التَّمَلُّكِ لِلْإِغْتِرَارِ بِالتَّمْلِيكِ، وَلَوْ سَمِعَ مَا عَلِمَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكًا فِي الْمُلْكِ﴾ [الإِسْرَاءُ: ١١١]، ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ [الْأَنْعَامُ: ٦٢]، لَقَالَ تَخْفِيفًا لَا تَصْدِيقًا: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، فَأَيُّقِنَ أَنَّ مَا فِي يَدِهِ لِمَوْلَاهُ، إِذِ الْعَبْدُ وَمَالُهُ لِسَيِّدِهِ، ثُمَّ أَيقِنَ أَنَّهُ إِلَيْهِ رَاجِعٌ، وَأَنْ مَا خَرَجَ مِنْ يَدِهِ فَإِنَّهُ فِي قَبْضَةِ اللَّهِ، لَمْ يَخْرُجْ مِنْ خَزَانَتِهِ، وَلَا نُقِلَ مِنْ مَلِكِهِ وَحَوْلٍ مِنْ دَارِهِ؛ لِأَنَّهُ فِي الدَّارِ بَعْدُ لَمْ يَخْرُجْ، وَإِنَّمَا نَقَلَهُ مِنْ تَمْلِكٍ أَدْنَى الْيَوْمِ إِلَى مَلِكٍ أَعْلَى غَدًا، وَذَلِكَ حَسَنُ اخْتِيَارٍ مِنَ الْمُخْتَارِ، وَبَلَوَى اخْتِبَارٍ مِنَ الْجِبَارِ.

فَهَذِهِ شَهَادَةُ الْمُوقِنِينَ بِعَيْنِ الْيَقِينِ، وَهُوَ مَقَامُ الشَّاهِدِينَ، فَمَنْ لَمْ يَشْهَدْ مَا ذَكَرْنَاهُ، وَيَجِدْ مَا وَصَفْنَاهُ، ثُمَّ تَوَهَّمِ التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ، وَقَدَّرْ حَسَنَ الْيَقِينِ بِهِ، وَادَّعَى مَنَازِلَ الْمُقَرَّبِينَ مِنْهُ، الْأَغْنِيَاءِ بَغْنَاهُ، الْأَقْوِيَاءِ بِنَصْرِهِ وَقُوَاهُ، الْمُشَاهِدِينَ لِمَجَارِي قُدْرَتِهِ، فِي تَصْرِيفِ حِكْمَتِهِ، فَلْيَسْتَغْفِرِ اللَّهَ مِنْ تَوَهُّمِهِ، وَلْيَتُبْ إِلَيْهِ مِنْ تَوْبَتِهِ، وَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فِي تَوَكُّلِهِ، فَمَا ذَكَرْنَاهُ هُوَ حَالُ الْمُتَوَكِّلِينَ، وَوَصَفُ الْوَاصِلِينَ.

فَإِذَا أَعْلَمَ الْعَبْدُ أَنَّهُ كَاذِبٌ اسْتِكَانَ اسْتِكَانَةَ الْكَذَّابِينَ، وَأَنَابَ إِنْابَةَ الْمُنْكَسِرِينَ، وَلَمْ يَنْطِقْ بِكَلَامِ الصَّادِقِينَ، وَلَا يُدِلُّ إِدْلَالَ الْمُحِبِّينَ، وَلَا يَعْتَرِزُ عِزَّةَ الْمُتَوَكِّلِينَ، فَيَكُونُ تَعْرِيفُ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُ هَذَا الْمَعَانِي الْيَوْمَ قَبْلَ اللَّقَاءِ، تَأْدِيًّا لَهُ، وَتَنْبِيْهًا وَمَزِيدًا لِمِثْلِهِ، (.. .)^(١) وَهَذَا مَزِيدُ النَّاqَصِينَ، وَحَالُ الْمُعْتَلِّينَ، وَمَقَامُ الْمُضْطَرِّينَ^(٢).

وَالْمُعَامَلَةُ الْخَامِسَةُ^(٣): أَنْ يَكُونَ لَهُ بِكُلِّ دِرْهَمٍ تَلَفٌ لَهُ - بِعَقْدِ التَّوَكُّلِ، وَحَسَنِ الْيَقِينِ، وَتَفْوِيزِ التَّسْلِيمِ - سَبْعُمِائَةِ دِرْهَمٍ، كَأَنَّهُ قَدْ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، يُحَسِّبُ لَهُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ قَدْ كَانَ نَوَاهٍ. وَكَذَلِكَ إِنْ لَمْ يُؤْخَذْ رَحْلُهُ، وَسَلِمَ لَهُ مَا فِي بَيْتِهِ،

(١) كَلِمَةٌ فِي (م) مُضْطَرِبَةٌ وَغَيْرُ مَقْرُوءَةٍ.

(٢) إِلَى هُنَا تَنْتَهَى زِيَادَةُ (م).

(٣) هَذِهِ الْمُعَامَلَةُ بِهَا زِيَادَةُ مِنْ (م) قَدَّرَ سَطْرًا.

استنباطاً من قول رسول الله ﷺ فيمن ترك العزل، فأقرَّ النطفةَ قرارها، توكلَّأَ على ممكَّنها، أنَّ له أجرَ غلامٍ وُلد له من ذلك الجماع، وعاش فقتل في سبيل الله، وإن كان لم يُولد له. فقال: أنت تخلقه؟ أنت ترزقه؟ إليك محياه ومماته؟ أقرَّها قرارها ولك ذلك.

والمعاملة السادسة: أن لا يأثم أخوه الذي أخذ رَحْلَه، إن كان قد جعله صدقةً عليه، فيؤجر أجرًا ثانيًا؛ لإشفاقه على أخيه، وحسن نظره للعصاة من حيث لا يعلمون، تخلُّقًا بأخلاق مولاه، وينال بعفوه عن ظالمه درجةً المحسنين، ويتحقَّق بمقام المتقين، ويكون ممن وقع أجره على الله، فيُخفى له ما لا تعلم نفس من قُرَّة أعين^(١)، لأنَّا رُويَا أنه يقال يوم القيامة: «لِيَقُمْ مَنْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، فلا يقوم إِلَّا مَنْ عَفَا عَنْ ظَلَمِهِ».

وفى الخبر: «مَنْ اسْتَغْفَرَ لظَالِمِهِ فَرَّ الشَّيْطَانُ مِنْ ظِلِّهِ، وَمَنْ دَعَا لِمَنْ ظَلَمَهُ اسْتَغْفَرَتْ لَهُ مَلَائِكَةُ السَّمَوَاتِ».

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤]، قيل: هم الذين لا يظلمون، وإذا ظَلَمُوا لم ينتصروا بلسان ولا يد؛ لأنَّه قد علم كيف جرى الأمر، وأنَّ الآخذَ مُبْتَلَى بسوء القضاء، وأنَّه قد عُوْفِيَ إذ لم يكن هو ذلك العبد، فيرحم أهلَ البلاء حينئذ، ويحمد الله على ما عافاه، فيشغله الشكرُ لله عن الدعاء على ظالمه.

قال بعض العارفين لبعض أصحابه: لِمَ أَسْقَطَ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ اللَّائِمَةَ عَنِ الظَّالِمِينَ لَهُمْ؟ فَقُلْتُ: لا أدري، قال: لعلمهم أنَّ الله قصدهم بذلك، وابتلى الظالمين بهم، فرحموهم، وذلك داخلٌ في نصر أخيه الظالم لنفسه، وطاعةٌ لأمر رسوله ﷺ في قوله: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»، أى تمنعه عن الظلم، فإذا عفا عنه فقد منعه من الظلم؛ لأنَّه لو رآه منعه من أخذه، أو وهبه له، فيقوم عفوه عنه مقام رؤيته.

(١) من قوله: «أعين» إلى «بلسان ولا يد» زيادة من (م).

وهذا^(١) أيضاً يدخل في إشفاق الخائفين من فضل مطالبة الظالمين؛ لأننا رويناه في الخبر: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُظْلَمَ بِالْمُظْلَمَةِ، أَوْ يُسْرَقَ لَهُ الشَّيْءُ، فَلَا يَزَالُ يَدْعُو عَلَيْهِ وَيَسْتَوْفِي بِقَدْرِ ظُلَامَتِهِ، وَيَبْقَى لِلظَّالِمِ فَضْلٌ يُؤْخَذُ لَهُ مِنَ الْمَظْلُومِ غَدًا». فصار هذا كخوف المقتص من جرحه أن لا يكون قد اقتص بمثل ما جرح، لقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] لمن لا يحسن الاقتصاص بالمائلة، فعفوه أسلم، ومن مخالفته الأمر ومواقعة النهي أبعد، لقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]. فإن لم يعاقب هذا الظالم بمثل إساءته، فزاد على ممائلته، لم يأمن أن يقتص له منه بالعفو في السلامة أقرب، فلذلك صار أفضل؛ لأن ما حاز السلامة، واستوعب الجدد، فهو ربح وفضل.

والمعاملة السابعة: تحققه بالزهد فيما ذهب. قال أبو سليمان الداراني، لما بلغه عن مالك بن دينار أنه قال للمغيرة: اذهب فخذ تلك الركوة من البيت فلا حاجة لى بها، وكان قد أهداها إليه وقبلها منه، فقال: ولم؟ قال: يوسوس إلى العدو أن اللص قد أخذها؟ وكان مالك لا يغلق بابيه، إنما كان يشده بشريط، وكان يقول: لولا الكلاب ما شددته أيضاً. فقال أبو سليمان: هذا من ضعف قلوب الصوفيين^(٢)، هو قد زهد في الدنيا، فما عليه من أخذها. وهذا كما قال أبو سليمان؛ لأن الزهد إذا صح دخل الرضا والتوكل فيه.

ولقول مالك أيضاً وجه، كأنه كره أن يعصى الله به، فيكون هو سبب معصية الله. ولكن قول أبي سليمان أعلى؛ لأجل مقام التوكل والرضا.

وقد كان أبو عيينة يقول: لولا كراهية أن أكون سبباً لمعصية الله، لأحببت أن لا أزال مظلوماً^(٣).

(١) من هنا إلى قوله: «ربح وفضل» آخر الفقرة زيادة من (م).

(٢) في (د): «قلوب الصديقين».

(٣) قوله: «وقد كان أبو عيينة... مظلوماً» زيادة من (م).

وهذا الذى ذكرناه من ذهاب ما فى البيت هو لكل من ذهب له مال فى سفر أو حضر، ولكل من أصيب بمصيبة فى نفس أو أهل. هذه المعاملات كلها إذا اعتقدتها بقلبه وكانت فى خلدِه ووجدِه، وإن لم ينطق بها أو يُظهرها، وهو وجدُ الراضين، وحالُ المتوَكِّلين، وإن لم يتكلموا به، أو يُعلم منهم^(١)، فأكثرُ الناس إيمانًا، وأحسنُهم يقينًا، أقلُّهم غمًّا، وأيسرُهم أسى على ما فات من الدنيا، وأحسنُهم رضا، وأنفذُهم شهادة، مَنْ رأى أن ذلك نعمةٌ أوجبت عليهم شكرًا. وأقلُّ الناس إيمانًا، وأضعفُهم يقينًا، أشدُّهم أسى، وأكثرُهم غمًّا على ما فات، وأطولُهم شكوى، وأقلُّهم شكرًا. فالمصائبُ محنة تكشف الزهدَ فى الدنيا والرغبة، ألم تسمع إلى الحديث الذى جاء فيه هذا الدعاء: «وأسألك من اليقين ما تُهَوِّن به علينا مصائب الدنيا؟ فشدةُ الغمِّ على فوت الدنيا دليلٌ على حبِّها، وعلامةُ ضعف اليقين بمحبوبه. وسهولةُ الغمِّ على فوتها دليلٌ على الزهد فيها، وقوة اليقين بربه. فإن وجد المتوَكِّل رَحْلَه بحاله، أو رُدَّ عليه بعد أخذه، لم يضره بتبقيته شيء، وكان له أجر ما قد نوى من المعاملات^(٢).

ولا أعلم هذا القول واعتقاده عند خروج العبد من منزله أو تركه لرحله أو خروجه فى سفر ينقصه^(٣) شيئًا ولا يضره، ولا يقدم ضياعَ شيءٍ حكمَ الله ببقائه له، ولا يؤخِّر تركُ العقد لهذا تبقيةً ما حكمَ الله بذهابه. ومع ذلك فيكون له حال من التوكل، ومقام فى الرضا، وحسن معاملات، إلَّا شيئًا واحدًا من باب نقصان الدنيا من طريق الورع، فإنَّه يُنقصه، وهو أنَّه إن أخذ ما توكل على الله فيه، وفوض إليه أمره به، ثُمَّ رُدَّ عليه، لم يُستحبَّ له فى الورع أن يتملَّكه، ولا أن يرجع فيه فى حسن الأدب؛ لأنه قد كان جعله صدقةً فى سبيل الله، فإن رجع فيه لم ينقص ذلك توكله؛ لأنه قد صحَّ تفويضه إلى الوكيل فى الحالين معًا، فيكون رده عليه - لأنه قد كان وهبه له، وإنما روعه بِقَدِّه - بمنزلة ابتداء عطاءٍ منه.

(١) من قوله: «وهو وجد الراضين» زيادة من (م).

(٢) عبارة (م): «لم يضره بتبقيته شيئًا، وكان له أجور بما ذكرناه من الأعمال الصالحة بالنيات التى وُضِّعنا». وعبارة (د): «لم يضره بتبقيته شيئًا، وكان له أجرًا لما نواه».

(٣) فى المطبوعة: «ينفعه».

وقد رُوينا أنّ ابن عمر سرّقت ناقةه، فطلبها حتى أعيّا. ثم قال: فى سبيل الله. فدخل المسجد وصلى ركعتين، فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن، إنّ ناقةك فى مكان كذا، فلبس نعله وقام، ثم نزعها، ثم قال: أستغفر الله، وجلس. فقيل له: ألا تذهب فتأخذها؟ فقال: إني كنتُ قلتُ: فى سبيل الله.

وحُدث عن بعضهم قال: رأيتُ بعضَ إخواني فى النوم بعد موته، فقلتُ: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لى، وأدخلنى الجنة، وعُرِضت علىّ منازلٍ فيها، فرأيتها، قال: وهو فى ذلك كئيبٌ حزين. فقلتُ: قد دخلتَ الجنة وغُفِر لك وأنت حزين؟ فتنفّس الصّعْداء، ثم قال: نعم، إنّى لا أزال حزينًا إلى يوم القيامة. قلتُ: ولمَ ذلك؟ قال: إنّى لما رأيتُ منازلٍ من الجنة رُفعت لى مقاماتٌ فى عليّين ما رأيتُ مثلها فيما رأيتُ، ففرحتُ بها، فلما هممتُ بدخولها نادى مناد من فوقها: اصرفوه عنها، فليست هذه له، إنما هذه لمن أمضى السبيل. فقلتُ: وما إمضاء السبيل؟ قيل لى: قد كنتَ تقول للشئ إذا ذهب منك: فى سبيل الله، ثم ترجع فيه، فلو كنتَ أمضيتَ السبيلَ لأمضيناها لك.

وقد^(١) اختلف أهلُ الرأى وأهلُ المعرفة فيمن ظلمَ بمظلمته. فقال بعضهم بما ذكرناه من تحليل الظالم والعفو عنه. وقالت طائفة من أهل التوكل: بل إرجاء ذلك إلى الله تعالى وتسليمه إليه وتفويضه، حتى يحكم فيه بما يحب؛ لأنّه منه وله أولى، وأنه أحبُّ إليهم، وعندهم أعلى. من ذلك ما حُدث عن أحمد بن أبى الحوارى، قال: قلت لأبى سليمان: إني قد جعلتُ كلَّ مَنْ لى قبله تبعَةً فى حلٍّ. فقال: بئس ما صنعتَ، إنّما كان ينبغى أن تهبه لله تعالى، فيؤاخذ من يشاء ويعفو عمن يشاء. قال ابن أبى الحوارى: فلم أجبه أنا على هذا، وثبتُّ على الأمر الأول.

شرحُ القولين وبيانُهما: قول سليمان رحمه الله أعلى، وهو معنى من التوكل على الله فى النفس، وهو أرفع أحوال التوكل؛ لأنّه التوكل فى الحكم، وهو من

(١) من قوله: «وقد اختلف أهل الرأى» إلى «وكذلك كان السلف الأول» فى الصفحة التالية: زيادة من (م) فقط.

مقامات الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يوسف: ٦٧]، ولأنّ فيه التفويض والتسليم، وترك الاعتراض، والتحكّم بين يدي المولى، كما قال تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ١] يعنى آراءكم وأهواءكم، ففيه الاستسلام للأحكام، حتى يحكم الله ما يريد، ويقضى بين خلقه ما أحبّ. ووافقه ابن سيرين فى هذا المعنى، لحقيقة ورعه، وكان الرجل إذا قال له: قد اغتبتك فاجعلنى فى حلّ، يقول: لا أحلّ ما حرّم الله، بل حكمه إلى الله.

كذلك كان بعض السلف إذا ظلم بمظلمة أو جنى عليه بجناية، فسئل أن يحلّل الظالم، يقول: بل أجعل ذلك إلى الله، يحكم فيه ما أحبّ. ويقول بعضهم: ليس هذا لى، هو الله، فحكمه إليه يقضى فيه ما شاء. وقول ابن أبى الحوارى أدخل فى السنّة، وأشبهه بطريقة المتقدمين من الأئمة. من ذلك الخبر المشهور: «مَنْ كَانَتْ عَلَيْهِ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ فِى مَالٍ أَوْ عَرِضٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا يَوْمَ الْقِصَاصِ غَدًا، لَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنَّمَا هُوَ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ». ولتجوز الأمة للعفو عن الظالم، وتفضيل العافين عن الناس، فلو لم يكن هذا أفضل ما مدحوا به، ولا فضّلوا بفعله. وهذا مذهب الأكثر، وهو أحبّ إلىّ، لأنّ هذا حقّ لنا، أحقنا الله به، وجعله بأيدينا وإلينا، لغناه عنه، فلنا أن نتحكّم فيه بتحكيمة، ونخلق فيه بمحاسن أخلاقه، كما جاء فى الخبر: «إِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ يُحِبُّ الْعَفْوَ» ويستند إلى السنّة فى قوله ﷺ: «تَوَاهَبُوا مَظْلَمَكُمْ يَوْمَ الْقِصَاصِ غَدًا». مع قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١].

وكذلك كان رأى السلف الأول، كما حدّثونا أن الربيع بن خيثم سرق فرسه، وكان ثمنه عشرين ألفاً، وكان قائماً يصلى، فلم يقطع صلاته، ولم ينزعج لطلبه، فجاءه الناس يعزّونه. فقال: أمّا إنى قد كنت رأيتُه وهو يحلّه. قيل: وما منعك أن تزجره؟ قال: كنتُ فيما هو أحبّ إلىّ من ذاك، يعنى الصلاة. قال: فجعلوا يدعون عليه. فقال: لا تفعلوا، وقولوا خيراً، فإنّى قد جعلتها صدقةً عليه. فلولا أنه اعتقد تحليله والعفو عنه لكان من معاونين له على الإثم والعدوان، وكان قد

خذه وما نصره .

وقيل لبعضهم في شيءٍ قد كان سُرِقَ له : ألا تدعو على ظالمك؟ فقال : ما أحبُّ أن أكون عونًا للشيطان عليه . قيل : أفرأيتَ لو رُدَّتْ إليك سرِّقتُك أكنتَ تأخذها؟ قال : ولا كنتُ أنظر إليها ، إني قد كنتُ أحللتها منها .

وقيل لآخر : أدع اللهَ على من ظلمك ، قال : ما ظلمني أحد . ثم قال : إنما ظلمَ نفسه ، أفلا يكفيه المسكين ظُلمه لنفسه حتى أزيده شرًّا؟

وذهب لبعض المسلمين مال ، فجاء قومٌ يعزُّونه عليه ، فقال : ما تعزُّوني على أمر الدنيا ، فوالله ما حزنتُ على ذهابها فكيف على ذهاب شيءٍ منها؟! قيل : ولم؟ قال : شغلني الشُّكرُ عليه عن الحزن .

وقد كانوا يقولون ، إذا ظلموا من الغصب والسرقة وغير ذلك : هذه نعمةُ الله علينا إذ لم يجعلنا ظالمين بل مظلومين ، وجعلنا أعظم مما فاتنا من الظُّلَّامة . وقد كان السلف يخافون أن يذكروا الظالم بالسَّبِّ له والدعاء عليه ، فيكون ذلك زيادةً على مَظْلَمَتهم . وقد روينا : «من دَعَا على ظالمه فقد انتصر» .

وأكثر بعضهم بشتم الحجاج عند بعض السلف ، فقال له : لا تُغرق في شتمه ، فإنَّ اللهَ ينتصف للحجاج ممن انتهكَ عِرضه ، كما ينتصف منه لمن أخذ ماله .

وفي الخبر : «إن العبدُ ليظلم المظلمة ، فلا يزال يشتم ظالمه ويسبُّه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ، ثم يبقى للظالم عليه مطالبةٌ بما زاد عليه ، يُقْتَصُّ له من المظلوم» .

وقال بعض العلماء لرجل ، وقد كان شكاً إليه قَطَعَ الطريق ، وأخذَ ماله ، فقال له : إن لم يكن غمُّكَ أنَّه قد صار في المسلمين مَنْ يَسْتَحِلُّ هذا أكثرَ من غمِّكَ بمالك ، فما نصحتَ للمسلمين .

وسُرقت من علي بن الفضيل دنانير ، وهو يطوف بالبيت ، فرآه أبوه وهو يبكي ، فقال : أعلى الدنانير تبكى؟ فقال : لا والله ، ولكن على المسكين ، أنه يُسأل يوم القيامة ، ولا يكون له حجة . وقيل لبعضهم في معنى هذا : أدع على من ظلمك ، فقال : إني مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه . وقد كان أبو سليمان يقول : إنما البغضُ لأهل المعاصي عند النظر إليهم عليها ، فإذا تفكَّرت فيما يصيرون إليه من

العقوبة دخلت الرحمة لهم القلب.

فأما القول الآخر الذى اختاره أبو سليمان وأصحابه من رد ذلك إلى الله تعالى وتركه عليه، حتى يحكم فيه ما يريد، فيصلح أن يستدل له بأن يقول: ليس إذا وهب الله تعالى يلزمه ذلك لنا (...)^(١) لفضله وملكننا [لتحصيل] عدله تملكنا نحن وتحكمنا فيه دونه، وهذا لمطالعة الأعواض، والجزاء على الأعمال فى توكل [المعوض] فيها وترك النظر إليها، ونسيان المطالبة والمطالبة على التعويض منها، وإن كان حقاً أحقهم الله به، ونصيياً أنصبه إياهم بفضله وكرمه، فأبو سليمان والعارفون لا يطالعون الجزاء، وإن الله قد جعله لأعمالهم، ويوفيه أجورهم، وقد قال عز وجل: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨ - ٥٩] فمدحهم بأنهم يعملون ويصبرون، ووصفهم بأنهم فى أعمالهم يتوكلون. وهذا مزيد فى التوكل عليه فى النفس، وطرحها بين يديه بلا اعتراض ولا حس، ولا ينظرون إلى علم ولا عمل، فيحتجبون بذلك عن العلم المستعمل، فذهب أبو سليمان إلى مقام الخصوص فى التوكل، بالنظر إلى الوكيل، وتفويض الأمر إليه، وترك التدبير بين يديه، حتى يكون الوكيل هو الذى يعيد كما أبدى، ويبتلى ويعافى كما أبلى، ويحكم فى الآخرة ما يريد كما قدر فى الأوليّة ما أراد.

وذهب الآخرون منهم ابن أبى الحوارى إلى ظاهر العلم من جواز التملك، وأن العبد إذا ملكه سيده ملك، وإذا ملك [تحكم فى ذلك]. وإلى عموم الأخبار فى من عفا عن أخيه ومن عفا عمن ظلمه، ونحو ذلك. ولأن ذلك أيضاً يجده فى الآخرة عند المحاسبة والمطالبة، فيقال له: خذ لمظلمتك، ويعطى ثواب عفو، ويعوّض [بالجنة] عوضاً منها، ويستوهبها الله تعالى منهم، لمن أراد أن يغفر ما له، وفى الخبر: «وديان [لا يبت فيه هو] مظالم العباد». وأن المظالم لا يغفرها الله تعالى حتى يغفرها المظلوم. وهذه كلها أحوال لهذا العموم، وهى أدخل فى معالم الرسوم، وأقرب إلى ظواهر العلوم، ويلزم مع ذلك أصحابها مطابقة الأعواض،

(١) كلمة غير مقروءة، وما بين المعكفات وضعته اجتهاداً منى.

لأنها جعلت لهم أبدالاً من أعمالهم، وتعويضاً على صبرهم، وجزاءً لفعلهم، وهذا طريق السَّابِلَةِ^(١)، والأول طريقٌ لخصوص المتوكِّلَة، كما بيَّناه، وكلُّ يعمل على شاكلته، لكلِّ وجهَةٌ هو مؤلِّها.

• بقية الكلام فى المتوكِّل على الله يؤخذ منه الشئ فيجعله فى سبيل الله ثم يردُّ

عليه:

فإن ردَّ على المتوكِّل كلُّ ما أُخذَ منه، فالأفضلُ له أن لا يتملَّكه، إن كان قد جعله فى سبيل الله؛ ليمضى السبيلُ، فإن كان قد جعله صدقةً على الآخذ، نظر فى ذلك، فإن كان فقيراً، حملة فقره على السرقة والخيانة والحاجة، أمضى صدقته عليه، وإن كان غير ذلك صرَّفها إلى فقير. وهو^(٢) مأجور على الصدقة على السارق والبغى، إذا حملتهما على ذلك الحاجة. كما رُوينا فى الإسرائيليات أن رجلاً تعبَّد، وكان ذا مال، فعزم على إخراجه، فخرج بشيء منه ليتصدَّق به ليلاً، فصادف امرأةً فقيرةً فدفعها إليها، فلما أصبح نظر فى أمرها، فإذا هى بَغِيٌّ، فاغتمَّ، فقال: وقعتُ بيد فاجرة، الحمد لله على ما قضى. ثم خرج ليلةً أخرى بصدقته، فدفعها إلى فقير، فلما أصبح تبيَّن فإذا هو لص، فقال: الحمد لله، وقعتُ بيد لص، ويبد بَغِيٌّ. ثم أخرج صدقةً ليلةً أخرى، فدفعها إلى رجل، فلما أصبح نظر فإذا هو غنىٌّ، فحمد الله على قضائه، واغتمَّ فى وقوع صدقته فى غير أهلها الذين يُحبُّ أن تقع فيهم. قال: فأوحى الله تعالى إلى نبيِّهم ﷺ: قل لفلان: إن الله قد قبَلَ صدقتك، وشكر لك صدق نيتك، وقد وضعتها فى مواضعها، أما البغىُّ فإنه كان يحملها على الفجور الحاجة، فعفَّت عن الفسق بذلك، وأما اللص فكان يحمله على السرقة الفقر، فأغنيته بصدقتك، وأما الغنىُّ فكان بخيلاً لا يُخرج زكاة ماله، فاعتبر بذلك واتَّعظ به.

فهذه حِكْمُ الله تعالى فى الغيب، والُطافُ خفية، ومصالح لطيفة، وحسنُ توفيق لأوليائه، من حيث لا يعلمون ومن حيث لا يحتسبون، كما يستخرج لهم رزقهم

(١) فى المخطوط (م): «السَّابِلَة». والصواب ما أثبت. والسَّابِلَة من الطُّرُق: المسلوكة.

(٢) من هنا زيادة من (م)، إلى قوله: «وفضل أثرته لهم».

من الحرام والحلال، وكما يُشهدهم الحقَّ والعدل من الباطل والمحال، وكما يُعلمهم الفهوم ويعهد لهم العلوم من الجهال، بحسن عنايته بهم وفضل أثرته لهم^(١).

وقد كان بعضهم إذا أخذ له الشيء، يشترط فيقول: إن كان فقيراً فهو صدقة عليه، وإن كان محتاجاً فهو في حلٍّ.

وقد أخبرني بعضُ الأسيّاح عن شيخ كان بمكة من العباد أنه اتهمه بعضُ الحجّاج بسرقة هِمْيَانِه^(٢)، لأنه كان قائماً إلى جانبه، فقال له: كم كان فيه، فأخبره، فحمله إلى منزله فوزن له من المال، ثم إن أصحابه أعلموه أنهم مزحوا معه، وحلّوا هِمْيَانِه وهو نائم، فجاء هو وأصحابه إليه، فردّوا عليه ماله. فقال: ما كانت لتعود إليّ بعد إذ خرجت، هي لكم. فقلنا: لا حاجة لنا فيها. فقال: خذوها. قال: فأبينّا. فقال: يا بني، ودعا ابناً له، وجعل يصرّها صرّاً، ويبعث بها إلى قوم، حتى فرغ منها. وهذا كانت نيته إخراجها لله سبحانه، فلم يعدّ فيما أخرجه. كما نقول فيمن أخرج رغيّاً إلى سائل، أو أعدّ درهماً لفقير فلم يصادفه: إنّنا نستحبُّ أن لا يرجع إلى ملكه، بل يعزله لسائل آخر، أو فقير غيره. لم يزل هذا من أخلاق المؤمنين. وقد رأينا من كان بهذا الوصف، وهذا طريقٌ قد عفا أثره، ودرّسَ خبره، فمن عمِل به فقد أحياه وأظهره. وقد كان قديماً طريقاً إلى الله تعالى عليه السّابِلةُ من الأولياء^(٣).

• ذكر بيان آخر من أحكام التوكل وصحة وقوعه:

اعلم أن التوكّل على الله لا يمنع دخول اللصوص، ولا يدفع وقوع الأقدار للبلوى بمحن الدار وللاختبار للمعرفين الأخيار.

قال أبو اليزيد - قدس الله روحه - وهو من أعلى المتوكلين: ما سافرتُ في

(١) إلى هنا تنتهي الزيادة من (م).

(٢) الهميان: كيس للنفقة يُشد في الوسط. الجمع: هماين، وهمايين.

(٣) بعده في (م): «وقد كان أبو سليمان الداراني يشدّ في التوكل، ويقول: لو توكلنا على الله ما بنينا حائطاً، ولا جعلنا لباب الدار غلقاً مخافة اللصوص، ولذلك كان (كلمة غير مقروءة) التوكل. ويقول: في كل المقامات لى قدم إلا التوكل، فما لى منه إلا مشام الرّيح».

قافلة قط إلا قطع على الطريق. وقال آخر من نظرائه: ما خرجتُ في سَفَرٍ قط ومعى سبب إلا سلَّط على مَنْ يأخذه، حتى أبقي مع الله بالله، مُجَرِّدًا بلا سبب. فهذه آيات يردُّ الله بها أولياءه إليه، وتسليطات يدلُّهم بها عليه، وتعريفات يَنْبِهم بها ليرجعوا إليه.

• بيان آخر من أحكام التوكل^(١) :

اعلم أنَّ التوكل على الله في الأسباب لا يوجب بقاءها للعبد، ولا إثارة بها، ولا حفظها عليه، ولا يقدم شيئًا عن شيء، ولا يؤخره لصالح دنيا أو اختيار عبد، بل هو إلى الإذهب والإتلاف أقرب؛ لأنَّ التوكل قرينُ الزهد وثمرته، فهو يردُّ المتوكل إلى أصله، فالإتلاف والعدم إلى الزهد أقرب، ومن حظوظ النفس أبعد، وإلى البأساء والضراء أدنى، وذلك وصفُ صادقِ المتقين، فتدبر. فلأجل اختيار صدق العبد، وامتحان تحقُّقه بالمقام، يقع التسليط، ليرجع إلى الله تعالى، ويستغيث من خللٍ يدخل في المقام أو تفريط. ولأجل أن ينفي الشيء هو من الدنيا، لقوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الشورى: ٣٦]. فإن ذهب ماله فصبر أو شكر أو رضى، كان صادقًا في توكله. وهذه أحوال صادق المتوكلين. وإن جزع أو سخط أو كفر لنعمه بذلك لجهله بباطنها وغفلته عن حسن عواقبها، كان من كاذبي المدعين؛ لأنَّ هذه الأحوال وصف المتواكلين، وهو ضدُّ المتوكلين.

فإن اضطربت نفسه، وتشتت همُّه، واختلف عليه في ذلك حاله، لزِمه من مجاهدة النفس مثل ما يلزمه من مجاهدتها عند دخول الآفات في سائر الأعمال حتى ينفى عنها، ويصفى أعماله من كدرها. فإن حفظ عليه ماله، فقد رفقَ به في ذلك، وسرَّ عليه عن كشف حقيقة حاله بتلف ذلك، وجعل ذلك كرامةً له من الدنيا؛ ليطمئن قلبه بها ونعمه عليه من المعيشة لتسكن نفسه معها. وهذا مقام الضعفاء، وطريق العرج والزمنى، وليس من التوكل في شيء. وإن تلف ماله، وذهبت دنياه؛ فقد أُقيم مقام أهل البلاء، الأمثل فالأمثل بالأنبياء، وهذا مقام

(١) هذا العنوان من نسخة (د).

الأقوياء، وطريق السالمين الأصحاء. ولولا الامتحان لكثُر الصادقون، ولولا الإخراج من المعتاد والمألوف لكثُر الصالحون، فالله تعالى قد قلَّ لهم بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]. وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبا: ١٣]. هذا لأنهم مُحسنون، وقد قال: ﴿كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُّحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا﴾ [الذاريات: ١٦ - ١٧].

وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ لِيَقَىٰ مَالَهُ، أَوْ لِيَسَلَّمَ خَوْفُهُ فِيمَا تَوَكَّلَ عَلَيْهِ، فَيَكُونَ تَوَكُّلُهُ لِأَجْلِ هَذَا، وَبِهَذِهِ النِّيَّةِ كَانَ قَصْدُهُ وَوَجَدُهُ، فَهُوَ جَاهِلٌ بِاللَّهِ، مَغْتَرٌ بِنِعَمِهِ، غَيْرُ ذَاكِرٍ لِآلَائِهِ، وَلَا عَارِفٌ بِأَفْعَالِهِ وَبِلَائِهِ، احتاج إلى توبة واستغفار من توكُّله، إذ أراد أن يمحو بتوكُّله ما ثبت من الأقدار، وأحبَّ أن يُبدِّلَ اللَّهُ سُنَّتَهُ مع ساكني الدَّار. فنقصانُ توحيدِهِ وضعفُ إيمانه بهذه الأصول أشدُّ وأخزى عليه من مَزِيدِهِ وتقويته بتلك الفروع.

وإذا تَوَكَّلَ المتوكلون على الله؛ لأن الله يحب المتوكلين، ولأمره بذلك، وجعله التوكلَ عليه من شرط الإيمان به في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، فلأنَّ المتوَكِّلَ ينظر بعين اليقين، فيشهد يد الوكيل قابضةً على نواصي الخليفة في الدارين، وأن الصنعة بيده، فأخرجت من ملكوته بقلبها ظهراً لبطن، ونفعاً وضراً، وخيراً وشرّاً، لقوله تعالى مخبراً عن التوكل: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَّا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦]. وقال في المجمل: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس: ٨٣]. فلما شهد بعين يقينه ذلك، اضطرتته الشهادة إلى التوكل، ولات حين مناص؛ لقلته عنه بشهادة العلم بالحق، كلاً لا وزر؛ لعقله منه، لقيومية اليقين بالحقيقة، لذلك يقول: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]. ولذلك قال: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٣ - ٥٤]. حينئذٍ تَوَكَّلَ عليه به، وله، وعنه؛ لا

لأجل سواه، ولا لمعنى من آخرته ودُنياه، ثم رمى توكله وراء ظهره، فلم ينظر إليه أمامه، فيصير حجاباً بينه وبين وكيله، يقطعه عن النفاذ إليه، ويمنعه من المزيد منه، أو يحجبه عن الشهادة له، فسقط عنه الغمُّ اليوم لما وقع، وزال عنه الغمُّ غداً لما يتوقع عنه، صار رُوحانياً بروح رِيحانياً لريحان، لا ينظرُ إلا إليه، ولا يعولُ^(١) إلا عليه، حتى يحيا به، متروِّحٌ بريحانه، مُقَرَّبٌ من صفاته، مكاشفٌ بسرائر مخبَّاتِهِ، هناك تحقُّ بقول الوكيل: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١١]، فأمر العموم من المؤمنين بالتوكُّل فى الأشياءِ عليه بالعقود، وخاطب الخُصوص من المقربين والشَّاهدين بالتخصيص، ولم يرضَ منهم إلا بالوجود بعد الشُّهود، لأنهم سامعون مستجيبون، كما قال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ فهم الأحياء اليوم بعلمهم له ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦] غداً إليه. وقال للمقربين، وهم متوكلو المتوكلين: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢] أى من توكَّل عليه فى الأشياء، فقام لشاهد توكُّله، فليتوكل عليه فى توكله بشهادة الحقِّ، بالغيبة عن شاهده، كما قال فى وصف شُهداء العلماء بشهادته من شهادته: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، فهؤلاء الشاهدون على شهادته، ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣] فهؤلاء عمالُه به، الصابرون له وعليه، ثم توكَّلوا فى الأعمال والصبر، ولم ينظروا إلى توكلهم، وولَّوه منهم الظَّهر؛ لأن من نظر إلى سواه احتجب عنه بنظره، فضلاً عن منظوره، فهم الموصوفون فى قوله تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [العنكبوت: ٥٨ - ٥٩]، عملوا لمولاهم، وصبروا لوليِّهم، ثم توكَّلوا عليه فى صبرهم، وإنما حال المتوَكِّل الرضا بمرِّ القضا، ووجدُ حلاوة الصبر عسلاً شرياً، له يساقيه لذوق حلاوة محبَّته وما يُرضيه، كما قال الحكيم: مرَّ أفعاله، فزاد بها حلاوةً فى القلوب إذ مرَّ، وكدرَ صفو الشَّرابِ سطوته، فقد شربنا به الذى كدرَ.

(١) يمكن أن تقرأ فى الاصل المخطوط: «ولا يحلف».

فإذا كان حال المتوكل الرضا بجريان القضاء، والمحبة لمواقع البلا، [فما] بقى ماله، وسلم سببه الذى توكل عليه عنه، أو عَطِبَ، إذ كان محبةً وكيله فيه، ورضاه به، فما عوضه من موافقة محبته وحلاوة رضاه أفضل من إتلاف نفسه ودينه.

ولا تصح له هذه المشاهدة، ولا يحق له هذا الوجد، حتى لا يريد من الملكين سواه، فهذا حيثئذ أفضل القربات إليه، والمتوكل بعدئذ أزلف المقربين لديه، كما قال بعض العارفين، وقد سُئِلَ عن أفضل ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى: أن يطلع على قلبه وهو لا يريد من الدنيا والآخرة غيره. فإذا أُقيم هذا المقام من التوكل، ورثه ذلك حسن الخلق، مع الخالق أولاً، ثم مع الخلق ثانياً، فأعقبه الحكم والسخاء، وقَلَّتْ وساوسه فى صلاته، وصَفَتْ له جميع أوقاته.

فإذا كان المتوكل هكذا جاذباً فى توكيله، دائم النظر إلى وكيله، لم يضره غَلَقُ بابه، ولا ما تعلق به من أسبابه، للحكمة والصنع الذى أتقن كل شىء، ولقيامه بقيومية القائم فى كل شىء، فهذا دُنْيائى الجسم، آخرى القلب، ملكى الحواس، ملكوتى الأنفاس، يُشبه الناس فى الشَّمائل واللبس، ويُبَيِّنُهُم فى الجوهرية والأنس، فهو فى نعيم النعيم، وجنة الجنة، وروح الروح، وريحان الريحان. وهذا لا يصفه إلا من يعرفه، ولا يعرفه إلا من أوجده، ولا يجده إلا من أفردّه. والإيمان به مزيد هدى المهتدين، ويزيد الله الذين اهتدوا هدى.

وكذلك القول فى التوكل على الله فى ترك التداوى، لا يجلب العوافى ولا يُعَجِّلُهَا^(١)، ولا ينقص من الأسقام ولا يذهب التشبُّث بها والاهتمام، وقد يكون إلى الزيادة من الأمراض أقرب، للتمحيص والبلوى، ولنقص النفس بالضرِّ واللأوى، أى: ﴿وَلِيَمْحَصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمَحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١].

فمن لم يشهد نقصان الدنيا من النفس والمال، نعمةً من الله فى الحال وحسن عقيبى فى المال، يوجب عليه الشكر، ويتعبد بالاعتراف لها أنها من البرِّ لما يؤول

(١) عبارة الأصل: «لا يجلب ولا يعجل العوافى».

إليه من جزيل الذُّخْر - فما فاتهُ من الجَهْلِ برَبِّه، والكُفْرِ بنعمته، وإضاعةِ الشكر المأمور به، أعظمُ ممَّا يُدرك من جميع الدنيا لو جُمعت له، وأخافُ عليه بذلك لطيفةً من المحقِّ، والمحقُّ نقصانُ الشىءِ إلى ذهابِ جملته عند الكفر بباطن نعمته، لقوله تعالى: ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١]، واللهُ أعلمُ أى شىءٍ يمحقه وينقصه بمقدار ما كَفَرَ شُكْرَ نعمته، فظاهرُ الكلمةِ كفر التوحيد، وباطنه كفر تغطيه عين التفريد، كما ظاهر النعم العوافى والغنى، وباطنها البلاوى والفنى.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]. ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠]. فظاهره أعمال الجوارح، وباطنه همم القلوب اللوائح، العاديات الروائح.

وقد قال تعالى فى المحكم المفسر: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]. فهذا النقص من هذه الخمس التى الميزد منها هو جملة الدنيا، هو الميزد من الآخرة؛ لأنها ضد الدنيا، كما قال تعالى: ﴿زِينَةَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ ثم نسق السبع صفات، ثم ترجمها بتفسير بها فقال: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَاَبِ﴾ [آل عمران: ١٤ - ١٥]، ثم أخبرنا بخير منه عنده ولنا، فقال: ﴿أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، وذكر الجنة وما فيها للمتقين، ثم وصفهم بصفات خمس فقال: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، ثم أجمل ذلك وجمعه للمتوكلين عليه، وأخبر أن الآخرة التى هى خير وأبقى للمتوكلين من المؤمنين، وهم الذين لم يُسلط عليهم عدوة، بل سخره لهم، فانقطع سلطانه عنهم، حين اتصل همهم به، ودوام نصره لهم، فقال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩]. كذلك قال: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦]، فادبروا!!

فهم الصابرون عن دنياهم وأهوائهم توكلاً على مولاهم، بحسن ظنهم به،

وصدقوا في توكلهم، فعلا إلى الصادق مقامهم، وقتتوا في صدقهم، وهو حسن القيام بالشهادة، ودوام الطاعة وخالص العبادة، وأنفقوا مما يحبون؛ وهى نفوسهم النفيسة، فلم يتنافسوا في عاجل حظها، فأنفقوها حتى أفنوها، فسقط عنهم بقاء الأسباب بعد فناء النفس، إذ لها يحبون العاجلة ويذرون الآخرة، ثم استغفروا بالأسحار، فذنوبهم حسنات الأبرار، إذ قد كوشفوا بغيوب الأسرار.

فالصبر أول مقام في التوكل، وهو عند مشاهدة القضاء أفضوا للحكم؛ لأنه بالصبر.

والشكر أوسط مقام، وهو أعلى عند شهود البلاء نعمة، فشكر المنعم بها إذ كشف عنه الغطاء.

والرضا فوق ذلك، وهو نهاية التوكل عند المحلولى القدر، وهذا مقام المحبين من المتوكلين.

فأهل العقل عن الله، والمتقون له، هم المتوكلون عليه، وقد زهدهم فيما يفنى بترغيبه إياهم فيما يبقى، حتى فهموا الخطاب، إذ هم أولو الألباب، لما أضاف ما عنده إليه؛ ليرغبوا فيه، إذ وصفه بوصفه، وأضاف ما عندهم إليهم؛ ليزهدوا فيه، إذ نعتهم نعتهم، فقال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]. فزهدوا في نفوسهم، فباعوها منه، وكانوا فيها من الزاهدين، كما قال: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠]. ولا زهد فيها قبل بيعها، فكيف يملكون ما عنده، والعبد وماله لسيده، والله تعالى قد اشتراها منهم، لرغبتهم فيه، وحبهم له، وعوضهم منها ما يبقى، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآنَ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١] فجعل لهم نصيباً منه بدلاً من أنفسهم، وجعل لهم حظاً من داره دار السلام عند ربهم، وهو وليهم، عوضاً من مالهم، ثم وصفهم لنا لنعرفهم فقال: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] إلى آخر نعتهم. فهذه صفات النفس المشتراة، والبائعة عاجل حظها بأجل رضاه، وبشر المؤمنين، وبشر المخبتين.

• ذكر بيان آخر من فضيلة المتوكل،

اعلم يقيناً أن الله تعالى لو جعل الخلائق كلهم من أهل السموات والأرضين على علم أعلمهم به، وعقل أعقلهم عنه، وحكمة أحكمهم عنده، ثم زاد كل واحد من الخلائق مثل عدد جميعهم وأضعافه علماً وحكمة وعقلاً، ثم كشف لهم العواقب، وأطلعهم على السرائر، وأعلمهم بواطن النعم، وعرفهم دقائق العقوبات والنقم، وأوقفهم على خفايا اللطف في الدنيا والآخرة، ثم قال لهم: دبروا الملك بما أعطيتكم من العلوم والعقول عن مشاهدتكم عواقب الأمور وإطلاعكم على سرائر المقدور، ثم أعانهم على ذلك وقوَّاهم له، لَمَّا زاد بديبرهم على ما يراه من تدبير الله تعالى من الخير والشر والنفع والضرر جناح بعوضة، ولا نقص جناح بعوضة، ولا أوجبت العقولُ المكاشفات ولا العلومُ المشاهدات غير هذا التدبير، ولا قضت بغير هذا التقدير، الذي يعاينه ويُقَلَّب فيه، ولكن لا يبصرون؛ لأنه أجراه على ترتيب العقول، وعلى معاني العرف والمعتاد من الأمور، بالأسباب المعروفة والأواسط المشهورة، على معيار ما طبع العقول فيه، وجبل المعقول عليه، ثم غيَّب مع ذلك العواقب، وحجب السرائر، وأخفى الثواب، فغاب بعينها حسن التدبير وجميل التقدير، فجهل أكثرُ الناس الحكم إلا المتوكلين، وما يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]. وهذه شهادة المتوكلين، وهي مقامات النبيين، وفيها تجولُ أرواح الموتى من البرزخيين، وسترى ما أقولُ بعد كشف القضاء ومحو الطُّلُولِ، وبعد خروج اليقين من الرُّوح، ودخول رُوح التَّأْيِيدِ على نور الإيمان بروح اليقين.

يقال: أصغرُ ما خلق الله من الحيوان والمواتِ البعوضةَ والخردلةَ، ففي كل واحدة منها ثلاثمائة وستون حكمة، ثم تترايدُ الحكمُ في المخلوقات على قدر تفاوتها في العِظَمِ والمنافع.

• مزيد آخر من الهدى والبيان،

لو تمنى أهل النُّهى من أولى الألباب الذين كُشِفَ عن قلوبهم الحجابُ نهاية الأمانى، فكوُنت أمانيتهم على ما تَمَنَّوْا، لكان رضاهم عن الله في تدبيره،

ومعرفتهم بحسن تقديره، خيرٌ لهم من كَوْنِ أمانيتهم، وأفضلُ لهم عند الله، من قَبْلِ أَنْ اللهُ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ. وقد قال سبحانه مُوبِخًا لِلْإِنْسَانِ مُجَهَّلًا لِتَمَنَّى لِقَلَّةِ الْإِيقَانِ: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى * فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ [النجم: ٢٤ - ٢٥]، أى يحكم فيهما بترك الأمانى؛ لأنه قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]. هذا لسوء عملهم بالتدبير، وقوة جهلهم بعواقب المصير، واختلاف أهوائهم فى معانى التقدير.

فالتوكلُ محبٌ لله تعالى، مسرورٌ بربه، فرحٌ له بمُلْكِهِ، مستسلمٌ فى جميع الأمور بأنَّ له الآخرة والأولى، يحكم فيهما بما شاء، كيف شاء، إنه على كل شىء قدير، والعبد جاهل عاجز لا يقدر على شىء.

فهذا أول مقام فى المحبة، وأوسط حال فى التوكل، فقد كُفِيَ الخلائقُ هذا كله بحسن تدبير الخالق العليم الخبير البصير، وإنما يحتاجون إلى معرفة بالحكمة، ومشاهدة للحكم والقُدرة، وإلى بصيرة ويقين بالرحمة والنعمة يقع بهما فى القلوب تَسْكِينٌ.

ولا يضطرب هذا الذى ذكرناه عند الموقنين اليوم، بعد كشف حجاب العقل، وسقوط سلطان النفس، وسيطَّلِعَ العُموْمُ على سرِّ ما ذكرناه من لطيف التدبير وباطن التقدير، وهو سرُّ القدرِ ولطائف المقدَّر عند كشف الغطاء فى الآخرة عند المعاينة، وظهور ما تحته ومعاينة ما وراءه من عجائب الخَبِّء فى السموات والأرض. وقد أطلع الله على ذلك العلماء به فى الدنيا قبل الآخرة، وهو محمود مشكور، له الحمدُ فى الأولى على ما أظهر، وله الشكر فى الآخرة على ما أخفى وستر. ففى كل واحد منهما نعمةٌ سابغةٌ، ورحمةٌ واسعةٌ، وحكمةٌ بالغةٌ، ولكن قد خلق الله العلماء بأخلاقه، فليس يكشفون من سرِّه إلا بقدر ما كشف، وليس يعرفون من وَصْفِهِ إلا من حيث عُرِف. وقد فَهَمُوا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]. فقد تأدَّبُوا بهذا الخطاب، وَوَقَفُوا عنده، وَعَقَلُوا قول المبلِّغِ الرسولِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ الْبَيَانَ كُلَّ

البيان». وحقيقة بيان البيان محرمٌ عند ذوى الإيقان؛ لأنه يرفع حجابَ الإيمان، ويحلُّ عقلَ العقلِ المعقول بالرسوم للصنع والإيقان. وليس ما ذكرناه شهادة الصالحين، لأنَّ مقام الصالحين يُقصر عن شهادة الشاهدين، وقد سمع النبي ﷺ رجلاً يقول: اللهم أرني الدنيا كما تراها، فقال: «لا تقل هكذا، فإن الله لا يرى الدنيا كما تراها. ولكن قل: اللهم أرني الدنيا كما يراها الصالح من عبادك». والصالحون في الغرفات آمنون، والشهداء عن ربهم، والله غالبٌ على أمره، ولا قوة إلا بالله.

وكان أبو سليمان الداراني يقول: إذا لاحظت الأشياء من فوق وجدتَ لها طعماً آخر. وقال بعض العارفين: إذا رأيت الأشياء كلها كشيء واحد، من معدن واحد، بعين واحدة، رأيت ما ترى قبل ذلك، وسمعت ما لم تسمع، وفهمت ما لم تفهم الخلق. وقال بعضهم: لا ترى العجب حتى ترى عجباً، فإن لم تر عجباً رأيت العجب.

• ذكر بيان آخر من وصف المتوكلين:

اعلم أن العلماء بالله سبحانه لم يتوكلوا عليه لأجل أن يحفظ لهم دنياهم، ولا لأجل تبليغهم مرادهم، ولا ليشترطوا عليه حسن القضاء بما يحبون، ولا ليبدل لهم جريان أحكامه عما يكرهون، ولا ليغيّر لهم سابق مشيئته إلى ما يعقلون، ولا ليحوّل عنهم ماضى سنّته التي قد خلت في عبادته من الابتلاء والاختبار إلى ما يعلمون، بل هو أجلُّ في قلوبهم من ذلك، وهم أعقل عنه وأعرفُ به من هذا. لو اعتقد عارفٌ بالله أحدَ هذه المعانى من الله في توكله كان كبيرةً توجب عليه التوبة، وكان توكله معصيةً، وكان ما فاته من حقيقة التوحيد أشدَّ عليه مما أدرك من توهم التوكل، وإنما أخذوا نفوسهم بالصبر على أحكامه كيف جرت، وطالبوا قلوبهم بالرضا عنه بأى معنى أجرى.

وقال رجل لمالك بن أنس: يا أبا عبد الله، إننى تعلقتُ بأستار الكعبة، فتبت من كلّ ذنب، وحلفتُ أن لا أعصى الله فيما أستقبل. فقال له: ويحك، ومن أعظم معصية منك! تتألّى على الله أن لا ينقذ حكمه فيك.

وأنشدنا بعض العلماء لبعض الحكماء:

لما رأيتُ القَضَا جَارِيَا لا شكَّ فيه ولا مَرِيَّةَ
توكَّلتُ حقًّا على خالقي وألقيتُ نفسي مع الجَرِيَّةِ

وكان سهل يقول: تُلقَى نفسك في اللُجِّ^(١)، وتَسْكُن تحت جريان الحكم. وقال مرة: تكون بين يديه مثل الميت بين يَدَي الغاسل، يقلِّبه كيف شاء.

وإنما كرهوا ما كره الله، طاعةً لله، فذلك كراهة ما كره حبًّا له، والتزامًا لحكمه عليهم، لا كراهة ما قضى، إذ ليس لهم أن يقولوا: لِمَ قَضَيْتَ ما تكره؟! أو كرهتَ ما فضيت؟ لأنَّهم عَرَفُوا بأنَّه يأمر بالشىء ولا يريده؛ للحُجَّة، ويريدُ الشىءَ ولا يأمر به؛ للحكمة، ويفعل الأمر ولا يُحبُّه؛ للاختيار، ويحب الأمر ولا يريده؛ للاختبار. وهذه المعرفةُ معرفته التى حارتُ فيها العقولُ، فارتكبت بالتضليل فيه تجول، فَتَعَلَّقْتَ بالضلال، فأشركت في الحال. والله تعالى فى قلوب أوليائه أَجَلٌ وأعظم، وفى نفوسهم أعزُّ وأهيب، أن يواجهوه بغير ما يُحبُّ، أو يعاملوه إلَّا بما يختاره؛ لأنَّهم المصْطَفَوْنَ الأخيار، ذوو الأيدي والأبصار، أى: القوَى فى الدين، والنَّصر باليقين.

فالتوكلُ لا يتقدم بين يدى الوكيل بقول ولا عَقْدَه، ولا يختار لنفسه بهواه من مَوْجُودِه ولا وَجْد، بل قد عَرَفَ حكمته فَصَبَرَ، ورأى قدرته فتدبَّر، وشهد حكمه به فرضى، وَوَجَدَ قُرْبَه منه فَسَكَن. فتوكلَ أولياؤه عليه؛ لأنَّه يستحقُّ التَّقْوِيضَ إليه، ويستوجبُ التسليم له، إذ كان هو الوكيل الأول، والكفيل الأجل، حين سمعوه يقول: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]. ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣]. وحين فَقَهُوا عنه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. وَلِمَا عَقَلُوا منه خطابه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨]؛ لأنَّه ندب إلى التوكل، وحثَّ عليه، وحقَّق

(١) اللجة: معظم البحر وتردد أمواجه.

الإيمانَ به، إذ سمعوه يقول: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]. ﴿أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣١].

ومن تدبّر الأمر كلما ذكر الله، كان تحقيق الإيمان العمل بالقول.

وعقلوا عنه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦]. فأحقّ على نفسه من نفسه، ورزقها من حيث علم مستقرّها في الشهادة والوجود، ومستودعها في الغيب والعدم، ومستقرّها على ظهر الأرض في الدنيا، ومستودعها في البرزخ للعقبى.

وسمعوا منه: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]، فلم يطلبوه في الأرض. ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧]، فلم يبتغوه من الخلق ولا عبدوهم. تعسّ عبد الدينار، وعبد الزوجة.

ثم أقسم بنفسه على فعله بقسمه: ﴿فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣]، فتوكلّوا عليه في القسم استحياءً منه وثقةً به، لما أوجدتهم من اليقين الذي كشف عن الشرك، فخافوا من التهمة له، فاعتمدوا عليه. فمنهم من توكل عليه لأجل هذه المعاني كلّها، ومنهم من توكل لمشاهدة بعضها. فكل عبد توكله عن الوصف الذي به عرفه، وكلّ عرفه عن التجلّي الذي به كاشفه، وكلّ يطيعه بقرب قرب، وبتوّلّه له، وكلّ يقرب على قدر علمه بقربه إليه، وكلّ يعلم قربَه بقدر ما أشهده من كيفية كينونة وجوده في مكنون كيانه، وكلّ يعرف ذلك بقدر عنايته به، ومحبّته له، ومن ورائه سرُّ القدر المغيَّب المستأثر.

فشهادة كلّ عبد من مقامه وحاله عن وجد شهوده بقدر قرب موجوده، وجزاؤه نحو معاملته، وجميع المعاملات مقيدة بميزان التوحيد، لسانه اليقين، وكفّته المعرفة والمحبة، فتوزن هذه الأربع من الثقل والخفة، بثقل الأعمال وبخفّتها، ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]. ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٣]. ﴿لَهُمْ

دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ [الأنعام: ١٢٧]. دار السَّلَامِ تجمعهم، وهم متفاوتُونَ فِي دَرَجَاتِهَا عِنْدَ جَامِعِهِمْ، كدَار الدُّنْيَا تَكْتُمُهُمْ وَهُمْ لَدَيْهِ، يَرْفَعُهُمْ فِي مَلَكُوتِهَا بِتَخْصِيصِ التَّوَلَّى وَحُسْنِ الْوَلَايَاتِ عَنْ تَحْسِينِ الْمَعَامَلَاتِ، ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

ومن الأولياء من تَوَكَّلَ عَلَيْهِ تَعْظِيمًا لَهُ وَإِجْلَالًا. ومنهم من تَوَكَّلَ عَلَيْهِ ثَقَّةً بِهِ، وَتَنْزِيهًا لَهُ؛ لِأَنَّهُ عَنِ سَوْءِ الظَّنِّ يَتَعَالَى. ومنهم من تَوَكَّلَ عَلَيْهِ يَقِينًا بِوَعْدِهِ، لِتَحَقُّقِ صَدَقِهِ، كَأَنَّهُ أَخَذَ الْمَوْعُودَ بِيَدِهِ، إِذْ يَقُولُ: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]، ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ [مريم: ٦١]. ومنهم من تَوَكَّلَ عَلَيْهِ حُبًّا لَهُ. ومنهم من تَوَكَّلَ عَلَيْهِ اسْتِسْلَامًا لِمَا شَهِدَ مِنْ قَهْرِ عَزَّةٍ، وَعَظِيمِ قُدْرَةٍ. ومنهم من تَوَكَّلَ عَلَيْهِ خَوْفًا مِنْهُ. ومنهم من تَوَكَّلَ عَلَيْهِ لِحَسَنِ ظَنِّهِ بِهِ، وَصِدْقِ رَجَائِهِ لَهُ. ومنهم من تَوَكَّلَ عَلَيْهِ لِيَحْفَظَهُ فِيمَا اسْتَحْفَظُهُ فِيمَا لَهُ عَلَيْهِ. ومنهم من تَوَكَّلَ عَلَيْهِ لِقِيَامِهِ بِشَهَادَتِهِ عَنْ حُسْنِ مَعْرِفَتِهِ. ومنهم من تَوَكَّلَ عَلَيْهِ تَسْلِيمًا لَهُ عَنْ جَمِيلِ مَعَامَلَتِهِ. ومنهم من تَوَكَّلَ عَلَيْهِ اسْتِسْلَامًا لِمُعَايَنَةِ قُدْرَتِهِ. ومنهم من تَوَكَّلَ عَلَيْهِ لِحُسْنِ تَدْبِيرِهِ عِنْدَهُ، وَمَحْكَمِ تَقْدِيرِهِ. وَكُلُّهُمْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ تَوْحِيدَهُ لَهُ، وَشَهَادَتَهُ قِيُومِيَّتَهُ، وَذَلِكَ بِقَبْضَتِهِ.

فهذه كلها مَوَاجِدُ أَوْلِيَائِهِ، وَمَنَاهِجُ أَحْبَائِهِ، عَنْ مَشَاهِدَةِ الْقُرْبِ، وَمَعْرِفَةِ الْقَرِيبِ. وَبَعْضُهَا أَعْلَى مَقَامًا مِنْ بَعْضٍ، وَبَعْضُ هَذِهِ الْمَشَاهِدَاتِ أَقْرَبُ وَأَرْفَعُ. فَأَعْلَاهَا مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ لِلْإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ. وَأَوْسَطُهَا مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ لِلْمَحَبَّةِ وَالْخَوْفِ. وَأَدْنَاهَا مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ تَسْلِيمًا لَهُ، وَتَحَبُّبًا إِلَيْهِ.

وقد ذكرنا أيضًا مَنْ تَوَكَّلَ الْعَمُومُ مَا يَسْتَحْيِ الْعَارِفُونَ مِنْ ذِكْرِهِ، وَيَنْزَهُونَ قُلُوبُهُمْ عَنْ فِكْرِهِ؛ وَهُوَ التَّوَكُّلُ عَلَيْهِ فِي الْقُوَّةِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْمُقَيَّتُ كَمَا هُوَ الْمُحْيَى الْمَمِيتُ، وَكَمَا يَحْيِي وَيَمِيتُ كَذَلِكَ هُوَ يَرْزُقُ الْقُوَّةَ، فَيُقَيِّتُكَ.

وقد طوينا ذكر تَوَكُّلِ خُصُوصِ الْخُصُوصِ مِنْ صَدِيقِي الْمَقْرَبِينَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَحْمِلُهُ عَقْلٌ عَاقِلٌ، وَلَا يَسَعُ أَنْ يُسْتَوْدَعَ فِي كِتَابٍ نَاقِلٍ، إِذْ رُبَّمَا نَظَرَ فِيهِ مَنْكَرٌ

جاهل؛ لأنه لا يُعقل بمثل هذا العقل، وكلُّ عاقلٍ فقد عَقِلَ بعقلٍ مثله، فعقل الهِرِّ والشَّاةِ، لا يُعقل به السَّبُعُ والفيلُ، فتفكروا.

فتوكَّلْ مَنْ عرفهُ لأجله، ورجب فيما أحب لوصفه، يطلبون بذلك رضاَهُ؛ لينالوا به زُلْفَى وحُسْنَ مآبٍ من إِيَّاه.

• ذكر ما لا ينقص المتوكل في توكله:

ولا ينقص المتوكلَ على الله مسألته مولاهُ ما أحبَّ من صالح الدنيا ومزيد الآخرة، إذ لم يقصد غير مطلوب، وكان في ذلك مفوضاً إلى الله الأمور، ولكن يحتاج إلى معرفة الإجابة؛ فقد يكون المنع إجابةً وعطاءً وقربةً، إذا كان العطاء شاغلاً عنه، وقاطعاً للعبد، ومُبعداً له؛ لأنَّ الخيرةَ فيما لا يعلم العبدُ، وقد يكون الاختيار في مكاره النفس.

فمما يعلم الله حُسْنَ عاقبته، لا فيما يعقل العبدُ عاجل منفعة، فعليه التسليم لحكم الحاكم، والرضا بقسم القاسم، فإن سأل تكاثراً من الدنيا، وما لا يحتاج إليه، ومما ليس فيه صلاح قلبه، ولا قُربه من ربِّه، أخرجته من حقيقة التوكل بقدر ما يخرجته من الزهد. وإن اقتطع بالذكر عن المسألة، أعطى فوق عطاء جميع من سأله. وإن سكت حياءً من الوكيل، إذ هو حَسْبُهُ، فشهد الكفاية، وغنى بوصفه، فقد وفَّى بعنده، فهذه ملَّةُ أبيه إبراهيم اتبعها: ﴿وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]؛ أى بقوله: حسبى الله، لما ألقى فى كَفَّةِ المنجنيق، فعارضه الروحُ الأمين، فقال له: ألك حاجة؟ فقال: لا. فقال الله: ﴿وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ قوله: حسبى الله، فشهد الوكيل عنده، فأحسبه من غيره وجده، وكذلك قال المتوكلون من الصَّحابة: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. لما رأوا الوكيل أحسبهم قُربه، وأنعمهم وَصفه: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ آلِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤]. وكذلك قال مؤمن آل فرعون: ﴿وَأَفْوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤ - ٤٥].

وهذه مقامات في المواجهة عن مشاهدة القيومية، ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾

[البقرة: ١٤٨].

ولا يقدح في التوكل تشرف المتوكل إلى رزقه؛ لأنه خلق ضعیفاً، ذا فاقة، ورزقه معلوم لا بد منه، والمعلوم مقسوم، وتشرفه إلى القسم تشرف منه إلى القاسم، ومن تشرف إلى مولاه شرفه وتولاه. ولو قدح تشرفه إلى رزقه في توكله لم يصح تصرفه في المعاش، وقعوده بالتجارات والصنائع، وفيها انتظار للرزق، وتطلع إلى القسم من القسام.

ولكن إن تشرف إلى الزيادة، وخرج من القناعة، وطلب العادة، أو أراد الشيء قبل وقته، أو كره تأخيرهُ إلى وقت مقدورة، فإن هذا يقدح في توكله، ويُقص من زُهدِهِ.

ولو كان التطلع إلى الرزق مُبهماً، والمتطلع إلى الرزاق مُجملاً، يُنقص التوكل، لعلنا^(١) من قعد في السوق ينتظر من الله أن يسوق إليه رزقه من الباب الذي أدخله فيه، وبالسبب الذي يسره له، وإذا لجهلنا من يُعالج من علل بالدواء؛ لأن في ذلك كله تشرفاً إلى الرزق، وتطلعاً إلى البرء. وفجاً^(٢) من ذلك تضعيف المتابعين من السلف الأول، وطعن على المتداوين من الخلفاء الأمثل من الصحابة والتابعين، وأخرجناهم بذلك من التوكل والزهد، وقد أدخلهم الله فيهما بفضله.

ولكن من تشرف إلى شخص، أو تطلع إلى يقين سبب اعتاده، أو سكن إلى المألوف، نقص ذلك من توكله.

ولا يُخرجه من التوكل مطالعته للعوض على معاملته من جزاء الآخرة؛ لأنه قد شوق إلى ذلك، ونُذِب إليه، ومن اشتاق إلى ما شوق إليه، أو تطلع إلى ما وجّه به، لم ينقصه في مقامه، وقد يكون مزيداً على قدر حاله، إلا أنه لا يُدخله في إخلاص المحبين، ولا يرفعه إلى درجات المقربين من العارفين.

(١) أي جعلناه معلولاً في توكله، أي ذا علة.

(٢) فجاً: فتح. وفي المطبوعة: «فجاء» وهو تحريف.

ولا يصح التوكل إلا بزهد في الدنيا، وأوّل الزهد ترك الرغبة في الحرام. وأوّل أحوال المتوكل التوكل عليه في القوت، ثم الصبر على حكم المقيت. وأعلى التوكل في الاستسلام لمُرّ الأحكام، والرضا عنه في السابقة من الأقسام، وهو طرَح النفس ونسيانها، شغلاً عنها بنفسها، وحباً له.

وحقيقة التوكل بعد مشاهدة الوكيل، فإذا ظهرت يده غابت الأيدي منها، فعندها توكلت عليه تأييداً منه، فقبل توكلك، واستسلمت إليه بقوة به فسلمك، فإنه يتجلى لك بوصف يلزمك حكماً، يضطرك الحكم إلى الحاكم، ويوقفك الوصف على الوكيل القائم، كما اضطررك الحاكم إلى الحكم واجداً عليك ما شاء من القسم. فأصل توكلك عليه إشهادُهُ إياك توكله لك بحسن التدبير، فلم يكلك إلى سواه، ولم يؤلِّك إلا إياه، فاضطرك الوجود إلى المشاهدة، كما حكمت الشهادة بالوجود، فيقتضيك تفويضاً إليه، أو رضاً عنه، أو تسليمًا له، أو استراحة من تدبيرك لنفسك، أو يسقط عنك اهتمامك بتقديرك وأمانتك. ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]. والحسب إلى الحسيب، يجعله ما شاء كيف شاء، فقد قيل: ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أى الوكيل يكفيه ممّا سواه فى الدارين، فيغنى به عن الملكين، والله خير وأبقى، وقد قيل: التوكل حسبه من كل المقامات، يجمع له مقام التوكل وحده ما فرّق فى سائر المقامات؛ لأنه أعلاها، فهو يتنظمها.

ثم قال تعالى مُعَرِّقًا للكافة، مسلّيًا للجُملة^(١): ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ [الطلاق: ٣]؛ أى منفذ حكمه فيمن توكل عليه، وفيمن لم يتوكل عليه، إلا أنّ من توكل عليه يكون الله حسبه؛ أى: يكفيه أيضًا مُهمّ الآخرة والدنيا، ولا يزيد من لم يتوكل عليه جناح بعوضة فى قسمه، كما لا ينقص من توكل عليه ذرة من رزقه، لكن يزيد من توكل عليه هدى إلى هداه، ويرفعه مقامًا فى اليقين على تقواه، ويعزّه بعزّه، وينقص من لم يتوكل عليه من اليقين، ويزيده من التعب والهمّ ما يشتت قلبه، ويشغل فكره. والمتوكل عليه يوجب له بذلك تكفير السيئات، ويلقى عليه

(١) فى المطبوعة: «للجماعة».

رضاه ومحبه في المقامات. والكفاية قد ضمنها تعالى لمن صدق في توكله عليه، والوقاية^(١) قد وهبها لمن أحسن تفويضه إليه. إلا أن الاختيار وعلم الاستئثار إليه في الكفاية والوقاية يجعل ذلك ما شاء، كيف شاء، وأين شاء، ومتى شاء، من أمور الدنيا وأمور الآخرة، ومن حيث يعلم العبد، ومن حيث لا يعلم؛ لأن العبد موجود، تجرى عليه الأحكام في الدارين، وفقير محتاج إلى اللطف والرحمة والرفق في المكانين؛ أعنى في حال وجود كونه في مكان الدنيا، ووجوده في مكان الآخرة. والله هو الغنى الحميد المبدئ المعيد.

وقيل لأبي محمد سهل رحمه الله: متى يصح للعبد التوكل؟ فقال: إذا علم أن تدبير مولاه له خير من تدبيره لنفسه، وأن نظراً مولاه له أحسن من نظره لنفسه، فيترك التفكير فيما كان، والتمنى لما يكون، ويترك التدبير، والله عاقبة الأمور، وهو على كل حال محمود شكور.

آخر شرح مقام التوكل، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم^(٢).



(١) في (م): «الوفا به».

(٢) هذه الخاتمة من نسخة (د).

شرح أحكام مقام الرضا، ووصف الراضين

وهو المقام الثامن من مقامات اليقين^(١)

الرضا عن الله سبحانه وتعالى من أعلى مقامات اليقين بالله . وقد قال تعالى : ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠] . فمن أحسن الرضا عن الله جازاه الله بالرضا عنه ، فقابل الرضا بالرضا . وهذا غاية الجزاء ونهاية العطاء . وهو قوله عز وجل : ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠] . وقد رفع الله الرضا على جنات عدن ، وهى من أعلى الجنات ، كما فضل الذكر على الصلاة ، فقال تعالى : ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] . كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] . والذكر عند الذاكرين : المشاهدة ، فمشاهدة المذكور فى الصلاة أكبر من الصلاة ، وهذا أحد الوجهين من الآية .

والوجه الثانى : ذكر الله للعبد أكبر من ذكر العبد لله .

وقال أبو عبد الله الساجى : مَنِ خَلَقَ اللَّهُ عِبَادٌ يَسْتَحْيُونَ مِنَ الصَّبْرِ^(٢) ، يتلقفون مواقع أقداره بالرضا تلقفاً .

وقد كان عمر بن عبد العزيز يقول : أصبحتُ وما لى سرور إلا فى مواقع القضاء .

والرضوان عن الله عز وجل هم الذاكرون لله بما يحب ويرضى . فالرضوان الأكبر جزاء أهل الذكر الأكبر . وهذا أحد المعانى فى قوله ﷺ : «يقول الله تعالى : مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أُعْطِيَتهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ» ؛ أى الرضا عنه ؛

(١) هذا العنوان من نسخة (د)، وهو فى (م) : «ذكر أحكام مقام الرضا، ووصف أهله». وفى المطبوعة : «ذكر أحكام مقام الرضا» .

(٢) فى المطبوعة : «الصبى» والصواب من (د، م) .

لأن السائلين يسألونه لهم، فأعطاهم العفو، والذاكرين ذكره له، فأعطاهم الرضا عنه عز وجل. ويكون أيضاً معناه: أعطيته النظرَ إلى؛ لأن الذكر يخرج إلى النظر، فقابل النظرَ إليه اليوم بالنظر إليه غداً، كما واجه الوصف بالوصف في قوله عز وجل: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨ - ٣٩]. وقال الرسول ﷺ: «يتجلّى لنا ربنا ضاحكاً».

والرضا هو حال الموقن، واليقين هو حقيقة الإيمان. وإلى هذا ندب النبي ﷺ ابن عباس في وصيته له فقال: «اعمل لله باليقين في الرضا، فإن لم يكن فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً»، فرفعه إلى أعلى المقامات ثم رده إلى أوسطها.

كذلك قال لابن عمر: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، فندبه إلى المشاهدة وهو الإحسان، لأنه سأل: ما الإحسان؟ قال: «اعبد الله كأنك تراه». ثم رده إلى الصبر والمجاهدة وهو الإيمان. وهذا مكان العلم بأن الله يراه، وليس بعد هذا مكان يوصف.

وقد رفع الله تعالى الرضا منه فوق ما أعطى من النظر. ففي الخبر: «إن الله تعالى يتجلّى للمؤمنين، فيقول: سلوني. فيقولون: رضاك». فسؤالهم الرضا بعد النظر تفضيل عظيم للرضا؛ ولأن بالرضا دام لهم النظر، لما كان الرضا يوجب النظر سألوا دوام الرضا، ليدوم القرب والنظر، فسألوه تمام النعمة من حيث بدايتها.

ولا يصلح أن يظهر في معنى قولهم: «رضاك» أكثر من هذا. ولا يرسم في كتاب حقيقة الأمر؛ لأنه على كشف وصف من صفات الذات، يوجب على العبد هيئة الربوبية. وخوف هذا عن القلوب محجوب، وحكمة من سرائر الغيوب. وهذا في الدنيا ثواب لأهل الخشية عن معرفة خاصية. قال الله سبحانه: ﴿رَضِيََ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨]. وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] قال: يأتي أهل الجنة في وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين: إحداها: هدية من عند الله، ليس عندهم في الجنان

مثلها، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]. والثانية: السلام عليهم من ربهم، فيزيد ذلك على الهدية، فهو قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]. والثالثة: يقول الله تعالى: إني عنكم راض؛ فيكون ذلك أفضل من الهدية ومن التسليم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، أى أكبر من النعيم الذى هم فيه.

وروى أن النبى ﷺ قال لطائفة من المؤمنين: «ما أنتم؟ قالوا: مؤمنون. فقال: ما علامة إيمانكم؟ قالوا: نصبر عند البلاء، ونشكر عند الرضا، ونرضى بمواقع القضاء. فقال: مؤمنون ورب الكعبة». وفى خبر آخر أنه قال: «حلماء علماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء»، فشهد لهم بالإيمان بعد وصف الرضا. وكذلك جعل لقمان الحكيم الرضا من شرط الإيمان، لا يصلح إلا به، فقال فى وصيته: للإيمان أربعة أركان لا يصلح إلا بهنّ، كما لا يصلح الجسد إلا باليدين والرجلين: ذكر منها الرضا بقدر الله.

وحدثونا فى الإسرائيليات: أن عابداً عبد الله دهرًا طويلاً، فرأى فى المنام: فلانة الراعية رفيقتك فى الجنة، فسأل عنها إلى أن وجدها، فاستضافها ثلاثاً لينظر إلى عملها، فكان يبيت قائماً وتبيت نائمة، ويظل صائماً وتظل مفطرة. فقال: أما لك عملٌ غير ما رأيت؟ قالت: ما هو والله إلا ما رأيت، لا أعرف غيره. فلم يزل يقول: تذكّرى، حتى قالت: خُصيلة واحدة هى فى: إن كنت فى شدة لم أتمنّ أنى فى رخاء، وإن كنت فى مرضٍ لم أتمنّ أنى فى صحة، وإن كنت فى الشمس لم أتمنّ أنى فى الظل. قال: فوضع العابد يده على رأسه فقال: أهذه خُصيلة؟ هذه والله خُصيلة عظيمة يعجز عنها العباد.

وقد روينا عن ابن مسعود: من رضى بما ينزل من السماء إلى الأرض غُفر له. وقال أبو الدرداء: ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر. وعن بعض السلف: إنّ الله تعالى إذا قضى من السماء قضاءً، أحبّ من أهل الأرض أن يرضوا بقضائه.

وروى عن محمد بن حويطب عن النبي ﷺ: «من خير ما أُعطى العبد الرضا بما قسم الله له». وفي الخبر المشهور: «طوبى لمن هدى إلى الإسلام، وكان رزقه كفافاً ورضى به». وفي مثله أيضاً: «من رضى من الله عز وجل بالقليل من الرزق، رضى الله منه بالقليل من العمل». وقد روينا عن النبي ﷺ حديثاً، من طريق أهل البيت: «إذا أحبَّ الله عبداً ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن رضى اصطفاه». فالرضا عن الله عز وجل، والرحمة للخلق، وسلامة القلب، والنصيحة للمسلمين، وسخاوة النفس - مقام الأبدال من الصديقين.

وقد روينا في أخبار موسى عليه السلام أن بنى إسرائيل قالوا: «سل لنا ربك أمراً إذا نحن فعلناه يرضى به عنا. قال موسى: إلهى قد سمعت ما يقولون. فقال: يا موسى، قل لهم: يرضون عني حتى أرضى عنهم».

ويشهد لهذا الخبر المروى عن نبينا ﷺ: «من أحبَّ أن يعلم ما له عند الله فلينظر ما لله عنده، فإن الله يُنزل العبد منه بحيث أنزله من نفسه». قال الشيخ الفقيه، أبو القاسم: وحدَّثنا أبو بكر أحمد بن جعفر بن حمدان بن مالك القطيعي بهذا الحديث، فرفعه إلى النبي ﷺ.

وقد روينا حديثاً حسناً كالسند عن حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ: «إذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائف من أمتي أجنحة، فيطرون من قبورهم إلى الجنان، يسرحون فيها، ويتنعمون كيف شاؤوا. قال: فتقول لهم الملائكة: هل رأيتم الحساب؟ فيقولون: ما رأينا حساباً. فيقولون: هل جُزتم الصراط؟ فيقولون: ما رأينا الصراط. فيقال لهم: رأيتم جهنم؟ فيقولون: ما رأينا شيئاً. فتقول الملائكة: من أمة من أمتهم؟ فيقولون: من أمة محمد ﷺ. فيقولون: نشدناكم الله، حدِّثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا. فيقولون: خصلتان كانتا فينا فبلغنا الله هذه المنزلة، بفضل رحمته. فيقولون: وما هما؟ فيقولون: كنا إذا خلونا نستحي أن نعصيه، ونرضى باليسير مما قسم الله لنا. فتقول الملائكة: يحقُّ لكم هذا». هكذا كان في «كتاب شيخنا» عن أنس، وقال فيه: «لطائف من أمتي»، ففيه دليل على المسند.

وقال بعض علمائنا: أعرف فى الموتى مقبرة عظيمة ينظرون إلى منازلهم من الجنان فى قبورهم، يُغْدَى عليهم ويُراح برزقهم من الجنة بكرةً وعشيًا، وهم فى هُمومٍ وكروبٍ فى البرزخ لو قُسِّمَتْ على أهل البصرة لما تَوَّأوا أجمعين. قيل: وما كانت أعمالهم؟ قال: كانوا مسلمين، إلا أنهم لم يكن لهم من التوكُّل ولا من الرضا نصيب.

وقد جاء فى فرض الرضا قولُ النَبِيِّ ﷺ: «أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم، وإلا فلا».

وقرن لقمانُ الرضا بالتوحيد فقال فى وصيته لابنه: أوصيك بخصال تقربك إلى الله، وتباعدك من سخطه: الأولى: تعبد الله لا تشرك به شيئًا. والثانية: الرضا بقدر الله فيما أحببت وكرهت. وقال فى وصيته: ومن يتوكَّل على الله، ويرضى بقدر الله، فقد أقام الإيمانَ، وفرَّغَ يده ورجليه لكسبِ الخير، وأقام الأخلاق الصالحة التى تُصلح للعبد أمره.

فمن الرضا سرورُ القلب بالمقدور فى جميع الأمور، وطيبُ النفس وسكونها فى كل حال، وطمأنينةُ القلب عند كل مفزع مهلع من أمور الدنيا، وقناعةُ العبد بكل شيء، واغترباطه بمقامه من ربه، وفرحُه بقيام مولاة عليه، واستسلامُ العقل للمولى فى كل شيء، ورضاه منه بأدنى شيء، وتسليمُه له الأحكام والقضايا باعتقاد حسن التدبير وكمال التقدير فيها، وتسليم العبد إلى مولاة ما فى يديه رضاً بحكمه عليه، وأن لا يشكو الملك السيد الكريم إلى العبد المملوك، ولا يتبرَّم بفعل الحبيب، ولا يفقد فى كل شيء حسن صنع القريب.

ومن الرضا أن عند أهل الرضا أن لا يقول العبد: هذا يوم شديد الحر، ولا هذا يوم شديد البرد، ولا يقول: الفقر بلاء ومحنة، والعيال همُّ وتعَب، والاحتراف كد ومشقة، ولا يعقد بقلبه من ذلك ما لا يَقُوهُ به، بل يرضى بالقلب، ويشكر باللسان، ويسلِّم ويسكن بالعقل، ويستسلم بوجود حلاوة التدبير، واستحسان محكم التقدير. كما قال عمر بن عبد العزيز: أصبحت وما لى سرور إلا فى انتظار مواقع القدر.

وقال ابن مسعود: الفقر والغنى مطيتان ما أبالي أيهما ركبتُ، إن كان الفقر فإن فيه الصبر وإن كان الغنى فإن فيه البذل.

وقال أحمد بن أبي الخوارى: قلت لأبى سليمان: إن فلاناً قال: وددتُ أن الليل أطول مما هو. فقال: قد أحسن، وقد أساء. أحسن حيث تمنى طوله للعبادة، وأساء إذا لم يحب ما لم يحب الله.

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه: ما أبالي على أى حال أصبحتُ وأمسيتُ من شدة أو رخاء.

وقال ذات يوم لامرأته عاتكة، وقد غضب: والله لأسوءنك. فقالت: أتستطيع أن تصرفنى عن الإسلام بعد إذ هدانى الله له؟ قال: لا. قالت: فبأى شىء تسوءنى إذًا؟

وقال جعفر بن سليمان الضبعى: قال سفيان الثورى يوماً عند رابعة: اللهم ارض عنا. فقالت: أما تستحى من الله أن تسأله الرضا وأنت غير راضٍ عنه؟! فقال: أستغفر الله. قال جعفر: فقلت لها: متى يكون العبد راضياً عن الله تعالى؟ فقالت: إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة.

وقال فضيل بن عياض: إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضى.

وفى أخبار داود: ما لأوليائى والهَمُّ بالدنيا، إن الهَمَّ يذهب حلاوة مناجاتى من قلوبهم. وفى بعضها: يا داود، إياك والاهتمام بالدنيا، محبتى من أوليائى أن يكونوا روحانيين لا يغمون. إياك والغم، ولا تهتم للخير وأنت تريدنى.

ويقال: أكثر الناس همًّا بالدنيا أكثرهم همًّا فى الآخرة، وأقلهم همًّا بالدنيا أقلهم همًّا فى الآخرة.

ورويانا عن رسول الله ﷺ: «الإيمان بالقدر يُذهب الهَمَّ والحزن».

واعلم أن الفرح بالدنيا يُخرج همَّ الآخرة من القلب، والغم على الدنيا يحجد عن الحزن على فوت الآخرة. ودُكر عند رابعة عابدٌ له عند الله منزلة، وكان قر

ما يتقمن من مَزْبَلَة^(١) لبعض ملوكهم. فقال رجل عندها: فما يضر هذا إذا كانت له عند الله منزلة أن يسأله، فيجعل قوته في غير هذا!! فقالت له: اسكت يا بطل، أما علمت أن أولياء الله هم أَرْضَى عنه أن يتخيروا عليه أن ينقلهم من معيشة، حتى يكون هو الذى يختار لهم.

وقال أحمد بن أبى الحوارى: قال لى أبو سليمان: إن الله تعالى من كرمه قد رضى من عبده بما رضى العبيد من مواليهم. قلت: وكيف ذلك؟ قال: أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه؟ قلت: نعم. قال: فإن محبة الله من عبده أن يرضوا عنه.

وقال الأعمش: قال لى أبو وائل: يا سليمان، نَعَمْ الرَّبُّ ربنا، لو أطعناه ما عصانا.

وقال الله عز وجل فى معناه: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الشورى: ٢٦]؛ أى يعطيهم ويستجيب لهم، والاستجابة الطاعة، كقوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ [البقرة: ١٨٦]، فلما استجابوا له استجاب لهم، فأطاعوه فيما أحبَّ فأطاعهم فيما يحبون. وهذا أحد وجهى الآية، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]. وهو على تأويل من قرأ: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ [المائدة: ١١٢]. قال ابن عباس: كان الحواريون أعلم بالله أن يشكوا أن الله يقدر على ذلك، وإنما معناه: هل يستطيع، أى: يطيعك. وروينا أيضاً عن عائشة مثله.

وقال الفضيل: من أطاع الله تعالى أطاعه كل شىء، ومن خاف من الله خاف منه كل شىء.

وفى أخبار موسى عليه السلام: «يا رب دُلَّنِي على أمرٍ فيه رضاك حتى أعمله، فأوحى الله تعالى إليه: إن رضاى فى كُرْهِكَ، وأنت لا تصبر على ما تكره. قال: يا رب دُلَّنِي عليه. قال: فإن رضاى فى رضاك بقضائى». وقد يروى على وجه

(١) فى المطبوعة: «منزلة» وهو تحريف صوابه من (د، م). وهذا التقوت قد أضر بأهله من التصوف، ولو تكسب كان خيراً له، وأصاب السُّنَّة. وتعليق الرّجل حق لأنه يوافق السنة.

آخر: أن بنى إسرائيل سألوا موسى، فقالوا: لو علمنا فى أى شىء رضا ربنا لفعلناه؟ فأوحى الله إليه: قل لهم: رضاى فى رضاهم بقضائى. وفى مناجاة موسى عليه السلام: يا رب، أىُّ خلقك أحبُّ إليك؟ قال: مَنْ إذا أخذت منه المحبوبَ سلمنى. قال: فأىُّ خلقك أنت عليه ساخط؟ قال: من يستخيرنى فى الأمر، فإذا قضيتُ له سَخَطَ قضائى.

وقد ورد أشد من هذا كله: أن الله تعالى قال: «أنا الله لا إله إلا أنا، من لم يصبر على بلائى، ويرضَ بقضائى، ويشكر نعمائى، فليخذ ربًّا سواى». وقد روينا عن النبىِّ ﷺ من طريق. ومثله فى الشدة يقول الله تعالى: «قدَّرتُ المقادير، ودبَّرتُ التدبير، وأحكمْتُ الصنع، فمن رضى فله الرضا منى حين يلقانى، ومن سخط فله السُّخط منى حين يلقانى». وفى الخبر: «أول ما كتب لموسى عليه السلام: ﴿إِنِّى أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ [طه: ١٤]، من رضى بحكمى، واستسلم لقضائى، وصبر على بلائى، كتبته صديقًا، وحشرته مع الصديقين يوم القيامة».

وروينا فى الخبر المشهور بمعناه: «يقول الله جل جلاله: قدَّرتُ الخيرَ والشرَّ، وأجريتُهما على أيدي عبادى، فطوبى لمن خلقته للخير، وأجريتُ الخيرَ على يديه، وويل لمن خلقته للشر، وأجريتُ الشرَّ على يديه، وويل ثم ويل لمن قال: لم وكيف؟».

وفى الأخبار السالفة: «أن نبيًّا من الأنبياء شكَا إلى الله الجوع والفقر عشر سنين، كل ذلك لا ينظر فى مسألتَه، فأوحى الله إليه: لِمَ تشكو؟ هكذا كان بدوك عندى فى أم الكتاب، قبل أن أخلق السموات والأرض، وهكذا سبق لك منى، وهكذا قضيتُ عليك قبل أن أخلق الدنيا، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك؟ أم تريد أن أبدلَّ ما قدَّرتُ عليك، فيكون ما تحب فوق ما أحب ويكون ما تريد فوق ما أريد؟ وعزتى وجلالى، لئن تخالجت فى صدرك مرة أخرى لأُحَوِّنَكَ من ديوان النبوة».

وروينا أن آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على جسمه

وينزلون، يجعل أحدهم رجله على أضلاعه كهيئة الدرَج، فيصعد إلى رأسه، ثم ينزل على أضلاعه - كذلك قال - وهو مُطرق إلى الأرض، ولا ينطق، ولا يرفع رأسه. فقال له بعض ولده: يا أبت، ألا ترى ما يصنع هذا بك؟ لو نهيته عن هذا! فقال: يا بنى: إني رأيت ما لم تروا، وعلمت ما لم تعلموا، إني تحركت حركة واحدة، فأهبطت من دار الكرامة إلى دار الهوان، ومن دار النعيم إلى دار الشقاء، فأخاف أن أتحرك حركةً أخرى فيصيبني ما لا أعلم.

وروينا فى بعض الأخبار أنه قال: «إنَّ الله ضمن لى إن حفظتُ لسانى أن يردنى إلى الدار التى أخرجنى منها».

وقال أبو محمد سهل: حظُّ الخلق من اليقين على قَدَرِ حظِّهم من الرضا، وحظُّهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله.

وروى عطية، عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ: «إن الله بحكمه وجلاله جعل الرُّوحَ والفرح فى الرضا واليقين، وجعل الغمَّ والحزن فى الشك والسُّخْط».

ومن الرضا أن لا تدم شيئاً مباحاً، ولا تعيبه، إذ كان بقضاء مولاك العزيز، مشاهدًا للصانع فى جميع الصنعة، ناظرًا إلى إتقان الصُّنع والحكمة، وإن لم يخرج ذلك عن معتاد المعقول والعادة. وبعض العارفين يجعل هذه الأشياء فى باب الحياء من الله عز وجل. ومنهم من يقول: هى من حُسْن الخُلُق مع الله تعالى. ومنهم من جعله من باب الأدب بين يدى الله. فإذا كان هذا كذلك كان ذمُّ الأشياء التى أُبيحت وعيُّها من سوء الخُلُق مع الله، وكانت من سوء الأدب بين يدى الله. وأعظم من ذلك أنها تدخل فى باب قلة الحياء من الله، ويصلح أن يكون هذا أحد معانى الخبر الذى جاء: «قلة الحياء كفر»؛ يعنى كفر النعمة، بأن يذمَّ ويعيب بعض ما أنعم الله به عليه من الإرفاق والإلطف، إذ كان فيها تقصير عن تمام مثلها، أو كانت مخالفة لهواه منها، فيكون ذلك كفرًا للنعمة، وقلة حياء العبد من النعم، إذ قد أمره بالشكر على ذلك، فبدلَ الشكر كفرًا؛ لأنَّ أحدًا لو اصطنع لك طعامًا، فعبَّته وذمَّمته، كره ذلك منك، فكذلك تعالى يكره ذلك منك. وهذا داخل فى معرفة معانى الصفات، وفى معنى ما قيل: أعرفكم بربه

أعرفكم بنفسه، لأنك إذا عرفت صفات نفسك في معاملة الخلق، عرفت منها صفات خالقك.

وبعض الراضين يجعل ذم الأشياء وعيها بمنزلة الغيبة لصانعها، لأنها صنعتها، ونتاج حكمته، ونفاد علمه، وحكم تدبيره، وتدبير مقاديره؛ لأنه أحكم الحاكمين، وخير الرازقين، وأحسن الخالقين، له في كل شيء حكمة بالغة، وفي كل صنعة صنع متقن. ولأنك إذا عبت صنعة أحد وذممتها، سرى ذلك إلى الصانع، لأنه كذلك صنعها، وعن حكمته أظهرها، إذ كانت الصنعة مجبولة لم تصنع نفسها، ولا صنع لها في خلقتها. وكان الورعون لا يعيبون صنعة عبد كراهة الغيبة له، وذلك أن الراضى عن الله متأدب بين يدي الله، يستحي أن يعارضه في داره، أو يعترض عليه في حكمه. فصاحب الدار يصنع في حكمه ما شاء، والحاكم يحكم بأمره كيف شاء، والعبد راض بصنع سيده، مسلم لحكم حاكمه.

وروى في الإسرائيليات: «أن عيسى عليه السلام مرَّ مع نفرٍ من أصحابه بجيفة كلب، فغطوا آناهم، وقالوا: أف أف، ما أنتن ريحه! فلم يخمر عيسى عليه السلام أنفه، وقال: ما أشد بياض أسنانه؛» أراد أن ينههم بذلك عن الغيبة، ويعلمهم ترك عيب الأشياء، كيف وهو يرى بعين نفسه أن الصنعة من صانعها، فهو يقلبها ويصرفها على معاني نظره.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه ما عاب طعاماً قط؛ إن اشتهاه أكله، وإلا تركه. وقال أنس: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين - ليس كل امرئ كما يريد صاحبه - ما قال لى لشيء فعلته لم فعلته، ولا لشيء لم أفعله ألا فعلته، ولا قال في شيء كان ليته لم يكن، ولا لشيء لم يكن ليته كان». وكان يقول ﷺ: «لو قُضى شيء لكان».

وفي بعض أخباره: «وإن خاصمني مخاصم، قال: دعوه، لو قُضى شيء كان». هذا لفظ ثلاثة أحاديث، وهذا وصف الراضى الموفق القائم بشهادته^(١).

(١) هذه الفقرة من: (د، م).

وقد رُويت لفظةً مجملة^(١) فى شيئين متضادين: «ما بعثنى النبى ﷺ فى حاجة قُضيت أو لم تُقضى إلا قال: لو قُضى شيءٌ لكان». فهذا إذا كان اللفظ راجعاً على الوصفين، فالمعنى فيما قُضى أيضاً، أى: لو قُضى ألا يُقضى لم يُقضى، فاستوى عنده بالقضاء ما قُضى؛ لأنه قد قُضى أن يُقضى وما لم يُقضى؛ لأنه لم يسبق فيه القضاء، ولم^(٢) يصلح فى هذا الوجه أن لكل حاجة تقديرًا من الوهم، فكأنها وإن قُضيت إلا أنها على غير ما تصوّر فى وهمه، قال: لو قُضى ذلك لكان.

فإن كان اللفظ عائداً على ما لم يُقضى وحده؛ لأن ما قُضى فقد ظهر، وبان بلا^(٣) مسألة، فيكون هذا بمعنى قوله فى قصة ذى الدين لما قيل له: أَقْصَرْتَ الصلاة أم نسيت؟ قال: كلُّ ذلك لم يكن. وقد كان أحدهما وهو النسيان.

وهذا أيضاً فيه لطيفة يحتملها التأويل: أن يريد كل ذلك بمجموعيهما لم يكن. فهذا يرجع بمعنى قوله فيما قُضى: «لو قُضى ألا يُقضى». كما أن ما لم يُقضى قد قُضى، أى: يقضى، رجع القضاء عليهما سواء. فكان ﷺ يرضى بما قُضى كيف قُضى على ما تصوّره الوهم، أو بخلافه، ويرضى بما لم يقضى؛ لأنّ القضاء فيهما سواء، فينبغى أن يكون الرضا بهما سواء^(٤).

فبالنظر فى هذه الدقائق، والوقوف عندها، رُفِع القوم عند الله إلى مقام المقرّبين، وبالتهاون بها، والغفلة عنها، نَغَلَتْ^(٥) القلوبُ ففسدت، حتى لم تصلح للمحبة والرضا. وهذه المعانى من الاعتراضات والتخير هو تقدّم بين يدى الله، وهو التدبير الذى يشير إليه سهل، ويقول: إن تدبير الخلق حجبهم عن الله عز وجل.

(١) فى (د): «لفظه مجمله».

(٢) هكذا فى (م) وفى (د): «وقد يصلح فى هذا الوجه».

(٣) فى (د): «فلا مسألة».

(٤) من أول قوله: «وقد رويت لفظة» إلى هنا اتفقت نسختا (د، م) على زيادتهما مع اختلاف يسير بينهما لم أشر إليه لعدم تأثيره فى المعنى.

(٥) نغلت: ساءت وفسدت. يقال: نَغَلَ الجرح: فسد. ونغلت نيته: ساءت. ونغل قلبه على فلان: ضَغِنَ. فهو نَغِلٌ، وهى نِغْلَةٌ.

وحكى لنا: أن بعضهم سحب بعض العارفين في طريق، فعبث بشيء فنحاه من مكان إلى مكان آخر، فقال له العارف: ماذا صنعت؟ أحدثت في الملك حدثاً عن غير ضرورة ولا سنة، فلا تصحبنى أبداً.

فلو لم يكن لنا من الذنوب إلا هذه الأشياء لقد كان كافياً، وفوق ذلك تهاوننا بها، وأعظم من ذلك ترك التوبة والاستغفار منها.

وأعمال طلاب الرضا من الله مضاعفة على أعمال المجاهدين في سبيل الله، لأن أعمال المجاهدين تُضاعف إلى سبعمائة ضعف، وتضعيف طالبى الرضا لا تُحصى. قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]. وقال تعالى: ﴿فِيضَاعَفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]. قيل: الحسنة إلى ألفى ألف حسنة. وقد قال تقدست أسماؤه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١]. ثم قال وهو أصدق القائلين: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ [البقرة: ٢٦٥]. فكم فى هذه الجنة من سنبله وحبة؟! فهؤلاء الذين قال: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]، هم أهل الرضا عنه، وهم الذين أقرضوا الله قرضاً حسناً لأجله، لمضاعفته لهم أضْعَافًا كثيرة. فمن عقل عن الله حكمته، كان مع الله تعالى فيما حكم، مسلماً له ما شهد؛ لأنه سبحانه باختياره أنشأ الأشياء، وبمشيئته أبادها، وعنه يتصرف المقدور، وإليه عواقب الأمور، لا يكون مع نفسه فيما يهوى، ولا مع معتاده، وعرفه فيما يعقل.

وقال بعض العارفين: قد نلتُ من كل مقام حالاً إلا الرضا، فما لى منه إلا مَشمُ الرّيح، وعلى ذلك لو أدخل الخلائق كلهم الجنة وأدخلنى النار، لكنت بذلك راضياً.

وقيل لعارف فوقه: نلتَ غاية الرضا عنه؟ فقال: الغاية لا، ولكن مقام من الرضا قد نلته، حتى لو جعلنى جسراً على جهنم عبر الخلائق على إلى الجنة، ثم ملأ بى جهنم تحلةً لقسمه، وبدلاً من خليقته، لأحببت ذلك من حكمه، ورضيت

به من قسّمه .

وحدثونا عن الروزباري قال: قلت لأبي عبد الله بن الجلاء الدمشقي: قول فلان: وددت أن جسدی قُرض بالمقاريض وأن هذا الخلق أطاعوه، ما معناه؟ قال: يا هذا، إن كان من طريق الإشفاق على الخلق والنصح فأعرف، وإن كان من طريق التعظيم والإجلال فلا أعرف، قال: ثم غشى عليه .

وقد كان عمران بن الحصين استسقى بطنه، فلبث ملقى على ظهره ثلاثين سنةً سطوحًا، لا يقوم ولا يقعد، قد نُقب له في سريرٍ من جريد كان تحته موضع لغائطه وبوله، فدخل عليه مُطَرَّف أو أخوه العلاء، فجعل يبكي، لما يرى من حاله، فقال: لم تبكي؟ فقال: لأنى أراك على هذه الحال العظيمة . فقال: لا تبكي فإنَّ أحبه إلىَّ أحبه إلى الله . ثم قال: أحدثك شيئًا، لعل الله أن ينفعك به، واكنتم علىَّ حتى أموت: إن الملائكة تزورني فأنس بها، وتسلم علىَّ فأسمع تسليمها .

أراد عمران رحمه الله بذلك أن يُعلم أن هذا البلاء ليس بعقوبة؛ لأن مثل هذه الآية إنما هي درجة ورحمة، وبلاء العقوبات لا يكون معه الآيات، ولا يوجد عنده الحلاوات، ولا مزيد القلوب من نسيم ريحان الغيوب؛ ولأنه كان حزن عليه، فأراد أن يبشّره: فلا تذكر الحبيب، ولا حب لقاء الطبيب . كما أنشد بعض المحبين:

يا حبيبًا بذكره نَداوى	وصفوه لكل داءٍ عجيبُ
مَن أراد الطبيبَ سرًّا إذا	اعتلَّ اشتياقًا إلى لقاء الطبيبُ
مَن أراد الحبيبَ سارًا إليه	وجفَّ الأهلَ دونه والقريبُ
ليس داءُ المُحبِّ داءٌ يُداوى	إنما برؤهُ لقاءُ الحبيبُ

قال: ودخلنا على سويد بن شعبة نعوذه، فرأينا ثوبًا ملقى فما ظننا أن تحته شيئًا حتى كُشف، فقالت له امرأته: أهلى فداؤك، ما نطعمك ما نسقيك؟ فقال:

طالت الضجعة، ودبرت الحراقيف، وأصبحتُ نضوءاً^(١)، لا أطعم طعاماً ولا أسقي شرباً منذ كذا، فذكر أياماً، ثم قال: وما يسرني أني نُقصت من هذا قُلامة ظُفُر.

واعتل حذيفة علة الموت، فجعل يقول: اخنق خناقك، فوعزتكَ إنك لتعلم أني أحبك، فلما حضره الموت، جعل يقول: حبيبٌ جاء على فاقة، لا أفلح من ندم.

وروى أيضاً مثل هذا عن أبي هريرة.

ولما قدم سعد بن أبي وقاص إلى مكة، وكان قد كُفَّ بصره، جاءه الناس يهرعون، كل واحد يسأله أن يدعو له، فيدعو لهذا ولهذا، وكان مجاب الدعوة، دعا له رسول الله ﷺ بذلك. قال عبد الله بن السائب: فأتيتُه وأنا غلامٌ، فتعرّفت إليه فعرفني. وقال: أنت قاريءُ أهل مكة؟ قلتُ: نعم، فذكر قصة، قال في آخرها: فقلت له: يا عم، أنت تدعو للناس، فلو دعوتَ لنفسك، فردَّ الله عليك بصرك؟ فتبسم ثم قال: يا بني، قضاء الله عندى أحسن من بصرى.

ويقال إنَّ بعض هذه الطائفة ضاع ولده - وكان صغيراً - ثلاثة أيام، لا يعرف له خبراً. ف قيل له: لو سألت الله أن يرده عليك. فقال: اعتراضى عليه فيما قضى أشدُّ من ذهاب ولدى.

وقد روينا عن بعض العباد أنه قال: أذنبْتُ ذنباً، فأنا أبكى عليه منذ ثلاثين سنة، وكان قد اجتهد في العبادة، لأجل التوبة من ذلك الذنب. قيل له: وما هو؟ قال: قلت مرة لشيء كان: ليتَه لم يكن.

وقال بعض السلف: لو قُرِض جسمى بالمقاريض كان أحبَّ إليَّ من أن أقول لشيء قضاه الله: ليتَه لم يقضه.

وحدثونا عن بشر الحافى قال: رأيت بعبّادان رجلاً قد قطعه البلاء، وقد سألت حدقته على خديّه، وهو فى ذلك كثيرُ الذكر، عظيمُ الشكر لله، قال: وإذا هو قد

(١) الحَرَقَتَان: مجتمع رأس الفخذ ورأس الورك حيث يلتقيان. ويقال للمريض إذا طالت ضجعته: دَبِرَتْ حَرَاقِفُهُ. ونضوءاً: مهزولاً.

صُرْع من حبه به. قال: فوضعتُ رأسه فى حجرى، وجعلت أسأل الله عز وجل كشفَ ما به، وأدعو له. فأفاق، فسمع دعائى، فقال: من هذا الفضولى الذى يدخل بينى وبين ربى، ويعترض عليه فى نِعَمه علىَّ؟ قال: ونَحَى رأسه. قال بشر: فاعتقدت أن لا أعترض على عبدٍ فى نعمةٍ أراها عليه من البلاء.

وقيل لعبد الواحد بن زيد: ههنا رجل قد تعبَ خمسين سنة، فقصدته فقال: حبيبى أخبرنى عنك، هل قَنَعْتَ به؟ قال: لا. قال: هل أنَسْتَ به؟ قال: لا. قال: فهل رَضِيتَ عنه؟ قال: لا. قال: فإنما مزيدك منه الصوم والصلاة. قال: نعم. قال: لولا أنى أستحى منك لأخبرتكَ أن معاملتك خمسين سنة مدخولة.

أراد بذلك أنه لم يقربك، فيجعلك فى مقام المقربين، فيكون مزيدك لديه من أعمال القلوب، وكذلك يصنع بأوليائه، إنما أنت عنده فى طبقة أصحاب اليمين، فمزيدك منه مزيد العموم من أعمال الجوارح. وقد يكون الرجل مخلصاً فى مقامه وإن كان فوقه فوق.

وقد روينا عن ابن محيريز^(١)، وكان من عبَاد أهل الشام وعلمائهم، كلمةً غريبة المعنى، دقيقةً فى معنى المخالفة لله عز وجل، وإن كان قد فسرّها، فإنه لم يكشف معناها لفهم السامعين منه والحاضرين عنده، فيحتاج تفسيرها إلى تفسير. روينا عنه أنه قال: كلُّكم يلقي الله تعالى، ولعله قد كذبه، وذلك أن أحدكم لو كان له أصبع من ذهبٍ ظل يشير بها، ولو كان بها شلل ظل يوارىها^(٢).

يعنى بذلك أن الذهب من زينة الدنيا، وقد ذم الله تعالى الدنيا، وأن البلاء زينة أهل الآخرة، وقد مدح الله الآخرة، أى: فأنت إذا أعطاك زينة الدنيا أظهرتها وفخرت بها، وإذا أعطاك زينة الآخرة، وهى المصائب والبلاء، كرهتها وأخفيها؛ لثلاثِ تُعَاب بذلك، فحَسَبَ عليه حبُّ الدنيا والتزين بها وكرهه البلاء، تكذيباً لله، ورداً عليه ما وصفه. وهذا يدخل فى باب الزهد، وفى باب الرضا، ويدخل على

(١) هو عبد الله بن محيريز المكي، قال رجاء بن حيوة فى حقه: «إن كنت أعدّ بقاءه أماناً لأهل الأرض» توفى (٩٩هـ). انظر ترجمته فى الحلية ٥/١٣٨، والكاشف ٢/١٢٨.

(٢) الخبر فى الحلية ٥/١٤٠.

من أخفى الفقر والبلاء حياءً من الناس؛ لئلا يعاب بذلك، فهو من ضعف يقينه وقوة شاهد الخلق. ويدخل فيه من أظهر الغنى من غير نية. ولا تحدث بنعمة الله. فذلك أيضاً من قوة شاهد حب الدنيا.

وكذلك قال أبو سليمان الداراني: ثلاث مقامات لا حد لها: الزهد، والورع، والرضا. وخالفه سليمان ابنه، وكان عارفاً - ومن الناس من كان يقدمه على أبيه - فقال: بلى، مَنْ تورّع في كل شيء فقد بلغ حد الورع، ومن زهد في كل شيء فقد بلغ حد الزهد، ومن رضى عن الله في كل شيء فقد بلغ حد الرضا.

ولا ينقص الراضى من مقام الرضا مسألة مولاه مزيد الآخرة وصلاح الدنيا، تعبدًا بذلك، وافتقارًا إليه في كل شيء؛ لأن في ذلك رضا، ومقتضى تمدحه بمسألة الخلائق له. فإن صرف مسأله إلى طلب النصيب من المولى، وابتغاء القرب منه؛ حباً له، وآثره على ما سواه، كان فاضلاً في ذلك؛ لأنه قد رد قلبه إليه، وجمع همهً بذلك. وهذا مقام المقربين، وعلى قدر مشاهدة الراضى عن معرفته، ومقتضى حاله؛ لأنه يسأل عن عمله بعلمه في وقت من أحواله، كما يسأل عن جملة أعماله بعلمه في جملة عمره. وهذا أصل فاعرفه؛ فهو طريق الصوفيين، وعليه عمل العارفين من السلف، فلم يكن يضرهم عندهم خلاف من خالف، وإن كان دعاؤه تمجيداً لسيده، وثناءً عليه، وشغلاً بذكره، ونسياناً لغيره، وولهاً بحبه؛ لأنه مستوجب لذلك بوصفه؛ ولأنه واجب عليه، فقد استغرقه وجوب ما عليه عماله. فهذا أفضل، وهو مقام المحبين، وهو من القيام بشهادته. وقد دخل فيما ذكرناه من مقتضى حاله بالعمل بعلمه في وقته.

وللعلماء مسألة قد اختلفوا فيها: في أهل المقامات ثلاث، أيهم أفضل؟ عبد يحب الموت شوقاً إلى لقاء الله. وعبد يحب البقاء للكد والخدمة للمولى. وعبد قال: لا أختار شيئاً بل أَرْضَى ما يختار لى مولاي؛ إن شاء أحيانى أبداً، وإن شاء أماتنى غداً. قال: فتحاكموا إلى بعض العارفين فقال: صاحب الرضى أفضلهم؛ لأنه أقلهم فضولاً. وهذا كما قال في الاعتبار بترك الاعتراض والاختيار؛ لأنه دخل في الدار بغير اختيار. وكذلك يكون خروجه منها على معنى دخوله بلا

اختيار؛ لأن مقام الرضا أعلى من مقام التشوق، ثم الذى يليه فى الفضل؛ الذى يحب الموت شوقاً إلى لقاء الله، وهذا مقام فى المحبة، وفى حقيقة الزهد فى الحياة. وفى الخبر: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه». والذى يحب البقاء للخدمة، وكثرة المعاملة، هو فاضل بعد هذين، مقامه قوة الرجاء وحسن الظن فى العصمة، وله أيضاً مطالعات من الأنس، وملاحظات فى القرب، به طاب مقامه، وعنده سكنت نفسه، وقصرت عليه أيامه. وقد قال رسول الله ﷺ: «أفضل المؤمنين إيماناً - أو قال: أكمل المؤمنين إيماناً - من طال عمره، وحسن عمله». هذا؛ لأن الأعمال مقتضى الإيمان، إذ حقيقة الإيمان إنما هو قول وعمل، وليس بعد هؤلاء مقام يُفرح به، ولا يُغبط صاحبه عليه، ولا يوصف بمدح، إنما هو حب البقاء؛ لمتعة النفس، وموافقة الهوى. وقد تُشرف النفس على الضعفاء من أهل هذا الطريق، وتختفى فيها علة؛ وهو أن يحب البقاء؛ لأجل النفس وللمتعة بروح الدنيا، وما طُبعت عليه من حب الحياة، وتكره الموت؛ لمنافرة الطبع، ولطول الأمل، فيتوهم أنه ممن يحب البقاء؛ لأجل الله وطاعته وخدمته. وهذا هو من الشهوة الخفية، التى لا يخرجها إلا حقيقة الزهد فى الدنيا. ولا يفضل فى هذا الطريق الثالث إلا عارفٌ، زاهدٌ، دائمُ المشاهدة باليقين. فأما المعتلُّ بوصفه وهواه، فليس يقع به اعتبارٌ فى طريق ولا مقام.

واجتمع ذات يوم وهيبُ بن الورد، وسفيان الثورى، ويوسف بن أسباط، فقال الثورى: قد كنتُ أكره موت الفُجأة قبل اليوم، فأما اليوم فوددتُ أنى مت. فقال له يوسف: ولم؟ قال: لِمَا أتخوف من الفتنة. فقال يوسف: لكنى لا أكره طول البقاء. فقال الثورى: ولم تكره الموت؟ قال: لعلى أصادف يوماً أتوب فيه، وأعمل صالحاً. فقيل لوهيب: أى شىء تقول أنت؟ فقال: أنا لا أختار شيئاً، أحبُّ ذلك إلىَّ أحبُّه إلى الله. قال: فقَبَّلَ الثورى ما بين عينيه وقال: رُوحانية وربُّ الكعبة. يعنى مقام الروحانيين، وهم المقربون أهل الرُّوح والريحان، وأولو المحبة والرضوان. كما قال تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة: ٨٩]؛ يعنى: لهم ريح من نسيم القرب، وريحان من طيب الحب. وأيضاً أنه تعالى لما ذكر أن لأصحاب

اليمين في كل شدة وهول سلامة، وكان المقرَّبون هم الأعلين، كان أيضاً فيما دلَّ الفهم عليه، أن للمقربين من كل هول رَوْحاً به؛ لشهادتهم القريب، وفي كل كَرَبٍ ريحان منه لقرب الحبيب، فبذلك علَّوا، وبذلك فضَّلُوا.

وهكذا قال بعض الصوفية: سر العارف في الأشياء واقف، مثل الماء في البئر؛ لا يختار المقام، وإن أُخرج خرج. أى: ومثل لسان الميزان في وقوفه واعتداله بين حكمين، أيها أمدَّ به مال به. وقال آخر: قلبى مثل الماء، يَسْخُن ثم يَبْرُد. أى: لا يقف على وصف، بمعنى ما قيل في صفة العامل صحة اعتباره وتَقْضَى أوطاره، فإن ذمَّ هذا الراضى ما ذمه الله، أو كره ما كرهه الله، لم ينقص ذلك رضاه، وكان محسناً في فعله؛ لموافقة مولاه، وإن لم يرض بحاله نقص في الدين والآخرة، أو كره مزيد الدنيا من الكثرة والجمع والادخار لم يقدح ذلك في رضاه؛ لأنه من التحقق بالزهد، وهو في جميع ذلك موافق للعلم.

والله تعالى أعلم بأحكامه من العبد، وأغير على نفسه من الغير، وأعلى مشاهدة من الخلق، له المثل الأعلى. فهو على ذلك يشهد أحكامه، ويذمُّ المحكوم عليه إذا تعدى حدود أمره، ويُنفذُ عِلْمَه بمشيئته، ويمقتُ العاصين له باجتراح نهيه، حكمةً منه وعدلاً. كما أنه يشهد يده في العطاء، ويمدح المنفقين، ويمضى إرادته بالقضاء بتوفيقه، ويشكر العاملين كرمًا منه وفضلاً ومحبةً وابتلاءً^(١). كذلك الراضى عنه موافقٌ له فيما حكَم، ومتَّبِعٌ له فيما رسم، ومُسَلِّمٌ له فيما قدر، وعالمٌ منه بما حفظه به، وراضٍ بما دبَّر، ومستعمل لما شرَّع، ومواطئ لرسوله ﷺ فيما سنَّ، متخلِّقٌ بأخلاق مولاه بما حفظه به وتولاه، سالك منهاج رسوله، يذم ما ذمه المولى والرسول، ويمدح ما مدحه العلم ودلت عليه الأصول، وذلك كله لأجل المولى، ولأنه لرسوله أتبع، لا لأجل ما ضرَّ ونفع.

والتحدث بالأوجاع والإخبار عن المصائب لا يُنقص حال الراضى، إذا رآها نعمةً من الله عليه وشكر الله عليها، وكان القلب مسلماً راضياً، غير متسخط ولا

(١) في الفقرتين السابقتين زيادات متعددة جملة أو أكثر من (د، م) ليست في المطبوعة، ويطول المقام بتتبع مواضعها، وبخاصة أننى أعتمد نص (م).

متبرم بمرّ القضاء، وأول الرضا الصبر، ثم القناعة، ثم الزهد، ثم المحبة، ثم التوكل. فالرضا حينئذ حال المتوكل، والتوكل هو مقام الرضا، والمحبة حال المحب، والمحبة مقام الراضى.

وقال الفضيل بن عياض: إذا استوى العطاء والمنع عند العبد فهو الرضا. وقال غيره: إذا لم يختلف قلبه فى العدم والوجود، وفى الصّحة والسقم، فقد رضى. وقال الثورى: منعُ الله عطاءً^(١)؛ لأنه منعٌ من غير بُخلٍ ولا عُدْم، فمنعه اختيارٌ وحسنُ نظر، وهذه مشاهدة الراضى. وهذا كما قال؛ لأن حقيقة المنع إنما يكون لمن لك عنده شيء فمنعك، أو تستحق عليه شيئاً فلم يعطك؛ فأما من لا تستحق عليه شيئاً، ولا لك معه شيء؛ لأنه الأول قبل كل شيء، والمظهر لكل شيء، والمالك لما أظهر، والمختار لما خلق، وليس لأحد من خلقه اختيار، ولا فى حكمه اشتراك، له الخلق والأمر، ولا يشرك فى حكمه أحداً، والعبد لم يكن شيئاً مذكوراً، فكل^(٢) شيء اختاره فهو عطاءً منه، على تفاوت مقادير، وضروب أحكام، وتصاريف تدبير؛ حلو ومر، ولطف وعنف، وشدة ورخاء، وموافقة للنفس ومُرافق، ومخالفة لما يهوى مما لطبعها لا يوافق. فالصبر على الأحكام مقام المؤمنين، والرضا بها مقام الموقنين: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]. ﴿وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩].

واعلم أن الرضا من مقامات اليقين، وأحوال المحبين، ومشاهدة المتوكلين، وهو داخل فى كل أفعال الله سبحانه؛ لأنها عن قضائه، لا يكون فى ملكه إلا ما قضاه، فعلى العارفين به الرضا بالقضاء. ثم يردُّ ذلك إلى تفصيل العلم، وترتيب الأحكام؛ فما كان من خيرٍ وبرٍّ أمر به أو نذب إليه، رضى به العبد وأحبه شرعاً وفعلاً، ووجب عليه الشكر. وما كان من شرٍّ نهى عنه وتهدد عليه، فعلى العبد أن يرضى به عدلاً وقدرًا، ويسلّمه لمولاه حكمةً وحكمًا، وعليه أن يصبر عنه، ويقرّ به ذنبًا، ويعترف به لنفسه ظلمًا، ويرضى بعودِ الأحكام عليه بالعقاب، وأنه

(١) فى (د): «العطاء رحمة».

(٢) جواب قوله: «فأما من لا تستحق عليه شيئاً...».

اجترحه بجوارحه اكتساباً، ويرضى بأن الله الحجة البالغة عليه، وأن لا عذر له فيه، ويرضى بأنه في مشيئة الله عز وجل من عفو عنه برحمته وكرمه إن شاء، أو عقوبة له بعدله وحقه إن شاء.

وفصل الخطاب أنه يرضى بسوء القضاء عقداً لا من نفسه فعلاً، ويرضى به عن الله، ولا يرضى به من نفسه؛ لأن الموقنين والمحبين لا يُسقطون الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولا ينكرون إنكار المعاصي وكرهاتها بالألسنة والقلوب من قبل أن الإيمان فرضها، والشرع ورد بها؛ ولأن الحبيب كرهها، فكانوا معه فيما كره، كما كانوا معه فيما أحب.

ومقام اليقين لا يُسقط فرائض الإيمان، ومشاهدة التوحيد لا تبطل شرائع الرسول، ولا تُسقط أتباعه. فمن زعم ذلك، فقد افترى على الله ورسوله، وكذب على الموقنين والمحبين. ألم تر أن الله تعالى ذم قومًا رضوا بالدنيا، ورضوا بالمعاصي، رضوا بالتخلف عن السوابق؟ فقال سبحانه: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا﴾ [يونس: ٧] فذمهم بذلك. وقال تعالى: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣] فعابهم به. وقال تعالى: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ يعنى مع النساء فى القعود عن الجهاد، وهذا جمع التأنيث ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧]، فمن رضى بالمعاصي والمناكير منه أو من غيره، وأحب لأجلها، ووالى ونصر عليها، أو ادعى أن ذلك فى مقام الرضا الذى يجازى عليه بالرضا، أو أنه حال الراضين الذين وصفهم الله تعالى ومدحهم، فهو مع هؤلاء الذين ذم الله ومقت.

وفى الخبر: «مَنْ شَهِدَ مَنْكَراً فَرَضَى بِهِ فَكَأَنَّهُ فَعَلَهُ». وفى الحديث: «الدَّالُّ عَلَى الشَّرِّ كَفَاعِلُهُ».

وعن ابن مسعود: إن العبد ليغيب عن المنكر، ويكون عليه مثلُ وزر فاعله. قيل: وكيف ذلك؟ قال: يبلغه فيرضى به.

وقد جاء فى الحديث: «لو أن عبداً قُتِلَ بالشرق، ورضى بقتله آخرُ بالمغرب،

كان شريكه في قتله».

وقد روينا حديثاً حسناً عن النبي ﷺ من طريق مرسل: «من نظر إلى مَنْ فوقه في الدين، وإلى مَنْ دونه في الدنيا، كتبه الله صابراً شاكراً. ومن نظر إلى مَنْ دونه في الدين، ومن فوقه في الدنيا، لم يكتبه الله صابراً ولا شاكراً».

ففي^(١) هذا الحديث أربعة معانٍ حسان إذا تدبرها العبد، وتفكر فيها، لم يُعدم أن يرى أهلها؛ لأنه لا يخلو أن يرى بعينه أو بقلبه عن معرفته بسيرة المتقدمين، فيرى مَنْ فوقه في باب الدنيا، فيشكر الله على حاله، ويقنع منه برزقه، فيكون صابراً شاكراً بمعرفة ما قنع به ورضى، وباختياره له ما صُرف عنه من الفضول، وزُوى عنه من الحساب الطويل. ولا يخلو أن يرى مَنْ فوقه في أمر الدين من العاملين والعالمين والزاهدين، فيسارع إلى ذلك، ويسابق وينافس فيه، إذ قد نُدب إلى ذلك، فيكون حظاً له^(٢)، وحثاً على افتعال الخيرات وأعمال الصالحات. وأقلُّ ما يفيد ذلك الإزرأء على نفسه، والمقتُّ لها في تقصيره.

ثم ينظر في الأمرين الآخرين من وجهٍ آخر، فلا يخلو أن يرى مَنْ هو دونه في أمر الدنيا من ذوى الفاقات والحاجات، فيحمد الله على تفضيله عليه، وحسن صونه له، ويشكر نعمته لفضل إحسانه، وكفايته له. ويجد أيضاً في المعنى الآخر مَنْ هو دونه في أمر الدين من الفجرة والظالمين وأهل البدع والزائعين، فيفرح بفضل الله ورحمته، ويشكر الله على حسن إسلامه، وجميل معافاته مما ابتلى به غيره، فيكون أيضاً صابراً شاكراً.

فيكون للعبد في هذه الطبقات من الناس أربع معاملات بما وهب الله له من التبصرة والاعتبار، ويشهد لما ذكرناه الخبرُ الآخر من قول النبي ﷺ: «لا حسدَ إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله حكمةً فهو يثبُّها في الناس ويعلمها، أو رجلٌ آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق». وروينا في لفظٍ حديثٍ آخر: «ورجلٌ آتاه الله القرآن فهو يقومُ به آناء الليل والنهار. فيقول الرجل: لو آتاني الله مثل ما آتى هذا

(١) من هنا زيادة من (د، م) حتى قوله: «ومحنة المحبين والراضين، فثبتوا» في ص ١٠٢٨.

(٢) في (م): «خصاله»، وأثبت ما في (د).

لَفَعَلْتُ كَمَا فَعَلَ». فندب ﷺ إلى الحسد في أعمال البر، وفضلَّ الحاسد على ذلك؛ لأن الله تبارك وتعالى ندب إلى التنافس في أعمال الخير، فمن حَسَدَ على هذه الثلاث ونحوها للغِبْطَةِ بها، والطلب لها، لم يُخرجه ذلك من الرِّضَا، وكان له مزيد، بعد أن لا يحب زوالها عن أهلها، ولا نقصهم منها، ولا أن لا يُذَكَّرُوا بها، ولا يحبُّها هو أيضاً لِيُذَكَّرَ كما ذُكِّروا، أو يُمدح كما مُدِّحوا. فهذه المعاني آفات هذه الفضائل، ولكل شيء آفةٌ مَنْ وقيها حَصَلَتْ له الفضيلةُ، ومن وقع فيها فحَيْدُها عنه خيرٌ له؛ لآئته أسلمٌ، ولا فضلَ إلا بعد حَوَرِ السلامة.

وقد غلط في باب الرِّضَا بعض البطَّالين من المتأخرين، مما لا علم له، ولا يقين، فحمل الرضا على جميع ما يكون منه من معصية. وهذا لجهله بالترتيب، وقلة فقهه بعلم التأويل، ولا تبايعه ما تشابه من التنزيل؛ طلباً للفتنة وغربة الحال، وابتداعاً في القول والفعال، ولهوهُ في العصيان والفسوق، فأراد أن يقيم بذلك عند الجاهلين سوقَ معذرةٍ له، وتطريقاً إليه، ولو عَصِمَ من الهوى لاستراح، ولو زهد في الدنيا لأراح، ولو كان علمه للتأويل لله الفتح العليم لأفلح، ولعلم الناس من علمه، فربح وأربح، وأنَّى له بذلك والهوى يقبُّه، والبلاء المقصود به يغمُرُه، وإنما يُعَلِّمُ التأويل منزلاً للتنزيل، ألم تسمع إلى قول الرسول ﷺ: «اللهم فقَّهه في الدين وعلمه التأويل». والاشتغال بالبطَّالِ بَطَالَةٌ؛ لأنَّ أوقاته قد ذهبت، ويذهب وقتٌ غيره بذكرها.

وبطلان قول هذا عند العلماء أظهر من أن يدل على فسادِه، فكفونا مناظرته بطردهم له وإبعاده.

وإنما الرضا فيما كان لله سبحانه وتعالى به رضا من غير مخالفة للأمر، مثل بُغْضِ الدُّنْيَا، ونقص الأموال والأنفُس من الأهل والولد، وفيما على النَّفْسِ فيه مشقة، ولها منه كراهة، وفيما كان مزيداً في الآخرة، وما لا عقوبة فيه من الله عز وجل، ولا وعيد عليه، ولا ذمّاً لفاعليه، وفيما يُفَرِّدُ الله^(١) بصنعه من غير أن

(١) في (د): «يجرد الله عز وجل».

يدخل صنعته فيه، أو يُوبَّخ النفسَ عليه، فيدُّ الله مباركةً إذا خرجت منها نفوس الخلق المشتومة، ثوبَ عباده وأحبَّهم، وإن أدخل نفوسهم فى حكمه، أو جعل أيديهم فى يده، انقلبت الأحكامُ عليهم، وتحول الشرُّ والضرُّ إليهم، فطالبهم بذلك وعاقبهم، ثم يغفر بعد لمن يشاء منهم، إن هذا لهو البلاء المبين، ومحنة المحبين والراضين، فثبَّتوا.

وقد يحتج أيضاً بطَّالٌ لبخله، وقلةً مواساته وبذله، أو يعتلُّ لاتساعه فى أمر الدنيا، واستثثاره على الفقر، أن الذى يمنعه من البذل، والإيثار، والزهد فيما فى يديه، والإخراج: رضاهُ بحاله، وقلةُ اعتراضه على مجريه فيه، وأن هذا مقام من مقامات الرضا خُصَّ به عند نفسه. وهذا قول لاعبٍ ذى هوى، وهو من خدع النفوس وأمانيتها، ومن غرور العدوِّ ومكايدِهِ؛ لأن الرضا لا يمنع من اختيار الفقر والضيق؛ لمعرفة الراضى بفضل الزهد وأوصافه كيف يكون، ويحب مولاه للفقر، ولمقته على التكاثر.

فالرضا لا يأمر بالاستيثار والاتساع لما كُرِه من النعمة والاستكثار؛ لأن الرضا يأمر بما أمر به الإيمان، إذ كان مقاماً فيه، فهو لا يوقف عما نُدب إليه العبدُ، ولا يُدخل فيما كُرِه له من فضول الدنيا، إنما يُوقف عن ذلك غلبةُ الهوى، ويدخل فيه محبة الدنيا، وهما مذمومان فى العلم، وعند العلماء، وتأمر به النفسُ الأمَّارةُ بالسوء، ويوسوس به العدوُّ بالهمِّ والخطو، وهذه مذمومات، فأحالهما لجهله على الرضا. وهذا اعتذار من النفس لها، وتمويه على الخلق، ليسلم منها، ولا عذر له بهذا عند مالكة، ولا سلامة له فيه من خالفه، ولا مقام له فى الرضا عند العلماء.

ومجمل ما ذكرناه أن الرضا لا يصحَّ إلا فيما يحسن الصبر عليه، أو الشكر؛ لأن الرضا مقامٌ من الصبر هو فوقه، وحالٌ من الشكر هو يستوفيه، فهو مزيدٌ للصابرين والشاكرين، إلا أن يكون رضاً للعقود، وهو تسليمُ الأحكام للراضى بذلك، فيرضى بالذمِّ والنقص والشرِّ من حكمه، ويعرف أنه عدلٌ فى حكمه، فهذا منوطٌ بعروة الإيمان، وهو فرضُ السنَّة، ليس من رضا المحبين ولا المتوكلين فى شيء.

فأما أن يكون العبد على نقصان من الدين، وفي مزيد من الدنيا، ثم رضى بحاله، فرضاه بحاله شرٌّ من أعماله؛ لمخالفة الأمر. قال الله عز وجل: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧]. وقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١]. وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. وقال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]. وقال تعالى: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١]. فندب إلى المسارعة والسباق، وذمَّ التخلف عنها والتثبُّط بالعوائق. فعلى هذا طريقُ المؤمنين، وفيه مقامات الموقنين.

وإنما كان سبب ترك سرى السَّقَطِي السوقَ، وزهده في الدنيا قوله: الحمد لله، لأنها كلمة رضا ظهرت منه في موضع الاسترجاع للمصيبة، وذلك أنه بلغه أن الحريق وقع في سوقه، فأحرق دكانه، فخرج في قِطْعٍ من الليل، فاستقبله قومٌ فقالوا: يا أبا الحسن، احترقت دكاكينُ الناس إلا دكانك. فقال: الحمد لله. ثم تفكر في ذلك، فقال: قلتُ الحمد لله في سلامة مالى وهلكة أموال إخواني المسلمين. فتصدَّق بجميع ما كان في دكانه من السَّقَطِ والآلة، كفارةً لكلمته هذه، وخرج من السوق، فشكر الله له فعله، فزهده في الدنيا، ورفعَه إلى مقام المحبة، فأوصله بذلك الرضا إلى الرضا. وبلغنى عنه أنه كان يقول: قلت كلمةً، فأنا أستغفر الله منها ثلاثين سنة. يعنى قوله: الحمد لله.

وقد جاء في الخبر: «من لم يهتمَّ بأمر المسلمين فليس من المسلمين».

وفي الخبر المشهور: «أوثق عُرَى الإيمان الحبُّ في الله، والبغض فيه». فجعل ذلك من أوثق العرى لأنه منوط بالإيمان، لا يستطيع الشيطانُ حلَّه، ولا سلطان له عليه، كما لا سبيل له على حل عُقْدِ الإيمان؛ لأنَّ الله عز وجل يحول بينه وبينه، وقد تولى تأييد الإيمان بروح منه، بعد كُتْبِهِ في القلوب برحمته، وفي الحب في الله: الولاةُ، والنُّصرةُ بالنفس والمال، والفعلُ، والمقال. وفي البغض في الله: تركُ ذلك، فُبْغُضُ المبتدع والفاجر المجاهر، والظالم المعتدى، وترك

موالاتهم ونصرتهم، واجبٌ على المؤمنين. فلأجل ذلك صارت الموالاتُ لأولياء الله والمعاداة لأعدائه من أوثق عرى الإيمان، لأنك قد تعصى وتخالف مولاك لتسليط العدو، وغلبة هواك، إلا أنك تبغض العاصين، ولا تواليهم على المعاصى، ولا تحبهم لأجلها، من قبل أن العدو لم يُسلط على ذلك منك، كما سلط على فعله من نفسك، كما أنه لم يُسلط على حلِّ عقد إيمانك، كما سلط على حلِّ المراقبة والخوف منك. ولم يُسلط أيضاً عليك فى استحلال المحارم، ولا استحسانها، ولا التزُّين بها، ولا فى ترك التوبة منها، ولا بالرضا بها، كما سلط عليك باقترافها. فهذا من كبائر الكبائر، التى تنحلُّ عقد الإيمان معها، وتُقضى عراه بها، من قبل أن الموالات والمحبة لأعداء الله عز وجل، يعمل فى أصل الدين، وتمحو بُتَ اليقين، فلا يبقى منه نور؛ لأنه من عصى إمامه فيما أمره مثل مَنْ قَلَبَ دولته، وخرج عليه بالسيف، وليس مَنْ وافق هوى نفسه فيما نهى الله عز وجل مثل مَنْ فَرَّقَ ما وَفَّقَ الله تبارك وتعالى فيما كتب وأرسل، فنبذ كتبه ظَهِرياً، ورد يده فى أفواه الرسل مُسَكَّتاً. فإن سلط على مثل هذا منك العدو، حتى تُحب الفساد وتواليهم، وتنصرهم على فسقهم، أو تستحلَّ ما ترتكب من الحرام، أو ترضى به، أو تدين به، فقد انسلخ منك الإيمان، كما انسلخ الليل من النهار، فلست منه فى قليل ولا كثير؛ لأن هذه العقود منوطة بعُرى الإيمان، وهى وهى وهى فى قرنٍ واحدٍ مقترنان.

فإن تكن مقامات هؤلاء الفاسقين والظالمين توجب عليهم الرضا بأحوالهم، والشكر عليها، فرضوا وشكروا، لزمهم أيضاً أن يصبروا ويثبتوا على ما شكروا عليه، ورضوا به، فيصير ذلك مقاماً لهم فى الشكر والرضا عند القائل بهوهم، وجب عليه - أيضاً - لهم أن يحبهم عليها ويواليهم، فإذا وجب ذلك عليه لزمه أن يعينهم عليها، ويأمرهم بها، وفى هذا تكذيب الكتب كلها، وردُّ الرسل كلهم. نعوذ بالله تبارك وتعالى من رضا لا ينفع، ومن حُب لا ينفع، كما نعوذ به من عمل لا ينفع، وعلم لا ينفع، ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي

شيء ﴿آل عمران: ٢٨﴾؟ أَوْ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]؟

وكذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الحج: ١٩]. وقال تعالى في مثله: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّىٰ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١١٥].

وقد روينا في خبر: «إن الله تعالى أخذ على كل مؤمن فى الميثاق أن يبغض كل منافق، وأخذ على كل منافق أن يبغض كل مؤمن». وفى الخبر المشهور: «المرء مع من أحب، وله ما احتسب». وفى حديث آخر: «مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا وَوَالَاهُمْ فى الدنيا حُشِرَ مَعَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وروينا عن عمر بن الخطاب وعن ابنه عبد الله رضى الله عنهما، دخل لفظ أحدهما فى الآخر: «لو أَنَّ عَبْدًا صَفَّ بَيْنَ قَدَمَيْهِ عِنْدَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ، يَعْبُدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَمْرَهُ، يَصُومُ نَهَارَهُ، وَيَقُومُ لَيْلَهُ، ثُمَّ لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَلَيْسَ فى قَلْبِهِ مَحَبَّةٌ وَمَوَالَاةٌ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَلَا بَغْضٌ وَلَا مَعَادَاةٌ لِأَعْدَائِهِ، لَمَّا نَفَعَهُ ذَلِكَ شَيْئًا».

وقد جاء نحوه، وبمعناه مسنداً عن عمر وغيره: «إن أحدهم ليشيب فى الإسلام، ولم يوال فى الله تعالى، ولم يُعاد فيه عدوًّا، فذلك نقصٌ كبيرٌ».

وفى معنى قوله: «أوثق عرى الإيمان الحبُّ فى الله، والبغضُ فيه» وجهٌ خفىٌّ، هو أن يحبك المؤمنون، ويبغضك المنافقون، فىكون ذلك علامة وثيقة عروة إيمانك؛ لأن قوله: «الحب فى الله» يصلح أن تحب أنت، ويصلح أن يحبك المؤمنون، وكذلك «البغض فى الله» يصلح بأن يبغضك المنافقون، كما تبغضهم أنت، فكأنك تتحبب إلى المؤمنين حتى يحبوك، وتتبغض إلى المنافقين حتى يبغضوك، بإظهار التباعد عنهم، وبترك الموالاة والممالاة لهم، وبنصحك إياهم، فيدل ذلك على قوة إيمانك، لم تأخذك فى الله لومة لائم منهم، كما وصف الله

تعالى بذلك من يحبهم ويحبونه، ويكون ذلك أبعد لك من المداهنة والنفاق، وأقرب إلى الورع والإخلاص. فإذا فعلت ذلك بهم أبغضوك أو مقتوك، فتظفر بما تريد، وتدرك^(١) مما تحب داخلاً عليك بوصفهم. فهذا على معنى ما قال الله سبحانه: ﴿أَشَدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. وقال: ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. وكما أمر نبيه في قوله عز وجل: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩]. وكذلك أمر المؤمنين في قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]. فهذا المأمور بخفض الجناح للأتباع، وتلين الجانب للأحباء، وبالعفو والاستغفار والمشاورة للأصحاب. فكان ﷺ لطيف اللسان غير فظّ له، رقيق القلب غير غليظه عليهم. فكذلك أمره بالشدة والغلظة للأعداء، فقال: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ بيدك، ﴿وَاغْلُظْ﴾ على المنافقين بلسانك وقلبك. فهكذا القول فيمن يصلح جهاده بالسيف ممن شاقَّ وحادَّ، وكذلك القول فيمن كان على شعبة من حدّهم، وعلى شقّة وجانب إلى شقّهم من الفسوق والعصيان، اللذين قرّنهما الله تعالى بالكفر. وحدّ^(٢) جهاده باللسان بالفظاظة، وجهاده بالقلب بالغلظة، كما فعله رسولنا^(٣) ﷺ مع المنافقين دون من جاهدَهُ بالسيف من الكافرين الذين قال فيهم: ﴿يُحَادُّونَ اللَّهَ﴾ [المجادلة: ٢٠] يشاقون، أى: يكونون فى حدٍّ وشقٍّ، والله ورسوله فى شقٍّ آخر وحدٍّ، فهؤلاء قد ساروا فى شقّهم وحدّهم؛ أى جنبتهم وناحتهم. فنحن كذلك على سبيل رسولنا ﷺ وبصيرته، لأننا من أتباعه وشيعته. وذلك هو داخلٌ فى حبك للأولياء، وبُغضك للأعداء لا محالة؛ لأنك إذا أظهرت للأولياء المحبة، اقتضتْهم محبتك لهم محبتهم لك فى عقودهم؛ لأنّ ذلك لك عليهم، كما هو عليك لهم، فكيف بهم إذا رأوه منك؟!

(١) الكلمة غير واضحة، وهكذا قرأتها ولعلها خطأ.

(٢) فى الأصلين: «وحب». وفى (م) ضبطت «جهاده» على الإضافة.

(٣) فى (م، د): «صاحبنا».

وكذلك إذا بغضت الأعداء أبغضوك لا شك؛ لأن نفوسهم وأهواءهم تقتضيهم ذلك.

وروى عن عيسى عليه السلام: «إن الله تعالى قال: أحبُّ عبادي إلى الذي يذكرني بالأسحار، ويُبغِّض إلى الفجار». معناه: أن يُظهر لهم البغض وينابذهم العداوة، حتى يبغضوه، فإذا بغضوه أبغضهم الله، فيكون قد بغضهم إليه بهذا المعنى، أى: كان سبب عقوبة الله لهم بالبغض والمقت.

وقد كان الثوري يقول: إذا رأيت الرجل محبباً إلى جيرانه فاعلم أنه منافق. وقال كعب الأحمار لأبى إدريس الخولاني، وكان من علماء الشام: كيف أنت في قومك؟ قال: يحبونى ويكرمونى. قال كعب: ما صدقتنى التوراة إذن. قال: وما فى التوراة؟ قال: أجد فى التوراة أن الرجل العالم العامل الأمر لا يحبه جيرانه. فقال أبو مسلم: بل صدقتك التوراة، وكذبتنى نفسى. لأن العالم يأمر جيرانه بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، وينصح لهم، ولا يحبون الناصحين.

وقال بعض المريدين: قلت لبعض أهل المعرفة: إنى كثير الغفلة عن الله، قليل المسارعة إلى مرضاته، أوصنى بشىء أعمله أدرك به ما يفوتنى من هذا. قال: يا أخى، إن استطعت أن تتحبب إلى أولياء الله وتتقرب من قلوبهم فافعل، لعلهم يحبونك فإن الله عز وجل ينظر إلى قلوب أوليائه فى كل يوم سبعين نظرة، فلعله أن ينظر إليك فى قلوبهم لمحبتهم لك، فيجريك جيرة الدنيا والآخرة، إذا لم تكن ممن ينظر إليه كفاحاً.

وكذلك يُقال: إن الله عز وجل ينظر إلى قلوب أوليائه الصديقين والشهداء مُواجهةً، فهؤلاء الذين عرفوه به، لقربه منهم، ولدوام نظره إليهم، فهو وجهتهم. ثم ينظر إلى قلوب قوم فى قلوب قوم، وإلى قلوب قوم من قلوب آخرين. فهؤلاء المجتهدون الذين عرفوه بهم، وأحبوه من محبتهم، فهو وجهتهم إليه، وأدلتهم عليه، فيعطيهام نصيباً من نصيبهم، كما أعطاهم شهادةً من شهادتهم، ووجدًا من علمهم.

فهكذا عندى من عزائم الدين، وسبيل الورعين، أن تبغض إلى أعدائه،

وتممَّت إليهم؛ من المبتدعين والفاستقين والظالمين؛ ليغضوك ويمقتوك، فيكون لك من القربة كحب أوليائه لك، وحبك لهم. فهذا من أسباب ولاية الله، ومن وثائق عرى الدين. وقد روينا عن النبي ﷺ: «اللهم لا تجعل لفاجرٍ عندى يداً فيحبه قلبى».

ووصل^(١) بعضُ الأمراء أبا هريرة بألف دينار، وعشرة أثواب، فردّها عليه. وقال: ما كنت لأقبل منه، يأخذ المال من غير حلّه، ويضعه فى غير حقه. وقد قال رسول الله ﷺ: «ردُّوا هديةَ الفاجرِ عليه، لا يرى أنكم ترضونَ عمله».

فمن^(٢) أخلاق الله سبحانه وتعالى أنه يُغض من أبغض أوليائه، كما يؤذيه من آذاهم، ولا يحب من أحزن أوليائه، كذلك يسره من يسرهم. وروينا عن بعض الجبابرة من العتاة فى فرط كرم الله تعالى، وغاية حلمه، أن جباراً من الملوك قحطت رعيته، فشكوا إليه، فخرج بهم إلى الصحراء، فرفع رأسه إلى السماء، وقال: يا ساكن السماء، لتسقين الغيث أو لتؤذينك. فقال له وزراؤه: كيف تؤذيه، وهو فى السماء وأنت فى الأرض؟ فقال: أقتل أوليائه من أهل الأرض، فيكون ذلك أذى له. قال: فأرسل الله عليهم السماء بكرمه وجوده.

وروينا فى الحديث: «من أكرم مؤمناً فإنما يكرم الله. ومن سرَّ مؤمناً فقد سرَّ الله. ومن أهان لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة».

وكذلك فى تدبر الخطاب من تضاد الأوصاف: أن من أهان عدواً لله فقد والاه، ومن ضرَّ كافراً فقد تقرب إلى الله، مع قوله: «ولا يَطْئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ» [التوبة: ١٢٠].

وأقلُّ ما لك فى هذا الزهد، فى باب كبيرٍ من أبواب الدنيا، إذ كانت المداهنة

(١) هذا لفظ المطبوعة، وعبارة (د، م): «وأهدى بعض الأمراء إلى... وقال: ما كان الله ليرانى أقبلها منه».

(٢) من هنا إلى قوله: «يغيب الكفار» زيادة من (د، م).

والممالة من أكبر أبواب الدنيا؛ لأن بذلك يستوى عيش أهل الدنيا، ويتم سلامتها لهم. فهذا هو الطرف الآخر من معنى قوله: «الحبُّ في الله، والبغض فيه»، وهو وجهٌ غامضٌ، ومعناه: إذا كشف جلى ظاهر، وهو موجود عند علماء الآخرة؛ لأنه من زاد طريقهم إليها، ومفقود عند علماء الدنيا؛ لأنهم لا يقدرون عليه، لما عليهم من حبها.

وقد جعل الله من أراد أن يحبه الفاسقون، ويأمن فيهم؛ وجعل من يسارع بالإدهان وإظهار المتابعة للظالمين، خشيةَ دور الدوائر عليه، علمين من أعلام النفاق، فقال سبحانه: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩١]. وقال تعالى في المعنى الثاني: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يعنى: المنافقين ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ يعنى: يواطئون الكافرين سرًّا ﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ أى: نخاف أن تكون الدولة للكافرين على المؤمنين، ثم قال الله تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ [المائدة: ٥٢] الآية. فينبغى لمن آمن فى المؤمنين وأهل السنة وأحبوه، أن يخاف فى المنافقين وأهل البدع أن يبغضوه. وينبغى لمن سارع فى مواطاة المؤمنين أن ينّى ويبتطئ فى مداينة الظالمين ومتابعتهم، حتى يخلص له إيمانه من النفاق، وتستقيم طريقه من الضلال. وقد نفى الله الإيمان عمن أحبَّ من حادّه، وأثبت الإيمان والتأييد باليقين لمن أبغض فيه أعداءه، فقال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] الآية.

فأما من قال من الجاهلين بأن الرضا قد يكون بالمعاصى منه، أو من سواه، كما يكون فى الطاعات، فقد جعل المعاصى والمخالفات من القربات، وسوى بينهما. وفى هذا هدم شرائع الأنبياء، وإبطال تفصيل الله ما أحلَّ لنا مما حرَّم علينا، وما أمرنا به مما نهانا عنه، وقد يتقرب إلى الله ببغضه، وبغض من أحبه.

وقد روى فى خبر: «من شرَّ الناس منزلةً عند الله من يقتدى بسيئة المؤمن ويترك حسنة».

وقال بعض العلماء: من حمل شأذ العلماء فقد حمل شرّاً كثيراً.

ومن حُسن الأدب في المعاملة، إذا عملت صالحاً، فقل: يا سيدي، أنت استعملتني، وبحولك وقوتك وحسن توفيقك أطعتك؛ لأن جوارحي جنودك. وإذا عملت شيئاً، فقل: ظلمت نفسي، وبهواي وشهوتي اجترحت بجوارحي، وهي صفاتي. ثم يعتقد في ذلك أنه بقدره ومشيئته كان ما قضاه، فتكون بالمعنيين قد وافقت مرضاة مولاك، وتكون في الحالين عاملاً بما يرضيه بالقول والعقود، ويتنفي عنك العُجب في أعمال برّك، ويصح منك المقت لنفسك، واعترافك بظلمك.

وقد تُقَلِّبُ هذه المشاهدة على الجاهل، فإذا عمل حسناً، شهد نفسه، ونظر إلى حوله وقوته، فهلك بالكبر، وبطل عمله بالعُجب. وإذا عمل سيئاً، لم يعترف بالذنب، ولم يقرّ على نفسه بالظلم، فلم تصحّ له توبة، ولم يرض له عملاً، نعوذ بالله من مشاهدة الضلال.

وقال أبو محمد سهل رحمه الله تعالى: إذا عمل العبد حسنة فقال: يا رب، أنت استعملتني، شكر الله له ذلك، فقال: أنت عملت. فإذا نظر إلى نفسه فقال: أنا عملت، يقول الله: بل أنا استعملت. قال: وإذا عمل سيئة فقال: أنت قدّرت، وأنت أزدت، يقول الله تعالى: أنت ظلمت، وأنت عصيت بشهوتك وهواك. فإن قال العبد: ظلمت نفسي، وعصيتُ بجهلي، استحيا الله منه، فقال: بل أنا قدّرتُ وأنا قضيتُ، قد غفرتُ لك باعترافك بالظلم على نفسك.

فهذه آداب العاملين ومشاهدة العالمين، وهذا داخلٌ في قوله: «أعرفكم برّبّه أعرّفكم بنفسه». فكَذلك يحب ابن آدم ممن عامله الاعتراف والتواضع. وهذا أيضاً أحد المعاني في قوله تعالى: ﴿وآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢]. قيل: هو الاعتراف عقيب العمل السيء؛ لأنه قد تقدم ذكره فكان الصالح بعده اعترافه.

فأما من قَلِبَتْ عليه هذه المعاني، فجهل عواقب الأمور، وغلبت عليه الغفلة،

واستحوذت عليه الجهالة، فجعل ينظر إلى من فوقه في الدنيا، فيغبطه على حاله، أو يتمنى مكانه، أو يدخله نظره إليه في استصغار نعمة الله عليه، ويزدرى يسير ما قَسَمه الله له، ثم ينظر إلى من دونه في الدين من عموم المسلمين، فيرضى بنقصان مقامه، ويجعل ذلك معذرة له وحجة وتأسياً به، ويُبْطِطه عن المسارعة إلى القربات، ولعله أن يداخله العُجْب والكبر حتى يتفضّل عليه بحاله، أو ينظر إلى نفسه بأعماله، لتقصير غيره عن مثل فعّاله. فهذا إذا يُكْتَب جزُوعاً عن الصبر، كفوراً للنّعمة بإضاعة الشكر؛ لأنه ليس بصابر ولا شاكِرٍ، على ضدّ الوصف الذي رويناه قُبيل من نَعَتِ الصابر والشاكِر. وهذا وصف من أوصاف المنافقين، وهو مقام الهالكين، إذ الصبر والشكر من صفات المؤمنين، وهما حالا المتقين. وفي الخبر المشهور، عن أبي ذرّ الغفاريّ، رحمه الله: «أوصاني رسول الله ﷺ بحُبّ المساكين، والدُّنُوّ منهم، وأن أنظر إلى من هو دُوني، ولا أنظر إلى من فوقى، فذلك أجدر أن لا أزدري نعمة الله عليّ».

وقد وُصف هذا البلد بمثل هذه المعانى، والله المستعان. قد حدّثونا عن عبد الله ابن المبارك - رحمه الله تعالى - أنه قال: طُفْتُ الشَّرْقَ والغرب، فما رأيتُ بلدًا شرًّا من بغداد. قيل: وكيف ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: هو بلدٌ تُزْدَرى فيه النّعمة، وتُسْتَصْغَرُ فيه المعصية. وحدّثونا عنه أنه قيل له لِمَا قَدِمَ خراسان: كيف رأيت الناس ببغداد؟ قال: ما رأيتُ بها إلا شُرْطِيًّا غَضبان، أو تاجرًا لهفان، أو قارئًا حيران.

وقيل: إنه كان يتصدق كل يوم بدينار؛ لأجل مقامه ببغداد، إلى أن يخرج إلى مكة. فبلغنى أنه كان يقيم معه الحاج ستة عشر يوماً، يتصدق بستة عشر ديناراً؛ كفارة لمقامه.

وقد وصفها الشافعى أنها هي الدنيا. فروينا عنه أنه قال: الدنيا كلها بادية، وبغداد حاضرتها.

ورويانا عن يونس بن عبد الأعلى، قال: قال لى الشافعى: يا يونس، رأيتَ بغداد؟ قلتُ: لا. قال: ما رأيتَ الدنيا، ولا رأيتَ الناس.

وقد ذم العراق جماعةً، منهم عمرُ بن عبد العزيز، وكعب الأحبار. فروينا عن عمر أنه قال لمولى له: أين تسكن؟ قال: العراق، قال: وما تصنع هناك؟ بلغني أنه ما من أحد سكن العراق إلا قُيِّض له قرين من البلاء.

وذكر كعب الأحبار العراق يوماً فقال: فيه تسعة أعشار الشر، وفيه الداء العضال. وكان قد قال ذلك لعمر بن الخطاب، فنهاه عن الخروج إلى العراق. وهكذا كان. فقال أيضاً: قُسم الخير عشرة أجزاء، فجُعل تسعة أعشاره بالشام، وعشره بالعراق. وقُسم الشرُّ عشرة أجزاء، فجُعل تسعة أعشاره بالعراق، وعشره بالشام.

قال: وكنا عند الفضيل بن عياض يوماً، فجاءه بعض الصوفية متدبراً بعباءة، فسَلَّم عليه الفضيل، وأجلسه إلى جانبه، وأقبل عليه بوجهه. ثم قال له: أين تسكن اليوم؟ فقال: ببغداد. فأعرض عنه الفضيل، ثم قال: يأتينا أحدكم في زِيَّ الرهبان، فإذا سألناه أين تسكن، قال: في عِشِّ الظَّلْمَةِ.

وقد كان بشر بن الحارث يقول: مَثَلُ المتعبد ببغداد مَثَلُ المتعبد في الحَشِّ^(١). وكان يقول: لا تقتدوا بي في المقام ببغداد، من أراد أن يخرج فليخرج.

وكان أحمد بن حنبل - رحمه الله - يقول: لولا تعلق هؤلاء الصبيان بنا، كان الخروج من هذا البلد أثر في نفسى. قلنا: أين تختار السكنى؟ قال: بالثُغُور.

فأما معروف الكرخي فإنه أفصح بها، كان يقول: أما أنا فقد أُمِرْتُ أن أموت ببغداد.

وهؤلاء الثلاثة - رحمهم الله تبارك وتعالى - من خيار أهل هذا البلد، وهم من أبدال الصَّدِّيقين.

ومن سكن بلدًا، كثيرَ المنكر، ظاهر المعاصي، فكان منزعجًا فيه غير مطمئن إليه، يرغب إلى الله عز وجل في إخراجه منه؛ لحسن اختياره له، وكان مضطراً في المقام فيه؛ لعيلة ثقيلة، أو قلة ذات يد حقيقة، لا يستطيع حيلةً في الخروج،

(١) الحش: مكان قضاء الحاجة. الجمع: حُشوش، وحِشَّان.

ولا يعرف طريقاً، وهو على يقينٍ من سلامة دينه فيه، فإنه معذور عند الله؛ لحسن تفضُّل من الله، وحسن نيته. وهو أقرب إلى العفو والسلامة ممن اغتبط بمقامه، واطمأنَّ ورضى بحاله، أو كان مقامه على هوى، أو لاختلاف أسباب الفتنة والدنيا.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَأَسِعَةَ فَتَهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]. فى التفسير: إذا كنت فى بلد يُعمل فيه بالمعاصى، فتحوَّل منه إلى غيره. وقيل: إذا كان العبد فى بلد مَنْ يعمل فيه بالمنكر والمعاصى أضعف، أو أقل من أهل الدين والمعروف، ثم لم يُنكر ذلك، فقد وجب الخروج منه.

وقال عز وجل فى قوم من المستضعفين عَذَرَهُمْ، وأرجى إلى العفو أمرهم: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء: ٧٥]. وقال تعالى فى تمام وصفهم واستثنائهم من غيرهم: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ [النساء: ٩٨ - ٩٩].

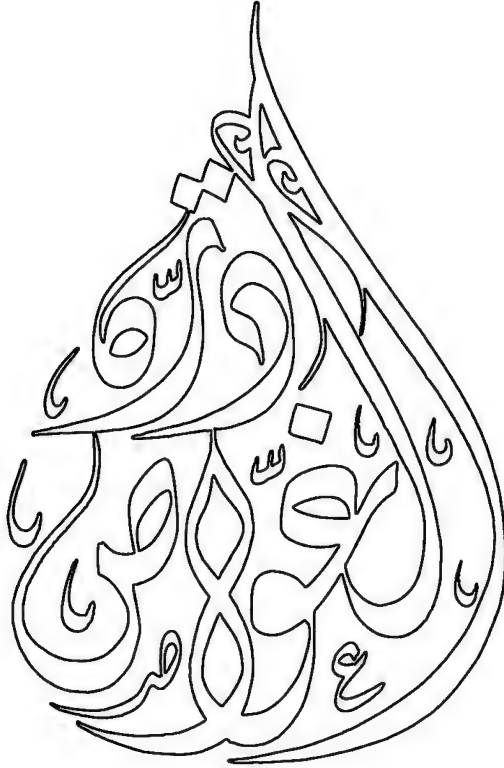
ألا ترى كيف أخبر بترك رضاهم بالمقام، وبانزعاجهم وطلبهم الخروج، فبذلك عَذَرَهُمْ. وقال بعضهم^(١): بلغنى أن أحمد بن الأسود الدينورى - رحمة الله - دخل بغداد عند عوده من الحج، فلم يقم بها، بل خرج إلى النهروان، وأقام بها إلى أن خرج الحاجُّ، فسار معهم، وكان من الأبدال رحمه الله.

ولا يصحّ الرضا إلا بالعصمة من جميع الهوى، وأول الرضا القناعة. وقال بعض أهل المعرفة: لا يكون العبد قانعاً، حتى لو جاء إلى باب منزله جميع ما يرغب فيه أهل الدنيا من الاتساع والنعمة، فعُرِضَ عليه، لم ينظر إلى ذلك، ولم يفتح بابه قناعةً منه بحاله. والعصمةُ حال الراضى عن الله عز وجل، وهى ظاهرُ الرحمة. والرحمة أول الرضا من الله تعالى، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ

(١) هذا الخبر من (د) فقط.

النَّفْسَ لَأَمَّارَةً بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴿٥٣﴾ [يوسف: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ [هود: ٤٣]. فالعصمة من الله لعبده دليلٌ على الرحمة منه، ثم تُدخله فى مقام المحبة، وهى رحمةُ المحبوبين، ثم ترفعه المحبةُ إلى الرضا؛ فتكون المحبة مقامه عن شهادة محبوب، ويكون الرضا حاله فى جميع تصريف البعيد^(١) والمطلوب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

آخر كتاب الرضا، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد النبى وعلى آله وصحبه وسلم^(٢).



(١) فى المطبوعة: «تصريف البقية» وأثبت ما فى (د، م).

(٢) هذه الخاتمة من (د).

ذكر أحكام المحبة، ووصف أهلها وهو المقام التاسع من مقامات اليقين

المحبة من أعلى مقامات العارفين، وهى إيثارٌ من الله تعالى لعباده المخلصين، ومعها نهاية الفضل العظيم. قال الله جلّت قدرته: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]. ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الحديد: ٢١]. وهذا الخبر متصلٌ بالابتداء فى المعنى؛ لأن الله تعالى وصف المؤمنين المحبين بفضله عليهم، وما اعترض بينهما من الكلام فهو نعتُ المحبوبين.

وروى عن النبى ﷺ: «ما كان الله ليعذب حبيبه بالنار». وقال الله عز وجل مصداق قول نبيه عليه السلام، ردًا على مَنْ ادعى محبته، واحتجاجًا عليهم: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ١٨]. وقال زيد بن أسلم: «إن الله لُحِبُّ العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول: اصنع ما شئت فقد غفرت لك».

وروينا عن إسماعيل بن أبى زياد عن أبان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أحبَّ الله عبدًا لم يضره ذنبٌ، والتائبُ من الذنب كمن لا ذنب له، ثم تلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقد اشترط الله للمحبة غفران الذنوب بقوله تعالى: ﴿يُحِبُّكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]. فكلُّ مؤمنٍ بالله فهو محبُّ لله، ولكن محبته على قدر إيمانه، وكشف مشاهدته، وتجلّى المحبوب له على وصف من أوصافه، دليل ذلك استجابتهم له بالتوحيد، والتزام أمره، وتسليم حكمه. ثم تفاوتهم فى مشاهدات التوحيد، وفى دوام الالتزام للأوامر، وفى تسليم الأحكام^(١)، فليس ذلك يكون إلا عن محبة. وإن تفاوت المحبون على حسب أقسامهم من المحبوب، وليس

(١) فى (د، م): «فى التزام الأمر، وفى تسليم الحكم».

يصغر^(١) عن المحبة صغير، كما لا يصغر عن المعرفة من عرف، ولا يكبر عن التوبة كبير، ولو كان على كل العلوم قد أوقف؛ لأن الله تعالى وصف المؤمنين بشدة الحب له فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وفى قوله ﴿أَشَدُّ﴾ دليل على تفاوتهم فى المحبة؛ لأنّ المعنى أشدُّ فأشدُّ، ولم يقل: شديد الحب لله. فأشبه هذا الخطاب قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. فدل على تفاوتهم فى الإكرام على قدر تفاضلهم فى التقوى، ولم يقل: إن الكرام المتقون.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ، وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ».

فالمؤمنون متزايدون فى الحب لله عز وجل عن تزايدهم فى المعرفة به، والمشاهدة له. وقد جعل رسول الله ﷺ الحب لله من شرط الإيمان بالله من غير خبر عنه. وقال أبو رزّين العقيلي: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: «أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِمَّا سِوَاهُمَا». وفى حديث: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا». وفى خبر آخر، أشد تأكيداً وأبلغ من هذين قوله: «وَاللَّهِ، لَا يُؤْمِنُ الْعَبْدُ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ». وفى خبر آخر: «وَمَنْ نَفْسُكَ». وقد أمر ﷺ بالمحبة لله فيما شرعه من الأحكام، فقال: «أَحْبُوا اللَّهَ لِمَا أَسَدَى إِلَيْكُمْ مِنْ نِعَمِهِ، وَأَحْبُونِي لِحُبِّ اللَّهِ»، فدل ذلك على فرض الحب لله، وإن تفاضل المؤمنون فى نهايات فضائله. ومن أفضل ما أسدى إلينا من نعمه المعرفة به، فأفضل الحب له ما كان عن المشاهدة.

والمحبون لله على مراتب من المحبة؛ بعضها أعلى من بعض، فأشدُّهم حباً لله أحسنهم تخلُّقاً بأخلاقه، مثل العلم، والحلم، والعفو، وحسن الخلق، والستر على الخلق، وأعرفهم بمعانى صفاته، وأتركهم منازعة له فى معانى الصفات، كى لا يشركوه فيها، مثل: الكبر، والحمد، وحب المدح، وحب الغنى، والعز، وطلب

(١) فى المطبوعة: «يقصر».

الذكر، ثم أشدهم حباً لرسوله، إذ كان حبيب الحبيب، وأتبعهم لآثاره، وأشبههم هدياً بشمائله.

وقد روى أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني أحبك، فقال: «استعد للفقير». فقال: إني أحب الله، فقال: «استعد للبلاء». والفرق بينهما أن البلاء من أخلاق المبلى، وهو الله تعالى المبلى. فلما ذكر محبته أخبره بالبلاء؛ ليصبر على أخلاقه، كما قال تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [الذثر: ٧]، فدل على أحكامه وبلائه. والفقير من أوصاف رسول الله ﷺ. فلما ذكر محبته دله على اتباع أوصافه ليقتنى آثاره؛ لقوله عليه السلام: «أحبنى مسكيناً وأمتنى مسكيناً واحشُرني في جملة المساكين».

ومن علامة المحبة كثرة ذكر الحبيب، وهو دليلُ محبة المولى لعبده، وهو من أفضل مننه على خلقه. وفي الخبر: «إن الله في كل يوم صدقةً يمنُّ بها على خلقه، وما تصدَّق على عبدٍ بصدقةٍ أفضل من أن يلهمه ذكره».

وفي حديث سفيان عن مالك بن معول قيل: يا رسول الله، أى الأعمال أفضل؟ قال: «اجتنابُ المحارم، ولا يزال فُوك رطباً من ذكر الله».

وقد أمر النبي ﷺ بكثرة الذكر لله، كما أمر بمحبة الله؛ لأن الذكر مقتضى المحبة، فقال: «أكثر من ذكر الله، حتى يقول الناسُ إنك مجنون». وقد روينا: «أكثرُوا من ذكر الله، حتى يقول المنافقونُ إنكم مراؤون».

وفي حديث أبي سلمة المدني عن أبيه عن جده: أتانا رسول الله ﷺ ذات يوم إلى مسجد قباء، فذكر حديثاً فيه طول، قال في آخره: «مَنْ تواضع لله رفعه، ومن تكبر وضعه، ومن أكثر ذكر الله أحبه الله».

وقد أخبر أن الذاكرين هم السابقون المفردون، ورفعهم إلى مقام النبوة في وَضْعِ الوزر ورفع الذكر، إذ كان الذكر موجب الحب، في قوله: «سيروا سبق المفردون. قيل: مَنْ المفردون؟ قال: المستهترون بذكر الله، وضع الذكر عنهم أوزارهم، يَرِدُونَ القيامة خفافاً».

ومن أعلام المحبة: حبُّ لقاء الحبيب على العيان، والكشف في دار السلام

ومحل القرب، وهو الاشتياقُ إلى الموت؛ لأنه مفتاح اللقاء، وباب الدخول إلى المعاينة. وفي الحديث: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه».

وقال حذيفة عند الموت: حبيبٌ جاء على فاقة، لا أفلح من ندم. وقال بعض السلف: ما من خصلة أحب إلى الله تكون في العبد بعد حبِّ لقاءه من كثرة السجود. فقدم حبَّ لقاء الله.

وقد شرط الله لحقيقة الصديق القتلَ في سبيله، وأخبر أنه يحب قتل محبوبه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُورٌ﴾ [الصف: ٤]. بعد قوله تقريراً لهم: ﴿لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢] حيث قالوا: إنا نحب الله، فجعل القتل محنة محبته وعلامة أخذ مال محبوبه ونفسه، إذ يقول تعالى: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١].

وفي وصية أبى بكرٍ لعمر رضى الله عنهما: «الحقُّ ثَقِيلٌ؛ وهو مع ثقله مَرِيٌّ، والباطلُ حَفِيفٌ؛ وهو مع خفته وَبِيٌّ. فإن حفظت وصيتى، لم يكن غائبٌ أحبُّ إليك من الموت، وهو مُدْرِكُكَ، وإن ضيَّعتَ وصيتى، لم يكن غائبٌ أبغضُ إليك من الموت، ولن تُعْجِزَهُ».

وكان الثورى وبشر بن الحارث يقولان: لا يكره الموت إلا مريب. وهو كما قالوا؛ لأن الحبيب على كل حال لا يكره لقاء الحبيب.

وفي الخبر المشهور؛ أن إبراهيم قال لملك الموت، إذ جاءه لقبضه: هل رأيت خليلاً يُميتُ خليله؟! فأوحى الله إليه: فهل رأيت مُحِبًّا يكره لقاء حبيبه؟! فقال: يا ملك الموت، الآن فاقبض.

وهذا لا يجده إلا عبدٌ يحب الله بكلِّ قلبه، عندها يشتاق إليه مولاه، فيترعج القلب لشوق الغيب، فيحب لقاءه.

وقال البويطى لبعض الزهاد: أتحبُّ الموت؟ فكأنه توقف، فقال: لو كنت صادقاً لأحبيته، ثم نزع بهذه الآية: ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦]. فقال

الرجل: فقد قال النبي ﷺ: «لا يتمنى أحدكم الموت»، فقال: إنما قال: «لضرّ نزل به».

وهذا كما قال البويطي؛ لأن التائب إذا صدقت توبته طلب الموت، خشية الحول عن حاله، فإن كان كذلك، كان هو التائب الذي هو حبيب الله. إلا أن مقام الرضا أعلى من مقام تمنى الموت، فلذلك قال الرسول: «لا يتمنى الموت للضرّ ينزل به» أى: رضاه بقضائه أفضل من تمنى لقائه، ليُقبض على مقام الرضا.

وروى أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، لما زوج أخته فاطمة بنت عتبة بن ربيعة من سالم مولاه، عاتبه قريش في ذلك، وقالوا: أنكحت عقيلاً من عقائل قريش بمولى؟! فقال: والله لقد أنكحته إياها، وإنى لأعلم أنه خير منها. فكان قوله أشد عليهم، قالوا: وكيف؟ وهى أختك، وهو مولاك! فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فليُنظر إلى سالم».

ففيه دليله: أن من المؤمنين من يحب الله ببعض قلبه، فيؤثره بعض الإيثار، ويوجد فيه محبة الأغيار. ومنهم من يحبه بكل قلبه، فيؤثره على ما سواه، فهذا عابده ومألوهه الذى لا معبود له ولا إله إلا إياه. وفيه دليل على أنهم على مقامات فى المحبة، عن معانى مشاهدات الصفات، ما بين البعض فى القلوب والكلية.

وقد كان نعيمان يؤتى به رسول الله ﷺ، فيجده فى معصية يرتكبها، إلى أن أتى به يوماً، فحدّه، فلعنه رجل، وقال: ما أكثر ما يؤتى به رسول الله ﷺ! فقال رسول الله ﷺ: «لا تفعل، فإنه يحب الله ورسوله». فلم يخرج من المحبة مع المخالفة.

وقد قال بعض العارفين: إذا كان الإيمان فى ظاهر القلب - يعنى على الفؤاد - كان المؤمن يحب الله حباً متوسطاً، فإذا دخل الإيمان باطن القلب، فكان فى سويدائه، أحبه الحب البالغ.

وعلاوة ذلك أن ينظر؛ فإن كان يُؤثر الله على جميع هواء، ويغلب محبته على هوى العبد، حتى تصير محبة الله هي محبة العبد من كل شيء، فهو محبٌ لله حقاً، كما أنه مؤمن به حقاً، عن مشاهدة اليقين الذي يغلب رؤيته على رؤية الخلق، فيشاهده في كل شيء، ويكون واجداً به دون كل شيء، إذ قد تجلّى لمن أيقن بكل شيء.

وإن رأيت قلبك دون ذلك، فلك من ذوق محبة سواه بقدر ما لك من شوب اليقين مُمتزجاً بشهادة الخلق والوجد بهم، دون الخالق، وذلك أيضاً عن خالص شهادة التوحيد، ومن المحبة بقدر ذلك له في مقامات الخالصين، أو مشوباً بالشرك الخفى بالنظر إلى الأواسط والثواني في إخلاص عموم المخلصين.

فأدلّ علامات المحبة الإيثارُ للمحسوب على ذخائر القلوب؛ ولذلك وصف الله المحبين بالإيثار، ووصفه العارفون بذلك، فقال تعالى في وصفه المحبين: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الحشر: ٩]. وقال في وصفه: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩١].

وقال بعض العلماء: إن ظاهر القلب محلُّ الإسلام، وإن باطنه مكان الإيمان. فمن ههنا تفاوت المحبون في المحبة؛ لفضل الإيمان على الإسلام، وفضل الباطن على الظاهر. وفرق بعض علمائنا البصريين بين القلب والفؤاد، فقال: الفؤاد مقدم القلب وما استدق منه، والقلب أصله وما اتسع منه. وقال مرة: في القلب تجويفان، فالتجويف الظاهر هو الفؤاد وهو مكان العقل، والتجويف الباطن هو القلب وفيه السمع والبصر، وعنه يكون الفهم والمشاهدة، وهو محلُّ الإيمان. وقد قال الله: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢]. وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

فمحبة الإسلام مفترضة على الخلق، وهي متصلة بأداء الفرائض واجتناب المحارم؛ طاعةً لله ومحبةً له. فأما محبة المقربين، فعن مشاهدة معاني الصفات،

وبعد معرفة أخلاق الذات، فعبادة أولئك بالعبادات واللججات، وعبادة المحبين للإجلال والحبّ والتعظيم، وهى مخصوصة لمخصوصين. والأصل فى هذا أن المحبة، إذا كانت عن المعرفة، وأنّ المعرفة عمومٌ وخصوصٌ؛ فلخصوص العارفين خاصية المحبة، ولعمومهم عموم المحبة.

ويروى فى الأخبار السالفة: أن زليخا لما آمنت، وتزوج بها يوسف عليه السلام، انفردت عنه، وتخلت للعبادة وانقطعت، فكان يدعوها إلى فراشه نهاراً، فتدافعه إلى الليل، فإذا دعاها ليلاً سوفته نهاراً. فقالت: يا يوسف، إنما كنت أحبك قبل أن أعرفه، فأما إذ عرفته، فما أبقت محبته محبةً لسواه، وما أريد به بدلاً. حتى قال لها: فإن الله أمرنى بذلك، وأخبرنى أنه مخرج منك ولدين، وجاعلها نبين. فقالت: أما إذا كان الله أمرك بذلك، وجعلنى طريقاً إليه، فطاعة لأمر الله، فعندها سكنت إليه.

وقال بعض العلماء بالله: إذا تمّ التوحيد تمت المحبة، وإذا جاءت المحبة تمّ التوكل، فتمّ إيمانه، وخلص فرضه، وسمى ذلك يقيناً.

وقال الفضيل بن عياض فى فرض المحبة: إذا قيل لك: تحب الله؟ فاسكت، فإن قلت: لا، كفرت، وإن قلت: نعم، فليس وصفك وصف المحبين، فاحذر المقت.

وقال بعض علمائنا: ليس فى الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة، ولا فى جهنم عذاب أشد من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة، ولم يتحقق بشيء من ذلك. وقال عالمٌ فوقه: كلُّ أهل المقامات يرجى أن يعفى عنهم، ويُسمح لهم، إلا من ادعى المعرفة والمحبة، فإنهم يطالبون بكل شعرةٍ مطالبةً، وبكل حركة وسكون، وكل نظرةٍ وخطرةٍ لله، وفى الله، ومع الله.

واعلم أن المحبة من الله لعبده ليست كمحبة الخلق، إذ محبة الخلق تكون حادثة لأحد سبع معان: لطبع، أو لجنس، أو لنفع، أو لوصف، أو لهوى، أو لرحم ماسية، أو لتقربٍ بذلك إلى الله. فهذه حدود الشيء الذى يشبهه الشيء، والله يتعالى عن جميع ذلك، لا يوصف بشيء منه، إذ ليس كمثله شيء فى كل شيء،

ولأن هذه أسباب محدثة في الخلق، لمعان حادثة ومتولدة من المحيين، لأسباب عليهم داخلية. وقد تتغير لتغير الأوقات، وتنقلب لانقلاب الأوصاف. ومحبة الله سابقة للأسباب عن كلمته الحسنی، قديمة قبل الحادثات عن عنايته العليا، لا تتغير أبداً، ولا تنقلب لأجل ما بدا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، يعنى: الكلمة الحسنی، وقيل: المنزلة الحسنی، فلا يجوز أن يسبقها سابق منهم، بل قد سبقت كل سابقة تكون، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١]. وكذلك قال: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]. وقال تعالى: ﴿لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢]. وقال تعالى في آخر آياتهم: ﴿فِي مَقْعَدِ صَدَقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥].

ولا يصلح أن يكون قبل قدمه الصدق منهم قدم، كما لا يصلح أن يكون قبل علمه بهم منهم عمل؛ لأن علمه سبق المعلوم، ومحبه لأوليائه سبقت محبتهم إياه، ومعاملتهم له. ثم هي مع ذلك خاصية حكم من أحكامه، ومزید من فضل أقسامه، وتتمة من سابغ إنعامه، خالصة لمخلصين، ومؤثرة لمؤثرين، بقدّم صدق سابق لمخلصين، يؤول إلى مقعد صدق عند صادق لسابقين، ليس لذلك سبب معقول، ولا لأجل عمل معمول، بل يجرى مجرى سر القدر، ولطف القادر، وإفشاء سر القدر كفر، ولا يعلمه إلا نبي، أو صديق، ولا يطلع عليه من يظهره، وما ظهر في الأخبار من الأسباب، فإنما هو طريق الأجباب، ومقامات أهل القرب من أولى الألباب، فإنما هي تبصرة وذكرى للمنيبين، وتزوداً وبلاغاً للعابدين. وإنما تستبين المحبة وتظهر للعبد بحسن توفيقه، وكلاءة عصمته، ولطائف تعليمه من غرائب علمه، وخفايا لطفه، في سرعة ردهم إليه في كل شيء، ووقوفهم عنده، ونظرهم إليه دون كل شيء، وقربه منهم أقرب من كل شيء، وكثرة استعمالهم لحسن مرضاته، وكشف اطلاعهم على معاني صفاته، ولطيف تعريفه لهم مكنون أسرارهم، وفتوحه لأفكارهم من بواطن إنعامه، واستخراجه منهم

خالص شكره وحقيقة ذكره.

فهذه طرقات المحيين له عن كشف اطلاعه لهم من عين اليقين. يقال: إذا أحب الله عبداً استخدمه؛ فإذا استخدمه اقتطعه. وقيل: إذا أحب الله عبداً نظر إليه، وإذا نظر الله إلى عبدٍ لم يعذبه. وعلامة من نظر إليه ألا ينظر إلى سواه، ولا ينظر إلا به عنه، وهذه نظرة خاصة عن محبة مخصوصة. وروى بعض هذا عن رسول الله ﷺ.

وروي في الخبر: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه، وإذا أحبه الحبّ البالغ اقتناه. قيل: وما اقتناؤه؟ قيل: لم يترك له أهلاً ولا مالاً». هذا لئلا يكون أهله عنده فيميل إليهم، وينقلب إليهم مسروراً، ولئلا يميل قلبه إلى ماله، فينقلب على وجهه محسوراً. فالمحبة مزيد إيثار من المحب الأول - وهو الله - لعبده، وأحكام تظهر من المحبوب وهو العبد، في حسن معاملته، أو حقيقة علم يهبه له. كما قال أخوة يوسف حين عرفوا فضل محبة الله ليوسف عليهم: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾، ثم قالوا: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١]، فذكروا سالف خطاياهم وأنه آثره بما لم يؤثرهم به. فقال الله تعالى في وصفه إياه: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]. وقال في موهبته له: ﴿آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]. فذكر ما سلف من إحسانه لما آثره به.

وقالت الرسل: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١]. وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يُصْطَفَىٰ مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

وفي الخبر: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه - يعنى اختبره - فإن صبر اجتباؤه، وإن رضى اصطفاه».

وقال بعض العلماء: إذا رأيتك تحبه، ورأيتك يبتليك، فاعلم أنه يريد أن يصفاك. وقال بعض المريدين لأستاذه: قد طولعت بشيء من المحبة. فقال: يا بنى، هل ابتلاك بمحسوب سواه فأثرت عليه إياه؟ فقال: لا. فقال: فلا تطمع في

المحبة، فإنه لا يعطيها عبداً حتى يبلوه.

ومن دلائل المحبة: حبُّ كلام الحبيب، وتكريره على الأسماع والقلوب. وحدثونا عن بعض المريدين قال: كنت وجدتُ حلاوة المناجاة في شرِّه الإرادة، فأدمنتُ على قراءة القرآن ليلاً ونهاراً، ثم لحقتني فترة، فانقطعت عن التلاوة. قال: فسمعت قائلاً يقول لى فى المنام: إن كنتَ تزعم أنك تحبني، فلمَ جفوتَ كتابي؟ أما ترى ما فيه من لطيف عتابي؟ قال: فانتبهتُ، وقد أُشرب في قلبي محبة القرآن، فعاودت إلى حالى الأول.

وقد قال بعض العارفين: لا يكون العبدُ مريدًا حتى يجد في القرآن كل ما يريد. وقد كان ابن مسعود يقول: لا على أحدكم أن يسأل على نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله، وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله.

ومن علامة حبِّ القرآن حبُّ أهل القرآن، وكثرة تلاوته آناء الليل وأطراف النهار. وقال سهل بن عبد الله: علامة حبِّ الله حبُّ القرآن، وعلامة حبِّ القرآن وحبُّ الله حبُّ النبي عليه السلام، وعلامة حبِّ النبي عليه السلام حبُّ السنة، وعلامة حبِّ السنة حبُّ الآخرة، وعلامة حبِّ الآخرة بغض الدنيا، وعلامة بغض الدنيا أن لا يأخذ منها إلا زاداً وبلغَةً إلى الآخرة. وقال تعالى وهو أحسن القائلين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]؛ أى لا يرتدون؛ لأنهم أبدالٌ من المرتدين، ولا ينبغي أن يكونوا أمثالهم. كما قال: ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

ومن علامة محبة المولى تقديم أمور الآخرة فى كُلِّ ما يقرب من الحبيب على أمور الدنيا من كل ما تهوى النفس، والمبادرة بأوامر المحبوب ونواذيه قبل عاجل حظوظ النفس، ثم إثارة محبته على هواك، واتباعُ رسوله ﷺ فيما أمرك به ونهاك، والذلُّ لأوليائه من العلماء به والعاملين، ثم التعزز على أبناء الدنيا الموصوفين بها المؤثرين لها. كما قيل لابن المبارك: ما التواضع؟ فقال: التكبرُ على

المتكبرين . وقال الفتح بن شحرف العابد : رأيت على بن أبي طالب رضى الله عنه فى النوم ، فقلت : أنبئنى بحرف خير ، فقال : ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء ؛ رجاء ثواب الله ، وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ثقةً بالله .

وإنما وصف الله أحباءه بالذلّ للأولياء ، والعزّ على الأعداء ؛ لأنّه يصف من يحبه بأحسن الأوصاف . فالذلّ للحبيب حسنٌ ، والعزّ على العدو حسن ، ومثّلُ الذلّ للحبيب فى حسنه مثّلُ الذلّ للعزیز ، ومثّلُ العز على العدو فى حسنه مثل العز على الذليل . فلذلك وصف الله محبةً بالذل للولى وبالعز على العدو . وقُبِحَ العزُّ على الحبيب كقبح الذل للعدو . والله لا يصف أولياءه بقبيح .

ومن علامات الحب : المجاهدة فى طريق المحبوب بالمال والنفس ؛ ليقرب منه ، ويبلغ مرضاته ، ويقطع كل قاطع يقطعه عنه بالمسارعة إلى قربه . كما قال تعالى : ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٤] . وكما أمر حبيبه ﷺ فى قوله : ﴿وَتَبَلَّ إِلَيْهِ تَبِيلًا﴾ [المزمل: ٨] . فيه معنيان ، أحدهما : انقطع إليه انقطاعاً عما سواه بالإخلاص له ، والأثرة على غيره . والأخرى : اقطع كلّ ما قطعك عنه إليه ، أى اقطع كل قاطع حتى تصل إليه . فهذان من أدل الدليل على المحبة . ثم أن لا يخاف فى حبه لومة لائم من الخلق لأمه على محبته ، أو على السلوك إليه بشق النفس ، وهجران الدار ، ورفض المال ، ولا يرجو فى محبته مدح مَدَح ، ولا يرغب فى حسن ثناء العباد بإيثارك له على الأهل والمال والدار . فبذلك فَضِّلَ المجاهدون والأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان ابتغاء الفضل والرضوان ، أولئك لهم عقبى الدار . ثم وجود الأُنس فى الوحدة ، والروح بالخلوة ، ولطف التملق فى المناجاة ، والتنعم بكلامه ، والرضا بمرّ أحكامه ، ووجد حلاوة الخدمة ، ورؤية البلاء منه نعمة ، كما قال قائلهم :

فلو قطعتنى فى الحب إرباً لَمَّا حَنَ الْفُؤَادُ إِلَى سِوَاكَ

وكما قال الآخر :

فَرَوْحِي وَرِيحَانِي إِذَا كُنْتَ حَاضِرًا وَإِنْ غَبْتَ فَالدُّنْيَا عَلَى مَحَابِسُ

إذا لم أنافس فى هـواك ولم أغر
عليك ، ففيمَن ليتَ شِعرى أنافسُ
وقال آخر منهم :

نحنُ فى مجلس السرور ولكن
ليس إلّا بكم يطيبُ السرورُ
عيبٌ ما نحنُ فيه يا أهلَ ودِّى
إنَّكم رغبتم وأنا حُضورُ
ما نعيمٌ يغيبُ عنه حبيبُ
بنعيمٍ ولا يتمُّ حُبورُ
وقد أحكم ذلك الحكيمُ منهم بقوله :

يا عَذابى وراحتى من عذابى
أنتَ ما بى فكيفَ أكرهُ ما بى
لك منى الرضا مرادك رائى
ليس منى أرى لحكمك آبى
وبمعناه قال مثله :

يا مُرتجى بحُسنه من مَلام
سكنتُ بك مواعظُ النُومِ
يا سقامى ويا شفا السقام
قد حَلَّتْ بك مرارةُ الأحكام
فهذه آياتٌ بيناتٌ فى قلوب الأحاب ، وتبصرةٌ وذكرى لأولى الألباب .

وقال ثابت البنانى : كابدت القرآنَ عشرين سنة ، وتنعمتُ به عشرين سنة .

ومن المحبة تركُ السكون إلى غير محبوبه ، إذ هو السكَن . وقال أبو محمد :
جنايةُ المحب عند الله أشد من معصية العامة ، وهو أن يسكن إلى غير الله ،
ويستأنس بسواه . وفى قصة برخ العبد الأسود الذى استسقى به موسى عليه
السلام : «إنَّ الله تعالى قال لموسى : إنَّ برخاً نِعَمَ العبدُ هو لى إلّا أن فيه عيباً .
قال : يا رب ، وما عيبه ؟ قال : يعجبه نسيم السحر فيسكنُ إليه ، ومن أحبنى لم
يسكن إلى شىء» . فالسكون فى هذا الموضع الاستراحة إلى الشىء والأنس به ،
والسكونُ فى غير هذا الموضع النظرُ إلى الشىء والإدلال به والطمأنينة والقطع به .

ذكرتُ هذه الحكاية لبعض أهل المعرفة فقال : لم يرد بهذا برخاً إنما أراد به
موسى ، لأنه أقامه مقام المحبة ، فاستحى أن يواجهه بذلك - أى لأنه عالم -

فَعَرَّضَ لَهُ بِيرْخَ، أَيْ وَهُوَ قَدْ سَمَحَ لِبِيرْخَ بِذَلِكَ، إِذْ لَمْ يُوَافِقْهُ عَلَيْهِ. وَكَانَ هَذَا جَوَابًا مِنْهُ. ثُمَّ إِنِّي سَأَلْتُهُ: لِمَ أَخْبَرَ مُوسَى بَعِيْهَ وَهُوَ يَحْبُهُ دُونَ أَنْ يَخْبِرَهُ هُوَ بَعِيْبَ نَفْسِهِ؟ فَأَجَابَ بِهَذَا: الْمُقْرَبُونَ مِنَ الْمُحِبِّينَ إِنَّمَا نَعِيْمُهُمُ بِاللَّهِ، وَرَوْحُهُمْ وَرَاحَتُهُمْ إِلَيْهِ، مِنْ حَيْثُ كَانَ بِلَاؤُهُمْ مِنْهُ، فَإِذَا وَجَدُوا ذَلِكَ فِي سِوَاهُ، كَانَتْ ذُنُوبًا لَهُمْ عَنْ غَفْلَةٍ أَدْخَلَتْ عَلَيْهِمْ، لِيَتُوبُوا مِنْهَا إِلَيْهِ فَيَغْفِرَ لَهُمْ.

وَرَوَيْنَا أَنَّ عَابِدًا عَبْدَ اللَّهِ فِي غِيْضَةٍ دَهْرًا، فَنَظَرَ إِلَى طَيْرٍ قَدْ عَشَشَ فِي شَجَرَةٍ يَأْوِي إِلَيْهَا وَيَصْفُرُّ عِنْدَهَا. فَقَالَ: لَوْ حَوَّلْتُ مُسْجِدِي إِلَى تِلْكَ الشَّجَرَةِ فَكُنْتُ أَنَسُ بِصَوْتِ هَذَا الطَّائِرِ. قَالَ: فَفَعَلَ. فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «قُلْ لِفُلَانٍ الْعَابِدِ: اسْتَأْنَسْتُ بِمَخْلُوقٍ، لِأَحْطَنَكَ دَرَجَةً لَا تَنَالُهَا بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِكَ أَبَدًا».

فَمِنْ صِدْقِ الْمَحَبَّةِ وَخَالِصِهَا الْإِنْقِطَاعُ إِلَى الْحَبِيبِ بِوُجُودِ نَسِيمِ الْأَنْسِ بِهِ، وَمُصَادَفَةُ الْأَسْتِرَاحَةِ وَالرَّوْحِ عِنْدَهُ بِمَحَادَثَةٍ فِي الْمَجَالَسَةِ، وَمُنَاجَاةٍ فِي الْخُلُوعِ، وَذَوْقُ حَلَاوَةِ النَّعِيمِ فِي تَرْكِ الْمَخَالَفَةِ لَغَلْبَةِ حُبِّ الْمَوَافَقَةِ. كَمَا أَنشَدَنِي بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضِ الْمُحِبِّينَ:

الَّذُ جَمِيلَ الصَّبْرِ عَمَّا أَلَذُّهُ وَأَهْوَى لَمَّا أَهْوَاهُ تَرَكَهَا فَاتَرَكَه

وَقَالَ نَظِيرُهُ فِي مِثْلِهِ:

وَأَتْرَكُ مَا أَهْوَى لِمَنْ قَدْ هَوَيْتُهُ

وَأَرْضَى بِمَا يَرْضَى وَإِنْ سَخِطَتْ نَفْسِي

ثُمَّ الطَّمَأْنِينَةُ إِلَى الْحَبِيبِ، وَعُكُوفُ الْهَمِّ عَلَى الْقَرِيبِ، وَدَوَامُ النَّظَرِ إِلَى الْقَرِيبِ، فَإِنْ كَانَ الْقَرِيبُ هُوَ الْحَبِيبُ، ثَمَّتِ النَّعْمَةُ بِهِ، فَلَا يَرِيدُ بِذَلِكَ بَدَلًا، وَلَا يَبْغِي عَنْهُ حَوْلًا؛ وَقَدْ جُمِعَ لَكَ الْمَقَامَاتُ، وَأُعْطِيتَ مِنَ الْيَقِينِ وَصَفَيْنِ؛ لِأَنَّ مَنْ عَرَفَهُ أَحَبَّهُ، وَمَنْ أَحَبَّهُ نَظَرَ إِلَيْهِ، وَمَنْ نَظَرَ إِلَيْهِ عَكَفَ عَلَيْهِ. أَمَّا فَهَمَّتْ هَذَا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧].

وَمِنْ فَرَائِضِ الْمَحَبَّةِ وَفَضَائِلِهَا: مَوَافَقَةُ الْحَبِيبِ فِيمَا أَحَبَّ حَبَّ اللَّهِ. كَمَا قَالَ

عمر رضى الله عنه لصهيب: «رَحِمَ اللهُ صهيبيًا، لو لم يخف الله لم يَعُصْه». أى أن محبته له تمنعه من مخالفته عن غير خيفة، فهو يطيعه حبًا له. وكان صهيب يقول: إنه يستخرج منى حبي لربى شيئًا لا يستخرجه غيره. يعنى من معانى الصفات المخوفة، والأفعال المرجوة.

وقال بعض علمائنا: الإيثارُ يشهد للحب، فعلامةُ حبه إثارة على نفسك. وقال: ليس كلُّ من عمل بطاعة الله صار حبيبًا لله، ولكن كلُّ من اجتنب ما نهى عنه صار حبيبًا.

وهذا كما قال؛ لأن المحبة تستبين بترك المخالفة، ولا تتبين بكثرة الأعمال. كما قيل: أعمال البرِّ يعملها البر والفاجر، والمعاصي لا يتركها إلا صديق. وقيل: أفضلُ منازل الطاعات الصبرُ على الطاعات، وإن الصبر على الطاعة يُضَاعَفُ إلى سبعين، والصبر عن المعصية يُضَاعَفُ إلى سبعمائة، كأنه أُقيم مقام المجاهد فى سبيل الله؛ لأن نفسه عدو لله تبارك وتعالى وله، فمخالفته هواها هو جهادها فى سبيل الله؛ لأنه يقع اختياراً من الله، وضرورة من كلية النفس، فإذا ترك هواه فقد ترك نفسه، فأقل ما له فى ذلك الزهد فى الدنيا، والجهاد فى سبيل الله، ومن أجل ذلك ضُوعِفَتْ حسناته إلى سبعمائة، ومن أجله ثبتت له المحبة؛ لدخوله فى أهل هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ [الصف: ٤]. وأيضاً فقد اندرج الخوف فى حاله، وهو مقام تال، ففَضِّلَ بفضل حبه ثانية لترك المخالفة، ولذلك قال الله جلّ ذكره: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦]، ففضله على غيره بحبه.

وأعجب ما سمعتُ فى هذا: «أن موسى عليه السلام سأل الخضر: بأى شىء بلغت هذه المنزلة؟ فقال: بترك المعاصي كلها».

وقد كان أبو محمد يقول فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١] قال: عيش نفوسهم الفانى، وهو عاجلٌ حظوظهم من الشهوات.

ومن المحبة وجودُ الرُّوح بالشكوى إليه، والاستراحة إلى علمه به وحده، وإخلاصُ المعاملة لوجهه، وحسنُ الأدب فيها، وهو الإخفاءُ لها، وكَتَمُ ما يحكم به من الضيق والشدائد، وإظهارُ ما يُنعم به من الإلطف والفوائد، وكثرةُ التفكرُ في نعمائه، وخفيُّ ألطافه، وغرائبُ صنعه، وعجائبِ قدرته، وحسنُ الثناء عليه في كل حال، ونشرُ الآلاء منه والأفضال، والصبرُ على بلائه؛ لأنه قد صار من أهله وأوليائه. وقد يَعْسِفُ بأوليائه، وَيَعْنِفُ بأحبابه، لتمكُّنه منهم، ومكانتهم عنده، ولعلمه أنهم لا يريدون به بدلاً، ولا ييغون عنه حِوْلاً، إذ ليست لهم راحةٌ لسواه، ولا بُغيةٌ في سواه، ولا لهم هِمةٌ إلا إياه. كما قال بعض المحبين: ويلى منك، وويلي عليك، أفرع منك، وأشتاق إليك، إن طلبتُك أتعبتني، وإن هربتُ منك طلبتني، فليس لي معك راحةٌ، ولا لي في غيرك استراحة. وأنشدتُ لقائلهم:

يا بلائي ويا بلا البلاء أنت دائي فكيف أكره دائي

وبمعناه قال نظيره:

لا تطلبن شفاً عند غيرهم فليس يُحييك إلا من توفاك

وقال المحب في معناه:

إن شئت جودي وإما شئت فامتنعي كلاهما منك منسوبٌ إلى الكرم
فأنت عندي وإن أورثتني سقماً أحبُّ من غيركم يشفى من السقم

فاعتبروا يا أولى الأبصار، كما قال الخبيرُ البصيرُ منبهاً لأوليائه، ومعرضاً بمعانٍ لأعدائه: ﴿وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُم إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُم أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٦٩ - ٧٣]. فالعكوفُ على السميعِ المجيب، الضارِّ النافع، أحق. وقال في معناه: ﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧]. فالنظر إلى الله البصير الحبيب أولى وأصدق.

ثم المسارعة إلى ما نُدب إليه من أنواع البرّ بوجود الخلاوة، ويشرح الصدر، كما جاء في الأثر: «ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه». ثم الرضا بقضائه؛ لأنه مُستحسنٌ لأفعاله. ثم اللّهجُ بذكره ومحبة من يذكره، ومجالسة من يُذكره، ودوام التشكّي والحنين إليه، وخلو القلب من الخلق، وسبقُ النظر إلى الخالق في كلِّ شيء، وسرعة الرجوع إليه بكلِّ شيء، ووَجْدُ الأنس به عند كلِّ شيء، وكثرة الذكر له والتذكُّر بكلِّ شيء.

ومن علامة المحبة طول التهجد. وروى عن الله سبحانه: «كَذَبَ من ادعى محبتي، إذا جنّه الليلُ نام عني». إلا أن بعضهم جعل سهر الليل في مقام بعينه. ذُكر له هذا الخبر، فقال: ذاك إذا أقامه مقام الشوق، فأما إذا أنزل عليه السكينة، وأواه بالأنس في القُرب؛ استوى نومه وسهره. ثم قال: رأيت جماعة من المحبين، نومهم بالليل أكثر من سهرهم. وإمام المحبين وسيد المحبوبين رسول الله ﷺ كان ينام مثل ما يقوم، وقد يكون نومه أكثر من قيامه، ولم يكن تأتي عليه ليلة حتى ينام فيها.

ومن المحبة الخروج إلى الحبيب من المال بالزهد في الدنيا، والخروجُ إليه من النفس بإيثار الحق على جميع الأهواء. وقال الجنيد: علامة المحبة دوام النشاط والدؤوبُ بشهوة، يفتُر بدنه ولا يفتُر قلبه. وقد قال بعض السلف: العمل عن المحبة لا يداخله الفتور. وقال بعض العلماء: والله ما استسقى محبٌ لله من طاعته، ولو حلّ بعظيم الوسائل.

ومن المحبة التناصح بالحق والتواصي به، والصبرُ على ذلك. كما وصف تعالى الرابحين من الصالحين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٢ - ٣]. لأن المحبين له ليسوا كمن وصفه في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ * إِنَّ يَسْأَلُكُمْوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخُلُوا وَيُخْرِجُ أَصْغَانَكُمْ﴾ [محمد: ٣٦ - ٣٧]؛ يعنى: إن يسألكم محبوبكم من الأموال، ويستقصى عليكم، يخرج أحقادكم عليه. وروينا

فى مقراً ابن عباس : ﴿وَيُخْرِجُ أَضْغَانَكُمْ﴾ يعنى : الأموال^(١).

فهؤلاء المتقون من عموم المؤمنين، تقواهم الشُّرك بالصاحبة والولد، وإيمانهم توحيده بالملك عن إله ثانٍ يضاهى الأحد الصِّمد، إلا أنه أقامهم مقام الأجراء، فهم يعملون للأجر، فإن منعهم الأجر قعدوا، فهم المسلمون، عبادتُهم بالجوارح بلا قلب ولا وجد، فهم مُخلصون لا مُخلصين، وهم مُخلصون لا خالصين، أكثر عبادتهم عادةً، وأحبها حاجةً، وشرها شهوة، فهم من عبيد العَدَد، اتَّخذوا أموالهم دون الله تعالى عددًا. فلو لم يدخل على هؤلاء الضعفاء إلا الشُّرك بالأموال فى محبته، والشغلُ بها عن ذكر جلاله وعن معاملته، لخسروا ما ربح المخلصون من الأحباب، وفاتهم ما أدرك الصادقون من طوبى وحسن مآب. كيف وقد ابتلوا بالداء العضال الذى ليس لهم منه انفصال؟ وهو قيامهم بحق مولاهم عليهم، بوجد طلب الآخرة، ولأجل النوال، فالله تعالى يسأل أحبابه أموالهم وأنفسهم، حتى لا يبقى لهم محبوبٌ سواه؛ ولئلا يعبدوا إلا إياه، محبةً منه، وكشفًا لمحبتهم، واختبارًا لأخبارهم فى صدقهم وصبرهم؛ لأنه جواد ملك لا يسأل إلا كُليةَ الشئ وجُمْلته، وهو غيورٌ لا يحب أن يُشركه سواه فى محبته، فلا يصبر عليه إلا مَنْ عرفه، ولا يحبه إلا مَنْ صبر عليه، ولا يَرْضَى بحكمه فيه إلا مَنْ أيقن به. إلا أنه تعالى لا يسأل الجُمْلَةَ كلها إلا من أحبه من كلِّ قلبه، لأنه يسرع إلى بذل ذلك مسرورًا به، ولا يغار إلا على من أحبه المحبة الخاصة، وذلك كله من نظام حكمته، وخصوص رحمته، وغريب حكمه، فهؤلاء هم المحبوبون من المحبين الذين لا يعملون للأجر؛ لأنه أقامهم مقام العبيد، فهم المخلصون؛ لأنهم الخالصون، لا يعبدونه عادةً ولا حاجةً، عبادتُهم للمحبة والتعظيم، بقلبٍ ووجدٍ مما سواه سليم، فمن يعلم ما أخفى لهم من قرّة العين عند معاينة العين؟

ووصف بعضُ العارفين صفةَ أهل المحبة الواصلين، فقال: جدّد لهم الودّ فى كلِّ طرفةٍ بدوام الاتصال، وآواهم فى كنفه بحقائق السكون إليه، حتى أنت

(١) فى الصفحات القادمة زيادات طويلة جدًا تصل إلى عذّة ورقات، من (م) فقط، ولا ألزم الإشارة إليها فى كل موضع.

القلوب، وحنّت الأرواحُ بالأشواق، وكان الحبُّ والشوق منهم إشارةً من الحقِّ إليهم عن حقيقة التّوحيد، وهو الوجودُ بالله تعالى، فذهب مُناهم، وانقطعت آمالهم عندما أبان منه لهم، فلو أن الحقَّ أمرَ جميعَ الأنبياء يسألون لهم؛ ما سألوه بعض ما أعدّ لهم في قديم وُحدانيته، ودوام أزلّيته، وسابق علمه، فكان نصيبهم معرفتهم به، وتوحيدهم له، ثم أيد ذلك وحصّنه بالسّنة، ووهب لهم رجحان الرغبة والرّهبة، وأعطاهم التّحبُّب إليه والتّقرب، ثم زادهم بعد ذلك إسباغ النعم، وإسبال السّتر، مع دوام حُسن الأمل فيه؛ لتمام ذلك، ومع هذا كله وقوعُ همهم عليه، واجتماع أهوائهم فيه، فذلك تمامُ نعمته عليهم، ودوامُ كرامته لهم، وغايةُ الظّفَر منهم، فصار بجسدهم من عبيده للعموم، وإذا رفع عن قلوبهم جميع الهموم، ورجحان عطائه أن أخفاهم في الخفاء، وسترهم بأوصافهم عن الأولياء، وقد أنشدتُ في معنى ما وُصف:

كَانَتْ لِعَيْنِي أَهْوَاءٌ مَفْرَقَةٌ

فَاسْتَجَمَعَتْ إِذْ رَأَتْكَ الْعَيْنُ أَهْوَايَ

فَصَارَ يَحْسُدُنِي مَنْ كُنْتُ أَحْسُدُهُ

وَصِرْتُ مَوْلَى الْوَرَى قَدْ صِرْتَ مَوْلَايَ

تَرَكْتُ لِلنَّاسِ دُنْيَاهُمْ وَدِينَهُمْ

شُغْلًا بِذِكْرِكَ يَا دِينِي وَدُنْيَايَ

وذكرَ بعضُ أهل المعرفة أهلَ القُرب، فقال: إني لأجدُ الحُضورَ فأقول يا الله، أو يا رب، فأجد ذلك أثقلَ علىَّ من الجبال. قيل: ولم؟ قال: لأنَّ النداء يكون من وراء حجاب، فهل رأيتَ جليساً يُنادي جليسه؟ إنما هي إشاراتٌ وملاحظاتٌ ومُناغاةٌ ومُلاطَفاتٌ، ثم ذكر ما ذكر، إلا أنه مستعبدٌ أن يقول، ومأخوذٌ عليه أن يكون فقيهاً بما يقول، ولا يخرج من مَوْضع القُرب، وإن وقع عليه الحكمُ بالقول والفعل.

ولكلِّ مقامٍ مع الله تعالى فقهٌ خفيٌّ، ولكلِّ عالمٍ بالله لطيفٌ علمٍ لطيفٌ

غريب، فلو رأيت أيها المستمعُ ما يكون بينه وبينهم في سرِّهم، وما يجالسهم به ويحدثهم في هذه المواطن، لَكُنْتَ تعذرهم في كلِّ قولٍ وفعلٍ، فهؤلاء قومٌ محكومٌ عليهم في أمورهم، قد حيل بينهم وبين كثيرٍ من العلم المعقول، والرسم المنقول، إنما أوجدُهُم مأخوذٌ بالعلم المجهول، عند ذوى العقول، فمراده ساقطٌ، وعزمه مفسوخٌ، ومحبتُهُ في الأمور منقوصةٌ، لا شبيهه النَّسَّاك، ولا عليه حلية العباد، لما نظر فيه مَنْ أنسه الوداد، وعلمهُ باطنٌ، ومقامه خفيٌّ، والخلقةُ منه في حيرةٍ، حار موسى الكليمُ مع الخضر الحبيب، وعطلَّ عليه علم الكتب حين نظر إلى سرِّه، وموسى يكلمه الله على المشاهدة ويوحى إليه، وكان علمُهُ بينه وبين الله تعالى في سره المحبة والودَّ في الفوائد والألطف والانبساط والإلهام، والخضر ونظرائه من العارفين، إنما هم خزائنٌ للحق، ومواضعٌ لمجارى الأحكام والقدرة فيهم، إذ كانوا وأفعالهم وحركاتهم به ومنه، وهم أهل البلاء.

ولقد قال لى رجل من أهل المعرفة: إذا بلغ أحدهم من هذا العلم الغاية رماه الخلقُ بالحجارة.

وقال آخر: إذا تناهت معارفُهُم انتهت إلى دهشةٍ وحيرة.

وقيل لبعض المحبوبين، وكان قد بذل المجهود في بذل ماله ونفسه، حتى لم يبق عليه منها بقية: ما كان سبب حالك هذا من المحبة؟ فقال: كلمةٌ سمعتها من خلقٍ لخلقٍ عَمِلْتُ بى هذا البلاء. قيل: وما هى؟ قال: سمعتُ محبًّا قد خلا بمحبوبه، وهو يقول: أنا والله أحبك بقلبي كله، وأنت معرضٌ عني بوجهك كله. فقال له المحبوب: إن كنت تُحبنى، فأى شىء تنفقُ علىَّ؟ فقال: يا سيدى، أملكك ما أملكُ، ثم أنفق عليك رُوحى حتى تَهْلِكَ. فقلت: هذا خلقٌ لخلقٍ، وعبدٌ لعبدٍ، فكيف بخلقٍ لخالقٍ، وعبدٌ لمعبودٍ، فكان ذلك سببه.

فقد دخلت الأموالُ فى الأنفس تحت الشراء، وقد باعوه نفوسهم فما دونها لمحبتهم إياه، وقد اشتراها منهم لنفاساتها عنده. فعلامَةُ محبته لها اشتراؤها منهم، وعلامَةُ شرائها طيُّها عنهم؛ فإذا طواها، فلم يكن عليهم منها بقيةٌ هوى فى سواه، فقد اشتراها.

واعلم أنّ آفات النفوس هي أدواؤها، وطهرة النفوس من الأدواء هو داؤها. كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشس: ٩]. فإذا صفاها من الآفات فقد صافاها، وإذا امتحنها بالتمحيص من الشهوات للتعوى فقد اشتراها.

فأمّا الأموال فإنهم قد بُخسوا بها، فإن أعطاهموها نَقَصُوا، وإن أخذها منهم طهروا وزكوا، كأنك لم تسمع قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. فإنما طهرهم وزكاهم الأخذ، كذلك بَخَسَهُمْ ونقصهم العطاء، فهذا هو العافية من البلاء، فصار الأخذ داءَ العطاء، ولكل داءٍ من النفس والمال دواءٌ على قدر صغره وعظمه، فضع الدواء على الداء من حيث دخل عليك، بإدخال ضده عليه، وبقطع أصله عنه. فعلامة النفوس المشتراة، وهي المحبوبة المجتابة، التوبة إلى الحبيب بالخدمة له، وكثرة الحمد له بالسياحة إليه، ودوام الصلاة بحسن الأدب بين يديه، والأمر بما يحب، والنهي عما يكره، والحفظُ بحدوده التي حدّها، وترتيبُ العلم على مدارج العقل، بإخفاء علم التوحيد وأسرار قيومية القدرة من المحافظة، لأن العقل حدٌّ، وذلك من كتمان علم المحبة، فهو عند المحبين كحفظ حدوده على الجوارح التي شرعها بالسنة الرسل: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١]. ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يُحِبَّهُ اللَّهُ فَلْيَزْهَدْ فِي الدُّنْيَا».

فلا يطمعن طامعٌ في محبة الله قبل الزهد في الدنيا. فهذه جُمْلُ أوصاف المحبين.

ووصف بعض العارفين سياحة المحبين، فقال: لو رأيت أرواح أهل خالصته إذا حثّها بالسير إليه للتنعم فيما هنالك، لتُشرف على الملك الكبير، والنعيم العظيم، ومطاياها معارفُ ألبابها بلطائف أوهامها. فلو رأيت تجلّلها بستور الإلهية، والحجب العزّية، وهي تطلب الوصول من مأمولها، إذ هي بالوصول موصولة؛

لكي يُريها من سَنَّا مُلْكِهِ، ونهايات بَسْطِهِ، ما يزيد في يقينها، وَيُقَوِّى مَعْرِفَتَهَا، ويزيد في بَهْجَتِها وصَبَابَتِها ما تَقَرُّ به أعينها، ولذلك أُسْرِى بِمُحَمَّدٍ ﷺ، لِتَقَرُّبِ منزلته عنده، وَيُريَه معرفة كرامته عليه، إِكْرَامًا أَكْرَمَهُ بِهِ، ووَعْدًا وَعْدَهُ إِيَّاهُ، لِمَا تَضَمَّنَتْ تلك الغيوب، ليزداد به عِلْمًا يسلو به عن كل ما سواه، فلا يكون فيه بَقِيَّةٌ لغيره، إلا ما أدخله فيه لحكمة عليه وبِحَسَنِ تدبيره له، ولطيف إرفاقه بالأسباب وفي الأشياء، وهو في ذلك مُحْفَوظٌ مِنَ النقصان، وكذلك صُنْعُهُ بِمُحِبِّيهِ، ولطفه بهم، ورفقه لهم، في رَدِّهِ إِيَّاهُمْ إِلَى الأزواج والأولاد والمأكَلِ واللباس، لِيَذِيقَهُمْ طَعُومَ ما به أنعم، وَيُوجِدَ جُسُومَهُمْ نَعِيمَ ما به نعم، ولو ترك مُحَمَّدًا ﷺ وهو الغاية في الحب والنهاية في الودِّ، بعد ما أراه من العجائب والآيات في الأرضين والسموات، لم يَقمَ بدنه لذلك وتهدَّم، ولم تَثْبُت صفاته بعد ذلك وتَطم، ولكنه عََلَّله، وأرفقه بالنساء، ورَدَّه إِلَى سياسة الخلق، لِمَا أَرَادَهُ بِهِمْ، وأَرَادَهُمْ بِهِ.

وكذلك فعل بِمُوسَى بعد كلامه له في المقامات الرفيعة، وما أَلْبَسَهُ مِنْ نوره، فكان ينبغي له - على القياس - أن لا يَأْوِي إِلَى بيت، ولا يرجع إِلَى خَلْق، ولا يَسْطُ إِلَى أَكْلٍ وَشَرْبٍ، ولكن ذلك رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَتَسْكِينٌ. وكذلك على منهاجهم العارفون.

واعلم أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى غَنِيٌّ كَرِيمٌ، إِنَّمَا خَلَقَ أَوْلِيَاءَهُ كَرَمًا، وَعَرَفَهُمْ نَفْسَهُ تَفَضُّلاً، فَأَهْلُ خَالِصَتِهِ إِنَّمَا خَلَقَهُمْ لِكِرَامَتِهِ وَالنَّعِيمِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَإِذَا صَارُوا فِي حَدِّ الْقُوَّةِ وَالتَّمَكُّنِ، أَذَاقَهُمْ طَعْمَ مَحَبَّتِهِ، فَكَانُوا بِهَا نَاعِمِينَ، كَانَهُمْ فِي الْجَنَّةِ، قَدْ غَطَّى عَوْرَاتِ الدُّنْيَا وَقُبْحَهَا عَنْهُمْ، فَلَيْسَ يَرُونَ شَيْئًا إِلَّا زَادَهُ حَسَنًا بِحُسْنِ تَحْسِينِهِ لَهُ، فِيهِ أَخَذُوا الْأَشْيَاءَ، وَعَنَهُ وَيَاكِرَامَهُ عَجِلُوا إِلَى الْكِرَامَةِ، وَعَجَّلَ لَهُمُ التَّنْعَمَ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الآية [النور: ٥٥].

فلو رَأَيْتَ فَضُولَهَا إِلَيْهِ، وَدُنُوَّهَا مِنْهُ، وَإِشْرَافَهَا عَلَى قُرْبِهِ فِي جَلَالِ بَهَائِهِ، فَأَدْرَكَتْهَا مِنْهُ الْهَيْبَةُ، فَخَرَّتْ لَهُ سَاجِدَةً بِالْإِسْتِكَانَةِ لَهُ، وَالْحَنِينِ إِلَيْهِ، فَأَذِنَ لَهَا بَعْدَ أَنْ قَضَتْ مِنْ ذَلِكَ الْخُضُوعَ وَطَرًّا؛ يَرْفَعُ رُؤُوسَهَا، ثُمَّ أَنْسَاهَا وَبَسَطَهَا، فَأَذِنَ لَهَا

بالكلام، فتشكَّت له ما تُلاقى من طُول حبسِها، ثم استعْتَبته من خفىٍّ ما يحِلُّ بها مما ابتلاها به في هذه الدار، من الذى يشغلها عنه، ويحكم به عليها من مداراة الناس من غير شكلها، وملاقة غير نَحْلَتِها، وملاطفة سوى جنسها، ومعاشرة غير إلفها، الذى يفهم عنها الأمور، ويجد بوجدها المستور الذى يضيق به ذرعًا، فعرف لها صدق ما قالت، فأعْتَبها، وسأله الصبر له والتجملُ لذلك؛ لأجله ففعلت، فشكر لها صبرها له، فزاد فى قواها، وزادها فى النعيم به بلطف مُحَادَثته، وحُسْن محاورَتِهِ، وعطف قُربه، فقرَّت عَيْنًا، وامْتَلأت به سرورًا.

ولو رأيتَ بعد انصرافهم بلا انصرافٍ وعند صدورهم ولا براحٍ إلا أنها حالةٌ من حالٍ، ومكانٌ من مكانٍ، وقد رتعت فى تلك الرياض الناضرة، من حظائر قُدسه الزاهرة، فتنَسَّمت من ذلك روح الأُنس الذى رَوَّح أرواحها بنسيم القُرب، وشفى قُلُوبَها من كلِّ راحٍ. شربت فعاشت القلوبُ بعيشة راضيةٍ، وارتاحت الأرواحُ برياحين من مشربها ساقيةً. وقد أنشد بعضهم فى معناه:

يا نسيمَ القُرب ما أطيبكا ذاق طعمُ الأُنسِ مَنْ حلَّ بكا
أى عيشٍ لأناسٍ قُربُوا سقُوا بالقدسِ من مشربكا

فهذه صفة عبدٍ مطلوبٍ لا طالبٍ، ونعتُ شخصٍ محبوبٍ لا مُتَحَبِّبٍ، وحالُ مرادٍ مقربٍ لا مُريدٍ مُتَقَرِّبٍ، وصفة عبدٍ حاجبٍ لا محجوبٍ، وسيما وكلى ربانىٍّ لا مُربوبٍ، وعلامةُ مُحَبٍّ روحانىٍّ لا مُتَنَفِّسٍ شهوانىٍّ. فهذه جُمْلُ ما وَصَفَ العارفُ.

ولو أمكنَ تفصيلُ ما أُجملُ، وشرحُ ما أُهملُ فى كتاب، رَسَمناه، ولكنه مُسْتَنَسَخٌ من قلبٍ إلى قلبٍ، ومستودعٌ بعينٍ إلى عينٍ.

ومن المحبة الكتمُ للغيرِ، والسترُ لنفيس الذخيرة. قال بعض المحبين ممن يؤتمُّ به من العارفين: وَرَدَ علىَّ حالٌ من التعظيم أخرسنى عن الكلام والتفهم بما لا أُطيقه، صفةً من الإجلال والعظمة، فحكمت علىَّ فلم أتَّكِّم، وملكنى فلم أتملِّك ولم أتكلِّم. فلو شئْتُ من واجب حق الله تعالى كان إلىَّ، وقدرتُ عليه، لم أذن

لأحد من أهل السماوات والأرضين، من مَلَكٍ مَقَرَّبٍ ولا نبي مرسل أن يقول الله، إذ كل قائل فيما قُول، وكل قريب من حيث قُرْب، وكل عارف فيما عُرِف، وكل الكل محجوبٌ عن كُنْه القُرْب، وعن حقيقة التوحيد، ومن عظمة التعظيم، فلم يكن أحدٌ يستطيع أن يقول الله. فمكثتُ سنةً لا أتكلم، وسمعتُ رَجَفَانَ قلبي في صدري، وزواله عن مستقره إلى نحري، ويحك أما سمعته يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]. فهذا وجل القلوب من ذكر غافل سمعوه، فكيف بذكر ذاكرٍ ذكروه، فما قال التوحيد إلا الواحد، وما قال الله إلا الله، ثم ذكر الباقي.

فهذا الذي ذكر حالٌ في مقام بعينه، بمشاهدة عينٍ من عظمة منفردة مُتَفَرِّدٍ، وقُرْبٌ عن وصف قريبٍ مُتَّحِدٍ لِمُوحِدٍ، والتوحيدُ والتفريدُ وراء هذا، والإيحادُ والأحديَّةُ والانفرادُ والوحدانية فوق ذلك، والآحادُ والإفرادُ المفردون بما أُفردوا، والموحدون بما وَحَّدُوا، والذاكرون بذكره الذي به ذكروا، والمسبحون بسُبُحاته التي بها سَبَّحُوا، والمعظمون بعظمته التي بها عَظَّمُوا، هم حجابُ هذا المقام، وخِزَانُ هذا المعنى، كَشَفُهُمْ لهذا السِّرِّ هو منهم كُفْرٌ، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥]. فوقفوا مع الأمر لغلبة القهر، وسكنوا لأجل الحمد، فرسموا له الحدَّ. وهكذا يُحِبُّ الحبيبُ، وهم لا يحبون ما لا يُحِبُّ، ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]. هذا لأنهم عبادٌ مكرمون، وبالتقوى مُلجَمون. وقد قال قائلهم:

لقد بَطُنْتَ فلم تَظْهَرَ لَدِي بَصِيرًا	وكيف يُبْصِرُ مَنْ فِي غَيْبِهِ اسْتِئْرًا
لكن عُرِفْتَ بما أَظْهَرْتَ مِنْ خَبِيرٍ	فكيف يُعْرِفُ مَنْ بِالْخَبْرِ مُخْتَبِرًا
فكنتُ أُسْتَرُ ما عَاينتُ مُجْتَهِدًا	لا أَنْتِي حَاجِبٌ أُسْتَطْلَعُ الْخَبْرَا
وصرتُ أُسْعَى لآثَارٍ لَنَا رُسِمَتْ	فلم تَرَ الْعَيْنُ لَا رَسْمًا وَلَا أَثَرًا

ومن المحبة أن لا يطلب خدمة سواه، وأن يجتمع في محبته همه وهواه، ولا يَهْوِي إلا ما فيه رضا المولى، ولا يقضى عليه مولاه إلا بما يَهْوَاهُ.

وروى عن بعض العلماء: إذا رأيته يُوحشك من خلقه، فاعلم أنه يريد أن يؤنسك به.

وفي أخبار داود عليه السلام: إن الله تعالى أوحى إليه: إن أودَّ الأوداءِ إلىَّ مَنْ عبدني لغير نوالٍ، لكن ليعطى الربوبية حقها.

وفيما نقل وهب بن منبه من الزبور: ومن أظلم ممن عبدني لجنة أو نار، لو لم أخلقجنة ولا ناراً، لم أكن أهلاً أن أطاع؟ أو كما قال.

وفي أخبار عيسى: إذا رأيتَ التقى مشغوقاً في طلب الرب، فقد ألهاه ذلك عما سواه. وعن عيسى عليه السلام: إذا رأيتَ التقى مشغوقاً في طلب الرب، فقد ألهاه ذلك عما سواه. وعن عيسى عليه السلام: المحب لله يحب النَّصَبَ. وروى عنه: أنه مر على طائفة من العباد قد احترقوا من العبادة، كأنهم الشَّانِ البالية، فقال: ما أنتم؟ فقالوا: نحن عباد. قال: لأي شيء تعبدتم؟ قالوا: خوفاً من النار فخفنا منها. فقال: وحقُّ على الله أن يؤمِّنكم ما خفتم. ثم جاوزهم فمر بآخرين أشدَّ عبادةً منهم. فقال: لأي شيء تعبدتم؟ قالوا: شوقنا الله إلى الجنان، وما أعدَّ فيها لأوليائه، فنحن نرجو ذلك. فقال: حقُّ على الله أن يعطيكم ما رجوتُم. ثم جاوزهم فمر بآخرين يتعبدون، فقال: ما أنتم؟ قالوا: نحن المحبون لله، لم نعبد خوقاً من ناره، ولا شوقاً إلى جنة، ولكن حباً له، وتعظيماً لجلاله. فقال: أنتم أولياءُ الله حقاً، معكم أُمِرْتُ أن أقيم، فأقام بين أظهرهم. وفي لفظ آخر: أنه قال للأوليين: مخلوقاً خفتم، ومخلوقاً أحببتم، وقال لهؤلاء: أنتم المقربون.

ومن روى عنه هذا القول، وأقيم في هذا المقام: جماعة من التابعين بإحسان، منهم: أبو حازم المدني، كان يقول: إني لأستحي من ربي أن أعبد خوقاً من العقاب، فأكون مثل العبد السوء، إن لم يُعْطَ أجر عمله لم يعمل، ولكن أعبد محبةً له.

وقد روينا معنى هذا الكلام عن النبي ﷺ: «لا يكون أحدكم كالعبد السوء؛ إن خاف عمل، ولا كالأجير السوء إن لم يُعطَ أجرًا لم يعمل».

وقال بعض إخوان معروف له: أخبرني عنك، أى شيء أهاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق؟ فسكت. فقلت: ذكر الموت؟ فقال: وأى شيء الموت؟ قلت: ذكر القبر والبرزخ؟ فقال: وأى شيء القبر؟ فقلت: خوف النار ورجاء الجنة؟ فقال: وأى شيء هذا؟ إن واحدًا بيده هذا كله، إن أحببته أنساك جميع ذلك، وإن كانت بينك وبينه معرفة كفأك جميع هذا.

وفيما حدثني بعض الأشياخ عن منصور الحربي وغيره: أنه رأى بشر بن الحارث، قال: فقلت له: ما فعل أبو نصر التمار، وعبد الوهاب الوراق؟ قال: تركتهما الساعة بين يدي الله يأكلان ويشربان. قلت: فأنت؟ قال: علم الله قلة رغبتى فى الأكل والشرب فأعطانى النظر إليه.

وحُدِّثَ عن عبد الوهاب الحجى، قال: رأيتُ أحمد بن نصر الخُزاعى فى النوم فقلتُ: ما فعل الله بك؟ قال: أدخلنى عليه فى داره، وبسط لى حصيراً من لؤلؤ رطبٍ عن يمينه، وقال: يا أحمد، قُتِلْتَ فى، وصِرْتَ لى! فقلت: نعم يا رب. فقال: ها أنا ذا أنزل إليك حتى تنظرَ إلى وجهى، جل جلال وجهه ذى الجلال.

وحُدِّثَ عن على بن الموفق قال: رأيتُ فى النّوم كأنى أُدخلت الجنة، فرأيتُ رجلاً قاعداً على مائدة، وملكاً عن يمينه وشماله يُلقِمانه من جميع الطيبات، وهو يأكل. ورأيتُ رجلاً قائماً على باب الجنة، يتصفح وجوه قوم، فيدخل بعضاً ويردّ بعضاً. قال: ثم جاوزتها إلى حظيرة القدس، فرأيتُ فى سُرّادق العرش رجلاً قد شخّص ببصره ينظر إلى الله عز وجل لا يَطرّف. فقلت لرضوان: من هذا؟ فقال: معروف الكرخى عبد الله لا خوفاً من ناره، ولا شوقاً إلى جنته، بل حباً له، فقد أباحه النظر إليه إلى يوم القيامة. قلت: فمن الآخرون؟ قال: أخواك بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل.

وهذا مقام الأبدال من الصديقين، لا يقيمون مقام أبدال الأنبياء، إلا بعد صفاء اليقين، وحسن المعرفة، فأول نصيبهم من الله نظرهم إليه، فيجمع لهم بأول نظرة

من النعم والسرور ما لا يُوصَف جميع ما فرَّقَه في الجنان كلها من اللذة والسرور والنعيم والحبور. وفي النظرة الثانية فوق ذلك، وفي النظرة الثالثة أعلى من ذلك، وليس من الله حدٌّ، ولا عددٌ. ولهم أنصبة من وراء النَّظَر أضعافًا مضاعفة، لا يعرفها سواهم، ولا يسمع ذكرها إلا هم، ولا يطلبها غيرهم، ولا يطلب بها أحدًا دونهم، لا يُسمع ذكرها في كتاب، ولا يجوز تسميتها بخطاب إلا لأهلها؛ السائلين عنها، الطالبين لها، الراغبين فيها، هي من سرِّ الجبروت ونهاية الرغبت.

ولا يبلغون دَرَج الصديقين، ولا يعطون منازل الشهداء، حتى تغلب محبةُ الله على قلوبهم في كلِّ حال، فيتألهون إليه، ويذهلون به عن غيره، وينسون في ذكره مَنْ سواه، هو مذكورهم بذكره ومأواهم بظله، كما ضرب لنا المثل بوصفهم، فقال: «الذين يَكْلِفُون بحبِّي كما يَكْلِفُ الصبيُّ بالشَّيء، ويأوُّون إلى ذكرى كما يأوى النَّسر إلى وكرة، ويغضبون لمحارمى كما يغضب النمر إذا حرَّدَ، فإنه لا يبالي قلَّ الناس أو كثروا».

فتدبر هذه الأمثال، فإن الصبي إذا كَلَفَ بالشَّيء لم يفارقه، فإن نام فمعه، وإن تحرك فيه، وإن هَبَّ من نومه فعنه، وإن فارقه بكى عليه، وإن وجده ضحك إليه. وأمَّا النمر فإنه لا يملك نفسه عند الغضب لنفسه، حتى يبلغ من شدة غضبه أنه يقتل نفسه، وذلك أنه يغيب الخلق عنه، حتى نفسه، فلا يعقل ما فعل، فلذلك ضرب الله هذا المثل في قوله: «لا يبالي قلَّ الناس أو كثروا»؛ لحقيقة الإخلاص بغية مداراة الناس، فالمحبون لله هم المخلصون نفوسهم لوجهه حقًا، فيعبدونه لأجله صرفًا، وهم المقربون، ونعيمهم في الجنان صِرْفٌ، ويمزج لأهل المزج، وهم أصحاب اليمين، كما قال تعالى في وصف نعيمهم: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ [المطففين: ٢٢ - ٢٥]. ثم قال في نعت شراب المقربين: ﴿وَمِزَاجُهُ﴾ يعني مزاجُ شراب الأبرار ﴿مِنْ تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٧ - ٢٨] أي يشربها المقربون صرفًا. ويمزج لأصحاب اليمين، فما طاب شرابُ الأبرار إلا

بمزاج شراب المقربين، فعبر عن جُمل نعيم الجنان بالشراب، كما عبر عن العلوم والأعمال بالكتاب. فقال فى نعت الأبرار مثله: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيْنَ﴾ [المطففين: ١٨]. ثم قال: ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢١]، فما حَسَنَ علمهم، ولا صفت أعمالهم، ولا علا كتابهم، إلا بشهادة المقربين، لما قَرُبَ منهم وحضره. كذلك كانوا فى الدنيا تحسن علومهم بعلمهم، وترتفع أعمالهم بمشاهدتهم، ويجدون المزيد فى نفوسهم، بقربهم منهم: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. وقال تعالى: ﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾ [النبا: ٢٦]؛ أى وافق أعمالهم. وقال تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أى كوصفهم فى الدنيا ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٣٩]؛ فَمَنْ كَانَ فى هذه الدار نعيمه طيباتُ الملك، فكَذَلِكَ غَدًا يَكُونُ الملك نعيمه. وَمَنْ كَانَ فيها نعيمه وروحه بالملك الطيب، فهو غَدًا فى مقعد صدق عنده.

كما قال أبو سليمان الداراني: من كان اليوم مشغولاً بنفسه فهو غَدًا مشغول بنفسه، ومن كان اليوم مشغولاً بربه فهو غَدًا مشغول بربه.

وقد روينا عن رابعة العدوية، وكانت إحدى المحبين، وكان الثورى يقعد بين يديها، ويقول: علمينا مما أفادك الله من طرائف الحكمة، وكانت تقول: نَعَمْ الرجل أنت لولا أنك تحب الدنيا. وقد كان رحمه الله زاهدًا فى الدنيا عالمًا، إلا أنها كانت تجعل إثارة كتب الحديث والإقبال على الناس من أبواب الدنيا. وقال لها الثورى يومًا: لكل عبد شريطة، ولكل إيمان حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ فقالت: ما عبدتُ الله خوفًا من الله، فأكون كالأمة السوء إن خافت عملت، ولا حبًا للجنة، فأكون كأمة السوء إن أُعطيت عملت، ولكنى عبدته حبًا له، وشوقًا إليه.

وروى عنها حماد بن زيد أنها قالت: إني لأستحي أن أسأل الدنيا مَنْ يملكها، فكيف أسألها من لا يملكها، وكان هذا جوابًا، لأنه قال لها: اذكرى لى حوائجك حتى أقضيها.

وخطبها عبد الواحد بن زيد، فحجبه أيامًا، حتى سئلت أن يدخل عليها،

فقالت: يا شهواني، اطلب شهوانية مثلك، أى شيء رأيت فى من آلة الشهوة؟ وخطبها محمد بن سليمان أمير البصرة على مائة ألف، وقال: لى غلة عشرة آلاف فى كل شهر أدفعها إليك، فكتبت إليه: ما يسرنى أنك لى عبد، وأن كل ما تملكه لى، وأنك شغلتنى عن الله طرفة عين.

وقد قالت فى معنى المحبة أبياتاً تحتاج إلى شرح، حملها عنها أهل البصرة وغيرهم؛ منهم جعفر بن سليمان الضبعي، وسفيان الثوري، وحماد بن زيد، وعبد الواحد بن زيد:

أحبك حُبِّين : حبَّ الهوى	وحباً لأتلك أهلٌ لذاكا
فأما الذى هو حبُّ الهوى	فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنتَ أهلٌ له	فكشُفك للحُجب حتى أراكا
فلا الحمدُ فى ذا ولا ذاك لى	ولكن لك الحمدُ فى ذا وذاكا

فأما قولها: حبُّ الهوى. وقولها: حب أنت أهل له، وتفريقها بين الحبين، فإنه يحتاج إلى تفصيل حتى يقف عليه من لا يعرفه، ويخبره من لم يشهده. وفى تسميته ونعت وصفه إنكاراً من ذوى العقول؛ ممن لا ذوق له ولا قدم فيه، ولكننا نحمل ذلك، وندلُّ عليه من عرفه. يعنى حب الهوى: أنى رأيتك فأحببتك عن مشاهدة عين اليقين، لا عن خبرٍ وسمع تصديق من طريق النعم والإحسان، فتختلف محبتى إذا تغيرت الأفعال، لاختلاف ذلك على، ولكن محبتى من طريق العيان، فقربتُ منك وهربتُ إليك، واشتغلت بك، لما تفرغت لك، كما قال المحبُّ:

فرغت قلبها اشتغالاً بذكرى وكذا كلُّ فارغ مشغول

وعلى هذا المعنى مجازُ قوله [تعالى]: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾ [القصص: ١٠]. أى لان بذكره حتى فاض، فكادت تُبدى به وتظهره، فتقول: هو ابنى، فعبر عن الملء بالفراغ من ضده، لولا أن أوكينا عليه بربطنا فكظمت، ولو لم تفعل لأظهرت، ولو أظهرته لقتل.

تقول: وانقطعت عمن سواك، وقد كانت لى قبل ذلك أهواءً متفرقة، فلما رأيتك اجتمعت كلها، فصرت أنت كلية القلب وجملة المحبة، فأنسيته ما سواك، كما قال المحب:

كانت لقلبي أهواءٌ مفرقةٌ فاستجمعتُ إذ رأيتك العينُ أهواى
وأما الحبُّ الثانى، فالذى هو أهلٌ له، أعنى حُبَّ التعظيم والإجلالِ لوجه الله العظيم ذى الجلال. تقول: ثم إنى مع ذلك لا أستحقُّ على هذا الحب، ولا أستأهل أن أنظر إليك فى الآخرة على الكشف والعيان فى محل الرضوان؛ لأن حبنى لك لا يُوجب عليك جزاءً عليه، بل يُوجب على كل شيءٍ لك منى كل شيءٍ مما لا أطيعه، ولا أقوم بحقك فيه أبداً، إذ كنت قد أحبيتك فلزمنى خوفُ التقصير، ووجب على الحياء من قلة الوفاء، والخوفُ لما تعرّضتُ به من حبك، إذ ليس كمثلك شيءٌ، كما قال المحب:

أصبحتُ صَباً، ولا أقولُ بِمَنْ خَوْفاً لِمَنْ لا يخافُ من أَحَدٍ
إذا تفكّرتُ فى هَواى لَهُ لمستُ رأسى هل طار عن جَسَدِي
لولا أن الحب ينطق، والشوق يقلق، والوجد يحرق، فالمحبُّ لا يلام لغيبة النفس عنه والأنام.

تقول: فتفضلتَ علىَّ بفضل كرمك، وما أنت له أهلٌ من تفضلك، فأريتنى وجهك عندك آخرّاً، كما أريتنيه اليوم عندى أولاً، فلك الحمدُ على ما تفضلتَ به فى ذا عندى فى الدنيا، ولك الحمد على ما تفضلتَ به فى ذاك عندك فى الآخرة، ولا حمد لى فى ذا ههنا، ولا حمد لى فى ذاك هناك، إذ كنتُ إنما وصلتُ إليهما بك، فأنت المحمود فيهما، لأنك وصلّتنى بهما.

فهذا الذى فسرناه هو وَجْدُ المحبين المحقين.

وقد كانت تذكر الأُنس فى وجدها، وترتفعُ إلى وصف معنّى من الخلّة، وشيءٍ من تخلُّل أسرار الغيب فى قولها السائر:

إنى جعلتُك فى الفؤاد محدثي وأبحتُ جِسمى مَنْ أراد جُلوسى

فالجِسْمُ مِنِّى للجلِيسِ مؤانسٌ
وحبيبٌ قلبى فى الفؤادِ أنيسى
ومن قولها النادر فى مقام الخُلة:

وتخلَّلْتَ مَسَلَكَ الرُّوحِ مِنِّى
وبه سُمِّى الخليلُ خليلًا
فإذا ما نطقتُ كنتَ حَدِيثى
وإذا ما سكتُ كنتَ العليلا

وقد أهلَّ ذلك لها كلُّ من نقله عنها من العلماء، فوصفوها به، فوصفنا من نعت المحبين بعض ما يصلح من معنى كلامها؛ لأننا ظننا بقولها ذلك، إذ كان لها فى المحبة قدمٌ صدق، والله أعلم.

ولا يسعنا أن نشرح فى كتاب حقيقة كشف ما أجملناه، ولا أن نفصل وصف ما ذكرناه. ومن لم يكن من المحبين كذلك، حتى لا يدلَّ بمحبته، ولا يقتضى الجزاء عليها من محبوبه، ويوجب على حبيبه شيئاً لأجل محبته، فهو مخدوعٌ بالمحبة، ومحجوبٌ بالنظر إليها، وإنما ذاك مقام الرجاء، الذى ضده الخوف، وليس من المحبة فى شيء، ولا تصح المحبة إلا بخوف المقت فى المحبة. وقال بعض العارفين: ما عرفه من ظن أنه عرفه، ولا أحبه من توهم أنه أحبه.

• ذكر مخاوف المحبين ومقاماتهم فى الخوف:

وللمحبِّ سبعُ مخاوف، ليست بشيءٍ من أهل المقامات، بعضها أشد من بعض.

أولها: خوفُ الإعراض، وأشدُّ منه خوفُ الحجاب، وأعظم من هذا خوف البُعد، وهذا المعنى فى سورة هود هو الذى شَيَّبَ الحبيب ﷺ، إذ سمع المحبوب يقول: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٨]، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٥] فذكرُ البُعدِ فى البعدِ يُشَيِّبُ أهلَ القُربِ فى القُربِ، فكيف يعرف البُعد من لم يقرب؟ أم كيف يحنُّ إلى القُربِ من أَلِفَ البُعدِ؟ بل كيف يبكى فى البُعد من لم يعهد القُرب؟

ثم خوف السَّلْبِ للمزيد، والإيقاف مع التحديد، وهذا يكون للخصوص فى الإظهار والاختيار منهم، فيُسلبون المزيد من نوعه إن كان من الآيات، وحقيقة

ذلك عقوبة لهم، ويكون للعموم عند إثثار الشهوات على أوامر الطاعات، كما رويها عنه تعالى: «إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا أثر شهوات الدنيا على طاعتي أن أسلبه لذيذ مناجاتي».

وقد يكون عند الدعوى للمحبة، ووصف النفس بحقيقتها، وإنما معه علمها دون الوجد بها، فينقصون معهم، ولا يفتنون لذلك، وهو لطيفة من المكر الخفى.

وقد قرن الله الدعوى بفرية الكذب؛ لأنها كذب القلب بمنزلة كذب اللسان، في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣]، ونهى عنها كنهيه عن التولّى عنه فى قوله: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ [الأنفال: ٢٠]، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١].

ثم خوف الفوت الذى لا درك له. سمع إبراهيم بن أدهم - وهو أحد المحبين - قائلاً يقول فى سياحته على جبلٍ نظماً:

كلُّ شَيْءٍ لَكَ مَغْفُورٌ سوى الإعراضِ عَنِّي
قد وهبنا منك ما فا تَ، بقى ما فات مِنِّي

فاضطرب وغشى عليه، فلم يفق يوماً وليلة. وهذا فى قصة طويلة كانت له بعد مقامات أقيم فيها، نُقل عنها إلى هذا المكان، حتى قال فى آخر ذلك: فسمعتُ النداء من الجبل: يا إبراهيم كن عبداً. قال: فكنتُ عبداً، فاسترحتُ؛ معناه: لا يملكك إلا واحد، تكون عبداً له حراً مما سواه، ولا تملك شيئاً، فإن الأشياء فى خزانة مليكها، فلا تتملّكها، فتحجبك عن مالك، وتأسرك بمقدار ما ملكتها. وقد ضرب الله مثلاً بينه وبين خلقه: أن رجلين أحدهما فيه شركاء متشاكسون عليه من أهل ومال وشهوات، كل واحد يجذبه إليه، ويريد نصيبه منه، ويشغله به، ويحب فراغه له، وآخر سالماً من الشركاء، خالصاً من الشرك، متوحداً لواحد، أنهما لا يستويان، فى قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩]. أى الأكثر ليسوا علماء كهذا الواحد للواحد، فتنافسوا فى

واحده، وسلوكوا سالكه بوحيده .

وأشدُّ من القوتِ خوفُ السلوِّ، وهذا أخوفُ ما يخافون؛ لأنَّ حبَّهم له كان به لا بهم، ومنه لا منهم، وهو نعمة عظيمة لا يعرف قدرها، فكيف يشكره عليها ولا يقوم لها شيء؟ فكذلك سلَّوهم عنه يكون به، كما كان حبهم له به، فيدخل عليهم السلوُّ عنه من حيث لا يشعرون، من مكان ما دخل عليهم الحبُّ له من حيث لا يعلمون، فتجد السلوَّ به كما كان يجد الحبَّ له؛ فتكون قد سلوتَ عنه، وأنتَ لا تدري كيف سلوتَ؛ لأنه يُدرِّجُك بما خدَعَكَ به من الاستبدال عنه بما تدري، إلا أنَّك لا تظنُّ لذلك؛ لتهوينه الأمر عليك، فتقف مع الرجاء، أو تغتر بحُسن الظنِّ الذى كنتَ تعهد منه؛ أو لغلبة الهوى والشهوة والنسيان، فهو من أقوى جنود الأرض، لأنهن يغلبن أضدادهن من جنود السماء؛ وهو العلم، والعقل، والبيان: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ [البقرة: ٢٠٩] الآية، عزيزٌ لا يُوصَلُ إليه إلا به، حكيمٌ حَكَمَ عليكم بالزلل عنه إلا أنه يُدرِّجُ فى ذلك استدراجاً بلطائف الحكمة، على مَعهودِ الأسباب ومألوف المعتاد، وكما أنَّك أحبيته، وأنتَ تدري كيف أحبيته؛ لأنه أشهدك وصفه به باطلاع القدرة عن جنان الرحمة، فاقتضى الحب له، فوجدتَ نفسك محباً له. كذلك ترجع المحبة كما جاءت تحجبك عنه عن فعل مكروه يبدو أنَّك منه ظهر عن وصف الكبر والجبرية، فتجد قلبك سالياً عنه بلا حول ولا قوة منك، ولا اجتلاب ولا حيلة، وهذا لا يصفه إلا عارفٌ بدقيق بلائه، ولا يحذرُه إلا خائفٌ من خفى مكروهه وابتلائه. فإذا سلوتَ عنه به كان ذلك دليلاً منه أنه قد رفضك واطَّرحك، كما أنَّك إذا كنت تحبه إنَّما أحبيته به؛ وهذا هو تحقيقُ المكر السريع بسرعة تقليب القدرة للقلوب، الذى يَحِيقُ بالممكور، وهو دَرَكُ الشقاء الذى أدرك المغرور بما لا يدركه الطَّرفُ لسرعته، ولا يَجُولُ فى الوهم لحَفِيَّتِهِ، كقوله تعالى: ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ أى معصية بالنعم ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ [يونس: ٢١] أى أخفى تقليباً، قد أظهر لهم نعماً أحبوها، وكانت عقوبةً ونِقَمًا باطنة فى لبس النعم الظاهرة، يُدرِّجُون بها درجةً درجةً، من حيث لا يعلمون.

وأشد من هذا كله خوف الاستبدال؛ لأنه لا مشوبة فيه، وهذا حقيقة الاستدراج، يقع عن نهاية المقت من المحبوب، وغاية البغض منه والبعد. والسلو مقدمة هذا المقام، والإعراض والحجاب بداية ذلك كله، والقبض عن الذكر وضيق الصدر بالبر أسباب هذه المعانى المبعدة، والمدارج المדרجة، إذا قويت وتزايدت أخرجت إلى هذا كله، وإذا تناقضت وبُدِّل بها الصالحات والحسنات، أدخلت فى مقامات المحبة والقربات، كما جاء فى الأثر: «التائب حبيب الله»^(١). كذلك فى تدبر الخطاب أن العاكف على هواه مقيت الله، فوجد هذه الأوصاف منك دلائل ما غاب عنك من الاستبدال بك، والإسقاط لك. والخوف من هذه المعانى علامة المعرفة بأخلاقه المكذبة المقلبة. ولا يصلح شرح هذه المقامات فى كتاب، ولا تفصيلها برسم خطاب، إنما يُشرح فى قلبه بيقينه قد شُرح، ويفصل العبد من نفسه قد فصل. فأما قلب مشترك، وعبد فى هواه مرتبك، فليس لذلك أهلاً، والله المستعان.

وَكَمَّ خَوْفٌ ثَامِنٌ عَنْ شَهَادَةِ حَبٍّ عَالٍ، يَغْرُبُ اسْمُهُ فَيَلْتَبِسُ، وَيَخْفَى وَصْفُهُ لِقَلَّةِ اِشْتِهَارِهِ فِي اِلسَّمَاعِ فَيَجْهَلُ، لَمْ نُسَمَّهِ؛ لِأَنَّهُ خَوْفٌ عَنْ مَقَامٍ لَهُ اسْمٌ مِنَ الْمَحَبَّةِ، يَتَشَنَّعُ^(٢) عَلَى كَثِيرٍ مِنْ سَامِعِيهِ، فَيُنْكِرُونَهُ، وَيَتَشَنَّجُ فِي أَوْهَامٍ غَيْرِ مَشَاهِدِيهِ فَيُمَثِّلُوهُ بِالْخَلْقِ؛ لِأَنَّ أَسْمَاءَ صِفَاتِ الْخَلْقِ مُلْتَبِسَةٌ بِمَعْنَى صِفَاتِ الْخَالِقِ، وَإِنَّمَا لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ مَا يَعْلَمُونَ، وَهُمْ بَعْلُومُهُمْ مُحْجُوبُونَ، فَكَيْفَ بِهَا يَشْهَدُونَ. فَإِنْ ذَكَرْنَا خَوْفَهُ نَمَّ عَلَى ذِكْرِ مَقَامِهِ، فَظَهَرَ بِإِظْهَارِهِ، فَكَانَ طِيَّهُ أَفْضَلُ مِنْ نَشْرِهِ، إِلَى أَنْ يُسْأَلَ عَنْهُ مِنْ ابْتُلِيَ بِهِ ثُمَّ صَدَرَ عَنْهُ، بَعْدَ أَنْ شَرِبَ مِنْهُ؛ لِأَنَّ مَقَامَاتِ الْمَحَبَّةِ كُلَّهَا إِلَى جَنْبِ مَقَامِهِ كُنْهَرٌ أُضِيفَ إِلَى بَحْرِ مِثْلِهِ، كَمِثْلِ مَشَاهِدَاتِ الْيَقِينِ كُلِّهَا إِلَى جَنْبِ شَهَادَةِ التَّوْحِيدِ بِالتَّوْحِيدِ، وَهُوَ وَصْفٌ مِنَ الْمَحَبَّةِ بِقُرْبِ الْقُرْبِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ شَوْقِ الْحَبِيبِ إِلَى الْمَحَبِّ. وَهُوَ مِنْ مَعْنَى قَوْلِ رَابِعَةِ آتِفًا: حَبَّ الْهُوَى. وَمِنْ مَعْنَى قَوْلِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ: «أَرَى رَبَّكَ يُسَارِعُ إِلَى هَوَاكَ». وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لِكَعْبِ الْحَبَرِ: أَخْبَرَنِي عَنْ أَحْصَى آيَةٍ فِي التَّوْرَةِ، قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

(١) فى المطبوعة: «الثابت عن حبيب الله» وهو تصحيف فاسد.

(٢) فى المطبوعة: «فيشبهه».

«طال شوق أوليائي إليَّ، وإنا إليهم أشوق»، وإلى جانبها مكتوب: «من طلبني وجدني، ومن طلب غيري لم يجدني». فقال أبو الدرداء: أشهد أنني قد سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا.

وفى الخبر: «إن الله عز وجل يدنو من أوليائه في كل يوم وليلة دُنوَّة، ولولا ذلك لانتحطموا». وروينا ذلك في أخبار داود عليه السلام من أوصاف المحبين: «يا داود، أبلغ أهل أرضي أني حبيبٌ لمن أحبنى، وجليسٌ لمن جالسنى، ومؤنسٌ لمن أنس بذكرى، وأنيسٌ لمن أنس بى، وصاحبٌ لمن صاحبنى، ومُختارٌ لمن اختارنى، ومطيعٌ لمن أطاعنى، ما أحبنى عبد - أعلم ذلك يقينًا من قلبه - إلا قبلته لنفسى، وأحبته حبًّا لا يتقدمه أحدٌ من خلقى، من طلبنى بالحق وجدنى، ومن طلبنى بغير حق أو طلب غيرى لم يجدنى، فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها، وهلموا إلى كرامتى، ومُصاحبتى، ومجالستى، وأنسوا بى أوانسكم، وأسارع إلى محبتكم، فإنى خلقت طينة أحبائى من طينة إبراهيم خليلى، وموسى نبيى ومحمد صفى، إنى خلقت قلوب المشتاقين من نورى، ونعمتها بجلالى».

فهذا فى مقام خُلَّة، وحال مطلوب، وهو من وصف مُقَرَّب، ونعت محبوب. ومن صَدَرَ عن مقام محبٍّ بعد وروده، رُفِعَ إلى هذا المقام؛ لأنه فى مقام محبوب لجميل مشاهدات اليقين. وقد كان الجنيد رحمه الله ينشد هذه الأبيات كثيرًا^(١):

سرتُ بأناس فى الغيوب قلوبهم	فحلُّوا بقُرب الماجد المتفضل
عَراضٌ ^(٢) بقُرب الله فى ظلِّ قُدسه	تجول بها أرواحهم وتنقل
مَواردُهم فيها على العزِّ والنهى	ومصدرهم عنها لما هو أكمل
تروحُ بمرِّ مُردٍ من صفاته	وفى حلل التوحيد تمشى وترفل
ومن بعد هذا ما تدقُّ صفاته	وما كُتِّمه أولى لَدَيْهِ وأعدل
سأكتُم من علمى به ما يصونه	وأبذل منه ما أرى الحقَّ يبذل

(١) البيت الأول منها فى ترجمة الجنيد بالخطبة ٢٨٤/١٠.

(٢) عَراضٌ: كذا ضبطت فى المصنوع، وهى من: عَرَصَ البرق: اضطرب، وعَرِصَ الرجلُ: نرح.

وأعطى عبادَ اللهِ منه حُقوقَهُم وأمنعُ منه ما أرى المنعَ أَفْضَلَ
ألاَ إِنَّ للرحمن سرّاً يسره إلى أهلهِ فى السرِّ والسترِ أَجْمَلَ

وقد ذكرنا معناه بعض المحبوبين فى كلام منظوم فى بيتين وهما:

فمنك بدا حبٌّ بعزٍّ تمازجا بماءِ وصالٍ كنتَ أنتَ وَصَلْتَهُ
ظهرتَ لمن أبقيتَ بعد فنائه فكان بلا كونٍ لأنك كُتْتَهُ
ويقول فى أول الأبيات اختصرته:

تعزّزتَ بالعزِّ المنيعِ فكلُّ مَنْ أشار إلى عزٍّ فانتَ خَدَعْتَهُ
وأبدأتَ وصفاً بالعلومِ مُخْبِراً فشتَّتَ قلباً بالعلومِ جَمَعْتَهُ
وأفردتَ حبّاً فيك منك بِمَشْهَدٍ بلا عِلْمٍ فى العَقْلِ حينَ بَسَطْتَهُ

وقال بعض العلماء: مَنْ عرف الله من طريق المحبة بغير خوفٍ هلك بالبسط والإدلال، وَمَنْ عرفه من طريق الخوف من غير محبةٍ انقطع عنه بالبعد والاستيحاش، وَمَنْ عرف الله من طريق المحبة والخوف أحبه الله فقرّبه وعَلَّمَهُ ومكَّنَهُ. وليس العجبُ من خوف الخائفين، إذ لا يعرفون إلا الصفات المخوفات، والأفعال القاصمات، وإنما العجبُ من خوف المحبين مع ما عرفوا من أخلاقه وحنانه، وشهدوا من تَعَطُّفه وألطفه، ما لم يعرف الخائفون، ثم هم مع حبِّهم يهابونه، وعلى أنسهم به يُجَلُّونه، وفى فزعهم منه يشتاقون إليه، وفى بسطه لهم ينقبضون بين يديه، وفى إعزازه لهم يذلُّون له؛ لأن من قُبِضَ فأنقبض فليس بعجب، ولكن من بسط فأنقبض فهو العجب، وَمَنْ امتُهن فذلٌّ فلا عجب، ولكن من أعزَّ وأكرم فتواضع وذلٌّ فهو العجب.

فللمحبين الانقباضُ فى البسط، وللخائفين الانقباضُ فى قبض، وللمحبين الذلُّ مع العزِّ والكرامة، وللخائفين الذلَّة مع الهيبة والمهنة؛ فهذا يدل على أن معرفة المحبين به أعظمُ المعارف، إذ كانت أوائل أحوالهم المخاوف، فكلُّ محبٍّ لله خائفٌ منه، وليس كلُّ خائفٍ بمحبٍّ، يعنى محبة المقرَّبين؛ لأن لم يذُق طعم

الحب؛ لأن محبة المسلمين الْمُعْتَرِضَةُ لا يقع بها اعتبار فى مقامات الخصوص؛ لأنه لا يوجد عنها مواجيدُ الأحوال، ولا يُعلى بها فى مشاهدات الانتقال؛ لأنها قوت الإيمان، منوطة بصحته، وموجودة بوجوده، فأشبهت محبتهم معرفتهم بالله تعالى التى عنها توحيدهم، فإنهم عرفوه بوصف الأزل والقدم، والسرمدية والأبدية، والدَّهر والأبد، وهذا مندرج فى اسمين من أسمائه: أول آخر، والعارفون عرفوه بصفات الجبر والقهر والقدرة والمكر، وهذا قد أحكمه من الاسمين: ظاهر وباطن، وليس هذا من معارف المحبين فى شىء. والمحبون عرفوه بصفات التجلى ومعانى المعانى، ونعوت الأخلاق، وفى هذا سرائر الغيوب ومشاهدات المحبوب. وأنشد بعضهم فى معنى من المعانى:

أبدى شواهدَه فى قلبِ شاهدهِ	وأين شاهدهِ فيما يُجلِّيهِ
هى الصفاتُ التى من أجلها عبَدُوا	أهو تجلَّى بها أم هى تُجلِّيهِ
فالحمدُ لله لا بَوْنٌ ولا صِلَةٌ	هذا مكانٌ لنا معنى معانيه

وأنشد آخر فى معنى التوحيد:

سبحان مَنْ قد جَلَّ فى قدره	أن يدرك الأقربُ من وصفه
ومن تجلَّى بصُنوفِ البلاءِ	ليُشهد الألفَ من لُطفه

وأنشد بعضهم فى وصف التجلى والحجاب:

لقد ظهرتَ فما تخفى على أحدٍ	إلا على أكمه لا يعرفُ القمرا
لكن بطنتَ فما أظهرتَ محتجبا	فكيف يُعرف من بالعرف مُستترا
فصرتُ أحجبُ ما عاينتُ مُجتهدا	لأننى حاجبُ أستطلعُ الخبرا

وأنشد فى وصف من التوحيد والتعزير بمعناه:

لقد بطنتَ فلم تظهرِ لذى بصيرٍ	وكيف يدرك من بالعين مُستترا؟
لكن عرفتَ بما عرفتَ من خبرٍ	فكيف يُعرف من بالخبرِ مُختبرا؟
فصرتُ أسعى لآثارِ لنا رُسِمَتْ	وغابتِ العينُ لا رَسْمًا ولا أثرًا

والكلام فى التجلى والاحتجاب، والجمع والاتصال، لا أرسمه فى كتاب، لأنه يؤود العقول فتتفر منه وتطرحه، وتضيق عنه القلوب فيقبض عليها فتتمجه، وإنما أمله من قلب إلى قلب، وأوعيه من عين إلى عين.

ورويانا أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم أرني الدنيا كما تراها، فقال له رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل لا يرى الدنيا كما تراها، ولكن قل: اللهم أرني الدنيا كما يراها الصالح من عبادك».

وفى دعاء رسول الله ﷺ: «يا مكوّن كل شيء، يا مكنون كل شيء».

فهذه مواجيد العارفين، ومشاهدة المحبين، وهى المعرفة الخاصة، فأما صفات الأزل والأبد والدهر والسرمدية والديمومية، فهى المعرفة الأصلية مركبة فى الفطرة، فكأنها العقل مغروزة فيه، وعليها الكافة من أهل القبله من ذوى العقول، ولكن العارف المحب هو المتعرف إليه المقرب منه، فصفات التجلى وهو صورة آدم ﷺ، والوصف الذى تجلّى به لرسولنا محمد ﷺ، بينهما المعرفة الخاصة يختص برحمته من يشاء.

والمحبة لا ترفع الهيبة، فلذلك كل محب خائف؛ لأن المحبوب مهوب، والخوف قد يقبض عن المحبة؛ لشغل الخائف بوصفه السالف. وهذا كشف الأبرار، وهو حجاب المقربين، إلا أن المحبين لهم من الخوف قوت، ومن المحبة اتساع، والخائفون لهم من الخوف اتساع، ومن المحبة قوت. وهذا كما نقول فى الرجاء والخوف؛ لأنهما وصفا الإيمان، إلا أن الخائف يتدرج الرجاء فى حاله، والراجى ينطوى الخوف فى رجائه.

كذلك المحب يصير الخوف فى عقده، ويظهر الحب فى وجده، والخائف يغيب الحب فى عقده، ويظهر الخوف فى وجده، إن ربي لطيف لما يشاء، هذا لظهور الطرقات ومباني الدرجات، إذ كان لا بد من مجموعها فى قلب؛ لأنهما من شرط الإيمان وحقيقته، فتلطّف سبحانه حكمته بقدرته.

وفى سبق ترتيب المقامات من الله تعالى حكم غريب، وحكمة لطيفة، لا

يعرفها إلا من أُعطى يقين شهادتها، إن سبق إلى العبد بمقام الخوف كان محباً، حب المقربين العارفين، وإن سبق إليه بمقام المحبة كان محباً، محبة أصحاب اليمين، ولم يكن له مقامات المحبين المستأنسين ولا المشتاقين في مقامات المقربين. وكل هؤلاء موقنون صالحون، وإن خرجت أحوالهم عن ترتيب علوم أهل الظاهر؛ لأن المنكر لهم أكثر من المقر، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون. وربما كانت المحبة ثواباً للخوف ومزيداً له، وهذا في مقام العاملين، وربما كان الخوف مزيد المحبة وثوابها، وهذا في مقام العالمين. فمن كانت المحبة مزيدة بعد الخوف فهو من المقربين المحبوبين، ومن كان الخوف مزيداً محبته فهذا من الأبرار المحبين؛ وهم أصحاب اليمين.

وسئل بعض علمائنا البصريين: الحبُّ أفضلُ أو الحياءُ؟ فقال: الحبُّ الذي يُورث من الخوف الحياءُ أفضل منه، والحبُّ الذي يُورث منه الحياءُ أفضل من الحياء، وهو الشوق. وقال الجنيد: المحبة نفسها قُرب القلب من الله بالاستتارة والفرح.

فأما حبُّ تجلّي الصفات عن الأسماء الباطنة: فإننا لم نذكر منها شيئاً، وإنما ذكرنا محبة الأخلاق عن الأسماء الظاهرة، ولا أحسب أنه يحلُّ رسمه في كتاب، ولا كشفه لعموم الناس؛ لأنّه من سرّ المحبة لا يكشف به إلا من اطلع عليه، ولا يتحدث به إلا من أُعطيه، وما رأيتُ أحداً رسمه في كتاب، لأنّه لا يؤخذ من كتاب، وإنما يُتلقى من أفواه العلماء.

وقد كان أبو يزيد، وأبو شعيب المقيّع، وسرى بن مغلّس، وأبو عبد الله بن الجلاء، والجنيد بعدهم؛ يذكرون العشق في مقامات خليل ومحب، وزاد أبو يزيد ذكر العشق في مقامات محبوب، وجعله معشوقاً. وقد كان يُشير بذلك ويظهره عن نفسه لنفسه، كأنّهم يريدون وصفاً من الحبِّ مخصوصاً لا عن فعلٍ وسبب، بل لوَصَفَ تَحَلَّى به، فهذا لا يزيد بعمل، ولا ينقص بذنب، بل وصفٌ من وصف الحق بذلك على صفات صفات، ومعنى معان، إلا أن هذا ليس من معارف العامة، ولا تهتدى إليه قلوبهم، ولا يقدح في جوهر عقولهم، وليست

صفاتهم مكاناً لهذا، ولا أخلاقهم مخلقةً عليه، ولا علومهم نافذةً فيه، فذكره منكر؛ لأن العقول تُنكره، والقلوب تمجُّه، والهَمَمُ لا تسرى فيه، والقلب لا يجد به، فلذلك كان طيُّه أحسن من نشره، وإنما يَتَسَخُّ من قلب إلى قلب، وهو يُشبه ما كتبنا عنه آنفاً من الخوف الثامن الذى لم نصفه لمن لا يعرفه.

وقد روينا لفظاً من هذا المقام فى أخبار داود عليه السلام: «إن الله تعالى أوحى إليه: تزعم أنك منقطعٌ إلىَّ، تدعى عشقى، وتسعى الظن بى، ألق كنفك بين يديَّ، لكى أختار لك، فإن محبتى من عبادى أن يكونوا رُوحانيين، لا يُقيمون مصابيح القلوب. كن فى الدنيا وحدانيّاً، تحبِّب العباد إلىَّ، هُنالك أرفع النور لك. شاهد المخلوقين بيدك وقلبك، فإذا كنت كذلك قضيتَ ما عليك، وبقيَ ما علىَّ». وفى كلام نحوه، قال فى آخره: «لا تهتم بالخبز وأنت تريدنى، أثر هَوَاى على هواك، واغضب لى أشدَّ مما تغضبُ لنفسك».

ومما نقل فى الأثر، من وصف من أذيق منه، ولم يفصح بذكر وصفه، أننا روينا فى الأخبار: أن بعض الصديقين سأله بعض الأبدال أن يسأل الله أن يرزقه ذرةً من محبته، ففعل ذلك، فهام فى الجبال، وحرار عقله، ووكَّه قلبه، وبقي شاخصاً سبعة أيام لا ينتفع بشيء، ولا ينتفع به شيء. فسأل له الصديق ربه، فقال: يا رب انقصه من الذرة نصفها، فأوحى الله إليه: إنما أعطيناها جزءاً من مائة ألف جزء من ذرة من المعرفة، وذلك أن مائة ألف عبد سألونى شيئاً من المحبة فى الوقت الذى سألنى هذا، فأخرتُ إجابتهم إلى أن شفعتَ أنتَ لهذا، فلمَّا أجبتك فيما سألتَ أعطيتهم كما أعطيتهم، فقسمتُ ذرة من المحبة بين مائة ألف عبد، فهذا ما أصابه من ذلك. فقلت: سبحانك أحكم الحاكمين انقصه مما أعطيتهم. قال: فأذهب الله عنه جملة ذلك الجزء، وبقي فيه عشر معشاره، وهو جزء من ألف جزء، فاعتدل خوفه، وحبُّه، وعلمه، ورجاؤه، وصار كسائر العارفين.

وأنشد الجنيد فى وصف العارف المحبوب^(١):

(١) قبل هذه الأبيات كانت ثمت فقرة وأبيات أخرى فى (م) مضت من قبل فتركتها.

قريبُ الوَجْدِ ذو مَرَمَى بعيدٍ على الأحرار منهم والعبيدِ
 غريبُ الوصفِ ذو علمٍ غريب كأنَّ فؤاده زُبْرُ الحديدِ
 لقد عزَّت معانيه فغابت عن الأبصار إلاَّ للشهيدِ
 وللأحباب أفراحٌ بعيدٍ ولا يجد السرور له بعيدِ
 ترى الأعيادَ فى الأوقات تجرى له فى كل يوم ألف عيدِ

وهذا النوع من وصف المعرفة وتجلى الوصف بمعنى المحبة لا يسع الخلق؛ لأن الله تبارك وتعالى يريد عمارة الدار الدنيا، فمثله فى الأحوال مثل الحلال لا يريد الله عز وجل أن يطعمه الكل لعمارة الأسواق، لأن الأمة كلها لو أكلوا حلالاً أربعين يوماً، خربت الأسواق، لزهدهم فى الدنيا، فليس ذلك من الحكمة، ولو أن العلماء كلهم أكلوا حلالاً لم تسمع من هذه العلوم التى تسمعها شيئاً، لشغلهم بنفوسهم وإعراضهم عن أصحابهم، ففى ترك ذلك حكمةٌ حسنةٌ، ورحمةٌ واسعةٌ.

ومن علم المحبة سهر الليل بمناجاة الجليل، والحنين إلى الغروب شوقاً إلى الخلوة بالمحبوب، ومناجاة القلب سرائر الوجد، ومطالعة الغيب. والمناجاة عند أهل المصافاة إنما هى بالقلوب، وهى مطالعاتها بواطن الغيوب، وجولانها فى سرِّ الملكوت، وعلوها فى معانى الجبروت بأنوار أرواحها، يحملها شعاع أنواره فيوقعها على خزائن أسرارها. والمناجاة دليل رؤية القرب، وشاهد وجود الأئس. وفيما أخبرنا عن الله تعالى أنه قال: «كذب من ادعى محبتى، إذا جنته الليل نام عنى. أليس كل حبيب يحب الخلوة بحبيبه. فما أنا ذا قريب من أحبابى، أسمع سرهم ونجواهم، وأشهد حنينهم وشكواهم».

ورويانا عن بعض العلماء القدماء أن الله عز وجل أوحى إلى بعض الصديقين: «إن لى عبداً من عبادى يحبونى وأحبُّهم، ويشتاقون إلىَّ وأشتاقُ إليهم، يذكرونى وأذكرهم، وينظرون إلىَّ وأنظر إليهم، فإن حذوت طريقهم أحببتك، وإن عدلت عنهم مقتك. قال: يا رب، وما علامتهم؟ قال: يراعون الظلال بالنهار، كما يراعى الراعى الشفيق غنمه، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى

أو كارهها عند الغروب، فإذا جنّهم الليل، واختلط الظلام، وفُرشت الفرش، ونُصبت الأسرة، وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبه، نصبوا إلى أقدامهم، وافترشوا لى وجوههم، وناجوني بكلامى، وتملّقوا لى بأنعامى، فبين صارخٍ وباكٍ، وبين متأوّهٍ وشاكٍ، وبين قائمٍ وقاعدٍ، وبين راکعٍ وساجدٍ، بعينى ما يتحملون من أجلى، وبسمعى ما يشكون من حبى، فأول ما أعطيتهم ثلاثاً: أقذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم. والثانية: لو كانت السموات والأرض وما فيهما فى موازينهم لاستقللتها لهم. والثالثة: أقبل بوجهى عليهم فترى مَنْ أقبلتُ بوجهى الكريم عليه لا يعلم أحد ما أريد أن أعطيه».

فهؤلاء الذين أقبل الجبارُ بوجهه عليهم، والذين وصفناهم قبيل، أنهم أحبّوه بكلِّ قلوبهم، فكان كما قال: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وكما قال: ﴿جَزَاءٌ وَفَاقًا﴾ [النبا: ٢٦]، فنظروا إلى وجهه بنور وجهه، فتجلى بوصف محبوبٍ فأحبّوه، كما روينا عنه فى خبر موسى ﷺ: «أما علمتَ أتى إذا نظرتُ إلى عبدى بوجهى كلّهُ زويتُ عنه الدنيا كلها».

والله تعالى لا ينظر إلى الأجسام والنفوس؛ لأنهما من الدنيا، وهو لا ينظر إليهما بعينه العزيزة المكنونة، إنّما ينظرُ إلى القلوب والأعمال؛ لأنهما من الآخرة، وهو ينظر إليها بعينه فتزداد إشراقاً وحُسناً عن نوره وحُسنه، ثم لا ينظر إلا إلى قلوب الموقنين وأعمال المخلصين، فبنوره رآه، وفى نوره تجلّى.

فأما العموم فقلوبهم كأجسادهم، وأعمالهم تشبه قلوبهم، فالله سبحانه ينظر إليهم كنظره إلى الدنيا بعين التدبير والتقدير، فمعارفهم ظاهر التوحيد عن ظاهر الصفات والأسماع، وهو الذى ذكرناه آنفاً من أنهم عرفوه بالملك والحكمة، وشهدوه بالقدرة والأزلية عن معنى ما نظر به إليهم، فسبحان مَنْ وَسِعَ كلُّ شىءٍ رحمةً وعلمًا، وسبحان مَنْ نظر إلى من يحبّ بالوصف الذى يحب، فأحبّوه عن نظره.

وأما الشوق فإنه مقامٌ رفيعٌ من مقامات المحبة، وليس يُبقى الشوق للعبد راحةً

ولا نعيمًا فى غير مشوقه، والمشتاقه مفرَّبون بما أُشهدوا من الشوق إليه، وهم المأمور بطلبهم، الموجود الحبيب عندهم، مثبتهً منه لهم لما شوقهم إليه، فى قوله لموسى عليه السلام: «اطلبنى عند المنكسرة قلوبهم من أجلى»، هم المشتاقون من المحبين. والله أعلم وأحكم.

وذلك أن الحبيب قُرب منهم بوصفه تکرماً، ففرحوا بقربه، وعاشوا بمُشاهدته، ونعموا بحضورهم عنده، ثم احتجب عنهم غيرَةً على نفسه لعزه، فانكسرت قلوبهم لأجله، فاشتاقوا إلى ما عودهم منه، فثبتت لديه حرمتهم، فأمر أولياءه بطلبهم، وأوجد نفسه عندهم لمكانتهم عنده؛ ففرح هؤلاء من المحبين بقربه لا يُوصف، وانكسارهم وحزنهم لأجله لا يُعرف، والله سبحانه قد يعرض عن محبيه تعزُّزًا، ليزعجهم الشوق إليه، ويقلقهم الأسفُ عليه، وينظر إليهم فى إعراضه عنهم من حيث لا يعلمون، لينظروا إليه من حيث يعلمون، فيسكنون بالأدب بين يديه.

وحدثونا عن إبراهيم بن أدهم، وكان أحد المشتاقين، وهز من الأبدال هؤلاء الذين نتكلم فى علمهم، ونكشف طريقهم، وكانت له - رحمه الله - أماكن من المحبة رفيعة، ومكاشفات فى القرب عليّة. قال: قلت ذات يوم: يا رب، إن كنت أعطيتَ أحدًا من المحبين لك ما تسكن به قلوبهم قبل لقاءك، فأعطني ذلك، فقد أضرب بى القلق. قال: فرأيتُ فى المنام أنه أوقفنى بين يديه، فقال: يا إبراهيم، أما استحييتَ منى أن تسألنى ما يسكن به قلبك قبل لقائى، وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبه؟ أم هل يستروح المحبُّ إلى غير مشوقه؟ قال: قلت: يا رب، تُهتُ فى حبك فلم أدر ما أقول، فاغفر لى، وعلمنى كيف أقول. فقال: قل: اللهم رضنى بقضائك، وصبرنى على بلائك، وأوزعنى شكر نعمائك.

فهذا كما قال المحبُّ:

من أراد الحبيبَ سار إليه	وجفا دونه وصالُ القريب
ليس داءُ المحبِّ داءٌ يُداوى	إنما برؤه لقاءُ الحبيب

وكما قال المستهتر^(١) المشغوف:

سكنُ أسكن المحبة قلبي ليس لى دون قُربه من سكون
إنْ تذكَّرْته فكلُّى قلوبُ أو تأملَّته فكلُّى عُيونُ

فمقام الشوق فى المحبة يجلُّ عن الوصف، ويجاوز فى العلوم والفضل كلَّ عُرْف، ولا يصلح أن نصفه إلا أنا نذكر من ذلك ما سمعناه، نقلاً، فلا تُنكرن لأولياء الله وأحائه فضلاً، ولا تَمزُجَنَّ فيه بالتدبير والقياس عقلاً، فقد جاوز مقامهم كلَّ عقلٍ، كما اشتمل حالهم ووجدهم بحبوبهم كلَّ فضل.

ورويانا فى أخبار نبي الله داود عليه السلام: «إن الله تعالى أوحى إليه: كم تذكر الجنة ولا تسألنى الشوق إلى؟ قال: يا رب، من المشتاقون إليك؟ فقال: إن المشتاقين إلىَّ نَبَّيْتُهُمْ من كلِّ كَدَرٍ، وَنَبَّهْتُهُمْ بِالْحَذَرِ، وَخَرَقْتُ من قلوبهم إلىَّ خرقاً ينظرون إلىَّ، وإنى لأحمل قلوبهم بيدي فأضعها على سمائى، ثم أدعو نجباء ملائكتى فإذا اجتمعوا سجدوا لى، فأقول: إنى لم أدعكم لتسجدوا لى، ولكنى دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إلىَّ، وأباهى بكم أهل الشوق إلىَّ، وإن قلوبهم لتضوى فى سمائى للملائكتى، كما تضىء الشمس لأهل الأرض. يا داود، إنه من ذكرنى ذكرته، ومن أنس بى آنسته، ومن جلس إلىَّ جالسته، لأننى أنا أكرم الكرماء وأحكم الحكماء. يا داود، إنى خلقت قلوب المشتاقين من رضوانى، ونعمتها بنور وجهى، واتخذتهم لنفسى محدثين، وجعلت أبدانهم موضع نظرى إلى الأرض، وخرقت من قلوبهم طريقاً ينظرون به إلىَّ، يزدادون فى كل يوم شوقاً.

قال داود: يا رب، أرنى أهل محبتك، فقال: يا داود، ائت جبل لبنان، فإن فيه أربع عشرة نفساً، منهم شباب، وفيهم كهول، ومنهم مشايخ، فإذا لقيتهم فأقرئهم منى السلام، وقل لهم: إن ربكم يقرؤكم السلام، ويقول لكم: ألا تسألونى حاجةً، فإنكم أحبائى وأصفياى وأولياى، أفرح لفرحكم، وأسارع إلى محبتكم.

(١) المستهتر: المولع بالشيء.

فأتاهم داود عليه السلام، فوجدهم عند عين من الأمواه يتفكرون في عظمة الله عز وجل، فلما نظروا إلى داود نهضوا ليتفرقوا عنه، فقال داود: إني رسول الله إليكم، جئتكم لأبلغكم رسالة ربكم، فأقبلوا نحوه وألقوا بأسماعهم نحو قوله، وألقوا أبصارهم إلى الأرض.

فقال داود: إني رسول الله إليكم، إن ربكم يقرئكم السلام، ويقول لكم: ألا تسألوني حاجة؟ ألا تنادوني أسمع أصواتكم وكلامكم؟ فإنكم أحبائي وأصفيائي وأوليائي، أفرح لفرحكم، وأسارع إلى محبتكم، وأنظر إليكم في كل ساعة نظرة الوالدة الشفيقة الرقيقة. قال: فجرت دموعهم على خدودهم.

فقال شيخهم: سبحانك سبحانك، نحن عبيدك وبنو عبيدك، فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من عمرنا.

وقال الآخر: سبحانك سبحانك، نحن عبيدك وبنو عبيدك فامنن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك.

وقال الآخر: سبحانك سبحانك، نحن عبيدك وبنو عبيدك، أفنجزني على الدعاء وقد علمت أنه لا حاجة لنا في شيء من أمورنا، فأدم لنا لزوم الطريق إليك، وأتمم بذلك المنّة علينا.

وقال الآخر: نحن مقصرون في طلب رضاك، فأعنا عليه بجودك.

وقال الآخر: من نطفة خلقتنا، ومننت علينا بالتفكر في عظمتك، أفيجزني على الكلام من هو مشغل بعظمتك، متفكر في جلالك، وطلبتنا الدنو من نورك.

وقال الآخر: كلت ألسنتنا عن دعائك لعظيم شأنك، وقربك من أوليائك، وكثرة متتك على أهل محبتك.

وقال الآخر: أنت هديت قلوبنا لذكرك، وفرغتنا للاشتغال بك، فاغفر لنا تقصيرنا في شكرك.

وقال الآخر: قد عرفت حاجتنا؛ إنما هي النظر إلى وجهك.

وقال الآخر: كيف يجترئ العبدُ على سيده إذ أمرتنا بالدعاء بجودك، فهب لنا نوراً نهتدى به في الظلمات بين أطباق السماوات.

وقال الآخر: ندعوك أن تُقبل علينا، وتزيده عندنا.

وقال الآخر: نسألك إتمام نعمتك، فيما وهبت لنا وتفضلت به علينا.

وقال الآخر: لا حاجة لنا في شيءٍ من خلقك، فامن علينا بالنظر إلى جلال وجمال وجهك.

وقال الآخر: أسألك من بينهم أن تعمى عينيَّ عن النظر إلى الدنيا وأهلها، وقلبي عن الاشتغال بالآخرة.

وقال الآخر: قد عرفتُ - تباركت وتعاليت - أنك تحب أولياءك، فامن علينا باشتغال القلب بك عن كل شيءٍ دونك.

فأوحى الله تعالى إلى داود: قل لهم: قد سمعتُ كلامكم وأجبتكم إلى ما أحببتُم، فليفارق كل واحدٍ منكم صاحبه، وليتخذ لنفسه سرباً، فإنني كاشف الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إلى نوري وجلالي.

فقال داود: يا رب بم نالوا هذا منك؟ قال: حسنُ الظن، والكفُّ عن الدنيا وأهلها، والخلواتُ بى ومناجاتهم. وإن هذا منزلٌ لا يناله إلا من رفض الدنيا وأهلها، ولم يشتغل بشيءٍ من ذكرها، وفرغ قلبه لى، واختارنى على جميع خلقى، فعند ذلك أعطف عليه، وأفرغ نفسه، وأكشف الحجاب فيما بيني وبينه حتى ينظر إلى نظر الناظر بعينه إلى الشيء، وأريه كرامتى فى كل ساعة، أقربه من نور وجهى، إن مرضَ مرضته كما تمرضُ الوالدة الشفيقة ولدها، وإن عطش أرويته، وأذيقه طعم ذكرى، فإذا فعلتُ ذلك يا داود، عميتُ نفسه عن الدنيا وأهلها، ولم أحببها إليه، لا يفتر من الاشتغال بى، يستعجلنى القدوم، وأنا أكره أن أُميته، لأنه موضع نظرى من بين خلقى، لا يرى غيرى ولا أرى غيره، فلو رأيته يا داود وقد ذابت نفسه، ونَحَلَ وهشمت أعضاؤه، وانخلع قلبه إذا سمع ذكرى، أباهى به ملائكتى، وأهل سماواتى تزداد خوفاً وعبادةً، وعزتى وجلالى يا

داود لأقعدته معى فى الفردوس، ولأشفين صدره من النظر إلى حتى يرضى وفوق الرضى»^(١).

فهذه مقامات المشتاقين فى مراتب الشوق عن درجات الحب، ومراقى المعارف والوجد، فكل مشتاق منهم نطق بحقيقة وجده، وعبر عن وجهة حبه، دل بذلك على حاله، وأخبر به عن نفسه وسره، وقد أحبت أن أشرح أحوالهم، وأفصل موايدهم، وأكشف سرائر مراتبهم، وأبين رفيع مكانهم، وأوسع أنصبة تمكينهم، ويعز على أنى لا أستطيع ذلك، ولا يصلح رسمه فى كتاب، لأن الكتاب يتداول والرسم ينتقل، فتعذر ذلك على، وقلة إمكانه من قبل السامعين، ولقلة أنصبة الواعين، وخيفة إنكار ذوى العقول، لحجبهم بالعقل، إذ هو حجاب اليقين، فإن أخبرهم بما ليس فى وسعهم، وكاشفناهم بما قد قصرت عنه أوهامهم، ولم تفكر فيه قبل أفهامهم، تفاوت الأمر عليهم، فأدهم ضبطه، وتشتت به قلوبهم، فلم تجتمع على حفظه، ولكن الطريق القاصد إلى الله سبحانه، الموصل أهله إلى رضاه ومحبه اللذين هما سبب هذا الفضل العظيم، هو بغض الدنيا وأبنائها، فهو أصل كل مرتبة عليه، كما أن حب الدنيا وحب أبنائها أصل كل نفاق وخطيئة.

كما روينا فى أخبار داود عليه السلام: «إن الله تعالى أوحى إليه: تزعم أنك تحبني. فإن كنت تحبني فأخرج حب الدنيا من قلبك، فإن حبي وحب الدنيا لا يجتمعان فى قلب واحد. يا داود، خالص حبي مخالصة، وخالط أهل الدنيا مخالطة، ودينك فقلدنيه، ولا تقلد دينك الرجال، أمّا ما استبان لك بما وافق محبتى فتمسك به، وأمّا ما أشكل عليك فقلدنيه حقاً على أنه إلى سياستك أو تقويمك، وأكون قائدك ودليلك، أعطيك من غير أن تسألنى، فأعينك على الشدائد، فإنى قد حلفت على نفسى أن لا أثيب عبداً، إلا عبداً قد عرفت من طلبته وإرادته، ألقى كنفه بين يدي، وأنه لا غنى به عنى، فإذا كنت كذلك نزعته الدّل والوحشة عنك، وأسكن الغنى قلبك، فإنى قد حلفت على نفسى أنه لا يطمئن عبد لى إلى نفسه ينظر إلى فعالها إلا وكلته إليها. أضف الأشياء إلى لا

(١) هذا الخبر بطوله فى (م) فقط.

تضادَ عملَكَ فتكون مُتَغَيِّبًا، ولا ينتفع بك مَنْ يصحبك، ولا تحدَّ لمعرفتي حدًّا، فليس لها غاية، ومتى طلبتَ مني الزيادة أعطيك، ولا تحد لزيادتي مني حدًّا. ثم أعلم بني إسرائيل أنه ليس بيني وبين أحدٍ من خلقى سببٌ، فَلَتَعَظُمَ رغبتهم وإرادتهم عندي، أبيعُ لهم ما لا عينٌ رأيت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب امرئ. ضعني بين عينيك، وانظر إليَّ بعين قلبك، ولا تنظر بعينيك في رأسك إلى الذين حجبت عقولهم عني، فأمزجوها وسخت بانقطاع ثوابي عنها، فإنني حلفتُ بعزتي وجلالي لا أفتح ثوابي لعبد دخل في طاعتي للتجرب وللتسويق. تواضع لمن تعلَّمه ولا تطاول على المريدين، فلو علم أهل محبتي منزلة المريدين عندي لكانوا لهم أرضًا يمشون عليها.

يا داود، لأن تُخرج مريدًا من سكرةٍ هو فيها تستنقذه فأكتبك عندي جهيدًا، ومن كتبه جهيدًا لا يكون عليه وحشة ولا فاقةٌ إلى المخلوقين. يا داود، تمسك بكلامي، وخذ من نفسك لنفسك، لا تؤثِّينَ منها، لا أحجب محبتي عنك، ولا تؤيسنَّ عبادي من رحمتي أقطع شهوتك علىَّ، فإنما أبحثُ الشهوات لضَعْفَةِ خلقى، ما بال الأقوياء أن ينالوا الشهوات، فإنها تنقص حلاوة مناجاتي، فإنما عقوبة الأقوياء عندي في موضع التناول، أدنى ما يصل إليهم أن أحجب^(١) عقولهم عني، فإنني لم أرضَ الدنيا لحبيبي ونزَّهته عنها.

يا داود، لا تجعل بيني وبينك عالمًا يحجبُ سكره عن محبتي، أولئك قطع الطريق على عبادي المريدين، استعن على ترك الشهوات بإدمان الصوم، وإيَّاك والتجربة في الإفطار، فإن محبتي في الصوم وإدمانه.

يا داود، تحبَّ إلى بمعاداة نفسك، امنعها الشهوات أنظرُ إليك، وترى الحجبَ بيني وبينك مرفوعةً إنما أواريك مواردًا، لتَقْوَى على ثوابي إذا مننتُ به عليك، وإنني أحبسه عنك وأنت ممسكٌ بطاعتي.

واعلم: أن كلَّ محبٍّ لله عز وجل فعن محبة الله سبحانه؛ لأن وجود العبد بمحبته لله تعالى علامةٌ غيب محبته الله تعالى له بين ذلك الغيب من الله تعالى في

(١) في الأصل (م): «أحبب»، ولعل الصواب ما أثبت.

الشهادة من عنده. ثم أنَّ كُلَّ عبد أحبَّ الله سبحانه فمن حيث أحبه الله تعالى، كما أنه عرفه من حيث واجهه، وكل من خدمه وتأدَّب بين يديه، وعبده وتعبَّد له بمعنى من معانى العبادات، فذلك هو عن معنى ما أحبه وواجهه من معانى الصفات، لا يمكننا شرح ذلك، إلا أنه كما نقول فى الدعاء إلى الله عز وجل، والأدلة عليه والمطرقين للعباد إليه: أن كل داغٍ ودليل دعا إلى الله تعالى فمن حيث دعاه الله تعالى إليه، ودلَّ على الله فمن حيث دله عليه، وطرق إليه سبيل العبادات، وسهَّلَ منهاج القُرْبَات، فمن حيث طرقه الله تعالى، وسهَّلَ له السبيل إليه. ومن المحبة كتمانُ بلاء الحبيب بعد الرضا به؛ لأن ذلك من السر عنده وحُسن الأدب لديه.

وعوتب أبو محمد رحمه الله فى العلة التى كانت به، وكان يداوى الناس منها، ولا يداوى نفسه، فقليل له فى ذلك، فقال: ضربُ الحبيب لا يُوجع. وكان الجنيد يقول: من علامة الحبِّ فى المكاره والأسقام هيجانُ المحبة، وذكرها عند نزول البلاء، إذ هو لطفٌ من مولاه، وفيه القرية إلى محبوبه، وقلة التأذى بكل داءٍ وبلاءٍ يصيبه؛ لغلبة الحب على قلبه.

وقد كان بعض المحبين يقول: أصفى ما أكون ذكرًا إذا كنتُ محمومًا. وذكر بعض من ينتمى إلى المحبة مقامه فى المحبة عند بعض المحبين، فقال له: أرايت هذا الذى تذكر محبته، اهتممتَ بسواه؟ قال: نعم. قال: فهل رأيتَه فى ليلةٍ مرتين وثلاثًا؟ قال: لا. قال: لولا أنى أستحى لأخبرتكَ أن محبتك معلولة، تهتم بسوى حبيبك، ولا تراه فى نومك. ثم قال: لكنى أعرف من لا يدعى محبته، وعلى ذلك ما اهتمَّ بسواه منذ عرفه، وربما رآه فى ليلةٍ سبع مرات.

وإنما لم يهتم المحبُّ بسواه من قبل أنه لا ينساه، فكيف يذكره من ليس ينساه؟ بل هو مذکورٌ بذكري، لا ذاكرٌ بتذكير أو تذكُّرٍ، وهاهنا افتضح المدَّعون، وانكشف المستورون، أن أهتم بغيره فقد نسيه، والحبيب لا يُنسى؛ لأنه لازمٌ لله، مُستشعرٌ بالقلب، لاحظٌ فى العين، هو الناظر والمنظور، وهو السامع والمسموع، وهو الشاهد والمشهود، وهو الواجد والموجود. كما قال بعض المحبين: ليس فى القلب

والعيال جميعاً موضعٌ نافعٌ لغير الحبيب، هو سقمى وصحتى وشفائى، وبه العيش ما حييت يطيب.

فمن كان هذا وصفه من العين والقلب والروح والعقل، فمحال أن ينسى، ومن استحال أن ينسى، فكيف يحول ذكره عن القلب، أم كيف تحول بغيره الهم كيف؟!

وقد روينا فى الخبر: «المنافق لا يذكر حتى يُذكر، وإذا ترك نسى. ولا تكونوا كاليهود إذا قرئت عليهم التوراة مادوا لها، فإذا رُفعت لم يكن وراء ذلك شىء». وفى الخبر المجلل: «من كان له من قلبه واعظٌ كان عليه من الله حافظٌ».

وفى أخبار داود عليه السلام: «قل لعبادى المتوجهين إلى محبتى: ما ضرركم إذا احتجبتكم عن خلقى، ورفعتُ الحجاب فيما بينى وبينكم حتى تنظروا إلىَّ بعيون قلوبكم، وما ضرركم ما زويتُ عنكم من الدنيا إذا بسطتُ دينى لكم، وما ضرركم مسخطة الخلق إذا التمستم رضائى».

• ذكر تفصيل علم السماع للقول، ووصف الصحيح من ذلك والمعلول، ووصف الواجدين بحق، وذم المتواجدين بهوى^(١)؛

وقد حدثونا بمعنى ذلك عن أحمد بن عيسى الخراز، أنه كان مشتهراً بالسماع، كثير الحركة والصعق عنده. فذكر بعض أصحاب سهل قال: رأيته فى المنام بعد موته، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: أوقفنى بين يديه، فقال لى: يا أحمد، حملتَ وصفى على ليلى وسعدى، لولا أنى نظرت إليك فى مقام واحد أردتني به خالصاً لعذبتك. قال: وأقامنى من وراء حجاب الخوف فأرعدت وفزعت ما شاء الله، ثم أقامنى من وراء حجاب الرضا، فقلت: يا سيدى لم أجد من يحملنى غيرك، فطرحت نفسى، فقال: صدقت، من أين تجد من يحملك غيرى. قال:

(١) هذا العنوان ساقط من المطبوعة، وهو فى (د، م). وقد ألف ابن القيم كتاباً فى إبطال السماع، وعقد مناظرة بين صاحب الغناء وحججه، وصاحب القرآن وحججه، وأشار إلى بعض من كلام أبى طالب هنا، والكتاب عنوانه: «الكلام على مسألة السماع»، تحقيق راشد بن عبد العزيز، دار العاصمة - الرياض، ١٤٠٩ هـ.

وأمر بى إلى الجنة. وكان هذا الحال فى بداية أبى سعيد، وفى أول إرادته، ثم نُقل من ذلك إلى مقامات فى التعريف، فنفذ نظره، وصحَّ سمعه؛ لعلَّوَّ وجَّده، وقوَّة علمه، وحُسن يقينه.

وفى هذا تخويف للسامعين على التشبيه، الحائدين عن سمع أهل الفهم والتنبية؛ لأن السماع علمٌ لا يصلحُ إلا لأهل الصفاء. فمن سمعه على كَدَرٍ فذاك له محنةٌ وضرر، ويدخل من الآفات على نقصان المشاهدات إذا سمع من قِبَلِ النعمة والصوت ما يدخل على من نظر إلى الأيدى فى العطاء؛ لأن الصوتَ ظرفٌ للمعانى، بمنزلة اليدَ ظرفٌ للأرزاق، فالناظرُ الموقنُ يأخذ رزقه من اليد ويترك النظر، والسامعُ المحقُّ يأخذ المعانى من الصَّوت، ولا يلتفت إلى التنغيم بها، ثم يعتلان معاً من قِبَلِ الوجد المعلوم، والعلل تدخل المواجهيد، كما يدخل الإلحاد فى معانى التوحيد، فيعتل الواحد بالخلق فى السماع من قِبَلِ الهوى، كما يعتل الآخذ للعطاء من أيدى الخلق بالرياء.

فمن سمع على التشبيه والتمثيل أُلحد، ومن سمع على الهوى والشهوة فهو لَعِبٌ، ومن سمع باستخراج الفهم، ومشاهدة العلم على معانى صفات حقٍّ ونظرٍ، وتطرُّقاً ودليلاً على آيات صدقٍ، كان سامعاً على مزيدٍ. وهذه طرائق أهل التوحيد.

وفى السماع: حرام، وحلال، وشُبْهة. فمن سمعه بنفسٍ، بمشاهدة هوى وشهوة، فهو حرام.

ومن سمعه بمعقوله على صفة مباحٍ من جارية وزوجةٍ، كان شُبْهة لدخول اللهو فيه. وفعل هذا بعض السلف من الصحابة والتابعين.

ومن سمعه بقلب بمشاهدة معانٍ تدله على الدليل، وتُشْهده طرقات الجليل، فهذا مباح، ولا يصح إلا لأهله ممن كان له نصيبٌ منه، ووجد فى قلبه مكاناً له لعبدٍ أقيم مقام حزنٍ، أو شوقٍ، أو فى مقام خوفٍ، أو محبةٍ، فيحركه السمعُ، ويخرجه إلى الشهادة؛ فيكون ذلك له مزيداً من المسمع الشهيد.

وقد كان أبو سليمان الداراني، وهو من العارفين، يقول: السَّمْعُ لا يجعل في القلب ما ليس فيه، إنما يحرك منه ما فيه.

وكان بعضهم يقول: كنا نعرف مواجيد أصحابنا في ثلاثة أشياء: عند المسائل، وعند الغضب، وعند السماع.

وحدثنا محمد بن عيسى بن خاقان المقرئ، عن بعض أشياخنا، عن أبي القاسم الجنيد، قال: تنزل الرحمة على هذه الطائفة في ثلاثة مواطن: عند الأكل؛ فإنهم لا يأكلون إلا عن فاقة. وعند المذاكرة؛ لأنهم يتحاورون في مقام الصديقين وأحوال النبيين. وعند السماع؛ لأنهم يسمعون بوجدٍ، ويشهدون حقًا.

وقد كان بعض الواجدين يقتات السماع، فيجعله قوته يتقوى به على زيادة طيِّه. كان أحدهم يطوى اليومين والثلاث، فإذا تآقت نفسه إلى القوت عدل بها إلى السماع، فأثار مواجيده، وأهاج أشواقه، فحماء ذلك عن الطعام، وأغناه عن الأنام.

ومنهم من كان يجعله أذكاره، فيذكر به أوطاره، ويرتاح به قلبه إلى الحق استطرأةً. وكان مزيداً لأكثرهم، وتقوية لحاله. وهو جندٌ من جنود الله يقوى به قلوب الواجدين، ويروِّح به أرواح الصادقين، ويفرِّج به كُربَ الخاشعين، ويكرِّب به نفوس المرتاجين، ويطربُّ به المحزونين، ويحزِّن به الطُّرَبِيِّين، ويشوق به المحبين، ويحبِّب به المريدين. إلا أنه لا يصلح إلا لقلب صافٍ من الأكدار، نقى نظيف من الآثار. من شهد فيه خلَقًا فذاك علامة كدر قلبه وبعده، ومن أدخل فيه لعباً ولهواً فهو دليل نقص لُبِّه وفَقْدِهِ، ومن وقف فيه مع نعمة، فهو عليه محنة ونقمة، ومن أصغى به إلى صوتٍ، تصوّر به في وَهْمِهِ المنعم المصوّت به، كان عليه فتنةً.

ومن ألقى سمعه، وأشهد قلبه، وأحضر فهمه، فذكر به الذاكر، وتعلّم به المذكر، فسمع إلى السميع، وعلم من الفتاح العليم، ونطق بوالى الناطق، ونظر به إلى الناظر، فهذا هو المستمع الذاكر.

فلمثل هذا يصح السماع، وبِسْمَعِهِ يُرْجَى له الانتفاع، وما يعقلها إلا العالمون^(١).

وحدثنى بعض الشيوخ، عن شيخ له، قال: رأيت أبا العباس الخضر، فقلت: ما تقول فى هذا السماع الذى يختلف فيه أصحابنا؟ فقال: هو الصفا الزلال الذى لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء. يقول: إنه محنة وكشف للسامعين، فهو للصادق المحب قربة وعبادة، وهو للمدعى الالاهى فتنة وشهوة، فهو الصفا المزلق للأقدام، لما فيه من تشبيه الأنام. وهو تثبيت للعلماء لشهادتهم به صفات العالم.

وحدثونا عن أبى ممشاذ الدينورى^(٢)، قال: رأيت النبى ﷺ فى النوم، فقلت: يا رسول الله، هل تُنكر من هذا السماع شيئاً؟ ما أنكر منه شيئاً، ولكن قل لهم يفتتحون قبله بقراءة القرآن، ويختمون بالقرآن. قال: قلت: يا رسول الله، إنهم يؤذوننى وينسبون علىّ. فقال: احتملهم يا أبا على، هم أصحابك، فكان ممشاذ يفتخر بها، ويقول: كنانى رسول الله ﷺ.

وحدثنى طاهر بن محمد بن بلبل الهمدانى الوراق، وكان من أهل العلم، قالت: كنت معتكفاً فى جامع جدّه^(٣)، فرأيت ذات يوم طائفة يقولون فى جانب منه قولاً ويسمعون، فأنكرت ذلك بقلبى، وقلت: فى بيت من بيوت الله يقولون القول والشعر؟ قال: فرأيت النبى ﷺ تلك الليلة وهو جالس فى تلك الناحية وإلى جنبه أبو بكر الصديق، وإذا أبو بكر يقول شيئاً من القول، والنبى ﷺ يسمع إليه، ويضع يده على صدره كالواجد بذلك، فقلت فى نفسى: ما كان ينبغى لى أن أنكر على أولئك الذين كانوا يسمعون، وهذا رسول الله ﷺ يسمع. فالتفت إلى النبى ﷺ فقال: هذا حقٌ بحق، أو حقٌ من حق. أنا أشك.

(١) يتضح جيداً من هذا الكلام رأى الدقيق لأبى طالب تجاه السماع، فهو لا يبيحه إلا بشروط، ولطائفة معينة، وكذا رأى المحققين من الصوفية. انظر «اللمع» للطوسى، ص ٣٣٨.

(٢) ترجمته فى طبقات الصوفية، ص ٣١٦، وحلية الأولياء ٣٥٣/١٠. كان «عظيم المرمى فى هذه العلوم، أحد فتيان الجبال، كبير الحال، ظاهر الفتوة. ذكر أبو زُرعة أنه مات سنة تسع وتسعين ومائة».

(٣) كذا بالأصل.

فهذا يدلُّك أن السماع على نوعين: ما كان منه عن وَجْدٍ بحق وشهادة صدقٍ، مثل شوق أو حزن أو خوف أو محبة، فهو طريقٌ إلى الله ودليلٌ منه، وما كان عن وَجْدٍ ولهو وشهادة خلق، فهو لعب وهوى، فمقامه مقام الشبهات؛ لاختلاف أحوال السامعين، والتباس الآيات، فالصادق والمحقُّ يسمعه من صادقٍ محقٍّ، والمتواجد المبطل يسمعه بنعمةٍ من خلَق، وقد تكون النعمة به من الشهوة الخفية فيه، لأننا رويناه عن نبينا ﷺ: «أخوف ما أخاف على أمتي الشهوة الخفية، والنعمة الملهية». وروينا عن حماد عن إبراهيم قال: «الغناء ينبت النفاق في القلب». ورفع ابن الزبير عن جابر إلى رسول الله ﷺ، وزاد فيه: «كما ينبت الماء الزرع». والمشهور أنه عن ابن مسعود.

وليث عن مجاهد، في قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٦] قال: الغناء. وهذا كما قالاه؛ لأن استماع الغناء حرامٌ وأجور المغنيات وأثمانهنَّ حرامٌ، وذلك من عمل الشيطان؛ لأن رويناه في تفسير قوله: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] قيل: الغناء والمزامير.

والفرق بين الأغاني والقصائد: أن الأغاني ما شُبِّ به النساء، وذكر فيه الغزل والهوى، وشوَّق إلى الشهوة واللعب، فمن سمع من حيث قال القائلون من هذه المعاني، فالسماعُ عليه حرام. والقصائد هو ما ذكَّر بالله، ودلَّ عليه، وشوَّق إليه، وأهاجَ مواجيد المؤمنين، وأثار مشاهدة العارفين، وذكر به طرق الآخرة، وعُرف منه أحوال الصادقين، فمن سمع من حيث شهد بهذه الشهادة، فهو من أهلِهِ، إذ له نصيب منه.

وقد روى عن رسول الله ﷺ: «إنَّ من الشعر لحكمة»، ولم يقل: كل الشعر. وروى أن رجلاً دخل على النبي ﷺ، وعنده قومٌ يقرأون القرآن، وقومٌ يُشَدُّون الشعر، فقال: يا رسول الله، قرآنٌ وشعر، فقال: من هذا مرةً ومن هذا مرة.

وقد دخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه على عائشة وعندها قيتان تقولان،

فأنكر ذلك، وكان رسول الله ﷺ مُسَجًى بثوبه، فكشف الثوب عن وجهه، ثم قال: «دعها يا أبا بكر». فلو لم يكن شبهة ما أنكره أبو بكر، حتى أبان عنها رسول الله ﷺ.

وقد حدثني بعض الأشياخ عن الجنيد فقال: رأيتُ إبليس في النوم، فقلت له: هل تظفر من أصحابنا بشيء، أو تنال منهم نصيباً؟ فقال: إنه ليعسرُ على شأنهم، ويعظمُ على أن أصيب منهم شيئاً، إلا في وقتين، قلت: أيُّ وقت؟ قال: وقت السماع، وعند النظر، فإنني أسترُق منهم فيه، وأدخل عليهم به.

قال الجنيد: فحدثت بهذا بعض أشياخنا فقال: لو رأيته أنا لقلت له: يا أحمق من سمع منه إذا سمع، ونظر إليه إذا نظر، لم تربح أنت عليه شيئاً، ولم تظفر منه بشيء. فقال له الجنيد: صدقت.

وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، فالكلام زوجان: منشور ومنظوم، فالمنثور كلام العامة، والمنظوم كلام الشعراء. فما ذكر الله به، وذكر منه، فهو طريق إليه.

ولم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع في أفضل أيام السنة، وهي الأيام المعدودات، التي أمر الله عباده فيها بذكره، أيام التشريق، في قوله: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

وكان لعطاء جارتان تُلحَّنان، فكان إخوانه يستمعون إليهما. ولم يزل أهل المدينة مواطنين لأهل مكة على السماع إلى زماننا هذا. فأدركنا أبا مروان القاضي له جوارٍ يُسمعن التلحين، قد أعدهنَّ للمتصوفين، فكان يجمعهم لهنَّ، ويأمرهنَّ بالإنشاد، وكان فاضلاً.

وسئل شيخنا أبو الحسن بن سالم رحمه الله، حدثني بعض أصحابنا عنه بذلك؛ أنه قيل له: بلغنا أنك تُنكر السماع، وقد كان الجنيد وسرى السَّقَطِي وذو النون يسمعون، فقال: كيف أنك السماع وقد سمعه عبد الله بن جعفر الطيار، وإنما أنكر اللهو واللعب في السماع.

وهذا كما قال؛ لأنَّ القرآن الذي هو الغاية في الفضل، ثم العلم ومعاني الحق، إذا دخل ذلك لهُوَ النفس بالهوى فيه، وَلَعِبُ الطبع بالطرب والمزح، صار مُنْكَرًا، ودخلته الكراهةُ بخروج الآخرة منه والعلم. وكذلك القول في النظر والكلام، كالسماع سواءً، كما قال عيسى عليه السلام: «فمن لم يكن نظره عبرًا فهو لهوٌ، ومن لم يكن كلامه ذكرًا فهو لغوٌ». فأما من نظر لِيَعْتَبِرَ، أو تكلم ليَأْتَمِرَ، أو سمع لِيَذْكُرَ، فذاك لهؤلاء عبادةٌ. ومن نظر بشهوةٍ، أو تكلم بجهل، أو سمع بهوى، فهو لعبٌ ولهوٌ من زخرف الدنيا.

ولعمري إنَّ هؤلاء الأشياخ الذين ذُكروا من سُلَّك هذا الطريق قد كانوا يسمعون، ولكن كان منهم من يسمع في السِّرِّ والعلانية، ومنهم من كان يسمع مع إخوانه ونظرائه دون الأتباع والمريدين، وكانوا يقولون: لا يصحَّ السماع إلا لعارفٍ مكين، ولا يصلح لمريد مبتدئ.

وقد كان الجنيد حسنَ الهيئة في السماع، حدثني بعض هذه الطائفة عن وقاره وحُسن استماعه. وقال لى آخر: كانت دموعه تفيض، وربما نكس رأسه. وقيل له: يا أبا القاسم، لا نراك تتحرك عند السماع، فقرأ هذه الآية: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]. وبلغنى أنه ترك السَّماع في آخر أمره. فقليل له: قد كنت تسمع! فقال: مع من؟ فقليل له: تسمع أنت لنفسك. فقال: ممَّن؟

لأنهم كانوا لا يسمعون إلا مع أهله، أو من أهله، فإن الشيء لا يطيب إلا مع أهله، كما لا يحسن إلا بأهله، وإنما ترك لفقد إخوانه، وعدم شركائه ونظرائه.

وحدثونا عن يحيى بن معاذ، قال: فقدنا ثلاثة أشياء فما نراها، ولا أراها تزداد إلا عزًا: حُسْنُ الوجه مع الصيانة، وحُسْنُ القول مع الديانة، وحسن الإخاء مع الوفاء.

وحدثني بعض المحدثين قال: اجتمعنا في دعوةٍ معنا أبو القاسم ابن بنت منيع، وأبو بكر بن أبى داود، وابن مجاهد، فحضر سماعٌ، فجعل ابن مجاهد يُحرِّضُ

ابن بنت منيع على ابن أبي داود فى أن يسمع، فقال ابن أبي داود: حدثنى أبى عن أحمد بن حنبل أنه كره السماع، وكان أبى يكرهه، وأنا على مذهب أبى. فقال أبو القاسم ابن بنت منيع: أما جدّى أحمد بن منيع، فحدثنى عن صالح بن أحمد، أن أباه كان يسمع قول ابن الحُبَّازة، قال: ودعوته ليلة، وكان أبى فى غُرْفَةٍ بينه وبينه باب، فجعل يتردد فى الممر، يذهب ويجىء، ويسمع من وراء الباب. فقال ابن مجاهد لابن أبي داود: دعنى من أبىك أنت، وقال لابن بنت منيع: ودعنى من جدك، أيش تقول يا أبا بكر فيمن أنشد بيت شعر، حرامٌ عليه؟ قال ابن أبي داود: لا. قال: فإن كان حسن الصوت به حرّم عليه إنشاده؟ قال: لا. قال: فإن أنشده فطوّله وقصّر منه، فمدّ المقصور وقصّر الممدود، يحرم عليه؟ قال: يقول ابن أبي داود: أنا لم أقوْ بشيطان واحد، أقوى بشيطنين؟

قال: وكان ابن مجاهد لا يجيب دعوةً إلا أن يكون فيها سماعٌ، فكان من أراد أن يدعوه أعدّ له سماعاً. وكان ابن بنت منيع يسمع القول.

وقد كان من أشياخنا أبو بكر بن الجلاء، فلا ينكر السماع ويسلمه لأهله، إلا أنه كان يقول: ليس له به وجد. وكان أبو محمد بن الراشنى يحضر مع أصحابه، فينفرد ناحية يصلى، وهم يسمعون. وكان أبو عبد الله بن خاقان الهمذانى، وأبو بكر الطرسوسى، لا ينكران على أصحابهما، فإذا حضر سمعوا، وكان أبو محمد القزوينى من الأولياء يسمع ويدركه وجودٌ وصعقٌ. وكان أبو سعيد بن الأعرابى يسمع، ويذكر عن جملة أشياخه - أصغرهم الجنيد، وطبقة أستاذه الجنيد وشيوخه - السماع والحركة عنه. وكان أبو عبد الله المغربى، وإبراهيم بن شيان، وأبو على ممشاد، لا ينكرون السماع ويحضرون فيه، وربما سمعوا فى الأوقات إذا وجدوا به. وكان أبو الخير العسقلانى الأسود المرقى من الأولياء يسمع ويجد ويؤله عند السماع. وصنف فى علم السماع كتاباً رد به على منكريه، قد روى أبو هلال الدينورى عنه ذلك. وكذلك أبو على الرُّوذبادى، وابن أخيه أبو عبد الله، صنفوا فى السماع كتباً، وحكوه عن أسلافهم.

وحدثنى بعض الأشياخ عن كثير من الصوفية، قال: رأينا جماعة ممن يمشى

على الماء، وفي الهواء، يسمعون السماع، ويجدون به ويُولَّهون عنده. قال: ولقد كنا على الساحل فسمع بعض إخواننا فجعل يتقلَّب على الماء يذهب ويجيء، كما يتقلَّب على الأرض، حتى رجع إلى مكانه.

وحدثني بعضهم أنه شهد من يتقلَّب في النار عند السماع ولا يحسَّ بها. وقال: وحدثني بعض الأسيَّاح أن بعض الصوفية ظهر منه وجودٌ عند السماع، فأخذ شمعة مضيئة فجعلها في عينه، قال: فقرَّب من عينه أنظر، فرأيت ناراً - أو قال نوراً - يخرج من عينه، يردُّ نار الشمعة.

وذكر لي شيخٌ من أهل الفضل قال: رأيت بعضهم إذا وُجد عند السماع ارتفع عن الأرض في الهواء أذرعاً يمرُّ ويجيء فيه.

وقد سمع من الصحابة: عبد الله بن جعفر، وابن الزُّبير، والمغيرة بن شعبة، ومعاوية، وغيرهم.

قال محمد بن علي الدينوري: السماع مسلَّم لأهله، ولكن قد وجب تحريمُه وإنكارُه، إذ قد أخذت الروايات عن المحققين للسمع رخصة، وجعلوه طريقاً إلى اللهو واللعب.

ومجملُ القول في السماع^(١): أنَّ من سمع، فظهرت عليه صفات نفسه، وذكر به حُظوظ دنياه، فالسمع عليه حرام.

ومن سمع فظهر له ذكرُ ربه، وتذكر آخرته ممَّا شوق إليه، أو حذر منه، وخوف من الوعد والوعيد، فهو له ذكرٌ من الأذكار.

وقد قال الثوري وغيره: إن وُضعت التكاة، ودارت الأقداح، فالنبيذ حرام.

وقال بعضهم: إذا تجالسوا على لهوٍ بعد الطعام، واختلفوا إلى المبال، حرَّم النبيذ، وهو عند هؤلاء حلال على غير هذه الصفات، وهو مذهب علماء الكوفة.

وقد قال ابن عباس وغيره من الصحابة، وقد سئل عن القبلة، قال: أكرهها

(١) فصل الغزالي رحمه الله القول في السماع وبين مراتبه وحججه، وناقش منكربه، انظر: الإحياء

للشبان، ولا أرى بها بأساً للشيخ. ثم قال ابن عباس: لأنّ الشيخ إذا قبل قنع، والشاب إذا قبل طمع.

وسأل شاب بعض الأكابر من الصحابة عن القبلة، فقال: لا تقبل. وسأله شيخ، فقال: لا بأس عليك فيها. قال: فقلت: أمرٌ واحدٌ رخصتَ فيه لواحد، ونهيتَ عنه آخر؟! فقال: إن الشيخ يملك إربه، وإنى خفت على الشاب أن لا يملك نفسه^(١).

فهذه المعاني تختلف باختلاف أحوال أصحابها، والأشياء تتفاوت لتفاوت معاني العاملين لها، ولا قوة إلا بالله.

وانما ذكرنا هذا الباب في ذكر أوصاف الأحاب؛ لأنه كان طريقاً لبعض المحبين، وحالاً لبعض المشتاقين، فإن أنكرناه مجملاً غير مفصل، فقد أنكرنا على سبعين صديقاً^(٢)، ومَحَوْنَا رسماً كان لطائفة طريقاً. وإن كنا نعلم أن ذلك أقرب لقلوب الفقراء، ومحَبَّبٌ إلى قلوب المريدين والمتعبدين، إلا أننا لا نسلّم في ذلك بيننا وبين الله تعالى؛ لأننا نعلم ما لا يعلمون.

وقد سمعنا عن السلف من الأصحاب والتابعين ما لم يسمعوا، ولكن قد دخل في هذا الطريق غير أهله، فأحالوه عن جهته، وعدلوا به عن قصده، لما أدخلوا فيه من الهوى، فمثلهم كما قال الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ [الأنعام: ٧٠].

كان هذا السماع يتدين به قومٌ، ويتطرقون به إلى الله سبحانه، وكان لهم ذكراً، وفيه وجدٌ وعِلْمٌ، تنقطع عليه قلوب الخاشعين، وتزهق عنده نفوس الصادقين، وتوَلَّى به قلوب الذاكرين، وتتيه فيه عقول المشتاقين، وتبكي عنده عيون المحزونين.

(١) المقصود بالقبلة هو قبلة الرجل لزوجته في نهار رمضان لا غير، ﴿فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٧].

(٢) نقل ابن القيم هذه المقالة باختلاف يسير ونسبها إلى أبي طالب، وناقشها. انظر كتابه: الكلام على مسألة السماع، ص ٣٢٦. وواضح أن ابن القيم ينظر إلى السماع من وجهة غير التي ينظر بها أبو طالب.

فهو الآن اسمٌ لا معنى، وجِسْمٌ بلا روح، ورسم بلا حقيقة. فمثل الواجدين به من غير وَجْدٍ، والسَّامِعِينَ له بغير علمٍ، والمُتَشَبِّهِينَ بأهله بغير صدقٍ، والمحاكين لأهل الحقائق بغير حقٍ، كما قال الله عز وجل: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاقِنَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]. قال الشاعر:

أما الخيامُ فإنها كخيامهم وأرى نساءَ الحى غير نساءها

وكما قال لى بعض الأسياف مرّةً: ما أرخص الصوفية فى وقتنا هذا! ^(١) صوفى بدرهمين. قلت: وكيف؟ قال: مرقعةٌ بدرهم، وتاسومة وركوة بدرهم.

وأنشدنى بعض إخوانى:

أهلُ التّصوّف قد مضوا صار التّصوّفُ مخرّقه

صار التّصوّفُ صيحةً وتواجداً ومطبقة

وأنشدنى بعض أسياف الصوفية فى مثله:

لا يغرّتك من المرء قميصٌ رَقْعُهُ

وإزارٌ فوق عظم الساق منه رَفَعُهُ

وحنينٌ لاح فيه ^(٢)

ولدى الدرهم فانظر حرصه أو ورعه

فقد حرّم السماعَ مع أكثرهم بعضُ الحضور، لقسوة القلب عند النظر إليهم، وكثرة الغيظ منهم، لدخولهم فى الشرّة، وخروجهم من الأدب والعلم، والمجالسة لا تطيبُ إلّا بالآداب والمعاشرة، ولا تحسُنُ إلّا بعلم، والمؤاخاة لا تخلو إلّا للآخرة، والمصافاة والألفة لا تجملُ إلّا للجميل المجل، جلّ جلاله، وحسُن وصفه وكماله.

وقد قال بعض أسيافنا: ذهب أهل الحقائق، ولم يبق إلّا من مجالسته غيظ.

(١) فكيف لو رأى زماننا هذا وما وصلت إليه الصوفية؟!

(٢) بياض بالأصل لسوء التصوير.

وقال آخر: ذهب العلماء المتأدب بهم، فما بقى إلا من يُستحى من ذكره.
فأما الزَّفَن^(١) والاضطراب عند السماع، فلا يُعجبني؛ لأن أكثره تواجدًا بلا وجود، وقد يدخله التكلف والتصنع، إلا من غلبه أمرٌ، وملكه قهرٌ، والمغلوب مقهور، والمجنون معذور.

فأما الصادق إن طرب لشوق، وارتاح لفرح بغلبة وجدٍ حتى يهلك أو يتلف، فلا حرج؛ لأنَّ في ذلك عن النبي ﷺ: «أنه ذكر غلامًا فى بنى إسرائيل كان على جبل، فقال لأمة: من خلق السماء؟ قال: الله تعالى. قال: من خلق الأرض؟ قالت: الله تعالى. قال: من خلق الجبل؟ قالت: الله تعالى. قالت: من خلق هذا الغيم؟ قالت: الله عز وجل. فقال: إني أسمع لله تعالى شأنًا، ثم رمى بنفسه من الجبل فتقطع».

فهذا كأنه وجد الفرح لله تعالى، والشوق إليه، والطرب لأجله.

وفى الزَّفَن أثر مأثور فى خبر ابنة حمزة، لما اختصم فيها على بن أبى طالب، وأخوه جعفر، وزيد بن حارثة، وكانوا أخرجوها من مكة، وتشاجروا فى تربيتها، فقال رسول الله ﷺ لعلی: أنت منى وأنا منك، فحجَل. وقال لجعفر: أشبهت خلقي وخلقي، فحجَل وراء حجَل على. وقال لزید: أنت أخونا ومولانا، فحجَل وراء حجَل جعفر. ثم قال ﷺ: هى لجعفر، لأن خالتها تحته، والخالة والدة».

والحجَل هو الزَّفَن بالرجل، فهذا كأنه وجد الفرح والارتياح للصدق وقول الحق.

وفى الخبر المشهور: «أن الحبشة كانوا يزفنون بين يدى رسول الله ﷺ، وهو ينظر إليهم. وقال لعائشة: أتحبين أن تنظري إلى زفن الحبشة». فوفقت إليهم من وراء أذن رسول الله ﷺ وعاتقه، وهو قائم أمامها، وهى مستترة به. وكانوا يذكرون الله كثيرًا بنعمة الإسلام، ويصفون رسول الله، ويثنون عليه بزفَنهم وحركاتهم.

(١) الزفن: الرقص، زَفَنَ يَزْفِنُ زَفْنًا. وأصل الزفن: اللعب واللهو.

واعلم أن الصدقَ لعينه حسنٌ، فالصَّادقُ بوصفه في كل شيءٍ حسنٌ، والتكُّلفُ بعينه قبيحٌ، فالتكلفُ بنفسه مقيتٌ.

وروينا في خبر: «إن الصديقين إذا سمعوا الذكر طربت قلوبهم إلى الآخرة».

وروينا عن السلف: أن في بعض كتب الله عز وجل المنزلة: غنينا لكم فلم تطربوا، وزمرنا لكم فلم ترقصوا.

فهذا على ضرب المثل: ذكرنا لكم فلم تجدوا للذكر طرباً، وشوقناكم فلم تزدادوا اشتياً، فهذا داخل في أحوال المشتاقين.

• ذكر الشوق، ووصف المشتاقين، والغيرة،

روينا في أخبار وهب بن منبه: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «إنك تكثر مسألتى، ولا تسألنى أن أهب لك الشوق». قال: يا رب وما الشوق؟ قال: إنى خلقت قلوب المشتاقين من رضوانى، وأتممتها بنور وجهى، فجعلت أسرارهم موضع نظرى إلى الأرض، وقطعت من قلوبهم طريقاً ينظرون به إلى عجائب قدرتى، فيزدادون فى كل يوم شوقاً إلىّ، ثم أدعو نجباء ملائكتى فإذا أتونى خرواً لى سجداً فأقول: إنى لم أدعكم لعبادتى، ارفعوا رؤوسكم أريكم قلوب المشتاقين إلىّ، فوعزتى وجلالى إن سمواتى لتضىء من نور قلوبهم، كما تضىء الشمس لأهل الدنيا».

معنى قوله لداود عليه السلام: «ولا تسألنى الشوق» ليس أنه قد يعطى الأولياء ما لا يعطى الأنبياء، كما غلط فى هذا بعض الناس، ففضل العارف على النبى، ولكنه ذكر ذلك لداود عليه السلام ليسأله إياه فيعطيه، فلما أخبره به أعطاه مقام الشوق إليه، فجاوز مقامات المشتاقين من العارفين، فكان ذلك له مزيداً، وإنما أراد أن يجعل ذلك على لسانه، ليريه فضل مكانه، ويظهر له ذلك عن مسأله، ليُفضله ويُشرفه بسرعة إجابته.

وقد كان لداود عليه السلام فى مقام النبوة مقاماتٌ وتخلّى مشاهدات فى الأنس والقرب، يندرج فيها مقام الشوق، فكان الشوق زيادةً على الحسنى وتاماً على

الذى أحسن. كما أن قول داود عليه السلام: وما الشوق؟ ليس أنه لم يعرف الشوق، وقد آتاه الله الحكمة والنبوة، ولكن سكت بين يديه استحياء منه، واعترف لديه بالجهل؛ لأنه عند علام الغيوب، وأراد أن لا يسبقه بالقول، فيقدمه بين يديه، كرمًا منه وحلمًا، وليزداد بأدبه وصمته علمًا. وأراد أن يسمع منه حقيقة وصفه؛ لأنه أصدق القائلين، وأمدح الواصفين.

وأما الغيرة فحالٌ سَنِيَّةٌ من أحوال المحبين؛ لأنه قد أظهرهم على معانى نفيسة، فضنُّوا بها، لما امتلأت بها قلوبهم، وحارت فيها عقولهم، إلّا أن هؤلاء خصوصُ أصحاب اليمين؛ وهم عموم المحبين، إلّا أنه إذا رفعهم إلى مقام التوحيد، فأشهدهم الإيجاد بالوحدانية، والانفراد بالفردانية، نظروا، فإذا هو لم يُعط منه لسواه شيئًا، ولا أظهر من معانيه وصفًا، فانطوت الغيرة فى توحيدهم، لما عرفوا بيقين التوحيد، أنه ما نظر إليه سواه، ولا عرفه إلّا إياه، فتسقط هممهم بالغيرة عليه، وعرفوا حكمته بتعريفه أنواع ما يظهر، وأقسام ما ينشر، وأنه فى غيب غيبه، لا يظهر عليه سواه، وفى سرِّ سرِّه لا يشهده إلّا إياه، فقام لهم مقام المعرفة بالتوحيد له مقام الغيرة عليه، فهذا إذا طُوعوا به مقام الموحدين من الصديقين.

وقد كان إمامنا أبو محمد يقول فى معنى قوله من باب علم الحروف ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾: هو الله سبحانه فى شأن شعاعه وآلائه ونوره، كأنه يجعل الوقف فى الكلام على قوله: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ﴾ ثم يستأنف فيقول: ﴿هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

وقد رويانا فى دلائل المحب وأوصافه أبياتًا عن يحيى بن معاذ، وأبى تراب النخشبى، وعن أبى سعيد الخراز أيضًا، على قافية واحدة، فى معانٍ متقاربة، وهى جامعة مختصرة فى نعت المحبين من المريدين، وفى وصف السائحين المرادين، وفى وصف التائبين الزاهدين، والمنقطعين المنفردين. فالذى رويناه عن أبى تراب هذه الأبيات:

لا تخذعنَّ لِلْمُحِبِّ دلائلُ وَلَدَيْهِ مِنْ تُحَفِ الْحَبِيبِ وَسَائِلُ

منها تنعمه بمرِّ بلائه
والمنع منه عطية مقبولة
ومن الدلائل أن يرى من عزمه
ومن الدلائل أن يرى متبسمًا
ومن الدلائل أن يرى متفهمًا
ومن الدلائل أن يرى متقشفًا
والذى رويناه عن يحيى بن معاذ:

ومن الدلائل أن تراه مُشمرًا
ومن الدلائل حزنه ونحيبه
ومن الدلائل أن تراه مُسافرًا
ومن الدلائل زهده فيما يرى
ومن الدلائل أن تراه باكياً
ومن الدلائل أن تراه مُسلماً
ومن الدلائل أن تراه راضياً
ومن الدلائل ضحكُه بين الورى
فى خِرتين على شُطوطِ الساحلِ
جوفَ الظلامِ فما له من عادِلِ
نحوَ الجهادِ وكلُّ فعلٍ فاضِلِ
من دارِ ذلٍّ والنعيمِ الزائلِ
أن قد رآه على قبيحِ فاعِلِ
كلِّ الأمورِ إلى المليكِ العادلِ
بملكه فى كلِّ حُكمٍ نازلِ
والقلبُ محزونٌ كقلبِ التَّاكلِ

والذى رويناه عن أبى سعيد الخراز دخل فيما ذكرناه عنهما، وأحسب أنه أخذه منهما؛ لأنهما أقدم منه، إلا أن قوله كان أحد عشر بيتاً فقط.

وجميع ما قدمنا ذكره من العلامات والدلالات هى أوصاف المحبين، وكلُّ محبٍّ لله فعن محبة الله؛ لأن وجود العبد لمحبه لله علامةٌ غيب محبة الله له، يبين ذلك الغيب من الله فى الشهادة من عنده، ثم إن كل عبد أحبَّ الله من حيث أحبه الله كما أنه عرفه من حيث واجهه، وكلُّ من خدمه وتاب له بمعنى من العبادات، فعن معنى ما أحبه وواجهه به من معانى الصفات، وهذا كما نقول فى

الدُّعاء إليه والأدلة عليه أن كل دافعٍ ودليل فمن حيث دعاه ودلَّه عليه ، وكلُّ مطرّقٍ إليه سبيل العبادات ، فمن حيث سهَّلَ الله له منهاج السبيل إليه أنْهَجَ ، إلّا أن في المحبة مقامين ، على ترتيب هذه الجمل ، أحدهما أعلى من الآخر ، في كل مقام جملةٌ من الأَحْباب ؛ لأنَّ في المعرفة مقامين : مقام تعريف ، ومقام تعرُّف .

فمقام التعريف : هو معرفة العموم ، وهذا قبل المحبة الخاصة^(١) .

ومقام التعرُّف : معرفة الخصوص ، وهذا بعد محبة العموم ، وهو مزيدُ الحبِّ الأول ، وهذه محبة خصوص . وكذلك في المحبة مقامان : مقام محبٍّ ، وأعلى منه مقام محبوبٍ ، وهذا كما عبَّروا عن قولهم : مُريد ومُراد .

وعلى الحقيقة كلُّ مريدٍ لله فهو مُرادٌ بذلك ، إلّا أنَّهم جعلوا اسم مرادٍ بوصفٍ مخصوص ، يُعرَف به ، فيمتاز معه المبتدئُ من المُبادئ ، والمنيبُ من المجتبى ، والطالبُ من المطلوب ، والرَّاعِبُ من المرغوب ، والحافظ من المحفوظ . فذلك لعمري ليس الحامل مثل المحمول ، ولا الزائر كالْمُزور ، ولا الاشتياق كالحضور ، ولا المحب مثل المحبوب ، ولا المُتَوَجِّه كالمُواجه ، ولا المُسْتَكْشِف كالمُكاشَف ، وهذا أيضاً كما عبَّروا بقوله : عارفٌ ، والمعرفة ، يريدون : عالمٌ وعِلْمٌ ، إذ العالمُ عارفٌ بما عِلْم ، والمعرفةُ عِلْمٌ بالله تعالى ، إلّا أنَّهم لما خصَّصوا علماً فوق علم ، إذ كان الله سبحانه أعلى المعلومات ، صار العالمُ بها أعلى العلماء فَرَقًا ، فخصَّصوه باسم يُعرَف به فضله دون غيره ، فقالوا : عارفٌ ، فكانت المعرفة وصفه ، إذ كان عارفٌ اسمه ، فقالوا عن هذا عارفٌ ، فأغنى سامعه ومُخْبِرَه عن استكشاف علمه ، وكفاه تنبيه السُّؤال أن يقول : عالمٌ بذى علم .

قال أبو موسى الدبيلي : عرضتُ على أبي يزيد البسطامي كتابَ صاحبنا عبد الرحيم في الإخلاص ، فما أعجبه منه إلّا حكاية أبي عاصم الشامي في الشوق ، يعنى أن عبد الرحيم ذكَّرَ الإخلاص في كتابه ، فقال : قيل لأبي عاصم وافدِ أهل الشام : تشتاق إلى الله؟ فقال : لا . قيل : ولم؟ قال : إنّما يُشتاق إلى غائب ، فإذا كان الغائبُ حاضراً فإلى من يشتاق؟ قلت : سقط الشوق . وهذا مقام

(١) في المخطوط : «الخاصية» ، وهذه تكررت كثيراً .

محبوب عن وَجَدِ أَنْسٍ، ومقام قُرْبٍ.

وفى المشاهدة مقامان: مقام شوقٍ، ومقام أَنْسٍ. فالشوق حالٌ من القلق والانزعاج عن مطالعة العزة، ومعاناة الأوصاف الغيبية من وراء حجاب الغيب بخفايا الألفاظ. وفى هذا المقام الحزنُ والانكسارُ، إلا أنه مزيد الخائف. والأَنْسُ حالٌ من القُرْب عن مكاشفة الحضور بلطائف القدرة. ففى هذا المقام السرور والاستبشار، وهذا مزيد المحبِّ العارف.

وقال ضيغمُ البصرى: عَجِبْتُ لِلْخَلِيقَةِ كَيْفَ أَرَادَتْ بِكَ بَدَلًا، وَعَجِبْتُ لَهَا كَيْفَ أَنْسَتْ بِسِوَاكَ.

وقال الجنيد: علامةُ كمالِ الحبِّ دوامُ ذكره فى القلب، بالفرح، والسرور، والشوق إليه، والأَنْسِ به، وأثرة محبةِ الله على محبة نفسه، والرضا بكل ما يصنع. وعلامة أَنْسِه بالله استلذاذ الخلوة، وحلاوة المناجاة، واستفراغُ العقل كله حتى لا يكاد يعقل الدنيا وما فيها، ولا يحمل هذا على الأَنْسِ بالخلق، فيرتب على مدارج المعقول، كما لا يحمل المحبة على محبة الخلق، فيكون بمعانى العقول، لأنه حال منها، أو إنما هو طمأنينة وسكونٌ إليه، ووجد حلاوة منه، واستراحة وروح بما أوجدتهم.

فمن حمله على الأَنْسِ بالجنس أنكره، ومن أنكره جحدَ مقامًا من مقامات اليقين، وأنكر طريقًا من طُرُقَاتِ العارفين، فأحسنُ حاله ضعف اليقين، وأسوأه كفرٌ بوصف الإيمان، فأدنى عقوبته حرمانٌ وَجْدِهِ وَفَقْدُ شهادته، وأعظمها حُبُوط فضائل عمله.

ولا بدّ لمن تكلم فى المعرفة على ترتيب العقل بشهادة المَلِك أن يذكر الأَنْسِ، والشوق، والسَّكَنَ، والوَلَهَ، والغيبة، والحُضُورَ، وعلم الفناء والبقاء؛ لأن معرفته معرفة الأفعال الحكمية لا معرفة الصفات القاهرة، وذلك يُؤدى إلى قوله بخلق الإيمان واليقين أيضًا، وخلق أنوار القلوب، ومشاهدات الغيوب. وقد تكلم السَّلَف من أهل العلم الباطن ومن العارفين فى هذه المقامات؛ فأغنانا عن الاحتجاج لها، وقد ولى المنكرُ لها على جهله بها، فسقطت مخاطبته.

وقد أنكر الأنس أيضاً من المتكلمين من لا مقام له فيه، كما أنكر المحبة من لا ذوق له منها؛ لأنه تخيل فيها محبة المخلوق، وتمثل معها صفاتهم، فشَهِدَ بها أجناسهم، فقال: لا نعرف إلا الخوف.

ومَن ذهب إلى هذا القول أحمد بن غالب المعروف بغلام الخليل، أنكر على الجنيد، وأبى سعيد الخراز، وأبى الحسين النورى - كلامهم فى المحبة، فلم يُساو إنكاره عند العارفين حُجَّة. وقد بلغ بقومٍ بعض هذا المعنى حتى أنكروا الرُّضَا، وقالوا: ليس إلا الصبر، ما أمر الله تعالى إلاَّ به، ولا وصف نهاية الجزاء إلاَّ معه. فجحدوا مقاماً من مقامات اليقين، وقطعوا طريقاً من طُرُقَات العارفين، وأبطلوا حالاً من أحوال المحبين والمتوَكِّلِينَ. والجهلُ بالله تعالى وضعفُ اليقين يعملان أكثر من هذا، وما كُنَّا لنهتدى لولا أن هدَّانا الله.

وليس هذا مذهبُ السَّلَف، ولا طريقة العارفين من الخلف. كتب عامر بن عبد الله إلى بعض إخوانه: آنسك الله بنفسه.

وقيل لإبراهيم بن أدهم، وقد نزل من الجبل: من أين أقبلت؟ فقال: من الأنس بالله.

وقد رويَا فى التفسير عن سعيد بن أبى عَرُوبَةَ، عن قتادة، فى قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨]، قال: هَشَّتْ إليه واستأنست به.

وجهل هؤلاء أظهرُ من أن يدلَّ عليه، وعلمُ المتقدمين بما رسموه فى كتبهم ورويناه عنهم أكثرُ من أن يُحتجَّ به، والاشتغال بالبطال بطلاة ثانية، وقد صنَّف العلماء كُتُباً فى الأنس، وذكرُوا مقامات المستأنسين وأحوالهم.

ولكن قد أنشدنا لبعض العارفين:

الأنسُ بالله لا يحويه بطالٌ	وليس يدركه بالحوَلِ مُحْتالٌ
والآنسون رجالٌ كلهم نُجَبٌ	وكلُّهم صفوةُ اللهِ عُمَالٌ

وقال بعض العارفين: الأنس بالله عز وجل علامةُ وجود الطريق.

وقال آخر: إذا رأيته يُوحِشُكَ من خَلْقِهِ، فاعلم أنه يريد أن يؤنسك به.

وقد يكون في الأُنس مقامٌ آخر، وهو الأُنس بالأولياء والإخوان من العلماء بالله تعالى والأصفياء. حَوْلَ عابدٍ مسجده إلى وكر طير يستأنس بصوته، فأوحى الله تعالى إليه: استأنست بمخلوقٍ، لأحطَنَّكَ درجةً لا تنالها بشيٍ من عملك^(١).

وفي مقام الأُنس يكون التملق والمناجاة، ومعه تكون المحادثة في المجالسة، وعنده يوجد معنى من البسط في الحضور والقرب. ولا يحب الله تعالى هذا النوع من الإدلال إلا ممن أقامه مقام الأُنس، ولا يحسن ذلك إلا منهم، ولا يليق إلا بهم، كنجو قول موسى عليه السلام في مقام الأُنس: «يا رب لى ما ليس لك. قال: وما هو؟ قال: لى مثلك وليس لك مثلُ نفسك. قال: صدقت». معنى قوله: «مثلك»، أى: لى أنت، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، معناه: ليس كهو شيء؛ لأنه لا مثل له، فيكون كمثلته مثل، أو لا يكون مثله مثل. والعربُ تعبر بالمثل عن نفس الشيء. وفوق هذا من البسط ما أخبر الله تعالى عنه، أنه قال مواجهًا للجليل العظيم: ﴿إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [القصاص: ٣٣]. وأعظم من هذا قوله: ﴿أَذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ [طه: ٢٤]، فقال مجيبًا له: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ﴾ [الشعراء: ١٣ - ١٤]. ومثله قوله: ﴿إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾ [الشعراء: ١٢ - ١٣] فحسن هذا منه، لأنه أقامه مقام البسط بين يديه والأُنس به، وأوجده حال الأُنس منه، ولأن مكانه لديه مكان محبوب، يلاطفه بلطيف الكلام، ويواجهه بجميل الوجد والإنعام، وينظر إليه بعين المحبة، ويقربُه لديه قربةً قربةً، ويوجده منه إليه، فأدلَّ به عليه فحمل له ذلك.

وهذا من غير موسى فى غير هذا المقام من سوء الأدب بين يدى المرسل، ولم يحتمل ليونس عليه السلام خاطراً من هذا القول، لما أقيم مقام القبض والخوف، حتى عوقب بالسجن فى بطن الحوت فى البحر، فى ظلمات ثلاث، ونُودى عليه (١) بعده خبر من أخبار داود ذكره من قبل، فتركته اقتداءً بنسخة (د) التى لم تذكره، وكذا المطبوعة.

إلى يوم الحشر: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبَذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم: ٤٩] وقيل: عراء القيامة.

ونهى الله تعالى حبيبه ﷺ أن يقتدى به فى القول والفعل، فقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨] إلا أن هذا الفعل به، وتنقيله^(١) فى هذه الأحوال مزيد له، وتعريف وفضل مرتبة وتخويف، وفيها طرق للعارفين، وأحوال تحول على المقرئين.

وقد قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥]. وقال: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ فرفعه إلى المكلمين. وقال: ﴿وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] يعنى فى القرب، وكان من المفضلين المكلمين عيسى ابن مريم عليه السلام، إذ يقول مادحاً لنفسه بالسلام مع مواجهته للسلام: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣]، فسلم على نفسه فى الحال والمآل، مخبراً بذلك عن القدم والأزل، وهذا بوجد من الأنس فى مقام لطيف، ولم يكن هذا لأخيه يحيى بن زكريا عليه السلام، بل سكت لا ينطق، ومن الخيفة والحياء مطرق، حتى أثنى عليه خالقه، وكشف عنه سوابقه، فقال تعالى مادحاً له: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥].

واحتمل عز وجل لأخوة يوسف ما عزموا عليه واعتقدوه، وما فعلوه وباشروه من قولهم: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: ٩] ونحو ذلك من الكلام والفعال. وقد عدت من أول قولهم: ﴿لِيُوسَفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا﴾ [يوسف: ٨] إلى رأس العشرين من أخباره عنهم فى قوله: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠] نيقاً وأربعين خطيئة بعضها أكبر من بعض، قد يجتمع فى الكلمة الواحدة الثلاثة والأربعة والخمسة من الخطايا، ودون ذلك وفوقه، بدقائق الاستخراج، ومعرفة خفايا الذنوب، فغفر لهم ذلك إذ كانوا

(١) هكذا يمكن قراءة هذا الكلمة.

فى مقام محبوبين، ولم يحتمل لعزير مسألة واحدة سأل عنها فى القدر، حتى قيل: محى من ديوان النبوة.

وقد قال الله تعالى فوق ذلك كله: ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾ [النساء: ١٥٣]، فإن شاء أن يعفو عفا عن العظائم، فلم يعظم عليه شيء، فصغر فى فضل كل شيء، وإن شاء طالب وناقش على الصغائر، ولا تصغر الذرة والخردلة عن مطالبتة، وكيف يصغر ذنب ممن واجه به الملك الجبار؟! فقد كبر لكبريائه، وحسن استخراجه لتحقيق عدله، ألا ترى أن من كشف عورته بين يدي نبي كفر، لانتهاك حرمة النبوة، فكيف بالعظيم الأكبر منبئ الأنبياء؟ فسبحان ستار العورات بفضل فضله وسعة رحمته، لذلك إن أعطى أعطى من العلم والإيمان بغير حساب لا بعدد ولا حد، وإن منع منع قوت الإيمان الذى لا يصح إلا به، وقوام العلم الذى لا يقوم الدين إلا به، فذلك تحقيق اسميه معطى ومانع، وكذلك غفار وطالب.

وفى قوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٢٩] قيل: يغفر لمن يشاء الذنب العظيم، ويعذب من يشاء على الذنب اليسير، لا يسأل عما يفعل؛ لأنه عزيز جبار، وهم يسألون؛ لأنهم أدلة مجبورون، قد يشترك الجماعة فى المعصية، فيغفرها لبعضهم ويبدلها حسنات، فلا تضره، بل تكون عاقبتها تسره، ويعذب البعض بذنبه ولا يغفره له، وقد لا ينفعه معه عمل، ولا تكفره توبة، ولا تغنى عنه شفاعة، له الخلق والأمر، يحكم بأمره فى خلقه ما يشاء كيف شاء. فمن آمن بما ذكرناه لزمه الخوف، ووجب عليه الحذر، ومن كفر به لزمه الكفر، وكان أشد شىء عليه ضرراً.

واحتمل لأصف بن برخيا فوق ذلك كله، يقال: إنه كان أحد المسرفين، ولا يصلح أن تذكر ذنوبه لمكان علمه، ولحسن عطف الله عليه بحكمه، ثم تداركه مولاه، واجتباؤه، وأعطاه العلم والفضل، وأيد به نبيه، وخليفته، وجعله وزيره وكاتبه، وأطلعه على الاسم الأعظم، بعد ما كان منه ما يتعاضم؛ لئلا يئس من عطفه، ولكيلا يقنط متحجب من لطفه. ولم يسمح لبلعم بن باعوراء بذنب

واحد من ذنوب آصف بن برخيا، إلا أن بلعم أكل دنياه بدينه، وأدخل الهوى على العلم، فضلًا بذلك وهلك، واشتد مقتُّ الله له، وآصف كانت معاصيه في جوارحه بينه وبين خالقه، فكان آصف مستبدلاً به من بلعم لما أرى تلك الآيات، فانسلك منها بعد العبادات، إذ لم يرد بحقائقها والثبات فيها. ويقال: إنى أوتى الاسم الأعظم المتصل بكن. وقد قيل: أوتى فوق ذلك مما لا أذكره، ثم انسلخ من الآيات، فسكن في الدنيا وهوى في الهلكات، ولم ينفعه ما كان منه من العبادة والزهادة، كى لا يأمن عاملٌ من عماله مكره، ولثلا يدلّ عالمٌ عليه بما أظهره له، فإنه قد يأخذه في ساعة ما أُعطى في مائة سنة، ويعزل بجناية حادثة عن مائة سنة ولاية سالفة، وذاك من سر المكر ولطيف الخبر^(١). وقد يُظهره ليمنع وينشر الأعلام بالذكر والمدح عند الأنام، ويخفى في العافية أليم الانتقام، وهذا بابٌ من الاستدراج بالنعم المؤدية إلى عظيم النقم، فعن هذه المعرفة فزع العارفون، وبهذا الوصف المدرج المكّار عرفه الشاهدون.

وكان آصف في كبائر المخالفات، فاستنقذ منها، ثم أوتى بعدها الآيات؛ لأنه بوصف مراد، وفي مقام محبوب، فلم ينقصه في مخالفته التردد، ولم تضره الذنوب. هذا بحضرة نبي الله، وخليفته في أرضه، سليمان عليه السلام. فذاك من لطف الحنان، وسرٍّ ما سبق من الرضوان.

فأما قصة بلعام، فهي أشهر من أن نذكرها، ولها مقدمات فيها قصص وإطالة لا نشتغل بذكره، ولكن نذكر بعض ما انتهى إلينا من قصة آصف آخر أمره، وما يحسن نشره، وليس كل أحد على قصته يقف.

حدثونا: «إنَّ الله تعالى أوحى إلى سليمان عليه السلام: يا ابنَ رأسِ العابدين، ويا ابنَ محجةِ الزاهدين، إلى كم يعصيني ابن خالتك آصف، وأنا أحلم عنه مرة بعد مرة؟! فوعزتي وجلالي، لئن أخذته عطفةً من عطفاتي عليه لأتركه مثله لمن معه ونكالا لمن بعده. قال: فلما دخل آصف على سليمان أخبره بما أوحى الله إليه، فخرج حتى علا كتيباً من رمل، ثم رفع يديه ورأسه نحو السماء وهو يقول:

(١) في (د): «ولطائف الجبر».

إلهى وسيدى، أنت أنت وأنا أنا، فكيف أتوب إن لم تتب علىّ، وكيف أستعصم، إن لم تعصمنى لأعودنّ، فأوحى الله إليه: صدقت، أنت أنت وأنا أنا، استقبل التوبة إلىّ، فقد تبتُ عليك، وأنا التواب الرحيم».

وهذا كلام مدلّ به عليه، وهاربٌ منه إليه، ومتملّق له منه، وناظر إليه به، ومُفردٌ له عنه، ومعترفٌ له مُسْتَرْحِمٌ، مُلتجئٌ إليه مستعصم، فلما بلغ حقيقة الاضطراب في نفى جميع الاختيار عن حقيقة المعرفة باليقين؛ أنه هو كان لم يزل، وأنه هو إن كان لم يكن، بما شهد من نفاذ القُدرة بِكُنْ، رضى الله منه ذلك، فنظر إليه فكشف ضرّه، وأغنى فقره، وجبر كسره، كما فعل بنبيّه أيوب قبله في كشف الضر حين تحقق بحال مُضطرب.

ورويانا بمعناه: «إن الله تعالى أوحى إلى عبدٍ تداركه بعد أن كان أشفى على الهلكة: كم من ذنبٍ واجهتنى به غفرته لك قد أهلكتُ في دونه أمةً من الأمم؟!».

واعلم أن المسامحة من الله تعالى لأوليائه في ثلاثة مقامات:

المقام الأول: أن يقيمه مقام حبيبٍ صديق بما سبق له من قَدَمٍ صدقٍ ولا تنقصه الذنوب؛ لأنه حبيبٌ.

المقام الثانى: أن يقيمه مقامَ الحياء منه بإجلالٍ وتعظيمٍ، فيسمح له ويصغّر دونه للإجلال والمنزلة، ولا يمكن كشفُ هذا المقام، إلّا أنا رويانا عن رسول الله ﷺ أنه ذكر طائفة قال: «يدفعُ عنهم مساوئ أعمالهم لمحاسن أعمالهم».

المقام الثالث: أن يقيمه مقامَ الخوف والانكسار، والاعتراف بالذنب والإكبار، فإذا نظر حزنه وهمّه، ورأى اعترافه وغمّه، غفر له حبّاً ورحمةً.

فإن فاتك المقام الأول، فلا يفوتك المقام الثالث، وما بينهما مكتومٌ؛ لأنه من سرائر العلوم.

ومن إدلال المحبوبين من المستأنسين مناجاةُ برّخ الأسود، الذى أمر الله كليمه أن يسأله أن يستسقى لبنى إسرائيل، بعد أن قحطوا سبعَ سنين، واستسقى لهم موسى

فى سبعين ألفاً، فأوحى الله إلى موسى: كيف أستجيبُ لهم، وقد أظلمت عليهم ذُنُوبُهُمْ، وسرائرهم خبيثة، يدعوننى على غير يقين، ويأمنون مكرى؟! ارجع، فإنَّ عبداً من عبادى يقال له: بَرُخ، قل له يخرج حتى أستجيب له. فسأل عنه موسى فلم يُعرف. فبينما موسى عليه السلام ذات يوم يمشى فى طريق، فإذا بعبد أسود قد استقبله، بين عينيه تراب من أثر السجود، فى شملة قد عقدتها على عنقه، فعرفه موسى بنور الله، فسَلَّمَ عليه وقال: ما اسمك؟ فقال: اسمى برخ. قال: فأنت طلبتنا منذ حين، اخرج فاستمعى لنا. قال: فخرج، فقال فى كلامه:

ما هذا من فعالك، وما هذا من حلمك. ما الذى بدا لك؟ أنقصت عليك غيوثك، أم عاندت عن طاعتك الرياح، أم نفذ ما عندك، أم اشتد غضبك على المذنبين؟! ألسْتَ كُنْتَ غَفَّاراً قبل خلق الخاطئين، خلقت الرحمة، وأمرت بالعطفة، فتكون لما تأمر من المخالفين، أم تُرينا أنك ممتنع؟ أم تخشى الفتوة، فتعجل بالعقوبة؟

قال: فما برح حتى اخضَلْتُ بنو إسرائيل بالقطر، وأنبت الله العشب فى نصف يوم حتى بلغ الرُّكْب. قال: فرجع بَرُخ، واستقبله موسى، فقال: كيف رأيت حين خاصمتُ ربى كيف أنصفنى؟ فهمَّ به موسى، فأوحى الله عز وجل إليه: إن بَرُخ يُضحكنى كل يوم ثلاث مرات.

ففى هذا ذكرى للراجلين، وأنس للمشتاقين، وطمع للعالمين، وتجبُّ إلى المطيعين. هذا كما قال بعض العارفين: الحبيب لا يُحاسب، والعدو لا يُحسب له.

وقد قال الجنيد: أهل الأنس يقولون فى تملُّقهم ومناجاتهم وفى خلواتهم أشياء هى كُفْر عند العامة.

وقال أيضاً: لو سمعنا العموم كُفْرَهم بها، وهم يجدون المزيد بذلك فى حالهم.

وذلك يلىق بهم ويُسَمِّرهم، ويرضى به منهم فى كلام أكثر من

هذا، حدثني بذلك أبو الحسن بن حبش المقرئ رضى الله عنه فى «كتاب المعرفة»،
فلا عتبَ على مَنْ أنكر، ولا عجب منه.

وقد أشدنى بعضهم فى وصف المؤانسين من المحبوبين:

قومٌ تَخَالَجَهُمْ زَهُوٌ بِسَيِّدِهِمْ والعبدُ يَزْهُو على مقدار مولاه

تاهوا برؤيته عما سواه لهم يا حُسن رؤيتهم فى عزٍّ ما تاهوا

أى بقدر ما يُظهر لهم، وعن نحو ما يظهر به.

وقد اشترك عبدان فى اسم المعصية، ثم تباينا فى الاجتباء والعصمة: آدم عليه السلام، وإبليس لعنة الله عليه، ثم اجتبى آدم؛ وهذا لما سبق له من الاصطفاء والكلمة الحسنى، وإبليس أبلس من رحمته وأغوى، لما سبق له من الشقوة والكلمة السوء.

وقد عاتب الله تعالى نبيه على الإعراض عن عبد، وكره له الإقبال على عبد، فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ [عبس: ٨ - ١٠]، وقال تعالى فى الآخر: ﴿أَمَّا مَنْ اسْتَعْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَا يَزَكِّى﴾ [عبس: ٥ - ٧]، وربهما واحد.

وبمثل أمره بالإقبال والسلام على طائفة، وأمره بالإعراض وترك القعود مع طائفة، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فى آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فى حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وكلهم عبيد لواحد.

ومثل المحبوب من المحب مثل مقام المصطفى ﷺ من مقام موسى عليه السلام. قال موسى: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لى صَدْرِى﴾ [طه: ٢٥] وقال لمحمد: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ

صَدْرَكَ ﴿[الانشرح: ١]﴾، وقال موسى: ﴿وَاجْعَلْ لى وَزيراً مِنْ أَهلى * هَارُونَ أَخى﴾ [طه: ٢٩ - ٣٠] وقال لمحمد: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الانشرح: ٤] أى: تُقَرَّن بى فى الشهادة والأذان لا أوازرك بغيرى؛ لأنك من أهلى، والوزير: القرين والظهير، أى: فأنت من أهلى فقد وزَّرتك وقرَّنتك بذكرى، فأنا ظهيرك ومعينك، لا أشد أزرک بغيرى ولا أعضدك بسواى.

فأشبه هذا ما روينه عن ليث، عن مجاهد، فى قوله عز وجل: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] قال: يقعه على العرش^(١).

(١) هذا أحد قولين رواهما الطبرى فى تفسيره عن مجاهد:

الأول: عن ابن نجيح عن مجاهد: أن المقام المحمود هو شفاعة سيدنا محمد ﷺ يوم القيامة.

الثانى: عن ليث عن مجاهد: المقام المحمود يجلسه معه على عرشه يوم القيامة.

واختار الطبرى القول الأول، وضعف الثانى.

[راجع: تفسير الطبرى، مصطفى الحلبى، الطبعة الثالثة - ١٩٦٨ ج ١٥ ص ١٤٤ - ١٤٥].

ونقل القرطبى فى تفسير المقام المحمود أربعة أقوال، هى بإيجاز:

الأول، وهو أصحها: الشفاعة للناس يوم القيامة.

أخرج البخارى فى صحيحه، فى كتاب التفسير، عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: «إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاً، كل أمة تتبع نبيها يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع، حتى تنتهى الشفاعة إلى النبي ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود».

وفى سنن الترمذى، عن أبى هريرة: سئل النبي ﷺ عن الآية، فقال: «هى الشفاعة».

[انظر: صحيح الترمذى، للالبانى، ٦٨/٣ - ٦٩ رقم ٢٥٠٨].

القول الثانى: هو لواء الحمد يوم القيامة.

الثالث: إخراجه من النار بشفاعته من يخرج.

الرابع: ما حكاه الطبرى عن فرقة منها مجاهد هو: «أن يجلس الله تعالى محمداً ﷺ معه على كرسيه».

قال القرطبى بعد هذا الرأى ما نصه:

«وعضد الطبرى جواز ذلك بشطط من القول، وهو لا يخرج إلا على تल्प فى المعنى، وفيه بُعد، ولا يُنكر مع ذلك أن يروى، والعلم يتأوله. وذكر النقاش عن أبى داود السجستانى أنه قال: من أنكر هذا الحديث فهو عندنا متهم، ما زال أهل العلم يتحدثون بهذا. قال أبو عمر: ومجاهد وإن كان أحد الأئمة يتأول القرآن، فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم، أحدهما هذا».

فكان العرش مكان الربوبية بمشيئته في الدنيا واختياره، وهو مستغن عنه بقيوميته واقتداره، فوهبه لحبيبه في الآخرة، فجعله مكانه تفضلاً له وتشريفاً، ليكون هناك فوق المرسلين في الجلالة، كما كان هاهنا خاتمهم في الرسالة.

وضمُّ مخلوقٍ إلى خالقٍ في الاسم والمكان أعظم تشريعاً وأشرف تعظيماً من ضمه إلى مخلوقٍ مثله وهو العرش، فلا عجب؛ لأنه رفع ذكره إلى اسمه، وجعل رسمه بدلاً من مكانه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، فهذا عجبٌ من الكون والمكان.

وإنه ليهجس في سرِّي، ويتخالج في صدرى، أن الوسيلة التي قال ﷺ: «سَلُّوا اللَّهَ تَعَالَى لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ عِنْدَ اللَّهِ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ إِلَّا لِرَجُلٍ

= ثم قال القرطبي: «قلت: ذكر هذا ابن شهاب في حديث التزويل، وروى عن مجاهد أيضاً في هذه الآية قال: يجلسه على العرش.

وهذا تأويل غير مستحيل، لأن الله تعالى كان قبل خلقه الأشياء كلّها والعرش قائماً بذاته، ثم خلق الأشياء من غير حاجة إليها، بل إظهاراً لقدرته وحكمته، وليعرف وجوده وتوحيده وكمال قدرته وعلمه بكل أفعاله المحكمة، وخلق لنفسه عرشاً استوى عليه كيف شاء من غير أن صار له مماساً، أو كان العرش له مكاناً. قيل: هو الآن على الصفة التي كان عليها من قبل أن يخلق المكان والزمان.

فعلى هذا القول سواء في الجواز، أقعد محمد على العرش، أو على الأرض؛ لأن استواء الله تعالى على العرش ليس بمعنى الانتقال والزوال وتحويل الأحوال من القيام والقعود والحال التي تشغل العرش، بل هو مستوٍ على عرشه كما أخبر عن نفسه بلا كيف. وليس إقعاده محمداً على العرش موجباً له صفة الربوبية، أو مخرجاً له عن صفة العبودية، بل هو رفع لمحلّه، وتشريف له على خلقه.

وأما قوله في الأخبار: «معه»، فهو بمنزلة قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾، و﴿رَبُّ ابْنٍ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾، و﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾، ونحو ذلك. كل ذلك عائد إلى الرتبة والمنزلة والحظوة والدرجة الرفيعة لا إلى المكان. اهـ كلام القرطبي.

* أقول والله أعلى وأعلم: الأمر في الغيبات مرده إلى النقل الصحيح لا إلى العقل، فما ثبت في السنة وإجماع أهل العلم فهو قولنا وحجتنا، وهو أيضاً قول أبي طالب المكي ورأيه، كما صرح بذلك في أكثر من موضع. وأطلت في هذه النقول، لأن القول يتعلق بالعقيدة.

انظر في ذلك: تفسير القرطبي ٣٠٩/١٠ - ٣١٣. والشفاء للقاضي عياض، تحقيق محمد البجاوي ٢٨٩/١ - ٣٠٣. وفتح الباري ٢٥١/٨ - ٢٥٢.

واحد، وأرجو أن أكون أنا هو» أن ذلك هو القعودُ على العرش، ولكنى لا أُصرِّح بذلك، إذ لم يصرِّح به الرسول، لكنى أرمز به لمن عرفه.

وقال لموسى عليه السلام بعد المقام: ﴿قَدْ أُوتِيَ سَوْلكَ يَا مُوسَى * وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ [طه: ٣٦ - ٣٧] ففى هذا تحديده. وقال لمحمد ﷺ: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] فلم يحدِّ له حدًّا، فهذا غاية المزيـد.

وقال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الاعراف: ١٤٣] أى فى محل العبودية، وقال لمحمد عليه السلام: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَفَى﴾ [النجم: ١٧]، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٩]؛ أى فى مكان الربوبية منه.

فبين المحب والمحبوب فى التقلب كما بين موسى ومحمد عليهما الصلوة والسلام فى التقريب، وبين من رأى ما رأى عند نفسه فى مكانه وبين من رأى ربه فى علوه شأنه كما بين من عَجَلَ إليه شوقًا منه ليرضى عنه وبين من عَجَلَ به شوقًا إليه؛ لرضاه به، وكما بين من رأى ما رأى فلم يثبت، ففاضت عليه الأنوار لضيقه فقتل الضعفاء، وبين من رأى ما رأى فثبت له وغاضت فيه الأنوار لسعته فحمل الأقوياء، فقد جاوز المحبوب مقام المحبِّ فى التمكين، كما جاوز محمد ﷺ مقام موسى عليه السلام فى المكان.

ورويانا عن رسول الله ﷺ: «إن الله اتخذ موسى صفيًّا واتخذنى حبيبًا».

أدخل بينه وبين موسى لام الملك، وأقام محمد ﷺ مقامه فى الملك فقال تعالى لموسى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١]، وقال لمحمد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، فكم بين من صنعه لنفسه وبين من جعله بدلًا من نفسه تفضلاً وتعظيمًا؟ وكم من فصل مدحه من وصفه وبين من وصل مدحه بوصفه، فقال تعالى فى الفصل: ﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]، وقال فى الوصل: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩]، وقال فى مثله: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]. وقد قيل فى قوله تعالى:

﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، أى: خذ ما آتيتك من الكلام قبلاً واصطفيتك به على الناس، فاشكر عليه، والنظرُ فقد خصصتُ به محمداً^(١).

وعن ابن عباس وكعب: «إن الله تعالى قَسَمَ كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد، فأعطى موسى الكلام، وخصَّ محمد بالرؤية». ومما يؤيد هذا القول: أن الذى آتاه الكلام هو الذى ثبت له، فدل أنه هو الذى أريد به؛ لأن الله تعالى إذا أراد عبداً بشيء ثبته فيه، وقواه عليه، وقد ثبت محمدًا لما آتاه من الرؤية، وقواه لها، ومكَّنه فيها؛ لأنه أراد به، ولأن موسى كان مقامه مقام سائل طالب، وساعٍ حامل، وكان مقام محمد ﷺ مقام مطلوب محمول، منادى مستسعى.

ومن وَصَفَ مقام المحبوب ما قيل لعل بن أبى طالب رضى الله عنه: صِفْ لنا أصحابك. فقال: عن أيَّهم تسألون؟ قالوا: عن سلمان. قال: أدركَ عِلْمَ الأوَّلِ والآخر. قالوا: فعمار. قال: مؤمن ملئاً إيماناً إلى مشاشه. قالوا أبو ذر. قال: جُمع له العلم والزهد، لا يخاف فى الله لومة لائم، ما أَظَلَّت الخُضراءُ أَصْدَقَ لهجة منه. قالوا: حذيفة. قال: صاحب السرِّ، أُعْطِيَ علم المنافقين. قالوا: فأخبرنا عن نفسك. فقال: إياي أردتم؟ كنتُ إذا سألْتُ أُعْطِيتُ، وإذا سكتُ أُبْدِيتُ.

فهذا مقام محبوب؛ لأنه إذا سأل سُمِعَ منه، واستجيب له. وإذا سكت نُظِرَ إليه، فابتدئَ فَعُطِفَ عليه وأُعْطِيَ، فهذا مقامٌ جمع فيه ما فوقه على سواه من الأحوال، فأشبه ذلك ما وصفه به رسول الله ﷺ من النهاية التى أعطى أصحابه بداياتها، فقال: «أقواكم فى دين الله عُمَرُ، وأصدقكم حياءً عثمان، وأفرضكم زيد، وأقروكم أبى»، وأعلمكم بالحلال والحرام معاذ. ثم قال: وأفضاكم على». فالقاضى جامعٌ هذه الصفات، والقضاء هو الغاية، وكذلك كان عنده من البيان

(١) رحم الله أبا طالب رحمة واسعة، فقد أجاد فى بيان خصوصية الحبيب ﷺ من خلال القرآن الكريم، وهو استنباط ألهمه الله إياه قلماً تجده فى كتاب.

وكشف الشبهات ما لم يكن عند أصحابه، فقال: «ما شككتُ في قضاء بين اثنين منذ استقضاني رسولُ الله ﷺ». وقضى في شبهة في الثمن، فسئل عنها رسول الله ﷺ، فتبسم وقال: ما أعلم فيها إلا ما قاله على.

وقال عدى بن حاتم في رجل رآه مقتولاً يوم الجمل: ويحَ هذا، كان بالأمس مؤمناً وهو اليوم كافرٌ، فزجره على وقال: بل كان أمس مؤمناً، وهو اليوم مؤمن. وقال له عمار: اقسم بيننا الذرية كما قسمت الأثاث والمال. فقال: حتى ننظر في سهم من تصير عائشة. فقال: أو عائشة تُقسَم. فقال: وكيف نصنع بها وهم جاءوا معها. فقال: صدقت. وخطب الناس بعد الجمل فذكر طلحة وغيره، فقال: قد كان إخوة يوسف على المحجة يوم عقوا أباهم، وباعوا أخاهم، فإنما بغَضَهُمْ بعد التوبة والإقرار. ثم قال في آخر كلامه: ما شككتُ في الحق مذ عرفته.

فهذا كله مقام مُرادٍ محبوب، مكاشفٍ بالسر مطلوب.

وقد روينا عنه: «مَنْ أَحَبَّ مَنْ لَا يَعْرِفُ فَإِنَّمَا يَمَارِحَ نَفْسَهُ» أى: من لا يعرف صفات حبيبه وأخلاقه وأفعاله وأحكامه، فيحبه بعد خبره، فيسارع إلى مرضاته، ويجانب مكارهه، ويعامله بأخلاقه، ويجالسه بمعانى صفاته، فإنما يمارح نفسه؛ أى يلهو بها ويلعب، ليس فيه شيء من حدّ المحبين، ولا حقيقة العارفين، إذ لا يأمن انقلابَ محبته، لتقلب أفعال محبوبه، ولا يأمن تغييرَ حبه لابتلاء حبيبه، واختلاف أحكامه، فكأنه كان مازحاً بحبه لا مُحققاً به، وفي مثل هذا المقام من جهل المحبين بأفعال المحبوب اغترارٌ عظيم.

ومن المحبة كتمانُ المحبة؛ إجلالاً للحبيب وهيبه له، وتعزيزاً وتعظيماً له، وحياءً منه. وهذا وصف المخصوصين من عقلاء المحبين، وهو من الوفاء عند أهل الصفاء، إذ كانت المحبة سرّاً المحبوب في غيابة القلوب؛ فإظهارها وابتذالها من الخيانة فيها، وليس من الأدب ولا الحياء النسبة إليها، ولا الإشارة بها؛ لأن في ذلك اشتهاً، فتدخل عليه دقائق الدعوى والاستكبار.

وقال آخر في تعزيز الحبيب مع قربه:

وقالوا قريبٌ قلتُ ما أنا صانعٌ

بضوءِ شعاعِ الشمسِ لو كان في حِجْرى

فما لى منه غيرُ ذِكْرِ بخاطرٍ

يهيجُ نارَ الحُبِّ والشوقِ فى صدرى

إلا أن يُغلبَ فيُعذر، أو يُقهر فلا يُلام؛ لأنَّ للحبِّ لوعةً تلدغ القلب، وسكرةً تغمر العقل، وقبضاً يُقبض فيه القلب، ولا يُمكن كتمه، وزفرةً تغلب الوجد لا يُستطاع دفعها، وناراً تقدح فى اللَّبِّ تسطو بوصفها، فذاك حينئذٍ معذورٌ؛ لأنه هناك مقهور، وهو ثمَّ مجبورٌ، إذ صار فى وثاق الحبيب مأسورٌ، كما أنشد بعض المحبين:

ولمّا رأيتُ لِقَهْرِ الهوى	أميراً تعزّز أن يُعزّلا
وبثَّ عساكره فى النفوسِ	ففصلها مَفْصِلاً مَفْصِلاً
دفعتُ إلى الحبِّ حبلَ القيادِ	وقلتُ أسيرُك مُستقبِلاً
فشدُّوا وثاقى بحبلِ الصُّدودِ	فها أنا فى أسرهِ مُبتلى

وأنشد فى الظهور عن غلبة الكتم والإسرار^(١):

مَنْ كان يزعمُ أن سِيكْتُم حُبّه	حتى يُشكِّك فيه فهو كذوبٌ
الحبُّ أغلبُ للنفوسِ بقَهْرِهِ	مِنْ أن يرى للبرِّ فيه نصيبٌ
وإذا بدا سرُّ اللبيبِ فإنه	لم يُبدَ إلاّ والفتى مغلوبٌ

وأنشد غيره:

يبدو فأجهدُ أن أكاتم حُبّه	فتبين فى علامة الكتمانِ
وأنشد آخر فى الإظهار عن غلبة:	
دلّ عليه نفسٌ مختلسٌ	ودمعةٌ تحت سِجالِ الفلّسِ

(١) هذه الأبيات الثلاثة والبيت الذى يليها من (د) فقط.

يُخْفَى وَيُبْدَى الدَّمْعُ أَسْرَارَهُ وَيُظْهِرُ الْوَجْدَ عَلَيْهِ النَّفْسُ
 لَوْ سَتَرَ الْحُبُّ بَعْضَ إِذَا دَلَّ عَلَيْهِ نَظْرٌ مُخْتَلَسٌ
 أَوْ مَوَّهَ الْوَجْدَ بِفَقْدِ لَمَّا أَخْفَاهُ فِيهِ عِلْمُهُ الْمُقْتَبَسُ
 وَأَنْشَدَ فِي مَعْنَى جَامِعٍ لِلْجُمْلَةِ:

وَمَنْ قَلْبُهُ مَعَ غَيْرِهِ كَيْفَ حَالُهُ وَمَنْ سِرُّهُ فِي جَفْنِهِ كَيْفَ يَكْتُمُ

وقال الجنيد وغيره ممن فوقه: يُقال: إذا تناهت معارفهم انتهت إلى حيرة. وقالوا: أعرفهم به أشدهم تحيرًا فيه.

وقد رُوينا عن الله سبحانه: «إنما تضلُّ عقولُ الرجال عند طلب محبتي، يستبطنني أحدهم، ولو صبر لأبحاثه شيئًا بعد شيء، ولا يكون ذلك شيئًا حتى أبلوه، وأعلم عقدة عقله، وهل هو أهلٌ لفوائدي، فإن كان كذلك، فأدنى ما يصلُّ إليه مني أن تخافه الخليفة، ويتنافس أهلُ الحيلة في سعة نوره، وأحبوه بالنظر إلى بلا كلام. يا داود، قل لمعاشر المتوجهين إلى محبتي: ما ضرُّكم ما فاتكم من الدنيا إذا كنتم لكم حظًا؟ وما ضرُّكم من عاداكم إذا كنتم لكم سلمًا؟ وما ضرُّكم مذمة الخلق وعداوتهم إذا كنتم لكم حبيبا؟ وما ضرُّكم إذا جُعتم من الدنيا وشبعتم بذكر عظمتي؟ وما ضرُّكم الانقطاع من خلقي إذا انقطعتُم إليَّ؟».

فهذه نعوتُ الصادقين من المحبين، وهذا عِوَضُهم وجزاؤهم من محبة الدنيا ومحبة الخلق. وقال بعد هذا في وصف المبعدين من القرب والكاذبين المدعين: «يا داود، قل للتاركين ما وصفتُ، وللراغبين في دار الذلِّ والهوان: حلَّمتُ عنكم فلم تزدادوا إلا تماديًا، وسمحت لكم في الإيثاق وكلاؤكم بالليل والنهار من غير حاجة مني لكم، وكيف لا أفعل ذلك بكم، وما خلقت خلقًا هو أكرمُ علىَّ من أبيكم آدم، صِفوتِي من خلقي، ورغبتكم في جوارِي، مَنْ تَمَسَّكَ بِالْمَعَاصِي أَلْبَسَتْهُ ثِيَابَ الذَّلَّةِ، وَأَصْرَفُ عَنْهُ وَجْهِي الْكَرِيمَ. القلوب المعلقةُ بشهوات الدنيا عقولها محجوبةٌ عني».

وقد قال بعض العارفين: أبعدُ الناس من الله أكثرهم إشارة به، وهو الذي يُكثر

التعريض به في كل شيء، ويظهر التزئ والتصنع بذكره عند كل أحد، هذا ممقوت عند المحبين لله والعلماء به.

دخل ذو النون المصرى على بعض إخوانه ممن كان يذكر المحبة، فرآه مبتلىً ببلاء يجلُّ عن الوصف، فقال ذو النون: لا يحبه مَنْ وَجَدَ أَلَمَ ضربه. فقال الرجل: لكنى أقول: لا يحبه مَنْ لم يتنعم بضره. فقال ذو النون: لكنى أقول: لا يحبه من شَهِرَ نفسه بحبه. فقال الرجل: أستغفر الله وأتوب إليه.

وهذا - كما قال ذو النون - هو من علامة الإخلاص في المحبة، إذ كانت من أعمال القلوب، فوجودُ الإشفاق والحذر من إظهارها - خشية السلب والاستبدال، وخوف المكر والاستدراج - علامة التحقق بها، ودفعها عن النفس، وسترها عن أبناء الجنس، وترك التظاهر بها علامة الظفر بها؛ لأن المحبوب غيورٌ، وغيرته على نفسه وعلى ظهور محبته أشد من غيرته على إظهار محبته، وغيرته على إظهارهم لغير أبناء جنسهم أشد من غيرته جميع محبيه عليه.

وقد أنشد بعضهم في الفرق بين الواحد الصادق، والمتواجد الناطق عن وجود البكاء:

إذا غرقت دموعٌ في عيونٍ تبين من بكى ممن تباكى
فأما من بكى فيذوبٌ وجدًا وينطق بالهوى من قد تباكى

وأنشدت في وصف بعض الأقوياء من المحبين الذين هم للوجد كاتمون:

... (١) من الحسَّ لا يُبدى وجودًا كأنَّ فؤاده زُبَرَ الحديد

ومن ألطف ما سمعت في غيرة المحب على حبيبه حتى من نفسه، ثم حتى من حبيبه على حبيبه، لشدة غيرة المحبة، وعظم شأنها وجلالة مكانها في قلب محبها، أنشدنى بعضهم:

غرَّتْ منهم عليه من شدة الوجد به ثم غرت منى عليه
ثم فكَّرت بعد ذاك، وهذا فى عياني من ناظره إليه

(١) كلمة في أول البيت غير مقروءة.

هَمَّتِي عِزَّةً ، وَإِنْ دَامَ ذُلِّي إِذْ حَيَاتِي وَمَيَّتِي فِي يَدَيْهِ
فَفِي هَذَا آيَةٌ لِلْمُحِبِّينَ ، وَعِبْرَةٌ لِلْعَارِفِينَ ، فَلَا تَنْكُرُوا هَذَا ، فَإِنَّ أَعْجَبَ مِنْهُ مَا
رَوَيْنَا عَنْهُ سُبْحَانَهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]
قِيلَ : مِنْ نَفْسِي . وَكَانَ هَذَا عَلَى ضَرْبِ الْمَثَلِ فِي شِدَّةِ الْإِخْفَاءِ .

كَمَا نَقَلَ لَنَا الْإِسْلَامِيُّونَ عَنِ الْكُتَّابِيِّينَ^(١) : إِنْ فِي الْإِنْجِيلِ مَكْتُوبًا : إِذَا تَصَدَّقْتَ
فَلَا تَعْلَمَ شِمَالُكَ مَا صَنَعْتَ يَمِينُكَ ، فَإِنَّ الَّذِي يَرَى الْخَفِيَّاتَ يُجْزِئُكَ بِهِ عِلَانِيَةً .
وَإِذَا صَلَيْتُمْ فَقُولُوا : يَا أَبَانَا الَّذِي اسْمُكَ فِي السَّمَاءِ الْقُدُّسُ . فَإِذَا صُمْتَ فَاغْسِلْ
وَجْهَكَ وَادْهَنْ رَأْسَكَ ، لِئَلَّا يَعْلَمَ بِذَلِكَ غَيْرُ رَبِّكَ .

فَهَذَا كُلُّهُ عَلَى ضَرْبِ الْمَثَلِ وَالْإِعْتِبَارِ فِي الْمُبَالَغَةِ فِي وَصْفِ الرَّأْفَةِ وَالْحَنَانِ مِنَ
الْخَالِقِ اللَّطِيفِ الْحَنَّانِ ، يَتَحَبَّبُ بِهِ إِلَى أَوْلِيَائِهِ ، وَيَتَقَرَّبُ بِذَلِكَ إِلَى قُلُوبِ أَحِبَّائِهِ ،
وَيَسْتَخْرِجُ مِنْهُمْ أَنْ يَكُونُوا لَهُ كَمَا هُوَ لَهُمْ . وَهَذَا كَلَامُ عَالِمٍ صَاحِحٍ فِي مَقَامِ صَحْوِ
مَكِينٍ ، وَهِيَ مَحَبَّةُ الْعُقَلَاءِ الرِّبَانِيِّينَ أَثَمَةَ الْمُتَّقِينَ . فَأَمَّا السُّكْرَانُ بِحَالِهِ ، وَالْوَلَهَانُ
بَوَجْدِهِ ، وَالْحَيْرَانُ فِي تَوْحِيدِهِ ، فَمَغْلُوبٌ بِشُكْرِهِ ، مَقْهُورٌ بِأَسْرِهِ ، مَأْسُورٌ بِوَجْدِهِ ،
مَجْبُورٌ بِغَنَائِهِ ، مَحْجُوبٌ عَنْ بَقَائِهِ ، لَيْسَ يَقَعُ بِهِ اعْتِبَارٌ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِمَعْيَارٍ ؛ إِذْ لَمْ
يَجْعَلْ إِمَامًا لِلْمُتَّقِينَ ، وَلَا مِنْهَاجًا لِلْعَابِدِينَ ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ . وَقَالَ
رَجُلٌ لِأَبِي مَحْفُوظٍ مَعْرُوفٍ ، وَقَدْ رَأَى بَعْضَ الْمُحِبِّينَ شَيْئًا اسْتَجْهَلَهُ مِنْهُ مِنْ مَقَالٍ
وَفِعَالٍ ، فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ مَعْرُوفًا ، فَتَبَسَّمَ ، ثُمَّ قَالَ : يَا أَخِي ، لَهُ مُحَبُّونٌ صَغَارٌ وَكِبَارٌ ،
وَعُقَلَاءٌ وَمُجَانِنٌ ، فَهَذَا الَّذِي رَأَيْتَهُ مِنْ مُجَانِنِهِمْ .

وَقَدْ قَالَ صَاحِبُ الْأَمْرِ^(٢) : «إِذَا أَحْبَبْتُهُ ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ
الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ ، وَقَلْبَهُ الَّذِي يَعْقِلُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّذِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرَجْلَهُ الَّذِي يَمْشِي
بِهَا ، وَكُنْتُ لَهُ يَدًا وَمُؤَيِّدًا» . فَلِذَلِكَ كَانَ ﷺ يَسْأَلُ مِنْ هَذَا الْمَزِيدِ ، وَيَحِبُّ بِهِ دَوَامَ
التَّائِيدِ ، فِي قَوْلِهِ : «اجْعَلْ فِي عَيْنِي نُورًا ، وَاجْعَلْ فِي سَمْعِي نُورًا ، وَعَنْ يَمِينِي

(١) فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ هَذَا وَيَغْنِي عَنْهُ ، وَرَحِمَ اللَّهُ أَبَا طَالِبٍ إِذْ أَكْثَرَ مِنَ
النَّقْلِ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَهُوَ فِي غِنَى عَنْ ذَلِكَ .

(٢) يَقْصِدُ الْحَدِيثَ الْقُدْسِيَّ .

نورًا، وعن شمالي نورًا» أى: أدم لى الوجد بك، والنظر إليك، والقرب منك، حتى لا أفقدك فى، ولا أشهد نفسى ولا غيرك فى وجدى، وأيدنى بذلك بروح التأييد ونور التوحيد، واعصمنى مع جميع ذلك عصمة المرحومين من المنيين. وقد أنشد منشدً فى بعض هذا المعنى:

سَهْرُ الْعَيُونِ لَغَيْرِ وَجْهِكَ بَاطِلٌ وَبِكَאוْهِنٍ لَغَيْرِ حَبِّكَ ضَائِعٌ
بَصْرَى وَسَمْعَى لَمْ يُجِبْكَ لِأَنْنى أَنَا مَبْصَرٌ بِكَ فِى الْحَيَاءِ وَسَامِعٌ

وفيما ذكرناه من وصف المحب كفايةً، وغنيةً لمن وفق لفهمه، ورزق نصيباً من علمه، يجزى عن وصف المحبوب، وليس يمكننا وصف محبوب كما نعلم ونحب، إذ حاله يَجَلُّ عن الوصف؛ لأنه فى غيابة الغيب محجوب به، ومقامه يعلو عن الكشف، وكيف يُوصف من يسمع ويُبصر من مُحِبِّه، ويبطش ويقتل عن محبوبه، بل هو كائن له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً وقلباً، كما رويناه فى الخبر آنفاً: «لئن سألتى لأعطينه، وإن سكت أدخرتُ له، لو قسم نوره على أهل الأرض لوسعهم».

فهذا كله فى مقام محبوب. ويقال: إن هذه الآيات، والقُدَرُ المبهمات، من سرائر الغيوب وخفايا الملكوت، التى تسميها العامة المعجزات والآيات، وتسميها العلماء الكرامات والإجابات؛ وهى آياتُ الله فى أرضه مُودَعَة، وقدرته فى عباده جارية، وعنايات له فى ملكه مستقرة، ليس للعباد منها إلا كشفها، ونظرهم إليها، إذا أقيموا مقام الأُنس من مقام محبوب، ورُفِعوا إلى وصف خَلَّةٍ فى حال مطلوب، رُفِعَتْ عنهم الأسبابُ والغيوبُ، وظهرت لهم الأسرار، وسِرُّ سرِّها هو المحجوب، وبعضهم يقول: إن الآيات توجدُ فى المقام السابع عشر من مقامات المعرفة؛ إذا أُقيم العبد هذا المقام نُودى بها، فظهرت له، فكانت هى كشوفه من الغيب؛ لأنها على طريقه، فلا يمتنع من رؤيتها، وهى كشفه إن عبرها، وحجبه إن نظر إليها. وفوقها ثلاثة وثمانون مقاماً من مقامات العارفين أفضل من ذلك؛ لأنها طرقات أبدال المرسلين من النبيين، وذلك فى قول بعضهم: تكون لأبدال النبيين من الصالحين، وأبدال المرسلين فضلهم على أبدال النبيين كفضل المرسلين

على النبين، وكفضل الصديقين على الشاهدين؛ لأن كل بدل يكون على معنى مبدله، وأبدال الصديقين أيضاً فوق أبدال الشهداء، وأبدال الشهداء فوق أبدال الصالحين. كذلك كل طبقة عن معنى مبدلها.

كيف وقد قال بعض العلماء: ما رأيت هذه الكرامات أظهرت إلا على أيدي البُلّه من الصادقين. وقد قال رسول الله ﷺ: «أكثر من يدخل الجنة من أمتي البُلّه، وعليون لذوى الألباب».

فأولو الألباب هم المواجهون بالخطاب، الشهداء عليه، المستحفظون للكتاب، كما قال تعالى: ﴿بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤]. والعامّة يحسبون أنها من أعلى مقامات المعرفة؛ لأنها أبهر للعقول، وأغرب في العلم والمعقول، وتجلّى صفات محبوب في أنوار اليقين بالقلوب، وقُرب ملاحظات المحبّ للطائف معانى الحبيب، هو سرّ السرّ، وغُربة الغُربة، وعَجَب العَجَب، والذَرُّ من ذلك عند العارفين والمحبين أعلى وأفضل من أمثال الكون والمكان؛ لأن العارف المكين ذا القوة الأمين ينظر إلى الكون ظاهره وباطنه - أعنى ملكه وملكوته - بعين مليكه، فهو لا يملكه لقوته، ولا يملكه لزهده وتوكله، فليس يشهد إلا فعله وهو ما ظهر؛ ومعناه الحكمة، ووصفه وهو ما غلب، ومعناه القدرة، فله في كلّ حركة وسكون كشف ومزيد، يأخذ من الأشياء قبل أن يؤخذ منه، ويأسرها قبل أن تأسره، فهي تأخذ نصيبها منه، وهو يأخذ منها نصيبه من مالکها، وهي ترتفع به وتزيد، وهو يعلو بمُعْلِيهِ أبداً إلى مزيد. وجميع الأسرار من الغيوب التى تكنها الحُجُب والأستار، لا يظهر عليها إلا مطلوب، والمطلوب لا يكون محجوباً وهو عن نفسه مسلوب. فمن بقيت عليه من نفسه بقية، أو نظر إلى حركته وسكونه بعينه نظرة خفية، فسترها عليه رحمة له، لأنه لو كُشف بها هلك في حيرة الهوى، وغرق في بحر الدنيا، ونفسُ حبه لها، وعين طلبه إيّاها، هو حجبها عنه، واستثارها منه، حتى يكون كارهاً لظهورها كراهته لظهور الخلق عليه في معصيته، وخائفاً منها خيفته من نفسه في تظاهرها عليه بهلكته، فهناك حين يُبتلى بها ويختبر، لينظر كيف يعمل، فإذا بقى بياق، وحيّ بحياة حتى صرّقاً

منه صِفراً عنه، بلا طلبٍ، ولا نظراً، ولا سببٍ، ولا فكرٍ، بُودى بعجائبه، وفُتح له كنوز غرائبهِ، ويفعل الله ما يشاء. كما أنشد العارف:

ظهرتَ لمن أفنيتَ بعد فنائه فصار بلا كونٍ لأنك كنته
وكما قال الواجد:

فإن نأى عذبنى، وإن دنا قربنى إذا تغيبتُ بدا، وإن بدا غيبنى

وقال بعضُ العارفين، ممن يكشف عن مشاهدته: عبدتُ الله ثلاثين سنة بأعمال القلوب والجوارح على بذل المجهود، واستفراغ الطاقة، حتى ظننتُ أن لى عند الله شيئاً، فذكر أشياء من مكاشفات آيات السموات فى قصة طويلة، قال فى آخرها: فبلغتُ صفّاً من الملائكة بعدد جميع ما خلقَ اللهُ من شىء، فقلت: ما أنتم؟ قالوا: نحن المحبون لله، نعبده ههنا منذ ثلاثمائة ألف سنة ما خطرَ على قلوبنا قط طلبٌ لسواه، ولا ذكرنا غيره. قال: فاستحييت من أعمالى، فوهبتها لمن حقَّ عليه الوعيد، تخفيفاً عنهم فى جهنم.

وقال بعض العلماء: كل مقام أُعبر عنه إلا مقام المحبة. قيل: ولم؟ قال: لأنَّ الشىء يُعبر عنه بالطف منه، ولا شىء أطف من المحبة.

وقيل لمعروف: أخبرنا عن المحبة أى شىء هى؟ قال: يا أخى، ليس المحبة من تعليم الناس، المحبة من تعليم الحبيب.

يعنى إذا تجلّى بوصفٍ محبوب بعد أن يحبك، ويحب لك أن تُحبه، كما تحب على معنى الوصف الذى به تجلّى، لم تمتنع من محبته لا محالة، فإمّا أن تخبر عنه، أو تستدل عليه بعلم أو عقلٍ. فهيهات، إنَّ المحبة لا تحيىء بخبرٍ، ولا تكون باستدلال، إنما هو جعلُ الله فى القلوب بسرائر الغيوب، لا يوليه غيره ولا يعلمه سواه، ولا يظهر عليه روح الحب ولا عقله، وكيف يعبره وجملته ما أُعبر عنه من المحبة أنها سرٌّ عن وصف إله، فهى تأله القلب بما أله الله، فاستكان هذا النور فى قلب المتأله بالله إلى ما أله هى مكان المحبة، ثم يقع التجلّى من الحبيب بحسن وجمالٍ ليس كمثله وصف، ويدوق حلاوة لا تُشبهها حلاوة، فتحدث سروراً

وارتياحاً ولذةً ونعيمًا يَجِدُ القلبُ ذلك، ويحار العقلُ فيه، ويعرف الهمُّ فيه، ويتردد الفكرُ به، فهذا ما يُمْكِنُ لِمَنْ عرف، وما يصلحُ لِمَنْ أوقف، وما وراء هذا فإنما هو رؤيةٌ كيفية، وكيفية قُربٍ، والعقولُ والعلومُ تعجزُ عن درك هذا، لا يحيطه من الله عن مشيئة، فانتظمت محبة القرب، فكان سرًّا، وغابا فى جبروت العز، فالذى يُوجِدُ القُرب، ويظهر على كفيته من الأرواح والقلوب، والهمم والعقول والعلوم - التى هى حُجُبُهُ - هو الذى يُذيق القلوب والعقول وَجَدَ المحبة له، إذا كشف حُجُبَ الغيوب عنها، وذلك أن الكل محجوب بحجابين إلا الموقنين، فالعقلاء محجوبون بحجاب العقل؛ لأنه من معانهم، والجهلاء محجوبون بحجاب الهوى، إذ هو من معانهم، فهذا حجابان باطنان، فإذا رُفعا انكشفت عينُ اليقين، فأبصرت الغيب بالغيب، فصار شهادة، ورأت النور بالتور، وكان على الحسنَى زيادة، فمثل ذلك ما حجب العموم فى الدنيا؛ لأنهم محجوبون فيها بحجابين ظاهرين: حجاب لطيف وهو العقل؛ لأنه من معنى اللطف، وحجاب كثيف وهو الجسم؛ لأنه من معناه. فإذا أُسقط الحجابان الباطنان - العقل والهوى - عن العارف المجتبى، فهو كشف الغطا، ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]. وهذا هو اللقاء للكافة، كذلك إذا كُشف الحجابان الباطنان - العقل والهوى - عن العارف المجتبى كان حيز اللقاء، فهو فى الدنيا بجسمه أعرف من الحق من الأرواح برسمها فى مكان البرزخ، لا نقدر أن نخبرَ بأكثر من هذا.

وقال بعض العارفين: كل المقامات عن أنوار الأفعال والصفات إلا المحبة، فإنها عن نور الذات. فلذلك عزَّ وصفُها، وغرَّبَ وَجَدُها، وقلَّ من المؤمنين المتحققين بها.

قوله: «عن نور الذات»، إنما يريد وصفًا مخصوصًا من الذات، ووجه المحيين، وعنه معرفة العارفين. وإلا فالصفات كلها متصلة بالذات.

ومن أدرك مقام المحبة لله تعالى لم يضره فوتُ شىءٍ من المقامات، ومن فاته مقام المحبة لم يغبط بِدَرَكِ شىءٍ، ومثلها فى جلاله القدر مثل العلم بالله، أى علم أعلى من علم يكون معلومه الله؛ فلذلك أى قلب أجلُّ من قلبٍ محبوبه الله عز

وجلّ؟ وقد قيل فى قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] أن الهاء عائدة على التوكل، أى: فالتوكل حسبه من جميع المقامات.

والتوكل حالٌ من مقام المحبة، فمن كان الوكيل حبه، فهو من التوكل حسبه، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

والرِّضَا مقام فى المحبة، فإذا كان الراضى الأكبر محبوبه، فأى شىء يكون معه مطلوبه، فقد جلّت المحبة أن توصف، وعزّت فى المقامات أن تُعرف، ودقّت عن العقول أن عليها حقيقتها تُوقف، فهذا كما قال:

لقد عزّت معانيه فغابت عن الأفكارِ إلاّ للشَّهيدِ

ولا شهيدَ إلاّ بشهادة، ولا شهادة إلاّ بشاهد، وقد قال الشهيد: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ [هود: ١٧]، فلأن يُعطى المؤمن عُشر ذرّةٍ من المحبة خيرٌ له من أن يُعطى أمثال الجبال من العبادات؛ الجزاء عليها من معانى الصفات المتصلة بالذات. وهذا غاية الطالبين من المقربين. وعن أول بادٍ يبدو من الوصف، يستغرق كلّ البدوات والنهايات، والمزید من كل الجنان، ويجمع من اللذة والسرور والنعيم والحبور كل ما فرّقه فى جنات النعيم. فليس يعدل هذا عطاء؛ لأنه عن الرضا الأكبر^(١)، فكيف بالبادى الثانى، والبادى الثالث عن الوصف الثانى والوصف الثالث؟

فلا يعلم هذا إلا من شهد به، ولا يطلبه إلا من عرفه، والخلائق عنه محجبون، إلا الشهداء والصّديقين. وسائر العبادات وأعمال الصالحات يُثَوَّبُ الجزاء من معانى الجنة، وصفاتها الخَلْقِيَّاتِ، فستان بين ذلك وبين المعانى الخالقيّات. ولا يصلح له إلا من طلبه، ولا يصفه إلا من شهد به، ولا حول ولا قوة إلا بالله المبدئ المعيد.

وقيل: إن للقلب حبةً، هى باطنه، عليها تتعلق المحبة، ومنه سُمِّيت محبة؛

(١) هذه عبارة (م)، وعبارة (د): «والمزید والمظهرات من كل الجنان، فليس يعدل هذا عطاء لأنّه من الرِّضْوَانِ. والعبادات ثبوت منها الجزاء من معانى الجنة، والصفات الخَلْقِيَّاتِ، فستان بينهما»، فهى مختصرة لما فصلته (م).

كَأَنَّ اشْتِقَاقَهُ مِنْ حَبَّةِ الْقَلْبِ، وَهِيَ الَّتِي يُقَالُ لَهَا سُودِادُوه، وَالْمِيمُ فِي الْأَسْمَاءِ قَدْ تَزَادَ لِلْمِبَالِغَةِ فِي الْوَصْفِ. وَمِنْ هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠] لما وصفها بنهاية الوصف فى الحب؛ أى قد خرق حُبُّه شَغَافَ قلبها، فوصل إلى حَبَّةِ القلب، وخرق الشَّغَاف وهو حجابُ القلب، و«حَبًّا» منصوب على التفسير، كأنه قيل: قد شغفها، أى خرق شغافها، فقيل: ماذا؟ فقيل: حَبًّا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قُلْتُ لِعَكْرَمَةَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾؟ فَقَالَ: يَعْنِي بَطْنُهَا. قُلْتُ: كَيْفَ ذَاكَ؟ فَقَالَ: بَلَغَ سُودَادُ الْقَلْبِ. قِيلَ: مَا مَعْنَى سَوَادِهِ؟ قَالَ: مِثْلُ سُودَادِ الْعَسْكَرِ إِذَا بَلَغَ الْحَرْبُ إِلَيْهِ انْكَشَفَ الْعَسْكَرُ فَيُهِتَكَ.

فَالْحُبُّ إِذَا وَصَلَ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ مِنَ الْعَبْدِ، لَمْ يَمْلِكِ الْمَحَبُّ نَفْسَهُ، فَرَّغَ قَلْبَهُ لَهُ، وَامْتَلَأَ بِهِ، وَلَمْ يَجْرَ عَلَى تَرْتِيبِ مَا رَسَمْنَاهُ، وَرَبَّمَا خَرَجَ إِلَى الْوَكَلَةِ وَالِاسْتِهْتَارِ، وَجَاوَزَ مَعْيَارَ الْعَقْلِ فِي التَّصْرِيفِ وَالْأَذْكَارِ. وَالْعَرَبُ تَقُولُ: قَدْ دَمَغَهُ، وَرَأْسَهُ، وَفَادَهُ، وَرُكْبَتَهُ، إِذَا خَرَقَ دِمَاغَهُ، وَضَرَبَ رَأْسَهُ، وَأَصَابَ فُؤَادَهُ وَرُكْبَتَهُ. فَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ: قَدْ شَغَفَهُ؛ إِذَا أَصَابَ شَغَافَ قَلْبِهِ، فَهَتَكَ حِجَابَهُ.

وَأَنشُدْ بَعْضَهُمْ:

قَالَتْ وَقَدْ شَغَفَتْ قَلْبِي فُبُحْتُ:

قَدْ كُنْتُ عِنْدِي تَحِبَّ السَّرِّ فَاسْتَرِ

أَلَسْتُ تُبْصِرُ مَنْ حَوْلِي؟ فَقُلْتُ لَهَا:

غَطَّى هَوَاكَ وَمَا أَلْقَى عَلَى بَصَرِي

وَعَلَى هَذَا الْمَعْنَى مَجَازُ قَوْلِهِ: «حُبُّكَ الشَّيْءُ يُعْمَى وَيُصِمُّ»، أَيْ يُعْمَى وَيُصِمُّ عَنْ سِوَاهُ، وَيُعْمَى وَيُصِمُّ بِهِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا يُبْصِرُ إِلَّا بِهِ، وَلَا يَسْمَعُ إِلَّا مِنْهُ، وَيُعْمَى وَيُصِمُّ عَنْ مَسَاوِيهِ وَالْبَلَاوِي الَّتِي فِيهِ، فَلَا يَخَافُ فِيهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَلَا يَقْبَلُ عَلَيْهِ قَوْلَ قَائِلٍ، وَلَا يَصْدُقُ عَنْهُ عَيْبٌ عَائِبٍ.

وَقَدْ قُرِئَ بِالْعَيْنِ: (قَدْ شَغَفَهَا)، مَعْنَاهَا: بَلَغَ أَعْلَى الْقَلْبِ وَنَهَايَتَهُ؛ لِأَنَّ الشَّغْفَ

أعلى كل شيء وأبعده، وشَعَفُ الجبال: غاياتها، فالمعنى: ذهب به الحبُّ أقصى المذاهب وغاياته. فيحتنذ يملكه الحبُّ فيكون أسيره، ويغلب عليه الحبيب فيصير مأسوره، فيحكم عليه ولا يجاوز ما حكمه، ويفرِّغ له قلبه من كل شيء رسمه، ويمتلئ به فلا يبقى فيه شيء رسمه، ولا يقدر على الكذب، لظهور سلطان قهر الحبِّ. فيحتنذ يكشف قناعه، ويرسل عذاره فيه، ويصفه الحب بالحب وهو صامت، ويبدو عليه الوجد وهو خافت، ويخفيه الحبيب إلا لمن يحب وهو ظاهر، وليس يكون هذا إلا في مقام شكر، وحال غلبة وقهر، فمن لم يعرف هذا المقام أنكرَ هذا الكلام، إلا أن يربط قلبه بتأبده، ويحفظ سره بتمكينه، كما قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِعًا إِنَّ كَادَتْ لِتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠] أى: من المصدقين أنا نرده إليها، ولا تُظهر أنه ابنها، فيقتل.

وكما لطف للفتية الذين آمنوا، وهم أصحاب الكهف، لما غلب حبُّ الإيمان على قلوبهم فملكها، خرجوا من مصر، وفارقوا الأهل، فقال فى وصفهم: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الكهف: ١٤] لئلا يظهروا إيمانهم لما غلب حبه عليهم، فيقتلوا.

فهذه لطائف الحكيم، وخفى صنع العليم، فالمحبون له حافظون للغيب بما حفظ.

وقال سمنون لبعض الفقراء فى قصة ذكرها: يفرح بحبه، ويذكر المحبة.

وقال بعض الناس فى وصف المحبين: أقامهم مقام المحبة، فلم يزن الملك فى قلوبهم حبة.

فمحبة غير الله فى محبة الله شرك عند المحبين؛ وهى جناية عند الصادقين، وهو من نقض العهد وقلة الوفاء بالعقد عند المخلصين.

وكان سهل يقول: من أحبّ الدرهم لم يحب الآخرة، ومن أحب الخبز لم يحب الله عز وجل.

ولا يخرج حبُّ الوالدِ والولدِ المحبين من المحبة؛ لأن ذلك جعل الله فى القلوب نصيباً لهم، ولا يخرجهُ أيضاً حبُّ الزوجة؛ بمعنى الرفق بها والرحمة لها، ولا يُخرجهُ أيضاً حبُّ مصالح الدنيا ومرافق الأسباب من حاجات الأجسام والقلوب، مما لا بد منه من عَوَزِ الزاد على الطريق، وليس ذلك كله يكون فى مكان محبة الله؛ لأن محبة الله فى أنوار الإيمان، ومحبة هذه الأشياء فى مكان العقل والطبع، ما لم تأخذ هذه الأشياء منه، بمعنى الانحطاط فى الهوى ومجاوزة العلم. كما يقول فى صفة المقربين من الموقنين: «إنهم يأخذون من الأشياء قبل أن تأخذ منهم».

هكذا هو عندى فى الفرق بين محبة الخالق ومحبة المخلوق.

ويُخرجهُ جميع ذلك عند - الخواص والنورى، وطائفة من المحبين - من حقيقة المحبة.

فأما الإيثار لهذه الأسباب، والانحطاط فى أهوائها، والسكون إليها، والفرحُ بها، والطمأنينة معها. والحزن على فقدانها؛ فإن ذلك يُخرجهُ من حقيقة المحبة؛ لأنها قد أخذت منه فجذبته، وتحكمت فيه فتسخر لها، كذلك هو عندى وعند الكل.

وقد توجد بعض المحبة مع وجود بعض هذه الأشياء عندى، وإن كانت علة موجودة، ولا توجد حقيقتها عند الجماعة وعندى.

وأما بعض الحكماء فإنه يزعم أن محبة العشق - خاصة المتعلقة بالوصف - متصلة بالروح، منتشية منه، وإن كان سلطانها موجوداً فى القلب، وحاكماً على الجسم، إذ كان القلب مَلِكَ الجسد، ومكاناً للحواس كلها. وهو الفرق عندهم بين حب العشق، والحب لأجل المعانى والأسباب من المنافع والمرافق، إذ ذاك متعلق بالأوصاف. وذكر: أن حكيمًا كان عند بعض الملوك، فنظر وزيره إلى جارية للملك كان يهواها، وقد أشرفت عليه، ولم يعلم الملك بذلك، فلما نظر إليها ارتعدت فرائصه، وغشى عليه، فعجب الملكُ من ذلك، فسأله عن حاله، فاعتذر

بوجع يعارضه فى الأوقات. فلما خرج سأل الملك الحكيم: هل تعرف دواء هذه العلة؟ فقال: نعم أعرف دواءها، إن أمرتني أخبرتك. فقال: قد أحببت ذلك. قال: إنه نظر إلى من يحبه، فلحقه هذا الاضطراب؛ لأنه انفرج قلبه، فتحرك الجسم لانفراج القلب. قال له الملك: فإننا نحب أهلينا وأموالنا، ولا يصيبنا هذا. فقال: ليست هذه تلك المحبة، هذه محبة الروح، وتلك محبة العقل.

ومن أعجب ما سمعتُ فى هذا الباب، ما حدثني بعض إخواني، عن أبى القاسم الجنيد، قال: مرض أستاذنا السرى - رحمه الله - فلم نعرف لعلته دواء، ولا علمنا لها سبباً. فقال: فوصف لنا طبيبٌ حاذق، فأخذنا بوله، فمضينا به فى قارورة، فنظر إليه الطبيب، فقال: لقد أعيانى وصف هذه العلة، ولكن سأفكر فى هذا الماء. قال: وجعل ينظر ملياً، ثم قال لى: أراه بول عاشقٍ.

قال الجنيد: فصُغت وغشى علىّ، ووقعت القارورة، ثم رجعت إلى سرىّ، فأخبرته، فتبسّم، ثم قال: قاتله الله ما أبصره! وقلت: يا أستاذ، وتبين المحبة فى الماء؟ قال: نعم.

وقد قال سرىّ مرّة: لو شئتُ أن أقول: ما أيسر جلدى على عظمى ولا سلّ جسمى إلا حبه لَقلتُ. قال: ثم غشى عليه. وكان يُفصح فى بعض الأوقات بهذه المعانى.

• ذكر وصف بعض المحبين من المكاشفين وأبدال الصديقين من المقربين؛

قيل لبعض العارفين من الأبدال، ممّن يتكلم فى علمه، ويكشف عن طريقه ووجده: الناس يقولون: إنك محب. فقال: لستُ محباً، المحبُّ متعوب، ولكنى محبوبٌ.

وقيل له أيضاً: الناس يقولون إنك واحدٌ من السبعة. فقال: أنا كلُّ السبعة. وقال: هذا إذا رأيتمونى فقد رأيتم أربعين بدلاً. قيل: كيف وأنت شخصٌ واحد؟ قال: لأننى قد رأيتُ أربعين بدلاً، فأخذت من كلِّ بدل خُلُقاً من أخلاقه. وقيل له: بلغنا أنك ترى الخضر، فتبسّم، ثم قال: ليس العجب ممن يرى الخضر، ولكن

العجب ممن يريد الخضر أن يراه، فيُحجَب عنه فلا يَقْدِرُ عليه، ولعمري أن من كان عند الله لم يره بَشَرٌ ولا مَلَكٌ.

كما حدثونا أن الحسن اختفى عند حبيب العجمي، وكان من أصحابه، وعلى يده تاب، وزهد في الدنيا وخرج من أمواله كلها، وكان حَسَنَ الشَّأن كثير التجارات، وكان له ثلاثون مملوكًا، لكل واحدٍ منهم تجارة، فأعتق جميعهم، وفرَّق جميع ماله. وكان الحسن مستترًا عنده من الحجاج، فسعى به فدخل عليه الشرط، ففزع الحسن، وذهب ليتسورَّ الحائط ويهرب. فقال له حبيب الفارسي: اقعد ورائي فإنهم لا يرونك. فقال: ويحك، ما يغني عني وراؤك؟ فقال: اقعدُ حتى تُبصر. فقال: فدخل عليه الشرط فقالوا: أين الحسن؟ قيل لنا إنه عندك. فقال: هل ترون شيئًا؟ ففتشوا الدَّارَ كُلَّها، وخرجوا وهم لا يرونه. فقال له الحسن: كيف لم ينظروا إليَّ؟ قال: لأنك كنت عند الله فلم يروك، ولو كنت عندي لأبصروك. قال له الحسن: إني قد رأيتك لما دخلوا هَمَسَتْ بشيء، فهل ذكرت اسم الله الأعظم؟ قال: أما الاسم الأعظم فلا أحسنه، ولكن قلتُ: اللهم اجعله عندك حتى لا يبصروه.

وكان حبيب أبو محمد هذا من البُلَّه، وأهل السلامة والغفلة، وله إجابات، وإظهار كثير من الآيات. والحسنُ إمام الأئمة من العلماء، وهو فوقه درجات، وأحبُّ إلينا منه، فلم يُعط ذلك، وأُحْوجَ إليه^(١).

وقد حَدَّثْتُ عن الخضر عليه السلام أنه قال: ما حَدَّثْتُ نفسي يومًا قط أنه لم يبق وليُّ الله تعالى إلا عرفته، إلا ورأيت ذلك اليوم وليًّا لم أعرفه. قال: ولقد كنتُ يومًا بصنعاء في مجلس عبد الرزاق، فنظرت إلى شابٍّ مُفَرَّدٍ في ناحية، فقامت إليه فقلت له: لِمَ لا تحضر مجلس عبد الرزاق فتسمعُ منه، فقال لي: وأى شيء أسمعُ منه؟ فقلت: تسمعُ حديثَ مَعْمَرٍ عن الزُّهري، فقال: قد سمعتُ من الله عز وجل فأغنانني عن عبد الرزاق، فقلت له: أنت مِمَّنْ تُحسن أن تسمع من

(١) هذا هو الصواب ألا يغتر المسلم بالكرامات ولا بالمظهر.

الله تعالى؟ قال: نعم. قلت له: فمن أنا؟ قال: أنت الخضر، ثم غاب عني، فلم أقدر أن أراه.

وقيل لأبي يزيد البسطامي: بلغت جبل قاف؟ فقال: جبل قاف أمره قريب الشأن من جبل كاف، وجبل عين، وجبل صاد^(١). قال: وما هذا؟ قال: هذه جبال محيطة بالأرضين السفلى، حول كل أرض ثانية وثالثة جبل بمنزلة جبل قاف، محيط بهذه الأرض الدنيا، وهو أصغرهما، وهذه أصغر الأرضين. وهو جبل من زمردة خضراء. فيقال: إن سماء الدنيا متقبة عليه. ويقال: ليس بينه وبين السماء إلا أربعون فرسخاً. وإن خضرة السماء من خضرته، وإلا فهي بيضاء كالفضة، ولكن لشدة صفائها وتلألؤها، واخضرار الجبل وقربه منها، عكّت بها خضرته، فتلألأت واخضرت.

وقد كان أبو محمد - إمامنا في هذا العلم - يخبر: أنه صعد جبل قاف، ورأى سفينة نوح مطروحة فوقه، وكان يصفه ويصفها، وقال: لله عبدٌ بالبصرة يرفع رجله وهو قاعد فيضعها على جبل قاف. وقد قيل: الدنيا كلها خطوة للولي، وإن ولياً لله خطأ خطوة واحدة خمسمائة عام، ووضع رجله على جبل قاف، والأخرى على جانب الجبل الآخر، فعبر الأرض كلها. ويقال: إن بعض الأولياء احتاج إلى مصباح، فرفع يده إلى القمر فاستصبح منه نوراً اقتبس في جذوة معه. وبعضهم كُوشف بالهلال في أول ليلته، فرآه مستديراً كما يرى ليلة أربع عشرة، كأنه رُفع عنه الفضاء المحجوب به. وبعضهم كُوشف بالشمس فرآها نصف الليل في عرض الفلك؛ لأنها تقطعه ليلاً عرضاً، كما تقطعه طولاً نهاراً، وفوق ذلك ما لا يستطيع ذكره؛ خيفة الإنكار، فسبحان الواحد القهار.

وقيل لبعض المحبين من الأوتاد، وهم خصوص الأبدال: دخلت إرم ذات العماد؟ فقال: قد دخلت ألف مدينة لله في ملكه، أدناها ذات العماد. ثم عددها: البيت، وتأويل، والمنسك، وتاريس، وجايلق، وجابرس. ولعلّ قائلًا يقول: فقد

(١) جبل قاف وغيره من الجبال التي ذكرها حقيقتها غامضة، كما أن حقيقة الأرضين السبع غير معروفة لنا.

قال الله في وصفها: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٨]. قيل: فإن معناه في بلاد اليمن؛ لأنهم خوطبوا بما في بلادهم. كما قال تعالى: ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٣]، يعنى أرض بلادهم. فذات العماد مدينة عاد في اليمن بين أبين والشحر^(١)، يقال: لها سورٌ له ثلاثمائة باب، ما بين كل بابين فرسخ، مركبة على أعمدة الذهب والفضة والياقوت والزبرجد، فيها مائة ألف عمود من ذلك^(٢)، كانت الجن اصطنعتها لعاد بن شداد بن سام بن نوح. استخرجت الجن هذه العمود من قعور البحار والفيافي والقفار، وكانت سُخِّرَت الجن له قبل سليمان بن داود بأربعة آلاف عام^(٣). بناها في ثلاثمائة سنة، وكان عمره خمسمائة سنة.

ويقال: تجتمع في هذه المدينة طائفة من الأبدال ليالى الجمع وفي الأعياد. يقال: فيها صناديق من حجارة، طول كل صندوق عشرة أذرع، فيها قبور الأنبياء؛ أجسادهم صحيحة باقية إلى يومنا هذا، وهى محجوبة عن أبصار العباد. وقد كان سهل رحمه الله يزورها في كل جمعة، وهذا واحد من المحبوبين.

والله أعلم بحقيقة ما ذكرناه، ما عندنا من ذلك إلا تصديق وتسليم. آمنا بحقائقه عند الله عز وجل، وهذه آيات يسيرة من قدرة الله الكبيرة، ومن عجائب الملك، والملك كله مندرج في الملكوت، وهو سر الملك وخزانة الملك، وإنما أظهر الله تعالى منه بمقدار ذرة بقدر عين العقل، وهو قوت العقل، والملكوت بأسره منطوي في الجبروت، وإنما أظهر الله تعالى من الملكوت بقدر ذرة، وهو قوت الإيمان، والجبار بقهره قابض لجميع ذلك في يده.

وقيل لأبى يزيد البسطامي مرة: حدثنا عن مشاهدتك من الله. فصاح ثم قال:

(١) إنما هي في الربع الخالي بين جبال عمان والسعودية.

(٢) هذه أوصاف من نسج الخيال والأساطير أخذت من الإسرائيليات، لكن الحفريات الحديثة أثبتت غير هذا تماماً، إذ كشفت الأشعة فوق الحمراء عن وجود أطلال مدينة بالربع الخالي منشرة تحت الرمال بعمق ٢٠٠ متراً.

(٣) هذا التاريخ وهذا التحديد بعيد جداً عن التاريخ الزمني الحقيقي، وهو مأخوذ أيضاً عن الإسرائيليات، وتاريخ الحضارات القديمة تكشف أمره حديثاً بما يبطل كل هذه الأقاويل.

ويلكم، لا يصلح لكم أن تعلموا ذلك. وقيل: فحدثنا بأشدّ مجاهدتك لنفسك في الله. فقال: وهذا أيضاً لا يجوز أن أطلعكم عليه. قيل: فحدثنا عن رياضة نفسك في بدايتها. قال: نعم، دعوتُ نفسي إلى الله في بعض الأمور فتلكعت علىّ، فعزمتُ عليها أن لا أشرب الماء سنة ولا أذوق الغمض سنة، فوفّقت لى بذلك^(١).

وحكى عنه يحيى بن معاذ، في بعض مشاهداته: أنه رآه من بعد صلاة العشاء إلى صلاة الفجر، مستوفزاً على صدور قدميه، رافعاً أخمصها وعقبه عن الأرض، ضارباً بذقنه على صدره، شاخصاً بعينه لا يطف. قال: ثم سجد عند السحر فأطال، ثم قعد، فقال: اللهم إنّ قوماً طلبوك فأعطيتهم طيَّ الأرض، فرضوا بذلك، وإنى أعوذ بك من ذلك. وإن قوماً طلبوك فأعطيتهم المشى على الماء والهواء، فرضوا بذلك، وإنى أعوذ بك من ذلك. وإن قوماً طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض فانقلبت لهم الأعيان، فرضوا بذلك، وإنى أعوذ بك من ذلك، حتى عدّ نيّفاً وعشرين مقاماً من كرامات الأولياء. قال: ثم التفت فرآنى. فقال: يحيى؟ قلت: نعم يا سيدى. قال: منذ متى أنت ههنا؟ قلت: منذ حين. فسكت. فقلت: يا سيدى، حدثنى بشيء. فقال: أخبرك بما يصلح لك، أدخلنى فى الفلك الأسفل، فدورنى فى الملكوت السفلى، فأرانى الأرضين وما تحتها إلى الثرى، ثم أدخلنى فى الفلك العلوى، فطوّف بى فى السموات، وأرانى ما فيها من الجنان إلى العرش، ثم أوقفنى بين يديه، فقال لى: سلنى أى شيء رأيت حتى أهبه لك. فقلت: يا سيدى، ما رأيت شيئاً استحسنته فأسألك إياه. فقال: أنت عبدى حقاً، تعبدنى لأجلى صدقاً، لأفعلن ولأفعلن بك، فذكر أشياء. قال يحيى بن معاذ: فهالنى ذلك وامتلاّت به وعجبتُ منه. فقلت: يا سيدى، لمَ لمَ تسأله المعرفة به، وقد قال ملك الملوك: سلنى؟ قال: فصاح بى صيحة، وقال: اسكت، ويلك، غرّتُ عليه منى، لا أحب أن يعرفه سواه.

فهذا حال عبدٍ عن نفسه مأخوذاً، إذ كان ربه له موجوداً، طال مقامه المقامات،

(١) لعلّ هذا من شطحات أبى اليزيد، والله أعلم.

فقصرت عن وصفه الصفات، وحقّ له إذ نظر إلى الحسن الذى حسّنت المحاسن كلها عن حسّنه، وشانت الزينات جميعاً بعد النظر إلى زينته، وشهد الجميل الذى تجمّل الجمال والمتجمّلون بجماله لمن لا يستحسن سواه، فكيف يحب غير ما استحسن؟ وأن لا يزين فى عينه إلا إياه؟ فكيف ينظر غير إياه، أم كيف يطلب غير ما أحبّ، أو يقفو غير ما طلب؟ بل كيف يهتم بغير ما طلب؟ فهذا نعتُ عبدٍ مطلوب بمعنى ما طلب، ووصفُ شخصٍ محبوبٍ بغير ما أحب، والله تعالى يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس.

وقد كان أبو تراب النخشبى رحمه الله معجباً ببعض المريدين، فكان يؤويه ويقوم بمصالحه، والمريد مشغول بعبادته ومواجهه. فقال له أبو تراب يوماً: لو رأيت أبا يزيد. فقال المريد: إني عنه مشغول: فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله: لو رأيت أبا يزيد، هاجَ وجَدُ المريد، فقال: ويحك ما أصنع بأبى يزيد، قد رأيتُ الله فأغنانى عن أبى يزيد. قال أبو تراب: فهاج طبعى، ولم أملك نفسى، فقلت له: ويلك لو رأيت أبا يزيد مرةً واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله عز وجل سبعين مرة. فبهت المريد من قولى وأنكره، وقال: وكيف ذلك؟ فقلتُ له: ويلك، إنما ترى الله عندك فيظهر لك على مقدارك، وترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقداره. قال: فعرف ما أقول، فقال: احملنى إليه. فذكر قصة، قال فى آخرها: فوقفنا على تل ننتظره يخرج إلينا من الغيضة. قال: فمرّ بنا، وقد قلب فروةً على ظهره، فقلتُ للفتى: هذا أبو يزيد، فانظر إليه، قال: فنظر إليه الفتى فصعق، فحركناه فإذا هو ميت. قال: فتعاوناً على دفنه. فقلت لأبى يزيد: يا سيدى، نظره إليك قتله؟ قال: لا، ولكن كان صاحبك صادقاً فاستكنّ فى قلبه سرٌّ لم يكن ينكشف له بوصفه، فلما رآنا كُشف له سرُّ قلبه، فضاق عن حمله؛ لأنه فى مقام الضعفاء المريدين، فقتله ذلك.

فهذه جمل من أوصاف المحبوب المراد، وسعة من رزق بغير حساب من المحب الجواد، بتيسير من الطالب للمطلوب، وعناية من المحب للمحسوب. ومقام الحبيب أعزُّ من أن يظهر، وأخفى من أن يُعرف؛ غيره منه عليهم، سترهم بأفعالهم،

ضناً^(١) منه بهم، وحجبهم بأوصافهم. أهل المقامات يشتاقون إليه، وهو يشتاق إليهم، وأهل القرب ينظرون إليه، وهو ينظر إليهم، وأهل المحبة يحبون أن يسمعوا كلامه، وهو يحب أن يسمع كلامهم، وأهل الأحوال يسألونه، وهو حسبهم، ويحب أن يسأله، وأهل المشاهدات يزورونه، وهو في قلوبهم يزورهم، وأهل الآخرة ينظرون إليه في الآخرة، وهو ينظر إليهم في الدنيا.

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، كما ذكرنا في قصة داود الملك الرسول؛ إذ أرسله الملك الجليل إلى أحبائه الأربعة عشر ولياً، أن يسألهم أن يسأله حاجة، فلما رأوه نفروا منه؛ لثلاث يشغلهم عنه؛ فذكرناها قبل هذا، فلا تنكرن من هذا شيئاً. فإنه يعطى المحبوب في الدنيا أول عطاء أهل الجنة في الآخرة؛ وهو «كُن»، فيزهدون في ذلك لأجل بقاءه، ويكرهون ذلك لحبه، قد جاوزوا معارف من سواهم. فإذا أعطاهم «كُن» أمرهم أن لا يقولوا: كُن في أمر الساعة، ولا يقولوا: كُن في كشف الغطاء عن النيران والجنان، وما وراءها من الكون والمكان للعيان قبل اللقاء. وإن كان مظهرة لباطنه إلا أنها مستورة بالصنع للإتقان، مقطوع عنها الوهم، راجع عنها الفكر والهم. وسألهم أن لا يظهروا ما في الحكمة والعقل إخفاؤه؛ لأن إظهاره لا يصلح للخلائق، ولا يستقيم عليه أمر المملكة، ولا ينتظم به التدبير، لما سبق من التقدير. وفيه سقوط الأحكام ووقوع الهلكة لكثير الأنام. فإذا رأوا ذلك منه وما قد استثناه عليهم منها، استجابوا له أحسن استجابة، وردوها إليه أسرع مردٍّ وأبلغه في مرضاته، وهو أن يتركوا إظهار شيء لإظهاره، ويزهدوا في كل معنى منها لوجهه، ورضوا بتصريف قدرته في مجارى حكمته. وهذا غاية الجهد، ونهاية الزهد والحب. فيشكر لهم ذلك أحسن شكر، ويدخر لهم عنده أفضل دُخر.

ولما دخل الزنج البصرة فقتلوا الأنفس، ونهبوا الأموال، اجتمع إلى سهل إخوانه فقالوا: لو سألت الله عز وجل في هذا الأمر، ولو دعوت. فسكت، ثم قال: لله تعالى عباد في هذه البلدة، لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه

(١) من هنا يبدأ الخط القديم في نسخة (هـ)، وفيها زيادات مهمة، راجع وصفها بالمقدمة.

الأرض ظالمٌ إلا ماتَ فى ليلة، ولكن لا يفعلون. قيل: ولم؟ قال: لأنهم لا يحبون ما لا يحب.

ثم ذكر من إجابة الله تعالى لهم أشياء لا نستطيعُ ذكرها. حتى قال: لو سألوه أن لا يقيمُ الساعة لم يقمها.

واعلم أنَّ العبد إذا بلغ من الله تعالى هذا المكانة، حتى يعطيه «كن»، اقتضته الحال أن يقول: وفَّقنى لما تحبّ، واعصمنى مما تكره، فإنى بشرٌ جاهل لا أحسنُ التدبير، ولا أعرف المقادير، ولا علم لى بعواقب الأمور، وأخاف أن يكون فى قولى تفاوتٌ، وفى إرادتى اضطرابٌ، فإذا أجابه تعالى إلى ذلك، سكت فلم ينطق، وسلّم، ورضى بالتدبير فأطرق؛ لأن الذى يحب الله تعالى يحب أن تكونَ الأمور على ما هى عليه الآن، والذى يكره يحب أن لا تكون على ما هى عليه؛ لأنها عن تدبيره، يظهر بمعانى الخير والشر؛ لأنه تولى التدبير بنفسه، كما استوى على العرش بوصفه، ولم يجعل على العباد تدبير المُلْك، إنما جعل عليهم الصبرَ والرضا للملْك، فرجع العبدُ إلى الصمت والأدب فى نفوذ المراد كما كان، وترك العبدُ الفضول والاعتراض، وحصل له مقام التوكل والرضا.

ولذلك كان أبو محمد رحمه الله تعالى إذا قيل له: ما مرادُ الله تعالى من الخلق؟ يقول: ما هم عليه.

فكيف تريد ما لا يريد، وهو محبٌ لصفاته التى عنها تظهر المرادات، ومنها تبدو الأحكام؟ ولا بدّ مما يكون، كما لا بدّ مما كان. و«كُن» منطوق تحت «كان»، ولولا «كان» لم يكن «كُن»، فكان أحبّ إليهم من «كُن»؛ لأن له ولهم مثل «كُن» أمثال، وليس لهم ولا له مثل «كان» مثل. فهؤلاء هم الذين لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قُرّة أعين، وهم المحبون لله من عباده، الزاهدون فى ملكوته لوداده.

وكذلك صنعوا مثلَ هذا فيما استخلفهم فيه من الأموال، لما سمعوه يقول: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، فأخرجوا الكلَّ لأجله، فكان هو خلقاً لهم من كل مالٍ، بعد أن كانوا مستخلفيه لما زهدوا فيما سواه، وصار هو

سبحانه وكيلاً لهم، بعد أن كانوا وكلاءه؛ فإذا قالوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ يقول الله تعالى لهم: ﴿فَانْقَلِبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤]، رضى الله عنهم ورضوا عنه؛ لأنهم عملوا بما قالوا، فتحققوا بالإيمان. وقيل: إن الإيمان قولٌ وعمل، ولا ينوب القول عن العمل. وإذا قالوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] قال الله تعالى: صدقتم؛ لأنهم لا يخدمون ولا يذلُّون لسواه، ولا يعدون للنوائب إلا إياه، ولا يستعينون بغيره. ولذلك صاروا صديقين لتصديق الصادق لهم. كما بلغنا: «أن العبد ليقرأ قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيقول الله تعالى: كذبت، لو كنت إياي تعبد لم تخف، ولم ترجُ سواي، ولو كنت بى تستعين لم تسكن إلى مالك وأهلك». وكذلك بلغنا: «أن العبد ليقرأ السورة من القرآن فتصلى عليه حتى يفرغ منها، إذا عمل بها، فهذا صديق. وإن العبد ليقرأ السورة من القرآن فتعلنه إلى أن يختمها، إذا لم يعمل بما يقول، فهذا كذاب».

فأين الإيمان؟ ولا إيمان إلا بعمل، فليس هذا مؤمناً حقاً. فالأولياء حققوا القول بالعمل، وشهدوا الإيمان باليقين. فإذا قالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، توكلوا عليه ورضوا عنه، وتألهوا إليه. ولم يكن فى صدورهم غيره، فيقول الله تعالى: صدقتم. فيكونون صديقين، كما يقول للشئ كن فيكون. فتدبروا. فإذا قالوا: ونعم الوكيل، قاموا مقام التوكل، فصار لهم فى الصدق مقامات. يقول الصادق: صدقتم، فيكونون صديقين. فيقول: عبادى، أنتم خيرتى من ذوى وِدادى، وأنا وكيلكم، رضيتم بى، وأنا حسبكم، فهؤلاء الذى انقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، واتبعوا رضوان الله، فأعطاهم من الجزاء أربعة معان: النعمة والفضل، والتوكل عليه، وصرفُ السوء، واتباعُ الرضا برضاهم عنه رضى الله عنهم. فالحبيبُ يعتذر له، والعدوُّ لا يقبل عُذره، والمحبوبُ لا يُحاسِب، والمبغضُ لا يُحسب له. وقد قال بعض الأدباء فى معناه:

من لم يكن للوصلِ أهلاً فكلُّ إحسانِهِ ذنوبٌ

وقال آخر فى وصف آخر:

فى وجهه شافعٌ يَمْحُو إِسَاءَتَه
وأنشدت لبعض المريدين المتحققين:
إِنِّى جَعَلْتُ مَنْظَرِى فى مُهْجَتِى
وَجَعَلْتُ وَدَّكَ لى إِلَيْكَ شَفَاعَةً
ولو أنْ وَقَتًا مِنْكَ بالدَّهْرِ كُلِّهِ
لَكَانَ قَلِيلًا أَلْفَ عَامٍ بِسَاعَةٍ

وبلغنى عن أحمد بن أبى الحوارى قال: دخلتُ على أبى سليمان الدارانى وهو يبكى، فقلتُ: ما يبكيك؟ قال: يا أحمد، إنَّه إذا جنَّ الليل، وهدأت العيون، وخلا كلُّ خليلٍ بخليله، افترش أهلُ المحبة وجوههم، وجرت دموعهم على خدودهم، أشرفَ عليهم الجليلُ فناداهم: بعينى مَنْ تَلَذَّذَ بكلامى، واستراح إلى خدمتى، وإِنِّى مُطَّلَعٌ عليهم فى خلَّواتهم، أسمعُ أنينهم، وأرى بكاءهم، هل خبركم عنى مخبرٌ أن حبيبًا يعذبُ أحبائه؟! أم كيف يمكن أن أؤنبَ قومًا وقفوا لى جوفَ الليل؟! أم كيف يجمل بى أن أعذبَ قومًا إذا جنَّهم الليلُ تملَّقونى؟! فبى حلَّفتُ أنهم إذا قَدِمُوا على هديتى إليهم أن أكشف لهم عن وجهى الكريم حتى ينظروا إلى^(١).

فليتق الله تعالى عبداً لم يطلعه الله عز وجل على ما ذكرناه، فيزهد فيه، ويعلو همُّه عنه، بمشاهدة قُدْرَةِ عَظِيمَةٍ، ومعاينة آيات كثيرة^(٢) ظاهرة وباطنة، أن يدعى المعرفة، أو يتوهم المحبة، فما عنده منهما إلا أمانى، وغرور وظنون وزور. والله تعالى يعطى قومًا الظنون، كما يعطى أولياءه اليقين، ويعطى قومًا المزورات لعلل القلوب، كما يعطى أحبائه المحققات فى مقام محبوب، بآيات بينات، وشواهد من اليقين، بإثبات كآيات القرآن وآيات الرسول. ولا يظهرهم على «كُنْ» حتى ينكشف الكون عن قلوبهم. وفى الكون ما فيه من نفيس الملكوت، وعظيم الرغبت، مما لا يصلح ذكره.

واعلم أن آفات النفوس وزينة الملك حجبُ قلوب العموم، وحظوظ العقل

(١) هذه الفقرة من (د) فقط.

(٢) فى (م): «آية كبيرة».

وشهوات الأرواح من مرغوب الملوك حجب قلوب الخصوص، وسمو القلب إلى معانى الدرجات التى يشاهدها ووقوفها مع خصائص الرحموت والرغبت التى يطالع بها حجب قلوب المحبوبين؛ لأنهم إذا جاوزوا شهوات النفوس ورفعت بحبهم عنه حجب العقول، وقفوا فى شهوات الأرواح، فلا يواجهون بالوجه، ولا ينظرون إلى الوصف، حتى يجاوزوا أيضاً شهوات الأرواح، وتكشف عنهم حجب الأنوار، فيخلفوا الرسم ويغيروا الوسم، فإذا انكشفت المقامات، وانقطعت الفضائل، وحققت المطالع، وسقطت المنازل والدرجات، اصطلم الطالب، وغلب المطلوب، وفنى الراغب، وبقي المرغوب، أظهر لهم التعلق بالاسم، وهو آخر الحجب، وأول القرب، يبتليهم به لينظر كيف يعملون فى الوسم، فعندها حقت: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧] الآية. وهناك صح له هذا المقام. وفى معناه:

ظَهَرْتَ لِمَنْ أَفْنَيْتَ بَعْدَ بَقَائِهِ فصارَ بلا كَوْنٍ لَأَنَّكَ كُنْتَهُ

فهذا مكان وجده بموجوده، وقيامه بقيوميته، بعد أن كان واجداً بكونه، وقائماً بقيامه.

وقد كان أبو يزيد يقول: إن أعطاك مناجاة موسى، وروحانية عيسى، وخلة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فاطلب ما وراء ذلك، فإن عنده فوق ذلك أضعافاً مضاعفة، فإن سكنت إلى ذلك حجبك به. وهذا بلاء مثلهم فى مثل حالهم؛ لأنهم الأمثل فالأمثل بالأنبياء. فإذا لم ينظر العبد إلى جميع المطلوب، ولم يقف على كون مرغوب، أقامه حيثئذ مقام محبوب، فأواه فى ظله، وعطف عليه بحنانه، ونظر إليه بعينه، وواجهه بوجهه، فتوجه إليه ولم ينثن، وسارع إلى قربه ولم ين، فلم يشهد فى وجهه وجهاً، ولا رأى فى يده يداً، وقام بشهادته لقيوميته مشاهداً. فهذا غاية الطالبين من العارفين.

وقد قال بعض العارفين المحبين: كُوشِفَتْ بأربعين حُوراء، رأيتهن يتساعين فى الهواء، عليهن ثياب من فضة وذهب وجوهر يتخشنخشن وينثنى معهن، فنظرت إليهن نظرة فعُوقِبْتُ أربعين يوماً. قال: ثم كُوشِفَتْ بعد ذلك بثمانين حُوراء؛

فوقهن فى الحسن والجمال، وقيل: انظر إليهن، قال: فسجدتُ وغمضتُ عيني فى سجودى؛ لثلاثاً أنظر، وقلتُ: أعوذ بك مما سواك، لا حاجة لى بهذا؛ فلم أزل أتضرع حتى صُرفن عني.

ولله عز وجل مثلُ هذا العبد فى كل قرنٍ وزمان ما يكثر عدده، متفرقين فى أرضه، ومنتشرين فى بلاده، ومخمولين مختبئين تحت ستره فى عبادته، لا تستطيع العقول حملَ وصفهم لضعفها، ولا يثبت فى القلوب حقّ نعتهم لوصفها، أقلُّ ما يوصفون به الإخلاصُ فى الحركة والسكون، وهو أجلُّ ما عندنا.

والإخلاص عند المخلصين إخراج الخلق من معاملة الخالق، فإذا لم يدخلوا كيف يخرجون؟ وأولُ الخلقِ النفسُ، فإذا لم يتكدر القلبُ بها كيف يُصفى منها؟ والإخلاص عند المحبين أن لا يعمل عملاً لأجل نفسٍ، ولا دخل عليه مطالعة العرض، والتشرف إلى حظّ طبع، بل للتعظيم. ولا يشرك محبوباً فى حبّ ذى الجلال والإكرام، ولا يعلّق قلبه بما يروق نظره من جمال لما ملأه من نهاية الحسن وغاية الجمال، ولا سبيل إلى هذا إلا بعد معرفته، ولا معرفة قبل معاينته، إذ ليس الخبر كالمعاينة، ولا معاينة إلا بنور اليقين، ولا حقّ يقين بوجود هوى نفسٍ. فإذا انكشف الحجابُ، وهوى الهوى، طلعت عينُ اليقين. فأنوار الصفات من الحُسْن والجمال والبهاء والكمال فى عين اليقين عيناً بعد عينٍ، كنور فوق نور، إلى نور النور.

والإخلاص عند الموحدين خروج الخلق من النظر إليهم فى الأفعال، وتركُ السكون والاستراحة بهم فى الأحوال.

ومن الإخلاص فى الصدق عند الصديقين سؤال الحجة فى قلوب الناس. كما قال بشر، وقد سئل: بأى شىء بلغت هذه المنزلة؟ فقال: كنتُ أكاتم الله تعالى حالى. معناه: أسأله أن يكتّم عليّ، ويخفى أمرى. وحدث أنه رأى الخضر عليه السلام، فقال: ادع الله تعالى لى. فقال: يسّر الله تعالى عليك طاعته. قال: قلت: زدنى. فقال: وسترها عليك. فقيل: فى تأويل ذلك مـنـيان؛ منهم من قال: وسترها عليك: أى يسترك حتى لا تُعرف بها، كما ذكرنا آنفاً. وقال

بعضهم: أرادَ سترها مِنكَ، حتى لا تنظر أنت إليها.

وقال بعضهم: قلَّقى الشوقُ إلى الخضرِ، فسألت الله تعالى مرةً أن يرينى إيَّاه، ليعلمنى شيئاً كان أهمَّ الأشياءِ علىَّ. قال: فرأيتَه، فما غلب على قلبى ولا همَّنى إلا أن قلتُ له: يا أبا العباس، علَّمنى شيئاً إذا قلتُه حُجبتَ عن قلوبِ الخليفة، فلم يكن لى فيها قدر، ولم يعرفنى أحدٌ بصلاح ولا ديانة. فقال: قل: اللهم أسبل على كثيف سترك، وحطَّ على سُرادات حُجُبِكَ، واجعلنى فى مكنون غيبك، واحجبنى عن قلوب خليقتك. قال: ثم غاب فلم أره، ولم أشتق إليه بعد ذلك. قال: فما تركت أن أقول هذه الكلمات فى كلِّ يوم.

فحدَّثت أن هذا كان يُستدَلَّ ويُمتَهَن، حتى كان أهلُ الذمة يُسَخِّرونه فى الطريق، يحوِّل الأشياءَ لهم؛ لسقوطه عندهم، وكان الصبيان يُولعون به. وكانت راحته فى ذلك، ووجودُ قلبه به، واستقامة حاله عليه.

وهذا طريق جماعة من السلف، وحالُ طبقةٍ من صادقى الخلف، أخفوا أنفسهم، وأسقطوا منازلهم، فسُمُّوا عقلاء المجانين، وهذا من الزهد فى النفس، وحقيقة التواضع، إلا أنه زهد مجانين الأولياء، وتواضع موقنى الضعفاء^(١).

فالتكبرُ يكون بثلاثة معان: تكبر على الناس عُجباً بالنفس. وتكبرُ فى قلوب الناس عزةً من النفس، أى يحب أن يكبرُ فى قلوبهم، فيكون ذلك تكبراً منه. وتكبرُ فى القلب عن نظره إلى صلاحه ودينه، فيكبرُ ذلك عنده، فيُدَلَّ به. ولذلك رآه من نفسه لقصور علم اليقين منه. وهذا أدقُّ معانى التكبر، ولا يتخلص منه إلا صحيحو التوحيد، صادقو اليقين، مخلصو الصالحين.

وأما التكبر الظاهر الذى هو التناول والفخرُ والتَّظاهرُ، فذاك جَلِيٌّ، وهو من أكثف حُجبِ القلب، وأقوى صفاتِ النفس. فلذلك فرَّع العلماء من دقائقه لما عَرَفُوا، فطلبوا القِلَّةَ والدَّكَّةَ للنفس، ليمتنهوها بخفايا التواضع، لينتفى عنهم دقائق الكبر، لتخلص لهم الأعمال.

(١) فى (د): «وتواضع ضِعاف الصادقين».

وليس التواضع عند المتواضعين هو حقيقة الذلة، ولا التذلل هو حقيقة الضعة، ولكن حقيقة ذلك أن يكون العبد ذليلاً صفةً، لا مُتَذللاً متعمداً للذلة، وأن يكون عند نفسه في نفسه وضيعاً، وحيداً، حقيراً، معتقداً لصغره وحقارته في نفسه، لا متواضعاً متكلِّفاً. وعلامة ذلك أن لا يغضب إذا عابه ونقصه عائب، ولا يكره أن يذمه ويقذفه بالكبائر دأماً.

وبيان ذلك في وجده: أن لا يجد طعمَ الذل في ذلة، ولا يشهد الضعة في تواضعه، إذ قد صار ذلك له صفة وطبعاً، فمن ذل، ووجد ذوقَ ذلّه، فهو متعمل للتواضع، ومن تواضع وشهد تواضعه وضعته، فهو متعزّز؛ وهي علامة بقية الأنفة في نفسه لنفسه. ومتى غضب أو كره ذمه من غيره، فهو يفرح ويرضى بمدحه، فإذا كانت فيه هذه العلامات فهو محجوبٌ عن جميع ما ذكرناه من المقامات. ومتى ذلّ نفسه، واتضع عند نفسه، فلم يجد لذلك ذوقاً ولا لضعته حساً، فقد صار الذل والتواضع كونه، فهذا لا يكره الذم من الخلق لوجِدِ النقص في نفسه، ولا يحب المدح منهم لفقد القدر والمنزلة من نفسه. فصارت الذلة والضعة صِفته لا تُفارقه، لازمةً له لزوم الزبالة للزبال، والكساحة للكسّاح؛ هما صنعتان لهما كسائر الصنائع، وربما فخرُوا بهما لعدم النظر إلى نقصهما. فهذه ولايةٌ عظيمة له من نفسه، قد ولّاه على نفسه، ومَلَكه عليها فقهرها بعزّه.

وهذا مقام محبوب، وبعده المكاشفاتُ بسرائر الغيوب. أول ذلك دخول نور الحكمة في القلب، وينبوع الحكم من قلبه، كما روينا أن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام قال: «يا بني إسرائيل، أين ينبت الزرع؟ قالوا: في التراب. فقال: بحق أقول لكم: لا تنبع الحكمة إلا في قلب مثل التراب». ومن كان حاله مع الله تعالى الذل طلبه واستحلاه، كما طلب المتكبر العزّ ويستحليه إذا وجده، فإن فارق ذلك الذل ساعةً تغير قلبه لفراق حاله، كما أن المتعزّز إن فارقه العزّ ساعةً تكدر عليه عيشه؛ لأن ذلك عيش نفسه.

ومن رُوينا عنه اختيارُ الذل، وإسقاطُ المنزلة والقدر عند الناس، ومحو جاهه وموضعه من قلوبهم، وأظهر على نفسه ألوان معاني الذم، أكثر من أن يحصى،

وذكرهم يطول، وذاك أن حالهم الصدق يقتضيهم القيام بحكمها، فلا بد من قيامهم بمقتضى حالهم.

حدثني بعض الأشياخ عن أبي الحسن الكريني أستاذ الجنيد، أن رجلاً دعاه ثلاث مرات إلى طعامه ثم يرده، فرجع إليه بعد ذلك حتى أدخله المنزل في المرة الرابعة، فسأله عن ذلك، فقال: قد رُضتُ نفسي على الدّلّ عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب، يُطرد فينطرد، ثم يُدعى فيُرمى له عظم فيجىء. وزاد غيره، وقال: لو ردّدتني خمسين مرة، ثم دعوتني بعد ذلك لأجبت.

وحدثني شيخ آخر عن أستاذه قال: نزلتُ في محلّة فعُرفتُ فيها بالصلاح، فتشتت قلبي، فدخلتُ حمّاماً في الجوار، وعيّنت على ثياب فاخرة، فسرقها ولبستها، ثم لبستُ مرقعتي فوقها، وخرجتُ أمشي قليلاً قليلاً، ليُفطن بي، فلحقوني، فنزعوا مرقعتي، واستخرجوا الثياب، وصفعوني، وأوجعوني ضرباً. فصرتُ أعرف في الناحية بلصّ الحمّام، فسكنتُ نفسي.

وحدّثت عن بعض الصوفية: أنه وقف على رجل يأكل، فمدّ يده إليه، فقال: إن كان ثمّ شيء لله. فقال له: اجلس فكل. فقال: أعطني في كفي، فأعطاه في كفه، فقعده في مكانه يأكله. فسأله عن امتناعه من الجلوس معه. فقال: إن حالي مع الله عز وجل الدّلّ، فكرهتُ أن أفارق حالي. وكان هذا ربما مدّ يده إلى الرأس فيضع فيها هريسة، والعربُ تأنف أن يوضع الشيء في أكفها لعزة نفوسها. حتى روينا عن بعض الصحابة من المهاجرين الأول في أول النبوة أنه قال: جعت ثلاثاً لم أطعم شيئاً، فبلغني أن إنساناً يتصدّق بزبيب، فسألته، فقال: هات كفّك. فقلّت: إني رجلٌ من العرب، ولا آخذ في كفي، فاجعله لي في شيء، قال فجعله في مكيل، ثم ناولنيه، فلما فرغته رددته إليه. فكانت فيه عزة نفس. لا جرم أن رسول الله ﷺ قال له: «أنت امرؤ فيك جاهلية». فقال: على ما أنا عليه من كبر السن؟ قال: نعم». وكان قد خاصم رجلاً، فأرى عليه تعزُّراً.

وإنما نبهنا ببعض ما ذكرناه العقول المستيقظة، وحركنا بما بينا القلوب الحية، ليحيا من حيّ عن بينة، بذكر أوصاف الصادقين، وطُرقات المخلصين، ليستدل

على الكثير باليسير .

وقد كان شاهدٌ من شهود بَسْطام عَظِيمِ القدر فيهم ، لا يفارق مجلسَ أبي يزيد ، فقال له يوماً : يا أبا يزيد ، أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لا أفطر ، وأقوم الليل لا أنام ، ولا أجد في قلبي شيئاً من هذا العلم الذي تذكر ، وأنا أصدق به وأحبه . فقال له أبو يزيد : لو صمت ثلاثمائة سنة ، وقمتَ ليلها ، ما وجدتَ من هذا ذرة . قال : ولم ؟ قال : لأنك محجوب بنفسك . قال : أفلهذا دواء ؟ قال : نعم . قال : قل لي حتى أعمله . قال : لا تقبل . قال : فاذكره لي . قال : اذهب الساعة إلى المزين ، واحلق رأسك ولحيتك ، وانزع هذا اللباس ، وأتزر بعباءة ، وعلق في عنقك مخلاة مملوءة جوزاً ، واجمع الصبيان حولك ، وقل : كلُّ من صَفَعَنِي صَفْعَةً أعطيته جَوْزَةً ، وادخل الأسواق كلها عند الشهود ، وعند من يعرفك ، وأنت على ذلك . فقال الرجل : سبحان الله تقول لي مثل هذا ؟ فقال أبو يزيد : قولك سبحان الله شرك . قال : كيف ؟ قال : لأنك عظمتَ نَفْسَكَ فسبَّحتها . قال : هذا لا أفعله ، ولكن دُلَّنِي على غيره . قال : ابتدء بهذا قبل كل شيء . فقال : لا أُطيعه . فقال : قد قلتُ لك إنك لا تقبل .

فهذا لما قال سبحان الله كان مشركاً عنده ؛ لأنه سبَّحه برَسْمٍ لِنَفْسٍ . وقد كان أبو يزيد يقول : سُبْحَانِي مَا أَعْظَمَ شَأْنِي ، وهو موحدٌ ، لأنه وحدٌ بأوليةٍ بَدَتْ .

وهذا الذي ذكره دواء مَنْ اعتلَّ بنظره إلى نفسه ، ثم سقمَ بنظرِ الناس إليه ، ولزمه الشكُّ بنظره^(١) إلى نظرهم ، ليس لها من دون الله كاشفة . إلا أن هذا من طبِّ المجانين ، يصلح لضعفاء اليقين . ولو أدخل الطبيب الأعلى ذرةً من عين القُدرة^(٢) أخرج بها من قلبه كلَّ نظرةٍ ، فاستراح من كلِّ دواء . ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ، لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بينة بشواهد الخلق^(٣) ، ويحيا من حيا عن بينة بشاهد الحق . ويتلوه شاهدٌ منه .

(١) في المطبوعة : «سد نظره» .

(٢) في المطبوعة : «اليقين» .

(٣) في المطبوعة : «الحق» وهو تحريف ، والتصويب من الأصول .

فلا تنكرون من جميع ما ذكرناه شيئاً، فتخسر أقل أنصبه المؤمنين من علم القدرة واليقين، لأنّ للمؤمنين أنصبه من هذا العلم؛ منها المشاهدة لما وصفناه، والإدراك لما رمزناه، ومنها الوجد والحال، ومنها المعاملة والمنازلة، ومنها الذوق والشم منه، وآخرها التصديق والقبول. فأقل النصيب من علم المعرفة إن لم يشهد فلا يجحد، وإن لم يعرف فليتعرف، ولكن معقله التسليم [لأهله، فهو معقل المسلمين، وفيه يسلمون من عدوهم، ويؤمنون البدع في دينهم]^(١)، وليس وراء هذا مكان.

وهذه المقامات التي شرحناها وهي مقامات اليقين؛ أولها التوبة إلى هذا المقام من المحبة منوطٌ بعضها ببعض. إن أُعطِيَ العبد حقيقةً من أحدها أُعطِيَ من كل مقام حالاً، ومع كل حال مشاهدة، ولكل مشاهدة علم، إلا من شهد بالحق، وهم يعلمون. وكلّها مجموعة في حقيقة الإيمان، إن أُعطِيَ العبد حقيقةً من إيمان بيقين، حتى يكون مؤمناً حقاً، غير مرتدّ عنه، ولا مستبدل به في علم الله تعالى، وكان إيمانه منّةً وهبةً لا عاريةً ولا ودّيعَةً، فيسترد ويرتد على إظهار لبس أو إدراج مكر؛ محنةً من الله تعالى وخبرة. ويكون مُستبدلاً لا بدلاً، فإذا لم يكن كذلك، وكان بدلاً من مُستبدل به، أُعطِيَ من جميعها حالاً حالاً، وشهادةً شهادةً، وإن تفاوتوا في العلوم، وتعالوا في القرب، وذاك هو كمال الإيمان.

وقد روينا عن رسول الله ﷺ في وصف كمال الإيمان ثلاثة أحاديث هُنَّ أصول هذه الأحوال، وأساس هذه الأفعال، منها: أنه قال: «لا يستكمل العبد إيمانه حتى يكون قلةُ الشيء أحبَّ إليه من كثرة الشيء، وحتى لا يُعرف أحبُّ إليه من أن يُعرف». فهذان حالا الصادق الزاهد، وهما أول الطريق المؤدى إلى التحقيق، وأس البنیان الرافع.

والحديث الثاني: قوله ﷺ: «ثلاث من كُنَّ فيه استكمل إيمانه: لا يخاف في الله لومة لائم؛ ولا يرائي بشيء من عمله. وإذا عُرِضَ له أمران؛ أحدهما للدنيا، والآخرة للآخرة، أثر أمر الآخرة على أمر الدنيا». فهذه أحوال المحبّ لله تعالى، المخلص بمعاملة الله عز وجل، الراغب فيما عند الله تبارك وتعالى.

(١) ما بين المعكفتين من الأصول (د، م، هـ).

والحديث الثالث: قوله ﷺ: «لا يكْمُلُ إيمان أحدكم حتى يكون فيه ثلاث خصال؛ من إذا غضب لم يُخرجه غضبه عن حقٍّ، وإذا رَضِيَ لم يدخله رضاه في باطلٍ، وإذا قَدِرَ لم يتناول ما ليس له». فهذه تجمع أحوال العدل، والفضل، والمراقبة، والزهد، وهى أصول المقامات.

ويشبه هذا الحديث قوله ﷺ في الحديث الرابع: «ثلاث من أوتيهنَّ فقد أُوتى مثل ما أُوتى آل داود: العدلُ فى الرضا والغضب، والقصد فى الغنى والفقر، وخشية الله تعالى فى السر والعلانية».

وتفسير ما ذكرناه قبيلُ من أنّ هذه المقامات مرتبطة بعضها ببعض، وأن من أعطى حقيقة من أحدها أُعطى من جميعها أن يجمع حالاً، إذ يجمع ذلك كله الإيمان بالله تعالى، فيتوب العبد إلى من آمن به، وإلى ما آمن به من الوعد، وما آمن به من الوعيد، ليحق إيمانه ويصح يقينه، وليستقيم توحيده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [نصت: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمُّ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢]. وقال: ﴿فَأَمِنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّى﴾ [العنكبوت: ٢٦]. فذهب إليه لما آمن به، وهو الرجوع، وهى التوبة.

ثم يزهد فيما تاب منه من هواه، لتصح توبته، وتخلص نيته، فيكون نصوحاً، كما قال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٌ﴾ [النحل: ٩٦]. وقال: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الاعلى: ١٧]. وقال: ﴿وَشَرُّهُ بِشْمِنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠] لما أخرجوه من أيديهم وتركوه، وتابوا إلى أبيهم، وزهدوا فيه.

ثم يصبر عما زهد فيه ليحق زهده، كما قال: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]. وقال عز وجل: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ٧].

ثم يشكر على ما صبر عنه ليكمل صبره، كما قال: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]، ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣١].

ثم يرجو من شكر له ليزيده من فضله فيعطيه فوق سؤله بحسن ظنه به، كما قال تعالى: ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةً رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩].

وقد ذم من أيس من رحمته بقوله: ﴿وَلَيْتَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩].

ثم يخاف فوت ما رجا، ويخاف من تقصيره في الشكر لما أولى، لتحق غيبته برجائه، ويتم إشفاقه من تبديل الآية، ويخاف نقصان المزيد، كما قال سبحانه: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]. وقال مخبراً عن أوليائه: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [الطور: ٢٦ - ٢٧]. وقد عاب الله من فرح بما أظهر له، وفخر بما أوتى، وأمن عود البلاء، ونسى أنه كان مبتلى، في قوله تعالى: ﴿وَلَيْتَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠].

ثم يتوكل على من خافه، فيسلم نفسه إليه، ويستسلم بين يديه، أن يحكم فيه ما أحب، لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]. وقوله: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨ - ٥٩].

ثم يرضى بمن توكل عليه، وعمن توكل له، لعلمه بحكمته البالغة، وتدييره الحسن، لقوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]. ولقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

ثم يحب من رضى به ورضى عنه، إذ كان قد اختاره على ما سواه، وإذ صار حسب ما رآه، فصارت هذه المقامات التسع كمقام واحد؛ إذ بعضها منوط ببعض. ودليلها كتاب الله تبارك وتعالى الحق اليقين النور المبين، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه من طرق الهوى، ولا من خلفه من خيل الأعداء. فأشبهت دعائم الإسلام الخمس فى مقام العموم من طريق الإسلام، إذ بعضها مرتبط ببعض، كهذه فى مقام الخصوص من طريق المقربين.

ثم يرجع بعد مقام المحبة إلى حال الرضا قوةً فقوةً، ثم يتردد فى مقام المحبة رتبةً رتبةً، وليس فوق حال الرضا مقام يعرف، ولا فوق مقام المحبة حالٌ يوصف. وهما موجب المعرفة، ومنتهاها المعروف، وقرارها المألوف. وإن إلى ربك المنتهى، وإلى ربك يومئذ المستقر. فليس للرضا نهاية، إذ ليس للمحسوب غاية، وإن الرضا مزيد أهل الجنة فى الجنة، وليس للحب نهاية؛ لأنه عن الوصف؛ ولا غاية للصفات. وليس لطلب المحب حد لأنه عن القرب، ولا غاية للقرب لأنه عن وصف قريب، ولا حد لقرب، فيترافع المؤمنون فى الحب مقامات على نحو تجلّى الحبيب بمعانى التقليل، وبتزايد الرضوان فى الرضا درجات حسب تعاليهم فى علو المشاهدات، وبتعالى أهل عليين فى السمو غايات، على قدر أنصبتهم من قوة الإيمان وصفاء اليقين. قال الله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. فأعطاهم من معانى وصفه العلو، ثم وصف نصيبهم بوصفهم فقال: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلِيٍّ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلِيُّونَ﴾ [المطففين: ١٨ - ١٩]، فعليون لا نهاية له فى العلو، إذ هو من أسماء المبالغة فى الوصف. وقيل: إنه اسم لا واحد له من جنسه، فهو علًا فى علوهم، يعلو بهم أبدًا، فى علو علوهم فى دار الأبد. وهم أعلون؛ لأن الأعلى معهم، فهم يعلون به، وعليون يعلو بهم، هذا كله لأنه معهم، كما قال: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

فالرضا الأول - الذى هو قبل المحبة - مقام التوكل، وحال المحب المحبوب.

والرضا الثانى - الذى يكون بعد المحبة - مقام المعرفة، وحال المحبوب التوكل حاله.

والمحبة من أشرف المقامات ليس فوقها إلى فوقها إلا مقام الخلّة، وهو مقام فى المعرفة الخاصة، وهى تخلل أسرار الغيب، فيطلع على مشاهدة المحبوب، بأن يعطى حيلة بشىء من علمه، بمشيئته على مشيئته التى لا تنقلب، وعلمه القديم الذى لا يتغير. وفى هذا المقام الإشراف على بحار الغيوب وسرائر ما كان فى القديم، وعواقب ما يؤوب. ومنه مكاشفة العبد بحاله، وإشهاده من المحبة مقامه،

والإشرافُ على مقامات العباد في المآل، والاطلاع عليهم في تقلبهم في الأبد حالاً
فحالاً.

وقد ذكر أبو يزيد البسطامي، وأبو محمد سهل، أنهما أقيما في هذا المقام،
ووصفا حالهما منه، وقد كان لشقيق وابن أدهم البلخيين مطالعات في هذه
المعاني. وقد سئل بأبي الفيض في هذا الطريق، فظهر على ما فيه مما يبهر من
رأى انقلاب الأعيان، وتبصرة بعظيم العيان. وهذا محجوبٌ عن أوهام القلوب
بعقولها، ومستورٌ في جُب غيابة الغيوب^(١) بأرواحها. فإذا خرجت النفس من
الروح، فكان روحانياً خروج الليل من النهار، تنفس المكروب، وإذا خلا العقل
عن القلب، وكان ربانياً، انفرجت الكروب. كما قال العارف:

بحياتي يا حياتي لا تُبعد قُرْباتي

أخرج النفس من الروح وروح كُرباني

وقد قال أحسن القائلين: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾

[البقرة: ٢٥٥]. والاستثناء واقع على إعطاء الحيلة بشيءٍ من شهادة علمه، بنورٍ ثاقبٍ
من وصفه، وشعاعٍ لائح من سُبْحته إذا شاء.

وهذا معنى من سر التوحيد لا يكشفه إلا عين اليقين، ولا يُظهره حتى يظهر
لنا منه عارف ما عليه قد أوقف، وما منه به قد كُشف، فحينئذ يقع العين على
العين، ويضيء الكوكب الدرّ في جوهر مشكاة القلب.

وقد كان للشيخ أبي الحسن بن سالم رحمه الله تعالى من هذا الطريق
مشاهداتٌ ومطالعاتٌ وسياحاتٌ في الغيوب، وجريانٌ في الآخريات، وانقلبت له
الأعيان، وظهر له العيان، وطوى له المكان، ورأى ألفَ ولىٍّ لله تعالى، وحمل
عن كل واحد علماً، ثم انقطع الطريق بعد فقده، وعفا الأثر ودرس الخبر. ثم الله
تعالى أعلم بما هو صانع بهذا الطريق وأهله، هل ينشئ^(٢) له أهلاً، وينهج له

(١) في المطبوعة: «غاية القلوب»، وهو خطأ.

(٢) في (هـ): «ينشر».

طريقاً؟ أم يطويهم في طي طريقهم، ويخفي طريقهم في خفايا الموج الغامض في غامضات العلم السابق؟

نقول في ذلك، كما قال إمام الأئمة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، بعد إذ ذكر في خطبته قيام الساعة، واستقرار أهل الدارين فيهما، قال: ثم الله أعلم فيما هو صانع بالدنيا بعد ذلك. فهذا من سر السر الذي أودعه صاحب الأمر.

وليس فوق مقام الخلّة مقام إلا درجة النبوة. وهو محبوب عن القلوب، كحجاب هذا المقام من الخلّة عن قلوب العموم. فهذا لا قوّة فيه^(١)؛ لأنه درك منه، ولا حزن عليه؛ لأنه لا يُصيبُ عنه. ولكن مقام الخلّة لا يكون إلا في مقام محبوب على كل حال. وما سمعت من أحد من أهل العلم الباطن والمعرفة الثاقبة رَسَمَ من علم الخلّة ولا من وصف محبوب نفساً في كتاب، ولا قرأته إلا نكتاً في الأخبار، ولمعاً من الآثار.

واعلم أنه كلام محبوب عن مقام خلّة، ولكنه مستودع في كتاب الله تعالى المكنون، وغامض من خطابه المصون، ومخبوء بقدرته في سر آياته عن القلوب والعيون، يُكاشفُ به الساجدين، ويظهر عليه أهل السر من العارفين: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦].

وقد كان الحسن رحمه الله تعالى يروى في الخلّة أخباراً؛ منها: «إن الله عز وجل أوحى إلى بعض أنبيائه: إنما أتخذ خلّتي من لا يفتّر عن ذكري، ولا يكون له غيري، ولا يؤثر على شيئاً من خلقي، وإن حرق بالنار لم يجد لحرق النار وجعاً، وإن قطع بالمنشير لم يجد لمس الحديد ألماً».

وقد روينا عن الخليل الحبيب ﷺ أنه قال: «تحابوا في الله، وتصافوا، وتبادلوا، وتخاللوا فيها، وليس من كرم الله تعالى أن أتخذ عبداً من عباده خليلاً».

فنبه أنا الخلّة من الله تعالى كانت لأوليائه عن فرط كرمه وفضل آلائه، ألحقهم

(١) في المطبوعة (هـ): «لا فوت فيه».

بكرامته بها، وأَهْلَهُمْ بفضلها لها، وعَظَّمَهُمْ عن نصيب تعظيمه فيها. والله الواسعُ الكريم ذو الفضل العظيم، إذا رَفَعَ عبداً جاوز به الحدودَ، وإذا خَفَضَهُ وضعه تحت المحدود.

وقد تكلم الجنيد رحمه الله تعالى في مقام من هذا، وقد سئل عنه فقال: هو غاية الحب، وهو مقام عزيز يستغرق العقول، وينسى النفوس، وهو من أعلى علم المعرفة بالله تعالى. وقال: في هذا المقام يعلم العبدُ أن الله عز وجل يحبه، ويقول العبد: بحقي عليك وبجاهي عندك. ويقول: بحبك لى. قال: وهؤلاء هم المدلُّون على الله تبارك وتعالى، والمستأنسون بالله تعالى، وهم جلساء الله تعالى، قد رفع الحشمة بينه وبينهم، وزالت الوحشة بينهم وبينه، فهم يتكلمون بأشياء هي عند العامة كفرٌ بالله تعالى، لما قد علموا أن الله تعالى يحبهم، وأن لهم عند الله جاهاً ومَنَزَلة، ثم قال عن بعض العلماء: أما أهلُ الأنس بالله تعالى فليس إلى معرفتهم سبيل.

هذا نقل من كلام الجنيد، ونحو معناه حدثني به الخاقاني المقرئ، ولولا أنا رويناه عنه ما ذكرناه، لأننا لا نشرح حال هؤلاء في كتاب إشفافاً على الألباب، كما قال المجل:

* غَيْرَ أَنِّي أُجَلِّكُم عَنْ عِتَابٍ فِي كِتَابِ *

وقد كان شيخنا أبو بكر بن الجلاء رحمه الله، كتب إلى شيخنا أبي الحسن بن سالم رحمه الله تعالى، يسأله عن مسائل من معاني السرائر في كتاب، فحدثني من رآه: رمى بالكتاب، وقال: أين صاحبُ هذه المسائل؟ فقليل: هو غائبٌ بمكة، فقال: أنا لا أجيب عن هذا في كتاب، قولوا له: يحضر إن أراد.

وقد حدثني ابنُ الجلاء بهذا؛ لأنَّ مقام الخُلة هو الذى أخفيناه وعظَّمناه، لا يُعطاه العبد إلا في مقامٍ مع مقامٍ. فالمقام الأول: هو المعرفة الخاصة بظهور يعرف كشفاً عن وصف الباطن، ثم يدخل عليه المحبة المخصوصة وهو مقام محبوب، ثم يرفع من هذا المقام إلى مقام الخُلة وهو الإشراف على سرائر غيوب من شُرُفات العرش، وسراقات القدس، وغير ذلك. والأصل فيما ذكرناه أنه سبحانه يعطى

مقامات المعرفة فى مقام عارف، ولا يعطى فيه مقام محبوب. وقد يعطى مقامات من المحبة فى مقام محب، ولا يعطى شهادة خُلة لغير خليل عارف. فإذا جمع مقام معرفة، تعرّف إلى مقام محبة محبوب، أُعطى معه مقاماً من الخلة الذى وصفناه، وهذا من أعز ما أظهر فى الكون لمظهر مكنون.

ورويانا عن رسول الله ﷺ أنه خطب الناس قبل موته بثلاث فقال: «إن الله تعالى قد اتخذ صاحبكم خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً». فرفع ﷺ فى مقام محبوب إلى درجة خليل، كما نُقل من مقام محب إلى حال محبوب، كما زيد بالمحبة فى مقام الصفة.

وقال أيضاً فى المقام الأول: «إن الله عز وجل اتخذ موسى صفيّاً، واتخذنى حبيباً».

فأول العطاء هو الصفاء من الهوى، ثم المحبة بعد الصفاء، ثم الزيادة بوصف محبوب فوق المحبة. ثم ارتفع فعلاً بعد القوة والاستواء إلى العلى الأعلى، فدنا لما علا فتدلى، حتى دنا فكان قاب قوسين أو أدنى، وكانت اليد^(١) من ورائه، والوجه مواجهاً لوجهه.

وكان ما كان مما لست أذكره فظنّ خيراً ولا تسأل عن الخبر

إذ من العلوم علم لا ينبغي أن يسأل عنه، حتى يبدى العالم ذكره، فهذا منها، فلا يُبدى إلا بقدر معلوم، بمقدار ما أبدى المبدئ، ويعيد منه بقدر ما أعاد المعيد، وكان لديه خليلاً، كما كان عنده قريباً، فصارت الخُلة مقاماً فى محبوب، وهو نهاية المزيد، كما كان مقام محبوب زيادةً على مقام محب، كما رفعه إلى المحبة بعد الصفة من كدر الهوى. وكذلك أنت أيها السامع الشاهد، يجعل لك بعد الصفاء نصيباً من نصيب، وشهادةً على شهادة، ووجداً من وجد، وفقدًا للنفس من فقد. فلا يذهب كثير النبوة منه صغير العطية لك؛ لأنه تعالى رفع الطائعين له ورسوله ﷺ مقاماً إلى مقام النبيين والصديقين، والصديقون باقون إلى نزول

(١) فى المطبوعة: «البلد».

الروح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، وهم الأبدال، عددهم في كل الدنيا ثلاثمائة وما شاء الله، منهم: الشهداء والصالحون. فهم ثلاث طبقات، وكلهم مقربون سابقون. إيمانٌ صديقٌ منهم كإيمان جميع الشهداء، وإيمان شهيدٍ كإيمان كل الصالحين، وإيمان كلٍّ صالحٍ بمقدار إيمان ألف مؤمن من عموم المسلمين.

وليس في الخلّة شريكٌ لغير الخليل على خَلِيلِهِ؛ ولأنّها حال مفردةٌ لفردٍ، موحدةٌ لواحد. ولو كان يصلح لها نظير، ويوزر بها وزير، كان أحقّ الأمة بذلك الصديق [أبو بكر رضى الله عنه]، فقد أعطاه تعالى ثلاثاً لم يُعطاها غيره، منها: إنّنا روينا أن النبي ﷺ قال له: «إن الله عز وجل أعطاك مثل إيمان كل من آمن بى من أمتى، وأعطانى مثل إيمان كلٍّ من آمن به من ولد آدم».

والحديث الثانى: «إن الله تعالى ثلاثمائة خلُق، من لَقِيَهُ بخلُقٍ منها مع التوحيد دخل الجنة». فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه: يا رسول الله، هل فى منها خلُق واحد؟ فقال: «كلّها فيك يا أبا بكر، وأحبّها إلى الله عز وجل السخاء».

والحديث الثالث هو المستفيض: «رأيت ميزاناً دُلّى من السماء، فوُضعت فى كفة ووُضعت أمتى فى كفة، فرجحتُ بهم. ووُضع أبو بكر فى كفة، وجىء بأمتى فوُضعت فى كفة، فرجَحَ بهم». وليس بين الصديق وبين الرسول إلا درجة النبوة.

والقطب اليوم الذى هو إمام الأئافى الثلاثة، والأوتاد السبعة، والأبدال الأربعين والسبعين إلى ثلاثمائة، كلهم فى ميزانه، وإيمانُ جميعهم كإيمانه، إنّما هو بدلٌ من أبى بكر رضى الله تعالى عنه، والأئافى الثلاثة بعده إنّما هم أبدالُ الثلاثة الخلفاء بعده، والسبعة هم أبدال السبعة إلى العشرة. ثم الأبدال الثلاثمائة وثلاثة عشر، إنّما هم أبدال البدرين من الأنصار والمهاجرين أهل الرحمة والرضوان.

فمع هذا الفضل العظيم لأبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه، لم يصلح أن يشرك الحبيب الرسول المقرب الخليل فى مقام الخلّة، كما صلح أن يشرك فى مقام الأخوة، وهو المقام الذى شَرَك فيه علياً كَرَّمَ الله وجهه، فقال: «علىّ منى بمنزلة

هارون من موسى». فهذا مقام أخوة.

كذلك في التفرد بمقام الخلّة: «لو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله» تبارك وتعالى، يعنى نفسه صلوات الله عليه، لأنه واحدٌ لواحد، مفردٌ لفرد، فاعتبروا يا أولى الأبصار والألباب، بتدبر فهم الخطاب؛ فمن أعطى من الصفاء نصيباً أعطى من الحب نصيباً، وكان له من المعرفة بقوة محبته، ومن المعرفة بقدر معرفته. فأما المعرفة الأصلية التى هى أصل المقامات ومكان المشاهدات، فهى عندهم واحدة؛ لأن المعروف بها واحد، والمتعرف عنها واحد، إلا أن لها أعلى. وأولٌ مخصوص المؤمنين فى أعلاها، وهى مقامات المقرّين، وعمومهم فى أولها، وهى مقامات الأبرار، وهم أصحاب اليمين. ولكلّ منهم وجهةٌ من الصفات المخوفة عنها كانوا خائفين، أو الأخلاق المرجوة منها كانوا راجين، أو الأفعال والأملak عندها كانوا صابرين شاكرين، أو معانى أوصاف ذات منها كانوا محبين متوكّلين. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةً هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]. ويقال: «من أحب شيئاً حُسر معه». وفى الخبر: «المرء مع من أحب وله ما احتسب». وفى الخبر: «من مات على مرتبة من المراتب بُعث عليها يوم القيامة».

فأما جملُ مقامات المحبين فمذكورة فى الكتاب العزيز من الحبيب اثنى عشر مقاماً: خمسٌ فى دليل الخطاب وتدبر الألباب، وسبعةٌ فى صريح الكلام بظاهر الأفهام.

فأما السبع المصرحة: فقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]. ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]. ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وأما الخمسة المتدبرة فهم: الموحدون، لقوله: ﴿لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]. والعادلون، لقوله: ﴿لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧]. والمستقيمون، لقوله:

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٨]. والمتواضعون، لقوله: ﴿لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]. والموفون، لقوله: ﴿لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]. وهؤلاء طبقات المحبوبين تعريضاً وتصريحاً.

وشرح هذه الأوصاف هي مقامات اليقين، وفي كل مقام من هذه أحوال يكثر عددها. كل حال منها طريق إلى الله عز وجل. في كل طريق طائفة من المحبين، محبتهم على قدر معرفتهم، ومعرفتهم على زنة تعرف المعروف إليهم، وعن نحو تعريف المعروف لهم. وذلك معنى من معارفهم، فهم على زنة يقينهم، ويقينهم على حسب صفاء إيمانهم، وإيمانهم على نحو عناية الله بهم وتفضله عليهم وإيثاره لهم. ومن وراء ذلك سر القدر المخزن المستأثر. وليس فوق المحبة مقام مشهور، ولا دون التوبة حال مذكور.

فأول المقامات: التوبة، يخرج بها من الظلم، والظلم حال من الشرك. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] في الدنيا. وهذا فصل الخطاب لأضدادهم. فأى الفريقين أحق بالأمن؟ الذى آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم، أولئك هم أحق بالأمن غداً فى المقام الأمين. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

فآخر الظلم أول التوبة، وآخر التوبة أول المحبة، وآخر المحبة أول المعرفة، وهى معرفة متعرف، وهى الخاصية مزيد المحبة الأولى، وآخر نصيب العبد من المعرفة، وأول التوحيد، وهى توحيد الشاهدين ولا آخر له.

وأوسط المقامات: الزهد، وأول الزهد آخر الهوى، وآخر الزهد أول العلم، وآخر العلم أول الخوف، وآخر الخوف أول الحب. وهذا حب محبوب.

والظالم لا مقام له، ومن لا مقام له فلا جاء، ومن لا جاء له فلا شفاعة، ومن لا شفاعة له فلا شهادة، ومن لا شهادة له فلا يقين. فلو أعطى مثقالاً من الإيمان لم يُنَجِّه من دخول النار؛ لأنه ﷺ قال فى وصف الداخلين: «أخرجوا من النار

مَنْ فى قلبه مثقال ذرة من إيمان». ثم قال فى الخبر الآخر: «السَّخَاءُ مِنَ الْيَقِينِ، ولا يدخل النَّارَ مُوقِنٌ». وقال سبحانه وتعالى فى تفصيل ما وصلناه مما عنه شهدناه: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. ثم قال فى البيان الثانى من الخطاب: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧]. وقال فى البيان الثالث: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]. وقال فى وجدِ اليقين بعد شهادة العين فى الرؤية بعد المكاشفة: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]. ثم قال: ﴿بَنِيَّ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ﴾ [النمل: ٢٢ - ٢٣]. وكما أن اليقين بعد المشاهدة كذلك الوجد بعد اليقين، واليقين هو حقيقة الإيمان وكماله. كما جاء فى الأثر: «الصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ، وَالشُّكْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ، وَالْيَقِينُ الْإِيمَانُ كُلُّهُ».

وقد رويانا فى تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قيل: الجاه. وقيل: الشفاعة. وقيل: الولاية. وقيل: الإمامة. لا يكون الظالمُ إماماً للمتقين؛ لأن من تبعه أمة من المؤمنين، فهو إمام للمتقين. والظالم متهدد بالنار متوعد بسوء المنقلب، مشفوع فيه، فكيف يكون شفيعاً؟ محجوب عنه، فكيف يكون شهيداً؟ ألم تسمع إلى قول الشاهد: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وإلى قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، مع قوله تعالى: ﴿فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩]، ثم أجمل ذلك بقوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

فصغير التوبة لصغير الظلم عن صفائر المظالم، وكبير التوبة لكبير الظلم عن كبائر المظالم. والظلمة ظلمة اليوم فى القلب، وظلمة غداً يوم القيامة. فالتوبة تُخرج العبدَ من الظلم، وبخروجه من الظلم يدخل فى منازل العهد، وبرعاية

العهد يعمل فى الإصلاح. والله لا يضع أجر المصلحين، كما لا يصلح عمل المفسدين. فإذا كان مصلحاً بالتوبة ما أفسد بالهوى، استعمل بالصالحات؛ لأنه قد صلح، فإذا عمل بالصالحات أدخل فى الصالحين؛ لأنه قد فضل. قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣]. وقال فى البيان الأول: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩]. فمن صلح له تولاه، ومن تولاه علّمه، وحباه، وكاشفه، ومن نفسه عافاه، وأحبه، فكان هو حسبه، وكفاه وجعله تحت كنفه وآواه، فيكون ظاهر حاله العصمة من الهوى، وأعلاه مشاهدة عين اليقين بالمولى. ومن اكتسب من المظالم ظلم، ومن ظلم ولأه مثله، ومن ولأه مثله تولى عنه، ومن تولى عنه أفسد، ومن أفسد قطع ما أمر الله به أن يوصل، ومن قطع بعد فانقطع، ومن انقطع فبعد لئن وطرد، ومن طرد عمى وصم تحت الهوى المعمى المصم، ومن عمى لم يشهد البصير، ومن صم لم يسمع من السميع، فكيف يتدبر الخطاب وقلبه مقفل، وهمه على هواه مقبل، والفتاح العليم عنه معرض؟ فهذا من توصيل القول بمطلع القول من قوله تعالى: ﴿نُؤَلِّى بِعَصْرِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]. ومن قوله تعالى: ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [محمد: ٢٢] الآية. فتيينوا.

وللتائب حال من أول المحبة، وللتائب مقام من حقيقة الحب، وللناس فى التوبة مقامات حسب كونهم فى الهوى طبقات، وهم فى الحب درجات نحو مشاهدتهم لمحاسن الصفات. فيتجلى لكل وجه بمعنى حسن وجهه، هذا فى القلوب عن محاسن الإيمان، وفى الآخرة على معانى محاسن الوجوه فى العيان. فتحكم عليهم المشيئة منه لهم، بما يوجد لهم به منه، على معانى ما أوجد لهم به اليوم. فسبحان من هذه قدرته عن إرادته، وسع كل شىء رحمة وعلماً.

ويلزم كل عبد من المجاهدة على قدر ما ابتلى به من الهوى، ويثبت له من المحبة بقدر ما صح له من التوبة، ويسقط عنه من المجاهدة بقوه ما يكشف له من المشاهدة، فيحمل الإشهاد عنه آلام الجهاد، فيكون العبد فى البلاء محمولاً،

ويكون يقينه بالشهادة واليقين موصولاً. وهذا من سوابغ العوافى، وتَمَام من النعماء. وهؤلاء الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء، وهم الذين جاء الخبر فيهم: «إن لله عبداً ضنائنَ من خلقه، يَغْذُوهم برحمته ويجعلهم فى ظل عافيته». يضمن بهم عن القتل والبلاء، ويحييهم فى عافية، ويميتهم فى عافية. ويدخلهم الجنة فى عافية، أولئك الذين تمر عليهم الفتن كقطع الليل المظلم، وهم منها فى عافية.

فالأفضل بعد هذا لكلّ عبد معرفته بعلم حاله، ووقوفه على حدّه، ولزوم الصدق فى مقامه، وترك التكلف والدعوى فى جميع سكونه وحركاته، فإن هذا أبلغ له فيما يريد، وأوصل فى طلب ما يرجو. فإنّ علم العلماء لا يغنى عنه من علمه بنفسه شيئاً؛ لأنه لا يُسأل عن علومهم، كما لا يُسألون عن علمه.

وهذا طريقُ رأسُ ماله الصدق، وزاده الصبر، وقوّته التقوى. فمن عَدِمَ الصدقَ لم يربح، ومن لم يتزوّد الصبر انقطع، ومن لم يَتَقَتَّ التقوى هَلَكَ. فذرةٌ من صدقٍ أنفع من مثقال عمل، وذرة من صبر خيرٌ من مثقال علم، وذرة من تقوى أنفع من مثقال إيمان. فإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً. ويعطى الله تعالى بأداء الفرائض واجتناب المحارم مقاماً من مقامات اليقين، يرفع به إلى عليين، وربما أعطاه بهما مثل ثواب الأبدال بعد أن يريد بالفعل والترك وجه الله تعالى وحده، وإن لم يسلك به طريق الأبدال قط، ولم يعرف منهم أحداً أبداً.

ومن نقله مولاة باليقين الذى به تولاه، لم يَخَفْ عليه التنقيل؛ لأن النقل يضطره إلى التنقل فى الأحوال، والمشاهدة تحكم عليه بالأفعال. وربما بلغ الله تعالى العبدَ بحسن الظنِّ به، وقوة الأمل والطمع فيه، جميع ما ذكرناه، بعد أن يكون حسنَ اليقين. وقد يعطيه مقام الصديقين بخُلُق من أخلاقه إذا خلقه به. وربما بلغه منازل الشهداء بشيء واحد يتركه له، أو شيءٍ يؤثره به؛ لأنه غفور شكور.

وأضرُّ شيء على العبد قلة معرفته به. فلربما كان العبد على تسع كبائر، فيترك

العاشرة لوجه الله تعالى، فتكون تلك الخصلة ذرةً إلى جنب تسعة أجبل، فينظر الله تعالى إليه بوجهه لوجهه الذى ترك له نظرةً، فتمحو تلك النظرة الجبال التسعة، فتصير هباءً منثوراً، وربما حسن الله تعالى وصفاً واحداً من العبد يصفه به، فيحبط عنه مائة وصفٍ قبيحٍ يصفه الناس به، فتدبروا.

فلا ييأس عبدٌ من فضل مولاه، ولا يقطعن من حبله رجاء بعد إذ عرفه، فإن السيد كريمٌ رحيم. ولا ينقطعن عبدٌ عن بابه، وأن يقطع بخلافه، ولا يبعدن عن فئائه وإن بعد بأوصافه، ولا يستوحشن من التقرب إليه بما يحب بعد ما توحش وتفحش لديه بما يكره. فهكذا يحب الله تعالى من عباده، فتيينوا.

ونحو هذا يحب الله تعالى منهم أن يعرفوا، فيفعلوا بعد المعرفة. فإن المعروف مفرط الكرم واسع الرحمة فاضل الفضل، فإن أعطى المعرفة لم يمنع شيئاً ولا يضر ما منع، وإن منع المعرفة لم يعط شيئاً، ولم ينفع منه ما أعطى.

وقد تلبس المحاب فتدخل محبة النعم فى محبة المنعم، وتدخل محبة النفس على محبة الخالق، ويشتهب ذلك عند عموم المحبين ممن لم يكشف له عين اليقين. فيكون العبد محباً للنعم، وهو يظن بوهمه أنه محبٌ للمنعم. ويكون محباً لنفسه ويحسب أنه محبٌ لمولاه. وعلامة ذلك سكونه إلى الأشياء وفرحه بالموجودات، ووجود راحته ولذته فى هواه. فربما اختار الله تعالى أن يكشف له حاله قبل موته، وربما ستر عليه حاله ولم يفضحه حتى يلقاه، فيثيبه ثواب مثله جزاءه. وليس يظهر فرقان هذا إلا فى قلبٍ موقنٍ مرادٍ بنور ثاقب، وعلم نافذ، ويقين صاف من عين التوحيد وشاهد القيومية؛ لأنه من باب مشاهدة الصفات الغيبية ومشاهدة الأفعال الملكوئية، وهو الفرقان الذى وعده الله تعالى المتقين من المؤمنين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]. قيل: نوراً تفرقون به بين الشبهات، وهو المخرج الذى ضمنه الله تعالى لأهل التقوى، والمنهج فى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]. قيل: من كل أمرٍ ضاق على الناس به.

فتفصيل معانى التوحيد وشواهد الناظرين أضيّق الضيق، وشهادة الجمع فى التفرقة والبقاء فى الفناء أخفى الخفاء، وشرح يطول، ويخرج إلى غير هذا العلم الذى رسمناه، ويدخل فى علم مجهول، غريب عن الأسماع، ينكر أكثره من لا يعرفه، غير أن مَنْ له نصيب منه يشهد ما رمزناه، فيكشف له به ما غطيناه. إلا أنه استولى على القلب أحد وجهين:

فالخصوص أحبوه من طريق مشاهدة الصفات، فحبُّ هؤلاء بقلبٍ ووجدٍ لا يتغير أبدًا، وهم مثبتون فيه إلى لقاء الحبيب، وهؤلاء عبدوه على التعظيم والمحبة والإجلال والكبرياء. وفى هؤلاء: المقربون، والمحبوبون، والخائفون، والعاملون، والمتوكلون، والراضون، وهو المقام الأعلى، وهم الأعلون عنده فى المنتهى.

والعمومُ أحبوه من طريق مواجيد الأفعال، وهى النعم والإحسان والأيادى والأفضال، وعما أظهر من العوافى، ومما أخبر عنه بما أسروهم الذين خدموه شهوةً وعادةً وحاجةً، أحبوه لمنافعه ومرافقه؛ ولأجل ما فى يده من ملكه. وحب هؤلاء يتغير لانقلاب الأحكام، وهؤلاء لم يتحققوا بالإخلاص ولا الزهد، وقد بقى عليهم من نفوسهم هوى، وردَّ حجبهم ذلك عن مخالصته وبعدهم عن مصافاته، وهذه هى أوصافهم عائدة لهم وعليهم. فحبُّ هؤلاء حَوْلٌ قَلْبٌ؛ لأن الأفعال التى أحبوه لأجلها تحوّل فيحولون، وتختلف عليهم بالمكاره والمرائر فيختلفون. وفى هؤلاء: المريدون، والعاملون، والراجون، والطامعون، والتائبون، وأصحاب اليمين من هؤلاء.

وقد قال بعض العارفين: كل محبة كانت عن عوض إذا زال العوض زالت المحبة. فمنهم من عرف حاله فى مقامه، فاعترف بنقصان محبته، وتقصير شهادته، واستغفر منها وأناب. ومنهم من لبس عليه ذلك لنقصان مزیده، وضعف يقينه، وكانت محبته محبة الأفعال ومحبة النفس فى المآل، وهو يتوهم أنها محبة الجلال والجمال عن صفات متصلة بذات. ويخاف على مثل هذا الانقلاب عند كشف الغطاء؛ لأنه فى اغترار وفتنة والتباسٍ ومحنةٍ، وفى طريق مكرٍ وهلكةٍ إلا

أن تداركه رحمةً من ربه، فيوقفه في حده من مقامه، ويرده إلى حاله من مكانه، فيتوب من محبته، ويستغفر من شهادته. فحينئذ يرحمه الله تعالى، فيدخله في أهل العفو، ويستر عليه في الآخرة، كما ستر عليه في الدنيا، فيُلقيه تحت الستر في الدارين.

وهذه بعض مخاوف الصادقين من المحبين؛ لأنها محبة إظهار لا ظهور، فصاحبها في قلب وغرور، إلا أن أهل محبة الأفعال ينقسمون قسمين: منهم من أحبه لأجل أفعاله، إلا أنه يشهدا منه، فيراه فيها، فهو يتصبر له، ويتعمَل في المجاهدة، ويجتهد في تنقية محابه لبقاء حاله، فهذا أعلاهما، وهذه محبة عموم لأهل الآخرة الذين لا يشهدون سواها، ولا يطلبون إلا إياها. ومنهم: من تتغير عليه الأفعال وتخرجه من الاعتیاد، وتتابع عليه البلاء، وينقصه من العوافي في المال والنفس، فيخرج صفته، ويظهر منه تسخطه وتبرُّمه به. فهذا قد افترض بدعوى المحبة، وقد كشفه بعد ستره، فلم يزن في المحبين حبة، وهذه محبة أهل الدنيا، الذين هم لها يكدحون، وإياها يطلبون.

وقد سئل الجنيد رحمه الله تعالى عن المحبة، فقال: الناس في محبة الله خاصٌ وعامٌ. فالعوامُ نالوا ذلك بمعرفتهم في دوام إحسانه وكثرة نعمه، فلم يتمالكوا أن أرضوه، إلا أنهم تقلَّ محبتهم وتكثر على قدر النعم والإحسان. فأما الخاصة فنالوا المحبة بعظم القدر والقدرة، والعلم والحكمة، والتفرد بالملك، فلما عرفوا صفاته الكاملة وأسماء الحسنی لم يمتنعوا أن أحبَّوه، إذ استحق عندهم المحبة بذلك؛ لأنه أهل لها، ولو أزال عنهم جميع النعم.

ومن الناس من يكون محباً لهواه، أو لعدو الله إبليس، وهو يدعى - لعظيم جهله وطول غرته - المحبة لله تعالى.

قال بعض علمائنا: عوتب أبو محمد في قوله لكل أحد: يا دوست. قال: فقلتُ له: قد لا يكون حبيباً كما تقول. فقال في أذني سرّاً: لا يخلو، إما أن يكون مؤمناً أو منافقاً؛ فإن كان مؤمناً فهو حبيب الله عز وجل، وإن كان منافقاً

فهو حبيب إبليس .

ومن محبة الهوى إثارة عاجل حظ النفس على أجل ما وعدت به، ويقدم محبتها على محبة الله عز وجل، وهى مطبوعة على محبة الهوى وكرهه الحق، وأمارة بالسوء فيما تُسرُّ، كذابة فيما تُظهر من الخير. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فقرن محبتها بالشرّ وقرن كراهتها بالخير، والعرب تسمى النفس كذبة، أى التى يكتر منها الكذب، يصفونها بالمبالغة فيه، على معنى قوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١] أى الذى يكتر همز الناس ولمزهم. وكذلك وصفها الله تعالى بالمبالغة بالأمر بالسوء فقال: ﴿لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣] أى فعالة التى يكتر منها الأمر، ويتكرر مرة بعد مرة، من وصفها الفعل، ومن محبة العدو طاعته وموافقته؛ لأن فيها كراهة الله تعالى ومخالفته، وهو مجبول على ضد ما يحب الله تعالى، والله تعالى يحب ضدّ ما جعله عليه، وذلك ابتلاء من الله تعالى له، وابتلاء منه به لنا.

واعلم أن قليل ما أعطاك الله عز وجل من الإيمان به، وصحة التوحيد له، ويسير ما قسم الله تعالى لك من الإخلاص والصدق وحسن المعاملة - خير لك وأنفع من كثير ما أظهر لك وعرفك. وإنما لك بما رأيته وأطلّته ونلته بيدك، وما ملّكته وسلّطت عليه من منازلتك. فأما ما لم تُطلّه ولم تنله فهو لغيرك، لأنك قد ترى السماء ولا تنالها، فهى أرض لمن سُخِّرَتْ له، وترى ما جعل لغيرك فلا ينفعك، ولا يغنى عنك، وهو نافع مغنٍ لمن سلّط عليه فملكه. ومن الناس من يتوهّم أن الإظهار هبة له، وأن ما رآه وعرفه ملكه وحازه وتحقّق به.

واعلم أن ألفَ خاطرٍ لا يجىء منها حال، وألفَ حال لا يكون منها مقام، والمقام إنما هو ما ثبت ودام. فمثل الخواطر فى ممرها كالسحاب فى سيرها، وقيل فى المثل: «سحابة صيف عن قليل تقشع». ومثل الأحوال فى حيلولتها كمثل

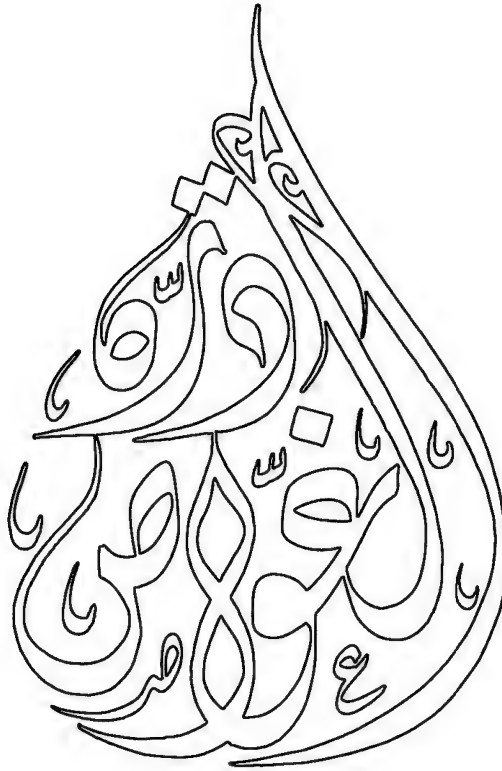
الأزمنة في أحوالها، في كل سنة أربعة: مشتاً، ومضيف، ومربيع، وخريف. وإنما الهبة من الله تعالى ما وقر في القلوب من المشاهدات، وما حققته الأعمال من المنازلات، فيورث ذلك علماً خاصياً، أو خلقاً مرضياً، أو حالاً سنياً، أو وصفاً زكياً من أخلاق الصالحين، وسيما المتقين، وعلوم العارفين، وملاحظات المقربين.

ولا يصلح الكلام بهذا العلم إلا لمن له مشاهدة منه إن كان من علوم القدرة والتوحيد، أو منازلة إن كان من مواريث الأعمال، وعن تنقيل الأحوال أو عن زهد في الدنيا، وسعى في طلب الأخرى إن كان من علم الوعظ والنذب إلى الفضل، فذلك كله بعد التوبة ومع حال الاستقامة، وعن كمال علم السنة والجماعة، بعد معرفة بعلم الأصول والسُنن من آثار الرسول. وإلا كان متكلفاً، وفي الدعوى داخلاً، إلا أن يحكى شيئاً سمعه، فيكون به لقائله محاكياً، أو يضيف حالاً إلى صاحبه، فيكون عنه راوياً.

فأما التحلى وهو اللباس الظاهر، والتصنع المفتعل بالإشارات الفارغة، فهو من حلية الدنيا وزينة الهوى. وكذلك التمنى، وهو ما يظنه العقل أو توهمته النفس وقدره الوهم، أو من وسوسة العدو الخناس، لعنه الله تعالى، فليس هذا كله من الإيمان، ولا من علم اليقين في شيء، بل هو من همزات الشياطين وخطراتهم وقرب محضرهم؛ لأن هذا العلم دواء القلوب من أدواء الذنوب، وقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَطَبَّبَ وَلَمْ يَعْلَمْ مِنْهُ طَبٌّ فَقَتَلَ، فَهُوَ ضَامِنٌ»، فالمتكلم للناس بقتلهم يكون قاتلاً، والإظهار الذي يقع به الاغترار أكثر من أن يحصى، والظهور الذي يحق به الحقيقة أعزُّ من أن يُرى، والله تعالى يظهر من خزانة ملكه ما شاء على الألسنة والجوارح، فهي كخزائن الأرض، فيها من التدبير والحكمة كما في تلك، وعلوم هذه الخزائن هي العلوم الظاهرة، وهي حجج الله تعالى في أرضه وعلى عباده، ويظهر من خزائن ملكوته ما يحب، وهي القلوب والبصائر والكنوز والذخائر، فهذه كخزائن الملكوت وهي من خزائن السماء، وفيها من القُدَر والآيات كما في السموات، وعلوم هذه الخزائن من علم اليقين، وهو العلم

الباطن النافع، يخص به من يحب، وهم أولياؤه المقربون، إن الحكم إلا لله، ولا يشرك في حكمه أحداً، يختص برحمته من يشاء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وهذا آخر شرح مقام المحبة، وهو آخر شرح مقامات اليقين التسعة.



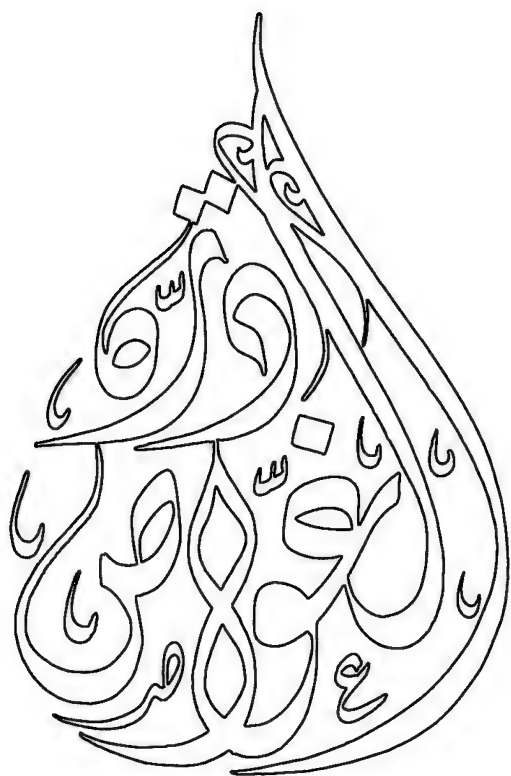
فهرس موضوعات الجزء الثانى

الموضوع	الصفحة
الفصل الثانى والثلاثون: فيه شرح مقامات اليقين وأحوال الموقنين	٤٩٩
المقام الأول: ذكر فروض التوبة، وشرح فضائلها، ووصف التوابين	٤٩٩
المقام الثانى: شرح مقام الصبر، ووصف الصابرين	٥٣٨
* بيان آخر من تفضيل الصبر	٥٥٤
* بيان آخر من فضل الصبر	٥٥٤
* وجه آخر من بيان التفضيل	٥٥٥
* نوع آخر من الاستدلال على فضل الصابر وتفضيل الصبر جملة	٥٥٦
المقام الثالث: شرح مقام الشكر، ووصف الشاكرين	٥٦٣
المقام الرابع: شرح مقام الرجاء، ووصف الراجين	٥٨٦
المقام الخامس: شرح مقام الخوف، ووصف الخائفين	٦١٦
* بيان آخر فى معنى الخوف	٦٥٥
* ذكر تفصيل هذه المخاوف	٦٥٦
المقام السادس: شرح مقام الزهد، ووصف أحوال الزاهدين	٦٨٠
* ذكر ماهية الزهد، أى شىء هو؟	٧٠٢
* بيان آخر من الزهد، أى شىء هو؟	٧١٠
* وصف آخر من البيان والتفصيل	٧١٢
* ذكر بيان حقيقة الزهد وتفصيل أحكامه ووصف الزاهد	٧١٣
* بيان آخر مستنبط من الكتاب	٧١٥
* بيان آخر مستنبط من السنة فى ماهية الزهد	٧١٧
* ذكر وصف الزاهد، وفضل الزهد	٧١٨
* ذكر ماهية الدنيا وكيفية الزهد فيها وتفاوت الزهاد فى مقاماتهم	٨١٦
* فصل آخر	٨٣٥
المقام السابع: شرح مقام التوكل، ووصف أحوال المتوكلين	٨٥١
* ذكر إثبات الأسباب والأواسط لمعانى الحكمة، ونفى أنها تحكم، وتجعل	
لثبوت الحكم والقدرة للحاكم الأول	٨٧٨

الصفحة

الموضوع

- ٨٩٩ * ذكر تفصيل التكسب والتصرف فى المعاش والحركة
- ٩١٢ * بقية الكلام فى التكسب والمعاش للمتوكلين
- * بيان قول الخواص، والفضيل، وسهل، وذى النون، رحمهم الله، فى ترك
- ٩٢٤ التدبير والاختيار، والرضا بمجارى الأقدار
- ٩٣٧ * ذكر الادخار مع التوكل
- ٩٤٤ * ذكر التداوى وتركه للمتوكل وتفصيل ذلك
- ٩٥١ * ذكر الفضائل لمن لم يتداوى ويصبر للقضاء
- ٩٦١ * بيان آخر من التمثيل فى التداوى وتركه
- ٩٦٣ * ذكر استواء شهادة المتوكل مع اختلاف ظهور الأسباب
- ٩٦٦ * ذكر تشبيه التوكل بالزهد
- ٩٦٧ * ذكر كتم الأمراض، وجواز إظهارها
- ٩٦٩ * ذكر فضل التارك للتكسب
- ٩٧٥ * ذكر حكم المتوكل إذا كان ذا بيت
- * بقية الكلام فى المتوكل على الله يؤخذ منه الشئ فيجعله فى سبيل الله ثم
- ٩٨٨ يردُّ عليه
- ٩٨٩ * ذكر بيان آخر من أحكام التوكل وصحة وقوعه
- ٩٩٦ * ذكر بيان آخر من فضيلة المتوكل
- ٩٩٦ * مزيد آخر من الهدى والبيان
- ٩٩٨ * ذكر بيان آخر من وصف المتوكلين
- ١٠٠٢ * ذكر ما لا ينقص المتوكل فى توكله
- ١٠٠٦ * المقام الثامن: شرح أحكام مقام الرضا، ووصف الراضين
- ١٠٤١ * المقام التاسع: ذكر أحكام المحبة، ووصف أهلها
- ١٠٧٠ * ذكر مخاوف المحبين ومقاماتهم فى الخوف
- * ذكر تفصيل علم السماع للقول، ووصف الصحيح من ذلك والمعلول،
- ١٠٨٩ ووصف الواجدين بحق، وذم المتواجدين بهوى
- ١١٠١ * ذكر الشوق، ووصف المشتاقين، والغيرة
- ١١٣١ * ذكر وصف بعض المحبين من المكاشفين وأبدال الصديقين من المقربين
- ١١٦٧ فهرس الموضوعات



الجزء الثالث

قوة القلوب

في معاملة المحبوب
ووصف طريق المرئيد إلى مقام التوحيد

للشيخ أبي طالب المكي
محمد بن علي بن عطية

الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ

عقدته وكتبه له الشريف عيسى
محمود إبراهيم محمد الرضوي

دار الشريعة

قوس القلوب

في معاملة المحبوب
ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد

للشيخ أبو طالب المكي
محمد بن علي بن عطية
(ت ٣٨٦ هـ)

حققه، وقدم له، وعلق حواشيه
د. محمود أبو الهمحم محمد الرضواني
دار العلوم - جامعة القاهرة

الجزء الثالث

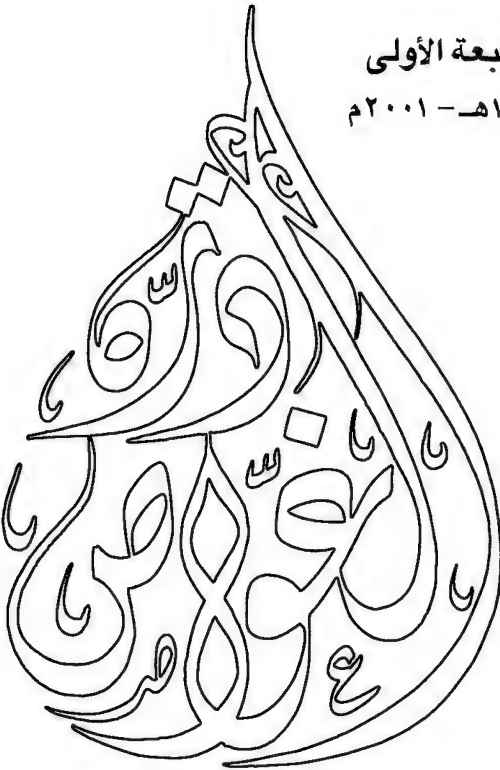
مكتبة دار التراث

جميع حقوق الطبع محفوظة لـ

مكتبة دار التراث

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م



مكتبة دار التراث

٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة - ت : ٣٩١٤٢٢٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفصل الثالث والثلاثون^(١)

في ذكر دعائم الإسلام الخمس التي بنى عليها^(٢)

**أول ذلك فرض شهادة التوحيد للمؤمنين، ووصف فضائلها،
وهي شهادة المقربين، وشهادة الرسول ﷺ، وفضلها للموقنين**

قال الله تعالى، وصدقت أنبيأؤه لرسوله ﷺ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩]. وقال لعباده يأمرهم بمثل ذلك: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [هود: ١٤].

ففرض التوحيد هو اعتقاد القلب أن الله تعالى واحد لا من عدد، وأول لا ثاني له، موجود لا شك فيه، حاضر لا يغيب، عالم لا يجهل، قادر لا يعجز، حي لا يموت، قيوم لا يغفل، حلیم لا يسه، سمیع بصیر، ملك لا يزول ملكه، قديم بغير وقت، آخر بغير حد، كائن لم يزل ولا تزال الكينونة صفته لم يحدتها لنفسه، دائم أبد الأبد لا نهاية لدوامه، والديمومة وصفه غير محدثها لنفسه، لا بداية لكونه، ولا أولية لقدمه، ولا غاية لأبدية، آخر في أوليته، أول في آخريته، وأن أسماء وصفاته وأنواره غير مخلوقة له، ولا منفصلة عنه، وأنه أمام كل شيء، ووراء كل شيء، وفوق كل شيء، ومع كل شيء، وأقرب إلى كل شيء من نفس الشيء، وأنه مع ذلك غير محل للأشياء، وأن الأشياء ليست محلاً له،

(١) في (د): «الفصل الثاني والثلاثون».

(٢) ما ذكره أبو طالب في هذا الفصل من أحكام واستنباطات وأوصاف، هو كلام عزيز نادر نفيس، لا تجده مقيداً مجموعاً في كتاب آخر، فعرض عليه بالنواجز وأعد قراءته مراراً حتى يقع في قلبك وعقلك.

وأنه على العرش استوى كيف شاء بلا تكييف ولا تشبيه، وأنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وبكل شيء محيط.

الجوَّ زَوْجُهُ الفضاء من ورائه، والهواء زَوْجُهُ المكان من ورائه، والحوّل زَوْجُهُ^(١) البعد من ورائه. وهذه كلها حجب مخلوقات من وراء الأرضين والسموات، متصلات بالأجرام اللطاف، ومنفصلات عن الأجسام الكثاف، وهى أماكن لما شاء، داخله فى قوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]، داخله فى قوله ﷺ: «ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد».

والله جل جلاله وعظم شأنه هو ذات منفرد بنفسه، متوحد بأوصافه، لا يمتزج ولا يزدوج إلى شيء، بائن من جميع خلقه، لا يحل الأجسام، ولا تحله الأعراض، ليس فى ذاته سواه، ولا فى سواه من ذاته شيء، وليس فى الخلق إلا الخلق، ولا فى الذات إلا الخالق. فتبارك الله أحسن الخالقين.

وإنه تعالى ذو أسماء وصفات، وقدرة وعظمة، وكلام ومشية وأنوار، كلها غير مخلوقة ولا محدثة، بل لم يزل قائماً موجوداً بجميع أسمائه وصفاته وكلامه وأنواره وإرادته، وإنه ذو الملك والملكوت، والعزة والجبروت، له الخلق والأمر، والسلطان والقهر، يحكم بأمره فى خلقه وملكه ما شاء كيف شاء، لا معقّب حكمه، ولا مشيئة لعبد دون مشيئته، إذا شاء شيئاً كان، ولا يكون إلا ما شاء، لا حول لعبد عن معصيته إلا برحمته، ولا قوة لعبد على طاعته إلا بمحبته، وهو واحد فى جميع ذلك، لا شريك له، ولا معين فى شيء من ذلك، ولا يلزمه إثبات الوعيد، بل المشيئة إليه فى العفو، ولا يجب عليه فى الأحكام ما أجرى علينا، ولا يُختبر بالأفعال، ولا يشير بالمقال. حكيم عادل بحكمة وعدل، هما صفاته لا تُشبه حكمته بحكمة خلقه، ولا يُقاس عدله بعدل عباده، ولا يلزمه من الأحكام ما ألزمهم، ولا يعود عليه من الأسماء المذمومة كما يعود عليهم. قد جاوز العقول، وفات الأفهام والأوهام والعقول، هو كما وصف نفسه، وفوق ما

(١) «زوجه» فى المواضع الثلاثة بالمطبوعة: «وجه و»، وأثبت ما فى الأصول الثلاثة.

وصفه خلقه، نَصَفَهُ بما ثبتت به الرواية وصَحَّت عن رسول الله ﷺ.

وإنه ليس كمثله شيء في كل شيء، بإثبات الأسماء والصفات، ونفى التمثيل والأدوات. وإنه سبحانه وتعالى لم يزل موجوداً بصفاته، كلها لم تزل له، وإن صفاته قائمة به لم تزل كذلك، ولا يزال بلا نهاية ولا غاية ولا تكيف ولا تشبيه ولا تشية، بل بتوحيد هو متوحد به، وتفريد هو متفرد به، لا يجري عليه القياس، ولا يُمثل بالناس، ولا يُنعت بجنس، ولا يُلمس بحس، ولا بجنس من شيء، ولا يزدوج إلى شيء، وإن ما سوى أسمائه وصفاته وأنواره وكلامه من الملك والملكوت محدث كله ومُظهر. كان بعد أن لم يكن، ولم يكن قديماً ولا أول، بل كان بأوقات محدثة، وأزمان مؤقتة. والله تعالى هو الأزليُّ الذي لم يزل، الأبدى الذي لم يحل، القيوم بقيومية هي صفته الديموم، بديمومية هي نعته، أولٌ بلا أول، ولا عن أول، آخرٌ لا إلى آخر، بكيونة هي حقيقته. أحدٌ صمدٌ لم يلد، وبمعناه لم يولد، ومعنى ذلك لم يتولد هو من شيء، ولم يتولد منه شيء، ومثل ذلك لم يُخلق من ذاته شيء، كما لم تُخلق ذاته من شيء، سبحانه وتعالى عما يقول الملحدون من ذلك علواً كبيراً.

• ذكر فرض شهادة الرسول ﷺ:

قال الله تعالى الكبير المتعال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُوهُ﴾ [آل عمران: ٨١]. وقال عز وجل: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

ففرض شهادة الرسول ﷺ أن تشهد أن محمداً رسول الله ﷺ، خاتم الأنبياء، لا نبي بعده، وكتابه خاتم الكتب، لا كتاب بعده، وهو مهيمٌ على كل كتاب، ومصدقٌ لما سلف من الكتب قبله. وأن شريعته ناسخةٌ للشرائع، قاضيةٌ عليها إلا ما أقره كتابه ووافقه، وكتابه شاهدٌ على الكتب وحاكمٌ عليها. وأنه هو الذي بشر به عيسى عليه السلام أمته، وهو الذي أخبر به موسى عليه السلام أمته، وهو

المذكور في التوراة والإنجيل وسائر كتب الله عز وجل المنزلة، وهو الذي أخذ الله ميثاق النبيين أن يؤمنوا به وينصروه لو أدركوه، فأقروا بذلك وشهد الله تعالى على شهادتهم، وهو الذي أخذت الأنبياء شهادة الأمم على الإيمان به، وأمرتهم بتصديقه، وأخبرتهم بظهوره. وأن موسى وعيسى عليهما السلام لو أدركاه لزمهما الدخول في شريعته، وأن بقية بنى إسرائيل من اليهود والنصارى كفرًا بالله لجحودهم رسالته، وأن إيمانهم بكتابه مفترضٌ عليهم، مأمور به في كتبهم، وعلى ألسنة رسلهم، وأن طاعته ومحبه فريضة واجبة على الكافة كطاعة الله تعالى، واتباع أمره واجتناب نهيه مفترضة على الأمة إيجابًا أوجب الله تعالى له، وفرضًا افترضه على خلقه متصل بفرائضه.

• ذكر فضائل شهادة الرسول ﷺ:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]. وقال الرسول ﷺ: «لا يؤمن عبدٌ حتى أكون أحبَّ إليه من أهله وماله والناس أجمعين». وقال ﷺ: «لو أدركني موسى وعيسى ما وسعهما إلاّ اتباعي». وروينا في لفظ آخر: «ثم لم يؤمنّا بي لأكبهما الله في النار».

وحدثونا في الإسرائيليات أن رجلاً عصى الله تعالى مائتي سنة، في كلها يتمرد ويجترئ على الله. فلما مات أخذ بنو إسرائيل برجله وألقوه على مزبلة، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن غسّله وكفّنه وصلّ عليه في جميع بنى إسرائيل، ففعل ما أمر به، فعجب بنو إسرائيل من ذلك، وأخبروه أنه لم يكن في بنى إسرائيل أعتى على الله ولا أكثر معاصٍ منه. فقال: قد علمتُ، ولكن الله تعالى أمرني بذلك. قالوا: فاسأل لنا ربك. فسأل موسى عليه السلام ربه فقال: يا رب، قد علمتَ ما قالوا. فأوحى الله تعالى إليه أن صدّقوا، إنه عصاني مائتي سنة، إلا أنه يوماً من الأيام فتح التوراة، فنظر إلى اسم حبيبي محمد مكتوباً، فقبله ووضع على عينيه، فشكرتُ له ذلك، فغفرت له ذنوب مائتي سنة.

وحدثنا في معناه عن العباس بن عبد المطلب قال: كنت مؤاخياً لأبي لهب،

مضافاً له، فلما مات وأخبر الله تعالى عنه بما أخبر، حزنت عليه، وأهمنى أمره، فسألت الله تعالى عليه حولاً أن يرينى إياه فى المنام. قال: فرأيتَه يَلْتَهَبُ ناراً، فسألته عن حاله فقال: صِرْتُ إلى النار فى العذاب، لا يُخَفَّفُ عَنى ولا يروِّحُ إلا ليلة الاثنين فى كل الليالى والأيام، فإنه يُرْفَعُ عَنى العذاب. قلت: وكيف ذلك؟ قال: وُلِدَ فى تلك الليلة محمد ﷺ، فجاءتنى أُميمة فبشَّرتنى بولادة آمنة إياه، ففرحت بمولده فأعتقت وليدة لى فرحاً مِنى به، فأثابنى الله تعالى بذلك أن رفع عَنى العذاب فى كل ليلة اثنين لذلك.

وقال الله تعالى فى تحقيق المحبة: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]. فمن محبة الرسول ﷺ إثارة سننه على الرأى والمعقول، ونصرته بالمال والنفس والقول. وعلامة محبته اتباعه ظاهراً وباطناً.

فمن اتَّباعه ظاهراً: أداء الفرائض، واجتناب المحارم، والتخلق بأخلاقه، والتأدبُ بشمائله وآدابه، والاقتفاءُ لآثاره، والتجسس عن أخباره، والزهد فى الدنيا، والإعراض عن أبنائها، ومجانبة أهل الغفلة والهوى، والترك للتكاثر والتفاخر من الدنيا، والإقبال على أعمال الآخرة، والتقرب من أهلها، والحبُّ للفقراء والتحبُّ إليهم وتقريبهم، وكثرة مجالستهم، واعتقاد تفضيلهم على أبناء الدنيا، ثم الحبُّ فى الله للقريب المحب^(١)، وهم العلماء، والعباد، والزهاد، والبغضُ فى الله للبعيد المذنب^(٢)، وهم الظلمة المبتدعة والفسقة المعلنة.

ومن اتَّباع حاله فى الباطن: مقاماتُ اليقين، ومشاهداتُ علوم الإيمان، مثل الخوف، والرضا، والشكر، والحياء، والتسليم، والتوكل، والشوق، والمحبة، وإفراغ القلب لله، وإفراد الهم بالله، ووجود الطمأنينة بذكر الله.

فهذه معاملات الخصوص، وبعض معانى باطن الرسول، وهو من اتَّباعه ظاهراً

(١) فى المطبوعة (د، هـ): «اللبعيد المبغض»، وأثبت ما فى (م) لأنه أصح.

(٢) فى المطبوعة (د، هـ): «للقريب المحب»، وأثبت ما فى (م).

وباطناً، فمن تحقق بذلك فله من الآية نصيبٌ موفور، أعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقد كان سهل يقول: علامة المحبة لله اتباع الرسول، وعلامة اتباع الرسول ﷺ الزهد فى الدنيا. وقال أيضاً فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ٦٩]، قال: يطيع الله فى فرائضه، والرسول فى سننه.

فإذا اجتنب العبد البدع، وتخلق بأخلاق الرسول ﷺ، فقد اتبعه وقد أحبّ الله تعالى، وكان معه ﷺ غداً مرافقاً فى منزلته.

• ذكر فضائل شهادة التوحيد ووصف توحيد الموقنين:

قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣].

فشهادة الموقن بيقينه أن الله تعالى هو الأول فى كل شىء، وأقرب من كل شىء، وهو المعطى المانع الهادى المضل، لا معطى ولا مانع ولا ضار ولا نافع إلا الله، كما لا إله إلا الله، ويشهد قرب الله منه، ونظره إليه، وقدرته عليه، وحيطته به، فيسبق نظره وهمه إلى الله عز وجل قبل كل شىء، ويذكره فى كل شىء، ويخلو قلبه من كل شىء، ويرجع إليه فى كل شىء، ويتأله إليه دون كل شىء، ويعلم أن الله عز وجل أقرب إلى القلب من وريده، وأقرب إلى الروح من حياته، وأقرب إلى البصر من نظره، وأقرب إلى اللسان من ريقه، بقرب هو وصفه لا بتقريب ولا بتقرب، وأنه تعالى على العرش فى ذلك كله، وأنه رفيع الدرجات من الثرى، كهو رفيع الدرجات من العرش، وأن قربه من الثرى ومن كل شىء كقربه من العرش، وأن العرش غير ملامس له بحسٍّ، ولا مفكّر فيه بوجسٍّ، ولا ناظر إليه بعين، ولا محيط به بدرك، لأنه تعالى محتجب بقدرته عن جميع بريته،

ولا نصيب للعرش منه إلا كنصيب موقنٍ عالمٍ به، واجدٍ بما أوجده منه، من أن الله تعالى عليه، وأن العرش مطمئنٌ به، وأن الله تعالى محيطٌ بعرشه، فوق كل شيء، وفوق تحت كل شيء، فهو فوق الفوق، وفوق التحت، ولا يوصف بتحت فيكون له فوق، لأنه هو العلى الأعلى أين كان، لا يخلو من علمه وقدرته مكان، ولا يُحدُّ بمكان، ولا يُفقد من مكان، ولا يُوجد بمكان، فالتحت للأسفل، والفوق للأعلى، وهو سبحانه فوق كلِّ فوق، وفوق كلِّ تحت في السمو، هو فوق ملائكة الثرى كهو فوق ملائكة العرش. والأماكن للممكنات، ومكانه مشيئته، ووجوده قدرته، والعرش والثرى وما بينهما هما حد للخلق الأسفل والأعلى، بمنزلة خردة في قبضته، وهو أعلى من ذلك، ومحيطٌ بجميع ذلك، بحیطة هي صفته، وسعة هي قدرته، وعلوُّ هو عظمته، بما لا يدركه العقل، ولا يكيّفه الوهم، ولا نهاية لعلوه، ولا فوق لسُموه، ولا بُعد في دُنُوّه، ولا حسٌّ في وجوده، ولا مس في شهوده، ولا إدراك لحضوره، ولا حیطة لحيطته.

وقد قال الله تعالى للكل: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]. وقال سبحانه: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]. وقال عز وجل: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤].

وإن الله تعالى لا يحجبه شيءٌ عن شيء، ولا يبعد عليه شيءٌ قريب في كلِّ شيء بوصفه، وهو القدرة والدرك، والأشياء مبعدة بأوصافها، وهو البعد والحجبة. فالبعد والأبعاد حكم مشيئته، والحدود والأقطار حُجُب بريته، والمسافة والتلقاء مكانة لسواه، والنواحي والجهات موضع للمحدثات، والنهار والليل مسكن للمصرفات، والبعد والفضاء مكانٌ للمخلوقين، والتوسعة والهواء محل للعالمين، والأحكام والأقدار واقعةٌ على خلقه.

وهو سبحانه وتعالى قد جاوز المقدار والأحكام، وفات العقول والأوهام، وسبق الأقدار، واحتجب بعزّه عن الأفكار، لا يصوره الفكر، ولا يملكه الوهم، حُجِبَ عن العقول يُسَبِّح ذاته، ولم تحكم العقول بدرك صفاته، إذ ليس كمثله شيء فيُعرف بالتمثيل، ولا له جنس فيُقاس على التّجنيس، وهو الله في السموات

وفى الأرض، ثم استوى على العرش، وهو معكم أينما كنتم، غير متصل بالخلق، ولا مفارق، وغير مماس لكون، ولا متباعد، بل متفرد بنفسه، متحد بوصفه، لا يزدوج إلى شيء، ولا يقترن به شيء، هو أقرب من كل شيء بقرب هو وصفه، وهو محيط بكل شيء بحیطة هي نعته، وهو مع كل شيء، وفوق كل شيء، هو أمام كل شيء، ووراء كل شيء، بعلو وذنو هو قرب، فهو وراء الحول الذى هو وراء حملة العرش، وهو أقرب من حبل الوريد الذى هو الروح، وهو مع ذلك فوق كل شيء، ومحيط بكل شيء، وليس يحيط به شيء، وليس هو - تعالى - فى كل هذا مكاناً لشيء، ولا مكاناً له شيء، وليس كمثله فى كل هذا شيء، لا شريك له فى ملكه، ولا معين له فى خلقه، ولا نظير له من عباده، ولا شبه له فى اتحاد، وهو أول فى آخريته بأوليّة هي صفته، وآخر فى أوليته بآخرية هي نعت، وباطن فى ظهوره بباطنية هي قرب، وظاهر فى باطنية بظهور هو علو، لم يزل كذلك أزلاً، ولا يزال كذلك أبداً، لا يتوجه عليه التضاد، ولا تجرى عليه الحوادث والآباد، ولا ينتقص ولا يزداد. هو على عرشه باختياره لنفسه، فالعرش حد خلقه الأعلى، وهو غير محدود بعرشه تعالى، والعرش محتاج إلى مكان، والرب غير محتاج إليه، كما كان الرحمن على العرش استوى. الرحمن اسمه، والاستواء نعت متصل بذاته، والعرش خلقه منفصل عن صفاته، ليس بمضطر إلى مكان يسعه، ولا حامل يحمله، ولا محيط يجمعه، ولا خلق يؤجده، هو حامل للعرش وللحملة بخفى لطفه، وجامع للعرش وللحفظ بلطف صنعه، وموجد ما أحب لمن يحب من التجلى بمعانى أسمائه وصفاته، بخفى لطفه ولطف قرب، لاختصاص رحمته، وهو أظهر الكون من وراء الحول. هو ممكن للعرش ببسطه فى توسعة الحول، وهو محيط بالعرش والحول بالقدرة والطول، بخفى لطفه ولطف قدرته، وهو لا يسعه غير مشيئته، ولا يظهر إلا فى أنوار صفته، ولا يوجد إلا فى سعة البسط، فإذا قبض أخفى ما أبدى، وإذا بسط أعاد ما أخفى، وكذلك جعله فى كل رسم كون، وفعله بكل اسم مكان؛ مما جَلَّ فظهر، ومما دقَّ فاستتر، لا يسعه غير مشيئته بقربه، ولا يُعرف إلا بشهوده، ولا يرى إلا بنوره. هذا لأوليائه

اليوم بالغيب في القلوب، ولهم ذلك غداً في المشاهدة بالأبصار.

ولا يعرف إلا بمشيئته، إن شاء وسَّعَه أدنى شيء، وإن شاء لم يسعه كلُّ شيء،
 إن أراد عرفه كلُّ شيء، وإن لم يرد لم يعرفه شيء، إن أحبَّ وُجِدَ عند كلِّ
 شيء، وإن لم يُحب لم يوجد بشيء، وقد جاوز الحدود والمعار، وسبق القبل
 والأقدار، ذو صفات لا تحصى ولا تنهاى، ليس محبوساً في صورة ولا موقوفاً
 بصفة، ولا محكوماً عليه بحكم، ولا موجوداً بلمَم. لا يتجلى بوصف مرتين،
 ولا يظهر في صورة لاثنتين، ولا يرد منه بمعنى واحد كلمتان، بل لكلِّ تجلٍّ منه
 صورة، ولكل عبد عند ظهوره صفة، وعن كل نظرة كلام، وبكل كلمة إفهام،
 ولا نهاية لتجليه، ولا غاية لأوصافه، ولا نفاد لكلمه، ولا انقطاع لأفهامه، ولا
 تكيف لمعانيه هذه، إذ ليس في التوحيد كيف، ولا للقدرة ماهية، ولا يشبهه بهذه
 الأوصاف خلق، إذ ليس للذات كفو، إذا احتجب عن العيان والأبصار رفع ذاته
 عن القلوب والأفكار، فلم يُخَيِّلْ عقل، ولم يصوِّره فكر، لئلا يملكه الوهم،
 فيكون مربوباً وهو ربّ. ولا يُنظر إليه بفكر، فيكون مقهوراً وهو قاهر. لا يعقل
 بعقل لأنه عاقل العقل، ولا يدرك بحیطة وهو محيط بكل حیطة، حتى يتجلى
 آخرًا بإحسانه، كما تجلى أولاً بحنانه، فيُشْهَد بحضوره، ويُنظر إليه بنوره، وليس
 هذا لسواه، ولا يعرف بهذا إلا إياه.

وهذا منه لأوليائه اليوم بأنوار اليقين في القلوب، وهو لهم غداً بمعانية
 الأبصار في دار الحبيب، أبد الأبد في الجنان، يتجلى لهم بعظام القدرة ولطائف
 الحنان، ويكلمهم بما لا غاية له من لذيذ المعاني. يتجلى بصفات الجلال، ويظهر
 بمعاني الحسن والجمال، ويبدو بلبس البهاء والكمال، يجمع لهم بأول معنى من
 معانيه، بما يوجد لهم به من النعيم والسرور والفضل والحبور، بكل نظرة أو كلمة
 أو قرب أو لطف أو عطف أو حنان أو إحسان جميع ما فرقّه من نعيم الجنان،
 وينظر إذا أحبَّ إلى ما يحب اختياراً، لا تهجم الأشياء عليه في نظره إجباراً،
 ويعرض عما شاء اختياراً، لا تعترض المنظورات في نظره اضطراراً، ويعرض في
 نظره لكبرياء عزه، وينظر في أعراضه بلطائف عطفه. المُلْك في قبضته، والخزائن

فى كلمته، والكون فى مشيئته، والملكوت كله بيده، والجبروت والعظمة سُبُحات صفته، ووجود الأشياء لا يضطره إلى النظر إليها إن أراد الإعراض عنها؛ لأنه مقتدر قهار، وعدمها لا يضطره إلى أن يراها لسبق علمه بها؛ لأنها معلومٌ علمه ذو الأخبار، ولأنه هو الجبار إذ الموجود والمعدوم يضطر غيره إلى النظر؛ لضعفه عن الامتناع، والعدم يضطر سواه إلى الفَقْد؛ لعجزه عن الاختراع.

وهو تعالى مبينٌ لسواه بعزّه، غير مماثل لغيره بقهره، ولأنّ المعدوم كالمحجوب، وهو تعالى يرى المحجوب، من الذرة من تحت الثرى من وراء السموات والأرضين، ولا يحجب نفاذ نظره إليها، ولا يمنع قربه منها، ولا يحجز قدرته عليها، ولا يجاوز دون حيطته بها، إذ الحجب واقعة على الخلق غير متصلة بالخالق، وبواطن الأشياء وغوامضها منكشفة للخالق، وهو أيضاً يشهد المآل والأواخر إلى نهاية نهاياتها فى أبد أبدها، كما يشهد ذلك اليوم أعنى من غدٍ وبعد غدٍ وما وراءه إلى يوم القيامة وما فيها. وهذا كله عدم لم يخلقه بعد، لأن علمه بذلك شهادة له؛ لأنه ليس بينه وبين علمه حجاب، فهو يشهد الكون من أوله إلى آخره من حيث علمه بعلم هو وصفه، ومشاهدة هي نعته، ولأنّ كلامه بذلك يخبر بأنه قد كان دليلاً على شهوده المآب، لأنه شهد ما علم، كما علم ما به تكلم، فلم يتفاوت كلامه وعلمه، ولم يختلف علمه وشهادته، ومع ذلك كله فلا موجود فى الأولية ولا المشاهدة سواه، ولا شريك له فى القَدَم، ولا قيوم شاهدٌ إلا إياه. قوّته كُنّه قدرته، وقدرته دوامُ بقاءه، ونظره سعة علمه، وعلمه مدى نظره، يدرك الأشياء كلها على اختلاف أوصافها بصفة من صفاته، ثم يدرك بجميع أوصافه ما أدركه بهذه الصفة، فصَحَّ ذلك أنه نَظَرَ وَعَلِمَ وَتَكَلَّمَ.

لا يدخل الترتيب فى صفاته، أعنى بَقْبُلٍ وَبَعْدٍ، ولا يوصف بوقتٍ وحدٍّ، ولا يشبه بالتعقيب بقوته وأحكامه، أعنى بَشَمٍّ وَلِمٍّ، وإذا وحتى، ولزم على ذلك أنه يعلم بنظره وينظر بعلمه، فصارت الأوائل والأواخر لديه كشيء واحد، وكانت صفاته كلها آحاداً كاملات تامات، غير محدودة للمحدودات، ولا مؤقتة مرتبة للمرتبات المؤقتات، إذ لم يكن لها محدثات، لأنها قديمة بقدمه، وكائنة موجودة

بكونه ووجوده، إذ الترتيب في النعوت من وصف الخلق والأدوات لكونها محدثة مظهرات بحدود وترتيب وأوقات، والله تعالى ليس كمثله شيء في كل الصفات، فصفاته قديمة بقدمه، وكائنة موجودة بكائنته ووجوده، والأفعال محدثة مظهرات بحدود وترتيب وأوقات، فلا موجود في الأولية ولا المشاهدة سواء، ولا شريك له في القدم، ولا قيوم له في الأبد والأزل سواء قبل وجود الوقت. والحدثان ليست صفاته ذوات جهات، فيتوجه إلى جهته فيدرك بصفة دون صفة، ولا ذاته ذات ذوات فيقبل على مكان دون مكان، فيضطره الترتيب للمخلوقات، ولا يدبر الأمور بأفكار فيشغله شأن عن شأن، ولا يدخل عليه الاعتراض فيتغير عما كان، ولا يخلق بآلة فيستعين بسواء، ولا يعجزه قدرة فيحتاج إلى مباشرة يديه. يخلق بيده إذا شاء، وعن كلمته إن شاء، وبإرادته متى شاء، وبمعاني صفاته كيف شاء، لا يضطره التكوين إلى الكلام، وكلامه إليه كيف شاء كان.

خزائنه في كلمته، وقدرته في مشيئته، إذا تكلم أظهر، وإن شاء قدر، ومتى أحبّ ظهر، وبأي قدرة شاء استتر. هو عزيز في قربه، وقريب في علوه، حجب الذات بالصفات، وحجب الصفات بالفعال. كشف العلم بالإرادة، وأظهر الإرادة بالحركات، وأخفى الصنع بالصنعة، وأظهر الصنعة بالأدوات. هو باطن في غيبه، وظاهر بحكمه وقدرته، وغيب في حكمته، وحكمته شهادة ظاهرة بمحكوماته، وهي مجارى قدرته، وصنعه سر في صنعته، وهي علانية مشيئته، ليس كمثله شيء في كل صفة، ولا كقوله في ماهية.

وقد روينا عن أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه كلمةً مجملَةً باللغة في وصف التوحيد، أنه قال في خطبته: الحمد لله الذي لم يجعل السبيل إلى معرفته إلا بالعجز عن درك معرفته.

وروينا عن أحمد بن أبي الحواري عن بعض علماء أهل المعرفة من أهل الشام أنه قال: رأى عز وجل خلقه قبل أن يخلقهم، كما رآهم بعد ما خلقهم.

وروى عن أبي سليمان الداراني أنه قال: أدخلهم الجنان قبل أن يطيعوه، وأدخلهم النار قبل أن يعصوه.

وقال أيضاً: إن الله عز وجل أعز من أن يغضبه أفعال خلقه، لكنه نظر إلى قوم بعين الغضب قبل أن يخلقهم، فلما أظهرهم استعملهم بأعمال أهل الغضب، فأسكنهم دار الغضب؛ وهو أكبر من أن يرضيه أفعال خلقه، ولكنه نظر إلى قوم بعين الرضا قبل أن يخلقهم، فلما أظهرهم استعملهم بأعمال أهل الرضا، فأسكنهم دار الرضا.

وقد روينا عن ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]؛ يعنى: كان في علم الله أنه يكونه، وكأنه علّق قوله: «لم يكن» بقوله: «مذكوراً».

والله تعالى يخبر بما يكون في الدنيا، وبما يكون في القيامة وبما بعدها، بلفظ أنه قد كان لاستواء ذلك في علمه آخرًا كأول، إذ لا ترتيب في العلم، ولا حد ولا مسافة ولا بعد في القدرة. وقد قال الله تعالى، وَمَن أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا: ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ [النجم: ٣٥] فنقصه بذلك وذمه. وقال تعالى: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨ - ٢١٩] أى: ويرى تقلبك، وبه انتصب التقلب بالعطف على القيام.

وجاء في التفسير: تقلبك في الأصلاب الزاكية، والأرحام الطاهرة، حتى أخرجك من بين أبويك، لم يتفق لك أبوان على سيفاح قط.

وقيل: في أصلاب الأنبياء، يقلبك بالتثقل في صلب نبي بعد نبي، حتى أخرجك من ذرية ورثة إسماعيل. وقد روينا معنى ذلك عن رسول الله ﷺ.

وقال تعالى في سمع الأصوات قبل خلق الأشباح: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١]. فأخبر أنه سمع الأصوات في القدم في علمه قبل خلق المصوتين في الحديث، فكيف لا يرى الكون عن آخره في القدم بعلمه، قبل ظهورهم له متصورين بفعله؟ وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: ١١]. والخلق والتصوير كانا بعد السجود لآدم، فأخبر عنه أولاً؛ لشهوده له، واستوائه في علمه، إذ لا بد من كونه، فأشبهه

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]. والعرش قبل السموات والأرض، والاستواء صفته لم تزل به، ثم أخبر عنه أنه آخر الترتيب، فالله سبحانه وتعالى عالم بالكون قبل الكون، وناظر إلى علمه، لا حجاب بينه وبين معلومه، وسامع لما شهد، ومتكلم بما علم، فقد سبق النظر والسمع والكلام الكون كله من حيث سبق العلم والقدرة والمشيئة، فهو ناظر سامع متكلم بنفسه، من حيث كان عالمًا مقتدرًا مريدًا بنفسه، ثم أظهر الخلق عالمًا بعد عالم في وقت بعد وقت، فجاءوا على نظره وسمعه وكلامه كما كانوا في علمه وقدرته ومشيئته، بغير زيادة ذرة ولا نقصان خردلة، ألا ترى أنه بقدرته وعلمه يرى يوم القيامة وما فيها؟ والآخرة وما يكون منها على حقيقة ما أخبر عنه، لا يمنعه عدم الكون، ولا يحجبه بعد التأخير. كذلك كان يشهد ما قد كان اليوم في قديمه لعلمه به، وقدرته بقدرته عليه وحيطته به، لا يمنعه عدم كونه، ولا يحجبه فقد ظهوره، ولا يجوز أن يدرك سبحانه وتعالى اليوم ما لم يكن أدركه في أزله، كما لا يجوز أن يستفيد الآن علم ما لم يكن علمه فيما لم يزل، فيكون متكلمًا بما لم يشهد، وهو معلومه منطوق في علمه، أو يكون مستزيدًا بما أظهر حين ظهر، وهو في قبضته وغيبه، جلّ عن ذلك وصفه، وعلا عن هذا جلاله وعزه؛ لأن نظره سعة علمه، وعلمه حیطة نظره، فهو ناظر إلى ما علمه بوصفه، لا يختلف عليه أوصافه، فالكون موجود له بعلمه، لسبق علمه به، ولا بيان له في علمه، ولا أثر له في وصفه، ولا وجود للكون في وجود كينونته، ولا قدم له في قدم أزلته وذاته؛ لأن علمه ليس محلاً للكون، ولا هو حال فيه؛ ولأن أوليته سبقت الكون والمكان، فليس لهما في قدمه قدم كما أنه تعالى يشهد الآن ما يكون من العاقبة والمآل إلى آخر الأحوال، لا يختلف الأواخر والأوّل في صفاته، ولا تتفاوت صفاته على ترتيبها من نظر وعلم، لأنها معلوم علمه، وموجود إرادته، فهو سبحانه وتعالى واجد الأشياء به لا بها، وناظر إليها في علمه لا بوجودها؛ لاقتداره عليها، وإحاطة علمه بها، والكون معدوم لنفسه لتلاشيّه، لأنّه سبحانه وتعالى خالقُ العدم كما هو خالقُ الوجود، ليس للعدم قدم مع قدمه فيكون ثانيًا

معه، ولا الكون كائنٌ موجودٌ بنفسه فيكون أولاً مع أوليته، جل الواحد المتحد بنفسه عن ثانٍ معه في الأزل، أو شريك له في القدم، ثم ظهرت الأشياء لنفوسها، فظهر بعضها لبعض بإظهاره، فوجدت بإيجاده، وظهر عليها بإظهاره بحد ووقت، فلا يجوز أن يساوى بها سبحانه لما ظهرت، إذ ليس في صفات الله حدٌ ولا وقت، ولا أول لها ولا قبل، بل هو الأول الذي لم يزل بلا أول، والقديم الأبد بلا وقت ولا أمد، قائم بصفاته وصفاته موجودة له قائمة به، فمن شهد ما فصلناه بنور اليقين لم يدخل عليه قدمُ العالم، إذ لا قديم مع الله في كينونية أزله.

ومن لم يهتد بما بيناه ووقف مع العقل، دخلت عليه شبهة قدم العالم، فألحد برؤيته قدم الحداث، أو جحد قدم العالم بنفى وجود الحدث فيه. وهذا شرك بالصفات لترتيبه إياها بالمعقول.

ونحن بريئون من شهادته، مبطلون لدعواه، منكرون لشركه في القدم، موحدون باليقين ما ألحد بالعقل؛ لأن من قال: إن شيئاً قديم^(١) مع الله تعالى، أو موجود بنفسه لنفسه، فقد أشرك في الصفات. ومن قال: إن الله سبحانه نظر بعد أن لم ينظر، أو علم بعد أن لم يعلم، أو تكلم بعد أن لم يتكلم، فقد قال بحدوث الصفات، وقدم عليها المعلومات، بل المعلومات منطوية في العلم لا أثر لها فيه، والله قديم بعلمه، وواجد لمعلومه بنفسه عن علمه به، وناظر إليه بعلمه لقدرته عليه بقهره، لا بعدم معلومه، والمعلوم معدومٌ لنفسه غير موجود بنفسه، حتى أحدثه وأوجده، فظهر حين أظهره لمن أظهره بعضاً لبعض لا لنفسه، إذ قد فرغ منه لعلمه به لا أنه قَرُبَ له نظره؛ كما لم يحدث به علمه لنفسه، وعلمه صفته لم يزل له، وهو قائم بوصفه، ولا يجوز أن يحدث له شيئاً لم يعلمه، كذلك لا ينبغي أن يفقد شيئاً لم يجده.

ومن اختلف عليه ما ذكرناه دخل عليه مذهب المعتزلة والجهمية؛ لأن المعتزلة مجمعة على اختلافهم أن الله تعالى لا يرى الشيء حتى يكون.

(١) في المخطوط (م): «قديمًا... أو موجودًا...».

واختلفوا في العلم، فقالت العبادية من القدرية، وهم أصحاب عباد: إن الله تعالى لا يرى الشيء حتى يكون، يظاهرون بذلك قول النظام وبشر الميرسي في أن الله تعالى لا يرى الأشياء حتى تكون.

والجهمية مُجمعة على اختلافهم أن الله تعالى لم يتكلم بالشيء حتى كان، ثم خلق الكلام، فقدّموا الكون قبل كلامه، كما قدمه أولئك قبل نظره.

وقال الجميع بحدوث النظر، كما قالوا بحدوث الكلام والنظر، لأنهم قالوا بحدوث الأسماء بعد حدوث المسميات، وتقدّم الاستطاعة من الخلق على الإرادة من الخالق. فاستوى بذلك شركهم وخرجوا به من التوحيد.

كذلك كذبت العبادية من القدرية أصحاب عباد يظاهرون قول النظامية والميرسية، تشابهت قلوبهم فيتبعون ما تشابه منه.

والمعتزلة أيضاً مجمعة على نفى العلم والقدرة والمشيئة، إلا أنهم يقولون: عالم ولكن لا يضطر علمه إلى شيء ولا يوجب شيئاً، فجعلوه كالظن من الخلق، فقالوا: عالم بلا علم، قديم وقادر بلا قدرة، ومريد بلا إرادة سابقة، وقدّموا الاستطاعة من الخلق فقالوا: لئلا يلزمهم سبق المعلومات، وإن الإرادة والكلام من نعوت الأفعال مخلوقان.

والجهمية أيضاً مجمعة أن الله تعالى لا يتكلم بوصفه أصلاً، وإنما يظهر في أديم الفضاء الكلام بخلق الأعراض في الأجسام. فكان هذا عندهم هو التوحيد، لئلا يشبوا مع الله قديماً.

وهذا عند أهل السنة والجماعة هو الإلحاد، لنفى قدم الصفات، والقول بحدوثها، وانفصالها عن الذات. وليس يختلف أهل اليقين بحمد الله تعالى في جميع ما ذكرناه، كما لا يختلفون في صحة التوحيد. وهذه شهادة الموقنين، وإيمان المقربين، فلا يتشبهن لك العقل بالمعقول عن شهود ما ذكرناه، فيعقلك عن النفاذ للشهادة، فليس يُشهد ما ذكرناه من صفات الشهيد بنور العقل، وإنما يُشهد بنور اليقين؛ لأن خالقاً لا يُشبهه بمخلوق. ومن ليس كمثله شيء، لا يشهد إلا بما ليس كمثله شيء، وهو نور اليقين من نور القادر، ومن لم يجعل الله له نوراً فما

له من نور .

وما ذكرناه من وصفه تعالى هو ظاهر التوحيد المتصل بفرض الشهادة، لا يجرى على ترتيب العقول، ولا يُمثل بقياس العقول؛ لأن نفى الصفات وإثباتها بالمماثلات موجودٌ في رأى العقول، كما أن الكفر والضلال موجودٌ في طبائع النفوس، لعدم شهادة الأبصار، ولفقد وجود مشاهدة الإلهية في تخيل الأفكار، ولجريان المعتاد والعرف في ظهور الأسباب.

كما حدثنا أن بعض الصديقين دعا إلى الله سبحانه وتعالى بحقيقة التوحيد، فلم يستجب له إلا الواحد بعد الواحد. فعجب من ذلك، فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: تريد أن تستجيب لك العقول؟ قال: نعم. قال: احجبنى عنهم. قال: كيف أحجبك وأنا أدعو إليك؟ قال: تكلم فى الأسباب، وفى أسباب الأسباب. قال: فدعا إلى الله تعالى من هذه الطرق، فاستجاب له الجَمُّ الغفير.

فإنما صحة التوحيد بإثبات الصفات وأوصاف الذات التى جاءت بها السنن وشريعة الرسول ﷺ، مع نفى الشبه والماهية، ونفى الجنس والكيفية، ثم سكون القلب وطمأنينة العقل إلى الإيمان بهذا، والتسليم له لأجل نور اليقين الموهوب، لأن هذا إنما يشهد بنور اليقين وعلمه، لا بعلم العقل ونوره، لأن الخالق لا يرى بمخلوق، فالعقل مرآة الدنيا بنوره يشهد ما فيها، والإيمان مرآة الآخرة وبه ينظر إليها، فيؤمن بما فيها. والله تعالى إنما يرى بنور اليقين، فهذا مرآة التوحيد، وفى هذا النور مشاهدة الصفات، وهو حقيقة الإيمان، وأعز ما نزل من السماء، وهو السكينة المنزلة فى قلوب المؤمنين، لمزيد الإيمان، ولتعريف صفات المؤمن معها، بترك ضرب الأخبار بعضها ببعض، ومعارضة بعضها بعضاً، أو ترتيب بعضها على بعض، بل يؤمن بكل خبر ورد فى الصفات والقدرة على حدثه، كما يسلم جميعها على الجملة بإسلامه، وإلا أدى ذلك إلى نفى بعضها، أو إبطال جميعها؛ لأننا أخذنا الإيمان بمنة الله تعالى ورحمته من قبل: التصديق، واليقين، والنقل؛ لا من قبل: التقليد، وحسن الظن، والعقل.

وأربعة أشياء تُسلم ولا تُعارض اعتراضاً: أخبار الصفات، وأصول العبادات،

وفضائل الأصحاب، وفضائل الأعمال. ولولا أن الله تعالى تولى قلوب المؤمنين فحبب الإيمان إليها وزينه فيها، وكره الكفر وشانه عندها، لتاهوا في الظلمات، وغرقوا في بحار الهلكات، لظهور الأغيار ومعاناة الأسباب، ولغيب القدرة عن العيان، ولما ابتلوا به من الحجب والأعيان، ولكن الله تعالى سلّم، وحبب الإيمان في القلوب وزين، وكره الكفر والعصيان وشين. وكذلك مدح المؤمنين بالغيب المستور، ومن ذلك سبق المقربون بمُشاهدة النور، فقال سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. فلولا أنهم كانوا في ظلمة الطبع ما امتنّ عليهم من نور اليقين.

وكذلك جاء الخبر: «إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره؛ فمن أصابه اهتدى ومن أخطأ ضلَّ».

وفى أحد المعاني من قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]، قال: يمحو الأسباب من قلوب الموحدين ويثبت نفسه، ويمحو الوجدانية من قلوب الناظرين ويثبت الأسباب.

ولولا أن التوحيد لم يرسمه عارف قط في كتاب، ولا كشفه عالم في خطاب، يعجزُ علومُ العموم عن درك شهادته، ولسبق إنكار العقول لضعفها عن حمل مكاشفته، لذكرنا من ذلك ما يبهر العقول، ويبهت ذوى المعقول، ولكننا كرهنا أن نبتدع ما لم نسبق إليه، أو نُظهر ما تضطرب العقول بالحيرة فيه، وخفنا من عدم النصيب مما نذكره، فيعود على السامعين من نفعا ضرره.

وحقيقة علم التوحيد باطنُ المعرفة، وهو سبق^(١) المعروف إلى من به تعرف بصفة مخصوصة، لحبيبٍ مقربٍ مخصوص، لا يسع معرفة ذلك الكافة، وإفشاء سر الربوبية كُفر.

وقال بعض العارفين: من صرّح بالتوحيد، وأفشى سرَّ الوجدانية، فقتله أفضل من إحياء غيره.

(١) فى (م): «سر».

وقال بعضهم: للربوبية سرٌّ لو أظهر لبطلت النبوة، وللنبوة سرٌّ لو كُشف لبطل العلم، وللعلماء بالله سرٌّ لو أظهره الله تعالى لبطلت الأحكام.

فَقَوَامُ الإِيْمَانِ واستقامة الشرع بكنم السرّ [الذى] به وقع التدبير، وعليه انتظم الأمر والنهى، والله غالب على أمره. وفوق ذلك علم التوحيد، والاسم منه وحدانى، فالتوحيد وصفه. وفوقه علم الاتحاد، فالوصف منه متحد. وفوقهما علم الوحدانية، والاسم منه واحد. وفوق ذلك علم الأحدية، والاسم منه أحد. وهذه أسماءٌ لها صفات، وأوصاف لها أنوار، وأنوارٌ عنها علومٌ، وعلومٌ لها مشاهدات، بعضها فوق بعض. وفوق كلّ ذى علم عليم.

ثم علم التوحيد أولُ هذه العلوم، وعلوم هذه المشاهدات، وظاهر هذه الأنوار وأقربها إلى الخلق، فالاسم منه مُوَحَّد، وههنا بان الخلق وظهر، فهذا توحيدُه الذى وحَّده به الموحِّدون من جميع خليقته، فعاد ذلك عليهم برحمته.

والمشاهدات الأول توحيد الرب تعالى نفسه بنفسه قبل توحيد خلقه، فتوحيدهم إياه عن توحيدِه فيما كتبنا عنه، وأخفيناه فيما أظهرناه، فهو محجوبٌ فى خزائن الغيوب عن البصائر والفهوم، قد جاوزَ عِلْمَ الملكوت كله، فهو من ورائها فى خزائن الجبروت، وإنّما ذكرنا من ذلك قوت القلوب من علم التوحيد، وما لا بد للإيمان منه من المزيد.

وقال عالمنا أبو محمد سهل رحمه الله تعالى: للعالم ثلاثة علوم: علم ظاهر يَبْذُلُه لأهل الظاهر، وعلم باطن لا يَسَعُ إظهاره إلا لأهله، وعلم هو سرٌّ بين الله وبين العالم هو حقيقة إيمانه، لا يُظْهِره لأهل الظاهر ولا لأهل الباطن^(١).

وقال بعض السلف قبله: ما من عالم يُحَدِّثُ قومًا بعلم لا تبْلُغه عقولهم إلا كان فتنة عليهم.



(١) يؤيد هذا ما أخرجه البخارى، كتاب العلم، عن أبى هريرة قال: «حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين: أما أحدهما فبشّته، وأما الآخر فلو بشّته قطع هذا البلعوم».

شرح ثانى ما بنى الإسلام عليه من الخمس، وهو الصلاة

• ذكر أحكام الصلاة:

وأول ذلك وصف الطهارة، أولها: فرائض الاستنجاء وسننه، وفرائض الوضوء وسننه وفضائله، وفرائض الصلاة وسننها، وأحكام المصلّى فى وقت الصلاة وإدراكها، وما يتعلق بها، وهيئات الصلاة، وآداب المصلّى.

• ذكر فرائض الاستنجاء:

قال الله جلّ ثناؤه وصدقت أنباؤه: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]. وقال رسول الله ﷺ: «لا يقبل الله صلاة بغير طهور». وقال عليه الصلاة والسلام: «الطهور نصف الإيمان». وقال: «مفتاح الصلاة الطهور».

فأول الطهارة الاستنجاء، وفيه فرضان، وأربع سنن.

أحد الفرضين: إزالة الحدث، والثانى: طهارة المزيل، وهو أن لا يكون رجيح دابة، ولا مستعملًا مرة، ولا عظم ميتة، ويكره له الاستنجاء بفحمة؛ لأثر فى ذلك.

والسنن الأربع: وترُّ الاستجمار ثلاثًا أو خمسًا أو سبعمًا، والاستنجاء بالماء، ومباشرة الأذى بالشمال، ومسح اليد بالتراب.

فأما كيفية الاستنجاء فأن يأخذ الحجر بشماله ويُمِرّه على مقعدته من مقدمها مسحًا إلى مؤخرها، ثم يرمى به هناك، ثم يأخذ الحجر الثانى فيبتدئ من مؤخر المقعدة فيمسحها مدًا إلى مقدمها، ثم يرمى به. ثم يأخذ الحجر الثالث، فيديره حول المسربة إدارة، فإن احتاج إلى حجر آخر فليجعلها خمسًا، وإن اكتفى بحجر واحد فلا بد من ثلاث، وإن استجمر بحجر كبير، ذى ثلاث شُعَب، أجزأه عن ثلاثة أحجار.

وفى الخبر: «من استجمر فليوتر». وكان ﷺ إذا أراد الحاجة أبعد، وكان يتبوأ حاجته كما يتبوأ الرجل المنزل؛ لأنه كان لا يقعد فى فضاء، بل كان ينصب وراءه شيئاً، أو يقعد إلى حائط، أو نشز من الأرض يستره، أو كَوْم من حجارة يحجبه، ثم يستدبر ذلك.

وكان ﷺ لا يستقبل القبلة أيضاً، لغائط ولا بول، ولم يكن يرفع ثوبه للغائط حتى يدنو من الأرض. فأما من أراد أن يبول قريباً من صاحبه، بحيث يراه ويحسه، فلا بأس بذلك، فإنها رخصة من رسول الله ﷺ رفع الحياء منها بفعله؛ لأنه كان عليه السلام أشد الناس حياءً، وكان يبول وإلى جانبه صاحبه، ليسنّ التوسعة فى ذلك.

وقال رجل لبعض الصحابة من الأعراب وقد خاصمه، فقال: لا أحسبك تحسن الخراءة. فقال: بلى وأبيك إني بها لحاذق. قال: فصفها لى. قال: أبعد الأثر، وأعد المدر، وأستقبل الشَّيْحَ، وأستدبر الريح، وأقعى إقعاء الطبى، وأجفلُ إجفال النعام.

والشيخ نبت طيب الرائحة يكون بالبادية. والإقعاء فى هذا الموضع أن يستوفز على صدور قدميه. والإجفال أن يرفع عجزه.

وفى حديث سلمان: «علّمنا رسول الله ﷺ كلَّ شيء حتى الخراءة. أمرنا أن لا نستجمر بعظم ولا روث، ونهانا أن نستقبل القبلة لبول أو غائط، وأن يجلس أحدنا على رجله اليسرى وينصب اليمنى». فأما وصف الاستبراء فهو أن يستفرغ الرجل بوله رويداً، ولا يحرك ذكره، فينتشر البول على الحشفة، فإذا انقطع البول على مهل مدّ ذكره ثلاثاً من أصله إلى الحشفة مدّاً رقيقاً لثلاً ينتضح البول، ثم ينتشره ثلاثاً ويتنحج ثلاثاً. وإن فعل ذلك سبعاً سبعاً فقد بالغ. ثم يأخذ الحجر بيمينه، ويأخذ ذكره بشماله، ويمدّه عليه حتى يرى موقعه جافاً، فهناك طُهر حين انقطعت النداءة. ومن مدّه إلى الأرض أو إلى حائط حتى يرى الجفوف عن أثره فمثله، وهذا كافيه من الماء، ما لم ينتشر البول على الحشفة.

ويُستحب له البول في أرض دَمِثَةٍ رِخْوَةٍ، وعلى ترابٍ مَهِيلٍ، ويكره له أن يبول مستقبل الريح، أو على أرض صلبة، كيلاً ينضح البول عليه. وقد شبه فقهاء المدينة الذَّكَرَ بالضرع. وقال بعضهم: إنه لا يزال يخرج منه الشيء بعد الشيء ما دمت تمده. وقيل: إذا وقع الماء على الذكر انقطع البول.

وقد كان أخفهم استبراء، وأقلهم استعمالاً للماء في الطهور، أفقهم عندهم. وقد يكون ما يظهر من النداءة بعد غسل الذكر بالماء أن ذلك من مرجع الماء، يتردد في الإحليل لضيق المسلك، وتلاحم انضمامه عليه، فإذا خشي الوسواس فليتنضح فرجه بعد طهوره، وهو أن يأخذ كفًّا من ماءٍ فليرشه عليه. وفي خبر أن النبي ﷺ فعله. ويكره مسُّ الذكر باليمين.

ويخرج من الذكر خمسة أشياء: البول، والمذي، والودى، وهو لُزُوجَةٌ تعقب البول إذا طال حبسه، والريح، والمنى. ثم كلها توجب الوضوء إلا المنى، وهو الماء الدافق الذي يفتر عنه الذكر، وتنقطع الشهوة، ومنه يُخلق الإنسان، فإنه يوجب الغسل، وما خرج من الذكر من غير ذلك من دُودٍ أو حصى ففيه الوضوء، وقد يخفى الريح، فلذلك يُستحب الوضوء عند كل صلاة، وهو من المرأة أظهر.

• ذكر فرائض الوضوء:

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ كَمَا أُمِرَ - وفي لفظ: من تَوَضَّأَ فَأَسْبَغَ الوضوء - وصَلَّى رَكَعَتَيْنِ لَمْ يَحْدَثْ فِيهِمَا نَفْسَهُ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا، خَرَجَ مِنْ ذَنْبِهِ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ». وفي لفظ آخر: «لَمْ يَسْهُ فِيهِمَا غُفْرٌ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

وقال رسول الله ﷺ: «أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِمَا يَكْفُرُ اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي الْمَكَارِهِ، وَنَقْلُ الْأَقْدَامِ إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكَ الرِّبَاطُ».

وتوضأ ﷺ مرة مرة وقال: «هَذَا وَضُوءٌ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ الصَّلَاةَ إِلَّا بِهِ، ثُمَّ تَوَضَّأَ مَرَّتَيْنِ فَقَالَ: مَنْ تَوَضَّأَ مَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ آتَاهُ اللَّهُ أَجْرَهُ مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ تَوَضَّأَ ثَلَاثًا ثَلَاثًا فَقَالَ: هَذَا وَضُوءُ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي، وَوَضُوءُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ».

• ذكر فرائض الطهارة:

وهي ثمانية: طهارة الإناء، ثم الماء الطاهر، والنية، والترتيب على نسق الكتاب، وغسل الأعضاء الثلاثة المأمور بها، ومسح الرأس، ولا ينفض يديه بالماء عند غسل وجهه وذراعيه فإن ذلك يكون مسحاً، ولا يلطم وجهه بالماء لطمًا فإنه مكروه، ولكن ليحمل الماء بيديه معاً إلى وجهه، ثم لیسنه عليه سنًا، ويغسل وجهه غسلًا من أصول شعر رأسه إلى ما ظهر من لحيته وعلى ما استرسل منها، وليدخل البياض الذي بين أذنه ولحيته في غسل وجهه، وليدخل مرفقيه في غسل ذراعيه، وهذا فرض. وينبغي أن يقطر الماء من وجهه وذراعيه قطراً، وكيفية مسح الرأس أن يمسحه ببلل ماء جديد، يبتدئ بمقدم رأسه، ثم يمد يده إلى مؤخره، ثم يردّها إلى يافوخه هذه مرة، وليمسح رأسه أجمع. وهذه الأربعة الأعضاء هي المنصوص عليها.

فأما ذكر الواو في الترتيب، فإنني سمعت بعض فقهاء العرب من أهل اللغة بمكة يقول: إن الواو، وإن كانت للجمع، فلا تقتضى الترتيب في الظاهر، فإنه إذا لم يرد به الجمع بين شيئين، واستحال أن يجمع بها بين اثنين معاً، فإنها تقوم حينئذ مقام ثم، وتكون للترتيب لا غير.

• ذكر سنن الوضوء:

وهي عشرة: التسمية، وغسل الكفين، والمضمضة، والاستنشاق، والاستنثار، وهو إخراج الماء من الأنف، وتخليل اللحية، ومسح الأذنين، وغسل كل عضو ثلاثاً ثلاثاً منها مسح الرأس، وأن يبدأ بالميا من، وتخليل أصابع القدمين.

• ذكر فضائل الطهارة، وما يقال عند غسل كل عضو من الأذكار:

أول ذلك أن يتوضأ قاعداً مستوراً العورة، وأن لا يكون الماء مُشمساً، وقد كره ذلك. وقيل: إن كراهيته في أرض الحجاز خاصة، وإسباغ الوضوء سيما في الشتاء، فإنه من عزائم الدين. وقال بعض السلف: وضوء المؤمن في الشتاء بالماء البارد يعدل عبادة الرهبان كلها.

وأن لا يعتدى فى الطهور، فقد نُهى عن ذلك، وهو أن يغسل كلَّ عضو فوق الثلاث .

والوضوء على الوضوء نور، وهو أن يتوضأ لكل صلاة عن غير حَدَث، فإن ذلك مستحب إذا أمكن، وله بكل وضوء عشر حسنات، ويجزيه أن يصلى الخمس بوضوء واحد. فقد فعل ذلك رسول الله ﷺ. والوضوء على حَدَثه قرْبَةٌ إلى الله تعالى، إذا نوى به العبدُ ذلك من غير أن يصلى به. وفى الخبر: «إذا توضأ العبد خرجت ذنوبه من جميع أعضائه»، وتكون الصلاة نافلة.

ويستحب أن يتوضأ العبد كلما بال ما لم يشق ذلك عليه، وأن يصلى ركعتين كلما توضأ. ثم أن لا يتكلم فى الوضوء إلا بذكر الله تعالى. وأن يقول عند غسل كلِّ عضو ما يستحب من الدعاء. فيقول عند الفراغ من الاستنجاء: اللهم طهر قلبى من النفاق، وحسن فرجى من الفواحش. ويقول عند التسمية: أعوذ بك من همزات الشياطين، وأعوذ بك رب أن يحضرون. ويقول عند غسل يديه: اللهم إنى أسألك اليمن والبركة، وأعوذ بك من الشؤم والهلكة. ويقول عند المضمضة: اللهم أعننى على تلاوة كتابك وكثرة الذكر لك. ويقول عند الاستنشاق: اللهم صل على محمد، وأوجد لى رائحة الجنة، وأنت عنى راضٍ. ويقول عند الاستنثار: اللهم إنى أعوذ بك من روائح النار، ومن سوء الدار. ويقول عند غسل وجهه: اللهم بيض وجهى يوم تبيض فيه وجوه أوليائك، ولا تسود وجهى يوم تسود فيه وجوه أعدائك. وعند غسل يمينه: اللهم آتنى كتابى بيمينى وحاسبنى حساباً يسيراً. وعند غسل الشمال: اللهم إنى أعوذ بك أن تؤتيني كتابى بشمالى أو من وراء ظهرى. وعند مسح الرأس: اللهم غشنى برحمتك، وأنزل على من بركاتك، وأظللنى تحت عرشك يوم لا ظل إلا ظلك. ويقول عند مسح الأذنين: اللهم اجعلنى ممن يستمع القول فيتبع أحسنه، اللهم أسمعنى منادى الجنة مع الأبرار. ثم يمسح عنقه فيقول: اللهم فك رقبتى من النار، وأعوذ بك من السلاسل والأغلال. ويقول عند غسل قدميه اليمنى: اللهم ثبت قدمى على

الصراط مع أقدام المؤمنين. ويقول عند غسل اليسرى: اللهم إني أعوذ بك أن تزلّ قدمي عن الصراط يوم تزل فيه أقدام المنافقين^(١).

وأن يبتدئ بغسل الذراعين من أصابع الكفين ويقطع من المرفقين كل غسلة، وأن يرفع في غسل الذراعين إلى أنصاف العضدين، وأن يبتدئ بغسل القدمين من الأصابع، ويخللهما في الميا من، ويقطع غسلهما من الكعبين، ويرفع في غسل الرجلين إلى أنصاف الساقين، ويمين أصابع اليد اليمنى خنصرها، ويمين اليد اليسرى إبهامها.

وإذا فرغ من وضوئه رفع رأسه إلى السماء، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً ﷺ عبده ورسوله، سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت، عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي، أستغفرُك وأتوبُ إليك، فاغفر لي، وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم، اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين، واجعلني شكوراً، واجعلني أذكرك كثيراً، وأسبّحك بكرة وأصيلاً.

هذا جميع ما روى من القول بعد الفراغ من الوضوء بآثار متفرقة جمعناها. يقال إن من قال هذا بعد فراغه من الوضوء خُتم على وضوئه بخاتم، وُرفِع له تحت العرش، فلم يزل يسبح الله ويقدسه، ويكتب له ثواب ذلك إلى يوم القيامة.

وأكره الوضوء في إناء صُفَر. سمعتُ أن العبد إذا توضأ احتوشته الشياطين، توسوس إليه، فإذا ذكر الله خنسَتْ عنه، وحضرته الملائكة، فإن كان وضوؤه في إناء صُفَر أو نحاس لم تحضره الملائكة.

وروى عن ابن عمر وأبي هريرة كراهة ذلك. وقال بعضهم: سألني شُعبة أن أخرج له وضوءاً، فأخرجته في إناء صُفَر فلم يتوضأ به، وقال: حدثني عبد الله ابن دينار عن ابن عمر أنه كره الوضوء في إناء صُفَر.

وتوضأ رسول الله ﷺ من ركوة، ومن أداة، ومن مهراس حجر، وقد روي

(١) هذه الأدعية التي ذكرها عند غسل الأعضاء لم ترد في السنة.

فى حديث زينب بنت جحش أن رسول الله ﷺ توضأ واغتسل - فى حديث آخر - من مخضب لها، وهو نحاس، وهذه رخصة.

• صفة الغسل من الجنابة:

يضع الإناء عن يمينه، ثم يسمي الله تعالى، ويفرغ الماء على يديه ثلاثاً قبل إدخالهما الإناء، ثم يغسل ذكره ويستنجي، ثم يتوضأ وضوءه للصلاة كاملاً إلا غسل قدميه، ثم يدخل يديه فى الإناء بما حملتا من الماء فيصب على شقه الأيمن ثلاثاً ظهراً وبطناً إلى فخذه وساقه، ثم يغسل شقه الأيسر كذلك ثلاثاً ظهره وبطنه إلى فخذه وساقه، ويدلك ما أقبل من جسده وما أدبر بيديه معاً، ثم يدخل يديه بما حملتا من الماء فيفيض على رأسه ثلاثاً، ويخلل شعر رأسه بأصابعه، ويبل الشعر، وينقى البشرة، ثم يتنحى من موضعه قليلاً فيغسل قدميه، فإن فضل من الإناء ماء أفاضه على سائر جسده، وأمر يديه على ما أدركتا من بدنه؛ فإن قدم غُسل رجليه فأدخلهما فى أول وضوئه، فلا بأس، ولا وضوء عليه بعد الغسل.

وليتق أن يمس ذكره فى تضاعيف ذلك بيديه، فإن مس ذكره فليعد وضوءه، وإن نسي المضمضة والاستنشاق فى غسل الجنابة حتى صلى، أحببت أن يتمضمض ويستنشق ويعيد الصلاة، وإن نسيهما فى الوضوء فلا إعادة عليه، وكيفما أتى بغسل جسده من الجنابة فجائز بعد أن يعم جميع بدنه غسلًا. ومن لم يتوضأ قبل الغسل، أحببت له أن يتوضأ بعده، ومن انغمس فى نهر أجزاءه عن الغسل، وأحب أن يتوضأ. وفرض غسل الميت كغسل الجنابة.



كتاب الصلاة

• ذكر فرائض الصلاة قبل الدخول فيها:

وهي سبع: أول ذلك طهارة الجسد، وطهارة الثوب، وطهارة البقعة، وستر العورة وهي من السُّرة إلى الركبة، واستقبال القبلة، وإصابة الوقت، والقيام إلا من عذر.

وفرائض الصلاة في صلبها اثنتا عشر خصلة، رُوينا عن رسول الله ﷺ: «مفتاح الجنة الصلاة». وروى عنه ﷺ: «تحريمها التكبير، وتحليلها التسليم».

فأول ذلك: النية، وتكبيرة الإحرام بلفظ التكبير.

وليس للعرب في لفظ التكبير - بمعنى الإكبار - إلا وزن أفعل والأفعل، فيقولون: الله أكبر، والله الأكبر، وليس يقولون: الله كبير، وهم يريدون معنى أكبر مما سواه، إنما يقولون كبير بمعنى عظيم، لأن هذه لفظة أعجمية عُرِّبَتْ. وتقول العرب: الله كبار، وليس بمعنى أكبر إنما هو بمعنى كبير، والتفخيم للتعظيم.

ثم يقرأ سورة الحمد؛ أولها بسم الله الرحمن الرحيم، والركوع، ثم الطمأنينة في الركوع، والاعتدال قائماً، والسجود، ثم الطمأنينة في السجود، والجلسة بين السجدين، والتشهد الأخير، والصلاة على محمد ﷺ، والتسليم الأول.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله تعالى إلى من لا يقيم صلبه بين الركوع والسجود». وروى عنه ﷺ: «لا تجزئ صلاة لا يقيم الرجل فيها صلبه في الركوع والسجود». ورأى ﷺ رجلاً يصلي لا يقيم ظهره في ركوعه وسجوده. فقال له: «ارجع فصل فإنك لم تصل». ثم رآه لا يطمئن في الركوع والسجود، فأمر أيضاً بإعادة الصلاة، ثم علمه الطمأنينة بينهما، والقيام فيهما، فقال: «حتى تطمئن مفاصلك وتسترخى».

ورأى حذيفة وابن مسعود رضي الله عنهما رجلاً يصلي لا يتم ركوعه وسجوده

فقالا: لو مات هذا لمات على غير فطرة أبي القاسم عليه السلام. وفي حديث أحدهما: منذ كم تصلى هذه الصلاة؟ فقال: منذ أربعين سنة. فقال: ما صليت منذ أربعين سنة.

وعن كعب الأحبار: قُسِّمَت الصلاة ثلاثة أثلاث: ثلث طهور، وثلث ركوع، وثلث سجود، فمن نقص أحدها لم يُقبل منه سائرهما. ويقال: من لم تُقبل صلاته رُدَّت أعماله كلّها عليه.

• ذكر سنن الصلاة:

وهي اثنتا عشرة سنة: رفع اليدين بتكبيرة الإحرام، وصورة الرفع أن يكون كفّاه مع منكبيه، وإبهاماه عند شحمة أذنيه، وأطراف أصابعه مع فروع أذنيه، فيكون بهذا الوصف من الرفع موافقاً للأخبار الثلاثة المروية عن النبي صلى الله عليه وآله، أنه كان يرفع يديه إلى منكبيه، وأنه كان يرفعهما إلى شحمة أذنيه، وأنه رفع إلى فروع أذنيه؛ يعني أعاليهما.

ولفظ التكبير أن يضمّ الهاء من الاسم، بتخفيف الضمة من غير بلوغ واو، ويهمز الألف من «أكبر»، ولا يُدخل بين الباء والراء ألفاً، ويجزم الراء، لا يجوز غير هذا، فيقول: الله أكبر.

ثم لا يرفع يديه إذا كَبَّرَ إلى قدامٍ دفعاً، ولا يردهما إلى خلف منكبيه، ولا ينفذهما إذا فرغ من التكبير عن يمين وشمال نفصاً، ولكن يلصق كفيه بمنكبيه، وتكون أصابعه تلقاء أذنيه، ثم يكَبِّرُ ويرسلهما إرسالاً خفيفاً رقيقاً، ويكون إرساله يديه مع آخر التكبير، لا يرسلهما قبل انقضاء التكبير، ولا يوقفهما بعد الفراغ من التكبير.

ثم يستأنف وضع اليمين على الشمال بعد الإرسال، روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه كان إذا كَبَّرَ أرسل يديه، فإذا أراد أن يقرأ وضع اليمين على اليسرى، وليقبض على زُنْدِ كَفِّهِ الشمال، وليجعلهما تحت صدره، ثم التوجه فيقول: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً وأما أنا من المشركين. ثم يقول: إن

صلاتي ونسكى ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين. ويقول: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك.

فقد روى جميع ذلك فى روايات مختلفة، وجميعه حسن، إلا أن يكون خلف الإمام ولا يكون للإمام سكتتان، فلا يمكنه أن يأتى بهذا التوجه كله مع قراءة الحمد، ولا يشتغل حينئذ إلا بقراءة الحمد، يغتنم قراءتها فى سكوت الإمام. واحذر أن تقرأ فى قراءة الإمام، أو تركع أو تسجد أو ترفع رأسك قبله.

ثم الاستعاذة، ثم قراءة سورة من القرآن، أو ثلاث آيات من سورة بعد الحمد. والتأمين بعد قراءة الحمد سنة حسنة، فعله رسول الله ﷺ، ثم أمر به.

ثم رَفَعُ اليدين بالتكبير للركوع أيضاً سنة، ثم التسبيح للركوع. وإذا أردت عشرًا أو سبعا، ولا أقل من ثلاث. وإنما قيل: إنّ الثلاث أدنى الكمال، لأن الكمال عشرة، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦]. ولتكن الثلاث بعد أن يضع يديه على ركبتيه وقبل أن يرفعهما؛ لأنه إذا لم يتحفظ فى ذلك ويتمهل فيه حصل من التسبيح واحدة بعد الركوع، وتكون الأولى والأخرى فى الانحطاط والرفع، وهذا مكروه.

وصورة الركوع: أن يفرّج بين أصابعه فيملأ بها ركبتيه، ويجافى عضديه عن جنبه، ولا يرفع رأسه ولا يخفضه، وليمدّ عنقه مع ظهره مدّا فيكون ظهره ورأسه سواء، ولا يكون مخفوضاً إلى أسفل ولا مقبواً إلى فوق.

ثم رفع اليدين بقول «سمع الله لمن حمده» سنة، ويقول: اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض وما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد.

ثم التسبيح فى السجود؛ إن شاء عشرًا أو سبعا، وأدناه ثلاث، ولتكن الثلاث بعد حصول جبهته على الأرض وقبل رفعه إياها، وإلا كانت واحدة؛ تذهب الأولى فى حال وضع الوجه، والأخرى فى حال رفع الرأس، فتحصل تسبيحة واحدة فى كل سجدة، وهذا غير مستحب أن ينقص عن ثلاث. وقال أنس بن

مالك: ما رأيت أشبه صلاةً برسول الله ﷺ من إمامكم هذا، يعنى عمر بن عبد العزيز، قال: فكنا نُسَبِّح وراءه فى الركوع والسجود عشراً عشراً.

ويجعل رأسه بين كفيه فى سجوده مضموماً مع اليدين، مستقبلاً بهما القبلة، ويفتح عينيه فى سجوده، فإنهما يسجدان إذا كانتا مفتوحتين، ويجافى عضديه عن جنبيه، ويمدّ ظهره، ويرفع بطنه عن فخذه، ويستحب أن يباشر الأرض بكفيه، فإنهما يسجدان مع الوجه.

ثم التكبير للسجود والرفع بين السجدين، وللقيام بعد السجود من غير رفع يديه، ثم يقول: «رب اغفر لى وارحمنى» ثلاثاً، روى ذلك عن ابن عمر.

وإن قال: «رب اغفر وارحم، وتجاوز عما تعلم، فإنك أنت الأعز الأكرم» فجائز، روى ذلك عن ابن مسعود.

وإن قال: «رب اغفر لى وارحمنى واهدنى واجبرنى وأنعشنى» فحسن، قد روى ذلك عن على رضى الله تعالى عنه.

ثم التشهد الأول، ثم السّلام، بالألف واللام وضم الميم، من السّلام من غير تنوين، ومد الاسم وجزم الهاء منه، فيقول: السّلام عليكم ورحمةُ الله وبركاته، وليلتفت وجهه بالسّلام حتى يتبين خداه لمن عن يمينه وشماله، ويلوى به عنقه إلى منكبيه، كذلك كان تسليمُ رسول الله ﷺ، من غير أن يحول جسمه عن القبلة، ولا يرفع فخذه عن الأرض.

• ذكر أحكام الصلاة فى الصوت والإدراك،

ومن أدرك من صلاة رباعية ركعتين، أو الثالثة من صلاة المغرب، فإن ما أدرك هو أول صلاته، فليُتِمَّ على ذلك.

ومن أدرك مع الإمام بعض القيام افتتح سورة الحمد ولم يركع حتى يتمها، وإن رفع الإمام رأسه من الركوع قبله رفع بعده، ومن لم يدرك مع الإمام من القيام شيئاً كبر للإحرام، ثم كبر وركع وهى له ركعة.

وإن ركع الإمام وهو فى قراءة سورة غير الحمد فليقطع حيث انتهى، وليركع

بعده. ومن أدركه في التشهد، أو في السجود، ابتداء التكبير للإحرام قائماً، ثم جلس وسجد للاتباع.

فإذا سلم الإمام قام من غير تكبير يُحدثه ثانياً، وابتداء بقراءة الحمد عند قيامه، ولا يعتد بشيء مما أدرك مع الإمام إلا بالركوع، وهو أن يكون قد وضع يديه على ركبتيه واطمأن قبل أن يرفع الإمام رأسه، فهذه له ركعة.

ومن دخل في صلاة مكتوبة ثم ذكر أن عليه أخرى أحببت أن يتمها، ثم يصلي التي ذكر، ثم يعيد هذه الصلاة.

ومن وافق الإمام في صلاة العصر، ولم يكن صلى الظهر، صلى معه، ثم صلى الظهر ثم أعاد بعدها صلاة العصر. قاله بعض الصحابة، وهو أحب الوجوه إلى.

ومن تكلم في صلاته ناسياً أو سلم من ركعتين من صلاة رباعية، فليسجد سجدة السهو بعد التشهد، فإن كان قد خرج من المسجد وتناول ذلك، ثم ذكر، أحببت أن يعيد الصلاة.

ومن تكلم أو سلم عامداً، أو استدبر القبلة، أو انكشفت عورته، أو رَعَفَ في صلاته، أو ذكر أنه نسي مسح رأسه، أو غسل عضو من أعضائه، أعاد الصلاة.

ومن فاتته جماعة فتطوع رجلٌ قام يصلي معه، أحببت أن يكون هو المصلي به فرضه، ولا يخرج من الخلاف ويدخل في فرض الجماعة، ولا أستحب أن يصلي فرضاً خلف رجل يتطوع، ولا أكره صلاة النوافل جماعةً.

ولا سجود سهو على العبد فيما جهر فيه مما يخافت، ولا فيما خافت فيما يجهر.

ومن شك في ثلاث ركعات أو اثنتين، فليجعلهما اثنتين. ومن شك في أربع أو ثلاث حسبها ثلاثاً، يبنى أبداً على اليقين، وهو الأقل. ثم يسجد سجدة السهو قبل السلام، وعليه أن يتشهد ثانياً لسجدة السهو، وصلاته تامة.

ومن سها عن سجدة السهو، فإن ذكرهما قريباً، أو قبل أن يخرج من

المسجد، فأحبُّ أن يسجدَهما، ثم يتشهد ويسلِّم، فإن تطاول الوقت، أو كان قد خرج من المسجد، سقطتا عنه.

ومن شك في القبلة لدخول ظلمة، أو فقد أدلة، تحرَّى جهده، فإن تبين له أن القبلة بخلاف ذلك، أحببتُ له أن يعيد ذلك.

وأستحبُّ سجود السهو فيما زاد بعد التسليم، وفيما نقص قبله، فإن سجدهما في الزيادة والنقصان قبل السلام، فحسن كل ذلك، قد روينا عن النبي ﷺ.

فإن لحقه وهمٌ في الصلاة ليس بشكٍّ، أو كثر وهمه في الصلاة، أحببتُ أن يجعل سجوده أبدًا بعد السلام.

ومن صلى في حال ضرورة بنقصان طهارة أو نقصان فرض من فرائض الصلاة، أحببتُ أن يعيد متى قدر على ذلك.

ومن صلى في ثوب ثم رأى فيه نجاسة بعد ذلك أعاد، ما دام في الوقت قبل أن يدخل وقت صلاة أخرى، فإن خرج جميع الوقت فلا إعادة عليه، ولو أعاد تلك الصلاة متى رأى تلك النجاسة كأن أحب إلى.

ومن كان عليه صلوات فرط فيها بإضاعة أو نقصان حدود، صلاها - أحب إلى - متوالية؛ صلاة يوم في وقت واحد إن أمكن، أو في أوقات متفرقة نسقًا. وأن يكون ذلك في غير الأوقات المنهى فيها عن الصلاة أحب إلى.

ومن علم في صلاته أن عليه ثوبًا فيه نجاسة، أو أنه غير مستقبل القبلة، فليلق الثوب، وليستقبل القبلة، وليتم صلاته، وإن أعاد فهو أحب إلى.

• ذكر هيئات الصلاة وآدابها:

السَّوَاك قبل الصلاة من فضائلها، روى في الخبر: «صلاة بسواك تفضل على صلاة بغير سواك سبعين ضعفًا».

وأستحب له أن يقرأ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ قبل دخوله في الصلاة، فإنه جنة له من العدو، وأن يستعيز في كل ركعة قبل قراءة الحمد، لأنه يكون قارئًا للقرآن؛

ولأن كلَّ ركعة صلاة، وأن يضم أصابع كفيه في التكبير، وأن يراوح بين قدميه في القيام، لا يضمّ كعبيه ولكن يجعل بين قدميه مقدار أربع أصابع. فإن ذلك يُستحب.

قال بعضهم: كانوا يتفقّدون الإمام إذا كبر في ضم الأصابع، وإذا قام في تفرقة الأقدام. قال: فيستدلون بذلك على فقهه، ونظر ابن مسعود إلى رجل قد ألزق كعبيه في الصلاة، فقال: لو راوح بينهما كان قد أصاب السنة.

وقد يروى في خبر: أن النبي ﷺ نهى عن الصّفن والصفد في الصلاة. فأما الصّفن فرفع إحدى الرجلين، من قوله تعالى: ﴿الصَّافَّاتُ الْجِيَادُ﴾ [ص: ٣١] إذا عطف الفرس طرف سُنْبُكِهِ. وأما الصفد: فهو اقتران القدمين معاً، ومنه قوله تعالى: ﴿مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [إبراهيم: ٤٩]، واحداها: صفد.

وقد رأيت بعض العلماء يفرّق بين أصابعه في التكبير، وتأوّل أن ذلك معنى الخبر أن النبي ﷺ كان إذا كبر نشر أصابعه نشرًا، وذلك محتملٌ لتوكيده بالمصدر، وهو قوله: نشرًا، فيصلح أن يكون قوله «نشرًا» يريد به التفرقة، وقد تسمى التفرقة: بثًا، ونشرًا، إلا أن حقيقة النشر: البسط. وقد قال الله تعالى: ﴿وَزَرَأِيْ مَبْثُوْنَةٍ﴾ [الغاشية: ١٦]، فهذا هو التفرقة. وقال في معنى البث: ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤]. ثم قال في مثله: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧]. فإذا كان النّشر مثل البث، وكان البث هو التفرقة، كان قوله «نشرًا» بمعنى فرق.

إلا أن إسحاق بن راهويه سئل عن معنى قوله: «نشر أصابعه في الصلاة نشرًا» فقال: هو فتحها وضمها، أراد بذلك أن يعلم أنه لم يكن يقبض كفّه. وهذا وجه حسن، لأن النشر ضدّ الطي في المعنى، والقبض: طي.

ورأيت ثلاثة من العلماء يفرّقون أصابعهم في التكبير، منهم: أبو الحسن؛ صاحب الصلاة في المسجد الحرام، وكان فقيهاً. ورأيت ثلاثة يضمون أصابعهم، منهم: أبو الحسن بن سالم، وأبو بكر الآجري. وأحسب أن أبا زيد الفقيه كان يفرّق في أكثر ظني، إذا تذكرت تكبيره.

وقول «آمين» من فضائل الصلاة. روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا قال الإمام: ولا الضالين، فقولوا: آمين، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفر له ما تقدم من ذنبه». وكان رسول الله يرفع صوته بآمين.

وفى لفظ «آمين» لغتان: المد والقصر. والميم فيهما مخففة؛ لأنك إذا شددت الميم أحلّت المعنى، فيكون معناه: قاصدين، من قوله: ﴿وَلَا آمِينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢].

وأن يترك إحدى يديه على الأخرى قابضاً على الزندين بين السرة والصدر، فإن ذلك من الخشوع. وقال بعض العلماء: ما أحسنه ذلُّ بين يدي عزيز. وروى عن النبي ﷺ أنه من سنن المرسلين.

وفسر على عليه السلام قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحِرْ﴾ [الكوثر: ٢] قال: وضع اليمين على الشمال، وهذا موضع علم على رضى الله تعالى عنه، ولطيف معرفته؛ لأن تحت الصدر عرقاً يقال له: النحر، لا يعلمه إلا العلماء، فاشتق على رضى الله عنه قوله «وانحر» من لفظ النحر، أى ضع يدك على النحر، وهو هذا العرق. كما يقال: ادمغ؛ أى أصب الدماغ. ولم يحمله على نحر البدن؛ لأنه ذكر فى الصلاة.

ومن الناس من يظن اشتقاقه من النحر، والنحر هو تحت الحلقوم عند ملتقى التراقي، واليد لا توضع هنالك، إلا من قال من أهل اللغة فى معناه: «وانحر» أى واجه القبلة بنحرك، فهذا لعمرى وجه.

ولا يقعى فى الصلاة، وهو أن يجلس على قدميه وينصب ركبتيه. هذا مذهب أهل اللغة فى الإقعاء. أو على ركبتيه جاثياً، وأصابع رجليه فى الأرض. هذا مذهب أهل الحديث.

وليجنب السدك والكف. فأما السدل فهو أن يرخى أطراف ثيابه على الأرض وهو قائم. يقال: سدل وسدن بمعنى واحد، وقد تبدل اللام نوناً لقرب المخرجين، إذا أرسل ثيابه. ومنه قيل: سدة الكعبة، أحدهم: سادن، وهم قوامها الذين

يُسَبِّلُون عليها كِسْوَتَهَا. وَسَدَانَةُ الكَعْبَةِ: ثِيَابُهَا الْمُسَبَّلَةُ. وَهَذَا قَوْلُ أَهْلِ اللُّغَةِ وَمَذْهَبُ أَهْلِ الْحَدِيثِ فِي السَّدَلِ: أَنْ يَلْتَحِفَ بِثَوْبِهِ، وَيُدْخِلَ يَدَيْهِ مِنْ دَاخِلِهِ، فَيُرْكَعُ وَيَسْجُدُ كَذَلِكَ. وَلِأَنَّ هَذَا فَعَلَ الْيَهُودُ فِي صَلَاتِهِمْ فَتُهَوِّا عَنْ التَّشْبِيهِ بِهِمْ. وَالْقَمِيصُ فِي مَعْنَاهُ، وَلَا يَرْكَعُ وَيَسْجُدُ وَيَدَاهُ فِي بَدَنِ الْقَمِيصِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ وَاسِعًا فَلَا بَأْسَ أَنْ يَرْكَعَ وَيَدَاهُ مِنْ دَاخِلِ الْقَمِيصِ، أَوْ يَسْجُدَ وَإِحْدَى يَدَيْهِ فِي بَدَنِ الْقَمِيصِ إِذَا اتَّسَعَ، فَأَمَّا أَنْ يُدْخِلَ يَدَيْهِ فِي جَسَدِ الْقَمِيصِ فِي السَّجُودِ فَمَكْرُوهٌ.

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ فِي السَّدَلِ قَوْلًا ثَالِثًا، قَالَ: هُوَ أَنْ يَضَعَ وَسْطَ إِزَارِهِ عَلَى رَأْسِهِ، وَيُرْسِلَ طَرْفِيهِ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَجْعَلَهُمَا عَلَى كَتْفَيْهِ. وَهَذَا قَوْلُ بَعْضِ الْمُتَأَخِّرِينَ وَلَيْسَ بِشَيْءٍ عِنْدِي. وَالْأَوَّلَانِ أَعْجَبَ إِلَيَّ، وَهُمَا مَذْهَبُ الْقَدَمَاءِ.

وَأَمَّا الْكَفُّ فَقَدْ نُهِيَ عَنْهُ فِي الصَّلَاةِ أَيْضًا، وَهُوَ أَنْ يَرْفَعَ ثِيَابَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ أَوْ مِنْ خَلْفِهِ إِذَا أَرَادَ السَّجُودَ. وَأَكْرَهَ أَنْ يَأْتِزَرَ فَوْقَ الْقَمِيصِ فَإِنَّهُ مِنَ الْكَفِّ.

وَقَدْ رَوَى عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَرَاهِيَةَ ذَلِكَ. وَرَوَيْنَا عَنْ بَعْضِ أَوْلَادِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الرُّخْصَةَ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ صَلَّى ﷺ بِأَصْحَابِهِ مُحْتَرِمًا بَعْمَامَتَهُ فَوْقَ الْقَمِيصِ. وَقَدْ يَكُونُ الْكَفُّ فِي شَعْرِ الرَّأْسِ، فَلَا يَصْلِحُ وَهُوَ عَاقِصُ شَعْرِهِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْضَاءَ وَلَا أَكُفُّ شَعْرًا وَلَا ثَوْبًا».

وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْإِخْتِصَارِ فِي الصَّلَاةِ، وَعَنِ الصَّلْبِ. فَأَمَّا الْإِخْتِصَارُ فَأَنْ يَضَعَ يَدَهُ عَلَى خَاصِرَتِهِ، وَأَمَّا الصَّلْبُ فَأَنْ يَضَعَ يَدَيْهِ جَمِيعًا عَلَى خَصْرِيهِ وَيَجَافِي بَيْنَ عِضْدَيْهِ فِي الْقِيَامِ.

وَلِتَقَعَ رِكْبَتَاهُ عَلَى الْأَرْضِ قَبْلَ يَدَيْهِ، وَيَدَاهُ قَبْلَ وَجْهِهِ. وَأَنْ يَسْجُدَ عَلَى جَبْهَتِهِ وَأَنْفِهِ، فَإِنَّهُمَا عَضْوٌ وَاحِدٌ. وَلِيَنْهَضَ عَلَى صَدُورِ قَدَمَيْهِ، وَإِنْ ضَعْفَ فَلْيَعْتَمِدْ عَلَى الْأَرْضِ بِيَدَيْهِ.

وَأَنْ لَا يَلْتَفِتَ فِي صَلَاتِهِ يَمِينًا وَشِمَالًا، وَلَا يَلْحِظَ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ، فَإِنْ لَحِظَ

فهو أيسر، وليرم ببصره إلى موضع سجوده، فإن لم يفعل فليقابل بوجهه تلقاء القبلة، ولا يعبث بشيء من بدنه في الصلاة. روى أن سعيد بن المسيب نظر إلى رجلٍ يعبث بلحيته في صلاته، فقال: لو خَشَعَ قلبُ هذا لخشعت جوارحه. وقد روينا عن رسول الله ﷺ من طريق.

ونُهي عن المواصلَة في الصلاة، وهي في خمس: اثنان على الإمام: أن لا يصل قراءته بتكبير الإحرام، ولا يصل ركوعه بقراءته. واثنان على المأموم: أن لا يصل تكبيرة الإحرام بتكبير الإمام، ولا تسليمه بتسليمه. وواحدة بينهما: أن لا يصل تسليم الفرض بتسليم التطوع، وليفصل بينهما.

وقد قيل: التسليم حزم والتكبير جزم^(١). وقد جاء في الخبر: «سبعة أشياء في الصلاة من الشيطان: الرُّعاف، والنُّعاس، والوسوسة، والثَّأؤب، والحكَّاء، والالتفات، والعبثُ بالشَّيء». وزاد بعضهم: والسَّهْو، والشَّك. وقال بعض السلف: أربعة أشياء في الصلاة من الجفاء: الالتفات، ومسح الوجه، وتسوية الحصى، وأن يصلى بطريق من يمر بين يديه. وزاد بعضهم: وأن يصلى في الصف الثاني وفي الصف الأول فرجة.

وقد نُهي عن صلاة الحاقن، والحاقب، والحاق. فالحاقن من البول، والحاقب من وجود الغائط، والحاق صاحب الخُف الضيق. فلا يصلى من كُنَّ به هذه الثلاث؛ لأنها تشغل القلب. وأكره صلاة الغضبان، والمهتمَّ بأمر، ومن عرضت له حاجة، حتى يُسرَّى عن قلوبهم ذلك، ويطمئن القلب، ويتفرَّغوا للصلاة. ومن شغل قلبه حضورُ الطعام، وكانت نفسه تائفة إليه، فليقدِّم الأكل؛ لقوله ﷺ: «إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدؤوا بالعشاء». إلا أن يضيق الوقت، أو يكون ساكن القلب.

وفي الخبر: «لا يدخلن أحدكم الصلاة وهو مُقطَّب^(٢)، ولا يصلين أحدكم وهو

(١) في (م) معكوسة: «التسليم جزم والتكبير جزم».

(٢) مقطَّب: أى مقطَّب جبينه.

غضبان». وكان الحسن يقول: كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع.

• ذكر فضائل الصلاة وآدابها وما يركو بها أهلها، ووصف صلاة الخاشعين:

قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]. وقال: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. وقال تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]. قيل: سكارى من حب الدنيا. وقيل: من الاهتمام بها. وقل جل ثناؤه: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣]. وقال النبي ﷺ: «من صلى ركعتين لم يحدث نفسه فيهما بشيء من الدنيا غفر له ما تقدم من ذنبه».

وقال ﷺ: «إنما الصلاة تَمْسُكُنْ، وتواضع، وتضرع وتبأوس، وتنادم، وترفع يديك وتقول: اللهم. فمن لم يفعل فهي خداج» أى ناقصة.

وروينا عن الله سبحانه وتعالى في الكتب السالفة أنه قال: ليس كل مصلٍ أَتَقَبَّلَ صَلَاتِهِ، إنما أَتَقَبَّلُ صَلَاةَ مَنْ تَوَاضَعَ لِعِظَمَتِي، وَلَمْ يَتَكَبَّرْ عَلَيَّ، وَأَطْعَمَ الْفَقِيرَ الْجَائِعَ لَوَجْهِى.

فمن الإقبال على الصلاة أن لا تعرف من عن يمينك، ولا من عن شمالك، من حسن القيام بين يدي القائم على كلِّ نفس بما كسبت، وكذلك فسروا قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢]. وقال سعيد بن جبیر: ما عرفتُ من عن يميني ولا عن شمالي في الصلاة منذ أربعين سنة، منذ سمعت ابن عباس يقول: الخشوع في الصلاة أن لا يعرف المصلى من عن يمينه وعن شماله.

وروينا عن بشر بن الحارث قال: قال سفيان: من لم يخشع فسدت صلاته. وروينا عن معاذ بن جبل: من عرف من عن يمينه وشماله في الصلاة متعمداً فلا صلاة له.

وقد أسنده إسماعيل بن أبى زياد عن بشر بن الحارث وغيره وعن الثورى أيضاً:

من قرأ كلمة مكتوبة في حائط أو بساط في صلاته، فصلاته باطلة. وقال بشر: يعنى بذلك أنه عمل في الصلاة.

ومن الدوام في الصلاة السكون فيها، وعلى ذلك فُسِّرَ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣]. قيل: هو السكون والطمأنينة في الصلاة، من قولك: ماء دائم إذا سكن. وقال بعض الصحابة: يُحْشَرُ الناس يوم القيامة على مثال هيئاتهم في الصلاة، من الطمأنينة والهدوء، ومن وجود النعيم بها واللذة. ثم إصغاء القلب للفهم وخشوعه للتواضع، وسكون الجوارح للهبة، ثم الترتيل في القراءة، والتدبر لمعاني الكلام، وحسن الافتقار إلى المتكلم في الإفهام، والإيقاف على المراد، وصدق الرغبة في الطلب للاطلاع على المطالع من السر المكنون المستودع في الكتاب.

وإن مرَّ بآية رحمة سأل ورغب، أو آية عذاب فزع واستعاذ، أو مرَّ بتسبيح وتعظيم وحمد سبَّح وعظَّم وحمِد، فإن قال بلسانه فحسن، وإن أسرَّه في قلبه ورفع به همه نابه قصده عن المقال، وكان فقره غاية السؤال، وهذا أحد الوجهين في قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]. هكذا كان وصفهم في التلاوة.

وينبغي أن يكون قلبه بوصف كل ركن من أركان الصلاة، وهمه معلق بكل معنى من معاني المناجاة، فإذا قال: «الله أكبر» لا يكون في قلبه أكبر من الله تعالى إن عقل ما يقول؛ لأن معنى قوله «الله أكبر»: أى أكبر مما سواه، ولا يقال أكبر من صغير، إنما يقال أكبر من كبير، فيقال: هذا كبير، وهذا أكبر. فإن كان همه الملك الكبير كان ذكر الله أكبر في قلبه، فليواطئ قلبه قول مولاه في قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ويواطئ لسانه قلبه في مشاهدة الأكبر فيكون يتلو وينظر، فإن الله تعالى قدَّم العين على اللسان في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد: ٨ - ٩]. فلا يقدم لسانه ويؤخر بصره، ويكون عقده محققاً لمقاله بالوصف، حتى يكون عاملاً بما يقول في الحال، فقد أخذ عليه

ذلك لما أمر به حجة عليه وتنبهًا له، ولا يكون بقوله: «الله أكبر» حاكياً ذلك عن قول غيره، ولا مخبراً به عن سواه، بل يكون هو المتحقق بالمعنى القائم بالشهادة، وهذا عند أهل المعرفة واجب، لأن الإيمان قول وعمل في كل شيء. فإذا قلت: «الله أكبر»، فإن العمل بالقول أن يكون الله أكبر في قلبك من كل شيء، وهو من رعاية العهد، لتدخل تحت الثناء والمدح في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المعارج: ٣٢]. فالعهد: ما أعطيت بلسانك، والرعاية: الوفاء بالقلب ليستحق الأجر العظيم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فِسْيُوتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

ومن كان في قلبه الملك الصغير الفاني أكبر من الملك الأكبر فما عمل بقوله تعالى: «الله أكبر» وليس هذا حقيقة الإيمان؛ لأنه لم يأت بعملٍ وقولٍ، وإنما جاء بالقول وهذا قائمٌ بنفس مشاهد للدينا، فهو عند نفسه، فلذلك كانت قرّة عينه نفسه، ولو كانت عند ربه كانت مشاهدته الآخرة، وكانت قرّة عينه الآخرة، كما قال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ﴾ يعنى الدنيا ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] يعنى الآخرة.

وقد قال ﷺ: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»؛ لأنه كان عند ربه فجعل قرّة عينه به. وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. فالمذكور أكبر وأكبر. وقد أخبر تعالى أن الصلاة أريد بها الذكر في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]. وروى معنى ذلك عن رسول الله ﷺ. وإنما فرضت الصلاة، وأمر بالحج والطواف، وأُشْعِرَتِ المناسك؛ لإقامة ذكر الله، فإذا لم يكن في قلبك للمذكور - الذى هو المقصود والمبتغى - عظمة ولا هبة فما قيمة ذكرك؟ وقال رسول الله ﷺ لأنس بن مالك إذا صلى صلاة: «فصل صلاة مودّع»، أى مودّع لنفسه، مودّع لهواه، مودّع لعمره، سائر إلى مولاه. كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]. وكقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

وقال النبي ﷺ: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ». وكان يرى الأكبر فتقرّ عينه به. وقال: «من لم تنته صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً». كما قال: «من لم يترك قولَ الزور والخيانة فليس لله تعالى حاجة في أن يترك طعامه وشرابه». فإنما المراد من الصلاة والصيام المخالفة من الآثام.

ومن إقامة الصلاة وإتمامها الوضوء لها قبل دخول وقتها لئلا يشغله عن أول وقت غيرها.

وينبغي أن يكون قلبه في همه، وهمه مع ربه، وربّه في قلبه، فينظر إليه من كلامه، ويكلمه بخطابه، ويتملقه بمناجاته، ويعرفه من صفاته. فإن كلّ كلمة عن معنى اسم، أو وصف، أو خلق، أو حكم، أو إرادة، أو فعل؛ لأنّ الكلمة يُنبئ عن معاني الأوصاف، ويدلّ على الموصوف.

وكلّ كلمة من الخطاب تتوجه عشر جهات للعارف، من كل جهة مقام ومشاهدات. أولُ الجهات: الإيمان بها، والتسليم لها، والتوبة إليها، والصبر عليها، والرضا بها، والخوف منها، والرجاء لها، والشكر عليها، والمحبة لها، والتوكل فيها. فهذه المقامات العشر هي مقامات اليقين؛ لأنّ الكلمة هي حق اليقين، وهذه المعاني كلها منطوية في كلّ كلمة يشهد بها أهل التملق والمناجاة، ويعرفها أهل العلم والحياة، لأنّ كلام المحبوب حياة القلوب، لا يُنذر به إلا حى، ولا يحيا به إلا مستجيب، قال الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ * لِيُنذَرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩ - ٧٠]. وقال سبحانه: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ولا يشهد هذه العشر مشاهدات إلا من نُقل في العشر مقامات المذكورة في سورة الأحزاب؛ أولها مقام المسلمين، وآخرها مقام الذّاكرين. وبعد مقام الذّكر هذه المشاهدات العشر، فعندها لا يملّ المناجاة لوجود المصافاة، ولا يثقل عليه القيام للذاذة والإفهام، ويسهل عليه الوقوف لدنوّ العطوف، ويتنعم بالعتاب بحلاوة الاقتراب. هنالك يندرج طول القيام في التلاوة فلا يجده، كاندراج القبلة

فى الصلاة فلا يشهدها، فىكون من ورائه القبلة وهو أمامها. كذلك القيام يحمله، وهو مع حامله.

حدث أن الموقن إذا توضعاً للصلاة تباعدت عنه الشياطين فى أقطار الأرضين خوفاً منه؛ لأنه يتأهب للدخول على الملك. فإذا كبر حُجب عنه إبليس، وضرب بينه وبينه سرادق لا ينظر إليه، وواجهه الجبار بوجهه. فإذا قال: الله أكبر، اطلع الملك فى قلبه، فإذا ليس فى قلبه أكبر من الله تعالى، فيقول: صدقت الله تعالى فى قلبك كما تقول. قال: فيتشعشع من قلبه نور يلحق بملكوت العرش، فيكشف له بذلك النور ملكوت السموات والأرض، ويكتب له حشو ذلك النور حسنات.

قال: وإن الغافل الجاهل إذا قام للوضوء احتوشته الشياطين، كما يحتوش الذباب على نقطة العسل. وإذا كبر اطلع الملك فى قلبه، فإذا كل شيء فى قلبه أكبر من الله تعالى عنده، فيقول له: كذبت ليس الله فى قلبك كما تقول. قال: فيثور فى قلبه دخان يلحق بعنان السماء فيكون حجاباً لقلبه، قال: فيرد ذلك الحجاب صلاته، ويلتقم الشيطان قلبه، فلا يزال ينفخ فيه، وينفث ويوسوس إليه، ويزين له، حتى ينصرف من صلاته ولا يعقل ما كان فيه.

وقد جاء فى الخبر: «لولا أن الشياطين يحومون حول قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات».

وروي عن رسول الله ﷺ أنه رأى فى القبلة نخامة، فغضب غضباً شديداً، ثم حكها بعرجون كان فى يده، وقال: اتنوني بعبير، فلطخ أثرها بزعفران، ثم التفت إلينا فقال: «أيكم يحب أن يُزق فى وجهه؟» فقلنا: لا أينا. قال: «فإن أحدكم إذا دخل فى صلاته فإن الله عز وجل بينه وبين القبلة - وفى لفظ آخر: واجهه الله تعالى - فلا ييزقن أحدكم تلقاء وجهه، ولا عن يمينه، ولكن عن شماله أو تحت قدمه اليسرى، فإن بدرته بادرة فليصق فى ثوبه، وليقل به هكذا، وذلك بعضه ببعض».

وقد روى: «إذا قام العبد فى صلاته فقال: الله أكبر، قال الله لملائكته: ارفعوا الحجاب بينى وبين عبدى. فإذا سها فى صلاته أو حدث نفسه بشيء، يقول الله

تعالى للملائكته: أرسلوا الحجاب بيني وبين عبدى، فإذا التفت يقول الله تعالى: عبدى، إلى من تلتفت؟ أنا خير لك ممن تلتفت إليه».

ثم إذا قام المقبل على صلاته شهد قلبه قيامه لربّ العالمين، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم شهد وقوفه بالحضرة بين يدى الملك الجبار، إذ ليس من الغافلين، فتأخذه غيبة الحضور، ويرهقه إجلالُ الحاضر، ويستولى عليه تعظيم القريب، ويجمعه خشية الرقيب.

فإذا تلا وقف همه مع المتكلم ماذا أراد، واشتغل قلبه بالفهم عنه والاستنباط منه.

فإذا ركع وقف قلبه مع التعظيم للعظيم، فلا يكون فى قلبه أعظم من الله تعالى وحده.

فإن رفع شهد الحمد للمحمود، فوقف مع الشكر للودود، فاستوجب منه المزيد، وسكن قلبه بالرضا، لأنه حقيقة الحمد.

وإن سجد سما قلبه فى العلو فقرّب من الأعلى بقوله تعالى: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩].

وأهل المشاهدة فى السجود على ثلاث مقامات؛ منهم من إذا سجد كُشف بالجبوت الأعلى، فسجد أمام العرش مواجهًا للوجه، ومجاورًا للملأ الأعلى تلقاء الأفق الأعلى، فيعلو إلى القريب، ويدنو من الحبيب، وهذا مقام المقربين من المحبوبين.

ومنهم من إذا سجد كُشف بملكوت العزة، فيسجد على الثرى الأسفل عند وصف من أوصاف القادر الأجلّ، فينكسر قلبه ويخبت، تواضعًا وذلاًّ للعزیز الأعلى، وهذا مقام الخائفين من العابدين.

ومنهم من إذا سجد جال قلبه فى ملكوت السموات والأرض، فأب بظرائف الفوائد، وشهد غرائب الزوائد، وهذا مقام الصادقين من الطالبين.

وهناك قسم رابع لا يُذكر بشيءٍ ليس له وصف فيستحق المدح، وهم الذين يجولُ همّهم في أعطية الملك وأنصبة الممالك، فهم محجوبون بالهمم الدنيّة عن الشهادة العليّة، مأسورون بالهوى عن السياحة إلى الأعلى.

فإن دعا هذا المصلّي نظر إلى المدعو، فكان هو المرجو، فأخذ في التمجيد والثناء والحمد والآلاء، ونسى حاجته من الدنيا، واشتغل عن نفسه بالمولى وعن مسألته بحسن الثناء. وإن استغفر هذا الداعي تفكّر في أوصاف التوبة وأحكام التائب، وتذكّر ما سلف من الذنوب، فعمل في تصفية الاستغفار، وإخلاص الإنابة والاعتذار، وجدّد عقد الاستقامة، فيكون له بهذا الاستغفار من الله عز وجل تحية وكرامة. ففي مثل صلاة هذا العبد وردت الأخبار: أن العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الحجاب بينه وبينه، وواجهه بوجهه، وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهواء فيصلون بصلاته، ويؤمنون على دعائه، وأن المصلّي ليُنثر عليه البرّ من عنان السماء إلى مفرق رأسه، ويناديه مناد: لو علم المناجى من يناجى ما انفتل، وأن أبواب السماء تُفتح للمصلّين، وأن الله تعالى يباهى ملائكته بصفوف المصلّين. وفي التوراة مكتوب: يا ابن آدم، لا تعجز أن تقوم بين يديّ مصلّيّاً باكيّاً، فأنا الله تعالى الذى اقتربت من قلبك، وبالغيب رأيت نورى. قال: وكنا نرى أن تلك الرقة والبكاء وتلك الفتوح التى يجدها المصلّي فى قلبه من دنوّ الرب تبارك وتعالى من القلب، وقال رجل للنبي ﷺ: ادع الله تعالى أن يرزقنى مرافقتك فى الجنة. فقال: «أعنى بكثرة السجود». وروينا عن النبي ﷺ: «ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد أحبّ إليه من الصلاة». ولو كان شيء أحبّ إليه من الصلاة لتعبّد به ملائكته؛ منهم راکعٌ، وساجدٌ، وقائمٌ، وقاعدٌ. أو كما قال بعض العلماء: الصلاة خدمة الله عز وجلّ فى أرضه. وقال آخر: المصلّون خدّام الله عز وجل على بساطه. إن المصلّين من الملائكة يُسمّون فى السموات خدّام الرحمن ويفخرون بذلك على سائر المرسلين من الملائكة.

ويقال: إنّ المؤمن إذا صلى ركعتين عجب منه عشر صفوفٍ من الملائكة؛ كل صف منهم عشرة آلاف، وباهى الله تعالى به مائة ألفٍ ملك؛ وذلك أن العبد قد

جمع فيه أركان الصلاة الأربعة؛ من القيام، والقعود، والركوع، والسجود، وفرّق ذلك على أربعين ألف ملك. والقائمون لا يركعون إلى يوم القيامة، والساجدون لا يرفعون إلى يوم القيامة، وكذلك الراكعون والساجدون. ثم قد جمع الله له أركان الصلاة الستة من: التلاوة، والحمد، والاستغفار، والدعاء، والصلاة على النبي ﷺ. وفرّق ذلك على ستين ألف ملك؛ لأن كل صفٍّ من الملائكة عبادته ذكر من الأذكار الستة. فإذا رأت الأملاك ما جمع فيه من الأركان الستة والأذكار في ركعتين عجبت منه وبأهاهم الله تعالى به؛ لأنه قد فرّق تلك الأعمال والأركان على مائة ألف ملك، وبذلك فضّل المؤمن على الملائكة. وكذلك فضّل الموقن أيضاً في مقامات اليقين من أعمال القلوب على الأملاك بالتنقيل في المقامات، بأن جمعت فيه ورفع منها، والملائكة لا يُنقلون بل كلّ ملك موقوفٌ في مقام معلوم لا يُنقل عنه إلى غيره مثل: الشكر، والخوف، والرجاء، والشوق، والأنين، والخشية، والمحبة، بل كلّ ملك له مزيد وعلوٌّ من المقام الواحد على قدر قواه. وجمع ذلك كله في قلب الموقن.

قال الله تعالى - وهو أصدق القائلين - في صفات أوليائه المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٣]. فمدحهم بالصلاة كما ذكرهم بالإيمان، ثم مدح صلاتهم بالخشوع كما افتتح بالصلاة أوصافهم، ثم قال في آخرها: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩] فختم بها نعتهم. وقال في نعت عباده المصلين الذين استثناهم من الجزوعين من المصائب والفقر، المانعين للمال والخير: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٢ - ٢٣]. ثم نسق النعوت وقال في آخرها: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤]، فلولا أنها أحب الأعمال إليه ما جعلها مفتاح صفات أحبائه وختامها، ولما وصفهم بالدوام والمحافظة عليها، ومدحهم بالخشوع فيها.

والخشوع: هو انكسار القلب، وإخباته، وتواضعه، وذلته، ثم لين الجانب،

وكفُّ الجوارح، وحسن سَمَت وإقبال، والمداومة والمواظبة عليها، وسكون القلب والجوارح فيها. والمحافظة: هى حضور القلب وإصغاؤه، وصفاء الفهم وإفراذه من مراعاة الأوقات، وإكمال طهارة الأدوات.

ثم قال تعالى فى عاقبة المصلين: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠ - ١١]، فجعل أول عطائهم الفلاح، وهو الظفر والبقاء، وآخره الفردوس، وهو خير المستقر والمأوى.

وقال فى أضدادهم من أهل النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرٍ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنْ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٤٢ - ٤٣].

وقال موبخاً لآخر منهم: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ [القيامة: ٣١].

ونهى رسول الله ﷺ عن طاعة من نهاه عن الصلاة، ثم أمره بها، وأخبره أن فيها القرب والزلفى فى قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ [العلق: ٩ - ١٠]. ثم قال: ﴿كَأَلَّا لَا تُطْعَهُ وَأَسْجُدَ وَاقْتَرَبَ﴾ [العلق: ١٩].

فالمصلون بقية من خلقه، وورثة جنته من عباده، وأهل النجاة من دار غضبه وإبعاده، جعلنا الله منهم بعطفه ورحمته.

• ذكر الحث على المحافظة على الصلاة وطريقة المصلين من الموقنين:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩] الآية. فاختر لنفسه أصحابه صلوات الله عليه، ثم اختار لأصحابه الصلاة فجعلها وصفهم فى الإنجيل والتوراة، فهذا يدل أن الصلاة أفضل الأعمال لأن أصحاب رسول الله ﷺ أفضل الأعمال.

وسئل رسول الله ﷺ: «أى الأعمال أفضل؟ قال: الصلاة لمواقيتها». وعن عمر رضى الله تعالى عنه: إذا رأيت الرجل حافظاً لصلاته فظنَّ به خيراً، وإذا رأيت مضيئاً لصلاته فهو لما سواها أضيع.

وكان الحسن يقول: ابن آدم، ماذا يعز عليك من دينك إذا هانت عليك صلاتك؟ فهو على الله تعالى أهون.

وعن رسول الله ﷺ: «الصلاة عماد الدين من تركها فقد كفر». وفي حديث آخر: «بين الكفر والإيمان ترك الصلاة». وفي الخبر: «من حافظ على الصلوات الخمس بإكمال طهورها ومواقيتها كانت له نوراً وبرهاناً يوم القيامة، ومن ضيعها حشره الله تعالى مع فرعون وهامان».

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧] قال: الصلوات الخمس.

وعن ابن مسعود وسلمان: الصلاة مكيال، فمن أوفى وُفِّي له، ومن طَفَفَ فقد علمتم ما قال الله تعالى في المطففين.

وفي الخبر: «أسوأ الناس سرقةً الذي يسرق من صلاته فلا يتم ركوعها ولا سجودها».

وفي الخبر: «إذا صلى العبد في الملأ فأحسن وأساء صلاته في الخلا فتلك استهانةٌ يستهين بها ربه عز وجل». وفي الخبر: «إذا أحسن العبد صلاته في العلانية وأحسنها في السر قال الله تعالى للملائكة: هذا عبدي حقاً».

وعن كعب وغيره: من قُبِلَت صلاته قُبِلَت أعماله كلها، ومن رُدَّتْ عليه صلاته رُدَّتْ عليه أعماله كلها.

ويقال: من تُقْبِلَت منه الصلوات الخمس كمالاً من غير تلفيق، ولا ترقيع بعضها من بعض، أو غيرها من النوافل، اطلع على علم الأبدال وكتب صديقاً.

وعلاوة قبول الصلوات أن تنهاه في تضاعيفها عن الفحشاء والمنكر؛ والفحشاء: الكبائر، والمنكر: ما أنكره العلماء. فمن انتهى رُفِعَت صلاته إلى سدرة المنتهى، ومن تخرقته الأهواء فقد رُدَّتْ صلاته لما غوى فهو.

وقال مالك بن دينار وإبراهيم بن أدهم: إني لأرى الرجل يسيء صلاته فأرحم

عِيَالِهِ . وَقَالَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَاضَ : الْفَرَاثُصُ رَعُوسُ الْأَمْوَالِ ، وَالنَّوَافِلُ الْأَرْبَاحُ ، وَلَا يَصِحُّ رِبْحٌ إِلَّا بَعْدَ رَأْسِ الْمَالِ . وَكَانَ ابْنُ عِيْنَةَ يَقُولُ : إِنَّمَا حُرِّمُوا الْوَصُولَ بِتَضْيِيعِ الْأَصُولِ .

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ : مَنْ اهْتَمَّ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ فِي مَوَاقِيتِهَا وَإِكْمَالِ طَهُورِهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الدُّنْيَا عَيْشٌ . وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا تَوَضَّأَ لِلصَّلَاةِ تَغْيِيرَ لَوْنِهِ وَاصْفَرَ وَأَرْعَدَ . فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ . فَقَالَ : تَدْرُونَ بَيْنَ يَدَيَّ مَنْ أُرِيدُ أَنْ أَقْفَ ، وَعَلَى مَنْ أَدْخُلُ ، وَمَنْ أَخَاطِبُ ؟

وَقَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ : لِلصَّلَاةِ أَرْبَعُ فَرَائِضَ : إِجْلَالُ الْمَقَامِ ، وَإِخْلَاصُ التَّمَامِ ، وَيَقِينُ الْمَقَالِ ، وَتَسْلِيمُ الْأَمْرِ .

وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ : خِيَارُ عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ يَرَاعُونَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْأُظْلَّةَ لَذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى .

وَكَانَ وَكَيْعٌ يَقُولُ : مَنْ لَمْ يَأْخُذْ أَهْبَةَ الصَّلَاةِ قَبْلَ وَقْتِهَا لَمْ يَحَافِظْ عَلَيْهَا ، وَمَنْ تَهَاوَنَ بِتَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ فَاغْسَلَ يَدَكَ مِنْهُ .

وَرَوَيْنَا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [الحديد: ٢١] ، قَالَ : تَكْبِيرَةُ الْإِحْرَامِ .

وَفِي حَدِيثِ أَبِي كَاهِلٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ صَلَّى أَرْبَعِينَ يَوْمًا الصَّلَوَاتِ فِي جَمَاعَةٍ لَا يَفُوتُهُ مِنْهَا تَكْبِيرَةُ الْإِحْرَامِ كُتِبَ لَهُ بَرَاءَتَانِ ؛ بَرَاءَةٌ مِنَ النِّفَاقِ ، وَبَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ » .

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ : مِنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً مَا فَاتَتْنِي تَكْبِيرَةُ الْإِحْرَامِ . وَكَانَ يُسَمَّى حِمَامَةَ الْمَسْجِدِ . وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ : مِنْ عَشْرِينَ سَنَةً مَا سَمِعْتُ الْأَذَانَ إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ .

وَيُقَالُ : « إِنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أُمِرَ بِطَبَقَاتِ الْمُصَلِّينَ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا . قَالَ : فَتَأْتِي أَوَّلُ زُمْرَةٍ كَأَنَّ وَجُوهَهُمُ الْكَوْكَبُ الدَّرِي ، فَتَسْتَقْبِلُهُمُ الْمَلَائِكَةُ فَيَقُولُونَ : مَنْ أَنْتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : نَحْنُ الْمُصَلُّونَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ . فَيَقُولُونَ : مَا كَانَتْ أَعْمَالُكُمْ

فى الدنيا؟ فيقولون: كنّا إذا سمعنا الأذان قُمنا إلى الطهارة لا يشغلنا غيرها. فتقول الملائكة: يحقّ لكم ذلك. ثم تأتي الزمرة الثانية، فوق أولئك فى الحسن والجمال، كأن وجوههم الأقمار. فتقول الملائكة: من أنتم؟ فيقولون: نحن المصلون. فيقولون: وما كانت صلاتكم؟ فيقولون: كنا نتوضأ للصلاة قبل دخول وقتها. فتقول الملائكة: يحقّ لكم ذلك. ثم تأتي الزمرة الثالثة، فوق هؤلاء فى المنزلة والجمال كأن وجوههم الشمس الضاحية. فتقول الملائكة: أنتم أحسن وجوهاً وأعلى مقاماً فمن أنتم؟ فيقولون: نحن المصلّون. فيقولون: وما كانت صلاتكم؟ فيقولون: كنا نسمع الأذان فى المسجد. فتقول الملائكة: حقّ لكم ذلك».

وقال بعض العلماء رضى الله عنهم: سُميت الصلاة صلاةً لأنها صلة بين العبد وبين الله عز وجل، ومواصلة من الله تعالى لعبده، ولا تكون المواصلة والمنال إلا لتقى. قال الله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]. ولا يكون التقى إلا خاشعاً، فعندها لا يعظم عليه طول الوقوف، ولا يكثر عليها الانتهاء عن المنكر والائتمار بالمعروف. كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. والخاشعون من المؤمنين هم الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، والحافظون لحدود الله، جزاؤهم البشرى، كما قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٤٧]. والخاشعون أيضاً الخائفون، والذاكرون، والصابرون، والمقيمون الصلاة. فإذا كملت هذه الأوصاف فيهم كانوا مخبتين. وقد قال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

وكان ابن مسعود إذا نظر إلى الربيع بن خيثم يقول: وبشر المخبتين، أما والله لو رآك محمد ﷺ لفرح بك. وفى لفظ آخر: لأحبك. يقال: إنه كان يختلف إلى منزل ابن مسعود عشرين سنة لا تحسب جارية ابن مسعود إلا أنه أعمى؛ لشدة غض بصره، وطول إطراره إلى الأرض بنظره، وكان إذا دق الباب عليه تخرج إليه الجارية، فإذا رآته قالت لعبد الله: صديقك ذاك الأعمى قد جاءك. فكان ابن مسعود يضحك ويقول: ويحك ذاك الربيع. ومشى ذات يوم مع ابن مسعود فى

الحدادين، فلما نظر إلى الأكوار تُنفخ وإلى النيران تلتهب صُعق وسقط مغشياً عليه، وقعد ابن مسعود عند رأسه إلى وقت الصلاة، فلم يفق، فحمله ابن مسعود على ظهره إلى منزله، فلم يزل مغشياً عليه إلى الساعة التي صُعق فيها حتى فاتته خمس صلوات، وابن مسعود عند رأسه يقول: هذا والله هو الخوف.

وكان هذا يقول: ما دخلتُ في صلاة قط فأهمنى فيها إلا ما أقول وما يقال لى.

وقد كان عامر بن عبد الله من خاشعي المصلين، كان إذا صلى ضربت ابنته بالدف، وتحدث النساء بما يُردن في البيت، ولم يكن يعقل ذلك، ولا يسمعه. وقيل له ذات يوم: هل تحدث نفسك في الصلاة بشيء؟ قال: نعم، بوقوفى بين يدى الله عز وجل، ومنصرفى إلى إحدى الدارين. قيل: فهل تجد شيئاً مما نجده من أمور الدنيا؟ فقال: لأن تختلف الأسنّة فى أحبُّ إلىَّ من أن أجد شيئاً فى الصلاة مما تجدون. وكان يقول: لو كُشف الغطاء ما ازددت يقيناً.

وقد كان مسلم بن يسار من الزاهدين العاملين، كان إذا دخل فى الصلاة يقول لأهله: تحدثوا بما تريدون، وافشوا سرکم، فإنى لا أستمع إليکم. وكان يقول: وما يدريکم أين قلبى. وكان يصلى ذات يوم فى مسجد البصرة، ف وقعت خلفه أسطوانة معقودٌ بناؤها على أربع طاقات، فتسامع بها أهل السوق فدخلوا المسجد، وهو يصلى كأنه وتد، وما انفتل من صلاته، فلما فرغ جاءه الناس يهنؤنه، فقال: أى شيء تهنونى؟ قالوا: وقعت هذه الأسطوانة العظيمة وراءك فسلمت منها، قال: متى وقعت؟ قيل: وأنت تصلى، قال: ما شعرتُ بها.

وقال بعض المصلين: الصلاة من الآخرة، فإذا دخلت فى الصلاة خرجت من الدنيا. وقيل لآخر: هل تحدث نفسك فى الصلاة بشيء من الدنيا؟ فقال: لا فى الصلاة ولا فى غيرها. وسئل بعضهم: هل تذكر فى صلاتك شيئاً؟ قال: وهل شيء أحبُّ إلىَّ من الصلاة فأذكره فيها؟

وكان أبو الدرداء يقول: من فقه الرجل أن يبدأ بحاجته قبل دخوله فى الصلاة، ليدخل فى الصلاة وقلبه فارغ.

وفي الخبر: إن عمار بن ياسر صلى صلاةً فخففها، فقليل له: خففت يا أبا اليقظان. فقال: هل رأيتموني نقصت من حدودها شيئاً؟ قالوا: لا. قال: لأنني بادرت سهو الشيطان، إن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له نصفها ولا ثلثها ولا ربعها ولا خمسها ولا سدسها ولا عُشرها». وكان يقول: «إنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها».

وقد ذكر هذا عبد الواحد بن زيد: أنه إجماع. فروينا عنه أنه قال: أجمعت العلماء أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل. وقال الحسن: كل صلاة لا يحضرها قلبك فهي إلى العقوبة أسرع منها إلى الثواب. ويقال: إن أصحاب رسول الله ﷺ، منهم الزبير وطلحة، كانوا أخف الناس صلاةً، فسلوا عن ذلك فقالوا: نبادرُ بها وسوسة العدو.

وروي أن عمر رضي الله تعالى عنه قال على المنبر: إن الرجل ليشيب عارضاه في الإسلام، وما أكمل لله تعالى صلاةً. قيل: وكيف ذاك؟ قال: لا يتم خشوعها وتواضعها وإقباله على الله تعالى فيها.

وقال الله جل ذكره، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾

[النساء: ٤٣].

وقال رسول الله ﷺ: «من تشعبت به الهموم لم يبال الله تعالى في أي أوديتها هلك».

وسئل أبو العالية عن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥]

قال: هو الذي يسهو في صلاته، فلا يدرى على كم ينصرف، على شفع أم على وتر؟

وسئل الحسن عن ذلك، فقال: هو الذي يسهو عن وقت الصلاة حتى يخرج وقتها. وكان يقول: أما والله لو تركوها لكفروا، ولكن سهواً عن الوقت.

وقال بعض السلف فيها: هو الذي إن صلاها في أول الوقت أو في الجماعة لم يفرح، وإن صلاها بعد الوقت لم يحزن. وقيل: هو الذي لا يرى تعجيلها برأ،

ولا تأخيرها إثماً. ويقال: إن الصلوات الخمس يُلْفَقُ^(١) بعضها إلى بعض حتى يتم بها للعبد صلاة واحدة. وقيل: من الناس من يصليَ خمسينَ صلاةً فيكمل له بها خمس صلوات. وإن الله تعالى ليستوفي من العبد ما أمره به كما فرضه عليه وإلاّ تمّمه من سائر أعماله النوافل، لأنّه ما فرض على العبد إلا ما يطيقه بعونه، إذ لم يكلفه ما لا طاقة له به برحمته.

وروينا عن عيسى عليه السلام: يقول الله تعالى: «بالفرائض نجا مني عبدى، وبالنوافل تقرب إلى عبدى».

وقد جاء مثله عن نبينا ﷺ: «يقول الله تعالى: لا ينجو مني عبدٌ إلاّ بأداء ما افترضته عليه». وفي الخبر المفسر: «أول ما يُحاسب به العبدُ الصلّاة، فإن وُجدت كاملة، وإلاّ يقول الله تعالى: انظروا هل لعبدى من نوافل؟ فيتم فرائضه من نوافله»، ثم يعمل بسائر الفرائض كذلك، يوفّى كل فرض من جنسه من النفل، فإذا كانت النوافل في السهو والتقصير كالفرائض، أو لم يوجد نوافل، فكيف يكون حاله في الحساب؟

وكان ابن عباس يفسر قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرُهُ﴾ [عبس: ٢٣] قال: يعنى به الكافر. لأن عنده أن كل موضع في القرآن يذكر به الإنسان خاصة: أنه يعنى به الكافر.

وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] يعنى طاقتها. وقال سبحانه وتعالى مخبراً عن المؤمنين: ﴿وَلَا تُحْمَلُونَ مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. فى التفسير: قد فعلت.

وفى هذه المسألة اختلافٌ وشبهة، والصواب من ذلك أن الله عز وجل لا يكلف المؤمنين خاصة ما لا طاقة لهم به، فهم مخصوصون بذلك، فضلاً عن الله تعالى ونعمة، آثرهم بها على الكافرين، إذ له أن يؤثر بعض عباده على بعض، لأن الفضل بيده يؤتية من يشاء، وهذا مفهوم من دليل الخطاب من قوله: ﴿وَلَا

(١) أى يضم، من لَفَقَ الثوب لَفَقًا، إذا ضم إحدى الشقتين إلى الأخرى فخاطهما.

تَحْمِلُنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴿البقرة: ٢٨٦﴾: أن له تعالى أن يحمل الكافر ما لا طاقة له به عدلاً منه وحكمة. كما قال تعالى: ﴿وَنَمَتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الانعام: ١١٥]. قيل: صدقاً للمؤمنين، وعدلاً على الكافرين. قال الله تعالى مخبراً عن أخوة يوسف: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩١]. فهذا نصٌّ في الإيثار لبعض خلقه على بعض. ثم رأيتُ تصديق ما ذكرته عن ابن عباس رواه إسماعيل عن جُوَيْرٍ عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الاعراف: ٤٢] يعني: إلا طاقتها من العمل؛ لأن الله تعالى افترض على المؤمنين أعمالاً يطيقونها، ولم يفترض عليهم ما لا يطيقون. هذا نقلُ لفظ ابن مسعود في تخصيص المؤمنين، كما ذكرناه آنفاً.

ويقول أيضاً في تفصيل هذه المسألة التي للزائغين فيها تعلقٌ ابتغاءَ التأويل: إن الله تعالى كلَّفَ العباد ما لا يطيقونه إلا به؛ لافتقارهم إليه، وعدم استغنائهم عنه في كل حركة وسكون، إذ لا مشيئة لهم دون مشيئته ولا استطاعة إلا بتوفيقه، ولا حول ولا قوة إلا به. ألم تسمع إلى قوله تعالى في وصف الكافرين: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]؟ وقال تعالى في مثله: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ [الكهف: ١٠١]. وقال فيمن استطاع به: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [هود: ٨٨].

وروي عن النبي ﷺ: «من صلى كما أمر عُفِّرَ له ما تقدم من ذنبه».

وقد يروى في خبر: «يقول الله تعالى: ليس كل مصلٍّ أُنْقِبَلُ صلاته، إنما أُنْقِبَلُ الصلاة ممن تواضع لعظمتي، وخشع قلبه لجلالي، وكفَّ شهواته عن محارمي، وقطع ليله ونهاره في ذكرى، ولم يصِرَّ على معصيتي، ولم يتكبر على خلقي، ورَحِمَ الضعيف، وواسى الفقير من أجلي، على أن أجعل الجهالة له حلماً، والظلم له نوراً، يدعوني فأُلبِّيهِ، ويسألني فأعطيهِ، ويقسم على فأبرَّهُ، أكلؤه بقوتي، وأباهي به ملائكتي، لو قُسم نوره عندي على أهل الأرض لوسعهم. مثله

كمثل الفردوس لا يتسنى ثمرها ولا يتغير حالها». وفي الخبر: «كم من قائم حظه من قيامه السهر والتعب».

ومن صلى صلاة وراء إمام فلم يدر ماذا قرأ، فهو نهاية السهو، فإنه تارك الأمر للاستماع، فيخاف عليه مُجَانِبَةُ الرحمة؛ لأن الله تعالى ضمن الرحمة بشرطين: الاستماع والإنصات، وجعل علامة الحضور الإنصات. وقال سبحانه في المعنيين: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ [الأحقاف: ٢٩].

وروينا في خبر: «إن النبي ﷺ صَلَّى صلاةً فترك في قراءته آية. فلما انفتل قال: ماذا قرأت؟ فسكت القوم. فسأل أبي بن كعب فقال: قرأت سورة كذا وتركت آية كذا، فما أدرى أنسخت أم رفعت. فقال: أنت لها يا أبي. ثم أقبل على الآخرين فقال: ما بال أقوام يحضرون صلاتهم ويتمون صفوفهم، ونبيهم بين أيديهم، لا يدرون ما يتلو عليهم من كتاب ربهم، إلا أن بنى إسرائيل كذلكم فعلوا، فأوحى الله إلى نبيهم أن قل لقومك: تحضروني أبدانكم، وتعطوني ألسنتكم، وتغيبون عني قلوبكم، باطلاً ما تذهبون».

وقال بعض علمائنا: إن العبد يسجد السجدة، عنده أنه يتقرب بها إلى الله عز وجل، ولو قُسمت ذنوبه في سجده على أهل مدينته لهلكوا. قيل: وكيف يكون ذلك يا أبا محمد؟ قال: يكون ساجداً عند الله، وقلبه مصغ إلى هوى، ومشاهد لباطل قد استولى عليه. وهذا كما قال؛ لأن فيه انتهاك حرمة القرب، وسقوط هيبة الرب تعالى.

واعلم أن طول الصلاة عليك غفلة، وقصرها سهو، لأنها إذا طالت عليك دل على عدم الحلاوة ووجود الثقل بها وكبرها على جوارحك، وإذا قصرت عليك وخفت دل على نقصان حدودها ودخول الغفلة والسهو فيها، فالنسيان قصرها. والاستقامة في الصلاة أن لا تطول عليك؛ لوجود الحلاوة، ولذة المناجاة، وحسن الفهم، واجتماع الهم، ولا تقصر عليك لتيقظك فيها، ورعايتك حدودها، وحسن قيامك بها. وهذه مراقبة المصلين، ومشاهدة الخاشعين.

• ذكر أحكام الخواطر في الصلاة:

وما ذُكِّر به العبد في الصلاة من الخير فليسارع إلى فعله، فذلك من أحبِّ الأشياء إلى الله تعالى، لأنه أذكره إياها في أحبِّ المواطن إليه. وما ذُكِّر به من المكروه والممقوت إليه من المعتاد والمستأنف فليجتنبه؛ فإنه هو الذي يُعده من قرب الله سبحانه وتعالى، وتذكيره إياه في محل القرب توبيخاً له وتقريراً، وقد يكون عتياً وتنبهياً، فترك ذلك مما يقرب إلى الله تعالى، ويدل على حسن الاستجابة له؛ وهو مسلك طريقه إلى الله تعالى.

وما خطر به من خاطر تمنٍّ أو هوًى، أو ذكر بهمة ما يأتي أو ما قد مضى، فإن ذلك وسوسة إليه من عدوه حسداً له، ليقطعه بذلك عن وقوف قلبه عند كل ركن من أركان الصلاة، ويشغل قلبه عن الوقوف في المناجاة، فيحجبه بما يضره عما ينفعه، ليحرمه بذلك أن يشهد عند كل ذكر من أذكار الصلاة ما يوجبه الذكر من: تدبر، أو تعظيم، أو حمد، أو دعاء، أو استغفار.

وإن خطر بقلبه أمر معاشه وتصريف أحواله وتدبير شأنه من المناجاة، فذلك من قبل النفس وفكرها بما توسوس به من أمور الدنيا، فأما إن خطرت همة محظورة، أو فكرة في معصية مأزورة؛ فهذا هو الهلاك والبعد، يكون عن وصف النفس الأمارة باستحواذ العدو المغوى؛ فهو علامة الإبعاد والحجاب ودليل المقت والإبعاد والإعراض. فإذا ابتلى في صلاته بهذه المعاني فقد اختبر بذلك، فعليه أن يعمل في نفسه مع نفس بدوّه، ولا يُمكنه من الظهور من قلبه فيملكه، ولا يصغى إليه بعقله فيستولى عليه، ولا يحادثه ولا يطاوله فيخرجه من حدِّ الذِّكْرِ واليقظة إلى مسامرة الجهل والغفلة، وكلُّ عملٍ محظورٍ فالهمة به محظورة وفيه نقص، وكلُّ عملٍ مباحٍ فالهمة به مباحة وفيها فضيلة.

وما خطر على قلبه من الخيرات المتأخر فعلها فليعقد النية بذلك، فإنه قد ذُكِّر به وأريد منه، ثم ليمض في صلاته ولا يشتغل بتدبيره كيف يكون؟ ومتى يكون؟ أو كيف أكون فيه؟ وعنده إذا كان، فيفوته الإقبال في الحال بتدبير شأنه في المال، وهذا هو استراق من العدو عليه، وإلقاء من خدعته إليه، فإن جاهد هذا المصلى

نفسه عن مسامرة الفكر، وقابل عدوه في قطع وسوسة الصدر، كان مجاهدًا في سبيل الله تعالى، مقاتلاً لمن يليه من أعداء الله تعالى، وله أجران: أجر الصلاة للتقرب إلى الكريم، وأجر المصابرة والمحاربة لعدوه الرجيم.

وقد كان الأقوياء من المؤمنين، أهل الغلظة على الأعداء والتمكين، إذ ابتلوا بداخلٍ يدخل عليهم في الصلاة من الأسباب، يُخرجهم عن المشاهدة فيها، عملوا في قطع ذلك الشيء وإبعاده من أصله، إذ كان سبب قطعهم وإبعادهم من قربهم، فيستخرج بإدخال ذلك عليهم إخراجهم من الدنيا؛ وهو الزهد فيها، فيكون ذلك إحسانًا من الله إليهم ومزيدًا منه لهم؛ وهذا أحد ما زهد لأجله الزاهدون في الدنيا؛ لتصفو قلوبهم من الأسباب، فتخلص أعمالهم من الوسوس بالاكْتِسَاب.

ومن ذلك ما بلغنا عن رسول الله ﷺ أنه نزع الجبة التي كانت عليه في الصلاة، لما نظر إلى علمها وقال: ألهتني هذه في الصلاة؛ يعني شغلتني. ونظر إلى شراك نعله في الصلاة، وكان جديدًا، فأمر أن يُنزع منها ويُعاد لها الشراك الخلق الذي كان عليها. وكان قد احتذى نعلًا فأعجبه حُسْنُها فسجد وقال: تواضعت لربي كيلا يَمَقُتَنِي، ثم خرج بها فدفَعها إلى أول سائل لقيه، ثم أمر عليًا أن يشتري له نعلين سَبْتَيْنِ جَرْدَاوَيْنِ، فلبسهما.

وكان الضعفاء من المؤمنين يعملون في نفيه وترك مساكنته ومحدثته في الحال، لقوادح اليقين في إيمانهم، ولسرعة التيقظ في قلوبهم؛ لأن الآفات تدخل من مكان الهوى وتمكّن الأعداء، ومكان الهوى وقوة العدو لطول الغفلة وعدم حلاوة الطاعة، لاتساع النفس في الشهوات، وقوة سلطانها على الصفات، واتساع النفس وقوة صفتها لضيق القلب، وضعف اليقين، إذ لو قوى يقين العبد لانشرح صدره، ولأطفأ نور يقينه ظلمة هواه، ولاندرجت النفس في القلب اندراج الليل في النهار، ولأسقط مكانه من الشهادة تمكّن أعدائه والعادة، ولعلم يقينًا أن ما هو فيه من الذكر والصلاة أنفع له وأحمدُ عاقبةً مما تفكّر فيه من عاجل دنياه، فيشتغل حينئذ بما هو فيه له من الذكر عما هو عليه من سوء الفكر.

وليس بعد هذين المقامين حال يُنعت ولا يُمدح بشيء، وما قُدح في قلبه من

فهم الخطاب، وتدبر معانى الكلام، والإيقاف على المقصد والمراد، فهو تعليم من الله تعالى، وتوقيف وتنبية منه وتعريف؛ وهذا مزيد التلاوة، وعلامة الإخلاص فى المعاملة، وبركة التدبر، ودليل القبول والشكر لحسن الخدمة، فليأخذ من ذلك ما عفا، ويعترف منه ما صفا، ولا ينتظره ولا يتمناه، ولا يتبعه بعد انصرافه بالفكر فى معناه، فيسترق العدو عليه السمع، ويلقى إليه الوسوسة، ويطمع فيه بالغرّة، ويدخل عليه من باب الأمانة؛ لأنه قد قرّن الأمانى بالإضلال؛ فهى مواعيد الكذب للإبطال. ألم تسمع إلى ربك تعالى كيف أخبرك عنه فى قوله تعالى: ﴿وَلَا ضَلَّيْنَهُمْ وَلَا مَنِّينَهُمْ﴾ [النساء: ١١٩]. ثم قال فى مثله: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدِهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤]. ثم استثنى عباده المسّطين عليه بسلطانه، الغالبيين له بآياته، فلم يصل العدو إليهم؛ لمواصلته لهم وتوكلهم عليه بوكالته إياهم، تنتظم هذه المعانى فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥]. وقوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطَانًا فَلَا يَصْلُونَ إِلَيْكُمْ﴾ [آياتنا أنتم ومن اتبعكم الغالبون] [القصص: ٣٥]. مع قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩].

وللعبد فى التفكير والتدبر لما يستقبل بكل كلمة شغل عما فات مما كان عمله، وله فى الشغل فى الحال اقتطاع بما قد فهمه، وما فهمه من غير ما يتلوه، فاستدل به على ما سواه مما يعينه ويحتاج إليه؛ فهى أبواب من الفطنة تفتح له، فيكون الكلم مفتاحها. ثم يخرج العبد إلى سواها مما هو له أصلح أو عليه أوجب. فليعرف بذلك ما عرف، وليقف من ذلك على ما عليه أوقف، وما تفكر فيه من غير تدبر التلاوة، أو شغل به من غير فهم المتلو، فهو حجاب له عن الفهم، وقطع له عن خالص العلم، فليقطع ذلك.

والتمام فى التلاوة أن يتدبر التالى باطن الكلام، ويتفكر فى غوامض الخطاب، ويوقف قلبه على معانى المراد، ويعمل فكره فى تذكر الموصّل والترداد، فإن الكلام

عزیزٌ من عزیز، ولطیفٌ من لطیف، وحکیمٌ من حکیم، وعلىٌ من على، ظاهره سهلٌ قريب، وباطنه بحرٌ عميق، يقول السامع إذا عقله: قد فهمته؛ لتجلى فحواه، فإذا شهد كآنه ما سمعه لدقيق معناه. يحسب العاقل أنه قد عرفه لظهور بيانه وتفصيل حكمته، فإذا عُرِفَ المتكلم به كآنه ما عقله؛ لعمق بحاره، وسعة أقطاره. قد اغترَّ به قومٌ لما سمعوا بيانه، فادَّعوا أنهم يحسنونه، وخُدع به آخرون لما عقلوا أمثاله، فطلبوا غيره وسألوا أبداله، وأصغى آخرون إلى سمعه، فادَّعوا فهمه، فأكذبهم الصادق وعزلهم عن سمعه، ثم أخبرنا بجميع ذلك عن جهلهم، وعجبنا من جراتهم، فقال في وصف الأولين: ﴿وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: ٣١]. ﴿وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥].

وقال في نعت الآخرين: ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٣]. ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢]. ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١].

ثم وصف من أسمعته إياه وأفهمه معناه من الجن الذين هم أشدُّ قوةً من الإنس وأعظمهم وصفاً، فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن: ١- ٢]. فهو لاء ممَّن عقله فمدحهم بفهمه، وأخبر عن صاحب التنزيل بمثله فقال: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢] أى عجبت من القرآن وتفصيله وتنزيله، ويسخر منه الجاهلون.

فإن فُتِحَ للتألى بالتلاوة عين يقين^(١) المتلِّوِّ باب^(٢) الفكر في معانى العظمة والقدرة، وكُشِفَ له بواسطة الكلام مشاهدة ما كان علمه من وعد الآخرة ووعيدها، فله أجران، من حيث كان منه عَمَلَان: الفكر والصلاة. وهذا كله لعموم المؤمنين مزيد، وهو للخصوص من المقربين دون ذلك، إلا ما وجَّهوا به من طوابع

(١) فى المطبوعة: «نفس» وأثبت ما فى (د).

(٢) فى (م): «غير نفس المتلوثات»، ولعل فيها تصحيحاً.

الغيوب، وأُطلعوا عليه من مطالع سرائر المحبوب، فكُشفوا به من بوادي اليقين من العزة والجبروت، والإجلال والرهبوت، ممّا هُجم عليهم من غير تفكّر منهم، ولا تدبّر مما استعملهم به، واضطّروهم إلى مشاهدته القدير، فأخرس ألسنتهم عن المقال، وعقّم عقولهم عن المحال، وأغنى قلوبهم عن الطلب، ولم يُوكل إلى فكرهم بنظرٍ إلى سبب، بل من غير تعملٍ منهم لتكييفه، ولا دراية ولا اختيارٍ لماهيته، ثم يجاوزونه إذا أخذ منهم حقّه، وأدركوا به نصيبهم إلى العالم الأكبر، فيقفون بين يديه ويحطّون عنده، ولا يقفون مع المشاهدة طرفة عين، ولا يسكنون إليها خَطرَةَ قلب؛ لثلا يقطعهم البيان عن المبين، ولا يشغلهم الخبر عن اليقين، ولا تحجبهم الشهادة عن الشهيد، ولا يحبسهم البادئ العائد عن المبدئ المعيد؛ بل قد أشرف بهم على المراد، فأسقط عنهم التشرف، وأذهلهم عن الاعتراف والتعريف بما ناداهم به من التعرف، واقتطعهم العيان فأغناهم عن الانقطاع، وتقطّعوا بالمفصل فأنساهم الانتفاع، وتوصلوا بالموصل فأطلعهم عليه، وكان لهم حاملاً إليه، ودليلاً أمامهم منه عليه؛ وهذه صفة الأقوياء بالقوى، الأغنياء بالغنى، الواجدين للموجد، الفاقدين للموجد^(١)، الذاكرين بذاكر، الصابرين بصابر.

ولا ينبغي للمصلى أن يدخل في صلاته حتى يقضى نُهمته، ويفرغ من حاجته، ولا يبقى عليه ما يزعج قلبه، ويفرق همّه، ليفرغ قلبه في صلاته، ويجتمع همّه في وقوفه، ويصحو عقله لفهمه، ويواطئ قلبه قِله، ويقبل على المقبل عليه بمعقوله؛ وهذا يؤمر به الضّعفاء عن مجاهدة الأعداء، والمرضى عن مسابقة الأولياء. وقد روى عن رسول الله ﷺ: «المؤمن القوى أحبُّ إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف، وفي كُلِّ خير»، وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [النساء: ٩٥].

(١) عبارة (هـ): «الواجدين بموجد اليد، فهي للموجد». وعبرة (د): «الواجدين بموجد، الفاقدين للموجد».

كتاب الزكاة

شرح ثالث ما بنى الإسلام عليه، وهو الزكاة

فأما فرض الزكاة فأربع: الحرية، وصحة الملك، ووجود النصاب؛ وهو مائتا درهم أو عشرون ديناراً، واستكمال الحول؛ وهو من شهر إلى مثله.

• ذكر فضائل الصدقة وآداب العطاء، وما يزكو به المعروف ويفضل به المنفقون؛

روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ليس في المال حقٌ سوى الزكاة».

وعن جماعة من التابعين كانوا يذهبون إلى أن في المال حقوقاً غير الزكاة، منهم: إبراهيم النخعي، قال: كانوا يرون أن في المال حقوقاً سوى الزكاة؛ ومنهم: الشعبي، سئل: أفي المال حقٌ سوى الزكاة؟ قال: نعم، أما سمعت قوله تعالى: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّ ذَوِي الْقُرْبَى﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية. ومنهم: عطاء ومجاهد.

وقد كان المسلمون يرون المؤاساة^(١)، والقرض، والقيام بمؤن العجزة عن أنفسهم وأهلهم، من المعروف والبر والإحسان، وأن ذلك واجبٌ على المتقين وعلى المحسنين من أهل اليسار والمعروف. وكذلك مذهب جماعة من أهل الفسر أن قوله عز وجل: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، وقوله: ﴿أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٤] مأمور به، وأن ذلك غير منسوخ بآية الزكاة، وأنه داخلٌ في حق المسلم على المسلمين، وواجب بحرمة الإسلام ووجود الحاجة.

فمن فضائل الزكاة: أن يخرجها في أول ما تجب عليه، وأن يقدمها قبل وجوبها، إذا رأى لها موضعاً يتنافس فيه، ويغتنم خوف فوته؛ من غارٍ في سبيل الله عز وجل، أو في دينٍ على مُطالب، أو جهاد وغزو، أو إلى رجل فقير فاضل طراً في وقته، أو ابن سبيل غريب، كان تقدمتها إلى هؤلاء وأمثالهم أفضل.

(١) في المطبوعة: «المساواة» وهو تحريف، وغير ذلك كثير مما تركت الإشارة إليه فيما مضى من أول الكتاب.

وأزكى؛ لأنه من المسارعة إلى الخير، ومن المعاونة على البر والتقوى، وداخل في التطوع بالخير وفعله الذي أمر به، ولا يأمن الحوادث، إذ في التأخير آفات، وللدنيا نوائب وعوائق، وللنفس بدوات، وللقلوب تقلبٌ.

وإن جعل رأسَ الحولِ أحدَ الشهرين كان أفضل، فإن في هذين خاصية من الفضائل ليست في غيرهما.

فأما شهرُ رمضان فإنَّ الله تعالى خصَّه بتزليل القرآن، وجعل فيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وجعله مكانًا لأداء فرضه الذي افترضه على عباده من الصيام، وشرَّفه بما أظهر فيه من عمارة بيوته بالقيام. وقد كان مجاهد يقول: لا تقولوا رمضان فإنه اسم من أسماء الله تعالى، ولكن قولوا: شهر رمضان. وقد رفعه إسماعيل بن أبي زياد فجاء به مسندًا.

وأما ذو الحجة فإننا لا نعلم شهرًا جمع خمس فضائل غيره: هو شهرٌ حرام، وشهر حجٍّ، وفيه يوم الحج الأكبر، وفيه الأيام المعلومات؛ وهي العشرة، والأيام المعدودات؛ وهي أيام التشريق التي أمر الله تعالى بذكره فيها.

وأفضل أيام في شهر رمضان العشر الأواخر، وأفضل أيام في شهر ذي الحجة العشر الأول.

وقد استحب بعض أهل الورع أن يقدم في كلِّ سنة بشهر، لثلاث يكون مؤخرًا عن رأس الحول؛ لأنه إذا أخرج في شهر معلوم، ثم أخرج القابل في مثله، فإن ذلك الشهر يكون الثالث عشر؛ وهذا تأخير. فقالوا: إنه إذا أخرج في رجب فليُخرج من القابل في جمادى الآخرة؛ ليكون آخر سنته بلا زيادة. وإذا أخرج في رمضان فليُخرج من قابل في شعبان على هذا؛ لثلاث يزيد على السنة شيئًا. وهذا أحسن، ولتيق أن يكون مخرجًا للفرض في كل شهر، ثم أن يخرجها طيبة بها نفسه، مسرورًا بها قلبه، مخلصًا لربه، مبتغيًا بها وجهه، لغير رياء ولا سمعة ولا تزيُّن ولا تصنع. ولا يجب أن يطلع عليها غير الله عز وجل، ولا يرجو في إعطائها ولا يخاف في منعها سواه، وليكن ناظرًا إلى الله تعالى، عارفًا بحسن توفيقه له، وأن يعتقد فضل من يعطيه من الفقراء عليه، ولا ينتقصه بقلبه ولا

يزدريه، وليعلم أن الفقير خير منه؛ لأنه جعل طهرةً وزكاةً ورفعةً ودرجةً في دار المقام والحياة، وأنه هو قد جعل سُخرةً للفقير وعمارةً لديناه.

كما حدثنا بعض العارفين قال: أريد منى ترك التكسب وكنت ذا صنعة جلييلة، فجال في نفسى من أين المعاش؟ فهتف بى هاتف: لا أراك تنقطع إلينا، وتتهمنا فيك علينا، أن نخدمك ولياً من أوليائنا، أو نُسخّر لك منافقاً من أعدائنا.

وأن يُسرَّ ذلك إلى الفقير سرّاً، ولا يذكر ذلك. فقد جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤] قال: المنّ: أن تذكرها، والأذى: أن تظهرها، وحُدث عن بشر بن الحارث قال: قال سفيان: مَنْ مَنَّ فسد صدقته. قيل: كيف المنُّ يا أبا نصر؟ قال: أن تذكره أو تحدّث به. وبعضهم يقول: المنّ: هو أن تستخدمه بالعطاء، والأذى: أن تعيّر بالفقر. وقيل: المنّ: أن يتكبر عليه، لأجل أن يعطيه، والأذى: أن تنهره أو توبخه بالمسألة.

وفى الحديث: «أفضل الصدقة جهدُ الْمُقِلِّ إلى فقير فى سرّاً». وقال بعض العلماء: ثلاثة من كنوز البرّ، منها: إخفاء الصدقة. وقد رُوينا مسنداً من طريق. وذلك أسلم لدينه، وأقلُّ لآفاته، وأزكى لعمله.

وقد رويانا فى الخبر: «لا يقبل الله من مُسمعٍ ولا مُراءٍ ولا منانٍ»، فجمع بين المنّة والسُّمعة، كما جمع بين السمعة والرياء، وردّ بهن الأعمال.

فالمُسمع الذى يتحدّث بما صنعه من الأعمال ليُسمعه من لم يكن رآه، فيقوم ذلك مقامَ الرؤية للعمل، فهو مشتق من السمع، كالرؤيا مشتق من الرؤية، فسوى بينهما فى إبطال العمل؛ لأنهما عن ضعف اليقين، إذ لم يكتف المسمع بعلم مولاه، كما لم يقنع المرائى بنظره فأشرك فيه سواه، وألحق المنان بهما؛ لأنّ فى المنّة معناه من أنه ذكّره فقد سَمِعَ غيره به، أو رأى نفسه فى العطاء ففخر به وأداه سرّاً، فإن أظهره نُقل من السرّ وكُتب فى العلانية، فإن تحدّث به مُحى من السرّ والعلانية فكتب رياء، فلو لم يكن فى إظهار الصدقة مع الإخلاص بها إلا فوتُ ثواب السر لكان فيه نقص عظيم.

فقد جاء في الأثر: «تَفْضُلُ صدقة السرِّ على صدقة العلانية سبعين ضعفاً». وفي الحديث المشهور: «سبعةٌ في ظل عرش الله تعالى يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله، أحدهم رجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فلم تعلم شماله ما أعطت يمينه». وفي لفظ آخر: «فأخفى عن شماله ما تصدقت به يمينه». وهذا من المبالغة في الوصف، وفيه مجاوزة الحدِّ في الإخفاء، أى يخفى من نفسه فكيف غيره؟

وقد تستعمل العرب المبالغة في الشيء على ضرب المثل والتعجب، وإن كان فيه مجاوزة للحد. من ذلك أن الله عز وجل ذمَّ قومًا ووصفهم بالبخل، وبالعز في وصفهم، فقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يَأْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣]. والنقير لا يريدُه أحدٌ ولا يطلبه ولا يعطاه؛ لأنه هو النقطة التي تكون على ظهر النواة، منه منبت النخلة.

وفيه معنى أشد من هذا وأغمض: أنه لما قال: «فأخفى عن شماله» كان لهذا القول حقيقة في الخفاء، فهو أن لا يحدث نفسه بذلك، ولا يخطر على قلبه، وليس يكون هذا إلا أن لا يرى نفسه في العطاء أصلاً، ولا يجرى وهم ذلك على قلبه، كما يقول في سر الملكوت: إن الله تعالى لا يُطلع عليه إلا من لا يحدث به ويخفيه، وليس أعنى عن غيره، لكن يخفيه من نفسه ولا يحدثها به، بمعنى أنه لا يخطر على قلبه، ولا يذكره، ولا يشهد نفسه فيه شغلاً عنه بما اقتطع به، وبأنه لا يباليه؛ فعندها صلح أن يظهر على السر. فإن لم يمكنك على الحقيقة أن تخفى صدقتك عن نفسك، فأخف نفسك منها، حتى لا يعلم المعطى أنك أنت المعطى؛ وهذا مقام في الإخلاص، فإن أظهرت يدك في الإعطاء فأخفها سرّاً إلى المعطى؛ وهذا حال الصادق. فقد كان بعض المخلصين يلقي الدراهم بين يدي الفقير، أو في طريقه، أو موضع جلوسه، بحيث يراه ويأخذه، وهو لا يعلم من صاحبه، وبعضهم كان يصرُّ ذلك في ثوبه وهو نائم فلا يعلم من جعله، وقد رأيت من يفعل ذلك. فأما من كان يوصل إلى الفقير على يد غيره ويستكتمه شأنه فلا يحصى ذلك من المسلمين.

وفي الخبر: «صدقة السرِّ - وقيل: صدقة الليل - تطفى غضب الربِّ تعالى».

وقد أخبر الله تعالى أن الإخفاء أفضل، ومعه يكون تكفير السيئات، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]. فإن أظهر المسكين نفسه، وكشفها للسؤال، وآثر التبذل على الصون والتعفف؛ فلا بأس أن تظهر معروفك إليه. فإن أظهرت زكاتك إرادة السنة، والاقتداء بك، والتحريض على مثل ذلك من غيرك؛ لينافسك فيه أخوك، فيسرع إلى مثله أمثالك منهم - فحسن؛ وذلك من التحاض على إطعام المسكين، وقد ندب الله تعالى إليه. وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [الرعد: ٢٢] قيل: سرًّا: التطوع، وعلانية: الصدقة المفروضة. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠] القرض الحسن: هو التطوع، وقد قيل: الحلال. كما قال: ﴿وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود: ٨٨] أى حلالاً. وقد قال تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ [البقرة: ٢٧١] فمدح المبدى بنعم. إلا أن ذلك لا يحسن إلا إلى من أبدى نفسه، كأنه هذا السائل الذى يسأل بلسانه وكفه، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾ [البقرة: ٢٧١] الآية كأنها للمستخفين بالمسألة، وهى لخصوص الفقراء لا يظهرون نفوسهم بما يمنعهم الحياء والتعفف. من أظهر نفسه فأظهره إليه، ومن أخفاها فأخف له. ومثل ذلك مثل كشف عورة الفاسق: إنما حرم عليك أن تظهر عورة من يخفى عنك نفسه ويستتر، فأما إذا أظهر نفسه بها وأعلن، فلا بأس أن يظهر عليه، كما جاء فى الخبر: «من ألقى جلاباب الحياء فلا غيبة له».

وينبغى أن يجعل صدقته من أفضل ما يحبه من المال، ومن جيد ما يدخر ويقتنى وتستأثر به النفوس، فيؤثر مولاه به كما أمره، وضرب المثل له فقال: ﴿أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ ، ثم قال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ ، ثم قال فى ضرب المثل بالعبيد: ﴿وَلَسْتُمْ بِأَخَذِهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٦٧] أى: لا تقصدوا الردى فتجعلوه لله تعالى، ولو أعطى أحدكم ذلك لم يأخذه إلا على إغماض؛ أى كراهية وحياء.

ولا يجعل ما لله تعالى دون ما يستجيده لنفسه، أو ما يكره أن يقتنيه لعاقبته، أو يأخذه من غيره، أو ما لا يستحسن أن يهديه لنيل من العبيد، فتكون قد أثرت نفسك أو عبداً مثلك على مولاك، فإن هذا من سوء الأدب، ولا يقوم سوء أدبٍ واحدٍ في معاملة بجميع المعاملات.

وقد روى في معنى قوله تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، قال: حلالاً طيباً، فإن الله تعالى طيبٌ لا يقبل إلا طيباً.

وفى حديث أبان عن أنس: «طوبى لعبداً أنفقَ من مالٍ اكتسبه من غير معصية». وفى الخبر: «سبق درهم مائة ألف درهم».

وقد تهدد الله تعالى قومًا جعلوا له ما يكرهون، ووصفت ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى، فأكذبهم، فى قوله تعالى : ﴿وَيَجْعَلُونَ لَهِمَّ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ [النحل: ٦٢] أى حقاً لهم النار. وفى الآية وقف غريب لا يعلمه إلا الحذاق من أهل العربية، تقف على «لا» فيكون نفياً لوصفهم أن لهم الحسنى، ثم تستأنف «جرم أن لهم النار» أى كسب لهم جعلهم لله ما يكرهون النار، أى بجرمهم واكتسابهم.

وإذا دعا لك مسكين عند الصدقة فاردد عليه مثل دعائه، حتى يكون ذلك جزاء؛ لقوله: «وتخلص لك صدقتك وإلا كان دعاؤه مكافأةً على معروفك». فقد كان العلماء يتحفظون من ذلك، وهو أقرب إلى التواضع، ولا ترى أنك مستحقٌ لذلك منه لما وصلته به، لأنك عامل فى واجب عليك لمعبودك، أو توفى للمعطى رزقه وما قُسم له من تعبدك بذلك. وكانت عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما إذا أرسلتا معروفاً إلى فقير قالتا للرسول: احفظ ما يدعوك به، ثم يردآن عليه مثل قوله، ويقولان: حتى تخلص لنا صدقتنا. وفعل ذلك عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضى الله تعالى عنهما.

ولا ينبغي أن تقتضى من الفقير الدعاء لك، أو تطالبه بذلك، أو تحبّ منه الشاء والمدح على ذلك، فإنه يُنقص من الصدقة، وإذا كثر منك وقوى أحبطها، وإن

كان عليه أن يدعو لك ويثنى به عليك فإنما يعمل فيما تعبده مولاه به وأمره به، فلا ترى ذلك من حقك عليه، وإذا وصلت إلى الفقير معروفاً، فبحسن أدب، ولين جانب، ولطف كلام، وتذلل وتواضع.

وقد كان بعض الأدباء إذا أراد أن يدفع إلى فقير شيئاً بسط كفه بالعطاء، لتكون يد الفقير هي العليا. وبعضهم كان يضعها بين يديه على الأرض، ويسأله قبولها منه؛ ليكون هو السائل، ولا يناوله بيده إعظاماً له. وهذا يدل على معرفة العبد بربه، وحسن أدبه في عبادته.

ومن أحبّ الثناء والذكر على معروفه كان ذلك حظّه منه وبطل أجره^(١)، وربما كان عليه فضلٌ من الوزر؛ لمحبه الذكر والثناء فيما لله تعالى أن يفعله، وفي رزق الله لعبده الذي أجراه على يده، فإن تخلص^(٢) سواءً بسواء فما أحسن حاله.

وأستحبُّ للفقير أن يخصّ ذا المعروف إليه بدعوات؛ شكرًا لما أولاه، وتادبًا وتخلّقًا بفعل مولاه، لأنّه قد جعله سببًا للخير، وواسطة للبرّ، إذ الله سبحانه وتعالى يشهد نفسه بالعطاء، ثم قد أثنى على عبده وشكر له في الإعطاء، فليقل: طهر الله قلبك في قلوب الأبرار، وزكّى عملك في عمل الأخيار، وصلى على روحك في أرواح الشهداء. فذلك هو شكرُ الناس، والدعاءُ لهم، وحسنُ الثناء عليهم. ومن شكرهم أيضًا أن لا يذمهم في المنع، ولا يعيبهم عند القبض، فذلك تأويل الخبر: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله تعالى»، فإن فيه إثبات حكم الأواسط، واستعمال حسن الأدب في إظهار النعم، والتخلّق بأخلاق المنعم؛ لأنّه أنعم عليهم، ثم شكر لهم كرمًا منه. وكذلك في الخبر: «العبد الموقن يشهد يد مولاه في العطاء»، فحمده ثم شكر للمتقين، إذ جعلهم مولاه سبب حمده وطريقًا لرزقه، ففي الخبر: «من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تستطيعوا فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه».

(١) العبارة في (د، م): «ولا تحبّ الثناء والذكر من الفقير على معروفك، أو تقتضي في نفسك المدح منه والإكرام، فإن فعل ذلك كان مكافأةً منه لبرّك، وحبط أجرك».

(٢) في (د، م): «فإن تخلصت».

فأما شكر الله تعالى على العطاء فهو اعتقاد المعرفة أنه من الله تعالى، لا شريك له فيها، والعمل بطاعته بها.

ومن فضل الصدقة أن يقصدَ بها الفقراءَ الصالحين الصادقين من أهل التصون والدين، ممن يؤثر التستر والإخفاء، ولا يكثر البث والشكوى، وممن فيه وصف من أوصاف الكتاب: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى حبسوا فى طريق الآخرة لعيلة، أو ضيق معيشة، أو إصلاح قلب، أو قصور يد ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ لأنهم مقصوصو الجناح، إذ المال للغنى بمنزلة الجناح للطائر يطير بماله حيث يشاء من البلاد، وينبسط فى شهواته كيف شاء من المراد، والفقير محصور عن ذلك لا يستطيعه لقبض يده وقدر^(١) رزقه. ومن هذا قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَاءَاتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعراف: ٢٦] قيل: المال. وقيل: المعاش: ﴿يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ فسمى الله تعالى من لا يعرفهم بالفقر ولا يشهد وصفهم بالتقلل، لظهور تعففهم عن المسألة، جاهلاً بوصف المؤمنين. ثم وكّد وصفهم وأظهر للخلق تعريفهم؛ بياناً منه، وكشفاً لحالهم، إذ ستروها بالعفة، فقال: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ فالسيما هى العلامة اللازمة والخليقة الثابتة دون التحلى، واللبسة الظاهرة ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣] أى بهذه العلامة أيضاً تعرفهم إن أشكلوا عليك، فإنهم لا يسألون عفة وقناعة إلحافاً، لا يلتحفون بالأغنياء، ولا يلاحفون أهل الدنيا تملقاً وضراعة؛ أى هم منفردون بأحوالهم، أغنياء بيقينهم، أعزّة بصبرهم، والإلحاف: مشتق من اللحاف الذى يلتحف به فيلزم الجسم، فقال: ليسوا ممن يفعل ذلك، لا يلتحفون الأغنياء كاللحاف، ولا يلتحفون المسألة إلزاماً كالصنعة، كما يلتحف بالثوب. فاحرص أن يكون معروفك فيمن فيه هذه الأوصاف أو بعضها، فيزكو عملك ويشكر سعيك.

والأفضل فى المعروف أن يؤثر الرجل إخوانه من الفقراء على غيرهم من

(١) قدر عليه رزقه يَقْدِرُهُ قَدْرًا: ضيقه.

الأجانب. فقد روى عن عليّ رضي الله عنه: لأن أصل أخًا من إخواني بدرهم أحبُّ إليَّ من أن أتصدق بعشرين درهماً، ولأن أصله بعشرين درهماً أحبُّ إليَّ من أن أتصدق بمائة درهم، ولأن أصله بمائة درهم أحبُّ إليَّ من أن أعتق رقبةً.

ولأن الله تعالى ضم الأصدقاء إلى الأقارب، فكان فضل الصدقة على الأقارب دون البعيد كفضل الصدقة على القرابة دون الأبعد، لأنه ليس بعد صلة الرحم في معناها أفضل من صلة الإخوان. وكان بعض السلف يقول: أفضل الأعمال صلة الإخوان.

وليقتصد ببرّه من إذا دفع إليه العطاء حمد الله تعالى وشكره، ورأى النعمة منه، ولم ينظر إلى واسطة في نعمة، فإن هذا أشكر العباد لله تعالى؛ لأن حقيقة الشكر لله شهودُ النعمة منه، والإخلاص بحسن المعاملة له، وأن لا يشهد في النعمة بالعطاء والنعمة بالعمل الصالح سواء.

وفى وصية عليّ رضي الله تعالى عنه: لا تجعل بينك وبين الله تعالى مُنعمًا، واعدُدْ نعمة غيره عليك مغرمًا.

فليقدّم مثل هذا على من لو أعطاه رزقه أثنى عليه ومدحه، وشهده فيه فحمده، فيكون قد حمد غير الذي أعطاه، ونظر إلى سواءه، وذكر غير الذي ذكره؛ لأن الذي يحمد الله ويشكره، ويشنى عليه برزقه ويذكره، يرى أن الله سبحانه وتعالى هو المنعم المعطى، فينظر إليه من قُرب؛ فيقينُ هذا بالله أنفع لصاحب المعروف عند الله من دعاء الآخر المثني؛ لأنه كان سببًا لنفع موقن، فيكون واضعًا للشيء في حقيقة موضعه. ومدح الآخر ودعاؤه، لأجل أنه يراه هو المعطى، فينظر إليه فيمدحه، فضعف يقين هذا بربه أشدُّ على المنفق من دعائه له، إن كان ناصحًا لله تعالى في خلقه وخلق الله تعالى فيه، إلا أن لا ينصح لمولاه لغلبة هواه على تقواه، ولجهله بعائد النفع له في عقباه، فنقص هذا حينئذ بمقامه من التوحيد أعظم من زيادته بصدقته، على أنه لا يؤمن الاستشراف من الآخر إليه، والاعتیاد منه، والطمع فيه، فيتأذى بذلك في عاجلته قبل الآجلة، أو تَضَجَّر فيتبرم به، فيتكلم فيه بكلام يحبط عمله. وأيضًا فإنه إذا رآه في العطاء، فإنه يراه

عند المنع، فيذمه ويقع فيه، فيكون هو سبب حمله عليه، وهو آمن مطمئن لهذا كله مع الموقن المشاهد.

وفى الخبر: «إنَّ الصدقة تقع بيده الله تعالى قبل أن تقع بيد السائل وهو يضعها في يد السائل». فالموقن يأخذ رزقه من يد الله تعالى، فهو لا يعبد إلا الله تعالى، ولا يطلب منه إلا كما أمره في قوله تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧].

ووجه رسول الله ﷺ إلى بعض الفقراء بمعروف، وقال للرسول: احفظ ما يقول. فلما أوصله إليه قال: الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره، ولا يضيع من شكره، ثم قال: اللهم إنك لم تنس فلاناً، يعنى نفسه، فاجعل فلاناً لا ينساك. فأخبر الرسول رسول الله ﷺ بذلك، فسر به وقال: قد علمت أنه يقول ذلك. وقد روى هذا عن عمر، وعن أبي الدرداء مع جرير رضى الله عنهم.

وقال رسول الله ﷺ لرجل: «تب». فقال: أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد. فقال رسول الله ﷺ: «عرف الحق لأهله». وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها فى قصة الإفك: نحمد الله ولا نحمدك. فسر ذلك. وقال لها أبو بكر لما نزل تحصينها وبراءتها: قومى فقبلى رأس رسول الله ﷺ. قالت: والله لا أفعل ولا أحمد إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: دعها يا أبا بكر. وفى لفظ آخر أنها قالت لأبى بكر: نحمد الله، ولا نحمدك ولا نحمد صاحبك. فلم ينكر رسول الله ﷺ ذلك بل سره وأمر أباها بالكف عنها.

وقد جعل الله تعالى من وصف الكافرين أنهم إذ ذكر الله وحده فى شيء انقبضت قلوبهم، وإذا ذكر غيره فرحوا، وجعل من نعتهم أنهم إذا ذكر توحيده وإفراده عند شيء غطوا ذلك، وإذا أشرك غيره فى ذلك صدقوا به، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]. وقال أيضاً: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ والكفر: التغطية ﴿وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ والشرك: الخلط، أى يخلط

بذكره ذكر سواه. ثم قال: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢] يعنى لا يشركه فى حكمه خلق، لأنه العلى فى عظمته، الكبير فى سلطانه، لا شريك له فى ملكه وعطائه، ولا ظهير له من عباده. ففى دليل هذا الكلام وفهمه من الخطاب أن المؤمنين إذا ذكر الله تعالى بالتوحيد والإفراد فى شىء انشرفت صدورهم، واتسعت قلوبهم، واستبشروا بذكر الله تعالى وتوحيده، وإذا ذكر الأواسط والأسباب التى دونه كرهوا ذلك واشمأزت قلوبهم؛ وهذه علامةٌ صحيحة فاعرفها من قلبك ومن قلب غيرك، لتستدل بها على حقيقة التوحيد فى القلب، أو وجود خفى الشرك فى النفس، إن كنت عارفاً.

وينبغى أن يجعل صدقته من أجل ما يقدر عليه، وأطيعه فى نفسه وجهده، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً. وزكاء الصدقة ونماؤها عند الله تعالى على حسب حلّها ووضعها فى الأخص الأفضل من أهلها. وينبغى أن يستصغر ما يعطى، فإن الاستكثار من العُجب، والعُجب يحبط الأعمال، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٥]. ويقال: إن الطاعة كلما استصغرت كبرت عند الله تعالى، وإن المعصية كلما استعظمت صغرت عند الله تعالى. وعن بعض العلماء: لا يتم المعروف إلا بثلاث: تصغيره، وتعجيله، وستره.

وقد كانوا يدفعون فى الزكاة المثين، وفى التطوع الألف، وكان يصِلُّون الفقير بما يخرجهم من حد الفقر ومن الحاجة والضرر إلى حد الكفاية والغنية، ويبقى لهم فضلٌ. وعلى هذا تأويل قوله ﷺ: «خيرُ الصدقة ما أبقت غنى»؛ أى تكفى الفقير لوقته، ويبقى له غنية واستغناء لوقت ثانٍ تستقلُّ به عن المسألة والتشرُّف، فيكون كأنه عمل عملاً ثانياً للمعطى غير عمله الأول بالعطاء؛ وهذا أحدُ تأويل الخبر.

وقد وصف الله تعالى أهل الحاجة بأوصاف خمسة فرقها فى كتابه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩]. وقال تعالى: ﴿فَكُلُّوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦]. وقال عز وجل: ﴿فَكُلُّوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨].

فأما السائل: فهو الذى يسأل بكفّه، ويُظهر السؤال بلسانه. وأما المحروم: فهو المحارف الذى حارفه الرزق، أى: انحرف عنه، فقد حُرِمه. وقيل: هو الذى لا معلوم له ولا كَسَب، قد حُرِم التصرف والتعيش. وأما القانع: فهو الذى يقعد فى بيته ويقنع بما آتاه الله من غير طلب ولا تعرّض. وقيل: إن القُنوع هو وصفٌ من أوصاف المسألة من غير إلحاف ولا إلحاح، وهو اسم من الأضداد، يكون القُنوع: العفة والكف؛ ويكون المسألة. وأما المعترّ: فهو الذى يعرض بالسؤال ولا يصرح، تحمله الحاجة على التعريض، ويؤقّفه الحياء عن التصريح. وأما البائس: فهو الذى به بُؤس وشِدّة من مرض أو برد أو عَضِب وزمّانة^(١).

ثم إن الله تعالى قد فصل بين الفقراء والمساكين فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] فقال أهل العلم: الفقير الذى لا يسأل، والمساكين السائل. وقيل: الفقير المحارف؛ وهو المحروم، والمساكين: الذى به زمّانة، واشتقاقه من السكون، أى فقد أسكنه الفقر لما سكّنه وأقلّ حركته؛ وهذه أوصافه. يقال: قد تَمَسَك الرجل وتسكّن. كما يقال: تَمَدَّر وتدرّع إذا لبس مدرعة. فكذلك الفقير إذا كانت المسألة لبسة له.

وأهل اللغة مختلفون فيهما. قال بعضهم: المسكين أسوأ حالاً من الفقير؛ لأن الله تعالى قال: ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٦]، فهو الذى لا شىء له، قد لصق بالتراب من الجهد. وذهب إلى هذا القول يعقوب بن السكيت، ومال إليه يونس بن حبيب، وقال: قلت مرة لأعرابى: أفقر أنت؟ فقال: لا والله بل مسكين أسوأ حالاً من الفقير.

وبعضهم يتناوله على غير هذا فيقول: «ذا متربة» من الغنى. يقال: أترب الرجل إذا استغنى، فهو مترب من المال؛ أى قد كان مترباً غنياً من أهل النعم ثم افتقر، فهذا أفضل من أعطى.

(١) العَضِب: القطع، يقال: عَضِبَ يَعْضِبُه عَضْبًا: قطعه. وتدعو العرب على الرجل فتقول: ما له عضبه الله؟ يدعون عليه بقطع يده ورجله.
الزمّانة: المرض يدوم زمناً طويلاً. فهو زَمِنٌ وزَمِينٌ.

وقال بعض أهل اللغة فى قوله تعالى: ﴿ذَا مَتَرَبَةٌ﴾ دليل أن المسكين أحسن حالاً. قال: إن الله تعالى لما نعت بهذا خاصة علمت أنه ليس كل مسكين بهذا النعت. ألا ترى أنك إذا قلت: اشتريت ثوباً ذا عَلم، نعت بهذا النعت، لأنه ليس كل ثوب له علم. فكذلك المسكين الأغلب عليه أن يكون له شيء، فلما كان هذا المسكين مخالفاً لسائر المساكين بين الله تعالى نعت به؛ وبهذا المعنى استدلل أهل العراق من الفقهاء أن اللمس هو الجماع بقوله تعالى: ﴿فَلَمَسُوهُ بَأْيَدِهِمْ﴾ [الأنعام: ٧] أن اللمس يكون بغير اليد وهو الجماع، فلما قال: ﴿بَأْيَدِهِمْ﴾ خص به هذا المعنى، فردوه على من احتج به من علماء الحجاز فى قولهم: اللمس باليد.

وقال آخرون: بل الفقير أسوأ حالاً من المسكين؛ لأن المسكين يكون له الشيء، والفقير لا شيء له. قال الله تعالى فى أصحاب السفينة: ﴿فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩] فأخبر أن لهم سفينة وهى تساوى جملة.

وقالوا: سمي فقيراً؛ لأنه نُرعت فقرة من ظهره، فانقطع صلبه من شدة الفقر، فهو مأخوذ من فقار الظهر، ومال إلى هذا القول الأصمعى، وهو عندى كذلك، من قبل أن الله تعالى قدمه على الأصناف الثمانية التى جعل لهم الصدقة، فبدأ به، فدل على أنه هو الأحوج فالأحوج، أو الأفضل فالأفضل.

وقال قوم: الفقير هو الذى يُعرف بفقره لظهور أمره، والمسكين هو الذى لا يُفطن له ولا يُؤبه به لتخفيه وتستره. وقد جاءت السنة بوصف هذا فى الخبر المروى: «ليس المسكين الذى ترده الكسرة والكسرتان، والتمرّة والتمرتان، إنما المسكين المتعفف الذى لا يسأل الناس، ولا يُفطن له فيتصدق عليه».

وقد قال بعض الحكماء فى مثل هذا، وقد سئل: أى الأشياء أشد؟ فقال: فقير فى صورة غنى. وقيل لحكيم آخر: ما أشد الأشياء؟ قال: من ذهب ماله وبقيت عادته. وقال الفقهاء: المسكين الذى له سبب، ويحتاج إلى أكثر منه، لصيق مكسب، أو وجود عيلة. فهذا أيضاً قد وردت السنة بفقره، وذكر فضله فى الحديث الذى جاء: «إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال، ويبغض السائل

الملحف». وكل هذه الأقوال صحيحة.

فالأفضل أن توضع الزكاة في الأحوج فالأحوج، والأفضل فالأفضل، ومن أهل العلم بالله تعالى، وأهل المعاملة، وأهل الدين لله، المنقطعين عن أهل الدنيا، المشغولين بتجارة الآخرة عن تجارات الدنيا، ثم في ذى العيال بقدر عياله بمقدار غناه عن حاجاته، فيكون له بعددهم أجور أمثاله من المنفردين إذ هم جماعة.

وقد كان عمر رضى الله عنه يعطى أهل البيت القطيع من الغنم العشرة فما فوقها.

وكذلك في السنة، روينا عن رسول الله ﷺ: أنه كان إذا أخرج العطاء فرقه بين أصحابه، يعطى المتأهل ضعف ما يعطى العزب، ويعطى كل رجل على قدر أهل بيته.

وحدثنا عن بعض هذه الطائفة قال: صَحَبْنَا أَقْوَامًا كَانَ بَرُّهُمْ لَنَا الْأُلُوفُ مِنَ الدَّرَاهِمِ، انْقَرَضُوا وَجَاء آخَرُونَ كَانَ بَرُّهُمْ لَنَا الْمِثْنِ، وَنَحْنُ بَيْنَ قَوْمٍ صَلَّتْهُمْ لَنَا الْعَشْرَاتُ، نَخَافُ أَنْ يَجِيءَ قَوْمٌ شَرًّا مِنْ هَؤُلَاءِ.

وقال بعض السلف: رأينا قومًا كانوا يفعلون ولا يقولون، ذهب أولئك، وجاء قوم يقولون ويفعلون، ونخاف أن يجيء قوم يقولون ولا يفعلون.

وإن اتفق ذو دين في عيلة من مساكين فذلك غنيمة المتقين، وذخيرة المنفقين. والمعروف في مثله واقع في حقيقته. وسئل ابن عمر عن جهد البلاء ما هو، فقال: كثرة العيال وقلة المال.

وقد جاء في الخبر: «لا تأكل إلا طعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى»؛ لأن التقى تستعين به على البر والتقوى فتشركه في قصده. وفي الخبر أيضاً: «أطعموا طعامكم الأتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين». وفي لفظ آخر: «أَصِفْ بِطَعَامِكَ مَنْ تُحِبُّهُ اللَّهُ تَعَالَى».

وينبغي للموقن أن يفرح ويسرَّ بقبول معروفه من الأتقياء؛ لأن ذلك عمله، إن لم يقبله منه عارف بالله تعالى وأحكامه، وقد رُدَّتْ عليه أعماله، فينبغي أن يحزن

بردها عليه، إذ كان ذلك ردًّا من الله تعالى له.

ومن وصل فقيراً بمعروف، فردّه عليه، فعظمُ الفقيرُ في عينه، فذلك يدل على جهل المعطى بربه؛ لأنه لو أخذها ما سقط منزلته عنده، ثم أخرجها سرّاً إلى من هو أحوج إليها منه كان بذلك فاضلاً، ومن ردّ عليه فقيرٌ برّه فلم يحزنه ذلك أو سرّه ذلك، دلّ على ضعف نيّته في الإخراج، وقلة إخلاصه بمعروفه؛ لأنّ الصادق يسوءه ردُّ معروفه إليه ويحزنه. وينبغي أن لا يتملّك ذلك أن ردّه عليه، بل يدفعه إلى فقير آخر، لأنه قد أخرج الله تعالى، فلا يرجع فيه. والفقراء شركاء في العطاء يرُدُّ عليهم من بعضهم إلى بعض.

وكذلك إن أخرج صدقةً باسم فقير بعينه، ليعطيه إيّاها، فصادف غيره، أو ذكر من هو أحوج منه أو أفضل، ووافق طالباً إليه في حق عليه، فلا بأس أن يدفعها إلى الثاني، ما لم تخرج عن يده، أو يكون قد وعده بها. وكذلك إن دفعها إلى من يدفعها إلى فقير بعينه ثم رأى من هو أثر في قلبه وأحوج منه، فله أن يسترجعها من المأمور ويدفعها إليه، ما لم يكن قد فقدها أو أعلمه بها.

وينبغي أن يستبشر بقبول العارفين معروفه؛ لأن ذلك قبولٌ من الله تعالى لعمله، إذ كان العارف بالله تعالى وأيامه يتصرف عن الله تعالى في الأفعال، كما أنه ينطق عنه في المقال. وليس قبوله منه كقبول غيره، ولا ردّه عليه كردّ غيره، إذ كان الشاهد فيه من الله سبحانه أقوى وأعلى من الشاهد في غيره، ولما هو إلى التوفيق والعصمة أقرب مما سواه من الفقراء.

حدثني بعض إخواني: أنّ فقيراً بمكة ردّ على بعض الأغنياء معروفه، فأخذ يبكي. ف قيل له [في ذلك]، فقال: أليس هذا عملي قد ردّ عليّ؟ قيل له: فإن غيره يقبله. فقال: من أين لي مثل هذه العين؟ وهذا كما قال؛ لأن المؤمن ينظر بعين اليقين ونور الله تعالى، فردّه عن الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ [هود: ١٧]. والجاهل يتصرف بهواه عن نفس فردّه كقبوله، لأنه يأخذه لنفسه، ويردّ بنفسه، والعارف إن أخذ فبرّب، وإن ردّ فعن ربّ تعالى.

وليزدد في عينه مَنْ قَبِلَ منه معروفه نبلاً وجلالة، ويعظم في عينه محبة ومهابة؛ لأنه قد أعانه على برّه وتقواه، وأكرمه بقبول جدواه، فليشهد ذلك نعمة من الله تعالى وإحساناً منه إليه. وعلى العبد أن يجتهد في طلب الاتقياء وذوى الحاجة من الفقراء، ويبلغ غاية علمه بذلك، فإن قَصُرَ علمه ولم تنفذ فراسته ومعرفته في الخصوص، استعان بعلم من هو أعلم منه، وأنفذ نظراً، أو أعرف وأعلم بالصالحين وأهل الخير منه، مِمَّنْ يُوثِقُ بدينه وأمانته من علماء الآخرة، لا من علماء الدنيا.

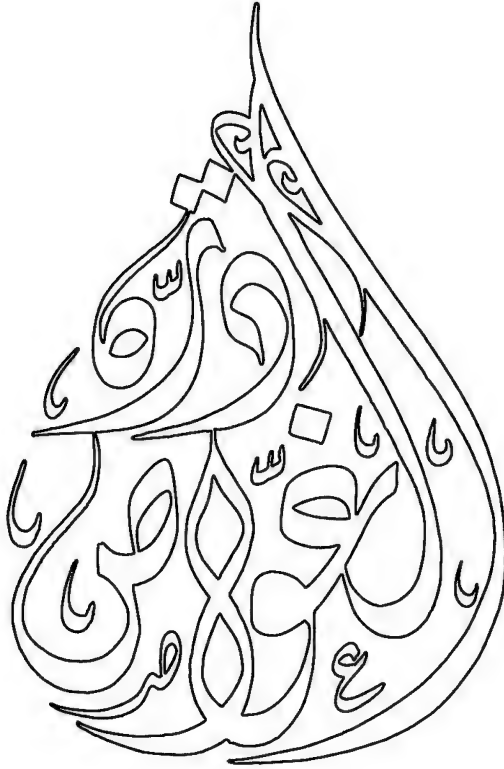
وعلماء الآخرة هم الزاهدون في الدنيا، الورعون عن التكاثر منها، فإن حب الدنيا غامضٌ، قد هلك فيه خلقٌ كثير، لم ينبج من العلماء ولم يسلم من الدنيا إلا المتحققون بالعلم واليقين؛ وهم المتقللون من الدنيا. وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَثْبِيئًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٥] أى يقيئاً، يعنى أنهم يتثبتون في صدقاتهم أن لا يضعوها إلا في يقين، يستروح إليه القلب وتطمئن به النفس.

وقد كان بعض العلماء يؤثر بالعطاء فقراء الصوفية دون غيرهم. ف قيل له: لو عمّمت بمعروفك جميع الفقراء؟ فقال: لا أفعل، بل أؤثر هؤلاء على غيرهم. قيل: ولم؟ قال: لأن هؤلاء قومٌ همهم الله سبحانه وتعالى، فإذا طرقتهم فاقةً تشتت هم أحدهم، فلأن أردّ همةً واحد إلى الله تعالى أحبُّ إلى من أن أعطى ألفاً من غيرهم ممن همه الدنيا. فذكر هذا الكلام لأبى القاسم الجنيد فاستحسنه، وقال: هذا كلامٌ ولى من أولياء الله تعالى. ثم قال: ما سمعت منذ زمان كلاماً أحسن من هذا. وبلغنى أن هذا الرجل اختلّ حاله في أمر الدنيا، حتى همّ بترك الحانوت، فوجه إليه الجنيد بما لكان صُرف إليه، فقال: اجعل هذا في بضاعتك ولا تترك الحانوت، فإن التجارة لا تضرّ مثلك. ويقال: إن هذا الرجل كان بقالاً، ولم يكن يأخذ من الفقراء ثمن ما يبتاعون منه.

وأما ابن المبارك رحمه الله تعالى، فإنه كان يجعل معروفه في أهل العلم خاصة، ف قيل له: لو عمّمت به غيرهم، فقال: إني لا أعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء. فإذا اشتغل قلبُ العالم بالحاجة أو العيلة لم يتفرغ للعلم،

ولا يُقبل على تعليم الناس، فرأيت أن أعينهم وأكفيهم حاجاتهم، لتفرغ قلوبهم للعلم، وينشطوا لتعليم الناس.

هذه طرائق السلف الصالح. والتوفيق من الله تعالى للعبد في وضع صدقته في الأفضل، كالتوفيق منه في إطعام الحلال الذي في غيبه يوفقه لأوليائه، ويستخرجه لهم من علمه كيف شاء بقدرته.



كتاب الصيام

شرح رابع ما بنى الإسلام عليه، وهو الصيام^(١)

• ذكر فرائض الصيام:

اعتقاد الصوم إيجاباً لله تعالى عليه وقربةً منه إليه، وإخلاصاً به له، وسقوط فرضه عنه. وأن يجتنب الأكل والشرب والجماع بعد طلوع الفجر الثاني. وأن يتم الصيام إلى سقوط قرص الشمس. وأن لا ينوى في تضاعيف النهار الخروج من الصوم.

• ذكر فضائل الصوم ووصف الصائمين:

صومُ الخصوص حفظ الجوارح الست: غَضُ البصر عن الاتساع في النظر. وصون السمع عن الإصغاء إلى محرم أو وِزر، أو القعود مع أهل الباطل. وحفظُ اللسان عن الخوض فيما لا يعنى جملة؛ مما إن كُتب عنه كان عليه، وإن حُفظ له لم يكن له. ومراعاة القلب بعكوف الهم عليه. وقطع الخواطر والأفكار التي كفَّ عن فعلها. وتركُ التمني الذي لا يُجدي. وكفُّ اليد عن البطش إلى محرم من مكسب أو فاحشة، وحبسُ الرجل عن السعى فيما لم يؤمر به، ولم يندب إليه من غير أعمال البر.

فمن صام تطوعاً بهذه الجوارح الست وأفطر بجارحتين: الأكل والشرب، والجماع؛ فهو عند الله تعالى من الصائمين في الفضل؛ لأنه من الموقنين الحافظين للحدود. ومن أفطرَ بهذه الست أو ببعضها وصام بجارحتي: البطن والفرج، فما ضيَّع أكثر مما حفظ؛ فهذا مفطرٌ عند العلماء صائمٌ عند نفسه. وقد قال أبو الدرداء: أيا حبذا نومُ الأكياس، كيف يعيرون قيام الحمقى وصومهم، ولذرةٌ من تقوى أفضل من أمثال الجبال عبادةً من المغترين.

(١) من هنا تبدأ نسخة (هـ) بخط قديم جداً أقدم مما مرَّ منها، وهو أدق وأتم مما كانت عليه أول النسخة، وبها زيادات، راجع وصفها في المقدمة.

ومثل من صام عن الأكل وأفطر بمخالفة الأمر مثل من مسح كل عضو، فصلاته مردودة عليه لجهله.

ومثل من أفطر بالأكل والجماع، وصام بجوارحه عن النهي، مثل من غسل كل عضو مرة واحدة وصلى، فهو تارك للفضل في العدد، إلا أنه مكمل للرضى بحسن العمل، فصلاته متقبلة لإحكامه للأصل، وهو مفطر للسعة، صائم في الفضل.

ومثل من صام من الأكل والجماع، وصام بجوارحه الست عن الآثام، كمثل من غسل كل عضو ثلاثاً ثلاثاً، فقد جمع الفرض والفضل، وأكمل الأمر والنَّدى؛ فهو من المحسنين، وعند العلماء من الصائمين. وهذا صوم الممدوحين في الكتاب، الموصوفين بالذكرى من أولى الأبواب.

ومن فضائل الصوم: أن يجتنب من حظوظ هذه الجوارح الشبهات من الأشياء، وفضول الحلال، ويرفض الشهوات الداعية إلى العادات، ولا يفطر إلا على حلالٍ متقللاً منه، فبذلك يزكو الصيام.

ولا يقبل امرأته في صومه، ولا يباشرها بظاهر جسمه، فإن ذلك إن لم يبطل صومه فإنه ينقصه، وتركه أفضل، إلا لقوى متمكن مالك لإربه. وليقلَّ نومه بالنهار، ليعقل صومه بعمارة الأذكار، وليجد مسَّ جوعه وعطشه. وقد كانوا يتسحرون بالتمرّتين والثلاث، وبالحبّات من الزبيب، والجرعة من الماء. ومنهم من كان يقضم من شعير دابته التماساً لبركة السحور. وليكثر ذكر الله تعالى، وليقلل ذكر الخلق بلسانه، ويسقط الاهتمام بهم عن قلبه؛ فذلك أذكى لصومه. ولا يجادل ولا يخاصم، وإن شتم أو ضرب لم يكافئ على ذلك، لأجل حرمة الصوم. ولا يهتم لعشائه قبل محل وقته، يقال: إن الصائم إذا اهتم بعشائه قبل محل وقته أو من أول النهار كتب عليه خطيئة. ويرض باليسير مما قُسم له أن يفطر عليه، ويشكر الله تعالى عز وجل كثيراً عليه.

ومن فضائل الصيام: التقلل من الطعام والشراب، وتعجيل الفطر، وتأخير السحور، ليفطر على رطب إن كان، وإلا على تمر إن وجد فإنه بركة، أو على

شربة من ماء فإنه طهور، هكذا روى عن رسول الله ﷺ: يفطر على جرعة من ماء، أو مذقة من لبن، أو تمرات، قبل أن يصلى. وفي الخبر: «كم من صائم حظه من صيامه الجوع والعطش». قيل: هو الذى يجوع بالنهار ويفطر على حرام. وقيل: هو الذى يصوم عن الحلال من الطعام ويفطر بالغيبة من لحوم الناس. وقيل: هو الذى لا يغض بصره، ولا يحفظ لسانه عن الآثام.

ويقال: إن العبد إذا كذب، أو اغتاب، أو سعى فى معصية فى ساعة من صومه، خرق صومه. وإن صوم يوم يُلَفَّق له فى صيام أيام حتى يتم بها صوم يوم ساعة ساعة. وفى الحديث: «الصوم جنة ما لم يخرقها بكذب أو غيبة». وكانوا يقولون: الغيبة تُفطر الصائم.

وقد كانوا يتوضؤون من أذى المسلم. وروى عن جماعة فى الوضوء مما مست النار: لأن أتوضأ من كلمة خبيثة أحبُّ إلىَّ من أن أتوضأ من طعام طيب.

وروى عن بشر بن الحارث عن سفيان: من اغتاب فسد صومه. وروينا عن ليث عن مجاهد: خصلتان يفسدان الصوم: الغيبة والكذب.

وروى عن جابر عن رسول الله ﷺ: «خمس يفطرن الصائم: الكذب، والغيبة، والنميمة، واليمين الكاذبة، والنظر بشهوة».

ويقال: إن من الناس من يكمل له صوم رمضان واحد فى عشر رمضانات، وفى عشرين، مثل سائر الفرائض؛ من الصلاة والزكاة التى يُحاسب عليها العبد. فإن وجدت كاملة وإلا تُمِّت من سائر تطوعه. ويقال: إن العبد يصح له صوم يوم فى خمسة أيام، كما يصح له صلاة واحدة بخمس صلوات ترفع له الأوقات. وفى الخبر: «من اغتاب خرق صومه، فليرقع صومه بالاستغفار».

ويقال: إن الله تعالى لم يفترض شيئاً فرضى بدونه، وأنه يطالب بما فرضه، ويحاسب على ما أوجبه، وعفو الله سبحانه وتعالى يأتى على كثير من الذنوب.

والمراد من الصيام مجانبة الآثام، لا الجوع والعطش، كما ذكرنا من أمر الصلاة أن المراد بها الانتهاء عن الفحشاء والمنكر. كما قال رسول الله ﷺ: «من لم يترك قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه».

كتاب الحج

شرح خامس ما بنى الإسلام عليه، وهو الحج

• ذكر فرائض الحج:

بالحج كمال الشريعة وتمام الملة، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. وفسّر رسول الله ﷺ الاستطاعة بالزاد والراحلة. فإذا وجد العبد زادًا وراحلة لزمه فرض الحج، فإن أخره بعد وجود ذلك كان مكروهًا، فإن مات ولم يحج، أو مات على عدم الإمكان بعد وجوده، كان عاصيًا لله تعالى من حين أمكنه إلى يوم موته، ولم يكن كامل الإسلام؛ لأن الله تعالى أكمل الإسلام بالحج لما أنزل هذه الآية في الحج يوم عرفة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. وفي الخبر: «من لم يمنعه من الحج مرضٌ قاطع أو سلطان جائر، ومات ولم يحج، فلا يبالي مات يهوديًا أو نصرانيًا».

وقال عمر: لقد هممت أن أكتب إلى الأمصار بضرب الجزية على من لم يحج من من يستطيع إليه سبيلًا. وعن سعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، ومجاهد، وطاوس: لو علمت رجلاً غنيًا وجب عليه الحج، ثم مات قبل أن يحج، ما صليت عليه. وبعضهم كان له جار موسرٌ فمات قبل أن يحج، فلم يصل عليه.

وكان ابن عباس يقول: من مات ولم يزك ولم يحج سأل الرجعة إلى الدنيا. وكان يفسره في هذه الآية قال: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]، قال: أحج. ومثله يقول: ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النافقون: ١٠]، قال: أزكى وأحج. وكان يقول: هذه الآية أشدّ شيء على أهل التوحيد.

ومن كان ذا قوة على المشي، أو ممن يصلح له أن يؤجّر نفسه، وأمن التهلكة

فى خروجه، فحجّ على ذلك كان فاضلاً فى فعله. وللحاج الماشى بكل قدم يخطوها سبعمائة حسنة، وللراكب بكل خطوة تخطوها دابته سبعون حسنة، والقوة على المشى من الاستطاعة عند بعض العلماء.

فأما فرائض الحج عند جملة العلماء فسته، اختلفوا منها فى ثلاث وهن: السعى، والبيتوتة بمزدلفة عند المشعر ليلة النحر، ورمى جمرة العقبة يوم النحر. وأجمعوا على ثلاث وهن: الإحرام به، والوقوف بعرفة، وطواف الزيارة. ولم يختلفوا فى أنّ ما سوى هذه سنة واستحباب.

ومذهبى فى هذا - وهو مذهب الأكثر من العلماء - أن فرائض الحج أربعة: أولها الإحرام به، والوقوف بعرفة بعد زوال الشمس من يوم عرفة، وآخر حدّ الوقوف قبل طلوع الفجر من يوم النحر، وطواف الزيارة بعد الوقوف بعرفة بعد رمى جمرة العقبة، والسعى بين الصفا والمروة بعد الإحرام بالحج، إن شئت قبل الوقوفة بعرفة، وإن شئت بعده. وما سوى ذلك من المناسك فمسنون ومستحب، وبعضه أوكد من بعض، وفى ترك بعضه كفارة، وفى بعضه لا حرج فيه.

وطواف الحج ثلاثة: واحد فريضة إن تركه بطل حجه؛ وهو طواف الزيارة، وواحد سنة إن تركه كان عليه دمٌ وحجّه تامٌ، وهو طواف الوداع، وواحد مستحب إن تركه فلا شيء عليه، وهو طواف الورود.

ولم نذكر من فرائض الحج وأحكامه وهيئاته فى هذا الباب إلا قوتُ الأعمال، مثل ما ذكرناه فى سائر الأبواب من هذا الكتاب، على ما يليق ببيان المعنى الذى قصدناه فيه، وقد أشبعنا أحكام الحج وما يقال فى المشاعر فى كتاب «مناسك الحج»^(١) المفرد له.

• ذكر فضائل الحج، وآدابه وهيئاته، وفضائل الحجاج، وطريق السلف السالكين

للمنهاد:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ يعنى من أوجبه على نفسه فى هذه الأشهر فأحرم به، وهى: شوال، وذو القعدة،

(١) يشير أبو طالب إلى كتاب له عن الحج لم تذكره المراجع.

وتسع من ذى الحجة ﴿فَلَا رَفْثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]
 الرفث: اسم جامع لكل لغوٍ وخنى، وفجور من الكلام، ومغازلة النساء
 ومداعبتهن، والتحدث فى شأن الجماع. والفسوق: جمع فسق، وهو اسم جامع
 لكل خروج من طاعة، ولكل تعدى حدٍّ من حدود الله تعالى. والجidal: وصف
 مبالغة للخصومة والمراء، فيما يُورث الضغائن وفيما لانفع فيه. فهذه ثلاثة أسماء
 جامعة مختصرة لهذه المعانى المثبتة، أمر الله تعالى بتنزيه شعائره ومناسكه منها؛
 لأنها مشتملة على الآثام، وهنّ أصول الخطايا والإجرام.

والحجُّ فى اللغة هو القصد إلى من يُعظَّم. وكانت العرب تقول: نحجُّ إلى
 النعمان، أى نقصده تعظيمًا له وتعزيزًا. فينبغى أن يكون الحاج معظّمًا لمن قصده
 بالحج، ليتحقق بمعنى هذا الاسم. والحج أيضاً: سلوك الطريق الواضح الذى
 يخرج إلى البُغية ويوقف على المنفعة، واشتقاقه من المحجة بمنزلة النُّسك، وهو
 اسم للطريق مشتقٌ من المنسك، وهو من أسماء الطريق، وإن كان أصله الذبح،
 ومنه سُمى الناسك لأنه سالك لطريق الآخرة.

فأول فضائل الحجّ: حقيقة الإخلاص به لوجه الله تعالى، وأن تكون النفقة
 حلالاً، واليد فارغة من تجارة تشغل القلب وتفرّق الهمّ، ويكون الهمُّ مجرداً،
 والقلب ساكناً مطمئناً مملوءاً بالذكر، فارغاً من الهوى، ناظراً أمامه غير ملتفت إلى
 ورائه، وصحةُ القصد بحسن الصدق، ثم طيبُ النفس بالبذل والإنفاق والتوسع
 فى النفقة والزاد وبذل ذلك؛ لأن النفقة فى الحجّ بمنزلة النفقة فى سبيل الله تعالى؛
 الدرهم بسبعمائة درهم، والحجُّ من سبيل الله، روى ذلك عن رسول الله ﷺ.

وقال ابن عمر وغيره: من كرم الرجل طيب زاده فى سفره. وكان يقول:
 أفضل الحجاج أخلصهم نية، وأزكاهم نفقة، وأحسنهم يقيناً.

وفى حديث ابن المنكدر عن جابر عن رسول الله ﷺ: «الحج المبرور ليس له
 جزاء إلا الجنة». وقال: «سئل رسول الله ﷺ: ما برُّ الحج؟ قال: طيب الكلام
 وإطعام الطعام».

ويقال: إنما سمي سفرًا لأنه يسفر عن أخلاق الرجال. وبعضهم يقول: يسفر عن صفات النفس وجوهرها، إذ ليس كل من حسنت صحبته في الحضر حسنت صحبته في السفر، وكل من صلح أن يصحب في السفر صلح في الحضر. وفي خبر عمر رضى الله عنه، لما سأل عن الرجل، من ذكر^(١) أنه يعرفه، فقال له: هل صحبته في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا. قال: ما أراك تعرفه.

ولا يجادل ولا يخاصم، ولا يكثر المراء، ولا يرفث بلسانه. وروينا عن بشر ابن الحارث قال: قال سفيان: من رفث فسد حجه.

وليتعلم أحكام المناسك ومعالم الحجّ وهيئاته وآداب المشاهد قبل الخروج، وليكن ذلك أهم شيء إليه وليقدمه على جميع أسباب السفر، فإن هذا هو المقصود والبقية فلا يباين عنه، وليعدّ له رفيقًا صالحًا عالمًا محبًا للخير معينًا عليه، إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، وإن جبن شجعه، وإن عجز قوّاه، وإن أساء ظنه وضاق صدره وسع صدره وصبره وحسن ظنه، ولا يخالف رفيقه ولا يكثر الاعتراض عليه، وليحسن خلقه مع جميع الناس، ويلين جانبه، ويخفّض جناحه، ويكفّ أذاه عن الخلق، ويحتمل أذاهم. فبهذه المعاني يفضل الحج.

وأن يحج على راحلٍ أو زاملة، فإن ذلك حجّ المتقين وطريق الماضين. يقال: حج الأبرار على الرّحال. وحدث سفيان الثوري عن أبيه قال: برزت من الكوفة إلى القادسية للحجّ، ووافيت الرفاق من البلدان، فرأيت الحاج كلهم على زوامل وجوّالقاتٍ ورواحل، وما رأيت في جميعهم إلا مُحَمِّلِينَ.

وقال مجاهد لابن عمر وقد دخلت القوافل: ما أكثر الحجاج؟ فقال: ما أقلهم، ولكن قل: ما أكثر الرّكب. قال: وكان ابن عمر إذا نظر إلى ما أحدث من الزوامل والمحامل يقول: الحاج قليل، والرّكب كثير. ثم نظر إلى رجل مسكين رثّ الهيئة، تحته جوالق، فقال: هذا نعم الحاج.

(١) من قوله: «وكل من صلح» إلى هنا من (د، م).

فينبغي أن يكون الحاج رثَّ الهيئة، خفيف المؤونة، متقللاً من كل شيء، لا يحمل معه من الزاد إلا ما لا بد له منه مما يحتاج إليه، ولا يسرف في المبالغة والتناهي فيه، ولا يقتّر، ولا يضيق على نفسه ورفيقه، بل يستعمل الاقتصاد في كل شيء والكفاية، ويجتنب من الزى الحُمرة فإن ذلك مكروه.

وروى عن النبي ﷺ «أنه كان في سفر، فنزل أصحابه منزلاً، فسُرحَت الإبل، فنظر إلى أكسية حُمر على الأقتاب، فقال: أرى هذه الحمرة قد غلبت عليكم. قال: فقمنا نتساعى حتى نزعناها عن ظهورها حتى شرد بعض الإبل».

ثم ليجتنب من الزى الشهرة، وكلَّ منظور إليه من الأثاث، ولا يتشبه بالمترفين، ولا بأهل الدنيا من أهل التفاخر والتكاثر فيكتب من المتكثرين، ولا يكثر التَّعَمُّمُ والرفاهة، فإن ذلك غير مستحب في سبيل الله تعالى؛ لأن المشقة والظمأ والمخمصة والأواء كلما كثر في سبيل الله كان أفضل وأثوب.

حج رسول الله ﷺ على راحلة، وكان تحته رَحْلٌ رثٌ وقطيفة خَلَقَة قيمته أربعة دراهم، وطاف على الراحلة لينظر الناس إليه، ويهتدوا بشمائله. وقال عليه الصلاة والسلام: «خذوا عني مناسككم». وكان يقول: «ليبك اللهم ليبيك، حجاً لا رياء فيه ولا سمعة». وقال: «ليبك، إن العيش عيش الآخرة». وأمر ﷺ بالشَّعْثَ والاحتفاء، ونهى عن التَّعَمُّمِ والرفاهة، في حديث فضالة بن عبيد. وفي الخبر: «إنما الحاج الشَّعْثُ التَّفْلُ». يقول الله تعالى لملائكته: انظروا إلى زوَّار بيتي قد جاؤوني شُعْثاً غبراً من كل فج عميق». وقال الله عز وجل: «ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ» [الحج: ٢٩]. التفث: الشَّعْثُ والاغبرار، وقضاؤه حلق الرأس وقصّ الأظفار.

وكتب عمر بن الخطاب إلى أمراء الأجناد: اخلولقوا واخشوشنوا. أى البسوا الخلقان واستعملوا الخشونة من الأشياء. وبعض أصحاب الحديث يصحّف هذا الحرف فيقول: اخلولقوا، من الحلق، ولا يجوز أن يأمرهم بإسقاط سنّة، كيف وقد قال لضبيع حين توسّم فيه مذهب الخوارج: اكشف رأسك، فرآه ذا ضفيرتين،

فقال: لو كنت محلوقاً لضربت عنقك.

ولينحُ مثالَ أهل اليمن في الزى والأثاث، فإن الاقتداء بهم والاتباع لشمائلهم في الحج طريقة السلف. على ذلك الهدى والوصف كان رسول الله ﷺ وأصحابه، وما عدا وصفهم وخالف هديهم فهو محدثٌ ومتبدعٌ.

ولهذا المعنى قيل: زينُ الحجيج أهل اليمن؛ لأنهم على منهاج الصحابة وطريقة السلف. وقيل في مدحهم بالتقلل والانفراد: لا يغفلون سعراً ولا يضيقون طريقاً.

وقد كان العلماء قديماً إذا نظروا إلى المترفين قد خرجوا إلى مكة، يقولون: لا تقولوا خرج فلانُ حاجاً، ولكن قولوا: خرج مسافراً. ويقال: إن هذه المحامل والقباب أحدثها الحجاج بن يوسف فركب الناسُ سُنَّتَهُ. وقد كان العلماء في وقته ينكرونها، ويكرهون الركوب فيها. وأخاف أن بعض ما يكون من تماوت الإبل يكون ذلك سببه لثقل ما يُحمل، ولعله عدلُ أربعة أنفس وزيادة، مع طول الشقة وقلة الطعام.

وينبغي أن يقلل من نومه على الدابة، فإنه يقال: إن النائم يُثقل على البعير. وقد كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلا من قعود، يغفون غفوة بعد غفوة. وكانوا أيضاً لا يقفون عليها الوقوف الطويل؛ لأن ذلك يشق عليها. وفي الحديث: «لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسى».

ولا يحمل على الدابة المكتراة إلا ما قاضى عليه الجمال أو ما أذن له فيه. قال رجل لابن المبارك: احمل لى هذا الكتاب معك. فقال: حتى استأمر الجمال، فإنى قد اكتريت. ولينزل عن دابته غدوةً وعشيّةً، يروّحها بذلك، ففيه سنةٌ وآثار عن السلف. وقد كان بعض السلف يكترى لازماً، ويشترط أن لا ينزل، ثم إنه ينزل للرواح ليكون ما رفعه عن الدابة من حسناته محتسباً له في ميزانه.

وبعض علماء الظاهر يقول: إن الحجَّ راكباً أفضل؛ لما فيه من الإنفاق والمؤونة، ولأنه أبعد لضجر النفس، وأقلُّ لأذاه، وأقرب لسلامته وتمام حجه. فهذا عندى بمنزلة الإفطار يكون أفضل إذا ساء عليه خلقه، وضاق به ذرعه، وكثر عليه

ضجره، لأن حسن الخلق وانسراح الصدر أفضل. وقد يكون كذلك لبعض الناس دون بعض، ممن يكون حاله الضجر، ووصفه التسخُّط وقلة الصبر، أو لم يكن اعتاد المشى.

وسألت بعض فقهاءنا بمكة - وكان ورعاً - عن تلك العُمَر التي تُعتمر من مكة إلى التنعيم، وهو الذى يقال له مسجد عائشة، وهو ميقاتنا للعمرة فى طول السنة، أى ذلك أفضل المشى فى العمرة، أو يكثرى حماراً بكسر درهم إلى درهم يعتمر عليه، فيقال: يختلف ذلك على قدر شدته على الناس، فإن كان إنفاق الدرهم أشدَّ عليه من المشى فالأكثر أفضل، لما فيه من إكراه النفس عليه وشدته عليها. ومن كان المشى عليه أشق فالمشى أفضل، لما فيه من المشقة. ثم قال: هذا يختلف لاختلاف أحوال الناس من أهل الرفاهية والنعمة، فيكون المشى عليهما أشد.

وعندى أن الاعتماد ماشياً أفضل، وكذلك الحج ماشياً، لمن أطاق المشى، ولم يتضجر به، وكان له همّة وقلب. وقد روينا فى خبر من طريق أهل البيت: «إذا كان فى آخر الزمان خرج الناس للحج أربعة أصناف: سلاطينهم للنزهة، وأغنيائهم للتجارة، وفقراءهم للمسألة، وقرأؤهم للسمعة.

ويكره أخذ الأجرة على الحج، فيجعل نصيبه وعناه غيره ملتصقاً عرض الدنيا. وقد كره ذلك بعض العلماء. ولأنه من أعمال الآخرة، ويُتقرب به إلى الله، يجرى مجرى الصلاة والأذان والجهد، فلا يأخذ على ذلك أجراً إلا فى الآخرة. وقد قال رسول الله ﷺ لعثمان بن أبى العاص: «واتخذ مؤذناً لا يأخذ على الأذان أجراً». وسئل عن رجل خرج مجاهداً فأخذ ثلاثة دنائير، فقال: ليس له من دنياه وآخرته إلا ما أخذ. فإن كان نية عبد الآخرة أو همته المجاورة، واضطر إلى ذلك، فإن الله تعالى قد يعطى الدنيا على نية الآخرة، ولا يعطى الآخرة على نية الدنيا، رجوت أن يسعه ذلك، وفى الخبر: «يؤجر فى الحجة الواحدة ثلاثة، ويدخلون الجنة: الموصى بها، والمنفذ للوصية، والحاج الذى يقيمها» لأنه ينوى خلاص أخيه المسلم، والقيام بفرضه. وقد جاء: مثلاً المجاهد الذى يأخذ أجراً على جهاده مثل

أم موسى يحل أجرها وترضع ولدها. هذا إذا كانت نيته الجهاد، واحتاج إلى معونة عليه. كذلك من كانت نيته في حجه الآخرة، والتقرب إلى الله تعالى بالطواف والعمرة بعد قضاء ما عليه، لم يضره أخذ أجره على حجه إن شاء الله تعالى.

ومن فضائل الحج: أن لا يقوى أعداء الله الصادقين عن المسجد الحرام بالمال، فإن المعونة والتقوية بالمال تضاهى المعونة بالنفس. والصدء عن المسجد الحرام يكون بالمنع والإحصار، ويكون بطلب المال، فليحتل في التخلص من ذلك، فإن بعض علمائنا كان يقول: ترك التنفل بالحج والرجوع عنه أفضل من تقوية الظالمين بالمال؛ لأن ذلك عنده دخيلة في الدين، ووليجة في طريق المؤمنين، وإقامة وإظهار لبدعة أحدثت من الآخذ والمعطى، فهما شريكان في الإثم والعدوان. وهذا كما قال؛ لأنه جعل بدعة سنة، ودخولاً في صغار ذلة، ومعاونة على وزر أعظم في الحرم من تكلف حج نافلة قد سقط فرضه. كيف وفي ذلك إدخال ذلة وصغار على الإسلام والمسلمين مضاهاة للجزية؟ وقد روينا عن رسول الله ﷺ: «كل واحد من المسلمين على ثغر من ثغور الإسلام، فإن ترك المسلمون فاشدد لئلا يؤتى الإسلام من قبلك». وفي الخبر المشهور: «المسلمون كرجل واحد، ومثل المسلم من المسلمين كمثل الرأس من الجسد، يألم الجسد لما يألم الرأس، ويألم الرأس لما يألم الجسد».

وقد يترخص القائل في ذلك بتأويل أنه مضطر إليه. وليس كما يظن، لأنه لو رجع لما أخذ منه شيء، ولو خرج في غير زى المترفين مما أحدث من المحامل لما أخذ منه شيء، فقد زال الاضطرار وحصل منه بالطوع والشهوة الاختيار، ولعل هذا الذنب عقوبة ما حملوا على الإبل فوق طاقتها من البيوت المسقفة التي علوها عليها. كان البعير يحمل الرجل ورحله فجعلوه يحمل مقدار أربعة وزيادة، فأدى ذلك إلى تلفها، فهم مطالبون بقتلها؛ لأن من حمل بعيراً فوق طوقه حوسب بذلك وطولب، أو لعله ذنب ما خرجوا به من التجارات وفضول الأسباب وشبهات الأموال، أو لسوء النيات وفساد المقاصد. وروينا أن أبا الدرداء قال لبعير له في الموت: يا أيها البعير، لا تخاصمني إلى ربك فإنني لم أكن أحملك فوق

طاقتك. وقد يعاقب الله على الذنب بذنب مثله أو فوقه.

وينبغي أن يكون في المشاعر والمناسك أشعث أغبر، فإنه سنة. ويكثر ذكر الله في طريقه وجميع مناسكه، ويذكر به الغافلين، ويقل ذكر الناس، ويلزم الصمت فيما لا يعنيه، ولا يتكلف ما قد كُفِيَ، ولا يدخل فيما لم يكلف، وإن رأى موضعاً للمعروف أمر به، أو منكراً نهى عنه. فهذه المعاني تضاعف أجر الحج، وتفضل الحجاج.

وأستحب أن يقرن بين حجة وعُمره من ميقاته؛ لأن فيه إيجاب هدى يقربه، وليكون جامعاً بين نسكين من ميقات بلده، ويكون قد أتى بالعمرة؛ لأن فيه إيجاب هدى يقربه، وليكون جامعاً بين نسكين من ميقات بلده، ويكون قد أتى بالعمرة؛ لأنها مقرونة بالحج في الكتاب، ولأن مذهب كثير من العلماء أنها فريضة كالحج. وجماعة من السلف كانوا يستحبون الابتداء بالعمرة وتقديمها على الحج، منهم: الحسن وعطاء وابن سيرين والنخعي.

وقد روى أن النبي ﷺ جمع بينهما، وأهل بهما معاً في حديث أنس. وقد حدثت عن شقيق بن سلمة عن الضبي بن معبد قال: أردتُ العمرة فأشار عليّ رجل من أهل العلم أن أبدأ بالحج، فاستشرت رجلاً من أهل الفقه فأمرني أن أجمع بين حج وعمرة جميعاً. ففعلتُ، فأنشأتُ ألبّي بهما، حتى قدمنا على عمر فأخبرته بالذي فعلتُ. فقال: هُديتَ لسنة نبيك.

وإن قدّم العمرة فحجّ متمتعاً ثم أفرد الحج بعدها من عامه فهو أفضل؛ وهذا اختيار جماعة من العلماء. وإن حجّ مفرداً، كما روى عن رسول الله ﷺ أنه أفرد الحجّ فيما روينا عن عائشة وجابر، وإذا فرغ من حجه رجع إلى ميقات بلده فاعتمر من هناك، فحسن. وقد قال الله عز وجل: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، فإفرادهما من إتمامهما؛ وهذا قول عمر وعثمان في الإتمام.

وليطف لقرائه ويسع طوافين وسعيين، ليخرج بذلك من اختلاف العلماء، جمعهما أو فرقهما.

وليكثر العبد من التلبية في حال إحرامه، فهي من أفضل الأذكار فيه، وليرفع بها صوته، وإن قال في تلبيته: لبيك يا ذا المعارج، لبيك حجاً حقاً، تعبدًا ورقاً، والرغباء إليك والعمل. فقد رُوى هذا عن الصحابة. وإن اقتصر على تلبية رسول الله ﷺ فحسن، وفيها كفاية وبلاغ.

وأحب أن يذبح، وإن لم يجب عليه، ويجتنب الأكل مما يذبح ما كان واجباً عليه مثل نُسكِ قران، أو متعة، أو كفارة. وأستحب أن يأكل مما لم يكن عليه واجباً. وليجتنب المعاييب الثمانية في ذبيحته التي وردت بها الآثار، فقد نُهى أن يضحي: بالجدعاء، والعضباء، والجرباء، ونهى عن الشرعاء، والخرقاء، والمقابلة، والمدابرة، والعجفاء التي لا تُنقى، يعنى المهزولة. وهذا جميع ما جاء في عيوب الأضاحي بأخبار متفرقة.

فالجدع: في الأنف والأذن. والقطع: فيهما. والعضب: الكسر في القرن، وفي نقصان القوائم. والجرباء: من الجرب. والشرعاء: المشقوقة الأذن من فوق. والخرقاء: المشقوقة من أسفل. والمقابلة: المخروقة الأذن من قدام. والمدابرة: المخروقة من خلف. والتي لا تُنقى: المهزولة التي لا نقي لها؛ والنقي هو المخ.

وقد روينا في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، قيل: تسمين الهدى وتحسينه. وأفضل الهدى بدنة، ثم بقرة، ثم كبش أقرن أبيض، ثم الثني من المعز.

وإن ساق هديه من الميقات فهو أفضل من حيث لا يجهد ولا يكده، وقد كانوا يُغالون بثلاث، ويكرهون المكاس فيهن: الهدى، والأضحية، والرقبة. فإن أفضل ذلك أعلاه ثمنًا، وأنفسه عند أهله. وفي حديث ابن عمر أن عمر أهدى نجية، فطلبت منه بثلاثمائة دينار، فسأل النبي ﷺ أن يبيعها ويشتري بثمنها بدنة، فنهاه عن ذلك وقال: بل اهدها. فهذه سنة في تخير الهدى، وحسن الأدب في المعاملة، وترك الاستبدال بها طلبًا للكثرة، لأن القليل الجيد خير من الكثير الدون. إن في ثلاثمائة دينار قيمة ثلاثين، فكان الخالص الحسن كافيًا من الكثير المتقارب.

وفى حديث ابن المنكدر عن جابر: «سئل رسول الله ﷺ: ما برُّ الحج؟ قال: العَجُّ والشَّجُّ». فالعج: هو رفع الصوت بالتلبية، والشج: هو نحر البدن.

وفى حديث عائشة رضى الله تعالى عنها عن النبي ﷺ: «ما عمل آدمى يوم النحر عملاً أحبَّ إلى الله عز وجل من إهراق دم، وأنها لتأتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها، فإن الدَّم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع بالأرض، فطيبوا بها نفساً».

وفى الخبر: «له بكل صوفة من شعرها وبكل قطرة من دمها حسنة»، وأنها لتوضع فى الميزان فأبشروا.

ولا يضحى بجَدَعٍ إلا من الضأن فقط، وهو ما كان فى آخر حَوْلِهِ، وبالشَّئْنِ من المعز والبقر والإبل. فالثنى من المعز: ما دخل فى السنة الثانية، والثنى من البقر: ما دخل فى الثالثة، والثنى من الإبل: ما دخل فى السنة الخامسة.

وإن أحرم من بلده، فقد قيل: إنه من إتمام الحج والعمرة، ومن عزائم الأعمال. روينا عن عمر وعلى وابن مسعود رضى الله عنهم: «وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ» [البقرة: ١٩٦]. قالوا: إتمامهما أن تحرم بهما من دُويرة أهلك. ولتكن حاضر القلب، مشاهداً القرب عند المواطن المرجو فيها الإجابة. وفى المشاهد المتبغى منها المنفعة، كما قال الله سبحانه وتعالى: «لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ» [الحج: ٢٨].

وأستحب له أن يمشى فى المشاعر من حين يخرج من مكة إلى أن يقف بعرفة، وإلى أن يرجع من طواف الزيارة إلى منى. ومن استحب للحاج الركوب فإنه يستحب له المشى إلى مكة فى المناسك إلى انقضاء حجّه، ولأن عبد الله بن عباس أوصى بنيه عند موته فقال: يا بنى حُجُوا مشاةً، فإن للحاج الماشى بكل قدم يخطوها سبعمائة حسنة من حسنات الحرم. قيل: وما حسنات الحرم؟ قال: الحسنة بمائة ألف. وأؤكد ما مشى فيه من المناسك وأفضله: من مسجد إبراهيم ﷺ إلى الموقف، ومن الموقف إلى المزدلفة فى الإفاضة، ومن المشعر الحرام غداة النحر إلى منى، وفى أيام رميه الجمار.

وصوم يوم عرفة فيه فضل إن قوى معه على الدعاء والتلبية، ولم يقطعه الصوم عن ذلك، فإن أضعفه فالفطر أفضل. ولم يصمه رسول الله ﷺ بعرفة، ولا أبو بكر، ولا عمر، وصامه عثمان رضى الله عنه وعنهم.

وليعتبر في طريقه وسيره بالآيات وما يرى من الحكمة والقدرة من تصريف الخلق، وما يحدث الله تبارك وتعالى في كل وقت، فيكون له في كل شيء عبرة، ومن كل شيء موعظة، فإنه على مثال طريق الآخرة. وليكن له بكل شيء تذكرة، وفي كل شيء فطنة وتبصرة، ترده إلى الله تعالى، وتدلّه عليه، وتذكره به، ويشهده منها فيتفكر في أمره، ويستدل به على حكمته، ويشهد منه قدرته.

وسئل الحسن: ما علامة الحج المبرور؟ فقال: أن يرجع العبد زاهداً في الدنيا، راغباً في الآخرة. وقيل في وصف الحج المبرور: هو كف الأذى، واحتمال الأذى، وحسن الصحبة، وبذل الزاد. ويقال: إن علامة قبول الحج: ترك ما كان عليه العبد من المعاصي، والاستبدال بإخوانه البطالين إخواناً صالحين، وبمجالس اللهو والغفلة مجالس الذكر واليقظة. فمن وفق للعمل بما ذكرناه فهو علامة قبول حجه، ودليل نظر الله إليه في قصده.

ومن أصيب بمصيبة في نفسه وماله، فهو من دلائل قبول حجه، فإن المصيبة في طريق الحج تعدل النفقة في سبيل الله تعالى، الدرهم بسبعمائة، وبمئة الشدائد في طريق الجهاد.

وليستكثر من الطواف بالبيت؛ فإنه يقال: ليس على وجه الأرض اليوم عمل أفضل من الطواف بالبيت، لأنه يستوعب بطواف أسبوع^(١) مائة وعشرين رحمة، يكون بكل رحمة ما شاء الله؛ لأنه سبحانه يختص برحمته من يشاء، وأقل ماله بكل رحمة عشر حسنات؛ لأن في حديث عطاء عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ: «يُنزل الله على هذا البيت في كل يوم مائة وعشرين رحمة، ستون للطائفين، وأربعون للمصلين، وعشرون للناظرين». وفي الحديث: «استكثروا من الطواف بالبيت، فإنه من أقل شيء تجدونه في صُحفكم يوم القيامة، وأغبط عملٍ

(١) أسبوع: يقال: طاف بالبيت سبعا وأسبوعاً وسبوعاً؛ بمعنى واحد.

تجدونه». ولا تتحدث في طوافك، وعليك بكثرة ذكر الله سبحانه وتعالى من التسبيح والتهليل والحمد وتلاوة القرآن، وامش بسكينة ووقار وخشوع وانكسار، ولا تزاحمن أحدًا، واقرب من البيت ما أمكن، واستلم الركنين اليمانيين، مع تقبيل الحجر في كل وتر من طوافك إن أمكن. وقد روينا في الخبر: «من طاف بالبيت أسبوعًا حافيًا حاسرًا كان له كعتق رقبة. ومن طاف بالبيت أسبوعًا في المطر غفر له ما سلف من ذنوبه». روى ذلك عن الحسن بن علي، قاله لأصحابه ورفعهم إلى رسول الله ﷺ.

واتق الهمم الرديّة والأفكار الدنيّة. فيقال: إن العبد يؤاخذ بالهمة في ذلك البلد. وعن ابن مسعود: ما من بلد يؤاخذ العبد فيه بالإرادة قبل العمل إلا بمكة. وقال أيضًا: لو همّ العبد بَعْدَ إِبْنِ أَنْ يَعْمَلَ سُوءًا بِمَكَّةَ عَاقِبَهُ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ تَلَا: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] يعنى أنه علق العذاب بالإرادة دون الفعل. ويقال: إن السيئات تضاعف بمكة كما تضاعف الحسنات، وإن السيئات التى تُكْتَسَبُ هُنَاكَ لَا تَكْفُرُ إِلَّا هُنَاكَ. وكان ابن عباس يقول: الاحتكار بمكة من الإلحاد فى الحرم. وقيل: الكذب فيه من الإلحاد.

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه: لأن أذنب سبعين ذنبًا بركية أحب إلىّ من أن أذنب ذنبًا واحدًا بمكة. وركية منزلة بين مكة والطائف.

وقد كان الورعون من السلف، منهم عبد الله بن عمر، وعمر بن عبد العزيز، وغيرهما، يضرب أحدهم فسطاطين؛ فسطاطًا فى الحرم وفسطاطًا فى الحلّ. فإذا أراد أن يصلى أو يعمل شيئًا من الطاعات دخل فسطاط الحرم، ليدرك فضل المسجد الحرام، لأن المسجد الحرام عندهم فى جميع ما يذكر إنّما هو الحرم كله، وإذا أراد أن يأكل أو يكلم أهله أو يتغوّط خرج إلى فسطاط الحلّ.

ويقال: إن آل الحجاج فى سالف الدهر كانوا إذا قدموا مكة خلعوا نعالهم بذى طوى تعظيمًا للحرم. وقد سمعنا من لم يكن يتغوّط ولا يبول فى الحرم من المقيمين بمكة، ورأينا بعضهم لا يتغوّط ولا يبول حتى يخرج إلى الحلّ، تعظيمًا لشعائر الله تعالى، وتنزيهاً لحرمه وأمنه.

وأعمال البرَّ كُلُّهَا تُضَاعَفُ بِمَكَّةَ، والحسنة بمائة ألف حسنة، على مثال الصلاة في المسجد الحرام. روى معنى ذلك عن ابن عباس وأنس. وعن الحسن البصري: أن صوم يوم بمائة ألف يوم، وصدقة درهم بمائة ألف درهم. ويقال: إن طواف سبعة أسابيع يعدل عمرة، وإن ثلاث عُمَر تعدل حجة، وإن العمرة هي الحجة الصغرى؛ وهذا في دليل الخطاب من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ [التوبة: ٣] فدل أن الحجَّ الأصغر هو العمرة، ومن العرب من يسمي العمرة حجًّا. وفي الخبر: «عُمَرَةٌ في رَمَضَانَ تعدل حجة». فمن وَفَّق للعمل بما ذكرناه، فهو علامة قبول حجه، ودليل نظر الله إليه في قصده.

• ذكر فضائل الحاجين لوجه الله:

روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من حجَّ هذا البيتَ فلم يرفُثْ ولم يفسُقْ خرجَ من ذنوبه كيوم ولدته أمه». وفي حديث آخر: «من خرج من بيته حاجًّا أو مُعْتَمِرًا فمات أُجِرَى له أجرُ الحاجِّ والمُعْتَمِرِ إلى يوم القيامة، ومن مات في أحد الحرمين لم يُعْرَضْ ولم يُحَاسَبْ، وقيل له ادخل الجنة». وروى في الخبر: «حجة مبرورة خيرٌ من الدنيا وما فيها. وحجة مبرورة ليس لها جزاءٌ إلا الجنة».

وفي الحديث: «الحجاج والعمَّار وفدُ الله تعالى وزُوراه، إن سألوه أعطاهم، وإن استغفروه غفر لهم، وإن دَعَوْه أُسْتُجِيبَ لهم، وإن شفَعُوا شُفِّعُوا».

وذكر بعضهم أن إبليس ظهر له في صورة شخص بعرفة، فإذا هو ناحل الجسم، مصفرُّ اللون، باكى العين، مقصوم الظهر، فقال له: ما الذى أبكى عينك؟ فقال: خروج الحاج إليه بلا تجارة، أقول: قد قصدوه، أخاف أن لا يخيبهم، فيحزننى ذلك. قال: فما الذى أنحل جسمك؟ قال: سهيل الخيل فى سبيل الله تعالى، ولو كانت فى سبيلى كان أحبَّ إلىَّ. قال: فما الذى غير لونك؟ قال: تعاون الجماعة على الطاعة، ولو تعاونوا على المعصية كان أحبَّ إلىَّ. قال: فما الذى قصم ظهرك؟ قال: قول العبد: أسألك حسنَ الخاتمة، أقول: يا ويلتى متى يعجب هذا بعمله؟ أخاف أن يكون قد فطن.

ولقى رجلاً ابن المبارك وقد أفاض من عرفة إلى مزدلفة، فقال: من أعظم الناس جرماً يا أبا عبد الرحمن في هذا الوقت؟ فقال: من قال إن الله عز وجل لم يغفر لهؤلاء.

وقد روينا حديثاً مسنداً من طريق أهل البيت: «أعظم الناس ذنباً من وقف بعرفة فظن أن الله عز وجل لم يغفر له».

ويقال: إن من الذنوب ذنباً لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة. وقد رفعه جعفر بن محمد فأسنده. ويقال: إن الله عز وجل إذا غفر لعبداً ذنباً في الموقف غفره لكل من أصابه في ذلك الموقف. وزعم بعض السلف: إذا وافق عرفة يوم الجمعة غفر لكل أهل الموقف.

وهو أفضل يوم في الدنيا، وفيه حجّ رسول الله ﷺ حجة الوداع ولم يحج بعد نزول فرض الحج غيرها. وعليه نزلت هذه الآية وهو واقف بعرفة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقال علماء أهل الكتاب: لو أنزلت علينا هذه الآية لجعلنا يومها عيداً. فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أشهد، لقد أنزلت في يوم عيدين اثنين يوم عرفة ويوم الجمعة، على رسول الله ﷺ وهو واقف بعرفة.

وقد روينا في تفسير قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨] عن جماعة من السلف، قال: غفر لهم وربّ الكعبة. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]. قال: طريق مكة يصدّهم عنه.

وروينا عن مجاهد وغيره من العلماء، دخل حديث أحدهما في الآخر: كانوا يتلقون الحاج يدعون لهم قبل أن يتدنسوا ويقولون: تقبل الله منا ومنكم. وأنّ الحاج إذا قدموا مكة تلقّتهم الملائكة، فسلموا على ركبّان الإبل، وصافحوا ركبّان الحمير، واعتنقوا المشاة اعتناقاً.

وقال الحسن: من مات بعقب شهر رمضان، أو بعقب غزوة، أو بعقب حجّ، مات شهيداً.

وقال عمر رضى الله تعالى عنه: الحاج مغفورٌ له ولمن استغفر له شهر ذى الحجة، والمحرم، وصفر، وعشرين من ربيع الأول.

وقد كان من سنة السلف أن يشيعوا الغزاة وأن يستقبلوا الحاج، ويقبلوا بين أعينهم ويسألوهم الدعاء لهم. وفى الخبر: «اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج».

وحدثونا عن على بن الموفق قال: حججتُ سنة فلما كان ليلة عرفة بتُ بمنى فى مسجد الخيف، فرأيت فى المنام كأن ملكين قد نزلا من السماء عليهما ثيابٌ خضر، فنادى أحدهما صاحبه: يا عبيد الله. فقال الآخر: لبيك يا عبد الله. قال: تدرى كم حج بيت ربنا فى هذه السنة؟ قال: لا أدرى. قال: حج بيت ربنا ستمائة ألف. أتدرى كم قبل منهم؟ قال: لا. قال: قبل منهم ستة أنفس. قال: ثم ارتفعا فى الهواء فغابا عني، فانتبهت فزعًا فاغتممتُ غمًا شديدًا، وأهممتُ أمري، فقلت: إذا قبل حج ست أنفس، فأين أكون أنا فى ستة أنفس؟ فلما أفضنا من عرفة، وبتُ عند المشعر الحرام جعلتُ أفكر فى كثرة الخلق، وفى قلة من قبل منهم، فحملنى النوم، فإذا الشخصان قد نزلا من السماء على هيتهما، فنادى أحدهما: يا عبيد الله. قال: لبيك يا عبد الله. قال: تدرى كم حج بيت ربنا؟ قال: نعم، ستمائة ألف. قال: فتدرى كم قبل منهم؟ قال: نعم، ستة أنفس. قال: أتدرى ماذا حكم ربنا فى هذه الليلة؟ قال: لا. قال: فإنه وهب لكل واحد من الستة مائة ألف. قال: فانتبهت وبى من السرور ما يجلُّ عن الوصف.

ذكر فى هذه القصة ستة، ولم يذكر السابع؛ وهؤلاء هم الأبدال السبعة أوتاد الأرض المنظور إليهم كفاحًا، ثم ينظر إلى قلوب الأولياء من وراء قلوبهم. فأنوار هؤلاء عن نور الجلال وأنوار الأولياء من أنوارهم، وأنصبتهم وعلومهم من أنصبة هؤلاء وعلومهم. فلم يذكر السابع وهو قطب الأرض، والأبدال كلُّهم فى ميزانه. ويقال: إنه هو الذى يُضاهى الخضر من هذه الأمة فى الحال، ويجاريه فى العلم، وإنهما يتفاوضان العلم، ويجد أحدهما المزيد فى الآخرة، فإنما لم يذكر - والله أعلم - لأنه يُوهب له من مات ولم يحج من هذه الأمة، لأنه أوسع جاهًا من

جميعهم، وأنفذ قولاً في الشفاعة من الجملة.

وقد روينا عن ابن الموفق قال: حججت سنة، فلما قضيت مناسكى تفكرت فيمن لا يتقبل حجه، فقلت: اللهم إني قد وهبتُ حجتي هذه وجعلت ثوابها لمن لا يتقبل حجه. قال: فرأيت ربَّ العزة في النوم، قال لى: يا على تتسخى على، وأنا خلقت السخاء وخلقتُ الأسخياء، وأنا أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، وأحق بالجدود والكرم من العالمين، وقد وهبت كل من لم يقبل حجه لمن قبلته. وكان ابن الموفق هذا قد حجَّ عن رسول الله ﷺ حججاً، وقال: فرأيت النبى ﷺ فقال: يا ابن الموفق، حججت عني؟ قلت: نعم يا رسول الله. وليت عني؟ قلت: نعم. قال: فهذه يدُ لك عندي أكافئك بها يوم القيامة، آخذ بيدك في الموقف فأدخلك الجنة، والخلائق في كُرب الحساب.

• ذكر فضائل البيت الحرام وما جاء فيه:

في الخبر: «إن الله تعالى وعد هذا البيت أن يحجّه في كل سنة ستمائة ألف، فإن نقصوا كملهم الله تعالى بالملائكة، وأن الكعبة تُحشر كالعروس المزفوف، وكل من حجها متعلق بأستارها يسعون حولها حتى تدخل الجنة فيدخلون معها».

وفى الخبر: «إن الحجرَ ياقوتة من يواقيت الجنة، وأنه يُبعث يوم القيامة وله عينان ولسان ينطق به، يشهد لمن استلمه بحق وصدق». وكان رسول الله ﷺ يقبله كثيراً. وروينا أنه سجد عليه، وكان يطوف على الراحلة فيجعل المحجن عليه، ثم يقبل طرف المحجن.

وقبله عمر ثم قال: إني لأعلم أنك حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفعُ، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلُك لما قبلتُك. ثم بكى حتى علا نحيبه، فالتفت إلى ورائه فإذا على، فقال: يا أبا الحسن، ههنا تُسكب العبرات. فقال على: يا أمير المؤمنين بل هو يضر وينفع. قال: وكيف؟ قال: إن الله عز وجل لما أخذ الميثاق على الذرية كتب عليهم كتاباً، ثم ألقمه هذا الحجر، فهو يشهد للمؤمن بالوفاء، ويشهد على الكافر بالجحود. قيل: فذلك معنى قول الناس عند الاستلام: اللهم إيماناً بك، وتصديقاً بكتابك، ووفاءً بعهدك. يعنون هذا الكتاب والعهد.

وفى الخبر عن النبي ﷺ: «أنا أول من تنشق عنه الأرض، ثم أتى البقيع فيحشرون معي، ثم أتى أهل مكة فأحشروا بين الحرمين». وفى الخبر: «إن آدم عليه السلام لما قضى مناسكه لقيته الملائكة فقالوا: برَّ حَجُّك يا آدم، لقد حَجَّجْنَا هذا البيت قبلك بألفى عام». وجاء فى الأثر: «إن الله تعالى جدّه ينظر فى كل ليلة إلى أهل الأرض، فأول من ينظر إليه أهل الحرم، وأول من ينظر إليه من أهل الحرم أهل المسجد الحرام، فمن رآه طائفاً غَفَرَ له، ومن رآه منهم مصلياً غَفَرَ له، ومن رآه نائماً مستقبل القبلة غَفَرَ له».

وذكرت الصلاة بعبّادان لأبى تراب النخشبى فقال: نومةٌ فى المسجد الحرام أفضل من الصلاة بعبّادان. وكُوشِفَ بعض الأولياء قال: رأيتُ الثغور كلها تسجد لعبادان ورأيت عبّادان ساجدة لجدّة؛ لأنها خزّانة الحرم، وفُرْضة أهل المسجد الحرام.

وكنْتُ أنا بمكة سنةً فأهمنى الغلاءُ بها حتى ضِقتُ ذرعاً به، فرأيت فى النوم شخصين بين يديّ، يقول أحدهما للآخر: كلُّ شَيْءٍ فى هذا البلد عزيزٌ، كأنه يعنى الغلاء. فقال الآخر: الموضع عزيزٌ فكل شَيْءٍ فيه عزيز، فإن أردت أن ترخص الأشياء عليك، فضمّها إلى شَرَفِ الموضع حتى ترخص.

• ذكر من كره المقام بمكة:

كان سفيان الثورى يقول: والله ما أدري أى البلاد أسكن. فقليل له: خراسان. قال: مذاهبٌ مختلفة، وآراء فاسدة. قيل: الشام. قال: يشار إليك بالأصابع. قيل: فالعراق. قال: بلدة الجبّارة. قال: مكة. قال: تُذِيبُ الكِيسَةَ والبدن. وقال رجل للثورى: قد عزمت على المجاورة بمكة فأوصنى. قال: أوصيك بثلاثة؛ لا تصلين فى الصف الأول، ولا تصحبين قرشياً، ولا تُظْهَرَنَّ صدقة.

إنما كره له الصلاة فى الصف الأول؛ لأنه يُفْتَقَدُ فيُسأل عنه إذا غاب، ويُشتهر ويعرف إذا واطب، فيجب أن يَرُبَّ الحال بلزوم الموضع، فيذهب الإخلاص ويحصل التزيّن والتصنُّع. وجاء رجل إلى سفيان بمكة فسأله فقال: أرسل معي رجلاً بمال فقال: ضعه فى سِدانة الكعبة - أو قال: فى سِدانة الكعبة - فما ترى؟

قال سفيان: قد جهل فيما أمرك به، وإن الكعبة لَغَنِيَّةٌ عن ذلك. قال: فما ترى؟ قال: اصرفه للفقراء والأرامل، وإياك وبنى فلان فإنهم سُرَّاقُ الحاجِّ.

وقد كان بعض السلف يكره المجاورة بمكة ويحبُّ قصد البيت للحج والخروج منه، إما لأجل الشَّوق إليه، أو خشية الخطايا فيه، أو حبًّا للعود. وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]، أى: يَثُوبُونَ إليه؛ يعودون مرة بعد مرة، ولا يقضون منه وطراً.

وكان بعضهم يقول: تكون في بلد وقلبك مشتاق متعلق بهذا البيت خيرٌ لك من أن تكون فيه وأنت متبرم بمقامك، أو قلبك متعلق إلى بلد غيره.

وروى ابن عيينة عن الشعبي: لأن أقيمَ بحمامٍ أعين أحبُّ إلىَّ من أن أقيم بمكة. قال سفيان: يعنى إعظاماً لها وتوقياً على الذنب فيها. وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يضرب الحجاج إذا حجَّوا، ويقول: يا أهل اليمن يمينكم، ويا أهل الشام شامكم، ويا أهل العراق عراقكم.

وكان ابن عباس يقول: أُجورُ بيوت مكة حرام، ولا تقوم الساعة حتى يستحلَّ الناس اثنتين: إتيان النساء في أدبارهن، وأجور بيوت مكة. وكان الثورى وبشر وجماعة من الفقهاء وأهل الورع يكرهون أن يدفع الرجل كراء بيت مكة، حتى قال الثورى: إذا طالبوك، ولم يكن لك بد من أن تعطيهم، فخذْ لهم من البيت قيمة ما أخذوا منك.

وقال بعض السلف: كم من رجل بأرض خراسان أقرب إلى هذا البيت ممَّن يطوف به؟ ويقال: إن لله عبداً تطوف بهم الكعبة تقرباً إلى الله عز وجل.

وحدثني شيخٌ لنا عن أبى على الكرمانى شيخنا بمكة، وكان من الأبدال إلا أنى سمعت هذه الحكاية منه، قال: سمعته يقول: رأيت الكعبة ذات ليلة تطوف بشخصٍ من المؤمنين، وقال لى هذا الشيخ: ربما نظرت إلى السماء واقعة على سطح الكعبة قد ماستها الكعبة، ولزقت بها، وأكثر الأبدال فى أرض الهند والزنج وبلاد الكفرة، ويقال: لا تغرب الشمس من يومٍ إلا يطوف بهذا البيت رجلٌ من

الأبدال، ولا يطلع الفجر من ليلةٍ إلا طاف به واحد من الأوتاد، وإذا انقطع ذلك كان سببَ رفعه من الأرض، فيصبح الناس وقد رُفعت الكعبة ولا يرون لها أثراً، وهذا إذا أتى عليها سبع سنين لم يحجَّها أحد، ثم يُرفع القرآن من المصاحف، فيصبح الناس فإذا الورق أبيض يلوح ليس فيه حرف، ثم يُنسخ القرآن من القلوب فلا تذكر منه كلمة، ثم يرجع الناس إلى الأشعار والأغاني وأخبار الجاهلية، ثم يخرج الدجال، وينزل عيسى ابن مريم عليه السلام فيقتله، والساعة عند ذلك بمنزلة الحامل المُقرب يتوقع ولادتها.

روينا عن وهيب بن الورد المكي قال: كنتُ ذات ليلةٍ أصلي في الحجر، فسمعتُ كلاماً بين الكعبة والأستار يقول: إلى الله تعالى أشكو ثم إليك يا جبريل ما ألقى من الطائفين حولي، تفكَّههم في الحديث ولغوهم ولهوهم، لئن لم ينتهوا من ذلك لانتفضن انتفاضةً يرجع كلُّ حجرٍ مني إلى الجبل الذي قُطع منه. وفي الخبر: «لا تقوم الساعة حتى يُرفع الركن والمقام».

وروى: أن الحبشة يغزون الكعبة، فيكون أولهم عند الحجر الأسود، وآخرهم على ساحل البحر بجدة، فينقضونها حجراً حجراً، يناول بعضهم بعضاً حتى يرمونها في البحر.

وكذلك يذكر عن بعض الصحابة وقراء الكتب السالفة: كأنني أنظر حبشياً أصلع أجدع قائماً عليها، يعني الكعبة، هدمها بمعوله حجراً حجراً. وفي الخبر: «استكثروا من الطواف بهذا البيت قبل أن يرفع». فقد هدم مرتين ويرفع في الثالثة، ورفعته الذي ذكره يكون بعد هدمه؛ لأنه يُبنى من ذي قبل حتى يعود إلى مثل حاله، ويحجج مراراً، ثم يُرفع بعد ذلك.

وروي في حديث أبي رافع عن عليٍّ عن النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: إذا أردتُ أن أخرب الدنيا بدأت ببيتي فخرَّبته ثم أخرب الدنيا على أثره».

وليس بعد مكة مكان أفضل من مدينة رسول الله ﷺ، والأعمال فيها مضاعفة. روى عن النبي ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا خيرٌ من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام». وكذلك قيل: «إن فضل الأعمال بالمدينة كفضل الصلاة،

كل عمل بألف عمل». وبعد ذلك الأرض المقدسة فإن فضل الصلاة فيها بخمسمائة صلاة، وكلُّ عملٍ يضاعف بخمسمائة مثله. روينا عن عطاء عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «صلاة في مسجد المدينة بعشرة آلاف صلاة، وصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، وصلاة في المسجد الأقصى بألف صلاة». ثم تستوى الأرض بعد ذلك فلا يبقى مندوب إليه مقصود لفضل دل الشرع عليه. كما جاء في الخبر: «لا تُشدُّ الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»، بعد ذلك فأى موضع صلح فيه قلبك، وسلم لك دينك، واستقام فيه حالك، فهو أفضل المواضع لك، وقد جاء في الخبر: «البلاد بلادُ الله تعالى، والخلق عباده، فأى موضع رأيت فيه رفقا فاقم واحمد الله تعالى». وفي الخبر المشهور: «من خُضرَّ له من شيء فليلزمه، ومن جُعِلت معيشتة في شيء فلا ينتقل عنه حتى يتغير عليه».

وقال نعيم: رأيت الثوري قد جعل جرابه على كتفه، وأخذ قُلَّته بيده. فقلت: إلى أين يا أبا عبد الله؟ فقال: إلى بلدٍ أملأ فيه جرابي بدرهم. وفي حكاية أخرى: بلغني أن قريةً فيها رُخص، أريد أن أقيم فيها. فقلت: وت فعل هذا يا أبا عبد الله؟ فقال: نعم. إذا سمعتَ في بلد برُخصٍ فاقصده، فإنه أسلم لدينك، وأقل لهَمِّك. وكان يقول: هذا زمانٌ سوءٍ لا يؤمن فيه على الخاملين، فكيف بالمشهورين؟^(١) هذا زمان تنقل الرجل، ينتقل من قرية إلى قرية، يفر بدينه من الفتن.

وقد كان الفقراء والمريدون يقصدون الأمصار للقاء العلماء والصالحين؛ للنظر إليهم والتبرُّك والتأدب بهم. وكان العلماء ينتقلون في البلاد، ليعلموا ويردوا الخلق إلى الله تعالى ويعرّفوا الطريق إليه، فإذا فُقد العاملون وعُدم المريدون فالزم موضعاً ترى فيه أدنى سلامة دين، وأقرب صلاح قلب، وأيسر سكون نفس، ولا تنزعج إلى غيره، فإنك لا تأمن أن تقع في شرٍّ منه، وتطلب المكان الأول فلا تقدر عليه.

والله غالب على أمره، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(١) فكيف بهم لو أدركوا زماننا هذا؟!

الفصل الرابع والثلاثون^(١)

فى تفصيل الإسلام والإيمان

وعقود^(٢) شرح معاملة القلب من مذاهب أهل الجماعة

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَكِنْ يُوَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْإِيمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩]. وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]. وقال جل ثناؤه: ﴿وَلَكِنْ يُوَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

فعمدُ القلوب وكسبها هو عقودها وأعمالها، وعقود القلب التى هى السنة المجمع عليها، نقلها الخلف عن السلف، ولم يختلف فيه اثنان من المؤمنين. فيها ستة عشرة خصلة؛ ثمان واجبات فى الدنيا، وثمان واقعات فى الآخرة.

فأما اللاتى هنّ فى الدنيا: أن يعتقد العبدُ أن الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، ويقوى بالعلم، ويضعف بالجهل. وأن القرآن كلام الله عز وجل غير مخلوق، وعلمه القديم صفة من صفاته، هو متكلمٌ به بذاته.

وفى الحديث عن رسول الله ﷺ: «ما تقرب العبد إلى الله عز وجل بأفضل من شىء خرج منه وهو كلامه».

وروينا عن ابن عباس: أن علياً رضى الله تعالى عنهما دعا عند قتال صفين: يا كهيعص أعوذ بك من الذنوب التى توجب النقم، وأعوذ بك من الذنوب التى

(١) فى نسخة (د): «الفصل الثالث والثلاثون».

(٢) فى (د): «وعقود السنة واعتقاد القلوب من شرح معاملة القلب من العلم الظاهر، وذكر دعائم الإسلام، وذكر أركان الإيمان والإسلام، والاستثناء فى الإيمان، والإشفاق من النفاق، وطريق السلف من ذلك».

تغيّر النعم، وأعوذ بك من الذنوب التي تهتك الحُرْم، وأعوذ بك من الذنوب التي تحبس غيث السماء، وأعوذ بك من الذنوب التي تُدِيل الأعداء، انصرونا على من ظلمنا. قال الضحّاك بن مزاحم: فكان على رضى الله عنه يقدم هذه بين يدي كلّ شديدة.

وفيما روينا عن النبي ﷺ من قوله: «أعوذ بكلمات الله وأسمائه كلها»، كما قال: «أعوذ بعزة الله وقدرته» - دليل أن الكلام والأسماء صفات.

وعن على رضى الله تعالى عنه حين حَكَمَ الحكمين، فنقم عليه الخوارج ذلك وقالوا: حَكَمَ في دين الله المخلوقين. فقال: والله ما حَكَمْتُ مخلوقًا، ما حَكَمْتُ إلا القرآن.

وقال أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه حين سمع قرآن مسيلمة الكذاب الذى افتعله وتخرّصه يُضاهى به كلام الله تعالى: والله ما خرج هذا من إلّ ولا من تقى. قال أبو عبيدة: يعنى ما خرج من الله تعالى. قال: وفيه دليل أن القرآن غير مخلوق، وأنه خرج من الله تعالى تكلم به. قال: ومن هذا قوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ١٠]، معناه: الله عز وجل لا يرقبونه.

وقد روينا عن رسول الله ﷺ بمعنى ذلك فى قوله: «فضلُ كلام الله عز وجل على سائر الكلام كفضل الله تعالى على خلقه»، وذلك أنه خرج منه. وقرأتُ فى مصحف ابن مسعود قال: يا موسى قد فضّلتك برسالاتى وبكلامى على الناس. وهذا لا يجوز فيه إلاّ التكلم بالذات، مع قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]. قال أهل اللغة: المصدر إذا أدخل فى الفعل فهو للمواجهة والوصف، لا للأمر بالفعل، ولا على المجاز.

ثم تسليم أخبار الصفات؛ فيما ثبتت به الروايات، وصح به النقل، ولا يتأول ذلك ولا يشبهه بالقياس والعقل، لكن يعتقد إثبات الأسماء والصفات بمعانيها وحقائقها لله تعالى، وينفى التشبيه والتكييف عنها، إذ لا كُفُوَ للموصوف فيُشبه به، ولا مثل له فيُجنس منه، فنقول كما سمعنا، ونشهد بما علمنا، على أنه ليس

كمثله شيء في كل وصف فنثبت^(١) ولا نشبه، ونصف ولا نمثل، ونعرف ولا نكيّف.

وفي رد أخبار الصفات بطلان شرائع الإسلام، من قبل أن الناقلين إلينا ذلك هم ناقلو شرائع الدين وأحكام الإيمان، فإن كانوا عدولاً فيما نقلوه من الشريعة، فالعدل مقبول القول في كل ما نقله، وإن كانوا كذبوا فيما نقلوا من أخبار الصفات، فالكذاب مردود القول في كل ما جاء به، والكذب على الله كفر، فكيف تُقبل شهادة كافر؟ وإذ جاز أن يجترئوا على الله عز وجل بأن يزيدوا في صفاته ما لم يسمعه عن رسول الله ﷺ، فهم إلى أن يكذبوا على الرسول فيما [نقلوا]^(٢) من الأحكام أولى. ففي ذلك أيضاً إبطال الشريعة، وتكفير النقلة من الصحابة والتابعين بإحسان. فلذلك كفر أصحاب الحديث من نفى أخبار الصفات. ونعتقد تفضيل أصحاب رسول الله ﷺ وأهل بيته رضى الله عنهم ورضوا عنه كافة، ونسكت عما شجر بينهم، ونشر محاسنهم وفضائلهم لتألف القلوب بذلك، ونسلم لكل واحد منهم ما فعله؛ لأنهم أعلم منا وأوفر عقولاً. فقد عمل كل واحد بعلمه ومنتهى عقله فيما أدى إليه اجتهاده، وإن كان بعضهم أعلم من بعض، كما أن بعضهم أفضل من بعض. إلا أن علومنا وعقولنا تضعف وتقصّر عن علم أديانهم علماً. كما فضّلوا علينا بالسوابق سبقاً، ونُقدّم من قدّمه الله ورسوله، وأجمع المسلمون الذي تولّى الله إجماعهم على الهداية، وضمّن لرسوله ﷺ تفضيلاً لهم وتشريفاً لهم أن لا يجتمعوا على ضلالة.

وقد قال على لما قيل له: ألا تستخلف علينا؟ فقال: لا أستخلف عليكم، بل أكلكم إلى الله عز وجل، فإن يرد بكم خيراً جمّعكم بعد نبيكم على خيركم.

قال إبراهيم النخعي: فلما سلم الحسن بن علي رضى الله تعالى عنهما الأمر إلى معاوية سُميت سنة الجماعة. وقال له رجل من الشيعة: يا مذلّ المؤمنين. فقال: بل أنا معز المؤمنين، سمعت أبي عليه السلام يقول: لا تكرهوا إمارة

(١) من قوله: «فنقول» في الصفحة السابقة إلى هنا ساقط من المطبوعة.

(٢) ساقطة من المطبوعة.

معاوية، فإنه سيلي هذا الأمر بعدى، وإن فقدتموه رأيتم السيوف تبذر^(١) عن كواهلها كأنها الحنظل.

فليعتقد بقلبه من رضى الصحابة بإمامته، وأجمعوا على خلافته، واتفق الأئمة من أهل الشورى على تقدمته، على حديث ابن عمر فى التفضيل، قال: كنا نقول على عهد رسول الله ﷺ: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان، فيبلغ ذلك رسول الله ﷺ فلا ينكر. وعلى حديث سفينة مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً».

فهؤلاء الأربعة خلفاء النبوة؛ وهم أئمة الأئمة من العشرة، وعيون أهل الهجرة والنصرة، وخيار الخيار من الأصحاب. كما روينا عن النبى ﷺ: «إن الله عز وجل اختار أصحابى على العالمين، واختار من أصحابى أربعة فجعلهم خير أصحابى، وفى كل أصحابى خير، واختار أمتى على الأمم، واختار من أمتى أربعة قرون، فكل قرن سبعون سنة».

فإنما نحن قوم متبعون، نفقوا الأثر، غير مبتدعين بالرأى والمعقول نردّ به الخبر، إذ لا مدخل للقياس والرأى فى التفضيل، كما لا مدخل لهما فى الصفات وأصول العبادات، وإنما يؤخذ التفضيل توقيفاً وتسليماً ومن طريق الإجماع والاتباع خشية الشذوذ والابتداع، لقول الرسول ﷺ: «عليكم بستی وسنة الخلفاء الراشدين المهديين بعدى، عضواً عليها بالنواجذ، ومن شدّ ففى النار». وقال تعالى فى تصديق ذلك: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١١٥]. وإنما جاء الترتيب فى التفضيل والخلافة مخالفاً للقياس، والمعقول، تأكيداً للنبوة وتأيداً للرسالة، لئلا تلتبس النبوة بالملك، ولا ينحو النبى ﷺ فى الخلافة نحو الأكاسرة والأقاصرة فى المملكة. كما كانت النبوة مخالفة للملك جاءت الخلافة على غير سيرة الملوك من استخلاف أبنائهم وأهل بيتهم، ولو كان للمعقول والقياس مدخل فى التفضيل لكان أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ الحسن ابنه لأن فيه النبوة، والعباس عمه إذ فيه الأبوة، وقد أجمعوا على خلاف ذلك.

(١) فى (د، م): «الراءوس تندّر».

وبمعنى هذا من إخراج الخلق من المألوف، ورفع سكونهم عن المعهود: أن أبا قحافة وأبا سفيان ماتا مؤمنين، وأنا أبا رسول الله ﷺ وعمه ماتا كافرين. أجمع أهل النقل والتواريخ^(١) على ذلك. وقال أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه لما أسلم أبوه بين يدي رسول الله عام فتح مكة: والله يا رسول الله لإسلام أبى طالب كان أحب إلىّ لو أسلم من إسلام أبى؛ ليقرّ الله به عينك. فبكى رسول الله ﷺ.

وأيضاً فلما سبق فى علم الله تعالى أن يجعل هؤلاء الأربعة خلفاء النبوة بما قدر الله من أعمارهم، فلم يكن يتم ذلك إلا بترتيبهم على ما رتبوا فى الخلافة. فكان آخرهم استخلاقاً هو آخرهم موتاً. فدبر خلافتهم على ما علم من آجالهم، ووفى لهم بما وعدهم من استخلافهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم من خلائف أنبيائه السّوالف، ومكّن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، وبدّلهم أمناً بعد خوفهم، كما قال الصادق فيما عهد: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بَعْهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١] فذلك تأويل قوله عز وجل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥] الآية.

وأن يعتقد أن الإمامة فى قريش خاصة دون سائر العرب كافة إلى يوم القيامة، وأن لا يخرج على الأئمة بالسيف، ويصبر على جورهم إن كان منهم، ويشكر على المعروف والعدل، ويطيع إذا أمر بالتقوى والبر، حتى تأتیه يدُ خاطئة أو منية قاضية. كذلك السنة.

قال عالمنا أبو محمد سهل رحمه الله تعالى: هذه الأمة ثلاث وسبعون فرقة: اثنتان وسبعون هالكة، كلهم يبغض السلطان، والناجية هذه الواحدة التى مع السلطان. وسئل: أى الناس خير؟ فقال: السلطان. قيل: كنا نرى أن شر الناس

(١) حاشية فى (هـ) بخط مخالف للأصل ما نصه: «أقول: بل فيه اختلاف كثير. والحق أن أبوى رسول الله ﷺ ماتا مؤمنين، يؤيده قوله تعالى: ﴿وَتَقَبَّلْكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩]، وقوله: ﴿رَبَّنَا وابعث فيهم﴾ أى فى الأمة المسلمة ﴿رسولاً منهم﴾ [البقرة: ١٢٩] ولم يبعث من ذريته غير محمد ﷺ. فثبت إيمان أبويه». ثم وقع الكاتب باسمه ولكنه غير مقروء. وقد كتب السيوطى رسالة فى ذلك يؤيد ما ذكره صاحب الحاشية.

السلطان. فقال: مهلاً، إن الله تعالى في كل يوم نظرتين، نظرة إلى سلامة أموال المسلمين ودمائهم، ونظرة إلى سلامة أبكارهم^(١)، فيطلع في صحيفته فيغفر له جميع ذنوبه. وقال أبو محمد: الخليفة إذا كان غير صالح فهو من الأبدال، وإذا كان صالحاً فهو القطب الذي تدور عليه الدنيا. قوله «من الأبدال» يعني أبدال الملك. كما حدثنا عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال: أبدال الدنيا سبعة، على مقاديرهم يكون الناس في كل زمان من العباد، والعلماء، والتجار، والخليفة، والوزير، وأمير الجيش، وصاحب الشرطة، والقاضي وشهوده.

وروينا في الخبر: «عَدْلُ ساعةٍ من إمامٍ عادلٍ خيرٌ من عبادة ستين سنة». ويقال: إن الإمام العادل يوضع في ميزانه جميع أعمال رعيته. وكان عمرو بن العاص يقول: إمامٌ غشومٌ خيرٌ من فتنة تدوم.

وقال النبي ﷺ: «يكون عليكم أمراء يُفسدون وما يُصلح الله تعالى بهم أكثر، فإن أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر، وإن أساءوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر». وفي الخبر الآخر: «يليكُم أمراءٌ يقولون ما لا يعرفون، ويفعلون ما ينكرون - وفي لفظ: يفعلون ما لم يؤمروا - قلنا: أفلا نقاتلهم؟ قال: لا ما صلّوا». وفي الحديث الآخر: «ما أقاموا الصلاة».

وكان سهل رحمه الله تعالى يقول: من أنكر إمامةً لسلطانٍ فهو زنديق، ومن دعاه السلطان فلم يجب فهو مبتدع، ومن أتاه من غير دعوةٍ فهو جاهل. وكان يقول: الحُشبيات السودُ المعلقة على أبوابهم أنفع للمسلمين من سبعين قاضياً يقضون في المسجد.

وقد كان أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى يقول: إذا كان السلطان صالحاً فهو خيرٌ من صالحى الأمة، وإذا كان فاسقاً فصالحو الأمة خير منه. وهذا قول عدل.

ولا يُكفّر أحداً من أهل القبلة بذنب وإن عظم، ولا يُنزله جنة ولا ناراً بل يرجو له ويخاف عليه، وإن مات مصرّاً على الكبائر عن غير توبة منها في

(١) في المطبوعة: «أفكارهم».

مشيئة الله تعالى، إن أثبت وعيده عليه كان عدلاً، وإن عفا عنه وسمح له بحقه كان ذلك منه فضلاً. ولا نحكم ولا نقطع على الله تعالى بشيء، ولا نوجب لنا عليه شيئاً، إنما نحن بين عدله وفضله وبمشيئته واختياره، إن حقق علينا وعيده فنحن أهل ذلك، وإن غفر لنا فهو أهل التقوى وأهل المغفرة. كيف وقد روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من وعده الله تعالى على عمل ثواباً فهو مُنجزه له، ومن أوعده على عمل عقاباً فهو فيه بالخيار». والحديث الآخر أن النبي ﷺ سئل عن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣]، فقال: جزاؤه جهنم إن جازاه. ففي كل قضاء الله تعالى حكمة بالغة وعدل، وحكم صادق وحق.

وأن يصدق بجميع أقدار الله تعالى خيرها وشرها، أنها من الله تعالى، سابقة في علمه، جارية في خلقه بحكمه، وأنهم لا حول لهم عن معصيته إلا بعصمته، ولا قوة لهم على طاعته إلا برحمته، وأنهم لا يطيقون ما حمّلهم إلا به، ولا يستطيعون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً إلا بمشيئته، ونؤمن بقدرته الله وآياته في ملكه وغيب ملكوته مما ذكر في الأخبار من كراماته لأوليائه، وإجاباته لأحبابه، وإظهار القدرة للصديقين والصالحين، مزيداً لإيمانهم وتثبيتاً ليقينهم، وتكرمة وتشريقاً لهم، وأنه ليس في ذلك إبطال لنبوة الأنبياء، ولا إدحاض حججهم من قبل أن هؤلاء غير مثبتين ولا مخالفين للأنبياء، ولا ادعوا ما ظهر لهم بحولهم وقوتهم، ولا أظهروا دعوة إلى أنفسهم، ولا تظاهروا به، ولا اجتلاباً للدنيا، ولا طلباً للرياسة على أهلها، وإنما هو شيء كشفه الله تعالى لهم من سر ملكوته كيف شاء، وأظهرهم عليه من غيب قدرته أين شاء كما شاء، تخصيصاً لهم وتعريفاً، وهم للأنبياء متبعون، وعلى آثارهم مقتفون، ولستهم مقتدون، فاتاهم الله تعالى ذلك ببركة الأنبياء، وبحسن اتباعهم لهم، ولأنهم إخوانهم أبدالاً لا أشكالا عنهم أمثالا.

وقد تواترت الأخبار عن الصحابة والتابعين الأخيار بما ذكرناه، فغنينا بالتواتر عن التناظر.

وأما الشمانى الواقعات فى الآخرة: فأن يعتقد العبد مساءلة منكر ونكير، يُقعدان العبد فى قبرة سَوِيًّا ذا روح وجسد، فيسألانه عن التوحيد وعن الرسالة، وهى آخر فتنة تعرض على المؤمن، وهما فتانا القبر، كذلك روينا عن رسول الله ﷺ، وهو معنى قول الله عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قيل: عند مساءلة منكر ونكير ﴿يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

[ويعتقد أن] عذاب القبر حق، وحكمةٌ وعدلٌ على الجسم والروح والنفس، يشتركون فى ذلك حسب اشتراكهم فى المعصية، وإن كان نعيمًا كان ذلك على الجسم والروح والنفس، يشتركون فى النعيم كما اشتروا فى الطاعة؛ وهذا من أحكام الآخرة، يكون بمجارى القدرة ليس على ترتيب المعقول ولا عرف العقول، يوصل الله العذاب والنعيم إلى الأرواح والأجسام وهى متفرقة، فيتصل ذلك بهما، كأنهما متفقان، وليس فى القدرة مسافة ولا ترتيب، ولا بعد ولا توقيت.

ويؤمن بالميزان ذى الكفتين واللسان أنه حقٌ وعدلٌ وحكمةٌ وفضل، كما جاء فى وصفه فى العظم، من أن طبقات السموات والأرض توزن فيه الأعمال بقدرة الله تعالى. والصَّنَجُ يومئذٍ مثاقيل الذرِّ والخردل بحقيقة العدل، وقد خاب من حمل ظلماً، فتكون الحسنات فى صورة حسنة تُطرح فى كِفَّةِ النور، فيثقل بها الميزان برحمة الله تعالى، وتكون السيئات فى صورة سيئة تُطرح فى كِفَّةِ الظُّلْمَةِ فيخفُّ بها الميزان بعدل الله تعالى.

ويعتقد أن الصراط حقٌ على ما جاء وصفه فى الآثار، كدَقَّةِ الشعرة وحدِّ السيف؛ وهو طريق الفريقين إلى الجنة أو النار، دَحْضٌ مَزَلَّةٌ، يثبت عليه أقدام المؤمنين بقدرة الله عز وجل فيحملهم إلى الجنة بفضل الله تعالى، وتزلُّ عنه أقدام المنافقين فتَهْوَى بهم فى النار بحكمة الله عز وجل، وهو على متن جهنم بإذن الله تعالى، من قطعه نجا منه برحمة الله، ومن زلَّ عنه وقع فيها بحكمة الله تعالى.

ويؤمن بالحوض المورود؛ حوض سيدنا محمد ﷺ، ليشرب منه المؤمنون قبل

دخول الجنة، وبعد جواز الصراط، من شرب منه شربة لن يظماً بعدها أبداً، عرضه مسيرة شهر، أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، حوله أباريق عددها نجوم السماء، فيه ميزابان يصبان من الكوثر^(١).

ويؤمن بوقوع الحساب وتفاوت الخلق فيه. فمنهم من يُحاسب حساباً يسيراً، ومنهم من يُناقش الحساب، ومنهم من يدخل الجنة بغير حساب وهم المقربون، ومنهم من يدخل النار بغير حساب وهم الكافرون. وكان إمامنا أبو محمد رحمه الله تعالى يقول: يُسأل الأنبياء عن تبليغ الرسالة، ويُسأل الكفار عن تكذيب المرسلين، ويُسأل المبتدعة عن السنة، ويُسأل المسلمون عن الأعمال، فقولنا لقوله تبع.

ويؤمن بالنظر إلى الله جلا جلاله عياناً بالأبصار كفاحاً مواجهة، تُكشف الحجب والأستار بقدرة الله ومشيتته ونوره ورحمته كيف شاء؛ وهو معنى قول الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فالحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى الله تبارك وتعالى، وكذلك فسرهُ رسول الله ﷺ.

ويعتقد إخراج الموحدين من النار بعد الانتقام، حتى لا يبقى في جهنم موحد بفضل رحمة الله ثم بشفاعته الشافعين من النبيين والصدّيقين، وأن لكل مؤمن شفاعته بإذن الله، فيشفع النبيون والصدّيقون والعلماء والشهداء وسائر المؤمنين؛ كل واحد وسعَ جاهه وقدر منزلته، أجمعت الروايات بذلك عن رسول الله في إثبات الشفاعته وفي إخراج الموحدين من النار؛ وهم الجهنميون من أهل الطبقة العليا من النار، وهو معنى قول الله تعالى: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢]. قال أهل التفسير ذلك عند إخراج الموحدين من النار، ويبقى الباقي لرحمة أرحم الراحمين، فيُخرج من النار بمشيئته وسعة رحمته وفضل فضله من لم يشفع لهم الشافعون، ولم يقدم في الشفاعه لهم المرسلون، هكذا روينا معناه عن رسول الله ﷺ.

(١) من قوله: «ويؤمن بالحوض» إلى هنا ساقط من المطبوعة، وتكثر مثل هذه الزيادة.

فهذه عقود السنة الهادية وطريقة الأمة الراضية . وقد أجمع السلف من المؤمنين على ما ذكرناه من قبل أنه لم يُنقل عن أحد منهم خلافة، ولا روى عن رسول الله ﷺ ضده، بل قد روى في كل ما ذكرناه أخبار توجب إيجابه، ومعانٍ تشهد لإثباته، وتولى الله تعالى إجماعهم على سنة رسول الله ﷺ، كما تولى إظهار دينه على الدين كله . وروينا عن النبي ﷺ: «إن الله عز وجل ضمن لى - وفى لفظ آخر: أعطانى - أن لا تجتمع أمتى على ضلالة . فإذا رأيتم خلافاً فكونوا مع السواد الأعظم»؛ والسواد الأعظم يعبر به عن الكثرة . فالمختلفون متفقون على أن السواد الأعظم ما عليه العامة من المسلمين والكافة من العموم، وأن المبتدعة والمخالفة لما ذكرناه إنما هم فرقٌ وشراذم قليلون، وشيع وأحزاب متفرقون، لأن كل مبتدعة منهم فرقة، وكل شرذمة منهم مختلفة، وليس السواد الأعظم والجُم الغفير الدُّهم إلا أهل السنة والجماعة؛ وهم السواد والعامة . ولذلك كان عمر بن عبد العزيز وغيره من الصالحين يقولون: ديننا دين العجائز وصبيان المكاتب ودين الأعراب؛ أى هو القديم السليم العام . وفسر ذلك رسول الله ﷺ في الحديث الآخر فقال: «مَن كان على ما أنتم عليه اليوم» .

فأجمعت الأمة على أن ما أحدثت الفرق المختلفة لم تكن عليه الصحابة، ولا تكلموا فيه، ولا نُقل عنهم، وأنهم كانوا على ما ذكرناه آنفاً؛ لأنه لم يرو عن أحد منهم خلافة، بل قد نُقل عنهم وفاقه في القرن الأول والثانى . ثم حدث ما ذكرناه من الخلاف في بعض القرن الثالث، وفي القرن الرابع .

وقد كان عمرو بن دينار، وأيوب، وحمام بن زيد، إذا ذكر أحدهم الإرجاء ومذهب جهم يقول: لعن الله ديناً أنا أكبر منه . يعنى أنه سبق حدوث هذه المذاهب التى تدين بها المبتدعون .

فله الحمد؛ رب السموات ورب الأرض؛ رب العالمين، على حُسن توفيقه وجميل هدايته . وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . فنعمة الله تعالى علينا بالسنة كنعمته علينا بالإسلام، إذ نعمته علينا برسول الله ﷺ كنعمته علينا بمعرفته؛ لاقتران طاعته بطاعته، ولحاجة الكتاب العزيز إلى تفسير سنته .

وقد روينا في حديث عمر عن رسول الله ﷺ: «الشیطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد. ذنب أحدكم كذب الشاة، يتبع الشاة والقاصية، فمن أراد بحبوة الجنة فليزِم الجماعة، ومن شدَّ ففى النار».

وروينا عن أبى غالب عن أبى أمانة: أنه نظر إلى رءوس الحرورية جىء بها من البصرة فنُصبت على الخشب بدمشق، قال: شرُّ قتلى تحت ظل السماء وخير قتلى من قتلوه، ثم قال: كلاب النار، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ [آل عمران: ٧]، ثم قرأ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، ويشير بإصبعه إليهم، ثم بكى. فقلت: يا أبا أمانة تقول فيهم ما تقول ثم تبكى؟ فقال: قاتل الله إبليس ما صنع بهؤلاء الناس يا أبا غالب، إنهم كانوا على ديننا، فأبكى مما هم لاقون، هؤلاء بأرضك كثير فأعيزك بالله أن تكون منهم؛ ثلاث مرات. فقلت: آمين يا أبا أمانة، أشيء سمعته من رسول الله ﷺ أو شيء تقوله من قبل رأيك؟ قال: إني إذا لجرئ، ثلاث مرات، لقد سمعت رسول الله ﷺ غير مرة، ولا مرتين، ولا ثلاث، ولا أربع، يقول: «تفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، تزيد أمتي عليها فرقة كلها فى النار إلا السواد الأعظم». فقال رجل كان معنا: يا أبا أمانة، إن فى السواد الأعظم بنى فلان، قال: وإن فعلوا، فإنما عليهم ما حُمِّلوا وعليكم ما حُمِّلتم، والجماعة خير من الفرقة، والطاعة خير من المعصية، ثم نظر إلى الرءوس فقال: أتغضبون لنا وتقتلوننا؛ هذه رءوس الخوارج. وهم الحرورية، الذين خرجوا على أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه بالنهروان.

وهم أول قرن نبغ من المبتدعة، وأول بدعة ابتدعت فى الإسلام، وكانوا قرآءً، المصاحف فى أعناقهم، والسجادات كركب المعزى فى جباههم، فأنكروا عليه تحكيم الحكمين، وسألوه أن ينقض حكمه فيرجع عنه، وقالوا: لا حكم إلا لله، وأنكروا أمر السلطان، ورأوا الخروج على الإمام، وكفروا عثمان، وصوبوا قتل

الغواة المصريين له، وطالبوا علياً عليه السلام أن يوافقهم على رأيهم، ويتابعهم على أهوائهم، على أن يقاتلوا معه المسلمين إن رجع عن تحكيمه الحكمين، وكفروا أهل الكباثر بالمعاصي، فرأى عليٌّ ما أراه الله تعالى، وبما عهد إليه رسول الله ﷺ: من قتل المارقين، قَاتَلَهُمْ فَقَتَلَهُمْ فَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ، وَقَاتِلُوهُمْ - عليٌّ وأصحابه خيرُ أهل الأرض - في الجنة. وكان رئيسهم في الضلال وقائدهم في القتال عبد الله بن الكوآ بن الأعور، قد كان عليٌّ رضى الله عنه يبغضه من قبل^(١) أن يظهر منه ما ظهر، فخرج عليه عبد الله بن الكوآ في ستة آلاف، فأرسل عليٌّ عليه السلام عبد الله بن عباس إليهم يناظرهم ويحاجهم، فسبّوه وبطشوا به، وجرّأهم عليه «ابن الكوآ» هذا فقام خطيباً فيهم فقال: أنعرّفوني بهذا؟ أنا أعرّفكموه، هذا من القوم الذين قال الله فيهم: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]، ثم تراجع بعضهم إلى ابن عباس، فسأله فكشف له عن الحق، واستتاب منهم ألفين، وقاتل عليٌّ كرم الله وجهه أربعة آلاف؛ فهذه أول فرقة مرّقت من الدّين، واتبعت غير سبيل المؤمنين.

ثم افرقت الفرقة الثانية بالمدائن، فرأوا دينَ الإرجاء، وأن الإيمان قول وعمل، وأنه لا يزيد ولا ينقص. وكتب بذلك إلى أمير الشام، فهمّ بقتالهم، ثم شغل عنهم بقتال الروم، ثم افرقت الفرقة الثالثة بالبصرة، وهم القدريّة إمامهم معبد الجهني، وتابعه عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء الغزّال، وأصحابهم. ثم خرجت الفرقة الرابعة من الكوفة، سُموا بذلك لما رفضوا زيد بن علي بن الحسين حين خرج يقاتل هشاماً، فقالوا له: تبرأ من أبي بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما. قال: هما جدای إماما عدل لا أتبرأ منهما، فرفضوه. ثم افرقت كل فرقة ثمانى عشر فرقة، فتمّت اثنتان وسبعون فرقة، وكلها نبغ^(٢) بأرض العراق، ومنه طلع قرن الشيطان، وظهرت الفتن، نعوذ بالله منها، ما ظهر منها وما بطن.

وقد روينا عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «إن لله عز وجل ثلاثة أملاك؛ مَلَكٌ

(١) من قوله: «في الجنة» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

(٢) نبغ الشيء: ظهر. ويقال: نبغ منه أمر ما كنا نتوقعه، ونبغ من قلبه ما أضمره.

على ظهر بيت الله تعالى، ومَلَك على مسجد رسول الله ﷺ، ومَلَك على ظهر بيت المقدس، ينادون كل يوم، يقول الملك الذى على ظهر بيت الله تعالى: من ضيَّع فرائض الله خرج من أمان الله، ويقول الملك الذى على ظهر مسجد رسول الله ﷺ: مَنْ خالف سنة رسول الله ﷺ لم تنله شفاعة رسول الله ﷺ، ويقول الملك الذى على ظهر بيت المقدس: من أكل حراماً لم يُقبل منه صرف ولا عدل».

شرح معاملة القلب من العلم الظاهر

• ذكر مباني الإسلام وأركان الإيمان:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنَى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢]. وقال عز وجل: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: ٧]. وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨].

فمباني الإسلام خمسة: أولها شهادة أن لا إله إلا الله وحده، وأن محمداً ﷺ عبده ورسوله؛ وهما كواحدة لاتصال إحداهما بالأخرى فى الوجوب والحكم. وإقام الصلوات الخمس، وهنّ كواحدة منها لتعلق كل واحدة بصاحبها. وإيتاء الزكاة، وهى كالصلاة؛ لاقترانها بها والاشتراط بها. وصوم رمضان. وحج البيت؛ وهما كشىء واحد من الفرض.

فهذه الخمس كواحدة منهن فى إيجاب العقد واعتقاد الوجوب، وإن اختلف الحكم فى سقوط فعل بعضها بشرط. وروينا عن رسول الله أنه قال: «بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلوات الخمس، وإيتاء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحج البيت».

وأركان الإيمان سبعة: الإيمان بأسماء الله وصفاته، والإيمان بكتب الله تعالى وأنبيائه، والإيمان بالملائكة والشیاطین، والإيمان بالجنة والنار، وأنهما قد خلقتا قبل آدم ﷺ، والإيمان بالبعث بعد الموت، والإيمان بجميع أقدار الله خيرها وشرها، حلوها ومرها، وأنها من الله تعالى قضاءً وقدرًا أو مشيئةً وحكمًا، وأن ذلك عدل منه، وحكمة بالغة، استأثر بعلم غيبها ومعنى حقائقها، لا يُسأل عما يفعل، ولا تُضرب له الأمثال بملزمات العقول، وتمثيلات المعقول، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا. وقد شهد الله سبحانه وتعالى بالضلالة على من ضرب لعبده الأمثال، فقال تعالى جده: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا﴾ [الإسراء: ٤٨]. فكيف بمن ضرب المثل للسيد الأجل بعد نهيه عن ذلك، وإخباره بعلم غيب ذلك، إذ يقول: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤]؟ والإيمان بما صحَّ من حديث رسول الله ﷺ، وقبول جميعه، وافتراض طاعته وأمره على العباد والتزام ذلك، إذ قد جعل الله تعالى طاعة رسول الله ﷺ من شرط الإيمان وقرنها بطاعته، فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]. واشترط للرحمة طاعة الرسول كما اشترط لها تقواه فقال: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]. وحذر من مخالفة أمر رسول الله ﷺ في الاستجابة له، [فأقامه] مقامه، وجعله في المبالغة في الوصف والمدح بدلاً عنه، فقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]. كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، لأنه قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يَبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]. وهذه أمدح آية في كتاب الله تعالى وأبلغ فضيلة فيه لرسول الله ﷺ، لأنه جعله في اللفظ بدلاً عنه، وفي الحكم مقامه، ولم يدخل بينه وبينه كاف التشبيه «كإِغْمَا» ولا «لام الملك» فيقول: لله تعالى، وليس هذا المقام من الربوبية لخلق غير رسول الله ﷺ.

الفصل الخامس والثلاثون

فى ذكر اتصال الإيمان بالإسلام فى المعنى والحكم
وافتراقهما فى التفصيل والاسم، وأن كل مؤمن مسلم،
وتحقيق القول بالعمل، وإبطال مذاهب الجهمية والكرامية والحرورية،
وبيان مذهب أهل السنة والجماعة، وفقنا الله تعالى لذلك

قال قائلون: الإيمان هو الإسلام. وهذا قد أذهب التفاوت والمقامات، وهذا
يقرب من مذهب المرجئة.

وقال آخرون: إن الإسلام غير الإيمان. وهؤلاء قد أدخلوا التضاد والتغاير،
وهذا قريب من قول الإباضية.

فهذه مسألة مشككة تحتاج إلى شرح وتفصيل. فمثل الإسلام من الإيمان كمثل
الشهادتين إحداهما من الأخرى فى المعنى والحكم. فشهادة الرسول غير شهادة
التوحيد؛ فهما شيان فى الأعيان، وإحداهما مرتبطة بالأخرى فى المعنى والحكم
كشئ واحد. كذلك الإيمان والإسلام أحدهما مرتبط بالآخر، فهما كشئ
واحد^(١)، ولا إيمان لمن لا إسلام له، ولا إسلام لمن لا إيمان له، إذ لا يخلو
المسلم من إيمان به يصح إسلامه، ولا بد للمسلم من إيمان به يحق إيمانه، من
حيث اشترط الله سبحانه وتعالى للأعمال الصالحة الإيمان، واشترط للإيمان
الأعمال الصالحة، فقال فى تحقيق ذلك: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ [الأنبياء: ٩٤]. وقال فى تحقيق الإيمان بالعمل: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا
قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ [طه: ٧٥].

ومن كان ظاهره أعمال الإسلام لا يرجع إلى عقود الإيمان بالغيب فهو منافق

(١) من قوله: «فى المعنى والحكم» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

نفاقاً ينقل عن الملة، ومن كان عقده الإيمان بالغيب، لا يعمل بأحكام الإيمان وشرائع الإسلام، فهو كافرٌ كُفراً لا يثبت معه توحيد، ومن كان مؤمناً بالغيب مما أخبر به الرسولُ عن الله سبحانه، عاملاً بما آمن به، فهو مؤمنٌ مسلمٌ، ولولا أنه كذلك لكان المؤمن يجوز أن لا يُسمى مسلماً، ولجاز أن لا يُسمى المسلم مؤمناً بالله تعالى، وقد أجمع أهل القبلة أن كل مؤمن مسلم، وأن كل مسلم مؤمن بالله تعالى^(١) ورسله وكتبه.

ومثّلُ الإيمان من الأعمال كمثّلُ القلب من الجسم، لا ينفك أحدهما من الآخر، لا يكون ذو جسم حى لا قلب له، ولا ذو قلب لا جسم له؛ فهما سببان منفردان، وفى المعنى والحكم متصلان. ومثلهما أيضاً مثل حبة لها ظاهرٌ وباطن، وهى واحدة لا يقال حبتان؛ لتقارب وصفيهما. فكذلك أعمال الإسلام من الإيمان: الإسلام هو ظاهر الإيمان وهو أعمال الجوارح، والإيمان باطن الإسلام وهو أعمال القلوب.

روى عن النبى ﷺ: «الإسلام علانية والإيمان سر». وفى لفظ آخر: «والإيمان فى القلب». فالإسلام أعمال الإيمان، والإيمان عقود الإسلام. فلا إيمان إلا بعمل، ولا عمل إلا بعقد، ومثّل ذلك مثل العلم الظاهر والباطن؛ أحدهما مرتبط بصاحبه من أعمال القلوب وأعمال الجوارح.

ومثله قول رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية» أى لا عمل إلا بعقد وقصد؛ لأن قوله ﷺ: «إنما» تحقيق للشيء ونفى لما سواه، فأثبت بذلك عمل الجوارح من المعاملات وأعمال القلوب من النيات. فمثل العمل من الإيمان كمثّل الشفتين من اللسان، لا يصح الكلام إلا بهما؛ لأن الشفتين تجمع الحروف، واللسان يظهر الكلام، وفى سقوط أحدهما بطلان الكلام، كذلك فى سقوط العمل ذهابُ الإيمان. ولذلك عدّ الله تعالى فى نعمته على الإنسان بالكلام ذكرَ الشفتين مع اللسان فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد: ٨ - ٩].

(١) من قوله: «وقد أجمع» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

المعنى: ألم نجعله ناظرًا متكلمًا؟ فعبر عن الكلام باللسان والشفيتين؛ لأنهما مكان له، وذكره الشفتين لأن الكلام الذي جرت النعمة به لا يتم إلا بهما.

ومثل الإيمان والإسلام أيضًا كفسطاط قائم في الأرض له ظاهر متجاف وأطناب، وله عمود في باطنه، فالفسطاط مثل الإسلام له أركان من أعمال العلانية والجوارح، وهي الأطناب التي تمسك أرجاء الفسطاط، والعمود الذي في باطن الفسطاط مثله كالإيمان لا قوام للفسطاط إلا به، فقد احتاج الفسطاط إليهما، إذ لا استقامة له ولا قوة إلا بهما، كذلك الإسلام من أعمال الجوارح، ولا قوام له إلا بالإيمان، والإيمان من أعمال القلوب لا نفع له إلا بالإسلام؛ وهو صالح الأعمال.

وقد عبر الله تعالى عن الإيمان بالإسلام، فلولا أنهما كشيء واحد ما عبر عن أحدهما بالآخر، فقال سبحانه: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥ - ٣٦] ولم يكونا بيتين، إنما هم أهل بيت واحد؛ لوط وبناته.

وقال عز وجل في مثله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] فعطف بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ على قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ﴾، فدل على أنهما اسمان بمعنى واحد؛ وهذا كقوله تعالى فيما عبر عن الأيام بالليالي، لأن اليوم مرتبط بالليلة، وأنت تعلم أنهما شيان، فقال في قصة واحدة: ﴿قَالَ آيَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾ [آل عمران: ٤١]. وقال أيضًا سبحانه: ﴿آيَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠].

وأيضًا فإن الله تعالى قد جعل ضدَّ الإسلام والإيمان واحدًا، فلولا أنهما كشيء واحد في الحكم والمعنى ما كان ضدهما واحدًا، فقال سبحانه: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ [آل عمران: ٨٦]، وقال: ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠]، فجعل ضدهما الكفر.

وعلى مثل هذا خبر رسول الله ﷺ عن الإيمان والإسلام بوصف واحد. فقال في حديث ابن عمر: «بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت». وفي حديث ابن عباس عن وفد بني عبد القيس أنهم سألوه عن الإيمان فذكر هذه الأوصاف، فدل بذلك أنه لا إيمان باطن إلا بإسلام ظاهر، ولا إسلام علانية إلا بالإيمان سرّاً، وأن الإيمان والعمل قرينان، لا ينفع أحدهما بغير صاحبه، ولا يصح أحدهما إلا بالآخر، كما لا يصحان ولا يوجدان معاً إلا بنفى ضدهما وهو الكفر، كما روى عن النبي ﷺ: «لا يكفر أحدٌ إلا بجحود ما أقرَّ به».

وأظهر من حديث ابن عباس أنّاً أن في نفس حديث ابن عمر ذكر الإيمان أيضاً بدلاً من لفظ الإسلام. ورواه جرير، عن سالم بن أبي الجعد، عن عطية مولى بني عامر، عن يزيد بن بشر قال: «أتيت ابن عمر، فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله ما لك تحجّ وتعتمر، وقد تركت الغزو؟ قال: ويلك! إن الإيمان بنى على خمس: تعبد الله تعالى، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتحج البيت، وتصوم رمضان، كذلك حدثنا رسول الله ﷺ».

وقد اشترط الله تعالى للإيمان العمل الصالح، ونفى النفع بالإيمان إلا بوجود العمل، كما شرط للإيمان الإسلام فقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]. إجماع من أهل التفسير: إلا من تاب من الشرك، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ بعد قوله: ﴿وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [سبا: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣]. كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٦٩].

فاشترط للإيمان الأعمال والتقوى، كما اشترط للأعمال الصالحة الإيمان. فكما لو عمل العبد الصالحات كلّها لم تنفعه إلا بالإيمان، فكذلك لو آمن من الإيمان

كله لم ينفعه إلا بالأعمال. وفي وصية لقمان لابنه: يا بُنَيَّ، كما لا يصلح الزرع إلا بالماء والتراب، فكذلك لا يصلح الإيمان إلا بالعمل والعلم.

فأما تفرقة النبي ﷺ في حديث جبريل عليه السلام لما سأله ما الإيمان، فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث بعد الموت وبالحساب وبالقدر خيره وشره». ثم قال: ما الإسلام؟ فذكر الخصال الخمس؛ فإن ذلك تفصيل أعمال القلوب وعقودها على ما توجب هذه المعاني التي وصفناها، أن تكون عقوداً من تفصيل أعمال الجوارح، فيما توجب الأفعال الظاهرة التي وصفها أن تكون علانية، إلا أن ذلك يفرق بين الإسلام والإيمان في المعنى باختلاف وتضادٍّ، وليس فيه دليلٌ على أنهما مختلفان في الحكم، إذ قد يجتمعان في عبد واحد مسلم مؤمن، فيكون ما ذكره من عقود القلب وصف قلبه، وما ذكره من العلانية وصف ظاهر جسمه. والدليل على ذلك أنه جعل وصف الاسمين معنًى واحداً، في حديث ابن عمرو في حديث وفد بني عبد القيس الذي ذكرناه قبل عن ابن عباس. وقد روى ذلك مفصلاً في حديث على رضي الله تعالى عنه: «الإيمان قولٌ باللسان، وعقدٌ بالقلب، وعملٌ بالأركان». فأدخل أعمال الجوارح في عقود الإيمان.

وأيضاً فإن الأمة مجمعةٌ أن العبد لو آمن بجميع ما ذكره من عقود القلب في حديث جبريل عليه السلام من وصف الإيمان، ولم يعمل بما ذكره من وصف الإسلام بأعمال الجوارح، لا يسمى مؤمناً، وأنه إن عمل بجميع ما وصف به الإسلام، ثم لم يعتقد ما وصفه من الإيمان، أنه لا يكون مسلماً.

وقد أخبر ﷺ أن الأمة لا تجتمع على ضلالة، وليس فيه دليل على أن الإسلام غير الإيمان، أو أن المسلمين سوى المؤمنين، أو أن الإيمان ضد الإسلام.

والوجه الثاني من تأويل الخبر: أن معنى قوله: «أو مسلم» يعني به: أو مستسلم. فإذا جمع بين عقود القلب وبين أعمال الجوارح كان مسلماً مؤمناً. ومن لم يقل بهذا الذي ذكرناه فقد كفر أبا بكر رضي الله تعالى عنه وجهله في قتال أهل الردة، وادّعى عليه أنه قتل المؤمنين؛ لأنّ القوم قد جاءوا بعقود الإيمان، ولم

يجحدوا التوحيدَ ولا أكثرَ الأعمال، وإنّما أنكروا الزكاة، فاستحلّ قتلهم. وواطأه الصحابة على ذلك حتى استتاب من رجع منهم.

وأما الحديث الآخر الذى جاء ظاهره أن النبى ﷺ فرّق بين المؤمن والمسلم، فى أنه أعطى رجلاً ولم يعط الآخر. فقال له سعد: يا رسول الله، تركتَ فلاناً لم تعطه وهو مؤمن، فقال: «أو مسلم؟» فأعاد عليه. فأعاده رسول الله ﷺ: «أو مسلم؟» فإنما فى هذا دليل على تفرقة الإيمان والإسلام فى التفاضل والمقامات؛ أى ليس هو من خصوص المؤمنين ولا أفاضلهم، فكشف مقامه الذى خفى على سعد، كما كشف مقام حارثة عن حقيقة إيمانه، إذ كان خاملاً لا يؤبه له، فقال: «كيف أصبحت؟» فنطق بوجده عن مشاهدته، فقال: «عَرَفْتَ فَالَزِمَ»؛ فهذا دليل لنا فى تفضيل مقام الإيمان على مقام الإسلام، وأن المؤمنين متفاضلون فى الإيمان وإن تساوا فى أعمال الجوارح من الإسلام، وأن الإيمان لا حدَّ له وإن كان صحته بمحدود الإسلام. فأثر رسول الله ﷺ الذى آمن طوعاً على المكره. وكان رسول الله ﷺ إنّما يعطى من المؤلّفة الرؤساء ومن لا يؤمن عاديته، وجمعه على رسول الله ﷺ، وتحريضه المشركين، كما أكرم الرجل بعد أن تكلم فيه، فقليل له فى ذلك، فقال: «هذا أحقُّ مطاعاً»، أو من يكثر عشيرته وأتباعه فيكون ظهيراً على المؤمنين، أو من فيه غنى ومنفعة وعِزَّة للمسلمين.

فأما الأتباع والسفلة من المؤلّفة فلم يكن يؤثروهم بالعطاء، بل كان يؤثر المؤمنين، يقدّمهم على أراذل المؤلّفة وضعفائهم، كما فعل بالقسم الذى قسمه بين المؤمنين فأعطاهم إلّا رجلاً من الغزاة له سجادة، مخلوق الرأس، فإنه لم يُعطه وقال: إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله تعالى، والله ما عدل. فقال ﷺ: «إن لم أعدل فَمَنْ يَعدل؟»، وكان ذلك أول قرنٍ نبغ من هذه الخوارج. أفلا تراه لم يعط هذا شيئاً، ولم يستمله، لأنّه لم يكن من خصوص المؤمنين، ولا ممن يتقى بأسه، أو يظهر فى الإسلام غناه، فيتألف بالعطاء؟!

وهذا مثل قول فرعون حين ألجمه الغرق، فاضطره إلى الاستسلام بقوله:

﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]

أجمع أهل التفسير أن معناه: من المستسلمين.

فإن قيل: فقد روى في آخر هذا الخبر في بعض الروايات ما يدل على ضد هذا التأويل، وأن الرجل كان فاضلاً، لا أنه كان مستسماً، وهو أن في الحديث أن النبي ﷺ قال: «إني لأعطي قومًا وأمنع آخرين أكلهم إلى ما جعل الله تعالى في قلوبهم من الإيمان، منهم فلان» قيل: إن هذا كلام مستأنف من رسول الله ﷺ أفاده القائل، لأنه بُعث بجوامع الكلم. وكان يُسأل عن الشيء فيخبر به، ويزيد عليه للبيان والهداية الذي أعطى، فكأنه أراد أن يخبر بتنوع عطائه، وبضروب المعطين من الناس؛ هذا للحاجة، وهذا للفضل، وهذا للتألف؛ لأن الذي منعه كان أفضل من الذي أعطاه، إذ لو كان الأمر كما قال هذا القائل لكان الإسلام أفضل من الإيمان، ولكان المسلمون أفضل من المؤمنين، ولم يقل بهذا أحد من العلماء. إلا أن الإيمان خاص فيه التفاوت والمقامات؛ فهو يشتمل على الإسلام، والإسلام داخل فيه، والمؤمنون هم خصوص المسلمين منهم المقربون والصديقون والشهداء. والإسلام عامٌ محدود يوصف به عموم المؤمنين، ويدخل فيه أهل الكبائر والإجرام، ولا يخرج منه من فارق الكفر ووقع عليه اسم الإيمان. كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [آل عمران: ٩٤]، وأخبر عنه بالفسوق: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧].

فعلى إجماعهم - أن الإيمان أعلى - إسقاطُ وَهْمٍ مَنْ تَوَهَّم أن الرجل كان أفضل. كيف وقد روينا تخصيص الإيمان عن النبي ﷺ نصًّا أنه سئل: «أي الأعمال أفضل؟ قال: الإسلام. قيل: فأى الإسلام أفضل؟ قال: الإيمان؟ فجعل الإيمان مقامًا في الإسلام، ففي هذا الحديث أيضًا تخصيص للإيمان على الإسلام، لا تفرقة بينهما بمعنى قوله في وصف الرجل: «أَوْ مُسْلِمٌ؟». وقول النبي ﷺ في وصف الرجل: «أَوْ مُسْلِمٌ» دلَّ على بطلان ما تأوله القائل، لأن هذه اللفظة بألف الاستفهام لا تستعمل في عرف الكلام إلا في الوصف الأنقص والحال الأدنى، فافهم.

وأما قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]. فإن هذا أيضاً من هذا النوع، معناه: قولوا استسلمنا حذر القتل. وهؤلاء ضعفاء المؤلفة وأراذلهم كانوا ينقمون على رسول الله ﷺ إيثاره وتقديمه المؤمنين بالعطاء عليهم وإرجاءه إياهم، فقالوا: لم لا يعطينا كما يعطى المؤمنين، فإننا مؤمنون كههم؟ فأخبر الله تعالى بذلك عنهم وأكذبهم في دعواهم، وهم الذين قصّ الله تعالى أخبارهم في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨]. ففي هذه الآية دليل على أن النبي ﷺ لم يكن يعطى هذا الضرب من المؤلفة.

وليس في الآية تفرقة بين الإيمان والإسلام، بدليل قوله تعالى في الآية التي بعدها: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمَنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧]. فسمّى إسلامهم إيماناً؛ لأنه عطف ببعض الكلام على بعض، وردّ أوله إلى آخره، وإنما أسقط المنة به على رسوله، وأثبت المنّ عليهم بنفسه، وعطف بآخر الاسم على أوله، وغاير بين اللفظين فلم يردّ أحدهما على الآخر، فيقول: «أن هداكم للإسلام» لاتّساع لسان العرب، وليفيدنا فضل بيان، وأن الإسلام والإيمان اسمان بمعنى واحد. كما قال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ﴾ [فاطر: ٣]، ولم يقل: يخلقكم؛ ليبين أن الرازق هو الخالق، وليفيد وصفاً ثانياً وصف به نفسه تعالى، فهو كقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ [الذاريات: ٣٥ - ٣٦]. وهكذا قرأتها في مصحف ابن مسعود قال: «سَبَّحَانِكَ تَبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ»^(١)، فلولاً أنهما بمعنى لم يَجُزْ أن يقرأ بخلاف المعنى.

فأما ما روى عن أبي جعفر محمد بن عليّ: الإيمان مقصور في الإسلام. فمعناه: هو باطنه. قال: وأدار دارة^(٢) كبيرة، فقال: هذا الإسلام، ثم أدار في

(١) الآية بلفظ: «وأنا أول المؤمنين» [سورة الأعراف: ١٤٣].

(٢) في المطبوعة: «دائرة» في كل موضع فيه «دائرة» وأثبت ما في (د، م).

وسطها دائرة صغيرة فقال: وهذا الإيمان فى الإسلام. فإذا فعل وفعل خرج من الإيمان وصار فى الإسلام. يريد أنه خرج من حقيقة الإيمان وكماله، ولم يكن من الموصوفين الممدوحين بالخوف والورع من المؤمنين؛ لأنه خرج من الاسم والمعنى حتى لا يكون مؤمناً بالله مصداقاً برُسُلِهِ وكتبه. ألا ترى إلى الدائرة الصغيرة غير خارجة من الدائرة الكبيرة التى أدارها حولها، فجعلها فيها وضرب المثل بها، لكنّها خالصها وليّها ومخصوصةٌ فيها؟ ولو أراد أنه يخرج من الإيمان أصلاً لجعلها دارتين منفردتين، ولم يجعل إحداهما جوف الأخرى.

وكذلك جاء الخبر: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»، معناه: كامل الإيمان أو مؤمن حقّاً؛ لأن حقيقة الإيمان وكماله بالخوف والورع، إذ الأمة مُجمِعة أن أهل الكبائر ليسوا بكافرين، وإذا فسق بالزنا وشرب الخمر خرج من حقيقة الإيمان؛ وهو الخوف والورع، ولم يخرج من اسمه ومعناه؛ وهو التصديق والتزام الشريعة.

وفيه معنى لطيف كأنه يرتفع عنه إيمانُ الحياء؛ لأن النبى ﷺ قال: «الحياء من الإيمان»، والمستحى لا يكشف عورته على حرام، ويبقى إيمان الإسلام والتوحيد، وإيجاب الأحكام.

وقد روينا عن الحسن بيان ذلك أنه قال: الإيمان حقيقة الإسلام. وقيل لحذيفة: من المنافق؟ فقال: الذى يتكلم بالإسلام ولا يعمل به. فسمى علم الإيمان إسلاماً وقرن القول بالعمل. وقال الثورى رحمه الله: الناس عندنا مؤمنون مسلمون فى حدودهم، وفرائضهم، وفى النكاح، وفى المواريث، وفى الصلاة خلفهم، والصلاة عليهم، لا يُحاسب الأحياء، ولا يُقضى على الأموات، ونكل ما لم نعلم من سرائرهم إلى الله تعالى، ونسمع بالتشديد فنخافه، ونسمع اللين فترجوه لأهل القبلة، ونتهم رأينا لرأى السلف قبلنا.

وما ذكرناه من أن الإسلام والإيمان قرينان لا يفترقان؛ هذا مذهب فقهاء أصحاب الحديث، وطريقة أئمة السلف رضى الله عنهم أجمعين.

• باب ذكر تفصيل بيان ما نقل عن المحدثين من التفرقة بينهما وما جاء في معناه:

فأما ما حُكي عن بعض أصحاب الحديث أنه فرّق بين الإيمان والإسلام، فقال الزهري: الإسلام الكلمة، والإيمان العمل. وقال عبد الرحمن بن مهدي وقد سئل عن الإيمان والإسلام فقال: هما شيان. وقول حماد بن زيد: الإسلام عام والإيمان خاص.

فإن قول هؤلاء على جملة قولنا، وهو دليلٌ له وشاهد عليه، وأنهم لم يفرقوا بين الإيمان والإسلام تفرقة اختلافٍ ولا تضادٍّ، ولم يريدوا أن أحدهما يوجد ويصح بعدم الآخر؛ ليواطئوا مذهب المرجئة؛ لأنهم أبعد شيء منهم، إذ هم أصحاب أثر وتوقيف، وإنما فرقوا بينهما تفريقَ تفاوتٍ وتخصيصٍ؛ أي أن الإيمان أخصُّ وأعلى؛ لأنَّ الزيادة والنقصان فيه، والفضائل والمقامات عنه، والاستثناء واجب فيه؛ وأن الإسلام عام لا يخرج منه إلا الكافرون، إذ ليس وراءه شيء. وعند جماعة من العلماء أن الاستثناء غير واجب في الإسلام، لأنه محدود معلوم.

فهذا كان قصد مَنْ فرّق بين الإسلام والإيمان، وهي طريقة بعض السلف، وعبرة القدماء، وهو على نحو ما فصلناه وبمعنى ما بينناه، وإن كنّا نحن أظهرَ تفصيلاً وأبين ترتيباً. وهذا مثل الخبر الذي روى أن النبي ﷺ سئل: «أى الإيمان أفضل؟ قال: الإسلام. قيل: فأى الإسلام خير؟ قال: الإيمان». فلم يفرق بينهما، ولكنه خصّص فجعل الإيمان حقيقة الإسلام وخالصه؛ لأنه أخبر أنه منه، فهذا من قوله: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»، أي من تحققه بالإسلام ومن أعلى إسلامه هذا الوصف، وهذا هو نعت المؤمن الموقن الزاهد. وهذا يشبه ما مثله أبو جعفر محمد بن عليّ، في أنه أدار دارة كبيرة، وأدار فيها دارة صغيرة تخصيصاً.

وجميع ما شرحناه وذكرناه عن السلف يبطل قول المرجئة، والكرامية، والإباضية، ويدحض دعواهم في أن الإيمان قولٌ أو معرفة وعقد بلا عمل.

وهو أيضاً ردُّ على المعتزلة القائلين بالمنزلة بين المنزلتين، الذين يقولون: مؤمن، وفاسق، وكافر؛ فلا يجعلون الفاسق مؤمناً.

وهو ردُّ على الخشبية، والحزمية، والقطعية، والحرورية؛ أصناف من الخوارج، يقولون: من أتى كبيرة خرج من الإيمان، وأن أهل الكبائر كفار يحلّ قتلهم. ويقولون: إن أهل البغى من الأئمة كفره يجب على الرعية قتلهم. ومنهم من يقول: إن من بغى على الإمام فقد كفر. بخلاف قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]، فأمر بقتال أهل البغى بتسميته إياهم مؤمنين ولم يجعل لهم منزلة ثالثة.

وقد ابتلينا بطائفتين مبتدعتين متضادتين فى المقالة: المرجئة والمعتزلة. قالت المرجئة: إن الموحدّين لا يدخلون النار، وإن عملوا بالكبائر والفسوق كله؛ لأن ذلك لا ينقص إيمانهم. وقالت المعتزلة: إن الفاسق ليس بمؤمن، وإن مات على صغيرة من الصغائر من غير توبة دخل النار لا محالة ولم يخرج منها خالداً مع الكفار.

والصواب من ذلك: أن الفاسق مؤمن لا يُخرجه فسقه من اسم الإيمان وحكمه، ولكن لا يُدخله فى المؤمنين حقاً من الصديقين والشهداء، وأن أهل الكبائر قد استوجبوا الوعيدَ ودخول النار، وجائز أن يعفو الله تعالى عنهم بكرمه ويسمح لهم بجوده. كما روينا عن علىٍّ أنه قال: عليكم بالنمط الأوسط، الذى يرجع إليه الغالى ويرتفع عنه القالى.

وقد قال ﷺ فى وصف علماء السنة ومدحهم: «يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عُدُوَّهُ، يَنْفُونَ عَنْ تَحْرِيفِ الْغَالِينَ وَانْتِحَالِ الْمُبْطِلِينَ وَتَأْوِيلِ الْجَاهِلِينَ». فالغالون: هم المجاوزون للسنن والآثار. والمبطلون: هم المدعون بالرأى والقياس. والجاهلون: هم الشاطِطون من المتصوفة الضالّال. وعدول كلِّ خَلْفٍ من اتبع سنةً صالحى من سَلَفٍ، ولم يبتدع فى الدين، ولا اتخذ وليجةً دون طريق المؤمنين؛

وهم رواة الأخبار، وحملة الآثار من المحدثين وفقهاء المسلمين. ويوضح قولنا ويصححه قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] إجماعاً من المسلمين، وأنها نزلت بعد نزول الفرائض وإتمام الشرائع، وفي حجة الوداع؛ وهى آخر حجة حجّها رسول الله ﷺ بعد نزول فرض الحج؛ لأنّ سورة المائدة مدنية بإجماع من القراء، وهى من آخر ما نزل من القرآن باتفاق من الفقهاء. ولم يلبث رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية إلا ثلاثة أشهر وثلاثة أيام، اتفق عليه أهل التاريخ؛ لأنها نزلت يوم التاسع من ذى الحجة من آخر يوم عرفة، وقبض رسول الله ﷺ لاثنتى عشرة خلون من ربيع الأول. فقال الله تعالى بعد نزول الأحكام، وأحكام الحلال والحرام: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. والإكمال هو إتمام الشيء الذى بعضه متعلق ببعض، فلا يقال أكمل لِمَا كان له منه بعد، ولا لِمَا لا بعض له، وإنما يقال أكمل لِمَا كان بعضه قبل بعض، فإذا وُجد جميعه قيل: قد أكمل وتمّم. هذا هو حقيقة هذه الكلمة.

فلما كان الإيمان قد تقدّم بمكة وأنزل الله تعالى الفرائض والدين شيئاً بعد شىء، وكان الإكمال من الدين، دلّ أن بعضه متعلق ببعض إلى يوم أكمله، فصارت الأعمال متعلقةً بالإيمان؛ وهما الدين المكمل.

وقال بعض السلف: من لم يقل من المرجئة أن إبليس مؤمن؛ لأنه قد أقرّ بالإيمان وقال به، انكسر عليه مذهبه. ولعمري إن إبليس - لعنه الله - موحد لله تعالى عارف به، إلا أنه لم يعمل بالتوحيد، ولم يطع من عرفه وآمن به؛ فكفر.

فأما تعلقهم بقول الله تعالى: ﴿فَأَنبَأَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المائدة: ٨٥]، فإنه شرط القول للجنات، أو علّق الجنات بالقول، فإنما ذلك إثبات منه تعالى لتحقيق القول، وأنه قول إيمانٍ ويقين، وأنهم غير متعوّذين بالقول، ولا متخذوه جنةً كالمنافقين، إذ المنافقون قد قالوا كقولهم، إلا أنه أخبر عن سرائرهم بضده فقال: ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمٌ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]. فأراد سبحانه بأن قول هؤلاء قول

المؤمنين، وأن قولهم إيمانٌ من أعمالهم؛ لأنهم منفردون بالقول دون العمل. وفيه أيضاً دليلٌ: أن القول بالحق من الإيمان، وأنه يستحق عليه ثواباً، لأنه من أعمال البر بمنزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فأما أن يكون فيه دليلٌ أن القولَ حَسْبُ هو الإيمان كله، وأن الإيمان يكون قولاً لا يحتاج إلى عمل، فهذا باطلٌ بالأدلة التي قدمنا ذكرها من الآي التي شرط الله تعالى فيها الأعمال. ومن قوله في الكفار: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وأيضاً فإن في نفس هذه الآية بطلان دعوى المرجئة؛ لأن الله تعالى لم يقل: فلم يثبهم الله إلا بما قالوا جنات، وإنما قال عز وجل: ﴿فَأَتَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ﴾، فأخبر أنه أجرهم على قولهم الحق، كما قال: ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ [سبا: ٣٧]، ثم أحكم ذلك وقيد بقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البينة: ٥]. ولكن هؤلاء كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧]. وكما قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه من القرآن فهم الذين عنى الله تعالى فاحذروهم». وذلك أن الله تعالى قرن الأعمال بالإيمان في كل المواضع، فلم تقف المرجئة مع شيء من هذا البيان والإحكام. فلما أجمل القول في موضع واحد لما ذكرناه من السبب تعلقوا به، ووقفوا معه. وقد قال رسول الله ﷺ: «صنفان لا نصيب لهما في الإسلام - وفي لفظ آخر: لا ينالهم شفاعتي - القدرية والمرجئة». وفي الحديث الغريب: «طائفتان لا يدخلون الجنة: من قال أن الإيمان كلام». ورواه حذيفة فقال: «إنى لأعلم أهل دينين في النار: قوم شرار بلا علم، وقوم في آخر الزمان يقولون: كان أولونا ضلالاً».

نسأل الله تعالى أن لا يصرفنا عن فهم آياته، ولا يبلونا بالكبر، وأن يرينا سبيل

الرُّشد ويوفقنا لاتخاذهِ سبيلاً، وأن يرينا سبيلَ الغنى ويعصمنا من اتخاذهِ سبيلاً. كما أخبر بذلك عمّن بلاه به فقال تعالى: ﴿سَأَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغِنَى يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦] الآية.

• ذكر الاستثناء في الإيمان والإشفاق من النفاق وطريقة السلف في ذلك:

فأمّا الاستثناء في الإيمان فإنه سنّة ماضية، وفعلُ الأئمة الراضية، على معنى الخوف والتقصير، وكراهية التزكية للنفس، لا على وجه الارتباب في اليقين، ولا بمعنى الشكّ في التصديق، إذ الإيمانُ مقامات، والمؤمنون فيه درجات. ولذلك قال الله تعالى لقوم موصوفين بأعيانهم: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٤]. فهذا وصفهم بالكمال، ومدحهم بخصال الأعمال. ففي دليل خطابه أن ثمّ مؤمنين غير حقّا، كيف وقد قال: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال: ٥ - ٦]. وقال سبحانه وتعالى في وصف آخرين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]. وقال في نعت الصادقين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]. وقال في مثل وصفهم: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ﴾ الآية، فذكر عشرين وصفاً إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. منها الإيثار بالمال على حبه، والوفاء بالعهد، والصبر في الأمراض والجزع والشدائد. فبعد ذلك شهد لهم بالصدق والتقوى وقال في وصف المحبوبين من الموقنين: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١]. وقال في نعت عموم المؤمنين: ﴿وَإِنْ تَوَمَّنَا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ * إِنْ يَسْأَلْكُمْوَهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَبَخَّلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ [محمد: ٣٦ - ٣٧].

فستان بين من وُصف بالمجاهدة والصدق، وبين من نُعت بالخلف وعُرض

للمقت، وبين من وُصف بالحق، وبين من يُجادل في الحق، وكم بين من قَبِلَ منه المال والنفس، وبين من ردَّ عليه المال ولم يسأله لما علم منه من البخل والضغن. واسم الإيمان يجمعهم ومعناه يجتمع عليهم، إلا أن مقامات الإيمان ترفع بعضهم على بعض، وتفاوت بين بعضهم وبعض، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. وكقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: ١٠] يعني الجنة على تفاوت الدرجات فيها، فجمع بينهم في الدار كما جمع بينهم في اسم الإيمان، ورفعهم في الدرجات علواً في المقامات، كما قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣].

وقد روينا في خبر: «الإيمانُ عريانٌ ولباسه التقوى، وحليته الورع، وثمرته العلم»، ففيه دليل أن من لا تقوى له فلا لبس لإيمانه، ومن لا ورع له فلا زينة لإيمانه، ومن لا علم له فلا ثمرة لإيمانه. فإن اتفق فاسقٌ ظالمٌ جاهلٌ كان بالمنافقين أشبه منه بالمؤمنين، وكان إيمانه إلى النفاق أقرب، ويقينه إلى الشك أميل، ولم يخرج من اسم الإيمان إلا أن إيمانه عريانٌ لا لبسة له، معطلٌ لا كسب له، كما قال: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

والنفاق مقامات، قيل: سبعون باباً. والشرك مثل ذلك. وهم فيها طبقات. روى عن النبي ﷺ: «أربعٌ من كُنَّ فيه فهو منافقٌ خالصٌ، وإن صام وصلى وزعم أنه مؤمن: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، وإذا خاصم فجر». وفي بعض هذا الحديث: «وإذا عاهد غدر». فصارت خمساً، فإن كانت فيه واحدة منهن ففيه شعبة من النفاق حتى يدعها.

وفي حديث أبي سعيد الخدري، وأبي كبشة الأثماري: «القلوب أربعة: قلبٌ أجرد فيه سراجٌ يزهو، فذلك قلب المؤمن، وقلبٌ مُصْصَحٌ فيه إيمانٌ ونفاقٌ، فمثل الإيمان فيه كالبقلة يمدُّها الماءُ العذب، ومثل النفاق فيه كمثَلُ القُرحة يمدُّها القيح

والصديد، فأىُّ المادتين غلب عليه حُكمُ له بها». وفى لفظ آخر: «أيُّهما غلبت عليه ذهبت به».

وفى الخبر: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق». ففى تبعض أخلاق الإيمان، وفى وجود دقائق الشرك وشعب النفاق ما يوجب الاستثناء فى كمال الإيمان، لجواز اجتماع الإيمان والنفاق فى القلب، ولوجود شعب النفاق، وعدم بعض شعب الإيمان من القلب. كيف، وقد جاء فى الخبر: «أكثر منافقى أمتى قرأوها»، والحديث الآخر: «الشُّرك أخفى فى أمتى من ديبب النمل على الصفا»!

وقال حذيفة: كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ يصير بها منافقاً إلى أن يموت، إني لأسمعها من أحدكم فى اليوم عشر مرات. وفى حديث على كرم الله وجهه: إن الإيمان ليبدو لمعةً بيضاء؛ فإذا عمل العبدُ الصالحات نما وزاد حتى يبيض القلب كله، وإن النفاق ليبدو نُكتةً سوداء، فإذا انتهكت الحرمات نمت وزادت حتى يسود القلب فيطبع عليه؛ فذلك الختم. ثم قال: ﴿كَلَّا بَلْ رَأَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

فهذا كله موجب للاستثناء فى الإيمان؛ خشية خفايا الشرك، ووجود دقائق النفاق، وخوفاً من الدعوى للحقيقة والكمال؛ لأن من قال: إني مؤمن حقاً، فقد زكى نفسه، وعصى ربه، لأن الله تعالى نهى عن التزكية للنفس، وعرض المزكى نفسه للكذب فى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢]. ويقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾. ثم قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [النساء: ٤٩ - ٥٠].

وقد قال إبراهيم عليه السلام فى تفسير أحد الوجهين من قوله تعالى: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ [الأنعام: ٨٠]. ومثله قال شعيب: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَعُودَ فِيهَا﴾ يعنى ملة الكفر ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩]. ثم عللاً جميعاً بسعة العلم، وسبق المشيئة به، فلم يأمن أن يكونا فى

سعة علم الله عز وجل وفي خفي مشيئته ضد ما ظهر لهما من حكمته، فيدركها ما سبق في علمه لقصور علمهما عن علمه، ولأنه لا مشيئة لهما دون مشيئته^(١)؛ وهذا هو خوف المكر.

وحقيقة المكر معنيان؛ أحدهما: أن يظهر شيئاً ويخفي ضده. والثاني: أن يكشف ما كان ستره، ويفشي ما كان أسره بعد الطمأنينة والعزة. والأنبياء مع فضلهم ومكانهم يستثنون في الكفر خيفة المكر، ولا يستثنى الضعيف الجاهل في الإيمان، ولا يغتر بظاهر أمره، بل ينبغي أن يستثنى في الإسلام أيضاً وفي جميع أعمال البر؛ لأن القبول غير العمل، والسابقة غير ما ظهر من المعاملة، ولا ينبغي أن يدع الاستثناء في شيء من الأحوال.

وقال بعض العلماء في معنى قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ن: ١٩]، قال: بالسابقة. وقال بعض السلف: إنما يوزن من الأعمال خواتيمها. وكان أبو الدرداء يحلف بالله عز وجل: ما أحدٌ آمن من أن يسلب إيمانه إلا سلبه. ويقال: من الذنوب ذنوب تؤخر عقوبتها إلى سوء الخاتمة. وهذا من أخوف ما خافه العاملون مع قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣]. وقيل: من الذنوب ذنوب لا عقوبة لها إلا سلب التوحيد في آخر نفس، نعوذ بالله تعالى من ذلك. وقيل: هذا يكون عقوبة الدعوى للولاية والكرامات بالافتراء على الله تعالى.

وكان سهل رحمه الله تعالى يقول: من علامة الأولياء أنهم يستثنون في كل شيء. وقال: من قال أفعل كذا، ولم يقل إن شاء الله تعالى، سأل الله عن هذا القول يوم القيامة، فإن شاء عذبه وإن شاء غفر له.

وقد نهى الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ أن لا يقول شيئاً حتى يستثنى، وأمره بالاستثناء إذا نسي، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، ثم قال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٣- ٢٤] أي الاستثناء، أي

(١) من قوله: «ضد ما ظهر» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

فاستثن إذا ذكرت، فتأدب ﷺ بذلك أحسن الأدب، فكان يستثنى فى الشئ يقع لا محالة. فروى أنه دخل المقابر فقال: «السلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون».

وقال سبحانه معلماً لعباده الاستثناء ورادهم إليه بمشيئته؛ وهو أصدق القائلين وأعلم العالمين: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧].

والاستثناء أصل يرد إليه من عرفه ولم ينكر الاستثناء، والأصل هو أن الإيمان يزيد وينقص، فأما زيادته فقد ثبتت بنص الكتاب من قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]. ومن قوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ [آل عمران: ١٧٣]، إلى نظائرها. وما يزيد فهو ينقص؛ لأن معناه موجود فى الكتاب بدليل الخطاب من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]. وقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤]. ومن قوله تعالى: ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥]. وفى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥].

فما يزيد الظالمين إلا خساراً ينقصهم رجحاناً وربحاً، وما يزيدهم كفرًا ينقصهم إيماناً، وما يكون عليهم عمى ينقصهم بصيرة، وما يزيدهم رجساً يكون لهم من الطهارة نقصاً، من قبل أن مزيد الشر نقصان الخير، كما أن مزيد الخير نقصان الشر.

فإذا ثبت أن الإيمان يزيد بالصالحات وينقص بالسيئات وجب الاستثناء فيه؛ لأن الصالحات درجات يعلو فيها المؤمنون بحسن الولايات والمجاهدات. قال الله تعالى فى المجل من الخطاب: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. وقال: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]. وقال فى المفسر: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف: ١٩]. وقال فى مثله: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٧]. وقال: ﴿لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ

وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٩٥﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

وروينا في حديث واثلة بن الأسقع: «الإيمان يزيد وينقص»، وروى ذلك عن جماعة من الصحابة ومن لا يحصى من التابعين. وقيل لأحمد بن حنبل رضى الله عنهما: ما معنى الاستثناء في الإيمان؟ قال: أليس الإيمان قولاً وعملاً؟ قيل: نعم. قال: فالتصديق بالقول والاستثناء بالعمل.

وقال بعض العلماء: أقرب الناس من النفاق من يرى أنه منه برىء. وقال مرة: آمنهم له. وقال عمر مولى عفرة: أقرب الناس إلى النفاق الذي إذا زُكِّيَ بما ليس فيه ارتاح لذلك قلبه، وأبعد الناس منه من يتخوف أن لا ينجيه حقيقة ما هو فيه. وقال بشر بن الحارث: سكون القلب إلى قبول المدح أضرُّ عليه من المعاصي.

وكان سهل يقول: غفلة العالم السكون إلى الشيء، وغفلة الجاهل الافتخار بالشيء. والسكون عندهم من الدعوى، والدعوى من المعاصي. وقال حذيفة: اليوم المنافقون أكثر منهم على عهد رسول الله ﷺ؛ كانوا إذ ذاك يخفونه وهم اليوم يظهرونه. وقيل للحسن: إن قوماً يقولون لا نفاق اليوم، فقال: يا ابن أخي، لو هلك المنافقون لاستوحشت في الطرقات. وعنه وعن غيره: لو نبت للمنافقين أذناب ما قدرنا أن نطأ على الأرض.

وسمع ابن عمر رجلاً يطعن على الحجاج، فقال: أرأيت لو كان حاضراً بين يديك أكنت تتكلم فيه بما تكلمت الآن؟ قال: لا. قال: كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ.

وقال رسول الله ﷺ: «من كان ذا لسانين في الدنيا، جعل له لسانان من نار في الآخرة».

وفي خبر آخر: «شر الناس ذو الوجهين؛ يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه».

وقيل للحسن: إن قوماً يقولون: لا نخاف النفاق. فقال: والله لأن أكون أعلم أنى برىء من النفاق أحبُّ إليَّ من تلأع الأرض ذهباً. وقال الحسن: إن من النفاق

اختلاف اللسان والقلب والسر والعلانية والمدخل والمخرج .

وقال رجل لحذيفة: إني أخاف أن أكون منافقًا. فقال: لو كنت منافقًا ما خفت أن تكون منافقًا، إن المنافق قد أمنَ النفاق. لأن النفاق على ضربين: نفاق ينقل عن الملة؛ وهو الشك في دين الله تعالى والرد لشرع رسول الله ﷺ، ونفاق لا ينقل عن الملة ولا يُخرج من الإسلام، ولكنه يُنقص الإيمان، ويُذهب حقيقته، ويطفئ أنواره، ويحرم مزيده، ويحبط الأعمال، ويوجب المقت والإعراض؛ وهو: الرياء، والمداهنة، والتصنع للخلق، والتزيُّن بالحق، واثتلاف الألسنة، واختلاف القلوب، وتفاوت القول والعمل، ومخالفة الأمر إلى ما يُنهى عنه، واختلاف السر والعلانية، وزيادة الظواهر على السرائر. وهذا المعنى من النفاق الذى خافه السلف وكانوا منه على إشفاق.

وكان سهل يقول: المرائى حقًا الذى يُحسن ظاهره حتى لا تنكر العامة والعلماء من ظاهره شيئًا، وباطنه خراب. وقد كان الحسن وأصحابه يسمون أهل البدع منافقين. وكان ابن سيرين وأصحابه يسمونهم خوارج.

وقال ابن أبى مليكة: أدركتُ ثلاثين ومائة - وفى رواية خمسمائة - من أصحاب النبى ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه. وقال مرة: ما منهم أحد يقول أنا على إيمان جبريل وميكائيل عليهما السلام.

وقد روينا عن على وأبى سعيد قالوا: الإرجاء بدعة. وقال أيوب: أنا أكبر من الإرجاء، أول من أحدث الإرجاء رجل من أهل المدينة، ذكره. وقال قتادة: لعن الله دينًا أنا أكبر منه، وإنما ظهر الإرجاء بعد هزيمة ابن الأشعث، يعنى فى ولاية الحجاج.

وقال سفيان الثورى: من قال أنا مؤمن عند الله فهو من الكذابين، ومن قال أنا مؤمن حقًا فهو بدعة. قيل: فما تقول؟ قال: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [البقرة: ١٣٦] الآية. وقيل للحسن: أمؤمن أنت؟ قال: إن شاء الله. فقيل: تستثنى يا أبا سعيد فى الإيمان؟ فقال: أخاف أن أقول نعم فيقول الله

تعالى : كذبت يا حسن ، فتحق على الكلمة . وكان يقول : ما يؤمننى أن يكون الله عز وجل قد اطلع على فى بعض ما يكره فمقتنى ، وقال : اذهب لا قبلت لك عملاً أبداً ، فأنا أعمل فى غير معمل .

وكان جماعة من أهل العلم يرون السؤال عن قوله «أؤمن أنت؟» بدعة . ويقول بعضهم : إذا قيل لك «أؤمن أنت؟» فقل : آمنت بالله وكتبه ورسله . وقال إبراهيم : إذا قيل لك «أؤمن أنت؟» فقل : ما أشك فى الإيمان ، وسؤالك إياى بدعة .

وروينا عن الثورى عن الحسن بن عبيد الله عن إبراهيم النخعى : إذا سئلت مؤمن أنت؟ فقل : لا إله إلا الله . ومنصور عن إبراهيم قال : سئل علقمة : مؤمن أنت؟ فقال : أرجو ذاك إن شاء الله . وكان الثورى يقول : نحن مؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وما ندرى ما نحن عند الله .

وقال بعض العلماء : أنا مؤمن بالإيمان غير شاك فيه ولا أدرى أنا ممن قال الله سبحانه : ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أم لا .

وقال بعض العارفين : لو عرضت على الشهادة عند باب الدار والموت على التوحيد عند باب الحجرة لاخترت الموت على الشهادة . قيل : ولم؟ قال : لأننى لا أدرى ما يعرض لقلبى من التغير عن التوحيد من باب الحجرة إلى باب الدار .

وقال أبو سليمان الداراني : سمعت فلاناً - يعنى بعض الأمراء - يتكلم على المنبر بكلام ، أردت أن أقوم فأنكر عليه ، فخشيت أن يأمر بقتلى ، فلم يكن بى أن أموت ، ولكن خشيت أن يعرض لقلبى التزيين للخلق بأننى أمرت بالمعروف وأنكرت على الإمام ، فقُتِلْتُ فى الله عز وجل عند خروج روحى ، فكففتُ عن ذلك .

وقال بعض العارفين : لو عرفت أحداً على التوحيد خمسين سنة ثم حالت بينى وبينه سارية ثم مات ، لم أحكم أنه مات على التوحيد لعلمى بسرعة تقليب القلوب . وقال منصور بن راذان : إن كان الرجل من أصحاب النبى ﷺ إذا سئل :

أؤمن؟ أنت؟ قال: أنا مؤمن إن شاء الله. وقال أبو وائل: قال رجل لابن مسعود: لقيت ركبًا فقالوا: نحن المؤمنون. فقال: ألا قالوا: نحن من أهل الجنة؟ وقال بعض أصحاب عبد الله لرجل: أؤمن أنت؟ قال: نعم. فذكر ذلك لابن مسعود فقال: سلوه أمن أهل الجنة أنت؟ قال: أرجو. فقال: ألا رجيت الأولى كما رجيت الثانية. ونقش ابن لبعض التابعين على خاتمه: فلان لا يشرك بالله تعالى شيئًا. فقال أبوه: هذا أقبح من الشرك.

وقال بعض السلف: أقرب الناس من النفاق من يرى أنه أبعدهم منه عند نفسه. وفي الخبر: أن رسول الله ﷺ كان جالسًا في جماعة من أصحابه، فذكروا رجالاً ومدحوه وأحسنوا الثناء عليه، فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم الرجل يقطر وجهه ماء من أثر الوضوء، قد علق نعليه بيديه وبين عينيه أثر السجود. فقالوا: يا رسول الله، هذا هو الرجل الذي وصفنا لك آنفًا. فلما نظر إليه ﷺ قال: «أرى على وجهه سُفْعَةً من الشيطان» يعنى ظلمة. فجاء الرجل حتى سلم على رسول الله ﷺ وجلس مع القوم، فقال له النبي ﷺ: نشدتك الله هل حدثت نفسك حين أشرفت على القوم أنه ليس فيهم خير منك؟ فقال: اللهم نعم. وفي الحديث: «مَنْ قال إني مؤمن فهو كافر، ومن قال إني عالم فهو جاهل، ومن قال إني في الجنة فهو في النار».

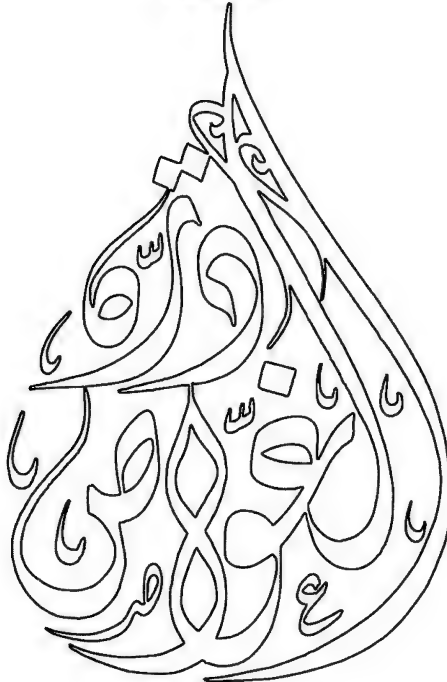
وعلم رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه دعاء، قال فيه: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم». وجاء في الخبر: «الشرك في أمتي أخفى من ديب النمل على الصفا». وكان من دعاء رسول الله ﷺ: «اللهم إني أستغفرك لما علمت وما لم أعلم». فقيل له: أتخاف يا رسول الله؟ قال: «وما يؤمنني والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء».

وقال الله تعالى: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]. قيل: عملوا أعمالاً ظنوا أنها حسنات، فلما كان عند الحساب والميزان وجدوها سيئات. وقيل: كانت هذه الآية مبكاة العابدين. وقيل في معنى قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ

كَلِمَةً رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴿[الأنعام: ١١٥]﴾. قيل: صِدْقًا لِمَن مَاتَ عَلَى الْإِيمَانِ،
وَعَدْلًا لِمَن مَاتَ عَلَى الشَّرْكِ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ
لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧]. وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ
مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣]. وَقَالَ: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِّنَ
الْكِتَابِ﴾ [الاعراف: ٣٧]. ﴿وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩].
وَقَالَ: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]. وَقَالَ: ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

فالاستثناء في الإيمان هو من الإيمان، والاستثناء في كل شيء من علامة
الأولياء، والإشفاق من الشرك والنفاق هو من مزيد الإيمان؛ لئلا يسكن العبد إلى
شيء ولا يزكي نفسه بشيء.

وقال سري السقطي: لو أن رجلاً دخل إلى بستان فيه من جميع الأشجار،
عليها من جميع الطيَّار، فخاطبه كل طير منها بلغته فقال: السلام عليك يا ولي
الله، فسكنت نفسه إلى ذلك، كان أسيراً في يديها.



الفصل السادس والثلاثون

فى فضائل أهل السنة ووصف طرائق السلف من الأئمة^(١)

السنة اسمٌ من أسماء الطريق، وهو اسمٌ للطريق الأقوم. يقال: طريق وطريقة، وسنن، وسنة وحجج ومَحَجَّة. فمن فضائل السنة وطريق أهلها التقلُّ من الدنيا فى كل شىء، والقناعة من الله تعالى بأدنى شىء، والتواضع لله بكل شىء. وفى الخبر: «أفضل العبادة التواضع». وروينا عن رسول الله ﷺ: «أربع لا يوجدن إلا بعجب: التواضع؛ وهو أول العبادة، والصمت، وذكر الله تعالى، وقلة الشىء».

واعلم أن التواضع يظهر بمعان خمسة: بالقول، والفعل، والزى، والأثاث، والمنزل، يكون فى المؤمن بعضها، فمن كملت فيه فهو متواضع.

والتكبر ضدُّ التواضع، وهو يظهر أيضاً بأضداد هذه الخمسة، يُبتلى المؤمن ببعضها، ويُعافى من البعض. فمن كملت فيه فهو متكبر، وحقيقتها فى القلب، وظاهرها بالأفعال والأقوال.

ثم الورع عن الشبهات والمشكلات من العلوم والأعمال: أن لا يقدم عليها بنطق أو عمل، ولا يعتقد نفيها ولا إثباتها؛ خشية أن يكون معتقداً لباطل، أو نافياً لحق، بل يكون اعتقاده فيها تسليماً لله عز وجل، ويقول: آمنت بحقائقها عند الله تعالى، فذلك تعبدٌ من الله عز وجل للمؤمنين فيما تشابه من الأمور أن يسكتوا ويسلموا. وبذلك وصف الراسخين فى العلم، وأقسم بنفسه على نفي إيمان من لم يسلم تسليماً، وجعل التسليم مزيدَ الإيمان فى قوله تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وفى الخبر: «إنما الأمور ثلاثة؛ أمرٌ استبان رشده فاتبعه، وأمر استبان غيّه

(١) فى المطبوعة: «فضائل أهل السنة والطريقة وطرق السلف من الأئمة».

فاجتنبه، وأمر أشكل عليه فكله إلى عالمه». وكذلك ابن مسعود يقول: إن لهذا القرآن مناراً كمنار الطريق، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما لم تعلموه فكلوه إلى عالمه. وكان أيضاً يقول: أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المسارع، وسيأتي عليكم زمان يكون خيركم فيه المتبين. يعني لوضوح الحق في القرن الأول، ولدخول الشبهات في مثل زماننا هذا، فصار الحق غامضاً، فكان خير الناس اليوم المثبت بالورع، كما كان خيرهم يومئذ المسارع بالفضل.

ومما يدل ذلك أن الإسلام هو التسليم، كما أن الإيمان هو التصديق، أن في قراءة بعض التابعين منهم جعفر بن محمد، وقد رويناه عن أبي جعفر محمد بن عليٍّ أنهما قرآ ﴿وَجَعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾ ^(١) [البقرة: ١٢٨]، وقرأ أيضاً: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٦٩]. فلولا أنهما بمعنى واحد لم يجز أن يخالفوا المعنى في المقروء.

وكذلك قال رسول الله ﷺ في الأمر المتشابه الذي يشبه الحق من جهة ويشبه الباطل من جهة: «لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، ولكن قولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم». هذا لأن الله سبحانه وتعالى أنزل التوراة؛ فهي حق، ثم أخبر أنهم قد حرفوا، فاحتمل أن يكون ما يخبرون به المؤمنين مما أنزل الله تعالى، فلا يحلّ التكذيب به ولا اعتقاد نفيه، واحتمل أن يكون مما أخبر الله تعالى أنهم حرفوا، فلا يحلّ قبوله ولا اعتقاد ثبوته، فأمرهم النبي ﷺ بإيقاف ذلك، والإيمان بما أنزل الله تعالى جملة، فإن كان ما أخبروه حقاً دخل فيه، وإن كان باطلاً لم يضره. فالمسلم هو الذي يسلم بما لم يظهر دليله في العقل، لأجل القدرة والسنة والنقل، كما أن المؤمن هو الذي يصدق بما لم يظهر بمشاهدة العين: الإيمان بالغيب؛ لأن العقل بصر القلب، كالعين بصر الجسم. وقد قال النبي ﷺ: «رفع القلم عن المجنون حتى يعقل». كما قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى

(١) يقصد أنه قرأها على الجمع: لمسلم: «مسلمين» وكذا رويت هذه القراءة عن ابن عباس وعوف الأعرابي كما في القرطبي ١٢٦/٢. أما الآية الثانية فلا خلاف بين قراءته وقراءة المصحف.

الأعمى حَرَجٌ ﴿[النور: ٦١]﴾. ثم ترك ما لا يعنى مما قد كفى، ومما لم يكل إليه من القول والفعل؛ لأن الدخول فيما لا يعنى هو التكلف المنهى عنه، الذى أخبر رسول الله ﷺ أن الاتقياء من أمته برآء منه، وهو يشغل ويقطع عما يعنى، وفيما يعنى شغل عما لا يعنى لكل فطنٍ عاقل، وهو أصل الحكمة فيما أخبر به لقمان لما سئل: أنى أوتى الحكمة؟ قال: بشيئين: لا أتكلف ما كُفيت، ولا أضيع ما كُلفت. فهذا شيء لا يضرّ جهله ولا ينفع فعله، ولأنه شيء إن كُتب عليه لم يكن له فيه فضل، وإن سُمع منه وظهر به لم يكن له فيه مزيد، ولا لغيره نفع.

ثم كف الأذى؛ فإن ذلك من الورع. وكان سهل رحمه الله تعالى يقول: كفّ الأذى كسب العقل، واحتمال الأذى كسب العلم، والنصيحة للخلق والرحمة لهم كسب الإيمان.

ثم العمل فى قطع ما قد اعتاد من عاجل حظوظ النفس مما يقطعه عن العمل لأجل الآخرة وأعمال النفس وإجهادها، وإن لا يكون لها معتاد من شهوة تعود على النفس منه منازعة، فإن العادة جندٌ غالبٌ؛ لأجلها تعذّرت التوبة، ولغلبتها رجع العبدُ عن الاستقامة؛ وهى باب من أبواب الهوى، إلا فيما أمر به العبد أو نُدب إليه.

قال أبو سليمان الداراني: إن قدرت أن لا يكون لك وقت معتاد فى الأكل تنازعك نفسك إليه فافعل. وقال: لأن أترك لقمةً من عشائى أحبُّ إلىّ من قيام ليلة. أى لنقص النفس من المعتاد والتقلل أيضاً. وقال أيضاً: ترك شهوة من شهوات النفس أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها. هذا كله خشية إيلاف العادات، فتنازع النفس إلى الإلف فلا يمكنك ضبطها لغلبة الوصف، ثم حسن الصبر على ما أمر به، وحسن الصبر عما نهى عنه؛ فإن ذلك من أفضل الأعمال وله فضائل المزيد والكمال. وفى حديث أبى هريرة عن رسول الله ﷺ: «اتق المحارم تكن من أعبد الناس». وفى لفظ آخر: «تكن من أورع الناس».

ومن أحسن ما سمعته من عظيم المثوبة فى الصبر عن المعصية ما حدثونا فى الإسرائيليات: أن رجلاً تزوّج امرأة من بلدة، وكان بينهما مسيرة شهر. فأرسل

إلى غلام له من تلك البلدة ليحملها إليه، فسار بها يوماً، فلما جنَّ الليل أتاه الشيطان فقال له: إن بينك وبين زوجها مسيرة شهر فلو تمتعتَ بها ليالى هذا الشهر إلى أن تصل إلى زوجها، فإنها لا تكره ذلك، وتثنى عليك عند سيدك، فيكون أحظى لك عنده. فقام الغلام يصلى فقال: يا رب، إنَّ عدوك هذا جاءنى فسؤل لى معصيتك، وإنه لا طاقة لى به فى مدة شهر، وأنا أستعيزك عليه يا رب فأعذنى عليه، واكفى مؤونته. فلم تزل نفسه تراوده ليلته أجمع وهو يجاهدها حتى أسحر، فشدَّ على دابة المرأة وحملها وسار بها. قال: فرحمه الله تعالى، فطوى له مسيرة شهر، فما برق الفجر حتى أشرف على مدينة مولاه. قال: وشكر الله تعالى له هربه إليه من معصيته فتنبأه، فكان نبياً من أنبياء بنى إسرائيل.

ثم إعدادُ العدة لما يستقبل، إذا كان ذلك من علامة مريد السعى للآخرة والشغل بالنفس والإقبال عليها دون الناس فقد وجب ذلك، والزهدُ فى فضول الشهوات واجتناب كثير من الشبهات فقد افترض ذلك، وقلة الذكر للناس ولأموار الدنيا فقد حسن ذلك، وفيه غفلة وقسوة للقلب، وكثرة الذكر لله تعالى والتذكير به وذكرُ آلائه ونعمائه وحسنُ الثناء عليه والمدح له.

وقد كان بعض العلماء يقول: من جالسنا فليجتنب ذكر ثلاث خصال وليقضى فيما يشاء: يجتنب ذكر الناس فإنهم داء، ويجتنب ذكر الدنيا فإنها قسوة، ويجتنب كثرة الطعام فإنها شرَّة. وقال عالم آخر: من جالسنا فلا يذكر إلا الله وحده، فإن كان لا بدَّ من ذكرٍ غيره فليذكر الآخرة وليذكر الصالحين.

وكان سهل رحمه الله تعالى ورضى عنه يقول: السنَّة ما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه، وأوَّلُ السنَّةِ الزهدُ فى الدنيا؛ لأنهم كانوا زاهدين.

وكذلك جاء الخبر فى وصف الفرقة الناجية: «من كان على ما أنا عليه وأصحابى». فقد كانوا على هذه الأوصاف التى ذكرناها، فمن كان على ذلك فهو على السنة.

فهذه فضائل السنة، وهو مزيد الإيمان وحسن اليقين.

• ذكر عرى الإيمان وجمل الشريعة:

قال الله جل ثناؤه وصدقت أنباؤه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الجنّة: ١٨]. فالشريعة اسم من أسماء الطريق، وهو اسم الطريق الواضح المستقيم الواسع، وهو وصف الطريق الجامع لجوامع المحاجّ كلّها، كأنه طريق يستوعب ويجمع سائر الطرق. وللطريق أسماء كثيرة منها: الصراط، والسبيل، والمنهاج، والمحجّة، والمنسك. وجاء من اشتقاق هذا اللفظ أربعة أسماء: شارع، ومشركة، وشريعة، وشريعة؛ وهو اسم لأوسعها وأوعبها لجميع الطرق.

فالشريعة تشتمل على اثنتي عشرة خصلة هي جامعة لأوصاف الإيمان؛ أولُ ذلك: الشهادتان وهي الفطرة. والصلوات الخمس، وهي الملة. والزكاة، وهي الطهارة. والصيام، وهو الجنّة. والحج، وهو الكمال. والجهاد، وهو النصر. والأمر بالمعروف، وهو الحجّة. والنهي عن المنكر، وهو الوقاية. والجماعة، وهي الألفة. والاستقامة، وهي العصمة. وأكل الحلال، وهو الورع. والحبّ والبغض في الله، وهو الوثيقة.

وقد روينا بعض هذه الخصال عن رسول الله ﷺ، وقد جاء نحوها عن ابن عباس، وابن مسعود، رضى الله تعالى عنهما.

• ذكر شرط المسلم الذي يكون به مسلماً:

لا يكون معتقداً لبدعة، ولا مقيماً على كبيرة، ولا آكلاً للحرام، ولا طاعناً على صالح السلف، ويكون كافاً اللسان واليد عن أعراض المسلمين وأموالهم، ويكون ناصحاً لجميع المسلمين مشفقاً عليهم، يسرّ ما يسرّهم، ويسوء ما يسوءهم، سيما لأئمتهم، داعياً لجملتهم، ويكون مخلصاً بأعماله كلّها لله تعالى.

روى عن النبي ﷺ: «والذى نفسى بيده لا يُسلم عبدٌ حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمنُ حتى يأمنَ جاره بوائقه».

وروى عنه: «ثلاثٌ لا يَغْلُ عليهنّ قلبُ مسلم: إخلاص العمل لله تعالى، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم».

ومن اجتمعت فيه هذه الخصال في زماننا هذا فهو من أولياء الله عز وجل، وهذا أول ولاية، وأول نظرة من الله تعالى حامية عاصمة راحمة. كتب عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبد الله: اكتب إلى بسيرة عمر رضى الله تعالى عنه في الناس، فإنني أحب أن أسير بها. فكتب إليه: أما بعد، فإنك لست في زمان عمر، ولا لك رجال كرجال عمر؛ فإن عملت في زمانك هذا ورجالك هؤلاء بسيرة عمر، فأنت خير من عمر رضى الله تعالى عنه.

• ذكر حسن إسلام المرء، وعلامات محبة الله تعالى له؛

يكون محباً للخير وأهله، مجانباً للشر وأهله، مسارعاً إلى ما نُدب إليه أو أمر به إذا قدر عليه، حزيناً على ما فات من ذلك إذا أعجزه، تاركاً لما لا يعنيه من الأقوال والأفعال، بريئاً من التكلف؛ وهو اجتناب ما لم يؤمر به ولم يُندب إليه من ترك وفعل، مصلحاً للخمس في جماعة إذا أمن الفتنة وسلم له دينه، مجتنباً للغيبة ولذكر الناس، يحبّ للكافة ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه، مسارعاً إلى الخيرات، مسابقاً إلى أعمال البرّ والقربات، طويل الصمت، لين الجانب، ذليلاً للمؤمنين، عزيزاً على المتكبرين، لا يمارى في الباطل، ولا يداهن في الدين، ولا يبغض على شيء من الحق وإن كان عليه أو من أبعد الناس منه، ولا يحبّ على شيء من الباطل وإن كان له أو من أقرب الناس إليه، كارهاً للمدح ممن يحبه، قابلاً للنصح ممن يبغضه، يكون المدح والذم يجريان من قلبه مجرى واحداً، صدوقاً فيما يضره، غير متصنع مما يستعجل نفعه، سريره أفضل من علانيته، محتملاً لأذى الخلق، صابراً على بلائهم، منفرداً بحاله عنهم، تاركاً لكثير من مجالسهم واجتماعهم خشية دخول الشبهات عليه، وخوفاً من تغيير قلبه له.

ومن اجتمعت فيه هذه الخصال في زماننا هذا فهو من المريدين للآخرة، وهذه ولاية ثانية ونظرة ثانية. ويقال: إن أبدال كل قرن على قدر زمانهم، وفي كل قرن سابقون ومقربون.

وقال بعض أهل الفسر في قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩]،

قال: لتركبن في كل قرن في طبقة من الناس، وعلى حال لم يكونوا عليه.
وأكثر ما قيل في القرن مائة سنة، وأقل ما قيل فيه أربعون، وأوسط ذلك وأعدله وأشبهه بحمل الأحاديث والأخبار فيه: أن القرن سبعون سنة، وهو قول على رضى الله تعالى عنه؛ لأن رأس المائتين تمام ثلاثة قرون من المبعث، ونحن الآن في القرن السادس من أول سنة أربعين وثلاثمائة وآخره سنة عشر وأربعمائة.
ويقال: إن الشمس تطلع من المغرب بعد القرن السابع، وهو رأس الثمانين وأربعمائة. وعلى قول من قال: القرن مائة سنة تطلع بعد سبعمائة سنة^(١).
وفى الخبر: «إن ملك الموت إذا جاء لقبض روح المؤمن قال له ملكاه: أنظرنا حتى غملاً مسامعه من الثناء الحسن. فيقولان: جزاك الله عنا خيراً فإنك كنت ما علمنا سريعاً في طاعة الله تعالى، بطيئاً عن معاصيه، تحب الخير وأهله، وتعمل بما استطعت منه، فربّ كلام حسن قد أسمعنا، وربّ مجلس كريم قد أجلسنا، فأبشر بالموعود الصديق بيننا وبينك، والوقوف بين يدي الله تعالى بالشهادة لك عنده غداً».

• ذكر حق المسلم على المسلم، وهو وجوب حرمة الإسلام على المسلمين؛

وذلك عشر خصال مجموعة من سبعة أحاديث؛ حديث على رضى الله عنه: «للمسلم على المسلم ست خصال واجبة»، وحديث أبى أيوب الأنصارى: «حق المسلم على المسلم ست خصال، إن ترك منها شيئاً ترك حقاً واجباً عليه»، وحديث البراء بن عازب: «أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ونهانا عن سبع»، وحديث ابن مسعود: «للمسلم على المسلم أربع خلال واجبات»، وحديث سعد وأبى هريرة في معنى ذلك، وحديث أنس: «أربع من حق المسلم عليك».

إلا أنه ذكر غير ذلك، فاختلقت الألفاظ في الخصال واتفقت المعاني. وذكر بعضهم في حديثه ما لم يذكره الآخر، فجمعنا اختلافهم وعدد جمل الخصال

(١) هذا القول لا يؤيده كتاب ولا سنة ولا نقل ولا عقل ولا واقع، كما أن التكهن بهذا الأمر لا يجوز، ولا يستطيعه أحد.

فكانت عشراً، إلا ما رواه أنس بن مالك رضى الله عنه؛ فإنه حديث غريب مؤكد للخصال، وزائد عليها فى الألفاظ نذكره بعدها.

فأما الخصال العشر التى كثرت الأخبار بها فهى: أن يسلم عليه إذا لقيه، ويجيبه إذا دعاه، ويشمته إذا عطس، ويعوده إذا مرض، ويشهد جنازته إذا مات، ويرقّ قسمه إذا أقسم عليه، وينصح له إذا استنصحه، ويحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنه، ويحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه.

فأما حديث أنس: فروينا عن إسماعيل بن أبى زياد، عن أبان بن عياش، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من حق المسلم: أن تعين مُحسنهم، وأن تستغفر لمذنبهم، وأن تدعو لمديرهم، وأن تحب تائبهم». فهذه الخصال داخلة فى تلك الخصال وجامعة لها فى معنى النصيحة لأخيك، وفى أن تحب له ما تحب لنفسك.

وقد كان ابن عباس يؤكد هذا المعنى خاصة للمسلم على المسلم، ويفرضه فرض الحلال والحرام، ويفسر به قوله تعالى: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، فحدثناه فى رواية جبير عن الضحاك عنه فى قول الله عز وجل: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ يعنى متوادين بينهم، يدعو صالحهم لطالحهم وطالحهم لصالحهم، إذا نظر الطالح إلى الصالح من أمة محمد ﷺ قال: اللهم بارك له فيما قسمت له من الخير، وثبته عليه، وانفعنا به؛ وإذا نظر الصالح إلى الطالح من أمة محمد ﷺ قال: اللهم اهده، وتب عليه، واغفر له. قال ابن عباس: هذه الآية من حلالكم وحرامكم.

فهذه الخصال المذكورة جامعة مختصرة فى حرمة المسلمين، ووجوب حق بعضهم على بعض، لا عذر لأحد منهم فى تركها إلا من عذرته السنة، ويشهد له العلم، وبعضها أوكد من بعض، فأكمل المؤمنين إيماناً أقومهم بها، وأسرعهم إليها، قد كثرت بها الراويات. وقد كان بعض السلف تركوا منها ثلاثة: إجابة الدعوة، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، إلا أن هؤلاء اعتزلوا الناس أصلاً وكانوا أحلاس بيوتهم، ولم يخرجوا إلا إلى الجمعات، ومنهم من ترك الجماعات، وكان

منهم من تَبَوَّأَ الجَبَّانَاتِ، وفارق الأمصار والإخوان، وكان بعضهم يَتَبَوَّأُ الجبال^(١). وقال سهل: ما أعلم شيئاً أشدَّ من حقوق الناس. وكان يقول: مَنْ كَفَّ أَذَاهُ عَنْ الخلق مشى على الماء. وقال أبو يزيد وغيره: بَغْيَةُ العُقَلَاءِ السَّلامَةُ مِنَ اللَّهِ تعالى. ومن أراد السَّلامَةَ مِنَ اللَّهِ فليسلم الناس منه. فمن أراد أن يسلم الناسُ منه فليبعد منهم. فقد أُنْشِدَتْ لبعضهم في معناه:

النَّاسُ بَحْرٌ عَمِيقٌ والبُعدُ منهم سَلامَةٌ
وقد نَصَحْتُكَ فأنظر لا تُدْرِكَنَّكَ نَدَامَةٌ

وقد رويَنا عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه: اتقوا الله واتقوا الناس. وعن ابن عباس مثلاً: لولا مخافة الوسواس لم أجالس الناس. وقال مرة: لدخلت بلاداً لا أنيس بها، وهل يُفسد الناس إلا الناس؟

وقال بعض السلف: كلما كثرت المعارف كثرت الغرماء، وكلما طالت الصُحبة توكَّدت الحقوق. وقال بعض العلماء: من عرف نفسه استراح، ومن عرف الناس تعنَّى. وقال بشر بن الحارث في ضده: من عرف الناس استراح.

وقد قيل في معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «مدارة الناس صدقة»، قال: مداراتهم في العلوم ومفارقتهم في العقول. وفي أحد الوجوه من قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦] قال: هي المداراة. وفي الخبر عن رسول الله ﷺ: «مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ مُنِعَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ مُنِعَ حَظَّهُ مِنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

• ذكر سنن الجسد:

وفي الجسد اثنتا عشرة سنة، وذلك مأخوذ من ثلاثة أحاديث متفرقة، منها: حديث جبريل عليه السلام حين استبطأه النبي ﷺ بالوحي.

خمس منها في الرأس وهي: المضمضة، والاستنشاق، والسواك، وقصّ

(١) قوله: «وكان بعضهم يتبوء الجبال» من (م).

الشارب، وفرق شعر الرأس.

ومنها سبع في الجسد وهى: الختان، والاستحداد، وانتفاض الماء وهو الاستنجاء، ونتف الإبط، وتقليم الأظفار، وغسل البراجم، وتنظيف الرواجب.

فأما البراجم فهى معاطف ظهور الأنامل، لم تكن العرب تكثر غسل ذلك لتركها غسل أيديها عقب الطعام، فكان يجتمع فى تلك المكاسر الوسخ فأمرُوا بغسلها. قال أبو هريرة وغيره من أهل الصفة: كنا نأكل الشواء، ثم تقام الصلاة، فندخل أصابعنا فى الحصباء، ثم نفرکہا فى التراب ونكبّر. وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: ما كنا نعرف الأشنان على عهد رسول الله ﷺ وإنما كانت مناديلنا بواطن أرجلنا، كنا إذا أكلنا الغمر مسحنا بها.

ويقال: أول ما ظهر من البدع بعد رسول الله ﷺ أربع: المناخل، والأشنان، والموائد، والشبع. فهذه كلها فى شأن الجوف وهو شر وعاء مجوف.

وأما الرواجب فهى جمع: راجبة، وهى واحدة الأنامل، لم تكن العرب يتفق لها الجلمان^(١) فى كل وقت فيقصون أظفارهم، فوقّت لهم رسول الله ﷺ لقصّ الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة أربعين يوماً، إلا أنه أمر بتنظيف ما تحت الأظفار؛ لأنه مجمع التّفّ؛ وهى الرواجب، إلى أن يقصّوا أظفارهم. وجاء فى الأثر: «إنّ النبى ﷺ استبطأ الوحى، فلما هبط جبريل عليه السلام قال له: كيف ننزل عليكم وأنتم لا تغسلون برّاجمكم، ولا تنظفون رواجبكم، وقُلْحاً^(٢) لا تَسَاكُون؟ مر أمتك بذلك».

ويقال لما تحت الأظفار من الوسخ: الأُفُّ، وهو الذى يقال: أُفُّ وتُفُّ؛ فالأُفُّ: وسخ الظفر، والتُّفُّ: وسخ الأذن. وقيل: التُّفُّ: كلمة اتباع للمبالغة فى التأذى بالقدر المؤذى؛ ومن ذلك قولهم فى الاتباع: جائع نائع، وعطشان نطشان.

وقيل: من هذا قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌّ﴾ [الإسراء: ٢٣]، أى: لا

(١) الجلمان: ما يُجَزُّ به، وهو المقرض.

(٢) القُلْح: صفة تعلق الأسنان.

تعبهما بما تحت الظفر من الوسخ . وقيل : لا تتأذى بهما تأذيك بما تحت ظفرك من الأذى ، أو لا تؤذهما بمقدار ذلك .

• ذكر ما فى اللحية من المعاصى والبدع :

قد ذكر فى بعض الأخبار : إن الله تعالى ملائكة يُقَسِّمُونَ : والذى زَيْنَ بنى آدمَ باللحى . ويقال : إنَّ اللحيةَ من تمامِ خَلْقِ الرجل ، وبها تميّز الرجال من النساء فى ظاهر الخلق . وفى وصف رسول الله ﷺ : أنه كان كَثَّ اللحية . وكذلك كان أبو بكر ، وكان عثمان طويل اللحية دقيقتها ، وكان على رضى الله تعالى عنه عريض اللحية قد ملأت ما بين منكبيه . ويقال : إن أهل الجنة مُرْدُّ ، إلا هارون أخا موسى عليهما السلام ، فإن له لحية إلى صدره ، تخصيصاً له وتفضيلاً .

ووصف بعض بنى تميم من رهط الأحنف بن قيس قال : وددنا أنا اشترينا للأحنف لحية بعشرين ألف . فلم يذكر جَنَفَه فى رجله ، ولا عَوْرَه فى عينه ، وذكر كراهية عدم لحيته ، وكان عاقلاً حليماً .

وقد روينا من غريب تأويل قوله تعالى : ﴿يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١] ، قال : اللحية . وفيه وجوه كثيرة . وذكر عن شريح القاضى قال : وددت لو أن لى لحية بعشرة آلاف .

وقال بعض الأدباء : فى اللحية خصال نافعة ، منها : تعظيم الرجل والنظر إليه بعين العلم والوقار ، ومنها : رفعه فى المجالس والإقبال عليه ، ومنها : تقديمه على الجماعة وتعجيله ، وفيها وقاية للعرض ؛ يعنى إذا أرادوا شتمه عرضوا له بها فوقَّ عِرضَه .

وقال أبو يوسف القاضى : من عظمت لحيته جلت معرفته .

ففى اللحية من خفايا الهوى ، ودقائق آفات النفوس ، ومن البدع المحدثه اثنتا عشرة خصلة ، بعضها أعظم من بعض ، وكلها مكروهة ، قد كنّا أجملنا ذلك عدداً فى باب آفات النفوس . فأما تفسيره : فإنَّ من ذلك خضابها بالسواد لأجل الهوى وتدليس الشَّيبة ، وخضابها بالحمرة والصفرة من غير نية تشبيهاً بالصالحين والقراء

من أهل السنة، وتبييضها بالكبريت وغيره استعجالاً لإظهار علو السنّ وستر الحداثة؛ لأجل الرياسة والتعظيم، ليشهد عند الحكام، أو لينفق بذلك حديثه، ويدعى بالسنّ مشاهدة من لم يره. فعل ذلك بعض المحدثين وبعض الشهود.

ومن ذلك: نتفها أو نتف الشيب منها تغطية للتكهل. ومنها: تقصيصها كالتعبية طاقة على طاقة للتزئ والتصنع.

ومن ذلك: النقصان منها أو الزيادة فيها، وهو أن يزيد في شعر العارضين من الصدغ، وهو من شعر الرأس حتى يجاوز عظم اللحي، وذلك هو حدّ اللحية، أو ينقص من العظمين نصف الخد وذلك مثله، وهو نقصان من اللحية.

ومن ذلك: تسريحها لأجل الناس تصنعاً، أو تركها شعثةً منفلة مغبرةً إظهاراً للزهد، أو التهاون بالقيام على النفس؛ لأنه قد عُرف بذلك.

ومن ذلك: النظر إلى سوادها عجباً بها وخيلاء وغرة بالشباب وفخراً. ومن ذلك: النظر إلى بياضها تكبراً بكبر السن وتطاولاً على الشبان؛ فيحجبه نظره إليها عن النظر إلى نفسه؛ من تعلّم العلم، وتعلم القرآن الذي لا يسعه جهله، والسؤال عما يجهله استصغاراً لغيره من الشباب، أو حياء من شيبته، أو استنكافاً منه، فيظن بجهله أن كثرة الأيام التي بيّضت شعر لحيته أعطته فضلاً أو جعلت فيه علماً، ولا يعلم أن العقل غرائز في القلوب، وأن العلم مواهب من علام الغيوب. ومن كانت غريزته الحمق، وطبيعته الجهل، كثرت حماقته كلما كبر، وعظمت جهالته إذا أسنّ.

وقد رأينا جميع ذلك في كثير من الناس، وهذا كله محدث، وهو يضاهي سنن الجسد الاثنى عشرة في العدد.

ومما جاء في جمل معاني ما ذكرناه من الكراهة أن رسول الله ﷺ قال: «حقوا الشوارب وأعفوا اللحى». فقلوه «حقوا» أى اجعلوها حفافى الشفة أى حولها، لأن حفاف الشىء حوله. ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥].

وكان بعض العلماء يكره حلق الشارب حتى تظهر البشرة ويراه بدعة. وقد كان مالك بن أنس وبعض علماء المدينة يقولون: حلق الشارب مثله، إنما هو الأخذ منه حتى يبدو الإطار، والإطار: حروف الشفة من فوق.

وفى الحديث لفظة أخرى: «أحفوا الشوارب». والإحفاء: هو الاستئصال والاستقصاء؛ وهو أبلغ من قوله: «حفوا». ومن هذا قوله عز وجل: ﴿إِنْ يَسْأَلُكُمْوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا﴾ [محمد: ٣٧] أى يستقصى عليكم. وقد كان كثير من أصحاب رسول الله ﷺ يحفى شاربهم. ونظر بعض التابعين إلى رجل أحفى شاربهم، فقال: ذكرتني أصحاب رسول الله ﷺ. قال: فقلت له: هكذا كان يحفون شواربهم؟ فقال: نعم وأشد من هذا كالحلق. وليس الإحفاء حلقاً، إلا أنه شبيه به.

وقد روينا فى هذا الحديث ثلاثة ألفاظ آخر وهو: «أخذوا من الشوارب»، فإن رسول الله ﷺ كان يأخذ من شاربهم. وروى: «قصوا الشوارب»، و«جُزُوا الشوارب»؛ فهذه الثلاثة بمعنى واحد، وهو يقتضى أخذ بعضه وترك البعض، ليس كالإحفاء. وقال المغيرة بن شعبة: نظر إلى رسول الله ﷺ وقد عفا شاربى، فقال: «تعال، فقصه لى على سواك». فهذا نص من فعله فى أخذ الشارب. وقد رويت لفظة غريب: «طروا الشوارب طراً»؛ والطَّرَان: يؤخذ من فوق الشارب ومن تحته حتى يستدق، والطَّرَر: الدقيق المستطيل المستخرج من شىء أكثر منه حتى يجعل على وصف دونه أو أصغر منه؛ ومن هذا سُمِّيَت الطَّرَّة؛ كأنها مُستخرجة من شىء كثير، مجعولة على وصف لطيف.

وكان بعض السلف يترك سباليه، وهما طرفا الشارب، ويحفى وسط شاربهم. وروى هذا عن عمر وغيره. وكذلك رأيت أبا الحسن بن سالم رحمه الله تعالى يفعله. فأما قوله: «وأعفوا اللحى» يعنى كثروها، ومن هذا قول الله عز وجل: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ [الأعراف: ٩٥] أى كثروا. وفى الخبر: «إن اليهود يعفون شواربهم، ويقصون لحاهم، فخالفوهم». وردَّ عمر بن الخطاب وابن أبى ليلى قاضى المدينة

شهادة رجلٍ كان ينتف لحيته .

ونتفُ الفَنِيكَيْنِ بدعة؛ وهما جنبتا العَنَفَقَةِ؛ شهد رجلٌ عند عمر بن عبد العزيز بشهادة، وكان ينتف فَنِيكَيْهِ، فردَّ شهادته .

وورد عن رسول الله ﷺ النهي عن نتف الشيب، وقال: «هو نورُ المؤمن». ونهى عليه الصلاة والسلام عن الخضاب بالسواد قال: «هو خضابُ أهلِ النار». وفي لفظ آخر: «الخضابُ بالسَّوَادِ خِضَابُ الكَفَّارِ». وأمر ﷺ أبا بكر أن يغير شيب أبيه، وقال: جنبه السواد .

وتزوج رجل على عهد عمر رضى الله عنه، وكان يخضب بالسواد، فنَصَلَ خضابه، وظهرت شيبته، فرفعه أهل المرأة إلى عمر فردَّ نكاحه، وأوجعه ضرباً، وقال: غررت القوم بالشباب، ودلّست عليهم شيبتك .

وقال رسول الله ﷺ: «الصفرة خضاب المسلمين، والحمرة خضاب المؤمنين». وكانوا يخضبون بالحناء للحمرة، وبالخلُوق والكتَم للصفرة .
ويقال: أوّل من خضب بالسواد فرعون لعنه الله .

وقال سري بن المغلس السقطي: فى اللحية شِرْكان: تسريحها لأجل الناس، وتركها مفتلة لإظهار الزهد. وقال أيضاً: لو دخل على داخل فمسحتُ لحيتي لأجله، ظننت أنّي مشرك .

وعن كعب وأبى الجلد: وصفا قومًا يكونون فى آخر الزمان يقصون لحاهم كذب الحمامة ويعرقفون نعالهم كالمناجل؛ أولئك لا خلاق لهم. وذكر أيضاً عن جماعة أن هذا من أشراط الساعة .

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى ﷺ: «يكون فى آخر الزمان قومٌ يخضبون بالسواد كحواصل الحمام، لا يريحون رائحة الجنة» .

وروى أبو المهزم عن أبى هريرة أن أصحاب الدجال عليهم السيّجان، شواربهم كالصياصى، ونعالهم مخرطمة؛ يعنى: شواربهم مُلّس تلوح، وأصل الصياصى: القرون وهو جمع صَيِّصَة، ومنه صيصة الديك الظفر النَّاتئ الأملس مؤخَّر رجله

كَأَنَّهُ عَظُمَ . وقوله : «عليهم السيجان» : يعنى الطيالة ، وهو جمع ساج ، وقوله : «نعالهم مخرطمة» أى لها أعناق طوال معرقفة كالخراطيم ، وهى أكمام الأباريق .

وكان ابن عمر يقول للحلاق : ابلغ العظمين ، فإنهما منتهى اللحية ؛ يعنى حدّها .

ولذلك سميت لحية لأنّ حدّها اللَّحَى ، فالزيادةُ على ذلك الحد والنقصان منه مُحَدَّث .

• ذكر ما جاء فى فعل بعض ذلك واستحبابه :

إن من العلماء من كان يأخذ من لحيته فى المناسك وغيرها ، وإن قبضَ الرجلُ على لحيته وأخذَ ما تحت القبضة فلا بأس . قد فعله ابن عمر وجماعة من التابعين ، واستحسنه الشعبي وابن سيرين وكرهه الحسن وقتادة . وتركها عافيةً على خلققتها أحبُّ إلى .

وقد روينا خبراً : «من سعادة المرء خفة لحيته» إلا أنّ بعض الرواة رواه على معنى آخر ، فإن لم يكن صحّفه فهو غريب ؛ كان يقول فيه : «خفة لحيه» ؛ أى بتلاوة القرآن ، ولا آره محفوظاً .

وقد كان رسول الله ﷺ ثم الصالحون بعده يسرّحون لحاهم ؛ لأجل الدين والسنة ، وتنظيفاً للطهارة ، ونزع التفث من القمل وغيره ، ولإسقاط شعر ميت إن كان هناك . وقد كان من الزّهاد من يترك لحيته منفصلة لا يسرّحها شغلاً عن نفسه . والصدقُ بعينه حسن ، والصدق فى كل شىء حسن . قال بعضهم : رأيت داودَ الطائى منفثاً اللحية . فقلت : يا أبا سليمان ، لو سرّحت لحيتك . فقال : إتنى إذاً لفارغ . إلا أنّ رسول الله ﷺ كان يدهن شعره ويرجله غباً ، وأمرَ بذلك فقال : «وادهنوا غباً» . وقال : «من كانت له شعرة فليكرمها» . ودخل رجلٌ نائر الرأس أشعث اللحية فقال : «أما كان لهذا دهن يُسكّن به شعره؟ ثم قال : يدخل أحدكم كأَنَّهُ شيطان» .

وقد روينا فى خبر غريب : «كان رسول الله يسرّح لحيته فى كل يوم مرتين» .

وفى خبر أغرب منه، قالت عائشة رضى الله تعالى عنها: «اجتمع قومٌ بباب رسول الله ﷺ، فخرج عليهم فرأيتهم يطلع فى الحبِّ ليسوى من رأسه ولحيته». وفى الخبر المشهور: «إنه كان يمشط لحيته فى كل يوم، وأن المشط والمدرى لم يكن يفارقه فى سفر ولا حضر».

فهذه سنة العرب المعروفة فيهم، وكان عليه الصلاة والسلام عليها، وكانت من أخلاقه. وقد كان الشباب يتشبهون بالكهول تفضيلاً للكهول، غير عجب بالشباب، ولا فخر بالحدأة.

وفى الخبر: «خير شبابكم من تشبه بشيوخكم، وشرّ شيوخكم من تشبه بشبابكم». وفى الحديث: «إن من إجلال الله تعالى إجلال ذى الشبهة المسلم». وقد كان الشيوخ يقدمون الشباب، ويرون فضلهم بالعلم والدين تواضعاً وإحباتاً لا تكبراً بالكبر ولا علواً؛ كان عمر رضى الله تعالى عنه يقدم ابن عباس وهو حدث السن على أكابر الصحابة ويسأله دونهم.

وروى عن ابن عباس وغيرها: ما أتى الله تعالى عبداً العلم قط إلا شاباً، والخير كله فى الشباب. ثم تلا قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠]. وتلا قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ [الكهف: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿وَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢].

وقد كان أنس بن مالك إذا ذكر رسول الله ﷺ قال: قبض وليس فى شعر رأسه وشعر لحيته عشرون شعرة بيضاء. فقيل: ولم يا أبا حمزة وقد أسن؟ قال: لم يشنه الله تعالى بالشيب. قيل: أو شين هو؟ قال: كلّم يكرهه.

ويقال: إن يحيى بن أكثم ولى القضاء سنّه إحدى وعشرون سنة. فقال له رجل ذات يوم وهو فى مجلسه يريد أن يحشمه بذلك: كم سنّ القاضى أيده الله تعالى؟ فقال: مثل سنّ عتاب بن أسيد حين ولاه رسول الله ﷺ إمارة مكة وقضاءها، فأفحمه.

وروينا عن مالك بن مغول قال: قرأت فى بعض كتب الله عز وجل: لا

تغرَّكُم اللحي، فإن التيس له لحية، وقال بعض الأدباء: كلما طالت اللحية تشمَّر العقل.

وقال أبو عمرو بن العلاء: إذا رأيته طويل القامة، صغير الهامة، عريض اللحية فاقض عليه بالحمق، ولو كان أمية بن عبد شمس.

وقال معاوية رحمه الله تعالى: يتبين حمقُ الرجل من طول قامته، وعِظَم لحيته، وفي كُنيتِه ونقش خاتمِه^(١).

وكان إبراهيم النخعي ومثله من السلف يقول: عجبت لرجل عاقلٍ طويل اللحية، كيف لا يأخذ من لحيته فيجعلها بين لحيتين، فإن التوسط في كل شيء حسن.

وأُشدت لبعض الظرفاء:

كَبُرَتْ مَنَابِئُهَا طَوِيلُهُ	لَا تَعْجِبَنَّ بِلَحِيَّةٍ
حَ كَأَنَّهَا ذَنْبُ الْحَسِيلَةِ	يَهْوَى بِهَا عَصْفُ الرِّيَا
يَوْمًا وَلَحِيَّتُهُ قَلِيلُهُ	قَدْ يَدْرِكُ الشَّرَفَ الْفَتَى

وأُشدت لبعض العرب:

لَعَمْرُكَ مَا الْفَتَيَانُ	إِنْ تَبَتَّ اللَّحَى
وَلَكِنَّمَا الْفَتَيَانُ	كُلُّ فَتَى نَدَى

ولم يكن الأشياخ يستنكفون أن يتعلموا من الشباب ما جهلوا، ولا يَزُرون عليهم بصغر سنهم، إذ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء؛ لا مانع لما أعطى الله من صبي أو غيره، ولا معطى لما منع الله من كبير أو غيره.

وقال أبو أيوب السخيتاني: إني أدركت الشيخ ابن ثمانين سنة يتبع الغلام يتعلم منه، فيقال له: تتعلم من هذا؟ فيقول: نعم، أنا عبده ما دمت أتعلم منه.

(١) جعل عِظَم اللحية دلالة على الحمق لا يعول فيه على كلام أهل اللغة أو الحكماء، وإنما الحمق أو العقل والعلم بحسب التربية التي يتلقاها الإنسان في بداية حياته.

وقال علي بن الحسن: من سبق إليه العلم فهو إمامك فيه، وإن كان أصغر سنًا منك.

وقيل لأبي عمرو بن العلاء: أيحسن للشيخ الكبير أن يتعلم من الصغير؟ فقال: إن كانت الحياة تحسن به فإن التعلّم يحسن به، وإنه يحتاج إلى العلم ما دام حيًا.

وقال يحيى بن معين لأحمد بن حنبل وقد رآه يمشى خلف بَغْلَةٍ الشافعي رضى الله تعالى عنه: يا أبا عبد الله، تترك حديث سفيان بعلوً وتمشى خلف بغلة هذا الفتى وتسمع منه؟ فقال أحمد: لو عرفت منه ما أعرف لكنت تمشى من الجانب الآخر؛ إن علم سفيان إن فاتني بعلوً أدركته بنزول، وإن علم هذا الشاب إن فاتني لم أدركه بعلوً ولا نزول^(١).

وسمعت أبا بكر بن الجلاء يقول: إنى لأرى الصبى يعمل الشيء فأستحسنه فأقتدى به فيكون إمامي فيه. وما رأيت أشد تواضعًا منه على علمه وزهده.

فأما معنى الخبر الذي روى: «لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم عن أكابرهم، فإذا أتاهم عن أصاغرهم هلكوا». فإن ابن المبارك سئل عن معنى ذلك، فقال: أصاغرهم أهل البدع؛ لأنه لا صغير من أهل السنة ممن عنده علم. ثم قال: كم من صغير السن حملنا عنه كبير علم. وقد قيل: إن قوله: «عن أكابرهم» يعني أصحاب رسول الله ﷺ؛ فهذا مواطئ للخبر الآخر: «لا تزال أمتي بخير ما دام فيهم من رآني، وليأتين عليهم زمانٌ يطلب في أقطار الأرض فلا يوجد أحد رآني».

كيف وقد جاءت بذلك لفظة ذكرتها: لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم عن أصحاب رسول الله ﷺ وعن أكابرهم، فإذا أتاهم عن أصاغرهم استعصى الكبير على الصغير فهلكوا؛ أي فذلك خشية أن لا يتعلم منه، لما ذكرناه من الحياء والتكبر والاستنكاف.

ووجه آخر هذا مجازه عندي: على الخبر والكون، لا على الذم والعيب^(٢)؛

(١) وذلك لما كان عليه الإمام الشافعي رحمه الله من الفقه والعلم.

(٢) كلمة «والعيب» ساقطة من المطبوعة.

لأنه قد جاء في الأثر وصفُ هذه الأمة: «في أول الزمان يتعلم صغارها من كبارها، فإذا كان آخر الزمان تعلّم كبارها من صغارها». فإذا كان كذلك، فهذا تفضيل الأصغار، وتشريف هذه الأمة على سالف الأمم؛ لأنهم لم يكونوا يحملون العلم إلا عن القسيسين والرهبان والأشياخ العباد والزهاد. وأخبر أن هذه الأمة في آخر الزمان تفضل سالف الأمم في أول أزمته، بأن يتعلم الكبير من الصغير؛ لما فضلهم الله تعالى به، فذلك أشدّ وطأ للخبر الآخر: «أمتي كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره». ولثله من الشاهد: «كيف تهلك أمة أنا في أولها، والمسيح ابن مريم في آخرها».

وقد روينا في الخبر: «لا تحقروا عبداً آتاه الله تعالى علماً فإن الله تعالى لم يحقره أن جعل العلم عنده».

وكان شعبة يقول: من كتبتُ عنه حديثاً أو تعلّمتُ منه علماً فأنا عبده. وقال مرة: إذا كتبتُ عن الرجل سبعة أحاديث فقد استرقني.

فأما الخضابُ بالسواد فقد يروى أن بعض العلماء ممن كان يقاتل في سبيل الله تعالى كان يخضبُ بالسّواد، ولكن لم يكن هذا يخضب به لأجل الهوى ولا لتدليس الشيب، إنّما كان يعدّ هذا من إعداد العدة لأعداء الله تعالى، بمعنى قول الله عز وجل: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وإظهار الشباب من القوة، وقد رمل رسول الله ﷺ واضطبع هو وأصحابه ليراهم الكفار، فيعلموا أن فيهم جلدًا وقوة. ومن صنع شيئاً بنية صالحة يريد بذلك وجه الله تعالى، وكان عالماً بمذهب له ذهب إليه، فهو فاضل في فعله، وإن كان ذلك من أدون أعماله لم يتبع أن يُستنَّ به فيه؛ لأنّا روينا عن رسول الله ﷺ: «من شرّ الناس منزلةً عند الله من يقتدى بسيئة المؤمن ويترك حسنته». فأخبر أن للمؤمن سيئة، وأن من شرّ الناس من تأسى بها معذرة لنفسه في هواها.

• باب ما ذكر من نوافل الركوع وما يكره من النقصان منه ^(١)؛

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩]. وروينا عن علي رضي الله تعالى عنه أنه فسرهُ قال: ركعتا الفجر. وكذلك فسرَّ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠]، قال: ركعتا المغرب. وهذا على قراءة من كسر الألف. فأما من نصبها فإن معناه: أدبار الصلوات؛ أي أعقابها وأواخرها.

والتسبيح: اسم للصلاة النافلة، لكون التسبيح فيها. وتُسمى النافلة سُبْحَةً. فمن سنَّ الركوع واستجابهُ أدبار الصلوات وقبلها، الذي لا أَسْتَحِبُّ ترك شيء منه، وبعضه أؤكد من بعض، سبع عشرة ركعة، مجموعٌ من خمسة أحاديث: حديث علي رضي الله تعالى عنه أنه سئل عن صلاة رسول الله ﷺ بالنهار فقال: ست عشرة ركعة. وحديث ابن عمر: «حفظت من رسول الله ﷺ عشر ركعات». وحديث أبي أيوب الأنصاري في الصلاة قبل الظهر. وحديث أنس بن مالك وعائشة في الصلاة بعد العشاء الآخرة، وفي الوتر. وخبرٌ أم حبيبة الوارد بالفضل من العدد: «من صَلَّى في يوم اثنى عشرة ركعة غير المكتوبة بنى الله تعالى له بيتاً في الجنة». وخبر غريب رواه أهل البيت موافقٌ لبعض ما ذكرناه: «إن الله تعالى فرض عليكم في اليوم والليلة سبع عشرة ركعة، وسننتُ لكم مثلها» أول ذلك: ركعتا الفجر، وهما سنة مؤكدة. وأربع قبل الظهر، وهن مستحبات مؤثرة في الاستحباب، وركعتان بعدها، وهما سنة. وأربع قبل العصر، وهى مستحبة مقدّمة لقوله ﷺ: «رحم الله عبداً صَلَّى قبل العصر أربعاً»؛ رجاء أن يدخل في دعوة رسول الله ﷺ. وركعتان بعد المغرب، وهما سنة مؤكدة. وثلاث ركعات الوتر مؤكدة.

فأما حديث علي رضي الله عنه فإنه ذكر من صلاة رسول الله ﷺ شيئاً لم يذكره غيره: أنه ﷺ كان يصلي الضحى ست ركعات في وقتين، إذا أشرقت

(١) قد مضى شيء منه في أوائل الكتاب.

الشمس وارتفعت قام فصلّي ركعتين، وهذا هو الإشراق، وهو الورد الثاني من النهار. وإذا انبسطت الشمس، وكانت في ربع السماء من المشرق، ومثلها حين تكون في ثلاثة أرباع السماء من صلاة العصر، صلى أربعاً، وهذا هو الضحى الأعلى، والورد الثالث من النهار.

والمواظبة على هذه الصلاة بمراعاة هذين الوقتين من عزائم الأعمال وفواضلها. وذكرت أم هانئ أخت على رضى الله تعالى عنه أنه صلى الضحى ثمانى ركعات، أطالهنّ وحسنهنّ، ولم ينقل هذا العدد غيرها. وأما عائشة رضى الله تعالى عنها فإنها ذكرت أنه ﷺ كان يصلى الضحى أربعاً ويزيد ما شاء الله، فلم تحدّد.

وقد روينا في حديث منفرد: أن النبي ﷺ كان يصلى الضحى ست ركعات، وقد روى أبو أيوب الأنصارى عن رسول الله ﷺ شيئاً تفرد به: «إنه لم يكن يدع أن يصلى أربعاً بعد الزوال، وقبل صلاة الظهر، يقرأ فيهنّ بمقدار سورة البقرة. قال: فسألته عن هذه الصلاة فقال: إنّ أبواب السماء تفتح هذه الساعة، ويستجاب الدعاء، فأنا أحبّ أن يُرفع لى فيها عمل صالح».

وقد جاء في حديث أم حبيبة زوج النبي ﷺ مفسراً: «من صلى فى يوم اثنتى عشرة ركعة غير المكتوبة بنى الله له بيتاً فى الجنة، ركعتين قبل الفجر، وأربعاً قبل الظهر، وركعتين بعدها، وركعتين قبل العصر، وركعتين بعد المغرب».

ورواه ابن عمر فى حديثه: «حفظت من رسول الله ﷺ فى كل يوم عشر ركعات» فذكرها إلا قوله: «وركعتين قبل الفجر»، فإنه قال: تلك الساعة لم يكن يُدخل فيها على رسول الله ﷺ. ولكن حدثتني أختي حفصة أنه كان يصلى ركعتين فى بيتها ثم يخرج. وقال فى حديثه: «ركعتين قبل الظهر وركعتين بعد العشاء». وقالت عائشة: «كان رسول الله ﷺ يصلى بعد العشاء الآخرة أربع ركعات ثم ينام».

وقال أنس بن مالك: «كان رسول الله يوتر بعد العشاء بثلاث ركعات. يقرأ فى الأولى بسبح اسم ربك الأعلى، وفى الثانية: قل يا أيها الكافرون، وفى الثالثة:

قل هو الله أحد». وقد جاء في خبر أنه كان يصلى بعد الوتر ركعتين جالساً، وفي بعضها متربّعاً.

وفي بعض الخبر: «إذا أراد أن يدخل في فراشه زحف إليه، وصلى فوقه ركعتين قبل أن يرقد، يقرأ فيهما: إذا زلزلت الأرض، وسورة ألهاكم التكاثر». وفي رواية أخرى: «وقل يا أيها الكافرون».

فإن أضعف العبد هذه السبع عشرة ركعة فجعلها أربعاً وثلاثين يداوم عليها، ويجعلها ورده من الصلاة، فهو أفضل.

وهذا مذهب أهل البيت عليهم السلام، واحتجوا فيه بخبر روه عن النبي ﷺ أنه قال: «فرض الله تعالى على أمتي في اليوم واللييلة سبع عشرة ركعة، وسنت لهم مثلها». وإن كان الحفاظ من أهل النقل يضعفون هذا الحديث، إلا أنه قال عليه الصلاة والسلام: «الصلاة خير موضوع، فمن شاء أكثر ومن شاء أقل». وقال: «بين كل أذان وإقامة صلاة لمن شاء».

فإن فعل ذلك وراعاها على ما يرتبه فهو مقارب لما ذكرناه آنفاً من السنن. والاستحباب قبل الصلوات الخمس وبعدها: ركعتان قبل الفجر، وأربع من الضحى، وأربع قبل الظهر وأربع بعدها، وأربع قبل العصر، وست بعد المغرب، وأربع قبل العشاء وست بعدها، ثم يوتر بواحدة. فهذا حيثنذ نحو ما رسمناه، وهو مشبه لما نقلناه من الآثار. وليستند إلى الخبر المأثور وإلى فعل أهل البيت.

وأكثر ما روى من صلاته ﷺ بالنهار ست عشرة ركعة، ومن صلاته بين العشاءين مما نُقل عنه ست ركعات، وأكثر ما روى من صلاة الضحى ثمانى ركعات، ومن صلاته بالليل ثلاث عشرة ركعة، إلا حديثاً مقطوعاً موقوفاً على طاووس رواه ابن المبارك: «أن النبي ﷺ كان يصلى من الليل سبع عشرة ركعة»، فهو حديث شاذ، وسائر الأخبار المسندة عن ابن عباس، وعائشة، وميمونة، وأم حبيبة؛ إنما هي إحدى عشرة ركعة وثلاث عشرة ركعة.

وأستحب أن يصلى العبد قبل كل صلاة أربعاً وبعدها أربعاً، إلا ما لا صلاة

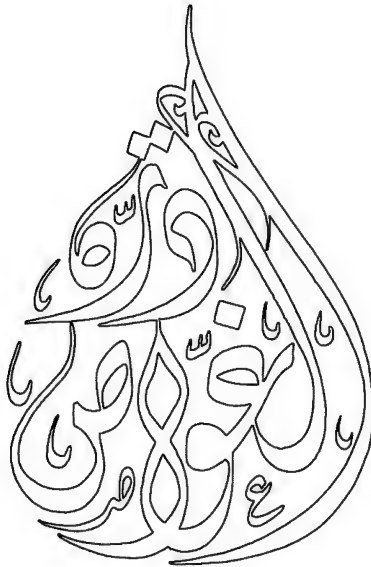
قبلها ولا صلاة بعدها، ثم يزيد بعد ذلك ما قسم الله تعالى له، وأن يصلى الضحى ثمانى ركعات، ويواظب عليهن، إذا نشط أطالهن وإذا فتر قصرهن، فإنّ المداومة على العمل عمل ثان، وهو من أفضل الأعمال وأحبّه إلى الله تعالى، وإلاّ اقتصر على أربع يديمهن.

ولا أكره أن يصلى قبل المغرب ركعتين بعد غروب الشمس. فقد قال أنس بن مالك: كان الكبار من أصحاب رسول الله ﷺ يصلّون ركعتين قبل المغرب.

وكان أبى بن كعب، وعبادة بن الصامت، وأبو ذر، وزيد بن ثابت، وغيرهم من أكابر أصحاب رسول الله ﷺ يصلّونها. وقال عبادة أو غيره: كان المؤذن إذا أذن لصلاة المغرب ابتدر أصحاب رسول الله ﷺ السوارى يصلّون ركعتين.

وقال أيضاً بعضهم: كنّا نصلّى ركعتين قبل المغرب. وذاك داخل فى عموم قوله ﷺ: «بين كل أذانين صلاة لمن شاء».

وقد كان أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى يصلّيهما فعابهما الناس عليه. وقال مرة: لم أر الناس يصلّونهما فتركتهما. وقال: إن صلاهما الرجل فى بيته أو حيث لا يراه الناس فحسن. وكذلك أستحب.



الفصل السابع والثلاثون

كتاب^(١) شرح الكبائر التي تحبط الأعمال وتبوق العمال
وتفصيل ذلك، ومنازل أهلها فيها، ومسألة محاسبة الكفار

قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]. فاشتراط لتكفير الصغائر من السيئات اجتناب الكبائر الموبقات. وقال ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة تكفّر ما بينهنّ لمن اجتنب الكبائر». وفي لفظ آخر: «كفّارات لما بينهنّ إلا الكبائر». فاستثنى من كفّارات الذنوب الكبائر.

فاختلف العلماء من الصحابة والتابعين في الكبائر من أربع، إلى سبع، إلى تسع، إلى إحدى عشرة، فما فوق ذلك، فكان ابن مسعود يقول: هن أربع. وكان ابن عمر يقول: الكبائر سبع. وقال عبد الله بن عمرو: هنّ تسع. وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر أنّ الكبائر سبع يقول: هي إلى سبعين أقرب منها إلى سبع. وقال مرة: كلّ ما نهى الله تعالى عنه فهو من الكبائر. وقال هو وغيره: كلّ ما توعّد الله تعالى عليه بالنار فهو من الكبائر.

وقال بعض السلف: كلّ ما أوجب الحد في الدنيا فهو كبيرة.

والصغائر عندهم من اللّمم وهو ما لا حدّ فيه وما لم يتهدد بالنار عليه. فقد روى هذا عن أبي هريرة وغيره. وكان عبد الرزاق يقول: الكبائر إحدى عشرة. وهذا أكثر ما قيل في جملة عددها مجملًا. وقيل: إنها مبهمّة لا يُعرف حقيقة عددها، كإيهام ليلة القدر، وساعة يوم الجمعة، والصلاة الوسطى؛ ليكون الناس على خوفٍ ورجاءٍ، فلا يقطعون بشيء ولا يسكنون إلى شيء.

وقد قال ابن مسعود فيها قولاً حسناً من طريق الاستنباط، وقد سئل عن الكبائر

(١) ساقطة من المطبوعة، وهي ثابتة في (د، م).

فقال: اقرأ من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها عند قوله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ ، فكل ما نهى الله تعالى عنه من أول السورة إلى هاهنا فهو من الكبائر.

فأشبهه هذا الاستدلال قول ابن عباس في استنباط ليلة القدر أنها ليلة سبع وعشرين، أنه عدّ كلم سورة القدر حتى انتهى إلى قوله ﴿هِيَ﴾ فكان سبعة وعشرين كلمة. والله أعلم بحقيقة هذين القولين.

والذى عندي فى جملة وتفصيله: إنّ الكبائر سبع عشرة مستخرجة من أحاديث متفرقة، جمعنا عدد ذلك، وهو ما اجتمع عليه. ومن حديث ابن عباس، وابن مسعود، وعبد الله بن عمرو، وحديث ابن عمر، وغيرهم من الصحابة والتابعين. يذكر فى حديث ما لا يذكر فى الآخر، فكان جملة^(١) ذلك مجتمعاً من المتفرق سبع عشرة، تفصيلها:

أربعة من أعمال القلوب وهنّ: الشرك بالله تعالى، والإصرار على معصية الله تعالى، والقنوط من رحمة الله تعالى، والأمن بمكر الله تعالى.

وأربعة فى اللسان وهنّ: شهادة الزور، وقذف المحصن وهو الحر البالغ المسلم، واليمين الغموس؛ وهى التى تبطل بها حقاً أو تحقّق بها باطلاً، وقيل: هى التى يُقطع بها مال مسلم ظلماً ولو سواكاً من أراك، وسميت غموساً لأنها تغمسه فى غضب الله تعالى، وقيل: لأنها تغمس صاحبها فى النار، والسحر؛ وهو ما كان من كلام أو فعلٍ يقلب الأعيان، أو يغيّر الإنسان، وينقل المعانى عن موضوعات خلقها. والسحرة: هم النفاثات فى العقد، الذين أمر الله تعالى بالاستعاذة منهم.

وثلاثة فى البطن وهى: شرب الخمر والسُّكر من الأشربة، وأكل مال اليتيم ظلماً، وأكل الربا وهو يعلم.

واثنان فى الفرج وهما: الزنا، وأن يعمل عمل قوم لوط فى الأدبار.

واثنان فى البدن وهما: القتل، والسرقه.

(١) من أول هذه الفقرة إلى هنا ساقط من المطبوعة.

وواحدة في الرجلين وهى: الفرار من الزحف؛ الواحد من اثنين والعشرة من عشرين، غير متحرّف^(١) إلى الأمام، ولا متحيزاً إلى فئة، ولا معتقداً الكثرة.

وواحدة فى جميع الجسد وهى: عقوق الوالدين. وتفسير العقوق جملةً أن يقسما عليه فى حقّ فلا يبرّ قسمهما، وأن يسألاه فى حاجة فلا يعطيها، وأن يأتئها فيخونهما، وأن يجوعا فيشبع ولا يطعمهما، وأن يسبّاه فيضربهما.

وذكر وهب بن منبه اليماني: أفضل البر بالوالدين فى التوراة: أن تقى مالهما بمالك، وتوفّر مالهما وتطعمهما من مالك، وأصل العقوق: أن تقى مالك بمالهما، وتوفر مالك وتأكل مالهما.

وفى حديث أبى هريرة: «الصلاة إلى الصلاة كفارة، ورمضان إلى رمضان كفارة، إلا من ثلاثة: إشارك بالله، وترك السنّة، ونكث الصفقة»؛ بأن تباع الرجل، ثم تخرج عليه بالسيف تقاتله.

وقد رويانا عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من الكبائر استطالة الرجل فى عرض أخيه المسلم بغير حق». ومن الكبائر السبّتان بالسبّة.

وأما عبادة بن الصامت وأبو سعيد الخدرى وغيرهما من الصحابة فكانوا يقولون: إنكم لتعملون أعمالاً هى أدق فى أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر. وهى فى بعض الألفاظ: من الموبقات.

وقالت طائفة: كل عمْدٍ فهو كبيرة. وقال بعض السلف: أربعة أشياء مبهمّة لا يعلم حقائقها: الصلاة الوسطى، وليلة القدر، وساعة يوم الجمعة المرجو فيها الإجابة، والكبائر؛ ذلك ليكون الناس على خوف من الوعيد فى الاتقاء، وعلى رجاء من الوعود فى الابتغاء؛ لئلا يقطعوا بشيء، ولا يسكنوا إلى شيء، والله عاقبة الأمور.

فالذى ذكرناه من الخصائل هو من أوسط الأقوال وأعدلها، وهو ما اتفقوا

(١) فى الأصول: «غير خائف».

عليه، وكثرت الأخبار فيه. فهذه الكبائر الموبقات التي من اجتنابها كُفِّرَتْ عنه السيئات، وثبتت له النوافل من الفرائض الخمس التي هي أبنية الإسلام، وذلك أن دعائم الإسلام وهذه الكبائر قرينان يعتلجان ويتقاومان في العظم والمعنى بالتضاد.

فالكبائر كبرت، فكفَّرَ اجتنابها ما دونها من الصغائر، والفرائض الخمس التي هي أبنية الإسلام إذا تُمِّتْ كُفِّرَتْ ما بعدها من السيئات، وثبت للعبد نوافله، وتبدل سيئاته حسنات، فيكون له فضل عظيم يرجى له الجنة ومنازل العاملين وهو السابق بالخيرات.

قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَجَنَّبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكَفَّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]. وقال من بعد الكبائر: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]. وقال رسول الله ﷺ: «الصلوات الخمس كفارات لما بينهن ما أُجْتَنِبَتِ الكبائر».

فالفرائض الأربع التي هي أبنية الإسلام منوطة بالصلوات الخمس، لا تصح إلاّ بها، كالشيء الواحد بمنزلة الأربع مع الصلوات مرتبطة بالشهادتين، إن ترك خصلةً منها كان كترك الخمس، لأنها أَسُّ الإسلام وأبنية الإيمان. وبمنزلة اجتناب الكبائر منوط بالشهادتين لا يقع^(١) جميع ذلك إلا بهما، فإذا انتهكت الكبائر أُحْبِطَت الأعمال إلا الفرائض الخمس، فإنها عظمت عليها فلم تُحْبِطْها. وإذا أُدِّيت الفرائض الخمس أُحْبِطَت ما بينها من السيئات إلا الكبائر، فإنها كبرت فلم تكفِّرْها، فلا يبقى للعبد يوم القيامة مع ارتكاب الكبائر من الأعمال إلا الفرائض الخمس، وقد أكل سائر نوافله ارتكاب الكبائر، فيُخاف عليه النار ومنازل المسرفين، وهذا هو الظالم لنفسه، وهو الذي حذَّر الله تعالى المؤمنين منه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣].

ومنه قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ [البقرة: ٨١]، قيل:

هي الكبائر أحاطت بجميع حسناته فمحقتها، وعلى هذا اختيارنا هذا الحرف من

مقرانا. وعلى الوجه الآخر: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾، قيل: هو الذى يموت من غير توبة، أحاطت به خطيئة الإصرار. وقد قيل: خطيئة الشرك الذى خُتم له به، فلم ينفعه عمل كان قبله.

فإن قصرَ فى الفرائض الخمس التى هى مبانى الإسلام إلا أنه كان مجتنباً الكبائر، كَفَرَتْ عنه سيئاته كلها، وتُمتت فرائضه بسائر نوافله؛ لأنها ثابتة له بعد أن يحصل له صحة التوحيد، ويسلم من كبائر البدع التى تنقل عن الملة؛ وهذا ممن استوت حسناته وسيئاته: فيطول وقوفه للحساب، ويشاهد الزلازل والأهوال؛ ليكون ذلك رجحان حسناته، أو يُجعل من أصحاب الأعراف على أعراف السُّور، وهى شُرفُها التى بين الجنة والنار، وهو الحجاب الذى بين أهل النار وأهل الجنة، إلى أن يتفضل الله تعالى عليه بفضل رحمته، فإن سمح له مولاه فعفا عنه سقط عنه هذا كله، وأدخل الجنة فى أصحاب اليمين، وهذا هو المقصد المتوسط بين الظالم لنفسه والسابق إلى ربه.

فإن لم يكن له نوافل مع نقصان فرائضه، لم يبق له من أعماله إلا اجتناب الكبائر، فيوزن ما بقى من عمله، وهو اجتنابه الكبائر بفرائضه النواقص، فإن رجح اجتناب الكبائر مثقال ذرة، أو فضلت له حسنة واحدة، ضاعفها الله تعالى بالمزيد، وتجاوز عن سيئاته فى أصحاب الجنة، ولم تكن له مقامات المقربين، ولا درجات السابقين، وهو ممن قال الله سبحانه وتعالى فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] يعنى الجنة.

وإن خفّ إضاعته الفرائض لسنته، كان من الموقنين للحساب الطويل، واحتاج إلى شفاعة الشافعين.

فإن كان فرائضه الخمس ناقصة، وكان مرتكباً للكبائر، فهو من الهالكين؛ لأنه ممن خفّت موازينه من المؤمنين، وهذا من المسرفين، ومن أصحاب النار، فيدخل النار لنقص إسلامه، ولوفور سيئاته عليه، إذ لم تمحها حسناته، ولبُطُول نوافله بانتهاكه الكبائر، ولأن إيمان هذا نقصٌ من مثقال دينار، إلا أنه لا يكون من

المخلّدين لصحّة توحيدِهِ، وعلى أنه أوّل من يخرج من النار من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان، فهو في أول طبقة يخرج هذا إلى زنة شعيرة إلى ذرة من إيمان، وهؤلاء آخر الطبقات خروجاً إلا أن يبدو لبعضهم من الله تعالى ما لا يحتسبه، ويظهر له غداً ما لا يعلمه، فيعفى عن البعض، ولا يجعل مَن حقّ عليه الوعيد لما سبق له من الكلمة الحسنى، ويتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة.

وقد جاء في الخبر: «يؤتى بالرجل من هذه الأمة فيُسَدُّ به ركنٌ من أركان جهنّم».

وقد جاء في الخبر: «إن العبدَ ليقف بين يدي الله عز وجل وله من الحسنات أمثال الجبال لو سلّمت له لكان من أهل الجنة، فيقوم أصحاب المظالم، فيُوجد قد سبَّ عرض هذا، وأكل مال هذا، وضرب هذا، فيُقصُّ^(١) من حسناته حتى لا تبقى له حسنة. فتقول الملائكة: يا ربنا قد فُتيت حسناته وبقي طالبون كثير. فيقال: ألقوا من سيئاتهم على سيئاته وصكّوا له صكّاً إلى النار».

وقد جاء في العلم: إن آخر من يبقى في جهنم من الموحّدين سبعة آلاف سنة.

وروينا عن أبي سعيد الخدري وغيره من الصحابة، وفيه شدّة، قال: والله لا يخرج عبد من النار بعد أن دخلها حتى يقيم فيها سبعة آلاف سنة.

وهذا - والله أعلم - آخر من يخرج من النار؛ لأنهم يخرجون زمراً متفاوتين من اليوم، والجمعة، والشهر، والسنة، إلى ستة آلاف سنة، فأكثرهم إيماناً أقلّهم مقاماً، وأقلّهم مكثاً أولّهم خروجاً.

أما أول زمرة تخرج: مَن في قلبه مثقال ذرة من إيمان، فهذا أقلّهم لبثاً وأسرعهم خروجاً إلى شعيرة إلى ذرة؛ فهؤلاء أقلّهم إيماناً، وأنقصهم توحيداً، وأعظمهم جرماً، وأشدّهم على الله عتياً، وهو أكثرهم مقاماً. وقد اشتهر خبر من يخرج من النار بعد ألف عام ينادى: يا حنان يا منان. فقال الحسن لما روى هذا الحديث: يا ليتني كنت ذلك الرجل؛ لشدّة خوفه خاف أن يدخلها، ثم عظم

(١) في الأصول: «فيقبض».

خوفه فخاف أن لا يخرج منها، فتمنى أن يخرج منها بعد ألف عام. وقد جاء في خبر: «آخر من يخرج من النار»، وهو أيضاً آخر من يدخل الجنة، فلعله - والله أعلم - بعد سبعة آلاف سنة، «فيعطى من الجنة مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف». رواه أبو سعيد وأبو هريرة رضى الله تعالى عنهما عن رسول الله ﷺ.

ومعنى الحكمة فى إدخال البشر النار على ترتيب الكون: أنهم خلُقوا من ماء، ثم خالطه ما امتزج به من الأهواء، فلا يُستخرج ذلك إلا بالنار، فإنها تُخرج الماء مما مازجه حتى يخلص، وأنهم أيضاً خلُقوا من تراب الأرض، بمنزلة الخشب المعوجَّ يُقوَّم بالنار حتى يستقيم، ثم يُقطع عنه بالنار، ويستقيم ذلك، فعندها يصلح لغير النار.

وموضع الحكمة فى تخليد الكافرين والشیاطين فى النار أن أرواحهم خلقت من جوهر النار، فرجعت إلى معدنها، وهى أيضاً سوداء مُظلمة نارية، وهم أيضاً خلُقوا لها، لا يصلحون لغيرها، بمنزلة الحطب والشوك والحراق الذى لا يصلح إلا للنار. فتبارك الله تعالى؛ من حكمته معتدلة فى الأشياء، وحكمه غامضٌ فيها، ينظر بعين التعديل، فيقسم بها المقادير، بمعانى التنقيص والتفضيل.

ومجمل ما ذكرناه أن كلَّ وصف يكون للعبد من الخير يكفر عنه سيئاته فإن نوافله ثبت له، وكلَّ وصف يكون له من الخير لا يكفر سيئاته^(١) فإن نوافله ساقطة، وكلَّ وصف يكون له من الشر لا يحبط نوافله فإن سيئاته مُبدلة حسنات، وكلَّ وصف يكون له من الشر يحبط نوافله^(٢) فإن نوافله موفرة ثابتة. ومن كل عاملاً للحسنات وهو فى ذلك يرتكب بعض الكبائر، فإن أعمال برّه وفضائله موقوفة إلى التوبة، فإن تاب واستقام كفرّت توبته ما سلف من كبائره وبدلت استقامته على الطاعة سيئاته حسنات.

وأكثر ما يوبق الناس من الكبائر المظالم، وأكثر ما يدخلهم النار ذنوب غيرهم إذا طُرحت عليهم، وكثير يدخلون الجنة بحسنات غيرهم إذا طُرحت عليهم؛ لأنها

(١) من قوله: «فإن نوافله» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

(٢) من قوله: «فإن سيئاته مبدلة» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

صحيحة ثابتة، وقد تبطل حسناتهم لدخول الآفات عليها. بلغنى عن أبى عبد الله ابن الجلاء: أن بعض إخوانه اغتابه، ثم أرسل إليه ليستحلّه، فقال: لا أفعل، ليس فى صحيفتى حسنة أفضل منها، فكيف أمحوها؟ وكان هو وغيره يقول: ذنوب إخوانى أفضل من حسناتى، أريد أن أزين صحيفتى بها.

وفى الحديث: «ذنب يُغفر، وذنب لا يُترك»؛ فالذنب الذى يغفر ظلمك نفسك، والذنب الذى لا يُترك مظالم العباد، والتوبة طريق الكل، والرحمة تسعهم، وباب التوبة مفتوح للكافة إلى طلوع الشمس من مغربها، وكلُّ عبد توبته متقبّلة ما لم تبلغ الروح الحلقوم ولم يعاين الملائكة، فإذا بلغت الروح التراقي، وعانيت الأملاك، غُلّق عليه باب التوبة، ومات على الإصرار، ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ أى من يرقى بروحه: ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ ﴿وظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ [القيامة: ٢٧ - ٢٨] أيقن أنه قد فارق الدنيا بمعاناة الآخرة، وفارق الناس والأهل بمعاناة الملائكة، فإن مات عن غير توبة كان ممن قال الله عز وجل: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ قيل: التوبة ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ [سبا: ٥٤]. وكما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ﴾ [النساء: ١٨].

وحضور الموت يكون عند معاينة ملك الموت إذا خرجت الروح من جميع الجسم، فلم يبق إلا ما بين القلب والعينين، فهو الوقت الذى قال الله عز وجل: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]. وهو الذى خوّف منه فى قوله تعالى: ﴿هَلْ يَظُنُّونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يعنى عند الموت؛ وهذا لأهل المعاينة ﴿أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ﴾ يعنى يوم القيامة؛ وهذا لأهل البرزخ ﴿أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ رهو اليأس الذى يقع عنده من الدنيا؛ اليأس من طلوع الشمس من مغربها وهو آخر التوبة، ويؤمن معه كل كافر، فقال سبحانه. ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ أى من قبل

المعاينة ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] قيل: التوبة، وهو الوقت الذي قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ يعني كشف الغطاء ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سِنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ [غافر: ٨٤ - ٨٥] يعني طريقته وشأنه الذي مضى في الخلق لا تبديل له، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

وحكم العباد كلهم في المعاد إلى الله عز وجل، إن عذبهم بما اكتسبوا ويعفو عن كثير، وإن شاء أن يغفر لهم وهو الغفور الرحيم.

وقد يتفاوت الناس في جميع ما ذكرناه من أداء الفرائض ومن ارتكاب المعاصي^(١). فمنهم من يكون حسن الأداء لفرضه، كثير الندم والإشفاق من معاصيه، فيكون هذا أحسن حالاً. ومنهم من يكون سيئ الأداء، قليل الحزن والندم على ذنوبه، فيكون هذا أسوأ حالاً. وليس يجرون في ذلك على قياس واحد، والله يغفر لمن يشاء الذنب العظيم، ويعذب من يشاء على الذنب الصغير، لما سبق لهما في علمه، ولما نفذ لهما من مشيئته وحكمه.

وقد يشترك الاثنان في معصية، ويتفاوتان في حكم المشيئة، ويتوب الله على من أحب، ويتقبل ممن يحب. والقبول غير العمل؛ على العبد العمل وإلى المولى القبول، يقبل ممن يحب، ويرد ما يشاء ممن يشاء. والسابقة غير المعصية؛ السابقة في المشيئة يغفر لمن سبقت له، الحسنى جميع معاصيه السوأى، ويعذب من حقت عليه كلمة العذاب، ويحبط أعماله الحسنى. والخلق مردودون إلى السابقة، ومحكوم عليهم بعلم الله تعالى فيهم.

وفي الخبر: «هلك المصرون قدماً إلى النار»، والإصرار: يكون بمعنى أن يعقد

(١) من هنا حدث خلل كبير في المطبوعة إذ تقدم جزء كبير من الفصل التالي عن موضعه ووضع هنا، وتأخر بقية هذا الفصل إلى الفصل الذي يليه، راجع المطبوعة الميمنية ١٥١/٢ - ١٦٤، وتبعها في ذلك كل الطباعات التي تلتها معتمدة عليها دون تنبيه. بينما النص في الأصول المخطوطة التي بين يدي على الوجه الصحيح الذي وضعته الآن.

بقلبه متى قدر على الذنب فعله، أو لا يعقد الندم عليه ولا التوبة منه، وأكبر الإصرار السعى في طلب الأوزار. وفي الخبر: «سبق المُفْرِدُونَ المستهترون»^(١) بذكر الله تعالى، وضع الذكر أوزارهم فوردوا القيامة خفاً. فهؤلاء الذين سبقت لهم منه الحسنى من المقربين، أخبر رسول الله ﷺ أن لهم أوزاراً وضعتها الأذكار. وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠ - ١١]. هذا ما علمناه من أدلة العلوم وتأويل التنزيل، وعفو الله تعالى وإرادته من وراء ذلك كله، وعلمه القديم، والله عاقبة الأمور.

• مسألة محاسبة الكفار:

فأما محاسبة الكفار فهذه مسألة اختلف الناس فيها، فمنهم من ذهب إلى أنهم يحاسبون، ومنهم من أنكر حسابهم، وقد اختلفت الآثار في ذلك، فقد جاء في بعضها ما يدل على حسابهم، وبه تعلق من قال به. وجاء في كثير منها ما يدل على أنهم لا يحاسبون، وبه احتج من أنكر حسابهم.

وإنما يرجع عند الاختلاف إلى كتاب الله تعالى، ففيه الشفاء وبه الغنى، فنفصل ما أجمل القائلون، ونعدّل في القول الشديد فيما تأوله المتأولون، فنقول والله أعلم: إن الله سبحانه ذكر في كتابه آيتين تدلان على المسألة للكفار عن الشرك الذى أدخلوا في التوحيد، وعن إجابة المرسلين وتكذيبهم، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢]. ثم قال في الآية الأخرى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]. فنقول على هذا: إنهم^(٢) يُسألون عن التوحيد فقط، وعن تكذيب المرسلين حسب، بهاتين الآيتين.

وقال في الآيتين الأخرتين: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]. وقال في الأخرى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]. ثم

(١) أى المولعون بذكر الله عز وجل.

(٢) فى المطبوعة: «فنقول: إنهم على هذا»، وأثبت ما فى الأصول.

قال: ﴿يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيَمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١]. فهذا نصٌّ في ترك المساءلة على الذنوب والأعمال.

فنقول بهاتين الآيتين: إنهم لا يُسألون عن الأعمال، وإنما يُحاسب على العمل من كانت بينه وبينه معاملة، ومن ثبتت له حسنات يقع بها ترجيح وموازنة. وقد روينا عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه في قوله تعالى: ﴿وَقِفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصفات: ٢٤]، قال: عن قول: لا إله إلا الله. وقد روينا مرفوعاً إلى النبي ﷺ. فهذا على معنى ما ذكرناه أنهم يُسألون عن التوحيد.

فالناسُ من أهل الجنة والنار يُحشرون يوم القيامة على ست طبقات^(١): طائفةٌ تدخل الجنة بغير حساب، وهم السابقون المقربون. وطائفةٌ تدخل الجنة بعد الحساب اليسير، وهم خصوص المؤمنين والصالحين. ومنهم من يدخل بعد الحساب الطويل والمناقشة، وهم أصحاب اليمين وعموم المؤمنين.

وكذلك أهل النار ثلاث طبقات: طائفةٌ تدخل النار بغير سؤال ولا حساب، عالمان من عبدة الأوثان من ولد يافث بن نوح، وهم يأجوج ومأجوج خلقوا للنار. وطائفةٌ تدخل النار بعد الحساب الطويل والمناقشة، وهم أهل الكبائر والمنافقون. وطائفةٌ بسؤال وتوقيف من غير محاسبة على الأعمال، وهم أمم الأنبياء المرسل إليهم المرسلون؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ٦] الآية.

وقد روينا في الخبر المشهور: «من نُوقِش الحساب عُدِّبَ. فقيل: يا رسول الله، أليس الله تعالى يقول: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]؟ فقال: ذلك العرض، ومن نُوقِش الحساب عُدِّبَ». وقد كان إمامنا سهل بن عبد الله يقول: يسأل الكفار عن التوحيد ولا يسألون عن السنة، ويسأل المبتدعون عن السنة، ويسأل المسلمون عن الأعمال.

(١) أى ثلاث لأهل الجنة، وثلاث لأهل النار.

فأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥ - ٢٦].
ففيه وجهان:

أحد الوجهين: أن يكون هذا كلاماً منفصلاً عما قبله يراد به المسلمون؛ لأنه ذكر خبر الكفار فختمه بالعذاب، فقال في أول الكلام: ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ [الغاشية: ٢٣ - ٢٤] هذا آخر خبرهم، ثم استأنف مخبراً عن غيرهم فقال: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾. والوجه الآخر: أن يكون قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ أى جزاءهم، فالحساب أينما ذكر للكفار يكون بمعنى المجازاة على أعمالهم السيئة. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ﴾ [النور: ٣٩] يعنى جزاءه.

إلا أن الفراء^(١) وغيره من أهل اللسان خالفونا في هذا، فاعتبروه بما بعده، فجعلوه دليلاً على المحاسبة. قالوا: احتمل أن يكون قوله: ﴿فَوْقَهُ حِسَابَهُ﴾ أن يكون جزاءه كما قلنا، واحتمل أن يريد محاسبته، فلما قال عقبيه: ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ كشف التنزيل التأويل، دلّ بذلك أن حسابه يعنى بمحاسبته.

وكذلك قال الزجاج في تأويل ما ذكرناه آنفاً من قوله: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصاص: ٧٨]، فقال: إنما معناه لا يسألون ليؤخذ العلم من قبلهم^(٢)، أو ليرجع إليهم في علم ذلك وسبقه عليهم، أى قد فرغ الله عز وجل من ذلك فأحكمه لما سبق من علمه.

وواطأه مقاتل بن سليمان على هذا التأويل باختلاف معنى بمعنى صنعتته التفسير - لأنه لم يكن له في اللغة تمكين - فقال: معنى ذلك: ولا يسأل هؤلاء المجرمون عن ذنوب السالفين؛ فجعل الهاء والميم عائدة على من تقدم ذكره من قارون وأصحابه والقرون السالفة؛ لأن ذكرهم كان سياق هذا الخطاب في قوله تعالى:

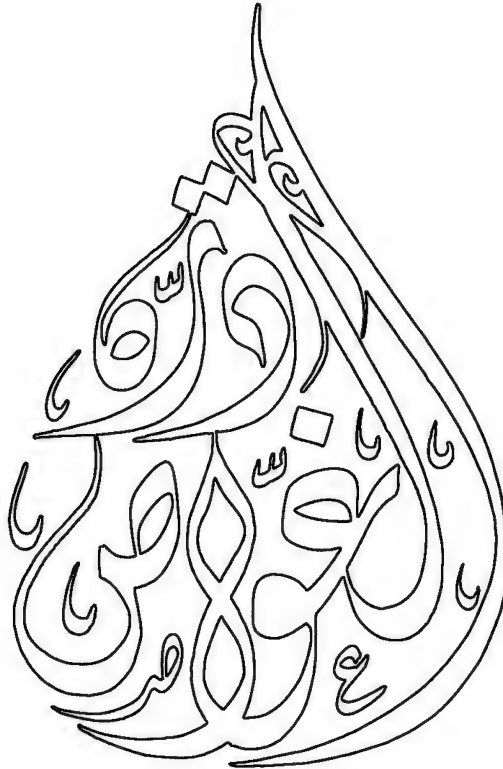
(١) انظر: معاني القرآن، للفراء، ٢/ ٢٥٤.

(٢) في المطبوعة: «لتوجه من قبلهم». وفي (م): «التوحيد العلم»، وهو تحريف، وأثبت ما فى (هـ). ولم أجد كلام الزجاج فى «معانيه» المطبوع.

﴿أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾، ثم قال: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ﴾ يعنى هؤلاء ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨] يعنى مشركى هذه الأمة.

وقال أيضاً هو وغيره: إن الكفار سألوا فقالوا: ترى ماذا فعل الله تعالى بالقرون الأولى الذين يقص علينا نبأهم؟ قال: فنزلت هذه الآية، فهى بمنزلة قول فرعون: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾؟ فقال موسى عليه السلام: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى﴾ [طه: ٥١ - ٥٢].

إلا أن الله عز وجل قد قال فى ذكر الحساب بمعنى الجزاء: ﴿عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ [النبا: ٣٦] يعنى مجازاة، وقيل: كفاية؛ بمعنى كفاهم وأحسبهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿حَسَبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [المجادلة: ٨] أى كافيههم ذلك.



الفصل الثامن والثلاثون

كتاب الإخلاص وشرح النيات، والأمر بتحسينها في تصريف الأحوال،
والتحذير من دخول الآفات عليها في الأفعال

قال الله الكبير المتعال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾
[البينة: ٥].

وقال رسول الله ﷺ: «ثلاث لا يغلُّ عليهن قلبُ رجلٍ مسلم: إخلاص العمل
لله تعالى...».

وقال: «إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى».

وقد روينا في الحديث من طريق أهل البيت عليهم السلام: «لا يقبل الله تعالى
قولا إلا بعمل، ولا قولا وعملا إلا بنية».

وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه: أفضل الأعمال أداء ما افترض الله
تعالى، والورع عما حرم الله تعالى، وصدق النية فيما عند الله عز وجل.

فينبغي أن يكون للعبد في كل شيء نية، حتى في مطعمه، ومشربه، وملبسه،
ونومه، ونكاحه؛ فإن ذلك كله من أعماله التي يُسأل عنها، فإن كانت لله تعالى
وفيه كانت في ميزان حسناته، وإن كانت في سبيل الهوى ولغير المولى، كانت في
ميزان سيئاته، إذ لكل عبدٍ ما نوى.

وإن كان ذلك غفلة وسهواً من غير نية، ولا عقد طويّة، ولا حسبة، لم يكن
له في ذلك شيء، ولم يجد عمله في الآخرة شيئاً، وكان فيه لا له ولا عليه،
وكان ذلك في الدنيا على مثال الأنعام التي تتصرف عن غير عقول ولا تكليف
ولكن بالهام وتوقيف، وأخاف أن يدخل في وصف من قال الله تعالى: ﴿أَغْفَلْنَا
قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. قيل: مجازفة قُدماً قُدماً

عن غير تمييز. وقيل: فرطاً^(١)؛ أى غفلة وسهواً. وقيل: تفريطاً وتضييعاً. وقيل: مقدماً إلى الهلاك.

فالنية الصالحة هى أول العمل الصالح، وأول العطاء من الله تعالى وهو مكان الجزاء، وإنما يكون للعبد من ثواب الأعمال على حسب ما يهب الله تعالى له من النيات، فربما اتفق فى العمل الواحد نيات كثيرة على مقدار ما يحتمل العبد من النية، وعلى مقدار علم العامل، فيكون له بكل نية حسنة، ثم يضاعف كل حسنة عشر أمثالها؛ لأنها أعمال تجتمع فى عمل.

وصورة النية معنيان؛ أحدهما: صحة قصد القلب إلى العمل بحسن التيقُّظ فيه، والإخلاص به لوجه الله تعالى، ابتغاء ما عنده من الأجر.

فكلُّ عملٍ كان على علم بهذه النية فهو صالح متقبَّل بفضل الله تعالى وبرحمته؛ لأنَّ صاحبه قد اتقى الشرك والجهل والهوى، فعمله مرفوع فى الخزائن مدَّخر له الجزاء.

وحقيقة الإخلاص: سلامته من وصفين؛ وهما: الرياء والهوى؛ ليكون خالصاً كما وصف الله تعالى الخالص من اللين، فكان بذلك تمام النعمة علينا، فقال: ﴿مَنْ بَيْنَ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا﴾ [النحل: ٦٦]. فلو وجد فيه أحد الوصفين من فرث أو دم لم يكن خالصاً ولم تتم النعمة به علينا، ولم تقبله نفوسنا. فكذلك معاملتنا لله عز وجل إذا شابها رياء بخلق، أو هوى من شهوة نفس، ولم تكن خالصة، لم يتم بها الصدق والأدب فى المعاملة، ولم يقبلها الله تعالى منا، فاعتبروا.

وروينا عن سعيد بن أبى بردة عن كتاب عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه إلى أبى موسى الأشعرى: إنه من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس، ومن تزىّن للناس بما يعلم الله تعالى منه غير ذلك شانه الله تعالى، فما ظنك؟

وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز: اعلم يا عمر أن الله تعالى عونٌ للعبد بقدر النية، فمن تَمَّت نيته تمَّ عونُ الله تعالى إياه، ومن قَصُرَتْ عنه نيته

(١) من قوله: «قيل: مجازفة» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

قصر عنه من عون الله تعالى بقدر ذلك .

وقد قال الله تعالى فى تصديق ذلك: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ٣٥] . فجعل سبب التوفيق إرادة الإصلاح؛ فذلك هو أول التوفيق من الموفق المصلح للعامل الصالح .

وقال بعض السلف: رأيت الخير إنما يجمعه حسن النية وكفاك به خيراً، وإن لم ينصب، رُبَّ عمل صغير تعظمه النية، ورُبَّ عمل كبير تصغره النية .
وكتب بعض الأولياء إلى أخيه: أخلص النية فى أعمالك يكفك القليل من العمل .

وقال داود الطائى: البرُّ همُّ التقوى، ولو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته بنيته يوماً إلى نيةٍ صالحة . فكذلك الجاهل بالله تعالى وأيامه همُّ الدنيا والهوى، ولو تعلقت جوارحه بكلِّ أعمال الصالحات لكان مرجوعاً إلى إرادة الدنيا وموافقة الهوى، لأن سرّها كان همة النفس لعاجل عرض الدنيا .

وقال محمد بن الحسين: ينبغى للرجل أن تكون نيته بين يدى عمله . وقال أيوب السخيتانى وغيره: تخلص النيات على العمّال أشدّ عليهم من جميع الأعمال . وقال الثورى: كانوا يتعلمون النية للعمل كما يتعلمون العلم . وقال بعض العلماء: اطلب النية للعمل قبل العمل، وما دمت تنوى الخير فأنت بخير .
وقال زيد بن أسلم: خصلتان هما كمال أمرك: تصبح ولا تهتم^(١) لله تعالى بمعصية، وتمسى ولا تهتم لله تعالى بمعصية .

وكذلك قال بعض السلف فى معناه: إنّ نعمة الله تعالى أكثر من أن تحصوها، وإن ذنوبكم أخفى من أن تعلموها، ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين يغفر لكم ما بين ذلك .

وروينا فى الخبر عن بعض المريدين: أنه كان يطوف على العلماء يقول: من يدلّنى على عمل لا أزال فيه عاملاً لله تعالى، فإنى أحبّ أن لا تجيء على ساعة
(١) أى لا يصيبك همُّ المعصية .

من ليلٍ أو نهارٍ إلا وأنا عامل من عمال الله تعالى. فقليل له: قد وجدت حاجتك، اعمل الخير ما استطعت، فإذا فترت أو تركته فهم بعمله، فإن الهام بعمل الخير كعامله.

وروينا عن عيسى عليه الصلاة والسلام: طوبى لعين نامت ولا تهم بمعصية وأنتبهت إلى غير إثم.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «من همّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة، ومن همّ بسيئة ولم يعملها كتبت له حسنة». وقد جاء في الخبر المشهور: «نية المؤمن خير من عمله».

• تفسير قوله: «نية المؤمن خير من عمله»:

فيه عشرة أوجه: قيل: إن النية سرّ وأعمال السرّ تضاعف. وقيل: لأنها غيب لا يطلع عليها غير الله تعالى، والظواهر مشتركة. وأيضاً فإن الله عز وجل يهبها للعبد خالصة لا يشوبها شيء إذا وهبها، ولا تدخل عليها الآفات؛ هذا عطاء مهياً^(١) وسائر الأعمال مدّخر له. وأيضاً لأنها من شرط العمل حتى لا يصح عمل إلا بها، وهي تصح بمجرد ما.

وكان عبد الرحيم بن يحيى الأسود يقول: معنى قوله: «نية المؤمن خير من عمله»: يعنى إخلاصه في العمل خير من العمل. قال: فالإخلاص بغير عمل خير من عمل غير مخلص، والنية عنده: هو الإخلاص نفسه، وعند غيره: هو الصدق في الحال، واستواء السريرة والعلانية.

وقد قال الجنيد رحمه الله تعالى في الفرق بين الإخلاص والصدق معنى لطيفاً لم يفسره ويحتاج إلى تفسير. حدثنا بعض الأشيخ عنه قال: شهد جماعة على رجل بشهادة فلم تضره، وكانوا مخلصين، ولو كانوا صادقين لعوقب. يعنى أن صدقهم أن لا يعملوا عمله، أو مثل عمله الذى شهدوا به عليه؛ فهذا صدق الحال، وهو حقيقة النية وإخلاصها عند المحققين.

(١) فى الأصول: «مهياً».

وقد قيل فى معنى قوله «نية المؤمن خير من عمله»: إن نية المؤمن دائمة ومتصلة، والأعمال منقطعة، وبالنسبة خلّد أهل التوحيد فى الجنة، وخلّد أهل الشرك فى النار؛ لدوام نياتهم على التوحيد، ودوام نيات الآخرين على الشرك مدة الدهر؛ فهذه المعانى كلها على هذا الوجه الذى يقول فيه: إنّ معناه أنّ النية خير من العمل.

وفيه وجه آخر يكون الكلام فيه على التقديم والتأخير، أى: نية المؤمن هى من عمله خير، كأنه قال: هى بعض أعماله الخير. فهذا كقوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ [البقرة: ١٠٦] معناه: نأت منها بخير. وكما قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧] معناه: يسألونك عنها كأنك حفى بهم، فأخّر قوله ﴿عَنْهَا﴾ ومعناه التقديم، فيكون هذا على التأويل أنّ النية من أعمال القلوب، وأنها من أعمال العبد خير كثير.

وهذه الأقوال كلها صحيحة، وهى موجودة فى النية، ففُضِّلَتِ النيةُ العملَ، لأن هذه المعانى من صفتها.

وقال بعض التابعين: قلوب الأبرار تغلى بالبرّ، وقلوب الفجار تغلى بالفجور، والله تعالى مطلع على نياتهم فيثيبهم بقدر ذلك، فانظر ما همك وما نيتك.

وروينا عن الله سبحانه وتعالى فى بعض الكتب أنه قال: «ليس كلّ كلام الحكيم أتقبل، ولكنى أنظر إلى همّه وهواه، فمن كان همه وهواه لى، جعلت صمته ذكراً، ونظره عبراً». وهذا داخل فى عموم الخبر الذى رويناه عن نبينا ﷺ: «إنّ الله تعالى لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم إنّما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

وسئل سفيان الثورى: هل يؤاخذ العبد بالنية؟ قال: نعم، إذا كانت عزمًا أخذ بها. وفى الخبر: «إنّ العبد ليعمل أعمالاً حسنة، فتصعد بها الملائكة فى صحف مختمة، فتلقى بين يدى الله تعالى، فيقول: ألقوا هذه الصحيفة، فإنه لم يرد بذلك وجهى، ثم ينادى الملائكة: اكتبوا له كذا واكتبوا له كذا. فيقولون: ربنا إنه

لم يعمل شيئاً من ذلك . فيقال : إنه نواه»

وفي حديث أبي كبشة الأنماري : «الناسُ أربعة : رجلٌ آتاه الله عزّ وجلّ علماً ومالاً فهو يعمل بعلمه في ماله ، فيقول رجل : لو آتاني الله تعالى ما آتاه لعملت كما يعمل ؛ فهما في الأجر سواء . ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً فهو يتخبط بجهله في ماله ، فيقول رجل : لو آتاني الله مثل ما آتاه عملت كما يعمل ؛ فهما في الوزر سواء» .

ألا ترى كيف شرّكه بحسن النية في محاسن عمله ، وشرّكه الآخر بسوء النية بنيته في مساوئ عمله؟

وكذلك في حديث أنس بن مالك لما خرج رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قال : «إن بالمدينة أقواماً ، ما قطعنا وادياً ، ولا وطئنا موطئاً يغيظ الكفار ، ولا أنفقنا نفقة ، ولا نصبنا نصباً ، ولا أصابتنا مخمصة ، إلّا شركونا في ذلك ، وهم بالمدينة . قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا؟ قال : حبّسهم العذر ، فشركونا بحسن النية» .

وقال بعض السلف : صلاح الأعمال وفسادها بصلاح النيات وفسادها . وكان مطرّف يقول : صلاح عمل بصلاح قلب ، وصلاح قلب بصلاح نية ، ومن صفا صفى له ، ومن خلط خلط عليه .

وكذلك جاء في الخبر ، وهو أصل من أصول الدين ، قوله ﷺ : «إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه» . فأخبر أن لا عمل إلّا بالنية ، ثم جعل لكل عبد نية ، ثم ردّ طالبي الدنيا والأزواج إلى نياتهم ، وحكم عليهم بها ، وجعلها نصيبهم من الله تعالى ، وفق ذلك لهم أو لم يوفقه ، فبطلت هجرتهم بفساد نياتهم ، وصارت همتهم بدنياهم وهواهم سبب حرمان ثواب المخلصين لله بحسن نياتهم ، وطلب آخرتهم ؛ وكان ذلك في الآخرة حسرة عليهم ، وفي الدنيا نقصاً وشيئاً لهم .

وفي حديث ابن مسعود : «من هاجر يبتغي شيئاً فهو له . فهاجر رجل فتزوّج

امرأة منا، فكان يُسمَّى مهاجر أم قيس». قال أبو داود: هذا الحديث ربع العلم. وذلك أنه قال: جمعتُ السنن الصحاح في حديث النبي ﷺ فكانت أربعة آلاف حديث. ثم قال: قد أمرتها على أربعة أحاديث؛ كل حديث ربع العلم. قال: وهذا الحديث أولها.

وإنما قال ذلك؛ لأنه فرض الفروض، لأنه لا يتم فرض إلا به.

وكذلك جاء في الخبر: أن رجلاً قُتل في سبيل الله عزّ وجلّ، فكان يُدعى قتيل الحمار، وذلك أنه قاتل رجلاً ليأخذ سلبه وحماره، فقتل على ذلك فأُضيف إلى نيته.

وفي حديث عبادة عن النبي ﷺ: «من غزا وهو لا ينوي إلا عقلاً فله ما نوى». وقال: إني استعنت رجلاً يغزو معي، فقال: لا حتى تجعل لي جُعلًا، فجعلت له، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال له: «ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلت له».

وروي في الإسرائيليات أن رجلاً مرّ بكثبان من رمل، في مجاعة، فقال في نفسه: لو كان لي هذا الرمل طعامًا لقسمته بين الناس. قال: فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أن قل له: إنّ الله تعالى قد قبل صدقتك، وقد شكر حسن نيتك، وأعطاك ثواب ما لو كان طعامًا فتصدّقت به.

وفي أخبار كثيرة: «مَنْ هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة».

وفي حديث عبد الله بن عمر: «من تكن الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه، وفارقها أرغب ما يكون فيها، ومن تكن الآخرة نيته جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه ضيعته، وفارقها أزهّد ما يكون فيها».

وحديث أم سلمة: «ذكر النبي ﷺ جيشًا يُخسف بهم في البداء، فقلت: يا رسول الله، يكون فيهم المكره والأجير؟ فقال: يُحشرون على نيّاتهم».

وفي حديث عمر مثله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما يقتل المقتتلون على النيّات».

وفى حديث فضالة: «من مات على مرتبة من المراتب بُعث عليها».

وكذلك قال فى الخبر: «إذا التقى الصّفان نزلت الملائكة، تكتب الخلق على مراتبهم: فلان يقاتل للدين، فلان يقاتل عصبية، إلّا فلاناً يقولون: قُتل فلان فى سبيل الله. فمن قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله تعالى».

وعن جابر عن رسول الله ﷺ: «يُبعث كل عبد على ما مات عليه».

وفى حديث الأحنف بن قيس عن أبى بكر: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار. قيل: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: لأنه أراد قتل صاحبه».

والنية عند قوم الإخلاص بعينه، وعند آخرين الصدق، وعند الجملة: أنها صِحّة العقد وحُسن القصد، وهى عند الجماعة: من أعمال القلوب، مقدمة فى الأعمال، وأوّل كلّ عمل. وقد قال الله تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الاحزاب: ٤١]. قيل فى التفسير: خالصاً، فسمى الخالص كثيراً، وهو ما خلُصت فيه النية لوجه الله تعالى، ووصف ذكر المنافقين بالقلّة فقال: ﴿يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، يعنى غير خالص؛ لأنه أريد به الناس والدين، وهى قليل، فصار ما عمل لأجلها أقلّ، والله تعالى أكثر وأطيب، فكان ما عمل لأجله كثيراً^(١). وسُميت سورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ سورة الإخلاص؛ لأنها خالصة فى ذكر صفات الله تعالى وحده، لا يختلط بذكر جنة ولا نار، ولا وعد ولا وعيد، ولا أمر ولا نهى. وكذلك قيل: سورة التوحيد؛ إذ لا شريك فيها من سواه.

فأول سلطان العدو على القلب عند فساد النية، فإذا تغيرت من العبد طمع فيه، فيتسلط عليه، وأول ارتداد العبد عن الاستقامة ضعف النية، فإذا ضعفت النية قويت النفس، فتمكّن الهوى، وإذا قويت النية صحّ العزم وضعفت صفات النفس، ولأن ينتقل العبد من معصية إلى معصية دونها فيكون تاركاً للأولى بنية

(١) من قوله: «لأنه أريد به» إلى هنا من (هـ) فقط.

الترك لأجل الله تعالى كان أنفعَ له، وأحمد عاقبة، وأصلحَ لقلبه، وأقربَ إلى توبته من افتعال الطاعات مشوبة بالهوى وفساد النيات؛ لأنه يكون حينئذ متقلباً في المعاصي بفساد نيته، وخالط عملاً سيئاً بسيئ مثله، ودرأ بالسيئة السيئة قبلها، وهذا بخلاف وصف الله تعالى من قوله: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢]. وقوله: ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: ٢٢]. ومخالف لأمر رسول الله ﷺ في قوله: «أتبع السيئة الحسنة تمحها». وفي حديث أبي هريرة: «من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوى أدائه فهو زان، ومن أدان ديناً وهو لا ينوى قضاءه فهو سارق».

وفي حديث ابن مسعود: «ذكر عند رسول الله ﷺ الشهداء فقال: إن أكثر شهداء أمتي لأصحاب الفرش، ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته».

وقال ثابت البناني: نية المؤمن أبلغ من عمله، إن المؤمن ينوى أن يصوم النهار، ويقوم الليل، ويخرج من ماله، فلا يتابعه نفسه على ذلك، فنيته أبلغ من عمله. وقد ضرب النبي ﷺ مثل القلب بالملك والجوارح جنوده، قال: «إذا صلح القلب صلح الجسد، وإذا فسد فسد الجسد»، معناه: إذا صلحت للعبد نيته دامت للعبد استقامته، وإذا خلص وصفاً من شوب الكدر والهوى خلصت الأعمال من الرياء، وصفت من الشهوات والأهواء، وإذا فسدت نيته بحب الدنيا فسدت أعمال الجوارح بحب المدح والرياء.

وقد حدثونا في الإسرائيليات: أن عابداً عبد الله تعالى دهرًا طويلاً، فجاءه قوم فقالوا: إن هاهنا قومًا يعبدون شجرة من دون الله تعالى، فغضب لذلك، فأخذ فأسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها، فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال: أين تريد رحمك الله؟ قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة التي تُعبد من دون الله. قال: وما أنت وذاك؟ تركت عبادتك والاشتغال بنفسك وتفرغت لغير ذلك؟ فقال: إن هذا من عبادتي. فقال له: إني لا أتركك تقطعها. قال: فقاتله فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض وقعد على صدره، فقال له إبليس: أطلقتني حتى أكلمك، فقام عنه، فقال له إبليس: يا هذا إن الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم

يفرضه عليك. أنبى أنت؟ قال: لا. قال: فلا عليك ممن كان يعبدها، فلو اشتغلت بعبادتك وتركتها، فإن الله تعالى فى أرضه أنبياء لو شاء لبعثهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها. فقال العابد: لا بد لى من قطعها. قال: فنبذه إبليس القتال فغلبه العابد فأخذه وصرعه وقعد على صدره.

فلما رأى إبليس أنه لا طاقة له به ولا سلطان له عليه قال: يا هذا هل لك فى أمرٍ فصل بينى وبينك وهو خير لك، وأنفع من هذا الأمر الذى جئتَ تطلبه؟ قال: وما هو؟ قال: قم عنى حتى أخبرك به، فأطلقه العابد، فقال له إبليس: أنت رجل فقير لا شىء لك، إنما أنت كلٌّ على الناس يعولونك، ولعلك تحب أن تفضل على إخوانك، وتواسى جيرانك، وتتسع فى حالك، وتستغنى عن الناس. قال: نعم. قال: فارجع عن هذا الأمر الذى جئت فيه ولك على أن أجعل عند رأسك فى كل ليلة دينارين، إذا أصبحت أخذتهما فصنعت بهما ما شئت، وأنفقت على نفسك وعيالك وتصدقت على إخوانك، فيكون لك أفضل من ذلك وأنفع للمسلمين من قطع هذه الشجرة، التى يُغرس مكانها ولا يضرهم قطعها شيئاً، ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك لها.

قال: فتفكر العابد فيما قال له، وقال: صدق الشيخ، لست بنبى فيلزمنى قطع هذه الشجرة، ولا أمرنى الله تعالى أن أقطعها فأكون قد عصيتُ بتركها، وإنما هو شىء تفضلت به، وماذا يضرّ الموحدّين من بقائها، وهذا الذى ذكره أكثر منفعة لعموم الناس.

قال: فعاهده على الوفاء بذلك، وحلف له، فرجع العابد إلى متعبده فبات ليلته فأصبح فإذا ديناران عند رأسه فأخذهما، ثم كذلك الغد، ثم أصبح اليوم الثالث فلم يرَ شيئاً، ثم أصبح بعد ذلك فلم يجد، فغضب، وأخذ فأسه على عاتقه، وخرج يؤمّ الشجرة ليقطعها، وقال: إن فاتنى أمر الدنيا لا أتركنّ أمر الآخرة.

قال: فاستقبله إبليس فى صورة شيخ فقال: أين تريد؟ قال: أقطع تلك الشجرة. قال: كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك، ولا سبيل لك إليها. قال:

فتناوله العابد ليأخذه كما فعل أول مرة، فقال: هيهات. قال: فأخذه إبليس فصرعه فإذا هو كالعصفور بين يديه. قال: وقعد إبليس على صدره وقال: لتنتهين عن هذا الأمر أو لأذبحنك. فنظر العابد فإذا لا طاقة له به. قال: يا هذا قد غلبتني فخلّ عني، وأخبرني عنك كيف قد غلبتك أول مرة فصرعتك، والآن غلبتني فصرعتني؟ فكيف ذلك؟ قال له إبليس: لأنك أول مرة غضبت لله تعالى، وكانت نيتك الآخرة، فسخرني الله لك فغلبتني، وهذه المرة جئت مغاضباً لنفسك، وكانت نيتك الدنيا، فسَلَطَنِي اللهُ تعالى عليك فصرعتك.

وهكذا حدثونا في قصة تطول أن ملكة من بنى إسرائيل راودت عابداً عن نفسه فقال: اجعلوا لى ماءً فى الخلاء أتتظف. قال: ثم صعد أعلى موضع فى القصر فرمى بنفسه، فأوحى الله عز وجل إلى ملك الهواء: الزم عبدى، قال: فلزمه حتى وضعه بالأرض على قدميه رويداً. فقيل لإبليس: ألا أغويته؟ فقال: ليس لى سلطان على من خالف هواه وبذل نفسه لله تعالى.

وفى حديث معاذ بن جبل: «إن العبد يوم القيامة ليسأل عن كل شىء، حتى عن كحل عينيه، وعن فتات الطينة بأصبعيه، وعن لمسه ثوب أخيه». وروينا فى خبر مقطوع: «من تطيّب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك، ومن تطيّب لغير الله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أنثن من الجيفة». وليس الطيب من البرّ المأمور به، ولا من الإثم المنهى عنه، وإنما لصاحبه منه نيته، فإن كان نيته اتّباع سنّة رسول الله ﷺ، وإظهاراً لنعمة الله تعالى، كان بذلك مطيعاً، وكان له ثواب ما نواه، وإن تطيّب لغير ذلك كان به عاصياً لاتباعه هواه.

وعن بعض السلف الصالح قال: كتبت كتاباً وأردت أن أترّبه من منزل لجارى، فتحرّجت من ذلك، ثم قلت: تراب وما تراب؟ فترّيته، فهتف بى هاتف: سيعلم من استخفّ بترابٍ ما يلقي غداً من سوء الحساب.

وقال بعض العلماء: إنى لأستحبّ أن يكون لى فى كل شىء نية، حتى فى أكلى وشربى ونومى.

وحُدِّث أن رجلاً صلى مع سفيان صلاة العيد، وكان قد خرج معه بغلّس،

فلما أصبح نظر فإذا إزار سفيان مقلوب، فقال له: يا أبا محمد، قد لبست ثوبك مقلوباً فأصلحه، قال: فمدّ سفيان يده ليسوي إزاره ثم قبضها فلم يسوّه، فقال له الرجل: ما منعك أن تسويه عليك؟ قال: إنني لبسته لله عز وجل فلا أريد أن أسويه لغير ذلك.

ونادى رجل امرأته، وكان فوق سطح يسرّح شعره، فقال: هاتى المدرى؛ ليفرّق به شعره، فقالت امرأته: وأجىء بالمرأة؟ فسكت هنية ثم فقال: نعم، فقال له من سمعه: لأى شىء سكت وتوقفت عن المرأة؟ فقال له: إننى قلت لها: هاتى المدرى بنية، فلما قالت: والمرأة؟ فلم تكن لى فى المرأة نية، فتوقفت حتى هيا الله لى نية، فقلت: نعم جيئى بها.

وحدثونا عن بعض أصحاب بشر أن فتحاً الموصلى دخل عليه، فقام له بشر، قال: وما رأيته قام لغيره، فقمت فأجلستنى. فلما انصرف قلت له: قمت أنت إليه، فلما قمت أنا أجلسنتى؟ فقال: أنا قمتُ إليه لأجل الله تعالى، وأنت قمتَ لأجلى؛ فأجلستك.

وحدثونا أن بعض الفقراء كان يصحب أبا سعيد الخراز، فكان يخفّ بين يديه فى حوائجه، ويخدم الفقراء، ويسارع فى قضاء حوائج أبى سعيد وأصحابه. قال: فتكلم أبو سعيد يوماً فى إخلاص الحركة، فوَقَر ذلك فى قلب الشاب، فكانه أخذ فى الإخلاص والتفقد لحركته وخدمته، فترك ما كان يعمل من قضاء حوائج أبى سعيد فى الخفة بين يدى إخوانه حتى أضرب ذلك بأبى سعيد، فقال له: يا بنى، قد كنت تسعى فى حوائج إخوانك ثم قطعت ذلك، فما السبب؟ فقال: يا أستاذ، إنك تكلمت فى الإخلاص وإنى خشيت أن تكون أفعالى مدخولة فتركتها. قال أبو سعيد: لا تغفل، إن الإخلاص لا يقطع المعاملة، ولا ينبغى للعاقل أن يترك العمل لأجل الإخلاص، فيفوته الإخلاص والعمل، ولم أقل لك: اترك ما أنت عليه، إنما قلت لك: أخلص فيه، فإن طلبك للإخلاص قد قطعك عن عمل البر، وقد أضرب ذلك بنا، فارجع إلى ما كنت فيه، وأخلص فيه لله تعالى.

فينبغي للعبد أن يكون له نيةٌ خالصةٌ في جميع تصرفه في حركته وسكونه، وسعيه وتركه، فإن الحركة والسكون اللذين هما أصل الأفعال هما من أعماله التي يسأل عنها، فيحتاج إلى النية والإخلاص فيهما، فليجعل جميع ذلك لله تعالى وفيه بعقد واحدٍ على مراتب من المقامات عنده، إمّا حباً له وإجلالاً له، وإمّا خوفاً منه أو رجاء له، أو لأجل ما أمره به، فينوي أداء الفرائض، أو لما ندبه فينوي المسارعة إلى الخير، وفيما أبيح له فتكون نيته في ذلك صلاح قلبه، وإسكان نفسه، واستقامة حاله؛ وذلك كله لأجل الدين، وعُدّة للآخرة، وشكراً لربه تعالى، ودخولاً فيما أحلّ له، واعتراكاً بما أنعم عليه، واتباعاً لسنة نبيه فيه، ولا يكون واقفاً مع طبع، ولا جارياً على العادة^(١) والعرف، ولا متخلّفاً بأخلاق النفس، جارياً بالغفلة على طريقة أبناء الدنيا^(٢)، وعُرف معاشرتهم فيما بينهم، فإن ذلك وصف^(٣) الغافلين، ومقام الجاهلين، وحال اللاعبين^(٤)، فهو غير محمود العاقبة، ولا مغبوط الخاتمة.

ولا ينبغي أن يترك العمل الصالح أيضاً خشية دخول الآفة عليه، ولا يدعنه إن كان داخلاً فيه لما يعتريه، لأنّ ذلك بُغية عدوّه منه، فيقع في تسعة أعشار الرياء خوفاً من الرياء، كما حكينا عن عمر رضى الله عنه^(٥)، ولكن يكون على نيته الأولى من صحة القصد، وفي طريقته المثلى من حق الوجد، فإن تمّ له عمله إلى آخره فتلك بُغيته، وهو من تمام النعمة عليه^(٦)، فإن دخلت عليه علة وضع عليها دواءها، فعمل في نفيها وإزالتها، وثبت على حسن نيته وصالح عمله.

ولا يدعنّ عملاً لأجل الخلق حياءً منهم أو كراهية اعتقادهم فضله، فإن العمل

(١) هنا آخر الأوراق التي جاءت في غير موضعها من المطبوعة، وهذا الخلل جاءها من قبل المخطوط، لأنني وجدت مثله في ثلاثة أصول مخطوطة بين يدي.

(٢) هذه عبارة (هـ)، وعبارة المطبوعة (م): «النفس من عادات أبناء الدنيا».

(٣) لفظ (هـ)، وفي المطبوعة (م): «حال».

(٤) «وحال اللاعبين» من (هـ) فقط.

(٥) من قوله: «فيقع في تسعة» إلى هنا من (هـ).

(٦) من قوله: «وفي طريقته المثلى» إلى هنا من (هـ).

لأجل الناس شرك، وتركه لأجلهم رياء. وترك العمل خشية دخول الآفة فيه جهل، وتركه عند دخول العلة عليه ضعف ووَهَن. فليعمل العبد في سقوط الخلق عن قلبه، وترك مراعاتهم بهمّة، ولا يصحّ له ذلك إلا بإسقاط نفسه عن قلبه، ومحو الوجد بها بسره، إذ هي مكان ثبوت الأنام، فكيف يزول الممكن قبل سقوط المكان^(١)؟

ومن دخل في العمل لله وخرج منه الله عز وجل لم يضره ما كان بين ذلك، بعد أن ينفيه ولا يسكن إليه، وقد يضره ما يكون بعد ذلك، بأن كان سرّاً فأظهره، وبعد زمان فصار علانية، فنقل من ديوان السرّ إلى ديوان العلانية. ومثل أن يتظاهر به ويفتخر، أو يدلّ^(٢) به ويتكبر، فيحبط ذلك عمله، لأنّه قد أفسده، والله لا يصلح عمل المفسدين.

ومن دخل في العمل لله عز وجل، ودخل عليه في وسط العمل علة، فخرج من العمل بها، بطل عمله.

ومن دخل في العمل بآفة، وخرج منه بصحة، سلّم له عمله وجُبر بآخره أوّله.

وأفضل الأعمال ما دخل في أوّله الله تعالى وخرج منه بالله تعالى، ولم تطرقه فيما بينهما آفة، فيكون الله تعالى هو الأول والآخر معه وعنده، ثم يُظهره بعد ذلك ولا يتظاهر به.

وأفضل النيات أن لا تريد بعملك إلا وجه الله تعالى وحده، حبّاً لوصف الإلهية^(٣)، وتعظيماً لحق الربوبية، وإلزاماً للنفس وصف العبودية، فإن لم يكن هذا المقام عن مشاهدة وجه ذي الجلال والإكرام، فمشاهدة ما رغب فيه وشوق إليه من الآخرة عن مقام الرجاء، بطلب ما عنده، فهو خير وأبقى، أو خوفاً ممّا

(١) من قوله: «فليعمل العبد في» إلى هنا من (ه).

(٢) يدلّ عليه: يجترئ، يقال: فلان يدلّ عليك بصحبته إدلالاً ودلالاً ودالّة: أى يجترئ عليك.

(٣) عبارة «حبّاً لوصف الإلهية» من (ه).

حذر منه وخوف به من العذاب الأليم عن مقام الخوف^(١).

ولا ينبغي للعبد أن يدخل في شيء حتى يعلم علمه، فيكون داخلاً في علم يعلم مثله؛ لأن الله سبحانه وتعالى في كل شيء حكماً. فما علم من ذلك حمد الله تعالى عليه وعمله، وما جهل سأل عنه من هو أعلم به، وما أشكل عليه أمسك عنه، حتى يستبين له وجهه فيقدم عليه أو يتركه، وليكن ما تحرك فيه، أو سكن عنه، أو توقف عن الإقدام عليه، ابتغاء مرضاة الله تعالى؛ تقرباً إليه لأجل الله تعالى. فهذا أعلى النيات وهو غاية الإخلاص.

ومن أراد بأعماله ما عند الله تعالى من ثواب الآخرة من حظوظ نفسه، ومعاني شهواته ولذته من النعيم في الجنان، واتخاذ الحور الحسان، مما وصف الله تعالى وندب إليه، لم يقدح ذلك في إخلاصه، ولم يغير صحة نيته، من قبل أن الله تعالى مدحه ورغب فيه ووصفه، وكان ذلك مزيد مثله، إلا أن هذا نقص في مقام المحبين، وعيب عندهم كعيب من عمل لعاجل حظّه من دنياه، وهو شرك في إخلاص الموحدين الذين اختصوا بالعبودية، فعُتقوا من أسر الهوى بالحرية، فلم يسترقّهم سوى الوحدانية، لما شهدوا من خالص الربوبية؛ وإخلاص العبودية للربوبية أشد من إخلاص المعاملة، إلا أن من رزق المقام منها دخل بحقيقة إخلاص المعاملة ضرورة، بلا تنقية، ولا تصفية، ولا عمل، ولا مجاهدة، وكانوا مخلصين. وهذا مقام المحبين.

وإنما أتعب المريدون بالتنقية والتصفية للمعاملة لما بقى عليهم من الشرك الخفى والشهوة الخفية، كما أتعب خدام الدنيا بالجمع لها لما استرقّهم من الهوى. فأما الأحرار فهم من خدمة الخلق برآء. وهذا يذهب الإخلاص، ويُفسد النية، ويدخل الانتقاص.

وما تلف له من شيء، أو ظلم من حقّه، فلينو بذلك الذخر عند الله تعالى، وليجعل في سبيل الله بحسن ظنه بالله تعالى، وصدق يقينه، فإن له من ذلك ما نوى.

(١) من قوله: «بطلب ما عنده» إلى هنا من (ه).

حدثونا عن رجل رُؤى بعد وفاته، فسئل: كيف رأيت أعمالك؟ فقال: كلُّ شيء عملته لله تعالى وجدته، حتى حبة رَمَانٍ التَّقَطَّتْهَا من طريقٍ، وحتى هِرَّةً ماتت لنا، رأيتُ ذلك كله في كفة الحسنات. قال: وكان في قلنسوتي خيط من حرير فرأيتُه في كفة السيئات. قال: وكان قد نَفَقَ لى حمار قيمته مائة دينار فما رأيت له ثواباً. فقلت: موت سنَّورٍ في الحسنات، وهذا حمار قيمته مائة دينار ولا أرى له ثواباً؟ فقليل: إنه وَجَّهَ حيث بعثت به؛ لأنك قلت لما قيل لك قد مات الحمار، فقلت: في لعنة الله تعالى، فبطل أجرك، ولو قلت في سبيل الله لوجدته في حسناتك. وفي رواية أخرى قال: وتصدَّقتُ يوماً بصدقة بين الناس فأعجبني نظروهم إليَّ فوجدته لا على ولا لى. قال سفيان: وقد رووا: هذا ما أحسن حاله! حيث وجدها لا له ولا عليه، قد أحسن إليه.

ومن أودى أو اغتیب فليحتسب عرضه عند الله تعالى، فلعل ذلك أن يكون سيداً من عمله سبباً لنجاته. فقد روى: إن العبد ليُحاسب على أعماله كلها، فتبطل بدخول الآفات منها حتى يستوجب النار، ثم تُنشر له أعمال من الحسنات لم يكن عملها فيستوجب بها الجنة، فيعجب من ذلك، فيقول: يا رب هذه أعمال ما عملتها؟ فيقال: هي أعمال الذين اغتابوك وآذوك وظلموك جعلت حسناتهم لك.

ولا تحقرن شيئاً من الأعمال وإن قلَّ فتحليه من النية أو تستصغره، فربما كان هلاكه وعطبه فيه، وهو لا يعلم.

وقد روى ابن المبارك عن الحسن: إن الرجل ليتعلّق بالرجل يوم القيامة فيقول: بيني وبينك الله تعالى. فيقول: والله ما أعرفك. فيقول: بلى، أنت أخذت من حائطي تبتة. وإن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول: هذا أخذ من ثوبي زُبيرة.

ومات حماد بن أبي سليمان، وكان أحد علماء أهل الكوفة، فقيل للثوري: ألا تشهد جنازته؟ فقال: لو كانت لى نية لفعلت. ومات الحسن البصرى فلم يحضر ابن سيرين جنازته، فسئل عن ذلك فقال: لم يكن لى نية. وقد كان العلماء إذا

سُئِلُوا عَنْ عَمَلٍ شَيْءٍ أَوْ سَعَى فِيهِ يَقُولُونَ: إِنْ رَزَقَنَا اللَّهُ نِيَّةً فَعَلْنَا ذَلِكَ. وَقَالَ يَحْيَى بْنُ كَثِيرٍ: حَسَنَ النِّيَّةِ فِي الْعَمَلِ أُبْلَغَ مِنَ الْعَمَلِ. وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: كَانُوا يَسْتَحِبُّونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ نِيَّةٌ. وَقَالَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَّاضٍ: لَا تَتَحَدَّثْ إِلَّا بَنِيَّةً. وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ: الْخَوْفُ عَلَى فِسَادِ النِّيَّةِ وَتَغْيِيرِهَا أَشَدُّ مِنْ تَرْكِ الْأَعْمَالِ.

وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: مَنْ دَعَا رَجُلًا إِلَى طَعَامِهِ وَلَيْسَ لَهُ نِيَّةٌ فِي أَنْ يَأْكُلَ، فَإِنْ أَجَابَهُ فَأَكَلَ فَعَلِيهِ وَزَرَانٌ، وَإِنْ لَمْ يَجِبْهُ فَعَلِيهِ وَزَرٌ وَاحِدٌ. فَصِيرَ عَلَيْهِ وَزَرَيْنِ مَعَ أَكْلِ طَعَامِهِ بِغَيْرِ نِيَّةٍ، لَتَعْرُضَهُ لِلْمَقْتِ، وَحَمَلَهُ أَخَاهُ عَلَى مَا يَكْرَهُ، إِذْ لَوْ عَلِمَ لَمَّا أَجَابَهُ.

فَمَنْ أَفْهَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِخْلَاصَ النِّيَّةِ، وَزَادَهُ مَعْرِفَةَ الْإِخْلَاصِ، أَخْرَجَهُ ذَلِكَ إِلَى الْهَرَبِ مِنَ النَّاسِ، لَتَخْلَصَ لَهُ مَعَامَلَتُهُ؛ لِأَنَّهُ نَظَرَ بَعِينَ الْيَقِينِ، وَإِذَا لَا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ إِلَّا شَيْءٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ عِزٍّ وَجَلٍّ لَا شَرِيكَ فِيهِ لِسَوَاهُ؛ وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ طَائِفَةً مِنَ الْأَبْدَالِ إِلَى الْكُهُوفِ تَخْلِيًّا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا لِخُلَاصِ أَعْمَالِهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِمْ، فَهَمَّ وَإِنْ فَارَقُوا فَضَائِلَ الْأَعْمَالِ مِنْ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ وَغَيْرِهَا، فَقَدْ تَقَرَّرَ عَنْدهُمْ أَنْ اجْتِنَابَ مَعْصِيَةِ وَاحِدَةٍ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِ سَبْعِينَ طَاعَةً، فَلِذَلِكَ فَارَقُوا فُضُولَ النُّوَافِلِ خَشْيَةً دُخُولِ مَعْصِيَةٍ وَاحِدَةٍ عَلَيْهِمْ. وَالْجَاهِلُ بِاللَّهِ عِزٍّ وَجَلٍّ يَعْمَلُ فِي طَلَبِ الْفَضَائِلِ، وَلَا يَبَالِي بِسِيرِ الذُّنُوبِ، وَفِيهَا بُعْدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَيْسَ ذَلِكَ طَرِيقَ الْمُقَرَّبِينَ.

وَقَدْ تَخْتَلَفَ النِّيَّاتُ لِاخْتِلَافِ الْمَقَاصِدِ، فَيَصِيرُ مَا كَانَ بُعْدًا قَرِيبًا بِحَسَنِ النِّيَّةِ، وَمَا كَانَ حَسَنًا سَيِّئًا لِسُوءِ النِّيَّةِ بِهِ. مِنْ ذَلِكَ أَنَّ دَاوُدَ بْنَ الْمَحْبَرِّ لَمَّا صَنَّفَ كِتَابَ الْعَمَلِ^(١) جَاءَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، فَطَلَبَهُ مِنْهُ، فَنَظَرَ فِيهِ أَحْمَدُ صَفْحًا، ثُمَّ رَدَّهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا لَكَ؟ قَالَ: فِيهِ أَسَانِيدُ ضَعْفَاءُ. فَقَالَ لَهُ دَاوُدُ: أَنَا لَمْ أَخْرِجْهُ عَلَى أَسَانِيدٍ، فَانْظُرْ فِيهِ بَعِينَ الْخَبَرِ، إِنَّمَا نَظَرْتُ فِيهِ بَعِينَ الْعَمَلِ فَانْتَفَعْتُ بِهِ. قَالَ لَهُ أَحْمَدُ: رَدَّهُ عَلَيَّ حَتَّى أَنْظُرَ فِيهِ بِالْعَيْنِ الَّتِي نَظَرْتُ بِهَا، فَردَّ عَلَيْهِ فَمَكَثَ الْكِتَابَ

(١) فِي الْأَصُولِ: «الْعَقْل».

عنده طويلاً حتى اقتضاه إياه ابن المحبر، ثم رده عليه، وقال: جزاك الله خيراً، قد انتفعت به منفعة بينة.

وقال الحسن: النية أبلغ من العمل. وقال: ابن آدم لا يهمل بخير إلا تار في قلبه منه نوران؛ فإن كانت الأولى لله عز وجل فلا تضره الآخرة، يعنى إن كان عنده الإخلاص فى الخير فى الهمة الأولى فلا تضره الوسوسة التى تخالجه بعد ذلك؛ فإنها ضعيفة لا تحل قوة العقد، ولا تحل محكم مبرمه.

وقال يوسف بن أسباط: تخلص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد.

وحدثونا عن أبى عبد الله بن الجلاء الدمشقى^(١)، قال: كنت قائماً مع أبى عبيد التستري، وهو يحرق أرضه بعد العصر من يوم عرفة، فمر به بعض إخوانه من الأبدال فسار به بشيء. فقال أبو عبيد: لا. فمر كالسحاب يمسح الأرض حتى غاب عن عيني. فقلت لأبى عبيد: ما قال لك؟ فقال: سألتنى أن أحج معه، فقلت: لا. فقلت: ألا فعلت؟ قال: ليس لى فى الحج نية، وقد نويت أن أتم هذه الأرض العشيّة، فأخاف إن حججت معه لأجله أتعرض لمقت الله تعالى؛ لأتأذى أدخل فى عمل الله تعالى شيئاً غيره، فيكون هذا عندى أعظم من سبعين حجة.

ومن كان له فى مباح نية، ولم تكن له نية فى فضيلة، فالأفضل هو المباح حينئذ، وقد انتقل المعنى فصار المباح هو الفضيلة، وصارت الفضيلة هى النقيصة، لعدم النية فيها؛ وهذا لا يعلمه إلا العلماء بباطن العلم وهو غوامض التصريف، مثل أن يكون رجل قد ظلم فله أن ينتصر، وإن عفا كان أفضل، إلا أنه له نية فى الانتصار، وليس له نية فى العفو، فالانتصار هو الأفضل^(٢). ومثل أن تكون له نية فى الأكل والشرب والنوم ليتقوى بها على الطاعة، ويريح بها نفسه لوقت آخر. ويكون له نية فى الجماع؛ ليحصن به نفسه، أو ليغض به بصره، أو لأنه لا يأمن

(١) فى المطبوعة: «وحدثونا عن بعض الصوفية»، وأثبت ما فى (ه).

(٢) لعله يقصد: إن عفا ونيته الانتصار فإنه لا يأخذ أجر العفو كاملاً، لأن نيته كانت الانتصار، وإلا فالرجوع إلى الأفضل أفضل.

الفتنة^(١)، وليس له فى الصوم ولا فى القيام نية، فقد صار الأكل والنوم والجماع حيثئذ هو الأفضل. وقد كان أبو الدرداء يقول: إني لأستجم نفسى ببعض اللهو، ليكون ذلك عوناً لى على الحق.

وكلُّ عملٍ مباح للعبد فيه نية فهو مأجور عليه. وكلُّ عملٍ فاضل لا نية للعبد فيه، فأحسن حاله السلامة منه لا له ولا عليه، وربّما كان مأزوراً فيه إذا دخلت عليه نية دُنْيا. وكلُّ عملٍ مباح أو فَضْل ليس للعبد فيه نية، فهو غُفْل لا شىء له فيه، ولكنه يُسأل عن فراغ وقته. وكلُّ عملٍ فاضل للعبد فيه نية حسنة، فهو فضيلة بالغة. وكل عمل مكروه أو شبهة للعبد فيه نية، فالعمل باطل ونيته هوى. وإنما وجد النية فيه لقصور علمه واختفاء لشهوته، فإن أراد به وجه الله تعالى سَلِمَ من عاقبته ولا فضيلة له به، وإن كان قد خفى عليه الهوى، أو دقّ عليه لطيف حبّ الدنيا؛ لجهله بالعلم، فهو مأثوم فيه، لتقصيره فى طلب العلم الذى يعرف به الإخلاص، وسكوته على الجهل الذى يدخل منه الانتقاص، ولا عذر له فى ذلك. وقد جاء فى الخبر: إن الله تعالى لا يعذر على الجهل، ولا يحلّ للجاهل أن يسكت على جهله، ولا يحلّ للعالم أن يسكت عن علمه. وقد قال الله سبحانه تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وقد كان سهل رحمه الله تعالى يقول: ما عُصِيَ الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل. قيل: يا أبا محمد، هل تعرف شيئاً أشدّ من الجهل؟ قال: نعم. قيل: ما هو؟ قال: الجهل بالجهل. يعنى: أن يكون العبد جاهلاً وهو لا يعلم أنه جاهل، أو يحسب بجهله أنه عالم، فيسكت عن جهله ويرضى به فلا يتعلم، فيضيع فرض الفرائض كلّها وهو طلب العلم، ولعله أن يفتى بالجهل، أو يتكلم بالشبهات، وهو يظن أنه علم؛ فهذا أعظم من سكوته.

ولذلك نقول: ما أطيع الله تعالى بمثل العلم. ومن العلم أن يعلم^(٢) أى شىء

(١) من قوله: «ويكون له نية فى الجماع» إلى هنا من (هـ) فقط.

(٢) عبارة (م)، والمطبوعة: «ومن عِلْمِ الْعِلْمِ بِالْعِلْمِ أى شىء هو»، وهى كذلك فى (هـ)، ولكنه ضرب عليها وصوبها إلى ما أثبتته، وهو أوضح.

هو العلم. وذلك أيضاً واجب من حيث كان العلم واجباً؛ ليكون على بصيرة من تعلّم العلم؛ لأنه قد دخل مذاهب المتكلمين وأقوال الغالطين من الصوفية والقصاص في شبهات العلم، فصار زخرفاً من القول غروراً، يشبه العلم وليس بعلم، لالتباس المعنى بعبئه ببعض، ولإشكال دقائق العلوم وغرائب، وخفاء السنة من طريقة علماء السلف، فاختلف لذلك القصاص والمتكلمون بالعلماء، فصار معرفة العلم أى شىء هو، والعلم بالعالم من هو علم آخر، وصار العالم بالعلم ما هو دون الزخرف من القول، كأنه عالم. فكان أيضاً العلم بالعلم بمنزلة فضل العلم ووجب وجوبه، كما كان الجهل بالجهل أعظم من الجهل.

وقد كان سهل رحمه الله تعالى يقول: قسوة القلب بالجهل من قسوته بالمعاصي. لأن الجهل ظلمة لا ينفع البصر فيه شيئاً، ونور العلم يهتدى به القاصد، وإن لم يمش.

وقد قيل فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، قال: عملوا أعمالاً بجهلهم ظنوا أنها حسنات فوجدوها سيئات. وقيل: ذنوب غيرهم طرحت عليهم فعذبوا بها ولم يكونوا يحتسبونها فى الدنيا. يعنى بهذا مثل ما روى فى الخبر: «إن العبد ليرى من أعماله الحسنات مما يرجو به المنازل فى الجنة، فتلقى عليه سيئات لم يعملها، فترجح بحسناته كلها، فيستوجب النار، فيقول: يا رب هذه سيئات ما عملتها هلكت بها. فيقال: هذه ذنوب القوم الذين اغتبتهم وأذيتهم وظلمتهم، ألقيت عليك وتخلصوا منها».

وقد روينا فى معناه حديثاً مسنداً عن النبى ﷺ: «إن العبد ليوافى القيامة بحسنات أمثال الجبال، لو خلصت له دخل الجنة، ويأتى قد ظلم هذا، وشتم هذا، وضرب هذا، فيقتص لهذا من حسناته، ولهذا من حسناته، حتى لا تبقى له حسنة. فتقول الملائكة: يا ربنا قد فويت حسناته، وقد بقى طالبون كثير. فيقول الله تعالى: ألقوا عليه من سيئاتهم ثم صكوا له صكاً إلى النار».

وينبغى للعبد إن أراد أن يعمل عملاً أن يثبت له، فيجدد له نية حسنة، ثم يقف وقفة فيتفقد: هل يدخل عليه فى ذلك العمل آفة واحدة أو أكثر، فيخرج ما دخل

عليه من الآفات بمشاهدة اليقين، ثم يعمل ذلك العمل لله وحده لا يشرك به أحدًا في قصده ووجده مطلبه وثوابه، ولا يطلب به سواه، ثم يستقيم على ذلك العمل، فإن دخلت عليه آفة في خلله نفاها، حتى يكون قائمًا بشهادته. فهذا هو الإخلاص؛ لأن المخلص يحتاج في إخلاصه إلى شيئين ليس أحدهما أولى به من الآخر: صحة القصد لوجه الله تعالى وطلبه ما عنده من الآخرة، ثم إخراج الآفات والحذر على ذلك العمل من دخولها عليه إلى فراغه منه، فبذلك يتم إخلاصه، ويصفو من كدر الهوى، ويخلص من الشهوة الخفية، فيكون خالصًا من الرياء بالإخلاص، صافيًا من الشهوة، فيتفقد دخول الآفة. كما روى في الخبر: «أخوف ما أخاف على أمتي: الرياء والشهوة الخفية». قيل: حب الدنيا، وقيل: العمل لأجل أن يؤجر العبد ويحمد.

ثم إذا همّ العبد بعملٍ وقف قلبه وقفةً، فتدبره وتفكر كم فيه من نية، وربما وجد في العمل الواحد عشر نيات أو خمسًا، وما بين ذلك مما يحتمل ذلك العمل من وجوه البرّ ومعاني القربات المندوب إليها، فيكون له بكلّ نية عمل، فيؤجر على العمل الواحد عشرة أجور، لأنه عشرة أعمال أو خمسة، يكون لكل نية عمل وبكل عمل أجر. وهذا من فضائل الأعمال وتضاعيف الحسنات، ولا يعلمه إلا العلماء بالله تعالى وأحكامه، وهو طريق الأبدال من صالحى أهل الأحوال؛ فبذلك زكّت أعمالهم، وارتفعت مقاماتهم، وكثرت أجورهم، وحسنت حسناتهم، لا بكثرة الأعمال لكن بتحسينها ووجود النيات الكثيرة فيها. وقد جاء في الأثر: «من عمل عملاً لا يريد به وجه الله لم يزل في مقتٍ من الله حتى يفرغ».

وقد قال بعض الأدباء: من لم يشكر لك حسن النية فيه لم يشكر منك حسن الصنعة إليه، وأنشدوا في معناه:

لأشكرنك معروفاً هممت به إنَّ اهتمامك بالمعروفِ معروفُ

ولا ألوئك إذا لم يمضه قدرُ فالشيءُ بالقدرِ المكتوبِ مصروفُ

ولو لم يكن في تجديد النية الحسنة وتفقد الهمة العالية إلا أن صاحبها لا يزال

عاملاً من عُمَالِ الله تعالى بقلبه وهمه، وإن لم يساعده القدر على الأفعال بجوارحه، فيكون أبداً مأجوراً. ولو لم يكن في نية الشر والهمة الدنية إلا أن صاحبها في بطالة وخسارة، وإن لم يساعده المقدور على الأفعال السيئة بجوارحه، فيكون خاسراً أبداً مأزوراً، ونعوذ بالله من ذلك^(١).

وقال بعضهم: إنى لأستعد النية في كل شيء قبل الدخول فيه حتى في أكلى ونومى ودخولى الخلاء.

والنية في هذا التقوى على الطاعة، والاستعانة به على الخدمة؛ لأن النفس مطيتك إن قطعت بها قطعت بك، ونية التطهر من التحلّى لأجل الدين. فكان الناس لشدة تفقدتهم وحسن رعايتهم صادقين في ترك كثير من أعمال البر لضعف النية، ويعملون في أحكام الأصل. قال ابن عيينة: إنما حُرِّموا الوصول لتضييع الأصول، والنية أصلُ الأصول، لأنها فرض الفرائض. وقال بعضهم: إنما بعد القلب من الله عز وجل مظاهرة أعمال الجوارح بغير مواطاة من القلب بصحة القصد. يعنى بذلك نقص الإخلاص بها لأجل الله تبارك وتعالى. فالنكاح من معظم شأن الدين، فنيته فيه أن لا يتزوج المرأة لجمالها ولا لمالها ولا لحسنها، بل لدينها وعقلها، ثم ينوى السنة له ولها، والعفة والتحسين لهما، ويقنع بالمرأة الدُّون عن غيرها. وفي الخبر: «من نكح لله عز وجل وأنكح الله تعالى استحق ولاية الله تعالى».

وأفضل الأعمال ما دخل فيه لله عز وجلّ وخرج منه لله، ولم يعتوره بعد ذلك علة، وأعلى من هذا من دخل في الأعمال بالله عز وجل وثبت فيها مع الله وخرج منها بالله تعالى؛ وهذا مقام الموحّدين من الموقنين والعارفين. فأصبح الأعمال وأخلصها ما كان لله تبارك وتعالى هو الأول في أولها، ومع العامل في

(١) بعده في (د، هـ): «ونسأله أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه برحمته. وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وسلم كثيراً». ثم كتب في حاشية (هـ) بالخط نفسه والقلم: «هنا ترك قدر نصف كراس». لأن ما سيأتى حتى كتاب ترتيب الأقوات ليس في (د، هـ) ولا في نسخة (ك) أيضاً، لكنه في (م) والمطبوعة.

أوسطها، والعبد عنده فيها. والله تعالى هو الآخر عند آخرها، ثم لا يظهرها بعد ذلك ولا يتظاهر بها، ولا يطالع عوضاً عنها من الكبير الأكبر، بل ينساها ويشتغل بذكر مولاه عنها.

والقعود في المساجد من أفضل شأن الدين وفضائل أعمال المتقين، فليكن له فيه عشر نيات:

منها: زيارة مولاه عز وجل في بيته، كما روى: «من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى، وحُقَّ على المزور إكرام زائره». ومنها: انتظار الصلاة بعد الصلاة، كما روى في معنى قوله تعالى: ﴿وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]: هي المراقبة. ومنها: كفّ سمعه وبصره وترهبه في تأله، كما روى: «رهبانية أمتي القعود في المساجد». ومنها: العكوف، وحقيقته عكوف الهمّ على القلب، وعكوف السرّ بالتأله إلى الله عز وجل. ومنها: ذكر الله تعالى واستماع ذكره والتذكير به، كما روى: «من غدا إلى المسجد يذكر الله تعالى ويذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله». ومثل ذلك: إذا جلس ليعلم علماً أو يتعلمه، كان أيضاً كالمجاهد، أو جلس لاستفادة أخ في الله عز وجل، أو لتنزل رحمة الله، أو لترك الذنوب للخشية والحياء.

كما روينا في حديث الحسن بن علي عليهما السلام: «من أدمن الاختلاف إلى المساجد رزقه الله تعالى إحدى سبع خصال: أخاً مستفاداً في الله تعالى، أو رحمة مستنزلة، أو علماً مستطرفاً، أو كلمة تدله على هدى أو تصرفه عن ردى، أو ترك الذنوب خشية أو حياء منه».

فإخلاص النية هو بخروج أضدادها من القلب وعن القصد والهمة وإن كثّر أعددته، لتنفرد النية بقصدها، ويخلص العمل بانفراد النية لوجه الواحد الفرد المقصود بها. يروى عن بعضهم قال: غزوت في البحر، فعرض بعضنا مخلّة، فقلت: أشتريها، وأنتفع بها في غزاتي، فإذا دخلت مدينة كذا بعثتها فربحت فيها. فاشتريتها فرأيت تلك الليلة في النوم كأن شخصين نزلا من السماء، فقال أحدهما

لصاحبه: اكتب الغزاة، فأملئ عليه: اكتب: خرج فلان متنزّهاً، وفلان مرأياً، وفلان تاجرّاً، وفلان في سبيل الله، ثم نظر إلى فقال: اكتب: خرج فلان تاجرّاً. فقلت: الله الله فيّ، والله ما خرجتُ أتجر، ولا معي تجارة أتجر فيها، ما خرجتُ إلا للغزو. فقال لي: يا شيخ قد اشتريت أمس مخلاة تريد أن تربح فيها. فبكيتُ، وقلت: لا تكتبوني تاجرّاً. فنظر إلى صاحبه وقال: ما ترى؟ فقال: اكتب: خرج فلان غازياً، إلا أنه اشترى في طريقه مخلاة ليربح فيها، حتى يحكم الله عز وجل فيه ما يرى.

• فصل:

ومن المناقض المشبهة للفضائل الملتبسة على الأفاضل، لشهرة فضلها وروعة الهموم للدخول فيها، والتصبر عليها، وهي منكشفة للعلماء بالله تعالى: ما روى أن رجلين تأخيا في الله عز وجل بعد رفع عيسى ابن مريم عليه السلام إلى السماء، فترهب أحدهما وهو سرجس، ولزم أخوه الآخر الجماعة والمساجد ومخالطة الناس، وكان أعلم منه بالله عز وجل، وكان يلقي أخاه سرجس فيقول: يا أخى إنّ هذا الأمر الذي دخلت فيه بدعة، وإنّ عليك فيه رعاية لا تقوم بحقّها، وإنه ليس لله فيه رضا، فلو دخلت معي في الجماعة والألفة كان ذلك لله تعالى رضا وأصبت السنة. فكان المترهب يعرض عنه، ولا يعبأ برأيه، ويقول له: إنك قد ركنت إلى الدنيا وأنست بالخلق. فلما أعياه قال له: فاجعل فطرك عندى الليلة حتى يتبين ذلك، ففعل، فقدم إليه فرخين شواهما، وقال له: تعال حتى نجعل هذين الفرخين قاضيين بيننا، فأينا كان على الحق ظهر أمره. قال: كيف يقضيان بيننا؟^(١) قال: حتى يدعو الله كل واحد منا، فمن كان سيرته وهديه أحبّ إلى الله ورسوله يبعث بدعائه هذين الفرخين حتى يطيرا حينئذ. قال: نعم، فادع أنت. فدعا الراهب فقال: اللهم إن كان هذا الأمر الذي دخلت فيه أريد به رضاك أقرب إلى الحق مما يدعوني إليه أخى هذا فابعث هذين الفرخين إلىّ. قال: فلم يجب. فقال الآخر: اللهم إن كان هذا الأمر الذي تمسكت به وخالفت فيه هذا وأصحابه

(١) من قوله: «فأينا كان» إلى هنا من (م).

أقرب إلى الحق وأرضاهما عندك مما يدعوني إليه أخى هذا من الاعتزال والفرقة للجماعة، فابعث لى هذين الفرخين. قال: فصارا حيَّين فطارا بإذن الله تعالى. فعلم الآخر أن ذلك ليس لله رضا، فرجع إلى الجماعة والمساجد.

ومن التباس الفضائل العالية تركُ العبد حاله فى مقامه طلباً للفضيلة ليزداد بها قُرْبَةً إلى الله عز وجل، فينقلب عليه فيهلك، ما أدخل العدو على برصيص العابد فى تعليم الاسم الأعظم، وقصته مشهورة.

فالعالم عند العلماء من عِلْمٍ خيرَ الخيرين فسبق إليه قبل فوته، وعلم شرِّ الخيرين فأعرض عنه؛ لئلا يشغله عن الأخير منهما، وعلم أيضاً خير الشرين ففعله، إذا اضطر إليه وأبتلى به، وعلم شرِّ الشرين فأمعن فى الهرب منه، واحتجب بحجابين عنه، وهذا من دقائق العلوم.

• فصل،

وقد تلبس النية بالأمنية فتخفى، والهمة بالوسوسة فتشتبه. والنية ما كان يراد به وجه الله عز وجل ويطلب منه ما عنده. والأمنية ما تعلق بالخلق وطلب منه عاجل الحظّ من الملك الفانى. وقد تلبس الإرادة بالمحبة والحاجة بالشهوة؛ فالإرادة أن يريد وقوع الأمر، وقد لا يحب كونه أو يريد أيضاً وجوده ضده، والمحبة ما قهر العقل وغلب الوجدَ وحلّ فى مجامع القلب، وكره وجود غيره ولم يرد فقده، والحاجة ما اضطرت إليه ولم يكن منه بُدٌّ ولا يُستغنى عنه بغيره، والشهوة مزيدٌ لذّة، واستدعاء فضلٍ فاقة، واجتلابٌ تقدّم عادة.

وقد يختلط الذكر بالقلب بالفكر فى معانى القرب. فالذكر: ما أظهر النسيّ، وكشف الغيّ، وأذكر الشيء. والفكر ما صورّ الأمر وأظهر الخبر. وقد يلتبس الرجاء بالمحبة والهوى بالنية. فالرجاء: ما طمعت فيه بسبب ما. والمحبة ما تطمعت ذوقه وجدته بغير سبب يستخرجه. وقد يلتبس ذلُّ القلب بضعفه وموته، للطمع فى الخلق بذلّ النفس لمشاهدة عزّ الخالق سبحانه وتعالى. وقد يتداخل ذلّ الطمع لدناءة الهمة والنفس بذلّ العقل للاعتراف بالحق، وخضوع العلم له. وقد

يلتبس ذلُّ النفس لغلبة الهوى وقهره للعقل بذلَّ القلب لسرعة الانقياد للعالم المحق. وقد يختلط عزة القلب بمقلِّبه بدوام النظر إليه وعزة العقل بعلمه الذى كبر عنده. وقد تلبس عِزَّة النفس بوصفها المتسلِّط بعِزة الإيمان، المعزز بغيبة اليقين.

فهذه فروق ظاهرة للعارفين، وخروق متسعة توهن الغافلين.

وقد تلبس العبادة بالعادة، مثل أن يكون للعبد نية فى علم أو عمل أو صدقة أو نفقة الشهر والسنة، ثم تَعزُب نيته، فيبقى على عادته يَرُبُّ حاله الذى قد عُرِف به، لا يحبَّ أن يخرج من عُرْفِ الناس له، فيتعمل لاستقامة الحال على التكلّف بتلك الأعمال، فتذهب النية، وتبقى العادة، فيخرج بذلك من إرادة الآخرة والسعى لها، ويدخل فى إرادة الدنيا بالشهوات على جريان العادة بها.

وقد تلبس طرقات الدنيا من طلب الرياسة لوجود الهوى بطرقات الآخرة فى معنى العلوم والأعمال، فما طُلِبَ من أعمال السلف وأريد به تأديب النفس، ويُعلم به الزهد فى الدنيا؛ فهذه طرقات الآخرة، وما كان على ضده فهو طرقات الدنيا؛ إذ هو ضدها. وقالوا: كان الناس إذا عِلِمُوا عملوا، وإذا عملوا شُغِلُوا، وإذا شُغِلُوا هربوا. وقالوا: تفقّه ثم اعتزل.

وقد يلتبس إظهار الأعمال وكشف ما كتم من الأحوال لأجل التأديب به والاتباع عليه، أو لإظهار قدرة الله عز وجل وآياته لمزيد السامع من المعرفة به بفعل مثل ذلك للتزيّن والفخر، أو للمدح به وطلب الذّكر.

وسئل أبو سليمان عن الرجل يخبر بالشىء عن نفسه، فقالوا: إذا كان إماماً يُقْتَدَى به فنعم. وقال مرة، هو أو غيره: يختلف ذلك على قَدَرِ الإرادة به؛ إذا أراد التأديب للنفس حَسَنُ ذلك؛ فهذا يلتبس بمدخلة النفس وبفنائها بقيومية شاهد اليقين للرب عز وجل.

• فصل:

ترك العمل عملٌ كثير، يحتاج التارك للنهى أو المكروه فرضاً أو ورعاً إلى نية حسنة أن يتركه لله عز وجل طلب مأمنه أو رغبة فيما عنده، لا لوجود الخلق، ولا

ليُربَّ به حاله أو يقيم به عند العبيد جاهه، لأن ترك المعصية من أفضل الأعمال، فيحتاج إلى أحسن النيات، إذ عليها من الله تعالى أجزل الثوبات؛ لبلوى النفس بها، واضطراب الوصف إليها. وقال بعضهم: من أحبَّ أن يعرف ورعه غير الله تعالى فليس من الله في شيء.

وروى عن زكريا عليه السلام: أن قومًا دخلوا عليه وكان يعمل في حائط لقوم بالطين، وكان صانعًا يأكل من كدّ يديه، فقدّم إليه عندهم رغيفيه وجعل يأكل ولم يدعهم حتى فرغ. فسألوه عن ذلك لعلمهم بزهده وكرمه، فقال: إني أعمل لقوم بأجرة، وقربوا إلى هذين الرغيفين لأتقوى بهما على عملهم، فلو أكلتم معي لم يكفكم ولم يكفني وضعفت عن عملهم.

فهذا ممّن ترك فضلاً لفرض، وممّن كانت له نية في الترك، كما تكون له في الفعل.

وقال بعضهم: دخلت على سفيان بن أبي عاصم وهو يأكل فما كلمني حتى لعق أصابعه، ثم قال: لولا أني أخذته بدين لأحببت أن تأكل منه.

وقد روي في الخبر: أن أعجميًا مرّ بنفر يتكلمون بكلام فيه استهزاء ولهو، فظنّ أنهم يدعون الله عز وجل، فقال مثل ما يقولون بحسن نيته. قال: فغفر الله له بحسن نيته.

وقال الحسن: من علامة المسلم أن لا يبدره لسانه، ولا يسبقه بصره، ولا تقصر به نيته. يعني لا يضعف ولا تقعد به عن المسارعة إلى القربات هي أبدًا في قوة وزيادة، وإن قصرت أعماله فيها وعجزت، قوى جوارحه. وقال: المؤمن تبلغ نيته وتضعف قوته، والمنافق تضعف نيته وتبلغ قوته.

وقال النبي ﷺ: «لكل حق حقيقة، وما بلغ عبدُ حقيقة الإخلاص حتى لا يحبّ أن يحمد على شيء من عمل الله عز وجل». وقال الحواريون لعيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام: يا روح الله ما الإخلاص لله عز وجل؟ قال: الذي يعمل العمل لله تعالى، لا يحبّ أن يحمده عليه أحد من الناس. قالوا: فمن

الناصح لله عز وجل؟ قال: الذى يبدأ بحق الله تعالى قبل حق الناس، وإذا عرض له أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة، بدأ بأمر الله تعالى قبل أمر الدنيا.

فحبُّ المحمّدة من الناس أصل هو فرعها، وهو يحبُّ أن يعرف مكانه، ويريد الاشتهار، وينوى بقلبه محبة الإعظام له من وجوه الأنام، فلا ينفعه - مع هذه النية - اختفاؤه فى الآجام، وعمله غير مقبول. كما روى أن عابدًا من بنى إسرائيل عبد الله تعالى فى سرب أربعين سنة، فكانت الملائكة ترفع عمله إلى السماء فلا يقبل. فقالت: ربّنا وعزّتك ما رفعنا إليك إلا حقًا. فقال عز وجل: صدقتم ملائكتي، ولكنه يحبُّ أن يُعرف مكانه.

فلذلك قال بعض السلف: من نجا من الكبر والرياء وحبِّ الشهرة فقد سلم. وقال الثورى: ما عاجلت شيئًا أشدَّ علىَّ من نيتي، لأنها تفلت علىَّ، يعنى تشرد أو تضعف، فتحتاج إلى مداراة لها. كما قال المنصور: المداومة على العمل حتى يخلص أشدَّ من العمل.

وقال الثورى: ما أعتدَّ بما ظهرَ من عملى. وقال على رضى الله تعالى عنه: كونوا بقبول العمل أشدَّ اهتمامًا منكم بالعمل، فإنه لا يقلُّ عمل مع تقوى، وكيف يقلُّ عمل يُتقبَّل؟ وقال بعضهم: من استوحش من الوحدة وأنس بالجماعة لم يسلم من الرياء.

وقال عبد العزيز بن أبى رواد: أدركتهم يجتهدون فى العمل الصالح، فإذا بلغوه وقع عليهم الهمُّ أيتقبل منهم أم لا؟!

وقال مالك بن دينار: الخوف على العمل أن لا يتقبل أشدَّ من العمل. وقال ابن عجلان: العمل لا يصلح إلا بثلاث: التقوى لله عز وجل، والنية الحسنة، والإصابة.

وقد فسر الفضيل قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢٠]، قال: أخلصه وأصوبه. قيل: وما ذاك؟ قال: العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل. وقال التياحى: للعمل أربع خصال لا يتم إلا بهن: معرفة الله عز وجل،

ومعرفة الحق، والإخلاص به والعمل على السنة. فأى عمل كان قبل هذه الأربع لا ينفع^(١).

وقال أبو عبيدة بن عقبة: من سرّه أن يكمل عمله فليحسن نيته، فإن الله عز وجل يأجر العبد إذا حسنت نيته حتى باللقمة.

فأحسن تفسير للنية ما فسرّه رسول الله ﷺ لما سئل عن الإحسان فقال: «تعبد الله كأنك تراه». فهذه شهادة العارفين ومعرفة الموقنين، فهم مخلصو المخلصين.

وقال ابن المبارك: رُبَّ عمل صغير تعظّمه النية، وربّ^(٢) عمل كبير تصغره النية. وقال بعضهم: القصدُ إلى الله تعالى بالقلوب أبلغ من حركات الأعمال بالصلاة والصيام ونحوه.

وقال الأنطاكي: إذا صارت المعاملة إلى القلب استراحت الجوارح. وروى عن عليّ عليه السلام: من كان ظاهره أرجح من باطنه خفّ ميزانه، ومن كان باطنه أرجح من ظاهره ثقل ميزانه يوم القيامة. وقال داود الطائي: رأيت الخير كله يجمعه حسن النية، وكفاك به خيراً وإن لم ينصب.

وروى عن الحسن في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ [العنكبوت: ٢٧]، قال: نيته الصادقة اكتسب بها الأجر في الآخرة.

وروى عن عبد الرحمن بن مريح قال: من قام إلى شيء من الخير لا يريد به إلا الله عز وجل، ثم عرض له مَنْ يريد أن يرائيه بذلك، أعطاه الله عز وجل بالأصل، ووضع عنه الفرع. ومن قام إلى شيء من الخير لا يريد به إلا المراءاة، ثم فكّر وبدا له فجعل آخر ذلك لله عز وجل، أعطاه الله تعالى بالفرع ووضع عنه الأصل، كأنه حسب له ذلك توبة؛ والتوبة مكفرة لما سلف، والله أعلم.

وقد تلبس الفضائل بالمناقض^(٣)، لدقّة معانيها، وخفىّ علومها، كصلاة العبد

(١) هنا تنتهى الأوراق الأخرى التى جاءت فى غير موضعها من المطبوعة.

(٢) هذه العبارة ساقطة من المطبوعة، وأثبتها من (م).

(٣) فى المطبوعة: «بالمناقض».

النفل وهو يحسب أنه هو الأوجب. من ذلك أن رجلاً كان يصلي، فدعاه رسول الله ﷺ فلم يجبه، فظن أن وقوفه بين يدي الله تعالى بالغيب أفضل له. فلما سلم جاءه، فقال له ﷺ: ما منعك أن تجيبني حين دعوتك؟ فقال: كنت أصلي. فقال: ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]؟ فكان إجابته النبي ﷺ أفضل له، لأنَّ صلاته نافلة، وإجابته للرسول ﷺ فرض عليه.

وقال بعضهم: من كان طلب الفضائل أهمَّ إليه من أداء الفرائض فهو مخدوع، ومن شغل بغيره عن نفسه فقد مكر به. وقال سفيان: إنما حرِّموا الوصول بتضييع الأصول.

فأفضل شيء للعبد معرفته لنفسه، ثم وقوفه على حده، ثم إحكامه لحاله التي أقيم فيها، ثم قيامه بعلمه الذي فُتح له، فيبتدئ العمل بما افترض عليه بعد اجتنابه ما نهى عنه مبلغ علمه ووسع وجده، ولا يشتغل بطلب فضل حتى يحكم عمل فرض؛ لأنَّ الفضل ربح لا يصحَّ إلاَّ بعد رأس المال، ولكل فضل آفة قاطعة، فمن سلم منها حاز فضله. ولكل أمرٍ نفيس مؤونة ثقيلة، فمن تحملها أدرك نفيسها. ومن تعذرت عليه السلامة فهيئات أن يصير إلى أفضل كرامة، ومن لم يصبر على تحمل غرامة لم يدر علوَّ مقامه.

وقد يلتبس التكلف بالإخلاص وإظهار العلم بظهور التزُّين به. قال الثوري رحمه الله: زَيْنُ نَفْسِكَ بِالْعِلْمِ وَلَا تَتَزَيَّنْ بِهِ. أَى أدَّبَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَتَكُونُ زَيْنًا فِي أَوْلِيَائِهِ، وَلَا تَتَزَيَّنْ بِهِ عِنْدَ النَّاسِ لِيَمْدُحُوكَ عَلَيْهِ.

ويلتبس الاختبار^(١) بالاختيار. فالاختبار ما كان عن حاجة وتطرقت به إلى الله عز وجل، والاختيار ما زاد في الشهوة وكان سلماً إلى الخلق، كالتباس ستر العورة من الثياب بالفاخر منها للنعمة والتكثُر من الأسباب. وقد يتطوع العبد بعمل يُضَيِّع به فرضاً، وإحكام الفرض لجواز السلامة هو الفضل.

(١) في (م): «الاختيار»، ولا أدري أيهما أصح.

وقد روى: «إذا دُعِيَ أحدكم إلى طعام، فإن كان مفطراً فليُجِبْ وإن كان صائماً فليقل إنّي صائم». فأمره بإظهار عمله وهو يعلم أن الإخفاء أفضل. ولكن إظهار عمله من حيث لا يؤثر في قلب أخيه وَجَدَّ أفضل من إخفائه لنفسه مع تأثير ذلك في قلب أخيه؛ لتفضيل العمّال على الأعمال، إذ الأعمال موقوفة على العامل، فإنّما يعطى الثواب على قدر العامل لا على قدر العمل، لتضعيف الجزاء لمن يشاء عز وجل على غيره في العمل لواحد، فدلّ ذلك أن المؤمن أفضل من العمل، فقل له: ارفع التأثير والكرهية عن قلب أخيك بإظهار عملك؛ فهو خير لك من إخفاء العمل مع وجد أخيك عليك؛ لأنّ أخاك إذا دعاك إلى طعام صنعه لك فلم تجبه، ولم تعتذر إليه عذراً بيّناً يقبله منك ويعرفه، شقّ عليه ذلك، إن كان صادقاً في دعائك.

قال ابن شبرمة: سأل كُرْزُ بن وَبَرَةَ رَبّه عزّ وجل أن يعطيه الاسم الأعظم على أن لا يسأله شيئاً من أمر الدنيا، فأعطاه الله تعالى ذلك، فسأل أن يَقْوَى أن يختم القرآن في اليوم واللييلة ثلاث مرات. فقل لكُرْز: أتعبت نفسك في العبادة. فقال: كم مقدار الدنيا؟ قيل: سبعة آلاف سنة^(١). قال: أما يرضى عبد أن يعمل سبعة آلاف سنة وينجو من يوم مقداره خمسين ألف سنة؟

وقال سري السقطي: ركعتان تخلصهما خير لك من أن تكتب سبعين حديثاً، أو قال: سبعمئة حديث.



(١) هذا تقدير لا أصل له، ومجانِب للصواب والواقع.

الفصل التاسع والثلاثون

كتاب ترتيب الأوقات بالنقصان منها أو بزيادة الأوقات

أما الأوقات فقد كان بعض السلف ينقص منها حتى يردّ النفس إلى أقل قوامها. فمن أراد هذا الطريق، فليُنقص في كلّ أكلة رُبْع سُبْع رَغِيب، فيكون تاركًا لرغيف في شهر برياضة وتمهّل، فلا يؤثر النقصان عليه شيئًا، حتى تقف النفس على الأكل في ثلث بطنها، وهو ثلث أكله المعتاد. وهذا طريق المريدين.

ومن العلماء من لم يكن يعرض للأوقات ولكن يعمل في زيادة الأوقات، فيؤخر أكله وقتًا بعد وقتٍ حتى ينتهي إلى أكثر طاقة النفس لحمل الجوع بضعف الجسم عن الفرض، أو خشية اضطراب العقل. فمن أراد هذا الطريق أخرّ فطره كلّ ليلة إلى نصف سبع الليل، حتى يكون قد طوى ليلة في نصف شهر. وهذا طريق من أراد الطّيّ السبع، والعشر، والخمس عشرة يومًا إلى الأربعين؛ لأنه يعمل في تجوعه على مزيد الأيام ولا يعمل في نقصان الطعام، فلا يؤثر ذلك نقصًا في عقله ولا ضعفًا عن أداء الفرائض، إذا كان على صحّة قصد، وحُسن نية، وصدق عقد، فإنه يعان^(١) على ذلك ويحفظ فيه، ويكون طعمه إذا أكل عند كلّ وقت يزيد فيه ينقص ضرورة عن غير تعمل لنقصانه؛ لأنّ معاه تضيق لا محالة. فكلما زاد جوعه نقص أكله على هذا إلى أن ينتهي في الجوع، وينتهي في قلة الطعم، ولا ينال فضيلة الجوع التي وردت به الأخبار إلّا بالطّي.

ومن الناس من يقول: حدّ الجوع الأول من الوقت إلى مثله كالغد أربعة وعشرون ساعة، وحدّ الآخر اثنان وسبعون ساعة؛ فهذا حدّ الجوع من الأوقات. فأما حدّ في الأوقات فكان بعضهم يقول: حدّ الجوع أن لا تطلب نفسك الأدم، فمتى طلبت نفسك الأدم مع الخبز فلست جائعًا؛ فهذا حدّ الأول. وقيل: حدّ

(١) في (م): «يُعاب».

الجوع أن تطلب الخبز فلا تميز بينه وبين غيره، فمتى تآقت النفس إلى الخبز بعينه فليست بجائعة لأن لها شهوة في الخبز، ومتى لم تميز بين خبز وغيره من مأكول؛ فهذا حد الجوع، وهو الفاقة والحاجة إلى الطعام الذي جعله الله تبارك وتعالى غذاء للأجسام؛ وهذا يكون في آخر الحدين من الأوقات بعد الثلاث إلى خمس وسبع، ويكون طلب العبد عند هذا الجوع القوام من العيش والضرورة من القوت، وهو ما سد الجوعة، وأعان على أداء الفريضة. وهذا حال الصديقين.

وقد سمعت بعض هذه الطائفة يقول: حد الجوع أن يبزق العبد، فإذا لم يقع على بزاقه ذباب فقد خلّت معدته من الطعام. يريد أن بزاقه قد خلا من الدسومة والدهنية وصار صافياً مثل الماء فلا يسقط عليه الذباب، مع لطف حاسته التي رُكبت فيه وخفى إدراكه لما يقع عليه.

فأما أكل العادات والتنقل في الشهوات والأكل حتى يشبع، فهذا عند بعض العلماء مكروه، وأهله عندهم بمنزلة البهائم. وأما الأكل على شبع والامتلاء حتى يتخّم، فهذا فسق عند العلماء، وقد قاله لى بعض العارفين.

وروينا أنه قيل لأبى بكر: إن ابنك أكل البارحة حتى بشم^(١). فقال: لو مات ما صليت عليه.

فأما الصوم فليس هو عندهم الجوع المقصود لإسكان النفس وإخماد الطبع، لأن الصوم يصير عادةً، ويرجع الصائم إلى قوة طبعه إذا أفطر، فأما إذا كان يصوم ويفطر على الشهوات أو من يمتلىء من الأكل، فإن صوم هذا لا يزيده إلا قوة طبع وظهور نفس، وتفتق عليه الشهوات، ويدخل عليه الفتور عن الطاعات، ويجلب عليه الكسل والسبات. وربما قوى طبعه جملةً واحدة فظهرت عليه نفسه بقوة مجملّة، إلا أنه لا يجرى في نهاره إلا فيما أُجريت عادته عليه، وجعل حاله فيه من أبواب الدنيا والتنقل في الهوى، وإن كان ظاهر حاله أسباب الآخرة عنده لقصور علمه، فإن حشوها^(٢) الدنيا.

(١) البشم: التخمّة، يقال: بشم يشم. ويقال أيضاً: بشم من فلان أى ستم منه.

(٢) في المطبوعة «شهودها»، وأثبت ما فى الأصول.

فالتقلل وأخذُ البُلغة من القوت في الأوقات مع الإفطار أصلح لقلب هذا، وأدوم لعمله، وأبلغ في آخرته من مثل هذا الصوم؛ لأن هذا الذي وصفناه هو صوم أبناء الدنيا المترفين، ليس بصوم أهل الآخرة الزاهدين، ولكن بالتقلل والطفى، وترك الشهوات، واجتناب الشبهات، تنكسر النفس وتذلّ، ويخمد الطبع، وتضعف الصفة عن العادة، وتقوى إرادة الآخرة، ويعمل المريد في سعيها، وتخرج حلاوة الدنيا من القلب، فيصير العبد مع التجوع والطفى وترك النزوات كأنه زاهد.

ورويانا في حديث أسامة بن زيد، وأبى هريرة^(١) الطويل اختصرته: «إن أقرب الناس من الله عز وجل يوم القيامة من طال جوعه وعطشه وحزنه في الدنيا؛ الأحفياء الأتقياء الذين إن شهدوا لم يُعرفوا، وإن غابوا لم يُفتقدوا، تعرفهم بقاع الأرض، وتحفّ بهم ملائكة السماء، نعم الناس بالدنيا ونعموا بطاعة الله عز وجل، افترش الناس الفرش وافترشوا الجباه والركب، ضيّع الناس فعلَ النبين وأخلاقهم وحفظوها هم، تبكى الأرض إذا فقدتهم، ويسخط الله تعالى على كل بلدة ليس فيها منهم، لم يتكالبوا على الدنيا تكالب الكلاب على الجيف، أكلوا الفلقَ ولبسوا الخرقَ، شعثًا غبرًا، يراهم الناس يظنون أن بهم داءً، وما بهم من داء. ويقال: قد خولطوا وذهبت عقولهم، وما ذهبت عقولهم، ولكن نظر القوم بقلوبهم إلى أمرٍ ذهبت عنهم الدنيا، فهم عند أهل الدنيا يمشون بلا عقول، عقلوا حيث ذهبت عقول الناس، لهم الشرف في الآخرة. يا أسامة إذا رأيتهم في بلدة فاعلم أنهم أمان لتلك البلدة، لا يعذب الله عز وجل قومًا هم فيهم. الأرض بهم رحيمة، والجبارُ عنهم راض، اتخذهم لنفسك أخذًا عسى أن تنجو بهم، وإن استطعت أن يأتيك الموت وبطنك جائع وكبدك ظمآن فإنك تدرك بذلك شرف المنازل، وتحلّ مع النبين، وتفرح بقُدوم روحك الملائكة، ويصلى عليك الجبار عز وجل».

وممن اشتهر بالطفى وكثُر النقل عنه بذلك الخمس عشرة يومًا إلى عشرين إلى

(١) في المطبوعة «وأبى يزيد»، وأثبت ما في الأصول.

شهر، جماعة من العلماء يكثر عددهم؛ منهم: ابن عمرو العوفى، وعبد الرحمن ابن إبراهيم دحيم، وإبراهيم التيمي، وحجاج بن فرافصة، وحفص بن العابد المصيصى، والمسلم بن سعد، وزهير البنائى، وسليمان الخواص، وسهل بن عبد الله، وإبراهيم الخواص. وقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يطوى ستاً، وكان عبد الله بن الزبير يطوى سبعة أيام، وكان أبو الجوزاء صاحب ابن عباس يطوى سبعا. وروى أن الثورى وإبراهيم بن أدهم كانا يطويان ثلاثاً ثلاثاً، وقد رأينا من كان يطوى تسعاً وخمسا، وكثيراً ممن يطوى ثلاثاً ثلاثاً.

وقد قال بعض العلماء: من طوى أربعين يوماً من الطعام ظهرت له قدرة من الملكوت. وكان يقول: لا يزهد العبد حقيقة الزهد الذى لا مشوبة فيه إلا بمشاهدة قدرة من غيب الملكوت. وبعضهم يقول: لا يوقن العبد يقيناً ثابتاً يحكم عليه بالاستقامة فيه، ولبسة حال لازمة، وعلم نافذ فى الملكوت، إلا بمشاهدة قدرة من قدر الغيب، برأى عين تظهر له شهادة دائمة، يقوم بها ويضطره؛ فعند هذا يعرف من الله تعالى وصفه المخصوص القيوم به.

ويصح لعبدٍ مراد بهذا الطريق المنهج له طى أربعين فى سنة وأربعة أشهر، على ما نزلنا من تأخير الأوقات وقتاً بعد وقت، ورتبنا من رياضة النفس فى الأوقات، حتى تندرج الليالى فى الأيام، وتدخل الأيام فى الليالى، فتكون الأربعون بمنزلة يوم واحد وليلة؛ وهذا طريق بعض المقربين والأبدال من الصديقين، لا يقدر عليه إلا مراد به، محمول فيه، مطلوب مكاشف بشهادة تشغله عن نفسه، وتقطعه عن طبعه وعاداته، وتنسيه جوعه، ويكشف له حقيقته ومرجوعه. وقد عرفنا من كان فعل ذلك، وظهرت له آيات من الملكوت، وكُشف له عن معانى قدرة من الجبروت، تجلّى الله له عز وجل بها ومنها كيف شاء.

وقد وقف بعض هذه الطائفة على راهبٍ فذاكره بحاله، وطمع فى إسلامه وترك ما هو عليه من الغرور، فكلّمه فى ذلك بكلام كثير، إلى أن قال له الراهب: فإن المسيح كان يطوى أربعين يوماً، وأنا معتقد إعجاز هذا، وأنه لا يكون إلا لنبي. فقال له الصوفى: فإن طويتُ خمسين يوماً تترك ما أنت عليه

وتدخل في دين الإسلام، وتعلم أن ما نحن عليه حق وأنت على باطل؟ قال: نعم. فبعد عنده لا يبرح ولا يذهب إلا من حيث يراه الراهب إلى أن طوى خمسين يوماً. فقال: أزيدك أيضاً، فطوى إلى تمام الستين. فعجب الراهب منه، واعتقد فضله وفضل دينه، وقال: ما كنت أظن أن أحداً يجاوز فعل المسيح عليه السلام، ولكن هذه أمة تُشَبَّهُ بالأنبياء في العلم والفضل، فكان ذلك سبب إسلامه. ومن كان يطوى أربعين يوماً إبراهيم التيمي وحجاج بن فرافصة. فأما الثلاثين والعشرين فقد حكى عن عدد كثير منهم: سهل بن عبد الله، وجماعة من البصريين. وأما من يأكل في الشهر أكلتين وثلاثة وأربعة فهم كثير من الشاميين والجزيريين.

وإن أحب المرید أن يقسم فطره قسمين، فيأكل رغيماً عند إفطاره في أول الليل فيسكن بذلك جوعه، ويأكل رغيماً عند السحر يستعين به على صومه، فحسن، وإن أحبَّ عمل في تأخير الإفطار على رياضة، ووقف عند السحر فلم يجاوزه، فيكون أكله سحراً، فيحصل له بذلك خمسة أشياء: جوع النهار للصيام، وجوع الليل للقيام، وخلو القلب لفراغ المعدة، ودقة الفكر واجتماع الهم لخلو القلب، وسكون النفس للمعلوم فلا ينازعه قبل وقته. وهذا أوسط الطرقات وأحبها إلى، وهو طريق السائرين.

وفي حديث عاصم بن كليب، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: «ما قام رسول الله ﷺ قيامكم هذا قط، وإن كان ليقوم حتى ترلّع^(١) رجلاه، وما واصل وصالكم هذا قط غير أنه قد أخر الفطر إلى السحر». وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يواصل إلى السحر».

فإن كان المرید يصوم يوماً ويفطر يوماً؛ وهو أعدل طرقات الصيام أيضاً، أكل يوم فطره بعد الظهر وليلة صومه عند الفجر. فإن لم يفعل فليأكل يوم فطره نصف أكله بالأمس، فكأنه صائم، فإن لم يفعل اضطرب جسمه وداخله الفتور في حاله. ومن لم يكن له معلوم فلا بأس أن يأكل شبعه ثم يتربص حتى ينتهى

(١) ترلّع: تشقق.

جوعه؛ فعلامة جوعه أن لا تختار نفسه الخبز دون غيره من المأكولات، فإن اختارت نفسه الخبز ففيه بقية من الشَّبَع؛ وعلامة شبعه بعد الأكل أن يأكل الخبز البحت على شهوة، فإذا تآقت نفسه إلى الأدم فقد ابتدأ شبعه، فإن تخيرت الإدام فهو شبعان.

وترك المعلوم في الطعام طريق صوفية البغداديين، والوقوف مع المعلوم طريق البصريين. ولما قدم صوفية أهل البصرة على أبي القاسم الجنيد بعد وفاة سهل رحمه الله تعالى قال لهم: كيف تعملون في الصوم؟ فقالوا: نصوم بالنهار فإذا أمسينا قمنا إلى قفافنا. فقال: آه آه لو كنتم تصومون بلا قفاف كان أتمَّ لحالكُم؛ أى لا تسكنون إلى مَعلوم. فقالوا: لا نقوى على هذا.

ولعمري إنَّ طريق البغداديين بترك المَعلوم من المَطعوم أعلى؛ وهو طريق المتوكلين من الأقوياء وطريقة البصريين بالمَعلوم، والتوقيت أسلم من آفات النفوس، وأقطع للتشرف والتطلع؛ وهو طريق المريدين والعاملين.

• ذكر رياضة المريدين في المأكول، وفضل الجوع، وطريقة السلف في التقلل من

الأكل،

كان أبو ذر يقول في بعض إنكاره: قد غيرتم بنخلكم الشعير ولم يكن مُنْخُل، وخبزتم المرقق، وجمعت بين أدمين، واختلَف عليكم بألوان الطعام، وغدا أحدكم في ثوب ورجع في آخر، ولم تكونوا هكذا في عهد رسول الله ﷺ. وكان يقول: قُوتِي في كل جمعة صاع من شعير، والله العظيم لا أزيد عليه حتى ألقاه، فإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة من مات على مثل ما تركته عليه». وقد كان قوت جماعة من الصحابة صاعاً من حنطة في كل جمعة، فإذا أكلوا التمرَ اقتاتوا صاعاً ونصفاً^(١). وكان قوت أهل الصُفَّة مِداً من تمر بين اثنين في كل يوم، والمدّ هو رطل وثلاث.

وكان الحسن يقول: المؤمنُ مثل العنيزة يكفيه الكفُّ من الحشَف، والقبضةُ من

(١) هذه العبارة تقدمت في الأصول المخطوطة.

السَّوِيق، والجرعة من الماء. والمنافق مثل السَّبع الضارى سَرَطًا سَرَطًا^(١) وبلعًا بلعًا، لا يطوى بطنه لجاره، ولا يُؤثر أخاه بفضله، وجَّهوا هذه الفضول أمامكم. وكان أبو يزيد البسطامي يقول: إذا وجد الفقير الماء سقط عنك فرضه.

وفى الحديث المشهور العام: «المؤمن يأكل فى مَعَى واحد والمنافق يأكل فى سبعة أمعاء». هذا على التمثيل فى الاتساع والكثرة؛ أى يأكل أضعاف أكل المؤمن، فكان المؤمن يأكل سَبْعَ أكل المنافق. والعرب ترفع فى ذكر ضعف الشئ وإضعافه إلى سبعة. وقد فسَّر ذلك عالمنا أبو محمد سهل فقال: معنى «يأكل فى سبعة أمعاء»: أحدها: شَرَّةٌ، وطمع، وحرص، ورغبة، وغفلة، وعادة. أى: فالمنافق يأكل بهذه المعانى، والمؤمن يأكل بمعنى الفاقة والزهد. ولهذا كان يقول: لو كانت الدنيا دَمًا عبيطًا^(٢) كان قوت المؤمن منها حلالاً. لأن أكل المؤمن عنده ضرورة للقوام. ومن الناس من يضيف هذا الكلام إلى رسول الله ﷺ، وهو مخطئ فى ذلك، إنما هو من كلام إمامنا سهل بن عبد الله التستري رحمه الله، وقد سئل عن قوت المؤمن فقال: قوته الله تعالى. قال: سألت عن قوامه. فقال: الذكر. فقلت: إنما سألت عن غذائه. فقال: غذاؤه العلم. قلت: سألت عن طُعمة الجسم. فقال: ما لك والجسم؟! دع الجسم على من تولاه قديمًا يتولاه الآن. ثم قال: الجسد صنعة إذا عابت^(٣) رُدَّها إلى صانعها. وسئل أيضاً عن الحلال، فقال: ما لم يعص الله فى أوله ولم ينس فى آخره، وذكر عند تناوله، وشكر بعد فراغه. وكان يقول: القوت للمؤمنين، والقوام للصالحين، والضرورة للصديقين.

ومن كان ذا معلوم فالمستحب له أن لا يزيد على رغبين فى يوم وليلة، وليجعل بينهما وقتًا طويلاً مرة وقصيراً أخرى على حسب الحاجة وتوقان النفس إلى الغذاء، لا على طريق العادة والشهوة. والرغيف ست وثلاثون لقمة يكون قوام النفس فى كل ساعة ثلاث لقمات. فإذا أراد أن يأكل الرغيف على هذا

(١) سَرَطَ الشئ بَلَعَهُ، واسترطه ابتلعه.

(٢) العبيط من الدم: الخالص الطرى.

(٣) أى صارت ذا عيب.

التقسيم فليجرع بعد كل ثلاث لقم جرعة ماء، فذلك اثنا عشر جرعة في تضاعيف ستة وثلاثين لقمة. ففي ذلك قوام الجسم وصلاحه في كل يوم وليلة على هذا الترتيب.

والأصل في جمل ما ذكرناه من التنزل في القوت ما روينا أن النبي ﷺ نظر إلى رجل سمين فأومأ إلى بطنه بأصبعه، وقال: «لو كان هذا في غير هذا كان خيراً لك». يعنى لو قدمته لآخرتك وآثرت به إخوانك، فكان في غير جوفك، لكان ذلك خيراً لك. ويعنى: قلة الطعام خير من كثرتة.

وتجشأ أبو جحيفة عند رسول الله ﷺ من ثريد ولحم، قال: كنت أكلته. فقال له: «اكفف عنا جشاءك، فإن أكثركم شبعاً في الدنيا أطولكم جوعاً يوم القيامة. قال: فوالله ما ملأت بطني من طعام بعدها إلى يومى هذا، وأرجو أن يعصمنى الله فيما بقى». وقد روينا عن الحسن عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «البسوا الصوف، وشمروا، وكلوا في أنصاف البطون، تدخلون في ملكوت السماء».

وروينا عن عيسى عليه السلام: «أجيعوا أكبادكم، وأعروا أجسادكم، لعل قلوبكم ترى الله عز وجل». وقد رواه عبد الرحيم بن يحيى الأسود، عن طاوس رفعه إلى رسول الله ﷺ أنه قاله. وقيل لأبى يزيد البسطامى وهو أعلى هذه الطائفة إشارة: بأى شىء نلت هذه المعرفة؟ قال: ببطن جائع وجسد عار. وفي التوراة مكتوب: إن الله تبارك وتعالى ليبغض الحبر السمين. وفي بعض الكتب: ويمقت أهل بيت لحمين. وقد جاء مسندين إلى رسول الله ﷺ من طريق، وقد روينا عن ابن مسعود: إن الله عز وجل يبغض القارئ السمين. وفي خبر مرسل: «إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم، فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش»، فإذا جعل العبد شبعه بين جوعين كان جوعه أكثر من شبعه وسلم من حديث أبى جحيفة. ومن كانت له جوعة بعد كل شبعة اعتدل جوعه وشبعه، ومن أكل في يوم مرتين فقد تابع الشبع، وتحقق بخبر أبى جحيفة، وشبعه حينئذ أكثر من جوعه؛ وليس ذلك من السنة، وهو من فعل المترفين، وقد كانوا يعدونه سرفاً^(١).

(١) تأمل!! رحم الله سلفنا الصالح، ما أبعد الشقة بيننا وبينهم!!

وقد روينا عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا تغدى لم يتعش، وإذا تعشى لم يتغدى. وكان السلف يأكلون في كل يوم أكلة. وقد روى أن النبي ﷺ قال لعائشة رضى الله عنها: «إياك والإسراف، فإن أكلتين في كل يوم من الإسراف». وقد قال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ [الفرقان: ٦٧]. فكان أكلتين في يوم إسراف، وأكلة في يومين إقتار، وأكلة في يوم قواماً بين ذلك.

وأقول على هذا: إن أكل أربعة أرغفة سرف، ورغيفين قتر، وثلاثة أرغفة قوام حسن؛ وهذا أعدل الأقوات. ولا يعجبني أكل أربعة أرغفة في مقام واحد، لأننى لا آمن به ازدياداً فيصير ذلك معتاداً^(١)، فإن كان عن جوع شديد، أو عدة لسفر، أو عدم، فلا بأس.

وقد يروى في خبر: الأكل على الشبع يورث البرص^(٢). وقال بعض السلف: إن من السرف أن يأكل العبد كل ما اشتهاه. وقد كان للصحابه أكلتان وشربتان، فالأكلتان الوجبة والغبوق، فالوجبة من الوقت إلى الوقت، كقولك الوجبة، ومنه قوله: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا﴾ [الحج: ٣٦] أى إذا وقعت جنوب البدن على الأرض، والغبوق: أن يشرب مذقة لبن، أو يأكل كف تمر عند النوم، أو بعد عتمة، أو يكون عند الظهيرة، وقد يكون ذلك سحراً. والشربتان: العلل والنهل، فالنهل: الشربة الأولى من اللبن بمنزلة الوجبة، والعلل: الشربة الثانية بمنزلة الغبوق من نقيع تمر أو زبيب أو لبن، يقوم مقام الأكلتين، فهن تمام الرى، والأولى: علالة النفس من العطش فسمى عللاً.

وكان من أخلاق السلف ترك الشبع اختياراً لأنفسهم؛ لحقة الجسم، أو مواساة الفقراء، أو مساواة لهم في الحال لئلا يتفضلون عليهم في حالهم، ولهذا قالت عائشة رضى الله عنها: أول بدعة حدثت بعد رسول الله الشبع، إن القوم لما شبعوا بطونهم جمحت بهم نفوسهم إلى الدنيا.

(١) فى المطبوعة: «مقتاً»، وأثبت ما فى الأصول، وما بعده إلى آخر الفقرة ليس فى المطبوعة.

(٢) هذا قول لا يؤيده سند ولا طب.

ورويانا فى خبر: «كان رسول الله ﷺ يجوع لا من عَوَز». أى مختاراً له مع الإمكان فى الأوقات. وقال بعض العلماء: أبغض الأشياء إلى الله عز وجل بطن مُلئ ولو من حلال. وقد رويانا معناه مسنداً.

وفى الخبر الإسرائيلى أن يحيى عليه السلام ظهر له إبليس فرأى عليه معاليق من ألوان الأصباغ من كل شىء. فقال له: ما هذه المعاليق؟ قال: شهوات بنى آدم. قال: فهل لى فيها شىء؟ قال: ربما شبت فتقلناك عن الصلاة وعن الذكر. قال: هل غير ذلك؟ قال: لا. قال: لله تبارك وتعالى على أن لا أملأ بطنى من طعام أبداً. قال إبليس: والله على أن لا أنصح مسلماً أبداً.

وقد كان من أخلاق التابعين الصبر على الطعام إلى أحد حدى الجوع؛ الأول منها وهو أربع وعشرون ساعة، ولم يكن من أخلاقهم الأكل للعادة ولا تخير الأطعمة، ولا تعتمد الخبز خاصة دون غيره من المأكولات، إذا سدَّ الجوعة وقامت به البلغة. وكان أبو سليمان الداراني يقول: إذا عرضت لك حاجة من حوائج الآخرة فاقضها قبل أن تأكل، فما من أحد شبع إلا نقص من عقله - أو قال: تغير عقله - عما كان عليه. وكان يقول: لأن أترك من عشائى لقمة أحبُّ إلى من قيام ليلة. هذا لإيثاره الجوع والتقلل على العبادة مع التكثر.

ورويانا عن وهب بن منبه وغيره: أن عابداً دعا بعض إخوانه فقرب إليه رغيفين، فجعل أخوه يقلب بعض الأرغفة ليختار أجودها. فقال له العابد: مه، أى شىء تصنع؟ أما علمت أن فى هذا الرغيف الذى رغبت عنه ولم تقنع به كذا وكذا حكمة، وقد عمل فيه كذا وكذا صانع، وظهرت فيه كذا وكذا صنعة؛ منها السحاب الذى يحمل الماء، والماء الذى يسقى الأرض، والأرض التى أنبتت، والرياح، والبهائم، وبنو آدم، حتى صار إليك، ثم أنت بعد هذا تقلبه لا ترضى به؟

وقال الآخر زيادة فى الخبر: إن الرغيف لا يستدير فيوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلاثمائة وستون ما بين صانع وصنعة؛ أولهم ميكائيل الذى يكيل الماء من خزائن الرحمة، ثم الملائكة التى تزجر السحاب والشمس والقمر والأفلاك

وملكوت الهواء ودواب الأرض، وآخر ذلك الخباز، ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

والخبر المشهور: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن» فدل أن ما نقص من ملء البطن فذلك خير، ثم قال: «حسب ابن آدم لقيمات يشددن صلبه». ففي قوله «لقيمات» معنيان: التقلل والتصغير؛ لأن التاء تدخل للجمع القليل وهو ما دون العشرة من العدد، والمعنى الآخر: هو التصغير؛ لأن لقيمة تصغير لقمة. ثم قال: «فإن لم يفعل فثلث طعام وثلث شراب وثلث نفَس». وفي لفظ آخر: «وثلث للذكر»، فدل أيضاً أن ملء البطن يمنع من الذكر، وما منع من الذكر فهو شرٌّ. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٣]. وقال: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧].

ومعنى قوله ﷺ: «ثلث طعام»: أن يأكل شبعه المعتاد فيصير ثلث الشبع قوام الجسد باعتياد ثانٍ، كما كان ملء البطن من الشبع هو العادة الأولى، وثلث الشبع هو ثمان أواق؛ فهذا على معنى الخبر الآخر: «طعام الواحد يكفى الاثنين وطعام الاثنين يكفى الأربعة». ففي هذا خمسة أوجه. قال بعض علمائنا البصريين: طعام الواحد شبعاً يكفى الاثنين قوتاً. وطعام الاثنين شبعاً يكفى الأربعة قوتاً، ومنهم من قال: طعام المسلم يكفى مؤمنين، وطعام مسلمين يكفى أربعة من خصوص المؤمنين. ويجوز أيضاً أن يكون طعام الواحد من المنافقين يكفى مسلمين، على معنى قوله: «المؤمن يأكل في معي واحد والمنافق في سبعة أمعاء». ويصلح أن يكون معناه: طعام الواحد من الصنائع المتصرفين في المعاش يكفى اثنين ممن هو قاعد لا يتصرف، ويصلح أيضاً: طعام الواحد من المفطرين يكفى طعام صائمين من الخصوص^(١).

وفي خبر عمر رضى الله عنه حين قال لابن مسعود وأبى موسى فى قصة المرتد الذى قتلاه قبل أن يستتيباه ويحكمهما: ألا طيِّتم عليه بيتاً، وألقيتم إليه كل يوم

(١) ولم لا يكون المعنى: أن البركة تكون من الاجتماع على الطعام أيضاً؟

رغيفًا ثلاثة أيام، فلعله أن يتوب أو يرجع إلى الإسلام. اللهم إني لم أمر، ولم أعلم، ولم أرض إذ بلغني. فدلَّ بهذا أن في كلِّ رغيف كفاية يوم، وثلاثة أرغفة عندنا بالحجاز رطل؛ لأن الرطل المكي عدد ستة أقراص منذ ذاك إلى يومنا، هذا فيكون كل رغيف ثمان أواق؛ فهذا كما قلناه: إن ثمانية أواق ثلث الشبع؛ لقوله: «ثلث طعام» بعد قوله: «لقيمات» جمع لما دُون العشرة، وهذا مواطئٌ لما روى عن عمر رضى الله عنه أنه كان يأكل سبع لقم، وتسع لقم.

وحدثونا في أخبار الخلفاء أن الرشيد جمع أربعة أطباء: هندي، ورومي، وعراقي، وسوادي، فقال لهم: ليصف كل واحد منكم الدواء الذي لا داء فيه. فقال الهندي: الدواء الذي لا داء فيه عندي هو الإهليلج الأسود. وقال الرومي: الدواء الذي لا داء فيه حَبُّ الرشاد الأبيض. وقال العراقي: الدواء الذي لا داء فيه الماء الحار. فقال السوادي، وكان أعلمهم: إن الإهليلج يعفص المعدة وهذا داء، وإنَّ حَبَّ الرشاد يرق المعدة وهذا داء، والماء الحار يرخي المعدة وهذا داء. قالوا: فما عندك؟ قال: الدواء الذي لا داء فيه أن لا تأكل الطعام حتى تشتهي، وترفع يدك عنه وأنت تشتهي. فقالوا: صدق.

وحدثني بعض العلماء قال: ذكرت لبعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قول النبي ﷺ: «ثلث طعام، وثلث شراب، وثلث نفس». فتعجب منه واستحسنه وقال: ما سمعت كلامًا في قلة الأكل أحكم من هذا وإنه لكلام حكيم. ثم قال: جهدت الأطباء من الفلاسفة أن يقولوا مثل هذا في التقليل من الأكل فلم يهتدوا إليه. فأكثر ما قالوا: لا تقعد على طعامك حتى تشتهي وترفع يدك عنه وأنت تشتهي. ومنهم من قال: لا يأكل إلا بعد الجوع ويرفع قبل الشبع. ومنهم من قال: لا يأكل إلا بعد الجوع المفرط ولا يشبع شديداً^(١)، وإنما كان مرادهم هذا المعنى الذي ذكره نبيُّكم ﷺ. وقد كان بعض علمائنا وهو أبو الحسن بن سالم

(١) اختلفت عبارة الأصول في (م): «لا تأكل بعد جوع مفرط ولا تشبع». وفي (د): «لا تأكل بعد الجوع مفرطاً، ولا تشبع بعد الشبع مفرطاً». وعبرة (هـ): «لا تأكل بعد جوع مفرط، ولا تشبع شبعاً مفرطاً».

يقول: من أكل خبز الحنطة بحثًا بأدب لم يعتلَّ إلا علة الموت. قيل له: وما الأدب؟ قال: يأكل بعد الجوع، ويرفع قبل الشبع.

والأصل في هذا أن العِللَ داخلة على الأجسام من اختلاف نبات الأرض؛ لأن المعدة مركبة على طبائع أربع: الحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة. وكذلك منابت الأرض على هذه الطبائع الأربع فإذا أكثر من اختلاف منابتها أمالت الحرارة والبرودة من النبات غرائز الطبائع من الحرارة والبرودة من المعدة، وأمالت الرطوبة واليبوسة من النبات غرائز الطبائع من الرطوبة واليبوسة، فزاد بعض على بعض وقوى وضعف على مثله، فكانت الأمراض من مثل ذلك، لأن كل مأكول من نبات الأكل يعمل في وصف معانى الجسم، وأن الحنطة مخالفة لسائر نبات الأرض المعتدلة في الطبائع الأربع كاعتدال الماء في سائر الأشربة، وقد شبهوا لحم الدُّرَّاج في خفته وقلة دهنه من سائر اللحوم بطبع الحنطة في سائر الحبوب.

وقال بعض الأطباء: كل من الخبز بحثًا ما شئت، فإنه لا يضرّك. وقال غيره: أكل الخبز يابسًا وحده خير من أكله مع الأدم الضارّ.

وحدثني بعض علمائنا عن بعض الأطباء أنه قال^(١): لم يدخل الإنسان إلى معدته أنفع من الرمان، ولا أضرّ من المالح، ولأن يتقلل من المالح خير له من أن يستكثر من الرمان. وقد مثل الأترجُ من سائر الفاكهة على صورة^(٢) المعدة في الطبائع الأربعة.

وقد شبه رسول الله ﷺ المؤمن بالأتربة فقال: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة^(٣)، طعمها طيبٌ وريحها طيبٌ»؛ فهذه لطيفة من اللطيف، وحكمة من الحكيم تعالى: إذا أراد صحة جسم عبدٍ أوحى إلى المعدة أن يأخذ كل طبع منها ضده من نبات الأرض الذي وقع في المعدة، فيأخذ طبع الحرارة طبع البرودة

(١) في المطبوعة: «وقال بعضهم».

(٢) في المطبوعة: «سائر».

(٣) أول الحديث ساقط من المطبوعة.

من المأكول، ويأخذ طبع الرطوبة طبع اليبوسة من المأكول، فتعتدل الطبائع، فيستوى المزاج؛ فيكون ذلك سبباً لصحة الجسم من علله.

فإذا أراد سقم جسم أمر كل طبيعة أن تأخذ جنسها ومثلها من المأكولات، فتأخذ طبع الحرارة من المعدة جنسه من الحرارة من نبات الأرض، ويأخذ طبع الرطوبة جنسه من الرطوبة من المأكول، ويأخذ طبع السوداء مثله من المأكول، فتميل الطبائع بأمثالها من المأكول^(١) من نبات الأرض ميلاً واحدة، فتضطرب المزاجات، ثم يدور ذلك في الجسد بمجاري العروق ومصباتها إلى الأعضاء المتفاوتة الأدوات، فتقع على كل أداة في عضو ضدها فتثقل بها، ويغشى كل آلة من جارحة ما لا يلائمها من طبعها، فيسقم الجسم وتتفاوت العلل، فيكون هذا سبب الأمراض والعوارض، نعوذ بالله، ذلك تقدير العزيز العليم.

وقد رويانا: أصل بنية الإنسان عن الله تعالى في صفة خلق آدم عليه السلام. حدثنا عن ابن البراء قال: حدثنا عبد المنعم بن إدريس قال: حدثني أبي عن ابن منبه اليماني أنه وجد في التوراة صفة خلق آدم عليه السلام حين خلقه الله عز وجل وابتدعه، فقال: إنني خلقت آدم وركبت جسده من أربعة أشياء، ثم جعلتها وراثته في ولده تنمى في أجسادهم، وينمون عليها، ركبت جسده من رطب ويابس وسخن وبارد، وذلك لأنني خلقت من التراب، ورطوبته من الماء وحرارته من قبل النفس، وبرودته من قبل الروح. ثم جعلت في الجسد بعد هذا الخلق الأول أربعة أنواع من الخلق هن ملاك الجسم بإذن وقوامه لا يقوم الجسم إلا بهن، ولا يقوم منهن واحدة إلا بأخرى، منهن: المرة السوداء، والمرة الصفراء، والدم، والبلغم، ثم أسكنت بعض هذا الخلق في بعض، فجعلت مسكن اليبوسة في المرة السوداء، ومسكن الرطوبة في المرة الصفراء، ومسكن الحرارة في الدم، ومسكن البرودة في البلغم. فأیما جسد اعتدلت فيه هذه الفطر الأربع التي جعلتها ملاكه وقوامه فكانت كل واحدة منهن ربعاً لا تزيد ولا تنقص، كملت صحته واعتدلت بنيته؛ فإن زاد منهن واحدة عليهن قهرتهن ومالت بهن، ودخل عليه السقم من ناحيته

(١) من قوله: «تأخذ طبع الحرارة من المعدة» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

بقدر غلبتها حتى تضعف عن طاعتهن، وتعجز عن مقاربتهن^(١). ثم ذكر الحديث بطوله.

وقد تغلب الحرارة على بعض المريدين من قبل قوة المزاج وحدة الشبات، فيظهر الطبع فيتسع المنى على العزب^(٢)، كما تقوى الحرارة فيتتبع الدم؛ لأن أصل المنى هو الدم يتصاعد في خرزات الصلب وهناك مسكنه، فتضججه الحرارة فيستحيل أبيض، فإذا امتلأت منه خرزات الصلب وهو الفقار طلب الخروج من مسلكه فقويت الصحة بذلك، فهذا حين هيجان الإنسان إلى النكاح، ولا يصلح لمثل هذا أن يأكل الحار من الأطعمة، وليطفئ ذلك بأكل البرودات والأشياء القاطعة، وليجنب أكل كل حار يابس أو بارد رطب؛ فإنه يهيج الطبع ويقوى العضو.

وقد روينا عن قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: الغلظة. وقال فياض بن نجيح: إذا قام ذكر الرجل ذهب ثلث عقله.

وقد روينا عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفرقان: ٣] قال في تفسيره: قيام الذكر. وقد أسنده بعض الرواة إلى رسول الله ﷺ، إلا أنه قال: الذكر إذا دخل.

وعن رسول الله ﷺ أنه كان يقول: «أعوذ بك من شر سمعي وبصري ولساني وقلبي ومني». وروينا عن أزواج رسول الله ﷺ وعليهن أجمعين السلام أنهن كن يأكلن الخل والبرودات بعد وفاة رسول الله ﷺ يقطعن به الشهوة.

وروى بعض أشياخ الصوفية قال: اشتدت^(٣) على صفتي مرة في بدء إرادتي بما لم أطق فكنت أضج إلى الله تعالى في كل وقت، فرأيت شخصاً في النوم فقال لي: ما لك؟ فشكوت إليه. فقال: تقدم إلي. فتقدمت، فوضع يده على صدري

(١) ما كان أغنى أبا طالب عن مثل هذه الأخبار، فكتابه ليس في حاجة إليها، رحمه الله وتجاوز عنا وعنه.

(٢) العبارة في الأصول: «يتتبع المنى على العزب».

(٣) في الأصول: «استفحلت».

فوجدتُ بردها في فؤادي وجميع جسدي. قال: فأصبحت وقد انكشف ما بي فبقيت معافى سنة، ثم عاودني ذلك بمثله أو أشد فأكثر الاستغاثة إلى الله عز وجل، فجاءني شخص في المنام قال: تحب أن يذهب ما تجد وأضرب عنقك؟ فقلت: نعم. فقال: مدّ رقبتك. قال: فمددتها فجرد سيفاً من نور فضرب به عنقي. قال: فأصبحت وقد انكشف ما بي فبقيت معافى سنة. ثم عاودني بمثله من الاغترام وأشدّ فرأيت شخصاً يخاطبني فيما بين صدري وثوبي، فقال: ويحك كم تسأل الله تعالى رَفَعَ ما لم يحبّ رفعه؟ قال: فتزوجت، فانقطع عني ولم يعاودني. فكان ذلك سبب ذريته ووُلد له.

فإذا كان العبد ناسياً لجوعه، ذاكراً لربه عزّ وجلّ، فهو يشبه الملائكة، وإذا كان شبعان منهُوماً في طلب الشهوات فهو أشبه شيءً بالبهائم.

ويقال: إن الجوع ملك وإن الشبع مملوك، وإن الجائع عزيز والشبعان ذليل. وقيل: الجوع عزّ كلّهُ، والشبع ذلّ كلّهُ. وقال بعض السلف: الجوع مفتاح الآخرة وباب الزهد، والشبع مفتاح الدنيا وباب الرغبة.

وقد روينا عن رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء باباً، وباب العبادة الصوم». والخبر المشهور: «صوموا تصحوا». فصحة القلوب من علل النفوس أعلى وأحسن من صحة الأجسام من علل الأسقام.

وقد روينا عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أديموا قرع باب الجنة يفتح لكم. قلت: وكيف نديم قرع باب الجنة يا رسول الله؟ قال: بالجوع والظمأ».

وقد نوع أبو سعيد الخراز^(١) مقامات أهل الجوع في مقاصدهم عن مواجيد نياتهم^(٢) وهممهم. فحدثني الجّهضمي عن أحمد بن شاکر قال: سمعت أبا سعيد

(١) هو أحمد بن عيسى الخراز، توفي سنة ٢٧٧ هـ، وقيل سنة ٢٧٩ هـ، وصل إلينا من آثاره «كتاب الصدق»، حققه د عبد الحليم محمود. انظر ترجمته في: الحلية ١٠/٢٤٦، طبقات الصوفية، ص ٢٢٨.

(٢) في المطبوعة: «مواجيدهم».

يقول: سمعت الثقة من علمائنا يقول عن عبد الواحد بن زيد: إنه كان يقسم بالله أن الله ما صافى أحداً إلا بالجوع، ولا مشوا على الماء إلا بالجوع، ولا طويت لهم الأرض إلا بالجوع. وكان يعدّ الأخلاق السنية الشريفة المحموده، ويحلف أنهم ما نالوها إلا بالجوع.

قال أبو سعيد: معنى الجوع اسم مُعلّق على الخلق، افترقوا في الدخول فيه والعمل به لعل كثيرة. فمنهم من يجوع ورعاً إذا لم يصب الشيء الصافي. ومنهم من إذا وجد الشيء الصافي تركه زهداً فيه من مخافة طول الحساب والوقوف والسؤال. ومنهم من استلذ العباد والنشاط بها والخفة، فرأى النيل من الطعام والشراب قاطعاً له وشغلاً عن الخدمة والخلوة. ومنهم من قرب من الله عز وجل فلزم قلبه حقيقة الحياء حين علم أن الله تبارك وتعالى مشاهده، وكان الحياء مقامه لا غير، فتوهم أن الله تعالى يراه وهو يمضغ بين يديه ويأكل ويشرب فيؤديه ذلك إلى الاختلاف إلى الكنيف فيجوع من هذه العين، وهكذا كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه. ومنهم من أدركه السهو عن حاجاته من الدنيا، فسلا عن نيل مصلحته حتى يذكر في الغبّ أو يُذكر.

وقال أبو سعيد الخراز أيضاً: قال جماعة من الحكماء: إن الله تعالى لا يكلم أحداً وفي بطنه شيء من الدنيا. فهذا يدلّ على أمره لموسى عليه السلام بترك النيل، ليلقاه خالياً من الدنيا، وبنفس ساكنة عن المنازعة إلى شيء من الملك، وروح روحانية قد أحيها الحىّ لحياته، فعند ذلك يصلح هذا الشخص لمخاطبته مثلاً بلا ترجمان.

وحدثني الحسن بن يحيى البستي عن ابن مسروق قال: لقيت سهل بن عبد الله، فلما دخلت عليه بشرني وقبلني وكان في إرادة وتذلل، فقلت له: أحب أن تصف لي بدايتك وما كنت تقوّت به. فقال: في كل سنة ثلاثة دراهم؛ كنت آخذ بدرهم دبساً^(١)، وبدرهم سمناً، وبدرهم دقيق الأرز، وأسويه مخلطاً ثلاثمائة

(١) الدبس: غسل التمر، وما يسيل من الرطب.

وستين أكرة^(١)، آخذ كل يوم أكرة أفطر عليها. فقلت: الساعة كيف تعمل؟ فقال: أكلاً بلا حدٍّ ولا توقيف.

وحدثونا في أخبار الملوك أن ملك الهند أهدى إلى المنصور تحفًا؛ منها أنه وجه إليه بفيلسوف طبيب قال: فأنزله المنصور وأحسن إليه. فلما دخل عليه قال الفيلسوف: قد جئتُك يا أمير المؤمنين بثلاث خصال يتنافس الملوك فيها، لا نصنعها إلاّ لهم. قال: وما هي؟ قال: أخضِبُ لحيتك بسوادٍ لا تنصلُ أبدًا ولا تتغير عن حالها. قال: وما الخصلة الثانية؟ قال: أعالجك بعلاج تتسع به في المأكَل فتأكل أى شىء شئت فلا تتخم ولا يؤذيك الطعام. قال: وما الثالثة؟ قال: أقوى صلبك بقوة تبسط إلى الجماع فتجتمع ما شئت لا تملّ من ذلك ولا يضعف بصرك ولا ينقص من قوتك. قال: فأطرق المنصور ثم رفع رأسه إليه فقال: قد كنتُ أظن أنك أعقل مما أنت. أما ما ذكرت من السواد فلا حاجة لى به؛ فإن ذلك غرور وزور، والشيب هية ووقار، ولم أكن لأغير نوراً جعله الله تبارك وتعالى فى وجهى بظلمة السواد. وأما ما ذكرت من الأكل فوالله ما أنا بشره، وما لى فى الاستكثار من الطعام حاجة، لأنه يثقل الجسم ويشغل عن النوائب، وأقل شىء فيه كثرةٌ اختلاف فى الخلاء، فأرى ما أكره وأسمع ما لا أحبّ. وأما ما ذكرت من النساء فإن النكاح شعبة من الجنون، وما أقبح بخليفة مثلى يجثو بين يدى صبيّة. ارجع إلى صاحبك مذموماً مدحوراً فلا حاجة لى بما جئت به.

وحدثونا عن بعض هذه الطائفة قال: أتيت قاسماً الجوعى فسألته عن الزهد أى شىء هو؟ فقال لى: أى شىء سمعت فيه؟ فقلت: قالوا: الزهد قصر الأمل. فقال: وأى شىء أيضاً؟ فقلت: قالوا: الزهد ترك الادّخار. فقال: حسن؛ حتى عددتُ عليه أقوالاً، قال: فسكت. فقلت: أى شىء تقول أنت؟ فقال: اعلم أن البطن دنيا العبد، وبمقدار ما يملك من بطنه يملك من الزهد، وبمقدار ما يملكه بطنه تملكه الدنيا.

(١) الأكرة: الكرة.

وعلى هذا المعنى قال وهب بن منبه حكيم هذه الأمة: لكلّ شيء وسط وطرفان، فإذا أمسكت أحد الطرفين مال الآخر، وإن أمسكت الوسط اعتدل الطرفان، فكذلك البطن وسطاً بين الجوارح؛ إن أمسكتها اعتدلت الأطراف السمع والبصر واللسان والفرج والرجلان.

وكذلك كان شيخنا ابن سالم يقول: إذا أعطيت البطن حظّه من الشبع طلبت كلّ جراحة حظّها من اللهو، فجمحت بك النفس إلى الهلكة، وإذا منعت البطن حظّه، قصرت عنك كلّ جراحة عن حظّها، فاستقام القلب لذلك.

وكان بشر بن الحارث قد اعتلّ، فسأل عبد الرحمن المتطبب عن شيء يوافقه من المأكول، فقال له عبد الرحمن: تسألني فإذا وصفت لك لم تقبل مني؟ فقال له بشر: صف لي حتى أسمع. فقال: تحتاج تستعمل ثلاثة أشياء، فإن فيهنّ صلاح جسمك. قال: ما هن؟ قال: تشرب سکنجیناً، وتمص سفرجلاً، وتأكل بعد ذلك إسفيداجاً. فقال له بشر: تعلم شيئاً أقلّ شيء من السکنجینین يقوم مقامه؟ قال: لا، قال: فأنا أعرف. قال: وما هو؟ قال: الهندبا بالخل يقوم مقامه. ثم قال: فتعرف شيئاً أقلّ ثمناً من السفرجل يقوم مقامه؟ قال: لا. قال: فأنا أعرف. قال: ما هو؟ قال: الخرنوب الشامي في معناه. ثم قال: فتعرف شيئاً أقلّ ثمناً من الإسفيداج يقوم مقامه؟ قال: أما هذا فلا. قال: بلى. قال: ما هو؟ قال: ماء الحمص بسمن البقر في معناه. فقال له عبد الرحمن: فأنت أعلم مني بالطب فلم تسألني؟

ويُستحب للعبد إذا كان جائعاً فتاقت نفسه إلى الجماع أن لا يأكل لثلاث يجمع لنفسه بين حظين فيطلبهما، فرما طلبت الجماع للتعفف وهي تريد الأكل، وربما طلبت الأكل لتنبسط به إلى الجماع، وفي الجمع بين شهوتين تقوية النفس وإجراء عادة لها.

ويستحب للعبد إذا أكل أن لا ينام على أكله؛ فيجمع بين غفلتين، فيعتاد الفتور ويقسو قلبه لذلك، ولكن ليصلّ أو يجلس فيذكر الله تعالى، فإنه أقرب إلى الشكر. وفي الحديث: «أذيبوا طعامكم بالصلاة والذكر، لا تناموا فتقسو

قلوبكم». فأقل ذلك أن يصلى أربع ركعات، ويسبح مائة تسبيحة، أو يقرأ جزءاً من القرآن، عَقِيبَ كُلِّ أَكْلَةٍ. وقد كان سفيان الثوري إذا شبع في ليلة أحيائها، وإذا شبع في يوم واصله بالصلاة والذكر، وكان يتمثل فيقول: أشبع الزنجي وكِدَّه. ومرة يقول: أشبع الحمار وكِدَّه. وكان إذا جاع كأنه يتراخى في ذلك.

وينبغي للمتقشف أن يأكل اللحم والدسم في الشهر مرتين، فإن أكله أربعاً فلا بأس، قد كان السلف يفعلون ذلك. وفي خبر عن علي عليه السلام: «من ترك أكل اللحم أربعين يوماً ساء خلقه، ومن داوم عليه أربعين يوماً قسا قلبه». وقد نُهي عن مداومة اللحم. وقيل: إن له ضراوة كضراوة الخمر. وقد كان أبو محمد سهل رحمه الله يقول للمتقللين من أهل عبادان: احفظوا عقولكم، وتعاهدوها بالأدهان والدسم، فإنه ما كان وليُّ الله عزَّ وجل ناقص العقل.

وإن أحبَّ المريد أن يأكل شيئاً من الطيبات والفاكهة فليجعل ذلك بدلاً من الخبز ويقطع به جوعه؛ فيكون ذلك له قوتاً عند الحاجة إلى طعم ولا يكون تفكُّهًا؛ لئلا يجمع للنفس بين عادة وشهوة، فإنه أسرع لِمَلَكَةٍ؛ لأنه إذا شبع من الطيبات غير الخبز شبعة أو سبعتين كان أقرب إلى تركه وانقطاع شهوته. ونظر أبو محمد سهل إلى ابن سالم شيخنا رحمه الله وفي يده خبزٌ وتمر، فقال له: ابتدىء بالتمر، فإن قامت كفايتك به، وإلا أخذت من الخبز بعده حاجتك. وقال: إن التمر مبارك، والخبز شؤم؛ يعنى أنه كان سبب إخراج آدم من الجنة. وأما بركة التمر فإن الله تعالى ضرب النخلة مثلاً لكلمة التوحيد في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

قال ابن عباس: كلمة التوحيد لا شيء أحلى منها كشجرة طيبة وهى النخلة، وليس فى الثمار أحلى من الرطب. ولذلك شبه رسول الله ﷺ المؤمن فى حلاوته ولينه وقوته وثبات أصله بالنخلة، فقال: «لا يسقط ورقها مثلاً كمثّل المؤمن».

يقول سهل رحمه الله: إذا استغنيت عن الخبز بغيره من الطعم كان خيراً لك. يريد أن لا توقف نفسك مع عادة فتنازعك إليها. وقد ذكرتُ هذه الحكاية لأبى

بكر الجلاء فأعجبته، وقال: هذا كلام الحكماء. وكان هذا يلائم حاله.

وإن خشى المريد أن يكون شيء من المأكَل والطيبات له عادة، ولم يأمن تألُّه قلبه وتوقان نفسه إليه ومنازعتها إياه، وكان العبد مبتدئاً غراً لا يعرف خبء النفس ودواهيها، ولا يفطن لمكرها وآفاتِها؛ فإنَّ تركَ ذلك أفضل، فليتركه حينئذ لأجل الله، خوفاً أن يشتهي، فيحرص على مثله، ويدخل مداخل السوء من أجله، ويبيع دينه فيه، أو خشية تمكُّن العادة فيه، فتعذر عليه التوبة لدخوله في الشبهات عند اعتياد الشهوات؛ لأن العادة جند من جنود^(١) الله تغلب العقل، والابتلاء سلطان من سلطان الله تعالى يقهر العلم، لأجله تعذرت الاستقامة، ولولا العادة لكان الناس تائبين، ولولا الابتلاء لكان التائبون مستقيمين؛ فليترك حينئذ أكل الطيبات إذا صارت شهوات، وخشى منها مطالبة العادات، ودعاوى النفس بالآفات، ناوياً بذلك ما ذكرناه لصلاح قلبه، وتسكين نفسه، ليملك بذلك نفسه قبل أن تملكه، ويفطم عاداتها قبل أن تهلكه، ويغلب بالترك طبعه وهواه قبل أن يكونا بالشهوات يغلبانه. كما قال بعض الحكماء: إنى لأقضى عامة حوائجى بالترك، فيكون أروح لنفسي. وكما قال آخر: إذا أردت أن أستقرض من غيرى لشهوة استقرضت من نفسي، فتركت الشهوة فهي خير غريم لى. فيصير الترك حينئذ والمنع للنفس غذاءً وعادةً، كما كان الأخذ والأكل عادةً، ففي هذا عون له على صلاح قلبه ودوام حاله. وكان إبراهيم بن أدهم يسأل أصحابه عن الشيء من المأكول فيقال: إنه غال. فيقول له: أرخصوه بتركه. وقال بعض الأدباء فى معناه:

وإذا غلا شيء على تركته فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

وهو حينئذ تارك للشهوات لأجل الله تعالى، وعامل من عمال الله. وقد كان هذا طريق طائفة من السلف إلى الله تعالى، ثم انقرضوا فانحى طريقهم وخلف بعدهم خلف من العلماء اتبعوا الشهوات، ولم يقاموا فى هذه المقامات، ولا سلك بهم هذه الطرقات، فلم يتكلموا فى ترك الشهوات؛ فلذلك درس هذا الطريق، وعفا أثره، لفقد سالكه وعدم كاشفه، فمن عمل به وسلكه فقد أظهره،

(١) «من جنود» ساقطة من المطبوعة.

ومن أظهره فقد أحيا أهله .

حدثني بعض علمائنا عن بعض المريدين من أهل البصرة قال : نازعتني نفسى خبز أرز وسمكاً فمنعتها، فقويت مطالبتها، فاشتدت مجاهدتى لها عشرين سنة . قال : فمات . فرأيتة فى النوم فقلت : ما فعل الله بك؟ فقال : لا أحسن أصف إليك ما يلقانى به ربه من النعيم والكرامة، وكان أول شىء استقبلنى به خبز أرز وسمكاً، فقال : كل شهوتك اليوم هنيئاً بغير حساب . وقد قال الله تعالى : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] . فكأنهم أسلفوا ترك الشهوات لما تركوها، وقدموا الجوع والعطش فى خلوة أيامهم، فاستقبلهم بالأكل والشرب . ويقال : لكل عمل جزاء فى الآخرة من جنسه وبمعناه . وقال سرى السقطى : منذ ثلاثين سنة أشتهى أن أغمس جزرة فى دبس وأنا أمنع نفسى . وكان أبو سليمان الداراني يقول : ترك شهوة من شهوات النفس أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها . وقال : لأن أترك لقمة من عشائى أحبُّ إلى من قيام ليلة . ذلك إيثاراً للتقلل ، وخفة للمعدة من الطعام ، وخشية الاعتیاد للشبع .

وسمعت أبا بكر بن الجلاء يقول : أنا أعرف إنساناً تقول له نفسه : أنا أصبر لك على طي عشرة أيام ، فأطعمنى بعد ذلك شهوة أشتيها . فيقول لها : لا أريد أن تصبرى على طي عشرة أيام ، ولكن اتركى هذه الشهوة التى تشتيها . وقال لى رجل أنه رأى النبى ﷺ فى المنام فأخذ بجلد ذراعه وجعل يقول : جعت هذا الجوع كله؟ ولم يقل له اترك الجوع ، ولو قال له اتركه لعله كان يتركه . وقد كان رحمه الله قد ترك أكل الشهوات وأكل الخبز أيضاً ثلاثين سنة .

وكان الجنيد رحمه الله يقول : يقوم أحدهم فى صلاته فيجعل بينه وبين الله تعالى زبيل طعام ، ويريد أن يجد حلاوة المناجاة ، أو يسمع فهم الخطاب . ومثل البطن مثل الزهر وهو العود المجوف ذو الأوتار ، إنما حسن صوته لحفته ورقته ، ولأنه أجوف غير ممتلىء ، ولو كان ثقیلاً جالساً ممتلئاً لم يكن له صوت . وكذلك الجوف إذا خلا من الامتلاء كان أرق للقلب ، وأعذب للتلاوة ، وأدوم للقيام ، وأقل للمنام .

وروى عنه أن عتبة الغلام قال لعبد الواحد بن زيد: إن فلانًا يصف من قلبه منزلة لا أعرفها. قال: إن فلانًا لا يأكل التمر وأنت تأكله. قال: فأنا إن تركتُ التمرَ وأكلته عرفتُ تلك المنزلة؟ قال: نعم وغيرها. فأخذ يبكي، فقال له بعض أصحابه: أبكى الله عينك أعلى التمر تبكى؟ فقال عبد الواحد: دعه فإن نفسه عرفت صدق عزمه في الترك، هو إذا ترك شيئًا لم يعاود فيه أبدًا.

وكان بعض أشياخنا ترك أكل الخبز الحار لأنه كان يحبه ويشتهيهِ سنين كثيرة، فعوتب في ذلك فقال: لو طمعت نفسي في أكل الخبز بعد عشرين سنة ما أطعمتها الساعة. وكان ربّما يبكي من شدة شهوة نفسه، وشدة عزم مجاهدته، لاستشعار نفسه صدقه وحسن وفائه، فتأس من شهوتها آخر الدهر. فكذلك كان يقع عليه البكاء للإياس من المشتهى.

واعلم أن الشهوات لا حدَّ لها، وإنما الحدُّ للقوت، فمثل الشهوات مثل الجهل لا حدَّ له^(١)، ومثل القوت مثل العلم ذو حدود. فكم من شهوة دنيّة منعت رُبّةً عليّة، فإن لم تقطع الشهوات وتحسمها أحبّ ما كانت إليك أعطتك أرغب ما تكون فيها، فلا تقعد عن التوبة تنتظر آخرها، فإن النفس لا آخر لشهواتها إلى أن ترى الملائكة، فعند ذلك تمحى صفاتها، فتغيب الشهوات، لأنها من أوصافها، فإن لم تترك الشهوات المعتادة فلا تعمل في مثلها من الزيادة، بل يكون عملك في النقصان؛ فهو أقرب إلى أخلاق الإيمان.

وقد كان بعضهم يقول لأصحابه: لا تأكلوا الشهوات، فإن أكلتموها فلا تطلبوها، فإن طلبتموها فلا تحبّوها. وكانوا يقولون: ما زاد على الخبز فهو شهوة حتى الملح. وقال بعضهم: الخبزُ من أكبر الشهوات، واعلم أن ما زاد على الخبز هو فاكهة يُتفكّه به. وقد روينا عن ابن عمر أنه قال: ما تأتينا من العراق فاكهة أحبُّ إلينا من الخبز.

فإن كان لا بد من تفكّه بفاكهة مع الخبز الذي هو قوت النفس فكما أطعم الله

(١) من قوله: «وإنما الحد للقوت» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

عزّ وجلّ الفقراء في الكفّارة، وهو التوسط في الإدام الذي أمر به وأحبه لفقرائه مثل الخبز واللبن، لأن أعلى الإدام اللحم والحلو، وأدناه الملح والخلّ، فلم يأمر سبحانه وتعالى بأعلاه لأنه يشق على الأغنياء، ولم يأمر بالأدنى لأنه يشق على الفقراء، وتوسط الأمر بينهما، فقال عزّ من قائل: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، فهو ما ذكرناه.

وعلى ذلك فإن ابتلى العبد بأكل الشهوات وحبّها، فليظهر ذلك ولا يخفيه وليشترها بنفسه ولا يستسرها؛ فإن هذا من صدق الحال؛ وهو طريق السلف: إن فاته المجاهدة في الأعمال فلا يفوتته الصدق في الحال، وإن لم يكن صديقاً فليصدق في كذبه؛ فإن الصدق في الكذب أحد الصديقين، وإن إخفاء الكذب والنقص وإظهار ضده من الإخلاص والتمام هو كذبان، لأنه نقص وأظهر حال الكاملين، واعتلّ وأبدى شعار المعصومين، فكذب من طريقين، واستحق المقت من وجهين؛ فلذلك غضب الله تعالى عز وجل على المنافقين، ومقتهم مقتين، ثم لم يرض منهم إلا بتوبتين، واشترط عليهم شرطين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] يعني أسفل من الكفّار؛ لأن الكافر أخلص في كفره فسوّى بين باطنه وظاهره، والمنافق كَفَر وأشرك في إيمانه، فخالف بين باطنه وظاهره، واستخفّ بنظر الله عز وجل إلى قلبه، وعظّم عين المخلوق، فزاد الله عز وجل في هوانه وشدّد في توبته بما وكّده من شرطه، فقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٤٦] الآية. وهذا الضرب من الرياء مما لا يمتحن به عالم بالله عز وجل، ولا عاقل عن الله عز وجل، والله الحمد.

وإن ابتلى بأكل الشهوات وبيع بعض المعاصي، كما تجرى الذنوب على العارفين، ولا يبتلون برياء المخلوقين، وليس للسلف في هذا الباب إلا طريقان: طريق هو المجاهدة للنفس، وترك الشهوات، فمنهم من كان يخفيه لأنه أسلم له، ومنهم من كان يظهره لأنه مؤمن قويّ، نيته في ذلك القدوة والتأسي، وطريق آخر: كان فيه

طائفة من العلماء والعاملين، وكانوا يأكلون الطيبات ويتسعون في المآكل إذا وجدوها، إلا أنهم كانوا يُظهرون ذلك، ويكشفون نفوسهم به، فإن فاتك الطريق الأعلى فاسلك الطريق الأوسط الأسلم. فإما أن يكون عبداً يأكل الشهوات في السرّ ويخفيها في العلانية، أو يظهر شعار ضدها من الترك لها والزهد فيها؛ فليس هذا طريق الموقنين ولا مسلك الصادقين، وقد عرّج عن طريق المسالك، وسلك سبيل المهالك، فإياك أن تترك محجة الطريق فتقع في حيرة المضيق.

حدثنا أن عابداً من بنى إسرائيل انتهى في سياحته إلى أرض لقوم رأى في وسطها طريقاً مستطرقاً يسلك فيه السابلة، فقال: هذه أرض لقوم كيف أسلكها؟ قال: وشقّ عليه أن يجاوز الأرض فيبعد عليه طريقه، فتفكر وقال: هذا طريق مسلوك لا بأس على أن أسلكه، فسلكه. فلما خرج من تلك الأرض عوقب على ذلك ونسى ذنبه، فجعل يستكشف، فقليل له: لأنك سلكت إلى على غير طريق ودخلت في حرث قوم بغير إذنه. فقال: يا ربّ معذرة إليك إنّي رأيته قد جعل طريقاً، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: أوّ كلما اتخذ الظالمون طريقاً جعلته إلى سبيلاً؟! سبيلاً؟!

فمن سلك طريق ظالم بغرور، لم يكن في ذلك معذوراً، وأوقعه في الحيرة والغرور، فهلك وأهلك من اقتدى به. وهذا طريق متصنّع جاهلٍ متطرقٍ بذلك إلى الدنيا، متسوّقٍ عند الناس بترك الشهوات، بظلم التوحيد في الوحدة، ضعيف اليقين في غيبة عن العيون. وقد كان من شأن الصادقين من السلف اشتراء الشهوات بأنفسهم، وتعليقها في منازلهم، يظهرون للناس شعار الراغبين، وهم فيها عند الله عزّ وجلّ من الزاهدين، لا يأكلونها، إنما يريدون بذلك إسقاط منزلتهم من قلوب الجاهلين، وإخفاء حالهم عن الناظرين، وليصرفوا عنهم قلوب الغافلين، يقطعون بذلك المقالات، ويشترون به المعاملات؛ لأن هذا مقام من زهد في الأشياء وأخفى زهده.

فمن نهاية إخفاء الزهد إظهار ضده، واستشعار المزهود فيه، ثم لا يتناول ولا يتمتع به، فيكون هذا أشد على النفس من المجاهدة، لأنه حمل عليها ثقلين: ثقل

المنع من الحظ، وثقل سقوط المنزلة عند الخلق، فعدمت النفس لذّة المتعة به، وفقدت أسباب المنزلة بتركه، فجرّعها كأس الصبر مرتين؛ مرة بشريه ومرة بفقده^(١). فهذا حال الصادقين في ترك الشهوات، وطريق الأقوياء من أهل الإرادات، وهو يشبه فعل الزاهدين في باب العطاء. إن منهم من كان يأخذ العطاء علانية، ثم يخرج سرّاً، فيكون له في الأخذ سقوط الجاه بظهور الرغبة، ويكون له في الإخراج معاملة السرّ بحقيقة الزهد، فلا هو متّع نفسه بالجاه مع الردّ، ولا هو أنالها حظّاً بتناوله مع الأخذ؛ فهذا أشدّ شيء على النفس؛ وهو طريق علماء الزهّاد، ومن سلّكه أخرجهم إلى مقام الصديقين. وهذان طريقان قد درّسا، وقد عفا أثرهما في وقتنا هذا، لا يسلكه إلا من عرفه، الفرد بعد الفرد والسّابّة من القرّاء على طرقات التصنّع والتزيّن برّاء من هذا.

وروى عن جعفر بن محمد الصادق رضوان الله عليه: إذا قدّمتُ إلى شهوة نظرتُ إلى نفسي، فإن أظهرت شهوتها لها أطعمتها منها، وكان ذلك أفضل من منعها، وإن أخفت شهوتها وأظهرت العزوف عنها عاقبتها بالترك، ولم أنلها منها شيئاً.

تفسير ذلك: أنّ إظهار النفس للشهوة أن لا تبالى أن تُعرف بأكل الشهوات، وأن تحبّ أن يظهر على ذلك من يعرف من أهل الديانات. وإخفاء النفس للشهوة أن تشتهى، وتحبّ أن لا يُعلم أنها تشتهى، وتكره أن تُعرف بأنها ممن يشتهى، فقال: هذه هي المعاقبة بترك أكلها، لأنّه إذا ترك أكل شهوة لأجل الشهوة ثم اشتهى أن يُعرف بتركها؛ فهذا شهوة الشهوات، فقد وقع في أعظم مما كره، وتمتعه بشهوة النظر إليها والمدح له أكثر من تمتعه بترك شهوته المأكولة؛ وهذا من الشهوة الخفية التي جاء في الخبر: «أخوف ما أخاف على أمتي الرياء، والشهوة الخفية». فالرياء بالمعاملات، وخفى الشهوة أن تشتهى أن تُعرف، وتوصف بترك الشهوات.

وسئل بعض العلماء عن بعض الزهّاد، فسكت عنه. فقليل له: تعلم به بأساً؟ فقال: ما أعلم به بأساً، إلّا في شيء واحد مكروه: يأكل في الخلوة ما لا يأكله

(١) «مرة بشريه ومرة بفقده» ساقطة من المطبوعة.

فى الجماعة. فأعلّله بذلك، ولعمرى إنه موضع علة؛ لأن الصادقين قد كانوا يأكلون فى الجماعة ما لا يأكلون فى الخلوة؛ فهذا ضدّ حالهم.

فإن اتفق للعبد لوان أحدهما ألطف من الآخر ابتداء فأكّل الألفف منهما، ففعل كفايته تتم به ففسترف من الآخر، فإنما قدّم أهل الدنيا غلفظ الألوان على رقفقه، لفففسعوا فى الأكل، وففففف شففهواتهم، فففكون لكل لون لطفف مكان آخر. وشبّه بفضهم المعة بمزلة جراب ملأته جوزاً حتى لم فبق فىه فضل للجوز، فففت بسمسم ففصبته ففله، فأخذ لنفسه موضعاً فى خلال الجوز، فوسّع الجراب السمس للطفه مع الجوز؛ ففذلك المعة إذا ألفت فىها طعاماً رققاً لطقاً بعد طعام غلفظ فشن أخذته الشففوات فى أماكنها، ففمكّن فىها بعد الشفع مما قبله، والعرب فعفب ذلك ولا ففعفه، إذ من سففها أن ففبدئ باللحم قبل الفرفد. قال رجل من العرب لفض الأنباط: أنت من الففن ففبفئون بالفرفد قبل الشواء. ففدم أهل العراق بذلك.

هذا إذا استوى اللوان فى الحكم، أو لم ففكن للمرفد فى ففرك الأفضل منهما فففة، فأما إن كان ففرك الشففوات، ففم ففدّمت ففله وكان على عقد فففته وقوة عزمه، فلا بأس بأكل الأدون. وقد كان بعض الصادققن ففم ففرك أكل الشففوات فى الففففراد إذا ففدّمت ففله نال منها شففئاً فففرأ لففستر عن نفسه أبصار الناظرفن، وففصرف عنه قلوب المادققن. وقال أبو سلففمان: إذا ففدّمت ففلك شففوة، وقد كنت ففركاً لها، فأصفب منها فففرأ، ولا فعط نفسك ففففها^(١)، ففكون قد أسقطت عن نفسك الشففوة، وففكون قد ففصت على نفسك، إذ لم ففبلغ^(٢) شففوتها؛ فإن ففعل هذا ففحسن؛ لأن أبا سلففمان ففاف ففله ما ففكرناه قففل من أن ففظهر ففرك الشففوة، فففسفر فففه باعففاد فضله من ففرك الشففوات أبلغ من كل الشففوات، أو أن ففأكلها فففسرف^(٣) ففله نفسه ببلوغ شففوته الفف كان ففركها بعة الإخلاص، كما ففقول

(١) فى (م): «ففها ففها»، وفى (د، هـ): «ففها».

(٢) فى (هـ): «ففبلغ فى».

(٣) فى (د): «ففستولى»، وفى المطفوعة: «فففسرف على نفسه ففبلغ».

العامة: تَعَلَّ الصبى تشبع الدابة. فإن قوى يقينه، وغاب الخلق عن عينه، تركها وقلبه مطمئن بالإيمان؛ لأنه لم يعتل بالنظر فيه فيتداوى بالتناول للبعض.

فأما إن كان قد اعتقد ترك شهوةٍ لمعنى دخل عليه منها يخرج من الورع، أو يعزم على المجاهدة، ثم أتى بها؛ فهذا اختبار من الله سبحانه وتعالى له لينظر كيف يعمل فى الوفاء بالعقد. فأحبُّ إلىَّ أن لا ينال منها شيئاً، وليتعلَّل ويدافع عن نفسه بالمعارض والمعانى، حتى لا يُفطن به أنه قد تركها للمجاهدة، فيكون قد فعل الوصفين معاً: الوفاء بالعقد فى تركها، والتورية بلطيف الحيلة من الفطنة له فى قصده. وهذا طريق المريدين وصفات المتقين؛ وهو الطريق الأدنى الذى ذكرناه أولاً.

فإن ظهر قربُ الله تعالى منه وغلبه نظره إليه أغناه عن الحيلة والاحتياال لقربه وشهادته ذا الجلال والإكرام؛ وهو الطريق الأعلى الذى ذكرناه آخرًا، وهذا للموقنين. فأما إن كان الغليظ الخشن هو الأحلُّ فى الحكم وأبعد من الشبهة، فهو الأطيب والأفضل فى العلم، فلا يأكل إلاّ منه. يقال: أول لقمة يأكلها العبد من حلال يغفر له ما سلف من ذنبه. فلعلَّ الله تعالى أن يشكر له ترك لقمة شبهة لذيدة فى الطعم إن كانت كريهة فى الحكم، يتركها لأجله فيغفر له ما سلف من ذنبه، إنّه غفور شكور. قيل: غفور لذنوب كثيرة، شكورٌ لعمل يسير. كيف وقد وصف المؤمنين أولى الهدى والتوحيد وذوى الرحمة والرشد بحسن التفقد فى الطعمة فقال: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا﴾ [الكهف: ١٣ - ١٤]، يعنى بشهادتهم بالتوحيد، فكان من قيامهم حسن تفقدهم فى المأكول، ومراقبتهم للواحد، فى قولهم: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ [الكهف: ١٩] يعنى: أيها أحلُّ وأفضل، فأمرُوا رسولهم بتحرى الحلال إذ قاموا لذى الجلال والإكرام لما أمرهم بأكله إذ قدّمه على الأعمال الصالحة فى قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١] ورعًا منهم وتقوى. وكذلك فافعل؛ لتتبع سبيل

المؤمنين فتكون معهم، ولا تتبع سبيلَ المجرمين الظالمين فتُحشر معهم.
هذه رياضة المريدين وطريق المجاهدين.

فأما العارفون فليس لهم في الأكل تجزئة وتقسيم، إذا أُطعموا تقللوا وشكروا، فإن رأوا له مكاناً آثروا، وإن جوعوا عملوا وصبروا. قالت عائشة: «كان رسول الله يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم». وكان ﷺ يدخل على أهله فيقول: «هل عندكم من شيء؟ فإن قالوا: نعم، أكل، وإن قالوا: لا، قال: إني صائم». وكان يُقدِّم إليه الشيء فيقول: «أما إني كنت أردت الصوم، ثم يأكل». وفي الخبر: «أنه خرج ﷺ يوماً فقال: إني صائم، ثم دخل فقالت عائشة: قد أهدى لنا حيس^(١)، فقال: قد كنت أردت الصوم، ولكن قريبي».

وكانت بينه وبين الله علامة في فطره وصومه، كان الوجودُ علامةً فطره يكون مراداً به، وكان العدمُ علامةً صومه يكون معه مراداً به.

وعلى هذا المعنى تصريف قلوب العارفين، ومن هذه المشكاة تضيء بصائر الشاهدين، ولا يוכלون إلى حال، ولا يوقفون مع مقام، ولا تصح هذه الثلاث إلا بثلاث خلال: أحدها: عدم الهوى وتوقان النفس بالعادة، والثانية: أن يكون له في أكله نية كما له في صومه نية؛ فيكون فطره لله، فيستوى أكله وصومه، إذ كان العامل فيهما واحداً، والثالثة: أن يحفظ الجوارح الست بحسن الرعاية، فيكون صائماً بما هو فرض عليه وأفضل له؛ وهنّ: البصر، والسمع، واللسان، والقلب، واليد، والرجل، ويكون مفطراً بالبطن والفرج فيكون ما حفظ أكثر وأبلغ وأحب إلى الله عز وجل، ويكون أفضل ممن صام بجارحتين؛ فإن لم يكن من أصبح صائماً ثم أفطر بهذه الأوصاف الثلاث دخلت عليه الشهوة الخفية التي فسرها رسول الله ﷺ. فقد روي أن النبي ﷺ لما قال: «أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية»، سئل: ما الشهوة الخفية؟ فقال: أن يصبح أحدكم صائماً ثم يعرض له الطعام يشتهيهِ فيفطر لأجله. فالأفضل لمن عقد لله صوماً أن يتمه، فإن

(١) الحيس: هو الطعام المتخذ من التمر والاقط والسمن.

فسخه لغير الله تعالى عُوْقِبَ على ذلك من عقوبات القلوب، أو عقوبات الجوارح في طرقات الآخرة؛ فتلك عقوبة ترك فضائل الأعمال. وفي خبر: «نومُ العالم عبادة ونفسه تسبيح». هكذا رويناه.

وقيل لبشر بن الحارث: إن فلانًا الغنى يصوم الدهر، فقال: المسكين ترك حاله، ودخل في حال غيره، إنما حاله أن يطعم الجِيعاء، ويكسو العراة، ويواسي المحتاجين؛ فهذا أفضل له من صيامه الدهر. ثم قال بشر: عبادةُ الغنى كروضة على مزبلة، وعبادة الفقير كعقد الجواهر في جيد الحسناء.

ودخل سفيان الثوري يومًا على أبي إسحاق الفزاري، فقدم إليه قصعة فيها خبيص^(١)، فقال: لولا أني صائم لأكلت معك. فقال له الفزاري: دخل على أخوك إبراهيم بن أدهم فقعد في موضعك هذا فقدمت إليه خبيصًا في هذه القصعة فأكل، فلما أراد الانصراف قال: إني كنت صائمًا إلا أني أحببت أن أكل معك أسرك بذلك. قال: فوضع الثوري يده وجعل يأكل، وتأدب بإبراهيم.

وحدثونا عن سهل رحمه الله أنه سئل كيف كان في بدايته، فأخبر بضروب من الرياضات، منها أنه كان يقات ورق النبق مدة، ومنها أنه أكل دقاق التبن ثلاث سنين. ثم ذكر أنه اقتات ثلاثة دراهم في ثلاث سنين. قيل: وما هو؟ قال: كنت أشتري في كل سنة بدانقين تمرًا وأربعة دوانق كُسبًا، ثم أعجنها عجنة ثم أجزئها ثلاثمائة وستين كُبَّة، أفطر في كل يوم ليلة على كُبَّة. قال: فقلت له: فكيف أنت في وقتك هذا؟ قال: أكل بلا حدٍّ ولا توقيت^(٢).

وقد كان معروف الكرخي يُهدى إليه طيبات الطعام فيأكل، فيقال له: إن أخاك بشرًا لا يأكل من هذا. فيقول: أخى بشر قبضه الورع، وأنا بسطتني المعرفة. ثم قال: إنما أنا ضيفٌ في دار مولاي، إذا أطعمني أكلتُ، وإذا جوعني صبرتُ، ما لى والاعتراض والتخير؟

(١) الخبيص: الحلواء المخبوصة من التمر والسمن. يقال: خَبَصَ الحلواء يَخْبِصُها خَبَصًا وخَبِصَها: خلطها وعملها.

(٢) مرت هذه القصة من قبل قريبًا.

وقال بعض إخوان بشر الحافى: دخلتُ عليه وهو يأكل، فقال لى: كُلْ، فقلت: إني صائم، فناولنى كسرة وقال لى: كُلْ، فأكلتها، فقال: سلمت من آفة الصوم وأدخلت على السرور.

وكان بشر رحمه الله قد أصبح ذات يوم صائماً، فزاره فتح الموصلى، قال حسين المغازلى: فدفع إلى كفاً من دراهم فقال: اشتر لنا أطيب ما تجد من الطعام، وأطيب ما تجد من الحلوة، وأطيب ما تجد من الطيب، قال: وما قال لى مثل ذلك قط. ففعلتُ فوضعت الطعام بين أيديهم، فجعل يأكل معه وما رأيته أكل مع غيره.

وكان بعض هذه الطائفة يقول: إذ أعطاك مولاك قطعة فقد شهاك أن تشتري ما تشاء وتشتهى، وإن أعطاك مأكولاً بعينه فكل ذاك ولا تتخير سواه.

ودفع إبراهيم بن أدهم إلى بعض إخوانه دراهم فقال: خذ لنا بهذه زبداً وعسلاً وخبزاً حورانياً. فقلت: يا أبا إسحاق، بهذا كله؟ فقال: ويحك، إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال، وإذا عدمننا صبرنا صبر الرجال. وأصلح ذات يوم طعاماً فأكثر ودعا نفرأ يسيراً منهم الثورى والأوزاعى، فقال له: أما تخاف أن يكون هذا إسرافاً؟ فقال: ليس فى الطعام إسرافٌ، إنما الإسراف فى الأثاث واللباس. وهكذا حكى عن سيرة السلف، قال: كانوا فى الرِّحالِ مَخاصيب^(١)، وكان فى الزى والثياب تقصير. وفى الخبر: «أن رجلاً صنع طعاماً فدعا إليه بعض إخوانه فقال: إني صائم. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: صنع لك أخوك طعاماً فلم تأكل، ألا أفطرت وصمت يوماً مكانه؟».

وحدثونا عن بعض العلماء أنه كان قاضياً بصنعاء، فدخل على أمير صنعاء، فحضر وقت غدائه فعرض عليه الأكل فقال: إني صائم. فلما أخذ الأمير فى الأكل وهو يحدثه إذ نظر القاضى فإذا قد جاءوا بحَمَلٍ مشوى، فجعل القاضى يزحف ويتقدم إلى المائدة، ثم مدّ يده فأكل. فقال له الأمير: ألم تقل إني صائم؟

(١) رَحَلٌ خَصِيبٌ: رَحَبُ الْجَنَابِ كَثِيرُ الْخَيْرِ.

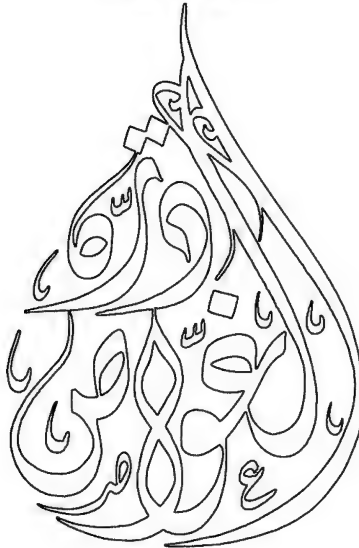
فقال: أيها الأمير، أنا على قضاء يوم أصومه أقدرُ منى على قضاء مثل هذا الحَمَل.

وكان أبو سليمان الداراني يقول: لا تضرّ الشهوات مَنْ لم يتكلفها إنّما تضرّ مَنْ حرص عليها. وكان يدعو أصحابه فيقدّم إليهم الطيبات، فيقولون له: تنهانا عنها وتقدّمها إلينا؟ فقال: لأنى أعلم أنكم تشتهونها فتأكلونها عندي خيراً، ولو جاءنى من يزهد ما زدته على الملح شيئاً. وكان يقول: أكل الطيبات يورث الرضا عن الله تعالى.

وقال بعض الخلفاء: شرب الماء بثلج يخلص الشكر لله تعالى.

وأوحى الله سبحانه إلى بعض أوليائه: أدرك لى لطفَ الفطنة وخفىّ اللطف، فإنى أحبّ ذلك. قال: يا ربّ وما لطفُ الفطنة؟ قال: إذا وقعت عليك ذبابة فاعلم أنى أوقعتها، فسلنى حتى أرفعها، قال: وما خفىّ اللطف؟ قال: إذا أتاك فولة مسوسة فاعلم أنى ذكرّتك بها فاشكرنى عليها.

وأوحى إلى بعض الأنبياء: لا تنظر إلى قلّة الهدية وانظر إلى عظمة مهديها، ولا تنظر إلى صِغَر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها، فإذا أصابك فقرٌ وضرٌّ فلا تشكنى إلى خلقى، كما إذا صعدت مساويك لم أشكك إلى ملائكتى.



الفصل الأربعون

كتاب الأطعمة^(١)

• ذكر ما يجمع الأكل من الآداب والسنن وما يشتمل على الطعام من الكراهة والاستحباب، ذكرنا ذلك متفرقا ومبثوثا، إذ لم نشغل بتصنيفه مبوبا وموصوفا، كيما يسهل على الحفظ، ويقرب من الوصف^(٢)؛

قال الله الصمد الذي^(٣) لا يُطعم: ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]. فتمدح تعالى بالإطعام، وتحمّد باتخاذ الولاية على الأنام.

وقال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمَنِ كَمَثَلِ النَّحْلَةِ أَكَلَتْ طَبِيبًا، وَوَضَعَتْ طَبِيبًا، وَإِنْ وَقَعَتْ عَلَى عُودٍ لَمْ تَكْسِرْهُ»^(٤).

وقال ﷺ: «أَفْضَلُ مَا أَهْدَى الْمَرْءُ إِلَى أَخِيهِ وَدِقًّا، أَوْ يُطْعِمُهُ خَبْزًا»^(٥). وذلك أن الودقَ قيمٌ للأشياء، وقد يتخير العبد جميع المشتهى، وأن الأصل في الأقوات الخبز، أفرد الله تعالى تفصيلاً من الحبات في قوله تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩]. فالجئات ما اشتمل على الفاكهة، والحبُّ هو المقتات من الأطعمة. وروى ابن المبارك عن هشام بن الغار رفعه إلى النبي ﷺ قال: «مِنْ

(١) الفصل برمته مأخوذ من نسخة (هـ) وقوبل مع نسخة (د)؛ لأنهما شملتا زيادات طويلة أكثر من ضعفى المطبوعة ونسخة (م). ويتضح فى هذا الفصل ذكر الإسناد فيما يروى من الأخبار، لعل هذا يرجع إلى أنه ينقل عن أصول مكتوبة.

(٢) عبارة (هـ): «كما سهل الله تعالى، وقرب من الوجد»، لكنه ضرب على الكلام من أول قوله: «ذكرنا» بخط ولم يذكر شيئاً بالخاصية.

(٣) فى (د): «والصمد هو الذى».

(٤) صحيح، انظر: الصحيحة رقم ٣٥٥.

(٥) فى الإتحاف ١٧٨/٤.

أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى إِدْخَالُ السَّرُورِ عَلَى الْمُسْلِمِ: أَنْ تَفْرَجَ عَنْهُ غَمًّا، أَوْ تَقْضِيَ عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تُطْعِمَهُ مِنْ جُوعٍ». وَقَالَ ﷺ: «مَنْ وَافَقَ مِنْ أَخِيهِ شَهْوَةً غَفَرَ لَهُ».

وَسُئِلَ ﷺ: «مَا الْإِيمَانُ؟» فَقَالَ: «إِطْعَامُ الطَّعَامِ وَبَذْلُ السَّلَامِ». وَقَالَ ﷺ فِي الْكُفَرَاتِ وَالدرجات: «إِطْعَامُ الطَّعَامِ وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسِ نِيَامًا». وَسُئِلَ عَنْ الْحَجِّ الْمَبْرُورِ فَقَالَ: «إِطْعَامُ الطَّعَامِ وَطِيبُ الْكَلَامِ».

وَكَانَ ابْنُ عَمْرٍ يَقُولُ: مِنْ كَرَمِ الرَّجُلِ طِيبُ زَادِهِ فِي سَفَرِهِ، وَبَذْلُهُ لِأَصْحَابِهِ. وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢]، فَقَدَّمَ الْأَمْرَ بِالْأَكْلِ عَلَى الْأَمْرِ بِالشُّكْرِ.

كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، فَقَدَّمَ النَّهْيَ عَنِ الْأَكْلِ لِلْحَرَامِ عَلَى الْقَتْلِ لِلنَّفْسِ وَالْأَجْسَامِ، تَفْضِيلًا لِأَكْلِ الْحَلَالِ، وَتَعْظِيمًا لِلْأَكْلِ بِالْبَاطِلِ.

وَكَانَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: الْأَكْلُ مِنَ الدِّينِ قَدَمُهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْعَمَلِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُؤْجَرُ حَتَّى فِي اللَّقْمَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى فِيهِ، وَإِلَى فِيِّ امْرَأَتِهِ».

وَرَوَى عَنْهُ ﷺ: «مَا أَطْعَمَ الْمُسْلِمُ نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ مُحْتَسِبًا فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ». وَرَوَيْنَا عَنْ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لِأَنَّهُ أَجْمَعَ إِخْوَانِي عَلَى صَاعٍ مِنْ طَعَامٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً.

وَالْخَبَرُ الْمَشْهُورُ: «إِذَا وُضِعَ الطَّعَامُ، وَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَابْدَأُوا بِالْعِشَاءِ قَبْلَ الصَّلَاةِ». قَالَ: فَكَانَ ابْنُ عَمْرٍو رَجُلًا سَمِعَ الْإِقَامَةَ وَقَرَأَةَ الْإِمَامِ، فَلَا يَقُومُ مِنْ عِشَائِهِ، وَهَذَا حُرْمَةُ الطَّعَامِ، وَتَفْضِيلُ الْإِطْعَامِ.

وروى هشام بن عروة عن أبيه قال: وُضِعَ الطعام فقام القاسم بن محمد - يعنى ابن أبي بكر - يصلى، فقالت عائشة رضى الله عنها: نهى رسول الله ﷺ أن يُصَلَّى بحضرة الطعام حتى يؤكل ويرفع».

وكذلك يقال: إذا وُضِعَ الطعام قامت الملائكة عليهم السلام ينتظرون فلا يزالون قياماً حتى يُرفع، فكانوا يكرهون أن يُقدَّم الطعام ولا يؤكل.

وروى حميد عن أنس: قال النبى ﷺ: «إِنَّ الله تعالى يُدْخِلُ عبده الجنةَ بالأَكْلَةِ والشُّرْبَةِ يَحْمَدُ الله عز وجل عليها». ورواه سعيد بن أبى بردة عن أنس فقال فيه: «إِنَّ الله تعالى ليرضى عن العبد بأكل الأَكْلَةِ أو بشرب الشُّرْبَةِ فيحمله عليها».

وذكر معناه كعب الحبر، وسأله رجل فقال: ما أيسر ما يدخل به العبد الجنة؟ فقال: يأكل طعاماً طيباً، أو يجمع امرأته، فيشكر الله تعالى على ذلك، فيدخل به الجنة. أسنده عبد الوارث عن أنس فى الطعام قال فيه: «إِنْ أَحْدَكُم لِيَضَعُ طعامَهُ بين يديه، فما يُرْفَعُ حتى يُغْفَرَ لَهُ. قيل: يا رسول الله، وبِمَ ذلك؟ قال: يقول بسم الله إذا وُضِعَ، والحمد لله إذا رُفِعَ».

وروى منصور عن إبراهيم: شكرُ الطعام أن تسمى الله تعالى إذا أكلتَ، وتحمَدُ الله تعالى إذا فرغت. وقال غيره: من أكل أو شرب ثم حمد الله عز وجل، كان له أجرُ الصائم القائم. أسنده سعيد المُقْبَرى عن أبى هريرة فقال فيه: «الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ كالصَّائِمِ الصَّابِرِ». ورواه حكيم بن أبى حرة، عن سنان بن وهبة فقال فيه: إن رسول الله ﷺ قال: «الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ».

وقال إبراهيم بن طهمان، عن تميم بن سلمة قال: من أكل طعاماً فذكر اسم الله تعالى حين أكل، وحمد الله عز وجل حين فرغ، لم يُسأل عن نعيم ذلك الطَّعام. هذا لعظيم اسم الله عز وجل، وكبير وصفه بالحمد الذى تحمَدُ وتمدَّح به، ولتفضيل بسم الله والحمد لله، إذ بهاتين الكلمتين افتتح كتابه العزيز الحميد. وكذلك جاء فى الخبر تفضيلُ مَنْ بَرِئَ مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، واعترفَ بالتوحيد لمولاه عز وجل.

ورواه سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «من أكلَ طعاماً فقال: الحمد لله الذى أطعمنى هذا ورزقنيه من غير حولٍ منى ولا قوة، غُفر له ما تقدم من ذنبه». وإنما غُفر له بالتوحيد بعين اليقين، لئلا يشرك نفسه فى أوصاف رب العالمين.

وقد كان أبو سليمان الداراني يقول: أكلُ الطيبات يورث الرضا عن الله سبحانه. وقال غيره: شربُ الماء بثلج يخلص الشكر لله عز وجل.

فإذا جمع الطعامُ خلتين تمت النعمة: اللحم والحلاوة؛ لقوله سبحانه وتعالى فى تفسير الطيبات: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧]. فالمنّ: الحلاوة، والسلوى: اللحم. قيل: سُميَ سلوى لأنه يُسلى عن جميع الآدام.

وإذا جمع الشرابُ خصلتين تمت به النعمة: العذوبة والبرودة. وكان رسول الله ﷺ إذا شرب قال: «الحمد لله الذى سقانا برحمته عذّباً فراثاً، ولم يجعله بذنوبنا ملحاً أجاباً».

وكان عمر رضى الله عنه إذا جاءه البريد من الآفاق، أو قدم عليه الوفد من الأمصار، أول ما يسأل عنه ويقول: كيف اللحم؟ فيقولون: رخيص يا أمير المؤمنين؛ شاة بأربعة دراهم. فيقول: الحمد لله، هى شجرة العرب التى لا قوام لها إلا به. كيف الطعام؟ فيقولون: رخيص؛ قفيز بدرهمين. فيقول: الحمد لله.

وقيل لبعض العرب: ما أطيّب الطعام! فقال: بأى شىء يطيب أكل الطعام؟ قالوا: باللسان. فقال: اللسان لحم وليس للحم إلا اللحم.

وكذلك كان أبو عبد الرحمن الثورى يُعجب بالروس، ويسمى الراسَ طعام العرب، لما يجمع من الألوان. فيقول: للعينين طعم [مفرد]، وللدماغ طعم [مفرد]. ويقول: الراس سيد البدن، والدماغ معدن العقل، والعين بابُ الألوان، والشحمة أطيّب من المخ، وأنعم من الزبد، وأدسم من السّلا. وكان لا يشتري الراس إلا فى زيادة الشهر، لمكان زيادة الدماغ، ولا يشتريه إلا يوم السبت. وكان

هذا من حكماء العرب .

والعرب لا تقدّم على الثريد شيئاً لفضله على الإدام ، ولجمعه الأصابع على الطعام . وكذلك قال رسول الله ﷺ : «فضلُ عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» .

وقال ﷺ : «أفضل الطعام ما كثرت عليه الأيدي» . ذلك لبركة أيدي المسلمين ، إذ كان يرجو ﷺ بركة أيديهم ، فمن دونه من التماس البركة بأيديهم أدخل وأولى .

كما روينا عنه ﷺ : «الوضوء من جرٍّ مُخَمَّرٍ أحبُّ إليك أم من هذه المطاهر المسبلة؟ فقال : بل من هذه المطاهر المُسبلة التماسَ بركة أيدي المسلمين» . وروينا من طريق آخر عنه من فعله وأمره : «كان رسول الله ﷺ يرسل إلى المطاهر فيؤتى بالماء ، فيتوضأ به . فسئل عن ذلك ، فقال : ألتمس بركة أيدي المسلمين» .

فلهذا قال بعضُ السلف : إنّ الرجل إذا دعا إخوانه على طعام فأكلوا ثم رفع فضلَ ذلك لم يُحاسب عليه مَنْ أكله بعدُ؛ لبركة الجماعة ، لقوله ﷺ : «الجماعةُ بركة» .

قال : وكان بعضُ علماء خراسان - وهو راوى هذا الخبر - يقدم إلى إخوانه الفقراء من الحبوب وغير ذلك ليفضل منهم ، فلا يحاسب عليه من أكله بعدُ لأجل الخير فيه .

حدثنا عبد الله بن أحمد المقرئ ، عن ابن أبي الدنيا قال : حدثني عبد الرحمن ابن عبد الله الباهلي ، عن عمه قال : سمعتُ جعفر بن سليم بن علي يقول : ما ساد منّا إلا سخیٌّ على الطعام .

وكذلك يقال : السخاءُ على الطعام أجودُ منه وأبلغ من السخاء بالمال ؛ ذلك لأن اللؤم على الطعام ألام منه وأبلغ على المال . وقد فرّقوا بين الشحِّ والبخل ، وبين اللؤم والشؤم ، فقيل : الشحُّ على الطعام ، والبخلُ في المال . وقيل : اللؤم في الإطعام ، والشؤم في الإقتار .

وقال عليه السلام: «الوضوءُ قَبْلَ الطعامِ وبعده ينفي الفقر» يعنى: غسل اليد.

وكان أبو محمد سهل رحمه الله يقول: من لم يُحسن أدب الأكل لم يحسن أدب العمل. قال: والذي يتصنع فى الأكل هو الذى يتصنع فى عمله. وقال مرة: الذى يؤذى فى الأكل هو الذى يؤذى فى الصلاة.

وقال بعض السلف: إنى لأحب أن تكون لى نية فى كل شىء حتى فى الأكل والنوم.

وقد كان السلف الصالح يكون لأحدهم فى الأكل نيةً صالحةً كما يكون له فى الجوع نيةً صالحةً، والذي يأكل بغير نية الآخرة، للعادة والشهوة والمتعة، قد يجوع لغير نية الآخرة، للعادة والشهوة والمتعة، والرغبة أيضاً والتزين للخلق. وهذا من دقائق آفات النفوس.

وقد يجوع بالشغل بالدنيا والانقطاع عن الطعام لحلاوة الادخار وللتحدث والتفكر بالأفراح، فحُسْن من أكل بنية الآخرة ولأجل الله تعالى كحُسْن من جاع لله تعالى بنية الآخرة، وإلا كان باباً من أبواب الهوى. وقُبْح من جاع لغير الله عز وجل من معانى الشهوة الخفية كقُبْح من أكل لغير الله تعالى لمتعة النفس وشهوة الطبع، وعادة الجسم، فلا يشكر الله عز وجل سعيه، كما يطالب من جاع لغيره بما نقص من ضعف جسمه.

فالطعامُ والأكلُ يشتمل على مائة وسبعين خصلة، ما بين فرض وسنة، وأدب وفضيلة، واستحباب وكراهة، ومروءة وفتوة، من طرائق السلف، وصنائع العرب.

أول ذلك: أن يكون المأكول حلالاً، وعلامةُ الحلال ثلاث: أن تكون عينه معروفة لم يخالطها عين ذمها العلم من: جناية، أو ظلم. ويكون سببه لم يحوه سبب محظور فى الشرع لأجل هوّى أو مداهنة فى دين أو دنيا. ويكون قد وافق فيه حكم السنّة: لا يكون على وصف مكروه من غرر أو خطر، أو خلاصة أو غش، أو ترك نصح.

ثم ينوى بالأكل التقوى على البر والتقوى، والاستعانة به على خدمة المولى

تعالى، ويعرف النعمة فيه أنها من المنعم بها وحده لا شريك له فيها، ويعتقد الشكر للمطعم من رزقه، المعبود المشكور دون خلقه، ويؤثر التقلُّل على الاتساع، والقناعة على الحرص، والأدب فيه على الشَّره، والصبر على الجَشَب^(١) من الطعام، والرضا باليسير من الطعام.

ثم غسلُ اليد في أوله للاستحباب، وفي آخره للنظافة، والتسمية في أوله والحمد في آخره، والأكل باليمنى، ويتدئ بالملح ويختم به، وأن لا يذم مأكولاً ولا يعيبه، إن أعجبه أكله وإلا تركه، والقناعة بالمقسوم من الله، والرضا بالموجود من الرزق، وأن تكثر الأيدي على الطعام، وفي الخبر: «اجتمعوا على طعامكم يبارك لكم فيه»، وتصغير اللقمة، وتجويد المضغ، وأن لا ينظر في وجوه الآكلين، ولا يتفقد مأكلهم، وأن يقعد على رجله اليسرى وينصب اليمنى، ولا يأكل متكئاً ولا مضطجعاً، ولا يكون أول من يتدئ بالأكل حتى يسبق صاحب المنزل، أو الأكبر فالأكبر، إلا أن يكون إماماً يُقتدى به، أو يكون القوم منقبضين فيسطهم بالابتداء.

ولا يجمع بين التمر والنوى في طبق، ولا يجمعهما في كفه إلا بأن يضع النواة على ظهر كفه من فيه ثم يلقيها، وكذلك ما كان في معناه مما له عَجَمٌ وثُقُلٌ، ويستحب أن يأكل من التمر وترّاً؛ سبعاً أو إحدى عشرة أو إحدى وعشرين، وأن يفطر على رطب إن وجدته، وإلا فتمر، فإن لم يجد فعلى الماء. وكان وهب بن منبه يقول: الصائم يزيغ بصره، فإذا أفطر على حلاوة رجع بصره.

ولا يقرن بين تمرتين في الجماعة، إلا أن يفعلوا ذلك أو يستأذنهم، وأن يأكل بعد الجوع ويرفع يده قبل الامتلاء بمقدار ثلث بطنه أو نصفه، كذلك سنة السلف، وهو أصح للجسم.

وقال حكيم من أهل الطب: إن الدواء الذي لا داء فيه هو أن لا تأكل الطعام حتى تشتهيه، وترفع يدك عنه وأنت تشتهيه.

(١) جَشَبَ الطَّعام، فهو جَشِبٌ وجَشِبٌ: غليظٌ أو بلا أدم.

ويقال: أساس كل داء البردة. يقال: هي التُّخمة.

ويقال في أخبار الحكماء: أن خادماً لأرسطاطاليس استقضى رجلاً من أهل السواد حاجة له فلم يقضها له. فقال له: لعلك أن تحتاج إليه. فقال: ما بى إليه من حاجة. فأخبر الخادم الحكيم بذلك فقال: إن كان يأكل بعد الجوع، ويرفع قبل الشبع، ويتقلل بين ذلك، فقد صدق، ما له إلينا حاجة.

وقد أحكم الرسول ﷺ ذلك بقوله: «ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطن، حسب ابن آدم لُقيمات يشد بهنّ صلبه، فإن لم يفعل فثلثٌ طعام، وثلث شراب، وثلث للنفس». والطعام إنما وُضع دواء من داء الجوع، إذا وجدته عاجته به، فإذا لم تجده صار الأكل داءً، وليس يزيد على الدواء الداء إذا لم يصادف داءً؛ لأن التأذى بالأكل مثل التأذى بالجوع أو أشد.

وليأكل مما يليه إلا الفاكهة، فله أن يجيل يده، ويأكل بثلاث أصابع، إلا الثريد فله أن يأكل بأصابعه كلها، ولا يأكل من ذروة القصعة، ولا من وسط الطعام، وليأكل من نواحيه، وأن لا يصمتوا على الطعام فإنه من سيرة العجم، وليتكلموا بالخير والمعروف.

ولا يقطع اللحم بالسكين فقد نهى عن ذلك، ولكن انهشوه نهشاً، ولا يقطع الخبز بالسكين، وليأكل في استدارة الرغيف، إلا أن يكون في الخبز قلة، وفي الآكلين كثرة، فيستعان بتكسير الخبز على التفرقة، ولا يُكثر قول «كُل» على أخيه، فإن ذلك يَحْشِمُهُ^(١) فرمما قَطَعَهُ، ولا ينبغي لأن يحوجه أخوه إلى تفقُّده في الأكل وتكرير قوله له: كُلْ. وقال بعض الأدباء: أحسن الآكلين أكلًا من لم يحوج صاحبه إلى تفقُّده في الأكل، فقد حمل عن أخيه مؤونة القول.

ولا يدع شيئاً يشتهي من المأكول لأجل نظر العين إليه فإنه من التصنع، فإن تركه إثارة لأخيه أو قدّمه إلى إخوانه فحسن، ولا ينقص من أكله المعتاد في الوحدة، وإن زاد لأجل المساعدة للجماعة أو نيته فضل الأكل مع الإخوان فلا

(١) يحشمه: يخجله.

بأس بذلك، والشرب فى تضاعيف الأكل مستحب من جهة أهل الطب ما لم يتبدى به، أو يكثر منه، يقال: إنه دباغ المعدة، والشرب متكثاً مكروه للمعدة أيضاً من جهة الطب.

والأكل متكثاً أو نائماً ليس من السنة إلا ما يتناول أو يتنقل من الحبوب وما فى معناها، وقد روى على عليه السلام وهو يأكل على ترس منبطحاً كعكاً، ويقال مضطجعاً، والعرب تفعله، وفى الخبر عن النبى ﷺ: «كيلوا طعامكم يبارك لكم، واملكوا العجين فإن فيه البركة».

وما ردَّ له من المأكول مع الجماعة فلا يرده فى القصعة فيأكله غيره، بل إن وقع بيده أكله وإلا تركه من الثقل، ولا يغمس الخلّ بالدسم ليصطبغ بالخل قبل اللحم.

وقد جاء فيما ذكرناه آثار عن السلف رضى الله عنهم كرهنا الإطالة بذكر جميع ذلك والتقصى فيه، ولكن نذكر بعضه، ما قرُب تناوله.

من ذلك ما أخبرنى عبد الله بن أحمد المقرئ عن ابن أبى الدنيا قال: حدثنى حفص بن عمر قال: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عبد الله بن أبى حسين، عن شهر بن حوشب قال: كان يقال: إذا جمع الطعام أربعة أشياء فقد كَمُلَ كل شيء من شأنه: إذا كان أوله حلالاً، وذكر اسم الله عز وجل عليه، وكثرت عليه الأيدى، وحُمدَ الله عز وجل حين يفرغ منه.

فأما الحسن رحمه الله فإنه جعلها اثنى عشر خصلة، وقال: يجب على المسلم تعلمها: حدثنا أبو بكر القرشى بمكة قال: حدثنا محمد بن عمر العقلى قال: جاء إبراهيم بن مهدي عن أبى المبارك عن هشام عن الحسن قال: اثنا عشر خصلة فى الطعام ينبغى للمسلمين أن يتعلموها: أربعة منها فريضة، وأربعة سنة، وأربعة أدب. فأما الفريضة: فالتسمية، والمعرفة، والرضا، والشكر. وأما السنة: فالجلوس على رجله اليسرى، والأكل مما يليه، والأكل بثلاثة أصابع، ولعق الأصابع إذا فرغ. وأما الأدب: فغسل اليدين، وتصغير اللقمة، والمضغ الشديد، وقلة النظر إلى وجوه أصحابه.

وفى حديث عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ: «إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله، فإن نسى فى أوله فليقل بسم الله أوله وآخره».

واجتمعوا يوماً مع يحيى بن معاذ رحمه الله على طعام، فقال له زاهد: ما أدب الطعام؟ فقال: أدبه أن يُستوفى إذا حضر، دعونا من حماقات القراء.

وأما إبراهيم بن أدهم فإنه سأل بعض العارفين عن أدب الأكل فقال: أدبه أن تأكل بثلاث أصابع، وأن تصغر اللقمة، وذكر أشياء من هذا النوع، فقال إبراهيم: ليس هذا من أدب الأكل عندنا. قيل له: فما أدبه؟ قال: أدبه أن تحسن النفقة فى المأكول، فيكون حلالاً لا شبهة فيه، ويجتهد فى النصح للمسلمين به، فإذا وجدناه حلالاً صافياً ضربنا فيه بالخمس، وأكلنا حتى نشبع.

وقد كان أبو معاذ يقول: أكل المحبين أكل الطير كل ساعة لقماً، ولا يستوفى من باب التقلل من المطعم.

وقال بعض الحكماء: البطنة تغلب الفطنة، فالعاقل من قهرت فطنته بطنته.

وقال بعض أهل الطب: ليس لشبعة خير من جوعة تحفزها، كما ليس لجوعة أنفع من شبعة.

وكان الحسن يقول: ويح ابن آدم، أسير الجوع صريع الشبع.

وسأل عبد الملك بن مروان أبا الزعيزعة الأعرابى: هل أتخمت قط؟ فقال: لا. قال: وكيف ذاك؟ قال: لأننا إذا طبخنا أنضجنا، وإذا مضغنا دققنا، ولا نكطُّ المعدة ولا نُخليها.

وأنشد بعضهم فى كراهية اعتياد الشبع:

وعادة الجوع فيها عصمةٌ وغنى
وقد يزيدك جوعاً عادة الشبع

يقول: إذا كنت تشبع أبداً، ثم انقطع ذلك عنك، ازداد جوعك بكثرة اعتياد الشبع.

وأنشد آخر فى تألف النفس عن الأكل:

إذا لم أزد إلا لأكل أكلة^(١) فلا رفعت كفى إلى طعام
فما أكلة إن نلتها بغنيمة ولا جوعة إن جعتها بغرام

وفى حديث زياد بن حماد عن أبي الصديق الناجي عن النبي ﷺ قال: «خير تمراتكم البرني، يذهب بالداء ولا داء فيه». وفى خبر حماد بن زيد عن زياد النميري قال: قالت عائشة رضى الله عنها: من أكل التمر وترأ لم يضره. وفى حديث أنس: «كنت أعدُّ لرسول ﷺ تمرات يفطر عليها فى المسجد قبل أن يصلى المغرب خمسا أو سبعا، ولا أدري أذكر الثلاث أم لا».

وقال الأصمعى: حدثنى شيخ عالم قال: أطيبُ التمر صِيحَانِيَّةٌ مُصَلَّبَةٌ^(٢). قال: وحدثنى رجل من آل حزم قال: كان يقال من خلا على^(٣) التمر فالعجوة، ومن أكله على ثِقَلٍ فالصِيحَانِيَّة.

وكان بعض العرب يفضل الرطب على العسل، ويقول: أَتَجْعَلُ عَسَلَةً فى أَخْثَاءِ البقر كَعَسَلَةٍ فى جو السماء لها محارسٌ من حديد وذوائب من زمرد.

وليس تقدّم العربُ على التمر والزبد شيئا من الطعام، يمثلونه فى الاعتدال كالخل والزيت فى الإدام. قال: رأى أعرابى دقيقاً وتمرّاً، فاشترى التمر، فقليل له: كيف أثرته وسعر التمر والدقيق واحد؟ فقال: إن فى التمر أدمةً وزيادة حلاوة.

وقال مالك بن حنبل لحيان بن الفريعة لما وفد إليه: ما تزودت إلينا؟ قال: الحيسُ. قال: ثلاثة أسقية فى وعاء. وكان الحيس أكثر طعام النبي ﷺ، والعرب تستحبه، وهو جامع لثلاثة ألوان كان السلف رضى الله عنهم يكثرُون أكلها: اللبن، والتمر، والسمن، يُحَاس جميع ذلك عَجَنًا بالخبيص، ويتزودونه فى السفر، ويُتَحَلَّى به فى الحضر.

(١) فى (د): «لقمة».

(٢) الصِيحَانِيَّة: من تمر المدينة، نسب إلى صِيحَانٍ لَكَبْش كان يربط إليها. ويقال: صلبت التمرة، إذا بلغت اليبس.

(٣) يقال: خلا على بعض الطعام: إذا اقتصر عليه.

وقال عمر رضى الله عنه للأحنف بن قيس: أى الطعام أحب إليك؟ قال: الزبد والكمأة. فقال عمر رضى الله عنه: أحببت الخصب للمسلمين. وقال بعضهم: عاب رجل فى مجلس الأحنف بن قيس التمر والزبد، فقال الأحنف: ربّ مَلُوم لا ذنب له.

وحدثت عن أبى حاتم المقرئ عن الأصمعى عن أبى عمرو بن العلاء قال: قال الحجاج يوماً لجلسائه: ليكتب كل رجل منكم فى رُقعة أطيب الطعام عنده، ويجعلها تحت مُصَلَّاتِي، ففعلوا، فإذا فى الرقاع كلها: الزُّبْدُ والتمر.

وقال الأصمعى: قيل لبعض العرب: ما رأيك فى أكل الجُرِّيِّ^(١). فقال: ثمرة نرسيانة غَرَاءُ الطَّرْفِ، صفراء السائر، عليها زبد، أحبُّ إلىَّ منها، ثم أدركه الورع، فقال: ولا أحرّمها. وقال بعض الكوفيين: رأيت الشعبي اشترى جريراً وحمله إلى عياله، فقلت: يا أبا عمر أتطعم عيالك الجُرِّيِّ، فقال: لو علمت أن عيالى يأكلون الضفادع لأطعمتهم. وقيل لبعض العرب: أنشدنا أحسن بيت سمعته فى الغزل. فقال: الغزل لا أعرفه، ولكن إذا أردتم أنشدتكم أحسن بيت عندى فعلت، قالوا: فافعل، فقال:

أَلَا لَيْتَ حُبْرًا قَدْ تَسْرَبَلَ رَائِبًا وَخَيْلًا مِنَ الْبَرْئِ فَرَسَانُهَا الزُّبْدُ^(٢)

وفى حديث ابن عباس: أن النبى ﷺ سئل عن أفضل الشراب، فقال: «الحلو البارد». فتأول بعض أهل اللغة أنه عنى بهذا العسل خاصة، قال: لأن العرب تسمى العسل: البارد، واحتج بقول الأعشى^(٣):

* كَمَا شَيْبَ بَرَا حِ بَارِدٍ [مِنْ] عَسَلِ النَّحْلِ *

(١) الجُرِّيُّ: ضرب من السمك. والتمر النرسيان: نوع من التمر الجيد. وكان الخبر محرفاً ومصحفاً بالمخطوط، صوبته من عيون الأخبار ٢٠٢/٣.

(٢) البيت فى عيون الأخبار ٢٠٢/٣.

(٣) ليس فى ديوانه المطبوع، وإنما هو من قصيدة لم تنشر، وهو فى نسختى بتحقيقى قصيدة رقم ٩٦ ب ٧، والشعر والشعراء: ٦٩. وهذه روايته، ورواية الديوان: «كَانَ رُضَابُهَا حُشَّ بَرَا حِ عَسَلِ النَّحْلِ». وانظر ملحق نشره جابر للديوان رقم: ١٨٧.

ولكن فى حديث عائشة رضى الله عنها، أخبرت عن فعل رسول الله ﷺ قالت: «كان يعجبه الحلوى والعسل»، وفى لفظ آخر: «كان يعجبه الحلو البارد من الشراب»، فهذا وصف عام فى كل باب.

ويقال: أجودُ العسل الذهبى، الذى إذا قطرت منه قطرة على التراب استدار كما يستدير الزئبق، ولم ينفش، ولم يختلط بالتراب. وحكماء الروم تقول: أجوده ما يلطخ على فتيلة ثم يشعل فيها النار فتعلق. وسئل حكيمهم بقراط: هل شىء يزيد فى العمر؟ فقال: لو كان ذاك كان من أدام أكل العسل، ودهن جسمه به، واستحم غباً، زاد فى عمره، وأحسبه ذكر التغمير.

وفى حديث عبد الله بن مسلم بن جندب الهذلى، عن أبيه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ترد: اللبن، والدهن، والوسادة». وفى خبر على رضى الله عنه وقد دخل على قوم يأكلون موزاً، فسأله أن يطعم منه. فقال: ناولونى واحدة، فإنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من عُرِضَتْ عليه هدية - وفى لفظ آخر الحلاوة - فلا يردّها، ليُصب ما قلّ أو كثر. وفى الخبر الآخر: «ثلاثة لا ترد: الحلوى والطيب والريحان». وقال أبو عبيدة الناجى عن الحسن: الوضوء قبل الطعام ينفى الفقر، وبعده ينفى اللّم، كذا كان عندى، وأحسبه: ينفى الهم. وقال أبو يزيد حماد، عن عبد الرحمن بن غزال: بلغنى أنه من غسل يده قبل الطعام كان فى سعة من الرزق حتى يموت.

وأما فرقد السبخى: فإنه كان يعلم المريدين الأكل. فحدثنا عن جعفر الضبعى، قال: كنا نأتى فرقد السبخى، ونحن شَبَّةٌ^(١)، فيقدم إلينا الطعام، ويعلمنا فيقول: [إنّ من ورائكم زماناً شديداً] فَشُدُّوا الأزرَّ على أنصاف البطون، وصغِّروا اللقم، وشدّدوا المضغ، ومُصِّتوا الماء مصّاً، وإذا أكل أحدكم فلا يَحُلِّنْ إزاره فتتسع أمعاؤه، وإذا جلس أحدكم ليأكل فليجلس على إتيته، وليزق فخذه ببطنه، وإذا فرغ فلا يقعد، وليجىء وليذهب.

وكان الحسن رحمة الله عليه يعيب عليه مثل هذا ويقول: ويلك فريقد، دع

(١) شبّة: جمع شاب.

الناس يأكلون كيف شاءوا، فقال: لوددت أن الرماد يكون قوتي إلى الموت، فقال له الحسن رحمه الله: جعله الله قوتك وقوت أصحابك. وكان فرقد من القراء المتفقرين، والصَّلايَّة المتقشفين، وكان الحسن رضى الله عنه يتسع في الطعام.

وقال حماد بن زيد: حدثنا داود، قال: قلت للحسن رضى الله عنه: إِنَّا ننفق في هذه الأطعمة فنكثر، فقال: ليس في الطعام سَرْف. وقاله إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه لما زاره الأوزاعي، فقدم إليه طعاماً فيه كثرة، فقال له الأوزاعي: يا أبا إسحاق، ما تخاف أن يكون هذا إسرافاً، فقال: ليس في الطعام سرف^(١). وزاد سفيان الثوري رضى الله عنه: ولا في النساء سرف. وقال رجل للثوري وروى الحديث: «إن الله عز وجل يبغض أهل بيت لَحْمين». فقال: ليس هو بالذى يؤكل فيه اللحم، إنما هو الذى يؤكل فيه لحومُ الناس، يعنى الغيبة. أسنده ابن أبى زياد، وزاد فيه: «ويبغض الحَبْر السمين»، وفسّره فى الحديث مدرجاً، قال: هو أهل بيت يأكلون لحوم الناس.

وسمع الحسن رضى الله عنه رجلاً يعيب الفالوذج، فقال: سبحان الله! لُبَابُ البرِّ بلُعَاب النحل بخالص السمن، ما عاب هذا مسلم، والتفت إلى فرقد فقال: يا فرقد، بلغنى عنك أنك لا تأكل الفالوذج، فقال: يا أبا سعيد، أخاف أن لا أؤدى شكره، فقال: يا لكع، فهل تؤدى شكر الماء البارد، لنعمة الله تعالى عليك فى الماء البارد أعظم من نعمته عليك فى الفالوذج. فكان الحسن رضى الله عنه فى هذا الباب على سُنَّة السلف رضى الله عنهم من الأصحاب والتابعين من ذوى الألباب. وروى مالك عن إسحاق بن أبى طلحة قال: سمعت أنس بن مالك يقول: رأيت عمر رضى الله عنه يُلْقَى له الصاع من التمر فيأكله حتى حشفه. وكان يقول لحاجبه برفق: ويحك أنضج العصيدة تذهب حرارة الزيت.

وكان فرقد السبخى من قراء البصريين فى طبقة ابن أبى المؤمل المتجوعين، كان يقول: رحم الله رجلاً كنا نؤاكلهم ما رأيتُ قصعةً رُفعت من بين أيديهم إلا وفيها فضل. وكان يقول: الإدام أعداء الخبز وأعداها له المالح، فلولا أن الله عز وجل

(١) لا دليل على هذا الحكم، وماذا يفعل بقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الاعراف: ٣١]؟!

أعان عليه بالماء وطلَّبَ آكله لأتَى على جميع الخوان. قال: ما بال الرجل إذا قال اسقني ماء أتاه بقُلَّة على قدر الرى أو أصغر، وإذا قال أطعمني شيئاً أو هات لفلان طعاماً أتاه من الخبز ما يفضل عن الجماعة، والطعام والشراب أخوان مُتَحالفان. وقال: لولا رخص الماء وغلاء الخبز، لما كَلَبُوا على الخبز وزهدوا فى الماء. والناس أشد شىء تعظيماً للمأكل إذا كثر ثمنه، وكان قليلاً فى أصل منبته وعنصره، وهذا الجزر الصافى والباقلَاء الأخضر العباسى أطيب من كمثرى خراسان والموز البستانى، وهذا الباذنجان أطيب من الكمأة، لكن الناس لقِصَرِ همهم، وذهابهم التقليد والعادة؛ لا يشتهون إلا على قدر الثمن^(١). إلا أن ابن المؤمل لشدة اقتصاده وفرط تقلله كان يبخل، فيحمل على الكلام ونحوه منه على البخل. وقد كان يُعلِّم بعض أصحابه عند الأكل ويأمرهم بشرب الماء، ويقول: لو شرب الناس الماء على طعامهم ما أتعَمُوا، وذلك أن الرجل لا يعرف مقدار ما أكل حتى ينال من الماء شيئاً؛ لأنه ربما كان شبعان وهو لا يدري، فإذا ازداد عن مقدار الحاجة بِشَمَ.

وقال بعض الأدباء ممن نُقل عنه هذا لصدقه قال: فى قول الناس ماء دجلة أمراً من ماء الفرات، وماء مهران أمراً من ماء بلخ، وفى قول العرب: هذا ماء نمر يصلح المال عليه، دليل أن الماء يمرى، حتى قالوا: الماء الذى يكون عليه النَّفَّاطات أمراً من الماء الذى يكون عليه القيَّارات^(٢)، فعليكم بشرب الماء على الطعام.

وكان الحارثى يقول: الوَحْدَةُ خير من جليس السوء، وجَلِيسُ السوء خير من أَكِيلِ السوء، لأنَّ كلَّ أَكِيلٍ جليسٌ، وليس كلُّ جليسٍ أَكِيلاً، فإن كان لا بد من المؤكلة، ولا بد من المعاشرة، فمع من لا يستأثر عليك بالأطعمة ويكره إيثارك على نفسه بطيب الطعام وخياره. وقال: لا تَتَشَهَّى الغرائب ولا تمتحن الإخوان بالأطعمة المثمَّنة، ولا تكشف أستار الناس بأن تَتَشَهَّى بما عسى أن لا يكون

(١) الخبر برمته فى عيون الأخبار ٣/ ٢٥٥ - ٢٥٦، والبخلاء، ص ٩٨. وأبو طالب نقل عن عيون الأخبار.

(٢) هذا من كلام ابن المؤمل كما فى البخلاء للجاحظ، ص ٩٨. والنَّفَّاطات والقيَّارات هى الأمكنة التى يكون فيها النَّفْط والقير، وهما معدنان كثيرا الوجود بالعراق منذ القدم، انظر حواشى البخلاء للمحقق، ص ٣٥١.

موجوداً، أو لا يقدر عليه أخوه.

وقد أنشد إسحاق الموصلي في معناه:

خيرُ الصديقِ صديقٌ لا يُكَلِّفنا ذبحَ الدجاجِ ولا شئَ الفراريجِ
يرضى بلونين من كُشكٍ ومن عدسٍ فإن تشهى فزيتونٌ بطسُوجٍ^(١)

وفي حديث الأعمش عن أبي وائل قال: انطلقتُ مع صاحبٍ لى نزور سلمان، فقدم إلينا خبز شعير وملح جريش، فقال صاحبي: لو كان سعتراً، فخرج سلمان فرهن مطهرته واشترى سعتراً، فلما أكلنا، قال صاحبي: الحمد لله الذى رضانا بما قسم لنا، فقال له سلمان: لو رضيت بما قسم لك ما كانت مطهرتى مرهونة بقيراط.

وكان أبو عبد الرحمن الثورى يُقعد ابنه بين يديه إذا أراد أن يذهب إلى دعوة، فيعلّمه ويقول: يا بنى، إياك ونهم الصبيان، ونهش الأعراب والمهنة، وخبط الملاحين والفعلة، وأخلاق النوائح، وكل من بين يديك، وإنما حظك الذى وقع فصار إليك، واعلم أنه إذا كان فى الطعام شئٌ طريفٌ، أو لقمةٌ كريمة، وبضعةٌ شهية، فإنما ذلك للشيخ المعظم، أو للصبي المدلل، ولستَ واحداً منهما، وأنت قد تأتى الدعوات، وتجب الولائم، وتدخل منازل الإخوان، وعهدك باللحم قريب، وإخوانك أشدَّ قرماً إليه منك، فإنما هو طعامٌ واحد، فلا عليك أن تتجافى عن بعض وتصيب بعضاً، وأنا أكره لك الموالاة بين اللحم، فإن الله يبغض أهل بيت لَحْمين^(٢).

وكان يقال: مدمن اللحم كمدمن الخمر. ورأى رجلٌ رجلاً يأكل لحماً، فقال: لحم يأكل لحماً أف لهذا عملاً. وكان عمر رضى الله عنه يقول: إياكم وهذه المجازر، فإن لها ضراوة كضراوة الخمر.

(١) البيتان فى شعره المجموع، صنعة ماجد أحمد العزى، ص ١٠١. الطسُوج: حبتان، وهو معرب.

(٢) الخبر فى عيون الأخبار ٢١٦/٣ - ٢١٧. الطريف: الجديد. البضعة: القطعة من اللحم. قرم الرجل: اشتدت شهوته إلى اللحم.

ومن وصية أبي عبد الرحمن الثوري لابنه: أى بنى، عود نفسك الأثرة، ومجاهدة الهوى والشهوة، ولا تنهش نهش السباع، ولا تخضم خضم^(١) البراذين، ولا تدمن الأكل إدمان النعاج، ولا تلقم لقم الجمال؛ إن الله عز وجل خلَقك إنساناً وفضلك، فلا تجعل نفسك بهيمة ولا سباعاً، واحذر سرعة الكظة، ونهم البطنة، فقد قال بعض الحكماء: إذا كنت بطناً فعد نفسك فى الزمنى. وقال الأعشى:

* والبطنة يوماً تَسْفُهُ الأحلاما *^(٢)

وكذلك يقال: الشبع داعية البشَم، والبشَم داعية السقم، والسقم داعية الموت، ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتةً لئيمَةً، وهو مع هذا قاتل نفسه، وقاتل نفسه ألأم من قاتل غيره. وقال بعض الفقهاء: ما أدَّى حقَّ السجود والركوع ذو كظة، ولا خشع لله عز وجل ذو بطنة، والصوم مَصَحَّة، والوجبات عيش الصالحين. الوجبة أكلة من وقت إلى مثله أو فى اليوم مرة. وقال بعض العرب: قد بلغت سبعين عاماً، ما نَغَضَ لى سِنٌّ، ولا انتشر لى عصب، ولا عرفت ذَنِين^(٣) أنف، ولا زريف عين، ولا سلس بول، ما لذلك سبب إلا التخفيف من الزاد.

ولله درُّ الحارث بن كلدة حين زعم أن الدواء هو الأزم^(٤)، وأن الداء هو إدخال الطعام فى إثر الطعام، ومنه صفت أذهان الأعراب، وصحَّت أبدان الرهبان مع طول الإقامة فى الصوامع، حتى لم تعرف النقرس ولا المفاصل ولا الأورام؛ لقلة الرزء^(٥) وخفة الزاد، وكيف لا يُرْغَب فى شىء يجمع لصاحبه صحَّة البدن، وذكاء الذهن، وصلاح المعى، وكثرة المال، والقُرب من عيش الملائكة عليهم السلام. وبعض العرب يقول: إنما كان الضبُّ والظبى أحسن شىء جسمًا وأطولهُ عمرًا

(١) الخَضَم: الأكل بجميع الفم.

(٢) ديوانه، قصيدة رقم ٣٨ ب ٤، وصدرة: «يا بنى منذر بن عبدان».

(٣) الذَنِين: المخاط الرقيق يسيل من الأنف.

(٤) الأزم: ألا تدخل طعاماً على طعام.

(٥) الرزء: ما يصيبه الإنسان من الطعام.

لأنهما يتبلغان بالنسيم، ويجتنبان شرب الماء.

وأوصى بعض خدام الملوك من يؤدبه ممن وكل بأدبه، فقال: إذا أكلت فضم شفتيك، ولا تتلفتن يميناً ولا شمالاً، ولا تتخذن خلالك قصباً، ولا تلقم بسكين أبداً، ولا تجلس فوق من هو أسن منك وأرفع منزلة، ولا تتخلل بعود آس، ولا تلمس بثياب جسدك، ولا تشرب ماء وأنت قائم، ولا تحفر أرضاً بأظفارك، ولا تجلس على حائط أو باب، ولا تكتب عليهما فتلعن، ولا تسترح على أسكفة^(١) فتجهل، ولا تطحن مدرّاً بأصابعك، ولا تستنج بمدّر فيورثك الباسور، ولا تمتخط حيث يُسمع امتخاطك، ولا تبصق في الأماكن المنظفة^(٢).

ويقال: إن عمرًا قال لمعاوية رضى الله عنهما، وقد حكّم الحكمين: أكثروا الطعام لهم، فوالله ما بطن قوم قط إلا فقدوا بعض عقولهم، وما مضت عزمة رجل بات بطيئاً. وكان يقال: أقلل طعامك تحمد منامك.

وروى أن عبد الملك دعا رجلاً إلى الغداء فقال: ما فى فضل، فقال: ما أقبح بالرجل أن يأكل حتى لا يكون فيه فضل، فقال: يا أمير المؤمنين، عندى مستزاد، ولكن أكره أن أصير إلى الحال الذى استقبح أمير المؤمنين. وقال بعض الأخيار: قيل لشيخ من العرب: ما أحسن أكلك! فقال: هو عملى منذ ستين سنة.

وروى العباسى عن أبيه قال: قال الأحنف: جنبوا مجلسنا ذكر الطعام والنساء، فإنى أكره الرجل أن يكون وصافاً لبطنه وفرجه، [وإن من المروءة أن يترك الرجل الطعام وهو يشتهي].

وقال: إن الملائكة عليهم السلام تحضر المائدة إذا كان عليها بقل. وفى الخبر: إن المائدة التى أنزلت على بنى إسرائيل من السماء كان عليها من كل البقول إلا الكراث، وكان فيها سمكة عند رأسها خل، وعند ذنبها ملح، وكان عليها سبعة

(١) أسكفة الباب: عتبة.

(٢) الله الله. إنها حضارة الإسلام وتعاليمه التى غابت عن المسلمين اليوم، فراحوا يلتمسوها عند الأعاجم.

أرغفة، على كل رغيف زيتون وحبُّ رمان. فهذا من أحسن الطعام إذا اتفق، فإن لم يكن فكما قال بعض الأدباء: إذا دعوت إخوانك فقدم إليهم حصرمياً أو بورانية، واسقهم ماءً بارداً، فقد أكملت الضيافة.

ودعا بعضُ الرؤساء إخوانه، فأنفق مائتي درهمًا، فقال له بعض الحكماء: لم تكن تحتاج إلى هذا كله، إذا كان خبزك جيداً وخلك حامضاً وماؤك بارداً فهو كفاية. وقال بعضهم: الحلاوة بعد الطعام خير من كثرة الألوان، والتمكن على المائدة خير من زيادة لونين. وقال آخر: شربُ الماء البارد على الطعام خير من زيادة ألوان.

ولياكل الرجل في منزل أخيه على سجيّة أكله في منزله، بغير تكلف ولا تزين؛ لأنه قد يدخل من الرياء والتصنع في الطعام مثل ما يدخل في سائر الأعمال من الصلاة والصيام.

والأكلُ عملٌ، وكلُّ عملٍ يحتاج إلى نية وإخلاص، فلتكن نيته في أكله وحيداً الاستعانة على الطاعة، ولتكن نيته مع إخوانه إكرامهم بذلك وإدخال السرور عليهم والتبرك بالجماعة، لقول النبي ﷺ: «الجماعة بركة». وينوي إقامة السنة في إجابة الدعوة؛ ليكون مأجوراً في أكله، عاملاً في جميع ذلك بسنة نبيه ﷺ، وكلُّ هذا داخل في حسن الخلق، وهو من معنى قول الرسول ﷺ: «إن العبدَ ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم». قيل: هو الرجل يسأله إخوانه أن يفطر معهم نهاراً، أو يسهر معهم ليلاً، ويكون من عادته الصيام والقيام، فيساعدهم تخلّقاً معهم، فيدرك بحسن خلقه درجة من صام وقام.

وقال بعض العلماء: ليس من السنة ولا المروءة أن يزور الرجل إخوانه فيتشاغل عنهم بالصلاة النافلة، أو يستزيره إخوانه فيقدموا إليه الطعام فلا يساعدهم عليه لأجل صيامه.

وقال ابن هانئ: قلت لبعض الأدباء وكان يكثر الأكل وحده: لم تأكل وحدك وتدع الجماعة؟ فقال: ليس علىّ من هذا الموضع سؤال، إنما السؤال على من أكل

مع الجماعة لأنه تكلف إذ لم يكن له فيه نية، وأكلى وحدي هو الأصل، ولعمري إن المؤاكلة عشرة وفيها تبدل، فإن لم يجد العبد ما يصلح للمعاشرة وتُحمد معه المؤاكلة، فإن الأكل على الوحدة أصلح للقلب وأجمع للهمة.

حدثني محمد بن القاسم الأموي قال: حدثنا العباس بن أحمد، عن المدائني، عن علي بن محمد قال: قال بعض الحكماء: من الزيادة في الطعام مؤاكلة الكريم الودود، يقال: الأكل مع الأسخياء دواء ومؤاكلة اللئام داء.

وليلق أصابعه قبل أن يمسحها بخرقه، أو يلحقها غيره، كذلك السنة، وكانوا يكرهون المسح بالمنديل قبل اللعق.

ولما أكل الجارود مع عمر رضى الله عنه طعاماً فقال: يا جارية هاتى الدستور، فقال عمر رضى الله عنه: امسح بإستك أو ذر، كأنه كره أن يمسح بالخرقة. وهى كلمة أعجمية.

وكان بعض الصحابة يمسح بطرف ذيله، وكثير منهم كانوا يمسحون ببواطن أرجلهم. ويقال: من لعق أصابعه قبل أن يمسحها، أو لعق الصحيفة وشرب ماءها، كان له كعتق رقبة.

وليأكل ما سقط من فتات الطعام عن المائدة، فإنه ينفي الفقر، ويقال: هو مهوور الحور.

• باب فى الضيافة وإكرام الضيف:

روينا عن رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه». وروى عنه ﷺ: «الضيافة ثلاثٌ فما زاد فهو صدقة، ولا يحلّ له أن يتبوأ عنده حتى يخرجه»، يعنى يضيق عليه بعد ثلاث حتى يشقّ عليه. وقال ﷺ: «الضيف جائزته يوم وليلة، وليلة الضيف واجبة»، وفى لفظ آخر: «حق».

وفى حديث شعبة عن أبى الجودى قال: سمعت سعيد بن مهاجر يحدث عن المقدام بن أبى كريمة، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أيما مسلم ضافه قوم فأصبح الضيف محروماً كان له على كل مسلم نصره حتى يأخذ بقرى ليلته من

زَرَعَهُ وَمَالَهُ». ورواه القطان يحيى بن سعيد، عن زيد بن الحجاج، عن أبيه قال: قال لى أبو هريرة: «إذا نزلت برجلٍ ولم يُقَرِّكَ فقاتله». ورواه كثير بن سليمان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «الخيرُ أسرعُ إلى مُطْعِمِ الطعامِ من الشفرةِ فى سنامِ البعيرِ».

وفى خبر آخر: «الخيرُ أسرعُ إلى البيتِ الذى يُطعم فيه الطعام من السيلِ إلى مستقره»، وفى الخبر الآخر: «الضيف يحل فيأكل رزقه، ويرتحل بذنوب أهل البيت».

أخبرنى عبد الله بن أحمد، عن ابن أبى الدنيا قال: حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا جرير بن عبد العزيز بن رفيع، عن مجاهد قال: كان لرجلٍ من الأنصار ضيفٌ، فأبطأ عن أهله، فلما جاءهم قال: عَشَيْتُمْ ضيفى؟ قالوا: لا. فقال: والله لا أَطْعَمُهُ. فقال الضيف: إِذَا والله لا أَطْعَمُهُ أَيضًا. قال: بيت ضيفى بغير طعام؟! قَدِّمُوا طعامكم، فأكل وأكلوا معه. فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك، فقال: «أطعت الله تعالى وعصيت الشيطان».

حُدِّثَ عن يزيد بن هارون، عن هشام، عن الحسن: أن رجلاً جهده الجوع، ففطن له رجل من الأنصار، فلما أمسى أتى به رَحْلَهُ، وقال لامرأته: هل لك أن تَطْوِي لَيْلَتَنَا هذه لَضَيْفِنَا؟ قالت: نعم. قال: فإذا قَرَّبْتَ الطعام فأدنى إلى السراج كأنك تصلحيه فأطفئيه، ففعلت، وجاءت بثريدة كأنها قطعة، ووضعتها بين أيديهم، ثم أتت إلى السراج كأنها تصلحه وأطفأته، وجعل الأنصارى يضع يده فى القصعة ولا يأكل، وأكل الضيف حتى أتى على ما فى القصعة، فأطلع على ذلك رسولُ الله ﷺ، فلما أصبح الأنصارى صلى مع رسول الله ﷺ الفجر، فلما سلَّم انفتل إلى الأنصارى فقال: «أنت صاحبُ الكلام الليلة»، ففزع الأنصارى وقال: أى كلام؟ قال: كذا وكذا؛ [يعنى] قوله لامرأته. قال: قد كان ذلك يا رسول الله، قال: «فوالله لقد عجب الله تعالى من صُنْعِكما الليلة». وفى غير حديث يزيد: «لقد ضحك الله سبحانه إليكما فى هذه الليلة». وفى الخبر: «ما ضحك الله تعالى إلى عبدٍ فى موطن إلا غفر له».

وأخبرني عبد الله، عن ابن أبي الدنيا قال: حدثني العباس بن جعفر قال: حدثنا إسماعيل بن أبان قال: حدثنا عثمان بن عبد الرحمن القرشي، عن عطاء، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من السنة أن يمشي الرجل مع ضيفه إلى باب الدار».

حدثني عبد الله القرشي بمكة قال: حدثنا جعفر بن أنس قال: حدثنا الهيثم بن خالد، عن المخرمي قال: قال أبو الوليد الرياحي: أضر شيء على الضيف أن يكون صاحب المنزل شبعان.

حدثنا عن محمد بن عبيد قال: حدثنا حُجَيْر عن المِسْعَرِي، عن عون بن عبد الله قال: ظلَّ رجلٌ صائماً في عام سنة، فابتلى بسائل عند فطره وقد أتى بقرصين، فألقى إليه أحدهما، ثم قال: ما هذا بمشبعه ولا هذا بمشبعي، لأن يشبع خير من أن يجوع اثنان، فألقى إليه الآخر، فلما أوى إلى فراشه أتى في نومه، فقيل له: سل، فقال: أسأل المغفرة. قال: قد فعل ذلك بك. فسل، فقال: إني أسأل أن يُغاث الناس.

أبو حاتم الأصم عن الأصمعي قال: سئل أقرى أهل الإمامة للضيف: كيف ضبطتم القرى؟ قال: إنا لا نتكلف ما ليس عندنا.

وقال بعض النساك: قد أعياني أن أنزل على رجل يعلم أنني لست آكل من رزقه شيئاً. وكان بعضهم يقول: لا تأكل إلا عند رجل يرى أنك أكلت رزقه. أي لا يشهد نفسه في رزق الله عز وجل، ولا يرى فعله في إطعام الله تعالى.

وكان الحُرَيْمِيُّ ينشد:

أُضاحك ضيفي قبل إنزال رحلي ويخصبُ عندي والمحلُّ جديبُ
وما الخصبُ للأضياف أن تُكثر القرى ولكنَّما وجهُ الكريمِ خصيبُ^(١)

(١) البيتان في ديوان أبي يعقوب الحُرَيْمِيِّ، جمع وتحقيق على جواد الطاهر ومحمد جبار، ق ٣

وأنشد بعضُ الكرام من العرب:

لحافى لحافُ الضيفِ والبيتُ بيته ولم يُلْهِنِي عنه الغزالُ المقنَّعُ
أُحَادِثُهُ إِنَّ الْحَدِيثَ مِنَ الْقَرَى وَتَعْلَمُ نَفْسِي أَنَّهُ سَوْفَ يَهْجَعُ

وكذلك يقال: انطلاقُ الوجه للضيف والضحكُ إليه أفضل من القرى، ومحادثته بحُسن إقبال نصف القرى. وعلى معنى هذا تأولوا قوله ﷺ: «اطلبوا الحبزَ عند حسانِ الوجوه» أى عند الطلقاء المتبسمين لا عند المنقبضين المعبوسين، كالذين قيل فيهم:

ذهبَ الناسُ واستقلُّوا وساروا وَبَقِينَا فِي أَرْدَلِ النَّسَاسِ
مِنْ أَنَاسٍ يَراهِمُ النَّاسُ نَاسًا وَإِذَا فَتَّشُوا فَلَيْسُوا بِنَاسٍ
وَإِذَا جِئْتُ أَبْتَغِي الْفَضْلَ مِنْهُمْ ابْتَدَأُونِي عِنْدَ السُّؤَالِ بِنَاسٍ
وَرَثَوْا لِي حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي مُفْلِتٌ عِنْدَ ذَلِكَ رَأْسُ بَرَّاسٍ

ولا كمن قال:

وَإِنِّي لِأَجْفُو الضَّيْفَ مِنْ غَيْرِ عُسْرَةٍ مَخَافَةَ أَنْ يُغَرَى بِنَا فَيَعُودَ

أخبرني عبد الوهاب الأصبهاني، عن أبي بكر القرشي قال: حدثنا داود بن رشيد قال: حدثنا أبو المليح الحرقي قال: قال ميمون بن مهران: إذا نزل بك ضيفٌ فلا تكلف له بما لا تطيق، وأطعمه من طعام أهلِكَ، وألقه بوجهٍ طلق، فإنك إن تكلفت ما لا تطيق أوشك أن تلقاه بوجهٍ يكرهه.

وقد كان الفضيل يقول: إنما تقاطع الناس بالتكلف، يزورُ أحدهم أخاه فيتكلف له، فيَحْشِمُهُ أَنْ يَعُودَ إِلَيْهِ ثَانِيًا.

فمن إكرام الضيف تعجيلُ الطعام له، وتقديمُ ما حضر إليه ولا ينتظر به الغائب وإن جَلَّ، وأفضلُ ما يكرمه به اللحم، وخير اللحم السمين النضيج، فإنه إذا جمع السمن والنضج تمت النعمة به، فإن كان بعد اللحم حلاوة فقد جمع له الطَّيِّبَات.

ينتظم هذه المعاني التي ذكرناها قوله عز وجل: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ ضَيْفَ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤]. قيل في وصفهم بالإكرام ثلاثة أقوال: أحدها: خدمهم بنفسه، الثاني: أخدمهم أهله، وكانت فوق رؤوسهم تحمل الطعام إليهم، والثالثة: أنه أكرمهم بتعجيل الطعام إليهم من غير ترُّبُّص، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ﴾ [هود: ٦٩] أى ما احتبس ولا تأخر ولا تباعد، والحنيذ: النضيج. وقال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦]. الروغان: الذهاب بسرعة، وقيل: الذهاب فى خفية، ويقال: جاء بفخذ من لحم يسمى عجلاً، لأنه عجله ولم يلبث به، ثم وصفه بأنه سمين نضيج يقال: حنيذ محنوذ أيضاً إذا كان نضيجاً، وأحسنه ما يشوى فى الحجارة المحمأة، على سنة العرب.

وقال سبحانه فى وصف الطيبات: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَنْ وَالسَّلْوَى﴾ المن: العسل، والسلوى: الطير، ويسمى اللحم سلوى من جهة المعنى؛ لأنه يسلى به عن جميع الإدام، أى فيه غنية من جميعها، وليس فى كلها مقامه، ثم قال تعالى: ﴿كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧].

ولا يقصّر الرجل عن بُغيته فى المأكول، فىكون بترك الأكل ما حاجته إليه غير محمود ولا مأجور، وإن لم يكن له نية فى تركه أو لسبب أوجب عليه ذلك.

وقال جعفر الصادق: أحبّ إخوانى إلى أكثرهم أكلاً وأعظمهم لقمةً، وأثقلهم علىّ من يُحوجنى إلى تعاوده فى الأكل. وقال آخر: يتبين أنسُ الرجل بأخيه بجودة أكله عنده، فإن قلل الأكل مع الفقراء إثارةً لهم أو لقلّة الطعام فحسن.

روينا أن سفيان الثورى دعا إبراهيم بن أدهم وأصحابه إلى طعام، فقصّروا فى الأكل، فلما رُفع الطعام قال له الثورى: إنك قصّرت فى الأكل. فقال إبراهيم: لأنك قصّرت فى الطعام فقصرنا فى الأكل. قال: ودعا إبراهيم الثورى وأصحابه رضى الله عنهم على طعام فأكثر منه، فقال له سفيان: يا أبا إسحاق، أما تخاف أن يكون هذا سرقة؟ فقال إبراهيم رضى الله عنه: ليس فى الطعام سرّ.

قلتُ: ذلك إذا قُدِّمَ إلى الإخوان فأطعم في الله جل وعز، فأما إن قُدِّمَ مباهاةً ومفاخرة دخله السرف.

وقد كان عبد الله بن العباس أحد الأجواد على الطعام، كان ينحر في كل يوم جزورين، أخبرني بذلك المقبرى عن ابن أبي الدنيا قال: حدثني جويرية بن أسماء: أن عبد الله بن عباس كان ينحر جزوراً. فقال له عبد الله بن الزبير: تنحر في كل يوم جزوراً؟ فقال: أكثر ذلك يا أخى! والله لأنحرن كل يوم جزورين. فهذا كما قال:

فلا زادنى الواشون إلاَّ صبايةً ولا كثرةُ الناهين إلاَّ تماديا
وكما قال الآخر:

أغراهُ عدْلُكما بما يَهْواه وكأثما عَذَرَاهُ إذ عَدَلَا

فلم يعد ذلك سرقاً؛ لأنه كان يطعم إخوانه في الله عز وجل.
ومن علامة السخى: أنه لا يملك نفسه عند العطاء، وأن مَنْ عَدَلَهُ في العطاء أو نهاه فكأثما أشاطه وأغراه.

وقد كانت عائشة رضى الله عنها لا تملك نفسها في العطاء وكانت أحد الأسخياء، قَسَمَتْ في مجلس واحد مائة ألف قبل أن تقوم، وفرقت مرةً سبعين ألفاً وإن درعها لمرقوع، وأفطرت ليلة على خلٍّ وزيت، وأهدى إليها معاوية رضى الله عنها جوهرًا قُوِّمَ بمائة ألف، فقسمته في صواحبها من أزواج رسول الله ﷺ، حتى قال ابن الزبير: أريد أن أحجر عليها، فهذا كان سبب غضبها عليه، فحلفت أن لا تكلمه، فدخل عليها في جماعة فسلم عليها فردّت عليه، ثم خرجت من ذلك فأعتقت أربعين رقبة.

لذلك فالسخاء على الطعام لا يُميز في الإطعام، ولا يفرق بين مراتب الأنام، فهذه خلائق الكرام، كما حدثت عن عمارة بن يحيى قال: سألت ابن مهدى: يجيء الرجل يسلم على القوم وهم يأكلون، هو صاحب هوى أو فاسق، أيدعونه إلى الطعام؟ قال: نعم ليتق أحدكم دناءة الأخلاق كما يتقى الحرام.

وحدث عن بشر بن منصور قال: عبد الرحمن بن مهدي ما رأيت مثله قط، قال: إني لأدعو إلى طعامي من لو نبذته إلى الكلب كان أحب إليّ من أن يأكله.

وحدث عن سهل بن محمد عن الأصمعي قال: حدثني شيخ من بني العجيف عن الجارود بن أبي سبرة قال: قال لي بلال بن أبي بردة: أتخضر طعام هذا الرجل؟ يعني ابن عبد الأعلى بن عامر، فقلت: إيهًا والله. قال: حدثني عنه، فقلت: نأتيه وكان سكيّئًا، إن حدثنا أحسن الحديث، وإن تحدثنا أحسن الاستماع، فإذا حضر الغداء جاء خبّازه، فمَثَلَ بين يديه، فيقول: ما عندك؟ فيقول: عندي بطة كذا، ودجاجة كذا، وعندي لون كذا، يعد ألوانه. فقال: وما يريد بذلك؟ قلت: لكي يَجْتَبِيَ كل إنسان لنفسه ما يشتهي، فإذا وُضِعَ الخوان خَوَى تخوية^(١) الظليم فما له إلا موضع مُتَكَئِهِ، فيجدُ ويهزل، حتى إذا رآهم قد فتروا وكلُّوا، أَكَلَ أَكْلَ الجائع المحروم حتى يَنْشَطَّهُمْ بأكله، وأنشد الأصمعي:

حَيَّاكَ رَبُّكَ واصطبحت عَصِيدَةً وإدامها زبد فذيلٌ وأنْدِفَ

ذيل: أى حدّها ذبيلة ذيلة، أى قطعة قطعة. العصيدة عند العرب: من الدقيق، وهى الحبولا عند العجم.

حدثت عن أبي حاتم عن الأصمعي قال: كان لإبراهيم بن صالح جَامٌ من حب رمان مدقوق يسف منه بين كل لونين ملعقة حتى يعرف اختلاف الألوان.

ومن أكل حلالاً فليقل عند فراغه: الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، وبرحمته تنزل البركات، اللهم أطعمنا طيباً واستعملنا صالحاً. وليكثر شكر الله عز وجل على ذلك. فإن أكل شبهة فليقل: الحمد لله على كل حال، اللهم لا تجعله قوّة لنا على معصيتك، ولا تبلنا بكُفْر نعمتك، وليكثر الحُزْن والاستغفار.

وهذا بمعنى ما رويناه فى خبر مجمل: «إذا رأى أحدكم ما يحب فليقل: الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، وإذا رأى ما يكره فليقل: الحمد لله على كل

(١) خَوَى الرجل: فرّج ما بين عَصْدَيْهِ وجَنِيهِ. والظليم: ذكر النعام. والخبر برمته فى عيون الاخبار

حال». وروينا في خبر: «إذا دُعِيَ أحدكم إلى طعام فلم يجب، فلا يقل كُلْ هنيئًا، فلعله أخذه من غير حلّه، ولكن ليقُل: أطعمك الله طيبًا».

وليقُل إذا كان لبنًا: اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وزدنا منه. وإن أكل غيره فليقل: اللهم بارك لنا فيما رزقتنا، وارزقنا خيرًا منه. كذلك روينا عن رسول الله ﷺ؛ لأن اللبن أعم نفعًا من غيره لكافة المسلمين.

وليقُل في أول لقمة: بسم الله، وفي الثانية: بسم الله الرحمن، وفي الثالثة: بسم الله الرحمن الرحيم، فهذا على ترتيب التنزيل، وهو من أول ما كُتِبَ في المصاحف كذلك مرتبًا.

وإن كان صائمًا فليقل: اللهم لوجهك صمنا، وعلى رزقك أفطرنا، والحمد لله. روى عن ابن عمر رحمه الله نحوه.

وليشرب الكوز في ثلاثة أنفاس يقطعه، يغتنم بذلك دعوة رسول الله ﷺ بعد أمره به من قوله ﷺ: «إذا شربتم فاشربوا في ثلاثة أنفاس ولا تعبوه عبًا، فإنه أهنأ وأمرأ وأبرأ». والعبُّ في نفس واحد لا يقطع كشرب الطير من الحمام، ولا ينفخ في الكوز إذا أراد أن يشرب، ولا في الطعام إذا أراد أن يأكل، فإنه قد نُهي عن ذلك، ولا يشرب من كَسَرَ الإناء فإنه مَجْمَعُ الوسخ، وليجتنب العروة فإنها مقعدُ الشيطان، وقد كُرِهَ الشربُ قائمًا، ويُسَمَّى في أول جرعة، ويحمد إذا قطع كذلك ثلاثًا من التسمية والحمد، وإن سَمَّى في كل لقمة فحسن.

وليقرأ بعد فراغه من الأكل ﴿قل هو الله أحد﴾؛ لأن فيها الصمد الذي يُطعم ولا يُطعم، وسورة الضحى؛ لأن فيها تعديد النعم، وسورة لإيلاف قریش، إذ ذكر فيها الإطعام من جوع، ثم ليحمد بمعاني ما فيها من الإنعام، فيقول: أطعمت من جوعٍ فلك الحمد، وأمنت من خوفٍ فلك الشكر، وآويت من يتم فلك الحمد، وهديت من ضلالةٍ فلك الشكر، وأغنيت من عيلةٍ فلك الحمد. وإن ذكره بلفظ التحميد فلا بأس أن يقول: الحمد لله الذي أطعم من جوع، الحمد لله الذي هدى من الضلالة. ثم كذلك.

وتقديم الفاكهة قبل الطعام أوفق، وفي القرآن ترتيب ذلك من قوله: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ * وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * [الواقعة: ٢٠ - ٢١].

ولا يرفع يده قبل إخوانه إذا كانوا يحتشمون أو يحتاجون إلى بسط، فإن كان قليل الأكل تربص حتى يضعوا أيديهم، فيأكلوا صدرًا من الطعام، ثم يقعد بعدهم ليستوى أكله مع أكلهم، فإن كانوا علماء لم يكرهوا ذلك منه، وقد فعله كثير من الصحابة، منهم أبو ذر وأبو هريرة؛ كانوا يأكلون مع إخوانهم إذا توسطوا الأكل.

ولا يتكلف لإخوانه من المأكول ما يثقل عليه ثمنه، أو يأخذه بدين، أو يكسبه بمشقة، أو من شبهة، قال بعض البصريين: أتينا شمير أبا عاصم فقرعنا بابه، فخرج إلينا وهو يلحق أصابعه، وقال: أما لولا أني أخذته بدين لأحببت أن تنالوا منه.

ولا يدخر على إخوانه شيئًا بالحضرة، ولا يتكلف غائبًا بمشقة، ولا يضر بعياله، رُوينا أن رجلاً دعا عليًا عليه السلام إلى منزله، فقال: أجيبك على شروط ثلاث: لا تدخل عليّ ما ليس عندك، ولا تدخر عنا ما عندك، ولا تجحف بالعيال. وكان يقول: شر الإخوان من يتكلف له.

وزار بعض الأدباء أخاه، فقدم إليه الغداء ثم قال: هذه تكرمة الزيارة ولم أستعد، فلعل تقصيرًا يقع فيما أحب بلوغه من ترك، فقال أخوه: حرصك على كرامتي تكفيك مؤونة التكلف لى.

وقد كان من سيرة السلف: إذا دعا أحدهم أخاه أن يقدم جميع ما يحضره، ويخرج من كل شيء عنده شيئًا مما يحب أن يطعمه، ليأكل مما يشتهي ما يحب. وكان بعضُ الرؤساء من الأجواد، إذا دعا الناس إلى طعامه أعلمهم بما عنده، ليستبقى الرجل نفسه لما يشتهي من الألوان، أو لئلا ينتظر شيئًا لم يحضره، كان يتركهم حتى يأكلوا، فإذا وقفوا جثا على ركبتيه ومدّ يده إلى الطعام فأكل، وقال لهم: بسم الله، ساعدوني بارك الله عليكم، وكان السلف يستحسنون ذلك منه.

وليس من السنة أن يقصد الرجل قومًا يتخير حضور طعامهم ليصادفه، فإن

ذلك من المفاجأة وقد نُهي عنه، وقد قال سبحانه: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَاطِرِينَ إِنَّا هُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣] يعنى: منتظرين حينه ونُضججه. وفى الخبر: «من مشى إلى طعام لم يُدع إليه مشى فاسقًا وأكل حرامًا»، ورواه إبان بن طارق، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ: «من دخل على غير دعوة دخل سارقًا وخرج مغيرًا، ومن لم يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله»، فشدد فى الأمرين جميعًا، على من دُعِيَ فلم يجب؛ لأن فيه طرْفًا من الامتهان، وعلى من جاء من غير أن يُدعى، أنه فيه حرصٌ وطمع، ولكن إن صادفهم يأكلون، فسأله أن يأكل، وعلم أنهم يحبون أكله معهم، فلا بأس، وليس ذلك داخل فى المفاجأة إذا لم يعلم خبر الطعام، فإن سأله أن يأكل، وعلم أنهم لا يحبون ذلك، وأن الأحب إليهم أن لا يفعل وإنما عرضوا عليه عرضًا، أو سأله تعذيرًا أو حياء، كرهتُ له الأكل وإن أظهروا القول، وكذلك كان رَقبة بن مَصْقَلَة يقول لمن عرض عليه الطعام: إن أقسمت علىّ وإلا لم أجدى، كأنه يرى إبرار القسم واجبًا، فيستجيزُ به الأكل ويزيل به الشكَّ، للأثر فيه: «حق المسلم على المسلم ست: منها أن يبرَّ قسمه إذا أقسم»، وفى لفظ آخر: «وإبرار القسم» وفيه: «يجيبه إذا دعاه»، فإذا أقسم عليه مع الدعوة فهو أبلغ وأؤكد، وقد وجبت الإجابة.

وحُدث عن المروزي قال: سألتُ أبا عبد الله رضى الله عنه عن طعام المفاجأة، فقال: فيه عن إبراهيم كراهية. قال أبو عبد الله: هو الرجل ينتظر القوم حتى يوضع طعامهم ثم يجىء. قال المروزي: قلت لأبى عبد الله: الرجل يكون قاعدًا يأكل فيدعو الرجل إلى طعامه وليس من نية الذى دعاه أن يأكل معه. فقال: هذا رجل لا يشتهى أن يؤكل منه وعَجِب. قلتُ: فالرجل يُدعى إلى وليمة، أو يدعوه الرجل إلى طعام، فيدخل إلى بيت فيه مائدة يرى له أن يأكل، وربما جىء بالألوان لا توضع على المائدة الأخرى يخصّ هؤلاء به، فعجب وقال: إذا دعاه أن يأكل كأنه يوسع عليه، إذا دُعِيَ للطعام أن يأكل من غير أن يقول له صاحب المنزل كُل هذا.

وقد روى عن النبي ﷺ فى المدعو إذا جاء مع الرسول أن ذلك له إذن، وليس

عليه أن يستأذن لدخوله.

سعيد عن قتادة عن أبي رافع عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دُعي أحدكم فجاء مع الرسول فإن ذلك له إذن». ورواه غيره مطلقاً من غير أن يقيده بمجيئه معه، فقال فيه: قال رسول الله ﷺ: «رسول الرجل إلى الرجل إذنه».

والعلماء مختلفون في المدعو إذا أجاب: هل عليه أن يطعم أو تكفيه الإجابة حسب؟ فمنهم من قال: عليه أن يجيب أخاه المسلم إذا دعاه، لما فيه من الأمر، وقضاء الحق، وليس عليه أن يأكل. ومنهم من قال: إنما البُغية من الدَّعوة الطَّعمة، والمقصودُ في الإجابة المطعوم الذي لأجله كانت الدعوة ووقعت الإجابة، وإلا فلا فائدة للإجابة إذا لم يصادف قصد البُغية من الدعوة، وهذا قول.

وأما ابن عمر: فكان إذا دُعي أجاب لأجل السنة، ولا يأكل إذا كان صائماً، وحُدث عن عبد الواحد بن زيد قال: حدثني ليث عن مجاهد أن ابن عمر كان إذا دُعي إلى طعام وهو صائم يجيب، وكان يهَيئ اللقمة بيده، ثم يقول: كُلُوا بِسْمِ اللَّهِ فَإِنِّي صَائِمٌ. وقد جاء في خبر على رضى الله عنه نحو ذلك: «إذا دُعي أحدكم إلى طعام فليجب، فإن كان مفطراً فليأكل، وإن كان صائماً فليصل» يعنى: يدعو.

ومن كان جائعاً فقصد بعض إخوانه ليطعمه، بعد أن لا يتخير وقت أكله، فلا بأس بذلك، فإن المسلم يستحق على أخيه سدَّ جوعته وستر عورته، لحق الإسلام، ولحرمة الأخوة في الدين، فليكن له في ذلك نية، بأن يستخرج من مال أخيه لأخيه ليأجره الله عز وجل فيه، وليُعلِّمه ما لم يعلم؛ لأن أخاه لو علم أنه قاصد إليه لسارع إلى إطعامه فرضاً وفضلاً، فيكون يقيم نفسه مقام غيره في أن يستطيع للغير فيؤجر على إطعامه نفسه، ويثاب على إدخاله الثواب على أخيه، كما يؤجر على دلالته على الخير في غيره من المسلمين، لقوله ﷺ في عموم الخبر: «الدالُّ على الخير كفاعله»، ولقوله في خصوصه: «ما صدقة أفضل من أن يأمر الرجل بصدقة في ذوى رحم، هي له صدقة وصلة». فحسب ذلك له من نفسه وأهله كفعله في غيره.

وقد قصد رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما من جوع أصابهم أبا الهيثم بن النبهان، وأبا أيوب الأنصاري، فذبحا لهم عَنَاقًا^(١)، طُبَخَ منها وشوى منها، ولم يكره ذلك، ثم عزل قطعة من لحم بين رغيفين فأرسل بها ﷺ إلى منزل فاطمة عليها السلام. فهذا أثر في الدِّلة لمن أراد أن يحتج لسنة.

وقد كان قومٌ من أهل البُسْطِ والأنس يدعون نفوسهم إلى إخوانهم ويهدونها إلى أحبابهم، وإلا فهم [يذهبون] من غير أن يُدْعَوْا أو يحتجون لذلك ويعتدرون لإخوانهم في ترك دعائهم، كما أنشدت لمن فعل ذلك من الأدباء:

نحن قوم متى دُعينا أجبنا ومتى نُس يدعنا التطفيلُ
ونَقْلُ عَلْنَا إذا دُعينا فغَبْنَا وأتانا فلم يجدنا الرسولُ

وقال الآخر الداعي نفسه:

دعوتُ نفسي حيث لم تدعني فالحمدُ لي لا لك في الدعوة
وقلتُ ذا أحسنُ من موعِدٍ أخلفه يدعو إلى جَفْوَةٍ

ولكن هذا لا يستعمل إلا مع أهله، فلا يصلح ولا يليق إلا بالكرام أولى الفضل من شكله.

وفصلُ الخطاب لأولى الألباب في هذا الباب أن الخبر ليس كالمعاينة، فمن رأيت وعانيت أن هذا الغنى^(٢) يحسن عنده ويحمد معه ويليقُ به وهو من نمطه، عامله بذلك، ومن لم يَلِقْ به فأمطه عنه فإنه لا يَلِيطُ به ولا يحسن معه، لأنَّ الشيء لا يطيب إلا مع أهله، كما لا يحسن إلا بأهله، بعد أن يرى شاهداً منه منفصلاً، وتجد شاهداً منك متصلاً يتلوه، فاحكم حينئذ ينفذ حكمك، إذا قام شاهدان كما قلنا في نحوه لحصره:

فقلتُ: اشهد واشهد أنَّ حُكْمًا سَيَظْهَرُ حينَ يَشْهَدُ شاهدان

ومن السنَّة أن يخرج الرجل مع ضيفه إلى باب الدار إذا انصرف، كما روينا

(١) العَنَاق: الأنتى من ولد المعز. الجمع: أعنق، وعُنوق.

(٢) ولعلها يمكن أن تقرأ «الفتى».

فيما قبل، وليس من السنة أن يخرج الرجل الضيف من المنزل من غير إذن صاحب الدار، ولا أن يقيم في الضيافة فوق ثلاث حتى يخرجه أو يتبرم به، فيؤثمه فيه، فيأثمان معاً، وقد تقدم الأثر فيه.

وقال بعضهم: إذا قُصِدَتْ فَقْدَمَ ما حضر، وإذا دَعُوتِ فلا تُبَقِّ ولا تَذَرِ.

وفي الحديث: «دخلنا على جابر بن عبد الله رضى الله عنه فقَدَمَ إلينا خبزاً وخلاً، وقال: لولا أنا نُهِنَا عن التكلف لتكلفنا لكم». وفي حديث يونس النبى ﷺ: «إن إخواناً له زاروه فقَدَمَ لهم كِسراً من شعير، وجزءاً لهم بَقْلاً من مزرعته، ثم قال: كُلُوا، لولا أن الله عز وجل لعن المتكلفين لتكلفت لكم». والملعونون من المتكلفين: المتصنعون للخلق، المتزينون بالرياء والسَّمتة للتكاثر والتفاخر، لا للقربة إلى الله تعالى، ولا طلب ما عنده من الباقيات الصالحات.

وروينا عن أنس وغيره من الصحابة رضى الله عنهم: كانوا يقدمون إلى إخوانهم ما حضر من الكسر اليابسة والحشف من التمر، ويقولون: لا ندرى أيُّهم أعظم وزراً الذى يحتقر ما يُقدَّم إليه، أو الذى يحتقر ما عنده أن يقدمه. وكذلك جاء فى الخبر بلفظه. وقد روينا أن أنس بن مالك وغيره كانوا يُقربون ما حضر، ويقولون: إن الاجتماع على الطعام من مكارم الأخلاق. وفى خبر أنس رضى الله عنه: هو من أخلاق أهل الجنة.

وفى الخبر: إن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يجتمعون على قراءة القرآن والذكر لا يفترقون إلا عن ذواق. وإن الصحابة رضى الله عنهم كانوا يجتمعون فى منزل بعضهم، فإذا حضرت الصلاة قدّموا أحدهم يصلى بهم، ولا يخرجون إلى المسجد، فهذا من أخلاق السلف.

ولا ينبغي للمدعو أن يقترح على الداعى شيئاً بعينه، فيشق عليه، فليس من أخلاق الصالحين إدخال مشقة فى دنيا ولا دين، وهو أيضاً خارج من القناعة، وداخل فى الضراعة، فإن خيرَه أخوه بين طعامين فليختر أقربهما منه، وأيسرهما عليه، كذلك السنة، كما روينا عن رسول الله ﷺ: «أنه ما خيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما»، فإن كان أخوه من أهل الأنس والكرم وعلم أن اقتراحه عليه مما

يحبّه فلا بأس بذلك، فعَله الشافعي رضي الله عنه ببغداد مع الزعفراني: كان نازلاً عليه في درب الزعفراني، وكانا يخرجان يوم الجمعة إلى الصلاة، وكان الزعفراني يكتب في رقعة للجارية ما تصلح من الألوان، فدعا يوماً الشافعي رضي الله عنه الجارية، فنظر في الرقعة ثم زاد لوناً اشتهاه، ألحقه بخطه، فلما جاء الزعفراني وقدمت الجارية ذلك اللون أنكره، إذ لم يأمرها به، فسألها عنه فأخبرته بأن الشافعي رضي الله عنه زاده في الرقعة، فقال: أريني، فلما نظر إليها وخط الشافعي ملحاً في الرقعة بذلك اللون، سرّه ذلك فقال: أنت حرّة، فأعتقها فرحاً منه، وإليه نسب درب الزعفراني بباب الشعير.

فإن شهّاه أخوه وسأله فلا بأس أن يذكر له شهوته، فيعيّنه على فضيلتها، فقد رويّا في فضل ذلك غير خبرٍ، منها: «مَن صادف من أخيه شهوةً غُفر له. ومن سرّ أخاه المؤمن فقد سرّ الله عز وجل».

ورويّا عن أبي الزبير عن جابر قال: قال النبي ﷺ: «مَن لَذَّ أخاه بما يشتهى كتبَ الله عز وجل له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة، وأطعمه الله عز وجل من ثلاث جنان: جنة الفردوس، وجنة عدن، وجنة الخلد».

والخلال بعد الأكل أدب حسن، فلا يأمن يَبِين^(١)، وهو بين الملاء غير أدب، إلا أن يعتزل ناحية، وفي الخبر: «ما شيء أبغضُ إلى الملائكة عليهم السلام من أن ترى بين أسنان العبد شيئاً من الطعام». وما يميّطه الإنسان من بينها بلسانه فليزدرّه وما ردّ له بالخلال فليلفظه، ولا يشرب الماء بعد أن يتخلل حتى يتمضمض، بخبر في ذلك عن أهل البيت رضي الله عنهم.

ولا بأس بغسل اليد في طست، ولكن يجتمعون عليه حتى يملؤه، وليس من الأدب التنخم فيه إذا غسل يده في جماعة، فإن كان منفرداً فلا بأس، ومكروه أن يُنقل الطست من غسل يد واحد بعد واحد، هو من فعل الجبابة، كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله فيما يكتب من أوامره ونصائحه للمسلمين، فكتب إلى أمراء

(١) غير منقوطة في المخطوط.

الأجناد: مروا الناس أن يجتمعوا في غسل أيديهم على طستٍ واحد، ولا يرفع الطست إلا مملوءاً، ولا تشبهوا بالعجم.

روينا أن أنس بن مالك اجتمع هو وثابت البناني على طعام، فقُدِّمت الطست إلى ثابت لغسل يده فامتنع، فقال له أنس رضى الله عنهما: إذا أكرمك أخوك فاقبل كرامته ولا تردها، فإنه إنما يكرم الله تعالى. وقد روينا عن ابن مسعود: اجتمعوا على غسل اليد في طستٍ واحدة، ولا تشبهوا بسنة الأعاجم.

ومن بَرَّق في الطست بعد أن يفرغ الجماعة منه ورُفِع، فلا بأس بذلك.

ولا يقومَنَّ الخادم الذى يغسل أيديهم قائماً، بل يجلس فإنه من التواضع، وقيامه أو قيام الخدم على الطعام والناس يأكلون مكروه، وهو من سنن الأكاسرة.

روينا أن هارون الرشيد دعا أبا معاوية الضيرير فأكل معه، فلما فرغ صبَّ الرشيد رحمه الله على يده في الطست، فلما رُفِعت قال له: يا أبا معاوية تدرى مَنْ صبَّ على يدك؟ قال: لا. قال: أمير المؤمنين. فقال: إنما أكرمت العلم وأجللته، فأجلك الله عز وجل كما أجَلَّلَتِ العلم.

وليقُل عند طعامه: الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، سيدنا ومولانا كافى من كلِّ شيء، ولا يكفى منه شيء، كن كافينا من كلِّ شيء، حتى لا يبقى سواك شيء، الحمد لله حمداً كثيراً دائماً طيباً نافعاً مباركاً فيه كما أنت أهله ومستحقه، اللهم أطعمنا طيباً، واستعملنا صالحاً، اجعله عوناً لنا على طاعتك، ونعوذ بك أن نستعين به على معاصيك.

وفى الأكل مع الإخوان فضائل جمّة يكثر تعديدها، وروى عن الحسن: كلُّ نفقة ينفقها الرجل على نفسه وأبويه فمن دونهم يحاسب عليها العبد، إلا نفقة الرجل على إخوانه فى الطعام فإنَّ الله تعالى يستحيى أن يسأله عن ذلك.

وعن بعض العلماء: لا يحاسب العبدُ على ما يأكله مع إخوانه. وكان بعضهم يُكثر من الأكل فى الجماعة لأجل هذا. ويروى أن الإخوان إذا رفعوا أيديهم عن الطعام لم يُحاسب من أكل فضل ذلك الطعام. وفى الخبر: «ثلاث لا يحاسب

عليها العبدُ: أكلة السَّحَر، وما أفطر عليه، والأكل مع الإخوان». وروى عن جعفر بن محمد عليهما السلام: إذا قعدتم مع الإخوان على مائدة فأطيلوا الجلوس، فإنها ساعة لا تحسب عليكم من أعماركم.

وروينا عن النبي ﷺ: «لا تزالُ الملائكةُ تصلي على أحدكم ما دامت مائدته موضوعة بين يديه حتى تُرفع».

فمن لم تكن له نية في مزيد الأكل مع الجماعة في الإخوان لأجل هذه الآثار، فإن التقليل أحب إلى؛ لما فيه من التزهّد، وكذلك من لم تكن له نية في تقديم فضول الأطعمة للخبر في أن من أكله لم يحاسب عليه، ولإرادة اتساع الأكلين منه، وتوسعة الأجر له بذلك، فإنى أكره أن يقدم من الطعام إلا قدر ما يؤكل، ومقدار ما يحب صاحبه أن يأكلوه ولا يُترك منه شيء، ولا يستثنى هو ولا أهل البيت في أنفسهم رجوع شيء منه، لأنهم قد أخرجوه لله تعالى، فمكروه لهم أن يسترجعوا منه شيئاً، كما إذا أخرج الرجلُ إلى السائل رقيقاً أو كسرة ثم لم يصادفه، مكروه له أن يرد ذلك إلى منزله حتى يدفعه إلى سائل آخر، وكذلك من جعل درهماً لفقير ثم لم يجده لم يرجع في ذلك ولا يرده إلى ماله، بل يخرججه إلى غيره، وكذلك الإطعام لغير الله تعالى، وإلا كان ما يقدمه إلى الإخوان مما ينوى رجوع بعضه أو لا يحب أكل كلّ، يكون ذلك تصنعاً، ويدخل في التزين والمباهاة. فإن علم بذلك من قدمه إليه لم أستحب له في الورع أن يأكل منه؛ لأنّ المأكول إذا قدّم ليؤكّل بعضه، فهو تصنع وتزين، لا يصنع الورعون ذلك، ولا يأكل المتقون من هذا؛ لأنّه لا يدرى مقدار ما يحبّون أن يأكلوا منه.

وروينا عن ابن مسعود: نهينا أن نجيب دعوة من يتباهى بطعامه. وقد كره جماعة من الصحابة أكلَ طعام المباهاة والمباراة، وهذا مكروه لمن يُقدّمه بهذه النية إلى إخوانه؛ لأنّه قد عرضهم لتناول ما يكرهون، وقد دلّس عليهم ما لا يعلمون، وقد جاءت الآثار بنحو ما ذكرناه: «ما رُفِع من بين يدي رسول الله ﷺ فضلة طعام قط، لا خبز ولا سواه». وفي لفظ آخر: «ما رأيت على طبق النبي عليه السلام إذا رُفِع فضل طعام قط». ذلك بأنهم كانوا مخلصين ويقدمون بقدر ما

يأكلون، وكان معهم تقلُّ ومعهم تزهّد، فكان ذلك كذلك.

وينبغي أن يعزل أنصبة أهل البيت قبل تقديم الطعام إلى إخوانه؛ لئلا يحدثوا أنفسهم بارتجاع شيء منه، فإنه مكروه لهم، ولعله أن لا يرجع منه شيء فيكون ذلك إفراطاً^(١) من الآكلين، ومنقصة لهم في قلوبهم، وهذا أشدّ عليهم من إكرامهم بالطعام، أو يكون ذلك مُضِرّاً بالأهل، فيصير مضيقاً للأصل، إلا أن يكون حال أهله في العلم واليقين كحاله، فيؤثرون أضيافهم وإخوانه على نصيبهم من إطعام الطعام.

فهذه طريقة السلف في أخلاق الكرام.

ولا ينبغي له أن يقدم من كل شيء إلا ما يحب أن يأكلوه أيضاً، أو مقدار الحاجة والكفاية من المأكول ليكون عاملاً إما في فضله بالزيادة، أو بالواجب في تقديم الحاجة مما لا يُردُّ منه فضل، وهذا داخل في معنى الخبر الوارد: «ما رُفِعَ من بين يدي رسول الله ﷺ فضلة طعام قط»؛ لأنهم كانوا يقدمون كفايتهم من الطعام، ولم يكونوا يأكلون إلا بعد جوعهم، ولا يتركون الأكل وفي نفوسهم منه شيء، للاقتصاد الذي كان فيهم.

وفيما ذكرناه من تقديم الكفاية لئلا تُردُّ فضول الأطعمة موافقة السنة. وفي تقديم المأكول؛ الكثير ليرجع أكثره نية حسنة؛ لما جاء فيه: أن من أكل ما فَضَّلَ من الإخوان لم يُحاسب عليه، ومن كان في جماعة فلا يأمر بتأخير الطعام فلعل منهم من يحتاج إلى تقديمه، إلا أن يتفقوا على تأخيره، فلا يأمر هو حينئذ بتقديمه لأجل نفسه.

وإذا حضر الطعام والصلاة، فإن كانت نفوسهم تتوق إليه وفي الوقت سعة، قدّموا الأكل، وإن كانت نفوسهم ساكنة، أو ضاق الوقت، أو خشوا أن يتناول بهم الأكل، صلّوا قبل الطعام.

وأستحب الأكل على الأرض، كان رسول الله ﷺ إذا أتى بطعام وضعه على

(١) في (هـ): «إخراجاً».

الأرض، وكان يأكل مقعياً على قدميه، ويقول: «لا آكل متكئاً، إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد». وربما جثا للأكل على ركبتيه، وجلس على ظهر قدمه اليسرى، ونصب رجله اليمنى، وهى جلسة العرب للأكل إلى اليوم، وإن أكلوا على السفّر^(١) فهو سنة، ويتذكر به السفّر^(٢)، ويتزود لسفره، وخير زاده تقواه، وخير تقواه توحيده، وخير توحيده وحدانية مولاه.

وأكره الأكل على الموائد العالية؛ لأنهم كانوا يكرهون أن يعلو الطعام على الأيدي، ويستحبون أن تنحط الأيدي إليه، والموائد محدثة وهى من صنائع الفرس، قال أنس بن مالك: «ما أكل رسول الله ﷺ على خوان ولا على سكرجة^(٣) قط. قيل: فعلى ما كنتم تأكلون؟ قال: على السفّر». وكانوا يحفرون فى البطحاء تحت السفّر، لتكون كالجفنة، ويقوم ذلك مقام السكرجة للخل ونحوه.

وقيل: أول ما أحدثت هذه الأمة بعد نبينا ﷺ أربع: الموائد، والمناخل، والأشنان، والشبع.

وقال ابن عمر: لم نكن نعرف الأشنان على عهد رسول الله ﷺ، وكانت مناديلنا بواطن أرجلنا، كنا إذا أكلنا الغمر مسحنا بها. قال: وكان أصحاب رسول الله ﷺ يأكلون الشواء فى المسجد، فإذا أقيمت الصلاة أدخلوا أيديهم فى التراب والحصب ففركوها ثم كبروا. قيل: وكانوا ينامون فى المسجد بعد العشاء، فتدخل الكلاب فتلحس أيديهم، فلذلك أمروا بغسلها إذا استيقظوا، واحتج بنحو هذا مالك رحمه الله فى طهارة لعاب الكلب^(٤).

قال: وإجابة الدعوة سنة، وتركها معصية، وأوكدها الوليمة، وهى من حق المسلم على المسلم، وإبرار القسم فيها واجب بأخبار رويناه عن رسول الله ﷺ

(١) السفّر: جمع سفرة، وهى التى يؤكل عليها، سميت سفرة لأنها تُبسط إذا أكل عليها، (اللسان). وواضح أنها لا تعنى ما تعنيه «السفرة» لدينا هذه الأيام، بل تسميها العرب: المائدة.

(٢) السفّر: القوم المسافرون.

(٣) السكرجة: إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم، وهى فارسية، الجمع: سكارج.

(٤) ولكن هذا ليس بحجة.

فى ذلك، وهى طريق إلى الله سبحانه حسن، وكانت من سيرة السلف الصالح، وهى مقامٌ لطائفة من المؤمنين، أعنى إيجاب الدعوة والإجابة إليها، وروى عن رسول الله ﷺ: «إذا دُعِيَ أحدكم فليجب، فإن كان مفطرًا فليطعم، وإن كان صائمًا فليصل». وكان ابن عمر لا يتخلف عن إجابة الدعوة، فإن صادف فطره أكل، وإن وافق صومه دعا لهم وبارك عليهم، ثم انصرف.

ودعا رجل من الصحابة أخًا له فلم يطعم، وقال: إني صائم، فأخبر الداعى رسول الله ﷺ بذلك. فقال النبى ﷺ للمدعو: «دعاك أخوك وتكلف لك طعامًا فلم تأكل. فقال: يا رسول الله إني كنت صائمًا. قال: ألا أفطرت وصمت يومًا مكانه».

فمن دُعِيَ إلى طعام وهو صائم فليجب، وله أن يفطر، ولكن يقعد معهم، فإن كان الطعام صنُع لأجله فالأفضل له أن يأكل، ففي هذا سنة، فإن سألوه أن يأكل وعلم أن فطره يسرهم ففطره أفضل؛ لأن صومه لنفسه وفطره لإخوانه، فقد آثرهم على نفسه، وهذا داخلٌ فى معنى الخبر: «إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم»؛ لأنه قد حسن خلقه بتخلُّقه معهم فى غير معصية، فإن كان يشهد فضله فى صومه على أحدٍ منهم فصومه ذلك معصية، وإن وجد فى قلبه نكتًا وعيبًا عليه يخرج من جملة الجماعة، فإن هذا قد يكون حجة عليه وتوبيخًا له، وقد قال رسول الله ﷺ: «الجماعة بركة». وقال بعض السلف: كدِّر الجماعة خيرٌ من صفو الفرقة. ولو كان ممن يصوم الدهر، كان فطره أعجب إلى؛ ليستر صومه بفطره، ويخفى سريره فى صومه، لئلا يُفطن له، فهو إذاً أدنى إلى الإخلاص، وأبعدُ من التزين والانتقاص. وهذا طريقُ الصادقين.

وقد كان سليمان الداراني يقول فى معناه: إذا كنت تاركًا لشهوة، فأتيت بها فى الجماعة، فلا تترك أكلها تورى الجماعة أنك تارك لها، ولكن تناول منها اليسير، ولا تعطى نفسك منها شهوتها بالاستكثار، فهذا له فيه عملان، أحدهما: إسقاط شهوة نفسه بالزهد عندهم بتناول شهوته. والثانية: منعه النفس منهاها بالمبالغة فى شهوتها؛ لأن منعه النفس بنظر الناس إليه بعين الزهد أمنع للعقل من تناول أكله،

ولأن النفس قد تسترق على العبد ببلوغ شهوتها بالتوصل إلى لذتها بعلّة الإخلاص وبترك المراءاة، فيتناول شهوتها فى سرّاً، وهذا من الشهوة الخفية. فإذا فعل ما قاله أبو سليمان فقد علا الناسُ جميعاً على نفسه، بأن أسقط هذه عند الناس بالتناول، ولم يعط نفسه بُغيتها من التمتع بشهوتها.

وهذا طريق الحذاق، ولا يصبر عليه إلا صادق.

روينا عن أبى إسحاق الفزارى، قال: زارنى الثورى رحمه الله، فتحدثنا، ثم قمتُ إلى المرأة فقلت: أصلحى لنا عسيده فقدمتها إليه فى قصعة، قلت: كُلْ يا أبا عبد الله. فقال: لولا أتى صائم لأحببتُ أن أكل معك. فقلت: اسمع حتى أحدثك عن أخيك إبراهيم بن أدهم: زارنى يوماً، وقعد فى موضعك هذا، فقمت إلى المرأة فأمرتها أن تصنع لنا مثل هذا، ثم قدمته إليه، وقلت له: كل يا أبا إسحاق، فأكل، فلما أراد أن يخرج قال لى: أما إنى كنتُ صائماً ولكنى أفطرتُ لأجلك. قال: فوضع سفيانُ يده فأكل؛ تأدباً بإبراهيم رضى الله عنهما.

وكذلك لعمرى أن حُسن من أفطر لأجل الله عز وجل كفضل من صام لله تعالى، فمن علم أن إفطاره يسرُّ إخوانه، وأن صومه بترك الأكل معهم يغمُّهم، ففطره أفضل؛ لإدخال السرور على مسلم، ورفع الغمّ عنه، وإن فيه إدخال غمٍّ على أخيه، فقد نهى عن ذلك.

ومن لم يكن على علم من فرح أخيه، ولا يقين من دخول غمٍّ عليه، فإتمامه لصومه أحب إلى؛ لئلا يخرج من عقد عقده لله تعالى بغير نية فى الله تعالى، إلا إن أقسم عليه فى الأكل، فالسنة حينئذ إبرار القسم، وترك إحداث القسم، للأخبار فى ذلك أنها من واجبات حق المسلم.

فإن اتفق داعيان أجبت السابق منهما، وإن كانا معاً فى وقت واحد أجبت أقربهما منك باباً، ففى معناه أثر عن رسول الله ﷺ فى الإيثار بالهدية من قول عائشة رضى الله عنها: يا رسول الله، لى جارتان، فى إيهما أهدي؟ فقال: «إلى أقربهما منك باباً»، وكما قيل فى المسجدين يكونان فى المحلة: إن الصلاة فى الأقرب أولى. فإن كان الداعيان فى القرب سواء، أجب أفضلهما إلى نفسك،

وأقدمهما صحبةً لك . وأفضلُ الناس في الإجابة من جاء قبل الناس ، ولم يُحوج إلى رسول ثانٍ ، أو إلى معاودة قول ، وأثقلهم من انتظر إلى آخر وقت ، أو أحوج إلى إعادة رسول أو تكرار قول ، أو أخلف موعداً .

ومن أراد أن يدعو أخاه ، فليسأله أن يجيء في وقت بعينه في نهارٍ أو ليلٍ ، وليراعى أخوه ذلك الوقت الذي واعدته فيه ولا يخلفه ، ولا يحوج أخاه إلى انتظاره ، ولا تكرير رسول إليه ، فليس ذلك من الأدب . وقد كان بعض السلف إذا أحب أن يدعو أخاه أعلمه قبل ذلك ؛ لئلا يستوفى أكله المعتاد فيقصرَّ عنده فيغمه ذلك ، أو خشية أن يزيد على أكله المعهود فيضرَّ به ذلك ، ولأنهم كانوا يأكلون الوجبة والغبوق ، وهى الأكلةُ فى كلِّ يوم مرة ، ولا يأكلون فى اليوم مرتين . وكان بعض الخلف الصالح إذا دُعِيَ عشيّة إلى طعام قال لأخيه : ألا أعلمتنى من أول النهار . وقال بعضهم لأخيه : إذا أردت أن تدعونى يوماً فأعلمنى من الأمس .

وروينا عن على عليه السلام أنه دُعِيَ إلى هريسة صلاة الغداة ، فقال : ألا أعلمتنى من الليل فأفرح وأبيتُ فرحان . فهذا فرح الطبع بالطعام الذى هو قوامه ، لقوله ﷺ : «لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ فَرْحَةٌ عِنْدَ إِفْطَارِهِ» وكقوله تعالى فى سكون النفس إلى وصف الجنس : ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] . وليس هذا سكونُ القلب للمؤمن ؛ لأنه يسكن إلى مُقْلَبِهِ الذى يطمئن به ، ولا ذاك فرح الإيمان بالمؤمن الذى آمن به ؛ لأنه يفرح بوصف موصوفه ، كقوله تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨] . فتدبروا يا أولى الأبصار ، واعتبروا يا أهل البصائر والفطن .

وأستحبّ له إن أراد أن يدعوه عشيّة أن يعلمه غُدوة ، وإن دعاه للغداء يتقدم إليه من الليل ، كذلك كان السلف يفعلون ؛ لأنهم كانوا إذا تعشّوا لم يتغدوا ، وإذا تغدوا لم يتعشوا ، على نحو ما ذكرناه .

فمن دُعِيَ إلى طعامٍ ، فلا يأكل قبل مُضِيِّ شَيْئاً ؛ لمعان : منها أن يستوفى أكله مع إخوانه . والثانى : أن لا يتصنّع فى التقلّل عندهم . والثالث : أن لا يمتلئ من

الطعام، إلا أن يكون كثير الأكل، فيخاف أن يجاوز في أكله جملة الأكلين، أو يكون قد طوى يوماً أو يومين، فليأكل حيثنذ قبل أن يجيب شيئاً، ليستوى أكله معهم، لكثرة أكله أو طول جوعه، أو يكون القوم فقراء، فينوى إثارهم بالمأكل، ويكسر عنه كَلْبٌ^(١) الجوع قبل مؤاكلة الجماعة.

فأما إن لم يكن على أحد هذه المعانى، وأكل وحده قبل ذهابه، فإنه تصنع وتزين لهم، لا يُؤَجَّر عليه بل يُسأل عنه.

وقد كان بعضهم إذا دعاه قومٌ أكل شيئاً قبل ذلك، فيقول: أكلتُ أسكَّن كَلْبَ الجوع، إلا أنهم كانوا فقراء، وكان فى الشيء قلة، وكانوا يؤثرون على أنفسهم، وكانت نياتهم على أحد تلك المعانى التى ذكرناها.

وصف لبعض العلماء رجل من العبَّاد فلم يُثن عليه، فقيل له: أتعلم به بأساً؟ فقال: رأيته مُتَّصِئاً فى الأكل، ومن يتصنع فى الأكل لم يؤمن عليه التصنع فى العمل.

وكان ابنُ المبارك يقدِّم إلى إخوانه فاخر الرطب، ويقول: من أكل أكثر أعطيته بكل نواة درهماً، وكان يعد النوى فيعطى من كان له فضل نوى على صاحبه بعدده دراهم.

وحدث أن الحسن وفرقد السبخى اجتماعاً على مائدة، فكان فرقد يتتبع أساقط الطعام وأراذله فيأكله، وكان الحسن يقصد أطاييه، فسأل رجل الحسن فقال: يا أبا سعيد، رأيتك تقصد أطايب الطعام، فقال: نعم أيها الرجل، إنما قدَّم إليك أخوك الطعام لتأكله، فإذا قصدت أجوده فقد بالغت فى حاجته، وأدرك من الثواب بُغيته، فكان أجزل لمثوبته، وإذا قصدت غير ذلك^(٢) انكسرت حاجة أخيك فى قصده وصدوره. أو كما قال، رسمته حفظاً لا من كتاب وتأخيتُ ألفاظه المعروفة. قال: وسئل فرقد السبخى عن تتبع أراذل الطعام وسقَّطه، فقال: إن لم آكله أنا

(١) كلب الجوع: شدته. ويقال كَلْبَ الدهر على أهله: اشتد. ويقال: كَلْب على الشيء: اشتد حرصه عليه.

(٢) فى (هـ): «وإذا قصرت عن ذلك».

فقد رضيته لأصحابي وإخواني، فأنا أريد أن أتحمله دونهم، وأؤثرهم بجيده. وكلُّ يعمل على شاكلته، ولكل امرئ ما نوى، فالحسنُ أراد لأخيه الآخرة، وفرقد - رحمة الله عليهما - أراد لإخوانه الدنيا، والآخرة خيرٌ وأبقى.

وقال بعض العلماء: أكلتان لا يحاسب العبد عليهما: مَنْ أكل مع إخوانه إذا دعاهم إلى طعامه، والرجل يأكل عند أخيه إكرامًا له بذلك.

ومن دُعي إلى طعام وعنده جماعة أو إنسان من حيث يسمعون الداعي ويعلمون الدعوة، فليستثن الواحد أو الجماعة معه، فإنه من السنة والأدب، إلا أن يعلم أن الواحد أو الجماعة لا يحبون حضور تلك الدعوة، فتسقط عنه المسألة لهم، فإن دُعي وحده أو مع نفرٍ بأعيانهم وأعدادهم، فلا يزيد على العدد المرسوم له أحد، فإن تبعهم واحد ولم يكن في العدد، أو أحب المدعو المقصود بالدعوة حضور أحد، فليذكره للداعي قبل دخولهم ليأذن له معهم، كذلك السنة في الحاليين معًا.

دعا يهودى رسولَ الله ﷺ - وعنده عائشة رضي الله عنها - إلى طعامه، فقال رسول الله ﷺ: «وهذه معي». فقال اليهودى: لا. فقال النبي ﷺ: «فلا إذا» ولم يجب، وكانت اليهود تبغض عائشة رضي الله عنها.

ودعى رسول الله ﷺ إلى طعام، وكان إذا دُعي يقول: أنا ومن معي، أو يقول: وكم من أصحابي، وربما بدأه الداعي فيقول: أنت يا رسول الله في خمسة نفر أو ستة، كذلك كان من أخلاقهم، فقال رسول الله ﷺ للأنصاري الذي دعاه: «أنا في خمسة نفر»، فقال الرجل: نعم، قال: فذهب إليه النبي ﷺ في الخمسة كما ذكر فتبعهم رجل لم يكونوا دعوه، فلما وقف رسول الله ﷺ بالباب خرج إليه الداعي، فقال له: إنا قد تبعنا رجلٌ فإن أذنت له دخل، وإلا أمرته أن يرجع، قال: بل أذنتُ له فليدخل، فهذه سنةٌ في ردِّ من لم يدع، وذلك الأول سنةٌ في حضور الزوجة مع زوجها في الدعوة.

ومن دُعي في جماعة وفُوض إليه الأمر فيهم، فليعرّف صاحب المنزل عدّتهم قبل مجيئهم، ليعتدّ لهم بعد أن يعرف عددهم.

ومن دعا رجلاً في غير دعوة عامة، وعنده قوم أو رجل بعينه، فليُعلمه بمن عنده، ليدخل معهم على بصيرة، فلعله أن يكون عنده من يكره هذا المدعو الاجتماع معه، أو لعله لا يحب مؤاكلة غيره، فإن أكل مع الغير فعلى تكرهه وتمضض فأحرجه بمؤاكلته، فإن لم يكن يأكل، فقد ترك البغية من الإجابة لأجل من معه، فيكون قد حمّله على ترك سنة، أو داخله في مشقة، وليس إذا اختار رجل مؤاكلة رجل لمعنى من معانيه، أحب أن يأكل مع غيره لغير معنى فيه، إذ المؤاكلة معاشرة، وفيها بعض البذلة، وليس كل إنسان يحب معاشرة الناس والتبذل مع الكل خاصة الرؤساء.

ومن دعا خصوصاً إخوانه، فدخل عليه داخل، فلا يقعه معهم للأكل، ليصرفه أو يفرده عنهم. حدثني بعض الأشياخ عن أبي الخير التيناتي الشيخ الصالح وكان قليل النظر: أنه دعا رجلاً في طائفة من الصوفية إلى طعام. قال: فكنا نأكل، فدخل رجل من العامة فجلس يأكل معنا فوسعنا له، فخرج إلينا أبو الخير فرآه يأكل، فقبض على يده وأقامه وقال: هذه طائفة لا يأكل معها غيرها، ولكن تشهى على أي لون شئت من الطبخ حتى أضعه لك، وأحمّله في القدر على رأسى إلى موضعك، بدلاً من هذا. أو كما قال.

ومن كان يأكل مع رجلٍ من طعامه، فوقف عليه سائل، فلا يعطيه من الطعام شيئاً إلا بإذنه، أو يسأل له صاحب الطعام حتى يكون هو الذى يعطيه من طعامه ما أحب، فإن أعطاه بغير إذن لم يكن له فيه أجر بل وجب عليه الوزر، وروينا ذلك عن أبي الدرداء: أن إنساناً كان يأكل معه، فأعطى سائلاً بغير أمره، فقال له أبو الدرداء: بئس ما صنعت، لقد كنت غنياً أن يكون الأجر لى والوزر عليك.

ومثل هذا: لا يدعو إلى طعام غيره أحداً بغير إذن صاحبه.

ومن دخل عليه داخل وهو يأكل فلا يرفع الطعام، فليس ذلك من السنة، ولا من فعل أهل المروّة، وهو خارج عن الإخلاص، ولعل الداخل قد بُعث به إليه اختباراً له.

وكان الجنيد وابن المبارك إذا أرادا الغداء أو العشاء فتحا بابهما، فمن دخل

عرضاً عليه الأكل من غنىٍّ أو فقيرٍ. وقد كان هذا من سيرة السلف، أنهم يفتحون الباب عند حُضور الطعام، فمن صادف دخوله أكل معهم.

ومنهم من كان ينصب المائدة في دهليز داره، ويفتح الباب، وكلُّ من مرَّ به في الطريق دعاه إلى طعامه من فقير أو غيره. وكان ابن المبارك ممن يفعل هذا، على أنَّه كان أحد الأجواد، كانت مائدته راسية في الأرض، ويمدها بالأطعمة لا يقطع، فكلَّ من دخل أكل بلا تمييز ولا عدد. وكذلك كان الليث بن سعد يفعل بمصر، على أنه كان له ضيافة في كلِّ يوم، ولم يكن يحدث أحدًا من الغرباء الوافدين عليه إلى مصر حتى يحضر ضيافته شهراً. وكان مالك بن أنس رحمه الله بالمدينة على ضدِّ هذا الوصف، قدَّم عليه رجلٌ من أهل مصر من أصحاب الليث، فرام منه عادته من الليث، فلم يصادف فعله، حجبه الخادم، وقال: إن الشيخ يأكل فاصبر حتى يفرغ، فقال له المصري: فهذا أجود للدخول عليه إذا كان يأكل. فقال: اصبر حتى أعلمه، فأعلمه، ثم خرج إليه فقال له: يقول لك: قف حتى أفرغ، فلما غسل يده ولَبَس ثيابه وَقُلْتُسَوْتَهُ أذن للرجل، فلما رآه قال له: لستُ الليث، وليست المدينة مصر.

وقال بعض التابعين: ألا إن خياركم: آكلُكم في الأفنية، وأوسعكم آنية، وأحلامكم أَطْلِيَّة^(١)، ألا إن شراركم: آكلكم في الأخبية، وأصغركم آنية، وأخمصكم أَطْلِيَّة. وقد عاب الناسُ على فلان فعله وقوله في هذا الباب، وكان أحد البخلاء - فجعلوا هذا من النوادر عنه - أنه قال لابنه: يا بني هات المائدة وأغلق الباب، فقال الغلام: يا أبت من الاحتياط أن أغلق الباب أولاً، ثم آتى بالمائدة. قال: فضمه إليه، وقال: فديتك، أنت ابني حقاً.

ومن دعاه رجل إلى طعامه وهو يعلم أن الأحب إليه أنه لا يأكل، فمكروه له أن يجيب، ولا يعبأ بقوله إذا علم منه خلافه، فإن لم يعلم حقيقة ذلك، فله أن يجيبه على ظاهر قوله، وليس له أن يسىء الظن به.

دعا رجل الأحنف بن قيس في سفرٍ إلى طعامه، فقال له الأحنف: لعلك من

(١) أَطْلِيَّة: جمع طلاوة؛ جلدة رقيقة فوق اللبن. أو جمع: طَلَا؛ الصغير من كل شيء.

العراضين. قال: وما العراضون؟ قال: الذين يحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا، فسكت الرجل، فلم يجبه الأحنف إلى طعامه.

وكان الثورى يمشى مع رجل، فمرّ بباب منزله فعرض عليه الرجل الدخول ليأكل عنده، فقال له الثورى: اصدقنى عن شىء أسألك عنه: أيما أحب إليك أدخل أو أنصرف؟ فسكت، فانصرف الثورى ولم يدخل. وكان رحمه الله يقول: مَنْ دعا رجلاً إلى طعامه وهو يحب أن لا يجيبه، فإن لم يجب كتبت عليه خطيئة، وإن أجاب فأكل كتبت عليه خطيئتان. فالمعنى فى الخطيئة الأولى: أنه أظهر بلسانه خلاف ما فى قلبه، فتصنّع بالكلام، وهذا من السمعة وداخل فى محبة أن يُحمد بما لم يفعل، والمعنى فى الخطيئتين: أن إجابة أخيه له على إضمار الكره لإجابته خطيئة واحدة، والخطيئة الثانية أنه حمّل أخاه على ما لم يعلم حقيقة منه وعرضه لما يكره، فلم ينصحه فيما أظهر له من نفسه، لأنّ أخاه لو علم أنه غير محب لإجابته لم يأكل معه، ولأنه قد أدخله فى السمعة، فعاونه عليها، فهذه خطيئة ثانية مضافة إلى الأولى.

وقد كان من المتقدمين من إذا دخل عليه وهو يأكل قوته لم يعرض على إخوانه الأكل، فيقال له فى ذلك، فيقول: هو قوتى فإن نقصت منه شيئاً أضربى، سيما إن كان أجيراً مستأجراً، ودفع إليه مَنْ أجزه قوته^(١)، فيقول: ينقص من قوتى، فيكون فى ذلك ترك النصيحة، وقد فعل هذا فى الإجازة نبى من الأنبياء، وعرفناه من سير بعض الأولياء. وكان من السلف من لا يعرض على الداخل عليه وهو يأكل الأكل إذا لم يكن له فيه نية، أو أحب أن لا يؤاكلة خشية التزين بالقول؛ لئلا يعرضهم إلى ما لا يحبون؛ لأنهم لا يعلمون.

فهذه المعانى من أبواب الإخلاص، ومن أفعال الصادقين، وهى أهدي سبيلاً ممن عرض بلسانه وأعرض بقلبه، ومن أعطى بظاهر القول ومنع من باطنه النية للفعل، فهذا من أبواب الرياء والسمعة، ولا يدخل فيه المخلصون.

خرج أبو عاصم البصرى العابد على إخوانه إلى الباب وهو يلحق أصابعه،

(١) هذا لفظ (د)، وفى (هـ): «تُرَّله».

وقال: إني كنتُ أكل، وقد كنتُ أحب أن تصيبوا منه لولا أنى أخذته بدين.

وكان بعض التابعين يقول فى تفسير التكلف فى الطعام: هو يأخذه بدين، أو يطعمه من خيانة.

وبعضهم قال: من التكلف الإضرار بالعيال، وإدخال التكلف أن تطعم أخاك ما لا تأكله أنت وحدك. أى لا يكون من مالك فى الجودة أو ما له قيمة، فتجهد نفسك بذلك، أو تطعم إخوانك ما لا تطعمه لأهلك.

فكل هذا من أبواب التكلف، وقد قال الفضيل: إنما تقاطع الإخوان بالتكلف، يدعو أحدهم أخاه فيتكلف له، فيقطعه ذلك عن الرجوع إليه. فلذلك كان السلف رحمهم الله يقدمون ما حضر، ويؤخرون ما غاب، ولا يتكلفون لإخوانهم ما يجهدهم أو يحسبهم من العودة مرة بعد مرة، ففعل هذا أدوم للمراجعة، وأذهب للحشمة والكراهة، ولعمري أن ما ديم عليه وإن قلّ خيرٌ مما كثر وانقطع، لعموم الخبر فى الأعمال، فهذا من أنفس الأعمال، وليس ينافس فيه إلا النفساء الرفعاء من الرجال.

وقد ذم الله تعالى من أعطى وقطع فى قوله تعالى: ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ [النجم: ٣٤] أى قطع، مأخوذ من الكدية وهى الصخرة التى إذا بلغ إليها الحافر للبئر آيس من الماء، فقطع الحفر، ولأن الإطعام باب من العطاء، فلأن تدعو إخوانك أو أخاك فى الشهر مراراً فى قلة واقتصاد، خير من أن تدعوهم فى السنة مرة مع الإكثار والازدياد، ولأن تقدّم إلى من حضر من الوارد ما حضر عندك من الزاد مرات كثيرة، أفضل من أن تحرمهم القليل رغبة فى الكثرة.

وقال بعض الأدباء لبعض من يأنس به من إخوانه: كان لك صنّع فلم تدعنى؟ فقال: لم يكن شىء أرضاه لك. فقال: قد رضيت لى بأقل منه وهو لا شىء.

وقال بعضهم: لا أبالى من أتانى من إخوانى، فإنى لا أتكلف له، إنما أقرب إليه ما عندى، ولو تكلفت ما ليس حاضراً لملته، وكرهت دوام مجيئه.

فهذا لعمري ثمرة التكلف للكثرة والجودة، للملل فى الحال وكراهة العودة.

وقال بعض أشياخنا: كنت ألفُ بعض إخواني وآنس به، فكنت أكثر زيارته، فكان يتكلف الأشياء الطيبة المثلثة. فقلت له يوماً: حدثني عن شيء أسألك عنه: إذا كنتَ وحدك تأكل مثل هذا الذي تقدم إليّ؟ قال: لا، قلت: وكذلك أنا في منزلي إذا كنتُ وحدى لا آكل مثل هذا، فما بالنا إذا اجتمعنا نأكله ونحن لا نأكله على الانفراد؟ فيما أن تقطع هذا وتقدم إليّ ما تأكله جميعاً على الانفراد، أو أقطع مجيئى، قال: فقطع ذلك، وكان يقدم ما عنده وما نأكل جميعاً مثله على الوحدة، فدامت معاشرتنا.

وإن دعاك أخوك وأنت صائم، فعلمت أنه يُسرُّ بأكلك، فلا بأس أن تفطر لأجله، فإن لم تعلم ذلك منه وقال لك: إني أُسرُّ بأكلك، فصدقه، وأحسن به الظن، وإن لم تعلم ذلك ولم يلفظ به لسانه، فإني أكره خروجك من عقد الصوم بغير نية هي أبلغ منه أو مثله، فصومك حينئذٍ أفضل. وإن أكلت مع أخيك تريد إكرامه بذلك فهذه نية صالحة، قد كان بعضهم إذا كان يوم صومه أكل مع إخوانه، ويحتسب في أكله ما يحتسب في صومه.

وروينا عن ابن عباس أنه قال: من أفضل الحسنات إكرام الجلساء، ومن لم يرد أن يطعم قوماً من طعامٍ فلا يُظهرهم عليه، ولا يصفه لهم، سواء كان هو أكله أو لم يأكله.

وكان الثورى يقول: إذا أردت أن لا تطعم عيالك من شيء تأكله، فلا تحدثهم به ولا يروونه معك.

ومن علم من أخيه أنه يحب أن يأكل من طعامه، فلا بأس أن يأكل بغير إذنه؛ لأن علمه بحقيقة حاله ينوب عن إذنه له فى الأكل، لقوله ﷺ فى المعنى: «رسولُ الرجل إلى الرجل إذنه» أى قد علم بإذنه له بالدخول عليه، فأغناه عن الاستئذان، وكفعله ﷺ والنص من أكله من لحم تُصدق به على بريرة من غير أن يستأذنها، ولم تكن حاضرة؛ لعلمه أنها تُسرُّ بذلك، فقال: «إن الصدقة قد بلغت محلها، هو عليها صدقةٌ ولنا هدية»، ففى تدبر فعله ﷺ أن من علمت كراهته لأكلك من طعامه أن لا تأكل وإن أذن لك، فتدبر.

وكان محمد بن واسع وأصحابه يدخلون منزل الحسن فيأكلون ما يجدون بغير إذن، وكان الحسن ربّما دخل فوجدهم كذلك فيُسِرُّ ويقول: هكذا كنا. وروى عنه أنه كان قائماً يأكل من متاع بَقَال، يأخذ من هذه الجُونة^(١) تينة، ومن هذه اليابسة قِشْبَةً^(٢). فقال له هاشم الأوقص: ما بدا لك يا أبا سعيد في الورع؟ تأكل من متاع الرجل بغير إذنه؟ فقال: يا لكع، اتلُ على آية الأكل، فتلا: ﴿... وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور: ٦١]. قلت: فمن الصديق يا أبا سعيد؟ قال: من استروحت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، فإن كان كذلك فلا إذن له في ماله.

وجاء قوم إلى منزل سفيان الثوري رحمه الله فلم يجدوه، ففتحوا الباب وأنزلوا بالسفرة، وجعلوا يأكلون، فدخل الثوري فجعل يقول: ذكّرتموني أخلاق السلف، هكذا كانوا.

وزار قوم بعض التابعين، ولم يكن عنده ما يقدم إليهم، فذهب إلى منزل بعض إخوانه، فلم يصادفه في المنزل، فدخل فنظر إلى قدر قد طبخها، وإلى خبز قد خبزه، وغير ذلك، فحملة كله فقدمه إلى أصحابه، وقال: كلوا، فجاء ربُّ المنزل فلم ير الطعام، فسأل عنه فقالوا: قد جاء فلان فأخذه، فقال: قد أحسن، فلما لقيه قال: يا أخى إن عادوا فعُد.

وعمل بعضُ السلف صنيعاً، فدعا رجلاً فلم يصادفه الرسول، ثم أعلم وقد انصرف الناس من عنده، فقصده منزله فدقَّ عليه الباب، فخرج إليه الرجل فقال: هل من حاجة؟ قال: إنك دعوتني فلم يتفق ذلك، وقد جئتُ الآن لما علمتُ، فقال: قد انصرف الناس، فقال: هل بقى منهم بقية؟ قال: لا، قال: فكسرة إن بقيت، قال: لم يبق شيء، قال: فالحق أمسحها، قال: قد غسلناها، قال: فانصرف بحمد الله عز وجل، فقليل له في مسأله عن ذلك، فقال: قد أحسن الرجل، دعانا بنيةٍ، وردنا بنيةٍ.

(١) الجُونة: سُليلة مستديرة مغطاة بالجلد تكون مع العطارين.

(٢) القِشْب: اليابس الصلْب. وقِشْب الطعام: ما يُلقي منه مما لا خير فيه.

فنفس هذا فى الضَّعة والذَّلَّة وسقوطها من مراتب الأنفَّة والعزَّة تشبه نفس أبى المسيب بن عبد الكريم^(١) وهو أستاذ أبى القاسم الجنيد، دعاه صبى إلى دعوة أبيه، فردّه الأب أربع مرات فى دعوة واحدة، وهو يرجع إليه فى كل ليلة وهو يردّه. فهذه نفوس مطمئنة بالتوحيد، مشاهدة البلوى من المولى المبلى للعبيد، مذلَّة بالذلَّة، موضوعة على الضَّعة، وهذا طريق مُفرد لأفراد، وحال مجرد لآحاد.

والمتكبرون لا يجيبون الدعوات، وهى عند بعضهم من أنفَّة النفوس، قال قائلهم: أنا لا أجيب دعوة، قيل: فلم؟ قال: انتظر المرققة ذل. وقال آخر: إذا وضعتُ يدى فى قصعة غيرى ذلّت له رقبتي. ومنهم من لم يكن يجيب الفقير لكبره فى نفسه عنه، ويجيب الأغنياء لعظمتهم فى عينه. ومن أبناء الدنيا الموصوفين بها من لا يجيب إلا نُظرَاءه وأشكاله من مثل طبقته ومرتبته فى الرياسة والدنيا، وهذا على خلاف سنة رسول الله ﷺ، من فعّاله: أنه كان يجيب دعوة المسكين، ويجيب دعوة العبد، ومن قوله ﷺ: «بئس الطعام وشرُّ الطعام: طعامُ الوليمة، يُدعى إليه الأغنياء ويترك الفقراء». ثم قال: «ومن لم يجب الدعوة فقد عصى الله تعالى».

ومر الحسن بن على عليه السلام بقوم من المساكين الذين يسألون الناس على قارعة الطريق، وقد نثروا كِسراً على الأرض فى الرمل وهم يأكلون، وكان على بغلته، فلما مرّ بهم، سلّم عليهم، فردوا عليه وقالوا: هلمّ للغداء يا ابن بنت رسول الله ﷺ، فقال: نعم، إن الله لا يحب المستكبرين، ثم ثنى وركه فنزل عن دابته، وقعد معهم فى الأرض، وأقبل يأكل، ثم سلم عليهم وركب. وفى خبر آخر زيادة، فقال: أجبتكم فأجيبونى، فقالوا: نعم، فوعدهم المجيء فى وقت من النهار، فجاءوا، فرحب بهم ورفع مجلسهم، ثم قال: يا رباب هاتى ما كنت تدخّرين، فأخرجت الجارية فاخر ما عندها من الطعام، فأقبل يأكل معهم.

وقال بعض أهل الاعتبار: ما أجيب الدعوة إلاّ لتذكرة نعيم الجنة: طعام يُنقل بغير كُلفة ولا مؤونة.

(١) فى (هـ): «بن الكرىنى» غير منقوطة.

وكذلك قيل: اجتماع الإخوان في وجود الكفاية على الأئس والألفة ليس هو من الدنيا.

وقد كان بعض الصوفية يقول: لا تجب دعوة إلا من يرى أنك أكلت رزقك، وأنه سلّمه إليك وديعةً كانت لك عنده، ويرى لك الفضل عليه في قبولها منه.

فهذه شهادة العارف من الداعين، كذلك شهادة المدعين من الموحدين أن يشهدوا الدّاعي الأول، والمجيب الآخر، والمعطى الباطن، والرازق الظاهر، كما امتحن بذلك أصحابه بعض الصوفيين، بلغنى أن رجلاً دعا إماماً من الصوفية في أصحابه إلى الطعام، فلما أخذ القوم مجلسهم ينتظرون الطعام ينقل عليهم، خرج عليهم شيخهم فقال: إن هذا الرجل يزعم أنه دعاكم، وأنكم تأكلون طعامه، ففى حرج - أو قال: حرام - على من لم يشهده في قوله فعله أن يأكل. قال: فقاموا كلّهم فخرجوا، ولم يستحلوا الأكل، إذ كانوا لا يرونه في الفعل إلا غلاماً حدّثاً قعد، إذ لم تثبت شهادته، ولم ينفذ نظره. العبارة لى^(١)، والمعنى لقائله مثله أو نحوه.

وينبغى أن يكون للمجيب إلى الدعوة نيات سبع، إذ الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى، وإذا الإجابة من الأعمال، فمن نواها دنيا كانت له دنيا لعاجل حظه، ومن أراد بها الآخرة كانت له آخرة بحسن نيته، ومن لم يحضره نية واعتل بفسادها يقف حتى يهئ الله عز وجل نيةً صالحة تكون الإجابة عليها، أو ترك الإجابة إذا لم تكن نية؛ لأنها من أفاضل الأعمال، فتحتاج إلى أحسن النيات، لوجود العلم فيها فيكثر بها الحسنات، ولفقد الهوى منها فتسلم من السيئات، وإلا كانت إجابته هوى، وكان عاملاً في باب من أبواب الدنيا، وساعياً في حظ نفسه وملء جوفه.

وقد قال الرسول ﷺ: «ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»، فيصير مأزوراً لفساد النية، أو يكون غير مأجور لعدمها.

(١) فى (د): «العبارة لأبى طالب».

فأَوَّلُ النِّيَّاتِ: طاعةُ اللهِ تعالى وطاعةُ رسوله ﷺ، لقوله ﷺ: «من لم يجب الدعوة فقد عصَى الله».

النِّيةُ الثَّانِيَّةُ: إقامةُ سنَّةٍ، لقوله ﷺ: «لو دُعيتُ إلى كُرَاعٍ بالغَمِيمِ لأَجَبْتُ»، وهو موضعٌ إلى أميالٍ من المدينة، أفطر رسولُ اللهِ ﷺ في رمضان لما بلغه، وقصر عنده في سفره. وقال في الخبر الآخر: «لو دُعيتُ إلى ذراعٍ لأَجَبْتُ». فهذا ظاهر في الإجابة على القليل، والأوَّلُ محتملٌ في الإجابة إلى الموضع البعيد.

وقد نُقِلَ أن في التوراة أو في بعض الكتب: «سرٌّ ميلًا عُدَّ مريضًا، سرٌّ ميلين شيعٌ جنازةً، سرٌّ ثلاثة أميالٍ أجب دعوةً، سرٌّ أربعة أميالٍ زُرَ أخًا في الله»، فبعد في إجابة الدعوة وفضلها على العبادة وشهود الجنازة؛ لأن فيها قضاء حق الحَيِّ وفيها إجابة الداعي.

النِّيةُ الثَّالِثَةُ: إكرامُ أخيه، ففي الخبر: «من أكرم أخاه المؤمن فإنما يكرم الله عز وجل».

وفي حديث الحسن وعطاء: «من جاءه شيءٌ من غير مسألة فردّه فإنما يرد الله عز وجل»، فترك الإجابة ردًّا للعطاء.

وفي تأويل الخبر عن الله سبحانه وتعالى بمعناه: أنه يقول للعبد يوم القيامة: «يا ابن آدم جُعْتُ فلم تطعمني. فيقول: كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ فيقول: جاع أخوك المسلم فلم تطعمه، ولو أطعمته كنت قد أطعمتني»، فمن ظاهر تعظيم الله عز وجل حرمة المسلم؛ لأنه أقامه تعالى مقامه، وفي باطنه من الفهم أنه إذا أجابه فقد عاونه على إطعام نفسه فكأنه أطعمها، فإذا لم يجب دعوته فقد ترك معاونته على إطعامه، فدخل تحت التقرير، بأنه لم يطعم نفسه، وهو المسلم إذا لم يجب الدعوة، فتفكروا.

النِّيةُ الرَّابِعَةُ: إدخال السرور على أخيك المؤمن، والخبر الآخر: «مَنْ سَرَّ مُؤْمِنًا فقد سرَّ الله عز وجل».

النِّيةُ الْخَامِسَةُ: رفعُ الغمِّ عن قلبه، ووضعُ الهمِّ عن نفسه في ترك إجابته، من

ترجيم الظنون به، وتوقيع الرجم بالغيب فيه: لِمَ لَمْ يجب؟ وكيف لم يجب؟ وإلا كان يجيب، فيرفع عنه ذلك ويسقط عنه مؤونة سوء الظن به، ويزيل الشك فيه باليقين.

النية السادسة: أن ينوى زيارته فيصير ذلك نافلة تماماً على الذى أحسن، فقد جاء فى فضل الزيارة فى الله عز وجل، وأن بها يستحق ولاية الله عز وجل، وأنها علامة المتحابين فى الله عز وجل، فاشتراط لذلك شيئين: التبادل والتزاور فيه، فقد حصل^(١) البذل من أحدهما وبقيت الزيارة من الآخر على الخبر السائر أن الإجابة من التواضع كما ذكرنا قبيل أن المتكبرين لا يجيبون الداعى.

فهذه سبعة أعمال ونيات لمن وفق لفعلها والعمل بها.

وإذا عرضت على أخيك الطعام مرة أو مرتين فلا تلحنَّ عليه، وكذلك إذا دعوته فكرهه، فقد قالوا: لا تلزم أخاك بما يشق عليه، ولا تزيدن على ثلاث مرات، الإلحاح واللجاج ما زاد على ثلاث، وليس ذلك من السنة ولا الأدب إلا فيما لا بد منه، مما للجميع فيه أرب، قالوا: كان رسول الله ﷺ إذا خوطب فى شىء ثلاثاً لم يُراجع بعد ثلاث. وقيل: كان النبى ﷺ يعيد كلامه ثلاثاً ويكرر القول ثلاثاً. وكان الحسن بن على يقول: الطعام أهون من أن يُحلف عليه، وقال مرة: أيسر من أن تُدعى إليه، ذلك لعظيم حق المؤمن.

وقد كان سعيد بن أبى عروبة بهذه المنزلة والمثوبة، لم يكن يعرض على إخوانه الطعام، ولكنه كان يُظهره، ويعرض به، وكان اللحم مسلوخاً معلقاً، والخبز موجوداً ظاهراً، وكذلك كان يفعل بالثياب والأثاث؛ كان جميع ما فى منزله مُظهر مُسبَل، وكل من دخل عليه من إخوانه، إن شاء قطع من المسلوخ فشوى أو طبخ، وإن شاء أكل من الخبز بما وجد من الأدم، ومن شاء لبس من أثوابه ما شاء، فكان ذلك مُشاعاً فى منزله لمن أراد تناوله. وكان الثورى يقول: إذا زارك أخوك فلا تقل له كُل، أو أقدم إليك، ولكن قدم إليه ما عندك، فإن أكل وإلا فارفعه.

(١) فى (هـ): «فضل».

ومن ظنّ فيه فاقة من الفقراء، فقصد بعض إخوانه يتصدى للأكل عنده، فجائز له ذلك بشرطين: لا يكون عنده موجود من طعام، ونيته أن يؤجّر أخوه، ويكون هو الجالب لأجره؛ لأنه عرضة للمثوبة، فهذا داخل في التعاون على البر والتقوى، وداخل في التحاض على طعام المسكين، ونفسه كغيره من الفقراء، ولأن أخاه لا يعلم بصورة حاله، ولو علم لَسَرَّ ذلك، ففيه إدخال السرور عليه من حيث يعلم، وقد فعل هذا جماعة من السلف.

وقد روى بمعناه أثر من ثلاثة طرق للسلف الصالح، منهم عون بن عبد الله المسعودي، كان له ثلاثمائة وستون صديقاً، وكان يكون عنده كل واحد يوماً. وآخر كان له ثلاثون صديقاً، فكان يكون عند كل واحد ليلة. وبعضهم كان له سبعة إخوان، فكان يكون عند كل واحد يوماً وليلة. كانوا يقدمون هذه الأخلاق مع إخوانهم، ويؤثرونها على المكاسب والمعلوم، وكان إخوانهم معلومهم، ولم يكن هؤلاء يتكسبون ولا يدخرون، وكانت لإخوانهم فيهم نية صالحة، يسألونهم ذلك ويُقسمون عليهم فيه، ويرونه من أفضل أعمالهم، وكان هؤلاء الأضياف يكرمون إخوانهم بإجابتهم، وكونهم عندهم، ومنهم من كان منقطعاً في منزل أخيه قد أفرد به مكان يقوم بكفائته، ولا يبرح من منزله على الدوام، يحكم فيه ويتحكم كما يكون في منزل نفسه.

• ذكر غسل اليد:

ليس كل أحد يحسن أدب الغسل، كما ليس كل إنسان يعرف سنة الأكل، فمن غسل يده بأشنان ابتداءً بغسل أصابعه الثلاث أولاً، ثم جعل الأشنان في راحته اليسرى يابساً، ثم أمره على شفّيته حسناً وأنعم غسل فيه بأصابعه ظاهر أسنانه وباطنها وحنكه ولسانه، ثم غسل أصابعه من ذلك بالماء، ثم ذلك ببقية الأشنان اليابس أصابعه ظهراً وبطناً، ثم لم يدخل الأشنان ثانياً إلى فيه لئلا يعود بالغمر إليه من يده، وهذا يكفيه من سنة الغسل.

ومن غسل يد إخوانه بعد أكلهم من طعامه، فمن الأدب أن يصب على أيديهم الماء العذب، فمثل هذه الطائفة ونحوها تعرف حسن تفقّد الرعاية، ويستبين

تعاهد الدعاة. وكان بعضهم يقول: يدعو الرجل إخوانه فينفق في الطيبات جملة، ويحلّئهم بالخلاوة، ثم يمروا أفواههم بالماء المالح، فهذا يكون من نقص التعاهد وقلة التفقد.

• ذكر أخبار رويناهما في الآثار جاءت منثورة في الأطعمة والأكل من بين نقص وفضل من طريق السلف في صنائع العرب ثم نكن أدخلناها في تضاعيف كلامنا لأنها منقولة من كلام القدماء:

من حديث إسحاق بن أبي نجيح، عن عطاء بن ميسرة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكل ما يسقط من المائدة عاش في سعة وعوفي في ولده». وفي خبر سعيد بن لقمان، عن عبد الرحمن الأنصاري، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الأكل في السوق ذناة». هذا غريب مسند وليس بذلك، الصحيح أنه من قول التابعين إبراهيم النخعي ودونه.

وعن جُوَيْر، عن الضحّاك، عن النَّزَال بن سَبْرَة^(١)، عن عليّ عليه السلام قال: من ابتدأ غداه بالمِلح أذهب الله عز وجل عنه سبعين نوعاً من البلاء، ومن أكل كل يوم سبع تمرات عجوة قتلت كل داء في بطنه، ومن أكل كل يوم إحدى وعشرين زبينة حمراء لم يرَ في جسده شيئاً يكرهه. واللحم ينبت اللحم، والثريد طعام العرب، والفسفاذجات^(٢) تعظم البطن وترخي الإليتين، ولحم البقر داء، ولبنها شفاء، وسمنها دواء، والشحم يُخرج مثليه من داء، ولم يستشف الناس بشيء أفضل من الرطب، والسمك يذيب الجسد، وقراءة القرآن [في المصحف تجلو البصر]^(٣)، والسواك يذهب البلغم، ومن أراد البقاء - ولا بقاء - فليباكر الغداء، وليقلّ غشيان النساء، وليلبس الخداء، ويحفّف الرّداء. [قيل: وما حِفّة الرّداء في البقاء؟] قال: قلّة الدين.

وفي أخبار الأمراء أن الحجاج قال لتأذوق مُتطبيه: صِفْ لي صفةً آخذ بها ولا

(١) كذا في الأصول دون نقط.

(٢) في (د): «والسّفيذاجات». والخبر برمته في عيون الأخبار ٢٧١/٣، وليس فيه هذه العبارة.

(٣) أثبتتها اجتهداً وهي ساقطة من عيون الأخبار أيضاً، وواضح أن ثمة كلاماً يتصل بالقرآن في صحة البدن.

أعدوها. قال له: لا تنكح من النساء إلا فتاة، ولا تأكل من اللحم إلا فتية، ولا تأكل من المطبوخ حتى ينعم نضجه، ولا تشرب دواء إلا من علة، ولا تأكل من الفاكهة إلا نضيجها، ولا تأكلن طعاماً إلا أجدت مضغه، وكُل من الطعام ما أحببت، ولا تشرب عليه، فإن شربت فلا تأكل عليه شيئاً، ولا تحبس الغائط والبول، وإذا أكلت بالنهار فتم، وإذا أكلت بالليل فامش قبل أن تنام ولو مائة خطوة.

فيما قاله الفليسوف حكمة، قد ورد في بعضها آثار، قد يروى في خبرٍ مقطوع، ذكره أبو الخطاب عن عبد الله بن بكير السهمي يرفعه: «من استقل بدائه فلا يتداوى، فربّ دواء يورث الداء».

وكانت الحكماء تقول: دافع بالدواء ما حملت قوتك الداء. وقال بعضهم: مثل شرب الدواء مثل الصابون للشوب، ينقيه ولكنه يُخلقه. وقال بقراط الفيلسوف: الدواء من فوق، والداء من تحت، فمن كان داؤه في بطنه فوق سرته سقى الدواء، ومن كان داؤه تحت سرته حُقن، ومن لم يكن به داء من فوق ولا من تحت لم يُسق الدواء، فإن سقى عمل في الصحة داءً إذا لم يجد داء يعمل فيه. وفي الخبر: قطع العروق مسقمة، وترك العشاء مهمة. والعرب تقول: ترك الغداء يُذهب شحم الكادة؛ يعنى الإلية.

وقال بعضهم: نهاني الأطباء عن الشرب في تضاعيف الطعام. والعرب تقول: تعشّ وتمشّ، وتغدى وتمدّى. يريدون: تمدّد، فأبدلوا الألف من الدال الثانية كراهة التكرار ولازدواج الكلام. ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ [القيامة: ٣٣]؛ أى: يتمطط، فأبدل من الطاء الثانية ألفاً، يعنى: مدّ مطاه: يرفع ظهره.

وأما في حبس الغائط: فقد قال بعض الفلاسفة: الطعام إذا خرج نحوه قبل ست ساعات فهو مكروه من المعدة، وإذا بقى فيها أكثر من أربعة وعشرين ساعة فهو ضرر على المعدة. ويقال: إن حبس البول يفسد من الجسد كما يفسد النهر ما حوله إذا سدّ مجراه ففاض من جوانبه. ويقال: إن أدواء^(١) المفاصل ميراث حبس الريح.

(١) فى (هـ): «أرواح»، وفى (د): «أرياح».

قال الشيخ أبو طالب رضى الله عنه: قرأت فى كتاب الحكماء: مدارُ صلاح الأمور فى أربع: الطعامُ لا يؤكل إلا على شهوة، والمرأة لا تنظر إلا إلى زوجها، والملك لا يصلحه إلا الطاعة، والرعية لا يصلحها إلا العدل.

وقيل لبعض حكماء الروم: أى وقت الطعام فيه أصلح؟ فقال: أما لمن قدر فإذا جاع، وأما لمن لا يقدر فإذا وجد. ويقال: إذا كثرت المقدرة نقصت الشهوة. وقال كسرى لجلسائه: أى خصلة فى الإنسان أضرت؟ فقالوا: الفقر، فقال: البخل أضرت من الفقر، لأن الفقير لا يجد، والبخليل يجد ولا يأكل.

وقيل لرجل ورؤى سميناً: ما أسمىك؟ فقال: أكلى الحار، وشربى القار، والالتكاء على شمالي، والأكل من غير مالى. وقيل لآخر ورؤى حسن الجسم: ما أحسن جسمك؟ قال: قلة الفكرة، وطول الدعة، والنوم على الكظة^(١). وقيل لآخر رآه حكيم سميناً: أرى عليك قطيفة من نسج أضراسك فما هى؟ قال: أكل لباب البر بصغار المعز، وأدهن بدهن البنفسج، وألبس الكتان.

والعرب تقول: العاشية تهيج الآبىة. أى أن الذى لا يشتهى الطعام إذا نظر إلى من يأكل هاجه ذلك على الأكل الذى يأباه لما رأى الآخر يغشاه.

ذكر الأصمعى أن بعض الحكماء أوصى ابنه فقال: يا بنى، لا تخرج من منزلك حتى تأخذ حلمك، يعنى تتغدى.

وكذلك يقال فى تناول الشئ قبل الخروج إلى السوق، وقبل لقاء الناس: إنه أقل للشهوة فى الأسواق، وأقطع للطمع بلقاء الناس، وأنشدنى هلال بن خثعم: وأن قراب البطن يكفيك ملؤه ويكفيك سوءات الأمور اجتنابها

ورؤى بعض الصوفية يمشى فى السوق وهو يأكل، وكان ممن يشار إليه. قال: فقلت له: رحمك الله، تأكل فى السوق؟ فقال: عافاك الله، فإذا جعت فى السوق أكل فى البيت؟ فقلت: لو دخلت بعض المساجد. قال: أستحى منه أن أدخل بيته للأكل. هذا لأنه رأى الأكل من أبواب الدنيا، فدخل فيه من طريقها. كما قيل:

(١) الكِظَةُ: البِطْنَةُ، وشئٌ يَعْتَرِي من امتلاءِ الطعام.

الأسواق موائد الأبقار، أبقوا من الخدمة فحبسوا في الأسواق. وفي خبر ابن عمر قال: «كنا نأكل على عهد رسول الله ﷺ ونحن نُمشى، ونشرب ونحن قيام».

قال بعض أهل الطب: الحمية^(١) أحد العلتين. ويقال: إن الحمية للصحيح ضارة، كما أنها للعليل نافعة، والدواء إذا لم يجد داء يعمل فيه وجد الصحة فعمل فيها. وأنشد بعض العرب:

وربة حزم كان للسقم علةً وعلة برد الداء حبط التعلل

وقال القمّي: من احتّمى فهو على يقين من المكروه، وفي شكٍّ مما يأمل من العوافي.

وكان يقال: ليس الطبيب من حمى الملوك ومنعهم من الشهوات، إنما الطبيب من خلاهم وما يريدون، ثم دبر سياستهم على ذلك حتى تستقيم أجسامهم.

وقال المديني عندنا بالحجاز لبعض الأعراب: أخبرني بما تأكلون وما تدعون، فقال: كلُّ ما دبَّ ودرجَ إلا أمَّ حُبِين، فقال المديني: ليهنئي أمَّ حُبِين منكم العافية.

وفي الخبر «أن رسول الله ﷺ رأى صهيبيًا يأكل تمرًا وبه رمد، فقال له: تأكل التمر وأنت رمد؟ فقال: يا رسول الله، إنما أمضغ بهذا الشق الآخر، يعني جانب العين السليمة، فضحك رسول الله ﷺ».

• ذكر أخبار جاءت في التقلل والحمية ودم البطننة:

في حديث إسماعيل بن عياش عن شرحبيل بن مسلم قال: قال أبو الدرداء: بئس العون على الدين قلب نخيب، وبطن رغب، ونعظ^(٢) شديد. نخيب: يعني خفيئًا ضعيفًا، ورغب: يعني واسعة طامعة.

قيل لبعض الحكماء: أى الطعام أطيب؟ قال: الجوع. أى به يطيب الطعام. كما قيل: نعم الإدام الجوع، ما ألقيت إليه من شيء قبله.

(١) الحمية: ما حمى من شيء.

(٢) النعظ: الشبق وشدة الشهوة.

وقال العتبي بن عبيد الله: قلت لرجل من أهل المدينة: يا أخى إنى لأعجب أن فقهاءكم أظرف من فقهاءنا، وعوامكم أظرف من عوامنا، ومجانينكم أظرف من مجانينا، قال: أو تدرى لم ذلك؟ قلت: لا. قال: الجوع. ألا ترى العود إنما صفا صوته من خلاء جوفه.

يقال: دعا عبد الله بن الزبير الحسين بن على رضى الله عنهما، فحضر هو وأصحابه فأكلوا، ولم يأكل. ف قيل له: ألا تأكل؟ قال: إنى صائم، ولكن اجعلوا لى تحفة الصائم. قالوا: ما هى؟ قال: الدهن والمجمر.

وكذلك يقال: الكحل والدهن أحد القرايين، واللبن أحد اللحمين، والفاكهة والحديث للضيف أحد الضيافتين، فيستحب لمن كان صائماً وحضر ولم يأكل أن يُطَيَّب ويُحَيَّى، فذاك زاده.

روى أن عبد الرحمن بن أبى بكرة كان على خوان معاوية، فرأى معاوية رضى الله عنه لَقَمَ عبد الرحمن، فلما كان بالعشى راح إليه أبو بكرة وحده، فقال له: ما فعل ابنك التَّلْقَامَة؟ قال: اعتلّ. قال معاوية: مثله لا يَعْدَم عِلَّةٌ.

وقيل لأبى بكرة: إن ابنك أكل حتى بِشِمَ. قال: لو مات ما صليتُ عليه.

ويقال: للْبَشِم سُكْرٌ كَسُكْرِ الخمر.

وسئل الحارث بن كلدة طبيب العرب: ما الدواء الذى لا داء فيه؟ فقال: هو الأَزم. يعنى الحِمية.

وقيل لجالينوس: إنك تُقِلُّ من الطعام. فقال: غرضى من الطعام أن آكل لأحيا، وغرض غيرى من الطعام أن يحيا ليأكل.

ويقال: ما أدخل الإنسان جوفه أنفع من الرمان ولا أضر من المالح، ولأن يتقلل من المالح خير من أن يستكثر من الرمان. هذا لذم الاستكثار وإن كان مما ينفع، ومدح القلة وإن كان مما يضر.

حدّثت عن عبد المنعم بن إدريس، عن أبيه، عن وهب بن منبه، قال: قال لقمان لابنه: يا بنى، إن طول الجلوس على الخلاء يرفع الحرارة إلى الرأس،

ويورث الباسور، ويوجع له الكبد، اجلس هويئاً وقم. فكتبتُ حكمته على باب الحش^(١). ويقال: سأل الحجاج جلساءه: ما أذهب الأشياء للإعياء؟ قالوا: أكل التمر. وقال بعضهم: الحمام. وقال بعضهم: الجماع. وقال آخر: الضمائم^(٢). فقال تياذوق الطبيب: أذهب الأشياء للإعياء قضاء الحاجة.

حدثت عن بعض الأطباء: أن رجلاً شرب خبث الحديد المعجون، فبقى في جوفه، واشتد به وجعه. قال: فسحقتُ له قطعة مغناطيس، وسقيته إياه، فتعلق بالخبث، وخرج مع الغائط.

وروى الأصمعي عن جعفر بن سليمان قال: قال تياذوق الفيلسوف: إن اللحم على اللحم يقتل السباع في البرية. قال: ثم قال لي جعفر: قالت جارية لنا: كان لنا ظبي فمرّ بعجين قد هُيئ فأكل منه حتى حبط؛ والحبطُ انتفاخُ الجنين، فسُلخ فوجد قد شَرِقَ بالدم. فقال يونس الطبيب: هكذا يصيب الإنسان إذا بشِمَ، يشرق قلبه بدمه.

وقال الأصمعي عن جعفر وإلى البصرة أنه قال لإنسان أكل يقيء إذا أكل: لا تفعل، فإن المعدة تَضَعْنَ إلى القيء كما تَضَعْنَ الدابة العلف، فلا ينضج الطعام. معنى: تَضَعْنَ: أى تألف وتعتاد [وتميل]. وقال بعضهم: سئل تياذوق عن البخر، فقال: دواؤه الزبيب يُعجن بالسَّعتر، ثم يؤكل أسبوعين أو ثلاثاً. وقال الأطباء: معرفة خفة الماء أن يكون سريع الغليان، سريع البرد، ويكون قبالة الشمس مجراه على الشمال، ومروره على الطين الأحمر، وعلى الرمل.

ذكر أبو طالب رضى الله عنه أن هذا آخر الزيادة من الأقوال.

وينبغي إذا حضرت الألوان أن يتبدئ بتقدمة الألف فالألطف، والأطيب فالأطيب أولاً، مثل أن يتبدئ بالمشوى قبل الثريد، وتقدم الطباهج قبل السكبا^(٣)ج،

(١) الحش والحش: المخرج، لأنهم كانوا يقضون حوائجهم في البساتين.

(٢) الضمائم: يقصد به الطيب، من الضمخ: وهو لطح الجسد بالطيب حتى كأنه يقطر.

(٣) الطباهج: ضرب من قلى اللحم، فارسي معرب. والسكبا^(٣)ج: طعام يعمل من اللحم والخل مع التوابل.

فذلك سنة العرب وطريقة السلف، ليصادف جوعهم أطيب الطعام، فيستوفوا من ذلك وافر النصيب، فيكون أثوب لصاحبه وأقلّ لأكلهم فيما بعد، فإن احتاجوا إلى ما بعده من غليظ الطعام تناولوا منه قليلاً يسدّ خلالاً إن بقى، وإنما قدم أبناء الدنيا الألوان الغليظة على اللطيفة، ليتسع أكلهم وتتفتق شهواتهم، فيكون اللون اللطيف موضعاً آخر، ليكونوا قد أكلوا من اللون الأطيب الأجود أقل، فهذا غير مستحب عند أبناء الآخرة.

وقد كان بعض المتقدمين يقدم جملة الألوان في مكان واحد ليأكل كل إنسان ما يشتهي على المعايينة الموجودة، وهذا حسن، ليكون ما يأكلون معلوماً لهم فيتخيرون.

ولو قال لهم، إن لم يكن عنده إلا لون واحد: ليس يحضر غير هذا، ليستوفوا منه ولا يتطلعوا إلى غيره، كان صواباً.

حدثني أبو بكر الذهبي قال: قدّم إلى رجل بالشام - وكان قد دعاني - لوناً من طبيخ، فقلت له: عندنا بالعراق يُقدّم هذا اللون آخر الألوان. قال: وهكذا هو عندنا بالشام. قال: فاستحييت^(١)، إذ لم يكن عنده غيره.

وقال في آخر عن شيخ له: كنا عند رجل في جماعة، فجعل يقدم إلينا ألوان الرؤوس؛ منها طبيخاً ومنها مشوياً، وقديداً. قال: فجعلنا نقصر في الأكل نتوقع بعدها الأبدان أو غيرها من الألوان. قال: فجاءنا بالطست، ولم يقدم غيرها. فقال لى شيخ لنا كان معنا من الصوفية: هو سبحانه يقدر أن يخلق رؤوساً بلا أبدان. قال: فبتنا تلك الليلة جوعاً، وطلب بعضنا في آخر الليل خبزاً أو فتيةً للسحور.

وينبغي أن يمكنهم من تبقيّة الألوان عندهم، ولا يسرع رفعها من بين أيديهم، حتى يرفعوا أيديهم، ويقضوا من كل لون وطهرهم، فإنه من الأدب والمعروف، ولعل فيهم من يكون عنده ما حضر أشهى إليه مما غاب، مما يقدم في المستقبل،

(١) في (هـ): «فاستحييت».

وقد يكون فيهم من به حاجة إلى فضل أكل لفضل جوع، فيتغنص عليه قبل أن يقضى ما فى نفسه. حدثنى أبو عبد الله الوراق عن الستورى الصوفى أنه حضر على مائدة عند بعض أبناء الدنيا وكان مبخلًا، قال: فقدّم جملاً، فلما رآهم يمزقونه كل ممزق ضاق صدره، فقال: يا غلام، ارفع إلى الصبيان، قال: فرفع الجمل إلى داخل الدار، فقام الستورى يعدو خلف الجمل، فقال له صاحب الدار: إلى أين يا أبا عبد الله؟ فقال: أمرُ أكلُ مع الصبيان، فاستحيا الرجل وأمر برد الجمل حتى يستوفى منه الجماعة. قلت: وصبرَ على حكم الله.

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أكرموا الخبز فإن الله عز وجل أنزله من بركات السماء». فمن إكرام الخبز أن لا يُنتظر الأدم ويؤكل مع ما حضر معه من الملح والخلّ والبقل، وأن لا يُجعل تحت شيء من آلة المائدة، ولا تحت غضارة، مثل أن يُسند به شيء، ولا يُتخذ طبقاً لشيء، فإن وُضع عليه ما يؤكل به فلا بأس.

ومن السنة والأدب أن لا يُنتظر بالطعام غائب إذا حضر جماعة، ولكن يأكل من حضر؛ فإن حرمة الحاضر مع حضور الطعام أوجب من انتظار الغائب، إلا أن يكون الغائب فقيراً فلا بأس أن يُنتظر، ليرفع من شأنه ولئلا ينكسر قلبه، فإن كان الغائب غنياً لم يُنتظر مع حضور الفقراء، فإن انتظار الغنى معصية، لما روى أن النبى ﷺ قال: «شرّ الطعام طعام الوليمة يُدعى إليها الأغنياء ويُترك الفقراء»، فسمى الطعام شريراً لأجل الأغنياء، والطعام لا تعبّد عليه، وإنما الشرّ اسم لأهل الطعام الداعين الأغنياء عليه التاركين للفقراء؛ لأنهم دعوا أشباههم من أهل الدنيا، وتركوا أهل الله تعالى من أبناء الآخرة، لبعدهم من الله تعالى، وقربهم من الدنيا. ولا يُنتظر الواحد مع حضور الجماعة، وبعضهم يقول: لا تُنتظر الجماعة مع حضور الواحد، كأنه جعل الطعام لمن حضر. وإذا حضر الطعام لم يُتوقف دونه، ولا يُتشاغل عنه بشيء من صلاة فما دونها، فترك الطعام موضوعاً لا يُستعمل مكروه، ويقال: إن الملائكة عليهم السلام تقف إذا وُضع الطعام حتى يؤكل أو يُرفع، فإذا أكل أو رُفع قعدت الملائكة عليهم السلام.

وأكره وضع الرجل بين يدي أخيه شيئاً من الأطعمة؛ لمعان شتى، أحدها: لعله أخذ الطعام من موضعه أحب إليه من موضعه بين يديه، فيلتزم أكل ما جعله تحملاً، أو لعله يكره تلوث الرغبة بالإدام، وربما بقى الرغبة موضوعاً غير مأكول فيكون مكروهاً، أو لعل غيره ممن يُحمل إليه يكره أكله، وربما كان يتقيه الرغبة فارغاً أوفق؛ لأنه يصلح لغيره، فإذا لوث به لم يصلح إلا له، فيضطر العبد إلى أكله، فإن كان الآكل شديد الحياء، مقصراً عن تناول الطعام، أو بعيد المكان منه، أو كان المأكول نوعاً واحداً، فلا بأس بذلك، ولو جعل في طرف كان أوفق؛ لما ذكرناه.

والتلقيم حسن قد فعله الإخوان ما لم يستحي الملقم من ذلك أو يكره؛ فيتحمّله على تكره.

ولا يصلح أن تقام العبيد قياماً على الطعام يتعاطون الأصحاف والأكواب، فإن هذه سيرة الأكاسرة، إما أن ينصرفوا أو يقعدوا، فإن احتيج إليهم دعى بما معهم عند الحاجة. وقيامهم بالشمع والمراوح مكروه. وكان رسول الله ﷺ إذا أكل عنده رجل أمر عبده أن يقعد أو ينصرف، فإذا طعم الجماعة فلينصرفوا ولا يقعدوا للحديث، فلعله أن يثقل على أهل المنزل، ويستحيون.

وروينا عن الحسن عن الأحنف بن قيس قال: نزلت هذه الآية في الثقلاء: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. وقال أنس بن مالك: ذكر الله تعالى الثقلاء في كتابه فقال تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾. وكان أبو حنيفة يقول: ينبغي للإنسان أن يخاف الثقل من نفسه، فمن أمن أن لا يثقل ثقل.

وكان الأعمش إذا أطال الرجل الجلوس عنده ينشد:

فما الفيلُ تسحبه ميّتا بأثقلَ من بعضِ جُلّاسِنَا
ولو عَلِمَ الثَّقِيلُ مِنْ نَفْسِهِ تثاقلَ عَنَّا فلم يَأْتِنَا

وقال حماد بن سلمة: الصوم في الصحراء من الثقل. وكان الجنيد يقول، وقد

ذكره مرة عن يحيى بن أكثم القاضى: من خرج إلى الصحراء يتنزه، ولم يكن معهم طعام، تنزهت الصحراء فى عقولهم.

وقال بعض الأدباء: الانقباض مع المنبسطين ثقل، والانبساط مع المنقبضين سُخْف. فهذا كأنه أراد مع أبناء الجنس من الإخوان على ترتيب الأخلاق، ونظام الحكمة، وهو مع غيرهم على غير هذا الترتيب ينقلب لانقلاب أوصافهم، فيصير الانقباض مع المنقبضين ثقل؛ لأنه يزيدهم قبضاً، فيكون زيادة على القدر، وقد جعل الله لكل شىء قدراً، كما جعل لكل أمر وقتاً، ولكل وقت حكماً، ويصير الانبساط أيضاً مع المنقبضين سُخْفاً؛ لأنه مجاوزة القدر معهم، فيكون المحمود من ذلك على هذا الوجه أن ينقبض مع المنبسطين من العموم؛ ليعتدل حالهم، وينبسط مع المنقبضين؛ لِيَسْطِطَهُمْ يَبْسُطَهُ لَهُمْ؛ لِقَبْضِ وَصْفِهِمْ^(١). والتوسط من هذا ما قاله الشافعى رضى الله عنه فى الجملة: الانقباض عن الناس مكسبة لعداوتهم، والانبساط مجلبة لقرناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط. فأما الإخوان والنظر فى الحال والخصوص من أهل الأحوال والعلماء على كل حال، فإنهم آحاد وأفراد لا يقاس عليهم غيرهم من الأعداد. قال بعض الصوفيين: الأكل على ثلاثة معانٍ: مع أبناء الدنيا بالأدب، ومع الفقراء بالإيثار، ومع الإخوان بالانبساط. وقال آخر: ومع الإخوان كيف شئت.

وحدثنى بعض أشياخنا عن بعض الصوفية قال: قلتُ لشيخ من أصحاب الجنيد رضى الله عنهم: كنتم تخرجون مع الجنيد إلى الصحراء، فكان يمزح معكم وضحككم. قال لى: هو كان يسطنا ويعلمنا المزاح. ولقد رأيته يوماً ونحن نأكل وقد أخذ أبو أحمد القلانسى صاحبنا لقمة وطيبها وهياها ورفعها إلى فيه ليأكلها، فاستلبها منه الجنيد رضى الله عنه وجعلها فى فيه، فجعل أبو أحمد يقول: حرام حرام، فقال الجنيد رحمه الله: ما رأيت إلا أنك قد جعلتَ عليها سُكراً ثم بلعها.

وقد قيل لابن المبارك: ما الأدب بين الإخوان؟ فقال: ترك الأدب. وقال آخر: ترك الأدب مع أهل الأدب من الأدب. ذلك بأن الأدب فيه تحمُّلٌ وتعمُّلٌ، وهو

(١) هذه عبارة (د)، وفى (هـ): «ليسطه يَبْسُطُهُ لَهُ، لقبض وصفه».

من باب الرياضة للمريدين، والمستعمل مع المبتدئين والعلماء قد يقدرُوا، والأدباء قد غيروا الطريق.

وكان جعفر الصادق رضى الله عنه يقول: أثقل إخوانى علىَّ من أتكلف له، وأحبُّهم إلىَّ من أكون عنده كما أكون وحدى.

وقال بعضهم بمعناه: وأطيب الأكل مع الإخوان كما يأكل الرجل وحده أو مع عياله.

وقد قال علىُّ عليه السلام: شرُّ الأصدقاء من تتكلف له. وقال أيضاً: شرُّ الإخوان من أحوجك إلى مداراة أو ألجأك إلى اعتذار.

وكان ابن المبارك يقول: إذا قلتَ لأخيك قُمْ بنا، فقال: إلى أين؟ فليس ذلك بأخ. وقال مسلمة بن زياد فى معناه: إذا أشرت إلى أخيك فلم يتبعك فليس أخاك. وقال سفيان: ألدُّ الأشياء محادثة الإخوان، والانقلاب إلى كفاية.

وكان بعضهم يقول فى حضور الدعوة مع الإخوان، والمؤانسة على الطعام: ليس هو من الدنيا، وهو من نسيم الآخرة أُخْرِجَ إلى الدنيا، تُرَوِّحَ به القلوب. يعنى: من الكروب بمجالسة العامة، ومن النظر إلى الكافة. وفى الخبر: «أول ما يُرفع من هذه الأمة: الخشوع ثم الألفة».

وكان بشر بن الحارث يقول: قد ذهب عن قلبى كل شىء من الدنيا إلا الألفة فإنها لم تنصرف عن قلبى؛ لأنه يقال: لا تكون الألفة إلا فى كريم ولا يؤخذ الأئس إلا من كريم.

ذلك لأنَّ الأئس نورى، والألفة جوهرى، فإذا وُجد النور من الأئس فى الألفة من الجوهر فهو الكوكب الدرِّى، فتدبَّر بهذا ضده، فإذا رأيت ظلمة فى طينى وجدت وحشة فى نفور، فأثرت الوحدة فى مجالسة القبور. والوحشة لا تكون إلا فى ظلمة، وإذا كان الضوء هو النور كان الأئس، فتدبروا يا أولى الألباب^(١).

(١) من قوله: «والوحشة» إلى هنا من (د).

وقد كان بشر رحمه الله يقول: لا تجب دعوة بخيل ولا تسره، فإن الله تعالى يكره أن تسرَّ بخيلاً. وقال أيضاً: صاحب ربيع سخى أحبُّ إلى من عابدٍ بخيل.

وقال ابن عباس رضى الله عنه: الفاجرُ السخىُّ أرجى من العابدِ البخيلِ. وقال أبو الحارث: النظر إلى الأحمق سُخنة عين، والنظر إلى البخيل قسوة قلب.

وكان بعضُ السلف يقول: مؤاكلةُ الأسخياء دواء، ومؤاكلةُ البخلاء داء. وقد قيل: إنَّ السخاء على الطعام أفضل من السخاء بالمال؛ لأنَّه أقربُ إلى شهوة النفس لحضوره، ولأنَّه هو المبتغى من المال، إذ كان المال إنما يُراد لأجله، فهو لُبُّ المال، وكذلك هو شقيق النفس، لأنَّه هو المخالطُ للجسم، وقيل: هو سخاء النفس بالمحبوب، وهو أحد الوجهين في قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] قيل: بذل الطعام للعامة، وكذلك نصَّ الله تعالى عليه مفرداً ثم نوعَ المطعمين منه أصنافاً، فقال تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [الإنسان: ٨] فالهاء: عائدة على الطعام، فصار محبوب النفس، فمن أسخى ممن آثر بمحبوبه أخاه في الله عز وجل فقد جاد بنفسه، وهو نهاية السخاء، كما قال بعضهم:

يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِذْ ضَنَّ الْبَخِيلُ بِهَا والجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ

وكذلك قال بعضُ الصحابة رضى الله عنهم، أحسبه ابن مسعود: أسخى الناس عائشة رضى الله عنها؛ آثرت على نفسها من الجنة فوهبت لعمر رضى الله عنه موضع قبره، وهو روضة من رياض الجنة.

وكذلك قال الله تعالى في وصف المحبين من الأنصار المهاجرين الأخيار رضى الله عنهم لما آثروهم على نفوسهم عن المحبة فقال: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الحشر: ٩]، فالإيثار بالطعام لأنَّه محبوب النفس كما ذكرناه، لأنَّ محبة الإخوان من أجل الله من أجود الجود، وأفضل الأعمال وأحسن الأخلاق. وكذلك قيل: السخاء عشرة أجزاء، تسعة منها في الإطعام إذ به تستبين جواهرُ النفوس. قيل: والبخل عشرة أجزاء،

تسعة منها في الشحّ على الإطعام. وكان بعض الحكماء يقول: السخاءُ على الطعام يستر البخل بالأموال، والبخلُ على الطعام يغطي السخاء بالمال. وفرّق بعضهم بين البخل والشحّ، فقال: البخلُ في النوافل والشحّ في الواجب. والأكل مع العيال أفضلُ من أكل الرجل وحده، والأكل مع الإخوان أفضل من الأكل مع العيال.

ويقال: اتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا بِإِطْعَامِ الطَّعَامِ، ويقال: بَأْتَهُ يَحِبُّ أَنْ يُعْطَى وَلَا يَأْخُذْ. وكان إبراهيم عليه السلام يُدْعَى أبا الضيفان، ولم يكن يأكل وحده، وكان يسير الميل والميلين والثلاثة في طلب من يأكل معه، وهو أول من اتخذ غرفة لها أربعة أبواب، باباً شرقياً، وباباً غربياً، وباباً قليلاً، وباباً دُبرياً، لثلا يفوته أحد من نواحي الأرض، فمن اتخذ أبواباً أربعاً على مثله واستنَّ بسنَّته لما اتَّخذه هو وإلا فهو له عبث، كما قال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨].

وأما القولُ في الزَّلة^(١) فهي كما سميت زَلَّةً إِلَّا عِنْدَ النَّبْلِ الْأَجَلَّةِ.

وكان بعض أهل الحديث إذا أكل مع إخوانه تَرَكَ من الطعام على رغيف يعزله معه. وكان سيار بن حاتم الزاهد إذا حضر على مائدة أكل لقيمات، ثم يقول: اعزلوا نصيبي. وذكره أبو عبد الله رحمه الله يوماً فتبسم، ثم قال رحمه الله: قد كنا ربما نضحك منه، نستغفر الله عز وجل. حضرنا يوماً في دعوة، فلما رُفِعَ الطعام وجيء بالحلوى، نزع قلنسوة طويلة من برود مخططة، وكان يقلبها ويقول: اجعلوا نصيبي فيها، وهذا شيخ لأحمد رضى الله عنه، سمع منه «كتاب الزهد» لمالك بن دينار، وكان عنده، عن جعفر الضبعي. ولا يصلح فعل هذا إلا مع الأجواد، وأهل الأئس من ذوى الوداد، فمن لم يحسن هذا عنده ولم يحبه من الداعين فلا يُعامل به. وقد حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاماً فيه شاة مشوية، فعزل من الشواء بين رغيفين، فأرسل به إلى فاطمة عليها السلام. فمن أراد أن يعزل زَلَّةً عن مائدة، فليستأذن صاحبَ الطعام، أو يسأله ذلك، فيكون عن إذنه أو من فعله، فلعله يكره ذلك، فإن كان يراه فقد يستحي أن يمنعه.

(١) الزَّلة: اسم لما تحمل من مائدة صديقك أو قريبك، عراقية أو عامية.

• ذكر أخبار وردت في طعام السلف ومآكل العرب في شهوات القدماء من الأطعمة، قبل أن يحدثوا الألوان وابتدعوا الأفنان؛

روينا في أخبار العرب أن أعرابياً أدخل على كسرى فتعجب من جفائه وجهله، فقال له كسرى: أى شيء أطيب لحمًا؟ قال: الجمل. فقال: أى شيء أبعد صوتًا؟ قال: الجمل. فقال: أى شيء أنهض بالحمل الثقيل؟ قال: الجمل. فقال كسرى: كيف يكون لحم الجمل أطيب من البط والدجاج والفرّاخ والجِداء؟! قال الأعرابى: يُطبخ لحم الدجاج والجِداء وما ذكرت بماءٍ وملح، ويُطبخ لحم الجمل بماءٍ وملح، حتى نعرف فضل ما بين الطعمين. قال كسرى: كيف يكون الجمل أبعد صوتًا ونحن نسمع صوت الكُرْكِيِّ من كذا وكذا ميلاً. فقال الأعرابى: ضع الجمل موضع الكُرْكِيِّ وضع الكركى مكان الجمل حتى نعرف أيهما أبعد صوتًا. قال كسرى: تزعم أن الجمل يحمل الثقيل، والفيل يحمل كذا وكذا رطلاً، فقال: ليرك الفيل وليبرك الجمل، ثم يحمل الفيل حمل الجمل، فإن نهض به فهو أحمل للأثقال.

حدثت عن أبى حاتم المقرئ، عن الأصمعى قال: قال مدنى: الكبّادات أربعة: العصيدة، والهريسة، والسّميدة، والحَيَسَةُ^(١).

قال صَوَّارَةُ الأعرابى: أطول الليالى ثلاث: ليلة الهريسة، وليلة العقرب، وليلة جُدّه إلى مكة.

قال^(٢) سهل بن محمد الشّجّرى عن الأصمعى: كنا عند الرشيد فقرّب إلينا فالودجة. فقال: يا أصمعى، حدثنا حديث مزرد^(٣)، فقال: نعم، إن مزردًا كان غلامًا جشعًا، وكانت أمه تؤثر عيالها عليه بالطعام، فيُحفظه ذلك، فخرجت أمه ذات يوم تُميرُ أهلها، فدخل مزرد الخيمة، وعمد إلى صاع دقيق وصاع تمر ومثله

(١) الخبر في عيون الأخبار ٣/١٩٧، وعنه أصلحت الأخطاء التى وردت بالخبر. السّميدة: لباب الدقيق. والحَيَسَةُ: الأقط يُخلط بالتمر والسمن.

(٢) من هنا ليس موجوداً في (د)، وهو من (هـ).

(٣) هو مزرد بن ضرار أخو الشماخ؛ كلاهما شاعر.

سَمَنًا، فجمعه وخبسه، ثم جعل يأكل ويقول^(١):

وَلَمَّا غَدَتُ أُمِّي تُمِيرُ بَنَاتِهَا	أَغْرَتُ عَلَى الْعِكْمِ الَّذِي كَانَ يُمْنَعُ
لَبَكْتُ بِصَاعٍ حَنْطَةَ صَاعٍ عَجْوَةٍ	إِلَى صَاعٍ سَمْنٍ فَوْقَهُ يَتَرَيَّعُ
وَدَبَلْتُ أُمَثَالَ الْأَثَافِيِّ كَأَنَّهَا	رءوس نِقَادٍ قُطِّعَتْ يَوْمَ تُجْمَعُ
وَقُلْتُ لِبَطْنِي أَبْشِرِ الْيَوْمَ إِنَّهُ	حِمَى آمَنٌ فِيهَا تَحُوزُ وَتَرَبُّعُ
فَإِنْ يَكُ مَصْفُورًا فَهَذَا دَوَاؤُهُ	وَإِنْ تَكُ غَرْنَانًا فَذَا يَوْمُ تَشْبَعُ

فضحك الرشيد حتى استلقى، وقال: كلوا بسم الله فهذا يوم تشبع.

فى هذا غريب يُحْتَجُّ به فى أشياء: قوله تُمِيرُ: من الميرة، أى تجلب لهم الطعام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ [يوسف: ٦٥]. العكم: الغرارة المشدودة، ومنه قول المرأة فى حديث عائشة رضى الله عنها: «عَكُمُهُ فَسَاحٌ» أى أوعيته واسعة، تمدح زوجها أبا زرع بذلك. لبكت: خلطت خلطاً فيه لُزوجة. قوله يتريع: من الريع وهو النماء والزيادة. ديلت: أجدت ديلة ديلة؛ أى قطعة قطعة، كقول الأول: فِدِيلٌ واندف. وقد ذكرناه قبيل ذلك. الأثافى: [الحجارة التى توضع عليها] القدر، واحداها: أُنْفِيَّة. ورءوس نقاد: الحدا. مصفوراً: من الصفراء يعرض للجوف من التخمة. الغرنان: الجائع.

قيل لبعض العرب: أى شىء يُشْتَهَى يوم قرّ، فقال: ثريدة دكنا من الفلفل، رقطاء من الحمص، ذات جناحين من اللحم، أضرب فيها ضرب ولىّ السوء فى مال اليتيم.

وحُدثنا عن ثعلب عن ابن الأعرابى قال: يقال: أطيب اللحم عُوْدُهُ، أى أطيبه، ما ولىّ العظم، فيعلق به كأنه عاذ به^(٢).

ورويانا مرة: قيل لابن الأعرابى: ما أطيب اللحم؟ قال: ما عاذ بالعظم. وهذا

(١) الأبيات فى اللسان (ربع)، وفيها بعض اختلاف فى الرواية. وانظر الأبيات أيضاً فى عيون الأخبار ٢٠٤/٣ باختلاف فى الرواية.

(٢) إلى هنا تنتهى الزيادة فى (ه).

يُحْتَجُّ بِهِ فِي الاستعاذة من قوله تعالى: أَعُوذُ بِاللَّهِ؛ أَى أَتَعْلَقُ بِهِ.

وفى الخبر: «كان رسول الله ﷺ يعجبه الفرائص من اللحم». الفريصتان: لحمتا الكتف؛ لرقتهما واتصالها بالعظم. وفى الخبر المفسر: كان يعجبه لحم الكتف، ويأكله ويقول: هو أقرب إلى الهادى أى العنق، وكان يكره لحم المثانة، والمباعر وما قرب من الثدي، والأُلْيَة لقربها من الخبث. وكان لا يأكل الأُلْيَة فَخَذٌ من العرب ويقولون: هى الاستُ وأَصْلُ الجاعرة. يقال منه فلان البلوى. وبعض العرب يأنف من أكل المخ ويراه من الرقة والشره. وأُنْشِدَ فى مدح رجل:

* ولا ينتقى المخ الذى فى الجماجم *

النَّقَى: المخ، والشاة التى لا تُنْقَى لا تجوز فى الهدى، لأنها مهزولة، فقوله تنتقى أى: تفتعل، من النَقَى.

وحدثنا عن أبى يعلى المنقرى قال: حدثنا الأصمعى قال: قيل لأعرابى: أحسن أن تأكل الرأس؟ فقال: نعم، أَبْخَصُ عَيْنِهِ، وَأَسْحَا خَدْيِهِ^(١)، وَأَفْكَ لَحْيِهِ، وَأَرْمَى بِالدماغ إلى من هو أحوج إليه منى. يقال: بَخَصَ عَيْنِهِ بِالصَّادِ. والبخس بالسين: النقص فى الوزن. قال جعفر بن سليمان^(٢): شَيْئَانِ لَا يَزِيدُهُمَا كَثَرَةُ التَّفَقُّدِ شَيْئًا: الطَّيِّبُ، وَالْقَدْرُ، وَلَكِنْ يَطْبِيهُمَا إِصَابَةُ الْقَدْرِ وَالْمَعْنَى فِي مَوَاضِعِهِ وَوَقْتِهِ. وقال أبو صَوَّارَةَ: الْأَرْزُ الْأَبْيَضُ بِالسَّمَنِ، وَالسَّلَا بِالسَّكْرِ الطَّبْرَزْدُ^(٣)، لَيْسَ مِنْ طَعَامِ أَهْلِ الدُّنْيَا.

وقال رسول الله ﷺ: «بَيْتٌ لَيْسَ فِيهِ تَمْرٌ جِياعٌ أَهْلُهُ»، وقال ﷺ: «نِعْمَ الْإِدَامُ الْخَلُّ»، وقال ﷺ: «سَيِّدُ الْإِدَامِ الْمَلْحُ»، والخبر الآخر: «سَيِّدُ الْإِدَامِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ اللَّحْمُ»، وقال ﷺ: «كُلُوا الزَّيْتَ وَادَّهِنُوا بِالزَّيْتِ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ»، ورواه يزيد بن أبى حبيب عن أبى الخير عن عقبة بن عامر فقال فيه: «عليكم بالشجرة التى نادى الله عز وجل منها موسى عليه السلام؛ زيت الزيتون،

(١) أَسْحَا خَدْيِهِ: أَفْشَرُ مَا عَلَيْهِمَا مِنَ الْجُلْدِ.

(٢) هذا الخبر ليس فى (د).

(٣) السكر الطبرزد: السكر الأبيض.

ادهنوا به فإنه شفاء من الباسور».

وروى محمد بن زياد، عن ميمون بن مهران، عن ابن عباس رفعه: «أكرموا الخبز فإن الله تعالى سخر له ما فى السموات والأرض»، هذا لأنه يقال: لا يستدير الرغيف حتى يُعمل فيه ثلاثمائة وستون صنعة، أولهم ميكائيل الذى يكيل الماء من البحر المطبق الأعلى للخرزنة، ثم السحاب الذى يحمله، ثم الرياح التى تثيره، وآخره الخبّاز، فكم من نعمة فى جميع ذلك؟ وكم فى كل نعمة من نعم؟ فسبحان المنعم على خلقه بوصفه، والحمد لله على نعمه برحمته وفضله.

وفى الإسرائيليات: شكّا نبي من الأنبياء إلى الله عز وجل الضعف، فأوحى الله تعالى إليه: اطبخ اللحم باللبن فإن القوة فيهما.

وفى خبر آخر: شكّا نبي من الأنبياء إلى الله تعالى قِلّة الولد، فأوحى الله عز وجل: كُلّ البيض. ومن أخبار العرب: أن رجلاً أسَرَ رجلين من الأعراب [فى الجاهلية]، فخيرهما بَمَ يعشيهما بين لحم وتمر، فاختر أحدهما اللحم، واختار الآخر التمر، فعشّياً ثم أُلْقيا بالفناء وذلك فى برد شديد، فأصبح صاحب اللحم خامداً، وأصبح صاحب التمر تَرَزُّ^(١) عينا. وقال النابغة يصف الصيحانية:

صِغَارُ النَّوَى مَكْنُوزَةٌ لَيْسَ قَشْرُهَا إِذَا طَارَ قَشْرُ التَّمْرِ عَنْهَا بِطَائِرٍ^(٢)

قال الأصمعى عن ذى الرمة: إذا قلت للرجل: أى اللبن أطيب؟، فإن قال: قارص، فقل: عبد من أنت^(٣)؟ وإن قال الحليب، فقل: ابن من أنت؟

ومرّ رجل من قريش بامرأة من العرب فى بادية، فقال: هل من لبن يباع؟ فقالت: إنك للثيم أو قريب عهد بقوم لثام. فكأنها استكثرت بيع اللبن، لأنهم يمنحونه مجاناً.

وقف معاوية رضى الله عنه على امرأة من الأعراب فقال: هل من قرى؟

(١) ترز عينا: توقدان.

(٢) ديوانه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص ٩٩.

(٣) قارص: أى حامض، فهو إذن عبد باستطابته إيّاه لأنه يأكل ما يفضل من مواليه.

قالت: نعم. قال: ما عندك؟ قالت: خبز خمير، ولبن فطير، وماء غدير؛ أى صافٍ. فالعرب تقول: إن الرثيثة ما تَفَنُّ الغَضَب، هو اللبن الحامض يُحلب عليه الحليب، فيصير رائبًا، وأنشده:

وَإِذَا خَشِيتَ مِنَ الْفُؤَادِ لِحَاجَةً فَاضْرِبْ عَلَيْهِ بِجُرْعَةٍ مِنْ رَائِبٍ^(١)

وزعم بعضهم أن اللبن إذا سُخِنَ بالنار وبعِيطَ بَعُودٍ من شجر التين راب من ساعته. قيل: فإذا أراد صاحبه ألا يروب وإن كانت فيه روبة جعل فيه شيئًا من الحبِّ، وهو الْفُوتُجُ النَّهْرِي^(٢)، فإنه يبقى كهيشته. وقيل لأعرابي: ما بالكم تأكلون اللحم قبل الشريد؟ قال: لأنَّ اللحم ظاعن والشريد مقيم. قيل: فما تسمون المرق؟ قال: السخين. قال: فإذا برد؟ قال: لا ندعه يبرد.

قيل: ذكر العُتْبَى عن أبيه: كان عبد الله بن زياد يأكل كل يوم أربع جَرَادِقَ^(٣) أصبَهَانِيَةٍ وَجُبْنًا قبل غدائه. قال العُتْبَى: وحدثنا عيسى بن القاسم عن الشمر دل وكيلى آل عمرو بن العاص قال: قَدِمَ سليمان بن عبد الملك الطائفَ وقد عرفتُ استجاعتَه، فقال: يا غلام، أفرغتَ من غدائنا؟ قلت: نعم. فقال: وما هو؟ قلتُ: نَيْفٌ وَثْمَانُونَ قَدْرًا. قال: فَأَتْنِي بِهَا قَدْرًا قَدْرًا، فَأَتَاهَا بِهَا وَبَطَّقَ عَلَيْهِ رُقَاقًا، فَأَكْثَرَ مَا أَكَلَ مِنْ كُلِّ قَدَرٍ ثَلَاثَ لُقَمٍ، وَأَقْلَ مَا أَكَلَ لُقْمَةً، ثُمَّ مَسَحَ يَدَهُ وَاسْتَلْقَى عَلَى فَرَاشِهِ، وَأَذِنَ لِلنَّاسِ، فَوُضِعَتْ الْخِوَانَاتُ فَجَعَلَ يَأْكُلُ مَعَ النَّاسِ بِأَكْلِهِمْ^(٤).

وروى الْقَحْذُمِيُّ عن عمِّه عن سليمان بن قبيصة، قال: عددت للحجاج أربعًا وثمانين لقمة، فى كل لقمة رغيف من خبز الماء، فيه ملء كفه من سَمَكٍ طرى.

وذكر بعض الإخباريين عن سعيد بن أسعد الأنصارى إمام جامع البصرة، أنه كان طفيلياً، ولم يكن تفوته وليمة إلا سعى إليها، وإذا كان دعوه سبق إليها فربما بسط معهم البُسْطَ، وأمر ونهى، وتعجل الأكل ثم ينصرف، ففيل له فى ذلك،

(١) البيت والخبر فى عيوان الأخبار ٢٠٨/٣.

(٢) الاسم الفارسى للحبِّق. والحبِّق: نبات طيب الرائحة. وسيط بعود: أى حُرْكَ.

(٣) الجرذاق - وبالدال المهملة أيضاً - واحده: جردق، وهو الرغيف.

(٤) هذا الخبر بأطول من هذا بكثير فى عيوان الأخبار ٢٢٧/٣ - ٢٢٨.

فقال: إني أبادرُ بردَ الماء، وصفوَ القدور، ونشاطَ الخبَّاز، وخلاءَ المكان، وغفلة الذَّباب، وجفافَ المنديل.

حدَّثنا عن يزيد بن هارون، عن محمد بن سالم^(١) قال: دخلت على الشعبي بعد صلاة الغداة، فإذا بين يديه طبقٌ خِلاف^(٢)، عليه خبز وجبن وزيتون، وذكر غير ذلك. فقلت: يا أبا عمر، باكرت الغداء؟ فقال: نعم، قبل ثلاث: قبل أن يسخن الماء، ويكثر الذباب، ويأتيني ثَقِيلٌ مثلك.

عن عبد الرحمن بن عباس قال: رأيتُ ابنَ عباس في وليمة أكل وألقى للخباز درهماً.

وفي أخبار هشام بن الكلبي عن عبد العزيز بن عمران قال: نزلت بابنة لابن هرمة، فقلت: انحروا جزوراً. قالت: لا والله ما هي عندنا. قلت: فبقرة. قالت: لا والله. قلت: فشاة. قالت: لا والله. قلت: فدجاجة. قالت: لا والله. قلت: فأين قول أبيك:

لا أمتّع العوذَ بالفِصالِ ولا أبتاعُ إلاّ قريّةَ الأجلِ؟

قالت: فذاك الذي أفنى ما عندنا. فبلغ ابن هرمة ما قالت، فقال: أشهد أنها ابنتي حقاً، واشهدوا أنّ داري لها، دون الذكور من ولدي. العوذ: الإبل المسنة، يقول: لا أمتعها بأولادها بل أنحرها فصلاً، ولا أشتري إلاّ سريعة النحر.

قال المدائني: كان لزياد بن عبد الله الحارثي جدى يوضع على مائدته بعد الطعام، لا يمسه هو ولا غيره، فعشى في شهر رمضان قوماً فيهم أشعث، فأقدم أشعث على الجدى من بين الجماعة فمزقه، وذلك بعين الحارثي، فتصبر، فلما رُفعت المائدة، قال زياد وهو الأمير يومئذ: أما لأهل السجن إمام يصلى بهم التراويح؟ قالوا: لا. قال: فليصل بهم أشعث. فقال أشعث: أيها الأمير أو غير ذلك؟ قال: وما هو؟ قال: أحلف أنى لا أكلت لحم جدى أبداً، فضحك وخلّى عنه.

(١) فى (د): «سلام».

(٢) طبق خِلاف: الخِلاف: صِنْف من الصَّفَصَف.

وقال بعضهم: مررت بطريق من طرقات الكوفة، فإذا رجلٌ يُخاصم رجلاً وهو جاره، ويقتتلان، فقلت: أصلح بينهما أو جر، فقلت: ما بالكما تقتتلان؟ فقال أحدهم: لا والله إلا أن صديقاً لى زارنى فاشتهدى علىّ رأساً، فاشتريته وتغدينا به، وأخذت عظامه فوضعتها على باب دارى أتجمل بها عند جيرانى، فجاء هذا فأخذها فوضعها على باب داره، يؤهم الناس أنه هو الذى اشتراه.

قال المدينى: كان للمغيرة أبو عبد الله الثقفى وهو على الكوفة جدى يوضع على مائدته لا يُمس، فعرض له أعرابى لم يعرف الرسم، فأكل لحمه، ومزق جلده، فقال له المغيرة: يا هذا تطالب هذا البائس بذحل^(١)، هل نطحتك أمه؟ فقال الأعرابى: وأبيك إنك لشفيق عليه، هل أرضعتك أمه؟!

حدثنا أن قاضى صنعاء دخل على أميرها، فما زال يحادثه إلى أن حضر غداؤه، فقدّمت المائدة عليها قصعة من ثريد، فقال الأمير: أيها القاضى تقدّم، فقال: إنى صائم، فأكل الأمير والقاضى يحدثه، إلى أن جىء بجمل فى آخر الطعام، فزحف القاضى إلى المائدة ومدّ يده فأكل منه، فقال الأمير: أيها القاضى، ألم تزعم بأنك صائم؟! فقال: قد كنت صائماً ولكنى على قضاء يومٍ أقدر منى على قضاء مثل هذا الجمل. ورواه غيره عن رجل آخر بمعناه أن الوالى قال له: هلم الغداء، فقال: إنى صائم، فقدّم فى الطعام جدى، فتقدّم الرجل وأخذ يأكل، فقال: أليس زعمت أنك صائم؟! فقال: نعم، ولكن الأيام أكثر من الجدى.

ويقال: ثلاثة أشياء تورث الهزال: شرب الماء البارد على الريق، والنوم على غير وطاء، وكثرة الكلام برفع الصوت.

ويقال: أربعة تهدم العمر وربما قتلن: دخول الحمام على بطنية، والجماع على الشبع، وأكل القديد اليابس، ومجامعة العجوز.

ويقال: أربعة أشياء تُفسد العقل إذا أكثر منها: أكل البصل، والباقلى، والخيار، والجماع.

(١) الذحل: الثار.

وقال النظام: ثلاثة أشياء تُخلق العقل، وتُفسد الذهن: طول النظر في المرأة، ودوام النظر إلى البحر^(١)، والاستغراق في الضحك.

ويقال: عشاء الليل يورث العشا. وعشرة خصال تورث النسيان: أكل سور الفأر، وأكل التفاح الحامض، وأكل الكزبرة الرطبة، والحجامة في النقرة، والبول في الماء الراكد، وطرح القملة في الطريق، والمشى بين جمكين مقطورين، وقراءة كتاب القبور، والنظر إلى المصلوب، وكُنس البيت بالخرقة.

قال الأصمعي: وسمعت أعرابياً يقول: اللهم إني أسألك ميتة كميتة أبي خارجة، أكل بدجاً، وشرب معسلاً، ونام في الشمس، ولقى ربه عز وجل شعبان ريان دقان. معسلاً: لبناً مشوباً بالعسل. والبذج: الحمل.

• من الزيادات عن أهل الطب في الطبائع والمأكول^(٢)؛

روى سليمان بن أرقم، عن الزهري، حدثنا حديثاً غريباً لم يتابع عليه، تفرد به عن صالح بن زياد، أن النبي ﷺ قال: «من يأت في بطنه جزرة أو جزرتان أو ثلاث أمن من القولنج والديبيلة».

وروى معمر بن خيثم عن جدته ربيعة، قالت: سمعت علياً عليه السلام يقول: إذا أكلتم الرمان فكلوه بشحمه فإنه دباغ المعدة، وذلك يوم الجمعة على المنبر.

وفي حديث إسماعيل، عن أبي خالد، عن طارق بن شهاب قال: بعث سليمان بن عبد الملك ﷺ بعض عفاريته، وبعث معه رجلاً وقال: انظر إلى صنيعة، وأخبرني به، ثم رده إلى. قال: فدخل السوق فنظر إلى الثوم يكال كيلاً، وإلى الفلفل يوزن وزناً، فضحك، وذكر بقية الخبر من أفعاله لم يكن فيه من المطعم غير هذا، فلما رده إلى سليمان بن عبد الملك ﷺ قال له: مم ضحكت؟ من الثوم والفلفل؟ قال: نظرت إلى الثوم وهو شفاء يكال كيلاً، وإلى الفلفل وهو داء يوزن وزناً^(٣). ورواه عبد المنعم بن

(١) كيف يفسد العقل النظر إلى البحر، لعلها محرفة، أو أنهم لم يدركوا قيمة البحر آنذاك.

(٢) يقصد بالزيادات أى زيادة على القراءة الأولى للكتاب، ومن ثم فهي لا توجد فى جميع النسخ التى بين يدي، وإنما فى (هـ) فقط.

(٣) انظر الخبر بتمامه فى عيون الأخبار ٢٨٤/٣.

إدريس عن أبيه عن وهب فقال: كيلاً من الفلفل.

قال: ومرّ بعجوز دهرية تتطبّب تصف للناس البصل وتترك الثوم، قال: فضحك. فقال له سليمان: مم ضحكك؟ فقال: عجبت من هذه العجوز تصف للناس البصل وهو من الداء وتترك الشفاء وهو الثوم، وإنما كان بها مرة داءً فأكلت البصل فصادف منها بُراً فظنت أنه دواء.

قال بعض الإخباريين عن أهل الطب: إن الثوم إذا شوى بالنار ووضع على الضرس المأكول، أو دُلك به الأسنان التي يعرض فيها الوجع من الرطوبة والريح ذهب ما فيها. وقالوا: ينفع من العطش الحادث من البلغم، ويقوم مقام الترياق من لسع الهوام والأمراض الباردة. قال: وتقول الروم في الثوم إنه دواء لمن أصابه وجع السقي في بطنه، وإن أكله من ظهر به حرّة من شرى أو غيره أبرأه^(١). وإن دُق الثوم يابساً وأغلى بسمن ولبن، ثم جعله من اشتكى ضرسه فيه سخناً، فأمسكه ساعة، ذهب وجع ضرسه، وهو نافع لمن اجتوى^(٢).

وقد ذكر في البصل أشياء من المنافع وغيرها، ويقال: دخل على نصر بن سنان وحوله بنون له صغار، فقال: هل تدرّون ما ولدى هؤلاء؟ هم بنو البصل؛ نأكله نياً ومطبوخاً ومشوياً فنحتاج. قال: ويقول الأطباء في البصل: أنه يشهى الطعام إن أُكل نياً أو مطبوخاً، ويشهى الجماع، وإن دُق وشمه الإنسان عطس، ويشهى الطعام، وإن اكتحل بما به مع العسل جلا البصر، وإن وُضع مع الملح والسذاب على عضة الكلب نفع، والمسلوق منه يدرُّ البول، والإكثار منه يفسد العقل.

وقال خالد بن صفوان يوماً لجارته: أطعمينا جبناً، فإنه يشهى الطعام ويهيج المعدة، وهو يُعدُّ من زاد العرب. قالت: ما عندنا منه شيء. قال: لا عليك، إنه ما علمتُ ليقدر في الأسنان، ويستولى على البطن، وهو من طعام أهل الذمة.

(١) كانت محرقة في الأصل، وأصلحتها من عيون الأخبار ٢٨٥/٣. والشرى: بثور بعضها صغار وبعضها كبار حكاكة.

(٢) اجتوى: من الجوى، وهو داء يأخذ في البطن لا يستمر معه الماء.

وروينا عن ابن عمر: ما يأتينا من العراق فأكهة أحبُّ إلينا من الخبز.
قال: وسُمع عليٌّ يخطب على المنبر فقال: أَلَا إِنَّا لَم نَغْتَنِم من بيت مالكم شيئاً
إلا هذه القارورة فيها مسك أهداها لى دهقان، قال: ثم حلَّ مئزره فأخرج
القارورة، ثم قال: اللهم ورمانات من رمان حلوان، قال: وكان يعجبه الرمان.

• ما ذكر به السويق:

روى عن الحسن رحمه الله: لا تسقوا نساءكم السَّوِيقَ، فإن كنتم لا بد
فاحفظوهنَّ. وقال الرقاشي: السَّمنة للنساء غُلْمة، وهى للرجال غفلة. يعنى أنه
يهيِّج النساء، ويقطع الرجال. وكان غسان بن عبد الحميد كاتب سليمان بن عليٍّ
يقول لجاريته: إذا قلتُ لكِ خَوْضِي^(١) لنا سويقاً فأخْثِرْه، فإن الرجل لا يستحى
أن يزداد ماءً يرققه به، ويستحى أن يزداد سويقاً يخْثُرْه به. ومرَّ عبد الله بن معاوية
ابن عبد الله بن جعفر الطيار رضى الله عنه بعبد الحميد بن عليٍّ، وهو فى مزرعته،
وقد عطش فاستسقاها، فخاضَ له سويقاً بسكر طبرزد وسقاها، فقال عبد الحميد:

شربتَ طبرزداً بغريضِ مُزِنٍ	كذوبِ الثلجِ خالطه الرُّضابُ
فما إنَّ ماءًنا كغريضِ مُزِنٍ	ولكنَّ الملاحِ بِكم عذابُ
وما إنَّ بالطبرزدِ طابَ لكن	بِمَسْكٍ إنَّه طابَ الشرابُ
وأنتِ إذا وَطِئتِ ترابَ أرضٍ	يطيبُ إذا مشيتَ بها الترابُ
لأنَّ يديك تنفى المَحْلَ عنها	وتُحييها أياديك الرُّطابُ ^(٢)

حدثت عن عبد الرحمن بن أخى الأصمعى عن عمه قال: كانت امرأة من بكر
ابن وائل تنزلُ الطُّفاوَةَ، وكانت أدركت بعض أصحاب النبي ﷺ، وكان العباد
يغشونها فى منزلها، فعاب عائب عندها السَّوِيقَ، فقالت: لا تفعل، إنه طعام
المسافر، والعجلان، والحزين، والمريض، والمسنّة، والنفساء، وطعام من لا يشتهى
الطعام. وكانوا يقولون: السويق من عُدَد المسافر، وغداء المبكّر، وبلغة المريض،

(١) خَوْضِي: خَوْضُ الشراب: خلطه وحَرَكَه. والحُثُورَة: ضدَّ الرِّقَّة.

(٢) الخبر والآيات فى عيون الأخبار ٢٠٧/٣، وكذا الأخبار السابقة. والمحل: الجذب.

ويشُدُّ فؤادَ الحزين، ويردُّ من نفس الضعيف، وهو جيد في التسمين، ونقاوة البلغم، ومَسْمُونُهُ يَصْفَى الدم، وإن شئتَ كان ثريداً، وإن شئتَ كان خبيصاً، وإن شئتَ كان خبزاً.

وعن عائشة رضى الله عنها: كنتُ أُسَمِّنُ - وأنا جارية - لرسول الله ﷺ بالتمر والبطيخ، وفي الخبر: بالقثاء والرطب.

وفي حديث أبي جعفر: «كان رسول الله ﷺ يأكل الرطب بالبطيخ، وهو يأكل من هذا مرة ومن هذا مرة». وروى هذا مجملًا: «كان رسول الله ﷺ يأكل القثاء بالرطب». والخبر المشهور: «أخذ رسول الله ﷺ لقمةً ثم وضع عليها تمرة وقال: هذه إدام هذه». وفي الخبر: «إذا أكل العبدُ التمر بالطلع غضب الشيطان وقال: بقى ابن آدم حتى أكل الحديث بالعتيق». وروى عن عمر رضى الله عنه: عليكم بالزيت، فإن خفتم ضرره فأسخنوه بالنار يصير كالسمن.

• من كتاب الطب:

قال أهل المعرفة بطبائع الأطعمة: أحمَدُ التَّمُورِ: الهَيْرُونُ، ثم البُرْنَى. وأحمد البسور: الجَيْسِرَانُ^(١). وقالوا: ما اصفرَّ من التمر أحمدٌ مما اسودَّ. قالوا: وخير السمك: الشَّبُوطُ، والبناني، والميَّاحُ، وخير البيض: بيضُ الشَّوَابِّ من الدجاج، ولا خير في بيض الهَرَمَةِ. وأخف البيض الرقيق، وأثقله الصلب. ولا تَعْرِضُ من الرأس للدماغ ولا لللسان، ولا الغَلَصَمَةُ ولا الخراطيم^(٢)، وأخفه لحم العنق من كل الحيوان، وفي الخبر: «العنق هادية الشاة وأبعدها من الأذى». والفُقَّاعُ^(٣) يُشْرَبُ قبل الطعام ولا يشرب بعده، ولا يشرب اللبن ولا يؤكل إلا بعد وضع الشاة بشهر أو عشرين يومًا. ويؤكل بعد الباقلَى الفُودَنْجِ^(٤)، فإنه يذهب بِنَفَخَتِهِ، ويطرح في المَضِيرَةِ^(٥) الفُودَنْجِ، ويؤكل بعد اللوبيا الخردل الرطب.

(١) الهَيْرُون: البرى من التمر والرطب. الجيسران: جنس من أفخر أنواع البلح، معرب.

(٢) الغلصمة: رأس الحلقوم، وهو الجزء الناتئ من الحلق. والخراطوم: الأنف.

(٣) الفقاع: شراب يتخذ من الشعير.

(٤) انظر فوائده في كتاب: الموجز في الطب، لابن النفيس، ص ١١١.

(٥) المضيرة: أن يطبخ اللحم باللبن حتى ينضج اللحم وتَخْتَرُ المضيرة.

يقال: أول ما عُرِفَ به حكمة بزرجمهر أن الملك حبسه، فقال: سلوا الملك أن يرزقكم مكانَ الأُدَمِ الأترج؛ ليكون القشر لطيبكم، ولحمه لفاكهتكم، والحماض لصباغكم، والحبُّ لدهنكم.

قال الفيلسوف: ويُغسل السويق بالماء الحار ثلاثاً، ثم يغسل بالماء البارد مرة، ثم يشرب. والملح يُستقبل به البطيخ في أوله. ولا يؤكل من الفاكهة إلا ما نضج في شجره، ثم يلقي ثقله وعجمه، ولا يؤكل إلا على ريق، ولا يؤكل منه إلا لبه، ولا يؤكل من الخيار إلا لينة. والبادنجان يُشَقُّ ويُحشَى ملحاً ويترك في الماء البارد ساعة، ثم يُصب عنه، ثم يُسلق بعد ذلك. ويؤكل من الأُشترغاز^(١) خلّه ولا يُعرض لجسمه.

وقال يحيى بن خالد: شيثان يورثان القمل: التين اليابس إذا أكل، وبخار اللبان إذا دُخِّنَ به.

قالت الأطباء: ورق الخوخ وأقماعه إذا دُقَّ وعُصر وشُرب أسهل حبَّ القرع والحيات والديدان المتولدة في البطن، وإن تدلَّك بورقه بعد النورة^(٢) نفع الجسد.

حمّاض الأترج إذا لُطِّخ به الكَلَف والقُوبُ أذهب، وحبُّ الأترج نافع من السّموم. وورق التفاح الغض إذا دُق بالرفق أياماً خمسة أو ستة ثم ضُمد به الوشم قلعه من غير أن يقرح موضعه، واللُّفَّاح^(٣) يُشَمُّ ولا يؤكل.

قال حكماء الروم: والحبُّ: الذي ينبت على شطوط الأنهار نافع من الرمد إذا دُق ونُخل واكتُحل به، وإن مضغه ماضغ ثم وضعه على عينه نفعه.

قالوا: وماء القودنج النهري يدرُّ الطمث، فإن أخذت منه الحبلَى أوقية وطُبَّح يَنْصِف رَطْلٍ ماء حتى يبقى منه الثلث، وشُرب سهل السّوداء.

الطرخون: يؤكل مع الكرّفس. والرّاسِنْ: نافع للرأس، يقوَّى المثانة، وينفع من

(١) الأُشترغاز: فارسي معرّب، وهو نبات حريف رخو طويل الشوك، ترعاه الإبل.

(٢) النورة: أخلاط من أملاح تستعمل لإزالة الشعر.

(٣) اللفّاح: ثمر أصفر طيب الرائحة فيه حب شبيه بحب الكمثرى.

تقطير البول إذا كان من برد. والكشوث: يذهب بالأرقان^(١).

عنب الثعلب: قاطع لدم الحيض إن شرب أو احتُمِل. والكرفس: إن طبخ وشُرِب ماؤه كان دواء من وجع الكليتين من الأُسْرِ^(٢).

قالوا: والحمص محسّن للون، زائد في لبن المرضع، يدر دم الحيض، وهو مكثّر للمنى، زائد في الجماع، وإن خلط بالباقلَى سَمَن. والباقلَى إذا أُدمن عليه أكلّ البصر، وأحال الأحلام أضغاثًا لا تأويل لها. والخردل: نافع من حمى الربّع، والحميّات المتقدمة، وينفع من وجع الأرحام، ويُجفّف اللسان الثقيل من البلغم، وينزل الرطوبة من الرأس. والحُرْف: يُخرج حب القرع من الجوف، وينفع من عرق النساء، ووجع الورك، وإذا سُخِّنَ بالماء الحار وشُرِب منه وزن خمسة دراهم أسهل الطبيعة، ونفع من القولنج.

حدث أبو حاتم عن الأصمعي قال: قلت لابن أبي عطار: بلغني أن أباك كان ذا منزلة من ابن سيرين، فما حفظت منه؟ قال: قال أبي: قال لى ابن سيرين: يا أبا عطار، إن سَوِّقَ العدس البارد يرفع الدم.

الباذنجان: إذا أُكثِر منه ولّد الكَلَف في الوجه، وأورث السرطان والأورام الصلبة.

شمّ الخيار: صالح لمن أصابه الغشى من الحرارة.

بِزْرُ القثاء: إذا شربه من به الأُسْر نفعه، وإن أصابت رضيعًا حمى فألزقت به قثاءتين تَمَسَّانِ جلده إحداهما عن يمينه والأخرى عن شماله ساعة واحدة من النهار قلعت الحمى عنه.

السَّلَق: إن دُقَّ مع أصله وعصر ماؤه وغسل به الرأس أذهب بالأتربة، وأطال الشعر.

(١) الطرخون: بقلة ورقها طوال دقاق، معروفة بالشام. الراسن: نبات يشبه الزنجبيل. والكشوث: شيء يتعلق بالنبات مثل الخيوط، يشرب من ماء النبات الذي يتعلق به، ولا أصل له في الأرض، ولا ورق، ويكثر في الكروم الرطاب، وكثيراً ما يفسد النبات. والأرقان: لغة في اليرقان: داء يصيب الناس يصفر منه الجسد.

(٢) الأُسْر: احتباس البول.

الْقَرَعُ: إذا شوى بالنار، ثم عُصر فجعل ماؤه فى أذن من يشتكى أذنه نفعه. وإن دهن منابت شعر اللحية بدهن القرع المرّ وقثاء الحمار مُدافٌ فيه شيح أرمنى أسرع فيها إنبات الشعر.

بقلة الرّجّلة: إذا مُصغت أذهبت شهوة الجماع، وتذهب الطّرش.

السّذاب^(١): قاطع لشهوة الجماع.

الخس: إذا أكل على الريق نافع لتغيير الماء ومن يتأذى بالاحتلام إذا شرب بزره بماء بارد.

الحَرْدَل: مكثّر للّبن مدر للبول، إلا أنه يورث ضعفاً فى البصر، وإن غلى ماؤه ثم صفى واكتحل به جلا البصر الضعيف من الرطوبة. وتزعم الروم أن ماءه ينفع الأطفال من الحمى إذا أصابتهم. قالوا: وهو يفسد الذهن، ويورث النسيان.

وقالت الروم: من نظر عند رؤية الهلال إلى الهندبا فحلف بإلهه لا يأكل هندبا ولا لحم فرس، سلّم فى كل شهر يحلف فيه من وجع الضرس.

وقالت الأطباء: الكراث النبطى: إذا أدمن كانت منه الأحلام الردية، وولّد بُخاراً فى الرأس، فإن صبّ فى مائه خل ودقاق كُنْدر واستعط به سكّن الصداع، وإن سلّق أو طُحِن وأُكِل أو ضُمِد للبواسير العارضة من الرطوبة نفع منها. وماء الكراث: إذا خلط بمثله من ألبان النساء ودهن الورد والكُنْدر فكُحِل به عين من أصابته غشاوة فى بصره فلم يبصر ليلاً نفعه، وأكل البصل نافع لذلك أيضاً.

قال بعضهم: شكوت إلى حنين المتطبب علةً كنت أجدها فى حلقي لا أكاد معها أقدر على ابتلاع ريقى، فقال لى: تغرغر بعقيد العنب مع خمير ثلاثة أيام فى كل يوم ثلاث مرات، ففعلت ذلك فذهب.

قالوا: إذا دق الكربن وخلط بشيء من زاج الأساكفة، وشيء من خلّ فأديف ذلك بالخطمى ثم طلى به جرب أو برص نفع بإذن الله تعالى.

قالوا فى الفجل: هاضم للطعام، وإن أكل بزره بعسل كان دواءً من السعال

(١) السّذاب: بقل يفرّغ فروغاً تطلع من ساق قصيرة له.

والفواق، وإن شُدِخَ الفجل الرطب فطرح على عقرب ماتت، وماؤه وبزره بمنزلة الترياق للسموم، وإن طلى أحدُ يدهُ بمائه، ثم قبض على حية أو غيرها من الهوام لا يضره ذلك الموضع، وإن دُقَّ بزره مع الكندر وطلّى به البهق الأسود في الحمام أذهب، وإن شُرِبَ ماء ورقه نفع من الأرقان الحادث من الطحال.

البصل: إذا اكتحل بمائه مع العسل جلا البصر، والمسلق منه يدر البول، والإكثار منه يفسد العقل.

قالوا في لحم الماعز: يحرك السوداء، ويفسد الدم، ويورث الهم. وأحمدُ للحمانِ ما خُصِيَ من المعز والضأن، وكان فتياً، ولا خير فيما أسنَّ، ولحم الضأن نافع من السوداء. واللحم أقل الطعام نجواً. ولحم الدجاج الهرم شر للحمان وأغلظها.

البيض: إن سُلِقَ بالخل وأُكِلَ بالسَّمَق^(١) وحب الرمان المخلو والملح المرّ عقد الطبيعة.

الزبد: إن طلى على منابت أسنان الطفل كان معيناً على نباتها وطلوعها، والمخ والدماغ يفعلان ذلك أيضاً.

حكى الأصمعي عن بعض أشياخه: ثلاثة أشياء ربما صرعت أهل البيت عن آخرهم: لحوم الإبل، والجراد، والفُطُر. تقول الأطباء: أردأُ الفُطُرِ ما ينبت تحت ظلال الشجر، وأردأه كله ما كان في ظل شجر الزيتون، والفُطُر يورث الذُبْحَة.

قالوا: والكمأة تورث وجع القولنج، والفالج، والسكتة. والذباب لا يقرب قدراً فيها كمأة. ومن أراد اتخاذ الكمأة اليابسة جعلها في الطين الحارَّ يوماً وليلة، ثم غسلها واستعملها.

قد روى قتادة: عن شهر بن حوشب، عن أبي هريرة رفعه: الكمأة من المنّ، وماؤها شفاء للعين، والعجوة من الجنة، وهي شفاء من السم.

(١) السَّمَق: من شجر القفاف والجبال، وله ثمر حامض عناقيد فيها حب صغار يطبخ. وقوله: «عقد» في عيون الأخبار ٢٨١/٣ «عقل».

- وقال بعض الطب: الفقَّاع المتخذ بدقيق الشعير نافع من الجذام.

قال الشيخ أبو طالب رضى الله عنه وأرضاه: هذا ما نقلته نقلاً ورسمته، نقلته من كتب أهل الأثر^(١) ونقلته الأخبار على أهل العلم بطبائع النبات، وهى حكمة الله سبحانه أودعها خواص الأشياء نافعة وضارة بإذنه وقدرته عن حكمه وحكمته، وأنا برىء من عهدتها؛ إذ لا يقين عندي بحقائقها.

آخر الزيادات من الآثار المنقولة من كلام العلماء على الأصل الأول^(٢).

• باب ذكر من لا ينبغي أن تجاب دعوته، والشئ الذى إذا رآه المدعو فله أن يخرج من رؤيته؛

قد كان السلف الصالح رضى الله عنهم لا يجيبون فى طعام التباهى والتبارى، ولا ما يقدم للترزين به، والتجمل، ولا مما لا يحبون أن يؤكل جميعه، أو مما يراد أن يؤكل بعضه، أو يترك للزينة، أو يراد به الرياء والسمعة، كل هذه الأشياء إذا علم هذه المعانى منها مكروه؛ إذا حضرت بهذه الأسباب، وكذلك الإجابة إذا دعى إليها غير مستحبة.

قال بعض المكين: قلت لوهيب بن الورد: إنا لا نراك تدعى إلى هذه الدعوات وتكره الإجابة إلى بعضها، فهل تعلم من تخصه فى ترك الإجابة إذا دُعينا؟ فقال: نعم، حديث ابن مسعود: «نهينا عن إجابة دعوة من تباهى بطعامه، ونهينا عن إجابة من يُنجد بيته، ونهينا عن إجابة من يدعو الأغنياء ويترك الفقراء».

وروي أن عثمان رضى الله عنه دعى إلى طعام، فقال: إني أخاف أن يكون صنْع مباحة. وأما ابن عمر: فإنه دعى إلى طعام فرأى البيت قد نُجد فرجع ولم يدخل. والتنجيد وضع بساط على بساط وأن يستر الحيطان بالسطور.

ونهى رسول الله ﷺ أن تُستر البيوت بالثياب كما تستر الكعبة، ونهى أن يُنصب ستر فيه تصاوير، فمن رأى شيئاً من ذلك فلا يقعد، فقد كان السلف

(١) معظم الأخبار التى نقلها عن أهل اللغة والطب مأخوذة من كتاب عيون الأخبار، كتاب الطعام.

(٢) هذا يدل على أن هناك أصلاً أولاً، والذى بين أيدينا الأصل الثانى وهو نسخة (هـ) نقلاً عن الشيخ نفسه. وانظر المقدمة.

يخرجون إذا رأوا البيوت مستورة، والأستار عليها صورة منصوبة، وربما هتكوه وأنكروه عليهم، فعل ذلك ما لا يحصى من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم. فهذا مما أبدع ولم يكن يُعرف فيما سلف، ولم يكونوا يجيبون في ختان جارية، ولا في اليوم الثالث من الوليمة؛ لأنهم كانوا يقولون: الطعام في الوليمة أول يوم سنة، وثاني يوم معروف، وثالث يوم سمعة.

وروينا عن عبد الرزاق، عن معمر: أن ابن المسيب دُعى في وليمة أول يوم فأجاب، ثم دُعى اليوم الثاني فأجاب، فجاءوه للدعوة في اليوم الثالث فرماهم بالخصا، وقال: اذهبوا أهل سمعة.

هذا لحرصهم على الإطعام وكثرة بذلهم للطعام، كانوا يدعون إلى الوليمة ثلاثاً؛ لاختصاصها بالنكاح للأمر بها، والأمر بالإجابة للدعوة إليها؛ لقوله ﷺ: «أولم ولو بشاة»، وقوله: «الوليمة حقٌّ فمن لم يُجب فقد عصَى الله عز وجل». وكلُّ طعام صُنِعَ لأجل سبب محظور فلا يجيب فيه، كان بعض العلماء يقول: انظر عند من تأكل، فإن العبد ليأكل الأكلة فيتقلب قلبه فلا يعود إلى ما كان عليه أبداً. وقال آخر: إن الرجل ليأكل الطعام يُدعى إليه، فيَنَغَلُ قلبه عليه، كما يَنَغَلُ الأديم العتيق، فلا يصلح بشيء.

أبو صالح الفراء عن ابن أسباط: قلت للثوري: من أجيب؟ قال: لا تدخل على رجل إذا دخلت عليه أفسد عليك قلبك. وكان يكره الدخول على أهل البُسْط، يعني الأغنياء.

فأما طعام الماتم فهو على ضربين: نوع منه يصنعه أهل الميت للنوائح والبواكي ومن يعينهم على الجزع وتجديد الحزن، فأكل هذا مكروه، وإجابة الدعوة إليه لا تجوز؛ منهى عنه. ونوع يُحمل إليهم على المعروف والصلة من الحاملين لهم؛ لشغلهم عن أنفسهم وإصلاح طعامهم بميتهم؛ فهذا لا بأس به وبحملة إليهم. ويجوز الأكل منه وأن يطعموه غيرهم؛ لأنه من البرّ والمعروف، إن لم يُرد به النوائح، ولا المجالسة على القبور للجزع والأسى.

وقد روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال لما جاء نعي جعفر بن أبي طالب: «إن آل

جعفر شغلوا بميتهم عن صنيع طعامهم، فاحملوا إليهم ما يأكلون؛ فهذا سنة في حمل الطعام إلى أهل الميت.

ومن دُعى إلى طعام وكان في بيت الداعي إحدى خمس خصال فلا يجيب دعوته ولا حرج في ترك إجابته: إن كانت مائدته يُشرب بعدها مسكر وإن لم يعاينه في الحال، أو كان في الأثاث فراشٌ حرير أو ديباج، أو كان في الآنية ذهب أو فضة، أو كان متخذ الحيطان سترًا بالثياب كما تُستر الكعبة، أو كان صورة ذات روح في ستر منصوب، أو في الحائط. ومن أجاب الدعوة فرأى إحدى هذه الخمس فعليه أن يخرج أو يُخرج ذلك، فإن قعد فقد شَرَكهم في فعلهم.

دعى أحمد بن حنبل رحمه الله إلى طعام، فأجاب في جماعة من أصحابه، فلما استقر في المنزل رأى إناء من فضة في البيت، فخرج وخرج أصحابه معه ولم يطعموا. ويقال: إنه خرج من أشنانه رآها كان رأسها المغطاة به فضة، لم يصبر فخرج لذلك.

حدث عن أحمد بن عبد الخالق قال: حدثنا أبو بكر المروزي قال: سألت أبا عبد الله عن الرجل يدعى إلى الوليمة، من أى شىء يخرج؟ قال: خرج أبو أيوب حين دعى فرأى البيت قد سُر. ودعى حذيفة فرأى شيئاً من زى العجم فخرج، وقال: من تزيا بزى قوم فهو منهم. قلت لأبى عبد الله: فإن رأى شيئاً من فضة؟ فقال: ما كان يُستعمل يعجبني أن يخرج. قلت: إن كان أشنانه ترى أن يخرج؟ قال: نعم أرى أن يخرج. قال: وسمعتة يقول: دعانا رجل من أصحابنا قبل المحنة، وكنا نختلف إلى عفان، فإذا إناء من فضة، فخرجت فاتبعنى جماعة، فنزل بصاحب البيت أمر عظيم. فقلت لأبى عبد الله: الرجل يدعى فيرى المكحلة رأسها مفضضة قال: نعم، هذا يستعمل، كل ما لا يستعمل فاخرج منه، إنما رُخص في الضبة أو نحوها فهو أسهل. وسألته عن الكَلَّة^(١)، فكرهها. قلت: فالقبة أو الحَجَلَة^(٢)؟ فلم يرَ بها بأساً.

(١) الكَلَّة: ستر رقيق مُثَقَّب يُتَوَقَّى به من البعوض وغيره. الجمع: كَلَلٌ.

(٢) الحَجَلَة: ساتر كالقبة يُزَيَّن بالثياب والستور للعروس. الجمع: حَجَلٌ، وحِجَال.

وقلتُ لأبي عبد الله: إن رجلاً دعا قومًا فجيء بطست فضة وإبريق فكسره، هل يجوز كسره؟ قال: نعم.

قال أبو بكر المروزي: سألته عن الرجل يدعى فيرى فرش ديباج ترى أن يقعد عليه، أو يقعد في بيت آخر؟ قال: يخرج، قد خرج أبو أيوب وحذيفة، وقد روى عن ابن مسعود الخروج. قلتُ: ترى أن يأمرهم؟ قال: نعم، يقول: هذا لا يجوز.

قلت لأبي عبد الله: الرجل يكون في بيت فيه ديباج يدعى إليه للشيء؟ قال: لا تدخل عليه ولا تجلس معه. قلت: الرجل يُدعى فيرى الكَلَّةَ، فكرهها وقال: هو رياء لا تردّ من حرٍّ ولا تردّ من برد. قلت: الرجل يُدعى فيرى سترًا فيه تصاوير. قال: لا تنظر إليه. قلت: فقد أنظر إليه. قال: إن أمكنك خلعه خلعه.

قال: سألتُ أبا عبد الله عن الستر يكتب فيه القرآن، فكره ذلك. قال: ولا يكتب القرآن على شيء منصوب، لا ستر ولا غيره. قلت: الرجل يكتري البيت فيه التصاوير ترى أن يحكه؟ قال: نعم. قلت لأبي عبد الله: دخلتُ حمامًا فرأيت فيه صورةً ترى أن أحكّ الرأس؟ قال: نعم. وسألته عن الجوز يُنثر، فكرهه وقال: يُعْطَوْنَ يُقَسِّمُ عليهم، يعنى: الصبيان، كما صنع ابن مسعود. إسناده جيد.

أبو حصين عن خالد بن مسعود قال أبو بكر المروزي: دخلت على أبي عبد الله وقد حدّق ابنه، وقد اشترى جوزًا يريد أن يعده على الصبيان، يقسمه عليهم وكره النثر، وقال: هذه نُهْبَةٌ.

وقال هاشم بن القاسم: حدثنا محمد قال: كان طلحة والزبير يكرهان النثر في كل شيء في العرس، وفي الخذاق وغيرهما، من الجوز والسكر. قال: وسألتُ أبا عبد الله عن قرض الرغيف والخمير، فلم يرَ به بأسًا.

آخر الزيادة في الجديد من الأصل الأول^(١).

خمسة لا تجاب دعوتهم، وإن دُعِيَ رجل ولم يعلم ثم علم، فلا حرج عليه أن

(١) دليل على إملاء الشيخ للكتاب أكثر من مرة.

يخرج من بيته: المبتدع، وأعوان الظلمة، وآكل الربا، والفاسق المعلن بفسقه، ومن كان الأغلب على ماله الحرام، ولم يكن يردع عن الآثام في معاملته الأثام؛ لأن النبي ﷺ قال: «لا تأكل إلا طعام تقى، ولا يأكل طعامك إلا تقى». وذلك لأن التقى قد كفاك الاجتهاد في المأكول للتقوى، فأغناك عن السؤال عنه؛ ولأن التقى إذا أطعمته استعان بالطعمة على البرّ والتقوى، فتصير معاونًا له عليها، كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢] فَيُشْرِكُهُ فِي بَرِّهِ.

والفاجر والظالم إن أكلت طعامهما صرّت من أعوان الظلمة بمشاركتك لهما في الطعمة. كما سأل خياط ابن المبارك فقال: إني أخيط لبعض وكلاء هؤلاء، يعنى الأمراء، فهل يخاف أن أكون من أعوان الظلمة؟ فقال: لست من أعوان الظلمة بل أنت من الظلمة، إنما أعوان الظلمة من يبيع منك الخيوط والإبر.

وقد عمل ذو النون المصري أغمض من هذا في الورع، ما سمعت أدق منه. إن السلطان لما سجنه في كلام أنكره عليه العامة من العلم الغامض، كانت المائدة من قبل السلطان تختلف إليه، فلم يكن يطعم منها شيئاً، ولم يأكل أياماً كثيرة مدة مقامه في السجن، فكانت له أخت قد آخته في الله تعالى تبعث إليه من مغزلها، وتدفعه إلى السجن فيحمله إليه ويعرفه أنه من قبل تلك العجوز الصالحة، فلم يأكل أيضاً منه، فلما خرج لقيته العجوز، فعاتبته على ردّ الطعام، وقالت: قد علمت أنه كان من مغزلي؟ فقال: نعم، إلا أنه جاءني على طبق ظالم فرددته لأجل الظرف^(١)، يعنى بهذا: يدّ السجنان.

ولعمري أنا روينّا عن عليّ عليه السلام أنه أهدى له دهقان بالكوفة في يوم عيد لهم خبيصاً على جام من ذهب يكرمه بذلك، فردّه ولم يأكل منه، وقال: رددته لأجل ظرفه الذي كان فيه.

وقيل: من أكل لقمةً من حرام قسا قلبه أربعين يوماً. ويقال: أظلم قلبه. ومن أكل الحرام أربعين يوماً لم يزهد في الدنيا أبداً. فهذا كما قيل في ضده: من أكل

(١) الظرف: الوعاء.

الحلال أربعين يومًا زهد في الدنيا، وأدخل الله تعالى النور في قلبه، وأجرى الحكمة على لسانه.

وقال بعض السلف: أول لقمة يأكلها العبد من حلال يغفر الله تعالى له بها ما تقدم من ذنبه. وقال الآخر: من أقام نفسه مقام ذلٍّ في طلب الحلال تساقطت عنه ذنوبه كما يتساقط ورق الشجر في الشتاء. وكان سهل رحمه الله يقول في السائحين في الأمصار والمنقطعين بالأسفار: إن الرجل ليدخل قرية فيجوع، ولا يقدر على الحلال، فتعرض عليه الشبهات فلا يأكل، ويبيت تلك الليلة جائعًا، فيجعل في ميزانه جميع أعمال أهل تلك القرية.

ومن أجبره سلطان على طعام، أو قُدِّمت إليه شبهة أكرهه على أكلها، فليتعَلَّ بعالة منه، ولينقر نقيراً، ولا يقصد طيباً، ولا يكبر اللقمة، ولا يستكثر في الطعمة، وليأكل ما يسد رمقه، وما يخاف التلف على نفسه إن هو فارقه.

حدثني بعض اليهود: أن مزكياً من بعض أهل العلم بخراسان ردَّ شهادة شاهد أكل من طعام سلطان كان أجبره، فقال: إنه كان أجبرني على الأكل. فقال: قد علمت ذلك، ولم أردَّ شهادتك لأنك أكلت، ولكن رأيتك تقصد الطيب وتكبر اللقمة، فهل كان أجبرك على هذا؟ فلهذا جرّحتك عند الحاكم. قال لنا الشيخ: وأجبر السلطان هذا المزكي على الأكل من ماله فقال: اختاروا إحدى خصلتين: إما أن أكل كما أمرتم، ولا أزكى أحداً بعد ذلك، ولا أجرح، ولا أعدل شاهداً، وإما أن أترك على حالي هذا في الجرح والتعديل بالتركية، ولا أكل من طعامكم. قال: فنظر السلطان وذووه فإذا هم محتاجون إليه؛ لأنه كان قليل النظر، ولم يكن له بدٌّ من حسن نظره، ومن قيامه بشأن الحكام، فتركوه وحده فلم يأكل من طعامهم شيئاً، وأجبروا من كان معه، وكانوا قد حملوا من نيسابور إلى بخارى في قصة طويلة حذفت سببها. والمعنى هذا باختلاف الألفاظ التي سمعتها، ولكن توخيتُ ما سمعتُ على المعنى.

وقد كان بشر بن الحارث يقول في الأكل من الشبهات: يدٌ أقصر من يدٍ، ولقمةٌ أصغر من لقمة. وكان إذا نفروا تكلم في الحلال. قيل له: فأنت يا أبا نصر

من أين تأكل؟ فكان يقول: من حيث تأكلون، وليس من يأكل وهو ييكنى مثل من يأكل وهو يضحك.

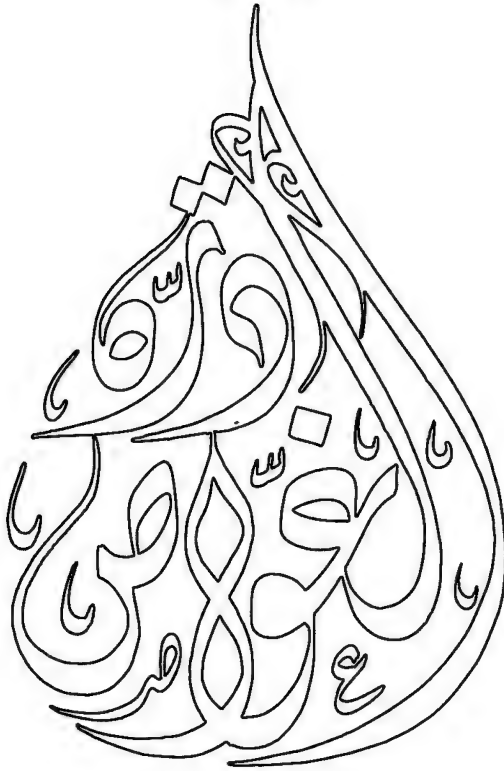
وقد كان سرى السقطى يقول: لا يصبر على ترك الشهوات إلا من ترك الشبهات. ففي تدبره أن من أحب الشهوات لم يترك الشبهات.

كما كان الزهرى إذا عوتب في صحبة بنى مروان يقول: أصدقكم الحق، اتسعنا في الشهوات، فضاق علينا ما في أيدينا، فانبسطنا إليهم.

وهذا فصل الخطاب لأولى الألباب. والله أعلم.

قال الشيخ أبو طالب رحمة الله عليه وأرضاه وأكرم مثواه وجعل الفردوس مأواه، وجعلنا من إخوانه وعمن والاه، بجوده وكرمه إنه قادر على ما يشاء.

هذا آخر كتاب الأطعمة.



الفصل الحادى والأربعون

فى ذكر فضائل الفقر وفرائضه، ونعت عموم الفقراء وخصوصهم،
وتفصيل قبول العطاء ورده وطريقة السلف فيه

[أنبأ أبو القاسم، قال أبو طالب^(١):

قال الله الكبير المتعال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ [الحشر: ٨]. وقال تبارك وتعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]. فقدّم وصف أوليائه بالفقر على مدحهم بالهجرة والحصر. والله تعالى لا يصف من يحب إلا بما يحب، فلو لا أن الفقر أحب الأوصاف إليه ما مدح به أحباءه وشرفهم به.

وأمر رسول الله ﷺ بالفقر وأخبر بفضلته فى غير حديث؛ منها حديث إسماعيل ابن عياش، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمران، عن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «أى الناس خير؟ فقالوا: مؤسرٌ من المال يُعطى حقَّ الله عز وجل فى نفسه وماله. فقال: نعم الرجلُ هذا وليس به. قالوا: من خيرُ الناس يا رسول الله؟ قال: فقيرٌ يُعطى جهده».

ومنها حديث بلال أن رسول الله ﷺ قال له: «لقى الله عز وجل فقيراً ولا تلقه غنياً». وفى الحديث الذى روى عن ابن الأعرابى أن النبى ﷺ قال له: «لا أفضل من الفقير إذا كان راضياً». وفى الحديث الآخر: «إنَّ الله تبارك وتعالى يحبُّ الفقير المتعفف أبا العيال». وفى الخبرين المشهورين: «يدخل فقراءُ أمتى الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام»، والحديث الآخر: «اللهم أحيى مسكيناً، وأميتنى مسكيناً، واحشُرْنى فى زُمرَةِ المساكين».

(١) من (هـ) فقط.

فهذا منه ﷺ تفضيل للفقراء، وإكرام لهم، وتنبيه وحث على فضل الفقر.
وروينا عنه ﷺ: «خير هذه الأمة فقراؤها، وأسرعها تصجيعاً في الجنة
ضعفاؤها».

وروينا في خبر إسماعيل النبي عليه السلام المفسر لخبر موسى عليه السلام: «إن
إسماعيل قال: يا رب أين أطلبك؟ فقال الله عز وجل: عند المنكسرة قلوبهم من
أجلى. قال: ومن هم؟ فقال تعالى: الفقراء الصادقون». وقال أبو سليمان
الداراني: الأعمال كلها في الخزائن مطروحة إلا شيئين، فإنه مخزون مختوم
عليهما لا يعطاهما إلا من طبعه الله بطابع الشهداء: الفقر مع المعرفة. وكان
يقول: تنفس الفقير دون شهوة لا يقدر عليها أفضل من عبادة غني عمره كله.

وقد كان بشر يقول: مثل الغني المتعبد مثل روضة على مزبلة، ومثل العبادة
على الفقير مثل عقد جوهر في جيد الحسناء. وقال: العبادة لا تليق بالأغنياء.
وكان يقول: التقوى لا تحسن إلا في فقر. وقال له رجل فقير: يا أبا نصر ادع الله
عز وجل لي، فقد أضرب بي الفقر والعيال. فقال له بشر: إذا قال لك عيالك: ليس
عندنا دقيق ولا خبز، فادع الله تبارك وتعالى لي أنت في ذلك الوقت، فإن دعائك
أفضل من دعائي.

وقال بعض السلف: أبا أهل المعرفة بالله عز وجل أن يقبلوا هذا العلم،
وكرهوا أن يسمعوه من الأغنياء، زعموا أنه لا يليق بهم.

وقد كان بعض الفقراء يقول: هذا العلم - يعني علم المعرفة - عوضه الله
سبحانه وتعالى الفقراء بدلاً من الدنيا لا يظهره إلا هم، ولا يوجد إلا عندهم،
روحهم الله عز وجل به في الدنيا، وجعله عوضاً لهم مما تركوا له اليوم، فإذا كان
غداً فهم الذين لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين، وهو المزيد.

وقد روينا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ *
سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤]، قال: الفقر في الدنيا.

فمن فرائض الفقر عند الفقراء: الصبر عليه بترك المسألة قبل ورود الفاقة،

وقطعُ الهمُّ عن التشرُّفِ إلى الخلق، وأن لا يتناول عند الحاجة ما حظره عليه العلم، ولا يجاوز حدًّا من حدود الأحكام، وإن سأل عند الحاجة^(١) لم يستكثر ولم يدخر، فإن أُعطي فوق كفايته فاقتناهُ ليكفَّ عن المسألة فلا بأس به، ويتوخَّى في مسأله المتقين، ومن يعلم أنه يتحرَّى في مكسبه، فإن مسأله عملٌ له يلزمه التورُّع فيها، كما يلزمه الورعُ في مكسبه، ولا يسأل من يعلم أنه لا يبالي من أين يأكل، ومن لا يرتدع عن الحرام في مكسبه.

والعبدُ بنفس الحاجة والجوع يستحق على إخوانه شعبةً يقيم بها صلبه، ويسكن بها نفسه، وبنفس العرى والعُدم يستحق عليهم ثوباً يُوارى به عورته، وذلك لازم للمسلمين وواجب له، فإن قام به بعضهم سقط عن بعض وجوبه، وإن سأل ذلك فلا شيء عليه. ويقال: إن كفارة المسألة صدقُ السائل في مسأله، وصدقه أن لا يسأل إلا بعد فاقتته، ومع خوف التقصير في أداء فرائضه من اختلاف عقله وتشتت قلبه. وأن يكفَّ مع أول الكفاية، ولا يدخر بعد الشُّبع ليستكثر، ولا يجعل المسألة إن دُفع إليها له عادة ووكداً، ولا حرفةً وكداً^(٢). ومهما استغنى عن السؤال فليكن ذلك أحب إليه، فإنه أفضلُ له. وقد سأل ثلاثة من الأنبياء عند فاقتهم: سليمان عليه السلام لما سلب ملكه أربعين يوماً، وموسى والخضر عليهما السلام لما استطعما أهل القرية.

ورويانا عن رسول الله ﷺ: «للسائل حقٌّ وإن جاء على فرس». وفي الحديث: «ردُّوا السائل ولو بظلف محرق». فلو كانت المسألة إثماً وعدواناً لم يحث على الإعطاء، فيكون معاوناً على الإثم والاعتداء، ولكن ذلك من البر والتقوى، لأنه سبب منه ودالٌّ عليه، معاونٌ^(٣) بالأمر به لحرمة الإسلام، ولأنّ المواساة من المعروف والإحسان. وسمع عمر رضى الله عنه سائلاً يسأل بعد المغرب فقال: يا يرفا عشَّ الرجل، فعشاه. ثم سمعه ثانية يسأل فقال: ألم أقل لك عشَّ الرجل؟

(١) في (م): «عبدٌ حاجة».

(٢) ساقطة من المطبوعة.

(٣) في المطبوعة: «فعاون بالأمر به»، وفي (د): «معاوناً عليه بالأمر».

فقال: فقد عشيته. فنظر عمر فإذا تحت يده مخللة مملوءة خبزاً. فقال: لست سائلاً ولكنك تاجر، ثم نثر المخللة بين يدي إبل الصدقة وضربه بالدرّة وقال: لست سائلاً، أنت تاجر.

وروينا عن عليٍّ عليه السلام: إنّ الله عز وجل في خلقه مَثُوبات فقر، وعقوبات فقر. فمن علامة الفقر إذا كان مَثُوباً: أن يحسّن خُلُقَه، ويُطيع به ربّه، ولا يشكو حاله، ويشكر الله تعالى على فَقْرِهِ. ومن علامات الفقر إذا كان عقوبة: أن يسوء عليه خُلُقَه، ويعصى به ربه، ويكثر الشكاية، ويتسخطّ القضاء.

فهذا كما قال عليٌّ عليه السلام. وهذا النوع الذي هو عقوبة من الفقر هو الذي استعاذ منه النبي ﷺ، وهو فقرُ النفس؛ لأن الفقر من المال إنما هو الافتقار إلى الخلق والفقر إلى الأشياء مع عدم صدق الحال.

وقد روينا في الخبر: «مسألة الناس من الفواحش، ما أُحِلَّ من الفواحش غيرها». وبإيع رسولُ الله ﷺ قوماً على الإسلام، فاشتراط عليهم السمع والطاعة، ثم قال كلمة خفيّة: «ولا تسألوا الناس شيئاً». فكان ﷺ يأمر بالتعفف والكف عن المسألة، ويقول: «من سألنا أعطينا، ومن استغنى أغناه الله عز وجل». وقال: «من لم يسألنا فهو أحبُّ إلينا». وقال عليه الصلاة والسلام: «استغنوا عن الناس، وما قلّ من السؤال فهو خير». قالوا: ومنك يا رسول الله؟ قال: «ومني». فلو لم يكن في ترك المسألة إلاّ دعاء رسول الله ﷺ ومحبه لكان خيراً كثيراً.

وقال ﷺ^(١): «من سأل عن غنيٍّ فإنما يستكثر من جَمَر جهنم، ومن سأل وله ما يُغنيه جاء يوم القيامة ووجهه يتفقع ليس عليه لحم». وفي خبر آخر: «كانت مسألته خُدوشاً وكُدوحاً في وجهه». وفي الحديث: «استغنوا بغنى الله عز وجل. قالوا: وما هو؟ قال: غداء يوم أو عشاء ليلة» وفي الخبر: «من سأل وله خمسون درهماً أو عدلها من الذهب، فقد سأل إلحافاً». ومن كان معه هذا القدر من الدنيا

(١) من قوله: «ومحبته» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

لم يخرجهم من عموم الفقراء، فإن سأل مع ذلك أخرجه من عمومهم، ومن سأل قبل الجوع، أو بعد الشبع، أو سأل ليدخر، أو سأل وله غداء يوم، أو عشاء ليلة، أخرجه ذلك من خصوص الفقراء. وسئل سفيان الثوري عن أفضل الأعمال، فقال: التحمل^(١) عند المحنة.

وعلى الفقير أن لا يزكّي غنيًّا لأجل عطائه، ولا يذمه ولا يمقته لأجل منعه، ولا يعظم أهل الدنيا، ولا يكرمهم لأجل دنياهم. وقال ابن المبارك: من تواضع الفقير أن يتكبر على الأغنياء. وعن علي عليه السلام في حكاية المنام: ما أحسن تواضع الغنى للفقير رغبةً في ثواب الله عز وجل، وأحسن منه تيه الفقير على الغنى ثقةً بالله عز وجل.

ومن فرائض الفقر: أن لا يسكت الفقير عن حق، ولا يتكلم بهوى لأجل دوام العطاء من أحد، ولا لاجتلاب نفع؛ فإن ذلك وليجة في الدين ومداينة للمؤمنين.

ومن فضائل الفقر: أن لا يدخر لأكثر من أربعين يومًا، ولا يكون المدخر أكثر من أربعين درهمًا. والأصل في ذلك أن الله تبارك وتعالى قال عز من قائل: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ١٥]. فإذا فسح له في تأميل أربعين فالأدخار من الأمل؛ فإن أمل حياة أربعين يومًا جاز له أن يدخر لأربعين، ومن قصر أمله إلى يوم وليلة لم يدخر إلا ليومه وليلته، فترك الادخار مقتضى قصر الأمل. وقد جعل غنى الفقير في أربعين درهمًا، فهذا لعموم الفقراء. فأما خصوصهم فإن غناهم غداء يوم، أو عشاء ليلة؛ لقصر أملهم، كما جاء في الحديث الذي ذكرناه آنفًا.

ومن فضل الفقير أن لا يهتم برزق غد كما أن الله تبارك وتعالى لا يطالبه بعمل غد قبل مجيئه، ولأن الرزق معلوم مقسوم، والوكيل حفيظ قيوم^(٢)، وأن يكون

(١) في المطبوعة: «التحمل».

(٢) في (د): «قائم حافظ».

راضياً بفقره، شاكراً عليه، ويغتنب بالفقر لعظيم نعمة الله عز وجل عليه فيه، ويخاف أن يُسَلَب فقره أشد من خوف الغنى أن يُسَلَب غناه؛ لشدة اغتباطه به.

وفى الخبر عن رسول الله ﷺ: «يا معشر الفقراء، أعطوا الله عز وجل الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم، وإلا فلا». وروى عبد الرحمن بن سابط عن علي عليه السلام عن النبي ﷺ في حديث طويل: «أحبُّ العباد إلى الله عز وجل الفقيرُ القانعُ برزقه، الراضى عن الله عز وجل».

وينبغي أن يغمَّ بالاتساع، ويفرح بالضيقة والمصيبة، ويحب المساكين، ويفضِّلهم على أبناء الدنيا، ويرحم الأغنياء ولا يذمَّهم لأجل غناهم، ويؤثر الفقراء ويقربهم، ويحسن على الفقير خلقه، ويحمل معه صبره، ويستتر بالتعفف فقره، ويظهر الغنى ولا يكشف فقره بالتكبر له والشكوى.

وفى الخبر عن الله عز وجل: «إذا رأيتَ الفقرَ مُقبلاً فقل: مَرحباً بشعار الصالحين، وإذا رأيتَ الغنى مُقبلاً فقل: ذنبٌ عَجَلت عقوبته». وقال موسى: «يا رب مَنْ أجاؤك من خلقك حتى أحبَّهم لأجلك؟ فقال: كُلُّ فقير [متعَفِّف]»^(١) فقير». التكرير فيه لمعنيين؛ أحدهما: المتحقق بالفقر، والثاني: الشديد الحاجة والضرر.

وقال عيسى ﷺ: «إني لأحبُّ المسكنة، وأبغضُ الغنى». وقيل: كان من أحبَّ أسمائه إليه أن يقال له: يا مسكين. وقال رسول الله ﷺ في دعائه الذي تلقاه من ربه وأمره به: «أَسْأَلُكَ الطَّيِّبَاتِ، وَفَعَلَ الْخَيْرَاتِ، وَحَبَّ الْمَسَاكِينَ».

ومما يعتبر به فضل الفقر على الغنى: أن أفضلَ الخلق رسولُ الله ﷺ، فمن شاركه وقارنه بمعنى وصفه فهو الأفضل؛ لأنه الأمثل، فالأمثل وهم الفقراء، وصفهم الله عز وجل بوصفه فقال تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٩٢] الآية، فلما شاركوه في العدم، وكان حال الرسول ﷺ هو الأفضل والأتم، دلَّ على فضل حالهم على غيرهم.

(١) ساقطة من المطبوعة وهى من (د) فقط.

وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ [التوبة: ٩٣]. وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ * أَن رَّاهُ اسْتَفْنَى﴾ [العلق: ٦ - ٧]. فوصف الأغنياء بالطغور وأوقع عليهم الحجة. وقال في وصف الفقراء: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ﴾ [البقرة: ٢٧٣]. فلولوا أن الغنى مفضول ما نسب من وصفهم به إلى النقص، والغنى باب الدنيا وأصل التفاخر والتكاثر المذموم، والفقر باب الآخرة وأصل الزهد والتواضع المحمود.

وعند أهل المعرفة: إنَّ الغنى من الصفات التي لا ينبغي أن يُنازع فيها، ومكروهة لمن ابتلى بمعانيها، وأنه مثل العزِّ والكبر، وحبُّ المدح والذكر، فمن أحبَّ شيئاً من ذلك وطلبه فقد نازع الله تعالى لبسته، وتركوا ذلك لأجل الله عز وجل؛ لأنه من صفات الربوبية، وسلموه له خوفاً منه، أو حباً له. وإنَّ الفقر من صفات العبودية، مثل الرجاء والخوف، والتواضع والذل، فمن طلب ذلك وأحبَّه فقد تحقَّق بوصف العبودية. والله سبحانه وتعالى يحبُّ أن يتحقَّق العبد بأوصافه؛ لأنه عبدٌ ذليل، ويكره أن ينازعه معنى صفاته؛ لأنه ملكٌ جليل، ومن أحبَّ الغنى دلَّ على حبه البقاء. وكان سهل يقول: حُبُّ الغنى شرك في الربوبية. أى لأنَّ البقاء من صفات الباقي. ومن فضَّل الغنى على الفقر دلَّ على حبه للغنى، فظهر بذلك محبته للأغنياء؛ لأنَّ حُبَّ الوصف دليلٌ على حُبِّ الموصوف، وحبُّ الشيء أيضاً دليلٌ على بُغض ضده، فإذا أبغض الفقراء أبغض الفقر، وبَغَضَ الفقر لحب الغنى، فقد اختار الرغبة على الزهد، والكثرة على القلة، والعز في الدنيا على الذل. وفي هذا إيثار الدنيا على الآخرة، وهدم الآثار عن النبي ﷺ وعن الصحابة والتابعين في تفضيل الفقر وتشريف الأغنياء. ويقال: كان الفقر شرفاً للمؤمن، وكان الفقراء فيما سلف في المؤمنين بمنزلة الأشراف فيكم اليوم. ولا خفاء بفساد هذا القول ونقصه عند العلماء بالله تعالى.

ثم إنَّ الفقراء على منازل ثلاث:

فقراء الأغنياء، وهم السُّؤال عند الفاقات، الكافُّون نفوسهم مع الكفاية،

القانعون بالكفاف؛ وهم طهرة الأغنياء، ومزيدهم من الله تعالى، وهم الذين جعل الله لهم فى أموال الأغنياء سَهْمًا؛ لأن منهم السائل والمحروم، ومنهم القانع والمُعْتَرّ.

والطبقة الثانية: فقراء الفقراء، وهم المتحققون بالفقر، المختارون له، المؤثرون إياه على الغنى، لعظم معرفتهم بعظيم فضيلة أهل التعفف والصيانة، لا يتبدلون للسؤال، ولا يعرضون فى المقال، راضون بالميسور من مولاهم، تعرفهم إذا رأيتهم بسيماهم، يحسبهم الجاهل أغنياء لترك المسألة والشكوى. ومنهم: المحروم، حُرْم السعى للدين. ومنهم: المحارف، انحرفت عنه الأسباب، ومنهم: القانع، قَنِع بما يصل إليه من غير امتهان وتبذل فيه. ومنهم: المعتَرّ، رضى عن الله عز وجل بما يعتريه. وقيل: إنه ما أُعطى أحدٌ شيئًا من الدنيا إلا قيل له: خذه على ثلاثة لثلاث: شغل، وهم، وطول حساب.

وأما الطبقة الثالثة: فهم أغنياء الفقراء، وهم الأجوادُ الأسخياء أهل البذل والعطاء، يأخذون ويُخرجون، ولا يستكثرون ولا يدّخرون، إن مُنعوا شكروا المانع؛ لأنه هو المعطى، فصار منعه عطاء. وإن ضيق عليهم حمدوا الواسع؛ لأنه هو المحمود، فصار ضيقه رجاء، وإن أُعطوا بذلوا وآثروا، فهم الزاهدون فى الدنيا؛ لأنهم موقنون، فكفاهم اليقين غنى.

وقال إبراهيم بن أدهم لشقيق بن إبراهيم، حين قدم عليه من خراسان: كيف تركتَ الفقراء من أصحابك؟ فقال: تركتهم إن مُنعوا شكروا، وإن أُعطوا بذلوا وآثروا. فقبل رأسه وقال: صدقت يا أستاذ.

وقد كان بشر يقول: الفقراء ثلاثة؛ فقير لا يسأل، وإن أُعطى لم يأخذ؛ فهذا مع الروحانيين فى عليين. وفقير لا يسأل، وإن أُعطى أخذ، فهو مع المقربين فى حظيرة القدس. وفقير يسأل عند فاقته؛ فهذا مع الصادقين، وصدقه فى حاله كفارة مسألته.

ودُفع إلى إبراهيم بن أدهم ستون ألفًا، وكان عليه دين، وبه حاجات إليها، فردّها، فعُوتب فى ذلك، فقال: كرهتُ أن أمحو اسمى من ديوان الفقراء لستين

ألفاً. وقد كانت عائشة رضي الله عنها تفرق مائة ألف، وإن درعها لمرقوع، فقالت لها الخادمة: لو اشتريت لك بدرهم لحماً تفطرين عليه، فقالت: لو ذكّرتني لفعلت. وكان رسول الله ﷺ أوصاها فقال: «إن أردت اللّحوق بى فعليك بعيش الفقراء، وإياك ومجالسة الأغنياء، ولا تنزعى ثوباً حتى ترقعيه».

فأما معنى^(١) قول النبي ﷺ للفقراء: «ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء»، فلعلّ متوهمًا لم يتدبر أوّل الكلام، فظن أنّ هذا تفضيلٌ للأغنياء على الفقراء، وإنّما هو تحقيق لقوله الأوّل: «قولوا كذا وكذا، فإنه لا يسبقكم أحدٌ قبلكم، ولا يُدرككم أحدٌ بعدكم»، فقالوه. فلما سمع الأغنياء بذلك فقالوا كقولهم، هجس في قلوب الفقراء منه شيء، فاستفتوا رسول الله ﷺ ليتثبتوا في قوله، فقال: «الأمر كما قلتُ لكم، لا يسبقكم أحدٌ قبلكم»، إذ قد صحّ منه هذا القول في الأوّل، وهو معصوم فيه، فلو لم يكن كذلك لنقض آخرُ قوله أوّله، ولا يجوز ذلك. وأيضاً: فإن حُمِلَ على ظاهره كما تأوله، فإنه فضلُ الله تعالى في الدنيا، لا تفضيل لهم به في الآخرة على مقامات الفقراء، إلّا أنّ الأولى قد قامت بفضلهم، ويصلح بمعناهم فضلُ أعطاهم الله تعالى بهذا القول الذي قلتموه، زادهم الله به، لا أنّه أفضل من مقامكم وحالكم بغيره، إذ قد ثبت فضلُكم عليهم بوصف الفقر وحال الصبر بغير هذا الذكر؛ وهذا التسبيحُ رجحانٌ لكم تماماً على فضلُكم بغيره، وهذا القول للأغنياء تفضُّلٌ من الله عليكم ورحمة، لا أنهم يفضلون به عليكم.

ونحن لم نقل: ليس الغنى طريقاً للأغنياء إلى الله، وإنّما فضلنا طريق الفقراء؛ لأنهم الأمثل فالأمثل بالأنبياء. وعن الحسن في قوله عز وجل: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ٢٢] قال: الفقراء والأغنياء، فجعل الفقراء أحياءً بمولاهم، وجعل الأغنياء موتى بديناهم. وقال الثوري رحمه الله: إذا رأيت الفقير يُدْخِلُ الأغنياء فاعلم أنّه مرء، وإذا خالط السلطان فاعلم أنّه لصّ. وقال بعض العارفين: إذا مال الفقيرُ إلى بعض الأغنياء انحلت عُروته، فإذا طمع فيهم انقطعت عصمته، فإذا سكن إليهم ضلّ.

(١) هذا التأويل قد مرّ في المجلد الأوّل مفصلاً.

فمن فضلّ الغنى على الفقر بعد الأخبار التى وردت فى تفضيل الفقر والفقراء وذمّ الغنى والأغنياء، فأحسن حاله الجهل بالسنن؛ لإيثار الرأى والهوى على ما فيه أثر وسنة؛ لأن الأثر إذا جاء فى شيء لم يكن للرأى فيه مدخل، وكان فى مخالفته مع العلم به عناد ومحادة. نعوذ بالله من الجهل والهوى، ونسأله التوفيق للعلم والتقوى.

• ذكر حكم من لا معلوم له من الأسباب؛

فإن لم يكن للفقير معلوم من الدنيا، وكان رزقه قد أُجرى على أيدى العباد من غير تعويض منه لهم من صنائع الدنيا معتاد، فقد روينا عن رسول الله ﷺ: «إن هذا المال مالُ الله، فمن أخذ به حقه بورك له فيه، ومن أخذ به بإشراف نفسٍ لم يُبارك له فيه». فكان كالأكل ولا يشبع.

وروينا: «من أتاه شيءٌ من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف، فإنما هو رزقٌ ساقه الله تعالى إليه - وفى لفظ آخر: فلا يردّه - فإن كان محتاجاً إليه، وإلا فليصرفه إلى من هو إليه أحوج منه».

وروينا عن الحسن وعطاء حديثاً مرسلًا أن النبى ﷺ قال: «من أتاه رزقه من غير مسألة فردّه فإنما يردّه على الله». وروينا عن عابد بن شريح، عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ: «ما المعطى من سعةٍ بأعظم أجرًا من الآخذ إذا كان محتاجًا».

وقال بعض العلماء: لو هرب العبد من رزقه لطلبه حتى يصل إليه، كما لو هرب من الموت لأدركه. وقال أبو محمد رحمه الله: لو أن العبد سأل ربّه فقال: لا ترزقنى، لما استجاب له، وكان عاصيًا. ويقال له: يا جاهل لا بد أن أرزقك كما خلقتك.

وقد حدثنا بعضُ العارفين: أنه زهد فى الدنيا، فبلغ من زهده أن فارق الناس، وخرج من الأمصار، وقال: لا أسأل أحداً شيئاً حتى يأتينى رزقى إن كان لى رزق. قال: فأخذ يسيح، فأقام فى سفح جبل سبعةً، لم يأتته شيء حتى كاد أن

يتلف. قال: يا ربّ إن أحييتني فأنتني برزقي الذي قسّمت لي، وإلا فاقبضني إليك، فأوحى الله تعالى إليه: وعزّتي لا أرزقك حتى تدخل الأمصار، وتقيم بين الناس. فدخل المصر للأمر، وأقام بين ظهرائي الناس، فجاءه هذا بطعام، وهذا بإدام، وهذا بشراب، فأكل وشرب، فأوجس في نفسه من ذلك، فأوحى الله إليه: «أردت أن تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا، أما علّمت أنّي أن أرزق عبدي بأيدي عبادي أحبُّ إليّ من أن أرزقه بيد القدرة».

وقال بعض المنقطعين إلى الله من العارفين: كنت ذا صنعة جليلة، فأريد منّي تركها، فحاك في صدري: من أين المعاش؟ فهتف بي هاتف لا أراه: تنقطع إليّ وتتهمني في رزقك، علىّ أن أخدمك ولياً من أوليائي، أو أسخر لك منافقاً من أعدائي. وفي خبر عن بعض السلف: أوحى الله تبارك وتعالى إلى الدنيا: اخدّمي من خدمني، وأتعبني من خدمك.

وقال بعض المجاورين بمكة: كانت عندي دراهم أعددتها للإنفاق في سبيل الله، فرأيت ذات ليلة فقيراً يطوف بالكعبة في ظلمة الليل، حسن الهدى والسّمت. قال: فكنت أتبع آثار قدمه وأمشي خلفه من حيث لا يشعر. فلما قضى أسبوعه وقف في الملتزم بين الباب والحجر، فسمعته يدعو دعاء خفياً، فأصغيت إليه، فإذا هو يقول: جائع كما ترى، عريان كما ترى، فما ترى فيما ترى، يا من يرى ولا يرى. قال: فنظرت فإذا عليه خلقان رثا لا تكاد أن تواريه، فقلت في نفسي: لا أجد لتلك الدراهم موضعاً خيراً من هذا. قال: فتبعته حتى انصرف إلى ناحية قبة زمزم يصلي ركعتي الطواف، وذهبت إلى منزلي فجئت بالدراهم فدفعتها إليه، وقلت: رحمك الله، أنت في مثل هذا الموضع، وعلى مثل هذه الحالة، فخذ هذه تنفقها. قال: وصيّبتها في طرف إزاره بين يديه على الأرض، فنظر إليها، ثم أخذ منها خمسة دراهم فقال: أربعة ثمن مئزرين، ودرهم أتقوت به ثلاثاً. ثم قال: لا حاجة لي بسائرهما. قال: فرأيت ليلة الثانية وعليه مئزران جديدان قد لبسهما. قال: فهجّس في نفسي من أمره شيء، فقبض على يدي، فأطافني معه أسبوعاً، كل شوط منها في جوهر من معادن الأرض تتخشخش تحت أقدامنا إلى الكعبين،

منها ذهب وفضة وياقوت ولؤلؤ وجوهر، لم يظهر للناس، فقال: هذا كله قد أعطيناه فزهدنا فيه، ونأخذ من أيدي الخلق أحب إلينا؛ لأنه أحب إلى الله، وأخف علينا في المطالبة. وهذه أثقال وفتنة، وذاك للعباد فيه رحمة ونعمة.

وروينا في خبر: البلاد بلاد الله، والخلق عباده، فأينما وجدت رزقاً فأقم، واحمد الله.

وروينا عن ابن عباس: اختلف الناس في كل شيء إلا في الرزق والأجل، أجمعوا على أن لا رازق إلا الله، ولا يميت إلا الله. وقال: إن الله عز وجل لما خلق الأرزاق أمر الرياح أن تمزقها في أقطار الأرض ففرقها. فمن الناس من وقع رزقه في مائة ألف موضع، ومنهم من وقع رزقه في عشرة آلاف موضع، ومنهم في ألف موضع، ومنهم في مائة موضع، ومنهم في موضع وأقل وأكثر، ومنهم من وقع رزقه على باب منزله يغدو ويروم إليه، وكل عبد يسعى بأثره الذي كتب له، حتى يستوفى رزقه الذي قسم له، فإذا فنى أثره واستوفى رزقه جاءه ملك الموت فقبض روحه.

واعلم أن العبد لا ينقطع رزقه أبداً منذ أظهرت خلقتة، كان في بطن أمه غذاؤه مما تفيض الأرحام من دم الحيض، يعيش بذلك جسمه من ظاهره، ومعاه المستطيل من سرته متصل بمعى أمه، يصل من بطنها مخ الطعام إلى بطنه، فيعيش بذلك، فإذا أذن الله عز وجل بخروجه بعث إليه الملك، فقطع ذلك المعى من موضع اتصاله بمعى أمه، فإذا دخل إلى الدنيا جعل رزقه من الدنيا، فإذا خرج منها فأخر رزقه من الدنيا أول رزقه من الآخرة، فإذا دخل في الآخرة كان رزقه من البرزخ، كما كان في الدنيا بتلك المعاني لمعانيه المختلفة المحتملة لذلك، فإذا خرج من البرزخ ودخل في القيامة كان رزقه في الموقف على قدر حاله هناك، فإذا خرج من الموقف ودخل أحد الدارين انتقل رزقه إليها، فكان منها إلى أبد الأبد؛ فإذا شهد العبد هذا بيقين إيمانه اطمأن قلبه، فاستوى عنده الرزق والأجل، فعلم يقيناً أن لا بد من رزق، كما لا بد من أجل، فلم يكن عليه إلا مراعاة الأحكام فيه، وشهد من هذه الشهادة أن خلقاً لا يقدر أن يزيد في عمره ساعة، ولا ينقص منه ساعة؛

فإذا أيقن بهذا كان مشغولاً بالمخالصة لمولاه فيما تعبده به وولاه.

ثم إن الرزق على وجهين؛ عن معان لا تحصى، وبأسباب لا تُعدّ ولا تضبط. فمن الرزق ما يأتي العبد بسكونه وقعوده، فيكون الرزق هو الذي تحرك إليه ويأتيه. ومنه ما يأتي العبد بحركته وقيامه، فيكون يتسبب إليه ويطلبه، والرزق فيهما واحد، والرازق بهما واحد، والحكمة والقدرة في المتحرك القائم وفي الساكن القاعد واحد، إلا أن الأحكام فيهما متفاوتة. ثم إن الأشياء كلها على ضربين: مسخر لك، ومسَلَّط عليك، فما سخر لك سلَّطت عليه، وهو نعمة عليك، وعليك الشكر عليه؛ وهذا مقام الشكر على معنى الرزق. وما سلَّط عليك فقد سخرت له أنت، وهو بلاء عليك، وعليك الصبر فيه؛ وهذا مقام الصبر عن معنى الابتلاء. فمن شهد ما ذكرناه عرف حاله من مقامه، فقام بحكم ما عرف، ومن لم يشهده جهل حاله، ولم يدر مقامه، فاضطرب فيه، فضيَّع حكم الله عليه.

والمستحب لمن لا معلوم له أن لا يأخذ مما آتاه إلا قدر الحاجة، وعلامة حاجته هو أن لا يأخذ إلا ما يحتاج أن يشتريه، فهو حاجته في وقته؛ فذاك رزق من الله تعالى ومعونة له، فأخذ هذا أفضل، وما آتاه مما لا يحتاج أن يشتريه أو عنده مثله فهو اختبار له وابتلاء، لينظر كيف زُهد في فضول حاجته، وكيف رغبته في الاستكثار؛ لأنه إذا ملك الشيء فكأنه قد كان له، فيعلم الآن بمعرفته أن هذا ابتلاء من الله، وفيه حكمان؛ أحدهما: أن يأخذه في العلانية، ويُخرجه في السر إلى من هو أحوج إليه منه؛ هذا طريق الأقوياء، ومن أشد الأشياء على النفس، وهو الذي أمر به النبي ﷺ عمر وغيره؛ وهذا حال علماء الزاهدين. والحكم الآخر: أن لا يأخذه ليصرفه صاحبه إلى من هو أحوج إليه منه؛ لأن الله تعالى له عليه فيه أحكام؛ وهذا هو الطريق الأوسط من طرق الزهاد. فإما أن يأخذه من غير حاجة ليتكثر به ويدخره، فلا أعلم في هذا طريقاً إلى الله تعالى، وما لم يكن طريقاً إلى الله فهو من طرقات الهوى إلى العدو. ثم ينظر الآخذ فيما آتاه من الله إلى أحكامه فيه، فإن كان ما يأتيه من الزكاة المفروضة على أربابها، المشتري لها

الأوصاف الستة المنصوص عليها في الكتاب؛ فذلك أضيّق عليه، وألزم له في الاحتياط لأخيه أن يضعه في حقيقة موضعه عند أخيه، نُصحاً لله تعالى في دينه، ونصحاً لإخوانه في ربه، فإن الأفضل في ذلك أن لا يضعه إلا في أربعة أشياء: مطعم، وملبس، ومسكن، ودين في قضائه عنه؛ فهذا من أفضل ما صُرِفَ فيه الواجبات.

وقد روينا عن ابن عباس: من اشترى ما لا يحتاج إليه باع ما يحتاج إليه. وفضول الدنيا، وهو الزيادة على الكفاية، لا يحتاج إليه، والدين يحتاج إليه، فلا ينبغي للعاقل أن يبيع ما يحتاج إليه من دينه بشراء ما لا يحتاج إليه من دُنياء، فتكون صفقته خاسرة، وتجارته باثرة. والشهوات لا حدَّ لها، لأنه لا غاية يُنتهى إليها فيها، والقوتُ له حدٌّ وغاية ينتهى إليه فيها. وقد جاء عن النبي ﷺ: «لا حق لابن آدم إلا في ثلاث: طعام يقيم صلبه، وثوب يُوارى عورته، وبيت يُكنه، فما زاد فهو حساب». وهذه الثلاث مع ابن آدم في بطن أمه، وفي قبره، وبين ذلك في دُنياء، وبعد ذلك في عُقباه. فالأخذُ لمصالح هذه الثلاث مأجورٌ عليه العبد، والردُّ لما زاد عليها هو أفضل من الأخذ.

وينبغي أن يكون العبد الذي لا معلوم له عارقاً بأحكام العطاء؛ فإنَّ العطاء من الله لعبده على أربعة أنواع: نوعان محمودان، ونوعان مكروهان. فالمحمودان: ما كان بمعنى الرفق والمعونة، والمكروهان: ما يكون بمعنى الاختبار والابتلاء. فعلى العبد أن يفرّق بين الاختبار والبلاء^(١)، وبين الرفق والمعونة.

فتفصيل ذلك: أنَّ الابتلاء ما جاءه من الأسباب قبل الحاجة إليه، أو جاءه وله غُنية عنه، أو عنده مثله؛ فهذا ابتلاءٌ من الله تعالى له، لينظر عمله فيه. فالأفضل في هذا أن يخرج به، فيكون معاملاً لله تعالى به في السرّ، مسقطاً لمنزلته عند الناس في العلانية. فإن لم يقوَ على هذا لِثقل حَمَله على النفس، فالأفضلُ بعده أن لا يأخذه ليحكم الله فيه ما يشاء، وليتحكم صاحبه فيه كيف شاء، فإن الله تعالى

(١) من قوله: «فعلى العبد» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

عليه فيه حكماً، نصحاً لله في حكمه^(١)، ونصحاً لأخيه في ماله، سيما إن كان من الواجب.

والاختبار أن يكون الفقير قد نوى ترك أكل شيء، أو اعتقد التقلل في شيء قريبه إلى ربه تعالى؛ لمخالفة هوى نفسه، وعملاً في صلاح قلبه، يتباعد به مما يدخله في الكثرة، ويحلّ عليه عقده. فردُّ هذا أفضل، وهو من الزهد والرعاية للعهد. فإن أخذه ثم أخرج به إلى محتاج؛ فهذا هو زهد الزهد، وله في هذا معاملات؛ منها: أن العبد مندوبٌ إلى الإيثار، فإذا كان فقيراً وملك شيئاً فأخرج به كان في ميزانه. ومنها: موافقة السنة في أنه قد أمر بأخذه أو دفعه إلى من هو أحوج إليه منه. ومنها: أن أخذ هذا في العلانية من الناس وردّه في السرّ إلى الله تعالى كبيرةٌ على النفوس إلا على الخاشعين؛ لأن النفس تسقط في منزلتها، ثم لا ينال به سعتها، فلا يصبر على هذا إلا الموقنون؛ وهذا مقام الزاهدين في النفس؛ وهو حال أغنياء الفقراء، وعلماء الزهاد، وهم أهل الطبقة العليا الذين قدّمنا ذكرهم.

والوجهان الآخران من العطاء: هو الرفق، وصورته أن يأتيه الرزق عند حاجته أو مع شهوته للشئ الذي لا يقدر عليه، فيعلم الله ذلك منه، فيبعث به إليه من غير طمع في خلق، أو يأتيه ما يصلح أن يشتريه ليرتفق بمنافعه. فهذا النوع من العطاء رفق الله سبحانه الأفاضل للعبد أن يأخذه، وربما خيف من ردّ مثل هذا عقوبة من زوال عقل، أو ردّ إلى غلبة طبع، أو ابتلاء بطمع في خلق، أو دخول في دنيء من مكسب.

وقال بعض العلماء: من أعطى ولم يأخذ سأل ولم يعط، وهذا من النوع الذي قال رسول الله ﷺ: «ما المعطى من سعة بأعظم أجراً من الآخذ إذا كان محتاجاً». فأخذ هذا مشاركةٌ لمعطيه في الأجر، من حيث استويا على المعاونة في التقوى والبرّ المأمور بهما، ولا يضرّ هذا العطاء أخذه. وقد كان سرى السقطي يوصل إلى أحمد بن حنبل شيئاً، فيرده، فقال له سرى: يا أحمد، احذر آفة الردّ، فإنها أشدّ

(١) من قوله: «وليتحكم صاحبه» إلى هنا من (م)، وهو ساقط من المطبوعة.

من آفة الأخذ. فقال له أحمد: أعد عليّ ما قلتَ، فأعاده، فقال أحمد: ما رددتُ عليك إلا لأن عندى قوت شهرٍ، فأحبسه لى عندك، فإذا كان بعد شهر فأنفذه إلى.

والرابع من العطاء: هو المعونة؛ وهذا يكون مخصوصاً لأهله؛ هو أن يكون فى خلق هذا الفقير البذل والإفضالُ، وفى غريزته السخاءُ والاتساعُ من إطعام الطعام وإيثار الفقراء، فلا يتسع لذلك حاله وتضييق عنه يده، فيبعث الله إليه بالعطاء معونةً له على أخلاقه؛ ليلبّغه به مراده، وينفذ له من المعروف والبرّ عاداته، ويُعينه على خُلُقهِ ومروءته؛ فهذا النوع من العطاء هو الاختبار عند العارفين، والأفضلُ أخذه وإمضاؤه فى سبله من المروءات والأخلاق؛ وهذا كان طريقة كثير من السلف، وقد غلط فى هذا الطريق قومٌ لم يكن لهم زهدٌ، وقد كانت فيهم رغبةٌ وهمم دينيةٌ، فاقتنعوا فى قبول هذا العطاء لنفوسهم وتملّكوه، واستأثروا به، وزعموا أنّ هذا هو الاختبار، فخالفوا السلف فى معرفة الابتلاء من الاختبار؛ لأن هذا عند العارفين - إذا لم ينفذ ويؤثر - به ابتلاء، ووافقوا أهواءهم فى التوسع منه والتكثُر به، وتملّكوه بالدعوى، فأخطؤوا فى العلم لإحالة المعنى، وغلطوا فى طريق الحال لوجود الهوى. وقد كان بعض القاعدين من الصادقين يدّان على الله؛ لحسن ظنه به، فإذا رزقه قضاؤه، فإن مات هذا على هذه النية فلا تَبَعَة عليه فيه فى دينه، على مولاه قضاؤه وأن يرضى عنه غرماءه، وقد كان فيما سلف يُقضى دينٌ مثل هذا من بيت مال المسلمين. وكان آخرون لا يقترضون حتى يبيع أحدهم أحد ثوبيه، أو فضلَ ما يحتاج إليه؛ وهذا أحدُ الوجوه فى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧]. قال: من ضيَّقَ عليه معاشه فليبيع أحد ثوبيه. وقد قيل: فليستقرض بجاهه، فذلك آتاه الله عز وجل.

وقال بعضهم: لله عباد ينفقون على قدر بضائعهم، وله عبادٌ ينفقون على قدر حُسن الظن به. ومات بعضُ السلف، فأوصى بماله أن يفرَّق على ثلاث طوائف: الأقوياء، والأغنياء، والأغنياء، فقليل: من هؤلاء؟ قال: أما الأقوياء فهم أهلُ التوكّل على الله، وأما الأغنياء فهم أهلُ حُسن الظنّ بالله، وأما الأغنياء فهم أهلُ

الانقطاع إلى الله .

وينبغي لمن لا معلوم له من الأسباب أن يتورّع في أخذها، ويتحرّى المعطين لها، كما يتحرى أهل المكاسب في الاكتساب؛ لأن الله سبحانه وتعالى له في كل شيء حكم، والعود عن المكاسب لا يسقط أحكامها، والقاعد عن الطلب لا تسقط عنه أحكام الطالب؛ لأن ترك العمل عملٌ يحتاج إلى عمل. ولم تكن سيرة الفقراء الصالحين أن يأخذوا من كل أحد، ولا في كل وقت، ولا يأخذون كلما يُعطون مما زاد على كفايتهم، إلا أن يكونوا ممن يخرجهم إلى غيرهم، وإما كانوا يقبلون ممن يخفّ على قلوبهم القبول منه، ومن ترتفع الوحشة والحشمة فيما بينهم وبينه؛ لأن ذلك هو الذي يفرح بقبولك، ويرى نعمة الله تعالى عليه في أخذك. ومن يثقل على قلبك معروفه، فهو الذي يثقل على قلبه إخراج ما في يده، ولا يغتم بردّك عليه.

وقال بعض العارفين: ما تواخى اثنان في الله عز وجل، فاحتشم أحدهما من صاحبه أو استوحش منه إلا من علة في أحدهما.

فلا يستحب للفقير أن يأخذ إلا من صديق، ولا يقبل إلا ممن يحب؛ لأن لأهل المعرفة بالله عز وجل أن يحكموا في الأسباب بما أراهم الله تعالى من الردّ أو من القبول، فإن اعتل معتلٌ بما رويناه آنفاً: «من جاءه شيءٌ من غير مسألة فردّه فإنما يرده على الله تعالى»، وبأن أهل المعرفة يشهدون أنّ العطاء من الله سبحانه وتعالى، فلا يصلح أن يردوا عليه - قيل له: إنّ من يشهد العطاء من الله تعالى هو الذي يشهد الردّ أيضاً منه، فإن ردّ إليه له أو ردّ إليه به، لمعرفته باختباره، وابتلاء حسن الردّ منه، وشكر الفعل له، فهو أيضاً: إذا شهد تصريف الخلق بالعطاء فعل عز وجل، كان يشهد فعل نفسه بالردّ فعل الله تبارك وتعالى بالمنح؛ فالحالان سواء عند من علم الأحكام، ولم يتبع الهوى، وقام بحكم ما منه يقتضى، فليس في هذا حجة إلا لعالم مستكثر، أو لعابد جاهل غير مستبصر.

على أن في القبول من بعض الناس دون بعض وفي ردّ بعض الهدية سنة. أهدى إلى النبي ﷺ سمنٌ وأقط وكبش، فقبل السمن والأقط، وردّ الكبش. وقد

كان النبي ﷺ يقبل من بعض الناس، ويردّ على بعض، وقال: «لقد هممتُ مراراً أن لا أتهب إلا من قرشى أو ثقفى أو دوسى»، وفعل هذا جماعة من التابعين. جاءت صرةٌ إلى فتح الموصلى فيها خمسون درهماً، فقال: حدثنا عطاء أن النبي ﷺ قال: «من أتاه رزقٌ من غير مسألة فردّه فإنما يردّه على الله عز وجل»، ثم فتح الصرة فأخذ منها درهماً، وردّ سائرهما. وقد كان الحسن البصرى يروى هذا الحديث أيضاً، ثم حدثنا عنه أن رجلاً أهدى إليه كيساً فيه مال، ورزمة فيها من دقّ خراسان، فردّ ذلك، فقال له بعض أصحابه فى ذلك، فقال: من جلس مثل مجلسى هذا، وقبل من الناس مثل هذا، لقي الله عز وجل يوم القيامة وليس له عند الله عز وجل خلاق.

وقد كان الحسن يقبل من أصحابه، وكان إبراهيم التيمى يسأل أصحابه الدرهم ونحوه، ويعرض عليه غيرهم المائتين فلا يأخذ. وقد كان بشر بن الحارث لا يقبل من الناس شيئاً. وكان بعضهم يقول: أحبُّ أن أعلم من أين يأكل؟ فقال له مَنْ يَخْبُرُ أمره: أنا أدري من أين يأكل؛ له صديقٌ عاقل. يعنى: نظيره فى العقل والدين؛ لأنّ بعضهم كان لا يقبل إلا من نظرائه لا من الأتباع، وهذا الصديق العاقل الذى كان يقوم بكفائته، ولم يكن يظهر أمره، ولا يلتقى معه؛ هو سرى ابن المغلس السقطى؛ لأنّا حدثنا عن بشر أنه قال: ما سألتُ أحداً قط شيئاً من الدنيا إلا سرّياً السقطى؛ لأنه قد صحّ عندى زهده فى الدنيا، فهو يفرح بخروج الشيء من يده، ويتبرّم ببقائه عنده، فأكون أعينه على ما يحبّ.

وقد كان سرى يوجّه إلى أحمد بن حنبل فى حاجاته فيقبل منه، وكان إذا ذُكر عند أحمد يقول: ذاك الغنى المعروف بطيب الغنى، إنه ليعجبني أمره.

وكان بعض العباد إذا دفع إليه بعض أبناء الدنيا الشيء، يقول: دعه عندك، واعرض على قلبك كيف أنا عندك بعد الأخذ، أفضل، أو دون ذلك، وأصدقنى؟ فإن قال له: أنت عندى الآن أفضل منك قبل ذلك قبل، وإن أخبره بنقصانه فى قلبه لم يقبل منه. وكان بعضهم يردّ على أكثر الناس صلته، فعوتب فى ذلك فقال: ما أردّ إلا إشفافاً عليهم ونصحاً لهم، يذكرون ذلك ويحبون أن يُعلم به،

فتذهب أموالهم، وتُحبط أجورهم. ومن ذهب إلى هذا سُفيان الثوري، وقد كان يشترط على بعض من يأخذ منه أن لا يذكره، إشفافاً عليه من ذهاب أجره؛ لأنه قيل في معنى قوله عز وجل: ﴿لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤]، قال: المنّ أن يذكره، والأذى أن يظهره.

وقال الجنيد للخراساني الذي جاءه بمالٍ وسأله أن يأكله، فقال الجنيد: بل أفرقه على الفقراء. فقال: أنا أعلم بالفقراء منك، ولم أختَر هذا. فقال الجنيد: أنا أؤمِّل أن أعيش حتى آكل هذا؟! فقال: إني لم أقل لك أنفقه في الخلِّ والكامخ والبقل، إنما أريد أن تنفقه في الطيبات وألوان الحلاوة، فكلما نفد أسرع كان أحبَّ إليّ. فقال الجنيد: مثلك لا يحل أن يرَدَّ عليه، فقبله. فقال الرجل: ما ببغداد أحدٌ أعظم منهُ عليّ منك. فقال الجنيد: وما ينبغي لأحدٍ أن يقبل منه إلا من كان مثلك. فهذه كانت طرائق أهل الحقائق.

ولا ينبغي للقاعد عن المكاسب إلا أن يكون تاركاً ذلك لأجل الله سبحانه، عالماً في قعوده بأحكام الله عز وجل، قائماً بعلم حاله، فيحسن يومئذ قعوده عن الأسباب، ثقةً منه بالمسبب الوهاب، ويحلّ تركه للمعلوم يقيناً منه بالعالم.

وقد كان بعض العلماء يقول: لا تأكل إلا عند من يعلم أنك أكلت رزقك، ولا تشكر عليه إلا ربك. ودعا بعضُ الناس شقيقاً البلخي، وكان في طبقة من أصحابه نحو الخمسين رجلاً، فوضع الرجل طعاماً واسعاً وأنفق نفقةً كثيرة، فلما قعدوا قال لهم شقيق: إن هذا الرجل يقول: من لم يرني صنعتُ هذا الطعام وأنا أقدمه إليه فطعامي عليه حرام. قال: فقاموا كلهم خرجوا إلا شاباً كان فيهم نقصت مشاهدته عنهم. فقال صاحب المنزل لشقيق: رحمك الله، ما أردت إلى بهذا؟ فقال: أردتُ أن أجربُ توحيد أصحابي، أي: كلهم لا يراه فيما صنع، ولا ينظرون إليه فيما قدّم، إلا ذلك الغلام وحده.

وحدثونا عن موسى ﷺ أنه قال: يا رب جعلت رزقي هكذا على أيدي بني إسرائيل، يغديني يوماً هذا، ويعشيني هذا الليلة. فأوحى الله إليه: هكذا أصنع

بأوليائى، أجرى أرزاقهم على أيدي الطالبين من عبادى، ليؤجروا فيهم.

والعالم القاعد عندهم أفضل من الجاهل المتصرف، والعالم المتكسب أفضل من القاعد الجاهل، والقوى التارك للتصرف أفضل عندهم من الضعيف المتصرف، والقوى المتصرف أفضل من الضعيف التارك للتصرف.

وقد جعل الله المستحقين للعتاء ستة، ذكرهم فى آيات ثلاث، فقال عز وجل فى الآية الأولى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]. وقال فى الثانية: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩]. وقال فى الثالثة: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦]. فمن لا معلوم له من تكسب أو تصرف فهو أدخل شىء فى هذه الآيات، وأحوج إلى الإعطاء. ومن كان ذا معلوم يحتاج إلى أكثر منه؛ لفصل عيلة، أو كثرة نفقة، فإنه يدخل بمعنى من أوصافهم. وكان ابن عباس رضى الله عنه يقول فى الآية: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾: نزلت فى أهل الصفة ومن كان فى معناهم إلى يوم القيامة، وكانوا أربعمئة وخمسين رجلاً، لم تكن لهم عشائر بالمدينة، ولا أموال كالمهاجرين والأنصار، وكانوا نزاع القبائل، أسكنهم رسول الله ﷺ صفة المسجد، وقسم الله عز وجل لهم الأموال.

ثم إن الله سبحانه وتعالى أفرد طبقة سابعة عن جمل هؤلاء الستة، ووصفهم بأحسن الصفات، وفضل أجور المنفقين بطيب الإكساب عليهم، الطالبين وجه الله عز وجل، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٧]. وقال: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوفَّ إِلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. وكل هذا متصل متعلق بقوله عز وجل: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] إلى آخر أوصافهم. فوصفهم بالإحصار فى سبيله، وبالعفة عن الدنيا وأبنائها، وأنهم لا يلتحفونها التحافاً؛ لزهدهم فيها، وسمى من لا يعرف أوصافهم جاهلاً؛ فهذه الطائفة فوق الطبقات الموسومة بالصدقات، المقسوم

عليها الزكوات، بل أمر المؤمنين بالإنفاق عليهم من الاكتساب للطيبات من بعد وصف أحسن الخالقين لهم. والله تبارك وتعالى لا يحب عبداً إلا وصفه، فإذا مدحه بوصف وأثنى عليه، ثبتت محبته له في المدح والوصف، دليل على الحب والمحبة، تدل على الفضل العظيم، كما قال تعالى في آخر وصف المحبين: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقد قال بعض الصوفية في معنى قول النبي ﷺ: «يد المعطى هي العليا ويد المعطى هي السفلى»: إن المعطى هو الفقير، وإن المعطى هو الغنى. ويصلح أن يستدل له بأن حقيقة الإعطاء هو النصيب من الآخرج وعطاؤه منها، فصار هو المعطى، وصار الغنى هو المعطى. ويكون دليل هذا القول الخبرين الآخرين: قوله: «إن الصدقة تقع بيد الله سبحانه وتعالى قبل أن تقع بيد السائل»، وهو يضعها في يد السائل، فقد صارت يد الفقير هي العليا. والخبر الآخر: «يد الله العليا ويد المعطى الوسطى»، فهذا يصحح أن الفقير هو المعطى، إذ كانت يد الله تبارك وتعالى فوقه؛ لأنها هي التي تضع في يده العطاء، فكانت يده هي الوسطى.

فإن قيل: قد رتب الأيدي بقوله تعالى: يد الله هي العليا، ويد المعطى هي الوسطى، ويد المعطى هي السفلى، فينبغي أن يكون المعطى هو الغنى، إذ كان العطاء يظهر عندنا على الترتيب. قيل له: إن يد الله تبارك وتعالى فوقهما معاً، وهى لا تدخل تحت الترتيب، فيده سبحانه وتعالى العليا عليهما جميعاً، قال تبارك وتعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، وقد علمنا أن أيديهم بعضها فوق بعض، ثم أخبر مع ذلك أنها فوق الكل؛ ولأنه هو المعطى الأول لهما جميعاً، فكما لا أول أول منه في العطاء، فكذلك لا يد فوق يده في الإعطاء، وإنما الترتيب بين الغنى والفقير أيهما المعطى بعد يد الله تعالى، فقلنا: إن المعطى في الحقيقة، إذ كان العطاء الحقيقي هو ما يبقى ويدوم، لا ما يفنى ويزول؛ وذلك هو العطاء من الآخرة الباقية، فصار الفقير هو المعطى للغنى في الدنيا نصيبه من الآخرة؛ لأنه عمارة منازلها فيها، والغنى رقيق^(١) الفقير من الدنيا وعمارة دنياه

(١) في المطبوعة: «رفق بالفقير»، وفي (م، هـ): «رفق الفقير»، وأثبت ما في (د).

الفانية، والدنيا موصوفة بلا شيء، فأى شيء يعطى منها؟ فأما يدُ الله تعالى فإنها فوقهما، والذي أعطاهما جميعاً؛ لأن يده فوق الفوق، وفوق التحت، لا يوصف بتحت ولا بأسفل، تعالت أوصافه العليا عن نعوت الخلق السفلى، وهو لا يدخل تحت القياس والتشبيه.

فقد حدثنا بعض إخواننا عن شيخ له فقال: رأيتُ أبا الحسن النورى يمدّ يده ويسأل الناس فى بعض المواطن، قال: فأعظمتُ ذلك واستقبحتّه. فأتيتُ الجنيد فأخبرته. فقال: لا يعظم هذا عليك، فإن النورى لم يسأل الناس إلاّ ليعطيهم، إنما سأل لهم ليشبهم من الآخرة، فيؤجرون من حيث لا يضره. ثم قال: هات الميزان. قال: فوزن مائة درهم، ثم قبض قبضة فألقاها على المائة. ثم قال: احملها إليه. قال: قلتُ فى نفسى: إنما يوزن الشيء ليعرف مقداره، فهذا قد خلط منه شيئاً آخر فصار مجهولاً، وهو رجل حكيم، فاستحييتُ أن أسأله عن ذلك. قال: فذهبتُ بالصرّة إلى النورى، فقال: هات الميزان. قال: فوزن مائة درهم وقال: رُدّها عليه، وقل له: أنا لا أقبل منك أنت شيئاً، وأخذ ما زاد على المائة. قال: فقلتُ: هذا أعجب، فسألته: لم فعلت هذا؟ فقال: الجنيد رجلٌ حكيم، يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه، وزن هذه المائة لنفسه للشواب من الآخرة، وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عز وجلّ، فأخذتُ ما كانت لله عز وجلّ، ورددتُ ما كان جعله لنفسه. قال: فرددتُها إلى الجنيد، فبكى وقال: أخذ ماله، ورد مالنا، الله المستعان^(١).

وما بلغنا أن نبياً بعثه الله تعالى، وأنزل عليه كنزاً يأكل منه، ولا جعل معه ملائكة تخدمه، وإنما كانت طعمته بأيدي أمته، وكان أتباعه منهم يخدمونه، فيثابون على ذلك، فتكون الحكمة فيه أبلغ لما يعود بالنفع، ولو كانت طعمته بأيدي القدرة، وإظهار الكينونة، لم يكن فى ذلك منفعة للأمة، ولا أحكام تقتضى مقاماً. والله الحجة البالغة^(٢).

(١) فى المطبوعة: «والله أعلم».

(٢) هذه الفقرة من (د، هـ)، وهى ساقطة من المطبوعة و(م).

• ذكر اختلافهم في إخفاء العطاء وإظهاره، ومن رأى أن الإظهار أفضل، وتفصيل

ذلك؛

[أخبرنا أبو القاسم، قال أبو طالب^(١)]:

قد اختلف فعل المخلصين في ذلك، فرأى بعضهم أن يُخفى ما يأخذ من العطاء؛ لأنه أدخل في التعفف، وأقرب إلى التصوّ، وأنه أسلمٌ لقلوب الغير وأصلحُ لنفوس العامة، وأنّ فيه النصرة لإخوانه من الغيبة والتهمة بمثل ذلك، أو بأكثر منه، وفي الاحتياطُ لأخيه وعونٌ له على البر والتقوى، في قوله عز وجل: ﴿وَأِنْ تُخَفُّوْهَا وَتَوْتُوْهَا فَقَرَأَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]. وللخبر الذي جاء: «أفضلُ الصدقةِ جهدُ المُقلِّ إلى فقيرٍ في سرٍّ»، ولأنّ عمل السرِّ يُفضّلُ على عمل العلانية بسبعين ضعفاً، فإذا لم يعاونه هذا على إخفاء عطائه، ولم يساعده على كتم معروفه، فلم يتمّ له ذلك بنفسه، لأنه سرٌّ بين اثنين، إن أفشاه أحدهما أو لم يتفقا على كتمه، فقد ظهر من أيهما كان الخبر. كيف وقد روى عن النبي ﷺ: «استعينوا على أموركم بالكتمان، فإن كلّ ذى نعمة محسود»؟! وهذا مذهب القرّاء من العابدين.

وقال أيوب السخيتاني: إنى لأترك لبس الثوب الجديد خشية أن يحدث في جيراني حسد. وقال بعض الزاهدين: ربما تركتُ استعمال الشيء لأجل إخواني يقولون من أين هذا. وحدثونا عن إبراهيم التيمي أنه رأى صاحباً له عليه قميص جديد فقال: من أين لك هذا؟ قال: كسانيه أحي خيشمة، ولو علمتُ أن أهله علموا به ما قبلته.

ودفع رجلٌ إلى بعض العلماء شيئاً ظاهراً فردّه، ودفع إليه آخر شيئاً في السرّ فقبله، فقيل له في ذلك، فقال: إنّ هذا أخفى معروفه وعمل بالأدب في معاملته، فقبلنا عمله، والذي أظهر معروفه أساء في الأدب في المعاملة، فرددنا عمله عليه.

ودفع بعض الناس إلى بعض الصوفية شيئاً بين الملاء، فردّه، فقيل له: لم ترد

(١) هذه العبارة من (د). وفيها: «كتاب اختلافهم في إخفاء العطاء وإظهاره».

على الله عز وجل ما أعطاك؟ فقال: إنك أشركت غير الله سبحانه وتعالى فيما لله، ولم تقنع بعين الله عز وجل، فرددت عليك شركك.

وقد كان بعض العلماء لا يقبل في العلانية ويأخذ في السر، فسئل عن ذلك فقال: إن في إظهار الصدقة إذلالاً للعلم، وامتهاناً لأهله، وما كنت بالذى أرفع شيئاً من الدنيا بوضع العلم وإذلال أهله. وكذلك حدثنا أن رجلاً دفع إلى بعض العارفين شيئاً علانية فردّه، ثم دفعه إليه في السرّ فقبله. فقيل له: رددت في الجهر وقبلت في السرّ؟ فقال: لأنك أطعت الله تعالى في السر فاعتتك على برّك بقبوله، وعصيته بالجهر فلم أكن عوناً لك على المعصية.

وقد كان سفيان الثوري يقول: لو علمت أن أحدهم لا يذكر صلته ولا يتحدث بها لقبلت صلته. وفي هذا - لعمرى - مواطأة لما ندب الله تعالى إليه من الإخفاء، ولما أمر به رسول الله ﷺ وفضّله من أعمال السرّ، وهو أيضاً لا يدخل الآخذ في نهى رسول الله ﷺ من قوله: «من أهدى له هدية وعنده قوم، فهم شركاؤه فيها». وقال في الحديث الآخر: «أفضل ما أهدى الرجل إلى أخيه ورّقاً، أو يطعمه خبزاً». فجعل الورق هدية كالهدايا، وهو من أفضلها، كما قيل: لأنه قيّم الأشياء. فهذا الآخذ للهدية جهراً يلزمه الإشراك للحاضرين فيها، إلا أن يهبوا ذلك له، فإن لم يفعل لم يعجبني ذلك.

وذهب آخرون من أهل المعرفة الموصوفين بالتوحيد إلى أن الإظهار للآخذ أفضل، لأنه أسلم له، وأدخل في الإخلاص والصدق، وأخرج من إثبات القدر والمنزلة والجاه، والزهد بالرد^(١). وقد قال الله سبحانه: ﴿لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾

[النساء: ٨٤]. قالوا: فليس علينا إذ علمنا في سلامتنا وحكم حالنا من إسقاط جاهنا بالأخذ علانية ما وراء ذلك من أقوال الناس، يتولى الله عز وجل من ذلك من به ابتلاه. وقالوا: ولأن في التوحيد أن الظاهر والباطن هو المعطى، فلا معنى للرد عليه في الظاهر. وقد قال بعضهم: سرّ العارف وعلانيته واحد؛ لأن المعبود فيهما

(١) كان في المطبوعة خلل في هذه الجملة، والتصويب من (هـ). وفي (م): «الجاه بالردّ والزهد». وفي (د): «البرّ والزهد».

واحدٌ، فاختلافُ فعل أحدهما شركٌ في التوحيد. وقال بعض العارفين: كنا لا نعبأ بدعاء من يأخذ في السرّ ويردّ في العلانية. ودفع رجلٌ إلى بعض العلماء شيئاً في السرّ^(١)، فرفع يده به علانيةً، ثم قال: هذا من الدنيا، والعلانية في أمور الدنيا أفضل والسرّ في أمور الآخرة أفضل.

وقال بعض المريدين: سألتُ أستاذي وكان أحد العارفين عن إظهار السبب أو إخفائه، فقال: أظهر الأخذ على كلِّ حالٍ إن كنت آخذاً، فإنك لا تخلو من أحدٍ رجلين: رجل تسقط من قلبه إذا فعلت ذلك، فذلك هو الذي تريد؛ لأنه أسلم لديك وأقلُّ لآفات نفسك، وينبغي أن تعمل في ذلك، فقد جاءك بلا تكلف. ورجل تزداد وترتفع في قلبه، فذاك هو الذي يريد أخوك؛ لأنه يزداد ثواباً بزيادة حبه لك، وتعظيمه إياك، فتؤجر أنت إذ كنت سبباً لمزيده، وينبغي أن تعمل في ذلك.

وقال بعض العارفين: إذا أخذت فأظهر، فإنها نعمةٌ من الله إظهارها أفضل، وإذا ردّدت فأخف، فإنه عملٌ لك وإسراره أفضل. وهذا لعمرى قولٌ فصل؛ وهو طريقُ العارفين.

وقال بعضُ علمائنا: إظهار العطاء من الأخذ آخرة وكتمانه دنيا، وإظهار الأعمال من الدنيا وكتمها آخرة؛ وكان هذا لا يكره الإظهار. وهذا كما قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]. وقد ذم الله تبارك وتعالى من كتم ما آتاه الله من فضله وقرنه بالبخل؛ والبخلُ بابٌ كبيرٌ من الدنيا، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٧]. وقال النبي ﷺ: «إذا أنعم الله عز وجل على عبدٍ نعمةً أحبَّ أن تُرى عليه». وهذا هو الأقرب إلى قلوب الموحدين من العارفين؛ لأنه مقتضى حالهم، وموجب مشاهدتهم، لاستواء ظروف الأيدي عندهم من العبيد، ونفاذ نظرهم إلى المعطى الأول، فاستوى سرُّهم وعلانيتهم في الأخذ من يده.

(١) من قوله: «ويرد في العلانية» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

وفصلُ الخطاب في هذا الباب عندي أنه يحتاج إلى تفصيل، فنقول والله أعلم: إنَّ الخلق مبتلى ببعضه ببعض، وفرضُ كل عبد القيام بحكم حاله ليفضل بقيامه ويسلم في حاله. فعلى المعطى أن يخفى ويسر جهده، فإن أظهر ترك علم حاله، فنقص بذلك، فكانت هذه آفة من آفات نفسه، وباباً من أبواب دنياه، وعلى المعطى أن يذكر وينشر، فإن أخفى وكنم فقد ترك الإخلاص في عمله، ونقص لذلك، وكانت آفة من آفات نفسه، وباباً من دنياه مثله.

وروينا أن رسول الله ﷺ قيل له: إن فلاناً أعطيته ديناراً، فأثنى بذلك وشكر، فقال: «لكن فلان أعطيته ما بين الثلاثة إلى العشرة، فما أثنى ولا شكر». أفكان رسول الله ﷺ مريداً أن يشكره أو يثنى عليه، وهو يقول لابن الحمامة الشاعر وغيره: «أما ما مدحتني به فألقه عنك، وأما ما مدحت به ربك عز وجل فهاته، فإنه يحب المدح». لكنه أراد منه القيام بحكم حاله؛ لعلمه أن في الشكر والثناء حصاً وتحريضاً على المعروف والعطاء، وأنه خلقت من أخلاق الربوبية، أحبه الله عز وجل من نفسه، فشكره للمنفقين وهو الرازق، وأحب من أوليائه أن يشكروا للأواسط ويثنوا به عليهم، وإن شهدوا فيه الأول.

وكذلك لما قالت المهاجرون: يا رسول الله، ما رأينا خيراً من قوم نزلنا عليهم، قاسمونا الأموال حتى خفنا أن يذهبوا بالأجر كله. فقال: «كلا، ما شكرتم لهم وأثنيتم به عليهم». وكذلك أمر به ﷺ في الحديث الآخر فقال: «من أسدى إليه معروف فليكافى به، فإن لم يستطع فليثن به». وفي لفظ آخر: «من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تستطيعوا فاثنوا به خيراً وادعوا له، حتى يعلم أن قد كافأتموه». والخبر العام بمعنى ذلك: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله». وقد روينا في معنى هذا الحديث لفظة غريبة جاءت من طريقتين؛ وهى: «من لم يذكر الناس لم يذكر الله عز وجل»، أى يذكرهم في العطاء، ويثنى عليهم به.

النوع الثانى من التفصيل:

إن على المعطى أن لا يحب أن يذكر معروفه، ولا يشكر، فإن علمت من يقصد ذلك، ويحبه منك، فهذا يدل على نقصان علمه، وقوة آفات نفسه، فترك

الثناء على مثل هذا والكتم من الفقير أفضل، فإن شكر له فأظهر عطاءه فقد ظلمه لإعانتته إياه على ظلم نفسه، وقد قوّى آفات نفسه. وهذا إذا فعله به من المعاونة على الإثم والعدوان فقد كان ينبغي للمعطي أن ينصره، إذ كان ظالماً من حيث لا يعلم بأن يخفى عليه ما يعمل. والله أعلم بالصواب.

نوع آخر من التفصيل في الأخذ للفقير:

إن من الناس من يستوى عنده إظهاره للعطاء وإخفاؤه؛ لصحة يقينه بذلك، وإخلاص نيته فيه، ونفاذ مشاهدته بدوام نظره إلى المنعم الأول؛ فهذا إن قبلت منه علانيته صلح، وإن أنثيت عليه بذلك جاز؛ لقوة معرفته، وكمال عقله، وسبق نظره إلى مولاه فيما وفقه به وتولاه، فيشكر له ذلك، ويراه نعمة منه، ومثل هذا جاء الخبر المشهور: «إذا مدح المؤمن رباً الإيمان في قلبه». وقال بعض العارفين: يُمدح الرجل على قدر عقله. وقال الثوري: من عرف نفسه لم يضره مدح الناس له.

ومن الآخذين من يستوى له ويصحّ إظهار العطاء وإخفاؤه، لاعتدال معرفته، ووجود حكمته في علمه ومعاملته، فإن أظهر ما يجده من انشراح قلبه فبالإخلاص والصدق، وإن أخفى ما يراه وعلمه من إصلاح حال المعطي وتدبير شأنه، هو لنفسه بالحكمة والعلم، فهذا إن أخفى لم يضره، وإن أظهر لم ينقصه؛ لاعتدال قصده بالله تعالى في الحالين من شهادته^(١).

النوع الرابع من التفصيل:

من الناس من إذا أظهر معروفه فسد قصده بذلك، واعتورته الآفات من التزيّن والتصنع، فمثل هذا لا يصلح أن يُقبل منه ما أعلن به، لأنه يكون معيناً له على معصيته؛ وهذا أيضاً لا يصلح أن يُثنى عليه، فإن ذكر بمعروفه أو مدح به كان ذلك مفسدة له، واغتراراً منه؛ لقوة نظره إلى نفسه، ونقصان معرفته بربه، فمن مدح هذا فقد قتله، ومن ذكره بمعروفه فقد أعانته على شركه. ومدح رجل رجلاً

(١) هذه الفقرة برمتها ساقطة من المطبوعة ونسخة (م)، وهي من (د، هـ).

عند النبي ﷺ فقال: «ضَرَبْتَ عُنُقَهُ، لو سمعها ما أفلح». وقد كان هو ﷺ يثنى على قوم في وجوههم، ومن حيث يسمعون؛ لثقتهم بيقينهم، وعلمه أن ذلك مزيداً لهم. وقال لرجل أقبل إليه: «هذا سيدُ أهل الوبر». وقال لآخر من حيث يسمع: «إذا أتاكم كريمٌ قومٍ فأكرمُوهُ». وتكلّم رجل بكلام فَصْل فأعجبه، فقال النبي ﷺ: «إنّ من البيان لسحراً». وقد كان يخفى الثناء على آخرين، إذا علم أن ذلك خير لهم.

وقال الثوري ليوسف بن أسباط: إذا أوليتك معروفاً فكنتُ أنا أسرُّ به منك، ورأيتُ ذلك نعمة من الله تعالى عليّ، وكنتُ أشد حياءً منك، فاشكر، وإلا فلا. فجملة ذلك أن المعطى حاله الإخفاء، وأن الآخذ حاله الإظهار. فمن خالف ذلك فارق حاله، وإنّ فرض المعطى أن يكره المدح، ولا يحب الثناء والذكر، فمن علمتَ منه ذلك، فعليك أن تشنّى وتشكر وتنشر، ومن علمتَ منه بحب الإظهار، ويقتضى منك الاشتهار، فحالك أن تعاونه على ظلّمة لنفسه. فتركُ الثناء لمثل هذا أفضلُ له، وأسلم لك^(١)، فإن علمت أن إظهار العطاء سبب لفعل المعروف والاعتداء أظهرت. وإنّ رأيت أن كتمه أقربُ إلى صلاح النفوس لأجل الحسد والطلب أخفيته. وقال بعض الحكماء: من كان يريد لنفسه ما يريد، فلا يثنى ولا يشكر ولا يظهر.

فهذا تفصيل ما أجمله الصادقون.

تفصيل آخر:

إنّ الله عز وجل في إظهار العطاء حكمةً ونعمةً، ولطفًا ورحمةً، قد يكون ذلك سبباً للقُدوة، وطريقاً إلى التأسى بالخصّ عليه والحثّ، فينافس بعضهم بعضاً، ويحب أحدهم من نفسه لنفسه ما أحبّ من غيره، فيصير الإظهار مفتاحاً لكثرة المعروف، وباباً لأفعال العطاء، فلذلك جاء الأمر والنّذْبُ إلى الإظهار، وهو داخلٌ في قوله ﷺ: «أمّتى كالبنين يشدُّ بعضه بعضاً». ولهذا جاء في الخبر: «من

(١) هذه الفقرة إلى هنا تكررت في نسختي (د، هـ)، وجاءت المرة الأولى في غير موضعها، وإلى آخر الفقرة زيادة من (د، هـ) في الموضع الثاني.

الْخِيَلَاءُ مَا يَحِبُّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَمِنْهَا مَا يَكْرَهُ. الْخِيَلَاءُ بِالصَّدَقَةِ يَحِبُّهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ». وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ بِمَعْنَاهُ: «وَالْخِيَلَاءُ فِي الْحَرْبِ يَحِبُّهَا اللَّهُ تَعَالَى». وَقَدْ جَاءَ بِلَفْظٍ: «الْمُبَاهَاةُ فِي الْمَعْرُوفِ وَفِي الْقِتَالِ يَحِبُّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ». يَعْنِي بِذَلِكَ أَنَّ يَنَافِسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِيهِ، وَيَدْعُو بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَيْهِ، فَيُظْهِرُ فِعْلُهُ لِإِخْوَانِهِ، وَيُظْهِرُ بِحَرَكَتِهِ وَإِقْدَامِهِ مَا جَبَنُوا عَنْهُ مِنَ الطَّاعَاتِ^(١).

ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي الْأَخْذِ مِنَ الْوَاجِبِ أَفْضَلُ أَمْ التَّطَوُّعُ. فَرَأَى بَعْضُهُمْ أَنَّ يَأْخُذَ مِنَ الْوَاجِبِ وَلَا يَقْبَلُ مِنَ التَّطَوُّعِ، لِأَنَّ الْوَاجِبَ يَأْخُذُهُ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ قِسْمِهِ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْجِبَ عَلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَهُ مِنْ حَيْثُ أَوْجِبَ الزَّكَاةُ؛ لِأَنَّ الْفُقَرَاءَ وَالْمَسَاكِينَ لَوْ تَوَاطَوْا عَلَى أَنْ لَا يَقْبَلُوا الزُّكُوتَ أَثْمُوا أَجْمَعُونَ، وَلَعَصَوْا كُلَّهُمْ بِذَلِكَ لِإِسْقَاطِهِمْ فَرَضَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْأَمْوَالِ بِالزُّكُوتِ. قَالُوا: وَلَئِنْ هَذَا أَدْخَلَ لَهُ فِي جُمْلَةِ الضَّعْفَاءِ وَالْمَسَاكِينَ، وَأَقْرَبُ إِلَى التَّوَاضُعِ وَالذُّلَّةِ. قَالُوا: وَلَا مَنَّةَ لِأَحَدٍ عَلَيْنَا فِيهِ، وَلَا حَقَّ يُلْزِمُنَا عَلَيْهِ، إِذْ كُنَّا نَسْتَحِقُّ ذَلِكَ مِنْهُ. قَالُوا: وَلَئِنْ أَسْلَمَ لِدِينِنَا، لَثَلَا يَدْخُلُ عَلَيْنَا الْأَكْلَ بِالْدِّينِ، لِأَنَّا إِنَّمَا نَسْتَوْجِبُهُ بِالْحَاجَةِ وَحَرَمَةِ الْإِسْلَامِ فَقَطْ، وَنَخَافُ أَنْ يَكُونَ أَخَذْنَا التَّطَوُّعَ أَكْلًا بِدِينِنَا، أَوْ أَنَّا أُعْطِينَا لِصَلَاحِنَا وَاعْتِقَادِ فَضْلِنَا، فَلَا نَحِبُّ أَنْ نُخَصَّ بِشَيْءٍ دُونَ الْفُقَرَاءِ.

وَهَذَا مَذْهَبُ الْقُرَّاءِ مِنَ الْعَابِدِينَ، وَمَنْ يَنْظُرُ إِلَى صَلَاحِهِ وَنَفْسِهِ فِي الدِّينِ، هُوَ مُقْتَضِي حَالِهِمْ، وَمَوْجِبُ شَهَادَتِهِمْ.

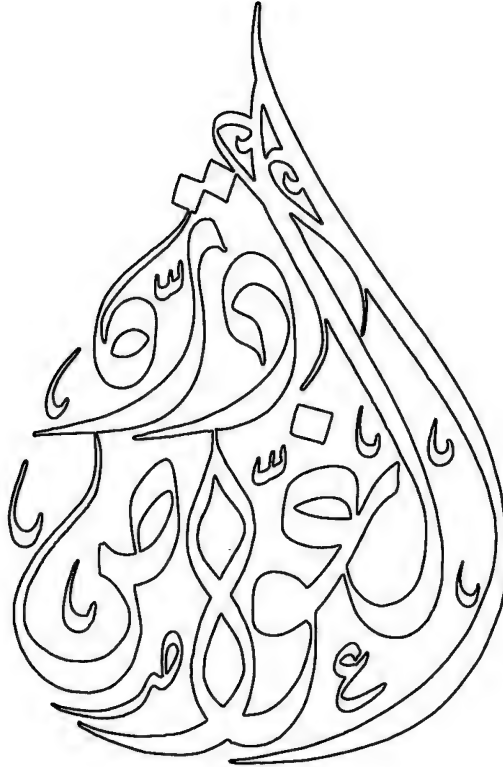
وَاخْتَارَتْ طَائِفَةٌ أَنْ يَأْخُذُوا مِنَ النَّوَافِلِ دُونَ الْفَرَائِضِ، أَجْرُوهُ مَجْرَى الْهَدِيَّةِ، وَقَالُوا: قَدْ أُمِرَ بِقَبُولِهَا، وَنُدِبَ إِلَى التَّهَادِي لِلتَّآلَفِ وَالتَّحَبُّبِ. قَالُوا: وَلَا نَزَاحِمَ الْمَسَاكِينَ فِي حَقُوقِهِمْ، وَلَعَلَّنَا لَا نَكْمُلُ أَوْصَافَهُمْ، وَنَخَافُ أَنْ لَا يَوْجَدَ فِيْنَا مَا شَرَطَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَوَاجِبِهِ، وَلَا نَضْعُهُ فِي حَقِيقَةِ مَوْضِعِهِ، أَوْ لَا نَحْتَاطُ لِمَنْ يَسْقُطُ عَنْهُ الْوَاجِبُ بِهِ، فَالتَّطَوُّعُ أَوْسَعُ عَلَيْنَا. وَمَعَ هَذَا فَإِنَّهُمْ يَشْهَدُونَ النِّعْمَةَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّ الدِّينَ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا قَالَ: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، وَأَنَّهُمْ مُسْتَعْمِلُونَ بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ حَيْثُ كَانُوا مُنْعَمًا عَلَيْهِمْ، لَا مُنْعَمِينَ عَلَى

(١) مِنْ أَوَّلِ قَوْلِهِ: «تَفْصِيلُ آخَرٍ» إِلَى هُنَا سَاقِطٌ مِنَ الْمَطْبُوعَةِ وَمِنْ (م)، وَهُوَ فِي نَسْخَتِي (د، هـ).

أنفسهم؛ وهذه طريقةُ بعض أهل المعرفة.

وممن ذهب إلى هذا: إبراهيم الخواص، وأبو القاسم الجنيد، ومن وافقهما.

والأمرُ في ذلك عندى: أن من لم يأخذ من كل إنسان، ولا فى كل أوان، ولم يقبل إلا عند الحاجة، وما لا بدّ له منه، ثم قام بحكم الله تعالى فى الواجب وحكمه فى التطوع، أن الحالين يتقاربان؛ لأن الواجب أمر الله تبارك وتعالى منه حكم، والتطوع ندب، وله عز وجل فيه حكم. فعلى العبد أن ينظر لدينه، ويحتاط لأخيه، فيعمل بما يُوجب الوقتَ من الحكم من أيّهما كان، فسواء ذلك، ولا ينظر بظلمةٍ فى هوى الحظّ، ففى ذلك سلامته.



الفصل الثاني والأربعون

كتاب حكم المسافر، والمقاصد في الأسفار

[أنبأنا أبو القاسم قال: أنبأنا أبو طالب قال^(١):

فإن سنح لهذا المريد سفر ففي الحديث: «البلادُ بلادُ الله عز وجل والخلقُ عباده، فحيث ما وجدت رزقًا فأقم واحمد الله عز وجل». والخبر المشهور: «سافروا تغنموا»؛ فغنيمة أبناء الآخرة ربح تجارة الآخرة. وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]. وقال عز وجل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ [العنكبوت: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠]. وقال جل وعلا: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. فمن جعلت آياته في نفسه تبصر ففطن، ومن جعلت له الآيات في الآفاق سرّب وسرّى.

وكذلك قال الله عز وجل: ﴿وَإِنْ كُمْ لَتَمُرُونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧ - ١٣٨]. ومثله: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]. فمن سار فكانت له بصيرة اعتبر وعقل، ومن مرّ على الآيات فنظر إليها منها تذكّر وأقبل.

وقد أمر الله عز وجل بالمشي في مناكب بساطه، والأكل من رزقه بعد إظهار نعمته، بتذليل مهاده، فقال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥]. قيل: في أسواقها، وقيل: قراها، وقيل: جبالها؛ وهو الأحب إلى. أحداب الأرض: قراها. ومناكبها: جبالها لأنها أعالها.

(١) من (هـ) فقط.

وكان بشر الحافي يقول: يا معشر القراء سيجوا تطيبوا، فإن الماء إذا كثر مقامه في موضع تغير. وقيل: إنما سمي سفراً؛ لأنه يسفر عن أخلاق النفس، وأيضاً يسفر عن آيات الله سبحانه وقدرته وحكمه في أرضه.

فإذا عزم على السفر فليصل ركعتي الاستخارة، وليعقد التوكل على الله عز وجل، فكفى ناظراً وساكتاً إليه تبارك وتعالى، واثقاً به ومعتمداً عليه، مستوراً حاله، راضياً عنه عز وجل في تقلبه ومثواه. ولينو في سفره الاعتبار بالآثار، والنظر إلى الآيات بالاستبصار، والابتغاء من فضل الله سبحانه فيما ندبه إليه من الأسباب.

. ويقال: إن الله تبارك وتعالى وكلّ بالمسافرين ملائكة ينظرون إلى مقاصدهم، فيعطى كل واحد على نحو نيته. فمن كانت نيته طلب الدنيا أعطى منها، ونقص من آخرته أضعافه، وفرّق عليه همّه، وكثر بالحرص والرغبة شغله. ومن كانت نيته طلب الآخرة وأهلها أعطى من البصيرة والفطنة، وفتح له من التذكّرة والعبرة بقدر نيته، وجمع له همّه، وملك من الدنيا بالقناعة والزهد شغله، ودعت له الملائكة واستغفرت له.

فلتكن نية هذا المسافر استصلاح قلبه، ورياضة نفسه، واستكشاف حاله، وامتحان أوصافه؛ لأن النفس إنما أظهرت الإذعان والانقياد في الحضر، وربما استكانت وأجابت في السفر، فإذا وقعت عليها أثقال الأسفار، ولزمتها حقائق الاستخبار، خرجت عن معتاد ذلك المعيار، فأسفرت حقيقتها، وانكشفت دواعيها، فيكون المسافر في علوم وبصائر، يعرف بها خفايا نفسه ومكامنها، ويكون هذا من خبء الأرض الذي يُخرجه الله عز وجل لمحبيه متى شاء. كما قال جل وعلا:

﴿يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥].

فإن خرج سائحاً في طلب العلم فقد جاء ذلك في تفسير قوله عز وجل:

﴿السَّائِحُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]. قيل: في طلب العلم، وقيل: هم طلبه العلم. وقد كان سعيد بن المسيب يسافر الأيام في طلب الحديث الواحد. وقال الشعبي: لو

سافر رجلٌ من الشام إلى أقصى اليمن في كلمةٍ تدلّ على هُدًى، ما رأيتُ أن سفره كان ضائعاً. ورحل جابرٌ بن عبد الله من المدينة وغيره من الصحابة إلى مصر، فساروا شهراً في حديث بلغه عن عبد الله بن أنيس الأنصارى يحدثه عن رسول الله ﷺ حتى سمعوه. ومن سافر في طلب العلم من عهد الصحابة إلى يومنا هذا أكثر من أن يحصى.

وفي الخبر: «من خرج من بيته في طلب العلم، فهو في سبيل الله عز وجل حتى يرجع».

وفي خبر آخر: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ». ويقال: إنَّ النفقة في العلم كالنفقة في سبيل الله، الدرهم بسبعمائة، وإن سافر في لقاء الصالحين، فقد جاء في الأثر: كانوا يحجون للقاء، والحج من أفضل الأسفار، فجعلوه سبيلاً للقاء الأخيار.

فإن نوى الهرب^(١) من الأمصار طمعاً في سلامة دينه، وبعداً من تعلّق النفس بما في الحضر من حظّ دنياه، فحَسَنٌ، وربّما خرج طلباً للخُمُول والذلة، خشية الفتنة بالشّهرة، ورجاء صلاح قلبه، واستقامة حاله في البعد من الناس، ورياضة بالتفرّق والتوحد، إلى أن يقوى يقينه، ويطمئن قلبه، فيستوى عنده الحضر والسفر، ويعتدل عنده وجودُ الخلق وعدمهم، بإسقاط الاهتمام بهم. وقد قال الثوري: هذا زمانٌ سوءٍ، لا يؤمن فيه على الخامل فكيف بالمشهورين، وهذا زمانٌ رجلٍ ينتقل من بلدٍ إلى بلدٍ، كلما عُرف في موضع تحوّل إلى غيره. وقال أبو نعيم: رأيتُ الثوري وقد علّق قلّته بيده، ووضع جرابه على ظهره، فقلتُ له: إلى أين يا أبا عبد الله؟ فقال: قد بلغني عن قرية فيها رُخص، فأنا أريد أن أقيم بها. فقلتُ: وت فعل هذا يا أبا عبد الله؟ قال: نعم، إذا بلغك عن قرية فيها رُخص فأقم بها، فإنه أسلم لدينك وأقلُّ لَهْمِك. وقد كان سري السقطي يقول للصوفية: إذا خرج الشتاء، ودخل أذار، وأورقت الأشجار، طاب الانتشار.

(١) في المطبوعة: «القرب».

ومن أفضل الأسفار ما خرج له في سبيل الله عز وجل من الجهاد والحج والرباط وزيارة قبر النبي ﷺ، ثم زيارة أصحابه، محتسباً بذلك ما عند الله عز وجل.

والسفرُ في زيارة الأخ في الله عز وجل مستحب مندوب إليه. روي في خبر عن بعض أهل البيت عليهم السلام. وقيل: مكتوب في التوراة: «سِرْ ميلاً عُدْ مريضاً، سِرْ ميلين شيعَ جنازة، سِرْ ثلاثة أميال أجب دعوة، سِرْ أربعة أميال زُرْ أخاً في الله تعالى». وفي الخبر: «إن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد الله عز وجل على مدرجته ملكاً، فقال: أين تريد؟ فقال: أخاً لي في هذه القرية أزوره. قال: أبينك وبينه رَحِمَ تَصِلُهَا؟ فقال: لا. قال: فله عليك نعمة تردّها. قال: لا، إلّا أني أحببته في الله عز وجل. قال: فإنّي رسولُ الله إليك يبشرك بالجنة ويخبرك أنه قد غفر لك بزيارة أخيك».

وإن سافر إلى بعض الثغور ناوياً رباط أربعين يوماً أو ثلاثة أيام فحسن، وإن قصد عبادان فرباط فيها ثلاثاً، فقد رأينا بها ثلاثمائة من العلماء والعباد للرباط فيها ما يجلُّ وصفه.

روى عن علي عليه السلام: أنه سأل رجلاً بالبصرة أن يرباط بعبادان ثلاثاً، ويشركه في صحبته. وقال بعض العارفين: كُوشِفَتْ بالأمصار فرأيت الثغور كلها تسجد لعبادان، ومن قصد في سفره أحد المساجد الثلاث المندوب إليه لشدّ الرحال فهو أفضل؛ أولاها المسجد الحرام، ومسجدُ الرسول ﷺ، ومسجدُ بيت المقدس. فيقال: من جمع الصلاة في هذه المساجد الثلاث من سنته غُفِرَتْ له ذنوبه كلّها. ومن أهل بحجٍّ أو عمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه. وخرج ابن عمر من المدينة قاصداً إلى بيت المقدس حتى صلّى فيه الصلوات الخمس، ثم كرّ راجعاً من الغد إلى المدينة. وسأل سليمان عليه السلام ربه تعالى: إن من قصد هذا المسجد لا يهمله إلا الصلاة فيه أن لا تصرف نظرك عنه ما دام مقيماً فيه حتى يخرج منه، وأن تخرجه من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فأعطاه الله تعالى ذلك.

وأما فضائل المسجدين في الحرمين؛ حَرَّمَ الله عز وجل وَحَرَّمَ رسوله ﷺ، فأكثر من أن نذكرها.

وإن سافر طلباً للحلال، وهرباً من طُعمة الحرام، فذاذك له قربتان. وقد فعله صالحو السلف في كل زمان.

وليكن العبدُ في سفره مراعيًا لهمَّه، حافظًا لقلبه من التشتُّت والطمع في الخلق، والتعرُّض للمسألة، فإن لم يكن ذا معلومٍ معهود، كان معلومُه العلامةُ الودود، وكان طريقُه إليه صدقَ التوكل، وزاده في طريقه حُسْنُ التقوى له بصحة الإيأس من الناس، وعليه حينئذ الصبرُ على بلائه، والرضا بتصرفه في قضائه، والشكر على لطائف نِعَمائه مِنْ مَنعٍ أو عطاء أو شدة أو رخاء، لأنه في يد الوكيل يقلُّه كيف يشاء. والتوكلُ عند المتوكلين هو في الصبر للصبور، وتسليم الحكم للحاكم. ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٩]. وقوله: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يوسف: ٦٧].

وقال رجل لبشر بن الحارث: إني أريد سفرًا، ولكنني منعني أنه ليس عندي شيء. فقال: لا يمنعك العُدْم من سفرك، واخرج لِقَصْدِكَ، فإن لم يعطك ما لغيرك لم يمنعك ما لك.

وكان إبراهيم الخواص يقول: كفُّ فارغ، وقلبٌ طيب، ومُرٌ حيث شئت. ومن طرقة فاقة، أو رهقته حاجة، لم يخرج من التوكل أن يسأل إذا عدم القوة والصبر؛ لأنه حينئذ يسأل لربه لا لنفسه، يحركه العلم لا الهوى؛ لإقامة فرضه، وحفظ عقله، الذي هو مكان تكليفه. وفي الأثر: «مَنْ جاع فلم يسأل فمات دخل النار»، لأن ترك السؤال عند خوف زهق الموت ومع عدم الصبر سبب التلف، أن كان الجوع أحد الحتوف القاتلة.

وقد تأوَّل بعض متأخري الصوفية قول النبي ﷺ: «أحلُّ ما أكلَ العبدُ من كَسْبِ يده»، قال: المسألةُ عند الفاقة.

وأنا برىءٌ من عهدَةِ هذا التأويل^(١). وقد كان جعفر الخلدي يحكى هذا عن شيخ من الصوفية وكان هو يستحسنه. ولكن قد كان أبو سعيد الخراز يمدّ يده عند الفاقة ويقول: ثمَّ شىءٌ لله.

وحدثونا عن أبى جعفر الحداد، وكان شيخاً للجديد، له علم فى التوكل، وحالٌ من الزهد، كان يقتات بخروجه بين العشاءين، فيسأل من باب أو بابين، فيكون ذلك معلومه إلى بعض حاجاته من يوم أو يومين، ولم يعب هذا عليه أحدٌ من الخصوص. وقد رأى بعض الناس رجلاً من الصوفية دُفع إليه كيس فيه مئون دراهم فى أوّل النهار ففرّقه كله، ثم سأل قوتاً فى يده بعد عشاء الآخرة، فعاتبه على ذلك، وقال: دُفع إليك شىءٌ أخرجه كله، فلو تركتَ منه لعشائك شيئاً؟ فقال: ما ظننتُ أنى أعيش إلى المساء، ولو علمتُ ذلك فعلتُ. وكان هذا زاهداً قصيرَ الأمل. إلا أن السؤال للمتوكل عند الخواص يُخرجه من التوكل. وقد كان سهل يقول: المتوكل لا يسأل ولا يردّ ولا يحتكر.

وليس يخرجه عندى من التوكل المسألة عند الفاقة، بل عدمُ الصبر والقوة؛ ففقد ذينك وجود الإذن من الله له فى السؤال، إذا كان ناظراً إلى تصريح الوكيل فى كل حال، ولأن الولى الحميد يقبل وليّه فى جميع الأحوال. ألم تر إلى إمامى أهل الظاهر والكُتب وأهل الباطن والقلوب استطعما أهلها؟ لأنّ المسلم يستحق على إخوانه سدّ جوعته، لحزمة الإسلام. وقال النبى ﷺ: «ليلةُ الضيفِ واجبةٌ». وقال عليه الصلاة والسلام: «الضيافةُ حقٌّ». وفى الخبر: «ولك أن تأخذ من ماله مقدار ليلةٍ». وفى الحديث: «أَيُّما أهل عَرَصَةٍ أو قريةٍ بات فيهم رجلٌ من المسلمين

(١) نقل السهروردى صاحب «عوارف المعارف» هذا الرأى لأبى طالب، ولكنه يرى رأياً آخر غير ما أراد الشيخ هنا، فقال: «ووقع لى - والله أعلم - أن الشيخ الصوفى لم يرد بكسب اليد ما أنكر الشيخ أبو طالب منه، وإنما أراد بكسب اليد رفعها إلى الله تعالى عند الحاجة، فهو من أحلّ ما يأكله، إذا أجاب الله سؤاله، وساق إليه رزقه، وقال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]. عوارف المعارف، تحقيق د. عبد الحليم محمود، ٣٢٣/١. وطبعة مكتبة القاهرة، ص ١٣٩. ولكن الحكايات التى رواها صاحب العوارف والقوت لا تؤيد ما ذهب إليه السهروردى، والله أعلم.

جائعاً فقد برئت منهم الذمة». وكان الثوري يسأل في البوادي من الحجاز إلى صنعاء اليمن، فقال: كنت أذكرهم حديث عبد الله هذا في الضيافة. قال: فيخرجون إلى طعاماً، فأكل شبعي وأترك ما بقي. والمسافر هو ابن السبيل الذي أوجب الله حقه في الأموال؛ لأن السبيل هو الطريق، وراكبها ابنها، لأنه صاحب طريق وسالكه. وليس عليه أيضاً في الثَّوَاء^(١) عند أخيه المسلم بعد ثلاثة أيام شيء؛ لأنه مقيم على ما أبيح له.

وقال رسول الله ﷺ: «الضيافةُ ثلاثة؛ فما زاد فهو صدقة». فلا يقيم فوق ثلاث، فقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «ولا يقيم فوق ثلاث فيحوجه أن يضيق عليه». وتأويلُ قوله عندي «فما زاد فهو صدقة»: أي مكروه لا مندوب إليه ولا مأمور به؛ فإن اختار الصدقة ولم ينزّه نفسه عنها فهو أعلم، أي: وما كان في الثلاث فهو حق له وواجب على مضيّفه، فإن سألوه الإقامة فوق ثلاث، أو علم أنهم يحبون الإقامة، فلا بأس بذلك.

وقد تأول بعض الصوفية قول النبي ﷺ: «فما زاد فوق ثلاث فهو صدقة» أنه صدقة على أصحاب المنزل من الضيف، تصدّق عليهم بإقامته، لأنه مثوبة لهم، ولا يعجبني هذا التأويل.

وليحافظ على صلاته في أوقاتها بحسن طهارة، وجميل أداء، وليحفظ قلبه أن يتشتت، فإن السفر قد يشتت هم المريد، ويجمع هم العارفين، ويشغل قلوب الضعفاء، ويروّج قلوب الأقوياء؛ وهو محنة وكشف لأخلاق العبد. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للرجل الذي زكّى عنده رجلاً لما سأل عنه ليقبل شهادته، فقال له: هل صحبته في السفر، الذي يستدل به على مكارم الأخلاق؟ فقال: لا. قال: ما أراك تعرفه.

وعن بعض السلف: إذا أثنى على الرجل معاملوه في الحضر، ورفقاؤه في السفر، فلا تشكّوا في صلاحه إذ ذاك، لأن السفر يُسَيء الأخلاق، ويكثر الضجر، ويُخرج مكامن النفس من الشُّحِّ والشرّ. وكل من صلّحت صحبته في

(١) الثَّوَاء: طول المقام.

السَّفر صلَّحت صحبته في الحضر، وليس كل من صحب في الحضر صلَّح أن يصحب في السفر. وقال بعض السلف: ثلاثة لا يلامون على الضجر: الصائم، والمريض، والمسافر.

ولا ينبغي أن يفارقه من الأسباب أربعة: الرُّكوة، والحبل، والإبرة بخيوطها، والمقراض. وكان الخواص من المتوكلين، ولم تكن هذه الأربعة تفارقه، وكان يقول: ليست من الدنيا. وبعض الصوفية كان يقول: إذا لم يكن مع الفقير ركوة وحبل، دل ذلك على نقصان دينه. وكان جماعة من أرباب القلوب، وأهل المعينة بالأحوال، إذا استوطنت نفوسهم مصرًا أو سكنت إلى موضع، عملوا في الغربة لرفع العادة، وإيثاراً للقلّة والذلة. وقالوا: لا يخلو المؤمن من قلّة، أو علة، أو ذلّة. وكانوا إذا خافوا الاستشراف إلى الخلق خرجوا في الأسفار لقطع ذلك، وحسمه من الأذكار. وقد كان الخواص لا يقيم في بلد أكثر من أربعين يومًا، ويرى أن ذلك علة في توكله، فيعمل في اختبار نفسه، وكشف حاله.

وحدثنا عن بعض الشيوخ قال: لبثت في البرية أحد عشر يومًا لم أأطعم شيئًا، وتطلّعت نفسي أن تعرج على حشيش البرية، فرأيت الخضرَ مُقبلًا نحوي فهربتُ منه، فلما وليتُ عنه هاربًا التفتُ إليه، فإذا هو قد رجع عني، فانظروا إلى وليّ الله عز وجل كيف لم يفسد علىّ توكلِي؟! فقليل له: لمْ هربتْ منه؟ قال: تشوّفت نفسي أن يقيتني.

وعلى المسافر من أهل القلوب أن يفرّق بين سُكون القلب إلى الوطن والسفر، وبين سُكون النفس إليهما؛ فإن ذلك قد يلتبس، فيحسب من لا بصيرة له، ولا تفتيش لحاله، ولا صدق في أحواله، أن سُكون النفس هو سُكون القلب، فينقص بذلك، ولا يفتن لنقصانه؛ فإن كان قلبه يسكن إلى أحدهما، وفيه صلاح دينه، وعمارة آخرته، ومحبة ربّه؛ فهذا سُكون القلب؛ لأنه يسكن إلى أخلاق الإيمان، وما ورد العلم به. وإن كانت نفسه تسكن إلى أحدهما، مما فيه عاجلُ حظوظه، وعمارة دنياه، وموافقة هواه؛ فهذا سُكون نفس؛ لأنها تسكن إلى معاني الهوى، فليتحول من الوطن إلى الغربة، وليرجع من الغربة إلى المصر. ومن كان في سفر

على غير هذا النعت من التفقُّد لحاله، وحسن القيام بأحكامه، فهو على هوى وفتنة، وسفره بلاءٌ عليه ومحنة.

وفصلُ الخطاب أنَّ مَنْ لم يكن له في سفره حال يشغله، وهمُّ يجمعه، ووقت يحبسه، ومأوى يظله، ومسكن يؤنسه، وزاد من باطنه، وعِلْمٌ من عالمه؛ فإنَّ الحضرَ أرفقُ لحاله، وأصلحُ لقلبه، وأسكنُ لنفسه من السفر؛ لأنه يكون في السفر مشتتَ السرِّ، مفرِّقَ الهمِّ، تارة بوجود معلوم يخاف عليه، ومرة بفقد معتادٍ يحن إليه، ومرة باستشراف إلى خلقٍ يطعمُ فيه، فمرة يضعف قلبه مع العدم، وتارة يقوى بالاستطلاع إلى البشر، ومرة يفزع بِفَقْدِ ما عنده قد حضر. فمثل هذا يكون في السفر نقصان ما ادعى، والسفر يجمع همَّ الأقوياء، ويشتت قلوب الضعفاء، ويُذهب أحوال أهل الابتداء. ثم إن لم يصلح قلبه، ولم يستقم حاله في الحضر، فإنه لا يصلح حاله، ولا يستقيم قلبه في السفر. وأنشدوا لبعض السائحين في التغرُّب:

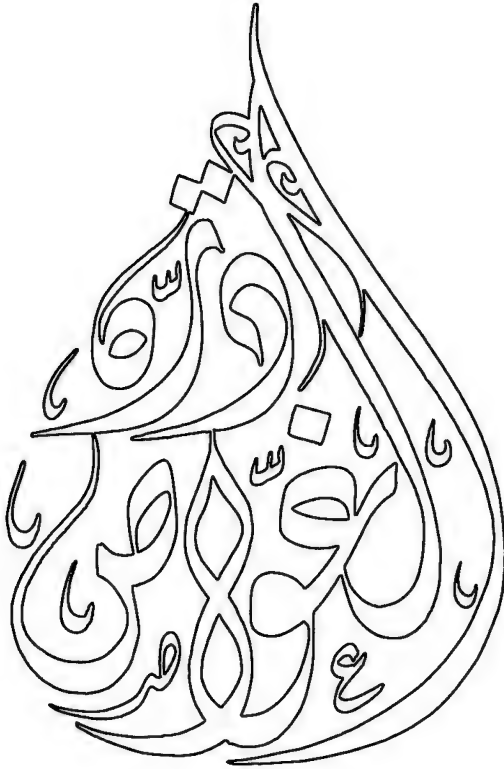
أَلِفْتُ التَّفَرُّدَ وَالْغُرْبَةَ	فَفِي كُلِّ يَوْمٍ أَطَأُ تُرْبَةَ
فِيَوْمٍ مُقِيمٌ عَلَى نِعْمِهِ	وَيَوْمٍ مُطْلٌ عَلَى نَكْبِهِ
وَمِمَّا يَطِيبُ نَفْسَ الْغَرِيبِ	بِحَبِيبٍ تَطِيبُ بِهِ الصُّحْبَةَ

وقد نهى رسول الله ﷺ أن يسافر الرجل وحده، فقال: «الثلاثة نفر». وقال: «إذا كنتم في سفرٍ ثلاثة، فأمرُّوا أحدكم». قال: فكانوا يفعلون ذلك، ويقولون: ذاك أميرُ أمره رسولُ الله ﷺ، وكذلك يُستحب.

وقد جاء في الخبر: «خيرُ الأصحاب أربعة». والأسفارُ والنزَةُ لا تطيب إلا في جماعة، وأقل الجماعة اثنان، والثلاثة والأربعة أفضل. والسياحة لا تحسن إلا على الانفراد والوحدة؛ فإن اتفق ثلاثة في سياحةٍ بقلب واحد، وهمُّ واحد على حال واحد، فهم كعبد واحد، فهو حسنٌ، وفيه معاونة على البر والتقوى. قال الله عز وجل فيمن منعه النصره وحرمه منه الصَّحْبَةُ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٣]. فمن نصره الله على نفسه فقد صحبه، ومن لم يصحبه

سلّط عليه نفسه وسخره لها.

وجملة الأمر أن السفر عملٌ من الأعمال يحتاج إلى نية وإخلاص، فمنه فرضٌ وهو ما هرب به من معصية، ومنه فضلٌ وهو ما طلب به طاعة، ومنه مباحٌ وهو ما ضرب به في تجارة، ومنه معصيةٌ وهو ما سعى به في فساد. وهذا^(١) الضرب من الأسفار لا يجوز فيه قصر الصلاة، ولا أكل الميتة عند الاضرار.



(١) من هنا إلى آخره من (د، هـ).

الفصل الثالث والأربعون

كتاب حكم الإمام، ووصف الإمامة والمأموم^(١)

فإن كان هذا المرید إماماً لحیه، كان علیه أن يقوم بحکم الإمامة حتی يتمها، فيستحق الإمام بأن يكون له مثل أجر من صلى خلفه، بأن يكون داعياً إلى الله عز وجل، قائماً بين الله تعالى وبين عباده، هو وجهتهم وطريقتهم إليه.

وفى الخبر: «إنما الإمام أمير، فإذا ركع فاركعوا وإذا سجد فاسجدوا». وفى الحديث: «فإن تمَّ فله ولهم، وإن نقص فعليه ولا عليهم».

وفى الخبر: «أتمتكم وفدكم إلى الله عز وجل، فإن أردتم أن تزكوا صلاتكم فقدّموا خياركم». وفى الخبر المشهور: «الإمام ضامنٌ والمؤذن مؤتمنٌ. اللهم أرشد الأئمة واغفر للمؤذنين».

وفى الحديث: «ثلاثة لا تقبل لهم صلاة، وفى لفظ آخر: لا تجاوز صلاتهم رؤوسهم: العبد الآبق، وامرأة زوجها عليها ساخط، وإمام قوم وهم له كارهون». فأول ما عليه من الشروط أن يكون مجتنباً للفسوق والكبائر، وغير مصرّ على الصفائر، قارئاً لكتاب الله عز وجل، أو لما يحسن منه بغير لحن ولا إحالة معنى، عالماً بفرائض الصلاة وسننها، وما يفسدها، وما يوجب السهو وما لا يوجبه منها، وإن حدثت عليه حادثة فى الصلاة، أو ذكر أنه على غير وضوء، ورع واتقى الله عز وجل، وأخرج من صلاته، وأخذ بيد أقرب الناس منه فاستخلفه فى مقامه، وقد أصاب ذلك رسول الله ﷺ إمام الأئمة فى الصلاة فخرج منها، وذلك أنه ذكر أنه كان جنباً فاغتسل، ثم رجع فدخل فى الصلاة، فإن كانت الحادثة فى الصلاة فعل ذلك، وإن كان ذكر أنه دخل فى الصلاة على غير طهارة خرج ولم

(١) هذا الفصل برمته ليس فى (د).

يستخلف، وابتدأ القوم صلاتهم، فليكن الإمام مأموناً على طهارته بإكمالها، مأموناً في صلاته بإقامتها، مخلصاً بالإمامة، يريد بها وجه الله تعالى وما عنده، ولا يحلّ له أن يأخذ على الصلاة أجراً، ولا على الأذان الذى هو طريقٌ إليها.

أمر رسول الله ﷺ عثمان بن أبى العاص الثقفى فقال: «واتخذ مؤذناً لا يأخذ على الأذان أجراً»؛ فهذا الداعى إلى الصلاة لا يحلّ له أن يأخذ على دعائه أجراً، فكيف المصلّى القائم بين الله وبين عباده؟ وقد كان بعض السلف يقول: ليس بعد الأنبياء أفضل من العلماء، ولا بعد العلماء أفضل من أئمة المصلين؛ لأن هؤلاء قاموا بين الله تبارك وتعالى وبين خلقه، هذا بالنبوة، وهذا بالعلم، وهذا بعماد الدين؛ وهى الصلاة. وبهذه الحجة احتج على على رضى الله عنه فى مقدمة أبى بكر رضى الله تعالى عنه للخلافة، لما أهله رسول الله ﷺ لديننا، قال: فنظرنا فإذا الصلاة عماد الدين، فاخترنا لدينانا من رضى رسول الله ﷺ لديننا.

وقال رجل: يا رسول الله، دلّنى على عمل يدخلنى الجنة. فقال: «كن مؤذناً». قال: لا أستطيع. قال: «كن إماماً». قال: لا أستطيع. قال: «فصل بإزاء الإمام».

وقد كان بعض الورعين يرع عن الإمامة؛ لما فيها ولما على الإمام من ثقلها وتحملها، وكانوا يختارون الأذان على الإمامة ويفضلونه عليها؛ منهم كثير من الصحابة.

وعليه أن يراعى أوقات الصلوات ليصلى فى أوائلها، فيدرك رضوان الله عز وجل، وبين فضل الصلاة فى أول وقتها على الصلاة فى آخر وقتها، كفضل الآخرة على الدنيا. كذلك روى عن رسول الله ﷺ. وفى حديث آخر: «إن العبد ليصلّى الصلاة فى آخر وقتها ولم تفته، ولمّا فاتته من أول وقتها خير له من الدنيا وما فيها».

وليتم الركوع والسجود والاعتدال والقعود بينهما، فيكون ذلك قريباً من السواء، معتدلاً كلّهُ، حتى يدرك من وراءه من الضعفاء والمرضى؛ فتلك كانت صلاة رسول الله ﷺ.

وينبغي أن يكون له ثلاث سكتات. كذلك روى سمرة بن جندب وعمران بن حصين عن رسول الله ﷺ؛ أولهن: إذا كَبَّرَ، وهى الطولى منها مقدار ما يقرأ مَنْ خلفه فاتحة الكتاب؛ لثلا يقرؤوا فى قراءته، فيكون عليه ما نقص من صلاتهم، فإن لم يقرؤوا فاتحة الكتاب فى سكوته، واشتغلوا بغيرها، فذلك حيثئذ عليهم، وقد فعل هو ما عليه. والسكته الثانية: إذا فرغ هو من قراءة [سورة] الحمد ليتم مَنْ بقى عليه شىء من فاتحة الكتاب فى هذه السكته، وهى على النصف من السكته الأولى. والسكته الثالثة: إذا فرغ من قراءة السورة قبل أن يركع، وهى أخفهن على النصف من السكته الثانية؛ لثلا يكون مواصلاً فى صلاته، بأن يَصِلَ التكبيرة بالقراءة، ويَصِلَ القراءة بالركوع، فقد نُهى عن ذلك.

وعلى المأموم أيضاً أن لا يَصِلَ تكبيرة الإحرام ولا تسليمه بتسليم الإمام، وعليهما أن لا يَصِلَا التسليمتين، ليفصلا بينهما، فقد نُهى عن المواصلة فى الصلاة، وهى فى هذه الخمس.

وعلى المأموم أن يكبّر، ويركع، ويسجد، ويرفع، ويضع بعد الإمام، ولا يخرون سجداً حتى تقع جبهة الإمام على الأرض وهم قيام، ثم يخرون بعده. كذلك كانت صلاة الصحابة خلف رسول الله ﷺ. ولا يكبّر حتى يعتدل الصف وراءه، وليلتفت يميناً وشمالاً؛ فإن كان أعوج أشار بيده، وإن رأى خللاً أمر بسده، فإن تسوية الصف من تمام الصلاة، وكانوا يحاذون بين المناكب، ويتضامون فى الكعب.

وقد قيل: إن الناس يخرجون من الصلاة على ثلاثة أقسام: طائفة بخمس وعشرين صلاة؛ وهم الذين يتمون صلاتهم بعد ركوع الإمام وسجوده. وطائفة بصلاة واحدة، وهم الذين يكبّرون ويركعون ويسجدون معه مواصلةً له ومبادرةً. وطائفة تخرج بغير صلاة، وهم الذين يرفعون ويضعون قبله فيسبقون إمامهم.

وليقرأ فى صلاة الغداة بسورتين من المثانى وهى ما دون المائة، فإن الإطالة فى قراءة الفجر والتغليس سنة، ولا يضره خروجه منها مسفراً، إذا كان قد دخل فيها مغسلاً. ولا إكراه أن يقرأ فى الركعة الثانية منها بأواخر السور من نحو الثلاثين أو

العشرين إلى أن يختمها؛ لأن في ذلك مزيد تذكرة وفضل تبصرة، لأنه يبعد طروقه على الأسماع لكثرة الاعتياد لتلاوة السور القصار، فهي أدنى إلى الانقطاع والتفكر، وإنما كره أن يقرأ من أولها كذلك؛ ثم يقطع، أو يقرأ من وسطها؛ ثم يركع قبل أن يختمها. هذا الذي كرهه بعض العلماء.

وقد روينا أن النبي ﷺ قرأ بعض سورة يونس، فلما انتهى إلى ذكر موسى وفرعون قطع فركع. وروينا حديثاً أشهر منه، أن النبي ﷺ قرأ في ركعتي الفجر بآية من سورة البقرة؛ قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦]. وفي الثانية: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ﴾ [آل عمران: ٥٣]. وفي رواية: أنه قرأ فيهما: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]. وأنه سمع بلالاً يقرأ من ههنا وههنا، فسأله عن ذلك، فقال: أَخْلَطَ الطَّيِّبَ بِالطَّيِّبِ. فقال: «أحسنْتَ، أو أصبت».

والخبر المشهور عن أبي بكر الصديق: قال الصنابحي: صَلَّيْتُ خَلْفَهُ الْمَغْرِبَ، فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ فِي الرُّكْعَةِ الثَّانِيَةِ؛ فَإِذَا هُوَ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨] الآية. فكذلك يستحب أن يقرأ بهذه الآية، خاصة في الثانية من صلاة المغرب.

وروينا عن ابن مسعود أنه أمَّ الناس في صلاة العشاء الآخرة، فقرأ في الركعة الثانية بالعشر الأواخر من سورة آل عمران، وأنه قرأ أيضاً في هذه الصلاة بآخر سورة الفرقان من قوله تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١].

وقد قال الفقهاء في المستحب من القراءة بعد سورة الحمد من الزيادة عليها أن يقرأ ثلاث آيات من سورة. وبعضهم يقول: آيتين من سورة. فإن اكتفى بسورة الحمد أجزأه. وقد روينا عن جابر بن زيد فقيه أهل البصرة، وكان ابن عباس يستخلفه في الفتيا، ويأمر أن يُسْتَفْتَى: أنه افتتح الصلاة ثم قرأ [سورة] الحمد، ثم قال: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٤]، وركع. وهذه أقصر آية في كتاب الله عز وجل وبعدها: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ [المائدة: ٢١].

وقد رأيتُ بعض الأئمة في جامع عظيم من جوامع المسلمين قرأ في الركعة الثانية من صلاة العشاء الآخرة بآخر سورة يونس، وخلفه العلماء والأشهاد، فما أنكر عليه أحد.

وليقرأ في صلاة الظهر بطوال المفصل إلى الثلاثين آية، وفي صلاة العصر بوسط المفصل على نصف صلاة الظهر، وفي المغرب بأواخر المفصل. وآخر صلاة صلاها رسول الله ﷺ المغرب، قرأ فيها رسول الله ﷺ سورة «المرسلات»، ما صلى بعدها حتى قبض ﷺ. وقال أنس: كان رسول الله ﷺ من أخف الناس صلاةً في تمام، ثم قال أيضاً: كان رسول الله ﷺ يأمر بالتخفيف في الصلاة، وإن كان ليؤمنا بسورة «والصافات».

وقد روينا عن رسول الله ﷺ في الرخص: «إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف، فإن فيهم الكبير والضعيف وذو الحاجة، وإذا صلى لنفسه فليطول ما شاء». وقد كان معاذ بن جبل يصلي بقومه صلاة عشاء الآخرة فافتتح بسورة البقرة، فخرج رجل من الصلاة وأتم لنفسه، ثم انصرف. فقالوا: نافق الرجل، ثم تشاكيا إلى رسول الله ﷺ، فأشكى الرجل، وزبر^(١) معاذاً وقال: أفتان أنت؟ اقرأ بسورة سبح، والسماء والطارق، والشمس وضحاها.

وليسبح في ركوعه وسجوده سبعاً أو خمساً ليدرك من وراءه ثلاثاً ثلاثاً؛ لأنهم يركعون ويسجدون بعده. وروينا أن أنس بن مالك لما صلى خلف عمر بن عبد العزيز وكان أميراً بالمدينة قال: ما صليتُ بعد رسول الله ﷺ مثل صلاة هذا الشاب، قال: وكنا نسبح وراءه في الركوع والسجود عشراً عشراً. وقد روينا [خبراً] مجهلاً عن رسول الله ﷺ قال: «كنا نسبح وراءه في الركوع والسجود عشراً عشراً».

فإن قرأ في الأخيرتين من الظهر والعصر وعشاء الآخرة بعد سورة الحمد بسورة قصيرة، أو آيتين من سورة، فحسن؛ ليدرك من وراءه قراءة سورة الحمد على مهل.

(١) الزبر: الزجر والانتهار. يقال: زبر السائل: زجره وانتهره.

وقد اختلف مذهب السلف في الإمام يكون راکعاً فيسمع خفق النعال هل ينتظر في ركوعه ويتوقف حتى يدخلوا في الركعة، أو لا يباليهم؟ فقال بعضهم: ينتظر حتى يلحقوا معه؛ وممن اختاره الشعبي. وقال آخرون: لا ينتظرهم فإن حرمة من معه في الصلاة أعظم من حرمة من تأخر عنها؛ وقال بهذا إبراهيم النخعي. وكذلك قال فقهاء الحجاز: لا ينتظرهم؛ فإنه زيادة في الصلاة، ومن الإخلاص بها ترك التوقف بها لأجلهم.

وقال بعض فقهاء الكوفة: إن انتظرهم فحسن، ليدركوا معه الجماعة، فيكون له فضل إدراكهم. وقد قدّم عثمان القنوت قبل الركوع في صلاة الغداة ليدرك الناس الركوع.

والذي عندي في هذا التوسط، وهو أنه ينتظر، فإن سمع خفق نعالهم في أول ركوعه فلا بأس أن يمدّ حتى يلحقوا، وإن سمعها في آخر ركوعه عند رفع رأسه لم أحب أن لا يزيد في الصلاة لأجلهم، فليرفع ولا يبالي.

وأفضل التشهد عندي الذي رواه ابن مسعود وجابر، وقد اختلفت الروايات في ألفاظ التشهد^(١). والذي اختاره وأقوله^(٢): ما روينا عن عبد الله [ابن مسعود] بإثبات الواوات، وبتقديم اسم الله عز وجل في أوله، وبزيادة المباركات، فأكون بذلك جامعاً بين جميع الروايات؛ لأن في حديث عمر ذكر «المباركات» وتأخير قوله «الله عز وجل». ومن رواية ابن عمر ذكر التسمية. وقد روينا ذلك في حديث الثوري عن أيمن بن وائل عن أبي الزبير عن جابر أن رسول الله ﷺ كان يقول: «بسم الله، وبالله، والتحيات لله، والصلوات والطيبات لله عز وجل». فهذا هو الأفضل عندي، لأنه هو الأحوط، ولدخول روايات الجماعات فيه.

ثم اختلفوا في مواجهة النبي ﷺ بالإشارة إليه في السلام، أو تركها، فالذي

(١) انظر روايات التشهد وصيغته في: صفة صلاة النبي ﷺ، للشيخ الألباني، ص ١٧٢ - ١٧٧، وكتاب المغني لابن قدامة ٢/ ٢٢٠ - ٢٢٣.

(٢) وهو أيضاً اختيار الإمام أحمد، وابن قدامة صاحب المغني، انظر حجته في ذلك في المغني ٢/ ٢٢١.

أختره: السلام على النبي ﷺ إلى: ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين؛ لأنه قد جاء في بعض الأخبار كالتفسير لما ذكرناه. قال: كنا نقول إذ كان رسول الله ﷺ بين أظهرنا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. فلما قبض ﷺ صرنا نقول: السلام على النبي. وفي كل الروايات قوله: «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله». فكذاك أختار، إلا في رواية عمر فإنه قال: رسول الله ﷺ. وحدثني بعض العلماء عن بعض الصالحين قال: رأيتُ النبي ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله، قد اختلف العلماء علينا في التشهد، فبِمَ نأخذ؟ فقال: التشهد هو الذي رواه ابنُ أمٍ عبدٍ.

ولا يدع أن يستعذ في تشهده بالكلمات الخمس فيقول: «أعوذ بك من عذاب جهنم، وعذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال، وإذا أردتَ بقومٍ فتنةً فاقبضني إليك غير مفتون». قد فعله رسولُ الله ﷺ وأمر به. والمسيح: بنصب الميم مع التخفيف؛ لأنه قيل: سُميَ كذلك معدول به من ماسح، أي يمسح الأرض مسحاً، لأنه قيل: تُطوى له الأرض. وبعض أهل اللغة يقول: عدل به عن ممسوح العين؛ أي مطموسها.

والتكبير والتسليم جزمٌ، والأذان جزم. قد قيل ذلك، واستُحب أن يكون المؤذن غير الإمام. وقد روينا في الخبر: أن رسول الله ﷺ كره أن يكون الإمام مؤذناً، وقد كان عمر رضى الله عنه إذا ذُكر فضلُ الأذان يقول: لولا الإمامة لأذنت.

وروينا عن النبي ﷺ: «الأذان إلى المؤذن والإقامة إلى الإمام»؛ أي هو أملك بها، وللمؤذن أن ينتظر الإمام، وليس على الإمام والمأموم انتظار المؤذن إذا دخل الوقت، ولا على المؤذن انتظار أحدٍ إذا جاء الإمام ودخل الوقت.

والصلاة في أول وقتها أفضلُ من انتظار الجماعة لها، وأفضلُ من قراءة طوال السور فيها. وقيل: قد كانوا إذا حضر اثنان في الصلاة لم ينتظروا الثالث، وإذا حضر أربعة في الجنازة لم ينتظروا الخامس. وقيل: انتظار المأموم مع شهود الإمام مكروهٌ، والنعي بالميت والإيذان به بدعة.

وقد تأخر رسولُ الله ﷺ في صلاة الفجر، وكانوا في سفر، وإنما تأخر لطهارة،

فلم ينتظروا، وقدموا عبد الرحمن بن عوف فصلى بهم حتى فاتت رسول الله ﷺ ركعة، فقام يقضيها. قال: فأشفقنا من ذلك، فقال: «أحسنتم، هكذا فافعلوا». وقد تأخر في صلاة الظهر فقدموا أبا بكر رضى الله عنه حتى جاء وهم في الصلاة، فقام إلى جانبه.

وليدخل في الصلاة مكبراً إذا قال المؤذن: قد قامت الصلاة. ويكون الناس قد قاموا إذا قال المؤذن: حى على الصلاة. كذلك السنة وعليه كان السلف^(١).

وروينا عن على عليه السلام، وعبد الله، وكانوا إذا قال المؤذن: حى على الصلاة قام الناس للدعوة، فإذا قال: قد قامت الصلاة؛ كبر الإمام، ويبقى المؤذن وحده يتم الإقامة، ثم يدخل في الصلاة، والإمام يقرأ سورة الحمد. لأن حقيقة قوله: قد قامت الصلاة، أى قد قام الناس للصلاة، وقد قام المصلّون؛ لأن الصلاة لا تقوم، فإذا قاموا عند قوله: قد قامت الصلاة، كان المؤذن صادقاً في قوله، وإن كان جائزاً على المجاز لقرب الوقت، وظهور سبب القيام. ولذلك كره أن يكون الإمام مؤذناً؛ لأنه حينئذ يحتاج أن يكبر، ويدخل الناس في الصلاة عند قوله: قد قامت الصلاة.

وكذلك جاء عن السلف: من السنة أن يكون الأذان في المنارة، والإقامة في المسجد، ليقرب على المؤذن الدخول في الصلاة. وكذلك قال بلال لرسول الله ﷺ: لا تسبقنى بآمين؛ أى تمهل حتى أدرك التأمين معك لفضله، إذ قد علم أنه يسبقه بافتتاح الحمد. وفي هذا دليل على صحة اختيارنا، فيما ذكرنا من انتظار الإمام لمن سَمِعَ خَفَقَ نعله^(٢)، إذا كان في أول الركوع، لقول بلال: لا تسبقنى بآمين، ولم يقل: لا تسبقنى بالحمد.

(١) هذا في مذهب أبى حنيفة: «قال: يقوم الإمام إذا قال: حى على الصلاة. فإذا قال: قد قامت الصلاة: كبر». والجمهور على غير ذلك. إذ يرون أن الإمام يقوم عند قول المؤذن: قد قامت الصلاة، ولا يكبر حتى يفرغ المؤذن من الإقامة. لأن النبى ﷺ كان يعدل الصفوف بعد إقامة الصلاة. انظر: المغنى ٢/ ١٢٣ - ١٢٦.

(٢) عبارة (هـ): «على صحة مذهب من قال: إن الإمام ينتظر إذا سمع خفق النعال حتى يدخل في الصلاة».

إلا أنه على قول من قال: إذا سَبَّحَ الداخل بالإمام وهو راكع لَزِمَهُ أن يتوقف عليه، لأنه قد أذنه بالتوقف. فإذا لم يَسْبَحْ، لم يجب عليه أن يتوقف له. فهو على هذا القول أشدُّ جوازاً، لأن تسييحه بالإمام يسأله أن يتوقف عليه، بمنزلة قول بلال رضى الله عنه: لا تسبقنى بآمين^(١).

ولا أستحبُّ للإمام الجهرَ بِبِسْمِ الله الرحمن الرحيم، وإن كانت آيةً من سورة الحمد، فأكثرُ الروايات وأثبتها عن رسول الله ﷺ تركُ الجهر بها، وأنه الآخر من فعله، فقد كانوا يأخذون بالآخر، فالآخر من أفعاله ﷺ، ولمواطأة فعل أبى بكر وعمر رضى الله عنهما^(٢)، ولأنه مذهبُ أكثر العلماء.

وروينا عن ابن مسعود أنه قال: من السنة أن يخفى الإمام أربعاً: سبحانهك اللهم، والاستعاذة، وقراءة بسم الله الرحمن الرحيم، والتأمين. وقد روينا عن على كرم الله وجهه: كراهة الجهر بها^(٣). وعن ابن عباس: ليس من السنة الجهر بها.

ولا أكره القنوت في صلاة الغداة بالكلمات الثمانية التى رُويت عن الحسن عن رسول الله ﷺ أن يقولها سرّاً، ولا يرفع يديه، لأنها تجرى مجرى الدعاء، وإن ترك ذلك فحسن، قد تركه أكثر الفقهاء.

وأستحب أن يقرأ في ليلة الجمعة وغداتها من السور ما روينا عن رسول الله ﷺ في حديثين؛ المشهور منهما: «أنه كان يقرأ في صلاة الغداة يوم الجمعة بسورة السجدة و ﴿هَلْ أَتَى﴾ [سورة الإنسان]. والحديث الآخر: «أنه كان يقرأ في صلاة المغرب ليلة الجمعة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾. وفي عشاء الآخرة: بسورة الجمعة وسورة المنافقين.

وأستحب أن يقول في تشهد من الدعاء ما علّم رسولُ الله ﷺ عائشةً من

(١) هذه الفقرة من (هـ).

(٢) قوله: «ولمواطأة فعل أبى بكر وعمر رضى الله عنهما» من (هـ).

(٣) فى المطبوعة: رأى ابن مسعود وعلى رضى الله عنهما يخالف رأى ابن عباس، وأثبت ما فى

(م، هـ).

الجوامع والكوامل: «اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله، ما علمتُ منه وما لم أعلم، أسألك مما سألك منه محمد ﷺ، وأعوذُ بك مما استعاذك منه محمد ﷺ، أسألك الجنة وما قربَ إليها من قولٍ وعملٍ، وأعوذُ بك من النار وما قربَ إليها من قولٍ وعملٍ. اللهم ما قضيتَ لى من أمرٍ فاجعل عاقبته رشداً». ثم يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ويقول: «رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا» [آل عمران: ٨] الآية، «رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» [البقرة: ٢٠١].

وليس بعد هذا دعاء مفضل ولا كلام ماثور سوى ما ذكرناه آنفاً من الاستعاذة بالكلمات الخمس، وإن اقتصر عليها أجزأته، ويكره للإمام أن يخص نفسه بدعاء دون مَنْ خلفه، فإن دعا في صلاته فليجمع بالنون، فيقول: نسألك ونستعيذك، وهو ينوي بذلك نفسه ومَنْ خلفه. وفي الخبر: «مَنْ أَمَّ قَوْماً فلا يخص نفسه بدعوة دونهم».

فإن اختار المريد التأذين على الإمامة، فقد قال بعض السلف من العلماء: إن الأذان أفضل من الإمامة، وإن المؤذن أعظم أجراً، لقول النبي ﷺ: «الإمام أمير»، ولقوله: «الإمام ضامن»، فشبَّهها بالإمارة والضمان. ثم قال: «فإن نقص فعله لا عليهم»، فالأذان أسلم، ولعله لا يقوم بحكم الإمامة، ولا يتم وصف الإمام، فيكون عليه بعض صلاة المصلين، كم يكون له أيضاً في الإتمام أجورهم. وأيضاً: فإن رسول الله ﷺ دعا للمؤذنين دعاءً هو أمدح من دعائه للإمام بقوله: «اللهم أرشد الأئمة، واغفر للمؤذنين»، وبقوله: «يُغْفَرُ لِلْمُؤَذِّنِ مَدَى صَوْتِهِ وَيَشْهَدُ لَهُ كُلُّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ». ووصفه أيضاً بوصف هو أبلغ فقال: «المؤذن مؤتمن». وفي لفظ آخر: «مؤذنونكم أمانؤكم، وأئمتكم ضمانؤكم». فالأمين أرفع حالاً من الضامن؛ لأن الضامن غارم، وقد لا يكون أميناً، والأمين مكين ولا ضمان عليه.

ومن هذا كره سهل بن سعد الساعدي الإمامة. قال أبو حازم: قلتُ لسهل بن سعد، وكان يقدم فتیان قومه يصلُّون به، فقلت: أنت صاحبُ رسول الله ﷺ ولك من السابقة والفضل لو تقدَّمتَ فصلَّيتَ بقومك. فقال: يا ابن أخي، سمعتُ

رسول الله ﷺ يقول: «الإمام ضامن» فأكره أن أكون ضامناً. وفي الخبر: «من أذن في مسجد سبع سنين وجبت له الجنة، ومن أذن أربعين عاماً دخل الجنة بغير حساب». وفي الخبر عن رسول الله ﷺ: «ثلاثة يوم القيامة على كتيب من مسك، يفرع الناس ولا يفرعون حتى يقضى بين الخلائق: رجل قرأ القرآن فأداه إلى الله سبحانه وتعالى بما فيه، ورجل أذن في مسجد ابتغاء وجه الله تعالى، ورجل ابتلى بالرق في الدنيا فأطاع الله عز وجل وأطاع مواله».

وروينا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ قال: نزلت في المؤذنين ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [فصلت: ٣٣] قال: الصلاة بين الأذان والإقامة. ويستحب إذا فرغ المؤذن من الأذان أن يقول: وأنا من المسلمين، الحمد لله رب العالمين، وتلا قوله: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، وقوله: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥].

وأستحب أن يصلى المؤذن بين الأذان والإقامة أربعاً، وأن يجتهد في الدعاء. قال: وكان السلف يكرهون أربعاً ويتدافعونها عنهم: الإمامة، والفتيا، والوصية، والوديعة. وقال بعضهم: ما شيء أحبُّ إلى من الصلاة في جماعة وأكون مأموماً، فأكفى سهوها، ويتحمل غيري ثقلها. ولكن إذا أقيمت الصلاة فليتقدم من أمر بالتقدم ولا يتدافعونها، فقد جاء في العلم: أن قوماً تدافعوا الإمامة بعد إقامة الصلاة فخسف بهم، ولكن لا يقيم المؤذن حتى يحضر الإمام، ولا ينتظروا الإمام قياماً فإنه مكروه. وقال رسول الله ﷺ: «لا تقوموا حتى تروني».

وكان بشر بن الحارث يقول: من أراد سلامة الدنيا وعز الآخرة فليجتنب أربعاً: لا يحدث، ولا يشهد، ولا يؤم، ولا يفتي. وفي بعضها: ولا يجيب دعوة. وقال مرة: ولا يقبل هدية. وهذا من تشديده.

والذى أختار من التأذين والإقامة مذهب أهل الحجاز بثنية الأذان، بالترجيع وإفراد الإقامة، وأن يزيد في أذان الفجر: «الصلاة خير من النوم» مرتين، وأن يؤذن لها قبل دخول الوقت خاصة؛ ليتأهب لها المصلون، وإنما هي الصلاة

الوسطى، إلا أن يتفقوا على صحة الحديث: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر»، فليدع الاختيار للآثار.

وأن يمد المؤذن صوته، ويرفعه جهده، ويترسل أذانه، وقيل: كانوا يستحبون خفض الصوت في كل موطن إلا في موضعين: في الأذان، وعند التلبية.

وفي الخبر: «يتمهل المؤذن بين أذانه وإقامته قدر ما يفرغ الأكل من طعامه، والمعتصر من اعتصاره». فهذا توقيت من مقدار المصلين بين الأذنين، فمن كانت به حاجة إلى هذين فليقدم ذلك قبل دخوله في الصلاة، لئلا يشغله شيء عن صلاته.

ونهى رسول الله ﷺ عن مدافعة الأخبثين في الصلاة، وأمر بتبذئة العشاء في قوله: «إذا وُضع العشاء وأقيمت الصلاة، فابدؤوا بالعشاء»، ذلك ليكون القلب فارغاً لربه، خالياً من نوائبه، فذلك من إقامة الصلاة وإتمامها.

وأكره الإمامة لمن كثر سهوه في الصلاة، أو دام اشتغال قلبه عن فهم المناجاة، أو لمن علم أن وراءه من هو أقرأ منه، أو أفقه في الدين والعلم، وإن كان هو عابداً صالحاً، أو لفقيه بالعلم إذا كان وراءه أتقى منه وأصلح وأورع، بعد أن يكون مؤدياً لفرض التلاوة.

ولا يوم الأمي القراء، ولا الأعجمي الفصحاء، ولا المتيممون المتوضئين. وإن اتفق أميون قدم أقرؤهم، وإن حضر أئمة قرأ فليقدم أعلمهم، وإن اتفق رجلان أحدهما قد جمع كل القرآن، إلا أن الآخر أحسن تجويداً وتنقيفاً لما يقرأ منه، وليس يحفظ جميعه، فليقدم أقومهم قراءة، إذا كان عالماً بالصلاة. وفي الخبر: «يوم القوم أقرؤهم لكتاب الله عز وجل، فإن كانوا في القراءة سواء فأفقههم في الدين، فإن كانوا في الفقه سواء فأكبرهم سنًا»، وكذلك الأمر. وقال رجل للحسن: يا أبا سعيد، إن لنا إماماً يلحن، فقال: أخروه. والخطأ أسهل من اللحن، لأن فيه تحريفاً وإحالة، وليس في الخطأ ذلك^(١).

(١) من قوله: «وقال رجل للحسن» من (هـ).

والرجل أحق بالإمامة إذا كان في منزله إلا أن يأذن، كذلك السنة فيه.

وأستحب للإمام إذا سلم أن يسرع الانفتال بوجهه إلى الناس، وأكره للمأموم القيام قبل انفتال إمامه. فقد روينا في ذلك سنة حسنة عن طلحة والزبير، أنهما صليا في البصرة خلف إمام، فلما سلما قالوا للإمام: ما أحسن صلاتك وأتمها، كما كنا نصلى، إلا شيئاً واحداً، أنك لما سلمت لم تنفتل بوجهك، ثم قالوا للناس: ما أحسن ما صليتم إلا أنكم انصرفتم قبل أن ينفتل إمامكم.

ومن كرهه جيرانه، أو كرهه من وراءه من المأمومين، فلا يحل له أن يتقدم، فإن اختلفوا فكرهه قوم وأحبه آخرون، نُظر إلى أهل الدين والعلم منهم، فحكم بقولهم، ولا يعتبر الأكثر إذا كان الأقلون هو الأخير.

ولا يصلى خلف مبتدع، فمن صلى خلف مبتدع ولا يعلم فليعد، ومن سمع الأذان من مسجد وهو في طريق يمشى فليدخل فليصل، ولا يؤخر إلى مسجد آخر، إلا لأحد معنيين: أن يكون على يقين من لحوق إمام آخر أفضل من هذا، أو يكون يعرف هذا ببدعة أو فسوق، وإلا فالصلاة مع أول من قام بها من المسلمين أفضل.

وفي الخبر: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد»، وفي جار المسجد قولان: أحدهما: من سمع الأذان. وروى هذا عن علي عليه السلام. والثاني: من كان بينه وبين المسجد ثلاث دور وهو الرابع. والتشديد في ترك الجماعة على من سمع التأذين.

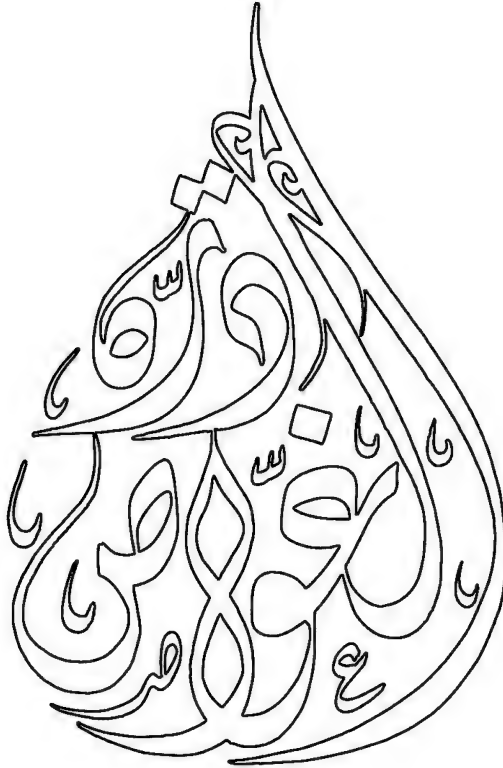
ومن كان في جنبه مسجدان، فأولاهما بالصلاة فيه أقربهما منه، وهذا مذهب الحسن، إلا أن يكون له نية في كثرة الخطى إلى الأبعد، أو يكون إمام الأبعد هو الأفضل. وقيل: أقدمهما. وروى هذا عن أنس بن مالك وبعض الصحابة، أنهم كانوا يجاوزون المساجد المحدثه إلى العتق.

ومن كان مأموماً فلا يقرأ سورة مع الحمد فيما يجهر به الإمام أصلاً، ولا يقرأ الحمد أيضاً إلا في سكتات الإمام وإن قطعها، فإن لم يكن للإمام سكتات قرأ

الحمد فقط فيما يجهر به الإمام، وكان ما عليه من وزر قراءته فى قراءة الإمام على إمامه، لأنه قد نقص صلاته وترك ما عليه. فالله عز وجل حسيبه. فإذا أسرَّ الإمام فليقرأ الحمد وسورة إذا أمكنه، ولا بد من قراءة الحمد وحدها.

وأستحب للإمام أن يتحوّل إذا صلى المكتوبة فلا يصلى فى موضعه نافلة. ففى الخبر: «أن النبى ﷺ كان إذا سلّم وثب». وكان أبو بكر رضى الله عنه إذا سلّم وثب. وكان عمر رضى الله عنه إذا سلّم وثب. وفى الخبر المشهور: «أنه لم يكن يقعد إلّا قدر قوله: اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام» ثم ينصرف. وإن تحول المأموم فصلّى النافلة فى غير مكان الفريضة ولو بقَدَمٍ فحسن، ففى ذلك أثر. فإن جلسا قليلاً للتسييح والدعاء فلا بأس.

وهذا آخر كتاب الإمامة.



الفصل الرابع والأربعون

كتاب الأخوة في الله تبارك وتعالى،

والصحبة والمحبة للإخوان فيه، وأحكام المؤاخاة وأوصاف المحبين

ذَكَرَ اللهُ عز وجل عباده المؤمنين نعمته عليهم في الدين، إذ أَلَّفَ بين قلوبهم بعد أن كانوا متفرقين، فأصبحوا بنعمته إخوانًا، بالألفة متفقين، وعلى البر والتقوى مضطجعين، ثم ضَمَّ التذكرة بالنعمة عليهم إلى تقواه، وأمر بالاعتصام بحبله وهداه، ونهى عن التفرُّق إذ جمعتهم الدار، وقرن ذلك بالمنة منه عليهم، إذا أنقذهم من شفا حفرة النار، وقد جعل ذلك كله من آياته الدالة عليه سبحانه وتعالى، وسبَّله الواصلة بالهداية إليه، فقال في مجمل ما شرحناه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ...﴾ إلى ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا...﴾ إلى ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢ - ١٠٣].

وقد كانت المؤاخاة في الله تعالى والصحبة لأجله والمحبة له في الحضر والسفر، طرائق للعاملين، في كل طريق فريق، لما في ذلك من الفضل، ولما جاء فيه من الأمر والندب، إذ كان الحب في الله عز وجل من أوثق عرى الإيمان، وكانت الألفة والصحبة لأجله، والمحبة والتزاور من أحسن أسباب المتقين. وقد كثرت الأخبار في تفضيل ذلك والحث عليه، وليس قصدنا الجمع لما رُوي، لميلنا إلى الإيجاز في كل فنٍّ، ولكن نذكر الأفعال المستحسنة، وما تعلق بها مما لا بد منه.

على أن رأى التابعين قد اختلف في التعرف، فمنهم من كان يقول: أقلل من المعارف، فإنه أسلم لدينك، وأقلُّ غداً لفضيحتك، وأخفُّ لسقوط الحقوق عنك؛ لأنه يقال: كلما كثرت المعارف كثرت الحقوق، وكلما طالت الصحبة توكدت المراعاة. وقال بعضهم: هل رأيتَ شراً إلا ممن تعرف، فكلما نقص من هذا فهو خيرٌ. وقال بعضهم: أنكر من تعرف، ولا تتعرف إلى من لا تعرف. ومن مال

إلى هذا الرأي: سفيان الثوري، وإبراهيم بن أدهم، وداود الطائى، والفضيل بن عياض، وسليمان الخواص، ويوسف بن أسباط، وحذيفة المرعى، وبشر الحافى.

وقال أكثر التابعين باستحباب كثرة الإخوان فى الله عز وجل، بالتأليف والتحبب إلى المؤمنين، لأن ذلك زين فى الرّخاء، وعون فى الشدائد. وتعاون على البر والتقوى، وألفة فى الدين. وقال بعضهم: استكثر من الإخوان، فإن لكل مؤمن شفاعاً، فلعلك تدخل فى شفاعه أخيك. وكانوا يأمرّون بالأخوة ويتحاضون على الألفة، ويقال: إذا غفر للعبد شفع فى إخوانه.

وروينا عن رسول الله ﷺ حديثاً غريباً فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الشورى: ٢٦]، قال: «يشفعهم فى إخوانهم فيدخلهم الجنة معهم».

ومن مال إلى هذا الطريق: ابن المسيب، والشعبى، وابن أبى ليلى، وهشام بن عروة، وابن شبرمة، وشريح، وشريك بن عبد الله، وابن عيينة، وابن المبارك، والشافعى، وأحمد بن حنبل، ومن وافقهم. وقد روينا عن رسول الله ﷺ: «إن أقربكم منى مجلساً أحاسنكم أخلاقاً، الموطّئون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون».

وروينا عنه ﷺ: «المؤمن مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف».

وقد قيل: أول ما يُرفع من هذه الأمة الخشوع، ثم الورع، ثم الأمانة، ثم الألفة. وفى الخبر: «مَن أرادَ الله به خيراً رزقه خليلاً صالحاً، إن نسى ذكره وإن ذكر أعانه». وروينا فى خبر: «مثل الأخوين إذا التقيا مثلُ اليدين تغسل إحداهما الأخرى». وما التقى مؤمنان إلا أفادَ الله عز وجل أحدهما من صاحبه خيراً. وروينا فى خبر عن رسول الله ﷺ: «من آخى أخاً فى الله عز وجل، رفعه الله عز وجل درجة فى الجنة لا ينالها بشيء من عمله». ويقال: إن الأخوين فى الله عز وجل، إذا كان أحدهما أعلى مقاماً من الآخر، رُفع الآخر معه إلى مقامه، وأنه يلحق به كما تلحق الذرية بالأبوين، والأهلُ بعضهم ببعض؛ لأن الأخوة عمل كالولادة. وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ

أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴿الطور: ٢١﴾ أى: وما نقصناهم. وقال تعالى مخبراً عن لا صديق له حميم تنفعه شفاعته: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشراء: ١٠٠ - ١٠١]. ومعنى حميم: أى هميم، أبدلت الحاء هاء لتقاربهما، مأخوذ من الاهتمام، أى مهتم بأمره. ففيه دليل: أن الصديق لك هو المهتم بك، وإن الاهتمام حقيقة الصداقة. وروينا عن النبي ﷺ: «المؤمن كثير بأخيه». وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه: ما أعطى عبدٌ بعد الإسلام خيراً من أخ صالح. وقال أيضاً: إذا رأى أحدكم ودّاً من أخيه فليتمسك به، فقلماً تصيب ذلك. وقد قال بعض الحكماء فى معناه كلاماً منظوماً شعراً:

ما نالت النفسُ على بُغيةٍ ألدُّ من ودِّ صديقٍ أمين
مَنْ فاتَهُ ودُّ أخٍ صالحٍ فذلك المقطوعُ منه الوتين

وقد يروى هذا المصراع الثانى:

* فذلك المغبونُ حقّاً يقين *

وروينا فى الأخبار السابقة أن الله تبارك وتعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: «يا ابن عمران، كن يقظان، وارزد لنفسك إخواناً، وكلُّ خدنٍ وصاحبٍ لا يؤازرك على مسرّتى فهو لك عدو». وفى خبر غيره عن داود عليه السلام أن الله سبحانه وتعالى أوحى إليه: «يا داود، ما لى أراك متبذراً وحداً؟ قال: إلهى، قليتُ الخلق من أجلك. فأوحى الله عز وجل إليه: يا داود، كُن يقظان مرتاداً لنفسك إخواناً، فكلُّ خدنٍ لا يوافقك على مسرتى فلا تصحبه، فإنه لك عدو، ويقسى قلبك، ويباعدك منى». وقد روينا عن رسول الله ﷺ: «كونوا مؤلفين ولا تكونوا منفرين». وفى الحديث: «إن أحبكم إلى الله عز وجل الذين يآلفون ويؤلفون، وإن أبغضكم إلى الله عز وجل المشاؤون بالنميمة، المفرّقون بين الإخوان». وفى أخبار داود ﷺ أنه قال: «يا رب، كيف لى أن يحبنى الناس كلهم، وأسلم فيما بينى وبينك، قال: خالق الناس بأخلاقهم، وأحسن فيما بينى وبينك». وفى بعضها: «خالق أهل الدنيا بأخلاق الدنيا، وخالق أهل الآخرة بأخلاق الآخرة». وقال

الشعبي عن صعصعة بن صوحان، أنه قال لابن أخيه زيد: أنا كنت أحبُّ إلى أبيك منك، وأنت أحبُّ إلىَّ من ابني، خصلتان أوصيك بهما فاحفظهما: خالص المؤمن مخالصةً، وخالق الفاجر مخالقةً، فإن الفاجر يرضى منك بالخلق الحسن، وأنه لَحَقَّ عليك أن تخالص المؤمن.

وقد قال أبو الدرداء قبله: **إِنَّا لَنَكْشِرُ^(١)** في وجوه أقوامٍ وإنَّ قلوبنا لَتَلْعَنُهُمْ، فمعنى هذا على الثقة والمدارة ليدفع بذلك شره وأذاه، كما جاء في تفسير قوله تعالى: **﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾** قيل: السلام **﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾** [فصلت: ٣٤]. وكان ابن عباس يقول في معنى قوله عز وجل: **﴿وَيَذَرُوكَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ﴾** [الرعد: ٢٢]، قال: يدفعون الفحش والأذى - وهو السيئة - بالسلام، والمدارة وهو الحسنة. وقد كان أفضل الحسنات إكرام الجلساء، ومنه قوله عز وجل: **﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾** [البقرة: ٢٥١]، قيل: بالرغبة والرغبة والحياء والمدارة. وكذلك معنى قولهم: خالص المؤمن، وخالق الفاجر. فالمخالصة بالقلوب من المودة واعتقاد المؤاخاة في الله عز وجل. والمخالفة: المخالطة في المعاملة والمبايعة، وعند اللقاء. وكذلك جاء مفسراً: خالطوا الناس بأعمالهم، وزايلوهم في القلوب. وقد قال محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم: ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدءاً، حتى يجعل الله عز وجل له منه فرجاً، فمعاملة غير تقى ومكالمته من أحوال الاضطرار، ومعاشرة التقى ومصافاته من حُسْن الاختيار.

وفي أخبار موسى عليه السلام فيما أوحى الله عز وجل إليه: «إن أظعنتى فما أكثر إخوانك من المؤمنين» المعنى: إن واسيت الناس، وأشفقت عليهم، وسلم قلبك لهم، ولم تحسدهم، كثر إخوانك.

ويقال: إنَّ أحد الأخوين في الله عز وجل، إذا مات قبل صاحبه، وقيل له: ادخل الجنة، سأل عن منزل أخيه، فإن كان دونه لم يدخل الجنة حتى يُعطى أخوه

(١) الكَشْر: بُدُو الأسنان عند التبسم، يقال: كَشَرَ الرجلُ يَكْشِرُ كَشْراً إذا تبسّم فبدت أسنانه.

مثل منزلته. قال: ولا يزال يسأل له من كذا وكذا، فيقال: إنه لم يكن يعمل مثل عملك، فيقول: إني كنت أعمل لى وله. قال: فيعطى جميع ما سأل له، ويرفع أخوه إلى درجته معه. وروى معنى ذلك فى خبرين جمعت بينهما اختصاراً^(١).

فقد كانوا يتواخون ويتعارفون المنافع الآخرة الباقية، لا لمرافقة الدنيا الفانية. وأفضل الأخوة، كما قال بعض العلماء: المحبة الدائمة، والألفة اللازمة من قبل أن الأخوة والمحبة عمل، وكل عمل يحتاج إلى حسن خاتمة به، ليتم العمل، فيكمل أجره، فإن لم يُختم له بالآخرة، ولم يحسن عاقبة الصحبة والمحبة، فقد أدركه سوء الخاتمة، وبطل عنه ما كان قبل ذلك. فقد يصطحب الاثنان، ويتواخى الرجلان عشرين سنة، ثم لا يُختم لهما بحسن الأخوة، فيحبط بذلك ما سلف من الصحبة، فلذلك شرط العالم المحبة الدائمة والألفة اللازمة إلى الوفاة، ليُختم له بها.

ومن هذا كان السلف يحافظون على الأخوة ويراعون منهم المحبة ويأمرون بالتمسك بها والإبقاء عليها لنفاستها وشدة الخطر بها، كما قال بعضهم: مثل الأخوة فى الله عز وجل مثل الزجاجة الرقيقة ما لم تصنها وتحذر عليها كانت معرضة للآفات، فمن عَرَفَ فضل الأخوة ارتبط بها، ومن اغتبط بشيء خاف فوته وعمل فى أسباب تبقيته، وإن كان فى ذلك حمل على نفسه وماله^(٢).

ويقال: ما حسد العدو متعاونين على برٍّ حسد متواخين فى الله عز وجل ومتحابين فيه، فإنه يجهد نفسه ويحث قبيله على إفساد ما بينهما. وقد قال الصادق عز وجل: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣]. يعنى: يقولون الكلمة الحسنة بعد نزغ الشيطان. وقال عز وجل مخبراً عن يوسف عليه السلام: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنَ وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠]. ويقال: ما تواخى اثنان فى الله عز وجل ففرق بينهما، إلا بذنب يرتكبه أحدهما. وكان بشر يقول: إذا قصر العبد فى طاعة الله تبارك وتعالى،

(١) من قوله «وروى» من (ه).

(٢) من أول هذه الفقرة من (د، ه).

سَلَبَهُ اللهُ عز وجل من يُؤنسه؛ لأنَّ عنده أن وجود الأُنس من الأَخ نعمة من الله عز وجل، إذ لا يوجد ذلك في كل أخ. وكان أيضاً يقول: ينبغي للرجل أن يكون له ثلاثة إخوان: أخٌ للدنيا، وأخٌ للآخرة، وأخٌ يأنس به. أى فقد يكون الأَخ من أهل الآخرة بين الفضل ولا يوجد الله عز وجل به الأُنس، من قَبْلِ أن الأُنس عزيزٌ، وأنه لا قُرب في رُوح لا يوجد الأُنس به، ولا يوجد الأُنس إلا في الرُّوحاني^(١). ويقال: للعدو شيطانٌ، قد وكَّله بالتفريق بين المتواخين، ليس له عمل إلا ذلك، قد تفرغ له.

ومن علامة التقى حسنُ المقال عند التفريق وحمل الشرِّ، وجميل البشر عند التقاطع. أنشدنا بعضُ العلماء الحكماء في معناه:

إنَّ الكريم إذا تَقَضَّى وِدَّهُ يُخْفِي القبيحَ وَيُظْهِرُ الإحْسَانَ
وترى اللئيمَ إذا تصرَّم حَبْلُهُ يُخْفِي الجميلَ وَيُظْهِرُ البُهْتَانَ

فوصفُ الكريم في هذا المعنى التخلُّقُ بخلق الربوبية، ألم تسمع إلى الدعاء المأثور عن رسول الله ﷺ في أوله: «يا من أظهر الجميل وستر القبيح، ولم يؤاخذ بالجريرة، ولم يهتك الستر»؟ فكَذلك صفات المؤمنين على معاني أخلاق المؤمن الأعلى. وقد كان أبو الدرداء يقول: معاتبَةُ الصديق خيرٌ من فَقْدِهِ، ومن لك بأخيك كله، هُنْ لأخيك، وَلِنْ لَهُ، ولا تطع الشيطان في أمره، غداً يوافيه الموت فيكفيكَ فَقْدَهُ، كيف تبكيه بعد الموت، وفي الحياة تركت وصله؟

وقد روينا عن علي عليه السلام: أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغضك يوماً ما، وابغض بغضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما.

وقد روينا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه معناه: لا يكن حُبُّكَ كَلَفًا، وبغضُكَ تَلَفًا. قال أسلم: قلت: وكيف ذاك؟ قال: إذا أحببت فلا تكلف كما يكلف الصبى بالشئ يحبه، وإذا بغضت فلا تبغض بغضاً تحب أن يتلف صاحبك ويهلك. وفي وصية عمر بن الخطاب رضى الله عنه التي رويناها عن يحيى بن

(١) من قوله: «لأنَّ عنده أن وجود» إلى هنا ساقط من المطبوعة وهو من (د، هـ).

سعيد الأنصارى، عن سعيد بن المسيب، قال: قال عمر رضى الله عنه: عليك بإخوان الصدق تعيش في أكنافهم، فإنهم زينة في الرخاء، وعدة في البلاء، وضع أمر أخيك على أحسنه، حتى يحبك ما يغلبك منه، واعتزل عدوك واحذر صديقك من القوم إلا الأمين، ولا أمين إلا من خشى الله عز وجل. ولا تصحب الفاجر فتعلم فجوره، ولا تطلع على سرّك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تبارك وتعالى.

وحدثونا عن إبراهيم بن سعيد قال: حدثنا يحيى بن أكثم قال: حدثت المأمون أمير المؤمنين، فقلت له: حدثني سفيان بن عيينة، عن عبد الملك بن أبجر، قال: لما حضرت علقمة العطاردي الوفاة دعا بابنه فقال: يا بني، إن عرّصت بك إلى صحبة الرجال حاجة، فاصحب من إذا خدمته صانك، وإن قعدت بك مؤونة مانك. اصحب من إذا مددت يدك بخير مدّها، وإن رأى منك حسنة عدّها، وإن رأى منك سيئة سدّها. اصحب من إذا سألته أعطاك، وإن سكت ابتداك، وإن نزلت بك نازلة واساك. اصحب من إذا قلت صدق قولك، وإذا حاولت أمراً أمرك، وإن تنازعتما أثرك. قال ابن أكثم: فقال المأمون: وأين هذا؟!

وقيل للأحنف بن قيس: أى إخوانك أحب إليك، فقال: من يسد خللى، ويستر زكلى، ويقبل على. وحدثونا عن الأصمعى قال: حدثنا العلاء بن جرير عن أبيه قال: قال الأحنف: من حق الصديق أن يحتمل له ثلاث: أن يجاوز عن ظلم الغضب، وظلم الهفوة، وظلم الدالة. وقال: الإخاء جوهرة رقيقة، فهي ما لم توق عليها وتحرسها كانت معرضة للآفات، فأرض الإخاء بالذلة حتى تصل إلى فوقه، وبالكظم حتى تعتذر إلى من ظلمك، وبالرضا حتى لا تستكثر من نفسك الفضل، ولا من أخيك التقصير.

ويقال: من لم يظلم نفسه للناس، ويتظالم لهم، ويتغافل عنهم، لم يسلم منهم. وكان أسماء بن خارجة الفزارى يقول: ما سئمت أحداً قط، لأنه إنما يسأمنى أحد رجلين: كريم كانت منه زلة وهفوة، فأنا أحق من غفرها، وأخذ عليها بالفضل فيها، أو لئيم فلم أكن أجعل عرضى له غرضاً. ثم تمثل شعراً:

وأغفر عوراءَ الكريمِ اصطناعه
وأعرضُ عن ذاتِ اللئيمِ تَكْرُمًا
وأنشدونا لمحمد بن عامر في الإخوان شعراً:

فإنَّ الظُّلَمَ مرتعُهُ وَخِيمُ	فلا تَعَجَلْ على أَحَدٍ بِظُلْمٍ
على أَحَدٍ، فإنَّ الفُحْشَ لومُ	ولا تَفْحَشْ، وإنْ ملِئتَ غَيْظًا
فإنَّ الذَّنْبَ يغفرُهُ الكريمُ	ولا تقطعَ أخًا لك عند ذَنْبٍ
كما قد يُرْقِعُ الخَلْقُ القَدِيمُ	ولكن داوِ عورته برُقْعٍ
فإنَّ الصبرَ في العُقْبَى سَلِيمُ	ولا تجزعَ لربِّبِ الدهرِ واصْبِرْ

وأنشدونا في معناه عن أحمد بن يحيى بن ثعلب، قال: أنشدني عبد الله بن شبيب:

وأكثرُ فعلهم سَمَجُ	إخاءُ الناسِ ممتزجُ
فليس وراءهم فرَجُ	فإنْ بدَّهتَكَ مَقْطَعَةٌ
فإن لم يوصلوا اعتَوَجُوا	فقومُهم بوصلِهِمُ
تَقَطَّعُ دُونَهَا المَهْجُ	صروفُ الدهرِ دائبةُ

ورويانا عن عكرمة عن ابن عباس أنَّ النبي ﷺ قال: «لا تُمار أخاك، ولا تُمازحه، ولا تَعَدَّه موعدًا فتُخلفه». وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم لا تَسْعُونَ الناسَ بأموالكم، ولكن لِيَسْعَهُمْ منكم بَسْطُ وجوهٍ وحُسْنُ خُلُقٍ». وعن أبي نجيح عن مجاهد في قول الله عز وجل: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. قال: خُذْ من أخلاقِ الناسِ ومن أعمالِهِم ما ظهر من غير تحسس. وقد أنشدنا بعض الحكماء في ذلك:

خُذْ من خَلِيلِكَ ما صَفَا	وذَرِ الذي فيه الكَدَرُ
فالعُمُرُ أقصرُ من مُعا	تَبَةِ الخَلِيلِ على الغَيْرِ

ومن عرف فضل الأخوة في الله عز وجل، وعلم درجة المحبة لله تعالى، صبر

لأخيه وشكر له، وحلم عنه، واحتمل له، لينال ما أمّله من مؤمّله فيه، ويبلغ ما طلبه من طالبه به، فإن الصبر يحتاج إليه ليتّم العمل والشكر، ولا بد له منه لدوام النعمة، ومن طلب نفيساً خاطر بنفيس، ومن رغب في رغبة بذل لها مرغوباً، والله عز وجل الموفّق من يحبّ لما يحبّ.

وروينا في حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «المتحابون في الله عز وجل على عمود من ياقوتة حمراء، في رأس العمود سبعون ألفَ غرفة، مشرفون على أهل الجنة، يضيء حسنهم لأهل الجنة كما تضيء الشمس لأهل الدنيا، عليهم ثياب سندس خضر، مكتوب على جباههم: هؤلاء المتحابون في الله عز وجل».

وروينا في حديث معاذ، وقد قال له أبو إدريس الخولاني: إني لأحبك في الله عز وجل. فقال له: أبشر ثم أبشر، فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُنصب لطائفة من الناس كراسي حول العرش يوم القيامة، ووجوههم كالقمر ليلة البدر، يفرح الناس وهم لا يفزعون، ويخاف الناس ولا يخافون، وهم أولياءُ الله عز وجل الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. فقل: من هؤلاء يا رسول الله؟ قال: هم المتحابون في الله عز وجل».

ورواه أبو هريرة فقال فيه: «إنّ حول العرش منابر من نور، عليها قومٌ لباسهم نور ووجوههم نور، ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء. فقالوا: يا رسول الله جلّهم لنا. فقال: هم المتحابون في الله عز وجل، والمتجالسون في الله تعالى، والمتزاورون في الله تعالى».

وروينا في حديث عبادة بن الصامت: «يقول الله عز وجل: حُقت محبتي للمتحابين فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتبازلين فيّ، والمتصادقين فيّ».

وكان ابن مسعود يقول في قوله عز وجل: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بِينَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣]. قال: نزلت هذه الآية في المتحابين في الله عز وجل.

وأبو بشر عن مجاهد قال: المتحابون في الله عز وجل إذا التقوا فكشّر بعضهم إلى بعض، تتحاتّ عنهم الخطايا كما يتحاتّ ورق الشجر في الشتاء إذا يبس.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «سبعة يظلّهم الله عز وجل في ظلّ عرشه، يوم لا ظلّ إلا ظله» منهم كذا «واثنان تواخيا في الله عز وجل، اجتمعا على ذلك وتفرّقا». وكان الفضيل بن عياض وغيره يقول: نظر الأخ إلى وجه أخيه على المودة والرحمة عبادة.

فلا تصح المحبة في الله عز وجل إلا بما شرط فيها من الرحمة في الاجتماع، والخُلطة عند الافتراق، بظهور النصيحة، واجتناب الغيبة، وتمام الوفاء، ووجود الأنس، وفقد الجفاء، وارتفاع الوحشة، ووحد الانبساط، وزوال الاحتشام.

وكان الفضيل يقول: إذا وقعت الغيبة ارتفعت الأخوة. وقال الجنيد: ما تواخى اثنان في الله عز وجل فاستوحش أحدهما من صاحبه واحتشم منه إلا لعلّة في أحدهما.

ومن ذلك ما روى عن النبي ﷺ: «ما تحابّ اثنان في الله عز وجل إلا كان أحبهما إلى الله عز وجل أشدهما حبّاً لصاحبه». وفي خبر: «كان أفضلهما». وفي الخبر الآخر: «أحبّ الإخوان إلى الله عز وجل أرفقهما بصاحبه». وفي الخبر المشهور: «لا يذوق العبد طعم الإيمان حتى يحبّ المرء لا يحبه إلا لله».

وقال ابن عباس في وصيته لمجاهد: ولا تذكر أخاك إذا تغيب عنك إلا بمثل ما تحب أن تُذكر به إذا غبت، واعفه بما تحب أن تُعفى به. وكان بعضهم يقول: ما ذكر أخى عندي في غيب إلا تمثّلته جالساً، فقلتُ فيه ما يحب أن يسمع في حضوره. وقال آخر: ما ذكر أخ لي في غيبة إلا تصوّرتُ نفسي في صورته، فقلتُ فيه ما أحب أن يقال فيّ. فهذا حقيقة في صدق الإسلام، لا يكون مسلماً حتى يرضى لأخيه ما يرضى لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه.

وقال بعض الأدباء: من اقتضى من إخوانه ما لا يقتضون منه فقد ظلمهم، ومن اقتضى منهم ما يقتضون منه فقد أتعّبهم، ومن لم يقتضهم فقد تفضّل.

عليهم. وبمعناه روينا عن بعض الحكماء: من جعل نفسه فوق قدره عند الإخوان أثم وأثموا، ومن جعل نفسه في قدره تعب وأتعبهم، ومن جعلها دون قدره سلم وسلموا. فلذلك عزز الناس الأخوة في الله عز وجل قديماً، لأن هذا حقيقتها، فروى في الأخبار: اثنان عزيزان ولا يزدادان إلا عزة: درهم حلال، وأخ تسكن إليه. وقيل: تأنس به.

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله: ثلاثة عزيزة في وقتنا هذا، ذكر منها: حسن الإخاء مع الوفاء. يعنى: بالوفاء أن يكون له في غيبته، ومن حيث لا يعلم ولا يبلغه، مثل ما كان له في شهوده ومعاشرته. ويكون له بعد موته ولأهله من بعده كما كان له في حياته، فهذا هو الوفاء، وهو الذي شرطه النبي ﷺ للمؤاخاة في قوله: «اجتمعوا على ذلك أو تفرقوا»، وجعل جزاءه ظلال العرش يوم القيامة.

وكذلك قال بعض الأدباء: قليل الوفاء بعد الوفاة خيراً من كثيره في حال الحياة. وكذلك كان السلف فيما ذكره الحسن وغيره، قالوا: كان أحدهم يخلف أخاه في عياله بعد موته أربعين سنة، لا يفقدون إلا وجهه. ويقال: إن مسروقاً أدان ديناً ثقيلاً، وكان على أخيه خيثة دين، قال: فذهب مسروق ف قضى دين خيثة وهو لا يعلم، وذهب خيثة ف قضى دين مسروق سرّاً وهو لا يعلم.

فمن حقيقة المؤاخاة في الله عز وجل: إخلاص المودة له بالغيب والشهادة، واستواء القلب مع اللسان، واعتدال السر مع العلانية في الجماعة والخلو، فإذا لم يختلف ذلك فهو إخلاص الأخوة، وإن اختلف ذلك ففيه مداينة في الأخوة، وممازقة في المودة، وذلك دحل في الدين، ووليعة في طريق المؤمنين، ولا يكون ذلك مع حقيقة الإيمان.

وقد سأل أبو رزين العقيلي النبي ﷺ، فشرط له أشياء منها: «أن يحب غير ذى نسب لا يحبه إلا الله عز وجل».

ومن شرط المحبة في الله تعالى أن لا يكون لرحم يصلها أو لنعمة يربها، كما جاء في الأثر عن رسول الله ﷺ: «إن رجلاً زار أخاً له في الله تعالى في قرية

أخرى، فأرصد الله تعالى على مَدْرَجَتِهِ ملكًا، فقال: أين تريد، قال: أردتُ أخًا لى فى هذه القرية، قال: هل بينك وبينه رحم تصلها أو له عليك نعمة تَرْبُّها، قال: لا، إلا أنى أحببته فى الله تعالى، قال: فإننى رسول الله إليك، إن الله تبارك وتعالى قد أحبك كما أحببته فيه».

وقد روينا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وعن ابنه عبد الله رضى الله عنهما: لو أن رجلاً صام النهار لا يفطر، وقام الليل وجاهد، ولم يحب فى الله عز وجل ويبغض فى الله، ما نفعه ذلك شيئاً.

وقد روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه: «أى عُرَى الإيمان أوثق؟ قالوا: الصلاة. قال: حسنة، وليس به. قالوا: الحج والجهاد. قال: حسنة، وليس به. قالوا: فأخبرنا يا رسول الله. قال: أوثق عُرَى الإيمان الحبُّ فى الله تعالى، والبغضُ فيه».

وقد اختلف مذهبُ الصحابة فى الأخ يحبُّ أخاه فى الله عز وجل، ثم ينقلب الآخر عما كان عليه ويتغير، هل يبغضه بعد ذلك أم لا؟ فكان أبو ذر يقول: إذا انقلب عما كان عليه وتغير، فأبغضه من حيث أحببته.

ورويانا عن أبى الدرداء: أن شاباً غلب على مجلسه حتى أحبه أبو الدرداء، فكان يقدمه على الأشياخ ويقربه، فحسدوه، وأن الشاب وقع فى كبيرة من الكبائر، فجاؤوا إلى أبى الدرداء فحدثوه، وقالوا له: لو أبعدته، فقال: سبحان الله، لا نترك صاحبنا لشيءٍ من الأشياء.

ورويانا عن بعض التابعين وعن الصحابة فى مثل ذلك، وقد قيل له فيه، فقال: إنما أبغض عمله وإلا فهو أخى. وكذلك قال الله عز وجل لنبيه فى عشيرته: ﴿إِنِ عَصَاكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِئٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٦]. ولم يقل: قل إنى برىء منكم لِلْحِمَةِ النسب. وقد قيل: للصدقة لُحْمَةٌ كُلُّحِمَةِ النَّسَب. وقيل للحكيم بن مُرَّة: أيما أحب إليك: أخوك أو صديقك؟ فقال: إنما أحبُّ أخى إذا كان صديقاً.

وكان الحسن يقول: كم من أخ لك لم تلده أمك. ولذلك قيل: القرابة تحتاج

إلى مودة، والمودة لا تحتاج إلى قرابة. وفي حديث النبي ﷺ، لما شتم القوم الرجل الذي أتى فاحشاً فقال: «مه - وزبرهم - لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيك». وفي أثر عن بعض العلماء في مثل زلات الإخوان، قال: ودَّ الشيطان أن يلقى على أخيك مثل هذا حتى تقطعوه وتهجره، فماذا بغيتم من محبة عدوكم؟

وقد كان أبو الدرداء يقول: إذا تغير أخوك، وحال عما كان، فلا تدعه لأجل ذلك، فإن أخاك يعوجُّ مرة ويستقيم أخرى. وكان يقول: داو أخاك ولا تُطع فيه حاسداً، فتكون مثله. وقال الحسن: أي الرجال المهذب! وقال إبراهيم النخعي: لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب، فإنه يركبه اليوم، ويتركه غداً. وقال أيضاً: لا تحدثوا الناس بزلّة العالم، فإن العالم يزل الزلّة ثم يتركها.

وفي الخبر: «اتقوا زلة العالم ولا تقطعوه وانتظروا فيّته». وعن رسول الله ﷺ: «شرارُ عبادِ الله المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبراء العيب». وقال سعيد بن المسيب: إنّي لأكره أن أفرّق بين المتآلفين. وقال مرة: بين المتحابين.

وفي حديث عمر، وقد سأل عن أخ كان آخاه، فخرج إلى الشام، فسأل عنه بعض من قدم عليه، فقال: ذاك أخو الشيطان، قال: مه. قال: إنه قارف الكبائر حتى وقع في الخمر. فقال: إذا أردت الخروج فأذني. قال: فكتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿حَمَّ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ الآيات، ثم عاتبه تحت ذلك وعذّله، فلما قرأ الكتاب قال: صدق الله ونصح لي عمر. قال: فتاب ورجع.

ومن أفضل فضيلة الحب في الله تعالى أنه جعل علماً لوجود الإيمان، وقرن بحب الله تعالى ورسوله ﷺ، كما في الخبر: «لا يؤمن عبدي حتى يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما»، ثم جاء مثله: «لا يجد العبد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لله عز وجل».

فمن مقتضى الحب في الله تعالى ما ذكرناه آنفاً، من التزاور والتبازل والتصافي

لله عز وجل وفيه، في حديث عبادة بن الصامت. وقال موسى بن عقبة: كنت ألقى الأخ من إخواني مرة فأقيم عاقلاً بقلائه أياماً. وقال جعفر بن سليمان: كنت إذا وجدت في نفسي فترة نظرت إلى محمد بن واسع، فأعمل على ذلك جمعة.

وكان محمد بن واسع يقول: ما بقى في الدنيا شيءٌ إلا ثلاثة: الصلاة في جماعة، والتهجد من الليل، ولقاء الإخوان. وكان بعضهم يقول: لقاء الإخوان مسلاةٌ للهم، ومذهبةٌ للأحزان. وكان الحسن وأبو قلابة يقولان: إخواننا أحب إلينا من أهلينا وأولادنا؛ لأن أهلينا يذكروننا الدنيا، وإخواننا يذكروننا الآخرة. وقال أحدهما: لأن الأهل والولد من الدنيا، والإخوان في الله عز وجل من آلة الآخرة.

وقيل لسفيان بن عيينة: أي الأشياء ألد؟ فقال: مجالسة الإخوان، والانقلاب إلى كفاية. وفي الخبر: «ما زار رجل أخاه في الله عز وجل شوقاً إليه، ورغبة في لقائه، إلا ناداه ملكٌ من خلفه: طُبت وطابت لك الجنة». وقال الحسن: مَنْ شِيعَ أَخًا له في الله عز وجل بعث الله ملائكة من تحت عرشه يوم القيامة يشيعونه إلى الجنة. وعن عطاء قال: كان يقول: تفقدوا إخوانكم بعد ثلاث، فإن كانوا مرضى فعودوهم، وإن كانوا مشاغل فأعينوهم، وإن كانوا نسوا فذكروهم.

وكان الشعبي يقول في الرجل يجالس الرجل فيقول: أعرف وجهه ولا أعرف اسمه: ذلك معرفة التوكل.

وقد روينا عن النبي ﷺ أنه رأى عمر يلتفت يميناً وشمالاً، فسأله، فقال: يا رسول الله، أحببت رجلاً فأنا أطلبه ولا أراه، فقال: «يا أبا عبد الله، إذا أحببت أحداً فسأله عن اسمه واسم أبيه، وعن منزله، فإن كان مريضاً عُدته، وإن كان مشغولاً أعتته.

وعن الضحاك عن ابن عباس [أنه] قيل له: مَنْ أحب الناس إليك؟ قال: جليسي. وكان يقول: ما اختلف رجلٌ إلى مجلسي ثلاثاً من غير حاجة تكون له إليّ، فعلمت مكافأته من الدنيا.

وكان سعيد بن العاص يقول: جلسي على ثلاث: إذا دنا رحبتُ به، وإذا حدثتُ أقبلتُ عليه، وإذا جلس أوسعتُ له. وقال الأحنف بن قيس: الإنصاف يثبت المودة، ومع كرم العشرة تطول الصحبة. وكان يقول: ثلاثٌ خلالٌ تُجلبُ بهن المحبة: الإنصاف في المعاشرة، والمواساة في الشدة، والانطواء على المودة.

وقال أكثم بن صيفي لبنيه: يا بني، تقاربوا في المودة، ولا تتكلوا على القرابة. وقد قيل لأبي حازم: ما القرابة؟ قال: المودة.

فأول ما تصح له المحبة في الله عز وجل أن لا يكون لضد ذلك من صُحبة لأجل معصية، ولا على حظٍّ من دنياه، ولا لسبب موافقته على هواه، ولا لأجل ارتفاقه به اليوم لمنافعه ومصالحه في أحواله، ولا يكون ذلك مكافأة على إحسان أحسن به إليه، ولا لنعمة ويد يجزيه عليها، فهذه ليس فيها طريقٌ إلى الله عز وجل ولا للآخرة؛ لأنها طرقاتُ الدنيا ولأسباب الهوى. فإذا سَلِمَ من هذه المعاني، فهذه أول المحبة لله عز وجل.

فإن أحبه لأخلاقه اللازمة فيه، ومعانيه الكائنة به، لم يخرج به ذلك من الحب لله^(١)، ولا يقدر في الأخوة لله تبارك وتعالى، لأن هذه شيم ثانية فيه، مثل أن يحبه لحسن خلقه، وفضل أدبه، وحسن حلمه، وكمال عقله، وكثرة احتماله وصبره، أو لوجود الأُنس به، وارتفاع الوحشة منه، أو للألفة التي جعل الله بينه وبينه.

وإنما يخرج به عن حقيقة الحب في الله عز وجل: أن يحبه لما يكون دخلاً في الدين، ووليجة في طرائق المؤمنين، ولما انفصل عنه، ولم يكن متصلاً به، مثل الأنعام والأفضال، ووجود الارتفاق، فهذا الحب لا يمنع القلب من وجده، لما جُبِلَ الطبعُ عليه، ولبغض من كان بضده من أساء إليه، وليس يأثم ولا يعصى بوجد هذه المحبة؛ لأجل هذه الأسباب المعروفة. كما أنه إذا أساء إليه ووجد بغضه لا يأثم، ما لم يخرج به البغض إلى مجاوزة حدٍّ بإيجاب حكم، إلا أن هذه محبة

(١) من أول هذه الفقرة إلى هنا ساقط من المطبوعة.

النفس بالطبع . وإنَّما يَفْضُلُ المرءُ بمحبة القلب لأجل الله عز وجل ، والبعض فيه فى شىء ، وإن كان مباحاً ؛ لأنها تحول وتزول . وكل محبة تكون عن عَوْضٍ ، إذا ذهب العَوْضُ زالت المحبة .

وصحةُ الحبِّ فى الله عز وجل والبغض فيه لا ينقلب لسبب حبٍّ جعل فى الطبع لمنافع الدنيا ؛ ولا لأجل بغض فى النفس لمضارها . وحقيقة الحب فى الله عز وجل أن لا يحسده على دينٍ ولا دُنْيَا ، كما لا يحسد نفسه عليهما ، وأن يؤثِّره بالدين والدنيا إذا كان محتاجاً إليهما كنفسه ، وهذان شرطاً الحب فى الله عز وجل اللذان ذكرهما الله تعالى فى قوله : ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ ، ثم وصف محبتهم ، إذ كان يصف حقاً ويمدح محقاً ، فقال : ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ يعنى : من دين ودنيا ، والحاجة فى هذا الموضع : الحسد ، أى : كما لا يجدون فى صدورهم حاجة لأنفسهم حسداً ، ثم قال عز وجل فى الشرط الثانى : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر : ٩] .

فهذا فصل الخطاب ، وجملة نعت الأحباب ، فينبغى أن يؤثر أخاه بنفسه وماله إن احتاج إلى ذلك ، فإن لم يكن فى هذه المنزلة ، وهو مقام الصديقين ، فيساويه فى حاله ، وهذا من مقام الصادقين ، وهذا أقلُّ منازل الأخوة ، وهو من أخلاق المؤمنين ، وإنَّما آخى رسول الله ﷺ بين الغنى والفقر ، ليساوى الغنى الفقير فيعتدلان ، وينبغى أن يقدمه على أهله وولده ، وأن يحبه فوق محبتهم ؛ لأن محبة أولئك من الدنيا والنفس والهوى ، ومحبة الإخوان من الآخرة والله تبارك وتعالى ، وفى الدين ، وأمور الدين والآخرة مقدَّمٌ عند المتقين .

وكان عبد الله بن الحسن البصرى يصرف إخوان الحسن إذا جاؤوه ، لطول لبثهم عنده ، ولشدة شغله بهم ، فيقول لهم : لا تملأوا الشيخ ، فكان الحسن إذا علم ذلك يقول : دعهم يا لكع ، فإنَّهم أحبُّ إلىَّ منكم ، هؤلاء يحبونى لله عز وجل ، وأنتم تريدونى للدنيا . وقال أبو معاوية الأسود : إخوانى كلهم خير منى ، قيل : وكيف ذاك؟ قال : كلهم يرى الفضل لى عليه ، ومن فضَّلنى على نفسه فهو خيرٌ منى .

وقد رويناه عن رسول الله ﷺ: «المرءُ على دين خليله»، ولا خير في صحبة مَنْ لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه.

وكان الأعمش يقول: من أخفى عنا بدعته لم يُخَفِ عنا أُلْفته. أى ينظر إلى إخوانه الذين يَألفهم، فيستدل عليه بهم.

وقد روى الأصمعي، عن مجاهد، عن الشعبي قال: قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه لرجل، وكره له صحبة رجلٍ رَهَقٍ^(١)، فقال شعراً:

لا تَصْحَبْ أَخَا الْجَهْلِ	وإِيَّاكَ وإِيَّاهُ
فكَمْ مِنْ جَاهِلٍ أَرْدَى	حَلِيمًا حِينَ آخَاهُ
يُقَاسُ المرءُ بالمرءِ	إِذَا مَا هُوَ مَا شَاءُ
وَلِلشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ	مَقَاسٌ وَأَشْبَاهُ
وَلِلْقَلْبِ عَلَى الْقَلْبِ	دَلِيلٌ حِينَ يَلْقَاهُ

وأنشد محمد بن جامع الفقيه شعراً:

تَذَلُّ لِمَنْ إِنْ تَذَلَّلْتَ لَهُ	يرى ذاك للفضل لا لِلْبُلْه
وَجَانِبُ صَدَاقَةٍ مَنْ لَا يَزَالُ	على الأصدقاء يرى الفضلَ لَهُ

وأنشدنا لبعض الأدباء:

كَمْ مِنْ صَدِيقٍ عَرَفْتَهُ بِصَدِيقٍ

صَارَ أَحْظَى مِنْ الصَّدِيقِ الْعَتِيقِ

ورَفِيقٌ رَأَيْتُهُ فِي طَرِيقٍ

صَارَ عِنْدِي مُحَضَّرُ الصَّدِيقِ الْحَقِيقِ

ورويناه عن الحسن بن على عليهما السلام فى وصف الأخ كلاماً رجزاً جامعاً مختصراً:

(١) الرَّهَقُ: الجهل والحمق.

إِنَّ أَخَاكَ الْحَقَّ مَنْ كَانَ مَعَكَ وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكَ
وَمَنْ إِذَا رَيْبُ الزَّمَانِ صَدَعَكَ شَتَّتْ شَمْلَ نَفْسِهِ لِيَجْمَعَكَ

ولا تصح مؤاخاة مبتدع في الله تعالى، ولا محبة فاسقٍ يُصحب على فسوقه، ولا محبة فقيرٍ أحبَّ غنياً لأجل دنياه، ولا ما يناله من عاجل مهناه. وقد تصح المحبة بين الغنى والفقير، وتوجد الأخوة إن لم يقم الغنى بحقوق أخيه، إذا أثره أخوه بما يحب أن يؤثره به، فلم يقتضه.

وقد تصح الأخوة بين العالم والجاهل، وبين الصالح والطالح؛ لأجل التدين من أحدهما، والتقرب إلى الله عز وجل، ويكون من الأعلى منهما لنيات، تكون له فيها لحسن خلقه، أو لجميل معاملته، أو لمعان محمودة تكون فيه، لأن لكل مؤمنٍ سديداً من عمله يُرجى له به، والمؤمنُ لا يهلك كله، ولا يذهب جملةً واحدة، أو لإشفاقه عليه، أو لتواضع العالم والصالح في نفسه، فيراه في كلِّ حالٍ فوقه، أو لأجل الستر عليه؛ لئلا يلحقه النقص والشين من الغير. فهذه طرقات الإخوان، فيها حسنُ نيات.

وينبغي على ذلك أن تعلّمه ما جهل مما هو به أعلم، فيعيّنه بعلمه كما يعينه بماله، فإن فقر الجهل أشدُّ من فقر المال، وإنّ الحاجة إلى العلم ليست بدوّن الحاجة إلى المال. وكان الفضيل يقول: إنما سُمّي الصديق لتصدّقه، والرفيق لترفقّه، فإن كنتَ أغنى منه فأرفقه بمالك، وإن كنتَ أعلم منه فأرفقه بعلمك. وينبغي أن ينصح له فيما بينه وبينه، ولا يوبخه بين الملاء، ولا يطلع على غيبه أحداً، فقد قيل: إنّ نصائح المؤمنين في آذانهم. وقال جعفر بن برقان: قال لى ميمون بن مهران: قل لى فى وجهى ما أكره، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه ما يكره، فإن كان أخوه الذى نصح له صادقاً فى حاله أحبه على نصحه، فإن لم يحبه وكره ذلك منه دلّ على كذب الحال. قال الله سبحانه وتعالى فى وصف الكاذبين: ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

وقد كان بعض الصالحين يقول: أحبُّ الناس إلىَّ مَنْ أهدى إلىَّ عيوبى. وقد

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول، ويأمر الإخوان بذلك: رحم الله امرأاً أهدى إلى أخيه عيوب نفسه. ولكن قد قيل لمسر بن كدام: تحب من يخبرك بعيوبك؟ فقال: إن نصحنى فيما بينى وبينه فنعم، وإن قرعنى فى الملاء فلا.

ومن أخلاق السلف: كان الرجل إذا كره من أخيه خلُقاً عاتبه فيما بينه وبينه، أو كاتبه فى صحيفة. وهذا لعمري فرقٌ بين النصيحة والفضيحة، فما كان فى السرِّ فهو نصيحةٌ، وما كان على العلانية فهو فضيحة. وكلما تصح فيه النية لوجه الله تعالى؛ لأن فيه شناعةً.

وكذلك الفرق بين العتاب والتوبيخ. فالعتابُ: ما كان فى خلوة. والتوبيخ: لا يكون إلا فى جماعة، ولذلك يعاتب الله عز وجل رجلاً من المؤمنين يوم القيامة تحت كنفه، ويسبل عليه ستره، فيوقفه على ذنوبه سرّاً، ومنهم من يدفع كتاب عمله مختوماً إلى الملائكة الذين يحفون به إلى الجنة، فإذا قاربوا دخول الجنة دفعوا إليهم الكتب مختومةً فيقرؤونها. وأما أهل التوبيخ: فينادون على رؤوس الأشهاد، فلا يخفى على أهل الموقف فضيحتهم، فيزداد ذلك فى عذابهم.

وكذلك الفرق بين المداراة والمداينة. فالمداراة: ما أردت به وجه الله تعالى وطريق الآخرة، من دفع عن دين، وقصدت به سلامة أخيك من الإثم وصلاح قلبه لله تبارك وتعالى. والمداينة: ما اجتلبت به دنياً، وأردت به حظاً نفسك.

وكذلك الفرق بين الغبطة والحسد. إن الغبطة: أن تحب لنفسك ما رأيته من أخيك، ولا تحب زواله عنه بل تبقيته له وإتمامه عليه. والحسد: ما أردت أن يكون ذلك منه لك، وأحببت زواله عنه وكرهت تبقيته عليه، فهذا مكروه، فإن سعيت فى ذلك بقولٍ أو فعلٍ فهو البغى، زيادةً على الحسد، وهو من كبائر المعاصى.

وكذلك الفرق بين الفراسة وسوء الظن. إن الفراسة: ما توسمت من أخيك بدليل يظهر لك، أو شاهد يبدو منه، أو علامة تشهدها فيه، فتتفرس من ذلك فيه، ولا تنطق به إن كان سوءاً، ولا تظهره، ولا تحكم عليه، ولا تقطع به فتأثم. وسوء الظن: ما ظننته من سوء رأيك فيه، أو لأجل حقدٍ فى نفسك عليه، أو

لسوء نية تكون، أو خبثُ حالٍ فيك، تعرفها من نفسك، فتحمل حال أخيك عليها، وتقيسه بك، فهذا هو سوء الظن والإثم، وهو غيبةُ القلب، وذلك محرمٌ؛ لقول النبي ﷺ: «إنَّ الله تعالى حَرَّمَ من المؤمن دَمَهُ وماله وعَرَضَهُ، وأنْ تَظُنَّ به ظَنَّ السُّوءِ». وقوله عليه السلام: «إياكم والظَّنَّ، فإنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحديثِ».

فهذه خمسُ معانٍ وأضدادها، بينها فرقٌ عند العلماء، فاعرف ذلك.

وينبغي أن ينصر أخاه ويعينه بماله ولسانه وقلبه وأفعاله، فإن النصره في الله تعالى تكون بهذه المعاني الأربع: بالنفس إن احتاج إليك في الأفعال، وباللسان إن ظلم في المقال، وبالمواساة إن احتاج إلى المال، وأقل ذلك بالقلب أن يساعده في الهم والكرب في اعتقاد السلامة فيه، وجميل النية له، وعليه أن يحفظ غيبه، وأن يحسن الثناء عليه، وينشر فضله، ويطوى زلله، ويقبل عله.

ويقال: ما من الناس أحدٌ إلا له محاسن ومساو، فمن ظهرت محاسنه فغلبت مساويه فهو المؤمن المقتصد، فالأخ الشفيقُ الكريمُ يذكر أحسن ما يعلم في أخيه، والمنافقُ اللئيمُ يذكر أسوأ ما يعلم فيه، ومن هذا جاء في الخبر: «أستعيذُ بالله من جارِ السُّوءِ، الذي إن رأى خيراً ستره، وإن رأى شراً أظهره»، وهذا المعنى هو سبب قول النبي ﷺ: «إن من البيان لسحراً»، إذ لكل حديث يروى آخره سبب، يكون أولُه خَرَجَ الحديث عليه، وهو أن رجلاً أثنى على رجلٍ عند رسول الله ﷺ، فلما كان الغد دمه وعابه، فقال رسول الله ﷺ: «أنت بالأمس تُثني عليه، واليوم تذمه؟»، فقال: والله لقد صدقت عليه بالأمس، وما كذبت عليه اليوم، إنه أرضاني بالأمس فقلت أحسن ما أعلم فيه، وأغضبني اليوم فقلت أسوأ ما أعلم فيه، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «إن من البيان لسحراً»، كأنه كره ذلك أن شبهه بالسحر؛ لأن السحر حرامٌ.

ولهذا قال ﷺ في الخبر الآخر: «البذاءُ والبيانُ شُعْبَتَانِ من النفاق». وفي الحديث الآخر: «إن الله تعالى كره لكم البيان، كلَّ البيان».

وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله في وصف العدالة قولاً استحسنة العلماء. حدثنا عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم قال: سمعت الشافعي يقول: ما أحدٌ

من المسلمين يطيع الله عز وجل حتى لا يعصيه، ولا أحد يعصى الله عز وجل حتى لا يطيعه، فمن كانت طاعاته أكثر من معاصيه فهو العدل. قال ابن عبد الحكم: وهذا كلام الحدّاق. وقال أيضاً قولاً فصلاً في التوسط بين الانقباض والانبساط، حدّثنا عنه قال: الانقباض عن الناس مكسبة لعداوتهم، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء، فكن بين الانقباض والانبساط.

وقد وصف الله تعالى المؤمنين بالصبر والرحمة في قوله عز وجل: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧]. ونعتهم بالذلة في قوله تعالى: ﴿أَذَلَّةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. وهذا كله داخل في الاهتمام به، وهو حقيقة صدقه في الصداقة له، كما قال: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠١]، أى: هميم، من الاهتمام به.

وقد قال عيسى عليه السلام لأصحابه: «كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائماً، فكشفت الريح عنه ثوبه؟ قالوا: نستره ونغطيه. فقال: بل تكشفون عورته. قالوا: سبحان الله، من يفعل هذا؟ فقال: أحذكم يسمع في أخيه بالكلمة فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها». وهذا مخرجه من الحسد الكائن في النفس، والغلّ المستكن في القلب، أن يزيد الرجل على الشيء مما يسمع أو يتبعه بمثله، فيظهر هذا غلّه، وهذا الذى استعاذ منه المؤمنون في قولهم: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ [الحشر: ١٠] الآية.

وينبغي أن لا يخالفه في شيء، ولا يعترض عليه في مراد. قال بعض العلماء: إذا قال الأخ لأخيه: قُمْ بنا، فقال: إلى أين؟ فلا تصحبه. وقال الآخر: إذا قال: أعطني من مالك، فقال: كم تريد، أو ماذا تصنع به؟ لم يقم بحق الإخاء. قال أبو سليمان الداراني: كان لى أخ بالعراق، فكنْتُ أجيئه في النوائب، فأقول: أعطني من مالك شيئاً، فكان يُلقى إليّ كيسه فأخذُ منه ما أريد، فجئتُه ذات يوم فقلت: أحتاجُ إلى شيء، فقال: كم تريد؟ فخرج حلاوة إخاء من قلبي. وعن ابن عمر وأبي هريرة: لم يكن أحدٌ أحق بديناره ودرهمه من أخيه.

ورويانا عن رسول الله ﷺ: «لا تباغضُوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يحرمه، ولا يخذله، بحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم».

وفى حديث على عليه السلام عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ عامل الناس فلم يَظْلِمُهُمْ، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته».

وفى حديث أبى أسامة الباهلى: «خرج علينا رسولُ الله ﷺ ونحن نتمارى، فغضب ثم قال: ذرُوا المراءَ لقلّةِ خيره، ذرُوا المراءَ فإن نفعه قليل، وهو يهيج العداوة بين الإخوان». وقال بعض السلف: مَنْ لاحى الإخوان وماراهم قلتُ وذَهبت كرامته. وقال عبد الله بن الحسن: إياكَ ومعاداة الرجال، فإنك لن تَعْدَم مكرَ حليم، أو مفاجأة لئيم. وقال بعض الحكماء: ظاهرُ العتاب خير من مكنون الحقد، ولا يزيدك لطفُ الحقد إلا وحشة منه.

وقد رويانا فى الحقد على الإخوان لفظةً شديدةً وهو ما حدثونا عن عبد الرحمن ابن جبير بن نفير عن أبيه قال: كنتُ باليمن، وكان لى جارٌ يهودى، ويخبرنى عن التوراة، فقدم علينا يهودى من سَفَرٍ فقلتُ: إن الله تبارك وتعالى قد بعث فىنا نبيًا، فدعا إلى السلام فأسلمنا، وقد نزل علينا مصدقًا للتوراة، فقال اليهودى: صدقت، ولكنكم لا تستطيعون أن تقوموا بما جاءكم به، إنا نجدُ نعته ونعت أمته: أنه لا يحل لامرئٍ يعلم منهم أن يخرج من عتبة بابهِ وفى قلبه سخيمةٌ على أخيه المسلم.

وقال بعض السلف: أعجز الناس مَنْ قصرَ فى طلب الإخوان، وأعجزُ منه مَنْ ضيَعَ مَنْ ظفر منهم. وقال الحسن: لا تشتتر عداوة رجل بمودة ألف رجل. وقال عمر بن عبد العزيز: إياك ومَنْ مودته على قدر حاجته إليك، فإذا قُضيت حاجته انقضت مودته. ومن أخلاق السلف قال: لم يكن أحدٌ منا يقول فى رَحْله: هذا لى وهذا لك، بل كان كل من احتاج إلى شىء استعمله عن غير مؤامرة. وقد وصف الله عز وجل المؤمنين بهذا فى قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا

رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٨﴾ [الشورى: ٣٨]. معنى «أمرهم»: أى أمورهم، ذكر جماعها كالشيء الواحد بينهم، «شورى»: أى مشاع غير مقسوم، لا يُستبد به، واحدٌهم فيه سواء، «ومما رزقناهم ينفقون»: أى كانوا خلطاء فى الأموال لا يميز بعضهم رَحله من بعض، أى شركاء.

وجاء عتبة الغلام إلى منزل رجلٍ كان قد آخاه فقال: أحتاجُ من مالك إلى أربعة آلاف، فقال: خذ ألفين، فأعرض عنه، وقال: أثرت الدنيا على الله عز وجل، أما استحييت أن تدعى الأخوة فى الله عز وجل وتقول هذا؟!!

وجاء فتح الموصلى إلى منزل أخ له وكان غائباً، فأمر أهله فأخرجت صندوقه، ففتحه فأخذ من كيسه حاجته، فذهبت الجارية إلى مولاهما فأعلمته، فقال: إن كنت صادقة فأنت حرة لوجه الله تعالى؛ سروراً بما فعل.

وروى أن ابن أبى شبرمة قضى لبعض إخوانه حاجة كبيرة، فجاءه الرجل بهدية جليلة، فقال: ما هذا؟ فقال: ما أسديتَ إليَّ، فقال: خذ مالك، عافاك الله، إذا سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه فى قضائها، فتوضأ للصلاة، وكبَّر عليه أربع تكبيرات، وعدَّه فى الموتى. وعلى ذلك قال بعضهم: إذا استقضيت أخاك الحاجة فلم يقضها لله فذكره ثانية، فلعله يكون قد نسى، فإن لم يقضها فعاوده ثالثة، فقد يكون شغل عنها بعذر، فإن لم يقضها فكبَّر عليها وقرأ عليه هذه الآية: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦].

وقال ميمون بن مهران: مَنْ رَضِيَ من الإخوان بترك الأفضال فليواخ أهل القبور. وجاء رجلٌ إلى أبى هريرة فقال: إنى أريد أن أواخيك فى الله عز وجل، فقال: أتدرى ما حقُّ الإخاء؟ قال: عرفنى، قال: لا تكون بدرهمك ودينارك أحق منى، قال: لم أبلغ هذه المنزلة بعد، قال: فاذهب عنى.

وقال على بن الحسين رضى الله عنهما لرجلٍ: هل يُدخل أحدكم يده فى كُم أخيه أو كيسه، فيأخذ منه ما يريد من غير إذن؟ قال: لا. قال: فلستم ياخوان. ودخل قوم على الحسن، فقالوا له: أصليتَ يا أبا سعيد؟ قال: نعم. قالوا: فإنَّ أهل السوق لم يصلوا بعد، فقال: ومَنْ يأخذ دينه عن أهل السوق؟ بلغنى أن

أحدهم يمنع أخاه الدرهم.

وقال محمد بن نصر: جاء رجلٌ إلى إبراهيم بن أدهم، وهو يريد بيت المقدس، فقال له: إنني أريد أن أرافقك. فقال له إبراهيم: على أن أكون أملكَ بشيئِكَ منك. قال: لا. قال: أعجبني صدقُكَ.

وقال موسى بن طريف: كان إبراهيم بن أدهم إذا رافقه رجل لم يخالفه، وكان لا يصحب إلا من يوافقه. وبلغني أن رجلاً شراً^(١) صحبه في سفرٍ، فأهدى إلى إبراهيم قصعة من ثريد في بعض المنازل، فأراد أن يرد القصعة فأخذ جراب رفيقه ففتحه، وأخذ حزمة من شُرْك فجعله في القصعة، ثم دفعها إلى صاحب الهدية، فلما جاء رفيقه قال: أين الشُرْك؟ قال: تلك قصعة الثريد التي أكلتها أي شيء كانت؟ قال: فكنت تعطيه شركين أو ثلاثة، قال: اسمح يُسمح لك.

وبلغني أنه أعطى مرة حماراً كان لرفيقه بغير إذنه لرجل رآه راجلاً، فلما جاء رفيقه سكت، فلم يكره ذلك.

وقد روى عن عون بن عبد الله قال: قال ابن مسعود: لا تسأل امرأة عن وده إياك، ولكن انظر ما في قلبك، فإن في قلبه لك مثل ذلك. وقال ربيعة بن أبي عبد الرحمن: مروءة الحضر الإدمان إلى المساجد، وكثرة الإخوان في الله عز وجل، ومروءة السفر بذل الزاد، وقلة الخلاف على إخوانك. وقد روينا عن رسول الله ﷺ من طريق أهل البيت قال: «ثلاثة من المروءة في الحضر: تلاوة كتاب الله عز وجل، وعمارة المساجد، واتخاذ الإخوان في الله تعالى»، فمن فضل المؤاخاة في الله تعالى أنه قرن بها بتلاوة كتابه وعمارة بيوته، وقد جعل الاختلاف إلى المسجد سبب اجتلاب الإخاء. وفي حديث ابن عباس والحسن بن علي: «من أدمن الاختلاف إلى المسجد أصاب إحدى خمس خصال: أخاً مستفاداً في الله عز وجل»^(٢).

(١) شراً: أي رجل يبيع الشُرْك، جمع شرك، وهي سير النعال.

(٢) تكلمته: «أو علماً مستظرفاً، أو كلمة تدلُّ على الهدى أو أخرى تصدّه عن الردى، وترك الذنوب حياة وخشية، أو نعمة ظاهرة أو رحمة منتظرة».

وقال أبو عيينة وقد أنشد هذا البيت :

وجدتُ مصيِّباتِ الزَّمانِ جميعها سوى فُرقةِ الإخوانِ هيَّنةُ الحَظِّ
فقال : لقد عهدت أقوامًا فارقتهم منذ ثلاثين سنة، ما تخيل لي أن حسرتهم
ذهبت من قلبي .

وقال بعضهم : ما هدني شيء ما هدني موت الأقران . ويقال : إذا مات صديق
الرجل فَقَدْ فَقَدَ عَضُوًّا من أعضائه ، وأنشدونا عن العتبي :

ولقد بلوتُ الناسَ ثم خبَرْتُهم ووصلتُ ما قَطَعُوا من الأسبابِ
فإذا القِربةُ لا تقربُ قاطعًا وإذا المودةُ أقربُ الأنسابِ

وبلغني أن أخوين ابتلى أحدهما بهوى، فأظهر عليه أخاه وقال : إنني قد
اعتللتُ بالهوى، فإن شئت أن لا تعقد عليَّ محبتي لله تعالى فافعل، فقال : ما
كنتُ لأحل عقد أخوتك لأجل خطيئتك أبدًا . قال : ثم عقد أخوه بينه وبين الله
عز وجل أن لا يأكل ولا يشرب حتى يعافى الله عز وجل أخاه من هواه . قال :
فطوى أربعين يومًا في كلِّها يسأله عن هواه : كيف أنت منه؟ فكان يقول : القلب
مقيم على حاله . قال : وما زال أخوه الآخر ينحل ويسقم من الغمِّ عليه، ومن
تركه الطعام والشراب قال : فأزال الله الهوى عن قلب أخيه بعد الأربعين، فأخبره
بذلك، فأكل وشرب بعد أن كاد يتلف هزلًا وضرًا .

وبمعناه حدثت عن أخوين من السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة، فقبل
لأخيه التقى : ألا تقطعه وتهجره؟ فقال : هو أحوجُّ ما كان إليَّ في هذا الوقت لما
وقع في عثرته، أن آخذ بيده، وأتلف له في المعاتبة، وأدعو له بالعود إلى ما كان
عليه . وفيما رويناه من الإسرائيليات : أن أخوين عابدين في جبل، نزل أحدهما
ليشترى من المصر لحمًا بدرهم، فبصرَ بغيًّا عند اللحام، فهويها فواقعها، ثم أقام
عندها ثلاثًا، واستحى أن يرجع إلى أخيه من جنائته، قال : فافتقده أخوه واهتمَّ
بشأنه، فنزل إلى المدينة فلم يزل يسأل عنه حتى دلَّ عليه، فدخل عليه وهو جالس
مع البغي، فاعتنقه وجعل يقبله ويلتزمه، وأنكر الآخر أنه يعرفه لفرط استحيائه

منه، فقال: قُمْ يا أخى فقد علمتُ بشأنك وقصتك، وما كنتَ أعزَّ علىَّ وأحبَّ منك فى يومك هذا ولا ساعتك هذه، فلما رأى ذلك لا يسقطه عنده، قام فانصرف معه. فهذا من أحسن النيات، وهو طريق العارفين من ذوى الآداب والمروءات.

فإن أحب هذا الأخ أن يؤثر أخاه بما آثره به، ولا يقتضيه حق إخائه، فحسنٌ. قد فعل ذلك عبد الرحمن بن عوف لما آثره سعد بن الربيع بالمال والنفس، فقال: بارك الله لك فيهما، فأثره بما به آثره، فكأنه استأنف هبته له؛ لأنه قد كان ملكه إياه؛ لسخاوة نفسه، وحقيقة زهده، وصدق مودته، فكانت المساواة لسعد، والإيثار لعبد الرحمن، فزاد عليه، وهذا من فضل المهاجرين على الأنصار، إذ كانت المساواة دون الإيثار.

وقد كان مضر بن عيسى وسليمان يقولان: من أحب رجلاً ثم قصرَ فى حقه فهو كاذبٌ فى حبه. وكان أبو سليمان الداراني يقول: هو صادق فى حبه مفرطٌ فى حقه، ثم قال: لو أن الدنيا كلها لى فجعلتها فى فم أخ من إخوانى لاستقلتها له. وقال: إنى لألقم الأخ من إخوانى اللقمة فأجد طعمها فى حلقى.

واعلم أن إطعام الطعام والإنفاق على الإخوان مضاعف على الصدقات وعلى العطاء للأجانب، بمنزلة تضعيف الثواب فى الأهل والقربات. روى عن على عليه السلام: لعشرون درهماً أعطيتها أخى فى الله عز وجل أحبُّ إلىَّ من أن أتصدق بمائة درهم على المساكين. وقال أيضاً: لأن أصنع من طعام وأجمع عليه إخوانى فى الله عز وجل أحبُّ إلىَّ من أن أعتق رقبةً. وأوصى بعض الحكماء ابنه فقال: يا بنى، ادخل بين الأعداء ولا تدخلنَّ بين الأصدقاء. قال: وكيف ذاك؟ قال: الدخول بين الأعداء يُكسب الصداقة، والدخول بين الأصدقاء يُورث العداوة.

ولا ينبغي للأخ أن يخون أخاه فى غيبه بما يكره، إن كان ذلك فى شىء مباح إذا كرهه، ولا ينكر عليه ما لا يقوم فى علمه إذا فعله إن كان أخوه أعلم منه، أو كان له وجه يخرج عليه، ولا ينبغي أن يكذبه فى أمره، ولا يفشينَّ له سرّاً، ولا

يعرضنَّ لغيبة ولا نعمة، ولا يحوجه إلى مداراة، ولا يلجئه إلى اعتذار، ولا يتكلفنَّ له ما يشق عليه، أو ما لا يحبه هو منه.

وقال العباس لابنه عبد الله: إني أرى هذا الرجل، يعنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، يقدمك على الأشياخ ويقربك دونهم، فاحفظ عني ثلاثاً: لا تفشينَّ له سرّاً، ولا تغتابنَّ عنده أحداً، ولا يجربن عليك كذبة. وفي بعض الروايات: ولا تعصين له أمراً، ولا يطلعن منك على خيانة. قال: فقلتُ للشعبي وقد رواه: كل كلمة خير من ألف. قال: كل كلمة خير من عشرة آلاف. وأفشى بعضهم إلى أخيه سرّاً، ثم قال له: حفظت، قال: بل نسيت. وقيل لبعض الأدباء: كيف حفظك السر؟ قال: أنا قبره. وقيل لآخر: كيف تحفظ السر؟ فقال: أجحد المخبر، وأحلف للمستخبر.

ومن أحسن ما سمعتُ في حفظ السر ما حدثني بعضُ أشياخنا عن إخوان له، دخلوا على عبد الله بن المعتز فاستنشدوه شيئاً من شعره في حفظ السر، فأنشدهم على البديهة:

ومستودعي سرّاً تبوّأتُ كتمه فأودعتهُ صدرى فصار له قبراً

قال: فخرجنا من عنده، فاستقبلنا محمد بن داود الأصبهاني، فسألنا من أين جئنا، فأخبرناه بما أنشدنا ابن المعتز في السرّ، فاستوقفنا، ثم أطرق ملياً ثم قال: اسمعوا قولي:

وما السرُّ في صدرى كثاؤٍ بقبره لأننى أرى المقبورَ ينتظر النَّشْرَ

ولكننى أنساه حتى كأننى بما كان منه لم أخط ساعةً خبراً

ولو جاز كتمُ السرِّ بينى وبينه عن السرِّ والأحشاء لم يعلم السرّاً

وقال علىّ عليه السلام: شرُّ الأصدقاء من أحوجك إلى مداراة، وأجأك إلى اعتذار. وقال أيضاً: شرُّ الأصدقاء من تكلفُ له.

وقال الفضيل: إنما تقاطع الناس بالتكلف؛ يزور أحدهم أخاه فيتكلف له ما لا

يفعله كل واحد منهما في منزله، فيَحْشُمُهُ^(١) ذلك من الرجوع إليه.

وروينا عن عائشة رضى الله عنها: المؤمن أخو المؤمن، لا يغتنمه ولا يحشمه.

وروينا في الانبساط إلى الإخوان شيئاً استظرفته، ولولا أنه جاء عن إمام ما ذكرته، حدثنا الحارث بن محمد، عن إبراهيم بن سعيد الجوهري قال: أهدى لهشام فرواً كثيراً الثمن فقال: اذهب بها إلى سعيد الجوهري فقل له: هذه فرو جاء به هشيم اشتراها له. قال: فذهب بها إليه فاشتراها، ثم بعث بها إلى هشيم، فصارت له ودراهمها. وقال على بن المديني: قال أحمد بن حنبل: إني أحب أن أصحبك إلى مكة وما يمنعني من ذلك إلا أنني أخاف أن أملك أو تملنني؛ لأنه يقال: إن مَلَكَ الإخوان ليس من أخلاق الكرام. وقال مكحول: قلت للحسن: إني أريد الخروج إلى مكة. فقال: لا تصحب رجلاً يكرم عليك فينقطع الذي بينك وبينه. وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: يُسْتَحْسَن الصَّبْرُ عن كل شيء إلا عن الصديق. وقال: أَسْتَحِبُّ للمتواخين في الله عز وجل أن يلتقيا في كل يوم مرتين. وقال أنس بن مالك: كان أصحاب رسول الله يتماشون، فإذا استقبلهم صخرة أو أكمة فرَّقَت بينهم، فالتقوا من ورائها، سلَّم بعضهم على بعض. وقال الحسن وأبو قلابة: ليس من المروءة أن يربح الرجلُ على صديقه. وقال ابن سيرين: لا تكرم أخاك بما يشق عليه.

وروينا عن رسول الله ﷺ قال: «إنما يتجالس المتجالسان بالأمانة، فلا يحلُّ لأحدهما أن يفشي على أخيه ما يكره».

وخرج ابن المبارك في سفر، فصحبه قوم فقال لهم: إن أنكر أحد منكم شيئاً فليخبرني، فلما أرادوا أن يتفرقوا قال لهم: هل أنكرتم مني شيئاً؟ فقال شاب منهم: أنا. قال: وما أنكرت؟ قال: لم أرك تستاك. فقال: ويحك، وهل يستاك الرجل بين يدي صديقه. وكان بشر بن الحارث يقول: لا تخالط من الناس إلا حَسَنَ الخُلُقِ، فإنه لا يأتي إلا بخير، ولا تخالط سيء الخُلُقِ فإنه لا يأتي إلا بِشَرٍّ.

(١) يحشمه: يخجله، من الحشمة وهي الاستحياء.

وقال الشافعي رحمه الله: من استغضب فلم يغضب فهو حمار، ومن استرضى فلم يرخص فهو شيطان. وقال عمرو بن دينار: زهدك في راغب فيك نقص حظ، ورغبتك في زاهد فيك ذل نفس.

وليستر^(١) عورة أخيه ما استطاع، ففي الحديث: «من ستر عورة أخيه ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة». وفي خبر آخر: «من ستر على أخيه عورة فكأنما أحيا مودة».

وروينا عن عيسى بن مريم، عليه السلام، أنه قال للحواريين: كيف تصنعون إذا مررتكم بأخيكم نائمًا، فكشفت الريح بعض عورته، قلنا: نردّ عليه ثوبه ونستره. قال: ليس تفعلون ذلك، ولكن تكشفون أكثر. قلنا: سبحان الله! ومن يفعل هذا؟ قال: أنتم، تسمعون بالكلمة من الفحش لا تدفنونها، ولكن تزيدون عليها وتذيعونها.

وهذا قد يكون من الحسد الممكن في القلب أو الغلّ المختفي في الصدر على أخيه الدهر الطويل ولا يظهر ذلك، لأنه لا يجد له مساعًا، ولا يصادف منه متكلمًا، فإذا ظهر أدنى سبب، وسمع أقل متكلم، ظهر ما كان من الحسد بطن، وعلم ما كان من الغلّ استكن، فشيّع الكلمة بمثلها، ويعضدها بأختها لمجيء وقتها، فعندها يعرف منه أنه كان حاسدًا له وحاقدًا عليه، ولكن تبين الآن لما آن وقته.

فأما من عوفي من دقائق الحسد، وعصم من لطائف الغلّ، وسلم قلبه لأخيه، واعتقد حسن الظنّ فيه، فإنه إذا ظهر سبب من أخيه فيه زلل، وبدا أمر فيه خطل، ستر ذلك وكتّمه وأخفاه وأبهمه، وقد يقطعه الحزن عليه والهم به عن الذكر له والخبر عنه، فعند ذلك يُعرف القلب السليم وثبات الود المستقيم. وهذه طريقة عقلاء المؤمنين. والأولى طريق الوجّل في الدين. وقد يكون ذلك من الكبر في القلب، والفخر على أخيه بالعُجب، إذا ظهر عليه بعورة أظهرها، أو سمع له

(١) من أول هنا إلى قوله: «والغلّ المستتر في الصدر» ساقط من المطبوعة، وهو ثابت في الأصول الثلاثة (د، م، هـ).

بهفوة أعلنها، ليعرف فضله، وما هو عليه، ويرتفع بوصفه عن أخيه. وهذا من آفات النفوس، وهو داخل في الشهوة الخفية، والغل المستتر في الصدر^(١).

وكان ابن سيرين يقول: يحتمل الرجل لأخيه إلى سبعين زلة ويطلب له المعاذير، فإن أغناه ذلك وإلا قال: لعل لأخي عذراً غاب عني. وقال الثوري: إذا أردت أن تؤاخي رجلاً فأغضبه، ثم دسّ عليه من يسأله عنك، فإن قال خيراً فاصحبه. وقال غيره: لا تؤاخين أحداً حتى تبلوه، وتفشى إليه سراً، ثم اجفّه واستغضبه وانظر، فإن أفشاه عليك فاجتنبه.

وقيل لأبي يزيد: من أصحاب من الناس؟ قال: من يعلم منك ما يعلم الله عز وجل، ويستر عليك ما يستر الله تعالى. وكان ذو النون يقول: لا خير لك في صحبة من لا يحب أن يراك إلا معصوماً. وقيل لبعض العلماء: من يصحب من الناس؟ قال: من يرفع عنك ثقل التكلف، وتسقط بينك وبينه مؤونة التحفظ. وقد كان جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام يقول: أثقل إخواني على من يتكلف لي وأتخفظ منه، وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي.

يريدون بهذا كله أن من لم يكن على هذه الأوصاف دخل عليه التصنع والتزيّن، فأخرجاه إلى الرياء والتكلف، فذهبت بركة الصحبة، وبطلت منفعة الأخوة.

وقال بعض الصوفية: لا تعاشر من الناس إلا من لا تزيد عنده ببر، ولا تنقص بإثم، ومن يتوب عنك إذا أذنبت، ويعتذر إليك إذا أسأت، ويحمل عنك مؤونة نفسه، ويكفيك مؤونة نفسك. وهذه من أعزّ الأوصاف في هذا الوقت. كما قال رجل للجنيد: قد عزّ في هذا الزمان أخ في الله تعالى. قال: فسكت عنه. ثم أعاد ذلك، فقال الجنيد: إذا أردت أخاً في الله عز وجل يكفيك مؤونتك، ويتحمل أذاك، فهذا لعمري قليل، وإن أردت أخاً في الله تتحمل أنت مؤونته، وتصبر على أذاه، فعندي جماعة أدلك عليهم إن أحببت.

(١) إلى هنا تنتهي الزيادة التي في (د، م، هـ).

فهذا لعمري يكون محباً لنفسه إذا اقتضى هذا من أخيه لا محباً لأخ في الله تعالى، وليس الإخاء كف الأذى؛ لأن هذا واجب، ولكن الإخاء الصبر على الأذى. وكانت هذه الطائفة من الصوفية لا يصطحبون إلا على استواء أربع معان، لا يترجح بعضها على بعض، ولا يكون فيها اعتراض من بعض: إن أكل أحدُهم النهار كله لم يقل له صاحبه صُم، وإن صلى الليل أجمع لم يقل له أحد نَم بعضه، وتستوى حاله عنده، فلا مزيد لأجل صيامه وقيامه، ولا نقصان لأجل إفطاره ونومه. فإذا كان عنده يزيد بالعمل وينتقص بترك العمل، فالفرقة أسلم للدين، وأبعد من المراءاة، من قَبْلِ أَنْ النفس مجبولة على حب المدح وكرهه الذم، ومبتلاة بأن تربَّ حالها التي عرفت به، وأن تظهر أحسن ما يحسن عند الناس منها. فإن صحب من يعمل معه هذا، فليس ذلك بطريق الصادقين ولا بغية المخلصين، فمجانبة هؤلاء الناس أصلح للقلب، وأخلص للعمل، وفي معاشرتهم وصحبة أمثالهم فسادُ القلوب ونقصانُ الحال، لأنَّ هذه أسباب الرياء، وفي الرياء حَبْطُ الأعمال، وخسرانُ رأس المال، والسقوطُ من عين ذي الجلال، نعوذ به سبحانه وتعالى من ذلك.

وكان الثوري رحمه الله تعالى يقول: مَنْ عاشر الناس دَارَاهِم، ومن داراهم رايَاهِم، ومن رايَاهِم وقع فيما وقعوا فهلك كما هلكُوا. وكان بعض الناس يقول: لا تؤاخ من الناس إلا من لا يتغير عليك في أربع: عند غضبه ورضاه، وعند طمعه وهواه؛ لأن هذه المعاني تتغير لها الطباع لدخول الضرر منها على النفس، وفقد الانتفاع.

وقال بعض الأدباء: لا تصحب من الناس إلا من كان على هذا الوصف: يكتُم سرَّك، وينشر برَّك، ويطوى عيبك، ويكون في النوائب معك، وفي الرغائب يؤثرك، فإن لم تجده فلا تصحب إلا نفسك.

وقد أنشدنا بعض العلماء لبعض الأدباء في معنى هذه الأوصاف:

وَنَدْمَانِ أَخِي ثَقَّةٌ كَانَ حَدِيثُهُ خُبْرَةً

يسركُ حُسْنُ ظاهِرِهِ	وتَحَمُّدُ مِنْهُ مُخْتَبَرُهُ
يساعدُ خِلَّةَ كَرَمًا	وفى أخلاقه أثرُهُ
ويطرى سوءةً أبدًا	وحَسَنًا إن طوى نَشْرُهُ
ويَسْتَرُ عَيْبَ صَاحِبِهِ	ويَسْتَرُ أَنَّهُ سَتَرُهُ

وقال بعض العلماء: لا تصحب إلا أحد رجلين: رجلاً تتعلم منه شيئاً من أمر دينك فينفعلك، أو رجلاً تعلّمه شيئاً من دينه فيقبل منك، والثالث اهرب منه. وقال ابن أبي الحواري: قال لى أستاذى أبو سليمان: يا أحمد، لا تصحب إلا أحد رجلين: رجل ترتفق به فى دنياك، أو رجل تزيد معه وتتفّع به فى آخرتك، والاشتغال بغير هذين حمقٌ كبيرٌ.

وكان المأمون يقول: الإخوان ثلاثة: أحدهم مثله مثلُ الغذاء لا يُستغنى عنه، والآخر مثله مثل الدواء يُحتاج إليه فى وقت، والثالث: مثله مثلُ الداء لا يُحتاج إليه. فالعبد مبتلى بهذا الثالث وهو الذى لا أنس فيه ولا نفع عنده، والأول: نعمة من الله سبحانه وتعالى على العبد، فيه ألفة وأنس ومعه غنيمة ونفع.

وكان أبو ذر يقول: الوحدة خيرٌ من جليس السوء، والجلس الصالح خير من الوحدة. وقال بشر بن الحارث: يكون للرجل ثلاثة إخوان: أخ لآخرته، وأخ لدنياه، وأخ يأنس به. فأخبر أن أخ الموانسة قد لا يكون متقرباً عابداً، وأنّ الأنس مخصوص، يقال: لا يوجد إلا فى تحذير كريم.

وكان يوسف بن أسباط يعزّر من فيه أنس من الإخوان، فكان يقول: ما فى المصيبة^(١) ثلاثة يؤنس بهم.

واعلم أنّ الأنس لا يوجد فى كل عالم، ولا فى كل عاقل، ولا فى كل عابد زاهد، ويحتاج الأنس إلى وجود معانٍ تكون فى الولى، فإذا اجتمعت فيه كَمُلَ فيه الأنس، وارتفعت عنه الوحشة والحشمة، ومن لم تكن فيه لم يوجد فيه أنس،

(١) المصيبة: بلد بالشام. وأيضاً: المصيبة، بتشديد الصاد الأولى: ثغر من ثغور الروم.

ومن لم تكمل فيه وُجد فيه بعض الأنس، وإذا حصل الأنس ففيه الرّوح من الكروب، والاستراحة من الغم، والسكون، وطمأنينة القلب، فكذلك عزّ مَنْ يُوجد فيه الأنس لعزة خصاله، وهى سبع: علم وعقل وأدب وحسن خلق وسخاء نفس وسلامة قلب وتواضع، فإن فقد بعضها لم يجد خلاً يأنس بكماله، من قبل أن أضدادها وحشة كلها، لأنّ الجاهل لا أنس فيه، والأحمق لا أنس به، والبخيل سىء الخلق لا أنس عنده، والخبيث والمتكبر لا أنس معه، فاعرف هذا.

ورويانا عن الأصمعى أنه ذكر عن بعض الحكماء قال: عاملوا أحرار الناس بمحض المودة، وعاملوا العامة بالرغبة والرغبة، وسؤسوا السفلة بالمخافة.

ومثل جملة الناس كمثّل جملة الشجر، منهم من له ظلٌّ وليس فيه ثمر، وهذا الذى فيه نفع فى الدنيا ولا ثمرة له فى العقبى، ويحتاج إليه فى وقت. ومنهم من فيه ثمر وليس له ظل، وهذا يصلح للآخرة ولا يصلح للدنيا. ومنهم من فيه ظلٌّ وثمر، فهذا الذى يصلح للدين والدنيا، وهو أعزّها. ومنهم من لا ظلّ له ولا ثمر، وهذا هو الذى لا يحتاج إليه، فمثله فى الشجر مثل شجر الغضا، وهو شوك البرية التى تسميه العامة أم غيلان، تمزق الثياب ولا طعام فيه ولا شراب، فهؤلاء من الناس من يضر ولا ينفع، ويكثر ولا يدفع، مثله كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبَشَرٍ مَوْلَى وَلِبَشَرٍ الْعَشِيرِ﴾ [الحج:

١٣]. ومثله فى الدواب مثل الفأرة والعقرب، وقد قيل فى وصفهم:

الناسُ شَتَّى إذا ما أنتَ ذُقْتَهُمْ	لا يستوونَ كما لا يستوى الشَّجَرُ
هذا له ثمرٌ حلٌّ مذاقته	وذاك ليس له طعمٌ ولا ثمرٌ ^(١)
هذا له ظلٌّ وذا عنده ثمرٌ	وذاك ليس له ظلٌّ ولا ثمرٌ

وقد أنشدنا فى مثل وصف هذا لبعض الأدباء:

إذا كنتَ لا تُرجى لدفعِ مهمّةٍ ولم تك يومَ الحشرِ مَن يَشْفَعُ

ولا أنتَ ذا مالٍ يَجُودُ بِمالِهِ فَعَوْدُ خِلالٍ مِنْ إِخْائِكَ أَنْفَعُ
قال بعضُ السلف: إذا ولى أخوك ولايةً فَبَتَّ على نصف مودتك فكثير.
وحدثنا محمد بن القاسم القرشي، عن الربيع بن سليمان، عن الإمام الشافعي
رحمه الله، أنه آخى رجلاً ببغداد، ثم أن أخاه ولى السيبيين، فتغير للشافعي كما
كان يعهده منه، فكتب إليه الشافعي رضى الله عنه هذه الأبيات:

اذهب فودُّك من ودادي طالقٌ منى وليس طلاقَ ذاتِ البين
فإنِ ارعويتَ فإنَّها تطليقةٌ ويدوم ودُّك لى على ثنتين
وإذا امتنعتَ شَفَعْتُها بِمثالها فتكون تطليقتين فى حِيْضَيْنِ
فإذا الثلاثُ أتتك منى بَتَّةً لم تُغنِ عنك ولايةُ السيبيين

فذكر هذا الكلام لبعض الفقهاء فاستحسنه وقال: هذا الطلاق فقهى، إلا أنه
طلق قبل النكاح.

وقد كان الشافعي آخى محمد بن عبد الحكم المصرى، وكان يحبه ويقربه،
ويقول: ما يقيمنى بمصر غيره. واعتلَّ محمدٌ فعاده الشافعي، فحدثنى القرشى عن
الربيع قال: سمعتُ الشافعي ينشدُ وقد عاد محمدًا:

مَرِضَ الحبيبُ فعدتهُ فمَرِضْتُ من حَذَرِي عليه
وأتى الحبيبُ يَعُودُنِي فَبَرَأْتُ من نَظَرِي إليه

وما شكَّ أهلُ مصرَ أنَّ الشافعي يفوِّضُ أمرَ حلقةِ إليه، وأنه يستخلفه بعد موته
ويأمر الناس بالحضور عنده، حتى سئل عن ذلك فى عِلته فقيل له: يا أبا عبد الله،
إلى من نجلس بعدك؟ ومن يكون صاحب الحلقة؟^(١) وهم يظنون أنه يشير إلى
محمد بن عبد الحكم، فاستشرف لذلك محمد وتطاول لها، وكان جالساً عند
رأسه^(٢)، فقال: سبحان الله، أيشكُّ فى هذا أبو يعقوب البويطى؟! فانكسر لها

(١) عبارة الأصول: «وكلنا إلى من نختلف بعدك».

(٢) العبارة فى الأصول: «فاستشرف له محمد، وكان عند رأسه ليومئذٍ إليه».

محمد، ووجد في نفسه^(١)، ومال أصحابه إلى أبي يعقوب البويطي، وقد كان محمد حمل علم الشافعي ومذهبه وفارق مذهب مالك، إلا أن البويطي كان أفضل منه وأدين، وأقرب إلى الزهد والورع، فحمل الشافعي نصحه الله تعالى في الدين والنصيحة للمسلمين، ولم يدهن ولا اتبع مرضات الخلق في ذلك، بأن وجه الأمر إلى أبي يعقوب وآثره، لأنه كان أحق به وأولى.

فلما قبض الشافعي رضى الله عنه انقلب محمد بن عبد الحكم عنه ورجع عن مذهبه، وفارق أصحابه ورجع إلى مذهب مالك، وروى كتب أبيه عن مالك، وتفقه فيها. فهو اليوم من كبار أصحاب مالك رضى الله عنه.

وأخمل البويطي رحمه الله نفسه واعتزل عن الناس بالبويطة من سواد مصر، وصنف كتاب الأم، الذي ينسب الآن إلى الربيع بن سليمان ويعرف به، وإنما هو جمع البويطي لم يذكر نفسه فيه، وأخرجه إلى الربيع فزاد فيه، وأظهره وسمع منه^(٢).

وقد كان البويطي حمل في المحلة ورفع من مصر إلى السلطان، وحبس في شأن القرآن. فحدثنا عن الربيع قال: كتب إلى البويطي من السجن يحثني على المجالس، ويأمرني بالمواظبة على العلم والرفق بالمتعلمين والإقبال عليهم، وأن أتواضع لهم وقال: كثيراً ما كنت أسمع الشافعي رضى الله عنه يقول:

أهينُ لهم نفسي لكي يُكرِّمُونها ولن تُكرِّمَ النفسُ التي لا تُهينُها

وأوصى بعضُ السلف ابنه فقال: يا بني، لا تصحب من الناس إلا من إن افتقرت قُرب منك، وإذا استغنيت لم يطمع فيك، وإن علت مرتبته لم يرتفع عليك، وإن تذللَّت له صانك، وإن احتجت إليه مانك، وإن اجتمعت معه زانك، فإن لم تجد هذا فلا تصحب أحدًا.

(١) «ووجد في نفسه» ليست في المخطوطات.

(٢) نسب أبو طالب هنا كتاب الأم إلى الإمام البويطي، وهذا ليس صحيحًا، بل هو كتاب الشافعي رواه عنه الربيع بن سليمان، وهذه مسألة قد فرغ منها قديمًا الشيخ أحمد محمد شاكر - رحمه الله - في مقدمة تحقيق «الرسالة» للشافعي، ص ٩ - ١٠، دار التراث بالقاهرة ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

ومن حق الأخوة في الله عز وجل ما نُقل إلينا من سيرة السلف قال: كان الرجل يجيئ إلى منزل أخيه من حيث لا يعلم، فيقول لأهله: هل عندكم دقيق؟ لكم زيت؟ تحتاجون إلى كذا؟ فإن قالوا: ليس عندنا، اشترى لهم مصالحهم. قال: ولم يكن الأخ يفرق بين عياله وعيال أخيه، يقاسمهم المؤونة. قال: ويلقى أخاه فلا يعلمه بشيء من ذلك.

وأما سعيد بن أبي عروبة، فكان يعلّق كل ثوب عنده على الحبل، ويظهر كل صنف من طعام فيصفه، وربما اشترى المسلوخ فيعلّقه، ويفتح بابه، ويدخل عليه إخوانه في الله عز وجل، فكان من أراد طعاماً أكل، ومن اشتهى لحماً قطع وشوى أو طبخ، ومن احتاج إلى ثوب لبس، من غير إذن ولا مؤامرة. قد عرفوا ذلك من أخلاقه، وكان مثله جماعة متخلّفين بهذه الأخلاق.

وقد جعل الله تبارك وتعالى الألفة بين المؤمنين من آياته، وتمدّح بوصفها إلى الرسول ﷺ، ولم يجعل لأحد فيها صنفاً حتى حبيبه، فقال عز وجل: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣]. أى عزيز: لا يؤلف غيره ما فرّق، ولا يفرّق سواه ما أَلَّفَ، حكيم: تفرّد بالحكم في التأليف، كما توحّد بالتوحيد بالتعريف. ومعنى آخر: عزيز: عزّز الألفة وعظّمها عند المؤمنين، حكيم: جعلها في الحكمة مع الحكماء من الصالحين.

ونظر أبو الدرداء إلى ثورين يحرثان في فدان، فوقف أحدهما يحك جسده فوقف الآخر، فبكى أبو الدرداء وقال: هكذا الإخوان في الله عز وجل، يعملان لله تبارك وتعالى، ويتعاونان على أمر الله، فإذا وقف أحدهما وقف الآخر لوقوفه. وكان أكثر عبادة أبي الدرداء التفكير، وكان يقول: إني لأدعو لأربعين^(١) من إخواني في سجودي أسميهم بأسمائهم.

وقد جاء في الحديث: «دعاء الأخ لأخيه بالغيب لا يُردُّ، ويقول الملك: ولك

(١) في الأصول: «السبعين».

مثلُ هذا». وفي لفظ آخر: «يقول الله تبارك وتعالى: بِكَ أَبَدًا». والحديث المشهور: «يُستجاب للمرء في أخيه ما لا يستجاب له في نفسه».

فمن واجب الأخوة تخصيصه، وإفراذه بالدعاء، والاستغفار له في الغيب، فلو لم يكن من بركة الأخوة إلا هذا كان كثيراً. وكان محمد بن يوسف الأصبهاني يقول: وأين مثلُ الأخ الصالح، أهلك يقتسمون ميراثك ويتنعمون بما خلّفت، وهو منفرد بحسرتك، مهتم بما قدّمت، يدعو لك في ظلمة الليل وأنت تحت أطباق الثرى، فقد أشبه الأخ الصالحُ الملائكة؛ لأنه جاء في الخبر: «إذا مات العبدُ قال الناس: ما خلّف؟ وقالت الملائكة: ما قدّم؟». يفرحون بما قدّم من خيرٍ ويشفقون عليه.

وقال بعض العلماء: لو لم يكن في اتخاذ الإخوان إلا أن أحدهم يبلغه موت أخيه، فيترحم عليه ويدعو له، فلعله يغفر له بحسن نيته له. ويقال: مَنْ بلغه موت أخيه، فترحم عليه واستغفر له، كأنه شهد جنازته وصلى عليه.

وقد روينا عن رسول الله ﷺ: «مثلُ الميتِ في قبره مثلُ الغريق يتعلق بكل شيء، ينتظر دعوةً من وَلَدٍ أو والدٍ أو أخ، وإنه ليدخل على قبور الأموات من دعاء الأحياء من الأنوار أمثال الجبال». ويقال: الدعاء للأموات بمنزلة الهدايا للأحياء في الدنيا. قال: فيدخل الملكُ على الميتِ معه طبق من نور، عليه منديل من نور، فيقول: هذه هديةٌ من عند أخيك فلان، من عند قرينك فلان، قال: فيفرح بذلك، كما يفرح الحى بالهدية.

فقد كان الإخوان يوصون إخوانهم بعدهم بدوام الدعاء لهم، ويرغبون في ذلك، لحسن يقينهم وصدق نياتهم.

وإن أعظم الحسرة من خرج من الدنيا ولم يؤاخ أخاً في الله عز وجل، فيدرك بذلك فضائل المؤاخاة، وينال به منازل المحبين عند الله تعالى. ومن أشدّ الناس وحشة في الدنيا من لم يكن له خليل يأنس به، وصديق صدق يسكن إليه. كما قال عليٌّ عليه السلام: وغريبٌ من لم يكن له حبيب، ولا يوحشك من صديق

سوء ظن . وأنشد بعض الشيوخ لبعضهم :

وليس غريباً مَنْ تناءت ديارُهُ ولكن مَنْ يُجفَى فذاك غريبٌ
ومَنْ كان ذا عهدٍ قديمٍ وذا وفا فلو جاوز السدَّين فهو قريبٌ

وقيل لسفيان الثوري: بمن تأنس؟ فقال: بقيس بن الربيع، وما رأيته منذ ستين .

وكان بعضهم يقول: أنا بمودة مَنْ غاب عني مِنْ بعض إخواني أوثق مني بمودة من يغدو عليّ ويروح في كل يوم مرتين . وقال محمد بن داود: قرب القلوب على بعد المزار خيرٌ من قرب الديار من الديار .

وليتق أن يعاشر أخاه بخمس خصال، فليست من الأدب ولا المروءة، أولها: أن يلزمه بما يكره مما يشقّ عليه . والثانية: أن يسمع فيه بلاغةً، ويصدق عليه مقالة . والثالثة: أن يكثر مسأله من أين تجيء وإلى أين تذهب، وأن يتجسس عليه، ويتحسس عنه، والفرق بينهما أن التجسس يكون في قفو الآثار، والتحسس يكون في تطلّع الأخبار .

فقد روينا كراهة هذه الخمس في سيرة السلف .

وقال محمد بن سيرين: لا تلزم أخاك بما يشق عليه . وقال مجاهد: إذا رأيت أخاك في طريق فلا تسأله من أين جئت ولا أين تذهب، فلعله أن يصدقك في ذلك أو يكذبك، فتكون قد حملته على الكذب . وروينا أن حكيماً جاء إلى حكيم فقال: جئتك خاطباً إليك مودتك، فقال: إن جعلت مهرها ثلاثاً فعلت . قال: وما هن؟ قال: لا تخالفني في أمرٍ، ولا تقبل عليّ بلاغة، ولا تعطين في رشوة . فقال: قد فعلت . قال: قد آخيتك .

وأما التجسس والتحسس فقد نهى الله ورسوله عنهما، وجعلهما رسول الله ﷺ من شرط الأخوة مع ترك التدابر والتقاطع . فقد روينا في الخبر السائر: «لا تجسسوا ولا تحسسوا، ولا تقاطعوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً» . المقاطعة في الشهادة أن تقطع مواصلته، وتنحرف عن جريان عادته، والتدابر في الغيب

مأخوذٌ منه إذا ولَّك الدُّبر، أى لا تدابره إلا بما يحب، كما تكون له فى المقابلة. كما أخذت الغيبة من الغيب، أى لا تُخلفه فى غيبه بما يكره. وقد كان الإخوان يتبايتون على العلوم والأعمال، وعلى التلاوة والأذكار، وبهذه المعانى تحسن الصحبة، وتحق المحبة. وكانوا يجدون من المزيد من ذلك، والنفع به فى العاجل والآجل، ما لا يجدونه فى التخلُّى والانفراد، من تحسين الأخلاق، وتلقيح العقول، ومذاكرة العلوم، وهذا لا يصح إلا لأهله، وهم أهل سلامة الصدور والرضا بالميسور، مع وجود الرحمة، وفقد الحسد، ووَجَدَ التناصر، وعدم التظاهر، وسقوط التكلف، ودوام التألُّف. فإذا عُدَّت هذه الخصال ففى وجود أصدادها تقل المباينة. وقد قيل: مَنْ سَقَطَتْ كُلُّفَتُهُ دَامَتْ صَحْبَتُهُ وَأُلْفَتُهُ، وَمَنْ قَلَّتْ مُؤَوَّنَتُهُ دَامَتْ مَوَدَّتُهُ.

وقال علىّ عليه السلام: شرُّ الأصدقاء من تُكَلِّفَ له. وقال يونس النبى عليه السلام لما زاره إخوانه، فقدم إليهم خبز شعير وجزَّ لهم من بقلٍ كان زرعه، وقال: لولا أنَّ الله تبارك وتعالى لعن المتكلفين لتكَلَّفْتُ لكم.

وروينا عن نبينا ﷺ: «أنا والاتقياء من أمتى برأء من التكلف».

فجملة التكلف هو عمل ما لا نية للعبد فيه، ودخول العبد فيما لا يعنيه، وتعاطيه ما قد كُفِيَ، ومع وجود الحسد وكُمون الغِلِّ، وهو بثبوت الحقد تكون المباينة، وفى التطاول والتظاهر تقع المجانبة، ومع الخُبث والمكر تكون المنافرة، وهذا كله يُذهب الألفة، ويُنقص المحبة، ويُبطل فضيلة الأخوة.

وقال بعض أهل البيت: أثقلُ إخوانى علىَّ مَنْ أحتشمه ويحتشمنى. وقال بعض السلف: كانوا لا يغتنمون ولا يحتشمون. وسئل الحسن عن الصديق الذى يحلَّ أكلَ ماله بغير إذنٍ منه، فقال: من استراحت إليه النفس، وسكن إليه القلب، فإذا كان كذلك فلا إذن له فى ماله. وسئل ذو النون عن الأُنس، فقال: أنْ تَأْنَسَ بكل وجهٍ صبيحٍ، وكلِّ صوتٍ فصيحٍ، والله تبارك وتعالى فيما بينك وبين ذلك.

وإذا علمتَ أنَّ أخاك يُسرُّ بأخذِكَ من رَحْلِهِ وملكه، أو علمتَ أنه لا يكره ذلك

إن فعلته، حلّ لك أن تأخذ، وإن كان لم يأذن لك؛ لأن علمك يقوم مقام إذنه، وعلامة هذا منك انشراحُ صدرك بذلك، وخِفته على قلبك، فذلك دليلٌ على سروره به.

وعلى قياسه من علمت من الناس أنه يكره تناولك من ماله شيئاً، أو عرفته ببخلٍ وضناً بما في يديه، فإنني أكره لك أن تأكل من ماله شيئاً، وإن أذن لك بعد أن تعلم أن الأحب إليه أن لا تأخذ، ففي الورع وإن أعطاك أن لا تقبل، فإنّ بذله مع علمك بأمره لغوٌ لا حقيقة له، ودليل ذلك ضيق صدرك به، ووجود الحشمة والوحشة في القلب، فقد جاء في الأثر: «الإثم حَزَّازٌ في القلب»، وجاء: «الإثم ما حاك في صدرك، والبرُّ حسنُ الخلق، والبر ما سكنت إليه النفس واطمأن به القلب»، فقد جاءت هذه الألفاظ في أحاديث متفرقة، وعلى ما ذكرناه أن رسول الله ﷺ أكل من لحم بريرة تُصدّق به عليها، وكانت غائبة، لما علم أنه يسرها، فلم ينتظر إذنها، فعلى ضد ذلك في القياس ما ذكرناه.

ونظر هاشم الأوقص إلى الحسن وهو يأكل من جَوْنٍ لبقال، من هذه بُسرة ومن هذه تينة، فقال له: يا أبا سعيد، تأكل من مال الرجل بغير إذنه، فقال: يا لكع، اتلُ على آية الأكل، ثم قرأ الحسن: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور: ٦١].

وقد كان أصحاب محمد بن واسع، وفرقد السنجي، يدخلون منزله فيأكلون من غير أن يؤذن لهم، ويقول: ذكّرتوني أخلاق قوم مضوا، هكذا كنا.

قال: وكنا ندخل على أبي سليمان الداراني، فيقدم إلينا الطيبات ولا يأكل معنا، ويقول: إنما خبأته لكم. فقلنا: تطعمنا الشهوات ولا تأكلها؟ فقال: لا أكلها لأنني قد تركت أكلها، وأقدمها إليكم لأنني أعلم أنكم تشتهونها.

وقال: كنا نبأيت إبراهيم بن أدهم في المصيصة وفي قرى السواحل، فكان يكسر لنا الصنوبر والبندق واللوز ليله أجمع، ويقول: كلّوا. فقلنا: لو أقبلت على صلاتك وتركت هذا. فيقول: هذا أفضل.

وكان بعض الناس يفجؤه الضيفُ، فلا يكون عنده ما يقدمه إليه، فيذهب إلى منزل أخيه، فيأخذ خبزاً وقدرًا قد كان طبخها، فيحمله إلى ضيفه، فليقاه أخوه بعد ذلك فيستحسنه منه، ويأمره بفعل مثل ذلك في كل نائبة.

وقال بعضُ العلماء: إذا عمل الرجلُ في منزل أخيه أربع خصال فقد تمَّ أنسه به: إذا أكلَ عنده، ودخل الخلاءَ، ونام، وصلى. فذكرتُ هذه الحكاية لبعض أشياخنا فقال: صدق، بقيت خصلة. قلت: ما هي؟ قال: وجامع. فإذا فعل هذا فقد تمَّ أنسه به. لأنَّ هذه الخمس لأجلها تُتخذ البيوت، ويقع الاستخفاءُ، لما فيها من التبذُّل والعورة، ولولاها كانت بيوتُ الله سبحانه أروح وأطيب، ففي الأُنس بالأخ وارتفاع الحشمة من هذه الخمس، مثال حال الأُنس في الوحدة بالنفس من غير عيب من عائب، ولا ضد، لكن من اتفاق جنس، وهذا لعمري نهاية الأُنس ذاتًا. فأما الخامسة، وهو قول شيخنا: «وجامع»، فعلى ذلك يصلح أن يستدل له بقول العرب في تسليمهم وترحيبهم: مرحبًا وأهلاً وسهلاً، أى لك عندنا مرحب، وهو السَّعة في القلب والمكان، ولك عندنا أهلٌ تأنس بهم بلا وحشةٍ منا، وسهلاً، أى لك عندنا سهوٌ، ذلك يسهل علينا ولا يشتد، فهو سهولة اللقاء، وسهولته من الأخلاق في الالتقاء.

واعلم أن للناس في التعارف سبع مقاماتٍ بعضها فوق بعض:

فأول ذلك المعرفة عن الرؤية أو السمع فقط، فهذا حرمة الإسلام وحق العامة. ثم المجاورة، وله حق الجوار، وهو ثانی حقوق الإسلام، وهذا هو الجار الجنب. ثم المرافقة في طريق أو سفر، وهذا هو الصاحب بالجنب في أحد الوجهين من الآية، فهذا ثلاثةُ حقوقٍ لأنه قد جمع حرمة الإسلام وحرمة الجوار، وزاد عليها بأنه ابن سبيل.

ثم الصحة، وهي الملازمة والاتباع، فهذا فوق ذلك.

ثم الصداقة، وهي حقيقة الأخوة، ومعها تكون المعاشرة، وهو اسم تكون معه المخالطة، وتوجد فيه المؤانسة، وهو يحكم بالمزاورة والمباينة والمؤاكلة، وهذا حقيقة

العشرة، فالمعاشرة مأخوذة من العشير، وهو الخليط المقارب، ولذلك سُمي الزوج عشيراً في قول النبي ﷺ: «وَيَكْفُرَنَّ الْعَشِيرَ»، وقد قال الله عز وجل في تسمية المعاشر وفي قربه: ﴿لَبَسَ الْمَوْلَى وَلَبَسَ الْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١٣]. يعنى: ابن العم المختلط به، فقليل منه: معاشرة، على زنة مفاعلة؛ لأنه شيء يقع بين اثنين لا محالة، كان كل واحد قد فعل مثله، أى يفعل هذا مثل ما يفعل هذا، مثل المضاربة والمقاتلة والمشاغبة، إذا فعل كل واحد بصاحبه كفعله به.

ثم الأخوة فوق الصداقة، وهذا لا يكاد يكون إلا بين النظراء في الحال، والمتقاربين في الحسن، والمعانى بأن يوجد في أحدهما من القلب والهمة والعلم والخلق ما يوجد في الآخر وإن تفاوتتا، كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧]، وليسوا من جنسهم، ولا على وصفهم في الخلقة، ولكن لما تشابهت قلوبهم وأحوالهم آخى بينهم، فهذه أخوة الحال، وهى حقيقة الصداقة.

ثم المحبة: وهى خاصية الأخوة، وهذا يجعله الله تبارك وتعالى من الألفة، ويؤجده من الأنس فى القلوب، يتولاه بصنعه ولا يوليه غيره، وهذا ارتياح القلوب، وانسراح الصدور، ووجد السرور، وفقد الوحشة، وزوال الحشمة.

ثم الخليل: وهذا فوق الحبيب، ولا يكون هذا إلا فى عاقلين عالمين عارفين على معيار واحد، وطريق واحد، وهذا أعز موجود، وأغرب معهود، والخلّة مأخوذة من تخلل الأسرار، ومعها تكون حقيقة الحب والإيثار، فكل خليل حبيب، وليس كل حبيب خليلاً، لأن الخلّة تحتاج إلى فضل عقل، ومزيد علم، وقوة تمكين، وقد لا يوجد ذلك فى كل محبوب، فلذلك عزّ طلبه، وجلّ وصفه، وقد رفع الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ فى مقام المحبة، فأعطاه الخلّة ليلحقه بمقام أبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فكانت الخلّة مزيد المحبة، ومنه ما روى عن النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً من الخلق خليلاً لاتخذت أبا بكرٍ خليلاً، ولكن صاحبكم خليلُ الله عز وجل»، فلما اتخذه خليلاً، لم يصلح أن يشرك فى خلّة

الخالق خلّله الخلق، ثم قال: «ولكن أخوة الإسلام»، فأوقفه مع الأخوة؛ لأن فيها مشاركة في الحال، كما فعل بعلي عليه السلام، فقال^(١): «على منى بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة»، فأقامه مقام الإخاء، وعدل به عن النبوة، كما عدل بأبي بكر عن الخلّة، فشارك أبو بكر علياً في الأخوة، وزاد بمقاربة الخلّة، لأنه عرض بها وأهل لها، إلا أن غيره الله تعالى على خليله منعه من الشرك بخلقه في خلّته، إيثاراً للتوحيد، وقيام شاهد الوجدانية بمعنى مقتضى صفة الربوبية.

وفي الحديث الآخر أن النبي ﷺ صعد المنبر فرحاً مستبشراً فقال: «ألا إن الله تبارك وتعالى قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، فأنا حبيب الله عز وجل، وأنا خليل الله».

وليس قبل المعرفة اسم يوجب حكماً إلا ظاهر الإسلام، ولا بعد الخليل وصف يعرف إلا نعت محب، ثم تتزايد الحرمات في الأخوات ما بين المعرفة والخلّة، وتعظم الحقوق بطول الصحبة، وجميل العشرة، ويقال: صحبة سنة أخوة، ومعرفة عشر سنين قرابة.

وقد ضمّ الله عز وجل الصديق إلى الأهل ووصله بهم، ثم رفع الأخ وقدمه على الصديق، وهو قوله عز وجل: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ [النور: ٦١]. كان الأخ يدفع مفاتيح خزائنه إلى أخيه، ويتصرف في الحضر، ويتقلب في السفر، ويقول لأخيه: حكمك فيما أملك كحكمي، وملكي له كملكك، فكان أخوه يتضايق، ويتحرّج، فيقتّر على نفسه لأجل غيبة أخيه، ويقول: لو كان حاضراً لاتّسعت وأكلت رَغَدًا، للورع الذي فيه، والنصح والإيثار لأخيه.

فرحم الله عز وجل تضايقهم، وشكر تورّعهم، فأطلق لهم الإذن، ووسع عليهم في الأكل، فقال عز وجل: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: لا إثم ولا ضيق ﴿أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ﴾ ثم نسّق الأقارب على ترتيب الأحكام، وضم إليهم الأخ لما وصفه بتمليكه مفاتحه أخاه، فأقام ذلك مقام ملك أخيه؛ لأنه

(١) من هنا إلى آخر الفقرة أثبتته من النسخ المخطوطة، وهو ساقط من المطبوعة.

أقام أخاه مقامه، فقال تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ ثم أحرَّ الصديق بعده، إذ لم يكن بحقيقة وصفه، ثم قال عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا﴾ بحضرة الإخوان ﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور: ٦١] في حال تفرقهم، فسوى بين غيبتهم وشهودهم، لتسوية إخوانهم بينهم وبين أملاكهم، واستواء قلوبهم مع ألسنتهم في البذل والمحبة، لتناول المبذول، وهذا تحقيق وصفه عز وجل لهم في قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨] أى: هم فى الأمر والإنفاق سواء.

وكان ابن المعتز مؤاخياً لثعلب، خليطاً له فى العشرة، وكان يدفع إليه أشعاره يثقفها ويحررها له، إلى أن حُبسَ ومُنِعَ من الدخول إليه، فكانت بينهما مكاتبة، فمما أعجبني من مكاتبته من شعره:

ما وَجَدُ صَادٍ فى الحبالِ مُوثِقٍ
بمَاءِ مَزْنٍ باردٍ مُصَفَّقٍ
فى صخرةٍ إن تر شمساً تَبْرُقُ
فَهُوَ عليها كالزجاج الأزرق
إلا كَوَجَدَى بك لكن اتَّقَى
إنَّا على البَعَادِ والتَفَرُّقِ
لنلتقى بالذِّكْرِ إنْ لم نَلْتَقَى^(١)

وقال بعضُ الأدباء: إذا ائتلف الإخوان جماعة، ثم اجتمع بعضهم على لذة وفُقد البعض، نقص من اللذة بمقدار مَنْ نَقَصَ منهم، وهذا يكون بوجود الأُنس بهم ومواصلة الذكر.

وروي أن مالك بن دينار ومحمد بن واسع دخلا منزل الحسن، وكان غائبا، فأخرج محمد بن واسع سلة فيها طعام من تحت السرير فجعل يأكل، فقال له

(١) هذه الفقرة ساقطة من المطبوعة، ومختصرة فى (م)، هـ) فأثبتها من (د). والأبيات لابن المعتز فى ديوانه ٥٠١/١ - ٥٠٢، وتقع فى ثلاثة عشر بيتاً.

مالك: كَفَّ يَدَكَ حَتَّى يَجِيءَ صَاحِبَ الْبَيْتِ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ مُحَمَّدٌ إِلَى قَوْلِهِ، وَأَقْبَلَ عَلَى الْأَكْلِ، وَكَانَ أَبْسَطَ مِنْهُ، وَأَحْسَنَ خُلُقًا^(١)، فَدَخَلَ الْحَسَنُ فَقَالَ: يَا مُوَيْلَكَ هَكَذَا كُنَّا لَا يَحْتَشِمُ بَعْضُنَا مِنْ بَعْضٍ.

واعلم أنه ليس بين الأخوين والصاحبين رياء في أعمالهما، وإن تراءى برأى العين أعمالهم لهم ثواب السرّ والخلوّة، لأنهما كالأهل في الحضر، وكالصحابة في السفر، وليس بين الرجل وأهل بيته ولا بين المسافر ورفقائه رياء ولا سمعة، ولا عليه منهم اختفاء ولا خلوة، فإن صحبه أخوه هذا في سفرٍ كانت حرمة عليه ألزم، وحقّه أوجب، فينبغي أن لا يخالفه ولا يعترض عليه، إن أحبّ النزول في منزل لم يكره أخوه ذلك، وإن اختار أحدهما الرحيل لم يحب الآخر المقام، وإن سار أحدهما لم يقف صاحبه، وإن استراح الآخر وقف له رفيقه، وإن اشترى شيئاً لم ينهه عنه، ولا يستأثر بمطعوم ولا مشروب عليه، بل يؤثره بذينك.

وفى الخبر: «ما اصطحب اثنان قط إلا كان أحبهما إلى الله عز وجل أرفقهما بصاحبه». وروينا أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه دخل غِيْضَةً^(٢) مع بعض أصحابه، فاجتنى منها سواكين من أراك، أحدهما معوجٌ، والآخر مستقيم، فحبس المعوج لنفسه، ودفع المستقيم إلى صاحبه، فقال: يا رسول الله، أنتَ كنتَ أحقّ بالمستقيم، فقال: «ما من صاحبٍ يصحب صاحباً ولو ساعة من نهار، إلا سألَه الله عن صحبته، هل أقام فيه حق الله تعالى أو أضاعه؟».

ومن كان ناظراً في أخوة أخيه، أو في صحبته إلى كثرة أعماله، أو واقفاً مع أكمل أحواله، دلّ على جهله بهذا الطريق الذي ينفذ إلى التحقيق، لأنها تحول، وإنما المعوّل على حقائق القلوب، وسلامة العقول؛ لأن إليها الأمر مردودٌ، فإن اقترن إلى جهله نقص معرفة الآخر، دلّ عليه التزين له، والتصنع عنده، لتعلو منزلته، ويحسن عنده أثره، فيدخله ذلك في الشرك، ويخرجه الشرك عن حقيقة التوحيد، فتزلّ قدمٌ بعد ثبوتها، ويسقط من عين مولاه، فلا يتولاه، لأنّ النفس

(١) من قوله: «فقال له مالك» إلى هنا من الأصول المخطوطة وهو ساقط من المطبوعة.

(٢) الغيضة: الموضع يكثر فيه الشجر.

مبتلاةٌ بحب الثناء والمدح، وإثبات المتزلة بإظهار الوصف، فيكون هذا الصاحبُ حينئذٍ من أشأم الناس عليه وأضرهم له، ويصير أحدهما بلاءً على صاحبه، فليفارقه حينئذٍ؛ لأنه جاهل ولا يصحبه، فإنه يجد النقصان، وتدخل عليه الآفات بمقارنته، فلينفرد بنفسه، فيصدق في حاله عاليةً كانت أو دنيئةً، وضيعةً كانت أم رفيعةً، من غير مقارنة أحدٍ، ولا مباينة، فهو خيرٌ له وأحمدُ عاقبةً.

وهذا بابٌ لطيف قد هلك فيه خلقٌ كثيرٌ على ضربين: منهم من صاحب وآخى وبايت على هذه العلل فساكنها، ومع هذه الآفات فقارنها، لضعف يقينه، وقوة هواه، وكبر الناس في عينه، وعظم قدر الدنيا مما يناله منهم في قلبه، فهلك بالتزوين والتصنع، وأهلك أخاه بنحو ذلك.

والضرب الثاني: من المتعبدین المعروفين بالستر والصلاح، خافوا ولم يحبوا أن يظهروا على حالهم كراهةَ الذمِّ، وخيفةَ النقص لهم، فلم يحبوا أن يختبروا بالمباينة، ولا ينكشفوا في المصاحبة، ولا تعرف أحوالهم بطول الممارسة، وأحبوا مع ذلك أن يشار إليهم من بعيد، ويتوهم فيهم العبادة من غير طول ملاقة، فأظهروا التفرد والعزلة، وتركوا المباينة والصحبة، وأنكروا هذا وعابوه، يريدون أن يبينوا بذلك عن نظرائهم، وينفردوا به عن جملة الخلق بدعوى الحال، ليختصوا بغربتها عندهم من غير حال، ولا انقطاع إلى الله سبحانه، ولا اشتغال، ولقلة معرفة العامة بأحوال الصادقين. فهلك هؤلاء أيضاً بالمباينة، وغربة الحال، وترك السنة من إجابة الدعوى، ومخالطة الأمة كبراً وتطاولاً على العامة، وتمويهاً منهم على من لا يعرف سيرة الأمة، وأوهم بذلك أنه مشغولٌ عنهم بسلوك الطريق، لعلهم أنهم لا يعرفون محجة التحقيق، ولعله مشغولٌ بهم، وأنهم وساوس قلبه، وهو في ذلك مُنكشف للصادقين، ظاهرٌ جليٌّ للعارفين.

وقد جاء في مخالطة المسلمين، وفي الأكل مع الإخوان، والاختلاط بالعامة، والمشى في الأسواق، واشتراء الحوائج، وحملها للتواضع ما يكثر رسمه، ويطول وصفه، وكذلك كان سيرة الصحابة، وشيعة التابعين بإحسان، منهم: عمر رضی الله عنه، كان يحمل القربة على ظهره لأهله، وعلى رضی الله عنه كان يحمل

التمر والمالح في ثوبه ويده، ويقول:

لا ينقص الكامل من كماله ما جرّ من نفع إلى عياله

ومنهم: أُبَيٌّ، وابن مسعود، وحذيفة، وأبو هريرة، كانوا يحملون حزم الخطب وجُرَبَ الدقيق على أكتافهم وظهورهم. وسيدُ المرسلين وإمام المتقين، ورسول رب العالمين، محمد ﷺ: كان يشتري الشيء فيحمله بنفسه، فيقول له صاحبه: أَعْطِنِي أَحْمَلْهُ عَنْكَ، فيقول: «صَاحِبُ الشَّيْءِ أَحَقُّ بِحَمْلِهِ».

وكان الحسن بن علي عليهما السلام يمرّ على السَّوَالِ في الطريق، وبين أيديهم كِسْرٌ ملقاة في الأرض، فيسلم عليهم، فيقولون: هَلَمْ الغداء يا ابن بنت رسول الله فيثنى رجله عن بغلته وينزل، فيقعد معهم على الأرض ويأكل، ثم يركب ويقول: إن الله تبارك وتعالى لا يحب المستكبرين، ثم يدعوهم بعد ذلك إلى منزله، فيقول للخادم: هَلُمَّ ما كنتِ تدخرين، فيأكلون معه.

وروينا في الإسرائيليات أن حكيماً من الحكماء صنف ثلاثمائة وستين مصنفاً في الحكمة، حتى ظنّ أنه نال منزلة عند الله تعالى، فأوحى الله إلى نبيه: قل لفلان: إنك قد ملأت الأرض نفاقاً، وإنّي لا أقبل من نفاقك شيئاً، قال: فتخلّى وانفرد في سِرْب تحت الأرض، وقال: قد بلغتُ محبة ربي. فأوحى الله عز وجل إلى النبي: قل له: إنك لم تبلغ رضاي. قال: فدخل الأسواق وخالط العامة وجالسهم، وأكل الطعام بينهم ومشى في الأسواق معهم، فأوحى الله تبارك وتعالى الآن حين بلغت رضاي.

فلو أيقن اليائس المتصنع للخلق، الأسير في أيديهم، الرهين لنظرهم، أن الخلق لا ينقصون من رزق، ولا يزيدون في عمر، ولا يرفعون عند الله، ولا يضعون لديه، وأن هذا كله بيد الله عز وجل لا يملكه سواه، ولو سمع خطاب المولى لاستراح من جهد البلاء، إذ يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧]، مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]. فلو عقل

ذلك لا طَرَحَ الخلق عن قلبه اشتغالاً بمقلِّبه، ولأعرض عن الناس بهمة؛ نظراً منه إلى مهمه، وأظهر حاله وكشف أمره، تقوياً بربه وغنى بعلمه، فلم يبال أن يراه الناس على كلِّ حالٍ يراه فيه مولاة، إذ كان لا يعبد إلا إياه، ولا يضره ولا ينفعه سواه، فعمل ما يُصلحه؛ وإن كان عند الناس يضعه، وسعى فيما يحتاج إليه؛ وإن كان عند المولى يزرى عليه، ولكن ضَعُفَ يَقيُّنُهُ فقوى إلى الخلق نظره، وأحبَّ أن يستر عنهم خبره لإثبات المنزلة عندهم، ولإستخراج الجاه لنفسه، فيفخر بالخيلاء والعُجب، فموه بحال على مَنْ لا حال له، ووهمَ بمقام عند من ليس له مقام، واعتقدوا فضله بذلك لنقصهم، وتوهموا به علمه لجهلهم، ولو صدقوا الله لكان خيراً لهم.

حدثونا عن يونس بن عبد الأعلى قال: قال لى الشافعى رضى الله عنه: والله ما أقول لك إلا نصحاً، أنه ليس إلى السلامة من الناس سبيل، فانظر ما يصلحك فافعله. وحدثونا عن الثورى قال: رضا الناس غاية لا تُدرَك، فأحمق الناس من طلب من لا يدرك، وقد قال بعض الحكماء فى معناه قولاً منظوماً:

مَنْ راقب الناس ماتَ غمًّا وفاز باللذة الجسور^(١)

ونظر أبو محمد سهل إلى رجل من الفقراء، فقال له: اعمل كذا وكذا، فقال: يا أستاذ لا أقدر على هذا لأجل الناس، فالتفت إلى أصحابه فقال: لا ينال العبد حقيقة من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين: عبدٌ يسقط الناس عن عينه فلا يرى فى الدار إلا هو وخالقه، وأنَّ أحدًا لا يقدر أن يضره ولا ينفعه. أو عبد أسقط الناسَ عن قلبه، فلا يبالى بأى حال يرويه.

وحدثونا عن إمام الأئمة الحسن بن يسار البصرى رحمه الله أن رجلاً قال له: يا أبا سعيد، إنَّ قومًا يحضرون مجلسك ليس بغيتهم الفائدة منك، ولا الأخذ عنك، إنما همهم تتبُّع سَقَطِ كلامك، وتعتك فى السؤال ليعيبوك بذلك، فتبسّم الحسن ثم قال: هوّن عليك يا ابن أخى، فإنى حدثت نفسى بسكنى الجنان فطمعت، وحدثت نفسى بمعانقة الحور الحسان فطمعت، وحدثت نفسى بمجاورة الرحمن

(١) البيت لسلم الخاسر، انظر: الأغاني ١٠٤٦/٣ (طبعة دار الشعب).

فطمعت. وما حدثت نفسى قط بالسلامة من الناس، لأننى قد علمت أن خالقهم ورازقهم ومحبيهم ومميتهم لم يسلم منهم، فكيف أحدثت نفسى بالسلامة منهم.

وبمعناه ما روى عن موسى ﷺ أنه قال: يا رب، احبس عنى ألسنة الناس، فقال الله تبارك وتعالى: يا موسى هذا شيء لم أفعله بنفسى، فكيف أفعله بك؟ وفى لفظ آخر: لو خصصت بهذا أحداً لخصصت به نفسى.

وقد كان أبو الدرداء رضى الله عنه يقول: ما من يوم أصبح فيه حياً وأمسى ولا يرمينى فيه الناس بداهية إلاّ عددته نعمة من الله تعالى علىّ، وأنشد:

وإنّ امرأاً يُمسى ويصبح سالماً
من الناس إلاّ ما جنّى لسعيد

وأوحى الله عز وجلّ إلى عزيز: إن لم تطب نفساً بأن أجعلك علّكاً فى أفواه الماضغين، لم أكتبك عندى من المتواضعين. ومثله رويانا عن عيسى عليه السلام أنه كان يقول: يا معشر الحواريين، إن أردتم أن تكونوا إخواناً فوطّئوا نفوسكم عند العداوة والبغضاء من الناس.

وقد جعل الله تبارك وتعالى فى المخالطة للمؤمنين من البركة ما لو لم يجئ فيه إلاّ الأثر هذا، كان فيه كفاية. رويانا أن النبى ﷺ لما طاف بالبيت عدك إلى زمزم ليشرب منها، فإذا التمر المنقّع فى الحياض الآدم قد مَعَثَ^(١) الناس بأيديهم، وهم يتناولون منه يشربون، فاستسقى منه، فقال: اسقونى. فقال العباس: يا رسول الله، إنّ هذا النبيذ شراب قد مُغِثَ وحيض بالأيدى، أفلا آتيك أنظف من هذا فى جرٍّ مخمّرٍ فى البيت، فقال: لا، اسقونى من هذا الذى يشرب منه الناس ألتمس بركة أيدى المسلمين، فشرّب.

ورويانا فى خبر آخر قيل: يا رسول الله، الوضوء من جرٍّ مخمّرٍ أحب إليك، أو من هذه المطاهر التى يتطهر منها الناس؟ فقال: «بل من هذه المطاهر التماس بركة أيدى المسلمين». ورويانا فى الخبر: «إذا التقى المسلمان فتصافحا، فتبسم أحدهما إلى صاحبه تحاتّت ذنوبهما كما يتحاتّ ورق الشجر». وفى لفظ الحديث

(١) أى دلكوه بأيديهم.

الآخر: «قسمت بينهما مائة رحمة؛ تسعة وتسعون لآنسهما بصاحبه وأحسنهما بشراً». وروينا فى الخبر: «خيرُ الأصحاب عند الله عز وجل أرفقهم بصاحبه، وخيرُ الجيران أرفقهم بجاره».

وياك أن تصحب جاهلاً فتجهل بصحبته، أو غافلاً عن مولاه متبعاً لهواه، فيصدك عن سبيله فتردى، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩]، فأولُ الاستقامة صحبةُ العلماء بالله عز وجل. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الكهف: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طه: ١٦]. أى فتكون ردياً. وقيل: فتهلك. وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾ [النجم: ٢٩]. ففى دليله الإقبال بالصحبة على من أقبل إلى ذكره تعالى، والإعراضُ عَنْ أَعْرَضَ عَنْ وجهه، فلا تصحبَنَّ إِلَّا مُقْبِلًا عَلَيْهِ، كما قال الله عز وجل: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥].

وياك أن تصحب من الناس خمسة: المبتدع، والفاسق، والجاهل، والحريص على الدنيا، والكثير الغيبة للناس، فإن هؤلاء مفسدةٌ للقلوب، مذهبةٌ للأحوال، مضرّةٌ فى الحال والمآل.

وقد كان سفيان الثورى رحمه الله يقول: النظر إلى وجه الأحمق خطيئة مكتوبة. وقال سعيد بن المسيب: لا تنظروا إلى الظلّمة فتحبط أعمالكم الصالحة. ولكن قد كان صعصعة بن صوحان يقول: إذا لقيت المؤمن فخالطه مخالطةً، وإذا لقيت المنافق فخالفه مخالفةً. وقد قال أحسنُ الواصفين فى وصف أوليائه المتقين: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. أى سلامة، الألف: بدل من الهاء، لازدواج الكلم، والمعنى: أى سلّمنا من إثمكم، وسلّمتم من شرنا.

وقد كان أبو الدرداء يقول فى زمانه: كان الناس ورَقًا لا شوك فيه، وهم اليوم شوكٌ لا ورق فيه، إن ناقدتهم ناقدوك، وإن تركتهم لم يتركوك، فأقرضهم من عرضك ليوم فقرك. وكان يقول: كلُّ يوم أصبح لا يرمىنى الناس فيه بدهيةٍ أعدّه

نعمة من الله تعالى على. وقال حكيم الحكماء عليه السلام: «مَنْ خَالَطَ النَّاسَ وَصَبَرَ عَلَى أَذَاهُمْ، أَفْضَلَ مِمَّنْ لَمْ يَخَالَطْهُمْ وَلَمْ يَصْبِرْ عَلَى أَذَاهُمْ».

وقال العلام ذو الجلال والإكرام: «أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ» [القصص: ٥٤] أى يدفعون بالكلام الحسن السيء.

وقال عز وجل فى الكلام المفسر: «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» يعنى بالكلمة الحسنى «فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ». ثم قال عز وجل: «وَمَا يُلْقَاهَا» يعنى الكلمة «إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا» أى على أمر الله تعالى وعلى الغيظ، وعن الغضب «وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» [نصرت: ٣٤ - ٣٥] أى من الحلم والعلم. وقيل: ذو حظ عظيم عند الله عز وجل من النصيب والجزاء.

وقد قال لقمان الحكيم قولاً متوسطاً: يا بنى، لا تكن حُلُوءاً فُتْبَلَعْ، ولا مُرّاً فُتْلَفَظْ. المعنى: لا تمكّن الناس من نفسك، ولا تتابعهم فى كل شىء، فلا يبقوا عليك وينبسطوا إليك، ولا تنافرهم وتخالفهم فى كل شىء، فيجانبوك ويرفضوك فيقعوا فيك.

وقال بعض السلف: لا تصحب إلا مريداً، وكل خليل لا يريد ما تريد فانبذ عنك صحبته. وقال بعض علماء العرب: الصاحب كالرقعة فى الثوب، إن لم تكن من جنسه شانتة. وقال بعض الحكماء: كل إنسان مع شكله، كما أن كل طير مع جنسه. وقد كان مالك بن دينار يقول مثل هذا. وقد لا يتفق اثنان فى عشرة ودوام صحبة إلا وفى أحدهما وصف من الآخر. وإن أشكال الناس كأجناس الطير. قال: ورأى يوماً غراباً مع حمامة، فعجب من ذلك، وقال: كيف اتفقا وليس من شكل؟! قال: ثم طارا، فإذا هما أعرجان، فقال: من ههنا اتفقا. ويقال: إذا اصطحب اثنان برهةً من الزمان، ولم يتشاكلا فى الحال، فلا بد أن يفترقا.

وقد أنشدنا بعض العرب لبعض الحكماء فى معناه:

وقائل لما تفرقتما فقلتُ قولاً فيه إنصافُ

لم يكُ من شكلي ففارقتهُ والناسُ أشكالُ وألأفُ

وقد روينا في حديث: «إن الأرواح جنودٌ مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكرَ منها اختلف، تلتقى فتشامُ في الهواءِ». قيل: معناه في المذهب والخلق. وفي هذا الخبر زيادة: «ولو أن مؤمناً دخل إلى مجلسٍ فيه مائةُ منافقٍ، وفيه مؤمن واحد، لجاء حتى يجلس إليه. ولو أن منافقاً دخل إلى مجلسٍ فيه مائة مؤمنٍ، وفيه منافق واحد، لجاء حتى يجلس إليه».

وقد ذكر لهذا الحديث سبب على ما ذكرناه، وهو أن امرأة عطّارة كانت بالمدينة من أحد، فقَدِمَت امرأة من مكة عطّارة وكانت مزّاحة، فقال رسول الله ﷺ: «على من نزلت؟». قيل: على فلانة، فقال: «الأرواح جنود مجندة». وبعض العلماء يقول: إن الله خلق الأرواح ففلق بعضها فلَقاً، وقَدَّر بعضها قدراً، ثم أطافها حول عرشه، فأى رُوحين من فلقتين تعارفا هناك فالتقيا تواصلا ههنا في الدنيا وترافقا، وأى رُوحين من قُدرتين أو فلقة وقُدرة اختلفا ثم وتناكرا هناك فاختلغا في الجوّالان، فإن هذين إذا ظهرا اليوم تباينا وتنافرا.

فهذا تأويل الخبر عنده، فما تعارف منها - أى فى الطواف - فتقابلا تعارفا ههنا وترافقا، فائتلغا، وما تناكرا ثم فى الجوّالان فتدابرا، تناكرا ههنا اليوم فى الخلق والحال لما ظهرا، فاختلغا. وليس الائتلافُ يقع بنفس الاجتماع ووقت الاتفاق، فإنما الائتلاف يكون بمجانسة الحال ومشكلة الأخلاق؛ لأنهم شبهوا أجناس الناس بأجناس الطير. وقد يتفق الطيران من جنسين ويتجامعان فى مكان، فلا يكون ذلك ائتلافاً فى الحقيقة، ولا اتفاقاً فى الخليفة، لتباينهما فى التشاكل، ولا يتبين ذلك فى الاجتماع، وإنما يتبين فى الطيران إذا طارا معاً، فأما إذا ارتفع أحدهما ووقع الآخر، وعلا أحدهما وقصر الآخر، فلا بد من افتراق حينئذ لفقد التشاكل، ولا بد من مبانة لعدم التجانس عند الطيران، فهذا مثال ما ذكرناه من الافتراق، لعدم حقيقة تشاكل الحال، والوصف بعد الاتفاق.

واعلم أن الائتلاف والاختلاف يقع بين اثنين إذا اشتركا وافترقا فى أربعة معانٍ: إذا استويا فى العقود، واشتركا فى الحال، وتقاربا فى العلم، واتفقا فى الأخلاق.

فإن اجتمعوا في هذه الأربع فهي: التشاكل والتجانس، ومعه يكون الائتلاف والاتفاق. وإن اختلفا في جميعها فهو التباعد والتضاد، وعنده يكون التباين والافتراق. وإن اتفقا في بعضها واختلفا في البعض كان بعض الاتفاق وبعض الاختلاف، فيوجد من الائتلاف بمقدار ما وُجد من التعارف، ويوجد من الاختلاف نحو ما فُقد من الاتفاق. وهذا هو تناكر الأرواح، لتباعد نشأتها، وتشامها في الهواء، وذلك الأول هو تعارف الأرواح بقرب التشامّ باجتماع الأوصاف.

حدثت عن يعقوب بن أخى معروف رحمهما الله قال: جاء أسود بن سالم إلى عمى معروف، وكان مؤاخياً له، فقال: إن بشر بن الحارث رحمه الله يحب مؤاخاتك، وهو يستحي أن يشافهك بذلك، وقد أرسلني إليك يسألك أن تعقد له فيما بينك وبينه أخوة يحتسبها ويعتدُّ بها، إلا أنه يشترط فيها شروطاً: لا يحب أن يشتهر بذلك، ولا يكون بينك وبينه مزاورة ولا ملاقة، فإنه يكره كثرة الالتقاء، فقال معروف رحمه الله: أما أنا، فلو أحببت واحداً لم أحب أن أفارقه ليلاً ولا نهاراً، ولزرتُهُ في كل وقت، ولأثرتُهُ على نفسي في كل حال. ثم ذكر من فضل الأخوة والحب في الله عز وجل أحاديث كثيرة، ثم قال فيها: وقد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين علي عليه السلام، فشاركه في العلم، وقاسمه في البدن، وأتكّجه أفضل بناته وأحبهن إليه، وخصّه بذلك لمؤاخاته، وإنّي أشهدك أني قد عقدت له أخوة بيني وبينه، وأعتقدُه أخاً في الله عز وجل لرسالته ولمسألتك، على أن لا يزورني إن كره ذلك، ولكنني أزوره متى أحببتُ، وأمره بلقائي في مواضع نلتقي فيها، وأمره أن لا يخفى عليَّ شيئاً من شأنه، وأن يطلعني على جميع أحواله. قال: فانصرف بذلك أسود بن سالم فأخبر به بشراً، فرضى بذلك وسرَّ به.

فهذا أسود بن سالم أحد عقلاء الناس وفضلائهم، فكان فيه اتساع للأصحاب، وصبرٌ عليهم، وهو الذي أشار معروف به على الرجل الذي سأله مستشيراً فقال: يا أبا محفوظ، هذان الرجلان إماما هذا البلد، فأشر عليَّ أيهما أصحب؟ فإني أريد أن أتأدب به: أحمد بن حنبل، أو بشر بن الحارث رضى الله عنهما. قال له

معروف: لا تصحب أحدهما، فإنَّ أحمد صاحب حديث وفي الحديث اشتغال بالناس، فإن صحبته ذهب ما تجد في قلبك من حلاوة الذكر وحب الخلوة. وأما بشر فلا يتفرغ لك ولا يقبل عليك، شُغلاً بحاله، ولكن اصحب أسود بن سالم، فإنه يصلح لك، ويُقبل عليك، ففعل الرجل ذلك، فانتفع به. وإنما ضمه معروف رضى الله عنه إلى أسود دونهما، لأنه كان أليق بحاله، وأشبه بوصفه.

وكذلك روينا في حديث المؤاخاة الذى آخى فيه رسول الله ﷺ بين أصحابه، فأخى بين اثنين شكلين فى العلم والحال؛ آخى بين أبى بكر وعمر، وبين عثمان وعبد الرحمن، وهما نظيران، وآخى بين سلمان وأبى الدرداء، وهما شكلان فى العلم والزهد، وآخى بين عمار وسعد وكانا نظيرين، وآخى بين على وبينه، رضى الله عنهم أجمعين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين، وهذا من أعلى فضائله، لأن علمه من علمه، وحاله من وصفه. ثم آخى بين الغنى والفقير؛ ليعتدلا فى الحال، وليعود الغنى على أخيه الفقير بالمال.

قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبى الحواري: إذا آخيت أحداً فى هذا الزمان فلا تعاتبه على أمر تكرهه منه، فإنك لا تأمن أن يعينك بشرٌ من الأمر الأول. قال أحمد: فجربته فوجدته كما قال. وقال بعض العلماء: الصبر على مضضٍ الأخ خيرٌ من معاتبته، ومعاتبته خيرٌ من القطيعة، والقطيعة أحسن من الوقيعة. وقال بعضهم: كدّر الجماعة خير من صفو الفرقة.

ومثل الأخوة مثل الزجاجة الرقيقة ما لم تحفظها وتوقّها كانت معرضةً للآفات، واستتمامُ الإخاء إلى خير الوفاةِ أشدُّ من ابتدائها فى حال الحياة.

وقال بعض الأدباء: الناس أربعة: فواحد حلواً كله فهذا لا يُشبع منه، وآخر كله مرٌّ وهذا لا يؤكل منه، وواحد فيه حموضة فخذ من هذا قبل أن يأخذ منك، وآخر فيه ملوحة فخذ منه إذا احتجت إليه.

وقال بعض الأئمة: الناس أربعة، فاصحب ثلاثة ولا تصحب واحداً: رجل يدرى ويدرى أنه يدرى، فهذا عالم فاتبعه. ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى،

فهذا نائم فنبّهوه، ورجل لا يدرى ويدرى أنه لا يدرى، فهذا جاهل فعلموه.
ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى، فهذا منافق فاجتنبوه.

ومثل هذا الرابع قول سهل: ما عصى الله عز وجل بمعصية شرّ من الجهل،
وأعظم من الجهل الجهل بالجهل.

وقال بعض الأدباء: الناس ثلاثة، فاصحب رجُلين واهرب من الثالث: رجل
أعلم منك فاصحبه تتعلم منه، ورجل أنت أعلم منه يقبل منك فاصحبه تُعلمه،
ورجل معجب بنفسه لا علم عنده ولا تعلّم، فاهرب من هذا.

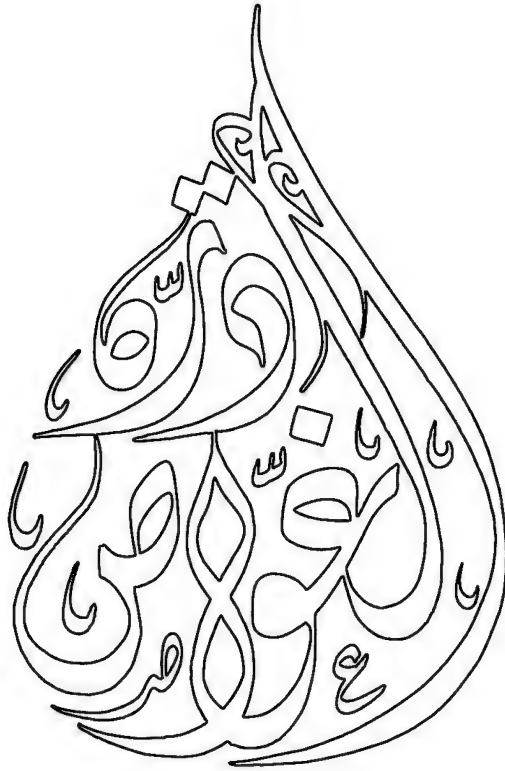
وقال محمد بن الحنفية رضى الله عنه: ليس بلييب من لم يعاشر بالمعروف من
لا يجد من معاشرته بدءاً، حتى يجعل الله له منه فرجاً، فمعاملة غير تقى
ومخالطته من أحوال الاضطرار، ومعاشرة التقى ومصافاته من أحسن الإحسان.

وكان أبو مهران يقول: أخرج من منزلى فأنا بين ثلاثة: إن لقيت من هو أعلم
منى فهو يوم فائدتى أتعلم منه، وإن لقيت من هو مثلى فهو يوم مذاكرتى، وإن
لقيت من هو دونى فهو يوم مثوبتى أعلمه فأحتسب فيه الأجر.

وقال أبو جعفر محمد بن على لابنه جعفر بن محمد عليهم السلام: لا
تصحب من الناس خمسة، واصحب من شئت: الكذاب، فإنك منه على غرر،
وهو مثل السراب يقرب منك البعيد ويبعد منك القريب. والأحمق، فإنك لست
منه على شىء، يريد أن ينفعك فيضرك. والبخيل، فإنه يقطع بك أحوج ما تكون
إليه. والجبان، فإنه يُسلمك وماله ونفسه عند الشدة. والفاجر، فإنه يبيعك بأكلة
أو بأقل منها. قلت: وما أقلّ منها؟ قال: الطمع.

روينا عن رسول الله ﷺ أن رجلاً صحبه فى طريق، فدخل النبى ﷺ غيضة،
فاجتنى سواكين من أراك أحدهما معوج والآخر مستقيم، فأخذ المعوج وأعطى
صاحبه المستقيم، فقال الرجل: أنت أحق بالمستقيم منى، فقال النبى ﷺ: «ما من
صاحب يصحب رجلاً ولو ساعة من نهار إلا سأل الله عن صحبته، هل أدى فيها
حق الله عز وجل أم لا، فكرهت أن يكون لك على حق لم أؤدّه».

واعلم أن الأخوة في الله عز وجل، والمحبة في الله تعالى، وحسن الصحبة، كانت طرائق السلف الصالح، قد درّست اليوم محاجّتها، وعفّت آثارها، فمن عمل بها فقد أحيّاها، ومن أحيّاها كان له مثل أجر من عمل بها، فمن رزقه الله أخًا صالحًا تطمئنُّ به نفسه، ويصلح معه قلبه، فهي نعمة من الله عز وجل، مضافة إلى محاسن نعمه، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.



الفصل الخامس والأربعون

كتاب ذكر التزويج وتركه، أيهما أفضل، ومختصر أحكام النساء في ذلك

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ﴾ [النور: ٣٢] الآية. فأمر المحتاجين، وندب المعصومين، فالنكاح فرضٌ مع الحاجة، وسنةٌ على الكفاية، ثم وعدهم تعالى الغنى على الفقر؛ والغنى إلى المغنى يجعله على نحو الفقر من الفقير، فقد يكون فقيراً من الأجر، فيغنيه بالأجر، ويكون فقيراً من عدم الحكم، فيغنيه بإيجاب الحكم عليه، ويكون فقيراً بالضيعة والشتات وفقد المنزل والأثاث، فيغنيه بوجود ذلك. وأحكمه عز وجل بما عقبه من قوله تعالى وهو الحكيم: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢]. فهو واسع لغناهم عن معانى فقرهم عليهم بحالهم، وما يصلحهم فيما لا يعلمون على مقادير رتبهم.

وروى الحسن عن أبي سعيد عن النبي ﷺ: «من ترك التزويج مخافة العيلة فليس منا».

وروينا عن النبي ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فأنكحوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير».

وفى الخبر: «من نكح الله عز وجل وأنكح الله تبارك وتعالى استحق ولاية الله تعالى». وهذا أدنى حال تنال به الولاية، لأنها مقامات، لكل مقام عمل من الصالحات. إلا أننا روينا أن بشر بن الحارث قيل له: إن الناس يتكلمون فيك. فقال: وما عسى يقولون؟ قيل: يقولون إنك تارك لسنة، يعنون النكاح، فقال: قل لهم: إني مشغول بالفرض عن السنة. وقال مرة: ما يمنعني من ذلك إلا آية في كتاب الله تعالى قوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ولعسى أن لا أقوم بذلك. وكان يقول: لو كنت أعول دجاجةً لحفت أن أكون جلاذاً على الجسر.

هذا يقوله فى سنة عشرين ومائتين، والحلال يومئذٍ أوجد، والنساء أحمد عاقبة. فكيف بوقتنا هذا؟

فالأفضل للمريد فى مثل زماننا هذا ترك التزويج إذا أمن الفتنة، وعُود العصمة، ولم تنازعه نفسه إلى معصية، ولم يترادف خواطر النساء على قلبه، حتى يتشتت همه، أو يقطعه عن حسن الإقبال على الخدمة من مُسامرة الفكر، ومحادثة النفس بأمر النساء، وما لم يجمع بصره إلى محذور، ولم يخالط ذكره شهوة تستولى عليه؛ لأن أول خطايا الفرج شهوة القلب بمسامرة الفكر، وهو معفو. والخطيئة الثانية: إنعاظ^(١) الفرج عن شهوة القلب وهذا عمل. وقبض الرجل على فرجه مُنعظاً معصية ثالثة. فإن ظهرت الشهوة من الفرج فهو معصية رابعة. ومس الفرج باليمين مكروه.

فمتى وقعت هذه المعانى، فإنها تغير القلب عن الخشوع، وتدخل عليه النقصان. ومتى لم يُبتل العبد بها فإن الخلوة أفضل المعانى، وفيها يجد لذة الوجود وحلاوة المعاملة، ويقبل على نفسه، ويشغل بحاله، ولا يهتم بحال غيره، فيحمل حاله على حال غيره فيقصّر، أو يقوم بحكم آخر فيعجز، ويعالج شيطاناً آخر مع شيطانه، وتنضم نفس أخرى إلى نفسه، وله فى مجاهدة نفسه ومصابرة هواه وعدوه أكبر الأشغال.

ومنها أن المكاسب قد فسدت، فليس ينال أكثرها إلا بمعصية وهو مسؤول من أين اكتسبه وفيما أنفقه؟ فإن كان كسب من غير حله حُسب ذلك عليه، وإن أنفق على هواه لم يُحسب ذلك له، ومنها أن أكثر النساء قليلات الدين والصلاح، والأغلب عليهن الجهل والهوى، فلا يأمن أن ينقاد لهن لأجل هواه فيخسر آخرته، أو يمانعهن فيغالطهن، فلا يَنقَدَنَّ له فيتغنص عليه عيش دنياه. وقال الحسن رحمه الله: والله ما أصبح اليوم رجل يطيع امرأته فيما تهوى إلا أكبه الله فى النار.

ومنها أن الأغنياء فى مقام الظالمين للفقراء لبخس حقوقهم عنهم، وتقصيرهم

(١) نَعَظُ الذَّكَرُ نَعَظُ نَعَظًا وَنَعُوطًا: قام وانتشر، والإنعاظ: الشَّبَق.

عما أوجب الله عز وجل عليهم لهم؛ فإن كان المتأهل فقيراً لَقِيَ شدةً وجهداً وعتّاً وكداً، ولم يأمن دخول الآفات عليه لأجل عَيْلته. وقد سئل ابن عمر رضى الله عنه عن جهد البلاء فقال: كثرةُ العيال، وقلةُ المال. وقال بعض السلف: قلةُ العيال أحدُ اليسارين، وكثرةُ العيال أحدُ الفقيرين. ويقال: إنَّ العيال عقوبةُ شهوةِ الحلال، وإنَّ الحرصَ عقوبةُ طلبِ فوق الكفاية، فهو عقوبةُ الموحدين.

وقد جاء في الأثر: «الوحدة خير من قرين سوء». وهو من القرين الصالح على غير يقين، فلا يزيل اليقين بالشك. فإن أكثر النساء من لا صلاح فيه، لغلبة الهوى وحب الدنيا عليهن. وفي الخبر: «مَثَلُ المرأةِ الصالحةِ فى النساءِ كمثل الغرابِ الأعصم من مائة غراب» يعنى: الأبيض البطن.

وفى وصية لقمان لابنه: يا بنى، اتق المرأةَ السوءَ فإنها تشيِّبك قبل المشيب، واتق شرارَ النساءِ، فإنهن لا يدعون إلى خير، وكن من خيارهن على حذر.

وقد روى معناه عن نبينا ﷺ: «استعينوا بالله من الفواقِرِ الثلاث، ذكرَ منهنَّ امرأةٌ سوء، فإنها المشيِّبةُ قبل المشيب». وفى لفظ آخر: «إن دخلت عليها لَسْتَنكِ، وإن غَبَت عنها خانتك»^(١).

وقد قال النبى ﷺ فى خيرات النساء: «إنكن صواحبات يوسف عليه السلام» يعنى: إنَّ صرفكنَّ أبا بكر رضى الله عنه عن التقدُّمِ مِثْلُ منكن إلى الهوى وتزيين وإغواء، كما أنَّ زليخا حين راودت يوسف عليه السلام كان ذلك منها غوايةً وتسويلاً، ففيه اعتذار ليوسف عليه السلام، وإيقاع اللوم عليها، وتشبهُ لهنَّ بها.

وقال الله فيهن حين أفشين سرَّ النبى ﷺ: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ يعنى: مالت إلى الهوى، فأمرهما بالتوبة للميل إلى الهوى. ثم قال: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ [التحریم: ٤] يعنى: تعاونا وهما من خير الأزواج، فما ظنُّك بمن شاكلته الجهالة، ووصفه الهوى والضلالة؟!

وفى الخبر عن رسول الله ﷺ: «ما أفلح قوم تَمَلَّكهم امرأة». وقال الله تعالى

(١) هذه الفقرة من (م) فقط.

مخبراً بعداوة بعض الأزواج والأولاد: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤] يعنى: فى الآخرة؛ لانهطاطكم فى أهوائهم، وميلكم إلى وهن آرائهم، فصاروا عدوًّا غداً.

كيف وقد تكون المرأة والولد أعدى عدو للرجل اليوم قبل يوم القيامة، إذا خالفهم فى أهوائهم، وعمل بالعلم فى أحوالهم. وقد كان إبراهيم بن أدهم يقول: مَنْ تَعَوَّدَ أَفْخَاذَ النِّسَاءِ لَمْ يَفْلَحْ. وكان بشر رحمه الله يقول: لو كان لى عيال لحشيتُ أن أكون جلاًداً على الجسر.

فالوحدةُ أرواحٌ للقلب، وأقلُُّ للهْم؛ لخفة المؤونة، وقلة المطالبة، وأمن المنازعة، وسقوط حكم من أحكام الشرع عنه. وقد كان السلف يعملون فى إسقاط الحكم عنهم، للعجز عن القيام بها، ويغتمنون ذلك، وفى التخلّى قلة الاهتمام؛ بالادخار والجمع، وترك المراعاة، والتحفّظ للمبيت فى البيت، وسقوط المسألة والاستخبار، وترك التجسس، للآثار التى نهى الله ورسوله عنها، إذ لا يأمن ذلك مع الزوجة السوء، وإنما زهد الزاهدون فى الدنيا لراحة القلب، واطراح الهم، وسقوط المطالبة، وقد أبيضت العُزْبَةُ، وفُضِّلَ التعزُّبُ لهذه الأمة فى آخر الزمان.

وفى خبر: «إذا كان بعد المائتين أبيضت العزبة لأمتى، ولأن يربى أحدكم جرواً كلب خيراً من أن يربى ولداً». والخبر المشهور: «خيرُ الناس بعد المائتين الخفيفُ الحاذُ»^(١) الذى لا أهل له ولا ولد». وفى خبر آخر: «يأتى على الناس زمانٌ يكون هلاكُ الرجل على يدي زوجته وأبويه وولده»، يعيرونه بالفقر ويحملونه ما لا يطيق، فيدخل المداخل التى يذهب فيها دينه فيهلك، وربما كانت المرأة عقوبة للعبد.

وقد حدثونا فى أخبار الأنبياء عليهم السلام أن قومًا دخلوا على يونس عليه السلام فأضافهم، وكان يدخل ويخرج إلى منزله، فتؤذيه امرأته وتستطيل عليه وهو ساكت، فعجبوا من ذلك، وهابوه أن يسألوه، فقال: لا تعجبوا من هذا، فإننى سألتُ الله عز وجل فقلت: يا رب، ما كنت معاقبى به فى الآخرة فعجله لى

(١) الحاذ: قليل المال والولد.

فى الدنيا. فقال: إن عقوبتك ابنةُ فلان فتزوج بها، فتزوجتُ بها وأنا صابر على ما ترون منها.

وهذا كله لمن لم يَخْشَ العَنَتَ. فأما من خاف العنت - وهو الزنا، وأصل العنت فى اللغة هو الكسر بعد جبرٍ، يقال للدابة إذا كُسرت بعد ما جُبرت: قد عَنَّت، فكأنه كان مجبوراً بالعصمة وبالتوبة، ثم كُسِر بالزلل أو العادة السوداء - فنكاح الأُمّة حينئذ خير له من العَنَت، والصبر عن نكاح الأُمّة خير من نكاحها، وهذا معنى قوله عز وجل فى نكاح الأُمّة: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٥].

وكذلك إن كثرت الخواطر الردية والوساوس الدنية فى قلبه بذكر النكاح، فشغله ذلك عن فرضه، أو شَتَّت ذلك همه، فإن نكاح الأُمّة أيضاً خيرٌ له، على أن نكاح الأُمّة محرمٌ على من وَجَدَ طَوَلاً بحرة. انصرف الناسُ ذات يوم من مجلس ابن عباس، وبقي شاب لم يبرح، فأطال القعود، فقال له ابن عباس: هل لك من حاجة؟ فقال: نعم، لى حاجة استحييت أن أسألك عنها بحضرة الملاء. قال: سَلْنى عما شئت. قال: إِنّى أهابك وأُجِلُّك. فقال ابن عباس: إنما العالم بمنزلة الوالد لا حشمة على السائل منه، فمهما أفضيت به إلى أبيك فأفَضْ به إلىّ، فإنه لا عيب عليك عندى. فقال: رحمك الله، إنى شاب لا زوجة لى، وربما خَشِيتُ العَنَتَ على نفسى، وربما استمنيت بذكركى، فهل لى فى ذلك معصية؟ فأعرض عنه ابن عباس رضى الله عنهما ثم قال: أف وتَف، نكاحُ الأُمّة خيرٌ من هذا، وهذا خير من الزنا.

ونكاح الأُمّة عند علماء العراق حرامٌ على من وَجَدَ عَشْرَةَ دراهم، وعند بعض علماء الحجاز إذا كان واجداً ثلاثة دراهم لم يحلَّ له نكاح الأُمّة. وعن بعض أصحاب ابن المسيب: إن وجد الرجل درهمين حُرِّمَ عليه الأُمّة. وقال بعض الناس: أحقُّ الناس حرّاً تزوّج بأُمّة، وأعقلُ الناس عبدٌ تزوّج بحرة، لأن هذا يعتق بعضه، وذلك يرقُ بعضه، لأنه يرق ولده.

وقد جاء فى كراهة الاستمناء وتحريمه والتغليظ فيه أخبار شديدة.

روينا: «إن الله عز وجل أهلك أمةً من الأمم كانوا يعثون بمذاكيرهم». وقد أسنده إسماعيل بن أبان إلى أنس بن مالك. وسئل أبو محمد عن النساء فقال: الصبرُ عنهن ولا الصبر عليهن، والصبر عليهن خيرٌ من الصبر على النار. وكذلك قال بعض العلماء قبله: معالجة العُزْبَةِ خيرٌ من معالجة النساء. وقال بعض علمائنا البصريين من أهل الورع واليقين، وقد سئل عن التزويج في مثل زماننا، فذكر ضيقُ المكاسب وقلةَ الحلالِ وكثرةَ فساد النساء، فكرهه للورع، وأمره بالمدافعة، فأعيد عليه في ذلك، فقال: إنه يدخل في المعاصي لدخول الإنسان في الآفات، وفي المكاسب المحرمات، ومن أكله بدينه وتصنَّعه للخلق، فلا يصلح التزويج في هذا الوقت إلا لرجل يُدركه من الشَّبَقِ ما يدرك الحمار إذا نظر إلى آتان، لم يملك نفسه أن يثب عليها حتى يُضْرَبَ رأسه وهو لا يثنى، فإن كان الإنسان على مثل هذا الوصف كان التزويجُ له أفضل.

وقد روينا عن قتادة في قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَحْمِلْنَ مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال: الغُلْمَةُ. وعن عكرمة ومجاهد رضى الله عنهما: ﴿وَحَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] قال: لا يصبر عن النساء.

ورويانا عن فياض بن نجيح: إذا قام ذَكَرُ الرجلِ ذهب ثُلثا عقله. وبعضهم يقول: ذهب ثلث دينه. وروينا في نوادر التفسير عن ابن عباس: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفرقان: ٣] قال: قيام الذكر. وقد أسنده بعض الرواة، إلا أنه قال فيه: «الذَّكَرُ إِذَا دَخَلَ»، ولم يذكر قام.

وفي الخبر: «إذا تزوج الرجلُ فقد أحرز نصفَ دينه، فليثق الله في الشطر الآخر». وفي دعاء البراء بن عازب: أعوذ بك من شرِّ سمعي وبصري وقلبي وشرِّ مني. فكان المنى إذا امتلأ به خَرَزُ الصلب^(١)، فطلب الخروج، فخيف منه فساد القلب ومرضه، بمنزلة الدم إذا كان في العروق، فإذا تصاعد من الصلب طبخه وغيره، فابيض وصار منياً بإذن الله عز وجل.

(١) خرز الصلب: فقاره.

وذكر النساء في مجلس معاوية فذمهن قوم، فقال: لا تفعلوا، فما علل المريض، ولا ندب الميت، ولا عمر البيوت مثلهن، ولا احتاجت الرجال إلى مثلهن. وفي بعض التفسير قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾ [الكهف: ٧] قال: النساء.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لا يتم نسك الشاب حتى يتزوج. وكان يجمع غلمانهم لما أدركوا: عكرمة وكريب وغيرهما فيقول: إن أردتم النكاح أنكحتكم، فإن العبد إذا زنا نزع نور الإيمان من قلبه. وقد قال عمر رضى الله عنه لأبى الزوائد: ما يمنعك من النكاح إلا عجز أو فجور.

وحدثنا بعض علماء خراسان عن شيخ له من الصالحين، كان يصحب عبدان صاحب ابن المبارك، ووصف من صلاحه وعلمه قال: فكان يكثر التزويج، حتى لم يكن يخلو من اثنتين أو ثلاثة، فعوتب في ذلك، فقال: هل يعرف أحد منكم أنه جلس بين يدي الله عز وجل مجلساً، أو وقف بين يدي الله موقفاً في معاملته، فخطر على قلبه خاطر شهوة، ففكر في ذلك، فقيل: قد يصيبنا هذا كثير. فقال: لو رضيت في عمري كله بمثل حالكم في وقت واحد لما تزوجت. ثم قال: لكنى ما خطر على قلبى خاطر يشغلنى عن حالى إلا نفذته لأستريح منه، وأرجع إلى شغلى. ثم قال: منذ أربعين سنة ما خطر على قلبى خاطر معصية.

وسمع بعض العلماء بعض الجهال يطعن على الصوفية فقال: يا هذا، ما الذى نقصهم عندك؟ فقال: يأكلون كثيراً. فقال: وأنت أيضاً، لو جعت كما يجوعون لأكلت كما يأكلون. ثم قال: وماذا؟ قال: ويتزوجون كثيراً. فقال: وأنت أيضاً، لو حفظت فرجك كما يحفظون تزوجت كما يتزوجون. وأى شيء أيضاً؟ قال: ويسمعون القول. قال: وأنت أيضاً، لو نظرت كما ينظرون لسمعت كما يسمعون.

وقد سئل بعض العلماء عن القراء: لم يكثر الأكل، ويكثر الجمع، وتعجبهم الحلاوة؟ فقال: لأنه يطول جوعهم ويتعذر عليهم موجود الطعام، فإذا

وجدوا استكثروا منه. وأما الحلاوة فإنهم تركوا شرب الخمر وكثرة لذات النفوس، فاجتمعت لذتهم في الحلاوة فهم يأكلونها. وأما الجماع فإنهم غصوا أبصارهم في الظاهر، فضيقوا على قلوبهم في الخواطر، فاتسعوا في النكاح، فأكثروا منه لما ضيقوا على جوارحهم عن الانتشار في الأبصار.

وقد كان الجنيد رحمه الله يقول: أحتاج إلى الجماع كما أحتاج إلى القوت. وكان ابن عمر رضى الله عنه من زهاد أصحاب النبي ﷺ وعلمائهم، وكان يصوم كثيراً، وكان يفطر على الجماع قبل الأكل، وربما جامع قبل أن يصلى المغرب ثم يغتسل ويصلى. وروينا عنه: أنه جامع أربعاً من جواريه في رمضان قبل صلاة عشاء الآخرة.

وقد كان ابن عباس رضى الله عنه يقول: خير هذه الأمة أكثرها نكاحاً. وكان سفيان بن عيينة يقول: كثرة النساء ليست من الدنيا؛ لأن علياً رضى الله عنه كان أزهد أصحاب رسول الله ﷺ، وكان له أربع نسوة وسبعة عشر سُرّة.

فالنكاح سنة ماضية، وخلق من أخلاق الأنبياء صلوات الله عليهم. وقد روينا في أخبار الأنبياء: أن عابداً تبتل وبلغ من العبادة ما فاق على أهل زمانه ووصف بذلك، قال: فذكر ذلك لنبي ذلك الزمان، فأثنى عليه بحسن الشاء، فقال: نعم الرجل هو لولا أنه تارك لشيء من السنة. قال: فسمى ذلك إلى العابد فأهمه فقال: ما ينفعني عبادتي ليلاً ونهاراً وأنا تارك للسنة، فجاء إلى ذلك النبي فسأله، فقال: نعم أنت تارك للزوج، فقال: ما تركته أننى حرمته، ومنعنى منه إلا أنى فقير لا شيء عندى، وأنا عيال على الناس، يطعمنى هذا مرة، وهذا مرة، فكرهت أن أتزوج امرأة أعضلها وأرهقها جهداً، فقال: ما يمنعك إلا هذا؟ قال: نعم. قال: فأنا أزوجه ابنتى. قال: فزوجه النبي عليه السلام ابنته، فى قصة طويلة.

وروينا فى نوادر أخبارهم أيضاً: أن يحيى بن زكريا عليهما السلام تزوج امرأة، ولم يكن يقربها، قيل: لغض البصر، وقيل: للفضل فى ذلك، كأنه أراد أن يجمع الفضائل كلها، وقيل: للسنة.

وكان بشر بن الحارث رحمه الله يعتقد فضل أحمد بن حنبل رحمه الله ويقول: **فُضِّلَ عَلَى ثَلَاثٍ**: بطلب الحلال لنفسه ولغيره وأنا أطلب الحلال لنفسى، واتساعه للنكاح وضيقى عنه، وقد جعل إماماً للعامة وأنا أطلب الوحدة لنفسى. ويقال إن أحمد بن حنبل رضى الله عنه تزوج اليوم الثانى من وفاة أم عبد الله ولده، ويقال إنه لم يبت عزباً بعد وفاتها إلا ليلة. ولكن قد كان بشر رحمه الله يحتج لنفسه بحجة، قيل له: إن الناس يتكلمون فيك، فقال: وما عسى أن يقولوا؟ قال: يقولون هو تارك للسنة فى ترك النكاح. فقال: قل لهم: هو مشغول بالفرض عن السنة. وعوتب مرة أخرى فى ترك التزويج فقال: ما يمنعنى من ذلك إلا حرف فى كتاب الله عز وجل: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨] قال: فذكر ذلك لأحمد بن حنبل فقال: وأين مثل بشر، إنه قعد على مثل حد السنان. وعلى ذلك فقد بلغنا أنه رحمه الله روى فى المنام بعد وفاته، فسئل عن حاله فقال: رُفِعَتْ سبعين درجةً فى عليين، وأشرف بى على مقامات الأنبياء، ولم أبلغ منازل المتأهلين. وبلغنا عنه أنه قال: وعاتبنى ربى عز وجل وقال: يا بشر، ما كنت أحب أن تلقانى عزباً. قال: فقلتُ له: ما فعل أبو نصر التمار، فقال: رُفِعَ فوقى سبعين درجة. فقلنا: بماذا وقد كنا نراك فوقه فقال: بصبره على بناته والعيال.

وقد كان ابن مسعود يقول: لو لم يبق من عمري إلا عشرة أيام أموت فى آخرها لأحببت أن أتزوج، ولا ألقى الله عز وجل وأنا عزب.

وماتت امرأة معاذ بن جبل رضى الله عنه فى الطاعون، وكان هو أيضاً مَطْعُونًا؟ فقال: زوّجنى فإنى أكره أن ألقى الله عز وجل عزباً.

وقد كان بعض الصحابة انقطع إلى رسول الله ﷺ يخدمه ويبيت عنده لحاجة إن طرقتة. فقال له: ألا تتزوج؟ فقال: يا رسول الله، أنا فقير لا شىء لى، وأنقطع عن خدمتك، فسكت عنه، ثم أعاد عليه ثانية: ألا تتزوج؟ فقال له مثل ذلك، ثم تفكر الصحابى فى نفسه فقال: والله لرسول الله أعلم بما يصلح فى دنياى وآخرتى، وما يقربنى إلى الله عز وجل منى، لئن قال لى الثالثة لأفعلن، فقال له رسول الله ﷺ: ألا تتزوج؟ قال: فقلت: يا رسول الله، زوّجنى. قال:

اذهب إلى بنى فلان، فقل لهم إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تنكحوني فتاتكم، قال: فقلتُ: يا رسول الله، إنه لا شيء لى، فقال لأصحابه: اجمعوا لأخيكم وزن نواة من ذهب، فجمعوا له وذهب إلى القوم فأنكحوه، فقال له رسول الله ﷺ: أولم. فقال: يا رسول الله، لا شيء عندي. فقال لأصحابه: اجمعوا لأخيكم ثمن شاة، فجمعوا له، وأصلح طعاماً، ودعا عليه رسول الله ﷺ وأصحابه.

وفى الخبر المشهور: «من كان ذا طول فليتزوج». وفى لفظ آخر: «من استطاع منكم الباءة - يعنى الجماع - فليتزوج، فإنه أغضّ للبصر وأحصن للفرج، ومن لا فليصم، فإن الصوم له وجاء». وأصل الوجاء: رضّ الخصيتين للفحل من الغنم، لتذهب فحولته وضرابه، فكانت العرب تجأ بخجرين فتقطع ضرابه، فيسكن لذلك عهره ويسمن. ومن ذلك الخبر ضحّى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين موقوءين، يعنى: أبيضين مرضوضى الخصية.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «تناكحوا تناسلوا، فإنى مكاثركم بكم الأمم يوم القيامة، حتى بالسقط والرضيع». وفى الخبر الآخر: «من أحببني فليستنّ بستتي» يعنى النكاح. وحديث أبى سعيد الخدرى: «من ترك النكاح مخافة العيلة فليس منا».

وقد كان عمر يكثر النكاح ويقول: ما أتزوج إلا لأجل الولد. وقد كانت هذه نية جماعة من السلف، يتزوجون لأجل أن يولد لهم، فيعيش فيوحد الله تعالى ويذكره، أو يموت فيكون فرطاً صالحاً يثقل به ميزانه، وقد روينا عن رسول الله ﷺ: «إن الطفل يجزأ أبويه بسرّه إلى الجنة. وإن المولود يقال له: ادخل الجنة. فيقف على باب الجنة، فيظل مُحَبَّنْطَى - أى ممتلئاً غيظاً وغضباً - فيقول: لا أدخل إلا وأبواى معى. فيقال: أدخلوا أبويه معه الجنة».

وقد روينا خبراً غريباً: أن الأطفال يُجمعون فى موقف القيامة عند عَرْضِ الخلائق للحساب، فيقال للملائكة: اذهبوا بهؤلاء إلى الجنة. قال: فيقفون على باب الجنة. قال: فيقول لهم: مرحباً بذرارى المسلمين، ادخلوا لا حساب عليكم.

فيقولون: فأين آبؤنا وأمهاتنا؟ قال: فتقول الحزنة: إن آباءكم وأمهاتكم ليسوا مثلكم، إنهم كانت لهم ذنوب وسيئات، فهم يحاسبون عليها ويطالبون. قال: فيتضاغون ويضجُّون على باب الجنة ضجةً واحدةً. فيقول الله عز وجل للملائكة، وهو أعلم: ما هذه الضجة؟ فيقولون: يا ربنا، أطفال المسلمين قالوا: لا ندخل الجنة إلا مع آبائنا. فيقول الله عز وجل: تخللوا الجمع، فخذوا بأيدي آبائهم فأدخلوهم معهم الجنة.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «من مات له اثنان من الولد، فقد احتُظِر له بحِطَّار^(١) من النار». وفي خبر آخر: «من مات له ثلاثة لم يبلغوا الحنث أدخله الله عز وجل الجنة، بفضل رحمته إياهم. قيل: يا رسول الله، واثنان؟ قال: واثنان».

وكان بعض الصالحين يُعرض عليه التزويج فيأباه برهة من دهره. قال: فانتبه من نومه ذات يوم فقال: زوّجوني، فسئل عن ذلك فقال: لعل الله أن يرزقني ولدًا ثم يقبضه، فيكون مقدمة لى فى الآخرة. ثم حدث عن سبب ذلك فقال: رأيت فى نومى كأن القيامة قد قامت، وكنت فى جملة الخلائق فى الموقف، وبى من العطش ما كاد أن يقطع عنقى، وكذلك الخلائق فى شدة العطش من الحر والشمس والكرب. قال: فبينما نحن كذلك، إذا الولدان يتخللن الجمع، عليهم مناديل من نور، وبأيديهم أباريق من فضة وأكواب من ذهب، وهم يسقون الواحد بعد الواحد، ويتخللون الجمع، ويجاوزون أكثر الناس، قال: فمددتُ يدي إلى أحدهم، فقلت: اسقني شربةً فقد أجهدنى العطش، فقال: ليس لك فينا ولد، إنما نسقى آباءنا، فقلت: وما أنتم؟ فقالوا: نحن من مات من أطفال المسلمين.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «خيرُ نسائكُم الودودُ الولودُ». وروى أيضاً: «حصيرةٌ فى البيت خيرٌ من امرأة لا تلد». وروى أيضاً: «سوداء ولودٌ خير من حسناء لا تلد».

هذا كله لأجل الذرية والنسل وتقديم الفرط فى الولد.

(١) الحِطَّار: الحظيرة تُعمل للإبل من شجر لتقيها البرد والريح، وكلُّ شيءٍ حَجَزَ بين شيئين. والمراد أنه احتُمى بحِمَى عظيم من النار.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «من رغب عن سنتي فليس مني، وإن من سنتي النكاح، ومن أحبنى فليست بسنتي». ويقال: إن الله تعالى لم يذكر في كتابه من الأنبياء إلا المتأهلين، وهم خمس وثلاثون، وقد ذكرنا آنفاً أن يحيى عليه السلام قد تزوج، وأما عيسى عليه السلام فإنه سينكح إذا نزل من السماء ويولد له. وقد قيل: إن فضل المتأهل على العزب كفضل المجاهد على القاعد، وإن ركعتين من متأهل أفضل من سبعين ركعة من عزب.

وقال الله تعالى في وصف الرسل ومدحهم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨]. فعده الأزواج والذرية من مدحهم وذكرها في وصفهم، وكذلك ألحق بهم أوليائه في المدح والفضل في قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤]، فسألوا الله عز وجل من فضله.

وكل ما ذكرناه من فضل النكاح يشترك في فضل ذلك النساء، بل هو لهن أفضل وأثوب لسقوط المكاسب عنهن. وقد أمر النبي ﷺ المرأة بالتزوج وندبها إليه، وأخبر بفضل الرجل، وفضل المتزوجة على العزباء في غير حديث، وقال ﷺ: «لعن الله المتبتلين من الرجال الذين يقولون: لا نتزوج، ولعن الله المتبتلات من النساء اللاتي يقلن: لا نتزوج» بعد ما ذكر من عظيم حق الرجل على المرأة، وثقل واجبه، حتى قالت المرأة: إذا لا أتزوج أبداً، قال: «بلى تزوجي، فهو خير».

والأخبار في فضل النكاح للزوجين معاً تكثر، وليس مذهبنا الإطالة والإغراق في الجمع. وقد ندب الله تعالى إلى النكاح في قوله تعالى: ﴿فَاتُوا حَرْنَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾. وفي قوله: ﴿أَنَّى﴾ ثلاثة معان: معنيان منها ههنا: تكون «أنى» بمعنى: متى شئتم من ليل أو نهار، وتكون «أنى» بمعنى: كيف مقبلة أو مدبرة، بعد أن يكون في موضع الحرث. والمعنى الثالث: تكون «أنى» بمعنى: أين، ولا يصلح هذا الوجه ههنا.

ثم قال عز وجل: ﴿وَقَدِّمُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، قيل: النكاح معطوف به على الإتيان، وهو أحد الوجوه الثلاثة، لما فيه من فضل الاغتسال من الجنابة، ولما فيه من فضل مباشرة المرأة، وأن المرأة إذا لاعبها بعلمها وقبلها كثرت له من الحسنات ما شاء الله، فإذا اغتسلا خلق الله من كل قطرة ملكاً يسبحُ الله تعالى إلى يوم القيامة، وجعل ثواب ذلك لهما، ولما في ذلك من التحصين لهما ووضع النطفة في محلها، وفي ذلك فضائل جمّة، وقد أمر به رسول الله ﷺ في قوله: «ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وزوجةً مؤمنةً تعينه على آخرته».

والوجه الثاني في قوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، قيل: الولد قدّموا لآخرتكم، لأنه عمل من أعمالكم. كما قال عز وجل: ﴿الْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] أى: ما نقصناهم أولادهم، أى جازيناهم بهم، وجعلناهم مزيداً في حسناتهم؛ لأنهم من أعمالهم وأكسابهم. وكما قال عز وجل: ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ [السد: ٢]، يعنى ولده، ففى تدبره: أن الولد يغنى المؤمن فى الآخرة، كما يغنى المال عنه إذا أنفق فى سبيل الله تعالى. وفى الخبر: «ولد الرجل من كسبه فأحل ما أكل من كسب ولده».

والوجه الثالث فى قوله عز وجل: ﴿وَقَدِّمُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، قيل: التسمية عند الجماع، أى اذكروا اسم الله تعالى عنده، فذلك مقدمة لكم، وأنه يستحب للمجامع أن يسمى الله عز وجل عند جماعه، ويقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ قبله. وكان بعض أصحاب الحديث إذا أراد الجماع هلّل وكبّر حتى يسمع أهل الدار تكبيره.

وإذا كانت المرأة معينة لزوجها على الطاعة، طالبة للتقل والقناعة، فهى نعمة من الله عليه يطالبه بشكرها، قال الله عز وجل: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فعدّ ذلك من نعمة الله عليه وإحسانه إليه. وقيل فى التفسير: كان خلقها سيئاً فحسن، وقيل: كان فى لسانه طول فقصر.

وروينا عن نبينا ﷺ: «فضّلت على آدم عليه السلام بخصلتين: كانت له زوجة

عونًا له على المعصية وأزواجى عونًا لى على الطاعة، وكان شيطانه كافرًا وشيطانى مسلمًا لا يأمرنى إلا بخير». فعدّ ذلك ﷺ من فضائله.

وإذا كانت المرأة حسنة الوجه، خيرة الأخلاق، سوداء الحدقة والشعر، كبيرة العين، بيضاء اللون، محبة لزوجها، قاصرة الطرف، فهذه على صورة الحور العين، قال الله تعالى فى ذلك: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ﴾ [الرحمن: ٧٠]. قيل: خيرات الأخلاق حسان الوجوه. وقال تعالى: ﴿وَحُورٌ عَيْنٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢ - ٢٣]. والحور: البيض، والعين: كبار العين، هو جمع: عيّناء. والحوراء: هى البيضاء شديدة بياض العين، شديدة سوادها وسواد الشعر.

وقال عز وجل: ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٧]. العربة على معنيين: تكون العاشقة لزوجها، وتكون المشتية للجماع، وذلك يكون من تمام اللذة فى الوقاع، لأن المرأة إذا لم تكن محبة لزوجها، ولا مشتية لإفضائه إليها، نقص ذلك من لذته، فلذلك وصف الله عز وجل نساء أهل الجنة بتمام اللذة. ويقال: رجل شبق وامرأة عربية، يوصفان بشهوة الجماع. كيف وقد روى: «خير نساءكم الغلّمة على زوجها». وقال بعض الحكماء: ثلاث من اللذات لا يؤبّه لهنّ: المشى فى الصيف بلا سراويل، والتبرز على الشط، ومجامعة الرّبّوخ، يعنى المشتية للجماع.

وقال عز وجل فى تمام وصفهن: ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ [الصفات: ٤٨]. أى قد قصر طرفها على زوجها وحده، فليست ترى أحسن منه، ولا تريد بدلاً غيره، وقال رسول الله ﷺ: «خير نساءكم التى إذا نظر إليها الرجل سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته فى نفسها وماله».

وروينا عن محمد بن كعب القرظى رضى الله عنه فى معنى قوله عز وجل: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فى الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١] قال: المرأة الصالحة. وفى بعض التفسير: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] قال: المرأة الصالحة. وقد كان عمر رضى الله عنه يقول: المرأة الصالحة ليست من الدنيا، لأنها تفرغك للآخرة. إلا أنه كان يقول: المنفرد يجد من حلاوة العبادة ما لا يجد المتزوج. وكان عمر بن الخطاب

رضى الله تعالى عنه يقول: ما أُعطي عبدٌ بعد إيمان بالله عز وجل خيراً من امرأةٍ صالحة. ووصف النساء فقال: **منهنَّ غُنى لا يُحْدَى منه**، يعنى غنيمة لا يعتاض منها بعتاء، **والْحُدْيَا**: هى العطاء. **ومنهنَّ غُلٌّ لا يُفْدَى منه**، أى لا قيمة له فيفدى منه، ويجوز أن لا راحة منه كالغُلِّ، فصاحبها أسير بحبها لا يفتدى أبداً إلا بموتها. وقال أيضاً: قيل: كانت العرب من نهاية تعذيبها للأسير تسليخ جلد الشاة ثم تلبسه إياه لحماً طرياً، فيلتزق على جسده وينقبض، ثم لا تنزعه عنه حتى يَقْمِلَ وينثر منه الهوام، فذلك هو الغُلُّ مثل المرأة المكربة.

واعلم أن النساء على أوصاف النفس، مَن عَرَفَ صفات النفس عرف بها أوصاف النساء، وقاساهنَّ بالتجربة والخبر عرف بذلك صفات النفس: فمنهنَّ المسوِّلة، وهى أدناهن. ومنهنَّ الأُمارةُ بالسوء، وهى شرُّهنَّ لا تَقْتَرُ من الأذى، ولا تنى عن خلُقِ السوء والبذاء. ومنهنَّ بمنزلة النفس اللوامة، وهى من صالحى النساء. ومنهنَّ المطمئنة المرضية، وهذه هى الصالحة الخيرة السَّاكنة الراضية.

وفصلُ الخطاب: إن كان صلاحُ قلب العبد واستقامةُ حاله فى العزبة فلا أعدل بالوَحدة شيئاً، لأنَّ أقلَّ ما فيها السلامة، والسلامةُ فى وقتنا هذا فضيلةٌ وغنيمة، وإن تآقت نفسه إلى التزويج، ولم يأمن دواعى الهوى، فيتزوج إذا أدَّى إلى سلامة دينه، وإن لم تتم كفايته بواحدة ضمَّ إليها أخرى، فإن لم تكن بهما غنيمة وتما حاله وتحصينه، زاد ثالثة إلى أربع، فإن الأربعة مع توقان النفس إلى النكاح وقوة شهوتها فى التنقل فى المناكح بمنزلة الواحدة، وإن الواحدة مع وقوع الكفاية ووجود الاستغناء تنوب عن الأربع.

كذلك خيرُ الله عز وجل صورة النفس فيما عليه جبلها، وفاوت بين الطبائع فيما عليه جعلها، يقال: إنَّ الله عز وجل أباح الجمع بين الأربع لأجل الطبائع الأربع، لكل طبيعة واحدة على قدر حركاتها وتوقان النفس عندها، ولا نقص على العبد فى ذلك إذا قام بما عليه لهنَّ، أو سَمَحَنَ بحقوقهن من النفقة والمبيت له، بل ذلك مزيد له، ودلالة على قوته وتمكُّنه فى الحال، وهذه طرائق الأقوياء والأئمة من الرجال.

وأيضاً فإن الله عز وجل ما أنعم به من امتطاء الأربع من النساء من الحكمة، وتلوين الطبع فى الصنعة مثل ما أنعم به من تكوين سيرة المطايا، التى جعلهنّ مراكب عباده. فجعل تفاوت تكوين وطء الأربعة بمنزلة تغاير مشى دواب البر الأربعة، فقال عز وجل: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨]. وقال عز وجل: ﴿مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢]، يعنى الإبل، فسيرُ الناقة غير سير الفرس، وسيرُ البغل مخالف لمشى الحمار، وكذلك جعل لمن جمع الأربع بالوطء ما لا يجعل بالآحاد والمثنى والثلاث، فحسن ذلك، وأباحه لمن جمع بينهن أربعاً، كإطلاقه لمن جعل له المطايا أربعة ينتقل على دابة بعد دابة، فكان له فرس وبغل وحمار، إذا اتسع بذلك وأقام بمؤونتهن، وقد يكتفى الواحد بدابة واحدة فيكون فيها بلاغ إلى حين، ذلك تقدير العزيز العليم، وإتقان صنع المنعم الحكيم. وقد شرط الله تعالى مع الزوجة ثلاثة شروط، إن وجدت تمت بهن كفاية العبد، وسكنت بها نفسه، وكان ذلك من آيات الله الدالة عليه، وإن لم توجد الشروط الثلاثة مع الإحدى، كان له المزيد عليها إلى الرابع، وكن فى المعنى كالأحاد لعدم الشروط التى أخبر الله عز وجل بسكون النفس عندها، وعند الأربع توجد الشروط فى قلوب المؤمنين لا محالة، كما أخبر عز وجل، وكان ذلك أيضاً من آياته وحكمته الدالة عليه، فقال سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

فإن وجد العبد سكون النفس ورحمة القلب ومودة المرأة فى الواحدة، فهو من آيات الله عز وجل، وهى كفايته وغنيته، وإن لم يجد السكون ولا الرحمة ولا المودة إلا فى الأربع، فهن حيثنذ كفايته وقنيته^(١). والله تبارك وتعالى يغنى بالواحدة ويقنّى بالأربع، أى يجعل غنياً ويجعل قنيةً جماعة ومدخرًا، وذلك أيضاً من آيات الله تعالى واختياره لمن قوى عليه واستقام به. وقد شبه بعض الناس الأزواج بالقمص فقال: ليس من السرف أن يجمع الرجل أربعة أقمص، وما زاد

(١) أى رضاه وغناه. يقال: قنّى بالشئ يقنّى أى رضى به وغنى.

على ذلك كان سرقاً. كما أن الله عز وجل أمر بالجمع بين الأربع من النساء، ويصلح أن يستدل له بقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فجعلن في معنى الملبوس، ورفع فيهن إلى الأربع، وفي قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ ثم ابتداء فنص على مثني، ولم يقل: احدى، على النذب والاستحباب للجمع بين اثنتين، وأن العدل قد يوجد ويقدر عليه معهما، ثم رد إلى الواحدة لمن خاف الجور فيهن، فقال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾، ففي دليل الخطاب اشتراط العدل في الأربع، ثم ذكره بقوله: ﴿ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ لَا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣]، يعنى: أقرب أن لا تجوروا. وقد قال بعض الفقهاء من أهل الحجاز واللغة: لا تعولوا، أى لا تكثر عيالكُم. والأول أحبُّ إلى؛ لأنه أشبه بالقرآن، كأنه عطف على النص، لما قال: ﴿أَنْ لَا تَعُولُوا﴾ قال: ذلك أدنى أن لا تجوروا، والأول أحبُّ إلى، ويصلح هذا الوجه أيضاً في اللغة من قال: عال يعول، بمعنى أعال يعيل، وأكثرُ العرب فرقت بين ذلك يقولون: عال يعول إذا جَارَ، وأعال يعيل من العيلة إذا كثر عياله، وشاذ نادر من يجعلها لغتين بمعنى.

فليتوخَّ العدل بين أزواجه، من جَمَعَ بينهن في النفقة والكسوة والمبيت، ولا يحيف على بعض فيقصر عن كفايتها وواجبها في ذلك. فقد جاء في الحديث: «من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما دون الأخرى - وفي لفظ آخر: فلم يعدل بينهما - جاء يوم القيامة وأحدُ شقيّه مائل». ولا عدل عليه في المحبة والجماع، لأن ذلك لا يملك إذا سوى بين البيوتة، ولا عليه أيضاً أن يجمع من بات عندها، إنما عليه المبيت ليلة وليلة.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩] قال: لا تقدروا على العدل بينهن في الحب والجماع، لأن ذلك فعلُ الله عز وجل في القلوب وفي شهوة النفس. وروينا عن رسول الله ﷺ أنه كان يقسم بين نسائه في العطاء والمبيت، وكان يقول: اللهم هذا جهدى فيما أملك، ولا طاقة لى فيما تملك ولا أملك، يعنى في المحبة والجماع، فقد كان يحب بعضهن أكثر من بعض، وكانت عائشة رضى الله عنها أحبهن، وكان يطاف به محمولاً في

مرضه فى كل يوم وليلة فيقول: أين أنا غداً، ففطنت امرأةً منهم فقالت: إنما يسأل عن يوم عائشة رضى الله عنها، فقلن: يا رسول الله، إنه ليسق عليك أن تحمل، فقد أذنَّا لك أن تكون فى بيت عائشة رضى الله عنها، فقال: قد رضىتنَّ بذلك؟ قلن: نعم، قال: فحوّلونى إلى بيت عائشة، فلذلك كانت تقول: قُبض فى بيتى وبين سحرى ونحرى، تفتخر بذلك.

ثم قال الله عز وجل: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ﴾ يعنى: على واحدة دون الأخرى فى التقصير والنفقة ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: ١٢٩] أى موقوفة غير مستقرة، كأنها لا ذات زوج ولا مطلقة، أى لا أيم فتتحمل لنفسها، ولا ذات زوج ينفق عليها فستغنى بزوجها.

والعرب تقول: علقتُ الأمر: إذا أوقفته، وقولُ معلق، أى: موقوف غير مطلق بحكم، فعليه أن يقسم بينهن أيامه ولياليه، فيكون عند كل واحدة يوماً وليلة، إلا أن تهب لصاحبته ليلتها، أو تسمح له بذلك. فكذلك كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه، فأراد أن يطلق سودة بنت زمعة لما كبرت، فوهبت ليلتها لعائشة، وسألته أن يقرّها على الزوجية لتحشر فى نسائه، فتركها ولم يكن يقسم لها، فكان يقسم لعائشة ليلتين، ولسائر أزواجه ليلة ليلة، إلا أنه ﷺ لشدة عدله كانت نفسه إذا تاقّت إلى واحدة فى غير ليلتها أو نهاراً فى غير يومها أو ليلتها فجامعها، ثم طاف فى ليلته على سائرهن، وكذلك كان يفعل فى يومه. فمن ذلك ما روى عن عائشة رضى الله عنها وغيرها «أن رسول الله ﷺ طاف على نسائه فى ليلة واحدة». وعن أنس: «طاف رسول الله ﷺ على تسع نسوة فى ضحوة».

ومن لم يكن له إلا واحدة، استحب له أن يفضى إليها فى كل ثلاث ليال، بمنزلة من له أربع نسوة، ويكون يباشرها فى الليلة الرابعة. وبهذا قضى عمرو كعب بن الأسود رضى الله عنهما للرجل أن يأتيها فى كل أربع ليال ليلة، فإن علم أنّ حاجتها إلى أكثر من ذلك، كان عليه أن يفعل ما هو أقرب إلى تحصينها وأثبت لعافها، وإن علم منها كراهة ذلك وقلة همتها له لم يكن عليه الإفضاء إليها إلا فى كل شهر مرة أو فى كل سنة مرة وعليها أن لا تمنعه ليلاً ولا نهاراً فى كل وقت، وإن كانت صائمة فلا يحل لها أن تصوم إلا بإذنه.

وتزوّج عليّ عليه السلام بعشر نسوة، وتوفي عن أربع وسبع عشرة سُرِّيَّة. وكان بعض أمراء الشام إذا بلغه عنه كثرة نكاحه يقول: لستُ بنكحة ولا طُلقة، يعرّضُ له بذلك. ويقال: إنه تزوج بعد وفاة فاطمة صلوات الله عليها وعلى أبيها بتسع ليالٍ، ونكح أمانة ابنة زينب ابنة رسول الله ﷺ، كانت فاطمة صلوات الله عليها أوصته بذلك.

وتزوّج الحسن بن عليّ رضي الله عنهما مائتين وخمسين امرأة، وقيل: ثلاثمائة، وقد كان عليّ عليه السلام يَضْجَرُ من ذلك ويكرهه حياءً من أهلهن إذا طلقهن، وكان يقول: إِنَّ حَسَنًا مَطْلَقًا فَلَا تُنْكَحُوهُ. فقال له رجل من همدان: والله يا أمير المؤمنين، لَنَنْكَحَنَّه ما شاء، فمن أحبّ أمسك، ومن كره فارق، فسرّ عليّ رضي الله عنه بذلك وأنشد يقول:

ولو كنتُ بواباً على بابِ جنةٍ لقلتُ لهمدانَ ادخلي بسلام

وهذا أحد ما كان الحسن يشبه فيه رسول الله ﷺ، وكان يشبهه في الخلق والخلق، فقد قال له رسول الله ﷺ: «أشبهتَ خلقي وخلقي»، وقال: «حَسَنٌ مِنِّي وحُسين من عليّ»، وكان الحسن ربما عقد على أربعة، وربما طلق أربعاً، فأرسل غلامه بطلاق امرأتين له وقال: قل لهما: اعتدّا، وأمر له أن يدفع إلى كل واحدة عشرة آلاف درهم، ففعل، فلما رجع إليه قال: ماذا قالتا؟ فقال له الرسول: أما إحداهما فنكست رأسها وسكتت، وأما الأخرى فبكت وانتحبت وسمعتها تقول: متاع قليل من حبيب مفارق، فأطرق ورَحِمَ لها، ثم قال: لو كنتُ مراجعاً امرأةً لراجعتها.

ودخل ذات يوم عليّ عبد الرحمن بن الحارث بن هشام^(١) فخطب ابنته، فقال:

(١) بعده في (م): «فقيه المدينة ورئيسها، ولم يكن له بالمدينة نظير، وهو الذي كانت السيدة عائشة [رضي الله عنها] تضرب به المثل في قولها: لو لم أسر مسيرى ذلك لكان أحبّ إليّ من أن يكون لي ستة عشر ذكراً من رسول الله ﷺ كلهم مثل عبد الرحمن بن الحارث. فدخل عليه الحسن في أهل بيته، فقام إليه عبد الرحمن وأجلسه في مجلسه وأعظمه، وقال: ألا أرسلت إليّ فكنت أجيبك؟ فقال: إن الحاجة لنا. قال: وما هي؟ قال: جئتُك خاطباً ابنتك. فأطرق عبد الرحمن ثم رفع رأسه، فقال: والله ما على وجه الأرض أحدٌ يمشي عليها أعزّ عليّ منك، ولكنك تعلم أن ابنتي بضعةٌ مِنِّي، وأنت مطلق...».

إِنَّكَ لأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَلَكِنَّكَ مَطْلَاقٌ، وَأَكْرَهُ أَنْ يَتَغَيَّرَ قَلْبِي عَلَيْكَ، فَإِنْ ضَمَنْتَ أَنَّكَ لَا تَفَارِقُهَا فَعَلْتُ، فَسَكَتَ ثُمَّ اتَّكَأَ عَلَى بَعْضِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: مَا أَرَادَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَ ابْنَتَهُ طَوْقًا فِي عُنُقِي.

وقد روينا عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَحِبُّ النِّكَاحَ وَيَبْغِضُ الطَّلَاقَ، فَانْكَحُوا وَلَا تَطْلُقُوا»، وهذا لا يصلح لمن أراد أكثر من أربع. وتزوج المغيرة بن شعبه بثمانين امرأة، وقد كان في الصحابة من له الثلاث والأربع، وكثير منهم لا يحصى كانت له اثنتان لا يخلو منهما.

ويقال: إِنَّ كثرة النِّكَاح من شدة غَضِّ البصر، وقطع المشى. وفي الأثر: «إِذَا خَشَعَ الطَّرْفُ وَقَصُرَ عَنِ الْحَرَامِ، وَانْقَطَعَ الْمَشْيُ عَلَى الْأَرْضِ، غَاضَ الْبَصَرُ وَالنَّفْسُ، فَاتَّسَعَ فِي الْحَلَالِ». وذلك أَنَّ للنفس استراحات إلى ما جانسها، هو فتورها عن الذكر، فاستراحات نفوس المتقين إلى المباح، من ذلك قوله عز وجل: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]. وهذا سكون النفس إلى الجنس لما تلائمته من الصفات المجانسة، وهو أحد المعاني في قول علي عليه السلام: رَوَّحُوا الْقُلُوبَ تَعَيَّ الذِّكْرَ. قيل: رَوَّحُوهَا باستراحة النفس إلى المباح، يعنى: ذكر الآخرة؛ لأنَّ للذكر أنفالا، وهو بمعنى قول النبي ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ عَالَمٍ شَرَّةً وَفَتْرَةً، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى سُنَّتِي فَقَدْ اهْتَدَى». والشَّرَّةُ: الجِدُّ والمكابدة بقوة وعزم وحدة إرادة، وهذا يكون في أول حال المريد. والفترة: هي الفتور والوقوف عن المجاهدة للاستراحة، وهذا يكون عند ملل النفس ونقصان الإرادة، وَهَنَ الْقُوَّةُ عَنِ الْجِدِّ. ويدخل ذلك على العارفين من أصحاب رسول الله ﷺ^(١).

وقد كان أبو الدرداء رضى الله عنه يقول: إِنِّي لَأَسْتَجِمُّ نَفْسِي بِشَيْءٍ مِنَ اللَّهِ، لِأَقْوَى بِذَلِكَ فِيمَا بَعْدَ عَلَى الْحَقِّ.

وقد كان النساء قديماً على غير وصفهن الآن، كان الرجل إذا خرج من منزله تقول له امرأته: يا هذا، وتقول له ابنته: يا أباها، لا تكسب اليوم شيئاً من غير حِلِّهِ فَيَدْخُلُكَ النَّارُ، فنكون نحن سبيه، فَإِنَّا نَصْبِرُ عَلَى الْجُوعِ وَالضَّرِّ وَلَا نَكُونُ

(١) من قوله: «وَالشَّرَّةُ» إلى هنا من (م).

عقوبة لك. وأراد رجلٌ من السلف أن يغيب عن أهله في غزوة، فكره إخوانه ذلك لأنسهم به، فجاءوا إلى أهله فقالوا: لِمَ تتركين زوجك يسافر، ولا يدع لك نفقة؟ ويغيب عنك ولا تدرين متى يقدم؟ فقالت: زوجي منذ عرفته أكّال وما عرفته قط رزاقاً، يذهب الأكّال ويبقى الرزاق، ومع ذلك فلا أحب أن أكون مشؤومة عليه أقطعه عن سبيل الخير.

قال أحمد بن عيسى الخراز لما تزوج بامرأة: على أي شيء تزوّجتِ بي ورغبت في؟ قالت: على أن أقوم بحقك عليّ، وأسقط حقّي عليك.

وخطبت رابعة بنت إسماعيل أحمد بن أبي الحواري، فكره ذلك لما فيه من العبادة، فألحت عليه وأكثرت، فقال لها: يا هذه، ما لي همة في النساء لشغلي بحالي. فقالت: يا هذا، إنني لأشغل بحالي من شُغلك بحالك، وما لي شهوة في الرجال، ولكنني ورثتُ عن زوجي ثلاثمائة ألف دينار، وهي حلال، وأردت أن أنفقها عليك وعلى إخوانك، وأعرف بك الصالحين، فتكون طريقاً إلى الله عز وجل. فقال: حتى أستاذن أستاذي. قال: فجئت إلى أبي سليمان فذكرت قولها، وقد كان ينهاني عن التزويج ويقول: ما تزوج أحد من أصحابنا إلا تغيّر، فلما ذكرتُ له ما قالت أدخل رأسه في جيبه وسكت ساعة، ثم رفع رأسه وقال: يا أحمد، تزوّج بها، فإن هذه وليّة الله تعالى، وهذا كلامُ الصديقين. قال: فتزوجتُ بها. قال أحمد: فكان في منزلها كُرٌّ^(١) من جَصٍّ، فلم يبق منه شيء في غسل أيدي المستعجلين للخروج بعد الأكل سوى من كان يغسل يده بالأشنان في البيت. قال: وتزوّجت عليها بثلاث نسوة، فكانت تطعمني من الطيبات وتطيّبني وتقول: اذهب بقوتك ونشاطك إلى أزواجك، فكانت هذه من أرباب القلوب. وكان الصوفية يسألونها عن الأحوال، وكان أحمد يرجع إليها في بعض المسائل، وكانت فاضلة تُشبه في أهل الشام برابعة العدوية في أهل البصرة.

وقد كان أبو سليمان يقول في التزويج قولاً عدلاً: مَنْ صبر على الشدة فالتزويج له أفضل، والوحيد يجد من حلاوة العمل وفراغ القلب ما لا يجد

(١) الكُرُّ: مكيال لأهل العراق، يعادل أربعين إردباً.

المُتَاهِل. وقال مرة: ما رأيتُ أحدًا من أصحابنا تزوّج وثبتَ على مرتبته الأولى. وروينا عنه أنه قال: ثلاث من طلبهن فقد رغب في الدنيا: من طلب معاشًا، أو تزوج، أو كتب الحديث.

ولعمري إن المرأة تحتاج إلى فضل مُداراة، ولطيفة من الحكمة، وطرف من المواساة، وباب من الملاحظة، واتساع صدرٍ للنفقة، وحُسن خُلُق، ولطف لَفْظ، وهو لا يحسنه إلا عالم حليم، ولا يقوم به إلا عارف حكيم، فمن لم يقدّر بذلك، ولم يهتد إليه، ولم يعتدّ للنفقة، ولم يألف الجماعة، وكان قد ألف وحدته، واعتاد الانفراد بأكلته، وكان ضيق القلب، بخيل الكف، سيئ الخُلُق، غليظ القلب، فظّ اللفظ، فالوحدة لهذا أصلح، والبعدُ من النساء لقلبه أروح، فمتى تزوّج من هذا وصفه عَذَبٌ وعُدْبٌ، وأذى وتأذى، وأثم وأثم به؛ لأن النساء يحتجن إلى فضل حلمٍ يحمل سفههنّ، وإلى سعة علم يغمر جهلهنّ، وإلى حسن لُطف وحكمة يدارى أخلاقهنّ، ويتغافل عن زللهنّ. فإذا كان الرجل جاهلاً سفيهاً، أو كان سيئ الخلق فظاً غليظاً، اجتمع الجهل، فافترق العقل، وتقادح الجفاء، وغلظ القلب، وكثر الأذى، فأفسد أكثر مما يصلح، وتنافرا ولم يكن بينهما أبداً صلح، وليس هو وصف العقلاء.

وأستحبُّ للرجل إذا أراد التزويج أن يشرح حاله، ويبين أخلاقه للمرأة، حتى تكون على بصيرة من أمره، ويقين من حاله، ويدخل على اختيار منها، فذلك من الورع، وقد فعله بعضُ السلف. وقد تزوّج رجل على عهد عمر رضى الله عنه، وكان يَخْضِبُ بالسّواد، فلما دخل بامرأته نصل خضابه فظهرت شيبته، فاستعدى أهل المرأة، وقالوا: نحن حسبناه شاباً، فأوجعه ضرباً، وقال: غررت القوم، وفرّق بينهما. وروينا عن شعيب بن حرب، لما أراد أن يتزوج قال للمرأة: إني سيئ الخلق، فقالت: يا هذا، أسوأ خلق منك من يُحوجك إلى سوء الخلق.

وروينا ضد هذا أن رجلاً أراد أن يتزوج فقال للمرأة: إن لى أخلاقاً أوقفك عليها، فإن رضيت بها تزوجتك. فقالت: افعل. فقال: أنا رجلٌ ملول حقود، سيئ الظن غيور، ضيق الصدر، واسع الضرب، إن أكثرتِ عندي أمْلكتني، وإن

أبعدت أَفْلَقْتَنِي، وإن تكلمتِ أو غرتِ صدرى، وإن سكتِ أشغلتِ قلبى. فقالت المرأة: أما بعد، فقد ذكرتِ من نفسك أخلاقاً ما كنا نرضاها لبنات إبليس، فكيف نرضاها لبنات آدم، انصرف راشداً لا حاجة لنا بك.

ومن خشى على نفسه الآفات ووفق له امرأة فيها بعض الخصال المحمودة، فالتزويجُ له أفضل، فليكن له حيثُذ في التزويج نيات، لأنه من أكبر الأعمال، ولا يكون نكاحه لأجل هواه مجرداً، فقد قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه: إذا وافق الحقُّ الهوى فذلك الزُّبدُ بالترسيان^(١). فلتكن نيته إقامة سنة، وصلاح قلب، وسلامة دينه، وغضُّ بصره، وتحصين فرجه، فقد أمر بذلك، ويحتسب في الكسب على العيال التوبة من الله عز وجل، ويحتسب مثل ذلك في نصحه لها في أمر الآخرة كما يحبه لنفسه، حتى يؤجر بسببها مثل ما يثاب لنفسه، فهو من النصيحة لها والإشفاق عليها، وليجعل ذلك لوجه الله سبحانه، فقد روى عن النبي ﷺ: «ما أنفق الرجل على أهله فهو له صدقة»، وإن الرجل ليؤجر في رفع اللقمة إلى في امرأته». ومنها: أنه كالمجاهد في سبيل الله.

وقال رجل لبعض العلماء وهو يعدد نعم الله عز وجل عليه: من كل عمل قد أعطاني الله تعالى نصيباً، حتى ذكر الحج والجهاد وصنوف العبادات، فقال له العالم: فأين أنت من عمل الأبدال؟ قال: وما هو؟ قال: كسبُ الحلال، والنفقة على العيال.

وقال ابن المبارك لإخوانه وهم في الجهاد: تعلمون عملاً أفضل مما نحن فيه؟ قالوا: ما نعلم، ذاك جهاد في سبيل الله، وقاتل لأعدائه، أى شيء أفضل منه؟! قال: لكنى أعلم، قالوا: ما هو؟ قال: رجل متعفف ذو عيلة، قام من الليل فنظر إلى صبيانه نياماً متكشفين، فسترهم وغطأهم بثوبه، فعمله هذا أفضل من جهادنا في سبيل الله عز وجل.

وقال رجل لبشر: قد أضرنى الفقر والعيال فادعُ الله لى. فقال له بشر: إذا قال لك عيالك: ليس عندنا خبز ولا دقيق ونحن جوع، فادعُ الله لى أنت ذلك

(١) الترسيان: من أجود أنواع التمر.

الوقت، فإن دعاءك أفضل من دعائي.

وقد روى عن النبي ﷺ: «مَنْ حَسَنَتْ صَلَاتَهُ، وَكَثُرَ عِيَالُهُ، وَقَلَّ مَالُهُ، وَلَمْ يَغْتَبِ الْمُسْلِمِينَ، فَهُوَ مَعِيَ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ». وفي حديث آخر: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحِبُّ الْفَقِيرَ الْمُتَعَفِّفَ، أَبَا الْعِيَالِ».

ومن النية في ذلك أَنَّ الاهتمام بمصلحتهم والغمُّ على نوائبهم زيادةٌ في حسناتهم؛ لأنه عمل من أعماله. وفي الخبر: «إِذَا كَثُرَتْ ذُنُوبُ الْعَبْدِ ابْتَلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهَمِّ لِيَكْفُرَهَا». وقال بعض السلف: من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الغمُّ بالعيال. وقد روينا: «إِنْ مِنْ الذَّنُوبِ ذَنْبًا لَا يَكْفُرُهَا إِلَّا الْهَمُّ بِطَلَبِ الْمَعَاشِ».

وله في الصبر عليهن، وجميل الاحتمال لأذهن، وفي حُسن العشرة لهن، مَثُوبَاتٌ وَأَعْمَالٌ صَالِحَاتٌ، وربما كان موتُ العيال عقوبةً للعبد ونقصانَ حظٍّ، إِذَا كَانَ الصَّبْرُ عَلَيْهِنَ وَالْإِنْفَاقُ مَقَامًا لَهُ، كَانَ عَدَمُ ذَلِكَ مَفَارِقَةً لِحَالِهِ فَتَقْصُ بِهِ.

وحدثنا بعض العلماء: إن بعض المتعبدين كان له زوجة، وكان حسن القيام عليها، إلى أن توفيت، فعرض عليه إخوانه التزويج، فامتنع وقال: إن الوحدة أروحُ لقلبي وأجمعُ لهمي. قال فرأيت في المنام بعد جمعة من وفاتها كأن أبواب السماء قد فُتحت، وكأن رجالاً ينزلون ويسيروا في الهواء يتبعُ بعضهم بعضاً، وكلما نزل واحد نظر إلى فقال لمن وراءه: هذا هو المشؤوم، فيقول: نعم. ويقول الثالث لمن وراءه: هذا هو المشؤوم، فيقول الرابع: نعم. قال: فراعني ذلك وعظمُ عليّ، وهبتهم أن أسألهم، إلى أن مرَّ بي آخرهم، وكان غلاماً، فقلتُ له: يا هذا، مَنْ المشؤوم الذي تؤمّون إليه؟ قال: أنت. قلتُ: وَلِمَ ذَلِكَ؟ قال: كنا نرفع أعمالك في أعمال المجاهدين في سبيل الله تعالى، فمُذَّجَمَةٌ أَمَرْنَا أَنْ نَضَعَهَا فِي أَعْمَالِ الْمُخَالِفِينَ، فَمَا أَدْرَى مَاذَا أَحْدَثْتَ؟ فَقَالَ لِإِخْوَانِهِ: زَوْجُونِي، زَوْجُونِي، فَلَمْ يَكُنْ يَفَارِقُهُ زَوْجَةٌ أَوْ زَوْجَتَانِ أَوْ ثَلَاثٌ.

وربما كانت النفسُ الأمارَةُ أَضَرَّ عَلَى الْعَبْدِ مِنْ أَرْبَعِ نِسْوَةٍ، وَإِنَّمَا كَرِهَ مَنْ كَرِهَ الْأَهْلَ وَالْوَلَدَ لِأَجْلِ الشَّغْلِ بِهِمْ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهِ، فَإِذَا كَانَ مَنْ لَا أَهْلَ لَهُ وَلَا وَلَدَ مُشْغُولًا بِبَطَالَتِهِ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مِنْهُمْ كَمَا فِي شَهَوَاتِهِ عَنِ سَبِيلِ

هؤلاء، كان أسوأ حالاً من ذى الأهل والولد، وقد جعل من لا يطلب الأهل والمال للكفاف به والإفضال منه فى الوصف المكروه، فى خبر روى: «إن من أهل النار الضعيف الذى لا دين له، هو فيكم تبع، لا ييغون أهلاً ولا مالاً». قيل: هم السُّؤال المنهزمون فى المسألة، الذى همه بطنه، لا يبالى كيف طلب، ولا على أى حال من الفحش تقلب. فمن لم يشغله أهله وماله عن الله عز وجل كان أفضل ممن لا أهل له ولا ولد، فهو عبد بطنه وفرجه، وأسير هواه وشهوته. وقد أخبر الله تعالى أن للمؤمنين أموالاً وأولاداً، ثم أمرهم أن لا يشغلهم ذلك عن الله عز وجل. وقد وصف أقواماً بأن يبيعهم وتجارتهم لا تشغلهم عن عبادته، وأنهم أهل خوف من يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار. وقد مدح قومًا سألوه الأزواج والذرية، وجعل ذلك فى وصفهم فى قوله عز وجل: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤]. وقرة أعين لا يشغل ولا يحجب عن قرة العين بل يكشف عنه ويقرب منه. كما قال النبى ﷺ: «حبب إلى من دُنياكم الطيب والنساء، وجعل قرة عينى فى الصلاة».

وقد كان أبو سليمان يقول: إنما تركوا التزويج لتتفرغ قلوبهم لذكره. وروينا عن ابن أبى الحواري الحديث الذى رواه عن حبيش عن الحسن: «إذا أراد الله بعد خيراً لم يشغله بأهل ولا مال». قال أحمد رضى الله عنه: فناظرنا فى هذا الحديث جماعة من العلماء، وإذا ليس معناه أنه لا يكون له امرأة ولا ولد، ولكن يكونون له ولا يشغلونه.

وإنما يحسن ترك النكاح لمشغولهم عن الفكر فيه، ذى نفس مطمئنة، وعين خاشعة لرب ذى سكينه وقلب ذى خشية، كما حدثونا عن داود الطائى أنه قال: منذ خمسين سنة ما خالط ذكرى ريح. وقيل لبعضهم: هل دخل ذكرك ريح بشهوة؟ فقال: أما منذ قرأت القرآن فلا. وقال بعض العلماء: منذ عشرين سنة ما وقع نظرى على فرجى.

فأما بطال ذو نفس أمارة، ونظرة ثاقبة، وشهوة قوية، فالنكاح من أحسن

أعماله، وأرفع أحواله؛ لأن المباح مقام من لا مقام له. فإن عزم العبد على النكاح فلا يكون همه من النساء إلا ذات الدين والصلاح، والعقل والقناعة. فليس تخلص له النيات التي ذكرناها آنفاً إلا على هذه القواعد. قال رسول الله ﷺ: «تُنكح المرأة لمالها، وجمالها، وحسبها، ودينها، فعليك بذات الدين». وفي لفظ آخر: «من نكح المرأة لمالها وجمالها حُرْم مالها وجمالها، ومن نكحها لدينها رزقه الله عز وجل مالها وجمالها». وروينا أيضاً: «لا تنكحوا المرأة لجمالها فلعل جمالها يُرديها، ولا لمالها فلعل مالها يُطغيها، وانكحوا المرأة لدينها». فنكاح المرأة للدين والصلاح طريقٌ من الآخرة.

والرغبة في المرأة الناقصة الخلق، الدنيئة الصورة، الكبيرة السن؛ بابٌ من الزهد. وقد كان أبو سليمان يقول: الزهد في كل شيء حتى يتزوج الرجلُ العجوزَ أو غيرَ ذات الهيئة إثارةً للزهد في الدنيا. وكان مالك بن دينار يقول: يترك أحدهم أن يتزوج يتيمة فيؤجر فيها إن أطعمها وكساها تكون خفيفة المؤونة ترضى باليسير، ويتزوج بنت فلان وفلان؛ يعنى أبناء الدنيا، فتشتهي الشهوات عليه، وتقول: اكسني ثوب كذا، واشتر لي مرط حرير، فيتمرط دينه.

وقد اختار أحمد بن حنبل رضى الله عنه امرأة عوراء على أختها، وكانت أختها صحيحة جميلة، فسأل: من أعقلهما؟ قيل: العوراء. فقال: زوجوني إياها. وقد يكون في تزويج المردولة المجذوعة فيه بأن يرفع قلبها إذ لا يُرغب في مثلها.

وأستحب له أن ينظر إلى وجهها قبل التزويج بها، وإلى ما يدعوه إليها، فإن ضمَّ إلى الوجه الكفين فلا بأس بذلك عند علماء الحجاز. ففي النظر إلى الوجه أحاديث مأثورة؛ منها حديث محمد بن مسلمة قال: رأيتُه يتبع النظرة فتاةً في الحى حتى توارت بالنخل، فقلت له: تفعل هذا وأنت من أصحاب رسول الله ﷺ؟ فقال: رسول الله ﷺ أمرنا بهذا، قال: «إذا أوقع الله عز وجل في قلب أحدكم خطبة امرأةٍ فلينظر إليها ليرى منها ما يدعوه إليها». وفي الحديث الآخر: «إن في أعين الأنصار شيئاً، فإذا أراد أحدكم أن يتزوج منهن فلينظر إليهن». وفي

لفظ آخر: «إذا وقع في نفس أحدكم من امرأة شيء فلي نظر إليها فإنه أحرى أن يؤدَمَ بينهما». يعني يؤدم: وقوع الأدمة على الأدمة، وهو أبلغ من البشرة؛ لأن البشرة ظاهر الجلد، والأدمة باطنه. جاء هذا في المبالغة على ضرب المثل.

وقد كان الأعمش يقول: كل تزويج يقع عن غير نظر يكون آخره غماً وهماً.

ولا يغالي في المهر. فقد تزوج رسول الله ﷺ بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث البيت؛ وكان رَحَى يد، وجرة، ووسادة من أدم حشوها ليف. وأولم على إحدى نسائه بمُدَيْن من شعير، وعل أخرى بمُدَى تمر. فالوليمة سنة وترك الإجابة إليها معصية. وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ينهى عن المغالاة بمهور النساء ويقول: ما تزوج رسول الله ﷺ امرأة من نسائه ولا زوج على أكثر من أربع مائة درهم.

وروينا عن عائشة رضى الله عنها: كانت مهور أزواج رسول الله ﷺ اثني عشرة أوقية ونصفاً. وقد كان يزوج أصحابه على وزن نواة من ذهب؛ والنواة صغيرة وهي نواة التمر الصيحاني، يقال: قيمتها خمسة دراهم.

وفي خبر: زوج رسول الله ﷺ بعض أصحابه على نواة من ذهب قُومت بثلاثة دراهم وثلاث. وقد زوج سعيد بن المسيب، وهو من خيار التابعين وعلمائهم، ابنته من أبى هريرة على درهمين، ثم حملها هو إليه ليلاً. ولا أكره التزويج على عشرة دراهم، وهو أكثر الاستحباب في القلة؛ ليخرج من اختلاف العلماء، ولا أستحب أن ينقص المهر عن ثلاثة دراهم؛ وهذا هو القول الأوسط من مذاهب الفقهاء، وفي هذه القيمة تُقطع يد السارق؛ وهذا مذهب بعض أهل الحجاز. وقد روينا: «أبركهن أقلهن مهراً». وروينا أيضاً: «من بركة المرأة سرعة تزويجها وسرعة رَحِمها - يعني الولادة - ويسر مهرها». قال عروة: وأقول: فإن من شؤمها كثرة صداقها.

ولا يصلح للمتزوج أن يسأله أى شيء للمرأة، ولا يحل له أن يدفع شيئاً ليأخذ أكثر منه، ولا يحل لهم أن يهدوا إليه شيئاً ليضطروه أن يكافئ بأكثر منه، وليس عليه أن يزيد بأكثر من قيمته إن كافأ، وله أن لا يقبل هديتهم إن علم ذلك

منهم^(١)، وهو داخلٌ في الآيتين من النهي والخبر. قوله في النهي: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ [المذثر: ٦] أى: لا تعطِ تطلب أكثر. وقوله: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ [الروم: ٣٩]. الربا: الزيادة، تطلبوا أكثر منه^(٢).

هذا كله بدعة في النكاح محدثٌ، وهو كالتجارة في التزويج، وهو داخل في الربا، وهو يشبه القمار. ومن زوّج أو تزوّج على هذا بهذه النية فهي نية فاسدة، وليس نكاحه هذا للدين ولا للآخرة. وكان الثوري يقول: إذا تزوّج الرجل وقال: أى شيء للمرأة؟ فاعلم أنه لصّ، فلا تزوّجوه.

ولا يُنكح إلى مبتدع، ولا فاسق، ولا ظالم، ولا شارب خمر، ولا أكل الربا. فمن فعل ذلك فقد ثلّم دينه، وقُطع رحمه، ولم يحسن الولاية والحيلة لكريمته؛ لأنه ترك الاختيار لها. وليس هؤلاء أكفاء للحرّة المسلمة العفيفة، وعليه للمرأة في نفسها مظلّمة، ولها عليه في الآخرة مطالبة، إذا لم يحسن النظر إليها في نفسها^(٣).

وقد قال بعض السلف: النكاح رِقٌّ فليُنظر أحدكم عند من يرق كريمة. وقال بعضهم: لا تنكح إلا الأتقياء، فإنه إن أحبها أكرمها، وإن أبغضها أنصفها. وقال رسول الله ﷺ: «تخيروا لنطفكم، وأنكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم»، ولا نكاح إلا بوليٍّ وشاهدي عدل، وإن كانت ثيبًا فإن لم يكن وليٌّ فالسلطان وليٌّ من لا ولي له، أو من ولاه الحكم. كذلك السنة.

وليتعلم المتزوّج علم الحيض، واختلاف أوقاته، وزيادته ونقصانه، وأحكام الاستحاضة من ذلك، وعلم وقت الأطهار، ليعلمها ذلك، وليغنيها بذلك عن السؤال، والظهور إلى الرجال، ثم ليعلم أهله علم ما لا يسعهم جهله من الفرائض، وأحكام الصلاة، وشرائع الإسلام، واعتقادات المؤمنين من السنة، وما عليه من مذهب الجماعة؛ فإذا فعل ذلك لم يكن عليها أن تخرج إلى العلماء، وإن قصر عن تعليمها علم التوحيد ومباني الإسلام وعقود الإيمان ومذهب أهل

(١) أين نحن الآن من هذه الأخلاق؟!

(٢) من قوله: «وهو داخل» إلى هنا ساقط من المطبوعة، وهو من (م).

(٣) من قوله: «وعليه للمرأة» إلى هنا ساقط من المطبوعة، وهو من (م).

السنة، فلها أن تخرج إلى السؤال عما لا يسعها جهله، وليس أن تخرج بغير إذنه لطلب علم يُرجى فضله، وليس للمرأة أن تحمل زوجها على المكاسب الحرام، ولا تكلفه ما يقترب به الآثام، ولا للرجل أن يدخل في مداخل سوء، ولا يبيع آخرته بدنياء، فإن صبرت معه على البر والتقوى أمسكها، وإن حملته على الإثم والعدوان فارقتها، وإن يترقا يغن الله كلاً من سعته. ويقال: أول من يتعلق بالرجل يوم القيامة زوجته وولده، فيوقفونه بين يدي الله عز وجل فيقولون: يا ربنا خذ لنا حقنا من هذا، فإنه ما علمنا ما نجعل، وكان يطعمنا الحرام ونحن لا نعلم. قال: فيقتصر لهم منه. وفي خبر: إن العبد ليوقف للميزان، وله من الحسنات أمثال الجبال، فيسأل عن رعاية عياله والقيام بهم، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفق، حتى تستفرغ تلك المطالبات جميع أعماله، فلا يبقى له حسنة، فينادى الملائكة: هذا الذي أكل عياله حسناته في الدنيا، وارثهن اليوم بأعماله. فلهذا قال بعض السلف: إذا أراد الله بعبد شراً سلط عليه في الدنيا أنياباً تنهشه؛ يعنى العيال.

وروي في الخبر: «لا يلقي الله عبدٌ بذنب أعظم من جهالة أهله». والخبر المشهور: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول». وروى: «إن الآبق من عياله كالعبد الآبق من سيده، لا يقبل له صلاة ولا صيام حتى يرجع إليهم».

وقد قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]، فأضاف الأهل إلى النفس، وأمرنا أن نقيهم النار بتعليم الأمر والنهي، كما نقي أنفسنا النار باجتنب النهي. وجاء في تفسير ذلك: علّموهنّ وأدّبوهنّ. وقال النبي ﷺ: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيته؛ فالمرأة راعية على مال زوجها وهي مسؤولة عنه، والرجل راعٍ على أهله وهو مسؤولٌ عنهم». ويقال: إذا أنفقت المرأة من مال زوجها بغير إذنه، لم تزل في سخط الله عز وجل حتى يأذن لها، ولا يحل لها أن تطعم من منزله إلا الرطب الذي يخاف فساده، فإن أطعمت وأنفقت عن إذنه ورضاه كان لها مثل أجره، وإن أطعمت بغير إذنه كان له الأجر وعليها الوزر.

وينبغي أن يعرفها عظم حقه عليها، فإنه يقال: ليس شيءٌ يستوجب حق الأبوين إلا الزوج. وقد أقام النبي ﷺ الزوج مقام الوالدة بقوله للمرأة: «عليك بطاعة زوجك، فإنه جنتك ونارك». وقال ﷺ: «أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راضٍ دخلت الجنة». وكان رجل قد خرج في سفر وعهد إلى امرأته أن لا تنزل من العلو إلى سفل الدار، وكان أبوها في السفل، فمرض أبوها، فأرسلت المرأة تستأذن أن تنزل إلى أبيها، فقال رسول الله ﷺ: أطيعي زوجك. فمات أبوها فاستأذنت رسول الله ﷺ أن تنزل إليه، فقال: أطيعي زوجك. فدفن أبوها. قال: فأرسل إليها رسول الله ﷺ يخبرها أن الله قد غفر لأبيها بطاعتها زوجها.

وقال ﷺ: «إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، دخلت جنة ربها». فأضاف طاعة الزوج إلى أبنية الإسلام التي لا يدخل الجنة إلا بها، واشترط طاعته لدخولها.

وذكر رسول الله ﷺ النساء فقال: «حاملاتٌ والداً مرضعاتٌ رحيماتٌ بأولادهن، لولا ما يأتين إلى أزواجهن دَخَلَتْ مصلياتهن الجنة». وقال ﷺ: «أطلعتُ في النار فرأيت أكثر أهلها النساء، واطلعتُ في الجنة فرأيت أقل أهلها النساء فقلت: أين النساء؟ فقيل: شغلهن الأحمران الذهب والزعفران»، يعنى الحلى، ولبس المصبغات، كانت العرب مشتهرة بذلك. وقال ﷺ: «تصدقن من حلّكن فإنى رأيتكن أكثر أهل النار». قلن: لم يا رسول الله؟ قال: «تكثرن اللعن وتكفرن العشير» يعنى الزوج المعاشر، تكفرن نعمته عليكن.

روينا عن أم عبد المغنية عن عائشة رضى الله عنها قالت: «أتت فتاة إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إنى فتاة أُخطب وإنى أكره التزويج، فما حقُّ الزوج على المرأة؟ فقال: لو كان من فرقهِ إلى قَدَمِهِ صَدِيداً فلحسته ما أدّت شكره. قالت: فلا أتزوج. قال: بلى فتزوجي فإنه خير».

فهذا مجمل خبر الخثعمية الذى فُسِّر فيما رويانا عن عكرمة عن ابن عباس: أن امرأة من خثعم أتت النبي ﷺ فقالت: إتنى امرأة أئيم، وإنى أريد أن أتزوج، فما حق الزوج؟ فقال: إن من حق الزوج على الزوجة إذا أرادها على نفسها وهى

على ظهر بعير أن لا تمنعه .

وفى الخبر الجامع لفضايا الزوج: أن النبي ﷺ قال: «لو أمرت أحدًا أن يسجد لشيء سوى الله تعالى لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها» .

ومن حقه أن لا تعطى شيئًا من بيته إلا بإذنه، فإن فعلت ذلك كان الإثم عليها والأجر له . ومن حقه أن لا تصوم تطوعًا إلا بإذنه، فإن فعلت جاعت وعطشت ولم يقبل منها . ومن حقه أن لا تخرج من بيتها إلا بإذنه، فإن فعلت لعنتها الملائكة حتى ترجع إلى بيتها أو تتوب . وينبغي أن تعرض نفسها عليه في كل ليلة .

وروينا عن رسول الله ﷺ: «أقرب ما تكون المرأة من وجه ربها عز وجل إذا كانت في قعر بيتها، وإن صلاتها في صحن دارها أفضل من صلاتها في المسجد، وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في صحن دارها، وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها» . والمخدع: بيت في بيت، وذلك أنها عورة، فما كان أستر لها فهو أسلم، والأسلم هو الأفضل، كيف وقد روى أن المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان . وفى حديث غريب: «إن للمرأة عشر عورات . فإذا تزوجت ستر الزوج عورة واحدة، فإذا ماتت ستر القبر عشر عورات» .

وجامع حق المرأة على الرجل ما سئل عنه رسول الله ﷺ، ف قيل: ما حق المرأة على زوجها؟ فقال: «يطعمها إذا طعم، ويكسوها إذا اكتسى، ولا يقبّح الوجه، ولا يضرب إلا ضربًا غير مبرّح، ولا يهجر إلا في البيت»^(١) .

فإن أمرها بما يصلحها مما أبيح لهما فخالفته وعظها وزجرها، فإن عادت لخلافه هجرها في المضجع . فبعض العلماء يقول: يوليها ظهره، وبعضهم يقول: يعتزل فراشها في ليلة إلى ثلاث إلى سبع ليال، فإن لم ينجح فيها ذلك ولم تبال به ضربها، والعلماء يقولون: ضربًا غير مبرّح . وتفسيره: أن لا يكسر لها عظمًا، ولا يدمى لها جسمًا، وله أن يغضب عليها في الأمر من أمور الدين من عشرة أيام إلى شهر، فقد غضب رسول الله ﷺ شهرًا في كلام كلمه بعض أزواجه، فأرسل بهدية إلى بيت زينب فردتها عليه، فقالت له التى هو فى بيتها: لقد أقمتك إذ

(١) من أول هذه الفقرة ساقط من المطبوعة .

ردت عليك هديتك. فقال ﷺ: «أنتنَّ أهون على الله أن تُقِمِّنيني، ثم غضب عليهنَّ كلَّهنَّ شهراً». ومعنى أقممتك: استصغرتك وأذلتك. فهذه كلمة من الاتباع، تقول العرب: أذلتته وأقميته، ويقولون: لتفعلن كذا صاغراً قمياً، وما زال كذلك حتى ذلَّ وقمى، فيبتغون بهذه الكلمة السبَّ بالتصغير والتذلل، للمبالغة في الوصف.

ولا ينبغي أن يقتَر على أهله في الإنفاق. وروينا عن رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله». وكان لعلى عليه السلام أربع نسوة، وكان يشتري لكل واحدة في كل أربعة أيام بدرهم لحماً. وقال الحسن: كانوا في الرحال مخاصيب، وفي الأثاث والثياب تقارب. وقال ابن سيرين: أستحب للرجل أن يعمل لأهله في كل شهر فالزوجة، وإن كانت من أهله زلة أو هفوة احتمل ذلك، ورفق بها ولم يعسفها. وفي الحديث: «خلقت المرأة من ضلع أعوج إن قومته كسرته، وإن تركتها استمعت بها على عوج». وفي لفظ حسن: «وكسرها طلاقها».

وقد كان أزواج النبي ﷺ يراجعنه القول، وتهجره إحداهنَّ يوماً إلى الليل، ودفعت إحداهن في صدره، فزجرتها أمها، فقال: دعيها، فإنهن يصنعن أكثر من هذا.

وجرى بينه وبين عائشة رضي الله عنها كلامٌ حتى أدخل أبا بكر رضي الله عنه بينهما حكماً واستشهده، فقال لها رسول الله ﷺ: «تكلَّمين أو أتكلَم»، قالت: بل تكلم أنت، ولكن لا تقل إلا حقاً، فلطمها أبو بكر رضي الله عنه حتى دَمِيَ فُوها وقال: أى عدوة نفسها، أو يقول غير الحق؟ بل أنت وأبوك تقولان الباطل، ولا يقول رسولُ الله ﷺ إلا حقاً، نصرةً لرسول الله ﷺ وغضباً له، حتى استجارت بالنبي ﷺ، وقعدت خلف ظهره، فقال له النبي ﷺ: «لم ندعك لهذا، ولم تُرد هذا منك».

وقالت له مرة في كلام غضبت عنده: أنت الذى تزعم أنك نبي؟ فتبسم رسولُ ﷺ حلماً وكرماً. وكان رسول الله ﷺ يقول لعائشة رضي الله عنها: إنى لأعرف غضبك من رضاك. قالت: وكيف تعرفُ ذلك؟ قال: إن رضيتِ قلتِ: لا وإله

محمد، وإذا غضبت قلت: لا وإله إبراهيم. قالت: صدقت، إنما أهجر اسمك.
وقد كان ﷺ يمزح مع أزواجه، ويقاربهن في عقولهن في المعاملة والأخلاق.
وفي الخبر: «كان رسول الله ﷺ من أفكه الناس مع نسائه». وقد كان لقمان
الحكيم يقول: العاقل في بيته ومع أهله كالصبي، فإذا كان في القوم وجد رجلاً.
وفي تفسير الخبر المروى: «إن الله يبغض الجعظري الجواظ» قيل: هو الشديد على
أهله، المتكبر في نفسه. وفي أحد المعاني في قوله عز وجل: ﴿عُتِلَّ بَعْدَ ذَلِكَ
زَيْمٌ﴾ [القلم: ١٣]. قيل: الفظُّ اللسان الغليظ القلب على أهله، وما ملكت يمينه.
وروينا في الخبر: «غيرة يبغضها الله عز وجل: غيرة الرجل على أهله في غير
ريبة»، كأنه يكون من سوء الظن الذي نهى الله عز وجل ورسوله عنه.

وروينا عن عليٍّ رضي الله عنه: لا تكثر الغيرة على أهلك فترمى بالسوء من
أجلك. ولعمري إن الغيرة لها حدٌّ، فإذا جاوزها الرجلُ قصرَّ عن الواجب، وزاد
على الحق. وقد كان الحسن يقول: أتدعون نساءكم يزاحمن العلوج في الأسواق،
قبح الله من لا يغار. وقد قال ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ: «لا
تمنعوا إماء الله مساجد الله»، فقال بعض ولده: بلى والله تمنعن، فضربه وغضب
عليه وقال: تسمعنني أقول: قال رسول الله ﷺ: لا تمنعوهن وتقول: بلى تمنعن؟
وقد قال الله عز وجل: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

وقال بعض الحكماء: من جاوز الشيء المذموم كمن قصر عنه.

فلا بأس بالحرّة العفيفة أن تخرج لشيء لا بد لها منه من قضاء حوائجها، قال
رسول الله ﷺ: «أُذِنَ لَكُنَّ أَنْ تَخْرُجْنَ فِي حَوَائِجِكُنَّ، كَذَلِكَ تَخْرُجْنَ فِي الْأَعْيَادِ
خَاصَّةً»، أطلق ذلك لهنّ رسول الله ﷺ ولكن لا يخرجن إلا بإذن أزواجهن وعن
رضاهم. ولا يخرجن أيضاً إلا فيما يعنى مما لا بدّ منه، ومهما استغنين عن الخروج
وأن لا يراهن رجل فهو أفضل لهنّ، وأصلح لقلوبهنّ. وروينا أن رسول الله ﷺ
قال لابنته فاطمة عليها السلام: «يا بنية، أى شيء خير للمرأة؟ فقالت: أن لا ترى
رجلاً ولا يراها رجل، فضمها إليه، وقال: ذرية بعضها من بعض».

وكان أصحاب رسول الله ﷺ يسدون الثقب والكوى فى الحيطان؛ لئلا يطلع النسوان. وروينا أن معاذاً رأى امرأة تطلع من كوة فى الجدار فضربها. وأن امرأته دفعت إلى غلام لها تفاحة قد أكلت بعضها فضربها. وقد كان عمر يقول: أعروا النساء يلزمن الرجال. وقال أيضاً: عودوا نساءكم لا. وتكلم مرة فى شيء من الأمر، فأخذت امرأته تراجعته فى القول فزبرها، وقال: ما أنت لهذا، إنما أنت لعبة فى جانب البيت، إن كانت لنا إليك حاجة وإلا جلست كما أنت.

وهو مأجور على احتماله هفوات أهله وصبره على أذهن، ومثاب على حسن عشرتهن. وقد كان محمد ابن الحنفية يقول: ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بداً، حتى يجعل الله له منه فرجاً ومخرجاً. فإن كانت بذية اللسان، قليلة القبول، عظيمة الجهل، كثيرة الأذى، فطلاقها أسلم لدينهما، وأروح لقلوبهما فى عاجل دنياه وآجل آخرته. وقد شكى رجل إلى رسول الله ﷺ بذيء امرأته، فقال له: طلقها، فقال: إني أحبها. قال: أمسكها إذاً، فخشى عليه تشتت همّه بفراقها مع المحبة، وتشتت همّ أعظم من أذى الجسم.

وفى معنى قوله عز وجل: ﴿لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ [الطلاق: ١]. قال ابن مسعود: إذا بدت على أهلها وأذت زوجها فهو فاحشة. وهذا يعنى به فى العدة، لأن الله يقول: ﴿أَسْكُنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ﴾ [الطلاق: ٦]، فهو متصل بقوله: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١] أى فى العدة. ومن الناس من يظن أن الطلاق محظور يتأول هذه الآية على غير تأويلها، فالطلاق مباح إلا أنه مكروه بغير سبب لتفرقة الألفة. وقد يروى فى خبر: «ما أحل الله شيئاً أبغض إليه من الطلاق».

ولا بأس أن تفتدى المرأة من زوجها إذا خافت أن لا تقيم حدود الله فيه، ولا تقوم بواجب حقوقه عليها، وأكره أن يأخذ فى الفدية أكثر مما أعطاه، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وهذا هو الخلع الجائر عند أكثر العلماء. ولا يحل لامرأة أن تسأل

زوجها طلاقها، ولا أن تختلع منه بغير رضاه، قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلْتَ زَوْجَهَا طَلَاقَهَا مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ لَمْ تَرْحَ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ». وفي لفظ آخر: «فالجنة عليها حرام». وقال: «المختلعات هنَّ المنافقات».

والنشوز قد يكون من الزوجين معاً، إلا أنه أُبِيح للزوج ضربها في النشوز، وأُبِيح لها الصلح في نشوز الزوج، قال الله عز وجل: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]. وأصل النشوز أن يعلو أحدهما على صاحبه ويرتفع عنه، كأنه يجفو عليه ويجتنبه، فيكون في نحوٍ غير نحوه، فيكون من هذا الكلام الفاحش، ويكون منه الأذى، ويكون منه الهجر والانفراد، ويحكم الحكمان في هذا، أحدهما من أهله والآخر من أهلها، يعدلون وينظرون فيما بينهما. وقد وعد الله عز وجل الغنى مع الفرقة، كما وعده مع النكاح، فقال: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ [النساء: ١٣٠]. كما قال: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٢]. فقد يكون الغنى بالمال، ويكون بأن يستغنى كل واحد منهما عن صاحبه بما خصه الله عز وجل من خفى لطفه.

وجاء في خبر: «ثلاث لا يُستجاب دعوتهم: رجلٌ له امرأةٌ سوءٌ يقول: أراحني الله منك، وقد جعل الله الطلاق بيده إن شاء طلق، والآخر في المملوك السوء، وجار السوء».

وليُحسن الرجل عشرة أهله والقيام بهنَّ، فقد قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤] أى لا تطلبوا طريقاً إلى الفرقة، ولا إلى خصومة ومكروه، وهذه حينئذ على صورة الأنفس المطمئنة، إذا استجابت للإيمان وطوَّعت لك إلى أخلاق المؤمنين فتولَّها من الإرفاق، وارفق بها في منالها من المباح. وقد شبه الله عز وجل حُسن القيام على الزوجة بحسن القيام على الوالدين، فقال فيهما: ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]. وقال في أمر النساء: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]. ثم أجمل في النساء ما فرقته من حق الزوج في كلمة واحدة فقال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وقال في عظيم حقهن: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١]. وقال عز وجل: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ [النساء: ٣٦]. قيل: هي المرأة.

وآخر ما أوصى به رسول الله ﷺ ثلاثٌ كان يتكلم بهنَّ حتى تلجج لسانه وخفى كلامه، جعل يقول: «الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم، لا تكلفوهم ما لا يطيقون، والله الله في النساء، فإنهنَّ عَوَّارٍ في أيديكم - يعني أسرى - أخذتموهنَّ بعهد الله، واستحللتم فُرُوجهنَّ بكلمة الله».

وسئل رسول الله ﷺ: «ما حقُّ المرأة على الرجل؟ قال: يُطعمها إذا طَعِمَ، ويكسوها إذا اكتسى، ولا يقبِّح الوجه، ولا يهجر إلا في البيت».

وينبغي أيضاً إذا أراد النكاح أن يتعلم ما تحتاج إليه المرأة من حسن العشرة، والقيام بما لها عليه، وجميل المداراة، ولطف المفاوضة، ويعلمها حسن قيامها بما يجب له عليها، ويعرفها ما أوجب الله له عليها من ذلك.

ولا تملك المرأة شيئاً من أمرك، فإن الله عز وجل قد ملَّكَ إياها، فلا تقلب بهواك حكمة الله، فينقلب الأمر عليك، فكأنك قد أطعت العدوَّ ووافقته في قوله: ﴿وَلَا مَرْئِهِمْ فَلْيَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩]. وقد قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥] يعني النساء والصبيان، ومنه قول النبي ﷺ: «تَعَسَّ عبد الزوجة»؛ لأنه إذا أطاعها فيما تهوى دخل تحت التعس، فكأنه قد بدلَّ نعمة الله كُفْرًا؛ لأن الله عز وجل جعله سيدها، في قوله عز وجل: ﴿وَأَلْفَيْاً سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥] يعني زوجها. قال الحسن: ما أصبح اليوم رجل يُطيع امرأته فيما تهوى إلا أكبه الله في النار.

ولا يعودها عادةً فتجترئ عليه، وتطلب المعتاد منه، فهي على مثال أخلاق النفس سواء، إن أرسلت عنانها جَمَحَتْ بك، وإن أرخيت عنانها فترًا جذبتك ذراعًا، وإن شددت يدك عليها وكَبَحَتْها ملكتها، فلعلها أن تطوَّع لك.

وكان الشافعي رضى الله عنه يقول: ثلاثة إن أكرمتهم أهانوك، وإن أهنتهم أكرموك: المرأة والخادم والنبتى.

وكان نساء العرب يعلمن أولادهن اختبار أزواجهن. كانت المرأة إن أنكحت ابنتها قالت: يا بنية، اختبرى حليلك قبل أن تقدمي عليه، انزعى زج رُمحه، فإن سكت لذلك فقطعى اللحم على ترسه، فإن أقر فكسرى العظام بسيفه، فإن صبر فاجعلى الإكاف على ظهره وامتطيه فإنما هو حمار.

وأوصى أسماء بن خارجة الفزارى، وكان من حكماء العرب، ابنته ليلة زفافها فقال: يا بنية، قد كانت والدتك أحق بتأديك منى لو كانت باقية، وأما الآن فإنى أحق بتأديك من غيرى، افهمى عنى ما أقول: إنك قد خرجت من العُش الذى فيه درجت، وصرت إلى فراش لا تعرفينه، وقرين لم تألفيه، كونى له أرضاً يكن لك سماء، وكونى له مهاداً يكن لك عماداً، وكونى له أمةً يكن لك عبداً، ولا تلحفى به فيقلاك، ولا تتباعدى عنه فينساك، إذا دنا فأقربى منه، وإن نأى فابعدى عنه، واحفظى أنفه وسمعه وعينه، لا يشم منك إلا طيباً، ولا يسمع إلا حسناً، ولا ينظر إلا جميلاً، وأنا الذى أقول لأملك ليلة بنائى بها:

خذى العفة منى تستديمى مودتى

ولا تنطقى فى سورتى حين أغضبُ

ولا تنقرينى نقرَكِ الدف مرةً

فإنك لا تدرين ماذا المغيبُ؟

فإنى رأيتُ الحبَّ فى القلب والأذى

إذا اجتمعا لم يلبث الحبُّ يذهبُ

وأوصى بعض العرب بنيه فقال: لا تنكحوا من النساء ستاً: أئانة، ولا منانة، ولا حنانة، ولا حداقة، ولا برآقة، ولا شداقة. تفسير ذلك: الأئانة: هى التى تعصبُ رأسها كثيراً، وتكثر الأئين والتوجع والتشكى. والمنانة: التى تمنُّ على زوجها، تقول: فعلتُ بك وفعلتُ فأنا أفعل وأفعل. والحنانة: تكون على وجهين؛ تكون ذات ولدٍ من غيره فهى تحنُّ إليه، وقد تكون ذات زوجٍ قبله فيحنُّ قلبها إليه. وقوله: حداقة: هى التى تومئ بحداقتها فتشترى كلَّ شىء، وتطالب

زوجها بما تشتهي من كل شيء، وقد تلحظ الرجال كثيراً، كما يلاحظ بعض الرجال النساء. والبراقة: تحمل تأويلين؛ أحدهما: أن تكون غضوباً في الطعام، فتبرق لقلته، أو لسوء خلقها، ولا تكاد البراقة للمأكل أن تأكل إلا وحدها لشهرها، وتكون أيضاً تستقل نصيبها من كل شيء، وهذه لغة يمانية نعرفها فاشية عندهم، يقال: قد برقت المرأة، وبرق الصبي الطعام: إذا غضب عليه، والوجه الثانى من البراقة: أن تكون من البريق؛ أن تكثر صقال وجهها وخضابه فتتصنع فى بروقه أبداً. وأما الشداقة: فهي التى تشدق بكثرة الكلام، وتكون ذربة اللسان مفوهة فى النطق.

ومن ذلك الخبر الذى جاء: «إن الله عز وجل يبغض الثرثارين من المتشدين». وفى قصة الرجل السائح الأزدى أنه لقي إلياس عليه السلام فى سياحته، فأمره بالتزويج وقال: هو خير لك، ونهاه عن التبتل وقال: لا تنكح من النساء أربعاً وأنكح من سواهن: المختلة، والمبارية، والعاهر، والناشر. فالمختلة: هى التى تطلب الخلع من زوجها من غير ما بأس وهو مع ذلك يحبها. والمبارية: المباهية لغيرها، المفاخرة بأسباب الدنيا التى تطلب من زوجها ما تباهى به غيرها، وتفتخر به على نظائرها. والعاهر: الفاجرة التى تُعرف بحليل أو خدن، وهو الذى قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تُتَّخَذَاتِ أَخْدَانٌ﴾ [النساء: ٢٥]. والناشر: التى تعلو على زوجها فى الفعال والمقال.

وقد كان على عليه السلام يقول: شرارُ خصال الرجل خيارُ خصال النساء: البخلُ والزَّهو والجُبْن. فإن المرأة إذا كانت مزهوة - أى معجبة - استنكفت أن تكلم الرجال، وإذا كانت جبانةً فرقت من كل شيء فلم تخرج من بيتها.

وأكره العزل كراهيةً شديدةً، فإنه دقيقة من الشرك الخفى، وفيه نهى رسول الله ﷺ. وكرهه جماعة من السلف الصالح، ولم يكن خيار المتقين يعزلون. وأقل ما فيه: الخروج من التوكل على الله عز وجل، وقلة الرضا بحكم الله تعالى. وكان ابن عباس رضى الله عنه يقول: العزل هى الموءودة الصغرى. فلقوله هذا استنباط حسن من السنة؛ وذلك أنه روى عن النبى ﷺ فى فضائل الجماع: «إن الرجل

ليجتمع أهله فيكتب له من جماعه أجرٌ ولدٌ ذَكَرٌ قاتل في سبيل الله عز وجل .
ف قيل له : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ فقال : أنت خلقتَه ، أنت رزقته ، أنت هديته ،
إليك محياه ، إليك مماته ؟ قالوا : بل الله خلقه ، ورزقه ، وهده ، وأحياه ، وأماته .
قال : فأقره قراره . المعنى في هذا : يقول : إذا جامعَت فأمَنت في الفرج ، وقد
قال الله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ [الواقعة : ٥٨ -
٥٩] . فإذا لم يخلق الله من منيِّك خلقًا حسب لك كأنه قد خلق منه ذَكَرًا على
أتمِّ أحواله ، وأكمل أوصافه ، بأن يقاتل في سبيل الله فيقتل ، لأنك قد جئت
بالسبب الذي عليك ، وليس عليك خلقه ولا هديته ، وإنما يقدر على ذلك الله عز
وجل ، وهو فعله مجردًا ، فكان لك أجر ما لو فعله الله تعالى إذا قد آتيت بما
أمكنك عمله ، فلذلك قال ابن عباس : هو الموءودة الصغرى ؛ لأنه يوجد العزل
بعدم هذا الفضل ، إذ كان العبد سبب عدمه ، لأنه لم يفعل ما يتأتى منه الولد ،
فذهب فضله وحسب عليه قتله .

وإنما قلنا : إن العزل دقيقة من الشرك ؛ لأنَّ أهل الجاهلية كان سبب قتلهم
بناتهم معانٍ أحدها : خشية العار بهنَّ ، ومنها : كراهة الإنفاق عليهن ، ومنها :
الشحّ وخوف الفقر والإملاق . وكان العرب من وُلد له بنون وبنات ، فمات البنون
وعاش البنات ، سموه أبتَر ، وذموه بذلك . وكان رسول الله ﷺ بهذا الوصف
الذى يكرهون ، مات ولده الذكور الأربعة ، وهم : القاسم ، وبه كان يُكنى في
الجاهلية ، والطيب ، والطاهر ، وإبراهيم ، وكلهم من خديجة ، إلا إبراهيم فإنه من
الجارية المصرية التى أهداها إليه المقوقس ، ملك الإسكندرية . وعاش بناته الأربع :
زينب ، وهى الكبرى ، التى زوّجها العاص بن الربيع فى الجاهلية ، ورقية وأم كلثوم
اللتان أنكحهما عثمان ، وفاطمة التى زوّجها عليًا عليهما السلام ، وكلهن من
خديجة ، ومتنَّ قبله إلا فاطمة ، فإنها ماتت بعده بأربعين يومًا^(١) . فلذلك كان
يسمونه مذممًا ؛ أى مذمومًا عندهم . ومنه سبَّه العاص بن وائل حتى قال : إنك
أبتَر ، فردَّ الله عز وجل عليه فقال تعالى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ [الكوثر : ٣] . أى

(١) من أول قوله : « الأربعة وهم » إلى هنا ساقط من المطبوعة .

لا ذِكْرَ لكَ بعد موتك، قد انقطع ذكرك بموت الذكور من ولدك، فقال الله عز وجل: **بَلْ ﴿إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾** ، الذى ينقطع ذكره وثناؤه فلا يُذكر بخير بعد موته، فأما أنت فقد رفعتُ لك ذكرك، تُذكر معى إذا ذُكرتُ.

وكانت العرب تقول: مَنْ كَنَّ له أحد الحُوبات الثلاث؛ لم يشرفْ عشيرته، ولم يسُدْ قومه، يعنون بالحبوب: الأم والأخت والبنت، والحبوبات: جمع حُوب، وهى الكبيرة، قال الله تعالى فى أكلكم أموال اليتامى ظُلْمًا: **﴿كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾** [النساء: ٢]. عندي: ليس هذا الذى قلتم عندكم. وكان من خيار التابعين المؤمنين من يستحب له الجمع بين هؤلاء الثلاث: الأم والأخت والبنت، لما فيهن من عظيم المثوبة والفضل، ليخالف بذلك سنة الجاهلية. فقد توجد هذه المعانى أو بعضها فى العزل، فلذلك سميناه شركًا وكرهناه.

وهو مذهب الخوارج من النساء، كان فيهن تقزُّز^(١) وتعمق من استعمال كثرة الماء للطهارة، ودخول الحمامات، ومجاوزة الحد فى الطهور. وكنَّ أيضًا يقضين الصلاة أيام الحيض، ويصُمنَ فى حيضهن، ولا يصلين فى ثياب الحيض حتى يغسلنها، ولا يدخلن الخلاء إلا عُراءَ، وكانوا يكرهون الولادة طلبًا للنظافة والتقزُّز، خلافًا لسنة نساء الصحابة، فابتدعوا هذه البدع، ففارقوا بها سنة رسول الله ﷺ وسنن نسائه، وهنَّ أنباطُ العراق وأهلُ النهر. وكان بعضهن دخل على عائشة رضى الله عنها لما قدِمَت البصرة، فلم تأذن لهن فى الدخول عليها. وأيضًا فإن الله ورسوله ندبا إلى اتخاذ الولادة بقوله تعالى: **﴿فَأَتُوا حَرَثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لَأَنفُسِكُمْ﴾** [البقرة: ٢٢٣]، قيل: الولد. وقول رسول الله ﷺ: «تناكحوا تناسلوا فإنى مكاثرٌ بكم الأمم يوم القيامة». وقوله ﷺ: «خيرُ نسائكم الودودُ الولود». وقوله ﷺ: «سوداء ولودٌ خيرٌ من حسناء لا تلد، وحصيرٌ فى البيت خيرٌ من امرأة لا تلد». والعازل مسقط لهذا الندب.

ويقال: إن المرأة أشهى ما تكون إلى الجماع إذا طهرت من الحيض. وفى هذا

(١) التقزُّز: التباعد من الدنس والمعاييب تنزهًا.

الوقت أكثر ما تعلق النساء بالحمل، وأحمد ما يكون المولود عاقبة إذا علق به قبل الطهر. فهذه المعاني عقّب الله عز وجل الأمر بالجماع والولد بعد الطهر في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. ولأضدادها في الكراهة والذمّ أمر الله تعالى باعتزال النساء في الحيض. ويقال: إن كان منه ولد كان مجنوناً أو مجذوباً أو مختلاً، أو في حاله وعقله تخبّل؛ لأنه كان غرسه في سبخة من الأرض، فلم يزرع ولم يُزكّ، ومن زرع من حرث طيب زكا زرعه، وهو الغشيان في الطهر، فلذلك قال: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾.

وقد رخص طائفة في العزل. روينا في ذلك رخصة عن رسول الله ﷺ. وقد كان سعد يعزل، وقد أنكر على عليه السلام على ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: إنّ العزل هو الموءودة الصغرى، وقال: إنها لا تكون موءودة إلا بعد سبع، ثم تلا قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير: ٨] أنها ذكرت بعد سبع، ثم تلا قوله عز وجل آية تنقيل الخلقة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤] أى في نفخ الروح فيه، قال: فلا يكون موءودة مقتولة إلا بعد هذه السبع الخصال، ولأن الله عز وجل ذكرها في «كورت» بعد سبع معان، ثم جمع بينهما في الفهم فاستنبط ذلك. وهذا من دقيق العلم، وغامض الفهم، ولطيف الاستدلال الذي تفرّد به عليه السلام، لثقوب علمه، ونفاذ فطنته، وخفى استدلاله.

فلا يجامعهنّ حتى يطهرن. فإذا تطهرن، يعنى بالماء. ويكره الجماع مستقبل القبلة؛ لحرمه القبلة. وفي الخبر: «إذا جامع أحدكم أهله فلا يتجرّداً تجرّد العيرين» يعنى الحمارين. وروينا أنّ رسول الله ﷺ كان إذا جامع غطى رأسه، وخفض صوته، وقال للمرأة: «عليك بالسكينة». ومن جامع مرة وأراد العود، فليغسل فرجه قبل ذلك. فإن احتلم فلا يجامع حتى يغسل فرجه أو يبول، فإن جامع بعد الاحتلام من غير غسل خيف على ولده إن كان من جماعه أن يصيبه لممّ من الشيطان.

ويكره له الجماع في ثلاث ليالٍ من الشهر: في أول ليلة، وفي آخر ليلة، وفي ليلة النصف^(١)، يقال: إن الشيطان يحضر الجماع في هذه الليالي. وقيل: إن الشياطين يجامعون فيها. وروى عن علي عليه السلام كراهة ذلك، وعن أبي هريرة ومعاوية رضي الله عنهما. ومن العلماء من كان يستحب الجماع في يوم الجمعة؛ لأحد التأويلين من قوله ﷺ: «مَنْ غَسَلَ واغْتَسَلَ» أى غَسَلَ أهله.

ويكره الجماع في أول الليل لثلاثين على غير طهارة، فإن الأرواح تعرج إلى العرش، فما كان منها طاهراً أُذن لها في السجود، وما كان جنباً لم يُؤذن لها. والرؤيا أيضاً على طهارة من غير جنابة وعلى وضوءٍ أصح وأفضل، إلا أن يغتسل ثم ينام، فإن لم يغتسل وجامع فلا ينام ولا يطعم حتى يتوضأ وضوءاً للصلاة. وقد جاء رخصة في النوم بعد الجماع من غير أن يمس ماءً، فعله رسول الله ﷺ. وأنا أكره أن يحلق الرجل رأسه، أو يقلم ظفره، أو يستحذ، أو يخرج دماً وهو جنب، فإن العبد يرد إليه جميع شعره وظفره ودمه يوم القيامة، فما سقط منه من ذلك وهو جنب رجع إليه جنباً. وقيل: طالبتة كل شعرة بجنابتها.

وقد روينا معنى هذا في حديث مقطوع موقوف عن الأوزاعي ويحيى بن كثير، قال الأوزاعي: قد كنا نقول: لا بأس أن يطأ الجنب، حتى سمعنا بهذا الحديث، والنص فيه على النهي أن يطأ الرجل جنباً.

ولا يحل للرجل من امرأته إلا الفرج لا غير، على أى حال شاءوا من جامع، فليتمهل على أهله، وليتوقف حتى تقضى هي نهمتها، كما قضى هو نهمته، فربما تأخر إنزال المرأة بعد الرجل، فيكون ذلك كريهاً إليها، فإن علم أنها قد سبقت بالشهوة لم يحتج إلى توقف، وليس يخفى سبقها بالشهوة على فطن.

وأوفق ما يكون الجماع بينهما إذا اتفقت الشهوتان منهما معاً، وأكثر ما يكون التباغض بين الزوجين لاختلافهما من طبع الإنزال، أن يكون طبعه سابقاً لطبعها أيضاً.

وقد كان بعض العلماء من الأدباء لا يتأخر عن المرأة حتى يستأمرها في ذلك،

(١) لم يثبت ذلك من سنة النبي ﷺ، ولم يثبت خصوصية هذه الأيام بحضور الشيطان.

وينبغي أن يُعلمها؛ لأن المرأة إذا بلغت واحتلمت وجب عليها الغسل، كما يجب على الرجل، فإن في ذلك سنة، لأن أم سليم سألت عن ذلك رسول الله ﷺ، فأمر بذلك، قال: «نعم النساء نساء الأنصار، لا يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين».

وإذا كانت المرأة حائضاً ائترت بمئزر صغير من حقوئها إلى أنصاف الفخذين، وكان له المتعة بجميع جسدها كيف شاء إلا تحت المئزر، وهذا مذهب فقهاء الحجاز، وهو أحب الوجهين إلى.

وبعض علماء أهل العراق يجوز من الحائض المباشرة لما تحت خلا الفرجين، ولا يعجبني هذا، ولا حرج عليه من الاستمتاع ببدنها.

وأستحب للرجل إذا دخل في لحافها أن يأتزر بحقو صغير يكون في وسطه وهو المئزر، لئلا يتجرد عرياناً، فإن هذا من الأدب. ويضاجع الرجل الحائض كيف شاء، وتناوله ما شاء، أو يؤاكلها، ولا يجانبها في شيء من الأشياء إلا الجماع في الفرج؛ اتفقوا عليه، واختلفوا فيما دونه. فذكر أهل الحجاز كما ذكرناه آنفاً وهو استحباب، واتفقوا على تجويز ما فوق المئزر من السر إلى أنصاف الفخذين.

فينبغي للمتزوج أن يعرف حكم الطلاق، فإن عرض عليه طلاق طلق واحدة واحدة في طهر لا جماع فيه، لأن التولية الواحدة إذا انقضت عدة المرأة منها بحيض أو أشهر تعمل عمل التحريم بالثلاث سواء، إلا أنه يربح في التولية الواحدة أربع خصال:

أحدها: موافقة الكتاب والسنة من قوله عز وجل: «فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ» [الطلاق: ١]. وفي قراءة عمر وابن عباس رضي الله عنهم بيان ذلك: «فَطَلَّقُوهُنَّ لِقَبْلِ عَدَّتِهِنَّ» فقد دل أن الإقراء هي الأطهار، وكذلك هو عندي. وإن تكافأ ذلك في اللغة؛ وتساوى في المعاني؛ بأن يكون الحيض أيضاً.

والثانية: تيسير العدة عليها، وسرعة خروجها منه، ليحتسب بالطهر الذي طلقها فيه من غير جماع قرءاً، فتستعجل الخروج من العدة، لأنها من حدود الله عز وجل، ويربح هو أيضاً إن ندم على طلاقها كان له رجعتها في العدة من غير

إحداث عقد ثانٍ، ولا مهر آخر. وإن أحب رجعتها بعد انقضاء العدة كان له تزويجها ثانية من غير زوج ثانٍ تحدّثه، وهذا كله معدومٌ مع الثلاث دَفْعَةً واحدةً، وموجود فيه التحريم، ثم مع خلافِ السُّنَّةِ، وإن ندم لم يجعل الله له مخرجاً، لأنه لا تحل له إلا بعد زوجٍ، ويخسر العبد خروج المرأة من يده، فإن ابتلى بهواها يحتاج أن ينتظر فراغ الزوج الثاني، أو التجأ أن يعمل في تزويجها لغيره، فيكون محللاً لنفسه، ومُفسداً لنكاح الثاني بالتحليل، فيقع في ثلاثة معانٍ من المعاصي. وقد لعن رسولُ الله ﷺ المحلل والمحللَ له. وقال بعض العلماء: إن نكاح الأول بعده على التحليل لا يجوز أيضاً.

وهذا كله ثمرة الجهل ومخالفة السنة. وقد قال الله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾. ثم قال: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١] يعني: ندماً من المطلق، أو حباً رجعة. فإذا كان قد طلق تطلقاً واحدة، أو اثنتين، حلَّت له من العدة من غير عقد، وبعد انقضائها بغير زوج، ثم قال: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢] أى: مَنْ يتقى الله فيطلق في العدة يجعل له مخرجاً في جواز الرجعة، كما ذكرناه. ومن طلق ثلاثاً مرةً واحدةً، أو طلق في الحيض، وقع الطلاق وحرمت المرأة، ولم تحل له إلا بعد زوج، إن كان قد خالف السنة، ووافق كراهة الأئمة، بآثار قد كثرت في ذلك عن رسول الله ﷺ، وعن عمر، وابنه، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وابن عباس، وجملة من الصحابة والتابعين.

والأصل فيما ذكرناه من العزيمة والرخصة في فعل النكاح وتركه قول الله عز وجل: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ﴾، فأمر بالنكاح وهو أعلم بالخير والصلاح، والأَيَامَى: جمع أَيْمٍ وهى التى لا بعل لها، وقد يسمى به الرجل الذى لا زوجة له أيضاً، كما يقال: ثيباً وبكرًا. ثم قال: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾، فلولا أن النكاح فاضلٌ ما خصَّ به الصالحين، وضمه إلى فضلهم، وهم أهل ولايته؛ لقوله عز وجل: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الاعراف: ١٩٦]. ثم قال: ﴿إِنْ

يَكُونُوا فَقَرَاءَ يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴿[النور: ٣٢].

والله أعلم بالأغنياء كيف هم. وقد يغنيهم بالأشياء، كقوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ [النجم: ٤٨]. وقد يغنيهم عن الأشياء، وهى القناعة والزهد. وقد يغنى نفوسهم عن الإعراض، لقول رسول الله ﷺ: «ليس الغنى بكثرة العرض إنما الغنى غنى النفس». وقد يغنيهم باليقين، كما قال أيضاً: «كفى باليقين غنى». وقد يغنيهم بغض البصر وتحصين الفرج، كما قال: «من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج».

ثم إن الله عز وجل قال فى الخبر الثانى من وَعَدَ الْغِنَى فى التفرق كذلك أيضاً فى قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ [النساء: ١٣٠]. فقد أجمل وجوه الإغناء كلها فى هذا المعنى الآخر أيضاً، ويزيد عليه الغنى بالعصمة والاستغناء عن المكاسب، وعن السؤال، والمحاسبة على الاكتساب، والغنى عن حال النساء وأحكامهن.

ثم قال فى الأمر الثانى من البيان الثانى: ﴿فَانْكَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾. فهذا أدون من الأول، لأنه علّقه باختيارنا إن طاب لنا، ثم رفع فيه الأربع توسعة منه وتفضيلاً لعلمه بعلاج القلوب، وطبائع النفوس، وتفاوت سكونها وحركاتها، ووجود كفايتها ومصالحها، ثم رَحِمْنَا فقال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣]. فرد إلى الواحدة، وهو الحال الأوسط بين الأربع، وبين التعزُّب، وخير الأمور أوسطها.

وفى قوله: ﴿أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ ثلاثة أوجه: تعدلوا: تجوروا، وهو أحسنها وأحبها إلى، لأنه يواطئ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾، لأن العدل ضد الجور، فعطف عليه فقال: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ أى تجوروا، من العدل. والعرب تقول: عال يعول عولاً إذا جار. والوجه الثانى: ألا تعولوا: تفتقروا؛ من العيلة وهى الفقر، يقال: عال يعيل عيلة وأعاله إذا افتقر، ومنه قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً

فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ. ومع العيال الفقر لا محالة. والوجه الثالث: تعولوا: تكثر عيالكُم، فيكون المعنى لذلك أقرب أن لا يكثُر من تعولونه، وحذفت الهاء التي هي اسم العيال، وهذا مذهب لبعض أهل الحجاز، يرجع إلى قوله: عال الرجل عياله يعولهم، مثل: مانهم يمونهم، ومارهم يميزهم، وصانهم يصونهم، فيكون مشتقاً من لفظ العيال.

والأولان أجود وأشهر، والله سبحانه ما افترض النكاح ولا العزبة، كما لم يوجب الأربع من النسوة، وافترض صلاح القلب، وسلامة الدين، وسكون النفس، والدخول في الأوامر عند الحاجة إليها. فمن كان صلاحه في التزويج فهو أفضل له، ومن كان استقامته وسكون نفسه عند الأربع فجائز له طلب السكون، وصحة الحال مع القيام بالأحكام، ومن وقعت كفايته بواحدة فالواحدة أصلح وأفضل، لأنها إلى السلامة أقرب، ومن كان صلاح حاله واستقامة قلبه وسكون نفسه في العزبة فذلك له أسلم، والأسلم لمثله في زماننا هذا أفضل، إذ لهذا يُراد النكاح، فإن وجد لم يضر فقده.

ولعمري أنا إذا قلنا إن في الدين طريقين: طريق عزيمة، وطريق رخصة، فإنه في النكاح أيضاً لأنه من الدين، وفي تركه يكون لأجل الدين طريقان: طريق الأقوياء، وهم أهل النكاح، والصبر على أحكامه، وعلى معاشره النساء، وطريق آخر: للأقوياء بالصبر عنهن ووجود العصمة منهن، والتفرغ للآخرة، وكفى بها شغلاً، وطريق آخر من وجود الوسوسة، وخوف العنت لقوة الطبع، وضعف الحال بوجود الاختلاط، فيبدأ بالنكاح طلباً للاستقامة والصلاح. وقد كان الثوري رحمه الله تعالى يقول:

يا حبذا العزبة والمفتاح ومسكنٌ تخرقه الرياح

لا صخبَ فيه ولا صياح

ولله الأمر من قبل ومن بعد، والحمد لله وحده.

الفصل السادس والأربعون

كتاب ذكر دخول الحمام

الأفضلُ في وقتنا هذا تركُ دخول الحمام؛ لكثرة العُراة فيه، والعجز عن القيام بأحكامه. إلا أن دخوله مباح. وقد اختلف رأى الصحابة عن مواجيدهم عنده، وكلُّ فيه قُدوة وهدى. فقال بعضهم: بُس البيتُ الحمام، يُبدي العورة، ويُذهب الحياء. وروى هذا عن ابن عمر رضى الله عنه، وعن على رضى الله عنه معناه.

وقال بعضهم: نِعَم البيتُ الحمام، ينفى الدَّرَنَ ويُذَكِّرُ النار. وروى هذا عن أبى الدرداء وأبى أيوب.

ودخل أصحابُ رسول الله ﷺ بالشام الحمامات. فمن كان داخلاً إلى الحمام، فلا يدخله لشهوة لعاجل حظ دنياه، ولا عابثاً لأجل الهوى، لأنه عملٌ من أعمال العبد، والعبدُ مسؤول عنه إذ كان محاسباً على جُمل أعماله، فيقال: لِمَ دخلت؟ وكيف دخلت؟ ولمن دخلت؟ كما يقال له في كل عمل فَعَلَه.

وفى دخول الحمام ثمانية أحكام: أربعة فرائض، وأربعة نوافل.

فأما الفرائض: فستر العورة، وغضُّ البصر، وأن لا يباشر جسده غير يده، وأن يأمر بالمعروف، وهو أن يرى عرياناً فيقول له: استتر، أو هذا حرام عليك، وهذا لا يحل لك، أو قد نهى رسول الله ﷺ أو حرَّم دخول الحمام يغير إزار؛ فأى هذه الألفاظ قاله سقط عنه ما وراء ذلك من كل شيء يراه من المنكر، وليس عليه القبول، ولا الإيجاب على المعروف، لأن هذا على الإمام القائم بصالح الدين، والداعى لرغبة المسلمين بالبطش والقوة والتمكين فى الأرض والتسليط، وهو ساقط عن الرعية بحمد الله ومنه.

فأما النوافل الأربع: فأن يرى الطهارة لأجل الدين، والنظافة للعبادة؛ لأن

الطهارة من أفضل أمور الآخرة والحمام غاية الطهر. وأن يعطى صاحب الحمام الأجرة قبل الدخول، وكذلك يستحب فى كل ما يشتريه أو يستعمله، خاصة الشيء المجهول مقداره؛ من شرب الماء، وأجرة الحمام، والذي لا يُتقاضى عليه ولا يُشترط فيه، فكأنه يكون غير معلوم، وإذا نظر الحمامى إليه صار معلوماً. والثالثة: أن لا يكثر صب الماء عليه من غير حاجة، ولا يستعمل ما يكفى رجلين وثلاثة، سيما من الماء الحار، فإن له مؤونة. ولا يستعمل من ذلك إلا ما لو رآه الحمامى لم يكره ذلك منه ولم يسوءه، وما علم أن الحمامى لو رآه يستعمله من الماء الكثير لشق عليه ذلك، فإنه مكروه له فى غيبه. والرابعة: أن يتذكر النار بحرارة الحمام، ولذع مسّه، وغشيان ظلمته، لأن الحمام فى الظلمة أشبه شئ بجهنّم؛ الحرارة من تحتك، والظلمة من فوقك، فهذا وصف جهنم نعوذ بالله منها، فليتذكر بقلة صبره على الحمام وعظم كربه فيه حبسه فى جهنم، وإنه لو أقام فى الحمام فضل ساعة لضعف روحه حتى يخرج خفقاً.

ويكون له فى الحمام موعظة وعبرة، إذ عبر أولى الأبصار ومواعظ أهل التقوى لا تنقضى، ولهم فى كل شئ عبرة وموعظة، وبكل شئ تذكرة؛ لأن الله عز وجل قد أحياهم حياة طيبة، وهذه علامة من كان له قلب، ومن مقامه المريد. ولا بأس أن يظهر ذكر الله عز وجل بالتسمية والاستغفار، ومكروه له قراءة القرآن إلا فى نفسه سرّاً، ولا يسلم على أحد فيه بلفظ السلام. وروينا أن رجلاً سلّم على الحسن بن على رضى الله عنهما فى الحمام فقال: ليس فى الحمام سلام.

فإن احتاج أن يكلم رجلاً فيه فلا بأس أن يأخذ بيده استئناساً للكلام، أو يقول له: عفاك الله، وأدام سلامتكَ. ومكروه له كثرة الكلام فيه، وأن يتكلم رجل بما لا يعنيه، ولكن يقول: بسم الله، إذا دخله، ويستعيز بالله من الرجس النجس الخبيث؛ الشيطان الرجيم، وليقدم رجله اليسرى إذا دخل، فإذا خرج قدم اليمنى على ضد فعله فى دخول المسجد وخروجه منه^(١).

وإن أعطى الحمامى أجرة ليُخلّيه له أجر على ذلك، وكان حسناً. قال بشر: ما

(١) من قوله: «وليقدم» ساقط من المطبوعة.

أعرف رجلاً لا يملك إلا درهماً أن يعطيه لخلوه الحمام. وكان بشر يعطى ليُخلى له الحمام، فكان يغلقه عليه من داخل ومن خارج، فإن وكيته جاريته للإطلاع في الحمام، إذا كان خالياً ستيراً، فلا بأس.

ولا يجوز دخول الحمام إلا بمترزين، مئزر لوجهه، ومئزر لعورته. قال بعضهم: رأيت ابن عمر رضى الله عنهما في الحمام مستقبلاً بوجهه الحائط، وقد عصب عينيه بعصابة ومدّ يده على الحائط. وقيل لإبراهيم الحربي: تصلى خلف شارب النبيذ. قال: نعم. قيل: فتصلى خلف من يدخل الحمام بلا مئزر. قال: لا. وقال مالك بن أنس: مَنْ دخل الحمام عرياناً لم تُقبل شهادته. إلا أنه قال: وإن كان عرياناً عند الحوض يغتسل من قعود قُبلت شهادته، فإن كان ناحية عرياناً فلا عدالة له^(١).

وأستحب له دخول الحمام الخالي من الزحام. ويكره دخول الحمام عند الغروب أو بين العشاءين، فإن تلك الساعتين وقت انتشار الشياطين. وليعرف بدخوله نعمة الله عز وجل، وتسخيره له من شاء من خلقه، بالتعب منهم والكد فيه، فهذا من لطيف أفضال الله عز وجل على المتنعمين به.

ومن دخل الحمام وقام بهذه الأحكام، كان دخوله أفضل؛ لأنّ له فيه أعمالاً كثيرة.

ودخل الأعمش فرأى عرياناً، فغمض عينيه، وجعل يتلمس الحيطان، فقال له العريان: متى كُفَّ بصرك يا هذا؟ فقال الأعمش: منذ هُتِكَ سترك.

وحكى الشافعى عن مالك رضى الله عنهما: ثلاثة أشياء فيها ذلٌّ: حضور مجالس العلم بغير محبرة ولا صحيفة، وركوب السفينة بلا زاد، ودخول الحمام بلا كَرْنِيب^(٢). قال: فقلت للشافعى رضى الله عنه: لم تذكر المئزر. فقال: قد أحسن، لأنّ ترك المئزر فسوق.

(١) من قوله: «وقال مالك» ساقط من المطبوعة.

(٢) الكرنيب: المجمع.

وقال النبي ﷺ: «دخولُ الحمام على النساء حرامٌ، وعلى الرجال إلا بمئزر». وقد كان عمر رضى الله عنه يقول: الحمام من النعيم الذى أحدثوه. وفى أحد الوجوه من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]، قال: الماء الحار فى الشتاء.

ولا بأس أن يباشره رجل بالتدليك خلا موضع العورة. حدثنى بعض إخوانى عن بعض أهل العلم أنه دخل معه الحمام، قال: فأردتُ أدلكه فامتنع. قال: ثم دخلت معه بعد ذلك، فجعلت أدلكه، فلم يمتنع، فقلت له: قد كنتَ امتنعتَ أول مرة. قال: لم أكن أعلم فيه أثراً، ثم وجدت بعد ذلك لضيغم الراشنى: أن رجلاً دلكه فى الحمام، فرأى على فخذه مكتوب «لله» بعرق فى جسده، فقال: أما تنظر؟! أما أنه ما كتبه إنسان.

وفى ذلك أيضاً أثر عن يوسف بن أسباط أنه لما حضرته الوفاة أوصى أن يغسله فلان إنسان لم يكن من أصحابه، ولا كان معروفاً بفضل، فقيل له فى ذلك، فقال: إنه قد كان مرةً دلكنى فى الحمام ولم أكافئه على ذلك، وأنا أعلم أنه يحب أن يغسلنى، فأوصيتُ إليه، فيكون ذلك مكافأةً منى له. ويصلح أن يستدل على ذلك أيضاً بتجويز غمز الجسد والظهر. فقد روينا عن رسول الله ﷺ أنه نزل منزلاً فى بعض أسفاره. قال بعض أصحابه: فذهبتُ أمشى أتخلل النخل، أو قال: الشجر، فإذا رسول الله ﷺ نائم على بطنه وعبدٌ أسود يغمز ظهره. فقلتُ له: ما هذا يا رسول الله؟ فقال: «أما أنَّ الناقةَ تَقَحَّمَتْ بى».

وغسل الرجلين بالماء البارد عند الخروج من الحمام أمان من النقرس، والنُّورة بعده قبل غسل الوجه يشيب اللحية، والحناء بعده يقال: إنه أمان من الجذام.

ويستحب أهل الطب البول قائماً فى الحمام بعد الإينار، وقبل غسل النورة. وأمر بعض أطباء العرب بالنورة فى كل شهر، وأخبر أنه يطفى الماراة، وينقى اللون، وأنها تزيد فى الجماع. ومن السنة الاستحداد فى كل أربعين يوماً، لا يستحب مجاوزة ذلك. وبعض أهل الطب يقول: بولةٌ فى الحمام فى الشتاء أنفعُ من شربة دواء، والبولُ فى المستحم مكروه من جهة السنة. وقيل: إن البول فى

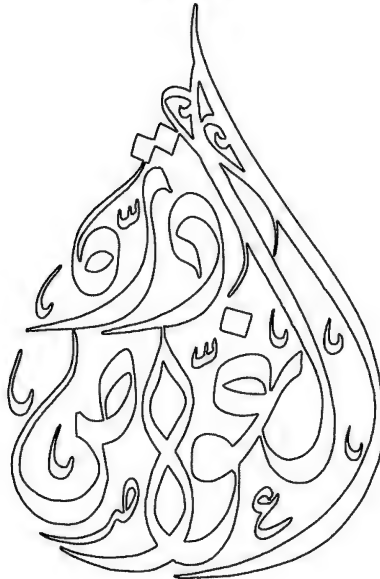
المستحم يورث الوسواس .

وبعض أهل الطب يقول: نومة في الصيف بعد دخول الحمام تعدل شربة دواء .
ويستحبون أيضاً الغسل بماء بارد بعد نومة في الصيف، وأنه نافع للجسد .
ويقال: إن الإنسان إذا جاوز الأربعين سنة نقص في كل يوم إلا اليوم الذي يدخل فيه الحمام .

وإن الحمام عندهم في الصيف أنفع منه في الشتاء، ويكره شرب الماء البارد عند الخروج من الحمام .

وحرم رسول الله ﷺ دخول الحمام على النساء، وحرمه على الرجال إلا بمئزر، فإن دخلت المرأة الحمام ضرورةً من علّة أو حيض أو نفاس أو في شتاء فلا بأس . وقد دخلت عائشة رضي الله عنها من سقم كان بها .

وكيّن الرجل امرأته وأهله عن دخول الحمام، فإن لم يقبلن لم يحلّ له أن يعطيهن أجرة الحمام، وكان الأمر عليهن . ولا يحل لمسلمة في الحمام أن يليها للخدمة ذمّية، فقد نهى عمر وأبو عبيدة رضي الله عنهما عن ذلك . وأكره للرجل أن يعطى امرأته أجرة الحمام، فيكون معيّناً لها على الإثم، فإن نهاها فخالفته كان الإثم عليها .



الفصل السابع والأربعون

فى ذكر حكم المتسبب للمعاش،
وما يجب على التاجر من شروط العلم

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [البأ: ١١]. فذكره فيما عدد من آياته ونعمته. وقال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَاشًا قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]. فجعل المعاش نعمة طالب بالشكر عليها.

وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «من الذنوب ذنوبٌ لا يكفرها إلا الهَمُّ بطلب المعاش». وقال ﷺ: «أحلُّ ما أكل المرء من كسب يده، وكلَّ عمل مبرور». وفى لفظ آخر: «أحلُّ ما أكل العبد من كسب يد الصانع إذا نصح». وفى الخبر: «التاجر الصدوق يُحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء».

وقد جاء فى الحديث: «من طلب الدنيا حلالاً، وتعفُّفاً عن المسألة، وسعيًا على عياله، وتعطفًا على جاره، لقي الله عز وجل ووجهه كالقمر ليلة البدر».

وقد روى أن النبى ﷺ كان ذات غداة جالساً مع أصحابه، فنظروا إلى شاب ذى جلدٍ وقوة، وقد بكر يسعى، فقالوا: ويح هذا لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله عز وجل. فقال النبى ﷺ: «لا تقولوا هذا، فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ويغنيها عن الناس فهو فى سبيل الله، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو فى سبيل الله، وإن كان يسعى تفاخراً وتكاثراً فهو فى سبيل الشيطان».

وقال ابن مسعود: إني لأمقتُ الرجل أراه فارغاً، لا فى عملٍ دنيا ولا فى عملٍ آخرة. وقال إبراهيم النخعى رحمه الله: كان الصانع بيده أحبُّ إليهم من التاجر، وكان التاجر أحبُّ إليهم من البطالة. وسئل إبراهيم عن التاجر الصدوق أهو أحبُّ

إليك أم المتفرغ للعبادة؟ قال: التاجر الصدوق أحبُّ إليَّ؛ لأنه في جهادٍ، يأتيه الشيطان من طريق المكيال والميزان، ومن قبل الأخذ والعطاء، فيجاهده. وقد خالفه الحسن البصري رضى الله عنه في هذا.

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه: ما من موطن يأتينى فيه الموت أحبُّ إليَّ من موطن أتسوق فيه لأهلى، أبيع وأشتري فى رحلى. وقال أيوب: قال لى أبو قلابة: الزم السوق، فإن الغنى من العافية. يعنى الغنى عن الناس، والله أعلم، والغنى الذى يطاع الله تعالى به.

وكان بعض السلف يقول: اتَّجر وبيع واشتر ولو برأس المال يُجعل لك من البركة ما لا يُجعل لصاحب الزرع. وقال ابن محيريز، وكان من عبّاد أهل الشام: ما من طعام أملاً به ما بين جنبى بعد غنيمَةٍ فى سبيل الله من فِء المشرّكين أقيم بها حقّ الله عز وجل أحبُّ إليَّ من طعام تاجر صدوق، قال: وكانوا يعدّون الكاسب على عياله كالمجاهد فى سبيل الله عز وجل، ويرون فضله على غيره. وروى فيه أثر: «إنّ الله عز وجل يحبّ المؤمن المحترف». وفى خبر آخر: «إنّ الله يحبّ العبد يتخذ المهنة يستغنى بها عن الناس».

وحدثنى بعض إخوانى عن أبى جعفر الفرغانى قال: كنا يوماً عند الجنيد، فجرى ذكر ناس يجلسون فى المساجد يتشبهون بالصوفية، ويقصرون عمّا يجب عليهم من حقّ الجلوس، ويعيبون من يدخل السوق. فقال الجنيد: كم ممّن هو فى السوق حكمه أن يدخل المسجد فيأخذ بأذن بعض من هو فيه فيُخرجه ويجلس مكانه، إنى لأعرف رجلاً يدخل السوق وورده فى كل يوم ثلاثمائة ركعة، وثلاثون ألف تسبيحة. قال: فسبق وهمى أنه يعنى نفسه.

فإن كان العبد سوقياً فليبدأ فليتعلم علمَ البيع والشراء، والأخذ والعطاء، ومعاملة الناس فى البيوع، ومعرفة أبواب الربا، ليعلم ذلك قبل الوقوع فيه، فيجتنب ذلك ويتّقيه، وليغدُ إلى المفتى فيسأله عن علم حاله كل يوم من وجوه معاملته، إن لم يكن قد تقدّم علمه بذلك، ولم يكن عالماً به فى وقت المعاملة، فليجعل بُكوره إلى المفتى قبل غدوّه إلى السوق؛ فإن لكل عملٍ علماً، والله فى

كل شيء حُكْم، فلا يغنيك كبيرُ علم عن علم غيره، فإن لم تفعل ذلك دخل عليك الربا والبيوع الفاسدة. وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يطوف في الأسواق، ويضرب بعض التجار بالدرة، ويقول: لا يبيع في سوقنا إلا من تفقه، وإلا أكل الربا شاء أم أبى.

ثم لينصرف بعد العلم فيما يدخل فيه فيما أبيح له من تجارة أو صناعة، بصدق معاملة، وصدق فى مبايعة، ناوياً فى ذلك إقامة سنة، وأمرًا بمعروف، ونهيًا عن منكر، وجهادًا فى سبيل الله؛ لأنَّ مَنْ أَخَذَ الْحَقَّ وَأَعْطَاهُ، وعامل بصدق ونصح، فهو معاون على البر والتقوى وفى جهاد العدو والهوى، سيما فى زمان يكثر فيه الباطل؛ لأنَّ صلاح الدين بصلاح الدنيا، وفساده بفسادها، لتعلّق أحدهما بالآخرى، وحاجة كل واحد منهما بصاحبه.

وفى الخبر: «لا يستقيم عبدٌ حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه». وروى عن النبى ﷺ فى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فقال: «من برّت يمينه، وصدق لسانه، واستقام قلبه، وعفّ فرجه وبطنه».

ثم لينو المتصرّف فى معاشه كف نفسه عن المسألة والاستغناء عن الناس، وقطع الطمع فيهم، والتشرف إليهم، فذلك عبادة إذا نوى نزع وتركه.

ثم ليحتسب السعى على نفسه، وإطعام عياله، فهو له صدقة، وعليه الصدق فى القول، والنصح فى معاملة إخوانه المسلمين لأجل الدين، ويعتقد سلامة الناس منه نُصحًا لهم، ورحمةً بهم، ويعمل فى ذلك، ويكون أبدًا مقدّمًا للدين والتقوى فى كل شيء، فإن انتظمت دُنياه بعد ذلك حمّد الله، وكان ذلك ربحًا ورجحانًا، وإن تكذّرت لذلك دُنياه وتعدّرت لأجل الدين والتقوى أحواله فى أمور الدنيا، كان قد أحرز دينه وربحه، وحفظ رأس ماله من تقواه، وسلم له؛ فهو المعول عليه والحاصل له، إلا أن مَنْ ربح من الدنيا مثل المال وخسر عُشر الدين فما ربحته تجارته، ولا هدى سبيله، وهو عند الله من الخاسرين.

وقال بعض السلف: أولى الأشياء بالعاقل أحوجه إليه في العاجل، وأحوجُ شيء إليه في العاجل أحمدُه عاقبةً في الآجل. وكذلك قال معاذ بن جبل رضى الله عنه في وصيته: أنه لا بد لك من نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوجُ، فابدأ بنصيبك من الآخرة فخذُه فإن سيمرُّ على نصيبك من الدنيا، فينظمه لك انتظاماً، ويزول معك حيثما زُلتَ.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧] أى: لا تترك نصيبك في الدنيا من الدنيا للآخرة، لأنك من ههنا تكتسب الحسنات، فتكون هناك في مقام المحسنين. ففي الخطاب مضمراً لدليل الكلام عليه في قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٧٧].

وقد قال بعض العلماء: من دخل السوق ليشتري ويبيع، فكان درهمه أحبَّ إليه من درهم أخيه، لم ينصح المسلمين في المعاملة. وقال عالم آخر: من باع أخاه شيئاً بدرهم، وهو يصلح له بخمسة دوانيق، فإنه لم يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه، حتى لا يبيع أخاه شيئاً بدرهم إلا وهو يصلح له اشتراؤه به.

فينبغي لهذا المتصرف أن يستوى في قلبه درهمه ودرهم أخيه، ورحلُه ورحل أخيه، ليعدل فيما يبيعه أو يشتري منه، سواء بسواء، ويكون مراعيًا لموافقة حكم الله تعالى، الذى ورد به الشرع فى الشراء والبيع، مراعيًا للسبب الذى يصل به الدرهم أن يكون السبب معروفًا فى العلم، مباحًا فى الحكم، فىكون متورعًا فى عين الدرهم المتعاض، ولا يكون من خيانة أو سرقة أو فساد أو غصب أو غيلة أو حيلة؛ فهذه وجوه الحرام التى تحرم بها المكاسب المباحة.

فإذا كان مجتنبًا لهذه المعانى، لم يشهد أحدها بعينه، أو لم يعلمه من عدل، فكسبه حينئذ من شبهة، ولا يكون مع ذلك حلالاً لإمكان دخول أمر هذه الأسباب فيه، ولأنه على غير يقينٍ معاينة منه لصحة أصله وأصل أصله؛ لقلة المتقين، وذهاب الورعين، إلا أنه شبهة الحلال.

وفى الخبر: «إن النبى ﷺ أتى بلبن، فقال: من أين لكم هذا؟ فقيل له: من

شاة كذا. فقال: ومن أين لكم هذه الشاة؟ فقيل: من وضع كذا. فشرب منه ثم قال: إِنَّا معاشِر الأنبياء أُمِرنا ألا نأكل إلا طَيِّبًا، ولا نعمل إلا صَالِحًا. وقد أمر الله تعالى المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢].

فسأل النبي ﷺ عن أصل الشيء، وأصل أصله، ولم يسأل عما وراء ذلك، لأنه قد يتعذر ولا يوقف على حقيقته، ولأن أموال التجار والصنَّاع قد اختلطت بأموال الأجناد، وهم يأخذون ذلك بغير استحقاق، فكأنه من أكل المال بالباطل، إذ قد أوقفوا نفوسهم، وارتبطوا دوابهم في سبيل الهوى، فصاروا يأخذون العطاء بغير حق، ولا يملكون ذلك، ثم ينتشر ذلك في أموال التجار والصنَّاع، وهم لا يميزون بين ذلك، ولا يرغبون عنه؛ لقلّة التقوى، وعدم الورع، فلذلك غلب الحرام؛ لأنّ الحلال إنّما هو فرعٌ للتقوى والورع، إذا كثر المتقون وظهر الورعون كثر الحلال وظهر، وإذا قلّوا فشا الحرام وانتشر، فصار الحلال مستهلكًا غامضًا في الحرام، لغربة الورعين وخفية المتقين. وإنّما كان الحلال في القرن الأول موجودًا لوجود السلف الصالح، وكان الناس ورعين، وكانوا لا يأخذون ما ليس لهم بحق، فكانوا متقين، وكانوا يتركون بعض حقهم خشية دخول الشبهة عليهم؛ فمن أجل ذلك كان الحلال كثيرًا.

وقد حكى عن بعض فقهاء العراق أنه قال: لا أقبل شهادة شحيح. قيل: ولم؟ قال: الشحُّ يحمله على استيفاء حقه، وفي استيفاء حقه أخذه ما ليس له. ثم قال: حدّثني عطاء، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه قال: ما استقصى كريم قطّ، وتلا قوله عزّ وجل: ﴿عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ [التحریم: ٣].

وفي الخبر: «كنا نترك سبعين بابًا من الحلال مخافة باب واحد من الحرام».

وقال الحسن: أدركتُ مَنْ مضى يُعرَض على أحدهم المال الحلال فيقول: لا حاجة لي به، أخاف أن يفسد على قلبي. وقد كانت الأئمة عدولاً، فكانت الجنود معاونين لهم على التقوى، يأخذون عطاءهم بحق. وفي الحديث عن رسول الله

ﷺ في ذكر الخيل، اختصرناه، قال: «والخيل لرجل وزرٌ، وهو الذي يربطها فخراً ورياءً وسُمةً ونواءً على الإسلام، فما أكلت وشربت في أجوافها حتى أبوالها وأروائها وآثارها أوزارٌ في ميزانه يوم القيامة».

وقد قال الله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصفات: ٢٢]، يعنى: وأشباههم وأعوانهم. قال الثورى رحمه الله: يقال يوم القيامة: ليقم ولأه السوء وأعوانهم. قال: فمن لاق^(١) لهم دواة، أو برى لهم قلمًا، أو حمل لهم لبدًا، أو أعانهم على أمرٍ، فهو معهم. وجاء رجلٌ إلى ابن المبارك فقال: إننى خياطٌ وربما خطتُ شيئًا لبعض وكلاء السلطان، فماذا ترى، أكون من أعوان الظلمة؟ قال: لستَ من أعوان الظلمة بل أنت من الظلمة، إنما أعوان الظلمة من يبيع منك الإبر والخيوط.

وكان بعض العلماء قد جلس فى ديوان بعض الأمراء، فكتب الأمير كتابًا فقال: ناولنى الطِّينَ أختِم به الكتاب، فامتنع فقال: ناولنى الكتاب الذى كتبتَه حتى أنظر فيه، فلم يناوله. وفعل مثل ذلك سفيان الثورى مع المهدي، فكان بيد المهدي درج أبيض، وقد أُدخل عليه الثورى، فقال له: يا أبا عبد الله، أعطنى الدواة حتى أكتب. فقال: أخبرنى بأى شىء تكتب؛ فإن كان حقًا أعطيتك، وإلا كنتُ عونًا على الظلم. وكان بمكة أمير قد أمرَ رجلًا أن يقوم له على الصنَّاع فى عمارة ثغرٍ من الثغور. قال: فوقع فى نفسى من ذلك شىء، فسألت سفيان عن ذلك فقال: لا تفعلن، ولا تكن عونًا لهم على قليل ولا كثير. فقلت: يا أبا عبد الله، سورٌ فى سبيل الله تعالى للمسلمين، فقال: نعم، ولكن أقل ما يدخل عليك أن تحبَّ بقاءهم ليوفوك أجرتك، فتكون قد أحببتَ من بغض الله عزَّ وجل.

وقد جاء فى الخبر: «من دعا لظالمٍ بالبقاء، فقد أحبَّ أن يُعصى الله عز وجل». وفى الحديث: «إن الله ليغضب إذا مُدح الفاسق». وفى خبر آخر: «مَنْ أكرمَ فاسقًا فكأنما أعانَ على هدم الإسلام».

(١) لاق الدواة: أصلح مدادها.

وليُجتنب هذا السوقى البيوعَ الفاسدة، مثل بيع الغرر، والخطر، والمجهول، ومثل بيعتين فى بيعة؛ أحدهما مصارفة أو مشاركة، ولا يبيع ما ليس عنده، ولا ما اشتراه حتى يقبضه، ولا يبيع الدين بالدين، ولا يتبايعان الثمار حتى يبدوا صلاحها ويؤمن عليها العاهة، ومن النخيل حتى تحمرَّ أو تصفرَّ، ومن العنب حتى يلين أو يسودَّ.

ونهى رسول الله ﷺ عن النجش؛ وهو أن يعطى بسلعة شيئاً وهو لا يريد أن يشتريها بشيء، ليغرَّ غيره بها، ولا يبتاع شيئاً من ذهب وخرزٍ مثل القلادة ونحوها حتى يفصل كل واحد على حدته، كذلك السنة، ولا يتبايعان ما لم يظهر من الحيوان والثمار. ويجتنب القبالات^(١) مسانهة، إلا شهراً بشهر، أو سنة بسنة، فقد كره ذلك، ولَيَتَوَقَّ كلَّ بيع وشراء أخبر العلم ببطلانه من دخول رباً فيه، أو خروج من حكم العلم به؛ فإن ذلك كله منقصة للدين، مخبئة للكسب. فإن أشكل عليه شيء من هذه الأمور لحفائها، سأل أهل العلم والفتيا، فيأخذ عنهم على مذهب الورعين ورأى المتقين، وليحفظ لدينه، ولينظر لنفسه، ولا يغمض فى أمر آخرته؛ فذلك خيرٌ له وأحسن توفيقاً. وليجتنب الصنائع المحدثّة من غير المعروفة، والمعاش المبتدعة فى زماننا هذا؛ فإن ذلك بدعة ومكروه، إذ لم يكن فيما مضى من السلف. وكلُّ ما كان سبباً للمعصية من آلة وأداة فهو معصية، فلا يصنعه ولا يبيعه، فإنّه من المعاونة على الإثم والعدوان. وكل ما أخذ من المال على عمل بدعة أو منكر فهو بدعة ومنكر، وكلّ معين لمبتدع أو عاص فهو شريكه فى بدعته ومعصيته، وأخذ المال على جميع ذلك من أكل المال بالباطل، ومن أكل الحرام فقد قتل نفسه، وقتل أخاه، لأنه أطعمه إياه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]. وليس هذا من سبيل المؤمنين. وقد قال الله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١١٥].

(١) القبالات: وردت فى حديث ابن عباس: «إياكم والقبالات، فإنها صغار وفضلها رباً». وهو أن يتقبل بخراج أو جباية أكثر مما أعطى، فذلك الفضل رباً. ومسانهة: أى سنة بسنة.

ولا ينبغي للسوقي أن يشغله معاش الدنيا عن الآخرة، ولا تقطعه تجارة الدنيا عن تجارة الآخرة، ولا يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة، لأنه من الموقنين، وبيوت الله عز وجل في الأرض هي أسواق للآخرة. قال الله عز وجل: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٧] فليجعل العبد طرفي النهار لخدمة سيده، يذكره ويسبحه في بيته بحسن معاملته.

وقد كان عمر رضى الله عنه يأمر التجار فيقول: اجعلوا أولَ نهاركم لله عز وجل، وما سوى ذلك لنفوسكم. وفي أخبار السلف: كانوا يجعلون أولَ النهار للآخرة، وآخره لدنياهم. ويقال: إن الهريسة والرؤوس لم يكن يبيعهما في الشتاء إلا الصبيان وأهل الذمة، لأنَّ الهرَّاسين والرَّاسين يكونون في المساجد إلى طلوع الشمس. ويقال: إنَّهم كانوا يجتمعون في المساجد بعد العصر للذكر والتسبيح، حتى يدخل الرجل، فيقول: أصليتَ العصر؟ يظن أنهم قعود للصلاة، وإنما كانوا يقعدون للتسبيح إلى غروب الشمس.

وهذا طريقٌ قد دُرِسَ، فمن عمل به فقد كشفه.

وقال بعض العارفين: الناس ثلاثة: رجلٌ شغله معاده عن معاشه، فتلك درجة الفائزين. ورجلٌ شغله معاشه لمعاده، فتلك درجة الناجين. ورجلٌ شغله معاشه عن معاده، فهو حال الهالكين. وقال عالم فوقه: من أحبَّ الله عاش، ومن أحبَّ الدنيا طاش، والأحمق يغدو ويروح في لاش.

وكان ابن عمر رضى الله عنه إذا دخل السوق يقول: اللهم إني أعوذ بك من الكُفر والفُسوق، ومن شرِّ ما أحاطت به السُّوق. اللهم إني أعوذ بك من يمينٍ فاجرة، وصفقةٍ خاسرة.

ولذا كرَّ الله عز وجل في السوق من الفضلِ ما لا يجد في سواه، فليعتمد ذكرُ الله تعالى في ساعات الغفلة، وحين تزاحم الناس في البيع والشراء. وكان الحسن يقول: ذاكرُ الله في السوق يجيء يومَ القيامة وله ضوءٌ كضوء القمر، وبرهان

كبرهان الشمس، ومن استغفر الله في السوق عُفِّر له بعدد أهله.

وفي الخبر العام: «ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل عن الفارين، وكالحى بين الأموات». وفي الخبر الخاص: «مَن دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيى ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألفى ألف حسنة».

وكان ابن عمر ومحمد بن واسع رضى الله عنهم يدخلان السوق قاصدين، يذكران الله عز وجل طلباً للفضيلة.

فإن دخلتَ سوقاً أو كنت فيه، فلا يفوتنك التهليل والذكر، فهو عمل وقتك، ولا تقعدن في السوق لغير ذكر الله، أو غير معاش، فقد كُره ذلك، وإذا سمعت التأذين للصلاة، فلتأخذ في أمر الصلاة ولا تؤخرها عن الجماعة، وإلا كان فاسقاً عند بعض العلماء؛ إلا أن يكون في الوقت سعة، أو يكون ناوياً للصلاة في جماعة أخرى في مسجد آخر؛ فإدراكه لتكبيرة الإحرام في الجماعة أحب إليه من جميع ما يربح من الدنيا إلى أن يموت، وفوتها أشد عليه من جميع ما يخسر من الدنيا. هذا إن عقل وأبصر تبيين له ذلك.

وقد كان السلف من أهل الأسواق إذا سمعوا الأذان ابتدروا المساجد يركعون إلى وقت الإقامة، وكانت الأسواق تخلو من التجار، وكان في أوقات الصلاة معاش للصبيان وأهل الذمة، وكان التجار يستأجرونهم بالقراريط والدوانيق يحفظون الحوانيت إلى أوان انصرافهم من المساجد. وهذه سنة قد عفت من عمل بها فقد نَعَشَهَا، وجاء في تفسير قوله عز وجل: ﴿رَجَالٌ لَا تُلِهِمُ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور: ٣٧]، قيل: كانوا حدادين وخرّازين، وكان أحدهم إذا رفع المطرقة أو غرز الأشفا فسمع الأذان لم يخرج الأشفا من الغرزة، ولم يرفع المطرقة ورمى بها، وقاموا إلى الصلاة.

وروي عن وهب قال: قال مالك رضى الله عنه في رجل باع بعد النداء يوم الجمعة: يُفسخ ذلك البيع. قيل: عامل ترك القيام إليها وهو حرٌّ. قال: يستغفر

ربه. وقال ربيعة: ظلم وأساء. وقال مالك: يحرم البيع حتى يخرج الإمام يوم الجمعة.

وليجنب الصانعُ عمل الزخرف من الأشياء، وما يكون فيه لهو وزينة من التصاوير والنقوش، وتخريم العاج، ودقائق النقوش من العاج، وتشديد الجص، والتزويق بالأصباغ المشهّاة؛ فإنَّ عملَ ذلك مكروهٌ، وأخذ الأجرة عليه شُبْهة. وقد كان بعض السلف يقول: تخيروا لأولادكم الصنائع. وروى عن حذيفة: إن الله عز وجل خلق كلَّ صانع وصنعتَه. وقد كانوا يكرهون بيع الطعام وبيع الدقيق.

وأوصى بعض العارفين رجلاً فقال: لا تسلم ولدك في بيعتين، ولا في صنعتين: بيع الطعام وبيع الأكفان. فإنَّما يتمنى الغلاء، ويتمنى موت الناس. والصنعتان: أن يكون جزاراً فإنَّها صنعة تقسى القلب، أو صواغاً فإنَّه يزخرف الدنيا بالفضة والذهب.

وروى عثمان الشحام عن ابن سيرين أنه كره الدلالة، وسعيد عن قتادة أنه كره أجر الدلال. وكانت العرب تقول: بع الحيوان واشتر الموتان. كأنهم كرهوا ردَّ الثمن في الحيوان، لما يخافون من تلفه. واستحبوا شراء الموات وهو ما لا روح فيه. وقد كانوا يستحبون التجارة في البزّ. قال ابن المسيب: ما من تجارة أحبُّ إلى من البزّ، إذ لم يكن فيه أيمان. وقد روى خبراً آخر: «لو اتَّجر أهل الجنة لا تجروا في البزّ، ولو اتَّجر أهل النار لا تجروا في الصرف». وقد كره الحسن وابن سيرين رضى الله عنهما التجارة في الصرف. وسئل الحسن عن الصيرفي فقال: الفاسق، لا تستظنَّ بظله، ولا تصلِّين خلفه. والبستاني، والحمّال، والملاح، وصاحب الحمّام، والخشّاش، والمزين.

وقد كانت هذه الصنائع العشر أعمال الأخيار والأبرار: الخرز، والتجارة، والحمل، والخياطة، والحذو، والقصارة، وعمل الخفاف، وعمل الحديد، وعمل المغازل، وصيد البر والبحر، والوراقة.

وحدثونا عن عبد الوهاب الوراق قال: قال لى أحمد بن حنبل: ما صنعتك؟

فقلت: ورآق. فقال: كسبك طيب وصنعتك طيبة، ولو كنت صانعاً شيئاً بيدي لصنعت صنعتك. وقال لى: لا تكتب إلا مواصفة، واستثن الحواشى، وظهور الأجزاء. وكان مالك بن دينار ورآقاً، وكان السلف يستطيعون كسبه ويفضلونه.

وكلُّ عمل يُتَقَرَّبُ به إلى الله عزَّ وجل، ويكون من أعمال الآخرة ومن البرِّ والمعروف، فأخذ الأجر عليه مكروه، مثل تعليم القرآن، وتعليم العلم، أو مجالس الذكر، والصلاة بالناس فى رمضان، وغسل الموتى، وما كان فى هذا المعنى؛ لأن هذه تجارات الآخرة، فلا تأخذ أجرها إلا من الآخرة، ومن أخذها من الدنيا فقد خسر خسراناً مبيناً، إذا ربح المحتسبون فيها، وأخذوا أجورهم التى صبروا عليها فى دار الدنيا، وقد قال النبى ﷺ لعثمان بن أبى العاص: «وَأَتَّخِذْ مُؤَدَّنَا لَا يَأْخُذْ عَلَى الْأَذَانِ أَجْرًا». وقال فى حديث أبى عباد، وقد أهدى إليه قوس، وكان قد علم رجلاً سورة من القرآن: «أَتَحِبُّ أَنْ يَقُوسَكَ اللَّهُ قَوْسًا مِنْ نَارٍ، فَرَدَّهَا».

ويجتنب التاجر الاحتكار لما يؤكل ويقتات من القطنية^(١) وغيرها. وأشدُّ ذلك الخنطة التى هى قوت الكافة. فقد رُوى فى كراهة الاحتكار والتشديد فيه أخبار كثيرة. روى حذيفة عن رسول الله ﷺ: «من احتكر طعام المسلمين فليس منا». وفى خبر آخر: «من احتكر الطعام أربعين يوماً ثم تصدَّق به لم تكن صدقة بل كفَّارة لاحتكاره». وقيل: «من احتكر أربعين يوماً فكأنما قتل نفساً». وفى خبر آخر: «ألقاه الله عز وجل فى معظم جهنم». وعن على رضى الله عنه: من احتكر الطعام أربعين يوماً قسا قلبه. وعنه: أنه أحرق طعاماً محتكراً بالنار.

وروى عنه فى فضل الاحتكار: «مَنْ جَلَبَ طَعَامًا مَا، فَبَاعَهُ بِسَعْرِ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا تَصَدَّقَ بِهِ». وفى لفظ آخر: «فكَأَنَّمَا أَعْتَقَ رَقَبَةً». ومن العلماء من كان يجعل الاحتكار فى كل مأكول من الحبوب والإدام مثل العدس والبقلاء والسمن والعسل والشيرج والجبن والتمر والزيت، ويكره احتكار جميع ذلك. وروى نحو هذا عن

(١) القُطْنِيَّة: بالتخفيف والتشديد: هى الحبوب التى تُدَخَّر كالعدس، ويقال: القُطْنِيَّة. المفرد: قُطَانِيٌّ.

ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدَقَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، قال: الاحتكار من الظلم.

وحدثونا عن بعض السلف أنه كان بواسط، فجهز سفينة حنطة إلى البصرة، وكتب إلى وكيله مع هذا الطعام: بعه في يوم دخوله البصرة ولا تؤخره إلى غد. قال: فوافق السعر فيه سعة. قال له التجار: إن أخرته جمعة ربحت فيه أضعاافاً، فأخره جمعة فربح فيه أمثاله، وكتب إلى صاحبه بذلك، فكتب إليه صاحب الطعام: يا هذا قد كنا قنعنا أن نربح الثلث مع سلامة ديننا، وإنك قد خالفت أمرنا، وقد جنيت علينا جناية، فإذا أتاك كتابي فخذ المال كله فتصدق به على فقراء أهل البصرة، وليتني أنجو من الاحتكار كفافاً لا على ولا لى.

وحدث شيخنا عابد الشط، مظفر بن سهل، قال: سمعت غيلان الخياط يقول: اشترى سرى السقطى كراً لوز بستين ديناراً، وكتب في روزنامه ثلاثة دنانير ربحه، فصار اللوز بتسعين ديناراً^(١)، فأتاه الدلال فقال له: إن ذلك اللوز أريده. فقال: خذه. فقال: بكم؟ قال: بثلاثة وستين ديناراً. قال له الدلال: إن اللوز قد صار الكر بتسعين ديناراً. قال له سرى: قد عقدت بينى وبين الله عقداً لا أحله، لست أبيعه إلا بثلاثة وستين ديناراً. قال له الدلال: وأنا قد عقدت بينى وبين الله عقداً لا أحله أن لا أغش مسلماً، لست أخذ منك إلا بتسعين ديناراً. قال: فلا الدلال اشترى منه ولا سرى باعه.

وحدثونا عن رجل من التابعين بالبصرة، كان له غلام بالشوش يجهز إليه السكر، فكتب إليه الغلام: إن قصب السكر قد أصابته آفة في هذه السنة، فاشتر السكر. قال: فاشترى سكرًا كثيرًا. فلما جاء وقته ربح فيه ثلاثين ألفًا. قال: فانصرف بها إلى منزله، ففكر ليله فى الربح، فقال: ربحت ثلاثين ألفًا، وخسرت نصح رجل من المسلمين. فلما أصبح غداً إلى الرجل الذى كان اشترى منه السكر فدفع إليه الثلاثين ألفًا، فقال: هذه لك بارك الله لك فيها. قال: ومن أين صارت؟ قال: لما اشتريت منك السكر، لم آت الأمر من وجهه. إن غلامى قد

(١) أى ارتفع سعره بعد أن اشتراه إلى تسعين ديناراً.

كان كتب إلى أن قصب السكر أصابته آفة، فلم أعلمك ذلك ولعلك لو علمت لم تكن تبغني. فقال: رحمك الله قد أعلمتني الآن، وقد طيبتها لك. قال: فرجع إلى منزله فبات تلك الليلة ساهراً، وجعل يتفكر في ذلك، ويقول: لم آت الأمر من وجهه، ولم أنصح مسلماً في بيعه، لعله استحيا مني، فتركها لي، فبكر إليه من الغد، فقال: عافاك الله خذ مالك، فهو أصلح لقلبي، قال: فدفع إليه ثلاثين ألفاً.

وقال سليمان التيمي: لقد ترك محمد بن سيرين أربعين ألف درهم من شيء حاك في صدره، لم تختلف العلماء أن ليس به بأس. ويقال: إن هذا كان سبب غلبة الدين عليه.

ثم لیتق البائع مدح السلعة، وتنفيقها بزخرف الكلام، وليحذر المشتري ذمها وعيها بما ليس فيها للخداع.

وأما الأيمان على ذلك فهو معصية ومحققة للكسب. وقد كان السلف يشددون في ذلك. قال أبو ذر: كنا نتحدث أن من نفر لا ينظر الله إليهم؛ التاجر الفاجر، وكنا نعد من الفجور أن يمدح السلعة بما ليس فيها. وقال يونس بن عبيد، وكان خزازاً، فجاءه رجل يطلب ثوب خز، فأمر غلامه أن يخرج رزمة الخز، فلما فتحها قال الغلام: اسأل الله الجنة، فقال: شد الرزمة، ولم يبع منها شيئاً؛ خشية أن يكون قد مدح. ويقال: إنه كانت عنده حلل على ضربين، أثمان ضرب منها أربعمئة لكل حلّة، وأثمان الآخر مائتان. فذهب إلى الصلاة وخلف ابن أخيه لبيع، فجاءه أعرابي يطلب حلّة بأربعمئة، فعرض عليه من حلل المائتين، فاستحسنها ورضيها فاشتراها منه، ومشى بها وهي على يده، ينظر إليها خارجاً من السوق، فاستقبله يونس بن عبيد خارجاً من المسجد، فعرف حلته، فقال: بكم أخذت هذه الحلّة؟ فقال: بأربعمئة. فقال: لا تسوى، إنّما قيمتها مائتان: فقال: يا ذا الرجل، إن هذه تساوى ببلدنا خمسمئة درهم. فقال له يونس: إنّ النصح في الدين خير من الدنيا كلّها، ثم أخذ بيده فردّه إلى ابن أخيه فجعل يخاصمه، ويقول: أما اتقيت الله؟ أما استحيت أن تربح مثل الثمن، وترك النصح لعامة

المسلمين؟ فقال: والله ما أخذه إلا عن تراض. فقال: وإن رضى، ألا رضيت له ما رضيت لنفسك، ثم ردّ على الأعرابي مائتي درهم.

وقد فعل مثل ذلك محمد بن المنكدر، وكانت عنده شقاق^(١) جنابية وبصرية، أثمان بعضها خمسة خمسة، وأثمان بعضها عشرة عشرة، فخلّفه غلامه في الحانوت فغلط فباع أعرابياً شقّة من الخمسات بعشرة، فجاء ابن المنكدر، فتفقد الشقاق فعرف غلظه، فقال: ويلك أهلكتنا، اذهب فاطلب الأعرابي في الأسواق، فلم يزل يطلبه يومه أجمع حتى وجده. فقال له ابن المنكدر: يا هذا إن الغلام غلط، فباعك ما يسوى خمسة بعشرة. فقال: يا هذا قد رضيت. فقال: وإن رضيت لنفسك، فإنّا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا، فاختر إحدى ثلاث خصال: إما أن تأخذ شقّة من العشرات بدراهمك، وإما أن تردّ عليك خمسة، وإما أن تردّ علينا شقّتنا وتأخذ دراهمك. فقال: أعطني خمسة. قال: فأعطاه من دراهمه خمسة. فانصرف الأعرابي فجعل يسأل عنه، فيقول: من هذا الشيخ؟ فقليل: هذا محمد بن المنكدر. فقال: لا إله إلا الله، هذا الذي نستسقى به في البوادي إذا قحطنا.

وقد سئل بعض العلماء عن الورع في المبايعة فقال: لا يصح الورع في البيع إلا بحقيقة النصح. قال: وكيف ذلك؟ قال: إذا بعته شيئاً بدرهم نظرت، فإن صلح لك أن تشتريه بدرهم فقد نصحته في البيع، وإن كان يصلح لك بخمسة دونيق، وقد بعته بدرهم، فإنك إن لم ترض له ما ترضى لنفسك فقد ذهب النصح. قال: فإذا عدم النصح ذهب الورع. ويقال: إن البائع يوقف يوم القيامة مع كل رجل كان باعه شيئاً وقفّة، ويحاسب عن كل واحد محاسبة، حتى عدد من عامله، ومن اشترى منه في الدنيا.

وذكر بعضهم قال: رأيت بعض التجار في النوم فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: نشر على خمسين ألف صحيفة. فقلت: هذه كلها ذنوب؟ فقال: هذه معاملات الناس عدد ما كنت عاملته في الدنيا، لكل إنسان صحيفة مفردة فيما بينك وبينه

(١) شقاق: جنس من الثياب، المفرد شقّة. جنابية: نسبة إلى الجناح، أرض معروفة بنجد.

من أول معاملته إلى آخرها، فإن كان البائع ذا ميزان فليرجح في الوزن إذا باع وأعطاه، ولينقص نفسه إذا أخذ، سيما إذا كان ذا ميزانين كان الأمر عليه أشد.

وكان بعضهم يقول: ألا أشتري الويل من الله بحبة؟ فكان إذا أخذ نقص نفسه بحبة، وإذا أعطى زاد غيره حبة، لقوله عز وجل: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]، يعنى: الذين رضوا بالتطفيف بالحبة والحببتين، فباعوا بذلك جنّة عرضها السموات والأرض، لجهلهم بأمر الله تعالى، وقلة يقينهم بالآخرة، إذا اشتروا الويل بطوبى، ويقال: إن هذه المظالم لا ترد أبداً، ولا تصحّ التوبة منها لتعذر معرفة أصحابها.

وروى عن النبي ﷺ أنه اشترى شيئاً، فلما وزن ثمنه قال للوزان: زن وأرجح. ونظر الفضيل بن عياض رحمه الله إلى ابنه على وهو يغسل كحلاً من دينار أراد أن يصرفه، فجعل ينقيّه ويغسله من كحله. فقال له: يا بنى، فعُلك هذا أفضل من عشرين حجة. وقال بعض أهل السلف: عجباً للتاجر والبائع كيف ينجو، يزن ويحلف بالنهار، وينام بالليل. وقال سليمان عليه السلام: كما تدخل الحية بين الحجرين، كذلك تدخل الخطيئة بين المتبايعين.

وحُدث أن بعض السلف صلّى على مخنث قد كان يجمع بين النساء والرجال وغير ذلك. ف قيل له: إنه قد كان فاسقاً، وكان كذا وكذا، فسكت. فأعاد عليه القائل فسكت. ثم قال: مه كَأَنَّكَ قُلْتَ لى كان صاحب ميزانين، يأخذ بأحدهما ويعطى بالأخرى. هذا على التغليظ والوعظ، أراد أن التطفيف مظالم بين الخلق، وأن الفسق ظلم العبد لنفسه، وبين مظالم العباد وظلم العبد لنفسه بون كبير، من قبل أن الخلق فقراء، جهلة نيام، فيستوفون حقوقهم لحاجتهم إليها، والله عز وجل عالم كريم غنى فيسمح بحقه.

ولا ينبغي للمشتري أن يسأل البائع الرجحان، إلا أن الله عز وجل قال: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ [الرحمن: ٩]. أى بالعدل؛ وهو السواء. وهو استواء اللسان فى البكرة لا مائلاً إلى إحدى الكفتين. وفى قراءة عبد الله: «ولا تَطْغَوْا فى الميزانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ باللسانِ، ولا تُخْسِرُوا الميزانَ». فهذا مفسر فى

هذا الحرف .

ومكروه المعاملة بالمزيفة، ولا يصلح بدرهم تكون الفضلة فيه مجهولة أو مستهلكة، ولا بما لا تعرف قيمته، وما يختلط بالفضة من غيرها فلا تمتاز منه . فقد كان بعض السلف يشدد في ذلك ويحرّمه، منهم: الثوري، والفضيل بن عياض، ووهب بن الورد، وابن المبارك، وبشر بن الحارث، والمعافى بن عمران، رضى الله عنهم . ويقال: إن كل قطعة من المزيفة ينفقها صاحبها يجدها ملصقة في صحيفته بعينها وصورتها، مكتوب تحتها ألف سيئة؛ خمسة آلاف سيئة على قدر وزنها، ووزن ذرة منها سيئة؛ والذرة نقطة من هباء شعاع الشمس في الضوء .

حدثني بعض العلماء عن بعض الغزاة في سبيل الله عز وجل قال: حملتُ على فرسى لأتناول بعض العلوج فقصر فرسى فرجعت، ثم دنا مني العليج فحملت عليه ثانية لأتناوله، فقصر فرسى، وحملتُ عليه ثالثة وقد قرب مني فنفر بي فرسى، ولم أكن أعتاد ذلك منه . فرجعت حزينا، فجلست إلى جنب فسطاطي منكرا للذي فاتني من أخذ العليج، ولما اختلف على من خلق فرسى، قال: فوضعتُ رأسي على عمود الفسطاط، فنمتُ وفرسى قائم بين يدي، فرأيت في النوم كأن الفرس يخاطبني، ويقول لي: بالله عليك أردت أن تأخذ على العليج ثلاث مرات، وأنت بالأمس اشتريت لي علفا، ودفعت في ثمنه درهما زائفا؟ لا يكون هذا أبداً . قال: فانتبعت فزعا فذهبت إلى العلاف فقلت له: أخرج إليّ الدراهم التي اشتريت بها منك بالأمس العلف . قال: فأخرجها إليّ فأخذت منها الدرهم الزائف فقلت: إني كنت قد جوزت عليك هذا الدرهم بالأمس . قال: فأبدلته له وانصرفت .

وقال عبد الوهاب: سألتُ بشرا عن المعاملة بالمزيفة فقال: سألت المعافى عنها؟ فقال: سألت الثوري عنها فقال حرام .

وحدثنا عن أبي داود قال: سمعت أحمد أنكر التجارة والمعاملة بالمزيفة والمكحلة . وقد كان بعض علمائنا يقول: إنفاق درهم مزيف أشد من سرقة مائة درهم . قال: لأن سرقة مائة درهم معصية واحدة منقضية، وإنفاق دانق مزيف

بدعةً أحدثها في الدين، وإظهار سنة سيئة يعمل بها بعده، وإفساد مال المسلمين، فيكون عليه وزره إلى مائة سنة فأكثر ما بقى ذلك الدرهم يدور في أيدي المسلمين، ويكون عليه ما أفسد ونقص من أموال المسلمين إلى آخر فوائده وانقراضه.

فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه، والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه بعده مائة سنة ومائتي سنة، يعذب بها في قبره، ويسأل عنها إلى آخر انقراضها. قال الله عز وجل: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ [يس: ١٢]، ما قدموا: ما عملوا، وآثارهم: ما سنوه بعدهم، فعمل به. وقال في وصفه: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣] قيل: بما قدّم من عمل، وما أخر من سنة عمل بها بعده، وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَنَّ سَنَةً سَيِّئَةً فَعَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كَانَ عَلَيْهِ وَزْرُهَا، وَمِثْلُ وَزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا لَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا».

وإنفاق الدرهم الرديء على من يعرف النقد أشدّ وأغلظ، وهو على من لا يعرف أسهل؛ فيكون به أعذر، لأن هذا لا يتعمد الغشّ، والآخر يتعمده ويقصده، فإنما كان المسلمون يتعلمون جودة النقد، لأجل إخوانهم المسلمين، لئلا يغشوهم بالردىء، وإلاّ فإنّ تعلّم النقد بلاءٌ وإثمٌ على صاحبه، لأنه علم علمه ولم يعمل به، فهو يسأل عن علمه، ومن ردّت عليه قطعة فلينفقها ولا يجوزها على بيع آخر، ويحتسب بذلك الثواب من الله عزّ وجل، فله بذلك من الأجر بوزن كل ذرةٍ منها حسنة، وله في طرحها أعمال كثيرة من الصوم والصلاة.

فإن كان في القطعة تجوز نقد ينصرف مثلها، فأراد أن يشتري بها شيئاً، فليعلم البائع الثانى أنها قد ردّت عليه، فإن أخذها على بصيرة وعن سماحة فلا بأس، فإن لم يعلمه، فإنه لم ينصحه، وربّما كان على غير بصيرة بالنقد. فقد روى عن عمر رضى الله عنه: مَنْ زافت عليه دراهمه فليضعها في كفه، وليناد عليها في السوق: من يبيعهما سحق ثوب بدرهم زائف؛ وهذا إذا كانت زائفة على وجهها كالصفر والرصاص كان لها قيمة مثلها. وفي قول ابن عمر رضى الله عنهما لنافع: لو حفظت عنى كما يحفظ عكرمة عن ابن عباس - رضى الله عنهم - لكان

أحبَّ إلىَّ من أن يكون لي درهم زائف. قيل له: أفلا جعلته جيداً؟ قال: كذلك كان في نفسي.

وروينا عن النخعي: إذا كان في الدرهم شيء من الفضة وإن قلَّ فلا بأس به. وحدثت عن أبي داود قال: سألت إسحاق بن راهويه رحمهما الله عن إنفاق المزيفة، فقال: لا بأس به. ففيه ترخيصٌ بالإنفاق بالزائف إذا عُرِف، ومن سمح في النقد، ويجوز في أخذ الرديء طلباً للأجر فيما يحتسب، ثم إذا أخرج ذلك على المسلمين وجوزَّه عليهم بعد ذلك فقد أثمَّ في سماحته وتشديده حينئذ، ونقصه في أخذ الجيد أفضل، وهذا من دقائق الأعمال وباطن الشر في ظاهر الخير. اللهم إلا أن يأخذ الرديء ثم يُلقيه ولا يُخرجه إلى أحد، فإن فعل هذا كان فاضلاً محتسباً محسناً في سماحته، وله باحتسابه ذلك مثوبة وأجر.

فينبغي للتاجر أن يكثرَ من الصدقة، ليكون فيها كفارة خطايا وأيمانه وكذبه، فقد أمر النبي ﷺ التاجر بالصدقة. لذلك فينبغي للتاجر والصانع أن يكونا مستعملين لهذه الخصال، فإنها جامعةٌ له تشتمل على جُمْل أعمال البرِّ، فليأخذوا أنفسهم بها، فإنها من أخلاق المؤمنين وطرائق المتقدمين، وقد نُدبوا إلى جميعها؛ منها: أن يسمح إذا باع، ويسمح إذا اشترى، ويحسن إذا قضى، ويحسن إذا اقتضى، وليمش الرجل بدين غريمه إليه، ولا يحوجه إلى اقتضائه فيشق عليه، وليصبر صاحب الدين على أخيه ويحسن تقاضيه، ويحسن له النظرة، ويؤخر حقه إلى ميسرته، وليغتنم دعاءَ رسول الله ﷺ لهم على ذلك، فينافسوا في مدحه لمن فعل ذلك.

فقد روى عن النبي ﷺ قال: «اسمح يُسمح لك». وقال: «خير الناس أحسنهم قضاءً». وقال: «خذ حقَّك في عفافٍ وافيّاً كان أو غير وافي يحاسبك الله حساباً يسيراً». وقال: «رحم الله عبداً سمحَ البيع سمحَ الشراء حسنَ القضاء حسنَ الاقتضاء». وقال: «من مشى إلى غريمه بحقه أظلمه الملائكة». وقال: «مَن أنظر معسراً أو ترك له حاسبه الله حساباً يسيراً»، وفي خبر آخر: «أظلمه الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله».

وذكر عليه الصلاة والسلام رجلاً كان مسرفاً على نفسه، حوسب فلم يجد له حسنة، ف قيل له: هل عملتَ خيراً قط؟ فقال: لا، إلا أني كنتُ رجلاً أداين الناس، وأقول لغلماني: سامحوا الموسر وأنظروا المعسر. وفي لفظ آخر: وتجاوزوا عن المعسر. قال الله عز وجل: نحن أحقّ بذلك منك، فغفر له.

وفي خبر آخر: «مَنْ أقرضَ ديناً إلى أجلٍ فله بكل يوم صدقة إلى أجله، فإذا حلَّ الأجلُ فأنظره بعده، فله بكل يوم مثل ذلك الدين صدقة». وفي حديث: «مَنْ أَدَّانَ ديناً وهو ينوي قضاءه وكلَّ الله به ملائكة يحفظونه ويدعون له حتى يقضيه». وكان جماعة من السلف يدانون وهم واجدون، لأجل هذا الخبر. وكان جماعة لا يحبون أن يقضيههم غرماؤهم دينهم لأجل ذلك الخبر الأول، إذ له بكل يوم تأخر قضاء صدقة.

وفي الحديث: «رأيتُ على باب الجنة مكتوباً: الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر». قيل: معناه أن الصدقة تقع في يد محتاج وغيره، والقرض لا يقع إلا في يد محتاج مضطر إليه. ونظر النبي ﷺ إلى رجل يلازم رجلاً بدين عليه، فأومأ إلى صاحب الدين بيده: ضع الشطر، ففعل. فقال للمديون: قم فأعط. وكان النبي ﷺ قد أَدَّانَ ديناً إلى أجل، فجاءه صاحبُ الدين عند حلول الأجل، ولم يتفق عند النبي ﷺ، فجعل الرجل يكلم النبي ﷺ ويشدد عليه في الكلام، فهمَّ به أصحابه، فقال: «دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً».

وأستحبُّ أن تكون أكثر معاونة الإنسان بين البيعين مع المشتري منهما، وأستحب أيضاً أن يكون عونهُ بين المتدائنين مع الذي له الدين، إلا أن يعتدى من له الدين، أو يعتدى المشتري، فيكون حينئذٍ على المشتري. وروى عن النبي ﷺ: «النَّسِئَةُ بالنَّسِئَةِ ربا، والمُسْتَبَانِ ما قالَا، فعلى البادى منهما ما لم يعتد المظلوم».

ويسيرُ المغابنة في التجارات جائز، فإنَّ موضوعَ التجارة على الغبن إذا كان عن تراضٍ، فإذا تفاوتت القيمة وعُلم الغبن فمكروه. وقد يروى في حديث: «إِنَّ غَبْنَ المستغفل حرام». وفي حديث فيه مقال: «المغبون لا محمود ولا مأجور». هذا - والله أعلم - إذا تغابن وهو يعلم، فيخسر نفسه حقّه، ويحمل غيره على ظلمه.

وكان إياس بن معاوية قاضي البصرة من علماء الزمان، ومن عقلاء التابعين، وكانت لأبيه صحبة، كان يقول: لست بخبٍّ، والخبُّ لا يغبنني، ولا يغبن محمد ابن سيرين، ولكن يغبن الحسين ومعاوية بن قرة. وكان الزبير بن عدى يقول: أدركت ثمانية عشر من أصحاب رسول الله ﷺ ما منهم رجل يحسن يشتري لحماً بدرهم.

وقد روى أن الحسن باع بغلاً له بأربعمائة درهم، فلما استوجب المال قال له المشتري: اسمح يا أبا سعيد. قال: قد أسقطتُ عنك مائة. قال له المشتري: فأحسن يا أبا سعيد. قال: قد وهبتُ له مائة أخرى. فنقص من حقه مائتي درهم. وفي رواية أخرى قال: أحسن. قال: وهبت لك مائتي درهم. فقيل له: يا أبا سعيد، هذا نصف الثمن. فقال: هكذا يكون الإحسان وإلا فلا.

وقد كان الحسن والحسين رضى الله عنهما وغيرهما من خيار السلف يستقصون فى الشراء، ثم يهبون مع ذلك الجزيل من المال، فقيل لبعضهم: تستقصى فى شرائك على اليسير، ثم تهب الكثير ولا تبالى، فقال قائلهم: إن الواهب يعطى فضله، وإن المغبون يُغبن عقله. وقال آخر: إنما أُغبن بصيرتى - أو قال: معرفتى - ولا أُمكِّن الغابن من ذلك، وإذا وهبت فإنما أعطى الله عز وجل، فلا أستكثر له شيئاً.

والأخبار فى هذه المعانى تكثر، والفضائل فيها تطول، ولم نقصد جمع ذلك، فقد ذكرنا جملة. وهذا كله داخل فى البرِّ والتقوى، ومن العدل والإحسان، ومن تطوُّع الخير، وفعل المعروف، فقد أمر الله بذلك فى مواضع من كتابه.

وينبغى أن يستعمل النصح فى البيع والشراء، وفى الصنعة، ويستوى عملهما فى المبيع والمشتري والمصنوع، ويفطن كل واحد منهما صاحبه بعيب إن كان فى السلعة، وينقص إن كان فى الصنعة إن لم يفطن المشتري لذلك والمستعمل ليتكافأ العلمان، ويشنى كل واحد منهما على صاحبه بإحسان.

وفى الخبر: «البيعان إذا صدقا ونصحا بُورك لهما فى بيعهما، وإذا كذبا وكُتِمَا نُزعت البركة من بيعهما». وفى حديث آخر: «يدُّ الله على الشريكين ما لم

يتخاونا، فإذا تخاونا رفع يده عنهما». ولما بايع النبي ﷺ جريراً على الإسلام ذهب لينصرف ف جذب ثوبه، واشترط عليه النصح لكل مسلم. قال: فكان جرير إذا أقام السلعة لبيعها بصر عيوبها ثم أخبر، فقال: إن شئت فخذ وإن شئت فاترك. فقلنا له: رحمك الله، إنك إذا قلت هذا لم ينفذ لك بيع. فقال: إنما بايعنا رسول الله ﷺ على النصيحة لأهل الإسلام.

وكان واثلة بن الأسقع واقفاً بالناس في الكوفة، فباع رجل ناقة بثلاثمائة درهم، وغفل واثلة، وقد ذهب الرجل بالناقة، فسعى وراءه وجعل يصوت به حتى رجع، وقال: يا هذا أألحم اشتريت هذه الناقة أم للظهر؟ فقال: بل للظهر. فقال: فإن بحقها نقباً قد رأيته، وإنها لا تتابع السير عليه. قال: فردّها، فنقصه البائع مائة درهم، فقال لواثلة: رحمك الله أفسدت على بيعي. فقال: إنا بايعنا رسول الله ﷺ لا يحل لأحد يبيع شيئاً إلا يبين ما فيه، ولا يحل لمن يعلم ذلك إلا يبينه.

فانظر - رحمك الله - إلى النصح للمسلمين الذي يتعذر فعله على كثير من المسلمين، إنما جعله رسول الله ﷺ من شرط صحة الإسلام، وكان يبايع عليه، إلا أنه جعله من فضائل الدين، ولا نهاية لقرب المتقين، لأنه قال: «الدين النصيحة، الدين النصيحة» ثلاثاً، ثم سوى بين طبقات الناس فيه فقال: «الله وكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين ولعامتهم».

وقد روى في خبر مشهور: «لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن الخلق سخط الله ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على آخرتهم». وفي خبر آخر: «ما لم يبالوا ما نقص من دنياهم بسلامة دينهم، فإذا فعلوا ذلك وقالوا: لا إله إلا له، قال الله سبحانه: كذبتم لستم بها صادقين». وفي لفظ آخر: «ردت إليهم». وفي خبر كأنه مفسر لحديث مجمل: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة». قيل: وما إخلاصها؟ قال: «أن تحرزه عما يحرم الله». وفي خبر مشهور: «ما آمن بالقرآن من استحل محارمه». وقد روينا عن بعض التابعين: لو دخلت هذا الجامع وهو غاص بأهله فقل لي: من خير هؤلاء؟ لقلت: أنصحهم لهم. فإذا قالوا هذا، قلت: هو

خيرهم. ولو قالوا لى: من شرهم؟ قلت: أغشهم لهم^(١). فإذا قالوا هذا قلت: هو شرهم.

والغش فى البيوع والصنائع محرّم على المسلمين، ومن كثر ذلك منه فهو فاسق. ومن الغش أن ينشر على المشتري أجود الطرفين من المبيع، أو يظهر من المبيع أجود الثوبين، أو يكشف من الصنعة أحسن الوجهين. روى أن النبى ﷺ مرّ برجل يبيع طعاماً، فأعجبه ظاهره، فأدخل يديه فرأى بللاً فقال: ما هذا؟ فقال: أصابته السماء. فقال: «هلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس، من غشنا فليس منا».

وفى حديث عبد الله بن أبى ربيعة: أنه مرّ ﷺ على طعام مُصَبَّرٍ، فارتاب منه، فأدخل يده، فإذا طعام ممطور، فقال: ما هذا؟ فقال: هذا والله طعامٌ واحد يا رسول الله. فقال: «هلاً جعلت هذا وحده حتى يأتوك فيشترون شيئاً يعرفونه، من غشنا فليس منا».

وحدثنى بعض إخواننا أن رجلاً حدّأ سأل: كيف لى أن أسلم فى بيع النعال؟ فقال: استجدّ الأسفل، وليكونا شيئاً واحداً، واجعل الوجهين سواء لا تفضّل اليمين الأخرى، وجوّد الحشو وليكن شيئاً واحداً تاماً، وقارب بين الخرز، ولا تطبق أحد النعلين على الأخرى.

فينبغى للبائع والصانع أن يُظهرا من المبيع والمصنوع أردأ ما فيه وأرذله، ليقف المشتري والمستعمل على عيوبه، ويكونا على بصيرةٍ من باطنه. وباع ابن سيرين شاة له، فقال للمشتري: أبرأ إليك من عيبٍ فيها. قال: وما هو؟ قال: تُقَلَّبُ العلفَ برجلها. وباع الحسن بن صالح جارية فقال للمشتري: إنها قد تنخمت مرةً عندنا دماً.

وبيين دقائق الإعلام والبيان فى ذلك مما لا يعلمه المشتري أو المستعمل؛ فهو من النصح والصدق، وذلك يكون عن التقوى والورع فى البياعات والإجازات، ويكون الكسب عن ذلك أحلّ وأطيب.

(١) من قوله: «فإذا قالوا» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

فليجتنب المسلم محرم ذلك كله، وكل مكروه؛ فهذه سيرة السلف وطريقة صالحى الخلف.

وأستحبُّ له أن يتوخَّى فى الشراء والبيع، ويتحرى أهل التقوى والدين، ويسأل عمَّن يريد أن يبايعه ويشاريه، وأكره له معاملة من لا يرغب عن الحرام، أو من الغالب على ماله الشبهات.

وحدَّثت عن محمد بن شيبه ابن أخت ابن المبارك قال: كتب غلامُ ابن المبارك إليه: إنا نباع أقواماً يبايعون السلطان. فكتب إليه ابن المبارك: إذا كان الرجل يبايع السلطان وغيره فبايعه، وإذا قضاك شيئاً فاقبض منه، إلا أن يقضيك شيئاً تعرفه بعينه حراماً فلا تأخذه، وإذا كان لا يبايع إلا السلطان فلا تبايعه.

وحدَّثنا عن بعض الشيوخ عن شيخ له من الخلف الصالح قال: أتى على الناس زمانٌ كان الرجل يأتى إلى مشيخة الأسواق فيقول: مَنْ ترون لى أن أعامل من الناس من أهل الصدق والوفاء؟ فيقال له: عامل من شئت. ثم أتى عليهم وقت آخر، فكان الرجل يقول: مَنْ ترون لى أن أعامل من الناس؟ فيقال: عامل من شئت إلا فلاناً وفلاناً. قال: ونحن فى زمن إذا قيل لنا: من نعامل من الناس؟ فيقال: عامل فلان ابن فلان، وأخشى أن يأتى على الناس زمان يذهب فلان ابن فلان أيضاً.

ولا يحلف ولا يكذب ولا يخلف موعداً، فإن اليمين الكاذبة محقة للكسب. وفى الخبر: «ويل للتاجر من لا والله، وبلى والله. وويل للصانع من اليوم وغد وبعد غد».

أبو عمرو الشيبانى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: عبدٌ متكبر، ومَنَّانٌ بعطيته، ومنفقٌ سلعته بيمينه».

ولا يمدح إذا باع أو صنع صنعة، ولا يذم إذا اشترى أو استعمل صانعاً، فإنَّ هذا لا يزيد فى رزقه ولا ينقص منه تركه. وهذا من اليقين فى الرزق فى هذا الباب، وفعله يزيد فى الذنوب، فينقص من الدين.

وعلى الصانع أن يبلغ غاية النصح فى صنعته مستعمله، لأنه أعرف بصلاح صنعته وفسادها، وبسرعة فناء الصنعة وكثرة بقائها، فينبغى أن يتقن نهاية علم الصانع بصلاح الصنعة، وحسن بقائها مع نهاية بغية مستعمله من تجويدها وإحكامها، ويتقى من فساد يسرع إلى فنائها ما لا يفتن له مستعمله. فإذا فعل الصانع والتاجر ذلك كانا قد عملا بعملهما، وسلمنا من المطالبة والمساءلة عنه، وإلا فهما يُسألان فيقال لهما: ماذا عملتم فيما علمتم؟ إذ كانوا على علم من التجارة والصناعة، وبهذه الأشياء عمارة المملكة، فلا بدّ أن يُسألا عن ذلك، كما يُسأل مَنْ كان على علم من الدين والإيمان؛ لأن لهم فى علوم العقل والتمييز من أبواب الدنيا أحوالاً أيضاً ومقامات، من حيث كان عليهم فى ذلك تكليف وعبادات.

ويقال: إذا أثنى على الرجل جيرانه فى الحضر، وأصحابه فى السفر، ومعاملوه فى الأسواق، فلا تشكّوا فى صلاحه. وشهد رجل عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه بشهادة فقال: اتتني بمن يعرفك، فأثاه رجل فأثنى عليه خيراً. فقال له عمر رضى الله عنه: أنت جاره الأدنى الذى تعرف مدخله ومخرجه؟ قال: لا. قال: فكنت رفيقه فى السفر الذى يُستدل به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا. قال: فعاملته بالدينار والدرهم الذى يتبين به ورع الرجل؟ قال: لا. قال: أظنك رأيته قائماً فى المسجد يصلى يخفض رأسه طوراً ويرفعه، له زمرة بالقرآن. قال: نعم. قال: اذهب فلست تعرفه. ثم قال للرجل: اذهب فأتني بمن يعرفك.

وقد كان من سيرة السوقة فيما سلف، أنه كان للبائع دفتران للحساب: أحدهما ترجمته مجهول، فيه أسماء من لا يعرفه من الفقراء الضعفاء، وذلك أن المسكين والضعيف كان يرى المأكول فيشتهيه أو يحتاج إليه، ولا يمكنه أن يشتريه، فيقول للبائع: أحتاج إلى خمسة أرطال من هذا أو عشرة، وليس عندي ثمنه، فيقول: خذ إلى ميسرة، فإذا رُزقت فاقض، ويكتب اسمه فى الدفتر المجهول. قال: ولم يكن من يفعل هذا من خيار المسلمين، بل كان الخير من الباعة من لا يكتب اسمه فى دفتره، ولا يجعله ديناً حتماً عليه، ولا مظلمة عنده، ولكن يقول: خذ

حاجتك مما تريد، فإن وجدتَ فاقضنى، وإن لم تجد فأنت فى حلٍّ، لا تضيقن قلبك لذلك.

وهذا طريق قد مات، فمن قام به فقد أحياه، فكان مثل هؤلاء فى المتقدمين أكثر من أن يسعهم كتاب. وكان من ينصح دقائق النصح، وشدد على نفسه غاية التشديد، وسمح لإخوانه نهاية الجود، أكثر من ذلك. وإنما ذكرنا هؤلاء لتنبية الغافلين على أعمالهم، ونكشف بعض ما عفا من طريقهم. ولم يكن هؤلاء المذكورون من السوقة من خيار الناس كلهم، إنما كان الأخيار المسجدية العباد والنسك المنقطعون إلى الله الزهاد، فإذا حصلت كفاية السوقى فى بعض يومه، فليجعل بقيته لأخيه، فقد كان بعض السلف منهم من ينصرف من حانوته بعد صلاة الظهر ويجعل نصف يومه لربه، ومنهم من ينصرف بعد العصر فيكون آخر يومه لآخرته. وكان بعضهم إذا حصلت كفايته فى يومه وتأتى قوت عياله فى أى وقت من نهاره، غلق حانوته، وانصرف إلى منزله أو مسجده يتعبد بقية يومه. وكان منهم من إذا ربح دانقاً أو قيراطاً انصرف قناعةً وزهداً، أو قلة حرص على الدنيا. وأعجب من ذلك ما سمعتُ عن حماد بن سلمة أنه كان يبيع الخمر فى سَفَطٍ^(١) بين يديه، فكان إذا ربح حبتين رفع سَفَطَهُ وانصرف.

وقال إبراهيم بن يسار: قلت لإبراهيم بن أدهم: أمرُّ اليوم أعمل فى الطين. فقال: يا ابن يسار، إنك طالب ومطلوب، يطلبك ما لا تفوته وتطلب ما لا يفوتك، أما رأيت حريضاً محروماً، وضعيفاً مرزوقاً؟ فقلت: إن لى دانقاً عند البقال. فقال: عزَّ علىَّ بك، تملك دانقاً وتطلب العمل.

وقد كان كثير من الصنَّاع يعمل نصف يومه، وثلاثى يومه، ثم يأخذ ما استحقه من كفايته؟ وينصرف إلى مسجده. ومنهم من كان يعمل فى الأسبوع يوماً أو يومين، ويتعبد سائر الأسبوع فى خدمة سيده. وقد كانوا يجعلون أوّل النهار وآخره للآخرة فى تجارة المعاد والمرجع، ويجعلون وسط النهار لتجارة الدنيا.

(١) السَفَط: وعاء يوضع فيه الطيب ونحوه من أدوات النساء. الجمع: أسفاط،

وفى الخبر: «إن الملائكة إذا صعدت بصحيفة العبد من أول النهار ومن آخره فيها خيرٌ وذكرٌ كفر الله عز وجل عنه ما بينهما من سيئ العمل».

وفى الخبر: «يلتقى ملائكة الليل والنهار عند طلوع الفجر، تنفرج ملائكة الليل وتنزل ملائكة النهار، وعند صلاة العصر فتنزل ملائكة الليل وتنفرج ملائكة النهار، فيقول الله عز وجل: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم يصلون وجئناهم يصلون، فيقول الله سبحانه وتعالى: أشهدكم أني قد غفرت لهم».

وقد كان على رضى الله عنه يمرّ فى سوق الكوفة ومعه الدرّة وهو يقول: يا معشرَ التجار، خذوا الحقّ وأعطوا الحقّ تسلموا، ولا تردوا قليل الربح فتُحرموا أكثره، ما مُنع من حقٍّ إلّا ذهب أضعافه فى باطل.

وقيل لعبد الرحمن بن عوف: ما كان سبب يسارك؟ فقال: ثلاث؛ ما رددتُ ربحاً قط، ولا طُلب منى حيوان وأخرت بيعه، ولا بعت بنسباً. ويقال: إنه باع ألف ناقة فربح عُقْلَهَا، وباع كلّ عقال بدرهم، فربح فيها ألفى درهم؛ ألفاً أخذها، وألفاً أنفقها عليها فى يومها.

وقد كان الورعون يكرهون ركوب البحر للتجارة، ويقال: من ركب البحر للتجارة فقد استقصى فى طلب الرزق. وفى الخبر: «لا يركب البحر إلّا حاجٌ أو غازٍ أو معتمر». وعن زيد بن وهب عن عمر رضى الله عنه كان يقول: ابتاعوا بأموال اليتامى لا تأكلها الزكاة، وثمرّوها لهم بالأرباح، وإياكم والحيوان فإنه ربّما هلك، وإياكم ولُجَج البحر تتجروا لهم فيها مالا.

وكان عمرو بن العاص يقول: لا تكن أول من يدخل السوق، ولا آخر خارج، فإنّ بها باض الشيطان وفرخ. وروينا عن معاذ وعبد الله بن عمر رضى الله عنهم: إن إبليس قال لولده زلنور: يا زلنور، سرّ بكتابك، وأنت صاحب السوق، زين الحلف والكذب والخديعة والمكر والخيانة والخلف، وكُن مع أول داخل وآخر خارج منها.

ورويانا عن ابن عمر وابن عباس رضى الله عنهم: «سمعت النبى ﷺ ينهى أن

يدخل السوق أوائل النهار، وأن يخرج منها آخر أهلها». والخبر المشهور: «شرُّ البقاع الأسواق، وشرُّ أهلها أولهم دخولاً وآخرهم خروجاً».

فإذا كان المتسبب في المعاش والمتصرف في الأسواق على هذه الأوصاف المحمودة بهذه الشروط الموصوفة، قائماً بحكم حاله حافظاً لمقامه، فإنه في سبيل من سبَّل الله عزَّ وجلَّ، أفعاله وآثاره حسناتٌ، وكلُّ ما تسبب به إلى الآخرة، وكان عوناً له عليها، وطريقاً له إليها، فهو من الآخرة، وإذا خالف هذه الشروط، ولم يستعمل العلم في أحواله، وفارق التقوى في تصرفه، أو كان يسعى تكاثراً وحرصاً على الدنيا، جزوعاً على ما فاتته من الدنيا، مستقلاً لما فيه يديه منها، لا يبالي ما ذهب من دينه إذا سلمت دنياه، ولا يبالي من أين اكتسب، وفيما أنفق، فهذا يتقلب في المعاصي والمكاريه ظهراً لبطن، متعرضاً للمقت من الله عز وجل، يعمل في البعد والهرب، غير مستعد للموت، ولا موقن بالحساب، أفعاله وآثاره سيئات، وترك التجارة على هذه الأوصاف المكروهة خيراً لهذا، وأهدى سبيلاً، ولا توفيق ولا عصمة إلا من الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله^(١).

• ذكر ما روينا من الآثار في البيوع والصنائع وطريقة الورعين من السلف^(٢)؛

روينا عن علقمة، عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ جَلَبَ الطَّعَامَ إِلَى مِصْرٍ مِنْ أَمْصَارِ الْمُسْلِمِينَ، فَبَاعَهُ بِسَعْرِ يَوْمِهِ، كَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى أَجْرُ شَهِيدٍ. ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]».

وروينا عن عقبة بن عامر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة صاحب مكس^(٣)». وروينا عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أقال نادماً في بيع أقاله الله عز وجل يوم القيامة».

(١) من قوله «وأهدى سبيلاً» إلى آخر الفقرة من (د، هـ).

(٢) هذا الفصل برمته ليس في (د، هـ)، وهو ثابت في (م) والمطبوعة.

(٣) المكس: الضريبة يأخذها المكَّاس ممن يدخل البلد من التجار. الجمع: مكوس.

وروينا عن هشام بن عروة: ذُكر لمعاوية أن رجلاً من المعمرين من الجرّاهمة بالقرب منه، فأحضره فقال: ممّن الرجل؟ قال: من جرهم. قال: وكم تعد من السنين؟ قال: خمسين وثلاثمائة سنة. قال: أخبرني أى المال أفضل؟ قال: عين خدّارة، فى أرض خوّارة، تعول ولا تعال. قال: ثم ماذا؟ قال: فرسٌ فى بطنها يتبعها فرس. قال: الإبل والغنم لا أراك تذكرها. قال: إنّها لا تصلح لمثلك، تصلح لمن يباشرها بنفسه.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «خيرُ مال المسلم سِكةٌ مأبورة، أو مهرةٌ مأمورة». قوله «سِكةٌ مأبورة»: يعنى النخيل التى قد أُبّرت، فهى طريق كالسكك، وقوله «مهرة مأمورة»: يعنى الخيل النواتج مأمورة كثيرة. ومن هذا قوله تعالى: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦] أى أكثرناهم. يقال: أمر القوم، إذا كثروا.

وحدثونا عن عبد الله بن أحمد قال: قدمت من عند معاوية بثلاثمائة ألف دينار، وليس ييدى منها إلاّ دقيق وغنم وأثاث، ففزعت من ذلك، فلقيت كعب الأحبار فذكرت له ذلك، فقال: أين أنت من النخل؟ فإنّا نجدها فى كتاب الله تعالى المطعمات فى المحل^(١)، الراسخات فى الوحل، وخير المال النخل، بائعها محقوق، ومبتاعها مرزوق، مثل من باعها ثم لم يجعل ثمنها فى مثلها كمثّل رماد صفوانٍ اشتدت به الريح فى يوم عاصف، ففزعتُ إلى النخل فابتعتها.

قال: وقال مروان بن الحكم لوهب بن الأسود: ما المروءة؟ قال: برّ الوالدين، وإصلاح المال.

حدثت عن عبد القدوس بن عبد السلام قال: كتب إبراهيم بن أدهم إلى عبّاد ابن كثير: اجعل طوافك وسعيك وحجّك كنومة غاز فى سبيل الله عز وجل. فكتب عبّاد إلى إبراهيم: اجعل حرسك ورباطك وغزوك كنومة كادّ على عياله من حلّه.

وروينا عن العباس قال: سمعت أحمد بن ثور يقول: شيع رجل إبراهيم بن

(١) المحل: الجذب.

أدهم إلى الصنوبر، فقال: يا أبا إسحاق أوصني، قال: أكثر أو أجز. قال: ما الحاجُّ المعتمرُ، ولا الغازي المرباط، ولا الصائم والقائم، بأفضل عندنا ممن أغنى نفسه عن الناس.

وروينا عن لقمان قال لابنه: يا بني، خذ من الدنيا بلاغاً، ولا ترفضها كلَّ الرفض فتكون عيالاً على الناس.

وحدثونا عن شاذان قال: سألت الحسن بن حيٍّ عن شيء من المكاسب، فقال: إن نظرت في هذا حَرَمٍ عليك ماءُ الفرات. ثم قال: طلب الحلال أشدَّ من لقاء الزحف.

وروينا عن الهيثم بن جميل قال: قال ابن المبارك: اركب البرَّ والبحر، واستغن عن الناس. قال الهيثم: ربما يبلغني عن الرجل يقع فيَّ، فأذكر استغنائي عنه، فيهُون ذلك عليَّ.

وروينا عن حماد بن زيد قال: قال أيوب: كسبٌ فيه بعض الشيء أحبُّ إليَّ من الحاجة إلى الناس.

أنشدونا عن ابن أبي الدنيا قال: أنشدني عمر بن عبد الله:

لَنَقْلُ الصَّخْرِ مِنْ قُلُلِ الْجِبَالِ أَخْفُ عَلَى مَنْ مِنَ الرِّجَالِ
يَقُولُ النَّاسُ كَسْبٌ فِيهِ عَارٌ فَقُلْتُ الْعَارُ فِي ذُلِّ السَّوَالِ

حدثنا عن موسى بن طريف قال: ركب إبراهيم بن أدهم البحر، فأخذتهم ريح عاصف أشرفوا على الهلكة. فقالوا: يا أبا إسحاق، أما ترى ما نحن فيه من الشدة؟ قال: وهذه شدة؟ قالوا: فأى شيء الشدة؟ قال: الحاجة إلى الناس.

وأنشدنا بعض العلماء لبعض الأدباء:

لَمَوْتُ الْفَتَى خَيْرٌ مِنَ الْبُخْلِ لِلْغَنَى وَلِلْبُخْلِ خَيْرٌ مِنْ سُؤَالِ بَخِيلِ
فَلَا تَجْعَلَنَّ شَيْئًا لَوَجْهِكَ قِيمَةً وَلَا تَلْقَ مَخْلُوقًا بِوَجْهِ ذَلِيلِ
وَلَا تَسْأَلَنَّ مَنْ كَانَ يَسْأَلُ مَرَّةً فَلَلْفَقْرُ خَيْرٌ مِنْ سُؤَالِ سَوْوَلِ

وأنشدنا بعض الأسيّاح :

إذا عُدَّتْ الآفَاتُ فالبخلُ شرُّها وشرُّ من البخلِ المواعيدُ والمُطلُ
ولا خيرَ في وعدٍ إذا كان كاذبًا ولا خيرَ في قولٍ إذا لم يكن فعلُ
وأنشدنا لبعضهم :

إذا كنتَ لا بدَّ مُستطعمًا فمن غيرِ مَنْ كان يُستطعمُ
فإنَّ الذي كان مُستطعمًا إذا ذُكرَ الجُوعُ لا يُطعمُ
وأنشدنا لبعضهم :

ما خَلَفْتَ حواءَ أحقَّ لحيَّةٍ من سائلٍ يَرجو الغنى من سائلٍ

وحدثونا عن زيد بن أسلم قال: كان محمد بن مسلمة في أرضه يغرس النخل، فدخل عليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال: ما تصنع يا محمد؟ قال: ما ترى. قال: أصبت، استغن عن الناس يكن أصون لدينك، وأكرم لك عليهم، كما قال: صاحبكم أحيحة بن الحلاج:

إنِّي أُقيمُ على الزَّوراءِ أعمُرُها إنَّ الحبيبَ إلى الإخوانِ ذو المالِ^(١)

ورويانا عن ابن مسعود قال: ما كس دونَ درهمك، فإنَّ المغبون لا محمود ولا مأجور.

وقال سفيان الثوري رحمه الله تعالى: إذا قلتَ لصاحبك أحسن، فأحسن فهو صدقة.

وحدَّثت عن عبد الله بن عبد الرحمن قال: كان إبراهيم بن أدهم ورفقاؤه في المسجد في شهر رمضان، فلم سلّم الإمام قام رجلٌ فسأل، فلم يُعطَ شيئًا، ووضعوا عشاءهم، فقالوا لإبراهيم: يا أبا إسحاق، ندعوه؟ قال: لا تدعوه. فبات بغير عشاء. فلما كان من الغد جاء رفيق لإبراهيم فقال له: يا أبا إسحاق، رأيتُ

(١) انظر: شعره، جمع وتحقيق: صالح البكارى والطيب العشاش، حوليات الجامعة التونسية، العدد

الذى سأل البارحة وعلى رأسه حزمة حطب. فقال: تدرون لِمَ قلتُ لكم لا تدعوه؟ سبق إلى قلبي أنه لم يسأل قبلها، فكرهتُ أن أدعوه فيتكل على عشائكم.

قال عبد الله: وقال رجل لإبراهيم: كيف أصبحت؟ قال: بخير ما لم يتحمل مؤونتي غيرى. وعن موسى بن طريف قال: كان إبراهيم بن أدهم لا يماكس إذا عمل مع أحد. حدثونا عن يوسف بن سعيد قال: سمعت إنساناً يسأل على بن بكار: أيهما أفضل؛ اللُّقَاط^(١) أو البطالة؟ فقال: اللُّقَاط فيه معروف كثير. كان سليمان الخواص يَلْقَط ههنا عندنا، وكان إبراهيم بن أدهم يؤاجر نفسه، وكان حذيفة يضرب اللَّيْن.

أبو عمرو بن العلاء قال: قال الحسن: الأسواق موائد الله تعالى، فمن أتاها أصاب منها.

الحسن بن دينار عن قتادة قال: مكتوبٌ في التوراة: اتقِ تَوَقَّ، وسلْ تُعْطَ، واطلبْ تَجِدْ. ومكتوب في الإنجيل: ابن آدم، اصبرْ تُصَبِّرْ.

عن أبي خلدة، عن أبي العالية قال: إذا اشتريت شيئاً فاشتر أجوده.

أبو الطفيل قال: كنت عند أنس بن مالك، فقيل له: خرج الدجال، فقال: كَذِبَة صباغ.

حدثنا عن يحيى بن يمان، عن بسام الصيرفي، عن عكرمة قال: أشهد أن الصيارفة من أهل النار.

ورويانا عن عبد الحميد بن محمود قال: كنتُ عند ابن عباس، فأتاه رجل قال: أقبلنا حجاجاً، حتى إذا كنا بالصفاح توفي صاحب لنا فحفرنا له، وإذا أسود قد ملأ اللحد كله، ثم حفرنا له قبراً آخر فإذا الأسود قد ملأ اللحد، فحفرنا له قبراً آخر فإذا الأسود قد ملأ اللحد كله، فتركناه وأتيناك نسألك ما تأمرنا. قال: ذاك عمله الذى كان يعمل. وفي رواية أخرى: ذاك غُلُّه الذى كان يَغُلُّ به، اذهبوا فادفنوه فى بعضها، فوالله لو حفرتم له الأرض كلها لوجدتم ذاك. قال: فألقيناه

(١) اللُّقَاط: الشيء تجده مُلْقَى فتأخذه.

فى قبر منها، فلما قضينا سفرنا أتينا امرأته فسألنا عن عمله. فقالت: كان رجلاً يبيع الطعام، فيأخذ قوتَ أهله كلَّ يوم، ثم ينظر مثله من قَصَبِ الشعير فيقطعه فيخلطه فى الطعام مكان ما أخذ فيبيعه.

عن حجاج عن أبى جعفر محمد بن على: أن علياً رضى الله تعالى عنه كان يضمن القصَّارَ والصَّبَّاعَ والخِيَّاطَ ليحفظوا على الناس أمتعتهم.

ورويانا عن هشام بن عمار قال: سئل مالك بن أنس فى الرجل يسلم الثوب إلى الحائك بالنصف ودرهم، والنصف ودرهمين. قال: هذا شرطٌ فاسدٌ وله أجرة مثله، إلا أن يخالف الشرط فعليه الغرم.

وحدثنا عن أحمد بن الحسن المقرئ قال: سئل أبو بكر المروزى، وأنا أسمع: الحائك ينسج الثوبَ على الخمسين ودرهمين وعلى الخمسين وثلاثة دراهم وأكثر. قال: لا بأس إذا رَضِيَيا. قلت: فالنصف ودرهم والنصف ودرهمين. قال: لا بأس.

سئل أحمد بن حنبل عن هذه المسألة فقال: لا بأس. وحدثنا عن أبى داود قال: سمعتُ ابنَ حنبلٍ سئل عن الثوب يُعطى على الثلث أو الربع للحائك. قال: لا بأس به، ثم قال: هل هذا إلا مثل المضاربة ومثل قصة جبير، لعله أن يربح المضارب شيئاً، ولا تخرج الأرض شيئاً، كلها عندى قريبة.

وعن ابن وهب قال: قال مالك فى رجل باع بعد النداء يوم الجمعة، قال: يُفسخ ذلك البيع. قيل: عاملاً وترك القيام إليها وهو حرٌّ. قال: بئسما صنع، فليستغفر ربه عزَّ وجلَّ. وقال ربيعة: ظلم وأساء. قال: وقال مالك: يحرم البيع حتى يخرج الإمام يوم الجمعة.

وحدثنا عن أبى داود قال: سمعت أحمد بن حنبل غير مرة يكره التجارة والمعاملة بالمزيفة والمكحلة. قال أبو داود: سألت إسحاق بن راهويه عن إنفاق المزيفة فقال: لا بأس به. وقال عبد الوهاب الوراق: سألت بشراً عن المعاملة بالمزيفة فقال: سألت المعافى عنها؟ فقال: سألت سفيان الثورى عنها فقال: حرام.

وحدثنا عن الحسن الخياط قال: سمعت بشر بن الحارث، وقال له رجل من جيرانه: أسلمتُ عمامةً إلى الحائك. الدقيقُ على مَنْ؟ قال: على الحائك، والخيوطُ لك.

وحدثونا عن بشر عن الفضيل بن عياض عن ليث عن مجاهد أن مريم عليها السلام مرت بحاكةٍ قعود على ظهر طريق في طلب عيسى عليه السلام فقالت: كيف طريقُ موضعٍ كذا وكذا؟ فأرشدوها إلى غير الطريق التي أرادت، فضلت، فدعت الله تبارك وتعالى عليهم فقالت: اللهم انزع البركة من كسبهم وأمتهم فقراء وحقّهم في أعين الناس. قال بشر: أحسب أن الله عزّ وجلّ استجاب دعاءها فيهم. وروينا عن أبي عبد الرحمن الجيلي عن أبي أيوب الأنصاري عن رسول الله ﷺ قال: «من فرق بين الوالد وولده في البيع فرق الله عز وجل بينه وبين أحبته يوم القيامة».

سفيان، عن منصور، عن موسى بن عبد الله: أن أباه بعث بسلام له بمال إلى أصبهان بأربعة آلاف، فبلغ المال ستة عشر ألفاً أو نحو ذلك، فبلغه أنه مات، فذهب يأخذ ميراثه فبلغه أنه كان يقارف الربا، فأخذ أربعة آلاف وترك البقية. وحدثونا عن أبي بكر المروزي قال: سألت أبا عبد الله عن الذي يعامل بالربا يؤكل عنده؟ قال: لا. قال: وسمعت أبا عبد الله يقول: الذي يتعامل بالربا يأخذ رأس ماله، وإن عرف أصحابه ردّه عليهم وإلاّ تصدّق بالفضل.

وروينا حديث ربيعة بن يزيد عن عطية السعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به بأس».

وروينا حديث عباس بن جليل قال أبو الدرداء: إن تمام التقى أن يتقى العبد في مثقال ذرة، حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً، يكون حجاباً بينه وبين الحرام.

وحدثنا عن أبي بكر المروزي قال: سألت أبا عبد الله عن الرجل يكون معه ثلاثة دراهم منها درهم حرام لا يعرفه، قال: لا يأكل منه شيئاً حتى يعرفه. واحتج أبو عبد الله بحديث عدى بن حاتم، أنه سأل النبي ﷺ فقال: إنّي أرسل

كلبى فأجد معه كلباً آخر، فقال: «لا تأكل حتى تعلم أن كلبك قد قتله».

وسألت أبا عبد الله عن الرجل يُدفع إليه الدراهم الصحاح يصوغها. قال: لا، فيها نهى عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه وأنا أكره كسر الدراهم والقطعة. قلت: فإن أُعطيْتُ ديناراً أصوغه كيف أصنع؟ قال: تشتري به دراهم، ثم تشتري به ذهباً. قلت: فإن كانت الدراهم من الفىء ويشتهى صاحبها أن تكون بأعيانها. قال: إذا أخذتَ بِحذائِها فهو مثلها.

وروى أبو عبد الله حديث علقمة بن عبد الله عن أبيه، أن النبي ﷺ نهى عن كسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس. قال أبو عبد الله: البأس أن يختلف فى الدراهم فيقول الواحد: جيد، ويقول الآخر: ردىء، فيكسره لهذا المعنى. قال: وسألت أبا عبد الله عن الرجل يكتسب بالأجر، فيجلس فى المسجد. فقال: أما الخياط وأشباهه فما يعجبني، إنما بنى المسجد ليذكر الله تعالى فيه، وكره البيع والشراء فيه.

قلت لأبى عبد الله: الرجل يعمل المغازل، ويأتى المقابر فربما أصابه المطر، فيدخل فى بعض تلك القباب فيعمل فيها. قال: المقابر إنما هى من أمر الآخرة، وكره ذلك. قلت لأبى عبد الله: أشتري الدقيق فيزيد فى مثل القفيز المكوك. قال: هذا فاحش، هذا لا يتغابن الناس فيه. قلت: فكَيْلَجَةٌ^(١) أو دونها. قال: هذا يتغابن الناس بمثله.

قلت لأبى عبد الله: رفاء يرفأ الوسائد والأنماط للتجار، وهم يبيعون ولا يخبرون بالرفو، قال: يعملهُ العمل الذى يتبين، لا يعمل الخفى الذى لا يتبين، إلا لمن يثق به.

قلت لأبى عبد الله: الثوب ألبسه ترى أن أبيعهُ مرابحةً. قال: لا، وإن بعته مساومةً فبين أنك قد لبسته، وإلا بعته فى سوق الخلق. سألت أبا عبد الله عن

(١) المكوك: مكيال يسعُ صاعاً ونصفاً، أو نصف رطلٍ إلى ثمانى أواقى، أو ثلاث كَيْلَجَات. والكيلجة: مئاً وسبعة أثمانٍ مئاً. والمنا: رطلان، والرطل: اثنتا عشرة أوقية.

إبريق فضة يُباع. قال: لا حتى يكسر. ويقول: لا يباع الحرير.

أمية بن خالد قال: كان يونس بن عبيد إذا طلب المتاع أرسل إلى وكيله بالسوس أن أعلم من يشتري منه المتاع أن المتاع يُطلب.

وحُدثنا عن المروزي قال: سألت أبا عبد الله عن الجوز يُنثر، فكرهه وقال: يُعطون يُقسم عليهم، يعنى الصبيان. قال: ودخلت على أبي عبد الله وقد حَدَقَ ابنه، وقد اشترى جوزاً يريد أن يعده على الصبيان يقسمه عليهم، وكره النثر وقال: هذه نُهبة.

وقال أبو عبد الله وذكر مسائل ابن المبارك فقال: كان فيها مسألة دقيقة. سئل ابن المبارك عن رجل رمى طيراً فوقه في أرض قوم: لمن الصيد؟ قال: لا أدري. قلت لأبي عبد الله: فما تقول أنت فيها؟ قال: هذه دقيقة ما أدري فيها.

قلت لأبي عبد الله: إن عيسى بن عبد الفتاح قال: سألت بشر بن الحارث: هل للوالدين طاعة في الشبهة؟ قال: فقال أبو عبد الله: هذا شديد. قلت لأبي عبد الله: فللوالدين طاعة في الشبهة؟ قال: فقال أبو عبد الله: هذا محمد بن مقاتل قد رأيت ما قال، وهذا بشر بن الحارث قد قال ما قال، ثم قال أبو عبد الله: ما أحسن أن يداريهم، ثم قال أبو عبد الله: الإثم حَوَازُ القلوب.

قال المروزي: أدخلت على أبي عبد الله رجلاً، فقال: إن لي أخوة وكسبهم من الشبهة، فرموا طبخت أمناً، وتساءلنا أن نجتمع ونأكل. فقال له: هذا موضع بشر لو كان لك كان موضعاً، أسأل الله تعالى أن لا يمقتنا، ولكن تأتي أبا الحسن عبد الوهاب فتسأله، فقال له الرجل: فتخبرني بما في العلم؟ قال: قد روى عن الحسن: إذا استأذن والدته في الجهاد فأذنت له، وعلم أن هواها في المقام فليقم. قال: سمعت أبا عبد الله وسئل عن رجل له والدة يستأذنها يرحل يطلب العلم، فقال: إن كان جاهلاً لا يدرى كيف يَطْهَرُ ولا يصلى، فطلب العلم أوجب، وإن كان قد عرف فالمقام عليها أحب إليّ. قلت: فإن كان يرى المنكر فلا يقدر أن يغيره؟ قال: يستأذنها، فإن أذنا له خرج.

حدثنا عن أبي الربيع الصوفى قال : دخلتُ على سفيان بالبصرة ، فقلت له : يا أبا عبد الله ، إنى أكون مع هؤلاء المحتسبة ، فندخل على المخشين ، ونسلق عليهم الحيطان ، فقال : أليس لهم أبواب ؟ قلتُ : بلى ، ولكن ندخل عليهم كيلا يفروا . فأنكر ذلك إنكاراً شديداً وعاب فعالنا . فقال رجل : من أدخل هذا ؟ فقلت : إنما دخلتُ إلى الطبيب أخبره بدائى ، فانتفض سفيان وقال : إنما هلكنا إذ نحن سُقْمى ، فسُمِّينا أطباء ، ثم قال : لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا من فيه ثلاث خصال : رفيق بما ينهى ، عدلٌ بما يأمر عدل بما ينهى ، عالم بما يأمر عالم بما ينهى .

وحدثنا عن أحمد بن محمد بن الحجاج قال : سألت أبا عبد الله قلت : أمرُ فى السوق فأرى الطبول تباع فأكرها ؟ قال : إن قويت يا أبا بكر . قلت : أَدْعَى أُغْسَل الميت ، فأسمع صوت الطبل . قال : إن قدرت على كسره وإلا فاخرج . سألته عن كسر الطنبور . قال : يكسر . قلت : فإذا كان معطى ؟ قال : إذا سُرَّ عنك فلا . قلت : فالطنبور الصغير يكون مع الغلام . قال : تكسره أيضاً إذا كان مكشوقاً .

قلت لأبى عبد الله : رجل له قراح نرجس ، ترى أن يباع ؟ فقال : إنهم يقولون : الزئبق يُعمل منه . قلت : فإن كان لا يشتريه إلا أصحاب المسكر ؟ قال : يُسأل عن ذا ، فإن كان هكذا لا يباع .

سمعت أبا عبد الله وسأله رجل فقال : إنَّ أبى كان يبيع من جميع الناس ، وذكر من تُكره معاملته . فقال : يدع من ذلك بقدر ما ربح . فقال له : فإنَّ له ديناً وعليه دين . قال : يقتضى ويقتضى عنه . قلت : وترى له بذلك ؟ قال : فتدعه محتسباً بدينه ؟

سألت أبا عبد الله عن قريب لى أكره ناحيته ، يسألنى أن أشتري له ثوباً أو أسلماً له غزلاً . فقال : لا تُعنه ولا تشتريه له ، إلا أن تأمرك والدتك ، فإذا أمرتك فهو أسهل لعلها أن تغضب .

سمعت أبا عبد الله وسئل عن رجل له أب مرابٍ يرسله أن يتقاضى له : ترى له أن يفعل ؟ قال : لا ، ولكن يقول : لا أذهب حتى تتوب .

ذكرتُ لأبى عبد الله رجلاً من المحدثين، فقال: رحمه الله أى رجل كان لولا خلة واحدة؟ ثم قال: ليس كل الخلال يكملها الرجل. فقلت له: أليس كان صاحب سنة؟ قال: أى لعمري، وقد كتبت عنه ولكن خلة واحدة. فقلت: مثل أيش؟ قال: كان لا يبالي بمن أخذ.

سمعت أبا عبد الله، وذكر بشر بن الحارث، فقال رحمه الله: لقد كان فيه أنس، وذكر له شيء من الورع، فقال: يُسأل عن مثل هذا بشر، هذا موضع بشر، وأنا لا ينبغي لى أن أتكلم فى هذا.

ذكرتُ لأبى عبد الله رجلاً فقيراً فى أطمار خلّقان، وقلت: ما أحوجه إلى علم؟ فقال لى: اسكت، لصبره على فقره وعُريه من العلم، إنى لأذكره وأنا فى الفراش. وقال: هؤلاء خير منا. قلت لأبى عبد الله: قيل لابن المبارك: كيف يُعرف العالم الصادق؟ قال: يزهد فى الدنيا، ويقبل على أمر آخرته. فقال أبو عبد الله: نعم، هكذا يريد أن يكون.

سألت أبا عبد الله عن امرأة كانت تجرى على أخرى وتصلها، وذكرت المرأة شيئاً ردياً، وقد اجتمع عندها منه شيء، وليس لها مال غيره، ولعلها إن أخرجه احتاجت إلى المسألة. وقالت المرأة^(١): ما أمرنى به أبو عبد الله من شيء صرت إليه. قال: أرى أن تصدّق به وتساءل.

سمعت أبا عبد الله وذكر ابن عون، فقال: كان لا يُكرى دوره من المسلمين. قلت: لأى علة؟ قال: لثلا يروّعهم.

ابن المبارك عن حكيم بن زريق، عن أبيه، عن سعيد بن المسيب فى البرِّ بالدقيق. قال: هو ربا.

قلت لأبى عبد الله: أخبرت أن بشر بن الحارث أرسل أخوه بتمر من الأيلة، فأبقت أمه ثمرة من التمر الذى كانت تفرقه؛ يعنى على أهل بيته، فلما دخل بشر قالت له أمه: بحقى عليك لما أكلت هذه الثمرة؟ فأكلها وصعد إلى فوق،

(١) من قوله: «شيئاً ردياً» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

وصعدت خلفه فإذا هو يتقيًا، وكان أخوه على شيء، فقال أبو عبد الله: وقد روى عن أبي بكر رضى الله عنه نحو هذا.

وسمعت أبا عبد الله، وذكر وهيب بن الورد، فقال: قد كلمه ابن المبارك فيما يجيء من مصر، وإنما أراد ابن المبارك أن يسهل عليه، ولم يدر أنه يشدد عليه، وكان لا يأكل مما يجيء من مصر إلا الزبيب.

وقال أبو عبد الله: بشر بن الحارث كان يأكل من غلة بغداد، قلت: لا، هو كان ينكر على من يأكل. فقال: إنما قدر بشر، لأنه كان وحده، لم يكن له عيال، ليس من كان مُعِيلاً كمن كان وحده، لو كان إلى ما باليت ما أكلت.

وذهب أبو عبد الله إلى أن يأخذ من السواد القوت، ويتصدق بالفضل. ثم قال: لا يعجبني أن أبيع شيئًا. قلت لأبي عبد الله: ترى أن يشرب الرجل من السواد؟ قال: هذا الذى نحن فيه ميراث، إنما أخذ الغلة على الاضطرار. قيل لأبي عبد الله: فيشتري الرجل فيه؟ فقال للسائل: إن كنت فى كفاء فلا. ثم قال: أكره أن يبيع الرجل داره، ولا أرضى فى شيء من السواد، ولا يشتري إلا مقدار القوت، فإذا كان أكثر من قوته تصدق به. وقال: أنا أذهب إلى أن السواد^(١) وقف على المسلمين. أما عمر رضى الله تعالى عنه فترك السواد ولم يقسمه. وهكذا عثمان تركه، إلا أنه أقطع قومًا من أصحاب النبي ﷺ؛ ابن مسعود وسعدًا وذكر غير واحد. وأما على رضى الله عنه فأقره ولم يقسمه.

قال أبو عبد الله: من ذهب إلى قول ابن المبارك فذاك البلاء، يزعم أن السواد يُقسم على من شهد الواقعة. وقال ابن إدريس فى دار ببغداد: يبيع أمرها حتى يردّها إلى من فتحها بالسيف. قلت: ومن أين تقدر على هذا؟ فتبسم، وقال: يصير إلى المدينة مدينة الرسول ﷺ فيسأل عنهم. قال أبو عبد الله: أهل المدينة على مذهب ابن إدريس، يقولون: المدينة إذا فُتحت عنوةً قسمت على من شهدّها. قلت لأبي عبد الله: فمن خالفهم؟ قال: عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهما أوقفها على المسلمين. قلت لأبي عبد الله: فمن

(١) السّواد: ما حول المدن من القرى والريف.

ورث داراً فى القطيعة أو الرِّبْض؟ قال: قال ابن إدريس: يردّها على من شهد القادسية. قلت: وهذا هو عندك القول؟ قال: نعم، ما أحسن ما قال. ولكن مثل هذا الذى فى أيدينا إنما هى قطائع، لو أن رجلاً أراد أن يخرج مما فى يديه كنا نأمره أن يوقفها لأنها فىء. سألت أبا عبد الله عن الكوفة والبصرة: أليس افتتحت؟ قال: لا، إنما جاؤوا فابتنوا فيها.

وأدخلتُ على أبى عبد الله رجلاً فقال: إنى ورثتُ عن أبى أرضين من السّواد، فقال له: أوقفها على قرابتك، فإن لم يكن فعلى جيرانك. وقيل له أيضاً: ورث رجلٌ داراً فى القطيعة فقال: يوقفها. ثم قال: السّواد فىء للمسلمين، ورخص فى الشراء. قلت لأبى عبد الله: كيف أشتري فى السّواد ولا أبيع؟ قال: الشراء عندى خلاف البيع، واحتج أن أصحاب رسول الله ﷺ رخصوا فى شراء المصاحف، وكرهوا بيعها: ابن عباس، وجابر بن عبد الله.

سئل أبو عبد الله: أيما أحب إليك؛ سكنى القطيعة أو الرِّبْض؟ فقال: الرِّبْض. قلت لأبى عبد الله: إن القطيعة أرفق من سائر الأسواق. فقال: أمرها معلوم تعرفها لمن كانت. قلت: فتكره العمل فيها؟ قال: قد وقع فى قلبى منه شيء، قال ابن مسعود: الإثم حوَّاز القلوب. قلت لأبى عبد الله فى أمر العرصة. فقال: العرصة ليست عندى مثل القطيعة. كأن العرصة عنده حريم دجلة^(١). قلت لأبى عبد الله: فرجل يريد الخروج إلى الثغر، وله دار يريد أن يبيعها. قال: لا. قلت: فإن قال: إنما أبيع النّقص، فتبسم وقال: إن رضى المشتري كأنه عنده حيلة، ثم قال: قد ورث ابن سيرين أرضاً من أرض السّواد. قلت: فهى رخصة. قال: هذا معروف عن ابن سيرين. قال أبو بكر: سمعت أبا عبد الله يقول: أنا أفرح إذا لم يكن عندى شيء. وقال: ما أعدل بالفقر شيئاً. وقال: هذه الغلّة ما تكون قوتنا، فأخبرته أن رجلاً قال: لو أن أبا عبد الله ترك هذه الغلّة، وكان يتصنّع صديقاً له، كان أعجب إلىّ. فقال أبو عبد الله: هذه طعمة سوء - أو قال: رديّة - من تعود هذا لم يصبر عنه. ثم قال: هذا أعجب إلىّ من غيره.

(١) من قوله: «قلت لأبى عبد الله فى أمر العرصة» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

حَدَّثَنَا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نُوحٍ السَّرَّاجِ قَالَ: قَالَ لِي بَشَرٌ: يَا سَرَّاجُ، أَنْتَ بَعْدَ فِي الْقَطِيعَةِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: أَغْنَاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ الدَّخُولِ إِلَيْهَا. حَدَّثْتُ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ بَشَرٍ قَالَ: وَصَفَ لِي شَيْءٌ يَنْبِتُ أَتْدَاوِي بِهِ، وَقِيلَ: لَيْسَ تَجِدُهُ إِلَّا فِي بَسْتَانِ بَنِي كَذَا؛ يَعْنِي الْقَطِيعَةَ. فَقَالَ: لَوْ كَانَ شِفَائِي فِيهِ مَا أَرَدْتَهُ.

مُحَمَّدُ بْنُ حَاتِمٍ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ أَبِي بَشَرٍ يَقُولُ: كُنْتُ مَعَ بَشَرٍ، وَقَدْ خَرَجْنَا مِنْ بَابِ حَرْبٍ، فَقَالَ لِي: يَا أَبَا يَعْقُوبَ، تَفَكَّرْتُ فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، وَمَنْ كَرِهَ الدَّخُولَ إِلَيْهَا، وَاعْلَمْ أَنَّ الدَّبَّاعَ إِذَا كَانَ فِي الْمَدْبَغَةِ لَا يَشْمُ رَائِحَتَهَا، إِنَّمَا يَشْمُ رَائِحَتَهَا مِنْ وَرْدٍ عَلَيْهَا. قَالَ بَعْضُهُمْ: وَسَمِعْتُ بَشَرًا يَقُولُ: مِنْ ذُنُوبِي مَقَامِي بِبَغْدَادٍ. وَقَالَ شُعَيْبُ بْنُ حَرْبٍ: أَيُّ رِجَالِ بَغْدَادٍ إِذَا لَوْ كَانَ لَهُمْ خَيْرٌ؟

وَعَنْ عَبْدِ الْوَهَّابِ قَالَ: خَرَجَ مِنْ هَهْنَا إِلَى الْمَدَائِنِ إِلَى شُعَيْبِ بْنِ حَرْبٍ قَوْمٌ، فَكَلِمُوهُ فِي النِّزُولِ بِبَغْدَادٍ، فَأَشَارَ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَرْجِعُوا، فَتَرَكُوا دُورَهُمْ، وَأَقَامَ بَعْضُهُمْ لِيَسْتَقِيَ مَاءَ بِالْمَدَائِنِ، وَلَقَدْ رَأَى شُعَيْبٌ بَعْضَهُمْ يَسْتَقِي الْمَاءَ فَقَالَ: لَوْ رَأَى سَفِيَانٌ لَفَرَحَ بِكَ. قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ: جَاءَنَا كِتَابٌ مِنْ طَرَسُوسٍ فِيهِ أَنَّ قَوْمًا خَرَجُوا فِي نَيْفِ الْأَسْفَلِ، فَطَحَنُوا لَهُمْ طَعَامًا عَلَى رَحَى، فَتَبَيَّنُوا بَعْدُ أَنَّ الرَّحَى فِيهِ شَيْءٌ يَكْرَهُونَهُ غَضَبٌ، فَتَصَدَّقَ بَعْضُهُمْ بِنَصِيْبِهِ، وَأَبَى بَعْضُهُمْ وَقَالَ: لَسْتُ أَمْرًا، فِيهِ شَيْءٌ لَا أَرْضَى أَكَلَهُ لَا أَرْضَى أَتَصَدَّقَ بِهِ، فَأَيُّ شَيْءٍ تَقُولُ؟ فَكَانَ مَذْهَبُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِهِ إِذَا كَانَ شَيْئًا يَكْرَهُهُ.

وَرَجُلٌ اشْتَرَى حَطْبًا، وَاکْتَرَى دَوَابَّ وَحَمَلَهُ، ثُمَّ تَبَيَّنَ بَعْدَ أَنَّهُ يُكْرَهُ نَاحِيَتَهَا، كَيْفَ يَصْنَعُ بِالْحَطْبِ؟ تَرَى أَنْ يَرُدَّهُ إِلَى مَوْضِعِهِ، وَكَيْفَ تَرَى أَنْ يَصْنَعُ بِهِ؟ فَتَبَسَّمَ وَقَالَ: مَا أَدْرِي. قُلْتُ: إِنْ رَجَلًا قَالَ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ: مَا تَقُولُ فِي نَفَّاطَةِ^(١) لِمَنْ تُكْرَهُ نَاحِيَتُهُ، يَنْقَطِعُ شِسْعِي أَسْتَضِيءُ بِهِ؟ قَالَ: لَا. وَذَكَرَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَثْمَانَ بْنَ زَائِدَةَ: أَنَّ غُلَامَهُ أَخَذَ لَهُ نَارًا مِنْ قَوْمٍ يَكْرَهُهُمْ، فَأَطْفَأَهَا. فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: النَّفَّاطَةُ أَشَدُّ. قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ: تَنْوَرُ سُجْرَ بَحْطَبٍ أَكْرَهُهُ فَخُبْزُ فِيهِ، فَجِئْتُ أَنَا بَعْدَ فَسَجَرْتُهُ بِحَطْبٍ آخَرَ فِيهِ. قَالَ: لَا، أَلَيْسَ أَحْمَى بِحَطْبِهِمْ، وَكَرَهُهُ.

(١) النَّفَّاطَةُ: ضَرْبٌ مِنَ السُّجْرِ.

قلت لأبى عبد الله: الخادم الخصى ينظر إلى شعر مولاته. قال: لا. قلت: المرأة تكون بها الكسرة فيضع المجبر يده عليها. قال: هذا ضرورة ولم يَر به بأساً. قلت: قال المجبر: لا بد لى أن أكشف صدر المرأة، وأضع يدي عليها. قال طلحة: يوجد. قلت لأبى عبد الله: فالكحل يخلو بالمرأة وقد انصرف من عنده النساء، هل هذه الخلوة منهي عنها؟ قال: أليس هو على ظهر الطريق؟ قيل: نعم. قال: إنما الخلوة تكون في البيوت.

قال أبو بكر: قلت لأبى عبد الله: إذا اضطر الرجل إلى الميتة، ووجد مع قوم طعاماً ما، يأخذ الطعام بغير إذن صاحبه، أو يأكل الميتة؟ قال: يأكل الميتة، قد أحلت له.

سألت أبا عبد الله عن الرجل يمر بالحائط أو النخل يأكل منه، فقال: قد سهل فيه قوم من أصحاب رسول الله ﷺ. قلت: فماذا تقول إذا اضطر الرجل إلى الميتة، ووجد مع قوم طعاماً يأخذ الطعام بغير إذن صاحبه، أو يأكل الميتة؟ قال: يأكل ولا يحمل. قلت: الرجل يمر بالبستان، قال: إذا كان عليه حائط لم يدخل، وإذا كان غير محوَّط أكل ولا يحمل.

سألت أبا عبد الله عن أجور بيوت مكة. فقال: لا يعجبني. قلت لأبى عبد الله: فيكترى الرجل الدار ويخرج ولا يقضى الكراء؟ قال: لا يعجبني أن لا يُخرج الكراء. ثم قال: هذا بمنزلة الحجام لا بدّ من أن يُعطى. قلت لأبى عبد الله: فترى شراء دور مكة والبيع. قال: لا، أما الدور الكبار فمثل دار فلان وفلان سماها، فتُفتح أبوابها حتى يضرب الحاج فيها فساطيطهم وينزلوها لا يُمنع أحد من نزولها.

قيل لأبى عبد الله: هذا عمر بن الخطاب قد اشترى السجن. قال: لا، هذا لا يشبه ما اشترى عمر إنما اشترى السجن للمسلمين، يحبس فيه السراق وغيرهم.

سئل أبو عبد الله عن السقايات التي يعملها من تكره ناحيته، ترى أن يتوضأ منها؟ قال: لا، إلا أن يخاف فوت الصلاة؛ يعني يوم الجمعة.

سئل أبو عبد الله عن السقايات التي تفتح إلى الطريق: ترى أن يشرب منها؟ فقال: قد سئل الحسن فقال: قد شرب أبو بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما من سقاية أم سعيد.

قلت لأبى عبد الله: حكى عن فضيل أن غلامه جاءه بدرهمين فقال: عملت فى دار فلان، فذكر من يكره ناحيته. قال: فرمى بها بين الحجارة وقال: لا يُتَقَرَّب إلى الله عز وجل إلا بالطيب. فعجب أبو عبد الله وقال: رحمه الله. وذهب أبو عبد الله إلى أن يتصدق، كأنه كان أحوط، وقال: يعجبني أن يتصدق به، إذا تصدَّق به فأى شيء بقي؟!!

• ذكر ما رأى أحمد بن حنبل الخروج منه^(١)؛

حدثت عن أحمد بن عبد الخالق قال: حدثنا أبو بكر المروزي قال: سألت أبا عبد الله عن الرجل يدعى إلى الوليمة، من أى شيء يخرج؟ فقال: خرج أبو أيوب حين دعاه ابن عمر، فرأى البيت قد ستر. ودعى حذيفة فخرج، وإنما رأى شيئاً من زى الأعاجم. قلت: فإن لم يكن البيت مستوراً، ورأى شيئاً من فضة، فقال: ما كان يُستعمل يعجبني أن يخرج.

وسمعت أبا عبد الله يقول: دعانا رجل من أصحابنا قبل المحنة، وكنا نختلف إلى عقان فإذا فضة، فخرجت فأتبعنى جماعة، فنزل بصاحب البيت أمر عظيم. قلت لأبى عبد الله: فالرجل يُدعى فيرى المكحلة رأسها مفضض؟ قال: هذا يُستعمل، فاخرج منه، إنما رُخِّص فى الضبة أو نحوها فهو أسهل.

سألت أبا عبد الله عن الكلة؟ فكرهها. قلت: فالقبة أو الحجلة فلم ير به بأساً. قلت لأبى عبد الله: إن رجلاً دعا قومًا فجاء بطست فضة أو إبريق فكسره، فأعجب أبا عبد الله كسره.

سألت أبا عبد الله عن الرجل يدعى فيرى فرش ديباج: ترى أن يقعد عليه، أو يقعد فى بيت آخر؟ قال: يخرج، قد خرج أبو أيوب وحذيفة. وقد روى عن ابن

(١) أى يترك المكان إذا رأى منكراً.

مسعود قلت: فترى أن يأمرهم؟ قال: نعم، فيقول: هذا لا يجوز. قلت لأبى عبد الله: الرجل يكون فى بيت فيه ديباج فيدعو ابنه للشئ. قال: لا يدخل عليه، ولا يجلس معه. قلت لأبى عبد الله: الرجل يدعى فيرى الكَلَّةَ، فكرهه، وقال: هو رياء، لا يرد من حرٍّ ولا من برد. قلت: الرجل يدعى فيرى تصاوير. قال: لا ينظر إليه. قلت: فقد نظرتُ إليه. قال: إن أمكنك خلعه خلعتَه.

أبو صالح الفراء عن يوسف بن أسباط قال: قلت: مَنْ أجيب؟ قال: لا تدخل على رجل إذا دخلت عليه أفسدَ عليك قلبك. قد كان يكره الدخول على أهل البُسْطِ يعنى، الأغنياء.

المروزي قال: سألتُ أبا عبد الله عن السِّتر يُكتب عليه القرآن، فكره ذلك وقال: لا يُكتب القرآن على شئ منصوب لا سِتر ولا غيره. قلت: فالرجل يكتري البيت يرى فيه التصاوير ترى أن يحكه؟ قال: نعم. قلت لأبى عبد الله: فإذا دخلت حمائمًا فرأيت فيه صورة ترى أن أحك الرأس؟ قال: نعم.

• ذكر الورع فى أشياء:

ابن عبد الخالق قال: حدثنا أحمد بن الحجاج قال: قلت لأبى عبد الله: ترى الرجل الوضىء تسأله الصبيَّة أن يشتري لها لعبة؟ قال: إن كانت صورة فلا، وذكر فيه شيئًا. قلت: أليس الصورة إذا كان يد أو رجل؟ فقال: عكرمة يقول: كل شئ له رأس فهو صورة. قال أبو عبد الله: وقد يصيرون لها صدرًا وعينًا وأنفًا. قلت: وأحب إليك أن تجتنب شراءها؟ قال: نعم.

سألت أبا عبد الله عن قبلة اليد فلم يرَ بها بأسًا إن كان على التدين. قال: قد قبل أبو عبيد يدَ عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما. وإن كان على طريق الدنيا فلا، إلا رجل يخاف سيفه أو سوطه. قال لى أبو عبد الله: قال لى سعيد الحاجب ألا يقبل يد ولىَّ عهد المسلمين. فقلت: بيدى هكذا ولم أفعل. وروينا عن على بن ثابت قال: سمعت سُفيانَ يقول: لا بأس بها للإمام العادل وأكرهه على الدنيا؛ يعنى تقبيل اليد.

قلت لأبي عبد الله: رجل يريد الخروج إلى الثغر، وقد سألتني أسألك: هذا الطريق طريق الأنبار مخيف، فإن عرض له اللصوص ترى أن يقاتلهم؟ قال: إن طلبوا أشياءه قاتلهم، لأن النبي ﷺ قال: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ». قلت: فإن عرضوا للرفقة، ترى أن يقاتلهم؟ قال: حتى إن يطلبوه هو، ولم يرَ أن يقاتل عن الرفقة بالسيف.

سئل أبو عبد الله عن الأسير: يفر؟ قال: نعم، إذا قدر على ذلك. قلت لأبي عبد الله: ترى للرجل إذا جاءه الرجل يسأل، ترى أن يسأل له قومًا؟ قال: لا، ولكن يعرض كما فعل النبي ﷺ حين قَدِمَ عليه القوم مجتأبي النمار، فقال: تصدق رجل بكذا.

سمعتُ أبو عبد الله يقول: عبد الوهاب أطيب طعمة من غيره، يريد الوراقة. سمعت أبا عبد الله يقول: كان يحيى بن يحيى أوصى إلىَّ بجُبته، فجاءني ابنه بها، فقلت: رجل صالح قد أطاع الله تبارك وتعالى فيها أتبرك بها.

حُدِّثَ عن بعض العلماء أن يحيى بن يحيى قالت له امرأته تُشَرِّبه دواءً: لو قمت فترددت في الدار؟ فقال: ما أدري ما هذه المسألة، أنا أحاسب نفسي منذ أربعين سنة.

حُدِّثَ عن موسى بن عبد الرحمن بن مهدي قال: لما قبض عمي أغمى على أبي، فلما أفاق قال: البساط نحوه أدرجوه لغلَّة الورثة. ابن أبي خالد قال: كنت مع أبي العباس الخطاب، وقد جاء يعزى رجلاً ماتت امرأته، وفي البيت بساط، فقام أبو العباس على باب البيت فقال: أيها الرجل، معك وارث غيرك؟ قال: نعم. قال: قعودك على ما لا تملك، فتنحى الرجل عن البساط.

وحُدِّثَ عن ابن الضحاك صاحب بشر بن الحارث قال: كان يجيء إلى أخته حين مات زوجها، فبييت عندها، فيجىء معه بشيء يقعد عليه، ولم يرَ أن يقعد على ما خلَّف من غلَّة الورثة.

ابن عبد الخالق عن المروزي قال: سألت أبا عبد الله عن بوارى المسجد إذا

فضل منه الشيء أو الخشبة. قال: يتصدق به. سألته عن الجص والآجر يَفْضَلُ عن المسجد. قال: يصير في مثله. قلت لأبي عبد الله: إني أكون في المسجد في شهر رمضان فيجاء بالعود من الموضع الذي يكره، فقال: وهل يراد من العود إلا ريحه؟ إن خفى خروجك فاخرج.

روينا عن أبي عوانة عن عبد الله بن راشد قال: أتيت عمر بن عبد العزيز بالطيب الذي كان في بيت المال، فأمسك على أنفه وقال: إنما ينتفع بريحه.

عبد العزيز بن أبي سلمة قال: حدثنا إسماعيل بن محمد قال: قدم على عمر رضى الله عنه مسك من البحرين، فقال: والله لوددت أنى أجد امرأة حسنة الوزن تَرِنَ لى هذا الطيب حتى أفرقه بين المسلمين، فقالت امرأته عاتكة بنت عمرو بن نفيل: إني جيدة الوزن فهل أزن لك. قال: لا. قالت: ولم؟ قال: إني أخشى أن تأخذه هكذا، وأدخل أصابعه فى صدغيه، وتمسحين عنقك، فأصيب فضلاً عن المسلمين.

وسليمان التيمي قال: حدثني نعيم عن العطارة قال: كان عمر يدفع إلى امرأته طيباً من طيب المسلمين. قال: فتبيعه امرأته، فباعتنى طيباً، فجعلت تقوم وتزید وتنقص، وتكسره بأسنانها فيعلق بأصبعها شيء منه، فقالت به هكذا بأصبعها، ثم مسحت به خمارها، فدخل عمر فقال: ما هذه الريح؟ فأخبرته بالذي كان. فقال: طيبُ المسلمين تأخذه أنت فتطيين به؟ فانزع الخمار من رأسها، وأخذ جرّاً من ماء فجعل يصب على الخمار، ثم يذلكه فى التراب ثم يشمه، ثم يصب عليه الماء ثم يذلكه فى التراب ثم يشمه، ففعل ما شاء الله. قالت العطارة: ثم أتيتها مرة أخرى، فلما علق بأصبعها منه شيء فعمدت فأدخلت أصبعها فى فيها، ثم مسحت بأصبعها التراب.

أبو بكر المروزي قال: قلت لأبي عبد الله: يحضر يوم الجمعة يوم بارد، ترى أن يسخن الماء من الموضع الذى أكره؟ قال: لا، ترك الغسل أحب إلى من هذا. سمعت أبا عبد الله ينكر على أبي ثور قوله.

وإذا أجمع الأطباء أن شفاء الرجل فى الخمر، أنه ليس به بأس، فأنكر إنكاراً

شديداً عليه، وقال: لقد كرهتُ أن يداوى الدُّبر بالخمير فكيف بشره؟ وتكلم بكلامٍ غليظ.

حدثت عن شعيب بن حرب قال: لأن أرى ابني يسرق أو يزني أحبُّ إليَّ من أن يأتي عليه وقت لا يعرف الله تبارك وتعالى فيه.

محمد بن أبي داود الأنباري قال: قلت لأبي أسامة: أجب وليمةً فيها نبيذ؟ قال: لا. قلت: أخاف الحديث الذي جاء عن رسول الله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَجِبْ فَقْدَ عَصَى». فقال: مَنْ لَمْ يَجِبْ الْيَوْمَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ تَعَالَى وَرَسُولَهُ ﷺ.

هارون بن معروف قال: جاءني فتى فقال: إن أبي حلف علىَّ بالطلاق أن أشرب دواء مع مسكر، فذهبت به إلى أبي عبد الله فلم يرخص له، وقال: قال النبي ﷺ: «كل مسكرٍ حرام، أو قال: خمر».

المروزي قال: سألت أبا عبد الله عن خياطٍ الملحم فقال: ما كان للرجال فلا، وما كان للنساء فليس به بأس. وسألته: يُخاط للنساء هذه الزيقات^(١) العراض، فقال: إن كان شيء عريض فأكرهه، هو مُحَدَّث، وإن كان شيء وَسَطًا لَمْ يَرَبْ به بأسًا. وكره أن يصير للمرأة مثل جيب الرجال. وقطع أبو عبد الله لابنته قميصًا، وأنا حاضر، فقال للخياط: صير جيبها من قَدَام. وقطع أبو عبد الله لابنته قميصًا، وأنا حاضر، فقال للخياط: صير زيقاتها دَقَاقًا، وكره أن يصير عريضًا. وقطعت لأبي عبد الله جبةً وصيرت زِيَقَهَا دَقِيقًا. فقلت لأبي عبد الله: هل أدركتَ أحدًا من المشايخ كان له زِيَقٌ عريض؟ قال: لا. وكنت يومًا عند أبي عبد الله فمرت جارية عليها قِباء فتكلّم بشيء، فقلت: تكرهه، قال: كيف لا أكرهه جدًّا، لعن رسول الله ﷺ المتشبهات من النساء بالرجال.

وروينا عن عبد الصمد قال: دعا يزيد بن هارون خياطًا من النساء فقال: اقطع لهذه الجارية قِباءً، فوضع الخياط المقرض من يده، وقال: يا أبا خالد، قِباء عمّن، فسكت يزيد المروزي. قال: ذُكر لأبي عبد الله رجل من المحدثين فقال: إنما

(١) الزيق: ما يُكفُّ به جيب القميص، يخاط به لتقويته. الجمع: أزياق، وزِيَقَة.

أنكرتُ عليه أن لبس زِيَّه زى النسَّاك.

سألت أبا عبد الله عن الرجل يلبس النعل السبتيَّ، فقال: أما أنا فلا أستعملها، ولكن إذا كان للمخرَج أو الطين فأرجو، وأما من أراد الزينة فلا. ورأى نعلًا سبتيًّا على باب المخرَج فسألني: لمن هي؟ فأخبرته، قال: يتشبه بأولاد لوط، يعنى صاحبها. سألت أبا عبد الله قلت: أمروني في المنزل أن أشتري نعلًا سنديًا للصبية، قال: لا تشتري. قلت: تكرهه للصبيان والنسَّاك؟ قال: نعم أكرهه.

زياد بن أيوب قال: كنت عند سعيد بن عياض فأتاه صبي ابن ابنته وفي رجله نعل سندي، فقال: مَنْ ألبسك هذا؟ قال: أمي. قال: اذهب إلى أمك تنزعها. المروزي قال: سألت أبا عبد الله عن المرأة تلبس المقطوع الأحمر، فكرهه كراهة شديدة وقال: أما أن تريد الزينة فلا.

يقال: أول من لبس الثياب الحمر آل قارون، ثم خرج على قومه في زينته. قال: في ثياب حمر.

مجاهد، عن عبد الله بن عمر قال: مر على النبي ﷺ رجل وعليه ثوبان أحمران، فسَلَّم فلم يردّ عليه. المروزي قال: رأى أبو عبد الله بطانة جنبي حمراء، فقال: لِمَ صبغتها حمراء؟ قلت: للرِّقَاع التي فيها، قال: وإيش تبالى أن يكون فيها رقاع؟ قلت: تكرهه؟ قال: نعم. وأمرني أن أشتري له تِكَّة فقال: لا يكون فيها حمرة، قلت: تكرهه، قال: نعم.

قلت لأبي عبد الله: الثوب الأحمر تُغطَّى به الجنازة، فكرهه، قلت: ترى أن أجذبه؟ قال: نعم. وأمروني في منزل أبي عبد الله أن أشتري لهم ثوبًا عليه كتاب، فقال: قل لهم: إن أردتم أن أشتريه وأقلع الكتاب. قلت: هم إنما يريدون الكتاب. قال: لا تشتريه.

وأخبرتني المرأة قالت: نهاني أبو عبد الله عن النقش في الخضاب وقال: أغمسى اليد كلها. وسمعت أبا عبد الله وذكر المختضبة، فقال: قالت عائشة: أسليه وادعمية.

سليمان التيمي عن أبي عثمان قال: أرسلت أم الفضل ابنة غيلان إلى أنس تسأله عن القلادة في عنق المرأة ، وعن الخضاب ، فأرسل أنه يستحب للمرأة أن تعلق في عنقها شيئاً في الصلاة ولو سيراً. وقال في الخضاب: أمرها أن تغمس يدها كلها.

المروزي قال: سألت أبا عبد الله عن الرجل يجصص ، فقال: أما أرض البيوت فتوقيه من التراب ، وكره تجصيص الحيطان. وذكرت لأبي عبد الله مسجداً قد بنى وأنفق عليه مال كثير ، فاسترجع وأنكر ما قلت ، وقال: قد سألوا النبي ﷺ أن يكحل المسجد ، فقال: «لا ، عريشٌ كعريش موسى». قال أبو عبد الله: إنما هو شيء من الكحل يُطلى ، فلم يرخص النبي ﷺ.

حدثت عن أحمد بن عبد الخالق قال: حدثنا أبو بكر المروزي قال: قلت لأبي عبد الله: لا يبيع حاضر لباد كيف هو؟ فقال: حدثنا سفيان قال: حدثنا أبو الزبير قال: سمعت جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبيع حاضر لباد ، يدعو الناس يرزق الله بعضهم من بعض». قال: البادي الأعرابي ، وأنت حاضر ، ويجيء الأعرابي وهو لا يعرف السعر ، فتقوم أنت وقد عرفت السعر فتبيع له بما تعرف ، فهو الذي نهى عنه. قلت لأبي عبد الله: فتشترى له إذا جاء ، لأنه لو ترك لا تشتري منهم الغالي بمنزلته ، إذا جاء فباع منهم الرخيص. فقال: ليس هذا ، لو كان هذا هكذا ما اشترى الناس ولا باعوا ، إنما عليه لا يبيع له ولم ير بأساً أن يشتري له.

قلت لأبي عبد الله: ما معنى قول النبي ﷺ: «لا شرطين في بيع»؟ قال: قول الرجل: أبيعك أمتي هذه ، على أنك إذا بعتهما فأنا أحقُّ بها.

سئل أبو عبد الله عن ربح ما لم يضمن. قال: الرجل يبيع الطعام قبل أن يقبضه. قيل لأبي عبد الله في الرجل يشتري الطعام صبرة^(١) ، ترى له يبيعه قبل أن يكيه؟ فقال: لا.

(١) صبرة: الكومة من الطعام. يقال: اشترى الطعام صبرة: جزأها بلا كيل أو وزن.

سئل عن بيع المباح، فقال: جَنِيَّةٌ يوم بيوم. قلتُ لأبي عبد الله: يكون في سقف البيت الذهب بجانب صاحبه، قال: نعم، هذا يُكره. وذهب إلى أن يُجفَى. قلتُ لأبي عبد الله: الرجل يكون له القربة سكران يُجفَى؟ قال: أى شيء بقى إذا سكر؟ نعم يجفَى أو يُجانب^(١).

سأله عن المكره يراد على شرب الخمر. فقال: يروى عن عمر رضى الله عنه فى شرب الخمر أنه لا يفعل حتى يُنال بعذاب. قلت: فإن أمر أن يقتل؟ قال: أما القتل فلا يكون عند الله إلا المقتول.

قلت لأبي عبد الله: الرجل يبيع داره من نصراني؟ قال: لا، أليس يكفر فيها، وذكر المحاريب التى فيها.

قال لى أبو عبد الله: أى شيء قال لك عبد الوهاب فى خروجى إلى مكة؟ قلت: قال: ما أرى لك أن تخرج، أنت ههنا بالقرب ليس تسلم، فكيف إن تباعدت؟ قال: أشار على رجل صالح أن لا أخرج، أخبره أنى قد قبلت ما أشرت به على، وقد كنا اشترينا بعض حوائجه.

سألت أبا عبد الله عن رجل لَبَّى بالحج وليس عنده شيءٌ وعليه دين، قال: لا يجوز حتى يستأذن أصحاب الدين، ثم قال: قد أوجب على نفسه الحج. سألت أبا عبد الله عن رجل له أم ضريرة، وله مال، يحج عنها؟ فقال: يحج عنها إذا لم تقدر على الركوب، وقال: يعجبنى أن لا يحج إلا عن قرابة.

قلت لأبي عبد الله: إنى دخلتُ أغسل رجلاً من أصحابنا، فإذا قد دخل علينا رجل من أهل الخلاف قد سمَّيته له، فقال لى: قد وقفتَ حيث ثبت وغسلته، لو خرجتَ كنتَ لا تأمن أن يعجىء برجل من أصحابنا فيتولاه.

سألت أبا عبد الله عن رجل مات وترك كتباً وله ورثة. قال: تُدفن. فإن كانوا صبياناً صغاراً؟ قال: يدفنها الوصى عليهم.

سمعت أبا عبد الله يقول: حكمُ المخشَّين أن يُنفوا.

(١) يجانب: يبعد عنه.

سئل أبو عبد الله عن المرأة إذا كانت موسرة وزوجها غائب: هل تحج؟ قال: تكتب إليه، فإن أذن، وإلا خرجت مع ذى محرم. قيل: فإن كان شاهداً يمنعها تخرج من غير علمه مع محرمها؟ قال: نعم، ليس له أن يمنعها. قال: ولا تخرج مع غيره، فإن كان أخوها من الرضاعة خرجت. قيل لأبي عبد الله: الرجل يستأجر الدار والحانوت فيؤاجره بأكثر مما استأجره. قال: فيها اختلاف، ولم يجب.

قيل له: رجل له شجر فى أرضه وأغصانها فى أرض غيره، قال: يقطع أغصانها. قيل له: فإن صالحه على أن تكون الغلة بينهم؟ قال: لا أدرى. سمعت أبا عبد الله يقول فى المحرم، إذا اضطر إلى الصيد، قال: يأكل الميتة. وقال: أذهب فى الميتة إلى حديث ابن حكيم، أتانا كتابُ النبي ﷺ قبل وفاته بشهر: «لا تتفَعَّوا من الميتة بشيء».

سألت أبا عبد الله عن مُحْرَم ذبح صيداً: يؤكل؟ قال: لا، هذا ليس بركة هذا لا يؤكل. قلت: فالرجل يَقلع ضرسه ثم يرده إلى موضعه، فمكث ثلاثاً ثم يقلعه أيش تقول فيه، فإن الشافعى قال: يعيد الصلاة، لأنه صلى فى ميتة؟ قال: لا تعجل علىّ، ثم سكت ساعةً، ثم قال: ما أبعد ما قال، بلى لو أخذ سنّ شاةٍ مما يؤكل لحمه فوضعه لم يكن به بأس. وذكر فى هذا: أحبُّ إلى أن يعيد ما صلى.

سألت أبا عبد الله: يباع الغزل فى الفلْكَة^(١) ولعلها ميتة. قال: إن علم فلا. قلت: لقد يُخصف به الحُفُّ أو النعل؟ فقال: إذا كان من حمار فأكرهه. قلت: فأى شيء ترى؟ قال: ما لا تعلم فلا تريد أن تبحث.

قلت له: تنورُ شوى فيه خنزير، ترى أن يخبز فيه؟ قال: لا حتى يُغسل ويُقلع ما فيه. قلت: فيكسر؟ قال: لا.

سألت عن البرِّ يداس بالحمير فييال فيه، ثم يطحن قبل أن يغسل، قال: لا يؤكل.

(١) الفلْكَة: القطعة المستديرة من الخشب ونحوه تُجعل فى أعلى المغزل، وتثبت الصنارة من فوقها، وعود المغزل من تحتها.

قلت لأبي عبد الله: إن رجلاً قال: من كان له امرأة يسكن إليها وخبزٌ يأكله فهو من المتنعمين، قال أبو عبد الله: صدق. سمعت أبا عبد الله وذكر المطاعم، ففضل عمل اليمين. قلت له: إن عبد الوهاب قال: قل لأبي عبد الله: يخاف على من أمر الحديث إن امتنعت شيئاً. قال: وأى شيء يمنعه من الحديث؟ قال: الكسب والمعاش. قال: هذا أوجب عليه، يعنى الكسب.

قال المروزي: سمعت بعض أصحابنا يقول: رأيت أبا عبد الله في الجمعة فدفع رجلٌ إلى أبي عبد الله قطعةً ليناول السائل فلم يأخذها. قال: وأخبرني بعض أصحابنا، قال: رأيتُ بشر بن الحارث في الجمعة^(١) وسائل يسأل، فأعطى رجل لبشر قطعةً ليدفعها إلى السائل، فأخذها فدفعها إليه.

قلت لأبي عبد الله: إذا كان لى جار أعلم أنه يجوع؟ قال تواسيه. قلت: فإذا كان قوتى رغيفين؟ قال: تطعمه شيئاً، الذى جاء فى الحديث إنما هو فى الجار.

قلت لأبي عبد الله: إذا كان للرجل قميصان أو جبتان، تجب عليه المواساة؟ قال: إذا كان يحتاج إليه فى هذا البرد، إلا أن يكون يَفْضَلُ. قلت: الأغنياء تجب عليهم المواساة؟ فقال: إذا كان قوم يضعون شيئاً على شيء، كيف لا يجب عليهم؟

قال المروزي: سمعت يحيى الجلاء وأبا طالب صاحبنا قالا: سمعنا يزيد بن هارون، وسئل عن إنفاق المكحلة، قال: حرامٌ لا تصلح. قيل له: فإن تراضيا أبا خالد؟ قال: الزانيان يتراضيان أفحلال هو؟ قال: وسمعت عبد الوهاب يقول: قال أبو أسامة: تُقَطَّعُ الأيدي فى المكحلة؛ يعنى الذى يعملها. قلتُ لأبي عبد الله: أقرضتُ رجلاً عشرة دراهم فردها على مكحلة، فقبضت درهماً. قال: لم تستوف حَقَّكَ. قلت له: الرجل يدفع إلى الدنانير، فتكون مكحلة أحكَّها؟ قال: حكَّها صلاح لصاحبها.

قال المروزي: سمعت يحيى الجلاء يذكر عن شعيب بن حرب قال: لأن أرى ابني يحكُّ درهماً أحبُّ إلىَّ من أن أحمل على فرس فى سبيل الله عز وجل.

(١) من قوله: «فدفع رجل» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

قال: ودفع إلى أبو عبد الله ديناراً فقال: صرفه بدراهم صحاح، فجئت بالدراهم فأعطيته، فلما كان بعد ذلك اليوم خرجت في تلك الدراهم درهم ردىء، قلت: فهات حتى أبدله، فقال: قد اختلفوا فيه، وفيه أربعة أقاويل. ثم قال: قال مالك: الصرف منتقص. وأما الثوري فيقول: ما نقص من الدراهم فتكون له حصته من الدينار، وهذا قول ما أدري ما هو. قلت: إلى ما تذهب؟ قال: أرجو أن لا يكون به بأس. وأما ابن عمر فيقول: ليس له أن يرد. قال أبو عبد الله: وليس هو بذلك. رواه رجل مجهول. وأما قتادة فيقول: له أن يرده. ثم قال: قول قتادة أوسع على الناس، استخر الله عز وجل ورده، فدفعه إلى فأبدلته.

عن المغيرة عن إبراهيم أنه كره أن يشتري الدراهم بدينار، على أن كان فيها زيف رده. وعن وكيع عن سفيان عن رجل عن الحسن: في الرجل يصرف الدينار، فيعطى الدرهم الزيف، قال: لا بأس أن يستبدله. قال سفيان: إذا كان سبوقاً رده، ويكون شريكه في الدينار بحصته.

وسئل محمد بن جعفر عن رجل ابتاع دراهم بدنانير، وشرط على صاحبها أنه ما ردّ فعليك بدله. قال: أخبرنا سعيد عن قتادة عن الحسن قال: إن كان فيها زيف رده، ولكن لا يشترط أن.

سئل أبو عبد الله عن الرجل يستأجر يكتب الورق المائة بعشرة دراهم، فيدفع إليه ديناراً، فقال ابن عمر: قد اكرى شيئاً فأعطاه دنانير وصارف، ولم ير به بأساً. قال: ولا يعطى الدنانير من الدراهم إلا بسعر يومها، ولا زيادة دائق.

سألت أبا عبد الله عن حلق القفا، فقال: هو من فعال المجوس. قال: ودعى حذيفة إلى شيء، فرأى شيئاً من زى الأعاجم، فخرج وقال: من تشبه بقوم فهو منهم. وكان أبو عبد الله لا يحلق قفاه إلا في وقت الحجامة.

قلت لأبي عبد الله: فما ترى في تحذيف الوجه. قال: أما الوجه فالمقاريض تأتي عليه، وكره أن يؤخذ الشعر بالمنقاش من الوجه. وقال: لعن رسول الله ﷺ المتنمصات.

سألت أبا عبد الله عن المرأة تصل شعرها بقرامل^(١)، فكرهه. وسمعت امرأة تقول: جاءت امرأة من هؤلاء الذين يمشطون إلى أبي عبد الله، فقالت: إني أصل رأس المرأة بقرامل، وأمشطها، فترى أن أحج مما كسبت؟ قال: لا، وكره كسبه لنهى النبي ﷺ، وقال: يكون من مال أطيب منه. قلت لأبي عبد الله: فالمرأة الكبيرة تصل رأسها بقرامل، فلم يرخص لها، وقال: إن كان صوفًا أبيض، وتبسم.

ودخلت على أبي عبد الله فرأيت امرأة تمشط صبية له، فقلت للماشطة بعد: وصلت رأسها بقرمّل؟ فقالت: لم تتركنى الصبية؟ قالت: إن أبا نهانى. وقالت: يغضب.

روينا عن ابن جريج قال: أخبرنى أبو الزبير عن جابر أن النبي ﷺ زجر أن تصل المرأة برأسها شيئًا. قال أبو بكر: سألت أبا عبد الله عن حلق الرأس فكرهه، فقلت: تكرهه؟ قال: أشد الكراهية. ثم قال: كان معمر يكره الحلق، واحتج أبو عبد الله بحديث عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أنه قال لرجل: لو وجدتك محلوقة لضربت الذى فيه عيناك.

قال أبو بكر: رأيت رجلاً من أصحابنا صلى إلى جانب أبي عبد الله، وقد كان استأصل شعره، وظنّ أبو عبد الله أنه محلوقة، وكان رآه بالليل، فقال لى: تعرفه؟ قلت: نعم، قال: أردت أن أغلظ له فى حلق رأسه.

سألت أبا عبد الله عن الحقنة، فقال: إذا اضطر إليها فلا بأس. ورأيت أبا عبد الله ألقى لختان درهمين فى الطست، وسمعتة يقول: الجوز إذا لعب به الصبيان ما يعجبني أن يؤكل.

سألته عن مسوك^(٢) السباع: تفترش؟ قال: لا تفترش، نهى النبي ﷺ أن تفترش. ذكرت لأبي عبد الله أن رجلاً خلف متاعه عند غلامه، فباع ثوباً ممن يكره ناحيته، فأخذ الدراهم فألقاها فى كيسه، فجاء الرجل فأخبره، فأخذ الكيس

(١) قرامل: صفائر من شعر أو غيره تصل بها المرأة شعرها. المفرد: قِرْمَل.

(٢) مسوك السباع: جلودها. المفرد: مَسَك.

وانطلق به إلى يوسف بن أسباط فأخبره، فذكر له يوسف عن الثوري وابن المبارك، قال أحدهما: يُخرج قيمة الثوب، وقال الآخر: يتصدق بالربح. قال الرجل: ما أجد قلبي يسكن إلا أن أتصدق بالكتيس. فقال أبو عبد الله: بارك الله فيه.

سئل أبو عبد الله عن الرجل يكون محتاجاً، فيجيئه الرجل من إخوانه بشيء يخاف عليه إن لم يقبله. فقال: إن أتاه من غير مسألة ولا استشراف نفس، أخاف أن يضيق عليه إن لم يقبل. قال: وجئته بحمّال دقيق، فقال: أعطيته الكراء؟ قلت: نعم، فأخرج رغيفاً فقال لى: أعطه، فدفعته إليه فقال: ويحك ما أعلم أنى قبلت من أحد شيئاً، ولكن لا أراد على أبى عبد الله، أتبرّك به. وجئته به مرة أخرى، فأخرج إليه رغيفاً فقال: إن نفسى استشرفت إليه، فتبسم أبو عبد الله وقال: لك أن ترد، ونحن نحب أن تقبل، فقبله.

سألت أبا عبد الله عن بيع المراوح الرقاق، وربما باعوا المروحة بالدرهم أو أكثر، فقال: هى بمنزلة الثياب الرقاق. قلت: فأى شيء تقول؟ فقال: إذا باعها من تاجر فلا بأس.

قال: سألت أبا عبد الله عن مصحف قد بلى، ما ترى فى دفنه؟ قال: يدفن. قلت: الرجل تدعوه أمه وهو فى الصلاة. قال: قد روى عن ابن المنكدر أنه قال: إذا كان فى التطوع فليُجبها.

قلت لأبى عبد الله: رجل سقطت منه ورقة فيها أحاديث وفوائد، فأخذتها، ترى أن أنسخها وأسمعها؟ قال: لا، إلا أن يأذن صاحبها.

سألت أبا عبد الله عن شيء من أمر الورع، فأطرق رأسه إلى الأرض، وسكت وكان ربّما تغير وجهه، يقول فى بعض ما أسأله: أستغفر الله. قلت: فأى شيء تقول يا أبا عبد الله؟ قال: أحبّ أن تعفينى. قلت: فإذا أعفيتك فمن أسأل، لقد أصبح الأدلاء متحيرين؟ قال: هذا أمر شديد.

وسمعتة يقول: أنا منذ أكثر من سبعين سنة فى فُقْد. وقال: ما قلّ من الدنيا

كان أقل للحساب. قلتُ له: إنَّ رجلاً قال: إنَّ أحمد بن حنبل وبشر بن الحارث ليسا هما عندى زهاداً، أحمد له خبزٌ يأكله، وبشر له دراهم تخبئه من خراسان، فتبسم أبو عبد الله ثم قال: من الزُّهاد أنا؟

وسمعه يقول: وقع للتميى فضرب فيه فسطاطاً أو خباء عشرين سنة، وسمعه يقول، وذكر قومًا من المترفين فقال: الدنوُّ منهم فتنة، والجلوس معهم فتنة. قلت لأبى عبد الله: إنَّ مولى ابن المبارك حدثنى أنَّ سعيد بن عبد الغفار قال لابن المبارك: ما تقول إذا نزل دار من تُكره ناحيته بأجر، قال: لا بأس بها. قلت لأبى عبد الله: فإذا أجاز الذى تُكره ناحيته رجلاً فاشترى دار غلّة، ترى أن أنزلها بأجر؟ قال: لا.

قال أبو وهب: قال أبو عبد الله، يعنى المبارك، فى رجلٍ يشتري جاريةً من رجل، فإذا هى ضافئة^(١). قال: يردها على الذى كانت له، ولا يردها على الذى اشتراها منه وهى ضافئة. وذكره عن سفيان.

عباس العنبرى، عن رجل قال: كنت مع عبد الرحمن بن مهدي بعبادان، وكنا نغسل أيدينا من ماء السبيل وكان هو لا يفعل، يأمر غلامه فيجىء من ماء البحر. عبد الصمد بن مقاتل قال: كانوا يكتبون الكتاب ولا يُتربّونه من دور السبيل، يرسلون فيأخذون من طين البحر. قال: وكتب إلينا ابن خشرم، وكتب فى كتابه أنَّ بشرًا كان لا يشرب بعبادان من الحياض التى اتخذها الملوك، وكان يشرب من ماء البحر.

روينا عن سعيد بن خيثم، عن محمد بن خالد قال: مرَّ إبراهيم النخعى على امرأة يقال لها أم بكر من مراد، وهى تغزل، فقال: يا أم بكر، أما آن لك أن تتركينه؟ فقالت: يا أبا عمران، كيف أتركه وقد سمعت على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه يقول: إنه من أطيب الكسب.

قلت لأبى عبد الله: إنَّ حسنًا مولى ابن المبارك حكى عن سعيد بن عبد الغفار

(١) ضافئة: من الضَّفَن وهو القصير، أو الأحق فى عظم خلق.

أنه قال لابن المبارك: ما تقول في رجلين دخلا على من تُكره ناحيته فأجازهما، فقبل واحد، ولم يقبل الآخر، فخرج الذى قبل، فاشتري منه الذى لم يقبل، ما تقول؟ فسكت ابن المبارك. فقال له ابن سعيد: ما يسكتك؟ لم لا تحببني؟ فقال: لو علمت أن الجواب خير لى ولك لأجبتك. قال سعيد: أليس أصلنا على الكراهة؟ قال ابن المبارك: نعم. فقال أبو عبد الله: ومن يقوى على هذا؟ قال له: فما تقول في رجل أجازة فاشتري داراً، ترى أن أنزلها؟ فسكت ابن المبارك. فقال: لم لا تحببني؟ فقال: هذا أضيق، أكره أن أجيبك.

فقلت له: إن الثورى قال: ما فى أيدى الحشم^(١) سُحْت. فأنكر أبو عبد الله أن عبد الوهاب قال فى الرجل: يجاز ثم يدفعها إلى الآخر، إن المال عنده شيء واحد، فقال: هذا شديد. قلت: إذا أعطى تكرهه للأول، والثانى لا ترى به بأساً؟ قال: إنما أكرهه للأول من طريق المحاباة، والثانى ليس هو مثل عطية الأول.

قال: من أعطى هذا المال، أو حوبى على أثره، فليقبل وليفرق كما فعل أصحاب رسول الله ﷺ؛ بعث عمر رضى الله عنه بمال إلى أبى عبيدة ففرق، وبعث مروان إلى أبى هريرة ففرق، وبعث إلى ابن عمر ففرق، وبعث إلى عائشة رضى الله تعالى عنها ففرقت. قلت: فعلى أى وجه قبلها منهم ابن عمر، فإن قوماً يحتجون يقولون: لو لم يكن مباحاً ما أخذ؟ فأنكر ذلك، وقال: إنه لما رأى أنه حوبى كره أن يرد إليهم، وفرقه بالسوية. قلت: فإن معاذاً يروى عنه أنه فضل عنده دينار، فطلبته منه امرأته فأعطاه. فقال: كانت محتاجةً إليه. فقلت له: أنت تقول: من بلى من هذا المال بشيء فليعدل فى تفرقه، وعائشة رضى الله تعالى عنها لما شكى ابن المنكدر إليها، قالت: لو أن عندى عشرة آلاف لأعنتك، فلما خرج أرسل إليها بعشرة آلاف فبعثت خلفه فأعطته. فقال: إنها كانت بليت بقولها، ومع هذا قد أخرجته، وذكر من زهدا وورعها، وقال: كان أصحاب محمد ﷺ يسألونها، مثل أبى موسى الأشعرى وغيره، ولم يكن فى أزواج النبى

(١) الحشم: خاصة الرجل الذين يغضبون لغضبه ولما يصيبه من مكروه، من عبيد أو أهل أو جيرة.

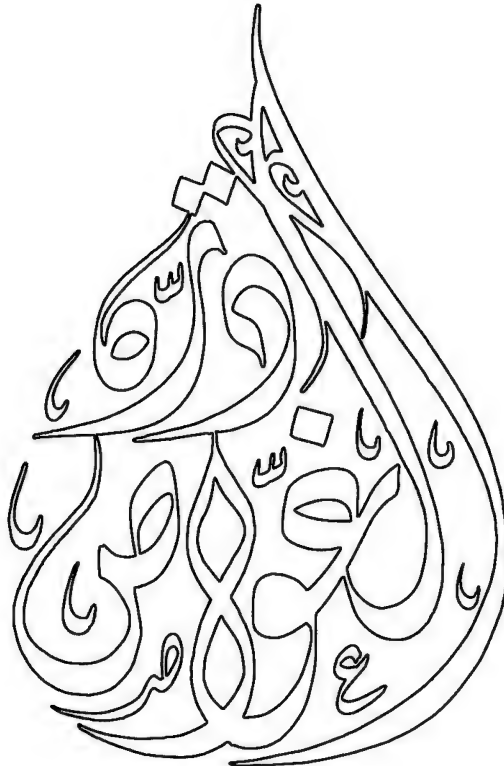
ﷺ مثلها، وإنما كانت ابنة ثمانية عشرة سنة.

أبو يحيى الناقد قال: حدثنا أبو طالب قال: قلت: حدثوني عن عبد الله بن يحيى بن أبي كثير، عن أبيه، عن رجل من الأنصار، أن النبي ﷺ نهى عن أذن القلب، فقال: نعم هكذا قلت، ما هذا الحديث؟ قال: نهى عن أكل أذن القلب، قال: لا يؤكل.

وعن عبد الله بن أحمد قال: قلت لأبي: الغدة؟ فقال: لا تؤكل، النبي ﷺ كرهها في حديث الأوزاعي عن واصل عن مجاهد.

وروي عن عبد الله بن يزيد عن أم سلمة سألتها النبي ﷺ عن أذن القلب فقالت: ألقيته، فقال: طاب قدرُك.

وهذا آخر كتاب المعاش وما اتصل به من الآثار في الورع، والله تعالى أعلم.



الفصل الثامن والأربعون

كتاب تفصيل الحلال والحرام، وما بينهما من الشبهات،
وفضل الحلال، وذم الشبهة، وتمثيل ذلك بصور الألوان

روينا عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ: «يأتى على الناس زمان لا يبقى فيه أحدٌ إلا أكل الربا، فمن لم يأكله أصابه من غباره». يعنى - والله أعلم - أنه يدخل عليه وإن لم يعمل به، من غير قصد له ولا اكتساب، كما يدخل الغبار فى المشام للمجتاز، لفشو الربا وانتشار مداخله مما لا يمكن التحرز منه.

وفى الخبر: «درهم من ربا أعظم عند الله عز وجل من ثلاثين زنية فى الإسلام».

وما توعّد الله عز وجل ولا تهدّد فى معصية مثل ما توعّد فى أكل الربا، فإنه عز وجل عظم شأنه بوصفين عظيمين؛ إعظاماً له وترهيباً منه، فذكر فى أوله المحاربة لله عز وجل ولرسوله ﷺ، وفى آخره الخلود فى النار، ينتظم ذلك فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، ثم اشترط للإيمان ترك الربا بقوله: ﴿إِنْ﴾ وهى للشرط والجزاء، ثم قال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، ثم أوجب التوبة منه بعد إعلامه الظلم منه فقال: ﴿وَإِنْ تَبُوءْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨ - ٢٧٩]، ثم نصّ على تحريمه فى قوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾، ثم توعّد بالخلود بعد ذلك كله فقال: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. وهذا من شديد الخطاب وعظيم العذاب.

وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبي ﷺ: «طلب الحلال فريضة بعد الفريضة»، فسوّى بينه وبين العلم فى الفرض، فأوجب الطلب لهما، مثل فرض

الحلال للأكل مثل طلب العلم للجاهل. والفرائض إذا شرعت ثبتت إلى يوم القيامة، فإذا أمر بطلبها دلّ على وجودها؛ لأنه لا يؤمر بطلب مفترض علينا يكون معدومًا. فالحلال موجود من حيث افترض علينا، وأمرنا بطلبه، ولكن طريقه ضيق، ووجوه غامضة، والتسبب إليه فيه مشقة، والحاصل منه فيه خشونة وقلة، ومع ذلك فإن المعاون عليه قليل والطالب غريب، وهذه أسباب تكرهها النفوس، وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم.

ثم إن الفرائض لها علوم وأحكام؛ فمن لم يعرف علومها، ولم يقيم بأحكامها، فكأنه لم يعلمها. وكان عمر رضى الله عنه يضرب أهل السوق بالدرّة ويقول: لا يتّجر في سوقنا إلا من تفقه، وإلا أكل الربا.

وكان بعض العلماء يقول: تفقه ثم ادخل السوق، فبع واشتر، وتأول معنى قول النبي ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» قال: هو طلب علم الحلال والحرام والبيع والشراء، إذا أراد الإنسان أن يدخل فيه افترض عليه علمه. ففي الخبر: «مَنْ سعى على عياله من حلّه فهو كالمجاهد في السبيل الله عز وجلّ، ومن طلب الدنيا حلالاً في عفافٍ كان في درجة الشهداء».

ويقال: إن أول لقمة يأكلها العبد من حلال يُغفر له ما سلف من ذنوبه، ومن أقام نفسه في مقام ذلٍّ في طلب الحلال، تساقطت عنه ذنوبه كما يتساقط ورق الشجر في الشتاء إذا يبس.

وكان بعض العلماء يقول لبعض المجاهدين: أين أنت من عمل الأبطال: كسب الحلال والنفقة على العيال؟

وقد كان شعيب بن حرب وغيره يقول: لا تحقر دانيًا من حلال تكسبه، تنفقه على نفسك وعيالك، أو أخ من إخوانك، فلعله لا يصل إلى جوفك أو لا يصل إلى غيرك حتى يُغفر لك.

وفى الخبر: «من أكل الحلال أربعين يومًا نور الله قلبه، وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه». وفى بعض الروايات: «زهّد الله في الدنيا».

ويقال: من أكل حلالاً وعمل في سنة فهو من أبدال هذه الأمة.

وقد كان سهل يقول: لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يأكل الحلال بالورع.

وروينا عن إبراهيم بن أدهم، وفضيل بن عياض رضى الله عنهما: لم ينبل من نبل بالحج ولا بالجهاد ولا بالصوم ولا بالصلاة، وإنما ينبل عندنا من كان يعقل ما يدخل جوفه. يعنى: الرغبة من حله.

وقال يوسف بن أسباط لشعيب بن حرب: أشعرت أن الصلاة جماعة سنة، وأن كسب الحلال فريضة؟ قال: نعم.

وسأل رجل إبراهيم بن أدهم قال: أنا رجل أكتسب في السوق، فإذا عملت فأتنتي الصلاة في جماعة، فأیما أحب إليك: أصلي في جماعة، أو اكتسب. فقال: اكتسب من حلال وأنت في جماعة. وقد كان إبراهيم بن أدهم يعمل هو وإخوانه في الحصاد في شهر رمضان، فكان يقول لهم: انصحوا في عملكم بالنهار حتى تأكلوا حلالاً ولا تصلوا بالليل، إن لكم ثواب الصلاة في جماعة، وأجر المصلين بالليل.

وقال بعض السلف: أفضل الأشياء ثلاث: عمل في سنة، ودرهم حلال، وصلاة في جماعة.

وكان سهل رحمه الله يقول: لا يبلغ العبد حقيقة من هذا الأمر حتى يؤدي هذه الأربع: أداء الفرائض بالسنة، وأكل الحلال بالورع، واجتناب النهي في الظاهر والباطن، والصبر على ذلك إلى الممات.

وقال: من لم يكن مطعمه من حلال لم يكشف الحجاب عن قلبه، ولم ترفع العقوبة عن قلبه، ولم يبال بصلاته وصيامه، إلا أن يعفو الله عز وجل عنه.

وقال: من أحب أن يرى خوف الله في قلبه، ويكشف بآيات الصديقين، لا يأكل إلا حلالاً، ولا يعمل إلا في سنة أو ضرورة. وكان يقول: إنما حرموا مشاهدة الملكوت وحجبا عن الوصول بشيئين: سوء الطعمة، وأذى الخلق. وكان يقول: بعد سنة ثلاثمائة لا تصح لأحد توبة. قيل: ولم؟ قال: يفسد الخبز، وهم

لا يصبرون عنه^(١).

وقد روى مرة الطيب عن أبي بكر الصديق رضى الله عنه عن النبي ﷺ: «جسم غُدِّي بحرام لا يدخل الجنة، النار أولى به». وفى الخبر: «أنه أكل من كسب غلامه ثم سأل عنه فقال: رقيت لقوم فأعطوني. وفى لفظ آخر: تكهنت لهم. فأدخل يده فى فيه وجعل يقىء حتى استقاه عن آخر لقمة. ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما حملت العروق وخالط الأمعاء». وقد روى أن رسول الله ﷺ أخبر بذلك فقال: «أو ما علمتم أن الصديق لا يدخل جوفه إلا طيباً». وفى الخبر: «أن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه سأل رسول الله ﷺ أن يجعله الله مستجاب الدعوة، فقال: يا سعد، أطب طُعْمَتِكَ تُسْتَجِبْ دَعْوَتُكَ».

وقال العلماء: الدعاء محجوبٌ عن السماء بِفَسَادِ الطَّعْمَةِ. ويقال: إن الله لا يستجيب دعاء عبدٍ حتى يصلح طعمته ويرضى عمله. ويقال: من أكل الشبهة أربعين يوماً أظلم قلبه. وهو فى تأويل قوله عز وجل: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]. قيل: غلاف القلب من مكاسب الحرام^(٢).

وقال جماعة من السلف: الجهاد عشرة أجزاء؛ تسعةٌ فى طلب الحلال. وقال على بن فضيل لأبيه: يا أبت، إنَّ الحلالَ عزيزٌ، فقال: يا بنى، إنه وإنَّ عزَّ فقليله عند الله كثيرٌ. يقال: إنَّ مَنْ صلى وفى جوفه طعامٌ حرامٌ، أو على ظهره سِلْكٌ من حرام، لم تُقبل صلاته.

وقال بعض السلف: يا مسكين، إذا صمت فانظر عند مَنْ تفطر وطعام من تأكل، فإنَّ العبدَ ليأكل الأكلةَ فيتقلب قلبه وَيَنْغَلُ^(٣) كما يَنْغَلُ الأديم، فلا يعود إلى حاله أبداً. وهذا أحدُ التأويلين فى قوله ﷺ: «كم من صائم حظه من صيامه

(١) بل الخير فى أمة الحبيب لا ينقطع، والحلال أيضاً لا ينقطع، وإنَّ عزَّ. وفى كل زمان تظهر أنواع من المكاسب على حسب البيئة والزمان، منها الحلال الطيب ومنها دون ذلك، فلا يغلق هذا الباب أبداً، والله الحمد والمنة

(٢) من قوله: «ويقال من أكلة الشبهة» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

(٣) يَنْغَلُ: يَنْسَدُ.

الجوع والعطش»، قال: هو الذى يصوم ويفطر على الحرام. وفى الخبر: «من طلب الدنيا حلالاً مفاخرًا مكاثراً لقي الله عزّ وجل وهو عليه غضبان».

وحدثونا من آثار السلف أنّ الواعظ والمذكّر كان إذا جلس للناس، ونصب نفسه، سئل أهل العلم عن مجالسته، فكانوا يقولون: تفقدوا منه ثلاثاً: انظروا إلى صحة اعتقاده، وإلى غريزة عقله، وإلى طعمته، فإن كان معتقداً لبدعة فلا تجالسوه فإنه عن لسان الشيطان ينطق، وإن كان سىء الطعمة فاعلموا أنه ينطق عن الهوى، وإن كان غير ممكن العقل، فإنه يُفسد بكلامه أكثر مما يُصلح، فلا تجالسوه. وهذا التفقد والبحث طريقٌ قد مات، فمن عمل به فقد أحياه.

وذكر النبىُّ ﷺ الحريصَ على الدنيا فذمه ثم قال: «رُبَّ أشعث أغبرٍ مشرّدٍ فى الآفاق، مطعمه حرامٌ وملبسه حرامٌ، غُذّي بالحرام، يرفع يده فى صلاته يقول: يا رب يا رب، فأنتى يستجاب له ذلك».

وفى الحديث عن ابن عباس عن النبىِّ ﷺ: «إنّ لله عزّ وجلّ ملكاً على بيت المقدس ينادى فى كل ليلة: مَنْ أكل حراماً لم يُقبل منه صرف ولا عدل». قيل: الصرف: النافلة، والعدل: الفريضة.

وفى حديث أبى هريرة: «المعدة حوض البدن، والعروق إليها واردة، فإذا صحّت المعدة صدرت العروق إليها بالصّحة، وإذا سقمت المعدة صدرت العروق إليها بالسّقم، ومثلُ الطّعمة من الدّين مثل الأساس من البنيان؛ فإذا ثبت الأساس وقوى استقام البناء وارتفع، وإذا ضعف الأساس واعوجّ انهار البنيان ووقع». وقد قال الله أحسن الخالقين: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

وفى الحديث عن النبىِّ ﷺ: «من اكتسب مالاً من حرام، فإن تصدّق به لم يُقبل منه، وإن تركه وراءه كان زاده إلى النار». وقيل فى معنى قول الله عزّ وجلّ: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]. قيل: من أكل حراماً فقد قتل نفسه، لأنه كان سبب هلاكها

وتعذيبها. وفي الأخبار المشهورة عن عليٍّ وغيره: إن الدنيا حلالها حساب وحرامها عقاب.

وقال يوسف بن أسباط وسفيان الثوري رحمهما الله: لا طاعة للوالدين في الشبهة. وقال الفضيل بن عياض: من قام في موقف ذُلٍّ في طلب الحلال حشره الله مع الصديقين، ورفعته إلى الشهداء في موقف القيامة. وقال أبو سليمان أو غيره من العلماء: لا يفلح من استحيا من طلب الحلال.

وفي بعض التفسير: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤]، قيل: أكل الحرام. كما قيل في قوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] قال: نرزقه حلالاً. وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢] قيل: من الحلال. كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١] أى: من الحلال، فأمر بأكل الحلال قبل العمل الصالح.

وهكذا قال بعض العلماء: زكاة الأعمال بأكل الحلال، فكلما كانت الطعمة أحلَّ كان العمل أزكى وأنفع.

وكان بشر بن الحارث إذا ذكر أحمد بن حنبل يقول: قد فضّل عليّ بثلاث: صبره على العيال وأنا أضيق عن ذلك، وهو يطلب الحلال لنفسه ولغيره، وأنا أطلبه لنفسى. وكان يقول: ما أترك الطيبات زهداً فيها وإنما أتركها لأنه لا يصفو لى درهمها، ولو صحّ لى الدرهم الذى أشتريها به لأكلتها.

وكان^(١) ميمون بن مهران يقول: لا يسلم للرجل الحلال حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال. وكان ابن مسعود يقول: إياكم وحزاز القلوب، ما حزّ فى قلبك من شيء فدعه.

قال أبو بكر المروزي: سألت أبا عبد الله عن الشبهة، فقال لى: وتعرفُ الشبهة؟ قلت: هو الشيء الذى لا يقال له حلال، ولا يقال له حرام. فقال أبو

(١) من أول هذه الفقرة ساقط من المطبوعة، وأثبتته من (م).

عبد الله: هو الشيء بين الحلال والحرام.

وسألته عن الشبهة يشتري الرجل منها الثوب يتجمل به. فقال: كيف؟ وإنما أمر الرجل بالوقوف عندها، وكره ذلك. قلت: هل للوالدين طاعة في الشبهة؟ قال: ما أحب أن يقيم معهما عليها، وما أحب أن يغضبهم، يداريهم، ولا ينبغي للرجل أن يقيم على الشبهة مع والديه، لأن النبي ﷺ قال: «مَنْ تَرَكَ الشَّبْهَةَ فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرِضِهِ».

وقال سفيان بن عيينة: لا يصيب العبد حقيقة الإيمان حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال، وحتى يدع الإثم وما تشابه منه.

وقال ابن عمر: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك. وإنى لأحب أن أدع بيني وبين الحرام سترة من الحلال ولا أحرّمها.

وقيل لأبي عبد الله: كيف تعرفون توبة الرجل إذا اكتسب مالا من غير جهته؟ قال: يُخرج ما في يديه^(١).

وقد قال علماء الظاهر: إن الحلال من عشرة أوجه. ومنهم من قال: يوجد من سبعة أشياء. وأصل ذلك كله يرجع إلى ثلاثة أشياء: تجارة بصدق، وصناعة بنصح، وعطية بحكم. ثم تنقسم العطية أربعة أقسام؛ فيكون فيئاً، أو ميراثاً، أو هبة عن طيب نفس، أو صدقة مع وجود فقر.

ومدار ذلك كله وقطبه: أن الحلال مشتق من اسمه بمعنيين؛ ما انحل الظلم عنه، أو حلّ العلم فيه، فما انحل الظلم عنه انحلت المطالبة عنه، وما حلّ فيه العلم حلّت الإباحة والأمر به.

والحلال عند العلماء: ما لم يُعصَ الله عزّ وجلّ في أخذه، قال بعض علماء الباطن: الحلال ما لم يُعصَ الله عزّ وجلّ في أوله، ولم يُنسَ في آخره، وذَكَرَ عن تناوله، وشكّر بعد فراغه. وكان سهل إذا سُئل عن الحلال يقول: هو العلم. وقال: لو فتح العبد فمه إلى السماء، وشرب القطر، ثم تقوّى بذلك على

(١) آخر ما سقط من المطبوعة، وهو من (م).

معصية، أو لم يطع الله عز وجل بتلك القوة، لم يكن ذلك حلالاً. وقالت طائفة من أهل العلم: إن المتصنّع للناس والمترينّ لهم يأكل حراماً، لأنه لم ينصح مولاة في عمله. وقال بعض الموحدين: لا يكون حلالاً حتى لا يشهد فيه سوى الله تعالى، وإنّ من أشرك في رزق الله العبادَ فذلك شبهة، وإن حلّ من طريق الأحكام. واحتجوا بقول عيسى عليه السلام: يأكلون رزقه، ويشركون فيه خلقه.

ومن الأبدال من يقول: الحلال ما لم يؤخذ من أيدي الخلق، ولم ينتقل إلى أملاكهم. وكان بعضهم لا يأكل إلاّ مما أنبتت الأرض التي هي غير مملوكة. وقال آخر: إنّ الحلال ما لم يؤخذ من أيدي الظالمين، وما أخذ من أيدي المتقين.

وحدثت عن بعض الأبدال في قصة طويلة ذكرها: أن بعض العامة من السياحين دفع إليه شيئاً من الطعام فلم يأكله، فسأله عن امتناعه، فقال: نحن لا نأكل إلاّ حلالاً، فلذلك تستقيم قلوبنا على الزهد في الدنيا، وتدوم على حالة واحدة، ونكاشف بالملكوت ونُشاهدُ الآخرة، ثم قال: لو أكلتُ مما تأكلون ثلاثة أيام لَمَّا رجعنا إلى شيءٍ مما نحن عليه من علم اليقين، ولذهب الخوف والمشاهدة من قلوبنا، في كلام طويل. قال له الرجل في آخره: فإنّي أصوم الدهر، وأختم القرآن في كل شهر ثلاثين ختمة، فقال له البدل: هذه الشربةُ من اللبن التي رأيتني قد شربتها أحبُّ إليّ من ثلاثين ختمة في ثلاثمائة ركعة من أعمالك. وكانت شربةً من لبنٍ من أروى وحشيّة، وهو الأثني من الوعل.

وقال بعض السائحين: قلتُ لبعض الأبدال وقد حدثه عن أكل الحلال بمثل هذا الحديث: أنتم تقدرون على الحلال، ولا تطعمون إخوانكم من المسلمين، فقال: لا يصلح لجملة الخلق، ولم نؤمر بذلك؛ لأنهم لو أكلوا كلّهم حلالاً لبطلت المملكة، وتعطلت الأسواق، وخربت الأمصار، ولكنه قليل في قليل من الخلق، وخصوص في مخصوصين، أو معنى هذا الكلام.

وقال بعض العلماء: لا أعلم حلالاً لا شك فيه إلاّ ماء الغُدران، وما أنبتت أرضٌ غير مملوكة، أو هدية من أخ صالح، أو معاملة تقيٍّ بصدقٍ ونصح.

وكان يحيى بن معين قد صحب أحمد بن حنبل رضى الله عنه فى السفر سنين، ولم يكن أحمد يأكل معه لأجل كلمة بلغته عنه، وهو أنه قال: أنا لا أسأل أحداً شيئاً، ولو أعطانى الشيطان شيئاً لأكلته، فهجره أحمد رضى الله عنه، حتى اعتذر إليه يحيى، وقال: إنما كنتُ أمزح. قال: تمزح بالدين، أما علمت أن الأكل من الدين قدّمه الله على العمل، فقال: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقد كان كثير من الورعين يقول: منذ أربعين سنة ما دخل جوفى إلا ما أعلم من أين هو. وبعضهم يقول: منذ ستين سنة ما أكلتُ إلا من حيث أعلم. وكان وهب بن الورد لا يأكل إلا من حيث يعلم، أو يشهد عنده شاهدان بصحته. وقد كان بشر يقول: من تَفَقَّدَ جاع، ومن تغافل شبع. وعند العلماء: إن من طلب الدنيا حلالاً فهو أزهّد فيها ممّن أكل الشبهات من غير طلب. وفى الخبر: «من لم يبال من أين مطعمه لم يبال الله تعالى من أى أبواب النار أدخله»، وقيل: ذلك فى التوراة مكتوب.

• ذكر تفصيل الحلال من الشبهة:

والأصلُ فى ذلك حديث النعمان بن بشير: «الحلال بينٌ والحرام بينٌ، والشبهات بين ذلك لا يعلمها كثيرٌ من الناس، مَنْ تَرَكَهَا فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومَنْ يرتع حولَ الحِمَى يوشك أن يُواقِعَه، وإن لكلِّ ملكٍ حِمًى وإنَّ حِمَى اللَّهِ فى أرضه محارمه».

يقال: إن هذا الحديث ثلث العلم؛ فالحلال ما ظهر وتبين، وكنت على يقين منه، واطمأن به قلب المؤمن العالم، والحرام أيضاً ما تبين وانكشف على يقين منه، ولم يختلف أحد من المسلمين فيه، ونفّر قلبُ المؤمن واشمأز منه، وقد تطمئنُّ بعض القلوب إلى شىءٍ لقلّة ورعها، وقد تنفر بعض القلوب من شىءٍ لقصور علمها، وليس يقع بمثل هذين القلبين اعتبار، وإنما الاعتبار بقلب المعيار الذى قد جعل كالمحكّ، يختبر به معادن الملكوت، وهو قلب المؤمن الموقن العالم،

وهذا القلب فى القلوب أعزُّ من الذهب الإبريز فى سائر المعادن. وهذا القلب هو الذى ردَّ إليه رسول الله ﷺ فى الحكم لما سُئِلَ عن البرِّ والإثم، فقال: «البرُّ ما اطمئن إليه القلبُ، والإثم حوَّاز القلوب». وقال: «الإثم ما حاك فى صدرك». وقال: «استفتِ قلبك، فإن القلب يسكن إلى الحلال، ويطمئن». وقال: «وإن أفتاك المفتون» يعنى من أهل الظاهر، وهم علماء الألسنة من غير أهل القلوب^(١).

وقد روينا عن بعض السلف فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]، قال: إذا فسدت أعمال الناس جعل عليهم ولأهَّ يشبهون أعمالهم. وقال بعض العلماء فى معناه: إذا فسدت أديانُ الناس فسدت أرزاقهم.

والشبهات على وجوه؛ أحدها: ما أشبه الحلال من وجه، وما اختلط أيضاً بها، فاختلط ولم يتميز منهما.

والشبهة أيضاً: ما دلَّ باطنُ العلم على تحليله فهو حلال الحكم، وأظهر باطن الورع الوقوف عنه.

والشبهة: ما أباحه علمُ الظاهر وكرهه علماء الباطن، لحبك القلوب وحوازها، ولعدم الطمأنينة ومواجيد القلوب، كنحو ما روى عن النبى ﷺ: «إنكم تَخْتَصِمُونَ إِلَى وَلَعْلٍ بَعْضُكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضَى لَهُ عَلَى مَا أَسْمَعَ مِنْهُ وَهُوَ يَعْلَمُ خِلَافَهُ؛ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ عَلَى أَخِيهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ». فأخبر النبى ﷺ أنه يحكم بظاهر الأمر، وردَّهم إلى حقيقة علم العبد بما شهد وعرف من عيب نفسه المستتر عن الأبصار.

والشبهة أيضاً: ما اختلف فيه لخفاء أدلته ولتكافؤها بالسوية، وما لم تره عينك فتقطع على غيبه، والحلال والحرام ما أجمعوا عليه، وظهرت الأدلة عليه.

والشبهة أيضاً: ما حل سببه وصُودف فيه حكمه، إلا أن عينه مجهولة غير متيقن تحليلها.

(١) من أول قوله: «وهذا القلب هو الذى ردَّ» إلى هنا ساقط من المطبوعة، وهو من (م).

والشبهة أيضاً: ما فقد منه بعضُ القيام بالأحكام، أو ما اعتلَّ سببه الذى يوصل العبد ويتطرق إليه من فضول جهل، أو حدوث آفة من آفات النفوس.

فهذه الأنواع كلها من الشبهات، ثم تختلف نفسُ الشبهات، فيكون ذلك شبهة الحلال، وتكون شبهة الحرام، وتكون شبهة كدرة، وتكون شبهة متقاربة، لأن الحلال عند علماء الباطن على ثلاث مقامات: حلال كاف، وهذا عموم، وكأنه ما حلَّ من طريق الحكم. وحلال صافٍ، وهذا خصوص وكأنه ما ظهرت الأدلة فيه، وحلَّ سببه ووجدت السنة فيه. وحلال شافٍ، وهذا خصوص الخصوص، وكان ذلك ما علَّم أصله وأصل، وجرى على أيدي المتقين، ولم يخالطه جهل.

فلذلك تفاوتت الشبهات لتفاوت حلال ضدها. فأما الحرام فطعمة الفاسقين؛ أكله فسوق، وطلبه فسوق، وإطعامه فسوق، والمعاونة عليه فسوق، والمدمن عليه فاسق، وهو من الكبائر، وليس من حاجة المسلمين ولا يغنيهم.

والحلال هو ما أحله الكتاب والسنة، وحللتها الأحكام والعلوم من سائر الأسباب والمعاني المطلقة، والمباحة التصرف فى العلم، وهو بُغية المؤمنين، وطعمة المتقين، ومقام الصالحين؛ فطلبه جهاد، وإطعامه برٌّ، والمعاونة عليه تقوى، وأكله عبادة، والمدمن عليه مؤمن تقى.

والشبهة ما اختلف العلماء فيه ولم يجمعوا عليه، أو ما التبس باطنه فاشتبه لغموض الأدلة، أو خفاء الاستدلال، فلم يكن بيّناً، فلم يجمع أهل الظاهر والورع عليه، كما قال ﷺ: «لا يعلمه كثيرٌ من الناس»، فهذه طعمة عموم المسلمين، فإن ابتليت بهذا فخذ منها حاجتك وضرورتك من كلِّ شيء، تكن بذلك فضلاً، ويصحّ لك مقامٌ فى الورع، والاستكثار منه والاقتناء مكروه، وتركه إذا أمكن أفضل؛ لأن فى الخبر: «من تركه فقد استبرأ لدينه» أى تنزه وتنظف، وتفقد دينه واحتاط له. وقيل: إن الإيمان نزهة نظيف، فتنظفوا وتنزهوا؛ ومعنى التنزه: التباعد من الدناءة والأوساخ. ومن ذلك قيل: خرجنا لتنزهه، وخرج فلان فى نزهة، إذا تباعد عن المصّر، وفارق جملة الناس. ثم قال: «وعرضه» أى استبرأ لعرضه أن يتكلم الناس فيه بسوء، وينسبوه إلى فحش.

وقد جعلنا الشبهة طريقاً إلى الحرام وموقعاً فيه؛ لأن في الخبر: «من يرتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه»، أى من يطلب الشبهة ويدمن عليها ويستكثر منها يسرع الوقوع في الحرام؛ أى تسرع إليه وتدخله فيه.

وقال بعض العلماء: ما أخذ من يد تقى عدل بحكم جائز فهو حلال، وما أخذ من يد من لا يعرف بعدالة ولا جرح فهو شبهة، وما أخذ من يد ظالم أو فاجر فهو حرام وإن أخذ بحكم جائز. وهذا القول يقرب من الحق.

ومثله من المقال مثل ما قال بعض أهل العلم: إن من لم يعرف أن ماله خالطه خيانة ولا معاملة ظالم، فذلك حلال، ومن خالط الظلمة واكتسب المال من خيانات فما في يده حرام، وإن اختلط ماله فلم يتميز، وكان يعامل بعض الظلمة ويعامل أهل التقوى والإيمان فما في يده شبهة.

وقد تقدم تفصيل هذا المعنى بالورع في الآثار المتقدمة التي نقلناها عن أحمد بن حنبل والورعين في الجزء^(١) الذي قبل هذا.

وقد جاء في الخبر الشافى: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»، فإن الخير طمأنينة، وإن الشر ريبة؛ معناه: دع ما تشك فيه أنه حلال إلى شيء آخر لا شك فيه، فإن الشر ريبة، وليس بيقين، وفي لفظ آخر: «الإثم حيك الصدور».

وقد جاء في الحديث: «الإثم حواز القلوب» أى ما حز في القلب وأثر فيه بنكت، فهو إثم، لأن الله تعالى علّق الإثم بالقلب وجعله من أوصافه في قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]. وفي الخبر: «البر ما اطمأن إليه القلب وسكنت إليه النفس، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»، فدعه لأنه قال: «المؤمنون شهداء الله»، وقال: «ما رآه المؤمنون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوه قبيحاً فهو عند الله قبيح»، كما قال سبحانه: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا إِلَىٰ كَيْفَ كُنَّا جَاعِلِينَ لِلْعَالَمِينَ الْأَمْثَلِ﴾ [التوبة: ١٠٥]؛ لأن كراهتك نظر الله إليك دليل على وجود الريبة فيك.

(١) يقصد الفصل السابع والأربعين السابق لهذا.

وفصلُ الخطاب من ذلك أنه ليس على العبد أكثر من جهده وطاقته، وأن يعمل في دينه بمبلغ علمه، وما يؤدي إليه اجتهاده ووُسْعُهُ، وأن لا يخبأ لنفسه خبيئةً، ولا يرخّص لنفسه بهواه رُخصةً، فإن قَصُرَ علمه استعان بعلم غيره، فما أخطأ حقيقته وراء ذلك فهو معفوُ الخطأ.

وبعض الورعين يقول: الحلال ما لم يتناوله أيدي الظالمين. وقال بعضهم: ما لم تجر عليه يدُ ظانم. وقال بعض العلماء: لا يكون حلالاً حتى لا يتخالج في القلب منه شيء، وحتى يسكن القلب إليه ويطمئن به. وقال آخر: الحلال ما عُرض على أهل الظاهر والباطن، فإذا لم ينكروا منه شيئاً فذلك الحلال.

وقد كان اجتمع جماعة من العلماء يتذكرون أى الأعمال أشد، فقال بعضهم: الجهاد. وقال بعضهم: الصيام والصلاة. وقال آخر: مخالفة الهوى. وقال بعضهم: الورع. فأجمعوا على الورع، ورجعوا إلى هذا القول.

وقال حسان بن أبى سنان: ما شيء عندى أسهل من الورع. قيل: وكيف؟ قال: إذا حاك في صدرى شيء تركته. وهذا سهل على مَنْ ساعده القدر بالزهد وقوّاه على ذى النفس الشهوانية، كما أن الزهد سهل على من أمدّه الله بروح التأييد باليقين، وعزّيزٌ على من ابتلى بحبّ الدنيا.

وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أفضل الأعمال، والذي نُقيم به وجوهنا عند الله عز وجل، هو الورع. فقال له أصحاب النبي ﷺ: صدقت.

ولعمري إن اليقين إذا وُجد، والزهد إذا حصل، سهل الورع والإخلاص، وهما عمدة الأعمال. وحكى عن يوسف بن أسباط، وحذيفة المرعشى، وغيرهم من عبّاد أهل الشام، أنّ قائلهم^(١) يقول: منذ ثلاثين سنة ما حاك في صدرى شيء إلا تركته. وبعضهم يقول: منذ أربعين سنة ما وقف قلبى عن شيء وتخالج منه إلا تركته. وقال بعضهم: منذ ثلاثين سنة ما أبالى على أى حالٍ رآنى الناس إلا أن يكون حاجة الإنسان.

(١) فى (م): «قائلهم».

وحكى أن بعض الورعين وقع منه دينار فانكبّ ليأخذه، فوجد دينارين فلم يعرف ديناره منهما، فتركهما معاً. وحكى أن امرأة من المتعبّدات من أهل القلوب سألت إبراهيم الخواص عن تغير وجدته في قلبها، فقال: عليك بالتفقد. فقالت: قد تفقدت، فما وجدت شيئاً أعرفه. فأطرق ساعة ثم قال: ألا تذكرين ليلة المُشعل؟ فقالت: بلى. فقال: هذا التغير من ذلك. فذكرت أنها كانت تغزل فوق سطح لها فانقطع خيطها، فمرّ مُشعلُ السلطان، فغزلت في ضوءه خيطاً، وأدخلته في غزلها، ونسجت منه قميصاً فلبسته. قال: فترعت القميص وباعته، وتصدقت بثمنه، فرجع قلبها إلى الصفا.

قد حكى عن ذى النون المصرى رحمه الله فوق ذلك أنه لما سُجن لم يأكل طعاماً ولم يشرب أياماً، فوجّهت إليه امرأة يعرفها من العابدات بطعام إلى السجن، وقالت: هذا من حلال، فلم يأكله، فقالت له بعد ذلك، فقال: ذلك الطعام من حلال، إلا أنه جاءنى فى طريق حرام فلم آكله. فقال: وكيف ذلك؟ قال: جاءنى فى يد السجنان وهو ظالمٌ، فلذلك لم آكله. وهذه خصال الورعين.

والورع هو باب الزهد، ومفتاح الخوف، وحقيقة الصدق، فعموم الورع أول عموم الزهد، وخصوصه أول خصوص الزهد.

فينبغى للعبد أن يتبدى بطلب الحلال، فيكون هو همّه وقصده، فيجعل ما استطاب من المكاسب وأعلى ما قدر عليه مما يسلم فيه، فيجعل ذلك حاجة نفسه فيما يطعم ويلبس، ويجعل ما دخل عليه من الشبهات مما فى نفسه منه حَزَازَات فى مؤونة عياله، وفيما يرتفق به من مؤونة البيت، مما لا يطعم ولا يلبس؛ مثل الحطب والبرّ وأجرة البيت، وما أشبه ذلك. وسنذكر تمثيل ذلك بصور الألوان حتى تعرفه. وفى هذه رخصة، وله فيه مجاهدة وحسن نية ومعاملة، إذا أخذ نفسه به وصبر عليه، وكان ذلك من باله وهمّه، فاحتسب فى ذلك ما عند الله عزّ وجل، وتحرّى بذلك لدين الله عزّ وجل، فإن الله عزّ وجل يشكر له سعيه ويجزل عليه أجره، وهذا طريق يوصل إلى الله عزّ وجل، وهو محجة كثير من السلف. ولو أن عبداً شك فى شيء فتحرز منه، شكر الله له نيته، وإن كان قد أخطأ حقيقة

الشيء عنده، فكان الشيء حلالاً في علم الله عز وجل، ولو أنه أقدم على شيء بقلة مبالاة فلم يدعه، فتناول شيئاً على أنه حلال عنده، كان مأزوراً لسوء نيته وقلة ورعه. وإن كان أصاب الحقيقة عند الله فهو أفضل، وله أجران: أجر العلم، ومقام التوفيق. ومن قصد ترك العلم وأخطأ الحقيقة عند الله عز وجل، فعليه وزران: وزر الجهل، ونقص العصمة. ومن عمل بعلم فأخطأ الحقيقة فله أجر واحد. ومن عمل بجهل فأصاب الحقيقة فعليه إثم الجهل، وهو معصوم في الفعل.

وحكى وهب اليماني مما نقل من الزبور أن الله عز وجل أوحى إلى داود عليه السلام: قل لبنى إسرائيل: إني لا أنظر إلى صيامكم ولا إلى صلاتكم، ولكن أنظر إلى من شك في شيء فتركه لأجلي، ذلك الذي أؤيده بنصري، وأباهى به ملائكتي.

وقد كان بعض العلماء يقول لأهله: ارفقوا بدهن المصباح، فإنما توقدون بلحمي ودمي. قيل: وكيف؟ قال: لأنكم توقدون من كسبي، وكسبي من ديني، وديني من لحمي ودمي.

وقد كان يقال: من تفقد من أين يكسب الدرهم تبصر أين يضعه، ومن لم يبال من أين اكتسب لم يبال فيما أنفقه. وقد قال بعض العلماء لرجل رآه بطالاً وكان ذا عيال، قال له: احترف فإنه إذا كان لك كسب أكل عيالك دنياك، وإن لم يكن لك كسب أكلوا دينك.

وروى أن بعض الزهاد وقعت منه قطعة، فجعل يطلبها عامة يومه، فقيل له: أنت قد زهدت في الدنيا كلها وأنت تطلب هذه القطعة هذا الطلب؟! فقال: إن طلبى هذه القطعة من زهدى في الدنيا، لأننى لا أعتاض منها غيرها، لأنها من حيث أعلم، وأنا لا أكل إلا من حيث أعلم.

وقد كان بشر يقول: المال إذا اجتمع من الشبهات لا ينفق إلا في الشهوات.

وقال سري السقطي: لا يصبر على ترك الشبهات إلا من ترك الشهوات.

وفى الخبر أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن كسب الحجام، فنهاه عنه، فأعاد مسأله عنه فقال: إن لى غلاماً حجاماً، فقال النبي ﷺ: «إن كان لا بدّ فأعلفه ناضحك»^(١) وأطعمه رقيقك».

وفى الخبر أن رسول الله ﷺ سئل عن فأرة وقعت فى سمن فماتت، فقال: «لا تأكلوه». وفى خبر آخر: «إن كان جامداً فألقوها، وإن كان ذائباً فاستصبحوا»^(٢) به.

وعن جماعة من علماء الكوفة: لا بأس بشحوم الميتة تُطلى بها السفن، ويدبغ بها الجلود.

وقد روينا فيه حديثاً مسنداً، فهذا حجة فيما ذكرناه من أن حكم الشبهات أن ينفق منها فيما لا يطعم ولا يلبس، إلا أن يضطر إليها فيتناول منها مقدار الحاجة. وروى عن النبي ﷺ أنه أتى بلبن، فسأل عن أصله فأخبر به، فسأل عن أصل ثم تعرف أصله، فإذا صح لك أصله وأصل أصله سقط عنك ما وراء ذلك، فإن لم تعلم رأى عينٍ وأخبرك مسلم تقى، قام خبر ذلك مقام علمك.

وفى الخبر: «لا تأكل إلا طعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى»؛ لأن التقى قد استبرأ لدينه، واجتهد بعلمه واحتاط لنفسه، فقد سقط عنك البحث والاجتهاد، لأنه قد ناب عنك فيه وقام لك به، فكفاك كُلفته، فغنيت عن تكلفه. فلذلك جاءت الأحاديث على هذا المعنى: إذا دخل أحدكم إلى منزل أخيه، فقدم إليه طعاماً، فليأكل من طعامه ولا يسأل، ويشرب من شرابه ولا يسأل، لأنه قد كُفى، والسؤال عما قد كفى تكلف، والتكلف ليس مما يعنى المسلم.

وفى الخبر الآخر: «من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، فلهذا سقط عنا السؤال من البحث، ولذلك كان المتقدمون يستحبون أكلَ طعام العلماء والصالحين.

(١) الناضح: الدابة يُستقى عليها. الجمع: نواضح.

(٢) استصبح بالزيت: أمدّه به مصباحه.

وأما من لا يحتاط لنفسه، ولا يستبرئ لدينه، ولا يتقى في مكسبه حتى لا يبالى من أين أكل، ولا من أين اكتسب، ولا من أين جاء الدرهم أبداً، فهذا غير تقى، فحينئذ يلزمك أنت البحث لنفسك، والاجتهاد والاحتياط لدينك، إذا لم يقم به غيرك، ولم يكلفه أخوك. ففي مثل هذا جاء الخبر: «لا يأكل طعامك إلا تقى ولا تأكل إلا طعام تقى»، والتقى هو الورع الدين المتقى للحرام المجتنب للآثام. ففي دليل خطابه: لا تأكل طعام غير تقى، فلا يصح التقوى من عبد يتصرف حتى يكون مستعملاً في تجارته وصناعته حكم الكتاب والسنة، ويشهد له العلم بسلامته وبراءة دينه من الخيانة والمكر في المعاملة، ومن الكذب والغيب في التجارة والصناعة، بالصدق والنصح في جميع ذلك، وحتى يحل السبب المتعاض منهما.

وكلُّ تجارة وصناعة يخالف العبد فيها حكم الكتاب والسنة فليست بتجارة ولا صناعة حلال، وإن كان الاسم موجوداً، لعدم المعنى الذى تصح به الأسماء فى الحكم، لأن وجود الأسماء فارغة لا يغنى مع عدم صحة المعانى لموافقته شيئاً. فإذا كان ما يسميه الجاهلون تجارةً وصناعةً، وما يسميه المستحلون بيعاً وشراءً ومعاملة، وهو غير موافق للعلم، فليس ذلك بتجارة ولا صناعة ولا معاملة، ولا يستحلُّ به أكل الحلال؛ لأنه باطل، واسمه عند العلماء خيانة وخلافة، أو غيلة، أو حيلة، أو مُخاتلة. وهذه أسماء محرمة للمكاسب، لفساد معانيها، وعدم حقائقها يتعلق عليها أحكام مذمومة، لا يحلُّ بها أخذ المال، لأن التسمية إلى العلماء، يسمون على صحة المعانى بوقوع الأحكام إذ كانوا هم الحكماء، فقد اعتلَّ هذا التصرف. وإن وجد فيه الاسم المبيح؛ لفقد المعنى الصحيح، وهو حكم الكتاب والسنة. فإن وجد الاسم بحقيقة المعنى حتى تسميه العلماء تجارة وصناعة، إلا أنهما لم يصادفا حكم الله تعالى فيه بالسلامة من الربا، واجتناب البيوع الفاسدة، فهذا حرامٌ أيضاً، لعدم حكم الله عز وجل فيه بالإطلاق. وإن كان الشراء مباحاً وصدوف الأحكام فيه، إلا أن عين المأخوذ المتعاض حرام رأى عينٍ أو خبرٍ من صدق، فهذا الكسب حرام أيضاً، لأننا على يقين من وجود الحرام فيه،

حتى يصفو العَوْضُ المشتبه من عين الحرام بأحد معينين: إما بيقين أنه حلال الأصل، وحلال أصل الأصل، بأن لا نعلم في عينه حراماً رأيناه ولا أخبرناه، فيحلّ به حينئذٍ أكل المال، ونسميه مع ذلك شبهة، وهو شبهة الحلال، إذ لسنا على يقين من حلاله، لا مكان دخول الحرام فيه، لغلبة الأموال المأكولة بالباطل، وبالأَسباب المكروهة من قِبَل الأجناد، ومن قلة المتقين واختلاط ذلك بالأُملاك الصحيحة، وبأموال التجار والصناع. فما كنّا من حلاله على علم ظنٍّ سَميناه شبهة؛ لفقد علم اليقين.

وفى الخبر: جاء عقبه بن الحارث إلى رسول الله فقال: إنّي تزوجت امرأة، فجاءتنا امرأة سوداء فزعمت أنها قد أرضعتنا، وهى كاذبة، فقال: «دعها»، فقلتُ: إنّها كاذبة، فقال: «وكيف، وقد زعمت أنها قد أرضعتكما؟ لا خير لك فيها، دعها عنك». وفى لفظ آخر: «كيف وقد قيل؟».

وفى حديث عبد الله بن زمعة أن النبى ﷺ قضى بالولد له؛ لأنه وُلد على فراشه، وأبطل دعوى الرجل فيه وإن كان منه، فلما رأى النبى ﷺ شبهاً بيننا بعتبة بوالده، قال لسودة: «احتجى عنه يا سودة»، وهى أخته، وإن كان قد قضى به لأخيها، ثم قال: «الولد للفراش»، سترًا من الله على عباده، وتنفيذًا لحكمه بما أظهر فى بلائه^(١).

وكذلك تجب التقوى فى الشبهات^(٢) للورع، وأن الأحكام على الظاهر تميزها فيكون تركها مقامًا للورعين.

والحلال عند الورعين اسم ما انحلت عنه المطالبة أو حلّ فيه العلم على حلال المقتبس فى قوله عزّ وجل: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾ [النساء: ٢٣]، وحلائل جمع حليلة، وقيل: إنما سُميت المرأة حليلة الرجل، لأنه يحلّ معها أين حلّت؛ أى يوجد عندها ويقيم، كأنها فعيلة من فعول، أى حلول. والمعنى الآخر: سُميت حليلة والرجل حليلة؛ لأن الآثام قد انحلت بينهما؛ أى لأنها تحلّ له ويحلّ لها.

(١) من قوله: «سترًا من الله» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

(٢) فى المطبوعة: «فى الفراش».

والحلال في العلم اسم لما أباحه الكتابُ والسنةُ بسببِ جائزِ مباحٍ. وكان الحلال هو ما وُجد فيه ثلاث معانٍ: سببٌ مباح في العلم، وعلمٌ بأصل الدرهم والمعتاض به، وبأصل أصله أنه خالص من شبهة، ومصادفةً حكم الله عز وجل في المعاملة، فإذا فُقد أحد هذه المعاني فهو شبهة إلى الحلال أقرب، وإذا فُقد معنيان فهي شبهة الحرام، فإذا فقدت المعاني الثلاث حتى يكون السبب الذي وصل به الدرهم والمعتاض منه مكروهاً، أو يكون عينُ الدرهم مكروهاً مجهولاً، ولم يصادف فيه حكم الشرع في البيع والشراء أو الهبة بطيب نفس، فهذا هو الحرام بعينه.

• ذكر تمثيل الحرام والحلال وشبهتيهما بصور الألوان وتقريب ذلك للعقول^(١) :

والحرام والحلال ضدان ظاهران، والشبهات - أعنى شبهة الحلال وشبهة الحرام - مشتبهان مشكلان؛ فهي تشبه الحلال من وجه، وتشبه الحرام من وجه، أو فيهما من معنييهما اختلاط أكثر، أو متساويين بالخلطة، فمثل الحلال والحرام من أصول الألوان مثل البياض والسواد؛ هما أصلان ليسا فرعين فيهما عين لشيء، ولا متوالدين من شيء ومثل شبهة الحلال كمثال الصفرة، لأنه لونٌ متولد من البياض. ومثل شبهة الحرام كالخضرة؛ لونٌ متولد من السواد. فإن رأيت الصفرة فهي علامة شبهة الحلال، رددتها إليه، وحكمت عليها به، كما أن الصفرة أقرب إلى البياض. وإن رأيت الخضرة فهي شبهة الحرام، رددتها إليه، وحكمت عليها به، كما أن الخضرة أقرب إلى السواد، فإن اجتمع في لونٍ صفرةٌ وخضرةٌ فهي مثل الشبهات المخلطة في الشيء، فانظر إلى الأغلب فيهما الأكثر، فاحكم عليه.

فإن كانت الصفرة هي الأكثر والأغلب، فهذا شبهة الحلال؛ تناول منه غير متسع فيه، إذ ليس حلالاً صافياً، وهذا مثل أموال التجار والصناع المختلطة بأرزاق الجند والمعاملات.

وإن رأيت الخضرة أكثر وأغلب، فهذا شبهة الحرام؛ خذ منه ضرورتك إذ ليس بشبهة صافية، وهذا مثل لأملاك أولياء السلطان، لالتباس ملك أيديهم في خدمتهم

(١) هذا العنوان الجانبي ساقط من المطبوعة.

لأمرائهم، حتى ترى البياض المحض الذى هو علامة الحلال، فخذ كيف شئت واتسع، لا جناح عليك، على أنك لا تكون زاهداً بذلك. وهذا مثلٌ لَفِيءِ المشركين والغنائم فى سبيل الله، ومثل المواريث الطيبة وما أنبتت الأرض التى هى غير مغصوبة، ومثل ماء السماء والسيح فى الأنهار وصيد البر والبحر. وإن رأيتَ السوادَ الغريب فهو علامة الحرام، فاجتنبه، ولا تأخذ منه شيئاً، فإن فعلتَ كنتَ بذلك فاسقاً، وأكلُ الحرام من الكبائر. وهذا مثل المغصوب والجنايات، وما أكل بأسباب المعاصى، وما تملَّك من غير طيب نفس من الواهب.

واعلم أن الحلال والحرام فرعان للتقوى والفجور، والعلم والجهل. والعلم والتقوى هما حلالان للمتقين العلماء. فإذا كثر المتقون ووُجد المؤمنون كان الحلال أظهر وأكثر، ووجود الحرام بظهوره وكثرته بكثرة وجود الجهل والفجور، وهما حالاً الجاهلين الفجّار، فإذا كثر الجاهلون وظهر الفاسقون كان الحرام أغلب وأكثر.

وأصل وجود الحلال فى الكافة عدل الأئمة واستقامة الولاة، وطاعة أوليائهم لله فى فعالهم معهم فى سبيل الله عز وجل لصالح الدين وحيطة المسلمين. كما أن أصل ظهور الحلال وانتشاره هو الرعية، فإذا قلَّ ذلك أو كانت الأمراء^(١) على ضده غمض الحلال واختفى، فظهر الحرام وفشا، فكان الحلال قليلاً عزيزاً، وكان فى خصوص من المسلمين يخص الله به من يشاء، ويصرفه إلى من أحب، كيف أحب، من طريق التوفيق والهداية، وبمعنى العصمة والوقاية.

وقد جاء فى الخبر: «إذا فسدت أديان الناس فسدت أرزاقهم». وقال بعض أهل التفسير فى قوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩] قال: إذا فسدت أعمال الناس جعل عليهم أئمة يشبهون أعمالهم.

وقد روينا عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: «رِزْقُ الْمُؤْمِنِ مِثْلُ قَطْرِ الْحَبِّ». فهذا يحتمله معنيان؛ أحدهما: الضيق والقلّة، والثانى: فى الصفاء.

(١) فى المطبوعة: «وكان الأمر على».

وهذا على معنى ما قال سهل رحمه الله: لو كانت الدنيا دماً غبيطاً لكان قوت الموت منها حلالاً. فهذا على معنيين؛ أحدهما: أن المؤمن موفق معصوم، قد عمل لله عز وجل بما علم، والله قد حفظه من حيث لا يعلم بأن يستخرج له الحلال من الحرام، باختياره من عمله كما يستخرج له العلم من الجهل والتوحيد من الشرك بلطف قدرته. فمن تذكّر به وتبصّر به، أقامه مقام التوحيد من الحكمة. والمعنى الثانى: المؤمن عنده لا يتناول شيئاً إلا فاقّة أو ضرورة، فقد حلّت له وإن حرّمت على غيره. وهذا هو المؤمن الصديق.

وقد قيل لابن المبارك: يظهر بعد المائتين عدل؟ فقال: تذاكرنا ذلك عند حماد ابن سلمة، فغضب وقال: إن استطعت أن تموت بعد المائتين فمت، فإنه يحدث فى ذلك الزمان أمراء فجرة، ووزراء ظلمة، وأمناء خونة، وقراء فسقة، حديثهم فيما بينهم التلاوم، يسمون عند الله الأتنان. وقال بعض السلف الصالح: إني لأستحي من الله عز وجل أن أسأله بعد المائتين أن يرزقنى حلالاً، ولكنى أسأله رزقاً لا يعذبني عليه.

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: ما ترك لنا بنو فلان من الحلال شيئاً، يعنى الملوك والأمراء. ويقال: إن علياً رضى الله عنه لم يأكل بعد قتل عثمان ونهب الدار إلا طعاماً مختوماً عليه. وروى فى خبر: العالم الذى أراد على رضى الله عنه أن يستعمله على الصدقات، قال: فدعا بطينة مختومة ظننت أن فيها جوهرًا أو تبرًا، ففض ختامها، فإذا فيها سويق شعير، فنثره بين يديّ وقال: كُل من طعامنا. فقلت: أتختم عليه يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، هذا شيء اصطفيته لنفسى، وأخاف أن يختلط فيه ما ليس منه. والحديث فيه طول فاختصرت هذا منه.

وروى أن جماعة من الصحابة ما شيعوا من الطعام منذ قُتل عثمان رضى الله عنه، لاختلاط أموال أهل المدينة بنهب الدار؛ منهم ابن عمر، وسعد، وأسامة بن زيد، رضى الله عنهم. وكان يوسف ووكيع بن الجراح يقولان: الدنيا عندنا على ثلاث منازل: حلال وحرام وشبهات، فحلالها حساب، وحرامها عقاب، وشبهاتها عتاب. فخذ من الدنيا ما لا بدّ منه، فإن كان ذلك حلالاً كنت زاهداً،

وإن كان شُبْهَةً كنت ورعاً، وكان في عتاب يسير. وقد روينا عنهما أنهما قالَا: لو زهد أحدٌ في زماننا هذا حتى يكون كأبى ذر وأبى الدرداء في الزهد ما سَمِينَاهُ زاهداً. قيل: ولم؟ قالَا: لأنَّ الزهد عندنا إنما يكون في الحلال المحض، والحلال المحض لا يُعرف اليوم. ومات يوسف ووکیع قبل المائتين.

وقد كان وکیع بن الجراح أشبه العلماء بالسلف، وكان يُشَبَّه بعبد الله بن مسعود، وقد كان يشدد في الطُعْمَةِ، فسُئِلَ عن الحلال، فجعل يعزّره ويقول: أين الحلال؟ وكيف لى بالحلال؟ ثم قال: لو سألنا مُسْتَرشِداً عن عِلْمِنا في الحلال فقلنا له: كُلْ أصول البردى، وألقِ ثوبك، وادخل في الفرات. قيل: وأنت يا أبا سفيان من أين تأكل؟ قال: آكل من رزق الله وأرجو عفو الله.

وقد كان بشر بن الحارث من المتقدمين، سئل عن الحلال، قيل له: من أين تأكل يا أبا نصر؟ فقال: من حيث تأكلون، وليس من يأكل وهو يبكى كمن يأكل وهو يضحك. وقال مرة أخرى في رواية عنه: ولكن يدٌ أقصر من يدٍ، ولقمةٌ أصغر من لقمة. وسأله رجل عما لا يسكر من النبيذ، فقال: انظر في الدرهم الذي تشتري به التمر من أين هو، فإن كان حلالاً وإلا هلك، دع عنك ما لا يسكر.

وقد كان سرى السقطي يتحرى في أكل الحلال، ولم يكن يأكل إلا من حيث يعرف، وكان إذا ذكر لأحمد بن حنبل رضى الله عنه أثنى عليه وقال: تعنون ذلك الفتى المعروف بطيب الغذاء. ويقال: إن بشر بن الحارث كان يأكل من قبله. وذكر لنا أن سرى السقطي وقف على بشر وهو يتكلم، فاطَّلَعَ في حلقة وقال: يا بشر، نعلِ بِدَانِقَيْنِ تلبسها وتستريح من هذا الاسم، يعنى: قولهم: بشر الحافى. فسكت بشر، فظن من كان من أصحاب سرى عند بشر أنه قد وَجَدَ عليه، فقالوا: يا أبا نصر، إنه لم يرد إلا خيراً، فقال: سبحان الله، هو سرى كما سَمَى سرى. وكان سرى رحمه الله قد وجه إلى أحمد بن حنبل رضى الله عنه بمال فردّه، فجاء سرى فكلّمه بكلام من هذا العلم، فعرفّه فيه ما يَدِقُّ من آفة الردّ، فقبل منه، ولم يكن بعد ذلك يردّ عليه شيئاً.

وحدثونا عنه أنه قال: انتهيتُ ذات يوم في سفرٍ إلى نبات من الأرض، وعند غدير ماء. قال: وكنت جائعاً فأكلتُ من الحشيش، وشربتُ من ذلك الماء بكفى، ثم استندت على ظهري، ثم خطر ببالي أني إن كنتُ أكلتُ حلالاً فاليوم. فهتف بي هاتف يقول: يا سرى زعمت أنك أكلت حلالاً، فالقوة التي بلغتك إلى ههنا من أين هي؟ قال: فاستغفرت الله تعالى مما كان وقع في قلبي.

وكان شقيق البلخي رحمه الله يقول: إنّ المكاسب اليوم قد فسدت، وإن التجارات والصناعات شُبّهات كلها، لا يحل الاستكثار والادخار منهما لوجود الغش وعدم النصيح. قال: وإتّما ينبغي للمسلمين أن يدخلوا فيها ضرورة. وقال: الناس كَقَتْلَةِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لأنهم أعانوا على إماتة السنن، ودرّس طرق الآخرة، ومن أبطل سنن نبي فكأثماً قتله. هذا قوله في سنة تسعين ومائة.

فإذا كان الأمر أيها المسلم الموقن بوعد الله ووعيده على هذا عند العلماء من السلف والأخيار من الخلف، في ذلك الوقت، فكيف بوقتكَ هذا؟ وقد افترض عليك الزهد في الدنيا، وقد وجب عليك الأخذُ بالْبُلْغَةِ مما لا بدّ منه من كل شيء، فإن استكثرت أو جمعتَ من مثل هذه الأشياء كان ذلك معصية. وكلُّ ما يظهره الله عزّ وجلّ لك من غير الأمور وبديها المصائب، فإنّما هو تزهد لك في الدنيا، إن فطنت لذلك، وكل ما صرف عنك مثل هذا فهو خيرٌ وإن كرهت. وفي الخبر: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن، حسب ابن آدم لقيمات يشدّ بهن صلبه، فإن كان لا بدّ فثلث طعام، وثلث شراب، وثلث نفْس»، فقد صار الأكل في ثلث البطن خيرٌ من ملئه لأنه شر، وما نقص من الشرّ فهو خير. وفي الخبر: «ما شيء أبغضُ إلى الله من بطن ملئ ولو من حلال».

وقد جاء في الخبر: «لا يعذب الله عبداً جعل رزقه في الدنيا قوتاً». وفي قوله تعالى: ﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١]، قيل: يوم بيوم، وقيل: القناعة.

وقد كان المسلمون يتورعون عن الشبهات في وقت العدل، ومع وجود الفضل. حدثونا أن فضيل بن عياض، وابن عيينة، وابن المبارك، رضى الله عنهم،

اجتمعوا عند وهيب بن الورد بمكة، فذكروا الرطب، فقال وهيب: هو أحب الطعام إلى إلا أنى لا آكله. قيل: ولم؟ قال: لأنه قد اختلط رطب مكة بهذه البساتين التي اشتروها هؤلاء، يعنى زبيدة وأشباهاها. فقال له ابن المبارك: رحمك الله، إن نظرت إلى مثل هذا ضاق عليك الخبز. فقال: وما سببه؟ قال: نظرت فى أصول الضياع بمصر فإذا هى قد اختلطت بالصوافى. قال: فغشى على وهيب. فقال له سليمان: ما أردت بهذا؟ قتلت الرجل.

قال ابن المبارك: والله ما أردت إلا أن أهون عليه.

قال: فلما أفاق وهيب قال: لله على أن لا أكل خبزاً أبداً حتى ألقاه. قال: فكان يشرب اللبن. قال: فأتته أمه بلبن فقال: من أين لك هذا؟ قالت: من شاة بنى فلان. قال: ومن أين لهم ثمنها؟ قالت: من كذا وكذا؛ فرضيه. فلما أدناه من فيه، قال: قد بقى شيء، فأين ترعى هذه الشاة؟ فسكتت. فقال: لتخبرينى، فإذا هى ترعى مع غنم لابن عبد الصمد الهاشمى أمير مكة فى الحى. فقال: هذا اللبن للمسلمين فيه حق، لا يحل لى أن أشربه دونهم، وهم شركائى فيه. فقالت له أمه: اشربه فإن الله يغفر لك. فقال: ما أحب أنى شربته وأنه غفر لى. قالت: ولم؟ قال: أكره أن أنال مغفرته بمعصية.

وقد كان لطاووس اليمانى بضاعة يتجر له فيها من التمر، فاشترى مضاربه بضاعة أديماً من بعض أولياء السلطان، وكتب إليه بذلك، فكتب إليه طاووس: أفست علينا مالنا، ما أحب أن أتلبس بشيء منه، فبع الأديم باليمن وتصدق بثمانه، ولا تدخل منه إلى الحرم درهماً واحداً، وأنا أستغفر الله من طعمة الفقراء، وأرجو أن أنجو كفافاً لا على ولا لى. فيقال: إن ذلك كان سبب فقره ولم يكن له مال غيره، فبقى بغير معلوم من دنيا.

وكان خالد القشبرى لما ولى مكة بعد ابن الزبير أجرى نهراً فى طريق أهل اليمن إلى مكة، فكان طاووس ووهب بن منبه اليمانيان رضى الله عنهما إذا مرّا عليه لم يتركا دوابهما أن تشرب منه.

وقد كان سهل رحمه الله يقول: رجل بات فى قرية جائعاً، قام إلى الغداة لم

يقدر أن يصلى من الجوع، أعطاه الله في منزله جميع صلاة المصلين القائمين في قريته. قيل: وكيف ذلك؟ قال: طلب الحلال فلم يجده، فكّره أن يدخل جوفه حراماً، فبات طاوياً، فله أجر المصلين القائمين في تلك الليلة.

وكان^(١) سليمان التيمي رحمه الله ترك أكل الخنطة. فقيل له في ذلك، فقال: إنها تطحن في هذه الرّحى. فقال: المسلمون شركاء في الماء، وهؤلاء يأخذون خراجها دون سائر الناس.

وحدّث أنّ امرأة أهدت إلى بشر بن الحارث سلّة عنب، فقالت: هذه من ضيعة أبى، فردّها بشر عليها. فقالت: سبحان الله تشكُّ في كرم أبى وفي صحة ملكه وميراثى منه وشهادتك مكتوبة في كتاب الشراء. فقال: صدقت، ملكٌ أهلك، ولكنك أفسدت الكرم. قالت: بماذا؟ قال: سقيته من نهر طاهر، يعنى طاهر بن الحسين بن مصعب بن عبد الله بن طاهر صاحب المأمون، وهذا النهر هو الخندق المعترض في الجانب الغربى، لم يكن يشرب من الخندق، ولا يمشى على الجسر.

وقد كان بشر يقول: منذ ثلاثين سنة أشتهى شواء، وما أتركه زهداً فيه، ولو صح لى درهمه لأكلته.

فهذه سيرة المتقدمين وطريق السالفين؛ من سلكها لحقّ بهم وكان كأحدهم، ومن خالفها فليس على سنة السلف، ولا من صالحى الخلف، وتّسعُه رحمة الله الواسعة بمشيئته السابقة. فاعتبروا يا أولى الأبصار.

وقد كان من سيرة القدماء من أهل الورع أن لا يستوعب أحدهم كلفة حقّه، بل يترك شيئاً خشيةً أن يستوفى الحلال كله، فيقع في الشبهة. فإنه يقال: من استوعب الحلال حام حول الحرام. فكانوا يستحبون أن يتركوا بينهم وبين الحرام من حقهم حاجزاً من الحلال؛ لقول الرسول ﷺ: «من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقع». ومنهم من كان يترك من حقّه شيئاً لغير هذه النية، ولكن لقول الله عز

(١) في المطبوعة: «وهو»، وأثبت ما فى الأصول.

وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]. قالوا: فالعدل أن تأخذ حقك كله، وتعطي الحق. والإحسان: أن تترك بعض حقك وتبذل فوق ما عليك من الحق؛ لتكون محسنًا، ولأن الله تعالى كما أمر بالعدل قد أمر بالإحسان؛ لقوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٨٠]، وقوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

وهذه الطريقة قد جهلت، من عمل بها فقد أظهرها. حدثونا عن بعضهم قال: أتيت بعض الورعين بدين له على وكان خمسين درهماً. قال: ففتح يده فعددت فيها إلى تسع وأربعين درهماً، فقبض يده، فقلت: هذا درهم قد بقي لك من حقك. قال: قد تركته لك، إنني أكره أن أستوعب مالى كله، فأقع فيما ليس لى. وقد كان عبد الله بن المبارك وغيره يقول: من اتقى من تسعة وتسعين شيئاً ولم يتق من شيء واحد، لم يكن من المتقين، ومن تاب من تسعة وتسعين ذنباً ولم يتب من ذنب واحد لم يكن من التوابين، ومن زهد فى تسعة وتسعين شيئاً ولم يزهد فى شيء واحد، فليس من الزاهدين.

وقد روى عطية السعدى عن النبى ﷺ: «لا يكون الرجل من المتقين حتى يترك ما لا بأس به حذراً مما به بأس».

ورويانا عن أبى الدرداء: إنما التقوى أن يتقى الله العبد فى مثقال ذرة، حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً، يكون حجاباً بينه وبين الحرام. وبمعنى هذا ما روى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال: كنا نترك سبعين باباً من الحلال مخافة باب واحد من الحرام.

وهذا طريق قد مات أهله، فمن سلكه فقد أحيأها وأحيأهم.

فأما أموال التجار والصناع والمتصرفين فى المعاش المباحة بالأسباب الجائزة فى العلم، مع موافقة الكتاب والسنة، فهى شبهات، ثم تتنوع بنوعين: فتكون شبهة حلال إذا عاملت المتقين وأخذت من الورعين، وتكون شبهة حرام إذا عاملت قليلى التقوى والورع.

وأما غير ذلك من أموال الجند، فإنه حرامٌ لفساد سببه ولمخالفة الأحكام، فما كان عن معاملة لهم وكَسَب ولم تعلم شيئاً بعينه غَضَباً ولا جناية فهو أسهل، وما علمته فهو نص الحرام.

فَاللَّهُ اللَّهُ فِي نَفْسِكَ، انظر أيها المسكين لمعادِكَ واحفظ لدينك، فإن كَسَبَكَ من دينك وطعمتك من إيمانك، فإن تهاونت بذلك فقد تهاونت بالدين، ونبذت الأحكام، وضيعت اليوم نفسك، ولم تنظر فيما قدّمت لغد، ونعوذ بالله من سوء القضاء. ويقال: إن العدو إذا ظفر من العبد بسوء الطعمة لم يعترض عليه في الأعمال، وقال: قد ظفرتُ منك بحاجتي، اعمل الآن ما شئت. ولم يَعُدْ عليه من أعماله إلا ظلمةٌ في قلبه، وقسوةٌ وضعفٌ في عَزْمِهِ، وفتورٌ ومعصيةٌ، وحُرْمُ التوفيق والعصمة، ولم يُورَثْ عِلْمَ الْمَلَكُوتِ والحكمة.

فإن كان المتسبب للمعاش والمتصرف في الأسواق على هذه الأوصاف المحمودة، وبهذه الشروط المبرورة، فإنما بحكم حاله، حافظاً لمقامه، فإنه في سبيل الله أفعاله، وآثاره حسنات، وكلّ ما تسبّب به إلى الآخرة، وكان قولاً له عليها، وطريقاً له إليها من الدنيا، فهو من آخرته، وكان أزهد في الدنيا ممن زهد فيها ورفضها، إلا أنه يغمض في تناولها، ولا يبالي من أين جاءته.

وإذا خالف هذه الشروط، ولم يستعمل العلم في أحواله، وفارق التقوى في تصرفه، أو كان ساعياً للجمع والمنع، أو للتكاثر والتفاخر، حريصاً على الدنيا، جزوعاً على ما فاتته منها، منوعاً لما في يديه، لا يبالي ما ذَهَبَ من دينه وخَسِرَ إذا سَلِمَت دنياه وربح، ولا يبالي من أين كسب وفيما أنفق، هَمَّتْهُ أَخْذُ الدَّرْهِمِ من أي وجه ظهر، وبأى سبب عليه قَدِر، غير متّقٍ في كسبه، ولا مراعي لدين الله عز وجل فيه وحكمه، فهذا يَتَقَلَّبُ في المعاصي والمكاريه ظهراً لبطن، متعرضاً للمقت من الله، يعمل في البعد والهرب منه، غير مستعدٍّ للموت، ولا متزّجٍ للستر بالتقوى، وهو آكلٌ للمال بالباطل، قاتل لنفسه، مفسد لدينه، غاشٌّ لإخوانه المسلمين، والله لا يصلح عمل المفسدين، كما لا يضيع أجر المصلحين. ومع ذلك فهو غير ناصحٍ لله تعالى، ولخلقه في الدين، ومن لم يَلْقَ ناصحاً في سعيه لله

تعالى في تجارته، وللمسلمين في معاملته، فمقامه الظلم وحاله الهوى، والله لا يحب الظالمين. فهذا مأمورٌ بالتوبة من جميع تصرفه، مفترض عليه الإنابة في جميع تقلبه، قبل أن يبيغته الموت، ويفجأه الفوت، فيقع في خسره إلى الأبد، ويلقى الله ظالماً ذا هوى، مُصراً على الخطايا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾^(١) [الشعراء: ٢٢٧].

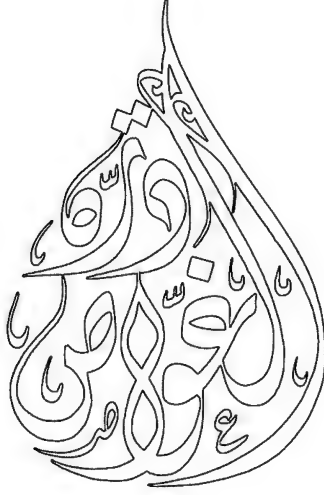
وقال بعض الحكماء: الدنيا بحرٌ عجاج، والتجار فيه غاصّة، فواحدٌ يغوص فيخرج درّاً، وهؤلاء أبناء الآخرة الذين لها يعملون. وآخر يغوص فيُخرج أجراً، وهؤلاء عمال الدنيا الذين عليها يحرصون. وآخر يُخرج سمكاً، وهؤلاء المقتصدون. وآخر في قعره قد غرق، وهؤلاء المطرودون عن الطاعة إلى الأسواق، كلّما أرادوا أعمال البرّ طردوا عنها إلى السوق وشغلوا، فقد غرقوا في بحر الخطايا. وآخر طاف مع الأمواج يضطرب يطلب النجاة، كلّما رفعته موجة طمع في النجاة، ثم تغطّيه موجة أخرى، فيخاف الهلكة، وهؤلاء المريدون للاستقامة في زماننا هذا، ترفعهم التوبة إلى النجاة، وتخفضهم العادة إلى الهلكة.

وروينا عن رسول الله ﷺ: «لا تتخذوا الضيعة فترغبوا في الدنيا». وأوحى الله عز وجل إلى بعض أنبيائه: «لا تتخذوا الأهل والمال في زمن العقوبات».

آخر كتاب قوت القلوب. والحمد لله رب العالمين، وسلام على عباده الذين اصطفى، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم^(٢).

(١) من أول قوله: «فإن كان المتسبب للمعاش» إلى هنا زيادة من (م)، سوى أسطر قليلة جداً واردة بالمطبوعة ونسختي (د، ه).

(٢) في نسخة (م): «آخر كتاب قوت القلوب. والحمد لله رب العالمين، وسلام على عباده الذين =



= اصطفى، وصلى الله على سيدنا سيد المرسلين محمد النبي، وآله وأصحابه، وسلّم تسليمًا. وفرغت من تحرير هذا الكتاب، محمد بن الحسن بن منصور، يوم الأربعاء، وقت العصر، عاشر شعبان سنة سبعين وخمسمائة، حامدًا ومصليًا.

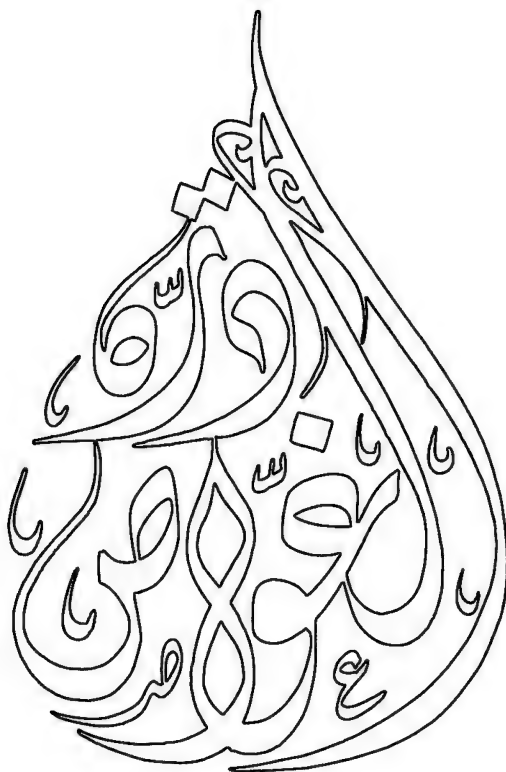
وفى آخر نسخة (د): «كامل جميع الكتاب، والحمد لله رب العالمين، وذلك من نسخة كتبت بالأسكندرية في رمضان سنة اثنين وتسعين وأربعمائة».

وفى آخر نسخة (هـ): «آخر كتاب قوت القلوب، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه وأتباعه وسلم كثيرًا، وحسبنا الله ونعم الوكيل. ووافق الفراغ منه في سادس رجب عظم الله بركاته من سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، غفر الله لمن نظر فيه، ودعا لمصنفه وكتبه وصاحبه بالمغفرة، والتجاوز عن الزلل ولكافة المسلمين، وصلى الله على سيدنا محمد وسلم».

وبعد، فيقول الفقير إلى عفو ربه، الذي حطمه العيوب وأضعفته الذنوب، محمود بن إبراهيم الرضواني:

تمّ الفراغ من نسخه ومقابلته بالنسخ المخطوطة وتحريره بفضل الله وحمده فجر يوم الثلاثاء: ٢٩ من جمادى الأولى ١٤٢١ هـ الموافق ٢٩ من أغسطس ٢٠٠٠ م.

فحمدك يا الله، يا من هيأت القلوب للتيقظ لمرضاتك، وفتحت أقفالها بأسرار معرفتك وأنوار هباتك، ونصليّ وسلّم على من أرسلته بطب القلوب، وأيدته بما أنزلت عليه من قوت القلوب وتبيين الغيوب، وعلى آله الذين تحقّقوا بريضة النفوس، وأصحابه السائرين على منهجه المبين، والحمد لله رب العالمين.



فهرس موضوعات الجزء الثالث

الموضوع	الصفحة
الفصل الثالث والثلاثون: فى ذكر دعائم الإسلام الخمس التى بنى عليها	١١٧١
● شرح أول ما بنى الإسلام عليه: شهادة التوحيد	١١٧١
* ذكر فرض شهادة الرسول ﷺ	١١٧٣
* ذكر فضائل شهادة الرسول ﷺ	١١٧٤
* ذكر فضائل شهادة التوحيد ووصف توحيد الموقنين	١١٧٦
● شرح ثانى ما بنى الإسلام عليه من الخمس: وهو الصلاة	١١٨٩
* ذكر أحكام الصلاة	١١٨٩
* ذكر فرائض الاستنجاء	١١٨٩
* ذكر فرائض الوضوء	١١٩١
* ذكر فرائض الطهارة	١١٩٢
* ذكر سنن الوضوء	١١٩٢
* ذكر فضائل الطهارة وما يقال عند غسل كل عضو من الأذكار	١١٩٢
* صفة الغسل من الجنابة	١١٩٥
● كتاب الصلاة	١١٩٦
* ذكر فرائض الصلاة قبل الدخول فيها	١١٩٦
* ذكر سنن الصلاة	١١٩٧
* ذكر أحكام الصلاة فى الفوت والإدراك	١١٩٩
* ذكر هيئات الصلاة وآدابها	١٢٠١
* ذكر فضائل الصلاة وآدابها وما يزكو به أهلها ووصف صلاة الخاشعين	١٢٠٦
* ذكر الحث على المحافظة على الصلاة وطريقة المصلين من الموقنين	١٢١٤
* ذكر أحكام الخواطر فى الصلاة	١٢٢٣
● شرح ثالث ما بنى الإسلام عليه: وهو الزكاة	١٢٢٨
* ذكر فضائل الصدقة وآداب العطاء وما يزكو به المعروف ويفضل به المتفقون	١٢٢٨

الموضوع	الصفحة
• شرح رابع ما بنى الإسلام عليه: وهو الصيام	١٢٤٥
* ذكر فرائض الصيام	١٢٤٥
* ذكر فضائل الصوم ووصف الصائمين	١٢٤٥
• شرح خامس ما بنى الإسلام عليه: وهو الحج	١٢٤٨
* ذكر فرائض الحج	١٢٤٨
* ذكر فضائل الحج وآدابه وهيئاته وفضائل الحجاج وطريق السلف السالكين	
للمنهاد	١٢٤٩
* ذكر فضائل الحاجين لوجه الله	١٢٦١
* ذكر فضائل البيت الحرام وما جاء فيه	١٢٦٤
* ذكر من كره المقام بمكة	١٢٦٥
الفصل الرابع والثلاثون: فى تفصيل الإسلام والإيمان وعقود شرح معاملة القلب	
من مذاهب أهل الجماعة	١٢٦٩
• شرح معاملة القلب من العلم الظاهر	١٢٨١
* ذكر مباني الإسلام وأركان الإيمان	١٢٨١
الفصل الخامس والثلاثون: فى ذكر اتصال الإيمان بالإسلام فى المعنى والحكم	
وافتراقهما فى التفصيل والاسم	١٢٨٣
* باب ذكر تفصيل بيان ما نقل عن المحدثين من التفرقة بينهما وما جاء فى	
معناه	١٢٩٢
* ذكر الاستثناء فى الإيمان والإشفاق من النفاق وطريقة السلف فى ذلك	١٢٩٦
الفصل السادس والثلاثون: فى فضائل أهل السنة ووصف طرائق السلف من الأئمة	١٣٠٦
* ذكر عرى الإيمان وجمل الشريعة	١٣١٠
* ذكر شرط المسلم الذى يكون به مسلماً	١٣١٠
* ذكر حسن إسلام المرء وعلامة محبة الله تعالى له	١٣١١
* ذكر حق المسلم على المسلم، وهو وجوب حرمة الإسلام على المسلمين	١٣١٢
* ذكر سنن الجسد	١٣١٤
* ذكر ما فى اللحية من المعاصى والبدع	١٣١٦

الموضوع	الصفحة
* ذكر ما جاء فى فعل بعض ذلك واستحبابه	١٣٢٠
* باب ما ذكر من نوافل الركوع وما يكره من النقصان منه	١٣٢٥
الفصل السابع والثلاثون: كتاب شرح الكبائر التى تحبط الأعمال وتوبق العمال	
وتفصيل ذلك ومنازل أهلها فيها ومسألة محاسبة الكفار	١٣٢٩
* مسألة محاسبة الكفار	١٣٣٨
الفصل الثامن والثلاثون: كتاب الإخلاص وشرح النيات والأمر بتحسينها فى	
تصريف الأحوال والتحذير من دخول الآفات عليها فى الأفعال	١٣٤٢
* تفسير قوله: «نية المؤمن خير من عمله»	١٣٤٥
* فصل	١٣٦٥
* فصل	١٣٦٦
* فصل	١٣٦٧
الفصل التاسع والثلاثون: كتاب ترتيب الأقوات بالنقصان منها أو بزيادة الأوقات ...	١٣٧٣
* ذكر رياضة المريدن فى المأكول وفضل الجوع وطريقة السلف فى التقلل	
من الأكل	١٣٧٨
الفصل الأربعون: كتاب الأطعمة	١٤٠٥
* ذكر ما يجمع الأكل من الآداب والسنن وما يشتمل على الطعام من	
الكراهة والاستحباب	١٤٠٥
* باب فى الضيافة وإكرام الضيف	١٤٢٤
* ذكر أخبار روينها فى الآثار جاءت مثورة فى الأطعمة والأكل من بين	
نقص وفضل	١٤٥٨
* ذكر أخبار جاءت فى التقلل والحمية وذم البطنة	١٤٦١
* ذكر أخبار وردت فى طعام السلف ومآكل العرب	١٤٧١
* من الزيادات عن أهل الطب فى الطبائع والمأكول	١٤٧٨
* ما ذكر به السويق	١٤٨٠
* من كتاب الطب	١٤٨١
* باب ذكر من لا ينبغى أن تجاب دعوته، والشئ الذى يخرج من أجله	١٤٨٦

الموضوع	الصفحة
الفصل الحادى والأربعون: فى ذكر فضائل الفقر وفرائضه ونعت عموم الفقراء	١٤٩٣
* وخصوصهم وتفضيل قبول العطاء ورده وطريقة السلف فيه	١٥٠٢
* ذكر حكم من لا معلوم له من الأسباب	١٥١٥
* ذكر اختلافهم فى إخفاء العطاء وإظهاره ومن رأى أن الإظهار أفضل	١٥١٨
وتفصيل ذلك	١٥١٩
* النوع الثانى من التفصيل	١٥١٩
* نوع آخر من التفصيل فى الآخذ للفقير	١٥٢٠
* النوع الرابع من التفصيل	١٥٢٣
* تفصيل آخر	١٥٣٣
الفصل الثانى والأربعون: كتاب حكم المسافر والمقاصد فى الأسفار	١٥٤٧
الفصل الثالث والأربعون: كتاب حكم الإمام ووصف الإمامة والمأموم	١٦٠٣
الفصل الرابع والأربعون: كتاب الأخوة فى الله تبارك وتعالى، والصحة والمحبة	١٦٤٩
للإخوان فيه، وأحكام المؤاخاة وأوصاف المحبين	١٦٥٤
الفصل الخامس والأربعون: كتاب ذكر التزويج وتركه أيهما أفضل، ومختصر	١٦٨٠
أحكام النساء فى ذلك	١٦٩٥
الفصل السادس والأربعون: كتاب ذكر دخول الحمام	١٦٩٦
الفصل السابع والأربعون: فى ذكر حكم المتسبب للمعاش وما يجب على التاجر	١٧١١
من شروط العلم	١٧١٩
ذكر ما رويناه من الآثار فى البيوع والصنائع وطريقة الورعين من السلف	١٧٢٩
* ذكر ما رأى أحمد بن حنبل الخروج منه	١٧٤١
* ذكر الورع فى أشياء	
الفصل الثامن والأربعون: كتاب تفصيل الحلال والحرام وما بينهما من الشبهات،	
وفضل الحلال وذم الشبهة وتمثيل ذلك بصور الألوان	
* ذكر تفصيل الحلال من الشبهة	
* ذكر تمثيل الحرام والحلال وشبهتهما	
فهرس الموضوعات	

